التذكير القويم

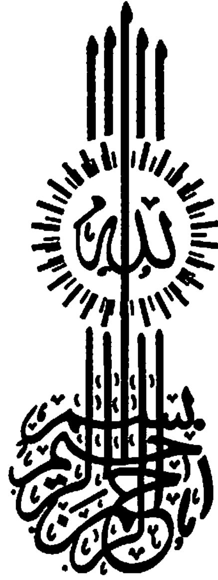
في

تفسير القرآن الحكيم

للعلامة / وحيد الدين خان

الجزء الأول

دار الوفاء



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة تذكير القرآن

يتضمن القرآن أبلغ وأتم ما يستحق التفكير العقلى والمعرفة العلمية أن يهتمَّا به من رعايةٍ واهتمام، فهو كتاب علمى على أعلى وأرفع ما يكون ، إلا أن القرآن قد لا يحذو فى إثبات شىء ما، حذو مناهج البحث والفن المعروفة عندنا، بحيث إنه يُلقى النواحى الفنية والتفاصيل المتصلة بالبحث العلمى جانباً، ويعمد إلى لب الموضوع مباشرةً، فيقدمه بأسلوبٍ دعويٍ مؤثرٍ خلابٍ؛ ذلك لأن القرآن لا يرمى إلى تقديم بحثٍ علميٍ أو دراسةٍ علميةٍ، وإنما يرمى - أولاً وآخراً - إلى تحقيق ((التذكير والموعظة)) من وراء الحقيقة العلمية الصادقة .

والحقيقة أن هدف ((التذكير والموعظة)) لا يتحقق أبداً إلا باستخدام الأسلوب البسيط دون الأسلوب الفنى .

غير أن مقتضيات الدراسة العلمية المتعمقة، ربما تطالب دارس القرآن - بطبيعة الحال- أن يستوعب تفاصيل علميةً، ووجوهاً فنيةً لآيات القرآن ، وعند هذه النقطة يواجهنا سؤال يتمثل فى : أى منهجٍ أو أسلوبٍ سيجدر بنا أن نتخذه فى تفسير القرآن الكريم ؟ فإننا لو اتخذنا أسلوب القرآن نفسه، وهو الذى يتميز بطابعه الدعوى البسيط، فسيترتب على ذلك، أن تفسير القرآن سيكون بحيث يسوده وينسحب عليه جوٌ من التذكير والموعظة والاتعاظ ؛ الذى يتمتع بكونه المقصد الأصلى للقرآن الكريم، كما أسلفنا، إلا أننا - فى مثل هذه الحالة - قد لا نتمكن من إعطاء الجوانب العلمية البحتة حقها من العناية والبحث والتنقيب، هذا من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى، إذا نحن تصدينا لإعداد تفسير شاملٍ؛ بحيث يستوعب الجوانب العلمية والأبعاد الفنية لآيات القرآن بكل دقةٍ وإمعانٍ وتفصيلٍ، فلا شك فى أن يكون ذلك موضع إعجابٍ كبيرٍ بالنسبة لفئةٍ محدودةٍ ذات نزعاتٍ وميولٍ أكاديميةٍ خاصةٍ؛ ولكنه - من غير شكٍ كذلك - لا يعدو أن يكون بمثابة وثيقةٍ جافةٍ بالنسبة للسراد الأعظم، وفضلاً عن ذلك، فإن الأمر لا يقف عند هذا الحد، بل سينكشف - نهائياً - عن خسارةٍ لها خطر عظيم، وذلك أن مثل هذا التفسير العلمي والفني الشامل، ربما لا يمكن إعداده إلاّ على حساب ((التذكير والموعظة))؛ أي على حساب الغاية الأصلية للقرآن الكريم، وكفى بذلك خسراناً!!

وثمة حل بسيط لهذه المشكلة، وهو أن نقسم الموضوع إلى قسمين منفصلين : قسم ((التفسير))، وقسم ((المعلومات والمعارف))، ثم نقوم بمعالجة كلٍّ من القسمين بصورةٍ مستقلةٍ، فأما قسم التفسير، الذي يتم نشره -طبعاً- مع آيات القرآن الكريم، فينبغي أن نتخذ فيه أسلوب ((التذكير والموعظة))، وأما القسم الثاني، فذلك ما ينبغي أن نخصص له كتاباً منفرداً على غرار ((دائرة المعارف أو الموسوعة القرآنية)) ؛ بحيث يحتوي هذا الكتاب الثاني، على جميع المعلومات والمعارف والمباحث، التي تتعلق بالجوانب العلمية والتأريخية والوجوه الفنية لمدلولات القرآن وإشاراته.. فالآيات التي تتحدث عن سيدنا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - مثلاً، يجدر بنا أن نتدبرها أولاً من ((وجهة نظر التذكر والاعتبار)) فقط، فنستلهم أقصى ما نستطيع من الدروس والعظات والعبر، التي قد حفلت بها حياته الطيبة عليه السلام ونُضمنها القسمَ الأول أي قسم التفسير .. وأما ما يتصل بشخصيته - عليه الصلاة والسلام - من حيث المعلومات التأريخية والكشوف الأثرية، فالأحسن أن يُورد كل ذلك في ((الموسوعة القرآنية)) ، حيث يستطيع المرء أن يطلع على ذلك ضمن كلمة ((إبراهيم)) ، وهكذا كل التفاصيل المتعلقة بالنحو، والبلاغة، والفقه، والكلام، وعلوم الطبيعة، والفلك، وما إلى ذلك، ينبغي أن ندرجها في ((الموسوعة القرآنية)) لا في ((تفسير القرآن)) .

وأخذاً بالمنهج الذي ذكرناه آنفاً، نقدم هذا الكتاب ((تذكر القرآن)) ، وهو يمثل القسم الأول ؛ إذ اقتصر فيه التذكير الأساسي على جانب ((التذكير)) وحده ؛ التذكير بالمعاني والمدلولات الجوهرية لمضامين القرآن الكريم، وسوف يليه القسم الثاني - إن شاء الله تعالى .. حاملاً عنوان ((الموسوعة القرآنية)) مستوعباً لمعارف معلوماتٍ تفصيليةٍ لجميع ما يتعلق بالجوانب العلمية والأبعاد الفنية للآيات القرآنية .

ومما يُلاحظ، أن هذا هو عين المنهج الذي اتخذه القرآن نفسه، بحيث إن القرآن يتضمن كمية لا بأس بها من الإشارات، تتصل بعلوم الطبيعة والفلك، إلاّ أن الله تعالى أجمل القول فيها غاية الإجمال، وأما التفاصيل المتفرعة عن ذلك، فإن مسؤولية البحث عنها وتدوينها وقعت على عواتق مفكري العصور التالية، كما أن القرآن كثيراً ما يذكر شخصياتٍ وأمماً ظهرت عبر القرون الخالية، ولكن بشكلٍ إجماليٍ للغاية، وأما عملية البحث والتنقيب عن

التفاصيل التأريخية المتعلقة بتلك الشخصيات والأمم، فمما تركه الله تعالى لمن يضطلع بذلك فيما بعد ؛ من خبراء ومتخصصين في علم الآثار والنقوش، ومما لا شك فيه أن الله تعالى لو شاء لضمَّن كتابه هذه الأمور العلمية كلها، فهو العليم الخبير، ولكن ذلك لم يكن ليكون إلا إذا ضحَّينا بجوّ « التذكير والعبرة والموعظة » ، الذي يسود القرآن الكريم، ومن أجل ذلك، ركز الله سبحانه وتعالى على ما له صلة مباشرة بالعبرة والموعظة فقط، وترك -بالرغم من قدرته وإحاطة علمه بكل شيء - ما عدا ذلك من التفاصيل والجزئيات الأخرى للأجيال القادمة .

ونعرف أن القرآن لم يتعرض - من جهةٍ - لإحصاء جمٍ من الجزئيات والتفاصيل المتصلة بقسم «المعلومات والمعارف» التي قد تبدو ضروريةً للباحث والمحقق، بينما نجد - من جهةٍ أخرى - أن الأمور التي لها علاقة بالموعظة والعبرة، أعيدت فيه، وتكرر ورودها، لدرجةٍ تجرأ معها بعض الناس على القول، أن القرآن مليء بأحاديث مكرورةٍ ، والسبب في ذلك يعود إلى أن القرآن لا يريد أن يقرأه الناس بدافع الاستكثار من المعلومات، أو الفضول العلمي، وإنما يريد أن يجعل الحديث عن الله، وعن قضايا الآخرة، غذاءً تتغذى عليه أرواح الناس وقلوبهم . وإذا همّ الإنسان بقراءة شيء بدافع الفضول والاستزادة من المعلومات، فمن الطبيعي أن يتسبب التكرار عند ذلك، في وقوعه في الملل والسآمة . ولكن الشيء الذي يدخل حياة الإنسان كغذاءٍ لروحه، نجده كلما كُرر وأُعيد تجددَّ شعور الإنسان بلذَّته وحلاوته، وحيثما توجد اللذة ينعدم مفهوم التكرار والإعادة ضرورة، وإنما نهج القرآن هذا المنهج، بـ «غربلةٍ نوعيةٍ للناس» ، إذا صح التعبير، حتى يمكن التمييز الواقعي - عن طريق عملية الغربلة هذه - بين صنفين من الناس ؛ صنفٍ شغلته مصطلحات فارغة مثل «المعلومات» . «الإعادة والتكرار» ، عن التفكير الجدي فيما جاء به القرآن وامتثاله، وصنفٍ يشتمل على صفوةٍ من الناس أصبحتُ الحقائق القرآنية عندهم بمثابة غذاءٍ دسمٍ تتغذى وتتلذذ به أرواحهم .

القرآن كتاب دعوة

ليس القرآن كتاب علمٍ مؤلفاً على النمط المعتاد، إنما هُو كتاب دعوةٍ ، لقد أقام الله عبداً من عباده، في الثلث الأول من القرن السابع الميلادي، ممثلاً له في أمةٍ خاصةٍ، وأمره بإبلاغ رسالته إلى الناس كافةً، وقد قام الرسول بما أُمِر به في مجتمعه، وكان -مع ذلك - يتنزل عليه

القرآن قليلا حسب مقتضيات الظروف والأوضاع، وقد تم نزول القرآن بأكمله في مدة ثلاثٍ وعشرين سنة؛ إلى جانب انتهاء الرسول - في نفس هذه المدة الزمنية - من أداء أمانته وتبليغ دعوته على أكمل وجه .

ومع أن القرآن هداية الله الأبدية، فإن الترتيب المذكور أعلاه؛ الذي جرى عليه نزول القرآن أسبغ عليه - بالإضافة إلى أبديته - ((بعداً تأريخياً)) وربما لا نتجاوز الحقيقة إذا وصفنا القرآن بأنهُ كتاب الله الذي قدّم فيه هدايته الأبدية، بعد أن قولبها في قالب التأريخ، ونظراً إلى هذا، فإن عملية تفسير القرآن صارت - في عصر ما بعد نزول القرآن خاصة -عمليةٌ تستلزم المرء أن يراعي فيها عنصرين؛ لكل واحدٍ منهما أهميته وأولويته، وأول العنصرين هو ((أبدية القرآن وخلود رسالته)) ، والثاني عنصر ((تأريخ القرآن التنزيلي)) ، ذاك لأننا لو فسرنا القرآن في ضوء من الخلفيات الأولية الخاصة وحدها، التي نزلت فيها آيات القرآن وأحكامه؛ لأصبح القرآن وكأنه كتاب تأريخ لأحداثٍ ووقائع وقعت في سالف القرون، وعلى العكس من ذلك إذا نحن فسرنا القرآن بناءًا على أهميته الأبدية وحدها، فيبدو وكأنَّ بُعده التأريخي عُولج بها لا ينبغي من غاية الإهمال، ولم يلْق مما يستحق من الاهتمام، ومن هنا فقد تحتم علي المفسّر أن يتخذ لتفسير القرآن أسلوباً مزدوجاً أو ثنائيّ الجانب، حيث يأخذ هذين العنصرين (الأبدي والتأريخي) بين الاعتبار، ويعيد لكلٍ منهما ما يستحق من العناية والاهتمام.

وقد اتخذنا مثل هذا ((الأسلوب الثنائي الجانب)) ، في ((تذكير القرآن)) ، إذ تصدينا فيه لطرح الخلفيات التأريخية أيضاً بشكلٍ موجزٍ، لا لكي يبدو القرآن وكأنه كتاب تأريخي قديم، فإن تطبيق تعاليم القرآن الخالدة تنطبق على قضايا العصر وشئونه، وإنما لكي لا ينفصل القرآن كلياً عن أساسه التأريخي الموصول بواقع البشر .

مقصد نزول القرآن

لماذا أُنزل القرآن ؟

وجواب ذلك في كلمةٍ واحدةٍ : لإعلام البشر بالمنهج الالهى الذى اختاره الله للإنسان : لقد خلق الله الإنسان ليكون مخلوقاً أن تاب ، فهو يقضي من حياته - مثلا - مدة من الزمن - قلت أو كثرت ثم يُنقل منها إلى الآخرة ، حيث هو يواصل حياته بصورة متصلة إلى الأبد، إن

هذه الدنيا هي مكان العمل، والآخرة مكان الجزاء ، فمن عمل صالحاً هنا يدخل في نعيم الجنة الأبدي، ومن عمل سيئاً يُلقى به في شقاء الجحيم الأبدي، وقد أُنزل القرآن لينذر الإنسان بهذه القضية البالغة الخطورة، وليدله على طريق النجاة من شقاء الحياة الأخروية .

ولقد خلق الله الإنسان – بالنسبة لما أودعه فيه من ملكة الإدراك والشعور – على ذلك الوضع الفطري الصحيح، الذي أراد الله للناس أن يكونوا عليه، ثم جعل كل موجودات هذا الكون مظاهر فعليةً لما يرضاه سبحانه وتعالى من النمط السلوكي السوي، غير أن هذا كله وُجد هنا في ((لسان الحال)) ؛ فالفطرة الإنسانية يتمثل عَمَلُها بشكل المشاعر والأحاسيس، أما الطبيعة فتتجسد مظاهرها في صورٍ تمثيليةٍ، وقد جاء القرآن ليعلن – بلسان المقال – عما يكمن وراء الفطرة والكون بلسان الحال، حتى لا يتعذر إدراكه على أحدٍ، ومن هنا فإذا كانت الفطرة مرشداً للإنسان صامتاً، فإن القرآن هو ((مرشدٌ ناطق)) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد أُنزل القرآن على رسولٍ كان ((رسول الانتصار والغلبة))، إذا بُعث الأنبياء السابقون بصفتهم دعاةً إلى الرسالة الإلهية فقط، مسئوليتهم كانت تنتهي بتبليغ رسالة الله إلى أممهم بأقصى ما يستطيعون، فقد خاطبوا الذين أُرسلوا إليهم بألسنتهم، ليقنعوهم بصدق رسالتهم، إلا أن الإنسان – بظلمه لنفسه – لم يُلْقِ لما جاؤوا به بالاً، ومن أجل ذلك، لم تترجم عمليا –على امتداد القرون الطويلة الماضية – رسالة الله ، في حياة الإنسان العملية، فى حين بَعث الله رسول آخر الزمان، وقد نسب إليه صنعة ((الغلبة والانتصار)) وهذا يعني أن رسالته ﷺ لن تنتهي- كرسالات الأنبياء السابقين – بمرحلة إبلاغ الدعوة فحسب، بل إنها ستظفر –بإذن الله ونصرته الخاصة – بالانتصار الكامل ، وستتحول –في نهاية المطاف –إلى الواقع الفعلى . ومما أسفر عنه هذا التقدير الإلهى الحاسم أن الله أيد دينه بما يجعله صالحا لكل زمانٍ ومكانٍ، وستجد التأييد فى أمرين :الأول انسجامه وملاءمته لفطرة الإنسان ونواميس الكون – والثانى ((أسوةٍ عمليةٍ كاملةٍ مكتملةٍ))لمرضاة الله وإرادة في حياة الإنسان الواقعية.

إن الدعوة التي جاء بها أنبياء الله في العصور الماضية، هي الدعوة ذاتها التي جاء بها رسول آخر الزمان، إلا أن الظاهرة التي غالباً ما تكرر حدوثها مع الأنبياء السابقين كلهم، أن الناس عارضوهم، ولم يقبلوا رسالتهم .

وكان السبب في ذلك يعود إلى حسبانهم أن رسالات الأنبياء لا تتفق ومصالحهم الدنيوية، فقد كانوا يظنون - أنهم لو آمنوا بدين الله الحق، واستمسكوا به، فإنهم -من جراء ذلك- سيخسرون دنياهم العامرة، وتنقطع الأسباب بينهم وبين ما يتمتعون به من رغد العيش، ولكن تأريخ القرآن يمثل «الضربة القاضية» على مثل هذا التخوف المزعوم، وذلك الموقف الخاطئ من الدين الحق، إذ إن الحركة التي انبثقت عن القرآن وسارت في أضوائه، تعهد الله لها بمعونةٍ خاصةٍ، حتى يصل بها إلى مرحلة «التحقق الواقعي» كما أبرز نتائجها العملية المدهشة إلى حيز الوجود على مستوىً ملموسٍ، مما أدى إلى إيجاد تأريخ مستقلٍ لدين الله تبارك وتعالى، وبالتالي فقد أصبح الآن بمستطاع كل أحدٍ من الناس إلى قيام الساعة، أن يدرك بوضوحٍ - استناداً إلى حقائق التأريخ الناصعة - كيف أن ينابيع بركات السماء والأرض تتفجر نتيجةً لقبول دين الله الحق، والتمسك به عملياً .

كما نتج عن ذلك أيضاً، أن القرآن أصبح مصوناً من كل خطرٍ خارجيّ بصورةٍ مستقلةٍ، إذ أصبح امتداد نفوذ الإسلام محققاً على قطاعٍ جغرافي كبيرٍ، كما أن غلبة الحضارة والثقافة الإسلامية العربية، أصبح كفيلاً بأن تتوافر للقرآن «بيئة مأمونة»؛ حيث لا يتمكن أحد من إدخال أي نوعٍ من التغيير والتحريف في مضامينه. وإنها لحقيقة تاريخية، أن غلبة المسلمين على رقعةٍ واسعةٍ من المعمورة، ظلت بمثابة حارسٍ أمينٍ للقرآن الكريم منذ خمسة عشر قرناً تقريباً .

المائدة الربانية

يرى بعض الناس أن القرآن «كتاب الفضائل» وبعض آخر يرى أنه «كتاب المسائل»، وآخرون يرون أنه «كتاب السياسة»، وليس في أيٍّ من هذه الآراء الثلاثة ما يمكن أن يكون وصفاً صحيحاً للقرآن .

ولنناقش هذه الآراء الثلاثة :

فالرأي القائل بأن القرآن «كتاب الفضائل» يعني أن سوره وآياته تنطوي على «بركاتٍ طلسميةٍ»، ويكفيك للحصول على هذه «البركات» أن تردد ألفاظ القرآن ترديداً محضاً، وهذا يفضي إلى أن تصير مجموع تلك الآيات فارغة المعنى، مع أنَّ القرآن يزخر بعددٍ لا يحصى من الآيات التي تدفع الإنسان إلى أن يسبر أغوار المعاني ويخوض في أعماقها، ولا يقف عند

حدود الألفاظ وحدها، كما تحثه على تدبر القرآن ، وإمعان النظر في مراميه البعيدة، واتخاذ وجهة النظر القرآنية بالنسبة لوجوده والكون المحيط به، وفي ضوء هذا، يتضح لنا بجلاءٍ،أن القرآن إنما يهدف إلى إيقاظ ما أودع في الإنسان من قوى فكريةٍ، وطاقاتٍ عقليةٍ، وما يتمتع به من ملكات الوعي والإدراك، حتى يستطيع تذوق الحقائق التي جاء بها القرآن، ويستمد منها ما يُغذِي به فكره وعقله وروحه، وأن يعيش في هذه الدنيا بالاعتبار والتبصر، ولهذا فإن القول بأن القرآن «كتاب الفضائل» هو هبوط بدرجة القرآن وحطّ من شأنه، فإنه إن أَوحَيَ بشيءٍ، فإنما يوحي بأن القرآن ليس بكتابٍ مصقلٍ للعقول، ولا مضيءٍ للقلوب، إنما هو «كتاب للتبرك» فقط، وأن قيمته إنما تنحصر في أن يُتلى -بدافع التبرك به -بذهن منغلقٍ، ثم يوضع على أحد الرفوف، بعد أن يغلّف بغلافٍ أنيق .

وكذلك فإن القول بأن القرآن «كتاب المسائل» نوع من الظلم، إذ أن الانطباع الذي يتبادر إلى الذهن، عند سماع كلمة «المسائل» أن القرآن كتاب أعمالٍ رتيبةٍ لا يختلف شأنها عن مظاهر ورسوم شكلية، ويكفي المرء - لأداء مسئوليته نحوها - أن يأتيها مراعياً لآداب ظاهرية محددةٍ، بينما نجد القرآن يخلو تماماً مما يتعلق بالآداب الظاهرية لأعماله المطلوبة.. بحيث إن القرآن يدعو الإنسان إلى الإيمان، إلا أنه لا يعدّ ذلك الإيمان إيماناً حقيقاً إلا إذا وقر في القلب وصدقه العمل ، وإن القرآن يؤكد - من بين ما يؤكد - أن الصلاة هي وسيلة الفلاح والسعادة، ولكن الصلاة المعتد بها في القرآن الكريم والتي تحقق الفلاح للمؤمن هي صلاة الخاشعين ، قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون] كما أن القرآن يطالب الناس بأن يذكروا الله كثيراً ذكرًا حقيقياً، والذكر الحقيقي هو الذي يمازجه نوع من روح المحبة والشغف الشديدين، وليس كالذي يكون في ذكر عظماء الأمة، أو الذي يكون عند تقديم الذبيحة أو الأضحية، لإباحة أكلها، بل الذكر الحق هو الذي يتسبب في وصول المرء إلى حقيقة التقوى ، وهكذا ترى أن الذي يركز عليه القرآن، ويلفت بإلحاحٍ مستمرٍ انتباه الإنسان إليه، هو أن يكون عملّه عملاً حيّاً ؛ نابعاً من الإرادة الشعورية والإدراك الواعي، وليس العمل القائم على مراسم وآدابٍ ظاهريةٍ مجردةٍ عن الروح والحيوية .

وليس من شكٍ في أن القرآن يتضمن عدداً من الأحكام لها صلة بأمور السياسة، إلا أن وصف القرآن بأنه «كتاب السياسة»، شأنه شأن من يطلق على الإنسان وصف «الحيوان الاقتصادي» بناءً على شيءٍ من التشابه الجزئي، وإن القائلين بهذا الرأي يعتمدون على ما حدث مع نبي آخر الزمان ﷺ، إذ يرون أن رسالته - عليه الصلاة والسلام - بدأت بمرحلة الدعوة والتبليغ، حتى انتهت - في آخر مراحلها - إلى تنظيم شئون السياسة والدولة؛ فاستناداً إلى ذلك يقولون : إن الأنبياء إنما يُبعثون من أجل إقامة «الحكومة الإلهية» ، على أساس مجموعةٍ خاصةٍ من الأحكام والتشريعات. ولكن القرآن يؤكد أنه لم يكن ثمة اختلافٍ قط بين رسالة نبيٍ وآخر، حيث إن الله أرسل أنبياءه جميعاً برسالةٍ واحدةٍ، ولهذا قَصَّ الله تعالى على خاتم الأنبياء ﷺ مواقف وصوراً من حياة من سبقوه ، وأمره بأن يتأسى بهم ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام:٩٠] وهنا يبرُز السؤال عما إذا كان الهدف الرسالي، لجميع الأنبياء ، إنما يتمثل في تأسيس «الدولة الإلهية»، إذن، ما هو السبب في أن الأنبياء، قاطبةً، ما عدا النبي الأخير ﷺ لم يقوموا - فعلاً - بإقامة الدولة ؟

وأصحاب هذا الاتجاه يردون على هذا قائلين : إن كل نبيٍ من الأنبياء اتخذ من هدف «تأسيس الدولة الإلهية» محوراً لعمله ونشاطه، وقام - فعلاً - بتركيز كل جهوده وطاقاته نحو إنجاز هذا الهدف، غير أن عمل بعض الأنبياء لم يتجاوز مرحلة السعي والجهد، كما أن بعضهم تكلل عمله بالنجاح، فتوصل إلى الغاية النهائية المنشودة .. ولكن هذا الجواب خاطئ من عدة أوجهٍ، ولتوضيح هذا نأخذ -على سبيل المثال - سيدنا موسى -عليه الصلاة والسلام -، إنه لو كان الهدف الأساسي لرسالته ﷺ يتمثل في تنحيةُ فرعون عن حكومة مصر، وإرساء دعائم الحكومة الإلهية مكانها ، فما السر إذن في أنه لما أغرق الله فرعون وجنوده في البحر، اتجه موسى - على إثر ذلك - ببني إسرائيل إلى صحراء سيناء، مغادراً بلاد مصر، فإذا كان هدف رسالته إنما يتمثل في تأسيس الحكومة الإلهية بمصر، كما يظنون، فماذا سيكون تأويل خروجه من مصر، على حين أنه قد سنحت له فرصة طيبة لإنجاز هدفه الرسالي بعد هلاك فرعون وجنوده ؟!

والحقيقة هي أن القرآن هو خزينة أبدية للنعم الربانية، وهو تعريف بالله، وهو ملتقى العبد

والمعبود، ولكن الآراء المزعومة من هذا النوع، أفقدت القرآن قيمته الحقيقية في أنظار الناس، وجعلته كتاباً، ما يشبه - إن أردنا تشبيهه بشيءٍ - أرضاً قاحلةً جدباء، حيث لا يوجد شيء ما، تتغذى به روح الإنسان، ومثله كمثل ديوان شعرٍ لأحد الشعراء، يتضمن مجموعة ألفاظٍ متنوعة، بحيث يكون بإمكان كل أحدٍ أن يجد فيه ما يؤيد عقليته الخاصة، ويتناسب مع اتجاهاته الذاتية، بينما الذي سيكون قد عثر عليه - نتيجة دراسته وبحثه - هو نفسه بالذات - أي ما يريد أن يصل إليه - ، ولكن قد تغمره موجة من الفرح والسرور ظناً منه بأنه قد وجد الله .

الشروط الضرورية لفهم القرآن

القرآن كتاب عقيدة وفكرة، والكتاب الفكري دائماً ما يكون موضع الاحتمال لأكثر من تفسيرٍ واحدٍ لمحتوياته ومدلولاته، ولذا يتحتم على من يريد فهم القرآن، على وجهٍ صحيحٍ، أن يكون خالي الذهن، مجرداً عن خلفيّاتٍ وأفكارٍ مسبقةٍ، وإلا فلا تكون حصيلته النهائية، من دراسة القرآن، سوي ما قد سبق أن امتلأ به ذهنه، من أفكارٍ واتجاهاتٍ ذاتيةٍ، ولنفهم هذا من مثال آيةٍ قرآنيةٍ، وهي قول الله تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ [البقرة : ١٦٥].

فإن رجلاً سياسيّ النزعة ؛ ممن لا يهمه شيء سوي ما يتعلق بالمعارك السياسية، قولاً وفعلاً، إذا ما قرأ هذه الآية، فلن يلفت انتباهه شيء في هذه الآية، ما عدا كلمة ((أندادًا)) وحسب، فهو يلتقط من القرآن كلمة ((أندادًا))، ويأخذ في شرحها طبقاً لتفكيره الذاتي، ونزعاته الشخصية، فيقول: إن المراد الإلهي هنا، هو ((اتخاذ الأنداد من حيث السلطة السياسية الحاكمة))، والآية تمنعنا صراحةً من أن نتخذ أحداً من دون الله، ((نداً سياسياً له))، وستصبح هذه الآية عنده - بناءً على هذا التفسير - بمثابة تبريرٍ شرعيٍ لأن يبدأ حملات المعارضة والاصطدام ضد كل من يراه نداً سياسياً لله...، وعلى العكس من هذا، إن رجلاً ما، إذا قرأ هذه الآية، بدون خلفياتٍ وأفكارٍ مسبقةٍ، فهو لا يقف عند كلمة ((أندادًا)) فقط، بل هو يتأمل في الآية بمجموعها، وسوف لا يصعب عليه أن يكتشف - بعد وقفة تأملٍ غير

طويلةٍ - أن كيفية ((اتخاذ الأنداد)) المذكورة هنا، إنما المقصود منها ما يكون من حيث ((المحبة)) لا من حيث ((السياسة)) وبعبارة أخري أن الآية تقول، إنه يجب على المؤمن أن يكون أشد حباً لله ربه وحده، ولا ينبغي له أن يتخذ أحداً من دون الله، نداً وشريكاً له، فيما يتصل ((بالحب الشديد)) .

إن للقرآن مدلولاً عاماً، يتوقف إدراكه على أن يقرأ الإنسان القرآن بنظرةٍ موضوعيةٍ، متجرداً عن كل أفكارٍ خلفياتٍ مسبقةٍ..، ولكن الشخص الذي يريد الوصول إلى الأغوار البعيدة لمعاني القرآن ومدلولاته، فإنه يُضطر أن يستوفي شرطاً آخر، هو أن يتمسك بالقرآن عملياً في مسيرة حياته، بحيث تسير حياته على الدرب ذاته الذي يدل عليه القرآن، دونما انحرافٍ إلى أية جهةٍ أخري . إن القرآن كتاب توجيهي أو مُرشد عملي لحياة الإنسان العملية، وأيما كتابٍ عمليٍ أو تطبيقيٍ قد لا يمكن سبر أغواره والغوص في أعماقه، إلا إذا مرّ الإنسان - فعلاً - بتلك التجارب التي أشير إليها في هذا الكتاب

وإن هذا العمل ليس بأي عملٍ سياسيٍ واجتماعيٍ، بل إنه ((عمل نفسي)) بكل معنى الكلمة، والحقيقة أن الإنسان في ممارسته هذا العمل، يقوم لمجابهة نفسه بالذات، وليس لمجابهة شيءٍ خارج وجوده الذاتى ،إن القرآن يريد للإنسان ألا يعيش على مستوى ظاهر الحياة الدنيا، بل عليه أن يعيش على مستوى عالم الغيب، وإن المراحل التي أشار إليها القرآن في هذا الخصوص، كيف يتمكن من إدراكها مَنْ لم يكن له عهد بها في حياته العملية؟ ويريد القرآن ألا يخاف الإنسان إلا اللهّ، ولا يحب إلا إياه، فهل يستطيع أن يدرك ماهية مخافة الله ومحبته من لم يضطرب قلبه مرةً في حب الله، ولم يقشعر جلده أبداً لخشيته من الله؟. ويريد القرآن أن ينضم الإنسان إلى المنهاج الإلهي، ويربط به وجوده لدرجة أن يصير ذلك عنده بمثابة قضيةٍ شخصيةٍ تهمه بالذات، فالرجل الذي لم يهتم بمنهاج الله، اهتمامه بقضيته الشخصية، كيف به أن يعرف معنى الانضمام إلى الله وربط الوجود به ؟ ويريد القرآن ألا تستحوذ على الإنسان القضايا المثارة من الناس، حتى تصير هي أكبر همه، بل عليه أن يُغرق وجوده في الفيضان المتدفق من قبل الله، فمن لم تمّر عليه ساعة واحدة من الساعات، يكون فيها قد غرق وانغمس في فيضان الله، أنّى له أن يفهم ماذا يعني الانغماس والاستغراق في الفيضان الإلهي ؟.. ويريد القرآن أن يفرّ الإنسان من الجحيم، ويسعى إلى الجنة، ولكن من

شغله متاع الحياة الدنيا عن أن يأخذ قضية الجحيم بعين الاعتبار ومن لم يعُدْ له أي حنينٍ أو شعورٍ بحاجةٍ إلى الجنة، كيف يفهم معنى الفرار من الجحيم، وعلامَ يدل السعي إلى الجنة ؟ ويريد القرآن أن يكون الإنسان مغموراً بالإحساس بعظمة الله وكبريائه، ولكن الذي استحوذ عليه الشعور بكبريائه وعظمته الشخصية، من أين يستطيع أن يشعر بتلك الكيفية التي تتولد حين يدرك الإنسان كبرياء الله بصفةٍ تجعله لا ينظر إلى ذاته إلا من باب العجز ، والعجز وحده ؟

إن العمل القرآني، تتم ممارسته أصلاً على مستوى الوجود الداخلي للإنسان، ولكن الإنسان لا يعيش وحده، بل هناك كثيرون من بني نوعه يتعايشون حوله، ومن أجل ذلك، فإن العمل القرآني ، بالرغم من كونه - من حيث حقيقته الأصلية - عملاً داخلياً ذاتياً؛ يتصل بالآخرين أيضاً من ناحيتين : أولاهما: تتمثل في دعوة المؤمنين الآخرين إلى اتباع ذات السبيل القرآنية، التي يتبعها هو بذاته، الأمر الذي يؤدي إلى قيام علاقة الداعي والمدعو بين مؤمنٍ وغيره، وهذه العلاقة تتسبب في مرور المؤمن بعددٍ لا يحصي من التجارب، وتبقى سلسله هذه التجارب مستمرةً إلى آخر حياته بصورٍ مختلفةٍ ومتنوعةٍ والناحية الثانية تتمثل في القضايا والمعاملات الحياتية المتنوعة التي تقوم بينه وبين من يتعايش معهم، مثل الأخذ والعطاء بالتبادل، والاتفاق مع رجلٍ، والاختلاف مع آخر، والابتعاد عن هذا، والاقتراب من ذاك...إلخ . وقد تضمن القرآن تعليماتٍ وإرشاداتٍ حكيمةً شاملةً تهدي الإنسان إلى المواقف والردود الفعلية الصحيحة، التي ينبغي له أن يتخذها بإزاء هذه الأمور والمعاملات كلها، ولكن الإنسان إذا أراد أن يتّبع هواه، فإن هذا الباب من القرآن سيبقى مغلقًا عليه، وأما إذا هو جعل القرآن حاكماً لحياته، فسيتجلى له نوع من الأسرار والحِكَم لتعاليم القرآن لا يمكن أن يتأتى له من أي طريقٍ آخر .

إن المشروع الذي يقدمه القرآن أمام الإنسان ليس فى حقيقة الأمر، مشروع إقامة نظام ما، بل هو مشروع « صياغةٍ قرآنيةٍ » لسلوكنا وأخلاقنا نحن، إن خطاب القرآن موجّه أصلاً إلى الفرد دون المجتمع، ولذا فإن مشروع القرآن يتم تنفيذه على الفرد وليس المجتمع، غير أن عدداً ملحوظا من الأفراد، إذا ما انصهر في بوتقة القرآن، فإن نتائجه الاجتماعية أيضاً تبرز إلى الوجود في المرحلة التالية، ولا تكون هذه النتائج دائماً من نوعيةٍ واحدةٍ محددةٍ، بل إنها تتغير

بتغير الظروف والأوضاع التي تظهر فيها، وما جاء في القرآن من أحداثٍ ووقائع متنوعةٍ حدثت مع الأنبياء، إنما تمثل نماذج مختلفةً لهذه النتائج الاجتماعية أو ردود الفعل الاجتماعية ، ولو أن المرء كان بصيراً، ولم يكن على بصيرته غشاوة، لوجد في القرآن حلاً لكل مشكلةٍ يقع فيها، وهدايةً في كل أمرٍ يواجهه في الحياة العملية ، إن القرآن كتاب الفطرة الإنسانية، وإنما يتمكن من فهم القرآن على أحسن ما يكون، مَنْ صار القرآن عنده بمثابة ((مثنيٍّ)) لفطرته .

السمات البارزة لـ ((تذكير القرآن))

١ -إنَّ الغرض الرئيسي، الذي نريد الوصول إليه من خلال هذا التفسير بصفةٍ خاصةٍ، هو ((التذكير بالقرآن))، ومن حيث إن القرآن نفسه إنما جاء من أجل تحقيق هذه الغاية ، أي التذكير والموعظة، فإن الجانب الذي أوليناه القسط الأوفر من اهتمامنا، في طرح مضامين هذا التفسير هو أن يجد فيه القارئ منهلاً فياضاً أو مرتعاً خصباً يضمن له إشباع حاجته إلى التذكّر والاعتبار والاتعاظ .

٢-إن القرآن كتاب ليس كتاباً بشرياً مؤلفاً على الطراز الإنساني المعتاد، ينقسم إلى الأبواب والفصول، بل إن مضامينه طُرحت بأسلوبٍ أشبه ما يكون بشذراتٍ أو فقراتٍ قصيرةٍ متناثرةٍ – إن صح التعبير – بَيْدَ أن ثمة نظاماً محكماً وارتباطاً معنوياً دقيقاً بين سور القرآن وعباراته، إلا أن الأسلوب الذي يتبناه القرآن عادةً، هو أن يعرض ((رسالةً كاملةً مستقلة بحد ذاتها)) ، من خلال مقاطع وفقراتٍ قصارٍ، بحيث تنطوي كل ((فقرة))، – وهي تتألف غالباً من عددٍ من الآيات يَقلّ أو يكثر – على تذكير خاصٍ بمعنيً أو مبدإٍ خاصٍ، بغية ترسيخه في النفوس والأذهان،.. وقد حاولنا اتباع أسلوب الفقرات هذا في طرح مضامين هذا التفسير ((تذكير القرآن))، أي أننا عمدنا إلى فقرةٍ من فقرات القرآن، ثم تناولنا ما يندرج تحتها من فكرةٍ أو توجيهٍ معنويٍ بالتفسير والإيضاح كموضوعٍ متسلسلٍ، وذلك حرصاً منا على ألا تنقطع من القارئ سلسلة المعاني والمفاهيم المطروحة خلال قراءته في فقرةٍ تفسيريةٍ معينةٍ، ولكي يتمكن هو من التزوّد المستمر المتواصل ((بالغذاء التذكيري)) للقرآن الكريم .

٣-ولقد توخّينا في إعداد ((تذكير القرآن)) من الحكمة، ما جعل كل فقرةٍ من فقراته، مستقلةً بذاتها، وذلك لاحتوائها على فكرةٍ قرآنيةٍ واضحةٍ محددةٍ، فسواءٌ قرأ القارئ صفحةً

واحدةً من التفسير، أم قرأ مجموعةً كبيرةً من الصفحات، فإنه لا يكاد ينتهي من قراءته إلا ويكون قد ظفر بنصيبٍ من «الموعظة القرآنية» على أية حالٍ.

٤-وقد توخينا الإيجاز إلى الحد الممكن، غير عارضين للتفاصيل المتصلة بالجانب اللّغوي، أو الجانب الفقهي أو الجانب الكلامي، أو ما إلى ذلك من الجوانب والوجوه الأخرى للمدلول القرآني، وإنما الشيء الذي جعلناه نصب أعيننا، هو أن يتسم تفسير القرآن بطابعٍ من البساطة التي يتميز بها القرآن نفسه، فإنَّ القرآن من جهةٍ، يعكس جلال الله وعظمته، ومن جهةٍ أخري، هو مرآة تنعكس عليها عبودية الإنسان بجميع نواحيها، وهذه هي النقاط الجوهرية التي يتمحور حولها هذا التفسير، ويحاول تجليتها بأسلوبٍ موجزٍ وبسيطٍ، بعيدٍ عن التعقيدات الفنية.

وحيد الدين خان

دلهي تحريرًا في:

يوم الجمعة، ١٣ من نوفمبر ١٩٨١



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

سار فقه القرآن وتفسيره - عبر حضارتنا الإسلامية حتى مطلع العصر الحديث - وفاقًا لمنهجين معتمدين يخضعان - على اختلافهما - لضوابط تجعل حركتهما فى حياة المسلمين متكاملة لا متناقضة.

فالمنهج الأول يقوم على فقه القرآن وتفسيره من خلال النقل الصحيح المأثور ولا يمتد كثيرًا فى إضافات مساحات عقلية تغوص فى أعماق النصّ ، وتضيف إلى (الضوابط المنقولة) فقه العقل ، أو ما يسمى (التفسير بالرأى) .

وأما المنهاج الثانى : فهو ذلك الذى يرى فى القرآن الكريم كتابًا مفتوحًا تمتد رؤيته إلى كل العصور ، وبالتالى ترى فيه كل العصور - من خلال ما وصلت إليه من ثقافة وفكر ورؤى كونية واجتماعية - آفاقًا جديدة من شأنها أن تحافظ على تفسير القرآن (بالأثر والنقل) ، لكنها تضيف إليه ما أفرزه تطور العقل ، وما انتهت إليه الاكتشافات الجديدة والمتجددة دومًا - فى عالم الأنفس والآفاق .. انطلاقًا من أن هذا القرآن جاء قائدًا لكل مراحل التطور البشرى ، فهو لا يهدى للتى هى أقوم فى قرن دون قرن فالقرون -مهما يكن تطورها – لاتسبقه بل هو الرائد الذى يقدم الكليات والثوابت والمفاتيح ، ويمنع العقل من أن يكون هوى متبعًا وغرائز حاكمة ، ويمنع التطور من أن يصبح تطورًا نحو البهيمية والحيوانية يقود الإنسان بسرعة خارقة نحو قاع الموت والجاهلية ، ويظن – مع ذلك – أصحابه أنهم يحسنون إلى الإنسانية صنعًا لمجرد اختراعهم بعض الآليات والوسائل التى تختزل المسافات أو تحقق ترفًا وسعادة ظاهرية تشبه سعادة المخمور والمعتوه.

وفى ضوء هذا المنهج يقرأ أصحابه القرآن قراءة كونية وسننيّة وجمالية وحضارية ودعوية وروحية . ونحن نهش لهذا المنهاج ، ونهش – كذلك – للمنهاج الأول ، ونراهما حلقات تتواصل ليأخذ بعضها بيد بعضها الآخر ..وكلها يسعى مخلصًا ليقدم الفقه الصحيح – أو التفسير الموضوعى – للقرآن من وجهة نظره .

ونحن ندرك أنه فى بعض المراحل انحرف التفسير- وفاقًا للمنهج الثانى - فأصبح تفسيرًا بالرأى المذموم أو المرفوض ؛ لأن أصحابه - سواء عن حسن قصد وهو الأقل ، أم عن سوء قصد وهو الأكثر - قرؤوا القرآن وفسَّروه ، واضعين هدفًا مسبقًا مذهبيًا أو فكريًا يسعون - من خلال تفسيرهم للكتاب الكريم - إلى إثباته ، وبالتالى يعمدون إلى تأويل كتاب الله ليحقق لهم هذا الهدف المسبق وهو ما يتعارض مع العلم والموضوعية - بعامة - ومع منهاج التعامل مع الله بخاصة .

بل إن بعض الباطنية وغلاة المتأولين المحسوبين على مصطلح التصوف قد أخرجوا مضامين كتاب الله عن حقيقتها لكى تنسجم مع آرائهم الباطلة ومناهجهم المنحرفة .. وخلف من بعدهم خلف - فى عصرنا - من العلمانيين والشيوعيين والحداثيين من عملاء الماسونية والقاديانية والبهائية ، عمدوا إلى اتخاذ كتاب الله غرضًا ، يحرفون الكلم عن مواضعه ويقبلون منه ويرفضون خضوعًا للهوى والهدف المسبق .

بيد أن ذلك لم يمنع حركة تفسير القرآن تفسيرًا يجمع بين ضوابط النقل ومنهج السلف من جانب ، والاجتهاد بالرأى والاستدلال بآيات الله فى الأنفس والآفاق من جانب آخر من أن تظل مجاهدة فى هذا الطريق ... تقدم للعقل المسلم والأمة المسلمة قراءات تفسيرية للقرآن قد تركز على الناحية الدعوية أو التربوية أو الحركية ، أو غيرها ، لكنها تظل مرتبطة بالنص لا تسمح لعقلها من أن يبعدها عن المركز الرئيسى للإشعاع وهو آيات القرآن -حسب تفسير القرآن لها أو تفسير سنة الرسول ﷺ أو صحابته المرضى عنهم ، وحسب الدلالة المعتمدة لمصطلحات اللغة العربية معجميا ومجمعيا ومع توافر شروط المفسر المجمع عليها .

إن تفسير المنار الذى كتبه الشيخان - محمد عبده ورشيد رضا - لا يخلو من بعض الهنات والاجتهادات غير المقبولة ، لكننا لا نستطيع أن نرفض أو نقلل - من قيمة الشيخين الكبيرين أو من المنار.

وذلك لأن الخطأ هنا خطأ جزئى وعفوى ، وليس عن قصد ، وإلا فإنك لن تعدم أن تجد فى التفاسير القديمة مثل تفسير النسفى وابن كثير والطبرى والقرطبى وغيرها - كذلك - ما لا يقبله العقل المسلم ، فهو خطأ فى الاجتهاد يشبه خطأ الفقيه والمحدث ... وهو مقبول - مع نقده وتصويبه - ما دام المنهاج فى أصله صحيحًا والغاية كريمة وشروط المفسر متحققة .

لقد هدف الشيخ المجاهد عبد الحميد بن باديس إمام النهضة الجزائرية وباعث الوعى الإسلامى والعربى فى الشعب الجزائرى ـ من تفسيره (مجالس التذكير) إلى إحياء شعبه الذى كانت فرنسا قد أعلنت قطع صلته بالإسلام إلى الآن ، وخطب الحاكم الفرنسى للجزائر بمناسبة مرور مائة سنة على الاحتلال ينعى إسلامية الجزائر وعروبتها ، ويقول : إن محمدًا أخذ عصاه ورحل لكن الشيخ ابن باديس ـ من خلال تفسيره الذى ألقاه فى قسنطينة بالشرق الجزائرى ، وكانت الجزائر تتابعه بالوسائل الممكنة – أيقظ وعى الشعب بذاته المسلمة ، فعادت الجزائر إلى الإسلام .

ونزعم أن تفسير المنار — أيضًا – كان له دور فى بعث الذات المسلمة .. وعبر عدد كبير من الأوطان .

وكان تفسير الشهيد سيد قطب (فى ظلال القرآن) تفسيرا روحيًا وحركيًا يدعو إلى القضاء على الهزيمة الداخلية فى النفس المسلمة وهو نمط جديد من التفسير أو (الحياة فى ظلال القرآن) وقف به صاحبه ضد المد الشيوعى والقومى والعلمانى الماسونى الذى كان يستعمل أقسى الوسائل وأبشعها للقضاء على الإسلام .

وثمة قراءة للقرآن ـ أو بتعبير آخر (حياة فى نور القرآن) أنقذ الله بها ملايين من البشر فى العالم التركى الذى سعت اللادينية اللائكية والماسونية إلى محو الإسلام فيه بعد إسقاطها للخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م .

هذه القراءة المتفردة الرائعة للقرآن تتميز بمنهجية خاصة ، فهى ليست تفسيرًا لكل القرآن ممثلا فى سوره وأجزائه وأحزابه وأرباعه ، بل هى (حياة قرآنية معاصرة) فى القرآن من خلال السياحة فى (القرآن كله) بطريقة غير تجزئية ولا تفصيلية على النحو المعروف فى كل ما سبق من تفاسير بل من خلال القضايا الكبرى والكلية ، وتحديات العصر حول الإيمان والبعث ووظيفة الإنسان ورحلته الخالدة فى الدنيا والآخرة .

وهكذا كانت (رسائل النور) للمجدد التركى العلامة المجاهد بديع الزمان سعيد النورسى .. فبهذه الرسائل التى بلغت صفحاتها نحو خمسة آلاف صفحة ، والتى كتبها العلامة النورسى فى ظل أسوأ الظروف بقيت جذوة الإيمان فى نفوس ملايين الأتراك .

وقد قدم النورسى فى تعامله مع القرآن رؤى جديدة تستحق أن نبرز بعضها ليتعرف القارئ فى عالمنا العربى على ما وصل إليه فقه التعامل مع القرآن لدى إخواننا الآخرين من غير العرب أتراكا كانوا أو هنودًا .

ولئن كنا سنتعرف - بالتأكيد - على لون من ألوان التعامل مع القرآن فى العالم الهندى من خلال التفسير الذى بين أيدينا للشيخ وحيد الدين خان ... فإننا هنا نقدم - بإيجاز شديد - بعض ملامح الرؤية التى قدمها العلامة النورسى فى العالم التركى - آملين أن تتكامل الرؤى - ويتحقق التفاعل بين الشرائح الإسلامية المختلفة فى تعاملها مع دستور الإسلام الأعظم - القرآن الكريم - كتاب الله الخاتم .

إن الشيخ بديع الزمان سعيد النورسى يعرف القرآن بأنه ((الترجمة الأزلية لكتاب الكائنات الكبير والترجمان الأبدى لألسنتها المتنوعة التالية للآيات التكوينية ومفسر كتاب عالم الغيب والشهادة ، وكذا هو كشاف لمخفيات الكنوز المعنوية للأسماء الإلهية المستترة فى صحائف السموات والأرض ،وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المضمرة فى سطور الحادثات ..((وكذا هو شمس عالم الإسلام المعنوى وأساسه وهندسته ..وكذا هو خريطة مقدسة للعوالم الأخروية .. وكذا هو القول الشارح والتفسير الواضح والبرهان القاطع والترجمان الساطع لصفات الله وأسمائه وشؤونه .. وكذا هو المربى لهذا العالم الإنسانى)) .

إن القرآن الكريم كتاب سماوى يتضمن إجمالاً ؛ كتب جميع الأنبياء المختلفة عصورهم ، ورسائل جميع الأولياء المختلفة مشاربهم ،وآثار جميع الأصفياء المختلفة مسالكهم ... وجهاته الست مشرقة ساطعة نقية من ظلمات الأوهام ، طاهرة من شائبة الشبهات ، إذ نقطة استناده : الوحى السماوى والكلام الأزلى باليقين ، وهدفه وغايته: فى السعادة الأبدية بالمشاهدة ، وخلاصة محتواه : هداية خالصة بالبداهة .

١ – فأمّا أعلاه : فأنوار الإيمان بالضرورة .

٢– وأسفله : الدليل والبرهان بعلم اليقين .

٣– ويمينه : تسليم القلب والوجدان بالتجربة .

٤- ويساره : تسخير العقل والإذعان بعين اليقين .

٥- وثمرته : رحمة الرحمن ودار الجنان بحق اليقين .

٦- ومقامه : قبول الملك والإنس والجان بالحدس الصادق .

(الكلمات لبديع الزمان ، ص / ٤٢٣) .

ويشبه الأستاذ سعيد النورسى مدى علوّ مكانة القرآن على أساس قاعدة دنيوية معروفة ؛ فقد جرت الأعراف على أنه بمقدار علو كلام السلطان الصادر من حيث السلطنة ، وسموه على مكالمته الجزئية مع أحد رعاياه من العوام ، وبمقدار ما يفوق الاستفادة من فيض تجلى الضوء من الشمس التى هى فى السماء - على استفادة فيضها من المرآة ، يمكن فهم سمو القرآن الكريم على جميع الكلام الإلهى والكتب السماوية .

فالكتب المقدسة والصحف السماوية تأتى بالدرجة الثانية بعد القرآن الكريم فى درجة العلو والسمو كل له درجته وتفوقه ، كل له حظه من ذلك السر للتفوق ، فلو اجتمع جميع الكلام الطيب الجميل للإنس والجن ـ الذى لم يترشح عن القرآن الكريم ـ فإنه لا يمكن أن يكون نظيرًا قط للقرآن الكريم ، ولا يمكن أن يدنو إلى أن يكون مثله .

(الكلمات لبديع الزمان ، ص / ١٤٨) .

وبما أن مسألة وجود تكرار فى القرآن كانت موضع تساؤلات واعتراضات من بعض الجاهلين وأعداء القرآن ، فإن الشيخ بديع الزمان النورسى يتناولها بالتفصيل ، فيبين أسرار التكرار فى القرآن بأسلوب بديع وداحضًا آراء الجاهلين والأعداء .

يقول الأستاذ النورسى : ((فالقرآن ـ لأنه كتاب ذكر ، وكتاب دعاء ، وكتاب دعوة يكون تكراره أحسن وأبلغ بل ألزم ، وليس كما ظنه القاصرون : إذ الذكر يكرر ، والدعاء يردد ، والدعوة تؤكد ؛ إذ فى تكرير الذكر تنوير وفى ترديد الدعاء تقرير ، وفى تكرار الدعوة تأكيد)).

وأيضًا فإنه لا يمكن لكل أحد فى كل وقت قراءة كامل القرآن الذى هو دواء وشفاء لكل داء فى كل وقت ، فلهذا أدرج الحكيم الرحيم أكثر المقاصد القرآنية فى أكثر من سورة ، لا سيما الطويلة منها حتى صارت كل سورة قرآنا صغيرا ، فسهل السبيل لكل أحد ، دون أن يحرم أحدًا ، فكرر التوحيد والحشر وقصة موسى عليه السلام وغيرها .

ويضاف إلى ذلك أن ((الحاجات الجسمانية بما أنها مختلفة فى الأوقات كذلك الحاجات المعنوية الإنسانية أيضًا مختلفة الأوقات)) .

إلى جانب ذلك فإن القرآن يبحث عن مسائل عظيمة ويدعو القلوب إلى الإيمان بها ، ويبحث فى حقائق يقينية ويدعو العقول إلى معرفتها ،ولهذا فإنه لابد لتقريرها فى القلوب وتثبيتها فى أفكار العامة من التكرار فى صور مختلفة وأساليب متنوعة)).

(الكلمات لبديع الزمان ، ص / ٢٦٥)

وهكذا يأتى تفسير الشيخ وحيد الدين خان – أحد كبار علماء الهند ومفكريه المسلمين – حلقة فى سلسلة ذهبية ، تحاول تفسير القرآن تفسيرًا معاصرًا يذكر الأمة بذاتها ورسالتها ومسؤوليتها أمام الله .

وكما كان لكل تفسير سابق هدف مركزى .. ينبثق من ضمير كل مفسر وروحه وشعوره بما يحتاج إليه المسلمون كى ينبعثوا بعد نومهم الطويل خلال القرون الثلاثة الماضية التى كاد العقل المسلم أن يجمد عند الشروح للمتون ، والحفاظ على ما قدمه الأولون .

كذلك فإننا نشير إلى أن الشيخ وحيد الدين خان يدور فى فلك نقطة مركزية هى (الدعوة) .. فالأمة الإسلامية هى قبل كل شىء أمة دعوة ، وعليها أن تلتمس كل الطرق الحكيمة والهادئة والمعاصرة التى وصلت إليها البشرية لتبليغ الدعوة .

وحول مركزية الدعوة دارت كل جهود الشيخ وحيد الدين ـ ومن أجلها أطلق على مجلته الشهرية الصادرة بعدد من اللغات اسم (الرسالة) .

والرسالة هى الدعوة .. ودعا إلى المسالمة مع الآخرين حتى وإن ظلم الآخرون وعنفوا وتعاملوا طائفيا ـ كبعض الأحزاب الهندوسية المتطرفة .. فعنده أن العنف والظلم والطائفية لا تقاوم إسلاميًا .. بالهبوط إلى مستواها الظالم العنيف الطائفى .. وهى وجهة نظر إسلامية حقًا ..لكن دفع الظلم ومقاومة العنف قد تفرضها ضرورات البقاء حتى لا يتمادى الظالم فى ظلمه والطائفى فى طائفيته .

وعلى كل فالإسلام يسمح بتعدد الرؤى فى معالجة الظروف ، فى ضوء ثوابته ـ كما أن

للمجتهد المخطئ أجرًا وللمصيب أجرين ، وقد يتأرجح الموقف الثابت الواحد فى معالجة الأمور بين الصواب تارة والخطأ تارة أخرى .

أما تفسير الشيخ ، فهو لصيق بالقرآن ومعطياته ، تنساب الدعوة فى كل كيانه بعيدة عن السياسة وشياطينها - والثورية ونتائجها الوخيمة .

ولعلنا فى عصرنا ، وفى مواجهة قوى فكرية وسياسية وعسكرية تفوقنا قوة بمراحل كثيرة وتعتمد أساليب شيطانية ، فى حاجة ماسة إلى إحياء ؛ (فريضة الدعوة) وإحياء (فريضة التفكير) فيما يخدم الدعوة ، وفق (برنامج جديد للعمل الإسلامى) - كما ذكر الشيخ وحيد الدين خان فى كتيبه الذى يحمل العنوان نفسه ، بعيدًا عن استعمال الصدام ، مادام بالإمكان القضاء على بواعثه والوصول إلى قلوب الآخرين وعقولهم .

وفى منهاجه لم يعتمد الشيخ طريقة شرح المفردات ، بل قام بتقديم المضمون بطريقة إجمالية بيد أننا رأينا ضرورة ذلك ، فوضعنا شرحًا للمفردات التى تحتاج إلى شرح ، وقد عربّنا بعض الجمل التى عجزت الترجمة الهندية عن ترجمة معانيها ببيان عربى فصيح .

ولعل القارئ العربى لهذا التفسير - تذكير القرآن - يرتبط بوجدانه بمحورية الدعوة الأساسية التى تمثل مفتاح هذا التفسير وقضيته الأساسية ، وما أحوجنا إلى قراءة للقرآن تركز على الدعوة ،وعلى فقهها ومتطلباتها ، وآلياتها فى العصر الحديث ، وفى ظل هيمنة القوى الإبليسية على العالم ، مثلما كانت تسيطر عليه أيام البعثة النبوية .

وقد لا يعرف بعض الناس قيمة هذه الكلمة التى أصبحت تلوكها الألسنة كثيرًا فالدعوة هى جوهر رسالة المسلمين وقضية وجودهم بعد أن ابتعثهم الله ميسرين لا معسرين ، لإخراج البشرية من جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .. ولهذا كانوا (خير أمة أخرجت للناس) وكانوا الأمة الوسط الشهيدة على الناس .

وجزى الله الشيخ وحيد الدين خير الجزاء ، ونفع المسلمين بعلمه .. والله من وراء القصد .

أ.د / عبد الحليم عويس

تفسير سورة الفاتحة

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣
مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦
صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾

ربّ العَالَمِينَ : مُرَبِيهم وَمَالِكِهِمْ ومُدبر أمورهم .

يَوْمِ الدِّينِ : يوم الجزاء ، أو الحساب .

اهْدِنَا الصِّرَاطَ: وفقنا للثبات على الطريق الواضح !

المُسْتَقِيمَ: الذى لا اعوجاج فيه وهو الإسلام .

المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ: اليهود .

الضَّالِّينَ: النصارى وكذا أشباههم في الضلال.

إن أفضل بدايةٍ لعمل العبد، هو أن يبدأ عمله باسم ربه، ...؛ إذ هو الموجود الذي عنده خزائن كل رحمةٍ، والذي لا تزال عيون رحمته تتدفق كل حينٍ وآنٍ، فإن بدء عملٍ ما باسمه، هو كدعائنا إياه ؛ أن يتوجه إلينا برحمته التي لاحدّ لها ولا نهاية ، ويأخذ بأيدينا عند كل عقبةٍ تعترض دون عملنا، ويسعدنا - آخر الأمر - بتكليل عملنا بالنجاح .. وفي هذا اعتراف من جانب العبد بعبوديته، كما أنه - من جانبٍ آخر - ضمان إلهي، لنجاحه الأكيد أيضاً .. وقد امتاز القرآن بالتعبير الدقيق عما يعتري قلب المؤمن من مشاعر وأحاسيس، بكلماتٍ أصدق وأوجز ما تكون، وإن «البسملة» و«سورة الفاتحة» تمثلان هذا النوع من العبارات الدُّعائية .. فقد تجسدت في صورة هذه الألفاظ تلك العاطفة الطبيعية ، التي ربما تنبعث في داخل المرء، على إثر وصوله إلى الحق .

إن كيان الإنسان لمن عظيم ما أُعطي له من عند الله تعالى، وربما تتضح عظمة شأنه من أنك إذا قلت لرجلٍ ما ، أن ينزل عن عينيه ، أو يقطع رجليه، وبعد ذلك سيُتوجّ ملكاً على البلاد، فإنّه ليس هنالك من يرضى بذلك أبداً، وهذا يعني أن العطايا الفطرية الأولية، هي أنمى وأعظم قيمةً من

مملكة ملكٍ بأسرها، ...وكذلك حين يجول الإنسان ببصره في هذا الكون المحيط به، تتجلى له ربوبية الله ورحمته في كل ناحيةٍ.. ويجد هو نفسه في عالمٍ ينسجم ويتلاءم بكل موجوداته وظواهره مع الحياة الإنسانية وحاجاتها ومتطلباتها، على وجه مذهلٍ للغاية .. وهذه المشاهدة تقوده إلى إدراك أنه لا يمكن أن يكون هذا المصنع الكوني الهائل، قد خُلق عبثاً، وأن يُترك سدىً ، وأنه لا بد من أن يأتي يوم يجزى فيه الشاكر لشكره، ويعاقب فيه الكافر على كفره وجحوده .. ثم هو لا يلبث أن يتضرع إلى الله قائلاً : يا رب ، إنك مالك يوم الدين، وها أنا ذا أطرح نفسي على عتبتك، وأسلم نفسي لك، وبك أستعين، تغمدني برحمتك ! يا رب! اهدنا السبيل الذي هو أهدى وأقوم السبل عندك، ووفقنا لنقتدي بعبادك المخلَصين المنعَم عليهم، ونجّنا من أن نتبع سبيل أولئك الذين حادوا عن الجادة، أو الذين استحقوا سخطك، وحل عليهم غضبك لطغيانهم وعنادهم .

إن العبد المطلوب عند الله هو الذي يعيش في هذه الدنيا مغموراً بهذه المشاعر والكيفيات.. وسورة « الفاتحة » هي « صورة مصغرة » لذلك العبد المؤمن، وأما ماعدا ذلك من القرآن، فهو كله « صورة مكبرة » لذلك العبد المؤمن .



تفسير سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

ذَلِكَ الكِتَابُ: القرآن العظيم .

لا ريبَ فِيهِ: لا شك فى أنه حق من عند الله .

هُدًى: هادٍ من الضلالةِ .

للمتقين: الذين تجنبوا المعاصي وأدوا الفرائض فوقوا أنفسهم العذاب.

لا ريب فى أن القرآن كتاب هديٍ وإرشادٍ ، ولكن المنتفع بهدايته هو الذى يكون جادًا حق الجدية ، بالنسبة لمعرفة الهداية ، والذي مازال يشغل هذا الأمر باله ، ويختلج في صدره ليل نهار ، إن بذرة « الطلب الصادق » التي تنبت في أرض الفطرة ، هي ذاتها تشكل نقطة البداية للظفر بالمطلوب وإدراكه ، إن « الطلب الصادق » و « الإدراك الحقيقي » ليسا ، سوى مرحلتين ، متقدمةٍ ومتأخرةٍ ، لمسيرةٍ واحدةٍ ، إن ذلك يبدو وكأنك المرء يتصفح صفحاتٍ مطويةٍ من فطرته هو بالذات ؛ إذ طالما يريد الإنسان لذلك إرادةً صادقةً ، فلا يلبث أن تشاركه الطبيعة كلها ، وتنسجم معه في سيره ، وتأخذ نصرة الله بيده ، وبالتالي هو يبدأ يتلقى إجابةً محددةً واضحةً لنداء فطرته الغامض . وإن انبعاث « الطلب الصادق » فى داخل أحدٍ من الناس ، يعنى محاولةً تتجه لمشاهدة العالم الباطني وراء هذا العالم الظاهري ، وعندما تنتهي هذه المحاولة إلى مرحلة الإدراك تتحول إلى « الإيمان بالغيب » ، فالحالة النفسية التي تتمثل بادئ بدءٍ ، فى اضطرار المرء إلى أن يُلقي أمام « حقيقةٍ عليا » ، هي نفسها ستبرز في المرحلة التالية

في صورة تحوله إلى « مقيم الصلاة لله » والعاطفة التي تكون في البداية عبارةً عن طموح الرجل إلى أن يقف وجوده لخدمة « الخير الأعلى » ، هي ذاتها ستكون وقد تحولت إلى الإنفاق والتضحية ، في سبيل الله ، بكل ما يملك ، وبكل ما يحرص عليه ، والحيرة التي قد تخيّم على أحدٍ ، وهو يحاول البحث عن العاقبة الأخيرة أو المصير النهائي ، لما يجرى على مسرح الحياة الإنسانية من أعمالٍ وأحداثٍ ، إنها بدورها لا تلبث أن تنقشع وتزول تلقائيًا ، عقب تحقق يقينه بالآخرة ، وما يكون فيها من الحساب والجزاء الوفاق .

إن إدراك الحق يعني بلوغ وعي الإنسان إلى مستوىً موازٍ للحقيقة العليا ، والذين يوفَّقون لإدراك الحق على هذا النحو ، يتحررون من أسر جميع أنواع العقد النفسية ، وبالتالي ينظرون إلى الحق كما هو بصورته المجردة، ولذا فإنهم سرعان ما يعرفون الحق أينما وُجد، ويُلبون نداء الداعي إليه، كائناً من كان من عباد الله،ولا يحول أبداً أي شيء من الجمود، أو تقليد الآباء والجدود، وجدران التعصب،دون اعترافهم بالحق .. وإن الذين يتمتعون بهذه الخصائص، ينسجمون مع نظام الله الذي يسير عليه هذا الكون كله، ويتكيف معهم، ويُكتب لهم التوفيق لاتباع ذلك الطريق السوي الذي يؤدي - في نهاية المطاف - إلى نعيم الآخرة الأبدي ، وأولئك هم المفلحون .

وإنما يصل إلى الحق من كان ينشده ويبحث عنه، ومن كان يبحث عنه فلابُدَّ أن يصل إليه ويدركه، فإنه قد تذوب هنا - في طريق الحق - الفجوات والفواصل كلها، بين البحث عنه ونشدانه، وبين الوصول إليه وإدراكه .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧ ﴾

خَتَمَ الله: طبع الله .

وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ : انصرفوا إليهم وانفردوا بهم.

وَيَمُدُّهُم: يزيدهم أو يميلهم .

طُغْيَانِهِمْ: مجاوزاتهم الحد وغلوهم في الكفر.

يَعْمَهُون: يعمون عن الرشد أو يتحيرون .

إن أحداً منا، لو أغمض عينيه لا يبصر الشمس وهي طالعة في كبد السماء، كما أنه لو حشا أذنيه قطناً، لا يسمع شيئاً مما يرتفع في الخارج من صوتٍ ونداءٍ، هكذا هو الحال بالنسبة إلى دعوة الحق، إن دعوة الحق مهما كانت صريحةً وواضحةً في حد ذاتها، إنها لا تكاد تكون مفهومةً، أو تحظى بالقبول عند أحدٍ من الناس، إلا إذا فتح لها أبواب قلبه، فإن من أغلق أبواب قلبه، لا يُحرك سواكنه نداء الله الصامت، المتفجر من أرجاء الوجود كله، ولا عملية الإعلام والإنذار، التي يقوم بها الرسول المبلغ عن الله عليه الصلاة والسلام.

إن دعوة الحق حينما تقوم بصورتها النقية الخالصة من كل شوبٍ تكون قائمةً على أمتن أساسٍ من الحقيقة والأصالة، وعلى أبلغ ما يكون من الانسجام مع الفطرة الإنسانية، الأمر الذي لا يمكن معه أن يتعذر على أحدٍ إدراك كنهها، وفهم نوعيتها، إذْ ما من أحد يُقبِل عليها بذهنٍ مفتوحٍ، ويتأمل فيها بنظرةٍ موضوعيةٍ وطويةٍ فطريةٍ، إلا وجد قلبه مشدوداً إلى الاعتراف بأنها عين الحق ، ولكن الدعوة عندئذٍ تقف أمامها عقبة كأداء تعوقها عن الحركة، تتمثل في الهيكل الاجتماعي السائد حولها ، والذي يتشكل مستمداً عناصر تكوينه الخاصة من رواسب القرون المتطاولة ، وفي ظل هذا الهيكل تتكون مناصب ورتب دينية أو غير دينية، يحتلها عدد من أفراد المجتمع، يتمتعون بسلطانٍ أي سلطانٍ ، كما تنتشر صور من العزة والشهرة، يُعدّ المتمتعون بها أعاظم رجال العصر، وكذلك تنشأ وتروج ألوان من الحرف والصناعات، وأساليب لكسب المنافع والمصالح تسمح لعددٍ غير قليلٍ من الناس، أن يعيشوا حياةَ أمنٍ ورخاءٍ .

وفي مثل هذه الظروف والملابسات – التي وصفناها آنفاً – عندما يقيم الله عبداً من

عباده، من إحدى النواحي المغمورة مبلغاً عنه وداعيةً إلى مرضاته، يصبح مصدر قلق عظيم لأمثال أولئك الناس؛ إذْ يبدو لهم أنه سيكدّر صفو حياتهم ، ويقضي على كيانهم!

وثمة شيئان ربما يتسببان في الحيلولة بينهم وبين أن يفهموا رسالة الحق - بالرغم من كل ما تتمتع به من الصدق والأصالة - فهماً صحيحاً ، أولهما : «الكبر والخيلاء»، والثاني: «حب الدنيا والانغماس في لذاتها» ، إن الذين يشغلون مناصب عليا ويتولون مراكز مرموقة في الهيكل الاجتماعي السائد، يعدّون نوعاً من الانتقاص من شأنهم أن يؤمنوا بـ «رجلٍ صغيرٍ أو ضئيل الشأن» ؛ ويستتبع هذا الشعور إثارة نفسية العُجب في دخائل نفوسهم، مما يؤدي بهم إلى اتخاذ موقف الاستخفاف والازدراء تجاه شخصية الداعي، وبالتالي إنكار دعوته ورفضها رفضاً باتاً ، وكذلك المنافع الدنيوية هي الأخرى تقف بمثابة حجر عثرةٍ دون قبول الحق، وتلك هي الحالة الحاجزة عن اعتناق الحق، التي عُبر عنها في القرآن بـ «الختم على القلوب» وهي تتمثل في الذين يعُدّون موضوع دعوة الحق مما لا يؤبه له ، ولا يأخذونه مأخذ الجد، وفي الذين استشرى في نفوسهم داء العُجب والاستكبار، واستعبدتهم الشهوات وزينة الحياة الدنيا، فإن أذهانهم تندمج - تلقائياً - تحت حجبٍ كثافٍ تتراكم عليها بشكل غير ملموسٍ، والتي بدورها لا تسمح بأن يجد نورُ الحق مدخلاً أو طريقاً للنفوذ إلى أذهان هؤلاء ، إن الإنسان إذا ما تحركت في داخله نفسية العناد بالنسبة لأمرٍ ما، واستحكمت حلقاتها، بحكم الامتداد الزمني، فإنه يكاد يكون من المستحيل عليه أن يفهم أو يقتنع بمعقولية ذلك الأمر، مهما تضافرت الأدلة القوية الواضحة على التأكيد بصحته وصدقه.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ

ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟
أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ
مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

خَتَمَ اللهُ: طبع الله.

وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ: انصرفوا اليهم وانفردوا بهم.

وَيَمُدُّهُم: يزيدهم أو يميلهم .

طُغْيَانِهِمْ: مجاوزاتهم الحد وغلوهم في الكفر.

يَعْمَهُون: يعمون عن الرشد أو يتحيرون .

إن الذين تسيطر عليهم المصالح المادية في الحياة، ولا يهمهم شيء سواها، يعدّون الرجل من السفاهة بمكان؛ إذا هو نذر وجوده كله في سبيل خدمة الحق، على أن أمثال هؤلاء لا يكونون مخلصين – في حقيقة الأمر – إلا لمنافعهم الدُنيَوية العاجلة، غير أنهم – مع ذلك – قد يقيمون علاقةً ظاهريةً بالحق أيضاً، ويعدون هذا عقلاً وحصافةً؛ ظناً منهم أنهم يتمكنون – عن هذا الطريق – من الحفاظ على حظوظهم الدنيوية، وقد يمكنهم – علاوةً على ذلك – أن يحصلوا على وسام شرفٍ لخدمة الحق أيضاً .. إلا أن هذا نوع من الخداع للنفس ، إذ إن كل زمن يقضونه يكشف عن اتساع الفجوة بينهم وبين «الدين الحق»؛ وزيادة اقترابهم من «الدين النفعي» ، الذي يدينون به، وهكذا يتراكم مرضهم النفاقي يوماً بعد يوم .. وعندما يرى هؤلاء المسلمين الصادقين في إسلامهم، يُخيل إليهم أنهم إنما يُلقون بأنفسهم إلى التهلكة والضياع، حيث – طبقاً لرؤيتهم النفعية المادية البحتة – لا داعي لمثل هذا التفاني والفداء، ولا طائل تحته،

وبالمقابل هم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وأنهم قد اتخذوا من الأمر موقف البناء والإصلاح، وذلك لأنهم يبدو لهم أن هذا الموقف المزدوج الذي تبنَوه من شأنه أن يمكن المرء من استكمال مسيرته بكامل الهدوء وتمام النجاح، وبدون أن يستعدي أحداً من الناس ضدّه، أو أن يتورط في نزاعٍ ما مع الآخرين ، ولكن ذلك ليس إلا لقلة الوعي وانحطاط في مستوى الشعور، إذ لو فكَّر هؤلاء في القضية بعمقٍ، وأمعنوا النظر فيها لتبين لهم أن «الإصلاح» حقيقةً، إنما يتمثل في أن يصير الناس كلهم عباداً لله وحده، مخلصين له الدين كله، وعلى العكس من ذلك، فإن عملية «الإفساد» تتمثل في وضع العقبات والعراقيل في طريق الحركة التي أقيمت من أجل تصحيح صلة العباد بالله رب العالمين ، إن تجارتهم هذه - حقيقةً - تجارة بائرة، وليست رابحة كما تبدو في ظاهر أمرها، ذاك لأنهم يتركون «الحق الخالص الأصيل» ويكسبون «الحق الزائف والمغشوش»، الذي لن يغني عن أحدٍ شيئاً ، إن اتخاذ الإنسان موقفاً غايةً في الحذر واليقظة، تجاه ما يتعلق بأموره الدنيوية، وبالمقابل اكتفاءه بآمالٍ عفويةٍ وتوقعاتٍ عابرةٍ سريعةٍ بالنسبة إلى قضايا الآخرة؛ بمثابة افتراء الكذب على الله تعالى، والذين يفعلون ذلك، سوف يعلمون أن الحياة الكاذبة الخادعة هذه ستجعلهم يستحقون عند الله عذاباً أليماً، وليس أي شيءٍ سواه .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

مَثَلُهُمْ: حالهم العجيبة . أو صفتهم .

اسْتَوْقَدَ نَارا: أوقدوها .

بُكْم: خرس عن النطق بالحق.

كَصَيِّب: الصيب : المطر النازل أو السحاب .

يَخْطَفُ أَبْصَارَهُم: يستلبها ويذهب بها بسرعة .

قَامُوا: وقفوا وثبتوا في أماكنهم متحيرين .

إذا نحن دخلنا حجرةً مظلمةً،وفيها من الأشياء ما هو أبيض اللون،وما هو أسود اللون، فما دام الظلام سائداً لا يمكننا التمييز بين أسود الأشياء وأبيضها، ولكن ما هي إلا أن نشعل المصباح حتى يتبين لنا الشيء الأسود من الشيء الأبيض من دونما لبسٍ واشتباهٍ، هذا هو الحال بالنسبة للدعوة التي يبعث بها الله أنبياءه، بحيث إنها تمثل إشراقة النور الإلهي الذي ينبثق لكي يمزق الستائر الكثيفة المسدولة على الهداية والضلالة، وبالتالي يتضح - في ضوئه - ما هو العمل الصالح، المطلوب فعله، وما جزاؤه، وما العمل السيئ ، المطلوب تركه، وما هو عقابه؛ كل ذلك يتضح اتضاحاً جلياً لا غموض فيه ولا خفاء .. إلا أن الذين كانوا قبلئذٍ، قد أخضعوا الحق لأهوائهم، بدلاً من أن يجعلوا من أنفسهم أتباعاً للحق، يفاجأون بهلعٍ واضطرابٍ من هذا الوضع المنقلب، ويتحرك ما قد استكن في دخائلهم من الحقد والحسد، والكبر والخيلاء، ويحدق بهم من كل جانبٍ، وما إن ينظروا إلى وجوههم في «المرآة الإلهية» حتى تنعكس عليها ما يكمن في صدورهم من نفسيّاتٍ سلبيةٍ، وتبلغ عصبياتهم الداخلية من السيطرة والاستحواذ على مداركهم مبلغاً كبيراً - بالرغم مما يتمتعون به من الأعين والآذان والألسنة - فيصير حالهم وكأنهم عمي، وصم، وبكم؛ إذن فهم لا يستطيعون أن يسمعوا نداءً لأي مناد، ولا أن يستجيبوا لندائه، كما لا يمكنهم أن يهتدوا بأي نوعٍ من الآيات والمعالم التي تهدي إلى صراط الحق؛ مهما كانت تلك المعالم جليةً وبينةً في حد ذاتها، ولقد كان من الجدير بهم أن يأخذوا أنفسهم بتدبر النداء ، ويتأملوا فيه، ولكنهم - بدلاً من ذلك -

حاولوا الفرار والتخلص منه، عن طريق عدم الإصغاء إليه ألبتة، واتخاذ موقف اللا مبالاة نحوه، وعدم إعارته أهمية تُذكر .

وكذلك ثمة نفسية أخرى، ربما تحول دون اعتناق الحق، وهي نفسية الخوف ، إن المطر نعمة من الله جد عظيمةٍ ، ولكن المطر إذ ينزل يحمل معه - طبعاً - صاعقة الرعد وخطفة البرق أيضاً، ما يجعل الجبناء وضعفاء القلوب من الناس تشخص أبصارهم وترتعد فرائصهم خوفاً وفزعاً منه، وهكذا فإن دعوة الحق حين تقوم من قِبَل الله تعالى، فإنها إذ تفتح - من جهةٍ - إمكانياتٍ عظيمةً لسعادة الناس وفلاحهم في كل مجالٍ من مجالات الحياة، فهي - من جهةٍ أخرى - تنطوي أيضاً على مخاطر مؤقتةٍ؛ منها - على سبيل المثال لا الحصر - أن الانضمام إلى الدعوة يستتبع ضرورة القضاء على الأنانية والاستبداد، كما ويستلزم إلغاء خريطة الحياة الجاهزة، ويطالب بإعادة صياغتها على أسسٍ جديدةٍ، ويدعو إلى المواجهة والصمود أمام وطأة مسائل ومشكلاتٍ حادةٍ، تتمخض عن الاصطدام بالبنيان التقليدي السائد، والتركيز على الحقائق الصادقة، مكان الاعتماد على الآمال والأماني الكاذبة، فيما يتصل بقضية الآخرة هذه وأمثالها، مما يجعلهم يُحجمون تارةً، ويتقدمون بعض الخطوات تارةً أخرى،ولكن مع شيءٍ كثيرٍ من الحذر والتذبذب ، غير أن هذه الخطوات المصحوبة بالحذر والاحتياط لن تغني عنهم شيئاً ، فإنهم بنكوصهم عن النداء الإلهي، وعدم تلبيته عن رضا قلبيٍ وطواعيةٍ داخليةٍ، إنما يجعلون أنفسهم يستحقون العذاب الشديد عند الله تعالى .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا

ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

الأَرْضَ فِرَاشاً: بساطا ووطاء للاستقرار عليها.

أَندَاداً: أمثالاً من الأوثان تعبدونها .

وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم: أحضروا آلهتكم أو نصراءكم .

مُتَشَابِهاً: في اللون والمنظر لا في الطعم .

إن الله هو خالق الإنسان، وهو وحده خالق لجميع ما في السموات وما في الأرض، ولقد أوجد الحق سبحانه وتعالى هذا الكون كله بغايةٍ من الحكمة، وسيّره على نظامٍ متناهٍ في الإحكام والإتقان، ثم هو لم يزل قائماً على تدبير أمره ورعاية شئونه كل حينٍ وآنٍ ، ولذا فإن الموقف الوحيد الذي ينبغي أن يتخذه الإنسان نحو وجود الله، هو أن يؤمن ويرضى به خالقاً، ومالكاً، ورازقاً، ولا يشرك به شيئاً، وأن يجعل الله غاية ما يبغيه ويطمح إليه في الحياة، حتى يكون الله عنده بمثابة كل شيءٍ، ولكن بما أن الله عز وجل لا تدركه الأبصار، فإن الإنسان قد يخدعه بريق شيءٍ من الأشياء المشاهَدة المحسوسة فيأخذ عليه منافذ الإدراك ، لدرجة أنه يرفعه إلى مقام «الألوهية»، ويتخذ من أحد المخلوقات نداً لله بصفةٍ جزئيةٍ أو كليةٍ، مع إطلاق اسم الإله عليه أحياناً، أو بدون أن يُسميه باسم الإله أحياناً أخرى.

وتلك هي ظاهرة انحراف الإنسان وضلاله الجذري في كل العصور والأزمنة، وإن رسالة النبي المرسل من عند الله تتمثل في دعوة الإنسان إلى أن يتخلى عن كل شيءٍ أو شخصٍ رفعه إلى درجة العظمة الإلهية، وتوجيهه إلى أن يُفرد الله الواحد الأحد بكل

صفات العظمة والكبرياء والجبروت ليس إلا، إن قيام الدعوة لتوجيه البشر إلى التوحيد الخالص وإخلاص العبادة والعبودية لله وحده، يكون دائماً شديد الوطأة على أولئك الذين علقت قلوبهم بغير الله فاتخذوهم آلهة ، وإن علاقة أمثال هؤلاء الناس بآلهتهم المصطنعة (المزعومة)، بما تكون قد بلغت من التأصل والاستشراء في أعماقهم لدرجة أنهم لا يستطيعون الانفكاك عن أسرها، فمن أجل ذلك لا يستطيعون أن يستيقنوا أن هذه الآلهة كلها باطلة، وليست على شيء من الحقيقة، وأن رصيد الحقيقة كله، إنما تتمتع به تلك الرسالة الإلهية التي يتم إعلانها على لسان من اختاره الله لهذه الرسالة .

إن هذه الرسالة الإلهية،هي في صميمها ذات شأنٍ ؛ إذ إن ما تتميز به من الأسلوب المعجز؛غير القابل للتقليد والمحاكاة،وما تستند إليه من البراهين والأدلة القاطعة التي لا تُدحض،كل ذلك يدل دلالة صارخةً على أن مصدرها هو الله تبارك وتعالى،وبالتالي فإن الذين جحدوا بها - بالرغم من ذلك كله - ليس لهم أن يجدوا في كون الله غير جهنم ملجأ ومستقرا ، أما الذين أدركوا كلام الله وآمنوا به،فكأنهم قد استطاعوا مشاهدة عالم الغد في عالم اليوم،وأولئك هم الذين يدخلون جنات الفردوس في الآخرة،وهم فيها خالدون .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا
مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ
يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ
وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾

اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء: قصد إلى خلقها بإرادته قصدا سويا بلا صارف عنه .

فَسَوَّاهُن: أتمهن وقومهن وأحكمهن .

إن أول ما يجب على العبد - أي عبدٍ - نحو الله ربه، هو أن يأخذ نفسه بإيفاء ((عهد العبودية)) ؛ ذلك الذي تم التعاقد عليه بين الخالق والمخلوق منذ بدء الخليقة، ثم عليه ثانياً، أن يكون في حياته مع الآخرين من بني جنسه، محافظاً على الروابط التي أمر الله بها أن توصل وتُقوى، والواجب الثالث هو أن يناصر رسالة الحق، فيما إذا بعث الله بها أحد عباده، وكلفه بتبليغها للناس كافةً، أو - على أقل تقدير - عليه ألا يُعرقل مسيرتها عن طريق تنفير الناس منها؛ متخذاً أساليب التمويه وإثارة الشبهات ضدها، وما إلى ذلك، إذ إن الدعوة إلى الحق، هي في حقيقة أمرها، محاولة تتوخى إعادة الناس إلى الوضع الفطري السليم الذي فطرهم الله عليه ، ولذا فإن الشخص الذي يصّد الناس عنها فإنما يرتكب جريمة الإفساد والتخريب في الأرض .

إن فضل الله المتمثل في إخراج الإنسان من العدم إلى حيز الوجود، لهو فضل كبير لدرجة أنه لا يسع الإنسان ولا ينبغي له بإزائه إلا أن يلقي بتمام وجوده بين يدي الله، ثم إن الله سبحانه وتعالى - مع ذلك - لم يقف من شأن الإنسان - بعد أن خلقه - موقف الإهمال ، بل اهتم به أيما اهتمامٍ ؛ حيث أسكنه على أرضٍ كانت قد صُنعت على وجهٍ أقصى ما يكون من التلاؤم مع حاجاته ومقتضيات حياته، ثم إن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد، بل يتجاوزه إلى ما هو أبعد من ذلك بكثيرٍ؛ إن أخطر الأمور وأشدها حساسيةً بالنسبة للإنسان هو كونُه في كل لحظةٍ على شفا حفرة الموت؛ إذْ هو لا يدري ألبتة متى ستُفاجئه منيتُه، وبالتالي سوف يقف أمام مالك الكون كله، ليحاسبه على ما أتى في حياته الدنيا من عملٍ، إن هذا كله يقتضي أن يعيش الإنسان على أساس ذكره

تعالى الدائم وطاعته المستمرة لله، وأن يظل عبداً خاضعاً مطيعاً له سبحانه طيلة حياته.

وثمة سؤال يفرض نفسه وهو: ما الذي يدفع الكثيرين من الناس إلى رفض «الدعوة النبوية»، بحيث إنهم لا يكادون يقبلونها؛ بالرغم من كونها غايةً في الوضوح والإقناع، ومدعمةً بدلائل قاطعةٍ لا تدحض ؟! إن السبب الأكبر في ذلك هو «نزعة الجدال بالباطل القائم على تمحل النقائص دونما مبرر»، إن المرء إذا كان يفتقد روح الاعتبار والتذكر، ويعوزه السداد الفكري، فإنه لا يأخذ أي شيءٍ بمأخذٍ جدّي، حيث إن شخصاً كهذا، إذا ما عُرض عليه أيّ دليلٍ أو برهانٍ يثبت أحقية الدعوة، فإنه لا يلبث أن يزعم أن هذه الدعوة ليس من شأنها أن تدخل في حيز المعقول، حتى تستحق الإذعان والقبول ، إذ إنها لو كانت دعوةً معقولةً - على حد زعمه - لم تكن لتنطوي على سخافاتٍ وترهات من هذا النوع ، غير أن الذين يتمتعون بسداد الفكر والجدّية، والذين ينظرون إلى الأمور من وجهة نظر الاعتبار والتذكر، فلا يعوقهم أبداً أي عائقٍ عن معرفة الحق وقبوله ؛ وإن كان الحق قد جاءهم في صورة مثل بعوضةٍ فما فوقها.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

وَيَسْفِكُ الدِّمَاء: يريقها عدوانا وظلما .

نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ: ننزهك من كل سوء مثنين عليك.

وَنُقَدِّسُ لَكَ: نمجدك ونطهر ذكرك عما لا يليق بعظمتك .

« الخليفة » في اللغة: هو من يخلف غيره أو ينوب عنه، وقد شاع إطلاق هذا اللفظ على الحكام والسلاطين، الذين كانوا يجلسون على كرسي الحكم على التوالي؛ الواحد تلو الآخر، ومن هنا، فقد صار لفظ الخليفة - من حيث المفهوم الاستعمالي الشائع - مرادفاً لمن يتمتع بالسلطة والسيادة إطلاقاً .

إن الله عز وجل، حين خلق الإنسان؛ قرر أيضاً أن يسكنه الأرض بوصفه كائناً يتمتع بالسلطة والسيادة، وحرية الإرادة والتصرف في ذاته وفي ما حوله؛ الأمر الذي جعل الملائكة يتساءلون حذراً مما ستسببه حرية الإنسان ، وما مُنح غيرَ ذلك من القدرات والصلاحيات، في انحرافه عن الجادة والخط المستقيم، وبالتالي سوف يتجه نحو الإفساد في الأرض، بدلاً من الإعمار، وإراقة الدماء بغير الحق، بدلاً من التمسك بالحق والعدل ؟! إن حذر الملائكة هذا لم يكن حذراً باطلاً، كما أن الله سبحانه وتعالى لم يكن على غير علمٍ بهذا الاحتمال ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك:١٤] ، ولكن الشيء الذي كان موضع عناية الله عز وجل؛ والذي لم يتفطن له الملائكة أول الأمر، هو أنه إنْ كان هناك كثيرون من بني الإنسان، من سيُسيئون استخدام حريتهم وقدرتهم؛ فيضلون وينحرفون عن الطريق السوي، فإنه سيكون هناك كذلك، عدد ملحوظ يشتمل على أولئك الأفراد الذين يعرفون أقدار أنفسهم ومقام ربهم حق المعرفة، ولا يحيدون عن سبيل الحق برغم حريتهم وقدراتهم على الانحراف، ويسلكون طوعاً وبإرادتهم الحُرة مسلك الطاعة لله، وتفويض الأمر كله إليه بدون أي ضغطٍ خارجي، بيد أن تعداد هذا الصنف الثاني من الناس يكون ضئيلاً نسبياً، إلاّ أن شأنهم يكون كشأن حبوب الزرع؛ إن ما تحمله سنابل الزرع من التبْن يكون مقداره دائماً أكبر بكثيرٍ مما تحمل من الحبوب، إلا أن الحبوب، رغم قلتها وضآلة مقدارها، تكون ثمينةً وذات قيمةٍ لدرجة أنه - من أجل الحصول عليها - يُفسح المجالُ لكميّاتٍ متراكمةٍ من التبن والخَشَب أيضاً لكي تنمو وتترعرع معها ..

وقد أحضر الله جل شأنه، بين يدي آدم، جميع أفراد ذريته جملةً واحدةً، ثم توجه سبحانه إلى الملائكة قائلاً : انظروا! هؤلاء بنو آدم ! فهل تخبرونني عن شأن كل فردٍ من هؤلاء على حدةٍ ؟ من هو ؟ أي ما اسمه ؟ وما هي صفاته وخصوصياته المميزة له عمن سواه ؟ وظل الملائكة عاجزين عن تقديم أيّ جوابٍ عن السؤال الموجه إليهم، لعدم معرفتهم بذلك ، وقد زوّد الله آدم بعلم أسمائهم كلها، أو بكلمةٍ أخرى، أَطْلَعَه على شخصياتهم ومزايا ذواتهم، ثم قال له أن يقوم بتعريفهم إلى الملائكة، وعندما عرّف آدم بهم جميعاً، علموا أنه مع كون ذريّة آدم، مشتملةً على المجرمين والمفسدين في الأرض، فإنها سيكون فيها أنبياء ورسل كرام، وأناس أتقياء صالحون؛ يستحقون عند الله درجاتٍ عاليةٍ وجنات النعيم ... إلخ.

إن أكبر جريمةٍ يرتكبها الإنسان، بعد الكفر والجحود برب العالمين، هو إثارة الفساد في الأرض، وإراقة الدماء بغير الحق، والشأن أنه لا يحل لأي فردٍ أو جماعةٍ أبداً، أن تقوم بفعل شيءٍ يؤدي إلى زعزعة النظام الفطري الذي قرره الله تعالى في الأرض، حيث يقتل الإنسان أخاه الإنسان، إن أيما فعلٍ من هذا القبيل يستثير الغضب الإلهي، ويُبعد الإنسان من رحمة الله تعالى ، إن الحفاظ على النظام المقرر من قِبل الله تعالى، واستمراره في الأرض هو إصلاحها، وأما الإخلال بنظام الأرض الفطري فهو الإفساد فيها .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ

هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

اسْجُدُوا لِآدَمَ: أخضعوا له أو سجود تحية وتعظيم .

رَغَدا: أكلاً واسعًا أو هنيئًا لا عناء فيه .

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ: أذهبهما وأبعدهما .

لقد أقام الله آدم بين يدي الملائكة وإبليس، ومن خلال امتحان السجدة؛ نبّهه تنبيهاً عملياً بما سيدور عليه سلوكه في الحياة الأرضية، وهو سلوك متجه في أحد الطريقين المتقابلين: الأول هو طريق الاستسلام المطلق لأمر الله تعالى كالملائكة ؛ وإن كان ذلك الاستسلام بمعناه العملي يعني إخضاعه نفسه أمام عبدٍ هو دونه رتبةً ومنزلةً، والثاني هو طريق إبليس المتمثل في التعالي والترفع عن الاعتراف والخضوع للغير ، إن حياة الإنسان بأكملها، إنما هي معترك هذا الامتحان، بحيث إن الإنسان في هذه الحياة، يتحتم عليه دائماً أن يتخذ خلال التعامل مع الآخرين أحد الموقفين، ولا ثالث لهما:

أولهما : ((الموقف الملائكي)) وهو أن يأخذ الإنسان نفسه بالخضوع التام أمام مقتضى الحق والعدل في كل شأنٍ من شئون الحياة الدنيا، طاعةً لله ربه؛ وامتثالاً لأمره.

والآخر : هو ((الموقف الشيطاني)) وذلك يعني أن الإنسان إذا ما عرض له أمر من الأمور؛ فيقع تحت سيطرة الحقد والحسد، وتنبعث في داخله نفسية الكبر والاغترار، مما يؤدي به إلى مجانبة الصواب، فلا يعترف بما لغيره من الحق عليه، ولا يذعن إلى ما يفرض عليه العدل والإنصاف .

وإن قضية ((الشجرة المحظورة)) هي الأخرى تمثل درساً عملياً في هذا السياق؛ فهي تفيدنا أن مبدأ انحراف الإنسان هو أن يكون قد تأثر بما يوسوس له الشيطان، وبالتالي يتخطى تلك الحدود التي قد نهى الله تعالى عن تخطيها، وإنه ما إن تمتدّ يدُ الإنسان إلى

تناول «الثمرة المنهي عن أكلها» حتى يُحرم هو من نُصرة الله، وبعبارةٍ أخرى يفتقد استحقاق الجنة، غير أن هذا الحرمان ليس حرماناً نهائياً بحيث إذا وقع مرةً فلا يمكن بعد ذلك استدراكه وتلافيه، إذ إن فرصة التوبة لا تزال مفتوحة أمام الإنسان، ولذا فعليه أن يعود إلى ربه ثانياً؛ سائلاً عفوه، راجياً رحمته، مصححاً مسار حياته وسلوكه، مؤكداً العزم على الثبات والاستقامة، وعدم الانحراف عن الجادة، وإن العبد حين يتوجه إلى ربه تائباً كهذه التوبة، فإن الله تعالى أيضاً يتوب عليه، أي يقبل توبته، ويطهره من دنس الذنوب تطهيراً كأن لم يكن قد ارتكب ذنباً.

إن قيام الدعوة إلى الله في أي بقعةٍ من بقاع المعمورة، هو امتحان عسير من هذا النوع، كما أن الداعية إلى الحق يكون بمثابة «آدم» بالنسبة لمخاطَبِه، ومن هنا، فليس للناس أن يتخذوا نحوه أي موقفٍ غير الخضوع والاستسلام له، والإذعان العملي إلى ما يدعو إليه، وأما إذا لم يسمح لهم كبرهم وغرورهم بأن يعترفوا به، ولم تتسع صدورهم لقبول دعوته، فكأنهم سلكوا مسلك الشيطان، إن الله جلّ وعلا لا يظهر للناس في هذه الدنيا عياناً وجهرةً، إنما هو يختبر الناس من خلال آياته، إذن فإن من وجد الله في آية الله، فقد وجد الله حقاً، ومن لم يجد الله في آية الله فقد حُرم من الله.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

إِسْرَائِيل: لقب يعقوب عليه السلام.

فَارْهَبُون: فخافون في نقضكم العهد.

وَلاَ تَلْبِسُوا: لا تخلطوا ، أو لا تستروا .

بِالْبِر: بالتوسع في الخير.

وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ: لشاقة ثقيلة صعبة .

الْخَاشِعِينَ: المتواضعين المستكينين .

يَظُنُّونَ: يعلمون ويستيقنون .

أعظم ما يُنعم به الله على أي شعبٍ من الشعوب؛ هو أن يبعث إليه رسوله، ويوحي إليه ما يوضح لذلك الشعب الطريق المفضي به إلى الفلاح الأبدي والسعادة السرمدية، ولقد كان بنو إسرائيل (الشعب اليهودي) هم الّذين يحملون هذه المنة الإلهية قبل بعثة النبي الخاتم - عليه الصلاة والسلام - غير أن دينهم لم يعد يحظى لديهم بمكانته الأصلية على مرّ الزمن، حيث كان قد تحول - في نهاية الأمر - إلى شيءٍ أشبه ما يكون بطقسٍ أو رسمٍ تقليديٍ، يتوارثونه خلفاً عن سلفٍ؛ وليس شيئاً يختاره الإنسان بناءً على قرارٍ شعوريٍ، وإرادةٍ حيةٍ واعيةٍ، وما أن ظهر النبي العربي - عليه الصلاة والسلام - حتى انكشف النقاب عن الحقيقة؛ فالذين كانوا منهم يمتلكون روحاً لا تزال تشع الصفاء، وشعوراً لا يزال ينبض بالحياة، ما لبثوا أن عرفوا صدقه - عليه الصلاة والسلام - فصدقوا به، وبادَروا بالانضواء تحت لوائه، وأما الذين كان الدين المتوارث عن الآباء قد صار عندهم بمثابة رسمٍ تقليديٍ فإنهم أنكروا صوت النبي - عليه الصلاة والسلام - وأمعنوا في الإنكار، وبالتالي رفضوا دعوته رفضاً باتاً، واتخذوا جبهة المعارضة ضده .

ومع إن « التوراة » كانت تتضمن آياتٍ بينات بشأن نبوته - عليه الصلاة والسلام ؛

ما كانت تبلغ من الوضوح والصراحة درجة أنه لم يكن معها أمر الاقتناع والتأكد من صدقه وحقيقة رسالته - عليه الصلاة والسلام - أمراً متعذراً على اليهود، ولكنّ الخوف من فوات المصالح والمنافع الدنيوية التي كانوا يجنونها لأنفسهم، هو الذي حال دون اعترافهم برسالته وتلبية دعوته - عليه الصلاة والسلام - بحيث إنهم كانوا من قبل، يتولون الرئاسة في ظل الهيكل الديني القائم، الذي كان قد تكون لديهم بفعل القرون المتطاولة، كما إنهم كانوا قد أصبحوا مرجع الدهماء من الناس، لتربّعهم على مقاعد الشيوخ والعظماء، وكانت تنهال عليهم صنوف من الهدايا والنذور في المناسَبات الدينية طوال السنة، ومن هنا فقد خُيِّل إليهم أنهم إن صدقوا برسالة النبي العربي - عليه الصلاة والسلام- فإن سيادتهم الدينية سوف تكون أثراً بعد عينٍ، وأن بنيان منافعهم سينهار ، وبما أن اليهود كانوا إذ ذاك يحتلون مركز التمثيل الديني (الزّعامة الدينية) في الجزيرة العربية، فإن الناس بطبيعة الحال كانوا يسألونهم عن النبي العربي - عليه الصلاة والسلام، فهم - في نظرهم السند فيما يتصل بموضوع الوحي السماوي، ولقد كان اليهود يقتنصون مثل هذه الفرص بخبثٍ ودهاءٍ بالغَين، لترويج شيءٍ من الأباطيل والمفتريات التي تجعل شخصية الرسول ودعوته مثار الجدل والارتياب عند الناس، ومن المفارقات أنهم في أثناء حديثهم إلى الناس كانوا ينصحونهم قائلين: أنِ اتّبِعُوا الحق، وكونوا أنصار الحق ... إلخ . ولكن عندما اقتضى الأمر أن يأخذوا هم أنفسهم فعلاً باتباع الحق ونصرته، لم يستطيعوا ، فلم يتبعوا الحق ولم ينصروه.

وإن أمر التلبية لنداء الله تعالى؛ إذ يكون بحيث يفرض على الإنسان حتمية القيام بتغييرٍ جذريٍ لخريطة حياته، ويستلزمه أن ينزل بذات نفسه عن مقاعد الشرف والوجاهة، فإن الأمر عند ذلك ليتخذ شكلاً رهيباً ومقلقاً جداً بالنسبة لأولئك الذين لم ينالوا ما نالوا من السمعة والمكانة الدينية إلا في إطار هذه المظاهر الدنيوية البراقة، ولكن الذين يمارسون حياتهم على أساسٍ من الخشوع، فإن بَريق مثل هذه الأشياء والظواهر لا يشكل لهم أيما عائقٍ أو صعوبةٍ ذات بالٍ، ذلك أنهم يجدون في ذكر الله،

والإنفاق في سبيل الله، وفي الاستسلام لأمر الله، والصبر لله؛ يجدون في ذلك كله خير بديلٍ لما يجده الآخرون من الناس في زخارف الدنيا ومُغرياتها، فإنهم يدركون جيداً أن الشيء الذي ينبغي أن نحسب له ألف حساب، وأن نخافه كل الخوف، إنما هو غضبٌ الله تعالى، وليس مخاوف هذه الدنيا الفانية.

﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ
﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ
مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ
ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ
﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ
وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ
عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم
بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ
فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ
نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ
مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ
وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ
﴿٥٧﴾ ﴾

العَالَمِينَ: عالمي زمانكم .

لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ: لا تقضي ولا تؤدي نفس .

عَدْل: فدية .

يَسُومُونَكُم: يكلفونكم ويذيقونكم .

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُم: يستبقون بناتكم للخدمة .

بَلاَء: اختبار وامتحان بالنعم والنقم .

فَرَقْنَا: فصلنا وشققنا .

اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ: جعلتموه إلها معبودا.

وَالْفُرْقَان: الشرع الفارق بين الحلال والحرام .

بَارِئِكُم: مبدعكم ومحدثكم .

فَاقْتُلُواْ أَنْفُسَكُمْ: فليقتل البرىء منكم المجرم .

جَهْرَةً: عيانا بالبصر .

الْغَمَامَ: السحاب الأبيض الرقيق .

الْمنَ: مادة صمغية حلوة كالعسل .

وَالسَّلْوَى: الطائر المعروف بالسماني .

إن الله تعالى كان قد فضل اليهود على العالمين جميعاً؛ أي أنه تعالى كان قد اختارهم لحمل أمانته الخاصة التي تتمثل في الوحي السماوي، وإيصاله إلى من دونهم من الأمم والشعوب، ثم أفاض الله عليهم نعمه، نظراً لضخامة المسئولية الملقاة على عواتقهم، وكتأهيلهم لتأديتها خير أداءٍ، وقد وفَّر لهم كثيراً من الإمكانيات وتفضل بالعفو عن الخطايا والزّلاّت التي وقعوا فيها كثيرا، وأيَّدهم بنصرةٍ منه غير عاديةٍ في ظروفٍ وملابساتٍ غير عاديةٍ، و « إعطاءهم الخبزَ من الربّ ليأكلوا » (سفر الخروج: ١٦/ ١٥)، وما إلى ذلك، ولقد تسبّب هذا كله في تكوين نظرة خاطئة لدى أجيال

اليهود القادمة فيما بعد، تتمثل قولهم : «إننا شعب الله المختار، وأن نجاحنا في الآخرة مضمون لنا مسبقاً» ولكن هذه المزايا لا يتسنىّ استحقاقها لأحدٍ وراثياً، إذ إنها لا تكون مبنية على مجرد الانتماء إلى سلالةٍ أو عرقٍ بعينه، إن مصائر الأفراد اللاحقين لشعبٍ من الشعوب لا يتم تقريرها أبداً على أساس أسلافهم السابقين، بل على أساس كل فردٍ على حدةٍ ﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور:٢١] ، إن يوم الدينونة والعدل الإلهي سيكون يوماً قاسياً وشديداً لدرجة أنه لن يغني عن أحدٍ شيءٌ سوى عمله الذّاتي .

والتديّن الحقيقي : أن يخضع الإنسان في عبادته لله وحده؛ ويعبده لا يشرك في عبادته أحداً،وأن يؤمن بوجود الله الذي لا تدركه الأبصار بالغيب،حيث لا يشترط لإيمانه رؤية الله جهرةً وعلانيةً ، وأن يمارس حياته على أساسٍ من التقوى والخشية من حساب الآخرة؛ فيتقوت ويقضي حاجات حياته الأُخرى عن طريق الكسب الحلال،ويمنع أهله ومَن هم تحت رعايته وسلطته عن إتيان المنكر وسلوك طريق الإجرام والمعصية .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

رَغَدا: أكلا واسعا هنيئا لا عناء فيه.

وَقُولُوا حِطَّةٌ: قولوا : مسألتنا ياربنا أن تحط عنا خطايانا .

رِجْزا: عذابا ، قيل هو الطاعون .

فَانفَجَرَت: فانشقت وسالت بكثرة.

مَشْرَبَهُم: موضع شربهم .

وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ: لا تفسدوا فيها .

مُفْسِدِين: متمادين في الفساد .

وَفُومِهَا: هو الحنطة ، أو الثوم.

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِم: أحاطت بهم أو التصقت بهم .

الذِّلَّةُ: الذل والصغار والهوان.

وَالمسْكَنَة: فقر النفس وشحها.

وَبَاءُوا بِغَضَبٍ: رجعوا به مستحقين له .

اختص الله اليهود بنعمٍ وفيرةٍ لم يؤت مثلها أحداً من العالمين؛ الأمر الذي كان -بطبيعة الحال- مستلزماً لأن يكونوا من عباد الله الشاكرين، ولكنهم أتوا بما هو عكس ذلك تماماً، فمن عظيم النعم الإلهية عليهم أن جُعلت بلدة كبيرة بحذافيرها تحت سيطرتهم، وقيل لهم ألا يدخلوها متكبرين، بل خاضعين لله تواضعاً، ومستغفرين إياه لذنوبهم، ولكنهم أخذوا - بدلاً من ذلك - يرددون كلماتٍ فكاهيةً ساخرةً، كما أُعِدّت لهم أغذية فطرية تتمثل في المن والسلوى؛ كي يستطيعوا الحصول على أكبر قدرٍ ممكنٍ من

الوقت الفارغ للقيام بتنفيذ أحكام الله وامتثال أوامره تعالى ، ولكنهم بدؤوا يطالبون بتوفير أنواع المآكل الشهية وصنوف الأطعمة المسبّكة ، إنهم لم يقنعوا من العيش بمقدار حاجتهم، بل اندفعوا اندفاعاً لاهثاً وراء البحث عن اللذات ، وانغمسوا في إشباع الشهوات ، وقد بلغوا من القسوة مبلغاً كبيرا لدرجة أن البينات هي الأخرى لم تعد تجدي شيئاً مع مشاعرهم المتبلدة وقلوبهم القاسية المتحجرة ، والأكثر دلالةً على مدى طغيانهم وجرأتهم على المعصية أن عباد الله الذين بُعثوا فيهم ليمنعوهم من غوايتهم، لم يلقوا إليهم أسماعهم؛ ازدراءً بشأنهم، ليس ذلك فقط، بل لقد تضايقوا بوجود المصلحين لدرجة أنهم قتلوهم بغير حق . والسؤال : ما الذي دفع اليهود إلى مثل هذا التمرد على أحكام الله ؟

إن مصدر ذلك في الحقيقة هو ظنهم القائل بأنهم شعب الله المختار؛ الناجي من كل مؤاخذةٍ أو تعذيبٍ على الإطلاق ، لكن القانون الإلهي متناهٍ في العدل ، حيث لا محاباة فيه لأحدٍ، وإن حكمه سيكون حكماً محايداً للغاية؛ حيث لا يميز بين يهوديٍ وغيره، وإن الجنة إنما يستحقها من يعمل عمل أهل الجنة ، وليس من ينتمي إلى هذه السلالة دون تلك ، أو يُعزى إلى هذا الشعب دون ذاك ، إن ممارسة الحياة الأرضية على أساسٍ من الشكر، والصبر، والتواضع، والقناعة، معناها إصلاح الأرض وتعميرها، وعلى النقيض من ذلك، فإن ظاهرة الجحود، والهلع، والتكبر، والشّح والجشع، معناها إثارة الفساد في الأرض وتخريبها؛ إذ إن ذلك كله لما يؤدي عاقبة الأمر إلى إحداث خللٍ واهتزازٍ في ذلك النظام الفطري الذي قرره الله تعالى، وهو يمثل اعتداء من الإنسان على الحدودَ التي رسمها الله له، على حين أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يتصرف كل إنسان في نطاق حدوده هو، ولا يتجاوز أحد دائرة حدوده الذاتية.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

هَادُوا: صاروا يهودا.

وَالصَّابِئِينَ: عبدة الملائكة أو الكواكب .

ذكرت الآية طوائف أربع:

أولاها: المسلمون ، الذين هم أتباع النبي محمدٍ ﷺ .

والثانية: فرقة اليهود التي تقول إنها على دين موسى – عليه الصلاة والسلام .

والثالثة : طائفة النصارى التي تقول : أنها أمة عيسى – عليه الصلاة والسلام .

والرابعة : هي فرقة الصابئين الذين يزعمون أنهم على دين نوحٍ – عليه الصلاة والسلام – والذين سكنوا في سالف القرون بالعراق ، وقيل إنهم كانوا أهل كتابٍ، يقرأون الزبور، ويصلون للقبلة، غير أن فرقة الصابئة قد انقرضت؛ وأصبحت الآن أثراً بعد عينٍ.

والأمر الجدير بالتسجيل في هذا المقام أن المسلمين – أي الأمة المحمدية – ورد ذكرهم في الآية ضمن أممٍ أخرى تنتمي إلى أنبياء آخرين في سياقٍ واحدٍ، ومن غير استثناءٍ أو تمييزٍ، وهذا التعميم إن دل على شيءٍ فإنما يدل على أن الجميع على أمة أو كتلة شعبية خاصة متساوون عند الله تعالى، وليس ثمة فارق جوهري يميز شعباً معيناً على شعبٍ آخر لمجرد تكوينه الشعبي؛ فهناك قانون تعتمد نجاة الجميع عليه ألا وهو الإيمان والعمل الصالح ؛ إذِ العبرة في ذلك – أي فيما يتصل بنيل الدرجات عند الله تعالى – القيام بصياغة الحياة العملية وممارستها وفق مشيئة الله عز وجل.

إن أتباع أيّ نبيّ عندما يتشكلون في الزمن المعاصر له، يتم تشكيلهم دائماً على ركائز صلبةٍ من الإيمان والعمل الصالح ، فعادةً ما يحدث إذ ذاك أن صوت النبي يعمل على إحداث ثورةٍ عقليةٍ وفكريةٍ في عددٍ قليلٍ أو كثيرٍ من الناس، وبالتالي تستيقظ في

نفوسهم إرادة جديدة، تؤدي بهم إلى القيام بتغييرٍ جذريٍ شاملٍ في حياتهم العملية، بحيث يتخذون من التعاليم الإلهية منهاجاً لمسيرة حياتهم التي كانت قبلئذٍ تسير على أساسٍ من الأهواء والرغبات الذاتية ، إن هؤلاء هم الذين يكونون « أمة النبي » في حقيقة الأمر، وهم الذين يُبشَّرون بنعيم الآخرة الأبدي !!

غير أن الوضع لا يلبث أن ينقلب في الأجيال التالية ، إذْ يتحول دين الله بالنسبة للأجيال التالية إلى شيءٍ أشبه ما يكون بتقليدٍ أو رسمٍ قوميٍ ، وأما البشائر التي كان قد تم إعلانها سابقاً على أساس الإيمان والعمل الصالح، فهي الأخرى يتغير مفهومها؛ بحيث تُعْتَبر الآن وكأنها حاصلة بمجرد العلاقة الشعبية أو الانتماء الطائفي ، وينتهي بهم الأمر إلى اعتقاد أن طائفتهم التي ينتمون إليها لها علاقة خاصة بالله، وأن الشخص الذي ينتمي إلى تلك الطائفة الخاصة، بغض النظر عن عقائده وأعماله لا بد أن يفوز بالخلاص الأخروي، وأن الجنة لا يستحقها إلا هو وطائفته وحدها، وأما جهنم فإنها هي للطوائف الأخرى .

غير أنه ليس هنالك أي شعبٍ من الشعوب يتمتع بأية علاقةٍ خاصةٍ بالله تعالى، فإن العبرة عند الله إنما هي بنوعية ما يؤمن به الإنسان من فكرٍ وما يأتيه من عملٍ لا غير، ومصير الإنسان في عالم الآخرة، إنما يتحدد على أساس سلوكه الحقيقي، وليس على أساس الانتماءات الشعبية .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

مِيثَاقَكُمْ: العهد عليكم بالعمل بها في التوراة.

خَاسِئِينَ: مُبعدين مطرودين صاغرين.

فَجَعَلْنَاهَا نَكَالا: عقوبة.

إن روايات ((الكتاب المقدس)) تقول: إنه لما أخذ الله العهد على بني إسرائيل في زمن موسى – عليه الصلاة والسلام – بامتثال أوامر الله تعالى كما ينبغي، قد رفع الله فوقهم الجبل إذ ذاك، وخاطبهم قائلاً: ((إما أن تقبلوا التوراة، وإلا فستُهلكون جميعا ها هنا)) (التلمود)، وهكذا الأمر بالنسبة لكل شخصٍ يؤمن بالله، إن الإيمان بالله يعني المرء قد أخذ على نفسه عهداً بأن حياته ومماته ستمضي وفق منهاج الله عز وجل، إن هذا العهد خطير للغاية؛ حيث إنه يتم التعاقد فيه بين طرفين، أحدهما العبد الذي هو في منتهى الضعف والقصور والعجز، وأما الطرف الآخر فهو الله العزيز الذي يملك كل طاقات السماء والأرض، وإن العبد إذا التزم فعلاً بكل مقتضيات هذا العهد، وأحسن الوفاء به، فقد استحق عند الله نعيماً خالداً لا يزول ولا يفنى أبداً، وأما إذا هو أخلف عهده ذاك ورفض الالتزام الفعلي بمقتضياته، فقد عَرض نفسه لمصيرٍ غايةٍ في الخطورة؛ وذلك أن يقذف به الله في نار جهنم، ولا يجد إلى الخروج منها من سبيلٍ.

إن المشاعر والكيفيات التي طرأت على قوم موسى – عليه الصلاة والسلام – في أثناء أخذهم الميثاق الإيماني، هي نفسها مطلوبة من كل عبدٍ مؤمنٍ، فينبغي لكل من يربط نفسه بالله برباط الإيمان، أن يهتز كيانه وترتعد فرائصه، استشعاراً لمدى خطورة الأمر، وكأنه لئن همّ بنقص هذا العهد ((فإن الأرض تنشق من تحته، والسماوات يتفطرن من فوقه)).

إن من ظواهر الضلال الذي يقع فيه شعب مُنح شريعةً من عند الله تعالى، أن تكون تصرفاته العملية في الحياة على النقيض تماماً مما تقتضيه شريعة الله، ومن جهةٍ أخرى يعمد إلى تبرير موقفه غير الشرعي ذاك متذرعاً بصنوفٍ من التأويلات، زاعماً أنه محافظ

تمام المحافظة على أحكام الله تعالى ، ولقد أُمِرَ اليهود بأن يَخُصّوا يوم السبت بالذكر والعبادة والصيام، وألا يعملوا فيه شيئاً يتصل بالشئون الدنيوية، ولكنهم لم يراعوا هذه الحرمة الإلهية حق رعايتها، حيث أخذوا يتشاغلون بأمورهم الدنيوية في يوم السبت أيضاً كشأنهم في غيره من الأيام، ثم إنهم - مع ذلك - دَأَبوا على اختلاق أنواعٍ من التبريرات والتأويلات اللفظية لكي يخدعوا الناس بأن الذي يفعلونه ليس خلافاً للشريعة، بل هو عين ما أمر الله به إياهم ، ولقد تسبب تمردهم هذا في إثارة غضب الله لدرجة أنهم مُسخوا إلى قردة خاسئين .

والجدير بالذكر أنه كلما انحرف الإنسان عن الشريعة وأحكامها، انحطَّ إلى مستوى البهائم التي هي غير ملزمةٍ بأي ضابطٍ أو قانونٍ أخلاقى ، ولذا فليحذر الذين تسول لهم أنفسهم هذا النوع من التلاعب بالشريعة الإلهية؛ أن يأخذهم القانون الإلهى ، فينزل بهم إلى ذلك الدرك من الذل الحيواني المهين ، الذي وقع فيه اليهود من قبل .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ
قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ
إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ
﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ
لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا
وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا
تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟
يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا
ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

هُزُوا: سخرية .

لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ: لا مُسِنة ولا فتية.

عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ: نصف « وسط » بين السنين .

فَاقِعٌ لَّوْنُهَا: شديدة الصفرة .

لاَّ ذَلُولٌ: ليست هينة سهلة الانقياد .

تُثِيرُ الأَرْضَ: تقلب الأرض للزراعة .

الحَرْثَ: الزرع أو الأرض المهيأة له .

مُسَلَّمَةٌ: مُبَرأة من العيوب.

لاَّ شِيَةَ: لا لون فيها غير الصفرة الفاقعة .

فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا: فتدافعتم وتخاصمتم فيها .

في زمن سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - حدث أن قُتل رجل من بني إسرائيل، ووقع اختلاف شديد في : من هو القاتل ؟ فأمرهم الله تعالى بواسطة النبي أن يذبحوا بقرةً، ويضربوا القتيل ببعض أعضائها، فسيعود القتيل إلى الحياة بإذن الله، ويدل على من قتله، وقد اتُخذ بشأن حادث القتل الآنف الذكر هذا الأسلوب الخارق للعادة لأغراضٍ عديدةٍ، منها :

أولاً : لقد تأثر بنو إسرائيل، أثناء إقامتهم الطويلة في مصر، بالحضارة المصرية وتقاليدها الوثنية تأثراً بالغاً، وبما أن المصريين كانوا يعبدون البقرة، فما لبث بنو إسرائيل أن تسرب إليهم أيضاً الاعتقاد بقداسة البقرة، وعندما وقع الحادث المتقدم ذكره، أراد الله تعالى أن يكون وسيلة لتحطيم ذلك الاعتقاد المستقر في أذهانهم عن قداسة البقرة، ومن هنا فقد اتُخذ من ذبح البقرة وسيلةً لإطلاعهم على شخصية القاتل المتنازع فيها .

ثانياً : وبما أن من تصرفات بني إسرائيل الخاطئة الممقوتة، أنهم قد جعلوا من دين

الله السهل البسيط ديناً شاقاً وعسيراً بسبب خوضهم في الأمور الجانبية، وانغماسهم في التهميشات الفقهية ، فقد تم تلقينهم درساً بالغ الأهمية، وهو أنه إذا ما جاء حكم من عند الله تعالى، فيجب عليكم أن تبادروا بالعمل الفوري به؛ حاملين إياه على أبسط محامله، وإياكم أن تتبعوا في هذا الشأن سبيل التعمق والتنقير والتفصيلات الجدلية التي أعفاكم الله منها .

ثالثاً : وعن طريق هذا الحادث تم إشعار بني إسرائيل بأن الحياة الثانية هي حياة ممكنة؛ شأنها شأن الحياة الأولى، وأن الله سيحيي كل إنسانٍ بعد موته، وسيبعثه ثانياً في عالمٍ جديدٍ.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

يَتَفَجَّرُ: يتفتح بسعة وكثرة .

يَشَّقَّقُ: يتصدع بطول أو بعرض.

إن الذين يتخذون من إثارة المناقشات اللفظية حول الحكم الإلهي ديدنهم ، ومن ابتغاء التأويلات البعيدة الفاسدة دأبهم؛ يتدرجون، يوماً بعد يوم؛ إلى الإصابة بمرض الجمود وبلادة الإحساس، فتقسو قلوبهم وتتحجر شيئاً فشيئاً ، إن اسم الله هو اسم لذاتٍ أعظم وأسمى في الوجود، وإن المرء إذا كان في داخله معموراً بالإيمان الحي، فإن فؤاده يرتجف عند ذكر الله، ويجد نفسه أميل إلى الصمت والسكوت غير أن القلوب حين تُصاب بالجمود والبلادة الحسية؛ فإن أحاديث الله هي الأخرى تصبح مثار المجادلات العقيمة والتأويلات الباطلة؛ كما هو الشأن في الكلام الإنساني العادى ، إن عملاً كهذا لا يزيد الخائضين فيه إلا قسوةً وتحجراً وبلادة إحساسٍ، حتى تصير قلوبهم

وكأنها الحجارة أو أشد منها قسوةً وصلابةً ، وبالتالي فلا يعود ذكر الله واستحضاره يذيب قلوبهم، ولا هو يُلهب مشاعرهم وأحاسيسهم، ولا هو يتسبب في إيجاد رجفةٍ وارتعادٍ في أرواحهم ونفوسهم ، لقد ورد ذكر الحجارة ها هنا على سبيل التمثيل .

وقد تناولت هذه الآية الإشارة إلى ثلاثة أمثلةٍ، من تلك التي وضعها الله تعالى في عالم الأحجار :

١- فمما يُشاهد على سطوح الجبال المرتفعة، أن تُوجد عيون المياه، وهي تسرح في داخل الأحجار والصخور، والتي تتخذ نهائياً، بعد أن يلتقي بعضها ببعضٍ، شكل الجداول والأنهار ، إنها صورة تمثيلية ترمز إلى ذلك الإنسان الذي أخذت الخشية الإلهية من قلبه كل مأخذٍ، ثم هي لا تلبث أن تأخذ في التدفق من عينيه في صورة الدموع.

٢- والمثال الثاني يصور الحجارة التي تبدو للوهلة الأولى، وكأنها ليست سوى صخرةٍ غليظةٍ صماءَ ، غير أننا عندما نقوم بشقها وتحطيمها ، يكشف ذلك عن ذخائر كبيرةٍ للمياه ، كانت متوافرةً منسابةً تحتها ، وهذه الصورة التمثيلية ترمز إلى الإنسان الذي يبدو، في بادئ الأمر، وكأنه بعيد عن الله مقطوع الصلة به، ثم يمر عليه حادث من الحوادث، فيهزّ روحه ووجدانه هزاً عنيفاً، وإذا به يسعى نحو الله ربه في سيلٍ من الدموع.

٣- وثالث الأمثلة في عالم الأحجار ما يُسمى بالهبوط أو الانزلاق الأرضي، والذي يتمثل في انزلاق الجنادل والصخور من أعالي الجبال إلى حضيض الأرض .. وتلك صورة تمثيلية ترمز إلى ذلك الإنسان الذي اتخذ موقفاً غير صحيحٍ نحو قضيةٍ ثارت بينه وبين إنسانٍ آخر ، ثم عُرض عليه بعد ذلك حكم الله بشأن تلك القضية؛ فما لبث، بعد أن اتضح له الحكم الإلهي، أن تهدم وانهارَ ، إنه لم يكن يرضى بأن يخضع ويستسلم أمام الإنسان ، غير أن قضية الإنسان عندما صارت قضية الله؛ لم يتمالك هو نفسه من أن يخرّ أمامه بكل تواضعٍ وخضوعٍ .

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

يُحَرِّفُونَهُ: يبدلونه ، أو يؤولونه بالباطل .

خَلا بَعْضُهُمْ: مضى إليه، أو انفرد معه .

فَتَحَ الله: حكم به أو قصّه عليكم .

إن من جملة العوامل التي يرجع إليها ما سجلّه التاريخ من مبادرة أهالي المدينة، بمثل تلك السرعة، في معرفة رسول الله ﷺ عقب ظهوره، والتصديق الفوري به ؛ أنهم كثيراً ما كانوا يسمعون من جيرانهم اليهود أن نبياً - وهو آخِر لأنبياء -مبعوث قد أظل زمانه ، وبناءً على ذلك، فقد كان نبأ مبعث النبي الخاتم، بالنسبة لهم- أي بالنسبة لأهالي المدينة - نبأً مألوفاً غير داعٍ إلى أية دهشةٍ أو استغرابٍ ، ولقد كان مسلمو المدينة هؤلاء - بطبيعة الحال - على جانبٍ كبيرٍ من حسن الظن والرجاء بأن اليهود أنفسهم سوف يبادرون باتباع الرسول والانضواء تحت لوائه؛ نظراً لأن أحاديثهم هي التي كانت الباعث الأوليّ على ترغيبهم في اعتناق الإسلام .. ومن هنا فقد كانوا يتقدمون، بحماسٍ اندفاعٍ بالغَين، لإبلاغ رسالة الإسلام إلى هؤلاء اليهود، ودعوتهم لأن يؤمنوا برسول الله ﷺ وينضموا إلى طائفة أتباعه وأنصاره .

ولكن المسلمين كانوا يصدمون نفسياً حين يرون اليهود على العكس مما قد عقدوه عليهم من آمال، فأدى ذلك إلى نتيجة خطيرة أخرى، وهي أن الذين كانوا يضمرون الحقد والعناد والمكابرة ضد شخصية رسول الإسلام ﷺ أخذوا عندئذٍ يثبطون المسلمين قائلين : إن أمر هذا النبي ليس من التأكد والوثوق إلى هذا المبلغ الذي قد زعمتموه ؛ إذ

لو كان ذلك كذلك، لسبقكم علماء اليهود وأحبارهم إلى التصديق به، فإنهم أكثر منكم علماً ومعرفةً بالكتب السماوية وأسرارها.

غير أن قبول شيءٍ ما؛ لا يتوقف أبداً على مجرد معرفة الرجل بذاك الشيء، بل يجب - فوق ذلك - أن يكون الرجل جاداً تمام الجدية بالنسبة لذلك الشيء ، أما اليهود فكان الأمر قد انتهى بهم إلى أن أدخلوا عدداً لا يُحصى من التغييرات فيما عندهم من الأسفار والكتب التي كانوا يعتقدون بأنها كتب سماوية ، فكلما وجدوا في ثنايا كتبهم المقدسَة، شيئاً يخالف أهواءهم، تأوّلوه على غير تأويله، أو حرفوه عن مواضعه، حتى يتفق وما تهواه أنفسهم، إنهم كانوا قد استتبعوا دينهم لمصالحهم الدنيوية الهينة، والذين تكون أعمالهم وتصرفاتهم من هذا النوع من انعدام الجدية، تُرى هل يمكن أن يعترف هؤلاء بحق يظهر خارج ذواتهم ؟!

إنه لو أراد المرء أن يتخذ موقف الإنكار بإزاء شيءٍ ما، مهما كان ذلك الشيء مبنياً على الحق، لأمكنه أن يعتسف تأويلاً يبرر موقفه السلبي بأي حالٍ من الأحوال، وعندما يبرز هذا التأويل في شكله النهائي يسمى «التحريف»، والنتيجة المحتومة التي ينكشف عنها مثل هذا الموقف هي أن يفقد المرء تلقائياً إحساسه بمدى خطورة الأمر المتصل بالله ، بحيث إنه قد يستمع إلى بعض أحكام الله تعالى، ولكنه لا يزال مطمئناً بما كان عليه سابقاً، متكئاً على أي تأويلٍ لفظيٍ يجعل شأنه بعيداً عن ذلك الحكم الإلهي، أي إنه يتمتع بصفةٍ استثنائيةٍ ، وقد يكون مؤمناً بالله تعالى، غير أن قسوته القلبية تجعله يتجاسر على ارتكاب أنواعٍ من الأمور العظام لا يتجاسر على ارتكابها إلا الذي لا يؤمن بالله مطلقاً، والذي لا يعلم أنه الله بصير بكل أفعاله وتصرفاته، وسميع لسائر أقواله وأحاديثه .

﴿ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا

قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أُمِّيُّونَ: جهلة بكتابهم (التوراة).

فَوَيْلٌ: هلكة،أوحسرة ، أو شدة عذاب ، أو واد عميق في جهنم .

كَسَبَ سَيِّئَةً: هي هنا الكفر .

وَأَحَاطَتْ بِهِ: أحدقت به واستولت عليه .

أُريد « بالأماني » ما كان قد وضعه أحبار اليهود من القصص والأساطير الخرافية حول دينهم، والتي كانت؛ بسبب بهرجتها الظاهرية وبريقها الخادع، قد حظيت بقبول كبير بين عامة الناس . وقد رُوي عن ابن عباس بهذا الخصوص، أن هذه (الأماني) : « أكاذيب مختلَقة، سمعوها من علمائهم، فنقلوها على التقليد » (البحر المحيط)، وكانت هذه الأقاصيص تنطوي على مزاعم وأقوال، عُزيت كذباً إلى شيوخهم وأنبيائهم السابقين، بحيث تزعم أن نار الجحيم ليست لليهود بل هي لمن دونهم من الأمم والشعوب ، وأن بني إسرائيل هم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الدين الذي يؤمنون به هو دين يتمتع بخصائص ومواصفاتٍ طلسميةٍ بحيث إن شيئاً عادياً بسيطاً منه يكفي لتخليص المرء من نار جهنم وإيصاله إلى جنات النعيم .

وبالطبع فقد كانت هذه الوصفات المقدسة لإحراز النجاة الرخيصة تمتلك قوة جذبٍ كبيرةً للعوام؛ بحيث إنهم كانوا يجدون فيها تصديقاً وسنداً لآمالهم الفارغة التي كانوا يعيشون على أساسٍ منها، وتتلخص تلك الآمال في أن الوصول إلى الجنة، لا

يستلزم بالضرورة أن يضعوا حداً لحياتهم المنحرفة والمنطلقة من كل التبعات والمسئوليات؛ إذ إن البركات التي تحصل لهم عن طريق الرقى والعزائم هي وحدها كفيلة بأن تقودهم إلى الجنة دون عمل ولا حسابٍ ، ولهذا فإن علماء اليهود الذين كانوا يتغنَّون بأمثال هذه الأقاصيص إذ ذاك تلقاهم الناس بغايةٍ من الحفاوة والاحترام والتقدير ، فإن عملهم على التخفيف من شدة أمر الآخرة صار لهم بمثابة سُلّمٍ إلى تجارةٍ دنيويةٍ عظيمة الشأن، حيث التفّ حولهم حشو من الناس كبير؛ وبدأت تنهال عليهم الهبات والنذور من كل صوبٍ ، إنهم كانوا يدلّون الناس مجاناً على أقرب وأيسر الطرق المؤدية إلى الجنة، فعوّضهم الناس عن ذلك، بأن وفروا لهم مجاناً كذلك، كل ما أمكن توفيره من عروض الدنيا ومتعها من عند أنفسهم .

وذلك هو الداء العُضال الذي ما بَرِح يصيب الأمم الأمينة على الكتاب الإلهي في كل العصور والأزمان ، إن الذين يمارسون حياتهم على أساس هذا النوع من الأحلام اللذيذة، والذين يظنون أن ما أُلقي عليهم من الأعباء والمسئوليات، إنما ينحصر في نطاق بضعة أعمالٍ ومراسم شكليةٍ وكفى، والذين تراودهم هذه الأمنية الحالمة بأن جميع حقوقهم صارت محفوظةً عند الله إلى أبد الآبدين ؛ فإن أشق ما يكون على أمثال هؤلاء القوم دائماً، هو الدعوة إلى الدين الخالص ، إذ هم يرون ذلك مما يؤرقهم ويُنغص عليهم مذاق العيش ولذته ، ولأن ذلك - ولا ريب - يُرغمهم على المثول بين يدي حقائق الحياة وهي سافرة مكشوفة لا يحول دونها حائل .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

أول ما يجب على الإنسان نحو الله أن يأخذ نفسه بعبادة الله تعالى وحده ، ولا يشرك به أحداً، والواجب الثاني هو الالتزام بحسن المعاملة مع عباد الله أجمعين ، ويبتدئ هذا

السلوك الحسن أول الأمر ، بإحسان الإنسان إلى أبويه هو، ثم ينتقل من هناك إلى الأقارب والجيران، حتى ينتهي إلى كل إنسان يصادفه ويتعامل معه في مختلف ميادين الحياة العملية، وكلما ثارت قضية من القضايا في الحياة بين إنسانٍ وآخر ؛ تحتم اتخاذ موقف سلوكي واحد، ألا وهو الاحتكام إلى العدل والنصح له بالمعروف ، وفي هذا الشأن يتركز الاختبار الأصلي للإنسان على « اليتامى والمساكين »، أو بلفظٍ آخر على «الضعفاء» بصفةٍ خاصةٍ، إذ إن قوة القوي هي ذاتها كفيلة بدفع الناس إلى التصرف الجميل معه، غير أن الضعيف لا يجتمع بوجوده دافع إضافي كهذا ، ما من شأنه أن يبعث الآخرين على الإحسان إليه، ولذا فإن الموقف الأكبر الذي يطالب الإنسان فيه بالتزام السلوك الحسن هو الموقف الذي يتم التعامل فيه مع الضعفاء !!

وذلك لأن التعامل مع الضعفاء لا يكون إلا لابتغاء وجه الله ، لا لشيء آخر ، وفي بعض الظروف تنطفئ عاطفة الإحسان إلى الضعفاء لعوامل شتى منها : أن الرجل الضعيف هو اليد السفلى الآخذة ، وهذا قد يشعر المعطي بالاستعلاء بالمقارنة إلى الفرد الآخذ ، وهذه النفسية قد تحول دون مراعاة كرامة الضعيف الشخصية ، كما أن الرجل الضعيف ينتظر منه أن يُجامل في السؤال، أو يُبالغ في إظهار حاجته على نحو ما ، وإلا عُدَّ غير جدير بالعطاء إلى غير ذلك من شتىّ صور الإيذاء النفسي أو الفعلي خلال التعامل معه.

ولهذه العوامل كلها جعل الله قول المعروف خلاصة الأعمال وجوهرها على الإطلاق، وربّ كلمة ودّ حقيقية أفضل من كثير من الأشياء بالنسبة للإنسان، فالمرء يلقي الخطب الرنانة بكل سخاءٍ، غير أنه أبخل ما يكون بالنطق بكلمةٍ جميلةٍ واحدةٍ؛ إذا كانت تلك الكلمة تعني عملياً أن يعترف بفضل إنسانٍ آخر سواه ، ولا سيما إذا كان المقابل له ليس على جانبٍ من القوة والعزة، فهو عندئذٍ يرى نفسه في غير حاجةٍ حتى إلى استخدام كلماتٍ مهذبةٍ شريفةٍ في الحديث معه، أما إذا أساء إليه أحد إساءة ما، فهو إذن لا يرى بأساً في استثنائه من كل حكمٍ إلهي بشأن رعاية مبدأ العدل في المعاملات

البشرية جمعاء.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم: تتعاونون عليهم.

أُسَارَى : مأسورين.

تُفَادُوهُم: تخرجوهم من الأسر.

خِزْي: هوان وفضيحة وعقوبة.

كانت هناك ثلاث قبائل من اليهود تقطن نواحي يثرب (المدينة القديمة)؛ وهي: بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، وكان هؤلاء جميعاً يؤمنون بالشريعة الموسوية، غير أن التعصبات الجاهلية أدّت بهم إلى أن فرقوا دينهم فصاروا شيعاً وأحزاباً متناقضة، ومن أجل الحفاظ على مصالحهم السياسية كانوا قد انضموا إلى جيرانهم المشركين - قبيلتي الأوس والخزرج - بالمدينة إذ ذاك، فانضوى بنو النضير وبنو قريظة تحت لواء الأوس، أما بنو قينقاع فكانوا حلفاء الخزرج، ونتيجة انقسامهم على هذا النحو، كثيراً ما كانت تنشب بينهم حروب دامية، ومعركة بُعاث، هي واحدة من تلك الحروب التي وقعت قبل الهجرة النبوية بخمسة أعوام، وقد كان اليهود في هذه الحروب يتخذون جبهتَيْن، بانحياز كل فريقٍ منهم إلى حلفائهم من المشركين؛ وبالتالي

يقتل يهود إحدى الجبهتَيْن أبناء دينهم من الجبهة المعارضة، ويُخرجونهم من بيُوتهم، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها يأخذون في مناشدة إخوانهم في الدين، يطلبون منهم التبرعات والمعونات المالية لكي يفادوهم من أسر القبائل الوثنية، إنهم كانوا يخالفون الحكم الإلهي فيما يتصل برعاية حرمة النفس وحرمة المال، ثم يتظاهرون بهذا النوع من التعاطف الكاذب مع الذين صاروا ضحايا سياستهم العُدوانية الظالمة، لكي يزعموا أنهم على جانبٍ من التدين عظيم.

وبما أن أحكام الشريعة الأصيلة والأساسية تحتم على المرء أن يتخلى عن الحياة الجاهلية، كما أنها لا تتفق مع ما تميل إليه نفسه من الأهواء والشهوات، وأنها أيضاً تضع حداً لسياسته العملية التي تقوم على المنافع الدنيوية وحدها؛ من أجل ذلك كله لا يلقي المرء إلى هذه الأحكام بالاً، غير أنه ربما يتظاهر بإقامة بعض الطقوس والمراسم الشكلية العادية علي مرأىً ومسمعٍ من الناس، لكيما يزعم أنه محافظ على دين الله متمسك بأهدابه.

إنَّ مثل هذا الاجتراء على الدين وإهمال مراقبة الله والجانب الأخروي، يجعل الإنسان جديراً بالغضب الإلهي وليس الإنعام الإلهي.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ

غَضَبٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ: أتبعنا على أثره الرسل على منهاجه .

بِرُوحِ الْقُدُسِ: بالروح المطهر جبريل عليه السلام.

قُلُوبُنَا غُلْفٌ: عليها أغشية وأغطية خلقية .

يَسْتَفْتِحُونَ: يستنصرون ببعثه ﷺ .

اشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ: باعوا به أنفسهم .

بَغْيًا: حسدا .

فَبَآءُو بِغَضَبٍ: فرجعوا به مستحقين له .

التوراة هي كتاب الله الذي نزل على اليهود ، غير أن التوراة قد انتهى أمرها، بمضي الزمن إلى أن صارت عندهم بمثابة وسيلة للتبرك أو مفخرةٍ شعبيةٍ فحسب ، ومع أن اليهود ما زالوا متمسكين بها كرمزٍ للنجاة والمجد القومي، إلا أنهم قد عزلوها عن مركزها الأصلي؛ وهو الذي يتمثل في أنها « كتاب الإرشاد والهداية العملية في الحياة » ، ولقد انبعث فيهم الكثير من الأنبياء، بين فترةٍ وأخرى بعد موسى عليه السلام مثل النبي يوشع، والنبي داود، والنبي زكريا، والنبي يحيى ..إلخ عليهم السلام حتى خُتم أنبياؤهم بعيسى ابن مريم عليه السلام ، وإنما جاء هؤلاء الأنبياء جميعا لأداء مهمةٍ واحدةٍ؛ هي أن ينصحوا اليهود بأن يمارسوا حياتهم العملية على أساس تعاليم التوراة، ولكن بالرغم من إيمانهم بقدسية التوراة لم يستطيعوا القيام بتكاليفها أو الحفاظ على نصوصها، وراحوا يكذبون أنبياء الله ويكفرون بهم، بل كانوا يقتلونهم آخر الأمر ، وكان السبب في ذلك أن الحياة التي كانوا يعيشونها باسم التوراة، كانت في حقيقة أمرها، حياةً مبنيةً على مجرد شهوات النفس ومنافع الدنيا، حتى وإن كانوا قد ألصقوا عليها رقعةً تحمل عنوان كتاب الله، ومن هنا فإن أنبياء الله عندما كانوا يقومون فيهم بمهمة الدعوة إلى الحق النقي

الخالص؛كان يخيل إليهم أن هذه الدعوة تعمل على إلغاء اعتبارهم الديني،وبالتالي يستيقظ في نفوسهم الكبر والغرور، مما يجعلهم يتصدون للقضاء على وجود الأنبياء أنفسهم، ناهيك عن تصديقهم والاستجابة لدعوتهم.

وقد وقف اليهود في جزيرة العرب هذا الموقف من رسول الله ﷺ ، فبناءً على ما ورد في كتبهم عن صفة النبي الخاتم، كثيراً ما كانوا يقولون للناس إنّه إذا بُعث « ذلك النبي » انضووا تحت لوائه، وأحرزوا الانتصار على من يعاديه من الكفار والمشركين إلا أن حديثهم هذا لم يكن إلا خطاباً كاذباً كانوا يرددونه لكي يزعموا أنهم الأُمَناء على الدين ولذلك فعندما ظهر « ذلك النبي » انكشف النقاب عن حقيقة حالهم؛ بحيث استبدت الجاهلية بهم وحالت دون اعترافهم بصدق نبيٍ بُعث في غير شعبهم ، وبما أنهم ظلوا عاجزين عن إبطال الأدلة الواضحة التي كانت ترد في القرآن لتأييد صدق النبي - عليه الصلاة والسلام - بدأوا يقولون: إن قلوبنا في أكنّةٍ أي : إننا لن نترك أبداً ذلك الدين الذي توارثناه عن آبائنا متأثرين في ذلك بما يعرض محمد علينا من زخرف القول وطلاوة البيان .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ: جعلتموه إلها معبودا .

لَوْ يُعَمَّرُ: لو يطول عمره .

إن عدم استعداد اليهود لقبول دعوة القرآن، واتخاذهم موقف الرفض والعناد نحوها، يرتبط بإحساسهم أنهم ما زالوا على الحق كما كانوا أيام موسى عليه السلام وأنهم ينتمون إلى أكبر جماعةٍ بشريةٍ ظهر فيها دعاة الحق، أي بنو إسرائيل، غير أن ذلك لم يكن في جوهره إلا الولاء الطائفي الذي كانوا قد اعتبروه - خطأ - مرادفاً للولاء للحق والتمسك به إنهم كانوا قد أحلّوا « الحق الطائفي » محل «الحق الخالص» ، ولذا فعندما ظهر الحق في صورته النقية الخالصة من كل شوبٍ لم يبادروا إليه، ولم يتلقوه بالقبول ولو كان هدفهم المنشود هو الحق الخالص، لما تعذر عليهم أن يدركوا أن نزول القرآن هو حادث قد تحقق طبقاً لنبوءات التوراة نفسها التي هي كتابهم المقدس، وأنه بعد تمام نزول القرآن فإن القرآن وحده هو « الكتاب الحق » وليس مذهبهم الطائفي .

إن قضيتهم ليست في جوهرها قضية الولاء للحق، والدليل على ذلك هو ما نجد في تاريخهم أنفسهم أنهم قتلوا الأنبياء المبعوثين في طائفتهم بالذات؛ مثل يحيى عليه السلام ، ولم يكن ذلك إلا لأنه تناول حياتهم بالنقد والتوجيه، ولأنهم «كانوا يشهدون عليهم؛ لكي يعودوا بهم إلى الله ربهم» (سفر نحميا) ، يضاف إلى ذلك أن ما أظهره الله على يد موسى عليه السلام من المعجزات والخوارق لم يُبق أي مجالٍ للشك والارتياب في نبوته، ولكن في أثناء فترة إقامته بجبل الطور التي استغرقت أربعين يوماً ما لبثوا أن اتخذوا العجل معبوداً لهم؛ إذ لم يعد نفوذه الشخصي ماثلاً أمامهم، وقد رُفع فوق رؤوسهم الجبل، ولكن بالرغم من ذلك لم يُقروّا بالعهد إلا إقراراً لسانياً مؤقتاً، ولمجرد النجاة بأنفسهم من

الهلاك، وقد ظلت حياة أكثرهم بعد ذلك تسير على خط المعصية والفجور كما كانت تسير من قبل ، ولو أنهم كانوا عبدةً لله ومحبين إياه حقاً، لاتجهت أنظارهم واهتماماتهم كلها نحو دنيا الله التي تأتي بعد الموت، بينما الواقع أنهم غارقون في حب هذه الدنيا الحالية أكثر من كل شيء .

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

نَّبَذَهُ: طرحه ونقضه.

لقد أصاب اليهود في الزمن القديم عقوبات شديدة قاسية، مرةً بعد أخرى، نتيجةً لبغيهم المستمر، وطبقاً لما جرت عليه سنة الله. فقد كان يتم إنذارهم مسبقاً بكل عقوبةٍ نازلةٍ، وكان الملك جبريل هو الذي يتوسط بين الله وأنبيائه لنقل هذا الخبر، ثم يقوم الأنبياء بإعلام شعوبهم بذلك، والدرس الجوهري الذي يكمن في مثل هذه الوقائع هو أنه يجب على المرء أن يحترز مِنْ معصية الله أشد احترازٍ؛ حتى لا يحل عليه العذاب الإلهي، غير أن اليهود لم يستطيعوا استلهام أي درسٍ كهذا من تلك الوقائع، وبدلاً من ذلك أخذوا يقولون : إن الملك جبريل هو عدوّنا؛ فهو دائماً ينزل بأوامر وأحكامٍ ضدنا، ولما أعلن رسول الله ﷺ أن الله تعالى قد أوحى إليه بواسطة جبريل، بدأ اليهود يقولون: إن جبريل هو عدونا القديم ، وهذا هو السبب في أنه أوصل النبوة، (التي لا يستحقها إلا الشعب الإسرائيلي وحده في رأيهم) إلى رجلٍ من قوم آخرين غيرنا، والحق أنه

يتشاغل بمثل هذا الكلام الفارغ إلا الذين يمارسون حياتهم على أساسٍ من الفسق والانفلات ، وهكذا كان شأن اليهود الذين كانوا يعيشون في مستوى عبادة النفس، والانسياق وراء الشهوات، والتقليد الأعمى للآباء، والعصبيات العرقية والشعبية، وفي الوقت نفسه كانوا يتظاهرون بإقامة بعض طقوس الدين ومراسمه الشكلية، لكي يزعموا أنهم محافظون على الدين الإلهي ولم ينحرفوا عنه قيد شعرة .

إن الذين يتورطون في مثل هذا التدين الكاذب، تكون الدعوةُ إلى الدين الحق الخالص مبعث الاستياء بالنسبة إليهم ، إذ إن دعوةً كهذه تبدو لهم وكأنها تحرمهم من سيادتهم ، ومن هنا يثور ثائرهم، ونتيجةٍ لهذه الثورة يتكلمون بكلامٍ لا يكون وراءه أي رصيد من المعنى .

ومما هو معلوم بالبداهة أن نزول الملائكة، وبعثة الرسل والأنبياء، كل ذلك إنما يحصل وفق المشيئة الإلهية، ولما كانت هناك دلائل صريحة تثبت أن الشيء الذي نزل على النبي العربي ﷺ هو الشيء نفسه الذي كان قد نزل على إبراهيم، وموسى، وعيسى - عليهم السلام - وأنه مطابق كل المطابقة لما ورد في الصحف السماوية السابقة من بشائر ونبوءاتٍ؛ فإن ذلك برهان قاطع على أنهَ من عند الله تعالى، فضلاً عن مئات البراهين الأخرى.

﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

تَتْلُو الشَّيَاطِينُ: تقرأ. أو تكذب من السحر.

نَحْنُ فِتْنَة: ابتلاء واختبار من الله.

خَلاقٍ: نصيب من الخير، أو قدر.

إن ظاهرة الفساد والانحراف التي تصيب طائفةً أمينةً على الكتاب السماوي، كانت ولا تزال من نوعٍ واحدٍ على مر الزمن ألا وهو: «أن يُبحث عن سر النجاة الأخروية؛ التي يدور أمرها كله حول العمل الصالح وحده، في البطالة وترك العمل». إن كلام الله نداء للعمل، غير أن أمةً ما، إذا مُنيت بالانحطاط والزوال، فلا يلبث أفرادها أن يعدّوا تقييد «الكلام المقدس» كتابةً، أو ترديده ترديداً لسانياً محضاً، وصفةً غامضةً مكتنفةً بالأسرار يمكن بها الحصول على البركات بجميع أنواعها، وتلك هي التربة النفسية التي ينشأ ويترعرع فيها السحر والكهانة والعمليات الروحية المختلفة؛ لأن الذين يريدون أن يدخلوا الجنة عن طريق أشياء كالطلاسم يأخذون في إحراز الدنيا هي الأخرى عن طريق الطلاسم والتعاويذ، كما أن المتشبثين بالاعتقاد في الأولياء والصالحين حاسبين إياه وسيلةً للنجاة، سيتوسلون بالأرواح لحل مشكلاتهم الدنيوية، والمؤمنين بالتأثير السحري الغامض لصنوف الوظائف يقومون برسم خططٍ وبرامج

البعث الديني من خلال الشعوذة السياسية.

وما إن أُصيب اليهود بالانحطاط، وبلغوا من البطالة وترك العمل، ومن الإيمان بالخرافات هذا المبلغ، حتى ظهر بينهم أناس احترفوا السحر والكهانة، ولكي تروج بضاعتهم وتنفق سوقهم لجأ هؤلاء الظَلَمة الخبثاء إلى أن نسَبُوا فنهم ذاك إلى سليمان النبي عليه السلام، فقالوا إن القدرة غير العادية التي كان سليمان يسخر بها الشيطانين والرياح إنما كانت حقيقةً ثمرة علمه بفنون السحر؛ وإننا استطعنا العثور على مكنوزات هذا «العلم السليماني» بواسطة بعض الشياطين، وهكذا فقد نال علم السحر وفن العمليات بعد نسبتها إلى سليمان عليه السلام قبولاً وانتشاراً واسعين في اليهود.

ولما كان قوم لوطٍ عليه السلام متورطين في رذيلة اللواط؛ جاءتهم الملائكة ابتلاءً في صورة ولدانٍ حسان الوجوه، وامتُحن اليهود في بابل، وأُرسل إليهم ملكان في زيّ الدراويش، اللذين كانا يُعَلِّمان هناك فنون العمليات، غير أنهما كانا يقولان إنما نحن فتنة وامتحان لكم، ولكنهم بالرغم من هذا التنويه المستمر، لم يلبثوا أن تهافتوا على تعلم هذا الفن حتى استخدموه لتحقيق الأغراض والمطالب اللاشرعية.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُم: باعوا به أنفسهم .

لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا: كلمة سب وتنقيص عند اليهود .

وَقُولُوا انظُرْنَا: انظر إلينا ، أو انتظرنا ، وتأن علينا .

مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ: ما نُزِل ونَرْفع من حكم آية أو التعبد بها .

نُنسِهَا: نمحها من القلوب والحوافظ .

وَلِيٍّ: مالك ، أو متول لأموركم .

سَوَاءَ السَّبِيلِ: قصد الطريق ووسطه .

ألف الناس في العادة أن يعاندوا كل رجل اختصه الله بإدراك الحق، وأقامه داعياً إليه، والسبب في ذلك يرجع إلى أن الناس يعدون دعوته مما ينتهي بإلغاء كل ما لهم من يعدون مكانةٍ ، وأما بالنسبة لليهود فقد كان سبب المعاندة متوافراً بدرجةٍ أشد ما يكون؛ لأنهم كانوا يعتبرون النبوة حقاً شعبياً لهم، إذ لم يكن هنالك شيء أشد وطأةً عليهم من أن يبعث الله رسوله في أي شعب آخر غير الشعب اليهودي ، وقد جرت عادة اليهود على أن يقوموا بين حينٍ وآخر بإثارة ألوانٍ من الجدل والمناقشات الدينية حول دعوته ﷺ ، حتى يتمكنوا من تشكيك الناس في أن كل ما يعرض عليهم الرسول ﷺ لا يعدو أن يكون مجرد حدسٍ أو ابتكارٍ ذاتيٍ لأحد الأشخاص، وليس شيئاً نزل من عند الله تعالى ، ومن ذلك أن بعض الأحكام القانونية التي وردت في القرآن كانت تختلف عن إصدار أحكام التوراة ، فاستناداً إلى ذلك كانوا يقولون : هل يعُقل أن يكون الله هو الآخر قد أخطأ في أحكامه فأمر مرةٍ بحكمٍ، ثم أصدر بعد ذلك في شأن القضية نفسها حكماً آخر مبايناً للحكم الأول ؟! ولقد زرع اليهود مثل هذه الشكوك والشبهات ونشروها بين الناس إلى حد أن كثيراً من المسلمين البسطاء أنفسهم بدأوا يسألون النبي ﷺ عنها في حيرةٍ وارتباكٍ .

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان اليهود حين يحضرون مجالس النبي ﷺ، يستخدمون في أثناء مخاطباتهم ألفاظاً تنم عن التنقيص والنيل من عظمة شأنه ﷺ، فمثلاً إذا أرادوا لفت انتباهه ونظره ﷺ إليهم، لم يقولوا: «انظرنا»، وهو تعبير واضح الدلالة على المقصود من دون لبس. بل يقولون بدلاً من ذلك: «راعنا» ومن السهولة أن يُحول هذا اللفظ إلى «راعينا» بمعنى: «من يرعى الماشية لنا»، أو أن يُبدل بـ «راعن» - بحذف الألف من آخر الكلمة - مشتقةً من الرعونة التي تعني الحمق.

فمن خلال هذه الآيات تم توجيه المسلمين إلى أمورٍ لابد من أخذها بعين الاعتبار دائماً وهي:

أ _ يجب أن تستخدموا في أثناء محادثاتكم ألفاظاً وعباراتٍ صريحةً واضحة الدلالة، فلا يليق بكم أن تستخدموا كلاماً ملتبساً ذا معنَيَين؛ يمكن أن ينطوي على مفهومٍ شائنٍ ممقوتٍ.

ب _ أن تُصغوا إلى كل ما يُلقى عليكم من حديث بدقةٍ وإمعانٍ، وحاولوا جهدكم أن تفهموه وتقفوا على معانيه.

جـ_ أن الإكثار من السؤال من شأنه أن يضل المرء عن سواء السبيل، ولذا فليكن همكم بما فيه العبرة والموعظة بدلاً من القيل والقال.

د _ أن تهتموا بصيانة إيمانكم والحفاظ عليه، خشية أن تُحرموا من الإيمان نفسه نتيجةً لأي تصرفٍ خاطئ من تصرفاتكم.

هـ _ إياكم أن تحقدوا - أو تحسدوا - على أحدٍ في الدنيا، فيما إذا وجدتم عنده من خيرٍ ليس عندكم، إذ إن ذلك مما حباه الله إياه وفق مشيئته وإرادته المطلقة، وهو تعالى لا يُسأل عما يفعل وهو العليم الحكيم.

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ

إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

أَمَانِيُّهُمْ: شهواتهم ومتمنياتهم الباطلة.

أَسْلَمَ وَجْهَهُ: أخلص نفسه أو قصد عبادته لله.

مع أن صوت القرآن لم يكن صوتاً مألوفاً بالنسبة لكثيرٍ من الناس، غير أن عدداً كبيراً لا يُستهان به من هؤلاء كانوا لا يزالون يدخلون في دائرته لكونه متسقاً وصدى قلوبهم ، ولقد اشتدت وطأة هذا الوضع على اليهود وبات يقض مضاجعهم؛ إذ كان ذلك يعني امتداد نفوذ الإسلام وتقدمه نحو الأمام ، مع أنهم كانوا غير مكترثين به لأنه - في نظرهم - شيء تافه غير ذي بالٍ ، فما لبثوا أن قاموا باستثارة حماسة المشركين وتأليبهم على محاربة الإسلام وأهله، ومن جانبٍ آخر عمدوا إلى دسّ ألوانٍ من الشبهات والمغالطات في صفوف المسلمين الجدد، ليتخلخل اعتقادهم ويسوء ظنهم بالقرآن وصاحبه، فيرتدوا عن الإسلام إلى دين آبائهم السابق، وكان طبيعياً أن ينزعج المسلمون ويثور غضبهم على صنيع اليهود ذاك ، إلا أن الله تعالى قد منعهم من ذلك ، وأمرهم بالإعراض الكلي عن إثارة أية مناقشةٍ مع اليهود ، أو القيام بأي إجراءٍ عنيفٍ ضدهم في المرحلة الراهنة ، وإنما ينبغي لهم في هذا الشأن أن يتوكلوا على الله وحده، ويفوضوا الأمر كله إليه، وينتظروا حتى يأتي الوقت الذي يُحدث الله فيه تغييراً في الظروف والملابسات، فيمكن اتخاذ خطوةٍ حاسمةٍ ضدهم ، وأما في الوقت الحالي فيجب عليهم - على المسلمين- أن يصبروا، ويركزوا كل اهتماماتهم على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فإن الصبر يحول دون قيام المرء بتحركاتٍ سلبيةٍ بدافع رد الفعل؛مما لا

يعود عليه أبداً إلا بنتائج عكسية، والصلاة تربط المرء بالله تعالى، وإشراك المرء إخوانه الآخرين في ثروته المالية يؤدي إلى إيجاد جَوٍ يسود فيه روح الوحدة والتضامن والنصح المتبادل .

ولقد كان اليهود يقولون لحديثي العهد بالإسلام آنذاك: إنكم إذا أبيتم إلا استبدال دينٍ بدين آبائكم فاعتنقوا إذن الديانة اليهودية أو النصرانية ، إذ إن الجنة وقف على اليهود والنصارى الذين ينتمون إلى طائفةٍ ظلت - منذ قديم الزمان - طائفة الأنبياء والرسل ، فقيل رداً على زعمهم هذا : ليس الانتماء إلى أي طائفةٍ من الطوائف مما يجعل أحداً يستحق دخول الجنة ، إن قرار الجنة في حق أحدٍ من الناس إنما يتم تحديده على أساس ما يأتيه من عملٍ، وليس على أساس الفضيلة الطائفية ، ومعنى الإحسان هو إتيان عملٍ ما على نحوٍ جميلٍ، وإحسان الإسلام يعني أن يكون استسلام المرء وخضوعه لله .

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾

خِزْيٌ: ذل وصغار ، وقتل وأسر .

فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ: جهته التي رضيها وأمركم بها.

سُبْحَانَهُ: تنزيها له تعالى عن اتخاذ الولد .

لَّهُ قَانِتُونَ: مطيعون منقادون له تعالى .

بَدِيعُ: مبدع ومخترع .

قَضَىٰ أَمْرا: أراد شيئا ، أو أحكمه أو حتَّمه .

كُن فَيَكُونُ:احدُث فهو يحدث.

اتخذ اليهود من الانتساب إلى الأنبياء والصالحين معياراً للحق، وانطلاقاً من هنا فقد بدا لهم أن أمتهم هي وحدها على الحق، وأما ما عداها من الأمم الأخرى فإنها ليست من الحق في شيء ، وأما النصارى فقد رأوا أن سر تميزهم عن غيرهم في أن الله تعالى قد أرسل إليهم «ابنه الوحيد»، وزعم مشركو مكة أنهم يمتازون بكونهم سدنة بيت الله الحرام ، وهكذا كل طائفةٍ من الطوائف اتخذت لنفسها معياراً مصطنعاً للحق والصدق .

ولاَ جَرَمَ أنها عندما كانت تنظر في ضوء هذا المعيار المصطنع، تجد ذاتها على الحق، وتجد الآخرين على الباطل، غير أن واقعهم العملي يُثبت عكس ذلك تماماً ، فلقد كانوا طرائق قدداً ، ما إن تسنح الفرصة لفرقةٍ، حتى تصدّ الفرق الأخرى غيرها عن البيت المخصص لعبادة الله ، وهكذا كانت تتسبب في خراب بيوت الله وتعطيلها ، مع أن مكان العبادة هو الموضع الذي يدخله الإنسان وفرائصه ترتعد من هيبة الله وجلاله ، فإن كان هؤلاء ربانيين حقاً، إذن كيف يُتصور أن يقفوا في وجه أي عبدٍ جاء لعبادة الله، أو يتصدوا لإيذائه وإزعاجه إذ كان المحتمل أن يكونوا وجلين خاشعين استشعاراً لعظمة الله وكبريائه؟! فكيف يُحتمل إذن أن يصدر عنهم هذا النوع من البغي والطغيان؟!

وقد قاس هؤلاء الذات الإلهية على الذات البشرية ، فكما أنه من المستحيل أن يوجد

أي إنسان في جهة الشرق والغرب معاً وفي آنٍ واحدٍ ، زعموا - بناء على هذا القياس - أن الله تعالى أيضاً لابد أن يكون موجوداً في جهةٍ واحدةٍ مخصوصةٍ ، ولا شك أن الله تعالى قد حدّد جهةً معينةً لكي يكون التوجه إليها في أثناء عبادته إلا أن ذلك يرتبط بالضرورة التنظيمية للعبادة، وليس لأن الله تعالى يوجد في تلك الجهة المعينة بالذات ، وقياساً على البشر كذلك زعموا أن لله ولداً ، على حين أن الذات الإلهية تعالت وتنزهت عن مثل هذه الأشياء علواً كبيراً ، وإنه ليس للذين يحاولون أن يصبغوا ديانةً مزيفةً مزعومةً بصبغة دين الله على هذا النحو، ليس لهم عند الله شيء سوى الخزي والعذاب الأليم .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

إن عباد الله الذين أرسلهم الله تعالى لإبلاغ دينه للناس، ظلوا يواجهون نوعاً واحداً من رد الفعل على اختلاف العصور، ويتمثل في التساؤل الآتي : « إذا كنتم مندوبين لله حقاً كما زعمتم، فلماذا إذن لا تملكون من خزائن الدنيا شيئاً ؟! » وإنما كان هذا الشك يختلج في صدور ذوي الاتجاهات والنزعات المادية؛ الذين تنحصر كل معاني العظمة عندهم في مظاهر العظمة المادية وحدها ، ومن هنا فقد كانوا يريدون لمندوب الله أيضاً أن يكون على أوفر نصيبٍ من هذه العظمة ، وإذا رأوا أن حياة الداعية إلى الحق ليست من مظاهر هذه العظمة في شيء، لم يلبثوا أن كذبوه ورفضوا دعوته ، إذ إن عقولهم لا

تدرك أن «رجلاً عادياً» يمكن أن يكون هو الشخص الذي وقع عليه اختيار مالك السموات والأرض لإبلاغ رسالته للناس، ومع أن حياة أولئك الأخيار من عباد الله وكلامهم بحيث تتجلى فيهما آيات الله تعالى واضحة، وبعبارةٍ أخرى إن «العظمة المعنوية» كانت تتوافر فيهم أبلغ ما يكون، إلا أن مثل هذه الأشياء لم تكن تقع تحت أبصار القوم، ولذلك فلم يكونوا يستعدون للاعتراف بعظمتهم وفخامة شأنهم، وبالرغم من كون الدليل موجوداً هناك في أكمل صوره وأنصعها، لم يكن يتحول إلى جزءٍ من أذهانهم؛ لأنه لم يكن يتوافق مع شاكلتهم النفسية والمزاجية.

وقد كان اليهود والنصارى - في قديم الزمان - ممثلين للديانة السماوية، غير أن الدين، بعد ما أصابه الانحطاط، لم يلبث أن تحول إلى مذهبٍ طائفي، فراحوا يعدون الارتباط الدائم بطائفتهم ديناً، والانفصال عن الطائفة مُرُوقاً عن الدين، ومجرد الانضمام إلى طائفتهم أو عدم الانضمام إليها صار لديهم معياراً للحق وغير الحق، ولذا فعندما ظهر الدين أمامهم في صورته النقية الخالصة، لم تكد نزعتهم المذهبية الطائفية تستطيع قبوله أو استساغته، والحقيقة هي أن الدين الخالص لن يتلقاه بالقبول أبداً إلا الذي كانت فطرته لا تزال تنبض بالحياة، وأما الذين انطفأت جذوة فطرتهم ولم يعد فيها نور، فلا أمل يرجى من هؤلاء، ولا يمكن أن يدخل أي نوعٍ من التغيير أو التعديل في الدين رجاء أن يُصبح جديراً بالقبول عند أمثال هؤلاء الناس.

﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

العَالَمِينَ: عالمي زمانكم.

لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ: لا تقضي ولا تؤدي نفس.

عَدْلٌ: فدية.

ابْتَلَى: اختبر وامتحن.

بِكَلِمَاتٍ: بأوامر ونَوْاهٍ.

فَأَتَمَّهُنَّ: أداهن لله تعالى على الكمال .

إن اختيار بني إسرائيل - كأمةٍ - إنما كان من أجل الاضطلاع بمهمةٍ جليلةٍ،تتمثل في قيامهم بدعوة جميع شعوب الأرض إلى الله،وإطلاعهم على حقيقة أنهم محاسبون ومسئولون عند مالكهم عن كل عملٍ يمارسونه في هذه الحياة الدنيا، ولم يزل يُبعث فيهم الأنبياء بين فترةٍ وأخرى لترشيد هذه المهمة وتسديد طريقها، من سيدنا إبراهيم، إلى يعقوب ، ويوسف، وموسى، وداوود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى، .. إلخ - عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه - ولكن ما إن أصيب بنو إسرائيل بالانحطاط والزوال في العصور اللاحقة، حتى حملوا هذه « الفضيلة الوظيفية » على أنها « فضيلة عرقية وطائفية» ففقدوا أهليتهم وجدارتهم .

إن بعثة النبي العربي في السلالة الإسماعيلية كانت - عند بني إسرائيل - إيذاناً بصرف بني إسرائيل عن مركز الفضيلة ، إن الذين كانوا من بني إسرائيل ربانيين حقاً، لم يلبثوا أن عرفوا أن الكلام الذي يقدمه النبي العربي إنما هو كلام منزل من عند الله تعالى ، وأما الذين كانوا قد أحلوا العصبيات المذهبية الطائفية محل الدين فإنه لم يعد بإمكانهم الاعتراف بوجود أية فضيلة خارج ذواتهم ، وقد تم تحذيرهم على لسان النبي العربي أنه في اليوم الآخر لن يكون هناك وزنٍ ولا قيمةٍ إلا للإيمان الحقيقي والعمل الصادق ، نعم! قد يحدث في هذه الدنيا أن يأخذ شخص تبعة شخصٍ آخر على عاتقه، وقد تنفع شفاعة ذي جاهٍ في بعض شئون الحياة، وفي بعض المواقف قد يتمكن المرء من الخلاص عن طريق دفع العوض أو الافتداء بشيء،وقد يصادفه مُعين يقوم بمساعدته على تخليصه مما يكون قد تورط فيه، غير أن أي شيء من هذا النوع لا يغني عن أحدٍ في الآخرة فتيلاً .

إن الآخرة ليست بالوراثة العرقية لطائفةٍ بعينها ، إنما هي يوم العدالة الإلهية التي لا تعرف المحاباة ولا المجاملة ، لم يُمنح سيدنا إبراهيم ﷺ ما مُنح من درجة الفضيلة والشرف إلا بعد أن مر بامتحانٍ عسيرٍ شاقٍ، وبالتالي ثبت كمال صدقه وغاية إخلاصه في طاعة الله تعالى ، وتلك هي سنة الله في أفراد ذريته من بعده كذلك ، فمن يكن منهم تتوافر فيه كل الشروط العملية المطلوبة، سينال حظه من هذا الوعد الإلهي ، وأما الذي لم يتمكن من إثبات جدارته وصلاحيته في ميزان العمل، فسيلاقي المصير نفسه الذي قرره الله تعالى للمجرمين أمثاله، وإذا كان سيدنا إبراهيم ﷺ لم يتم تعيينه في منصب الإمامة إلا بعد اجتيازه بنجاحٍ سلسلةً من الاختبارات الصعبة القاسية للغاية ، فإن هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن منصب القيادة والإمامة لا يتسنى الوصول إليه إلا عن طريق التضحيات وحده، والواقع أن الشخص الذي يختار غايةً أو هدفاً بمقابل تضحياتٍ جسامٍ يكون أسبق وأسرع من غيره في سبيل ذلك الهدف، ولذا فمن الطبيعي أن يكون هو الذي يتولى آخر الأمر زمام قيادته .

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾

مَثَابَةً لِّلنَّاسِ: مرجعا أو ملجأ أو مجمعا أو موضع ثواب لهم .

وَعَهِدْنَا: وصينا أو أمرنا أو أوحينا .

بَيْتِيَ: الكعبة المشرفة بمكة المكرمة .

أَضْطَرُّهُ: أدفعه وأسوقه وألجئه .

كل عامٍ يفد المسلمون إلى بيت الله الحرام، تاركين أوطانهم من جميع أنحاء العالم ، فلا يجوز هنا لأحدٍ أن يبغي أو يعتدي على أي كائنٍ حيٍ ، فقد جُعل حَرَم الكعبة مركزاً دائماً للعبادة، ولذا يكون هناك أقصى اهتمام بتطهيره من كل أنواع الرجس والتلوث، ويُطاف حول الكعبة ، ويتم هناك ذكر الله تعالى بعيداً عن هموم الدنيا وضوضائها، ويُشتغل هناك بالركوع والسجود لله تعالى ، ولقد كانت هذه المنطقة في الزمن القديم أكثر مناطق العالم جَدْباً وأفقرها إلى أسباب العيش؛ لأنها - بسبب أراضيها الرملية التربة وكونها مليئةً بهضابٍ قاحلةٍ جرداء - لم تكن تصلح لأي نوعٍ من الزرع والنبات، وكانت هذه المنطقة غير مأمونةٍ للغاية ، وقبل أربعة آلاف سنةٍ أُمِر سيدنا إبراهيم عليه السلام بأن يذهب بأسرته إلى هذه المنطقة ويُسكنها هناك ، ولقد قام سيدنا إبراهيم عليه السلام بتنفيذ ما أُمِر به تنفيذاً فورياً ومن غير ترددٍ ، وعندما فرغ من نقل أسرته إلى هذه المنطقة الجدباء توجه إلى الله تعالى داعياً:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ وقد استجاب الله تعالى لدعوة إبراهيم، فلم تزل هذه المنطقة نموذجاً رائعاً لوفرة الرزق وانتشار الأمن والسلام في أرجائها.

يجب على المؤمن أن يعيش في هذه الدنيا أينما كان، بحيث لا يغيب عن باله للحظةٍ واحدةٍ أنه راجع إلى الله لا محالة ، وعليه ألا يؤذي أحداً ممن يتعايش معهم في هذه الدنيا، ويجب عليه أن يعلم أن الأرض كلها موضع عبادة الله عز وجل؛ ولذا فعليه ألاّ يُدنسه من أرجاسه وأقذاره ، ويجب أن تدور حياته كلها حول الله سبحانه وتعالى ، وإنه وإن كان يعيش - من حيث الظاهر - في هذه الدنيا،لكن يجب أن يكون قلبه موصولا بالله تعالى متوجهاً إليه دائماً ، وينبغي أن يخضع أمام الله بكامل وجوده ، ثم عليه أن يكون مستعداً تمام الاستعداد لكل ما يقتضيه الدين من تضحيةٍ، حتى ولو كان ذلك ترك الأهل والعيال منفردين في «صحراء مجدبةٍ » وبعدما يفرغ من تنفيذ ذلك فليتوجه إلى الله سائلاً عونه ونصرته، ولا عجب أن يُفجِّر الله لعبده ينابيع الرزق في صحراء قاحلة جدباء.

إن زينة الحياة الدنيا وزخارفها - ولو حصل عليها أحد باسم الدين - لا تدل بالضرورة على أن الله قد اختار صاحبها لمنصب الإمامة والقيادة ، إذ المتاع الدنيوي ليس إلا لغرض الامتحان، وكل بني آدم ينال حظة منه على السواء ، بينما الإمامة تعني أن يتم اختيار عبدٍ من عباد الله ليقوم بتمثيله تعالى بين شعوب الأرض .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾

مُسْلِمَيْنِ لَكَ: منقادين خاضعين مخلصين لك .

مَنَاسِكَنَا: عرفنا معالم حجنا أو شرائعه .

وَيُزَكِّيهِمْ: يطهرهم من الشرك والمعاصي .

لقد قرر الله جل شأنه أن يتخذ من الحجاز مركزاً عالمياً للدعوة الإسلامية ، واختار سيدنا إبراهيم وولده -عليهما السلام - لكي يقوما بإنشاء هذا المركز وتنظيمه ، والكلمات التي كانت تفيض من لسان إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - خلال بناء الكعبة وهي من ناحية دعاء، ومن ناحيةٍ أخرى إعلانٌ بانضمام روحَين اثنين إلى الخطة الإلهية العظيمة ، ومثل هذا الدعاء يكون المقصود الإلهي بالذات ، ولذا فقد تقبله الله تعالى قبولاً حسناً، فانفجرت من الصحراء العربية الجدباء عين الإسلام الأبدية ، وقد جعل الله تعالى قلوب بني إسماعيل راغبةً ميالةً إلى خدمة دينه على وجهٍ خاصٍ؛ مما أدى إلى قيام دعوةٍ إسلاميةٍ منتشرةٍ بينهم ، وبهم أرشد الله تعالى عباده إلى طريق الحياة المرضية عنده، والتي تستوجب إقباله ورحمته على عباده ، ثم بُعث في بني إسماعيل أنفسهم ذلك النبي الخاتم الذي قام - لأول مرةٍ في التاريخ - بتحقيق العمل النبوي في

صورة نموذجٍ تاريخي كاملٍ .

إن أول أعمال النبي ((تلاوة الآيات)) ، ومعنى ((الآية)) : العلامة .. أي الشيء الذي يصلح أن يكون دليلاً على شيء آخر، ولقد أودع الله تعالى فطرة الإنسان وهذا العالم الخارجي، عدداً لا يُحصى من الآيات للوصول إلى معرفته تعالى ، غير أن هذه الآيات توجد في صورة رموزٍ وإشاراتٍ ، ويتناول الرسول تلك الإشارات بالشرح والإيضاح ، فهو يمنح الإنسان ذلك البصر الذي ينظر به في آثار الربوبية متجليةً في كل شيء، والمراد بالكتاب هو ((القرآن)).

إن العمل الثاني من أعمال النبي: أن يكون ((مهبط الوحي الإلهي))، فهو يتلقاه من عند الله تعالى ثم يقوم بإبلاغه إلى الناس ، ومعنى الحكمة : ((البصيرة)) إن المرء حين يظفر بذلك النظر الذي يُبصر به آيات الله تعالى، وحين يقوم بصياغة عقله وعواطفه في قالب التعليمات القرآنية، فيشتعل في داخله نور فكري، ويرتفع مستواه الشعوري إلى مستوى الحقيقة العليا، وعندئذٍ يتمكن من الوصول في كل أمرٍ إلى ذلك القرار الصائب المطلوب عند الله تعالى ، وأما ((التزكية)) فتعني : تطهير شيء من كل العناصر غير الملائمة، حتى يمكنه الوصول إلى كماله الطبيعي في مناخٍ ملائمٍ منسجمٍ ، وآخر ما يستهدف النبي ويسعى جاهداً نحوه هو أن يقوم بإعداد جيلٍ تكون صدورهم معمورةً بالاعتقاد في الله تعالى وحده، وخاليةً من الاعتقاد في كل ما سواه، وأن تكون أرواحهم صافيةً نقيةً متحررةً من العقد النفسية ، وبالجملة فالنبي يعمل على إنشاء أفرادٍ مستعدين ليتلقوا ذلك الرزق الرباني الذي أودعه الله تعالى هذا الكون لعباده المؤمنين به .

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ

حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

يَرْغَبُ عَن: يزهد وينصرف عن .

سَفِهَ نَفْسَهُ: جهلها وامتهنها واستخف بها ، أو أهلكها.

أَسْلِمْ: انقد.أو أخلص في العبادة لي.

الدِّينَ: دين الإسلام صفوة الأديان .

خَلَتْ: مضت وسلفت .

لم تكن دعوة رسول الله ﷺ مختلفةً في حقيقة أمرها عن دعوة إبراهيم عليه السلام غير أن اليهود الذين كانوا يعتزون بكونهم أتباع سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يلبثوا أن صاروا أكبر المعارضين لدعوته ﷺ ، ومردّ ذلك إلى أن الملة الإبراهيمية التي قام النبي العربي بدعوة الناس إليها كانت تتمثل في «الإسلام» وهو يعني الاستسلام المطلق والخضوع الكامل لله سبحانه وتعالى ، ولقد أكد القرآن الكريم أن إبراهيم كان يدين بدين الإسلام، وأنه لم يُوصِ أبناءه إلا بذلك الدين ، وعلى العكس من ذلك فإن الدين الذي عزاه اليهود إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام كان يخلو تماماً من التأكيد على ضرورة الاستسلام والخضوع لله ، حيث الجنة تصير مكفولةً بمجرد أوهامٍ وتخيلاتٍ رخيصةٍ، ولم تكن معها أية حاجةٍ ماسةٍ إلى أن يقوم المرء بتغيير حياته المتحررة المنطلقة من كل القيود والالتزامات ، وإن النجاة - طبقاً لدين النبي العربي ﷺ كان يدور أمرها كله حول العمل وحده ، في حين ظن اليهود أن في مجرد الانتساب إلى «طائفة أصفياء الله» والاعتقاد فيهم كل غنىً وكفايةٍ للحصول على النجاة ، فالدين في نظر الأول عبارة عن التعليمات السماوية، وفي

نظر الأخير عبارة عن مجرد مجموعةٍ طائفيةٍ اتخذت شكلاً معيناً تحت التقاليد العنصرية والتخيلات القومية .

إن الانتساب إلى الصالحين والأتقياء - سواء كانوا ممن مضوا أو ممن لا يزالون على قيد الحياة - ربما يبعث المرء على الاطمئنان بأنه سيُحشر في زمرتهم، وأن نقصان عمله سيتم تلافيه بوفرة أعمالهم ، وقد ذهب اليهود بهذه الأمنية الحالمة إلى أن وضعوا عقيدة «النجاة المتوارثة » وبالتالي عقدوا كل آمالهم على تقديس سلفهم الصالحين ، غير أن هذا ليس إلا خداعاً نفسياً محضاً، إذ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المدثر : ٣٨] ، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام:١٦٤] ، فلا يُسأل أحد عن جرائم غيره،كما لا يكون لأحدٍ نصيب من حسنات غيره.. فكل إنسان ينال جزاءه عند الله طبقاً لعمله.. ومعنى قوله: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] : أنكم - ولا شك - ستواجهون عقباتٍ وصعوباتٍ مختلفةً في طريق الاستسلام لله، وسينهدم صرح آمالكم وتمنياتكم الجميلة ، ولكن - مع ذلك كله - يجب عليكم أن تثبتوا على دين الإسلام إلى آخر أنفاسكم .

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ

نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾

حَنِيفاً: مائلا عن الباطل إلى الدين الحق .

وَالأَسْبَاطِ: أولاد يعقوب أو أحفاده عليه السلام .

صِبْغَةَ اللَّهِ: الزموا دين الله، أو فطرة الله .

إذا كـان رسـول الله ﷺ يـدعو إلى الديانـة الإبراهيميـة نفسـها، التـي كـان اليهـود والنصارى يّدعون انتسابهم إليها ، إذن فما السبب وراء قيامهم في وجهه ومعارضتهم إياه ؟!

إن السبب في ذلك أن الدين – طبقاً لدعوة النبي العربي ﷺ يتمثل في أن يصبغ المرء حياته كلها بصبغة الله تعالى، وأن يجعل من نفسه إنساناً ربانياً مائلاً عن كل الجهات إلى الذات الإلهية وحدها ، وأما الدين عند اليهود – على عكس ذلك – فلم يكـن يعـدو أن يكون مجرد رمزٍ للفخار القومي، وبما أن دعوة النبي العربي ﷺ كانت تمثل الضربة القاضية على عقليتهم الافتخارية، لم يلبثوا أن وقفوا في وجه دعوته، وناصبوه العداء .

ومعنى قوله :﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة : ١٤١] إنه لا توارُث فيما يتعلق بالحق ، لقد زعم اليهود أن ثواب حسنات سلفهم الصالحين مما لا يزالون يتوارثونه كابراً عن كابرٍ، كما ظن المسيحيون أن ذنوب الجيل السابق لا تزال تنتقل بالوراثة إلى الجيل اللاحق، إلا أن كل العقائد من هذا النوع باطلة ،إذ إن كل إنسانٍ يُكافَأ عند الله تعالى على أساسٍ من عمله، وليس على أساسٍ مما أتى به غيره من عملٍ .

ومعنى قوله: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ﴾ [البقرة:١٣٧] إن

الإيمان الحقيقي المطلوب عند الله تعالى هو الذي يكون مماثلاً لإيمان الصحابة، والفارق الجوهري لإيمان الصحابة الكرام مرتبط بالوضع الذي آمنوا فيه في عهدهم، حيث عرفوا النبي محمداً ﷺ وآمنوا به، على حين أنه كان في بداية تاريخه، ولم يكن قد اقترنت بشخصية أمجاد تاريخية بَعْدُ، كما كان الشأن بالنسبة للأنبياء السابقين حينذاك، وهذا يعني أن إقرار الحق المعتد به والجدير بالقبول عند الله سبحانه وتعالى هو الذي يكون المرء قد أدرك الحق في صورته المجردة فأقرَّ به، وأما إذا كان الحق قد تحول إلى تراثٍ قوميٍ، أو صار مُحاطاً بصروح المجد والعظمة نتيجةً للعمل التاريخي، فإن إقرار الحق عندئذٍ لا يكون إقرار الحق في حقيقة الأمر، بل يكون إقراراً بشيء تحول إلى مفخرةٍ قوميةٍ وضرورةٍ تاريخيةٍ لابد منها.

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾

السُّفَهَاءُ: الخفاف العقول: اليهود ومن شاكلهم في إنكار تحويل القبلة.

مَا وَلاَّهُم: أي شيء صرفهم؟

عَن قِبْلَتِهِمُ: عن بيت المقدس.

أُمَّةً وَسَطاً: خيارا. أو متوسطين معتدلين.

يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ: يرتد عن الإسلام عند تحويل القبلة إلى الكعبة.

لَكَبِيرَةً: لشاقة ثقيلة على النفوس.

لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ: صلاتكم إلى بيت المقدس .

إن قضية القِبلة تتصل بمظاهر العبادة،دون حقيقة العبادة،والغاية الأصلية من القبلة تنظيم العبادة عن طريق تحديد جهةٍ معينة لأدائها؛ إذِ الجهات كافةً لله سبحانه وتعالى؛فأيما جهةٍ قررها لعباده ستكون وحدها الجهة العبادية المفضلة لديه؛ سواء أكانت جهة الشرق أم جهة الغرب.. غير أن القبلة الأولى - وهي بيت المقدس - كانت قد اكتسبت نوعاً من القدسية نتيجة استمرار العبادة نحوها لمدةٍ طويلةٍ، مما جعل الكثيرين يواجهون صعوبةً بالغةً في تكوين عقليتهم طبقاً للقبلة الجديدة - أي الكعبة - التي تم إعلانها في السنة الثانية من الهجرة.

وقد اتخذ اليهود هذا الحادث - أي حادث تحويل القبلة - ذريعةً للطعن في شخصية الرسول وإشاعة الأقاويل ضد الإسلام، فقال بعضهم : إن بيت المقدس لم يزل قبلة الأنبياء قاطبةً منذ قديم الزمان؛ إذن فما الذي دعا المسلمين إلى الانصراف عن ذلك ؟!، ومن هنا يبدو أن دعوة الإسلام ليست بدعوةٍ إيجابيةٍ، إنما هي حركة سلبية ترمي إلى مجرد العناد والمعارضة لليهود ، وقال البعض الآخر: إن مدعي النبوة هذا في حيرةٍ وارتباكٍ من أمر رسالته، فيأمر بالتوجه نحو بيت المقدس تارةً، ونحو الكعبة تارةً أخرى !! ومنهم من قال : إذا كانت الكعبة هي القبلة أصلاً، فمعنى ذلك أن الصلوات التي أداها المسلمون من ذي قبل، متوجهين نحو بيت المقدس، قد ذهبت كلها سدىً ودون جدوىً؟! وما إلى ذلك من أقاويل وشبهاتٍ أثارها اليهود عند تحويل القبلة ، غير أن عباد الله الصادقين الذين لم يكونوا متورطين في المظاهر والأشكال الظاهرية، سرعان ما أدركوا أن العبرة ليست بجهة القبلة، بل العبرة كلها بالحكم الإلهي وحده، فالله وحده يحدد القبلة، ولا يسع الإنسان إلا أن يتجه نحوها حالاً ، وقد ورد في الروايات أن النبي ﷺ بعد حوالي سبعة عشر شهراً أُمِر بتحويل القبلة، وكان آن ذاك

يصلي بالمدينة مع جماعةٍ من أصحابه وما إن جاء الحكم الإلهي حتى استدار هو والمسلمون - من جهة بيت المقدس - نحو الكعبة، أي من جهة الشمال إلى الجنوب .

إن تحويل القبلة كان علامةً تشير إلى أن الله تعالى قد صرف بني إسرائيل عن منصب الإمامة ، وعين مكانهم الأمة الإسلامية، وأن الكعبة بدلاً من بيت المقدس ستكون مركزاً عالمياً للدعوة إلى دين الله ، والوحدة الداخلية بين عباده المؤمنين ، ووصف الأمة الإسلامية بـ «الوسَط» يعني أن المسلمين وُسَطاء بين الله وعباده ؛ لإبلاغ الهداية الإلهية إلى الناس كافةً، لأنهم قد اطلعوا على رسالة الله بواسطة الرسول، وقد صار عليهم الآن أن يقوموا بإيصال هذه الرسالة إلى جميع الشعوب والأمم باستمرارٍ حتى قيام الساعة؛ والشأن أن نجاح المسلمين في الدنيا والآخرة على السواء، متوقف كلياً على أدائهم هذا الواجب .

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ: تلقاء الكعبة

المُمْتَرِينَ: الشاكين في كتمانهم الحق مع العلم به.

لقد اعتاد رسول الله ﷺ أن يتبع سنة الأنبياء السابقين في الشئون التي لم تكن قد نزل

فيها الوحي بعدُ، وطبقاً لعادته تلك كان قد اتخذ من بيت المقدس قبلةً له في البداية؛ ذاك لأن بيت المقدس ظل قبلة أنبياء بني إسرائيل قاطبةً منذ عهد سيدنا سليمان - عليه الصلاة والسلام - إلى أن اختار الله نبياً من غير اليهود، وصار من الضروري تبعاً لذلك، أن يتم فصل الدين عما قد التصق به من تقاليد يهوديةٍ؛ حتى يمكن أن يظهر دين الله تعالى في صورته النقية الخالصة من كل النواحي، وكان النبي ﷺ يترقب - منذ نزول الوحي - تحويل القبلة، إلى أن أُمِر بذلك في السنة الثانية من الهجرة .

ولقد كان اليهود عامةً - وعلماء اليهود خاصةً - على إلمامٍ ومعرفةٍ بهذا القرار الإلهي - المتصل بتحويل القبلة -، فقد تم إخبارهم بذلك مسبقاً على ألسنة كل الأنبياء المبعوثين لهدايتهم ، غير أن اليهود لم يعترفوا بصدق النبي ﷺ والإيمان بما أرسله الله به من الدين الحق، ما عدا أفراد معدودين، مثل عبد الله بن سلام ومخيريق - رضي الله عنهما -، وما منع اليهود من الاعتراف والإيمان إلا اتباعهم أهواء النفس، فلم يرغبوا في الخروج من الحلقة المفرغة للأماني الطائفية التي كانوا يعيشون على أساسها ، وإذا كان الإنكار ناشئاً عن اتباع الأهواء فمن المستحيل أن يؤثر فيه أي دليلٍ أو برهانٍ ، فمثل هذا الرجل يتخذ من إنكار الأدلة وسيلةً ليحصل على ذلك الرزق الرباني الذي لا يتأتى إلا لمن يعترف بالأدلة والبراهين .

وعندما يتم إعلان الحق من عند الله سبحانه وتعالى، فإنه يكون مدعماً بدلائل قاطعةٍ، لا يمكن معها لأحدٍ أن يبقى عاجزاً عن التأكد من صدقه وصحته، ففي مثل هذه الحال لن يقع في الشك والارتياب إلا الذين لا يعرفون الله، ولذا فلم يعد بإمكانهم أن يعرفوا كلمة الله تعالى ، وكذلك الذين يلجأون إلى إثارة الأقاويل والألاعيب اللفظية ضد الحق، زاعمين أنهم قد عثروا على دعائم استدلاليةٍ متينةٍ لإنكار الحق، فسرعان ما يعلمون أن اعتمادهم ذاك لم يكن على شيء سوى دعائم خياليةٍ مزورةٍ، قد اقترضتها أنفسهم بحثاً عن سكينتها الكاذبة .

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾

وَيُزَكِّيكُمْ: يطهركم من الشرك والمعاصي.

الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ: القرآن والسنن والفقه في الدين.

لم يكد يتم تحويل القبلة من بيت المقدس نحو الكعبة،حتى أخذ اليهود والنصارى في مناقشاتٍ فارغةٍ عما إذا كانت جهة الشرق هي جهة الله أم جهة الغرب ؟! فقد كانوا ينظرون إلى هذه القضية على أنها مجرد قضية تحديد جهةٍ معينةٍ فحسب،غير أن هذا كان ناشئاً عن جهلهم بحقيقة الأمر ، فاتخاذ الكعبة قبلةً لم يكن قضية تحديد جهةٍ عباديةٍ معينةٍ بالمعنى البسيط، بل كان ذلك علامةً على أنه قد آن الآوان لنزول ذلك الخير الأعظم لعباد الله،الذي قد تم تقريره منذ أمدٍ بعيدٍ جداً، والذي يتمثل - طبقاً لدعاء سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام - في ظهور نبي آخر الزمان ﷺ ،وأنه قد بُعث الآن، ذلك المبعوث الذي سيفتح للناس كافةً، أبواب هداية الله الأبدية وسيبلُغ بنعمة تلك الهداية الإلهية إلى أقصى درجات الكمال والشمول ، وأن دين الله الذي ظل عُرضةً للضياع والتلاشي نتيجةً لغفلة الإنسان وطغيانه،سيتناوله هذا النبي

بجعله محفوظاً في صورته الكاملة إلى يوم القيامة،وأن دين الله الذي يُعدّ مجرد أسطورةٍ تقليديةٍ،سيجعله جزءاً لا يتجزأ من التاريخ البشري حيث هو واقعة حقيقية ثابتة، وأن الدين الذي لم يكن قد تحول بعدُ إلى أسوةٍ عمليةٍ مستقلةٍ،فإنه سيقوم بتقديمه أمام الناس كأسوةٍ عمليةٍ حيةٍ ملموسةٍ، فالواقع أن القضية قضية إكمال الهداية الإلهية،وليس قضية تحديد الجهة الأكثر قداسة من بين الجهات العديدة .

وإنه قد صار من المحتوم، في أثناء بناء الكعبة بالذات، أن الكعبة ستكون مركزاً للدين الذي يُبعث به آخر الأنبياء ، وقد ظل الأنبياء السابقون جميعاً يخبرون الناس بذلك بصورةٍ مستمرةٍ، ومن ثم فإن جَعْل الله الكعبة قبلةً لجميع الأمم والشعوب كان يعني توثيقاً لاعتبار نبي آخر الزمان ﷺ ، فالذين يتمتعون بالجدية لم يعودوا الآن بحاجةٍ إلى أية حجةٍ أخرى بعد هذا الإعلان الإلهي ، وأما الذين لا يخشون الآخرة، فليس هنالك شيء يردعهم عن الخوض في الأمور الباطلة ، فالخائفون من الله جل جلاله هم وحدهم المهتدون إلى سبيل الهداية، وأن ذكر الله الدائم هو وحده الذي يجعل شخصاً مؤهلاً ليذكره الله تعالى، وإن مخافة الله المستمرة هي وحدها الكفيلة بأن يؤمّن الله صاحبها من كل خوفٍ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

وَلَنَبْلُوَنَّكُم: لنختبركم ونحن أعلم بأموركم .

صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ: ثناء أو مغفرة منه تعالى.

الدين هو أن يكون المرء قد وجد خالقه يقضي ليله ونهاره في ذكره وشكره الدائبين، وإن حياةً كهذه هي مصدر كل أنواع السعادة واللذة، غير أن هذه السعادة واللذة لا يفوز بهما المرء في صورتها الحقيقية إلا في عالم الآخرة، إذ لم يجعل الله تعالى هذه الدنيا - التي نعيش فيها - مكان مكافأةٍ وإنعامٍ،بل جعلها دار اختبارٍ وابتلاء، فقد هيأ فيها ظروفاً وملابساتٍ من شأنها أن تقف بمثابة حجر عثرةٍ بين المرء وسيره على خط العبودية لله سبحانه وتعالى،ذلك لكي يُعرف الجادّ في إظهار إيمانه ممن هو ليس بجادّ في ذلك ؛فدوافع النفس، ومطالب الأهل والعيال، ومصالح الدنيا، ووساوس الشيطان، وضغوطات الأوضاع الاجتماعية القاهرة، كل ذلك مما لا يزال محيطاً بالمرء متمثلاً بشتى صور الفتنة والإغراء الخلابة، ومن ثم يتحتم على المرء أن يفطن لهذه الفتن والمغريات حتى لا يقع فيها، وبالتالي يستطيع الوفاء بمطالب الذكر والشكر بشكلٍ مستمرٍ .

وإن الوسيلة الوحيدة لمواجهة هذه العقبات أو المشكلات الاختبارية بنجاحٍ واقتدارٍ هي: الصلاة والصبر، أي الالتجاء الدائم إلى الله تعالى والتشبث به، والثبات الإرادي على الحق، بالرغم من كل ألوان الأذى والمحن التي تعترض سبيله ، والواقع أن الذين لا يزالون صامدين في وجه الظروف غير المواتية، والذين يظلون وثيقي الصلة بالله ولو بدا لهم النفع العاجل في غير الله، هم وحدهم الذين سيُكتب لهم - طبقاً للقانون الإلهي - النجاح والسعادة الأبدية .

والسبب الثاني وراء الصعوبات والمصائب المعترضة في سبيل الحق، يكمن في دور المؤمن الذي يقوم به كداعٍ أو مبلغٍ ، إن عمل الدعوة والتبليغ هو- بعبارةٍ أخرى - عمل النصيحة والنقد، وإن كلاً مِنْ النصيحة والنقد ظل دائماً من أبغض الأشياء إلى الإنسان ، ثم إن أشد الناس حساسيةً بالنسبة للإصغاء إلى النصيحة هم أولئك الانتهازيون الذين يتاجرون باسم الدين ، حيث يُخيل إلى أمثال هؤلاء الناس جميعاً أن بروز شخصية الداعي ورسالته في الساحة، إنما يعني تقليصاً لدائرة نفوذهم وإلغاءً لاعتبارهم ومكانتهم ، فإن وجود الداعي يصبح بمثابة ميزانٍ محايدٍ يتم عليه وزن كل شخصٍ وزناً دقيقاً؛ الأمر الذي يجعل طريق الداعي طريقاً شائكاً محفوفاً بمخاطر

وعقباتٍ لا تُعد ولا تُحصى.

فالداعي - عقب قيامه بدعوته - لا يلبث أن يفقد مركزه الاجتماعي، وأن تتحطم اقتصادياته، وأن تنسدّ كل أبواب الرقي والتقدم في وجهه، وقد تتعرض حياته للخطر .. إلخ، غير أنه ليس على الجادة إلا الذي يُؤذى متهماً بالانحراف عن الجادة، ولا يظفر بالعطاء إلا الذي يفقد في سبيل الله، وليس بحيّ إلا الذي يضحي بحياته في سبيل الله، وليست جنة الآخرة إلا لمن حُرِم من جنة الدنيا لوجه الله تعالى .

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

شَعَائِرِ الله: معالم دينه في الحج والعمرة .

اعْتَمَرَ: زار البيت المعظم على الوجه المشروع .

فَلاَ جُنَاحَ: فلا إثم عليه .

يَطَّوَّفَ بِهِمَا: يدور بهما ويسعى بينهما .

يَلْعَنُهُمُ اللهُ: يطردهم من رحمته .

يُنظَرُونَ: يُؤخرون عن العذاب لحظة .

كان سيدنا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - يقطن بالعراق، وقد خرج - امتثالاً

لأمر الله تعالى - بزوجته هاجر وولَده الرضيع إسماعيل من وطنه، وتركهما في تلك المنطقة التي تعرف اليوم بمكة ، حيث لم يكن بها إذ ذاك ساكن ولا ماء ، وعندما اشتد العطش بهاجر وولدها، خرجت بحثاً عن الماء، وظلت تسعى قلقةً حائرةً بين الجبلين - الصفا والمروة - ولكن دون جدوى، ولما انصرفت عائدةً - بعد سبعة أشواطٍ باحثةٍ - فإذا بعين ماءٍ قد انفجرت بالقرب من مقرها، وهي العين التي اشتهرت - فيما بعد - بزمزم وهذا حادث رمزي؛ يظهر لنا من خلاله كيف تكون معاملة الله تعالى مع عباده المخلصين ، فلو أن عبداً من عباد الله ظل يسير قُدماً في سبيل الله، حتى ينتهي به المسير إلى حيث لم تبق تحت قدميه سوى تربةٍ رمليةٍ مقفرةٍ؛ لفجرّ الله له - بعظيم قدرته - ينابيع الرزق في الصحارى والقفار، وإنما الغاية من السعي بين الصفا والمروة في أثناء الحج والعمرة، هي استحضار ذلك الحدث التاريخي العظيم وتخليد ذكراه .

ولقد كانت حياة رسول الله ﷺ وتعاليمه بحيث تتضمن آياتٍ إلهيةً واضحةً لدرجة أنه لم يكن بالمتعذر على أحدٍ أن يتأكد من أنه نبي مرسل من عند الله تعالى ، غير أن علماء اليهود لم يصدقوه ، ومردّ ذلك إلى الخوف الذي كان يسيطر عليهم؛ لأنهم لو اعترفوا بصدق النبي العربي ﷺ لأصبحت سيادتهم الدينية أثراً بعد عين؛ مما سيؤدي - بالتالي - إلى حرمانهم من كل المنافع المادية التابعة لذلك، فلجأوا إلى سياسة كتمان الحق، حاسبين إياها خير وسيلةٍ لنجاحهم، مع أن سر نجاحهم الحقيقي يكمن في إعلان الحق ، ولقد تجاهل هؤلاء ذلك حينما اتخذوا موقف الإحجام عن الحق وكتمانه.

إن أول وأهم ما يطلبه الله تعالى من عباده هو أن يتقدموا نحو الحق على كل حالٍ من الأحوال، حتى ولو كان ذلك على حساب حرمانهم من كل ما يملكون ، فإن العبد إذا صار محروماً عاطلاً لأجل الحق، ظفر بما هو أكبر من كل شيء على الإطلاق، ألا وهو نصرة الله رب العالمين .

غير أن أبواب الرحمة الإلهية لا تزال مفتوحةً للإنسان في كل وقتٍ؛ لأن الإنسان إذا ارتكب خطيئةً أو ذنباً، ثم استفاق ضميره، وعاد إليه رشده، فاتجه نحو الوجهة

الصحيحة، وقام بإعلان ذلك الأمر الحق الذي يريده الله تعالى أن يتم إعلانه، فإن الله سيعفو عنه ويغفر له، وأما الذين ظلوا قائمين على موقف الجحود وعدم الاعتراف بالحق، وماتوا وهم كذلك، فأولئك سيبعدون عن رحمة الله تعالى إلى الأبد .

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ  ﴾

وَبَثَّ فِيهَا: فرّق ونشر فيها بالتوالد.

وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ: تقليبها في مهابها وأحوالها .

إن إله الإنسان واحد لا غير، وهو وحده جدير بأن يكون مركزاً لتوجهات الإنسان واهتماماته ، والواقع أن وجودنا هذا، وكل ما نتمتع به على وجه الأرض، ليس إلا بفضل أن إلهنا هو مصدر الخير والرحمة والإحسان ، ولذا فينبغي للمرء أن يتخذه - تعالى - معبوداً لنفسه بكل معنى الكلمة؛ بحيث يمارس حياته طبقاً لمرضاته، ويستعذب الموت في سبيله، وأن ترتبط كل آماله وتمنياته بالذات الإلهية وحدها، ارتباطاً وثيقاً دائماً لدرجة أن يصبح الله جل شأنه في نظر الإنسان كل شيء، تماماً كما تكون الأم كل شيء في نظر طفلها الصغير .

وإن هذا الكون الفسيح الممتد أمامنا تعريف رائع بالذات الإلهية وصفاتها الكاملة، فوجود مصنعٍ هائلٍ لا يُدرك مداه؛ كالذي نشاهده في صورة السماوات والأرض؛ يقتضي أن يكون له صانع قام بإيجاده؛ ويقوم بتدبيره وتسييره ، وسير الأشياء والظواهر كلها سيراً متناهياً في الضبط والتناسق والانسجام؛ برغم ما يبدو هنالك من تناقضٍ واختلافٍ شاسعٍ بين ظاهرةٍ وأخرى؛ يقوم دليلاً على أن خالق الوجود ومالكه واحد،

وكون كل أشياء هذا الكون مفيدةً ومحققةً لصالح الإنسان بوجه من الوجوه ، مما يؤكد أن الكون لم يوجد بمحض مصادفة واتفاق ، بل قد تم إيجاده وتصميمه عن قصد، وإرادةٍ حكيمةٍ هادفةٍ ، وسريان الحياة والنضارة والحيوية في داخل الأشياء التي تبدو ميتةً ومضمحلةً، نتيجةً للعملية الطبيعية، مما يشهد على أن الموت في هذا الكون حادث مؤقت وليس بفناءٍ دائمٍ، فما من موتٍ هنا إلا وتتبعه الحياة الثانية بالضرورة، ووجود عددٍ لا يُحصى من الحيوانات المختلفة الأنواع من ماءٍ واحدٍ وغذاءٍ واحدٍ؛ يدل على عظيم قدرة الله تعالى، وإحاطة الهواء بالإنسان من كل جانبٍ وفي كل حينٍ؛ مما يُشعر بأن الإنسان تحت سيطرة خالقه المطلقة والدائمة، فلا يمكنه الفرار من ذلك ألبتةَ ، وكل الموجودات في هذا الكون مسخرةً وفق مقتضيات الحياة الإنسانية، مما يُثبت أن خالق الإنسان ذو رحمةٍ واسعةٍ بلا حدود، فيهتم بتدبيرحاجاته قبل أن يخرج الإنسان إلى حيز الوجود.

وما هذه الآيات المنبثقة في أرجاء الكون إلا تجليات الخالق العظيم في خلقه ، فمن خلال ذلك يظهر ويتجلى الوجود الإلهي، ووحدانيته، واتصافه بجميع صفات الكمال، بصورةٍ واضحةٍ جليةٍ ، لدرجة أنه لا يمكن معها أن يظل أي ذي بصيرةٍ محروماً من مشاهدته، ولا يعجز عاقل عن إدراكه، على أنه لا يُدرك الدلائل إلا الذي يتأمل فيها، والذي يكون جاداً تمام الجدية بالنسبة لمعرفة الحق، والذي لا تتأثر آراؤه وأحكامه بالمصالح والأغراض الذاتية، والذي لا تقف نظرته عند ظواهر الأشياء، بل تتجاوزها حرصاً منه على استكشاف الحقائق الجوهرية العميقة التي تكمن وراء سطوح الأشياء وأشكالها الظاهرية .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا

تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ  ﴾

أَندَاداً: أمثالا من الأوثان يعبدونها .

وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ : تفرقت الصلات التي كانت بينهم في الدنيا

الأَسْبَابُ: من نسب وصداقة وعهود.

كَرَّةً: عودة إلى الدنيا **حَسَرَاتٍ:** ندامات شديدة.

إن الإنسان - بحكم فطرته وأحواله المحيطة به - هو الكائن الذي يتطلع دائماً إلى سندٍ خارجي ، يتمثل في وجود من شأنه أن يمدّه بما يستبدل بضعفه قوةً وبنقصه كمالاً ، والذي يكون عنده موضع الثقة والاعتماد، ويمنح روحه الطمأنينة الصادقة واليقين ، وأن نُشرك أحداً في حياتنا على هذا النحو، يعني اتخاذنا إياه إلهنا ، والمرء إذ يتخذ من وجودٍ ما إلهه فإن ذلك يستتبع تلقائياً أن تصبح كل عواطف الحب والإجلال الجياشة في نفسه خاصةً بإلهه ذاك.

إن دافع الحب كامن بصورةٍ جبليةٍ في صميم الطبيعة البشرية، ومن ثم كان المرء مُجبراً على أن يُحب أحداً حباً شديداً، وإنه من أحبه أحد من الناس هذا «الحب الشديد» هو الذي يكون إله ذلك الشخص ومعبوده ، كما لا يمكن مشاهدة الله بصورةٍ مباشرةٍ في هذه الدنيا؛ فعادة ما يرفع عُبَّاد المظاهر بعض الموجودات المرئية إلى درجة الألوهية؛ تلك التي لا يستحقها أحد غير الله سبحانه وتعالى ، وحينما تتمثل هذه الآلهة الباطلة في أولئك الرؤساء أو الزعماء الذين يكتسبون صفة المرجعيّة للناس، بناءً على ما يمتلكون من الخصائص والسمات الظاهرية ، حينذاك يقوم الإنسان بملء الفراغ الداخلي في فطرته بأحد الرؤساء أو القادة.

ما هو السبب وراء ظاهرة الانحراف هذه ؟ إن السبب هو انخداع الناس عادةً بشيء من البريق الظاهري الذي يحدو بهم اعتبار صاحبه «عظيماً» ، فقد يتأثر الناس غاية التأثر بشخصٍ يرونه يتمتع بمزايا وصفاتٍ غير عاديةٍ ، وقد يصير البعض موضع

إعجاب الناس وإجلالهم نظراً لمنصبه المرموق في المجتمع، وربما ينخدع الناس بشخص عندما يجدون حوله عدداً ضخماً من الأتباع المعجبين به ، وقد تحيط ببعض الناس هالة من القصص والأساطير الغامضة، مما يجعل الآخرين يظنون أنه يمتلك قدراتٍ وقوىً خارقةً غير عاديةٍ ، غير أن الحقيقة أنه ليس ثمة أحد غير الله في هذا الكون يملك أي نوعٍ من العزة أو العظمة، وأن دعاوى الألوهية الباطلة إنما تستمر ما دام الله لا يظهر عياناً، وما إن يظهر الله تعالى للعيان حتى ينقلب الوضع تماماً لدرجة أنه سيفر الكبار وقتئذٍ من صغارهم التابعين، والصغار سيفرون من كبارهم المتبوعين ، وأن العلاقة التي كانت موضع اعتزاز الإنسان في الدنيا، والتي كان يَعُدُّ ولاءه لها وحرصَه عليها أكبر وأنجح وسيلةٍ لنجاته فإنها ستغدو في الآخرة هباءً كأن لم تكن لها أية حقيقةٍ ، وهنا سيقلب الإنسان أوراق حياته الماضية وكله أسىً وندم وحسرة، وحينئذٍ لا يكون بمقدوره أن يفعل شيئاً لتدارك ما فات .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ: بالمعاصي والذنوب .

وَالْفَحْشَاءِ: ما عَظُم قبحه من الذنوب .

أَلْفَيْنَا: وجدنا .

يَنْعِقُ: يصوت ويصيح.

بُكْمٌ: خُرسٌ عن النطق بالحق .

ما هو الشرك؟إنه توحيد عواطف العبودية نحو وجهةٍ أخرى غير الله تعالى، إن الله تعالى هو الضرورة الكبرى اللازمة لحياة الإنسان وسعادته، وعاطفة الالتجاء إلى الله كامنة في الطبيعة البشرية بصفةٍ عميقةٍ لدرجة أنه لا يمكن معها لأي شخصٍ أن يعيش حياةً سعيدةً هانئةً بدون الله تعالى، وإنه ليس ضلال الإنسان هو التخلي عن الله مطلقاً،بل اتخاذه إلهاً مصطنعاً خيالياً مكان الإله الحقيقي، ولذا فقد حرمت الشريعة الإسلامية كل شيء من شأنه أن يُحوّل مجرى عواطف الإنسان الفطرية نحو اتجاه غير الله سبحانه وتعالى.

ولقد جرت عادة الوثنيين على أن يطلقوا بعض البهائم باسم أصنامهم، ويعدون أكل لحوم تلك البهائم السائبة أو الانتفاع بها من أي وجهٍ حراماً ، وما زالت هذه العادة الوثنية جاريةً إلى يوم الناس هذا في شكل « الطائر الوطني » و« الحيوان الوطني » ونحوهما في ظل الحضارة الحديثة المعاصرة ، والشأن أنه ليس تحريم أي شيء على هذا النحو مجرد قضية قانونية بسيطة ، إذ إن شيئاً ما حين يتم تحريمه فإن العامل الرئيسي وراءه يرتبط بأن ذلك الشيء« مقدس» بناءً على أية عقيدةٍ مزعومةٍ، وهذا تدخل مباشر في الحقوق الإلهية ، وإشراك غير الله فيها، فإن ذلك يعني توزيع مشاعر الاحترام والتقديس الفطرية التي هي لله وحده، والتي يجب أن تكون بصفةٍ كليةٍ ودائمةٍ لله تعالى وحده لا غير.

وإنما هو الشيطان الذي يزين للناس مثل هذه التقاليد والأعراف الباطلة،حتى يتمكن من توجيه عواطف الإجلال والتقديس الكامنة في طبيعة الإنسان نحو جهاتٍ شتى، وبالتالي يُضعف صلته بالله جل جلاله .

وحين يُعتقد أن أي شيء غير الله « مقدس» فإن الإنسان المنحرف لا يزال يضيف إليه أوهاماً وتخيلاتٍ مستحدثةً بين الحين والحين ، فقد يوصف «حيوان» بتلك الأوصاف الجليلة التي هي من خصائص الذات الإلهية وحدها، ويُعد ذلك الحيوان

وسيلةً للاقتراب من الله تعالى ، كما يُلتمس منه الخير والبركة، ويُعقد عليه الأمل والرجاء لتذليل العقبات وتحقيق مهمات الأمور ، ثم إذا وصلت هذه العادة إلى الأجيال التالية اعتبرتها سنةً مقدسةً مأثورةً عن الآباء، مما يجعل أي نوعٍ من التأمل والتفكير فيها أمراً مستحيلاً ، حتى يصل الأمر بأولئك القوم في النهاية إلى حيث لا تبقى لديهم أية قدرةٍ على فهم الدليل والبرهان، وكأنهم لا يملكون أعيناً يُبصرون بها، ولا آذاناً يسمعون بها، ولا عقولاً يُدركون بها.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾

وَالدَّمَ: المسفوح وهو السائل .

وَلحمَ الخِنزِيرِ: يعني الخنزير بجميع أجزائه .

وَمَا أُهِلَّ بِهِ : ما ذكر عند ذبحه اسم غيره تعالى من الأصنام لِغَيْرِ الله وغيرها .

اضْطُرَّ: ألجأته الضرورة إلى التناول مما حرم .

غَيْرَ بَاغٍ: غير طالب للمحرم للذة أو استئثار على مضطر آخر .

وَلاَ عَادٍ: ولا متجاوز ما يسد الرمق .

ثَمَنا قَلِيلاً: عوضا يسيرا .

وَلاَ يُزَكِّيهِمْ: لا يطهرهم من دنس ذنوبهم .

شِقَاقٍ بَعِيدٍ: خلاف ونزاع بعيد عن الحق .

المشاعر التي ينبغي أن تنبعث في داخل المرء - وهو يتناول شيئاً من المآكل والمشروبات - هي مشاعر الشكر والطاعة الإلهية، والتي تتلخص في الإحساس القائل : «أننا نأكل من رزق الله طبقاً لحكم الله تعالى» إن هذا الإحساس يوقظ في نفس المرء عاطفة العبودية الإلهية غير أن العقائد المزعومة تُغير من هذه النفسية السامية ؛لأنها تركز اهتمام الإنسان على الخصائص المفترضة للأشياء، ومن ثم فالشيء الذي ينبغي أن يكون مبعث عواطف الامتنان والشكر لله تعالى يصبح موضع الاحترام والتقديس، وهنا يرفع الإنسان مخلوقاً إلى درجة الخالق ، وإنه ليس أساس حرمة شيء هو القدسية المفترضة في ذلك الشيء، أو ما قد نُسب إليه من عقائد خرافيةٍ باطلةٍ.. لا ، بل إن ذلك مرتبط بأسبابٍ أخرى مختلفةٍ تماماً، وهي أن تكون تلك الأشياء نجسةً، وأن تكون مما نصت الشريعة على نجاسته وقذارته، مثل : الميتة، والدم، ولحم الخنزير، أو ما ذُبح للأصنام وذكر عليه اسم غير الله.. إلخ، وقد أُبيح للمرء أن يأكل من المحرمات عند الاضطرار، أي: إذا ألجأته الضرورة القاسية إلى استخدام شيء من ذلك كالجوع أو المرض أو تحت ضغط الظروف الخالصة، ولكن بشرط ألا يتناول المرء الشيء الحرام بدافع الرغبة، ولا يأخذ منه أكثر مما هو يحتاج إليه لسدّ رمقه.

ومثل هذه العقائد الخرافية الباطلة إذا صارت الديانة المفضلة لدى السواد الأعظم، فإن أخوف ما يكون عند العلماء إذ ذاك هو الجهر بالحكم الإلهي في شأن تلك العقائد الرائجة ، ذلك لكيلا يبتعد عنهم الجماهير المعجبون بهم والمعترفون لهم بالسيادة ؛ لأن سياسة التكيّف والانسجام مع اتجاهات العوامّ الضالين والمنحرفين مما يُكسبهم سعة النفوذ والعزة والمنافع المادية الكثيرة في الحياة الدنيا، ولكن أمثال هؤلاء الناس هم من أكابر المجرمين عند الله تعالى ، فإن كتمان الحق من أجل الحفاظ على المصالح الدنيوية الهينة ليس من تلك الخطايا التي سيعفو عنها الله تعالى في الآخرة؛إذ هي جرائم شنيعة لدرجة تجعل المرء محروماً من العناية الإلهية ، ومن بين هؤلاء أنفسهم من هم أبعد ضلالاً وأشد عتواً بالمقارنة إلى غيرهم، وهم أولئك الذين إذا عُرض عليهم الحق، بدلاً

من أن يعترفوا به، أخذوا يُثيرون حوله مناقشاتٍ فارغةً لا طائل تحتها ، وينتهي الأمر بأمثال هؤلاء الناس إلى أن يستيقظ في داخلهم العناد والمكابرة، وبالتالي يصيرون بعيدين عن الحق ولا يعودون إليه أبداً .

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

البِرَّ: هو التوسع في الطاعات وأعمال الخير .

وَابْنَ السَّبِيلِ: المسافر الذي انقطع عن أهله .

وَفِي الرِّقَابِ: في تحريرها من الرق أو الأسر .

وَالصَّابِرِينَ: أخص الصابرين لمزيد فضلهم.

البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ: البؤس والفقر والسقم والألم .

وَحِينَ البَأْسِ: وقت قتال العدو .

لقد اتخذ اليهود من جهة المغرب قبلة عبادتهم، والنصارى من جهة المشرق، وظن كل من الفريقين أن جهته المختارة هي الجهة المقدسة، وأنهم باختيارهم جهة الله المقدسة ذاك، سينالون حتماً أعلى الدرجات عند الله تعالى ، غير أن ليست العبودية الإلهية بأن يستند المرء إلى أية ركيزةٍ مقدسةٍ ، وإنما العبودية الإلهية هي الاعتصام بحبل الله والتمسك به، والعمل الديني لا يتمثل في مظهرٍ شكليٍ ، ولكنه - من حيث حقيقته وجوهره - يعني أن يظفر المرء بالله الذي هو نور السماوات والأرض، والذي هو

أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ، وإن الشيء الذي يحظى بالقبول عند الله ليس بمظاهر أو رسومٍ شكليةٍ، وإنما العمل الذي يؤديه المرء بكامل وجوده خالصاً لوجه الله تعالى ، والعبد المقبول عند الله الذي يكون قد وجد الله بحيث يستقر الله في أعماق وجوده بأكمله ويصير جزءاً عميقاً لا يتجزأ من وعيه وشعوره، ولا تغيب فكرته في أي وقتٍ عن ذاكرته ومخيلته ، والذي يصبح الله المالك المتصرف في مكاسبه وثرواته، والمهيمن على مسلكه وتصرفاته، فالإنسان المؤمن هو الذي يتمسك بالله ربه بأقصى قوته حتى لا ينفلت حبله تعالى من يده، مهما اشتدت وطأة الظروف والأوضاع ، وتفاقم ظلام الحوادث ، والحقيقة هي أن حق الله جل شأنه إنما يتم تأديته عن طريق طاعته الكاملة والولاء الصادق له، وليس بمجرد التوجه نحو جهة كذا وكذا، فالإيمان بالله هو أن يتخذ المرء من الله تعالى كل شيء لنفسه .

والإيمان بالآخرة هو أن تصير الآخرة في نظر الإنسان القضية الحياتية الكبرى والأصلية بدلاً من قضايا الدنيا .

والإيمان بالملائكة هو الاعتقاد بوجود أولئك المأمورين الإلهيين الذين يقومون بتدبير شئون الدنيا وفق مشيئة الله العليا.

والإيمان بالكتاب هو أن يُقر المرء بأن الله قد بعث بهدايته إلى البشرية جمعاء، ولكي يسعد الإنسان في الدنيا والآخرة لا يسعه إلا أن يقود مسيرة حياته في ضوء هذه الهداية الإلهية.

والإيمان بالنبيين هو الاعتراف والتصديق بعباد الله الذين اختارهم الله تعالى لإبلاغ رسالته إلى الناس كافةً .

هذا، وينبغي أن تترسخ هذه المقومات الإيمانية في نفس المرء وتتغلغل فيه بصورةٍ عميقةٍ، حتى يُعطي الإنسان ماله للمحتاجين، ويأخذ بأيدي البائسين والأشقياء من بني جنسه؛ لينقذهم مما هم فيه من تعاسةٍ وسوء حالٍ، بدافع الحب الخالص لله ، ابتغاء

مرضاته تعالى .

إن الصلاة خضوع مطلق أمام الحق سبحانه وتعالى ، وإيتاء الزكاة اعتراف المرء بحصة الله المستقلة في ثروته المالية ، وإن عبداً كهذا كلما عاهد عهداً فليس من شأنه أن يهم بنقضه أو إخلافه ، إذ هو يعتقد أن كل عهدٍ إنما هو عهد الله تعالى، وإن ثقته بالله واعتماده عليه يكون قوياً لدرجة أنه لا يضعف ولا يستكين في مواجهة أية أزمةٍ - ماليةً كانت أو بدنيةً - حتى ولو دارت دائرة الحرب، فهو يظل ثابتاً مستقيماً على سبيل الطاعة والعبودية الإلهية على كل حالٍ وفي كل حينٍ ، والمؤمن الصادق هو الذي تتوافر فيه هذه الصفات العليا، والمؤمن الصادق إنسان يتميز بحذره البالغ وخوفه الدائم من الله جل شأنه، وليس المتجرد من تقوى الله وخشيته استناداً إلى أية ركيزةٍ أو دعامةٍ باطلةٍ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ (١٧٨) وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ (١٧٩) كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (١٨١) فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (١٨٢) ﴾

كُتِبَ عَلَيْكُمُ: فرض عليكم .

عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ: تُرك له من ولي المقتول .

تَرَكَ خَيْراً: خلف مالاً كثيراً .

الوَصِيَّةُ: نسخ وجوبها بآية المواريث .

جَنَفاً: ميلاً عن الحق خطأ وجهلاً.

إِثْماً: ارتكاب للظلم عمدا .

شرع الإسلام مبدأ القصاص بشأن قضية القتل،ومعنى ذلك أن يُعامل القاتل بمثل ما عامل به المقتول ، ولقد تضمن هذا التشريع فائدتين كبيرتين، أولاهما: أن يتم استئصال شأفة جريمة القتل؛ فإن المرء سيرتدع عن إزهاق روح الغير حرصاً على حياته، وبالتالي تصبح حياة الجميع مصونةً من البغي والاعتداء، والفائدة الثانية : إخماد عواطف الثأر والانتقام الملتهبة في نفوس ورثة القتيل، حتى لا يندفعوا إلى اتخاذ أية خطوةٍ سلبيةٍ جديدةٍ تصيب المجتمع بالخراب والدمار غير أن القصاص في الإسلام ليس بأمرٍ محتومٍ أو إلزامي، بل أمر قابل للتراضي والمصالحة بين الطرفين، فأولياء القتيل إن شاءوا قُتل القاتل، وإن شاءوا أخذوا الدية، وإن شاءوا عفوا عن القاتل عفواً مطلقاً، وإنما الغاية الرئيسية من هذا التخيير أو التخفيف - على حد التعبير القرآني - هي أن يظل المجتمع الإسلامي بحيث يسوده دائماً الشعور بالإخاء والتآلف والمودة بين أفراده بعضهم نحو بعضٍ ، ولا ينشأ فيه أبداً جو الشحناء والتباغض بين أفراده، كما أن مبدأ «الدية» ينطوي على فائدةٍ خاصةٍ وهي أن ورثة القتيل يحصلون عن هذا الطريق على عوضٍ ماليٍ عن فقيد أسرتهم .

ومن المشكلات التي تنشأ في إثر وفاة أحدٍ من الناس مشكلة ميراثه الذي يخلفه .. وقد عالج التشريع الإسلامي هذه المشكلة بإقرار مبدأ «المعروف» في توزيع ميراث الميت على أقربائه ، وكأن هذا التوزيع بالمعروف هو تقوى المال، فإذا تم إعطاء كل فردٍ من أقرباء الميت ما يستحقه من تركته، ساد المجتمع كله استقرار شامل؛ لأنه بعد أن نال كل ذي حقٍ حقه، صار في مأمنٍ من أي اضطرابٍ ناشئٍ عن تنازع أفراد إحدى الأُسَر في الاستئثار بما خلفه الميت من مالٍ أو عقارٍ ، وربما يكون أحد أفراد الأسرة غير

مستحق لوراثة الميت من الناحية القانونية، غير أنه يكون مستحقا لذلك من الناحية الأخلاقية، ففي مثل هذا الوضع ينبغي للميت أن يسد هذا الفراغ بالوصية ، (ومما يلاحظ أنه قد اقتصر هنا على الأمر بالوصية طبقاً للمعروف فيما يتصل بالوراثة، في حين تم تحديد حصة كل أحدٍ من الورثة بصورةٍ قانونيةٍ محددةٍ في سورة النساء، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾

يُطِيقُونَهُ: يستطيعونه ، والحكم منسوخ بآية ﴿ فَمَن شَهِدَ ﴾ [البقرة:١٨٥].

تَطَوَّعَ خَيْراً: زاد في الفدية.

وَلِتُكَبِّرُوا الله: لتحمدوا الله وتثنوا عليه .

الصوم هو تربية عملية لشيئين اثنين في آنٍ واحدٍ، أولهما: الشكر، والثاني: التقوى، فالطعام والماء نعمتان عظيمتان من نعم الله سبحانه وتعالى ، غير أن المرء لا يعرف قدر هاتين النعمتين حق قدرهما في الظروف العادية ، أما في حالة الصيام، إذ يُمسك المرء نفسه عن تناول الماء والطعام طوال النهار، حتى يبلغ منه الجوع والعطش كل مبلغ، ثم يتناولهما عقب غروب الشمس، ففي تلك اللحظة يشعر المرء بمدى عظمة هذه النعم

الإلهية المتمثلة في الطعام والشراب ، وهذه التجربة تملأ كيانه الداخلي كله بمشاعر فياضة من الامتنان والشكر لربه المنعم الوهاب .

كما أن الصوم - من جانبٍ آخر - تهيئة للإنسان لممارسة التقوى ، وما هي التقوى؟ إن التقوى هي أن يجتنب الإنسان محارم الله تعالى في سائر مجالات الحياة الدنيا، بحيث يظل دائماً بعيداً عن كل ما نهى الله عنه، ولا يفعل إلا ما أمر الله به أن يُفعل؛ وإذ يكتفي الإنسان فعلاً في أيام الصوم، بتناول الطعام في آناء الليل فقط، ويكف عن الأكل والشرب في أوقات النهار، فكأنه يتلقى بذلك تدريباً عملياً على اتخاذ الله عز وجل رقيباً ومهيمناً على نفسه ، والحقيقة أن حياة الإنسان المؤمن بأكملها نوع من الحياة الصائمة المتواصلة، إن تكليف المرء في شهر رمضان بالامتناع عن بعض الأشياء المعينة لفترةٍ محددةٍ، إنما يستهدف تربيته وترويضه على أن يمتنع ويتخلى في حياته كلها عن جميع تلك الأشياء التي هي مبغوضة عند الله ربه .

والقرآن هو إنعام الله على عبده، أما الصوم فاعتراف عملي من قبل العبد بهذا الإنعام الإلهي العظيم ، وعن طريق عبادة الصوم يجعل العبد من نفسه أهلاً للقيام بواجب الشكر لله تعالى، كما يكتسب أيضاً الاستعداد العملي لممارسة حياة التقوى والعفاف وفق المنهج الرباني الذي رسم القرآن حدوده وأبعاده وأوضح معالمه .

ومن آثار الصوم أنه يلين القلوب ويزيدها رقةً وخشوعاً وانكساراً، وهو بذلك يجعل المرء مستعداً لكي يستشعر تلك الكيفيات السامية التي يطلبها الله تعالى من عباده، والصوم رياضة شاقة تؤهل المرء لكي يمتلئ صدره شوقاً وتلهفاً لتأدية شكر الله،ويهتز كيانه النفسي من خشية الله وجلاله، وعندما يبلغ المرء هذه الحالة النفسية،فحينئذٍ فقط يمكنه أن يشكر الله على نعمه الوفيرة شكراً تمتزج به نبضات قلبه،وأن يمر بتجربة التقوى،تلك التي يقشعر لها جلده،وأن يُدرك العظمة الإلهية بصورةٍ يتضاءل أمامها وجوده إلى أقصى الحدود.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ

فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

الرَّفَثُ: الوقاع .

هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ: سكن أو ستر لكم عن الحرام .

حُدُودُ الله: منهياته ومحرماته.

وَتُدْلُوا بِهَا: تلقوا بالخصومة فيها ظلما وباطلاً.

إن الصوم ممارسة عملية للصبر، والصبر يعنى تحمل الصعاب والشدائد في سبيل الامتثال لأوامر الله تعالى، ويزيد الإنسان تقرباً إلى الله تعالى، وتفيض من لسانه كلمات القبول عند الحق سبحانه وتعالى، ولا يظفر بالله جل شأنه إلا الذي يُسلم نفسه لله عز وجل، وإنما تصل إلى الله تبارك وتعالى كلمات شخصٍ قد وصل أوتار قلبه بالحقيقة الإلهية.

وشريعة الإسلام شريعة فطرية، ولذا فهي لا تُلزم المرء بقيودٍ أو التزاماتٍ لا تتفق وفطرته الإنسانية ، ويدخل في هذا الإطار إباحة الاتصال الجنسي في ليالي الصوم وحظره في أوقات النهار، وجعل المشاهدة العامة هي القاعدة بخصوص معرفة مواعيد

السحور والإفطار بدلاً من فرض الاعتماد على التقاويم ، ولقد أوضح الله تعالى معالم دينه الرئيسية وأبرز حدوده العامة، ثم أتاح للإنسان بعد ذلك حرية التصرف والاختيار في مجال الأمور الفرعية، فينبغي للإنسان ألا يتخطى هذه الحدود الإلهية، وأن يتخذ بإزاء الجزئيات - أو الفروع التفصيلية - موقفاً يتفق مع روح التقوى والخشية من الله تعالى، وإن تعقيب أحكام الصوم في هذا المقام بالنهي عن « أكل الأموال بغير حق » يقودنا إلى اكتناه حقيقة الصيام وجوهره لأن الغاية الأصلية من الصوم هي تأهيل الإنسان للقيام بطاعة الله وتنفيذ أوامره على كل حالٍ وفي كل حينٍ ، فيُمسك نفسه عن كل شيء ينهى الله عنه، حتى ولو كان من جملة المباحات، كما يكون في الصوم، إذن فإن الشخص الذي امتنع عن تناول الكسب الحلال، نزولاً على الأمر الإلهي، كيف يمكن ألا يمسك نفسه عن الكسب الحرام إذعاناً لأمر الله ذاته ؟!

إن حياة المؤمن نوع من الحياة الصائمة المتصلة، فعمره كله مُوزَّع بين « الإفطار الدائم » ببعض الأشياء وبين « الصوم الدائم » عن بعض الأشياء الأخرى، وشهر رمضان ليس إلا فترة التربية لذلك ، والدرس الذي يتلقاه الإنسان من خلال رياضة الصوم الشاقة وحياته المنضبطة، يتلخص في أن العابد الحقيقي لله تعالى إنما هو الإنسان الذي يعبد الله عز وجل، ولا يدعو الله إلا الذي يتقرب منه جل شأنه بالتضحيات .

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾

ثَقِفْتُمُوَهُمْ: وجدتموهم وأدركتموهم.

وَالْفِتْنَةُ: الشرك بالله وهم في الحرم.

عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ: في الحرم كله.

إن ظاهرة ازدياد القمر وانتقاصه هي لمعرفة الأوقات والتواريخ، وليست - كما يزعم المخرفون وعُباد الأوهام من الناس - لأن ليالي ازدياد القمر هي ذوات بركة وليالي انتقاصه نحسات، لا، بل إنما هو تقويم الطبيعة يظهر في السماء لكيما يقرر الناس في ضوئه أنظمةً لعباداتهم وشئونهم الحياتية الأخرى، وهكذا كثير من الناس يزعمون بعض الرسوم الشكلية تديّناً، كما كان العرب في الجاهلية إذا أحرموا للحج وخرجوا من بيوتهم مرةً لم يدخلوها ثانياً من أبوابها، بل تسوروا الحائط من ظهر البيت، ثم دخلوا فناءَه؛ وذلك بناءً على اعتقادهم بأنه بعد تمام إحرام المرء للحج لا ينبغي أن يحول بينه وبين السماء شيء، فإن ذلك مناقض لآداب الإحرام، غير أن التدين ليس عَلَماً على مثل هذه الآداب الشكلية، إنما التدين هو أن يخشى المرء من الله تبارك وتعالى، ويلتزم بحدوده المقررة في حياته العملية. والمؤمن مطالب بأن يكون مجاهداً لأجل الدين، بجانب كونه متبعاً وممارساً لأحكام الدين وإن الجهاد الذي ورد ذكره في هذا المقام هو الجهاد الذي وقع في زمن رسول الله ﷺ حيث فَقَد مشركو العرب حق الحياة نتيجةً لإنكارهم للدعوة النبوية بالرغم من إتمام الحجة عليهم، هذا بالإضافة إلى مبادرتهم الفعلية باستخدام وسائل العنف والقوة ضد أهل الإسلام، مما جعل القيام بالهجوم العسكري ضدهم أمراً لا غضاضة فيه، ولذا فقد أمر الله المؤمنين بحمل السيف ضدهم. ومعنى قوله: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ أن يتم القضاء النهائي على الشرك في جزيرة العرب، ولا يبقى هناك أي دينٍ آخر غير دين

التوحيد ، ومن خلال تنفيذ هذا الحكم جعل الله تعالى جزيرة العرب مركزاً دائماً للتوحيد .

وأُذِن لأهل الإيمان بالحرب والقتال في حالةٍ واحدةٍ فحسب؛ وهي عندما يكون الطرف المعارض قد بدأ بالهجوم فعلاً ، ثم إذا تمكن أهل الإيمان من الانتصار والغلبة على العدو بأنْ يضع العدو سلاحه فلا يُؤاخذ ولا يُعاقب على جرائمه السابقة ، وإنما يُعاقب الشخص الذي يرتكب جريمةً تقتضي العقوبة والتعذيب، والأمر بالقتل في الظروف العادية ليس كالأمر بالقتل في الظروف الخاصة بالحرب والقتال .

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾

وَالْحُرُمَاتُ: ما تجب المحافظة عليه .

التَّهْلُكَةِ: الهلاك بترك الجهاد والإنفاق فيه .

على أن القتال في الأشهر الحرم - وهي : المحرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة- أو عند حدود الحرم المكي هو إثم كبير، غير أن معارضي الإسلام إذا ما انتهكوا هذه الحرمة للقيام بتحركاتٍ عدوانيةٍ ضدكم، فيحق لكم أيضاً أن تقاوموهم غير مراعين لتلك الحرمات على وجه القصاص ، ولكن ينبغي ألا يدفعكم بغض العدو إلى التجرد عن تقوى الله في معاملته، ولا تبدءوا بانتهاك أية حرمةٍ من عند أنفسكم ، ولا تتخذوا أية خطوةٍ تتجاوز أكثر وأبعد مما يقتضيه الحال ، ولا يظفر بنصرة الله وتأييده إلا من يظل واقفاً عند الحدود الإلهية المقررة وملتزماً بها حتى في أشد الظروف إثارةً واستفزازاً .

ما الفرق بين الظلم والقصاص ؟ الفرق بينهما أن القصاص يكون متساوياً مع

اعتداء الطرف الآخر كماً وكيفاً، أما الظلم فهو تجاوز هذه القيود والالتزامات ، وعدم التقيد بها، ولا يجوز لأحدٍ أن يصيب غيره بشيءٍ من الأذى أكثر مما أصابه ، وليس من التقوى في شيءٍ أن يقابل الرجل كلمة نصحٍ وُجهت إليه فساءته بتوجيه الشتائم إلى الناصح والاستهزاء به؛أو أن يستخدم العنف والقوة،رداً على لذعة من لذعات اللسان والقلم، وكذلك التسبُّب في الخسائر البدنية والروحية مقابل الخسائر المالية،والجروح الأكبر حجماً وخطورة مقابل الجروح الأقل خطورةً، وإزهاق نفوسٍ كثيرةٍ مقابل نفسٍ واحدةٍ؛ كل ذلك مما يدخل في إطار الظلم، وإذا كان المسلم قد أبيح له القصاص، فإن الظلم غير مباحٍ له ألبتة في حالٍ من الأحوال .

إن الشيء الذي يتطلبه الكفاح في سبيل الله أكثر من كل ما سواه هو ((المال)) ، ومما لا شك فيه أن التضحية بالمال أصعب وأشق ما يكون على الإنسان ، ومن هنا فقد أمر الله المسلمين أن يهتموا بعمل الله اهتمامهم بأعمالهم الذاتية،وأن يُكثروا من البذل والإنفاق في سبيله،حتى يستطيعوا إنجاز هذه المهمة الإلهية في أحسن صورة.

والمراد بقوله : ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ هو البخل ، أي لا ينبغي أن تمسكوا بأيديكم عن النفقة في سبيل الله تعالى ، فإن الشعور بالحرج وضيق النفس في الإنفاق مستلزم لهلاك الدنيا والآخرة معاً ، وقد يحسب الإنسان أن بذل المال مما يؤدي به إلى الهلاك ، أما الحقيقة فهو أن عدم الإنفاق في سبيل الله هو الهلاك بعينه؛ لأن الإنسان إذا امتنع عن تفويض ما عنده إلى الله عز وجل، لم يستحق أن يُخوّله الله تعالى شيئاً مما عنده، وذلك هو الخسران المبين .

الإنسان الذي لا يرى وجهاً لاستخدام ثروته عدا حاجات نفسه أو حاجات أهله وعياله، يعده القرآن إنساناً هالكاً، وبدلاً من ذلك يؤكد القرآن الكريم أن الوجه الصحيح لاستخدام الثروة هو صرف القسط الأوفر منها في مقتضيات الدين ، إن بذل المال في تحقيق الطموحات والرغبات الذاتية فحسب مما يستوجب الغضب الإلهي على

الفرد والمجتمع، وعلى العكس من ذلك فإن المال إذا تم إنفاقه في سبيل دين الله تعالى، استحق الفرد والمجتمع كلاهما نصرة الله ورحمته؛ والباذل يعود عليه بذله بما لا يُحصى من فوائد دنيوية أيضاً بالإضافة إلى فوزه بثواب الله في الآخرة.

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (١٩٦) ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩٧) ﴾

أُحْصِرْتُم: منعتم عن الإتمام بعد الإحرام.

فَمَا اسْتَيْسَرَ: فعليكم ما تيسر وتسهل.

مِنَ الْهَدْيِ: مما يُهدى إلى البيت من الأنعام.

وَلاَ تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ: لا تحلوا من إحرامكم بالحلق.

يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ: مكان وجوب ذبحه (الحرم) أو حيث أحصرتم (حلا أو حرما)

فَفِدْيَةٌ: فعليه إذا حلق فدية.

نُسُكٍ: ذبيحة، والمراد هنا شاة.

مِنَ الْهَدْيِ: هو هدي المتمتع

فَرَضَ: ألزم نفسه بالإحرام .

فَلَا رَفَثَ: فلا وقاع ، أو لا إفحاش في القول . وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ: لا خصام ولا مماراة ولا ملاحاة فيه.

مع أن عرب الجاهلية أيضاً كانوا يمارسون الحج، ولكن الحج عندهم كان بمثابة طقسٍ قوميٍ أو موسمٍ تجاريٍ،وليس بعبادة لله الواحد إلا أن العبادة - سواء كانت الحج أو العمرة أو ما عداهما من العبادات - لا تكون لها قيمة إلا إذا أُدّيت خالصةً لوجه الله سبحانه وتعالى، وإن الإنسان الذي يكون عابداً لله في حياته اليومية، حين يقوم لتأدية عبادة الله تعالى، فإن كيانه النفسي كله يتركز عليها؛ فهو يمارس إذاً عبادةً تكون في ظاهر أمرها مجموعةً مؤلفةً من عددٍ من الآداب والمناسك، إلا أنها من حيث جوهرها وحقيقتها الداخلية تمثل جعل العبد نفسه أمام الله عز وجل، ذلك العبد الذي يخشى الله تعالى حق خشيته، والذي تصبح قضية الحساب والمؤاخذة في عالم الآخرة هي القضية الكبرى في حياته الدنيا.

إن المؤمن هو الإنسان الذي لا يعيش لأجل الشهوة والذي يجتنب معصية الله في كل شئونه، ويظل بعيداً عن الخصومات والمنازعات في مجال الحياة الاجتماعية ، وبما أن رحلة الحج هي فرصة ملائمة جداً لتربية هذه الصفات الخلقية، تم فيها التأكيد على ذلك بصفةٍ خاصةٍ ، وبما أن الحج رحلة ، فيتركز كل اهتمام الناس أو جُلّه على أخذ أهبة السفر وزاد الطريق فقط بينما التقوى أفضل وأعظم ما يتخذ منه مسافر الله زاداً ، ولا يمكن أن تتحد مشاعر الرجلين الداخلية خلال السفر، فيما إذا كان أحدهما قد خرج آخذاً معه كل ما يحتاج إليه في سفره من عُدةٍ ومتاعٍ وكفى، وأما الآخر فقد خرج ورأس ماله هو تقوى الله وصدق التوجه إليه جل شأنه .

وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) ﴾ يتضمن الإشارة إلى أن التقوى شيء له علاقة بالعقل، فالتقوى إذاً ليست عَلَماً على سمتٍ أو مظهرٍ خارجيٍ، إنما هي حالة

تعتري العقل أو الوعي وتسري فيه ، إن الإنسان حينما يظفر بالله ربه على مستوى الوعي والشعور، فإن ذهنه لا يلبث أن يمتلئ بجلال الله وروعته جل وعلا .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) ﴾

جُنَاحٌ: إثم وحرج .

فَضْلاً: رزقا بالتجارة والإكتساب في الحج .

أَفَضْتُمْ: دفعتم أنفسكم بكثرة وسرتم .

المَشْعَرِ الحَرَامِ: مزدلفة كلها أو جبل قُزَح .

مَّنَاسِكَكُمْ: عباداتكم.

مِنْ خَلاقٍ: نصيب من الخير أو قدر .

فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً: النعمة والعافية والتوفيق .

وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً: الرحمة والإحسان والنجاة .

إن التقوى هي الأصل والجوهر، فإذا كانت هذه الحالة المطلوبة تتوافر في نفس أحدٍ من الناس فلا يضيره معها شيئا أن يشتغل بالتجارة وكسب المعاش خلال أيام الحج، أو أن يحدث تقديم أو تأخير في تأديته لبعض مناسك الحج، والجو الذي ينبغي أن يكون سائداً في أثناء الحج، هو جو الخشية الإلهية، وذكر الله، والشكر على آلاء الله ونعمه، ومشاعر الخضوع والاستسلام لله تبارك وتعالى، ولا ينبغي أن يصدر خلال الحج أي عملٍ يناقض هذه الكيفيات السامية، وعلى سبيل المثال: تميّز بعض الأفراد أو الجماعات عن الآخرين في أسلوب تأدية العبادة، وذكر محامد الآباء والأجداد، وهو نوع من إظاهر الذات وتمجيدها بصورةٍ غير مباشرةٍ، إن هذه الأشياء وأمثالها غريبة كل الغرابة ومبتوتة الصلة عن عبادة الحج، التي تؤكد مبدأ المساواة بين بني البشر جميعاً أمام رب العالمين، والتي يتم فيها إعلان أن العظمة والكبرياء كلها إنما هي لله تبارك وتعالى وحده، فإذا انقضت أيام الحج دون أن يتلقى المرء فيها التربية الفعلية لهذه الأمور، فهيهات أن يتسنّى له القيام بها في الفترة الباقية من عمره.

إن الأدعية، ولا سيما أدعية الحج، هي تعبير أو إظهار لحالة المرء الداخلية، فإن كان أحد الناس يعيش في هذه الدنيا، وقلبه مليء بروائع الآخرة، فإن الأدعية التي تفيض وتتدفق من باطنه في مواقف الحج، ستكون بالطبع منصبةً على الآخرة، وعلى العكس من ذلك فإن الشخص الذي تكون الدنيا وزينتها قد أخذت من قلبه كل مأخذٍ، وصارت هي أكبر همه في الحياة، فسيكون المتاع الدنيوي أول وأكثر ما يطلبه من ربه في مناسبة الحج أيضاً، وأفضل الدعاء أن يدعوا الإنسان ربه قائلاً: ((يا رب! أعطني في الدنيا ما تراه أنت خيراً لدنياي، وأعطني في الآخرة ما تراه أنت خيراً لآخرتي، ونجني من سخطك وعذابك!)).

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ هذا هو أكبر درسٍ يتلقاه الإنسان من خلال الحج؛ والذي يتم إلقاؤه في ميدان عرفات حيث يجتمع ملايين البشر من كل أنحاء العالم في وقتٍ واحدٍ.. إن اجتماع عرفات هو تمثيل لاجتماع يوم القيامة.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

أَلَدُّ الخِصَامِ: شديد المخاصمة في الباطل .

الحَرْثَ: الزرع .

أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ: حملته الأنفة والحمية عليه .

فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ: كافيه جزاء نار جهنم .

وَلَبِئْسَ المِهَادُ: لبس الفراش والمضجع جهنم.

يَشْرِي نَفْسَهُ: يبيعها ببذلها طاعة الله.

الناس دائماً يُعجبون بكلام رجلٍ يتخذ من المصلحة دينه؛ ذاك لأنه يتحدث إلى الناس بالمحبّب إلى نفوسهم، وليس بالحق وما هو غير الحق، وبما أنه لا يستند في قوله وفعله إلى أي مقياسٍ مستقل دائم، فهو يختار في كل مناسبةٍ أسلوباً يؤثر على مخاطبه ويتفق مع هواه، وبتغير المخاطب والمناسبة، تتغير أساليب كلامه، الأمر الذي يجعله يتكلم بأحاديث شاقةٍ معسولةٍ من لسانه، ولو كان قلبه خالياً كل الخلو من أية عاطفةٍ إنسانيةٍ صادقةٍ ، وولاءٍ حقيقي للحق، دون أن يشعر بوخزة ضميرٍ أو تأنيب نفسٍ .

وما هو السبب في أن رجلاً كهذا يبدو «مصلحاً» فيما إذا كان على مسرح الكلام والحديث، في حين أن تصرفاته في ميدان الحياة العملية إنما تكون باعثةً على الفساد لا على الإصلاح ؟! السبب في ذلك هو التناقض الذي يعيشه، إن النتائج العملية تتمخض دائماً عن العمل دون الألفاظ ، فعلى أنه يتفوه من لسانه بكلماتٍ تشهد بغيرته

الشديدة على الحق وفنائه في سبيله، غير أن عمله يكون دائماً تبعاً لمصلحته الذاتية وحدها، ومن ثم ينشأ تضاد أو تناقص بين قوله وفعله ، فما إن ينصرف عن مكان القول، ويتجه إلى مكان العمل، حتى تضطره دواعي مصلحته إلى اتخاذ خطواتٍ وتحركاتٍ لا تُنتج إلا الخراب والدمار، فيستغل الآخرين لأجل منافعه الذاتية، وهو يُخدّر الناس بأحاديث عاطفيةٍ مثيرةٍ للحصول على الشعبية والحظوة لدى الجماهير، و لا يجد غضاضة في أن يقيم صرح قيادته على حساب الصالح العام للأمة، ويمارس سياسة التخريب؛ إذ هي تمكنه من أن يستتبع جموعاً غفيرةً من العوام السذج بسهولة ، إن هذا الصنف من الناس باعوا حياتهم مقابل منافع الدنيا ومصالحها ، فهم لا يتلقون الحق بالقبول، ولو ظهر الحق أمامهم بصورةٍ واضحةٍ جليةٍ؛ لأنهم يرون ذلك مما يؤدي إلى تقليص ظلهم وإسقاط اعتبارهم ومكانتهم، ولذلك يسلكون في الحياة مسلكاً مزدوجاً : يتحدثون بكلامٍ لينٍ معسولٍ ولكن تختفي وراءه مشاعر الكبر والغرور السلبية التي تحول دون انقيادهم الفعلي للداعي إلى الحق الذي يعدونه حقيراً ضئيل الشأن بإزاء نفوسهم .

وثمة صنف آخر من الناس، وهو الذي يبيع حياته مقابل مرضاة الله سبحانه وتعالى، والذي يتناول كلمة الله بالقبول متخلياً عن كل عاداته وأفكاره الذاتية، والذي يرضى بأن يصير فقيراً عاطلاً عن المال ، مضحياً بماله كله في سبيل الله جل شأنه، والذي يفضل دين الله الخالص على الدين التقليدي الرائج؛ ولو تسبب ذلك في حرمانه من كل حُظوةٍ ومكانةٍ لدى عامة الناس، ويتخذ شعاره دائماً من إعلان الحق بدلاً من عبادة المصلحة والمنفعة، ولو صار عُرضةً لعتاب الناس ومقتهم نتيجةً لموقفه ذاك .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ

ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ
ءَاتَيْنَـٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾

فِي السِّلْمِ كَافَّةً: في الإسلام وشرائعه كلها.

خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ: طُرقه وآثاره وأعماله.

زَلَلْتُم: ملتم وضللتم عن الحق .

ظُلَلٍ مِّنَ الغَمَامِ: طاقات من السحاب الأبيض الرقيق .

بِغَيْرِ حِسَابٍ: بلا نهاية لما يعطه ، أو بلا تقتير.

اختيار الإسلام كدينٍ يتخذ إحدى صورتين: أولاهما: أن يتم اختياره بناءً على كامل الإخلاص وصدق النية، ودون مراعاةٍ لأية مصلحةٍ أو تحفظٍ، فيفعل ما يأمر الإسلام بفعله، ويُترك ما يأمر بتركه، ومثل هذا الموقف هو الذي يمثل دخول أي إنسانٍ في دين الإسلام بكليته ، وأما الصورة الثانية فهي:أن يختار المرء من الإسلام القدر الذي لا يتعارض مع حياته العملية، فيؤمن ببعض الإسلام لأنه يراه نافعاً أو - على الأقل - غير ضارٍ له، ويدع البعض الآخر لأنه مما يمس ويصدم عقائده وعاداته المحببة إليه، ومنافعه الدنيوية.. إلخ، وقد يدخل المرء في دائرة الإسلام بدايةً بتمام رغبته وصميم إرادته،ولكنْ سرعان ما تزل قدماه عن الجادة، عندما يأتي الوقت الذي يفرض عليه أن يختار أحد أمرين لا ثالث لهما: إما أن يُحطِّم شاكلته الفكرية،وإما أن يناصر الإسلام،بغض النظر عن منفعته الذاتية،فإنه يستند إذ ذاك إلى إسلامٍ من شأنه أن يضمن له الأمرين معاً،حيث لا تتهدد منافعه الذاتية،ولا يُحرم أيضاً من شرف الانتساب إلى دين الإسلام!

وإذا كان هؤلاء يريدون دلائل تشهد بصدق رسالة الإسلام، فقد قُدمت دلائل قاطعة على أكمل ما يكون ، وأما إذا كانوا يريدون الخوارق والمعجزات، فإن الذين لم يقتنعوا بالحجج والبراهين الساطعة، لن تنفع المعجزات والخوارق شيئاً في إقناعهم ، والشيء الأخير الذي يبقي بعد ذلك هو أن يظهر الله مع ملائكته عياناً، غير أنه حينما يحدث ذلك فلن يجدي عن أحدٍ فتيلاً؛ لأنه وقت القضاء النهائي، وليس وقت العمل، وإنما يتمثل امتحان الإنسان في الدنيا، بأن يؤمن بالغيب على أساسٍ من الدلائل وحدها، فإنه إن آمن بعد أن شاهد الحقيقة العليا بعينيه، إذاً فلا عبرة بإيمان ذاك .

إن المخلصين الذين يختارون الإسلام، بغض النظر عن كل المصالح، والانتهازيين الذين يدخلون في الإسلام على أساس المصالح، ربما تكون ظروف أحد هذين الفريقين المادية في الحياة مختلفةً عن الآخر اختلافاً كبيراً ، ففي الوقت الذي يصبح فيه الفريق الأول عاطلاً عن كل شيءٍ ذي أهميةٍ دنيويةٍ، يتجمع فيه حول الفريق الثاني كل أنواع السعادة والرفاهية المادية، مما يجعله يزعم أنه أعظم شأناً وأرفع منزلةً من الفريق الأول، فيحتقره ويستخف به، غير أن هذه الظاهرة مؤقتة وليست دائمةٍ، فما إن يتم وضع نظامٍ جديدٍ أفضل، بعد تمام تحطيم هذه الدنيا الحالية، حتى تنقلب الموازين كلها، فسوف يصير كبار اليوم هناك أذلاء صاغرين، وأما الذين يُعتبرون اليوم صغاراً ضئيلي الشأن فسيكونون هناك على قمة المجد والشرف .

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ

ٱللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾

بَغْياً بَيْنَهُمْ: حسداً بينهم وظلما لتكالبهم على الدنيا .

مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا: حال الذين مضوا من المؤمنين .

الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ: البؤس والفقر،والسقم والألم .

وَزُلْزِلُوا: أزعجوا إزعاجا شديدا بالبلايا.

إن الاختلاف في الدين يرجع إلى الاختلاف في تفسير الدين وشرح حقائقه، إذ يحدث أن يكونّ كل إنسانٍ مفهوماً خاصاً عن دين الله طبقاً لاتجاهه الفكري، الأمر الذي يؤدي إلى تباين آراء الناس وتعدد مذاهبهم، مع اتفاقهم على الإيمان بكتابٍ واحدٍ مصدراً للهداية والإرشاد ، وعندئذٍ يبعث الله تعالى أحد عباده المصطفَين ليقوم بإعلان الأمر الحق، على أن هذا الصوت يكون صوتاً بشرياً في ظاهره، كما أن الذي يرفع به عقيرته يكون رجلاً كالرجال العاديين، غير أن الباحثين الصادقين عن الحق، سرعان ما يعرفون الصدى الإلهي الذي يتجاوب مع صوته، فيبادرون بتلبية ندائه، ناسين كل اختلافاتهم النظرية ، ومن جانبٍ آخر توجد هناك طائفة ثانية من الناس، وهي التي يكون ارتباط أفرادها بدينهم المزعوم قد بلغ من الشدة حد التعصب، حيث لا يبقى معه لديهم أيما استعدادٍ لقبول أمرٍ يُعرض عليهم من غيرهم، وبالتالي تستيقظ فيهم نفسية العناد والمكابرة، مما يدفعهم إلى اتخاذ موقف الجحود والإنكار حتى بإزاء شيءٍ كانوا يعدون أنفسهم من حملة لوائه والقائمين بنصرته .

ما الذي يمنع المرء من القيام بنصرة الحق، فيما لو ظهر الحق أمامه مدعماً بدلائل باهرةٍ وبراهين ساطعةٍ؟! إنما يمنعه من ذلك دائماً ما قد يلوح له أن نصرة الحق ستهدم صرح آماله وأمنياته، وتبدد شمل مصالحه ومنافعه، وتُعرض حياته السعيدة للخطر، وتقضي على ما يتمتع به من اعتبارٍ ومكانةٍ لدى الناس،غير أن هذا هو الشيء الذي يطلبه الله جل شأنه من عباده الأوفياء، إن الطريق الذي يتحاشى الإنسان سلوكه نظراً لما فيه من عقباتٍ وصعوباتٍ، إنما هو ذلك الطريق بعينه الذي سيؤدي بسالكه إلى

الجنة، فإذا أراد المرء أن ينتزع وجوده من قوالب الفكر والعمل التي كانت محببةً إليه من قبل، ليصوغه من جديدٍ في قالب الهدي الإلهي، أُصيب كيانه كله بهزةٍ عنيفةٍ جداً، ويزيدها عنفاً وشدةً أن يقوم المرء داعياً إلى دين الله الحق ، ذاك لأن القيام بعمل الدعوة يعني القيام بتوجيه النصيحة والنقد إلى الآخرين، وإن استماع النقد والنصيحة أبغض الأمور إلى الإنسان في كل العصور والأزمان، مما يؤدي إلى حدوث رد فعلٍ شديدٍ من جهة المدعو، لا تقل شدته وخطورته عن زلزالٍ رهيبٍ بالنسبة لشخصية الداعي.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾

كُرْهٌ لَّكُمْ: مكروه لكم .

ربما يحسب الإنسان أن خير وجهٍ يستخدم فيه نفسه وماله إنما هو زوجته وأولاده، ومن ثم فهو يرى أن سعادته في بذل كل ما يملك من مواهب وثرواتٍ في تحقيق أمانيه وطموحاته الذاتية وحدها ، وأما الشريعة فهي - على العكس من ذلك تماماً - تأمر بأن يصرف الإنسان حياته وما عنده من مالٍ في سبيل الله سبحانه وتعالى ، ويُلاحظ أن هذَين المصَرفين يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً جوهرياً ، فالأول هو إنفاق على الذات، وأما الثاني فهو إنفاق على الغير، وأن الغاية من صرف القوى والمواهب - طبقاً لوجهة النظر الأولى - هي الحصول على مظاهر الدنيا وأشيائها الظاهرية ، إلا أن الغاية من البذل والإنفاق - طبقاً لوجهة النظر الثانية - هي الظفر بأشياءٍ غير مرئيةٍ في إلا عالم الآخرة .. ولكن الشيء الذي يكرهه الإنسان ويتحاشاه هو عند الله خير بعينه؛ ذلك لأنه مما ينفع الإنسان في حياته القادمة الأوسع مدىً ، والشيء الذي يحبه الإنسان ويتوق إليه هو عند الله شر بعينه؛ لأن كل ما فيه من منفعةٍ منحصرةً في نطاق هذه الدنيا

الفانية وحدها، ولا يعود ذلك على أحدٍ بأية فائدةٍ في الآخرة ، هذا المبدأ نفسه ينطبق على كل شأنٍ من شئون الحياة، حيث إن المرء تُعجبه حياة متحررة طليقة من كل قيدٍ، في حين سعادته الحقيقية تكون في أن يشد نفسه بحبل الله ويتقيد بحدوده عز وجل ، وإن المرء يتخذ صديقاً يُثني عليه ويكيل له المدح جزافاً، في حين تكون الأجمل أن يتخذ صديقاً يلفت نظره دائماً إلى عيوبه وأخطائه ، وقد يقف المرء موقف الجحود والإنكار نحو حقٍ ما، ثم يطير فرحاً ظناً منه أنه قد تمكن بذلك من الحفاظ على سُمعته ومكانته عند الناس، في حين كان خيراً له أن يعترف بالحق بقلبٍ مفتوحٍ وصدرٍ رحبٍ، برغم ما فيه من تعرض سمعته واعتباره الشخصي للخطر، وإن المرء يظل غافلاً أو متغافلاً عن دينٍ يتطلب الكفاح والتضحية، وإنما يتلقى بالقبول ديناً من شأنه أن يضمن له الجنة بناءً على أمور عاديةٍ وتافهةٍ جداً، والأجدر أن يختار لنفسه دين التضحية والكفاح ، وإن المرء ليهتم غاية الاهتمام بقضايا «الحياة»، أما العاقل الحصيف فهو الذي يهتم أكثر بقضايا «الموت» .

ومعنى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (٢١٦) ﴾ أن الذات الإلهية أرفع وأعلى من تلك الدوافع والبواعث السطحية التي طالما تستبد بعقل الإنسان، مما يجعل رأيه متأثراً غير سديدٍ في أغلب الأحيان، فينحاز صوب الاتجاه الخاطئ منحرفاً عن الاتجاه الصحيح، وأما الله سبحانه وتعالى فقضاؤه منزه كل النزاهة، فليس من شكٍ في كونه القضاء المبني على الحق، وأما أقضية الإنسان وقراراته فلا تزال محكومةً بألوانٍ من العقد النفسية الكامنة، إذ يكوّن آراءه تحت التأثر بدوافع خسيسة، ولذا فكثيراً ما تكون آراء الإنسان، أحكامه غير مبنيةٍ على الحق، ولا مطابقة للواقع ، إذن فليس لكم إلا أن تعتقدوا بأن الذي جاء من عند الله سبحانه وتعالى هو وحده الحق، وأن تتخلَّوا - بإزاء ذلك - عن كل مزاعمكم وأفكاركم الذاتية .

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

وَكُفْرٌ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾

كَبِيرٌ: مُستَكبرٌ عظيم وزراً.

وَالْفِتْنَةُ: الشرك والكفر بالله تعالى.

حَبِطَتْ: فسدت وبطلت.

في شهر رجب من العام الثاني للهجرة، حدث اشتباك بين سريةٍ من المسلمين وبين جماعةٍ من مشركي قريشٍ،وقد وقع هذا الحادث في موضع «النخلة» بين مكة والطائف،وقُتل فيه رجل من قريشٍ بأيدي المسلمين، وكان ذلك أول يومٍ من رجب، وكان يظن المسلمون أنه آخر ليلةٍ من جمادى الثانية، ونظراً لأن رجب من الأشهر الحرم، فقد استغل معارضو الإسلام الحادث لتشويه سمعة المسلمين ورسول الله ﷺ استغلالاً مكثفاً، واصفين إياهم بالبعد عن الحق فلا يُراعون حرمة الشهر الحرم !! فقيل رداً عليهم : إن القتل أو القتال في الشهر الحرام إثم كبير، ذلك مما لا يتطرق إليه أي شكٍ، غير أن هذا العمل إنما صدر عن جماعة المسلمين بطريق المصادفة وعن غير قصدٍ منهم، في حين أنكم تمارسون باستمرارٍ وبقصدٍ وتصميمٍ من الجرائم والذنوب ما هو أكبر شناعةً من ذلك حيث ارتفع نداء الله تبارك وتعالى بين ظهرانيكم، ولكنكم - مع ذلك- لا تلقون له بالاً، وفوق ذلك تمنعون الآخرين أيضاً عن تلبيته واعتناقه ، ولقد بلغ العناد والمكابرة أنكم تصدون عباد الله عن بيت الله، وتكرهونهم على الخروج

من ديارهم ومغادرة أوطانهم، والذين يتقدمون نحو دين الله تزعجونهم وتذيقونهم ألواناً من العذاب والأذى، حتى يرتدوا عن دينهم ، وفتنة أحدٍ عن سبيل الله أشنع وأخطر من إزهاق روحه وإنها لجريمة كبيرةٍ عند الله جل شأنه أن يقترف المرء أنواعاً من الذنوب والسيئات الفاحشة إذا وجد غيره قد صدر عنه أي خطأٍ عاديٍ أخذ في تضخيمه وتشهيره ليشوه سمعته .

إن سلسلة المعارضة والمحن التي تصحب دعوة الحق تؤدي بأهل الإيمان إلى هجرة بيوتهم، كما يُضطرون إلى الجهاد بأنفسهم حتى يثبتوا على الدين، وهذا عمل مهم وإنه لعمل ثنائي الجانب، من شأنه أن يميز العباد الإلهيين من أعداء الله، إذ إن ذلك يكشف - من جهةٍ - عن أولئك الذين ليسوا من عبادة الله في شيءٍ، بل هم عبَّاد أنفسهم وشهواتهم، والذين يؤذون عباد الله لأجل منافعهم الذاتية متجردين عن خشية الله، ومن جهةٍ أخرى فإن الحسنات المتمثلة في «الإيمان» و«الهجرة» و«الجهاد» تبرز إلى حيز الوجود الفعلي عبر هذه الواقعة بالذات؛ لأنها تُسفر عن أولئك الذين ظلت ثقتهم بالله حيةً مع قسوة الظروف واشتداد الأزمات،وعن أولئك الذين فقدوا هذه الثقة بالله تعالى ولم يستطيعوا الاحتفاظ بها تحت الظروف القاسية .

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

وَالمَيْسِر: القمار .

العَفْوَ: ما فَضَلَ عن قدر الحاجة .

لَأَعْنَتَكُمْ: لكلفكم ما يشق عليكم .

في معرض الإجابة عن بعض الأسئلة تم الإرشاد إلى عدة مبادئ أساسيةٍ وهي :

أولاً : إذا كان شيء ضرره أعظم من نفعه نسبياً، فهو جدير بالترك .

ثانياً : إن القدر الزائد عن الحاجة من المال ينبغي إنفاقه في سبيل الله سبحانه وتعالى .

ثالثاً : يجب أن تدور المعاملات المشتركة بين الناس في الحياة العامة وفق أساليب مؤدية إلى الإصلاح، بعيداً عن تلك الأساليب التي يمكن أن تتسبب في حدوثٍ أي نوعٍ من الشر والفساد في المجتمع .

إن شارب الخمر يجد في شربها النشوة والمتعة النفسية، ولاعب القمار والميسر قد يحصل على ثروةٍ طائلةٍ من غير كدٍ ولا تعبٍ ، وبهذا يُوجد فيهما جانب من النفع والفائدة بيد أنهما - من ناحيةٍ أخرى - يحتويان على أضرارٍ دينيةٍ وخلقيةٍ، وأن هذه الأضرار تفوق نفعهما، ومن أجل ذلك فُرض النهي عنهما .

وينبغي أن تتم معالجة أمور الحياة الأخرى في ضوء المعيار نفسه لأخذ شيءٍ ما أو رفضه، فمثلا إن كل النشاطات السياسية وغير السياسية، وجميع المناسبات والحفلات الاجتماعية مرفوضة إذا كان الاستعراض الاقتصادي والديني يتكشف عن أضرار أكثر من المنافع .

والإنسان المسلم هو الذي يجعل من الآخرة هدفه في الحياة، والذي يغدو ويروح وقلبه يحترق شوقاً ولهفةً للحصول على رضوان ربه، وبالنسبة لإنسانٍ كهذا فإن متاع الدنيا وأسبابها تكون بمثابة ضرورة الحياة، وليس بمثابة غاية الحياة ، مع أنه يسعى جهده ليكتسب المال، ويهتم بشئون الدنيا وأعمالها، ولكن ذلك كله يكون في إطار الحاجة والضرورة، وليس غاية وهدفاً ، ومن ثم فإن الشيء الذي يتبقى عنده فوق حاجاته الحقيقية، لا يلبث أن يعطيه في سبيل ربه، رجاء أن يرضى الله عنه، ويُدخله في

رحمته ، إذن فإن المقدار الضروري المحتاج إليه يستبقيه لنفسه، وأما الزائد عن حاجته فيبذله في وجوه الدين .

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾

أَذًى: قدر يؤذي .

حَرْثٌ لَّكُمْ: مزرع الذرية.

أَنَّىٰ شِئْتُمْ: كيف شئتم ما دام في القُبُل .

إن الغاية الأصلية من اشتراك الرجل والمرأة في الحياة، عن طريق عقد الزوجية ليست بتعاطي الشهوة وإشباع الغريزة الجنسية، بل إنها علاقة هادفة شأنها شأن العلاقة بين الزارع ومزرعته، ومن ثم ينبغي لراغب الزواج أن يكون جاداً في ذلك تماماً كما يكون الزارع جاداً في زرعه، ويجب أن تُراعى الأمور التالية :

أولاً : أن يكون الإيمان العنصر الأول والأساسي الذي يتم عليه اختيار الزوج ، إن علاقة الزوجين علاقة بالغة الخطورة؛ لأنها تنطوي على كثير من الجوانب النفسية والأسرية والاجتماعية المتداخلة بعضها مع بعض، إذن فإن علاقةً كهذه لو قامت بين

شخصين مع عدم وجود التوافق العقدي بينهما،فإنها ستكون آخر الأمور مؤديةً إلى الضياع المحتوم لأحد الطرفين؛فإن زوجاً مؤمناً إذا اتفق مع زوجته غير المؤمنة على ((تسويةٍ عقديةٍ)) ، توصلاً إلى التفاهم، فمعنى ذلك أنه قد ضيع دينه وخسر عاقبته ، وأما إذا لم يرهن بهذه التسوية، فالشقاق والنزاع الناتج عن ذلك سيجعل بيته عرضةً للتصدع أو الانهيار .

ثانياً : أن يكون الاتصال بين الجنسين جارياً وفق أسلوبه الفطري السليم، من خلال التكيف والمطابقة مع تكوين الله تبارك وتعالى ؛ إذ إن الفطرة تندرج في إطار الحكم الإلهي، فكما لابد من الالتزام بأحكام القرآن المتلوة، كذلك لابد من أن يخضع تصرفنا الجنسي، وغيره من التصرفات العملية الأخرى، لذلك النظام الفطري الذي قرره الله لنا بصفةٍ تكوينيةٍ .

ثالثاً : أن تكون مخافة الله وتقواه الصفة الغالبة على الإنسان في كل مرحلةٍ من مراحل حياته، فلا يتخذ أية خطوةٍ عمليةٍ إلا ويسبقها طول الأناة والتفكير في أن مرجعه الأخير إلى الله رب العالمين؛ الخبير بكل شيءٍ مهما كان ظاهراً أو خفياً .

ومعنى قوله : ﴿ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡ ﴾ أن تقدموا العمل الصالح لآخرتكم ، أي ليس لكم أن تحسبوا أي عملٍ تمارسونه في هذه الحياة، أنه عمل دنيوي محض، ولا أثر له يمتد إلى ما وراء هذه الدنيا المحدودة، بل إن لكل عمل من أعمالكم جانباً أخروياً باقياً ، وإنكم ستواجهون حتماً بجانبكم الأخروي هذا بعد الموت ، فينبغي أن تكونوا حريصين كل الحرص على أن يُعتبر عملكم في مقياس الآخرة عملاً صالحاً وليس عملاً غير صالحٍ .

﴿ وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةً لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم

بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ
فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾
وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ
أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟
إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٢٢٨﴾

عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ: مانعا عن الخير لحلفكم به على تركه .

بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ: هو أن يحلف على الشيء معتقدا صدقه والأمر بخلافه ، أو ما يجري على اللسان مما لا يقصد به اليمين .

يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ: يحلفون على ترك مواقعة زوجاتهم .

تَرَبُّصُ: انتظار .

فَاءُوا: رجعوا في المدة عما حلفوا عليه .

ثَلاثَةَ قُرُوءٍ: حيض ، وقيل أطهار .

وَبُعُولَتُهُنَّ: أزواجهن .

دَرَجَةٌ: منزلة وفضيلة بالرعاية والإنفاق.

ربما يحلف بعض الناس تحت عامل الغضب أو اللجاجة والعناد قائلاً بأنني لن أسدي إلى الرجل الفلاني نصحا أو معروفا أبداً ، ولقد كانت عادة الحلف هذه منتشرةً بين العرب القدامى إذ كانوا كثيراً ما يحلفون على ترك بعض أعمال البر أو الإصلاح بين الناس، ثم إذا دُعوا بعدئذٍ إلى أي عملٍ من هذا النوع تعللّوا بالحلف ، فإذا كان مجرد القول بأني لن أفعل كذا وكذا من أعمال الخير قولاً سيئاً يُلام عليه قائله، فإن توكيده إياه

عن طريق الحلف بالله سبحانه وتعالى مما يزيده سوءاً وشناعةً ؛ ذاك لأن الله تبارك وتعالى كله رحمة وإحسان وخير وبركة، إذن فكيف يصح للمرء أن يستشهد بالذات الإلهية جل شأنها في امتناعه بنفسه عن ممارسة أعمال الخير والرحمة والإحسان ، إن الفساد هو الشر بعينه، أيّاً كان حجمه ونوعه؛ غير أن الفساد إذا كان يُمارس باسم الله أو بعنوان الدين الإلهي أصبح شره عندئذٍ مستطيراً، وتفاقم أمره .

وقد يجري القسم على ألسنة بعض الناس مجرى اللّغو؛ فتتخلل كلمات اليمين بالله أحاديثهم، من غير قصد ولا رويةٍ، وهذا مما يدخل في إطار اللغو والفضول ، وليحذر كل إنسان أن يقع فيه، ومن وقع فيه فليحاول أن يُقلع عنه ، وقد جُعل مثل هذا اليمين (اللغو) .

غير ذي أثرٍ أو مفعولٍ من الناحية الشرعية، فيما يتصل بالعلاقة بين الزوجين، نظراً لخطورة هذه العلاقة، وأما الكلام الذي يتكلمه المرء على أساسٍ من الوعي والتفكير، ويصحبه الإرادة أو النية القلبية؛ فذلك يختلف شأنه كل الاختلاف، فإذا حلف رجل على اعتزال زوجته وعدم الاجتماع بها، بناءً على عزمٍ وتصميمٍ، فالأمر جد لا هزل وفيه أحكام شرعية.

إن لكل شريكٍ في النظام الأسري - سواء كان رجلاً أو امرأة - حقوقاً وعليه واجباتٍ ، وينبغي أن يقوم كل فردٍ بأداء واجبه كما يأخذ حقه، فلو اعتدى أحد الأفراد على حقوق غيره، وعامله معاملةً جائرةً، استغلالاً لضعفه، فلن ينجو بنفسه من مؤاخذة الله عز وجل .

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ

وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ ﴾

الطَّلاقُ مَرَّتَانِ: التطليق الرجعي مرة بعد مرة .

تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ: طلاق مع أداء الحقوق وعدم المضارة .

تِلْكَ حُدُودُ: أحكامه المفروضة.

فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ: شارفن انقضاء عدتهن .

وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً: مضارة لهن .

آيَاتِ الله هُزُواً: سخرية بالتهاون في المحافظة عليها .

الكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ: القرآن والسنة.

الطلاق حادث غير عادي، يحصل في ظروف استثنائية غير عاديةٍ، ولقد أوصى الإسلام بالإحسان في المعاملة والالتزام بتقوى الله عز وجل في هذه القضية العاطفية للغاية.

ويُطالب الإسلام بأن تتم عملية إنهاء علاقة الزوجية تدريجياً في مراحل ثلاثٍ، بدلاً من إنهائها مرةً واحدةً، ولتقرير مثل هذا المنهج الجدّيّ المتوازن في شأن قضيةٍ متناهيةٍ في الإثارة كالطلاق، دلالته الواضحة على ذلك الموقف السلوكي الذي ينبغي أن يتخذه

المؤمن عند نشوء الاختلاف والخصومة ؛ إذْ المطلوب من المؤمن أن يكون موقفه تجاه خصمه موقفاً غير عاطفي، مبنياً على طول التأني والرويّة، وليس بالموقف العاطفي الذي يظهر فجأةً تحت عوامل الغضب والاستفزاز .

وهكذا جميع الآداب والشروط الأخرى المتصلة بالطلاق، تتضمن كلها دروساً ومعاني عميقةً للحياة الإنسانية الفاضلة ، ما تتلخص في أن تُتاح فترة من الزمن ملحوظة لا يزال المرء يفكر فيها في إمكانية إعادة الوفاق والوحدة من جديدٍ بعد تصميمه على المفارق، وألا يُعد انتهاء العلاقات والروابط الشرعية مرادفاً لانتهاء حقوقه الإنسانية، فلابد من التزام الحدود التي رسمها الله تبارك وتعالى بالنسبة للتصرفات المتبادلة بين الناس التزاماً تاماً ، وألا يُلغى حكم من الأحكام الشرعية ببعض الحِيل، ولا يسترد الزوج بعد الفراق شيئاً مما كان قد أعطاه لزوجته قبل الفراق، كما ينبغي أن تُقضى أيام الفصل والمفارقة بالمعروف كما قُضيت أيام التلاقي والارتباط .

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾

فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ: فلا تمنعوهن .

أَزْكَى لَكُمْ: أنمى وأنفع لكم .

وُسْعَهَا : طاقتها وقدر إمكانها .

وَعَلَى الوَارِثِ: وارث الولد عند عدم الأب .

أَرَادَا فِصَالاً: فطاما للولد قبل الحولين .

طلّق رجل زوجته، ولم يراجعها في زمن العدة، ولما انقضت العدة خطبها مع غيره، فرضيت المرأة بأن تنكح زوجها الأول ثانياً، ولكن أخاها لم يرض بذلك، ومنعها من النكاح، فنزل عندئذٍ هذا الحكم بأنه إذا كان الاثنان قد اتفقا على إعادة العلاقة الزوجية بينهما من جديدٍ، فلا تضعوا أنتم - أيها الأولياء - أية عرقلةٍ دون ذلك .

وهناك عدد كبير من القضايا ما يزال باقياً على أثر الطلاق في أغلب الأحيان، ومن ذلك إذا رغب الزوج الأول أن يتزوج مطلقته ثانياً، وتريد المطلقة أن تنكح رجلاً آخر غيره، فلا يجوز لأحدٍ أن يُعرقل الأمور أو يضع العقبات دون تحقيقها ، وقد تثور أيضاً مشكلة الرضاعة إذا كانت المطلقة ذات طفلٍ لزوجها السابق، وهنا طالبت الشريعة كلاً من الوالدين بألا يُضر أحدهما الآخر، وأمرت بأن تُعالج القضية بكامل الهدوء، وعلى أساسٍ من التشاور والتراضي من الطرفَين؛ دون أن تُحول إلى نقطة إثارةٍ للعواطف الكامنة أو الحزازات القلبية الدفينة .

ومن هنا يمكن لنا أن نتبين المنهج الإيماني لتصفية القضايا عند حصول الخلاف والمفارقة، وهذا الأسلوب يتلخص في ألا يتخذ أيّ من الفريقَين ما قد بقي من القضايا بجانب خصمه وسيلةً للإحراج، بل يجب أن يُوجد حل إيجابي يحقق مصلحة الفريقين، وفي الوقت نفسه يكون جديراً بالقبول لدى كل واحدٍ منهما عن رضاً وطواعيةٍ ، إن الإيمان زكاة للروح وطهارة لها، فمن كانت روحه قد تزكت وتطهرت بالإيمان، تُرى هل يمكنه أن يلجأ إلى أساليب دنسةٍ لمعالجة قضاياه ؟

إن النصيحة لا تقع عند أحد الناس موقع الرضا والقبول بمجرد كونها مبنيةً على الحق، بل بأن يكون السامع راسخ الإيمان بالله عز وجل، والذي يظن أنه لو استطاع

اليوم أن يجد بعض الألفاظ لكي يرفض بها نصيحة الناصح، فإن القضية سترفع آخر الأمر إلى محكمة الله العادلة، حيث لا يُجدي أي نوعٍ من الجدل أو النقاش اللفظي عن صاحبه شيئاً.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

عَرَّضْتُم بِهِ: لوحتم وأشرتم به.

أَكْنَنتُمْ: أسررتم وأخفيتم.

لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِراً: لا تذكروا لهن صريح النكاح .

يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ: ينتهي المفروض من العدة .

فَرِيضَةً: مهرا .

وَمَتِّعُوهُنَّ: اعطوهن ما يتمتعن به .

المُوسِعِ: ذي السعة والغنى .

قَدَرُهُ: قدر إمكانه وطاقته .

المُقْتِرِ: الفقير الضيق الحال .

ما زال يتكرر التأكيد على ضرورة الالتزام بالتقوى والإحسان، خلال الآيات المتعلقة بأحكام الزواج والطلاق، الأمر الذي يدل على أن أيما حكمٍ شرعيٍ لا يمكن أن يتم تنفيذه بصورته الحقيقية المطلوبة، وطبقاً لروحه الأصلية، ما دام أفراد المجتمع يُعامل بعضهم بعضاً معاملةً قانونيةً محضةً، بل يجب أن تسود فيما بينهما روح التصرف الجميل ، مع العلم بأن سوء التصرف مع الآخر ، إنما تعود عاقبته الوخيمة على أصحابه أنفسهم لا محالةَ ؛ لأن الأمور والقضايا كلها سوف ترجع آخر الأمر إلى الله عز وجل، حيث لا تُغنى التأويلات اللفظية عن أحدٍ شيئاً ولا يكون هناك بوسع أحدٍ أن يطمس أو يُخفي أية حقيقةٍ من الحقائق المتصلة بالقضية .

يتعين على الزوج، من الناحية القانونية، أن يدفع لزوجته نصف مهرها؛ في حالة ما إذا طلقها قبل المسيس، وكان قد سبق أن حدّد مهراً معيناً لها عند عقد النكاح ، غير أن مقتضى النصح والإحسان يفرض على الزوجين كليهما، أن يُعامل أحدهما الآخر، معاملةً كريمةً سمحةً، بدلاً من حصر المعاملة في إطارها الشرعي المحدود ، فلتُوطّن المرأة نفسها على أن تتنازل عن نصف المهر الآخر، آخذةً في الاعتبار أنه لم يتم أيما اتصالٍ فعليٍ بين الاثنين! ومن جهةٍ أخرى، ليتسع صدر الرجل بدوره لأن يتقدم لدفع المهر بكامله، مع كونه غير مكلفٍ شرعياً إلا بدفع النصف فقط ، وينبغي أن تكون روح السماحة والتفضل والإحسان هي السارية في كل الأمور والمعاملات في الحياة ، والمجتمع الإسلامي هو ذلك المجتمع الذي يعطي أفراده قبل أن يأخذوا .

﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ

(٢٣٩) وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ
غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن
مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى
ٱلْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢) ﴾

وَالصَّلاةِ الوُسْطَى: صلاة العصر لمزيد فضلها .

قَانِتِينَ: مطيعين لله خاشعين .

فَرِجَالاً: فصلوا مشاة على أرجلكم .

وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ: مُتعة. أو نفقة العدة.

والصلاة بمثابة خلاصة الدين بأكمله؛ لأنها تمثل الصورة المصغّرة للحياة الإيمانية، التي إذا امتدّت واتسع نطاقها الفعلي تحولت إلى حياةٍ إسلامية كاملةٍ متكاملةٍ ، وأهم عناصر الصلاة ثلاثة وهي :

أولاً : الصلاة مفروضة في خمسة أوقاتٍ (في أثناء الليل والنهار) .

ثانياً : الصلاة شيء جدير بالعناية والمحافظة .

ثالثاً : جوهر الصلاة الحقيقي في الذّل والاستكانة .

يتضح من قوله : ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ أن هناك صلاةً متوسطةً وهى محاطة من كلا الجانبين بصلواتٍ عديدةٍ أخرى، وفى هذه الآية لابد أن يكون تعداد ((الصلوات)) الجانبية - أى ماعدا الوسطى - أربعةً، ذاك لأن كلمة ((الصلوات)) فى اللغة العربية لا يجوز إطلاقها إلا على ثلاثٍ أو أكثر.. وأن أول عددٍ يمكن أن تتوسط فيه صلاة ((واحدة)) بين العديد من ((الصلوات)) هو عدد الأربعة، والمراد من ((الصلاة الوسطى)) - على حسب ما جاء فى الروايات الصحيحة - هى: ((صلاة العصر)). وللدلالة على العنصر الثانى من الصلاة استُعمل لفظ ((المحافظة))، وهذا يعنى أن الصلاة شىء يتطلب الحفظ والرعاية، كما يحافظ الإنسان على المال ، وأن المحافظة على الصلوات تعنى : الاهتمام بأدائها فى أوقاتها المحددة، ووفقاً لحدودها وآدابها، والابتعاد الإرادىَّ عن كل شىء يُحدث خللا فى الصلاة شكلاً أو كيفيةً..إلخ.

والعنصر الثالث للصلاة هو الذل والاستكانة، وهو روح الصلاة الأصيل، وإذا كانت الصلاة تعنى مثول العبد بين يدى الله عز وجل،فلابد أن تطرأ على المرء خلال أدائه للصلاة، الكيفيات التى تطرأ على ((أصغر ما فى الوجود، فى حالة قيامه أمام أكبر ما فى الوجود)) .

إن وصف أحكام المعاشرة بكونها ﴿ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ ﴾ يكشف عن جانبٍ مهمٍ من الشريعة، لأنه إذا كانت ثمة مجموعة من الحقوق المحددة شرعاً،لكى يتخذها الناس أساساً ومرجعاً لما يدور بينهم من أمورٍ ومعاملاتٍ مشتركةٍ - ولكن ذلك ليس كل ما يجب على المرء من حقوقٍ لغيره- فإن هناك مزيداً من الحقوق غير الحقوق الشرعيه المعينة، هي الحقوق التى ينبثق شعور المرء بحجمها وضرورة أدائها لأصحابها من امتلاء قلبه بتقوى الله وخشيته تعالى، وكلما تمكنت معاني التقوى من أعماق نفس المرء اشتد إحساسه بحتميّة أدائها .

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ

مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾

قَرْضاً حَسَناً: احتسابا به عن طيبة نفس .

يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ: يُضَيِّق على بعض ويوسع على آخرين .

قدم المسلمون إلى المدينة مرغمين بعدما ضاقت عليهم أرض مكة بضغوط سكانها الوثنيين، ولأن المدينة تتوافر فيها بيئة حرة تسمح لهم أن يعيشوا وفق عقيدتهم وتعاليم دينهم في أمنٍ وطمأنينةٍ ، غير أن معارضي الإسلام لم يدعوهم يطمئنون هناك لمدةٍ يسيرةٍ من الزمن، إذ أثاروا هجماتٍ عسكريةٍ متواليةٍ ليقتلعوا جذورهم من المدينة ، وعندئذٍ أمر الله المسلمين أن يقاوموهم .

ولأن أسباب القوة الحربية المتوافرة لديهم - إذ ذاك - كانت ضئيلةً بالقياس إلى قوات المعارضين، فقد تسرب إلى قلوب طائفةٍ منهم الوهنُ، وفقدوا ثقتهم في الانتصار، فذكرهم الله بحادثٍ من تاريخ بني إسرائيل، يتضمن درساً بليغاً مُفاده، أن الحَذَر من الهزيمة في معركة الحياة إنما هو الهزيمة بعينها .

لقد قام الفلسطينيون - أحد الشعوب القديمة المجاورة لبني إسرائيل - بشن الهجوم عليهم، فانهزم بنو إسرائيل أمامهم شر هزيمةٍ، لدرجة أنه من خلال هجمتين اثنتين فقط قتل الفلسطينيون ما يبلغ أربعةً وثلاثين ألف رجلٍ منهم، وسيطر الخوف والرعب على بني إسرائيل ففروا من ديارهم هاربين، وعلى حد تعبير التوراة: « قد زال المجد من إسرائيل » (صموئيل الأول، الإصحاح الرابع: ٢٢).

وفي إثر تلك الكارثة أخذ كل بيتٍ من بيوت إسرائيل ينوح ويبكي هماً وكمداً، حتى

انقضت عشرون سنةً، ثم أخذوا يتساءلون : ((لماذا انكسرنا وهُزمنا أمام الفلسطينيين))، فردّ عليهم نبيّهم.((صموئيل)) قائلاً : ((إن السبب في ذلك يرجع إلى ما أصاب ثقتكم بالله من ضعفٍ وتخلخلٍ)).

إن الموت الشعبي الذي حل ببني إسرائيل كان نتيجة ابتعادهم عن طريق الله، وما إن تمت عودتهم إلى السير في طريق الثقة بالله من جديدٍ، حتى انتعشوا من رقدتهم الطويلة الأمد.

ومعنى ((القرض الحسن)) هو القرض الجميل، والمراد به الإنفاق في سبيل الله تعالى، وهذا الإنفاق لا يكون وراءه غرضٍ غير ابتغاء وجه الله تعالى وحده، ثم إنه تعالى إذا ردّه إلى صاحبه، ضاعفه له أضعافاً كثيرةً، لذا أطلق عليه ((القرض الحسن)) ، وليس من حرمان المؤمن أو تعاسته أن تعترض طريقه ضروب شتى من المشكلات والصعوبات، بل هي فاتحة لأبوابٍ جديدةٍ من فضل الله ورحمته تعالى، فالمؤمن إذا واجه أزمةً أو صعوبةً في حياته، أخذ بعد ذلك في التضحية بنفسه وماله في سبيل الله، ما يجعله يستحق تلك العنايات الربانية العظيمة، التي لا يستحقها أحد في ظروف الحياة العادية .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن

رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

المَلأِ: وجوه القوم وكبرائهم .

عَسَيْتُمْ: قاربتم.

أَنَّى يَكُونُ: كيف أو من أين يكون؟

وَزَادَهُ بَسْطَةً: سعة وامتدادا وفضيلة .

يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ: صندوق التوارة .

فِيهِ سَكِينَةٌ: سكون وطمأنينة لقلوبكم.

لم تكد تنتهي ثلاثة قرونٍ بعد موسى عليه السلام حتى صار بنو إسرائيل مقهورين بأيدي الأمم الوثنية التي كانت تجاورهم إذ ذاك ، وبعد مرور حوالَي ربع قرنٍ من الزمان على هذا الحال، دبَّ في نفوسهم دبيب اليقظة والنهوض، ففكروا في استعادة مجدهم الغابر، وإنقاذ أنفسهم من الهلاك، وبناء على طلبهم، عيَّن نبيهم «صموئيل» (١٠٢٠- ١١٠٠ق م.) قائداً سُميّ بـ«طالوت» في القرآن الكريم وبـ «شاؤل» في التوراة .

وقد كان طالوت هذا يملك من المؤهلات والاستعدادات الذاتية ما يجعله أجدر الناس بذلك المنصب، غير أن بني إسرائيل لم تتسع صدورهم للاعتراف بسيادته وأخذوا يوجهون إليه الاعتراضات والمآخذ، مثل أنه ينتمي إلى عائلةٍ غير ذات شأنٍ، وليس بذي مالٍ وثروةٍ طائلةٍ... إلخ .

إن أقضية الله سبحانه وتعالى تكون مبنيةً على أساسٍ من السعة والعلم، ولذا فإن العبد المحبب إلى الله هو الذي ينظر إلى الأمور بروحٍ سُمحةٍ، وعقلٍ منفتحٍ، وإذا اتخذ موقفاً من إحدى القضايا فإنما يتخذه بناءً على الحقائق المجردة وحدها، وليس بناءً على التعصبات والمصالح الشخصية ، بيد أن الله سبحانه وتعالى وثّق أيضاً جدارة

«طالوت» بتولي الإمارة، من خلال إرجاع التابوت توثيقاً غير عادي.

ولم يزل بنو إسرائيل - منذ أن خرجوا من أرض مصر - يتوارثون بينهم تابوتاً مقدساً، محتوياً على رضاض ألواح التوراة وغيرها من المتبرّكات، ويحسبونه رمزاً للظفر والانتصار على أعدائهم، وكان الفلسطينيون قد أخذوا هذا التابوت منهم، وذهبوا به معهم، غير أنهم ما كانوا يضعونه في بلدةٍ ما حتى تنتشر فيها صنوف من الأمراض الوبائية، مما جعلهم يتشاءمون من وجود التابوت عندهم، فما لبثوا أن وضعوه على عربةٍ يجرها ثوران، وما برح الثوران يسيران بالعربة في الاتجاه الذي سيقا إليه، حتى أفضى بهما المساق إلى حيث القرى اليهودية الآهلة.

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾

فَصَلَ طَالُوتُ: انفصل عن بيت المقدس.

مُبْتَلِيكُم: مختبركم وهو أعلم بأمركم

اغْتَرَفَ: أخذ بيده دون الكرع.

لاَ طَاقَةَ لَنَا: لا قدرة ولا قوة لنا.

فِئَةٍ: جماعة من الناس.

بَرَزُوا: ظهروا وانكشفوا.

وَالْحِكْمَةَ: النبوة.

بعد سيدنا موسى عليه السلام بنحو ثلاثمائة عام، وقبل ميلاد المسيح عليه السلام بحوالي ألف سنةٍ، حدث أن شن الفلسطينيون هجوماً على بني إسرائيل واستردوا معظم أجزاء فلسطين من أيديهم، وبعد ردحٍ من الزمن، أراد بنو إسرائيل أن يُهاجموا الفلسطينيين ويغتصبوا بلادهم، وقد كان بينهم إذ ذلك نبيّ يُسمى ((صموئيل))، يقطن بمدينة ((الرّامة)) - إحدى مدن سوريا القديمة - وكان مسئولاً عن شئون بني إسرائيل الاجتماعية في عصره، فقابله وفد من بني إسرائيل، وقالوا له: لقد بلغت الآن سن الشيخوخة، لذا فإننا نرى أن تملّكُ علينا رجلاً من أنفسنا، لنتمكن من قتال أعدائنا تحت إمرته.

على أن ((صموئيل))لم يكن حسن الظن بسلوك بني إسرائيل، ولا واثقاً بمواعيدهم غير أنه رآهم يأبون إلا أن يؤمّر عليهم أحداً، فأجاب طلبهم، فجعل فتىً شجاعاً من قبيلة ((بنيامين)) يُدعى ((شاؤل)) (طالوت) أميراً (ملكاً) عليهم.

وانطلق شاؤل (طالوت) بمعية جيش الإسرائيليين يزحف نحو العدو، وكان الطريق يخترق نهر الأردن، وبجانبه المقابل تماماً تقع مناطق العدو، وكان طالوت خبيراً بنقائص بني إسرائيل، ومواطن ضعفهم، فأراد أن يمتحن معنويات جنوده، قبل أن يخوض بهم غمار الحرب، فأعلن أثناء عبور النهر، ألا يشرب أحد من الماء، إلا من اغترف غرفةً أو بعض غرفةٍ بيده فلا بأس بذلك، لكن غالبية بني إسرائيل فشلت في هذا الاختبار، بيد أن الله سبحانه وتعالى أمدهم بنصره في هذه المعركة، وقد أدّى سيدنا داود - الذي لم يكن قد تجاوز سن الشباب بعد - الدور الحاسم في هذه الحرب

حيث قتل بيده جالوت ، البطل العملاق من عسكر الفلسطينيين ، فانكسر الفلسطينيون أمام الإسرائيليين ، واحتل اليهود فلسطين .

إن الإنسان حين تتوافر لديه أسباب السلطة ، فلا يلبث أن يقع في الغرور والكبرياء عاجلاً أو آجلاً ، فيبغي على الآخرين ويسومهم سوء العذاب ، ومن ثم فلو أن مقاليد السلطة والحكم أصبحت وقفاً على أحد من الناس بصفة دائمة ، لملأ أقطار الأرض كلها ظلماً وفساداً وعدواناً ، ولذا فقد جرت سنة الله عز وجل في تدبير شئون هذه الدنيا بأنه لا يزال يستبدل أصحاب السلطان بعضهم ببعض ، فهو يبعث - إذا شاء - طائفةً من المحكومين المستضعفين ، ويدفع بها صاحب السلطة ، لكي يحل محله من شاء من عباده الآخرين ، وهذا يعني أنه كلما طغى حزب من الأحزاب الحاكمة ، وبلغ من الظلم والعدوان غايته ، فإن ذلك يكون أوان النصرة الإلهية للحزب المعارض الذي يقوم ضده .

وليست الخشية من الله بشيء سلبي محض ، بل إنها معرفة تصقل عقل الإنسان وتملؤه نوراً وضياءً ، فيرى كل شيء في صورته الأصلية والحقيقية .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾

بِرُوحِ القُدُسِ: جبريل عليه السلام.

عندما يبعث أحد عباد الله للناس للإيمان به تعالى ، فإنه نداءه يتضمن آيات واضحات للناس ليتأكدوا من أنه من عند الله عزل وجل ، غير أن الناس - مع ذلك -

لا يلبثون أن ينكروه ويجحدوا به ، وفي مقدمة هؤلاء المنكرين الجاحدين عادة ما يكون أولئك الذين كانوا مؤمنين من ذي قبل بإحدى الرسالات السماوية ، فما هو السبب في إنكارهم للرسالة الجديدة؟ السبب في ذلك هو اعتقادهم بأفضلية مطلقة للرسول الذي ظلوا يؤمنون به ، ولذا فهم يقولون: أنه إذا كان رسولنا قد بلغ من كمال الفضل وعلو المقام هذا المبلغ الرفيع ، ومازلنا نحن نؤمن به فعلاً ، إذن فما الذي يُحوجنا بعد إلى الإيمان بأي رسول آخر؟!

كل رسولٍ يبعث في بيئةٍ وظروفٍ مختلفةٍ، ومن ثم يُعطى لبعض الرسل «فضيلة»، وللبعض الآخر فضيلة أخرى ، وإن فضيلة الرسول هذه تتخذ صورة فتنةٍ بالنسبة لأتباعه في العصور التالية ؛ لأنهم يحملون الفضيلة المعطاة لرسولهم على غير محملها، إذ يحسبونها «فضيلةً مطلقةً » بدلاً من كونها «فضيلة تعزيزٍ وتأييدٍ» ، فهم يقولون: إننا مؤمنون بأفضل الرسل على الإطلاق فلسنا بحاجةٍ إلى الإيمان بأحدٍ سواه .

لقد أنكر المؤمنون بموسى عليه السلام رسالة سيدنا المسيح عليه السلام ، ذلك بأنهم ظنوا أن نبيهم أفضل درجةً حتى إن الله تعالى كلّمه على نحوٍ مباشرٍ، وأنكر المؤمنون بعيسى عليه السلام رسالة نبي آخر الزمان ﷺ ومرجع ذلك إلى ظنهم القائل بأنهم يؤمنون بشخصيةٍ قد ارتقت في سلّم المجد والفضيلة إلى حد أن خلقها الله من غير أبٍ .

وعندما تُمنى الأمم والشعوب بالانحطاط، ويتجه الناس بكليتهم نحو الدنيا، وينغمسون في لذاتها، غير أنهم - مع ذلك - يريدون ألا تنفلت الجنة من أيديهم، وتلعب هذه العقيدة دورها الفعال في تزويدهم بضربٍ من السكينة النفسية، فإنهم يجدون في اعتقادهم بأفضلية شخصياتهم المقدسة ما يبعث على الثقة والاطمئنان بأن مصيرهم في الآخرة سيكون مضموناً على كل حالٍ.

وهذا هو الاعتقاد الخاطئ الذي يجعل الناس يجترئون على مخالفة الداعي إلى الله ، وإنه لو شاء الله سبحانه وتعالى لجعل للدعوة والإرشاد نظاماً آخر لا يبقى فيه لأحد

مجال للاختلاف أو المكابرة، غير أن الدنيا الحاضرة هي دار امتحانٍ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾

وَلاَ خُلَّةٌ: لا مودة ولا صداقة .

الحَيُّ: الدائم الحياة بلا زوال .

القَيُّومُ : الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظهم .

سِنَةٌ: نعاس وغفوة .

وَلاَ يَئُودُهُ: لا يثقله ولا يشق عليه .

تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ: من الضلالة والكفر .

مِنَ الغَيِّ: من الضلالة والكفر .

بِالطَّاغُوتِ: ما يطغى من صنم وشيطان ونحوهما .

بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى : بالعقيدة المحكمة الوثيقة .

لاَ انفِصَامَ لَهَا: لا انقطاع ولا زوال لها .

المراد بالإنفاق هو بذل النفس والنفيس في سبيل الدين، وهو التضحية بالمنافع والمصالح الذاتية التي تقف دون التقدم نحو الدين، إن المرء حين يختار عقيدةً ما مقابل ثمن الإنفاق، فإن ذلك يدل على كونه جاداً في اختياره لتلك العقيدة ، وإنه بعد تمام توافر الجدية فقط يمكن أن تقوم هناك علاقة حقيقية صادقة بين المرء وهدفه ، وبالتالي يتمكن المرء من الإحاطة بكل جوانب الهدف وأبعاده ، وعلى العكس من هذا تماماً يكون حال الشخص الذي لا يختار الدين مقابل أن يدفع وجوده كله كثمنٍ لهذا الاختيار ، فمثل هذا الشخص لا يكون جاداً بشأن الدين ، ومن ثم فهو لا يشعر بخطورة قضية الآخرة ، بل سوف يعدها قضيةً هينةً، وسوف يظن أن شفاعة أحد الصالحين والأولياء ، أو ممارسة بعض الطقوس والمراسم الشكلية باسم الدين كافية للنجاة في الآخرة.

قد تعرض على المرء كلمة الله بلغة البرهان ، غير أنه لا يلبث أن يرفضها مستنداً إلى مجموعة من الألفاظ الجميلة الخادعة ، تلك هي الوسوسة الشيطانية بعينها ، فلا يظفر بالهدى إلا الذي يعني بتحصين نفسه من وساوس الشيطان.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾

الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ: هو نمرود بن كنعان الجبار.

فَبُهِتَ: غُلِبَ وتحير وانقطعت حجته.

إن موالاة الشعب وتأييده هما المصدر الأساسي الذي يُستمد منه استحقاق ولاية الحكم أو ممارسة السلطة السياسية في عصرنا الحاضر ، غير أن معظم الملوك قديما كانوا يحكمون الناس عادةً عن طريق إقناعهم بأنهم مظاهر بشرية للإله الأعظم المتصرف وراء هذا الكون ، وهكذا كان شأن ((نمروذ)) ملك العراق القديم، الذي كان معاصراً لسيدنا إبراهيم عليه السلام ،حيث كانت أمته تعبد الشمس اعتقاداً منها بأنها إله الآلهة، فادعى ((نمروذ)) أنه مظهر أرضي لإله الشمس العظمى، ومن ثم فهو يتمتع بالحق الإلهي لممارسة الحكم المطلق بين الناس .

وعندما دعا سيدنا إبراهيم عليه السلام بدعوة التوحيد في العراق، فلم يكن لها مساس مباشر بالحكم والسياسة، إنما كان يقول للناس إن خالقكم ومالككم هو الله الواحد الأحد لا غير، ولا شريك له شيء من الألوهية؛ لذا يجب عليكم ألا تعبدوا إلا الله وحده، وألا تخافوا ولا ترجوا أحداً إلا إياه تعالى ، غير أن ((نمروذ)) رأى في دعوة إبراهيم غير السياسية هذه، ضربةً قاصمةً موجهةً إلى سلطته السياسية، فإن عقيدة التوحيد، التي بموجبها تتحول معبودته الشمس من إله الآلهة إلى عبدٍ ضعيفٍ، كغيرها من الكائنات الأرضية والسماوية، كانت تمثل معول الهدم للأساس العقدي الذي كان نمروذ قد أقام عليه عرش مملكته ، فصار عدواً لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام .

والحوار الذي دار بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وبين الملك نمروذ، يُلقي الضوء على منهج الأنبياء للدعوة إلى الله ، إذ قال عليه السلام رداً على سؤال نمروذ: ((إن ربي هو الذي يملك الحياة والموت)) فأجاب نمروذ، متخذاً أسلوب الجدل والمناظرة: ((أنا أيضاً قادر على الإحياء والإماتة ؛ أقتل من أشاء،وأحيي من أشاء))..، وقد كان بإمكانه- عليه السلام- أن يُفند جواب نمروذ ويكشف عن زيفه ، غير أنه لم يحب أن يتحول الحوار إلى الجدل والمناظرة، ولذا عمد بفوره إلى تقديم مثالٍ آخر لا يدع أمام نمروذ مجالاً للمغالطة أو التمويه كشأنه بالنسبة للمثال الأول .

﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾

خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا: ساقطة على سقوفها التي سقطت .

أَنَّى يُحْيِي: كيف أو متى يحيى .

لَمْ يَتَسَنَّهْ: لم يتغير مع مرور السنين عليه .

نُنشِزُهَا: نرفعها من الأرض لنؤلفها .

فَصُرْهُنَّ: أملهن : أو قطعهن ممالة إليك .

إن تجربَتَيْ البعث بعد الموت اللَّتَيْن ورد ذكرهما في هذا المقام، تتعلقان بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام، التجربة الأولى مرّ بها سيدنا عُزير عليه السلام الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، وأما التجربة الثانية فهي ترتبط بسيدنا إبراهيم عليه السلام الذي عاش خلال الفترة من (٢١٦٠ وحتى ١٩٨٥ ق.م) ، وإذا كان الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - إنما يُبعثون من عند الله سبحانه وتعالى من أجل القيام بإعلام الناس بحقائق الغيب، لذا فقد يُكشف لهم عن أعيان تلك المغيبات التي أُسدل عليها ستار الأسباب بالنسبة لغيرهم من الناس، وإنما تجري هذه المعاملة الخصوصية مع الأنبياء - عليهم

السلام - حتى يتمكنوا من إخبار الناس بتلك الأمور الغيبية كمن شهدها عياناً، وحتى يتمكنوا - كذلك - من أن يقولوا للناس عند إخبارهم بتلك الحقائق الغيبية، إننا نخبركم بشيءٍ مشاهَد منظورٍ وليس بمجرد خبرٍ مسموعٍ.

إن حياة الأنبياء قبل النبوة تنقضي أمام أعين الناس ، وهي كلها الصدق والأمانة، لا كذب فيها ولا خداع، وإنه بعد ممارسة حياةٍ صادقةٍ أمينةٍ في المجتمع كهذه، يحين ذلك الوقت الذي يبعثهم الله تعالى فيه ، لكي يقوموا بإعلام الناس بحقائق الغيب ، تلك التي تم إخفاؤُها عن أنظار الناس بناءً على حكمة الابتلاء والاختبار ، ثم إن أولئك الأنبياء يمرون دائماً بظروفٍ أصعب وأشد ما يكون، غير أنهم لا ينحرفون عن قولهم، ولا يزالون صامدين ثابتين على دعواهم، مما لا يدع بالتالي مجالاً للشك في أنهم جادون تمام الجدية في كل ما يقولون، وليسوا بمدعين أمراً تصنعوه أو اختلقوه اختلاقاً.

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾

مَناًّ: عدّاً للإحسان وإظهاراً له .

أَذًى: تطاولا وتفاخرا بالإنفاق أو تبرما منه .

رِئَاءَ النَّاسِ: مُرَاءة لهم وسمعة لا لوجهه تعالى.

صَفْوَانٍ: حجر كبير أملس .

وَابِلٌ: مطر شديد عظيم القطر .

صَلْداً: أجرد نقيا من التراب .

كل عملٍ يعمله الإنسان شأنه شأن حبةٍ يبذرها في «أرضٍ» ، فإن كان عمله من أجل أن يراه الناس، فقد بذر حبته في أرض الدنيا، حتى يتمكن من الاستمتاع بثمرة أعماله في حياة هذا العالم الفاني، وإن كان عمله من أجل أن يراه الله تعالى وحده فقد بذر حبته في أرض الآخرة، فتعطي ثمارها اليانعة في العالم الآخر، وكما أن الحبة الواحدة الملقاة في مزرعة الدنيا تُنبت المئات من الحبوب، كذلك الحال بالنسبة لإلقاء الحبة في مزرعة الآخرة أيضاً ، إن المنفق لأجل منافع الدنيا، أو لأجل الظهور والحظوة عند الناس، إنما يرغب في أن ينال أجره في هذه الدنيا بالذات، ولذا فلن يكون لمثل هذا الرجل في الآخرة من نصيب، وأما الشخص الذي يُنفق من أجل ابتغاء وجه الله تعالى وحده، فإن له شأناً آخر، إنه لا يعتد بإحسانه على أحدٍ؛إذ لو كان إنفاقه لأجل الله تعالى وحده، إذن فماذا يدفعه بعدُ إلى أن يمن بذلك على الإنسان ؟! كما أنه لا يُبدي أبداً أي نوعٍ من السخط أو الاستياء فيما إذا ردّ المنتفعون بإنفاقه رداً غير جميلٍ؛ إذ سيحظى بجميل الرد عند الله سبحانه وتعالى، إذن فما الذي يجعله يرجو عطاء الناس أو يحزن لحرمانهم إياه ؟! وإنه إذا لم يكن بإمكانه أن يُعطي أحد السائلين، فلا يقول له كلمةً لاذعةً أو جملةً جارحةً، بل يعتذر إليه برفقٍ ؛ لأنه يعلم أن كل ما يقوله فإنما يقوله أمام الله عز وجل، فالخشية من الله إذن تُرغمه على أن يمسك لسانه أمام الإنسان.

إذا تراكم شيء من التراب على صخرةٍ ، بدتْ وكأنها كلها تراب، ولكن ما إن يصيبها مطر شديد حتى يزول الجزء العُلوي من التراب، ويتكشف بالتالي عن صخرةٍ صلبةٍ ملساء ! وهكذا يكون حال الإنسان الذي لم يأخذ من التدين إلا مظهره الخارجي فقط، والذي لم يكن الدّين قد خالط روحه، ونفذ إلى دخيلة نفسه، لأن رجلاً كهذا لا

يلبث أن ينفجر غيظاً وحنقاً ما يبعثه على تخطيّ كل حدود العدل والنصفة فيما لو سأله أحد السائلين بأسلوبٍ غير مهذبٍ، أو قابله أحد الناس بما يمسّ أنانيته، ويجرح كبرياءه، فإن حادثاً كهذا يُشبه طوفاناً جارفاً يذهب بما يعلو شخصيته من ((ترابٍ))، ثم يبدو للعيان بعدئذٍ ذلك الإنسان الداخلي الذي واراه بلبوسٍ ظاهريٍ من التدين .

إن ممارسة العمل من أجل الله سبحانه وتعالى يعني إيثار الغيب على المشهود، أو تفضيل الآجل البعيد على العاجل القريب، وإن من بلغ من سمو النظر وبُعد الهمة هذا المبلغ العالي ، فإنما ذلك هو الشخص الذي تنفتح عليه أبواب المعرفة الإلهية الخفية.

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) ﴾

وَتَثْبِيتاً: تصديقا ويقينا بثواب الإنفاق .

جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ: بستان بمرتفع من الأرض .

أُكُلَهَا: ثمرها الذي يؤكل .

فَطَلٌّ: فمطر خفيف (رذاذ).

إِعْصَارٌ: ريح عاصف (زوبعة).

فِيهِ نَارٌ: سموم شديد . أو صاعقة.

إن الإنسان إذ يعمل من أجل شيءٍ، فإنه يزيد من قوته الإرادية بالنسبة لذلك

الشيء، فإذا كان عمله صادراً عن هوى نفسه، فقد ركزّ قلبه على هواه، وعلى العكس من ذلك فإذا تحرك الإنسان للعمل وفق مشيئة الله العليا، فقد ركزّ قلبه على الله عز وجل، وفي كلا الطرفين يحدث أن يُضطر المرء تارةً إلى ممارسة العمل في ظل ظروفٍ سهلةٍ، وطوراً في ظل ظروفٍ صعبةٍ، بيد أنه بقدر ما تكون الأحوال حالكة، والمواقف قاسيةً، وبقدر ما يجد المرء نفسه مضطراً إلى متابعة عمله، مكافحاً لكل ما يواجهه من خطوبٍ وأزماتٍ شدادٍ، بقدر ما سيحاول جهده لتقوية إرادته وتوطيد عزمه بالنسبة لهدفه المنشود.

ومع أن بذل المال في سبيل الله في الظروف المعتادة مستوجب للأجر والثواب، غير أن المرء إذا أعطى ماله في سبيل الله، بعدما استخدم لذلك قوةً إراديةً استثنائيةً، تحت ضغط الموانع وتيار العوامل المضادة، كان أجره عند الله حينئذٍ عظيماً إلى حدٍ بعيدٍ جداً، فأن يبادر المرء بالإنفاق في وجه، لا يعود عليه إنفاقه فيه بأي مردودٍ ماديٍ عاجلٍ، لمجرد ابتغاء مرضاة الله، وأن يُعطي للرجل - رغماً عن كرهه إياه - لوجه الله تعالى، وأن يُحسن إلى من لا ترغب نفسه في الإحسان إليه من أجل الله وحده، كل ذلك مما يُثبِّت قدمَيْه على طريق العبودية الإلهية أكثر من كل شيءٍ آخر، ويجعله بالتالي أهلاً لرحمة الله ونصرته الخالصة.

وإنه طالما تشتد عناية المرء بأن يُنشئ لنفسه حديقةً في شبيبته، رجاء أن يأكل ثمارها اليانعة عندما تتقدم به السن، إذاً فما أسوأه حظاً إذا بلغ مشارف شيخوخته، بادت حديقته المخضرة فجأةً، واحترقت بما فيها من أطايب الثمار وأنواع الفواكه، وهو أحوج ما يكون إليها وتكون الفرص قد فاتته، لإنشاء حديقةٍ جديدةٍ وسيلاقي المصير بعينه، كل أولئك الذين يمارسون العمل الديني لأجل النفوذ والمنفعة الدنيوية، مع أنهم كانوا يمارسون أعمال البر والخير في ظاهر الأمر، غير أنها لم تكن تختلف عن أعمال رجال الدنيا العاديين إلا من الناحية الشكلية وحدها، إذ لم يكن ثمة فارق جوهري بينهما من حيث الحقيقة، فإن الوجاهة الدنيوية والرقي المادي اللّذيْن كان عامة أهل الدنيا

يكدحون لإحرازهما كدحاً في المجالات الدنيوية، فقد بدأ أولئك يكدحون من أجل الوصول إلى ذات الوجاهة الدنيوية والرقي المادي في المجالات الدينية،فقد أراد أولئك أن يحصلوا على السمعة والمكانة نفسها عن طريق بذل أموالهم في تشييد بناء الدين ، وأمثال هؤلاء الناس حين يصلون إلى عالم الآخرة، بعد انتهاء آجالهم، لن يجدوا هناك شيئاً ! ذاك لأن كلّ ما قد عملوه هنا من عملٍ، فإنما عملوه من أجل منافع هذه الدنيا وحدها، فكيف يمكنهم أن يجنوا ثمار أعمالهم تلك في العالم الآتي؟! إن آيات الله جل شأنه لا تزال تظهر وتتجلى دائماً في كل أرجاء الوجود، غير أنها تتكلم بلا نطقٍ، أو تنطق بلغةٍ صامتةٍ؛ ولذا فلن يوفق إلى استلهام ما تنطوي عليه من الدروس والعبر، إلا الذي يكون قد أعد نفسه للتأمل والتفكير.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾

وَلاَ تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ: لا تقصدوا المال الردىء.

تُغْمِضُوا فِيهِ: تتساهلو وتتسامحوا في أخذه .

إن هناك وجهتيْن اثنتين لإنفاق ما يكسبه الإنسان في هذه الحياة الدنيا من مالٍ ومتاعٍ، وأولى هاتين الوجهتين اثنتين : أن يتم إنفاقه في سبيل الله تبارك وتعالى، والوجه الثانية: أن يتم إنفاقه في سبيل الشيطان، وإن الشيطان يحاول بدوره أن يُرسخ في قلب الإنسان أهمية مطالبه الذاتية، ويجعلها نصب عَينَيْه، وهو يوحي إليه بأن خير وجهٍ لبذل ما قد أحرزه من مالٍ إنما هو أن يُسخره كله في تغطية حاجاته الذاتية ليس غير، ثم إذا

وجد الشيطان أن المرء تتوافر لديه مقادير كبيرة من المال زائدة عن حوائجه الضرورية؛ عمل على إلهاب عاطفةٍ أخرى جديدةٍ في داخله، ألا وهي عاطفة الرياء والتفاخر والظهور، ومن ثم يأخذ المرء في تبديد ثروته في إقامة المظاهر والطقوس الشكلية بكل سخاءٍ!!

إنه ينبغي للإنسان ألا يحسب ماله ملك يمينه، بل يحسبه ملكاً لله تعالى، وبالتالي يجب عليه أن يأخذ من كسبه كفاف حاجته فقط، وما يتبقى بعد ذلك يصرفه في تحقيق الأهداف النبيلة، والغايات العُليا، ويُعطي الضعفاء والمحرومين من عباد الله، وينفق في سبيل الوفاء بمقتضيات الدين، وإنه إذ يُعطي المرء ماله لعباد الله المستَضعفين، فكأنما يرجو ربه - بلسان حاله - ألا يحرمه من نفحات رحمته؛ عندما يحضر أمامه تعالى صفر اليدين في اليوم الآخر، وهكذا إذ يُنفق المرء ماله في مقتضيات الدين، فإنما يُشرك نفسه في المشروع الإلهي العظيم، ويضم ماله إلى مال الله، حتى تنمو وتتضخم بضاعته الضئيلة المزجاة، بعدما تم انضمامها إلى خزانة الله الكبرى التي لا نفاد لها.

إن الذي يقوم بإنفاق ماله في الوجوه التي قررها الله سبحانه وتعالى، يُثبت أنه قد رُزق نصيباً لا بأس به من الحكمة والحصافة، إن أكبر سفاهةٍ يمكن أن يُصاب بها إنسان هي أن يحب المال حباً شديداً، بحيث يمنعه ذلك عن صرفه وإنفاقه في سبيل الله .

وبالمقابل فإن أكبر حكمةٍ يمكن أن يسعد بها إنسان هي ألا تقف المنافع الاقتصادية بمثابة حجر عثرةٍ دون مبادرته مواصلة سيره الحثيث في سبيل الله .

والشخص الذي يعيش منكمشاً داخل قوقعة مصالحه الذاتية وحدها ، لن يوفق أبداً إلى أن يظفر بذلك البصر الثاقب الذي يمكّنه من رؤية الحقائق العليا كما هي،ولا يستطيع أيضاً أن يجرب الكيفيات اللطيفة السامية.

وعلى العكس من ذلك، فإن الشخص الذي يتقدم نحو الله، صارفاً نظره عن المصالح الذاتية، فإنما يُخرج نفسه من دائرة التحديدات الضيقة، ويرفع من مستوى

وعيه وشعوره إلى مستوى موازٍ لله الغني الحميد؛ ويأخذ بعدئذٍ يرى الأشياء كما هي في صورها الحقيقة، ذلك بأنه يكون قد تجاوز بنفسه إلى ما وراء القيود والتحديدات كلها، تلك التي طالما تحول بين المرء- المحاصر بها - وبين رؤيته للأشياء في صورها الأصلية المجردة .

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾

أُحْصِرُوا: حبسهم الجهاد عن التصرف .

ضَرْباً: ذهابا وسيرا للتكسب

التَّعَفُّفِ: التنزه عن السؤال .

بِسِيَاهُمْ : بهيئتهم الدالة على الفاقة والحاجة .

إِلْحَافاً: إلحاحاً في السؤال.

إن أفضل وجهٍ للإنفاق في سبيل الله يتمثل في تقديم المعونات المالية لأولئك الخدام

الدينين الذين أصبحوا فقراء، نتيجة انصرافهم الكلي إلى الكفاح الديني ، الشخص الذي يُسخّر وجوده كله للخدمة الدينية، لن يجد متسعاً من الوقت للقيام بأعباء كسب المعاش.

والسؤال المطروح الآن : ما الحل الإيجابي لهذه المشكلة؛ نظراً لأن مجتمعاً ما لا يمكن أن يقوم على دعائم وأسسٍ راسخةٍ متينةٍ مالم تتوافر فيه الجهود والنشاطات من كلا النوعين: الاقتصادي والديني جنباً إلى جنبٍ، إذ لا يمكن الاستغناء عن أي واحدٍ منهما على أية حالٍ ؟

إن الحل لهذه المشكلة يكمن في أن يقوم هؤلاء الأفراد الموسرين، الذين تجتمع في أيديهم كميات وافرة من أسباب العيش؛ أن يقوموا بتخصيص أنصبةٍ ملحوظةٍ منها، يدفعونها لأولئك الذين حال انهماكهم في المهام الدينية دون تمكنهم من توفير موردٍ مستقلٍ لمعيشة أنفسهم وأهليهم، إن هذا بمثابة توزيع عملٍ، يتم طواعيةً وفي صمتٍ بالغٍ بين الطرفين، فلا يكون ثمة غرض وراء ذلك سوى ابتغاء مرضاة الله تعالى .

وبما أن خادم الدين وهب نفسه، وسخر وجوده لأجل الله تعالى وحده، وليس لأي شيءٍ آخر سواه؛ لذا فإنه لا يمد يد السؤال إلى الإنسان، ولا يرجو عطاءه أو يطمع في معونته، وبالمقابل ينظر صاحب العيش الرغيد ويقول : إن كل هذه الوسائل والإمكانات الاقتصادية الهائلة، التي أملكها إنما ملكتُها على حساب خدمة الدين؛ إذ لم يكن بوسعى ألبتة أن أحصل عليها في حالة ما إذا قمت بتأدية ما كان يجب على أداؤه نحو دين الله، إذن فلا أقلّ من أن أتدارك هذا الأمر، بأن أخصص من ثروتي حصصاً مستقلةً، لصالح إخواني المنقطعين بكليتهم للخدمات الدينية، وكأنما هم يستدركون عني عند الله ما قد فرطت أنا في جنبه سبحانه وتعالى.

﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ

فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ
فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي
ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ
يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾

يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ: يصرعه ويضرب به الأرض .

المَسّ: الجنون والخبل.

يَمْحَقُ الله الرِّبَا: يُهلك المال الذي يدخل فيه .

وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ: يُنمي المال الذي أُخرجت منه.

تمثل الزكاة علاقةً أو رمزاً للنوعية المطلوبة من العلاقات الاقتصادية المتبادلة بين عباد الله، فمن خلال قيامه بتأدية الزكاة يعبر المسلم عملياً عن بالغ إحسانه واعترافه بحقوق المسلم الآخر.

والدين الذي يتوخى إيجاد مثل هذا المناخ السامي لرعاية حق الغير ومصلحته، لن يسمح أبداً بأسلوب التعامل الربوي ، القائم على حب المال إلى حد العبادة ، وفي مجتمعٍ كهذا - الذي يقوم على المبادئ والأسس الإسلامية الرفيعة - تدور كل المعاملات المالية المشتركة بين الناس وفق مبدأ التجارة، دون مبدأ المراباة .

على أن الرجل يكسب الربح في أثناء التعامل التجاري أيضاً، هذا مما لاشك فيه، غير أن الربح الحاصل من وراء التجارة يكون عوضاً عما يبذله المرء من جهودٍ وطاقاتٍ، وما يتكبد في سبيل ذلك من صعوباتٍ ومخاطر، في حين أن الربا عبارة عن الربح الناتج عن محض الأثرة وادخار الأموال، من غير كدٍ ولا نصبٍ.

إن المرابي إذ يُعطي ماله لغيره فإنما يعطيه ليتمكن من تنمية ثروته ، ولذا فأشد ما يكون سروره، حينما يجد أن رأس ماله آخذ في النماء والتزايد المستمرَين، بنسبةٍ مئويةٍ ثابتةٍ، ولكن الإنسان الذي يُعدّه في داخل نفسه، عبر عمله هذا، هو إنسان أناني محب لذاته، ومتعبد لمتاع الدنيا ومباهجها .

وعلى العكس من ذلك، فإن الشخص الذي يتصدق على غيره، مما كسبه بكد يمينه وعرق جبينه، والذي لا يتخذ من احتياجات الآخرين ذريعةً لاستغلالهم، وامتصاص دمائهم، بل يقدم إليهم يد المعونة، ويقاسمهم ما يعانون من بؤسٍ وشقاءٍ، فإن الإنسان الذي يُعده هذا الشخص في داخله، من خلال عمله ذاك، إنسان يختلف عن سابقه اختلافاً جذرياً، إنه إنسان قلبه ممتلئ بحب الآخرين، ولا يعيش لنفسه وحدها منكمشاً في إطار ذاته الضيق المحدود، بل يتجاوز ببصره وتفكيره إلى أبعد وأوسع من ذلك بكثيرٍ حتى يشمل المصالح الإنسانية العامة .

لم يُبعث الإنسان إلى هذه الدنيا لكي يكدح في جنباتها كدحاً من أجل تكديس ركامٍ من الثروة وأسباب الرفاهية ، إن موضع التكديس أو الادخار الحقيقي للإنسان هو الدار الآخرة .

إن الذين يُثبتون الجدارة والأهلية في حياتهم الأرضية سيختارهم الله تعالى ليُسكنهم في الجنة ، وأما الآخرون ، فسوف يُلقى بأجمعهم في نار جهنم كالقُمامات .

الروح الكامنة في الصدقة هي إعطاء المحتاج لوجه الله، والروح الكامنة في الربا هي إعطاء المحتاج لاستغلال حاجته واضطراره ، فالصدقة علامة لرغبة الإنسان المتصدق في أنه يريد أن يظفر بذخائر النعيم الأبدي في العالم الآخر، وأما الربا فهو - على النقيض من ذلك- علامة لرغبة الإنسان المرابي في جمع المال وتكديسه في هذه الدنيا الفانية إن هذين إنسانان؛ مختلف أحدهما عن الآخر كل الاختلاف، وإنه لمن المستحيل أن تستوي عاقبة كليهما عند الله تعالى، كلا ، فإذا كانت الدنيا لا ينالها إلا من سعى لها

سعيها ، فلن ينال الآخرة إلا من ضحى في سبيلها بنفسه ونفيسه .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾

فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ: فأيقنوا به.

عُسْرَةٍ: ضيق الحال من عدم المال .

فَنَظِرَةٌ: فإمهال وتأخير واجب عليكم .

المبدأ الأساسي لإصلاح المجتمع أن تكون علاقات الأفراد فيه قائمةً على أساس العدل ، فلا يبغي أحد على أحدٍ، ولا يهضم أحد حق أحد .

وإذا كانت المراباة ظلماً اقتصادياً صارخاً، فقد حرمتها الشريعة الإسلامية تحريماً باتاً، ولقد أمعن الإسلام في محاربة هذا الظلم الاقتصادي الفاحش إلى حد أن قد اعتبر التعامل الربوي في ظل الحكم الإسلامي، من الجنايات أو الجرائم التي تندرج تحت طائلة قانون التعزيرات، ولكن إذا كان المرابي غير مسموحٍ له بأن يظلم الآخرين ويستغلهم، فلا يحق لأحدٍ سواه كذلك أن يجعل المرابي عرضةً لظلمه، إذ إن كون أحد الناس مجرماً لا يتطلب بالضرورة أن يتم حرمانه من حقوقه المشروعة الأخرى، إذن فعندما تُتخذ فعلاً أية خطوةٍ تعزيريةٍ ضد المرابي، فإنما تكون مقصورةً على إسقاط المبالغ الربوية الزائدة عن الأصل لا غير، مع التسليم بحقه في استرداد رأسماله الأصلي المدفوع للمدين .

غير أن الإسلام، بجانب إصداره التشريعات والقوانين العامة، يُراعي جوانب

القصور والضعف البشري أيضاً مراعاةً تامةً ، ولذا فقد أُلزم الدائن هنا بأنه إذا وجد مدينه يعاني من حالة العسر وضيق ذات اليد، فَلْيُمهلهْ إلى وقت اليسر الذي يتمكن فيه من الوفاء بدينه، كما تم الحثّ على أن تتسع صدور الدائنين لوضع المبالغ المستحقة لهم بالكلية، عن أولئك الغارمين الذين لم يعودوا يستطيعون الوفاء بما عليهم من ديونٍ.

إن العافي أو الواضع عن غريمه يستحق أجراً عظيماً عند الله تعالى، كما يؤدي ذلك إلى إيجاد جوٍ مفعمٍ بالثقة والمواساة والتكافل الاجتماعي، يعود نفعه آخر الأمر على سائر أفراد المجتمع .

غير أن مجرد تنفيذ الأحكام الشرعية لا يضمن بالضرورة صلاح المجتمع ؛ لأن الإصلاح الحقيقي لابد له من سيادة روح التقوى على المجتمع، ومن أجل ذلك عُني القرآن عنايةً بالغةً بالتركيز على معاني التقوى، والإيمان، والآخرة، خلال شرح الأحكام التشريعية.

ولا يمكن أن يتم تنفيذ النظام الإسلامي في أرض الواقع وعلى النحو المطلوب، إلا إذا توافرت روح التقوى في عددٍ كبيرٍ من أفراد الأمة، إن الالتزام بالتقوى عبارة عن استعداد الأفراد النفسي الداخلي لتقبل النظام المطلوب تطبيقه ، ولا يمكن أبداً تنفيذ أي نظامٍ بواسطة قوة القانون وحدها، مالم تتوافر هناك درجة ملحوظة من الاستعداد الداخلي لتقبله في نفوس الأفراد .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن

تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ
ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ
أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً
تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ
كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ
فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟
ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾

وَلْيُمْلِلِ: وَليُمْلِ وليقر.

وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ: لا ينقص من الحق الذي عليه .

أَن يُمِلَّ: أن يملي ويقر بنفسه.

وَلاَ يَأْبَ: لا يمتنع.

وَلاَ تَسْأَمُوا: لا تملوا ولا تضجروا.

أَقْسَطُ: أعدل .

وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ: أثبت لها وأعون على أدائها.

وَأَدْنَى: أقرب.

إذا تعامل رجلان فيما بينهما بمعاملةٍ نقديةٍ (عاجلةٍ)، فإنها تنتهي لوقتها بمجرد أن يتم العطاء والأخذ بين الفريقين ، غير أن المعاملات المالية المؤجلة، شأنها غير ذلك، حيث إن الصفقات المؤجلة لو تم انعقادها، بناءً على محض الكلام الشفوي، فمن المحتمل جداً أن يؤدي ذلك إلى حدوث التنازع والخصومة فيما بعد ، بسبب عدم وجود

المستندات أو الوثائق ، إذ كلا الطرفين يحاول أن يعرض القضية وفقاً لما يريده، ولا يُوجد ثمة أساس فعلي ثابت في ضوئه يمكن البت في الأمر، وتصفية الخلاف كما ينبغي، الأمر الذي طالما يُسفر عن ارتياب أحد الطرفين وإساءته الظن بالطرف الآخر عند الدفع والتسديد .

وحل هذه المشكلة يكمن في الكتابة أو التسجيل ، ومن المستحسن أن يتم تسجيل المعاملات النقدية الفورية هي الأخرى، غير أنه ليس هنالك بد من أن يتم تسجيل المعاملات المؤجلة ، كما يجب إقامة الشهود على ذلك ، وهذا التسجيل الكتابي هو الأساس الموثوق به لفصل الخصومات إن وُجدت ، إن هذا بمثابة تدبيرٍ وقائي لصيانة اعتبار الإنسان المسلم المرتكز على التزامه الدائم بالعدل والتقوى في كل شئون الحياة، بحيث يُبرئ ذمته أمام الله ونحو خلقه كذلك عن طريق تأديته لما قد يتوجب عليه من حقوقٍ وفق الشروط المسجلة في الوثيقة ، المسلمون شهداء دين الله في أرضه، فكما أنه لا يجوز للمسلم أبداً أن يحاول كتمان كلمات الله عن علمٍ ودرايةٍ، كذلك لا ينبغي لأحدٍ أن يكتم ما عنده من شهادةٍ بالنسبة لقضيةٍ من القضايا البشرية، إن الذي يكتم الشهادة يُربّي في داخله عقليةً إجراميةً آثمةً، ويتقاعس بالتالي عن تمثيل الدور الإيجابي الذي كان بإمكانه أن يُمثله في محاولة التصفية العادلة للقضية المناقشة ، وذلك لأنه رُكّب في ضمير الإنسان أن يبادر باعتراف حقٍ، على مرأىً ومسمعٍ من الناس، فيما إذا ظهر له أنه عين الحق، وأن يُعلن بنفس الصراحة بكون شيءٍ ما باطلاً، فيما إذا ظهر له أنه غير الحق، فإن الشخص الذي يُخرس لسانه في مثل هذه الحالة، دون أن يرفع عقيرته بإحقاق الحق، وإبطال الباطل، فهو مجرم جعل من نفسه شاهداً على جريمته.

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ

رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

غُفْرَانَكَ: نسألك مغفرتك.

وُسْعَهَا: طاقتها وما تقدر عليه .

إِصْراً: عبئا ثقيلا، وهو التكاليف الشاقة.

لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ: لا قدرة لنا على القيام به.

كل شيءٍ في هذا الكون تحت سيطرة الله عز وجل ، فمن الذرة إلى المجرة، كل ذلك خاضع خضوعاً مطلقاً للنظام الإلهي المحكم، فليس بوسع أحد هذه الموجودات أن يتخلف أو يحيد قيد شعرةٍ عن ذات الطريق التي رسمها الله جل شأنه لسيره .

غير أن الإنسان هو الكائن الاستثنائي الوحيد - من بين المخلوقات الأخرى - الذي يجد نفسه في وضع المتصرف المختار؛ فيتمتع بحريةٍ كاملةٍ لاختيار أي طريقٍ شاء، من بين الطرق الكثيرة المختلفة في مسيرة حياته، إلا أن حرية الإنسان هذه ليست مطلقةٍ بل مُنحت له من أجل الابتلاء والامتحان، ولفترةٍ محدودةٍ ؛ إذ أن الإنسان مُطالَب بأن يخضع لله في حياته العملية كبقية أجزاء الكون المحيط به، فالحياة المنضبطة التي تحكم بقية المخلوقات قسراً، يجب على الإنسان أن يختارها بعينها على أساسٍ من إرادته.

وينبغي للإنسان ألا ينخدع بالوضع الظاهري الذي تجري عليه الآن شئون هذا الكون بأن يظن أنه حر طليق غير مسئول، يفعل ما يشاء، وكيف يشاء، وأنه ليس هنالك من رقيبٍ عليه ، الحقيقة أن الإنسان تحت الرقابة الدائمة لمالك الكون العظيم ولا يزال يرصد ويُحصي عليه كل ما يصدر عنه من قولٍ وفعلٍ؛ مهما كان ذلك صغيراً أو

كبيراً، سراً كان أو علانيةً.

أيّ إنسانٍ مطلوب عند الله سبحانه وتعالى ؟

إنه ذلك الإنسان صاحب الإيمان والطاعة، والمقصود من الإيمان الاستسلام الفكري أو الشعوري لله، والمراد بالطاعة : الاستسلام العملي لله تعالى.

إن المطلوب الأول والأساسي من الإنسان - من الناحية الشعورية - أن يتخذ الله إلهاً خالقاً ومالكاً لوجوده، وأن يكون الله ملء كيانه النفسى الداخلى، وأن يكون - ثانياً - قد أدرك الحقيقة القائلة بأن نظام الكون البديع ليس مجرد نظامٍ آلي ميتٍ، بل إنه نظام حي ذو معنىً وهدف معينٍ، يسيّره الله جل شأنه ويصرف شئونه بواسطة عُمّاله المطيعين له ، وأن يكون - ثالثاً - قد عرف من بين عباد الله الأخيار الذين اصطفاهم الله سبحانه وتعالى لإبلاغ رسالته إلى البشر، وأن يكون - رابعاً - قد جعل من الكتاب الذي أنزله الله لهداية البشر، مقوماً أساسياً لأفكاره وخيالاته، وأن يأخذ - خامساً - في النظر إلى أمر النبوة والرسالة السماوية؛ لأنه واقع مستمر متسلسل على امتداد التاريخ البشري بأكمله ، وبعد تمام ترسيخ عناصر الإيمان هذه، في أعماق قلبه ودماغه، عليه أن يقوم - أخيراً - بترجمتها إلى نموذجٍ عملي حيٍ ملموسٍ في سلوكه اليومي، وفي حياته العملية كلها.

ثم يجب ألا يكون هذا الإيمان وهذه الطاعة عنده بمثابة رسمٍ ظاهريٍ فارغٍ أو قضيةٍ شكليةٍ جامدةٍ، بل لابد من أن يكون لكليهما أثر مباشر فعال على شخصيته المعنوية، بحيثُ يذيب روحه، ويصيب كيانه النفسي بهزةٍ عنيفةٍ تجعله يتضرع إلى الله، وينصهر وجوده كله في بوتقة الذكر الإلهي، وتصبح حياته برمتها تحت رحمة الله .

تفسير سورة آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ ﴾

الحَيُّ: الدائم الحياة بلا زوال .

القَيُّومُ: الدائم القيام بتدبير خلقه وحفظهم .

وَأَنزَلَ الفُرْقَانَ: ما فرق به بين الحق والباطل .

وَالله عَزِيزٌ: غالب قوي، منيع الجانب .

إن خالق هذا الكون ومالكه ليس بإلهٍ آلي أو ميكانيكي، بل إله فعال لما يريد، ولقد بعث بهدايته إلى الإنسان في كل العصور، في صورة كتبٍ أنزلت على الأنبياء السابقين مثل التوراة والإنجيل ، غير أن الإنسان ما فتئ يحوّل دين الله الواحد إلى أديانٍ عديدةٍ متباينةٍ؛ من جراء تحريفه كلام الله عن مواضعه، وتحميله إيّاه من ضروب المعاني والمدلولات ما لا يحتمل، إلى أن أنزل الله جل شأنه الكتاب الأخير – وهو القرآن الكريم – مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فهو كتاب الهدي والتوجيه الصحيح للإنسان من جانبٍ، ومن جانبٍ آخر هو ((الفرقان)) أو ((المعيار الثابت)) الذي يمكن به التفريق بين الحق والباطل ؛ فالقرآن يدل دلالةً واضحةً على الدين الحق؛ كما يكشف القناع عن الدين الزائف الذي اصطنعه الناس من عند أنفسهم على أساسٍ من التفسيرات المزعومة والتأويلات الفاسدة ،

إذن فإن الذين لا يؤمنون بكتاب الله ، أو لا يتخلون عن الدين الباطل القائم على آرائهم وتفسيراتهم المزعومة، يستحقون عند الله عذاباً شديداً ، إن هؤلاء أناس وهبهم الله تعالى أعيناً، ولكنهم لا يُبصرون بها، كما منحهم الله تعالى عقولاً ولكنهم لا يفقهون بها ، برغم ظهور الدليل أمامهم في أسطع صوره ، فلم يرضوا بالخضوع والاستسلام الفعلي للحق، من أجل كبريائهم.

ليس هنالك أحدٌ غير الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يُعرّف بماهية الذات الإلهية وصفاتها، ولا أن يحدد نوعية ما بين الذات الإلهية وبين المخلوقات الأخرى من علاقاتٍ وروابط على الوجه الصحيح ولقد أوضح الله جل شأنه، كل هذه الأمور، في كتابه العزيز، بصورةٍ جليةٍ ، كما أن قضية تعيين كتاب هدىٍ وتوجيهٍ قويمٍ للإنسان ليست بأقل خطورةً من القضية السابقة .

والموقف الوحيد الصحيح للإنسان هو الذي يكون منسجماً مع بقية العوالم الأخرى في هذا الكون ، وإن من يجهل حقيقة الإنسان ، وما يمر به من مراحل وأطوار شتى في مسيرة حياته، من يوم ميلاده إلى حين وفاته ، والذي يجهل كذلك ماذا جرى قبل أن تتم ولادته، وماذا سيجري بعد موته ؟ إن من يجهل كل ذلك لا يمكنه أبداً - بطبيعة الحال - أن يقرر المنهج العملي الصحيح للإنسان الذي يتبعه في الحياة الدنيا ، ومن المستحيل أن يكون هناك أحد على علمٍ مستوعب لهذه الحقائق - المنظورة وغير المنظورة - كلها، غير الذات الإلهية وحدها ، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ ، إذن فمن مقتضى الواقعية أن يعتمد الإنسان في هذا الشأن على الله تبارك وتعالى وحده، وعليه أن يأخذ الهداية من رسل الله إليه بكل ثقةٍ وقوةٍ ويقينٍ .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ

إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾

آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ: واضحات لا احتمال فيها ولا اشتباه .

أُمُّ الكِتَابِ: أصله يرد إليها غيرها.

مُتَشَابِهَاتٌ: خفيات أستأثر الله بعلمها ، أولا تتضح إلا بنظر دقيق

زَيْغٌ: ميل وانحراف عن الحق.

تَأْوِيلِهِ: تفسيره بما يوافق أهواءهم .

لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا: لا تُملها عن الحق والهدى .

كَدَأْبِ: كعادة وشأن .

محتويات القرآن قسمان : أولهما ما يتعلق بدنيا الإنسان ، مثل : الوقائع التاريخية، والآيات الكونية، والأحكام المتصلة بالحياة الدنيوية، وما إلى ذلك .

وأما القسم الثاني: فهو ما يتعلق بأمور الغيب، والتي لا سبيل الى معرفتها إلا عن طريق الوحي مثل : الصفات الإلهية، وأحوال الجنة والجحيم .. إلخ.

وقد اتخذ القرآن أسلوباً محكماً ومباشراً، لبيان القسم الأول، أما القسم الثاني.. فاللغة البشرية غير قادرةٍ على تصويره أو تصويرها على بيانها أو تصديرها على وجهٍ صحيحٍ ؛ لذا فقد تم عرض قضاياه بشكلٍ متشابهٍ، أي بأسلوب التمثيل والتشبيه ؛ فإذا قيل مثلاً ((يد الإنسان)) فهذا مثال اللغة المباشرة وإذا قيل ((يد الله)) فهو مثال اللغة التمثيلية ، والذين لا يَعُون هذا الفرق، يقعون في الحيرة والضلال، ذاك لأن ماهية ((يد الإنسان)) يمكن فهمها على وجه التحديد ، غير أنه لا يمكننا أن نفهم ماهية ((يد الله)) على وجه التحديد كذلك، بواسطة عقولنا القاصرة .

إن الموقف العلمي والعقلي الصحيح من ((المشابهات)) هو أن يعترف المرء بقصوره ومحدوديته وأن يقتنع بالتصوّر الإجمالي عن تلك الأمور التي لا يتمكن من إدراكها ضبطاً بواسطة حواسه

المحدودة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

وَبِئْسَ المِهَادُ: بئس الفراش ، والمضجع جهنم .

لَعِبْرَةً: لعظة ودلالة.

عندما تقوم دعوة الحق ، يحتدم الصراع بين بيئة الوقت القابضة على الإمكانات والوسائل المادية بكل أنواعها وبين موكب الحق الذي لا يملك من الوسائل المادية ما يمكنه من حسم الصراع لصالحه في هذه الظروف والأوضاع يغدو التقدم نحو الحق مرادفاً للانقطاع عن البيئة والحرمان من المنافع والمكاسب ، الأمر الذي يدفع المرء دفعاً نحو إنكار الحق حرصاً على مصالحه الذاتية، ويجعله بالتالي يمتنع عن الانضواء الفعلي تحت راية الداعي، بعد أن يقطع صلته بأصدقائه وذوي قرابته.

غير أن هذه الأشياء التي تفرض نفسها الإنسان اليوم، لن تغني عنه يوم الحساب فتيلاً؛ إذ إن قيمة هذه الأشياء إنها تدوم ما دام الأمر بين الإنسان والإنسان، وأما إذا دارت دائرة القيامة وصار الأمر حينئذٍ بين الإنسان وبين الله رب العالمين، فإذا بهذه الأشياء كلها تفقد قيمتها تماماً .

إن الداعي يبدو في ظاهر الأمر مغلوباً على أمره في هذه الدنيا ، ولكنه هو الغالب في واقع الأمر ؛ لأن الله عز وجل يقف إلى جانبه ، وبالمقابل يبدو المنكر في ظاهر أمره غالباً، غير أنه ضعيف، غاية الضعف، ذاك لأن كل ما يملكه من قوةٍ وبأسٍ ليس سوى مظهرٍ وقتيٍ خادعٍ.

إن معركة بدر الكبرى، التي وقعت في السنة الرابعة عشرة من النبوة، كانت أنموذجاً دنيوياً للمشهد الذي سوف يُعرض في اليوم الآخر، حيث كان عدد منكري الحق في هذه المعركة وقوتهم العسكرية أكثر بكثيرٍ من عدد المؤمنين بالحق وقوتهم، وبالرغم من ذلك لقى المنكرون هزيمةً غير عاديةٍ، في حين ظفر أتباع الحق بانتصارٍ حاسمٍ، وهذا برهان جلي على أن الله جل شأنه يقف دائماً إلى جانب أتباع الحق، فإن انتصاراً غير عاديٍ كهذا برغم ما كان هناك من بونٍ شاسعٍ بين الطائفتين، من حيث العَدد والعُدة لا يمكن أن يقع بدون نصرٍ من الله وتأييده وهو في الوقت نفسه مؤشر ظاهري يدل على مدى ضعف المنكرين للحق، وما يعانونه من حالة الضياع وعدم الاستقرار في أرض الله هذه.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾

حُبُّ الشَّهَوَاتِ: المشتهيات بالطبع.

المُقَنطَرَةِ: المضاعفة أو المحكمة المحصنة.

المُسَوَّمَةِ: المُعَلمَة أو المطهمة الحسان.

وَالأَنْعَامِ: الإبل والبقر والضأن والمعز.

وَالحَرْثِ: المزروعات.

حُسْنُ المَآبِ: المرجع الحسن

وَالْقَانِتِينَ: المطيعين الخاضعين لله تعالى .

بِالأَسْحَارِ: في أواخر الليل إلى طلوع الفجر .

الدنيا مكان ابتلاءٍ واختبارٍ وفتنة ؛ حتى يمكن التمييز بين صنفين من بني البشر: مَن يقع فريسة الافتتان بالجاذبية الظاهرية الخلابة؛ فيندفع وراء أشياء الدنيا؛ وينغمس في لذاتها، ومن يتسامى بروحه ويربأ بنفسه عن ذلك، متطلعاً إلى أشياء الآخرة غير المرئية، فيتخذ منها مركزاً لتوجهاته وطموحاته .

يجد المرء نوعًا من السكينة والطمأنينة في اقتناء أشياء الدنيا؛ إذ هو ينظر فيرى أن هذه الأشياء تمثل دعائم يقوم عليها بها نفوذه الشخصي في مجتمعه، وأنه بها يتمكن من تحقيق كل أمانيه ورغباته، كما يستطيع أيضاً أن يكسب بذلك جنداً من الأعوان والأنصار يكونون دائماً رهن إشارته.

وتلك هي العقبة الكبرى في سبيل التقدم نحو مطالب الآخرة، والقيام بأعبائها ، فإن إحساس المرء الزائد بأهمية الدنيا يجعله يغفل أو يتغافل عن الآخرة ، فهو ينهمك في بناء مستقبل أولاده في الدنيا، لدرجة أنه لا يكاد يذكر أن هناك ((مستقبلاً آخر)) فيما وراء هذه الدنيا، ينبغي له أن يحسب لبنائه ألف حسابٍ، ويبلغ حبه وشغفه بتعمير بيته في الدنيا مبلغاً، لا يدور معه بخلده مرةً أن هناك ((بيتاً آخر)) سواه، يجب عليه أن يُعنى بتعميره حق العناية ، على أن هذه الأشياء بكل أنواعها وألوانها لا تعدو أن تكون مجرد رونقٍ للحياة الحاضرة المؤقتة ، وأنها لن تغني عن أحدٍ فتيلاً في الحياة القادمة الأبقى والأوسع مدىً .

وكيف تكون الحياة، تلك التي يمارسها إنسانٌ قد اتخذ من الحياة الأخروية الدائمة مركزاً لتوجهاته وطموحاته؟! سوف تفقد مباهج الدنيا وزخارفها كل قيمها في نظره، ويمتلئ قلبه باليقين القائل بأن أمر الآخرة كله بيد الله تعالى وحده ، مما يجعله أخشى الناس لله، ولا يعالج أمور الحياة وقضاياها المشتركة وفق ما تهوى نفسه، بل سيتخذ موقفه العملي نحوها آخذاً محكمة الله العادلة بعين الاعتبار ، ولن يُوجد أي تناقضٍ بين قوله وفعله ، ولا يبقى ماله ملكاً له، إنما يصير وقفاً لله جل شأنه ولن يزال مستقيماً صامداً؛ لا ينحرف ولا يتزحزح، في وجه الشدائد والصعوبات؛ لأنه يعلم علم اليقين أنه لن يجد أحداً – غير الله – يلجأ إليه، فيما لو

تخلى عن الله وهرب منه؛ إذ لا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه ، وسوف يذوب قلبه في أعماق صدره من ذكر الله عز وجل، فيدعوه ويبتهل إليه تعالى باندفاع وحرقةٍ بالغتين ، وستصبح وحداته وخلواته عامرةً بصحبة الله ومناجاته ، وينظر إلى وجوده فيرى أن ملء إهابه الخطأ والخطيئة والعيب، بالمقارنة إلى عظمة الله القدوس وكماله، إذن فلن يسعه عند ذلك سوى أن يتضرع إلى الله قائلاً : ((يا إلهي ! اغفر لي ذنوبي - بفضلك ورحمتك)) .

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قَائِماً بِالْقِسْط : مقيما للعدل في كل أمر.

الدِّينَ: الطاعة والانقياد لله ، أو الملة .

الإِسْلامُ: الإقرار بالتوحيد مع التصديق والعمل بشريعته تعالى .

بَغْياً: حسدا وطلبا للرياسة.

أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لله : أخلصت نفسي وعبادتي لله .

وَالأُمِّيِّينَ: مشركي العرب .

حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ: بطلت أعمالهم وخلت عن ثمراتها .

إله الكون إله واحد لا غير ، وهو يحب العدل والقسط ، وقد جاءت كل الكتب السماوية - في صورها الأصلية السليمة من تحريف البشر - معلنةً مؤكدةً هذا الأمر، وهذا الكون المترامي الأطراف، الذي يسيّره مالكه ويدبر شئونه، ما زال ولا يزال على ما ينبغي أن يكون عليه من جميع النواحي ، إن هذا الكون طبقاً لمعطيات العلم الإنساني المقطوع بصحتها، نظام وحدَويّ أو وَحْدَانيّ إلى أقصى حدٍ، مما يدل على أن مدبر الكون واحد لا غير ، ووضع كل جزءٍ من أجزاء الكون في موضعه المناسب له، يُثبت أن خالقه إله محب للعدل والنصفة، وليس محباً للظلم والفوضى .

كل جزءٍ من أجزاء الكون ((مسلم)) على وجهٍ أكمل ما يكون؛ يعني أنه يتحرك ويؤدي وظيفته وفقاً لإرادة الله، وهذا الموقف العملي بعينه مطلوب من الإنسان كذلك يجب على الإنسان أن يعرف الله ربه،ويصوغ حياته طبقاً للمنهج الذي قرره الله سبحانه وتعالى والقرآن يدعو إلى هذا الإسلام الصادق، وليس السبب في إنكار المنكرين لهذه الدعوة القرآنية، أنهم لم يقتنعوا بعدُ بكونها دعوةً حقة إنما السبب في ذلك يرجع إلى العناد، حيث إن الإيمان بها يبدو لهؤلاء مرادفاً للاعتراف بتفوق داعي القرآن الفكري، في حين أن مشاعر الحسد والكبرياء المستكنة في طوايا نفوسهم، لا تسمح لهم بهذا النوع من الاعتراف، ولذا فبدلاً من أن يتقدموا للإيمان بالحق، يحاولون أن يخنقوا الحناجر التي يرتفع منها صوت الحق غير أن ذلك مستحيل في دنيا الله ؛ إذ إن كل ما يبيتونه للقضاء على شخصية الداعي إلى الحق، أو إخماد صوته، سيبوء بالإخفاق والفشل لا محالةَ ، وعندما تُوضع موازين عدل الله فسوف يرون بأم أعينهم مدى تفاهة أعمالهم وعدم جدواها، كانوا متأكدين من نجاتهم وسعادتهم على أساسٍ منها .

إن الدليل الصادق آية الله جل شأنه، وإن الشخص الذي لا يخضع للدليل، فكأنما يمتنع عن الخضوع لله، وسوف يُبعث أمثال هؤلاء الناس يوم القيامة، بحيث لا يكون لهم هنالك من ناصرٍ ولا معينٍ.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

وَغَرَّهُمْ: خدعهم وأطمعهم في غير مطمع .

يَفْتَرُونَ: يكذبون على الله .

تُولِجُ: تدخل.

بِغَيْرِ حِسَابٍ: بلا نهاية لما تعطي أو بتوسعة .

ما زال الهدي الإلهي هدياً واحداً؛ وإن اختلفت صوره على ألسنة الأنبياء وفي الكتب المنزلة.، رمن أجل هذا التشابه أو المماثلة، لم يَعُدْ من الصعب على العارفين بالكتب السماوية والمؤمنين بها، أن يتبيّنوا مبلغ الدعوة القرآنية من الصدق والصحة ، وإن كان هنالك من فارقٍ مميزٍ لدعوة القرآن من التعاليم السماوية السابقة، فإنما ينحصر ذلك في أن الدعوة القرآنية تتناول الدين الإلهي بتطهيره من كل الشوائب والتحريفات البشرية، فما السبب إذاً في وقوف الكثيرين من الناس من الدعوة القرآنية موقف الجحود والإنكار ؟! إن السبب وراء ذلك راجع إلى أنهم لا يأخذون دعوة القرآن بمأخذٍ جديٍ؛ لأنها ليست في نظرهم شيئاً ذا بالٍ يستحق الاهتمام، كما أنهم لا يعدون إنكارهم لها مما يُعرض سعادتهم في الدنيا، أو نجاتهم في الآخرة للخطر ، ذاك لظنهم القائل بأنهم في مأمنٍ من نار جهنم؛ لا يُصْلَوْنها مطلقاً، وإن مسّتْهم لفحاتها فلمدةٍ من الزمن يسيرةٍ للغاية ، غير أنه إذا ما أُقيمت موازين عدل الله جل جلاله، فسوف يعلمون أنهم إنما ظلوا هائمين فى ظلام الأحلام اللذيذة، والأماني العِذاب، ليس غير.

كل أنواع العزة والقوة بيد الله تبارك وتعالى ، ولو شاء الله لأصدر قرار العزة والرفعة في

حق من يُعَدّ تافهاً غير ذي شأنٍ بين العظماء والمعاصرين له ، وهكذا لو شاء الله لفجّر ينابيع العلم والمعرفة بواسطة من أفتى من المتربعين على مقاعد العلم والمشيخة بجهله، وإن أَوْلى الناس بالعزة والقوة عند الله هو الذي كان يعدهما ملكاً خالصاً لله وحده، وأبعد الناس عن الاستحقاق لهما عند الله هو من يظن أنهما ملك يمينه.

ومن روائع القدرة الإلهية المطلقة العظيمة، ما نشاهده كل يوم ، حيث يغطي - سبحانه وتعالى - النور بأرديةٍ من الظلام، ثم يجعل النور يخترق أردية الظلام الكثيفة السوداء الملقاة عليه ، كما أنه تعالى يخلق الحياة من عناصر ميتةٍ ويحول الأشياء الحية إلى عناصر ميتةٍ، إذاً فما الذي يدعو إلى الدهشة أو الاستغراب، فيما لو عملت قدرة الله المطلقة هذه عملها في التاريخ الإنساني، كما هي تعمل على نطاقٍ واسعٍ جداً، في هذا الكون الفسيح المترامي إلى ما لا نهاية ؟ إن الذين يستغلون عنوان الحق لإحراز منافع دنيويةٍ بطرقٍ باطلةٍ، دائماً ما يُصبحون معارضين معاندين للدعوة الصادقة إلى الحق الخالص النقي ، وإن القائم بمثل هذه الدعوة، يلقى بأيدي أولئك المتاجرين بالحق، من شديد العذاب، وألوان الأذى الحسي والمعنوي ما لا يُوصف، إنه يُخرج من داره، ويُنفى من وطنه، وتُحطّم إمكانياته الاقتصادية تحطيماً... إلخ ، غير أن داعياً كهذا يكون في حماية الله وتحت رعايته المباشرة ؛ لأنه تعالى يهيئ له أسباباً للرزق غير اعتياديةٍ ، فإذا كان الآخرون يُعطوْن من الرزق بمقدار سعيهم واجتهادهم في طلبه، فإن شخصاً كهذا يُرزق من عنده سبحانه وتعالى بغير حسابٍ.

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ

وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

أَوْلِيَاءَ: بطانة أودّاء وأعوانا وأنصارا .

تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً: تخافوا من جهتهم أمرا يجب اتقاؤه.

وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ: يخوفكم الله غضبه وعقابه .

مُحْضَراً: مشاهدا لها في صحف الأعمال .

المؤمن هو الذي يُعامل بني البشر أجمع معاملةً واحدةً، وهي المعاملة القائمة على مبدأ العدل والمعروف، دون أن يفرق في ذلك بين المسلم وغير المسلم، بيد أن صداقة غير المسلمين وولاءهم، سيصبح محرماً على المسلم، في حالة ما إذا كان ذلك على حساب الصالح العام للأمة المسلمة .

وأما لو اضطر أحد المسلمين، أو أحد الأحزاب الإسلامية، إلى إقامة علاقات وقتيةٍ بغير المسلمين، كتدبيرٍ وقائي لابد منه، للدفاع عن النفس أو المال أو غيرهما ، فذلك مما لا بأس به، فإن الله ينظر إلى النية، فإذا كانت النية صالحةً، فلا أحد يُؤاخَذ على ما يباشره من عملٍ من هذا القبيل.

إن الله لا يخفى عليه شيء مما يصدر عن الإنسان من قولٍ أو فعلٍ سواء أكان يأتيه سراً أم علانيةً ، وإنه حين يرُفع ستار الامتحان والابتلاء، ويتجلى بالتالي عالم الآخرة، فسيرى المرء عندئذٍ حصائد أعماله كلها بعَيْنَيْ رأسه، ويكون هذا المشهد هائلاً ومروّعاً لدرجة أنه يودّ لو أن جميع الأشياء التي كانت مُتعة نفسه في الحياة الدنيا،صارت بعيدةً عنه غاية البعد!وهيهات!! الموطن الذي يريد الله جل شأنه أن يتحقق فيه إسلام أحد الناس، هو ((القلب))، وإنما المؤمن هو الذي تكون صلته بالله قد بلغت مبلغ المحبة القلبية ، وأمثال هؤلاء المحبين لله، هم الذين يستحقون أن يتفضل الله عليهم بحبه إياهم، وتوجيه عناياته الخصوصية نحوهم .

كما أن الشخص الذي يقيم صلته بالله على هذا النحو، يقابله الله تبارك تعالى بالعفو عن كل ما قد يقع فيه من خطإٍ أو تقصيرٍ، إن الله جل جلاله أشد ما يكون أخذاً وعقاباً بالنسبة للطغاة والمستكبرين، غير أن الذين يسلكون مسلك التواضع والاستكانة، فإن الله بأمثال

هؤلاء أرأف وأرحم ما يكون .

إن محبة الله التي ليس من شأنها أن تدفع صاحبها إلى قطع علاقته القلبية بأعداء الله، أو لا تبعثه على الطاعة والامتثال لأوامر الله، إنما هي محبة كاذبة ، وسوف يُدرج مثل هذا الشخص عند الله في عداد المنكرين، وليس في عداد المؤمنين .

الرسول هو الإنسان الذي قد شهد الله بأنه على درجةٍ أكمل وأعلى ما يكون من العبودية الخالصة لله، ومن ثم فإن الله سبحانه قد جعل الرسول الأسوة الحسنة االمعتد بها عند المسلمين لممارسة حياة العبودية الإلهية في هذه الدنيا.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ
إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾
فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ
كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ
﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ
عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ
مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا
رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ
مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ
وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ
ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ
كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ

ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

وَآلَ عِمْرَانَ: عيسى وأمه مريم بنت عمران.

مُحَرَّرًا: عتيقا مفرغا لعبادتك وخدمة بيت المقدس.

أُعِيذُهَا بِكَ: أجيرها بحفظك وأحصنها بك .

وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا: جعله كافلا لها وضامنا لصالحها .

الْمِحْرَابَ: غرفة عبادتها في بيت المقدس .

أَنَّى لَكِ هَذَا: كيف أو من أين لك هذا .

بِغَيْرِ حِسَابٍ: بلا نهاية لما يعطي.

بِكَلِمَةٍ: بعيسى - خُلِقَ بِكُنْ بلا أب .

وَحَصُوراً: لا يأتي النساء مع القدرة على إتيانهن تعففا وزهدا .

أَنَّى يَكُونُ: كيف أو من أين يكون ؟

آيَةً: علامة على حمل زوجتي.

أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ: أن تعجز عن تكليمهم بغير آفة .

إِلاَّ رَمْزاً: إلا إيماء وإشارة .

وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ : صل من الزوال إلى الغروب .

وَالإِبْكَارِ: من طلوع الفجر إلى الضحى .

اقْنُتِي: أخلصي العبادة وأديمي الطاعة .

يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ: يطرحون سهامهم للاقتراع بها .

لقد وهب الله سيدنا زكريا عليه السلام الولد في سن شيخوخته، وأوصل رزقه إلى مريم عليها السلام في حجرتها التي انزوت فيها تتعبد لله ، وخلق سيدنا عيسى المسيح عليه السلام بدون أبٍ، كما خلق في عشيرة إبراهيم عليه السلام وذوي قرباه جماعةٍ من الصالحين، هذا، ولم يكن إنعام الله على عباده هؤلاء بهذه الهبات والمنن الجليلة على نحوٍ عشوائيٍ أو اعتباطيٍ، بل إنما أنعم عليهم بذلك كله، نظراً لمؤهلاتٍ وخصائص علياً؛ جعلتهم مستحقين لهذا الإنعام الإلهي بجدارةٍ ؛ لأنهم لم يعلقوا آمالاً وتوقعاتٍ عريضةً على أولادهم من الناحية الدنيوية ، بل كانت سعادتهم في أن يوجه أولادهم أقصى طاقاتهم في سبيل الله وحده ، وغاية مناهم أن تبقى ذريتهم مصونةً من شر الشيطان الرجيم ، وأن تُضَمّ بالتالي إلى زمرة الأتقياء والصالحين من عباد الله .

إنهم لم يقعوا فريسة الحقد والحسد، فيما إذا رأوا أحداً من الناس يتمتع بأي نوعٍ من الفضل والامتياز اختصه الله به دون من عداه ، نتيجةً لصفاء نفسه، ونقاء عواطفه، كانت ذريتهم طيبةً نقيةً؛ تمتلك قدرة فائقةً على ضبط النفس وكبح جماحها في مواجهة شدائد الحياة الدنيا ومُغرياتها ، وتذكر الله ذكراً كثيراً، وتختار طريق الخير والرشد، وهؤلاء هم الذين يُطعمهم الله ويسقيهم من خزائن رزقه الخاصة، ويتقبلهم بقبولٍ حسنٍ، فيهب لهم من لَدُنْه رحمةً ونعمةً .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا

تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ: بقول (كُنْ) مبتدإٍ من الله .

وَجِيهاً: ذا جاه وقدر وشرف .

فِي الْمَهْدِ: في مقره زمن رضاعه قبل أوان الكلام .

وَكَهْلاً: حال اكتمال قوته (بعد نزوله) .

قَضَى أَمْراً: أراد شيئا . أو حكمه وحتمه .

الكِتَابَ: الخط باليد كأحسن ما يكون .

وَالْحِكْمَةَ: الفقه والصواب قولا وعمـلا .

أَخْلُقُ لَكُم: أصور وأقدر لرد إنكاركم .

وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ: أُخلِّص الأعمى من العمى

وَمَاتَدَّخِرُونَ: ما تخبئونه للأكل فيما بعد .

كان الله قد اختار اليهود للاضطلاع بمهمةٍ خاصةٍ وهي : أن يُنزل عليهم هدايته؛ حتى يسيروا في طريق الله المستقيم، ويُرشدوا الآخرين أيضاً إلى معالمه، غير أن اليهود لم يلبثوا أن تفشى بينهم الفساد في القرون المتأخرة ، وبلغوا من الانحطاط مبلغاً، لم يعودوا معه أهلاً عند الله لكي يكونوا أمناء على الهداية السماوية ؛ ولذا فقد قرر الله عز وجل أن ينتزع هذه الأمانة من أيديهم، ويفوّضها إلى بني إسماعيل - الفرع الثاني من آل إبراهيم - وقبل التنفيذ الفعلي لهذا القرار الحاسم، كان لابد من إتمام الحجة على اليهود، وقد بُعث سيدنا المسيح عليه السلام من أجل تحقيق هذا الغرض بالذات، ولم تكن ولادته - عليه السلام - من غير أبٍ، وما قد أُجري على يدَيْه من المعجزات، وخوارق

العادات الأخرى، إلا لكيلا يبقى أمام اليهود مجال لشك في أنه نبي مرسل من عند الله ومبلّغ عنه تعالى، وليس بناطقٍ عن هوى نفسه، ولم يكن سيدنا المسيح عليه السلام يحمل معه آياتٍ خارقةً للعادة فحسب، بل كان - مع ذلك - يتحدث إلى الناس بأسلوبٍ قويٍ مؤثرٍ وبليغٍ لدرجة أنه لم يكن هناك أحد من معاصريه يقدر على التحدث بمثله، وعندما تحدث عليه السلام لأول مرةٍ في هيكل أورشليم بُهت كل علماء اليهود الذين استمعوا إلى كلامه إذ ذاك، وأعجبوا به أيما إعجابٍ (انظر: إنجيل لوقا: الإصحاح الثاني: ٤٨).

ولا أدل على مدى تأثير شخصيته المعجزة، وكلامه الرائع المدهش، مِن أنه، رغم كونه ولد من غير أبٍ، لم يصادف أحدَ معاصريه يتجرأ على الطعن في شخصه من هذه الناحية - أي من ناحية النسب -، غير أن اليهود كانوا قد بلغوا من الطغيان والتمرد على الله منتهاه، وكانت قلوبهم قد قست وتحجرت لدرجة أنهم رفضوا أن يؤمنوا به، بالرغم من ظهور دلائل ساطعةٍ وآياتٍ واضحةٍ على صدقه وصحة رسالته - عليه الصلاة والسلام.

ومعنى قوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ أنه بالرغم من كون البرهان الذي يتم عرضه عليهم، كاملاً وجلياً في حد ذاته، غير أنه لا يكون مُقْنعا إلا لمن كان يتمتع بروح الاعتراف والإيمان، والذي يستطيع أن يرتفع بنفسه إلى ما فوق ضباب أفكاره القاتم، حتى يتأمل الدليل المقدم عليه بذهنٍ صافٍ ونقيٍ، والذي تكون فطرته سليمةً حيةً إلى حد ألا تقف معه قضية الحفاظ على المركز الاجتماعي أو الاعتبار الذاتي حجر عثرةٍ دون قبوله للحق.

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ

تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

أَحَسَّ: علم بلا شبهة .

الحَوَارِيُّونَ: أصدقاء عيسى وخواصه وأنصاره.

وَمَكَرُوا: أي الكفار فدبروا اغتياله .

وَمَكَرَ الله: دبر تدبيرا محكما أبطل مكرهم .

مُتَوَفِّيكَ: آخذك وافيا بروحك وبدنك .

لقد رفض كبار بني إسرائيل وسادتهم أن يعترفوا برسالة سيدنا المسيح عليه السلام، وبما أن كبار العصر أمثالهم يمتلكون عادةً كل أنواع الوسائل والإمكانات المادية، كما أنهم يكونون ممثلين للدين عند عامة الناس، نظراً لاحتلالهم المناصب الدينية المتوارثة، فإن رفضهم لأحدٍ لا يجعله محروماً من أسباب المعيشة فحسب، بل يجعله كذلك ساقط الاعتبار من الناحية الدينية عند الناس، بالرغم من تضحيته في سبيل الحق بكل ما يملك من رخيصٍ وغالٍ ، إن الوقوف مع الداعي إلى الحق ومناصرته في مثل هذا الموضع أمر غاية في الصعوبة؛ لأنه يعني الشهادة على صدقه في وجه أعاصير من الشكوك والمعارضات، والوقوفَ إلى جانب الحق في وقتٍ قد يبقى الحق فيه وحيداً مخذولاً ، وعندما يظهر الحق في صورته النقية الخالصة من كل شوبٍ، فإن وطأته تبلغ من الشدة أقصاها على جميع أولئك الذين كانوا من ذي قبل، قد حصلوا على سمعةٍ ومكانةٍ عند الناس، من خلال إلصاق رقعة الحق على حياتهم الزائفة المناقضة للحق، وإذا بهم يقومون ويقعدون للنيل من الداعي وتشويه سمعته ، ويثيرون بالتالي عاصفةً هو جاء من الشكوك والشبهاتِ حوله، لاستفزاز الجماهير وتحريك مشاعرهم ضده، ثم هم يدبرون آخر الأمر خطةً جائرة للقضاء عليه باستخدام وسائل العنف والقوة ، غير أن نصر

الله جل شأنه يكون دائماً مع الداعي، ولذا فإن أية معارضةٍ لا تنجح أبداً في إخماد صوته، وإن الداعي يقوم بإنجاز مسيرته، رغم كل المعاكسات ومحاولات القضاء على دعوته .

إن الذين يتخذون جبهة المعارضة بإزاء الحق إنما هم المفسدون عند الله تعالى؛ ذاك لأنهم يصدون الناس عن السير في الطريق المؤدي بهم إلى الجنة ، وإنه ليس هنالك من فساد أكبر من أن يُصد عباد الله عن التقدم نحو جنة الله .

على أن سيدنا المسيح ﵇ وُلد في الشعب اليهودي، غير أن اليهود لم يؤمنوا بنبوته، بل افتروا عليه قضيةً مزورةً، بغية الإجهاز عليه، ورفعوها إلى المحكمة الرومية بفلسطين، وقد أصدرت المحكمة الحكم بإعدامه صلباً ، ولكن الله تعالى رفعه إلى السماء، وقد صلب الضباط الروميون رجلاً آخر مكانه لكونه شبيهاً به ﵇ ، وبالنظر إلى جريمة اليهود الشنيعة هذه، فقد قرر الله عز وجل أن يكون الشعب المؤمن بالمسيح ﵇ غالباً على الشعب اليهودي إلى يوم القيامة ، ويُلاحظ أن قرار الله هذا، إنما يتعلق بالوضع الدنيوي لكلا الشَعْبَيْن : اليهودي والمسيحي، وأما وضعهما أو مصيرهما في الآخرة، فإنه له شأناً آخر؛ إذ يتم تحديده وفق سنة الله العامة .

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

مَثَلَ عِيسَى: حاله وصفته العجيبة .

المُمْتَرِينَ: الشاكين في أنه الحق .

تَعَالَوْا: هلموا ، أقبلوا بالعزم والرأي .

نَبْتَهِلْ: ندعُ باللعنة على الكاذب منا .

يعتقد المسيحيون أن سيدنا عيسى ﷺ ابن الله، إنهم يقولون : إن المسيح ﷺ يختلف شأنه عن شأن البشر العاديين كل الاختلاف؛ فكانت ولادته من غير أبٍ، خلافاً لقاعدة التوالد والتناسل العامة، إذن فكيف يصح القول بأنه إنسان عادى كغيره من بني البشر، في حين أن أسلوب ولادته يقوم بحد ذاته دليلا على أنه كان ما وراء البشر، وأنه لذلك لم يكن ابناً لإنسانٍ، بل كان ابناً لله.

وقد قيل لهم: إن واقع خلق الإنسان الأول - أي آدم ﷺ- يتضمن جواباً شافياً عن سؤالكم المطروح حول ميلاد المسيح ، فمما لا جدال فيه أن آدم هو أول بشرٍ، وأنه لم يكن قد ظهر إلى الوجود من خلال اتصالٍ كائنٍ بين ذكرٍ وأنثى، طبقاً للعادة المألوفة الجارية، بل خُلق بأمرٍ من الله على نحوٍ مباشرٍ، فإذا لم يكن آدم ابن الله، بناءً على كونه وُلد من غير أبٍ، إذاً فكيف سيغدو المسيح ابن الله لمجرد كونه وُلد من غير أبٍ كذلك ؟!

في عهد نزول القرآن الكريم، كانت مدينة نجران (باليمن) مركزاً كبيراً للديانة النصرانية وفى سنة تسعٍ من الهجرة النبوية، قدم المدينة وفد نصارى نجران؛وقد ضم أحبارهم وزعماءهم الدينيين، لكي يتناقشوا مع رسول الله ﷺ حول العقائد النصرانية ، ولقد قدّم ﷺ أمامهم دلائل شتى، منها أنه قال : كيف يمكن أن يكون المسيح ابن الله، في حين أن الله حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء ؟! وبالرغم من كونهم غير قادرين على إبطال ما عرض ﷺ عليهم من الدلائل، إلا أنهم لم يبرحوا يناقشونه بلجاجةٍ وعنادٍ بالغين ، ولما رأى ﷺ أنهم قد بلغوا من العناد والتمادي في الباطل إلى حدٍ لم ينفع معهم دليل ولا برهان ، عند ذلك طالبهم آخر الأمر متحدياً، بأن استَعِدُّوا للمباهلة فيما إذا كنتم تزعمون أنكم على الحق؟ !

ولما أصبح رسول الله ﷺ ، خرج مستصحباً معه كلا سِبْطَيْهِ : الحسن والحسين، وفاطمة - ابنته - تمشي عند ظهره، ومن ورائها عليّ - رضى الله عنهم-، وما إن رأى نصارى نجران هذا المنظر حتى ذُعِروا ذُعْراً شديداً، وطلبوا إليه أن يُمهلهم حتى ينظروا في أمرهم ، ويتشاوروا فيما بينهم، وعندما خلا بعضهم إلى بعضٍ للاستشارة، فإذا بأحد أحبارهم يتوجه إليهم قائلاً : لقد علمتم ما وعد الله إبراهيم، في ذرية إسماعيل من النبوة، فغير مُستبْعِدٍ أن يكون هذا الرجل هو ذاك النبي، ثم إنه ما لاعن قوم نبيًا قط، فبقي كبيرهم، أو نبت صغيرهم، وإنه

للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإني والله لأرى وجوهاً لو أنهم دعوا الله، لأزاح لهم الجبال الرواسي عن أماكنها ، ولذا فالأجدر بنا أن نصالح هذا الرجل، وننصرف عائدين إلى منازلنا .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

كَلِمَةٍ سَوَاءٍ: كلام عدل أو لا تختلف فيه الشرائع.

كَانَ حَنِيفاً: مائلا عن الباطل إلى الدين الحق .

مُسْلِماً: موحدا ، أو منقادا لله مطيعا.

وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ: ناصرهم ومجازيهم بالحسنى .

تَلْبِسُونَ: تخلطون أو تسترون .

ليس التوحيد جوهر تعاليم الأنبياء هو حقيقة، بل هو حقيقة ثابتة، حتى في نسخ التوراة

والإنجيل المتداولة اليوم، برغم أنها محرفة وغير موثوقٍ بصحتها ، فلو قيس الأمر بهذا الميزان المتفَق عليه بين الجميع؛ لثبت أن الإسلام هو وحده الدين الحق على الوجه الأكمل، وليس الديانتَيْن : اليهودية والنصرانية .

ومعنى التوحيد هو الإقرار بوحدانية الله، وإفراده تعالى بالعبادة، دون أن يُشرك بعبادته أحد سواه ، وألا يُرفع إنسان – أي إنسانٍ– إلى مقام الألوهية الذي لا يليق إلا بمالك الكون العظيم، إن هذا التوحيد محفوظ بصورته الخالصة النقية في القرآن والإسلام وحدهما، وأما أتباع الأديان الأخرى، فإنهم مع إقرارهم النظري بعقيدة التوحيد؛ كانوا قد اختاروا عملياً كل ما هو مناقض تمام المناقضة لحقيقة التوحيد؛ فبالرغم من الشهادة اللسانية بكون الله رب العالمين، فإنهم لم يلبثوا أن اتخذوا أنبياءهم وكبراءهم أرباباً من دون الله تبارك وتعالى .

كان مشركو مكة يزعمون أنهم على الديانة الإبراهيمية؛ كما كان اليهود والنصارى هم الآخرون يربطون تاريخهم الدينى بسيدنا إبراهيم ﷺ ، وهكذا جرت عادة الناس على امتداد العصور، بأن يستغلوا أسماء أنبيائهم وصلحائهم لترويج ما أحدثوا في دين الله من بدع، وما أدخلوا فيه من أباطيل وتحريفاتٍ ، وبعد ردحٍ من الزمن ترى الجهلة والعوام من الناس، وقد استحوذت على أذهانهم هذه الديانة المصطنعة لدرجة أنهم يعدونها هي الدين الأصيل ، وفي مثل هذه الظروف والملابسات، عندما تقوم دعوة الدين الحق والخالص من كل شوبٍ، يُخَيَّل إلى معارضيه أن أقصر طريقٍ لإسقاط اعتباره عند العوامّ، وصرفهم عن اتباعه، هو أن يدعوا أنه مناقض لدين السلف، فإذا بالشخص الذي يكون ممثلاً حقيقياً لدين ((السلف)) يُقابَلَ بالرفض والإنكار باسم السلف أيضاً .

وهذا تلبيس الحق بالباطل، وهو يعني أن يُنشر من الأباطيل والأفكار الزائفة، ما لا يستند إلى أي أساسٍ في حقيقة الأمر، غير أن عامة الناس لا يلبثون بدورهم أن يحسبوها صحيحةً، لضعف مداركهم وعدم تمكنهم من التمحيص والتحليل ، وبالتالي تكون الفجوة بينهم وبين الحق الأصيل قد اتسعت إلى أقصى الحدود .

((المسلم الحنيف)) هو الذي يسلك طريق التوحيد بصدقٍ وإخلاصٍ ، والمسلم غير الحنيف هو الذي ينحرف عن ذلك مما يؤدي بالناس آخر الأمر إلى أن يُقبلوا على جوانب هامشيةٍ من الدين على أنها هي الدين كله، وأن ينطلقوا في السبُل المعوجة هنا وهناك،

منصرفين عن جادة التوحيد المستقيمة .

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ
دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ
عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾
يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا
يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى
ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ
أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

عَلَيْهِ قَائِماً: ملازما له تطالبه وتقاضيه.

فِي الأُمِّيِّينَ: فيما أصبنا من أموال العرب.

سَبِيلٌ: عتاب وذم أو إثم وحرج .

إن طائفةً وُلد فيها الأنبياء والصالحون، وبقي الدين يُذكر بينها، ويدور على ألسنة أفرادها لزمنٍ طويلٍ، طالما تقع في سوء فهمٍ قائلٍ بأنها هي والحق سيان ، وتكون نظرتها إلى الهداية على أنها شيء طائفي وليس بشيءٍ مبدئي ، وهكذا كان أمر اليهود ، فقد استقر في أذهانهم؛ نتيجةً لتقاليد تاريخيةٍ عريقةٍ، أن من ينتمي إلى طائفتهم على الهدى، وأما الخارج عن طائفتهم فإنه لا يمت إلى الهدى بصلةٍ .

والذين يعدون الحق أمراً طائفياً على هذا النحو، لا يستعدون لقبول الصدق الذي يظهر في غير طائفتهم، إنهم ينسون - أو يتناسون - أن الحق هو ما يأتي من عند الله تعالى، وليس ما يُتوارث عن شخصٍ أو طائفةٍ، ومع أنهم يهتفون باسم الدين الإلهي، غير أن دينهم عبارةٌ عن

الولاء الطائفي دون العبودية لله ، وإن نزعتهم هذه تُلقي على أعينهم أغشيةً سوداء قاتمةً ، تمنعهم عن النظر إلى فضل أحدٍ ينتمي إلى غير طائفتهم ، فلا يزالون يشكون فيه رغم ظهور دلائل قاطعةٍ على صدقه، ولا يلبثون أن يعارضوا دعوة الحق، القائمة في وسطٍ غير وسطهم الطائفى، معارضةً أعنف ما يكون، ويحاولون الإجهاز عليها باتخاذ موقفٍ مزدوجٍ نحوها، كما يحاولون تشكيك الناس في صحتها عن طريق نشر الأباطيل والشبهات حولها ، وعلى خلاف ما تدعو إليه الشريعة الإلهية، فقد يستحلون لأنفسهم أن يتخذوا مقياسَيْن متباينَيْن للسلوك : يقيسون بأحدهما الآخرين، وبالآخر أفراد طائفتهم ، إن اصطفاء أحد من الناس لتمثيل دين الله رحمة إلهية خاصة ، لا تُمنح بناءً على أساس الانتماء إلى طائفةٍ دون طائفةٍ، إنما يختص الله برحمته من أحب من عباده، طبقاً لعلمه الشامل المحيط، وإنما يحب الله تعالى عبداً يكون قد ربط نفسه بالله لدرجة أن يصير الله رقيباً عليه، يحذره غاية الحذر، ويصير مالكه ومولاه، فلا يمكنه أن يتخلى عن الوفاء بعهد طاعته له .

إن عباد الله المحبَّبين إليه هم المؤدون للأمانات، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا، وعلى أمثال هؤلاء الناس تتنزل رحمة الله وبركاته ، وعلى العكس من ذلك فإن الذين لم يعودوا يهتمون بأداء الأمانة الملقاة في أعناقهم حق الاهتمام، وفقدوا حساسيتهم بالنسبة للوفاء بالعهود، فليس لوجودهم أية قيمةٍ عند الله تعالى، وأمثال هؤلاء يُبعدون عن رحمة الله ونصرته .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا

يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

لاَ خَلاقَ لَهُمْ: لا نصيب من الخير أو لا قدر لهم .

وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ: لا يحسن إليهم ولا يرحمهم.

وَلاَ يُزَكِّيهِمْ: لا يطهرهم أو لا يثني عليهم .

يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم: يميلونها عن الصحيح إلى المحرف

وَالْحُكْمَ: الحكمة أو الفهم والعلم .

كُونُوا رَبَّانِيِّينَ: علماء معلمين فقهاء في الدين .

تَدْرُسُونَ: تقرؤون الكتاب .

إن أحد الناس إذ يؤمن بالله،فإنه يعاهد الله على أنه سيكون مطيعاً لأوامره طيلة حياته ، وسيقوم بتأدية كل ما تفرض عليه شريعة الله من واجباتٍ ومسئولياتٍ نحو العباد الذين يتعايش معهم في الدنيا ، وهذه حياة منضبطة، يمكن أن تُسمى بـ ((حياة العهد)) وللاستقامة على هذه الحياة، يحتاج المرء إلى كبح جماح النفس والحد من حريتها، ويُضطر بين الفينة والأخرى إلى التضحية بالمنافع والمصالح الذاتية ، ولذا فلن يتمكن من ممارسة حياة العهد هذه بنجاحٍ واقتدارٍ سوى من يختارها بصرف النظر عن المكاسب والخسائر.

وأما الشخص الذي لا يلبث أن يتخلى عن العهد الإلهي إثر صدمةٍ طارئةٍ أصابته ، أو خوفاً من ضياع مكسبٍ دنيوى ، فينحاز بكليته إلى منافعه ومصالحه الذاتية، فكأنه ابتاع الدنيا بالآخرة، إذن فإن الشخص الذي يحسب الآخرة على هذه الدرجة من التفاهة، كيف يكون أهلاً لعنايات الله في اليوم الآخر .

والذين يتخذون من الآخرة وسيلةً لكسب دنياهم، لا يصبحون بالضرورة منكري الدين أو الآخرة، بل إنهم يفعلون ما يفعلون مع تمام إقرارهم بمبادئ الدين والآخرة . إذن فكيف يوائم هؤلاء بين هذين الموقفين المتناقضين إن ذلك يتحقق بالتحريف وذلك باضفاء معانٍ

مزعومة على التعاليم السماوية، وتأويلها على غير المراد الحقيقي منها .

ولكي يتظاهر هؤلاء بالعبودية لله والحنين إلى الآخرة - رغم كونهم غارقين في حب الدنيا ولذاتها من الرأس إلى القدم - يقومون بصياغة التعاليم الدينية وفق ما تهوى نفوسهم باستبدال كلمات الله بغيرها تارةً، بتأويل كلمات الله على ما يتناسب وأغراضهم الذاتية تارةً أخرى ، فهم يتناولون الكتاب الإلهي بالتغيير، بدلاً من أن يغيروا أنفسهم، حتى يجعلوا ما ليس في الكتاب الإلهي من صميم الكتاب الإلهي ، وليوهموا الناس بأن حياتهم المادية الخالية من الله هي حياة ذات صبغةٍ إلهية!! إنها لجريمة أعظم وأشنع ما يكون عند الله أن يعزو المرء إلى الله شيئاً لم يقلْه، إن العلامة البسيطة والقطعية على كون تعليم من التعليم صادقاً حقاً أن يكون ذلك التعاليم بحيث يصل عباد الله بالله، ويزيدهم تقرباً إليه، ويستثير مشاعر الخوف والمحبة الكامنة في نفوسهم، ويوجهها إلى الله ، وعلى العكس من ذلك، فإن التعليم الذي يبعث على تأليه الشخصيات وعبادتها، أوْ على أية عبادةٍ أخرى سواها، والذي يجعل من أحدٍ غير الله مركزاً تتجه إليه عواطف الإنسان اللطيفة، فمن المحقق أنه تعليم باطل بكل معنى الكلمة.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ

وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾
أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا
لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا
لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن
يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

إِصْرِي: عهدي.

وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ: له انقاد وخضع .

وَٱلْأَسْبَاطِ: أولاد يعقوب أو أحفاده.

ٱلْإِسْلَٰمِ: التوحيد أو شريعة نبينا ﷺ

يُنظَرُونَ: يؤخرون عن العذاب لحظة .

الظفر بالله هو الظفر بحقيقةٍ أبديةٍ، إنه مرافقة الكون كله في الاتجاه والمسير والغاية ، والذين يظفرون بالله على هذا النحو، يتسامون بأنفسهم فوق الأحقاد والتعصبات بكل أنواعها، ويعرفون الحق على كل حالٍ سواء أكان قد تم إعلانه بلسان « نبيٍ إسرائيلي » أم بلسان « نبيٍ إسماعيلي» .

وأما الذين يعيشون على مستوى الطائفية، فإن الحق في نظرهم لا يكون حقاً إلا إذا ما ظهر بواسطة أحد أفراد طائفتهم ، ولكن إذا ما أقام الله شخصاً من غير طائفتهم لإبلاغ رسالته إلى الناس، فإن رسالةً كهذه لا تجد لها مكاناً في قلوبهم حتى لو كانوا على يقين بأنها رسالةً حقةً وصادقةً ، وإنْ كان أمثال هؤلاء يظنون أنفسهم مؤمنين، فإنهم يسجلون عند الله ضمن الجاحدين ذلك لأنهم عرفوا الحق بوصفه معزواً إلى طائفتهم وليس بوصفه معزواً إلى الله عز وجل.

إن إنكار الحق ممن أيقن أنه حق أشنع جريمةٍ عند الله تعالى ، وسوف يكون أمثال هؤلاء المجرمين في الآخرة من الذلة والهوان بحيث يلعنهم الله والملائكة، ويلعنهم الناس أجمعون .

وربما يبدو أن عدم الاعتراف بالحق الذي يأتي من الخارج هو احتفاظ بالإيمان وصيانته ، غير أن ذلك هو إحباط الإيمان وإضاعته ، إن عبد الله المؤمن يعيش على ما يتلقاه من فيض الله المستمر، إذن فإن الشخص الذي يكون قد انطوى على نفسه أو انكمش في قوقعة الطائفية، بعيداً عن الحق بمسافات قصيرة ، فبأي مدخلٍ يا تُرى سينفذ الفيض الإلهي إلى أعماقه ، وأي شيءٍ سيُغذي إيمانه وينميه من بعد حرمانه من الفيض الإلهي الغامر؟!

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

البِرَّ: الإحسان وكمال الخير.

إِسْرَائِيلَ: يعقوب بن إسحاق عليهما السلام.

حَنِيفاً: مائلا عن الباطل إلى الدين الحق .

بِبَكَّةَ: مكة المكرمة .

تَبْغُونَهَا عِوَجاً: تطلبونها معوجة أو ذات اعوجاج.

لقد كانت لحوم الإبل والأرانب محرمةً على اليهود ؛ لتحريم أحبارهم لها ولكن الشريعة الإسلامية بينت أنها حلالٌ طيب ، مما دفع اليهود إلى إثارة تساؤلاتٍ عما إذا كان الإسلام دينا منزلاً من عند الله، فلماذا لا يتفق مع التوراة ((المحرفة)) ؟! وكيف يمكن أن ينزل الله دينًا يتخذ من الكعبة قبلةً مكان ((بيت المقدس))، الذي لم يزل حتى الآن قبلة الأنبياء والمرسلين قاطبةً ؟!

إن دعوة الحق حين تقوم في صورتها الخالصة،تشتد وطأتها على الذين كانوا يروّجون بين العوامّ ديناً موضوعاً مزوراً من عند أنفسهم، ثم لا يلبث هؤلاء أن يعارضوها،ويحاولوا صرف الناس عن اتباع دعوة الحق بإلقاء ألوانٍ من الشبه والشكوك في قلوبهم، إن دينهم المزعوم لم يعد على أسس الدين ومبادئه الجوهرية، وبدلاً من ذلك يظهر إلى حيز الوجود هيكل شكلي للدين؛ يتمخض عن التعمق والتنقير في فروع الدين وجزئياته، وعندئذٍ تنقلب مقاييس القيم، فيتركز الاهتمام كله على هذا الهيكل الشكلي المفروض؛ فيعد المتمسك به غايةً في البر والصلاح، وآيةً للكمال والتقوى والورع، مهما تكن نوعية حياته الحقيقية .

فالمرء - في ظل هذا الهيكل - يُبالغ في التحاشي عن أكل لحم ((الأرنب))،استناداً إلى أن أكابر أمتنا لم يكونوا يأكلونه، مع كونه قد استحلّ لنفسه مجموعةً كبيرةً من الأشياء المحرمة، كما يعتقد بوجوب الاتجاه نحو ((بيت المقدس)) على نحوٍ مستقيمٍ تماماً ، ولكنه لا يرغب في توجيه تصرفاته اليومية نحو الله عز وجل ، غير أن مقام البر والصلاح لا يمكن أن يناله أحد إلا بالتضحيات دون إقامة المظاهر السطحية الرخيصة .

وإن عبد الله الصالح هو الذي يتقدم بإهداء مشاعر حبه وإخلاصه إلى ربه، الذي لم يَعُدْ شيء في الوجود كله أحب إليه منه ، والذي يعترف بالحق ولو كان على حساب مركزه أو مكانته الذاتية ، والذي يمضي قدماً في سبيل الله، حتى لو اضطُر إلى بذل كل ما يملك، وتعريض مستقبل أولاده للخطر، إن الشخص الذي يتسع صدره لاحتمال كل شدةٍ ومكروهٍ من أجل الله، ويرضى بالله عوضاً عن أغلى وأحب ما لديه من مقتَنياتٍ؛ ليعطيها في سبيله عن طيب خاطرٍ، هو وحده الظافر بدرجة البر العالية ومقام العبودية الخالصة لله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ

إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ
رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟
بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ
بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ
فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

وَمَن يَعْتَصِم بِالله: يلتجئ إليه أو يستمسك بدينه.

حَقَّ تُقَاتِهِ: حق تقواه: أي اتقاء حقا واجبا .

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله: تمسكوا بعهده أو دينه أو كتابه .

شَفَا حُفْرَةٍ: طرف حفرة.

الدنيا مكان الابتلاء، حيث يكون المرء دائماً في خطر أن يتخطف الشيطان إيمانه على حين غرةٍ، فتقبض الملائكة روحه - عند انتهاء أجله - وقلبُه خلو من الإيمان ، ولذا فلابد للمرء من اليقظة الدائمة، والرقابة المستمرة على نفسه .

ومن صور الابتعاد عن الإيمان أن تُوضع عناصر الدين في غير مواضعها، فيتأخر الأهم ويتقدم ما دونه.

والحبل الرئيسي للدين هو التقوى، يعني الخوف من الله، والموقف من كل قضيةٍ في الحياة العملية، ينبثق عن تصوّر الحساب أمام الله عز وجل ، والاستقامة على هذا الدرب حتى الموت، ذلك هو الصراط المستقيم بعينه . والانحراف عن ذلك يتمثل في أن يؤُخذ أي شيءٍ آخر، بدلاً من التقوى محوراً للدين ومداراً، وعند ذاك ستنقسم كلمة الأمة بالضرورة، وينفرط عقدها، إذ يأخذ بعض في التركيز على عنصرٍ غير أساسيٍ ، ويُركز بعض آخر على عنصر أساسى آخر وهكذا تفترق الأمة الواحدة طرائق قدداً .

إن التركيز والتأكيد، إذْ يكون منصباً على عنصر التقوى، تتركز التوجيهات والاهتمامات كلها على الله الواحد الأحد ، مما يؤدي إلى إيجاد الوحدة والائتلاف ، وأما إذا تمركزت الاهتمامات والتوجيهات حول الأمور الفرعية من الدين وأحكامه الجزئية المختلف فيها، نتيجة التركيز الكلي عليها مكان التقوى، فذلك مما يُحدث التفرقة بين الناس ويبعد شملهم، ويوصلهم إلى شفير الهاوية ، إن انقسام كلمة الأمة - أية أمةٍ كانت - عذاب لا ينتهي، فتشقى به في الدنيا وفي الآخرة معاً ،لقد كانت هناك قبيلتان عربيتان بالمدينة قبل ظهور الإسلام؛ هما الأوس والخزرج ، ولم تزل تندلع بينهما الحروب حتى أضعفتهم وأنهكتْ قواهم ، وما إن دخلت هاتان القبيلتان في الإسلام حتى انتهت كل خصوماتهم وحروبهم الداخلية، وبدأوا يتعايشون في جوٍ من الإخاء والمودة والوئام .

والسبب في ذلك يرجع إلى أن الفرد في غير الإسلام إنما يكون وفياً لنفسه، أما في ظل الإسلام فيكون وفياً لله الواحد الأحد لا غير، والمجتمع الذي يكون الأفراد فيه أوفياء لأنفسهم أو لطائفتهم تتعدد هناك الولاءات، وما الفُرقة والتصادم سوى نتيجةٍ عملية لازمةٍ لتعدد الولاءات على هذا النحو ، وعلى العكس من ذلك فإذا كان أفراد المجتمع أوفياء مخلصين لله الواحد الأحد، فإن أنظار الجميع وتوجهاتهم تصير منصبةً على مركزٍ واحدٍ، ويصبح الجميع مشدودين بحبلٍ واحدٍ متينٍ، وهكذا تتلاشى تلقائياً كل دواعي التفرقة وعوامل الخصومة .

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾

يُرشد قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ إلى أمرين اثنين في آنٍ واحد : أولهما له علاقة بطبقة الخواص، والثاني يتعلق بالسواد الأعظم ، فالمطلوب من خواص الأمة ألا يهدأ لهم بال، إذا رأوا أي منكرٍ يتفشى في الأمة، حتى يقتلعوا جذوره، وأن يكونوا غايةً في القلق على نشر الخير والصلاح، وإن روح الإصلاح والترشيد تحدو بهم إلى أن يكونوا على اتصالٍ دائمٍ بأحوال الناس، ولا يعيشون بمعزلٍ عما يعانونه من همومٍ ومشكلات، ويحثّوا إخوانهم في الدين على مواصلة السير في طريق الرشد والخير، واجتناب الفحشاء والمنكر ، غير أن هذه المهمة الإصلاحية لن تُكلل بالنجاح المطلوب ما لم تتوافر روح الطاعة في عوامّ الأمة، وما لم يُسلموا أزمّة أمورهم كلها إلى العلماء المتخصصين في قضايا الدين ، وإن الطائفة المسلمة التي يكون الخاصة والعامة فيها على هذه الدرجة من الوعي بما لهم وما عليهم هي وحدها الطائفة التي سيُكتب لها التوفيق والفلاح ، إذْ في مناخٍ من السمع والطاعة على هذا النحو، تتولد في مجتمعٍ ما، تلك الخصائص والصفات العليا التي تجعله مجتمعاً قوياً مرهوب الجانب في الدنيا، وأهلا للنجاة والسعادة في الآخرة .

ومن فوائد يقظة هذه الروح في الخواص أن كل اهتماماتهم وتوجهاتهم تكون مرتكزةً على الخير وعلى أسس الدين ومبادئه الجوهرية ، فلا يتبقى أمامهم فسحة من الوقت للتعمق والتنقير في الفروع والمسائل الجزئية ، إن الذين يجعلون من أنفسهم شهداء لعظمة الله وجلاله، وينهضون منذرين ومبشرين للآخرة، لن يتسع لديهم الوقت - بطبيعة الحال - لكي يقوموا بإبراز براعتهم في جزئيات الأحكام الشكلية من الدين ، وعملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، توجه كل جهودهم وطاقاتهم نحو إصلاح المشكلات الحقيقية الواقعة فعلاً .

ومن الثمار التي يجتنيها العامة عبر توطينهم أنفسهم على تقبل نظام السمع والطاعة هذا، أنهم يَنجوْن من شر التحزب والتكتل وانقسام الكلمة ، ويصيرون وحدةً قويةً متماسكةً نتيجة اتباعهم لأمرٍ واحدٍ، وبالتالي تصبح الوحدة والائتلاف بمثابة ميزةٍ أو صفةٍ عامةٍ لازمةٍ لهم، ولا ريب في أنه ليس هنالك قوة أقوى ولا أعظم في هذه الدنيا من الوحدة والائتلاف .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

أَذًى: ضررا يسيرا بالكذب أو بالتهديد .

يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ: ينهزموا ويخذلوا.

الذِّلَّةُ: الذل والصغار والهوان.

ثُقِفُوا: وجدوا أو أدركوا .

بِحَبْلٍ مِّنَ الله: بعهد منه تعالى وهو الإسلام .

وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ: عهد من المسلمين .

وَبَاءُوا بِغَضَبٍ: رجعوا به مستحقين له .

المَسْكَنَةُ: فقر النفس وشحها.

لقد كان اليهود مكلفين بحمل الدين الإلهي،ولكنهم لم يتمكنوا من القيام بحمله على النحو المطلوب، كما أخفقوا كل الإخفاق في الاحتفاظ بالدين وصيانته صافياً نقياً، ثم بعث الله تعالى من بعد ذلك محمداً ﷺ بدينه في صورته الصحيحة الخالصة ، والآن فقد صارت الأمة المسلمة هي المرشحة لإرشاد البشر كافةً إلى الهداية الإلهية.

وهذه المهمة الخطيرة تفرض على الأمة أن تؤمن بالله إيماناً صادقاً، وتهدي العالم كله إلى الخير والمعروف، وتُخبره بما لا يرضاه الله عز وجل من منكر القول والفعل، وبما أن هذا العمل عمل إلهي، فقد جعله الله مقروناً برعايته وحمايته الدائمة ، فتكفل الله للقائمين بهذا العمل

الإلهي بأنّ أعداءهم ومعارضيهم لن يلحقوا بهم ضرراً ذا بال : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾.

غير أن الذين ينكثون العهد، بعدما عُهد إليهم بمهمة إبلاغ الحق هذا، سيعاقبون في هذه الدنيا بحرمانهم المطلق من أسباب العزة والرفعة الذاتية ، وبسبب حرمانهم من نفحات رحمة الله وعناياته، تصير قلوبهم قاسيةً متحجرةً لدرجة أنهم يتصدون للقضاء على أولئك الذين ينهضون لتنبيههم إلى مواطن ضعفهم وتفريطهم في تأدية الأمانة الملقاة في أعناقهم .

وقوله تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ يشير إلى سنةٍ إلهيةٍ، خاصةٍ بالأمة التي رشحها الله لتمثيل دينه ، إن قيام هذه الأمة بتمثيل الدين تمثيلاً صادقاً يضمن لها الغلبة والانتصار، فلا تقوم لها قائمة في الدنيا الحاضرة ، إن أمةً كهذه لن تتمكن من إحْراز الانتصار والغلبة الذاتية في هذه الدنيا، فيما لو نفضت يدها عن تمثيل دين الله ، وإنْ حصلت على أي نوعٍ من السلطة فإما أن يكون ذلك على ذمة حكومةٍ إلهيةٍ، وإما أن يكون تابعاً لأية أمةٍ أجنبيةٍ تولت حمايتها، وقامت بدعم كيانها القومي .

وعقوبة الذلة والمسكنة تستحقها أي أمة بلغت من العناد والطغيان ما تنكر معه الآيات الإلهية ، إن إنكار الآيات يعني إنكار الدلائل الصادقة ، والحق دوماً يظهر في صورة الدلائل، ولذا فإن الشخص الذي يرفض الدليل الصادق، فإنما هو يرفض الذات الإلهية نفسها.

﴿ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

لَيْسُوا سَوَاءً: ليس أهل الكتاب بمستوين .

أُمَّةٌ قَائِمَةٌ: طائفة مستقيمة ثابتة على الحق.

لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ: لن تدفع عنهم أو تجزي عنهم .

فِيهَا صِرٌّ: برد شديد . أو سموم حارة .

حَرْثَ قَوْمٍ: زرعهم .

المراد من «المسارعة في الخيرات » في هذا المقام، هو مبادرة المؤمنين من أهل الكتاب بتصديق الرسالة الخاتمة متواضعين، وفي ذلك الوقت كان دين موسى، قائما على أرضيةٍ من العظمة التاريخية والقداسة التقليدية، لم يكن دين محمد ﷺ قد ازدان بعدُ بالعظمة التاريخية والقداسة التقليدية، وإنما كان يدعمه ويؤيده إذ ذاك قوة الدليل والبرهان وحدها ، ولقد كان هذا الفارق بين دينهم الموروث، ودين نبي العصر، يشكل عقبةً كئوداً دون تلقيهم الدين الجديد بالقبول، غير أنهم وُفقوا لاجْتياز هذه العقبة بنجاحٍ، فبادروا إلى اعتناق دين نبي العصر .

حب المال والأولاد يحول بين المرء وبين سيره في طريق دين التضحية والتكاليف ، بيد أنه يتظاهر بإقامة الشعائر؛ ليزعم أنه قائم بدين الله، متمسك بأهدابه ، ولكن كما أن العاصفة الشديدة البرودة تصيب الزرع فتُهلكه، كذلك سيجعل طوفان القيامة أعمالهم الظاهرية كلها هباءً منثوراً .

لم يكن هناك سوى القليل من اليهود الذين آمنوا برسالة النبي ﷺ ، ولكن يتضح من خلال إطلاق «أمةٍ قائمةٍ» على هؤلاء - رغم ضآلتهم العددية - أن قلةً قليلةً تخشى الله حق خشيته، تكون أعظم قيمة وأرجح كفةً عند الله من جموعٍ غفيرةٍ لا تخشاه .

ولا يكفي للنجاة في اليوم الآخر، أن يكون المرء هنا منضماً إلى أمةٍ عريقةٍ تنتمي إلى أحد الأنبياء ، بل المطلوب الجوهري هو أن يكون المرء موفياً بالعهد ، والمراد من العهد هو الإيمان والإيمان عهد بين العبد وبين الله. فالمؤمن يُلزم نفسه بأنه سيظل وفياً مخلصاً لله ومطيعاً له تعالى طوال حياته .

وهذا العهد يتضمن كل المسئوليات الإيمانية المتمثلة في ذكر الله في الخلوات، وعبادته آناءَ الليل، وممارسة الحياة مع الاستحضار الدائم للآخرة، وحث الآخرين على السير في طريق الخير والمعروف، وبذل قُصارى الجهد لتطهير المجتمع من المنكرات والآثام، والمبادرة إلى إنجاز الأعمال المحببة إلى الله ، وهؤلاء الموفون بالعهد الرباني وهم وحدهم عباد الله المرضيّون عنده، وإن الله عز وجل عليم بكل ما قد عملوه، فيجزل لهم الأجر والمثوبة على أعمالهم، ويقدر جهدهم في سبيل نشر الخير واقتلاع جذور الشر حق قدرها في يوم الدين .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

بِطَانَةً: خواص يستبطنون أمركم .

لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً: لا يقصرون في فساد دينكم.

وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ: أحبوا مشقتكم الشديدة .

خَلَوْا: مضوا . أو انفرد بعضهم ببعض .

مِنَ الغَيْظِ: أشد الغضب والحنق.

لقد آمن المسلمون بالدين الإلهي نفسه الذي تلقاه أهل الكتاب السابقون، إذْ كان دين الطائفتيْن كلتيْهما واحداً من حيث حقيقته الجوهرية،غير أن اليهود لم يلبثوا أن بلغوا من العداوة والبغضاء للمسلمين حداً كبيراً حتى إذا نزلت بالمسلمين مصيبة غمرهم الفرح

والسرور .

وكان السبب وراء هذه الأحقاد والعدوات الدينية في قلوب اليهود أنهم اتخذوا ديناً مصطنعاً من عند أنفسهم، ناسبين إياّه إلى أنبياء بني إسرائيل ، وعلى أساسٍ من ذلك احتلوا مركزاً قيادياً بين الجماهير، في رحاب الدين الإلهي تكون الاهتمامات كلها متجهةً نحو الذات الإلهية، أما في ظل الديانة المصطنعة الزائفة، فينصب اهتمام الناس على صانعيْها ومفسريْها ، وأمثال هؤلاء لا يستسيغون انتشار الدعوة إلى الدين الحق، إذْ يُخيلّ إليهم وكأنها تعمل على تقليص ظلهم، ودفعهم عن مراكز القيادة والعظمة .

ومما يجب على عباد الله المخلصين، في مواجهة مثل هذه المواقف، أن يأخذوا حذرهم من كل ردّ فعلٍ سلبي، ويلتزموا بالصبر والتقوى ، ومعنى الصبر هو الاستقامة على جادة الحق في كل حالٍ من الأحوال ، وأما التقوى فهي عبارة عن الاعتقاد الجازم بأن القوة الحاسمة هي الله عز وجل، وليس أحد سواه ، ولو تبنىّ المسلمون مثل هذا الموقف الإيجابي، لم يكن لأعدائهم أن ينالوا منهم شيئاً، ولكن ينبغي للمسلمين أن يكونوا واقعيين، فيميزوا عدوهم من صديقهم، حتى لا يتمكن أحد من أن يخدعهم استغلالاً لصفاء قلوبهم وطهارة نفوسهم .

وواقع انطواء قلوب المسلمين على مهادنة اليهود، وخلو قلوب اليهود من محبة المسلمين، يوضح لنا أي الفريقيْن على الحق وأيها على غير الحق ، إن الله كله الرحمة والعدل، وهو خالق ومالك بني البشر أجمعين، ولذا فإن الشخص الذي يظفر بالله على نحوٍ حقيقيٍ، ينفتح صدره لعباد الله أجمعهم، ويصير كل البشر في نظره عيال الله على قدم المساواة، وبالتالي فهو يحب لكل أحدٍ ما يحب لنفسه ، ولكن الذين لم يُدركوا الله على نحوٍ حقيقيٍ، والذين لم يدمجوا إرادتهم في إرادة الله يعيشون على مستوى ذاتهم وحدها، وبضاعة حياتهم تكون منحصرةً في إطار منافعهم الشخصية وتعصباتهم الطائفية.

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ

لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

غَدَوْتَ: خرجت أول النهار من المدينة.

تُبَوِّئُ: تُنزِل وتُوطن.

مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ: مواطن ومواقف له يوم أحد.

أَن تَفْشَلا: تجبنا وتضعفا.

أَذِلَّةٌ: بقلة العدد والعدة.

أَن يُمِدَّكُمْ: يقويكم ويعينكم يوم بدر.

وَيَأْتُوكُم: أي المشركون.

فَوْرِهِمْ هَذَا: ساعتهم هذه بلا إبطاء.

مُسَوِّمِينَ: معلمين أنفسهم أو خيلهم بعلامات.

لِيَقْطَعَ طَرَفاً: ليهلك طائفة.

يَكْبِتَهُمْ: يخزيهم ويغمهم.

نزلت هذه الآيات عقب وقعة أحدٍ،سنة ثلاثٍ من الهجرة، وفي هذه الوقعة كان عدد الأعداء يبلغ ثلاثة آلاف مقاتلٍ، في حين خرج لمقاومتهم ألف رجلٍ من المسلمين، وبينما

المسلمون في منتصف الطريق انخذل عبد الله بن أبيّ بثلاثمائةٍ من أصحابه، مما أثار موجةً من الانهزامية والوهن في نفوس بعض الأنصار، لولا أن ذكرهم رسول الله ﷺ بأننا لم نخرج ثقةً بأنفسنا، وإنما خرجنا توكلاً على الله وحده، وقد شرح الله صدور المسلمين لفهم هذه الحقيقة،فاطمأنت قلوبهم، وارتفعت معنوياتهم ، إن الله تبارك وتعالى لا يخذل العبد المؤمن إذا طرأ عليه طارئ من الضعف والاستكانة، بل يأخذ بيده،ويثبته من جديدٍ على جادة الإيمان ، وقد ظهرت نُصرة الله هذه على المستوى الاجتماعي في غزوة أحدٍ؛حيث تغلب العدو على المسلمين،اغتناماً لزلةٍ صدرت منهم .

ينبغي للمؤمن ألا يُصاب بالجزع والهلع من قلة العدد أو ضآلة الإمكانيات ؛ إذْ لو كان العدد قليلاً، فليتأكدْ أن الله تعالى سيكمل هذا النقص العددي بواسطة مددٍ من الملائكة، ولو كانت الوسائل غير كافيةٍ، فليثقْ بأن الله سيخلق من عنده أجواءً تسد مسدّ النقص في الوسائل ، إن مدار النجاح والانتصار ليس على الوسائل المادية، بل على الصبر والتقوى .

وتتخذ نصرة الله للذين يخشون الله ويعتمدون عليه تعالى، صورتيْن اثنتيْن: إحداهما تتمثل في قطع طرفٍ من معارضيهم، والثانية تتمثل في كسر شوكة المعارضين وإلحاق الهزيمة بهم ، ومصدر الانتصار الأول هو الدعوة؛ إذْ يوفق الله الأفراد من الطرف المقابل، الذين يتمتعون بشيءٍ من الحياة والحيوية، يوفقهم للاقتناع بالدين فهم يبدأون بالانضواء تحت لواء الحق، وأما في الصورة الثانية، فإن الله يزيد فيها من قوة أهل الإيمان، ويرفع من معنوياتهم، ويُمدهم بمددٍ خصوصيٍ يجعلهم يتغلبون على العدو .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ

ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم
مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ
﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

مُّضَاعَفَةً: كثيرة وقليل الربا ككثيره.

السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ: اليسر والعذر.

وَالْكَاظِمِينَ الغَيْظَ: الحابسين غيظهم في قلوبهم.

فَعَلُوا فَاحِشَةً: معصية كبيرة متناهية في القبح.

خَلَتْ: مضت وانقضت.

سُنَنٌ: وقائع الأمم المكذبة.

المراباة هي الصورة المتناهية في القبح والشناعة لعبادة المال ، والشخص المصاب بعبادة المال يكون دائماً مشغول البال في البحث عما سيجعل ثرواته ضِعفيْن فصاعداً ، فيأخذ في الاندفاع وراء ثروة الدنيا، في الوقت الذي يجدر به أن يسعى نحو جنة الآخرة، ويزداد شوقاً ورغبةً في نيل رحمة الله ونصرته ، وإنما يريد المرء تنمية ثروته لكي ينال الحظوة والمكانة عند الناس، ولكي يضمن لنفسه عيشاً رغيداً في الدنيا ، غير أن نجاح هذه الدنيا ومكانتها لا يتمتعان بأية قيمةٍ حقيقيةٍ، إذْ إن الجنة لها وحدها الأهمية البالغة، فأفراحها لا تفنى، ولذاتها لا تنتهي أبداً ، والعاقل هو الذي يندفع نحو الجنة .

والسعي وراء الجنة يعني أن يبذل المرء القسط الأوفى من ماله في سبيل الله ، إن الطريق إلى النجاح الدنيوي هو «تنمية المال» ، وأما الطريق إلى الفلاح الأخروي فهو « إنفاق المال »، وإذا كان رأسمال الصنف الأول من الناس هو حب المال ، فإن رأسمال الصنف الثاني هو حب الله ورسوله ، وإذا كان الصنف الأول من الناس خائفاً من خسائر الدنيا ، فإن الصنف الثاني يخاف أشد الخوف من خسران الآخرة .

والذين يخافون الله، تغلب عليهم شيئاً فشيئاً نزعة ((الإحسان))، حتى يصبح الإحسان بمثابة طبيعةٍ ثانيةٍ لهم، يعني أنهم يحاولون دائماً أن يعملوا كل عملٍ بأسلوبٍ يجعله أحب ما يكون إلى الله وأقرب إلى مرضاته تعالى، فهم يعيشون في الدنيا حياةً منضبطةً، بدلاً من حياةٍ متحررةٍ طليقةٍ، ويجعلون من مطالب دين الله مطالب لأنفسهم بالذات، فيبذلون في سبيل تحقيقها على كل حالٍ من اليسر والعسر، والرخاء والشدة، ويعفون عمن ظلمهم أو أساء إليهم، برغم قدرتهم على الانتقام، ومع أنهم غير معصومين من الخطأ، فإن أخطاءهم تكون وقتيةً؛ فهم لا يكادون يقعون في خطأ حتى يثوبوا إلى رشدهم فوراً، ويتوجهوا إلى الله ثانياً، سائلين إياه بخشوعٍ وحرارةٍ بالغيْن أن يغفر لهم ذنوبهم ويرحمهم!!

إن التاريخ يتحدث بلسان العمل عن الهدي الرباني الذي تم تبْيينه في القرآن في كلامٍ يُقرأ، غير أن الموعظة لن ينتفع بها إلا الذين يبحثون عن الموعظة.

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٠) ﴾

وَلاَ تَهِنُوا: لا تضعفوا عن قتال أعدائكم.

قَرْحٌ: جراحة يوم أحد.

قَرْحٌ مِّثْلُهُ: يوم بدر.

نُدَاوِلُهَا: نصرفها بأحوال مختلفة.

الإيمان يعني توجيه الحياة كلها لله، ولقد وعد الله الذين يؤمنون به، أن يكتب لهم الغلبة في الدنيا، ويُدخلهم الجنة في الآخرة، وأن يُنعم عليهم بكرامته الكبرى، وهي أن يجعل منهم ((شهداء)) في محكمته، على أولئك الذين كانوا قد رفضوهم في الحياة الدنيا، وبناءً على شهادتهم يحدد المصير الدائم الذي يلحق بأولئك المنكرين، غير أن هذه الدرجة الرفيعة لا تتأتى بمجرد إقرارٍ لسانيٍ، بل لابد لذلك من أن يُثبت المرء صدقه في الصبر والجهاد.

والمؤمن ليس له بد من مواجهة ألوانٍ من الصعوبات والعراقيل من قِبل الآخرين على أية حالٍ ، ومقاومة هذه العراقيل والصعوبات هي الجهاد ، وإكراه النفس على الثبات على الحق في كل الظروف هو الصبر ، والذين يقدمون هذا النوع من الجهاد والصبر، هم وحدهم المؤهَلون ليرثوا الجنة ، وذلك يشق لهم أيضاً طريقاً إلى الغلبة والانتصار في الدنيا ؛ لأن «الجهاد» ضمان لاستمرارية عملهم على الوجه الأكمل، وأما «الصبر» فهو كفيل بأنهم لن يندفعوا وراء العواطف المجردة ، وهاتان خلتان إذا وُفقت طائفة ما للجمع بينهما، فإن نجاحها في دنيا الله هذه يصير مؤكداً بتوفيق الله، تماماً كما يكون من المؤكد بإرادة الله إثمار بذرةٍ أُلقيت في تربةٍ ملائمةٍ .

﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

وَلِيُمَحِّصَ: ليصفي ويطهر من الذنوب .

وَيَمْحَقَ: يهلك ويستأصل .

إن من يريد السير في طريق الله فسوف يواجه دائماً مشكلاتٍ شتى ، وربما تجرّه هذه المشكلات بدورها إلى الحيرة ، وقد تملأ قلبه كله بحب المصلحة الذاتية وحدها، وقد تثير في نفسه مشاعر سلبيةً ، وقد توحي إليه بفكرة إعداد «دينٍ جماهيريٍ» يحظى بالقبول والانتشار الواسعين بين الناس، إزاء دين الله الخالص النقي ، وذلك هو الاختبار الذي يمر به المرء في الدنيا .

ومن خلال الخطوات العملية أو ردود الفعل تجاه هذه المواقف، يتضح ما إذا كان صادقاً في إقراره أو كاذباً ، فإن كان عمله مطابقاً لدعوى إيمانه فهو صادق، وإن كان عمله خلافاً لدعواه فهو كاذب .

الشهادة لله هي النقطة النهائية لهذه المسيرة الإيمانية الطويلة؛ إذ ينبعث أحد عباد الله بين

الناس، بوصفه داعياً إلى الحق، بحيث يكون هو نفسه ترجمةً حيةً وأنموذجاً كاملاً لما يدعو إليه الآخرين ، والناس يقابلونه بالإهانة والازدراء، ولكنه لا يحفل بلومة لائم، وقد تعترضه ضروب شتى من المشكلات والصعوبات، لكن هذا لن يغير من وجهته ، وقد تتعرض نفسه للخطر، ولكنه لا يحيد عن موقفه الدعوي قيد أنملةٍ، ويظل صامداً في وجه كل الظروف والأزمات مهما تفاقمت، ومهما اشتدت وطأتها عليه .

إن هذا الاختبار قاسٍ للغاية، غير أن ليس هنالك بد من المرور به؛ إذْ به يتم إعداد الإنسان الذي سيتخذ منه الله تعالى شهيداً على عباده، إن المرء حين يظل ثابتاً مُصراً على نشاطه الدعوي، برغم كل ما يعترض طريقه من المآزق الحرجة، يؤكد تأكيداً عملياً على مدى يقينه واقتناعه برسالته ، كما يؤكد أيضاً على أن الشيء الذي ينبه الناس إليه، هو أمر جدّي متناهٍ في الجدية، وليس بأمرٍ عفويٍ عابرٍ لا يؤبه له .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

كِتَاباً مُّؤَجَّلاً: مؤقتا بوقت معلوم .

وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ: كم من نبي — كثير من الأنبياء .

رِبِّيُّونَ : علماء فقهاء . أو جموع كثيرة .

فَمَا وَهَنُوا: فما عجزوا . أو فما جبنوا .

وَمَا اسْتَكَانُوا: ما خضعوا . أو ما ذلوا لعدوهم .

أُشيع في أثناء معركة أحد أن النبي ﷺ قد قُتل، مما جعل بعض المسلمين يدب إلى قلوبهم الوهن والانهزامية ، غير أن عباد الله حقا هم الذين لا يعتمد تديّنهم على شخصيةٍ معينة ، إنما التدين المطلوب عند الله أن يكون العبد قد ربط روحه كله وكيانه كله بالله الواحد الأحد وحده .

إن الإنسان المؤمن هو الذي يتخذ من الإسلام ديناً، بناء على صدقه المبدئي الأصيل، وليس استناداً إلى أية شخصيةٍ من الشخصيات .

والشخص الذي يُوفق لإدراك الإسلام على هذا النحو، يصير الإسلام عنده نعمةً تملأ روحه كلها بمشاعر الشكر والامتنان نحوها ، ويحسب الآخرة، بدلاً من الدنيا، هي كل شيء، وتعود الحياة في نظره شيئاً زائلاً في أية لحظةٍ .

وأمثال هؤلاء هم المسافرون في سبيل الله حقاً ، وإذا شاء الله مكن لهم في الأرض، إضافة إلى ما سوف يختصهم وحدهم به من الكرامات الكبرى والنعيم الأبدي في الآخرة. غير أن هذه الدرجة الرفيعة لن ينالها إلا الذي يجتاز كل مراحل الابتلاء والامتحان بنجاحٍ.

ومسلسل اختبار المؤمن، لا يزال جارياً كل يومٍ دون انقطاعٍ، والذين ينجحون في هذا الاختبار هم الذين يُكتب لهم كل أنواع العزة والسعادة والرقي في الدنيا والآخرة .

إن اتحاد كلمة أهل الإيمان، ووقوفهم جنباً إلى جنب في المواقف الخطيرة الحاسمة، وتواصيهم بالصبر والثبات على الحق في كل الظروف والأوضاع، مما يجعلهم مستحقين لنصرة الله الخاصة .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ

وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ
حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ
مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ
وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا
تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا
تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

الله مَوْلاكُمْ: الله ناصركم لا غيره.

الرُّعْبَ: الخوف والفزع.

سُلْطَاناً: حجة وبرهانا.

مَثْوَى الظَّالِمِينَ: مأواهم ومقامهم.

إِذْ تَحُسُّونَهُم: تقتلونهم قتلا ذريعا.

فَشِلْتُمْ: فزعتم وجبنتم عن عدوكم.

لِيَبْتَلِيَكُمْ: ليمتحن صبركم وثباتكم.

تُصْعِدُونَ: تذهبون في الوادي هربا.

وَلاَ تَلْوُونَ: لا تعرجون.

فَأَثَابَكُمْ: فجازاكم الله بما عصيتم.

غَمّاً بِغَمٍّ: حزنا متصلا بحزن.

لقد كانت الهزيمة الوقتية العارضة في موقعة أحد فرصةً انتهزها معارضو الإسلام، فبدأوا يقولون : إن أمر هذا النبي وأتباعه ليس بأمر إلهي؛ إذ لو كان ذلك أمراً إلهياً، لم يكن لأعدائهم أن يُلحقوا بهم الهزيمة المنكرة .

غير أن الهزائم والنكسات من هذا النوع، وإنْ كانت في ظاهر أمرها قد وقعت نتيجة لخطأ المسلمين أنفسهم تكون على كل حال اختباراً من الله عز وجل ، فليس هنالك بد من مواجهة «وقعة أحد» في معترك الحياة الدنيا، حتى يتميز من كان يعتمد على الله وحده، ممن ينقلب على عَقِبَيْه، وينسلخ من إيمانه ، ومثل هذه الوقائع تكون ابتلاء ثُنائياً أو مزدوجاً بالنسبة للمؤمن، فمن جانبٍ يكون المطلوب منه ألا يتأثر بها قد يثيره المعارضون من الأراجيف والمثبّطات والشكوك حول مستقبل الإسلام ، ومن جانبٍ آخر يجب عليه ألا يقع فريسة الفزع والهلع من المعاناة الوقتية الطارئة، وأن يبقى صامداً لا يتزحزح عن موقفه على أية حالٍ ، ولو ظل أهل الإيمان صامدين في وجه المواقف الخطيرة والأزمات الشديدة الوطأة، فسرعان ما تنزل من عند الله «نصرة الرعب» .

إن إصابة المسلمين بالضعف والهزيمة يرجع إلى سببٍ واحدٍ لا ثاني له، ألا وهو «التنازع في الأمر» ، وليس هنالك من سبيلٍ إلى الوحدة والائتلاف بين طائفةٍ ما، إلا بالتخلص من هذا السبب ، حتى وإن اختلفت الآراء وتعددت وجهات النظر .

وما دام هذا السمو الفكري والانفساح الذهني سائداً في طائفةٍ ما، فإنها تظل متحدةً متماسكةً، قويةً وغالبةً ، وأما إذا صار الاختلاف في الرأي والمذهب، أساساً لافتراق القوم طرائق قدداً، وكتلاً متفرقةً، فلا مناص إذن من أن يصيبهم الضعف المؤدي بهم حتماً إلى الهزائم والنكسات المتوالية .

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ

ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) ﴾

أَمَنَةً : أمنا وعدم الخوف.

نُّعَاساً: سكونا وهدوءا أو مقاربة للنوم .

يَغْشَى: يلابس كالغشاء .

لَبَرَزَ: لخرج .

مَضَاجِعِهِمْ: مصارعهم المقدرة لهم أزلا .

وَلِيَبْتَلِيَ: ليختبر وليمتحن وهو العليم الخبير .

وَلِيُمَحِّصَ: ليخلص أو ليزيل أو ليكشف ويميز.

اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ: حملهم على الزلة بوسوسته.

إن أهم شيء في معترك الحياة ألاّ يفقد المرء أبداً شعوره بالأمن والطمأنينة الداخلية، ويبقى دائماً مستعداً لتركيز جهوده واهتماماته كلها على إنجاز خطته المرسومة، وبلوغ غايته المنشودة ، ويكون أهل الإيمان، نتيجة ثقتهم بالله وتوكلهم عليه، متمتعين بهذه الطمأنينة الداخلية على أكمل وجهٍ، حتى في أثناء المواقف المفزعة، تلك التي يُصاب الناس فيها بالقلق والانزعاج المؤرِّقَيْن؛ فلا يعرف الندم سبيلاً إلى جفونهم، يمكنهم أن يستعيدوا نشاطهم وحيويّتهم من خلال الاستراحة لساعةٍ أو لبعض الساعة .

وقد شهدت غزوة أحد مظاهرة فعليةً رائعةً لذلك؛ فقد تمكن فلول المؤمنين من أن يأخذوا حظهم من النوم والاستجمام، على الرغم من ألم القروح والجراح، وإرهاق التعب والعناء، وأن يخرجوا مع صباح اليوم التالي، في أعقاب العدو، ليطاردوه، حتى عسكروا بحمراء الأسد - التى تقع على مسافة ثمانية أميالٍ من المدينة - الأمر الذي أدخل الرعب في قلوب الأعداء ، فانطلقوا عائدين إلى مكة لا يلوون على شيء ، ذلك هو شأن أهل الإيمان الصادقين في إيمانهم ، وأما الذين لم يتخذوا من الله ولياً ومعيناً لهم ، فإنهم يرون الأخطار تحدق بهم من كل ناحية، إن أناساً فارغين عن همّ الدين أمثالهم، لا يهمّهم شيء سوى النجاة

بأنفسهم ، فيكونون دائماً قلقين مضطربين؛ لا يقر لهم قرار، ولا ينالون نصيبهم من نصرة السكينة والطمأنينة التي يلقيها الله في قلوب عباده المؤمنين ، وفي غزوة أحد كان عبد الله بن أبي من أصحاب الرأي القائل بالبقاء في المدينة، وقتال العدو فيها إذا ما دخل عليهم غير أن رسول الله ﷺ لم يلبث أن خرج من المدينة، وقاتل العدو في الشِّعب ، نزولاً على اقتراح أكثرية المسلمين المخلصين .

ثم إذا حلت الهزيمة بالمسلمين، بسبب خطأ الرماة المرابطين على ثغر الجبل، وجد عبد الله بن أبي وأتباعه فرصةً لإظهار الشماتة بهم، فراحوا يقولون: لو اتفقوا معنا على البقاء في المدينة والقتال فيها، لما حلت بهم هذه الخسارة الفادحة في الدماء والأرواح ، غير أن الموت أمر إلهي لا يتخلف؛ إذ يوافي كل أحدٍ حيث ينتهي أجله المكتوب وليس بإمكان التدابير الاحتياطية أن تدفع الموت أو تؤخره عن أحدٍ .

وإن أمثال هذه النكبات والأحداث الفاجعة، مهما يكن وراء ذلك من سببٍ في ظاهر الأمر، إنما تحدث وفق مشيئة الله العليا، لكي يتضرع عباد الله المخلصون إلى الله؛ فيزدادوا تقرباً إليه، ويستحقوا المزيد من رحماته، ولكي ينكشف النقاب عن طوية المغرضين الدخلاء الذين انضموا تحت لواء الإسلام لأحد غرضَيْن لا ثالث لهما: مغانم يتوقعونها، أو مغارم يَتَوَقَّوْنَها .

عندما رأى الرماة الخمسون أن المسلمين قد أحرزوا النصر، وأن الأعداء لاذوا بالفرار رغب بعضهم في النزول إلى الميدان؛ ليأخذوا الغنائم والأسلاب إلا أن أميرهم - عبد الله بن جبير - وعدداً من زملائه خالفوهم قائلين : علينا أن نلزم هذا المكان ولا نبرحه على أي حالٍ من الأحوال، بحسب ما أمرنا به رسول الله ﷺ ، وما هو إلا قليل حتى غادر الرماة مواقعهم ما عدا أحد عشر رامياً ، وقد اتخذ الشيطان من هذا الاختلاف والتنازع الداخلي ثغرةً لكي ينفذ منها إلى قلوب المسلمين، ويوقع الارتباك في صفوفهم، غير أنهم لما اعترفوا بخطيئتهم، عفا الله عنهم، ثم نصرهم، بأن قذف الرعب في قلوب الأعداء؛ فارتدوا على أعقابهم، في حين أنهم كانوا متجهين صوب المدينة، ولم يكن بينهم وبينها إذ ذاك سوى بضعة أميال فقط .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

ضَرَبُوا: سافروا لتجارة أو غيرها فماتوا .

غُزًّى: غزاة مجاهدين فاستشهدوا.

فَبِمَا رَحْمَةٍ: فبرحمة عظيمة .

لِنتَ لَهُمْ: سهلت لهم أخلاقك ولم تعنفهم .

فَظاً: جافيا في المعاشرة قولا وفعلا .

لانفَضُّوا: لتفرقوا ونفروا.

فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ: فلا قاهر ولا خاذل لكم .

كل حادثٍ يقع في هذه الدنيا، مهما كان صغيراً أو كبيراً إنما يقع بإذن الله تعالى، غير أن هناك ستاراً من الأسباب والعلل لا يزال مسدولاً على كل الأمور والأحداث؛ بحيث يبدو في ظاهر الأمر أن الأحداث كلها مرتبطة بأسبابٍ معينةٍ، ولكنها في الحقيقة مرتبطة بمشيئة الله العليا ، واختبار المرء يكمن في ألا يتورط في بُؤرَة الأسباب الظاهرية ، بل يحاول جهده النظر إلى القدرة الإلهية العاملة خفيةٍ من ورائها .

إنّ الإنسان غير المؤمن هو الذي يضل في متاهة الأسباب .. والإنسان المؤمن هو الذي يُوفق لإدراك الحقيقة الأصلية العليا.

إن شخصاً يدعي الإيمان، ثم يحسب أن الحياة والموت، والنجاح والإخفاق، كل ذلك نتاج التدابير والحيل، إن شخصاً كهذا لا عبرة بدعوى إيمانه ، إن الرجل الكافر إذا ما طرأ عليه طارئ صار نهباً للأسى واللوعة والحسرة وهو يقول : لو أني اتخذت كذا وكذا من التدابير لكنت بنجوةٍ مما وقعت فيه ، ولكن الرجل المؤمن ينظر إلى ما يُلم به من الطوارئ والنكبات نظرةً تنم عن الهدوء النفسي والطمأنينة والقناعة الداخلية، ويرجع ذلك إلى إرادة الله به، وأن الله لا يريد بعباده إلا خيراً .

والذين يعطون الأهمية البالغة للأسباب يوجهون حياتهم كلها إلى ادّخار متاع الدنيا وزخارفها ، وبالتالي تصبح «الحياة الدنيا» أعز شيءٍ عندهم، غير أن الشيء الجدير بالطلب والسعي الحثيث إنما هو الجنة ومغفرة الله ورضوانه، والجنة شيء لا يُنال إلا بعوض الحياة .

والسلوك الاجتماعي الذي طُولب الرسول بممارسته مع أصحابه المؤمنين، هو السلوك المطلوب من القائد المسلم ، فلابد للقائد المسلم أن يكون رقيق القلب ولين القول، ويجب ألا تكون هذه المعاملة الرفيقة اللينة محصورةً في نطاق الحياة اليومية العادية، بل تشمل أيضاً المواقف الصعبة، تلك التي يدور فيها الصراع الحاسم بين الإسلام والكفر والتي يتحول فيها النصر الباهر إلى هزيمة نكراء نتيجة للخروج على أوامر القائد.

ومن المستحيل أن تتألف أية جماعةٍ قويةٍ متماسكةٍ، مالم يكن قائدها متمتعاً بالسمو ورحابة الصدر وليونة الجانب على هذا المستوى ، إن الخطيئة مهما كانت فادحةً أو عظيمة الخطر، جديرة بالعفو، فيما لو كانت مجرد خطيئةٍ، ولم تكن بمشاغبةٍ متعمدةٍ، فينبغي للقائد أن يتعامل مع أتبّاعه ناسياً كل أخطائهم من هذا النوع ، وأن يكون غاية في النصح للناس والحرص عليهم ، حتى تبدأ تفيض من قلبه الدعوات الصالحة لهم،وأن يقدر الناس تقديراً بالغاً وأن يأخذ نفسه بالتشاور والبحث معهم في كل الأمور والقضايا .

وإذا كان المرء موقناً بأن كل ما يقع، إنما يقع بإذن الله عز وجل، فإن التدابير البشرية كلها،

ستصبح في نظره غير جديرةٍ بالاعتبار.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾

أَن يَغُلَّ: يخون في الغنيمة.

بَآءَ بِسَخَطٍ: رجع متلبسا بغضب شديد.

وَيُزَكِّيهِمْ: يطهرهم من أدناس الجاهلية.

على أن رسول الله ﷺ كان قد عفا عن أولئك الرماة الأربعين الذين خالفوا أمره، بمغادرتهم ثغر الجبل، قبل أن يأذن لهم بذلك غير أنهم لم يطمئنوا كل الاطمئنان إلى عفوه ذاك فقد كانوا يظنون أن ذلك لا يعدو أن يكون عفواً ظاهرياً مؤقتاً، وأن ثمة بقيةً من الحزازة في قلبه ولمّا تخمدْ جذوتها، وأنه سوف يحاول أن يتشفى منهم، إذا ما أُتيحت له الفرصة، فقيل: إنه ليس من شأن الرسول أن تنطوي نفسه على غِلٍ، بأن يُبطن في داخله خلاف ما يظهره.

ومن خلال هذا تتضح لنا تلك الصفات والملامح البارزة التي لابد من توافرها فيمن يتولى قيادة المسلمين، فالقائد المسلم ينبغي أن يكون قلبه من السلامة والنقاء بحيث لا يضمر شيئاً من مشاعر البغض والنفرة والحقد والحسد، إذنْ فينبغي للقائد المسلم أن يتّسع صدره للعفو والصفح، حتى عن أولئك الذين يرتكبون أفدح الأخطاء وأشدها خطورةً، وألا يُضمر في قلبه أية عاطفةٍ سلبيةٍ ضدهم؛ ولْيتعامل معهم اليوم كما لم يكن قد صدر منهم محظور بالأمس القريب.

ومما لابد منه كذلك أنه إذا أولت طائفة مسلمة ما ثقتها لأحد القادة واعتمدت عليه، فألقت إليه مقاليد أمورها كلها، فلا يجوز لهذا القائد أبداً أنْ يضحي بأموالها وأنفس أفرادها في سبيل تحقيق آماله وطموحاته الذاتية ، إن الشخص الذي يكون قد نهض لإرشاد الناس إلى مرضاة الله وحثهم على اتباعها في حياتهم العملية، كيف يستحب لنفسه أن يحضر أمام الله ولم يتبع مرضاة الله في حياته ؟!

إن حياة الرسول ﷺ تمثل «القدوة والأنموذج » التي لابد من التأسي بها لكل القادة وزعماء الإصلاح إلى يوم القيامة ، ومما يستلزم العمل الإصلاحي بالضرورة ألا يبدو المصلح «غريباً» من أية ناحية، عن الذين يتوخى القيام بالإصلاح بينهم؛ بل يجب أن يبدو، من حيث لغته، وأسلوب كلامه، وطراز معيشته، وما إلى ذلك «واحداً من أنفسهم» ، كما يجب ألا يخلق بينه وبين مخاطبيه جواً داعياً إلى النفور ، أوْ باعثاً على اتخاذ أحد الفريقيْن موقف المنافس للفريق الآخر .

وأول ما تهدف إليه مهمة الدعوة والإصلاح بين الناس: أن تُصقل عقولهم وتُنور بصائرهم، فيأخذوا في تلاوة الآيات الكامنة في نفوسهم، والمنبثة في أرجاء العالم الخارجي كله وتدبرها ، وأن يرتفع مستواهم الفكري لكي يتمكنوا من إدراك البراهين الإلهية حق الإدراك .

والهدف الثاني هو: «التزكية» ، والذي يتحقق بواسطة الصحبة، وما يدور في أثنائها من الأحاديث الشفهية .

والهدف الثالث هو : «تعليم الكتاب» ، يعني بيان الأحكام والتوجيهات السماوية المتعلقة بشئون الحياة الدنيا وأساليب ممارستها، والتي يُطلق عليها اسم «الشريعة » أيضاً .

وأما الهدف الرابع والأخير فهو : «تعليم الحكمة» ؛ وهو يعني كشف القناع عن أسرار الدين، وإبراز الحقائق والمعاني المحجوبة فيما بين السطور .

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ

ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

أَنَّىٰ هَـٰذَا: من أين لنا هذا الخذلان.

قُلْ فَٱدْرَءُوا: فادفعوا .

في الصراع القائم بين الحق والباطل، يكون الانتصار النهائي حليف الحق؛ لأن الله عز وجل يقف دائماً إلى الجانب الحق وأهله ، غير أن هذا العالم هو عالم الامتحان والابتلاء، حيث يتمتع الأشرار والمشاغبون بكامل الحرية للعمل والتصرف ، الأمر الذي ربما يُتيح لهم فرصةً للنيل من أتباع الحق وإصابتهم ببعض الأضرار والخسائر الوقتية؛ استغلالاً لموطنٍ من مواطن ضعفهم ،كالاختلاف والتنازع الداخلي على سبيل المثال .

غير أن مثل هذه الوقائع الفاجعة تتضمن ناحيةً إيجابيةً مفيدةً؛ فمن خلالها يتم تمحيص جماعة المسلمين أنفسهم، فما إن تثقل وطأة الظروف ويشتد ظلام الحوادث، حتى يتميز المنافقون الكاذبون - تلقائياً - عن الصادقين المخلصين في إسلامهم، الذين لا يزالون صامدين توكلاً على الله وثقةً بنصرته ، وبالإضافة إلى هذا كله فإن الخسارة الناتجة عن الخطيئة الصادرة اتفاقا عندما تحدو بأهل الإيمان إلى تجديد عهدهم بالتزام الصبر، والإنابة الدائمة إلى الله، والتوكل على الله، فإن رحمة الله تصبح أدنى إليهم وأقرب إليهم من ذي قبل.

إنه قد يقال عن الشهداء «إنهم قد أهلكوا أنفسهم وأموالهم دون جدوى» غير أن هذا الكلام إنْ دل على شيءٍ فإنما يدل على سفاهة قائله ، فإن الخسارة في سبيل الله هي الفوز الأكبر بالذات ؛ لأن الذين يضحون بكل ما يملكون في سبيل الله، هم أوْلى الناس بكرامات الله يوم القيامة ، وأكثرهم استحقاقاً لنعمه وعناياته تعالى .

والسفهاء، إذْ يذكرون المقتولين في سبيل الله، يذكرونهم، وكأن الموت أليف المجاهدين في سبيل الله وحدهم دون غيرهم من الناس ، إن الموت سنة إلهية عامة لا تتخلف، وإنه لآتٍ إلى كل أحدٍ في موعده المضروب على حالٍ من الأحوال .

والذين يخوضون في مثل هذا الحديث، لا يصدرون أبداً في ذلك عن جَدٍ ، فإن قلوبهم تكون منطويةً على اعترافٍ مكظومٍ بمدى تقصيرهم وتقاعسهم الإجرامي عن التضحية لإعلاء كلمة الحق، غير أنهم يحاولون الحفاظ على وقارهم وسمعتهم الظاهرية عن طريق الطعن بألسنتهم في شأن الذين قدّموا فعلاً التضحيات البالغة في سبيل الحق ، إنهم يقولون بأفواههم كلماتٍ تكون قلوبهم شاهدةً على أنها كلمات زائفةٌ؛ لا تستند إلى أية حقيقةٍ واقعةٍ .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ: نالتهم الجراح يوم أحد .

كان المنافقون يصفون الشهادة في سبيل الله بأنها «موت ضائع »؛ لزعمهم أن هؤلاء المسلمين إنما يُلقون بأنفسهم إلى التهلكة من غير جدوى؛ مخدوعين بإغراءات رجل وتحريضاته - يعني النبي ﷺ - فقيل لهم : إن ما تحسبونه الموت هو في الحقيقة الحياة بعينها ، وبما أنكم لا تعرفون سوى منافع الدنيا وخسائرها العاجلة، فمن أجل ذلك يُخيل إليكم أن

التضحية بالنفس في سبيل الفوز الأخروي يعني إضاعةً للنفس، ولكن الذين يقدمون الفاقدين حياتهم في سبيل الله يفوزون بحياةٍ أهنأ منكم، فهم يعيشون في الآخرة عيشةً أخفض وأرغد منكم في هذه الدنيا .

ومن حيل الشيطان وتدابيره أنه يغري بمن يجدهم من بني البشر أقرب إلى التأثر بوساوسه ونزغاته، يُغري بهم لكي يصرفوا الناس عن الدين، مصوّرين لهم ما سيواجهونه لقاء تقدمهم نحو الدين من عواقب وخيمةٍ ونتائج مخيفةٍ، ولكي يزلزلوا أقدام المؤمنين ويصرفوهم عن جبهة الدين ؛ بإلقاء الرعب والهلع في قلوبهم ، من خلال تضخيم قوة العدو والمبالغة في تصويرها ، غير أن مثل هذه المثبطات لا تضر أهل الإيمان شيئاً، بل تبعثهم على تجديد يَقِيْنهم وتقويته من أن الله لن يخذلهم في مواجهة الظروف الصعبة.

وحصلت معركة أحد على نحو ميلَيْن من المدينة، وبعد أن وضعت الحرب أوْزارها انصرف جيش الكفار عائداً تحت قيادة أبي سفيان، حتى عسكروا بحمراء الأسد على بعد ثمانية أميالٍ من المدينة، وبعد ما استقر بهم المقام عادوا إلى التفكير فيما حدث، فأدركوا أنهم أخطأوا خطأً بالغاً إذْ رجعوا من أحد هكذا، دون أن يستغلوا هذه الفرصة السانحة للقضاء النهائي على المسلمين في المدينة .

وبينما يفكرون إذْ مر بهم عير من تجار عبد القيس، كانوا يريدون المدينة، فطلب إليهم أبو سفيان أنْ يحاولوا بعد وصولهم نشر الأراجيف والإشاعات بين المسلمين مما يثبطهم ويملأ نفوسهم خوفاً .

وما إن وصل رجال العير المدينة حتى قالوا : إنا قد رأينا أهل مكة وهم يُعدون جيشاً عظيماً جداً ، وقد صمموا على الهجوم ثانياً على المدينة بالذات، لكسر شوكة المسلمين واستئصال شأفتهم ، غير أن ثقة المسلمين القوية بالله صارت كفيلةً بأن يبوء مكر الكفار بالإخفاق الذريع، وينقلب بالوبال عليهم أنفسهم ؛ إذْ من خلال إشاعات أولئك الدسَّاسين المأجورين تمكن المسلمون من الاطلاع على نوايا عدوهم الخبيثة ، وقبل أن تزحف جنود المشركين ثانيةً نحو المدينة، بادر المسلمون بتعبئة قواهم وتنظيم رجالهم على عجلٍ تحت أمر الرسول ﷺ ، وانطلقوا مسرعين صوب « حمراء الأسد »، وعندما بلغ المشركين أن جيوش

المسلمين قادمة نحوهم تستأنف القتال، فظنوا أنهم قد حصلوا على مددٍ عسكري فرجعوا أدراجهم إلى مكة خائفين مذعورين .

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾

أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ: أن إمهالنا لهم مع كفرهم.

يَجْتَبِي: يصطفي ويختار.

قضية الحياة الحقيقية هي تلك التي مازالت خافية عن الأنظار، وليست التي يراها الناس ظاهرةً ماثلةً أمام أعينهم، الناس يهتمون بما يُنقذهم من جحيم الدنيا، ويبذلون قصارى جهدهم فيما يقودهم إلى نعيم الدنيا ، غير أن مقتضى العقل والكياسة أن يحرص الإنسان أشد الحرص على إنقاذ نفسه من جحيم الآخرة، ويسعى أعظم السعي للظفر بها هنالك من جنة النعيم الخالدة .

إن قضية الإنسان الكبرى والأصلية هي قضية الآخرة، والتي أخفاها الله تعالى عن عيون البشر لحكمة الامتحان، واتخذ لإخبار الناس بذلك أسلوباً حكيماً، وهو أن يختار بعضاً من عباده لحمل رسالة الغيب، يُطلعهم على حقائق ما وراء الموت، ثم يكلفهم بإعلام الآخرين بها .

الإيمان هو ألا يُعجب المرء بنفسه، فإن المُعجب بنفسه يرفع ذاته إلى مقام العظمة والكبرياء

بدلاً من الذات الإلهية، وألاّ ينغمس المرء في لذائذ الدنيا، فإن الانغماس في لذائذ الدنيا يدل على أنه لا يُركّز اهتمامه على الآخرة ولا يُعطيها الأهمية البالغة ، وأن يكون بنجوةٍ من الكبر والغرور، والشح والبخل، والظلم والعدوان، بعيداً عن الحب لغير الله والاعتقاد فيه ، وبدلاً من ذلك كله يتخذ من العبودية لله، والتواضع والسماحة والجود، والتزام مبدأ العدل والنصفة على كل حالٍ، شعاراً عملياً له في الحياة، بذلك يبرهن على جديته وإخلاصه وانصرافه نحو الله والآخرة ، وعدم أخذه نفسه بذلك يوحي بأنه ليس بجادٍ ولا مخلصٍ في دعوى إيمانه .

إن التمييز النوعي الذي سيتم في الآخرة بين الطيب من الأرواح والخبيث منها، إنما يكون للحقيقة والجوهر، وليس للشكل الخارجي أو الطلاء الظاهري.

و «الإمهال» الذي أُعطي للأشرار والمنحرفين من الناس في الدنيا ، الغرض منه تمكين هؤلاء من إظهار ما في نفوسهم من شرٍ إلى أقصى حدٍ، غير أنهم مهما قاموا وقعدوا ومهما ركبوا الصعب والذلول، لن يفلحوا في إحراز الغلبة والانتصار على أتباع الحق وإلحاق الهزيمة بهم، إنما يستطيعون أن يستخدموا حريّتهم ضد أنفسهم وحدها، وليس ضد أحدٍ سواهم .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ

وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾

سَيُطَوَّقُونَ: سيجعل طوقا في أعناقهم .

عَهِدَ إِلَيْنَا: أمرنا وأوصانا في التوراة .

بِقُرْبَانٍ: ما يتقرب به من البر إليه تعالى .

وَالزُّبُرِ: كتب المواعظ والزواجر .

زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ: بعد ونحي عنها .

الغُرُورِ: الخداع أو الباطل الفاني .

على أن المرء يدخل في عداد المؤمنين بمجرد النطق بكلمةٍ واحدةٍ في ظاهر الأمر، غير أنه لا يكون عند الله مؤمناً إلا إذا ضحّى بماله ونفسه في سبيل الله، إذْ لا عبرة بإيمان أحدٍ عند الله بغير التضحية بالنفس والمال ، وإنما يضن المرء بماله ويكنزه ظناً منه أنه يحاول بذلك تأمين مستقبله الدنيوي والاحتفاظ به ، ولكن مستقبل الإنسان الحقيقي هو الذي سيواجهه في الآخرة ، وفي عالم الآخرة، لن يعود مثل هذا المال المكنوز المضنون به إلا بالوبال على صاحبه، فالمال الذي يبدو في هذه الدنيا وسيلةً للزينة والتفاخر والمباهاة، سوف يتحول بأمر الله إلى ثعبانٍ عظيمٍ في الآخرة .

والذين لا يعتنقون «دين التضحية والتكاليف» طالما يلجأون إلى ألوانٍ شتى من الأقاويل لكي يثبتوا أن موقفهم صحيح؛ فقد يقولون مثلاً : إن الله إنما خلق هذا المال لتغطية حاجاتنا نحن البشر، فلِمَ لا نبذله فيما نحتاج إليه ونتذرع به للحصول على أسباب الراحة ووسائل الترفيه في هذه الدنيا ؟! وقد تصل بهم قسوة قلوبهم وبلادة إحساسهم إلى إثارة أنواعٍ من الشبهات والشكوك حول شخصية الداعي إلى الحق بالذات؛ حتى يتمكنوا من البرهنة على أن ذلك الشخص الذي يفرض انبعاثه أن نقف إلى جانبه ونناصر رسالته، مُضحيّن بحياتنا وأموالنا، لا يمكن أبداً أن يكون داعياً صادقاً حقاً.

ومع أن هذه الأقاويل المموهة التي يخوض فيها أمثال هؤلاء الناس تبدو في ظاهرها

وكأنها دلائل وبراهين، فإنها ليست في الحقيقة سوى أساليب للفرار من تبعات الإيمان ومقتضياته ، ولذا فمهما عُرضت عليهم الدعوة مدعمةً بالأدلة القاطعة لن يُعوزهم بعض الألفاظ والعبارات الطنانة لرفضها والتنصل من قبولها ، إن هؤلاء أناس قد نسوا أن مصيرهم النهائي الموت ، وما إن تأتي مرحلة الموت حتى ينقلب الوضع رأساً على عقبٍ، فإن الموت لن يلبث أن يُلغي كل الاعتبارات والشعارات الزائفة، وعندئذٍ سيجد المرء نفسه في ذات الوضع الذي كان فيه حقيقةً، وليس في الوضع الذي كان يتظاهر به للناس.

﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾

لَتُبْلَوُنَّ: لتمتحنن بالمحن .

فَنَبَذُوهُ: طرحوه ولم يراعوه.

بِمَفَازَةٍ: بفوز ومنجاة .

بَاطِلاً: عبثا عاريا عن الحكمة .

في أثناء مسيرة الإيمان ، لابد أن يُصاب المرء بألوانٍ شتى من الأذى الحسي والمعنوي من ذويه ومن غيرهم، غير أن المؤمن مطالب دائماً بألا يقع فريسة رد الفعل، ويظل ماضياً نحو الأمام، متخذاً من كل وضع يواجهه موقفاً إيجابياً.

إن المؤمن يمر بين الحين والحين بتجارب ومعاملاتٍ تبعثه على أن يلبّي مطالب ذاته،

متخطياً الحدود الإلهية كلها، ولكن الخشية الإلهية تكبحه، وتحكم حركته، وكذلك تتطلب مقتضيات الدين المختلفة أن يضحي المرء في سبيل الوفاء بها بنفسه وبكل ما يملكه من رخيصٍ وغالٍ .

وعندما تُمنى أية طائفةٍ أمينة على الكتاب السماوي بالانحطاط، فلا يحدث أن تتخلى عن التحدث باسم الله ورسوله، أوْ أنْ تعلن براءتها وانقطاع علاقتها بكتاب الله ، كلا، إن الدين ، بالنسبة إلى طائفةٍ كهذه، يتحول إلى تراثٍ قوميٍ تعتز به، ويمتزج بتقاليدها الشعبية كل الامتزاج ، وليس بإمكان أية طائفة، من الطوائف أن تتخلى أو تنفصل عن شيءٍ توثقت بينه وبينها أسباب علاقةٍ قوميةٍ وعنصريةٍ على هذا النحو غير أن علاقتها تكون مجرد علاقةٍ شكليةٍ أو رسميةٍ وليست علاقةً حقيقيةً في واقع الأمر .

أولئك أناس يمارسون نشاطهم الدنيوى بعنوان الدين، ويرغبون فى أن يُعدوا «متدينين» برغم بعدهم عن الدين، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا وهم يعيشون حياةً خاليةً من كل اهتمامٍ بالنجاة الأخروية ، ثم هم يفتعلون - مع ذلك - عقائد خرافيةً ، يتوهمون أنهم بها سيكونون ناجين بكل تأكيد ، وهم يزعمون أنهم حَمَلة لواء الدين الإلهى، وينشطون لتحقيق غاياتهم الدنيوية، ويطلقون على تحركاتهم وصف الآخرة ، ويدورون فى فلك السياسة المزعومة، ويُضفون عليها صبغة السياسة الإلهية ، وهم ينهضون لإحراز مصالحهم القومية ويُعلنون أنهم نهضوا لتمثيل دور «خير الأمم» .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ
﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن
تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا
يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا
وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ

إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ: فاحفظنا من عذابها .

أَخْزَيْتَهُ: فضحته من عذابها .

مُنَادِياً: الرسول أو القرآن .

ذُنُوبَنَا: الكبائر .

وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا: أزل عنا صغائر ذنوبنا .

إن الكون بكل ما فيه إعلان ((صامت))، وما إن يُزيل المرء كل الأغشية الاصطناعية المتراكمة على عينيْه وأذنيْه، حتى يستمع إلى صدى هذا الإعلان الصامت ويراه في كل أرجاء الوجود ، وعندئذٍ يلوح له أنه من المستحيل أن ينعدم وجود الإنسان ويتلاشى بكل آماله الجليلة وتمنياته الجميلة في مدةٍ تتراوح بين خمسين عاماً ومائة عامٍ؛ في هذا الكون الذي لا تنعدم ولا تتلاشى كواكبه ونجومه حتى ألوف المليارات من السنين ، وأنه لا يكون للإنسان أي مصيرٍ ينتهي إليه سوى سلسلة الهموم والأحزان في هذا العالم حيث يُوجد جمال الأشجار، وروعة الأزهار، وحيث يتوافر الماء والهواء والشمس وما إلى ذلك من موجوداتٍ ذات معنىً وهدفٍ معينٍ .

ثم إنه يرى مستحيلاً كذلك ألا ينال المرء أية ثمرةٍ أو جزاءٍ، على الرغم من سَيْره في اتجاه البر والصلاح في الحياة؛ في عالمٍ يزخر بإمكاناتٍ هائلةٍ لتحويل بذرةٍ صغيرةٍ تُلقى في الأرض إلى كونٍ بأكمله من الشجر الأخضر ، وألا يُشرق نور العدل والنصفة على مر القرون في عالمٍ يتجلى فيه نهار مشرق عقب ليلةٍ دامسةٍ كل يوم ، وألا تظهر أية قوةٍ تأخذ على يد هذا الإنسان الذي لا ينفك يمارس ظلماً في عالمٍ يضم بين جنباته زلازل مروعةٍ وكوارث مدمرةٍ.

إن الذين يعيشون في دنيا الحقائق ويسبرون أغوارها، ويفكرون بدقةٍ وعمقٍ بالغيْن، من المتعذر عليهم أن يفهموا أوْ يستيقنوا ما إذا كان هذا الكون المفعم بالهدف والمعنوية يمكن أن ينتهي إلى مصيرٍ خِلْوٍ من أي معنىً أو هدفٍ ؟! وبالتالي فهم يعرفون أن رسالة الداعي إلى

الحق إعلان بلسان النطق عن ذات الحقيقة التى يتم إعلانها وإذاعتها، بلغةٍ صامتةٍ، في أنحاء الكون كله ، والقضية الكبرى التي تشغل بالهم بعد ذلك هي ألا يكونوا من الخائبين والمحرومين، في حينٍ ينكشف فيه الحق، وتطلع فيه شمس العدالة والإنصاف ، فيندفعون نحو ربهم متضرعين إليه، ويقفون إلى جانب الداعي إلى الحق وينضوون تحت لوائه، هادمين بأيديهم كل حاجزٍ من حواجز المنفعة والمصلحة ، راجيْن أن يبدى لهم ربهم منزلاً يسوده النور والضياء؛ ولا يدعهم يتيهون ويتخبطون في ظلماتٍ حالكة.

والعاقل الكيس من عاش في ذكر الله الدائم، والذي يدْرك المعنوية والهدفية العاملة وراء الخطة التكوينية للكون، وعلى العكس من ذلك فإن السفيه هو الذى يشغل قلبه وعقله بأمورٍ أخرى غير الله، والذى يمارس حياته فى هذه الدنيا وكأن ليس لديه إلمام بالخُطّة التكوينية لمالك الكون العظيم .

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

لاَ يَغُرَّنَّكَ: لا يخدعنك عن الحقيقة.

تَقَلُّبُ: تصرف .

مَتَاعٌ قَلِيلٌ: بُلْغَةٌ فانية ونعمة زائلة .

وَبِئْسَ الْمِهَادُ: بئس الفراش ، والمضجع جهنم .

نُزُلاً: ضيافة وتكرمة وجزاء .

وَصَابِرُوا: غالبوا الأعداء في الصبر.

وَرَابِطُوا: أقيموا الحدود متأهبين للجهاد.

الحياة المنضبطة المسئولة التي يعيشها أهل الإيمان تحرمهم من بعض شهوات النفس وحرياتها، وفي إعلانهم للحق يرى الكثيرون من الناس إلغاء أو نفياً لوجودهم؛ الأمر الذي يجعلهم يناصبونهم العداء، وربما يتفاقم الوضع ويتأزم لدرجة أنهم يُخرجون من ديارهم وأوطانهم، ويُضطرون إلى النهوض لمقاومة عدوان المعارضين وتعسفهم ، ولا يسعهم بعدئذٍ إلا أن يختاروا دين الله مضحين بالنفس والنفيس، ومما يجب على أهل الإيمان ألا ينسوا مصالح الآخرة من أجل مصالح الدنيا ، وأن يصبروا على مكاره الحياة وشدائدها، وأن يدفنوا المشاعر السلبية المنبعثة في نفوسهم، ولا يتخذوا أية خطوةٍ أو إجراءٍ علميٍ بدافع رد الفعل ، ثم إنهم مطالَبون بالاستقامة والثبات على مقاومة الأعداء الخارجيّين، فإن هذا الثبات والاستقامة هو الشيء الذي يجلب إليهم نصرة الله عز وجل، كما يجب – مع ذلك – أن يكون أهل الإيمان جميعاً ومتَّحدى الكلمة، مرتبطين بعضهم ببعض لأجل الكفاح الديني، فيقاوموا كل القوى المعادية صفاً كأنهم بنيان مرصوص .

تفسير سورة النساء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾

وَبَثَّ مِنْهُمَا: فرق ونشر منهما بالتناسل .

وَالأَرْحَامَ: واتقوا الأرحام أن تقطعوها .

رَقِيباً: مطلعا أو حافظا لأعمالكم .

حُوباً كَبِيراً: إثما أو ذنبا أو ظلما عظيما.

أَلاَّ تُقْسِطُوا: أن لا تعدلوا ، ولا تنصفوا.

مَا طَابَ: ما أحل لكم .

وَرُبَاعَ: فتحرم الزيادة على أربع .

أَلاَّ تَعُولُوا: في النفقة وسائر الحقوق .

صَدُقَاتِهِنَّ: مهورهن .

نِحْلَةً: فريضة أو عطية بطيب نفس.

هَنِيئاً مَّرِيئاً: طيبا سائغا حميد المغبة.

البشر كلهم متساوون في طبيعتهم وأصل نشأتهم ، لكونهم جميعاً من أبٍ واحدٍ وأمٍ واحدةٍ ومن ثم يجب أن يكون كل إنسانٍ محباً لأخيه الإنسان الآخر، وينظر إليه نظرته إلى نفسه ، وأن يتعايش الجميع أفراد عائلةٍ مشتركةٍ واحدةٍ في مناخٍ يسوده العدل والنصح والتكافل بين بعضهم البعض، وليست أهمية السلوك الحسن المتبادَل بين البشر، من وجهة النظر والأخلاقية وحدها، بل إنه قضية مصيرية بالنسبة إلى الإنسان ، ذاك لأن الله - عز وجل - رقيب على الناس أجمعين، ومحاسبهم يوم القيامة، وسيحدد مستقبلهم الأبدي في تلك الدار الآخرة طبقاً لأعمالهم في هذه الحياة الدنيا ، إذنْ فينبغي للمرء ألا يحسب قضية الإنسان أنها قضية الإنسان وحده، بل يحسبها قضية الله جل وعلا، وبالتالي يكون خائفاً أشد الخوف من مؤاخذة الله وبطشه ، ويأخذ نفسه بممارسة العمل الذي سينجيه من الغضب الإلهي .

وقد جاء في الحديث القدسي أن الله سبحانه وتعالى قال: «الرحم مني ، من وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته» ويتضح من هذا أن الصلة بالله يتم اختبارها عبر الصلة بالعباد. وإنما الشخص الخائف من الله حقيقةً هو الذي يخاف الله تعالى فيما يتصل بتأدية حقوق العباد ، والشخص المحب لله حقاً هو الذي يُبرهن على ذلك من خلال حبه للعباد ، وعلى أن هذا الأمر مطلوب رعايته في إطار الروابط الإنسانية العامة أيضاً؛ غير أن أهميته في إطار السلوك الحسن مع ذوي الأرحام وأولي القربى تتأكد وتزداد إلى حد أنه يحتلّ المرتبة الثانية بعد حق الله تبارك وتعالى .

ويشكل «اليتامى» الجزء الأضعف والأحوج إلى العون والرعاية في أي بناءٍ أسريٍ أو كيانٍ اجتماعي ، التعامل مع اليتامى لذلك أصعب مادة لاختبار التقوى أو الخشية الإلهية؛ إذنْ فينبغي للمرء أن يتخذ من اليتامى موقفاً عملياً أقرب ما يكون إلى مقتضى العدل والنصح، وأضمن ما يكون لرعاية حقوقهم ، وإنه لذنب جد عظيمٍ أن يتم توزيع ممتلَكاتٍ مشتركةٍ ويستأثر المرء لنفسه بالأشياء الجيدة، ويترك الأشياء الرديئة لشريكه وفاءً بحقه من الناحية الشكلية !!

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

قِيَاماً: قوام معايشكم وصلاح أموركم .

وَابْتَلُوا اليَتَامَى: اختبروهم فى الاهتداء لحسن التصرف في أموالهم قبل البلوغ .

آنَسْتُم: علمتم وتبينتم .

رُشْداً: اهتداء لحسن التصرف في الأموال .

وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُوا: مبادرين كبرهم ورشدهم .

فَلْيَسْتَعْفِفْ: فليكف عن أكل أموالهم .

حَسِيباً: محاسبا لكم أو شهيدا

مَّفْرُوضاً: واجبا أو مقتطعا أو محدودا .

قَوْلاً سَدِيداً: جميلا أو صوابا وعدلا .

وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً: سيدخلون نارا موقدة هائلة .

ليس المال من أجل التَرَف والتنعّم، ولا من أجل التكاثر والمباهاة ، إنما هو وسيلة تستقيم بها معيشة الإنسان على ظهر الأرض .

وكوْنُ المال ((وسيلةً للحياة)) ، يوضح لنا أنه لا يصح أبداً أن نتخذه هدفاً قائماً بذاته، كما يستلزم ذلك أن نكون حريصين غاية الحرص على صيانة المال من الضياع ، وإيصاله إلى صاحبه كاملاً غير منقوصٍ ، وإن عدم الاهتمام بتأدية المال إلى صاحبه على النحو المطلوب يعني الإِخْلاَل بذلك النظام الإلهي الذي قرره الله جل شأنه لتوصيل أسباب الرزق والمعيشة إلى عباده ، وبما أن ((اليتيم)) يشكل الجزء الأضعف في أي كيانٍ اجتماعيٍ، كان الحفاظ على ماله، وتجنب كل أنواع الظلم والعدوان في التعامل معه مطلوباً وضرورياً، وأن يسجّل المرء كل ما يفعله مع اليتيم وما يدفعه إليه وفق مقتضى العدل، ثم يقيم عليه الشهود ، وذلك تفادياً من أية خصومةٍ أو تنازعٍ يُحتمل أن يقع في المجتمع فيما بعد، ويؤدي إلى ما لا تحمد عقباه
٤٤ وتبرئةً لذمته وإظهاراً لنزاهة يديْه أمام الناس .

وإذا تولى المرء أمر أحد الناس، أو شاركه في شأنٍ من شئون الحياة، فلْيكن تعاملُه معه ، علماً بأن الله مطلع على كل ما سيُباشره من بخسٍ أو يتعّمده من تقصيرٍ وإهمالٍ ، وإن كان شريكه لا يتمكن من الاعتراض عليه، أو انتزاع حقه المغتصَب من يده، بسبب ضعْفه وقلة حيلته فلن ينجو من مؤاخذة الله وعذابه الشديد يوم القيامة .

وقد يُسَرُّ القوى بقدرته على اغتصاب حقوق الضعفاء في هذه الدنيا؛ غير أن المرء إذْ أكل المال الحرام فكأنما يملأ بطْنه ناراً ،٤ ومع أن هذا مما لا يُشَاهد عياناً في هذه الدنيا، ولكنه حقيقة سوف تنكشف في اليوم الآخر .

وإذا كان المرء قد مُنح حرية العمل والتصرف في هذه الحياة، إلا أنه لا يملك خياراً فيما يتصل بنتائج الأعمال، فالشخص الذي يرغب في النجاة بنفسه من سوء العاقبة والمصير، عليه ألا يُسيء إلى أحد من الناس، وينبغي للمرء أن يكون نافعاً لغيره، ويُعطي الآخرين مما عنده على حسب استطاعته، وإذا كان هناك من لا تسمح ظروفه بأن يُعطي الآخرين،فإن أقل ما يفرض عليه الإسلام في هذا الوضع هو ألا يتسبّب في إيذاء الناس بأي نوعٍ من الأذى الحسي أو المعنوي، فإذا تحدث إليهم فلْيقلْ قولاً سديداً وصادقاً أوْ ليلْتزم الصمْت.

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾ ﴾

يُوصِيكُمُ الله: يأمركم ويفرض عليكم .

فَرِيضَةً: مفروضة عليكم .

كَلالَةً: ميتا لا ولد له ولا والد.

حُدُودُ الله: شرائعه وأحكامه المفروضة .

إن القوانين الوضعية كلها - سواء منها القديمة والحديثة - ما زالت تعاني من آفة، وهي

التي تتمثل في جنوحها إلى هذا الجانب من الجوانب العديدة للقضية أوْ ذاك ، أوْ انحيازها إلى هذه الطبقة من طبقات الناس أو تلك ، ففي العصر القبَلي القديم حُرمت البنت كلياً من أي حق في الميراث، فقد كان الابن يستحوذ على الإرث كله ، ومردّ ذلك إلى ما كان يتمتع به الابن من الأهمية البالغة إذْ ذاك، حيث كانت القبيلة تنظر إليه بوصفه ذاباً عن حياضها،وحامياً لحماها من كل ما يتهدد كيانها أو مصالحها من الأخطار ، ولم تكن البنت تحتل هذه المكانة.

وظهر في العصر الحديث ردّ فعل على التقاليد والأعراف القديمة، حيث أُلغيت جميع الفوارق بين الذكور والإناث وتساوي الجميع في الحقوق والواجبات ، ولكن إذا كان المبدأ السابق القديم لا يقوم على العدل والنصفة، فإن المبدأ المعاصر الجديد لا يقوم على الواقع.

ولكن الأحكام والضوابط التي قررها الله ـ عز وجل ـ بهذا الخصوص، ليست الوسيلة الحقيقية الوحيدة لتحقيق العدالة الاجتماعية على صعيد الواقع فحسب،بل لها صلة عميقة بصميم الحياة الأخروية ؛ إذْ إن تأدية حقوق اليتامى، وتنفيذ وصايا الميت، وتوزيع الميراث على وارثيْه توزيعًا عادلاً، كل ذلك من الأمور التي يتوقف عليها مصير الإنسان في الآخرة .

والوصية الجائزة شرعاً تكون في ثلث التركة لا أكثر ، ولو كان ينوي شخص من خلال وصيته أن يحرم أحد الورثة من حقه في الميراث، فإنها جريمة منكرة يُحتمل أن تؤدي بصاحبها إلى النار ، فقد جاء في حديثٍ ما معناه: فلا يسعُ المرءَ بهذا الشأن إذنْ، إلا أن يأخذ نفسه باتباع إذا ارتكب إنسان ذنبا الحدود والضوابط الإلهية وحدها، دون أن يتبع الأهواء والرغبات الذاتية أو المصالح الأسرية .

﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ

ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾

بِجَهَالَةٍ: بسفه وكل من عصى جاهل .

إذا ارتكب إنسان ذنبا فلابد وأن يكون التعامل معه إذْ ذاك متفقاً وحدود الشريعة، إذْ ليس من الجائز أن يُدخل أحَدُ الناس في عداد المجرمين، ولا أن يُعامَل معاملة المجرمين، قبل الوفاء بالمقتضيات الشرعية اللازمة ، ومن أوّليات القانون: أن المتّهمَ بريء، حتى تثبت إدانته.

وكوْن أحد الناس مجرماً لا يعطي غيره حقاً مطلقاً للتعدي عليه، واتخاذ الإجراءات التعسفية الظالمة ضده ـ فالغاية من العقوبات إقامة العدل ـ ولن يمكن إقامة العدل أبداً والعدوان والتعسف .

وليست التوبة بأن تنطق بكلمة «التوبة»، وترددها مرةً وأخرى ، إنما هي عبارة عن سيطرة إحساسٍ شديدٍ بثقل خطيئتك ، ولو كان المرء مخلصاً في توبته، وأحس إحساساً عميقاً بخطيئته، فإن التوبة عندئذٍ تكون تجربةً قاسيةً وشديدة الوطأة عليه لدرجة أنها تصبح بمثابة تعذيب المرء نفسه بنفسه، وإذا كانت هذه الكيفية ناشئةً في قلب المرء عن خوفه من الله تعالى، فمن المؤكد أن الله سيعفو عنه ويغفر له ذنوبه كلها .

غير أنه لا قيمة عند الله لتوبة أولئك الذين بلغوا من الجرأة والطغيان والتمرد على الله إلى حدِ اقتراف المعاصي والمنكرات، ولا يُقلعون عنها بالرغم من صيحات التنبيه والإنذار المتكررة إلا إذا أشرفوا على الموت، أخذوا يتمتمون: «إننا تُبنا الآن!»، ولن تجدي التوبة فتيلاً عن أولئك الذين سيفيقون بعد فوات الأوان؛ إذْ يعترفون بخطاياهم في الآخرة عندما يروْن العذاب ماثلاً أمام أعْينهم، فيندمون، ولات ساعة مندم !

وحقيقة التوبة رجوع العبد وإنابته إلى ربه، ليتوب عليه ربه .

والتوبة كذلك للشخص الذي تورط في السوء، مندفعاً بدوافع وقتيةٍ لم يستطع التغلب عليها بدايةً، ثم لم يلبث حتى أشعرته محاسبته لنفسه ونقده الذاتي بخطيئته،فأقلع فوراً عن فعل السوء،واتجه ثانيةً بكل قلبه نحو طريق الخير والصلاح،وأخذ يمارس حياته طبقاً لأحكام الشريعة الإلهية ، ومثَل الشخص الذي يوفق للتوبة على هذا النحو،كمثل الذي يعود إلى منزله ثانياً عند المساء، بعد أن كان قد ضل طريقه في وقت الصباح .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٢٠﴾ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾

كَرْهاً: مكرهين لهن ، أو مكرهات عليه .

وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ: لا تمسكوهن مضارة لهن .

بِفَاحِشَةٍ مُبيِّنة : النشوز وسوء الخلق أو الزنا .

بُهْتَاناً: باطلا وظلما .

أَفْضَى بَعْضُكُمْ: وصل بالوقاع أو الخلوة الصحيحة

مِّيثَاقاً غَلِيظاً: عهدا وثيقا .

مَقْتاً: مبغوضا مستحقرا جدا .

لا جرم أن ورثة الميت لهم الحق في توارث ما خلفه وراءه من مالٍ وضياعٍ ، ولكن ذلك لا يعني أن يعتبر الورثة زوجة الميت ميراثاً لهم؛ فيتصرفوا في أمرها على هواهم، إن المال شيء جامد مملوك، قابل للتحول بالتوريث من إنسانٍ إلى آخر ، غير أن الإنسان وجود حيّ، يملك حرية الإرادة والتصرف، وله الخيار كله أن يقرر مصيره بنفسه، ويتخذ لمستقبله أي قرارٍ شاء .

وإذا كانت المرأة يُعوزها شيء من الناحية البدنية الجمالية أو المزاجية، فينبغي للمرء أن يتجاوز عنها ذلك، ويُتيح لها الفرصة لتقوم بتأدية دورها المأمُول في تكوين الأسرة وإسعادها، مستخدمةً ما وهبها الله من صفاتٍ وخصوصياتٍ أخرى ، فالمطلوب من المرء إذنْ أن يحاول الاستمرار في العلاقة الزوجية واستدامتها، ناسياً أو متناسياً كل ما هنالك من بواعث النفرة أو الكراهة الظاهرية .

إن سر تماسك أية أسرةٍ من الأسر ورقيها أن يعم أفرادها روح التسامح، حتى يتيح بعضهم لبعض فرصةً لإنماء محاسنه وإبرازها إبرازاً فعلياً، متجاوزاً عما يعْوزه أو يُوجد فيه من عيوبٍ ونقائص ، والذين يسلكون في هذه الدنيا مسلك الصبر والتسامح من أجل الله سبحانه وتعالى، إنما هم وحدهم أولئك الذين سيدخلون الجنة في الدار الآخرة.

وقد يكون المرء كارهاً لشريكة حياته، لأي سببٍ من الأسباب، ويعتزم الطلاق بدل أن يأخذ نفسه بالصبر والتحمّل، ويلجأ إلى المغالاة في بيان مآخذ زوجته وتضخيم عيوبها، تبريراً لموقفه السلبي ذاك ، وقد يُلصق بها أنواعاً من التهم لا أساس لها من الواقع، كما يتخذ خطواتٍ عنيفةً ضدها، حتى تتقدم بطلب الطلاق نجاةً بنفسها ، إن هذا كله نقض للعهد ، والعهد أمر مقدس عند الله جل شأنه لدرجة أنه لابد من الالتزام والوفاء به، حتى ولو كان ذلك بشكلٍ غير مكتوبٍ، تماماً كما يجب الالتزام والوفاء بالعهد المكتوب!!

ومبدأ « إلا ما قد سلف »- أي تجاوز عما حدث فيما مضى من الزمان - ليس خاصاً بشئون النكاح وحده بل مبدأ عام شامل .

ومع أن قوله تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ قد ورد بشأن العلاقات الزوجية غير أنه يتضمن تعليماً عمومياً سامياً ، وقد اعتاد القرآن أن يُرشد إلى توجيهٍ كلي يشمل حياة الإنسان بشتى نواحيها، في معرض بيانه لأحكامٍ تتصل بقضيةٍ معينةٍ.

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

وَرَبَائِبُكُمْ: بنات زوجاتكم من غيركم .

فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ: فلا إثم عليكم.

وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمْ: زوجاتهم .

وَالْمُحْصَنَاتُ: ذوات الأزواج .

مُّحْصِنِينَ: أعفاء عن الحرام .

غير مسافحين: غير زانين .

أُجُورَهُنَّ: مهورهن .

طَوْلاً: غنى وسعة.

المُحْصَنَاتِ: الحرائر .

فَتَيَاتِكُمُ: إمائكم .

مُحْصَنَاتٍ: عفائف.

غَيْرَ مُسَافِحِات: غير مجاهرات بالزنا.

مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ: مصاحبات أصدقاء للزنا سرا .

خَشِيَ العَنَتَ: خاف الزنا. أو الإثم به .

إن الإنسان مجبول على نوازع ورغباتٍ فطريةٍ كثيرةٍ؛ منها الرغبة الجنسية التي يشعر بها كل من الذكر والأنثى نحو الآخر، ولما كانت الشريعة تضْبط كل النزعات والعواطف البشرية، وتوجهها الوجهة الإيجابية الصحيحة، فإنها رسمت كذلك حدوداً وضوابط أخلاقيةً لتسكين الرغبة الجنسية ، وبالنظر إلى وصايا الشريعة الإلهية، إلا شكل واحد لا ثاني له للممارسة الاتصال الجنسي بين الرجل والمرأة، ألا وهو الذي يبرز إلى الوجود كميثاقٍ اجتماعيٍ جادٍّ .

ثم إنه لابد أن يتوافر جوّ مفعم بالسمو والقدسية يسود الحياة العائلية، بالإضافة إلى ضرورة إشباع الغرائز الجبلية وتلبية المطالب الفطرية ، ومن أجل التوصل إلى هذه الغاية فقد حرم الزواج ببعض المحارم من النسب والرضاعة والمصاهرة؛ تسامياً بالعلاقات القائمة بين الأقارب الأدنين فوق النزعات الشهوانية .

وليس مقياس عظمة الإنسان وعزته تلك الأشياء المرئيّة التي يقيس بها الناس عادةً مدى عظمة أحدهم وعزته، بل المقياس الحقيقي للعظمة هو الإيمان غير المرئى، ذلك الذي لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى وحده، ومعنى ذلك أن كون أحد الناس عزيزاً أو غير عزيزٍ ليس من الأمور المعلومة لدى الإنسان ، وسوف يتم كشف القناع عن حقيقة الأمر في اليوم الآخر أمام محكمة الله العليا حيث تُبلى السرائر.

وإن هذا التصور الإسلامي لحقيقة أوضاع البشر وسرائرهم من شأنه أن ينتزع من الإنسان المؤمن الشعور بالاستعلاء؛ ذلك الشعور الذي يشكل المصدر الرئيسي لمعظم المفاسد والمساوئ الاجتماعية .

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾

سُنَنَ: طرائق ومناهج

بِالْبَاطِلِ: بما يخالف حكم الله تعالى .

ليس القرآن ببدْع فيما دعا إليه من سنن الحياة وأساليب ممارستها؛ إذْ ما زال الله يبعث بها أنبياءه لتبليغها عنه إلى الناس كافةً في كل الأدْوار ، وقد كانت حياة الصالحين من عباد الله في كل العصور ترجمةً عمليةً لهذه السنن والأساليب ذاتها ، غير أنها لم تلبث أن ضاعت وتلاشت بسبب ضياع الكتب السماوية القديمة، ثم أنزلها الله تعالى على آخر رسله – عليه الصلاة والسلام – بلسانٍ عربيٍ مبينٍ، وجعلها «محفوظةً» من الضياع والتلاشي إلى أبد الآبدين ، واليوم حينما تقوم أية طائفةٍ من الطوائف بصياغة حياتها العملية وفق هذه السنن والأساليب القرآنية، فإنها تنضم إلى تلك القافلة الأبدية التي تشتمل على أولئك الأبْرار الذين رُزقوا نصيباً لا بأس به من نفحات الرحمة والإلهية والذين ساروا في كل عصرٍ على ذلك الدرب الربّاني القويم الذي كان الله قد أنار معالمه لعباده الأوْفياء .

لا يكاد يقوم أحد عباد الله بعملية الإصلاح الاجتماعي وتطْهير البيئة من رواسب العهود السابقة، العادات القديمة، حتى يثور عليه عبيد التقاليد والعادات البالية؛إذْ يتعذر عليهم أن يختاروا طرقاً غير مألوفةٍ لممارسة الحياة، متخلّين عن طرقهم المألُوفة القديمة، وبالتالي فهم يناصبون العداء كل حركة إصلاحيةٍ ترمي إلى صرفهم عن الطرق التي ألْفَوْا عليها آباءهم السابقين،وطبقة رجال الدين التقليدي تحتل بدورها مكان الصدارة في مُهَاجَمة كل نداءٍ إلى الإصلاح،ويكون رد فعلها بإزاء ذلك أعْنف وأشد بالقياس إلى رد فعل الجماهير.

والواقع أن جانب الدين الداخلي عندما يطْرأ عليه الضعْف؛فإن الاهتمام كله يتركز تلقائياً على جانبه السطحيّ الخارجي؛حيث يبدأ الاشتغال بتفريع المسائل الجزئية وإثارة القضايا الهامشية،وفي نهاية المطاف يبرز إلى الوجود هيكل ظاهري شكلي سرعان ما يغالي الناس في التمسك به؛ظانين أنهم متمسكون بالدين الإلهي، ثم ينتهي الأمر بهذا الدين المزعوم إلى أن يتم عزْوه إلى كبار السلف المرموقين، ويكتسب القدسية على مر الزمن،حتى يعود دين الله الفطري شيئاً غريباً بين الناس،في حين يلوح لهم أن دينهم الاصطناعي هو المبني على الحق بعينه، وفي هذا الوضع لا تقوم حركة تتوخى إحياء الدين في صورته الأصلية ونقاوته الأُولى، إلا ويقف هؤلاء المقلدون الجامدون في وجْهها، ويُعْلنون عليها حرباً لا هوادة فيها ؛ ذلك لأنهم يرون فيها إبطالاً أوْ إلغاءً لمكانتهم الدينية.

والشريعة الإلهية- على سبيل المثال- قد نهت عن مجامعة المرأة في أيام الحيض وأباحت كل ما عدا ذلك من العلاقات الأخرى معها كالمعتاد ، ولكن اليهود تناولوا هذا الحكم الشرعي الميسور بزيادة أنواعٍ من القيود والالتزامات الدقيقة عليه؛حتى جعلوه مسألة معقدةً للغاية ، فقد زعموا أن لَيس جماع المرأة الحائض فحسب ، بل مؤاكَلتها،وشرب الماء من يديها،والاجتماع بها في مجلسٍ واحدٍ،ولمسها باليد.. إلخ ، كل ذلك من الأمور المحظورة أو المضادة للتقوى، وهكذا صار الابْتعاد الكلي عن الحائضة بمثابة آيةٍ على كمال التقوى والورع ، فلما قام رسول الله ﷺ بإحياء الشريعة الإلهية الأصيلة هاج اليهود وماجوا؛إذْ تبدّى لهم أن الشيء الذي كانوا قد أسّسوا عليه بنيان ورعهم وتقواهم فُوجئ بهزةٍ ستعيده أثراً بعد عينٍ !

إن الذين يكون صَرْح تديّنهم قائماً على أساس ديانةٍ زائفةٍ مزوّرةٍ، فإنهم لا يلبثون أن يصبحوا أشد الناس عداوةً ومعارضةً للدعوة الهادفة إلى إحياء دين الله، وإعادته إلى صورته الأصيلة الناصعة، من خلال تطْهيره من كل الإضافات البشرية، لأن دعوةً كهذه تكون مرادفةً لانتزاع السيادة من أيديهم ولا أحد يرضى أبداً بأن تُنتزع السيادة من يَدَيْه، إلا من رحم ربك، وقليل ما هم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ
تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ
ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ

كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾

نُصْلِيهِ نَاراً: ندخله إياها ونحرقه بها

سَيِّئَاتِكُمْ: ذنوبكم الصغائر

مُّدْخَلاً كَرِيماً: مكانا حسنا شريفا وهو الجنة .

جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ: ورثة عصبة يرثون مما ترك .

وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أيمانكم : حالفتموهم ، وعاهدتموهم على التوارث «وهو محرم عند الجمهور» .

من وجوه انتقال المال من يد أحد الناس إلى يد غيره؛ أن يقوم الواحد بتوفير حاجات الشخص الآخر؛ فيطالبه بالعوض المالي عن جهده المبذول ، تلك هي التجارة ؛ والطريقة الصحيحة المشروعة لكسب المعاش، وأما الأموال التي يتم تحصيلها عن وجوه السرقة،والخيانة،والغش،والكذب،والرشوة، والربا، والقمار،وما شاكل ذلك،فإنها كلها أموال مكتسبة من الطرق اللامشروعة عند الله تعالى إنها أنواع مختلفة للنهب والسلب،والذين يتذرعون بوسائل النهب والسلب لكسب معيشتهم - مهما حالفهم النجاح والسعادة في هذه الدنيا،وتقلبوا في أعطاف العيش الناعم طيلة حياتهم - فإن مصيرهم النهائي المحتوم في الآخرة إلى عذاب النار .

وكذلك الشأن بالنسبة إلى نفس الإنسان ؛ إذْ لا يملك الخيار لقتْل شخصٍ ما أو إعْدامه سوى سلْطةٍ حكوميةٍ قائمةٍ فعلاً؛ لأنها تقوم باتخاذ الإجراءات القضائية اللازمة ضد المتّهم بعْد أن تثبت جريمته طبقاً للقانون الإلهي، وأما الشخص الذي يتصدى للقضاء على حياة

أحد الناس فيرتكب عملاً حرّمته الشريعة تحريماً قاطعاً، والذي قد أعد الله له عذاباً شديداً جزاءً على صنيْعه ذاك ، وأكبر الجرائم عند الله تعالى هي الظلم والعدوان؛ أي تجاوز الحدود الإلهية المرسومة، والاعتداء على أحدٍ بغير حقٍ ، والذين يجتنبون الظلم والعدوان في الحياة الدنيا، فإن الله سيُعاملهم معاملةً تكريميةً خاصةً فيعفو عن صغائر ذنوبهم، ويمحو كل ما قد صدر عنهم في الدنيا من خطايا وزلاّتٍ عاديةٍ .

إن أوضاع البشر وحظوظهم في الدنيا تتفاوت بين شخصٍ وآخر، فمنهم مَن رُزق مقداراً ضئيلاً من القوى البدنية والعقلية، ومنهم مَن أُوْتَى حظا أوْفر منها ، ومنهم مَن يُولد في بيْئةٍ صالحةٍ وظروف طيبةٍ، ومنهم من يُولد في بيْئةٍ فاسدةٍ وظروفٍ نكدةٍ،ومنهم مَن تتوافر لديه إمكانيات ووسائل فخمة، ومنهم مَن لا يمتلك غير أسبابٍ ووسائل عاديةٍ تافهةٍ للغاية .

وعندما يرى المرء أحداً سواه فوْقه، وأسعد منه حظاً وأحسن منه حالاً، فسرعان ما تستيقظ في نفسه مشاعر الحقد عليه ، الأمر الذي يؤدي إلى إيجاد جوٍّ مُترعٍ بالتحاسد والعداوة والشحناء، والصراع والاحتكاك الداخلي في كل شعب الحياة الاجتماعية، غير أن قياس المرء قدر نفسه هو أو غيره بمقياس هذه الأشياء ليس إلا حمقاً وسفاهةً، إنها كلها أشياء ذات أهميةٍ دنيويةٍ، وسينْتهي أمرها إلى الفناء والتلاشي في هذه الدنيا بالذات، إذْ لا دخل لها ولا عبرة بها في نجاح الآخرة ولا في سعادتها التي لها وحدها القيمة الحقيقية والأهمية البالغة ، حيث إن النجاح الأخروي متوقف كلياً على العمل الذي يمارسه المرء صادراً عن إرادته واختياره، قاصداً به وجه الله سبحانه وتعالى وحده، لذا فإن الكياسة أن يجنّب المرءُ نفسه الحقد والحسد، ويركز كل جهوده وطاقاته على العمل من أجل الآخرة، سائلاً الله تبارك وتعالى فضْله وتوفيقه .

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا

فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴿٣٥﴾

قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ: قيام الولاة المصلحين على الرعية .

قَٰنِتَٰتٌ: مطيعات لله ولأزواجهن .

حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ: صائنات للعرض والمال في غيبة أزواجهن .

بِمَا حَفِظَ الله: لهن من حقوقهن على أزواجهن .

نُشُوزَهُنَّ: ترفعهن على مطاوعتكم .

حيثما وُجدت أية مجموعةٍ بشريةٍ، سواء كانت أسرةً أم مملكةً، لابد لها من رئيسٍ وزعيمٍ يتولى أمورها .. ومن المتحتم أن يكون هذا الرئيس شخصاً واحداً لا غير .. وطبقاً لمنهج الله في الكون ، فإن الرجل المعهود إليه برئاسة الأسرة؛ قد تم خلْقه وتصميم كيانه البدني والنفسي على هذا الاعتبار.. وما الفوارق البيولوجية والنفسية التي تُوجد بين بنْية الرجل وبنْية المرأة، إلا انْسجاماً وتساوقاً فعْلياً مع هذا المنهج الإلهي .. إذًا فلو حاول بعض الناس أن يسيروا في الاتجاه المضاد للمنهج الإلهي، لما أمكنهم أن يزيدوا في هذه الدنيا شيئاً سوى الفساد والدمار .. ذاك لأن خلق الله لن يزال مستمراً على وَتِيْرته في تكوين الرجل والمرأة وفق متطلبات منهجه المرسوم، يتم تزويد الرجل بمؤهلات «القوامة»، ويتم تزويد المرأة بمؤهلات «الطاعة والإذعان »؛ بينما لا يكون توظِيْفهما الاجتماعي قد رُوعي فيه مقتضى التكوين الإلهي .. ولا جرم أن كل تناقضٍ من هذا النوع إنما يكون باعثاً على الشر والفساد في هذا الوجود ليس غير.

وخيْر النساء التي تعترف بتفوق الرجل، اندماجاً بذاتها في خطة الله التكوينية ، وخيْر الرجال الذي لا يُنْسِيْه غروره بتفوق ذاته أن الله أعلى منه وأكبر، وأنه تعالى أقدر عليه مما هو عليها، وليس ثمة فرقٍ أو امتيازٍ بين الرجل والمرأة أمام المحكمة الإلهية العادلة .. إن أهمية هذه الفوارق والامتيازات كلها لا تعْدو الناحية التنظيمية لشئون الحياة الدنيا، ولا عبرة بها البتةَ فيما يتصل بثواب الآخرة ومكافآتها .

وينبغي للمرء أن يهتم بتأدية واجباته ومسئولياته نحو المرأة كل الاهتمام ..وإذا كانت هناك امرأة ترفض الاعتراف بتفوق الرجل التنْظيميّ، فلا ينبغي أبداً أن يندفع الرجل نحو الانتقام

والتشفيّ؛ أو يأخذ في تشْويْه سمْعة المرأة من خلال إلصاق التهم الكاذبة بها .. إذْ إن أي نوعٍ من التفوّق والامتياز لا يُعفي صاحبه من التقيّد بمبدأ العدل والنصفة، فاعْتبار المبدأ فوق اعْتبار الشخص ومنزلته، كائناً من كان.

على أن ثمة حالات استثْنائيةً أُتيْح فيها للرجل حق ليحاول تأديب المرأة وإصلاح عوجها، فيما إذا رأي منها التمرد والعناد .. وأول خطوةٍ ستبْدأ بها محاولة الإصلاح هذه تتمثل في الموعْظ والتذكير .. ثم يمكن اللجوء - بعْد إخفاق الخطوة الأوْلى - إلى ترك الكلام والهجران للضغْط الأولي عليها .. وفي المرحلة الأخيرة يجوز للرجل أن يضربها ضرْباً غير مبرحٍ؛ كأن يضرب بالسواك مثلاً ..

وأحسن طريقٍ لفض الخصومة وتسويتها في هذه الحالة، هو أن يرضى الطرفان بتحكيم رجلٍ ثالثٍ بيْنهما .. فإن هذا الثالث الوسيْطَ - لِكوْنه غير مرتبطٍ بالقضية ارتباطاً ذاتياً - سيفكر فيها بعقليةٍ غير متأثرةٍ ولا متحيزةٍ .. وبالتالي سيوفق للوصول إلى قرارٍ واضح سديدٍ يتفق مع الحقيقة الواقعة .

﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

وَالجَارِ الجُنُبِ: البعيد سكنا أو نسبا .

وَالصَّاحِبِ بِالجَنْبِ: الرفيق في أمر حسن .

وَابْنِ السَّبِيلِ: المسافر الغريب . أو الضيف .

مُخْتَالاً: متكبرا معجبا بنفسه.

فَخُوراً: كثير التطاول والتعاظم بالمناقب .

رِئَاءَ النَّاسِ: مراءاة لهم وسمعة .لا لوجه الله .

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ: مقدار أصغر نملة، أو هباءة .

كل ما عند الإنسان هو من عطايا الله تبارك وتعالى ، الأمر الذي يقتضي أن يسلم الإنسان نفسه إلى الله، ويصير عابداً مخلصاً له عز وجل دون أن يشرك بعبادته أحداً سواه، وإن المرء حينها يصبح إنساناً ربانياً على هذا النحو، تتولد في داخله تلقائياً طبيعة التواضع، وطبيعته هذه تنْسكب على سائر علاقاته وتصرفاته مع أولئك الذين يعيش بينهم. فتتخذ طبيعته صورة السلوك الجميل في أثناء تعامله مع الوالديْن ، وكل شخصٍ يتعامل معه .

والشخص الذي لا يسلم نفسه ولا يفوض أمره كله إلى الله، تَسْتيْقظ في داخله نفسية الفخر والاعتزاز ، إذْ يحسب أن كل ما عنده نتاجا لجهوده ومؤهلاته الذاتية؛ مما يجعله يرى كسْبه حقاً لذاته وحدها، ويترفع بالتالي عن الاتصال بأقاربه الضعفاء أو تفقد أحوال المساكين وذوي الحاجة لاعْتباره شيئاً لا يليق بشأنه ، ومع أنه يبذل قسطاً وافراً من ماله في سبيل إشباع رغباته أوْ تحقيق مصالحه الذاتية، غير أنه يضيق صدره بإنفاق المال في وجوهٍ لا يكون الإنفاق فيها عائداً عليه بما يُغذّي أنانيته وكبرياءه ، إنه أسْخى ما يكون في مواطن الظهور والشهوات؛ وأبْخل ما يكون في مناسباتٍ دينيةٍ لا يُسجلّ فيها اسم المنفق ولا مبلغ إنفاقه بمداد الفخر .

وربما يلْجأ المرء إلى التقليل من أهمية شيءٍ أو تجْريده من كل قيمةٍ وأهميةٍ إطلاقاً، فيما إذا كان لا يجد في نفسه ميلاً صادقاً إليه ولاهمةً تبعثه على اختياره عملياً ، وإنه إذْ يلْجأ إلى ذلك فكأنما يريد إضْفاء طابعِ نظريٍ فكري على قضيةٍ ذاتيةٍ بحتةٍ ، إنه يحاول أن يُثبت أنه على الحق، غير أن أية محاولةٍ لن تجْدي عند الله شيْئاً .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ

يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ: لو كانوا والأرض سواء فلا يبعثون .

عَابِرِي سَبِيلٍ: مسافرين فقدوا الماء فيتيممون .

الغَائِطِ: مكان قضاء الحاجة (كناية عن الحدث) .

لامَسْتُمُ النِّسَاءَ: واقعتموهن أو مسستم بشرتهن .

صَعِيداً طَيِّباً: ترابا أو وجه الأرض – طاهرا .

عندما يُبعث الداعي إلى الحق فإنه يكون في صورةٍ بشرٍ عاديٍّ، بحيث لا تكون أسباب العظمة الظاهرية ومظاهر التألّق البراقة مجتمعةً حوله .. مما يجعل كبار العصر لا يُعيرونه اهتمامٍ .. إذْ إنهم لا يكادون يستيْقنون بأن شخصاً دونهم أهميةً، وأضعفهم سلطاناً في الدنيا، يمكن أن يفوقهم في معرفة الحق والصدق أو يسبقهم إليهما !!

ولكن حينما تأتي القيامة، فسيرى هؤلاء عندئذٍ بدهشةٍ واستغرابٍ أن الشخص الذي كانوا قد رفضوه في الدنيا قد جُعل الشاهد الإلهي في محكمة الآخرة .. وهو الذي سيتم تحديد مصائر الناس بناءً على تصريحه وشهادته حين يقف هؤلاء موقف المجرمين،فإنه سيكون في موقف المتحدث المأمور من عند الله جل جلاله !!

وإنها ستكون ساعةً رهيبةً مروعةً لدرجة أن الناس يودون لوْ أن الأرض تنشق من تحت أقدامهم فتبتلعهم، أوْ يُدفنوا فيها فتسوى بهم !! غير أن هذا الندم والتحسر لن يجدي عنهم فعيلاً ..فإن الله سيُوجَد عنده سجل محتوٍ لا على أقوالهم وأفعالهم وحدها بل وعلى أفكارهم

ونيّاتهم الخفية .. وإنه تعالى سوف يُريهم أن إنكارهم للداعي إلى الحق لم يكن ناشئاً عن جهلٍ، بكونه ناشئاً عن الكبر والغرور ؛ إذْ إنهم عدّوا أنفسهم كباراً وذويْ شأنٍ، بينما استهانوا بشأن الداعي إلى الحق واحتقروه .. وأنهم - بالرغم من رؤية الحقيقة في صورتها الواضحة المجردة، والاطلاع عليها اطلاعاً مباشراً - إنما جحدوْا بها لما كان يُخيَل إليهم أن إيمانهم بها سيُعيد سيادتهم وسلطانهم أثراً بعد عينٍ !!

لقد تضمنت الشريعة رخصاً وتسهيلاتٍ غير عاديةٍ بالنسبة للإنسان .. ومن ثم فقد رُخصّ له في هذه المواطن الاكتفاء بالتيمم مكان الوضوء أو الغُسل إذا كان يخشى الضرر منهما .. إن الوضوء المعتاد يكون بالماء،وأما التيمم فكأنه وضوء بالتراب.. والغاية من الوضوء هي إيجاد نفسية النظافة والطهارة في نفس المرء ..وأما التيمم فهو تدبير مادي للإبقاء على نفسية الطهارة والنظافة هذه في حالة عدم التمكن من الوضوء بالماء ..

وعلى أن آية «ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى، حتى تعلموا ما تقولون» وردت هنا ضمن الأحكام الابتدائية عن الخمر .. غير أنها تتضمن الإشارة إلى حقيقةٍ ذات أهميةٍ بالغةٍ عن الصلاة .. وهي أن الصلاة عبادة تُؤدَّى مع تمام الوعي والإدراك.. فالصلاة إذًا ليست عبادةً عن مجرد تكرارٍ لمجموعةٍ من الألفاظ والعبارات وإعادة حركاتٍ وسكناتٍ معينةٍ، مع الاهتمام بصحة الأداء بنوعٍ خاصٍ ، بل ومن الضروري أيضاً أن يكون المرء في أثناء صلاته حاضر الذهن يقظ الشعور، فلْيَقُمْ لأداء الصلاة واعياً بحقيقة الصلاة كل الوعي ، وَيَخْضَعْ فكره وإرادته هما الآخران أمام الله مثلما يظهر خضوعه له بلسانه وجسده ، ولْيَرْكعْ ويَسْجُدْ شعوره هو الآخر لله ويسجد له ببدنه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ: يغيرونه أو يتأولونه بالباطل .

وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ: قصد به اليهود الدعاء على النبي ﷺ .

وَرَاعِنَا: قصدوا به سبه وتنقيصه ﷺ .

لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ: انحرافا إلى جانب السوء في القول .

وَأَقْوَمَ: أعدل وأصوب وأسد.

إنما يَبْعث الله بكتابه إلى طائفةٍ من الطوائف لكي تستعين به على إصلاح أفكارها وأعمالها، وتتخذ منه نبْراسًا تستنير به مسيرة حياتهم ، ولكن عندما تُمنى أية طائفةٍ أمنيةٍ على الكتاب السماوي بالانحطاط الديني، كما مُني اليهود بذلك، فإنها لا تلبث أن يصير كتاب الله عندها مصدراً للضلالة بدلاً من الهداية !.. حيث تصبح الأحكام الإلهية موضوع المجادلات الفرعية العقيمة، كما تظهر إلى الوجود تفريعات ومسائل فلسفية دقيقة يشتد الخوض فيها بعنوان «علم العقائد» .. ويصل بها الأمر نهائياً إلى أنها تسْتوْحي من الكتاب الإلهي آراء ونشاطاتٍ لا علاقة لها بقضية الآخرة !!

وأمثال هؤلاء الناس، بسبب نزعتهم التقليدية، يرون من الضروري أن يطْبعوا كل ما يأتونه أو يدعونه بطابعٍ إلهيٍ،ومن ثم لا يتحرجون من تغيير كتاب الله من أجل البحث عن مبررٍ دينيٍ لبعض أعمالهم، ويحرفون كلمات الله عن مواضعها وسياقاتها الحقيقية، ويفسرونها وفْق أهوائهم الذاتية .. ويُسيئون استخدام بعض الألفاظ والعبارات على نحوٍ توحي بمفاهيم ومدلولاتٍ لا تمت إلى التعاليم الإلهية الأصلية بصلةٍ ..

وقوله عن اليهود إنهم : ﴿ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ يعني أنهم، مع كونهم قد تمكنوا من قراءة ألفاظ الكتاب الإلهي، إلا أنهم ظلوا بعيدين كل البُعْد عن العمل بالكتاب الإلهي؛ الذي كان الهدف الأصلي المنشود .. فقد ظلوا حَمَلة الكتاب بالنسبة إلى مضمونه اللفظي فقط، في حين أنهم أغفلوا القيام بمقتضياته العملية ، وساروا في حياتهم سيرة من عداهم من الشعوب والأمم ذوات الاتجاهات المادية البحْتة .. ثم إنهم - بالإضافة إلى ذلك - كانوا أكثر تمرداً وتوغلاً في البغي والعناد من عامة أصحاب الدنيا - الذين يمارسون نشاطهم الدنيوي دون

تمويْهه أو تسميته بغير اسمه – إذْ بدأوْا في إقامة الدليل على صحة نشاطهم الدنيوي من كتاب الله !!

ثم إن ضلالتهم لم تقف عند حد أنفسهم وحدها، حيث إنهم كانوا يزعمون أنهم ممثلوْ الديانة الإلهية، لذا فما أن أخذ العرب من غير اليهود في مناصرة رسول آخر الزمان ﷺ، حتى أخذ اليهود بدورهم في معارضة الرسول نفسه من أجل الحفاظ على اعتبارهم أو سُمْعتهم الدنيوية، فلجأوا إلى تلمس ألوانٍ من العيوب والنقائص في تعاليمه وحياته ﷺ، بغْية تشكيك الناس في صدْق رسالته، حتى يحسبوه رجلاً ابتعثته نفسه ودفعه طموحه الذاتي لرفع لواء الدين الإلهي، وليس نبيا مرسلاً من عند الله عز وجل.

إن «اللّعْنة» ، الصورة النهائية للقسْوة وبلادة الإحساس؛ فعندما تبلغ القسْوة والبلادة من الإنْسان مبلغاً لا يعود لديه معه الوعي بالفوق القائم بين الحق وغير الحق، فتلك هى اللعنة بعينها .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾

نطْمِسَ وَجُوهاً: نمحوها أو نتركهم في الضلالة .

يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ: يمدحونها بالبراءة من الذنوب .

فَتِيلاً: قدر الخيط الرقيق في شق النواة.

في بعْض الأحْيان يسمع المرء شيئاً، ولكنه لا يسمعه في واقع الأمْر .. وهذا يحدث عندما

يكون المرء غير جادّ حق الجدية في تفهم ذلك الشيء؛ولا راغبٍ في العمل به .. وهذه النزعة حين تبلغ منْتهاها، فيصير حال الإنسان،من قلة الوعْي والإدراك،وكأنْ قد طُمستْ آثار وجهه ومُحيتْ حواسه مَحْواً كاملاً .

وصيْرورة حال المرء إلى هذا النحو من العَمَى والصمم بالنسبة لفهمْ الحق، علامة تدل على أن الله قد حرمه من توفيقه نتيجةً لاستمراره وإصراره على عدم الاحتفال واللامبالاة بأمر الحق .. فقد أعطاه الله الأذن، ولكنه لم يسمع بها، وقد زوّده الله بالعيْن، ولكنه لم يُبْصر بها .. إن القسوة والبلادة حينما تنتهى إلى أقصى درجاتها تتحول إلى المسْخ والتشوّه !!

قال اليهود : إننا من سُلالة الأنبياء؛ ولذا فإن طائفتنا هي طائفة مقدسة، وكانوا قد اختلفوا صنوفاً من الأساطير والروايات المتضمنة تصديقاً لشرفهم السُلالي العريق وفضيلتهم الطائفية الموروثة، وقد كانوا يعيشون في عالم هذه الأماني العزاب ! كما كانوا قد اصطنعوا من عند أنفسهم عقيدة بقول : إن كل شخصٍ ينتمي إلى الشعْب اليهودي ناجٍ لا محالةً، وأنه لنْ يُلقى بأي يهودي في نار جهنم أبداً !!

وقوله:﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ يدْحض هذه الفكرة من الأساس، ومعناه أن الانتماء إلى سلالةٍ أو طائفة معينةٍ لا يُجعل أحداً ينال مقام الشرف أو الفضيلة، بل إن ذلك يتعلق بقانون العدل الإلهى، فالشخص الذي يثبت جدارته وأهليته بعمله،فلن يظفر بالشرف والمجد بناءً على مجرد انتمائه إلى طائفةٍ معينةٍ.

وإن عقيدة «الخلاص الطائفي أو الشعْبى»- سواء أكان يؤمن بها اليهود أو غيرهم- باطلة .. والذين يختلقون هذا النوْع من العقائد الخرافية، ينسبونها إلى الله عز وجل .. غير أن ذلك لا يعْدو أن يكون محض الافتراء والكذب على الله، إذْ إن الله سبْحانه وتعالى لم يبْعث بمثل هذا التعليم أحدًا قط ، ولوْ أن الله سبحانه وتعالى أخذ يفرق بين إنسانٍ وآخر بناءً على الانتماء الطائفي لكان ذلك ظلْماً، على حين أنه تعالى هو العدل كله وليس بظالمٍ أحداً أبداً .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا
يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ
ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ
بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ
نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا
ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

إن طائفةً أمينة على الكتاب السماوي، عندما تُمنى بالانحطاط الديني، فتبدأ تعيش على مستوى الآمال والأماني العزاب بدلاً من الحقائق الصريحة والصارمة ، وبالتالي تروج وتنتشر بينهما ضروب من الأوهام والتخيّلات على نطاقٍ موسعٍ جداً، فالشيء الذي لا يُنال إلا بواسطة العمل الحقيقي، فإذا بها تأخذ في محاولة نَيْله عن طريق العزائم، والعقائد الخرافية، والشعْوذات.

وأمثال هؤلاء يحسبون شأن الدين كشأن «الكلمات المقدسة» و «الروابط المباركة»؛ التي يؤدي مجرد تكرارها اللساني أو الارْتباط بها رسمياً إلى خلْق معجزاتٍ ووقائع طلسميةٍ خارقةٍ للعادة ..بينما يكون حالهم تكريس حياتهم العملية كلها في سبيل الشيطان، مع كوْنهم يرفعون بألْسنتهم هتاف الدين .. فهم يتبعون في واقع حياتهم الشهوات النفسانية والإغراءات الشيْطانية، ولكنهم يلبسون مسوح الدين في ظاهر أمرهم، زاعمين أن كل ما فعلوه هو عين الدين الإلهي !!

وفي وضْعٍ كهذا حينما تقوم بيْنهم الدعوة إلى الحق الخالص، فإنهم لا يلبثون أن يصبحوا من أشد الناس عداوةً ومعارضةً لها؛ ذاك لأنه يُخيّل إليهم أن الدعوة الجديدة تُلغيْ اعتبارهم الديني .. وبما أن وجود الكفار لا يشكل له أي تحدٍّ من هذا النوع؛ لذا فهم يوطّئون أكنافهم

للكفار؛ لأن قلوبه لا تنطوي على مثقال ذرةٍ من خيرٍ أو نصْح بالنسبة للداعى إلى الحق، فتتقد في صدورهم نيْران الحسد والحقد قائلين : إننا كنا نحن المرجع والعمدة في أمور الدين منذ أزمانٍ متطاولةٍ، فكيفي عهد بتمْثيل الدين الإلهي إلى شخصٍ آخر سوانا؟! وإنهم ينْسون أو يتناسوْن أن الله عز وجل إنما يختار أحد الناس ممثلاً لديْنه بناءً على استعْداد المرء القلبي الداخلي، وليس بناءً على المظاهر الشكلية الخارجية .

و «اللّعنة» هي طرْد الرجل وإبْعاده كلياً عن رحمة الله ونصرته.. وكما أن حياة الإنسان المادية لا تلبث أن تنْتهي إذا كان قد مُنع عن الطعام والشراب، فإن حياة الإنسان الإيمانية كذلك تبلغ نهايتها في إثر حرمانه من النصرة الإلهية .. إن «الإنسان الملعون» يصبح إنسانًا هامدًا خامدًا فلا تعد لديه القدرة على التمييز بين الحق وغير الحق ، فلا يكتب له التوفيق للإيمان والاعتراف بالحق ، بالرغم من ظهور الآيات الباهرات .. فلا يمكنه أن يعرف الدلائل والبراهين على الحق من الترهات والأباطيل الفارغة .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾

تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ: جميع حقوق الله وحقوق العباد .

نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ: نعم الذي يعظكم به ما ذكر .

وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً: أجمل عاقبة وأحمد مالا .

الطَّاغُوتِ: الضليل كعب بن الأشرف اليهودي .

يَصُدُّونَ عَنكَ: يعرضون عنك .

كل مسْئوليةٍ أمانة.. ولابد من تأديتها على الوجْه الصحيح المطْلوب .. وينبغي للمرء أن يتعامل مع كل الناس على حسب ما يقتضيه العدل والنصفة،سواء أكان المتعامل معه صديْقاً له أم عدواً .. ويجب ألا يزال ثابتاً على جادة العدل والحق،دون أن يحيد عنها قيْد أنملةٍ،حتى ولو كان ثباته على ذلك متعارضاً - في ظاهر الأمر - مع مصالحه ومنافعه الذاتية؛إذْ إن الخير والفلاح كله إنما يكمن في اتباع التوحيد الإلهي، وليس في الانْسياق وراء هوى النفس وإذا كانت الظروف تسمح بإقامة نظامٍ حكومى، فينبغي للمسلمين عندئذٍ أن يقوموا بتأسيْس الحكومة الإسلامية على قواعد التشريع الإلهي وأما إذا لم تُوجد هناك الفرص المناسبة لإنْشاء الحكومة،فلْيتخذوْا من صالحيْ أفرادهم ومن يُوثَق بهم زعماء لهم،ولْيُمارسُوْا حياتهم الدينية على ضوْء إرشاداتهم وتوجيْهاتهم السّديْدة.. وإذا نشأ بينهم التنازع والاختلاف في شأنٍ من الشئوْن،فيجب على جميع الأطراف المعْنية أن تحتكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، وتتفق نهائياً على قبول الحكم المنبثق عنهما.. فإنه إذا كان شخص يتمتّع بحرية الرأي وحق الاختلاف في الفكر، إلا أنه ليس لأحدٍ حق الاعتراف أو الخروج على الحكم الاجتماعي المجْمَع عليْه .. فالنظام الاجتماعي ضرورة اجتماعية للمجتمع المسلم .

وفي أول عهْد الإسلام بالمدينة كانت هناك محكمتان لفصْل الخصومات الاجتماعية، إحداهما : محكمة الرؤساء اليهود القديمة، والثانية : هي محكمة رسول الله ﷺ التي تم إنْشاءها بعد الهجرة .. وكثيرا ما كان المنافقون يرفعون قضيتهم إلى محكمة كعب بن الأشراف - زعيم اليهود - إذا رأوْا أن دعواهم واهنة يعْوزها الدليل، وأنهم بذلك لن يتمكنوا من استصْدار الحكم الموافق لصالحهم من محكمة رسول الله ﷺ.

إن هذا الصنيْع مناقض للإيمان .. إذْ لوْ كان المرء غير راضٍ بقضاء الله، بل يريد استصدار

الحكم الموافق لهوى نفسه، فلا جرم أنه كاذب في ادعائه الإيمان ... مهما كانت لديه مجموعة هائلة من الألفاظ والعبارات الجميلة تبرر موقفه وتثبت أنه على الحق والصواب.. غير أنه ينبغي أن تستمر عملية النصح والموعظة لأمثال هؤلاء الناس بأسلوبٍ إيجابيٍ مؤثرٍ، دون الخوض معهم في جدلٍ أوْ نقاشٍ لا طائل تحته .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

شَجَرَ بَيْنَهُمْ: أشكل والتبس عليهم من الأمور.

حَرَجًا: ضيقا أو شكا.

وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا: أقرب إلى ثبات إيمانهم .

لا يُبعث الرسول لاتخاذه بطلاً يحيطوه الناس بهالةٍ من التجلية والاحترام، ويتقدمون إلى جانبه بإهداء باقاتٍ رائعةٍ منوعةٍ من مديح الكلام وكفى !! إنما يُبعث الرسول لكيما يتلقى المرء منه منْهج حياته، ويأخذ نفسه باتباع ذلك المنهج عملياً .. وينبغي أنْ يبلغ اهتمام المرء بهذا الشأن مبلغاً لا ينحرف معه عن طاعة الرسول والانقياد لأوامره حتى في المواقف البالغة الخطورة والحساسية .. فإذا تعارضتْ مصْلحة شخصيْها واستيْقظتْ بالتالي في قَلْبَيْهما مشاعر

المقت والاستياء أحدهما نحو الآخر، فإن المرء مطالب بأن يضْبط نفسه ويكفها عن الإساءة، ويلتزم إرادياً وعلى رغم بالمنهج النبوي .. فإن الشخص الذي يقبل بتوجيْه الرسول ويتمسك به في مواقف النزاع والخصومة هو المؤمن بالرسول حقاً! ..

فالمؤمن هو الذي يتقبل منْهج الرسول عن رضاً قلبي وطواعيةٍ داخليةٍ، حتى ولوْ كان مناقضاً لميوله ونزعاته ومصالحه الذاتية .. والذي يكون مرهف الحس يقظ الشعور لدرجة أنه ما إنْ يصدر عنه خطأ ما في حينٍ من الأحيان بدافعٍ وقتي، حتى يتنبه سريعاً، ويدرك أنه كان قد انْساق وراء الشيْطان متخلياً عن طاعة الرسول، فيتجه فوراً نحو الله سائلاً إياه العفو والمغفرة ..

والشخص الذي لا يطيق الثبات والاستقامة على خطا الدين في مواجهة الصدمات والهزات النفسية، كيف يمكن أن يُعقد عليه الأمل في أن يظل صامداً في وجْه تلك المواقف الأشد قسْوةً وخطورةً، فيُضطر المرء إلى مغادرة الأهل والوطن، وبذْل النفس والنفيس، دفاعاً عن إيمانه وحفاظاً عليه ؟!!

إن أعظم شيءٍ يفقده المرء نتيجة لاتباعه أهواء النفس، واتخاذه من المصلحة والمنفعة المادية أساساً لحياته العملية، هو «الصراط المستقيم» .. أي ذلك الطريق القويم الذي يؤدي بمنْ يسلكه ويسير عليه بدأْبٍ واستمرارٍ إلى حيث يلقى الله ربه .. وهذا الطريق مبين في كتاب الله وسنة الرسول بصورةٍ واضحةٍ صريحةٍ .. غير أن المرء لو جعل تفكيره سجيْن التحفّظات، فلا يعود بإمكانه أن يُبصر « الصراط المستقيم » رغْم وضوح معالمه على وجهٍ أكمل .. فإنه يدرس الدين متأثراً برغباته ومصالحه، وليس في صورته الخالصة النقية .. فيتكون في ذهنه مفهوم معين مزعوم للدين يتفق وما هو عليه فكيف يستحق أمثال هؤلاء الجنة، تلك التي يسكن فيها أولئك الذين اختاروُا الدين مترفّعين عن كل المصالح والمنافع على اختلاف أنواعها .. الذين هم عباد الله الأبرار الموفون بالعهد الإلهي، والباذلون أقصى جهودهم وطاقاتهم لشهادة الحق، والذين حياتهم غاية في الطهر والنقاء والعفاف .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ

مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ
شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ
يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا
وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ
كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾

خُذُوا حِذْرَكُمْ: خذوا سلاحكم .

فَانفِرُوا ثُبَاتٍ: اخرجوا للجهاد جماعات متفرقين.

لَيُبَطِّئَنَّ: ليتثاقلن أو ليثبطن عن الجهاد .

يَشْرُونَ: يبيعون (وهم المؤمنون) .

الطَّاغُوتِ: الشيطان وسبيله الكفر .

إن العلم الحاضر هو عالم الامتحان، ولذا فكل شخصٍ يتمتع بحرية العمل والتصرف، فقد أتيح للأشرار أيضاً الفرصة لكي يذيقوْا الصالحين من عباد الله ألواناً من العذاب، ويتخذوا منهم غرضاً لظلمهم وتحركاتهم العدوانية ، كما أن عباد الله الصالحين مطالَبون بأن يظلوا صامدين في وجْه ما يلقونه من الشدائد والمحن من قبل الأشرار حتى يظهر صدق إيمانهم وإخلاصهم ، فلابد لأهل الإيمان إذنْ من أن يكونوا على حذرٍ دائمٍ إزاء أعداء الله، وأن يكونوا على أهبة الاستعْداد للدفاع عن أنفسهم من خلال اتخاذ التدابير السلمية والتسليح بما يلزم من المعدات الحربية ، إذْ إن الظروف تقتضي منهم أن يقاوموا أعداءهم

متفرقيْن ومجتمعين معاً .

وبالإضافة إلى ذلك فقد ينْدسّ إلى صفوف المسلمين أنفسهم أناس، يريدون اشتراء سلْعة الآخرة الغالية دون أن يتحملوا أية خسارةٍ في دنياهم ، كما ظهر ذلك في أثناء موقعة أحدٍ ، وأمثال هؤلاء ربما يكونون أسْبق ممن عداهم إلى المساهمة في أمورٍ تنطوي على بعض المنافع الدنيوية من بعض الجوانب ، غير أنهم يفتعلون أعْذاراً لتبريْر انْفصالهم عن مهمةٍ دينيةٍ تتضمن المخاطر وتكلف الخسائر المادية .

وسبب هذا الاتجاه النفْعي الانْتهازي أن أصحابه، ما زالوْا يعيشون عملياً على مسْتوى هذه الدنيا الحاضرة؛ إذْ لوْ رسخ في أذْهانهم اليقين القائل بأن الآخرة لها وحدها الأهمية الحقيقية، لفقد النجاح والخيْبة في هذه الدنيا الفانية كل قيمةٍ واعتبارٍ في أنظارهم .

وإنما المجاهد في سبيل الله حقاً هو الذي لا ينْبغيْ شيئاً سوى السعادة الأخروية .. والذي يمضي قدماً في سبيل الله مضحياً بمنافع الدنيا ومصالحها العاجلة .. وليسوا من المجاهدين في سبيل الله في شيءٍ أولئك الذين يحبون أن يكونوا «أبطال» معْركةٍ يمكن فيها الحصول على أوْسمة الشرف بدون أن يمسهم قرح .. وحيث يُستطاع الوصول إلى قمة المجد والشهرة بمجرد النطْق بكلماتٍ رنانةْ !!

إن القتال في سبيل الله هو الذي يواجهه ذلك العبد الذي يكون قد نهض من أجل إعلاء كلمة الله وحدها .. بحيث يقوم بإنذار الناس وتخويْفهم من عذاب الجحيم، ويدعوهم إلى نعيم الجنة، دوْن أن يفتح باب النزاع مع أحدٍ على الصعيد السياسي أو الاقتصادي .. ولكن الأشرار لا يدعونه حتى يتصدوْا لعرْقلة مسيْرته، ويعلنوا الحرب عليه..

وأما المقاتلون في سبيل الشيطان هم الذين يتعرضون لقتال أحد الدعاة إلى الله، نظراً لأن دعوته تمثل ضربةً قاصمةً موجهةً لأنانيتهم وكبريائهم، وأن انتشار رسالته سوف يشكل خطراً اقتصادياً لهم أو يقلص نفوذهم السياسي إلى حدٍ كبيرٍ .. وأنهم لا يملكون لنقص دلائله وردّ براهيْنه شيئاً سوى منطق القوة وسياسة الاعتداء !

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا

كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾

فَتِيلاً: قدر الخيط الرقيق فى شق النواة.

بُرُوجٍ: حصون وقلاع... أو قصور.

مشَيَّدَةٍ: محكمة أو مطولة مرتفعة.

في زمن ما قبل الهجرة إلى المدينة،كان معارضو الإسلام بمكة، يتفننون في إيذاء المسلمين وإلحاق الضرر بهم بكل الطرق والصور الممكنة.. فمن الضرب والتعذيب البدني، إلى تحطيْم اقتصادياتهم ووسائل معيْشتهم،إلى صدّهم عن العبادة في المسجد الحرام،إلى الحيْلولة دون قيامهم بعملية التبليغ ونشر الرسالة الإسلامية،إلى إرْغامهم على مغادرة الأوْطان والديار.. كل ذلك استحلوه لأنفسهم إزاء المسلمين.. كل أنواع الضغوط المادية والاجتماعية على معتنْ الإسلام حديثا؛حتى يرتد عن الإسلام؛ويعود إلى دين آبائه السابق .

وبالنظر إلى عدوان المعارضين الصارخ فقد صار من الجائز للمسلمين أن يحملوا السيْف ضدهم، ولذا فقد كانوا يلتمسون من رسول الله ﷺ بين الفيْنة والأخرى أن يأْذَنَ لهم بالحرب .. إلا أنه كان يرد عليهم دائماً بأني لم أُؤْمَر بالقتال بعدُ .. وإنما عليكم أن تصبروا، وتهتموا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

وكان السبب وراء ذلك أن الإقدام قبل الوقت المناسب مما لا يتفق ومنْهج الإسلام.. ففي

مكة لم تكن قوة المسلمين تساعدهم على أن يتخذوا أية خطوةٍ حاسمةٍ ضد أعدائهم .. إذْ إن حمل السلاح على أهل مكة في ذلك الوقت كان مرادفاً لجر مصائب جديدةٍ على المسلمين أنفسهم ، فقد كان ذلك يعني أن تُتاح فرصة القيام بحملةٍ عسكريةٍ مكثفةٍ شاملةٍ، لذلك العدو الغاشم الذي ما برح يمارس الظلم والعدوان على المستوى الفردي فقط ، وأن الإقدام العملي يكون دائماً بعد تمام الاستعداد الفعلي وأخْذ الأهْبة اللازمة لذلك مسبقاً ، وأما قبل هذا فإنما يُطالبَ أهل الإيمان بالأحكام والواجبات الفردية التي لابد منها في كل الظروف والأحْوال مثل : تعميْق الصلة بالله، وتأدية حقوق العباد، والصبر على الأذى والمحِنَ التي تعترض في طريق الدين .. إلخ .

وعندما نزلت أحكام الكفاح والتضحية في القرآن، أقضّتْ على عبيْد المصلحة والمنْفعة مضاجعهم، وتعكّر صفوهم، إذْ خُيلّ إليهم أن شمْل حياتهم الهانئة الوديْعة سرعان ما سيتبدد ! وقد لجأوا إلى افْتعال صنوفٍ من الحيل والتعليلات لإخفاء ضعْفهم وتقاعسهم عن الكفاح وتقديم التضْحية ، فإذا وقعت الهزيمة في معركة أحد، أخذوا في زرْع بذوْر الشك والارتياب في قلوب الناس فى صحة توجيْه الرسول، قائلين إنها لم تكن إلا نتيجةً لسوء تدبير الرسول وقلةِ خبْرته ، كما كانوا يتظاهرون بنزعتهم الإسلامية من خلال آرائه وقراراته، وتوسلاً إلى الفرار من واجبات الإسلام ومقتضياته العملية الباهظة .

وإنه من الممكن أن يبقى المرء بمناصرته ويقف إلى جانبه .. الأمر الذي أصعب وأشق ما يكون على الإنسان.

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾
وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ
يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا
يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا
جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ
مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ

ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾

حَفِيظاً: حافظا ومهيمنا .

بَرَزُوا: خرجوا .

بَيَّتَ طَائِفَةٌ: دبرت بليل،أو زورت وسوت .

أَذَاعُوا بِهِ: أفشوه وأشاعوه .

يَسْتَنبِطُونَهُ: يستخرجون تدبيره أو علمه .

إن الإيمان بالداعي إلى الله أن تؤمن «ببشرٍ مثلك» ، وهذا السبب في أن الرجل يؤمن بالله تعالى ولكنه يستنكف عن الإيمان بالداعي إلى الله ، غير أن اخْتبار الإنسان الأصلى فى أن يعرف الداعى إلى الله، ويقف إلى جانبه وينضوي تحت لوائه ، وإذا لم يفكر المرء في أمر الداعى على أنه أمر الله، فلا يأخذه بمأخذٍ جدي، وبالتالى يظهر الموافقة والطاعة له إذا كان أمامه، ولكن ما أن يخرج من عنده، ويخلو إلى نفسه حتى يعود إلى سيرته الأوْلى ، ويخوض في نشر أقاويْل ضده، لا ينشرها إلا الذى لا يملك أيما شعورٍ بالمسئولية ، والذين يقفون تجاه الداعي إلى الله موقف الإهمال واللامبالاة على هذا النحْو، لن يُتركوا عند الله بمجرد قولهم إننا كنا جاهلين، ولم نكن نعرف الحق ، إذْ لوْ تفكر المرء برويّةٍ وأناةٍ، لوجد في كلام الداعي الذي أجراه الله على لسانه كل كفايةٍ لمعرفة صدقه وصحة رسالته!

ومن أوْضح الأدلة على كوْن القرآن كلام الله خلوه من التناقض والاختلاف ، فليْس فيه شيء يتعارض مع الفطرة البشرية، أوْ لا يتفق مع أية حقيقةٍ من الحقائق الثابتة المسلّم بها، ولا يُوجَد فيه بيان تاريخي يختلف في جوهره عن الأخبار الصحيحة المستقاه من الكتب السماوية السابقة ، كما أنه لا يتضمن أية إشارةٍ عمليةٍ تتناقض مع أية حادثةٍ تم اكتشافها في ضوْء معْطيات العلوم التجْريبية ، إذًا فكفى بهذا التطابق والانْسجام الكامل مع الحقائق الواقعية برهاناً قاطعاً على أن هذا القرآن كلام منزل من عند الله العزيز الحكيم.

غير أن حقيقةً ما، مهما كانت صادقةً واضحةً، لا تقع في نفس المرء موقع القبول إلاّ إذا

حاول فهْمها بجدّيةٍ وإخلاصٍ .. ومن ثم فكوْن القرآن خِلْواً من «الاختلاف الكثير» لا يظهر إلا لمن «يتدبر» القرآن ويتأمل في آياته .. وأما الشخص الذي لا يريد أن يأْخذ نفسه بتدبر القرآن، فإن باب الجدل العقيْم وإثارة الاعتراضات الفارغة على مضامينْه لا يزال مفتوحاً له على مصْراعيْه، ما لم تأْت القيامة؛ فتطْوي بساط ظروف الامتحان الراهنة بما فيه !!

والمجْتمع الإسلامي الذي يكون أفْراده عارفين بأقْدار أنفسهم إلى حدٍ يعترفون معه بعدم كفاءتهم إزاء غيرهم، فيُسْندوْن كل الأمور والقضايا الاجتماعية إلى من هو أكثرهم كفاءةً وأهْليةً لها، ويوطّنون أنفسهم على التمسك بتوجيْهاته وإرْشاداته.. وإن عرفان الذات هو العامل الوحيْد الذي من شأْنه أن يجنب الفرد الانْدفاع وراء الشيطان في الحياة إذْ لوْ لم يعرف المرء نفسه حق المعرفة، فلا يلبث أن يتدخل في الشئوْن الخطيْرة بالرغم من عدم كفاءته؛ فيأْتي على الأخضر واليابس، إلى جانب تدميره نفسه ، إن حاجة الفرْد إلى الصمت بشأْن الأمور الاجتماعية، تكون أشد من حاجته إلى الكلام ، وأنْ يأخذ المرء في التحدث إلى الآخرين بكل ما يسمع دون تروٍّ أوْ تحفظٍ، يعْني إعانة الشيطان ونصرته على إحداث الْبَلْبَلَة والاضطراب في المجْتمع .

﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ ﴾

أَشَدُّ بَأْساً: أعظم قوة وصولة.

وَأَشَدُّ تَنكِيلاً: أشد تعذيبا وعقابا .

كِفْلٌ مِّنْهَا: نصيب وحظ من وزرها .

مقِيتاً: مقتدرا أو حفيظا .

حَسِيباً: محاسبا أو مجازيا أو شهيدا .

ومن صور اعْتناق الدين أن يعْتنقه المرء وهو لا يزال جامداً على ما كان عليه قبله، دون أن يتناول حياته الحقيقية تغيرٍ جذري ملموسٍ .. اللهم إلا أن يتظاهر بإقامة بعض الشعائرْ الشكلية الخارجية ويزعم أن قد صار إنساناً متديناً !! ومثل هذا الدين لا يبعث أحداً على القلق والانْزعاج .. ومن أجل ذلك فلا يشعر الناس بمسيْس الحاجة إلى معرفته ومحاربته ..

وإذا عُرض الدين مع مقتضياته العملية، تلك التي تتطلب الكفاح والتضْحية؛ والتي تضطر المرء إلى تحطيْم حياته القائمة، وإعادة بنائها على قواعد وأسسٍ جديدةٍ، فإن الناس ينقسمون إزاء ذلك إلى طبقتيْن : طبقة معارضيْ الدعوة، وهؤلاء الذين يقوم تديّنهم على أساسٍ من المظاهر السطحية الرخيصة فهم يعارضون دين الكفاح والتضحية أعنف معارضةٍ، ذاك لأن اختيار دينٍ كهذا يكون عندهم بمثابة التخلي عن عروش السيادة العليا التى يحتلونها في ظل البنيان الاجتماعي التقليدي السائد .. وأما الطبقة الثانية فهي التى تكون فطرتها نابضةً بالحياة .. فلا تنظر إلى الأمور من منظور المصالح والمنافع، بل تنظر إليها نظرةً موضوعيةً مجردةً نزيهةً .. وإنها ما إن تقْتنع بكوْن أمرٍ ماً حقاً وصواباً، حتى تتلقاه بالقبول الفوْري، لا يحول دون قبولها له بعد ذلك حائل .

وربما يتفاقم هذا الوضع، ويشتد الصراع لدرجة أن مجرد رفع الصوت لتأييْد الحق وحمايته يصير مرادفاً للجهاد وتكاليفه الباهظة .. وعلى العكس من ذلك فإن الذي يُخْرس لسانه عن المجاهرة بالحق، أو يتخذ موقف المعارضة والعناد إزاءه، يُقبل عليه الدهر كله، ويتقلب في أعْطاف العيْش الرغيْد !!

غير أن أهل الإيمان الصادقين في إيمانهم، مطالبون أن يحاولوا صيانة العلاقات الاجتماعية المتبادلَة من التأثر بهذا التفاوت الوضْعي الطارئ، والصراع المبدئي العقدي .. وألا يسلكوا مع معارضيْهم سلوكاً لا أخلاقيا؛ إذْ إن سلوك المسلم يجب أن يكون دوْماً سلوكاً إيجابياً، ولا ينبغي أن تنعكس عليه آثار رد الفعل السلبية ضد الآخرين .. وأما ما يتصل بجزاء شخصٍ ما

على أعماله، وتقرير مصيره النهائي، فهذا أمر موكول إلى الله عز وجل، وليس لنا أن نتدخل فيه !

وإذا كانت دعْوة الحق تمر بظروفٍ خطيرةٍ وفتراتٍ حالكةٍ مظلمةٍ، فلا يعود فيها لإبقائها حيةً ومتحركةً سوى ضمانٍ واحدٍ ، وهو أن يكون الداعي مصمماً - على الحد الأدنى - وعلى أنه لن يتزحزح عن موقفه الدعوي ؛ سواءً وجد أحداً من الناس يؤيده ويشد أزره أو لم يجد! .. وإن تصميم الداعي المؤكد في مثل هذه الظروف يجعله أهلاً لنصرة الله.. ومن أمثلة ذلك ما حدث في غزوة بدر الصغرى ، التي حصلت بعد شهرٍ من معركة أحد .. وكانت المدينة - إذْ ذاك - يسودها الذعر والخوف، فلم يخرج مع رسول الله ﷺ إلا سبعون رجلاً وشملتْ هذه المسيرة الضئيلة العدد والعتاد نصرة من الله تمثلت في سيطرة الرعب على كفار مكة فلم يستطيعوا أن يخرجوا للمواجهة والقتال !.

إن من سنة الله الثابتة التي لا تتخلف ، أن يكسر شوكة الكفار الجاحدين ويفل حدّهم ، غير أن سنة الله هذه تتحقق عندما يكون حملة لواء الدين قد بادروا بالخروج لكسر شوكة أعداء الله ، رغم قلة عددهم وضآلة الأسباب المادية المتوافرة لديه .

﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ

ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَـٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

أَرْكَسَهُم: نكسهم وردهم إلى حكم الكفر .

حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ: ضاقت وانقبضت .

السَّلَمَ: الاستسلام والانقياد .

أُرْكِسُوا فِيهَا: قلبوا في الفتنة أشنع قلب .

ثَقِفْتُمُوهُمْ: وجدتموهم أو تمكنتم منهم .

وإن المرء حين يختار دين الله كمنهج عملي لحياته ، فإنه يمر بمراحل مختلفة يتم فيها اختباره وفحصه ، هل كان مخلصاً جاداً في قراره أم لا ؟ .. و«الهجرة» إحدى حلقات هذه المسلسلة .. وتعني أن يتقدم المرء نحو الله متخلياً عن منافع الدنيا ومصالحها العاجلة ، فيما إذا كانت تقف حجر عثرةٍ في سبيل الدين ، ولو اقتضت الضرورة أن يغادر أهله ودياره حفاظاً على دينه فلا يمتنع عن ذلك .. ولو تقدم المرء نحو الحق متخلياً عن كل مصالحه ومنافعه المادية في مثل هذا المرقف الخطير ، لكان قد عمّق علاقته القلبية بالحق وزادها توطداً ورسوخاً .. وعلى النقيض من ذلك فلو بقي المرء ملتصقاً بمنافعه ومصالحه المادية في مثل هذا الموقف ، لكان قد أوهن علاقته القلبية بالحق واتسعت الفجوة الفاصلة بينه وبينه .. والشخص الذي يسلك الطريق الأول يزداد صلاحية واستعداداً لتقبل الحق ؛ فهو يتقدم نحو الحق ويتقرب إليه بصورةٍ مستمرة .. وأما الشخص الذي يختار الطريق الثاني فلا تزال قابليته للحق في تناقص مستمرٍ ، حتى يؤول به الأمر نهائياً إلى حدٍ لا يعود لديه معه استعداد فعلي لقبول الحق !!

وعندما تفرض مقتضيات الدين الباهظة نفسها ، فالناس ينقسمون بإزائها إلى طوائف شتى ؛ فمن طائفة المخلصين الناصحين ، إلى طائفة المعارضين المعاندين ، وقد تكون هناك طائفة قريبة من الحق في ظاهر أمرها ، غير أنها بعيدة عنه كل البعد من حيث الباطن .. وفي مثل هذه الحالة لابد لأهل إيمان من اتخاذ مواقف وأنماطٍ سلوكية متناسبة للتعامل مع كل هذه الطوائف على اختلاف أحوالها،وتباين اتجاهاتها . فليكونوا أشداء مرهوبي الجانب لقطع دابر

الفتنة ، واستئصال مواطن الخطر ، ورحماء موطئي الأكناف بشأن الوفاء بالحقوق وتأدية الواجبات الأخلاقية نحو الآخرين ، وليتعاملوا مع الضعفاء معاملة الكرم والمسامحة ، ولتنعكس آثار سلوكهم على من دونهم بدلاً من أن يتأثروا بهم .. وإذا كان الله قد كفاهم قتال بعض الطوائف عن طريق تحييدها وإقعادها جانباً ؛ فلا هي لهم ولا عليهم ، فليس من السائغ أن يعلنوا الحرب على طائفة كهذه بدون لزوم.

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾

إن أعظم حقٍ واجب على المسلم لأخيه المسلم أن يُراعي حرمة دمه ، ولا يتعدى عليه ، ولو أن مسلماً قتل مسلماً آخر ، لاقترف أكبر جريمة اجتماعية على الإطلاق ، وإن شخصاً حين يقتل شخصاً آخر فإنه يوجه إليه الضربة الأخيرة الممكنة ، ثم إنها لجريمة لا تبقى بعدها للمجرم أية صورة للتلافي والاستدراك ، ومن أجل ذلك كان جزاء القتل العمد الخلود في نار جهنم ، والذي يُقدم على قتل رجلٍ مسلم ، عالماً بإسلامه ، متعمداً لقتله ، يشتد غضب الله وسخطه عليه ، فيجعله ملعوناً مطروداً من رحمته ويُلقي به في جهنم خالداً فيها .

وأما القتل الخطأ فهو أهوْن وأخف وطأة ، فلوْ أن شخصاً قتل رجلاً مسلماً على وجه الخطأ ، ثم شعر بعد ذلك بخطئه ؛ فتوجه إلى الله ضارعاً مبتهلاً ؛ محاولاً تكفير جريمته وفق القاعدة الشرعية المقررة ، فمن المرجو أن الله سيعفو عنه ، ويغفر له ذنبه .

وبذل المال أو مواصلة الصيام لمدةٍ ملحوظةٍ من الزمن بعد الوقوع في الخطأ يعد بمثابة تعذيب النفس بالنفس ، وإذ يغلب على المرء إحساس شديد بأنه قد وقع في خطأٍ جسيم،

فيريد أن يجري عليه إصلاحيةً على نفسه ، وقد أرشد الله هنا إلى ما يجب إلى المرء أن يفعله لإصلاح شأنه في مثل هذه الحالة .

وعلى أن الآيات الواردة هنا تضمنت الأحكام المتصلة بقضية القتل ، غير أن هناك جرائم اجتماعية أخرى ، ومن خلال الأحكام المذكورة أعلاه يمكننا أن نتبين مقتضى الشريعة بالنسبة إلى هذه الأمور الأخرى .

فليس من واجب المسلم ألا يحاول حرمان أخيه المسلم من نعمة الحياة فحسب ، بل ومن حق المسلم على المسلم الآخر كذلك ألا ينتهك عرضه ، ولا يطلب عورته ، ولا يخرجه من داره ، ولا يُحدث خللاً أو اضطرابًا في سير معيشته ، ولا ينتزع منه أشياء عليها مدار حياته كلها ، ولو أن شخصاً ارتكب فعلاً يصيب أخاه المسلم بضررٍ أو خسارة من هذا القبيل ، فعليه أن يحس بخطئه على الفور ، والشاهد على إحساسه بالخطأ أن يستغفر الله مخلصاً ، ويرفع إلى أخيه العوض عما أصابه من الضرر والخسارة ، وأما إذا تعمد المرء القيام بخطواتٍ وإجراءات عمليةٍ ، غايتها إلحاق الضرر والخسارة بأخيه وإحراجه والتضييق عليه ، فإن ذلك لجريمة مماثلة للقتل العمد ؛ مع تفاوتٍ نسبيٍ في الدرجة .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾

ضَرَبْتُمْ: سافرتم وذهبتم .

السَّلامَ: الاستسلام أو تحية الإسلام .

عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا: الغنيمة وهي مال زائل .

أُوْلِي الضَّرَرِ: ارباب العذر من الجهاد .

لقد كانت القبائل المعارضة للإسلام في الجزيرة العربية ، تضم أفراداً مسلمين من داخلهم غير أنهم لم يكونوا قد انفصلوا بعد عن قبائلهم عبر الهجرة ، وفي أثناء إحدى الغزوات وقع رجل كهذا - المستخف بإسلامه - بأيدي المسلمين ، فسلّم عليهم إشعاراً لهم بأني أخوكم في الدين ، إلا أن بعض المسلمين المتحمسين لم يلبثوا أن قتلوه على الرغم من ذلك جاهلين إسلامه ، وإنما يسلّم عليه خوفاً من القتل وحرصاً على حياته ، .. فلا يحل أن يُرفع عليه السيف ، حتى ولا في أثناء الحرب ، وقد يتضح مدى خطر حياة إنسانٍ مسلمٍ من أن النبى ﷺ قال : ((لزوال الدنيا أهْون على الله من قتل امرئ مسلم))(رواه الترمذى والنسائى) .

وإذْ يصر بعض الناس على معاقبة غيره ، رافضاً لما يظهره من إسلامه ، أو جاعلاً إياه غير جدير بالاعتبار ، فإنما تكون هناك بواعث مادية أو دنيوية بحتة هي التي تعمل دوْماً وراء هذا النوع من ((الحماس الإسلامى)) .

والمسلمون ، من الناحية العملية ، صنفان : الصنف الأول أناس يختارون الحياة الإسلامية في إطار الفرائض والواجبات ؛ أي أنهم يعبدون الله ، ويمارسون حياتهم العملية في حدود الحرام والحلال المرسومة ، دون أن يتجاوزوها إلى ما وراءها .. وأما الصنف الثاني ، فهم أناس يختارون الإسلام على مستوى الكفاح والتضحية .. أي أنهم لا يكتفون بإسلام أنفسهم فقط ، بل ويسعون جهدهم لإدخال الآخرين في دائرة الإسلام ، ويتحملون التبعات الباهظة في هذا الطريق عن طيب نفس .. إنهم يحفرون في جبهة الإسلام بأنفسهم وأموالهم كلها .. فلا يكون سعيهم قاصراً على الفرائض المحدودة وحدها ، بل ويخطون خطوة متقدمة ؛ فيقدمون وجودهم بأكمله تضحية للإسلام .

وهذا الصنفان كلاهما مخلص ، وكلاهما سينال حظه من الرحمة الإلهية .. غير أن الصنف الثاني يتميز عن الأول بصفةٍ أساسيةٍ .. بما بذلوا في سبيل الله بغير حساب ؛ لذا فإن الله سيكافئهم بغير حسابٍ ، وبما أنهم دمجوا أنفسهم في مشروع الله غير مبالين بالمصالح ، لذا فإن

الله سيتغمدهم بظلال رحمته دون مبالاة بشيء.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

مُرَاغَماً: مهاجرا ومتحولا ينتقل إليه .

وتقتضي فطرة المؤمن وجود بيئة حرة تتوافر فيها فرص وإمكانات مفتوحة لإظهار شخصيته الإيمانية ، وإنمائها دونما خوف ، وإذا ما حُرِم المؤمن من بيئة حرة كهذه فعليه أن يستبدلها بغيرها، وتلك هي الهجرة بعينها ، فإن الهجرة ، من حيث حقيقتها الجوهرية ، تعني إخراج المرء نفسه من مناخ غير ملائم وانتقاله إلى مناخ آخر ملائم .

وكذلك تقوم في بيئة ما دعوة الحق ، وتقتضي الضرورة عندئذ أن يقف جميع أهل الإيمان المتفرقين إلى جانبها، ويكرسوا كل طاقاتهم في سبيل خدمتها ونصرتها ، ويدعموها بأموالهم لكي تتمكن من البلوغ إلى أهدافها المنشودة ، ولكن أهل الإيمان لا يزالون في قوقعة مصالحهم ومنافعهم الذاتية ، فيهملون أمرها، ولا يخرجون من قوقعتهم تلك ، حتى ينضموا إلى مسيرة الحق فيكسبوها قوةً ومنعةً وقدرة على الاتساع والاستمرار .. ولو أنهم استكملوا آجالهم على وتيرتهم فسيصلون إلى الله ظالمين أنفسهم!!! وإنما يُستثنى من هذا الحكم أولئك الذين بلغ منهم العذر والعجز مبلغاً لا يجدون معه أية حيلة للخروج بأنفسهم ، ولا ينفتح لهم أي منفذٍ آخر من الخارج.

ربما يحسب المرء أن الدنيا بأكملها ضائقة عليه غير ملائمة له ، قياساً على ما أحيط به من

ظروف غير ملائمة في بيئته .. إلا أن دنيا الله الواسعة تحمل على ظهرها أصنافاً شتى من البشر .. فإذا أوجدت هنا ((مكة)) حيث يُرمى الداعي بالحجر ، فهنا توجد ((يثرب)) ؛ حيث يُرحب بالداعي ترحيباً حاراً .. إذًا فينبغي للمرء أن يتبنى مبدأ تغيير البيئة بدلاً من التفاهم مع البيئة الفاسدة ؛ إذ من الممكن جداً أن يصير اتخاذه موضعاً جديداً ميداناً لنشاطه ، مؤدياً في نهاية المطاف إلى فتح إمكانات جديدةٍ هائلة لم تكن في الحسبان من قبل.

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

يَفْتِنَكُمُ: ينالكم بمكروه .

حِذْرَهُمْ: احترازهم من عدوهم .

تَغْفُلُونَ: تسهون .

كِتَاباً مَّوْقُوتاً: مكتوبا محدود الأوقات مقدرا .

وَلاَ تَهِنُوا: لا تضعفوا ولا تتوانوا .

إن المقصود بالنهائي من كل الأعمال التي يشتمل عليها الدين ويؤكد عليها ، هو ذكر الله ، فجميع هذه الأعمال تهدف أساساً إلى إعداد إنسان يكون الله مستقراً في ذاكرته وأعماق قلبه ويصير معه كل منعطفٍ من منعطفات الحياة باعثاً على تذكيره بالله ، وتحريك مشاعره نحوه تعالى ، فساعة الخوف والخطر تبعثه على خشية الله ، وساعة الأمل والرجاء تُلْهب شوقه وحنينه إلى لقاء الله . وتكون ثقته بالله وحده ، وتوجهاته كلها مرتكزةً على الله تعالى ، ويعتبر كل شيءٍ يظفر به فضلاً من الله ، وإذا حُرم من شيء علم أن ذلك نتيجةً لمشيئة الله العليا ، ويكون كيانه الداخلي كله مندمجاً في جلال الله وجماله .

ويتضح مدى أهمية ذكر الله من أن الصلاة لابد من تأديتها بأي شكل من الأشكال، حتى في مواطن الحرب البالغة الخطورة ، وذلك ليتم تذكير الإنسان وهو على حافة الموت ، بذلك المطلوب الأصلي الذي ينبغي للعبد أن يذهب به من هذه الدنيا إلى جنات ربه !

وعلى أن ثقة أهل الإيمان واعتمادهم يكون بكليته على الله وحده ، غير أنهم مأمورون بإعداد العدة الظاهرية اللازمة للتوقي من مباغتة العدو .. والسبب أن نصرة الله تعالى تنزل من خلال الأسباب الظاهرية ، فإن لم يكن أهل الإيمان قد قاموا بإعداد ما يمكن من عدة الوقاية والدفاع عن أنفسهم ، فكأنهم لم يبنوا ذلك الهيكل المادي الذي يشكل معبراً لانتقال نصرة الله إليهم .. وكل المصائب التي تواجه المؤمن في الحياة الدنيا ثمن لمشروع الله ، المقتضي بالضرورة إيجاد ظروف الابتلاء والامتحان حتى يتميز المستقيم الثابت على جادة الحق ، عن المنحرف المؤذي للآخرين بغير حق .

وقد ينكشف الصراع بين الإسلام وغير الإسلام عن لحوق الهزيمة والخسائر الفادحة بأهل الإسلام، وانتصار أهل الباطل عليهم ، مما يجعل بعض الناس عندئذ يدب إلى نفوسهم دبيب الوهن وضعف الهمة ، غير أن أمثال هذه الحوادث والنكسات الفاجعة ، تكون بدورها منطوية على جانبٍ مهمٍ من المصلحة والحكمة الإلهية ، إنها تحدث لتزيد العبد المؤمن خشوعاً وانكساراً وإنابةً إلى الله ، فيصبح أهلاً للمزيد من العنايات الربانية .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

خَصِيماً: مخاصما مدافعا عنهم .

يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ: يخونونها بارتكاب المعاصي .

يُبَيِّتُونَ: يدبرون بليل .

إن المشاركة في الحياة أو التعايش الجماعي من الحاجات الضرورية الأساسية للإنسان، فلا أحد يستطيع ممارسة الحياة في عزلة تامة ، وهذه الضرورة الحياتية هي التى تعمل على إنشاء طائفة أو أمةٍ معينةٍ ، فالإنسان ، من خلال انخراطه في الناس ، يضاعف ويضخم طاقته مئات الآلاف من المرات ، غير أن الشيء الذي ظهر إلى حيز الوجود كضرورة اجتماعية ، به يتحول إلى مذهب اجتماعى طائفي على مرّ الزمن ، ويصير بالتالى هو الهدف المطلوب لذاته عند الناس ، حيث ينشأ الاتجاه القائل : «طائفتي : سواءً أكانت مصيبةً أم مخطئة ، أوْ أمتي : سواءً أكانت على الحق أم على الباطل» .. ذلك الاتجاه الذي عبّر عنه الشاعر العربي القديم قائلاً :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويتُ ، وإن ترشدْ غزية أرشد!

وهذا الاتجاه ، حينما يغلب على طائفة ما ، يوحي بأنها قد أعطتْ مصالحها القومية، وتعصباتها الطائفية حيثية المقياس والمعيار ، بينما الموقف الصحيح أن يعطي المرء حيثية المعيار والمقياس للهدى الإلهي وحده ، ويحدد سلوكه العملي مع الآخرين على ضوء توجيهاته الرشيدة ، وليس على أساس المصالح الدنيوية والتعصبات الطائفية ، فلابد من أخذ المخطئ بالعنف والشدة ولو كان من أنفسنا ، ومن التعاون مع المصيب ، ولو كان من غير مجموعتنا ،

ويجب النظر في كل القضايا والخصومات بمنظار الحق وغير الحق ، والالتزام بالنزاهة في الحكم ، والوقوف إلى جانب الحق وصاحبه ، دون محاباةٍ ولا مجاملة ، ولا مبالاة بأي شيء آخر مهما يكن ؛ حتى ولو كان أحد الطرفين عدواً لنا ، والآخر قريباً من أقربائنا!

إن خذلانك للحق يعني خذلانك لنفسك .. فإن المرء حين يخون غيره ، فيكون خائنًا لنفسه ، ذاك لأن الله عز وجل قد نصب في صدر كل إنسان «ممثلاً» له ، وذلك الممثل الإلهي هو ضمير الإنسان ، فمتى يريد المرء مخالفة الحق ، يأخذ هذا الممثل للحق، الكامن في صدره ، في زجره وتأنيبه .. ولا يتمكن المرء من التخلي عن مقتضى الحق والعدل ، والاندفاع وراء الظلم والعدوان ، إلا بعد أن يتغاضى عن هذا النداء الداخلي!

ثم إن المرء حين يتعاون مع أحدٍ على الباطل ، فإنما يكون ذلك مراعاة للعلاقات الدنيوية والمصالح المادية المتبادلة ، التي تدفعه دفعاً لا يسعه معه إلا أن يساعد ذلك الشخص ويتعاون معه ، رغم كونه عارفاً كل المعرفة بأنه مبطل وليس على الحق .. غير أن مساعدة شخص ما ، رغم كونه مبطلاً مجانباً للحق ، تكون دائماً على حساب التخلي ، والابتعاد عن الله جل شأنه ، ففي الوقت الذي يعين المرء فيه شخصاً كهذا وينصره على باطلٍ في هذه الدنيا ، يكتب له الحرمان في الوقت بعينه ، من عون الله ونصرته في الدار الآخرة !

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

وَكِيلاً: حافظا ومحاميا من بأس الليل .

بُهْتَاناً: كذبا فظيعا.

الدنيا مكان الابتلاء ، وهنا يُحتمل وقوع أحدٍ في الخطيئة - بالنسبة إلى حقوق الله ، وإلى حقوق العباد - .. وإذا وقع أحد الناس في خطيئة ، فالموقف الصحيح أن يندم المرء على خطيئته ويندفع نحو الله بمزيدٍ من التوجه والخشوع والإخلاص ، ويطلب منه تعالى أن يعفو عن خطيئته ، ويوفقه لفعل الخير والصلاح فيما يأتى .. ولو أن شخصاً التجأ إلى الله ، فإن الله يأخذه في أكنافه وحياطته ، ويتغمده بمدده وغفرانه .. وإن الله يوقظ حسه الدينى ويذكيه ، فيؤهله لكيما يأخذ فى ممارسة الحياة الدنيا فى بقية عمره مع حذرٍ أشد وتنبه أكثر من ذى قبل .

وثمة موقف آخر ، وهو ألا يكون المرء مستعداً للاعتراف بالخطيئة بعد ارتكابها ، بل يأخذ في محاولة تبريرية لخطيئته ، ويبدأ بالتالي يتشاجر مع أولئك الذين ينتبهون إلى خطيئته ، اعتماداً على نصرة أصحابه وأعوانه .. وإن الذين يتمردون على خطيئتهم ، والذين يتعاونون معهم ، هم جميعاً من أكابر المجرمين المفسدين عند الله تعالى .. والكلمات أو التبريرات اللفظية المزعومة التي يستندون إليها لتستر خطيئتهم ، ستفقد معناها بكليته في الآخرة ، كما أن الأعوان الذين ما زالوا مبْعث غرورهم وطغيانهم في هذه الدنيا ، فإنهم سيعلمون آخر الأمر أنهم كانوا في غاية العجز ، ولم يكونوا مغنين عنهم شيئاً .

إن فضل الله العظيم في أن يفتح تعالى أبواب الهداية .. ويُلهم المرء الرغبة في الاعتراف بالخطيئة عقب وقوعها فيها ، والإقلاع عنْها دون اللجوء إلى تبريرها وتصويبها بلا أساس واقعي ، وأن يوفقه لاختيار أسلوب التواضع للتعامل مع الآخرين بدلاً من الترفع والاستعلاء عليهم استناداً إلى مساعدة الأعوان والأنصار .. وأن يسدد فكره ويقوّم سلوكه العملي ، فإذا سنحتْ له فرصة النيْل من أحد الناس واتخاذ الإجراءات السلبية ضده، فلا يفرح زاعماً أنه ناجح وسعيد !! بل يشعر من فوره بشناعة فعله وقُبْح صنيعه ؛ فيتوجه إلى الله ضارعاً، طالباً إياه تعالى أن يجنبه من أن يكون متعدياً على حقوق الآخرين.

﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾

وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾

نَجْوَاهُمْ: ما يتناجى به الناس ويتحدثون .

يُشَاقِقِ الرَّسُولَ: يخالفه .

نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى: نخل بينه وبين ما اختاره لنفسه .

وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ: ندخله إياها فيشوى بها .

إن قيام الدعوة إلى الحق الخالص يعني تنصيب الميزان الإلهي على ظهر الأرض ، فيشعر كل شخصٍ بأنه يُوزن ويُقاس قدره الذاتي على ذلك الميزان بدقةٍ فائقةٍ للغاية .. فإن دعوة الحق تكشف القناع عن الوجه الحقيقي لكل شخصٍ ، من خلال تمزيق الأستار الظاهرية التي كان متلفعا بها .. وهذا الوضْع يكون قاسياً وشديد الوطأة لدرجة أن الناس يصابون بقلق وانزعاجٍ بالغين ، وبالتالي تصير البيئة المحيطة بشخصية الداعي كلها نابية طافحة بالجفاء والعنف ، وكأنما يمشي على الجمرات بل على أحر منْها !!

فالذين يكشف ميزان دعوة الحق عن تفاهة شأنهم ، تستيقظ في نفوسهم مشاعر الكبر والعناد ، ومن ثم فلا يلبثون أن يندفعوا نحو الاتجاه المعاكس اندفاعة عمياء ، والشيء الذي يصبح أكبر هم يشغل بالهم هو الإجهاض على دعوة جاءت تثبت زيفهم وتُلغي اعتبارهم بوصْفهم أتباعاً للحق .. كما لا يعود لديهم وجه لاستخدام ألسنتهم سوى أن يلفقوا ضد الدعوة والداعى ما أمكنهم التلفيق ، وينشروا بين الناس أباطيل وشبهات تنفرهم من شخصية الداعى ورسالته .. وأن يدبروا خططاً ومكائد للنيل من الداعي وإفشال مسيرته ، وأن يمنعوا أصحاب الثراء والغني من تقديم المعونات المالية إليه ، وأن يبددوا شمل عباد الله الآخذين في توحيد كلمته معتصمين بحبل الله جميعاً ، من خلال الإيقاع بينهم ، وإفساد ظنونهم بعضهم بالبعض !

وعلى العكس ، فإن المحافظين على حياة فطرتهم وحيويتها وسلامتها ، يُكتب التوفيق

لكي يذعنوا للداعي ، وليشدوا من أزره ، ويناصروا رسالته ، ويبدؤوا بصياغة حياتهم العملية فى قالبها .. وبالنسبة لهؤلاء تكون ألسنتهم أداة للاعتراف بالحق والصدق بكل صراحة وعلى رؤوس الأشهاد .. وسيلة لإعلام الناس بأن الدعوة عملية إلهية ، فقوموا ببذل أموالكم وأوقاتكم لتدعيمها وتقديمها إلى الأمام ، كما يرغّبون الناس في أن يكرسوا جهودهم وطاقاتهم في أعمال البر ووجوه الخير العام ، وأن يحاولوا جهدهم لنشر المعروف في المجتمع ، وإصلاح ذات بينهم وتوطيد علاقاتهم المتبادلة .. إلخ . .إن النتيجة الطبيعية للنفسية التي يبعثها الاعتراف بالحق في داخلهم أن يشتغلوا بهذا النوع من الأعمال الإيجابية الصالحة ..

إن معارضة الدعوة إلى الحق ، ومناصبة العداء للذين قد استجابوا لدعوة الحق وانضموا إلى أنصارها، لجريمة لا تغتفر عند الله تعالى .. إذْ إن الجرائم الأخرى يُحتمل اعتبار أكثرها ، إن لم تُعتبر كلها صادرةً من غفلة الإنسان أو ضعفه أو جهله .. غير أن معارضة دعوة الحق ترجع بكليتها إلى سببٍ واحدٍ لا غير وهو التمرد والعناد ، وهو ذنب من الشناعة بحيث لا يغفره الله لأحدٍ أبداً ، اللهم إلا أن يعترف بخطيئته ، ويُقلع عن التمرد والعناد ، ويقطع على نفسه عهداً ألا يعود إليه .

إن دعوة الدين الحق ، حينما تقوم في صورتها النقية الخالصة من كل الشوائب ، فإنها تكون عمليةً إلهية قد بدأت على أساس نصرةٍ من الله خاصةٍ ، إذًا ، فإن معارضة عمليةٍ هذا شأنها ، هي بمثابة القيام لمواجهة الله .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا (١٢٢)﴾

إِنَاثاً: أصناما يزينونها كالنساء .

شَيْطَاناً مَّرِيداً: متمردا متجردا من الخير .

مَّفْرُوضاً: مقطوعا لي به .

فَلَيُبَتِّكُنَّ: فليقطعن أو فليشقن .

خَلْقَ اللهِّ: فطرة الله وهي دين الإسلام .

غُرُوراً: خداعًا وباطلا.

مَحِيصاً: محيدا ومهربا ومعدلا .

قِيلاً: قولا.

إن جذور عمل الشخص الذي يعتصم بالله الواحد الأحد ، تصير مرتبطةً بـالحق سبحانه وتعالى.. ومع أنه قد يقع في خطايا وزلات وقتية إلا أنه يعود إلى صوابه بعد ذلك فيدرك الخط الصحيح الأصيل .

وأما الشخص الذي يكون متعلقاً بشيء آخر دون الذات الإلهية ، هُو محروم من تلك الأرضية بالذات ، التي هي وحدها الأرضية الحقيقية الصلبة في هذا الكوْن كله .. وإن العمل الذي يمارسه هذا الشخص ، وإن كان يبدو في ظاهر الأمر صالحاً ، إلا أنه لا يكون منبثقاً عن مصدر الله ، بل يكون عملاً سطحياً عابراً لا يلبث أن ينكشف زيفه للعيان في إثر إصابته بصدمة خفيفة عادية جداً ، وذلك هو السبب في أن العمل المصحوب بعقيدة التوحيد يعطي ثماره اليانعة في الآخرة ، بينما العمل المصحوب بعقيدة الشرك لا يلبث أن يضيع ويتلاشى في هذه الدنيا نفسها ، دون أن يكون له أثر يمتد إلى العالم الآخر .

إن عدوّ الإنسان الحقيقي في هذه الدنيا هو الشيطان ، والذي هو في صراعٍ دائمٍ متصل معه

غير أن الشيطان ضعيف لا يملك أيما طاقة ، وإنما يمكنه فقط أن يخدع الإنسان بالوعود اللفظية ويورطه في فخّ الأماني المفترضة، وهكذا يبعد الناس عن الحق الأصيل .

والانحراف الذي يوقع فيه الشيطان أتباعه ، له صورتان خاصتان ، أوْلاهما تتمثل في عبادة الأوهام والخرافات الباطلة ، والثانية هي تغيير خلق الله .

وعبادة الأوهام والخرافات تعني أن يعقد الأمل على شيء كمصدر لنتائج لا تمت إلى ذلك الشيء بسبب مباشر ولا غير مباشر ، كاعتبار شيء ما من دون الله عامةً مؤثراً في شئون الحياة وأحداثها بناءً على افتراضات مزعومة مثلاً.. على حين أنه لا أحد في هذه الدنيا غير الله يتمتع بأية قوة ذاتية مستقلةٍ ، أو كأنه يسخر أحدٌ حياته فعلاً في سبيل الحصول على حطام الدنيا ، ثم يرجو - بناءً على مجرد الأماني المفترضة -= أن نجاة الآخرة ستحصل له تلقائياً ، ولا عليه إذا لم يسع لها سعيها !!

وأما الطريق الثاني لإضلال الشيطان فهو يكمن في تغيير الخريطة التي رسمها الله عز وجل بنفسه .. فقد أوْدع الله في فطرة الإنسان بصورة جبلية الشعور بأن يركز اهتماماته وتوجهاته على الله تعالى وحده، وتغيير هذه الفطرة الإلهية يعني توجيه اهتمامات الإنسان إلى أشياء أخرى دون الله ، أو محاولة الوصول إلى غايةٍ بأسلوب اصطناعي آخر بدلاً من الأسلوب الفطري المقرر لإحرازها ، فتغيير الفطرة إذًا هو ألاّ يعيش الإنسان في الدنيا كما ينبغي له أن يعيش ، انسجاماً مع المنهج الإلهي المرسوم لهذا الكون ، بل يقلبها رأساً على عقبٍ ويعيش وفقاً لإغراءات الشيطان وأهواء النفس .

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا (١٢٦) ﴾

قِيلاً: قولا.

نَقِيراً: قدر النقرة في ظهر النواة.

عندما ينساق المؤمنون بالله والآخرة وراء زخارف الدنيا وينغمسون في مباهجها ولذاتها، فإنهم لا يفعلون ذلك انسلاخاً عن إيمانهم بالله والآخرة، بل إنما هم يُلقون بقضية الآخرة في خانة المعتقدات الرسمية، ثم يُسخرون جهودهم ونشاطاتهم العملية كلها من أجل الحصول على الدنيا، إنهم يكونون غايةً في الجدية والإخلاص بالنسبة إلى إحراز المنافع الدنيوية ونيل العزة والشرف في الدنيا، ومن ثم فهم يرون استنفاد كل الجهود والطاقات أمراً ضرورياً لابد منه للوصول إلى تلك الأشياء، بينما يعتبرون مجرد الأماني الحالمة كافيةً في نيل السعادة الأخروية !!

فقد يزعمون أن شفاعة بعض الصالحين، والانتماء إلى مجموعة بشرية ذات خطرٍ وشأنٍ، وتكرار بعض الأوراد المقدسة، وما شاكل ذلك من التصورات والأعمال التافهة، يزعمون أنها ستنقذهم من نيران جهنم الحامية، وتدخلهم في حدائق الجنة ذات البهجة والنعيم !! غير أن أمثال هذه الأماني، مهما تم التعبير عنها بكلمات جميلةٍ رائعة، لن تغني عن أحدٍ فتيلاً، فإن معيار الله هو معيار محكم دقيق للغاية حيث إن كل الأحكام والقرارات يتم إصدارها عنده تعالى بناءً على الحقائق وحدها، وليس بناءً على مجرد الأماني والآمال الكاذبة، وفي محكمة الله العادلة إنما ينظر إلى عمل الإنسان الذاتي فحسب وطبقاً لنوعية عمله هو سيقرر مصيره النهائي، فليس هنالك من شيء ما عدا قانون العدل الإلهي يمكن أن يكون أساساً لإصدار الأحكام وتحديد مصائر البشر.

ومَنْ هو ذلك العبد من عباد الله، الذي سوف يغمره الله بنفحات رحمته ؟! إن سيدنا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - يمثل أنموذجا تاريخياً لذلك العبد .. وإنه هو وأمثاله عباد يعيشون في هذه الدنيا مؤمنين بالله صادقين في إيمانهم، والذين يتجهون بكليتهم نحو الله ربهم منقطعين عن كل الجهات الأخرى سواه، والذين تكون ولاءاتهم كلها خالصةً مخلصةً لله وحده، والذين يمارسون حياتهم العملية متواضعين، ملتزمين بمقتضى العدْل في كل الشؤون والمعاملات الدنيوية المبادلة، بعيدين عن الظلم والجور والتعدي على حقوق الآخرين.

إن وجه الإنسان هو دليل وجوده بأكمله ، ومعنى إسلام الوجه لله أن يتوجه المرء بكل وجوده إلى الله تعالى ، مطيعاً لأوامره ، مجتنبًا لنواهيه .

إن الله هو مالك الكون كله ، وهو يملك القوى والطاقات بكل أنواعها ، غير أن الله سبحانه وتعالى قد ستر وجوده وراء الغيب ، ولا يظهره عياناً فى هذه الدنيا لحكمة أرادها ، وأيما فساد أو شر يتولد في هذه الدنيا ، إنما يرجع أصلاً إلى المرء الذى لا يرى الله ولا يشاهده مشاهدةً عينيةً ؛ الأمر الذي يجعله يحسب أنه حر طليق يفعل ما يشاء، ولكن لو أن المرء علم علم اليقين أن الإنسان عاجز كل العجز لا يمتلك أية قدرة أو اختيارًا مستقلاً ، يجرى عليه اليوم كل ما سيجري عليه في يوم القيامة.

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾

أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله: أخلص نفسه أو توجهه وعبادته لله .

حَنِيفاً: مائلا عن الباطل إلى الدين الحق .

بِالْقِسْطِ: بالعدل في الميراث والأموال .

بَعْلِهَا: زوجها .

نُشُوزاً: تجافيا عنها ظلما .

الشُّحَّ: البخل مع الحرص.

أَن تَعْدِلُوا: في المحبة وميل القلب والمؤانسة .

سَعَتِهِ: فضله وغناه ورزقه.

في معرض بيان الأحكام الشرعية المتصلة ببعض القضايا الاجتماعية ، تم التأكيد على معاني العدل والإحسان، والصلاح والتقوى .. إذْ إن أيّها قانون أو تشريع لا يحقق غايته المتوخاة إلا إذا كان القائم بتنفيذه رجلاً يخشى الله ، ويتحرى العدل والنصفة في واقع الأمر ، وأما إذا لم يكن الحال كذلك ؛ فإن الخير والصلاح الحقيقي لا يزال بعيد المنال رغم التنفيذ الظاهري لبنود القانون .

إن المجتمع لا يمكن إصلاحه على صعيد الواقع ، إلا إذا كان فاعل السوء يحذر من فعل السوء إحساساً برقابة الله المباشرة عليه ، وعلماً بأنه لن يتمكن أبدا من الإفلات من بطشه وعقابه بعد ارتكاب السيئة ، وإذا كان فاعل الخير يفعل الخير غير طامح أو متطلع إلى استحسان الناس أو مكافأتهم إياه على ذلك ، علماً بأن الله بصير بكل شيء ، وأنه تعالى سوف يجزيه على أحسن أعماله أوفر الجزاء .

إن مخافة النار تردع المرء عن ممارسة الظلم والعدوان ، بينما رجاء الجنة يحفظه على احتمال تلك الخسائر والمحن التي لابد من مواجهتها في طريق الحياة المستقيمة القائمة على الحق والعدل بصدرٍ رحيب .

إن الحرص هو العامل الرئيسي الذي يبعث دائماً على الاختلاف والتنازع بين الزوجين أو بين غيرهما من الناس.. حيث يرغب أحد الطرفين في استيفاء حقوقه ومطالبه هو بغير نظر إلى مطالب وحقوق الطرف الآخر ، وهذه العقلية الضيقة تجعل كلاً من الطرفين لا يطمئن نحو الآخر ، بينما المزاج الصحيح المطلوب هو أن يأخذ كل واحد من الطرفين أعذار الطرف الآخر بعين الاعتبار ، ويحاولا التوصل إلى تسوية معقولةٍ تتضمن رعاية المصالح المتبادلة بينهما .

وكما أن الله تعالى قد طالب الناس جميعاً بأن يراعي بعضهم بعضاً ، ويحسن بعضهم إلى بعض ، فإن الله كذلك يتفضل على عباده بالمراعاة والإحسان إليهم إلى حدٍ أقصى ما يكون ، ومن ثم فلا يؤاخذ الله المرء على ضعفه أو نقائصه الفطرية التي هو مجبول عليها ، بل إنما يؤاخذه على العناد والطغيان ، ذلك الذي يمارسه عن عمد وإرادة وإصرارٍ ، وإذا كان المرء يخشى الله ، وكان قلبه منطوياً على نوازع الخير والإصلاح ، فكل ما سيفعله بحسن نية سيُعتبر عند الله أهلاً للعفو والصفح.

هذا ، وبالإضافة إلى ذلك ، ينبغي للمرء ألا يقع أبدا في سوء فهمٍ عن نفسه فيظن أنه عليه مدار أمر غيره ، وهو القائم بتغطية حاجاته .. كلاً ، بل الله جل شأنه هو وحده المتكفل بقضاء الحاجات لكل أحدٍ ، سواءً أكان محاطاً ، في ظاهر أمره ، بظروفٍ وملابساتٍ من نوعٍ أو آخر.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤) ﴾

وَكِيلاً: شهيدا أو دافعا ومجيرا أو قيما .

لا يوفق المرء لاختيار الحياة الصالحة الرشيدة - المطلوب اختيارها هي بالذات في هذه الدنيا - إلا إذا كان قد صار إنساناً ربانياً من داخله ، فالظفر بالله كخالق هذا الكون ومالكه ، والخوف من الله وحده ، وصدق التوكل عليه تعالى وحده كذلك ، وتركيز الاهتمام والتوجه كلياً على الآخرة ، باعتبارها الغاية والهدف الأصلي ، تلك هي الأشياء التي تؤهل أحد الناس لكيما يمارس في هذه الدنيا الحياة الصالحة المطلوبة عند الله تعالى ، والموصلة بصاحبها إلى النجاح والسعادة في عالم الآخرة ، ومن هنا ظل التأكيد في رسالات الأنبياء بأجمعهم ينصب دائماً على هذه المعاني والقيم ، أكثر من أي شيء آخر سواها.

ربما أن هذه الدنيا الحاضرة – التي نعيش فيها – هي موضع الابتلاء والتمحيص .. حيث تُجرى عملية الفحص والاختبار على كل الناس لكي يتميز الصالح منهم عن الطالح ؛ لذا فقد تم إيجاد الدنيا الحاضرة على نحوٍ يضمن للمرء حرية التصرف والممارسة لأي عمل شاء .. حتى إنه أتيحت له الفرصة لكيما يطلق على «أسوده» عنوان «الأبيض» . ويصف «هدمه وتخريبه» بوصف «البناء والتعمير» ويسمي تعطله وبطالته باسم العمل ، كما يمكن هنا أن يكون شخص غارقاً فعلاً في السيئات ، غير أنه يعبر عنها بألفاظٍ وعبارات جميلة رائعةٍ تريك وكأنها حسنات !! ومن الممكن هنا أن ينكر المرء حقا واضحاً مكشوفاً ، ويبحث – مع ذلك – عن تفسير جميل يبرر إنكاره لذلك الحق الصريح ، ومن الممكن هنا أن يكون حب الجاه العريض ، وطلب المحمدة والشهرة الواسعة ، واستجلاب المنافع المادية الوفيرة ، وتحقيق المصالح الذاتية ، مما يشكل محاور رئيسية تدور حولها حياة المرء العملية ، ولكنه – بالرغم من ذلك – يحالفه التوفيق لإقناع الآخرين – زيفاً وخداعاً – بأنه إنما ينشط ويكرس جهوده وطاقاته كلها من أجل الحق والحق وحده!! ومن الممكن هنا ألا يزال المرء مستمراً في ازدهار ورقي دائبين في الدنيا مع كونه قد اتخذ من دين الله وسيلةً للحصول على مآربه وأغراضه المادية الهابطة .. ومن الممكن هنا أن يتجاوز المرء دائرة الحلال والمباحات ، ويتكسب من الطرق المحرمة واللاشرعية ؛ وأن يتبنى سياسة الظلم والعدوان ، بدلاً من التقيد بمبدأ العدل والنصفة ، وهو – على ذلك كله – يبقى حراً طليقاً يسرح ويمرح دون مؤاخذة على تجاوزاته وتصرفاته المنحرفة أو وضع حدٍ لها على أقل تقدير !! في كل هذه المواقف الحياتية المختلفة يجد المرء ، نفسه أمام مفترق طريقين ؛ وبإمكانه أن يتجه إلى أيهما أحب ؛ أحدهما : طريق الحق والصدق والعدل، وأما الثاني : فهو طريق الباطل والظلم والعدوان!.

والحقيقة هي أن المهم ، بشأن الأحكام الدينية كلها ، هو ما إذا كان المرء يتقي الله ويخشاه حقاً أم لا؟ إذْ إن الخشية الإلهية إنما هي العامل الوحيد الذي يؤهله لممارسة حياة ملؤها الانضباط والشعور بالمسئولية .. وأما لو انعدمت خشية الله هذه ، فأي شيء سيمنع أحداً من الناس إذًا من الانسياق وراء الباطل في عالم يمكن فيه بيان الباطل هو الآخر بمصطلحات الحق ! وحيث الفرص متاحة لإحراز أرفع درجات الرقي ، واحتلال المناصب العليا ، والوصول إلى قمة المجد والشرف ، حتى عن طريق الظلم والتعدي هو الآخر!! وحيث من

السهولة بمكان أن يحصل كل ظالم على كلمات جميلة وعبارات شيقة رائعة لإخفاء ظلمه وتبرير عدوانه !!!

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾

أَن تَعْدِلُوا: كراهة العدول عن الحق.

تَلْوُوا: تحرفوا في الشهادة .

تُعْرِضُوا: تتركوا إقامتها رأسا .

من الظواهر التي يتكرر حدوثها مرةً بعد أخرى في الحياة الاجتماعية ، أن المرء يواجه قضيةً يمكن اتخاذ موقفين متقابلين منها ، أحدهما الموقف التابع لهوى النفس والمنفعة الذاتية ، والثاني هو موقف الحق والعدل ، فالغافلون عن الله ، والذين يعوزهم اليقين القائل بأن الله رقيب عليهم ، ناظر إليهم كل حين وآنٍ ، يندفعون في مثل هذه المناسبات وراء رغباتهم وأهوائهم ؛ إذ إنهم يرون النجاح كله كامناً في عدم الاكتراث للحق ، وتسوية القضية على وجهٍ يتفق ومصالحهم ومنافعهم الذاتية .

وأما الذين يخشون الله ، والذين قد اتخذوا من الله حارساً ورقيباً عليهم ، فإنهم يركزون أنظارهم على جانب الحق وحده ، ولا يفعلون شيئاً سوى ما يتفق مع مقتضى الحق والعدل ، وإنهم يحاولون دائماً ألا يأتيهم الموت إلا وهم قائمون ملتزمون فعلاً بمبدأ القسط والعدل على الوجه الأكمل ، غير ظالمين أحداً من الناس أو معتدين على حقٍ من حقوقه المشروعة .

ويشتد ميْلهم إلى إقامة العدل إلى حدٍ يصير معه من المتعذر عليهم أن يتحملوا أو يصبروا على أي سلوك عدواني منحرفٍ عن خط العدل والنصفة ، ومن هنا فإذا ما رأوا شخصاً يظلم غيره ويهضم حقه فلا يسعهم إلا أن يتقدموا بإعلان الحق ونصرة صاحبه كائناً من كان ، وإنهم يشهدون بالحق دائماً ويقومون بإعلان العدل حتى ولو كان ذلك يمس مصالحهم

الذاتية ، أو باعثًا على ضرر يلحق بأهليهم وأقاربهم الأدنين .. فإن ألسنتهم ؛ إذْ تنطلق فإنما هي تنطلق من أجل الله ولابتغاء مرضاته وحده ، وليس من أجل أي شيء آخر سواه!

وإن المؤمن هو الذي يعامل كل أحدٍ معاملةً عادلة سواءً أكان ضعيفاً أم قوياً .. وأما المحاباة أو التحيز لبعض الناس دون بعض فيما يتصل بدافع الحق إلى صاحبه ، نظراً لقوة أحد الخصوم وغناه أو لضعف الآخر وفقره ، فذلك مسلك مرفوض لا يتفق وشأن المؤمن الصادق والإيمان .

وعندما ينصر المرء الظالم على ظلمه ، فهو لا يفعل ذلك مدعياً على رؤوس الأشهاد أني أذهب لنصرة الظالم، بل يحاول إضفاء صبغة العدل على ما يقوم به من ظلم وعدوانه، وفي مناسبة كهذه يسلك كل شخص أحد طريقين لا ثالث لهما : فإما أن يلجأ إلى تغيير الواقع أو بالأحرى تزوير الحقيقة بحيث إنه يدلي ببيانه عن نوعية القضية تحت النظر بكلماتٍ تُريك وكأنها ليست بقية الظلم والعدوان ، بل هي قضية كلها العدل والنصفة ، وبالتالي فإن الطرف الآخر المزعوم كونه مظلوماً معتدىً عليه هو جدير كل الجدارة بأن يُعامل هذه المعاملة بالذات !!

والطريق الثاني – للتعاون مع الظالم – هو اللياذ بالصمت والسكوت ، أي أن يتنكب المرء عن شهادة الحق وبيان الواقع كما هو ، رغم كونه عارفاً به عن كثب ، ورغم كونه شاهد الظلم والعدوان يُمارس على أحدٍ علناً وجهاراً أمام عينيه ، وهذا نوع من السلوك ، إن دل على شيء فإنما يدل على أن المرء لا يحسب الله حارساً ورقيباً على نفسه!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ

أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

العِزَّةَ: المنعة والقوة والنصر .

مثل قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أن تقول :«يا أيها المسلمون أسلموا» إن قول المرء عن نفسه بأنه مسلم أو اعتباره نفسه مسلماً ليس بكافٍ لكيما يتم اعتباره مسلماً عند الله عز وجل إذْ لا ولن يعتبر عند الله مسلماً إلا شخص يظفر بالله بحيث يصير هو بالذات موضع ثقته واعتماده ومصدر يقينه وطمأنينته ؛ والذي يؤمن بالرسول على نحوٍ يفقد معه كل توجيه من غير الرسول قيمته ومغزاه في نظره .. والذى يخلص فى إيمانه بالكتاب السماوى لدرجة أن تفكيره وعواطفه كلاهما ينصهر فى بوتقته وينطبع بطابعه ، والذي ينفذ الاعتقاد فى الملائكة إلى أعماق قلبه إلى حدٍ أخذ يشعر معه وكأنه ثمة حراساً إلهيين واقفون دوماً عن يمينه وعن شماله يرصدون كل حركاته وسكناته ، والذي يقر بالآخرة إقراراً صادقاً عميقاً يدفعه إلى أن يبدأ بقياس كل ما يصدر عنه من قولٍ وفعل بميزان الآخرة ... وإن الشخص الذي يؤمن على هذا النحو ، إنما هو وحده على ذلك الطريق القويم الذي يعتبر عند الله طريق الهداية الصحيحة ، المفضي بسالكه إلى النجاح والسعادة الأبدية ، وأما الشخص الذي لم يؤمن على هذا النحو، فهو إنسان ضال منحرف، مهما كان ظنه بنفسه أنه مؤمن ومسلم بأوسع وأعمق معاني الكلمة !!

وهذا الصراع بين الإيمان والكفر لا يزال جارياً دون انقطاعٍ في كل حين وفي كل طورٍ من أطوار حياة المرء العملية ، حيث إن المرء إذا ما واجه قضية من القضايا ، انعطف ذهنه تلقائياً في أحد اتجاهين: إما إلى الأهواء النفسانية ، وإما إلى الوفاء بمقتضيات الحق ، فلو أن المرء قام بتوجيه فكره وعواطفه نحو رغباته وأهواء نفسه ، وحدّد على وحي منها موقفه العملي بإزاء القضية المطروحة ، فكأنما انسلخ المؤمن عن إيمانه وكفر به، وعلى العكس من ذلك فلو أن المرء أخضع تفكيره ، وعواطفه للحق فكأنما آمن المؤمن أو جدد إيمانه ثانياً .

فالمرء يدخل في معترك الحياة الدنيا كمسلمٍ ، ثم هو يمر بعد ذلك بمرحلة يرى فيها الحق ماثلاً أمام عينيه، فمن الناس مَنْ يأخذ نفسه في مناسبة كهذه ، بالتواضع ، وبالتالي يعترف

بالحق ويُذعن له على الفور ، ومن الناس مَنْ تستيقظ في داخله نفسيات الكبر والعناد السلبية فيرفض الحق رفضاً باتاً، فالمشهد الأول هو مشهد الإيمان وتجديده.. والمشهد الثاني هو مشهد الكفر بالإيمان أو الانسلاخ عنه.

وإن الشخص الذي لا يكون مؤمناً صادقاً في إيمانه ، يكون - بالطبع - مولعاً بالوجاهة والعزة الدنيوية، ولذا فإنه لا يلبث أن يميل إلى الذين يتسبب انتسابه إليهم وموالاته إياهم في زيادة عزته وإعلاء منزلته بين الناس ، ولو كان أولئك على الباطل، بينما لا يعود لديه رغبة إلى موالاة أولئك الذين لا يزيده انتسابه إليهم عزةً وتوطد مكانةٍ وعلو منزلةٍ بين الناس ، ولو كان الأخيرون أصحاب الحق .

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾

يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ: ينتظرون بكم ما يحدث لكم .

فَتْحٌ: نصر وظفر وغنيمة .

أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ: ألم نغلبكم فأبقينا عليكم .

حينما تقوم الدعوة إلى الله في أية مجموعة بشرية ، فإنها تكون قائمة على دعائم راسخة متينة لا يمكن معها لأحدٍ أن يدحضها أو يعارضها بواسطة دليل معقولٍ ، ومن ثم فإن الذين لا يريدون الإيمان بها يلجؤون إلى سياسة الاستخفاف بشأنها ، بدلاً من مناقشتها بأسلوب علمي رزين بحثاً عن وجه الحق والصواب ، وذلك دين يوحي بأن أصحابه لا يأخذون أمر الحق على محمل الجد ، وإذا لم يكن المرء جاداً ، فإن الخوض معه في حوار أو نقاش لا يجدي

بشيء .. ولذا فإن الموقف الصحيح الذي يجدر بك أن تتخذه هو الإعراض عنهم واللياذ بالصمت ، حتى يتغير موضوع الحديث ، ويسود الجو هدوء يسمح لمخاطبيك بالإصغاء إلى ما تدلي به من حديث أو رأي ، وإن جلوس المرء في مجلس يستهزأ فيه بالدعوة إلى الله إنما يكشف عن عدم غيرة على الحق !

والمنافق لا يكترث بما ينبغي وما لا ينبغي له من حيث المبدأ ، بل يُقبل على ما يراه جالباً للمنفعة ، فيربط نفسه بمجموعةٍ تحقق مصالحه وطموحاته الدنيوية ، سواءً أكانت مجموعة المؤمنين أم غير المؤمنين ، وتجده في كل مجلس يغشاه لا يتحدث فيه إلى الحضور إلا بما يسرهم ويحلو لهم ، وأما لو اضطر يوماً إلى الانضمام إلى مسيرة أهل الإيمان الصادقين، بناءً على بعض المصالح ، فإنه لا يريد لهم الخير والنصيحة من صميم قلبه ، لأن وجود أهل الإيمان الصادقين في مجتمعٍ بمثابة مقياس أو معيار للحق والصدق، فيجعل المنافقين المتسترين وراء التدين الظاهري يودون أن تتحطم تلك المعايير التي تكشف القناع عن تدينهم الزائف المدخول ، غير أن المضمرين شراً لأهل الإيمان المتربصين بهم دوائر السوء ، مهما قاموا وقعدوا ، لا يستطيعون النيل منهم إلا في هذه الدنيا فحسب ، ولن يتمكنوا من أن يفعلوا شيئاً ضدهم في الدار الآخرة .

والمنافق هو الذي يتراءى بالتدين في ظاهر أمره ، ولكنه بعيد عن الدين كل البعد من الداخل ، وكون مصير المنافق والكافر مصيراً واحداً مماثلاً في حجمه ونوعه ، مما يدل دلالةً واضحةً على أنه لا فرق عند الله بين التدين السطحي الخارجي وبين اللادينية المكشوفة الصارخة ؛ ذاك لأن الاثنين ؛ مهما اختلفا على مستوى الشكل والظاهر ، إلا أن كليهما متحد كل الاتحاد على مستوى المضمون والباطن ، وإنما العبرة عند الله بالبواطن دون الأشكال والظواهر.

﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ

مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ
وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا
 ﴾

مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ : مرددين بين الكفر والإيمان .

سُلْطَاناً مُّبِيناً: حجة ظاهرة في العذاب .

الدَّرْكِ الأَسْفَلِ: الطبق الذي في قعر جهنم .

إن الذين لا يسلمون أنفسهم إلى الله ، يكونون خاضعين مستسلمين لمنافعهم الدنيوية، ويوالون كل شخصٍ ترتبط به أية منفعة دنيوية ، سواءً أكان ذلك إنساناً متديناً أم غير متدين ، ومع أنهم يُظهرون الإسلام بألسنتهم ، ويقومون بأداء بعض شكليات الأعمال الإسلامية ، غير أن عملهم لا يبتغي وجه الله تعالى ، بل لمجرد أن يحسبهم الناس «مسلمين»، إذْ إن دينهم الأصلي الذي يؤمنون به من صميم قلوبهم هو الانتهازية والمنفعية ، إلا أنهم يحاولون التظاهر أمام الناس بمظهر العابدين المخلصين دينهم لله .

وإن أمثال هؤلاء ، باتخاذهم ذلك الموقف المزدوج ، كأنما يخادعون الله ، فيرغبون في ضم أنفسهم إلى زمرة الربانيين ، مع كونهم مقطوعي الصلة بالله ، ولا يرضون بالتخلي عن منافعهم المادية ، رغم معرفتهم بأن الإسلام هو الدين الحق ، مما يجعلهم يبقون حيارى مترددين بين عقيدتهم ومنافعهم ؛ فلا يستطيعون تركيز اهتمامهم على هذه ولا على هذه ، أولئك أناس محرومون من نصرة الله ؛ لأن النصرة الإلهية تستلزم الثبات والاستقامة على سبيل الله ، وهذا لا يتوفر لدى الانتهازيين النفعيين !

وعندما يكون المؤمنون بالحق والمنكرون للحق قد تم الفصل والتمييز الفعلي بينهما ، فإن التقدم بموالاة المنكرين للحق يعني أن نجعل لله حجة ضد أنفسنا ، فإن ذلك دليل بيِّن على استحقاق أحد الناس للعقوبة ، وإن هؤلاء ، ومن نحا نحوهم - يستطيعون الانفلات من

مؤاخذة الله وعقابه الشديد بناءً على أعمالهم التي كانوا يمارسونها رئاء الناس ، فإنهم رغم تظاهرهم بمظهر الإسلام الشكلي ، كانوا بعيدين عن الإسلام ، لذا فإن مصيرهم سيتم تحديده وفقاً لحقيقتهم الداخلية ، وليس وفقاً لظواهرهم الخارجية!

غير أن الله جل شأنه لا يصبح عدواً لأحد من أجل ضلاله وانحرافه عن الطريق السوي ، فلو أن الضالين المنحرفين من الناس شعروا بالندم على سبق ذنوبهم ، فغيَّروا مجرى حياتهم للاتجاه الصحيح ، وركزوا اهتماماتهم كلها على الله وحده ، منصرفين عن كل الجهات الأخرى سواه ، وأخذوا في السير على طريق الدين القويم بصدقٍ وإخلاص واستقامةٍ ، فإن الله سيعفو عنهم ويغفر لهم ذنوبهم كلها .

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٥٢) يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا (١٥٣) ﴾

جَهْرَةً: عيانا بالبصر .

الصَّاعِقَةُ: نار من السماء أو صيحة منها .

إن من أبغض الأمور إلى الله عز وجل أن يشهر بعيب أو فضيحة دينية أو دنيوية إذا كانت تُوجد في أحد الناس ، ولكل إنسان الحق في إسداء النصح والموعظة لغيره ، غير أن النصيحة

لابد وأن تكون في عزلة ، فلا يطلع عليها أحد سوى الناصح والمنصوح له أو أن تكون بأسلوب عمومي بدون التصريح باسم الشخص الموجه إليه الخطاب ، إن الله تبارك وتعالى لا يزال يتجاوز عن جرائم الناس وفضائحهم ليل نهار ، إذن فيجب على العباد أن يتحلّوْا بهذا الخلق الإلهي الكريم ، وأما إذا كان هناك شخص يمارس عليه الظلم والعدوان من أحدٍ ، فقد أرخص له أن يعدد أمام الناس مساوئ الظالم واعتداءاته ، ولكن المظلوم لو أخذ نفسه بالصبر ، وعفا عن الظالم ، لكان خيراً له؛ لأنه يُبين من خلال موقفه ذاك أنه أشد اهتماماً بخسارة الآخرة منه بخسارة الدنيا ؛ فإن الشخص الذي يُبتلى بحزن عظيم تتضاءل في نظره تلقائياً أحزان العادية الأخرى ، وهكذا يكون حال الشخص الذي استولى عليه الإحساس الشديد بأهوال يوم القيامة القادم الفظيع !!

ولقد كان أهل مكة يؤمنون بنبوة سيدنا إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – كما كان اليهود يصدقون بنبوة موسى ﷺ ، والنصارى مؤمنين بنبوة عيسى ﷺ ، غير أن هؤلاء جميعاً رفضوا الاعتراف بنبوة النبي العربي ﷺ ، فكل واحد من هؤلاء كان مستعداً للإيمان بأنبياء العهد الماضى ، إلا أنه لم يؤمن بنبى عصره ، فى حين أن جميع الأنبياء الذين آمنوا بهم فعلاً تعرضوا فى أزمانهم للمعارضة العنيفة ورد فعل مضاد ، تماماً كما قد تعرض لذلك النبى العربى فى زمانه !!

إن محاولة التفريق في الإيمان بين الرسل محاولة تهدف إلى اتخاذ طريق وسط بين اتباع الحق واتباع النفس، حتى يتمكن المرء من الوصول إلى الجنة ، من غير أن يصاب بنيان رغباته بالتحطم والانهيار ! ، وكل ما في الأمر أن نبوة العهد الماضي تكون نبوةً مسلم بها بلا نزاعٍ ، بينما الإيمان بنبي العصر يضْطر المرء إلى القيام بمسيرة فكرية جديدة .

إن نبوة العهد الماضي تتحول إلى جزء لا يتجزأ من ذهن المؤمن منذ ولادته ، ولكن نبي العصر يكون شخصاً متنازعاً فيه ، وهو لذلك لا يعدو في نظر معاصريه أن يكون مجرد «بشر» مثلهم ، ولذا فإن الإيمان به يتطلب حتماً أن يقوم المرء بمسيرة فكرية جديدة ، أو أن يُدرك أنّ الله ربه من جديد على مستوى الوعي والشعور، والتسليم بنبي العهد الماضي يعتمد على الإيمان التقليدي ، وأما التسليم بنبي العصر ، فيستمد عناصره من الإيمان الإرادي

الواعي، المطلوب عند الله تعالى الإيمان الإرادي ، وليس الإيمان التقليدي .

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴾

لاَ تَعْدُوا فِي السَّبْتِ: لا تعتدوا باصطياد الحيتان فيه .

مِّيثَاقاً غَلِيظاً: عهدا وثيقا بطاعة الله .

إن رسول الله ﷺ إنسان كغيره من بني البشر ، وإنه إذْ يظهر أمام الناس ، فيظهر في صورة رجلٍ عادي ، مما يجعل الناس يتساءلون بدهشة واستغراب ، كيف يعترفون برجلٍ عادي كأحدٍ منهم باعتباره «مندوباً إلهياً» ، وكيف يوقنون بأن الشخص الذي جاء يتحدث إليهم مبعوث للتبليغ عن الله جل شأنه؟ ومن ثم يتوجهون إليه قائلين : إننا لن نؤمن بك إلا إذا رأينا كلامك ، هذا الذي تعرض علينا ، نازلاً من السماء ، أمام أعيننا ، أو ينزل الله من أجل تأييدك والتصديق بصحة نبوتك !!

غير أن مطالبةً من هذا النوع مطالبة غير جادة للغاية ؛ لأن امتحان الإنسان الأصلي في أن يؤمن بالغيب ، وأن يدرك الحقائق في شكلها المعنوي ، إذن فأية فائدة سترجى من وراء إيمانٍ يجبر عليه المرء بعد أن أتيحت له الفرصة لمشاهدة حقائق الغيب عياناً ؟! ثم إنه لو تم تغيير نظام الكون لفترة محدودة من الزمن، وأتيح للمرء أن يشاهد كل تلك الأشياء الغيبية التي طالب بإراءتها إياه ، لذهب ذلك سدىً ودون جدوى ، وذلك لأن فرصة المشاهدة العيانية تكون مؤقتةً وليست بدائمةٍ ، وأما حرية الإنسان التي تجرّه إلى البغي والعناد، فباقية ؛ الأمر الذي سيكشف عنه اندفاعه إلى الإيمان والتسليم عند المشاهدة ، ولكنه لا يلبث بعد ذلك حتى يعود إلى سيرته الأولى ، حيث سيأخذ ثانيةً في إساءة استخدام حريته كما كان يفعل من

قبل المشاهدة ، وأنموذج اليهود يمثل إثباتاً تاريخياً لهذه الحقيقة !

فقد شهد سفح جبل الطور ظروفاً غير عادية وأحداثاً خارقةً للعادة ، كان قد أوجدها الله تعالى إذْ أخذ من اليهود عهداً بأن يدخلوا الباب ، وأن يعبدوا الله بخشوعٍ وإخلاص ، وأن تكون كل جهودهم من أجل كسب المعاش منحصرةً في دائرة الحدود الإلهية المرسومة ، دون أن تتجاوزها إلى ما ورائها ، ولكن اليهود لم يلبثوا أن نقضوا كل العهود والمواثيق من هذا النوع ، ولم يلتزموا بأي واحدٍ منها .

وقوله: ((وآتينا موسى سلطاناً مبيناً)) يشير إلى سنة إلهية تشتمل كل أنبياء الله ورسله بدون استثناء، فالرسول رغم كونه رجلاً عادياً إلا أن كلامه وأحوال حياته يتضمنان أدلة واضحة صارخة تبرهن على حيثيته واعتباره الإلهي بصورة لا تقبل الجدال، غير أن الإنسان الظلوم لا يلبث أن يصل إلى تفسير مزعومٍ لكل آية إلهية،يسمح له برفضها رفضاً باتاً،وبالتالي الاستمرار في ممارسة حياة البغي والطغيان كسابق عادته .

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾

قُلُوبُنَا غُلْفٌ: مغشاة بأغطية خلقية فلا تعي .

طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا: ختم عليها فحجبها عن العلم .

بُهْتَاناً عَظِيماً: كذبا وباطلا فاحشا.

شُبِّهَ لَهُمْ: ألقى على المقتول شبه عيسى .

والهداية السماوية التي أنزلت على اليهود فحواها أنهم لو اتبعوا مرضاة الله في الحياة الدنيا ، فسوف يعطيهم الله الجنة في الآخرة ، ولكنهم لم يلبثوا أن نسوا الجزء الأول من هذه الهداية ، بينما اعتبروا الجزء الثاني منها حقاً طبيعياً لهم ، وبعبارة أخرى ظنوا أنفسهم مستحقين للثمار والنتائج بدون تحمل للمتاعب ولا اعتبار للمقدمات !!

ومع أن اليهود ، على امتداد تاريخهم الطويل ، أصيبوا بكل أنواع الفساد والانحراف، إلا أن يقينهم القائل بحتمية نجاتهم مازال قوياً راسخاً ، وزعموا أنهم في غنىً عن كل هداية سماوية ، فلم يعودوا بحاجة إلى الإيمان بأي نبي جديد!!

وقالوا على سبل التهكم والسخرية : ((قلوبنا غلف)) ، أي في غلاف وغطاء ، ولم يكن قولهم ذاك إظهاراً لعدم استعدادهم الداخلي للإيمان بالرسول ، بل إظهارًا وتأكيدًا على قناعتهم بأن نجاتهم حتمية لا يتطرق إليها الشك ، مهما كان سلوكهم وأسلوب تعاملهم مع الرسول!!

ومثل هذه القناعة الزائفة تجعل أصحابها يجترئون على ارتكاب كل أنواع الجرائم بلا وازع ولا شعور بوخز الضمير ، فلا يصعب عليهم أن ينقضوا الميثاق الإلهي الذي يترتب على الإيمان بالله ، ويقتضي الالتزام والوفاء العملي به ، كما يرفضون الاعتراف بآيات الله رغم كونها واضحةً وضوح الشمس ، لا يتحرجون من اتخاذ الخطوات العدوانية ضد الدعاة إلى الحق ، الذين يرفعون القناع عن وجوههم الحقيقية، وينتقدون حياتهم المنحرفة عن خط العبودية الإلهية، ولا يتورعون عن إهانة الداعي وتشويه سمعته من خلال إلصاق التهم الكاذبة به !!

وقد أقدم اليهود على قتل سيدنا المسيح - عليه الصلاة والسلام - ، ثم قالوا بعد ذلك في نشوةٍ من الزهور والتبجح بالباطل : ((لقد قتلنا المسيح عيسى ابن مريم ، هذا الذي كان يدعي أنه رسول الله)) غير أن أمثال هؤلاء ، مهما دبّروا ضد الدعاة إلى الله من مؤامرات شيطانية ، لن يكتب لها النجاح أبداً ، فإن قوة الله ونظامه الكوني الحكيم يكونان دوماً وراء دعاة الحق ؛ مما يتيح لهم فرصة الاستمرار في أداء واجبهم ، واستكمال مسيرتهم رغم كل المؤامرات والمعاكسات التي يمارسها أعداؤهم .

والذين يقفون من الحق موقف العناد والاستكبار ، يسلبهم الله تعالى الاستعداد لقبول الحق ، فلا يزالون يمارسون نشاطاتهم المعادية للحق وأصحابه ، إلى أن يقبض الملائكة أرواحهم كمجرمين ويحضروهم في محكمة الله للحساب الشديد !

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾

وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ: وأمدح المقيمين لها .

وَالأَسْبَاطِ: أولاد يعقوب عليه السلام.

زَبُورًا: كتابا فيه مواعظ وحكم.

رُوِيَ عن عكرمة أنه قال : «لا يموت النصراني ولا اليهودي حتى يؤمن بمحمدٍ ﷺ» (١).

لقد كان اليهود والنصارى حملة العلم السماوي ، مما لم يكن معه من المحتمل وقوع أمثالهم في الخطأ في إدراك أن دعوة النبي العربي ﷺ دعوة إلهية خالصة بلا ريب ، غير أن الإيمان بالنبي العربي وبذل المال والنفس دعماً لمسيرته ، كان يتعارض مع مصالحهم الدنيوية ، لذا فلم يلبث هؤلاء أن رفضوا التأييد والانضواء تحت لوائه .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الأول ، ص٤٥٨.

ولكن المرء عندما ينفد عمره ، ويرى الموت ماثلاً أمام عينيه ، تغدو كل المصالح الهابطة من هذا النوع باطلة وغير ذات قيمةٍ أو أهمية تذكر في نظره .. وحينئذٍ تنزاح كل الأستار والأغطية الاصطناعية عن ذهنه ، ويتجلى الحق في صورته المجرة المكشوفة ، فيعترف المرء وهو على حافة الموت ، بالشيء الذى لم يكن مستعداً للاعتراف به قبل مواجهة الموت ، غير أن الاعتراف فى تلك اللحظة لا قيمة له عند الله تعالى .

وعندما تختار أية طائفة ديانةً مزعومةً مزيفة بدلاً من الدين الإلهى الحق ؛ فإنها تتخذ أيضاً بعض العلامات أو الشارات الاصطناعية للدلالة على اعتبارها الدينى ، ومن ذلك أنها تلجأ إلى وضع قواعد جديدة للحلال والحرام وفقاً لما يسمح به مزاجها وظروفها العملية ، وهي تريد من خلال اهتمامها بتلك القواعد الجديدة اهتماماً خصوصياً أن تثبت أنها أكثر تديناً من الآخرين سواها !! ، فالدين ، لدى أمثال هؤلاء، يكون عبارة عن الاهتمام ببعض الرسميات أو الأمور الشكلية ، دون الخضوع الكلي والطاعة المطلقة لله عزل وجل، ومن أجل ذلك فهم لا يحذرون من إحراز المكاسب الدنيوية بالوسائل الدنيئة التي حرمها الله تعالى، ولا من زرع العراقيل والعقبات فى طريق المسيرة الإلهية، وإن مصير أمثال هؤلاء الناس سيكون عند الله مع غير المتدينين وليس مع المتدينين !

وما آمن برسول الله ﷺ من اليهود ولاقام بنصرته وتأييده سوى أفراد معدودين مثل عبد الله بن سلام وجماعته ، والحقيقة هي أن العارفين بالدين السماوي الأصيل ، متجاوزون عن الإضافات البشرية المتراكمة عليه عبر العصور ، وهم متحررون من قيود العصبية ، والتقليد الأعمى ، والنزعة المادية النفعية البحتة ، لا يقف شيء أبداً دون تفهمهم للحق ، ولا تستخيرهم أنفسهم في سبيل خدمته ، فإنهم ينظرون إلى الحق ويتلقونه بالقبول بدون أي تحفظ ذهنى ، وأولئك هم الذين سيدخلون في جنات الفردوس .

﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ

نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾

لقد خلق الله الإنسان ، ثم جعل الجنة والجحيم ، وأسكن الإنسان بعد ذلك على ظهر الأرض ، مانحاً له حرية الإرادة والتصرف .. غير أن حرية الإنسان هذه مؤقتة محدودة ، والغرَض منها هو الامتحان ، حتى يتم الفرز أو التمييز بين الصالح والطالح من بني آدم ، فالله تعالى ينظر مَنْ الذي يختار الاتجاه الواقعي في حياته ، فيتخذ من نفسه عبداً مطيعاً لله ، ومَنْ الذي يسيء استخدام حريته فيثبت أنه إنسان عنيد !!

وهذان الصنفان من البشر كلاهما مختلط في هذه الدنيا ، وكلاهما يتمتع هنا بفرصة الاستمتاع بنعم الله تعالى على حد سواء ، ولكن ما إن تنتهي فترة الامتحان المحددة حتى يتم الفصل بين كلا الصنفين ، ويتم – في النهاية – توطين الصنف الأول – الصالح – في حدائق الجنة بصفةٍ أبدية ، وإلقاء الصنف الأخير – الطالح – في نار جهنم .

إن مشروع الله المتصل بالحياة الدنيا هذا ، يشكل خطورةً كبيرةً للإنسان ، إذْ إن ذلك يعني أن مصير حياة الدنيا القصيرة المحدودة سيظهر في شكلين نهائيين لا ثالث لهما : إما سعادة أبدية ، وإما شقاوة أبدية ، ومن ثم فقد أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب ، علاوة على تهيئة أسباب فطرية أخرى لهداية البشرية وتوجيهها نحو طريق النجاح والسعادة ، حتى لا يبقى على الأرض أحد غير مطلع على حقيقة الحياة وغايتها ، وبالتالي لا يتمكن في يوم الحساب من الاعتذار قائلاً بأنه لم يكن لديه أي إلمام بالمشروع الإلهي لكي يمارس حياته العملية طبقاً لمقتضياته ، والمهم اللازم لمشروع الله هذا ، أن تكون رسالة جميع الأنبياء والغاية الرئيسية التي بُعثوا من أجلها واحدة .. فلما كان البشر كلهم واقفين على محك لامتحان واحد ، فكيف يُحتمل إذن أن تختلف «ورقة الامتحان» لبعضهم عن البعض ، والحقيقة هي أن رسالة الأنبياء كافةً لم تكن إلا واحدةً على اختلاف الأعصار والأمصار ، وأنهم قاموا بإبلاغ نفس هذه الرسالة الواحدة إلى البشرية جمعاء ، والتي تتلخص في أن كل إنسان على مفترق طريقين لا ثالث لهما ، أحدهما يؤدي الجنة ، والآخر يؤدي إلى جهنم ، والمسئولية تقع على عاتقه هو أن

يتجه إلى أيهما شاء !!

لقد كانت دعوة الأنبياء والرسل قاطبةً دعوةً واحدةً، غير أن النصرة أو التأييد الإلهي كان يحصل لهم في صورٍ مختلفة باختلاف الظروف والحاجات الزمانية التي عاصرتهم، ولم تزل سنة الله هذه ثابتة اليوم تماماً، فالذين سينهضون اليوم للاضطلاع بالعمل النبوي المتمثل في الإنذار والتبشير، سيكتب لهم التوفيق والتأبيد الإلهي الخصوصي، حسبما تقتضي الظروف والملابسات المحيطة بهم، لتمكينهم من الدأب والاستمرار في تأدية مسئولياتهم الدعوية على نحوٍ مؤثرٍ ومثمرٍ.

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾

إن وضع اليهود، قبيل بعثة رسول الله ﷺ، كان وضع الممثلين للديانة السماوية، حيث إنهم كانوا متربعين على مراكز مناصب دينية عليا، مما جعلهم يستنكفون عن التسليم بالسيادة والعظمة لأحدٍ سواهم، وبالتالي فقد رفضوا الاعتراف بأن محمداً ﷺ مبعوث من عند الله عز وجل لإبلاغ رسالته إلى عباده أجمعين، وكانوا يقولون إننا «محتكر الدين»، لذا فإن رفْضنا التسليم بالصدق الديني لأحد الناس يجعله غير مسلم به على صعيد الواقع هو الآخر، ولكن فاتهم أن هذا الكون هو كون الله، وأن شئونه يقوم بتنظيمها ملائكة الله الطائعون لأمره، إذن فإن التصديق الحقيقي بأحدٍ هنا هو الذي يكون من عند الله، والذي يؤيده نظام هذا الكون بأكمله، ولاشك أن الله وكوْنه كله مع رسوله وليس مع مزاعم باطلة لأحدٍ !

والذين يقابلون صوت الله بالإهمال والرفض له، ويمنعون الآخرين من مناصرته

والوقوف إلى جانبه ، إنما هم يكشفون عن أنهم قد ابتعدوا عن خط العبودية الصحيح المستقيم بمسافةٍ شاسعةٍ جداً ، وأنهم يقولون قولاً يكذبه الكون كله ، وأنهم يتصدون لمجابهة وعرقلة مشروعٍ يدعمه من ورائه رب السموات والأرض !! ومن البدهى أنه ليس هنالك حماقة أعظم من ذلك في هذه الدنيا.

إن أمثال هؤلاء الناس يمارسون أكبر عملٍ غير ديني باسم الدين ! والذين يستحبون لأنفسهم هذا النمط من السلوك الجائر المنحرف ، فإن أذهانهم تتجه تلقائياً صَوب الإنكار بدلاً من الاتجاه نحو الاعتراف مما يجعلهم يبتعدون يوماً فيوماً عن جادة الحق ، حتى ينتهي بهم المسير إلى هوة الهلاك الأبدى! وإن رفض الدعوة الإلهية هو رفض الله بذاته، فإنه عداوة الله تكون دائماً مصحوبة بدلائل واضحة قاطعة لدرجة أنه لا يصعب على أحدٍ فهمها إذا أراد ، إذن فالذين ينكرون دعوة الله على الرغم من ذلك كله ، فكأنما هم يتمردون على الله ، وإن التمرد والعناد هو أكبر جريمة عند الله جل جلاله ! ولو أن المرء كانت نوافذ قلبه مفتوحةً ، لوجد أن الصوت الإلهى هو إجابة عن طلبه الفطرى بعينيه ، ولأدرك أن الحق الذى كان مندمجاً تحت ركام هائل من التقولات والأوهام البشرية ، ها قد هيأ الله أسباب إعلانه بصورته النقية الخالصة ، فبعثة الرسول إذن هى إشعاع لعلم الله وحكمته ، وليست بقضية الاندفاع أو الحماس الذاتى لأحد الناس.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ

وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾

لاَ تَغْلُوا: لا تجاوزوا الحد ولا تفرطوا .

وَكَلِمَتُهُ: وجد بكلمة أم بلا أب ونطفة .

وَرُوحٌ مِّنْهُ: ذو روح من أمر ربه .

لَن يَسْتَنكِفَ: لن يأنف ويترفع ويستكبر .

بُرْهَانٌ: هو محمد ﷺ .

نُوراً مُّبيناً: هو القرآن العظيم.

من مواطن الضعف في الإنسان إذا وجد شيئاً يحمل نوعاً من الامتياز والتفوق من بعض نواحيه فلا يلبث أن يصوغ حوله تصوراً مبالغاً فيه ، ويتجاوز الحد في تعيين قدره ومنزلته .. وذلك هو الغُلوّ وما كل أنواع الشرك وعبادة الأبطال والشخصيات العظام في جورها إلا نتاجاً لنزعة الغلو هذه بالذات !

وأما الغلو في الدين ، فهو يعني محاولة تعظيم لشأن عنصرٍ ما من عناصر الدين من خلال رفعه فوق درجته الحقيقية في هيكل الدين .. وعلى سبيل المثال فإن الاعتقاد في عبدٍ من عباد الله أنه «ابن لله» ، نظراً لأن الله خلقه من غير واسطة أبٍ ، واعتبار شخصٍ ما فوق البشر ، ومعصوماً عن كل الأخطاء والنقائص البشرية ، إذا كان قد أعطاه الله أية منزلة كبيرة ، والمغالاة في التأكيد على ضرورة الاحتراز من زينة الدنيا وزخارفها ، إلى حدٍ يتحول معه الأمر إلى الرهبانية والانصراف الكلي عن ميدان الحياة ، وإحالة بعض الأحكام المتصلة بناحية من نواحي الحياة إلى فلسفة دينية مستقلة بذاتها ، من خلال المبالغة في التركيز عليها ، كل هذا وما شاكله سيندرج في قائمة الغلوّ .

إن جميع أنواع القدرة والطاقة لا يملكها إلا الله تعالى وحده ، وأما ما عداه ومَنْ عداه من بقية الكائنات ، فهو كله عاجز ومقهور ، والشيء الذي يقيض للإنسان أن يكتشفه عقب بلوغ وعيه إلى درجة النضج والكمال ، هو أن الله قادر مطلق ، وهو بإزائه تعالى عاجز مطلق ، وبما أن الملائكة والأنبياء يفوقون سائر المخلوقات سواهم في هذا الوعي ، لذا فإنهم يكونون

كذلك أسبق الخلائق وأسرعهم اعترافاً بعجز أنفسهم وبقدرة الله المطلق .

وفي هذا الاعتراف يكمن امتحان الإنسان الأصلي ، فإن مَنْ وُفِّق للإحساس بعجزه، فقد عرف نسبة ذاته من الذات الإلهية العليا ، ومَنْ لم يُوفق للإحساس بعجزه فقد ظل محروماً من إدراك نسبته من الذات الإلهية ، وأول هذين الشخصين هو البصير الذي يصل إلى منزله بنجاح واقتدار ، وأما الشخص الأخير فهو أعمى ، والذي لا ينتظر له مصير سوى أن يبقى تائهاً يتخبط في ظلام دامس ، إلى أن يقع آخر الأمر في هاوية سحيقة من الخزي والهوان الأبدي.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾

الكَلالَةِ: الميت ، لا ولد له ولا والد .

إن صوت الله حين يرتفع بين مجموعةٍ من البشر ، فإنه يرتفع بشكل واضح جلي يقضي على الظلام السائد ، وينير الحقائق الكامنة . كما وأنه يكون متسلحاً بأدلة وبراهين قاطعة لا تدحض ، بحيث إن الناس إذا كان بإمكانهم أن يستهزئوا به ويسخروا منه ، إلا أنهم لا يستطيعون نقضه وبطله بمنطق الدليل ، والله عز وجل هو الذي إذا أطلع الشمس لتميز النور والظلام تلقائياً أحدهما عن الآخر ، ونفس هذه القدرة الإلهية تتجلى في صوت الله هو الآخر ، حيث ينفصل الحق والباطل على إثر ارتفاع أحدهما عن الآخر على نحو لا يعود معه من المتعذر على ذي بصيرة أن يدرك ذلك بوضوح ، ولكن كما أنه لابد لرؤية الشمس من أن يفتح المرء عينيه ، فكذلك لابد لتلقي نور الهداية أن يركز المرء اهتمامه عليه، فالذي لا يعيره جانب اهتمامٍ لن يزال محروماً من الاستفادة من صوت الله رغم كونه مدويا فيما حول كله !

وعلاوة على ذلك ، فإن التمسك بالحق بقوة ، والعض عليه بالنواجذ هو أيضاً أمر ضروري بنفس الدرجة ، ذاك لأن هذه الدنيا الحاضرة هي موضع الابتلاء والامتحان ، وهنا لا يزال الشيطان يتعقب كل إنسان ، ويتحين فرصة إغوائه وتنفيره من الحق من خلال توريطه في ألوان شتى من الخدع والأباطيل ، والترهات ، ولو أن المرء لم يصمم على مناصرة الحق مع توطين نفسه على مقاومته كل ما يوسوس به الشيطان في صدره ، فليس من الشك في أن الشيطان سيخطفه من وسط الطريق ولا يدعه يستكمل مسيرته .

بيد أن الإنسان ليس وحيداً منفرداً في عالم الابتلاء هذا ، فإن الذين يصممون على السير في سبيل الله بدأبٍ وإصرار فسيحصل له شعاع من التوجيه الإلهي في جميع المراحل والمنعطفات وسيصلون آخر الأمر إلى غايتهم المطلوبة بنصرة الله وفضله ، وإنه إذْ يبلغ اهتمام المرء بالحق مبلغاً بحيث يصير الحق وحده شغله الشاغل ويفقد معه كل شيءٌ آخر سواه له قيمته ومغزاه ، فإن الله يكتب له بعدئذٍ التوفيق للثبات والاستقامة على الحق الخالص ، والتجنب عن الانحراف نحو طرقٍ معوجةٍ أخرى.

وفي معرض بيان الأحكام المتعلقة بالتركة والميراث ، يتضح من قوله : ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ إن قضية الميراث ليست بقضيةٍ عادية ، بل إنها من جملة القضايا الخطيرة التي لو لم يلتزم المرء بتوجيهات الله وضوابطه المقررة بشأنها تمام الالتزام ، لوقع في خندق الضلال.

سورة المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ
عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا
تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ
يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ
أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا
تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾

بِالْعُقُودِ: بالعهود المؤكدة الوثيقة

الأَنْعَام: الإبل والبقر والضأن والمعز.

غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ: غير مستحليه فهو حرام.

وَأَنْتُمْ حُرُمٌ: وأنتم محرمون بالحج أو العمرة.

لاَ تُحِلُّوا: لا تنتهكوا.

الشَّهْرَ الحَرَامَ: الأشهر الأربعة الحرم.

الهَدْيَ: ما يهدى من الأنعام إلى الكعبة .

القَلائِدَ: ما يقلد به الهدي علامة له.

آمِّينَ البَيْتَ: قاصدينه وهم الحجاج والعمار.

وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ: لا يحملنكم أو لا يكسينكم.

شَنَآنُ قَوْمٍ: بغضكم لهم .

إن حياة المؤمن هي حياة التزام وانضباط ؛ فبالرغم من كونه حراً ، فإنه يتخذ من ذاته إنساناً مسئولاً ملتزماً ؛ اعترافاً بولاية الله وسلطته العليا عليه ، إذن فكلما أراد أن يعالج أمراً من الأمور ، سواءً أكان يتصل بحق الله أم بحق العباد ، فلا يعالجه تبعاً لهواه، متحرراً من كل قيدٍ شرعي أو ضابطة أخلاقية ، بل خاضعاً لوصايا الله عز وجل، ومن ثم فهو لا يأكل إلا ما أحله الله من المآكل ، ولا تمتد يده أبداً إلى ما حرمه الله منها ، وهو يروض نفسه على التسليم والإذعان المطلق حتى ولو نُهي في مناسبة ما عن بعض المباحات ، كما يتضح من الأحكام الواردة بشأن الاصطياد في حالة الإحرام ، أو القتال في الأشهر الحرم وهو يحترم كل شيء صار بمثابة علامة على حقيقة دينية معينة ؛ لأن احترام شيء كهذا هو احترام للدين بعينه ، وإنه إذْ يفعل ذلك كله فإنما يفعله بدافع الخوف من الله ، وليس بدافع آخر سواه.

وربما يعمل المرء على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه في الظروف المعتادة ، ولكن عندما تتغير هذه الظروف يتحول إلى إنسان آخر يُنال ما كان من قبل ، وهذا يحدث عندما ينال منه أحد خصومه ويستثير حفيظته ، فإذا بالذي كان يخشى الله يتجرد فجأة من مخافة الله ، وبالتالي ينسى أو يتناسى كل حدود العدل والإنصاف ، ولا يعود لديه بعدئذٍ هم يشغل باله سوى محاولة التشفي من خصمه ذاك و النكاية به بأية صورةٍ ممكنةٍ، غير أن هذا النوع من التحركات العدوانية لا يجوز عند الله تعالى البتة ، حتى ولا مع أولئك المعاندين الذين كانوا قد تصدوا لمنع عباد الله من ممارسة عمل مقدس كزيارة المسجد الحرام.

وإنه لو أخذ بعض الناس في التعاون مع شخصٍ قام باتخاذ خطواتٍ عدوانية من هذا النوع ، فإن ذلك يندرج ضمن التعاون الإجرامي الأثيم ! في حين ينبغي على عباد الله المتقين حقاً ألا يتعاونوا إلا على أعمال الخير والصلاح وحدها ، وإن من أصعب

الأمور في هذه الدنيا ، هو التعاون مع صاحب الحق ، ونبذ التعاون مع الذي ليس على الحق ، إلا أن هذا العمل الصعب هو الذي يتوقف عليه بالذات مصير الإنسان الأخروي سلباً أو إيجاباً !!

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

وَالدَّمُ: الدم المسفوح وهو السائل.

وَلَحْمُ الخِنزِيرِ: يعني الخنزير بجميع أنواعه.

وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ: ما ذكر عند ذبحه اسم غيره تعالى .

وَالْمُنْخَنِقَةُ: الميتة بالخنق.

وَالْمَوْقُوذَةُ: الميتة بالضرب.

وَالْمُتَرَدِّيَةُ: الميتة بالسقوط من علو.

وَالنَّطِيحَةُ: الميتة بالنطح.

وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ: ما أكل منه فمات بجرحه.

مَا ذَكَّيْتُمْ: ما أدركتموه وفيه حياة فذبحتموه.

النُّصُبِ: حجارة حول الكعبة يعظمونها.

تَسْتَقْسِمُوا: تطلبوا معرفة ما قسم لكم.

بِالأَزْلامِ: قداح معلمة معروفة في الجاهلية.

ذَلِكُمْ فِسْقٌ: خروج عن طاعة الله إلى معصيته.

اضْطُرَّ: ألجأته الضرورة للتناول منها.

مَخْمَصَةٍ: مجاعة شديدة.

مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ: مائل إليه بتجاوز قدر الضرورة.

من الحيوانات ما لا تصلح لحومها أن تكون غذاءً للإنسان كالخنزير ، كما أن جسم الحيوان المباح أكله يحتوي على عناصر غير صالحةٍ للغذاء الإنساني ، والدم من جملة هذه العناصر غير الصالحة ، ولقد حدد الإسلام طريقةً خاصةً لذبح الحيوان تتكفل باستنزاف دمه على نحوٍ كاملٍ ، وأما الطرق الأخرى لإرهاق روح الحيوان ، ما عدا الذبح الشرعي ، فهي غير كفيلةٍ بذلك ، بحيث إن الدم لا يلبث أن يحتقن ويترسب في لحمه، ولنفس هذا السبب فقد تم تحريم كل أنواع الميتة.

وقد حرمت الشريعة من اللحوم ما يشوبه شيء من الشرك والعقائد الوثنية ، كالحيوانات التي تُذبح بغير اسم الله ، أو الذبائح التي يُقصد بها التقرب من غير الله إلا أن يكون الإنسان مضطراً لذلك ، كأن يقف الإنسان بين أمرين إما الهلاك وإما الأكل من هذه الحيوانات المحرمة ، فله إذن أن يختار الغذاء الحرام على الموت، وهذا من سعة رحمة الله وعظيم فضله على العباد!!

وقوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ يعني أن الله تعالى قد بين لكم ما ينفعكم من الأحكام والتشريعات ، وذلك بالإعلان عن تمام نزول القرآن ، على أمة محمدٍ ﷺ والحقيقة هي أن الدين الإلهي أُنزل على الإنسان في صورته الكاملة في كل العصور، ولم يبعث الله تعالى بدينٍ ناقصٍ إلى البشرية قط .

ولقد أقام الله الأمة المؤمنة بالقرآن العظيم على أسسٍ وركائز متينةٍ للغاية ، وزودها

بإمكاناتٍ وقوى ذاتيةٍ هائلة ، حتى أصبحت في مأمنٍ من كل خطرٍ خارجي يتهدد سلامتها، فإذا أصابتها نكسة أو بلاء كان ذلك ناشئًا عن نقائصها وأمراضها الداخلية ، وليس عن المؤامرات والهجمات الخارجية ، وإن أكبر ضمان للتخلص من الأمراض والنقائص الداخلية هو سيادة خشية الله الدائمة على أفراد الأمة!

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝ ﴾

الطَّيِّبَاتُ: ما أذن الشارع في أكله.

الجَوَارِحِ: الكواسب للصيد من السباع والطير.

مُكَلِّبِينَ: معلمين لها الصيد.

وَطَعَامُ: ذبائح اليهود والنصارى.

وَالْمُحْصَنَاتُ: العفائف والحرائر.

أُجُورَهُنَّ: مهورهن.

مُحْصِنِينَ: متعففين بالزواج عن الزنا.

غَيْرَ مُسَافِحِينَ: غير مجاهرين بالزنا.

مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ: مصاحبي خليلات للزنا سرا.

حَبِطَ عَمَلُهُ: بطل ثواب عمله السابق.

لقد أُحل للإنسان أن يأكل كل شيء تراه عين الفطرة طيباً ونظيفاً ، كما أُحل له أكل لحوم جميع تلك الحيوانات التي جُبلت على طبائع ملائمة لطبائع البشر ، ولكن بشرط ألا يكون قد تسرب إليها أي فساد شرعي أو طبي بسبب من الأسباب الخارجية الطارئة ، وبما أن الإنسان لم يكن بإمكانه أن يحدد هذا المبدأ بواسطة عقله وحده ، لذا فقد تفضل الله تعالى ببيانه على وجه التحديد والتفصيل ، والسر في تحليل ما يصيده الحيوان المدرب على الاقتناص إنما يكمن في أنه يُمسك الصيد على صاحبه ، فكأنه قد تعلم سجيةً من السجايا الآدمية ، وأصبح بذلك ينوب مناب الإنسان في مجال الصيد ،

ومهما تم إيضاح فعل القوانين المتعلقة بالحرام والحلال وتفصيلها فإن إرادة المرء الذاتية هي التي تقوده في النهاية إلى فعل شيءٍ ما أو تركه ، فليس المرء إذن تحت رقابة القانون، بل هو بنفسه رقيب على ذاته ، فلو أن المرء لم يكن يرغب في تنفيذ القانون عملياً لوجد إلى الهروب منه طرقاً شتى برغم إيمانه الظاهري به ، وإنه ليس هناك شيء يبعث المرء على الالتزام بالقانون ومراعاته الشاملة لروحه وجوهره الحقيقي سوى الخشية الإلهية ، ولذلك أعقب سرد المحرمات و المحللات بقوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾ .

وكما بين الله ما يحل من المطعومات وما يحرم ، بين كذلك ما يحل من النساء وما يحرم على المسلم، فالمسلم يحل له أن يتزوج المحصنات من المؤمنات ، كما يحل له أن يتزوج المحصنات من نساء أهل الكتاب بشروط معينة وحكمة هذا التشريع هي أن المرأة مجبولة على طبيعة التأثر والانفعال ، مما يفتح إمكانية اعتناقها لدين الإسلام نتيجة تأثرها بسلوك زوجها المسلم ، وتعرفها المباشر على المبادئ النبيلة السامية التي تسود المجتمع الإسلامي .

وقوله : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ ﴾ يعني أنه لا قيمة للعمل ما لم يكن مقترناً بالإيمان ، فإنما العمل المقبول هو الذي يكون خالصاً لوجه الله تعالى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

الْغَائِطِ: موضع قضاء الحاجة (كناية عن الحدث)

لاَمَسْتُمُ النِّسَاء: واقعتموهن أو مسستهم بشرتهن.

صَعِيدًا طَيِّبًا: ترابا ، أو وجه الأرض طاهرا.

حَرَجٍ: ضيق في دينه وتشريعه.

الغاية من الصلاة هي تطهير المرء من السيئات والفواحش ، والوضوء هو الاستعداد أو التأهب الخارجي لذلك التطهر الداخلي ، فحينما يريد المرء تأدية الصلاة يعمد أولاً وقبل كل شيءٍ إلى الماء ، حيث إن الماء هو نعمة جد عظيمة ، وهو أفضل وسيلةٍ لغسل كل أنواع القذارة والنجاسة ، وهكذا فإن الصلاة هي الأخرى عين ربانية، ينغمس فيها المرء فيطهر نفسه من أدران العواطف الرذيلة والأفكار الخبيثة القذرة .

وإذ يصب المرء الماء على يديه ، وهو يبدأ عملية الوضوء ، فكأنما هو يدعو الله بلسان عمله قائلاً : ((يا إلهي ! أعوذ بك أن تتلوث يداي هاتان بالسوء أبداً ، وأرجوك أن

تغسلهما وتنظفهما مما قد ارتكب بهما من المنكرات حتى الآن »، ثم هو يتمضمض ويستنشق، ويغسل وجهه، فيجد نفسه يتضرع إلى الله بلسان حاله قائلاً: «يارب! باعد بيني وبين كل خطاياي، فاغفر لي ما تناولته بفمي هذا من طعام حرام، وما تكلمت به بلساني هذا، من كلام فاحشٍ بذيءٍ، ما شممت بأنف من روائح الخبائث وما رأيت بعينيَّ هاتين من منظر سوءٍ بغيضٍ عندك»، ثم إذا مسح رأسه بيديه المبللتين بالماء انصهر كيانه كله تلقائياً في بوتقة الدعاء القائل: «يا إلهى طهّر قلبي من كل ما نويته من سوء، ونقِّ ذهني من آثار ما دبرته من خطط ومشاريع خاطئة منحرفة، وأعطني قلباً سليماً نقياً، وذهناً صافياً مستقيماً»، ثم إذا غسل رجليه، تحول عمله ذاك طلباً منه إلى جناب ربه، فكأنه يسأله وقتئذ أن يتكرم بغسل رجْليه مما علق بهما من غبار السيئات، وأن يوفقه للسير على طريق الحق والعدل توفيقاً لا ينحرف معه عن ذلك الطريق القويم أبداً، وهكذا يصير الوضوء بأكمله بمثابة دعاءٍ عملي للمرء، ويتلخص ذلك الدعاء في قوله: «اللهم اجعلني تواباً عن الذنوب، واجعلني متطهراً من الفحشاء والمنكر»، وفي الظروف العادية يكفي الوضوء وحده لإيجاد الشعور بالطهارة لدى المرء، ولكنَّ حالة الجنابة حالة غير عادية، لذا فالتطهر منها لا يتم بالوضوء، بل بغسل جميع البدن (أى الاغتسال) فإذا كان الوضوء غُسْلاً جزئياً صغيراً، فإن الغُسل هو وضوء كبير شامل، فإذا لم يجد المسلم الماء، أو كان في استعماله ضرر محتم، فإن الله رفع عنه الحرج وشرع له التيمم لتجديد الشعور بالطهارة.

إن الأساليب الميسرة للوضوء والغسل هي من نعم الله العظيمة، إذْ من خلالها تم ربط الطهارة الشرعية بذوق النظافة الطبيعي، وإباحة الاكتفاء «بالتيمم» فى حالة العذر هى نعمة مزيدة على ذلك، فإنها تحول دون أن نتجه نحو الغلو فى الدين، ذلك الداء الذي ابتُلي به أتباع الأديان الأخرى.

﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

وَمِيثَاقَهُ: عهده.

شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ: شاهدين بالعدل.

وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ: لا يحملنكم ، أو لا يكسبنكم.

شَنَآنُ قَوْمٍ: بغضكم لهم.

يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ: يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك.

الإيمان هو عهد يُعقد بين العبد وربه عز وجل ، فالعبد يقطع على نفسه وعداً بأنه سيمارس حياته في هذه الدنيا على أساس من تقوى الله وخشيته الدائمة ، وبالمقابل يضمن الله لعبده أنه سيوفر له أسباب النجاح والسعادة في الدنيا والآخرة ،

وللوفاء بهذا العهد الإيماني ، لابد من أن يتوافر في العبد شرطان أساسيان : أولهما هو: أن يصبح «قواماً لله» ، ومعنى ذلك أن يبذل قصاراه للعمل الدائم على تنفيذ وصايا الله وامتثال أوامره ، وأن يصير كيانه بحيث يقدم في كل مناسبة الإجابة الصحيحة التي ينبغي أن يتقدم بها العبد إلى ربه ، فإذا أجال بصره في أرجاء هذا الكون، امتلأ قلبه وذهنه روعةً وتعظيماً لقدرة الله وجلاله ، ، وإذا نظر إلى وجوده هو وجد أن

حياته كلها فضل من الله ونعمة ، وإذا تحركتْ مشاعره تحركتْ من أجل الله تعالى ، وإذا تركزت اهتماماته على شيء ، فلا تتركز إلا على الذات الإلهية ، كما يجب أن يكون حبه خالصاً لله وحده ، ومخاوفه كلها مرتبطةً بالله ، وأن تكون أعماق وجوده معمورةً بذكر الله، وأن يخلص عبادته وطاعته لله ؛ فيبذل كل ما يملكه في سبيل الله عن طيب نفس ويجد في هذا الحقيقة سعادته، والشرط الثاني للاستقامة على العهد والوفاء بحقه هو : التعامل مع العباد بالعدل ، ومعنى العدل أن تعطي كل شخصٍ ما يستحقه في واقع الأمر من غير نقصٍ ولا زيادةٍ ، وأن تلتزم بالحق دون الاندفاع وراء هوى النفس في كل الشئون والمعاملات .

وعلى العبد أن يروض نفسه على الالتزام الدائم بالحق والعدل ، فلا يتخلى عنه أبداً، حتى و هو يتعامل مع أعداء الدين ، وأنصار الباطل ، حيث تتجدد خصومات الماضي ، وتحاول صرفه عن جادة العدل والإنصاف !!

إن الله يتجلى في هذه الدنيا من خلال آياته وبراهينه الواضحة القاطعة ، فإذا ظهر البرهان الإلهي بوضوحٍ ، وأخذ المرء في المماحكة والمجادلة الكلامية بدلاً من الإيمان به، فقد كذب بآية الله ، وهؤلاء سيُلاقون عند الله عذاباً شديداً ، وأما الذين آمنوا بها ، فإن الله سيُعطيهم أجراً عظيماً ونعيماً أبدياً.

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ

عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣﴾

نَقِيباً: أمينا كفيلا.

وَعَزَّرْتُمُوهُمْ: نصرتموهم أو عظمتموهم

قَرْضاً حَسَناً: احتسابا بطيبة نفس.

يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ: يغيرونه أو يؤولونه بالباطل.

وَنَسُوا حَظاً: تركوا نصيبا وافرا.

خَائِنَةٍ: خيانة وغدر ، أو فعلة خائنة.

لقد أُخذ من بني إسرائيل ، على يد نبيّهم موسى - عليه الصلاة والسلام - عهد بممارسة حياة العبودية والطاعة لله ، وانتخب اثنا عشر نقيباً من أسباطهم الاثنى عشر ، لكي يشرفوا على سير حياتهم الدينية ، وبموجب هذا العهد كان على بني إسرائيل أن يقيموا الصلاة ؛ لتقوية روابطهم بالله ، ويؤدوا الزكاة تطهيراً لهم وتزكية ، كما أوجب عليهم أن ينصروا رسله ، وأن يبذلوا في سبيل الدين الإلهى كل ما يملكون من رخيص وغال ، وإنهم لن يكونوا جديرين بمعية الله ونصرته ، ولا مستحقين لأن يطهرهم الله من سيئاتهم فيؤهلهم للدخول فى أجواء الجنة اللطيفة المعطاءة ، إلا بعد قيامهم بإنجاز الواجبات على النحو المطلوب ، وإقامة النظام الاجتماعي على منهج الله، فإن الجنة ينالها الناس بالعمل الصالح وبفضل الله ورحمته.

وهذه الأعمال التى أخذ الله ميثاق بني إسرائيل عليها هي أعمال الدين الجوهرية الأساسية ، فإنها تمثل ذلك الطريق المستقيم الذي يؤدى بجميع البشر الذين يسلكونه إلى الله وإلى الجنة.

غير أن الأمم الأمينة على الكتاب السماوي حين يتسرب إليها الفساد ، لا تلبث أن تنحرف يميناً وشمالاً ، وعندئذ يتغير مفهوم الدين بسبب التفسيرات المزعومة الباطلة ،

ويخوض القوم في مناقشات فرعية عقيمة حول موضوع العبادة ، ويبحثون عن طرق للنجاة سهلةٍ توصل المرء إلى المطلوب من غير اهتمام بتأدية حقوق العباد ، ويثيرون معارك دنيويةً فارغةً لا تمت إلى الحق بصلة قريبة ولا بعيدة ، ويفتعلون وجوهاً شتى للنفقات الدنيوية ، ويطلقون عليها «الإنفاق في سبيل الدين» ، وبعبارة أخرى فإنهم يقومون باختراع دين جديد يتفق ومصالحهم الدنيوية الضيقة ، ثم يأخذون في تسميته باسم الدين الإلهي .

وعندما يصل الأمر بطائفة إلى هذه المرحلة الشائنة من الفساد والانحطاط الديني ، فإن الله يحرمها من كل عناية، وبعد الحرمان من العناية والتوفيق الإلهي لا يعي هؤلاء شيئاً سوى نداء رغباتهم وشهواتهم الهابطة، فلا يزالون غارقين في أوحالها ، حتى يأتي ملك الموت ليسوقهم إلى محكمة الله للحساب الشديد !!

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

فَأَغْرَيْنَا: هيجنا وحرشنا، أو ألصقنا.

إن الأمم الأمينة على الكتاب السماوي حين يدب إليها الفساد والانحراف ، لا تلبث أن تندفع وراء المتشابه من جوانب الدين ، مما يؤدي إلى الاختلاف والتنازع في الدنيا، والخزي والهوان في الآخرة .

لقد وُلد سيدنا المسيح – عليه الصلاة والسلام – بلا أبٍ ، من بطن امرأةٍ بلغت من الطهر والعفاف أقصاه ، وعلى إثر ولادته انطلق يعرّف نفسه بنفسه قائلاً : ﴿ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ ﴾ فإذا نحن أقمنا الآن اعتقادنا عن المسيح على أساس الكلمات الواضحة التى قالها عليه السلام عن نفسه ، نجونا من الخلافات والمنازعات

المذهبية التي لا تلبث أن يتدفق سيلها الجارف فلا يقف عند حدٍ ، فيما إذا كان الاعتقاد عن شخصيته بنى على محض القياس البشرى ، بدلاً من قوله الصريح المحكم ، فيقال مثلاً : ((إن الإنسان هو الذى يُولد من أبٍ والمسيح لم يكن قد وُلد من أبٍ ، إذن فهو ابن الله!)) كما قد حدث فعلاً مع أتباع المسيح فى العصور المتأخرة .

وما إن يتسرب الفساد إلى أية أمةٍ كتابيةٍ حتى تتفشى فيها مثل هذه المساوئ والأمراض الفتاكة ، وتسري جراثيم العفن والانحطاط في كيانها ، فتندفع وراء الدين المخترع نابذةً الدين المحكم وراء ظهرها ، ومن هنا تنفتح أبواب الجدل والنزاع والتحزب على مصراعيها ، فلا تنغلق أبداً ، فلا يكتفي الناس بالمعاني والمفاهيم اليسيرة للأحكام والتوجيهات الصريحة التي أعطاها الله والرسول في شئون التشريع والكلام ، وقضايا التزكية الروحية وأمور السياسة ، ولكنهم يخترعون ألواناً جديدةً لا تُحصى من المباحث والآراء بمجرد قياساتهم العقلية، ويكون ذلك نتيجة تأثرهم وانبهارهم بزخرفة الأفكار السائدة في عصرهم، فيحاولون تطبيقها على نصوص الدين أو العكس، وطوْراً يكون الغرض من وراء ذلك إضفاء الصبغة الدينية على مطامعهم الدنيوية الضيقة ، وقد يضيفون إلى دين الله الناقص – على حد زعمهم – بغية إكماله أشياء لا علاقة لها بدين الله.

وهكذا تظهر إلى الوجود صور جديدة متنوعة للدين الإلهي الواحد ، فمنها صورة روحانية ، وأخرى صورة سياسية ، وثالثة ورابعة ، وهلم جرا ، وتلقى كل واحدةٍ منها بالطبع أناساً تتفق ونزعاتهم وميولهم الذاتية ، ثم تتألف من هؤلاء في نهاية المطاف جماعة دينية ذات كيانٍ مستقل واتجاهات فكرية معينةٍ، ثم يتركز اهتمام أجيالهم التالية على الحفاظ على ذلك لأنه – في نظرهم – تراث للسلف الصالح ، ثم يحاط هذا التراث بالهيبة والقداسة، لأن الإنسان دائماً ينظر إلى الماضي نظرة الإجلال والتقديس.

وإن عملية التحزب المذهبي التي تبدأ باسم الدين ، تستمد عناصر الدوام

والاستقرار - من خلال صيرورتها - عملاً مقدساً ، ومن جهة أخرى يصير هذا الاتجاه بمثابة إجازةٍ عامةٍ تسمح لكل حزبٍ بإظهار البغض والعداوة ، وممارسة العنف ضد الآخرين، لأن هذا الأمر أصبح - في نظرهم - أمراً مطلوباً عند الله سبحانه وتعالى !!

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ ﴾

نُورٌ: هو محمد ﷺ.

هناك تصرفان خاطئان ، مارسهما أهل الكتاب - اليهود والنصارى - في دينهم ، أولهما التحريف أو التأويل الباطل ، حيث حذفوا العديد من التعاليم والواجبات الأساسية من إطار الدين ، كما أضافوا إلى نصوص الكتاب الإلهي تغييرات لفظية ومعنوية جعلتهم في غنىً عن الإيمان بأي نبيٍ آخر ؛ زعماً منهم بأن إيمانهم بأنبيائهم السابقين ، وتمسكهم بدين آبائهم التقليدي ، كافٍ لنجاتهم كل الكفاية!!

وأما الخطأ الثاني فهو أنهم ألزموا أنفسهم بما لم يلزمهم الله به ومنها على سبيل المثال تلك المسائل الفرعية الدقيقة التي تتصل بتقديم القرابين وآدابه ، إذْ لم تكن مما أمرهم بها أنبياؤهم ، بل كانت مما اخترعه علماؤهم بناءً على محض تخرصاتهم وتفريعاتهم الفقهية ،

وقد جاءهم القرآن نعمةً ربانيةً ؛ فتناول الدين الإلهي الذي تراكم عليه غبار كثيف من التحريفات والإضافات البشرية عبر القرون ، تناوله بتجديد معالمه ، وإعادته إلى

صفائه ، وأخرجهم القرآن الكريم من ظلام الجهل والأماني الكاذبة المطبقة إلى صراط الله المستقيم.

لقد عرض القرآن عليهم تعاليمهم المشوّهة في صورها الأصلية الناصعة ، وحررهم من أسر تلك القيود الدينية التي ألزموا أنفسهم بها ، ، غير أن الذين يصرون على اتباع أهوائهم لا يزالون يهيمون ويتخبطون في ظلمات حالكةٍ ، وأما الذين يبتغون رضا الله بشوقٍ وإخلاص ، فإنهم سيهتدون بالقرآن إلى طريق الحق القويم ، ويوفقون لإخراج أنفسهم من دياجير الباطل إلى نور الهداية الصحيحة الصادقة .

إن الآلهة التي اتخذها البشر من دون الله ، لا أحد منها يقدر على إيجاد شيء ما أو إعدامه إن كان موجوداً ، ويكفي بهذا الواقع برهاناً قاطعاً على أن لا إله إلا الله الواحد الأحد ، فالموجودات التي لا تستطيع الخلق ولا الإهلاك ، كيف يمكن أن تكون آلهة تُعبد !؟!

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

فَتْرَةٍ: فتور وانقطاع وسكون.

إن الأمة التي تُؤتمن على الكتاب الإلهي ، يُبعث فيها الرسول ، يخصها الله بنعمٍ كثيرة وعظيمةٍ ، شريطة أن تؤمن حق الإيمان ، وتؤدي واجبها خير أداءٍ ، وتتمثل تلك النعم في النصرة على الأعداء ، والتمكين في الأرض ، والمغفرة للذنوب ، ووعد الجنة .. إلخ .

وبالنسبة للطلائع الأولى من الأمة يكون ذلك مكافأة على عملهم الذي تكبدوا المشاق وركبوا الصعب والذلول في إنجازه ، وأنهم أسلموا أنفسهم إلى الله ، وقابلهم الله تعالى بوافر نعمه وبركاته.

غير أن الوضع سرعان ما ينقلب في الأجيال التالية ، فيصير الأمر عندهم أمراً قومياً محضاً ؛ فالشيء الذي قد حصله الأوائل بالعلم والجهاد يصبح عند خلفهم إرثاً قومياً ويظنون بناء على هذا أنهم صفوة الله وأحباؤه وأنهم يستحقون النعم الإلهية مهما كان سلوكهم العملي في الحياة الدنيا!!

ومن أجل إنقاذ الأمم الأمينة على الكتاب السماوي من هذا الفهم ، فقد جرتْ سنة الله على أن تبدأ مجازاتهم ومكافأتهم في هذه الدنيا، فأمثال هؤلاء يستطيعون أن يقدّروا مكانتهم عند الله من خلال النظر إلى وضْعهم الفعلي في هذا العالم ، فلو كانوا غالبين على أعدائهم في الدنيا ، فيحظون بالقبول والرضا عند الله تعالى ، ولو أن أعداءهم انتصروا عليهم، فهم بعيدون عن رضا الله تعالى بمسافاتٍ شاسعة ؛ فإن جماعة أمينة على كتاب الله ، إذا كانت ذليلةً مهانة ومغلوبة على أمرها في الدنيا ، برغم كثرتها العددية الساحقة ، فليس لها أن ترجو أنها تكون على قمة المجد والعزة في العالم الآخر !!

إنها فكرة باطلة لا أساس لها من الحقيقة ، أن تحسب أمة من الأمم أنها حبيبة الله بوصفها أمةً ! ؛ لأن البشر جميعاً محاسبون عند الله أفراداً ،﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ ، فكل شخصٍ إنما يجد عند الله ما يستحقه بناءً على عمله الذاتي ، فالجنة ليست بوطن قومي لأحد ، كما أن جهنم ليست سجناً قومياً لأحدٍ ، والمنهج الذي يسير عليه القضاء الإلهي أنه تعالى يبعث من عنده أفراداً يقومون بإعلام البشر بحقيقة الحياة وغايتها ، وينذرونهم من عذاب جهنم ، ويبشرونهم بنعيم الجنة الأبدي ، وإنما يتمكن المرء من الوصول إلى الله ونيل رضاه باتباعه هذا المبعوث بشيراً ونذيراً من عند الله عز

وجل ، وليس بأية وسيلة أخرى.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

لقد جرت سنة الله على اختيار طائفة من الطوائف البشرية لإبلاغ رسالته إلى الناس كافةً ، فيبعث فيها رسله ويعطيها كتابه ويأمرها بأن تقوم بتبليغ تلك الرسالة الحقة إلى الآخرين ، فكما أن الوحي ينزل على شخص تختصه العناية الإلهية ، كذلك يتم اختصاص طائفةً معينة بحملها للوحي وائتمانها عليه ، وقد كان بنو إسرائيل متمتعين بهذه الخاصة في الزمن القديم ، وتم انتقالها مهم إلى الأمة الإسلامية بعد بعثة نبي آخر الزمان ﷺ .

وليس مطلوب الله منحصراً في أن تقوم طائفة بتمثيل دينه فحسب ، بل ينطوي المطلوب الإلهي على أن تحظى هذه الأمة القائمة بتمثيل دينه بأسباب العزة والغلبة في الحياة الدنيا ، حتى ينكشف للناس على صعيد الواقع المعاش أن العالم الجديد والأبدي الذي سيتكون بعد قيام الساعة ، ستكون كل أنواع السعادة ومظاهر المجد والعظمة هناك خالصةً لأهل الحق وحدهم ، وأما الباقون سواهم فسيطردهم بعيداً عن رحمة الله أذلاء مغلوبين على أمرهم .

غير أن هذا الإنعام الدنيوي لا يُعطى لهذه الطائفة جزافاً ، فلابد لها من اجتياز امتحان الجدارة والاستحقاق ، حيث يتحتم عليها أن تثبت عملياً أنها وثيقة الصلة بالله، قوية الاعتماد عليه على كل حالٍ من الأحوال ، وأنها مستمسكة بمرضاة الله دائماً صابرة على جميع المصائب و المحن التي تلقاها على طول الخط .

ولقد قيض الله الغلبة والانتصار على كل الشعوب المعادية لهم ، مادام بنو إسرائيل ثابتين على هذا المستوى الديني ، وقد أتى عليهم حين من الدهر تبوءوا فيه مكان الصدارة بين أمم الأرض المتحضرة المعاصرة لهم جمعاء ، ولكن عندما بُعث سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - كان التدهور والانحطاط قد بلغ منهم كل مبلغٍ ، فلم يعد لهم رصيد من الصبر والاعتماد على الله ما يبعثهم على مواجهة الأعداء ، والصمود في وجه الشدائد ، وقد أخذت طائفة منهم تتمرد على الله ورسوله وتستهزئ بهما بكل وقاحةٍ وجرأةٍ ، ووصل الأمر إلى أن استقر في قلوبهم الرعب والخوف من شعوب الأرض القوية أشد وأكثر من خوفهم من الله عز وجل!!

وإن طائفةً ابتعثها الله لتمثيل دينه ، حين تتقاعس عن الكفاح والتضحية من أجل المهمة الإلهية ، فتريد أن ينزل الله بنفسه إلى الأرض ، ويتولى بنفسه مؤونة الكفاح وإنجاز المهام المتصلة بدينه ، سواء أكانت تلك الطائفة المتقاعسة قد أيَّدت مشيئتها هذه بلسانها كشأن مجموعة أفراد من بني إسرائيل ، أم أعلنت بعملها ولسان حالها دون مقالها كشأن الأمم الأخرى!!

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

فَٱفْرُقْ: فافصل بحكمك.

يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ: يسيرون فيها متحيرين ضالين.

فَلاَ تَأْسَ: فلا تحزن.

لقد كانت بلاد الشام وفلسطين يحكمها شعب قوي جبار يُدعى العماليق ، في الزمن الذي خرج فيه بنو إسرائيل من أرض مصر تحت قيادة نبيهم موسى - عليه الصلاة والسلام- ووصلوا إلى صحراء سيناء ، وخاطبهم الله: إن هؤلاء الطغاة الجبابرة قد استوفوا حظوظهم من الحياة كلها ، وأوشكت آجالهم المحددة على الانتهاء ، فلتدخلوا ديارهم ، وسيكون التوفيق والنصر الإلهي حليفكم ، وبالتالي ستتغلبون عليهم بعد مقاومةٍ عاديةٍ تكون الحاسمة ، غير أن الخوف من هذا الشعب - العماليق - كان قد بلغ من الهيمنة على نفوس بني إسرائيل إلى حد أنهم رفضوا معه الدخول إلى بلادهم ماداموا فيها ، مما كان يدل دلالةً واضحةً على أنهم يخافون من البشر أكثر وأشد من خوفهم من الله ، ومن ثم فلم يعد لوجودهم وزن ولا قيمةً عند الله تعالى ، فصدر القرار الإلهي بأنهم سيظلون تائهين في الصحراء الممتدة بين جبل فاران وشرقي الأردن لمدة أربعين سنةً (وهي من ١٤٤٠ إلى ١٤٠٠ قبل الميلاد)، حتى يهلك منهم كل أولئك الذين تزيد أعمارهم عن عشرين سنةً فصاعداً ، وفي أثناء ذلك سينشأ ويترعرع جيلهم الجديد في ظروفٍ وبيئةٍ جديدةٍ مختلفة عن جيلهم السابق كل الاختلاف !!

وقد تحقق القرار الإلهي في أجله المحدد ، فلم يبق خلال حياة الأربعين سنةً الصحراوية أحد من المتقدمين في السن منهم ، وقام جيلهم الجديد المتدفق حماساً وفتوةً من بعد ذلك بفتح بلاد الشام وفلسطين تحت قيادة «يوشع بن نون» ، وهو أحد الرجلين الصالحين اللذين أخبرت الآية السابقة بأنهما نصحا بنى إسرائيل بأن يقتحموا ديار العمالقة متوكلين على الله وحده!

ومن جملة الأعذار التي تقدم بها بنو إسرائيل إلى سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - للنكول عن قتال العماليق أنهم أولو بأسٍ شديدٍ ، لا طاقة لنا بهم ، وأننا لو

حملنا على بلادهم لن نعود إلا بالهزيمة النكراء ، وبعدئذٍ ((سيقع أولادنا أسارى في أيدي أولئك الجبابرة))، ولكن شهد التاريخ أن هؤلاء ((الأولاد)) أنفسهم ، ما إن بلغوا مبلغ الرجال حتى دخلوا بلاد العماليق فاتحين ، وانتزعوا مقاليد سلطتها وخزائنها من أيديهم!!

ولم تتولد هذه القوة الهائلة في سواعد الأولاد إلا نتيجة لمقاساتهم شدائد الحياة الصحراوية واحتمال مشقاتها لفترةٍ من الزمن ، إن الظروف الصعبة الخطيرة التي كان قد تبرم بها الآباء ، وكانوا يحسونها نذراً للموت والفناء في حق أبنائهم ، كانت المواجهة الجريئة لتلك الظروف الصعبة الخطيرة ذاتها تنطوي على سرّ الحياة والازدهار لأبنائهم!!

إن أكثرنا يحلو له العيش في الظروف المواتية ، والبيئة الهادئة الخالية من الصعاب والعقبات ، ولكن الحقيقة أن مواهب المرء لا تتفتق ، ولا تتولد فيه المزايا والصفات الجميلة كلها إلا إذا اضْطر إلى أن يعيش حياة تتطلب كفاحاً مستمراً لا ينقطع مع الظروف والأوضاع الخارجية ، فقد ظل بنو إسرائيل يعيشون بمصر حياة ملؤها الدعة والاستقرار قروناً طوالاً ، مما جعل منهم شعباً خامداً هامداً ، إلا أن الحياة الصحراوية التي استقبلتهم عقب الخروج من مصر ، كانت كلها تحديات متواصلة ، إذن فكان طبيعياً أن تختلف معنويات الأطفال الذين بلغوا طور شبابهم في ظل تلك الظروف اختلافاً جذرياً عمن سبقهم ، ، فإن البيئة الصحراوية خلقت فيهم الميل إلى البساطة ، وعلو الهمة والشهامة، وحب المخاطرة والتجلد ، والنزعة الواقعية ، وهذه السمات والمزايا هي التي تحوِّل شعباً ميتاً إلى شعبٍ يتدفق حياةً وحيويةً وحرارةً !!

وإن من سنة الله في خلقه ، أن أمةً ما إذا صارت أمةً نضب معين حياتها نتيجة للحوادث والظروف ، فلا سبيل إلى إنعاشها من جديد وتحويلها ثانيةً إلى أمةٍ حية إلا أن تبتلى بشتى ألوانِ الحوادث غير العادية.

﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ ﴾

قُرْبَانًا: ما يتقرب به من البر إليه تعالى.

تَبُوءَ بِإِثْمِي: ترجع بإثم قتلي إذا قتلتني.

وَإِثْمِكَ: السابق المانع من قبول قربانك.

على أن الجزاء الأصلي على العمل الذي يعمله المرء من أجل الله، إنما يناله في الآخرة، غير أن هذه الدنيا بدورها تشهد أحياناً وقائع تدل على ما إذا كان عمل المرء قد حظي بالقبول عند الله تعالى أم لا؟! وقد حدث موقف مماثل لهذا مع ابني آدم "قابيل وهابيل"، كان قابيل يشتغل بحرث الأرض، وكان هابيل راعي الماشية، وقد أعطى هابيل نتائج جهوده الطيبة لله بغية التقرب منه، وتفضل الله بقبول ذلك منه، مما كان له أثر ملموس في زيادة حياته وعمله خيراً وبركةً ونجاحاً.

وقدّم قابيل بعض مزروعاته إلى الله، غير أنها لم تُقبل منه، فظل محروماً من بركة الله وعنايته، الأمر الذي أثار في قلبه كوامن الحقد والحسد على أخيه الصغير هابيل، وقد اشتد لهيب الحسد ضراماً إلى حد أن قابيل توعد أخاه بالقتل، فقال له هابيل: إنما السبب في عدم قبول قربانك يرجع إلى أن قلبك يخلو من مخافة الله وتقواه، إذن فعليك أن تهتم بإصلاح نفسك بدلاً من انفجارك سخطاً وحنقاً عليّ، إلا أن الحسد إذا ما تأججت ناره في صدر أحدٍ من الناس فلا تدعه صالحاً يستعرض نقائصه الذاتية، ويُراجع حساب تصرفاته الخاطئة، وإنما يستحوذ عليه ويتملك مشاعره وحواسه كلها شيء واحد ليس غير، ألا وهو القضاء على وجود منافسه المزعوم.

وما كان جواب هابيل على تهديد قابيل إياه سوى أن قال : لئن أقدمت فعلاً على قتلي ، فإني لن أمدّ يدي لقتلك ، ومرجع ذلك إلى أن الله تعالى قد حرم الاقتتال بين المسلمِ وأخيه المسلم تحريما مطلقاً .

أما إذا كان المعتدي من غير المسلمين فلا يجوز عندئذ أن يُتخذ منه هذا الموقف المسالم.

وإذا اقتتل رجلان مسلمان وحرص كل منهما على قتل صاحبه ، فإن الإثم في هذه الحالة يتوزع بين الاثنين على السواء ، وأما إذا أراد أحد المسلمين أن يعتدي على مسلم ، ولا يقابله الثاني بمثل اعتدائه ، بل يلجأ إلى الصبر والدعاء ، فإن الأول لا يحمل تبعة ذنبه ، بل ويُلقي على عاتقه تبعة ذنب الأخير الذي كان من المحتمل وقوعه فيه لو لم يتمسك بالصبر والدعاء !

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ: زينت وسهلت له نفسه.

يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ: يحفر فيها ليدفن غرابا قتله.

سَوْءَةَ أَخِيهِ: جيفته أو عورته.

وَيْلَتَى: كلمة جزع وتحسر.

ولقد لفت هابيل انتباه أخيه الأكبر إلى ما سوف يقع فيه ، مما جعله يستشعر بخجل وتردد في قلبه، وأخذ يراجع موقفه فوجد أنه يريد قتل أخيه البريء بدون مبررٍ ولا سبب معقولٍ ولكن جذوة الحقد والحسد المتأججة في نفسه لم تخمد ، بل أخذ شررها يتطاير حتى استبد بعقله وملك عليه أمره كله ، فلجأ إلى اختلاق ضروب من المعاذير

الواهية التي تبرر إقدامه على قتل أخيه ، وأخيراً نجح في التخلص من صراعه الداخلي بإقناع ذهنه وقلبه بتبريراته المزعومة المزورة فقتل أخاه !!

إن صوت الضمير هو صوت الله ، وإن عدم اطمئنان الضمير إلى أي عملٍ من الأعمال يضع المرء على محك الاختبار ، فإن استجاب المرء لصوت ضميره ، لأصبح من المفلحين السعداء ، وأما لو خنق صوت ضميره مستنداً إلى كلماتٍ وشعاراتٍ كاذبةٍ جوفاء فقد باء بالفشل والخسران وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال : ((ما من ذنبٍ أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا ، مع ما يُدخر لصاحبه في الآخرة ، من البغي وقطيعة الرحم)) ، ومن ثم فلم يستحق قابيل ما سيلقاه في الآخرة من العذاب لقاء ظلمه أخاه بغير الحق فحسب ، بل وقد عُجِّل بالعقوبة الباعثة على الرثاء في هذه الدنيا ؛ كما رُوي عن مجاهد وابن جبير : ((أنه علقت ساقه بفخده يوم قتله ، وجعل الله وجهه إلى الشمس حيث دارت ، عقوبةً له وتنكيلاً به)) (١).

ومشهد تعليم قابيل في سياق هذه القصة بواسطة الغراب كيف يواري جُثمان المقتول تحت الأرض يتضمن الإشارة إلى أن الإنسان دون الحيوان الأبكم فطنةً وذكاءً بالنسبة للاهتداء إلى طريق الفطرة القويم ، فلو أنه اندفع وراء عواطفه اندفاعاً أعمى فلا أحد إذن أظلم وأكثر طغياناً منه ، هذا المشهد يشير إلى أن المرء لو قام بقتل دوافع الجريمة في صدره لنجا من مرارة الندم وحرقته حيث لا ينفع الندم شيئاً ، فينبغي للمرء إذن أن يعمل على إخماد نوازع القلب في طيات القلب ، ولا يسمح لها بأن تتحول إلى مظاهر واقعية ملموسة خارج القلب ، فإن أية نزعة شرٍ لا يتطلب دفنها في داخل القلب ، قبل ترجمتها إلى واقعٍ عملي في العالم الخارجي إلا مجهودا نفسياً داخلياً ، وأما لو ترجمها المرء إلى واقعٍ محسوسٍ في الخارج ، فإنه سيواجه بعدئذٍ مشكلة دفن ((الجثة)) لإنسان بريء ليس عهده بالحياة ببعيد ، والتي لا تكاد تخفى على الله اللطيف الخبير مهما

(١) مختصر تفسير ابن كثير : ص٥٠٩.

تم دفنها ومواراتها تحت طبقاتٍ كثيفةٍ متراكمة من التراب !

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤) ﴾

يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ: يبعدوا أو يسجنوا.

خِزْيٌ: ذل وفضيحة وعقوبة.

حين يقتل الإنسان شخصاً فإنه لا يكون بذلك قاتل إنسانٍ واحدٍ فحسب ، بل يكون بالأحرى قاتل بني الإنسان جميعاً ؛ لأنه ينتهك قانون الحرمة ، ذلك الذي ترتبط به سلامة حياة الناس كافةً ارتباط عدم ووجودٍ ، وكذلك حين يقوم أحد الناس بإنقاذ أحدٍ سواه من ظلم الظالم وعدوانه ، فلا يكون ذلك الشخص منقذاً لفردٍ واحدٍ فقط ، بل يكون منقذاً لأفراد البشرية ، لأنه بذلك حافظ على المبدأ القائل بكون أرواح كل البشر محترمة على حدٍ سواء ، وينبغي للمسلمين أن ينظروا إلى حادثٍ واحد من هذا النوع وكأن أرواح جميع الناس وأعْراضهم وأموالهم كلها مهددة بالخطر ، فليسرعوا إلى اقتلاع جذوره في مبدأ الأمر قبل أن يصبح شره مستطيراً.

إن المبدأ الذي أقام الله عليه نظام هذا الكون هو أن يؤدي كل أحدٍ ما أُنيط به من الواجبات والمسئوليات ، من غير أن يتدخل في دائرة عمل الشخص الآخر بدون لزوم، وإن كل الكائنات ، تسير على خط الفطرة دون انحراف ، ما عدا الإنسان ، الذي قد

مُنح له حرية الاختيار والتصرف بصفةٍ وقتيةً ، فإنه يطغى ويتجاوز حدوده ، فيحدث خللاً واضطراباً في سير النظام الفطري ، وهؤلاء الخارجون على نظام الفطرة من كبار المجرمين عند الله تعالى ، ويفوقهم جرماً وعناداً إلى حدٍ كبيرٍ جداً أولئك الذين يحاربون الله ورسوله، يعني أنهم يزرعون العراقيل والعقبات في طريق الدعوة ويقومون بأعمال تخريبية ضدها، تلك الدعوة التي يفجرها الله بين عباده لكي تمنعهم من الإسراف والبغي ونشر الفساد في الأرض، وتدعوهم إلى ممارسة الحياة وفقاً لحدود الفطرة الإلهية المرسومة ، وإن المفسدين المخربين وأشباههم لهم عقوبة رادعة في هذه الدنيا ، ونيران حامية متأججة في تلك الدار الآخرة !

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

الوَسِيلَةَ: الزلفى بفعل الطاعات وترك المعاصي.

نَكَالاً: عقوبة تمنع من العود.

إن القرب من الله عز وجل أعظم وأغلى أماني العبد المؤمن ، ومع أن القرب الإلهي لا يمكن الظفر به بشكله المحسوس والكامل إلا في الآخرة ، غير أن عملَ عبدٍ حين يتسبب في تقريبه من الله ؛ لمصادفته القبول والرضا لدى ربه ؛ فإنه يجرب هذا القرب في

هذه الدنيا بالذات بشكل يكيفية وجدانية لطيفة ؛ وذريعة الوصول إلى هذا القرب هي التقوى والجهاد، يعني عبادة الله وطاعته الدائمة على مستوى الخوف من الله ، والكفاح المتواصل في سبيله !

وقد يمر المرء في حياته بلمحات يجد فيها نفسه واقفاً بين الحق والباطل ، ويكون التقدم نحو الحق باعثا على تحطّم أنانيته ، مؤدياً إلى تشتت شمل مصالحه الدنيوية ، بينما يضمن الاتجاه نحو طريق الباطل ، ألا تزال أنانيته منتصبة القامة ، مرفوعة الرأس ، وأن تظل مصالحه المادية محفوظة من أي خطر يتهددها ، إن خوف المرء في موقف كهذا من الله – عز وجل – واستمساكه بالله مع التخلي عن المصالح الأخرى جملةً واحدةً ، ومواصلة السير قدماً على درب الحق ، بالرغم من كل المكاره والعقبات المزروعة على طول الخط، مما يقربه من الله – سبحانه وتعالى – ، وفي اللحظة ذاتها ينعم المرء بتجربة دنيوية عاجلة لهذا القرب الإلهي على مستوى الحس في شكل كيفية لطيفة ساميةٍ !!

وأما الشخص الذي يرفض – على عكس الأول – السير على طريق التقوى والجهاد فإنه قد اتجه نحو الكفر والجحود بالله ؛ ممّا يورطه في عذابٍ مقيم دائمٍ ، نتيجة انقطاع صلته بالله وابتعاده عن كنفه ، ولن يسعه أبداً أن يجد إلى التخلص منه سبيلاً !!

إن أمر الجزاء كله بيد الله الواحد الأحد ، وهو الذي سيحدد مصائر الجميع على حسب ما تقتضيه حكمته البالغة وقدرته الشاملة ، فليس هناك ما يدعو إلى اليأس أو التشاؤم المطلق بأن ما قد سبق صدوره من سيئات الأعمال لن يبرح عالقاً بصاحبه دون أن يزيله ، حتى لو أقلع عن ذلك كله فعلاً ، وأصلح نفسه وغير مجرى حياته العملية فيما بعد ، وليس ثمة ما يبعث على التفاؤل أو الاعتقاد الجميل القائل بكون أية قوةٍ أخرى تستطيع تغيير عاقبة بعض الناس بمالها من حق الشفاعة أو صلاحية التدخل في القضاء الإلهي المحتوم ! كلا ، بل الأمر بكليته راجع إلى مشيئة الله العليا وحدها !!

والعقوبات التي شرعها الإسلام بشأن الجرائم الاجتماعية ترمي إلى غرضين

رئيسين: أحدهما مجازاة المجرم على جريمته ، والثاني أن يتم تثبيط المجرمين الآخرين ؛ لأنهم لن يندفعوا إلى ارتكاب الجريمة نظراً لما لقيه أحدهم من عقوبة «رادعة» ، بيد أن المجرم لو شعر بالندم على ما فعل ، فتضرع إلى الله طالباً عفوه والمغفرة لذنوبه ، مصمماً على عدم العودة إلى سيرته السيئة المنحرفة السابقة في حياته المقبلة ، فالمأمول أن الله سيعفو عنه في العالم الآخر ؛ لأنه تعالى هو الغفور الرحيم.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) ﴾

سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ: يسمعون كلامك فيمسخونه ليكذبوا عليك فيه.

سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ: يسمعون كلامك للتجسس لقوم آخرين.

يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ: يبدلونه أو يؤولونه بالباطل.

فِتْنَتَهُ: ضلالته وكفره وإهلاكه.

خِزْيٌ: افتضاح وذل.

كان في المدينة صنفان من الناس ، يعملان على معارضة الدعوة الإسلامية وعرقلتها، هما: المنافقون واليهود ، أما المنافقون فهم أولئك الذين اندسوا في صفوف المسلمين متظاهرين بالانتماء الشكلي أو الاسمي إلى الإسلام ، دون أن يقبلوه من صميم قلوبهم بصدقٍ وإخلاصٍ؛ لأن دعوة الإسلام الحق كانت تمثل الضربة القاضية

على أغراضهم ومنافعهم الذاتية وأما اليهود فكانوا المتربعين على مناصب التمثيل الديني، ومن ثم يخيل إليهم أن الدعوة الإسلامية ، إنما جاءت تتوخى نزع الرياسة الدينية من أيديهم ، وخلْعهم عن كل الامتيازات ومظاهر الشرف والعظمة التي ظلوا متمتعين بها منذ قرونٍ!!.

وكان طبيعياً أن يتواطأ هذان الصنفان كلاهما من أجل القيام بشن الهجوم المعاكس على الإسلام مع بعضهما؛ لأن الإسلام في نظرهما عدو مشترك لكليهما ، وبما أن أشرافهم كانوا يستنكفون من الحضور بأنفسهم في مجلس رسول الله ﷺ باعتبار ذلك أمراً لا يليق بشأنهم ، لذا فكان أتباعهم هم المأمورون بأن يستمعوا إلى ما يدور بمجالس الرسول من حوارٍ أو حديث ، فيقوموا بإنهاء ذلك كله إلى أشرافهم ، ثم يتناول السادة كل ما يُوصل إليهم بتحميله المعاني العكسيةً ، حتى يشوهوا سمعة صاحب الرسالة ودعوته بين الناس ، وقد بلغ منهم العناد والطغيان مبلغاً لم يعودوا معه يتورعون عن تحريف كلام الله عن مواضعه وسياقاته الحقيقة ، لكي يستنتجوا منه مفاهيم وآراء مزعومةً تخدم أغراضهم ورغائبهم الدنيئة !

هؤلاء أناس لا يُخضعون أنفسهم لأوامر الله ورسوله إخضاعاً مطلقاً ، بل يُخضعون أوامر الله ورسوله لميولهم ونزعاتهم الذاتية ، ولا يأخذون من تلك إلا ما يتفق مع هذه ، والعكس بالعكس ، إن هذا الاتجاه أخطر فتنة يبتلى بها أحد الناس ، فكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا الذين يفضّلون دوماً جانب المنفعة والمصلحة على جانب الحق ، والذين يودّون أن تكون مقاعد الكبرياء والسؤدد محجوزةً لهم دون غيرهم على كل حالٍ من الأحوال ، والذين يدبرون مكائد وخططاً تخريبية ضد مسيرة الحق ، حتى ولو تناولوا الكلام الإلهي بالتحريف والتبديل لتبرير أعمالهم الهدامة ، فإن الأمر ينتهي بهؤلاء وأمثالهم في نهاية المطاف إلى الحرمان الكلي من الاستعداد لقبول الحق ، إنهم قطعوا علاقتهم بالله ، فإن الله أيضاً قابلهم بالتخلي عنهم ، ونتيجة حرمانهم من توفيق الله وتسديده لا يبرح أمثال هؤلاء غارقين في أمورٍ باطلةٍ وأشغالٍ تافهةٍ لا طائل تحتها ، إلى

أن يُساقوا أخيراً إلى عالم النّار!!.

وإن عبد الله الذي يكون قد رشح نفسه للاضطلاع بمهمة البلاغ والدعوة إلى دين الله الحق ، فلا ينبغي أن تخور عزيمته ، أو يتسرب الضعف إلى همته ؛ نظراً لكثرة المعارضين وشدة معاكساتهم ؛لأن النشاطات المعادية التي يمارسها هؤلاء الناس فاشلة دائماً ، ولن تُكلل بنجاحٍ ، لأنها ليست ضد شخصية الداعي ، بل ضد الله - عز وجل !، ومن ذا سيحالفه النجاح في مواجهة الله يا تُرى!! ، وغاية ما يطلبه الله تعالى من عملية الدعوة أن يتم إعلام الناس بجوهر الحقيقة على أفضل وجه ، وإلى أقصى حدٍ ممكنٍ ، وتلك غاية لابد أن تتحقق بفضل الله وعونه عاجلاً أو آجلاً!

﴿ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ: للمال الحرام. وأفحشه الرشا.

بِالْقِسْطِ: بالعدل ، وهو حكم الإسلام.

الْمُقْسِطِينَ: العادلين فيما ولوا وحكموا فيه.

يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ: يعرضون عن حكمك الموافق للتوراة.

المراد بالسُّحت الرشوة ومن صور الرشوة المعتادة الشائعة ، ما يتم تبادله بين الآخذ والمعطي ؛ من غير لجوءٍ إلى التمويه أو تسمية الشيء بغير اسمه ، ولقد كانت هذه الصورة من الرشوة متفشية بين عددٍ من طبقة العلماء اليهود ، الذين كانوا يعلمون الناس مسائل وأحكاماً خاطئةً مقابل تعويضات مادية معينةً .

غير أن هناك شكلاً آخر من الرشوة؛وبالرغم من كونه لا يتم فيه تبادل الأخذ والعطاء بين الطرفين على نحوٍ مباشرٍ ومكشوفٍ،ولكنه أعظم أنواع الرُشا وأشنعها على الإطلاق،وذلك أن يُعرض الدين الإلهي بعد صياغته وفقاً لاتجاهات العوام ورغباتهم ؛ بغية الحصول على صيت ذائعٍ،وسمعةٍ عريضة، وكسب احترام الشعب وحفاوته البالغة،واستدراراً لتبرعات الناس وهباتهم ونذورهم بصفةٍ منتظمةٍ دون انقطاعٍ !!

إن تقديم الدين في صورته الخالصة النقية من كل شوبٍ ، يكون دوماً على حساب أن يفقد المرء كل اعتبارٍ ونفوذٍ وحفاوةٍ بين الناس ، وعلى العكس من ذلك فلو تمّ عرض الدين بشكلٍ يتيح للمرء فرصة الانخراط في سلك التدين والمتدينين ، من غير أن يُلزمه بإحداث أي تغيير فعلي في حياته العملية ، فلسرعان ما يُقبل الجماهير على هذا الدين من كل صوبٍ ويتجمع حوله جموع غفيرة من سائر طبقاتهم !!

فالدين الذي يضمن الوصول إلى الجنة بواسطة مجموعة من الأعمال الشكلية التافهة وبدون تأكيد على ضرورة تغيير مسار الحياة المادية البحتة ، والدين الذي يُضفي على المعارك القومية والصراعات الدنيوية طابعاً دينياً ، والدين الذي تتوفر فيه إمكانية أن يتم تسجيل أعمال المرء وتصرفاته كلها في خانة التدين ؛ حتى ولو كان نشاطه من أجل الحصول على الوجاهة الدنيوية وتحقيق المنافع الذاتية لا غير ، إن المبشرين بهذا النوع من الدين طالما يحظون بنفوذٍ واسعٍ ومكانة مرموقة بين أوساط الجهلة والعوام بين عشيةً وضحاها!!

وزعماء اليهود قد صاروا مرجع السواد الأعظم من خلال ترويجهم لهذا النوع من الدين ، وكانوا يعرضون على العوام ((ديناً محبباً)) أو ((مفضلاً)) لديهم ، فلا غرو أن كان العوام بدورهم يقابلونهم بتقديم المعونات المالية إليهم ، إلى جانب إحاطتهم بهالةٍ من التجلة والإكرام!!

وفي هذا الوضع كان من الطبيعى أن تشتد عليهم وطأة الدعوة إلى الدين الحق ، التي

دعا إليها رسول الله ﷺ في الجزيرة العربية ، لأن ذلك بمثابة تحطيم لبنيان منافعهم ، ممَّا ملأهم بغضاً ومكابرةً وحقداً على النبي ﷺ إلى حدٍ لم يعد معه أي خبر جميل يتصل بذاته - عليه الصلاة والسلام - يروقهم ، أو يظفر بشيء من اهتمامهم ، ولو أنهم سمعوا عنه مرةً أي خبرٍ غير جميل، يتناولونه بالنشر الفوري بين الناس ، مع الإضافة إليه من عند أنفسهم ما يزيده سوءاً ، ويجعله أكثر إثارة لمشاعر الاستياء والتقزز في النفوس!!

والذين بلغوا إلى هذا الدرك من الفساد والانحطاط والتدني ، يتحاكمون بعدئذ إلى حكم أو مصدرٍ ديني بدافع اتباع الحق والعدل ، بل رجاء أن الحُكْم سيصدر وفقاً لأهوائهم، وأما إذا لم يتحقق هذا الرجاء، فلا شيء يمنعهم من رفض الحكم الصادر رفضاً باتاً ، رغم كونهم عارفين بأنه حكم الله ورسوله ! ويغيب عنهم أن موقفهم لا يعني محض رفضٍ وإنكارٍ لحكم من الأحكام الدينية وحده ، بل إنكار للإيمان والإسلام !

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

أَسْلَمُوا: انقادوا لحكم ربهم في التوراة .

وَالرَّبَّانِيُّونَ: عباد اليهود، أو العلماء الفقهاء.

وَالأَحْبَارُ: علماء اليهود.

وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم: اتبعنا على آثار النبيين.

إن كتاب الله إنما يُنزل من أجل أن يهدي البشر جميعاً إلى طريق فلاحهم ، ويخرجهم من ظلام العبودية للشهوات الباطلة إلى نور العبودية للحق ، فالذين يخافون الله ، ينظرون إلى كتاب الله على أنه عهد مقدس بين العبد وربه ، فيبذلون قصاراهم للوفاء بحقه ؛ إن كتاب الله ترجمان لقضاء الله وإرادته في حق العباد ، إذن فالضرورة تقتضي أن يعالج العباد كل شئونهم ومعاملاتهم في الحياة في ضوء توجيهاته ، وأن يتخذوا من أحكامه وتعليماته أساساً لفصل الخصومات والمنازعات الناشبة بينهم ، أما إذا لم يُعْطَ لكتاب الله هذا الاعتبار، بل يبعد عن ميدان الحياة العملية ، وظلت جميع الأمور والمعاملات خاضعةً لرغبات الأفراد الشخصية ، ومصالحهم الدنيوية ، فسيكون ذلك بمثابة إنكار الكتاب الإلهي ورفضه ؛ مهما بالغ الناس في تقديسه واحترامه الظاهري على وجه التبرك!!

والذين يصفون أنفسهم بأنهم ((مسلمون)) ، ثم لا يحكمّون كتاب الله في أمور حياتهم وقضاياها الفردية والاجتماعية كلها ، رغام تمتعهم بكامل الحرية والاختيار ، بل لا يزالون يتبعون شريعة الأهواء والرغبات ، فإنهم إذن عند الله ((كافرون)) و((ظالمون)) و((فاسقون)) أى منكرون لحاكمية الله وسلطته العليا ، ومضيعون للحقوق والذمم ، وخارجون عن عهد الانقياد والطاعة لله ، فإن تقاعس المرء عن تطبيق أحكام الشريعة الإلهية تطبيقاً عملياً، وإهماله إيّاها عن عمدٍ ودرايةٍ ، يجعل وجوده هيناً على الله ، بحيث لا يبقى له قيمة في نظره تعالى !

أما فيما يتعلق بالقصاص ، فإن الشريعة تقتضي أن يتم تنفيذه ، من غير نظرٍ إلى مكانة

الجاني أو اكتراثٍ لمركزه الاجتماعي كائناً من كان ، إلا أن العدوان ، قد يرجع سببه في بعض الأحايين إلى دافعٍ وقتي،وليس إلى كون صاحبه شريراً عدوانياً بطبعه ، وفي حالة كهذه ، لو عفا المجروح عن الجارح طوعياً ، فسيكون ذلك صدقةً منه على هذا الأخير، كما يكون ذلك أيضاً باعثاً قوياً على سيادة معاني الجود والتسامح والتراحم في المجتمع.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) ﴾

وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ: رقيبا وشاهدا على ما سبقه.

عَمَّا جَاءكَ: عادلا عما جاءك.

شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا: شريعة وطريقا واضحا في الدين.

لِيَبْلُوَكُمْ: ليختبركم وهو أعلم بأمركم.

إن المراد من ((الكتاب)) هنا هو أصول الدين وتعاليمه الأساسية ، وليس ((كتاب الله)) هذا - بوصفه أصل الدين وأساسه - إلا كتاباً واحداً ، وقد أُنزل هذا الكتاب الواحد على جميع الأنبياء بدون استثناءٍ مع اختلافٍ في اللغة والأسلوب ، وتباين في الترتيب أو النسق الذي جرى عليه التنزيل .

على أن القالب أو الهيكل الظاهري الذي تتجسد فيه حقيقة الدين لم يكن دائماً من نوعٍ وحجمٍ واحدٍ ، بل ما زال يختلف من نبي إلى آخر ، وليس السبب وراء هذا الفارق أن الدين قد جرى نزوله على نسقٍ تطوري أو تقدمي ، يعني أن الدين الذي تم إنزاله أول الأمر كان ديناً ناقصاً وأقل تقدماً ، ثم أخذ يتطور ويتكامل على تعاقب العصور ،

حتى نزل آخر الأمر في صورة دين أكمل وأشمل وأكثر تقدماً ، إنما السبب وراء هذا الفارق يكمن في حكمة الابتلاء الإلهي، وليس في حكمة التطور الديني مجاراةً للارتقاء البشري ، كما ذهب إليه المفسرون عموماً ، ولاسيما المحدثين منهم في تعليل هذه الظاهرة ، فقد أشار الله - عز وجل - بنفسه إشارةً واضحةً إلى أن الغاية المتوخاة من وجود الفرق بين شرائع الأنبياء هي اختبار الناس لا غير ، حيث قال جل شأنه : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ .

إن آفة التدين منذ القِدَم ، أن حقيقة الدين الجوهرية لا تلبث أن تضيع وتتلاشى على مرّ الأيام ، بينما تكتسب الظواهر والأشكال أهميةً وقداسةً كأنها الأصل المطلوب لذاته، فيظن الناس أن العبادة ليست سوى تكرارٍ رتيبٍ لهيكل معينٍ وفق شروطٍ وآدابٍ ظاهريةٍ خاصةٍ ، ومن أجل إصلاح هذا الاتجاه الخاطئ ، فقد تنُوول الهيكل الظاهري للدين بالتغيير والتبديل مرةً بعد أخرى ، حتى لا يعود الهيكلُ ينظر إليه على أنه هو الهدف المقصود لذاته، وبالتالي تتركز الاهتمامات والتوجهات كلها على الله تعالى وحده، إذْ لا شيء سواه يصلح أن يكون مقصود البشر ، ومثال ذلك تحويل القبلة.

ومع أنه لم يعد الآن أي احتمال لحدوث تغيير من هذا النوع ؛ لأن النبي هو الذي يقوم بتغيير الهيكل ؛ ولا نبي بعد ختم النبوة - على صاحبها صلوات الله وسلامه - ولكن المطلوب الأصلي من العباد مازال قائماً كما هو ، إذْ لا ولن يُعتبر عند الله عابداً صادقاً له، إلا الذي يعبد الله متحرراً من أسْر المظاهر والرسوم الشكلية ، والذي لا يرفعه إلى مستوى الهدف المقصود لذاته ، وقد كان هذا الغرض يتحقق من ذي قبل عبر تحطيم الهيكل الظاهري، أو استبداله بهيكل آخر جديد ، أما الآن فلا سبيل إلى تحقيقه إلا العمل الدائم على تحطيم الجمود الفكري ، والسهر المقصود على تنقية التصورات الدينية الجوهرية من الشوائب!!

وما هذه الخلافات والمناقشات الحادة التي تُثار حول ظواهر الدين وفروعه إلا

نتيجة حتمية لغفلة الناس وذهولهم عن جوهر الحقيقة ، وإنه لا تلبث كل هذه الخلافات أن تنتهي فيما لو أدرك الناس الحقيقة على الشكل الذي ستتخذه في العالم الآخر.

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

أَن يَفْتِنُوكَ: يصرفوك ويصدوك بكيدهم.

ليس القرآن وما سبقه من الصحف السماوية كتباً متغايرة مستقلة بعضها عن بعض، إنما هي نسخ أو طبعات مختلفة لكتابٍ إلهي واحدٍ ، لا غير ، والتي أُطلق عليها ((الكتاب)) في الآية السابقة.

إن كل الكتب التي نزلت من عند الله ، على اختلاف لغاتها والعصور التي نزلت فيها، كانت تحتوي أساساً على مضامين مشتركةٍ مماثلةٍ بعضها لبعض إلا أن حملة الكتب السابقة لم يتمكنوا من الاحتفاظ بها ، في صورها الأصلية الناصعة فيما بعد مما اقتضى أن أنزل الله تعالى أخيراً القرآن الكريم ، بوصفه ((كتاباً مهيمناً)) على ما سبقه من الكتب ، فالقرآن هو الطبعة المعتمدة - الموثوق بها - لكتاب الله الواحد ، وهو بذلك يقوم محكاً أو معيارا للمعرفة عن الكتب السابقة وما لا يزال - الآن - محتفظاً بهيئته الأصلية الأولى عن بقايا الكتب السابقة ، التى عبثت بها أيدى التحريف والتزييف ، فلم تعدْ كما كان فى أول عهدها.

ومع أن سنة الله - المتمثلة في إمهال أعداء الحق لتحقيق نواياهم المشؤومة - تضع دعاة الحق موضع اختبارٍ شاقٍ عسيرٍ للغاية ، إلا أنها العملية التي يتم من خلالها التميز

الفعلي بين الذين هم أهل للجنة، والذين هم أصحاب السعير!!

إن ضعْف الإنسان يكمن في ولعه بالانسياق وراء رغباته الذاتية ، وهو بذلك ،كثيراً ما يستثقل أن يعيش ملتزماً بحدود الله ، حتى إنه قد يتناول الدين الإلهي بتفسيره تفسيراً مزعوماً ليتواءم مع أهوائه ونزعاته الشخصية !، فلنْ يَقْبل الدين الخالص إذن.

إن كلام الله أصْوب الحديث وأصْدقه ، غير أن هذا العالم عالم اختبارٍ وابتلاءٍ ، فلا يُوجد صدق إلا وهو مقنّع بغلاف من الريب ، وامتحان المرء أن يؤمن بالصدق ممزقاً غلاف الريب ذاك من على وجهه، أي أنه مطالبٌ بأن يشاهد عالم الغيب المستور في هذا العالم المنظور ذاته ، والفاشل في هذا الامتحان هو الذي لم يرتفع بنفسه إلى هذا المستوى، وظل متورطاً في الشبهات الظاهرية ، أما الشخص الذي أدرك الصدق ، عبْر ما يحيط به من غبار الشبهات الظاهرية فهو الفائز بالنجاح حقاً.

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

أَوْلِيَاءُ: تؤاخونهم وتستنصرونهم.

تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ: يدور علينا الدهر بنوائبه.

بِالْفَتْحِ: بالنصر لرسوله ﷺ.

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ: مجتهدين في الحلف بأغلظها وأوكدها.

حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ: بطلت وضاعت.

لم تكن شوكة الإسلام قد تمكنت بعدُ بالجزيرة العربية ، ولا كان المسلمون قد استقروا في أقطارها بعدُ ، على حالٍ كذلك ، وزدْ على هذا أن معارضيهم كانوا يبذلون جهوداً مكثفةً دائبةً لقمعهم واستئصال شأفتهم ليل نهار ، هذا من جهةٍ ، ومن جهةٍ أخرى كانت القبائل اليهودية والنصرانية في الجزيرة تتمتع بنفوذٍ واسعٍ ومكانةٍ عظيمةٍ لدى الناس ، لما كان لها من تاريخ مجيدٍ يمتد إلى مئات السنين الماضية ، إلى جانب سيطرتها على معظم وسائل الاقتصاد وموارد المعيشة في البلاد دون منازعٍ ، مما جعل عامة الناس يرون من المستبعد أن قوةً كهذه يمكن التغلب عليها أو اقتلاع جذورها العميقة من البلاد كما خلق ذلك أيضاً اليأس في نفوس ضعفاء الإيمان في صفوف المسلمين من مستقبل الدعوة الإسلامية ، فكانوا يتحاشون أن يُسهموا في نشر الإسلام على نحوٍ يتسبب في دفع اليهود والنصارى إلى معاداتهم، فلابد إذن من استبقاء مودّتهم، عسى أن يسفر هذا الصراع عن هزيمة المسلمين وانكسارهم - فيتعرضوا لإجراءات انتقامية تعسفية من قبل اليهود والنصارى المنتصرين القاهرين !!

ومن المدهش حقاً أن هؤلاء في محاولتهم تلك للوقاية من خطر المستقبل الوهمي قد أوقعوا أنفسهم في خطر الساعة الأكيد ، ألا هو ولاؤهم المزدوج الذي مارسوه توسلاً به لكسب الثقة عند معارضي الإسلام ، والذي جرّ عليهم الشقاء والخسارة الأبدية من حيث أرادوا به نيل الربح والسعادة !

إن الشخص الذي ينضوي تحت راية الحق يستمر ، مادامت الأمور سهلة المأخذ ، مأمونة العاقبة ، ثم لا يلبث أن ينضم إلى جبهة الباطل ، ويقلب لأهل الحق ظهر المجن ، في حالة ما إذا كانت النتائج تبدو مخيفةً أو غير مضمونةٍ ، ولن يُحشر عند الله تعالى إلا مع الذين وقف إلى جانبهم في مواقع الخطر والخوف !!

وإن من أخطر المواقف التي يمر بها أحد في حياته ، الموقف الذي يفرض عليه نوعاً

من التضحية كثمن لابد منه للبقاء على الإسلام ، فإن هذه المواقف إنما تأتي لتؤكد صدق إسلام المرء أو ترفضه وتكشف عن زيفه ، والله - سبحانه وتعالى - يريد للمرء أن يثبت إسلامه في تلك المناسبات ، التي تتطلب كبت العواطف المنبعثة أو تعرّض حياته وماله لخطرٍ محققٍ ، تماماً، كما كان يثبت إسلامه ذاك في ظروف الأمن والدعة والاستقرار،وبعد تمام اجتيازه هذه الامتحان بنجاح فقط،يصلح المرء ليسجله ربه ضمن عباده الأوفياء المخلصين له الدين كله ، إن إثبات الولاء للإسلام في هذه المواقف هو الذي يُكسب سوابق أعمال شخصٍ ما قيمةً ووزناً حقيقيين ، وأما إذا لم يتمكن من إثبات ولائه للإسلام في هذه المواقف الحاسمة ، فمعنى ذلك أنه قد أحبط أعماله السابقة كلها إحباطاً ، بحيث لم تعدْ لها أية قيمة ولا وزنٍ عند الله - جل وعلا !

إن كل اختبارٍ في هذه الدنيا هو اختبار لقوة الإرادة أولاً وآخراً وما على المرء إلا أن يثبت إرادته ؛ فيقدم أولى خطواته نحو الله ، وإنه حين إن يفعل ذلك يفاجأ بصيرورة النصر الإلهي حليفه على الفور ، وأما الشخص الذي لم يثبت إرادته ، فلم يتقدم بأولى خطواته نحو الله ، فهو عند الله ظالم ، وليس الله بممدّ الظالمين بتوفيقه ونصرته من طرفٍ واحدٍ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ: عاطفين عليهم رحماء.

أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ: أشداء عليهم غلظاء.

لَوْمَةَ لائِمٍ: اعتراض معترض في نصرهم الدين.

وَاللهُ وَاسِعٌ: كثير الفضل والجود.

إن الشخص الذي يرفض الوفاء بمقتضيات الإيمان ، بعد دخوله في دائرة الإيمان ، هو عند الله من الذين قد ارتدوا عن الدين ، وإنما المؤمنون الصادقون عند الله هم الذين يتوغل الإيمان في أعماق قلوبهم فيغمر كيانهم بمحبّة الله ، ويزيدهم حرصاً على تحقيق الأهداف الإسلامية ، فلا تنطوي صدورهم لإخوانهم المجاهدين من أجل الإسلام على شيء غير اللين والرأفة والمواساة، ويصل عطفهم وإشفاقهم على جماعة المسلمين إلى حدٍ لا تُستخدم معه طاقاتهم وصلاحياتهم أبداً فيما يؤدي إلى الإضرار بالجماعة المسلمة أو يتهدد مصالحها، وأن تبلغ صرامتهم وتصلّبهم في أمر الدين مبلغاً يقيهم من التأثر بأفكار غير المسلمين ونشاطاتهم كلها ، وأن تصير عواطفهم كلها خاضعةً للمبدأ على نحوٍ يجعل منهم أرق من النسيم وألْين من أوراق الورد ، إذا تعاملوا مع إخوانهم المسلمين ، وأغلظ وأقسى من الصخور الصمّاء في مواجهة غير المسلمين ، حتى لا يوجد طامع من غير المسلمين في سبيل استغلالهم للوصول إلى غاياته ومآربه المشبوهة .

والحياة الإسلامية حياة هادفة ، وملؤها الكفاح والمشقة والعناء ، ورسالة المسلم أن يقوم بإبلاغ دين الله إلى عباد الله أجمعين ، وأن يبذل قصاراه لتحويل اتجاه البشرية الضالة المنحرفة من طريق جهنم إلى طريق الجنة ، ولذلك يواجه المؤمن القائم به ألواناً شتى من المشاكل والصعوبات ، ويلقى ضروباً لا تحصى من الملامة واللائمين ، حتى يظهر إلى الوجود فئتان مستقلتان إحداهما عن الأخرى ، في المبدأ والغاية : فئة رجال الدنيا ، وفئة المسافرين إلى الآخرة ، وتأخذ هاتان الفئتان في صراعٍ عنيف دائم لا يبلغ نهايته أو تهدأ حدّته ، وامتحان المؤمن أن يمرّ بكل المواقف والمحطات على طريق رحلته الإيمانية الطويلة ، كإنسان زادُ سفره الثقة بالله والاعتماد عليه وحده ، لا غير، فيواصل مسيرته من غير كللٍ أو مللٍ وغير آبهٍ لأحدٍ سوى مرضاة الله تعالى ، حتى يصل أخيراً

إلى ربه عبر بوابة الموت!

وإنه إذا بلغ تعداد الأفراد من هذه النوعية في مكانٍ ما إلى عددٍ ملحوظٍ ، قُيض لأنفسهم الغلبة على الأرض والتمكين فيها كذلك ، وهؤلاء أناس يهتمون بإقامة الصلاة أبلغ الاهتمام ، يعني أن يصبح الله مركز عناياتهم وتوجهاتهم كلها ، ويقومون بتأدية الزكاة خير قيام ، أي أن علاقاتهم المتبادلة تقوم على أساس من التناصح والتكافل فيما بينهم ، ويكونون دائماً خاشعين متذللين أمام الله ، يعني أنهم يعالجون كل قضيةٍ من قضايا الحياة ملتزمين بمشيئة الله فيها ، واقفين عند حدوده المرسومة لها ، غير مدفوعين بدوافع الأنانية والتعنت واللجاجة، فإن سمتهم المميزة التواضع وليس التمرد والعناد!

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

هُزُواً وَلَعِباً: سخرية، وهزلا ومجونا.

تَنقِمُونَ: تكرهون أو تعيبون وتنكرون.

وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ: أطاع الشيطان في معصية الله.

سَوَاءِ السَّبِيلِ: الطريق المعتدل وهو الإسلام.

المحتكرون لمقامات العبودية الإلهية ، مستأثرون بمظاهرها لأنفسهم ، بناءً على دينٍ مزعومٍ زائفٍ ، حين تقوم بينهم الدعوة إلى الدين الحق وبصورته الخالصة الأصيلة ، فإنهم يشعرون بكره بالغٍ ومقتٍ شديد نحوها ، لدرجة أنهم لا يتمالكون أن يفقدوا معقوليتهم ، ويصابوا بحالة نزقٍ وعدم توازنٍ ذهني تجعلهم يأخذون في الاستهزاء بالأشياء التي لا جدال في كونها جديرةً بالاحترام بالبداهة ، وقد كان يهود المدينة مُصابين نفسها بهذه الحالة إزاء الدعوة الإسلامية، فلم يتورعوا عن الاستهزاء والسخرية من أذان المسلمين والتلاعب بكلماته المقدسة ، والذين بلغوا إلى هذا الدرك الأسفل من البلادة وانعدام الوعي واللاجدية، فقد يُحتمل أن تُوجد هناك علاقة الدعوة بينهم وبين رجلٍ مسلمٍ ، وأما علاقة المودة والصداقة فلا.

وبسبب تجردهم عن مخافة الله وتقواه ، يسهل على هؤلاء وأمثالهم أن يسيؤوا الظن بالمسلمين الصادقين ، ويعتبروهم عصاةً مجرمين ، ويكونوا متأكدين من أنه لا غضاضة في سلوكهم ، وأن موقفهم هو عين الصواب عند الله تعالى !! ثم إنهم إذا لم يُعنوا بإصلاح عوجهم الذهني ذاك ، فإن بلادة إحساسهم تؤدي بهم نهائياً إلى حيث تتعطل عقولهم تمام التعطل ، فلا تعود تقدر على التمييز بين الحق والباطل ، وبين الخير وضده ، ومن ثم فهم ينقلبون أشر من البهائم في شكل الآدميين ، إذْ تتلاشى وتضمحل في داخلهم كل تلك الأحاسيس اللطيفة السامية التي تعمل في ضمير الإنسان عمل حارسٍ إلهي يزجره عن الاستجابة لدواعي الشر والغواية ، ويحثه على اتباع طريق الخير والرشاد ، مثل : الحياء ، والنبل ، والتسامح ، والميل إلى المسالك النزيهة والأساليب الفطرية الجميلة.

وآخر دركات هذا التدهور والانحلال أن تجري حياة المرء العملية بأكملها على سبُل الشيطان ، وعندما يصل الأمر بطائفةٍ ما إلى هذه الغاية ، فإنها لا تستحق شيئاً سوى اللعنة، فلا تلبث أن تبتعد أقصى مراحل البعد عن الرحمة الإلهية ، وتمسخ إنسانيتها مسخاً ، وتعيش عيشة الوحوش والبهائم منحرفةً عن خطا الفطرة المستقيم !

إن عقل الإنسان هو الذي يحول دون اندفاعه وراء شهواته ونزواته اندفاع الأعمى،ولكن حين يستحوذ على الإنسان مشاعر البغض والعداوة والعناد يندمج عقله تحت هواه،ويفقد فاعليته وإيجابيته، فرغم كونه- وقتئذ - يبقى في ظاهر الأمر إنساناً،إلا أنه يستحيل حيواناً من حيث باطنه،وقد يكون بمستطاع رجلٍ ذكي الفؤاد،نافذ البصيرة أن يعرف عقب النظر إليه أي حيوان يختفي وراء هيكله البشري الظاهري !!

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ: المال الحرام ، وأفحشه الرشا.

الرَّبَّانِيُّونَ: عُباد اليهود ، أو العلماء الفقهاء.

وَالأَحْبَارُ: علماء اليهود.

إن المدّ الإسلامي المتصل وتعداد المسلمين المتزايد يوما بعد يومٍ ، ملأ نفوس عددٍ غير يسير من يهود المدينة رعبا وفزعاً ؛ فلم يعودوا يطيقون أن يتصدوا لمناوأة الإسلام مناوأة صريحة ومكشوفةً ؛ فلجؤوا إلى التظاهر بالإسلام من خلال أداء كلمات الإيمان والتسليم بألسنتهم ، على أنهم ظلوا كما كانوا من قبل - متشبثين بدين آبائهم الموروث ، ويغيب عن هؤلاء وأمثالهم أنهم لا يتعاملون مع أي إنسانٍ في واقع الأمر ، بل يتعاملون مع الله ، والله هو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور والضمائر ! وأنه تعالى سيحكم على كل إنسانٍ باعتبار الحقيقة ، وليس بناءً على محض الكلمات التي كان قد لفظها يوماً من أجل منفعة أو مصلحةٍ ما!!

وكانت طبقة الخواص من اليهود حينئذ تضم صنفين : أحدهما ، الربّيون أو الربانيون، ويمكن أن يطلق عليهم «المشائخ» ، وثانيهما الأحبار ، الذين كانوا عندهم بمنزلة الفقهاء وعلماء الشريعة ، على أن كلا الصنفين كان قد اتخذ من الدين ورده الذي يتلوه بالغدوّ والآصال ، كما أن صرح قيادتهم كان قائماً على أساس من الدين ، وباسم الدين نفسه كانت تنثال عليهم مبالغ مالية ضخمة ، غير أن سر قيادتهم وسُمعتهم الشعبية العريضة في إرضاء العوام وليس في إرضاء الربّ ، ويبدو أن كلامهم ونشاطهم كله ليس إلا من أجل الدين ، والدين وحده ، ولكن ذلك لم يكن إلا تجارةً دنيوية رخيصةً كانت تُمارس باستغلال شعار الدين إنهم كانوا يعطون للناس باسم الدين الشيء نفسه الذي كانوا قد استحبوه لأنفسهم بغير الدين.أي تسويغ التظاهر بلباس الدين بدون التمسك الفعلي بتعاليمه ، وهو نوع من التدين يخنق روح الدين نفسه !!

إن الدين المحبب إلى الله هو دين التقوى ، يعني أن يعيش الإنسان بين أبناء جنسه ، فلا ينطلق لسانه بكلمات الإثم ، وأن يكون متحرزا غاية التحرز من الطرق المحرمة في نشاطاته العملية ، ومتحرياً العدل والإنصاف في التعامل مع جميع الناس ، دون أن يَظلم أحداً أو يبغى عليه ، غير أن نفس الإنسان دائماً ما تدفعه دفعاً نحو اتجاه المادية والنفعية، فالإنسان يريد أن يمارس حياة لا تُملي عليه ضرورة النظر إلى الصواب والغلط إنما تستوجبه رعاية مصالحه ومنافعه الذاتية ، وكان عامة اليهود على هذا الوضع ؛ مما كان يفرض على خاصتهم أن يقوموا بنهيهم عن ذلك ، وإرشادهم إلى طريق الخير والمعروف، ولكنهم لاذوا بالصمت، كما تم بينهم وبين العوام تفاهُم غير منطوق ، ثم نشروا ديناً بين أوساط العوام انطوى على ضمانٍ أكيدٍ للنجاة ، والبلوغ إلى الدرجات العلا من غير حاجة إلى إحداث أي تغيير حقيقي في الحياة .

إن هؤلاء الخواص لم يتناولوا حياة عامتهم الحقيقية بالشجب والانتقاد،وبدلاً من ذلك كانوا يتغنّون أمامهم بأقاصيص خرافية كاذبةٍ عن فضائل الملّة اليهودية،ويصبغون معاركهم القومية بصبغة الدين ويبشرونهم بأن قصوراً شامخاتٍ ستشيد في جنة

الخلْد،فيما إذا قاموا بإعادة كذا وكذا من الأعمال الرسمية للغاية .

وإنه لعمل متناهٍ في القبح والشناعة عند الله أن ينشر أحد بين الناس ديناً لا يستوجب القيام بتغيير الحياة الحقيقية العملية تغيراً جذرياً ملموساً ، بينما يضمن الفوز بالجنة على محض الاهتمام بمراسم سطحية ومظاهر خلابة فارغة !

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

مَغْلُولَةٌ: مقبوضة عن العطاء بخلا .

وعندما أكد القرآن على الإنفاق في سبيل الله ، وإعطائه ((القرض الحسن)) ، فاتخذ منه اليهود موضوع سخرية واستهزاءٍ ، فيقولون : إن الله فقير وعباده أغنياء ، وإن الله يُعاني في هذه الأيام من حالة العُسر وضيق ذات اليد ، لذا يطلب منهم الدين!! (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً) ولم تكن أقوالهم تلك موجهةً أساساً إلى الله ، بل إلى الرسول والقرآن ، فقد علموا جيداً أن الذات الإلهية أعلى وأرفع من كل نقصٍ وعوزٍ ، وإنما يهدفون من أقوالهم إلى إيهام السذّج البسطاء من الناس بأن هذا النبي ليس بنبي صادقٍ، وأن القرآن ليس بكتاب الله، إذْ لو كان القرآن كتاباً منزلاً من عند الله لما كان فيه ما فيه من هذه السخافات والمضحكات (نعوذ بالله من ذلك).

ومثل هذه الأقاويل وأشباهها تدل على أن أصحابها ليسوا من العاطفة الدينية الصادقة في شيء ، وأنهم يعيشون على مستوى القسوة والبلادة ، وفي أعمق دركٍ من انعدام الوعي وجمود الفكر!!

وإن إنكار اليهود لهداية القرآن لم يكن محض إنكارٍ بالمعنى البسيط، بل ناشئ عن

زعمهم القائل إننا الشعب المخلص أو مضمون النجاة ، فما الذي يحوجنا إذن إلى الاعتراف بأية هداية أخرى !! ، وإنه إذا تخدّرت عقول قوم بنفسية الغرور والتفاخر من هذا النوع ، تولدت في نفوسهم أشد وأخطر أنواع العُجب والأنانية ، ولا يكاد يرضى هؤلاء بالتخلي عن أنانيتهم وعجبهم ذلك حتى في أثناء تعاملاتهم مع الآخرين في الحياة اليومية ، مما يُورث البغضاء ويملأ المجتمع فرقة وعناداً وعداوةً !

إن دعوة النبي تتمثل في حث الإنسان على التمسك بدين الطاعة الإلهية ذاته ، الذي يدين به الكون بكل ما فيه، وهذا هو إصلاح الأرض ، إذًا فإن الذين يتصدوْن الآن لعرقلة الدعوة النبوية ، إنما يعملون على إثارة الفساد في الأرض .

بيدْ أن الإنسان تنحصر حريته في أن يقذف بفساده الداخلي إلى الخارج فحسب ، ولا أحد يملك الحرية لتقرير مستقبل غيره أو التصرف في نصيبه المفروض من القدر الأعلى.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ: معتدلة ، وهم من أسلم منهم.

إن السبب الرئيسي وراء ظواهر الانحراف والضلال يرجع إلى عتو الإنسان وتمرده، إذْ لو كان يخاف الله حقاً فلسرعان ما يدرك الكلام المنزل من عند الله من غيره ، فإن نفسية الخوف ستقضي على كل ما تعتمل في داخله من دوافع ومحركات أخرى، ولن يلبث المرء بالتالي أن يعرف كلام الله على الفور ، ويبادر إلى الإيمان به ، وإذا صرف المرء اهتمامه نحو الله ، صار مستحقاً لتنصرف عنايات الله تعالى إليه ، فيقابله الله بتطهيره من

نقائصه البشرية، وتبوئته بعد الموت منزلاً كريماً في حدائق الجنة ذات البهجة والنعيم المقيم.

إن سيئات المرء ، أو نقائصه ومآخذه النفسية تقف عثرةً في طريق تقدمه نحو الجنة ، ولا يسعد بالوصول إلى الجنة إلا الشخص الذي كتب الله له التوفيق للتغلب على مآخذه ونقائصه النفسية !!

وحينما تقوم دعوة الحق ، فإنها لا تلبث أن تصير مصدر القلق والإزعاج للذين يحتلون مكان الرئاسة في ظل النظام السابق ؛ وذلك لحذرهم من الانضواء تحت رايتها فتصبح مصالحهم الاقتصادية وأمجادهم القيادية هباءً منثوراً.

غير أن هذا الحذر ليس إلا نتاجاً لضيق أفق النظر ، فيغرب عن أصحابه أن الدعوة التي يرمقونها بعين القلق والانزعاج ، إنما ظهرت إلى الوجود لاختبار جدارتهم وصلاحيتهم، فإن استحقاقهم لإنعام الله وجوائزه ، أو عدم استحقاقهم لذلك ، لن يترتب على ما يتخذونه هنا من تدابير تحفظية ، بل إنما يتوقف على موقفهم الذي يقفونه من دعوة الحق ، وعلى هذا الاعتبار فكأن لجوءهم إلى إنكار دعوة الحق هو الشيء الذي يسحب جدارتهم واستحقاقهم عند الله تعالى !!

إن الأمم الكتابية دائماً ما تصطنع ديناً مزعوماً مزيفاً عن طريق الإفراط أو التفريط في التعاليم الإلهية الأصيلة ، وعلى توالي الأيام يألفه أبناؤها بدورهم ويعتبرونه الدين الإلهي الأصيل ، وعندما يظهر أمامهم دين الله الحق القويم فيصابون بالانزعاج والنفور منه ، لعدم استئناسهم به .

وهكذا كان حال اليهود والنصارى ، فقد ظلت أكثريتهم عاجزةً عن الظفر بصدق الإسلام ماعدا أفراداً قلائل منهم - كالنجاشي ملك الحبش ، وعبد الله بن سلام وغيرهما - الذين كانوا قائمين على جادة التوسط والاقتصاد ، فلم يصعب عليهم أن يدركوا صدق الإسلام ، وقد بادر هؤلاء باعتناق الإسلام كما لو كانوا يسيرون على

الدرب ذاته من ذي قبل ، وإنما جاء انضمامهم إلى جماعة المسلمين امتداداً لمسيرتهم ومواصلة لها !

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

عندما بُعث نبي الإسلام ﷺلم تكن جزيرة العرب خالية من المنادين بالدين أو الممارسين له ، بل إن أساس المجتمع العربى كان قائماً على شعار الدين، وكان ثمة أناس كثيرون قد بلغوا أعلى مراتب الإمامة والقيادة باسم الدين ، وتصلهم مبالغ مالية كبيرة بعنوان الدين ، كما كان احتلال المناصب الدينية في المجتمع آنذاك يُعد رمزاً للمجد والفخار ، وبالجملة فلم يكن الدين أمراً غريباً أو شيئاً غير مألوفٍ لدى سكان الجزيرة العربية، ولكن بالرغم من ذلك فقد ووجه عليه الصلاة والسلام بمعارضةٍ أشد وأعنف ما يكون من قبل العرب ، فما تعليل هذه الظاهرة إذن !!

يرجع السبب في ذلك إلى أن دينا مزعوماً كان قد انتشر ونال رواجاً وقبولاً واسعين بينهم حاملاً شعار الدين الإلهي ، ونتيجةً لتقاليد القرون المتطاولة ظهرت إلى الوجود مقاعد الشرف والوجاهة تحت عنوان هذا الدين المزعوم ، كما ساعد ذلك أيضاً على إيجاد صورٍ كثيرةٍ مختلفةٍ للمنافع والمصالح ، وفي بيئة كهذه ، لما قام نبي الإسلام ﷺ بتقديم دعوة الدين الخالص إلى الناس خُيل إليهم أنها جاءت لكي تُلغي اعتبارهم الديني وتسحب امتيازاتهم ، فامتلأت نفوسهم حذراً وخوفاً من أن الدين الجديد إذا شق طريقه نحو القبول والانتشار على نطاقٍ واسعٍ، فسينهار تلقائياً هيكلهم الديني ، الذي لم يبلغوا إلى ما بلغوا إليه من قمة المجد والسيادة إلا في ظله !!

وهذا الوضع يشكل خطورةً كبيرةً للداعي ، فيصير قيامه بعمله الدعوي على مرأى ومسمع القوم بمثابة الصدام والتقاتل مع سلطات العصر الدينية ، إذْ يقول لنفسه: إنني لو قمت بتبليغ الدين الحق، بدون تنازل أو مصالحة أو استسلام سأقابل برد فعلٍ

قاسٍ وعنيفٍ للغاية، وأجعل من نفسي موضع السخرية والإهانة والتذلل ، وستتعرض أسباب معيشتي للإتلاف والتدمير ، وستُتخذ ضدي إجراءات عدوانية تعسفية ، وسأُحرم من الأعوان والأنصار فأبقى وحيداً في الساحة !!

فالداعي يجد نفسه أمام خيارين أحلاهما مرّ : القيام بمسئوليات الدعوة ، مع العلم بأن ذلك يؤدي إلى أن ينفلت زمام المصالح الدنيوية من يده ، وأما إذا قام برعاية المصالح الدنيوية، فإن أداء العمل الدعوي على أتم وجهٍ يبدو مستحيلاً ، فما العلاج؟ ، هنا يلعب وعْد الله دوره في تركيز اهتمام الداعي ، لقد وعد الله - جل وعلا - بأنه سيكون كافياً للداعي شرّ الناس كله فيما لو سخّر نفسه لتبليغ الرسالة الإلهية وحدها ، لذا فينبغي للداعي أن يركز جهوده واهتماماته على الوفاء بمقتضيات الدعوة ، وأما بالنسبة للمصائب والمحن التي تُصبّ عليه من قبل الأمة المدعوّة صباً ، فليتوكل على الله - جل جلاله !

إن ردّ فعْل المخاطبين أمر طبيعي ، ولا مناص للداعي عن مواجهته على أية حالٍ ، غير أن آثاره ومضاعفاته تكون محصورةً في نطاق المقتضي اللازم لسنة الابتلاء الإلهية ، دون أن تتعداه إلى مدى أبعد من ذلك ، فلن يحدث أن يمتلك المعارضون من القدرة والطاقة ما يمكّنهم من وقف المسيرة الدعوية ، والحيلولة دون وصولها إلى غايتها المرسومة، إن بلوغ دعوة حقة إلى هدفها الدعوي المنشود يكون تدبيراً إلهياً ، ومن ثم فلابد أن يتحقق ذلك عاجلاً أو آجلاً ، وأما إيمان المدعو بها بعدئذٍ ، فتلك مسئولية تقع على عاتقه ، ويتوقف إنجازها على رغبة المدعو ، وإرادته الذاتية سلباً وإيجاباً.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

تَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

فَلَا تَأْسَ: فلا تحزن ولا تتأسف.

وَالصَّابِئُونَ: عبدة الكواكب أو الملائكة مبتدأ خبره.

على أن اليهود كان قد وصل أمرهم إلى حد لم تعد بينهم وبين دين الله أية صلةٍ عمليةٍ ، فما كان أفرادهم متمسكين فعلاً بأحكام الشريعة ، ولا كانت معاملاتهم ،وشئون حياتهم تجري وفقاً لمرضاة الربّ ، إلا أنهم كانوا قد اخترعوا عقيدةً نُسجت عناصرها من الأماني الجميلة ، وهي تقول بأن نجاتهم عند الله مضمونة مؤكدة ، فعاشوا في أساطير تتغنّى بفضيلتهم القومية ، وأقاصيص تسبح بقدسية أسلافهم العظام ، ولا قيمة عند الله لهذه الآمال والأماني الحالمة ، وإن القيمة عند الله في التزام المرء بوصايا الله وأحكامه ، وتأسيس حياته الحقيقية على دين الله ، لا غير.

إن دعوةً تجيء مؤكدةً على أن القيمة عند الله للعمل دون الآمال والأماني ، طالما تواجه برد فعلٍ عنيفٍ من قبل الذين يمارسون حياتهم على أساس من الأماني والآمال الزائفة، فإنهم يرون في دعوة كهذه معول هدمٍ لصرح آمالهم الجميلة ، ويصير هذا الوضع بمثابة محنةٍ شديدة لهؤلاء ، فيتصدون لمعارضة مثل هذه الدعوة معارضةً أشد ما يكون ، وهنالك تظهر عبادة النفس المقنعة بعبادة الله الظاهرية ، تظهر للعيان سافرةً مكشوفةً ، وإن الدعوة التي كان ينبغي لهم أن يستمدوا منها غذاءً ربانياً ، إذا بهم يستمدون منها محض غذاءٍ للإنكار والطغيان!!

إن الأجيال التالية لأوائل المؤمنين بالأنبياء المبعوثين في العصور السابقة ، تتخذ شكل شعبٍ أو أمةٍ معينةٍ ذات كيان مستقلٍ على تعاقب العصور ، وقد يصل الأمر فيها بعد إلى أن العمل بنماذج الأنبياء ينعدم ويتلاشى ، لخمود جذوة الشوق للتأسي بقدوتهم في نفوس أفراد الأمة ، بينما تنتشر بينهم القصائد المشحونة بفضائلهم وأمجادهم التاريخية المتمثلة في صورة قصص وأساطير خرافية انتشاراً واسعاً جداً ،

وهكذا يبدأ أبناء كل أمةٍ - وبخاصةٍ الأمة الكتابية - يقولون : إننا أفضل البشر ، وخير الأمم ، وأن نجاتنا مضمونة مكفولة ، وأننا أرفع الناس درجات عند الله تعالى ، غير أنه لا قيمة عند الله لهذه الديانات أو المذاهب الطائفية ، فإن قضية كل شخصٍ ستُطرح وتُناقش في محكمة الله على حدةٍ ، أي بصفة فردية، وإن قرار الله عن مستقبله سيكون مبنياً على عمله الذاتي ، وليس مبنياً على شيء آخر سواه .

إن إقامة كتاب الله يعني أن يستقر الإيمان بالله في أعماقك ، ويستولي عليك الخوف من مؤاخذة الآخرة ، وأن تمارس حياتك بين بني جنسك على أساسٍ من العمل الصالح والسلوك الحسن ، وهذا هو أصل الدين بعينه ، وكل فردٍ مطالب باختياره في حياته العملية، وإنه لا قيمة للأمة الأمينة على الكتاب السماوي إلا إذا كان أبناؤها قائمين متمسكين بهذا الدين الإلهي ، ولا يلبثون أن يفقدوا كل قيمتهم عند الله بعد انحرافهم عنه، حتى يصيروا أهون شأناً وأقل قيمةً من الكفار والمشركين الصُرحاء!!

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

فِتْنَةٌ: بلاء وعذاب شديد.

لقد أخذ الله من اليهود عهد الإيمان والطاعة له على يد موسى - عليه الصلاة والسلام - وقد ظلوا قائمين على هذا العهد لفترةٍ من الزمن يسيرةٍ ، ثم أخذ الفساد يتفشّى بينهم ، فبعث الله فيهم رجالاً مصلحين للتذكير بعهدهم وإيقاظهم من غفلتهم، غير أن تحذيرات المصلحين لم تزد اليهود إلا عناداً وطغياناً ، فبدلاً من الإصغاء إلى النصيحة ، كبتوا أصوات الناصحين الربانيين ، وسفكوا دماء عدد كبير منهم ظلماً

وعدواناً.

ولما بلغ طغيانهم وعنادهم هذا المبلغ ، سلّط الله عليهم نبوخذ نصر (بختنصر) ملك بابل ونينوى (العراق)، الذي حمل في ٥٨٩ ق.م على أورشليم ، فدمّر على اليهود مدينتهم المقدسة ، وأخذ معه سبايا من اليهود إلى مملكته ، ليتخذ منهم سخرةً .

وقد كان لهذه الفاجعة أثرها في إلانة قلوب اليهود ، فتضرعوا إلى الله تائبين مستغفرين ، وقد انصرفت العناية الإلهية إليهم، ففتح الله لهم طريقاً إلى الخلاص مما هم فيه من وحشة النفي وهوان السخرة ، وذلك على يد الإمبراطور الإيراني كورش الثاني [Cyrus II] وهو الذي قام بغزْو الكلدانيين في عام ٥٣٩ ق.م ، فانتصر عليهم انتصاراً ظاهراً واحتل بلادهم ، وكان من أول أحكامه بعد الانتصار ، أن سمح لليهود بالعودة إلى أورشليم.

ومن هنا بدأ فصل جديد رائع من حياة اليهود وتاريخهم ، فاستقامت لهم الأمور ، ولكن سرعان ما أدركتهم الغفلة مرةً أخرى ، فعادوا يمارسون البغي والطغيان كسابق عهدهم ، فتكرر الإنذار والتحذير الإلهي لهم ثانياً كذلك على ألسنة الأنبياء والمصلحين المبعوثين من عند الله ، غير أن ذلك كله لم يُجد في تنبيههم وإيقاظهم من رقدتهم تلك شيئاً ، فقتلوا سيدنا يحيى عليه السلام و(على زعمهم) سيدنا المسيح ، مما أثار غضب الله عليهم، فسلط الله عليهم تيتوس [Titus] - الإمبراطور الروماني - عام ٧٠ من الميلاد ، الذي غزا بلادهم وأحالها خرائب موحشةً ، فلم يقم لليهود من بعد ذلك قائمة !﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ .

إن الأمم الأمينة على الكتاب السماوي طالما يغلب على عقول أبنائها في العصور التالية الاعتقاد بأنهم صفوة الله وخاصته ، وأنهم بذلك لن يُؤاخذوا على شيء من سلوكهم وعملهم مهما كان فاسداً وسيئاً، ومع أن التعاليم الإلهية الأصيلة تكون منطويةً على تصريحات صارخةٍ تشجب هذا النوع من الاعتقاد بشدةٍ ، غير أنهم لا

يُعيرونها أي اهتمام، بل يتعامون ويتصامون عن ذلك ، إنهم يحبسون أنفسهم في هالةٍ أو قوقعةٍ من العقائد المزعومة والأساطير الافتراضية الباطلة ، مما يجعلهم لا يكادون يبصرون ولا يستمعون إلى التحذيرات الإلهية.

إن تاريخ اليهود ليشهد بأن أمةً كتابيةً ، إذا ما صارت مغلوبةً على أمرها ، فجُعلت في ((قبضة أعدائها وتحت رحمتهم)) فتمر بفترة اختبار إلهي ، والمقصود من ذلك هو أن يتم إيقاظ الأمة من خلال عقوبةٍ خفيفة طارئةٍ ، فإنْ أسفر ذلك عن استيقاظ مشاعر العبودية الإلهية في نفوس أبناء الأمة ، رُفعت تلك العقوبة عنها ، وأما إذا كانت النتيجة غير هذا ، فإن الله يطردها من رحمته طرداً ، بحيث لا تتوجه إليها عنايته تعالى أبداً !

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾

خَلَتْ: مضت

وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ: كثيرة الصدق مع الله.

يَأْكُلانِ الطَّعَامَ: كسائر البشر فكيف تزعمونه آلها.

أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ: كيف يصرفون عن تدبر الدلائل البينة وقبولها.

لقد زوّد الله تعالى سيدنا المسيح - عليه الصلاة والسلام - بمعجزاتٍ باهرةٍ ليعلم الناس صدق نبوته فيؤمنوا به، ولكن النتيجة ظهرت بالعكس ، فاعتقد المسيحيون ، نظراً لمعجزاته تلك ، أنه إله ، وأن الله حالٌ في ذاته متحد بها اتحادا ذاتياً ، بينما رفضه اليهود رفضاً باتاً ، متهمين إياه - عليه الصلاة والسلام - بأنه ساحر ومشعوذ ، لقد بُعث سيدنا المسيح - عليه الصلاة والسلام - من أجل هداية البشر ، ولكن طائفةً استمدت من غذاء الشرك ، والأخرى من غذاء الكفر والجحود !!

إن الطعام هو العلامة الصارخة على غاية احتياج المرء ، فإن المحتاج للطعام ، محتاج لكل شيء ، إذن فكيف يمكن أن يكون هذا المحتاج للطعام إلهاً يعبد !؟! وكذلك الأمر بالنسبة إلى النفع والضرر ، إن حصول النفع أو الضرر لأحدٍ ليس بحادثٍ بسيط ، بل من جملة الوقائع التي يتطلب إيجادها مساعدة الكون بأكمله ، وليس هنالك أحدٌ يقدر على تهيئة الأسباب الكونية من هذا النوع غير الله تعالى ، ولذا فلا يستحق أحد من البشر أن يُرفع إلى مقام الألوهية.

وإنه إذْ يتخذ المرء أحدًا غير الله موضع عقيدته ومحبته ، فيكون ناشئا عن عاطفة خفية وراءه ، وهي القائلة بأنه يتمتع بدرجة كبيرة وامتيازات خطيرة الشأن في عالم الله ، وأنه يستطيع أن يقف إلى جانبه كشفيعٍ وناصرٍ عند الله تعالى ، غير أن الآمال من هذا النوع لا تعدو أن تكون آمالاً زائفة محضةً ، إن مدى عجز المخلوقات وعدم قدرتها على شيء بإزاء الخالق العظيم ليس أمراً مكشوفاً للعيان في عالم الامتحان الراهن ، مما يجعل المرء عرضةً لسوء الفهم والاعتقاد ، ولكن إذا أزيح الستار عن وجه الحقائق كلها في اليوم الآخر ، فسيرى المرء يومئذ بعيني رأسه ما أوهن الأركان وأخفها وزناً ، تلك التي كان يأوي ويستند إليها في الدنيا من دون الله تبارك وتعالى !!

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ

ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

لاَ تَغْلُوا: لا تجاوزا الحد ولا تفرطوا.

غَيْرَ الحَقِّ: غلوا باطلا.

إن سيدنا المسيح - عليه الصلاة والسلام - كان في اعتقاد الرعيل الأول من تلاميذه ((إنساناً مرسلاً من الله)) ، وقد ظلوا - بعض الوقت - يعتبرونه ((إنساناً ورسولاً من الله)) ،ولكن عندما بدأ نفوذ دينه ﷺ يمتدّ ، وجاوز حدود الشام ، فاستقبلته فلسفات مصر واليونان ، إذْ دخل في دائرة المسيحية أناس تأثرت عقولهم بتيارات العصر الفلسفية غاية التأثر واصطبغت بصبغتها ، فتضافرت العوامل الداخلية والبواعث الخارجية على الانتقال بدين المسيح إلى طورٍ جديدٍ، فبدأت محاولات تفسير المسيحية بالأسلوب الفلسفي السائد إذْ ذاك!

ولقد كانت كلمة فلاسفة مصر واليونان العليا في طول العالم المتحضر وعرضه في ذلك العصر ، مما جعل أذكياء العصر يفكرون في ضوء مناهجهم الفكرية. إن فلاسفة اليونان اصطنعوا - بناءً على قياساتهم العقلية - صورةً خيالية للعالم ، وكانوا يفسّرون الحقيقة في شكل أقانيم ثلاثة وهي : الوجود ، والحياة ، والعلم.

وإذا كان العلماء المسيحيون قد انبهرت أذهانهم بهذه الأفكار والتصورات ، إلى جانب رغبتهم في استمالة نفوس طبقة العصر الذكية وجذبها إلى الديانة المسيحية ، أخذوا يبذلون جهوداً مكثفةً للتوفيق بين ديانتهم والاتجاهات الفكرية السائدة في عصرهم ، فأعدوا للمسيحية تفسيراً من شأنه أن يطبع دين الله بطابع ((الثالوث))، حتى يبدو للناس منسجماً تمام الانسجام مع شوا كلهم الذهنية ، فيتلقوه بالقبول ، فانطلق أولئك العلماء يقولون : إن الحقيقة الدينية تتمثل في نوعٍ من ((التثليث)) ، والذي يتألف من "الأب" وهو أقنوم الوجود ، ومن ((الابن)) وهو أقنوم الحياة ، ((وروح القدس" وهو أقنوم العلم ، ومن أجل تكميل هذا المذهب الكلامي أضيفت إليه تصورات

مزعومة أخرى مثل قولهم : إن المسيح هو مظهر جسدي «للكلمة» ، وزعمهم بأن كل إنسان قد صار خاطئاً بعد خطيئة آدم الأولى ، فأرسل الله ابنه ليكفر عن خطايا البشر بدمه وحتى يضمن لهم بذلك النجاة والسعادة.. إلخ ، وهكذا فمن خلال الانصهار في بوتقة الأفكار والتصورات المصرية واليونانية والرومانية ظهر إلى الوجود في القرن الرابع من الهجرة ، ذلك الشيء الذي يطلق عليه اليوم «الديانة المسيحية»!!.

إن سبب الانحراف عن «سواء السبيل» يرجع في أكثر الأحيان إلى انبهار الناس بأفكار الأمم الضالة، وأخذهم بالتالي في صياغة الدين في قالب أفكارها ، فمع إيمانهم بدين الله ، يعمدون إلى تفسيره مطابقاً ومنسجماً مع تلك التيارات الفكرية الغالبة ، ومن ثم يعتنقون دينا غير إلهي في جوهره بعنوان الدين الإلهي ، كما أن النصارى قاموا بصياغة دينهم في قالب أفكار الأمم الوثنية المعاصرة لهم ، ثم أخذوا يقولون: إنه الدين المطلوب والمقبول عند الله تعالى !! وقد يتخذ هذا الانحراف ، في بعض الأحايين ، لوناً آخر ، فيتم إفراغ الدين وصوغه في قالب الطموحات والتطلعات القومية.

ويمثل اليهود نموذجاً تاريخياً لهذا النوع الثاني من التحريف ، إنهم قد اخترعوا لدين الله تفسيراً جعل منه «مصدقاً»لحياتهم الدنيوية على علاتها ، بدل أن يجعله متحكماً في شئونها ، مغيراً ومصححاً لمسارها ، وعلى أن المسلمين ليس بإمكانهم أن يدخلوا مثل هذه التفسيرات المزيّفة في نصوص الكتاب الإلهي ، غير أنهم يستطيعون أن يفعلوا ، بكامل الحرية، فيما عدا النص القرآني ، كل ما فعلت الأمم السابقة !.

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ

وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

سَخِطَ الله: غضب عليهم بما فعلوا.

ومن شأن الإيمان أنه يُرهف حس المرء بالنسبة لممارسات الظلم والمنكر، فلا يلبث أن يرى أحداً وهو يظلم غيره، أو يتعاطى منكراً حتى يشعر بلهفةٍ عارمةٍ تبعثه على المبادرة الفورية لمنعه عن ذلك حالاً، ومن ثم فعلاقة صاحب الإيمان مع الأشرار والظالمين لا تكون علاقة المودة والصداقة، بل علاقة الهجر والمفارقة.

غير أن جذوة الإيمان عندما يخبو ضرامها، فإن المرء يفقد رهافة حسه، إلا فيما يتصل بذاته أو يمس مصالحه، فلا يرى من منكرٍ أو سوءٍ إلا ما كان موجهاً إلى نفسه مباشرةً، وأما السوء الموجّه إلى الآخرين، فيقف منه على الحياد التام !!

ولم يكن هذا الانحطاط الذي أصاب بني إسرائيل يعني أنهم كانوا قد نبذوا الحديث عن الفضائل والتغنّي بها بألسنتهم، إذْ ما انفك علماؤهم وخاصتهم يُلقون بين الناس مواعظ بليغةً وخطباً رائعة تروق الأسماع، ولم يعودوا من الجدية والإخلاص بحيث ينبرون لمحاربة الظلم والمنكر أينما وُجدا، والأخذ على يد الممارس لهما كائناً من كان!

يقول سيدنا داود - عليه الصلاة والسلام - عن يهود زمانه: ((فسدوا، ورجسوا بأفعالهم ليس من يعمل صلاحًا))[1].

بيدْ أن مزاميره ﷺ تتضمن - مع ذلك - شواهد على أن ما استوجب اللعنة على اليهود، إنما هو ذلك المسلك الإزدواجي أو التناقض الصارخ البغيض الذي كانوا يعيشونه بين قولهم وفعلهم أو بين ظاهرهم وباطنهم، فقد وصفهم في المزمور الثامن والعشرين وهو يتضرع إلى الرّبّ بقوله: ((لا تجذبني مع الأشرار، ومع فعلة الإثم، المخاطبين أصحابهم بالسلام، والشر قلوبهم)).

---

(١) انظر: المزمور الرابع عشر.

كما يقول سيدنا المسيح - عليه الصلاة والسلام - عن معاصريه اليهود : « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون ! لأنكم تأكلون بيوت الأرامل ، ولعلةٍ تطيلون صلواتكم ، إنكم تُعشرون النعْنع والشِبث والكمّون ، وتركتم أثقل الناموس ؛ الحق والرحمة والإيمان ، أيها القادة العُمْيان الذين يعفون عن البعوضة ، ويبلعون الجمل ، هكذا أنتم ، من خارج تظهرون للناس أبراراً ، ولكنكم من داخلٍ مشحونون رياءً وإثماً !! »(١).

فقد كان علماء اليهود يبينون للناس الدستور أو الناموس الإلهي ، ويطيلون صلواتهم، ويؤدون زكاة محاصيلهم الزراعية ، غير أن مواعظهم لم تكن تعْدو أن تكون كلمات طنانةً يتم تكرارها وإعادتها في مختلف المناسبات دون أن تُترجم إلى واقع عملي معاشٍ ، وربما كانوا يبالغون في الاهتمام بإقامة أحكامٍ ظاهرية لا تكلف عناءً أو مشقةً كبيرةً ، ولكن سرعان ما تزل أقدامهم فيما إذا كانت الضرورة قاضية بإنصاف المظلوم وردّ الحق إلى صاحبه ، أو الرحمة والعطْف على ضعيفٍ مسكينٍ ، أو كان الموقف يفرض عليهم تنفيذ أمرٍ من أوامر الله على حساب مصالحهم الذاتية ، ويأخذون في مناصبة العداء لشخصٍ يقوم بلفت أنظارهم إلى أخطائهم ويدعوهم إلى التخلي عنها ، وهذا هو الشيء الذي جعلهم أهلاً للعّنة والغضب الإلهي.

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا

(١) إنجيل متى : الإصحاح الثالث والعشرون.

رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾

تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ: تمتلئ أعينهم بالدمع فتصبه.

مما يُستفاد من الآيات الواردة هنا أن الجنة قد تكون مكافأة «لقولٍ» ، حيث قال تعالى : ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي ﴾ ، والسؤال : ما هو القول الذى جعل من قائليه أهلاً للجنة الأبدية؟ إن ذلك القول كان ممثلاً لوجودهم بأكمله ، إنه كان الصراخ والأنين المنبعث من شخصيتهم المتحطمة لثقل وطأة المعرفة الإيمانية ! فحين سمع هؤلاء كلام الله عليه أدركوا الحق الذي كان منطويا عليه إدراكاً دقيقاً وشاملاً ، وبالتالي نفذ الحق إلى أعماق قلوبهم وعقولهم ، وأحدث في نفوسهم انقلابا تحول معه اتجاه طموحاتهم وآمالهم من جانب إلى آخر ، وانهارت كل جدران التعصب وحواجز المصلحة ، وانضموا إلى الحق ، فصاروا شهداء الحق ؛ ومعنى الشهيد هو أن تتجسد حقيقة عليا في ذات إنسانٍ ، والآن لم يعد القرآن عندهم محض كتابٍ يُتلى ، بل صار آيةً حيةً على مالك الكون وخالقه العظيم ، وعلى أن هذه التجربة الربانية التي مرت بهؤلاء تم التعبير عنها بشكل كلماتٍ ، غير أن كلماتهم تلك لم تكن مجرد كلماتٍ تُقال فقط ، بل كانت زلزالاً عنيفاً هزّ وجودهم بأكمله، فلم تتمالك أعينهم أن فاضت بالدموع!

وليس «القول» من حيث حقيقته وجوهره ، عبارةً عن نطقٍ أو أداءٍ لساني ، إنه الصورة الأسمى لإضفاء المعنوية على عمل الإنسان ، والذي لا يتمتع بصلاحية استخدامه في الكون المعلوم أي مخلوقٍ آخر غير الإنسان ، إن قولاً حقيقياً لهو حادث أدق وألطف وأهم مغزى ودلالةً يقع في رحاب الكون ، إذْ القول هو الإظهار الأكبر لذات الإنسان ، إن القول عمل ناطق ، فلو أن شخصاً أثبت عبوديته على مستوى القول الحقيقي لصار مستحقاً للجنة بكل تأكيد !

إن الكِبر هو العقبة الكبرى التي تحول دائماً دون الاعتراف بالحق ، ولذلك تجد المصابين بهذا الداء العضال يقابلون دعوة الحق بمعارضةٍ أشد ورد فعل أقسى وأعنف ما يكون، أما الذين لا تنطوي قلوبهم على شيء من الكبر ، وإن كانوا مصابين بأي ضلالٍ أو انحرافٍ آخر ؛ لا يذهبون في مخالفتهم للحق إلى حدّ اللدد والعناد ، مما يفتح لنا باب الأمل في أنهم عسى أن يُوفقوا لقبول الحق والانضواء تحت رايته !

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ: هو أن يحلف على الشيء معتقدا صدقه والأمر بخلافه أو ما يجري على اللسان مما لا يقصد به اليمين.

عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ: وثقتموها بالقصد والنية .

إن علاقة العبد بربه علاقة حية ؛ تقوم على مستوى النفسيات والمشاعر ؛ وهي بذلك حادث داخلي بكل معنى الكلمة ، غير أن هذه العلاقة الداخلية حين يعتريها الضعف والفتور في زمن الانحطاط الديني ، فيغلب على الناس اللجوء إلى وسائل خارجية ((مساعدة)) على إحرازها وتوطيدها بما فيها مذهب ترك اللذات الدنيوية ، الذي يُدعى ((الرهبانية)) ، حيث يُعتقد بأن الابتعاد عن الأشياء المادية سيكون سبباً في

تقريب المرء إلى الله - عز وجل!!

ولقد وقع بعض الصحابة تحت تأثير مثل هذه الأفكار الرهبانية ؛ فأرادوا ألا يأكلوا لحماً ، ولا يناموا ليلاً ، وأن يخصوا أنفسهم ، ويختاروا عيشة المتزهدين والدراويش مغادرين بيوتهم وأهليهم ، حتى حلف العديد منهم على ذلك ، فنزلت هذه الآيات تمنعهم من إنجاز ما عقدوا العزم عليه ، وترشدهم إلى أنه لن يتمكن أحد من إحراز القرب الإلهي عن طريق تحريم الحلال ، إذْ كل ما يناله المرء ، فإنما يناله متقيداً بحدود الفطرة ، وليس متخطياً إياها!.

والرهبانية الحقيقية - طبقاً للدين الإسلامي الحنيف - هي التقوى والشكر ، وتعني التقوى: أن يجتنب المرء كل ما نهى الله عنه ، فربّما تنبعث في داخله شهوة تدفعه إلى الاستمتاع والتلذذ بالحرام ، ولكنه يمسك نفسه عن ذلك من أجل مخافة الله ، وقد يثور غضبه على أحد الناس ، مما يجعله يرغب في أن يفتك به ، غير أن الخشية من الله تحول دون اندفاعه نحو القيام بأعمال تخريبية ضد أخيه ، وقد تسوّل له نفسه أن يمارس حياةً حرةً طليقةً من كل قيد شرعي أو التزامٍ أخلاقي ، إلا أن الحذر المستقر في أعماق قلبه من مؤاخذة الله وبطشه يُرغمه على الوقوف عند حدود الله المرسومة ، وعدم تجاوزها بحالٍ من الأحوال!

وكذلك الشأن بالنسبة للشكر ، فالشاكر إذا ما حصل على شيءٍ دنيوي يُغتبط عليه، كثروة طائلةٍ، أو منصبٍ خطير ، أو سمعة طيبةٍ عريضةٍ ، أو صحة وجمال بدني ، أو ما إلى ذلك من متاع الحياة الدنيا ، لم يبعثه ذلك على الغرور والبطر والإعجاب بنفسه ، زاعماً أنها نتيجةً لجهوده الذاتية ، بل يحسبه عطيةً من الله ، فيعترف بمنّه وكرمه ، وينصهر في بوتقة التواضع والممنونية للمنعم الوهاب ، وهذه الأشياء التي تربط المرء بالله ، توطد علاقة المرء بربه وقربه منه يزداد ، مادام يخشى الله ويشكر له ، ومع أن البعُد عن الأشياء المادية الفانية أمر مطلوب بلا ريبٍ ، غير أنه بعد نفسي وقلبي ، وليس بعداً جسمانياً ظاهرياً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

وَالأَنْصَابُ: حجارة حول الكعبة يعظمونها.

وَالأَزْلامُ: قداح الاستقسام في الجاهلية.

رِجْسٌ: خبيث قذر ، نجس.

جُنَاحٌ: إثم وحرج.

طَعِمُوا: شربوا أو أكلوا المحرم قبل تحريمه.

إن شرب الخمر ، واللعب بالقمار ، والتماثيل المنصوبة من أجل عبادة غير الله ، أو لذبح القرابين وتقديم النذور عندها باسم أحدٍ غير الله تعالى ، والاستقسام بالأزلام – بمعنى التفاؤل والتشاؤم وضرب القرعة التى تشتمل على طلب المعونة من غير الله – كل ذلك أعمال شيطانية ؛ ذلك لأنها تؤدى إلى التدنى والانحدار عن المستوى العقلى والسلوكى.

فالخمرة تقضي بدورها على ما يُوجد في نفس المرء من أحاسيس إنسانية لطيفةٍ ، وأما القمار فقاتل لروح الإيثار والتعاون ، وهكذا الأنصاب والأزْلام فهي من جملة أشياء تقوم إمّا على عواطف سطحيةٍ ، وإما على أوهامٍ وأساطير خرافيةٍ !!

إن الإسلام يريد الإنسان ذاكراً لله وعابداً له تعالى وحده ، وأن يُلزم نفسه بطاعة الله وطاعة رسوله ، وهذه أمور لابد للقيام بها من أن يكون المرء من الجدية بمكانٍ ؛ على حين أن أوّل ما تقضي عليه الأشياء السالفة الذكر هو الجدّية بعينها !

والإسلام يستهدف بناء إنسان يقدر على إدراك الحقائق ، بينما الخمر تُلهي شاربها عن الحقائق كلها ، والإنسان المطلوب في نظر الإسلام هو الذي يمارس حياته متسامياً إلى ما فوق المادة ، في حين أن القمار يخلق في لاعبه ميلاً إجرامياً إلى المادية والنفعية ، والإسلام يريد أن يبني إنساناً يرتكز على أساسٍ من الواقعات ، بينما الأنصاب والأزلام تجعل الإنسان يتخبطّ في أوديةِ الخرافات والأوهام الباطلة .

والخمر تُورث بلادة الحس الزائدة ، والقمار يُولد الأثرة الزائدة ، وكلا هذين الشيئين مجلبة لمساوئ وشرورٍ اجتماعية لا تُحصى ، فالمصابون ببلاده الحس لا يعدّون عرض غيرهم عرضاً ، ولاشيء الغير شيئاً يستوجب الاحترام والرعاية ، فلا يلبث أن يبلغوا من الجرأة على الظلم والجور ، وانتهاك حرمات الآخرين والتعدي على حقوقهم، وإيذائهم بغير حقٍ إلى أقصى الحدود .

وكذلك القمار يمثل أعظم صور الاستغلال والأثرة خبثاً وشناعةً ، إذْ يحاول المقامر أن يحقق لنفسه أكبر ربحٍ على خسران الكثيرين سواه ، وإن شارب الخمر يتجرد من الإحساس بآلام الآخرين ، واللاعب بالقمار يتخذ من غيره موضوعاً للاستغلال والسلب والنهب ، والمجتمع الذي يضم أفراداً هذه خصالهم ، تُرى ، أي شيء ، سينشأ ويسود في رحابه سوى فقدان الثقة المتبادلة ، وفساد ذات البين (القطيعة) ، والعداوة والبغضاء ، والأحقاد والسخائم الملتهبة في الصدور ، والتصادم المستمر ؟!

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ

ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾

لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ: ليختبرنكم ويمتحننكم.

وَأَنْتُمْ حُرُمٌ: محرمون بالحج والعمرة.

النَّعَمِ: الإبل والبقر والضأن والمعز.

بَالِغَ الْكَعْبَةِ: واصل الحرم فيذبح به.

عَدْلُ ذَلِكَ: معادل الطعام ومقابله.

وَبَالَ أَمْرِهِ: ثقل فعله وسوء عاقبة ذنبه.

ومن أركان الحج والعمرة أن يرتدي الحاج أو المعتمر ملابس الإحرام الخاصة عند حدود الميقات المقررة ، قبل التوجّه إلى الكعبة ، وفي أثناء رحلته نحو الكعبة كثيراً ما يشاهد المُحرْم حيوانات البر والطيور وهي تقع في متناول يده، ويكون اقتناصها في غاية السهولة ، غير أن اقتناصها ، سواء أقام به المرء بنفسه أم ساعد غيره عليه ، كلاهما محظور ومحرّم في حالة الإحرام ، وقد نزلت هذه الآية - كما جاء في الروايات - خلال مسيرة الحديبية ، إذْ كان المسلمون مُحرمين بقصد العمرة ، وكانت أسراب الطيور والحيوانات البرية إذْ ذاك تمر من أمامهم، فكان من السهولة اقتناصها بالسهام أو طعنها بالرماح ، وكان المسلمون يطمعون - في ذلك الوقت - في الاصطياد بحكم عادتهم وضرورتهم معاً، ولكن حين نزل الحكم الإلهي بالتحريم ، أمسك الجميع أيديهم عن ذلك ، وهذا الحكم الذي ورد بشأن معاملة الحيوانات في حالة الإحرام مطلوب عند التعامل مع الناس في الحياة اليومية ، والمقصد الأصلي من هذا الحكم هو: ﴿ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ، فقد وضع الله الإنسان في هذه الدنيا ، وارتفع بذاته المقدسة عن

مواقع أبصاره؛ وذلك لكي يختبر الناس ؛ فيتميز منهم البصير العارف بالحقيقة ، الذي يعيش في الدنيا كما لو كان يرى الله تعالى متجلياً أمامه بكل قدرته وجلاله وجبروته ، عن الغافل المستهتر منهم ، الذي يخلو قلبه من خوف الله لأنه لا يراه بعينيه ، فيقضي حياته تبعاً لأهوائه ونزواته .

وهذا الاختبار الذي يجري في رحلة الحج لبضعة أيام مع اهتمام بالمعاملات وبالعلاقات الإنسانية المتبادلة كل اليوم ، فقد يصادف أحد الناس بعض خصومه في موطنٍ يتمكن فيه من أن يسطو به ويجهز عليه ، أو يُلحق به خسارةً ماليةً فادحةً ، أو يهتك ستره ويشوه سمعته ، إلخ ، ففي مثل هذا الموطن ينقسم الناس إلى نوعين : نوع يشعر بمخافة الله ، فلا يستخدم يده ولسانه ضد خصمه رغم تمكنه منه وتمام قدرته عليه ، والنوع الآخر الذي حين تسنح له فرصة التغلب على أحد يوماً يهينه ، ويتخذ منه عرضةً أو ضحية لقهره واضطهاده ، وقد أثبت أول هذين أنه يخاف الله بالغيب ، بينما الأخير أثبت عكس ذلك تماماً ، وإن للأول عند الله نعماً كثيرة لا تُحصى ، وللأخير عذاباً أليماً لا يُطاق !

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

وَلِلسَّيَّارَةِ: للمسافرين.

الْبَيْتَ الْحَرَامَ: جميع الحرم و المراد الكعبة.

قِيَامًا لِّلنَّاسِ: قواما لمصالحهم دينا ودنيا.

وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ: الأشهر الحرم الأربعة.

وَالْهَدْيَ: ما يهدى من الأنعام إلى الكعبة.

وَالْقَلاَئِدَ: ما يقلد به الهدي علامة له .

إن الاصطياد في حالة الإحرام حرام ، غير أن الذين يسافرون إلى بيت الله عبر الطريق البحري ، قد أبيح لهم صيد الماء وأكله ،وذلك لأن حظر الاصطياد لم يكن محرماً لذاته ، بل إنما كان لأجل ((الاختبار)) وكفى ، حيث قرر الله بعض الأشياء بصفةٍ رمزية ، ليختبر الإنسان من خلالها ، ولذا فلما رأى الشارع أن الشيء الذي لأجل الاختبار ، قد يصير في موضعٍ ما ، مدعاةً للحرج والمشقة على العباد بدون لزومٍ ، تُنوول القانون هناك بالتخفيف والتيسير ، فإن المرء إذا نفد زاده ، وهو يسافر عن طريق البحر ، فلا سبيل إلى الإبقاء على حياته ، سوى أن يستمدّ غذاءه من الحيوانات المائية !

إن الكعبة هي المركز الدائم للإسلام وأهله ، ولقد ربط الله كل فردٍ مسلمٍ بمركزية الكعبة من خلال جعْل التوجه نحوها شرطاً لابد منه للصلاة ، ثم اتخذ منها مكان اجتماعٍ إسلاميٍ عالميٍ في شكل فريضة الحج. إن تعظيم الشعائر المقررة في سياق زيارة الكعبة - كالهدي والقلائد وغيرهما - لا يرجع كونها تتمتع بأية قدسية ذاتية ، ولكنها بمثابة علاماتٍ لامتحان المرء ، فالعبد حين يقوم بتنفيذ أوامر الله بالنسبة لتلك الشعائر ، يجدّد شعوره بالحقيقة القائلة بأن الله وإنْ كان لا يُرى جهرةً وعياناً موجود حيّ ؛ يأمر وينهى ما يشاء، وأنه يرصد ويراقب حركات العباد وسكناتهم كلها ، وأنه خبير ، لا بما نقول وما نفعل علانيةً وحده ، بل وبما نُسر ونضمر في صدورنا ، وهذه المشاعر والأحاسيس تخلق في نفس المرء الخشية من الله ، وتؤهله ليمارس حياته كعبد صادقٍ ومخلصٍ لله على كل المستويات وفي كل الظروف والأحوال.

ومن نقائض الإنسان ومظاهر ضعفه وقصوره انخداعه بالضخامة العددية ، ووفرة الأسباب الظاهرية ، فيعلق عليها الأهمية الكبرى ، وبالتالي يقف إلى جانب أصحابها ، غير أن العبرة عند الله بالنوع والكيفية ، ولا عبرة عنده تعالى بالمقدار والكمية، فيزعم الذين يندفعون وراء «الكثرة» متخلين عن «القلة» غير مبالين بها، يزعمون أنهم عقلاء محنكون ، ولكنهم على أعظم جانب من السفه والغباوة وفساد العقل ؛ إذْ إن الناجح حقاً هو الذي يحدد موقفه مراعياً لخشية الله ، وليس مراعياً للمخاوف الدنيوية الزائلة ، والمصالح المادية الرخيصة !

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

بَحِيرَةٖ: الناقة تشق أذنها وتخلى للطواغيت إذا ولدت خمسة أبطن آخرها ذكر.

سَآئِبَةٖ: الناقة تُسيب للأصنام لنحو برء من مرض أو نجاة في حرب.

وَصِيلَةٖ: الناقة تترك للطواغيت إذا بكرت بأنثى ثم ثنت بأنثى.

حَامٖ: الفحل لا يركب ولا يحمل عليه إذا لقح ولد ولده.

حَسۡبُنَا: كافينا.

عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ : ألزموها واحفظوها من المعاصي.

وتُفيد الروايات بأنه لما نزل الأمر بوجوب أداء الحج ، أذن رسول الله ﷺ في الناس فقال : ((يا قوم : كُتب عليكم الحج)) فقام رجل من بني أسدٍ فقال : ((يا رسول الله! أفي كل عامٍ؟)) فقال : ((والذي نفسي بيده ، لو قلت : نعم ، لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ، فاتركوني ما تركتكم ، وإذا أمرتكم بشيء فافعلوا، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا!)) (١) .

إن أسلاف كل أمةٍ يكتسبون حيثيةً مقدسةً على مر الزمن ، وأكثر ظواهر الضلال والانحراف تنشأ باسم الأسلاف ، إذْ يتمسك الأخلاف بكل عادةٍ منسوبةٍ إليهم على علاّتها، ولا يبرحون يُعيدونها من غير وعيٍ ولا حاجةٍ إلى إعمال الفكر والتعقل ، حتى ولو كانت تلك العادة تتعلق بتعظيم الشاة والإبل !

إن التقاليد والعادات الفاسدة التي تقوم على تقديس الماضي ، تكون جذورها متأصلةً وراسخةً في نفوس القوم لدرجة أن صرفهم عنها يكون أمراً عسيراً ومتعذراً للغاية ، فلا يمكن التحرّر والانفكاك من أسْر التعقيدات النفسية ، إلا إذا امتلأ قلب المرء باليقين الجازم بأنه سيحضر نهائياً أمام ربه للحساب ، فمثل هذا الشخص لا يلبث أن يعترف بالحقيقة التي يجد كل شخصٍ نفسه مضطراً إلى الاعتراف بها بعد الموت ، ولكن الاعتراف يومئذ لن يغني عن أحدٍ فتيلاً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الأول ، ص ٥٥٤ ، ٥٥٥.

عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ: سافرتم فيها.

لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً: لا نأخذ بقسمنا كذبا عرضا دنيويا.

الأَوْلَيَانِ: الأقربان إلى الميت الوارثان له.

وإذا كان رجل في سفر ، ومعه مال وحان أجله في الطريق ، فإن وجد فيها حوله إذْ ذاك رجلين من المسلمين، فليدفع إليهما ماله ، مع الإيعاز إليهما في شأنه ما يريد ، وأما إذا لم يتواجد هناك رجلان من المسلمين ، فله أن يفعل ذلك مع رجلين من غير المسلمين ، وهذان يقومان بدورهما بدفع المال إلى ورثة المتوفى ، وإن كان بيان الشاهدين مظنة شكٍ لدى الورثة ، فليوقفوهما في المسجد بعد أية صلاةٍ ، ويستحلفوهما أمام جمعٍ من المسلمين على أنهما قد أدّيا الشهادة على وجهها من غير تبديل ولا خيانةٍ ، وإن لم يقتنع الورثة بهذا البيان المدعوم بالقسم ، فليقم رجلان من أنفسهم ، وليحلفا بالله لصالح دعواهم ، ثم يقضى الأمر بعدئذ اعتباراً بشهادة الأخيرين ، إن إعطاء هذا الحق للورثة ، بمثابة سدّ باب الخيانة دون الخائن ، إذْ لولاه لما منعه شيء عن التصرف في مال الموصي ووصيته ، كيفما شاء.

إن من المصالح المودعة في الشريعة الإسلامية أنها تقدم أحكاماً لا يقتصر دورها على معالجة شئون الحياة اليومية فحسب ، بل لها دور تربوي لإعداد المسلم لممارسة حياته الأوسع مدىً على وجهٍ أفضل أو بالأحرى وفقاً لمقتضيات العدل والحق ، فأن يتم إيصال تركة الميت إلى المستحقين الشرعيين لها ، قضية أسرية واقتصادية ، ولكنه جُعل

وسيلةً لتربية الناس على مبدأين هامّيْن : أولهما : مبدأ عدم المحاباة ، يعني أنه ينبغي للناس أن يقفوا دوْماً إلى جانب الحق والحق وحده ، من غير نظرٍ إلى العلاقات والقرابات ، ولا اعتبار إذا كان الحق يوافق هواهم أو لا يوافقه.

والثاني: هو أن ينظروا إلى كل شهادةٍ على أنها شهادة الله ، فكل خبرٍ ألم به المرء عن كثبٍ ، أمانة إلهية ملقاة في عنقه ، لأن المرء إما شاهده بواسطة العينين الموهوبتين له من عند الله ، واختزنه في ذاكرته الموهوبة له من عند الله كذلك ، ويُعْلِم الآخرين به مستخدماً لسانه، وفي هذه الحالة ، فإن المرء سيكون خائناً للأمانة ولا ريب ، إذا لم يحدّث بالخبر على الوجه الذي رآه بعينيه ، واختزنه في ذاكرته.

﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

بِرُوحِ القُدُسِ: جبريل عليه السلام.

فى المَهْدِ: في زمن الرضاعة قبل أوان الكلام.

وَكَهْلاً: في حال اكتمال القوة (بعد نزوله)

تَخْلُقُ: تصور وتقدر.

الأَكْمَهَ: الأعمى خلقة.

لم يلبث المؤمنون بالأنبياء في كل زمانٍ ، أن تسرّب إليهم الفساد والانحراف في العصور التالية ، فقد اختلفوا ديناً بحسب أهوائهم ، ثم عزوْه إلى أنبيائهم ، ولم تكن هناك أية رابطةٍ تصل هذه الشعوب بأنبيائها ، بعد انحرافها عن تعاليمهم الأصيلة ، ولكن كل شعبٍ لم يزل يدعي أنه أمة نبيٍ ، فاليهود ينسبون أنفسهم إلى سيدنا موسى عليه السلام والمسيحيون يدّعون الانتماء إلى سيدنا عيسى عليه السلام فى حين أن الديانة الرائجة عند كلا الشعبين لا علاقة لها بالنبيين الجليلين !

وهذه الحقيقة مستورة في عالم الامتحان الحاضر ، ولكن حين يأتي يوم القيامة ينكشف النقاب عن وجهها ، فيجمع الله سائر أنبيائه مع الأمم التي بُعثوا إليها على صعيدٍ واحدٍ ، ويسأل كل نبي ، وأمته بين يديه ، عن التعاليم التي عرضها على أمته وكيف كانت استجابتها واعتناقها لتلك التعاليم ؟! ، وهكذا سيتم إطْلاع كل أمةٍ بحضرة نبيّها على جوانب انحرافها عن الدين الإلهي الذي جاءها به نبيّها ، وكيف اخترعت بنفسها ديناً مزعوماً ثم نسبته - كذباً وافتراءً - إلى النبي ؟!

ومن أولئك الأنبياء - على سبيل المثال - سيدنا عيسى عليه السلام الذى يمثل الحلقة الوسطى بين خاتم النبيين والأنبياء السابقين ، لقد أُعطي لسيدنا عيسى عليه السلام معجزات استثنائية للغاية ، أما عدد المؤمنين به في زمانه فكان قليلاً جداً ، بينما كان معارضوه (اليهود) يتمتعون بكل أنواع القوة والغلبة الدنيوية ، ولكنهم - على الرغم من ذلك - لم يتمكنوا من الفتك به ، ولا أفلحت محاولاتهم في القضاء على أصحابه .

وبمقتضى هذه المعجزات الباهرة كان ينبغي للناس أن يبادروا إلى الإيمان بما جاء به من دين الله ، إلا أن النتيجة التي ظهرت أن رفضه معارضوه قائلين بأن معجزاته لا تعْدو أن تكون من عجائب السحر والشعوذة ، ومن جانبٍ آخر فإن الذين آمنوا به أول الأمر،لم يلبثوا أن رفعوه إلى مقام الألوهية فيما بعد !!

وفي يوم القيامة سيكشف القناع عن هذه الحقيقة أمام أدعياء الإيمان بعيسى عليه السلام

بأن تلك الخوارق والمعجزات التي جرت على يديه عليه السلام كانت كلها بإذن الله تعالى، ولم تكن من صنعه، وأنه لم ينج من الحبائل التي نصبها له أعداؤه، ومن الأخطار التى حاولوا توريطه فيها، لم ينج منها بحيلة أو طاقةٍ من عنده، بل أنجاه الله من ذلك، والسؤال: إذا أن واقع الأمر هكذا، والمسيح بنفسه يدلى بشهادته على صدقه أمام ربّه وعلى رؤوْس الخلائق، فلْيقلْ أتباعه - إذن - من أين جاءهم ذلك الدّين - المزعوم - الذي عزوْه إليه وهو منه بريء ؟!

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

الحَوَارِيِّنَ: أنصار عيسى عليه السلام وخواصه .

مَائِدَةً: خوانا عليه طعام.

عِيداً: سرورا وفرحا أو يوما نعظمه.

على أن نداء الناس للحق واجب يقوم به الداعي، ولكن تلبية هذا النداء تتمّ دائماً بتوفيق الله عز وجل،إذ لا تزال ثمة عقبات كثيرة حائلةً بين المرء ومبادرته بقبول الدعوة مع كونه قد عرف صدقها بالدلائل والبراهين،ومن تلك العقبات - على سبيل المثال لا الحصر - ظهور الداعي في مظهر بشرٍ عادي، والحذر من تبدد شمل الحياة القائمة

نتيجةً لاعتناقه الدعوة الجديدة ، والسؤال : عما إذا كان هذا هو الصدق ، فما بال أولئك الرجال الكبار الذين لم يبلغهم الخبر ، أكانوا كلهم محرومين من الصدق ؟! ، إن هذا المنعطف جد خطيرٍ ، حيث تخيم على المرء حيرة تجعله لا يتخذ قراراً حاسماً ، ، وفي هذا المقام يُمده الله – جل شأنه – بنصرته وتوفيقه ، فالشخص الذي يجد الله في نفسه خيراً ، يأخذ بيده ، ويخرجه من وادي الحيرة والارتياب إلى دائرة الإيمان واليقين.

إن الإنسان لا يزال يتلقى رزقه من عند ربّه في كل لحظةٍ ، حتى إن الأرض بأكملها قد جُعلت بمثابة مائدةٍ زاخرةٍ بمختلف ألوان الرزق المتاح للإنسان ، فلماذا قُوبل المؤمنون بالمسيح بتحذيرٍ شديدٍ عندما طالبوا بإنزال الطعام لهم من السماء ، بينما طالب المؤمنون بالمسيح بأن يوفر لهم الرزق بدون الأسباب ، وهذا لا يتفق مع سنة الله ، إذْ لو أزيلت الأسباب كلها ، ففيما سيكون الاختبار؟!

والحقيقة أن حادث ازدهار زروعٍ بهيجةٍ ناضرةٍ في الحقول ، أو خروج شجرةٍ خضراء مثمرةٍ من داخل التراب، معجزة ، ولكننا لا نرى في الواقع معجزة أو خرقاً للعادة؛ لأنها تظهر مقنعة بحجابٍ من العلل والأسباب ، ومن ثم اختبار المرء أن يشاهد الحقيقة ممزقاً الحجاب من فوقها ، وأن يدرك الرزق النابت من «الأرض» بشكل الرزق النازل من «السماء» ، ولو أن شخصاً قال: إني لن أؤمن بالله حتى أراه رأي العين ، فكأنما قال: إنني سأدخل في رحمة الله بدون الامتحان ، بينما هذا مستحيل ، لكونه خلافاً لسنة الابتلاء الإلهية العامة!

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ

عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾﴾

سُبۡحَٰنَكَ: تنزيها لك من أن أقول بذلك.

تَوَفَّيۡتَنِي: أخذتني إليك وافيا برفعي إلى السماء.

إن القيامة حين تقوم ، فستصبح الحقائق مكشوفة للعيان ؛ بحيث لا يعود المرء بحاجةٍ إلى دليل يدله على الحق والباطل ، فإن جميع البشر سيرون بأعينهم أن كل القوى والطاقات بيد الله تعالى وحده ، وأنه لا شريك له في كونه وحده خالقاً ومالكاً ومعبوداً ومطلوباً للجميع ، وأن كل ما عداه ومن عداه لا يملك شيئاً من القدرة ، ولا أحد سواه جدير بأن يُعبد أو يُطاع ، فإذا توجّه الله إلى رسله سائلاً من الرسالة التي بعثهم بها إلى أهل الأرض فسيكون ذلك سؤالاً عن شيءٍ معلومٍ لدى الجميع ، إذْ الجواب عن السؤال المطروح سيكون واضحاً وصارخاً لدرجة أن صداه يرتفع ويُسمع من محيط القيامة بأسره من غير أن يرفع به أحد عقيرته! ولا يكون هذا التساؤل بين الله ورسله إلا من أجل إشعار الناس بمزيد من الخزي والهوان ، وإعلامهم بأن الدين الذي كانوا قد اصطنعوه باسم أولئك الأنبياء ، لم يكن يمتُّ إلى تعاليمهم الحقيقية الأصيلة بصلةٍ قريبةٍ ولا بعيدةٍ !!

لقد خُلقت هذه الدنيا من أجل الامتحان ، مما اقتضى أن يتمتع كل إنسان بالحرية والاختيار ، فبإمكان المرء أن يعْزو إلى الله ورسله ديناً لا علاقة له بهما ، ولا يزال يزدهر، ويتقلب في النعيم والسعادة ، كما يمكن أن يُثبت أحد جدارته واستحقاقه للجنّة، حتى على أساسٍ من الآمال المزعومة والأماني الكاذبة ، ومن الممكن أن يثير المرء معارك لا

تخدم سوى أغراضه الذاتية وطموحاته القيادية ، ثم يؤكد بأن كل ما يفعله ، عين الدين الإلهي !! غير أن شيئاً من هذا النوع لن يجدي يوم القيامة فتيلاً ، وإنما الشيء الوحيد الذي سينفع المرء يوم القيامة أن يتم اعتباره في نظر الله ((صادقاً)) ، يكون امتحان الأمم في تحقق صدقها وخلاصها في دعوى الإيمان عملياً.

سورة الأنعام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

وَجَعَلَ: أنشأ وأبدع .

بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ: يسوون به غيره في العبادة .

قَضَى أَجَلاً: كتب وقدر زمانا معينا للموت .

وَأَجَلٌ مسَمًّى عِندَهُ: زمن معين للبعث مستأثر بعلمه.

تَمْتَرُونَ: تشكون في البعث أو تجحدونه .

وَهُوَ الله: أي المعبود أو المتوحد بالألوهية .

إن نظام السموات والأرض، على ترامي أطرافه إلى غير نهاية، نظام وحداني ومنسق تنسيقاً دقيقاً لدرجة أنه يصرخ بلسان حاله أن خالقه ومنظّمه لا يمكن أن يكون غير الله الواحد الأحد، ثم إن هذا الكون في سعته اللامتناهية، وما تنطوي عليه ظواهره وأحداثه من روحٍ ومعنويةٍ وخصائصٍ حكيمةٍ، فدورة الأرض المنتظمة للغاية حول كرة الشمس النيّرة في الفضاء؛ وما يترتب عليها من تعاقب النور والظلام واختلاف الليل والنهار على سطح أرضنا، لهي حدث أكبر بكثيرٍ من كل تصورات الإنسان وقياساته، فلنتساءل: إن الإله الذي يقوم على إدارة كون كبير، بمثل هذه الدقة

الفائقة؛ تُرى أي نقصٍ سيُحتمل وجودُه في ذاته يبعثه على اتخاذ ندٍ أو شريك له في عمله؟! الحقيقة أن كوننا هذا ؛ بما يُوجد فيه من نظامٍ رائعٍ عجيبٍ، يقوم بحدّ ذاته دليلاً حياً صارخاً على أن خالقه ليس إلا إلهاً واحداً، كما يشهد هذا النظام أن هذا الإله عظيم الشأن واسع السلطان وليس بحاجة إلى أي مساعدٍ في تكوينه ولا في إدارته وتدبيره.

وعمر الدنيا الحاضرة قصير محدود، وليس بإمكاننا أن نعيش حياةً خاليةً من التعب والعناء، إذْ ما من لذةٍ إلا وهي تحمل معها جانب ألمٍ، وكل صفوٍ يتبعه ما يكدره، إن الخير والشر توأمان متلازمان بحيث يستحيل أن نفصل أحدهما عن الآخر فصلاً كلياً، وبالنظر إلى هذا الوضع طالما يقع المرء في حيرةٍ وارتباكٍ، فيتساءل : كيف تتكوّن دنيا الآخرة الأبدية ؛ تلك التى ستكون خلواً من كل ألوان الحزن (على حد قوله تعالى حكايةً عن انطباعات أهل الجنة : ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ [فاطر : ٣٤] ، فإذا كان ذلك العالم الثاني سيتكون من موادّ هذا العالم، فإن عالمنا هذا ناقص، وهو بذلك لا يتمتع بصلاحية إيجاد عالم كاملٍ كالآخرة، وأمّا إذا كانت هناك أية مادّة أخرى ستستخدم في تكوين العالم الآخر، فإن الإنسان لا يدري ما هي؟!

ومن أجل التوصل إلى إجابة شافية عن هذا التساؤل، يكفي أن ينظر السائل إلى وجود نفسه، فإن جسد الإنسان بأكمله قد صُنع من التراب - أي من العناصر الأرضية - ولكن التراب يخلو حتى من صلاحية واحدةٍ من جملة تلك الصلاحيات الفريدة الممتازة التي أودعت في الجسد الإنساني، فالإنسان يسمع ويُبصر، وهو ينطق ويفكر، ويقوم بإنجاز ما لا يحصى من ألوان النشاطات والأعمال المثيرة للدهشة والإعجاب، بينما التراب - الذي هو مصنوع منه - لا يستطيع إنجاز أي عملٍ من هذا النوع، فقد خرج كائن غير أرضي من عناصر أرضية على وجهٍ يدعو إلى الحيرة، وهذه تجربة لا يزال المرء يمر بها كل يومٍ، فما أعجب وأغرب أن يشك المرء في إمكان وقوع الآخرة !!

فلو أمكن أن يخرج من التراب إنسان حي عاقل، ولو أمكن أن يكون التراب منبت زهورٍ جميلة المنظر، وفواكه لذيذة حلوة المذاق ؛ لو كان هذا كله ممكناً، فلم لا يمكن - إذن- أن يظهر إلى الوجود عالم أكمل وأرقى وأرفع مستوى مستمداً عناصر تكوينه من عالمنا الحاضر ؟!.

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

أَنْبَاءُ: أخبار وهو ما ينالهم من العقوبات .

كَمْ أَهْلَكْنَا: كثيرا ما أهلكنا .

قَرْنٍ: أمة من الناس.

مكَّنَّاهُمْ: أعطيناهم من المكنة والقوة .

السَّمَاءَ: المطر

مدْرَاراً: غزيرا كثير الصب.

إن الدعوة إلى الله والآخرة، التي تقوم على تأييد مباشرٍ من الله - عز وجل - تتضمن علاماتٍ واضحةً تعلن أنها دعوة حقة، وأنها من عند الله تعالى، فانسجام الدعوة مع منهج الفطرة، ذلك الذي يسير عليه نظام دنيا الله الأبدية، وارتكازها على دلائل وبراهين قاطعةٍ لا يتأتى نقضها وإبطالها لأحدٍ، وتواجد داعٍ مخلصٍ وجادٍ على ظهرها، لا يشوب جديته وإخلاصه شائبة تكلف أو رياء، ثم اقترانها بوقائع تعزيزية أو

تأييدية تخيب آمال معارضيها كلها فلا يكادون يبلغون ما يرمون إليه من وراء مخططاتهم التخريبية ضدها، رغم تفوقهم المادي الكبير، وكثرة عددهم وعتادهم الظاهرة، فأمثال هذه القرائن الواضحة تصاحب الدعوة، والتي تدل دلالةً صارخةً على صدقها وحقانيتها، غير أن الإنسان لا يؤمن بها، ولا يرضى بالوقوف إلى جانبها، ومرجع ذلك إلى أن كل هذه القرائن التأييدية المصاحبة للدعوة، على غاية وضوحها وجلائها، تظهر دائماً مقنعة بحجابٍ من الأسباب والعلل، ومن ثم فإذا ما تبدّت هذه القرائن أمام المرء، فلا يلبث أن تمر بها مرّ الكرام، ناسباً إياها إلى بعض العوامل والأسباب المعيّنة، ولا يكاد ذهنه يستعدّ للتحول في متجّه الاعتراف والتسليم، فيرفضها قائلاً : إن هذه الدعوة لو كانت من عند الله، لبرز الله وملائكته معها بصورةٍ مكشوفةٍ، وهي فكرة باطلة كل البطلان، لأنه إذا تجلّى الحق - سبحانه وتعالى - والملائكة بصورةٍ مكشوفةٍ للعيان، فسيكون ذلك موعد القضاء النهائي، وليس أوان الدعوة والتبليغ!!

إن الذين تقيض لهم الأقدار التمكن والاستقرار في الأرض، والذين يحالفهم التوفيق لادخار أموالٍ طائلةٍ، وامتلاك وسائل المتعة والعيش الرغيد لأنفسهم، والذين تحيط بهم مظاهر المجد والسمعة البرّاقة، دائماً ما يقعون في سوء الفهم والتقدير، فلا يلبثون أن يحتقروا ما يجمع الله حول الداعي إلى الحق ويؤيده به، بالمقارنة مع الأشياء والمظاهر التي تجمعت حول أنفسهم وتشتد ثقتهم بذاتهم، فلا يخافون من عقاب الله، فيأخذون في الاستهزاء بتحذيرات داعي الحق المتكررة المتمثلة في : أن عنادكم وطغيانكم لو ظل مستمراً كعهده، ولم تقوموا بوضع حدٍ له، فإن رقيكم المادي الباهر، وأمجادكم الدنيوية الفخمة لن تنجيكم من مؤاخذة الله وبطشه الشديد، ولكن نظرتهم إلى داعي الحق المفعمة بالازدراء والاستهتار، تجعلهم يعتبرون تحذيراته تافهة لا تستحق أن يُلتفت إليها أو يقام لها وزن!

كما أن أحداث الماضي التاريخية لا تعود تجدي شيئاً في زجرهم عن التمادي في البغي

والتمرد ودفعهم إلى التذكر والاعتبار ؛ فقد أباد الله أقواماً أعزّ منهم جانباً، وأشدّ منهم بأساً وقوة، وأكثر منهم جمعاً وإحرازاً للوسائل المادية .

إن ظاهرة سقوط الأمم ونهوضها في الأرض، الواحدة بعد الأخرى على التوالي، توحي بوجود قانون عام وثابت لا يتخلف ؛ ألا وهو «قانون المكافأة»، غير أن المرء لا يعتبر، فلا يزال المتأخرون يعيدون العمل نفسه الذي كان وراء هلاك الأوائل وذهابهم كأمس الدّابر!

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ: مكتوبا في كاغد أو ورق.

لاَ يُنظَرُونَ: لا يُمهلون لحظة بعد إنزاله .

وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ: لخلطنا وأشكلنا عليهم حينئذ ما يخلطون على أنفسهم .

فَحَاقَ: أحاط وأنزل.

كَتَبَ: قضى وأوجب ، تفضلا وإحسانا .

خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ: أهلكوها وغبنوها بالكفر.

مَا سَكَنَ: ما استقر وحل .

إن سبب ضلال المرء وانحرافه في الدنيا، يرجع إلى أنه يتمتع بكامل الحرية لإنكار الحق ومخالفته، وعالم الامتحان فسيح المجال لدرجة أن الألفاظ لا تلبث أن تنصاغ في كل قالبٍ من المفاهيم يريد الإنسان أن يصوغها فيه، فلو ظهر الداعي في هيئة رجلٍ كعامة البشر، فبمستطاع المرء أن يُعرض عنه قائلاً : إنه رجل نهض من أجل طموحه القيادي، وليس من أجل قضيةٍ تتصل بالحق والصدق، وهكذا لو نزل من السماء كتاب مكتوب على ورقٍ فإنه سيجد لرفضه كلمات : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ !!

كان أهل مكة يقولون : لو أن هذا النبي قد تمّ تعيينه في الواقع من عند الله لتبليغ رسالته إلى البشر إذن، فلم لا ينزل ملائكة الله يشهدون بنبوته وصدقه دعواه!؟، وإنما يلوك المرء مثل هذه الأقاويل لأنه لا يكون جاداً لأمر الدعوة، إذْ لو كان جاداً لأدرك من تلقاء نفسه أن هذا العالم هو عالم امتحان واختبارٍ ؛ ولا معنى للامتحان إلا إذا كانت الحقائق الغيبية مستورةً وراء حجابٍ، وأما إذا انكشفت الحقائق الغيبية، وبالتالي ظهر الله وملائكته للعيان، فلن تكون حاجة للدعوة وإبلاغ الرسالة، لأن أحداً ما لن يتجرأ بعدئذٍ على إنكار الحقائق .

والناس في هذه الدنيا، بسبب عبوديتهم للظواهر والأشكال، لا يستطيعون النظر إلى داعي الله من خلال عظمة كلامه وسمّو رسالته، فيقيسونه باعتبار وضْعه الظاهري فقط، ولا يلبثون أن ينكروه إذا وجدوه غير ذي شأنٍ أو أهميةٍ في هذا المقياس، حتى إنهم لا يتحرّجون من اتخاذه موضوع للسخرية والتندّر والاستخفاف، لأن داعي الله يبدو لهم رجلا عاديًا مغمورًا يندفع فجأةً فيدعي لنفسه أشياء كثيرة !!

إن عملية إبلاغ الدعوة في هذه الدنيا تتم وفقاً لقانون اللبس الإلهي ؛ فقد أُحيط الحق هنا بجانبٍ من الإشكال والارتياب ؛ وذلك ليجد المرء نفسه بإزاء وجوهٍ للإنكار إلى جانب دلائل تدعو إلى الإقرار، وامتحان المرء الأصلي هو أن يتوصّل إلى مقام اليقين مع تمزيق حجاب الشبهة والارتياب، فهو مطالب بأن يحذف كل جوانب الشبهة ويركز

اهتمامه على جوانب اليقين، إن الامتحان الحقيقي للمرء في أن يؤمن بالغيب ؛ أي بدون الرؤية المباشرة للحقيقة، لأنه لا قيمة للإيمان بعد ما كُشف عن الحقيقة ، وباتت تُرى وتُشاهد وتُلمس على نحوٍ مباشرٍ !

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾

وَلِياً: ربا معبودا وناصرا معينا .

وَهُوَ يُطْعِمُ: يرزق عباده .

مَنْ أَسْلَمَ: خضع لله بالعبودية وانقاد له .

ما بال الإنسان، ينكر الحق على غاية وضوحه وجلائه، ويسوم الآخرين خسفاً كلما أحسّ البأس والقوة، وما بال إنسانٍ يجعل من أخيه الإنسان هدفاً لظلمه وعدوانه بغير حقٍ ؟! لم هذا كله؟! هل الإنسان له السلطة المطلقة في هذه الدنيا ؛ يفعل ما يشاء، متى يشاء، كيف يشاء ؟ أليس هنالك من أحدٍ يأخذ على يده؟! هل مرجع ذلك إلى تناقضٍ يوجد في صنع الله وتدبيره، لأنه ملأ بقية الكون رحمةً وحكمةً ومعنويةً، وأما دنيا الإنسان فمملوءة ظلماً وجوراً واغتصاباً للحقوق ؟! . لا، لا، كلا .. إن الله الذي بيده ملكوت السموات والأرض، هو الله ذاته المالك للإنسان الذي يدبّ ويتحرك بالنّهار، ويلجأ إلى الهدوء والسكون إذا انتشر ظلام الليل، وكما أن الله تعالى هو الرحمة كلها لبقية

الكون، فإنه تعالى الرحمة كلها لبني البشر، غير أن ثمة فارقاً بين الحالتين، ألا وهو أن رحمات الله قد ظهرت وشملت بقية الكون منذ بدء الخلق، بينما سيتم ظهورها في عالم الإنسان على وجهٍ أكمل وأشمل في يوم القيامة .

الإنسان كائن ذو إرادة، والمطلوب منه عبادة إرادية أي صادرة عن إرادة ووعي، ومن ثم فإن الذين لا يستخدمون إرادتهم - تلك الصلاحية المميزة لهم عن الكائنات الأخرى - على الوجه الصحيح، غير جديرين أن ينالوا نصيباً من الرحمة الإلهية ؛ لأنهم لم يقوموا بتحقيق الغاية التي من أجلها خلقهم الله، وعقب انتهاء فترة الاختبار المحددة، سوف يُحشد الناس من أولهم إلى آخرهم في عالمٍ جديدٍ، وسيقبض الله يومئذٍ على أمور الدنيا بحذافيرها كما هو قابض على شئون بقية الكون، وسينصب يومئذٍ ميزان العدالة الإلهية ويفوز بالفلاح والسعادة يومئذٍ الذين أخضعوا أنفسهم في الدنيا لطاعة الله، اعترافاً وتسليماً بالحقيقة الواقعة، وسيكون الهلاك والخسران المصير المحتوم للذين لم يعترفوا بالحقيقة الواقعة، وظلوا في دنيا الله يسيرون على طريق العناد والطغيان !

إن الإنسان حينما يطغى، فطغيانه ناشئ عن اعتماده على سند، غير أن الأشياء التي يدفع اعتماد الإنسان عليها إلى ممارسة الطغيان والتمرد، لا حقيقة لها في هذا الكون، إذْ كل شيء هنا غاية في العجز والضعف، وإنما الله وحده يملك القوة والاقتدار، الجميع محتاجون إليه، وهو في غنى عن الجميع،، ولن يظفر بالنجاة في يوم الدينونة - القضاء الإلهي الأخير - إلا الذي سيكون قد استند إلى السند الحقيقي، والذي سيكون قد اختار الدين الإلهي الحق كمنهاج لحياته العملية!

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ

وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

وَمَن بَلَغَ: من بلغه القرآن إلى قيام الساعة.

إن هذا الكون العظيم المترامي إلى حدٍ أبعد عن مواقع أبصارنا، ترتبط مختلف أجزائه برباطٍ من الضبط والتنسيق متينٍ وشاملٍ، حتى إن حادثاً واحداً يستلزم إيجاده مساعدة الكون بأكمله، وبناءً على ذلك فإن أي إنسانٍ، كائناً من كان، ليس بقادرٍ على إحداث واقعٍ ما ؛ لأن أي إنسان ليس بقابضٍ على أزمة الكون يديره كيفما شاء، إن شيئاً متناهياً في الصغر والبساطة هنا لا يظهر إلى الوجود إلا إذا توافر على ظهره ما لا يُحصى من العوامل والأسباب الكونية، وإنه ليس هنالك من أحدٍ يحكم ويتصرف في تلك الأسباب والعوامل الهائلة غير الله عز وجل، ولا يملك الإنسان بإزاء الأسباب الكونية سوى إرادة ضئيلة غاية في الضآلة .

والحقيقة إنه إن ظفر أحد الناس في الدنيا بشيء من الخير والعافية، أو أصابته بنوعٍ من الشر والأذى، إنما يحدث وفقاً لمشيئة الله العليا وبإذنه تعالى مباشرةً، فلا يزعم زاعمٌ أنه يتمكن من تدمير أحد أو إسعاده، إلا أن يكون على جانبٍ عظيم من الحمق والغباوة، كما أن من أعظم الأمور سخافةً أن يعتقد المرء أن هناك أحداً غير الله يستحق أن يُخشى منه خشيته من الله، أو يتخذه موضع رجائه وآماله!

إن كتاب الله هو وحدهُ المرجع الذي يُحتكم إليه حسماً للصراع الذي يدور بين أهل الحق وأهل الباطل في الدنيا، إذْ لا أحد غير الله يعلم الحقائق الظاهرة والخافية، ولا أحد سواه تعالى يتمتع بأي نوعٍ من السلطان والقوة، لذا فإن «الوسيط الوحيد» الذي يصح الاعتماد عليه في هذا الخلاف هو الله - سبحانه وتعالى - وقد بعث الله بهذا الوسيط إلى الناس في صورة كتاب، وهو «القرآن الكريم» .

والمرء الآن في مواجهة طريقين : فلو أنه يجهل صدق القرآن، فعليه أن يسعى جهده

للبحث والتحقيق فيها إذا كان هذا القرآن كتاب الله حقاً أم لا، ثم إذا أوصله بحثه إلى المعرفة بأنه كتاب الله من غير شكٍ، تعين عليه حتماً أن يرضى بحكمه، فإن الشخص الذي لا يرضى بحكم القرآن يعرّض نفسه لموقف مخزٍ وخطيرٍ سيواجهه في اليوم الآخر، لأنه سيجبر يومئذٍ على الرضا والإذعان لحكمه قهراً ومقابل هوانٍ بالغٍ وعذابٍ شديد!!

وقد أُنزل القرآن من أجل أن يتم تنبيه الناس وإنذارهم بساعة القضاء الرهيبة القادمة قبل مجيئها، ولقد قام الرسول بهذه المهمة في زمانه، وصار من واجب أمته، بعد لحوقه بالرفيق الأعلى، أن تضطلع بهذه المهمة إلى يوم القيامة، إن القرآن بلاغ مسبق بما سيجري عليه تعامل ربّ الناس مع الناس في عالم الآخرة الأبدي، الدعاة والمبلغون سيتفرغون لأداء المسئولية المنوطة بهم، إذْ بذلوا أقصى جهودهم وطاقاتهم لإبلاغ الدعوة إلى الناس، غير أن نجاة المخاطبين عند الله تتوقف على أن يؤمنوا بها، ويمارسوا حياتهم العملية على أساسها، فنهاية مسئولية الداعي في استفراغ مجهوده لعملية «التبليغ»، أما نهاية مسئولية المدعو ففي الطاعة والإذعان للدعوة ومقتضياتها .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

فِتْنَتُهُمْ: معذرتهم ، أو عاقبة شركهم .

وَضَلَّ عَنْهُم: غاب وزال عنهم .

ما كَانُوا يَفْتَرُونَ: يكذبون ـ الأصنام وشفاعتهم .

إن الحقيقة شيء معروف ومعلوم لدى المرء ؛ لكونها ممزوجةً متأصلةً في صميم الفطرة البشرية من جهةٍ، وتردد صداها الصامت باستمرارٍ في كل ناحية من نواحي الكون من جهةٍ أخرى، أما شأن اليهود والنصارى في هذا الباب، فكان متجاوزاً إلى حدٍ أبعد من ذلك بكثير، إذْ كانت عندهم أخبار صريحة ومتواترة حول القرآن وأوصاف نبي آخر الزمان - عليه الصلاة والسلام - تمّ إعلامهم بذلك كله مسبقاً بواسطة الأنبياء والصحف التي أرسلها الله إليهم حتى صار أمر معرفته - عليه الصلاة والسلام - كما يعرف الواحد منهم ولده .

لماذا يرفض الإنسان التسليم بالحقيقة رغم كونها واضحةً وضوح الشمس ؟!، السبب هو الخوف من بعض الخسائر الوقتية، فالتسليم بالحقيقة يتم دائماً على حساب أن ينزل المرء بنفسه عن مركز السيادة والكبرياء، وأن يخرج من قوقعة التقليد ودائرة المألوف الضيقة إلى جديدٍ غير مألوفٍ، ويتخلّى عن المنافع الحاصلة الموجودة، وهذه تضحية قلّما يرضى المرء بتقديمها، لذا فلا يكاد يستعد لقبول الحق، إنه يعرض نفسه للخسارة الأبدية من أجل منفعةٍ وقتيةٍ زائلةٍ !

ويزيده إصراراً على موقفه، واطمئناناً زائفاً إليه، أنه يُوفّق، في عالم الامتحان هذا أن يظفر بتفسيرات موافقة ومؤيدة له، كما يجد ألفاظاً كاذبةً خادعةً ينقض بها الدلائل والبراهين التي تظهر لصالح الصدق، حتى يتمتع بكامل الحرية لأن يختلق تفسيراً مزعوماً للحقيقة، ثم يدعي قائلاً : إن المتمسك به هو الصدق عينه!

وإن المرء إذْ يتخذ من الأشياء الأخرى - غير الله - موضع اهتمامه، فلا تلبث أن تصير على امتداد الأيام محاطة بضروبٍ من الطلاسم والمؤيدات الافتراضية لها، لأنه يصطنع هالةً خياليةً مشكّلة من آمالٍ وهميةٍ وأمانٍ كاذبةٍ تملؤه غروراً وانخداعاً بأنه قد استمسك بالعروة الوثقى !!

ولكن إذا مزّقت القيامة كل الحجب والأستار، وبالتالي اتضح للمرء أن كل ما

استند إليه من دون الله كان سنداً واهياً باطلاً، فلن يجد أمامه سوى أن يأخذ في نفي جميع ما كان يقوله ويدّعيه ويفعله في الدنيا، ويحاول تبرئة نفسه بنفسه، وشأن هؤلاء شأن مجرمٍ مشدوهٍ انخلع قلبه لهول الموقف بين يدي المحكمة، فطفق يدلي بالشهادة ضد نفسه !! وهكذا سيُنكر هؤلاء كل تلك الأشياء التي ظلوا مناصرين متحمسين لها في الدنيا، فخورين معتزين بانتمائهم إليها، ينكرونها بأنفسهم في محكمة الآخرة .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

أَكِنَّةً: أغطية كثيرة .

وَقْراً: صمما وثقلا في السمع .

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ: أكاذيبهم المسطرة في كتبهم.

وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ: يتباعدون عن القرآن بأنفسهم .

وَقِفُوا عَلَى النَّارِ: عرفوها ، أو حبسوا على متنها .

في عالم الامتحان الحاضر، لا تزال الفرصة مفتوحةً أمام المرء لكي يفسّر كل شيء على الوجه الذي يراه موافقاً لهواه ؛ محققاً للغرض الذي يتوخّاه، ومن ثم فإن الذين يستمعون إلى ما يُعرض عليهم من الكلام بعقليةٍ متعصبةٍ، يكون حالهم كما لو أن آذانهم موقورة معطّلة، وعلى قلوبهم أغطية كثاف، فما ينتفعون بما يسمعون، ولا يفقهون ما

يوجه إليهم، ولا تعود الدلائل والبراهين تُجدي في إقناعهم شيئاً، لأنهم إذ يستمعون فإنما يستمعون بدافع الجدل والمكابرة، وليس بدافع التذكر والاتعاظ، وتكون نفوسهم خاويةً من الرغبة الصادقة في التلقي أو الفهم والتدبر، فيؤدي إلى عدم تمكنهم من إدراك الجوهر الأصلي لأي حديثٍ، وعلى العكس من ذلك، فإنهم لا يلبثون أن يجدوا في كل حديثٍ شيئاً بقصد التشويش عليه أو الإلواء به عن وجهه إلى ضده ، لا تجد الدلائل منفذاً إلى أذهانهم حتى تصبح جزءاً منها، وبسبب عقليتهم المعاكسة فدائماً يتناولون كل شيءٍ من ناحية واحدةٍ من نواحيه العديدة ؛ وهي الناحية التي تمكّنهم من إعطاء ذلك الشيء مفهوماً خاطئاً، وإقناعاً لأنفسهم بأنهم على الحق، وأن ما عداه الباطل والضلال ! ولا جدوى في عرض الدلائل والبراهين، مهما كانت قوية دامغةً، على الذين تغلب عليهم هذه الطبيعة العوْجاء، لأنه لا يوجد في عالم الامتحان هذا، أي دليل من شأنه أن يحول بين المرء وبين حصوله على بعض الكلمات المزعومة الطنّانة يرده بها، وحتى إذا لم يتمكن من الظفر بدليل مناقضٍ للأول، فلن يمتنع عن أن يُعرض عنه، مستهيناً به قائلاً : ليس هذا بشيءٍ جديدٍ، إنما هو أسطورة من الأساطير القديمة البالية التي ظلت تُعاد وتُكرّر على ألسنة الأجيال والشعوب منذ دهورٍ متطاولة، وقد سمعناها مراراً ما أغنانا عن سماعها الآن، ولو شئنا نحن لقلنا مثل ذلك ، وهكذا سيجد المرء حيلةً لرفضه مع تمام اقتناعه بصدقه وحقيته. وأمثال هؤلاء يرتكبون جريمةً مضاعفةً في جنب الله، لأنهم لا يبتعدون عن الحق بذاتهم فحسب، بل بتشويه دليل إلهي يجعلونه أيضاً ملتبساً ومشكوكاً فيه لدى عامة الناس ذوي الأفهام الساذجة البسيطة الذين لا يستطيعون أن يحللوا الأمور تحليلاً دقيقاً ويسبروا أغوارها.

وديدن أمثال هؤلاء في الحياة الدنيا الصلف والتحذلق في الكلام، وبما أن إنكار الحق في هذه الدنيا لا يُسبب للمرء أية خسارةٍ أو مصيبةٍ عاجلةٍ، فيتورط فى سوء الفهم، فإذا سُئل يوم القيامة، وهو موقوف على النار، فستنكشف له الحقائق كلها، وسيأخذ حينئذ يقرّ تلقائياً بجميع تلك الأشياء التي كان يرفضها ويستهين بها في الحياة الدنيا!

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

بَغْتَةً: فجأة من غير شعور .

فَرَّطْنَا فِيهَا: قصرنا وضيعنا في الحياة الدنيا .

أَوْزَارَهُمْ: ذنوبهم وخطاياهم.

إن إنكار أحد الناس للحق، أو انسياقه وراء الشهوات وأهواء النفس، يرجع إلى سببٍ واحدٍ، وهو خواء قلبه من الإيمان بأنه سوف يُبعث مرةً أخرى بعد الموت، ويُوقف بين يدي مالك الكون للحساب عن حياته الدنيا.

والمرء في هذه الدنيا أتيح له الاختيار، يستخدمه كيفما شاء بدون تعويقٍ ولا اعتراض، كما تتوافر لديه أموال ضخمة هي مبعث طمأنينته، ويتواجد حوله جمع من الأصدقاء، والأنصار، هم موضع ثقته واعتماده، ويتمتع بعقلٍ يستعين به لتدبير الحيل والمكائد، وتبرير بغيه وطغيانه وتحويل مساوئه إلى حسناتٍ، كل هذه الإمكانيات المتاحة له توقعه في وهمٍ وغرورٍ، فلا يلبث أن يعتمد اعتماداً كاذباً على المظاهر الأخرى غير الله تعالى، ويزعم بأني سأبقى على الدوام، في رغد العيش، ووفرة المال، وكثرة الأعوان والأصحاب .. إلخ ، ويغيب عنه أن كل ما هو حاصل علية في الدنيا، إنما أعطي له للامتحان والابتلاء، وليس على الاستحقاق والجدارة ! وهذا اللون من الحياة، هو جريمة الإنسان الكبرى .

إنه المرء يتهالك على الأشياء الدنيوية تهالكاً، كما لو كانت الغاية من الحياة، والسؤال: من الذي أعطاه حق التصرف في الأشياء على هذا النحو ؟ فالمرء لم يدفع أي ثمنٍ أو عوض عن هذا النور الذي يمشي فيه، والهواء الذي يستنشقه، لم يصنع بنفسه أي جزءٍ من أجزاء هذه الأرض التي يستنبت منها رزقه وطعامه ولا يدله في إيجاد شيء من جملة الأشياء المرغوب فيها، والتي يسعى جهد طاقته من أجل الحصول عليها واقتنائها !! فإذا لم تكن هذه الأشياء من خلق الإنسان نفسه، فهل ليس لموجدها ومالكها إذن أي حقٍ على المرء ؟! إن الحقيقة أن استمتاع المرء بالعالم الحاضر وما فيه، يستتبع أن يأتي يوم يُحضر فيه أمام خالقه ومالكه للحساب !

إن الذين يمارسون حياتهم، ويعتبرون الدنيا ملكاً لله، تكون حياتهم «حياة التقوى» وأما الذين لا يعتبرونها ملكاً الله، فإن حياتهم تكون سلسلةٍ من اللهو واللعب، وحياة اللهو واللعب لذة عارضة لا تلبث أن تنقضي مع انقضاء ساعات العمر المحدود، بينما حياة التقوى ستبقى إلى الأبد مصدر سرورٍ ومتعةٍ لقلب المرء، لا يعتريها الفناء والزوال، لأنها تستمد أساسها من التوجيهات والمبادئ الإلهية الأبدية .

وينكر المرء هذه الحقائق في العالم الحاضر، ولكن حين تنتهي حرية الاختيار، يجد نفسه مضطراً إلى الإقرار بها، بيد أن الإقرار في ذلك الوقت لن يُغني عنه شيئاً !

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟
حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾
وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى
ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ
﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

كَلِمَاتِ اللهِ: آيات وعده بنصره رسله.

كَبُرَ عَلَيْكَ: شق وعظم عليك .

نَفَقاً فِي الأَرْضِ: سربا فيها ينفذ إلى ما تحتها .

كان أبو جهلٍ يقول لرسول الله ﷺ : ((ما نكذبك يا محمد، وإنك عندنا لمصدّق وإنما نكذب ما جئتنا به)) (١)، وهكذا جميع كفار قريش، ومشركي مكة، كانا يعتبرونه - عليه الصلاة والسلام مع عدم إيمانهم به كنبي - إنساناً صادقاً نزيهاً، ولكن الإقرار لأحدٍ بجريان الحق على لسانه، يعني منحه شرفاً عظيماً جداً، ولم تتسع صدورهم لمنحه عليه الصلاة والسلام شرفاً عظيماً كهذا.

إن اعتبارهم إياه - عليه الصلاة والسلام - ((صادقاً)) أو ((أميناً)) لم يكن ليسلبهم قناعتهم النفسية القائلة بأنه بشر كما نحن جميعاً بشر، غير أن الاعتراف له بأن الله قد أجرى كلامه على لسانه كان مرادفاً لرفعه إلى مستوىً فوق أنفسهم، وهذا النوع من الاعتراف من أصعب الأمور وأشقها على الإنسان .

إن الله لا يتجلى بذاته المقدسة مباشرةً في العالم الحاضر، إنما يظهر أمام الإنسان بشكل دلائل وآياتٍ، لذا فإنكار دلائل الحق، أو التغاضي عن الآيات المؤيدة له، بمثابة إنكار الله وصرف النظر عن وجهه - تبارك وتعالى، على أن هذه السنة الإلهية ثابتةٌ دون تغيير، فلا يمكن أن يفاجئ الله بالظهور عياناً، مع خوارق معجزات إجبارية قاهرةٍ لردع الإنسان عن عناده الآخذ في الاشتداد وتمرده البالغ منتهاه ! إذْ لو عُرضت الدعوة في ظل معجزاتٍ إجبارية قاهرةٍ، لانعدمت حرية الاختيار بينما لابد للامتحان من توافر جو الاختيار الحرّ . وينبغي للداعي ألا يقع فريسة الحزن والهم، نظراً لانحصار طاقته كلها في إطار الدلائل والبراهين القاطعة وحدها، وعدم امتلاكه لقوى تسخيرية، إنما يجب على الداعي أن يلجأ إلى الصبر ويستمسك به، بدل أن يشغل باله بالتفكير الباعث

---

(١) البحر المحيط ٤/ ١١٢.

على القلق وانقباض النفس .

إن كفاح الدعوة إلى الحق يكون اختباراً لصبر الداعي، وامتحاناً للمخاطبين، أن يدركوا عظمة الكلام الإلهي وسموّه في كلامٍ خرج - في ظاهر الأمر - من فم إنسانٍ، وأن يخضعوا أمام دلائل تخلو من كل قوةٍ أو ثقلٍ مادي، تماماً كما سيخضعون في اليوم الآخر أمام الله العزيز الجبار؟!!

الكون كله يزخر بما لا يُحصى من الآيات ودلائل قدرة الخالق العظيم وحكمته البالغة، ولكن للأحياء وحدهم، وأما الذين ماتت ضمائرهم، وتبلدت أحاسيسهم، فلن يتلقوا الدرس أو العبرة، سوى بزلزال القيامة الرهيب!

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩) ﴾

أُمَمٌ أَمْثَالُكُم: في خلقنا لها وتدبيرنا أمورها .

ما فَرَّطْنَا: ما أغفلنا وتركنا .

فِي الظُّلُمَاتِ: ظلمات الجهل والعناد والكفر .

المعاني التي اشتملت عليها هذه الآيات أنهم يقولون : هلاّ أُنزلت على الرسول بعض الآيات الخارقة للعادة ؛ تشهد بصدق رسالته ! أما أن الله لقادر على إنزال الآيات والخوارق على اختلاف أنواعها، غير أن المسألة ليست في الآية ؛ إنما في جهل الناس، فإن هناك ما لا يُعد ولا يُحصى من آياتٍ جليلةٍ باهرةٍ، وهي منبثة في أرجاء الوجود كله ؛ والناس في غفلةٍ عنها ؛ لا يستفيدون منها ؛ ولا يتلقّون منها أية عبرة ؛ إذن فهل من

فائدةٍ تُرجى وراء إنزال آيةٍ أخرى جديدةٍ؟!

أليست هذه القطعان المشتملة على أصناف شتى من الحيوانات والبهائم التي تغدو وتروح على ظهر الأرض، وهذه الأسراب من الطيور والعصافير المختلفة الألوان والأشكال المرفرفة بأجنحتها في طبقات الجو، أليست كلها بمثابة آياتٍ ومعجزاتٍ تدعوكم إلى إعمال التفكير والتأمل في قدرة خالقها اللاّنهائية، وعظمة شأنه وبالغ حكمته، أجل ! إنها لكذلك، وإن ما يطلبه الله تعالى منكم هو اتباع سبيل الله رب العالمين، وقد سجّل الله لكل في كتابٍ ما هو مطلوب منه للإنسان على وجه الشريعة، وللمخلوقات الأخرى سواه على وجه الجبلة والغريزة، إن المخلوقات، كالطيور والحيوانات، ملتزمة تمام الالتزام بما كتب الله لها، دون أن تحيد عنه، ولكن الإنسان لا يكاد يرضى للالتزام بكتاب الله، ومن ثم فهذه ليست القضية الآية، بل هي قضية العمى وفقدان البصيرة، إذْ ما هو المسوغ الذي يسمح للإنسان باختيار دين غير الدين الذي اختارته بقية المخلوقات برمتها ؟! الحقيقة أن العاملين حقاً يعملون ما هو مطلوب منهم بدون اقتراح للآية أو المطالبة بها، أما غير العاملين فيطالبون بالآيات ، وهي محيطة بهم من كل صوبٍ، وما عقبة أمثال هؤلاء سوى حشرهم جميعاً يوم القيامة، يبين لهم جلياً، على صعيد الواقع المحسوس، كيف أن سائر أصناف الحيوانات كانت تسلك طريق الله ربّها، أخذاً بمنهج الواقعية، وأن الإنسان وحده قد ظل منحرفاً عن ذلك بغياً وعناداً، وعالم الحيوانات عالم مطابق للفطرة تمام المطابقة، فنلاحظ عندها بحثاً عن الرزق وسعياً وراء توصيله، ولكن لا نرى مظاهر السلب والنهب والظلم والاغتصاب، ولديها شعور بالاحتياج ودواعي الضرورة، ولكنها تجهل معنى الحرص والأثرة، وتوجد بينها علاقات متبادلة، غير أنها لا تدري سياسة الوقيعة والسعاية، ونلمس فيها تفاوتاً في القوة، والجمال، والمظهر الجسدي.. إلخ، إلا أنها غير عارفة بمشاعر سلبية كالحقد والغرور والتعاظم، ويقع بينها الاحتكاك وتأذي بعضهم ببعض ولكن من غير أن يورث ذلك العداوة والبغضاء ويوغر الصدور، وهي دائبة في تأدية

وظائفها وإنجاز أعمالها - ولكن لا يميل أي منها إلى نيل الشرف أو ادعاء الفضل والرفعة.

إنما الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتجه إلى ممارسة البغي والطغيان، وقلما يرضى بإخضاع نفسه للخريطة الإلهية، والشيء الذي فُرض على الإنسان إتيانه، هو الشيء عينه الذي تأتيه الحيوانات الأخرى سواه بكامل الخضوع والاستسلام، إذن فأية حاجة إلى طلب المعجزة لذلك، أليست هذه الآيات المتحركة المتمثلة في صورة الحيوانات الغادية الرائحة تكفي للإنسان عبرة ودرساً ؛ والتي تقدم نموذجاً حياً للمنهاج الإلهي العالمي ؛ وهكذا تشهد بدورها - شهادة عملية واقعيةً - بكون تعاليم الرسول حقةً وصادقةً !!؟

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

أَرَأَيْتَكُمْ: أخبروني عن عجيب أمركم .

كان عكرمة بن أبي جهلٍ من ألدّ أعداء الإسلام، وقد ظل يحارب الإسلام وأهله إلى فتح مكة، وحتى في يوم الفتح أيضاً رمى أحد المسلمين بسهمٍ فمات، وهو من جملة الذين أمر الرسول يوم الفتح بأن يُقتلوا حيثما وُجدوا.

وفي أعقاب فتح مكة، فرّ عكرمة هارباً منها إلى جُدّة، وأراد أن يركب سفينةً تعبر به البحر الأحمر ويصل إلى بلاد الحبشة، ولكن السفينة لم تكد تنطلق حتى أُحيطت برياحٍ عاصفةٍ هوجاء، وأوشكت أن تغرق، وركاب السفينة كانوا مشركين ؛ فأخذوا في المناداة بأسماء اللاّت والعزى وغيرهما من أصنامهم ؛ طلباً للغوث والنجدة، غير أن الطوفان اشتد فاستيقن الركاب أن السفينة ستغرق بهم، وعندئذٍ قال أصحاب السفينة

بعضهم لبعضٍ : إنه لن يغني عنكم الآن إلا أن تدعوا الله وحده، فطفق الجميع يدعون الله الواحد الأحد بضراعةٍ وخشوع، وما هو إلا قليل حتى هدأ الطوفان، وعادت السفينة إلى شاطئ البحر بسلام.

وقد كان لهذا الحادث أثره العميق في نفس عكرمة، فقال : والله، إن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك عليَّ عهد، إن عافيتني مما أنا فيه، أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده، فلأجدنه عفوّاً غفوراً كريماً (رواه أبو داود والنسائي) .

ولقد شهد التاريخ البشري بأكمله أن الإنسان، حتى لو كان معتمداً على آلهةٍ أخرى غير الله أو ملحداً لا يؤمن بوجود الله إطلاقاً، ما دامت حياته تسير سيرها الطبيعي المعتاد، إذا ما مرّ بلحظاتٍ حرجة خطيرة، فلا يلبث أن يبتهل إلى الله الواحد الأحد سائلاً عونه ونصرته، وإنها لشهادة فطرية على وجود الله وكونه وحده قادراً مطلقاً من غير ندٍ ولا شريكٍ.

فالظروف غير العادية، تزيح كل الحجب الظاهرية عن عين الإنسان جملةً واحدةً، وتمحْو من ذهنه كل الأفكار والخيالات الاصطناعية المزيفة، فلا يعود المرء يذكر في ظل تلك الظروف، غير الله الواحد الأحد.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ: البؤس والفقر، والسقم والزمانة .

يَتَضَرَّعُونَ: يتذللون ويخشعون ويتوبون .

جَاءَهُم بَأْسُنَا: أتاهم عذابنا .

كُلِّ شَيْءٍ: من النعم والكثرة استدراجا لهم .

أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً: أنزلنا بهم العذاب فجأة.

هُم مبْلِسُونَ: آيسون من الرحمة أو مكتئبون فيها .

دَابِرُ الْقَوْمِ: آخرهم .

إن الله لا يؤاخذ المرء مؤاخذةً فورية عاجلةً إذا رفض الإيمان بحقٍ ظهر أمامه بغايةٍ من الوضوح والجلاء، بل يُصيبه ببعض الصدمات المتمثلة في صورة خسائر مالية وبدنية، حتى تستيقظ قواه الفكرية والتأملية ؛ فيتناول موقفه تجاه الحق بالمراجعة وإعادة النظر فيه، إن حوادث الحياة ليست حوادث محضةً لا مغزى لها، إنها رسائل محسوسة يبعث بها الله لتوقظ الإنسان الغافل من رقدته، غير أن المرء طالما يمر بها مروراً عابراً سريعاً دون أن يستلهم منها درساً أو موعظةً، فلا يلبث أن يُطَمئِن نفسه ويُهَدئ خاطره قائلاً بأنها لا تعدو أن تكون صروف الزمن وتقلبات الأيام .

وهكذا في كل مناسبةٍ، يصرف الشيطان ذهن المرء إلى اتجاه الغفلة بدلا من العبرة ؛ خادعاً إياه بالتعليلات والتفسيرات الجميلة الخلابة، وبقدر ما أصر المرء على هذا الصنيع، وظل يعيده مرةً بعد أخرى، بقدر ما أخذت حساسيته الداخلية بالنسبة للحق والباطل والصواب تموت وتنعدم تلقائياً، إلى أن يُصاب قلبه بالقسوة والجمود والتحجر، وإذا المرء أعرض عن التحذيرات الإلهية، ولم ينتبه من غفوته، فإن الله يعامله بأسلوبٍ آخر، فيفتح عليه أبواب الرخاء والسعادة، ويمطر عليه ألوان النعيم والهناءة، ويكتب له مزيداً من العزّ، وسعة النفوذ، وإنها - في الحقيقة - عقوبة في ثوب النعمة، والغاية أن يتم استجلاء دخائل نفس المرء إلى أقصى حدٍ، إذْ إن اغترار المرء بتلك الأشياء واطمئنانه إليها، مما يزيده قسوةً على قسوةٍ، وإصراراً على رفض الحق والإعراض عنه، وهكذا يتأكد استحقاقه لعقاب الله تمام التأكد، وحين تتحقق هذه

الغاية، يهبط عليه العذاب الإلهي فجأةً، وتطوي صحيفة حياته الدنيوية طياً، ويساق إلى محكمة الآخرة، حتى يحكم عليه بالخلود في نار جهنم جزاءً على عناده وطغيانه.

إن هذا العالم هو عالم الله، ولا أحد يستحق هنا أي نوعٍ من الكبرياء والحمد والثناء سوى الذات الإلهية الواحدة، ومن ثم فإن أحد الناس إذْ يُعرض عن حقٍ جاء من عند الله، فإنه ليستهين بقدر الله، إنه شخص يريد أن يقيم صرح عظمته الذاتية في عالمٍ يزخر بروائع عظمة الله - جل وعلا، وإنه إذْ يفعل، يرتكب ظلماً دونه كل ظلمٍ. إنه يتمرد على الله الذي لا يجوز لأحدٍ أن يتخذ إزاءه موقفاً غير موقف العجز .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

أَرَأَيْتُمْ: أخبروني .

نُصَرِّفُ الآيَاتِ: نكررها على أنحاء مختلفة .

هُمْ يَصْدِفُونَ: هم يعرضون عنها ويعدلون.

أَرَأَيْتَكُمْ: أخبروني .

بَغْتَةً: فجاءة أو ليلا .

جَهْرَةً: معينة أو نهارا .

خَزَائِنُ اللهِ: مرزوقاته أو مقدوراته .

تزويد المرء بقوى ومقدراتٍ، كالسمع والبصر والقلب، يوضح مراد خالقه منه، إن الخالق يريد أن يستمع المرء إلى الكلام الحق، ويراه، ثم يؤمن به اقتناعاً بما يصحبه من دليلٍ عقلي لا يُردّ. ولو أن المرء لم يوظف هذه المواهب الإلهية الجليلة في تحقيق الغاية المبتغاة منها، فكأنما يعرض نفسه لخطر أن تُسلب باعتباره غير مستحقٍ لها. وإنه لا أحد أشد تعاسةً وحرماناً ممن سُلب هذه النعم، فجُعل أعمى وأصم وأبله !! ؛ لأن رجلاً كهذا يبقى ذليلاً مهاناً تافهاً لا قيمة لوجوده في هذه الدنيا.

ثم إن الحرمان الأكبر من ذلك هو أن يكون للمرء في ظاهر الأمر أذنان، إلا إنهما أصيبتا بالصمم عن سماع الحق، وله عينان، ولكنهما عمياوتان عن رؤية الحق، وأن يكون بين جنبيه قلب ينبض، غير أنه خلْو من الاستعداد لتفهم الحق كل الخلو.

إن هذا النوع من السلب أخطر بكثير من النوع الأول، ذلك لأنه يجعل المرء ذليلاً تافهاً غير ذي قيمةٍ وأهميةٍ باعتبار الآخرة، والرجل العنيد إذا ما وجهه إليه نذير أو تحذير من العاقبة الوخيمة التي سيلقاها نتيجة إنكاره للحق، فإنه يرد رداً غليظاً يدل على عدم اكتراثه بالعواقب، ومرجع ذلك إلى زعمه القائل- نظراً لاستقرار حاله واستقامة الأمور له في الحياة الدنيا: إنه في مأمنٍ من خطر عقاب الله ومؤاخذته، والذين توغلوا في التمرد والعناد أكثر، طالما يتحدون الداعي إلى الحق قائلين : ((ائتنا بما تعدنا من العذاب إن كنت من الصادقين)) ! ولا يفقه أولئك المساكين أن عذاب الله حين يأتي، فإنما يقع عليهم أنفسهم، وليس على أحدٍ سواهم، إن داعي الله منذر ومبشر، وذلك يعني أن اختبار الله للمرء أن يعرف المرء الحق بلغة الإعلام والإنذار، ثم يقوم بإصلاح نفسه وعمله في ضوئه. ولو لم يعرف الحق بلغة الإعلام، وشرع في المطالبة بأنواع الخوارق والعجائب كشرطٍ للإيمان به، فيثبت أنه أعمى، وليس للعُميان في دنيا الله عاقبة غير التخبط في متاهة الضلال المفضي بهم إلى الضياع!

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ: في أول النهار وآخره أي دواما .

فَتَنَّا: ابتلينا وامتحنا ونحن أعلم بهم .

إن الموعظة تترك أثرها الإيجابي المرجوّ على أولئك الذين يعيشون في نفسية الخوف والرهبة، فالمتوقع شيئاً في كل حينٍ وبحذرٍ بالغٍ، هو الذي يُرجى تنبيهه إلى خطره الزاحف ، وعلى العكس فالذين يعيشون في نفسية عدم الخوف، لا يأخذون الموعظة الموجهة إليهم مأخذ الجد أبداً، وبالتالي فهم لا يكادون يقبلونها، مهما كانت بليغة ومؤثرةً .

ونفسية عدم الخوف تنشأ بسببين : أحدهما: حب الدنيا الزائد، والآخر : عبادة الأكابر والصالحين، فالذين انغمسوا في متاع الدنيا ومباهجها، أو امتلأ كيانهم غبطةً وسروراً واطمئناناً بنجاحٍ دنيويٍ فازوا به، حتى لا يعود الآن يخطر على بالهم أبداً أنهم سيُتوفون يوماً ما، وسيحضرون بعدئذٍ أمام خالقهم ومالكهم للحساب الشديد، إن أمثال هؤلاء لا يعدّون الآخرة موضوعاً يجدر بشيء من الاهتمام؛ ولذا فإن التذكير بأهوال اليوم الآخر قلّما يجد له مكاناً في أذهانهم، ولا تلبث أذْواقهم وأمزجتهم أن تمج هذه المواعظ لاعتبارها تافهةً وغير ذات أهميةٍ يُعتدّ بها !

أما الصنف الثاني من الناس، فهم الذين يعدّون قضية الآخرة قضية الشفاعات والوساطات، فيزعمون، أن أكابرهم وشيوخهم سيكونون في الآخرة أعواناً وشفعاء

لهم، ومدار ثقة هؤلاء الناس في الحياة الدنيا وبعد المات على أنهم مستمسكون بأذيال الشخصيات المقدسة، فانضّموا إلى طائفة أصفياء الله وأوليائه، ومن ثم فلا شيء يُلحق بهم ضرراً أو يهدد مصيرهم ومستقبلهم، وهذه النفسية تجردهم من خوف الآخرة، ولا تدعهم يتأملون بجديةٍ وإخلاص في حديث يلغى امتيازاتهم المزعومة في الآخرة.

والذين أتاحت لهم الأقدار أن يحصلوا على ثرواتٍ طائلةٍ، ويحظوا بسمعةٍ عريضة، بناءً على سياسة انتهاز الفرص ورعاية المصالح، يستحيل عليهم أن يناصروا الدعوة إلى الحق الخالص ويقفوا إلى جانبها؛ لأن الوقوف إلى جانب الحق يكون بمثابة تحطيم لبنيان مصالحهم ومنافعهم، وحين يرون أن معظم أنصار الحق المجتمعين حوله،ليسوا إلا من أراذل الناس،فيصير الوضع بالنسبة إليهم فتنةً وبلاءً أعظم إلى حدٍ كبيرٍ،إذ يخيل إليهم أن وقوفهم إلى جانبه سيحطّ من شأنهم ويضع من علو منزلتهم، إنهم ينظرون إلى الحق من خلال منظارهم الذاتي ، بدلاً من أن ينظروا إلى الحق نفسه؛وإذا وجدوه لا يتفق ومع هواهم فيرفضونه رفضاً باتاً.

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

كَتَبَ رَبُّكُمْ: قضى وأوجب ـ تفضلا وإحسانًا.

بِجَهَالَةٍ: بسفاهة وكل عاص مسيء جاهل .

كان الناس في زمن رسول الله ﷺ قد انقسموا إلى نوعين : النوع الأول : الذي ظل يطالب بالمعجزات والخوارق الشاهدة على صحة رسالته وصدق دعواه ، أما النوع الثاني : فهو الذي لم يكد يستمع إلى الآيات القرآنية، حتى بادر بالإيمان به، وبهذا الاختبار نفسه يمرّ البشر ولا يزالون في كل زمانٍ. إن الله – جل شأنه – لا يتجلى بذاته

المقدسة عياناً ومباشرةً في العالم الراهن. إنما يُعلن عن دلائله على لسان الداعي، ويقدم صدقه إلى الإنسان ، بعد صياغته في صورة كلمات يألفها ويفهمها الإنسان. والآن فكل من بقيت فطرته حية وسليمةً يرى في هذه الدلائل ذاتها تجليةً لله ، فيُسرع تلقائياً إلى الإقرار بها وإخضاع نفسه لها .

وعلى العكس من ذلك، فإن الذين اندمجت فطرتهم تحت حجب اصطناعية كثيفةٍ، لا يُوفّقون لإدراك الله في صورة «الكلمات»، وبسبب عدم تمكنهم من رؤية الله في شكله الاستدلالي يودون لو أن الله يظهر أمامهم بشكله الشهودي - المباشر - غير أن هذا مستحيل في عالم الامتحان الحاضر.

إنما يظفر بالله مَن تمكّن من الظفر به في حالة الغيب، وأما الشخص الذي يأبى إلا أن يرى الله في حالة الشهود، فإنه لن يظفر في دنيا الله بشيء سوى الحرمان ، وقد جرت عادة المجانبين للحق، لأجل زيغٍ في قلوبهم، وانطماس فطرهم، أن يلصقوا بالمعتنقين للحق ألواناً من التهم، حتى يُثبتوا أنهم أعلى منهم، وهم يتجاهلون جرائمهم على كثرتها وشناعتها، اللهم إلا إذا وقع أتباع الحق يوماً في خطأٍ أو خطيئةٍ ما، تناولوها بالتضخيم والمبالغة في وصفها، حتى يبدوا للناس أن المناصرين لهذه الدعوة رجال «مشبوهون» لا يوثق بهم ولا يصح الاعتماد عليهم، في حين أن العكس هو الصحيح، فالذين نبذوا الباطل، وانضووا تحت لواء الحق، أثبتوا بعملهم ذاك أنهم سالكو طريق الإيمان والرشاد، وهكذا صاروا مستحقين، بموجب القانون الإلهي، أن يحالفهم التوفيق لإصلاح شأنهم، وأن ينالوا نصيبهم من رحمات الله تعالى.

وأما الذين ظلوا بعيدين عن الحق فإنهم يثبتون بعملهم أن قلوبهم خالية من أية رغبةٍ في الاتجاه نحو طريق الإيمان والإصلاح، وسيبقى هؤلاء محرومين من توفيق الله، لأن عنادهم مستمر لا يقف عند حدٍ ، والعناد أكبر جريمةٍ يرتكبها أحد في دنيا الله هذه.

إن الله يتحدث بلغة «الآيات»، وإن الآيات تحتاج شخصاً يدرسها ويتأمل فيها، وهكذا لا يظفر بالهداية إلا طالبها ؛ والشخص الذي لا يطلب الهداية، فلا عاقبة له في دنيا الله هذه سوى التيه والضلال .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) ۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾

يَقُصُّ الحَقَّ: يتبعه فيما يحكم به أو يبينه بيانا شافيا .

خَيْرُ الفَاصِلِينَ: بين الحق والباطل بحكمه وعدله .

كِتَابٍ مُّبِينٍ: اللوح المحفوظ أو علمه تعالى.

إن كل شيء يرفعه المرء إلى مقام الإله أو المعبود من دون الله، يكون هوى قد توهمه حقيقةً واقعةً، فمن أجل التخلص من العاقبة الوخيمة لقصوره العملي ربما يظن أحد الناس «مقرباً» إلى الله ليكون ولياً وشفيعاً له عند الله تعالى. وقد يعتقد في شخصيةٍ من الشخصيات وجود عظمةٍ طلسميةٍ ليتمكن من خلال انتمائه إليها من إزالة ما يشعر به من الصغار والضعة في ذات نفسه، وقد يبعثه التهاون والاستسهال على أن يصطنع لنفسه إلهاً لا يكلفه ثمناً غالياً أو مشقةً كبيرةً، وإنما يمكن أن ينال رضاه بإقامة مظاهر عادية تافهةٍ.

غير أن كل الأشياء من هذا النوع لا تعدو أن تكون افتراضاتٍ، والافتراضات لا تؤدي إلى الحقيقة، على أن غلبة المطامع الرخيصة تجعل المرء فاقد البصر والبصيرة فيتحدى حتى أولئك الذين قد اعتصموا بمالك الكون الحقيقي ووقفوا إلى جانبه، فيقول : لو أن الكبرياء والعظمة ليست لله الواحد الأحد الذي تدعون التمثيل عنه ؛ فاستنزلوا على العُصاة أمثالنا عذاباً شديداً؟!! وتصل الجرأة إلى هذا الحد لما يرون أن لديهم من الأسباب والمباهج الدنيوية ما لا يتوفّر لدى دعاة التوحيد، ويغيب عنهم أنهم إنما حصلوا على هذه الأشياء والمظاهر المادية نتيجة إقبالهم على كسب الدنيا وتقديمهم المصالح على الحق ومقتضياته، وأن دعاة التوحيد حُرموا من هذه الأشياء لإيثارهم الآخرة ونعيمها على الدنيا ومصالحها، إن العالم الحاضر عالم امتحانٍ واختبارٍ، فليست العبرة بالأحوال والظروف المادية التي تكتنف المرء، بل العبرة إذا كان المرء مستنداً إلى دليلٍ حقيقيٍ أو إلى محض افتراضاتٍ وآمالٍ، وإنه لن ينجح إلا المستند إلى دليلٍ، أما القائمون على الافتراضات، فإن العاقبة الوحيدة المحتومة التي سيلقونها أن يصيروا في دنيا الله محرومين من كل سندٍ ومن كل معينٍ ، فالعالم الذي يخضع نظامه لقوانين صارمةٍ ثابتةٍ، كيف يمكن أن يكون مصيره النهائي خاضعاً للأماني والآمال الجميلة ؟!

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ: كسبتم فيه بجوارحكم من الإثم.

لاَيُفَرِّطُونَ: لا يتوانون، أو لا يقصرون .

لقد خلق الله هذا الكون وأصبح تصديقاً عملياً لتلك الحقائق التي يُدعى إليها الإنسان، ولو أن المرء عاش مفتوح العينين، ولم يدس عقله تحت حجبٍ مصطنعةٍ، لظهر له الكون إظهاراً عملياً لدعوة القرآن الفكرية.

إن ساق الشجرة تتشعب عنه الأغصان، ومن الأغصان تخرج الورقات، ولكن يوجد فرق ملحوظ بين أصولها، كأنما الصانع على سابق علمٍ ودرايةٍ بأن الأغصان ملزمة بالبقاء الدائم مع ساقها، بينما قدر للورقات وقت لابد لها فيه أن تنفصل عن أصولها وتسقط ، وإنه لو لم يكن أصل الورقة يتميز عن أصل الغصن بهذه الخصيصة لما انفصلت الورقة عن غصونها أبداً، ولاختل بذلك نظام تجديد حياة الشجرة وحيويتها على مدار كل سنةٍ، وهكذا حين تلقى حبة في الأرض، فتجد في داخلها كل العناصر الحياتية الضرورية متوافرة، لتستمد منها غذائها فتنمو وتتحول إلى شجرةٍ كاملةٍ، فكيف يمكن أن يكون غافلاً عن أحوال البشر ذلك الإله الذي يحيط علمه حتى بأحوال ورقة ساقطةٍ من غصنها وحبةٍ مخبوءة في جوف الأرض؟! ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤]؟! [١].

إن أرضنا حادث فذّ في الكون، فقد جُعل نظامها، على نحوٍ استثنائي، ملائماً لحياة مخلوقٍ كالإنسان، إن معظم أجزاء باطن الأرض نيران ملتهبة ؛ ولكنها لا تنفجر فتنقلب الأرض تنوراً رهيباً، والشمس تبعد عن الأرض مسافة رياضية متناسبة للغاية، وهذه المسافة دائمة ؛ لا تتغير أبداً بزيادةٍ أو نقصانٍ، وإذا كان لابد للإنسان من الماء والهواء، فتوفير الهواء بشكل مركبٍ من الغازات معين ينتشر في كل مكانٍ، ووُضع الماء في صورة سائل رقيقٍ تحت الأرض، وهناك أسباب لا حصر لها يتم الإبقاء عليها في الأرض بصفةٍ مستمرة، ولو أن هذا النظام طرأ عليه يوماً تغير بسيط لاستحالت الحياة البشرية فوق الأرض، والنوم شيء غريب جداً، فالمرء يغدو ويروح، وهو يبصر

---

(١) تراجع الآية السابقة رقم ٥٩ .

ويتكلم، ولكنه حين ينام حتى تتعطل حواسه كما لو أن الحياة فارقته، وحين يستيقظ من نومه يكون إنساناً مثلما كان من ذي قبل، وكأنما النوم واليقظة يمثلان الموت والحياة، فإن ذلك يقرب إلى أفهامنا كيف أن المرء سيموت يوماً وكيف أنه سوف يُبعث حياً تارةً أخرى ؟! وهذه الوقائع تثبت أن جميع البشر بيد الله لا قبل لهم بإزاء قدرته وقهره وجبروته، وأنه سرعان ما ستأتي الساعة التي سيحكم فيها الله بينهم كما يشاء ، ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾!!.

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

تَضَرُّعاً: معلنين الضراعة والتذلل له.

وَخُفْيَةً: مسرين بالدعاء .

يَلْبِسَكُمْ: يخلطكم . في ملاحم القتال .

شِيَعاً: فرقا مختلفة الأهواء .

بَأْسَ بَعْضٍ: شدة بعض في القتال .

نُصَرِّفُ الآيَاتِ: نكررها بأساليب مختلفة.

بِوَكِيلٍ: بحفيظ وكيل إلى أمركم .

إن الإنسان يتعرض في هذه الدنيا لمصائب لا يتعرض لمثلها أي مخلوق آخر،

ويحدث هذا لتطرأ على المرء أحوال تطهر داخله من كل الأفكار والخيالات الزائفة، فيتمكن بالتالي من أن ينظر إلى فطرته على هيئتها الأصلية، ومن ثم فكلما نزلت بالمرء نازلة أو محنة قاسية دعا الله وحده في ضراعةٍ وإخلاصٍ، وإذا بكل الحجب الاصطناعية المتراكمة على ذهنه لا تلبث أن تتمزق تلقائياً، وإذا به يعلم علم اليقين أن الإنسان هو العجز كله، وأن القدرة كلها لله الواحد الأحد، لكنه ما تنقشع غيوم المحنة حتى يقع الإنسان ثانيةً فريسة الغفلة ويعود إلى سيرته التي كان عليها !!

أصل الشرك هو الاعتماد على شيء آخر من دون الله، أما التوحيد فهو أن يكون اعتماد المرء كله على الله تعالى وحده ، ومن صور الشرك ما نراه عادةً من عبادة الأصنام وغيرها من مظاهر الألوهية الباطلة ، غير أن من الشرك أيضاً أن يكفر المرء بنعم الله بدلاً من الشكر عليها، وأكثر صور الشرك شيوعاً أن يكون المرء قد اتخذ من نفسه صنماً يعبده ؛ ويعتمد على نفسه الاعتماد كله، وحين يمشي المرء على الأرض مختالاً ومتبختراً ؛ فكأنما يعتمد على قواه البدنية، ويعدّ ماله ملكاً لنفسه فكأنما يضع ثقته في مؤهلاته الذاتية، ويُهمل حق أحد الناس أو يغتصبه قهراً فكأنما يقول: إنني مهما أفعل مع الآخرين لن يقدر أحد علي أن يمسني بسوء، وإذْ يظلم أحداً أو يعتدي عليه، فكأنما تحدثه نفسه إذْ ذاك أو يحدث نفسه قائلاً : إنني قادر عليه تمام القدرة، ولا أحد يستطيع أن يمنعني من التصرف في حقه كما أشاء.

كل هذه الصور وأمثالها صور الكبر، وإن الكبر لهو أعظم أنواع الشرك وأشدها شناعةً عند الله – سبحانه وتعالى ؛ لأنه يعني أن يرفع المرء نفسه إلى مقام الله – جل جلاله. ولو تأمل المرء في حقيقة وضعه لامتنع عن التكبر والغرور، فهو محاط برياحٍ عساها أن تنقلب في أي وقتٍ عاصفة هوجاء تدمر حياته تدميراً، وهو قائم على ظهر أرضٍ يمكن أن تنفجر في أية لحظةٍ عن زلزال يجعل عاليها سافلها، ومجتمعه الذي يعيش فيه لا يزال يزخر كل حين بعداوات لدرجة أن شرارةً واحدةً منها تكفي لإحالة المجتمع بأكمله إلى مذبحة بشرية !

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يَخُوضُونَ: يأخذون في الاستهزاء .

وَغَرَّتْهُمُ: خدعتهم وأطمعتهم بالباطل .

أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ: لئلا تحبس في النار أو تسلم للهلكة .

تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ: تفتد بكل فداء .

أُبْسِلُوا: حبسوا في النار أو أسلموا للهلكة .

حَمِيم: ماء بالغ نهاية الحرارة .

رُوي عن عبد الله بن عباسٍ رضى الله عنهما ما معناه أن الله جعل لكل قومٍ عيداً يعظمونه ويصلون فيه ويعمرونه بذكر الله تعالى، ولكن كل قومٍ اتخذوا عيدهم لعباً ولهواً. إن لكل عملٍ ديني هدفاً معيناً، وله جانب ظاهري، وهدف العيد هو المظاهرة الجماعية لذكر الله تعالى و تكبيره وتعظيمه، غير أن الاحتفال بالعيد يتطلب مراعاة بعض الجوانب الظاهرية كارتداد الملابس النظيفة أو تهيئة أسباب الاجتماع، أما اتخاذ العيد لهواً ولعباً فبإهمال هدفه الأصيل فلا يُعار أي اهتمامٍ، بينما تقام الدنيا وتقعد لتوفيته جوانبه الظاهرية حقها من العناية والاهتمام، مثل التكاثر والتباهي بأنواع الملابس

والأمتعة، والتهالك على البيع والشراء، والعناية البالغة بالترفيه على النفس بألوان التسلية والمتع والنزهات والاستباق إلى التفاخر بمظاهر الجاه والأبهة... إلخ.

وهكذا يكون شأن الأعمال الدينية في زمن فساد الأمم وانحطاطها دينياً، حيث يأخذ الناس قشر العمل الديني ويدعون لبه ؛ يبالغون في الاهتمام بجانبه الشكلي الظاهري نابذين حقيقته الجوهرية، وإذا وصل الأمر بقومٍ إلى هذا الحد ؛ فيثبتون بعملهم هذا أنهم لم يعودوا جادّين في أمر الدين ؛ والذين لا يكونون جادين في أمرٍ من الأمور فإن من المستحيل أن تقنعهم بشيء لا يوافق مزاجهم، وزدْ على ذلك أن امتلاكهم للأشياء المادية يوقعهم في سوء فهمٍ بأن الحق ملك لهم، وهنا مكمن الداء، فيرون الدنيا مقبلةً عليهم، وحياتهم تجري على خير ما يرام، وتقضي مصالحهم وأغراضهم كأحسن ما ينبغي أن تقضى، ويجدون أنفسهم محط أنظار الناس، مما يجعلهم يظنون أنهم سيكونون في الآخرة كذلك على قمة المجد و السعادة والنجاح، وتلك نفسية إذا غلبت على أناسٍ فإنهم لا يكادون يأخذون قضايا الآخرة مأخذ الجد بطبيعة الحال، ولكن عليهم أن يعلموا جيداً أن كل ما يفعلونه لن يُهمل أو ينتهي بدون أية نتيجةٍ، فأعمالهم تلاحقهم وتحاصرهم من كل وجهةٍ، وعما قريبٍ سيقعون في الهاوية لقاء طغيانهم وعنادهم، ولن يجدوا أبداً إلى الخروج منها من سبيل!

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذْ قَالَ

إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٧٤)﴾

اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ: هوت به فأضلته .

وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ: أمرنا بأن نسلم ونخلص العبادة .

الصُّورِ: القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل .

آزَرَ: لقب والد إبراهيم ، أو اسم عمه .

إن من يبني حياته على دعامةٍ أو سندٍ من دون الله تعالى، كمسافرٍ يتيه في صحراء بدون معالم، بيد أن المسافر التائه في الصحراء سرعان ما يدرك أنه قد ضل الطريق، فحين يهتدي إلى طريقه ثانية يعود إليه مسرعاً ويستأنف المسير، ولكن الذي يعتمد في حياته على أي سندٍ آخر – غير الله تعالى – فإنه يبقى في عمى عن أمر ضلاله وانحرافه عن الطريق. إن المنادين من حوله ينادون : هلم إلينا، ها هي ذي المحجة، فلا يُلقي لمثل هذه الأصوات بالاً. ومرجع هذا الفرق بين الحالتين أن الرجل التائه في الحالة الأولى حين يضل طريقه فإن نوافذ عقله لا تزال مفتوحةً ؛ ولذا فلا يعوقه عائق عن رؤية الطريق الصحيح والعودة السريعة إليه. أما في الحالة الثانية فإن الشيطان يستبدّ بعقل الرجل المنحرف ويستهويه، فلا يعمل تفكيره وفق أسلوبه الفطري السديد، مما يجعله يسمع ولا يعي ويُبصر ولا يرى شيئاً !!

إن طالب أشياء من دون الله هو طالب أشياء لا تملك ضراً ولا نفعاً في هذا العالم ؛ فالسموات والأرض وما بينهما من ظواهر عجيبةٍ وأنظمةٍ محكمةٍ رائعةٍ تنفي نفياً باتاً أن يكون هناك وجود يملك أي نوعٍ من القدرة غير الذات الإلهية الواحدة.

وهكذا فإن المباهج الدنيوية التي يتخذ منها المرء هدفه ومقصوده في الحياة، في سبيل الحصول عليها يدوس مقتضيات الحق والعدل، هي باطلة كل البطلان، فإن الحياة الإنسانية لو انتهت بما هي عليه من ظلمٍ واعتداءٍ من غير أن يتم إنصاف المظلوم

المعتدي عليه من الظالم المعتدي، لو انتهت الحياة الإنسانية بهذا الشكل ؛ لكان معنى ذلك أن هذه الدنيا خُلقت عبثاً، وأنها مسرح للأنانيين والنفعيين، على حين أن نظام الكون يُرينا من روائع قدرة خالقٍ عظيم كاملٍ ، ما يحتم علينا أن نستبعد كل الاستبعاد صدور العبث منه، بأن يقيم مسرحاً بلا معنىً ولا هدفٍ من هذا النوع!!

إن وضع الدنيا الحالي مؤقت، وسيأتي يوم يُصدر الله فيه أمره بتحطيم هذا النظام، وبعدئذٍ ستنتهي حرية الإنسان التي يتمتع بها الآن، وسيُكتب النجاح والسعادة حينذاك للذين أسلموا أنفسهم لله في خلال فترة الامتحان ؛ والذين كانوا من المتقين الخاشعين لله بدون أي ضغطٍ خارجي!

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ
﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ
مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ
أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ
قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا
وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

مَلَكُوتَ: مُلْك ، أو آيات أو عجائب .

جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ: ستره بظلامه .

أَفَلَ: غاب وغرب تحت الأفق .

فَطَرَ السَّمَوَاتِ: أوجدها وأنشأها.

حَنِيفاً: مائلا عن الباطل إلى دين الحق .

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ: خاصموه في التوحيد .

إن قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام التى رُويت هنا ليست قصة البحث عن الحق، بل هى قصة مشاهدة الحق، إن سيدنا إبراهيم وُلد قبل أربعة آلاف سنةٍ في العراق في بيئةٍ كانت تُعبد الشمس والقمر والكواكب ، بيد أنه عليه السلام نجا من الشرك وظل بعيداً عنه لسلامة فطرته بعد فضل الله وتوفيقه، وقد كانت عيونه الساهرة لا تزال تبصر دلائل التوحيد من خلال الآيات المنبثة في الوجود، وأينما توجه ببصره في مرآة الكون تراءى له وجه الله الواحد الأحد، ومن ثم كان يأسف أشد الأسف على حال قومه ينبههم على ما هم فيه من ضلال وعمى عن الحق رغم ظهور البراهين الساطعة والحقائق المكشوفة أمام أعينهم.

كان الوقت ليلاً، والظلام سائدًا فى كل مكانٍ، وسيدنا إبراهيم ناظر فى السماء وهي ملأى بالآيات الشاهدة على وحدانية الله ؛ إذْ يمر به كوكب الزهرة يتلألأ، فيخطر على قلبه خاطر - هو خاطر التعجب والاستغراب لا خاطر التساؤل والارتياب والتشكك- فيقول: تُرى، أهذا هو ربي الذي ينبغي لنا أن نتخذه إلهاً نعبده ونخضع له؟! ثم إنه يراه وهو يأفل، فيتحول أفوله عنده إلى دليلٍ شهودى على صحة عقيدته بوحدانية الله، فلا يلبث حتى يصرخ قائلاً: إن الشيء الذي يضيء لساعةٍ من الزمان ثم يدركه الأفول كيف يمكن أن يكون جديراً بالعبادة كلا كلا، وتمر به تجربة مماثلة بالنسبة للقمر والشمس ، فكل منهما يطلع فيثير في نفس الرائى مشاعر الدهشة والاستغراب بنوره لمدة يسيرة من الزمن، ثم يغيب عن الأبصار، وهذه المشاهدات الفلكية أو الكونية التي كانت بالنسبة له عليه السلام تصديقاً صارخاً للتوحيد، هي التي يعرضها على قومه كحجة تؤيد ما يدعوهم إليه وتثبت بطلان ما يعتقدون وما يعبدون من الكواكب والنجوم والأصنام، فيتحدث إليهم بالأسلوب الذي يطلق عليه مصطلح الحجة

الإلزامية، وهو يعني أن تتناول أولاً قول خصمك بحكايته كما هو ثم تقحمه بالحجة الدامغة والدليل القاطع، وقد ورد هذا الأسلوب في مواضع أخرى عديدةٍ من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ [طه :٩٧].

إن آيات الله المنبثة في هذا الكون تزيد العبد الذي يتأمل فيها إيماناً واطمئناناً إلى صدق ما يؤمن به من وجود الله ووحدانيته... إلخ، ونستمد منها دلائل قويةً لتأييد دعوة الحق وإقناع المدعو بصحتها .

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

سُلْطَاناً: حجة وبرهانا

وَلَمْ يَلْبِسُوا: لم يخلطوا.

بِظُلْمٍ: بشرك ، بكفر .

إن شيئاً أو شخصيةً ما حين يتم رفعها إلى درجة الإله ؛ فإن ما يحدث بعد ذلك بطبيعة الحال أن تكتنفها أسرار وتُنسج حولها تصورات غامضة عن العظمة والكبرياء فيستقر في أذهان الناس أنها ذاتٌ تحتل في خارطة الكون مرتبة سنية عالية لا يحتلها الآخرون، وأن أقدارهم تعلو أو تنخفض على حسب نجاحهم أو فشلهم في إرضائها

والتقرب منها. ومن هنا فلما قال سيدنا إبراهيم عليه السلام عن أصنام قومه إنها باطلة، وإنها لا تملك في دنيا الله هذه أي نوعٍ من القوة والاقتدار، أصبح القوم خائفين يترقبون أن هذه الإساءة عسى أن تجرّ وبالاً أي وبالٍ ؛ فإذا بهم يتناقشون مع سيدنا إبراهيم يخوفونه: إنك لئن لم تمسك لسانك عن سب هذه الآلهة فلينزلن عليكُ غضبها .

إنما هي ذات الله وحدها التي تقوم عظمتها في هذا الكون على أساسٍ من الحجة والبرهان، أما ما عداها من العظمة والألوهية على اختلاف أنواعها، فكلها تستمد وجودها من الأوهام والعقائد الخرافية لا غير، إن ألوهية الله قائمة بذاتها، بينما الألوهيات الأخرى إنما تقوم بفضل المعتقدين فيها، فإذا لم يكن هناك من يعتقد في مظاهر الألوهية هذه فلا تلبث أن تتلاشى وتنمحي من على صفحة الوجود تلقائياً.

وعُباد هذه الآلهة الباطلة يغترون بظواهر الأحوال، فيخيل إليهم أنهم في موضع أمانٍ أكبر بالقياس إلى عُبّاد الله الصادقين الذين لا يتمتعون بأسباب حياة آمنةً من المخاوف والهموم والمكدرات، غير أن هذا أسوأ أنواع الخطأ فى الفهم والتقدير. إن المتمتع بالأمان حقاً هو الذى يقوم على أساسٍ من الحجة والبرهان، وأما إذا اصطنع شخص لنفسه مأمناً من خلال التفاهم مع التقاليد الدنيوية الرائجة فإنه لن يغنى عنه شيئاً فيما يتعلق بمصيره النهائى.

﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ
وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ
وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا
بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾

وَاجْتَبَيْنَاهُمْ: اصطفيناهم للنبوة .

لَحَبِطَ: لبطل وسقط .

وَالْحُكْمَ: الفصل بين الناس بالحق أو الحكمة .

اقْتَدِهْ: اقتدِ والهاء للسكت .

وَمَا قَدَرُوا الله: ما عرفوا الله ، أو ما عظموه .

قَرَاطِيسَ: أوراقا مكتوبة مفرقة .

قُلِ الله: قل الله أنزله (التوراة) .

خَوْضِهِمْ: باطلهم .

إن «الفضيلة» ليست خاصةً بسلالة أو شعبٍ معين، إنها عطية من الله تعالى، ولا يستحقها سوى الأفراد الذين جعلوا من أنفسهم صالحين وفقاً لهداية الله، فاجتنبوا كل أنواع الشرك، وانضموا إلى المشروع الدعوي المتمثل فى «البلاغ والتذكير بلا أجرةً» انضماماً كاملاً شاملاً، وهؤلاء أناس يتخذون من كتاب الله دليل حياتهم الحقيقى، ويدمجون وجودهم فيه فتنكشف لهم أسرار هذا الطريق المسماة «بالحكمة»، فيشرفهم الله تعالى بالاجتباء ؛ فيوفّق من شاء منهم لإبلاغ رسالته إلى البشر؛ كنبى من أنبيائه في عصر النبوة ؛ وكداعٍ من دعاة دينه فى عصر ما بعد ختم النبوة. إن جائزة الله، سواء أكانت للأنبياء على وجه الخصوص، أم لأفراد البشر على وجه العموم، إنما تُنال على

أساسٍ من الإحسان فى العمل وليس على أي أساسٍ آخر سواه.

إن عملية الدعوة إلى الحق لا يضطلع بها إلا الأفراد الذين بلغوا من الإخلاص ونكران الذات وغاية النصح للمدعو، فلا يعلقون عليه أي أملٍ أو رجاءٍ مادي ؛ إذ ليس من المعقول أن تبلغ شخصًا أو طائفةً ما برسالة الآخرة، ثم تتصدى للاحتجاج عليها من أجل حقوقك ومطالبك المادية، ولو أن الداعي لم يأخذ الحقيقة في اعتباره لصارت دعوته موضوع سخرية لدى المدعو، ولن ينظر إليها أبداً على أنها نشاط جاد مخلص يستهدف خيراً له وللمجتمع البشرى كله.

لقد آمن برسول الله ﷺ نفر قليل من أهل مكة، ولكن قومه رفضوه، ومن بعد ذلك شرح الله صدور أهل المدينة لصالح دعوته فآمنوا به، حتى إنه صار من الممكن لرسول الله ﷺ أن يهاجر من مكة إلى المدينة، ويقيم بها مركزاً للدعوة الإسلامية، وقد حصلت نصرة الله هذه لرسول الله ﷺ فى أتم صورها، على أن الله -عز وجل- لا يحرم دعاة أمته أيضاً من هذه النصرة، وقد ظل ينصرهم على مدار التاريخ بحسب مشيئته العليا، والتي لا يعلمها إلا هو .

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

مُبَارَكٌ: كثير المنافع والفوائد (القرآن العظيم)

أُمَّ القُرَى: مكة . أي أهلها .

وَمَنْ حَوْلَهَا: أهل المشارق والمغارب .

غمرات المَوْتِ: سكراته وشدائده .

أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ: خلصوها مما هي فيه من العذاب .

عَذَابَ الهُونِ: الهوان الشديد والخزي .

حين عرض رسول الله ﷺ دعوته على أهل مكة، سأل أناس منهم بعض اليهود عن رأيهم ؛ وعما إذا كان قد نزل على محمد كلام الله ؟ فكان جواب اليهود : ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ . وهذا الرد مفاجأة غريبة ؛ لأن اليهود كانوا من المؤمنين بالأنبياء، وهكذا فكأنهم كانوا مقرين بالفعل بأن كلام الله ينزل على البشر غير أن المرء عندما يعارض أحد خصومه معارضةً عمياء، فقد يذهب به الحماس في إنكاره وتكذيبه إلى حدٍ يأخذ معه يفند مسلماته ومعتقداته نفسها .

وباعث هذا العناد في نفوس اليهود أنهم أحالوا كتاب الله قراطيس أو ورقات متفرقةً؛ فكانوا يظهرون منها بعض أجزائها، ويدعون الباقي مطوياً بين دفتى الكتاب، فيسمعون ويُسمعون بشغفٍ زائدٍ تلك الآيات التي تتحدث عن الإنعام الإلهى، ويتركون تلك الآيات التي تؤكد على أعمالٍ لابد من إتيانها لاستحقاق الإنعام الموعود، وركزوا على بعض آياتٍ معينةٍ لكونها مظنة تأييد لعويلهم السياسى، ويتركون آياتٍ أخرى تتضمن أحكاماً حول العمل الإصلاحى الصامت، وكانوا يقفون وقفاتٍ طويلةً عند الآيات التى تتيح لهم فرصة لإظهار براعة التنقير اللفظى والاستنباطات الفرعية، ويمرون سريعاً بالآيات التى تدور حول حقائق الدين الجوهرية والأبدية، وكانوا كثيراً ما يرددون الآيات التى تذكر بعض مناقبهم، بينما لا يلقون بالاً إلى الآيات التى تذكر المسئوليات المنوطة بهم، والذين يحيلون كتاب الله «ورقات» على هذا النحو، يتولد في نفوسهم العناد والتمرد، فيخوضون فى مناقشات سخيفةٍ، ويصدرون بيانات متناقضةً، ومن ثم فلا يُرجى منهم تعاون حقيقى، فالذين ليسوا بعادلين حتى مع كتاب الله ،

كيف يمكن أن يلتزموا بالعدل والإنصاف في التعامل مع البشر ؟!

إن دعوة الدين دعوة إنذار الناس وتنبيههم، ومثل هذه الدعوة، مهما عُرضت على لسان إنسانٍ مثاليٍ كاملٍ، لا تستقر في قلب السامع إلا إذا كان يحمل في صدره قلباً خفاقاً بالحذر والخوف، ويعتبر قضيةَ الآخرة قضيةً جادةً، أما إذا كان السامع خالياً من هذا العنصر الأولى، فإن المستمع لن ينفعه شيئاً !

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

ما خَوَّلْنَاكُمْ: ما أعطيناكم من متاع الدنيا.

تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ: تفرق الاتصال بينكم .

فَالِقُ الحَبِّ: شاقه عن النبات ، أو خالقه .

فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ: فكيف تصرفون عن عبادته .

إن الله تعالى حين يبعث عبداً من عباد لإبلاغ رسالته وإعلاء كلمته ؛ فيكتب له توفيقاً خاصاً، فإن سلوكه يكون مطبوعاً بطابع الخوف من اليوم الآخر، وأحاديثه تعكس قوة البرهان الإلهي، ويحالفه النجاح في مواصلة جهوده الدعوية والبلوغ بها آخر الأمر إلى غايتها المنشودة، ويكون بكل وجوده آية الله في أرضه.

غير أن الذين بهرت عيونهم مظاهر العظمة الدنيوية الجوفاء ؛ لا يكادون يفقهون عظمة الداعي إلى الآخرة، فيرون أنفسهم - في ضوء مقياسهم المادي - أرفع شأناً من ذات الداعي إلى الله، ممَّا يصيبهم بالكبر ؛ فليس من المستبعد إذن أن يقع أمثال هؤلاء في

سوء فهم بأنهم قادرون على إبداع كلام مماثل للكلام الذي ينزله الله على أحد عباده، إنهم يريدون رؤية الله في الخوارق والآيات الطلسمية، فلا يتمكنون من رؤية الله الذي يتجلى عبر الآيات البشرية.

وسبب هذا الكبر الذي يتولد في نفس أحد الناس، إنما يرجع إلى اغتراره بمركزه الدنيوي، وما يتمتع به من المتاع واللذائذ المادية في الحياة الدنيا، فيغيب عن باله أن كل ما أتيح له في هذه الدنيا ليس إلا للابتلاء ولفترةٍ محدودة ؛ فحين ينتهي أجله يُسلب كل هذه الأشياء فجأة، وسيبقى المرء فرداً وحيداً تماماً كما كان وحيداً عند ولادته، فكل امرئٍ يتوصل بعد الموت فوراً إلى حيث لا يكون معه ثروته التي اقتناها، ولا مركزه الذي اغتر به، فلا يجد من حوله أعوانه ولا شفعاءه الذين اعتمد عليهم، إنما سيكون هناك - بمفرده - بين يدي الله ربه، وأي شيء من الأشياء التي كانت موضع فخره واعتزازه في الحياة الدنيا لن ينجيه من عذاب الله يومئذٍ.

إن كل امرئ في هذه الدنيا يعيش في طلسمٍ من الألفاظ، فالكل يصطنع لنفسه مجموعةً من الألفاظ، يبدو من خلالها أنه وحده على الحق، وأن طريقه الطريق المستقيم، غير أن انقلاب الآخرة حين يمزق الأستار عن وجه الحقائق، فإن طلاسم الألفاظ ستصبح تافهةً وفارغة المعنى كأن لم يكن لها من وجودٍ بالأمس !

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

فَالِقُ الإِصْبَاحِ: شاق ظلمته عن بياض النهار أو خالقه .

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يجريان في أفلاكها بحساب مقدر.

حُسْبَاناً: نيطت به مصالح الخلق .

فَمُسْتَقَرٌّ: في الأصلاب، وقيل في الأرحام . ونحوها .

وَمُسْتَوْدَعٌ: في الأرحام ونحوها وقيل في الأصلاب .

إن الإنسان حين يريد صنع سيارة أو آلةٍ ما ؛ فإنه لا يصنعها جملةً واحدةً، بل هو يصنع أولاً كل ترسٍ من تروسها على حدةٍ، ثم يتناول هذه التروس بربط بعضها ببعض، ولكن الله -جلّت قدرته- عندما ينبت شجرةً أو يخلق إنساناً فإن عملية الإنبات والخلق تتم بشكل مختلفٍ، وذلك أنه تعالى يُخرج أي شيء إلى الوجود بكل عناصره التكوينية مجتمعةً في آنٍ واحدٍ ؛ ففي المصنع الإلهي يتم إخراج شجرةٍ كاملةٍ أو إيجاد إنسان كامل من خلال نواةٍ أو نطفةٍ على نحوٍ مرحلي متدرجٍ، وهذه تقنية فذة للغاية لا يقدر على اتباعها أي إنسانٍ، مما يثبت أن هناك موجوداً أعلى من الإنسان، وتصميمه فوق كل التصاميم.

إن حجم الشمس يكبر عن الأرض مليوناً ومائتي ألف مرةٍ، والأرض أكبر من القمر أربع مراتٍ، وهذه الأجرام كلها في حركةٍ مستمرةٍ، فالقمر، الذي يبلغ بعده عن الأرض حوالي مائتين وخمسين ألف ميل، يدور حول الأرض، والأرض تبتعد عن الشمس بنحو ثلاثةٍ وتسعين مليون ميلٍ، تدور بطريقتين : في محورها، وعلى مدارها حول الشمس. وهكذا الشأن بالنسبة إلى دوران الكواكب، فهي تقع على مسافاتٍ شاسعةٍ تدعو إلى الدهشة والإكبار البالغين، ولا تزال تتحرك حركةً مستمرةً منضبطةً تمام الانضباط،، وعلى هذا النظام الكوني يترتب حدوث الليل والنهار، وبه يتقرر جدول الأزمان، وفي ضوئه يمكن للإنسان إجراء التنسيق في مختلف نشاطاته وتنظيم شئونه، وهذا النظام الهائل يسير بدقةٍ بالغةٍ فلا يحدث فيه أدنى خلل أو اضطراب على مر القرون، مما يثبت أن ثمة وجوداً وراء هذا الكون يتمتع بطاقاتٍ لا نهائيةٍ.

وآيات الله هذه تدل على أن موجد هذا المصنع ذو علمٍ شاملٍ ؛ لأن أي موجودٍ غير

ذي علم لن يتمكن من إقامة جهاز ضخم من هذا النوع، وأنه وجود ذو قوة قاهرة غلابة؛ إذْ بدونه يستحيل تسيير وإدارة شئون مثل هذا المصنع الضخم على هذا النحو الدقيق، وإن تخطيطه غاية في الإتقان والكمال ؛ ولولا ذلك لما كان من الممكن أن يوجد في الكون الفسيح هذا الانسجام الرائع والروح المدهشة.

إن دنيا الله مليئة بدلائل الله، بيد أن الدليل علم على معقولية نظرية، وليس علماً على مطرقةٍ من حديدٍ، فلا يمكن أن يعترف بالدليل إلا شخص جاد، ويكون قد أعد نفسه شعورياً للاعتراف بالدليل ، بغض النظر عما إذا كان موافقاً لهواه أو مخالفاً له !

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

خَضِراً: شيئا أخضر غضا .

حَباً متَرَاكِباً: متراكما كسنابل الحنطة ونحوها .

طَلْعِهَا: هو أول ما يخرج من ثمر النخل في الكيزان .

قِنْوَانٌ: عذوق وعراجين العناقيد تنشق عنها الكيزان .

دَانِيَةٌ: متدلية أو قريبة من المتناول.

وَيَنْعِهِ: وإلى حال نضجه وإدراكه .

الجِنَّ: الشياطين حيث أطاعوهم في الكفر .

وَخَرَقُوا لَهُ: اختلقوا وافتروا له سبحانه.

إن المصانع البشرية لا تقدر على إنتاج آلة تخرج من بطنها آلات مماثلة بعددٍ لا يُحصى، فإن مصانعنا تضطر إلى إعداد كل آلةٍ على حدة، ولكن هذا الواقع يحدث في مصنع الله كل يومٍ، فمن داخل حبة شجرةٍ واحدةٍ تُزرع في الأرض تظل تخرج أشجاراً لا حصر لها، وهو الأمر بالنسبة للإنسان، إذْ ما زال يولد ولا يزال بلايين البلايين من البشر، بدءاً من رجلٍ وامرأةٍ، دون أن تنقطع سلسلة المواليد هذه أو تقف عند حدٍ.

وهذه المشاهدة تدل على أن الإله الذي خلق هذا الكون يملك قدرةً واسعةً غير محدودةٍ، وأنه قادر على عملية الخلق بأن يوجد شيئاً أولياً ثم يخرج من داخله أشياء متناهية في الكبر والضخامة بتسلسلٍ دائمٍ متصلٍ، وهكذا فإن الله -عز وجل- يقدر على إخراج عالمٍ أكمل وأرفع مستوى وأكثر بهجةً وجمالاً من خلال عالمنا الحاضر، فليس الاعتقاد في العالم الآخر بقياس مستحيل أو مستبعدٍ ؛ بل يعني أن نسلم بالإمكان نفسه الذي نشاهده كل يومٍ، كواقعٍ من وقائع المستقبل.

والتراب - فيما يبدو - شيء جامد لا حياة فيه، ولكن حتى ينزل عليه المطر ينبثق عنه عالم جديد مملوء خضرةً ونضارةً، حيث تخرج من جوفه أنواع شتى من الزروع وأشجار ذات ثمارٍ مختلفة الأجناس والأشكال، وهذه الواقعة بدورها تمثيل للعالم الذي يلي العالم الراهن، وما من عملٍ صالحٍ يعمله الإنسان في دنيا اليوم إلا وهو إمكان من هذا النوع نفسه، وإذا ما نزلت أمطار الرحمة الإلهية فلا يلبث هذا الإمكان أن يخضرّ ويزدهر، ويتحول إلى زرع الآخرة البهيج ؛ أي الجنة .

إن الإنسان يتم إيداعه أولاً في بطن الأم، ثم يُنقل منه إلى العالم الراهن، والقبر هو الآخر بمثابة ((بطن)) من هذا القبيل ؛ فالمرء يتم إيداعه في حفرة القبر، فيفتح عينه بعد ذلك في العالم الآخر كي يُساق إلى الجنة أو الجحيم على حسب أعماله.

وعالم الغيب الذي يُطالب الإنسان بالإيمان به تتوافر دلائله وانعكاساته في أرجاء الكون المحسوس بشكلٍ كاملٍ، إلا أنه لا يعترف به إلا من يعترف مسبقاً، ففي ((طريق

الإيمان» يكون المرء قد قطع نصف رحلةٍ تصير دعوة الإيمان جزءاً من ذهنه ويتلقاها بالقبول، أما الشخص الذي يواصل رحلته في اتجاهٍ معاكسٍ للإيمان، فإن دعوة الإيمان لن تنفعه شيئاً!

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

بَدِيعُ: مبدع ومخترع .

أَنَّى يَكُونُ: كيف ، أو من أين يكون .

وَكِيلٌ: رقيب ومتول .

لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ: لا تحيط به تعالى .

بَصَائِرُ: آيات وبراهين تهدي للحق .

بِحَفِيظٍ: برقيب أحصي أعمالكم لمجازاتكم .

دَرَسْتَ: قرأت وتعلمت من أهل الكتاب

إن من ضعف الإنسان منذ أقدم العصور أنه إذا رأى شيئاً ما ينطوي على أي نوع من الامتياز أو السرية والغموض، فلا يلبث أن يعتبره شريكاً لله، ويعبده، طلباً لحمايته أو توقياً من ويلات غضبه، وقد عبد كثير من الناس الملائكة والكواكب والجن مدفوعين بالعقلية نفسها، على حين أن خلو هذه الأشياء من صفة "الخلق" دليل

واضح على أنها ليست من الألوهية في شيء، فما خلقت نفسها ولا قادرة على خلق سواها، وإنما قام بخلقها إله آخر، إذن فمن ذا سيكون الإله المستحق للعبادة : الخالق أم المخلوق؟!

إن العناصر التي لابد منها لبقاء شجرةٍ ونموها وازدهارها، لا تزال تصل إليها بمقاديرها المناسبة المتوازنة بانتظامٍ، وهكذا الحال لموجودات الكون الأخرى، وإذا كانت الحقيقة أن كل ما تتلقاه هذه الأشياء مما تحتاج إليه، إنما هو «عطاء» لها، فمما لا شك فيه أن هذا «المعطى»خبير بكل شيء، ويشمل علمه الجزئيات والكليات؛ فلولا ذلك لما كان بإمكانه أن يقوم بتدبير أمر كل مخلوقٍ على حسب حاجاته، إذن فالإله الذي يملك هذه الصفات الكاملة والقدرات الشاملة، ماذا سيحوجه إلى أن يتخذ من أحد مخلوقاته شريكاً له في ألوهيته وربوبيته؟!

والإنسان يريد أن يشاهد الله بصورةٍ حسيةٍ، وإذا كان الله لا يتراءى له بصورةٍ حسيةٍ، فإنه لا يلبث أن يتجه إلى أشياء أخرى محسوسةٍ يفترضها آلهةً فيعبدها، غير أن هذا تقدير بخسٍ للذات الإلهية ؛ فإن الإله الذي بلغ منتهى العظمة والجلال إذْ خلق هذا الكون الهائل، ولا يزال يدبره ويدير شئونه بغاية من الضبط والتنسيق، كيف يمكن أن يكون «عادياً » بحيث يراه مخلوق ضعيف بعينه ويلمسه بيده؟!

بيد أن الإنسان يستطيع أن يدرك الله عن طريق القلب، ويراه بعين اليقين، فالشخص الذي تكفيه «مشاهدة البصيرة»للاقتناع والإيمان، سيوفق للظفر بالله، وأما الشخص الذي يأبى إلا أن يشاهد الله بالبصر ويراه رأي العين، فسيظل محروماً من إدراك الله تماماً .

﴿ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ

أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

عَدْواً: اعتداء وظلماً.

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ: مجتهدين في الحلف بأغلظها وأوكدها .

ومن الناس من يحمل في قلبه جذوة الطلب ؛ فيبحث عن الصدق بجدٍ وإخلاصٍ، ومنهم مَنْ نالوا نصيباً من المال أو السلطة ؛ فيحسبون أنهم أناس محظوظون ؛ ليس بهم عوْز أو فراغ ما، يسده أي شخصٍ آخر، ومعظم المعتنقين لدعوة الحق، حين تقوم، هم الذين ينتمون إلى الصنف الأول. وأما الذين ينتمون إلى الصنف الثاني، فلا يعتبرونها قضيةً تستحق الاهتمام ؛ فلا يتأملون فيها أبداً بجديةٍ، وبالتالي فلا تتضح لهم أهميتها وخطورة شأنها بطبيعة الحال، وفي مثل هذه الأوضاع تتوخى دعوة الحق تحقيق غرضين رئيسيين، أولاً : إرواء عطش الباحثين الصادقين وتقديم الإجابة الشافية عن طلبهم، وثانياً: إتمام الحجة على مَنْ سواهم، وهدف الدعوة - بالنسبة إلى الصنف الأول - يتلخص في اجتذابهم إلى حظيرة الأيمان، وبالنسبة للصنف الثاني في إبلاغهم بالدعوة، فلا يلبثون أن يصرخوا قائلين للداعي : نعم قد درست، أي قد بلغتنا رسالتك.

وربما يلجأ المنكرون للدعوة، لتبرير إنكارهم، إلى إثارة ألوانٍ شتى من الأقاويل وافتعال أسباب المعارضة، مما يجعل الداعي يحدث نفسه بتناول أسلوب عرض الدعوة بنوعٍ من التغيير رجاء أن تصبح جديرةً بالقبول لدى المدعو، غير أن مثل هذا الانحراف لا يجوز، وإنما يجب على الداعي أن يلتزم بالأسلوب نفسه الذي تم تلقينه من عند الله تعالى، لأن المقصد الأصلي ربط الإنسان بالله ربه، وليس كسب الجماهير، فليس من الجائز أن تدفعك ثورة الغضب أو الاهتياج على بعض تصرفات المدعو إلى أن توجه إليه كلاماً قاسياً أو لاذعاً يبعثه هو الآخر على مقابلتك بما هو أفحش وأشنع من السب

والشتيمة لضلاله وجهالته.

إن المرء يتولد في نفسه نوع من العصبية في حق تلك العادات والتقاليد الخاصة التي ينشأ ويترعرع في ظلها، وتلك الآراء والأفكار السائدة في بيئته فيألفها ويستأنس بها وتتكون لديه شاكلة فكرية معينة يفكر في ضوئها، وهذه الشاكلة الفكرية عقبة كبرى تحول دون قبول الحق، ولن يجد صوت الحق مدخلاً إلى ذهن المرء وعقله ما لم يقم بتحطيم هذه الشاكلة الفكرية البالية .

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

وَنَذَرُهُمْ: نتركهم .

طُغْيَانِهِمْ: تجاوزهم الحد بالكفر .

يَعْمَهُونَ: يعمون عن الرشد .

وَحَشَرْنَا: جمعنا .

قُبُلاً: مقابلة ومواجهة أو جماعة جماعة

زُخْرُفَ الْقَوْلِ: باطله المموه المزوق .

غُرُوراً: خداعا وأخذا على غرة .

إن الشخص حين يجحد الحق، فإنما بكون وراء ذلك سبب واحد هو : النظر إلى الأمر المعروض من الوجهة المقلوبة بدلاً من وجهته الصحيحة، فأي أمرٍ من الأمور،

مهما كان مدعوماً بالحجج والبراهين القاطعة ، لو أن المرء لايريد الإيمان به ، لوجد لرفضه بعض الألفاظ والمبررات، فبدل أن ينظر إلى دلائل الداعي، يعمد - مثلاً - إلى إثارة النقاش حول ما إذا كان كل الأكابر وكل الرجال الصالحين غيرك محرومين من الحق إن كان الحق معك وحدك، وما إلى ذلك من الأباطيل والترهات، ومن العسير جداً أن يهتدي شخص تغلب عليه هذه النزعة إلى الطريق المستقيم؛ فإنه سيتمكن من إيجاد ألف حيلة وحيلة لإنكار كل أمر يُعرض عليه من خلال توجيهه وجهةً خاطئةً، فإذا كان يرفض الدلائل النظرية بقوله : هذا لا يتفق مع ما كان عليه السلف. فإنه سيجد لرفض المشاهدة الحية ألفاظاً أخرى، فيقول: إنما هي خداع نظرٍ ، وأنها لا تعدو في الحقيقة أن تكون محض طلسمٍ افتراضى، وهكذا، فالنزعة التي حالت دون الإذعان للدليل النظرى أول الأمر ، ستقف بمثابة حجر عثرة دون الإذعان للدليل الحسى كذلك، وسيظل المرء محروماً من الهداية تماماً كما كان محروماً من ذى قبل.

وأمثال هؤلاء يكونون - من حيث طبيعتهم ونفسيتهم - متعنتين معاندين ؛ يودون رؤية أنفسهم دائماً وعلى كل حالٍ فوق الجميع، وحين يتقدم أحد الدعاة إليهم برسالة الحق، فغالباً ما يكون غريباً أو مغموراً في بيئته، ويكون خالياً من مظاهر العظمة المعتد بها في عصره، ويكون الانضمام إليه حينذاك مرادفاً لأن يحط المرء من شأنه ومركزه الاجتماعي، مما يجعل هؤلاء المصابين بمركب الاستعلاء لا يتلقونه بالقبول، ويبادرون بالرد عليه وتكذيبه متعللين بصنوف الحيل والتأويلات اللفظية الواهية.

إن الكياسة أن يذعن المرء لخريطة الله، ويمارس نشاطه طبقاً لها، وعلى نقيض ذلك فإن الحماقة والجهالة أن يتبنى المرء مقياساً مزعوماً زائفاً بدلاً من الخريطة الإلهية، ثم يقول : آخذ ما أجده منطبقاً على هذا المقياس وحده، وكل ما لا ينطبق عليه فمرفوض، إن مصير هذا الرجل التخبط في متاهات الضلال، إذ المرء يمكنه الوصول إلى الهدف، في دنيا الله باتباع الطرق المقررة من عند الله، وليس بالعكس .

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ: لتميل إلى زخرف القول .

أَوَ لِيَقْتَرِفُوا: ليكتسبوا من الآثام.

الْمُمْتَرِينَ: الشاكين في أنهم يعلمون ذلك .

قال ابن جرير: عن أبي ذرٍ ﷺ قال : أتيت رسول الله ﷺ في مجلسٍ قد أطال فيه الجلوس، قال، فقال : ((يا أبا ذر هل صليت)) ؟ قلت : لا، يا رسول الله . قال : ((قم فاركع ركعتين)) قال : ثم جئت فجلست إليه، فقال : ((يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس)) ؟ قال : قلت : لا يا رسول الله، وهل للإنس من شياطين ؟ قال : ((نعم، هم شر من شياطين الجن)) (١).

والمراد من شياطين الإنس: الذين يلعبون دوراً قيادياً في سبيل الاستخفاف بالدعوة وتشويه سمعتها، وهؤلاء أناس احتلوا مركز الشرف والنفوذ الواسع بناءً على ديانةٍ مزعومةٍ، فحين تقوم دعوة الحق، في صورتها النقية الخالصة، يخيل إليهم أنها تعمل على تعريتهم وسحب البساط من تحت أقدامهم، ولقد كان الطريق الأقوم لأمثال هؤلاء أن يعترفوا بالحق دون تحفظٍ بعدما صار واضحاً، غير أن مركزهم أعز عليهم من الحق، فمن أجل الحفاظ على مكانتهم لا يلبثون أن يأخذوا في إثارة شبهات حول الداعي ودعوته، وللوصول إلى هذا الغرض يعتمد هؤلاء على سلاحٍ واحدٍ، هو العبارات المنمقة والكلمات المزخرفة الخلابة ؛ حيث يتلمسون في شخصية الداعي ودعوته من

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٦٠٩ .

العيوب أو جوانب النقص، ما لا يكون من الحقيقة في شيء، ولكن يتم تمويهه بأسلوب ينخدع به الكثير من الناس، فيقعون في شكٍ وحيرةٍ .

إن واحداً من أحوال الامتحان والابتلاء التي وجدت في العالم الحاضر، أن كلاً من المتحدث عن الحق والمتحدث عن الباطل يجد ألفاظاً مؤيدة لصالح دعواه على حدٍ سواء، فإذا كان بإمكان الداعي إلى الحق أن يبين الحق بلغة المنطق والبرهان، فإن الفرصة متاحة للمبطلين ليستخدموا ضد الحق كلماتٍ مزخرفةٍ مزوقةً يحسبها الناس دلائل، فيتخلوا عن مناصرة الحق نتيجة التأثر والانخداع بها، وبما أن هذا الوضع من أجل الامتحان، فلن يزال قائماً إلى يوم القيامة، إذن فلابد للمرء، ما دام في هذه الدنيا، من مواجهة هذا الامتحان الذي يفرض عليه أن يفرق بين الدلائل الحقة وبين الأقاويل الباطلة التي لا أساس لها من الصحة، فيتلقى الأولى بالقبول ضارباً بالأخيرة عرض الحائط.

والشبهات المموهة التي يثيرها شياطين الإنس ضد الحق بخبثهم ودهائهم، لا تخدع ولا تستميل سوى الذين خوت قلوبهم من همّ الآخرة ؛ فإن هم الآخرة واستحضار أهوالها يجعل المرء جاداً، والذي يكون جاداً لا تخفى عليه حقائق الأمور، ولكن الذين خلت قلوبهم من هم الآخرة، فلا يكونون جادين في أمر الحق، فلا يستطيعون فهم الفرق بين القول المزخرف وبين الدليل الحق !

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

كَلِمَتُ رَبِّكَ: كلامه وهو القرآن العظيم .

صِدْقاً وَعَدْلاً: في مواعيده ـ وفي أحكامه .

يَخْرُصُونَ: يكذبون فيما ينسبونه إلى الله تعالى .

عندما نزلت أحكام الذبائح في القرآن، وأُعلِن: ألا تأكلوا الحيوان الميت ، ولتأكلوا ما تم ذبحه باسم الله، قال قوم من المشركين - تهكماً : ما أغرب شريعة المسلمين ؛ يعتبرون ما قتلوه بأيديهم حلالاً، بينما يعدون ما قتله الله - عز وجل- حراماً ؟!

وهذه الجملة لا تعدو أن تكون سجعاً لفظياً فارغاً، غير أنها لم تلبث أن خدعت الكثيرين، وجعلتهم ينظرون إلى الإسلام بعين الشك والارتياب وتلك ظاهرة يتكرر حدوثها، ففي كل زمانٍ يكون عدد الفاهمين للأمور في حقيقتها الأصلية قليلاً، ويظل أكثر الناس متورطين في المعميات والأحاجي اللفظية، ولا يلبث هؤلاء أن يظنوا الأوهام والخيالات الزائفة حقائق واقعية ؛ بسبب عرضها بأسلوبٍ شيقٍ وكلماتٍ جميلةٍ، بيد أننا نعيش في عالمٍ لم يترك الله فيه حقيقة أساسية إلا أنزل عنها بياناً واضحاً، ومن ثم فإن وقوع أحدنا في هذا النوع من الضلال أو الانحراف أمر لا يُغتفر.

إن كلام الله هو المعيار الحق الذي يستطيع كل شخصٍ معرفة ما إذا كانت دعواه حقيقةً واقعيةً أو شعوذة لفظية ؟!

لقد زودنا الله تعالى بتصريحٍ صادقٍ عن كل ما هو ضروري من أمور الماضى والحاضر والمستقبل، كما أرشدنا تعالى إلى أقوم الطرق وأكملها عدلاً وإنصافاً لكل جوانب العلاقات الإنسانية وأبعادها، فلو كان المرء جاداً، لما صعب أن يعرف الحق والباطل ؟! ولن يقع فى الشك والارتياب إلا من كان تفكيره يعمل تحت التأثر بعوامل أخرى غير الكلام الإلهى، فالشخص الذي يجعل تفكيره وفقاً للحقائق الإلهية، يغدو من المستحيل أن يتورط فى الانحراف الفكرى، وهذا التباين الإلهي، لو لم يهتد المرء إلى سبيل الحق، فإن الله عليم بحقيقة حاله ؛ فيعلم جيداً من ذا الذي لم يعط أهميةٍ للصدق الذي ظهر خارج ذاته من أجل حرصه على كبريائه وعظمته الذاتية، ومن ذا الذى حال

تعصبه الأعمى دون تفهمه لأمر الحق، ومَن الذي أهمل نداء الصدق ولم يعره أى اهتمام بسبب رغبته في المظاهر الرخيصة ، ومَن الذي لم يتمكن من معرفة الحق بسبب سيطرة مشاعر الحقد والحسد على ذهنه وعقله ؟!

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

وَذَرُوا: اتركوا .

يَقْتَرِفُونَ: يكتسبون من الإثم أيا كان.

وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ: خروج عن الطاعة ومعصية .

لا شيء في الدنيا إلا وهو - بالنسبة إلينا نحن البشر - «مال الغير»، لأن كل شيء ملك لله، وإنما الصورة الوحيدة لاستحلاله لأنفسنا أن نحصل عليه بالطريقة التي هدانا الله إليها، وأن نستخدمه وفق الطريقة المرضية عند الله - عز وجل .

إن الحيوانات تقدم لنا غذاءً ثميناً، غير أن السؤال هو : كيف حصل لنا حق التغذي بها ؟ إن التسمية أو ذكر اسم الله عند الذبح هو الجواب عن هذا السؤال، فليست التسمية بأي اسمٍ أو عادةٍ لفظيةٍ. إنها في الأصل اعتراف بمالكية الله للحيوان، وتأدية الشكر لله على إعطائه إيانا، وذكر اسم الله عند الذبح رمز للاعتراف والشكر. وهذا

الاعتراف والشكر هو «الثمن» الذي بدفعه إلى مالكه يصبح أحد حيواناته حلالاً لنا ، على أن الشخص المضطر يعفى من هذا الالتزام.

إن المرء حين يتخلى عن أحكام الله بشأن الحلال و الحرام وبشأن المباح والمحظور، فإن الأوهام والخرافات تحل محلها، إذْ يتبنى الناس مذاهب وآراء شتى عن الأشياء بناءً على الأفكار والخيالات الوهمية، وقد تكون وراء الأوهام بعض الفلسفات المزعومة، كما تقوم على أساسٍ منها بعض المظاهر الشكلية، والذين يريدون السير في طريق الطاعة لله، فعليهم قطع صلتهم كليةً بهذه الأوهام من الناحيتين : الفكرية والعملية.

إن هناك ديناً تقليدياً يحظى برواجٍ عامٍ لدى كل أمةٍ فيما يتعلق بالطعام والشراب وأساليب تناولها وأمور الحياة، ومشاعر الناس نحو الدين التقليدي الرائج تكون شديدةً، لكونه يحمل توثيقاتٍ من جهة الشيوخ والسلف الصالحين ، ولذا فإن دعوة الحق حين تصطدم بهذا الدين التقليدي الرائج تُثار زوبعة من الاعتراضات على دعوة الحق، ويخترع زعماء العصر أقاويل مزخرفةً ومفرحةً تمكنهم من إقناع أتباعهم من العوام بأن دينكم التقليدي الرائج هو الحق، وأن هذا «الدين الجديد» باطل، غير أن الله تعالى أحاط بكل شيءٍ علماً، ويكشف عن الحقائق في يوم القيامة، فسيرى كل إنسانٍ ما إذا كان قائماً في حياته الدنيا على أرض الحقيقة أو على أرض الأوهام والخرافات ؟!

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ (١٢٤) فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) ﴾

صَغَارٌ: ذل عظيم وهوان.

حَرَجًا: شديد الضيق .

يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ: يتكلف صعودها فلا يستطيعه .

الرِّجْسَ: العذاب أو الخذلان.

إنما الحي عند الله هو الذي حين ظهر أمامه نور الهداية اتخذ منه نبراساً يستضيء به في طريق حياته العملية، وفي مقابل ذلك فإن الميت هو الذي يتيه في ظلمات الباطل لحرمانه وابتعاده عن نور الهداية،

وإن عقل هذا الميت يكون متورطاً في حبائل الأوهام والتعصبات العمياء فلا يدرك الحقائق الصادقة والسديدة، ويعوزه المعرفة بماهية الأشياء، فلا يستطيع التمييز بين الكلام الحقيقي والجدال اللفظي العقيم، ويكون غارقاً في غروره، فيستحيل عليه الاعتراف بصدقٍ يأتيه من أحدٍ غيره، وتستحوذ على ذهنه الأفكار التقليدية، فلا يتمكن من اختبار الأشياء على أي مقياسٍ آخر سواها وبسبب مواطن ضعفه وأمراضه الداخلية يتخبط في الظلام، ويتحول إلى إنسانٍ ميتٍ خامدٍ رغم كونه حياً في ظاهر الأمر.

وعلى العكس من ذلك فالذي يفتح صدره للهداية، فلا يلبث أن يتحرر من كل العقد النفسية على اختلاف أنواعها، فلا يتعذر عليه معرفة الصدق أياً كان مظهره، وحجب الألفاظ لا تحول أبداً بينه وبين رؤيته لوجه الحقيقة، ولا تحتل قضايا الذوق والعادة من نفسه وحياته مكاناً فتصبح عائقاً عن التقدم نحو الحق، ويصير الصدق حقيقةً ساطعةً وضاءةً، ولا تخونه العزيمة أو النشاط في الوصول إليها، ويمشي بنفسه في ضوء الحق، ويحاول «تمشية» الآخرين في ضوئه كذلك.

والذين توصلوا إلى مقام المشيخة والمرجعية لدى العوام، على أساس مزاعم أسبغوا

عليها ثوب الدين الإلهي، هم أعداء كل صوتٍ يدعو الناس إلى الدين الحق، وأكابر العصر يحاولون جهد طاقاتهم منع الناس من التأثر بدعوة الحق، فتلبس أمرها على الجماهير بزرع ألوانٍ من الشكوك والشبهات في نفوسهم، وصرف دلائل الحق عن وجوهها، وتشويه سمعة الداعي عن طريق نشر أقاويل ضده لا أساس لها من الصحة، غير أن كل هذه المحاولات لا تزيدهم إلا إجراماً، ولا تصيب الداعي أو مسيرته الدعوية بخسارةٍ ذات بالٍ.

إن متبع الحق هو الذي يتمكن من رؤية الحق ومعرفته ولمّا تقترن به مظاهر العظمة الدنيوية، فإن الإقرار بالحق المقرون بالعظمة الدنيوية إقرار بمظاهر العظمة الدنيوية، وليس إقراراً بالحق المحض الذي جاء من عند الله تعالى !

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ: أكثرتم من دعوتهم للضلال والغواية.

النَّارُ مَثْوَاكُمْ: مأواكم ومستقركم ومقامكم .

إن الحق واضح في ذاته فليس من الصعب على أحدٍ أن يفهمه، ولكن عدداً من الناس، لا يُحصى، في كل زمانٍ، لا يقبلون الحق على الرغم من وضوحه، والسبب وراء ذلك يرجع للموانع والعوائق النفسية التي يُحدثونها في داخلهم فبعضهم يكون قد ربط نفسه بالصالحين والشيوخ المبجلين، فيرى سعادته في محض التمسك بأهدابهم، وأن المصير الوحيد الذي ينتظره، لو تخلى عنهم، هو الضياع والهلاك الشامل، وبعضهم يحذر

من تبدد شمل مصالحه حذراً يملك عليه لبه وجميع مشاعره، فلا يعود بإمكانه أن يتقدم نحو الحق، ومنهم من يُخيل إليه أن التسليم بالحق يعني أن يهدم صرح عظمته وكبريائه بيده، وبعضهم يشعر بأنه لو اعترف بأمرٍ لا يتفق مع تقاليد البيئة السائدة فسيصبح غريباً. وهذه الأفكار والخواطر تسيطر على ذهن المرء، فيرى الاعتراف بالحق بمثابة صعود مرتفعٍ شاهقٍ عسير جداً، حتى إن صدره ليضيق بمجرد النظر إليه، وعلى العكس حال الذين ليسوا بمصابين بالتعقيدات النفسية، والذين يعتبرون الحق أعلى وأسمى من كل شيء، وبما أنهم باحثون مخلصون فحين يظهر الحق أمامهم يعرفونه بدون توقفٍ أو إبطاءٍ ويتلقونه بالقبول بغض النظر عن كل المخاوف والأعذار والعراقيل.

إن الله يأتي بالحق أمام الناس في صورة الآيات، فأما الذين فى قلوبهم زيغ واعوجاج فيتناولون هذه الإشارات والرموز بالتأويل المزعوم الباطل، تبريراً لعدم اعترافهم بها، وأما الذين صدورهم مفتوحة، فلا يدركون هذه الإشارات بأعماقها، ويجعلون منها غذاءهم الفكرى، وتتجه حياتهم فى ذات الطريق القويم الذى يُقطع فى ضوء هداية الله المباشرة، والذى يؤدى بالمرء إلى الفلاح والسعادة الأبدية.

إن القيمة عند الله تعالى للعمل وليس لأى شيءٍ آخر، فالشخص الذي يطيع الله يأخذ الله بيده ؛ ويوصله إلى دار السلام عنده، ودار السلام هي جنة الله، حيث يعيش المرء في راحةٍ أبديةٍ لا يمسه فيها أى نوعٍ من الآلام والهموم أو المصائب والآفات، ونصرة الله ستنال أفراد البشر، على أعمالهم، فى الحياة القادمة بعد الموت، ولو أن عدداً ملحوظاً من الأفراد أطاعوا الله في الدنيا، فيعطى هذه الجماعة نصيباً من النصرة الإلهية في هذه الدنيا كذلك .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ

لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ: خدعتهم ببهرجها .

إن شخصاً ما حين يضل نتيجة إضلال غيره، فلا يكون ذلك أمراً أحادي الجانب، إذْ إن كِلا الطرفين يحسب أنه واصلٌ عن هذا الطريق إلى غرضه الخاص به، فالشيطان حين يصرف المرء عن سبيل الله من خلال إلهائه بالأماني والأحلام اللذيذة الباطلة، فيحاول بذلك تحقيق تحدّيه الذي كان قد وجهه إلى الخالق عند بدء الخليقة قائلاً : ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء :٦١] .

والذين يستسلمون للشيطان فاستسلامهم لمنافع ومصالح معينةٍ يطمحون إليها، فقد يروج بعض الناس تجارة سحره باستغلال أسماء الجن، أو ينسب شعره وكهانته إلى أي أستاذٍ جني لينال الحظوة لدى العوام، وهكذا كل تلك الحركات التي تقوم على أساسٍ من الإغراءات الشيطانية، فإن أنصارها إنما يناصرونها رجاء امتلاكهم زمام القيادة ويستتبعون جموعاً غفيرة من العوام بكل سهولةٍ، لأن الجماهير تكون أسرع استجابةً للهتافات الشيطانية منها للنداء الإلهي.

وفي يوم القيامة إذا ارتفعت الأستار عن وجه الحقائق، فسيتضح أن ضلال الضالين أو إضلال المضلين لم يكن ناشئاً عن سوء فهمٍ، بل كان السبب يرجع إلى إهمالهم للحق .

إن هؤلاء لم يستطيعوا التسامي بأنفسهم عن المظاهر الدنيوية، وما استطاعوا التضحية بالمنافع الوقتية العاجلة، وإلا فالهداية التي فتح الله طريقها بواسطة صفوة من

عباده كانت واضحةً، فلم يبق أي شخصٍ جاهلاً بحقيقة الأمر، غير أن عبوديتهم للدنيا أصبحت غشاوةً على أبصارهم، ومن ثم فلم يعرفوا رغم معرفتهم ولم يسمعوا رغم سماعهم.

وفي اليوم الآخر سينتزع منهم كل شيء، كان مبعث غرورهم وعنادهم في الحياة الدنيا، وحينئذ سيتبين لهم كيف أن الحق قد ظهر أمامهم، ولكنهم رفضوه مرددين بعض الكلمات الكاذبة، وكيف تم إشعارهم بما هم فيه من خطأٍ وباطلٍ، غير أنهم تناولوه بالتأويل الجميل ليثبتوا - كذباً وخداعاً - أنهم على الحق والصواب!

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَـَٔاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

بِمُعْجِزِينَ: بفائتين من العذاب.

مَكَانَتِكُمْ: غاية تمكنكم واستطاعتكم.

ذَرَأَ: خلق على وجه الاختراع.

الحَرْثِ: الزرع.

وَالأَنْعَامِ: الإبل والبقر والضأن والمعز.

إننا نشاهد في الحياة الدنيا أن مراتب الناس تتفاوت من شخصٍ لآخر، ويكون التفاوت بحسب تفاوت مقدار ونوع الجهد الذي يوجد بين جهد رجل وآخر، إن درجة نجاح شخصٍ ما في هذا العالم تكون وفقاً لحكمته وكياسته وكدحه ومراعاته للمصالح، لا أقل ولا أكثر.

وهكذا الأمر بالنسبة للعالم الآخر، فالدرجات والمراتب في الآخرة تتناسب غاية التناسب مع عمل المرء في حياته الدنيا، وإن الآخرة تتطلب بذل الوقت والمال من أجل النجاح فيها، تماماً كما يبذل المرء وقته وماله من أجل نجاحه في الدنيا، ويتعين على المرء أن يستخدم الدهاء والفطنة بشأن قضية الآخرة كما يستخدم الدهاء والفطنة في قضاياه الدنيوية، وهكذا لابد له من رعاية المصالح والمخاطر فيما يتصل بشئون الآخرة كما يراعي المصالح والخطورات في أمور دنياه، والله الذي يملك قضاء الآخرة خبير بأحوال كل فرد ، فلن يصعب عليه أن يوفي كل أحد أجره بقدر ما يستحقه إن عالم الامتحان والعمل الذي أوجده الله سبحانه وتعالى، يمثل فرصةً ثمينةً أتاحها خالق الإنسان للإنسان؛ فيتمكن من الفوز بالسعادة الأبدية لو أنه مارس العمل الصالح في هذه الحياة القصيرة الأمد، وليس وراء إقامة هذا النظام أية منفعةٍ تعود على الله ذاته، ولا يعبأ الله بها إذا لم يقبل البشر الموجودون الآن على وجه الأرض بمنهجه التكويني ؛ فإنه قادر على أن يقضي على هؤلاء جميعاً وينهض مكانهم آخرون يسلّمون بمنهجه التكويني ويضمون أنفسهم إليه، حتى إنه تعالى يستطيع أن يبعث رمال الصحراء وأوراق الأشجار كعبادٍ أوفياء مخلصين له تعالى، وما ذلك على الله بعزيز.

إن إتاحة المهلة للظلمة والمعاندين، في رحاب عالمٍ يقوم على الحق المحض والعدل المطلق، دليل في حد ذاته على أن هذه المهلة ليست بنعمة، بل من أجل استدراجهم إلى مصيرهم النهائي، ومن ثم فإن الشخص الذي ينكر الحق، يتمتع بنعيم الحياة دون أن يتعرض لسوءٍ، لا ينبغي له أن يُسر بهذا الوضع، لأنه مؤقت، إذ سرعان ما سيأتي الوقت الذي يُسلب فيه المرء كل ما يُطغيه ويبعثه على البطر والعناد، وسيقذف به في

هاويةٍ من الدمار خالداً فيها دون أن يجد إلى الخروج منها سبيل، ولن تُتاح له فرصة ثانية للعمل، ولا يستطيع التخلص من عاقبة ما قدمت يداه من عملٍ!

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

قَتْلَ أَوْلادِهِمْ: وأد البنات الصغار .

لِيُرْدُوَهُمْ: ليهلكوهم بالإغواء .

وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ: ليخلطوا عليهم.

يَفْتَرُونَ: يختلقونه من الكذب .

وَحَرْثٌ: زرع .

حِجْرٌ: محجورة محرمة.

حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا: البحائر والسوائب والحوامي .

قَتْلَ أَوْلادِهِمْ: وأد البنات الصغار .

لِيُرْدُوَهُمْ: ليهلكوهم بالإغواء .

وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ: ليخلطوا عليهم.

كان من عادة المشركين أن يخرجوا من الزروع والمواشي حصصاً معينةً لله وللأوثان، وإذا رأوا أن ما جُعل لله من الزرع أو الماشية أجود نوعاً مما جُعل للأوثان ؛ استبدلوا

الأخير بالأول، ولا يفعلون العكس، وكذلك في أثناء توزيع الثمار إذا اختلط شيء من الجزء المسمى للأوثان بالجزء المخصص لله ردوه إلى الأوثان، وإن سقط شيء من جزء الله فيما خصصوه للأوثان لم يردوه، وهكذا لو اقتضت الضرورة يوماً أن يستخدموا شيئاً من أموال النذر لحاجاتهم الذاتية أخذوه من نصيب الله، وأما نصيب الأوثان فلا يمسّونه خشية أن تحل عليهم بليّة أو مصيبة ما، ويدعون الإيمان بالله، غير أن أوثانهم كانت موضع ثقتهم ويقينهم، والمرء إذْ يتخذ الأصنام أو يلجأ إلى الآلهة الحسية الباطلة فإنما يلجأ إليها لكونه لا يعتمد على الإله غير المحسوس اعتماداً كاملاً، وهكذا يكون الحال تماماً بالنسبة لكل شخصٍ يؤمن بالله إيماناً لسانياً محضاً، بينما يكون قلبه عالقاً بأي شيء آخر غير الله تعالى، فالذين يكون حبهم واحترامهم قد ارتبط بأية شخصية حيةٍ أو ميتةٍ، قد لا يرون غضاضةً ما في ذكر «شريكهم» إلى جانب ذكر الله، إلا أنهم لا يستسيغون أن يذكر الله في الوقت الخاص لذكر شريكهم، وقد يسهل عليهم أن يوجهوا شيئاً من نصيب الشوق واللهفة الذي يكون خالصاً لله إلى شركائهم، ولكن لن يصل إلى الله شيء أبداً من قدر الشوق واللهفة الذي يرونه ضرورياً لشركائهم.

وربما تتغلب أهمية هؤلاء الشركاء على ذهن المرء فيذبح لهم حتى أفلاذ أكباده ولو أنه طُولب بتقديم أبنائه ضحايا طلباً لرضا الله لما رضي بذلك، ولكنه يستعد لذلك فرحاً مغتبطاً فيما لو دُعي إلى التضحية بهم أمام شركائه المحبوبين !!

إن سائر العادات والشعائر من هذا النوع لا تزال تمارس باسم الدين الإلهي، بيد أنها لا تعدو في الحقيقة أن تكون افتراء على الله، لأن ذلك يعني نسبة أمرٍ إلى الله، لم يكن الله -تبارك وتعالى- قد أمر عباده به أو علّمهم إيّاه قط!.

﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ (١٣٩) قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ

وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

وَصْفَهُمْ: كذبهم على الله بالتحليل والتحريم .

مَّعْرُوشَاتٍ: محتاجة للتعريش كالكرم ونحوه .

وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ: مستغناة عنه باستوائها كالنخل .

مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ: ثمره المأكول في الهيئة والكيفية .

إن عرب الجاهلية عزوا دينهم إلى سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل - عليهما السلام - غير أن الدين الرائج لديهم لم يكن إلا ديناً مزعوماً ابتدعه زعماؤهم وعملوا على نشره وترويجه، وبموجب هذا الدين المزعوم كان عليهم أن يتقيدوا بكثيرٍ من الالتزامات القاسية بشأن تقديم النذور والقرابين لله أو لأصنامهم، فلو ذبحوا البحيرة أو السائبة فخرج من بطنها مولود حي فيأكله الرجال دون النساء، ولو كان المولود ميتاً أكله الرجال والنساء جميعاً، وهكذا فقد كانت هناك طائفة من الحيوانات حرموا الركوب أو حمل الأثقال على ظهورها، وبالنسبة لطائفة أخرى من الحيوانات كانوا يرون أن ذكر اسم الله عند ركوبها أو ذبحها أو حلبها مما ينبغي اجتنابه، إن أمثال هؤلاء يكونون بعيدين عن مقتضيات الدين الأصلية، ويتعدون حدود الله في حياتهم اليومية، ويهتمون بمراعاة الآداب والقيود المتعلقة ببعض المظاهر والمراسم الشكلية اهتماماً يصل إلى الغلو أو التشديد، وإنها لمكيدة شيطانية خطيرة جداً، فالشيطان يُبعد الناس عن أصل الدين ويشغلهم بما ينشر من عاداتٍ وممارساتٍ باسم الدين، ثم يجعل المرء يتشدد ويبالغ في إتيانها، وبالتالي يوقعه في سوء فهمٍ قائلٍ بأنه قائم على دين الله متمسكٌ به بأقصى ما

يمكن من التحفظ والاحتياط، والغلو أو التشديد في ظواهر العبادات نتاج هذه العقلية الخاصة، فيكون فؤاد المرء خالياً من كيفيات التضرع والخشوع، ولكنه من خلال مبالغته في الالتزام ببعض الآداب الظاهرية يزعم أنه قام بأداء عمل العبادة حق القيام، وإن كثيراً منهم قد استحلوا أعمالاً وحشيةً كقتل الأولاد، وهم يحرمون البشر من طيبات ما رزقهم الله، ويذهب بهم الحماس في المسائل العادية إلى التخاصم والاقتتال، ولا يلقون بالاً إلى الأشياء العظيمة الشأن التي يمكن فهم أهميتها عن طريق العقل العام أو الفطرة السليمة !

﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

حَمُولَةً: ما يحمل الأثقال كالإبل .

وَفَرْشاً: ما يفرش للذبح كالغنم .

خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ: طرقه وآثاره تحليلا وتحريما .

لقد أنشأ الله – سبحانه وتعالى – ضروباً شتى من الأغذية للإنسان، فمنها ما يمتد على ظهر الأرض كالشمام والخضراوات وغيرها، ومنها ما تُرفع دواليه على الخشب كالكرم ونحوه، ومنها ما يكون عالقاً بجذع شجرته كالتمر والنارجيل.. إلخ، كما خلق الله للإنسان أنواعاً مختلفةً من الحيوانات بين صغيرٍ وكبيرٍ كالإبل والفرس والشاة والغنم وما إلى ذلك.

إن الإنسان كائن مستقل، وبقية الكائنات مستقلة بذواتها، فقد خُلق كل منها على حدةٍ ، غير أن الإنسان يرى بينه وبين بقية المخلوقات انسجاماً وتوافقاً، فإذا كان جسد

المرء بحاجةٍ إلى التغذية، فإنه يجد خارج وجوده "عبوات غذائية" تتدلى في غصون الأشجار الخضراء، وإذا كان يوجد في لسانه حاسة التذوق لألوان الطعوم فهناك مواد ممتازةً أودعت في الثمار لتسكين حاسته تلك، وإذا كانت عيونه رزقت ذوقاً لجمال المنظر، فإن مصنع الكون كله مزدان بآيات الجمال والبهاء والروعة، وإذا كان الإنسان محتاجاً إلى وسائل للركوب وحمل الأثقال، فقد أوجد الخالق هنا حيواناتٍ يستخدمها كمراكب ووسائل النقل، وتقدم له غذاءً ثميناً، وهكذا فقد أصبح الكون بكل موجوداته إعلاناً لتوحيد الله ؛ إذْ لا يتصور وجود مثل هذه الوحدة والانسجام بين ظواهر الكون المختلفة بدون أن يكون خالقه ومالكه واحداً .

وإن المرء ليمتلئ قلبه بمشاعر الشكر والامتنان حين يشاهد الأسباب الكونية الهائلة تُعد له بدون استحقاقٍ ذاتي منه، وبالإضافة إلى ذلك فإن الأمر يصبح بالنسبة للمرء غذاءً للتقوى لأن الفطرة البشرية تقتضي أن تكون كل عنايةٍ أو امتيازٍ مقترنةً بالمسئولية، وذلك مما يذكر المرء بمجازاة الآخرة، ويبعثه على أن يعيش في هذه الدنيا ، يستحضر اليوم الذي يمثل فيه بين يدي ربه للحساب .

ولو استيقظت هذه المشاعر والأحاسيس في نفس المرء على وجهٍ حقيقي لأسفرت حتماً عن أخذه نفسه بأمرين، أما أحدهما فسيرى لمالكه حقاً في كل خيرٍ يحصل عليه في هذه الدنيا، وأما الآخر فسيبذل مما يملكه بقدر حاجته دون إسرافٍ أو تبذيرٍ، ولكن الشيطان يصرف ذهن المرء عن الاتجاه الصحيح، ويورطه في أمورٍ وشواغل أخرى تافهةٍ لا علاقة لها بهدف حياته الحقيقي .

﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن

يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

وَصَّاكُمُ الله بِهَٰذَا: أمركم الله بهذا التحريم .

طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ: آكل أيا كان يأكله .

دَماً مَّسْفُوحاً: سائلا مراقا .

فَإِنَّهُ رِجْسٌ: قذر أو خبيث أو نجس حرام .

أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ: ذكر عند ذبحه اسم غير الله .

اضْطُرَّ: ألجئ إلى أكله للضرورة .

غَيْرَ بَاغٍ: غير طالب للمحرم للذة واستئثار .

وَلاَ عَادٍ: ولا متجاوز ما يسد الرمق .

ذِي ظُفُرٍ: ما له إصبع : دابة أو طير .

شُحُومَهُمَا: شحوم الكرش والكليتين.

مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا: ما علق بهما من الشحم فيحل .

الْحَوَايَا: المصارين والأمعاء فيحل شحمها .

من جملة الحيوانات التي يربيها العرب للحم واللبن كانت أربعة أنواع أكثر شيوعاً وانتشاراً بين أوساطهم، وهي : الضأن والمعز، والإبل والبقر، وقد ابتدعوا لتلك

الحيوانات قواعد تحريميةً مختلفةً، غير أن هذه القواعد لم تكن تستند إلى أي دليلٍ سوى ما توارثوه من طقوسٍ وتقاليد وثنيةٍ، إذْ لا يوجد في الضأن والمعز والإبل والبقر، سواء أكانت ذكراً أم أنثى، أية علةٍ لتحريمها، إن لحوم هذه الحيوانات خير غذاءٍ للإنسان، كما أنها غير مجبولةٍ على أية عادةٍ قذرةٍ تبعث في النفس الإنسانية الكراهية والاشمئزاز منها، والعلم المنزل من السماء يخلو مما ينص على تحريمها بالصراحة أو الإشارة، إذاً فما مصدر هذه القواعد التحريمية المتنوعة التي تنتشر بين الناس بشأن تلك الحيوانات، إن مرجع ذلك إلى الإغراءات الشيطانية .

إن الشعور بالله والإحساس بالحلال والحرام كامنان بصورةٍ جبليةٍ في فطرة الإنسان؛ لأن المرء ينزع إلى أن يتخذ إلها، ويريد أن يفرق بين ما يجوز وما لا يجوز، وإن الشيطان بهذه الحقيقة لخبير، إذْ يحسب أن الإنسان لو أتيحت له فرصة العمل في ظروف ساذجة بسيطةٍ فسيأخذ بالضرورة بمنهج الفطرة الصحيح، فيعمل على ترويج ألوانٍ من الشعائر والعادات الفاسدة ليذهب بنقاء الفطرة الإنسانية، فيخترع باسم الله آلهةً مفترضةً، ويبتدع محرماتٍ زائفةً باسم الحلال والحرام، فيحاول الشيطان أن يحول بين المرء وبين وصوله إلى الحق الأصيل من خلال توريطه في مثل هذه الأشياء والممارسات المفترضة، وبعدئذٍ يكون المرء ضل عن الطريق المستقيم، ولكن بسبب أنه يرى نفسه على "الجادة"، في حين أنها ربما تكون خطاً منحنياً وليست بطريق الحق المستقيم !!

والذين يقعون فريسة الإغراءات الشيطانية يتم اعتبارهم عند الله ظالمين، فإن الله منحهم قوة الفهم والإدراك بحيث كان بإمكانهم أن يميزوا بها بين الحق والباطل، غير أن تعصباتهم العمياء طمست عقولهم وأفهامهم، وصارت غشاوةً على أبصارهم وبصائرهم، فما كادوا يدركون الحقيقة رغم توافر قوى الفهم والإدراك لديهم !

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا

وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨)﴾

مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ: إلية الضأن فتحل .

يُرَدُّ بَأْسُهُ: لا يدفع عذابه ونقمته .

تَخْرُصُونَ: تكذبون على الله تعالى .

إن المحرمات الأساسية في شريعة الله ظلت دائماً كما وردت في الآية السابقة، يعني : الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به ، أما ما عداها من الأشياء المحرمة فإنما يأتي تحريمها في إطار الشرح والتفصيل لتلك المحرمات الأصلية ذاتها، غير أن هناك - بالإضافة إلى ما تقدم - سنةً إلهيةً أخرى للتحريم، وهي أن أمةً أمينةً على الكتاب حين تختار طريق البغي والطغيان بدلاً من الطاعة والانقياد، فقد يتم إلقاؤها في صعوباتٍ ومضايقاتٍ جديدةٍ كعقوبةٍ على عنادها وطغيانها، وتُحرم عليها أشياء لم تكن أصلاً محرمةً في الشريعة الإلهية.

وكيف يتم هذا التحريم ؟! إن أحد الأشكال التي يتخذها عادةً هو أن ينهض في تلك الأمة زعماء ليسوا من جوهر الدين وحقيقته في شيء، إنما هم يعرفون التدين الشكلي فحسب، لطالما يأخذ أمثال هؤلاء يصرفون من الاهتمام بالنسبة للآداب والقواعد الظاهرية للدين ما ينبغي أن يُصرف بالنسبة لحقائق الدين المعنوية، مما يؤدي إلى إحاطة ظواهر الدين بتفريعاتٍ غير ضروريةٍ، حيث يخترع هؤلاء مقاييس ظاهريةً مزعومةً للتدين، ومن خلال الغلو والتشديد يجعلون من الحكم البسيط معقداً، ويحيلون المباح محظوراً.

وعلى سبيل المثال فحين انتشر البغي والعناد بين اليهود نهض فيهم علماء ابتدعوا

بمحض تخرصاتهم قاعدةً تقول: إن بهيمةً من البهائم لا يحل أكلها إلا إذا اجتمع فيها شرطان اثنان في آنٍ واحدٍ ، أحدهما: أن تكون قوائمها مشقوقةً، وثانيهما: أن تكون من الحيوانات المجترة، وكل حيوانٍ لا يتوافر فيه أحد هذين الشرطين فهو محرم، وبسبب هذا الشرط المزعوم دخل في قائمة المحرمات، بلا مبررٍ حيوانات مثل الجمل والوبر والأرنب.. إلخ ، وهكذا فقد ذهب بهم الغلو في تحديد «الظفر» إلى حد أنهم حرموا على أنفسهم النعامة والبجع والبط...إلخ، بدون لزوم، وقد أسفرت مثل هذه القيود والالتزامات غير الفطرية عن إيقاعهم في ضيقٍ وحرج حيث كان الله قد وضع لهم اليسر والسهولة.

إن المرء لا يتعرض لمؤاخذة الله الفورية عقب إنكاره للحق، بل لايزال يجد نفسه حراً ومتمتعاً بوسائل العيش وأسباب القوة؛ مما يصيبه كثيراً بسوء فهم أنه غير خاسرٍ شيئاً مهما جحد وأنكر الحق، ويغيب عنه أن عدم تعرضه لسوءٍ ما إنما يرجع إلى سعة رحمة الله تعالى لا غير، إذْ إن الله – جل شأنه – يمهل المرء، رغم عناده وطغيانه، إلى أقصى الحدود، ولكن في نهاية المطاف إذا هو لم يغير موقفه فلا يلبث أن يأخذه العذاب الإلهي فجأةً.

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ: بإرسال الرسل والكتاب .

هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ: أحضروا ، أو هاتوا شهودكم .

بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ: يسوون به غيره في العبادة .

أَتْلُ: أقرأ .

إِمْلاقٍ: فقر .

الْفَوَاحِشَ: كبائر المعاصي كالزنا ونحوه .

وَصَّاكُم بِهِ: أمركم به وألزمكم به.

إن دعوة الحق الخالصة تكون دوماً دعوةً غريبةً على بيئتها، إذْ تكون هناك من ناحيةٍ الديانة التقليدية الرائجة التي تتمتع بالغلبة والهيمنة على جميع المرافق والمصالح الاجتماعية ،كما تكون وراءها تقاليد وعادات القرون المتوارثة لدعمها وتأييدها، ومن ناحيةٍ أخرى تكون دعوة الحق مجردةً من كل هذه الخصوصيات الإضافية، وفي مثل هذا الوضع يصعب على الناس أن يفهموا أن الديانة التي تحتل هذه المكانة الرفيعة وتتمتع بهذا النفوذ والانتشار الواسعين بين الناس، عساها ألا تكون ديانةً تتفق مع إرادة الله تعالى، ومن هنا فلا يلبث الناس أن يفترضوا أن الديانة الرائجة إنما تمكنت من هذا النفوذ والانتشار لكونها وفقاً لمشيئة الله ومرضاته، ولولا ذلك لما نالت من النفوذ والانتشار ما نالت، وانطلاقاً من هنا فهم يتساءلون قائلين : فأي الديانتين إذاً ستكون هي الديانة المرضية عند الله تعالى ؛ التي تتمتع بالمكانة العالية في كل مكانٍ من دنيا الله، أو تلك الديانة الخاملة المغمورة التي لا تحظى بأية مكانةٍ تُذكر في دنيا الله ؟!

غير أن الفصل بين الحق والباطل إنما يتم على أساس الدلائل الحقيقية وليس على أساس هذا النوع من الأقيسة والمزاعم، لقد جعل الله هذه الدنيا موضع امتحانٍ، حيث الفرصة متاحة للمرء ليختار ما يشاء ويدع ما يشاء، وهذا الأمر يتوقف كلياً على إرادة

المرء الذاتية وفي هذه الحالة لا يقوم الرواج العام لشيءٍ ما دليلاً على كونه حقاً، إن الحكم على شيءٍ ما بالحقية أو البطلان إنما يعتمد أولاً وأخيراً على الدلائل وليس على الممارسات التقليدية الرائجة: إن الله قد جعل هذه الدنيا موضع امتحانٍ وابتلاءٍ، وبدل أن يلزم الإنسان، قسراً، بمشيئته العليا زوّده بعلم الصواب والخطأ، ثم أعطاه حرية الاختيار لأيهما شاء، إما الصواب وإما الخطأ، ومعنى ذلك أن الحجة أو الدليل ممثل الله في الحياة الدنيا، فالذي يستسلم لدليل صادقٍ فإنه يستسلم لله تعالى، وعلى نقيضٍ من ذلك فإذا هو رفض دليلاً صادقاً فقد رفض الله تعالى.

وعدم خضوع المرء أمام الدليل يرجع إلى عدم تمكنه من التسامي عن شهواته ورغائبه الدنيئة، فهو يتصدى لإطلاق تسمية الحق على الباطل حتى يستطيع تبرير عمله، ويذهب به عناده إلى حد أنه لا يلبث أن يهمل آيات الله الواضحة، ويصبح غير مكترثٍ بأن الله مؤاخذ إياه عاقبة الأمر، وهو يعطي للأشياء الأخرى من الأهمية في حياته مالا ينبغي أن يعطيه إلا لله تعالى وحده !

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

يَبْلُغَ أَشُدَّهُ: استحكام قوته ويرشد.

بِالْقِسْطِ : بالعدل دون زيادة أو نقص .

وُسْعَهَا: طاقتها وما تقدر عليه .

يبتدع الناس ألواناً شتى من الالتزامات الرسمية والظاهرية باسم الوصايا أو الالتزامات الإلهية، ومن خلال الاهتمام الخصوصي بها يقتنعون بأنهم قد قاموا بتوفية الالتزامات الإلهية حقها، بيد أن الالتزامات التي يريد الله الاهتمام بها من الإنسان هي

التزامات حقيقية وليست بمظاهر رسميةٍ من نوعٍ ما.

وأول وصيةٍ هي أن يتخذ المرء من الله الواحد إلهه، وألاّ يتغلب على ذهنه كبرياء أحدٍ سواه، ولا يحسب أحداً غيره موضع ثقته، ولا يعقد آماله على أحدٍ وسواه ، ولا يخاف أحداً غيره، ولا يمتلئ قلبه بحبٍ شديدٍ لأحد سواه.

يكون الآباء في أغلب الأحوال ضعفاء محتاجين في الوقت الذي يبلغ الأولاد ذروة القوة والنشاط، ودافع الإحسان إليهم إذ ذاك لا يكون المنفعة، بل يكون عرفان الحق والجميل ليس غير، وهكذا تصبح قضية تأدية حقوق الوالدين بالنسبة للمرء المادة الأولى لاختباره بها إذا كان قد اختار دين الله على مستوى القول أو على مستوى الفعل، ولو أنه أعطى الأهمية كلها لحق الوالدين بدلاً من ضعفهما، ولو أن حبه لأصدقائه وزوجته وأبنائه لم يُبعده عن أبويه، فكأنما هو قدّم الدليل الأول على أن سلوكه العملي في الحياة سيكون تبعاً لحب المبادئ وعرفان الحقوق وليس تبعاً للمنفعة والمصلحة.

إن الإنسان بسبب حرصه وظلمه لا يدع رزق الله يصل إلى عباده أجمعين على النحو العادل ، وحين يتمخض ذلك عن مشاكل القلة المصطنعة فهو يصرخ قائلاً بأن اقتلوا الآكلين، أو لا تسمحوا للمولودين بأن يولدوا، إن كل الأقاويل من هذا النوع مرادفة للافتراء على نظام الرزق الإلهي.

إن كثيراً من الأعمال السيئة تبلغ من فحش الهيئة وشناعتها حداً لا يُحتاج معه إلى علم غزيرٍ لمعرفة قبحها. إن فطرة الإنسان وضميره كافيان للدلالة على أنها أعمال غير جديرةٍ بأن يمارسها الإنسان. وفي مثل هذه الحالة فإن الشخص الذي يقترف الفحشاء أو المنكر من قولٍ أو فعلٍ فكأنما يكشف عن حرمانه حتى من تلك الدرجة البدائية للإنسانية التي تشكل نقطة بدءٍ لإنسانية إنسانٍ ما !!

إن دم كل إنسانٍ محترمٍ، ولا يجوز إهراقه لأحدٍ ما لم يرتكب جريمةً يغدو معها دمه مباحاً وفق شروطٍ معينةٍ تناولها تشريع الخالق - جل وعلا - بالبيان، وكل هذه الأمور

واضحة لدرجة أنه لا يمكن أن تبقى حقانيتها خافية على أي شخص عاقل.

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

صِرَاطِي مُسْتَقِيماً: سبيلي وديني لا اعوجاج فيه .

إن اليتيم يكون أضعف فردٍ في مجتمعٍ ما، حيث تنعدم في ذاته كل تلك العوامل الإضافية التي تشكل على وجه العموم دوافع السلوك الحسن مع أحد الناس، وإنما يُعامل «اليتيم» معاملةً أساسها النصح له والشعور بالمسئولية نحو الشخص الذي تكون أخلاقه قائمةً على الأساس المبدئي الخالص وليس على أساس المنفعة والمصلحة . إن اليتيم يمثل الرمز النهائي لحسن السلوك في مجتمعٍ ما، ومن ثم فالشخص الذي يتعامل مع اليتيم بالحسنى فإنه بالأحرى سيتعامل مع الآخرين بالحسنى كذلك.

كل الأشياء في هذا الكون مرتبطة بعضها ببعض بحيث إن كل شيءٍ يعطي الآخر ما ينبغي له أن يعطيه، ويأخذ من الآخر ما ينبغي له أن يأخذه، ويتعين على الإنسان هو الآخر أن يتبنى هذا المبدأ نفسه في حياته العملية،وأن يكون متمسكاً بالعدل والقسط فيما إذا كال أو وزن شيئاً لأخيه الإنسان، ولا ينبغي له أبداً أن يستخدم لنفسه مكيالاً، ولغيره مكيالاً آخر.

وعلى مدى الحياة يمر المرء بين الفينة والأخرى بمناسباتٍ تفرض عليه أن يبدي رأياً ضد أحد الناس، والطريقة المقبولة عند الله في مثل هذه المناسبات هي ألا يلفظ المرء من قول إلا ما كان صحيحاً وصادقاً على ميزان العدل والإنصاف من غير محاباةٍ ولا مداهنةٍ لأحد الأطراف كائناً من كان.

إن للفطرة عهداً مفروضاً على ابن آدم، ومن العهود ما يكون مكتوباً، ومنها ما لا يُكتب بالحروف والكلمات، غير أن إيمان المرء وإنسانيته ونبالة طبيعته تتطلب منه أن يفعل هذا في مناسبة كذا ولا يفعل ذاك في مناسبة كذا، والوفاء بكلا النوعين من العهود واجب على كل مؤمنٍ ومسلم.

وكل هذه الأمور غاية في الوضوح والجلاء، فإن الوحي السماوي وعقل المرء يشهدان بصدقها وحقانيتها، إلا أنه لا يتعظ بها سوى شخصٍ يريد من صميم قلبه أن يتلقى الموعظة والنصيحة.

إن هذه الأحكام (في الآيات ١٥١ - ١٥٣) هي الأحكام الأساسية للشريعة الإلهية، والعمل بها وفق مفاهيمها السديدة يعني اتباع صراط الله المستقيم، وأما لو تنوولت تلك الأحكام بتفريع الفروع والجزئيات عن طريق التأويل والتعمق والتنقير، وبالتالي صار التأكيد والتركيز كله ينصبّ على هذه الفروع، فذلك هو التخبط في سبُلٍ متفرقة هنا وهناك، وهي بدورها لا ولن توصل المرء أبداً إلى الله - سبحانه وتعالى.

﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ

﴿ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

وَصَدَفَ عَنْهَا: أعرض عنها وأصرف الناس عنها .

يَأْتِيَ رَبُّكَ: إيتاء يليق بجلاله تعالى وقدسه .

وَكَانُوا شِيَعاً: فرقا وأحزابا في الضلالة .

الكتاب المنزّل من عند الله، على كونه يضم تفاصيل كثيرة حول شئونٍ مختلفةٍ، إلا أنه يهدف، أولاً وأخيراً، إلى غاية واحدةٍ، ألا وهي أن يوقن المرء بلقاء ربه. يعني أن يمارس حياته في هذه الدنيا بحيث أنه يعتبر نفسه مسئولاً ومحاسباً عند الله عن كل عملٍ يصدر منه، وبالتالي تكون حياته حياة منضبطة دون أن تكون حياةً حرةً طليقةً، إلى هذا الغرض نفسه كانت ترمي الكتب السماوية السابقة كلها، كما أن دعوة القرآن هي الأخرى جاءت تنصب على الغرض ذاته كذلك.

لقد جعل الله الكون خاضعا لمشيئته بموجب سلطته الإجبارية مباشرةً، بيد أنه تعالى منح الإنسان الاختيار الكامل، فقد جرت سنته لهداية الإنسان بأن يطلع الناس على دلائل الحق والباطل عن طريق الرسول والكتاب، فالمشيئة الإلهية تظهر في عالم البشر في صورة الدليل، ومن ثم كان الاعتراف بالدليل هنا اعترافاً بالله، والتكذيب بالدليل تكذيباً بالله.

وعقب انفجار القيامة ستنكشف للناس كل الحقائق الخفية جملةً واحدةً، وحينئذٍ سيجد كل امرئٍ نفسه مضطراً للإيمان بالله وبآياته، إلا أن الإيمان وقتها لا قيمة له البتة؛ فإن الإيمان المعتبر به هو الذي يتم في حالة الغيب، إذ الإيمان في الحقيقة هو أن يقر المرء قبل المشاهدة بما سيكون مرغماً على الإقرار به بعد المشاهدة، أما الشخص الذي يقوم بالإقرار بعد المشاهدة فكأنما هو لم يقر مطلقاً.

والذين أخضعوا أنفسهم اليوم، باختيارهم، لإرادة الله، لهم الجنة عند ربهم. وعلى العكس من ذلك فإن الذين سيخضعون أمام الله على أثر قيام الساعة، فإنما سيكون خضوعهم إذْ ذاك مرادفاً لشهادة إثباتٍ أكيدةٍ على جريمتهم لا غير، حيث إنه سيعني أنهم، طبقاً لاعترافهم أنفسهم، لم يؤمنوا في الدنيا بشيءٍ كان جديراً بالإيمان، وأنهم لم يفعلوا أمراً كان جديراً بالفعل !!

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾

ديناً قِيَماً: ثابتا مقوما لأمور المعاش والمعاد .

حَنِيفاً: مائلا عن الباطل إلى الدين الحق .

الدين هو ألا يعطي المرء في حياته المكانة العليا لأحدٍ غير الله - تبارك وتعالى- وأن يبني علاقاته على أساسٍ من العرفان للحق وليس على أساسٍ من المنفعة، وأول علامةٍ على ذلك هي البر بالوالدين، وأن يعتبر الرزق عطية الله ولا يتدخل في النظام الإلهي، وأن يجتنب الفحشاء ومنكرات الأعمال حتى تظل حساسية قلبه نحو الشرِّ حية، وألا يستغل الضعيف، وأقرب امتحان للمرء بهذا الخصوص يتم عبر تعامله مع اليتيم، وأن يكون في أداء الحقوق إلى أصحابها وتبادل الأخذ والعطاء مع الآخرين عادلاً مستقيماً كالميزان، وأن يستخدم لسانه دوماً وفق مقتضى الحق، وأن يعيش حياته، وهو يشعر على كل حالٍ بأنه مربوط بالعهد الإلهي، وأنه غير متحررٍ في أي وقتٍ من تكاليف العهد الإلهي. إن هذا هو الطريق المستقيم الوحيد لممارسة الحياة المطابقة لرضا الله تعالى ؛ فينبغي للمرء إذاً ألا يزال ثابتاً على هذا الطريق المستقيم من غير انحرافٍ إلى اليمين أو الشمال.

إن هذه الأحكام العشرة (١٥١-١٥٣) التي تم بيانها فيما سبق، أحكام فطرية بسيطة، حيث يشهد عقل كل امرئ بحقانيتها، ولو أن التركيز والتأكيد ظل محصوراً في نطاق هذه الأشياء لما نشبت أبداً فتنة الاختلاف والتحزب، غير أن الأمم حين تُصاب بالانحطاط، ينبعث فيها زعماء دينيون يستنبطون من هذه الأحكام البسيطة فروعاً غير فطريةٍ، ممّا يحول الوحدة الدينية إلى الفرقة والانقسام.

ففي مجال التوحيد لو أُثير النقاش حول ما إذا كان الله ذا جسدٍ أو غير ذي جسدٍ، أو بدأ التعمق والتنقير في موضوع اليتيم يتجه إلى تحديد ما الشروط التي يصح وصف صاحبها باليتيم أو طُرحت النكتة القائلة بأن هذه الأحكام لا يمكن تنفيذها عملياً ما لم نمتلك زمام الحكومة، ولذا فأول عملٍ يجب القيام به هو تغيير «الحكومة غير الإسلامية». إن مناقشاتٍ من هذا النوع لو بدأت تثار فإنها لن تعرف حداً تقف عنده، وسيصبح مستحيلاً جمع كلمة الأمة على ذلك. وستظهر بعدئذ - وبطبيعة الحال - مذاهب فكرية مختلفة الاتجاهات إلى الوجود، وتتكون جماعات وأحزاب لا تحصى تحت شعاراتٍ شتى، وبالتالي سينتهي اجتماع كلمة الأمة إلى افتراقها طرائق قدداً.

إن تركيز الاهتمام كله على هذا الدين الفطري والبسيط هو الحسنة الكبرى، غير أنه يضطر المرء إلى جهادٍ مع النفس عنيفٍ، ويتعين عليه أن يظل متمسكاً به ملتزماً بالصبر والتضحية على رغم الظروف والأوضاع غير المواتية. إنه لعمل جد عسيرٍ، ولذلك فقد كان جزاؤه أيضاً يُضاعف عند الله عشر أمثاله وأكثر.

وأما الذين يقترفون السوء، ويسيرون في دنيا الله في سبلٍ أخرى متفرقةٍ غير طريق الله المحدد، فإنهم، وإن كانوا يرتكبون جريمةً عظيمةً جداً، إلا أن الله تعالى لا يتخذ ضدهم إجراءً انتقامياً جائراً، وإنما يجزيهم بحسب جريمتهم سواءً بسواء!

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ

شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾

وَنُسُكِي: عبادتي كلها .

إِلاَّ عَلَيْهَا: إلا ذنبا محمولا عليها عقابه .

وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ: لا تحمل نفس آثمة .

خَلاَئِفَ الأَرْضِ: يخلف بعضكم بعضا فيها .

لقد أنزل الله في صورة القرآن الكريم دينه النقي الخالص، ذلك الذي كان قد أعطاه سيدنا إبراهيم ومن عداه من الأنبياء والرسل الكرام - عليهم صلوات الله وسلامه - فليتمسك الآن بهذا الدين كل شخصٍ يريد أن يدخل في رحمة الله ونصرته ؛ فلْيخلص عبادته لله تعالى وحده ولْيقم صلته بالله على مستوى التضحية، وله أن يهب حياته كلها لله، ولا يموت إلا وهو مسلم خاضع بكل كيانه لله - سبحانه وتعالى.

إن هذا الكون العظيم بكل أجزائه قائم على دين الطاعة الإلهية هذا ، إذاً فكيف يمكن للإنسان أن يختار لنفسه سبيلاً آخر غيره، وكيف يمكن أن يؤدي التمرد على الله بأحد الناس إلى طريق النجاح في عالمٍ تسوده طاعة الله؟ ، وهذا أمر يهم كل شخصٍ على الانفراد، إذْ لا أحد يشارك أحداً في إنعامه ولا في عقابه، فينبغي للمرء أن يكون بالنسبة لهذا الأمر جاداً تماماً ، كما يكون أحد الناس فى الدنيا غايةً فى الجدية بالنسبة لقضيةٍ من قضاياه الذاتية.

ونظام هذا العالم يجري على أن شخصاً يذهب من هنا فيحل محله شخص آخر،

وتُدفع أمة إلى الوراء، فتتقدم مكانها أمة أخرى، وتستولي على موارد الأرض ووسائلها، وهذه الواقعة تذكرنا بين الحين والحين بأن أية سلطةٍ هنا ليسُت بدائمةٍ، غير أن البشر حين تُتاح لأحدٍ منهم الفرصة للتمكن في الأرض فلا يلبث أن ينسى عاقبة الذين خلوا من قبل، ويلجأ إلى اختلاق ألوان من الدلائل الباطلة لتبرير ظلمه وطغيانه، ولكن عندما يجرد الله - عز وجل - الحقائق ويبرزها كما هي، فسوف يرى المرء أنه لم تكن ثمة قيمة ما لأقاويله تلك التي كان يعتبرها أقوى الأدلة لتبرير موقفه.

إن سبب طغيان المرء وبغيه في الدنيا يرجع في - أغلب الأحيان - إلى اعتباره الأشياء الدنيوية المتاحة له إنعام الله عليه، على حين أن كل ما يتاح لأحدٍ في هذه الدنيا فإنما يكون على وجه الابتلاء والاختبار وليس على وجه الإنعام والتشريف، ولو أن المرء حسب أشياء الدنيا إنعاماً وتشريفاً لتولد في داخله الفخر والاعتزاز، ولو أنه اعتبرها ابتلاءً وامتحاناً لتولد في داخله العجز والتواضع، ونفسية الفخر تبعث على البغي والعناد ، ونفسية العجز تبعث على الطاعة والانقياد!

سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا
مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤
فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ
أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ
۝٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩ ﴾

حَرَجٌ مِّنْهُ: ضيق من تبليغه خشية التكذيب .

وَكَم مِّن قَرْيَةٍ: كثيرا من القرى أهلكنا .

بَأْسُنَا: عذابنا .

بَيَاتاً: بائتين أو ليلا وهم نائمون .

هُمْ قَائِلُونَ: مستريحون نصف النهار (القيلولة) .

دَعْوَاهُمْ: دعاؤهم وتضرعهم .

ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ: رجحت حسناته على سيئاته .

خَفَّتْ مَوَازِينُهُ: رجحت سيئاته على حسناته .

إن كتاب الله ، من حيث حقيقته الأصلية ، موعظة ، غير أنه لا يكون موعظةً بالفعل إلا لأولئك الأفراد القلائل الذين يكون استعدادهم الفطري حياً . أما بالنسبة لبقية الناس فإنما يبقى دوره منحصراً في نطاق الإنذار والتخويف لهم من تلك العاقبة المشئومة التي يتقدمون نحوها بسبب بغيهم وعنادهم والداعي يتلهَّف ولا يهدأ له بال حين يرى أن الشيء الذي يظهر له حقاً في أكمل صورة يرفضه معظم الناس حاسبين إياه باطلاً محضاً ، والأمر الذي هو أهم من الجبال لا يعبأ به القوم كأنه لا حقيقة له ولا يستند إلى أساسٍ !! إن هذا العالم هو عالم الامتحان ، وقد أتيحت هنا الفرصة لكل أحدٍ ألا يؤمن بأي أمرٍ لا يرغب في الإيمان به، وبإمكانه أيضاً أن يجد لتبرير إنكاره ورفضه بعض الألفاظ الجميلة .غير أن هذا الوضع عابر لا يدوم ، فحين تنتهي فترة الامتحان المحددة ينكشف فجأةً أن قول الداعي كان أقوى وأكثر ثباتاً ، وحينئذٍ سيتضح بجلاءٍ أن الدلائل التي كانوا يقدمونها رداً على أحاديث الداعي إلى الحق إنما كانت محض مغالطةٍ وسفسطةٍ ، ولم تكن تعتمد على أي استدلالٍ .

الأشياء التي تُكسب الإنسان وزناً أو ثقلاً في هذه الدنيا هي أن تتجمع حوله المباهج المادية ، وأن يكون هو بارعاً في فن إثارة الطوفانات الكلامية ، وأن تكون جموع غفيرة من الجماهير قد انضمت إليه ، وبما أن هذه المظاهر والأسباب لا تقترن عادةً بشخصية الداعي إلى الحق ، تصبح كلمته في نظر أصحاب الدنيا خفيفةً وكلمة معارضيه ثقيلةً ، بيد أن القيامة حين تمزق الحجب الاصطناعية سينقلب الوضع رأساً على عقبٍ ، وعندئذٍ سيكون الثقل كله إلى جانب الحق وحده ، ويبقى الباطل عارياً من أي قيمةٍ أو دليلٍ

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠

خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)﴾

مَكَّنَّاكُمْ: جعلنا لكم مكانا وقرارا .

مَعَايِشَ: ما تعيشون به وتحيون .

مَا مَنَعَكَ: ما اضطرك أو ما دعاك وحملك .

أَنظِرْنِي: أخرني وأمهلني في الحياة.

فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي: فبما أضللتني .

لأَقْعُدَنَّ لهم: لأترصدنهم ، لأجلسن لهم.

مَذْءُوماً: مذموما أو معيبا أو محقرا لعينا .

مدْحُوراً: مطرودا مبعدا .

إن كل ما أعطاه الله للإنسان في هذه الدنيا ليقدم رد فعله النفسي عليه في صورة الشكر ، غير أن هذا هو الشيء الذي لا يقدمه المرء أمام ربه، والسبب في ذلك هو أن الشيطان يبعده عن نفسية الشكر ، عن طريق إيقاظ مشاعر أخرى في داخله تسيطر عليه.

ومن خلال قصة آدم وإبليس يتبين أين يدور الصراع بين الهداية والضلالة في هذا العالم ، إن هذا الصراع يحتدم حيث تستيقظ في داخل المرء مشاعر الحقد والكبرياء ،

ففي رحاب عالم الامتحان هذا يحدث مرةً وأخرى أن شخصاً يتفوق على شخصٍ آخر، فقد يحصل بعض الناس من الثراء والعزة على حظٍ أوفر من غيره ، وقد ينشب النزاع بين شريكين فى أمرٍ ما ، بحيث يقول أحد الطرفين: إن دفع الحق إلى صاحبى يعنى أن أحط من شأني أنا ، وقد يعلن الله على لسان أحد الناس عن صدقٍ ما ، مما يجعله يبدو متفوقاً على الذين كانوا قد فشلوا في الوصول إلى ذلك الصدق على طول بحثهم عنه ، وفي مناسباتٍ كهذه لا يلبث الشيطان أن يبعث في داخل المرء نفسيات الحقد والتكبر ، فهو لا يكاد يستعد للاعتراف بفضل أخيه لسيطرة عاطفةِ «أنا خير منه» على ذهنه .وهذا هو اتباع سبيل الشيطان عند الله تعالى ، فالشخص الذي اختار طريق الحقد والتكبر في مثل هذه المناسبات قد استحق ذلك المصير الجهنمي الذي سبق أن قُدر للشيطان. أما الشخص الذي كبح جماح العواطف التي أثارها الشيطان في داخله في مثل هذه المناسبات فقد أثبت أنه جدير بأن يتم إسكانه في حدائق الجنة .

كل ما ينال الإنسان من خيرٍ في الحياة إنما هو من عند الله تعالى ، ومن ثم فإن الاعتراف بفضيلة أحدٍ هو في الأصل اعتراف بعدالة قسمة الله ، وعدم الاعتراف بفضيلته يعني رفضه قسمة الله ، وهكذا حين يخضع أحد الناس أمام غيره بناءً على حقٍ من الحقوق ، فإنه لا يخضع أمام أي بشرٍ ، بل هو يخضع أمام الله ؛ لأنه إنما يفعل ذلك امتثالاً لأمر الله ، وليس نظراً للامتياز الذاتي الذي يتمتع به ذلك الرجل .

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

فَوَسْوَسَ لَهُمَا: ألقى إليهما الوسوسة.

مَا وُورِيَ: ما ستر وأخفي وغطى عنهما .

سَوْءَاتِهِمَا: عوراتهما .

لقد كانت الجنة على اتساع أرجائها مفتوحةً لآدم وزوجته ، وكانت زاخرةً بصنوف الأشياء ، وقد أتيحت لهما الحرية الكاملة للتمتع بها كيفما شاءا ، وفي وسط أشياء مباحةٍ لا حصر لها كان هناك شيء واحد فقط مُنعا من استخدامه ، وقد هجم الشيطان عليهما من هذا المكان المحظور ، حيث أكد لهما عن طريق الوسوسة : إن الشيء الذي نُهيتما عنه هو أهم أشياء الجنة إطلاقاً ، وهو ذاته مكمن كل أسرار القدسية والخلود، فما لبثا أن تأثرا بإيحاءات إبليس المستمرة ، وأكلا ثمرة الشجرة المحظورة ، ولكنهما حين فعلا ذلك ظهرت النتيجة على عكس ما توقعاه ، فقد جرّدهما عصيانهما هذا من ثوب حماية الله ، وبقيا بلا معين ولا ناصرٍ في عالمٍ ،كانا من قبل يتمتعان فيه بكل أنواع التسهيلات والحمايات .

ويتضح لنا من هذا : أن السلاح الأمضى بيد الشيطان الذي بواسطته يتمكن من إغواء الإنسان وإقصائه من رحمة الله ونصرته ، هو تهوينه من شأن الرزق الحلال ، على كثرته و انفساح مجاله ، وتزيينه له تلك الأشياء التي تم تحريمها ، حتى يقنعه بأن كل الفوائد العظيمة والمصالح الكبرى إنما تكمن في هذه الأشياء!

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ: فأنزلهما عن رتبة الطاعة بخداع.

وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ: شرعا وأخذا يلزقان .

لقد بُعث آدم والشيطان إلى هذه الأرض عدوين لبعضهما ، ولا يزال هذا الصراع يدور بينهما إلى يوم القيامة، فالشيطان يحاول دوماً أن يدعو الإنسان إلى طريقه هو ، وبالتالي يحرمه أيضاً من رحمة الله كما حرم هو من رحمة الله ، وبالمقابل يتعين على الإنسان أن يعمل على إفشال خطة الشيطان ، ويبادر بالاستجابة لنداء الله صارفاً نظره عن نداء الشيطان . وهذا الصراع القائم بين آدم والشيطان يظهر عملياً بصورة تحوّل البشرية إلى طائفتين، بحيث يقع بعض الناس فريسةً لترغيبات الشيطان فينضمون إلى جانبه، بينما يقوم آخرون بتلبية نداء الله مما يدفع اتباع الشيطان إلى أن يتناولوهم بالتشهير والنيل منهم ، ويتخذوا كل أنواع التدابير لعرقلة مسيرتهم .

وقد شوهد في كل عصرٍ أن أنصار الحق المخلصين الذين يكون عددهم دائماً قليلاً ، يتعرضون لعداوات بالغة القسوة ، والسبب في ذلك يرجع إلى إجراءات الشيطان المعادية، فإنه يقوم بإغراء الناس ضد المحب المخلص للحق ، وبأساليب شتى يملأ صدور القوم بنيران الكراهية والنفور منه ، فلا يلبث هؤلاء أن يصبحوا أداةً طيعةً بيد الشيطان ، ويأخذوا في إيذاء مثل هذا بكل ما يملكون من حولٍ وطولٍ .

ولقد كانت جريمة الشيطان الأصلية هي عدم الاعتراف ، والشيطان يحاول بدوره أن يولّد مزاج عدم الاعتراف هذا في داخل كل آدمي .

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ: أعطيناكم ووهبنا لكم .

يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ: يستر ويداري عوراتكم .

وَرِيشاً: لباس زينة أو مالا .

وَلِبَاسُ التَّقْوَى: الإيمان وثمراته .

لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ: لا يضلنكم ولا يخدعنكم .

يَنزِعُ عَنْهُمَا: يزيل عنهما ،استلابا بخداعه .

وَقَبِيلُهُ: جنوده ، أو ذريته .

لقد أنشأ الله نظام هذا العالم بأن صارت أشياءه الظاهرية علاماتٍ على حقائقه الباطنية ، بحيث يستطيع المرء أن يصل إلى الحقائق الخفية عبر التأمل في الأشياء الظاهرية ، ويدخل اللباس في إطار هذه الأشياء. فقد منح الله الإنسان لباساً يحميه ويزيده جمالاً ووقاراً ، مما يشير إلى أن كيان المرء الروحي هو الآخر بحاجةٍ إلى لباسٍ كذلك ، وذلك اللباس هو التقوى ، إن التقوى لباس معنوي للمرء يقيه – من ناحيةٍ – من هجمات الشيطان ، ومن ناحيةٍ أخرى يجمل باطنه تجميلاً يجعله جديراً بأن يتم إسكانه في عالم الجنة اللطيف والنفيس.

وما لباس التقوى هذا ؟ هو خشية الله ، والاعتراف بالحق ، وأن تتخذ لنفسك ولغيرك معياراً واحداً ، وأن تعتبر نفسك عبداً ، وتجعل من التواضع شعاراً لك ، وألا تزال متوجهاً نحو الآخرة بدلاً من الانغماس في الدنيا ، والمرء حين يختار هذه الأشياء فإنه يكسو وجوده الداخلي ، ولو أنه اتخذ موقفاً مخالفاً لذلك فإنه يعري داخله ، إن الجسد الظاهري يستره اللباس المصنوع من القماش ، والجسد الباطني يستره لباس التقوى .

إن طريقة الشيطان لإضلال المرء هي أنه يغريه ويفتنه ، بأن يُريه شجرة الله الممنوعة

مصدر كل خيرٍ ، وهو يأتي إليه بطرقٍ بريئةٍ لا يخطر على بال المرء أن يأتي إليه الضلال منها. إن الشيطان خبير بكل المواطن الحساسة في نفس المرء ، وهو يهجم عليه من خلالها ، فقد يبين نظريةً باطلةً ما في كلماتٍ جميلةٍ وعباراتٍ براقةٍ ، وقد يُظهر له حقيقةً جزئيةً في صورة حقيقة كلية شاملة ، وقد يحمل الناس على الاندفاع وراء أشياء عادية تافهةٍ بوصفها كنز الفوائد والمنافع ، وقد يصف إحدى الحركات غير المجدية بأنها مكمن أسرار الرقي والتقدم ، وقد يعرض بعض الأعمال التخريبية الهدامة بشكل عملٍ إصلاحي بناءٍ .

ومن الذين ينجح الشيطان في فتنتهم وإغوائهم ؟ إنه ينجح في إغواء الذين يفشلون في إقامة الدليل على إيمانهم في مواقع الامتحان والاختبار ، الذين لا يتدبرون آيات الله ، ولا يستعدون لفهم الحديث في لغة الدلائل والبراهين ، والذين لا تتسع صدورهم لإيثار مقتضيات الحق على اتجاهاتهم الذاتية ، والذين لا يبدو لهم الصدق صدقاً إذا لم يكن منطوياً على ضمانٍ لمنافعهم ومصالحهم الشخصية ، والذين لا يروقهم ذلك الحق الذي يريد أن يعلو عليهم دون أن يُعلي عليه شيء مهما كان!

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

فَعَلُوا فَاحِشَةً: أتوا فعلة متناهية في القبح .

بِالْقِسْطِ: بالعدل وهو جميع الطاعات والقرب .

وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ: توجهوا إلى عبادته مستقيمين .

عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ: في كل وقت سجود أو مكانه .

كان العرب في الجاهلية يطوفون بالكعبة عراةً ، وكانوا يؤيدون ذلك قائلين : إن عبادة الله ينبغي أن نقوم بها على الوضع الفطري منزهين عن كل الأقذار والأرجاس الدنيوية، على حين أن العُرْي فاحشة سافرة يمكن إدراك قبحها وشناعتها بالعقل ، وهكذا فقد يتخذ المرء عقيدة قائلةً بأن الله - على الرغم من طغيان المرء وخلوه من العمل الصالح - سيمنحه جوائز وإنعاماتٍ بناءً على شفاعة الشافعين له ، على حين أنه تعالى لن يفعل ذلك بالنسبة لعباده الطاغين لمجرد قول قائلٍ ما، وثمة أعمال تافهة غامضة لا يمكن من خلالها بناء بيت واحدٍ في هذا العالم ، يمارسها المرء راجياً أنها ستشيد له قصوراً فخمةً في عالـم الآخرة . وضجيج الألفاظ والشعارات الذي لا يكاد يؤثر حتى في إنبات شجرةٍ واحدةٍ في رحاب هذا العالم ، ربما يربط به المرء هذه الأمنية الحالمة بأنه يُنبت له حدائق الجنة !

والمراد من القسط ذلك الموقف المنصف العادل الذي يُعد كاملاً على كل المقاييس ، والذي يكون على ما ينبغي أن يكون عليه تماماً، إن عبادة الله هي إحدى رغبات الإنسان المتأصلة في فطرته ، حيث إنه يريد أن يلقي بنفسه بين يدي أحدٍ باعتباره أعلى وأرفع من الجميع ، فالقسط في هذا الشأن هو أن يخلص المرء عبادته لله تعالى وحده الذي هو خالقه وربه ، والإنسان يريد أن يرفع أحد البشر إلى مقامٍ يصبح معه أساساً لثقته واعتماده ، وسيكون القسط بهذا الخصوص أن يجعل المرء من الله تعالى أساساً لثقته واعتماده في الحياة ، الذي وحده يملك كل أنواع الطاقات والقدرات ، وذلك الإيمان بحياةٍ بعد الموت هو القسط نفسه، فإن المرء حين يولد يتخذ صورة الوجود من العدم ، ولذا فالإيمان بالحياة الثانية بعد الموت هو إيمان بالحقيقة ذاتها التي سبق أن مر بها كل آدمي عند خلقه الأول .

ولإنكار الداعي إلى الحق يستند المرء إلى الشيوخ الأقدمين ، والشيوخ الأقدمون هم

رجال تكون عظمتهم قد تأسست تاريخياً ، ويصبح كونهم على الحق أمراً متفقاً عليه لدى الجميع ، ومن جانبٍ آخر يكون داعي الحق المعاصر رجلاً جديداً بحيث لم يقترن به تصديق التاريخ بعد ، والمرء ينظر إلى الشيخ القديم مع تاريخه بينما ينظر إلى الداعي الجديد بدون تاريخه ، فهو لا يلبث أن ينكر داعي الحق استناداً إلى الشيوخ الأقدمين ، ويحسب أنه على عين الهداية ، غير أن سوء فهمٍ من هذا النوع لن يقوم عذراً لضلاله عند الله - عز وجل ، إنه اتباع الشيطان باسم الله ، وليس اتباع الله في حقيقة الأمر .

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

خُذُوا زِينَتَكُمْ: البسوا ثيابكم لستر عوراتكم .

الفَوَاحِشَ: كبائر المعاصي لمزيد قبحها .

وَالإِثْمَ: ما يوجبه من سائر المعاصي .

وَالْبَغْيَ: الظلم والاستطالة على الناس .

سُلْطَاناً: حجة وبرهانا .

كان هناك في عهد الجاهلية قوم إذا خرجوا للحج حرموا على أنفسهم بعض الأشياء كحليب الشاة أو لحمها، ظانين أنهم يمارسون بذلك عملاً غايةً في الورع والتقوى، وهذا نوع من الضلال مازال البشر مصابين به في كل عصرٍ. وأمثال هؤلاء

الأفراد لا يطبقون الدين ومقتضياته على حياتهم الحقيقية بكل نواحيها ، اللهم إلا أنهم يبالغون في الاهتمام بممارسة بعض الأعمال الفارغة وغير المتعلقة بجوهر الدين ، لكي يتظاهروا بأنهم متمسكون بدين الله حتى إلى حد الجزئيات العادية ، وأنهم قائمون على رضا الله إلى حد الأداء الكامل.

إن رضا الله الأصلي بالنسبة للإنسان يكمن في أن يجتنب المرء الإسراف ، ولا يتعدى حدود الله المقررة ، ولا يحل ما حرمه الله ولا يحرم ما أحله الله ، ويبتعد عن الفواحش وعن الأفعال القبيحة التي يدل العقل العام على قبحها وشناعتها ، ويتخلى عن موقف البغي ، وأن يقبل بالحق كلما ظهر أمامه وبغض النظر عن كل شيءٍ آخر سواه ، ويطهّر نفسه من أدران الشرك ، ولا يقيم مع أحدٍ غير الله - سبحانه وتعالى- تلك العلاقة العليا - العبادة - التي هي حق الله الواحد وحده، ولا يفتري على الله كذباً بأن يبتدع من تلقاء نفسه طريقةً ما، ويعزوها إلى الله تعالى بدون دليلٍ ، وأن يعيش في رحاب هذا العالم كعبدٍ لله بمعنى الكلمة ، بحيث لا يتخذ أي موقفٍ أو يخطو أية خطوة لا تليق به بصفته عبداً .

إن النعم التي سيفوز بها أحد الناس في الآخرة إنما يفوز بها كجائزةٍ وإنعامٍ ، ومن ثم فإنها ستكون هناك خاصةً لأولئك العباد وحدهم الذين سيسمح الله لهم بالدخول في الجنة .. وأما ما يحصل عليه أحد من النعم في هذه الدنيا فإنما يحصل عليها لفترةٍ محدودةٍ وعلى وجه الابتلاء ، ولذا فقد ينال هنا كل أحدٍ قسطاً من نعم الأرض يتناسب مع مادة امتحانه، وليس البعد عن مادة الامتحان هو الطريق إلى النجاح في هذا الامتحان ، بل الأسلوب الصحيح هو أن يستخدمها المرء وفقاً للحدود المقررة ، وأن يكون جوابه على نيله إياها هو الشكر وليس الاستغناء والبغي والعناد!

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾
يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

أَيْنَ مَا كُنتُمْ: أين الآلهة الذين كنتم.

إن فرصة العمل في العالم الراهن متاحة للإنسان ما لم تنته مدة امتحانه المحددة ، وتنتهي مدة امتحانه بانتهاء عمره ، غير أنه ليس هناك من حدٍ من هذا النوع لنفاذ القضاء الإلهي بالنسبة لأمةٍ من الأمم ، وإنما يتم تحديد ذلك على أساس نوعية ما تتعامل به مع الحق بعد أن يظهر أمامها. ويصدر قرار الجنة أو الجحيم لشخصٍ ما على أساس موقفه الذي يتبناه تجاه الحق حينما يظهر أمامه ، وإذا ما ظهر أي حقٍ مصحوباً بدلائل يشهد لصدقها عقل المرء نفسه فكأنما قامت حجة الله عليه بالتمام ، وعلى الرغم من ذلك فلو أن المرء ما زال يرفض الاعتراف بالحق فإنما يرجع السبب في ذلك إلى الكبر والغطرسة لا غير، إن الشعور بالاستعلاء هو الذي حال بينه وبين رضاه بأن يجعل من الحق كبيراً دون ذاته هو، وليس لرجلٍ كهذا من مصير عند الله تعالى سوى الجحيم .

وإذ ينكر المرء الحق فإنما ينكره بناءً على ثقةٍ ما ، ومن الناس من تكون الثروة والسلطة موضع ثقته، ومنهم من يكون معتمداً على ما نال من عزةٍ ونفوذٍ واسعٍ وسمعةٍ عريضةٍ ، ومنهم من يكون اعتماده على أن أموره جارية على نحوٍ مستقيم لدرجة أنه لن يخسر شيئاً ذا بالٍ لقاء إنكاره للحق ، ومنهم من يكون معتزاً بأن ذكاءه قد اكتشف ألفاظاً رائعةً لإقامة الدليل على أن حديثه هو حديث الله بعينه ، بيد أن هذا سوء فهمٍ خطيرٍ جداً وقع فيه هذا الإنسان ، حيث إنه قد اعتبر أشياء هي موضوع

الابتلاء موضع ثقة واعتمادٍ ، وفي يوم القيامة حين تنقطع عنه كل هذه الاعتمادات الكاذبة ، فلن يصعب عليه حينئذٍ أن يدرك أنه قد ظل ينكر الحق لمجرد العناد والطغيان .

﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

ادَّارَكُوا فِيهَا: تلاحقوا في النار واجتمعوا فيها .

أُخْرَاهُمْ: منزلة وهم الأتباع والسفلة .

لأُولاهُمْ: منزلة وهم القادة والرؤساء .

عَذَاباً ضِعْفاً: مضاعفا مزيدا .

المراد من الـ «أمة» في هذه الآية القادة المضلون ، والمراد من «أختها» الأتباع الضالون من العوام، وإنه سيكون مشهداً عجيباً جداً إذْ يُلقى بقادة كل عصرِ المنحرفين وأتباعهم المنحرفين معاً في نار جهنم . ولقد كان هؤلاء أولياء فدائيين في الدنيا ، فكان القادة يحترمون كل طموحات أتباعهم ، وكان العوام قد اتخذوا من قادتهم أبطالاً، ولكن حين تمسهم نيران جهنم ترتفع عن عيونهم كل الحجب الاصطناعية ، وسيأخذ بعضهم حينئذٍ ينظر نحو الآخر على هيئته الأصلية ، وسيقول الأتباع لقادتهم: عليكم اللعنة ، ما أسوأ ما كانت قيادتكم، حيث شغلتنا بألاعيب وقتيةٍ باطلةٍ ، لمدةٍ يسيرة من الزمن ، وأدت بنا آخر الأمر إلى هذا الدمار الرهيب .. وسيرد القادة على أتباعهم قائلين: لقد كنتم نتطلعون إلى دينٍ يتفق وهواكم ولم تتبعونا إلا لأن ديناً كهذا كان

متوفراً لدينا ، وإلا فقد كان هناك بعض عباد الله يدعونكم إلى طريق النجاح المستقيم ، وقد قرع نداؤهم أسماعكم ، غير أنكم لم تلقوا له بالاً .

سيقول القادة للأتباع: إنكم لستم بأفضل منا من أي ناحيةٍ ، فقد أقمنا صروح قيادتنا من أجل تحقيق رغباتنا الذاتية ، وكذلك أنتم إنما وقفتم إلى جانبنا من أجل الوصول إلى رغباتكم الذاتية لا غير ، فكلنا إذن سواء من حيث الحقيقة ؛ ولذلك فلابد من أن تذوقوا العذاب نفسه الذي قد كُتب علينا بسبب أعمالنا .

وطائفة الأتباع ستشكو إلى الله قادتها قائلةً : إن هؤلاء كانوا قد أضلونا ، فيجب أن يكون عذابهم ضعف ما نلقاه من عذابٍ ، فيقال لهم : إنكم كلكم تلقون عذاباً ضعفاً ، فالتابع والمتبوع سواء!! والحقيقة أن أي عذابٍ يلقاه أحد في جهنم سيبدو له شديداً غليظاً لدرجة أنه يحسب لا أحد هناك سواه يكابد ألماً أشد مما يكابده ، فكل شخصٍ يعتبر الألم الذي يعاني منه أشد الآلام إطلاقاً .

إنك ترى القادة النفعيين وأتباعهم هنا في هذه الدنيا وهم أصفياء أولياء بعضهم لبعض ، فكل أحدٍ منهم يملك ألفاظاً رائعةً وألقاباً فخمةً للآخر ، وكل أحدٍ ساعٍ وراء خير الآخر ، غير أنهم سيصبحون أعداءً متناكرين في الآخرة ، يكره بعضهم بعضاً ، ويود كل أحدٍ أن يقذف بالآخر في عذابٍ أشد وأقسى!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا

بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

يَلِجَ الجَمَلُ: يدخل الجمل .

سَمِّ الخِيَاطِ: ثقب الإبرة .

مِهَادٌ: فراش ، أي مستقر .

غَوَاشٍ: أغطية كاللحف.

وُسْعَهَا: طاقتها ما تقدر عليه .

غِلٍّ: حقد وضغن وعداوة.

لماذا تستيقظ في نفوس المدعويين مشاعر الاستكبار بإيذاء دعاة الله مما يدفعهم إلى إنكارهم وتكذيبهم ؟ إن السبب في ذلك يرجع إلى أن الداعي لا يكون إلى جانبه إلا ثقل الآية – أي الدليل وحده – بينما تحيط بالمدعو المباهج المادية ، والداعي يقف على أساسٍ من الدليل ، بينما يقف من يدعوهم على أساسٍ من الأسباب المادية ، وقوة الدليل لا تُشاهد بالأبصار بينما القوى المادية تُشاهد بالأبصار ، وهذا هو الفارق الذي يولد في نفوس الناس مزاج الكبر ، وبالتالي يصرف الناس أنظارهم عن الداعي باعتباره حقيراً بالقياس إلى أنفسهم.

ودخول أمثال هؤلاء الناس في رحمة الله مستحيل تماماً كما يستحيل دخول الجمل في ثقب الإبرة ، إنهم لم يحتفلوا بأمر الله ولذلك فقد قابلهم الله أيضاً بعدم الاحتفال بأمرهم، لقد أراهم الله تجلياته على يد داعيه ، وقد ظهرت أمامهم في صورة الدلائل الساطعة ، غير أنهم لم يقيموا لها وزناً ، ورفضوا الخضوع والاستسلام أمام الآيات الإلهية ، إذًا فكيف يمكن أن ينال أمثال هؤلاء حظاً من رحمات الله تعالى؟!

وسينتهي أمر أصحاب النار ، الذين كانوا أصفياء أولياء بعضهم لبعض في الحياة الدنيا، إلى أن يصبحوا هناك أعداء متناكرين فيما بينهم ، بحيث يلعن بعضهم بعضاً ،

بيد أن جو الجنة سيكون مختلفاً عن ذلك كل الاختلاف، حيث تكون قلوب الجميع هنا تفيض حباً وحناناً وعطفاً.

إن ماضي أصحاب الجحيم سيصبح عندهم بمثابة قصةٍ أليمةٍ ، بينما يكون ماضي أصحاب الجنة عندهم بمثابة ذكرى لذيذةٍ .. إن رجال السوء سيبدأون حياتهم القادمة وقد ملئت صدورهم حسرةً ويأساً ، ولن يكون ماضيهم بالنسبة إليهم سوى ذكريات مرةٍ يودون أن يمحوها من ذاكرتهم ولا يطيقون.. وأما الصالحون فما أحسن ما يكون حالهم ، فألسنتهم مشتغلة بذكر الله الذي كانوا قد اتخذوا منه موضع ثقتهم واعتمادهم ، وما أشد فرحهم وسرورهم إذْ يجدون ما أخبرهم به حملة لواء الحق في الدنيا ، حامدين لله شاكرين له تعالى على توفيقه إياهم للانضواء تحت راية دعاة الحق أولئك !

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ: أعلم معلم ونادى منادي .

وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً: يطلبونها معوجة أو ذات اعوجاج .

لقد أثار بعض الناس في قديم الزمان تساؤلاً حول هذه الآيات قائلاً : كيف يمكن أن يصل صوت أصحاب الجنة إلى أصحاب الجحيم ، إذْ إن الجنة ستكون واقعةً فوق السموات العلى وتقع الجحيم تحت الثرى، غير أن هذا السؤال فقد مدلوله في عصر الراديو والتليفزيون هذا الذي نعيشه الآن ، فقد علم إنسان اليوم أنه لم يعد مستحيلاً أن ترى أحداً أو تستمع إلى صوته وأنت تبتعد عنه بمسافاتٍ شاسعةٍ ، والأمر الذي كان يبدو للإنسان القديم غير قابل للفهم والإدراك قد أصبح لدى إنسان اليوم ، وفي ضوء

تجاربه ومشاهداته نفسه قابلاً للفهم والإدراك تماماً .. ومن هذا نعلم أنه لا ينبغي أن نطلق حكماً ما على أي بيان من بيانات القرآن ، فيما لو تعذر فهمه علينا في ضوء ما يتوافر لدينا اليوم من معارف ومعلوماتٍ، فمن الممكن جداً أن يصبح ذلك الشيء غداً، بعد أن يقطع العلم أشواطاً فريدةً من الرقي والتطور ، معروفاً وفي متناول كل الأفهام .

ولا يعني ذلك طبعاً أن الاتصال بين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم في الآخرة سيتم عبر أجهزتنا الراهنة كالراديو والتليفزيون .. إلخ ، وإنما يعني ذلك فقط أن الاكتشافات الحديثة قد مكنتنا من أن نتفهم أن هناك في كون الله أسباباً يمكن من خلالها أن ينظر شخصان أحدهما نحو الآخر ، ويتحدث أحدهما مع الآخر وبينهما بون بعيد .

إن المرء لا يكاد يقيم وزناً لدليلٍ ما إلا إذا كان جاداً في شأنه ، فالذين لا يعطون أهميةً للآخرة لا يستطيعون أن يشعروا بمدى وزن الأدلة المتصلة بالآخرة كذلك ، إن أمر الآخرة يُعرض عليهم بدلائل قويةٍ وقاطعةٍ للغاية ، غير أن أذهانهم غير الجادة بشأنها لا تلبث أن تتلمس أية نقيصةٍ أو عيبٍ فيها ، وبسبب إثارة ألوانٍ من الاعتراضات فهم يقعون بأنفسهم في الشك والارتياب ويوقعون الآخرين أيضاً في الشك والارتياب كذلك .. وأمثال هؤلاء أشد وأشنع جرماً عند الله تعالى ، وإنهم لن يستحقوا في الآخرة سوى لعنات الله ، وإن كانوا يحسبون أنفسهم في الدنيا أولى الناس برحمات الله !

وإنه بإمكان المرء دوماً أن يشكك الناس في صدق أي دليلٍ ، مهما بلغ من القوة والقطعية باستخدام بعض الألفاظ الجميلة الخادعة ، فالعوام لا يستطيعون التمييز بين دليلٍ حقيقيٍ وبين نكتةٍ لفظيةٍ ، ومن ثم فحين يسمعون مثل هذه الأحاديث ينفرون من الحق ، ولكن أبعد وأقصى ما يكون من رحمات الله في اليوم الآخر هم الذين ينفرون الناس من الحق عن طريق افتعال اعتراضاتٍ ونقائص من هذا النوع على الرغم من

تمتعهم بصلاحية الفهم والإدراك .

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ: حاجز ، وهو سور بينهما .

الأَعْرَافِ: أعالي هذا السور .

بِسِيمَاهُمْ: بعلامتهم المميزة لهم .

يستوي المؤمن والكافر في هذا العالم في التمتع بنعم الله والتعرض لشدائده التي يبتلي بها عباده ، ولأن هذا الأمر لن يجري على هذا المنوال في الآخرة .. فسيقام هناك «حاجز» بين كلا الفريقين ، فلن يشم الكفار رائحةً من النعم المتاحة للمؤمنين هناك ، وكذلك لن يمتد أثر ما إلى أهل الجنة - المؤمنين - للآلام التي يكابدها الكافرون هناك .

العُرف يعني في اللغة العربية: ما ارتفع وعلا من مكانٍ ونحوه ، فمعنى أصحاب الأعراف هم أصحاب العلو والارتفاع، والمراد بهم طائفة الأنبياء والدعاة ، الذين قاموا بإبلاغ البشرية برسالة الحق في مختلف الأعصار والأمصار .. وفي يوم القيامة حين يُحاسب البشر ويكون الكل قد علم ما هو المصير الذي ينتظره ، ويكون ما كان الداعي إلى الحق يقوله في الدنيا قد تحقق فعلاً وبصورةٍ نهائية ، فحينئذٍ يخاطب كلاً من الدعاة أمته ، من على منصةٍ عاليةٍ سيتم إعدادها لهم في الآخرة بإذن الله تعالى ، وسيتوجهون

بخطابهم أولاً إلى الذين آمنوا بهم ، وهم لا يكونون قد دخلوا الجنة بعد ، إلا أنهم سيكونون من الراغبين فيها.

ثم تصرف أبصارهم من بعد ذلك نحو الذين كذبوا بهم ، فحين يرون ما هم فيه من سوء الحال ووخيم العاقبة يتضرعون إلى الله قائلين : يا ربنا! لا تضمنا إلى زمرة الظالمين هؤلاء!! سيعرفون زعماء الكفرة والمنكرين بسمت وجوههم ويقولون لهم: إن كثرة الأعوان والأنصار ووفرة المال والمتاع التى كنتم تعتزون بها والتي بسببها كذبتم بما أتينا به من رسالة الحق ، لم تكد تغني عنكم اليوم شيئاً !

إن المنكرين للحق يعيشون في ظل نظام العصر القائم ، وهم لذلك يكونون دوماً أرسخ قدماً وأوسع نفوذاً في هذا العالم .. وعلى العكس من ذلك فالذين يناصرون دعاة الحق، يبعث الجاحدين المنكرين للحق على الاستهزاء بالمؤمنين به نظراً لضعفهم واستكانتهم ، فهم يقولون - تهكماً وسخريةً : أهؤلاء هم الذين سيدخلون جنات الله الأبدية؟! وسيقول أصحاب الأعراف يوم القيامة لأمثال هؤلاء الناس : لتنظروا الآن ماذا كانت الحقيقة، وماذا كان ظنكم بها ، ومَنْ كُتب له النجاح والسعادة في نهاية، ومَنْ باء بالفشل والخيبة والخسران؟!

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

أَفِيضُوا عَلَيْنَا: صبوا أو ألقوا علينا .

وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا: خدعتهم بزخارفها وزينتها .

نَنسَاهُمْ: نتركهم في العذاب كالمنسيين .

وَمَا كَانُوا: وكما كانوا.

الدنيا مائدة زاخرة بنوعين من الأغذية ؛ أحدهما دنيوى ، وثانيهما أخروي .. ومن الناس مَنْ يكون غذاء روحه أن يجد ذاته تحظى بشهرةٍ واسعةٍ وقبول عامٍ ، وهو يمتلئ غبطةً وسروراً بوجود مباهج الدنيا وزينتها حول نفسه ، ويعد نفسه سعيداً ناجحاً بامتلاك الوسائل والأسباب المادية.

إن إنساناً كهذا قد ذهل عن الله والآخرة ، فإذا عُرض عليه حديث عن الله تجاوز عنه لاعتباره إياه غير ذي أهميةً أو خطرٍ ، وإنه يتعامل معه تعاملاً عفوياً عابراً كما لو أنه ليس بأمرٍ جديٍ ، بل هو محض لهوٍ ولعبٍ .

وليس لشخصٍ كهذا نصيب ما في نعيم الآخرة ، فإنه لم يُربّ في داخله إلا روحاً تستمد غذاءها من أشياء الدنيا وحدها ، إذاً فكيف يمكن أن تتغذى روحه بأشياء الآخرة؟! فالإنسان الذي لم يعش اليوم في الآخرة ، لن تكون الآخرة مصدر حياةٍ له غداً كذلك ، أما الإنسان الآخر فهو الذي ظل مستغرقاً في التأمل في الحقائق الغيبية ، والذي كانت روحه تستلذ ذكر الآخرة ، وكان غذاؤه يتمثل في أن يعيش في الله ولله ، ويصبغ كل حركاته وسكناته بصبغة الله ، وهذا هو الإنسان الذي ستكون الآخرة بالنسبة له مائدة الرزق الرباني ، حيث إنه سيحصل هناك على أسباب عيشه في حدائق الجنة ، إنه قد ظفر بالله في عالم الغيب ، ولذا فسوف يظفر بالله في عالم الشهود - الآخرة- كذلك .

لم ينس الإنسان الله في دنيا الله ، السبب في ذلك هو أن الله إنما يتجلى من خلال آياتٍ لا يدركها الذهن إلا بإعمال التفكير والتأمل ، بينما تكون أشياء الدنيا متواجدةً فيما حولنا بكل ما فيها من روعةٍ وفتنة ، ومن ثم فلا يلبث المرء أن يميل إلى الأشياء الظاهرية ويصرف نظرة عن الآيات الدالة على وجود الله جل جلاله. غير أن كل عملٍ مثل هذا هو تخلّ عن الآخرة في مقابل الدنيا ، والذي تخلى عن الآخرة قبل الموت ،

سيظل محروماً من الآخرة بعد الموت .وإذا أظهر الله أمام الناس أمراً حقاً ، فلم يعيروه أهميةً ما ، بل اتخذوا إزاءه موقفاً غير جادٍ ، فإن ذلك في الحقيقة يعني عدم إعارة الله أهميةً ما واتخاذ موقفٍ غير جادٍ بإزائه تعالى. إن المرء لا يخسر شيئاً ذا بالٍ في هذه الدنيا فيما لو أهمل الحق ، وهو لا يرى تلك الدلائل الإلهية التي يحملها الحق معه لكونها في الغيب ، وهذا الوضع يوقعه في سوء فهمٍ وغرورٍ. والذين يهملون الحق على هذا النحو، فإنما هم يعرّضون أنفسهم لخطر أن يهملهم الله تعالى أيضاً في اليوم الآخر ولا يبالي بهم !.

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

تَأْوِيلَهُ: عاقبة مواعيد الكتاب (القرآن) ومآلها من البعث والحساب والجزاء

يَفْتَرُونَ: يكذبون من الشركاء وشفاعتهم .

القرآن ينذرُ المرء بالحياة القادمة بعد الموت ، وهو ينبه البشر على حساب اليوم الآخر، ولكن المرء لا يتنبه ، وعلى أن أخبار القرآن هذه ليست محض أخبارٍ ، بل هي حقائق الكون الثابتة ، بيد أنها لم تظهر بعد في صورة الوقائع، فهي لم تزل مستترةً وراء حجاب المستقبل ، الأمر الذي يجعل الإنسان الغافل يظن أن هذه أقوال تُعاد ، فلا يلبث أن يعرض عنها لاعتباره إياها غير ذات أهميةٍ .. غير أن هذه الأخبار جاءت من عند الله الذي هو خبير بكل صغيرٍ وكبيرٍ ، والذين أبقوا على سلامة فطرتهم ، ولم تغش عيونهم الحجب الاصطناعية، ليجدون في أخبار القرآن هذه صدىً لنبضات قلوبهم ، وإنها لتبدو لهم ذات الشيء الذي كانت فطرتهم تبحث عنه من ذي قبل ، وبالتالي

سيصبح القرآن بالنسبة إليهم معين الحياة واليقين الذي لا ينضب .

وعلى العكس من ذلك حال أولئك الذين لا يأخذون إنذار القرآن بمأخذٍ جدي ، وسيظل هؤلاء غارقين في غفلتهم هذه حتى تفجأهم تلك الساعة الرهيبة التي ينبؤون بها، وسيرى المرء حينئذٍ فجأةً أنه قد أصبح عاجزاً مخذولاً من غير سندٍ ولا نصيرٍ ، وستفقد يومئذٍ تلك المسائل كل قيمتها التي كان مشغولاً بها لاعتباره إياها أكثر مسائل الحياة أهمية وقيمةً، وستتخلى عنه كل تلك الأشياء التي كانت موضع اعتماده وثقته في الدنيا ، كما سيظهر له أن الأماني التي كان يعيش فيها ليست سوى أماني باطلةٍ لا تغني عنه فتيلاً .

إن قضية الآخرة لا تعدو اليوم أن تكون محض نظريةٍ ، وليست فيما يبدو ، أية قضيةٍ مصيرية أو حساسةٍ ، مما يجعل المرء لا يتناولها بما ينبغي من الجدية والاهتمام ، غير أن القيامة إذا انفجرت بكل أهوالها المروعة ، فسيجد كل امرئ نفسه حينذاك مضطراً للإيمان بها لم يكن يستعد للإيمان به قبلئذٍ .. وسيعلم المرء في ذلك الحين أن الأمر الذي كان يُعرض عليه من ذي قبل بلغة الدليل الهادي، كان هو الحق عينه ، ولكنه لم يتمكن من فهمه لكونه وقف منه موقفاً غير جادٍ.. وإذا تخلت عن المرء كل تلك الأشياء التي كانت موضع ثقته واعتماده في الحياة الدنيا، فسيود لو أنه رُدّ إلى الدنيا ثانيةً حتى يمارس حياةً صحيحةً مستقيمةً ، غير أن فرصة الحياة هذه لن تتاح لأحدٍ مرة أخرى!

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ: استواء بالمعنى اللائق به سبحانه.

يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ: يغطي النهار بالليل فيذهب ضوءه .

يَطْلُبُهُ حَثِيثاً: يطلب الليل النهار طلبا سريعا.

أَلاَ لَهُ الخَلْقُ: إيجاد جميع الأشياء من العدم .

وَالأَمْرُ: التدبير والتصرف فيها كما يشاء .

تَبَارَكَ اللهُ: تنزه أو تعظم أو كثر خيره .

ادْعُوا رَبَّكُمْ: اسألوه واطلبوا منه حوائجكم .

تَضَرُّعاً: مظهرين الضراعة والذلة والاستكانة والخشوع.

وَخُفْيَةً: سرا في قلوبكم .

رَحْمَةَ اللهِ: إحسانه وإنعامه أو ثوابه .

إن الله خالق السموات والأرض وكل ما بينهما من موجودات ، ولقد كان بإمكانه تعالى أن يخلق هذه الموجودات كلها ويتركها مبعثرةً هكذا من غير تنظيم ولا تنسيقٍ فيما بينها .. لكنه تعالى ، بدلاً من ذلك ، تناول كل الأشياء بربط بعضها ببعض تحت نظامٍ حكيمٍ ومتكاملٍ للغاية .. ثم قام بإدارة هذا النظام البديع إدارة متكاملة ، تجعل كل جزء من أجزائه تعمل في سبيل المصلحة العامة.

والإنسان هو الآخر جزء صغير من هذا العالم ، فماذا ينبغي إذن أن يكون سلوكه في رحاب عالمٍ صالحٍ منظم كهذا ؟! ينبغي له أن يتبنى السلوك الصالح المنتظم الذي عليه سائر المخلوقات عداه .. فيجب عليه أن يدمج وجوده في مشروع الخالق نفسه الذي قد اندمجت فيه بقية الكائنات خاضعةً منقادةً .

إن سائر موجودات هذا الكون منضمة إلى تدبير الله إلى حد الإحسان – أي إتقان

الأداء للدور الذي نيط بكل واحدٍ منها - فينبغي للإنسان أيضاً أن يسلم نفسه لله ويخضع لمشيئته إلى حد الإحسان ، وهنا لا يتعدى أبداً أي شيء الحدود المقررة له ، فيتعين على الإنسان أيضاً ألا يتخطى حدود الحق والعدل الإلهية .

ثم إن الإنسان يتمتع - فوق ذلك - بخصائص النطق والشعور الإضافية المميزة له عما سواه .. ولذا فلا بد له من أن يظهر خضوعه واستسلامه لله على مستوى النطق والشعور وينبغي أن تتوغل معرفة الله داخل أعماقه لدرجة أن يأخذ لسانه يفيض بذكر الله مرة وأخرى، وأن يدعو الله تماماً كما يدعو العبد خالقه ومالكه ، وينبغي أن يكون إدراكه لألوهية الله عميقاً بحيث لا يوجد سبب لآماله أو مخاوفه غير الله عز وجل ، وإن ربط الخوف والطمع بالله تعالى وحده هو منتهى العبودية والطاعة والانقياد لله .. وأكبر نجاح للعبد هو أن يحصل على رحمة ربه ، غير أن هذه الرحمة ملك خاص بأولئك الذين تقوى علاقتهم بالله، فهم لا يدعون إلا إياه ، ولا يتذللون إلا أمامه تعالى .. وهم يرجون فضله وعطاءه ، كما يخافون سلبه وعقابه .. وهؤلاء هم الذين أرادوا التقرب من الله ، ولذلك فقد أعطاهم الله تعالى مكاناً قريباً منه.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

نَكِداً: عسيرا أو قليلا لا خير فيه.

نُصَرِّفُ الآيَاتِ: نكررها بأساليب مختلفة .

• لقد أنشأ الله هذا الكون بحيث صارت وقائعه المادية بمثابة تمثيلاتٍ لجوانبه الروحية، فإذا ما نزل المطر في أية بقعةٍ من بقاع الأرض ، فلا يبقى جزء من أجزائها إلا

ويصل إليه الماء، غير أن هناك اختلافاً ظاهراً بين بقعةٍ وأخرى من حيث الاستفادة من المطر، فمن البقاع ما إذا وصل إليها الماء تحولت إلى حديقة بهيجةٍ غناء .. بينما تبقى بعض البقاع كما هي من غير استفادةٍ ولا عطاءٍ، حيث لا ينبت هناك سوى الأشواك والحشائش الشيطانية .

وهذا هو شأن المطر الروحاني الذي نزل من عند الله في صورة الهداية، ورسالة هذه الهداية تقرع آذان كل شخصٍ إلا أن الكل ينتفع بها على قدر استعداده الذاتي .. فالذي يملك استعداداً حياً لقبول الحق يستفيد منه استفادةً تامة، وهو بذلك يحصل على حياةٍ جديدةٍ، وتتيقظ فطرته النائمة فجأة، ويتم اتصاله بمالكه الأعلى، وتتفتح في نفسيته الجافة حديقة الكيفيات الربانية .

وعلى العكس من ذلك يكون حال الشخص الذي فقد سلامة فطرته ونقاءها، فلا ينفعه مطر الهداية شيئاً، رغم كل إمكاناته الصالحة، فهو لا يزال بعد ذلك أيضاً "جافاً" كما كان من ذي قبل .. وإن نبت في داخله شيء ما فلا يكون ذلك إلا الأشواك والحشائش الشيطانية؛ حيث تستيقظ في داخله، عقب نزول مطر الهداية، أشياء كالحسد، والكبر، والجدال بالباطل، ومعارضة الحق، دون الاعتراف بالحق ومناصرته . ولقبول مياه المطر لابد من أن تكون الأرض جافةً .. وأما إذا لم تكن الأرض جافةً فإن الماء سيمر من فوقها دون أن يترسب إلى أعماقها .

وهكذا فإن هداية الله لا تتأصل إلا في داخل شخصٍ يجدّ في طلبها، والذي يكون قد نقى روحه من الأفكار والأحاديث غير الإلهية . وعلى النقيض من ذلك فالشخص الذي يعيش غير مكترث بهداية الله، والذي يكون قلبه مشغولاً بهوايات أخرى أو عالقاً بمظاهر عظمةٍ أخرى مما عدا الله - عز وجل - فإن هداية الله تصل إليه، ولكنها لا تتوغل في داخله، ولا تستحيل غذاءً لروحه، ولا تروي أرض فطرته الجدباء حتى تنبت وتزدهر فيها حديقة الله !

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قَالَ الْمَلأُ: السادة والرؤساء .

وَأَنصَحُ لَكُمْ: أتحرى ما فيه صلاحكم قولا وفعلا.

قَوْماً عَمِينَ: عمي القلوب عن الحق والإيمان .

إلى نحو ألف سنةٍ من بعد أن توفي سيدنا آدم - عليه السلام - بقيت ذريته على التوحيد ، ثم بدأ الناس من بعد ذلك ، على حسب ما رُوي عن عبد الله بن عباس وغيره من علماء التفسير ، باتخاذ صور أسلافهم الصالحين ، حتى تظل ذكرى أحوالهم وعبادتهم حيةً متجددةً .. وكانت أسماء أولئك الصالحين : وداً ، وسواعاً، ويغوث ، ويعوق ، ونسراً .. وعلى مضي الزمان لم يلبث أولئك الصالحون أن احتلوا درجة الإله والمعبود بينهم.. وكان هؤلاء يقطنون بالعراق القديم .. فلما تفاقم الأمر واستشرى الفساد ، بعث الله إليهم رسوله نوحاً - عليه السلام - لإصلاح شأنهم .. غير أنهم رفضوا الإيمان بنوح - عليه السلام - ولم يستعدوا لاختيار مسلك التقوى .. وكان السبب وراء هذا الإنكار - طبقاً لما ورد في القرآن الكريم - يكمن في أنه صار من المتعذر عليهم أن يفهموا أن رجلاً ، لا يختلف شأنه عن أنفسهم في شيءٍ على ما يظهر ، قد اختير من عند الله لإبلاغ رسالته إلى البشر.

وقد كان سيدنا نوح يبدو لهم رجلاً ((عادياً)) جداً بالقياس إلى أولئك الأكابر الذين كانوا يزعمون أنهم على دينهم ، وقد كانت عظمة هؤلاء الأكابر القدماء من المسلّم بها نتيجة تاريخ القرون الماضية ، بينما كان سيدنا نوح ﷺ شخصاً معاصراً ، ولم يكن قد اقترنت باسمه الأمجاد التاريخية .. فما لبث أن كذبه قومه ورفضوه ، ولم يتورعوا بالحمق والضلالة ؛ لكونه فى رأيهم قد خرج على دين الأكابر وانحرف عنه.. ولم يتمكن نصح سيدنا نوح وإخلاصه ، وقوة حجته ، وكونه على الحق والصواب، من التأثير على قومه ، وقد تم إغراق القوم بعد إتمام الحجة من قبل نوح ﷺ وكان سبب هذا الإغراق هو أنهم كذبوا بآيات الله إذْ أرادوا أن تصلهم رسالة الله عن طريق أى ((شخصيةٍ مسلم بها)) بدلاً من ((شخصيةٍ عاديةٍ)) ، غير أن هذا كان عند الله تعالى ، دليلاً على عماهم . فقد زود الله الإنسان بالبصيرة لكيما يعرف الحق في صورة ((الآية)) ، وليس في صورة مظاهرةٍ حسيةٍ ، فالذين لا يعرفون الحق في صورة الآية فإنهم عند الله عميان رغم أنهم كانوا يتمتعون بالبصر.. وإنه ليس لأمثال هؤلاء نصيب ما في رحمة الله تبارك وتعالى .

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

سَفَاهَةٍ: خفة عقل وضلالة عن الحق.

بَصْطَةً: قوة وعظم أجسام.

آلاءَ الله: نعمه وفضله الكثير .

كان إرم - وهو حفيد سيدنا نوحٍ ﷺ- من جملة أهل الإيمان الذين ركبوا معه في السفينة فنجوا من الغرق ، وقد بدأ من أولاده نسل عُرف بعادٍ ، وكان مهده بلاد اليمن القديم ، وكان هؤلاء في بداية الأمر على دين نوح ﷺ ولما انتشر الفساد بينهم فيما بعد ، أرسل الله إليهم هوداً ، غير أن رؤساء القوم لم يروا فيه العظمة التي كان ينبغي - على حسب زعمهم - أن يتمتع بها رسول الله !! فظنوا أن هذا الشخص إما أن يكون أحمق ، وإما أن يكون مدعياً ادعاءً كاذباً ..﴿ وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ هذه الجملة التي جرت على لسان النبي تدلنا على أن علاقة الداعي والمدعو ليست كعلاقة المنافس القومي أو الند السياسي ونظيريها .. إنها علاقة لحمتها وسداها النصح والأمانة ، فينبغي أن يكون الداعي حريصاً على النصح للمدعو.. مهما أساء المدعو إليه ، وأن يظل ناصحاً له حتى الساعة الأخيرة .. وعليه ألا ينظر إلى الرسالة التي يبلغها على أنها حق من أشيائه الذاتية يُمنحه من الآخرين ، بل على أنها شيء الآخرين ، وأنها أمانة الله في عنقه لا يتبرأ من مسئوليته إزاءها إلا إذا أدّاها كما هي إلى الآخرين .

إن دعوة الأنبياء والرسل قامت دوماً على أساسٍ واحدٍ ، هو أن يذكروا البشر بنعم الله عليهم ، ويخوفوهم من أنهم لو لم يمارسوا حياتهم في هذه الدنيا شاكرين لله ، لتعرضوا لبطش الله وعقابه الأليم ، والأنبياء لا يتخذون من النزاعات القومية والقضايا المادية عنواناً أو بالأحرى شعاراً لدعوتهم ، وهم يبذلون قصارى جهدهم في سبيل عدم تحول أي شيءٍ آخر غير الدعوة الحقيقية ، إلى موضوع الجدل والنقاش بينهم وبين المدعو ، وأن يراهم القوم في مظهر الداعية إلى التوحيد والعمل للآخرة فقط.

ويتبين من قوله : ﴿ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ أن نعم الآخرة لن يستحقها إلا الذي كان قد اعترف بنعم الله في الدنيا ، والجنة هي أكبرمظهرٍ لكون الله منعماً ومحسناً، ولذا فلن يفوز بالجنة إلا من آمن بالله فى هذه الدنيا كمنعم ومحسنٍ .. وهذه المعرفة هي ثمن الجنة الحقيقى .

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

رِجْسٌ: عذاب أو رين على القلوب.

وَغَضَبٌ: لعن وطرد أو سخط.

وَقَطَعْنَا دَابِرَ: أهلكنا آخر ... والمراد الجميع.

يتخذ الإنسان مفاهيمه عن حقائق الأشياء بواسطة أسمائها .. فإذا اقترن بإنسان وصف جميل بدا لهم ذلك الشخص جميلاً كما وُصف ، وكذلك العكس صحيح .. وبسبب هذه الأسماء ذاتها تصبح أشياء أو شخصيات أخرى غير الله تعالى مركزاً لتوجهات المرء ومحور اهتماماته ، فالناس ربما ينادون بعض الشخصيات بأسماء كالغوث الأقدس ، ومانح الكنوز والخيرات ، ومعطي الفقراء وذوي الحاجات ، وحالّ القضايا والمشكلات ، وأشباهها، وعلى مر الأيام ترتبط هذه الألفاظ بتلك الشخصيات لدرجة أن الناس لا يلبثون أن يقتنعوا بأن الذي يُدعى «الغوث» – أي المغيث – هو مغيث في واقع الأمر ، وأن المدعو بـ «حالّ المشكلات» هو في الحقيقة حالّ للمشكلات .. ولكن الحقيقة هي أن كل الأسماء من هذا القبيل لا تعدو أن تكون محض اختراعات البشر ، فلا يوجد هناك أي مسمى لهذه الأسماء ، وهي لا تستند إلى أي دليل شرعي أو عقلي .

إن من أنواع شريعة الأسماء ما هو شائع بين الجهلاء من الناس ، بيد أن هناك صورة أرقى وألطف لها من ذلك، وهي تحظى بالقبول لدى المثقفين من الناس ، فها هنا أيضاً

يتم ربط بعض الألفاظ غير العادية ببعض الشخصيات ، مثل : قدسي الصفات وحبيب الله وصفيه ، وركن الإسلام ، ومنقذ الملة .. إلخ، وعلى مضي الزمن تستحيل مثل هذه الألفاظ جزءاً لا يتجزأ من أسماء تلك الشخصيات .. وبالتالي فلا يلبث الناس أن يعيدوا هذه الشخصيات غير عاديةٍ تماماً كما يظهر من خلال الأسماء المطلقة عليها .

إن الشيء الذي لا يزال يتوارث عن «الآباء» أو - بعبارة أخرى - الشيء الذى يكون قد اكتسب أهميةً تاريخيةً ، واقترنت به قدسية الماضي نتيجة التقاليد العريقة ، دائماً ما يصبح عند الناس عظيماً .. وبالمقارنة إلى ذلك يبدو حديث داعية «اليوم» عادياً وتافهاً ، ومن ثم فهم يرفضون الداعية المعاصر باعتباره غير ذي أهميةٍ ، لكونهم واثقين من أنهم إذا كانوا ورثة أمجاد السلف ومآثرهم ، فلا أحد يستطيع أن يمسهم بسوءٍ أو يصيبهم بخسارةٍ ما !

إن التمرد على الله يسفر عن صيرورة المرء - على توالي الأيام - قاسي القلب ، بليد الحس ، حيث إنه لا يعود أهلاً لقبول أية دعوةٍ إلى الإصلاح توجه إليه بأسلوب التذكير والموعظة ، وكأنما ينتظر أمثال هؤلاء قساة القلوب بليدي الحس أن يواجههم الله بأسلوب التعذيب والتنكيل !

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

نَاقَةُ الله: خلقها الله من الصخر لا من أبوين .

آيَةً: معجزة دالة على صدقي .

وَبَوَّأَكُمْ: أسكنكم وأنزلكم.

فِي الأَرْضِ: أرض الحجر بين الحجاز والشام.

آلاءَ الله وَلاَ تَعْثَوْا: نعمه وإحساناته . ولا تفسدوا إفسادا شديدا .

بعد أن تم إبادة قوم عادٍ ، سار من نجا منهم من الأفراد الصالحين نحو شمال غربي جزيرة العرب ، واستوطنوا بمنطقة الحجر ، وتكاثر هناك نسلهم وأحرزوا تقدماً ورقياً هائلاً في ميدان الزراعة وفن العمارة، فقد شيدوا قصوراً شامخاتٍ في سهول الأرض ، وأحالوا الجبال الراسية عن طريق النحت بيوتاً حجريةً ضخمةً ، ثم انتشرت بينهم فيما بعد تلك المساوئ التي تتولد في الأمم إلى جانب بلوغها أوْج الرقي المادي والرفاهية الدنيوية ، والتي تتمثل في الانغماس في البذخ والترف ، وإهمال الآخرة ، وعدم الاكتراث بحدود الله ، وإظهار كبرياء الذات مع نسيان كبرياء الله وجلاله .

وحينئذٍ بعث الله فيهم صالحاً لكي يقوم بإنذارهم من بطش الله ، ولكنهم لم يلقوا إلى النصيحة الموجهة إليهم بالاً ، ولم يرضوا بتحويل ما بأنفسهم من فساد إلى الصلاح ، فقد أبوْا في رحاب هذا الكون، حيث كل الموجودات خاضعة لمشيئة الله ، إلا أن يعيشوا متمردين على الله ، وأصروا على أن يمارسوا حياتهم متجاوزين حدود أنفسهم المقررة لها، ولقد كان ذلك يعني نشر الفساد في عالم يسوده الصلاح ، ومن ثم حُكم عليهم بعدم الأهلية للسكنى في رحاب هذا العالم ؛ لاختبار قومه ثمود عيَّن الله ناقة وقال لهم : لا تمسوها بشيء من السوء وإلا فستتعرضون للهلاك .. ولقد كان بإمكان الله أن يعين لاختبارهم أسداً مهيباً جباراً ، غير أن الله تعالى عين الناقة بدلاً من الأسد ، وهنا مكمن السر ، فإن المرء يتم امتحان خوفه من الله دوماً على مستوى «الناقة» وليس على مستوى «الأسد» .

في المجتمع البشري ، يتواجد دوماً أناس شأنهم شأن «ناقة الله» ، ألا وهم أولئك

الأفراد الضعفاء الذين لا يتمتعون بقوةٍ ماديةٍ ظاهرةٍ تمنع الآخرين من الإساءة إليهم، والذي لا يكون دافع السلوك الحسن معهم سوى الشعور الخلقي وليس أي نوعٍ من الخوف ، غير أن هؤلاء هم الذين يتم امتحان عبودية الناس لله على مستواهم ، فعن طريق هؤلاء يتلقى بعض الناس شهادة الجنة وبعضهم شهادة الجحيم .

لقد برعت ثمود في فن العمارة براعةً تامةً،ومما لا شك فيه أنهم كانوا قد تضلعوا من العلوم الضرورية ذات الصلة بالموضوع كالرياضيات والهندسة مثلاً،إذْ لولا ذلك لصارت هذه الإنجازات الباهرة مستحيلةً،غير أن الجريمة التي حُمّلوا وزرها وعوقبوا بسببها،لم تكن إنجازاتهم المادية تلك، بل كانت جريمة إشاعة الفساد في الأرض،وهذا يعني أن الله لا ينهانا عن إحراز الرقي والتقدم في الحدود المشروعة،ولكن ينبغي على المرء أن يظل في معاملات الحياة ملتزماً بنظام الإصلاح،ذاك الذي نفذه الله تعالى في الكون بأكمله.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

وَعَتَوْا: استكبروا.

الرَّجْفَةُ: الزلزلة الشديدة ، أو الصيحة .

حين يُبعث النبي فإنه يكون في عصره شخصية يتنازع عليها الناس وليس شخصية يتفقون عليها ، ثم إنه لا تجتمع بوجوده مباهج الدنيا ، كما أنه لا يكون متربعاً على أي

مقعد من المقاعد الدنيوية ، وهذا هو السبب في أن الذين يعاصرون النبي لا يكادون يفهمون سِر كون النبي نبياً، وبالتالي يقابلونه بالإنكار والتكذيب ، حيث يتعذر عليهم التأكد من أن الشخص الذي نعرفه بوصفه مجرد رجلٍ عاديٍ، هو نفسه ذلك الشخص الذي وقع اختيار الله عليه لإبلاغ رسالته إلى البشر !!

وجواب أتباع سيدنا صالح المتمثل في قولهم: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ۝٧٥﴾ يدل على ما كان هناك من فارقٍ بينهم وبين آخرين عداهم، فقد اتجهت أنظار المنكرين نحو شخصية صالح، بينما نظر المؤمنون إلى صميم رسالته، ولما لم ير المنكرون أية عظمةٍ ظاهريةٍ ملموسةٍ في شخصية صالح، أعرضوا عنه ورفضوه ، وعلى العكس من ذلك لاحظ المؤمنون في رسالة صالح دلائل الحق وإشعاعات الصدق، فما لبثوا أن بادروا إلى اتباعه ومناصرته .

والصدق دوماً يتجلى بقوة الدلائل وليس بقوة مظاهر العظمة الدنيوية .. فالذين يملكون الاستعداد لرؤية الحق في صورة الدلائل لا يلبثون أن يدركوه على الفور، وأما الذين أسرت عقولهم مظاهر العظمة السطحية فهم يبقَوْن حيارى مرتابين، ولا يحالفهم التوفيق للوقوف إلى جانب الحق أبداً .. وعلى أن عاقر ناقة سيدنا صالح لم يكن إلا رجلاً واحداً من طغاة قومه، إلا أن فعله نُسب هنا إلى القوم جميعاً في قوله تعالى : ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ ، ومن هذا يتضح أن أحد أفراد طائفةٍ ما، إذا قام بعملٍ قبيحٍ، ورضي الآخرون سواه بفعله ذاك، عُد الجميع شركاءه في تلك العملية الإجرامية، فإن الراضي بالجريمة كفاعلها ..

أن الأمة التي أطلقت العنان للشهوات، لا تروق لها أحاديث الواقعية، فهي لا تستعد للانضواء تحت راية شخصٍ يدعوها إلى عملٍ جادٍ، وعلى نقيضٍ من ذلك تلتف جموع غفيرة منها حول الذين يرفعون عقيرتهم بكلماتٍ براقةٍ، ويتاجرون بالآمال الزائفة الناصح الصادق والأمين لا يحظى لديها بالقبول، على حين أنها لا تلبث أن تندفع

زرافاتٍ ووحداناً وراء أولئك المغرضين الذين ينهضون من أجل استغلالها .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

جَاثِمِينَ: هامدين موتى لا حراك لهم .

يَتَطَهَّرُونَ : يدعون الطهارة مما نأتي .

الغَابِرِينَ: الباقين في العذاب كأمثالها .

كان سيدنا لوط ابنَ أخي سيدنا إبراهيم الخليل - عليهما الصلاة والسلام - وقد أرسله الله إلى قومٍ كانوا يسكنون بساحل الأردن في سوريا الجنوبية ، وقد انساق بهؤلاء هذا القوم ما أتيح لهم من رغد العيش إلى السرف والترف، حتى إنهم ازدادوا توغلاً في الانحراف والضلال لدرجة أنهم اختاروا طريقة اللواط لتسكين غرائزهم الجنسية، فحذرهم النبي من هذه الفاحشة السافرة ، إن للكون خطةً مرسومةً من قبل الفطرة ، وقد أطلق القرآن على هذه الخطة الفطرية وصف «الإصلاح» ، والفساد هو أن تسير في الاتجاه المضاد لخطة الإصلاح هذه .. وكل موجودات الكون سائرة في نفس هذا الاتجاه الإصلاحي، وإنما هذا الإنسان هو الذي يُسيء استخدام حريته، فيتخذ لنفسه طريقاً معاكساً لطريق الفطرة .

وقد كان قوم لوط مصابين بفسادٍ من هذا النوع ذاته .. إن الأسلوب الفطري لإقامة العلاقة الجنسية هو أن يعاشر الرجل المرأة كزوجين شرعيين أحدهما للآخر، وهذا هو السير في طريق الإصلاح ، وعلى العكس من ذلك، فلو أن العلاقات الجنسية بدأت

تقام بين الرجل والرجل أو بين المرأة والمرأة، فإنه تجاوز عن حدود الله المقررة وهذا ما أُطلق عليه في القرآن وصف الفساد .

لم يؤمن بسيدنا لوط ﷺ إلا نفر قليل من أقربائه ، بينما ظل الباقون من قومه بأسرهم غارقين في عبوديتهم للشهوات والملذات ، وقالوا : إذا كان هؤلاء يعدوننا جميعاً قذرين، ويودون تطهير أنفسهم عما نحن فيه من قذارةٍ، فما الذي يحوج الأطهار أمثالهم إلى المكث بين ظهراني القذرين أمثالنا؛ ليخرجوا من بلدتنا هذه ؟!

إن قولهم هذا كان نابعاً في الحقيقة من الكبر والغطرسة ، وإنما اجترؤوا على هذا القول اغتراراً بكثرتهم العددية وتفوقهم المادي ، والمصابون بمركب الكبر والغطرسة دائماً ما يقولون لجيرانهم الضعفاء : إن من لا تُعجبهم طريقتنا، فليغادروا إذن أرضنا . غير أن هذا شرك، والشرك هو أكبر جريمةٍ تُمارس في أرض الله .. لقد كانت امرأة لوط أيضاً من الذين تعرضوا لعذاب الله الذي حل بقومه ، ومن هذا يتضح مدى نزاهة عدل الله وعدم محاباته في باب المكافأة ، ففي ميزان عدل الله لا اعتبار البتةَ بالقرابات والصداقات .. إن قضاء الله نزيه غير محابٍ لدرجة أنه تعالى لم يعف حتى عن ولد نوحٍ، ووالد إبراهيم، وزوجة لوط، وعم النبي محمدٍ - عليهم صلوات الله وسلامه - ومن جانبٍ آخر أدخل امرأة فرعون الجنة إذ آمنت برسوله وعملت عملاً صالحاً !

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ

وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

وَلَا تَبْخَسُوا: لا تنقصوا .

صِرَاطٍ: طريق.

وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً: تطلبونها معوجة أو ذات اعوجاج .

كان "مِدْيان" واحداً من أولاد سيدنا إبراهيم عليه السلام الذين وُلدوا له من زوجته الثالثة قطورة .. وإليه ينتهي نسب أصحاب مَدْين، وقد كانت مساكنهم بشمال غربي الجزيرة العربية على ساحل البحر الأحمر، وكان هؤلاء مؤمنين بالله؛ يعدون أنفسهم حملة الدين الإبراهيمي، ولكن لم تكد تمضي خمسة قرونٍ على وفاة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - حتى انتشر الفساد بينهم، وقد كان هؤلاء قوماً يشتغلون بمهنة التجارة، فكان فسادهم من هذه الناحية أظهر ما يكون، حيث إنهم لم يعودوا متمسكين بمبادئ العدل والأمانة في الكيل والوزن وتبادل الأخذ والعطاء .

ونبذ الإنصاف والعدل خلال التعامل مع الغير مخالفة لنظام الإصلاح الكوني الذي نفذه الله تعالى .. فقد أسس الله نظام عالمه على كامل العدل والإنصاف، فلا يوجد مخلوق ما إذا أخذ من الآخر استوفى واستزاد، وإذا أعطاه نقص ولم يوف حقه، فكل شيءٍ قائم على مبدأ العدل إلى حد الصحة الرياضية؛ فينبغي للإنسان ألاَّ يفعل إلا ما يفعله كل الكائنات المحيطة به، فإن الشذوذ عن ذلك هو الفساد في عالم الله الذي كله عدل وصلاح .

حين تفاقم أمر أهل مدين، وبلغ فسادهم العملي منتهاه، بعث الله إليهم شعيباً برسالته فنصح لهم عليه السلام قائلاً : اتبعوا طريق الصدق والأمانة والاستقامة في المعاملات، وقد أبلغهم رسالته بواسطة دلائل واضحةٍ خير بلاغٍ، ولكنهم لم يكادوا يستعدون لقبول النصيحة ، حتى انتهى بهم الأمر إلى أن تصدَّوا للقضاء على دعوة شعيب ذاتها ،

فبدءوا يفتعلون ألواناً من العيوب والنقائص في أحاديثه ﷺ ليسوء ظن الناس به وتتشوه سمعته عندهم ، كما كانوا يتخذون إجراءاتٍ عدوانيةٍ عنيفةٍ لإرهاب الناس حتى لا يؤمنوا به ويقفوا إلى جانبه ، وفي نهاية المطاف حل بهم عذاب إلهي أبادهم شر إبادةٍ .

إن رعاية حقوق العباد، واستقامة الأمور والمعاملات بين الناس لها أهمية بالغة عند الله لدرجة أن أمةً – رغم ادعاءها الإيمان – تم إهلاكها بسبب مخالفتها لذلك . إن الله خير الحاكمين، والحكم أو القضاء الخيرّ لا يتحقق بالمحاباة والمجاملة، فمن المستحيل أن يؤاخذ الله غير الناطقين بكلمة الإيمان على ظلمهم وجورهم، ويعفو عن الناطقين بكلمة الإيمان على ممارسة ظلمٍ وجورٍ مماثلٍ تماماً .!

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

رَبَّنَا افْتَحْ: احكم واقض وافصل .

الرَّجْفَةُ : الزلزلة الشديدة أو الصيحة.

لمْ يغنوا فيها : لم يقيموا ناعمين في دارهم.

آسَى: أحزن .

جريمة قوم شعيب ﷺ لم تكن جريمة إنكار الله بل جريمة الافتراء على الله كذباً ، يعني أنهم كانوا قد نسبوا إلى الله ديناً لم يكن الله قد أنزله عليهم ، وعلى هذا المنوال نفسه نسجت أمم الأنبياء السابقين جميعاً، فقد تلقت كل الأمم دين الله الحق والخالص من كل شوبٍ، ولكنها لم تلبث أن أضافت إليه تغييراتٍ مزعومةً فأحالته غير الذى كان أول الأمر ، حيث جعلوا من دين الله دين أهوائهم وشهواتهم وأخذوا يسمونه دين الله.

وقد خُيل إلى الذين كانوا حائزين على مقام العزة والكبرياء والسؤدد في ظل الدين التقليدي القائم آنذاك، أنهم لا يملكون دليلاً يدحضون به أحاديث النبي، إلا أن وسائل السلطة والقوة كلها في قبضتهم، فحاولوا كبت صوت النبى بواسطة القوة حين وجدوا أنفسهم عاجزين في ميدان الدليل ، فلفتوا انتباه أتباع النبى إلى الوضع الخطير المتمثل في صيرورة كل مصادر الحياة تحت ظل نظام العصر القائم حكراً على الذين يعدونهم مبطلين، ولو أن المبطلين هؤلاء نشطوا ضدهم فإنهم سيجدون وسائل معيشتهم ؟! ولكن غاب عن بالهم أن الله هو أقوى وأقدر منهم، والذى صار الله ضده فلا ملجأ ولا منجى له في أي مكانٍ .. إنما تُتاح المهلة لأحد الناس مالم يتضح له أمر الحق، وأما إذا صار الحق واضحاً كل الوضوح وظل المرء يعاند ويتفرعن، فإنه يفقد بعدئذٍ استحقاقه للعطف والرحمة، وعلى هذا الأساس ذاته يُعاقب المجرم فى الدنيا، كما أن الناس سينالون العقوبة فى الآخرة بحسب جريمتهم على هذا الأساس نفسه كذلك .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟

لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ: الفقر والبؤس والسقم والألم .

يَضَّرَّعُونَ: يتذللون ويخضعون ويتوبون .

عَفَوْا: كثروا ونموا عددا ومالا .

بَغْتَةً: فجأة .

لَفَتَحْنَا: ليسرنا عليهم أو تابعنا عليهم .

يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا: ينزل بهم عذابنا .

بَيَاتاً: وقت بيات أي ليلا.

مَكْرَ الله: عقوبته أو استدراجه إياهم .

لقد جاء في الحديث : « لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه، والمنافق مثله كمثل الحمار لا يدري فيم ربطه أهله ولا فيم أرسلوه » ؟! أو كما قال عليه الصلاة والسلام(١). إن الله يبتلي الإنسان بضروبٍ من الآلام والمصائب، حتى يلين قلبه، ويتحطم اعتماده على أشياء أخرى غير الله تعالى، ويذهب كبره وإعجابه بنفسه الذي طالما يحول بين المرء وبين قبوله لصدقٍ يأتيه من الخارج ، وهكذا تحت تدبيرٍ إلهي يتم توليد الشعور بالنقص والضعف داخل المرء لكيما يصيخ إلى صوت الحق .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير، المجلد الثاني، ص ٣٨ .

ويمر بهذا الابتلاء الإلهي عامة البشر كما تمر به الطائفة المعاصرة للنبي، ولكن بمقتضى السنة الإلهية يتم هذا الابتلاء في ستارٍ من اللبس والاشتباه، وعلى سبيل المثال : إذا حلت بلية ما فإنها تحدث عبر سلسلةٍ من الأسباب والعلل، ويصير هذا الوضع مثار الفتنة بالنسبة لكثيرٍ من الناس، حيث إنهم يغضون أبصارهم عنها قائلين : إنها كانت أمراً واقعاً فوقع !! وحين لا تجدي فيهم المصائب والمحق يقلب الله عليهم الحال فيبتليهم بالنعمة والرخاء.. إلا أنهم لا يزدادون إلا توغلاً في المغالطةِ وسوء الفهم لمشيئة الله، إذْ لا يلبثون أن يقتنعوا بأنها لم تكن سوى حادثةٍ من حوادث الدهر، قائلين : إنما هي تقلبات الأيام المعتادة ذاتها التي لا تزال تطرأ على البشر بين الفينة والأخرى، وإلا فما هو السبب إذن في أننا أصبحنا نتقلب الآن في أعطاف العيش الناعم بعد أن كنا نتقلب على رمضاء البؤس والشدة؟!

فهم يخرجون من كلا نوعَيْ التنبيه الإلهي محرومين دون أن يتلقوا أي درسٍ ولا عبرةٍ بهذا أو ذاك . وإذا أتيح لأحد الناس فرصة الرقي والتقدم بعد البغي والطغيان فإنها علامة على أن الله قرر أن يفاجئه بالبطش به من حيث لا يشعر بأنه سيتعرض لمؤاخذة الله وبطشه !!

على أن حياة الإيمان والتقوى تعود منافعها على صاحبها أصلاً في الآخرة، ولكن لو شاء الله لمنح المؤمنين المتقين أسباب العزة والكرامة والرفاهية في هذه الدنيا أيضاً كجائزةٍ أوليةٍ على أعمالهم .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ: ألم يبين الله للذين آمنوا.

أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم: إصابتنا إياهم لو شئنا .

وَنَطْبَعُ: نختم .

مِّنْ عَهْدٍ: من وفاء ما أوصيناهم به .

يحدث على وجه الأرض مرةً تلو أخرى أن أمةً من الأمم تنال من العزة والرخاء أوفر منالٍ، ثم إنها لا تلبث أن يطرأ عليها الانحطاط والزوال، ويتم دفعها عن الساحة، وبدلاً منها تحتل أمة أخرى كل أماكن العزة والرخاء والرفاهية .

وإن هذه الواقعة آيةٌ مِن آيات الله، إنها لتذكرّ المرء بالله؛ فهي تدل على أن مصادر العطاء والحرمان كلها بيد وجودٍ أعلى وأسمى؛ فهو يعطي لمن يشاء وينتزع ممن يشاء، ومن السهولة بمكان أن يفهم الإنسان هذه الحقيقة فيما إذا قام باستخدام قوة السمع والبصر التي منحه الله إياهما، وبإمكانه أن يعلم أن المنبع الحقيقي لو لم يكن في حوزة وجودٍ آخر، لما سمحت طائفة أتيح لها الغلب والانتصار مرةً لطائفةٍ أخرى بأن تتغلب عليها أبداً ، ولو أن المرء تلقى درساً كهذا، لوجد في واقعة صعود الأمم وانحطاطها غذاءً ربانياً، ولكن كلما تأخرت أمة ما، وصعدت أمة أخرى مكانها، فلا يلبث أفرادها أن يقعوا في سوء فهمٍ قائل بأن ما قد جرى على الأمة السابقة، كان خاصةً لها وحدها، وأنه لن يجري علينا مثل ذلك أبداً!!

وإنما زود الله الإنسان بقوى البصر والسمع والعقل لكي يتلقى منها الدرس والعبرة، ويتفهم بواسطتها إشارات الله، ولكن عندما لا يستخدم المرء هذه القوى والمواهب فيما ينبغي عليه أن يستخدمها فيه، فإن ما يحدث بعد ذلك بالضرورة، وبموجب القانون الإلهي هو أن تبدأ حساسية قلبه تخمد وتموت تدريجياً، إلى أن تُصاب مشاعره وعواطفه بالنسبة لهذه الأمور بالجمود والبلادة، ويُطبع على قلبه ودماغه بطابع التحجّر والقسوة ويؤول أمره إلى حيث أنه يبصر ولا يرى، ويستمع ولا يكاد يسمع،

ورغم تمتعه بالعقل لا يكاد يعي ويفهم ما يُعرض عليه من حقائق، ومع كونه إنساناً يصبح لا إنساناً!!

لقد بدأت مسيرة الإنسانية من المؤمنين بسيدنا آدم عليه السلام ثم لما انتشر الفساد بعدئذٍ أرسل الله رسله لتذكير البشر بالعهد الإلهي، وما حدث الآن هو أنه تم الإبقاء على أولئك الذين تقبّلوا الإصلاح عن طريق الأنبياء، وأُهلك مَن عداهم مِن الذين كانوا قد رفضوا القبول بالإصلاح، بيد أن الأجيال التالية لم تلبث أن نسيت ثانيةً عهد الإسلام، فلقيت بالتالي المصير نفسه الذي كان قد لقيه المؤمنون بآدم أول مرةٍ، وظلت تتكرر هذه الظاهرة مرةً بعد مرةٍ على مسرح العالم، حتى صار التاريخ، بالنسبة لأغلبية الجيل البشري، تاريخاً حافلاً بالعصيان والفسوق ونقض العهد!

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾

فَظَلَمُوا بِهَا: فكفروا بالآيات .

حَقِيقٌ عَلَى: حريص على أن أو خليق بأن .

مُّبِينٌ: ظاهر أمره لا يشك فيه أحد.

وَنَزَعَ يَدَهُ: أخرجها من طوق قميصه .

بَيْضَاءُ: غلب شعاعها شعاع الشمس .

المَلأُ: أهل المشورة والرؤساء .

أَرْجِهْ وَأَخَاهُ: أخر أمر عقوبتهما ولا تعجل

حَاشِرِينَ: جامعين السحرة وهم الشرط.

يتوجه النبي بخطابه – أولاً – إلى رؤساء عصره، الذين يمتلكون زمام القيادة الفكرية في المجتمع ، وهؤلاء بسبب ما يتمتعون به من استعدادٍ عقلي ممتازٍ أقرب ما يكونون إلى أن يفهموا رسالة الحق بعمقٍ، غير أن التاريخ يشهد أن هؤلاء قد اتخذوا دوماً موقف ((الظلم)) من الدعوة النبوية؛ أي أنهم استخدموا ذكاءهم لكي يفتعلوا مفاهيم معوجةً عن رسالة الحق.. كأن يقال مثلاً عن آيةٍ تقوم دليلاً على ظهورها بقوة الله: إنها ظهرت بقوة السحر. أو إسباغ الصبغة السياسية على الدعوة تشويهاً لسمعة رجالها، فيقال : إنهم لم ينهضوا إلا من أجل إقامة دولتهم السياسية .

وبما أن العوام لا يتمكنون من تحليل الأمور، لذا فلا تلبث مثل هذه الأقاويل أن تُلبس عليهم أمر الحق ، بيد أن إثارة الأقاويل من هذه النوع ضد الداعي إلى الحق جريمة عظيمة جداً، فمن خلال ذلك ربما يتمكن زعماء العصر من صيانة قيادتهم، إلا أن هذه الصيانة لا تتسنى لهم إلا بمقابل أن تصير آخرتهم غير مصونة إلى أبد الآبدين !

إن الله تعالى هو الحق ؛ ولذا فلا يجوز لشخصٍ يقوم مُبَلِّغاً عن الله أن ينطق بشيءٍ آخر سوى كلمة الحق والعدل، ولو أنه نطق بكلمة أخرى غير الحق لفقد أهليته لتمثيل الله والتبليغ عنه، وسيكون بالتالي مستحقاً لعقاب الله بدلاً من إنعامه ، لقد كان سيدنا موسى عليه السلام مبعوثاً إلى بني إسرائيل وإلى فرعون وقومه في آن واحد، ومع أن بني إسرائيل كانوا قد أصيبوا آنذاك بنقائص وأمراضٍ كثيرةٍ، إلا أنهم قاموا بالجملة بتأييد

سيدنا موسى ومناصرته . وعلى نقيضٍ من ذلك أنكره فرعون وقومه ما عدا أفراداً عديدين منهم، وفي نهاية المطاف، بعد نشاطٍ تبليغيٍ دام أربعين سنةً، قرر أن يهاجر مع بني إسرائيل من أرض مصر، فطالب فرعون بأن يسمح لبني إسرائيل بالخروج من مملكته حتى يعبدوا الرب الواحد في رحاب البرية .. (سفر الخروج : ١٦) على أن سيدنا موسى ﷺ كان ممثلاً للحق، إلا أن فرعون اعتبره عملاً من أعمال السحر، فقرر بدوره أن يقاومه عن طريق السحرة!

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ: خيلوا لها ما يخالف الحقيقة.

وَاسْتَرْهَبُوهُمْ: خوفوهم تخويفا شديدا .

تَلْقَفُ: تبتلع أو تتناول بسرعة.

مَا يَأْفِكُونَ: ما يكذبونه .

فَوَقَعَ الحَقُّ: ظهر وتبين أمر موسى ﷺ .

يتم تأييد الأنبياء بالمعجزات على غرار الشيء الذي يشيع في مجتمعاتهم وقد كانت مصر القديمة يسودها السحر، ومن ثم فقد تم تأييد سيدنا موسى ﷺ بمعجزةٍ مماثلةٍ

لذلك .

اجتمع كبار السحرة المصريين، بمناسبة عيدهم القومي - يوم الزينة - وفقاً للبرنامج المحدد من قبل فرعون ، وقال السحرة : إما أن نظهر أولاً شعوذتنا، وإما أن تقوم بعرض ما تريد عرضه علينا.. فأجاب موسى : أن تقوموا أنتم أولاً بإظهار ما لديكم من فنون السحر والشعوذة .. وهكذا كان ، مما يدل على أن النبي لا يبادر عدوّه بتوجيه الضربة إليه، وإنما هو يتيح فرصة المبادرة لعدوّه حتى الساعة الأخيرة ، وحين يكون الطرف المعارض قد أخذ بذلك مسئولية المبادرة على عاتقه هو، فلا يلبث النبي حينئذٍ أن يصرعه ويتغلب عليه باستخدام كل طاقاته ، ففي مجال الدعوة النظرية يقف النبي موقف المبادرة، بينما في ميدان الصدام الفعلي يقف موقف الدفاع .

استمرت دعوة سيدنا موسى ﷺ فى مصر حوالي أربعين عاماً، والمواجهة الفعلية التي جرت بينه وبين السحرة، هي مما وقع في أواخر أيامه بمصر، وبالإمكان القول - استناداً إلى ذلك - أن السحرة كانوا على سابق إلمام بدعوة سيدنا موسى ﷺ إلا أن غشاوة أعينهم لم تكن قد زالت بعد ، وحين رأوا تَفَوُّق سيدنا موسى وامتيازه في ميدان اختصاصهم، ارتفعت الحجب كلها وتبينوا أنها ليست بقضية السحر، بل هي قضية النبوة والتأييد الإلهي، ومن ثم خرُّوا ساجدين بين يدي الله عز وجل .

وحين رمى السحرة بحبالهم وعصيّهم بدت للناس كأنها حيات تسعى وتتلوى بسبب التخييل والإيهام ، ولكن حين تحولت عصا موسى إلى حيةٍ وبدأت تزحف في الساحة، عاد كل ما ألقاه السحرة من حبالٍ وعصيٍ كما كان.

لقد كان السحرة عارفين بحدود السحر، ومن خلال هذه الواقعة أدرك السحرة أن التدابير الإنسانية، مهما بلغت منتهى الكمال والدقة، غاية في الضعف والتفاهة، وأن الله عظيم وقوي بلا حدودٍ ولا نهايةٍ ، وبعدئذٍ جعل فرعون يبدو لهم، على سلطانه وجبروته، حقيراً ضئيلاً، فالسحرة الذين كانوا قبل رؤية عظمة الله حريصين على جائزة

فرعون وتكريمه، إذا بهم الآن لا يلقون بالاً إلى تهديد فرعون وتوعده إياهم بأشد العقوبات وأقساها كما لو أنه شيء لا حقيقة له !

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

وَمَا تَنقِمُ مِنَّا: ما تكره وما تعيب منا.

أَفْرِغْ عَلَيْنَا: أفض أو صب علينا .

التضحية بالنفس من أجل الحق هي الشهادة النهائية على كون الحق حقاً، وبنصرةٍ من الله تعالى وُفِّق السحرة لهذه الشهادة ذاتها، حيث إنهم بتقديم أنفسهم لأشد أنواع العقوبة قد أقاموا الدليل على أن إيمانهم بموسى عليه السلام ليس بحيلةٍ أو مؤامرةٍ ما، إنما هي اعتراف بالحق بأصدق معاني الكلمة وأعمقها، بيد أن وأعظم أعمال السحرة كان بمثابة أكبر ضربةٍ موجهةٍ إلى عنجهية فرعون وكبريائه .. إذْ إنهم بوقوفهم إلى جانب موسى مع التخلي عن فرعون كانوا قد أهانوه أمام قومه أجمع، فما لبث فرعون أن امتلأ غضباً وحنقاً عليهم، فعقد العزم على اتخاذ نفس الإجراءات الظالمة ضد السحرة التي يتخذها كل متكبرٍ جبارٍ أتيح له أي نوعٍ من السلطة والاقتدار على وجه الأرض، لقد انهزم السحرة وفرعون كلاهما معاً في مضمار الدليل ، غير أن السحرة صاروا مستحقين لنعم الله الأبدية لاعترافهم بهزيمتهم، بينما اتخذ فرعون من هزيمته قضيةً تمس كرامته وعزة نفسه، فما وقع في نصيبه شيء سوى أن يتصدى لاضطهاد اتباع الحق في الدنيا لتسكين كبريائه وأنانيته الكاذبة، ويُلقى به في الآخرة في عذاب الله الأبدي ، نظر فرعون إلى موضوع قبول دعوة موسى أوْ رفضها على أنه رهن بـ ((إذنه)) ، بينما نظر إليه

السحرة على أنه «آية».. وذلك ديدان المتكبرين دائماً، إذْ إنهم يعتبرون مشيئتهم الذاتية هي الأهم دون الدليل والبرهان، ولا يُكتب لأمثال هؤلاء التوفيق لقبول الحق أبداً .

إن نصرة الله هي التي كانت وراء ذلك الصمود والاستقامة التامة التي أظهرها السحرة في هذه المرحلة البالغة الخطورة، والدعاء الذي جرى على ألسنتهم كان هو الآخر دعاءً مُلهماً من عند الله ، إن عبداً ما حين يسلم وجوده كله لله، فهو يصبح إذْ ذاك قريباً من الله لدرجة أنه يبدأ يصله فيض من الله خاص، وحينئذٍ يفيض لسانه بكلمات يُلقيها الله في روعه، فهو لا يدعو في ذلك الحين إلا دعاءً يكون ربه قد قرر مسبقاً أنه مقبول مستجاب .. وقول السحرة : ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦ ﴾ هو بمثابة القول، بمعنىً آخر: إننا قد فوضنا أنفسنا وأمورنا كلها إليك قدر استطاعتنا، فلتكفلنا أنت الآن فيما هو خارج عن نطاق استطاعتنا.. وإذا ما دعا أي عبدٍ هذا الدعاء في سبيل الدين، صار الله كافيه، ولا ريب ، في كل الصعوبات والمشاكل التي يواجهها في طريقه.

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩ ﴾

وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ: نستبقي بناتهم ـ للخدمة .

المشكلة التي قدمها بنو إسرائيل إلى نبيهم كانت ناتجةً عن الحكومة ، غير أن الحل المطروح لها من قبل النبي كان يكمن في الإهابة بهم إلى العودة إلى الله، مما يوضح لنا ما

الفرق بين نظرة النبي ونظرة القادة الدنيويين إلى المشاكل القومية ، فالقادة الدنيويون يبحثون عن الحل لهذا النوع من المشاكل على مستوى الحكومة؛ سواء كان ذلك متمثلاً في المصالحة والتفاهم مع الحكومة أو الاصطدام بها .. بينما الحل الذي طرحه النبي هو الصبر على كل ما يجري الآن على الساحة السياسية والاستنصار بالله، والعودة اليه.

ثم إن النبي أشار أيضاً إلى ما يبعثه على تقديم هذا الحل الذي لا يتفق والنزعة القومية العامة، فالسبب في ذلك هو أن هذه المشاكل، وإن كانت فيما يبدو طارئةً من قبل السلطة، وعن طريق السلطة ذاتها يمكن الوصول إلى حلها كذلك ، ولكن السؤال هو : كيف تحصل هذه السلطة لأحدٍ ؟! إنها لا تتسنىّ لأحدٍ تدابيره الذاتية وحدها، بل تتوقف على قضاء الله تعالى سلباً وإيجاباً، فهو الذي يعطي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، وإذا كانت السلطة رهن مشيئة الله فلابد وأن توجد جذور الحل للمشاكل الناتجة عنها عند الله تعالى كذلك .

ثم إن هذه السلطة إذْ تُتاح لأحدٍ، كائناً من كان، فإنما هي تكون بالنسبة له مادة امتحانٍ وابتلاءٍ ، فالضعف في هذه الدنيا ابتلاء، وامتلاك القوة ابتلاء كذلك، فالذي تتوافر لديه اليوم السلطة، إنما أتيحت له لكيما يتم اختبار ما إذا كان يتجه نحو الظلم والاستكبار والتفرعن، أو يسلك مسلك العدل والتواضع ، وإذا قضى الله من بعد ذلك بتخويل السلطة إياكم، فلا يكون الغرض منها في ذلك الوقت أيضاً سوى أن يتم اختباركم، وكما أن السلطة تُنتزع من يد طائفةٍ ما، لعدم أهليتها لها، ويتم تخويلها أية طائفةٍ أخرى سواها، فكذلك ستُنتزع تارةً أخرى من هذه الطائفة الثانية، فيما لو قام الدليل على عدم جدارتها بها، وسيتم إعطاؤها بالتالي لأية طائفةٍ ثالثةٍ .. وهكذا دواليك .

إن الرفاهية والسلطة التي يتطلع إليها المرء في هذه الدنيا، هي في الحقيقة مما يتاح في الآخرة، لأن هذه الأشياء إنما تتاح في هذه الدنيا على وجه الابتلاء والاختبار ، بينما

ستتاح لعباد الله الصالحين في الآخرة على وجه الإنعام والتكريم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

بِالسِّنِينَ: بالجدوب والقحوط.

يَطَّيَّرُوا: يتشاءموا .

طَائِرُهُمْ عِندَ اللهِ: شؤمهم عقابهم الموعود في الآخرة .

إننا إذْ نصف أمراً ما بأنه خطأ، وأمراً آخر بأنه صواب، فإنما نعبر عن هذا بواسطة الألفاظ سلباً وإيجاباً، بيد أن الذي يستخدم الألفاظ هو هذا الإنسان؛ الذي يتمتع هنا في عالم الامتحان الراهن باختيار أن يتصرف في الألفاظ على هواه، ويستخدمها كما يشاء .

وأخطر أنواع الحرية التي أتيحت للإنسان في عالم الامتحان، هو أنه يتمكن هنا من أن يجد ألفاظاً تجعل من الحق باطلاً وبالعكس ، فهو يستطيع أن يرفض معجزةً نبويةً صارخةً، قائلاً : ما هي إلا سحر مبين ، كما يستطيع أن يصف نعمةً أعطاه الله إياها، بألفاظٍ كما لو أنه حصل عليها بفضل مؤهلاته وجهوده الذاتية ، وبسبب إعراضه عن الحق لو أن الله أنزل عليه عقوبةً رادعةً ما، فإنه حر في أن يقول إنها نتيجة شؤم أولئك العباد الربانيين أنفسهم الذين تسببت إساءته إليهم في استنزال هذه العقوبة عليه !!

إن كل أمرٍ يأتي من عند الله، فإنما يأتي لكيما يتعظ المرء به، لكن المرء لا يلبث أن يوجه كل موعظةٍ عكسيةً بواسطة الألفاظ، وبالتالي يبقى محروماً من الظفر بما تنطوي عليه من درسٍ وعبرةٍ .

﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ تدل هذه الجملة التي قالها فرعون وقومه على أن الحق، بالرغم من كونه ظاهراً بيّناً في أكمل صورة، لا يفوز به إلا الذي يريد أن يفوز به ويبحث عنه ، الذي يكون جاداً في شأن الحق، والذي يكون من صميم قلبه مستعداً لتلقي الحق أينما وُجد وفي أية صورةٍ ظهر، وعلى نقيضٍ من ذلك، فإن الشخص الذي ليس بجادٍ في هذا الشأن، والذي قد انتهى به الأمر إلى أنه قنع واطمئن بما عنده وكفى، فإنه سيظل عاجزاً عن رؤية الحق في صورة الحق، وللسبب ذاته لن يتمكن من قبوله واختياره .. إن الاطمئنان بالوضع الحاضر من شأنه أن يجعل المرء غير خبيرٍ بالأشياء التي تقع خارج ذاته هو، فهو يعلم ولا يعرف، ويسمع ولا يعي .. إن المرء لابد أن يظفر بالحقيقة فيما لو فكر وتأمل في الموضوع بعقليةٍ غير منفعلةٍ، وبدون خلفياتٍ مسبقةٍ، ولكن أكثر الناس تتأثر أفكارهم وآراؤهم بنفسياتهم الخاصة، وهذا هو السبب في أنهم يبقون حيارى فاشلين في الظفر بالحقيقة .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

الطُّوفَانَ: الماء الكثير أو الموت الجارف .

وَالْقُمَّلَ: الدبي أو القراد أو القمل المعروف .

الرِّجْزُ: العذاب بما ذكر من الآيات.

يَنكُثُونَ: ينقضون عهدهم الذي أبرموه .

كان بنو إسرائيل - أولاد سيدنا يعقوب ﷺ - في قبضة فرعون يعانون من ضروب القهر والاضطهاد والاستعباد، وكان الأقباط - أهل مصر الأصليين - بدورهم

يستخدمونهم كعبيدٍ وأُجَرَاء في أعمال الزراعة والبناء ؛ ولذلك فلم يكن يريد الحكام الفراعنة أن يغادر بنو إسرائيل أرض مصر .. وفي بداية أمره حين طالب سيدنا موسى فرعون بأن أرسلْ معي بني إسرائيل، فاتهمه فرعون وحاشيته، بإسباغ مفهومٍ سياسيٍ على مطالبته تلك، بأنه يريد أن يخرج القبط من أرض مصر .. وقد كان هذا كلاماً فارغاً عن أي معنىً أوْ مدلولٍ ، لأن سيدنا موسى كان يرمي إلى إخراج نفسه وقومه من مصر، بينما رماه فرعون بأنه يحاول أن يخرج القبط من بلادهم الأصلية ، لقد كان فرعون وأصحابه إذ ذاك في غرور السلطة وسكرتها، مما جعل كلاماً سديداً يبدو لهم ذا عوجٍ والتواء وغموضٍ .

ولكن في المرحلة التالية أخذ الله فرعون وقومه بألوانٍ شتى من البلايا والنكبات، فأصابهم بالقحط والجدب لعدة أعوامٍ متواصلةٍ ، وانهمرت السماء عليهم بمطرٍ شديدٍ مصحوبٍ بالبرَد والرعد والبرق، وغزت جنود مجندة من الجراد فأكلت الزروع والثمار، وأتت على كل أنواع الخضراوات والبقول، وكثر القمل والضفادع لدرجة أن الثياب والفرش امتلأت قملاً، واكتظت البيوت والطرقات بالضفادع، واستحالت مياه الأنهار والترع دماً .

وحين أبتُلي فرعون وقومه بهذه المحن والنكبات العجيبة، صرخوا قائلين : لئن رفع الله عنا هذه النكبات، لنطلقن سراح بني إسرائيل ليذهبوا مع موسى حيث شاؤوا .. إن مطالبة سيدنا موسى التي كانت لدى الفراعنة من ذي قبل بمثابة مؤامرةٍ سياسيةٍ تهدف إلى إخراجهم من مصر، إذا بها الآن أخذت تبدولهم مرادفاً لهجرة بني إسرائيل أنفسهم !!

لا يزال المرء يتحذلق ويتلاعب بالألفاظ والعبارات، ما دام يجد نفسه في منعةٍ وحصانةٍ، ولكنه إذا سُلب هذه المنعة والحصانة، ووضُع في موضع العجز والضعف والاستكانة، فإنه لا يلبث أن يصير - فجأةً - إنساناً واقعياً، وبالتالي فهو يفهم الآن من

تلقاء نفسه مالم يكن يقرب إلى فهمه من قبل حتى بالرغم من إفهامه إياه مراراً وتكراراً، بيد أن الإقرار الحقيقي هو أن يقر المرء وهو قادر على الإنكار، وأما بعد أن سُلب القدرة والاختيار فلا عبرة بأي إقرار .

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

وَدَمَّرْنَا: أهلكنا وخربنا .

يَعْرِشُونَ: من الجنات أو يرفعون من الأبنية.

إن العذاب الذي ينزل على أمم الأنبياء إنما ينزل بسبب تكذيبها بالآيات ، وأما النصرة الخاصة التي تنزل – في مقابل ذلك – على أتباع الأنبياء وأنصارهم، فإنما هم يستحقونها بسبب الصبر، أي الثبات والاستقامة على طريق الله مع ضبط النفس وكبت العواطف.. والمراد بالآيات دلائل الحق التي تبرهن على حقيقته ، ولكن المرء، بسبب نفسيته المتكبرة المتعجرفة، لا يقدر على الاعتراف والتسليم بها .. لقد كان فرعون مزهواً معجباً بسلطانه وحدائقه ومبانيه الفخمة، وعقب هجرة سيدنا موسى عليه السلام من مصر تم إغراق فرعون وجنوده في البحر، وقد خرّب البرد والجراد حدائق مصر البهيجة الغناء، وانهارت مبانيها الفخمة نتيجة الزلازل والهزات الشديدة .

ومن جانبٍ آخر فقد تمكن بنو إسرائيل، بعد بضعة أجيال لحقت بسيدنا موسى عليه السلام وبالضبط في زمن سيدنا داود وسيدنا سليمان – عليهما السلام – من الاستيلاء على نواحي مصر – أي بلاد الشام وفلسطين.. المكذبون بالآيات يستحقون دوماً غضب الله، والصابرون يستحقون دوماً نصرة الله وتأييده.

﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾ ﴾

مُتَبَّرٌ: مهلك مدمر .

أَبْغِيكُمْ إِلَهاً: أطلب لكم إلها ومعبودا .

يَسُومُونَكُمْ: يذيقونكم أو يكلفونكم .

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ: يستبقون - بناتكم للخدمة .

بَلاءٌ: ابتلاء وامتحان بالنعم والنقم .

وصل بنو إسرائيل إلى شبه جزيرة سيناء، مروراً بالجانب الشمالي من البحر الأحمر، ثم واصلوا رحلتهم من الجهة الشمالية إلى الجهة الجنوبية على سواحل البحر، وفي أثناء ذلك أفضى بهم المسير إلى قوم كانوا مشغولين بعبادة الأصنام .. وحينئذٍ طالب بعض بني إسرائيل - وليس كلهم - بأن يُجعل لهم صنم مثل أصنامهم .

أن أكبر ضعفٍ ابْتُلِي به هذا الإنسان هو عبوديته للظواهر .. فهو لا يتمكن من تركيز ذهنه كلياً على الله - المتستر وراء الغيب -، ومن ثم فلا يلبث أن يبقى متعلقاً بأحد الأشياء الظاهرية المحسوسة ، وإن هناك أناساً عديمي الشعور يركعون ويسجدون أمام أصنامٍ منحوتةٍ من الحجارة والمعادن، والذين نالوا نصيباً أكبر من الثقافة والتهذيب فهم يتخذون من أية شخصيةٍ أو أمةٍ معينةٍ، أو أي هيكل حضاريٍ مركزاً

لتوجهاتهم ومحور اهتماماتهم !! وحين اقترح بعض أفراد بني إسرائيل على سيدنا موسى عليه السلام وضع صنم ظاهري لهم ، فتوجه إليهم قائلاً : إن الأمر الذي تجدون القوم منهمكين في ممارسته، كله معرض للهلاك والدمار عاجلاً أو آجلاً، يعني أن رسالتنا التي نهضنا من أجلها هي أن نقوم بتحطيم كل هذه الآلهة الظاهرية الباطلة، ونربّي الإنسان على التوجه إلى الله الواحد الأحد وعبادته وحده لا غير .. فكيف يمكن إذًا أن نتخذ إلهاً ظاهرياً من هذا النوع لأنفسنا نحن ؟!

وليس المراد بقوله : ﴿ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ أية فضيلةٍ عنصريةٍ أوْ سلاليةٍ، بل هي فضيلة وظيفية تكليفية ، وقد ورد هذا المعنى نفسه تماماً عن الأمة المحمدية :{كنتم خير أمةٍ}. لقد جرت سنة الله تعالى بأن يأتمن طائفة ما على كتابه، وبواسطتها يبلغ رسالته إلى الأمم الأخرى ، في قديم الزمان كان بنو إسرائيل - اليهود - يتولون هذا المنصب، وبعد ختم النبوة عُهد بهذا المنصب إلى الأمة المحمدية .

أن إتاحة الفرصة لفرعون لاضطهاد بني إسرائيل، إنما كانت، بالنسبة لهم، على وجه الابتلاء وليس على وجه التعذيب ، وإنما يكون الغرض من وراء محنةٍ وابتلاء كهذا أن يتم تنبيه أهل الإيمان من الغفلة ، وحتى يُعلم مَن يتولى عن دين الله في الظروف الصعبة القاسية، ومَتن ذا الذي يثبت على دين الله صابراً محتملاً كل ما يلقاه من مكاره وصعوباتٍ على طول الطريق !

﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ

ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ: بدا له شيء من نوره تعالى .

دَكّاً: مدكوكا مفتتا.

صَعِقاً: مغشيا عليه.

سُبۡحَانَكَ: تنزيها لك من مشابهة خلقك .

كان سيدنا هارون الأخ الأكبر لسيدنا موسى - عليهما الصلاة والسلام - حيث كان سيدنا موسى يصغره بثلاث سنواتٍ ، بيد أن النبوة عُهد بها أصلاً إلى سيدنا موسى، وأما سيدنا هارون فإنما تم إشراكه فيها بصفته مساعداً لأخيه ، مما يوضح لنا أن الأهمية الرئيسية في توزيع المناصب الدينية، إنما هي للاستعداد وليست للسن أو الأشياء الإضافية الأخرى من هذا القبيل.. لقد أعطي لسيدنا موسى عليه السلام من الأحكام ما يتعلق بالدعوة والتبليغ ما دام في مصر، وعقب وصوله إلى صحراء سيناء، فقد دُعي إلى الجبل حيث أُعطي الأحكام التشريعية ، ومن هذا يتبين ترتيب الأحكام الإلهية .. فالمطلوب من عباد الله في الأحوال العادية أن يقوموا بإصلاح حياتهم الذاتية، ويعيشوا عابدين طائعين لله، ويضطلعوا بدعوة الآخرين إلى التوحيد والآخرة، ولكن حين يصبح أهل الإيمان جماعةً حرةً ومختارةً، كما كان بنو إسرائيل في صحراء سيناء، فيجب عليهم أيضاً أن يقيموا حياتهم الاجتماعية على أساسٍ من القوانين الشرعية .

ولما عَهد سيدنا موسى - عليه السلام - إلى أخيه سيدنا هارون عليه السلام بالإشراف على بني إسرائيل في أثناء غيابه، نصح له قائلاً : ﴿ وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ ، ونعلم من هذا ما هو المبدأ الأساسي الذي لابد من الالتزام به لأي زعيمٍ اجتماعيٍ يريد القيام بالمسئوليات المنوطة به خير قيام، وذلك المبدأ هو : الإصلاح وعدم اتباع المفسدين .. والمراد بالإصلاح هو محاولة الإبقاء على توازن العدل بين مختلف

أفراد المجتمع، وعدم الإخلال به في أي حالٍ من الأحوال ، فيحصل لكل أحدٍ ما ينبغي أن يحصل له بمقتضى العدل، ويُنتزع من كل أحدٍ ما ينبغي أن يُنتزع منه بمقتضى العدل كذلك .

وكثيراً ما يقع الخلل والاضطراب بهذا العمل الإصلاحي فيما إذا أخذ الزعيم أو الرئيس في اتباع «المفسدين»، ويتخذ هذا الاتباع أشكالاً شتى ، فقد يكون ذلك في صورة اقتناع الرئيس العاجل - أى من غير تمحيصٍ ولا تدقيقٍ - بكل ما يقول له خاصيته بناءً على أغراضهم الذاتية، وقد يتمثل في لجوئه إلى الصمت خوفاً من قوة المفسدين وشدة بأسهم.

رغب سيدنا موسى عليه السلام فى رؤية الله - سبحانه وتعالى، ولما علم أنه لن يتمكن من رؤيته تعالى (في هذه الدنيا)، أسرع إلى التوبة وإقرار الإيمان بالغيب ، وامتحان الإنسان هو أن يؤمن بالله وبالغيب، أي بدون أن يراه رأي العين، إن رؤية الله - سبحانه وتعالى - جائزة أخروية، فكيف يمكن إذن أن يتحقق ذلك في العالم الراهن ؟

﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

الأَلْوَاحِ: ألواح التوراة .

كان سيدنا موسى - عليه السلام - قد أُعطي النبوة للمرة الأولى على الجبل، ثم دُعي مرةً أخرى إلى الجبل ذاته حيث أُعطي أحكام التوراة ، مما يتضمن إشارةً إلى أن أنسب مكانٍ للحصول على فيض الله هو بيئة الفطرة دون بيئة التجمعات البشرية، فحين يصل المرء إلى عالم الأحجار والأشجار المستغرق في هدوءٍ وصمتٍ عميقٍ،

منصرفاً عن عالم البشر الصاخب، يبدأ يشعر بالدنو والقرب من الله تعالى، فإنه يخلو إذ ذاك من كل الأحاسيس المصطَنعة الطارئة، ويعود إلى حالته الفطرية، وإنها بالنسبة لأحد الناس أفضل ساعةٍ يتمكن فيها من التأمل والتفكير وفق المنهج الفطري الخالص ويتصل بربه منقطعاً عن كل ما عداه .

إنما يكون النبي بشراً من البشر، فهو لا يكون مخلوقاً غير بشريٍ من أية ناحيةٍ ، وإنما هو يمتاز بسمةٍ واحدةٍ، وهي أنه يُوفق للحفاظ على استعداده الفطري مما يؤهله لكي يصطفيه الله تعالى لحمل رسالته، والقيام بتمثيله الموثوق به بين الناس ، وبما أن سيدنا موسى عليه السلام كان أفضل شخصٍ من بين أبناء شعبه، لذا فقد اصطفاه الله نبياً له، وأنزل عليه كلامه ، ومع أن كلام الله يتضمن كل التفاصيل الضرورية المتعلقة بموضوع الهداية، إلا أن بيانها يتم بالألفاظ، وفي عالم الامتحان الراهن يبقى الاحتمال قائماً أن يتناول المرء هذه الألفاظ بالتفسير الخاطئ المعوجّ، ويسبغ عليها مفهوماً غير ما أُريد بها في واقع الأمر .. بيد أن الشخص الذي يكون جاداً في أمر الهداية، والذي يخاف من بطش الله، فإنه لا يستخرج من هذه الألفاظ إلا المعنى الذي يليق بكلام الله، وليس الذي يتفق مع هوى نفسه .

وقوله : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ يعنى أنك فى خلال رحلتك هذه ستمر بأطلال وخرائب تلك الأمم التي كانت قد أعطيت هداية الله من ذى قبل، ولكنها فشلت في الاحتفاظ والتمسك بها بقوةٍ، ولم تتمكن من الثبات والاستقامة عليها لانكسارها أمام ضغط الظروف أو جماح العواطف، فما كان مصيرها إلا أن أُهلكت ودُمّرت ديارها .

وإنه لن يختلف مصيرك أنت الآخر في الدنيا والآخرة عن مصير الأمم السابقة فيما لو صنعت صنيعها، وحذوت حذوها .. فإن الله يعامل كل الشعوب والأمم معاملةً واحدةً ولا فرق في ميزان العدالة الإلهية بين شعبٍ وشعبٍ وآخر .

﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

سَبِيلَ الرُّشْدِ : طريق الهدى والسداد .

سَبِيلَ الغَيِّ: طريق الضلال والفساد.

حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ: بطلت أعمالهم لكفرهم .

لممارسة الحياة في هذه الدنيا صورتان : إحداهما : أن يكون المرء قد فتح سمعه وأبصاره، فينظر إلى الأشياء ويسمعها كما هي في ألوانها الحقيقية ، وإن شخصاً كهذا لا يلبث أن يعرف الحق إذا ما ظهر أمامه، ولا يلبث كذلك أن يدرك الدرس الذي تعلمه الآيات الإلهية المنبثة في أنحاء العالم.

وأما الصورة الأخرى : فهي أن يعيش المرء ومِلْء إهابه الكبرياء والعجرفة، وهو يسكن في الأرض وكأنه مالكها، ولا يشغل باله أي شيءٍ آخر سوى ميوله ودواعيه الذاتية، وهو يظن أن كل ما يناله بسبب مؤهلاته الشخصية. وهو بذلك لا يشعر بحاجةٍ ما إلى أن يراعي مرضاة أحدٍ سواه في استخدام الأشياء المتاحة له، وسيقف استغناء هذا الشخص الأخير حجر عثرةٍ دون قبوله للحق .

إن نفسية الشخص الأول تكون نفسية المتلقي، وهو بسبب انفتاح ذهنه يتمكن من أن يقرأ كل إشارةٍ من إشارات الله، وبالتالي فلا يلبث أن يصوغ نفسه بحسب مقتضاها على الفور.. وعلى نقيضٍ من ذلك فإن نفسية الشخص الأخير تكون نفسية الاستغناء ، فدلائل الحق تظهر أمامه، ولكنه يعرض عنها لاعتباره إياها غير هامةٍ ، والطبيعة تترنم

فيما حوله بأنغامها العلوية بلغةٍ صامتةٍ، ولكنه لا يراها تستحق العناية والاهتمام ولا يشعر برغبةٍ ما إلى أي صدقٍ خارج ذاته هو .. وإن العالم الآتي من بعد الموت ليس إلا للنوع الأول من الناس، وأما النوع الأخير من الناس فإنهم سيُهملون في عالم الله الأبدي تماماً ،كما كانوا قد أهملوا أمر الله في عالم الامتحان الراهن .

إن طريق الغي والضلالة يتكون تحت دوافع النفس، وأما طريق الرشد والهداية فهو الذي يبرز إلى الوجود من أجل الله وحده مع الترفع عن كل مؤثرات النفس والبيئة ، ومن ثم فالذين يعيشون على مستوى ذاتهم، والذين لا يعلمون غير الدواعي المنبعثة داخل أنفسهم، سوف لا يلبثون أن يندفعوا نحو طريق الضلالة باعتباره عين ما تأنس به وتتوق إليه نفوسهم، بينما يبدو لهم طريق الهداية، من حيث طبيعتهم ومزاجهم، غريباً ومجهولاً، ولذا فسوف لا يحالفهم التوفيق للتقدم نحوه ، يسهل على نفسية الكبرياء أن تتلقى بالقبول أمراً لا يمس كبرياءها، وأما الأمر الذي يمس كبرياءها فإنها لا تعيره أي اهتمامٍ ولا تلقي له بالاً .

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾

كانت طائفة بني إسرائيل حينذاك تضم رجلاً داهيةً خبيثاً يُدعى السامري، فعندما

ذهب سيدنا موسى إلى الجبل، تاركاً بني إسرائيل تحت إشراف سيدنا هارون، قام الرجل بإغواء القوم وإضلالهم ، فقد أخذ ما كان لديهم من الحليّ، وصاغها عجلاً، وقد تم إعداد هذا التمثال، تمشياً مع فن صناعة الأصنام المصري القديم، بحيث إنه كان يخرج من فمه صوت كخوار البقر حين يدخل فيه الهواء . والناس عادةً يكونون مولَعين بالأعاجيب، ومن ثم فما لبث القوم أن وقعوا في الفتنة بشيء تافهٍ كهذا ونسجوا حوله مفهوم الألوهية، ولقد نجح رجل ماكر خبيث في استقطاب جموعٍ غفيرةٍ من الجماهير حول نفسه باستغلال مشاعرها، وقد استفحل أمره، وعمت به البلوى لدرجة أنه لم يقم أحد منهم حتى بالاحتجاج الصريح ضد هذا الانحراف الشائن ماعدا سيدنا هارون وبضعة من أصحابه - في أغلب الظن - ومن الظاهر أن التيار الجماهيري العنيف قد طغى على صوت نائب الرسول وجعله خافتاً لا يحرك ساكناً، فكيف يتمكن أحد غيره من أن يرفع عقيرته هناك ؟ !

وقد امتازت الجماهير في كل العصور بهذه النزعة ذاتها، ولم يطرأ عليها شيء من التغيير حتى أيامنا هذه ، فاليوم أيضاً يستطيع أحد الدهاة الماكرين أن يستقطب حشداً كبيراً من الناس على أي نوع من «الخوار» عن طريق كتاباته وخطبه الرائعة ، فالعوام لا يفكرون في أن الشيء الذي يلتفون حوله لا يعدو أن يكون مجرد ألعوبةٍ ومهزلةٍ، وليس حقيقةً ما في واقع الأمر ، ولو أن رجلاً جاداً تناول هذه المهزلة بالكشف عن حقيقتها، فإنه يلقى المصير نفسه الذي لقيه سيدنا هارون من بني إسرائيل.. ولما رأي سيدنا موسى‍عليه السلام أن بني إسرائيل مشغولون بفعلٍ وثنيٍ، خُيّل إليه أن سيدنا هارون قد قصر في نهيهم عن ذلك وإصلاحهم، فلم يلبث أن أخذ برأس أخيه في سَوْرَةِ الغضب، ولكنه لم يكد يقتنع ببراءة هارون من التقصير في محاولته الإصلاحية، حتى كف يده عنه على الفور، وأخذ يدعو الله سائلاً إياه الرحمة والغفران لنفسه ولأخيه .. وإن لمن المحتمل أن يقع أحد المؤمنين بالنسبة لأخيه المؤمن في سوء فهم على اختلاف أنواعه وأشكاله، إلا أنه بعد أن يتبين جلية الأمر يصبح كأنه لم يقع في سوء فهم ما بالنسبة

لأخيه قط!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾

لماذا أطلق القرآن هنا على ما اتخذه بنو إسرائيل من العجل وصف «الافتراء» ؟ ! السبب في ذلك هو أنهم كانوا قد مارسوا هذا العمل الباطل باسم الحق؛ إنهم لم يفعلوا ذلك منكرين لدين الله، بل كانوا قد فعلوه مؤمنين بدين الله ، وكانوا يستخدمون الألفاظ والمصطلحات الدينية لنعت انحرافهم عن الدين ذاك ، فقد كانوا يقولون، شأن العقيدة الشائعة بين المشركين، بأن الله قد حلّ وتجسدّ في هذا التمثال المسبوك ، ولذا فعبادته مرادفة لعبادة الله ذاتها ، وحتى إن السامري، الذي تولى كبر هذا الصنيع، لم يلبث أن اكتشف دليل الكشف والكرامة في حقه، فقال : إنني رأيت فيما يراه النائم، أن جبرائيل قد جاء؛ فعمدت أنا إلى أثر حافر فرسه، وأخذت من هناك قبضةً من التراب، فصنعت عجلاً وقذفت فيه ذلك التراب فإذا بالعجل أخذ يصوتّ ببركة التراب المقدس !! وكأن السامري وأصحابه كانوا ينسبون بذلك إلى الله أمراً ما أنزل الله به من سلطانٍ، وهذا هو الافتراء عينه.

وحين تمارس أية طائفةٍ أمينةٍ على الدين هذا النوع من الافتراء، فتصبغ انحرافها الديني بصبغة الدين الحق، فإنها تتسبب بذلك في إثارة غضب الله على وجهٍ شديدٍ، وبالتالي يتم القضاء بالنسبة إليها بعقوبةٍ مخزيةٍ تذوقها هنا في هذه الحياة الدنيا ذاتها.. وقد تمثلت عقوبة بني إسرائيل الدنيوية هذه فيما أمر به سيدنا موسى عليه السلام أن يبطش المسئولون المخلصون عن كل قبيلةٍ من قبائلهم، بالذين لهم يد في عملية صنع العجل، وكانوا شركاء مباشرين في تأجيج نار هذه الفتنة؛ فأمسى القوم بين قاتلٍ وقتيلٍ، حيث قتل أبرياء كل قبيلةٍ المجرمين المنتمين إليها بأيديهم ، ولم يتخلص من هذه العاقبة المؤلمة

سوى أولئك الذين ندموا أشد الندم على فعلهم هذا، وبادروا بالاعتراف بجريمتهم، وتابوا إلى الله توبةً نصوحاً .

وقد تم تنفيذ العقوبة التي قضى الله بها على جريمة بني إسرائيل بواسطة سيوفهم الذاتية ، بيد أن قضاءً من هذا النوع يتم تنفيذه في بعض الأحيان بواسطة سيوف الأجانب، ويتحقق ذلك النوع بسيوف الأجانب فيما إذا أريد ضم الخزي والهوان إلى جانب العقوبة .

التوبة هي أن يشعر المرء بالندم الشديد على ما صدر منه من الذنب ، فإن حقيقة التوبة الجوهرية هي الندم ، وهذا الندم هو ضمان لتصميم المرء على أنه لن يعود إلى ارتكاب مثل هذا الذنب في القادم، وحين يقيم أي مذنبٍ الدليل على ندمه، ويعقد العزم على الأخذ بالحذر والاحتياط في المستقبل، فكأنما هو يؤمن من جديدٍ، ويدخل إلى دين الله ثانيةً، بعد أن كان قد خرج منه.

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾

سَكَتَ: سكن .

أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ: الزلزلة الشديدة أو الصاعقة.

فِتْنَتُكَ: محنتك وابتلاؤك.

هُدْنَا إِلَيْكَ: تبنا ورجعنا إليك.

إن اتخاذ بني إسرائيل العجل كان قد كشف عن كونهم دون الدرجة المطلوبة من اليقين بالله تعالى، ومن ثم فقد تم استقدامهم إلى الجبل، وتوجه سيدنا موسى عليه السلام مرةً أخرى إلى جبل الطور وفقاً للموعد الذي وعده الله إياه، برفقة سبعين رجلاً من خيرة بني إسرائيل ، وقد أوجد الله هناك، من خلال الرعد والبرق والزلزلة الشديدة، أحوالاً من شأنها أن تولد مشاعر الخشية والإنابة في نفوس بني إسرائيل ، وقد حدث بعد ذلك أن مثُل هؤلاء بين يدي الله يبكون ويتضرعون، وتابوا إليه تعالى توبةً جماعيةً، وعاهدوه أنهم سيعملون بأحكام التوراة بصدقٍ وإخلاصٍ ، وفي هذه المناسبة دعا سيدنا موسى عليه السلام فقال : « .. (يارب) .. ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ فأجاب الله تعالى قائلاً : ﴿ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾.

لقد كان دعاء سيدنا موسى عليه السلام عاما شاملاً لأمته بأسرها، ولكن الله - سبحانه وتعالى - أوضح في جوابه أن النجاة والفلاح، وإنما يتم القضاء بهما لكل فردٍ على حدةٍ، وبناء على عمله الذاتي، وعلى أنني أرحم الراحمين، إلا أن الشخص الذي لا يقيم الدليل على العمل الصالح، فإنه لن ينجو من بطشي وعقابي، مهما كان شعبه الذي ينتمي إليه!!

إن كتاب الله يكون جامعاً بين الرحمة والهداية، فهو خير هادٍ ومرشدٍ للمرء في الحياة الدنيا وأضمن وسيلةٍ لنيل رحمة الله في الآخرة، غير أن فائدة كتاب الله هذه لا تعود إلا على الذي تنطوي جوانحه على «الرهبة»، والذي يكون دائم الحذر والخوف مما عسى أن يفعل الله به غداً!! . وهؤلاء هم الباحثون الصادقون عن الحق، وحين يظهر الحق أمامهم فلا يلبثون أن يدركوه من غير أن يصابوا بأي نوعٍ من التعقيدات النفسية ، وبعدئذٍ يصبح الله مركز رجائهم وخوفهم، ويصير كل ما عندهم من نفسٍ ونفيسٍ وقفاً

لله تعالى، وتعمل الرهبة المستقرة في قلوبهم على إيقاظ شعورهم ووعْيهم، فترتفع كل الحجب الاصطناعية عن أعينهم، وهم لا يخطئون أبداً في معرفة الآيات المتجلية من قبل الله تعالى .. إنهم أناس يعيشون في نفسية الرهبة والخوف، وليس في نفسية القناعة والطمأنينة .

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

إِصْرَهُمْ: عهدهم بالعمل بها في التوراة.

وَالأَغْلالَ: التكاليف الشاقة في التوراة .

وَعَزَّرُوهُ: وقروه وعظموه .

لقد كان عهد بني إسرائيل بالأنبياء أنهم مازالوا يُبعثون في شعبهم منذ قديم الزمان، وبما أن النبي الأخير كان مبعوثاً في بني إسماعيل، وفقاً لتدبير الله تعالى، لذا فقد أخبرهم الله تعالى بذلك مسبقاً على ألسنة أنبيائهم ، ولم تزل كتبهم وأسفارهم حافلةً بالكثير من النبوءات والبشارات المتصلة بالموضوع حتى يوم الناس هذا . وإنما حدث ذلك لكي لا يقع هؤلاء في أية فتنةٍ عظيمة، فيما إذا بُعث هذا النبي الأخير، وبالتالي يتمكنون من معرفته بتمام السهولة، وينضوون تحت رايته .

لقد كان رسول الإسلام أمّيّاً، لم يتعلم شيئاً من القراءة ولا الكتابة، واقتران النبوة بالأمية، هو من سنة الله الدائمة ، حيث إن المعرفة الإلهية يتم إظهارها دوْماً على مستوى «الأمية»، أي أن إعلانها يتم بواسطة شخصٍ لا يُعد في ضوء المعيار الدنيوي، أهلاً

للقيام بمهمةٍ عظيمةٍ من هذا النوع، فلم يحدث قط، على امتداد التاريخ البشري كله، أن بعث الله ((أبقراط)) و((أفلاطون)) وأمثالهما برسالته إلى الناس !!

إن روح الدين الأصيل هو مخافة الله والآخرة ، ولكن، بعد مضي الزمن، حين يُصاب الروح الداخلي بالخمود، يشتد الاهتمام بالظواهر والمظاهر الخارجية .. فيتم تخريج مسائل جديدةٍ من خلال تخرصاتٍ وتفريعاتٍ غير ضروريةٍ ، ويُقام هيكل متكامل الأبعاد يتم تشكيله من ضروب التمارين والرياضات المختَرَعة باسم الروحانيات ، وتحيط بالأوهام والخزعبلات الشعبية هالة من القدسية، تتحول معها إلى شريعةٍ جديدةٍ قائمةٍ بذاتها .. وكان اليهود قد وصل بهم الأمر إلى هذا الحد ذاته، حيث كانوا قد اتخذوا هيكلاً مزعوماً من القيود والأوهام نُسجت باسم الدين الإلهي، وكانوا يحسبون أنه دين الله عينه .. وقد عرض عليهم رسول الإسلام ﷺ الدين في وضعه الفطري السليم، فألغى القيود والتكاليف غير الضرورية كلها، وأرشدهم إلى معالم الدين الحق البسيط .

وأكبر حسنةٍ، حين يأتي النبي، هي المبادرة إلى الإيمان به، غير أن هذا الإيمان ليس النطق بكلمةٍ ما بالمعنى العام، إنما هو خروج من دين الهيكل الجامد والدخول إلى دين الشعور الحي اليقظ، وإن ارتباط المرء بالهيكل الديني السابق إنما يكون نتاجاً للتقاليد التاريخية، أو امتداداً للعادات والأعراف الشعبية .. ولكن يعتنق دين النبي الجديد، إنما يعتنقه بناءً على قرارٍ شعوريٍ واعٍ، فهو يدخل إلى دائرة الحقيقة بعدما خرج من إطار المظاهر والرسميات.. وإن هذا ليبدو، في بادئ الرأي، أمراً يسيراً، غير أنه أصعب وأشق ما يكون على الإنسان في كل العصور .

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ

يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

وَبِهِ يَعْدِلُونَ: بالحق يحكمون في الخصومات بينهم .

ليس معنى قوله :﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ أن سائر الأنبياء الآخرين كانوا أنبياء قوميين، وأن رسول الله ﷺ كان نبياً دولياً أو عالمياً، وإنما قيل ذلك بياناً للأمر الواقع المحكوم بالجغرافيا وندرة المواصلات وقلة الشرائع .

والأصل أن رسول الإسلام له بعثتان : مباشرة، وعن طريق أمته . فقد كانت بعثة محمدﷺ المباشرة للعرب - في بداية الدعوة من الناحية الواقعية - حيث قال تعالى: ﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام: ٩٢] .. ثم انطلق الرسول من هذه المرحلة إلى البعثة العامة للعالم أجمع، قال تعالى : ﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٨] . وهذه الرسالة العامة ذاتها كانت حكماً لبعثة أنبياء الله قاطبةً ، غير أن الدين الذى جاء به الأنبياء الآخرون لم يعد محفوظاً وليست به شرائع صالحة، ولذا فما أمكنهم أن يكونوا مبشرين ومنذرين للعالم أجمع .

إن التبشير بالديانة المسيحية يجري على قدمٍ وساقٍ في كل أنحاء العالم اليوم، ولكن بالرغم من ذلك، ظلت نبوة سيدنا المسيح ﷺ منحصرةً في حدود فلسطين وحدها؛ لأن تعاليمه ﷺ لم تعدْ من بعده باقيةً في حالتها الأصلية الأولى .. والديانة التي تصل إلى الناس اليوم باسم المسيحية، هي، في الحقيقة، ديانة القديس بولس، وليست ديانة السيد المسيح ﷺ وهذا يعني أن الفرق في اتساع دائرة العمل وشمولها بين نبي وآخر إنما هو من حيث الواقع وليس من حيث التفويض، تتضمن التوراة نبوءةً عن النبي العربي تقول : «.. وتتبارك (فيه) جميع قبائل الأرض» (سفر التكوين : ١٢: ٢٣) . وما أمكن وصول بركته - عليه الصلاة والسلام - إلى شعوب الأرض قاطبةً، إلا

لكون دينه الذي جاء به محفوظاً، على العكس من دين موسى وعيسى - عليها السلام.

لقد كانت هناك قبائل يهودية تقطن بالجزيرة العربية، وقد كان هؤلاء يفتخرون بأن لديهم كتابَ الله المقدس، وأمثال هؤلاء - الفخورين بما عندهم - يكونون دوْماً أشد الناس عناداً نحو حقٍ خارج ذواتهم؛ فإن شعورهم بأنهم متمسكون بالصدق الأعظم يحول دون قبولهم بالحق الذي يجيء به أحد سواهم.. وهكذا كان شأن اليهود تماماً، حيث أصيبت أغلبيتهم الساحقة بنفسيات العناد والتعصب الأعمى، وما خرج منهم سوى نفرٍ قليل العدد - كعبد الله بن سلام وغيره - الذين نظروا إلى الإسلام بذهنٍ مفتوحٍ؛ فشهدوا بصدقه غير مكترثين لأوضاعهم وعزتهم الدنيوية، وبالتالي سخّروا حياتهم الدنيوية لخدمته .

﴿ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أى توجيهاته وإرشاداته، تدل هذه الجملة على الفرق بين إله الفلاسفة وبين إله النبى، فإله الفلسفى روحٍ مجردةٍ، والإيمان بها يشبه تماماً الإيمان بوجود الجاذبية في الكون، وقوة الجاذبية لا تنطق ولا تأمر بشيء ما .. بينما إله النبي هو إله حي وعاقل، ويأمر عباده بما يشاء، ويجزيهم بالخير أو الشر على امتثالهم لأمره أو مخالفتهم إياه .

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟

يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

وَقَطَّعْنَاهُمُ: فرقناهم .

أَسْبَاطاً: جماعا ، كالقبائل في العرب .

فَانْبَجَسَتْ: فانفجرت .

مَّشْرَبَهُمْ: عينهم الخاصة بهم.

الغَمَامَ: السحاب الأبيض الرقيق .

المَنَّ: مادة صمغية حلوة كالعسل .

وَالسَّلْوَى: الطائر المعروف بالسماني.

وَقُولُوا حِطَّةٌ: مسألتنا حط ذنوبنا عنا .

رِجْزاً: عذابا (الطاعون) .

لقد أخرج الله بني إسرائيل من بيئة مصر الوثنية وأوصلهم إلى صحراء سيناء، وقد تم هنا تنظيم شئونهم، حيث فُرقوا اثنتي عشرة جماعةً، وعُين على كل جماعةٍ رقيب أو مشرف، وكان سيدنا موسى عليه السلام مشرفاً على الجميع .

ثم أُتيح لبني إسرائيل كل حاجات الحياة الضرورية على وجهٍ خصوصي، فقد تم توفير المياه لهم من خلال تفجير العيون من الحجر، وفي رحاب الصحراء المترامية الأطرف تم تظليلهم بالغمام على نحوٍ مستمرٍ، ونزل المن والسلوى كغذاءٍ لهم كانوا يجدونه من غير عملٍ ولا كدٍ أمام خيامهم، كما تم تخويلهم مدينة أريحا - الواقعة بالجانب الشرقي من وادي الأردن - بأكملها، لكي يتخذوا بها مساكنهم وبيوتهم .. وكأنما قال الله لهم : إني قد وفرت لكم كل ما تحتاجون إليه، فلا تندفعوا الآن وراء الأشياء النجسة بدافع الحرص وابتغاء اللذة وبدلاً من ذلك عليكم أن تختاروا طريق

القناعة والشكر لله .

ولكن اليهود ذهلوا عن وصايا الله كلها، وبدؤوا باتباع سبلٍ مزعومة اختُرعت باسم الله، بدلاً من اتباع صراط الله المستقيم، وسلكوا مسلك العناد والطغيان بدلاً من العجز والتواضع، وبدل أن ينطقوا بكلمة الشكر أخذوا يرددون كلمات الجزع وقلة الصبر .. وحين توصل اليهود إلى هذا الحد من الفساد والانحراف، استردّ الله منهم كل عناياته وهباته، وإذا بهم أضحوا محاطين بصنوف العذاب بدلاً من الرّحمة .

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

حَاضِرَةَ البَحْرِ: قريبة من البحر .

يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ: يعتدون بالصيد المحرم فيه.

يَوْمَ سَبْتِهِمْ: يوم تعظيمهم أمر السبت.

شُرَّعاً: ظاهرة على وجه الماء كثيرة .

لاَ يَسْبِتُونَ : لا يراعون أمر السبت.

نَبْلُوهُم: نمتحنهم ونختبرهم بالشدة.

مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ: نعظهم اعتذارا إليه تعالى.

لقد أُمر اليهود بأن يجعلوا يوماً من أيام الأسبوع - وهو يوم السبت - خاصاً بالعبادة وذكر الله عز وجل ، ولا يشتغلوا في ذلك اليوم بأي عملٍ معيشي . وقد جاء في التوراة بهذا الخصوص مانصه : ((.. فتحفظون السبت، لأنه مقدس لكم، من دنَّسه

يُقتل قتلاً، إن كل من صنع فيه عملاً تُقطع تلك النفس من بين شعبها » (يُراجع سفر الخروج : الإصحاح الحادي والثلاثون) .

ولكن عندما تسرب الفساد إلى اليهود أخذوا في العمل بخلاف ذلك تماماً .. وقد أطلق مصلحوهم صرخة النعي والإنكار على انحرافهم، إلا أنهم يرعووا عن ذلك، بل تمادوا في الغي والعناد .. بيد أن المصلحين ظلوا يواصلون جهودهم الإصلاحية بدون انقطاع .. والحقيقة هي أن عملية الإصلاح للآخرين، وإن كانت، فيما يبدو، تُمارس من أجل الآخرين غير أنها لا تُمارس إلا من أجل أنفسنا ، من حيث إن الباعث الحقيقي على ذلك هو إبراء ذمتنا عند الله تعالى، وإنه سيقف المرء في منتصف الطريق في حالة ما إذا لم يكن هذا الباعث حياً، ولن يتمكن بالتالي من الاستمرار في نشاطه الإصلاحي والتبليغي حتى الساعة الأخيرة .. وكانت النتيجة لتمرد اليهود وطغيانهم أن شُدد عليهم الأمر إلى حدٍ كبيرٍ ، وقد كانت مساكن اليهود بمدينة أيْلة التي تقع على شاطئ الخليج الشرقي من بحر القلزم، وقد كان صيد الأسماك هو المورد الرئيسي لمعيشتهم ، وحدث - بمشيئة الله - أن ازْداد مجيء الأسماك على سواحلهم في يوم السبت ازدياداً كبيراً جداً، بينما لم تكن الأسماك تأتي في الأيام الستة الباقية - عدا السبت - إلا قليلاً ، ولكنها كانت تغطي وجه الماء لكثرتها في اليوم المحظور اصطيادها فيه - أي السبت .

ولقد كان ذلك ابتلاء قاسياً جداً بالنسبة لليهود، من حيث إنه لم تعدْ فرصة الصيد الآن متاحةً لهم - بسبب هذا الوضع المنقلب - إلا في اليوم المحرم ذاته ، على حين أن فرصة الصيد كانت متاحةً من ذي قبل خلال الأيام الستة المشروعة عدا السبت ، ومن هنا بدأ اليهود يحتالون في استحلال ما حرم الله ، فلم يكونوا يصطادون يوم السبت، بيْد أنهم اتخذوا حياضاً يسوقون إليها مياه البحر، بحيث أن الأسماك إذا كثرت وأخذت تطفو على سطح الماء في يوم السبت، كانت تنتقل تلقائياً عبر القنوات والجداول إلى حياضهم خارج البحر، وبعدئذٍ كانوا يسدّون بدورهم منافذ الحياض، حتى لا تعود الأسماك إلى البحر، ثم كانوا يأخذونها في اليوم التالي - الأحد - وهكذا كان القوم

يحاولون تبرير فعلٍ غير مشروعٍ حتى لا يصدق عليهم الحكم القائل بأنهم قاموا بالصيد في يوم السبت .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

بِعَذَابٍ بَئِيسٍ: شديد وجيع .

عَتَوْا: استكبروا .

قِرَدَةً خَاسِئِينَ: أذلاء معذبين كالكلاب.

إن إتيان فعلٍ نهى الله عنه هو الذنب، وأما إتيان الفعل المحرم بعد استحلاله عن طريق الحيل فهو إضافة للعتو والطغيان إلى الذنب ، ولقد ارتكب اليهود جريمةً كهذه حين خالفوا قانون السبت ، ويصبح أمثال هؤلاء الطغاة مستحقين للعنة الله، يعني أنهم يعودون محرومين من عنايات الله تلك، التي هي خاصة بالإنسان وحده في هذه الدنيا، ويهبط أمثال هؤلاء من مستوى الإنسانية إلى مستوى الحيوانية، وقد عُومل العصاة لقانون السبت هذه المعاملة ذاتها.. وليس معنى قوله : ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ أن تحولت صورتهم إلى صورة القردة، بل يعني ذلك، كما قال الإمام الراغب: أن أخلاقهم جُعلت كأخلاق القردة، وإن لم تكن صورتهم كصورتها .. : (المفردات في غريب القرآن) .. ورُوي عن مجاهدٍ : أنه إنما مُسخت قلوبهم، ورُدّت أفهامهم كأفهام القردة.. (القرطبى).

الإنسان مخلوق أودع فيه خالقه العقل والضمير، وحين تنبعث في داخله رغبة ما، فينشط عقله وضميره من فورهما، ويمليان عليه السؤال عما إذا كان من الجائز له أن يأتي ذلك أم لا ؟

وأما شأن القرد فهو على نقيضٍ من ذلك تماماً، حيث لا يحول بين رغبته وعمله أي شيءٍ، فحين تسول له نفسه أمراً يقدم عليه تواً، وهو لا يشعر بحاجةٍ ما إلى الأخذ بالروية والتأني في رغبته، ولا إلى الندم والتأسف على ما يعمله انسياقاً وراء رغبته الجامحة تلك .. إذًا فصيرورة الإنسان قرداً يعني أن ينعدم ويتلاشى في داخله هذا النوع من المشاعر والأحاسيس اللطيفة؛ نتيجة استمراره وتماديه في العمل بخلاف ما يدعو إليه عقله وضميره، وبالتالي فهو لا يلبث أن يأخذ في تحقيق كل رغبةٍ تتولد في قلبه ، وكلما قدر على أي شخصٍ فلا يمنعه شيء من انتهاك عرضه واغتصاب ماله ، وإذا أساء إليه أحد إساءةً ما، تصدى من فوره لإهانته وتشويه سمعته ، وإذا نشب الخلاف بينه وبين أحدٍ من الناس، ثار ثائره وكشر له عن أنيابه، وإذا رأى أحدَ الناس واقفاً في وجهه، أعلن عليه حرباً لا هوادة فيها .

الإنسان الحق هو الذي يستحضر دوماً رقابة الله عليه، فيُلجم نفسه بلجامٍ من خشية الله، وأما الإنسان القرد فهو الذي ينطلق يفعل كل ما تدعو إليه نفسه متحرراً من كل القيود.

النهْي عن السوء نوع من إعلان البراءة ، ومن ثم فحين تحلّ عقوبة الله هذه بطائفةٍ ما، فإن الله ينجي من التعرض لها أولئك الذين بلغوا من الاستياء وعدم الرضا بالسوء حداً يصحبون معه الناهين عنه.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

تَأَذَّنَ رَبُّكَ: أعلم ، أو عزم وقضى .

يَسُومُهُمْ: يذيقهم ويكلفهم.

وَبَلَوْنَاهُم: امتحناهم واختبرناهم.

لقد جاءت العقوبة التي تم إعلانها لليهود في هذه الآيات مشفوعةً بشرط ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ مما يوضح أنها عقوبة لها صلة بالحياة الدنيا، وأما ما يتعلق بمصير القوم في الآخرة، فهو منفصل عن ذلك، وقد ورد ذكره في مواضع عديدةٍ أخرى من القرآن الكريم .

وإنه حين يتم تقرير جائزةٍ عظيمةٍ على إتيان عملٍ ما، فإنما يعني ذلك – طبعاً – أن عقوبة تركه هي الأخرى ستكون عظيمة ، وهكذا شأن أمة ائْتُمنت على الكتاب السماوي، وكان الله تعالى قد عين اليهود في هذا المنصب ذاته – أي منصب حمل الرسالة السماوية – ومن ثم فقد أعطاهم الله جوائز وإنعاماتٍ غير عاديةٍ في هذه الدنيا أيضاً، علاوةً على ما وعدهم به من نعيم الآخرة، غير أن اليهود عصوا الله فتمادوا في العصيان وظلوا يمارسون اللادينية باسم الدين، وكانت نتيجة ذلك أن نحاهم الله عن منصب الفضيلة، وقضى عليهم بألا يبرحوا يذوقون عقوبة الله ما دامت السماوات والأرض .. ويُضاف إلى ذلك ما سيواجهونه حتماً في الآخرة .

وليس معنى ذلك أنهم لن يمروا الآن بأحوال الرخاء والسعادة أبداً حتى تقوم الساعة .. فقد صرحت هذه الآيات ذاتها بأن هناك مراحل «الحسنات» أيضاً، وستكون لهم وقفات قصيرة أو طولية عندها خلال مسيرتهم التاريخية .. إلا أن مرحلة «الحسنة» هذه ستكون هي الأخرى بالنسبة لهم نوعاً من العتاب، حتى يزدادوا بغياً وعناداً فيستحقوا عذاباً أشد وأقسى .. وقد ذكرت هذه الآيات عقوبتين لليهود، أما إحداهما: فهي أنه سيتم إتاحة السلطة والغلبة عليهم لأقوامٍ تتخذ منهم هدفاً للظلم والاضطهاد .. والتاريخ يشهد بأن اليهود تعرضوا تارةً لشدائد بنوخد نصر (بختنصر) وتيتوس الروماني، وقد جُعلوا تارةً أخرى تحت رحمة المسلمين وقهرهم، وفي العصر

الحاضر ما إن تمكنوا من بسط نفوذهم الاقتصادي الهائل في أوربا الشرقية، قام ((هتلر)) بتدميرهم وإبادتهم قتلاً وتشريداً في الأرض .. ولعل اجتماعهم الأخير في الأرض المقدسة ليس - على ما يبدو - إلا علامةً على أن قوتهم ستتعرض بأكملها - عاجلاً أو آجلاً - للهلاك والدمار على نحوٍ جماعيٍ شاملٍ.

والعقوبة الثانية التي ذُكرت هنا تتمثل في: ((التقطيع))، يعني تمزيق شملهم وتحويل وحدتهم إلى فرقٍ وأحزابٍ شتى .. وقد حدثت معهم أيضاً هذه الواقعة الثانية بين الفينة والأخرى على مدار التاريخ .. ولم يكن قانون الله هذا خاصاً باليهود وحدهم، إنه ينسحب على تلك الطائفة التي تم تعيينها في منصب شهادة الله بعد عزل اليهود عنه ، ولو أن المسلمين وجدوا أنفسهم بحيث تمكن الكفار والمشركون من التسلط والغلبة عليهم، وتحولت وحدتهم إلى قطاعاتٍ جغرافيةٍ صغيرةٍ متفرقةٍ، فعليهم أن يعودوا إلى الله، لأن معنى ذلك أنهم قد وضُعوا في موضع التقييم أو المحاسبة الإلهية الدقيقة.

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

خَلْفٌ: بدل سوء .

عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى: ما يعرض لهم من حطام الدنيا .

وَدَرَسُوا مَا فِيهِ: قرءوا وعلموا ما في التوراة .

نَتَقْنَا الجَبَلَ: رفعناه وقلعناه .

كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ: غمامة . أو سقيفة تظل .

حين أُعطي اليهود الأحكام الإلهية في زمن سيدنا موسى عليه السلام فقد جرى ذلك في سفح الجبل ، وقد تم هناك إيجاد ظروفٍ وأحوالٍ خُيّل إليهم معها أن الجبل يريد أن يسقط عليهم، وكان الغرض من ذلك هو إشعارهم بأن عقد الميثاق مع الله أمر بالغ الخطورة، فلو أنكم لم تقوموا بالوفاء بمقتضياته، فلتتذكروا أن الطرف الآخر لهذا الميثاق هو الذات العظيمة الجبارة التي تقدر -إذا شاءت- أن تُسقط عليكم الجبل، فتسحقكم به !!

وقد كان هناك عدد لا بأس به من الصالحين والخائفين من الله بين ظهراني اليهود حينذاك، غير أنهم لم يلبثوا أن اتخذوا من الدنيا مقصودهم على مر الأيام، فأقبلوا على جمع الأموال من غير تفريقٍ بين الحلال والحرام، وعلى أنهم كانوا لا يزالون يدرسون الكتاب السماوي، إلا أنهم تناولوا تعاليمه بتأويلٍ باطلٍ مزعومٍ ، بحيث صار الله فيها يبدو مؤيداً لحياتهم المنحرفة المتمردة، وقد ازدادوا جموداً وقسوة قلبٍ، لدرجة أنهم اطمأنّوا قائلين: إننا شعب الله المختار، ونحن أولاد الأنبياء، إذن فلابد وأن يغفر الله لنا بفضل عباده المحبوبين !!

ويتكرر حدوث هذه الواقعة ذاتها مع أمة كل نبّي ، إن أفراد الرعيل الأول منها يكونون على جانبٍ عظيمٍ من صلاح العمل وتقوى الله، بيد أن هذه الروح لا تلبث أن تتلاشى في الأجيال التالية ، فيعود هؤلاء كغيرهم تماماً من أصحاب الدنيا فكراً وسلوكاً.. وعلى أن الدين لا يزال موجوداً بين أظهرهم حتى الآن، كما أن اهتمام القوم بدراسة كتاب الله وتدريسه يكون باقياً مستمراً كذلك، ولكن ذلك كله إنما يتم على وجه الاحتفاظ بالتراث القومي، وليس في الحقيقة، على وجه الوفاء بالعهد الإلهي !! فإنهم في حياتهم العملية يندفعون وراء مباهج الدنيا ذاهلين عن الآخرة ويجعلون من أهوائهم وشهواتهم ديناً وشريعةً لهم بغض النظر عما هو الصواب والغلط، إلا أنهم، مع

ذلك، ينظرون إلى أنفسهم نظرةً ملؤها الفخر والاعتزاز بأنهم - على حسب زعمهم - أفضل أمم الأرض قاطبةً، وأنهم أتباع حبيب الله، وورثة الكتاب السماوي، وأنه سيُغفر لهم بفضل كلمة التوحيد وبركتها بكل تأكيد ، بيد أن المطلوب الرئيسي هو أن يتمسك المرء بكتاب الله بقوةٍ، ويقيم الصلاة، ومعيار التمسك بالكتاب الإلهي وإقامة الصلاة هو أن يكون المرء قد صار ((مصلحاً)) وإن من شأن الإقبال على عبادة الله، والاتصال بكتاب الله أن يجعلا المرء مصلحاً وليس مفسداً.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾

لو أننا أبعدنا حيواناً ما عن أحضان أبويه في صغره، وقمنا بتربيته في بيئةٍ أخرى مختلفةٍ تمام الاختلاف؛ فإنه - بالرغم من ذلك - يظل، وقد كبر وشب بعيداً عن أبويه وأبناء فصيلته الآخرين، محتفظاً بخصائصه النوعية كلها، وهو يتبع في كل شئونه ومعاملاته الطريقة ذاتها التي أودعت في جبلته .

وذلك هو شأن الإنسان تماماً بالنسبة إلى ((الشعور بالرب))، فقد تم تركيز الشعور بخالقٍ ومالكٍ في روح الإنسان بصفةٍ عميقةٍ لدرجة أنه لا ينفصل عنه على أية حالٍ، وفي العصر الحاضر تدلنا تجربة الاتحاد السوفيتي من ناحيةٍ، وتجربة تركيا من ناحيةٍ أخرى على أن فطرة الإنسان لا تزال، حتى رغم كونه نشأ وتربى في بيئةٍ مضادةٍ للدين، باقيةً على ما هي عليه تماماً كما قد ظلت دوماً في البيئات المؤمنة بالدين!!

بيد أن هناك فارقاً بين الإنسان والحيوان، وهو أن الحيوان غير قادر على مخالفة فطرته، فهو مجبر على أن يفعل عملياً ما تمليه عليه فطرته الداخلية .. أما الإنسان فيتمتع

بالحرية والاختيار الكامل فيما يتعلق بالتصرف والسلوك العملي، رغم كونه ملتزماً في مجال الشعور المودع في فطرته وجبلته، وإنه كلما عرض له أمر ما، وجد عقله وضميره يرشدانه من الداخل إلى ما هو الصواب وما هو الغلط، إلا أن الإنسان مع ذلك، له الخيار في أن يستجيب لندائه الداخلي إن شاء، وإن شاء أهمله وأخذ يجرى وراء ما تدعو إليه نفسه الأمّارة بالسوء .

وهذا هو المكان الذي يتم فيه امتحان الإنسان واختباره، وعلى نجاحه أو فشله فيه يتوقف مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار، وإنما الناجح في هذا الامتحان هو الذى ينصت إلى النداء الإلهي، ولا يفعل إلا ما يلقّنه الله إياه بلغة الفطرة الصامتة، وستُفتح له أبواب الجنة بعد أن يتوفاه الله .. وأما الشخص الذي يُهمل النداء الإلهي الذي يُذاع على مستوى الفطرة فإنه مجرم عند الله تعالى، وسيُقذف به بعد موته في نار الجحيم ، وسوف يهمله الله تعالى أيضاً تماماً كما كان قد أهمل نداء الله .. ونداء الفطرة هذا هو حجة الله تعالى على كل إنسان، ومن ثم فلا أحد يملك عذراً على جهله وعدم معرفته، ولا أحد يستطيع كذلك أن يقول إننا قد أخذنا بدورنا نمارس ما قد ظل يُتوارث منذ الأزمان السحيقة في القدم من تقاليد وعاداتٍ، فإنه إذا كان الإنسان يُولد على شعور بالله، وهو جزء لايتجزأ من شخصيته، بحيث إنه لا يزال محافظاً على هذا الشعور الفطري على رغم أنف البيئة المحيطة به، فما عسى أن يعتذر به أحد الناس عن ضلاله وانحرافه ؟

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾

فَانسَلَخَ مِنْهَا: فخرج منها بكفره بها .

فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ: فلحقه وأدركه وصار قرينه.

الْغَاوِينَ: الضالين الهالكين .

أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ: ركن إلى الدنيا ورضى بها .

تَحْمِلْ عَلَيْهِ: تشدد عليه وتزجره .

يَلْهَثْ: يخرج لسانه بالنفس الشديد .

كان هناك رجل في زمن النبي ﷺ يُدعى أمية بن أبي الصلت، وكان قد بلغ درجةً ممتازةً من الفصاحة والحكمة، إلى جانب اتصافه بالأوصاف الإنسانية السامية، ولما علم أن كتب اليهود والنصارى تتضمن نبوءاتٍ عن بعثة نبيٍ عربيٍ، خيل إليه: ربما يكون هو ذلك النبي المرتقَب .. ولكن عندما وصل إليه خبر مبعث النبي ﷺ واستمع إلى كلامه الرفيع أُصيب باليأس الشديد، وأصبح بالتالي من معارضي رسول الإسلام ﷺ .

ولقد كان الاستخدام الصحيح للمواهب الجليلة التي أعطاها الله لأمية بن أبي الصلت، هو أن يعرف رسول الله، ويقوم باتباعه ونصرته ، غير أنه، بالنظر إلى عنايات الله به واغتراراً بها، كوّن في داخله فكرةً تقول: لا ينبغي لله أن يسوق الآن شيئاً من فضله إلى أحدٍ سوايَ !! وقد كان يرى في إنكار رسول الله منفعةً دنيويةً عاجلةً، وعلى العكس من ذلك لم يكن يُرجى من وراء الإيمان به - عليه صلوات الله وسلامه - إلا المنفعة الأخروية.. فآثر الرجل منافع الدنيا على منافع الآخرة، ولو أنه سار في اتجاه الاعتراف لاتخذ من الملائكة رفاق سفره، ولكنه حين أخذ يسير في طريق الحسد والكبرياء والغرور، فلم يكن ثمة من أحدٍ يصحبه ويرافقه غير الشيطان، وينطبق هذا المثال على جميع أولئك الذين يُهملون الصدق بدافع الحقد والتكبر، أو يرفضون الاعتراف به .

إن كون أحد الناس على هذا النمط، يعني انحطاطه بنفسه من درجة الإنسانية إلى درجة الكلب؛ فالكلب لا ينفك يلهث مهما عاملته بالحسنى أو السوء، وهذا هو شأن مثل هذا الشخص، حيث إنه إنما يستمد غذاء الطغيان من عطاء الله إذا أعطاه، ويبقى طاغياً متمرداً كذلك فيما لو حرمه الله .. بينما كان الأجدر به أن يشكر لله إذا أعطاه، ويرجع إليه تعالى راضياً بقسمته إذا هو لم يعطه .. ولهداية الناس لا يظهر الله - سبحانه وتعالى - بنفسه عياناً، بل هو يُرشد الناس إلى طريقه من خلال الآيات.. وإنما يظفر بالهداية في هذا العالم أولئك الذين يتمتعون بالاستعداد لمعرفة الحق الظاهر في صورة الدلائل والآيات، ثم هم يسلمون أنفسهم للحق بعد ما عرفوه عن طواعيةٍ وسرورٍ.. وأما الذين لا يعيرون الدلائل والآيات أي اهتمامٍ فليس لهم سوى الضياع والخسران الأبدي.

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾

ذَرَأْنَا: خلقنا وأوجدنا.

يُلْحِدُونَ: يميلون وينحرفون إلى الباطل.

وَبِهِ يَعْدِلُونَ: بالحق يحكمون في الخصومات بينهم.

سَنَسْتَدْرِجُهُم: سنستدنيهم إلى الهلاك بالأنعام والإمهال.

وَأُمْلِي: أمهلهم في العقوبة.

كَيْدِي مَتِينٌ: أخذي شديد قوي .

الصدق شيء لا يُدركه إلا من يجد ويجتهد في طلبه، فقد زوّد الله تعالى كل إنسانٍ بالقلب والعين والأذن ، وإنما يظفر المرء بالصدق باستخدام هذه القوى ذاتها، وأما الشخص الذي لا يقوم باستخدام هذه القوى فإنه سيظل - بالطبع - محروماً من إدراك الصدق، مهما كان موقعه قريباً منه .. وإدراك الصدق من جملة الأفعال النابعة من شعور المرء وإرادته الذاتية، فلا يفهم الصدق إلا شخص يكون قد فتح له أبواب قلبه، ولا يبصره إلا الذي لا يكون قد نسج على عيْنيْه أي حجابٍ مصطنعٍ ، ولا يسمع صوته إلا الذي يكون قد سد أذنه بأي نوعٍ من الغطاء ، فإن أناساً على هذا النمط، عندما عرفوا صوت الحق يلقون بأنفسهم بين يديْه .

وأما الشخص الذي شأنه على نقيضٍ من هذا، فإنه سيظل مثل الحيوانات لا يفقه ولا يعي ، ولن يتمكن من أن يشعر بثقل دلائل تميد بها الجبال، وستظهر أمامه تجليات الله، غير أنه سيبقى عاجزاً عن رؤيتها، وإنما يظفر بالصدق دوْماً أصحاب الضمائر اليقظة!!

إن انحراف الإنسان العقائدي بالنسبة إلى الله يرجع في معظم الأحوال إلى أنه يتخيل صورةً خاطئةً في ذهنه عن الذات الإلهية مع إيمانه المبدئي بها، حيث إنه ينسب إلى الله أموراً لا تليق به، وعلى سبيل المثال: اتخاذ عقيدةٍ قائلةٍ بوجود المقربين إلى الله قياساً على أحوال البشر، والافتراض القائل، بأن لله خلفاء وأعواناً تماماً كما يكون للملوك الأرض خلفاء وأعوان.. وتوهّم القضاء الإلهي بحيث يبدو معه محققاً لآمال المرء وأمانيه الذاتية، غير أنه لا يتفق مع العدل الإلهي، وإنما يعني الإلحاد في أسماء الله، أن يُعزى إلى الله أموراً كهذه لا تليق بسموه وعظمته تعالى .

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ

أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

جِنَّةٍ: جنون كما يزعمون.

مَلَكُوتِ: هو الملك العظيم .

طُغْيَانِهِمْ: تجاوزهم الحد في الكفر .

يَعْمَهُونَ: يعمون عن الرشد أو يتحيرون .

أَيَّانَ مُرْسَاهَا: متى إثباتها ووقوعها؟

لاَ يُجَلِّيهَا: لا يظهرها ولا يكشف عنها .

ثَقُلَتْ: عظمت لشدتها.

حَفِيٌّ عَنْهَا: باحث عنها عالم بها .

إن أكبر سمةٍ يمتاز بها الداعي هي أنه يكون إنساناً غير نفعي، فهو يفكر متسامياً بنفسه فوق التقاليد الزمنية السائدة، ويمارس عمله غير حاسب لمصالح البيئة القائمة أي حسابٍ، وهو يضحي بحياته وبكل ما يملكه من أجل هدفٍ لا يعود عليه من ورائه أية نتيجةٍ ماديةٍ في هذا العالم.. وهذا هو السبب في أن أعظم لقبٍ يناله الداعي من قبل معاصريه في أغلب الأحوال هو أنه « مجنون » .. وبما أن نبي الله يكون أكبر

إنسانٍ هادفٍ في عصره، لذا فما كان وصف الناس لأنبياء الله على تعاقب العصور والأجيال، إلا أن قالوا : إنهم مصابون بالجنون !!

وإنه ليس هنالك من ظلمٍ أشد وأعظم من أن يوصف الداعي إلى الله بأنه مجنون؛ من حيث إن الرسالة التي هو ينهض بأعبائها هي رسالة يشهد لصدقها كل السموات والأرض، وهو يدعو إلى إلهٍ يتجلى - بغايةٍ من الوضوح - في كل ما أبدعه في كونه من ظواهر ومخلوقاتٍ عجيبةٍ، وهو ينبئ بساعةٍ تكمن في السموات والأرض كحقيقةٍ تشبه في خطورتها الجنين في بطن إحدى الحوامل ، وقد حان مخاضها. الناس ليسوا جادين في شأن الحق، ومن ثم يبدو لهم المستهلك ماله وحياته من أجل الحق كأنه مجنون ، ولو أنهم أدركوا مدى قيمة الحق ونفاسته تمام الإدراك، لما قالوا ذلك أبداً .

((متى ستقوم الساعة)) ؟! إن كل الأسئلة من هذا النوع لا تعدو أن تكون نتاج العقول العابثة أو غير الجادة .. إذْ إن الإيمان بيوم القيامة يتوقف على وجود دليلٍ مبدئي في حقه، وليس على أن يتم الإعلام بموعد قيام الساعة على وجه التحديد، وما دامت هذه الدنيا دار الامتحان، فإنما سيتم الإخبار بالقيامة هنا في لغة التنبيه والإنذار، وليس في لغة المعادلات الرياضية المحددة .

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا
تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا
صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ
ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾
وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا
يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ

صَٰدِقِينَ ﴿١٩٨﴾

تَغَشَّاهَا: واقعها .

فَمَرَّتْ بِهِ: فاستمرت به بغير مشقة .

أَثْقَلَت: صارت ذات ثقل بكبر الحمل .

صَالِحاً: نسلا سويا أو ولدا سليما مثلنا.

جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ: بتسمية ولديها عبد الحارث بوسوسة إبليس مريدا بالحارث نفسه .

عَمَّا يُشْرِكُونَ: أي العرب بعبادة الأصنام .

إن الكون يعرفنا بصانعه تعريفاً لا يتقبل مفهوم الشرك على أية حالٍ، فالكون يزخر بأجزاء وعناصر لا تُحصى وهي تُوجد مبعثرةً ومنفصلةً بعضها عن بعضٍ، غير أن هذه الأجزاء والعناصر المختلفة تتحول بجموعها إلى كلٍ منسجمٍ متناسقٍ بعضها مع بعض .. فليس بينها أي نوعٍ من التناقض أو التصادم، وهذا الانسجام الكامل والتناسق البديع يستحيل وجوده فيما إذا لم يكن خالق هذا العالم ومالكه واحداً، وإذا لم يكن هو ذاته قائماً بإدارته وتدبير أموره .

ولْنأخذ مثلاً علاقة الرجل والمرأة، فلعلنا لا نجاوز الحقيقة إذا قلنا: إن التوافق التام الذي يُلاحظ بين رجلٍ وامرأةٍ، هو أغرب واقعةٍ إطلاقاً يجربها أحد الناس في رحاب هذا الكون، فكل من الرجل والمرأة له كيان منفصل ومستقل بذاته عن غيره ، بيد أنه حين يتم الاتصال بين هذين كزوجٍ وزوجةٍ، فإن كيان الاثنين يندمج أحدهما في الآخر على نحوٍ لا يبقى معه شيء من الثنائية بينهما، حيث يُخيل إلى كل واحدٍ منهما : كأنما خُلقت له وأنه قد خُلق لها، وهذا الشعور بالوحدة والانسجام العميق بين الاثنين ليس إلا برهانا صارخاً على أن ثمة إرادة وقوة واحدة لا غير، هي التي قامت بإيجاد الصنفين

كليهما بهذا الأسلوب الخاص وفقاً لتدبيرها المسبق .. إذْ لو كان هذا الكون يتحكم فيه أكثر من ذاتٍ واحدةٍ، لما أمكن وجود هذا الانسجام والتوافق الشامل بين شيئين مختلفين ومتناقضَيْن !!

وإن تعجب فعجب أن يتخذ المرء من الشرك ديناً له في كونٍ فيه من دلائل التوحيد ما لا يقع تحت الحصر ! فمن خلال هذه «الوحدة » أو «الاندماج» الغريب بين اثنين من البشر، يبرز إلى الوجود ولد ثالث، ولكنه عندما يولد يصطنع بعضهم عقيدةً تقول: إن هذا الولد لم يولد إلا ببركة الشيخ فلان، بينما نسبه بعض آخر إلى الآلهة الخيالية المفترضة .. ومنهم من قال : إنه ليس إلا نتاج التفاعل بين قوى المادة العمياء، وزعم بعض أنه حصيلة جهوده الذاتية التي تمثلت في صورة ولدٍ جميلٍ سَوِيّ الخِلْقة وسيم الطلعة !

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

فَلَا تُنظِرُونِ: فلا تمهلوني ساعة .

لَا يُبْصِرُونَ: لعدم قدرتهم على الإبصار.

يزعم المتفلسفون من الوثنيين أن الأصنام والتماثيل التي يصوغونها من الحجر أو بعض المواد المعدنية، إنما هي مظاهر خارجية قد حل فيها إلههم المزعوم، ومن ثم فعبادة هذه المظاهر عندهم بمثابة عبادةٍ لتلك المعبودات ذاتها التي يزعمونها علاماتٍ حسيةً على وجودها بيد أن السواد الأعظم، يأخذون في اعتبار هذه التماثيل مقدسةً في حد

ذاتها، بينما لا تقدر هذه الأصنام على المشي والبطش، ولا على الرؤية والسماع، ولكن الإنسان المتوهم لا يلبث أن يظنها قادرةً على إعانته وسد حاجاته !!

على أن هذا الأمر لا ينحصر في نطاق النوع المعروف من الأصنام وحده، بل هذا هو الشأن تماماً بالنسبة لجميع الأشياء التى يرفعها الإنسان إلى درجة الألوهية، فلنتساءل : ما هي حقيقة الأشياء، من الوطن، إلى القوم، إلى الشخصيات الحية أو الميتة .. إلخ، التي يتم اتخاذها مركزاً لعواطف ساميةٍ لا يستحقها إلا الله الواحد الأحد ؟! فلا أحد منها يملك أي نوعٍ من القوة الذاتية، إذْ ليس بذي رجْلٍ أوْ ذي يدٍ أوْ ذي عينٍ مالكاً لأعضائه تلك، فكل ذي «رجلٍ» لا يملك إلا رجْلاً موهوبةً، ولو أنها انتزعت منه يوماً، لما أمكنه أن يستردها مرةً أخرى .. وكل ذي «يدٍ» لا يملك إلا يداً موهوبةً، ولو أنها تعرضت يوماً للضياع، لما استطاع أن يصنع يده مرة أخرى.. وكل دى «عين» لا يملك إلا عيناً موهوبة ، ولو أنه فقدها يوماً فلن يتمكن أبداً من إعداد عينٍ جديدةٍ له !!

إن العَبَدة لغير الله ظلوا دوماً يظلمون ويضطهدون عبّاد الله الواحد الأحد، اعتماداً على أصنامهم، غير أنهم سرعان ما يعلمون مدى بطلان اعتمادهم ذاك في عالم الله هذا، فإن القدرة الإلهية التي تم ظهورها في صورة الميزان الكتابي في هذا العالم، ستتجلي، عما قليلٍ، في صورة ميزان العدل العملي، وحينئذٍ سيرى كل امرئٍ أنه لم يكن هناك وليّ ولا معين غير الله تعالى، وإن كان المرء بسبب جهله وسفهه، يعتبر الآخرين أولياءه وأنصاره، إن الشركاء غير قادرين على أية نصرةٍ أوْ إعانةٍ، بينما الله – عز وجل – كفيل بنصر عباده الأوفياء وإمدادهم في الدنيا والآخرة معاً .

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى

ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)﴾

خُذِ العَفْوَ: ما عفا وتيسر من أخلاق الناس.

وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ: بالمعروف حسنه في الشرع .

يَنزَغَنَّكَ: يصيبنك ، أو يصرفنك .

نَزْغٌ: وسوسة ، أو صارف .

مَسَّهُمْ: أصابتهم لمة أي وسوسة ما .

تَذَكَّرُوا: أمر الله ونهيه وعداوة الشيطان .

يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ: تعاونهم الشياطين في الضلال.

لاَ يُقْصِرُونَ: لا يكفون عن إغوائهم.

إن الدعوة إلى مبادئ التوحيد والآخرة، والخير والعدل، هي دعوة إلى ((العرف)) يعني إلى جملة تلك الخيرات والحسنات التي هي معروفة ومألوفة لدى العقل والفطرة السليمة.. غير أن هذا العمل - المتناهي في السهولة كما يبدو - لم يزل أشق عملٍ في كل عصور التاريخ .. فالناس في كل العصور، نتيجة حبهم للعاجلة، يبنون نظام حياتهم على أساسٍ من المنافع الدنيوية والمصالح الشخصية ، حيث إنهم يشتغلون بالعبودية للباطل رافعين شعار العبودية للحق، وفي مثل هذا الوضع حينما - وأينما - تقوم الدعوة الخالصة إلى الصدق، يخيل إلى الكل وكأنها هي ضربة موجهةٍ إلى ذاته ومنفعته هو، وبالتالي فكل شخصٍ لا يلبث أن يتصدى لمعارضتها ووضع العراقيل في طريقها .

وما الموقف الذي ينبغي للداعي أن يتبناّه في حالةٍ كهذه ؟ إن هناك جواباً واحداً عن هذا السؤال لا ثانى له، ألا وهو : العفو والإعراض، يعنى مواصلة العمل والاستمرار فيه من غير تورطٍ فى نزاع ما مع الناس، فلو أن الداعى أخذ يرد على الأباطيل التى

يفتعلها المعارضون، لتحولت دعوة الحق إلى مناظرةٍ عقيمةٍ لا تنتهي .

ولو أن الداعي شغل نفسه بالأسئلة غير الضرورية المثارة من قبل الناس، لضيّع وقته وطاقته في غير طائلٍ ، ولو أن الداعي بدأ يقاتل الناس على أذاهم وإساءاتهم إليه، فلن تظل دعوة الحق دعوةً إلى الحق، بل ستنقلب نضالاً سياسياً واقتصادياً ؛ ولذا فليس لإبقاء دعوة الحق على صورتها الأصلية الناصعة من سبيلٍ إلا أن يصبر الداعي على إساءات الجاهلين والمعاندين، ويواصل عمله الإيجابي، ماضياً في سبيله، بدون أن يتورط معهم في أي نزاعٍ أو شجارٍ .

على أن شخصاً ما لا ولن يكون في العلم الراهن بمنجاةٍ من هجمات النفس والشيطان ، والشي الذي يحمي المرء من الانزلاق في مثل هذا الموقف هو خشية الله لا غير، إن الخشية من الله تجعل المرء مرهف الحس للغاية ، وهذه الحساسية المتناهية هي الدرع الواقي للمرء في عالم الامتحان الراهن .. فكلما هجس في صدر المرء هاجس سوء، أوْ انبعثت نفسية سلبية من أي نوعٍ، فلا تلبث هذه الحساسية أن تدله فوراً على أنه قد انزلق.. فإذا به يصحو ويستيقظ بعد غفلةٍ طارئةٍ، ويقوم بإصلاح نفسه من جديدٍ تائباً إلى الله مستغفراً إياه تعالى لذنوبه . وعلى العكس من ذلك فالذين تكون قلوبهم خلواً من خشية الله، فإن الشيطان لا يزال يعمل عمله في نفوسهم، وهم لا يشعرون إلى أي هاويةٍ من الضياع والدمار ، يتقدمون انسياقاً وراء نزغاته وإغراءاته . رهافة الحس أو الحساسية هي أكبر حارسٍ للمرء ، بينما القسوة وبلادة الإحساس تجعل من المرء ضحيةً سهلةً للشيطان .

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ

رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

اجْتَبَيْتَهَا: اختلقتها واخترعتها من عندك .

هَٰذَا بَصَائِرُ: القرآن حجج بينة وبراهين نيرة.

تَضَرُّعاً: مظهرا الضراعة والذلة .

وَخِيفَةً: خائفا من عقابه.

بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ: أوائل النهار وآواخره ، أي في كل وقت .

وَلَهُ يَسْجُدُونَ: يصلون ويعبدون (آية سجدة) .

كان أهل مكة يقولون لرسول الله ﷺ : هلاّ جئت بأية معجزةٍ تدل على صدقك، إذا كنت نبياً مرسلاً من عند الله !؟ ولقد كان من اليسير جداً على الله تعالى، وهو القادر المطلق، أن يزود رسوله بمعجزةٍ ما، غير أن ذلك لم يكن ليتم إلا على حساب المقصد الحقيقى .

ولْنفترض - مثلاً - لو أن سيارةً رائعةً من الطراز الحديث، مزودةً بالمجهار أو مكبّر الصوت، كان قد تم إنزالها على النبي ﷺ من السماء، فهو يستقلها في غدواته وروحاته يبلغ الناس رسالة ربه. لو أُنزلت سيارة كهذه لكانت - من غير شكٍ - معجزةً مدهشة للغاية لأناسٍ كانوا يعيشون أوضاع ما قبل خمسمائة وألف سنةٍ من الزمان . ولكن ذلك كان ينطوي على خسارةٍ، وهي أن ينصرف اهتمام الناس عن الموضوع الحقيقى، فإن المقصد الأصلي كان يتكمن في أن يصبح كلام الله بصيرةً للناس، ويتعلم الناس منه أسلوب التفكير ومنهاج العمل، وتحصل به الأرواح على البرودة والسكينة الإلهية، ولكن بعد نزول المعجزة المذكورة آنفاً لذهب هذا التدبير برمته أدراج الرياح، وظل الناس - بالتالي -مأخوذين بأعجوبة المركبة الطلسمية وكفى .

ليس الدين عَلَماً على الانسياق وراء الخوارق والكرامات، وإنما الدين أن يوجه المرء

اهتمامه نحو كلام الله، فيقرأه بتدبرٍ وإمعانٍ،ويستمع له بعنايةٍ بالغةٍ وعلامة التدين هي أن تقوم بين المرء وربه علاقة متينة وعميقة، وتتولد في قلبه الرقة، ويتغلغل في أحشائه الخشوع،وأن يصبح ذاكراً لله ليل نهار، وأن يسيطر الإحساس بعظمة الله على قلبه وعقله بحيث يملأه خوفاً وتواضعاً، فيصبح صوته، وهو يذكر الله - عز وجل - خافتاً منخفضاً،وعلى الجملة فالمتدين هو الذي يكون قد نفض عن نفسه غبار الغفلة،ودخل إلى عالم اليقظة الدائمة،وقد اختتمت السورة ببيان سلوك الملائكة، وذلك لكي تسيروا أنتم الآخرون سيرتهم، وتنسجوا على منوالهم،فتتمتعوا بصحبة أولئك الملائكة الأطهار، وحين يطهّر المرء نفسه من الكبر والغرور، ويغمره الشعور بكمالات الله، لدرجة أنه يأخذ يتفجر من جوانبه ذكره تعالى، فإنه يصبح هو والملائكة على مستوى واحدٍ، وإن أرفع درجةٍ لرقي أحد الناس في هذا العالم هي أن يكون قد صار ذا سلوكٍ ملكوتيٍ رغم كونه بشراً، وأن يبدأ يعيش بجوار الملائكة رغم كونه لم يفارق هذا العالم المادي بعد !

سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

الأَنفَالِ: غنائم بدر .

للهِ وَالرَّسُولِ: مفوض إليهما أمرهما .

ذَاتَ بَيْنِكُمْ: احوالكم التي يحصل بها اتصالكم .

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ: فزعت ورقت استعظاما وهيبة.

يَتَوَكَّلُونَ: يعتمدون وإلى الله يفوضون .

نزلت سورة الأنفال في أعقاب غزوة بدر التي وقعت في السنة الثانية من الهجرة ، وقد عاد المسلمون من هذه المعركة منتصرين حائزين على غنيمة وافرة، بيد أن هذه الغنائم كانت فعلاً في حيازة جماعةٍ واحدةٍ ، مما أدي إلى حدوث الاختلاف والتنازع على تقسيمها بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، فقد كانت جماعة من المقاتلين المسلمين في مؤخرة الجيش، بينما كان جماعة أخرى قائمة على حراسة رسول الله ﷺ مخافة أن يصل إليه العدو، وانطلقت طائفة منهم، عند الجولة الأخيرة من المعركة، في آثار العدو

تطارده، وهكذا فإن فرصة جمع الغنائم والأسلاب لم تتهيأ إلا لفريقٍ معينٍ ، أما الآخرون سواهم، الذين كانوا إذ ذاك على بعدٍ عن ساحة القتال، فلم يتمكنوا من الحصول على شيءٍ مما تركه العدو الهارب مهزوماً من مالٍ أوْ متاعٍ.

وكانت النتيجة أن جميع المشاركين في الحرب كانوا يحسبون – مبدئياً – أن لهم نصيباً في هذه الغنائم سواء بسواءٍ ، ولكن أموال الغنيمة هذه لم تكن فعلاً إلا في حيازة طائفةٍ واحدةٍ ، فقد كان لدى أحد الفريقين الدليل، ولدى الفريق الآخر المال، وكان الأول لا يملك لإثبات حقه سوى الكلمات، بينما كان حق الأخير مستمدًا من واقع الاستيلاء غير مستندٍ إلى أي دليلٍ أوْ برهانٍ.

إن كل النزاعات من هذا النوع تتنافى مع الخوف من الله ، فإن خوف الله يبعث في داخل المرء الشعور بالمسئولية ، ومن ثم فاهتمام رجلٍ كهذا ينصب على الواجبات دون الحقوق ، وهو يبدأ ينظر إلى الله بدلاً من النظر إلى نفسه ، ولا يلبث قلبه أن يلين لطاعة الله ورسوله ، ويصبح عبداً عابداً لله تعالى ، وهو يجد السكينة في أن يعطي الناس وليس في أن ينتزع منهم ، وهذه صفات تولد في نفس المرء مادة الواقعية واعتراف الحق ، وفي بيئةٍ يسودها الواقعية والاعتراف بالحق تنعدم وتتلاشى كل النزاعات الداخلية، ولو أنها استيقظت يوماً بطريق الصدفة، فإنما يكفي لإصلاحها وتسويتها أن يتم تنبيه المتنازعين مرةً واحدةً فقط. إن الحذر من بطش الله وعقابه يقود الكل إلى الحد الذي ينبغي عليه أن يقف عنده ولا يتخطاه ، وحيث صار الجميع راضياً بالوقوف عند حده الواقعي، فلا مجال هناك لأي نزاعٍ أوْ خلافٍ البتة.

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ

﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾

الطَّائِفَتَيْنِ: هما العير والنفير .

ذَاتِ الشَّوْكَةِ: ذات السلاح والقوة ، وهي النفير .

دَابِرَ الكَافِرِينَ: آخرهم والمراد جميعهم.

في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة، ذاع الخبر أن عيراً لقريشٍ تنصرف من مشارف الشام عائدةً إلى مكة، وهي تحمل معها من البضائع ما قيمته نحو خمسين ألفاً من الدنانير ، وقد كان طريقها يمر بالقرب من المدينة ، وكان من المحذور أن يقوم المسلمون بالهجوم على عير عدوهم، فما لبث أبو سفيان بن حرب، رئيس القافلة، بعدما شعر بذلك، أن أرسل إلى أهل مكة يستحثهم على المسارعة إلى حماية أموالهم من أن يصير نهباً وغنيمةً للمسلمين ، ولم يكد يصل هذا الخبر إلى مكة حتى بدأت تغلي حميةً وحماساً من أقصاها إلى أقصاها ، فانطلق تسعمائة وخمسون راكباً، بينهم ستمائة مدرّع، من مكة متوجهين نحو المدينة.

وكانت هذه الأنباء كلها تترامى إلى الرسول ﷺ وقد كان **المسلمون بين أمرين** : القافلة التجارية الهابطة من الشام، وجيش المقاتلين القادم من مكة نحو المدينة ، وقد رأى بعض المسلمين أن يزحفوا نحو العير، إذْ لم يكن عدد الحارسين لها يربو على أربعين رجلاً ، مما يسهل لهم أن يتغلبوا عليهم، ويستولوا على ما لديهم من ذخائر ونفائس ، على أن خطة الله جل شأنه كانت غير هذا.

فقد كانت مشيئة الله تتمثل أصلاً في كسر شوكة المنكرين للحق، وليس في الحصول على بعض الفوائد الاقتصادية ،وقد أخرج الله جميع زعماء الشرك المعارضين للإسلام بإيجاد ظروفٍ خاصةٍ، وأوصلهم إلى «بدر» على بعد عشرين ميلاً من المدينة، حتى يقع بينهم وبين المسلمين صدام يسفر عن القضاء عليهم إلى الأبد !! وحين أطلع رسول الله

أصحابه على خطة الله هذه، اتفقت كلمة الجميع على التقدم نحو بدر ، ومع أن عددهم لم يكن يزيد على ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، كما أن السلاح والعتاد الحربي أيضاً لم يكن لديهم إلا قليلاً ، إلا أن الله تعالى أمدهم بنصرٍ خاصٍ مكنهم من أن يهزموا جنود قريشٍ شر هزيمةٍ؛ حيث قُتل سبعون من صناديدهم ووقع سبعون آخرون منهم أسرى بأيدي المسلمين ،وتحول ميدان بدرٍ إلى ميدان انتصار الإسلام على الكفر.

وإنه كلما وجدنا أنفسنا بين خيارين : أحدهما يقود إلى المنفعة المادية، والآخر يتضمن المنفعة الدينية، فإن هذا التقسيم دليل في حد ذاته على أن مشيئة الله إلى جانب المنفعة الدينية، وليست إلى جانب المنفعة المادية. إن الكفاح الإسلامي لا يستهدف أبداً الفائدة الاقتصادية، وإنما يكمن هدف الكفاح الإسلامي دوماً في كسر شوكة الباطل وفل حديده، سواء تحقق ذلك بالقوة النظرية أو بالقوة المادية إذا سمحت الظروف باستخدامها.

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾

يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ: يجعله غاشيا عليكم كالغطاء .

أَمَنَةً مِّنْهُ: أمنة منه وتقوية لكم .

رِجْزَ الشَّيْطَانِ: وسوسته وتخويفه إياكم من العطش .

وَلِيَرْبِطَ: يشد ويقوي باليقين والصبر .

أَنِّي مَعَكُمْ: معينكم على تثبيت المسلمين .

الرُّعْبَ: الخوف والفزع .

كُلَّ بَنَانٍ: كل الأطراف أو كل مفصل .

شَاقُّوا: خالفوا وعصوا.

وقعت غزوة بدرٍ في ظروفٍ بالغة الخطورة ، حيث لم يكن عدد المسلمين في مواجهة نحو ألف مقاتلٍ مدججٍ بالسلاح من العدوّ، سوى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً؛ مضافاً إلى قلة ما كان لديهم من سلاحٍ وعتادٍ ، كما أن جيش العدو كان قد سبقهم إلى بدر – موقع القتال – فاحتل هناك مكاناً أفضل، واستولى على عيون المياه ، ونظراً لمثل هذه الأحوال لم يلبث المسلمون أن بدأت تتردد في قلوبهم الوساوس بأن الرسالة التي من أجلها هم يعرضون حياتهم للضياع والخراب، عساها ألا تكون منطويةً على نصر الله وعونه ، ولو أنها كانت رسالةً حقةً، لما كان الله ليخذلهم ويتخلى عنهم في موقفٍ حرج كهذا.

ولما كانت أزمة الأسباب كلها لتنفلت من أيديهم وتقع في قبضة الأعداء وحينئذٍ أنزل الله – سبحانه وتعالى – مطراً غزيراً بمنطقة بدرٍ، فاتخذ المسلمون بدورهم حياضاً ملؤوها بماء المطر. إن العدو كان قد حرم المسلمين من مياه الأرض، فوفر الله لهم – بدلاً من ذلك – ماءً طهوراً من السماء.

كما أن الله – سبحانه وتعالى – تفضل على المسلمين بنعمةٍ أخرى غير عاديةٍ بأن غمرهم بنومٍ هادئٍ مريحٍ ، حيث إن النوم لابد منه لكي ينتعش المرء ويتجدد نشاطه وحيويته. غير أن أجواء الحرب تكون فظيعةً ومروعةً لدرجة أن نوم المرء يطير ،

وبالرغم من ذلك فقد نصر الله المسلمين نصراً خاصاً بأن ألقى عليهم النوم في الليلة التي سبقت يوم المعركة؛ فناموا هادئي الأعصاب فارغين من أي نوعٍ من القلق الذهني والنفسي ، واستيقظوا في صباح اليوم التالي وقد انتعشت صدورهم، وتجدد نشاطهم وحيويتهم تجدداً كاملاً.. فالظروف والملابسات التي كانت تتسبب في بعث الوساوس في نفوس المسلمين، أوجد الله فيها إمكانياتٍ عملت على شحن أفئدتهم باليقين والثقة الجديدين !!

إن الشيء المطلوب من أهل الحق عند لقاء قوى الباطل هو الثبات والصمود ، فلا ينبغي أن تتزلزل أقدامهم أوْ يتسرب الضعف والوهن إلى قلوبهم أبداً، مهما اكفهرّ الجو واشتد الظّلام ،، والمكافأة العاجلة التي ينالونها من عند الله على صمودهم هذا هي أن يتم إلقاء الرعب في قلوب أعداء الحق، ومن ثم لن يُنجيهم شيء من الهزيمة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

زَحْفاً: جيشا زاحفا نحوكم لقتالكم.

مُتَحَرِّفاً: مظهرا الفرار خدعة ثم يكر .

مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ: منضما اليها ليقاتل العدو معها.

بَاءَ بِغَضَبٍ: رجع متلبسا به مستحقا له.

الصراع بين الإسلام والكفر حين ينتهي إلى ميدان القتال فكأنما يكون ذلك ساعة القضاء الحاسم لكلا الفريقين ، وفي لحظةٍ خطيرةٍ كهذه لو أن شخصاً أو جماعةً ما، ولّت هاربةً من حومة القتال، فقد اقترفت جريمةً أشنع ما تكون ، فإن هذا الشخص قد اعتبر الحفاظ على حياته أكثر أهميةً من الحفاظ على الحق؛ وفضّل ذاته على هدفه، ثم

إنه فعل ذلك كله في وقتٍ كان وجود الحق فيه مهدداً بالخطر؛ ذلك الذي كان قد آمن به باعتباره صدقاً أعلى وأسمى.

هذا، ومن ناحيةٍ أخرى فإن واقعةً صغيرةً تافهةً في موقفٍ حرجٍ كهذا، ربما تتسبب في حدوث واقعةٍ جسيمةٍ وخيمة العاقبة. إن هروب شخصٍ أو جماعةٍ ما، من حومة القتال يسفر عن تحطيم الروح المعنوية للجيش بأسره، وبالتالي يأخذ الذعر والاضطراب الفردي شكل الهروب والتشتت الجماعي، وبخاصةٍ في الأحوال الطارئة حين يبدأ أناس مجتمعون في موضعٍ ما بالتشتت والهروب الجماعي فإن الأمر لا يكاد يقف قبل الوصول إلى آخر مداه!! ولا يُستثنى من هذا إلا أن يكون هناك جندي أو مجموعة من الجنود تتراجع من أجل أية استراتيجية حربيةٍ، أو تريد أن تتمركز حول أية جبهةٍ أخرى منصرفةً عن الجبهة التي كانت عليها، فالذي يتراجع على وجه الفرار مذعوراً، فإنه يرتكب - من غير شكٍ - جريمةً لا تُغتفر، وأما التراجع المتصل بالاستراتيجية الحربية، فهو جائز مشروع، ليس مما يُلام عليه فاعله.. وعلى أن الحكم المذكور أعلاه يتعلق أصلاً بشئون الحرب، إلا أن ثمة صوراً أخرى مماثلة كذلك يمكن أن تندرج ضمن هذا الحكم ذاته، مع تفاوت درجات الشبه والتماثل بين صورةٍ وأخرى، وعلى سبيل المثال: هناك شخص يقوم بدعوة الناس إلى عملٍ صامتٍ بناءٍ من أجل خدمة رسالة الإسلام الخالصة من كل شوبٍ، ولكن بعد مضي مدةٍ من الزمان، إذْ يلاحظ أن دعوته لا تحظى بالقبول والانتشار المطلوب بين الناس فلا يلبث أن يقع فريسة العجلة وقلة الصبر، وبالتالي يتخلى عن وجهته في البناء الصامت وينساق وراء شعارٍ إسلامي يمكنه من الحصول على الشهرة والحظوة لدى الجماهير بين يومٍ وليلةٍ !!

إن الهروب من حومة القتال مما يحدث عن وعيٍ وإرادةٍ، وأما المعركة التي تدور خارج الميدان القتالي، فإن «الهروب» منها واقعة غير شعورية، إن المرء بطبيعته ميَّال إلى النتائج العملية، حيث إنه يرغب في أن يُعترف ويُشاد بما يأتيه من عملٍ، ومزاجه هذا يصرف اهتمامه، بدون وعيٍ منه، عن تلك الأعمال التي تبدو غير مثمرةٍ أوْ غير جالبةٍ

للنتيجة الفورية ، بينما هو ينجذب تلقائياً، تحت العوامل غير الشعورية العاملة في داخله، نحو أشياء يكون القيام بها - على ما يبدو - مبعث أملٍ في الوصول الفوري إلى قمة المجد والنجاح. إن كل انحرافٍ من هذا النوع، لا يختلف، من حيث حقيقته، عمّا أطلقت عليه الآيتان الواردتان هنا ((التولي أو الفرار من الزحف)).

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

تفيد الروايات أنه لما حمي وطيس الغزوة ببدرٍ، رفع النبي ﷺ يديه إلى السماء، وقال فيم دعا به ربه ((.. يا رب ! إن تُهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض أبداً)).. ثم أخذ ﷺ قبضةً من التراب، ورمى بها في وجوه المشركين قائلاً : ((شاهت الوجوه)) . وقد أصبح جيش الكفار من بعد ذلك كما لو وقعت الحصباء في عيون الجميع، فأقبل المسلمون يقتلون منهم من شاؤوا، ويأسرون من شاؤوا بتمام السهولة. لقد تكفل الله - سبحانه وتعالى - بأن يمد أهل الإيمان الصادقين بنصره، فمهما تآمر أعداؤهم ضدهم، فإن الله يبطل مفعول مؤامراتهم كلها بحوله وقوته ، ويتيح لأهل الإيمان الظفر والغلبة عليهم ، ولكن متى يحدث هذا؟

إنما يحدث ذلك حين يُخْضع أهل الإيمان إرادتهم لإرادة الله على نحو تتلاشى إرادتهم تلاشياً كلياً ولا يبرز لها أي دور إلا دور التحقيق الدقيق لإرادة الحق جل وعلا، فيصير كل ما عند الله له، لأن كل ما عنده يكون قد أعطاه لله عز وجل قبيل خروجهم إلى بدر، توجه رؤساء مكة نحو بيت الله، ودعوا الله هناك آخذين بأستار الكعبة في ضراعةٍ

وابتهالٍ فقالوا : « اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين ».

ولقد عاد رؤساء مكة هؤلاء من بدر بالهزيمة الكاملة، بينما ظفر المسلمون بالانتصار الكامل، وهكذا قام الدليل، طبقاً لمعيار رؤساء مكة أنفسهم، على أنهم ليسوا «الجند الأعلى» ولا «الفئة الأكرم» عند الله، بل هم أهل الإسلام ولكنهم - مع ذلك - لم يؤمنوا بدين الإسلام ، والذين يفعلون هكذا، لهم عذاب أشد وأقسى ما يكون في الآخرة، مضافاً إلى ما يلقونه في هذه الدنيا ذاتها من عقوبةٍ وذلٍ وهوانٍ. إن قول الرؤساء : «اللهم انصر أعلى الجنديين وأكرم الفئتين.. إلخ » كان - على ما يبدو - بمثابة دعاءٍ وتضرعٍ إلى الله، ولكنه في حقيقة الأمر ينمّ عن اعتدادهم وإعجابهم بأنفسهم؛ إذْ كانت تعمل وراء ذلك نفسيتهم القائلة بأننا سَدنَة الكعبة وخدامها، وأننا أصحاب الانتماء إلى إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وما دمنا نتمتع بأمثال هاتيك الفضائل العظام، فلابد وأن يكون النصر حليفنا على أي حالٍ من الأحول. بيد أن القيمة عند الله تعالى إنما هي للعمل الذاتي، وليس للانتماءات الخارجية، ومهما كان الانتماء الخارجي عظيماً، فإنه لن يغني عن المرء شيئاً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

يكون المرء تجاه الحق إذْ يُعرض عليه، بين موقفَيْن لا ثالث لهما : أحدهما أن يستمع له مع استخدام كل تلك القوى والصلاحيات التي زوّده الله بها كإنسانٍ ، فيتناوله بأدق وأعمق ما يكون من التأمل والتفكير، حتى يتمكن منْ الاستشعار بثقل صدقه وحقيّته، ثم يقدم بلسانه الاستجابة الصحيحة، تلك التي يتعين على فطرة الإنسان أن تقدمها بالنسبة لأمرْ حقٍ، والذي وقف مثل هذا الموقف، فكأنما قد استمع للأمر المعروض

عليه سماع إنسانٍ !

أما الموقف الثاني فهو: أن يستمع إليه كما لو أنه لا يملك حاسة السمع حتى يسمع بها، وتبقى مقدرته على الفهم عاجزةً عن إدراك صدقه، وبالتالي فهو لا يستطيع أن يقدم بلسانه تلك الاستجابة الصحيحة التي ينبغي عليه أن يقدمها بمقتضى الواقع ، والذي تبنى موقفاً كهذا، فكأنما هو سمع ما عُرض عليه سماع حيوانٍ.

وإن أمراً مهما كان حقاً وصادقاً، لا تنكشف حقّيته إلا على شخصٍ يسمعه عن استعدادٍ أو رغبةٍ قلبيةٍ ، وعلى نقيض من ذلك فإن الشخص الذي تنطوي جوانحه على مزاج الحسد، والكبر، والنفعية، والعبودية للظواهر، فإنه سوف لا يرى الصدق جديراً بالتأمل والتفكير ، ولا هو يصغي إليه بجديةٍ وإمعانٍ ، وهو بذلك سوف يظل فاشلاً في إدراك حقيته كذلك بكل تأكيدٍ.. إن الإيمان - على ما يبدو - قول، ولكنه من حيث حقيقته، قرار إنساني ، وليس الإيمان ترديداً لكلمات الشهادتين، بل هو إظهار لفظي لحالتنا المعنوية ولو أن المرء كان، في واقع أمره، على الحالة بعينها، التي هو يعلن عنها من خلال هذه الكلمات، فإن المؤمن الحقيقي عند الله تعالى، إن المؤمن إنسان غاية في الجدية، وليس من شأن الإنسان الجاد البتةً أن يقول ما لا يعتقد، أوْ يتظاهر بخلاف حالته الباطنية.

والشخص الذي يكون إيمانه بمثابة الإعلان عن حقيقة النفس الداخلية، فإنه عندما يقر بالإيمان، يتخذ الله بالفعل معبوداً له، ويصبح خاضعاً مطيعاً له تعالى في كل شأنٍ من شئون حياته العملية، وسيكون إقرار الإيمان القولي عنده مرادفاً للدلالة على وجهة مسيرته، وليس مرادفاً لأي نوعٍ من التلفظ اللساني الفارغ ! وبالعكس من هذا تماماً حال شخصٍ قرع سمعَه أمر الحق، وأفحمه كذلك بما يحمل من الدلائل القاطعة والحجج الدامغة، ولكنه لم يكد ينفذ إلى أعماق روحه، ولم يمتزج بنبضات قلبه، اللهم إلا أنه لم يلبث أن بادر إلى الاعتراف الشفوي به، فتمتم قائلاً : سمعاً وطاعةً ! غير أن

حياته الواقعية ظلت كما هي، دون أن يطرأ عليها أي تغييرٍ فعلي ، وهذه الصورة الثانية هي صورة النفاق، ولا قيمة عند الله لإيمانٍ منافقٍ زائفٍ كهذا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾

يُحْيِيكُمْ: يورثكم حياة أبدية في نعيم سرمدى .

المراد بـ ((دعوة الحياة)) هنا هى ((دعوة الجهاد)) يعنى الكفاح من أجل إيصال الحق إلى الآخرين ، ويبدأ هٰذا الكفاح – أول ما يبدأ – في صورة الوعظ والتلقين بواسطة اللسان والقلم ، ثم ينتهى به عناد المدعو ورد فعله المعاكس إلى مراحل مختلفةٍ بما فيها الهجرة والقتال.

يبني المرء حياةً دينيةً، على المستوى الفردي، وفقاً لنظرته إلى الحياة وآرائه حول الدين وهو لا يلبث أن يطابق بين حياته تلك وبين ما يعيشه من ظروفٍ وملابساتٍ بحيث تبدأ تتراءى له وكأنها جزيرة الأمان والعافية ، إذْ يُخَيّل إليه وكأنه لو نهض من أجل إصلاح الآخرين، فسيتناثر عُشّه الجميل وينهار مسكنه العتيد ، وسيتبدد شمل حياته الرتيبة المنتظمة، وسيعود نظام أوقاته وأمواله، الذي قد فرض على نفسه بالنظر إلى مقتضياته الذاتية، سيعود ذلك النظام القائم أثراً بعد عين !! وتقف مثل هذه المخاوف والمحاذير حجر عثرةٍ دون خروجه لكفاح الدعوة والإصلاح والتضحية بنفسه وماله في سبيله ، غير أن هذا ليس إلا منتهى الجهل والحماقة ، والحقيقة هي أن دار العافية التي يعتبرها المرء حياةً له، هي مقبرته، والتضحية التي يرى فيها موتاً له، هي نفسها مكمن سر حياته !

وعملية الدعوة والإصلاح، عملية لها أهميتها البالغة؛ شريطة أن تكون للآخرة

وليس للأغراض والمطالب الدنيوية ، فإن من شأنها أن تحوّل دين المرء الخامد الهامد إلى دينٍ فياضٍ بالحياة والحيوية ، وإنها لتربط المرء بالله على مستوى أسمى وأرفع ما يكون ، وهي تعرف المرء بتلك التجارب الدينية الثمينة التي لا تتأتى أبداً للمنطوي على نفسه أو المنكمش داخل قوقعته الفردية ، والذين يقابلون هذا النداء الإلهي البالغ الأهمية بالإهمال ولا يلقون إليه بالاً، فإنها هم يعرضون أنفسهم لخطر أن يقام بينهم وبين الحق حاجز نفسي؛ فيسيطر على عقولهم واستعدادهم الفطري صدأ لا يزول؛ حتى يعودوا لا يقدرون على أن ينصتوا لنداء الحق، ويتقدموا نحوه ليظفروا بربهم !!

إن حياة الإنسان حياة اجتماعية ، إذْ لا أحد يستطيع هنا أن يعيش وحده في جزيرةٍ منفردةٍ أو بقعةٍ معزولةٍ عن المجتمع ، ولو أن شخصاً قنع واطمئن بتدينه الذاتي، فلا يغرب عنه أبداً أنه على حافة البركان، فيوشك أن يتمخض الفساد الاجتماعي ذات يومٍ، إذا بلغ منتهاه، عن حريقٍ عامٍ شاملٍ، لا يلبث أن يبتلعه هو الآخر فيما يبتلع !

إن الكفاح الإصلاحي ليس سعياً وراء الإصلاح فحسب، بل هو إبراء ذمة المصلح كذلك ، إذًا، فلو أن المرء ظل فاشلاً في إبراء ذمته، فعَلامَ سيفصل الله أمره عن الآخرين بأن يعذبهم دونه ؟!

إن الشر يبدأ دوماً على نطاقٍ ضيقٍ محدودٍ، ثم إنه على توالي الأيام، لا يزال يتفاقم وتتسع دائرته حتى يستحيل شراً مستطيراً ، ولو أن أناساً هبّوا لمكافحة الشر، وهو لم يبرح طوره البدائي بعد، لتمكنوا من إزالته ومحو آثاره بتمام السهولة، وأما إذا كان الشر قد عم واستطار، فإن جذوره تترسخ وتتعمق لدرجة أن القضاء عليه يصير أمراً مستحيلاً.

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ

أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ: يستلبوكم ويصطموكم بسرعة.

فِتْنَةٌ: ابتلاء ومحنة أو سبب في الإثم والعقاب .

لقد كان المسلمون خلال إقامتهم بمكة في غاية البؤس والضعف، وكانوا دائمي الوجل والخوف من أن يتم استئصال شأفتهم واقتلاع جذورهم في أية لحظةٍ ، وقد كان شأنهم إذ ذاك شأن الضعيف يعيش مقهوراً مغلوباً على أمره، يُضغط عليه ويؤخذ بخناقه من كل جانبٍ، ولا يُعطى له حتى حقوقه المشروعة ، ثم ها هم أولاء قد انفتح لهم طريق المدينة آخر الأمر، حيث أتيحت لهم الفرصة لكي يذهبوا إلى المدينة، ويؤسسوا فيها مركزاً لهم، ويعيشوا هناك في بيئةٍ حرةٍ عيشة الأحرار الكرام . وإنما يتاح اليسر بعد العسر على هذه الوتيرة، حتى تستيقظ في نفس المرء عاطفة الشكر ، فعندما تنتهي أحوال المرء إلى حدٍ يبدأ معه يشعر بأنه عاجز لا قوة له ولا حيلة، فتتجلى نصرة الله فجأةً وتتغير الأحوال ، وما يحدث ذلك إلا لكي يستيقن المرء بأن كل ما حدث وما يحدث إنما هو من عند الله تعالى ، ويملؤه هذا الإحساس بعواطف الامتنان والشكر لله على إحسانه ونعمه.

إن المرء بإيمانه بالله ورسوله، يقطع على نفسه عهداً بأنه سيتبع سبيل الله ورسوله، ولكن حين تحول مقتضيات ماله وعياله بينه وبين اختياره للمنهج الإيماني، فإنه سرعان ما يتخلى عن مقتضيات الإيمان ويأخذ بمقتضيات المال والعيال، إنها نقض صريح أوْ بالأحرى خيانة سافرة بالعهد الإيماني ، وتزداد هذه الخيانة قبحاً وشناعةً إذا نحن لاحظنا أن الشيء الذي من أجله يخون المرء ربه وينقض عهده هو ذاته عطية من عطايا الله !!

فما أموال المرء وأولاده ؟ إنها لا تعدو أن تكون هبة الله المنعم الوهاب، وبمعنى آخر: إنها أمانة الله لدى العبد، وليس ثمة من وجهٍ أفضل لصرف هذه الأمانة من أن

يتم تفويضها إلى المعطي إذا ما طلبها عن طيب خاطرٍ. ولكن حين ينادي الله عباده بأن هبوا لخدمة ديني، وكرسوا جهودكم وطاقاتكم في سبيلي، فإذا بالمرء يجعل من تلك الأمانة ذاتها عذراً له، تلك التي كان عليه أن يبذلها في سبيل دين الله وفاءً بعهد الإيمان الذي أعطاه لله ، فهو يسجلّ اسمه ضمن الفاشلين، في حين أنه كان من النجاح على قاب قوسين أوْ أدنى !

إن أي فعلٍ من الأفعال لا يُعدّ عند الله جريمةً أو معصيةً إلا إذا تم العمل به مع العلم بأنه خطأ ، فلو أن شخصاً تبين له وجه الخطأ في عملٍ من أعماله، ولكنه - بالرغم من ذلك - لا يزال يباشره، فإنه يأخذ على عاتقه تبعةً جسيمةً جداً، لأن إعادة الخطأ، بعد العلم بأنه خطأ، هو العناد، وليس العناد أبداً مما يستحق عفو الله وغفرانه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

فُرْقَاناً: هداية ونورا أو نجاة ، أو مخرجا .

لِيُثْبِتُوكَ: ليحبسوك أو ليقيدوك بالوثاق .

وَيَمْكُرُ الله: يعاملهم معاملة الماكرين .

تعني لفظة الفرقان كل ما فرق بين الشيء ونقيضه ، وقد أريد بـ «الفرقان» هنا قدرة التمييز بين الحق والباطل ، وإن من اتقى الله، بفعل أوامره، وترك زواجره، وُفِّق لمعرفة الحق من الباطل [1]. إن أكبر عاملٍ يوقظ المدارك أو القدرات الإنسانية الكامنة هو الخوف ، فإذا تولدت نفسية الخوف في داخل المرء بالنسبة لأمرٍ من الأمور جعلته بإزاءه واقعياً إلى أقصى حدود الواقعية، وإنها - أي نفسية الخوف- لتزيح أستار ذهنه كلها على

---

(١) (يراجع مختصر تفسير ابن كثيرص ٩٩) .

نحوٍ يتمكن معه من أن يكون حول الأمر رأياً أسد وأصوب ما يكون، مترفعاً عن كل أنواع الغفلة أو سوء فهم يحتمل وقوعه فيها بصدده ، وهكذا يكون شأن العبد تماماً، إذا ما ارتبط بالله رب العالمين برباط التقوى والخوف.

ويكاد هذا الفرقان أن يكون مرادفاً لما يطلق عليه المعرفة أو البصيرة، فالبصيرة هي نور داخلي يُقذف في قلب أحد الناس، يؤهله لرؤية الأشياء كما هي، من غير انخداعٍ بالقشور الظاهرية، وإنه كلما يدمج المرء وجوده في أمر من الأمور لدرجة أنه يصبح مهتماً به، ساهراً عليه، دائم القلق والحذر بشأنه، تتولد في داخله حساسية من نوعٍ خاصٍ، تعرفه بكافة الجوانب الإيجابية والسلبية المتصلة بذلك الأمر.

وتجربة الفرقان - البصيرة - هذه عامة يمر بها كل أحدٍ في مجال اختصاصه؛ سواء كان رجلاً دينياً أو تاجراً، أو طبيباً أو مهندساً ، فكل واحدٍ من هؤلاء حين يبلغ ارتباطه بعمله من الشدة والعمق حد التقوى، أي الحذر والقلق عليه، حتى يصير هو شغله الشاغل، فإنه يصبح عارفاً بمختلف أبعاده ونواحيه معرفةً يتوصل في ضوئها إلى حقيقته رأساً وبدون أن يتورط في المغالطات الجانبية. وتولّد هذه البصيرة الإلهية «الفرقان» في قلب عبد ما، أكبر ضمان لأنه سيحاول جهده أن يجتنب السيئات ومنكرات الأمور ، ويصحح علاقته بالله تعالى ، ويعود بالتالي مستحقاً لفضل الله وكرمه ، وإن تَوَلُّدَ هذا الفرقان (المقدرة النفسية على تمييز الحق من الباطل) لدليل على أن المرء قد ربط وجوده بالحق ، ويصير أمثال هؤلاء إلى كنف الله وحمايته المباشرة . والآن فإن التآمر ضدهم يتحول إلى التآمر ضد الحق . والمتآمر ضد الله يبوء دوماً بالفشل الذريع، مهما كانت مؤامرته التي دبرها دقيقةً وعظيمةً !

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ

وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ: أكاذيبهم المسطورة في كتبهم .

مُكَاءً وَتَصْدِيَةً: صفيرا وتصفيقا.

«لو نشاء لقلنا مثل هذا وإن كنا على غير الحق، إذاً فلِمَ لا يُمطر علينا حجارة من السماء» كل هذه أحاديث مصدرها الزهو والكبرياء والغرور ، فحين يجد المرء نفسه في وضعٍ منيعٍ، وإذْ يرى أن إنكاره وجحوده للحق، أو إهماله إياه، لم يؤدّ إلى خسارةٍ ما، تتولّد في داخله نفسية الاعتداد الكاذب، بحيث إنه يحسب أن كل ما يفعله هو الصواب نفسه، وشعوره هذا ربما يبعثه على النطق بكلماتٍ لا يتفوه بها أحد في الأحوال المعتادة، وإنما تتولد هذه الجراءة في نفوس أمثال هؤلاء بسبب قانون الإمهال الإلهي ، فلا شك أن الله - عز وجل - يعاقب المجرمين، ولن يفلت من بطشه أحد أبداً ، ولكن سنة الله هي أنه تعالى إنما يبطش بالمرء دوماً، إذا كان تم إيضاح الحق والباطل له على وجهٍ أكمل ما يكون ، فلا يتم إهلاك أحدٍ قبل اكتمال هذه العملية ، كما أن حلول العذاب لا يزال موقوفاً كذلك ما دام للعمل الدعوي مكان في المجتمع، وتأثير في نفوس رجاله، فيقومون بإصلاح أنفسهم متأثرين به فرادى ومثنى وثلاث ، وحتى يكتمل هذا العمل إلى حدٍ تخرج معه سائر الأرواح السعيدة من محيط المجتمع الموبوء الهالك.

إن فساد الأمم لا يؤدي أبداً إلى زوال أو انمحاء ما لديها من مظاهر الدين وصوره، وإنما الظاهرة التي يتكرر حدوثها دوماً في زمن الفساد والانحطاط هي أن يذهب ويتلاشى الدين القائم على الخشوع والخشية الإلهية ، ويحل محله الدين القائم على

التفاخر والأبهة ، فلا يعود الآن لدى القوم رصيد من العمل، بل تكون شخصيات الماضي، والمناصب القائمة بأسمائها، نصب أعينهم، حيث يخيل إليهم أنهم بتعلقهم بتلك الشخصيات والمناصب قد نالوا العظمة التي تتمتع بها هذه الشخصيات والمناصب بأسبابٍ تاريخيةٍ ، فيكون الناس فارغين مفلسين داخلياً، ولكن من خلال القيام بأعمال استعراضيةٍ بأسماء مجيدةٍ وشعاراتٍ طنانةٍ، يزعمون أنهم يمارسون بطولةً دينيةً عظيمةً جداً.

وقد كان أهل مكة مصابين بمثل هذه النفسية ذاتها ، حيث كانوا يتباهون بأنهم ورثة بيت الله ، وأنهم أمة نبيين جليليْن كإبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - إلى جانب تمتعهم بشرف سدانة الكعبة وخدمتها ، مما جعلهم يزعمون أنهم إذا كانوا يحملون مثل هذه الألقاب والامتيازات الدينية الفخمة ، ويمارسون مثل هذه البطولات الدينية الجبارة، فكيف يمكن إذًا أن يقذف الله بهم في نار جهنم !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

حَسْرَةً: ندما وتأسفا.

فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً: فيجمعه ملقى بعضه على بعض.

البشر صنفان: طيب وخبيث ، فبعض الأرواح تتغذى بأشياء يحبها الله تعالى ، وبعضها تتلذذ بما تميل إليه النفس أوْ يرغّب فيه الشيطان. ويظل هذان الصنفان كلاهما مختلطاً بعضهما ببعض في الأحوال العادية، فلا يرى ثمة من فارقٍ بين الاثنين في ظاهر الأمر ، ومن ثم يبتلي الله الناسَ بتفجير صراع الحق والباطل بينهم ، حتى يتميز

الصنفان أحدهما عن الآخر تميزاً تُعلم معه حقيقة الكل بوضوح ، فمن خلال هذا الصراع يتضح من ذا الذي يبادر إلى الاعتراف بالحق بعد أن ظهر أمامه ومن ذا يقابله بالجحود والإنكار ، ومن يقف عند حدود العدل والإنصاف في أثناء التعامل مع الآخرين ، ومن يتجاوز حدود العدل إلى الجور والعدوان ، ومن يعيش في أرض الله متواضعاً ، ومن يعيش طاغياً متمرداً ، ومن ينفق ماله في سبيل الحق ، ومن ينفقه في سبيل التعصب والزهو والتفاخر.

والذين يبذلون جهودهم في سبل أخرى غير الحق ، يزين لهم الشيطان عملهم هذا على نحوٍ يخيّل إليهم وكأنهم يمارسون أعمالاً بطوليةً عظيمةً ، وأنهم يتقدمون نحو مستقبلٍ رائعٍ غير أن عُمر سوء الفهم هذا قصيرٌ جداً ، فسرعان ما يأتي على المرء حين من الدهر يعلم فيه أن كل ما قد فعله لم يكن سوى مضيعة لماله وطاقته ، وأن المستقبل الذي كان يتقدم إليه لم يكن ينطوي على شيء سوى مرارة اليأس والحسرة وإن كان يحسب سعيه وراء ذلك ، لسيطرة الأحلام والأماني الزائفة على ذهنه ، بمثابة رحلة إلى مستقبل زاهرٍ وضّاء !!

إلا أن أمثال هؤلاء لابد وأن يعودوا بالفشل في مواجهة الحق الخالص ، فقد يكون فشلهم في ميدان الدليل تارةً ، وقد يكون - مع ذلك - في ميدان العمل تارةً أخرى.. إن كل الصراعات الدائرة في رحاب العالم الراهن إنما أُجريت لكي يتم فرْز الأرواح الطيبة من الأرواح الخبيثة ، وإذا تمت عملية الفرز هذه ، فسيدخل الله الأرواح الطيبة إلى الجنة ، وسيقذف بركام الأرواح الخبيثة جمعاء في الجحيم !

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾

سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ: عادة الله في المكذبين لرسله.

فِتْنَةٌ: شرك أو بلاء.

لقد أكد الإسلام على المبدأ القائل بأن كل شخص إنما يلقى جزاءه بحسب عمله سواءً بسواءٍ، بيد أن الله - جل شأنه - أقر برحمته حالةً استثنائيةً خاصةً لا يسري عليها هذا المبدأ العام الشامل، وهي إذْ يتقدم المرء بـ «التوبة» فإنه لن يعاقب بعدئذٍ على أعماله السابقة.

إن هناك شخصاً كان يعيش بعيداً عن الله، مقطوع الصلة به، ثم إذا به يهتدي أخيراً إلى نور الهداية، فيختار حياةً صالحةً تقيةً كمؤمن صادق الإيمان، فإنه ليس بمآخذ على سالف ذنوبه، وسُيعفى عنه كل السيئات والخطايا التي كان قد ارتكبها من ذي قبل.

والمبدأ نفسه ينسحب على الشئون الاجتماعية والسياسية كذلك، فقد يحتدم صراع بين الحق والباطل في موضع ما، ثم يقع هناك صدام عملي بين الجانبين، وفي خلال هذا الصدام يظلم حملة لواء الباطل الناهضين من أجل الحق، ولكن ما هي إلا أن تضع الحرب أوزارها في نهاية المطاف، حتى تتكشف عن فوز أتباع الحق بالغلبة والانتصار على حملة لواء الباطل.

وعند معالجة هذه القضية أيضاً ينطلق الإسلام من المبدأ الذي تقدم ذكره آنفاً، يعني أن شخصاً ما لن يُعاقب بعد الفتح على سالف عدوانه وظلمه، اللهم إلا إذا صنع أحد الناس عقب الفتح صنيعاً عُدّ جنايةً في التشريع الإسلامي، فإنه سينال حتماً العقوبة التي أقرتها الشريعة لمثل هذا الجاني، بعد اتخاذ الإجراءات اللازمة بهذا الشأن.

الفتنة معناها الاضطهاد (persecution). إن الحكومة والسيادة كانتا تقومان على أساس من الشرك في الزمان القديم، إن أصحاب السلطة اليوم يحكمون بوصفهم ممثلين للشعب، بينما كان الناس يحكمون في القرون الماضية باعتبارهم خلفاء لله أو شركاء الله، ونتيجةً لذلك كان الشرك قد اكتسب حيثيةً سلطويةً في المجتمع القديم،

وبالتالي كان المشركون لا يزالون يضطهدون أتباع التوحيد.. وقد أمر الله آخر رسله وأصحابه - عليه الصلاة والسلام - بأن يبتروا العلاقة القائمة بين الشرك والسلطة بتراً، حتى يصبح أهل الشرك محرومين من صلاحية اضطهاد الموحدين.. فالثورة العالمية التي فجرها رسول الإسلام ﷺ قضت على صلة الشرك بالنظام السياسي إلى الأبد.. فلا يعدوُ الشرك الآن أن يكون عقيدةٍ دينيةٍ أينما وُجد من أنحاء العالم أجمع، وليس النظرية السياسية التى تقوم الحكومات على أساسٍ منها.

وأمَّا ما يتعلق بجزيرة العرب فقد كان هذا الغرض هناك مطلوباً بصفةٍ مزدوجةٍ. حيث كان المطلوب هنا القضاء على الشرك والمشركين معاً لكيما يتم تحويل منطقة الحرمين الشريفين إلى مركزٍ أبدي للتوحيد الخالص، ومن ثم أمر رسول الله ﷺ بأن : «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب».. وقد بدأ هذا العمل في عهد رسول الله ﷺ ووصل إلى نهايته في عهد الخليفة الثاني عمر الفاروق ﷺ !

﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (٤١) ﴾

للهَ خُمُسَهُ: والأربعة أخماس للغانمين.

يَوْمَ الفُرْقَانِ: بين الحق والباطل (يوم بدر).

الغنيمة في لغة العرب تُطلق على المال الذى أُخذ من العدو بطريق القتال معه في ميدان الحرب، وقد كانت العادة المتبعة في الأزمان الغابرة أن يُعتبر كل شيء انتُزع من العدو خلال الحرب ملكاً للذى وقع في يده، أما الإسلام فقد قرر بهذا الشأن مبدأ يفرض على الغانم أن يدفع ما حصل عليه برمته إلى الأمير، ولا يستأثر أحد لنفسه حتى بخيط الإبرة.

وبعد تجميع أموال الغنيمة كلها على هذا النحو ، يُجعل خُمسها لله ، يأخذه الرسول نيابةً عنه تعالى ، ويصرفه في مصارف خمسة : نفسه هو أولاً ، ثم أقربائه الذين وقفوا إلى جانبه وشدوا من أزره كلما اشتدت عليه وطأة الظروف عبر مسيرته الدينية على أساس القرابة، ثم اليتامى ، وذوي الحاجات ، والمسافرين. ثم تُوزّع الأخماس الأربعة المتبقية بين سائر الجنود بحيث يُعطى الفارس سهمين والراجل سهماً واحداً.

إن الإسلام يريد تربية المرء على أن يعتبر كل شيء يظفر به شيئاً متاحاً من عند الله تعالى. إن إحداث واقعةٍ ما في هذا العالم يستلزم مواتاة أسباب لا تحصى في آن واحدٍ ، ما ليس بمستطاع أي إنسانٍ.. ولقد كان الانتصار الحاسم الذي كسبته فئة ضعيفة في مواجهة فئةٍ غاية في القوة والبأس ، في معركة بدر ، دليلاً غير عادي على أن كل ما حدث إنما كان من قبل الله تعالى، وفي حالة كهذه لم يكن اعتبار الشيء الحاصل في أعقاب الفتح والغلبة ، شيئاً متاحاً من عند الله ، سوى التسليم بالحقيقة ذاتها التي ظهرت للعيان كنتيجةٍ طبيعيةٍ للوقائع والأحداث.

وفي جعل حصصٍ معينة للإخوة المستحقين الآخرين في الغنائم درس مؤداه أنه ليس مجرد الكدح أو الوراثة هي التي تمثل أساس الاستحقاق لأنواع المال ، بل هناك أسس أخرى أيضاً لها اعتبارها ، وهي تخرج عن نطاق أشياء كالكدح والوراثة، وكأن الاعتراف بوجوه الاستحقاق الأخرى هذه هو اعتراف عملي من المرء بأنه ينظر إلى الأشياء على أنها ملك لله، وليست ملكاً لذاته هو.

والدرس الثالث البالغ الأهمية الذي ينطوي عليه تشريع قسمة الغنائم هذا ، هو أن أساس الامتلاك هو المبدأ وليس محض الاستيلاء ، فلا يصبح أحد الناس مالكاً لشيء ما ، لكونه أنه وقع في قبضته على سبيل المصادفة ، إذْ ينبغي على المرء ، رغم حيازته على شيء ما، أن يدفعه إلى المسؤولين ، ويرضى منه بالقدر الذي يستحقه من الناحية المبدئية والقانونية!

﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا: بحافة الوادي وضفته الأقرب للمدينة.

وَالرَّكْبُ: عير قريش فيها أموالهم.

لَفَشِلْتُمْ: لجبنتم عن القتال وهبتموه.

لقد شاءت إرادة الله - تبارك وتعالى - أن ينكشف للناس أمر الحق والباطل على وجهِ ما يكون، وتتم هذه العملية، بادئ ذي بدءٍ، عن طريق الدعوة، وفي لغةٍ من الدلائل والبراهين، فالداعي يلجأ إلى أقوى الأدلة وأوضحها، وأقربها إلى أفهام الناس، ليثبت حقية الحق وبطلان الباطل، ثم تنتهي عملية إحقاق الحق وإبطال الباطل هذه، في نهاية المطاف، بواقعاتٍ غير العادية، سواء أكانت تلك الواقعة غير المادية متمثلةً في أي معجزةٍ سماويةٍ، أو غلبةٍ أرضيةٍ، وقد شهدت معركة بدرٍ واقعةً من هذا النوع الأخير.

خرجت قريش من مكة لنجدة قافلتهم التجارية الهابطة من مشارف الشام، بينما خرج المسلمون بدورهم من المدينة يريدون الهجوم على القافلة، وقد اتجهت القافلة نحو الساحل، تاركةً وراءها طريق القوافل المعروف، فنجت، وإذا بهذين الفريقين يفضي بهما المسير إلى بدرٍ، حيث يلتقيان وجهاً لوجهٍ !!. وما حدث ذلك إلا بتدبير من الله العلي القدير، وقد تم تمكين أهل الإيمان من الانتصار والغلبة بدفع كلا الفريقين إلى

الاصطدام، وهكذا تبين للناس صدق رسول الله ﷺ ورسالته على أتم ما يكون ، وقد اتضح لمن كانوا يحملون في صدورهم جذوة الطلب الصادق، أن هذا هو الحق.. وأما الذين كانوا مصابين بأي نوعٍ من التعقيدات والالتواءات النفسية ، فقد أثبتوا ببقائهم على مسلكهم وإصرارهم على عنادهم ، بالرغم من وضوح الحق بجلاءٍ ، أنهم لا يستحقون شيئاً سوى أن يتم إهلاكهم.

وفي معركة بدرٍ كان عدد جيش الكفار ، تحت قيادة قريش ، أكبر بكثير من الجيش الإسلامي ، ولو أن المسلمين نظروا إلى تعدادهم الحقيقي ، بالمقارنة إلى أنفسهم ، لقال قائل منهم: قاتلوا ، وقال آخر : لا تقاتلوا ، وهكذا لَنَشب بينهم الاختلاف ، وبقي الغرض الأصلي كما هو بدون تحقيق.. وقد تناول الله عدد الفريقين بالتقليل في أعين أحدهما تارةً ، وطوراً بالتكثير في أعين الآخر حسب مقتضى الأحوال ، الأمر الذي مكن المسلمين من أن يقاتلوا جميعاً متحمسين للقتال مستميتين فيه.. وكذلك الله إذا أراد أمراً هيأ من عنده كل الأسباب اللازمة لتحقيقه على النحو المطلوب.. إن الأحوال التي تطرأ ، والظروف التي تستجد خلال العمل ، إنما تكون من عند الله - سبحانه وتعالى - والغاية منها تتلخص في معرفة نوعية رد الفعل الذي يمكن أن يقدمه كل أحدٍ منا في ظل الظروف المحيطة به !

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

رِيحُكُمْ: تتلاشى قوتكم أو دولتكم .

بَطَراً: طغيانا أو فخرا أو أشرا.

النجاح لا يتأتى إلا بنصر الله ، ونصر الله يأتى دوماً ، مقنعاً بحجاب الأسباب ، وليس فى حال انعدام الأسباب، ولو أن المسلمين أحضروا ما فى مقدورهم من الأسباب والوسائل ، لأتيح لهم النجاح بعد أن يتم سد الخلل الباقى من عند الله جل شأنه ، وأما لو أنهم كانوا صفر الأيدى من الأسباب ، ولم يُعنوا حتى بإعداد ما يمكنهم إعداده منها ، فليس من شأن الله أبداً أن يبعث بنصره ، حيث لا تتوفر أسبابه ودواعيه. وما هي تلك الأسباب التي تستوجب نصر الله؟! إنها تتمثل في : ألا يبادر المسلمون إلى الهجوم ، وإنما ينبغي لهم أن يركزوا اهتمامهم كله على تقوية أنفسهم وترسيخ جذورهم، إلى أن يهاجمهم العدو بنفسه، ويجرهم إلى القتال ، ثم إذا وقع الصدام فعلاً ، فما عليهم إلا أن يظلوا صادمين في وجهه صمود الجبال ، وأن يكونوا فى كل حينٍ ذاكرين لله ، مستحضرين لهدفهم الحقيقي ؛ حتى لا يجد الفتور أو الوهن سبيلاً إلى قلوبهم ، وأن ينظموا شئونهم كلها تنظيماً دقيقاً تحت أمر الرئيس ، فيكون كل عملٍ من أعمالهم مظاهرة حيةً للتنسيق والوحدة في صفوفهم ، ويهملوا كل نزاعاتهم الداخلية ، دون أن يزيدوا من حدتها فتنشق عصاهم وتنقسم كلمتهم ، وتحل الفوضى محل النظام ، وليملأوا عدوهم رعباً ورهبةً بوحدتهم المتماسكة ، وليتمسكوا بالصبر ؛ بدلاً من الحماس والتهوّر ، فلا يتخذوا خطوات غير ناضجةٍ شوقاً إلى النجاح العاجل، ولتتجه أنظارهم دوْماً إلى الهدف النهائي ، وليس إلى المصالح الآنية والمنافع الوقتية.

وإنما الأسباب عبارة عن الأشياء ، ليس غير ، ومن خلال هذه الأسباب ذاتها يأتي النصر من عند الله تعالى.

إن العالم الراهن هو عالم الامتحان ، وإنما يقوم الله هنا بإدارة شئونه وتدبير أموره كلها وهو في ((الغيب))، دون أن يتجلى بذاته للعيان ، ومن ثم فإذا نصر المسلمين ، جاء نصره مقنعاً بحجاب الأسباب ، ولو أن المسلمين لم يُوجدوا مناخ الأسباب ، فأظهروا الضعف والجبن ، وشرعوا في الإقدام قبل إعداد العدة الأولية اللازمة ، أصيبوا بالفرقة والشقاق والفوضى داخل صفوفهم ، فليس لهم أن يأملوا أبداً في أن الله سيمزق لهم

حجاب الغيب، ويخرق قانونه الثابت، فينصرهم، رغم ضعفهم وقصورهم في الأخذ بالأسباب المتاحة. كلا.. كلا.

ولو أن المسلمين وجدوا أنفسهم في وضعٍ أحسن مما عليه عدوهم، فليس من الجدير بهم أن تُبطرهم قوتهم، وتستبد بهم عواطف الفخر والمباهاة شأن الكفار ويذهب بهم الكبرياء والغرور إلى حدٍ يتصدون معه لمعارضة شخصٍ لكونه أنه يدعو إلى حقٍ لا يتفق مع أهواء أنفسهم!

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

وَإِنِّي جَارٌ: مجير ومعين وناصر لكم.

نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ: رجع القهقري وولى مدبرا.

كان معارضو الإسلام في مكة يرون أنفسهم على الحق، وأصحاب الرسول ﷺ على الباطل، وربما يتبين لك مبلغ يقينهم من هذا الأمر من أنهم، قبل أن يتوجهوا نحو بدرٍ، وقفوا بين يدي الكعبة، فابتهلوا إلى الله قائلين: اللهم أي الفريقين منا كان على الحق فأظفره، وأينا كان على الباطل فأهلكه، على أن يقينهم هذا لم يكن إلا يقيناً كاذباً، يتولد دوْماً بسبب تزيين الشيطان.

فقد علّم الشيطان أهل مكة: إنكم مؤمنون بإبراهيم وإسماعيل؛ وهما من الأنبياء المسلم بهم تاريخياً، بينما يؤمن المسلمون برجل مازالت نبوته بعدُ موضع الجدل والنقاش، وأنتم ورثة الكعبة، بينما المسلمون مطرودون من جوار الكعبة، وأنتم

تقاتلون من أجل الحفاظ على تقاليد السلف ، بينما نهض المسلمون من أجل القضاء على تلك التقاليد العريقة.. ومن خلال إلقاء مثل هذه المزاعم في قلوب أهل مكة ، فقد أصابهم الشيطان باليقين الكاذب ، مما جعلهم يحسبون أن كل ما هم فاعلوه هو الصواب عينه ، وأن نصر الله لابد أن يكون حليفهم على أية حالٍ.

وقد كان المعارضون في مكة يعدون يقينهم الكاذب ، القائم على مثل هذه المزاعم ، يقيناً صادقاً ، حين كانوا يرون أصحاب الرسول ، وقد انضموا إلى جبهة الإسلام ، يحدوهم يقين أصدق منهم ، ومتدفقين حماساً وعاطفةً نضاليةً أشد وأقوى منهم ، فإنهم كانوا يصفون يقينهم الصادق بأنه لا يعدو أن يكون مجرد جنونٍ ديني ، وأنهم قد فقدوا رشدهم تأثراً بأحاديث هذا الرجل - أي الرسول - الجميلة ، فاندفعوا وراءه اندفاع المسحورين ، وأنه لا حقيقة ليقينهم وتفانيهم في سبيل دينهم.

ولكن عندما التقى الجمعان ، وهبط نصر الله للمسلمين ، ولى الشيطان هارباً متخلياً عن معارضي الإسلام ، وقد ازداد المسلمون ثقةً ورباطة جأشٍ بنصر الله ، واستحال يقين المعارضين الكاذب إلى الفتور وسقوط الهمة ؛ لأنهم كانوا قد وضعوا ثقتهم في الشيطان ، والشيطان الآن قد خذلهم وفرّ هارباً.. والذين يعتمدون على الله ، فإن الله يمدهم بنصره ولا ريب ، على أن نصر الله إنما يأتي دوْماً إذا كان أهل الإيمان قد أقاموا الدليل على يقينهم بالله، لدرجة أن يصرخ فاقدو اليقين قائلين : إن هؤلاء قد باتوا مجانين!!

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ

ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

كَدَأْبِ: كعادة .

دوام النعمة تعتمد على حالة الاستحقاق للنعمة ، فالنعم التي يحظى بها أحد ، على المستوى القومي ، تكون دوْماً على قدر الاستحقاق المتوفر لدى قومه من حيث الحالة النفسية ، وبما أن هذه «النفس» توجد في داخل الفرد ؛ لذا فبالإمكان القول ، بأن الإنعامات الاجتماعية مدارها على الحالات الفردية، وبناءً على هذا ، فنصيب الأمم من الإنعامات الاجتماعية يتناسب تماماً مع الدرجة التي تحتلها على مستوى الأفراد ؛ لا أكثر ولا أقل.

وهذا يعني أن طائفةً ما إذا كانت تريد أن تظفر بنعم الله الاجتماعية ، فينبغي لها أن تكرس طاقاتها في سبيل الإصلاح النفسي لأفرادها ، وهكذا لو أن أمةً ما وجدت نفسها ، وقد انتزعت منها النعم الاجتماعية كلها ، فيجب عليها أن تسعى وراء أفرادها بدلاً من السعي وراء هذه النعم، لأنها لم تُسلب هذه النعم إلا بفساد الأفراد ، ولن تظفر بها ثانيةً إلا بصلاح الأفراد.

وإن أمةً ما حين تختار سلوك الطغيان بدلاً من التواضع ، وتبدأ تمارس الظلم بدلاً من العدل ، فإن الله يقيض من يقوم بإعلان الحق أمامها ؛ حتى تنتبه وتستيقظ من غفلتها ، وهذا الإعلان لغاية وضوحه وجلائه ، يمثل آيةً من آيات الله ، وبالتالي فيكون الإيمان به إيماناً بالله ، وإنكاره إنكاراً لله.

ولئن ظل الناس يأبوْن إلا الجحود والإنكار لدعوة الله ، حتى بالرغم من ظهورها عليهم عاريةً كآية إلهية بالغة الوضوح والبيان ، فإنهم يعودون بعدئذٍ مستحقين للعقوبة، ومع أن هذه العقوبة تبدأ من هذه الدنيا ذاتها ، إلا أن عقوبة الدنيا أقل بكثير بالقياس إلى تلك العقوبة التي سيواجهها المرء بعد الموت ، فمن ضرب الملائكة ، إلى

الخزي والهوان أمام جميع الخلائق من أولهم إلى آخرهم ، إلى الاحتراق بنار جهنم، كل هذه مراحل فظيعة ومروعة لدرجة أننا لا يمكننا حتى أن نتصورها في أحوالنا الراهنة !!

وحين يختار الإنسان سلوك الظلم والطغيان ، فتظهر له النذر والتنبيهات الإلهية ، وإن هو لم يتعلم منها أي درسٍ ، واستمر في البغي والعناد ، فإنه لا يلبث أن يتعرض في النهاية لعذاب الله الذي لا يُردّ!

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

تَثْقَفَنَّهُمْ: تصادفتم وتظفرن بهم .

فَشَرِّدْ بِهِم: ففرق وبدد وخوف بهم .

قَوْمٍ خِيَانَةً: قد عاهدوك.

فَانبِذْ إِلَيْهِمْ: فاطرح اليهم عهدهم وحاربهم .

عَلَى سَوَاءٍ: على استواء في العلم بنبذه .

إن اليهود المقيمين بالمدينة كانوا قد صاروا مجرمين عند الله بإنكارهم لرسالة رسول الله ﷺ ثم إنهم زادوا جريمةً على جريمتهم هذه بغدرهم ونقضهم للعهود والمواثيق. ففي أعقاب الهجرة النبوية عُقدت بينهم وبين رسول الله ﷺ معاهدة كتابية كانت تنص على أن الفريقين سيقفان على الحياد التام بعضهما من البعض الآخر في شئونهما الخاصة ، بيدْ أن اليهود لم يلبثوا أن بدؤوا يمكرون ويدبرون المكائد ضده - عليه الصلاة والسلام

- بالتواطؤ سراً مع أعدائه - المشركين -، وقد كان في ذلك زيادة الغدر على الكفر، وكان في ذلك جمع اللؤم والدناءة إلى جانب الإنكار والجحود، وإنما ينتظر أمثال هؤلاء الكفرة الغدرة المكرة عذاب فظيع في الآخرة، وأما فيما يتعلق بهذه الدنيا، فقد أمر الإسلام باتخاذ إجراءات قاسيةٍ غليظةٍ ضدهم، إنهاءً لشرورهم، وتثبيطاً لعزائمهم ونواياهم الخبيثة.

ولو أن المسلمين كان بينهم وبين قومٍ معاهدة ما، ثم أرادوا إلغاء هذه المعاهدة؛ خوفاً من بوادر الخيانة والغدر من الطرف الآخر، فيجب عليهم أن يخبروهم بذلك، حتى يصير الطرفان على علمٍ مسبقٍ بأنه لم تعدْ من الآن حالة المعاهدة قائمةً بين الجانبين !!

كان الأمير معاوية ﷺ قد أبرم ذات مرةٍ ميثاقاً مؤقتاً بينه وبين الحاكم الروماني، ولما حان أجل الميثاق، بدأ الأمير معاوية يحشد جيوشه في صمتٍ على حدود الروم، ناوياً أن يشن هجوماً مباغتاً على المنطقة الرومية مع بزوغ فجر اليوم التالي لانقضاء أجل الميثاق !! وبينا هو كذلك إذْ جاء صحابي يسمى ((عمرو بن عبسة))، راكباً على فرسٍ، وهو يقول بأعلى صوته: الله أكبر.. الله أكبر. وفاء لا غدر، إن رسول الله ﷺ قال: ((ومن كان بينه وبين قومٍ عهد، فلا يحلن عقدة ولا يشدها، حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواءٍ))[1].

وثمة صورة أخرى، وهي إذا لم يكن الأمر محصوراً في الخوف من الغدر، بل تجاوزه إلى نقضٍ عملي صريحٍ للمعاهدة من الطرف الآخر، ففي مثل هذا الوضع من الجائز أن نقوم بالعملية المعاكسة ضد الغادر، دون إخطاره بذلك مسبقاً، وفتح مكة مثال على هذا الموقف، فلما خالفت قريش معاهدة الحديبية، بتعاونها مع بني بكرٍ في عدوانهم على بني خزاعة - حلفاء النبي ﷺ قام - عليه الصلاة والسلام - بخطوةٍ صامتةٍ ضد

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير، ص١١٤.

قريش بدون إخبارها بذلك سلفاً !

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

سَبَقُوا: خلصوا وأفلتوا من العذاب.

قُوَّةٍ: كل ما يتقوى به فى الحرب .

رِّبَاطِ: حبسها للجهاد فى سبيل الله.

جَنَحُوا لِلسَّلْمِ: مالوا للمسالمة والمصالحة .

حَسْبَكَ الله: كافيك فى دفع خيانتهم .

إن الإسلام يعتمد على عرض القوة أكثر منه على استخدام القوة ، ومن ثم أُمر المسلمون بإعداد «القوة المرهبة» : وهي تعني جملة الأشياء التي من شأنها أن تخيف العدو وتدخل في نفسه الرعب والذعر إلى حدٍ يفقد معه روح الإقدام والمواجهة ، وإن الإسلام ليُعني بتقوية كيانه وتسليحه تبعاً لمقياس العصر ، ولكن ليس من أجل القتال بالضرورة ، بل لكيما تبقى هيبته قائمةً في نفوس أعدائه، فلا تحدثهم أنفسهم يوماً ما بالاعتداء عليه واستباحة حماه، والذين سيبذلون أموالهم من أجل تقوية الإسلام

وتسليحه على مستوى العصر ، من كلتا الناحيتين الفكرية والعملية ، سيُجزون على ذلك عند ربهم جزاءً يضاعف لهم مراتٍ كثيرةً.

وسر انتصار الإسلام لا يكمن في المواجهات العسكرية ، بل في تبليغ مبادئه ونشرها بين الناس ، ولذلك فقد أمر الله - سبحانه وتعالى - المسلمين بقبول أي اقتراحٍ للصلح والمهادنة يتقدم به الفريق الآخر فى أى وقتٍ ، وبغض النظر عن كل المخاوف الأخرى ، لأن المخاوف ليس من المؤكد أن تتحقق فعلاً ، بينما يحتوي وقف العمليات الحربية على فائدةٍ حتمية أكيدةٍ، تتمثل في أن يستأنف الإسلام نشاطه الدعوي في جوٍ يسوده الأمن والسلام ، وهكذا سيصبح وقف الحرب عاملاً قوياً على تمكين الإسلام من التوسع النظرى وبسط نفوذه الفكرى والعقدى.

إن الإسلام فى ذات نفسه هو القوة الكبرى، فلو أن طائفةً ما ، أخذ الإيمان بالله والآخرة مأخذه من قلوب أفرادها ، لنزع هذا الإيمان من داخلهم كل تلك النقائص والمساوئ النفسية التى تؤدى إلى التنافر والتصادم مع بعضهم البعض ، والذى يحدث بعد ذلك بطبيعة الحال هو أن يرتبط الجميع بعضهم ببعض ارتباطاً وثيقاً يحولهم وحدةً واحدةً لا تتجزأ ، وإنها لحقيقة لا جدال فيها أن الاتحاد هو القوة الكبرى وأن الجماعة المتحدة ، مع كونها قليلة العدد ، تغلب الجماعة الكثيرة العدد المنقسمة على نفسها. إن الوحدة فى الصفوف ، والألفة بين القلوب لمن أصعب الأمور ، بل أصعبها إطلاقاً ومن أمارات الطائفة المنصورة المظفرة أن يكون أفرادها من الاتحاد والتآلف فيما بينهم، بحيث لا يتمكن شيء ما من تشتيت وحدتهم ، وتمزيق صفوفهم وتقسيم كلمتهم أبداً.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟

مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ: بالغ في حثهم.

السرّ في غلبة القلة المؤمنة على الكثرة غير المؤمنة يكمن - كما أشارت إليه الآية - في كون أهل الإيمان أصحاب فقهٍ،وكون غير المؤمنين محرومين من الفقه،ومعنى «الفقه» اللفظي هو الفهم، وقد أريد به تلك البصيرة والشعور اللذان يحظى بهما إنسان نتيجة الإيمان،فإن مثل الإيمان بالله ، بالنسبة لامرئ ما، كمثل إضاءة لمبةٍ كهربائية في حجرةٍ مظلمةٍ، إن اللمبة لا تلبث أن تنير الحجرة بأكملها، بحيث يبدأ كل شيء فيه يتراءى لك كأوضح ما يكون،وكذلك الإيمان يمنح صاحبه شعوراً ربانياً ، يأخذ معه ينظر إلى الحقائق كلها في صورها الأصلية.

فمن نتائج الإيمان أن المرء يدرك حقيقة الحياة والموت ، ويصبح عارفاً حق المعرفة بأن ليس المهم هو هذه الحياة الدنيا ، بل الحياة الآخرة ، مما يجعله شجاعاً مقداماً إلى أقصى حدٍ وهو يأخذ ينظر الآن إلى الموت على أنه مدخل إلى الجنة ، فإن المؤمن يعد الشهادة طريقاً مختصراً نحو الجنة ، وبالتالي يعود الاستشهاد أو التضحية بالنفس في سبيل الله شيئاً مطلوباً ومحبباً إليه !! على حين أن جنة غير المؤمن هي هذه الدنيا الراهنة، فهو يحب الحياة ويحرص عليها حتى يتمكن من الاستمتاع بجنته هذه ، إن الرجل غير المؤمن يناضل مدفوعاً بالشعور القومي ، بينما يناضل المؤمن مدفوعاً بالحنين إلى الجنة ، وأبداً لن يستميت المدفوع بالشعور القومي في نضاله استماتة المؤمن التوّاق إلى الجنة !!

إن المؤمن هو الإنسان الخائف من الله ، المشغول البال بهمّ الآخرة ، ومن شأن هذا المزاج أن يطهره من كل العواطف والمشاعر السلبية على اختلاف أنواعها ، حيث إنه يسمو بنفسه فوق دوافع النفس البشرية كالعناد والكراهية ، والتعصب ، والانتقام ، والبطر والكبرياء ، وما إلى ذلك.

ومن ناحيةٍ أخرى فإن أمر غير المؤمن يكون على النقيض من ذلك تماماً،مما ينتج عنه

أن غير المؤمن يصدر في مواقفه وتصرفاته عن النفسيات السلبية،والمؤمن يصدر في مواقفه وتصرفاته عن النفسيات الإيجابية، ويعمل غير المؤمن بالأسلوب العاطفي ويعمل المؤمن بالأسلوب الواقعي،وغير المؤمن يكون عدواً للناس، والمؤمن عدو لما فيه الناس من شرٍ وسوءٍ، وتتسم معاملة غير المؤمن مع الآخرين بالشحّ والأثرة، ومعاملة المؤمن بالكرم والتسامح.. وإنما تدل كلمات: المائة في مواجهة الألف،والألف في مواجهة الألفين ، على أن حكم القتال موجّه إلى الجماعة والجيش المنظم، إذاً فليس من الصواب ولا من المعقول أن يتصدى للقتال إذا لم يكن هناك سوى رجلٍ أو رجلين !!

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾

يُثْخِنَ: يبالغ في القتل حتى يذل الكفر .

عَرَضَ الدُّنْيَا: حطامها بأخذكم الفدية .

في خلال معركة بدرٍ قتل المسلمون سبعين من كبار رجال الكفر ، وأسروا منهم سبعين عندما بدأت تتزلزل أقدامهم فولوا هاربين ، وكان معظم هؤلاء الأسرى من رؤساء مكة وقادتها ، وفي أعقاب الحرب استشار النبي ﷺ الصحابة بشأن هؤلاء الأسرى ، فذهب أغلبهم إلى أن يتم إطلاق سراحهم لقاء الفدية.

إن أعداء الإسلام يومئذٍ كانوا قد أثاروا حالة حربٍ مستمرةٍ ضده ، ولكن المسلمين بسبب فقرهم وضيق ذات أيديهم لم يكونوا يملكون من أدوات الحرب، إلا قليلاً جداً ، فزعموا أنهم إن أخذوا الفدية ، أمكنهم أن يشتروا بها ما هم في أمس حاجةٍ إليه من

سلاحٍ وأدوات حربٍ ، وكان عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ - رضى الله عنهما - قد ذهبا إلى غير هذا الرأي ، حيث قال عمر، يا رسول الله : إن هؤلاء الأسرى هم أئمة الكفر وصناديد المشركين ، يعني أن قوة الأعداء الرئيسية قد وقعت اليوم في أيدينا ، فلنسترح منهم بضرب أعناقهم ، غير أن رسول الله ﷺ أخذ بالرأي الأول. ثم نزلت في أعقاب ذلك آيات عتاب شديد من الله ، لكن الآيات أباحت الانتفاع بما أخذوا من فداء!!

ومع أن إطلاق سراح أسرى الحرب مقابل الفدية ، كان يميل إلى جانب الرحمة والشفقة ، إلا أن ذلك كان يتعارض مع أمر الله بقمع جذور الكفر والشرك ، ولأجل تحقيق هذا الهدف ذاته جمع الله قادة قريش قاطبةً ، ما عدا أبا لهبٍ وأبا سفيان في ساحة بدرٍ، وهيأ هناك ظروفاً استمكنت معها أيدي المسلمين من خناقهم . ولو أن هؤلاء القادة تم القضاء عليهم حينذاك لوئدت مقاومة الكفر والشرك في ميدان بدرٍ ذاته إلى غير رجعةٍ ، ولكن لم يكد يطلق سراح القادة ، حتى أقبلوا على استجماع قواهم وإعادة تنظيم صفوفهم ، وبالتالي استأنفوا حركة مقاومتهم ضد الإسلام من جديد!!

وقد كان قرار الفداء خلافاً للمصلحة الحربية ، وكان خليقاً أن يجلب للمسلمين مصائب جسيمة ، حيث كان بإمكان هؤلاء القادة وأتباعهم أن يهاجموا الإسلام ، ولا يزالون به حتى يفسدوا عليه أمره كله ، لولا سبق التقدير من الله لآخر رسله وأصحابه أنهم سيظلون حتماً هم الغالبين ، وأنه لن ينجح أحد في قهرهم والتغلب عليهم على أية حالٍ ، وللسبب ذاته لم تستطع قريش إحراز الغلبة على أهل الإيمان - بالرغم من هذا التهاون الذي بدر منهم في الاستراتيجية الحربية ، ولم يحدث في نهاية المطاف إلا ما كان قد كُتب عند الله مسبقاً أنه كائن لا محالة ، ألا وهو انتصار المسلمين وغلبة الإسلام !

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ

خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ: فأقدرك عليهم يوم بدر.

إن إطلاق سراح أسارى بدرٍ ، مقابل الفدية ، كان بالنسبة إلى المسلمين خطأ حربياً فادحاً ، ولكن بالنسبة إلى الأسارى أنفسهم ، كان ذلك مرادفاً لإتاحة حياةٍ جديدةٍ لهم، حيث كان معنى ذلك : أن الذين كانوا قد استحقوا الهلاك جزاء عنادهم ومخالفتهم للحق، قد سنحت لهم الآن فرصة أخرى ليعيدوا النظر في الدعوة الإسلامية وموقفهم المنحرف إزاءها ، وقد فتحت هذه المهلة باباً جديداً لإصلاح أنفسهم.

والآن فقد كان هؤلاء الأسرى بين اثنتين : فإما أن تمتلئ قلوبهم غيظاً وحنقاً على الهزيمة النكراء التي لحقت بهم، ويستأثر بهم إحساس الذل والعار الذي أصابهم بسبب الفداء، فيتحرقوا للأخذ بالثأر ، وشفاء حزازات النفوس ، وفي هذه الصورة سوف لا يسعهم إلا أن يعيدوا الخطأ نفسه الذي كانوا قد تعرضوا من أجله لبطش الله ، فسيبذلون قواهم وطاقاتهم ضد الإسلام ، مما يؤدي بهم إلى الهلاك والدمار في هذه الدنيا ، والعذاب المهين فى الدار الآخرة!!

وأما الصورة الثانية فهى: أن يفكروا في الواقعة غير العادية التي شهدها ميدان بدرٍ ، ويقفوا عندها وقفة تأملٍ وتدبرٍ ، يسألوا أنفسهم عمن السبب وراء إحراز المسلمين ذلك الانتصار الباهر والفتح المبين ، رغم كونهم أقل منهم عدداً وأضعف منهم قوةً ؟! فيتضح من ذلك بجلاءٍ أن الله مع دين المسلمين وليس مع دين قريشٍ ، وإنْ تولدت هذه العقلية الثانية فستدفعهم إلى أن يغيروا موقفهم السابق ، ويختاروا الآن الدين الذي لم يوفقوا لاختياره من قبل ، وبالتالي يصبحوا أهلاً لإنعام الله في الدنيا والآخرة.

والتاريخ يشهد بأن عدداً لا بأس به من قريشٍ ، سرعان ما فوجئوا بسيطرة التساؤل المذكور على أذهانهم ، فما لبثوا أن دخلوا في الإسلام عاجلاً أو آجلاً ، فقد اعتنق العباس بن عبد المطلب الإسلام وهو أسير ، وهناك أناس آخرون قد انضموا إلى

صفوف المسلمين فيما بعد ، ومع أن هؤلاء قد ذلوا وهانوا في نظر العصبية الطائفية إلا أنهم نالوا العزة والكرامة في عين الله ، كما أنهم صاروا أهلاً لنعيم الآخرة وأرباحها عوضاً عما تحملوا من خسائر الدنيا وأذاها في سبيل الله.

وبسبب إطلاق سراح الأسارى كان المسلمون يساورهم القلق والخوف من أنهم لن يقابلوا هذا الإحسان بالاعتراف والشكر ، بل سيشكلون عقبةً صعبةً في سبيل الإسلام باستئنافهم من جديدٍ أعمال التخريب والمؤامرة ضده كسابق عهدهم ، غير أن القرآن لم يعط أية أهمية لهذا التخوف ؛ لأن الحركة التي تقوم من أجل الحق الخالص ، لا تكون حركة إنسانيةً من الطراز العام ، إنما تكون أمراً إلهياً ، ويقف إلى جانبه يتعهده ويرعاه الله – سبحانه وتعالى – وإنه ليس بمقدور أحدٍ أن يتعرض للقتال مع الله عز وجل !!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٞ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ ﴾

إن المرء إذْ يقدم العون إلى أحدٍ ، فإنما يكون الباعث على ذلك كون هذا الرجل من أعضاء أسرته ، أو وجود أية علاقةٍ طائفيةٍ وحزبيةٍ بينهما ، غير أن المجتمع الإسلامي الذي ظهر إلى الوجود بالمدينة في أعقاب الهجرة النبوية ، كان مجتمعاً فريداً من نوعه ؛ حيث وهب أصحاب المنازل فيه منازلهم لأقوامٍ لم تكن تربطهم بهم أية علاقةٍ أو رابطةٍ سوى الدين ، فلم يغادر المهاجرون إلى المدينة أوطانهم إلا لوجه الله وابتغاء ثواب الآخرة ، كما أن الذين جعلوا هؤلاء الغرباء «الأجانب» شركاء في أموالهم وضياعهم إنما بعثهم على ذلك الأمل في أن يرضى الله عنهم ، ويدخلهم في يوم القيامة في جنات النعيم !!

في هذا المجتمع لم تكن الأهمية لـلأسرة والنسب ، بل للإيمان والإسلام فحسب ، فقد كان أفراده يتعاونون بعضهم مع بعضٍ ، ولكن ليس من أجل المنفعة الدنيوية ، بل من أجل منفعة الآخرة ، وكان بعضهم يعطى بعضاً ، ولكن ليس أملاً في نيل الجزاء من الآخذ ، بل رجاء إنعام الله وفضله.. والمجتمع الإسلامي الحقيقى هو الذى لا تقوم العلاقات فيه على الروابط الأسرية والعصبيات الطائفية ، بل تقوم على أساسٍ من الحق والحق وحده ، وحيث ينصر الرجل غيره على أنه أخوه في الإسلام ، لا على أن مصلحةً من مصالحه الدنيوية ترتبط به.

إن من واجب المسلم أن ينصر أخاه المسلم إذا ما استنصره في أمر الحق ، ولو أن روح التعاون والمناصرة هذه لم تعد باقيةً بين المسلمين ، لاجترأ الأشرار على قهر المستضعفين من أهل الإسلام واضطهادهم ، ولصار الإبقاء على حياتهم وإيمانهم أمراً عسيراً جداً.

إن أعداء الحق أشد ما يكونون تعصباً لنجدة أصحابهم ، وإذًا فلم لا ينشط أنصار الحق لنجدة أصحابهم؟! إن ((الهجرة)) هي مدخل إلى الجنة ، وإن عبداً ما حين يغادر المقام غير المحبب إلى الله وينتقل إلى المقام المحبب إلى الله ، فإنما يغادر في الحقيقة غير الجنة ليدخل إلى الجنة!

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ (٧٥) ﴾

وَأُوْلُو الأَرْحَامِ: ذوو القرابات .

أَوْلَى: بالميراث من الأجانب .

إن الإيمان بالله هو تصميم على العيش لله وبالله ، وأمثال هؤلاء غالباً ما يصيرون غرباء بين أولئك الذين يعيشون لأى شىء آخر غير الله - تعالى ، وهذه الغربة ربما تزداد وتشتد لدرجة أن أصحاب الإيمان يُضطرون معها إلى الهجرة ، حيث تتحول حياتهم كلها ، إلى سلسلةٍ من الكفاح والنضال مستمرةٍ، وهؤلاء هم المؤمنون الصادقون عند الله تعالى.. ثم يلحق بهم فى الوصول إلى درجة الإيمان الصادق أولئك الذين يشدون من أزرهم ، والذين يقومون بإيوائهم ويقدمون إليهم كل مساعدةٍ ممكنةٍ .

ويتضح من هذا أن المرء لكي يكون مسلماً حقاً ، يتعين عليه أن يقيم الدليل - على الحد الأدنى - على أحد شيئين : فإما أن يربط المرء نفسه بالإسلام على نحوٍ لا يتحرج معه حتى من تحطيم دنياه العامرة الجميلة التي أفنى عمره في تشييدها ، ومن تحويل عيشته الراضية الهادئة إلى عيشةٍ كلها تعب ونصب.. وإمّا أن يكون من الذين يمدون يد العون والنصرة لمن يأتونهم وقد ضحوا بكل ما يملكونه من أجل الإسلام ، وتتسع صدورهم حتى لجعلهم شركاء متساوين في أموالهم وعقارهم.

إن الإيمان الصادق لن يظفر به أحد إلا على مستوى «الهجرة» ، وإلا على مستوى «النصرة» ، وليس بعدهما إلى الإيمان الصادق من طريقٍ ثالثٍ.. وهذان الصنفان من البشر هما اللذان وعدهما الله بالمغفرة والرزق الكريم ، إن الجنة الآتية في اليوم الآخر هي عالم متناهٍ في الروعة ، إنها عالم كامل ، وبالطبع فليس يجدر بالسكنى في العالم الكامل إلا الذين هم بحد ذاتهم كاملون ، وليس هناك من أحدٍ يستطيع إقامة الدليل على مثل هذا الكمال بسبب نقائصه البشرية ، بيد أن الله - سبحانه وتعالى - قد وعد لمن نجح على أي من المستويين المذكورين أن يدخله الجنة بعد أن يمحو عيوبه ويغفر نقائصه بقدرته التي لا تحد.

ومع أن نصرة المتآخين على أساس الدين وحمايتهم أمر بالغ الأهمية ، غير أن ذلك لن

يطغى على حقوق ذوي الأرحام ، ولا على توزيع الميراث بينهم ، ولا قيمة عند الله البتة لأشياء يعدها شخص ما - بدافع هواه - أنها ضرورية لأعضاء أسرته ، ولكن قانون الله الذى قرره - سبحانه وتعالى - في كتابه عن حقوق ذوى الأرحام وتوريثهم ، سيظل قائماً على كل حالٍ ، ولن يقوم شيء ما عذراً دون تنفيذه كما هو من غير تبديل ولا تعديل.

سورة التوبة

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ .

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ: تبرؤ وتباعد واصل من الله .

عَاهَدتُّم: فنقضوا العهد .

أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ: أولها عاشر ذي الحجة .

غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ: غير فائتين من عذابه بالهرب.

وَأَذَانٌ: إعلام وإيذان .

يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ: يوم النحر سنة تسع .

وَرَسُولُهُ: أي بريء أيضا من المشركين .

لَمْ يَنقُصُوكُمْ: لم ينقضوا عهدكم بل وفوا به.

وَلَمْ يُظَاهِرُوا: لم يعاونوا .

إن فرصة السكنى والعيش في رحاب هذا العالم الراهن، التي أتيحت للإنسان ليست بناءً على أي حقٍ ذاتي، بل هي لمجرد الابتلاء والامتحان، فالله - سبحانه وتعالى - يبقى كل أحدٍ على ظهر هذه الأرض ما شاء، ثم إذا انقضت مدة امتحانه، تبعاً لعلمه تعالى، رفعه من هنا بإحلال الموت عليه ، وتظهر هذه المعاملة ذاتها بصورةٍ أخرى مع المخاطبين المباشرين للرسول، فإن الرسول يبذل قصارى جهده في تبليغ رسالته إلى الذين بُعث فيهم، ويقيم عليهم شهادة الحق إلى الحد الأقصى، والذين لا يؤمنون بالرسول، حتى - رغم انتهائه من أداء واجبه الدعوي على أكمل وجهٍ، يفقدون - بطبيعة الحال - حق الحياة على أرض الله هذه، حيث إنهم لم يُخلقوا هنا إلا من أجل الابتلاء، وقد اكتمل الابتلاء - الآن - بتمام إقامة الحجة، فعلام سيكون حق الحياة بعدئذٍ ؟! ولهذا السبب فعندما ينتهي الرسل من أداء واجبهم المنوط بهم، تنزل على المكذبين أية آفة مجحفة تقطع دابرهم وتستأصل شأفتهم .

وقد جرت هذه المعاملة ذاتها مع مخاطبي رسول الله ﷺ إلا أنهم لم تحل عليهم أية آفةٍ أو كارثةٍ سماويةٍ .. وإنما تم تنفيذ سنة الله عليهم في إطار الأسباب ، ففي المقام الأول تم إيصال الدعوة إليهم من خلال أسلوب القرآن الرفيع، وسلوك الرسول الأخلاقي الأسمى ، ثم أقيمت الحجة على أهل الشرك بتمكين أهل التوحيد من الظفر والغلبة عليهم ، وبالرغم من ذلك ما زال هؤلاء مصرّين على كفرهم وجحودهم، فقد وُجه إليهم الإنذار النهائي، باعتبارهم مرتكبي الخيانة والغدر باستمرارٍ، بأن أصلحوا أنفسكم في غضون أربعة أشهرٍ، وإلا فسيتم القضاء عليكم بسيوف المسلمين !!

ثم إن هذه المعاملة كلها قد أجريت على مبدأ التقوى وليس على مبدأ السياسة القومية، حيث تم إفحام المشركين أولاً في ميدان الدليل، كما أتيحت لهم فرصة النظر والتدبر في أمرهم لعدّة أشهرٍ من خلال إنذارٍ مسبقٍ، وما زال الباب مفتوحاً على مصراعيه حتى الساعة الأخيرة، لكي يتوب منهم من شاء، فينضمّ إلى عباد الله المنعم عليهم، وبعض القبائل التي لم تكن نقضت العهد، قد استُثنى أمرها من حكم الناقضين

للعهد...إلخ.

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

انسَلَخَ الأَشْهُرُ: انقضت أشهر العهد الأربعة.

وَاحْصُرُوَهُمْ: احبسوهم، أو ضيقوا عليهم وامنعوهم.

كُلَّ مَرْصَدٍ: كل طريق وممر ومرقب.

اسْتَجَارَكَ: بعد انسلاخ أشهر العهد.

القتال الذي أُمر به هنا، بعد مضي أشهر الإمهال الأربعة، لم يكن قتالاً عاماً، بل كان ذلك بموجب سنة الله، العذاب الذي أُنزل عليهم جزاء إنكارهم للرسول، فهؤلاء بإصرارهم على إنكار رسول الله- رغم قيام الحجة عليهم- كانوا قد جعلوا أنفسهم أهلاً لإحدى اثنتين: إما السيف وإما الإسلام، إن هذه سنة إلهية خاصة تتعلق بالمخاطبين المباشرين للرسول، وليس بعامة الناس، على أن هذا الأمر لم يُنفذ عليهم فجأةً حتى بعد إقامة الحجة، بل تم تأجيلهم في المرحلة الأخيرة لمدة أربعة أشهر، الانتقام لا يعرف العفو والصفح، والعملية التى يتم اتخاذها بدوافع الانتقام لا تهدأ ولا تقف إلا بعد أن ترى خصمها وقد صار إلى الهوان والدمار.

غير أن العملية التي اتخذت ضد مشركى العرب لم يكن مصدرها أي نوع من الانتقام، بل كانت تستند على مبدأ الواقعية، ولهذا، فبالرغم من صدور مثل هذا الأمر الصارم فيهم، مازالت الفرصة متاحةً لهم فى كل لحظةٍ، ليتخلصوا بأنفسهم من هذا العذاب إن شاؤوا، باعتناقهم الإسلام، ويتمتعوا بالتالى بحياة العز والكرامة فى رحاب

المجتمع الإسلامي، ويكفي لقبول توبة تائبٍ ما توافر شرطان عمليان فحسب هما : إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

وفي أثناء الحرب، لو أن أحد الأعداء أبدى رغبته في التعرف على الإسلام ودراسته، فيجب على المسلمين أن يؤمّنوه، ويأتوا به إلى بيئتهم، ويحاولوا تقريب رسالة الإسلام إلى فهمه وإقرارها في قلبه، وحتى لو أنه رفض قبول الإسلام، فمن واجبهم أيضاً أن يوصلوه إلى مكان أمنه واستقراره تحت حمايتهم، ومع أنه بموجب الحكم العام مباح الدم لكن لا يستساغ قتله بسبب عدم قبوله بالدين، إذْ ليس من الجائز أن نرفع السيف على مستأمنٍ ما دام في أماننا.

إن منح العدو فرصة كهذه، وحالة الحرب قائمة، أمر جد خطيرٍ، إذْ من الممكن جداً أن يندسّ أي جاسوسٍ من جواسيس العدو، باستغلال هذه الفرصة، في صفوف المسلمين، ويحاول استكشاف أسرارهم العسكرية، ولكن قضية الدعوة والتبليغ بالغة الأهمية في نظر الإسلام لدرجة أنه لم يغلق بابه - رغم هذا الخطر الدقيق .. وإذا كان شخص ما يمارس الظلم بسبب جهله وعدم معرفته، مهما كان ظلمه عظيماً، فإنه سيُقابل بكل إعفاءٍ وتنازلٍ ممكن، إلى أن يذهب جهله ويصل إليه نور العلم والمعرفة .

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ: فما أقاموا على العهد معكم .

يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ : يظفروا بكم .

لاَ يَرْقُبُوا: لا يراعوا.

إِلاًّ: رحما وقرابة أو حلفا وعهدا.

ذِمَّةً: عهدا أو أمانا أو ضمانا .

ما إن قويت شوكة المسلمين حتى عقدت قريش معهم معاهدات، بيد أنهم لم يكونوا بهذه المعاهدات راضين، حيث كان يخيل إليهم أن هذه المعاهدات التي عقدوها مع «عدوهم» إنما تنطوي على دمارهم المحقق، ومن ثم - فدائماً - ما كانوا يتحينون الفرصة للنيل من المسلمين أو تشويه سمعتهم - على الأقل - بنقض العهد عند أول بادرةٍ تلوح لهم، ومن الظاهر أنه إذا ظهرت مثل هذه الخيانة من قبل أحد الفريقين فلا يعود الفريق الآخر مسئولاً عن الالتزام بمعاهدةٍ ما .

هذه كانت حال قريش الذين كانوا يرون في امتداد نفوذ المسلمين زوال قيادتهم وسلطانهم ، على أن هناك عدداً من القبائل العربية - مثل بني كنانة، وبني خزاعة، وبني ضمرة - التي لم تكن مصابةً بتعقيداتٍ نفسيةٍ كهذه، قد عقدت مع المسلمين معاهداتٍ وظلت ثابتةً عليها دون خيانةٍ ولا غدرٍ، وحين تم إعلان الأربعة الأشهر كمهلةٍ نهائيةٍ حاسمةٍ، كان قد بقي لهم تسعة أشهرٍ من مدة عهدهم، فأُمر بإتمام عهدهم إلى مدته المضروبة ؛ لأن هذا هو مقتضى التقوى، ولكن بعد انقضاء هذه المدة، لم يعُقد مع أحدٍ أي معاهدةٍ من هذا النوع، وإنما خُيّر المشركون جميعاً بين اثنتين : إما الإسلام وإما الحرب.

إن الحياة الاجتماعية ترتكز دوماً على شيئين اثنين : القرابة والعهد أو الميثاق، فالمرء إنما يراعي حقوق ذوي الأرحام على أساس العلاقة الرحمية التي تربط بينهم، أما الذين

تم التعاقد بينه وبينهم فهو يراعى حقوقهم بموجب هذا العقد، على أن المرء حين تستولي على رأسه منفعة الدنيا وتستبد به بعض مصالحها العاجلة، فلا يلبث أن ينسى - أو يتناسى - هذين الأمرين معاً، حيث تشغله منافعه الخسيسة عن مراعاة حقوق ذوي القربى، كما تشغله عن كل العهود وشروطها - أيضاً، إن أمثال هؤلاء هم المتجاوزون الحد في الظلم والبغي، وهم عصاة مجرمون عند الله - تعالى، وإن أمكنهم أن يفلتوا في هذه الدنيا، فلن يتمكنوا من التخلص من بطش الله في الآخرة أبداً، اللهم إلا أن يتوبوا إلى الله، فيكفوا عن بغيهم وعدوانهم .. إن شخصاً ما، مهما كان ضالاً وسيئاً فيما مضى من عمره، إلا أنه إذا ما قبل الهداية وأصلح نفسه، صار عضواً عزيزاً من أعضاء المجتمع الإسلامي، وبعدئذٍ لا يعود بينه وبين غيره من المسلمين أي فارقٍ أو امتيازٍ .

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

نَكَثُوا أَيْمَانَهُم: نقضوا عهودهم المؤكدة بالأيمان .

غَيْظَ قُلُوبِهِمْ: غضبها ووجدها الشديد .

المراد بأئمة الكفر هم قريش، الذين كانوا - لمركزهم القيادي في جزيرة العرب - يقودون حركة المعارضة والمعاداة ضد الإسلام، ونعلم من موقف قريش السلوكى هذا أن حركة الإسلام حين تقوم، فأي طائفة تقف معارضة أولى لها؟ إنها الطائفة التي ترى في رسالة الحق الخالص إيذاناً بزوال سيادتها وكبريائها، تلك هي طبقة الأشراف التي

تمتلك العقل الذي يمكنها من تشكيك الناس في الدعوة الإسلامية بإثارة شبهاتٍ وأباطيل مفترياتٍ حولها، وهي التي يتوافر لديها من الأسباب والوسائل ما يعينها على وضع العراقيل والعقبات في طريق دعاة الإسلام - تثبيطاً لعزائمهم، وهي التي تجد نفسها من البأس والقوة بحيث تدبر المكائد والحيل لإخراج أنصار الحق من بيوتهم، حتى إنها هي التي تحظى بفرصٍ ومواقع نفوذٍ تستطيع معها أن تشعل نار الحرب ضد المؤمنين بالإسلام متى شاءت .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ ﴾ تنطوي على مغزى عميق جداً، فالذين ينهضون ويتحركون على أساسٍ من العداوة والعناد، لا تجدر وعودهم ومواثيقهم بالثقة، ولا يمكن الاعتماد عليها البتَّة، فإن نفوسهم لا تزال تغلي ثورةً وغضباً على خصومهم، وهم لذلك أبعد ما يكونون عن الثبات والاستقامة والوقار، وحتى لو أنهم عقدوا المعاهدة يوماً، فلا يقدرون- بحكم طبيعتهم ومزاجهم- على الإبقاء عليها لأمدٍ بعيدٍ، فلا تكاد تمضي مدة يسيرة من الزمان حتى ينكثوا بالعهد اندفاعاً وراء عواطفهم السلبية، وهكذا يتيحون لأهل الحق الفرصة لكي يقوموا باتخاذ إجراءٍ دفاعي ضدهم، والقضاء عليهم نهائياً بنصر الله، وبدون أن تُوجه إليهم تهمة بدء العدوان .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

وَلِيجَةً: بطانة وأصحاب سر وأولياء .

إن المرء حين يجعل من شيءٍ ما هدفاً لحياته في هذا العالم، فتواجهه ألوان شتى من المشاكل والمقتضيات في طريق الوصول إلى هدفه المنشود ذاك، ولو أن المرء كان محباً لهدفه مخلصاً له، لسخر كل قواه وطاقاته في اجتياز هذه المشاكل والوفاء بتلك المقتضيات، وذلك هو الجهاد .. وهذا الجهاد يمر به كل أحدٍ في هذا العالم، فكل امرئ يجد نفسه مضطراً إلى أن يقيم الدليل على بحثه وطلبه على مستوى الجهاد، وبعدئذٍ -

فقط - يمكنه أن ينجح في بحثه ويحصل على مطلبه، وإنما الفارق هو أن غير المؤمن يجاهد فى سبيل الدنيا، والمؤمن يجاهد في سبيل الآخرة .

وإن هذا الجهاد هو الذي يثبت مدى جدية المرء وإخلاصه في هدفه المنشود، وإن شخصاً يدعي الإيمان ليمر من حين إلى حينٍ بأحوال مختلفةٍ تكون امتحاناً لدعواه، فقد يتأثر قلبه بمشاعر البغض والحسد نحو أحد الناس، فيملي عليه إيمانه أن طهر قلبك من كل العواطف والمشاعر من هذا النوع!، وقد ترد على لسانه كلمات بذيئة، فيقتضي الإيمان أن يمسك لسانه، وقد يضطر في خلال التعامل مع غيره أن يدفع إليه حقاً لا ترضاه النفس، ولكن الإيمان يأمر بأنه لابد من إيصال الحق إلى صاحبه كاملاً ، جرياً على مبدأ العدل والإنصاف.

وهكذا فربما تصل دعوة الإسلام إلى منعطفٍ يتطلب فيه الإيمان أن نضحي بأنفسنا وأموالنا كلها من أجل إنجاح الدعوة الإسلامية، فاجتناب التقاعس أو الهروب في كل هذه المواطن، والاستمرار على الوفاء بمقتضيات الإيمان والإسلام، مهما كلّف الأمر من أبهظ الأثمان، هو الجهاد عينه .

وإذا أصبح شخص ما مجاهداً من أجل الإسلام على هذا النحو، صارت علاقته النفسية كلها مرتبطةً بالله ورسوله وأهل الإيمان، فهو لا يتخذ من أحدٍ سواهم وليجةً له، وأصل الكلمة : ولج يلج إذا دخل، من الولوج وهو الدخول، ويُطلق على كهف يستتر فيه المارة من مطرٍ وغيره «الولجة»، وجمعها أولاج وولجات، ومنها الوليجة بمعنى بطانة الرجل وصديقه الحميم المعتمد عليه .

وفي العالم الراهن إذا ما تبنى المرء أي هدفٍ أسمى وأوسع، فهو مطالب بالضرورة أن يكون وثيق الصلة بمركز هدفه، كامل الوفاء والولاء لقائده ، قوي الارتباط بإخوانه ومرافقيه في هذا الطريق، إن هناك نسبة من التلازم بين الشعور بالهدف وبين هذه الأشياء، وبدونها تكون دعوى الحياة الهادفة باطلةً كل البطلان .

وكذلك حين يختار المرء الدين في حياته بجدية وإخلاص، فسيحدث بعدئذٍ بالضرورة أن يصير الله ورسوله وأهل الإيمان وليجته وخاصته، وسيربط هو نفسه بهم ربطاً محكماً وشاملاً، فالله والرسول، والمؤمنون، بالنسبة إلى الشخص الذي يختار الدين بجديةٍ تامةٍ، يمثلون عناصر وحدةٍ واحدةٍ متماسكةٍ لا تقبل التجزئة أو التقسيم، وتزداد خطورة هذا الأمر إلى حدٍ بعيدٍ جداً، إذا نحن لاحظنا أن الممتحن لذلك هو الذي يعلم كل ما ظهر وما بطن، لا تخفى عليه خافية، والذي سوف يعامل كل شخصٍ باعتبار حقيقته وليس باعتبار سلوكه الظاهري!

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) ﴾

حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ: بطلت وذهبت أجورها لكفرهم .

سِقَايَةَ الْحَاجِّ: سقي الحجيج الماء .

كان المسلمون- في إبان نزول القرآن-مجتمعين حول رسول الله ﷺ بينما كان المشركون مجتمعين حول الكعبة، وحينئذٍ لم يكن رسول الله ﷺ قد أحيط بعد بتلك الأمجاد التاريخية التي نعرفها عنه اليوم، وإنما كان في أعين الناس بشراً من البشر، ومن

جانب آخر فقد كان المسجد الحرام رمزاً للعظمة والقداسة نتيجة تاريخ الألوف من السنين، ومن ثم كان المشركون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم خدام مركزٍ ديني مقدسٍ وعمّاره، وأما إذا صرفوا أنظارهم نحو المسلمين، فكان يبدو لهم، من خلال الظروف القائمة يومئذٍ، كما لو أن أناساً مغفّلين يندفعون وراء رجلٍ مجنون!! على أن ظن المشركين هذا لم يكن إلا باطلاً محضاً، حيث كان هؤلاء يمارسون خطأ بمقارنة الحقائق بالظواهر والأشكال.

إن سقاية زوّار المسجد الحرام، والقيام على تنظيفه وإنارته، وتحجيب الكعبة، وترميم فرش المسجد وجدرانه، كل ذلك أشياء عرضية، أنى لها أن تتساوى أو ترقى إلى درجة الإيمان الصادق وما يستتبعه من أعمالٍ؛ إذْ يظفر المرء بالإيمان بالله فيأخذ العيش في همّ الآخرة، ويسلم حياته وبضاعته إلى الله تعالى، ويتخذ من الله الواحد كبيراً له رافضاً كل مظاهر الكبرياء الأخرى دونه!! كلاّ.. كلاّ.

الظافرون بالصدق في الحقيقة هم الذين يظفرون به على مستوى المعنى أو المضمون، ليس على مستوى الشكل والقالب الخارجي، والذين تمتد علاقتهم بالصدق إلى حد الكفاح والتضحية من أجله، دون أن تقف عند حد المظاهر السطحية والأعمال العرضية البحتة.

وللعلاقة بالله نوعان: إحداهما: عقيدة رسمية تقليديةٍ، يقوم فيها المرء ببعض الأعمال الظاهرية، ولكنه لا يضحي بنفسه وماله في سبيل الله - تعالى: أما العلاقة الثانية فهي: أن يكون المرء جاداً ومخلصاً في إيمانه لدرجة أنه لا يلبث أن يترك في سبيله كل شيءٍ دُعي إلى تركه، ويبذل من أجله كل ما طُولب ببذله حتى ولو كان حياته وما ملكت يمينه كلها، وإن هذا الصنف الثاني من عباد الله هم الذين سيُمنحون بعد مماتهم جوائز غاليةً وإنعامات رفيعةً عند الله سبحانه وتعالى!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ

ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ: اختاروه وأقاموا عليه.

اقْتَرَفْتُمُوهَا: اكتسبتموها .

كَسَادَهَا: بوارها بفوات أيام المواسم .

فَتَرَبَّصُوا: فانتظروا .

إن من أثمن الأشياء عند الناس - بل أثمنها وأغلاها إطلاقاً - هى : أسرهم، وعقارهم، ومصالحهم الاقتصادية، فهم يعدون هذه الأشياء ذات الأهمية القصوى، وبالتالي يفضلونها على كل شيء آخر سواها، ويبذلون قصارى جهدهم من أجل الحفاظ عليها، إن حياةً من هذا النوع هي حياة دنيوية بحتة، وإن رجلاً كهذا إنما يدرك ما يدرك في إطار هذه الدنيا المحدودة فحسب، إذْ ليس له في العالم الأبدي القادم بعد الموت من نصيبٍ .

أما الحياة الثانية فهى - على النقيض من الحياة الأولى تماماً - تتمثل في أنه يولي المرء الأهمية القصوى لله ولرسوله وللجهاد في سبيله، ويكون دوْماً مستعداً للتخلى عن كل شيء آخر من أجلهم، وهذه الحياة الثانية هى حياة العبودية لله حقاً، ولأمثال هؤلاء وحدهم، ستفتح أبواب الجنان الأبدية في الآخرة .

إن ثمة حياة تقوم على أساسٍ من العلاقات والمصالح الدنيوية، وهناك حياة أخرى تقوم على أساس الإيمان، وعلى أيٍ من هذين الأساسين أقام المرء حياته، فإنما يكون ذلك دوْماً على حساب الأشياء الأخرى دونه، حيث يتعين عليه أن يتصل ببعض

الناس وينقطع عن بعضهم الآخر، ويركز اهتمامه كله في استبقاء بعض الأشياء وتنميتها، ويتخذ موقف اللامبالاة من بقاء بعض الأشياء الأخرى ونموّها، وأن تكون بعض أنواع الخسائر غير محتملة لديه لدرجة أنه يخاطر بحياته وينفق أحسن ما عنده من مالٍ ومتاع في تفاديها واجتنابها، بينما هو لا يقلق ولا يتأسف أي أسفٍ على خسائر من نوعٍ آخر يراها تقع أمام عينه لكونها غير ذات صلةٍ بالأساس الذي أقام عليه حياته .

وإن الدنيا يحصل عليها دوماً أولئك الذين يُسخِّرون من أجلها كل ما عندهم من رخيصٍ وغالٍ، ويركبون كل صعبٍ وذلولٍ، وهكذا فإن الآخرة لا يظفر بها كذلك سوى أولئك الذين يُضحُّون من أجلها بكل الأشياء الأخرى .

إن الترجيح أو الإيثار لأمر متناهٍ في الخطورة، حتى إنه ليكاد يكون هو الحد الفاصل بين إيمان المرء وكفره، وكما أن الكفار الصريحين أو المكشوفين ليس لهم النجاح والفلاح في عالم الله هذا، فكذلك لن يُكتب النجاح هنا أيضاً لأولئك الذين يدّعون الإيمان، ولكن إذا حزب الأمر، واكفهّر الجو، فلا يلبثون أن يفضلوا الدنيا على الآخرة، ومهما أحسن مدّعو الإيمان كهؤلاء الظن بأنفسهم، فإنهم سيعلمون أي مصير ينتظرهم حين يُظهر الله أمره وقضاءه فيهم !

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

بِمَا رَحُبَتْ: مع رحبها وسعتها .

سَكِينَتَهُ: طمأنينته وأمنته أو رحمته .

الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ: شيء قذر أو خبيث لفساد بواطنهم .

خِفْتُمْ عَيْلَةً: فقرا وفاقة بانقطاع تجارتهم عنكم .

إن غلبة المسلمين هي نتيجة تابعة لمجازاة الكفار على كفرهم، ولكن كفر الكافرين إنما يثبت ويتحقق قياساً على إسلام المسلمين، فلو أن المسلمين فقدوا إسلاميتهم، فإلى أي شيءٍ سيقاس إذن كفر الكافرين، وعلى أي أساسٍ سيعامل الله - سبحانه وتعالى - تلك المعاملة الثنائية الفاصلة التي ستكون بالنسبة إلى أحد الفريقين تكرمةً وإنعاماً ، وبالنسبة إلى الفريق الآخر عذاباً وتنكيلاً ؟!

لقد استطاع المسلمون أن يقهروا قريشاً بنجاحٍ واقتدار ويدخلوا مكة فاتحين، وذلك في شهر رمضان سنة ٨ من الهجرة، ولكن في شهر شوال التالي من السنة ذاتها، لم يلبثوا أن هُزموا في بداية المعركة مع قبيلتي هوازن وثقيف الوثنيتين، على حين أن عدد المسلمين عند فتح مكة كان يبلغ عشرة آلافٍ، وعند الالتحام بهوازن وثقيف كان اثنى عشر ألفاً !!

وكان السبب في ذلك أن المسلمين عند لقائهم مع قريش كانوا قد خرجوا اعتماداً على الله تعالى وحده، ولكن عند خروجهم لمواجهة هوازن وثقيف أصابهم الغرور القائل: إننا فاتحو مكة، ويضم معسكرنا اليوم اثني عشر ألفاً، إذًا فلا أحد يستطيع الآن أن يهزمنا!! ولقد كان النصر حليفهم حين كانت ثقتهم بالله وحده، ولما وضعوا الثقة في أنفسهم باؤوا بالفشل والهزيمة ..!!

إن الاعتماد على الذات يبعث في داخل المرء مشاعر العجب والخيلاء، مما يجرّه إلى عدم الاكتراث للحقائق الخارجية، فهو يتهاون في التمسك بالنظام، وهو لفرط ثقته

بذاته، يأخذ في اتخاذ خطواتٍ غير واقعيةٍ، مما لا يؤدي في عالم الأسباب هذا إلى شيءٍ سوى الفشل والهزيمة ، وعلى العكس من ذلك فإن الثقة بالله ثقة بأكبر قوة في هذا الكون، وهي توقظ في داخل المرء مشاعر التواضع، مما يجعله واقعياً إلى أقصى الحدود، وليس من شك في أن الواقعية هي أصل كل نجاحٍ على اختلاف أنواعه .

وعندما نزل الحكم بمنع دخول المشركين في منطقة الحرم، سرى القلق في نفوس المسلمين، فإن الجزيرة العربية، لكونها بلداً غير زراعي، كان اقتصادها يعتمد على التجارة، والتجارة تقوم دوْماً على أساس العلاقات المتبادلة ؛ فخيِّل إلى المسلمين أنه إذا انقطع مجيء المشركين إلى الحرم، انقطعت كل الصلات التجارية القائمة معهم، لكنهم لم يتفطنوا إلى إمكان أن يتحول مشركو اليوم إلى المسلمين غداً، وقد تحقق هذا الإمكان فعلاً، فبدخول القبائل العربية في دين الإسلام أفواجاً، استعادت النشاطات التجارية في الجزيرة حيويتها من جديد، وأيضاً فقد نتج عن هذه التضحية البدائية أن أصبح الإسلام آخر الأمر ديناً دولياً، والأبواب الاقتصادية التي بدت وهي تنغلق على المستوى المحلي، ها هي ذي قد انفتحت على المستوى الدولي العالمي !

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

يُعْطُوا الجِزْيَةَ: الخراج المقدر على رؤوسهم .

عَن يَدٍ: عن انقياد أو عن قهر وقوة .

وَهُمْ صَاغِرُونَ: منقادون أذلاء لحكم الإسلام.

يُضَاهِئُونَ: يشابهون في الكفر والشناعة .

أَنَّى يُؤْفَكُونَ: كيف يصرفون عن الحق بعد سطوعه.

أَحْبَارَهُمْ: علماء اليهود .

وَرُهْبَانَهُمْ: متنسكي النصارى .

أَرْبَاباً: أطاعوهم كما يطاع الرب .

إن من آثار الإيمان - إذا كان حياً - أن المرء ينسب كل حادثٍ أو واقعة يمر بها إلى الله - سبحانه وتعالى، فهو لا يكاد يفهم شيئاً ما إلا إذا حكم عليه بالقياس إلى الله تعالى، فهو لا يدرك رائحة الورد مالم يدرك فيها عبير الله، وهو لا يكتشف الشمس ما لم يتوصل إلى موجدها وكل عظمةٍ وكبرياء، حيثما ظهرت، تبدو له هبة الله، وكل خيرٍ أو حسنةٍ، أينما وُجد، يذكره بإحسان الله وكرمه ، وعلى العكس من ذلك فلو أن علاقة المرء بالله ضعفت وانحطت إلى درجة العقيدة الوهمية، لتحول الله في وعيه وشعوره الحي إلى شيء مجهولٍ، وبالتالي فهو يبدأ يقيس الله على أشياء الدنيا المرئية المحسوسة، وهذا الصنف الثاني من الناس ينتهي به الأمر إلى أن يأخذ في النظر إلى الخالق من منظار تلك الأشياء الدنيوية التي يعرفها، وهو بذلك لا يلبث أن يستنزل الخالق إلى مستوى المخلوق .

وقد وصل اليهود والنصارى إلى هذا الدرك ذاته في زمن فسادهم وانحطاطهم، حيث انحصر الله عندهم – الآن - فى إطار المعتقدات الوهمية والتصورات الخرافية، وبالتالي أخذوا يرفعون أحبارهم ورهبانهم «المنظورين أو المرئيين» إلى الدرجة التي لا يستحقها إلا الله رب العالمين وعندما رأى هؤلاء أن الشعوب اليونانية والرومانية قد

اتخذت من الشمس إلهاً، وافترضت لها ابناً، بدا لهم أن هذا هو اللقب الأسمى الذي ينبغي أن يخلعوه على أكابرهم أيضاً، فتناولوا ما ورد في كتبهم السماوية من كلمتي «الأب»، و«الابن» بتأويل مزعوم باطلٍ، وشرعوا ينادون الله بـ «الأب» ورسولهم بـ «الابن»، على حين أن الله واحد أحد، فرد صمد، وهو منزه عن كل تشبيهٍ ومماثلةٍ، وهو وحده المستحق لكل أنواع التعظيم والعبادة بلا شريكٍ .. لقد نال بنو إسرائيل من رسول الله ﷺ واعتدوا عليه كما نال منه المشركون واعتدوا عليه، غير أن كلاً من الفريقين عُومل معاملةً خاصةً، فبينما تم تخيير المشركين بين الإسلام أو القتال، أمر بالنسبة إلى أهل الكتاب أن يتركوا وشأنهم فيما لو كانوا راضين بإعطاء الجزية، أي بقبول الطاعة السياسية .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

لِيُظْهِرَهُ: ليعليه .

لقد أعلن الله – سبحانه وتعالى – في هذه الآيات عن قراره الدائم بأنه سيحافظ على دينه إلى يوم القيامة ؛ فلن يحدث الآن، كما حدث فيما مضى من القرون، أن تعبث أهواء البشر بدين الله، فيُفقدوه أصالته ونقاءه بإضافاتهم، أو تنجح قوة ما في القضاء عليه ..

إن الله – سبحانه وتعالى – عندما أسكن الإنسان على وجه الأرض، زوّده بهدايته، ولكن الناس لم يلبثوا أن أصيبوا بالغفلة وحب الدنيا في العصور المتأخرة، فتناولوا كلمات الله بالتحريف والتبديل تبعاً لأهوائهم، فكل ما كان يشتهيه الناس بأنفسهم لأنفسهم نسبوه إلى الله، وضموه إلى الكتاب الإلهي .

ثم أرسل الله نبياً آخر، لكي يطهر دين الله من الإضافات البشرية ويقدّمه في صورته

الأصلية النقية الناصعة، غير أن الناس لم يلبثوا أن غيّروه هو الآخر فى الأزمان التالية، وظلت هذه الظاهرة تتكرر مرة بعد أخرى، إلى أن قرر الله نهائياً أن يرسل آخر رسله، ويخلق عن طريقه ظروفاً وأحوالاً تمكن الدين الإلهى من الاحتفاظ بهيئته الأصلية الأولى إلى الأبد، وقد تحقق هذا الإنجاز العظيم من تاريخ الرسالات النبوية على يد النبي العربي - صلوات الله وسلامه عليه - وعند بعثة رسول الله ﷺ كانت شعوب العالم تؤمن بشتى الأديان المزعومة، فكان مشركو العرب يؤمنون بدينٍ يسمونه ((دين إبراهيم))، وكان لدى اليهود دين يطلقون عليه ((دين موسى))، وكان النصارى يؤمنون بدينٍ سموه ((دين المسيح)) .. إلخ ، وقد كانت كل هذه الأديان طبعاتٍ أو نسخاً مصطنعةً مزوّرةً لدين الله، والتي كانوا يصفونها - كذباً وافتراءً - بالدين المنزل من عند الله تعالى، وقد رفض الله تعالى كل هذه الأديان بحذافيرها، ومكّن لدين النبي العربي باعتباره النسخة الوحيدة المعتمدة لدين الحق إلى قيام الساعة .

إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي لم يطرأ على متنه السماوي أي تغيير منذ نزوله حتى اليوم، بينما تعرضت الأديان الأخرى كلها للتحريفات البشرية، وبالتالي فقدت صورتها الأصلية الأولى، والإسلام هو الدين الوحيد، من بين سائر الأديان الأخرى كلها فقد صارت عاريةً من المعقولية التاريخية، والإسلام هو الدين الوحيد الذي توجد أحكامه وتعاليمه كلها في لغةٍ حيةٍ، في حين أن الكتب الأساسية الأولى لسائر الأديان الذي يعتبر معقولاً وموثوقاً به من الناحية التاريخية ، أما الأخرى، تُوجد في لغاتٍ، باتت في العالم اليوم ميتةً، إن نور الدين الذي أضاءه الله تعالى في صورة الإسلام، لم يقل ضياؤه قط، ولا تمكن أحد من إطفائه، فهو لا يزال مشرقاً ساطعاً بين يدي العالم، ومازال محتفظاً بسموه المبدئي فوق كل دينٍ آخر سواه!

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا

يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

إن الطريقة المشروعة لأخذ مال الغير هي أن يُؤخذ بالحق ؛ يعني أن يحصل المرء على مال غيره عوضاً عن أية خدمةٍ واقعيةٍ يقدمها إليه، أو منفعةٍ حقيقية ينفعه بها، أما أخذ مال الغير بالباطل فهو ما يتم الحصول عليه عن طريق الغش والخديعة والاحتيال، وهذه الطريقة الثانية محرمة وجالبة للغضب الإلهي .

وأكل مال الآخرين بالباطل هو ما يُطلق عليه اليوم «الاستغلال» ، وقد كان رؤساء اليهود وأكابرهم الدينيون يستغلون أتباعهم الجهلاء استغلالاً دينياً مكثفاً، حيث كانوا قد نشروا بين العوام قصصاً كاذبةً من شأنها أن تدفعهم إلى تعليق آمالٍ غير عاديةٍ على الشيوخ والصالحين، وبالتالي اعتبار هؤلاء القصاصين أيضاً على جانبٍ عظيمٍ من الصلاح والورع كسلفهم، فيختلفوا إليهم طلباً للدعوات، والتماس البركات ويقدموا إليهم ضروب الهدايا والنذور، وقد كانوا يتسلّمون من الناس أموالاً طائلةً باسم خدمة الدين، بينما الدين الذي كانوا ينشرون تعاليمه بين الناس كان ديناً مختلقاً وضعوه من عند أنفسهم، ولم يكن في حقيقته ديناً منزلاً من عند الله تعالى، وكانوا يتلقون مبالغ ضخمةً من التبرعات بعنوان «إحياء الملة اليهودية»، في حين أنهم لم يكونوا يعنون بعنوان الإحياء الملّي هذا سوى إلهاء الجماهير بالأماني والأحلام اللذيذة، حتى يستطيعوا استخدامها لصالح قيادتهم، وكانوا يبيعون للناس تعاويذ ورقى زاعمين لهم أنها تنطوي على أسرارٍ وفوائد مدهشةٍ على حين أنهم لم يكونوا يعتمدون على هذه التعاويذ والرقي في حل قضاياهم الذاتية الحساسة .

إن المال الذي يقع في يد المرء لا يجوز صرفه إلا في وجهين : أولاً : أن ينفق لتغطية حاجاته الواقعية . ثانياً: أن يعطي ما زاد عن حاجته في سبيل الله، وأما ما عدا ذلك من

وجوه التصرف في المال فإنها مؤدية بالمرء إلى الشقاء والعذاب، سواء كان يبذر ماله، أو يكنزه .

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم.

الدِّينُ القَيِّمُ: الدين المستقيم دين ابراهيم ﷺ .

النَّسِيءُ: تأخير حرمة شهر إلى آخر .

لِّيُوَاطِئُوا: ليوافقوا .

إن الأحكام الشرعية يمكن أن يقوم بها كل شخصٍ على حدة، ولكن المطلوب عند الله – تعالى – أن يؤديها أهل الإيمان مجتمعين، حتى تتولد فيهم روح الاجتماع والتضامن، وللوصول إلى هذا الهدف ذاته تم تعيين أوقاتٍ وتواريخ محددةٍ لتأدية مختلف العبادات، ولو أن هذه التواريخ حُدّدت باعتبار التقويم الشمسي، لجاءت مرتبةً ترتيباً روتينياً، بحيث يحل شهر الصيام أو موسم الحج مثلاً في فصلٍ واحدٍ معين بصفةٍ دائمةٍ، غير أن الروتين أو الرتابة تولد الجمود ، وبالتطور والتحول تستيقظ قوى عملية جديدة، ومن ثم فقد أُخذ بالتقويم الطبيعي التابع لمنازل القمر فيما يتصل بالنظام الاجتماعي لتأدية الأحكام الشرعية .

وبسبب الأخذ بهذه القاعدة تختلف أيام الحج من فصلٍ إلى فصل، حيث تقع تارةً في الشتاء وتارةً في الصيف. وفي قديم الزمان، إذْ كان اجتماع الحج يتمتع بأهميةٍ تجاريةٍ عظيمةٍ جداً، فقد اعتبر حلول موسمه في فصولٍ مختلفةٍ مُخلاً بالنشاط التجاري، وبما أن العرب في الجاهلية لم تكن المصالح الدينية أكثر أهمية لديهم من المصالح الدينوية، فلذلك فكروا في أن يختاروا طريقةً تقع معها أيام الحج دوماً في فصلٍ واحدٍ ملائمٍ لهم، وهناك تعرفوا على حساب الكبس - الرائج لدى اليهود والنصارى -وقد أعجبوا به لكونه يتفق تمام الاتفاق مع أهوائهم، فلم يلبثوا أن تناولوه بالتطبيق في مجتمعهم كذلك، وهو يعني تأخير الشهور بعضها عن بعضٍ، كجعل المحرم مثلاً في موضع صفر والعكس .

ومن خلال طريقة النسىء هذه استفاد العرب فائدتين : تتمثل إحداهما: فى التوفيق أو الملاءمة بين موسم الحج وبين المقتضيات التجارية. أما الفائدة الثانية: فهي استباحة القتال فى الشهر الحرام بجعل شهرٍ غير محرمٍ مكانه. ومع أن العرب كانوا على علمٍ بسنة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - إلا أن سيطرة المقاصد التجارية والمقتضيات القبلية على أذهانهم، جعلتهم يستحسنون طريقة النسىء على سنة إبراهيم، ويختارونها لتنظيم شئونهم ومعاملاتهم الاجتماعية .

وقوله : ﴿ وَقَـٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ يعني أن الكفار يتحدون على عدم الخوف من الله، فلتتحدوا أنتم على خوف الله وتقواه، وأنهم يرتبط بعضهم ببعض للوصول إلى الأهداف السلبية، فلترتبطوا مثلهم للوصول إلى الأهداف الإيجابية، وأنهم يصيرون قلباً واحداً لأجل الدنيا، فلتكونوا أنتم قلباً واحداً لأجل الآخرة!!

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ

إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ .

انفِرُوا: اخرجوا غزاة (تبوك) .

اثَّاقَلْتُمْ: تباطأتم وأخلدتم .

فِي الغَارِ: غار جبل ثور قرب مكة.

لِصَاحِبِهِ : أبي بكر الصديق ﷺ .

نزلت هذه الآيات في غزوة تبوك، التي وقعت في العام التاسع من الهجرة، ومن خلال التصرفات التي ظهرت من قِبل منافقي المدينة إذْ ذاك، يتبين لنا بوضوحٍ أي موقفٍ سلوكي يتبناه ضعفاء الإيمان في المواقع الخطيرة الحاسمة، إذا ما اندسُّوا إلى المجتمع الإسلامي!؟

وواقع الأمر أن العلاقة بالإسلام لها درجتان : إحداهما: أن يرتبط ولاء المرء كله بالإسلام وحده ، وأن يصبح هو قضية موتٍ أو حياةٍ بالنسبة إليه. أما الدرجة الثانية فهي: أن يكون إقرار المرء بالإسلام إقراراً ظاهرياً فقط، بينما تكون رغباته واهتماماته الحقيقية متعلقةً بأي شيءٍ آخر سواه ..

إن الصنف الأول من الناس هو المؤمن الصادق الإيمان، أما الصنف الأخير فهو الذي أطلق عليه القرآن مصطلح ((المنافق)) ومن شأن المؤمن أنه لا يزال ثابتاً على الإسلام حتى في لحظات الكفاح والتضحية المريرة، تماماً كما يكون متمسكاً به في الأحوال العادية، وعلى النقيض من ذلك ، فإن المنافق تراه متقدماً جداً في ممارسة

التدين الظاهري، أو التظاهر بإسلام لا يكلف عناءً أو مشقةً . . ولكنه لا يلبث أن يتراجع إلى الوراء ويغيب عن الأنظار إذا كان الوضع يتطلب الوفاء بمقتضيات الإسلام على مستوى الكفاح والتضحية .

والسبب في هذا الفارق هو أن المؤمن يتطلع إلى الآخرة، بينما يتطلع المنافق إلى الدنيا، والمؤمن لا يرى أية قيمةٍ للدنيا وما فيها بإزاء نعيم الآخرة الأبدى؛ ولذا فإذا حال شيء من أشياء هذه الدنيا دون طريقه، ضرب عنه صفحاً، وتقدم بخطًا ثابتة نحو الدين . أما المنافق فهو يفضل إسلاماً يمنحه شرف «الإسلامية» من غير إخلال بدنياه، ومن ثم فإذا ما ووجه بوضع يُدعى فيه إلى التمسك بالإسلام على حساب الدنيا، مال إلى الدنيا، ولو ترتب على ذلك انفلات حبل الإسلام من يده !!

ومع أن لحظات الصراع بين الإسلام وبين غير الإسلام، التي تطرأ في هذا العالم، تبدوا للناظرين صراعاً يدور بين طائفتين من البشر، إلا أنه من حيث حقيقته، يكون أمراً إلهياً، ففي مثل هذه المواقع كلها يكون الله تعالى واقفاً إلى جانب الإسلام، وإنما يتم إحداث واقعة كهذه في مظهر الأسباب، لكي يُمنح شرف خدمة الدين أولئك الأفراد وحدهم، الذين كانوا قد فوضوا أمر أنفسهم كله إلى الله سبحانه وتعالى!

﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

خِفَافاً وَثِقَالاً: على أية حال كنتم .

عَرَضاً قَرِيباً: مغنما سهل المأخذ .

وَسَفَراً قَاصِداً: متوسطا بين القريب والبعيد .

الشُّقَّةُ: المسافة التي تقطع بمشقة .

من بين أصناف المنافقين في المدينة، كان هناك صنف يضم مسلمين ضعفاء العقيدة والإيمان، وقد أقرَّ هؤلاء بالإسلام باعتباره الدين الحق، وكانوا فى حياتهم العملية، يقومون بتنفيذ كل ما لا يتعارض مع مصالحهم الدنيوية من تعاليم الإسلام وأحكام الشريعة وأما إذا اصطدم مقتضى الإسلام ببعض مقتضياتهم الدنيوية، آثروا الأخير على الأول وقد كان المؤمن - في مجتمع المدينة يومذاك - لقباً يطلق على شخصٍ يتمسك بالإسلام على مستوى التضحية، وبالمقابل كان المنافق كل من قعدت به همته عن الذهاب إلى حد التضحية من أجل الإسلام !!

وقضية «تبوك» صورة رمزية ؛ تدلنا على من هو مؤمن عند الله ممن هو منافق عنده تعالى ؛ إذْ كان النفير آنذاك لا للزحف إلى أية قبيلة محدودة العدد والعدة، بل إلى قوةٍ عسكرية جبارةٍ ومنظمة كالروم، وكان الوقت صيفاً شديد الحرارة، وكانت الثمار والزروع على وشك النضج والحصاد، والطريق إلى مشارف الشام النائية جد عسيرٍ مليء بضروبٍ شتى من المكاره والعقبات، ثم إن المسلمين لم يكونوا جميعاً على وضعٍ واحدٍ من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، ففيهم أصحاب سعةٍ بإمكانهم أن يعدّوا لهذا السفر وما وراءه العدة اللازمة، وفيهم مُعْدمون لا يملكون من مؤونة السفر ولا من عتاد الحرب شيئاً، وفيهم أحرار يستطيعون أن يفعلوا ما يريدون، وفيهم مغلوبون على أمرهم ؛ متورطون في ظروفٍ لا تسمح لهم بأن يفعلوا ما يريدون .. إلخ .

على أن الأمر الإلهي صدر عاماً بأن يخرج الجميع على أية حالٍ، ولا يقيم أحد لأي عذرٍ وزناً، والسبب في ذلك هو أن العبرة في الميزان الإلهي لا تكون بالكمية أو المقدار، بل بأن يقدم المرء كل ما عنده من رخيصٍ أو غالٍ، وهذا فى الحقيقة، هو ثمن الجنة، مهما كان يبدو للناظرين متواضعاً ضئيلاً، أو قليل المقدار .

وآية المنافق الخاصة أنه إذا رأى أن هناك شرفاً لخدمة الإسلام عظيماً يمكنه الحصول

عليه من خلال سفرٍ ليس بذي عناءٍ أو مشقةٍ، استعد له في الحال، وأما إذا كان السفر شاقاً، يخلو من أية إمكانية قطعية ظاهرة لإحراز النجاح أو المجد والظهور، لم يجد في نفسه رغبةً في القيام بمهمة دينية كهذه .

ولو أن مهمةً دينيةً حقيقيةً كانت على الأبواب، والمرء يحاول الابتعاد عنها بناءً على بعض الأعذار، فإن ذلك لأوضح دليلٍ على أن المرء لم يعط لدين الله في خريطة حياته المقام الأعلى؛ إذْ لا يعني تقديم العذر سوى أن هناك شيئاً آخر هو أكثر أهمية وأعظم قيمة لدى المرء من الهدف المطروح، ومن الواضح أن اعتذاراً كهذا من شأنه أن يلغي مصداقية المرء في عين الله، ناهيك أن يجعله في عداد المقبولين المقربين !! والنفاق – في الحقيقة – هو أن تحتفل بالعباد مع عدم احتفالك بالله، ولو أن المرء علم قدرة الله علم اليقين، لما سلك هذا المسلك الشائن أبداً !

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

انبِعَاثَهُمْ: نهوضهم للخروج معكم .

فَثَبَّطَهُمْ: فحبسهم وعوقهم عن الخروج معكم .

المنافق هو الذي يكون في مقدمة الصفوف فيما يتصل بجوانب الإسلام النافعة أو غير الضارة، وأما إذا رأى مصالحه الذاتية تتعرض لخطرٍ ما، نكص على عقبيه، والشيء الذي يتذرع به أمثال هؤلاء الضعفاء ومرضى القلوب، في مناسباتٍ كهذه، هو

الاعتذار، حيث إنهم يحاولون ستر بطالتهم وهروبهم من الواجب بالتبريرات الجميلة الخلابة، ولو أن إمام المسلمين قبل أعذارهم، نظراً لبعض المصالح الاجتماعية، لطاروا فرحاً وسروراً بأن محاولتهم لإخفاء قصورهم وبطالتهم في ستارٍ من الألفاظ قد تكللت بالنجاح!، غير أنهم ينسون أنهم لا يتعاملون أصلاً مع أي إنسانٍ، بل مع الله - عز وجل - وهو يعلم جيداً بحقيقة كل فرد من البشر، وربما يكشف الله عن أسرار أمثال هؤلاء في هذه الدنيا قبل الآخرة، حيث ستُكشف سرائر الناس ومكنونات ضمائرهم كافةً !!

لو أن إحدى بناتك اقترب موعد زواجها، أو أصيب أحد بناتك بمرضٍ خطيرٍ، فإنك لا تحتفظ عندئذٍ بنفسك أو بثروتك دونهم؛ إذْ ليست حياتك وثروتك إلا لكي تضحي بها في مناسبة كهذه، حتى توفر السعادة والهناء لأفلاذ كبدك، إن وقتاً كهذا، بالنسبة لأحد الآباء، يكون وقت المبادرة إلى التضحية، وليست وقت التماس المعاذير والتعللات .

وهكذا هو أمر الدين، فالشخص الذي يكون جاداً ومخلصاً في دينه، لن ينتحل الأعذار أبداً فيما إذا دُعي يوماً إلى التضحية من أجل الدين، فالعواطف الإيمانية السامية التي كانت تجيش وتضطرب في صدره، كأنما كانت تنتظر هذه الفرصة، إذْ يتمكن فيها من أن يقيم الدليل على صدق ولائه وكمال وفائه لله من خلال التضحية بروحه وبكل ما ملكت يداه، فما الذي سيدفعه إذن إلى انتحال الأعذار بعد أن سنحت له هذه الفرصة الطيبة التي طال انتظاره لها!؟

إن المؤمن هو إنسان ممتلئ الفؤاد بخوف الله، وعاطفة الخوف أقوى العواطف البشرية إطلاقاً، فهي لا تلبث أن تتغلب وتسيطر على سائر العواطف والمشاعر الأخرى، ويقف المرء تجاه الشيء الذي تربطه به علاقة الخوف والحذر، موقفاً متناهياً في الجدية والواقعية، ومن ثم فإذا أصبح شخص ما مؤمناً بالله على مستوى الخوف، لم يصعب عليه أن يدرك أي نوعٍ من رد الفعل ينبغي عليه أن يظهره في أية مناسبة، وإنما

يقع المرء فريسة الارتياب والتردد بشأن التضحية من أجل الآخرة لكون منفعتها غير ماثلةٍ للعيان، غير أن تمزيق حجاب الشك والارتياب هذا هو الامتحان الحقيقي المفروض على المرء في هذا العالم !

﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

خَبَالاً: شرا وفسادا ، أو عجزا وجبنا.

وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ: لأسرعوا بينكم بالنمائم لإفساد ذات البين .

يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ: يطلبون لكم ما تفتنون به .

وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ: دبروا لك الحيل والمكائد .

إن اعترافك بخطئك يعني التسليم بصغر شأنك إزاء غيرك، وهذا النوع من الاعتراف أصعب عملٍ على أي إنسانٍ، ومن ثم فلا يزال المرء يحاول دوماً أن يقيم الدليل على صحة موقفه بأي وجهٍ من الوجوه، وذلك هو ديدن المنافقين في كل زمانٍ ومكانٍ، حيث إنهم لا يزالون يتحينون الفرص للطعن في المؤمنين المخلصين، ليتمكنوا من إثبات أنهم أكثر منهم رشداً، وأسد منهم رأياً، وأهدى سبيلاً، بحسب زعمهم .

وقد كانت جهود المنافقين في المدينة كلها موجهةً دائماً إلى هذا الغرض نفسه. ولنتذكر - مثلاً - واقعة هزيمة المسلمين في غزوة أحد، كيف اتخذ منها المنافقون القاعدون في المدينة - أي الذين لم يشتركوا في الغزوة فعلاً - مثار الهزء والسخرية من رسول الله ﷺ فأخذوا في الدعاية ضده قائلين: إنه لا تتوفر لديه الخبرة بشئون الحرب، وإنما كان إقدامه هذا مغامرةً طائشةً مصدرها التهور، وبالتالي فقد أورد شبابنا، بقيادته الخاطئة، موارد الهلاك والدمار دون جدوى !!

إن أفراداً قلائل جداً من البشر يستطيعون تحليل الأمور بدقةٍ وعمقٍ ، وأكثر الناس يكون عادةً سطحي التفكير، سريعي التأثر بأي كلامٍ يُوجه إليهم في ثوب قشيبٍ أنيقٍ، وبناءً على ذلك ، فإن تواجد المنافقين بين ظهراني جماعةٍ مسلمةٍ، يتسبب دوماً في إحداث الضعف والخلل في صفوف تلك الجماعة.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

ائْذَن لِّي: في التخلف عن الجهاد .

وَلاَ تَفْتِنِّي : لا توقعني في الإثم بالمخالفة لأمرك .

هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا: ما تنتظرون بنا.

الْحُسْنَيَيْنِ: النصرة أو الشهادة .

عندما أُعلن بالنفير العام لغزوة تبوك، جاء إلى رسول الله ﷺ رجل من منافقي المدينة يُدعى «الجد بن قيس»، فقال معتذراً: اعفني من هذه الغزوة، لأنها بلاد الروم، وإني أخشى إن رأيت هناك نساء بني الأصفر - الروم - أن أُفتن؛ غير أن التقدم بالمعذرة في مثل هذه المواقع هو سقوط في الفتنة، ففي المواقع المصيرية الحاسمة ينبغي أن تضطرم في نفس المرء عاطفة التفاني والفداء لأجل الدين، وليس الميل إلى التخلف والقعود بافتعال الأعذار والتعللات، ومما يزيد الأمر سوءاً أو شناعةً أن يُصبغ عذر كهذا بصبغةٍ دينية وأخلاقية، حيث إنه إضافة المكر والخداع إلى جانب الفرار من الواجب .

وإن هذا النوع من المزاج إنما يتولد في داخل المرء لكونه أكثر حباً وإيثاراً لدنياه منه للآخرة، وفي المواقف الخطيرة يمتنع أمثال هؤلاء عن التقدم في سبيل الدين، ثم إذا رأوا أتباع الحق المخلصين يتعرضون لبعض الخسائر أو النكبات، بسبب تدينهم ، غمرتهم موجة من الفرح قائلين : إننا كنا موفّقين حقاً ؛ إذْ أخذنا الحذر والاحتياط ! وعلى العكس من ذلك فلو أن أتباع الحق المخلصين صمدوا في مواجهة الأخطار، وظلوا يغالبونها حتى يغلبوها بنجاح، امتلأت قلوب هؤلاء حزناً واستياءً؛ لأن واقعة كهذه تدل دلالةً صارخةً على أن الموقف الذي تبنوه كان خاطئاً كل الخطأ .

إن الفشل أو الإخفاق كلمة لا مدلول لها بالنسبة إلى أهل الإيمان الصادقين في هذا العالم، فإن نجاحهم يكمن في رضا الله عنهم، وذلك لما هم يتمتعون به في كل الظروف والأحوال، وإن أصيب المؤمن بمصيبةٍ ما، ازداد قلبه بذلك خشوعاً وإنابةً إلى الله، وإن أتيحت له راحة ما، استيقظت في نفسه مشاعر الشكر والامتنان، مما يؤهله للمزيد من عنايات الله ..

وقوله ﴿ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ يبدو كأنه من جملة كلام المؤمنين، غير أنه في الحقيقة من قبل الله تعالى، فالله - سبحانه وتعالى - يقول لهؤلاء في أسلوبِ تهديد : إنكم - يا معشر المنافقين - تنتظرون لأهل الحق الهلاك والدمار، في حين أن الله قدر لهم النجاح الأبدي، وأما مصيركم المحتوم فهو أن يُقذف بكم في هاوية الخزي والعذاب الأبديين بعد إقامة البرهان الجلي على جرائمكم الشنيعة !!

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ

﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾

وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ: تخرج أرواحهم .

قَوْمٌ يَفْرَقُونَ: يخافون منكم فينافقون تقية .

مَلْجَـًٔا: حصنا ومعقلا يلجؤون إليه .

مَغَٰرَٰتٍ: غيرانا في الجبال يختفون فيها .

مُدَّخَلًا: سربا في الأرض يتجحرون فيه .

يَجْمَحُونَ: يسرعون في الدخول إليه .

لقد حظي الإسلام، عقب دخوله إلى المدينة، بقبولٍ عامٍ وانتشارٍ واسعٍ بين سكانها، وقد كان أكثر هؤلاء آمنوا به عن صدقٍ وإخلاصٍ، باستثناء عددٍ منهم تظاهر باعتناق الإسلام مجاراةً للجو السائد، غير أنه كان خلْواً من ذلك الخضوع الداخلي والاستسلام النفسي الذي ينتج عن الإيمان الحقيقي والعلاقة الصادقة بالله تعالى، وهؤلاء هم الذين يُعرفون بـ ((المنافقين)) .

ومعظم هؤلاء المنافقين كانوا من أثرياء المدينة، وقد كان ثراؤهم هذا هو السبب الرئيسي لنفاقهم، فالشخص الذي لا يملك شيئاً ليفقده، ربما يكون أسرع استجابةً لنداء الإسلام الذي يُضطر المؤمن به إلى أن يفقد ويخسر كل ما يملكه، وأما الذين يملكون مقداراً - قل أو كثر - من مال وضياعٍ، فعادةً ما يصابون بالنفعية، وقد يقومون بتنفيذ أحكام الإسلام اليسيرة الغير المنطويةِ على ضررٍ أو كبير عناءٍ بأي وجهٍ من الوجوه، ولكنهم لا يستطيعون إرغام أنفسهم على الوفاء بتلك المقتضيات الإسلامية التي تتضمن خسران الروح والمال، والتي تفرض على المؤمن أن يثبت إيمانه على مستوى التضحية والفداء !!

على أن تخلفك عن الفداء والتضحية لأجل الإسلام يجعل - حتى عبادتك - غير ذات قيمةٍ، إن العبادة التي تُمارس داخل جدران المسجد لها صلة جد عميقةٍ بالعبادة المطلوبة خارج المسجد، فلو أن حياة المرء خارج المسجد، ستكون هي الأخرى خاليةً من التدين الحقيقي، فلا ريب أن حياته داخل المسجد، كانت خاليةً من التدين الحقيقي، وواضح أن العمل الفارغ عن الروح لا ولن يُقَوَّم عند الله بثمنٍ ما، وإنما يتقبل الله العمل الصادق وليس العمل الكاذب .

ولطالما ينظر عامة الناس إلى شخصٍ نال من زخارف الدنيا وثروتها حظاً وافراً، ويحيط به جمع من الأعوان والأصدقاء يطوفون حوله صباح مساء، ينظرون إليه نظرةً ملؤها الغبطة والإعجاب والإكبار، ولكن الحقيقة هي أن أمثال هؤلاء هم أتعس خلق الله، وأسوأهم حظاً في الدنيا والآخرة؛ إذْ ينتهي بهم الأمر عادةً إلى أن يصير المال والجاه عائقاً لا يطيقون معه أن يتقدموا نحو دين الله بالكفاية المطلوبة، فلا يزالون في غفلةٍ وشغلٍ عن الله، بما يستمتعون به من مالٍ وجاهٍ، حتى يأتي الموت، ويفصلهم عن مالهم وجاههم بدون رحمةٍ ولا شفقةٍ !

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

يَلْمِزُكَ: يعيبك ويطعن عليك .

حَسْبُنَا الله: كافينا فضل الله وقسمته .

وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا: كالجباة والكتاب والحراس .

وَفِي الرِّقَابِ: في فكاك الأرقاء أو الأسرى .

وَالْغَارِمِينَ: المدينين الذين لا يجدون قضاء .

وَفِي سَبِيلِ اللهِ: في الغزو . أو في جميع القرب .

وَابْنِ السَّبِيلِ: المسافر المنقطع عن ماله .

ذُكرت هنا مصارف الزكاة، وهي تنحصر - حسب ما صرح به القرآن الكريم - في الأصناف الثمانية التالية:

أولاً: الفقراء، وهم المعدمون الذين ليس عندهم شيء ..

ثانياً: المساكين، وهم الذين لا يملكون قدر ما يكفيهم ..

ثالثاً : العاملون على الزكاة، وهم الموظفون الذين تعهد إليهم الدولة الإسلامية بتحصيل الزكوات، وينضم إليهم سائر من يعملون بديوانها من كتبة ومحاسبين .. إلخ .

رابعاً : المؤلفة قلوبهم، وهم الذين يُراد استمالة نفوسهم إلى الإسلام، أو الحديثو عهدٍ بالإسلام، ضعيفو الصلة به، تثبيتاً للإيمان في قلوبهم .

خامساً: الرقاب، في تحرير العبيد من الرق والعبودية، أو لمفاداة الأسرى المسلمين .

سادساً: الغارمون، وهم المدينون، أو الذين كواهلهم مثقلة بعبء غرامة أو ضمانٍ لا يطيقون أداءه.

سابعاً: في سبيل الله، أي في سبيل الدعوة إلى الدين الإسلامي والجهاد فى سبيل الله تعالى .

ثامناً : ابن السبيل، وهو المسافر الذي يتعرض للحاجة في حالة سفره ((ولو كان غنياً في بلده)) .

وإنه إذا تم توزيع الزكوات والصدقات، جرياً على نظام جماعي شاملٍ، فدائماً ما

يحدث أن تنطلق ألسنة بعض الناس بالشكوى من ضياع الحقوق، أو من كون التوزيع غير عادلٍ، على أن شكاية كهذه إنما تدل فى أغلب الأحوال على ضعف الشاكى نفسه، فمهما كان المسئول عن شئون التوزيع في قمة النزاهة والعفة، إلا أن حرص الناس وطرق تفكيرهم الضيقة المحدودة، لا تلبث أن تفتعل مثل هذه الشكاوى ودواعي الطعن فيه على أية حالٍ .

وبالإضافة إلى ذلك، فإن شكايةً كهذه لا تكون أبداً في مصلحة صاحبها، بل تعود عليه هو، قبل غيره، بضررٍ فادحٍ، حيث إنها تحول بين المرء وبين توظيف مواهبه، وإمكاناته الفكرية، ولو أن المرء تخلى عن الشكوى والاحتجاج، فرضي بما وقع في نصيبه، ووجّه تفكيره نحو الله، فسيحدث بعدئذٍ أن تتولد في نفسه همة جديدة، وتستيقظ القدرات الإيجابية المخبوءة في داخله فجأة، وبالتالي سيبذل المبلغ المتاح من المال في وجهٍ أنفع وأكثر فائدة له، مما يشجعه على أن يعتمد على جهده الذاتي بدلاً من الاعتماد على العطايا والصدقات، فسيأخذ في البحث عن فرص اقتصادية جديدة متوكلاً على الله، وبدل الضجر أو التبرم بالآخرين تتولد في نفسه عاطفة التعاون والتضامن معهم .

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾

هُوَ أُذُنٌ: يسمع كل ما يقال له ويصدقه .

أُذُنُ خَيْرٍ: يسمع الخير ولا يسمع الشر .

مَن يُحَادِدِ الله: من يخالفه ويعاده .

إن منافقى المدينة كانوا يتندرون بالشخصيات الإسلامية ويسخرون منها في مجالسهم الخاصة، ولكنهم إذا قابلوا المسلمين وجهاً لوجهٍ، أكدوا بالإيمان الكاذبة أنهم أوفياء مخلصون للإسلام وأهله، وكان السبب وراء ذلك أن المسلمين في المدينة كانوا أقوياء مرهوبى الجانب، بحيث كان بإمكانهم أن يفتكوا بهؤلاء المنافقين ويستعملوا معهم وسائل القسوة، الأمر الذي جعلهم يعيشون في حذرٍ وخوفٍ دائمٍ من بأس المسلمين، ومن هنا يظهر لنا الوجه الحقيقي لشخصية المنافق وسلوكه، فتدين المنافق مصدره الخوف من البشر، وليس الخوف من الله، فتراه يتمسك بمبادئ العدل والأخلاق حين يتعرض لأي ضغط خارجي أو يحس أي خطرٍ من قبل الجماهير، وأما إذا لم يعد هناك شيء يمسك لسان المرء، ويضبط أعضاءه وجوارحه، سوى الخوف من الله وحده، فإنه يستحيل هناك إلى إنسان آخر تماماً، حيث إنه يصير شخصاً لا يشعر في قرارة نفسه برغبةٍ ما في التزام المبادئ الخلقية، ولا يحس حاجةً ما لتبني موقف العدل والإنصاف !!

ويغيب عن أمثال هؤلاء أن هذا أمر غاية في الخطورة؛ إذْ إنه ليس مخالفةً لأهل الإيمان، بل هو مخالفة لله عز وجل ، ولو أنهم بدل أن يؤكدوا براءتهم بالحلف الكاذب، اعترفوا بخطاياهم، وجعلوا في قلوبهم النصح لدعاة الإسلام، فلربما كانوا جديرين بالعفو والصفح، ولكنهم باختيارهم طريق العناد والمخالفة، لم يلبثوا أن ضموا أنفسهم إلى قائمة أعداء الله، فلا مصير لهم الآن سوى الخزي والعذاب، إن خوف الله يُلين قلب المرء إلى أقصى حدود اللين، وهو بذلك يصغي إلى كل الناس في رفقٍ وسماحةٍ، حتى ولو كانت أحاديثهم لا غناء فيها، أو لا تستند إلى أساسٍ من الصحة، مما يدفع السفهاء والحمقى إلى القول بأنه ساذج الطوية، سطحي الفكر ، لا يكاد يفقه دقائق الأمور، ولا يقدر على تمييز الغث من السمين !

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

نَخُوضُ وَنَلْعَبُ: نتلهى بالحديث قطعا للطريق .

لقد كان الرأي العام السائد في المدينة، في سياق غزوة «تبوك»، ينظر إلى الذين انطلقوا مع رسول الله ﷺ على أنهم أرباب الشجاعة والعزيمة، ويعد القاعدين في بيوتهم أنهم منافقون جبناء ساقطو الهمة فلم يتمالك القاعدون من المنافقين أن أخذوا يستهزئون برسول الله وأصحابه، للحطّ من قدر أعمالهم وجهادهم، فقال قائل: «ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً، وأكذبنا ألسنةً، وأجبننا عند اللقاء»، وقال آخر : «أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً، والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال»، ومنهم من قال : «يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها ! هيهات ! هيهات!» . [1]. ولما بلغ الخبر إلى رسول الله ﷺ دعا القوم وسألهم عن ذلك فراحوا يعتذرون بقولهم : ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ - فرد الله عليهم قائلاً : ﴿ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؟!

إن قول الله ورسوله يتم إعلانه دوماً على رجل، ولو أن هذا الرجل كان يبدو للناظرين عادياً متواضع الشأن، لأخذوا في الاستهزاء به، غير أن هذا ليس استهزاءً بذلك الرجل، بل هو استهزاء بالله تعالى ذاته، والذين يفعلون ذلك إنما يثبتون أنهم ليسوا بجادّين حق الجدية في دين الله، وأمثال هؤلاء أشد الناس معصيةً وإجراماً عند

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، ص١٥٢ ، ١٥٣.

الله تعالى، ولن تفلح تأويلاتهم وتبريراتهم الكاذبة في ستر حقيقتهم أبداً !!

النفاق والردة أو الارتداد كلاهما وجهان لحقيقة واحدة، فلو أن المرء تجاهر بالكفر، وأنكر الإسلام علناً بعد اختياره إياه، فهو يصير مرتداً، أما لو أنه ظل بعيداً عن الإسلام مقطوع الصلة به من حيث قلبه وعقله، ولكنه يتظاهر بالإسلام أمام الناس، فهو يعد منافقاً وسيلاقي أمثال هؤلاء المنافقين عند الله المصير الذي قرره تعالى للمرتدين عن دينه اللهم إلا إذا هم بادروا بالتوبة قبل انتهاء آجالهم، فيعترفون بأخطائهم، ويقومون بإصلاح أنفسهم، فعسى أن يعفوا الله عنهم ويدخلهم في رحمته !

﴿ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ: لا يبسطونها في خير وطاعة وشحا .

فَنَسِيَهُمْ: فتركهم من توفيقه وهدايته .

هِيَ حَسْبُهُمْ: كافيتهم عقابا على كفرهم.

فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ: فتمتعوا بنصيبهم من ملاذ الدنيا .

وَخُضْتُمْ: دخلتم في الباطل .

حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ: بطلت وذهبت أجورها لكفرهم.

وَالْمُؤْتَفِكَاتِ: المنقلبات (قرى قوم لوط) .

لقد اغتر المتقدمون من البشر بما أسبغ الله عليهم من نعمة الجاه والمال والرفاهية، فاستمدوا منها غذاء الفخر والبطر والقسوة، بدل أن يقابلوها بالشكر والامتنان والتواضع، فحلّ بهم عذاب الله الذي أهلكهم عن آخرهم، غير أن المتأخرين لم يتعلموا من عاقبتهم المشئومة أي درسٍ ولا عبرةٍ، فهم الآخرون أحبوا لأنفسهم من متاع الدنيا وزخارفها ما أحبه أسلافهم لأنفسهم، وقد استمر الإنسان العادي على هذا المنوال في كل العصور والأزمان، فهو لا يعير الحق ومقتضياته أي اهتمام، وإنما همّه الأكبر الوحيد هو المال ومقتضيات الأهل والعيال ليس غير، ولا يختلف حال المنافق، من حيث حقيقته، عن هذا في شيء، فهو يبدو كالمسلمين في ظاهر الأمر، إلا أنه يعيش على نفس المستوى الذي يعيش عليه الماديون وعامة أرباب الدنيا، مما يجعل سلوكه في الحياة الحقيقية - ما خلا بعض المظاهر والأعمال السطحية - كسلوك رجال الدنيا العاديين تماماً، حتى لكأنهم أفراد أسرةٍ واحدةٍ، فرغبات المنافق القلبية تتوجه نحو الدنيويين أكثر منها نحو المتدينين، وإن صدره ليضيق بها إذا دُعي للإنفاق في سبيل الآخرة، ولكنه أسخى وأجود ما يكون بماله في مشاغل دنيويةٍ تافهةٍ لا طائل تحتها، أما انتشار الحق والخير فلا يقع منه موقعاً حسناً وأما انتشار الباطل والشر فمما يتمناه وينتظره بكل شوقٍ وفروغ صبرٍ، وهو، مع تدينه الظاهري لا يزال غافلاً عن الله والآخرة، ناسياً إياهما، كما لو أن الله والآخرة لا حقيقة لهما في نظره!!

وإنه لن ينجو أمثال هؤلاء من بطش الله تعالى بناءً على تظاهرهم بالإسلام، إنهم ملعونون في الدنيا، معذبون في الآخرة ، وسيظلون محرومين مطرودين من رحمة الله في

الدنيا والآخرة معاً .

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٧٢) ﴾

قلوب المؤمنين تكون عامرةً بمحبة الله والشوق إلى لقائه، ويكون همّ الآخرة هو الهم الأكبر الذي يسيطر على أذهانهم، ويشغل بالهم ليل نهار، وهم ينظرون إلى أشياء الدنيا على أنها ضرورة لا على أنها غاية في ذاتها، ولا تلبث نفوسهم أن تهفو وتنجذب تلقائياً نحو كل عملٍ يحبه الله، وتأبى طبيعتهم كل الإباء ما لا يرضاه الله من قولٍ أو فعلٍ، وهم يخصّون من حياتهم وبضاعتهم القسط الأوفر لله تعالى دون أنفسهم، وإنهم يكونون لله ذاكرين، وفي سبيله منفقين.

وخصائص أهل الإيمان المشتركة هذه تعمل على تقريب بعضهم من بعض، فيسعون نحو الله تعالى، ويتمركز الكل حول طاعة رسول الله ﷺ ويدور حديثهم حول هذه الأشياء ذاتها التي هي موضوع اهتمامهم المشترك، وبهذه الأوصاف نفسها، يتم التعارف فيما بينهم، وعلى أساسها تقوم علاقاتهم المتبادلة، ومن خلال ذلك يدركون الهدف الذي يبذلون لتحقيقه جهوداً موحدةً منسقةً، وبذلك تتضح لهم معالم الطريق الذي يسيرون عليه صفاً واحداً .

إن حياة المؤمنين في الدنيا مثال لحياتهم في الآخرة، فأهل الإيمان يعيشون في هذه الدنيا كما لو كانت هناك في حديقةٍ ما أشجار خضراء كثيرة، بحيث تزيد بعضها من جمال أختها وبهائها، وتُسقى هذه الأشجار من ينابيع الدموع المتفجرة من الفيض

الإلهي، ويكون كل مسلمٍ ناصحاً لأخيه المسلم، متعاطفاً معه على نحوٍ يجعل من البيئة كلها مهداً للأمن والوئام، وهذه الحياة الربانية ستتحول في الآخرة إلى حياة الجنة الطيبة، وسوف لا يحصد المرء هناك ما قد زرعه بيده فحسب، بل سيفوز من فضل الله ورحمته الخاصة، بإنعامات وجوائز لم تكن قد خطرت بباله من قبل !

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ: شدد عليهم ولا ترفق بهم .

نَقَمُوا إِلاَّ: ما كرهوا وما عانوا شيئا .

جاء في رواية أن هناك ما يقرب من ثمانين منافقاً كانوا متواجدين بالمدينة في زمن رسول الله ﷺ مما يدل على أن الأمر بجهاد المنافقين لم يكن بمعنى القتال معهم بالسيف، إذْ لو كان كذلك لأمر رسول الله ﷺ بالقضاء على هؤلاء المنافقين عن آخرهم، وإنما أريد بهذا كما روى القرطبي عن ابن عباس رضي الله عنه الجهاد مع المنافقين باللسان وشدة الزجر والتغليظ عليهم، وقد ذهب الجمهور إلى عدم مشروعية القتال بالسيف مع المنافقين .

حين يرى المنافقون أن هناك عباداً مخلصين لله، اختاروا الإسلام بغض النظر عن المصالح والمنافع، ويدعون الآخرين إلى ذلك، فيخيل إليهم أن دعوتهم تُبطل دعوى إسلامهم مما يوغر صدورهم حقداً وكراهيةً على أولئك الدعاة، فيتصدون لقمع جذورهم، ويناصبون العداء للقائمين بالدعوة إلى الإسلام الذي يتاجرون باسمه، ويتخذون منه مطيةً للتوصل إلى أغراضهم الدنيوية!!

وتظهر عداوة المنافقين هذه في شكل المؤامرة والاستهزاء، فلو أنهم وجدوا شخصا تنطوي نفسه على مشاعر عدائية ضد دعاة الإسلام الصادقين، فيغرونه بأن يهاجمهم، كما أنهم لا يزالون يسخرون من أهل الإيمان المخلصين كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، ويثيرون شبهاتٍ وأقاويل تتضمن الاستخفاف بتضحياتهم الغالية، ويتناولون شئونهم العادية المألوفة بإساءة تصويرها، لتتشوه سمعتهم في أعين الجماهير، فقد حدث أن ضلت ناقة رسول الله ﷺ حين نزل ليستريح في بعض الأماكن في أثناء رحلته إلى «تبوك» فخرج عدد من الصحابة يبحثون عنها، ولما وصل الخبر إلى آذان المنافقين راحوا يتندرون بذلك قائلين : «إن هذا يأتينا بأخبار السماء، وهو لا يدري أين ذهبت ناقته الآن؟!» .

إن المنافقين يكونون أداة طَيِّعةً بيد الشيطان يستخدمها لإفشال جهود دعاة الإسلام الصادقين، غير أن الله تعالى يقف دوماً إلى جانب دعاة الإسلام الخالص، يتولى نصرهم، ورعايتهم، فيحميهم من كل سوء، رغم كل المؤامرات والمكائد التي يدبرها المنافقون ضدهم، وأما مصير المنافقين المحتوم، فهو أن يذوقوا العذاب الشديد في الدنيا والآخرة، بعد إقامة الدليل على جريمتهم وكفرهم بأقوالهم وأفعالهم أنفسهم !

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

يَعْلَمُ سِرَّهُمْ: ما أسروه في قلوبهم من النفاق .

وَنَجْوَاهُمْ: ما يتناجون به من المطاعن فى الدين.

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ: يعيبون (هم المنافقون) .

جُهْدَهُمْ: طاقتهم ووسعهم (الفقراء) .

سَخِرَ الله: أهانهم وأذلهم جزاء وفاقا .

جاء ثعلبة بن حاطب (وهو غير ثعلبة البدرى) إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله: ادع الله أن يرزقنى مالاً : فقال : ((ويحك يا ثعلبة : قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه)) ولكن ثعلبة لم يزل يراجعه حتى دعا له النبى ﷺ فقال : ((اللهم أرزق ثعلبة مالاً))، فاتخذ غنماً، فنمت نمواً مضطرداً هائلاً لدرجة أن أرض المدينة ضاقت عليه، فتنحى عنها وبات يسكن فى وادٍ من أوديتها، ومن هنا بدأت صلة ثعلبة بالإسلام تضعف شيئاً فشيئاً، حتى ترك - أولاً - الصلوات في الجماعة، ثم ترك كلاً من الجمعة والجماعة، حتى انتهى به الأمر إلى أنه حينما أتاه مبعوث رسول الله ﷺ لتحصيل الصدقة - أى الزكاة - رفض أن يؤديها إليه، وقال : ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية !! ما أدري ما هذا !؟!

وإنه لرجل منافق عند الله من ظل يدعوه تعالى صباح مساء أن يعطيه المال ، ثم إذا أغناه الله من فضله نسى حق الله فى ماله، ولطالما يلوم المرء - إذا لم يكن عنده مال - الأغنياء والموسرين، ناعياً عليهم إسرافهم وتبذيرهم ثرواتهم في الشهوات والملذات، ويحدث نفسه : لو أن الله رزقني مالاً، فسأبذله في أعمال البر والخير، ولكن لا يكاد يتوفر لديه المال، حتى تتغير نفسيته وعقليته، فيغيب عنه ما سبق أن وعد به فيما بينه وبين نفسه، وما قد عبر عنه من عواطف ومشاعر طيبة، وإنما هو يعد ثروته الآن نتاج

مؤهلاته وجهوده الذاتية، فيمسكها في قبضته، ولا يعود يذكر تأدية ما يجب عليه من حقوق الله عز وجل .

وفى محاولة تغطية النقائص ومواطن الضعف فى أنفسهم، يذهب أمثال هؤلاء إلى أبعد حدود التمرد والطغيان، حيث يسخرون من المنفقين أموالهم فى سبيل الله، فإن تصدق أحد بمالٍ كثيرٍ قالوا : إنه مراءٍ، وإن تصدق أحد بشيءٍ يسير هو غاية جهده وآخر طاقته، قالوا : ما كان الله أغنى عن صدقة هذا! إن الذين بلغوا من الانطواء على أنفسهم والانغماس فيها هذا المبلغ، لا يُبصرون الحقائق العليا الموجودة خارج ذواتهم أبداً !

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

خِلافَ رَسُولِ الله: بعد خروجه، أو لأجل مخالفته.

لاَ تَنفِرُوا: لا تخرجوا للجهاد في تبوك .

الخَالِفِينَ: المتخلفين عن الجهاد كالنساء .

وقعت غزوة تبوك في أيام صيفٍ شديد الحرارة، وكانت المسافة بين المدينة ومشارف الشام – موقع الغزوة – تبلغ ثلاثمائة ميلٍ، فقال المنافقون، تثبيطاً لهمم المجاهدين : لا

تخرجوا لسفرٍ طويل كهذا في مثل هذا الحر الشديد اللاذع، وقد نسي هؤلاء، وهم يقولون ذلك، أن عدم الخروج بعد سماع النداء الإلهي، تحسّباً لخطرٍ من الأخطار، هو إيقاع النفس في خطرٍ أشد، فكان مثلهم كمثل المستجير من الرمضاء بالنار !!.

والذين يحبون أنفسهم وأموالهم أكثر من الله ورضوانه، فإنهم أشد ما يكونون فرحاً وسروراً بها إذا نجحوا - بفضل تدابيرهم الماكرة - في الانضمام إلى صفوف المسلمين من ناحية، والإبقاء - مع ذلك - على سلامة حياتهم وثرواتهم من أي خطرٍ من ناحيةٍ أخرى، فهم يعدّون أنفسهم أذكياء لبقين، ويصفون الذين يخاطرون بأرواحهم ابتغاء مرضاة الله بأنهم سفهاء .

غير أن هذا ليس إلا غباءً محضاً، إنه لضحك ينتهي بصاحبه عاقبة الأمر إلى بكاءٍ مرٍ دائمٍ لا ينقطع، فإن «اللباقة» أو «الدهاء» من هذا النوع سيُعد أعظم أنواع الغباء والحماقة في العالم الآتي بعد الموت، وسيندم المرء يومئذٍ أنه كان يطلب الجنة، ولكنه لم يدفع لها من بضاعته الثمن الوحيد لها!

وعاقبة هؤلاء ألا يُتاح لهم المكان في المناسبات الإسلامية إلا في الصفوف الخلفية، وألا يُسمح لهم بالتدخل في شئون المسلمين الاجتماعية، وأن يتم اعتبارهم غير أكفاء ولا مؤهلين لتولى المناصب الدينية، إن المجتمع الذي تبوأ في ظله أمثال هؤلاء منازل الشرف والكرامة، لن يكون أبداً مجتمعاً مرضياً مقبولاً عند الله تعالى ! .

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ: تخرج أرواحهم.

أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ: أصحاب الغنى والسعة من المنافقين .

الخَوَالِفِ: النساء المتخلفات عن الجهاد.

وَطُبِعَ: ختم .

يتمكن المنافق، بأساليبه الوصولية والنفعية، من إحراز كمياتٍ وافرةٍ من أسباب الدنيا ووسائلها، كما يكون لديه جمع غفير من الأعوان والأنصار يسيرون فى ركابه، وربما تبهر هذه الأشياء أبصار السطحيين من الناس، ولكن بريقها الظاهرى، ليس لدى المتعمقين وذوى النظرات الثاقبة مثار الغبطة، بل هو موطن العبرة؛ لأن هذه الأشياء تعوق أصحابها عن المضى فى طريق الله .

وإنما العبد المحبب إلى الله هو الذي يتقدم نحو ربه بقطع النظر عن كل التحفظات والمصالح، وأما الذين تورطوا في مباهج الدنيا وزخارفها ، فإنهم لا يستطيعون أن يسموا بأنفسهم فوقها، فكلما أرادوا التقدم نحو الله، خُيّل إليهم وكأنهم سيخسرون كل ما يملكون، وتلك تضحية يعوزهم الشجاعة الكافية على القيام بها، ومن ثم لا يكونون أوفياء لله فى كل الظروف والأحوال، وإنما هم ينالون ما ينالون من الرقى والازدهار فى الدنيا على حساب الضياع والحرمان الكامل فى الآخرة .

وأمثال هؤلاء حين يطالبهم دين الله أن يكبتوا أنانياتهم ويتمسكوا بالله مخلصين، فلا يقدرون على كبْت أنانياتهم الجامحة، وحين يأمرهم دين الله بالسير في الطرق الخالية من الشهرة والشعبية، فإنهم يتخلفون عن الركب حفاظاً على شهرتهم وشعبيتهم ، وحين يتطلب دين الله التضحية بالنفس والمال، فإن أنفسهم وأموالهم تبدو لهم أثمن من أن

يضحوا بها لأجل هدفٍ غير دنيوي !!

وتظل هذه الكيفية تزداد حتى تصل إلى حدٍ تتحجر معه قلوبهم، وتنعدم رهافة إحساسهم، ويصابون بالجمود والقسوة، يفقدون معها تلك اللهفة التي تدفع المرء نحو الله، وتجعله لا يرضى لنفسه بشيءٍ مهما كان، غير الله - سبحانه وتعالى !!

وعلى النقيض من ذلك فإن أهل الإيمان الصادقين يعطون المقام الأكبر والأرفع لله عز وجل، ولذا فكل شيء آخر يهون في نظرهم دون الله تعالى، وهم يكونون على استعدادٍ دائمٍ للتقدم نحو الله، مضحين بأرواحهم وأموالهم في سبيله، وهؤلاء هم الذين يفوزون برحمات الله ونعمه، وإنه ليس هناك غير الموت شيء يحول بينهم وبين جنان الله الأبدية !

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

ٱلْمُعَذِّرُونَ: المعتذرون بالأعذار الكاذبة .

حَرَجٌ: إثم ، أو ذنب في التخلف عن الجهاد .

تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ: تمتلئ به فتصبه .

إن جهاد الدعوة إلى الدين حين يتطلب من الناس حياتهم وأموالهم، فإن القعود

حينئذٍ، رغم توافر القدرة والغنى، جريمة شنيعة جداً، ودليل انعدام الحساسية نحو النداء الدينى، ومثل هذا السلوك، بالقياس إلى مسلمٍ، معناه الخيانة والغدر بالله ورسوله، ولا يستحق أمثال هؤلاء مثقال ذرةٍ من رحمة الله، فإنهم إذا لم يقدموا ما كان عندهم إلى الله، فلماذا سيعطيهم الله تعالى مما عنده؟ إن شيئاً ما لن يظفر به أحد قبل أن يدفع ثمنه .

على أن ذوى الأعذار الحقيقية : كالمرضى، والزمنى، والذين لا يقدرون على شيء من نفقات الجهاد، ومَنْ على شاكلتهم، سيعفو الله عنهم ، وليس ذلك فحسب، بل ويمكن أيضاً أن يسجل في صحائف أعمالهم كل شيء، مع أنهم لم يأتوا بشيء، كما جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه في أثناء العودة من ((تبوك)) : ((إن بالمدينة أقواماً، ما قطعتم وادياً ولا سرتم سيراً، إلا وهم معكم)) قالوا: وهم بالمدينة!؟، قال : ((نعم، حبسهم العذر)) (أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك) .

مَنْ هؤلاء السعداء الذين ينالون أجر العاملين وهم لم يقوموا بالعمل!! إنهم أولئك الذين يقيمون الدليل – إلى جانب كونهم ذوى الأعذار – على ثلاثة أشياء :

أولاً :النصح، وهو يعنى المشاركة القلبية أو الوجدانية إذا عجزوا عن المشاركة الفعلية.

ثانياً : الإحسان، وهو أن يفعلوا كل ما يستطيعونه بألسنتهم – على الحد الأدنى – من تمني الخير، وطلب النصر والتأييد، وما إلى ذلك .

ثالثاً: الحزن، وهو يعني الإحساس بألمٍ نفسيٍ شديدٍ على قصورهم وحرمانهم، ما لا يلبث أن يسيل دمعاً من أعينهم!

إن رجلاً ما حين يعد شيئاً غير ذي أهمية في حياته العملية، فيقابله دائماً بالإهمال وعدم الاكتراث له، فإنه بمضي الزمان يفقد حتى مجرد الشعور بأهميته، وقد تتراءى له مقتضيات ذلك الشيء بين الحين والحين، ولكنه لا يستطيع التقدم نحوه لخلو قلبه من

اللهفة إزاءه، وهذا هو الشيء الذي يُسمى بالجمود أو القسوة، وهو ما يعبر عنه القرآن الكريم بـ «الطبع أو الختم على القلوب» !

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) ﴾

إِنَّهُمْ رِجْسٌ: قذر باطنا وظاهرا .

﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ توضح هذه الجملة أن المراد بالمنافقين المذكورين هنا، هم الذين كانوا في زمن نزول القرآن الكريم ؛ لأن الاطلاع عن طريق الوحى الإلهى مباشرةً أمر خاص بعهد النبوة، ولم يعد ذلك ممكناً الآن بعد ختم النبوة، وقد كان العدد الكلى لهؤلاء المنافقين الذين أُطلع الله رسوله على نفاقهم بالوحى، كما رواه ابن سعد فى طبقاته، يبلغ اثنين وثمانين (٨٢) شخصاً .

وقد أمر الله المسلمين بالإعراض عنهم والتنكر لهم، وأما إنزال العقوبة أو العذاب بهم، فأمر جعله الله في يده، ومع أن رسول الله ﷺ أخذ منافقي المدينة بالشدة والتغليظ في معاملتهم، بحيث لم يقبل أعذارهم التي اعتذروا بها، وحتى إنه رفض زكاة ثعلبة بن حاطب الأنصاري، التي جاء بها بعد ثبوت نفاقه، إلا أنه لم يأمر بقتل أحدٍ منهم قط، فلما أراد عبد الله بن عبد الله بن أبي أن يستخدم العنف مع أبيه - رأس المنافقين - إنهاءً لفتنته، منعه رسول الله ﷺ عن ذلك قائلاً : «دعه، فلعمري لنحسنن صحبته ما دام بين

أظهرنا))(١).

وهذا الحكم نفسه ينطبق على المنافقين في العصور المتأخرة، مع ملاحظة فارق جوهري، وهو أن الموقف الذي اتخذ إزاء منافقي الصدر الأول كان مبنياً على بواطنهم، ولكن المنافقين المتأخرين سيجري التعامل معهم بناءً على ظواهرهم، فلا يجوز أن نقف منهم موقف الإعراض والتنكر، إلا فى حالة ما إذا وُجد هناك دليل خارجى، من أعمالهم أو أقوالهم يؤكد نفاقهم، وبالتالي لن يتخذ أى إجراء ضدهم اعتماداً على نياتهم أو سرائرهم، وستُقبل أعذارهم إذا تقدموا بها في شأنٍ من الشئون، كما تُقبل زكواتهم وصدقاتهم وما إليها، وبالجملة ينبغى أن تُوكل سرائرهم وضمائرهم إلى الله، ويُعاملوا المعاملة التى يقتضيها القانون الظاهرى العام .

إن الجنة إنما يظفر بها الإنسان على أساس عمله الذاتى، وليس على أساس انضمامه إلى جماعة المسلمين، فقد كان المنافقون جميعاً منضمين إلى صفوف المسلمين، وكانوا يصلون ويصومون معهم، ولكن - بالرغم من ذلك - أعلن القرآن أنهم أصحاب النار!

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾

وَأَجْدَرُ: أحرى وأحق .

مَغْرَماً: غرامة وخسرانا .

---

(١) طبقات ابن سعد.

وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ: ينتظر بكم مصائب الدهر .

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ: الضرر والشر (دعاء عليهم).

وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ : دعواته واستغفاره (للمنفقين) .

لقد ورد فى حديثٍ أن : ((من سكن البادية جفا)) .

إن المدينة تمتاز بما يسودها من جوٍ علمي، وما يقوم في جنباتها من مؤسساتٍ تعليمية وثقافيةٍ، وما يزدهر في رحابها من ألوان النشاط في مختلف حقول العلم والفن .. أما سكان البوادي فلا تتاح لهم الفرص من هذا النوع، كما تكون أساليب حياتهم وموارد عيشهم وعاديةً بالقياس إلى أهل المدن، مما ينتج عنه أن سكان البوادى لا تتولد في نفوسهم دقة الشعور ورهافة الحس، وتتسم طباعهم بالغلظة والجفاء، وطرق تفكيرهم بالسطحية والغباء، وبالتالى يصعب عليهم أن يتفهموا دقائق الدين ويغوصوا فى أعماقه.

إن الله تعالى محيط بكل شيءٍ علماً، وهو حكيم فى صنعه، ورحيم بخلقه، ولكونه خبيراً بضعف البدو العوام ، اقتضت حكمته ورحمته أن يراعى هذا الجانب في تكاليفه عليهم تمام المراعاة، ومن ثم فليس يطلب الله من أمثال هؤلاء أن يقيموا الدليل على المعرفة العميقة والتدين الأعلى، بل سيرضى الله عنهم بالتدين البسيط، فيما لو كانوا ذوى نياتٍ صالحةٍ طيبةٍ .

فتدين العوام يتلخص في أن يقروا بوجود الله كخالقٍ ومالكٍ لهذا الكون بما فيه، من صميم قلوبهم، ويكونوا على استحضارٍ دائمٍ أن هناك يوماً آخر آتٍ لا محالة، ولن يتخلف عن موعده، وأنهم سيحاسبون فيه عن كل ما صدر عنهم في الحياة الدنيا من قولٍ وعملٍ، وأن يعطوا جزءاً مما يكسبون في سبيل الله وسيلةً للتقرب إلى الله، والفوز ببركاته ودعوات رسوله المباركة المستجابة، وهذا هو المستوى العامّ للتدين، ولو أن نية المرء كانت صافيةً غير مغشوشةٍ، لتفضل الله تعالى بقبول هذا التدين منه .

وأما لو صار العوام غافلين عن الله وأحكامه جملةً وتفصيلاً، وازداد بعدهم عن الدين إلى حدٍ يعدّون معه الإنفاق في سبيل الدين غرامةً ثقيلةً بغيضة، ولا تسرهم أنباء ازدهار الإسلام وامتداد نفوذه، بل يتلقونها بوجوهٍ عابسة، وجباه مقطبة مقتاً واستياءً بذلك، فإنهم ليسوا جديرين بالعفو البتةَ؛ إذْ من المحتمل أن يتم إعفاء العوام - نظراً لقلة فهمهم وضعف مداركهم العقلية - من مطالبة التدين العميق، غير أن قلة فهمهم لو تحولت إلى التمرد والغدر بالإسلام فإنهم لن يقابلوا بالعفو والصفح بحالٍ من الأحوال !

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

إن الدعوة إلى دين الله أينما نهضت، تواجه دوماً إحدى اثنتين : فإما أن تناصبها البيئة عداءً شرساً سافراً، فتتصدى للقضاء عليها بالقوة، وفي بيئةٍ كهذه يصبح دعاة الدين غرباء بلا مؤنس ولا مأوى يلجؤون إليه، مما يضطرهم إلى مغادرة أوطانهم راغمين، وهؤلاء هم الذين يسمون : ((المهاجرين)).

أما الأخرى فهي: أن تكون البيئة مواتيةً للدعوة إلى دين الله، ففي مثل هذه البيئة لا يتعرض الدعاة للقهر و الاضطهاد أو السلب والنهب، شأن القائمين بالدعوة في البيئة الأولى المعادية، بل يقوم أهل هذه البيئة بإيواء الدعاة الأولين، ومد يد العون والنصرة، ومن ثم سموا ((الأنصار)) .

وقد أسفرت ظروف مكة القاهرة في صدر الإسلام عن تحول المسلمين هناك إلى

مهاجرين، كما أدت ظروف المدينة الوادعة الملائمة إلى صيرورة المسلمين هناك أنصاراً، وإن رضوان الله وجنته لا يفوز بهما أحد إلا في مقابل الهجرة أو مقابل النصرة، فإما أن يكون المرء من التجرد والإخلاص لله بحيث تنفلت من يده أزمة الدنيا ، فيعود غريباً مسلوباً مطارداً، وإما أن يجعل من نفسه بديلاً عن حرمان الطائفة السابقة الذكر، إذا كانت تتوفر لديه أسباب العيش ووسائل القوة والمنعة .

ولقد كان الصحابة الكرام - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - أنموذجاً كاملاً لهذه الهجرة والنصرة، والذين سيقتدون بهؤلاء السابقين في الهجرة والنصرة، من المسلمين اللاحقين أو المتأخرين، سينضمون - بالتبع - إلى تلك الطائفة الإلهية المقدسة .. وقد يقضي الله تعالى على بعض الناس بالحرمان، كي تستيقظ في نفوسهم مشاعر الإنابة والتضرع، كما أنه تعالى ينقذ أناساً آخرين من الحرمان، لكي يكونوا من المنفقين في سبيل الله من خلال التقدم بالنصر والمعونة إلى المحرومين والبائسين، إن هذا تدبير الله، والذين لا يقيمون الدليل على ذلك، أناس لم يرضوا منهج الله، ومن ثم فلن يرضى الله عنهم كذلك فى اليوم الآخر !

وقوله : ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ يعني أن الذي أقامه الله في ظل ظروف اضطرته إلى التخلي عن كل شيء، فتخلى عنه طوعاً، وظل ثابتاً مستقيماً على الدين الحق، والذي اقتضت ظروفه المحيطة به أن يشرك في ثروته وأملاكه إخواناً له في الدين، تجمع بينه وإياهم وحدة الهدف، دون وشائج النسب أو القرابة، فهو الآخر لم يلبث أن قابل ذلك بكل رضاً وسرورٍ، فهؤلاء هم الذى فازوا برضوان الله، وهم الذين سيدخلون فى الجنان الأبدية .

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ

يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

من الناس من لا تنطوي نفوسهم على الشر، كما أنهم يداومون على القيام بالأعمال الدينية الرتيبة في الظروف العادية، ولكن حين يعرض لهم أى مقتضىً من مقتضيات الدين، يتطلب أداءه تحطيم خريطة حياتهم الجاهزة، فإنهم لا يستطيعون نذر أنفسهم وأموالهم للدين كما ينبغى، فضعف العزيمة والإرادة، أو الانهماك فى مشاغل الدنيا، يقف حجر عثرةٍ دون قيامهم بلعب الدور المطلوب أو المرجو منهم في سبيل الدين، ومع أن أمثال هؤلاء مخطئون، إلا أن خطأهم يقابل بالعفو، إذا هم اعترفوا به، وبادروا بالعودة إلى جادة الدين، مغمورين بإحساس الخجل والندامة .

ودليل الاعتراف والندم هو أن تتولد في أنفسهم عواطف الخدمة الدينية من جديدٍ، فيقدمون جزءاً من كرائم أموالهم في سبيل الله، تطهيراً لضمائرهم من آثار الذنب، وإذا ما ظهر رد فعلٍ كهذا من جانب هؤلاء فقد أمر النبي ألا يلومهم الآن ولا يؤنّبهم على ما بدر منهم، بل ليحاول أن يهدئ من روعهم، ويقدم لهم دعماً نفسياً وسنداً معنوياً بأن يدعو لهم ويصلي عليهم، حتى يتحول ما في قلوبهم من همٍ ثقيلٍ، نتيجة إحساسهم بوطأة الذنب، إلى عزيمةٍ وثقةٍ إيمانية جديدةٍ .

إن ارتكاب الخطأ ليس هو السوء الأصلي عند الله، بل الإصرار على الخطأ والتمادي فيه، فالشخص الذي أخذ بعد ارتكاب خطأ ما، في تبريره بصنوف الحيل، والتأويلات الكاذبة، صار إلى الهلاك، والدمار لا محالةَ، وأما الشخص الذي بادر بإصلاح نفسه، معترفاً بما صدر عنه من خطأ، فهو جدير بعفو الله تعالى وغفرانه .

وبعد ارتكاب الخطأ، يكون المرء دوماً بين خيارين : أحدهما أن يعترف بخطئه، والآخر أن يسلك طريق التمرد والعناد، والاعتراف بالخطأ يملأ نفس صاحبه بمشاعر التواضع والخشوع لله، مما يؤهله ثانياً لحرمات الله وعناياته، وعلى العكس من ذلك فإن الشخص الذي يلجأ إلى العناد فكأنما يسير في طريق ينتهي به حتماً إلى غضب الله، بحيث إنه سيختلق ضروباً من التأويلات الباطلة تبرئةً لنفسه، وبالتالى ستجره، محاولة تبرير خطإٍ واحدٍ، إلى أن يرتكب كثيراً من أخطاءٍ أخرى، وإذا كان الأول جديراً بعفو الله ورحمته، فإن هذا الأخير لا يستحق إلا سخط الله وعقابه .

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

مَسْجِداً ضِرَاراً: مضارة لأهل مسجد قباء .

وَإِرْصَاداً: ترقبا وانتظارا ، أو إعدادا.

لمسْجِدٌ: هو مسجد قباء أو المسجد النبوى .

عَلَى شَفَا جُرُفٍ: على حرف بئر لم تبن عليه الحجارة.

هَارٍ: هائر متصدع أو متهدم .

فَانْهَارَ بِهِ: فسقط البنيان بالبانى .

رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ: شكا ونفاقا فى قلوبهم .

تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ: تتقطع وتتفرق أجزاء بالموت .

لبناء الحياة أساسان : التقوى، والظلم .

أما الصورة الأولى فهى : أن يكون الخوف من الله هو الأساس أو القاعدة التى يُقام عليها بناء الحياة، وأن تكون الفكرة التي تخضع لها أنشطة المرء كلها، هي الفكرة القائلة بأنه سيحاسب عن كل ما يصدر عنه من قولٍ وفعلٍ أمام إله يعلم سره وعلانيته، وسيجازي هو كل أحدٍ بحسب أعماله الحقيقية، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ومثل هذا الشخص كمثل من يقيم بناءه على صخرةٍ متينةٍ صلبةٍ .

وأما الصورة الثانية فهى : أن يكون قلب المرء خلواً من أي خوفٍ من هذا النوع، فيعيش في الدنيا حياة حرةً طليقةً من كل القيود، ويقول ويفعل ما يشاء من غير التزام بأي مبدأٍ من المبادئ الخلقية أو الشرعية، ومثل حياة شخصٍ كهذا كمثل مبنىً رُفع على شفير وادٍ متصدعٍ مشرفٍ على التهدم والسقوط، وإذا به لا يلبث طويلاً حتى ينهار في ذات يومٍ بكل من فيه، ويستقر في أعماق هوةٍ سحيقةٍ !!

إن أقبح وأشنع جريمة من جرائم أولئك الذين يؤسسون بنيان حياتهم على قاعدة الظلم هي التي ضرب لها مثالاً أصحاب «مسجد الضرار» في المدينة، وقد كان في المدينة يومئذٍ مسجدان، أحدهما مسجد النبى الواقع في وسط العمران، والآخر مسجد قباء الكائن بضواحي المدينة، فاتخذ المنافقون مسجداً ثالثاً ليكون وكراً للتآمر على الإسلام وأهله، ومع أن عمليةً كهذه تمارس باسم الدين غير أن القائمين بها يرمون من ورائها في الحقيقة إلى معارضة دعوة الحق لأجل الحفاظ على قيادتهم وسيادتهم، فالذين لا يوفقون إلى قبول الحق بسبب أنانياتهم وعبوديتهم لأنفسهم، يشكلون جبهةً معاديةً للحق وأتباعه، ويقومون بأعمال التخريب والتدمير ضدهم، وتتسبب نشاطاتهم السلبية في إحداث الفتنة والفرقة بين صفوف المسلمين، وأمثال هؤلاء يمارسون أعمالهم

التخريبية هذه باسم الدين، حتى إنهم يحاولون استقدام الشخصيات الدينية المسلم بها إلى مسرح أعمالهم لكسب ثقة الناس بهم .. وينسى هؤلاء في عداوتهم العمياء، أن مخالفة الحق هي في الحقيقة مخالفة الله، والتى لن تتكلل بالنجاح في دنيا الله أبداً، وإنما قُدر لأمثال هؤلاء أن يموتوا وقلوبهم يمزقها الحسرة والأسى، وقضى عليهم بالحرمان الأبدى من رحمة الله!

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ .

السَّائِحُونَ: الغزاة المجاهدون .

لِحُدُودِ الله: لأوامره ونواهيه.

الإيمان بالله يعنى أن تبيع نفسك لله، فالعبد يتقدم بنفسه وماله إلى الله، كى يعطيه الله الجنة عوضاً عنهما، وليس هذا في الواقع إلا تعبيراً عن التسليم والخضوع فإن العلاقة الحقيقية، إنما تتحقق دوماً على مستوى التسليم والخضوع، والمطلوب أن تصل علاقتك بالله هي الأخرى إلى هذه الدرجة نفسها ، ولن يفوز أحد بنعيم الجنة الأبدى بدون هذا التسليم الكامل .

وحين يختار المرء دين الله على هذا النحو، فلا تعود قضية الدين قضية منفصلة عن ذاته، بل هى تصبح قضيته الذاتية بكل معنى الكلمة، حيث إنها تصير الآن مركز اهتماماته ومخاوفه كلها، فلو أن الدين تطلب منه المال، أحضر له كل ما لديه من مال،

وإذا طُولب بأن يهب للدين وقته ومؤهلاته، سخرها لخدمته على الفور، وحتى لو اقتضى الأمر يوماً أن يؤدي دوره في سبيل إعزاز الدين معرضاً وجوده لخطر الفناء، أو أمواله للتلف والضياع، أقدم على ذلك عن طيب خاطر!!

والذين يسلمون أنفسهم لله على هذا النحو، تتولد فيهم مزايا وأوصاف عالية، فتبلغ حساسيتهم من التيقظ مبلغاً يعلمون معه خطأهم عند صدوره عنهم، وبالتالي يبادرون من فورهم إلى الاعتراف به والتوبة عنه، وهم يكونون خاضعين لله، متذللين بين يديه، ويدركون آيات عظمة الله وجلاله المنبثة في أرجاء الكون، بحيث تبدأ قلوبهم وألسنتهم تلهج تلقائياً بالثناء والحمد على ذلك، وهم يصبحون سائحين، أي أن الرحيل عن العالم البشري إلى العالم الإلهي يكون - بالنسبة إليهم - مصدر طمأنينة وسكينة أعظم وأوفر، ويصير السجود والركوع أمام ربهم شيئاً محبباً إلى نفوسهم، وكل من تربطه بهم علاقة ما، يحاولون هدايته وإرشاده إلى طريق الخير والمعروف، وإذا وجدوا أحداً يمارس السوء والمنكر على مشهد ومرأى منهم، تصدوا لنهيه عن ذلك، وهم يكونون على غاية الحذر والتنبه فيما يتصل بحدود الله، فهم يسهرون على حدود الله تماماً كما يسهر البستانى على بستانه، وهؤلاء هم الذين سيقت إليهم البشرى بالإنعامات الإلهية

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾ ﴾

لأَوَّاهٌ: لكثير التأوه خوفا وشفقا.

إذا كان شخص ما كافراً ومشركاً، ثم وصلت إليه دعوة الدين الحق إلى حد أن تقوم عليه الحجة، وينقطع عنه العذر، ولكنه ظل مصراً على كفره وشركه، ولم يؤمن بالدعوة، فإنه يصبح بعدئذٍ، بموجب القانون الإلهي، من أصحاب الجحيم، وبالتالي يكون طلب المغفرة والنجاة لشخصٍ كهذا، بمثابة الاستهانة بقدر الإيمان، ورفضٍ للعدل الإلهى؛ مما اقتضى النهى عن مثل هذا الدعاء .

على أن كلمة ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ ﴾ الواردة في هذه الآيات تدل على أن هذا الحكم يتعلق بمشركي عهد النبوة، الذين تم الإخبار عنهم، عن طريق الوحي بأنهم أصحاب النار، وخلفية هذه الآيات أنه حين أُمر رسول الله ﷺ بألا يصلي على المنافقين إذا ماتوا أبداً، ولا يقوم على قبر أحدهم داعياً أو مستغفراً له ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة] أثار ذلك حفيظة المنافقين، فاتخذوه موضوع الدعاية ضده - عليه الصلاة والسلام -حيث شرعوا يقولون: إن هذا يدعى أنه نبى الرحمة، وأنه متبع ملة إبراهيم، إذًا فما باله ينهى المسلمين عن الاستغفار لإخوانهم وذوي قرابتهم، على حين أن إبراهيم قد سأل الله المغفرة حتى لأبيه الذي كان مشركاً ! فقيل رداً عليهم: إن إبراهيم كان قطع على نفسه عهداً أنه سيطلب من الله العفو والمغفرة لوالده الضال المشرك، ولكن ما إن نبهه الوحى على عداوته المستمرة لله إلى آخر لحظاته، حتى تبرأ منه، وكف عن استغفاره له .

لقد أودع الله في كل إنسانٍ القدرة على تمييز الخير من الشر، فإذا عُرضت عليه دعوة تمنعه عن الشر، وجد كيانه الداخلي كله مصدقاً بها، حيث إنه يشعر بوخزة خفيفة تختلج في طيات قلبه، تدفعه إلى أن يشهد بصدقها ويتناولها بالقبول على الفور، ولو أن المرء أعرض عن هذه (الوخزة أو الدفعة الداخلية) غير مكترثٍ ولا مستجيب لها، ولم يجتنب ما ينبغي عليه أن يجتنبه، فإن حساسيته الفطرية تبدأ تضعف شيئاً فشيئاً حتى تصاب فى

نهاية المطاف بالجمود والموت الكلي، وهذا هو الشيء الذي تم التعبير عنه بـ «الإضلال»، وعبارة ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ﴾ توضح أن هذا الخطر ليس خاصاً أو محدقاً بطائفةٍ دون أخرى، بل يمكن أن يتعرض له المسلمون كما يتعرض له غيرهم .

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ (١١٧) وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١١٨)﴾

سَاعَةِ العُسْرَةِ: وقت الشدة والضيق في تبوك .

يَزِيغُ: يميل إلى التخلف عن الجهاد.

بِمَا رَحُبَتْ: مع رحبها وسعتها .

لِيَتُوبُوا: ليداوموا على التوبة .

في غزوة تبوك برزت جماعة من المسلمين قامت بضرب أروع مثالٍ للتضحية والفداء من أجل الإسلام، حيث أخرجت خيرة ما لديها من ثروةٍ ومتاعٍ لتجهيز الجيش، وخرجت - تاركةً وراءها بساتينها وقد نضجت ثمارها، وزروعها وقد حان حصادها في رحلةٍ طويلةٍ شاقةٍ، تقطع فيها الثلاثمائة ميلٍ في حرٍ شديدٍ لافحٍ، لتخوض في كفاحٍ عنيفٍ مع أقوى دولةٍ في العالم حينذاك، وكان الجيش - وقد سمي جيش العسرة - يعاني من قلة الزاد والعتاد لدرجة أن رجالاً عديدين كانوا على بعيرٍ واحدٍ يتعاقبونه الواحد تلو الآخر، ولم يكن يقع في نصيب الرجل، في بعض الأوقات، وقد اشتد به الجوع والعطش، سوى تمرةٍ واحدةٍ وجرعة من ماء، على أن هذه المرحلة البالغة

القسوة، لم تكن إلا تمحيصاً وامتحاناً للعزائم والإرادات، فلما أقام المريدون الدليل على صدق إرادتهم، سلط الله على العدو رعباً، دفعه إلى التراجع والانسحاب عن ميدان المواجهة، وعاد المسلمون ظافرين دون أن يحتاجوا لإهدار دم.

وكانت هناك طائفة أخرى هي طائفة المعترفين ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [التوبة : ١٠٢] .

إن هؤلاء لم يستطيعوا الانطلاق مع ركب المجاهدين بسبب انشغالهم في أمورهم الدنيوية، غير أنهم سرعان ما أحسوا أنهم قد ارتكبوا خطأً جسيماً، مما أجّج في قلوبهم نيران الاعتراف والندامة، فقامت غزارة دموعهم الحارة بتلافي قصورهم العملي، وبالتالي شملهم الله تعالى بعفوه ورحمته ؛ لأنهم كانوا قد اعترفوا بخطئهم متواضعين .

والطائفة الثالثة هي التي تألفت من الثلاثة الذين خُلّفوا ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة : ١١٨] وهم : كعب ابن مالك، ومرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي، وهؤلاء وإن كانوا يعتبرون عدم خروجهم خطأً وتقصيراً منهم في فريضة الجهاد في سبيل الله، إلا أن مشاعر التوبة والإنابة المنبعثة في نفوسهم لم تكن - أول الأمر - قد بلغت المستوى المطلوب مما اقتضى مقاطعتهم اجتماعياً، وقد كان بإمكان هؤلاء أن يعيشوا هادئين مطمئنين رغم هذه المقاطعة الاجتماعية، إذْ كان لديهم في مساكنهم الطيبة وحدائقهم الغناء مجالاً فسيحاً للشغل والتسلية، كما كان بإمكانهم أيضاً أن يلجأوا إلى الثورة والتمرد والغدر، ويقوموا بتشكيل كتلةٍ أو جمعيةٍ مستقلةٍ لهم بالتواطؤ مع العناصر الغاضبة في المجتمع آنذاك، وأن يعمروا دنيا أفراحهم ومسراتهم

في جزيرةٍ منعزلةٍ عن عامة المسلمين، غير أنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك، بل إن إحساس البعد عن الله وعن رسوله قد أقض مضاجعهم وأقلق بالهم لدرجة أنهم أصبحوا لا يجدون السكينة في أي مكانٍ في الخارج، ولا يجدونها في قلوبهم، بمعنى آخر: إن قلقهم ذاك كان اختيارياً، ولم يكن إجبارياً أي مفروضاً عليهم من الخارج، وقد أدى موقفهم هذا إلى أن ذابت قلوبهم وتدفقت رقةً وتضرعاً إلى الله وفي مدة الخمسين يوماً توصلوا إلى المستوى المطلوب من التوبة والإنابة، وبعدئذٍ تم العفو عنهم كذلك .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٢١) ﴾

وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ: لا يترفعوا بها ولا يصرفوها.

نَصَبٌ: تعب ما .

مَخْمَصَةٌ: مجاعة ما .

يَغِيظُ الكُفَّارَ: يغضبهم ويغمهم .

نَيْلاً: شيئا من قتل أو أسر أو غنيمة .

إن الحياة الإنسانية هي حياة اجتماعية، الأمر الذي يقتضي أن يتكون لكل شخصٍ وسط أو محيط حسب ميوله واتجاهاته، يقضي فيه ليله ونهاره بين أشخاصٍ آخرين يجمع

بينه وبينهم اتحاد الميول والاتجاهات، فالذين يخافون الله، ويرغبون في السير على درب الإيمان، يجب عليهم أن يختارو لصحبتهم ولقاءاتهم الصادقين من الناس ؛ أي الذين تكون حياتهم قد انطبعت بطابع الخوف من الله المستقر في أعماق قلوبهم، والذين يُوجد بين أقوالهم وأعمالهم توافق وانسجام كامل، فبمعاشرة الصادقين يصبح المرء صادقاً، وكذلك العكس صحيح .

يمر المؤمن فى حياته بمواقف ؛ إذْ تتطلب قضية خدمة الإسلام أن يخاطر بنفسه من أجلها، إذْ يجب عليه أن يلعب دوره في سبيل الإسلام على شدة الجوع والعطش، وإذ يُطالب بالتقدم نحو الله، لاقيا ما لقي في ذلك من الجهد والعناء، والتعب والإعياء، وإذ يكون لابد من الانضمام إلى الصف الإسلامي رغم الأخطار المحدقة من قبل الأعداء، إذْ يُدعى إلى مناصرة الله والانضواء تحت لواء رسوله، وإن كدر عليه ذلك صفو حياته، وبدّل هدوءه واستقراره قلقاً واضطراباً، ففي مواقف كهذه يحلو للمرء أن يقعد متخلفاً عن الكفاح والجهاد، آخذاً بدواعي الحذر والاحتياط، ويغيب عنه أن هذه هي المواقف الحاسمة، حيث يتمكن من إقامة الدليل العملي على علاقته بالله تعالى، وعلى جدارته وأهليته للجنة التي عند الله تعالى !!

كان أبو خيثمة الأنصاري واحداً من جملة أولئك الذين فترت - أول الأمر - هممهم عن إعلان النفير العام لغزوة تبوك، فلم يبادروا بالخروج مع رسول الله ﷺ وصحبه، وقد ذهب يوماً - بعد مسير الجيش - إلى بستانه، حيث كان الظل وارفاً ظليلاً، ووجد مسكنه وسط البستان مبللاً رطباً، مفروشاً بالحصير، ووجد امرأته قد أعدت له الطعام الشهى، والماء البارد الروي، وأحضرت عناقيد من العنب الطري، غير أن أباخيثمة، الذى كان قد تخلف عن الغزاة إيثاراً لأسباب الراحة والرفاهية الدنيوية هذه، لم يكد يرى هذا الفرق الهائل بينه وبين الذاهبين إلى تبوك، حتى استيقظ ضميره، وقال : «رسول الله وأصحابه في الشمس، والريح والحر، وأنا في ظل باردٍ، وطعامٍ مهيأ، وامرأة حسناء، فى مالى مقيم، والله ما هذا بخير!» فما لبث أن توشح بسيفه

ورمحه، وارتحل بعيراً سريعاً وأخذ في السير، حتى لحق بركب المجاهدين حين نزل تبوك أشعث الرأس مغبرّ الثياب !

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

لِيَنفِرُوا كَافَّةً: ليخرجوا إلى الجهاد جميعا .

هذه الآية الكريمة من القرآن، تتعلق - من ناحية - بالوضع محل النقاش، وتتحدث- من ناحية أخرى - عن أحد الأحكام الكلّية، فهي تدل - من جانب - على كيفية تنظيم التعليم والتربية للبدو القاطنين بأطراف المدينة إذْ ذاك، كما أنها - من جانب آخر - تسلط الضوء على تلك الأسس المبدئية التي ينبغي أن يقوم عليها نظام التعليم الديني والبناء التربوي الإسلامي للأجيال الجديدة .

التعليم عملية لا يُستطاع القيام بها كما ينبغي، إلا إذا تفرغ لها المرء منقطعاً عن كل الشواغل الأخرى، فلو أن الناس انشغلوا بأجمعهم في العملية التعليمية، لتعطلت الأنشطة والمصالح الحيوية الأخرى، كأعمال التجارة ومساعي كسب المعاش مثلاً، والمنهج الإسلامي لا يسمح بإنجاز عملٍ مع الإخلال بعمل آخر، ومن ثم أقر مبدأ التناوب، بحيث إذا التحق بعض الناس بمركز التعليم والتربية، ظل الباقون سواهم، مشغولين بأداء الواجبات والنشاطات الأخرى، حتى ينتهي الأولون من التعليم على وجهٍ أتم وأفضل، وهكذا سيجري كلا العملين معاً دون أن يتأثر أحدهما بالآخر ..

ويُلاحظ أن الآية الكريمة قد عبرت عن التعليم الإسلامي بـ «التفقه في الدين»،وليس المقصود بهذا هو التعليم الفقهي المعروف؛الذي هو المعرفة التفصيلية بشكل الدين،والذي نتج عن صيرورة علم الدين مترادفاً مع علم المسائل والأحكام الدينية، وإنما أريد بـ «التفقه في الدين» هنا أن تعلم الدين الأساسي المنزل من عند الله، وتصبح قادراً على فهمه فهماً عميقاً شاملاً ، فالمراد بذلك هو العلم الذي يؤدي إلى

معرفة الحق ، والذي ينبئ بالحقائق الأساسية الثابتة، ويعلمه كيف يبنى حياته على دعائم الآخرة .

وغاية هذا التفقه في الدين أو التعليم الديني، هو تأهيل المرء ليقوم بواجب إنذار القوم، والإنذار معناه التخويف، وقد استخدم هذا اللفظ في القرآن الكريم بمعنى التحذير والتخويف من قضية الآخرة، ومن هذا نعلم أن التعليم الإسلامي يهدف إلى إعداد أفراد أكفاء على النهوض كمنذري الأقوام والشعوب من قبل الله تعالى، حتى يخشى الناس من الله، ويجتنبوا في الحياة الدنيا تلك الأعمال التي من شأنها أن تؤدي بهم إلى عذاب الآخرة الأبدي، إن التعليم الإسلامي هو تعليم الدعوة إلى الله، وليس علماً لتلقين المسائل الفقهية وجزئيات الأحكام الشرعية، وعلى هذا الاعتبار ينبغي أن يحتوي منهج التعليم الإسلامي على مادتين رئيستين :

أولاً : القرآن والسنة .

ثانياً: كل العلوم الضرورية التي تمس إليها الحاجة بالنسبة للمدعو، على سبيل المثال اللغة أو اللغات التي يتحدث بها المدعو، ومناهج تفكيره، ونفسياته وما إلى ذلك .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

غِلْظَةً: شدة وبجاعة ، وحمية وصبرا .

رِجْساً: نفاقا وكفرا .

يُفْتَنُونَ: يمتحنون بالشدائد والبلايا .

﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾تدل هذه الجملة على أن الكفاح الإسلامي ليس كفاحاً غير مخطط أو غير مدروس، بل لابد فيه من أخذ الترتيب أو المرحلية بعين الاعتبار، أى يجب أن تنطلق محاولاتنا فى سبيل إزالة العقبات والعوائق من قاعدة البدء بالأقرب فالأقرب، ثم تنتقل بعدئذ إلى الأبعد فالأبعد، ومن هذا ندرك أيضاً أنه ينبغي أن نبتدئ أولاً بمجاهدة أنفسنا ذاتها، فإن نفس المرء هى أقرب وأدنى ما يكون منه، أما أعداء الخارج فيأتي دورهم فى المرحلة التالية، ثم المطلوب الأولى بإزاء أعداء الإسلام أنفسهم هو الشدة والغلظة، وهي تعني أن نتعامل معهم بنوعٍ من الصلابة والصرامة يوقع المهابة لنا في صدورهم، والرعب فى قلوبهم (1).

كما يجب أن تجري كل العمليات لمواجهة العدو على أساسٍ من التقوى، فمسلك التقوى هو وحده يضمن للمسلمين النصرة الإلهية، وعندما ينحرفون عن جادة التقوى يحرموا من نصر الله ومعيته .. ومن خصائص القرآن، كما بينه القرآن نفسه، أن آياته، إذْ يستمع لها المؤمنون، تزيدهم إيماناً، غير أن زيادة الإيمان هذه إنما تتوقف على الاستعداد القلبي للمرء، وليس على مجرد الاستماع للآيات، فقبل حوالي الألف والخمسمائة سنة، عندما نزل القرآن الكريم، لم يكن يستطيع إدراك أهمية القرآن وعظمته، سوى أولئك الذين يملكون الاستعداد لرؤية الحقيقة في صورتها المجردة، أما المنافقون عَبَدة الظواهر، فقد كانوا خلواً من هذا الاستعداد؛ ولذا فقد كانت ألفاظ القرآن تبدو لهم محض ألفاظٍ، حيث كان يتعذر عليهم الفهم كيف يمكن أن تكون مجموعة من بعض الألفاظ والعبارات باعثاً على زيادة اليقين والثقة لدى أحد الناس، وبالتالي فإذا ما نزلت آية أو سورة جديدة من القرآن أخذوا يستخفون بها قائلين : أيكم زادته هذه

---

(1) تفسير الجصاص .

الألفاظ العربية إيماناً ؟!

إن ذوي النظرات السطحية كانوا ينظرون إلى القرآن على أنه محض((كتاب)) وليس على أنه ((صحيفة صانعة التاريخ))، مما جعل هؤلاء الظاهريين السطحيين يُصابون بحيرةٍ وذهولٍ ؛ إذْ رأوا مبلغ أثر القرآن العميق في نفوس أولئك الذين كانوا ينظرون إليه بما يكمن فيه من جوانب العظمة والجلال والإعجاز، فكانوا يتساءلون قائلين : أليس هذا كتاباً قبل كل شيءٍ وبعد كل شيءٍ ! إذن فما وجه الغرابة أو العجب في مجموعةٍ لفظيةٍ يستهوي أفئدة الناس، ويسحر عقولهم، ويبلغ تأثيره في نفوسهم إلى هذا الحد البعيد !؟ .

والله – سبحانه وتعالى – يبتلي أمثال هؤلاء بضروب شتى من المحن والصدمات في حياتهم، حتى تلين قلوبهم، وتزداد حساسيتهم فيقدروا على إدراك الأمور على نحوٍ أكثر عمقاً ودقةً، غير أن أى شىء خارجيٍ لن يكفي لعظة المرء إذا كان لا يريد بنفسه أن يتعظ، وإن إهمال المرء للموعظة، كلما عرضت له، وعدم وقوفه عندها، من شأنه أن يجعله بمرور الأيام جامد الحس فاقد الشعور ، إزاء الموعظة مهما كانت بليغةً ومؤثرةً ..

وفي قوله : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ أريد بـ ((الفتنة)) الابتلاء بالقحط، والمرض، والجوع..إلخ .. فمثل هذه الكوارث والنكبات يتعرض لها المرء في حياته مرةً وأخرى، ولكنه لا يستمد منها غذاء التوبة والعبرة، وإن التوبة فى الحقيقة، هي اسم ثانٍ لنتيجة التذكر والاعتبار، فيحدث مع كل إنسان أن تواجهه بالضرورة بعض الأحداث غير العادية مرةً أو مرتين على مدار السنة، وتأتي هذه الأحداث مثيرة إلى الحقائق الإلهية، فهي تذكّر المرء تارةً بضعفه وعجزه إزاء الخالق، وهي تُظهر تارةً هوان العالم الراهن بالنسبة إلى عالم الآخرة، وفي مثل هذه المواقف يتم اختبار المرء بأن يتخذ منها مادة درسٍ لنفسه، وأن ينظر من خلال تلك الأحداث المادية إلى الحقائق غير المادية .. ولكن ما

الذي يُعجز المرء عن تلقي الدرس من شيءٍ ينطوي على أبلغ درسٍ ؟!

السبب في ذلك يرجع إلى عدم تمكنه من ربط شيءٍ بآخر، فإن تلقي الدرس أو استمداد العبرة من واقعات الدنيا يتطلب قدرة المرء على أن يكتشف علاقة بين أمرين أو أمورٍ ترتبط ببعضها، وأن ينظر إلى الواقعة الظاهرية مقرونةً بالحقيقة الكامنة العاملة وراءها، وأن يقرأ في مرآة ما قد وقع فعلاً، ما لم يقع بعد!

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾

عَزِيزٌ عَلَيْهِ: صعب وشاق عليه .

مَا عَنِتُّمْ: عنتكم ومشقتكم .

حَسْبِيَ الله : كافى الله ومعينى .

رسمت هاتان الآيتان شخصية رسول الله ﷺ التى تتلخص أبرز ملامحها في أنه - عليه الصلاة والسلام - إنما يعتمد في كفاح الإسلام الاعتماد كله على الله الواحد الأحد ليس غير، وأن الله الذي نهض يدعو الناس إليه، هو إله يملك كل أنواع القدرة والسلطة، وعنده مفاتيح كل الكنوز، وإذا كان الرسول واقفاً على أرضية الإيمان واليقين الصلبة هذه، فمن الطبيعي أن يكون الله الواحد هو وحده موضع ثقته، وأن يسخر نفسه لخدمة الحق غير مكترثٍ بالمصالح والمخاوف على اختلافها .

كما نعت الله رسوله بأنه على جانبٍ عظيمٍ من الشفقة والرحمة بالناس، حيث إنه يتألم لما يلقاه الناس من عناء أو مشقةٍ كما لو كان هو الذي تعرض لتلك المشقة، وأنه يرغب في أن يهتدي الناس إلى ربهم رغبةً شديدةً بلغت حد الحرص، وأن الشيء الذي بعثه على كفاح الدعوة إلى الحق هو عاطفة النصح لعموم البشر، وليس أي طموح شخصي أو

قضية قوميةٍ، فهو إنما يكافح أولاً وأخيراً من أجل فلاح الناس، وليس لأجل فلاحه الذاتي .

وقد روي عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ((إن الله لم يحرّم حرمةً إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع، ألا وإني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش والذباب)) [1].

وصورة الرسول الكريم هذه تمثل الصورة الدائمة لداعية الحق في كل زمانٍ ومكانٍ، ونعلم منها أن ثمة صفتين بارزتين ينبغي أن يتحلى بهما الداعية المسلم بصفةٍ خاصةٍ، أما الأولى: فهي أن يضع ثقته في الله تعالى وحده ليس غير، وأما الثانية: فهي أن تكون عاطفة الحب والنصح للمدعو قد ملأت جوانحه كلها، بحيث لم يبق هناك أي شيءٍ آخر سواها، ومع أن الداعية يواجه ألواناً شتى من الأذى والإساءة من قبل المدعو، وربما يمكن أن تثور بينه وبين بعضهم النزعات القومية والمادية، ولكن المطلوب من الداعي - بالرغم من ذلك كله - أن يعرض عن هذه الأشياء، ولا يدع نفسه تستيقظ فيها أية نزعةٍ أخرى غير عواطف الرحمة والرأفة بالمدعو، فلابد للداعي أن يرتفع بنفسه فوق نفسية رد الفعل، فيكون ناصحاً للمدعو من طرفٍ واحدٍ، حتى وإن كان المدعو قد اتخذ نحوه موقفاً غايةً في الإثارة والإساءة، فإن الداعي يعيش لأجل الله، والمدعو يعيش لأجل ذاته .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده .

التذكير القويم

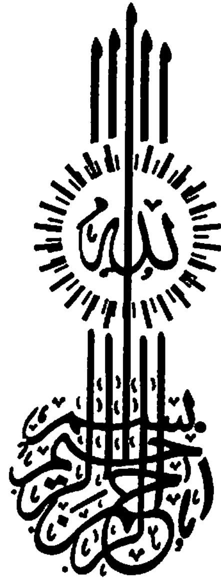
في

تفسير القرآن الحكيم

للعلامة / وحيد الدين خان

الجزء الثاني

دار الوفاء



سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝ ﴾

قَدَمَ صِدْقٍ: سابقة فضل ومنزلة رفيعة .

إن كلام النبي يكون مرتكزاً على دلائل محكمة للغاية، وهو بأسلوبه غير العادي يكون في ذاته برهاناً جلياً على أنه إنما يُبَلّغ عن الله، ولا يتكلم من عند نفسه، على أن الأنبياء - مع هذا كله - قوبلوا بالإنكار والتكذيب في كل العصور .

ورسالة النبي قوامها : الإنذار والتبشير، أي تخويف الناس من بطش الله، وتبليغ بشارة الجنة إلى من يرضى منهم بأن يعيش في هذه الدنيا خائفاً من الله، وإنما يُبعث النبي لكي يُعلِم الإنسان بهذه الحقيقة القائلة بأنه: ليس حراً مطلق الاختيار والتصرف في هذه الدنيا، وأن قصة الحياة ليست بمنتهيةٍ مع انتهاء أجل المرء على وجه الأرض، بل إن هناك حياة أبديةً بعد الموت، ينبغي للمرء أن يعيرها من اهتمامه الجانب الأكبر، وأن الشخص الذى يعيش هنا فى غفلة أو طغيان، لن يجد فى العالم الآخر بعد الموت سوى الألم وحده .

وقد ظل الإنسان العابد للظواهر يحسب دائماً أن العزة والرقي لا ينالهما إلا شخص يمتلك زمام سلطة الدنيا، والذي تتوفر لديه ثروات الدنيا وزخارفها، أما النبي فهو يهدم هذا التصور من أساسه، ويعلن صراحةً بأنه ليس إلا وهماً باطلاً وخداعاً محضاً،

حيث إنهما عزة ورقي يحظى بهما المرء بين بني جنسه في الحياة العابرة الراهنة وبصفةٍ مؤقتةٍ، فسرعان ما يصبحان أثراً بعد عينٍ، بينما العزة والرقي حقاً أن يوفق المرء للفوز بهما عند الله ربه في الحياة الأبدية القادمة، فذانك وحدهما عزة ورقي حقيقيان، كما أنهما دائمان لا يعتريهما الفناء أو الزوال، لكن المنكرين لا يلبثون أن يستخفوا به قائلين : إنه ساحر وما يقول إلا سحر البيان.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝ ﴾

اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ: استواء يليق به سبحانه .

بِالْقِسْطِ: بالعدل .

حَمِيم: ماء بالغ غاية الحرارة.

يزخر الكون بشتى أنواع المخلوقات، وتدلنا الدراسة العلمية للكون على أن كل هذه المخلوقات لم تظهر إلى الوجود دفعةً واحدةً، بل هي ظهرت بالتدرج واحداً فواحداً، ويقسم القرآن عملية الخلق هذه إلى ست فقرات أو مراحل، وهذا التكوين الدوري أو المرحلي يثبت أن الكون لم يوجد نتيجة صدفةٍ، وإنما تم إيجاده تحت خطة حكيمة واعيةٍ، كما أن دراسة الكون تهدينا أيضاً إلى أن نظامه يخضع لقوانين محكمة للغاية، فكل شيء فيه يعمل تماماً كما ينبغى له أن يعمل تبعاً لمقتضى الكل، وهذا الواقع دليل واضح على أن لهذا المصنع الكونى الهائل مدبراً حياً عاقلاً يقوم على إدارة شئونه كل لحظة .

إن نظام هذا الكون العجيب المدهش، لشهادة صارخة فى حد ذاته بأن مالكه إله كامل وعظيم لدرجة أنه لا يتصور أن يكون عنده وزن أو اعتبار ما لشفاعة شافعٍ كائناً مَنْ كان، فالكون فى مرآة خصائصه يعكس صفات خالقه العظيم.

ويسود هذا الكون كله نظام «القسط»، فما من شيء هنا إلا يلقى النتيجة بحسب عمله، فيكسب ما كان قد سعى له، ويخسر ما لم يسع له، فلابد من أن يخيم الظلام على جزءٍ من الأرض، توفرت فيه أسباب الليل، وأن تطلع الشمس المنيرة على جزءٍ من الأرض آخر، تهيأت له أسباب النور والضياء .

ذلك شأن النتائج المادية، غير أننا نجد صورة العالم مختلفةً عن ذلك تمام الاختلاف بالنسبة إلى النتائج الأخلاقية، فنرى شخصاً يعمل الصالحات ولا يجني ثمار صلاحه، ونشاهد آخر يظل يمارس الطغيان طيلة حياته دون أن يوصله طغيانه إلى الجزاء الذي يستحقه، فالسؤال هو : إن مشيئة الخالق التي نراها ساريةً فى عالم المخلوقات الأخرى، لماذا لا تظهر أو تسود المشيئة ذاتها فى العالم البشرى !؟

والجواب عليه هو : أن الله تعالى قد أجل تنفيذ عدله الكامل في حياة الإنسان إلى قيام العالم الآخر، فقد اتيحت الحياة الأولى للإنسان للعمل، وستُتاح الحياة الآخرة له ليلقى جزاء عمله، ولا ريب فى أن ظهور الحياة الثانية أمر ممكن تماماً كما أمكن ظهور الحياة الأولى !

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾

وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ: صير القمر ذا منازل يسير فيها .

إن الشمس تبعد عن أرضنا بمسافةٍ ملائمةٍ ومنضبطةٍ للغاية، الأمر الذي جعلها مصدر نعمٍ حيوية لا غنى لنا عنها كالنور والحرارة، وإنه لو طرأ أدنى تغير على هذا الفاصل المقرر، لانقلب الوضع تماماً ؛ فأصبحت الشمس بعدئذٍ جحيماً لا يطاق، وصارت نذيراً للموت بدلاً من كونها وسيلة الحياة ..

وكذلك القمر يدور في فلكه المقرر طبقاً لنظامٍ رياضي متناهٍ في الدقة والضبط، مما يمكن القمر، رغم كونه غير مشعٍ أو مضيء في ذاته، من أن ينشر لنا نوراً بارداً، ويوفر لنا تقويماً طبيعياً لمعرفة عدد الشهور والأعوام، إن هذه الآيات الفلكية تثبت أن الكون ينطوي على هدفٍ عميقٍ، وبالتالي فلن يكون مصير الكون عبثاً محضاً أي بدون هدف ولا معنىً!

ثم إن مجيء النهار بعد الليل يشير في لغة التمثيل المادي، إلى الحقيقة الأخلاقية القائلة بأنه لابد - تبعاً للسنة الجارية في عالمنا الراهن - من أن يسود النور بعد الظلام، وأن يحلّ هنا نظام تأدية الحقوق محل انتهاك الحقوق ، وأن يملأ العدل الإلهي ربوع العالم بعد أن ملأه الإنسان ظلماً وعدواناً، وأنه من المقرر أن يأتي هنا يوم تنكس فيه راية الباطل إلى الأبد، وتتجاوب أرجاء الكون كله بأصداء الاعتراف بالحق..

إن الله يتجلى فى العالم الراهن فى صورة الدليل، وليس فى صورة المشاهدة الحسية، إذًا فلا سبيل إلى أن نظفر بالله فى أى مظهرٍ آخر غير الذي اختاره الله ليتجلى فيه .

وقد فتح الله في هذا العالم طرق الهداية، غير أن هذه الهداية لا يصل إليها إلا الذين يتبعون معالمها وفق التدبير الإلهي، وإنما يوفق للسير على الطريق المستقيم هنا أولئك الذين يكفيهم فهماً لأمر الحق واقتناعاً به أن يُعرض عليهم بلغة الدليل والبرهان، فالذين لا يخضعون أمام البرهان الصادق، كأنما هم لم يخضعوا أمام الله، وكأنما هم لم يؤمنوا بالله، وينبغي لأمثال هؤلاء ألا ينتظروا لأنفسهم شيئاً سوى النار !

ومع أن هناك آيات لا حصر لها منبثة في السماوات والأرض، إلا أنها لا تكون مادة

درس وعبرة إلا للذين تمتلئ صدورهم خوفاً، إن الخوف من شأنه أن يجعل المرء جاداً، وإن المرء لا يكاد يركز اهتمامه كله على شيء ما، ولا يفهم مختلف جوانبه وأبعاده ما لم يكن جاداً تمام الجدية بصدده .

إن كوننا هذا كله مربوط بتوازن إبداعي عظيم، وهذا إشارة ناطقة بأن مالك الكون إله يقدر على أن يبطش بالإنسان متى شاء، وهكذا فإن حياتنا الأولى - هذه التي نحن نجربها الآن - هي دليل قاطع على أن الحياة الثانية هي الأخرى ممكنة كذلك، إن بروز النتائج المادية في العالم الراهن، وعدم بروز النتائج الأخلاقية، يقتضي وجود عالم تظهر فيه النتائج الأخلاقية بأوضح وأكمل صورها، كل هذه أمور محكمة للغاية،غير أن كونها محكمةً لن يدركه إلا الشخص الذي ينظر إلى قضية الحياة نظرة ملؤها الحذر والخوف !

لمن أُعدت نار الجحيم ؟

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

لاَيَرْجُونَ لِقَاءَنَا: لا يتوقعون لإنكارهم البعث .

دَعْوَاهُمْ: دعاؤهم .

إنها لأولئك الذين نسوا اليوم الذي يلقون فيه ربهم، والذين رضوا بأشياء الدنيا الزائلة فآثروها على نعيم الآخرة الأبدي، والذين صاروا مطمئنين تمام الاطمئنان إلى ما أتيح لهم في هذه الدنيا من أجل الامتحان والاختبار، وتعلقت قلوبهم بالأشياء غير

الإلهية إلى حدٍ باتوا معه غافلين عن الحقائق الإلهية المتجلية في صفحة الكون، كل هذه طرق مؤدية إلى الجحيم، ومن المستحيل أن يصل السائرون فيها إلى أي مكانٍ آخر غير الجحيم!

وقوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝﴾ يوضح أن الإيمان هداية وإرشاد للمرء، فهو ينقذ المرء من التخبط في الطرق الخاطئة المعوجة، ولا يزال يسير به على الجادة المستقيمة، حتى يوصله إلى هدفه المنشود .

الإيمان هو اكتشاف الله، والذي يظفر بالإيمان يدرك رأس العلم وزمامه، وبالتالي يصبح قادراً على أن يبدأ تفكيره في كل أمرٍ من المنطلق الصحيح، مما يصونه من الضلال والانحراف الفكري، ويحافظ على سلامة تفكيره وسداد رأيه .

وبالإضافة إلى ذلك فليس التسليم بالله هو التسليم بأية فلسفة نظرية جامدة، بل هو إقرار بإلهٍ حي، والبشر كلهم سيحضرون آخر الأمر بين يديه للحساب، وهكذا يحوّل الإيمان صاحبه، بما يبعث في قلبه من مشاعر الخوف والحذر نحو مصيره النهائي الغامض، يحوله إلى إنسانٍ غاية في الجدية، بحيث إنه يجد نفسه مضطراً إلى أن ينظر في أعماله وتصرفاته كلها في ضوء الصواب والخطأ، وأن يأخذ نفسه بالسير في الاتجاه الصحيح فقط، ولا يميل أبداً إلى الاتجاه الخاطئ .

وهكذا يمنح الإيمان صاحبه فكراً صائباً سديداً من ناحية، كما يزوده، من ناحية أخرى، بقدرة التمييز بين الخير والشر، تلك التي ترافقه مدى الحياة كمرشدٍ عمليٍ يقظٍ .

وإنما يدخل الجنة في الآخرة أولئك الذين أثبتوا جدارتهم وأهليتهم لها في الحياة الدنيا، إن الجنة مكان للارتواء من تجليات الله المباشرة، فلن تتاح فرصة السكنى فيها إلا للأرواح التي كانت قد ارتوت من تجليات الله غير المباشرة في الدنيا، وستكون قلوب أهل الجنة ملأى بمشاعر السلام والنصح نحو كل إخوانهم؛ لذا فلن يجد هناك

مكاناً بين سكانها إلا الذين أقاموا الدليل فى الدنيا على أن قلوبهم لم تنطوِ على شىء سوى عواطف السلام والنصح للآخرين !

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ: لأهلكوا وأبيدوا .

فِي طُغْيَانِهِمْ: في تجاوزهم الحد في الكفر .

يَعْمَهُونَ: يعمون عن الرشد أو يتحيرون .

الضُّرُّ: الجهد والبلاء والشدة .

دَعَانَا لِجَنْبِهِ: استغاث بنا لكشفه ملقى لجنبه .

مَرَّ: استمر على كفره ولم يتعظ .

إن سنة الله هى أن شخصاً ما إذا أتى عملاً صالحاً يستوجب الأجر، تم تسجيله على الفور في صحيفة أعماله، وأما إذا ارتكب شخص عملاً سيئاً يستلزم العقوبة فإن الله يمهله لكي يعود إلى رشده عاجلاً أو آجلاً، فيقوم بإصلاح نفسه وعمله، إن سنة الله هذه لرحلة عظيمة جداً، وإلا فالإنسان ظلوم لدرجة أنه لا يزال مستعداً كل الوقت لفعل السوء وإتيان المنكر، ولو أن الله بدأ يؤاخذ الناس على سيئاتهم مؤاخذةً فوريةً لسرعان ما انتهت آجالهم، ولأقفرت الأرض من بشرٍ يمشون على ظهرها !!

وإنما يتجه إلى الطغيان والتفرعن فى الحياة الدنيا، أولئك الذين يعيشون فيها ظانين أنهم لن يمثلوا أبداً بين يدي الله بعد الموت، والذين يمارسون حياتهم دونما خوفٍ من

البطش أو المؤاخذة على تصرفاتهم، ويحسبون أنهم أحرار غير مسئولين عن أى دجلٍ أو تزوير يلجؤون إليه توسلاً إلى مآربهم الخسيسة، ولا عن أي فسادٍ ينشرونه فى الأرض تحقيقاً لأغراضهم الدنيئة، والحقيقة هى أنه ليس هناك ما يبعث الناس على التعامل بالحق والعدل فيما بينهم، سوى باعثٍ واحدٍ، هو اعتقاد المرء بأن فوق كل ذي قوةٍ قوياً، والكل بإزائه ضعيف غاية الضعف وأنه سيبطش يوماً بجميع البشر، وسيكون الكل مضطراً إلى التسليم بحكمه فيه بدون اعتراضٍ، سواء كان له أو عليه .

إن الإنسان فى أثناء حياته في هذه الدنيا، يتعرض بين الفينة والأخرى، لنكبةٍ من النكبات أو لكارثةٍ من الكوارث، حيث يبدأ يشعر بأنه عاجز كل العجز أمام القوى الخارجية ؛ لا يملك إزاءها شيئاً يقاومها به إياها، وفي تلك اللحظة لا يلبث المرء أن يأخذ في التضرع والابتهال إلى الله، ويعترف بغاية ضعفه وعجزه أمام قدرة الخالق، غير أن هذه الحالة لا تدوم إلا ما دام المرء في قبضة المصائب، فعندما يتخلص منها يعود ثانية غافلاً وطاغياً، تماماً كما كان قبلئذٍ، والله - عز وجل - لا يسلم ولا يعتبر بما يظهر أمثال هؤلاء من العبودية له، فإن العبودية المطلوبة هي التي يتم إظهارها فى الظروف الحرة، وأما العبودية التى تظهر تحت ضغط الظروف القاهرة، فلا قيمة لها عند الله سبحانه وتعالى.

إن الإنسان كائن ميال بطبعه إلى التبرير ؛ فهو يبحث دوماً عن مبررٍ لكل عملٍ يصدر عنه، ولو أن المرء أحب لنفسه موقف الطغيان، لانصرف إليه عقله كذلك، وستكون أنشطته العملية كلها منطبعةً بطابع الطغيان، إلا أن عقله سيعمل بدوره على تزويده بألفاظٍ جميلةٍ تبرر طغيانه، وهذا هو ما سُمى بـ «تزيين الأعمال»، إذ يطمئن المرء نفسه بأنه على الحق، من خلال وصف أخطائه بكلماتٍ براقةٍ وعباراتٍ منمقةٍ، غير أن مثله كمثل شخص يضع على كفه شعلةً من النار، ويظن أنها لا تحرق، لكونه قد أطلق عليها لقب « الوردة الحمراء»!!

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

القُرُونَ: الأمم كقوم نوح وعاد وثمود.

ظَلَمُوا: بالكفر وتكذيب الرسل .

جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ: استخلفناكم بعد إهلاك أولئك .

الداعي إلى الله يقوم دوماً على أساسٍ من الدلائل والبراهين، وعلى المستوى ذاته يتعين على الناس أن يعرفوه.. أما لو أراد الناس أن يجدوا الداعي إلى الله في خضم الأمجاد الظاهرية، والاستقبالات الشعبية الحاشدة، فإنهم لن يجدوه أبداً ؛ لأن داعي الله لا يوجد هناك البتةَّ.. ومع أن النبي يأتي بالمعجزات والخوارق، إلا أن المعجزة إنما تظهر في المرحلة النهائية، وعند إقامة الحجة، بينما يقوم نشاطه في المرحلة الدعوية كلها على أساس الدلائل والبراهين وحدها.

إن كون طائفةٍ ما ظالمةً هو : ألا تعرف الدعوة الإلهية القائمة على الدليل، وبالتالي تقابلها بالرفض والإنكار لعدم كونها طبقاً لمستواها المزعوم، وبسبب موقفهم هذا يتعرض أمثال هؤلاء لضربة القانون الإلهي .

وقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ إن الخليفة - في أصل اللغة- هو الذي يجيء مكان غيره بعد ذهابه، وقد يطلق هذا اللفظ على مَنْ يقوم مقام غيره أو ينوب عنه، وبخاصةٍ، في تولى الحكم والسلطة، وهذه النيابة تكون عن الإنسان، وليس عن الله عز وجل؛ إذْ لا يتصور أن يكون الإنسان نائباً عن الله في أمر السلطة والملك، وإنما ينوب الإنسان دوماً عن أحد المخلوقات، وكل استخدامات القرآن الكريم لكلمة «الخلافة» إنما وردت بمعنى النيابة عن المخلوق وليس بمعنى

النيابة عن الله .

كما يُلاحظ أن جَعْل أحدٍ خليفةً لغيره لا يكون لأجل التكريم، بل يكون للامتحان والاختبار، فالاستخلاف يعني أن تُتاح فرصة العمل للواحد بعد الآخر، وأن توضع أمة تلو أخرى موضع الامتحان والاختبار، كما أديل - مثلاً - في الهند للمغول من الأقيال أو الراجوات الهنود، ثم انتزعت الدولة منهم وحُولت إلى الإنجليز، وما لبث الأخيرون بعدئذٍ حتى تم جلاؤهم أيضاً عن البلاد، وخُلي المكان بالتالي للطائفة ذات الأغلبية الساحقة، فقد كان كل لاحقٍ من هؤلاء خليفةً لسابقه .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ: لا أعلمكم الله به بواسطتي .

يُفْلِحُ المُجْرِمُونَ: لا يفوزون بمطلوب.

لقد كان أهل مكة يزعمون أنهم يؤمنون بالله والرسول، حيث كانوا يدّعون أنهم متبعو الملة الإبراهيمية، حتى إن كثيراً من مصطلحات الإسلام الدينية مثل : الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج .. إلخ، كانت مستعملةً رائجةً لديهم منذ قديم الزمان، فما الذي دفعهم إذًا إلى مطالبة رسول الإسلام - عليه الصلاة والسلام - بأن يأتي بقرآن غير هذا القرآن، أو يتناوله بشيءٍ من التبديل أو التعديل، وأنه إذا استجاب لطلبهم آمنوا بدعوته ؟!. السبب في ذلك يكمن في أن القرآن جاء يُعلن عن دين الله النقي

الخالص من كل الشوائب، بينما كانت قريش قد اصطنعت ديناً مغشوشاً مزوراً باسم الدين الإلهي.

إن دعوة القرآن إلى التوحيد كانت تمثل ضربةً قاضيةً على عقيدتهم الوثنية عن الله، كما أن عباداتهم كانت تبدو مجرد لهوٍ ولعبٍ بالقياس إلى تصور العبادة الذي قدمه القرآن الكريم، وإنهم كانوا قد جعلوا من النبي رمزاً لفخارهم القومي، بينما كان القرآن يدعوهم إلى الإيمان بنبي يتولى زمام القيادة والتوجيه في حياتهم العملية، وقد كانوا يعدون خدمة الكعبة وسدانتها أكبر دليلٍ على تدينهم، بينما أكد القرآن على أن التدين هو أن يخشى المرء من الله، وأن يضع الآخرة نصب عينيه في كل ما يأتي وما يدع في الحياة الدنيا.

وكثيراً ما يعرض المرء عن الحق أو ينكره معتمداً على بضع كلماتٍ يتفوه بها معتقداً أنها كافية لإبطال الحق أو تبرير موقفه منه على أقل تقدير، وإنما هو يجترئ على ذلك ؛ لأن قلبه يخلو من الخوف أو الإشفاق، ولو أن قلب المرء امتلأ خوفاً وإشفاقاً من أنه محاسب ومسئول عند الله، عن كل قولٍ وفعلٍ يصدر عنه في هذه الحياة، لأصبح من فوره جاداً إلى أقصى حدود الجدية، وإن الشخص الجاد لينظر إلى الأمر من وجهة النظر الواقعية، ويستحيل عليه أن يقابله بالإهمال أو يقف منه موقف العابث المتفرج !

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

سُبْحَانَهُ: تنزيها له تعالى.

ليس هناك من أحدٍ في هذا العالم، غير الله يقدر على إيصال نفعٍ أو دفع ضررٍ ما ،

وإن مَنْ يدرك هذه الحقيقة ينصرف اهتمامه كله نحو الله تعالى، فهو لا يعبد إلا الله، ولا يخاف إلا إياه، ولا يعلق آماله إلا عليه، ويصير الله الواحد هو كل شيء عنده .

وعلى العكس من ذلك فإن الذين تعلقت قلوبهم بالأشياء، وانحبست نفوسهم في إطارها الضيق المحدود، لا يلبثون أن يتخذوا من أحدٍ غير الله إلهاً لهم، ويعلقون على هذه الآلهة الباطلة الآمال والمخاوف التي يجب ألا تُعلّق إلا على الله الواحد الأحد . ومَنْ صور هذا الضلال عقيدة الشفاعة، حيث يفترض أصحابها أن هناك «ذواتاً عليا» - من البشر أو من غير البشر - هي عند الله مقدسة ومسموعة الكلمة، وأن الله يقضي بناءً على شفاعتها ونزولاً عند رغبتها، بسعة الرزق الدنيوي أو الخلاص الأخروي، غير أن عقيدةً من هذا النوع باطلة كل البطلان، إنها استخفاف بألوهية الله، وتقدير بخس لعظمة شأنه وعلو قدره - عز وجل.

إن الله متنزه عن الشرك على اختلاف ألوانه. إن كل العقائد من هذا النوع غير منسجمة إطلاقاً مع صفات الله، التي يعرفنا بها في كونه العظيم المترامي الأطراف، ومعنى عقيدة كهذه أن الله ليس هو المبدع الخلاق الذي يبدو لنا متجلياً في مرآة صفاته الإبداعية، أو أن صفات الله تنطوي على تناقضاتٍ، وواضح أن كلا هذين الأمرين مستحيل، لقد أنشأ الله البشرية على دين الفطرة، فلم يكن وقتئذٍ لأبناء البشر قاطبةً إلا دين واحد، ثم نشب اختلاف بين الناس، انتهى بهم إلى جعل الدين صوراً وأشكالاً شتى، وإنما يرجع السبب في ذلك إلى إساءة استخدام الحرية التي مُنحت للناس لأجل الامتحان، ولو أن الله ظهر للعيان بقوته وجبروته، لانعدم عناد الناس وتلاشى طغيانهم فجأةً، وحل الاتحاد بينهم محل الاختلاف والانقسام .

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ: نائبة أصابتهم (الجوع والقحط) .

لَهُم مَّكْرٌ: دفع وطعن واستهزاء .

الله أَسْرَعُ مَكْراً: أعجل جزاء وعقوبة .

لما أصر أهل مكة على الجحود والإنكار، ولم يزدادوا مع مضى الزمان، إلا توغلاً في العناد والمكابرة، سلط الله عليهم قحطاً استمر سبع سنوات، وانتهى - آخر الأمر - بدعاء رسول الله ﷺ.. إنها كانت آية كان لهم أن يستمدوا منها الدرس القائل بأن إنكار النبي سيعرضهم لضربة البطش الإلهي، غير أنهم خرجوا من المحنة كما دخلوا فيها، فعندما يكون القحط مسلطاً عليهم يبتهلون ويتضرعون إلى الله، وحين يذهب عنهم يقولون: إنما هي صروف الدهر وتقلبات الأيام يتعرض لها كل الأحياء على وجه البسيطة، ولا علاقة لها البتة بالإيمان بالنبي أو عدم الإيمان به !!

الناس يطلبون من النبي الآية، ولكن المسألة لا تكمن أصلاً في ظهور الآية، بل في استلهام الدرس والعبرة منها، فإن الآية إنما تكون للمشاهدة، دون الإلزام أو الإجبار على الإيمان، ومن ثم فلا يزال هذا الخيار، حتى بعد ظهور الآية، بيد المرء نفسه، سواء كان يؤمن بها أم يرفضها، باللجوء إلى أي تفسير باطل لها !!

على أن آية الله الأخيرة - الحاسمة - إذا ظهرت، فلا يملك الإنسان إزاءها أي خيارٍ، إذْ تأتي هذه الآية الأخيرة، على أثر قيام الحجة القاطعة، محققةً للعدل الإلهي، وهي تأخذ صوراً مختلفةً من نبي إلى آخر، فقد تمثلت هذه الآية الإلهية بالنسبة لنبي آخر الزمان في صورة غلبة المؤمنين وانتصارهم الكامل على الكفار والمشركين، وفي هذا الصدد كتب الشيخ شاه عبد القادر الدهلوى (*) في «موضح القرآن» يقول : «يعنى لو سألوا : كيف لنا أن نعرف أن ما تقوله حقا ، فقال رداً عليهم : إن الله تعالى سيكتب لهذا

(*) الشاه عبد القادر الدهلوى (١٧٥٣ - ١٨١٣) هو الابن الثاني للشاه ولي الله الدهلوي صاحب كتاب «حجة الله البالغة» ، كان أول من نقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الأردوية (المترجم) .

الدين في القادم الغلبة والازدهار، ولمعارضيه الذلة والدمار، ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾، وقد حدث ذلك بالفعل، وظهور الآية المؤيدة للحق مرةً واحدةً فيه غنىً وكفاية ؛ إذْ لو نزلت الهزيمة والذلة والهوان في كل مرةٍ بالمعارضين وحدهم، لانحسم الأمر وتحقق القضاء، في حين أن الدنيا ليست موضع الحسم أو القضاء النهائى)) .

إن المرء حين يعاند ويتعنت، ثم يجد أنه لا يصيبه، بسبب ذلك أذىً أو خسارة ما، فلا يلبث أن يصبح أكثر عناداً وأشد تعنتاً، حيث إنه يظن أنه أبعد متناولاً عن بطش الله، على حين أن هذا يتم حسب تدبير الله، فإن الله تعالى يُمهل المعاند الطاغي ليعاند ويطغى ما وسعه العناد والطغيان، غير مبالٍ ولا مكترثٍ بالعواقب، وفي أثناء ذلك لا يزال حفظة الله يسجلون كل أعماله وأقواله في صمتٍ وخفاءٍ، حتى إذا انقضى أجله، فاجأه ملك الموت، فيبطش به ليحضره أمام الله رب العالمين للحساب عن أعماله كلها !

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

رِيحٌ عَاصِفٌ: شديدة الهبوب.

أُحِيطَ بِهِمْ: أحدق بهم الهلاك.

يَبْغُونَ: يفسدون .

الإنسان وجود مرهف الحس للغاية ؛ لا يطيق تحمل الألم أو الصبر عليه، وهذا هو السبب فى أن الإنسان ما إن تعتريه ساعة ألمٍ ما، حتى يصبح جاداً على نحوٍ تلقائي، وترتفع حينئذٍ كل الحجب المصطنعة عن ذهنه، ففى لحظات الهم لا يلبث الإنسان أن يعترف بالحقيقة التى لم يكن يستعد للاعتراف بها فى لحظات فراغ البال .

ومن أمثلة ذلك السفر البحري، فإذا كان البحر هادئاً ساكناً والسفينة تجرى بركابها جرياً سريعاً نحول المنزل، فإنها تكون بالنسبة إليهم لحظة طيبةً ورائعة جداً، وعندها تمتلئ نفوسهم بمشاعر الغرور والثقة الكاذبة، حيث يظنون أن أمرهم مستقيم تمام الاستقامة، فلا أحد يستطيع الآن أن يفسده عليهم أو يحدث فيه خللاً ما !!

وإنهم لكذلك إذْ تهب الرياح البحرية، وتتدافع أمواج هائلة كالجبال تحيط بركاب السفينة من كل جانبٍ، مما يجعل حتى البواخر العملاقة تتمايل وتتأرجح على سطح الماء كأنها قشة تافهة، ويبدو ظاهراً أن ليس هناك من مصير سوى الهلاك غرقاً، وهنالك يعترف بالله من كان ينكر وجوده، ويأخذ عبدة الأوثان والتماثيل يدعون الله الواحد الأحد فى ضراعةٍ وخشوعٍ، ويعود المعتمدون على قوتهم وتدابيرهم الذاتية لا يذكرون الآن شيئاً سوى الله وحده ، وإن هذا لدليل تجريبى على أن التوحيد عقيدة فطرية، وأن كل العقائد، ما عدا التوحيد باطلة الأساس.

وهذه التجربة تدلنا على أن المرء مهما تفلسف وتعقلن في محاولة الهروب من الإيمان بالله ، فإن كل الأقاويل من هذا القبيل ليست في حقيقتها سوى ترفٍ ذهني أو تنظيرٍ خيالي فارغٍ مصدره اللا مبالاة، وانعدام الهم ليس غير، ولو أن الإنسان علم أن ما أتيح له من فرصٍ ومواقع في هذه الدنيا، إنما أتيح لأجل الامتحان، وبصفةٍ مؤقتة للغاية، لأصبح من فوره جاداً تمام الجدية، ولتهدمت كل الحواجز الاصطناعية المحيطة بذهنه ولم يجد بداً ولا مناصاً من الإيمان بالله الواحد الأحد .

وإن وقتاً سيحين ، فيه يهتز كيان الإنسان كله وترتعد فرائصه لرؤية جلال الله

وجبروته، وإذ يجد نفسه مضطراً إلى الإقرار بكل الأمور الإلهية، ولكن العاقل هو الذى يرى حقائق الحياة القادمة فى تجارب الحياة الراهنة ، والذي يبادر اليوم إلى الاعتراف بالأمر الذى سيضطر الكل إلى الاعتراف به غداً، غير أن اعتراف الغد لن يغنى عنه شيئاً !

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) ﴾

مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا: حالها في سرعة تقاضيها وزوالها.

زُخْرُفَهَا: نضارتها وبهجتها ـ بألوان النبات .

أَمْرُنَا: ما يجتاحها من الآفات والعاهات.

حَصِيداً: كالنبات المحصود بالمناجل .

لَّمْ تَغْنَ: لم تمكث زروعها ولم تقم .

الحياة الدنيا فترة امتحان؛ ولذا فقد مُنح الإنسان هنا الحرية الكاملة، وأتيحت له كل أنواع الفرص والإمكانات، ويبدو ظاهراً أن الإنسان حر طليق يفعل ما يشاء، وبني مستقبله على نمط صادف هواه ، على أن هذه الأحوال تتخللها أحداث ووقائع تنطوي على دروسٍ وعبرٍ غالية لقوم يتفكرون، وهي تشير إلى الحقيقة القائلة بأن هذا كله لا يعدو أن يكون مجرد متاع عارضٍ مؤقتٍ، وسرعان ما سينتزع من أصحابه !!

ومن ذلك مثلاً واقع اخضرار الأرض ونضارتها، فإذا أنزل المطر، اكتست الأرض بألوانٍ شتى من النباتات، ومنظرها يملأ أفئدة أصحابها نشوةً وسروراً، يجعلهم يظنون

أن الأمر كله فى مُكنتهم وتحت تصرفهم، وأنهم لسرعان ما سيصبحون ملاّكاً لزروعٍ جاهزةٍ، ولكن هذا الحلم لا يكاد يتحقق حتى تفاجئهم كارثة من الكوارث ؛ كهبوب إعصارٍ، أو سقوط البرد، أو غزو الجراد ؛ مما يقضى على مزروعاتهم كلها فى لمح البصر!!

وهذا هو شأن الحياة الإنسانية كذلك، فالمرء يولد مع جسدٍ متكامل الأعضاء، جميل المنظر، مزودٍ بمختلف القوى والاستعدادات، وتواتيه أسباب الدنيا فينجح في أن يبني لنفسه حياةً سعيدةً ورائعةً؛ مما يُشعره بنوعٍ من الثقة والاعتماد على ذاته، حيث يخيل إليه أنه هو صاحب الاختيار المطلق في أمر نفسه، يتصرف فيه كما يشاء، وبينما هو كذلك إذْ تفاجئه منيته في ذات ضحىً أو ليلةٍ، وإذا بالذي كان يعد نفسه صاحب الاختيار، ينتهي أمره إلى حيث لا يتوفر لديه شيء سوى العجز والاضطرار . ولو أن المرء وضع هذه الحقيقة نصب عينيه، لما اتجه في الدنيا أبداً إلى البغي والطغيان، ولما عامل أحداً معاملة الظلم والعدوان أبداً!

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

الْحُسْنَىٰ: المنزلة الحسنى (الجنة) .

وَزِيَادَةٌ: النظر إلى وجه الله الكريم فيها .

وَلاَ يَرْهَقُ وَجُوهَهُمْ: لا يغشى وجوهم ولا يعلوها .

قَتَرٌ: غبار ما فيه سواد .

ذِلَّةٌ: أثر هوان ما .

عَاصِمٍ: مانع يمنع سخطه وعذابه .

أُغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ: كسيت وألبست .

ينخدع المرء بظواهر أحوال الدنيا ؛ فيعتبر المتاع الوقتي متاعاً دائماً، ويخيل إليه أنه يتمكن من الحصول على الحياة المليئة بالمسرة والراحة، التي تطمح إليها نفسه، في هذه الدنيا، على حين أن دنيا الآمال البشرية إنما تتكون حقيقةً في الآخرة، ولن يصل إليها إلا مَنْ حاول الوصول إليها وفق المنهج الذي قرره الله تعالى .

ولو افترضنا - جدلاً - أن المرء يستطيع الحصول على كل شيءٍ في هذه الدنيا، فإنه ليس بقادرٍ على أن يطهر حياته من مكدرات الحزن والألم، فما من سرورٍ هنا إلا يصحبه خوفٍ ما، إن الحياة الخالية من الحزن والخوف والألم لهي حياة فذة لن يتمتع بها المرء إلا في بيئة الجنة وحدها، والذين يعون هذا السر، هم الذين سيختارون طريق الجنة، وسيصلون آخر الأمر إلى جنان الله الأبدية .

إن حياة الرفاهية والمسرة التي يتمناها الإنسان، ستتاح لعباد الله الأوفياء في الجنة بصفةٍ دائمةٍ، على أن هناك درجةً أخرى من الرفاهية والمسرة، هي أعلى وأرفع جداً من أنواعها المألوفة ؛ ألا وهي رؤية مالك الكون التي سيفوز بها أهل الجنة بوجهٍ خاصٍ، فالله الذي هو خالق اللذات والرفاهيات، هو - من غير شك - الكنز الأكبر لسائر ألوان اللذة والرفاهية، وقد جاء في الحديث أنه : ((إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون : وما هو، ألم يثقل موازيننا؟ ألم يُبيض وجوهنا؟، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فو الله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم))[1].

وإنه ليس ثمة من حالة أشد ولا أقسى على المرء من أن يعتريه عجز وهوان لا

---

(١) أخرجه احمد ، ومسلم وجماعة من الأئمة .

ينقضي إلى الأبد، ومن أن يجد نفسه وقد كُتب عليه فشل لا يمكن تحويله إلى النجاح ثانيةً، وفي الآخرة سيواجه هذه الحالة نفسها ، أولئك الذين سيحكم عليهم بالخلود في نار جهنم، حيث يطرأ على وجوههم - لفرط اليأس والقنوط - سواد حالك يبدو معه وكأنهم غارقون في ظلماتٍ كثيفة متراكمةٍ بعضها فوق بعضٍ، ومع أن المرء لن يجازى على سيئته إلا بقدرها سواءً بسواءٍ، إلا أن الشعور بالحرمان الأبدي سيكون قاسياً ثقيل الوطأة عليه لدرجة أن وجهه سيعود بسبب ذلك أسود قاتماً !

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

مَكَانَكُمْ: ألزموا مكانكم .

فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ: فرقنا بينهم وقطعنا صلتهم .

تَبْلُو: تخبر أو تعلم أو تعاين .

إن قوام الشرك وعماد أمره كله هو الآمال الزائفة، فالوقائع التي تحدث بفعل قدرة الله سبحانه وتعالى، يعزوها المشرك إلى الآلهة الباطلة، وهكذا يجعل منها - بناءً على تصوره الوهمي المزعوم - مركزاً لعقيدته وعبادته، ويزداد اعتماده على آلهته تلك لدرجة أنه يظنها ستقف إلى جانبه بإزاء الله تعالى في الآخرة، وبالتالي ستحميه من البطش الإلهي !!

وما هذه كلها سوى آمالٍ زائفةٍ، غير أن زيفها لا يظهر للعيان في الحياة الدنيا، وإن الحقائق كلها ستنكشف في الآخرة، وسيعلم الجميع هناك أنه لم يكن يملك أحد فى هذا الكون شيئاً من القوة سوى الله الواحد الأحد!

يعيش المرء فى العالم الراهن وتراوده هذه الأمنية الحالمة بأنه لسوف يجتاز مرحلة الآخرة بنجاحٍ بمعونة أكابره أو نصرة آلهته المزعومة، ولكن سيفاجأ فى الآخرة بإدراك أن اعتماده كان باطلاً محضاً، حيث لن يجد أحد في الآخرة إلا ما كان قد عمل هو بنفسه، وستنعدم وتتلاشى كل الدعامات الخيالية المفترضة كما لو لم يكن لها من وجودٍ البتة !

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

رَبُّكُمُ الحَقُّ: الثابتة ربوبيته بالبرهان ثبوتا لا ريب فيه .

فَأَنَّى تُصْرَفُونَ: فكيف تستجيزون العدول عن الحق إلى الكفر والضلال .

حَقَّتْ: ثبتت ووجب .

لابد للإنسان من الرزق، فكيف يتأتى له هذا الرزق ؟ الجواب هو : عن طريق عمل الكون الكلي المتكامل، فالكون بأكمله يعمل بكافة موجوداته في اتجاهٍ خاصٍ ، وعلى أقصى درجةٍ من التوافق والانسجام، حتى يمكن أن يتوافر للإنسان ذلك الرزق الذي يستحيل بدونه وجوده على وجه الأرض، ولا يقدر شركاء الألوهية الفرضيون، أو المعبودات الباطلة، تبعاً لعقيدة المشركين أنفسهم، لا يقدرون على توفير هذا الرزق للإنسان؛ لأن كل شريك فرضى إنما هو إله لجزءٍ من الأجزاء، ولن يتمكن إله الجزء أبداً من إحداث واقعةٍ تتطلب توافق الأجزاء كلها بعضها مع البعض الآخر !!

وهكذا - مثلاً - يتوفر لدى الإنسان قوىً مدهشة كالسمع والبصر .. إلخ، وهي الأخرى لا يمكن أن تكون من صنع أي معبودٍ باطلٍ، فهذه المعبودات إما محرومة من هذه القوى أصلاً، أو إذا كان هناك أى معبودٍ فرضى يتمتع بهذه القوى فإنه ليس

بخالقها، حتى إن هذه القوى لتنتزع منه تماماً كما تُنتزع من عامة الناس!!

وكذلك بث الحياة في الأشياء الميتة، ونزع الحياة من الأحياء، هو الآخر أمر مستحيل على المعبودات الفرضية، فليس هناك من دليل أو برهان على ذلك، ولا يعتقد فيها أحد عابديها اعتقاداً من هذا النوع، فكيف يمكن إذن أن يتلقى الإنسان هذه الأشياء من تلك الآلهة والمعبودات الباطلة؟! ومن البديهيات أن فاقد الشيء لا يعطيه .

وإن تعجب فعجب أن يعترف الإنسان بوجود إلهٍ عظيم، ثم هو ينسب إليه أموراً تتضمن النفي لكل صفاته العليا، والسبب في ذلك هو أنه لا يخاف الله، وأنه قد أقنع نفسه استناداً إلى الآراء والأفكار الكاذبة، بأن الله غير محاسبٍ إياه .

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ: فكيف تصرفون عن طرق الرشد .

لا يَهِدِّي: لا يهتدى بنفسه .

كل من يتم رفعه إلى درجة الألوهية،سواء كان بشراً أو من غير البشر،لا يقدر على إيجاد شيء ما من العدم،وإنما هو الله تعالى وحده الذي قامت الأدلة والبراهين على كونه خالق الخلق كله،وإذا ثبت عمل الحق لله مرةً واحدةً،فيقوم الدليل بذلك أيضًا على أنه يستطيع إعادته متى شاء،وسيعيده حتماً،وإذا كان الخلق الأول والخلق الثانى كلاهما لا يقدر عليه إلا الله تعالى وحده، فمن العبث المحض أن يتوجه المرء إلى الشركاء الآخرين سواه، إذْ إنه لا ولن يظفر منهم بشيء فى حياته الأولى ولا في حياته الأخرى القادمة .

همٍ أو خوفٍ من مستقبل حياتهم!

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

إن القهر والغلبة له تعالى في ملكه .

مَنْ الذى يمسك السموات والأرض، ويقوم بتدبير الأمر وتصريف الشئون فيما بينهما؟

إن هذا أحد الأسئلة الرئيسية التي شغلت أذهان الباحثين عن الحقيقة في كل العصور، غير أن الجواب الصحيح عن هذا السؤال لا يمكن الوصول إليه إلا إذا استطاع الإنسان أن ينظر إلى ما وراء الطبيعة، وبما أن أحد الناس لا يتمتع بعين تنظر إلى ما وراء الطبيعة، لذا يكون كل جوابٍ من أجوبته التي يتوصل إليها بعد جهدٍ جهيدٍ، قائماً على أساس الحدس والقياس وليس على أساس علمٍ حقيقيٍ !

والمتكلمون عن علم حقيقيٍ في هذه الدنيا إنما هم أولئك الذين يسمون «الأنبياء» ليس غير، إن هؤلاء صفوة من الناس يقوم بينهم وبين العالم العلوي اتصال مباشر ؛ حيث يخبرهم الله تعالى بالحقيقة؛ ولذا فإن علم النبي إنما هو العلم الوحيد في هذه الدنيا، الذي يمكن الاعتماد عليه على وجه اليقين .

ومع أننا لا نملك أي وسيلة مباشرةٍ لمعرفة صدق دعوى الأنبياء، إلا أن هناك وسيلةً غير مباشرة لذلك، وهي تتمثل في آيات الكون، فهذه الآيات تصدق تصديقاً عملياً بتلك الحقائق المعنوية التي بيّنها الأنبياء والمرسلون .

وعلى سبيل المثال فنحن نشاهد أن الليل والنهار يتعاقبان على أرضنا هذه ، الواحد

تلو الآخر بانتظام، وهذا الدوران ينشأ عن نظام محكم ومنضبط للغاية، بحيث لا يعتريه أي خلل أو اضطراب أبداً، ونلاحظ أن هذا الدوران ملائم لحياتنا فوق الأرض إلى حدٍ يدعو إلى الدهشة والإكبار، ويبدو واضحاً أن هناك خطةً هادفةً وراء هذا النظام الكوني البديع، إن هذا الوضع دليل ناطق على وجود قادرٍ مطلقٍ ورحمانٍ ورحيم يخبرنا الأنبياء عنه، ويدعوننا إلى الإيمان به !

والذين يتبعون «الشركاء» بحسب زعمهم، سواء أكانوا الشركاء الإلهيين القدامى، أم الشركاء الماديين المحدثين، ليسوا بمتبعي أية حقيقةٍ واقعيةٍ، بل هم متبعون لظنونهم وقياساتهم وحدها، وإن الكون بأكمله يصدق بالحقيقة التي تم إعلانها عن طريق الأنبياء، ولكن ليس هناك من أحد يصدق بما يدعيه «المشركون» !

﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

سُبْحَانَهُ: تنزيها له تعالى عما نسبوه إليه .

سُلْطَانٍ: حجة وبرهان .

إن زعم البنين والبنات لله مصدره قياس الذات الإلهية على الإنسان .. إن الإنسان يعاني من جملة النقائص والتقصيرات ؛ مما يجعله يشعر بالحاجة الماسة إلى الأولاد لكي يتلافى بهم ما ينقصه، ويتدارك بهم ما هو قاصر عن إدراكه وحده، غير أن هذا القياس بالنسبة إلى الله باطل محض .

إن نظام المخلوقات في ذاته رد صارخ على مثل هذا الخالق، فإن الله الذي يشهد له نظام المخلوقات الكوني إله كامل في ذاته إلى أقصى حد الكمال، وهو منزه عن العيوب

يَنظُرُ إِلَيْكَ: يعاين دلائل نبوتك الواضحة .

الذين لا يؤمنون هم عند الله مفسدون؛ إذْ لا يمكن أن يمتنع أحد عن قبول الحق إلا بعد أن يكون قد أفسد فطرته وشوهها، ومثل هذا الشخص يكبت صوت ضميره، ولا يستخدم عقله وقوة تفكيره، ويعرض عن الدلائل الواضحة استناداً إلى ألفاظٍ كاذبةٍ، وهو يستمع ولا يسمع، ويفهم ولا يحاول أن يعي، وهو بالتالي يؤثر مصالحه الذاتية ونوازعه العصبية على تلبية نداء الحق!!

المولعون بالجدل والمناظرة يأبون إلا أن يواصلوا جدالهم العقيم حتى الساعة الأخيرة، وهم لذلك يعتبرون النطق بجملة كهذه: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ بمثابة التسليم بهزيمتهم، إلا أن الداعي إلى الحق يعمل مترفعاً عن دواعي الانتصار والهزيمة، ومن ثم فإذا وجد مخاطبه وقد لجأ إلى العناد والتعنت والمكابرة، ولم يعد لاستمرار الحديث معه أي معنىً أو جدوى سوى إضاعة الوقت، بادر بإنهاء النقاش قائلاً بأن القضاء الحقيقي بيد الله، وأن الكل سيلقى عند الله تعالى مصيره تبعاً لوضعه الذي سيكشف عنه الميزان الإلهى !

ومن المنكرين للحق طائفة تعلن صراحة عن كونها منكرة منذ البداية ، غير أن هناك أقواماً أكثر دهاءً ؛ يتظاهرون بالإصغاء إلى القول كما لو أنهم يريدون حقاً أن يفهموه، بينما تضمر قلوبهم التصميم على عدم تفهمه على أية حالٍ ، كما أنهم ينظرون إلى الآيات الدالة على صدق الداعي كما لو أنهم يرغبون في مشاهدتها بأعين مفتوحةٍ وقلوب صافية، بينما تكون عقولهم قد قررت مسبقاً بعدم تناولها بالرؤية ولا بالاعتراف بها، وربما يحسن الداعي الظن بأمثال هؤلاء، فيأمل في هدايتهم، ولكنهم عند الله أناس أصبحوا صماً وعمياناً رغم تمتعهم بالآذان والأعين، ولا يكتب لأمثال هؤلاء التوفيق من الله للاهتداء إلى الحق أبداً .

لقد منح الإنسان قوىً وصلاحيات رائعةً جداً، ولو أنه استخدم هذه الصلاحيات

لما ضل طريق الحق والخير أبداً، غير أن الإنسان يقع في سوء فهم ؛ إذْ يجد نفسه حراً طليقاً، فيأخذ في التمرد والطغيان بدون وجه حقٍ، وإنما هو يفعل ذلك لكونه لم يفهم منهج الله؛ فالشيء الذي أتيح له على وجه الاختبار والابتلاء، قد اعتبره حقاً ذاتياً له !

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

بِالْقِسْطِ: بالعدل في الدنيا أو يوم الجزاء .

ليست الآخرة اليوم ماثلةً أمام الإنسان، ويحتاج الرائي اليوم أن ينظر إليها بمنظار التصور ؛ولذا فإن الشخص الذي لا يكون جاداً بالنسبة إلى الآخرة، تبدو له وكأنها شيء بعيد، ولكن حين تدهم الآخرة الإنسان كحقيقة كبرى، ويأخذ ينظر إليها بكل خطورتها وأهوالها، فإنه سيذهل حينئذٍ عن عناده وطغيانه الحالي، وستتراءى له لمحات الدنيا ضئيلة وتافهة جداً، تلك التي كان قد وقع من أجلها في الغفلة، ولم يكن يستعد حتى لمجرد التفكير في شأن الآخرة، والآخرة لن تقع في عالم غريبٍ مجهولٍ، بل ستقع في عالمٍ مألوفٍ ومعروفٍ لدينا تماماً، فسيجد المرء نفسه هناك في البيئة نفسها التي كان قد أنكر فيها الحق من ذي قبل، وسيرى فيما حوله أولئك الذين كان يمارس البغي والطغيان اعتماداً عليهم، غير أنهم لا يغنون عنه شيئاً، وسيتجدد حينئذٍ في ذهنه كل شيء كأنه حادث الآن ولم تمض عليه أية مدةٍ من الزمان !

إن قضية الداعي والمدعو هي أخطر القضايا القائمة تحت أديم السماء، ولو أن الداعي كان قد نهض بالحق في واقع الأمر، فإنه ممثل الله في هذه الدنيا، وبالتالي فالإقرار به هو الإقرار بالله، وإنكاره إنكار لله، وإن واقعةً كهذه لن تكون خاليةً من المصير أو

العاقبة ؛ ففي أعقاب ظهور الداعي إلى الحق يحدث بالضرورة أن يصير كل الناس مجردين عن أي دليل يقاومون به الكلام الرباني الذي يجري على لسانه، وهذا أول انتصارٍ يحرزه الحق على الباطل، والانتصار الثاني سيتم في الآخرة، حيث سيقف معارضوه بإذن الله تعالى، عاجزين مكتوفي الأيدي أمامه، إن الواقعة الأولى لابد وأن تحدث في هذه الدنيا ، وأما الواقعة الثانية فقد تحدث هي الأخرى في العالم الراهن بصفة جزئية، فيما إذا شاءت إرادة الله إحداثها فيه، وإنه لابد لكل طائفةٍ من أن تمر بمرحلةٍ تقف فيها بين يدي ممثل الله في العالم الراهن على نحوٍ مباشرٍ، قبل أن تقف بين يدي الله تعالى مباشرةً، وهكذا يرى الله - سبحانه وتعالى - مَنْ الذي يسلم نفسه إلى الله في وقتٍ مازال الله فيه وراء الغيب، ومَنْ الذي لا يفعل ذلك، وللصنف الأول الجنة، وللصنف الأخير نار جهنم !!

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

أَرَأَيْتُمْ: أخبروني عن عذاب الله .

بَيَاتاً: وقت بيات أي ليلا .

آلآنَ: آلآنَ تؤمنون بوقوع عذابه .

الإنسان يجد نفسه في العالم الراهن حراً ؛ فهو يرى ظاهراً أنه يفعل ما يشاء، ولا أحد هناك يبطش به أو يعاقبه على فعله، وهذا الوضع يوقعه في الغفلة، حتى إن داعية الله حين يحذره من عاقبة عمله الوخيمة، يستهزئ به ويسخر منه قائلاً : متى سينزل بنا هذا

العذاب الذي جئت تنذرنا به على طغياننا؟!

ومصدر مثل هذه الأقاويل ليس إلا الغباء وسخافة العقل ؛ لأن عذاب الله لن يأتي من قبل الداعي إلى الحق نفسه، بل من عند الله تعالى، والله - سبحانه وتعالى - ينبئنا كل حينٍ وآنٍ، من خلال الأحداث الجارية في كونه بأن منهجه ليس منهج التعجيل أو الإسراع .

لو كان هناك ثقب في جانب من جوانب سفينةٍ ما، وألقى بها أحد النواتي في البحر غير مكترثٍ بذلك الثقب، فإن سنة الله تقضي بأن تغرق مثل هذه السفينة في الماء لا محالة، إلا أن سفينة كهذه لا تغرق على الفور، بل هي تغرق في حينها تبعاً للسنة الإلهية .. إن أمثلة من هذا النوع كثيرة منتشرة في كل أرجاء الوجود، وهي تعرف الإنسان بالسنة الإلهية، ولكنه - بالرغم من مشاهدتها مرةً وأخرى - يقول : إن كانت هذه الأعمال التي نمارسها تستلزم عذاب الله، فماذا يؤخر ذلك العذاب عنا، ولم لا ينزل بنا على عجلٍ وفي أسرع ما يمكن من الزمان؟! وإنما يبعث الإنسان على هذا القول عدم جديته بشأن البطش الإلهي .

إن الزلازل والطوفانات وقائع إلهية، وهذه الوقائع تدل على أن الأمر حين يكون بين الله وبين الإنسان، فإن الخيار كله إنما يكون في يد الطرف الأول وحده، غير أن الإنسان لا يقف عندها وقفة تدبر واعتبار، وإنما هو ينظر فقط أن سنة الله لا تنشط أو تتحرك من فورها، وبما أنها لا تتحرك فوراً، فهو لا يزال أسير الغفلة واللامبالاة، ولكن حين يأتي أمر الله، فسيُضطر الإنسان عندئذٍ إلى أن يعترف بكل شيءٍ لكونه عاجزاً لا يملك إزاءه شيئاً من حولٍ وحيلةٍ، بينما الاعتراف وقتئذٍ لن يُغني عنه فتيلاً ؛ لأنه سيكون موعد نيل جزاء العمل دون مباشرة العمل!

﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾
وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟

ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ: يستخبرونك مستهزئين عن العذاب

إِي وَرَبِّي: نعم وربي .

أَنتُم بِمُعْجِزِينَ: بفائتين من عذاب الله بالهرب.

وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ: أخفوا الغم والحسرة.

لما حذر رسول الله ﷺ كفار العرب قائلاً بأنكم إن لم تبادروا بإصلاح أنفسكم فسوف تتعرضون لعذاب الآخرة، فلم يلبثوا أن راحوا يستهزئون بتحذيره ويسخرون منه .

الإنسان كائن جد حساس ؛ لا يطيق تحمل الألم، وإنه لا يزال يستهزئ بالحق ويرفضه باستغناء تام، ما دام لا يتعرض في هذه الدنيا لعذابٍ ولا عقابٍ، ولكن عندما يواجهه عذاب الآخرة، ينتابه هلع وخوف ينخلع معه قلبه، ويبدو له كل شيء حقيراً تافهاً، حتى إن كان لديه يومئذٍ ثروات الدنيا وخيراتها كلها، فإنه سيراها بإزاء العذاب غير ذات قيمة لدرجة أنه يود لو دفعها برمتها ليتخلص من ذلك العذاب المؤلم !!

غير أن مسألة الآخرة ليست مسألة مساومةٍ، إنما هي مسألة لقاء كل نفسٍ جزاء ما كسبت جزاءً وفاقاً، وإنها لجزء لا يتجزأ من خطة الله التي رسمها عن الحياة والموت، ويقتضي العدل الإلهي أن ذلك يجب أن يكون، والقدرة الإلهية كفيلة بأن ذلك كائن لا محالةً.

وما يحول دون تحقق هذا كله سوى ذلك الموعد المحدد الذي بحلوله تنتهي فترة الامتحان الراهنة، وبالتالى سيحضر البشر جميعاً بين يدي ربهم لسماع قضائه عن

مصيرهم النهائي! .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠ ﴾

أَرَأَيْتُم: أخبروني .

أَذِنَ لَكُمْ: أعلمكم بهذا التحليل والتحريم.

تَفْتَرُونَ: تكذبون في نسبة ذلك إليه .

الإنسان كائن نفسي ؛ وهو يصلح بصلاح نفسيته، ويفسد بفسادها، وإن الهداية التي نزلت في صورة كتاب الله - القرآن الكريم- هي رحمة للإنسان، وهي تتضمن أحسن موعظةٍ له، غير أن الانتفاع بهذه الموعظة يستلزم ألا يكون المرء قد فقد سداد فكره، فالشخص الذي مسخ أو شوّه استعداده لسداد التفكير، ستذهب موعظة الله عنده هباءً منثوراً، ولن تحرك ساكناً لديه البتة !!

إن أشياء العالم الراهن ومباهجه تكون «حاضرة بين يدي المرء، فهو يجرب لذتها وجودتها في كل حينٍ، وفي مقابل ذلك فإن نعم الآخرة لا تعْدو أن تكون مجرد «وعدٍ»، يسمع عنها المرء، دون أن يجربها أو يتمتع بها عملياً في حياته، الأمر الذي يجعل أكثر الناس يتهافتون على أشياء الدنيا الحاضرة، غير أن الشخص الذي يفكر في الموضوع بعمقٍ، سيُسر سروراً عظيماً بأن الله - بإنزال كتاب هدايته - قد فتح باب الحصول على النعم الأبدية.

كل ما أعطى الله الإنسان، سواء كان في صورة المحاصيل الزراعية أو في صورة أخرى سواها، هو من رزق الله المسخر له، ولو أن المرء نظر إلى هذه الأشياء على أنها عطاء الله، وتصرف فيها تبعاً للمنهج الذي أرشد الله إليه، لاستيقظت في داخله عواطف الشكر والامتنان لله، ولكن الشيطان يحاول دوماً أن يقلب هذه النسبة، حتى يعود الإنسان عند استعماله هذا «الرزق»، لا يتذكر الله، بل يتذكر الأشياء الأخرى عداه .

ففي العصر القديم عمل الشيطان على ترويج مراسم وطقوس خرافية لإرضاء الآلهة والمعبودات الخيالية بشأن الزروع والثمار، لكي يتناولها المرء وهو يذكر هذه الآلهة والمعبودات دون الله، كما حقق الشيطان هذا الغرض نفسه في العصر الحديث عن طريق التفسيرات أو التعليلات المادية، حيث إنه يصور للناس ما يحصل لهم عند الله على أنه من معطيات العوامل المادية، حتى إذا ظفر الناس به لم يعدّوه رزقاً من الله، بل ظنوه مجرد نتاج تفاعل عناصر المادة!

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾

تَكُونُ فِي: في أمر هام معتنى به .

تُفِيضُونَ فِيهِ: تشرعون وتخوضون فيه.

وَمَا يَعْزُبُ: ما يبعد وما يغيب .

مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ: وزن أصغر من نملة أو هباءة.

الدعوة هي أشق عملٍ من أعمال هذه الدنيا، فإن حامل رسالةٍ ما لا يكون داعياً إليها إلا بعد أن يسخر وجوده كله للعمل الدعوي، والمرحلة الأقسى والأشد وطأةً من ذلك هي التي يواجهها من قبل المخاطبين، فحين يعرض الداعي دين الله في صورته النقية الخالصة، ويقيم على صدقه أوضح الأدلة والبراهين، فلا يلبث أن يثور جميع أولئك الذين كانوا يتظاهرون بالتدين على أساس دينٍ مزعومٍ خلعوا عليه شعار الدين الإلهي، أو الذين يحتلون مركز الإمامة الدينية، وبالتالي يتصدون لإخضاع الداعي والتغلب عليه بكل حول وحيلةٍ، ويستحلون للوصول إلى هذا الغرض كل شيءٍ، حتى الدعاية الكاذبة، والمؤامرات الخسيسة، والإجراءات العدوانية العنيفة، وما إلى ذلك .

إن حرية التصرف المتاحة في العالم الراهن تجعلهم لا يتحرجون من اتخاذ أية خطوةٍ جائرةٍ ضد الداعي، ومن اللجوء إلى أية وسيلةٍ دنيئةٍ للنيل منه .. ويصل هذا الوضع إلى حدٍ تتركز معه قوة الدليل كلها في جانبٍ، بينما تتركز القوى المادية كلها في جانبٍ آخر .

إن من المستحيل ألا يقف الله إلى جانب الحق .. إن صيرورة المعارضين مجردين عن الدليل، وتركز قوة الدليل كلها في جانب الداعي وحده، مما يثبت أن الله مع الداعي وليس مع الطائفة الثانية؛ لأن الدليل ممثل الله في العالم الراهن ؛ فمن كان معه الدليل كان الله معه!!

وإنما تسنح فرص العدوان لمعارضي الحق بسبب تلك الحرية التي أتيحت لهم من أجل الامتحان، فعندما تنقضي فترة الامتحان ينقلب الوضع تماماً، وستكون العزة والغلبة حينئذٍ لمن كان قائماً على أساس الدليل، وأما الذين كانوا خلواً من الدليل، فسوف لا يظفرون هناك بشيء سوى الخزي والخيبة والفشل .

إن طائفة دعاة الله الصادقين هي طائفة أولياء الله، ويبشرهم الله في الآخرة بحياة أسمى وأرقى لن يكدر عليهم صفوها أي حزنٍ أو حسرةٍ على ماضي حياتهم،ولا أي

همٍ أو خوفٍ من مستقبل حياتهم!

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

إن القهر والغلبة له تعالى في ملكه .

مَنْ الذى يمسك السموات والأرض، ويقوم بتدبير الأمر وتصريف الشئون فيما بينهما؟

إن هذا أحد الأسئلة الرئيسية التي شغلت أذهان الباحثين عن الحقيقة في كل العصور، غير أن الجواب الصحيح عن هذا السؤال لا يمكن الوصول إليه إلا إذا استطاع الإنسان أن ينظر إلى ما وراء الطبيعة، وبما أن أحد الناس لا يتمتع بعين تنظر إلى ما وراء الطبيعة، لذا يكون كل جوابٍ من أجوبته التي يتوصل إليها بعد جهدٍ جهيدٍ، قائماً على أساس الحدس والقياس وليس على أساس علمٍ حقيقيٍ !

والمتكلمون عن علم حقيقيٍ في هذه الدنيا إنما هم أولئك الذين يسمون «الأنبياء» ليس غير، إن هؤلاء صفوة من الناس يقوم بينهم وبين العالم العلوي اتصال مباشر ؛ حيث يخبرهم الله تعالى بالحقيقة؛ ولذا فإن علم النبي إنما هو العلم الوحيد في هذه الدنيا، الذي يمكن الاعتماد عليه على وجه اليقين .

ومع أننا لا نملك أي وسيلة مباشرةٍ لمعرفة صدق دعوى الأنبياء، إلا أن هناك وسيلةً غير مباشرة لذلك، وهي تتمثل في آيات الكون، فهذه الآيات تصدق تصديقاً عملياً بتلك الحقائق المعنوية التي بيّنها الأنبياء والمرسلون .

وعلى سبيل المثال فنحن نشاهد أن الليل والنهار يتعاقبان على أرضنا هذه ، الواحد

تلو الآخر بانتظام، وهذا الدوران ينشأ عن نظام محكم ومنضبط للغاية، بحيث لا يعتريه أي خلل أو اضطراب أبداً، ونلاحظ أن هذا الدوران ملائم لحياتنا فوق الأرض إلى حدٍ يدعو إلى الدهشة والإكبار، ويبدو واضحاً أن هناك خطةً هادفةً وراء هذا النظام الكوني البديع، إن هذا الوضع دليل ناطق على وجود قادرٍ مطلقٍ ورحمانٍ ورحيم يخبرنا الأنبياء عنه، ويدعوننا إلى الإيمان به !

والذين يتبعون «الشركاء» بحسب زعمهم، سواء أكانوا الشركاء الإلهيين القدامى، أم الشركاء الماديين المحدثين، ليسوا بمتبعي أية حقيقةٍ واقعيةٍ، بل هم متبعون لظنونهم وقياساتهم وحدها، وإن الكون بأكمله يصدق بالحقيقة التي تم إعلانها عن طريق الأنبياء، ولكن ليس هناك من أحد يصدق بها يدعيه «المشركون» !

﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

سُبْحَانَهُ: تنزيها له تعالى عما نسبوه إليه .

سُلْطَانٍ: حجة وبرهان .

إن زعم البنين والبنات لله مصدره قياس الذات الإلهية على الإنسان .. إن الإنسان يعاني من جملة النقائص والتقصيرات ؛ مما يجعله يشعر بالحاجة الماسة إلى الأولاد لكي يتلافى بهم ما ينقصه، ويتدارك بهم ما هو قاصر عن إدراكه وحده، غير أن هذا القياس بالنسبة إلى الله باطل محض .

إن نظام المخلوقات في ذاته رد صارخ على مثل هذا الخالق، فإن الله الذي يشهد له نظام المخلوقات الكوني إله كامل في ذاته إلى أقصى حد الكمال، وهو منزه عن العيوب

والنقائص من كل نوع ، ولو أن الله لم يكن كاملاً في ذاته، ولو أنه كان إلهاً ذا عيوبٍ ونقائص، لما تمكن أبداً من أن يصنع كوناً بديعاً مثل كوْننا، ولا استطاع إدارته وتسييره، كما نراه يسير بمنتهى الدقة والانضباط والتوازن .

ومعنى ذلك أن مفهوم الإله الواحد الذي يدعو إليه النبي، هو إله تتضافر آيات السموات والأرض كلها على إثبات وجوده، ولكن مفهوم الإله الذي كوّنه المشركون، لا يوجد له أي دليل في الكون الحالي، ومن الظاهر الآن أن الاعتقاد في إلهٍ بلا دليل هو في ذاته دليل على أن أصحابه لن يفلحوا أبداً، لأن الإله الذي لا وجود له أصلاً، كيف سيأتي لنجدة أحدٍ، وكيف سيسعد أحداً في الحياة وبعد الممات .. إن الإله الذي هو موجود في الحقيقة، لا يؤمن به المشركون، بينما الإله الذي يؤمنون به هو غير موجودٍ في أي مكانٍ، فلا أمل إذًا في أن يُكتب للمشركين النجاح في الكون الحالي، وإنما المصير الوحيد المقدر لهم هو أن يصبحوا آخر الأمر عاجزين لا يملكون قوةً ولا يجدون نصيراً، ويتجرعون مرارة الذل والفشل ولا يتخلصون منه إلى الأبد !!

إن إعطاء نعمةٍ عظيمةٍ كالعقل للإنسان يقتضي بطبيعة الحال أن تكون مسئوليته هي الأخرى عظيمة، وللسبب ذاته كان إنكار الحق أكبر جريمةٍ عند الله تعالى، إن الحق - إذا قام عليه الدليل القاطع - تعين على المرء أن يعترف به لا محالة، ولو أنه قابل الحق بالإنكار، بعد أن تم إثباته عقلياً، فإنه يرتكب جريمةً لا تغتفر، فإذا كان الله قد منح الإنسان عقلاً يمكنه من أن يعرف حقيقة الحق وبطلان الباطل، فماذا عساه يعتذر به بعد ذلك عند الله سبحانه وتعالى ؟!

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى

ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ (٧٣)﴾

كَبُرَ عَلَيْكُم: عظم وشق عليكم .

مقَامِي: إقامتي بينكم دهرا طويلا .

فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ: اعزموا وصمموا على كيدكم .

وَشُرَكَاءَكُمْ: مع شركائكم .

غُمَّةً: ضيقا شديدا ، أو مبهما ملتبسا .

وَلاَ تُنظِرُونِ: لا تمهلوني .

وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ: يخلفون المغرقين .

سيدنا نوح - عليه الصلاة والسلام - نبي عصرٍ سحيقٍ في القدم، وقد ظل شعبه يقابله بالحفاوة والتكريم ما دام صامتاً، ولكنه لم يكد يقوم داعياً إلى الحق، مرشداً للناس إلى ما ينبغي لهم، وما لا ينبغي من قولٍ وفعلٍ، حتى صار عندهم رجلاً بغيضاً ثقيل الظل، مما دفعهم إلى أن يهددوه قائلين: وإنك إن لم تنْته عن إزعاجنا بهذا التبليغ والتذكير فلن نسمح لك بالبقاء في أرضنا ولنطردنك من أقطارها طرداً .

فقال سيدنا نوح - عليه الصلاة والسلام - إنكم تعتبرون أمري أمراً بشرياً، ولذا تقولون مثل هذا القول، غير أن هذا الأمر أمر إلهي، وقتالكم معي سيضطركم إلى القتال مع الله، ولكي تتأكدوا من صدق ما أقول بإمكانكم أن تقوموا بتجربةٍ، وهي أن تدبروا أنتم بالتعاون مع أنصاركم و شركائكم أجمعين، أية خطوةٍ جماعيةٍ ضدي، ثم نفذوها بكل قوتكم تنفيذاً فورياً، وسترون أن كل خطة من خططكم التي تدبرونها للقضاء علي، تبوء بالفشل الذريع .. إن معيار صدق الداعي إلى الحق في العالم الراهن هو أنه يوفق لإنجاز عمله وأداء واجبه في كل الظروف والأحوال، وأن أية محاولةٍ ترمي

إلى إخضاعه أو القضاء عليه لا تكلل بالنجاح البتة !!

إن الشخص الذي يبعث من عند الله للقيام بدعوة الحق، ليقوم دوماً على أساس الآية - أي الدليل - وبما أن الدليل أمر ذهني؛ لذا فالإنسان المحب للظواهر لا يكاد يتفطن إلى عظمته وجلاله، وهو بالرغم من كونه عاجزاً عن دحضه عقلياً لا يلبث أن يرفض الإذعان والخضوع له .

ومن آداب الدعوة التي لابد لداعية الحق من مراعاتها ألا يطالب المدعو بأي نوعٍ من المطالبات المادية أو الاقتصادية ؛ مهما جرّ عليه هذا التنازل الأحادي الجانب من خسائر باهظةٍ، إن طبيعة العلاقة القائمة بين الطرفين هي التي تحتم ذلك، فمن الضروري أن تبقى بينهما علاقة الداعي والمدعو حتى الساعة الأخيرة ولا تتحول إلى علاقة الند القومي والمنافس المادي على أية حالٍ، لقد ظل نوح - عليه الصلاة والسلام يبلغ رسالة الحق حتى أقام الحجة على قومه، ولكنهم - مع ذلك - مازالوا مصرين على التمرد والطغيان، وبالتالي تم إهلاك الطغاة والمتمردين بالطوفان غرقاً، وجُعل مكانهم المؤمنون بنوحٍ ورثة الأرض ليسكنوها ويعمروها، وهذا ما يُسمى في اصطلاح القرآن بـ «الخلافة أو الاستخلاف»، فقبل الطوفان كان قوم نوحٍ خلفاء الأرض، وفي أعقاب الطوفان عُهد بخلافة الأرض إلى المؤمنين بسيدنا نوحٍ - عليه الصلاة والسلام.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

نَطْبَعُ: نختم .

أطلقت هذه الآية اسم «المعتدين» على أولئك الذين إذا ما أنكروا الحق مرةً واحدةً، جعلوا من ذلك مسألة كرامتهم أو اعتبارهم الذاتي؛ فلا يزالون يهملونه ويعرضون عنه، خشية أن تتضعضع ثقة الناس - إن هم قبلوا الحق - بكونهم محقين وعلماء أسرار الدين!!

والذين يتبنون مثل هذا الموقف يُعاقبون في هذه الدنيا بالطبع على قلوبهم، يعني أن نفسياتهم تفقد شيئاً فشيئاً من رهافة إحساسهم نحو الحق، حتى تصاب، آخر الأمر، بالتحجر والجمود، وبالتالي فهم لا يعودون يشعرون بلهفة ما بشأن الحق وغير الحق، لكي يتقدموا نحو الأول متخلين عن الأخير، إن تاريخ سيدنا نوحٍ ومعظم الأنبياء المرسلين من بعده يصدق هذا الواقع .

وأي داعٍ إلى الحق حينما يقيمه الله تعالى، فلا يكون محاطاً بأي نوعٍ من العظمة أو الأمجاد الظاهرية، وإنما الشيء الوحيد الذى يملكه هو الدليل وحده، فالذين يعترفون بالحق في لغة الدليل، هم الذين سيعترفون بداعية الحق، وأما الذين لا تتمكن لغة الدليل من التأثير عليهم، فإنهم يظلون محرومين من معرفة الداعي إلى الحق ومن الانضواء تحت رايته معاً !

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

لِتَلْفِتَنَا: لتلوينا وتصرفنا .

لم يؤمن فرعون وأشراف قومه، بسبب عقليتهم الإجرامية، بما جاء به موسى وهارون - عليهما السلام - حيث إنهم كانوا ينظرون إلى الأشياء ويحكمون عليها بمعيار الجاه والسلطة بدلاً من معيار الدليل والبرهان، وقد اعتبروا أنفسهم، بناءً على هذا المعيار المزعوم، أعظم شأناً وأرفع قدراً من موسى وهارون، وبالتالي فقد حالت نفسيتهم هذه دون قبولهم للحق الذي كان يعرضه عليهم رجل صغير ضئيل الشأن في

أعينهم !

ولما عجز فرعون عن فهم كلام موسى المدعوم بالأدلة والبراهين الواضحة، أظهر موسى أمامه معجزات العصا واليد البيضاء، ولم يكن لدى فرعون شيء يقاوم به هذه المعجزات الباهرة، فانطلق يقول : إن هذا لسحر مبين، وهكذا حاول فرعون أن يستر هزيمته وراء تبريرٍ كاذب، وأوهم الناس بأن قضية موسى ليست قضية الحق، بل هي قضية السحر، وصحيح أن السحر يماثل المعجزة بعض المماثلة الشكلية، ولكن سرعان ما يظهر للعيان جلياً أن السحر لم يكن إلا شعوذةً، وبالمقابل فإن المعجزة تفوز بنجاحٍ دائم لا يزول، وهكذا يقوم الدليل نهائياً على كون السحر سحراً وكون المعجزة معجزةً.

ولكي ينفر الناس من دعوة موسى عليه السلام قال فرعون في هذه المناسبة شيئين آخرين : أحدهما: قوله عن موسى بأنه يريد أن يصرفنا عن الدين الذي توارثناه عن آبائنا، وقد كان ينبغي لفرعون أن يحاول فهم رسالة موسى عليه السلام في ضوء مصطلحي الحق والباطل، ولكنه فحصها بالمقياس الآبائي وغير الآبائي، وكان السبب في ذلك أنه لو نظر في الموضوع في ضوء معيار الحق والباطل لوجد نفسه مضطراً إلى الاعتراف بأنه مبطل، بينما كان يجد مبرراً للبقاء على موقفه عبر تقسيم الأمر إلى الآبائى وغير الآبائى !!

والشيء الثانى الذى قاله فرعون هو : أن موسى وهارون يرغبان في أن يفرضا كبرياءهما على أرض مصر، وهذا أيضاً لم يكن سوى ((فقشة سياسية)) قُصد بها تهييج الجماهير وإلهاب مشاعرها، فإن سيدنا موسى عليه السلام كان قد أوضح لفرعون، ومنذ أول لحظةٍ، أن هدفه يتمثل أولاً في أن يبلغ فرعون رسالة الله، وثانياً في أن يخرج بني إسرائيل من مصر، ليذهب بهم إلى صحراء سيناء، وفي هذه الحالة فقد كان القول بأنه يخطط للاستيلاء على حكومة مصر تُهمة لا أساس لها !

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

لم يكن استدعاء فرعون السحرة الماهرين لكونه يظن أن بإمكانه أن يهزم موسى ويتغلب عليه بواسطة هؤلاء السحرة، لقد كان هذا - بالدرجة الأولى - نتيجة عناد فرعون الزائد ورغبته الجامحة في الإصرار على إنكار موسى، ولم يكن بأي قرارٍ عقلي جادٍ، فقد كان فشل الخطة الرامية إلى هزيمة رسول الله وإحراز الغلب عليه بواسطة السحرة واضحاً معلوماً منذ البداية، ولكن المرء حين لا يكون راغباً في التسليم بحقيقة ما، فإن رغبته هذه تذهب به إلى حدٍ يحاول معه أن يقاومها بالتدابير السخيفة الحمقاء محاولةً فاشلةً، شأنه في ذلك شأن من يقيم سداً من الرمل أو القش في مواجهة سيل جارفٍ ؛ مع العلم بأن لا حقيقة للقش أمام السيل!

ومن ثم فقد كان ما لم يكن منه بد ؛ إذْ رمى السحرة بما جاءوا به من حبالٍ وعصيٍ في الميدان، فتراءت للناظرين وكأنها حيات تزحف وتتلوى، وبعدئذٍ ألقى سيدنا موسى عصاه التي تحولت بدورها إلى ثعبانٍ عظيم، أخذ يسعى في الميدان، ولم يكن «ثعبان» موسى هذا مجرد ثعبانٍ، بل كان قوةً من الله ظهرت لإحقاق الحق وإبطال الباطل، فعندما برزت استحالت حيات السحرة حبالاً وعصياً كما كانت من ذى قبل!!

وتلك هزيمة لقيها فرعون في الميدان الذي كان قد اختاره بنفسه، ولكن فرعون - مع ذلك - لم يعترف بهزيمته، حيث إنه لم يلبث أن بحث عن ألفاظٍ أخرى للرد على سيدنا موسى تماماً كما كان قد عثر على بعض الألفاظ للرد عليه في المرحلة الأولى !

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن

يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ
إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا
تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

أَن يَفْتِنَهُمْ: أن يبتليهم ويعذبهم .

لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً: موضع عذاب .

إن اعتناق فكرة جديدة يتسبب دوماً في تعرض المرء لشتى المشاكل والصعوبات الجديدة في مجتمعه، وللسبب ذاته فإن المتقدمين في السن كثيراً ما يقفون موقف الحذر والاحتياط من قبول أية فكرة جديدة، فإن الكبار تتغلب على أذهانهم المصلحة بفعل عوامل مختلفة، مما يجعلهم لا يبادرون إلى مناصرة الفكرة الجديدة رغم اعترافهم بصحتها .

أما الشباب فإنهم لا يكونون - عادةً - أسرى المصالح من هذا النوع، ولذا فلقد حدث دائماً وعلى امتداد التاريخ البشري أن غالبية المبادرين إلى اعتناق أية دعوةٍ جديدةٍ كانت من أولئك الذين لم تتقدم بهم السن بعد، وقد حدثت الظاهرة نفسها مع سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام .

وقد كان الشبان المناصرون لسيدنا موسى ﷺ يحسون خطراً على أنفسهم من فرعون، كما أنهم لم يلقوا أي تشجيع من قبل كبار قومهم، ومع أن هؤلاء الكبار كانوا يقرون بنبوة سيدنا موسى، إلا أنهم لم يكونوا يريدون - لرجحان جانب المصلحة عندهم - أن يتحمس أبناؤهم وبناتهم لتأييد موسى ومناصرته، فيتعرضوا، نتيجةً لذلك، لظلم فرعون الطاغية واضطهاده .

على أن وضعاً كهذا لا يقتضي أن يلوذ المرء بالصمت خوفاً من قهر المعارضين للحق، بل ينبغي عليه أن يتوجه ببصره نحو النصرة الإلهية في مواجهة المعاكسات

البشرية، وأن يهب بالتالى - معتمداً على الله واثقاً به - لمناصرة الحق الذي كان يجد نفسه عاجزاً عن القيام بمناصرته وحده!

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا: اتخذا واجعلا لقومكما.

قِبْلَةً: مساجد نحو الكعبة .

اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ: أهلكها وأذهبها ، أو أتلفها .

معنى القبلة في لغة العرب هو المرجع أو مركز التوجه، وقد أُريد بجعْل البيوت قبلةً هنا أن يخصص بنو إسرائيل بعض البيوت في قراهم أو بعض الأجزاء المناسبة من هذه البيوت، لكي يستخدمها سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - كمراكز لكفاحه الديني، بحيث تُعقد فيها اجتماعات تنظيمية، وتدور المشاورات حول الأمور المهمة، ويتم التخطيط الصامت للعمل الدعوي، وما إلى ذلك من أغراضٍ ومقاصد دينية .

لقد كانت أحاديث سيدنا موسى ﷺ عن التوحيد والآخرة، مثار الكراهية والاستياء الشديدين لدى فرعون ملك مصر، حيث كان قد فرض عليها قيوداً والتزاماتٍ قاسيةً جداً؛ حتى صار القيام بالأنشطة الدينية علناً أمراً متعذراً عليه، فأمر الله -سبحانه وتعالى - حينئذ بأنه ينبغى لكم الآن أن تحصروا عملكم في أقرب المجالات وأيسرها متناولاً، بدلاً من الاصطدام بفرعون وجنوده، فلتتخذوا في مساكنكم مراكز دعوية وتنظيمية صغيرةً، ولتواصلوا عملكم على هذا النطاق المحدود في صمتٍ كاملٍ ... أما الحكم الثاني الذي أُمروا به في ظل تلك الظروف القاسية فهو إقامة الصلاة ؛ أى المبالغة فى الاهتمام بتأدية الصلوات والإكثار منها ؛ لتوطيد الصلة بالله تعالى وطلب النصر والعون منه، والصلاة هي في الواقع وسيلة لطلب نصرة الله

بالتقرب إليه، فإن العبد بانشغاله في الصلاة يصل بنفسه إلى مقام العجز والتواضع، والعجز والتواضع هو وحده المقام الذي يتم فيه اللقاء بين العبد وربه، وليس هناك من موضعٍ آخر سواه لالتقاء العبد بربه !!

وقد كان إنجاز هذا البرنامج العملي منطوياً على سر فلاحهم ونجاتهم، وكأن إرشادهم إليه بشارةٌ لهم بأن الله سيخلصهم قريباً من تلك الحالة السيئة التي سلطها عليهم أعداؤهم!

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلاً فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ: اطبع عليها.

إن الذين يهتمون للآخرة ؛ ربما يتخلفون في جمع الأسباب والأمتعة الدنيوية عن أولئك الذين ينشغلون بكل وجودهم في الحصول على الدنيا، غير مهتمين للآخرة، فالنقص الدنيوي ثمن توجيه الاهتمام نحو الآخرة، والوفرة الدنيوية هي ثمن الغفلة عن الآخرة.

وبالإضافة إلى ذلك فإن مَنْ تتوفر لديه كميات ضخمة من زخارف الدنيا ومتاعها، يُصاب بمركب الاستعلاء، وتكون النتيجة أن أمثال هؤلاء يفقدون الاستعداد ليعرفوا الحق المعلن على لسان أحدٍ سواهم، فيأخذوا أنفسهم بالخضوع والإذعان له، ولو أنهم اعتبروا ما يمتلكون من وسائل وأسباب هبة الله، لاستخدموه في سبيل تدعيم الحق، إلا أنهم يعدونه نتاج مهاراتهم ومؤهلاتهم الذاتية، مما جعلهم يستخدمونه للإجهاض على الحق وأهله حفاظاً على كبريائهم وعلو مكانتهم في المجتمع!!

ومعنى قوله : ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ أنهم اتخذوا مما أعطاهم الله من مالٍ وأسبابٍ ذريعةً لإبعاد عباد الله عن الله، ووظفوه في خدمة الباطل بدلاً من توظيفه في خدمة الحق.. وقد تغير هنا أسلوب الكلام لأجل التأكيد على هذا المعنى .

لقد عرض سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - دعوة الحق على فرعون وأصحابه، وحاول تقريبها إلى أفهامهم باستخدام مواهبه العليا والمعجزات الباهرة التي أيده الله بها حتى قامت عليهم الحجة وانقطع عنهم العذر، وبالرغم من ذلك لم يؤمن فرعون وأصحابه برسالته - عليه الصلاة والسلام - وحينئذٍ دعا سيدنا موسى عليهم فقال: «يارب: أنزل عليهم العقوبة التي يستحقها الطغاة أمثالهم تبعاً لسنتك ..»، إن دعاء النبي على قومٍ في مثل هذه المناسبة يكون إعلاناً عن قضاء الله نفسه، يجري على لسان ممثل الله عز وجل!!

وقد استجاب الله لدعاء سيدنا موسى - عليه السلام - ولكن حسبما جاء في بعض الروايات - نقلها الطبري - هناك مسافة زمنية تمتد إلى أربعين عاماً بين دعاء سيدنا موسى وبين هلاك فرعون غرقاً، مما يعني أنه بالرغم من دعاء النبي المستجاب هذا، لم يزل الوضع قائماً كما هو إلى أمدٍ بعيدٍ ؛ بحيث كان سيدنا موسى وأتباعه يجدون أنفسهم عاجزين مقهورين، بينما ظل فرعون وأصحابه - من ناحية أخرى - متمتعين بالسيادة والسلطان والسطوة في طول البلاد وعرضها كسابق عهدهم، وفي هذه الحالة فلو أن المرء لم يكن على علمٍ ودرايةٍ بأن سنة الله تقتضي إمهال الطغاة والمتمردين، لتخلى عن الواجب الأصلي الملقى على عاتقه بدافع الاستعجال، وبالتالي وقع فريسة الضجر والتذمر واليأس من نصر الله!

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ

بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

بَغْياً وَعَدْواً: ظلما واعتداء .

آلآنَ: آلآنَ تؤمن حين أيقنت بالهلاك .

آيَةً: عبرة ونكالا .

بَوَّأْنَا: أنزلنا وأسكنا .

مُبَوَّأَ صِدْقٍ: منزلا صالحا مرضيا .

لقد كانت رسالة سيدنا موسى عليه السلام فى مصر ثنائية ؛ حيث كان يهدف - أولاً - إلى أن يدعو فرعون إلى التوحيد والآخرة .. و- ثانياً - أن يخرج بني إسرائيل من أرض مصر ليذهب بهم إلى بيئة صحراوية، ويقوم على تربيتهم هناك، وبعد أن بذل قصارى جهده في دعوة فرعون إلى الحق، أمره الله تعالى بالخروج مع بني إسرائيل تحت قيادة سيدنا موسى عليه السلام إلى ساحل البحر، ضربه عليه السلام بعصاه، فانشق الماء من وسطه وقام إلى اليمين واليسار كالطود العظيم - على حد التعبير القرآني الوارد في موضع آخر - وإذا بسيدنا موسى وبني إسرائيل من مصر ، وقد كان الطريق إلى صحراء سيناء يعترضه البحر وجدوا أمامهم طريقاً جافاً انتقلوا عبره إلى الناحية الأخرى بتمام السهولة .

وتقدم فرعون مع جيشه نحو الأمام يطارد بني إسرائيل، وعندما وصل إلى حافة البحر وجد موسى وبني إسرائيل يمرون بطريقٍ جافٍ وسط الماء ؛ إذْ كان عرض البحر الفسيح قد انشق عن ممر لسيدنا موسى وأصحابه، وقد كان هذا الحدث آيةً من آيات الله، وكان ينبغي لفرعون أن يتعلم منها أن موسى على الحق، وأن الله معه، ولكنه اعتبر انشقاق البحر حدثاً عادياً بدلاً من أن يعده حدثاً إلهياً، فلم ير فرعون بينه وبين موسى سوى البحر، وكانت نتيجة ذلك أن الحدث الذي كان ينطوي على رسالة الطاعة والإنابة لفرعون لم يتسبب إلا في ازدياده عناداً وطغياناً، فظن أن بإمكانه أن يجتاز البحر

تماماً كما اجتازه موسى وأصحابه، وقد اقتحم فرعون وجنوده البحر تحت عقليتهم هذه .

إن انقسام البحر إلى شقين إنما كان قد حدث لموسى وأصحابه، ولم يحدث لفرعون وأصحابه، ومن ثم فلم يكد فرعون وجنوده يصلون إلى وسط البحر ، حتى تدفق الماء من كلا الجانبين ، وهلك فرعون وجنوده في أمواجه العاتية المتراكمة غرقاً ، وقد أقر فرعون،وهو يغرق بالإيمان ، ولكنه لم يكن ليجدي عنه شيئاً،لأن الإيمان المعتد به عند الله هو الذي يصدر عن اختيارٍ وليس الإيمان الذي يضطر إليه المرء اضطراراً.

إن عاقبة عصيان الله والتمرد عليه هي الهلاك والدمار، وقد كان الإنسان يشاهد أمثلة ذلك مرة وأخرى في عصر الرسالات، بيد أن الله تعالى قد حفظ أمثلة كهذه من الضياع بصفةٍ دائمة لتظل موضع درسٍ وعبرةٍ للإنسان حتى في العصور المتأخرة ؛ إذْ تكون سلسلة بعث الأنبياء قد انقطعت، وأحد الأمثلة التاريخية من هذا القبيل فرعون موسى - رعمسيس الثاني - الذي عثر علماء الآثار على جثته المحنّطة (أي المومياء) في المدينة المصرية القديمة طيبة أو تيبس (Thebes)، وهي الآن معروضة للزوار بمتحف القاهرة.

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

بَوَّأْنَا: أنزلنا وأسكنا .

مُبَوَّأَ صِدْقٍ: منزلا صالحا مرضيا .

لقد كان بنو إسرائيل حملة دين الله فى قديم الزمان، وقد أنعم الله عليهم بأن خلّصهم من عدوهم الغاشم فرعون، ثم ذهب بهم إلى جوّ سيناء الطلق، وهيأ لهم هناك الطعام والشراب وفق نظامٍ خاص، كما أنشأ فيهم جيلاً جديداً يتدفق قوةً وحرارة إيمانٍ عن

طريق تربية صحراوية، وقد فتح هذا الجيل، بعد وفاة سيدنا موسى عليه السلام ملكاً عظيماً، وأقام دولة بني إسرائيل في بلاد خصبةٍ خضراء كالشام والأردن وفلسطين دامت عدة قرونٍ .

وكان يجب على بني إسرائيل كنتيجةٍ طبيعية لهذا الإنعام الإلهي العظيم، أن يظلوا مطيعين لله شاكرين له، وأن يجعلوا من خدمة دين الله هدفاً لحياتهم، ولكنهم لم يلبثوا أن ضلوا عن الصراط المستقيم رغم وجود الهداية الواضحة لديهم، وماذا كان ضلالهم وانحرافهم ؟ إنه كان متمثلاً في الاختلاف الناشئ فيما بينهم، لقد كان عندهم العلم المنزل من عند الله الذي كان هو الحق الوحيد، إلا أنهم اختلفوا في تأويل هذا العلم وتفسيره وتفرقوا بالتالي شيعاً وأحزاباً شتى [1].

إن الأمة – أية أمة – لا تزال متحدة ما دامت مستمسكةً بالدين «العلم» المنزل من عند الله، ولكنها لا تلبث إلا قليلاً حتى تنشب بينها خلافات حادة في تفسير هذا العلم، وبالتالي يتعصب بعضهم لرأي خلافي، ويميل بعض آخر إلى رأي آخر مناقضٍ له تماماً .. وكل أحدٍ يثير زوبعةً من الخطب والمناظرات والمباحثات العقيمة دفاعاً عن مذهبه وإثباتاً لصوابه، ويصل الأمر إلى أن يصبح العلم الأصلي مغلقاً بين دفتي الكتاب، وتنصب الجهود والطاقات كلها على تأويلاته وتفسيراته المزعومة، وهكذا فبالرغم من اتحاد كلمة القوم واتفاقهم على التعاليم الدينية الأساسية تختلف آراؤهم وتتعدد مذاهبهم لانشغالهم في التعاليم الفرعية الهامشية .

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ يبدو معناه : أن الله حين يظهر للعيان يوم القيامة فإن الكل سيذهل يومئذٍ عما كان يختلف فيه، ويبادر إلى الاعتراف بالأمر الذي كان هو الحق الوحيد، ولو أنهم كانوا يخافون الله، لانتهوا جميعاً في يومهم هذا إلى رأي موحدٍ لا خلاف فيه ولا جدال، ولكنهم تفرقوا وانحرفوا إلى سبلٍ شتى

---

(١) انظر : تفسير النسفي.

لخلو أفئدتهم من خوف الله، فانعدام الخوف ينتج عن تعدد الآراء والمذاهب، والخوف يؤدي إلى اتحاد الآراء والمذاهب !

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

الْمُمْتَرِينَ: الشاكين والمتزلزلين .

الرسول ينهض بالحق النقي الخالص من كل شوبٍ، وقبول دعوة الحق الخالص يكون صعباً ؛ لذلك فإنه يقابل بالإعراض والهوان .

وحين يرى الداعي هذا الهوان الذي يلقاه الحق في بيئته، فقد يخطر على باله خاطر شكٍ أو ارتيابٍ، فيتساءل فيما بينه وبين نفسه : هل أنا على خطأ؟!

وقد أكدت هذه الآية على ضرورة احتراز الداعي من هذه النفسية ذاتها، ومن أوضح الأدلة على كون هذا الشك خاطئاً أن جميع الأنبياء والدعاة السابقين أيضاً قد مروا بأوضاعٍ مماثلةٍ تماماً على اختلاف الأعصار والأمصار، فالمطلعون على تاريخ الأنبياء السابقين يعرفون جيداً أنه لم يحدث في هذه الدنيا قط أن بُعث نبي في قوم فحظي من فوره بقبولٍ عامٍ، فما الذي يدعو إلى الحيرة أو القلق فيما لو تعرض الدعاة في الأزمان التالية لهذا الوضع نفسه؟!

ولو أن عقل المرء كان يشهد على صدق أمرٍ ما، وهو يتخلى عنه لعدم اعتناء الناس به أو معارضتهم إياه، فإن ذلك بمثابة التكذيب بآيات الله، إن الله – سبحانه وتعالى – إنما يتجلى للإنسان في صورة الآيات (أي الدلائل والبراهين)، ولذا فالشيء الذى قام الدليل على صدقه، يصير الإقرار به من حق الله على المرء، وما ظنك بشخصٍ لا يفي بحق الله هل سيظفر عاقبة الأمر بشيء سوى الخسران والدمار؟!!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ
حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ
ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾

عَذَابَ الخِزْيِ: الذل والهوان.

حين يظهر أمام الإنسان أمر حق ؛ فإن عقله يشهد بأن هذا صحيح لا يتطرق إليه شك، غير أن أخذك بحقٍ ما يفرض عليك أن تدفع له "ثمناً"، والمرء لا تكاد نفسه ترضى بدفع هذا الثمن، حيث إن قبول الحق يعرض مصالحه لخطر الضياع، ويدعوه إلى التخلي عن رأيه واعتباره الذاتي، فهذه المخاوف تشكل عقبةً صعبةً دون قبول المرء بالحق ؛ وبالتالي فإن الشيء الذي كان ينبغي عليه أن يقابله بالحفاوة والاعتراف، إذا به يأخذ يقابله بالإنكار والمعارضة وقد جُعلت نفسية المرء بحيث إنها إذا سارت مرةً في اتجاه، فلا يلبث أن يبدأ ذهنه كله يسير في الاتجاه نفسه، وللسبب ذاته فقلما يحدث أن يرجع المرء إلى الحق ثانيةً بعد ما انحرف عنه مرةً واحدةً ؛ لأنه لا يزال يزداد رسوخاً وتصلباً في موقفه يوماً بعد يومٍ، حتى لا يعود قابلاً للرجوع إلى الحق البتةَ !!

ويستخدم أمثال هؤلاء - في معرض الحديث عن موقفهم - كلمات وعباراتٍ تخيل إليك أن قضيتهم قضية نظرية، إلا أنها لا تعدو في الحقيقة أن تكون مجرد قضية العناد والتعصب والتعنت، يتبنونها حرصاً على مصالحهم الدنيوية ليس غير، ولكن العذاب الإلهي حين يظهر، سيقضى على عناد المرء وغروره هذا قضاءً تاماً، فإن حالة الخوف الطارئة عليه وقتئذٍ ستجبره على الخضوع أمام الشىء الذى كان يأبى الخضوع أمامه فى حالة انعدام الخوف .

وقد حدث مع كل الأنبياء والرسل المبعوثين في القرون السالفة، أن أممهم لم تؤمن بهم حتى آخر ساعةٍ ؛ اللهم إلا إذا أُخذوا بالعذاب فقالوا: ها نحن نؤمن الآن. إنهم لم يعترفوا بالإيمان مادام الله يناديهم بلغة الدليل والبرهان، وعندما أصابهم الله ببعض

ضرباته رفعوا عقيرتهم بالاعتراف والتسليم، غير أن مثل هذا الاعتراف لا عبرة به عند الله تعالى ؛ إذْ الاعتراف المطلوب عند الله هو أن يذعن المرء بدافع الدليل، وليس بدافع القوة!!

لقد بُعث سيدنا يونس - عليه الصلاة والسلام - في نينوى - إحدى مدن العراق القديم - حيث قام بعملية الدعوة والتبليغ، ولكن قومه لم يؤمنوا به، إلى أن هاجر من بلده آخر الأمر تبعاً لما جرت به سنة الأنبياء والمرسلين، مهدداً قومه بأنه سينزل عليهم عذاب الله عما قليلٍ، وفي أعقاب هجرة سيدنا يونس عليه السلام ظهرت نُذُر العذاب الإلهي وبوداره، ولكنهم لم يفعلوا في ذلك الوقت ما فعل قوم هودٍ، إذْ رأوا سحاب العذاب قادماً إليهم، فقالوا : ﴿ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ !! بل سرعان ما دب في نفوس القوم دبيب اليقظة والحذر والتنبه، فهرع الجميع بدوابهم ونسائهم وولدانهم إلى الميدان، وأخذوا يدعون الله في ضراعةٍ وابتهالٍ، وبعدئذٍ لم يلبث عذاب الله أن رُفع عنهم، وكما أن الإيمان قبيل ظهور العذاب جدير بالاعتبار، يمكن أن يُعتبر كذلك بالإيمان والعذاب على وشك الحلول ؛ بشرط أن يبلغ ذلك الإيمان من درجة الكمال ما بلغ إيمان قوم يونس!

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ: العذاب والسخط .

معنى قوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ أن الله تعالى كان قادراً على أن يسنّ نظام العالم الإنساني أيضاً على غرار نظام العالم غير الإنساني، حيث كل شيء خاضع لأمر الله أتم الخضوع، غير أن تدبير الله بالنسبة إلى الإنسان،

ليس من هذا في شيء، فإن مشروع الله عن الإنسان هو أن يتم إسكانه في بيئة حرة تتاح له فيها فرصة لكي يقوم بطاعة الله طوعاً، أي تحت قراره الذاتي، ويفعل بمحض اختياره فعل بقية العالم قسراً، فنعيم الجنة الأبدي هو ثمن هذه الطاعة الاختيارية ذاتها.

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ يعنى أنه لن يظفر أحد بنعمة الإيمان في العالم الراهن إلا باتباع السبيل الذي قرره الله تعالى لذلك، والسبيل إلى الإيمان في العالم الراهن هو أن يفهم المرء دعوة الإيمان باستخدام عقله، وأما الذي سيطرت على عقله مصالحه الدنيوية، فكأنما تلطخ أو تورط عقله في وحلٍ من الأقذار والأرجاس، وليس ثمة أمل في أن يوفق شخص كهذا للظفر بنعمة الإيمان في هذه الدنيا .. كلا!!

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

إن هذا الكون المترامي الأطراف، المحيط بنا من كل الجهات، يزخر بما لا حصر له من آيات تبرهن على وجود الله ووحدانيته، وتدلنا أيضاً على منهج الله تعالى في هذا الكون، وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الدنيا لا تزال تشهد بين حين وآخر وقائع تتضمن نذراً، كالعواصف والزلازل المدمرة مثلاً، من شأنها أن تجعل الإنسان جاداً فى أمر الله والآخرة، غير أن هذا كله يحدث في عالم الامتحان، حيث يملك الإنسان الاختيار ليؤمن أو ليرفض، ومن ثم فإذا ظهرت الآيات والإنذارات أمام المرء، تناولها بأي تفسير مزعومٍ يوجه الأمر إلى وجهةٍ أخرى يبقى معها محروماً من العظة والاعتبار .

والمرء إذا هولم يؤمن بأمر الحق على أساس الدليل، فكأنما هو ينتظر اليوم الذي يُرفع

فيه ستار الامتحان، ويتجلى رب الكون للعيان ليعلن عن قضائه النهائي الحاسم، غير أنه سيكون يوماً مختلفاً عن يوم الناس هذا تمام الاختلاف، فاليوم يبدو المؤمنون والمنكرون سواءً من حيث أوضاعهم وأحوالهم، ولكن إذا حانت ساعة القضاء، فلن يجد الأمن بعدئذٍ سوى أولئك الذين كانوا أتباع الحق وأنصاره في الواقع ؛ وأما الباقون عداهم فسيحيط بهم العذاب بحيث لا يكادون يجدون إلى الهرب أو التخلص منه سبيلاً !

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ: اصرف ذاتك كلها للدين الحنيفي .

حَنِيفاً: مائلا عن الأديان الباطلة كلها .

يعرض الداعي أمره - أولاً - في لغة الدليل، ولكن إذا ظل الناس، رغم سماع الدليل والبرهان، أسرى الشكوك والشبهات، فلا يسعه نهائياً إلا أن يؤكد صدق رسالته في لغة العزم والتصميم .

وقول داعية التوحيد للمشركين هذا بأنى لا : ﴿ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ليس محض دعوى، بل هو دليل في حد ذاته، إذْ معنى ذلك أنني أيضاً بشر مثلكم، كما أنني أملك العقل نفسه الذي يتوفر لديكم، إذن فالشيء الذي أفهم صدقه أنا، لم تعجز عن إدراك صدقه عقولكم أنتم؟!

إن الحق لو أصبح قابلاً للفهم على مستوى الفرد الواحد، فيقوم بذلك الدليل على أنه قابل للفهم بالنسبة إلى غيره من أبناء البشر كذلك، وبالرغم من ذلك فإذا وقف الآخرون منه موقف الجحود والإنكار، فإن السبب في ذلك يرجع حتماً إلى أي قصورٍ أو عيبٍ في أنفسهم، وليس إلى عيب في دعوة الحق، إن الشيء الذي يراه ذو بصرٍ من الناس، ولا يراه ذو بصرٍ آخر، إنما يدل ذلك على أن الأخير ليس في الحقيقة بذي بصرٍ ؛ إذْ من المستحيل في هذه الدنيا أن يكون هناك شيء يراه ذو بصرٍ، بينما لا يستطيع رؤيته شخص آخر مع تمتعه بالبصر !

الموت إعلان ناطق بأن المرء لا يملك أي اختيار في هذه الدنيا، فالموت يقيم الدليل على بطلان كل تلك الأشياء التي يلجأ المرء إلى الطغيان والإنكار اعتماداً عليها واغتراراً بها، والموت يعرف المرء بمدى عجزه وضعفه من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى يشعره بقدرة الله المطلقة، وهو يدل على أنه ليس ثمة من أحدٍ في هذه الدنيا يقدر على إيصال نفعٍ أو دفع ضرٍ، وهكذا يقطع الموت صلة المرء بكل شيء آخر ويقوده نحو الله عز وجل، وهو يجعل الإنسان عابداً لله حقاً، ولو أن المرء كان لديه الاستعداد لتلقي الدرس والعبرة لصار واقع الموت وحده كافياً لإصلاحه وتقويم سلوكه .

وكل إنسانٍ يمر عليه وقت لا يسعه فيه إلا أن يسلم نفسه للموت شاء أو أبى، كما أنه ليس في مقدور أحدٍ من الناس أن يسير أمور حياته كلها دوماً نحو الاتجاه الذي يريده هو؛ بحيث يحصل على المنفعة المطلوبة لديه على أية حالٍ، وينجو من الخسارة غير المطلوبة على أية حالٍ كذلك، كلا .. كلا .. بل الأمر كله بيد الله، وهو يفعل ما يشاء.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

بِوَكِيلٍ: بحفيظ موكول إلى أمركم .

إن عملية الدعوة هي في الأصل عملية إعلان الحق، ويفرغ الداعية من أداء مسئوليته تجاه تبليغ الرسالة إلى طائفةٍ ما، إذا هو أوضح لها أمر الحق بالأدلة والبراهين على أكمل وجهٍ، وإذا أقام الدليل على أنه جاد في هذا الشأن تمام الجدية .

ولو أن الداعي جعل أمر الحق واضحاً مبرهناً عليه، تبعاً لمقياس العصر، وأدى شهادة الحق كاملةً غير مكترث بالمنفعة والخسارة، وظل يواصل مسيرته الدعوية محتملاً كل أنواع الأذى والإساءة التي يلقاها على طول الطريق، فتقوم بعدئذٍ على المخاطب (المدعو) تلك الحجة القاطعة التي لا يبقى معها مجال القول عند الله لأي معتذرٍ .

وواجب الداعي الحقيقي هو اتباع الوحي، يعني ألا يبرح دائباً على دعوة الآخرين إلى مرضاة الرب، مع التمسك عملياً بمرضاة الرب والثبات عليها فيما يتصل بذاته وحياته هو، وهذا العمل لابد من مواصلته بالحكمة والصبر والنصيحة على أية حالٍ، وأما المراحل الباقية بعد ذلك، فهي كلها مرتبطة بالله تعالى ارتباطاً مباشراً، ولا يصح أن يُقدم الداعي على أية خطوةٍ عمليةٍ أخرى - غير الدعوة والتبليغ - إلا إذا كان ذلك مما قد قضي به من عند الله تعالى وبدأت آثاره وبوادره تلوح بوضوحٍ .

وإنما يظهر قضاء الله دوماً في صورة الأحوال والظروف، فحين يكون الداعي قد وصل من عمله الدعوي إلى الحد المطلوب عند الله تعالى، فإن الله - سبحانه وتعالى - يُحدث في الظروف والأوضاع القائمة آنئذٍ، تطوراتٍ وتغييراتٍ يستخدمها الداعي كجسرٍ ينتقل عبره إلى المرحلة التالية من عمله !

سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ: نظمت نظما محكما رصينا .

فُصِّلَتْ: فرقت في التنزيل نجوما بالحكمة .

تتلخص دعوة القرآن الكريم في ألا يعبد المرء إلا الله الواحد الأحد ، لا يشرك بعبادته شيئاً ، فلا يخاف إلا منه، ولا يرجو إلا إياه ، وأن يكون تعالى هو المسيطر على عقله وقلبه، وأن يكون رضاه تعالى أشد ما يراعيه في شئون حياته العملية ، وأن يضع نفسه في مقام ((العابد)) ويرفع الله – عز وجل – إلى مقام "المعبود" وهو منشرح الصدر مرتاح البال.

والدعوة النبوية تتمثل أصلاً غاية وبأسلوب أوضح ما يكون .. والمطلوب من الإنسان الآن هو أن يقابل ذلك برد فعلٍ صحيح ؛ بألا يرفضه أو يعرض عنه متأثراً بعوامل الحقد والكبرياء والنفعية والعصبية الطائفية ، وما إلى ذلك من المشاعر والعواطف السلبية ، بل يبادر إلى الاعتراف به من غير ترددٍ أو مراوغة ، ويرجع إلى الله

سائلاً إياه العفو عن أخطائه الماضية، ويطلب منه العون والنصر لمستقبل حياته .

إذا قُدم إلى المرء طعام ، فتناوله بالقبول ، فمعنى ذلك أنه هيأ أسباب تنشئته الجسدية، وعلى العكس من ذلك لو أنه رفض الطعام .

وهكذا شأن دعوة الحق تماماً ؛ فحين يتقبل المرء الحق فإنه يتقبل في الحقيقة ذلك الرزق الرباني الذي يتسبب دخوله إلى أعماق وجوده في التنشئة الصالحة لروحه وجسمه معاً، والذي يفضي به في نهاية المطاف إلى درجةٍ من الارتقاء الروحي تجعله أهلاً لنعيم الجنة.

والذي يرفض قبول دعوة الحق فكأنه فرض على روحه الحرمان من فرص التنشئة الربانية .. وإذا كان المؤمن بالحق يعيش في التواضع ، فسيعيش هذا الأخير في البطر والكبرياء، وإذا كانت لحظات المؤمن بالحق عامرةً بذكر الله ، فستكون لحظات الأخير عامرةً بذكر غير الله ، وإذا كان ذلك متمسكاً بمسلك الطاعة الإلهية في مواقع الحياة كلها ، فإنه سيسلك فيها مسلك العناد والطغيان ، وستكون النتيجة أن الأول سيذهب من هذه الدنيا وروحه سليمة معافاة ، قد أخذت من السمو والارتقاء حظاً وافراً وصارت معه أهلاً لكي تسكن في أجواء الجنة الطيبة ، بينما ستكون روح الآخر مريضة ومنحطة ، بحيث لا تصلح لشيء سوى أن يُرمى بها في مزبلة جهنم !

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾

يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ: يطوونها على الكفر والعداوة .

لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ: من الله تعالى جهلا منهم .

يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ: يتغطون بها مبالغة في الاستخفاء .

وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا: موضع استقرارها في الأصلاب ، أو في الأرحام ونحوها .

وَمُسْتَوْدَعَهَا: موضع استيداعها في الأصلاب ، أو في الأرحام ونحوها ، أو في: الأصلاب.

حين عرض رسول الله – صلى الله عليه وسلم – دعوة التوحيد على بعض رؤساء قريش وساداتهم ، ما لبثوا أن التفوا بأرديتهم وانصرفوا من عنده غير مبالين به ولا بدعوته.

إن هذا مظهر من مظاهر الإعراض عن شيء ما ؛ فحين ينظر أحد الناس إلى الداعي بعين الاحتقار ، يجعل نفسه أرفع منه مكانةً وأعظم شأناً ، غير أن المرء ينسى أو يتناسى أن الله تعالى خبير بتلك المشاعر والدوافع الكامنة التي هي مصدر إعراضه وتحقيره .. وأن ذلك ليس مجرد إعراضٍ أو إهمالٍ لأحد البشر ، بل هو إهمال لله – سبحانه وتعالى – بالذات ؛ الذي يعلم السر والعلانية ، لا تخفى عليه خافية.

إذًا ، فكيف سيكون حال المرء حين يمثل بين يدي ربه ، وسيرى بعيني رأسه أن الله الذي كان قد أهمله وأعرض عنه في الدنيا ، كان هو الموجود الذي أعطاه كل ما كان عنده، حتى سائر أسباب القوة والجاه ، تلك التي كانت مبعث رفضه لأمر الله .. إن المرء في دنيا الله، وهو راجع آخر الأمر إلى الله تعالى ، ولكنه يعيش هنا كما لو أنه ليس ثمة علاقة ما تربطه بالله اليوم ، ولا هو مضطر إلى لقاء الله أو الاتصال به في القادم !!

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾

لِيَبْلُوَكُمْ: ليختبركم وهو أعلم بأمركم .

أَحْسَنُ عَمَلاً: أطوع لله وأروع عن محارمه .

أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ: طائفة من الأيام قليلة .

وَحَاقَ بِهِم: نزل وأحاط بهم .

لقد أنشأ الله العالم الراهن في ستة أيامٍ ، أي في ست فتراتٍ أو مراحل (periods) ، وقد مر على الأرض حين من الدهر كان سطحها فيه مغطي بالماء ، إذا لم يكن يُرى وقتئذٍ في هذا الجزء من مملكة الله - عز وجل - سوى الماء ليس غير ، ثم ارتفعت من بعد ذلك مناطق البر ، واجتمعت المياه في أعماق البحار بإذن الله - سبحانه وتعالى - وهكذا صار ممكناً أن تظهر على وجه الأرض هذه الأنواع المختلفة من الكائنات الحية .

ومع أن الله قادر على أن يحدث الوقائع فجائياً ، أي دفعةً واحدةً ، غير أن هذا العالم أنشئ كدار امتحان للإنسان ، وللسبب ذاته فقد أوجد الله العالم الراهن تبعاً لخطة مرسومة ، ووضع على إبداعاته العظيمة ستار الأسباب والعلل .

والهدف من إيجاد العالم وتوطين البشر في أرجائه هو انتخاب من يحسن منهم عملاً.. و((العمل الحسن)) أو ((العمل الصالح)) هو في الحقيقة اسم ثانٍ للعمل الواقعي يعني أن يعمل المرء ما ينبغي له أن يعمل بمقتضى الحقيقة وبدون أي ضغطٍ خارجي ، فالشخص الواقعي هو الذي ينظر إلى تدبير الله الخفي من خلال الأسباب الظاهرية ، والذي يجرد نفسه من كل خيارٍ مع تمتعه - في ظاهر الأمر - بالاختيار الكامل ، ويصبح خاضعاً لأمر الله ، مطيعاً له مع قدرته على العيش طاغياً ومتمرداً .

وفي العالم الراهن تجرى عملية الانتخاب لأمثال هؤلاء الواقعيين ، وحينما تنتهي فترة الانتخاب هذه فسيتم إحلال نظامٍ معياريٍ آخر محل النظام الحالي ، حيث المحسنون وحدهم سيتمتعون بكل الأشياء الحسنة والطيبة ، وللمسيئين وحدهم

ستكون كل الأشياء السيئة والخبيثة هناك!!

إن الله - سبحانه وتعالى - لا يؤاخذ المنكرين والطغاة مؤاخذةً فوريةً ، بسبب سنته الجارية عن الإمهال .. فهو يتيح لهم الفرصة إلى أقصى الحدود ، فإما أن تستيقظ ضمائرهم فيقوموا بإصلاح أنفسهم ، وإما أن يقيموا بأنفسهم الدليل على جريمتهم وطغيانهم بصورةٍ قطعيةٍ ، وسنة الإمهال هذه توقع بعض الطغاة والمتمردين في سوءِ فهمٍ وغرورٍ ، مما يخرجهم عن طورهم ، ويجعلهم يتحذلقون أمام دعاة الله ويتحدّونهم، ولكنهم حين يتعرضون لبطش الله وعقابه ، فسيتضح لهم كم كانوا ضعفاء عاجزين إزاء الله عز وجل ؟!

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ ﴾

إِنَّهُ لَيَئُوسٌ: شديد اليأس والقنوط .

كَفُورٌ: كثير الكفران للنعم.

ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ: نائبة ونكبة أصابته .

إِنَّهُ لَفَرِحٌ: لبطر بالنعمة ، مغتر بها .

فَخُورٌ: على الناس بما أوتي من النعم .

يمر المرء في العالم الراهن بأحوالٍ وظروفٍ شتى ؛ يُتاح له الرخاء والعافية حيناً ، ويصيبه البلاء والشدة حيناً آخر ، ولكن ليست العافية هنا على وجه الإنعام ، ولا المصيبة لأجل التعذيب ؛ إذْ الهدف النهائي من كلتيهما هو الابتلاء والاختبار ، إن هذه الدنيا دار امتحانٍ ، وإن كل ما يواجهه المرء إنما يكون بغرض معرفة رد الفعل الذي يقدمه في ظل مختلف الظروف والأحوال .. وإنه لفاشل ذلك الشخص الذي إذا منحه

الله نعمة الرخاء والعافية ، أصيب بنفسية الفخر ، وبالتالي أخذ في البطر والتعاظم على الذين يراهم دونه .. كما أنه فاشل أيضاً ذلك الذي إذا ما انتزع منه شيء ما وابتلى بمصيبة ما ، بات يكفر بالله .. إن المرء لا يزال يتوفر لديه الكثير من نعم الله تعالى حتى بعد حرمانه من بعض الأشياء ، إلا أنه يذهل عن ذلك كله ، وتسقط همته ، حزناً وأسفاً على ما فاته أو فقده ، إلى حدٍ يبدو معه كما لو أنه سلب منه كل شيء!!

وعلى نقيضٍ من ذلك ، فإن المؤمنين الصادقين في الإيمان هم الصابرون والعاملون صالح الأعمال ؛ أي الذين لا يحيدون عن جادة الاعتدال والاستقامة رغم كل صدمةٍ أو هزةٍ تصيبهم في الحياة ، والذين يفعلون دوماً ما ينبغي لهم أن يفعلوا كعبادٍ لله مخلصين .

والصبر هو : ألا تتكون نفسية المرء نتيجة التأثر بالأحوال والظروف ، بل تتكون تبعاً للمبادئ والنظريات ، فمهما تأزمت الظروف ، واشتد الظلام ، ينبغي عليه أن يبني رأيه مترفعاً عنها على ضوء الحق الخالص وحده ، وأن يكون قادراً على البقاء حياً على مستوى عقيدته وشعوره الداخلي من غير تأثرٍ أو انفعالٍ بالظروف والأحوال الخارجية، وأن حياة كهذه هي الحياة الصالحة حقاً ، والذين يقيمون الدليل على هذا الصلاح العملي في الحياة الدنيا ، هم الذين سيفوزون في الحياة القادمة بأوفر نصيب من رحمات الله ، وسيدخلون جنات الله الأبدية .

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

وَكِيلٌ: قائم به حافظ له .

حين قام رسول الله ﷺ بإبطال الشرك ، ودعا الناس إلى التوحيد ، لم يلبث مخاطبوه أن تزمروا عليه .. ذلك لأن دعوته - عليه الصلاة والسلام - كانت تتضمن النقد والتجريح لأكابرهم ، الذين كانوا يتبعون دينهم ، ويعتزون بالانتماء إليهم .. فقد كان العرب يثورون بشدةٍ إذْ يسمعون رجلاً يتحدث بما يجرد أكابرهم وعظماءهم من كل ثقةٍ واعتبارٍ !

وربما يخطر ببال الداعي ، وهو يواجه هذه الثورة ضده ، أن يتخلى ، ولو بصفةٍ وقتيةٍ عن الأسلوب النقدي ، ويكتفي بعرض رسالته فقط ، والمراد بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ نفس هذا الجانب الانتقادي من الوحي الإلهي .. بيد أن المطلوب عند الله تعالى هو التبيين والإيضاح ، والإيضاح لا يمكن بدون الانتقاد، إذًا فما الذي يدعو إلى الشعور بالضيق أو الانزعاج فيما لو اتخذ الناس من الداعي موضوع الاستهزاء والمعارضة نتيجة قيامه بإيضاح الحق على أكمل وجهٍ ؟! إن هذا الموقف المعارض الذي يتبناه المدعو ، هو الثمن الذي لابد من دفعه لكل مَنْ يقيم نفسه مقام الداعي إلى الحق في هذه الدنيا!!

إن أوثق وأقطع دليلٍ على كون داعية الله على الحق ، هو كلامه المعجز الذي لا يُستطاع تقليده ولا محاكاته ، فالذين كانوا ينظرون إلى النبي بعين الاحتقار ، ولم يكونوا مستعدين للاقتناع بأن هذا الرجل قد ظفر بصدقٍ لم يظفر به حتى أكابرهم الأقدمون؟ قيل لهم: لا تختبروا صدق النبي بالقياس إلى وضعه المادي ، بل انظروا إليه من حيث إن الكلام الذي يعرض به دعوته هو كلام عظيم لدرجة أنكم أنتم وأكابركم لن تستطيعوا الإتيان بمثله.. إن هذا التمييز الفريد المعجز ليقيم دليلاً قطعياً على أن النبي إنما يبلغ عن الله ، ولا يتكلم من عند نفسه ، وماذا ينتظر الناس ، بعد قيام هذا البرهان الجلي على كون النبي محقاً وصادقاً ؟ ماذا ينتظرون بعده لكي يستسلموا لله ويذعنوا لأوامره تعالى!؟!

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

لَا يُبْخَسُونَ: لا ينقصون شيئا من أجور أعمالهم .

وَحَبِطَ: بطل في الآخرة .

الدين نوعان: دين مغشوش ، ودين خالص .

أما الدين المغشوش : فهو عبارة عن إضفاء شعار الدين على الدنيا ، وهو يبرز إلى الوجود نتيجة المصالحة أو الملاءمة بين الدنيا والدين ، وهذا هو السبب في أننا نجد هناك مؤسساتٍ ضخمة تُقام على أساسٍ من الدين المغشوش في كل العصور ؛ حيث يحصل النفعيون عن طريقه على زخارف الدنيا باسم الدين!

أما الدين الخالص : فأمره بالعكس من ذلك تماماً ، فحين تقوم دعوة الدين الخالص في بيئةٍ ما ، لا تعدو أن تكون صدقاً نظرياً ؛ لا ترتبط به المنافع الاقتصادية ، ولا المصالح القيادية ، وفي وضع كهذا ، حين تُعرض دعوة الدين الخالص على أولئك الذين تبوأوا مراكز الشرف والسيادة في المجتمع باسم الدين المغشوش ، لا يلبثون أن ينزعجوا أشد الانزعاج ، إذْ يخيل إليهم ، فيما إذا تلقوها بالقبول ، أن كل الأشياء الدنيوية التي يتمتعون بها الآن ، ستنتزع منهم انتزاعاً !

وعلى هذا الاعتبار فقيام دعوة الدين الخالص في بيئةٍ ما ، يعني تفجر امتحان خطير هناك ، وفي مثل هذه المناسبة فالذين يفضلون شرف الدنيا ومنافعها ولا يناصرون الدين الخالص ، تُسجل جهودهم وأعمالهم كلها في خانة الدنيا ؛ لأنهم وقفوا إلى جانب الدين الذي رأوا فيه ضماناً لمنافعهم الدنيوية ، ولم ينضووا تحت راية الدين الذي بدا لهم أنه سيسلب منهم كل امتيازاتهم ومنافعهم الدنيوية ، وهؤلاء ، وإن كانوا مشغولين في

ظاهر الأمر بأعمالٍ دينيةٍ ، إلا أنهم ، من حيث مقصدهم الأصلي ، إنما يسعون وراء الحصول على الدنيا ، ومن الواضح أن جهوداً ومحاولاتٍ كهذه لن تثمر في الآخرة شيئاً ! ، ومع أن هؤلاء كانوا يسمون أنشطتهم وأعمالهم بأسماء دينية ، فكانوا يعلقون على مهرجاناتهم القومية يافطات تحمل عنوان ((الاحتفال الديني)) ، وكانوا يطلقون على معاركهم القومية اسم الحرب المقدسة ، وكانوا يصفون مناوراتهم القيادية بالمؤتمر الديني ، وكانوا يتحدثون عن صراعاتهم السياسية بمصطلحات الدين ، وكانوا يملؤون الدنيا صراخاً وعويلاً مدفوعين بعواطفهم الدنيوية ، وكانوا ينسبون ذلك إلى الله ورسوله .. غير أن هذه التعبيرات كلها كانت على أرض الدنيا ، ولم تكن على أرض الآخرة ، ولذا فسوف يدمرها زلزال القيامة كل التدمير ، وبالتالي فلن يعود على أصحابها أي فائدةٍ منها في العالم القادم!!

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُولَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

بَيِّنَةٍ: يقين وبرهان واضح وهو القرآن .

شَاهِدٌ: على تنزيله من عند الله .

مِرْيَةٍ مِّنْهُ: شك من تنزيله من عند الله .

الأَشْهَادُ: الملائكة والنبيون والجوارح .

حين عرض رسول الله ﷺ دعوة التوحيد على العرب ، آمن به منهم قليلون ، وصار أكثرهم كافرين به منكرين لدعوته ، وقد تكررت هذه الظاهرة مع دعوة الحق في كل عصور التاريخ .

لقد خلق الله كل إنسانٍ على الفطرة الصحيحة ، والعالم المحيط بنا من كل جهةٍ ،

يزخر بآياتٍ تشهد بوجود الخالق ، وتشير إلى تدبيره التكويني ، ثم إن البشرية مازالت ، منذ بدء الخليقة ، يُبعث فيها أنبياء الله ، يرشدون الناس إلى أحكام الله ووصاياه ، وقد كان من بين أولئك الأنبياء سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - الذي لم يزل كتابه الذي جاءه به - أي التوراة - موجوداً - ولو بصورةٍ محرفةٍ - بين أيدي الناس حتى اليوم، والآن فالشخص الذي يكون جاداً ، ويعرف كيفية تلقي الدرس من الأشياء ، فإن الحقيقة ستكون مألوفة لديه لدرجة أن الداعي عندما يقوم بإعلان الحقيقة أمامه يعرفها على الفور ، ويجد قلبه وعقله يشهدان بحقية الحق ، وبالتالي فهو يبادر إلى القبول به.

على أن أكثر الناس لا ينظرون إلى الأمور بكثير من الجدية ، وهم يفسدون أمزجتهم وعقولهم بإغراقهم في الملذات السطحية والرغبات الوقتية ، وانشغالهم بالأمور الفارغة لا تتيح لهم الفرصة لكي يقفوا عند الداعي ودعوته وقفة تأملٍ وتدبرٍ ، ومن ثم فحين تُقدّم إليهم دعوة الحق فلا يستطيعون معرفتها ، ولا يلبثون ، أن يتصدوْا لإنكارها بل ولمعارضتها ومناصبة العداء لها ، هؤلاء أناس لم يقدروا الله حق قدره ، وليس لهم في الآخرة شيء سوى نار جهنم!

إن الفطرة الإنسانية ، والأحداث الجارية بين السماوات والأرض ، والكتب السماوية السابقة ، كلها شاهدة على كون القرآن كتاب حقٍ حتى لو كان أغلبية الناس تقابله بالرفض والإنكار ؛ فإنما ينبغي أن يُبحث عن سبب ذلك لدى المنكرين ، دون أن يُشك في كون القرآن نفسه كتاب الحق!

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ



يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً: يطلبونها معوجة أو ذات اعوجاج .

مُعْجِزِينَ: فائتين من عذاب الله بالهرب .

لاَ جَرَمَ: حق وثبت أو لا محالة أو حقا .

ليس المراد بـ ((افتراء الكذب على الله)) الكذب على ذات الله ؛ بل الكذب على رسالة الله ؛ فالله - سبحانه وتعالى - لا يظهر بنفسه أمام الناس لإعلامهم برسالته ، بل يعلنها على لسان رجلٍ من البشر ، ويكون هذا الرجل وقتئذٍ إنساناً عادياً ، غير أن كلامه يكون متضمناً لتوجيهات الله الواضحة الجلية ، ولو أن الناس نظروا إليه من حيث كلامه ، لأدركوا الله في جوانب عظمته وروعته ، ولكن سطحية الناس وعبوديتهم للظواهر تجعل أنظارهم تتورط في وضع المبلّغ العادي ؛ فهم يشاهدون كون الرسول المبلغ عادياً، ولا يشاهدون كون رسالته على مستوىً غير عاديٍ ، ومن ثم فهم يقابلونها بالتهكم والاستهزاء، ويفتعلون اعتراضات كاذبةً واهيةً على كلامه ، ويعرضون عنه كما لو أنه لا يتمتع بأية أهمية أو قيمة تُذكر !!

والسبب الأصلي وراء هذا الموقف الظالم هو نفسية انعدام الخوف ، حيث إن الناس يعوذهم اليقين بالآخرة ، وقلوبهم خاوية عن الخشية من الله القاهر الجبار ، ولذا فهم لا يأخذون رسالته بمأخذٍ جديٍ ، ولا يزال المرء فاشلاً دوماً في تقديم رد فعلٍ صحيح إزاء كل شيءٍ لا يأخذه بتمام الجد .

على أن عدم جدية الناس هذا سيزول عنهم حين يمثلون بين يدي مالك الكون يوم القيامة ، فإن حريتهم الحالية ستكون وقتئذٍ قد انتزعت منهم ، كما أن الأسباب



والوسائل التي كانت مصدر غرورهم وطغيانهم ، ستتحول إلى شرائط مسجلةٍ تنطق بالشهادة ضدهم، وحينئذٍ سيتضح بجلاءٍ أن السبب فى تكذيبهم بداعية الله لم يكن يرجع إلى عجزهم عن فهمه، بل إلى كونهم غير جادين بشأنه ، إن أهوال القيامة المروعة ستجعلهم فجأةً ، وعلى نحوٍ تلقائى ، جادين إلى أقصى حدود الجدية ، وبالتالى ففى حالة العجز الطارئة عليهم يومئذٍ لن يلبثوا أن يفهموا الأمر الذي لم يكونوا يستطيعون فهمه على وجهه في ظل الحرية المتاحة لهم فى الدنيا!!

لقد منح الله الإنسان مواهب عليا ؛ لو أنه أحسن استخدامها لتمكن من أن يتفهم كل أمرٍ بدقةٍ و عمق بالغين، والواقع أنه يكون هكذا تماماً فيما يتصل بشئونه الدنيوية ، إلا أنه يصبح فيما يتعلق بأمور الآخرة أصمّ ، رغم تمتعه بالسمع ، ويصير أعمى ، مع تمتعه بالبصر !!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ: اطمأنوا إلى وعده أو خشعوا له .

معنى الإخبات : هو التخشع والانكسار .. يقال : هو خبيت القلب أي منكسره، وهذا هو جوهر الإيمان وخلاصته ، فليس الإيمان بشيء يُورث ولا هو أداء لسانيا لمجموعة لفظيةً ما .. إن الإيمان اكتشاف ؛ فحين يظفر المرء بالله باستخدام سمعه وبصره ، ويدرك في مقابل ذلك حقيقة وضعه هو ، فإن الكيفية التي تعتريه ساعتئذٍ هي التي تسمى الخشوع (الإخبات) ، والخشوع هو نتيجة لازمة لمعرفتك وضع نفسك الواقعي بالمقارنة مع الله عز وجل .

إن الإيمان والإخبات والعمل الصالح ، كل هذه الثلاثة ليست إلا أبعاداً أو جوانب

مختلفةً لحقيقةٍ واحدةٍ .. فالإيمان هو اكتشاف شعوري لوجود الله وما يتصف به من صفات الكمال ، والإخبات علم على تلك الحالة القلبية التي تتولد بالضرورة في داخل المرء نتيجة اكتشافه لله ، أما العمل الصالح فهو المظهر الخارجي لذلك الشعور ولهذه الكيفية الداخلية ، فحين يفكر المرء بذهن الله ، وحين يمتلئ صدره بالكيفيات الإلهية ؛ فإن حياته الظاهرية تتحول بعدئذٍ إلى العمل الرباني ، وهذا هو العمل الصالح والشخص الذي تجسدت في كيانه حقيقة الإيمان والإخبات والعمل الصالح ، هو الإنسان المطلوب عند الله تعالى ، وذلك هو الإنسان الذي سيتم إسكانه في حدائق الجنة الأبدية .

ومن خلال إيجاد ظروف الامتحان من مستوىً عالٍ في هذه الدنيا ، ينظر الله إلى أي الفريقين من الناس يضم كل واحدٍ منا نفسه ؟! أما أحد الفريقين فهو الذي عرف الحقيقة الواقعة باستخدام سمعه وبصره - أي شعوره - على نحوٍ صحيح،وبالتالي قام بصوغ فكره وعمله تبعاً لمقتضاها ، وهذا هو الفريق الموصوف بالسميع والبصير ، أما الفريق الآخر فهو الذي لم يستخدم سمعه وبصره على نحوٍ صحيحٍ ، فلا هو ظفر بمعرفة الحقيقة الواقعة، ولا تمكن من إفراغ فكره وعمله في قالبها ، ومن ثم فهو الأعمى والأصم .. وواضح أن كلا هذين النوعين يختلفان كل الاختلاف ، وبالتالي فلا يمكن أن يلقيا مصيراً مماثلاً .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

الْمَلأُ: السادة والرؤساء .

بَادِيَ الرَّأْيِ: ظاهرين دون تعمق وتثبت .

إن كل الأنبياء المبعوثين من عند الله ، إنما بُعثوا لإعلام البشر بمنهج الله الذي يتلخص في أن الإنسان إنما وضع في العالم الراهن بغرض الامتحان والاختبار ، ومع أن الفرصة هنا متاحة – على ما يظهر – لعبادة أشياء مختلفةٍ ، غير أن المطلوب الأصلي من الإنسان هو أن يعبد الله وحده ، والذين لا يأخذون أنفسهم بعبادة الله وحده ، فقد فشلوا في الامتحان .. ولأمثال هؤلاء عذاب شديد في الحياة القادمة بعد الموت.

وقد عرض سيدنا نوحٍ – عليه الصلاة والسلام – على قومه هذا الأمر نفسه ، وصار لهم نذيراً مبيناً ، على أن قومه – عليه السلام – لم يؤمنوا بدعوته .

إن داعية الله حين يبعث، فإنه يبدو لمعاصريه واحداً من البشر ليس غير ، إذْ لا يحيط به أي رمزٍ أو هالةٍ من المجد والعظمة الدنيوية بعد، ومن ناحية أخرى فإن الدين الذي يحمل لواءه لا يكون قد ارتبطت به المنافع الدنيوية بعد، ولذلك فإن أغلب المبادرين إلى اعتناقه يكونون من الفقراء والبائسين الذين لا يُضطرون إلى فقْد شيءٍ ما رخيصٍ أو غالٍ نتيجة اعتناقهم للدين الجديد ، ويصير هذا الوضع بالنسبة إلى أكابر العصر على وجه أخص ، فتنةً ، حيث إنهم يحسبون أن هؤلاء إذا كانوا لا تتوفر لديهم أسباب الدنيا، فإن الحق لا يمكن أن يكون معهم، وقد يخرج من بين القوم رجال لا يتحرجون حتى من رمْي الداعية وأتباعه بالكذب والخداع!

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ

لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

أَرَأَيْتُمْ: أخبروني .

فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ: أخفيت عليكم .

خَزَائِنُ الله: خزائن رزقه وماله .

تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ: تستحقروهم وتستهين بهم .

أريد بـ «البينة» هنا الدليل والبرهان ، وبـ «الرحمة» النبوة (١).

ويتضح من هذا أن النبي حين يدعو قوماً ما ، فإنه يستند إلى شيئين اثنين ، و هما : الدليل والنبوة .. وإذا نهض أحد من الدعاة للدعوة على أثر النبي ، لا ولن يكون داعياً حقاً، إلا إذا كان قائماً على أساسٍ من هذين الشيئين ، مع الفارق القائل بأن الشيء الأخير الذي يوجد لديه بعد الدليل والبرهان ، سيكون متاحاً له عن طريق النبي بصفةٍ غير مباشرةٍ ، بينما يتلقاه النبى مباشرةً من قبل الله عز وجل .

وإن قوماً حين يُهملون داعية الله ويعرضون عنه نظراً لكونه لا يتمتع – على ما يبدو – بشيءٍ هامٍ جديرٍ بالاعتبار ، فإنه يتوفر لديه ، في الوقت نفسه ، شيء بالغ الأهمية، ألا وهو الدليل والهداية .. فالداعي إلى الله لا يزال متمتعاً بعظمة الدليل والهداية على أكمل وجهٍ ، إلا أنها – على أية حالٍ – عظمة معنوية ، وأن تتجلى العظمة المعنوية لأقوامٍ تعلقت عيونهم بالمظاهر والأشكال السطحية . وعمل الدعوة إلى الله عمل أخروي خالص ، ولابد لتأديته على وجهه ألا يثور نزاع ما حول المال أو الأرض بين الداعي والمدعو ، وإن الداعي هو المسئول عن إبقاء العلاقات بينه وبين المدعو هادئةً

---

(١) تفسير النسفي.

وغير متوترة ، وبالتالي يتعين عليه أن يقوم بإنهاء كل النزاعات المادية والاقتصادية معه من طرفٍ واحدٍ ، وأما الداعى الذى ينهض ، للدعوة ، ويقود مسيرة الاحتجاج والمطالبة ضد المدعو لأجل الأشياء والمطالب الدنيوية ، فإنه ليس بداعٍ ، بل هو مهرّج ساخر، ولا يمكن أن تكون له قيمة ما في عين المدعو ، ولا يقام له وزن عند الله تعالى !

وامتحان المدعو يتمثل في أن يتمكن من مشاهدة عظمة الحق في إنسانٍ غير عظيمٍ فى ظاهر الأمر ، كما أن امتحان الداعي هو ألا يأخذ يرحب بشخصٍ غير متدينٍ ويحسن استقباله لأنه ذو مالٍ وجاهٍ ، ولا يعتبر شخصاً متديناً غير ذي أهميةٍ واعتبارٍ لكونه لا تتوفر لديه مظاهر الأبّهة الدنيوية ، وإن فعل الداعي ذلك فسيكون معناه أنه يعظ بلسانه عن أهمية الآخرة ، بينما يبرهن بعمله على أهمية الدنيا ، والظاهر أن هذا مناقضة.. فهل يمكن أن تكون لدى الآخرين قيمة ما لشخصٍ يناقض نفسه بنفسه؟! كلا !

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

أَنتُم بِمُعْجِزِينَ: بفائتين من عذاب الله بالهرب .

أَن يُغْوِيَكُمْ: يضلكم .

لم يكن سيدنا نوح عليه السلام قد عمد إلى الجدال - أي الخصومة والمناظرة - مع قومه ، وإنما كان يبلغهم رسالته الصالحة بأسلوبٍ جادٍ ، غير أن دعوته الجادة كانت تبدو لقومه على غير وجهها، والسبب في ذلك يرجع إلى ضعف الإنسان ، الذي يجعله يفقد جديّته وتوازنه حين تتعرض ذاته للنقد والتجريح ، فهو لا ينظر إلى مثل هذا الحديث

من حيث الدليل والبرهان ، بل إنه يرفضه من غير رويةٍ ولا تفكرٍ ، حتى إن دلائل داعية الحق الواضحة المحكمة تتراءى له كأنها جدل ونقاش فارغ !!

وعبارة ﴿ فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ ليست أصلاً للدلالة على ما قاله نوح ، بل هي تدل على أي محملٍ كان سامعوه قد حملوا قوله!!

وهكذا لم يكن استعجال معارضي نوحٍ للعذاب حقيقةً استعجال العذاب ، بل كان ذلك تهكماً واستهزاءً بنوحٍ ، لاعتبارهم إياه يدعي أمراً لن يكون أبداً .. حيث إنهم كانوا يعدّون مركزهم وطيداً راسخ الدعائم إلى حدٍ لم يكن معه ، حسب زعمهم ، أي احتمال لمجيء العذاب من أي مكان .. وانطلاقاً من هذا الزعم قالوا له : ائتنا بالعذاب الذي تعدنا به جزاء إنكارنا وتكذيبنا لرسالتك .. وبما أن عذاباً كهذا لم يكن ليأتي أبداً في زعمهم ، لذا فقد كان المفهوم الضمني لذلك : إننا على الحق وأنت وأتباعك على الباطل !! ، فأجابهم سيدنا نوح عليه السلام : إنكم تنظرون إلى الأمر بالنسبة إليّ أنا ، وبما أنني ضعيف ، يتعذر على أفهامكم أن هذا العذاب يمكن أن يحل عليكم يوماً ما ، ولكن لو أنكم نظرتم إلى الأمر بالنسبة إلى الله عز وجل، لما قلتم ما تقولون ، ولأدركتم جيداً أن حلول العذاب على الظالمين في هذا العالم حتمي تماماً كطلوع الشمس وانفجار البركان .

إن إيمانك بقول الداعي إلى الحق يتوقف كلياً على ألا تنظر إليه من حيث القائل ، بل من حيث ما قال ، وبما أن قوم نوحٍ عليه السلام كانوا يعدون أمره أمر إنسانٍ عاديٍ محضٍ ، لذا فقد صرح لهم قائلاً : إنكم لن تستطيعوا أبداً ما دمتم أسرى هذا التفكير المعوج، أن تقدروا كلامي حق قدره ، وليس لي الآن سوى أن أرتقب اليوم الذي يتجلى فيه رب السموات والأرض عياناً !

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

فَعَلَيَّ إِجْرَامِى : عقاب اكتسابي ذنبي .

إن الذين كانوا يقولون إن النبي قد اختلق هذا الكلام من عند نفسه ، وأنه ليس من عند الله ، لم يكونوا منكرين للوحي والإلهام أصلاً ، حتى إنهم كانوا يؤمنون بالأنبياء السابقين ؛ إذًا فما الذى جعلهم يقولون هكذا؟!

إنه لم يكن فى الواقع إنكاراً لوحى ، بل كان إنكاراً لمن أوحى إليه .. فإن الذى قام مبلغاً عن الله ، كان يبدو للناظرين آنئذٍ إنساناً عادياً وبالتالي كان يصعب عليهم ، لكونهم عبدة الظواهر ، أن يفهموا أن يكون رجل كهذا اختاره الله لتبليغ رسالته إلى الناس !!

وإن قوله : ﴿ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ هو فى الأصل كلمة وداع ، فحين لا يؤمن المخاطَب بالدعوة ، اقتناعاً بالدليل ، ولا يزال مصراً على الجمود والإنكار ، رغم كل بيانٍ وإيضاحٍ ، فيشعر الداعي عندئذٍ بأنه لا يسعه الآن إلا أن يلوذ بالصمت قائلاً : أنا وأنتم جميعاً محضرون آخر الأمر بين يدي الحاكم الحقيقي ، حيث سيُكشف عن سرائر الجميع ، وسيُجزى الكل هناك تبعاً لما كان عليه من حيث الحقيقة جزاءً وفاقاً !!

وإنه حين يصبح منطق الدليل غير ذي أثرٍ فعالٍ لدى المدعو لشدة عناده وقسوة قلبه فلا يبقى أمام الداعية مجال سوى أن يعتزله مودعاً إياه بكلمات الثقة واليقين!

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

فَلَا تَبۡتَئِسۡ: فلا تحزن .

بِأَعْيُنِنَا: بحفظنا وكلأتنا الكاملين .

يُخْزِيهِ: يذله ويهينه .

وَيَحِلُّ عَلَيْهِ: يجب عليه وينزل به .

الإيمان المطلوب من الإنسان هو الإيمان الذي يعتنقه عن وعي وبناءً على قراره الحر والذين لا يؤمنون، رغم قيام النبي بعمل دعوي يدوم مدةً من الزمان طويلةً ، فإنما هم يثبتون بذلك أنهم غير مستعدين ليكونوا مؤمنين بالله بناءً على قرارهم الحر ، وتكون المرحلة الثانية والأخيرة لأمثال هؤلاء أن تُنتزع منهم حريتهم ، ويُساقوا مباشرةً إلى الله ذي الجلال والجبروت، حتى يسلموا كمجرمين بالشيء الذي لم يكونوا قد سلموا به كمؤمنين ، ويلقوا بالتالي أسوأ الجزاء على عنادهم وطغيانهم!

وقد كانت هذه الساعة - الساعة الحاسمة - اقتربت من قوم نوحٍ بعد أن ظل يدعوهم إلى الله ويبلغهم رسالة ربه لمئاتٍ من السنين - تسعمائة وخمسة وخمسون سنة - وبعدئذ أمر سيدنا نوح - عليه السلام - بأن يتفرغ من عمل الدعوة والبلاغ ، ويقوم بإعداد سفينة ؛ يتحصن بها هو وأتباعه المؤمنون ؛ حين يجيء طوفان الله لإهلاك الطغاة غرقاً !

وقد قام سيدنا نوح عليه السلام بإعداد سفينة ضخمة ذات طبقاتٍ ثلاثٍ ، وقد استغرق إعدادها عدة سنواتٍ ، وعندما كان نوح مشغولاً برفقة أصحابه بإعداد السفينة، كان طغاة قومه يمرون عليهم ، وبما أنهم كانوا يعدون أمر العذاب شيئاً افتراضياً محضاً ؛ راحوا يستهزئون ويتندرون بهم بوقاحة أشد وأكثر !!

لو أن أحد الناس كان يدخر أموالاً طائلةً عن طريق العدوان والجور ، فإن عبدة الظواهر سيعتبرونه ناجحاً بالنظر إلى ما يحيط به من زخارف الدنيا ومباهجها ، غير أن الرجل البصير الذي يعلم أن نظام العالم يسير تبعاً للقوانين الأخلاقية الثابتة ، سوف يرى في النجاح الوقتي المتاح للشخص المذكور مشهد دمارٍ رهيبٍ سيلحق به عاجلاً

أو آجلاً .. وعبدة الظواهر من قوم نوحٍ وإن كانوا يسخرون من سيدنا نوحٍ عليه السلام غير أنهم كانوا هم الآخرين موضوع السخرية والاستهزاء في عين الحقيقة الواقعة!

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ۝٤٠ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٤١ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ۝٤٣ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤ ﴾

وَفَارَ التَّنُّورُ: نبع الماء وجاش بشدة من تنور الخبز المعروف .

مَجْرَاهَا: وقت إجرائها .

وَمُرْسَاهَا: وقت إرسالها .

سَآوِي: سألتجئ وأستند .

لاَ عَاصِمَ: لا مانع ولا حافظ .

أَقْلِعِي: أمسكي عن إنزال المطر .

وَغِيضَ المَاءُ: نقص وذهب في الأرض.

وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ: استقرت على جبل بقرب الموصل .

بُعْداً: هلاكا وسحقا .

ولم يكـد يـتم إعـداد الـسفينة ، حتـى بـدأت تهـبّ العواصـف الهوجـاء بـإذن الله ، وتفجرت الأرض ينابيع تفور ، وبدأ ينزل المطر من السماء بغزارةٍ واستمرارٍ ، حتى بلـغ السيل الزبي ، وطغى الماء في كل مكانٍ ، وهلك فيه كل الناس غرقاً ، ولم ينج من الهـلاك سوى ذلك العدد القليل – من البشر والحيوانـات – الـذي كـان راكبـاً في سـفينة نـوحٍ ، حتى إن ابن سيدنا نوح صار هو الآخر من المغرقين !

إن قيمة أحد الناس عند الله إنما تُقدر بعمله ، وليس بقرابته ، حتى ولـو كانـت قرابـة النبى !!

ولما هلك كل أولئك الذين قُضي عليهم بالغرق عن آخرهم ، أمر الله الطوفـان بـأن يهدأ ، فهدأ الطوفان ، بحيث انصبت المياه في البحار والأنهار ، وصـارت الأرض ثانيـةً جديرة بالسكنى والعمران .

وقد رأى الراؤون بمناسبة طوفـان نـوحٍ أن الـصاعدين عـلى قمـم الجبـال الـشامخة ، هلكوا غرقاً ، بينما بقي ركاب السفينة سالمين رغم تـدافع أمـواجٍ هائلـةٍ مـن حولهـا ، ولم يكن سبب ذلك كامناً في الجبل أو السفينة ، وإنما كان السبب في ذلك يكمن في أنـه كـان أمر الله، فلـو أن أمر الله كـان مـع الجبـل ، لنجـا الـصاعدون عليـه مـن الهـلاك ، ولهلـك الراكبون في السفينة ، على أن أمر الله كان بهذه المناسبة مـع الـسفينة ، ومـن ثـم فقـد نجـا ركابها ، وذهب المتحصنون بالأشياء الأخرى عداها ضحايا الطوفان !

إن نظام الأسباب والعلل السائد في هذه الدنيا ليس إلا سـتاراً محضاً ، وإلا فكـل مـا يحدث هنا إنما يحـدث بـأمر الله مبـاشرةً ، وإن امتحـان الإنـسان هـو أن ينظـر إلى الحقيقـة الأصـلية مـن خـلال الـستار الظـاهري ، ويـدرك القـدرات الإلهيـة مـن حيـث أنهـا هـي المتصرفة في الأسباب ، العاملة وراءها كما تشاء!

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا

لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝﴾

لقد كان كنعان، ولد نوحٍ أيضاً، من بين أولئك الذين راحوا ضحايا الطوفان، وقد حاول سيدنا نوح أن يُركبه في سفينته، إلا أنه لم يركب معه، لكونه قد كُتب عليه الهلاك غرقاً .. ثم تضرع الوالد المفجوع إلى الله تعالى، سائلاً إياه النجاة لولده، فأجيب بأن هذا سؤال لا يليق بك، إنما هو سؤال الجاهلين، فلا تكن منهم!

والواقع أن قضاء الله محايد لا محاباة فيه ولا مواربة؛ فهو لا يمنح أحداً من الناس النجاة ويدخله الجنة لأنه من أبناء الصالحين، أو أنه من المتمسكين بأذيال بعض الشيوخ، وإنما يصدر قضاء الله بالنجاة لأحدٍ على أساسٍ من العمل الخالص، وليس على أساسٍ من أواصر القربى أو الانتماءات الطائفية.

وإن كانت العبرة في هذه الدنيا بالقرابة الرحمية، فإنما العبرة في الآخرة بالقرابة الأخلاقية، إن صح التعبير .. وما جاء طوفان نوحٍ إلا لكي يحطم كل التقسيمات الأخرى القائمة بين الناس، ويحل محلها التقسيم الأخلاقي وحده، وبالتالي يتم إنقاذ أصحاب العمل الصالح بحملهم في السفينة الإلهية، ويقذف بأصحاب العمل غير الصالح كلهم في أمواج الطوفان القاهرة، وسيتكرر حدوث هذه الواقعة ذاتها في يوم القيامة على نطاقٍ أوسع، وعلى وجهٍ أكمل وأشمل!

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ۝﴾

وَبَرَكَٰتٍ: خيرات ثابتة.

لقد هدأ الطوفان، بعدما التهمت أمواجه كل شريرٍ عنيدٍ من الناس، وذهب الماء،

رويداً رويداً، في أغوار الأرض ، وأعماق البحار ، واستقرت سفينة نوح على جبل الجودي، حيث نزل منها هو وأصحابه إلى الأرض ، وقد أصبحت الأرض بإذن الله نضرةً خضراء ، ومأهولةً بالسكان من جديد .. إن سيدنا نوحاً ﷺ بُعث في قوم كانوا مؤمنين بنبوة سيدنا آدم ﷺ وقد بقيت أمته بعد وفاته ﷺ على الصراط المستقيم لمدة من الزمان ، ولما تسرب الفساد بعدئذ إلى أجيالها التالية ، بعث الله فيهم أنبياءه الواحد بعد الآخر ، وقد بُعث هؤلاء الأنبياء اللاحقون في أقوامٍ كانت مؤمنةً بنبوة نوح ﷺ ، غير أنهم - بالرغم من ذلك - لم يلبثوا أن أهلكوا بعذاب الله ، حين لم يؤمنوا بنبي العصر ولم يصلحوا أنفسهم ؛ مما يعني أن الإيمان بنبي من الأنبياء أو الانتماء إلى أمته ، غير كافٍ للفوز بالنجاة ، بل الإيمان المطلوب هو الإيمان الحي ، ذلك الذي يحوّل حياة المرء إلى حياةٍ قوامها الصلاح والتقوى .

ونتعلم من قصة نوح ﷺ أن أنصار الباطل مهما بلغوا من الكثرة والقوة ، ومهما طالت أعمارهم على الأرض ، فإن ما قُدر لهم في نهاية المطاف هو الهلاك والدمار المحقق وفي مقابل ذلك فإن أهل الإيمان مهما قل عددهم ، وضعفت قوتهم في ظاهر الأمر ، إلا أن القضاء الإلهي حين يظهر ، فإن هؤلاء هم الذين ينالون من رحمات الله أوفر نصيبٍ ابتداءً من هذه الدنيا ، وانتهاءً بتلك الدار الآخرة !!

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

فَطَرَنِي: خلقني وأبدعني .

السَّمَاءَ: المطر .

مِّدْراراً: غزيرا متتابعا بلا ضرر .

ولهداية قوم عادٍ بُعث سيدنا هود ، الذي كان أخاهم ، أي واحداً منهم ، وذلك مما جرت به سنة الله بشأن الأنبياء دائماً ، لكونهم أبناء الشعب نفسه ، يتقنون لغة شعبهم ، ويعرفون جيداً نفسيته وما يعيشه من أحوالٍ وظروفٍ، وبالتالي يستطيعون القيام بمهمة دعوة الحق بينهم على أفضل وجهٍ .

وقد عرض سيدنا هود ﷺ على قومه رسالة عبادة الله الواحد الأحد ، وبالإضافة إلى ذلك قال لهم ناعياً عليهم دينهم الباطل ، إنه ليس إلا افتراءً محضاً ؛ مما يوضح أن أسلوب دعوة النبي ليس أسلوب «العرض الإيجابي» لرسالته بالمعنى المعروف ، بل هو يتصدى - مع ذلك - للنقد الصريح ، فإن حقانية الحق لا يمكن تقريبها إلى أفهام الناس ما لم يتم إبطال الباطل عن طريق النقد والتحليل .

وقد حدث في عصر كل نبي أن كان معارضوه يشترطون - لأجل التصديق برسالته- أن يكون النبي ذا جاهٍ ومنصبٍ خطيرٍ ، وأن تتوفر لديه ثروات طائلة ، وأن يكون مسكنه فخماً أنيقاً .. إلخ ، غير أن هذا المعيار لمعرفة صدق الداعي إلى الحق غير صحيحٍ ، وإنما المعيار الأصلي لاختبار صدق الداعية هو أن يكون جاداً تمام الجدية ، في دعوته ، وتكون رسالته مدعمةً بأقوى الأدلة وأوضح البراهين ، وأن يترفع بنفسه عن كل نوعٍ من الأغراض الدنيوية، وأن يكون ما يقوله هو عين الحقيقة الواقعة ، وتنسجم رسالته مع النظام الكوني أتم الانسجام ، بحيث يكون الإيمان بها بمثابة السير على طريق النجاح والسعادة .

﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ إن هذه الجملة لا تعني إضافة القوة المادية ، فإن عاداً كانوا في غاية القوة في زمانهم ، حيث حكى القرآن عنهم قولهم : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ الذي قالوه رداً على النبي لما أنذرهم من عذاب الله ، ومن ثم فإن الحديث عن زيادة القوة المادية لم يكن ليثير اهتمامهم أو يجذب انتباههم إلى الدعوة .

وإنما تعني زيادة القوة هنا إضافة القوة الإيمانية إلى جانب القوة المادية ، وكأنما كان النبي – هود – يقول لهم : لو أنكم اخترتم الحياة الإيمانية ، فستحصلون بذلك على طاقةٍ خلقيةٍ وروحيةٍ ، وبالتقاء الطاقة الخلقية والروحية مع طاقتكم المادية ، لن تنقص قوتكم أيما نقصان ، بل ستزداد إلى حدٍ كبيرٍ جداً .

﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾

اعْتَرَاكَ: أصابك .

بِسُوءٍ: بجنون وخبل .

فَكِيدُونِي: فاحتالوا في كيدي وضرري .

لاَ تُنظِرُونِ: لا تمهلونى .

آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا: مالكها وقادر عليها .

لقد رد القوم على سيدنا هودٍ قائلين : إنه ليس عندك من دليلٍ أو برهانٍ على كونك محقاً وصادقاً . ولا يعني ذلك أن سيدنا هود كان يعوزه الدليل والبرهان في واقع الأمر؛ حيث كان لديه الدليل بكل تأكيدٍ ، غير أنه لم يكن يبدو دليلاً للقوم ، وكان السبب في ذلك أن المرء عادةً لا يستطيع النظر إلى أمرٍ ما من حيث الدلائل التي تصاحبه ، بل ينظر إليه من حيث الشخص الذي يعرضه ، مَنْ يكون؟ وما مكانته ؟ وبما أن العارض كان يبدو لمعاصريه رجلاً فاقد الأهمية والاعتبار ، لذا فقد صار قوله هو الآخر يتراءى للناس غير ذي أهمية ملحوظة.

وحين ينهض شخص للدعوة إلى الدين الخالص ، متخلياً عن الدين التقليدي السائد ، فدائماً ما يحدث أن يصبح ذلك الشخص غريباً ، بل حقيراً في المجتمع ، حيث ينظر إليه الناس كما لو أنه شخص أصيب بجنونٍ وخبلٍ في عقله ، وقد كان سيدنا هود يواجه نفس هذا الوضع ؛ إذْ تجرأ قومه أن يقولوا : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ على أن الشاهد على صدق داعية الحق ، بعد الأدلة والبراهين النظرية ، هو أن معارضيه لا يستطيعون إخضاعه وإحراز الغلب عليه ، على الرغم من كل الجهود والمحاولات العدوانية الغاشمة .

إن الأمم والشعوب التي بُعث فيها أنبياء الله ، كانت كلها تؤمن بوجود الله ، مما يعني أن كلاً من الداعي والمدعو كان يدعي أنه مؤمن بالله عابد له ، وهنا ينشأ سؤال من يتمتع بمعية الله وتوفيقه من كلا هذين الفريقين ؟!

إن أيسر جوابٍ على هذا السؤال هو أن الله على صراطٍ مستقيم ، ومن ثم فإنما سيُوفق للوصول إلى الله رأساً ، مَنْ كان يمشي على خط الدين المستقيم ، وأما الذي يمشي على الطرق المعوجة ، فإنه سيظل تائهاً هنا وهناك ، ولن يحالفه التوفيق أبداً للوصول إلى جناب الله تعالى .

وعندما قال سيدنا هود : ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ ، فكأنما كان يقول - بعبارةٍ أخرى - إن الشيء الذي أنا أدعوكم إليه هو صراط مستقيم ، أي طريق الدين الحق ، بينما الأشياء التي اتخذتموها ديناً ، ليست من الدين في شيءٍ ، إنما هي طرق جانبية أو سبل فرعية نُسجت من حول صراط الدين القويم ، وأنتم تسعون عليها ، إن سعياً كهذا لا ولن يوصل صاحبه إلى الله ، وإنما يدعه حائراً يتيه ويتخبط هنا وهناك .

وبإمعان النظر في هذه الآيات تتضح لنا معالم الصراط المستقيم الذي دعا سيدنا هود قومه إليه ، وتتمثل تلك المعالم في النقاط التالية : التوحيد ، عبادة الله ، الاستغفار ، التوبة ، الشكر على نعم الله ، التوكل على الله ، التسليم بالله رباً ، واعتبار الله وحده

مالكاً للقوى والطاقات كلها ، واتخاذ الله حارساً أو رقيباً على النفس ، واختيار مسلك الطاعة بدلاً من الاستكبار .

وكل هذه هي تعاليم الدين الأساسية ، واتباع هذه التعاليم واتخاذها وجهتنا ومركز اهتمامنا في الحياة ، هو بمثابة السير على صراط الدين ، والسائر عليه يصل مباشرةً إلى الله سبحانه وتعالى .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

حَفِيظٌ: رقيب مهيمن .

غَلِيظٍ: شديد مضاعف .

جَبَّارٍ: متعاظم متكبر .

بُعْداً: هلاكا سحقا لهم .

الذين يُعرِضُون عن رسالة الله ، فإن الله أيضاً يعرض عنهم ، وهذه الواقعة التي تحدث في العالم الراهن بصورة جزئيةٍ ، ستحدث يوم القيامة بصورةٍ كلية ونهائيةٍ ، فحينئذٍ سيتم طرد الطغاة كافة عن رحمة الله ، وستكون الرحمات الإلهية يومئذٍ خالصةً لأولئك وحدهم ، الذين عاشوا حياتهم الدنيا مطيعين وأوفياء لله عز وجل.

وقد نفذ الله في هذا العالم مبدأ «الاستخلاف» وهو يعني تمكين أمةٍ مكان أمةٍ في الأرض على التوالي ، وإنما يُتاح هذا التمكن في هذه الدنيا بغرض الامتحان وبصفةٍ

عارضةٍ مؤقتةٍ ، وسيفوز أهل الإيمان الصادقون دون غيرهم ، بالتمكن الدائم في دنيا الله الكاملة في اليوم الآخر وعلى وجه الإنعام والتكريم .

وقد جُعل نظام العالم الراهن بحيث يجد المرء هنا نفسه دوْماً بين خياريْ الخير والشر وهو يكون حراً في اختيار أيهما شاء ، وفوق ذلك فإن هذا العالم يسوده الشر في الأغلب والأعم ؛ حيث لا يكون إلى جانب الخير سوى قوة الآيات – أي الأدلة النظرية – وحدها ، ومن جهةٍ أخرى يوجد إلى جانب الشر قوة مادية هائلة لدرجة أن حملة لوائه يصابون بالغرور والبطر والطغيان ، مما يجعلهم يفرضون على البيئة جواً من الضغط و القهر عاماً يرتجف معه فؤاد الرجل العادي ، فقد لا يستطيع التفكير في التقدم نحو الحق، فضلاً عن اعتناقه على مرأى ومسمع من القوم!

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾

وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا: جعلكم عمارها وسكانها .

مُرِيبٍ: موقع في الريبة والقلق .

أَرَأَيْتُمْ: أخبروني .

بَيِّنَةٍ: يقين وبرهان وبصيرة .

تَخْسِيرٍ: خسران إن عصيته.

لقد دعا سيدنا صالح عليه السلام قومه إلى عبادة الله الواحد ، وقد كان هذا هو الهدف الأساسي لدعوة الأنبياء جميعاً في كل العصور ، غير أن قوم صالحٍ لم يقبلوا برسالته ، وكان السبب في ذلك أنه عليه السلام كان يريد أن يربط صلتهم بالله تعالى مباشرة ، على حين أن القوم كانوا قد ربطوا أنفسهم بأكابرهم وعظمائهم وحدهم باسم الله!

ويصل الأمر بأمثال هؤلاء إلى أنهم لا يستطيعون إدراك أهمية شيء ما إلا إذا وجدوا تصديقه فيما أثر عن شيوخهم القوميين من قولٍ وعملٍ ، وبما أن صالحاً عليه السلام لم يكن يتوفر لديه سوى قوة الدليل ، لم يكن قومه يشعرون بأهمية دعوته، إن الدين الذي نهض صالح يدعوهم إليه ، إنما كانت أهميته تتضح عند التأمل في الوحي وفى آيات السموات والأرض ، بينما كان قومه لا يعرفون سوى أهمية دينٍ يستمد عناصر وجوده من أقوال أكابر القوم وعاداتهم المأثورة ، وكانت نتيجة ذلك أنهم ظلوا أسرى نوعٍ من الشك والارتياب ، مع كونهم قد صاروا عاجزين عن مقاومة الأدلة والبراهين التي جاء بها نبيهم.

وقد كان صالح ، مثل جميع الأنبياء الآخرين ، رجلاً يمتاز بشخصيةٍ فذةٍ وذكاءٍ نادرٍ بين أبناء شعبه ، وكان الناس يأملون أنه سيكون ، بعد أن يبلغ أشده ، سيساعد الشعب الأيمن، ولكنه عندما بلغ سن الرشد ، حتى أخذ يتناول دين الشعب التقليدي بالنقد والتجريح ، مما جعل رجاء الشعب فيه يتحول إلى يأسٍ منه مرير ، فقالوا : لقد كان في حسباننا أنك ستصبح يوماً ركناً من أركان نظامنا الديني القائم ، ولكن ها نحن أولاء نراك - بالعكس - وأنت تبذل قصارى جهدك في إبطال نظامنا الديني وتعمل على هدم قواعده .

﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ

مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾

آيَةً: معجزة دالة على صدق نبوتي .

جَاثِمِينَ: هامدين ميتين لا يتحركون .

لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا: لم يقيموا فيها طويلا فى رغد .

بُعْداً لِّثَمُودَ: هلاكا وسحقا لهم .

إن صالحاً عليه السلام كان يقول لقومه: إني رسول الله إليكم ، ولئن لم تؤمنوا برسالتي ، فسوف تتعرضون لبطش الله الشديد ، ولما أصر قوم صالح على العناد ، وما زالوا يأبوْن الإذعان للآيات النظرية ، بُعث لهم ، في المرحلة الأخيرة ، بالآية (المعجزة) الحسية هي الأخرى ، والتي كانت ، حسب طلبهم ، ناقةً خرجت أمام أعينهم من صخرةٍ صماء ، وسنة الله ، بالنسبة إلى آيةٍ كهذه ، هى : إنها حينما يتم إظهارها ، فلا يبقى للناس بعدئذٍ مزيد من مهلة الامتحان المتاحة لهم من ذي قبل ، وبالتالي فقد صاح بهم سيدنا صالح قائلاً : إنكم الآن - يا قومى - بين اثنتين: فإما أن تؤمنوا برسالتي تائبين إلى الله تعالى ، وإلا فستهلكون عن بكرة أبيكم!

على أن الذين لا يستطيعون أن يحسوا بثقل الدلائل النظرية ، فإنهم يظلون فاشلين في الاعتبار بالدلائل الحسية كذلك ، ومن ثم فلم يمتنع شعب صالحٍ عناده وطغيانه ، حتى إنه لم يلبث أن ذبح الناقة ، وبعدئذٍ لم يكن ثمة حاجة لإتاحة مزيد من المهلة له ، فلم يلبث أن قُطع دابره ، ومحي من صفحة الوجود!!

لقد كان ثمود ، شعب صالحٍ عليه السلام يسكن مدائن الحجر ، في شمال غربي الجزيرة العربية، وقد أُمر سيدنا صالح - فى نهاية المطاف - بمغادرتها ، فخرج منها برفقة

أصحابه المخلصين متوجهاً نحو الشام ، وفى أعقاب ذلك فوجئ الشعب كله بزلزالٍ عنيفٍ دمّره شر تدميرٍ ، وأ-:له أثراً بعد عينٍ !

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

بِعِجْلٍ حَنِيذٍ: مشوي بالحجارة المحماة في حفرة .

نَكِرَهُمْ: أنكرهم ونفر منهم .

وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً: أحس في قلبه خوفا منهم.

يَا وَيْلَتَى: كلمة تعجب .

مَّجِيدٌ: كثير الخير والإحسان.

ذات يومٍ دخل في بيت سيدنا إبراهيم - وكان قد بلغ من عمره يومئذٍ نحو مائة سنة- شبان حسان الوجوه للغاية ، وقد ظنهم أضيافاً فقام من فوره بتحضير الطعام لهم ، غير أنهم لم يكونوا بشراً ، بل كانوا ملائكة الله ، جاؤوا لأجل غرضين في آنٍ واحدٍ أحدهما: تبشير إبراهيم بالولد ، والآخر: إهلاك شعب لوطٍ ، الذي كان قد بلغ من الإنكار والطغيان غايته.

وإن تبشير إبراهيم وزوجته بإسحاق (الابن) ويعقوب (الحفيد) ، لم يكن بشارة بالأولاد بالمعنى المعروف ، وإنما كان المقصود من ذلك تكوين أسرةٍ أو عائلةٍ تتألف من

الصالحين والداعين إلى الله ، ومن تجارب التاريخ أنه ربما تكون هناك عائلة ما، هى التى تنهض لخدمة الدين الحق ، كما يشهد بهذه الحقيقة ذاتها تاريخ الأنبياء وسير التابعين لهم بصدقٍ وإخلاصٍ خلال القرون المتأخرة ، والسبب في ذلك هو أن الفرد الذي ينكشف عليه الحق ، يكون في أعين المعاصرين له إنساناً عادياً ، ومن ثم فإن معرفة مكانته والقيام بمناصرته يكون أمراً بالغ الصعوبة بالنسبة إلى عامة الناس، أما أهل بيته وأفراد أسرته ، فإن القرابة الذاتية تصبح بالنسبة إليهم عاملاً إضافياً ، فالشيء الذي لا يكاد يراه الآخرون بسبب سطحيتهم ، لا يلبث أهل بيته أن يلمسوه ويحسوا به بسبب العلاقة الذاتية التي تربطهم به، وبالتالى يقفون إلى جانبه يقاسمونه هموم رسالته وتبعاتها الثقال !

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

الرَّوْعُ: الخوف والفزع .

لَحَلِيمٌ: متأن غير عجول .

أَوَّاهٌ: كثير التأوه من خوف الله .

مُّنِيبٌ: راجع إلى الله سبحانه .

لقد دار جدال إبراهيم مع الملائكة الذين مروا عليه في طريقهم لإهلاك قوم لوطٍ ، وبما أن هؤلاء الملائكة جاؤوا من عند الله تنفيذاً لأمره تعالى ، نسبه الله إلى نفسه ، وقد ذُكر جزء من هذا الحوار الذي جرى بين إبراهيم والملائكة في الآية الثانية والثلاثين من سورة العنكبوت ، كما ورد ذكره بالإسهاب في سفر التكوين (الإصحاح الثامن عشر) من التوراة المتداولة اليوم.

إن دعاء سيدنا إبراهيم لقوم لوطٍ لم يُقبل ، كما لم يستجب دعاء سيدنا نوحٍ لولده من قبل ، والسبب في ذلك أن دعاء العفو والمغفرة لأحدٍ ليس بأي شفاعةٍ يتقدم بها شخص لآخر ، وبالتالي يتم القبول به في حق المدعو له نظراً لصلاح الداعي وتقواه ، كلا .

الدعاء هو أن تتقدم بنفسك إلى جناب الله عز وجل ، ولو أن ولد نوحٍ أو قوم لوطٍ استيقظت فى أنفسهم عاطفة الدعاء – بعد الإيمان - فتضرعوا إلى الله طلباً للنجاة ، لعفا الله عنهم ، ولتغمدهم برحمته .. فإن ردّ العذاب ممكن ؛ كما يتضح من مثال قوم يونس لما آمنوا.. على أن العذاب حينما يُرد ، فإنما يُرد بأدعية الأفراد محل التعذيب أنفسهم ، وليس بدعاء أحدٍ غيرهم، حتى ولو كان هذا ((الغير)) نبى الله!

نعم ، ومن المستحسن أن يدعو شخص لشخصٍ آخر غيره أيضاً ، وقد ظل الأنبياء وعباد الله الصالحون يدعون للآخرين في كل العصور ، على أن هذا الدعاء يكون في الحقيقة إظهاراً لكون الداعي نفسه حليماً أواهاً منيباً ؛ فإن العبد الذي يخاف من الله ، ترتعد فرائصه ويهتز كيانه كله بالنظر إلى عذاب الله ، فيأخذ يدعو لنفسه وللآخرين عداه في حرارةٍ وخشوعٍ .

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ ﴾

سِيءَ بِهِمْ: نالته المساءة بمجيئهم خوفا عليهم .

وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً: ضعفت طاقته عن تدبير خلاصهم .

يَوْمٌ عَصِيبٌ: شديد شره وبلاؤه .

يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ: يسرعون إليه كأنهم يدفعون.

وَلَا تُخْزُونِ: لا تفضحوني ولا تهينوني .

مِنْ حَقٍّ: من حاجة وأرب .

إن الملائكة الذين جاؤوا لوطاً ، كانوا ملائكة العذاب ، إلا أنهم دخلوا في القرية على هيئة غلمانٍ حسان الوجوه للغاية ، وما كان ذلك إلا لإقامة الدليل القاطع على جريمة القوم، فالمرء حين يظل يقترف ذنباً ما باستمرارٍ فإنه لا يلبث أن يصبح إزاءه بليد الحس تماماً ، وهكذا كان حال قوم لوطٍ ، إذْ كانوا قد بدؤوا يعملون الفاحشة الآن علناً وجهاراً وبدون خجلٍ ولا حياءٍ ، ومن ثم فلم يكد يترامى إليهم أن الغلمان الحسان نزلوا في دار لوطٍ ضيوفاً، حتى أسرعوا إلى داره ﷺ مدفوعين بدواعي الشهوة، وأخذوا يطالبون ويلحون عليه بمنتهى الوقاحة بأنه لابد من تسليم هؤلاء الغلمان إليهم !

ولما رأى سيدنا لوط أشرار قومه مسرعين إليه على هذا النحو، انقبض صدره بذلك غيرةً واحتشاماً ، فقال لهم: هؤلاء بنات الشعب ، فلتتزوجوا بأيتهنّ شئتم ، فذلك أفضل طريقٍ لتحقيق رغباتكم الفطرية ! ومن عادة الشيوخ والمتقدمين في السن في أي شعبٍ ، أنهم ينادون فتيات الشعب جميعاً بلقب البنات ، وفي هذا المعنى نفسه قال سيدنا لوط : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى ﴾ يريد فتيات شعبه .

غير أنهم لم يلبثوا أن رفضوا اقتراح لوطٍ المشروع ، وظلوا ينساقون وراء اللامشروع كعهدهم ، وبذلك قام الدليل قطعياً على أن هؤلاء قوما مجرمون ، وأنهم حقاً جديرون بأن يُهلكوا ، فما لبثوا بعدئذٍ أن تم إهلاكهم عن بكرة أبيهم !

﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ هذه آخر كلمة يقولها عبد الله ذاك ، الذي لا يملك القوة المادية لزجر الأشرار، الذين لم تعد تزجرهم أحاديث العقل والمنطق ، ولا مواعظ الأخلاق والفضيلة ، فعندئذٍ يحاول ، باستخدام كلمةٍ كهذه ، استثارة حمية القوم ، وإيقاظ ضمائرهم ، ولو أن الناس ظلوا ، مع ذلك ، قساة القلوب ، بليدي

الإحساس ، موتى الضمائر كسابق عهدهم ، فإنما يعني ذلك أنه لم يبق في نفوسهم، مقدار ذرةٍ من صفات النبل والفضيلة والإنسانية !

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

آوِي إِلَى رُكْنٍ: انضم إلى قوي انتصر به عليكم .

بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ: بطائفة منه أو من آخره .

سِجِّيلٍ: طين طبخ بالنار كالفخار .

مَّنضُودٍ: متتابع أو مجموع معد للعذاب .

مُّسَوَّمَةً: معلمة للعذاب .

لقد كان سيدنا لوط عليه السلام يظن الشبان القادمين إليه بشراً في بداية الأمر وعندما اشتد قلقه وانزعاجه ، وبات يشعر بأنه قد صار بسبب استضافته إياهم في خطرٍ محدقٍ ؛ أخبروه : إننا ملائكة ، أُرسلنا من عند الله تعالى ، يعني أن هذا أمر إلهي ، وليس بأمرٍ إنسانيٍ ، فلن يستطيع هؤلاء أن يمسونا ولا إياك بسوءٍ .. فقد جاء في بعض الروايات أن رجال قوم لوطٍ حين لم يرضوا بالتراجع إلى الوراء ، ضرب أحد الملائكة وجوههم بجناحه ، فأصبح الجميع بعدئذٍ عمياناً ، وانصرفوا على أعقابهم يصيحون : النجاة.. النجاة!!.

إن الله – جل وعلا – حين يقضي بإهلاك شعبٍ ما جزاء ظلمه ، فإن ذلك يكون

قضاءً عاماً يشمل تلك المنطقة بأكملها ، ففي مناسبةٍ كهذه ، تتعرض كل نسمةٍ في تلك المنطقة للعذاب الإلهي ، بيد أن الذين كانوا قد قاموا بإعلان الحق بين يدي أولئك الطغاة ، يعم إنقاذهم منه برحمةٍ من الله خاصة ، إن إعلان الحق أكبر ضمان للنجاة من بطش الله في الدنيا وفي الآخرة .

وتقول الروايات: إن امرأة لوطٍ لم تكن مخلصةً لسيدنا لوطٍ ، ولا مؤمنةً به من صميم قلبها ، ولكن في نهاية المطاف ، عندما خرج سيدنا لوط من القرية قائلاً : بأن عذاب الله سيحل هنا مع صباح اليوم التالي ، فانضمت زوجته هي الأخرى إلى ركبه ، ولم يكد يتجاوز هؤلاء منتصف الطريق حتى سمعوا من ورائهم أصواتاً مزعجةً تتعالى من الزلزال والطوفان الشديد ، فلم يلتفت سيدنا لوط ولا أصحابه المخلصون إلى الوراء أيما التفاتٍ ، وإنما مضوا مسرعين نحو الأمام ، إلا أن امرأة لوطٍ أخذت تنظر إلى الوراء ، فلما رأت ما رأت من الدخان وسمعت الصراخ والعويل لم تلبث أن ألقت من فمها صرخةً تقول : واقوماه!! فأصابها حجرٌ من السماء ، فهلكت حيث كانت !

ونتعلم من هذا أن شخصاً ما ، إذا هو لم يكن مخلصاً وفياً لله ورسوله في حقيقة أمره فإنه لن يفوز بالنجاة بانضمامه إلى قافلة الحق استجابةً لأي دافعٍ أو محركٍ آخر ، فإن ضعفه الكامن لابد أن يظهر فى مكانٍ ما ، وبالتالى يجعله يكبو لوجهه كبوةً لا يستطيع معها أن يتقدم أو يتأخر!

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾

أَرَاكُم بِخَيْرٍ: بسعة تغنيكم عن التطفيف .

يَوْمٍ مُّحِيطٍ: مهلك .

بِالْقِسْطِ: بالعدل بلا زيادة ولا نقصان .

وَلاَ تَبْخَسُوا: لا تنقصوا .

وَلاَ تَعْثَوْا: لا تفسدوا أشد الإفساد .

بَقِيَّتُ الله: ما أبقاه لكم من الحلال .

بِحَفِيظٍ: برقيب فأجازيكم بأعمالكم .

إن مَدْيَن قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام ، وقول نبيهم شعيب لهم:﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يدل على أنهم كانوا مدعي الإيمان ، بمعنىً آخر : إنهم كانوا قوماً مسلمين في زمانهم ، حيث كانوا ينتمون إلى أمة نبيٍ سابقٍ على سيدنا شعيب وبمضي أحقابٍ طويلةٍ من الزمن كان قد فشا في أجيالهم اللاحقة الشر والفساد.

فقال لهم شعيب : أما إذا كنتم تدعون أنكم مؤمنون ، فلن يُعتبر بدعواكم عند الله إلا إذا قمتم بتأدية مقتضيات دعواكم ، إذ لا قيمة لدعوى ما بدون الوفاء بمقتضياتها !!

إن إيمانكم يقتضي ألا تعبدوا إلا الله الواحد الأحد ، وتلتزموا بالعدل في كل أموركم ومعاملاتكم، وأن تحبوا للآخرين ما تحبون لأنفسكم ، وليؤد كل أحدٍ منكم إلى الناس ما لهم عليه من حقوقٍ كاملةً ، دون أن ينقصهم منها شيئاً ، وأن تعيشوا في الأرض كما يريد الله لعباده أن يعيشوا ، وأن تقنعوا بما يُتاح لكم من الرزق - قل أو كثر - عن الطريق المشروع، دون أن تحاولوا الحصول على المزيد إثماً وعدواناً ، ولن تكونوا مؤمنين عند ربكم حقاً ، ما لم تفعلوا هذا كله ، وإلا فالمحذور أن يفتك بكم عذاب من الله شديد!.

إن شعيباً عليه السلام قال – من جهة :﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ ، ومن جهةٍ أخرى نراه يقول : ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ أي في سعةٍ من العيش، مما يوضح أن قوم شعيب كان فيهم فقراء ، كما كان فيهم أغنياء وموسرون ، فكان بعضهم يحصلون على أوفر الحظوظ ، بينما كانت حقوق أناسٍ آخرين تُؤدى إليهم منقوصةً ، إذْ لو كان الجميع من الصنف الأخير ، أي من الذين كانوا يعطون أقل مما يستحقون ، فمن يا تُرى كان فيهم ((بخيرٍ)) على حد قول سيدنا شعيب عليه السلام .

ومن هنا نعلم أن المخاطبين الذين ورد ذكرهم هنا ، هم أصحاب النفوذ والثراء وذوو الحيثيات البارزة في الشعب ، فإن الأنبياء ، مع كونهم يبعثون لهداية كل الناس على اختلاف طبقاتهم ، إلا أن خطابهم يكون موجهاً ، على الأخص ، نحو رجال الطبقة الممتازة في عصرهم ؛ لأن العوام يكونون تابعين لهؤلاء أنفسهم ، فهم يقتدون عادةً بأكابرهم وزعمائهم ، ومن ثم فبلوغ الدعوة إلى الخاصة يعني بلوغها – على نحوٍ غير مباشرٍ – إلى العامة كذلك !

﴿ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾

قال الإمام الرازي في تفسير هذه الآية : ((.. وقد يُراد بالصلاة الدين ، والمعنى : دينك يأمرك بذلك؟ وأطلق عليه الصلاة لأنها أظهر شعائر الدين)) [(١)].

إن قوم شعيب كانوا مدعي التدين ، كانوا يمارسون العبادة كذلك ، غير أنهم كانوا قد جمعوا أيضاً الشرك وسوء المعاملة إلى جانب تدينهم وعباداتهم ، وقد دعاهم سيدنا شعيب إلى عبادة الله الخالصة وحسن المعاملة مع الناس، وصرّح لهم بأنه لا قيمة عند الله البتةّ لدين يصاحبه الشرك ، ولا لعبادةٍ لا تنهى عن سوء المعاملة.

---

(١) انظر تفسير الرازي ١٨/ ٤٢.

إن دعوةً كهذه كانت تمثل ضربةً قاضيةً على اعتبار القوم الديني وعلى زعمهم القائل بأنهم متدينون وحائزون على وسام التعبّد ، حتى بالرغم من كل ما يفعلون من قبائح الأعمال ومساوئ الأخلاق؛ فما لبثوا أن ثاروا على شعيب وتذمروا عليه ، وقالوا : هل أنت وحدك عابد لله ، فهل كان شيوخنا وزعماؤنا الدينيون أولئك ، الذين اتخذنا منهم قدوةً، أكانوا كلهم جهلةً لا يدرون من أمر الدين شيئاً ، وهل ليس ثمة من أحدٍ سواك يعرف ما العبادة وما مقتضياتها؟

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

أَرَأَيْتُمْ: أخبروني .

بَيِّنَةٍ: هداية وبصيرة .

لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ: لا يكسبنكم أو لا يحملنكم .

الإيمان نوعان: أحدهما : أن تؤمن على وجه التقليد ، وثانيهما : أن تؤمن عن وعيٍ وبصيرةٍ.

وفي النوع الأول يؤمن المرء بشيءٍ ما لأن الناس كانوا - وما زالوا - يؤمنون به ، بينما هو يؤمن به - في النوع الثاني - لكونه قد أدرك بنفسه في ضوء الدليل والبرهان أنه صحيح ، وإذا كان الأول إقراراً رسمياً محضاً ، فإن الأخير اكتشاف شعوري واعٍ .

إن إدراك الحق على مستوى الدليل أو الشعور هو بضاعة المؤمن ورأسماله الحقيقي ، إذْ بذلك يحصل له ذلك اليقين الحي الذي يجعله يقف أمام الناس ليمثل الحق غير مبالٍ

بأي شيء آخر ؛ حيث إن الإدراك الشعوري بديل عن كل شيء ، فمن حصل على هذه النعمة ، صار في غنىً عن كل شيء آخر سواها .

التناقض بين القول والعمل ينتج عن الإيمان الرسمي التقليدي ، والانسجام أو التوافق بين القول والعمل ينتج عن الإيمان الشعوري الواعي. وفي معنى «شقاقي» رُوى عن الحسن البصري قوله : «لا يحملنكم معاداتي على ترك الإيمان ، فيصيبكم ما أصاب الكفار» (١).

وبما أن الداعي يبدو لمعاصريه رجلاً عادياً ، لذا فإن ملاحظاته النقدية تستفز أولئك الذين يتمتعون بالوجاهة والمكانة البارزة في المجتمع ، إن جراءة رجلٍ عاديٍ على أن يتناول هؤلاء وزعماءهم الكبار بالنقد والتجريح ، تصير عند القوم شيئاً لا يُحتمل ولا يُستساغ ، مما يبعث في نفوسهم مشاعر الحقد والكراهية والعناد ضد الداعي إلى الحق .

إن انبعاث نفسية من هذا النوع في داخل أحد الناس ، يجعله عرضة لامتحانٍ بالغ الخطورة ، فإن رجلاً كهذا ، لكونه ينظر إلى شخصٍ بعين الاحتقار ، لا يلبث أن يحتقر ويزدري حتى الأمر الإلهي الصادر عن ذلك الشخص كذلك ، إن إعراضه عن إنسانٍ يقوده إلى أن يعرض عن الله تعالى نفسه!

﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾

(١) القرطبي ٩/ ٩٠.

رَهْطُكَ: جماعتك وعشيرتك .

وَرَاءَكُمْ ظِهْرِياً: منبوذا وراء ظهوركم منسيا .

مَكَانَتِكُمْ: غاية تمكنكم من أمركم .

وَارْتَقِبُوا: انتظروا العافية والمال .

سُمي سيدنا شعيب في حديثٍ نبويٍ بـ ((خطيب الأنبياء))، حيث كان ﷺ يعظ قومه وينصح لهم في لغتهم المفهومة لديهم وبأسلوبٍ مؤثرٍ بليغٍ للغاية، إذن، فما الذي جعل قومه يقولون: ((يا شعيب ما نفقه (أى نفهم) كثيراً مما تقول)) .. إن السبب في ذلك كان يرجع إلى فساد شاكلة القوم الذهنية، فقد كان منهج تفكيرهم يختلف عن منهج تفكير شعيب تمام الاختلاف، وبالتالى تعذر عليهم أن يفهموا كلامه على وجهه .

فقد كان قومه ﷺ مشغولين بتعظيم البشر، بينما كان شعيب يدعوهم إلى تعظيم الله الواحد، وكانوا يعدّون الآمال والأماني وسيلة النجاة، فى حين أنه ﷺ كان يؤكد على أنه لا نجاة إلا بالعمل فقط .

وهكذا فقد نشأت فجوة عقلية أو ذهنية بين سيدنا شعيب وقومه، حالت دون تفهم القوم لكلامه مع كونه غايةً في الصدق والوضوح .

﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ﴾ تدل هذه الجملة على مبلغ القسوة والبلادة والسطحية الذي كان قد انتهى إليه قوم شعيب، والقصة بإيجازٍ أن سيدنا شعيب لم يكد يقوم بكشف القناع عن مزاعم القوم الدينية، حتى تصدوْا لمعاداته والنيل منه، ولم يكن يصحب شعبياً إذْ ذاك حشود من الجماهير تقف في وجه أعدائه وخصومه، ولا كان يملك من الوجاهة والثروة ما يبهر عيون القوم ويملأ نفوسهم هيبةً ورعباً منه، وإنما كانت تتوفر لديه قوة الصدق والمعقولية، ولا يعطي أمثال هؤلاء أهمية لمن يتوفر لديه الصدق والمعقولية .

وقد كان من المتوقع - والحالة هذه - أن يندفعوا إلى قتله أو اغتياله ﷺ غير أن الشيء الذي حال دون قيامهم بعمليةٍ كهذه ، هو الخوف من ثأر القبيلة، ففي العصر القبلي القديم كان قتل فردٍ من أفراد القبيلة يعني أن تهب القبيلة ، عن بكرة أبيها للانتقام من القاتل ، وقد شكل هذا المحذور حاجزاً منع قوم شعيب من اتخاذ أية خطوةٍ نهائيةٍ ضده ﷺ تماماً كما يأمن الناس اليوم في معظم الأحيان شرورَ الأشرار والمشاغبين لخوفهم من الوقوع في قبضة رجال البوليس أو التعرض للمحاكمة .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

الصَّيْحَةُ: صوت من السماء مهلك مرجف.

جَاثِمِينَ: هامدين ميتين لا يتحركون .

لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا: لم يقيموا فيها طويلا في رغد .

بُعْداً لِّمَدْيَنَ: هلاكا وسحقا لهم .

بَعِدَتْ ثَمُودُ: هلكت من قبل .

إن قوم شعيب كانوا يحسبون أنهم مُلاّك لبلاد مدين ، وأن الشيء الذي كان قد أتيح لهم لمصلحة الامتحان ، اعتبروه حقهم الذاتي ، ودفعتهم هذه العقلية إلى أن بيّتوا تدابير عدوانية عنيفةً ضد نبيهم ، حتى إنهم هددوه قائلين : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ﴾ [الأعراف : ٨٨] غير أن الأرض التي كانوا يعتبرونها ملكاً لهم ، قد انفجر فيها بإذن الله زلزال بصوته المخيف ودويّه الرهيب ، دمر هذه المنطقة من أقصاها

إلى أقصاها، وانمحت آثارهم في دنياهم أنفسهم كما لو لم يكن لهم هناك وجود بالأمس القريب ولا البعيد !!

على أن الذين آمنوا بشعيبٍ ووقفوا إلى جانبه ، تم إنقاذهم من العذاب يومئذٍ بنصرةٍ من الله خاصةٍ!

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾

وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ: برهان بين على صدق رسالته .

يَقْدُمُ قَوْمَهُ: يتقدمهم كما يتقدم الوارد .

فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ: أدخلهم فيها بكفره وكفرهم.

الوِرْدُ المَوْرُودُ: المدخل المدخول فيه وهو النار.

الرِّفْدُ المَرْفُودُ: العطاء المعطى لهم وهو اللعنة .

لقد أبلغ سيدنا موسى عليه السلام دعوة الحق إلى أقصى حدٍ ممكنٍ ، ولم يكن قد أفحم فرعون وأصحابه من الناحية النظرية فحسب ، بل أقام الدليل الظاهري المحسوس على صدقه أيضاً ، وذلك عن طريق إظهار معجزات العصا واليد التي أيّده الله بها ، ولكن قوم فرعون لم يزالوا - بالرغم من ذلك كله - مع فرعون ، ولم يرضوا باتباع موسى - عليه الصلاة والسلام.

وإنما كان السبب في ذلك أن هؤلاء كانوا يعطون الأهمية للسلطة الدنيوية وحدها ، ولم يكونوا يرون هذه الأشياء عند سيدنا موسى ، ومع أن أحاديثه عليه السلام كانت مثار

الدهشة والاستغراب لديهم ، وبالتالى كانت تبعثهم على الوقوف عندها وقفة تأملٍ وتفكيرٍ ، إلا أنهم عندما كانوا يقارنون بين موسى وفرعون ، تراءى لهم إلى جانب الأول حرمان ظاهر من كل متاعٍ دنيويٍ ، وإلى جانب الأخير كل أنواع المباهج والأبهة المادية ، وقد صارت هذه المقارنة عندهم هى الحاسمة ، فلم يرضوا ، بالرغم من مشاهدة الدلائل الواضحة والمعجزات الباهرة ، بأن يتخلوا عن فرعون ، وينضووا تحت راية موسى عليه السلام .

والذين يصاحبون إنساناً في الدنيا ، سيُضمون إلى جانبه في الآخرة كذلك ، على أن هذا سيكون - على نقيضٍ من الدنيا - انضماماً أو مصاحبةً سيئةً للغاية ، فإن ذلك الشخص - المتبوع - سيُنتزع منه يومئذٍ كل أسباب ، وسيكون وجوده الآن رمزاً للهوان والضياع المحقق ، وسينتهي بأتباعه أيضاً إلى النار التي قُدرت له نتيجة قيادته الضالة المنحرفة!

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾ ﴾

وَحَصِيدٌ: عافي الأثر ، كالزرع المحصود .

غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ: غير تخسير وإهلاك .

إن أسفار التاريخ القديمة تتضمن أحوال الملوك والقادة العسكريين ، غير أنها خلت تماماً من أحوال الأنبياء وشعوبهم ، هذا من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرى فإذا درسنا القرآن الكريم ، وجدناه يولي أعظم جانب من العناية والاهتمام بتسجيل حالات الأنبياء ومواقف الشعوب التي بعثوا فيها ، بينما أهمل كل الأشياء الأخرى سواها ، إن التاريخ الذي قام الإنسان بتدوينه ، حُذف منه أجدر شيء بالذكر وأحق بالتسجيل في

نظر الخالق !!

ومن هذه القرى المهلكة خلال عصور النبوة ، ما لم يزل عامراً حتى الآن ، كمصر التي كانت موطن فرعون ، ومن جهةٍ أخرى هناك شعوب كقوم هود وقوم لوطٍ ، قد اندثرت قراهم بمن عليها ، اللهم إلا بعض آثارهم التي ما زالت قائمةً في صورة أطلالٍ وخرائب ، أو التي تم العثور عليها عن طريق حفر الأرض ، وإهلاك هذه القرى ، يبدو - في ظاهر الأمر - واقعةً ظالمةً ، ولكن عندما نتساءل : لم حدث هذا؟ نتوصل إلى أن ذلك يطابق الحقيقة أتم المطابقة ، فإن هذا الدمار الذي لحق بهم ، لم يكن إلا نتيجة فسادهم العملي، فالذي حدث إنما حدث بعدما فسد عملهم وليس قبل ذلك.

وعندما يلجأ المرء إلى الطغيان والظلم ، يعتمد على بعض الأشياء أو الذوات سنداً له ، ويظن أنها ستمد إليه يد العون والمساعدة في أوان الشدة، غير أن هذه الأسندة أو الاعتمادات لا تدوم إلا ما دام الله يُمهل ، وإذا ما انتهت مدة الإمهال تبعاً لقانون الله ، وأصدر الله قضاءه النهائي ، فعندئذٍ يعلم المرء أن كل تلك الأشياء التي كان قد اعتبرها - بسبب جهله - سنده وموضع ثقته ، لم تكن سوى أوهامٍ وافتراضاتٍ كاذبةٍ محضةٍ !

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ ﴾

إن فرصة العيش والسكنى في رحاب العالم الراهن إنما أتيحت للإنسان بناءً على الامتحان ليس غير ، والذين لا يزالون يصرون على الإنكار والعناد ، حتى بعد قيام الحجة عليهم بواسطة الأنبياء ، فإنهم يفقدون بعدئذٍ حق الإقامة فى أرض الله ، وللسبب ذاته أهلك الله منكرى الأنبياء ومكذبى الرسل عن آخرهم ، وقد تم هذا الإهلاك ، في أغلب الحالات ، بزيادة درجة الشدة إلى الكوارث الأرضية العادية ،

كالريح العاصفة ، والطوفان أو الزلزال الذى لا يتجاوز حداً معيناً فى الأحوال العادية، زيد من شدته وقوة تدميره إلى غير نهايةٍ .

ووقائع تدمير الأمم والشعوب كهذه ، التي حدثت في القرون الغابرة ، يطلق عليها علماء التاريخ الجغرافي وصف التغيرات المناخية (Climatic pulsation) ، يعنى أن كل ما حدث لم يكن سوى نتاج التقلبات الجغرافية لا غير ، على أنهم لا يملكون أية إجابةٍ مقنعةٍ عن السؤال القائل : لم حدث هذا النوع من التغيرات المناخية الشديدة في الماضي وحده ، وما بالها لا تحدث الآن ، أي في عصر ما بعد النبوة ؟!

والحقيقة أن هذه الوقائع لم تكن وقائع جغرافية، بل كانت إظهاراً للقضاء الإلهي ، وبذلك يقوم الدليل على أن نظام العالم الراهن بُني على أساس العدل. إن قانون الله نفسه يستلزم أن يلقى الظالم هنا عقوبة ظلمه ، وفوز العادل بمكافأة عدله ، ووصف هذه الوقائع بأنها تغيرات مناخية إقحام لها في خانة الجغرافية ، وعلى العكس من ذلك فلو أنا اعتبرناها تغييراتٍ إلهيةً لتحولت إلى دروسٍ عن الخوف الإلهى وهم الآخرة!

وكأن هذه الوقائع التي حدثت في زمن الأنبياء ، كانت بمثابة علاماتٍ صغيرةٍ للقيامة الكبرى ، ففي أثناء ذلك تم إمهال المنكرين والظالمين إلى مدةٍ من الزمان معينةٍ ، وعندما ظهر قضاء الله بعد انتهاء المهلة ، فلم يلبثوا أن أهلكوا عن بكرة أبيهم ، وإنما نجا من الهلاك أولئك وحدهم ، الذين صاروا عند الله سعداء بسبب مناصرتهم للحق ، وأما مَنْ عداهم من الذين كانوا طغاةً وأشقياء في ميزان الله ، فقد تعرضوا كلهم للعذاب ، حتى إن شفاعة الأنبياء لم تغن عنهم شيئاً ، كما يتضح لنا من مثال سيدنا نوحٍ وسيدنا إبراهيم الخليل - عليهما صلوات الله وسلامه .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً

غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ ﴾

زَفِيرٌ: إخراج شديد للنفس من الصدر .

شَهِيقٌ: رد النفس إلى الصدر .

غَيْرَ مَجْذُوذٍ: غير مقطوع عنهم .

إن الشيء الذي علق عليه القرآن الكريم الأهمية الكبرى ، وبالتالي أعاد ذكره في صحائفه أكثر من أي شيءٍ آخر عداه هو أن الناس لن يُتركوا على ما هم عليه في العالم الراهن ، بل سيُحضرون بعد الموت إلى محكمة الله للحساب عن حياتهم الدنيا ، وسيُساق كل إنسان هناك إما إلى الجنة أو إلى جهنم وفقاً لعمله هو .

وسبب هذه الأهمية وهذا التكرار وإعادة الذكر يرجع إلى شك الناس ، حيث إنهم يرون أن هناك عدداً لا يُحصى من البشر لا يؤمن بهداية الله ، وعدداً لا يحصى منهم كذلك يعمل متحرراً من توجيهات الله ، وكثيرين آخرين يمارسون حياتهم تبعاً لهواهم وليس تبعاً لمرضاة الله ، وهم - مع ذلك - لا يتعرضون لخسارةٍ أو مصيبةٍ ما ، وناجحون موفقون في هذه الدنيا ، ولا توجد هنا - على ما يبدو ظاهراً - أية بقعة من بقاع الأرض يفوز فيها أوفياء الله بأي إنعامٍ خاص على وفائهم ، أو يعاقب عصاة الله من أية عقوبةٍ خاصةٍ على عصيانهم .

ونظراً لهذا الوضع يقع معظم الناس في الشك والارتياب ، إذْ يصعب عليهم أن يستيقنوا بأن هناك مصيراً آخر قُدِّر لهؤلاء البشر غير مصيرهم الحالي الذي لا يزالون يشاهدونه بأعينهم ، وهنا يكشف القرآن القناع عن حقيقة أن تمادي الناس في الباطل وإصرارهم على اتباعه ، ليس لأنهم قد بحثوا في الموضوع طرداً وعكساً ، ثم اختاروه اقتناعاً بأنه يتسم بالمعقولية ، وهو لذلك أجدر بالاتباع ، بل السبب الحقيقي في ذلك

هو الإذعان لسلطان التقليد ، وليس الإذعان لسلطان الدليل والمعقولية .

وأما إذا كان الناس - مع ذلك - لا تواجههم عاقبة أعمالهم الوخيمة ، فإنما يرجع ذلك إلى مهلة الامتحان المتاحة ، فالحياة ما قبل الموت - التي نمارسها على وجه الأرض- هي حياة الاختبار ، ولذلك يتم إمهال الإنسان هنا لقول ما يشاء ويفعل ما يشاء ، والموت هو خاتمة هذه الفقرة المحددة ، فمعنى الموت هو أن يُوصل المرء من دار الامتحان إلى دار المحاكمة ، وسينال الكل هناك ما كان يستحق في واقع الأمر ، وسيُنتزع من الكل ما كان قد جمعه من حوله بدون استحقاقٍ ولا جدارةٍ !

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ ﴾

مُرِيبٍ: موقع في الريبة وقلق النفس .

معنى «الاختلاف في كتاب موسى» أن مخاطبيه تعددت مذاهبهم وتفرقت آراؤهم فيما يتصل بمحتويات الكتاب وتصريحاته ، فكذب به بعضهم وصدق به بعضهم.

والشأن أنه كلما عُرض أمر ما ، فإن المرء يجد نفسه بإزائه دوماً بين خيارين : أحدهما : التفسير الصحيح ، والآخر التفسير الخاطئ ، ولو أن المتلقين كانوا في الواقع جادين لتوصلوا دائماً إلى التفسير الصحيح وحده ، وستصبح جديتهم ضماناً أكيداً لاتحاد الآراء بينهم ، وعلى النقيض من ذلك فلو أنهم لم يكونوا جادّين بشأن الأمر المعروض ، فسوف لا يعطونه أية أهمية من حيث هو ، بل سيذهبون مذاهب شتى في تفسيره كل بحسب نزعته واتجاهه الخاص ، وهكذا سيؤدي عدم جديتهم إلى نشوب اختلاف الآراء بينهم .

وقد تكررت هذه الظاهرة مع جميع الأنبياء والرسل ، وما زال الله - مع ذلك -

يستسيغها ، دون أن يقضي قضاءه الحاسم بين هؤلاء المختلفين في أمر دينه ، وسبب ذلك أن الله جعل العالم الراهن مكان عملٍ ، وجعل العالم الآخر القادم مكان الجزاء والمكافأة .

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

وَلاَ تَطْغَوْا: لا تجاوزوا ما حده الله لكم .

وَلاَ تَرْكَنُوا: لا تمل قلوبكم بالمحبة .

وَزُلَفاً مِّنَ: ساعات منه قريبة من النهار .

ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ: عظة للمتعظين .

يتم استقبال دعوة الحق بدايةً بشكل الإعراض عنها،ثم يليه دور المعارضة،التي لا تزال تشتد وتتصاعد حدتها شيئاً فشيئاً حتى تبلغ ذروتها،وإنها لتكون أخطر مرحلةٍ يمر بها الدعاة خلال مسيرتهم الطويلة .

وعندها ينقسمون إلى طائفتين : حيث يبلغ الحنق والتذمر من نفوس بعضهم مبلغاً يريدون معه أن يصطدموا بالمعارضين ، ويقاوموا هؤلاء الذين لم تحرك الدلائل النظرية منهم ساكناً ، يقاوموهم بوسائل القوة والعنف ، بينما يتجه بعض آخر إلى أن يتناول الدعوة بشيءٍ من التعديل بغية استمالة قلوب المخاطبين إليها ، فيحذف بالتالي من عناصر الدعوة ما يتسبب في إثارة المخاطبين !!

وإذا كان الاتجاه الأول طغياناً أي مجاوزة الحد ، فإن الاتجاه الثاني هو تفاهم أو

تصالح مع الباطل ، وكلا هذين الاتجاهين خاطئ عند الله على حدٍ سواءٍ ، ويكاد الاتجاه الثاني ، على وجه الأخص ، (وهو الذي يرغب في إدخال تعديلات على الدعوة بغية استمالة القلوب) ، يكاد أن يكون جرماً ، فإن الشيء المطلوب عند الله أولاً وأخيراً هو إعلان الحق ، ولا يمكن إعلان الحق بما ينبغي من الصراحة والوضوح ، بعد أن يتم التصالح مع الباطل ، عن طريق التنازل عن بعض عناصر الدعوة!!

وكلما صادف الداعي في طريق الدعوة صعوبات أو مشاكل ، رجع دائماً إلى الله تعالى؛ لأنه تعالى هو الفاعل الحقيقي لكل شيء ، وإن نصرة الله هي الضمان القطعي الوحيد لحل المشكلات كافةً !

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

ٱلْقُرُونِ: الأمم .

أُوْلُوا بَقِيَّةٍ: أصحاب فضل وخير .

مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ: ما أنعموا فيه من الخصب والسعة .

المراد بـ ((القرون السابقة)) هنا الأمم السباقة ، وبلفظ آخر الشعوب المسلمة السابقة، وإنما تُصاب الأمة - أية أمةٍ - بالفساد والانحلال إذْ يتحول المتاع الدنيوي الذي أعطاها الله إياه - لكيما تستيقظ به في نفوس أفرادها عاطفة الشكر - إلى وسائل الترف وحب الدنيا والانغماس في لذاتها . والعمل الذي يجب القيام به في هذه الحالة بهدف إصلاح الأمة المسلمة،أطلقت عليه الشريعة عنوان ((الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر))، وهذا يشير إلى واجب الفرد المسلم الملقى على عاتقه بشأن إصلاح بيئته القريبة والمراد بذلك أنه لابد وأن يتواجد في المجتمع المسلم دوماً أفراد يعملون على تذكير

إخوانهم بالله وبالآخرة ، وأن يقوموا بمراقبة سلوكهم وأخلاقهم ، ويحاولوا تثبيتهم على الجادة المستقيمة في كل شئونهم ومعاملاتهم ، وعدم نهوض أخيار كهؤلاء من بين أمةٍ ما للاضطلاع بهذه المهمة،يرجع دوماً إلى أحد سببين: فإما أن تكون الأمة بأكملها قد أصيبت بالفساد والانحلال الشامل،بحيث لم يعد يوجد فيها حتى ولا فرد صالح، وإما أن يتواجد هناك أفراد صالحون،ولكنهم لا يجترئون على الجهر بالحق،بسبب الفساد العام الشامل، حيث يساورهم الخوف من أنهم إن جاهروا بالحق فسيصبحون موضع الإهانة والتحقير بين أوساط الأمة !!

وفي كلتا الحالتين تفقد الأمة ثقتها واعتبارها عند الله تعالى ، وتستحق بالتالي أن تتعرض بصورةٍ أو أخرى لضربة العقاب الإلهي !

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

وَتَمَّتْ: وجبت وثبتت .

إن هناك مخلوقات أخرى لا تقع تحت الحصر ، ما عدا الإنسان ، توجد أيضاً في عالمنا هذا الذي نعيش فيه ، وهذه المخلوقات كلها تسير دوماً في اتجاه الفطرة المحدد لها ، لا تنحرف عنه ولا تحيد قيد أنملة ، وهكذا كان بالإمكان تماماً أن يُلزم الله الإنسان هو الآخر بالسير على الصراط المستقيم الواحد ، على أن خطة الله عن الإنسان غير هذا ، فقد كان التدبير الإلهي عن الإنسان أن ينشئه كمخلوق يأخذ شيئاً ويتخلى عن شيء آخر بمحض اختياره وكامل حريته ، وظاهرة الاختلاف فى عالم الإنسان ليست في الحقيقة إلا نتيجة هذا المنهج الإلهي الخاص ذاته!

ومعنى هذا المنهج البالغ الخطورة أنه سيكون هناك كثيرون من الناس يسيؤون

استخدام حرياتهم ، وبالتالي يجعلون أنفسهم أهلاً لنار جهنم .

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

مَكَانَتِكُمْ: غاية تمكنكم من أمركم .

لقد سجل القرآن أحوال الأنبياء وقصص المرسلين ، لتكون مادة درسٍ وعبرة لمن يلحق بهم من دعاة الحق فيما بعد ، فالداعي يلاحظ في قصص الأنبياء هذه أن شعوبهم أثارت معهم خصوماتٍ وصراعاتٍ ، وتصدت لتشويه سمعتهم بتأويل كلامهم السديد على غير وجهه ، وأساءت إليهم ألواناً شتى من الإساءة ، ورفضتهم كما لو أنهم لا قيمة لهم البتة!

بيد أن الله تعالى أمدهم بنصرته آخر الأمر ، فصارت كلمتهم هي العليا ، وباءت كل محاولات المعارضين لهم بالفشل الذريع ، ولقد لقيت كلتا الطائفتين مصيرها المختلف ، بشكله البدائى ، فى العالم الراهن ، وسوف تلقاه بشكله النهائى الكامل فى الآخرة .

ومن هذه الأمثلة يحصل الداعى على هذه الثقة التاريخية القائلة بأنه لا داعي لليأس ولا للقلق والانزعاج بما يواجهه في طريق الدعوة إلى الحق من صعوباتٍ ومشاكل ، إذْ لابد من مواجهة هذه الأشياء في طريق الدعوة ، وأنه سيكتب لها النجاح فى نهاية المطاف تماماً كما نجح دعاة الله الصادقون من قبله !

سورة يوسف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

نَقُصُّ عَلَيْكَ : نحدثك أو نبين لك يا محمد .

مع أن القرآن الكريم قد نزل لهداية العالم أجمع ، إلا أن مخاطبيه الأول كانوا عرباً ؛ مما اقتضى تنزيله باللغة العربية ، والمسئولية الآن ملقاة على عواتق المؤمنين به أن ينقلوا تعاليمه إلى سائر لغات العالم ، ويقوموا بتبليغها إلى شعوب الأرض قاطبةً .

ولقد بين القرآن تعاليمه وتوجيهاته بأساليبِ بيانيةٍ شتى ، إذْ يعرضها تارةً بلغة الشواهد والدلائل الكونية ، وأخرى بلغة الإنذار والتبشير ، وثالثةً على لسان التاريخ ، أما في سورة يوسف ، فقد عُرضت هذه التعاليم فى شكل قصة يوسف - عليه الصلاة والسلام - وقد أرشدت هذه السورة أهل الإيمان ، في قالبِ قصصي لأحداث حياة هذا النبي، إلى أن الله قادر على كل شيء ، وأنه تعالى ينصر القائمين بخدمة الحق ، ويكللهم بالنجاح آخر الأمر، رغم ما يدبره المعارضون من صنوف المكائد والمؤامرات ضدهم ، ولكن بشرط أن يتصف أهل الإيمان بصفات التقوى والصبر، ويظلوا ثابتين على جادة الحق على كل حالٍ من الأحوال!

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ

إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾

يَجْتَبِيكَ : يصطفيك لأمور عظام .

تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ : تعبير الرؤيا وتفسيرها .

ورد في حديث ما معناه أن الرؤيا ثلاثة أنواعٍ : حديث النفس ، وتخويف من الشيطان، وبشارة من الله ، ورؤيا الرجل العادي يمكن أن تكون أي واحدٍ من هذه الأنواع الثلاثة ، غير أن رؤيا النبي تكون دوماً بشارةً من الله ، وهي تكون تارةً بصورةٍ واضحةٍ مباشرةٍ ، وطوراً بصورةٍ تمثيلية غير مباشرةٍ .

إن عصر سيدنا يوسف ﷺ يرجع إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، وكان أبوه سيدنا يعقوب يسكن في فلسطين .. وقد كان سيدنا يوسف وأخوه بنيامين من أمٍ واحدةٍ ، وإخوته العشرة الباقون من أمهاتٍ شتى.. وفي هذه الرؤيا تشير الشمس والقمر إلى أبويه ، وتشير الكواكب الأحد عشر إلى إخوته الأحد عشر ، وقد كانت هذه الرؤيا تتضمن البشارة – من جهةٍ – بأن سيدنا يوسف سيُشرف بالنبوة ، ومن جهةٍ أخرى كانت تمثيلاً لما قد أتيح له من الرقي والازدهار والسلطة بعد وصوله إلى مصر ، مما اضطر أهل أسرته جميعاً إلى التسليم والاعتراف بمجده وعظمته .

لقد كان أخوة يوسف العشرة (من غير أمه) يضمرون مشاعر الحقد والحسد إزاءه ، نظراً لما كان يتمتع به من شخصيةٍ فذةٍ رائعةٍ جعلته محط الآمال والأنظار ، ومن ثم فلم يكد أبوه (يعقوب) يستمع إلى منامه حتى نصح له من فوره قائلاً : لا تخبر إخوتك بذلك ، وإلا فسيصبحون أكثر لدداً في عدواتك والتآمر عليك !

إن الحسد أو الحقد على عظمة أحدٍ غيرك من الأفعال الشيطانية المحضة ، والذي توجد فيه هذه الصفة الذميمة، ينبغي عليه أن يبادر بالتوبة ، فإن ذلك دليل على أنه غير راضٍ بقضاء الله ، وهو سائر على هدي الشيطان ، وليس على هدى الله .

لقد وردت كلمة ((إتمام النعمة)) هنا بالنسبة إلى سيدنا يوسف ، الذي حصل على الحكومة ، كما وردت بالنسبة إلى سيدنا إبراهيم الخليل الذي لم يحصل على حكومةٍ ما ، إذن ، فما هو القاسم المشترك بين الاثنين الذين أطلق عليه ((إتمام النعمة)) ، إنه النبوة ؛ أي التوفيق إلى هداية الله الخاصة ، تلك التي تؤدي بمن يوفق إليها إلى الدرجات العليا في الآخرة ، إن هداية الله هي تتمة النعم الإلهية على الإنسان ، وتتاح هذه النعمة للأنبياء - عليهم السلام - مباشرةً ، ولعامة الصالحين على نحوْ غير مباشرٍ !

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

وَنَحْنُ عُصْبَةٌ : جماعة كفاة للقيام بأمره دونهما.

ضَلالٍ مُّبِينٍ : خطأ بَيِّن في إيثارهما علينا.

اطْرَحُوهُ أَرْضاً : ألقوه في أرض بعيدة عن أبيه.

يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ : يخلص لكم حبه وإقباله عليكم .

غَيَابَةِ الجُبِّ : ما غاب واظلم من قعر البئر .

السَّيَّارَة: المسافرين .

لقد اشتد الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ من قبل أهل مكة في أواخر أيامه بها، وبخاصةٍ بعد أن فقد نصيريه : عمه أبا طالب ، وزوجته الطاهرة الحنون السيدة خديجة - رضي الله عنها - وقد سأله إذْ ذاك رجال من أهل مكة عن قصة سيدنا يوسف ، الذي كانوا قد سمعوا اسمه وطرفاً من أخباره عن بعض اليهود خلال رحلاتهم ، ومع أن هذا السؤال إنما كان بغرض السخرية والاستهزاء به ﷺ غير أن الله - تعالى- رده على السائلين أنفسهم ، فعن طريق حكاية هذه القصة تم إشعارهم - بصورةٍ غير مباشرة - بأنهم قوم شاء لهم القدر أن يقوموا بإعادة تمثيل الدور الذي لعبه أخوة يوسف من قبل ، بينما سيكون مصير النبي بفضلٍ من الله ورحمته ، ما لقيه يوسف في مصر ، لقد كان سيدنا يعقوب يلاحظ أن يوسف هو أكثر أبنائه صلاحاً وأحسنهم استعداداً ومواهب ، وقد كانت تتراءى له فيه ملامح شخصية نبي المستقبل ، مما جعله شديد الميل إلى يوسف كثير العطف والإقبال عليه ، ولكن أبناءه العشرة كانوا ينظرون إلى هذا الأمر من وجهة النظر الدنيوية ، حيث كانوا يزعمون أنه يجب أن تكون عصبتهم أي جماعتهم هي الأهم والأفضل عند الوالد؛ لأنها هي التي تستطيع أن تقوم بنجدة الأسرة وحمايتها، وقد انتهى موقفهم الأحادي الجانب هذا إلى حدٍ خُيِّل معه إليهم أنهم لو قاموا بتنحية يوسف عن الميدان، لانعطف حنان الوالد وإقباله كله نحوهم .

ولما اجتمع هؤلاء لوضع الخطة الحاسمة ضد يوسف ، عرض ((يهوذا)) كبير الأخوة، هذا الاقتراح بأنه ينبغى أن نُلقي بيوسف في قعر جبٍ قديمٍ بدلاً من إراقة دمه وقد كان ذلك تدبيراً إلهياً خاصاً ، فمن سنة الله أنه حين تتصدى طائفة ما لإيذاء أحد عباد الله والنيل منه بغير الحق ، فيخرج من بين تلك الطائفة نفسها ، شخص يُوفق إلى استرضاء إخوانه وجمع كلمتهم على خطةٍ معتدلة نوعاً ما ، ربما تكون منطويةً على إمكانٍ بل إمكاناتٍ جديدةٍ لعبد الله ذاك!

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

وَيَلْعَبْ : يسابق ويرم بالسهام .

يتضح مما قاله سيدنا يعقوب رداً على طلب أبنائه ، (في معرض اعتذاره عن عدم إرساله يوسف معهم)، أنه كان قد أدرك ، بدراسة الأحوال والملابسات ، أن هذا ليس بأمر اللعب والنزهة في رحاب الصحراء ، بل هو أمر تآمر الإخوة على يوسف وكيدهم له ، وبيد أن الإنسان الخائف من الله يكون إنساناً واثقاً من الله معتمداً عليه كذلك ، فمع أن يعقوب كان قد أحس ، بفطنته وفراسته ، ما عسى أن يحدث ، إلا أنه كان يعدّ قدرة الله فوق كل شيءٍ آخر ، وكان موقناً بهيمنة الله المطلقة تمام اليقين ، ومن ثم فلم يلبث أن بعث بيوسف مع إخوته ، توكلاً على الله ، رغم إحساسه بالأخطار المحدقة .

تلك هي صورة الإنسان الخائف من الله ، ومن جهةٍ أخرى نلاحظ في إخوة يوسف صورة أناسٍ قلوبهم خالية من خوف الله كل الخلو ، فقد كان هؤلاء يبيتون مؤامراتٍ للقضاء على أحد عباد الله بغير الحق ، ناسين أو متناسين أنهم في عالمٍ لا يملك فيه أحد غير الله أيما قدرةٍ ولا خيار ، وقد كانوا يحاولون إثبات أنهم ناصحون بألفاظهم ، بينما الناصح عند الله حقاً ، هو الذي يثبت نُصحه بعمله!

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ

كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

وَأَجْمَعُوا: عزموا وصمموا .

نَسْتَبِقُ : ننتضل في الرمي بالسهام .

سَوَّلَتْ : زينت وسهلت .

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ : لاشكوى فيه لغير الله تعالى .

من المؤكد أن قصة يوسف أوسع وأكثر تفصيلاً مما ورد ذكره في القرآن الكريم ، غير أن هدف القرآن الأصلى هو النصيحة وليس سرد الأحداث والوقائع .. ولذا فهو لا يأخذ سوى تلك الجوانب التى تنطوي على الذكر والنصيحة ، ويهمل ما عدا ذلك من أجزاء القصة الباقية ليضطلع المؤرخون بجمعها وترتيبها . وقد رُوي أن سيدنا يوسف مكث في الجب ثلاثة أيام ، ويُحتمل أنه أرى فى المنام ، خلال هذه الأيام الثلاثة نفسها ، ما سيؤول إليه حاله في المستقبل ، فقد رأى فيما رأى أنه يخرج من البئر ثم يصل إلى درجةٍ من المجد والعظمة رفيعةٍ ، حتى يصل الفرق بينه وبين إخوته ، من حيث الوضع والمكانة ، إلى حد أنهم عندما يروه لا يستطيعون أن يعرفوه!!

وإن ما فعله إخوة يوسف كان عملاً استفزازياً للغاية ، غير أن يوسف لم يلبث أن فوض أمره كله إلى الله ، وبقي في قلب صحراء موحشةٍ ، داخل بئرٍ مظلمةٍ عميقةٍ ، بقي ينتظر نصر الله دون شكوى ولا مللٍ .. هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى فقد تمسك أبوه يعقوب هو الآخر بمسلك الصبر الجميل .. وجاء في بعض التفاسير أنه قال لبنيه : لو أكله الذئب ، لخرق قميصه أيضاً ، يعني ما أحلم هذا الذئب وما أنبله ، افترس يوسف وسلم إليكم قميصه المتلطخ بالدم سليماً غير ممزق !!

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

السَّيَّارَةُ : رفقة من مسافرون من مدين لمصر.

وَارِدَهُمْ : من يتقدم الرُّفقة ليستقي لهم.

فَأَدْلَى دَلْوَهُ : فأرسلها في الجب ليملأها ماء.

وَأَسَرُّوهُ : أخفاه الوارد عن بقية الرفقة أو أخفى إخوته أمره.

بِضَاعَةً : متاعاً للتجارة .

وَشَرَوْهُ : باعه إخوته ، أو السيارة .

بِثَمَنٍ بَخْسٍ : ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً.

لما انصرف إخوة يوسف ، بعد إلقائه في غيابة الجب ، مر بتلك الناحية ، (حسب ما جاء في بعض الروايات بعد ليالٍ ثلاث) قافلة تجارٍ ، كانوا ذاهبين من مدين إلى مصر ، واقترب أحد رجال القافلة من البئر ليستقي منها الماء فأدلى دلوه ، فإذا بيوسف – الذي كان يومئذٍ ابن ستة عشر عاماً تقريباً – يتشبث بطرف الحبل ، وما هي إلا سويعات ، حتى كان خارج البئر!!

ومن حيث إن ذلك كان عصراً تروج فيه تجارة الرقيق ، طار رجال القافلة فرحاً وسروراً ، بما سيحصلون عليه من الربح إذْ يبيعون هذا الغلام في أعقاب وصولهم إلى مصر ، فما إن وصلوا إلى مصر حتى عرضوا بضاعتهم في أسواقها ، وفيها يوسف هو الآخر للبيع ! وقد اشتراه هناك رجل مقابل عشرين درهماً بما توسم فيه من خيرٍ .

لقد جعل إخوة يوسف أخاهم عرضةً للتشرد والضياع المحقق حين ألقوا به في غيابة الجب ، ثم باعه رجال القافلة بدورهم كعبدٍ مملوكٍ لأول مشترٍ ، وبعدئذٍ كانت ثالثة الأثافي حين ألصقت به «زليخا»، زوجة أحد كبار الموظفين الرسميين بمصر يومذاك ، تهمةً كاذبةً أفضت به إلى غياهب السجن!!

غير أن الله - سبحانه وتعالى - جعل من هذه المحن كلها سلماً ارتقى عبره إلى أعلى مراتب الشرف والمجد ، ما أعظم الفرق بين العلم الإنساني والعلم الإلهي .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

أَكْرِمِي مَثْوَاهُ : اجعلي محل إقامته كريماً مرضياً.

غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ : لا يقهره شيءٌ ، ولا يدفعه عنه أحد .

بَلَغَ أَشُدَّهُ : منتهى شدة جسمه.

قيل: إن الذي اشترى يوسف كان واحداً من كبار الموظفين في الحكومة المصرية آيامئذٍ، وكان اسمه «فوطيفار»، فقد استطاع أن يعرف ما كان يختفي وراء ثياب الغلام التافهة من شخصية رائعةٍ ، وأدرك أنه ليس بعبدٍ ولا بشبه عبد ، بل هو ابن عائلة ذات نبلٍ وشرفٍ ، وإنما وقع ، بسببٍ من الأسباب ، في يد رجال القافلة ، فاسترقوه وباعوه هنا بأبخس الأثمان ، ومن ثم ألحّ على زوجته قائلاً : لا تعاملي هذا الغلام معاملة العبد أو الرقيق ، فإنه يبدو لي فتىً موهوباً ، وأراه كفؤاً للقيام بما يثقل كاهلي من أعباء تدبير الأمور المتصلة بداخل بيتنا ، وما نملك من ثروةٍ وعقارٍ، بالإضافة إلى ذلك فإن

(فوطيفار) ، مع تقدمه في السن ، لم يكن قد رُزق ولداً ، وكان يود أن يتبنى أحداً يكون معيناً له في شيخوخته ، ومن ثم فقد انعقد عزمه على أن هذا الفتى إن كان عند حسن ظنه به ، وحقق الآمال المعقودة عليه، فسوف يتخذه ولداً له .

وعندما بلغ سيدنا يوسف الأربعين من عمره ، منحه الله النبوة من ناحيةٍ ، ومكنه من الحكم والسلطة من ناحيةٍ أخرى ، وإنما حصل على هذا الإنعام بحسن عمله وصلاحه ، وباب إنعام الله مفتوح دائماً للمحسنين ، مع هذا الفارق بين الأمس واليوم، إنه كان ممكناً أيضا ، خلال عصر النبوة، أن يُجعل من أحد الناس نبياً ثمرة إحسانه وتقواه، ولكن لن تتاح في الأزمان اللاحقة ، أي بعد ختم النبوة ، سوى جوائز وإنعاماتٍ أخرى ما عدا النبوة!

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٣) وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ (٢٤)﴾

وَرَاوَدَتْهُ : تحايلت لمواقعته إياها .

هَيْتَ لَكَ : أقبل ، أسرع – إرادتى لك.

مَعَاذَ الله: أعوذ بالله معاذاً مما دعوتنى إليه .

وَهَمَّ بِهَا : أى هم بدفعها عنه.

الْمُخْلَصِينَ : المختارين لطاعته أو لرسالته .

لقد أغرمت امرأة العزيز بيوسف ، فظلت تغريه وتراوده عن نفسه ، حتى اغتنمت الفرصة في ذات يومٍ فغلقت أبواب الغرفة .

ولقد كان ذلك موقفاً حرجاً جداً بالنسبة إلى شابٍ غير متزوجٍ ، غير أن يوسف كان قد احتفظ بسلامة فطرته الربانية ، وهذه الفطرة هي التي حالت دون وقوعه في الرذيلة وقوة التمييز بين الحق والباطل وبين الفضيلة والرذيلة ، هذه مودعة بصورةٍ جبليةٍ في كل إنسان ، وهي لا تزال تنبه الإنسان وتناديه في كل طورٍ من أطوار حياته ، والذي يعرض عن ذلك فكأنما هو أعرض عن نداء الله ، ومثل هذا الشخص لا يلبث أن يضعف فطرته شيئاً فشيئاً لكونه أصبح محروماً من نصر الله ، وعلى نقيضٍ من ذلك ، فإن الذي يبادر بالاستجابة الفورية للنداء الإلهي عقب ظهوره ، لا يزال نصر الله يشحذ من صلاحيته واستعداده النفسي، وبالتالي يؤهله لكي يصمد مستقبلاً في وجه دوافع الفتنة والإغراء بمزيدٍ من الثقة والاقتدار .

والشيء الذي منع يوسف عن ارتكاب الفاحشة ، كان في الحقيقة خوفاً من الله ، على أن تذكير «زليخا» وقتئذٍ بالله ، لم يكن ليحرك منها ساكناً ، فإنه لم يكن موقف إعلان الحق ، بل موقف إنقاذ النفس من مأزقٍ خطيرٍ ، ونظراً لهذه الخطورة ذاتها حاول عليه السلام إثارة ضمير زليخا بتذكيرها بزوجها ، حيث قال : إنه سيدي ، قد أنزلني في بيته بمنتهى الحفاوة والتكريم ، إذًا ، فكيف يمكن لي أن أسيء إلى مَنْ أحسن إليّ بالخيانة في حرمه والاعتداء على عرضه؟!

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ : تسابقا إليه يريد الخروج وهي تمنعه .

وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ : قطعته وشقته .

وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا : وجدا زوجها.

وَشَهِدَ شَاهِدٌ : صبي في المهد أنطقه الله ببراءته.

وما وسع يوسف إلا أن اندفع نحو الباب لينقذ نفسه، فإذا بزليخا تنطلق وراءه تلاحقه إلى الباب، فأمسكت بذيل قميصه من خلفٍ، ونتج عن تبادل الشد والجذب بين الاثنين أن تمزقت مؤخرة القميص، على أن يوسف قد نجح في أن يفتح الباب ويصل إلى الخارج، حيث كان زوج زليخا متواجداً بطريق الصدفة، وما إن رأت زليخا زوجها حتى ألقت بالتبعة على غارب يوسف، فالشخص الذي كانت تبدي حبها له قبل لحظةٍ، إذا بها تقلب له الآن ظهر المجن، وتأخذ في قذفه بتهمةٍ كاذبةٍ، بينما صرّح يوسف بأن الأمر على العكس من ذلك تماماً، وكان السؤال الآن : كيف يمكن الحكم على أحد الفريقين بالإدانة؟! إذْ لم يكن ثمة من رجل ثالثٍ حاضراً بمكان الحادث، حتى يدلي بشهادة عيانيةٍ، وعندئذٍ قام رجل حكيم من أهل البيت بحل هذه المعضلة، وأغلب الظن أن هذا الشخص كان على إلمامٍ مسبقٍ بشئون البيت الداخلية كلها، كما أنه كان قد لاحظ أيضاً أن قميص يوسف ممزق من خلفه بدلاً من قدامه، إلا أنه أدلى ببيانه على نحوٍ كأنما هو يقول للناس : إذا لم يكن هناك من شاهدٍ عيانٍ، فلنحكمْ في هذه القضية على أساس من شهادة الظروف أو القرائن، وكانت شهادة القرائن هنا كون قميص يوسف ممزقاً من خلف، وقد كان ذلك دليلاً واضحاً على أن الإقدام في هذا الأمر كان من جهة زليخا، وليس من جهة يوسف -عليه الصلاة والسلام.

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا

وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾

شَغَفَهَا حُباً : شق حبه سويداء قلبها .

وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً : هيأت لهن ما يتكئن عليه.

أَكْبَرْنَهُ : دهشن برؤية جماله الرائع .

وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ : خدشنها بالسكاكين لفرط ذهولهن ودهشهن .

حَاشَ للهِ : تنزيهاً لله عن العجز عن خلق مثله.

فَاسْتَعْصَمَ : فامتنع امتناعاً شديداً وأبى.

أَصْبُ إِلَيْهِنَّ : أَمِل إلى إجابتهنَّ .

تمثل هذه القصة نساء الطبقة العليا في مصر من جانب ، وسيدنا يوسف ﷺ من جانب آخر ، وأما النساء فإنها كن ينظرن إلى يوسف على أنه فتىً جميل وكفى، وهكذا كان ممكناً أن ينظر يوسف هو الآخر إليهن على أنهن أداةٍ لتسلية النفس ليس غير ، إلا أنه لم يفعل ذلك رغم كونه محاطاً بظروفٍ مثيرة ومغريةٍ للغاية.

ولقد انتهى الأمر بأولئك النسوة إلى أن اتجهت أنظارهن نحو شخصيته الآخذة وتركزت عليها ، حتى بلغن من فرط الاستغراق والدهشة لمرآه بحيث لم يلبثن أن

جرحن أيديهن بالسكاكين وهن يقطعن الفواكه ، ولكن سيدنا يوسف كان متجهاً بكليته نحو الله سبحانه وتعالى ، وقد كان الإحساس بعظمة الله وجلاله مسيطراً على ذهنه لدرجة أنه لم يتمكن أى شيء آخر من جذب انتباهه إليه !! ألا ما أعظم الفرق بين إنسانٍ وآخر !!

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

أَعْصِرُ خَمْراً : عنبا يؤول لخمر أسقيه الملك .

حين فشلت محاولات النسوة من الطبقة العليا في مصر ، في مراودة يوسف عن نفسه واستمالته إلى أنفسهن ، ورجعن بخفي حنين ، أدخلنه السجن وبما أن وضعه عليه السلام كان إذْ ذاك وضع عبدٍ مملوكٍ ، لذا فلم تكن ثمة حاجةٍ ، تبعاً للعرف السائد يومئذاك ، إلى أية محاكمةْ شرعيةٍ للزج به في السجن ، حيث كان لسيده الحق المطلق في أن يحبسه متى شاء بمحض اختياره وقراره الذاتي.

على أن السجن قد صار بالنسبة إليه سلماً جديداً إلى الرقي والازدهار ، ففيما كان ذكره - حتى الآن - محصوراً في نطاق أسرةٍ أو عدة أسرٍ لبعض كبار الموظفين الرسميين في مصر ، أصبح الآن ممكناً أن يترامى الخبر عن شخصيته وكماله إلى آذان ملك مصر نفسه .

فقد اتفق أن حُبس فتيان آخران في السجن نفسه الذي وُضع فيه سيدنا يوسف عليه السلام كان كلاهما من خدم القصر الملكي ، وبعد زمنٍ يسيرٍ رأى السجينان رؤيا شغلت بالهما ، فسألاه عليه السلام عن تأويلها ، فأخبرهما بتأويل ما رأياه ، وما هي إلا أيامٌ قلائل حتى تحقق هذا التأويل على أتم الوجوه ، إذْ يُفرج عن أحد الفتيين ويصل ثانيةً إلى القصر

الملكي ، وتسنح له فرصة ينتهزها ليخبر الملك بأن في السجن رجلاً صالحاً لديه قدرة عجيبة على تأويل ما يتراءى للناس في منامهم تأويلاً يأتي كفلق الصبح!

وهكذا تحول دخوله ﷺ في السجن إلى درجةٍ بدائيةٍ للوصول إلى القصر الملكي !!

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

ذَلِكُمَا : التأويل والإختبار بما يأتي .

الدِّينُ القَيِّمُ : المستقيم . أو الثابت بالبراهين .

لقد رجع السجينان الشابان إلى سيدنا يوسف ﷺ لاستفسار ما رأياه في المنام، وقد كانت طريقة استفسارهما تدل بوضوحٍ على أنهما معجبان بشخصيته ويثقان برأيه ، وما كان ذلك سوى نتيجة طبيعية لقضاء مدة ملحوظة من الزمن بصحبة إنسانٍ صالحٍ وصاحب مبدأ ورسالة كسيدنا يوسف ﷺ .

ولم تلبث عاطفة يوسف الدعوية أن جاشت من فورها ، إذْ أدركت أن هذه أطيب فرصة سنحت لإبلاغ هذين الفتيين برسالة الدين الحق ، وأدرك أنه لو أخبرهما بتفسير منامهما في الحال لانصرفا عنه ، قبل أن يعلمهما بهذه الرسالة ، فلجأ ﷺ إلى أسلوب

حكيم ، حيث أخر التأويل لفترة قصيرةٍ ، ثم ألقى كلمةً وجيزةً عن التوحيد ، عرض من خلالها رسالته مراعياً نفسية المخاطبين ، مع التلطف في حسن الاستدلال .

إن الذين يعبدون الشجر أو الحجر أو الكواكب والنجوم أو الأرواح وأشباهها ، إنما يرجع ذلك إلى أنهم يضفون عليها ، من تلقاء أنفسهم ، ألقاباً مثل : ((قاضي الحاجات)) ، و((دافع البليات)) ، و((حالّ المشكلات)) ، ويزعمون بالتالي أنها لكذلك في واقع الأمر .. على حين أن كل هذه أسماء فارغة اختلقها الإنسان من عند نفسه ، ولا وجود لمسمياتها في أي مكانٍ في الخارج!

﴿ يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

الفتيان اللذان اقتيدا إلى السجن ، كان أحدهما ساقي ملك مصر (ريان بن الوليد) ، والآخر خَبَّازه ، وكانا متهمين بمحاولة تسميم طعام الملك تآمراً على حياته ، وقد ثبتت براءة الساقي بعد التحقيق في التهمة ، فأطلق سراحه وعُين ثانيةً ساقياً للملك ، وكان معنى ما رآه في المنام أنه كما رأى الآن نفسه يسقي الملك خمراً ، وهو نائم ، سيسقيه الخمر عما قريبٍ وهو يقظان ، وأما الخباز فقد صدر الحكم بإدانته، فما لبث أن سيق إلى الصلب وترك معلقاً على أبواب السجن ، لتنهش الطيور جثته وليكون عبرةً للناظرين .

وقد حققت الأيام هذين التفسيرين كليهما على أكمل وجهٍ ، بيد أن الساقي لم يكد يصل إلى القصر ثانيةً ، بعد ما تم الإفراج عنه ، حتى نسي ما وعد يوسف من إثارة ذكره عند الملك ، وإنما تذكر وعده ذاك حين رأى الملك مناماً فاستدعى رجال حاشيته في جوف الليل يسألهم في قلقٍ وإلحاحٍ عما عسى أن يكون تعبيره ومغزاه؟!

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾

عِجَافٌ : مهازيل جدا .

تَعْبُرُونَ : تعلمون تأويلها وتفسيرها .

أَضْغَاثُ أَحْلامٍ : تخاليطها وأباطيلها.

وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ : تذكر بعد مدة من الزمن .

مع أن ملك مصر كان مشركاً ومدمن خمرٍ ، إلا أن الله - سبحانه وتعالى - قدر له أن يرى مناماً صادقاً له صلة مصيرية بمستقبل بلاده ، ومن هذا نعلم كيف أن الله تعالى ينصر دعاة الحق بطرقٍ شتى ، ومن جملة هذه الطرق أن يتم إراءة الطرف الآخر مناماً يغرس في ذهنه إحساساً عميقاً بعظمة الداعي وأهميته ، مما يُلين فؤاده في حق الداعي فتنفتح له آفاق للعمل جديدة.

وعندما وصل الخبر عن منام الملك إلى أسماع الساقي عادت إليه ذكريات السجن، فأخبر الملك وحاشيته ، في ضوء تجربته الذاتية ، كيف أن تأويل يوسف لرؤيا السجينين تحقق حرفياً ، ثم استأذن الملك ليذهب إلى السجن ويسأل يوسف عن تأويل رؤيا الملك .

وبذيوع صيت يوسف من هذه الحيثية - أي كمفسر الرؤيا - انفتح الطريق أمامه للخروج من السجن ، وقد كان الله قادراً على ألا يدع يوسف في السجن لمزيدٍ من الأيام بعد أن تم الإفراج عن الساقي، حيث كان بإمكانه تعالى أن يذكرّ الساقي بما وعد

يوسف من إثارة الحديث عن أمره أمام الملك حال وصوله إلى القصر ، غير أن أفعال الله كلها مرهونةً بأوقاتها ، فليس من سنة الله أن يعمل شيئاً أو يحدث حادثاً ما في غير أوانه!

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

دَأَباً : دائبين كعادتكم في الزراعة .

تُحْصِنُونَ : تخبؤونه من البذر للزراعة.

يُغَاثُ النَّاسُ : يمطرون فتخصب أراضيهم .

يَعْصِرُونَ : ما شأنه أن يُعصر ، كالزيتون.

لقد فسر سيدنا يوسف رؤيا الملك بأن البقرات السبع السمان والسنبلات السبع الخضر عبارة عن أعوامٍ سبعةٍ بالغة الخصوبة والرخاء ، تنمو فيها الزروع والحيوانات نمواً متصلاً رائعاً ، ثم يعقب ذلك الرخاء والخصوبة قحط وجدب يدوم سبع سنين ؛ تأكلون فيها سائر ما سبق لكم أن ادخرتموه خلال السنوات الماضية ، بحيث لا يبقى لديكم سوى ذلك القدر اليسير من الحبوب تستخدمونه للزراعة ، وكأن السبعة أعوام اللاحقة هذه بقرات هزيلة وسنبلات يابسات تلتهم تلك البقرات السمينة والسنبلات الخضر .

هذا ، وقد أرشد سيدنا يوسف – مع ذلك – إلى تدبير ملائم لمواجهة الأزمة ، إذْ أكد

على ضرورة الحفاظ على محاصيل السنوات السبع الأولى بحذرٍ بالغٍ والاقتصاد في استهلاكها ، فاقترح أن يُحفظ ما زاد عن المقدار الضروري من الحبوب والغلال في سنابله ، ليظل قادراً على البقاء مصوناً من السوس أو الديدان ، وهكذا سيمكن الانتفاع بمحاصيل السبعة أعوامٍ لمدة أربعة عشر عاماً ، وبالإضافة إلى ذلك فقد بشر عليه السلام بأن العالم الذي سيعقب هذه السنوات السبع المجدبات ، سيكون عام الخصوبة والرخاء ، فسينزل فيه المطر بغزارةٍ ، وتمتلئ البلاد حبوباً وثماراً وعسلاً ولبناً !

لقد أرى الله الملك في منامه رؤيا «عجيبة» ، ثم أظهر تأويله الشافي عن طريق سيدنا يوسف عليه السلام وهكذا مكنه من أن يحصل على أسمى مكانةٍ وأرفع منصب في النظام الإداري بحكومة مصرٍ إذْ ذاك !

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

مَا بَالُ النِّسْوَةِ ؟: ما حالهن وما شأنهن ؟

مَا خَطْبُكُنَّ ؟ : ما شأنكن وما أمركن ؟

حَاشَ للهِ : تنزيهاً لله وتعجيبا من عفة يوسف .

حَصْحَصَ الحَقُّ : ظهر وانكشف بعد خفاء.

لقد كان على سيدنا يوسف ، عقب خروجه من السجن ، أن يلعب دوراً وطنياً ،

ولذا كان من الضرورى أن تصبح شخصيته معروفةً على المستوى الوطني ، وقد تم ذلك عن طريق رؤيا الملك ، فقد رأى الملك مناماً عجيباً أقض عليه مضجعه ، وأشاع القلق والاضطراب في نفسه لدرجة أنه دعا بجميع الكهنة والمنجمين والعلماء من أنحاء دولته كلها إلى قصره ليسألهم عن تأويله ، إلا أنهم خيبوا أمله ، حيث حارت عقول الجميع ، وعجزت كتبهم أن تسعفهم بالتفسير المقنع الشافي ، وهكذا نالت واقعة الرؤيا شهرة شعبية عامةً ، ومن ثم فلما إن بيّن يوسف عليه السلام تفسير الرؤيا وتلقاه الملك بالإعجاب والاستحسان ، حتى أصبح عليه السلام فجأةً محط أنظار البلاد من أقصاها إلى أقصاها.

وبعد أن سمع الملك كل التفاصيل المتصلة بقضية يوسف ، أخذ يحقق في شأنها مع النسوة ، فما وسعهن إلا أن أقررن كلهن ببراءة يوسف ، وأما امرأة العزيز فقد ذهبت في الاعتراف بالحق إلى أبعد حدٍ ، إذْ أعلنت بكل صراحةٍ وعلى رؤوس الأشهاد : قد ظهر وجه الحق الآن ، فالحقيقة هي أنني أنا وحدي كنت الخاطئة المذنبة ، ولا ذنب ليسوف البتةَ .

إن هذا الإقرار الصريح من قبل امرأة العزيز (زليخا) عمل عظيم لدرجة أنه لا غرابة في أن تكون بعدئذٍ قد وفقت إلى الإيمان !

إن يوسف عليه السلام لم يبادر بالخروج من السجن لفوره حين استدعاه الملك.. بل طلب إليه أنه ينبغي - أولاً - إجراء تحقيق في شأن الحادثة التي اتخذت ذريعةً للزج به في السجن ، ومع أنه عليه السلام كان بريئاً كل البراءة عند الله تعالى ، إلا أن المسألة هي أنه كان عليه إيصال أمانة الهداية الإلهية إلى عباد الله ، وفي الحادثة المذكورة كان قد اُتهم بالخيانة في حرم سيده ، وقد كان ذلك أمراً بالغ الخطورة ، وكان ضرورياً ألا يأتى أمام الناس إلا بعد استيقانهم من براءته ونزاهته من التهمة الموجهة إليه ؛ ذلك لأن الشخص الذي لا يعتبره الناس أميناً فى شئون العباد ، لن يعتبروه - بالطبع - أميناً فى شئون الله تعالى.

إن المؤمن يكون - في وقتٍ واحدٍ - بين اثنين : أحدهما الإنسان والآخر هو الله سبحانه وتعالى ، فمن خلال التعامل مع الناس ربما يحدث أنه يضطر إلى النطق بكلمةٍ ، ليكشف لهم عن جلية الأمر ، تبدو وكأنها من باب الادعاء أو التزكية للنفس ، غير أن قلبه يكون في الوقت نفسه مليئاً بإحساس العجز والتواضع ، فإنه حين ينظر إلى نفسه بالنسبة إلى الله عز وجل ، يجد أنه عاجز محض ، ولا شيء سواه.

إن تصوّر الله واستحضاره الدائم لا يزال يقف بالمؤمن عند حده ، ويبقيه في حالة اتزان في كل لحظةٍ ، وكلام سيدنا يوسف الآنف الذكر صورة ناطقة لهذه الثنائية التي تتسم بها شخصية المؤمن!

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

مَكِينٌ : ذو مكانة رفيعة ونفوذ أمر.

يَتَبَوَّأُ مِنْهَا : يتخذ منها مباءة ومنزلاً.

قوله: ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾ أراد بـ «الخزائن» ، مخازن القمح وغيره من غلات الأرض ، فحين رأى سيدنا يوسف الملك معجباً به سأله أن يفوض إليه السلطة لاستخدام الأجهزة الحكومية لإقامة مخازن ضخمةٍ ، يختزن فيها ما سيقوم بشرائه من فائض محصول الزرّاع لحساب الدولة خلال السنوات السبع الأولى ، وما وسع الملك إلا أن رضي بهذا العرض الحكيم ، وبالتالي فوض إليه السلطة والخيار من كل نوعٍ بحكم سيادته الدستورية والتشريعية .

لقد كان ملك مصر مشركاً ، كما يتضح من الآية رقم ٧٦ من هذه السورة، إن تشريع أو قانون الملك نفسه (وقد عُبر عنه في الآية المشار إليها آنفاً بـ ((دين الملك)) مازال سارياً نافذ المفعول في مصر لمدة عشر سنواتٍ تقريباً حتى استلام سيدنا يوسف الفعلي لوزارة مالية الدولة ،وهذا يدلنا على أن تقلد منصبٍ ما ثانوي أو فرعي في ظل الحكومة غير الإسلامية لا يتعارض مع الإسلام ، وانطلاقاً من هنا فقد قبل السلف بمناصب القضاء تحت حكم الأمراء والملوك الظالمين [1].

ما هو الهدف الذي كان سيدنا يوسف يتوخى تحقيقه من تسلمه زمام الحكم في مصر؟ في ضوء ما سرده القرآن من تفاصيل القصة ، يبدو لنا ظاهراً أن الهدف الرئيسي الأول من ذلك كان يتمثل في إنقاذ عباد الله من ويلات قحط وجدب طويل الأمد ، وثانياً في إتاحة الفرصة لبني إسرائيل - كنتيجة لذلك - للاستقرار بوادي النيل في أمنٍ ودعةٍ .

لقد وعد الله للذين يختارون طريق الإيمان والتقوى بالجنة وعداً قطعياً مؤكداً ، كما يتاح لهم نصر الله في الحياة الدنيا كذلك ، غير أن هناك فارقاً جوهرياً بين الأمرين لابد أن يُلاحظ ، فأما ما يتصل بمهمة إعلان الحق ، فإن توفيق الله إلى ذلك يحالف كل المؤمنين المتقين على حدٍ سواء ، غير أن التوفيق أو النصر للفوز العملي لا يتاح للجميع على وتيرةٍ واحدةٍ فإن النصرة العملية تختلف من أحدٍ لآخر درجةً ونوعاً !

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ

(١) انظر في هذا المعنى : تفسير النسفي.

عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ ﴿٦١﴾

جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ : أعطاهم ما فى حاجة إليه.

لقد شهدت السنوات السبع الأولى ، في أعقاب تولي سيدنا يوسف عليه السلام مقاليد الحكم ، نمواً وازدهاراً بالغين في المحاصيل الزراعية ، فأقبل عليه السلام على إقامة مخازن ضخمةٍ في كل أنحاء البلاد، وظل يختزن فيها ما يشتري من فائض محصول الزراع كل عامٍ ، حتى إذا بدأت سنوات القحط والجدب ، استجلب هذا المخزون من الغلات إلى عاصمة الدولة ، وشرع في بيعها بأسعارٍ معقولةٍ.

وبما أن هذا القحط لم يكن مقصوراً على مصر وحدها ، بل امتد أثره إلى بلاد الشام وفلسطين وشرقي الأردن وغيرها من المناطق المجاورة ، لذا فما إن ذاع الخبر عن توافر الحبوب بمصر وبيعها بأثمانٍ رخيصة ، حتى توجه إخوة يوسف هم الآخرون إلى مصر لشراء الغلة ، ومع كونهم قد رأوا يوسف هنا بعد مرور عشرين عاماً ، إلا أنهم لمسوا في وجهه عليه السلام ملامح أخيهم ، ولكنهم سرعان ما كذبوا خاطرهم ذاك ، إذْ تعذر على أفهامهم أن الشخص الذي ألقوه في غيابة الجب قبل عشرات السنين يمكن أن يكون متربعاً على عرش مصر!

وقد أصدر سيدنا يوسف عليه السلام أوامره بأن يُعطى لكل واحد من إخوته حمل بعير من الحبوب، الأمر الذي أطمعهم في أن يحصلوا على حمل بعيرٍ آخر من الحبوب باسم أخيهم بنيامين ، فطلبوا إليه عليه السلام : إن لنا أخاً صغيراً احتبسه والدنا العجوز عنده ، وإننا سنكون شاكرين لو تكرمت بإعطائنا حصة هذا الأخ أيضاً ، فأجابهم سيدنا يوسف قائلاً : إن دفع حصة الغائب إلى غيره لا يتفق ونظام عملنا ، وبإمكانكم أن تحصلوا على حصته ، فيما إذا أتيتم به معكم في المرة القادمة ، فقد جربتم هنا كرمي وعطائي ، فهل أنتم بعدئذٍ تخافون أو ترددون في الإتيان بأخيكم معكم؟! واستطرد سيدنا يوسف

قـائلاً : ولـو أنكـم لم تـأتوا في رحلـتكم التاليـة بهـذا الأخ الـذي تتحـدثون عنـه الآن ، فسيكون لنا الحق في أن نعتبركم كذبةً ، وأنكم بـالغش والخداع حـاولتم الحصول على حمل بعيرٍ آخر من الحبوب ، وبالتالي ستكون عقوبـة ذلـك ألا يُـدفع إلـيكم مـستقبلاً مـا تستحقونه أنتم!

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

بِضَاعَتَهُمْ : ثمن ما اشتروه من الطعام .

رِحَالِهِمْ : أوعيتهم التي فيها الطعام وغيره.

ولعل سيدنا يوسف عليه السلام رأى فى أخذ الثمن من إخوته ما ينافي المروءة، أو ظناً منه أن الفقر أو ضيق ذات اليد ربما يحول دون قدومهم ثانيةً إلى هنا ، فأوْعز لبعض موظفيه بوضع النقود التي دفعوها عوضاً عن الحبوب فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون ، حتى يجـدوها ، إذا فتحـوا أوعيـتهم ، فى إثـر عـودتهم إلى منـازلهم ، وبالتـالى يبـادروا بـالعودة السريعة مصطحبين أخاهم (بنيامين) معهم .

لقد أظهر سيدنا يعقوب – من جهةٍ – عدم ثقته بأبنائه العشرة بشأن بنيـامين ، ومـن جهةٍ أخرى صرح أيضاً بأنه ليس أحد منكم ولا أحد سواكم يملك شيئاً من القـدرة أو الطاقة، فلن يحدث إلا ما يريده الله سبحانه وتعالى.. غير أن مـا يحـدث إنـما يـتم إحداثـه على يد البشر ، لكيما يقيم المسيء الدليل عـلى حقيقتـه بـسوء عملـه ، وسـيكتب الـصالح المحسن اسمه ضمن القائمة التى يستحقها وتليق به وبصلاحه وحسن عمله!

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

مَتَاعَهُمْ : طعامهم . أو رحالهم .

مَا نَبْغِي : ما نطلب من الإحسان بعد ذلك .

وَنَمِيرُ أَهْلَنَا : نجلب لهم الطعام من مصر .

مَوْثِقاً : عهدا مؤكدا باليمين يوثق به .

يُحَاطَ بِكُمْ : تغلبوا . أو تهلكوا جميعاً.

وَكِيلٌ : مطلع رقيب.

فرح الإخوة عندما عثروا على نقودهم ، عقب العودة إلى منازلهم ، عائدةً إليهم ، ضمن جواليقهم التي وضعوا فيها الحبوب ، ومن ثم باتوا يلحون على أبيهم قائلين : أرسل معنا بنيامين ، فسنحاول جهد طاقتنا أن نحفظه من كل سوءٍ ، وندفع عنه كل مكروهٍ ، كما أننا سنجلب ما يستحقه هو من الحبوب علاوةً على حصصنا نحن ، فإن القدر الذي أتينا به الآن من الحبوب ، لا يكفينا سوى قليلٍ من الزمن .

ولعل نظام توزيع المؤن الذي أقامه سيدنا يوسف عليه السلام كان لا يعطي بموجبه - على ما يبدو - للوافدين من الخارج إلا حمل بعيرٍ واحدٍ من الميرة على كل رأس !

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

إن عاصمة مصر القديمة كانت بلداً أحيط من جوانبه الأربعة بأسوارٍ عاليةٍ، تتخللها مداخل كثيرة من جهاتٍ شتى وقول سيدنا يعقوب لبنيه : لا تدخلوا – مجتمعين – من بابٍ واحدٍ، بل لتدخلوا من أبوابٍ متفرقةٍ، كان يرجع إلى خوفه من ألا يفطن بهم أعداؤهم، فيحتالوا لإهلاكهم (١).

وقد ألقت الآية رقم (٧٣) من هذه السورة الضوء الكاشف على حقيقة هذا الخوف، إذْ يدافع إخوة يوسف عن أنفسهم قائلين : و﴿ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

لقد كان إخوة يوسف وافدين على مصر من الخارج، فكانت ملابسهم مختلفة عن ملابس السكان المحليين، ولم يكن ليصعب على المصريين أن يعرفوا أنهم أجانب بالنظر إلى زيهم الخاص، وقد كان دخول أحد عشر رجلاً كهؤلاء إلى البلد مجتمعين، خليقاً أن يجعلهم «مشبوهين» في أعين الناس، ومن ثم أوصاهم أبوهم، تفادياً لأي صدامٍ يمكن أن يقع بينهم وبين السكان الأصليين، أوصاهم بألا يدخلوا البلد بشكل مجموعة تجتذب أنظار القوم إليهم فيظنوا بهم السوء.

إن المؤمن ينظر – من ناحيةٍ – إلى قدرة الله الكاملة، فيرى أنه لا أحد في هذا الكون يتمتع بأي خيارٍ غير الله عز وجل، كما أنه يعلم أن هذه الدنيا دار امتحانٍ؛ حيث أخضع الله كل أمرٍ من الأمور للأسباب الظاهرية لمصلحة الامتحان وللسبب ذاته نجد

---

(١) تفسير النسفي.

سيدنا يعقوب - عليه السلام - ينصح أبناءه - من جانب - باتخاذ بعض التدابير الدنيوية، ومن جانب آخر يصرح أيضاً بأن كل ما سيحدث ، فإنما يحدث بأمر الله وإذنه تعالى ، لأنه ليس ثمة أحد يملك شيئاً من القوة غير الله عز وجل.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾ ﴾

آوى إِلَيْهِ أَخَاهُ : ضم إليه أخاه الشقيق بنيامين .

فَلاَ تَبْتَئِسْ : فلا تحزن .

السِّقَايَةَ : إناء من ذهب للشرب اتخذ للكيل.

أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ : نادى مناد أو أعلن معلم.

العِيرُ : القافلة التي فيها الأحمال .

صُوَاعَ المَلِكِ : صاعه ((مكياله)) وهو السقاية .

زَعِيمٌ : كفيل أؤديه إليه.

كِدْنَا لِيُوسُفَ : دبرنا لتحصيل غرضه .

دِينِ المَلِك : شريعة ملك مصر أو حكمه .

وفيما كان إخوة يوسف على أهبة الرحيل ، إذْ وضع يوسف ، بدافع الشفقة والحنان، كأساً له - كان يشرب فيه الماء ، ويحتمل أنها كانت من فضةٍ ، وضعها في وعاء أخيه بنيامين ، بحيث لم يشعر بذلك بنيامين ولا أحد من موظفي البلاط الملكي ، ثم حدث بعد ذلك بتدبير من الله ولحكمةٍ أرادها ، أن فقد المكيال الملكي - والذي كان هو الآخر نفيساً وغالياً جداً - أو وُضع في غير موضعه ، وعندما فشلت محاولات الموظفين في البحث عنه والعثور عليه في مظانه ، ذهبت عوامل الشك والارتياب بخيالهم إلى إخوة يوسف الذين كانوا قد رحلوا من عندهم آنفاً ، فأسرع أحد الموظفين نحوهم واستوقفهم حيث كانوا ، ثم شرع في الاستجواب والتحقيق معهم ، وفي أثناء ذلك قرر الإخوة بأنفسهم للسارق تلك العقوبة التي كانت متبعةً ، أو بالأحرى مأخوذاً بها عندهم تبعاً للشريعة الإبراهيمية ، وهي أن يُدفع السارق إلى المسروق ليبقى عنده كعبدٍ مملوك له لمدة سنةٍ كاملةٍ .

وبعدئذٍ بدأ الموظف بالبحث والتنقيب ، ومع أنه لم يجد عندهم مكيال الحبوب ، إلا أنه عثر على شيءٍ آخر نفيس من نفائس البلاط الملكي في وعاء بنيامين - وهو الكأس الفضية- ومن ثم لم يلبث بنيامين أن دُفع إلى سيدنا يوسف بموجب القرار المتفق عليه بين الجانبين، ولو أنهم اتفقوا على التحاكم في هذه القضية إلى قانون الملك المصري ، لما أمكن يوسف أن يستبقي أخاه لديه ؛ ذلك لأن جزاء السرقة ، بحكم قانون الملك السائد في مصر أيامئذٍ ، كان عبارةً عن إشباع السارق ضرباً ، وتغريمه ثمن الشيء المسروق . إن هذا الحادث لم يكن وراءه أي تعمدٍ أو نيةٍ مقصودةٌ من قبل سيدنا يوسف عليه السلام وإنما حدث ذلك بتدبير إلهي ، ولذلك نسبه الله تعالى إلى نفسه حيث قال:

﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ .

تنبيه : لقد وُضع في وعاء بنيامين «السقاية» التي أشير إليها بضمير المؤنث (ها) ، بينما كان الموظف الملكي يبحث عن «الصواع» المشار إليه بضمير المذكر : (ه) ، ثم إن الشيء الذي وقع في يد الموظف بعد البحث والتنقيب ، أعاد عليه القرآن ضمير المؤنث في قوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ ، مما يدل على أن وعاء بنيامين إنما وُجد فيه سقاية يوسف - التي وضعها فيه هو بنفسه خفيةً - دون صُواع الملك المفقود!

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

مَعَاذَ الله : نعوذ بالله معاذاً ونعتصم به.

كتب المفسرون أن يوسف عليه السلام اختلس ذات يوم - وهو صغير - صنماً كان في بيت بعض جداته ، فحطمه شر تحطيم ، وقد اتخذ أخوة يوسف من هذه الحادثة ذريعة للطعن عليه عندما قالوا : ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ . إن حادثةً كانت تنمّ عن مدى غيرته على التوحيد ، أقحموها ، لمجرد المماثلة الشكلية، في خانة السرقة!

لقد كان حال إخوة يوسف ينطوي على نوعٍ من التناقض الغريبِ ، حيث إنهم كانوا ينادون يوسف المتربع على عرش مصر بـ «يا أيها العزيز» (أي حضرة السيد المبجل ، وصاحب السمو والجلالة)، ويتظاهرون بين يديه بغاية التواضع والانكسار ، ولكن يوسف الذى كان عندهم مجرد فتىً من فتيان البدو، كانوا يرمونه فى الوقت نفسه بتهمة السرقة بغير الحق.

ومع كون يوسف على علمٍ بأن وضعه السقاية في رحل أخيه بنيامين قد تسبب في جعله - من غير جريرة - سارقاً ، إلا أنه لزم الصمت لمصلحة وقتيةٍ وترك الحادث الذي كان يدور بين إخوته والموظفين الملكيين ، تركه يسير ويتلاحق بسرعته الطبيعية ليبلغ آخر مداه ، وحين اضطر مرةً في أثناء ذلك إلى القول فلم يقل : «من سرق متاعنا» بل قال بدلاً من ذلك : ﴿ مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥ ﴾ !.

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ : يئسوا من إجابة يوسف لهم .

خَلَصُوا نَجِياً : انفردوا متناجين متشاورين.

مَا فَرَّطتُمْ : قصرتم و (ما) زائدة .

وَالْعِيرَ : القافلة .

لعل واحداً من إخوة يوسف العشرة كان مختلفاً بطبيعته عن الآخرين ، وذلك هو الأخ الذي كان قد أشار عليهم في المرحلة البدائية بألا تقتلوا يوسف ، بل اقذفوا به في بعض الآبار، يلتقطه بعض القوافل السيارة ، وهكذا صار حاله الآن في مصر ، حيث اعتزل عن الإخوة الآخرين ، فإن شعوره بالغيرة والحمية لم يعد يطيق أن يواجه والده الآن باعتباره فاقداً ومضيعاً لثاني الأخوين ، بعدما سبق له أن حضر مرةً أمام الوالد نفسه كمضيعٍ لأخيه !

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

سَوَّلَتْ : زينت وسهلت.

يَا أَسَفَى : ياحزني الشديد .

وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ : أصابتها غشاوة فابيضا.

كَظِيمٌ : ممتلئ من الغيظ أو الحزن يكتمه ولا يبديه .

تَفْتَأُ : لا تفتأ ولا تزال.

تَكُونَ حَرَضاً : تصير مريضاً مشرفاً على الهلاك .

بَثِّي : أشد غمى وهمى.

فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ : تعرفوا من خبر يوسف .

رَّوْحِ الله : رحمته وفرجه .

لقد كشف سيدنا يعقوب بقوله : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ ، القناع عما انطوت عليه قلوب الإخوة من غشٍ وزيفٍ ، فإنهم حين استسمحوا أباهم باصطحاب بنيامين في رحلتهم الثانية ، أعطوه عهداً وثيقاً مؤكداً بالحفاظ عليه ، ولكن عندما خرجت الكأس من متاعه ، لم يستطيعوا الدفاع عنه ، حتى بأن يقولوا للمسئولين :

كيف سيصبح أخونا سارقاً خروج الكأس من رحله ، إذْ من الممكن أن يكون أحد سواه قد وضعها فيه ، أو أنها قد اندست تلقائياً - من حيث لم يشعر - ضمن متاعه وهو يشده للرحيل ، وعلى العكس من ذلك فإنهم لم يلبثوا أن أكدوا على جريمته أمام المصريين عندما قالوا لهم: إن أخاً له قد سرق قبل كذلك .

ومع أن سيدنا يعقوب عليه السلام كان حزيناً مهموماً للغاية ، بسبب فقد ولديه الحبيبين ، إلا أنه كان - مع ذلك - عظيم الأمل في رحمة الله ، فمازال واثقاً حتى الآن من أن رؤيا يوسف التي رآها في صغر سنه كانت بشارةً إلهيةً ، ولابد لها أن تتحقق يوماً ، ومن ثم أمر أبناءه : أن اذهبوا فابحثوا عن يوسف ، وحاولوا أيضاً تخليص أخيه بنيامين!

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

الضُّرُّ : الهزال من شدة الجوع .

بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ : بأثمان رديئة كاسدة.

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ، هذه العبارة هي خلاصة قصة سيدنا يوسف بأكملها ، لقد كان الله يريد إقامة مثالٍ واضحٍ ناطقٍ بأن الشخص الذي يخاف من الله في معالجة الأمور الدنيوية ، ويمتنع عن اللجوء إلى الطرق غير الصابرة ، فإنه لابد أن يُكتب له النجاح آخر الأمر بنصرٍ من الله وعونه تعالى ، وقد جُعلت قصة سيدنا يوسف - عليه الصلاة والسلام - أنموذجاً حياً

ملموساً لهذه الحقيقة ذاتها.

وإن ما شهدت مصر بدايةً من سنوات الخصب السبع ، ثم ما تلاه من سنوات الجدب السبع ، إنما حدث كل ذلك بإذن الله تعالى ، ولو شاء الله لجعل السنين كلها ذات خصوبةٍ ، ورخاء لأهالي مصر وهكذا فقد تم إلقاء يوسف ﷺأولاً في البئر ، ثم وصوله ثانياً إلى القصر ، تم كلاهما على علمٍ من الله وتحت رعايته ، ولو شاء الله لمكنه – عليه السلام- من أن يقبض على زمام الحكم بمصر رأساً، بدون المرور بالمراحل القاسية التي سبقت ذلك ، ولكنه ﷺ إن لم يواجه كل هذه الأحوال غير العادية التي واجهها ، إذن فكيف تسنى له أن يكون في رحاب عالم الأسباب هذا ، مثالاً للحقيقة القائلة بأن الله يمد بنصره أولئك الذين لا يزالون متمسكين بمسلك التقوى والصبر على كل حالٍ من الأحوال.

تنقسم الواقعات إلى نوعين : أحدهما : هو الذي يحمل بين طياته مادة الذيوع والانتشار ، والآخر هو الذي يخلو من مادة الذيوع والانتشار ، وقد يمكن أن تكون هناك واقعتان من نوعٍ مماثلٍ وعلى درجةٍ واحدةٍ من الأهمية ، غير أن إحداهما لا تلبث طويلاً حتى تحظى بالذيوع والانتشار الواسع ، بينما تبقى أخراهما مغمورةً لا تكاد تُذكر .. إن النصر والتوفيق الإلهي الذي حالف سيدنا يوسف ﷺ يحالف أيضاً الآخرين عداه من الصلحاء والمحسنين ، إلا أن واقعة سيدنا يوسف تتميز بما كانت تنطوي عليه من مادة الذيوع والانتشار ، ولذا فهي لم تلبث أن صارت مثار اهتمام الناس وموضوع حديثهم على نطاقٍ أوسع وأشمل!

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا : اختارك وفضلك علينا .

لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ : لا تأنيب ولا لوم عليكم .

يَأْتِ بَصِيراً : يصر بصيراً من شدة السرور.

وما إن ارتفع الحجاب عن الحقيقة حتى بادر الإخوة إلى الإقرار بخطئهم مع الاعتراف صراحةً بعظمة يوسف وفضله عليهم ، ومن جانبٍ آخر ضرب سيدنا يوسف بدوره مثلاً رائعاً لتلك السماحة الخلقية التي ينبغي على أمثاله من عباد الله الصادقين أن يأخذوا أنفسهم بها في مثل هذه المناسبة ، فلم يقابل عليه السلام إخوته بأي لومٍ أو تأنيبٍ ، بل سحب ذيْل العفو والنسيان دفعةً واحدةً على كل ذكريات الماضي المرة ، وبالتالي أقام مع الإخوة جميعاً العلاقات الودية الخالصة من جديدٍ .

وهذه الواقعة تنطوي أيضاً على مثالٍ للنصرة الجماعية بجانب النصرة الفردية ، فعن طريق ذلك تولدت تلك الظروف والملابسات التي مكنت بني إسرائيل من أن يخرجوا من فلسطين ويصلوا إلى مصر ، ليتمتعوا هناك بالعزة والكرامة وخفض العيش ، ومن ثم فقد انتقلت أسرة سيدنا يعقوب عليه السلام إلى مصر في زمن سيدنا يوسف عليه السلام حيث عاشت حوالي خمسمائة سنة حياةً سعيدةً كريمةً ، وتقول لنا التوراة : إن العدد الكلي لأفراد عائلة سيدنا يوسف الذين وفدوا على مصر بدعوته عليه السلام كان يبلغ ٦٧ شخصاً .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ

ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾

فَصَلَتِ العِيرُ : فارقت القافلة عريش مصر.

تُفَنِّدُونِ : تسفهوني أو تكذبونى .

ضَلالِكَ : ذهابك عن الصواب .

لقد مكث سيدنا يوسف عليه السلام ما يربو على عشرين سنة ، عقب اختفائه عن أبيه ، في بلاد مصر المجاورة ، غير أن سيدنا يعقوب عليه السلام لم يتمكن من الاطلاع على وجوده هناك ، اللهم إلا عندما انطلق قميصه من مصر في نهاية المطاف ، أخذ يشم رائحته عن بُعدٍ قبل وصول القميص إليه ، مما يدل على أن علم الأنبياء لا يكون علماً ذاتياً ، بل يكون هبةً من الله ، ولو أنه كان علماً ذاتياً لعلم سيدنا يعقوب أن ولده (يوسف) في أرض مصر ، ولكنه لم يستطع أن يطلع على وجود يوسف وأحواله إلا حين أخبره الله تعالى بذلك عن طريق الوحى.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

ليس المراد بـ ((العرش)) هنا هو سرير الملك ، بل هو سرير سيدنا يوسف الذي كان عليه السلام يجلس عليه وهو يقوم بتأدية المسئوليات المنوطة به ، وهكذا ليس المراد بـ ((السجدة)) هو السجود التعبدي المعروف ، بل الخضوع أو الانحناء بشكل الركوع ،

فقد جرت عادة الناس منذ قديم الزمان بممارسة هذا النوع من الخضوع تعظيماً واحتراماً .

ومعنى قوله : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ إن ربي إذا أراد أمراً قيّض لتحقيق مشيئته أسباباً وطرقاً غايةً في الدقة والخفاء ، وإن الله تعالى يبدع لإكمال مشروعه تدابير تعجز عقول البشر العاديين أن تشعر بها أو تدرك سِرُّها!

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

فَاطِرَ : يا مبدع ومخترع.

إن الكافر ينظر إلى كل شيء بالنسبة إلى الإنسان ، بينما ينظر المؤمن إلى كل شيء بالنسبة إلى الله عز وجل ، وها هو سيدنا يوسف عليه السلام الذي يقرّ أن ما أتيح له من منصبٍ حكوميٍ أعلى ، تقديراً لمواهبه ومؤهلاته الشخصية ، هبة من الله .. ويصف ما مُنح من علم تفسير الرؤيا وتعبيره : بأن ذلك مما علمني ربي، وحين يستعيد ذكرى المحنة التي عرضه لها إخوته فيقول : إنها لم تكن سوى تدبير لطيف من جملة تدابير الله، أراد أن يمكنني بها من قطع ما قدر لي من أشواطٍ في ميدان الرقي والتقدم والازدهار.

إن الشعور بعظمة الله المسيطر على ذهنه ، كان قد انتزع منه كل أحاسيس العظمة الذاتية ، مما جعله لا يطيق، حتى رغم وصوله إلى قمة المجد الدنيوي ، إلا أن ينبس بالكلمات التالية في ضراعة وخشوع: يا رب ! إنك وحدك المالك لكل القوى والطاقات ، وأنت وحدك مدبر أموري كلها ، فانصرني في الدنيا والآخرة ، وضُمني إلى أولئك العباد السعداء الذين يحالفهم التوفيق لاتباع مرضاتك في الحياة الدنيا ، وبالتالي يفوزون بنعيمك الأبدي في الدار الآخرة !

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ : عزموا على الكيد ليوسف

إن قصة سيدنا يوسف - عليه السلام - التي جرت على لسان رسول الله - ﷺ - هي في حد ذاتها برهان ناطق على أن القرآن وحي رباني وليس بكلام إنساني.. فإنها تتضمن وقائع وأحداثاً يرجع تاريخها إلى نحو ألفين وخمسمائة سنة قبل ولادة رسول الله - ﷺ - فلم يكن قد شهدها بنفسه، كما أنها لم تكن مكتوبةً في أي سجلٍ تاريخي حتى يقرأها هو، أو يستمع إلى أحدٍ غيره وهو يتلوها عليه وإنما كانت بين دفتي التوراة ، والتي كانت بدورها ، فيما قبل عصر المطبعة على وجه التحديد ، كتاباً لم يكن أحد ملماً به سوى العديد من أحبار اليهود والمنتمين إلى مراكز الديانة اليهودية ، ليس غير .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن رواية القرآن لهذه القصة ، مع كونها تتفق ، فيما يتصل بأصل الموضوع ونقاطه الجوهرية ، مع رواية التوراة ، إلا أنها مختلفة عنها في كثيرٍ من التفاصيل ، وهذا الاختلاف على كون القرآن وحياً إلهياً؛ لأننا حين نتناول نقاط الاختلاف والتباعد بين الروايتين بدراسةٍ مقارنةٍ موضوعية ، يبدو لنا واضحاً أن رواية القرآن تتطابق مع العقل والفطرة من كل الوجوه ، حيث يغمرنا إحساسٍ واقعي عميق ونحن نقرأ رواية القرآن ، أنها أليق ما تكون ، باعتبار لغتها وأسلوبها ، بسيرة سيدنا يعقوب وسيدنا يوسف النبوية ، بينما رواية التوراة غير لائقةٍ ، باعتباراتٍ شتى ، بأدب السيرة النبوية.

وكذلك ثمة عناصر عديدة من هذه القصة بالغة الأهمية (كخطاب سيدنا يوسف في السجن مثلاً ، الوارد في الآيات : ٣٧ : ٤٠) اشتملت عليها الرواية القرآنية ، لا نجد

لها ذكراً في صحائف التوراة ولا التلمود ، وحتى إن بعض الغلطات التاريخية التي توجد في التوراة ، لم تتكرر في القرآن الكريم، وعلى سبيل المثال : تطلق التوراة على الملك المعاصر لسيدنا يوسف – عليه السلام - لقب فرعون ، على حين أن أسرة الفراعنة إنما تولت مقاليد الحكم في مصر بعد سيدنا يوسف – عليه السلام - بخمسمائة عام ، أما الأسرة الحاكمة في مصر في زمن سيدنا يوسف – عليه السلام - فقد كانت من سلالة العرب يقال لهم : "الملوك الرعاة" (Hyksos kings) (قارن بـ : التوراة ، سفر التكوين).

لو أن إنكار الحق كان يرجع إلى عدم وجود الدليل ، لبادر المرء بالإيمان حين يظهر الدليل أمامه ، غير أن إنكار الحق يرجع سببه في معظم الحالات إلى العناد والتعنت ، فالمعاندون لا يؤمنون بالحق لكونهم لا يريدون أن يؤمنوا به .

إن الإيمان بالحق يكون في الغالب مرادفاً لتصغير النفس ، وتصغير النفس أصعب وأشق عملٍ على المرء دائماً ، ولهذا السبب لا يتخلى أمثال هؤلاء عن موقفهم العنيد حتى بالرغم من ظهور كل أنواع الأدلة والقرائن .. إذْ لا يرى هؤلاء بأساً ولا غضاضةً في أن يصبح الحق صغيرا ورايته منكوسةً ، ولكنهم لا يرضون بأن يصغروا أنفسهم له وينكسوا أمامه رؤوسهم، ويغيب عنهم أن الذي يقوم بتصغير نفسه في الدنيا لأجل الحق سيكبر في الآخرة ، ومَنْ لا يصغر نفسه في الدنيا ، فإنما هو الشخص الذي سيصبح ويظل صغيراً في العالم الآتي إلى أبد الآبدين !.

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ : كم من آية – كثير من الآيات

الـذين لا يؤمنـون بـالحق عقـب ظهـوره ، يلجـأون إلى تمويـه إنكـارهم لـه ، بحيـث يقولون: إن الحق يعوزه دليل مقنـع يـصح الاعـتماد عليـه ، ولـو أنـه كـان يـصحبه دليـل كهـذا، لبادرنـا إلى الإيـمان بـه بالـضرورة ، مما يعنـي أن سـبب إعراضـهم عـن الحـق أو إنكارهم له يرجع إلى الخارج وليس إلى الداخل !

بيد أن الواقع على العكس مـن ذلـك تمامـاً ، فـالحق واضـح لدرجـة أنـه حـين يـتجلى تشهد لـصدقه آيـات الأرض والـسموات كلهـا ، ولا يكـون في الكـون بأكملـه أي شيء آخر سواه أكثر ثبوتاً وأسطع برهاناً منه .. غير أن الظفر بالحق يتطلب في الحقيقـة العـين المبصرة والعقل المعتبر ، وهذا هو الشيء الذي لا يتوفر لدى هؤلاء المنكرين.

حين يقف المرء إزاء الحق موقف العناد والطغيان ، فإنما يكون الـسبب وراء ذلـك في معظم الحالات ، هـو "الإشراك بـالله" ، مـن حيـث إن أكثـر النـاس ، قـد افترضـوا ، إلى جانب إيمانهم بالله ، ذواتـا مـن الأحيـاء أو المـوتى ، وضـعوا فـيهم ثقـتهم ، يرفعونهـا إلى مقام الكبرياء والعظمة ، وهكذا فالجميع قد اتخذوا لأنفسهم مجموعةً من "الأكـابر" مـا عدا الله ، هم موضع ثقتهم واعتمادهم في الحياة وبعد الممات ، على حين أنه لا كبير هنـاك إلا الله الواحد ، والكل بإزائه صغير ، ولن يفوز أحد بالنجـاة عنـده بـشيء سـوى عملـه الذاتي .

إن الواجب الأساسي الملقـى عـلى عـاتق النبي هـو الـدعوة إلى الله الواحـد الأحـد ، وذلك هو رسالته في حياته ، وقد اختار هذه الرسـالة عـن وعـي وعـلى بـصيرةٍ ، ولـيس على وجه التقليد ، ومعنى ذلك أن الدعوة النبوية هي دعوة تهدف إلى ربط الإنسان بالله الواحد ، والتي يكون صدقها واضحاً مكشوفاً على الـداعي لدرجـة أنهـا تـصير بالنـسبة إليه بصيرةً ومعرفةً، وهكذا فإن أتباع النبي إنما هـم الـذين يـدركون الحـق عـلى مـستوى البصيرة ، ويقومون بإعلانه والصدع به على مستوى التوحيد .

إن المرء ربما يعتبر استقراره الوقتي استقرارا دائماً لا يزول ، بينما لا يدري أحد بالضبط متى ستنتهي فترة عمره، ولا يعلم أحد متى سيأتي الموت فيبطل كل مزاعمه وأحلامه اللذيذة ، ومتى سيتفجر زلزال القيامة ليدمر دنياه العامرة ويجعل عاليها سافلها .. إن المرء يحسب أنه في عالمٍ مضمون النتائج مأمون العواقب ، بينما هو على وشك أن يواجهه في أي لحظةٍ مصير غير مضمونٍ ولا معلومٍ مسبقاً !.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾

غَاشِيَةٌ : عقوبة تغشاهم وتجللهم

بَغْتَةً : فجأة

اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ : يئسوا من النصر لتطاول الزمن .

وَظَنُّوا : توهم الرسل أو حدثتهم أنفسهم .

قَدْ كُذِبُوا : كذبهم رجاؤهم النصر في الدنيا .

بَأْسُنَا : عذابنا.

يدلنا التاريخ على أن الذين كانوا مؤمنين بالنبوة والرسالة ، لم يلبثوا أن صاروا منكرين لها ، عندما بعث الله فيهم نبياً من أنفسهم .

إن خرائب القرى المهلكة لقوم عادٍ ، وثمود ، وأصحاب مدين ، وقوم لوطٍ وغيرهم كانت متواجدةً على مقربة من قريش مكة ، أي في المناطق المجاورة لها ، وقد كانوا يشاهدونها بين حينٍ وآخر خلال رحلاتهم ، وكأن هذه الآثار والأطلال كانت

تنطق - بلسان حالها - أن هذه الأمم لم تتعرض للعذاب الإلهي والدمار المحقق إلا بسبب عدم معرفتها بنبي الله ، ولكن قريشا ، بالرغم من ذلك ، لم تستفد منها درساً ولا عبرةً ؛ وسر ذلك يكمن في موطن ضعفٍ في الإنسان ، وهو أنه ربما يمارس عملاً خاطئاً ولكنه لا يلبث أن يخرج نفسه من عداد الخاطئين بناءً على بعض الأفكار المزعومة ، والآية رقم ١١٠ من سورة يوسف ، تفسرها الآية رقم ٢١٤ من سورة البقرة خير تفسيرٍ - على حد المبدأ القائل : القرآن يفسر بعضُه بعضه - حيث قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾" [البقرة : ٢١٤] .

إن الله ينصر الداعي إلى الحق دوماً ، ذلك مما لا شك فيه ، ولكن هذا النصر يمثل قضاء الله لصالح الداعي ضد المدعو ، ولذلك فلا يأتي هذا النصر الإلهي الحاسم إلا إذا كان الكفاح الدعوي قد بلغ منتهى كماله ، حتى ولو أخذت تعتمل في نفوس الدعاة ، بسبب هذا التأخير ، بواعث اليأس وخيبة أملٍ !!.

ويتضح لنا من قوله : ﴿ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ ﴾ [يوسف :١٠٩] أن السلوك الذي يُعامل به أهل الإيمان في الدنيا ، يكون علامةً على السلوك الذي سيُعاملون به في الآخرة .

وينصر الله دعاة الحق في هذه الدنيا ، بحيث تصبح كلمتهم هي العليا فوق سائر الكلمات الأخرى، ويحالفهم التوفيق لإنجاح مسيرتهم رغم كل المعارضات والمؤامرات ، وسيعطون هذه العزة والرفعة في الآخرة على وجهٍ أفضل وأكمل.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

عِبْرَةٌ : عظة وتذكرة .

يُفْتَرَى : يُختلق .

إن قصة الأنبياء السابقين وأممهم هي قصة البشر كافةً من حيث ما تنطوي عليه من درس وعبرة ولو أن المرء استخدم عقله ، لظفر بنصيحة الحاضر في واقع الماضي ، وبالتالي فلا يسعه إلا أن يقوم بإصلاح نفسه وأحواله نظراً لمصير الآخرين .

ليس القرآن بكتابٍ موضوعٍ بيد أحد الناس ، إنما هو كتاب منزل من عند الله تعالى وقد جاء هذا الكتاب مصدقاً حقاً لتلك النبوءات التي وردت بشأنه في الكتب السماوية السابقة ، وهو يحتوي على أوضح بيانٍ وأبلغه لكل ما هو ضروري فيما يتصل بالهداية والإرشاد ، وإنه كتاب أوله هدىً للناس وآخره رحمة لهم!.

سورة الرعد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝ ﴾

بِغَيْرِ عَمَدٍ : بغير دعائم وأساطين تقيمها .

اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ : استواء يليق به سبحانه .

يُدَبِّرُ الأَمْرَ : يصرف العوالم كلها بقدرته وحكمته .

مَدَّ الأَرْضَ : بسطها في رأي العين .

القرآن يدعو إلى الإيمان بالله الواحد، وأكبر دليل يستند إليه المنكرون لوجود الله، يتلخص في التساؤل الآتي : إن كان ثمة إله، فلم لا نراه عياناً ؟ غير أن الكون المعلوم لدينا يدل على أن عدم وقوع شيء ما تحت أبصارنا ليس بدليل على أنه لا وجود لذلك الشيء البتة، ومن أمثلة ذلك : قوة الجاذبية، إن الفضاء تتحرك فيه كواكب لا حصر لها في اتجاهات ومساراتٍ شتى، والعلم الإنساني يقول : إن هناك قوة جاذبة غير مرئية توجد بين هذه الأجرام السماوية، هي التي تمسكها في رحاب الفضاء الواسع، فإذا كان الإنسان يقر بوجود قوة الجاذبية، مع كونها غير مرئية إذن، فكيف سيكون محقاً في إنكاره لوجود الله بحجة أنه غير مرئي؟ وهذا هو شأن الوحي والرسالة كذلك ..

إن دارس العلوم الكونية حين يدرس الكون يجد أن كل شيء هنا خاضع لنظام

معين، وأن كل الأشياء مكبلة بحكم خاصٍ، لا تستطيع الخروج عليه أو الانحراف عنه، وهذا «الحكم» لا يوجد داخل هذه الأشياء ذاتها، وإنما هو مفروض عليها من الخارج بلا ريبٍ، مما يعني أن العالم يتلقى التوجيهات من «الخارج» لأداء وظيفته، وهذا التوجيه الخارجي يسمى- بالنسبة إلى سائر العالم - ما عدا الإنسان، بـ «القانون الطبيعي»، ويُطلق عليه فيما يتصل بعالم الإنسان اسم الوحي والإلهام .

إن الكون بمثابة ماكينةٍ والقرآن دليل أو مرشد لها، فالأول مثال : تدبير الأمر﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، والأخير مثال : تفصيل الآيات ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ﴾، وبين كليهما يوجد انسجام وتوافق تام، فكل ما يُشاهد في أرجاء الكون عملياً، هو موجود في صحائف القرآن لفظياً، ويُبرهن هذا التوافق والانسجام - في آنٍ واحدٍ - على أمرين اثنين : أولاً: على أن لهذا الكون خالقاً مبدعاً، وثانياً : على أن هذا القرآن كتاب ذلك الخالق نفسه، وليس إبداع العقل الإنساني المحدود! .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

رَوَاسِيَ : جبالاً ثوابت كيلا تميد .

زَوْجَيْن : نوعين وضربين .

يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ : يلبس النهار ظلمة الليل أو العكس .

فالأرض منبسطة وممتدة تحت أقدامنا كفرشٍ طبيعي، تتواجد فيها البحار العميقة من ناحيةٍ ، والجبال الشامخة من ناحيةٍ أخرى، ذلك لتبقى الأرض في حالة توازنٍ دائم، وقد كان ممكناً أن تكون الأشجار منفردةً مستقلةً بعضها عن بعض ، ولكن فيها

أزواجاً، تتكاثر البذور والثمار من خلال عملية التلاقح أو الإخصاب التلقائي بينها . وأرضنا هذه، مع حركتها الانتقالية أو السنوية في مدارها حول الشمس، تدور أيضاً في محورها باستمرارٍ، وهي تتم هذه الدورة في كل أربعٍ وعشرين ساعةً ؛ الأمر الذي يترتب عليه تتابع الليل والنهار.

وأيما شخصٍ يقف عند آياتٍ كهذه وقفة تأملٍ، ويتفكر فيها بجديةٍ، سيجد نفسه مضطراً إلى التسليم بأن هذه الدنيا تحت سلطان مالكٍ مختارٍ قديرٍ، وأنه لم يخلقها عبثاً أو اعتباطاً، بل أنشأها بإرادته وفق تخطيطٍ هادفٍ حكيمٍ، إذْ لم يكن من الممكن البتة أن توجد هذه الروح المعنوية الغريبة في الأرض بدون تخطيطٍ واعٍ !.

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

قِطَعٌ : بقاع مختلفة الطبائع والصفات .

وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ : نخلات يجمعها أصل واحد .

الأُكُلِ : ما يؤكل ، وهو الثمر والحب .

في تفسير هذه الآية رُوى عن السلف أقوال منها ما يلي : قال عبد الله بن عباس: «أرض طيبة، وأرض سبخة، تنبت هذه، وهذه إلى جنبها لا تنبت»، وقال مجاهد :« (إن ذلك) كمثل بني آدم، صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد»، وقال الحسن البصري : «هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم» .

إن في الأرض آيةً عجيبةً تتمثل فيما نشاهد من اختلاف الأشجار والنباتات وتنوع ثمارها طعماً ولوناً وقلةً وكثرةً، رغم كون التربة واحدةً، تُسقى بماءٍ واحدٍ كذلك، إن

هذا تمثيل أرضي للواقع الإنساني، فمن خلال ذلك يتضح لنا أن البشر، وإن كانوا سواء في الظاهر، تصل إليهم جميعاً هداية واحدة، ولكن البون شاسع والفرق عظيم بين إنسانٍ وآخر، فيما يتعلق بالاستفادة من الهداية والانتفاع بها، فمنهم من يهتدي بها، ومنهم من يتصدى لرفضها وإنكارها، ومنهم من لا يتلقى من الهداية إلا أقلها، ومنهم من تزدهر وتتألق حياته كلها بنور الهداية .

﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾

الأَغْلالُ : الأطواق من الحديد .

إن قضية المنكرين للحياة الثانية (أي البعث بعد الموت) غريبة إلى حدٍ بعيدٍ، فالواقع الذي يسلمون بظهوره مرةً، لا يسلمون بظهوره نفسه مرةً أخرى!!

وهؤلاء المنكرون لوقوع البعث كثيراً ما يتعجبون من المؤمنين بعقيدة البعث، ظناً منهم أن الإيمان بالحياة الثانية تسليم بأمرٍ غير علميٍ، ولكن الحقيقة هي أن الوضع على العكس من ذلك تماماً، فإن منكراً ما، مهما توغل في العناد، لا يسعه إلا أن ينكر الحياة الثانية وحدها، وأما ما يتصل بالحياة الأولى، فليس يمكن لأحد أن ينكرها؛ لأنها لا تزال ماثلةً أمام كل شخصٍ كواقع حيٍ ملموسٍ، فلئن كان ممكناً أن تبرز الحياة الأولى إلى الوجود، إذن، فلم لا يمكن أن تبرز الحياة الثانية إلى الوجود كذلك ؟!

وقد كان عدد المنكرين لوجود الله وما يزال قليلاً، بل أقل من القليل في كل العصور، فإن أكثر الناس يؤمنون بوجود خالقٍ، ولكنهم - مع ذلك - لا يؤمنون بالآخرة، غير أنه لا تعود أية قيمةٍ للإقرار بوجود الخالق بعد إنكار الآخرة، إن الله ليس مجرد خالق لهذا الكون فحسب، بل هو حق في ذاته كذلك، وإن كون الله هو الحق كله

والعدل كله، يقتضي - بالضرورة - أن تتسم كل أفعاله بالحق والعدل، والآخرة هي في الحقيقة مظهر العدل الإلهي ولا عبرة بالإيمان بالله، ما لم يقترن به الإيمان بالآخرة كذلك، إذْ لا يكتمل الإيمان بالله بدون الإيمان بالآخرة .

والذين لا يتلقون رسالة الحق الواضحة السديدة بالقبول، فإنما يرجع السبب في ذلك إلى كونهم ضحايا الجمود والتعصب والأنانية، وحين تتحدث إليهم أو تتناقش معهم حول موضوعٍ ما، فسيتضح لك أن القوم أسرى أفكارهم وخيالاتهم الذاتية، لا يطيقون الخروج من إطارها الضيق، حتى يتأملوا في أي حقيقةٍ خارجية بحريةٍ ونزاهةٍ، وقدتم التعبير عن هذه الحالة ذاتها بكون «الأغلال في أعناقهم»، فإن «الغل أو القيد» في العنق علامة العبودية وشارتها، ومعنى ذلك أن هؤلاء عبيد أفكارهم وخيالات أنفسهم، والذين يجعلون من أنفسهم مغلولين مقيدين في الدنيا على هذا النحو، سيكون نصيبهم في الآخرة - أيضاً - القيود والأغلال !

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾

المَثُلاتُ : العقوبات الفاضحات لأمثالهم .

مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ : ستر وإمهال .

لقد كان رسول الله - ﷺ - يقول لأهل مكة : آمنوا بهداية الله، وإلا ستتعرضون لبطش الله وعقابه، فما كان جوابهم إلا أن قالوا : اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً، فأمطر علينا حجارةً من السماء، وقد كان هذا الدعاء على ما يبدو، مرفوعاً إلى الله، إلا أنه كان في الحقيقة موجهاً إلى الرسول، فإنه - ﷺ - كان يبدو لأهل مكة آنئذٍ شخصاً لا يقام له وزن، وكان يتعذر عليهم التيقن من أن الله سيعاقبهم فعلاً فيما لو أنكروا رجلاً عادياً - في نظرهم - كهذا . إن نزول العذاب لقاء إنكار «محمدٍ» كان يتراءى لهم أمراً

بعيداً عن الإمكان ، لدرجة أنهم كانوا يقولون على وجه التهكم والاستهزاء : إننا نود لو ينزل علينا هذا العذاب الإلهي الذي تهددنا به يا محمد بأسرع ما يمكن من الزمان .

فأجابهم قائلاً : إن إنكاركم للحق الذي جئت به لابد أن يجرّ عليكم عذاب الله يوماً، لن يرده عنكم راد، وإنما هي شقاوتكم وحدها التي جعلتكم تستعجلون به، حيث كان ينبغي لكم أن تغتنموا هذه الفرصة، فتستخدمونها في تدبر الدعوة القرآنية واتباعها، وليس في استنزال العذاب قبل موعده.

إن من سنة الله تعالى أنه يتيح للإنسان مهلة العمل، على أن للمهلة حداً لا تتجاوزه، والشيء الذي ينتظرهم وراء هذا الحد ليس سوى العذاب الأليم الذي لن يستطيعوا إنقاذ أنفسهم منه أبداً !.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ﴾

لم يكن لدى أهل مكة مقياس للنبوة سوى مقياس الثروة والسيادة والنفوذ الشعبي، وعلى هذا الاعتبار لم يكن - عليه الصلاة والسلام - يبدو لهم غير عادي، ومن ثم أرادوا أن تكون معه أية آية غير عادية تقوم برهاناً قاطعاً على كونه نبياً مرسلاً من عند الله .. فقيل رداً عليهم : إن هؤلاء يطلبون شيئاً لا يتفق والتدبير الإلهي، ولذا فلا يمكن أن يتاح ذلك لأحد.

لقد أقام الله في كل قوم من أنفسهم رجلاً يبلغ إليهم رسالة الله باللغة المألوفة والمفهومة لديهم، وما كان ذلك إلا بغية التسهيل أو التيسير على تلك الأمم، غير أن هذه الأمم حملت ذلك- في معظم الأحيان- على غير محمله، فلم تلبث أن كذبت برسل الله، حيث ظلت أنظارهم متعلقةً بشخصية الرسول العادية، ولم يتمكنوا من النظر إلى عظم رسالته وطابعها غير العادي!

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾

وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ : ما تنقصه أو تسقطه .

بِمِقْدَارٍ : بقدر واحد لا يتعداه .

الكَبِيرُ : العظيم الذي كل شيء دونه.

المُتَعَالِ : المستعلي على كل شئ بقدرته .

وَسَارِبٌ : ذاهب في سربه وطريقه ظاهراً .

إن بطن الأم مصنع عجيب، ومن بواعث العجب والغرابة في هذا المصنع الإلهي الذي يُعني بإنتاج البشر، أنه يعمل وفق «مقدارٍ معينٍ»، وبالإمكان القول، على حد التعبير العصري الرائج اليوم، إنه لا يزال هناك توازن بين العرض والطلب قائماً بصفةٍ منتظمةٍ ومستمرةٍ .

وعلى سبيل المثال فإن هذا المصنع مازال يعمل ويعمل منذ الآلاف من السنين، ويخرج منه الرجال، كما تخرج النساء، إلا أنه لا يزال بين الجنسين كليهما تناسب عددي ملحوظ، فلا يحدث أبداً أن يبدأ يتولد من هذا المصنع الرجال وحدهم أو النساء وحدهن، وربما تعمل كارثةٌ ما، كالحرب مثلاً، على الإخلال بهذا التناسب العددي على نطاقٍ محلي محدودٍ، ولكن الأمر المثير للدهشة والاستغراب أنه لا يكاد يمضي إلا يسير من الزمن حتى يملأ هذا المصنع الطبيعي ذلك الفراغ الطارئ، ويعيد التناسب العددي بين كلا الجنسين إلى سيرته الأولى من جديد!

وهذا هو الشأن تماماً فيما يتعلق بتوازن الصلاحيات والاستعدادات بين الرجال

والنساء الخارجين من هذا المصنع، حيث تدلنا الدراسات على أن الرجل والمرأة لا يستويان في مواهبهما الفطرية، بل ثمة اختلاف كبير وتنوع هائل بين كفاءات كلٍ من الجنسين، ولهذا التنوع والاختلاف أهمية غير عاديةٍ من وجهة النظر التمدنية، فإن بناء التمدن والقيام على إدارة شؤونه يتطلب أفراداً ذوي كفاءات متنوعةٍ ومختلفةٍ، وعندما نلاحظ أن مصنع الأم لا ينفك يعمل في صمتٍ على إعداد الأفراد ذوي الكفاءات من كل نوعٍ ، يخيل إلينا كما لو أنه يتلقى «طلباتٍ» من الخارج، وبالتالي يقوم بصياغة البشر داخل البطن طبقاً لها، ولو أن الإنتاج البشري لم يعدْ يتسم بهذا التنوع والاختلاف لأصيب النظام التمدني كله بشللٍ، ولأصبحت كل مظاهر الرقي والتطور هباءً .

وإن وجود هذا التخطيط الدقيق في وظيفة بطن المرأة، لدليل حي ناطق بأن وراء ذلك خالقا مدبرا قديراً ، إذْ بدون تخطيط إرادي مسبقٍ لا يتصور أن ينهض نظام كهذا، ويسير بهذا القدر من الدقة والانتظام.

ويثبت من ذلك أيضاً أن خالق هذا العالم ومالكه إله لا يعلم بما هو ظاهر مشهود فحسب، بل هو يعلم الخفي والغائب كذلك، فالله الذي يعلم ظاهر الواحد وباطنه، لم لا يكون مطلعاً على ظاهر الآخر وباطنه؟! كما أن عقيدة الملائكة هي الأخرى تثبت ذلك تلقائياً، ومن ثم فهو بمثابة امتدادٍ لنظام «الرقابة» أو «الإشراف» الإلهي الراهن!

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ : ملائكة تعتقب في حفظه .

مِنْ أَمْرِ الله: بأمره تعالى بحفظه .

مِن وَالٍ : من ناصر أو وال يلي أمورهم .

إن ظاهرة نهوض الأمم وسقوطها في هذه الدنيا لا تحدث على نحوٍ عشوائي أو اعتباطي، بل تحت إشرافٍ من الله -تعالى- وتبعاً لقضائه الأعلى، فحين يغدق الله -تعالى- نعمه على أمةٍ ما، فإنما هو يُديم تلك النعم عليها، ما دامت هي محافظةً على جدارتها بها، وعندما تفقد الأمة جدارتها، تفقد معها بالضرورة ما أتيح لها من النعم الإلهية كذلك، كحرماننا مثلاً مما كان لنا من هيبةٍ ورعبٍ يسود العالم الخارجي بعدما فقدنا الوحدة بين صفوفنا، وما إلى ذلك.

هذا، وإن ما تحصل عليه أمة ما في هذه الدنيا، إنما تحصل عليه بموجب القانون الإلهي، وما تفقده، فإنما تفقده بموجب القانون الإلهي كذلك، فالله - سبحانه وتعالى- وحده هو المعطي وهو المانع ، وليس هناك من أحدٍ سواه يقدر على العطاء أو على السلب!

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾

السَّحَابَ الثِّقَالَ : المحملة بالماء المثقلة به .

شَدِيدُ المِحَالِ : المكايدة . أو القوة . أو العقوبة .

البرق يومض، فيكون تارةً بشيراً بحلول موسم الربيع الجديد، ويتحول طوراً إلى صاعقة تسقط على الأرض فتحرق ما عليها من رطبٍ ويابسٍ، وهكذا حين تتلبد السماء بالسحب الكثيفة، فتنزل على الأرض تارةً بشكل غيث نافعٍ، وتكون أخرى مطراً نذيراً بالطوفان والسيل الجارف .

ومعنى هذا أننا نعيش في عالمٍ ينطوي فيه الشيء الواحد على جانبي الخوف والرجاء معاً، فالشيء الذي يتخذه مدبر أمور الدنيا وسيلةً سوْق رحمته إلى أهل الأرض، يقدر أيضاً على أن يحوله - إن شاء - إلى عذابٍ مدمرٍ، وهذا الوضع يقتضي ألا يحسب المرء نفسه أبداً في مأمنٍ من بطش الله.

والغافلون ينتظرون دوماً ظهور بعض الخوارق والآيات الطلسمية، غير أن الذين يملكون شعوراً حياً وضمائر يقظةً، يجدون فيما حولهم آياتٍ رائعةً من كل نوعٍ ضمن وقائع الحياة اليومية، فلمعان البرق وصاعقة الرعد مما يجعل قلوبهم ترتجف وتنبض بسرعةٍ أكثر، وبرؤية قطرات المطر لا يتمالكون أن تسكب عيونهم سيلاً من الدموع الحارة، والحالة التي تعتري الملائكة، وهم يرون قدرات الله اللانهائية مباشرة، تطرأ الحالة نفسها على الصادقين من الناس وهم لم يروا بعدُ قدرات الله اللانهائية مباشرةً!

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾

لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ: لله الدعوة الحق «كلمة التوحيد».

لو أنك بسطت يدك نحو البحر، وناديت مياهه، فلن يحدث أبداً أن يلبي البحر نداءك، وبالتالي تتدفق المياه من قاع البحر، ثم تتقدم إليك مسرعةً، لتروي غلتك، وتسقي ما تملك من حقولٍ وبساتين .. ولكننا نرى هذا البحر نفسه، إذْ ترتفع مياهه إلى الفضاء، متخليةً عما فيها من أجزاء الملح -وفق قانون الطبيعة- ثم تتحول إلى سحبٍ متراكمةٍ، نتيجة تفاعل الحرارة والجاذبية والهواء، تمتد فوق قريتك، وتتساقط بشكل الماء العذب، فتتبدل أراضيك بجفافها وجدوبتها خصوبةً ونضارةً، ومن هذا نعلم أن البحر، مع كونه عظيماً هائلاً على ما يبدو لنا ظاهراً، إلا أنه عاجز محض، خاضع لإرادة عليا، لا يملك إزاءها أي خيارٍ.

وهذا هو حال كل الأشياء في هذه الدنيا، وفي حالةٍ كهذه فإن العاقل هو الذي يعبد الخالق وحده دون المخلوق، والذي يتخذ من رب الأشياء مركز اهتمامه وتوجهه دون الأشياء ذاتها !!

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾

وَلله يَسْجُدُ : لأمره تعالى ينقاد ويخضع .

وَظِلالُهم : تنقاد لأمره تعالى وتخضع .

بِالْغُدُوِّ : جمع غداة — أو ل النهار .

وَالآصَالِ : جمع أصيل — آخر النهار .

إن مطلوب الله من الإنسان هو أن يخضع أمامه بكل كيانه، وهذا "الخضوع" هو دين الكون بأكمله، فكل شيءٍ خاضع لأمر الله تمام الخضوع، ومن علامات هذا الخضوع ذاته سقوط ظلال الأشياء شرقاً وغرباً في أوائل النهار وأواخره، وكأن ظلال الأشياء هذه تمثل - على المستوى المادي - ذلك السجود المطلوب أداؤه من الإنسان على مستوى الوعي والإرادة، فالأول صورة رمزية للسجدة، والأخير صورة حقيقية لها .

وتدلنا دراسة هذا الكون الفسيح المترامي الأطراف على أن الكون مربوط، بكل ما فيه، بقانونٍ عالمي واحدٍ، وهذا دليل على أن خالقه ومالكه واحد ليس غير، فإن

دراسات الإنسان العلمية وتأملاته العقلية لا تثبت، بأي وجهٍ من الوجوه أن وراء هذا الكون أكثر من قوةٍ واحدةٍ تتصرف فيه، وفي هذه الحالة فإن التسليم بوجود آلهةٍ أخرى غير الله الواحد الأحد لا يعدو أن يكون محض فرض بلا أساسٍ أو دليلٍ يستند إليه !

إن مشاهدة «العين» إنما تخبرنا بوجود الله الواحد لا غير، لذا فالذين يعتقدون بأكثر من إلهٍ واحدٍ، إنما يقيمون الدليل على أنهم عميان، حيث إنهم افترضوا العديد من الآلهة بسبب عماهم، وليس بناءً على أساسٍ من العلم والمشاهدة بالمعنى الدقيق !

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

بِقَدَرِهَا : بمقدراها الذي أقتضته الحكمة .

زَبَداً : هو الغثاء (الرغوة) الطافي فوق الماء .

رَّابِياً : مرتفعاً منتفخاً.

زَبَدٌ : هو الخبث الطافي عند إذابة المعادن .

جُفَاءً : مرمياً به مطروحاً . أومتفرقاً.

لقد أنشأ الله الدنيا بحيث صارت وقائعها المادية تمثيلاً للحقائق الأخلاقية، فكل ما يطلبه الله منا - نحن البشر - على المستوى الشعوري يتم عرضه في سائر العالم المحيط بنا على المستوى المادي .

وقد لفت القرآن انتباهنا هنا إلى ظاهرتين من ظواهر الطبيعة، إحداهما : هي أنه حين ينزل المطر، ويصل ماؤه إلى الجداول والأنهار، فيطفو على وجهه زبد أو غثاء يراه الناظر

ممتداً هنا وهناك، والثانية: حين تُسبك الفضة وغيرها من المعادن في النار لتنقيتها، يعلو خبثها بشكل الزبد، ولكن سرعان ما نلاحظ أن زبد الاثنين، الذي لا ينطوي على أية منفعة للإنسان، يضمحل ويتلاشى في الفضاء، ويبقى الماء الصافي والمعدن الخالص كما هما، بما فيهما من خيرٍ وفائدةٍ للإنسان.

إنها من ظواهر الطبيعة، يُرينا الله تعالى من خلالها، على وجه التمثيل، ما هو المبدأ الذي قرره تعالى للنجاح والفشل في الحياة، ويتلخص ذلك المبدأ في أنه لا يتبوأ في هذا العالم مكانةً ما، إلا شخص أو شعب يقيم الدليل على كونه نافعاً للآخرين، وأما الفرد أو الشعب الذي يفقد صلاحية النفع والإفادة للآخرين، فلا مكان له في دنيا الله هذه!.

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾

وَبِئْسَ المِهَادُ: بئس الفراش والمستقر جهنم.

إن من سنة الله في هذه الدنيا أن الخبث والغثاء، مهما طفا وعلا فوق السطح فإنه بصفةٍ مؤقتةٍ، وأن الشيء الذي يُكتب له البقاء وعلو المكانة هنا، هو الذي كان حقيقياً، ومنطوياً على قابلية النفع والإفادة، وهذا هو شأن البشر تماماً فيما يتعلق بالآخرة كذلك، فقد يمكن أحياناً أن يبرز أناس وتتألق أسماؤهم في هذه الدنيا بناءً على أوضاعهم الإضافية، ولكن لن يتبوأ في الآخرة المكانة العالية إلا الذين يملكون أوصافاً حقيقيةً.

والذين لا يلبون نداء الحق في الدنيا، فإنما يرجع السبب في ذلك دوما إلى ما يتراءى لهم من ذهاب المنافع الدنيوية من أيديهم فيما لو تقدموا نحو الحق الخالص، والثمرة التي يجتنيها أمثال هؤلاء لقاء إعراضهم عن الحق، تتمثل دوماً فيما يتاح لهم من العزة وبُعد الصيت ورغد العيش في الحياة الدنيا، حيث يتخذون من إنكار الحق مطيةً

للوصول إلى المناصب الرفيعة واحتلال المراكز المرموقة . بيد أن هذه الأشياء شأنها شأن الخبث والغثاء، فسيقذف بأمثال هؤلاء كلهم في الآخرة بعيداً، تماماً كما يقذف بالغثاء الطافي المؤقت، وسيبرز ويلمع هناك أولئك وحدهم الذين كانوا قد سلموا أنفسهم للحق بغض النظر عن كل المنافع الوقتية .

والذين يعطون الأوضاع والمراكز والفوائد الدنيوية من الأهمية البالغة ما يجعلهم يعرضون لأجلها عن الحق، ستبدو لهم هذه الأشياء في الآخرة تافهةً لدرجة أنهم يودون أن يدفعوا هذه الدنيا برمتها، ودنيا أخرى مثلها - إن أتيحت لهم - فداءً لأنفسهم للتخلص من العذاب يومئذٍ !

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩) ﴾

ينقسم الناس دوما إلى نوعين : أحدهما : هو الإنسان الذي يفكر بالعقل الذي منحه الله إياه، ويتوصل بالتالي، في ضوء الحقائق، إلى قرارٍ قطعي، والشيء الذي يقتنع به قلبه، نتيجة هذا التفكير المجرد والاستعراض الموضوعي، يختاره عن وعيٍ وإرادة .

أما الآخرون عداه : فهم الذين يدور تفكيرهم في إطار العادات القومية والأفكار التقليدية، والذين يحكمون على الأشياء نظراً للعرف السائد وليس بالنظر إلى الدلائل والبراهين، ثم لا يلبثون أن يختاروا الشيء الذي يرونه مقبولاً شائعاً لدى الجماهير باعتباره أنه هو الحق!!

إن الأول في نظر القرآن هو الشخص الذي يؤمن في ضوء العلم، وفي مقابل ذلك يصف القرآن الشخص الآخر بالأعمى، فإن الأول يعرف الحق من الباطل ببصيرته الذاتية، بينما رأسمال الأخير لا يعدو أن يكون أحاديث مسموعة، فالباطل عنده ما يعده الناس باطلاً، وما يعتبره الناس حقاً، صار هو الآخر ينظر إليه على أنه لا يكون إلا

الحق!!.

وإنما تنهض دعوة الحق للبحث عن أناسٍ يستطيعون أن يحكموا على الأشياء ويتخذوا قراراتهم باستخدام عقولهم أنفسهم، وأما الذين أصبحوا عمياناً، رغم تمتعهم بالأعين، فإن دعوة الحق لن تغني عنهم فتيلاً !.

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾

وَيَدْرَءُونَ : يدفعون ويجازون .

عُقْبَى الدَّارِ : عاقبتها المحمودة ، وهي الجنات .

إن الله خلق الإنسان، فأسكنه في عالمٍ كله روعة وجمال، وما يزال يربيه ويوفر له أسباب البقاء والنماء كل لحظةٍ، إن هذا الواقع يربط الإنسان بخالقه ومالكه برباط عهدٍ فطريٍ، وهو يقتضي ألا يكون الإنسان طاغياً متمرداً على ربه، بل عليه أن يخضع أمامه ويستسلم له معترفاً بالحقيقة الواقعة .

إن حياة الإنسان في هذه الدنيا تعتمد على ضروبٍ شتى من العلاقات والروابط مع الآخرين، ومن مقتضيات عبودية الإنسان ألا يتصل إلا بمن يحب الله أن يتصل به، وينقطع عمن أمر بالانقطاع عنه، ويسيطر عليه الإحساس بعظمة الله وكبريائه بشدة، لا يلبث معها أن يخضع له تعالى بكل كيانه، والصلاة هي إحدى الصور المعينة لهذا

الخضوع ذاته، وأن يعطي للآخرين مما يملك هو، تماماً كما أعطاه الله تعالى مما يملك، وأن يقابل إساءة الآخرين إليه بالإحسان إليهم، لأنه يرغب هو الآخر في أن يصفح الله عن سيئاته في الآخرة ويتغمده بفضله ورحمته الواسعة .

وكل هذا يتطلب الصبر الطويل المستمر ؛ الصبر في مواجهة الدوافع النفسانية، والصبر على ضياع المنافع الوقتية العاجلة، والصبر على الضغوط القاهرة المفروضة من البيئة أو المجتمع.. إلخ، إلا أن المؤمن لابد له من الصبر على هذه الأشياء كلها لأجل الجنة، فإن الصبر هو ثمن الجنة، وبدون دفع هذا الثمن لن يظفر أحد بجنة الله الأبدية !

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

سُوءُ الدَّارِ : عاقبتها السيئة ، وهي النار .

وَيَقْدِرُ : يضيقه على من يشاء لحكمة .

مَتَاعٌ : شيء قليل ذاهب زائل .

الإنسان مربوط بربه برباط عهد الفطرة، وبالآخرين من بني جنسه برباط عهد الآدمية ونقض هذين العهدين كليهما مثار الفساد في أرض الله، وعيشك في أرض الله صالحاً مصلحاً يعني أن تمارس حياتك فيها ملتزماً بكلا العهدين المذكورين، وأما كون المرء مفسداً في أرض الله، فهو أن يتحرر من هذين العهدين ويطلق لنفسه العنان، فلا يبالي بما عليه من حقوق الله ولا من حقوق العباد .

وأمثال هؤلاء ملعونون عند الله، فلن يتاح لهم نصيب ما من رحمات الله ؛ إنهم أناس

لوثوا أرض الله بالأقذار، ولذا فلا يستحقون في الآخرة إلا أن يُزج بهم فى أسوأ دار .

إن أرزاق الناس في هذه الدنيا تتفاوت بين بعضٍ وآخر، فمنهم من يحصل على الكثير، ومنهم من لا يحصل إلا على القليل، أما المكثر فكثيرا ما يُصاب بمركب الاستعلاء، بينما يعاني المقل من مركب النقص، إلا أن كليهما خاطئ عند الله على حدٍ سواء، وإنما الموقف أو رد الفعل الصحيح هو أن يكون المرء شاكراً لله إذا ما وُسع عليه، ويتمسك بالصبر والقناعة إذا ما ضيق عليه .

المحبون للدنيا يقابلون داعية الحق دوماً بالإعراض عنه والاستهانة بأمره، والسبب في ذلك هو أن المحب للدنيا إنما يعرف مظاهر العظمة الظاهرية، وبما أن الداعي لا يملك سوى العظمة المعنوية وحدها، فلا يتمكن من معرفتها وتقديرها كما ينبغي، وإنما يهملها ويصرف نظره عنها باعتبارها شيئاً حقيراً لا يستحق النظر إليه، ولكن حين يتمزق الحجاب عن وجه الحقيقة فسوف يعلم الإنسان –وقتئذ– أن المباهج المرئية التي كان قد اعتبرها كل شيء لم تكن تحمل أي قيمة تذكر ، وإنما الشيء الذي كان يتمتع في الحقيقة بالقيمة والأهمية البالغة هو الذي لم يكد يتحول إلى مركز اهتمامه وتوجهه لكونه خارجاً عن دائرة المرئيات !.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

أَنَابَ : رجع بقلبه إلى الله .

طُوبَى لَهُمْ : عيش طيب لهم في الآخرة .

وَحُسْنُ مَئَابٍ: حُسن مرجع ومنقلب .

إن هذه الدنيا دار امتحانٍ ، وإنما يسع المرء هنا أن يظفر بالقرب من الله على مستوى «الذكر»، وليس في مقدوره أن يظفر بهذا القرب منه تعالى على مستوى «المشاهدة»، وسيظفر بالله من يرضى بهذا التدبير الإلهي، ومن لم يرض بذلك لا يزال محروماً من الظفر بقرب الله تماماً، كما يُحرم من رؤية الشمس الشخص الذي يلح على رؤيتها بالعين العارية.

وإنه لا يُكتب التوفيق والنجاح في هذه الدنيا إلا لشخصٍ يسلم بمنهج الله، وبالتالي يصوغ حياته العملية وفقاً له ؛ لأن مبدع العالم هو الله تعالى وحده، وليس أحدا من البشر!

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾

وَإِلَيْهِ مَتَابِ : إلى الله وحده مرجعي وتوبتي .

إذا كانت هذه الدنيا دار امتحانٍ، فإن ذلك يقتضي - بطبيعة الحال - أن يُحكم على الناس بالقضاء الحاسم بعد إراءتهم الآيات الحسية، والآن فلو أن الله بادر بإظهار آيةٍ حسيةٍ على الفور، بحسب طلب الناس، ظل الناس - مع ذلك - مصرين على الجحود والإنكار، فإنهم سيصبحون بعدئذٍ أهلاً للهلاك والدمار، غير أن هذه من عنايات الله الرحمن الرحيم الخاصة، أنه لا يظهر الآيات الحسية رغم إلحاح الناس في طلبها، بل ما يزال يبلغ إليهم رسالة الحق في لغة النصح والدليل، وهكذا تتاح للناس المهلة إلى أقصى حدٍ ممكنٍ، ليقوموا بإصلاح أنفسهم فيستحقون رحمات الله .

وينبغي على الداعي - والحالة هذه - ألا يقع فريسة القلق أو الانزعاج بسبب مطالبات الناس السخيفة الحمقاء، وأن يظل يدعوهم إلى الله راضياً بمنهجه الحكيم.

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾

أَفَلَمْ يَيْأَسِ: أفلم يعلم ويتبين .

قَارِعَةٌ : داهية تقرعهم بصنوف البلايا .

فَأَمْلَيْتُ : أمهلت في أمن ودعة .

السبب الأصلي في إنكار الحق لا يرجع إلى فقدان الدليل، بل إلى حرية الإنسان هذه التي تؤهله ليؤمن إن شاء أو يرفض إن شاء، ولن يعجز الإنسان أبداً عن افتعال بعض الأعذار أو المبررات لإنكار أي شيء، مادامت حرية الإنكار متاحةً له .

فلو أنك عرضت عليه دليلاً مؤلفاً من الألفاظ، لعارضه استناداً إلى مجموعةٍ أخرى من الألفاظ المضادة لذلك، وإن لفت انتباهه إلى الآيات المنبثة في أرجاء الكون، فلن يلبث أن يلجأ إلى أي تفسيرٍ مزعومٍ للرد عليك، حتى وإن سيّرت الجبال، وقطعت الأرض، وأحييت الموتى، فإنه لن يمنعه شيء عن القول بأن هذا ليس إلا سحراً .

وقد يحدث أحياناً أن بعض المنكرين يطالب الداعي بالدليل في ظاهر الأمر، إلا أنه يرمي حقيقةً إلى السخرية والاستهزاء به، حيث إنه يريد إشعار الناس بأن الشيء الذي يعرضه هذا الرجل ليس من الحق في شيءٍ، إذْ لو كان حقاً في الواقع، لكان يصحبه دليل يضطر معه الجميع إلى الإيمان به رغم أنوفهم .

لقد أتاح الله للناس المهلة ؛ مما جعل قلوبهم خالية من الخوف والرهبة، ولكن حين

تنقضي المهلة المتاحة، ويبطش الله بالناس بغتةً، فسيدرك المرء حينئذٍ كم كان عاجزاً عديم الاختيار، وإن كان يزعم نفسه صاحب الاختيار المطلق !.

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

وَاقٍ : حافظ وعاصم .

تدلنا الدراسات على أن في الكون نظام تسجيلٍ، فكل ما ينطق به المرء، أو يفعله يتم تسجيله فى الحال تحت النظام الكوني، ومن ثم فلا يصح أن نؤمن بإله لهذا الكون إلا أن يكون إلهاً يتصف بصفتي «السمع» و«البصر»، غير أن جميع الآلهة التي افترضها المشركون حتى الآن لا يقدر أي واحدٍ منها على السمع ولا على الرؤية، إذن، فكيف يمكن أن تكون هذه الآلهة المزعومة خالقةً ومالكةً لعالمٍ بديعٍ مثل كوننا الحالي!! فالذي ليس في مقدوره أن يسمع أو يبصر بنفسه، كيف يتسنى له أن يوجد في مخلوقاته حاسة البصر أو يزودها بصلاحية الرؤية والإبصار؟! . وهكذا فإن كوننا هذا يتسم بالوحدة في كل شيء لدرجة أنه لا يسيغ أو يتقبل الشرك بأي وجهٍ من الوجوه، فلتسم أي شريك شئت، تجد الكون كله يرفض التسليم به رفضاً باتاً !

وقوله :﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ ﴾ المراد بالمكر هنا هو «قولهم»، الذي سبقت إليه الإشارة في هذه الآية، فكلما يقابل المرء الحق بالإنكار، فإن عقله لا يلبث أن يخترع أى قولٍ من الأقاويل تبريراً لإنكاره، ومع أن هذا القول لا يعدو أن يكون مجموعة من الألفاظ الفارغة، إلا أن الذين لا يأخذون أمر الحق بالكثير أو القليل من الجدية، يحسبون أنهم قد أثبتوا - بنطقهم بألفاظٍ كهذه - صواب موقفهم، حتى ولو كانت

ألفاظهم المنطوقة لا تحمل أية قيمة تُذكر خارج مخيلاتهم .

إن ألفاظاً كاذبةً كهذه لا يمكن أن تساند أحداً إلا في العالم الراهن وحده .

﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾

أُكُلُهَا دَائِمٌ : ثمرها الذي يؤكل لا ينقطع .

إن ثمن الجنة هو التقوى ؛ يعني سيطرة الإحساس القوي الشديد بعظمة الله وجلاله على المرء، بحيث لا يلبث أن يتحول إلى خوفٍ يستقر في أعماق قلبه، والذين يخافون من الله في الحياة الدنيا، هم أولئك الذين سيتم إسكانهم في دور الآخرة، تلك التي لا يُقلق بالهم فيها أي نوعٍ من الخوف ولا الحزن، وستحيط بها حدائق غناء وبساتين خضراء تزيدها روعةً وبهاءً إلى روعتها وبهائها .

أما الذين يعيشون في هذه الدنيا غير خائفين، فسيكون حالهم على العكس من ذلك تماماً، حيث إنهم سيجدون أنفسهم في الآخرة في عالم النار!

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

وَإِلَيْهِ مَآبِ : إلى الله وحده مرجعي للجزاء.

عندما نزل القرآن الكريم انقسم اليهود والنصارى بشأنه إلى طائفتين : فالذين كانوا يخافون الله، وكانوا مستمسكين بتعاليم سيدنا موسى وعيسى - عليهما السلام -

الصادقة، اعتبروا القرآن صوت قلوبهم، وبالتالي لم يلبثوا أن تلقوه بالقبول عن رضا وسرورٍ واقتناعٍ، إلا أن الذين كانوا يعدون العصبية والتحزّب ديناً، لم يوفقوا لمعرفة الحق القادم من الخارج، أي من خارج الإطار التقليدي المألوف لديهم، فتصدّوْا لمعارضته وعرقلة مسيرته .

والذي ينبري لمعارضة الحق انسياقاً مع دواعي العصبية والتحزب، إنما يتبع أهواءه، متخلياً عن الله وأوامره ، ومن ثم لا يجوز للداعي أن يتناول دعوة الحق بشيءٍ من التعديل أو التبديل مراعاةً لخواطر أناسٍ كهؤلاء، بل يجب عليه أن يثبت على الحق النقي الخالص قولاً وفعلاً، فإن المطلوب منه بإزاء أمثال هؤلاء، إنما هو الاستقامة وليس التفاهم أو المصالحة .

وإنه لأمر خطير جداً أن يظل المرء أسير شهواته منقاداً لأهوائه، حتى بعد أن وصل إليه علم الحق بلغةٍ واضحةٍ ومفهومةٍ لديه، فإنه صنيع يتسبب في حرمان المرء كلياً من نصرة الله وعونه!

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ: لكل وقت حكم معين بالحكمة .

أُمُّ الكِتَابِ : اللوح المحفوظ أو العلم الإلهي .

إن الأنبياء المبعوثين من عند الله، كانوا كلهم بشراً كالبشر العاديين، وكان لهم حاجات وعلائق دنيوية مثل غيرهم تماماً من أزواج وذرية وغير ذلك .

والمراد بـ «أم الكتاب» هنا هو السجل أو الصحيفة الأصلية المحفوظة عند الله تعالى،

والتي تتضمن كل ما يريده الله من عباده من أمور الهداية المبدئية، وقد كانت كتب الأنبياء التي نزلت في مختلف العصور مأخوذة من أم الكتاب ، وقد أنزل الله كتبه هذه تارةً في لغةٍ، وطوراً في لغةٍ أخرى، وجاءت مضامينها حيناً في صيغة التمثيل، وعُرضت حيناً آخر بأسلوبٍ مباشرٍ، وقد ألقيت مسئولية الحفاظ عليها، بعد نزولها، على عواتق البشر تارةً، وقد ناط الله هذه المسئولية بنفسه تارةً أخرى !!

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ ﴾

لاَ مُعقِّبَ لِحُكْمِهِ : لا راد ولا مبطل له .

إن عاقبة عدم القبول بدين الله مما يواجهه المرء عادةً في الآخرة، إلا أن الشعب المخاطب للرسول مباشرةً، إذا هو قابل دعوة النبي بالرفض والإنكار والعناد، فلا يلبث أن يلاقي أسوأ العواقب على ذلك في هذه الدنيا .

بيد أن هذا العقاب الدنيوي لا يجري دوماً على نمطٍ أو منوالٍ واحدٍ، بل ظل يأخذ أشكالاً وصوراً شتى في مختلف عصور الأنبياء، وقد ظهر قضاء الله الحاسم هذا بالنسبة لنبي آخر الزمان - ﷺ - بناءً على مصالح خاصةٍ، بحيث أتيح لأتباع النبي الغلبة والانتصار الكامل على منكري النبي - ﷺ - ففي أواخر العهد المكي، عندما كان رؤساء مكة قد بلغوا في إنكاره ومعارضته - عليه الصلاة والسلام - كل مبلغٍ، كانت دعوة الإسلام، في الوقت نفسه، تنتشر في المدينة وبين القبائل المجاورة لمكة، مما يعني أن قوة الإسلام الدعوية كانت تزحف نحو مكة فاتحةً أطرافها، لقد ظهرت سنة الله، بالنسبة لنبي آخر الزمان - عليه الصلاة والسلام - في صورة الفتوح أو الانتصارات

الدعوية.

كانت الأمم السابقة تحاول المكر بأنبيائها، إلا أن الله هو خالق هذا المكر، فلا يضر إلا بإذنه، وفي الآخرة سيعلم هؤلاء لمن تكون العاقبة ولمن الخسران .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

في الوقت الذي يثير فيه عبدة الظواهر ألواناً شتى من الشكوك والشبهات عن صدق الداعي إلى الحق لعدم رؤيتهم لديه آياتٍ (ماديةً) تدعمه وتؤديه، في الوقت نفسه تتوفر هناك آيات معنوية تنطوي على تصديقه، فإن الصدق هو في ذاته دليل على ذاته، غير أن استشعار ذلك لا يتسنى إلا لشخصٍ يكون قد اكتسب القدرة على رؤية الحقائق مروراً بالظواهر، وأما الذين وقفت أنظارهم عند حدود الظواهر، وتعلقت بها أبصارهم، فسينكرون الحق باعتباره مجرداً من الدليل، على حين أنه سيكون فيما حولهم، وفي نفس الوقت، عدد لا يُحصى من الأدلة والبراهين شاهدةً على صدقه !

سورة إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾

بِإِذْنِ رَبِّهِمْ : بتيسيره وتوفيقه لهم أو بأمره .

العَزِيزِ : الغالب ، أو الذى لا مثل له .

الحَمِيدِ : المحمود المثني عليه .

وَوَيْلٌ : هلاك ، أو حسرة ، أو وادٍ في جهنم .

يَسْتَحِبُّونَ : يختارون ويؤثرون .

وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً : يطلبونها معوجة أو ذات أعواج .

إن الإيمان هو أن يظفر المرء برضا الله كواجب للوجود القوى والطاقات كلها، ويتصف بكل الصفات الحميدة، وإن واقعاً كهذا لا يكون بالنسبة للإنسان عقيدة رسمية فارغةً ، إنه يعني خروج المرء من ظلام الجهل إلى نور العلم، وإدراكه للآخرة مع كونه لم يفارق الدنيا بعد، إن الإيمان من حيث حقيقته اكتشاف شعوري واعٍ، وليس تكراراً عقيماً جامداً لأية مجموعةٍ من الألفاظ والعبارات، وإنما يأتي كتاب الله ليبلغ بالمرء هذه الدرجة الرفيعة من الوعي والشعور .

وربط الهداية بـ ((إذن الله))، عزو لأمر الهداية - على ما يبدو - إلى الله تعالى . غير أن هذا الكلام موجه حقيقةً إلى الإنسان نفسه، فإن المراد بـ ((الإذن)) هنا ذلك القانون الإلهي الذي قرره الله تعالى لاهتداء الإنسان وضلاله، وبموجب هذا القانون يكون الشرط الوحيد الذي من شأنه أن يضمن وصول المرء إلى الهداية، هو طلبه الجاد، ليس غير، فالذي يظفر بالهداية في هذه الدنيا، لا يظفر بها بمحض الجهود الدعوية يبذلها أحد الدعاة، وإنما هو يظفر بها بحكم القانون الإلهي، وقانون الله يقتضي ألا يصل إلى الهداية إلا الشخص الطالب للهداية الجاد في طلبها، وبدون هذا الطلب الذاتي الجاد لا ولن يظفر أحد بالهداية أبداً .

وقد جعل الله طريق الهداية واضحاً ومضيئاً إلى أقصى الحدود، فالأرض والسماء تملأهما الآيات والمعالم المشيرة إليه، وكتاب الله يوفر أدلة وبراهين لا تُجحد، والفطرة الإنسانية لا تزال تشهد لصدقه وحقانيته، مما يعني أن كل القرائن الطيبة متضافرة لتأييده ؛ إذن، فإن الذين لا يختارون طريق الهداية، والحالة هذه، فإنما يفعلون ذلك حرصاً على المصالح الدنيوية، وليس بناءً على أي سببٍ واقعيٍ، ومع أن أمثال هؤلاء يقدمون أيضاً بعض الدلائل إثباتاً لصواب موقفهم، إلا أن هذه الدلائل لا تعدو أن تكون نتيجة لالتماس العوج في أمرٍ سديدٍ مستقيمٍ، وهم لا يقدمونها إلا تبريراً لعنادهم وتماديهم في الإنكار في أعين الناس .

وفي هذه الحالة فلن يُحرم من الهداية إلا شخص جعله حبه للمنافع العاجلة، وانغماسه في الملذات الدنيوية أعمى وأصم !!

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

إن من سنة الله -تعالى- أنه يبعث الرسل من الشعب المدعو نفسه ؛ لكي يقوموا بدعوة الناس إلى الحق مراعين نفسياتهم وباللغة المفهومة لديهم، ولكن الأمر المثير

للدهشة أن الإجراء الذي تم اتخاذه لخير الإنسان، لم يلبث أن خرجت منه نتيجة عكسية؛ فعندما وجدوا أن النبي رجلاً مثلهم، يتحدث إليهم بلغتهم المألوفة لديهم، قابلوه بالرفض والإنكار باعتباره عادياً .

وليس من سنن الله الكونية أنه -تعالى- يستعمل أمورًا غير واقعية أو غريبة لاجتذاب أنظار الناس إليه، أو يبعث إلى أمةٍ ما برسولٍ يتحدث إليها بلغةٍ غريبةٍ، أو أسلوبٍ طلسمي غامضٍ، ليوقعها في الحيرة والاندهاش، ولا يعمد الله تعالى إلى خرق العادات لكون الناس مولعين بالعجائب والغرائب، إن منهج الله هو منهج اليسر والواقعية، فلقد أنشأ الله تعالى دنياه على أساسٍ من الحقائق، وهو بالتالي يسيّر خطة هداية الإنسان هي الأخرى على أساسٍ من الحقائق دون الطلاسم والألغاز .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾

بِأَيَّامِ الله : بنعمائه أو وقائعه في الأمم الخالية .

المراد بـ «آيات الله» الآيات المنبثة في أرجاء الكون الدالة على حقيقة الأمر الإلهي، وأما «أيام الله» فقد أريد بها وقائع التاريخ الخالدة، تلك التي ظهر عندها قضاء الله، فانتصر الحق على الباطل انتصاراً ظاهراً بنصرةٍ من الله خاصة، ولئن كان أحدهما دليلاً كونياً، فإن الآخر دليل تاريخي .

وفي التذكير بأيام الله آيات ودلالات لكل عبد صابر على طاعة الله وبعيد عن معاصيه، وشكور لنعم الله، وإنما خص الصبار الشكور ؛ لأنه هو الذي يعتبر بها ولا يغفل عنها .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى

ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

يَسُومُونَكُمْ : يذيقونكم ويكلفونكم .

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ : يستبقون بناتكم للخدمة .

بَلاءٌ : ابتلاء بالنعم والنقم .

تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ : أعلم إعلاماً لا شبهة معه .

إن خطاب سيدنا موسى ﷺ المشار إليه في هذه الآيات، هو خطابه الذي ألقاه – في أغلب الظن – قبيل وفاته بأيام بين يدي بني إسرائيل وهم في برية سيناء، ولقد ورد هذا الخطاب بالتفصيل في سفر التثنية من التوراة المتداولة اليوم .

وفحوى خطاب موسى ﷺ المفصل هذا : إنكم لئن عشتم في هذه الدنيا ربانيين ؛ همكم في الحياة أن تذكروا الله كثيراً وتسبحوا بحمده أينما كنتم، فستكون أشياء الدنيا كلها معكم، وستنظر أمم الأرض قاطبةً إليكم نظرة تهيبٍ وإجلالٍ، وسيخضع الله أعداءكم جميعاً، وحتى لو أن البحر اعترض طريقكم يوماً، فسينشق البحر بإذن الله ليفسح لكم الطريق، بينما تبتلع أمواج البحر نفسه أعداءكم عن آخرهم !!

وعلى العكس من ذلك فإن لم تفعلوا هذا، فستصبحون عند الله ملعونين، أي تُطردون من رحمات الله، وسيأكل الآخرون محاصيل جهودكم، وسيفسد كل أمرٍ من أموركم، وبالتالي تعودون مغلوبين على أمركم، تتسلط عليكم الشعوب الأخرى فكرياً وعملياً .

وقانون الله هذا ليس ((لليهود)) بالمعنى المعروف، بل هو عام شامل لكل شعبٍ مؤتمنٍ على كتاب الله، فأيما شعبٍ كان حاملاً الكتاب الإلهي، يعامله الله تعالى هذه

المعاملة، سواء أكانوا حملة الكتاب فيما مضى أو حملة الكتاب في الحاضر !

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ: عضوا أناملهم من الرسل وكلامهم .

مُرِيبٍ : موقع في الريبة والقلق .

إنها قصة واحدة، تكرر حدوثها مع أنبياء الله قاطبةً، على اختلاف العصور والأمم التي بعثوا فيها، حيث تصدت كل أمةٍ لمعارضة رسلها، وبذلت الجهود في كل مكان، ودبرت صنوف المكائد لتكميم أفواههم وكبت أصواتهم .

ترى ماذا كان السبب وراء ذلك ؟ إن سبب ذلك كان يكمن في «شك» تلك الأمم، وكان الباعث على هذا الشك أنهم وجدوا أنفسهم بين أمرين متقابلين : فمن ناحيةٍ كان أمامهم دياناتهم الآبائية التي كانت تحمل على ظهرها أسماء الأكابر والعظماء المبجلين، ومن ناحيةٍ أخرى كان النبي الذي جاء يقدمه إليهم – على ما يبدو – رجل عادي، وقد كان دين النبي تصحبه قوة الدلائل والبراهين الساطعة، إلا أن الأمجاد التاريخية وحشود الجماهير الغفيرة كانت مع الدين الآبائي، فبينما وجد المخاطبون للنبي أنفسهم عاجزين كل العجز عن مقاومة الأدلة المصاحبة لدينه، تعذر عليهم أيضاً أن يفهموا كيف يمكن اعتبار أولئك الأكابر والعظماء خاطئين ؟!، ومن هنا فقد تسبب هذا الوضع المزدوج في إصابتهم بداء الشك والارتياب، ومع كونهم ظلوا - عملياً - مرتبطين بالدين الآبائي، إلا أنهم لم يتمكنوا من تحرير قلوبهم وعقولهم من الشك والارتياب كذلك !

﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن

تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

فَاطِرِ : مبدع وخالق .

بِسُلْطَانٍ : حجة وبرهان على صدقكم .

تتعلق هذه الآية أصلاً بالشعوب القديمة، ولكن من مزايا القرآن الكريم أنه يعرض تعاليم الله الأبدية بصوغها في قالب التاريخ، وللسبب ذاته يستخدم القرآن كلمات وتعابير تناسب الأجيال اللاحقة من البشر تماماً، إلى جانب كونها مناسبة للرعيل الأول.

ومن أمثلة ذلك كلمة «فاطر» الواردة في هذه الآية، ومعنى الفاطر - في أصل اللغة: «هو الذي يفتق أو يشق» ، ومع أنه قد استعمل هنا بمعنى الخالق المبدع حسب المفهوم الشائع عموماً، إلا أننا لو أخذنا بالترجمة الحرفية للكلمة، فسيكون معنى الآية : أفي الله تشكون - أيها الكفار - الذي شق السموات والأرض وفتقهما (ويؤيد هذا المعنى ما ورد في الآية ٣٠ من سورة الأنبياء : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ ، وهذه الآية بمعناها الحرفي المذكور آنفاً، تقيم الدليل على وجود الله لملاحدة العصر الحديث، حيث تدل الأبحاث والكشوف الفلكية الجديدة على أن مادة الأرض والسماء كانت بدايةً في صورة كتلة جامدة سليمة، تُعرف بالمادة العليا (فوق العادة)، وكانت كل أجزائها إذْ ذاك - طبقاً لمعلوماتنا عن القوانين الطبيعية الثابتة - منضمةً متداخلةً بعضها مع بعضٍ بمنتهى القوة، وقد وُجد هذا الكون الفسيح المترامي الأطراف نتيجة انفجارٍ عظيم حدث في نفس هذه المادة فوق العادة، وكلمة «فاطر» في هذه الآية تتضمن الإشارة إلى هذا الحدث الكوني الذي يقوم دليلاً قطعياً على وجود خالقٍ للكون، فإن أجزاء المادة فوق العادة التي كانت منكمشة ومشدودة بمجموعها إلى الداخل، لم تكن لتتحرك، وتتمدد نحو الفضاء الخارجي

تلقائياً أو اتفاقاً، بل يستلزم ذلك - بالضرورة - أن نسلم بأن هناك قوة عليا هي التي صنعت ذلك الأمر وهي مظهر من مظاهر وجود الله تبارك وتعالى .

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

حين رد مخاطبو الرسل على الأنبياء المعاصرين لهم قائلين : إن أنتم إلا بشر مثلنا، فلم يكن الباعث على ذلك يكمن في كونهم - حقيقةً - يرون ضرورياً أن يكون النبي من غير البشر، بل إنما كان السبب في ذلك يرجع في الحقيقة إلى ذلك الفرق الذي كان يتراءى لهم، بحسب تصورهم أنفسهم، بين النبي السابق والنبي المعاصر .

فمع أن النبي السابق كان في عصره تماماً مثلما كان غيره من الأنبياء في عصورهم، ولكن بعد مضي أحقابٍ من الزمن، لم يلبث أتباع الأنبياء السابقين أن نسجوا حولهم هالةً من القصص والأساطير الطلسمية، فقد صُبغت شخصيات الأنبياء، خلال العصور اللاحقة، بصبغةٍ أسطورية لم تكن موجودة لديهم في بداية الأمر، والآن، فقد كان بين يدي الشعوب من جانب النبي صاحب الشعوذات والخوارق الفرضية، ومن جانبٍ آخر نبي الواقعات الحقيقية، وقد أسفرت هذه المقارنة عن صيرورة النبي السابق كنموذجٍ مثاليٍ معياريٍ للنبوة والرسالة، وفي ضوء هذا المعيار عندما نظرت الشعوب إلى نبي العصر الحقيقي بدا لهم دون نبي الماضي الأسطوري شأناً، مما جعلهم يقابلونه بالإهمال واللامبالاة باعتبار شأنه شأن البشر العاديين .

فقال الرسل لمخاطبيهم: إننا لا نملك، إزاء أقاويلكم هذه، غير الصبر وحده، إنكم تطلبون الهداية على المستوى غير البشرى، في حين أن الله لم يخولْنا سوى قوة الهداية على

المستوى البشري، فهل يسعنا أن نفعل شيئاً، والحالة هذه، إلا أن نتحمل أذاكم، ونكل هذا الأمر كله إلى الله عز وجل !

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾

خَافَ مَقَامِي : موقفه بين يدي للحساب .

إن دعوة الأنبياء كانت تمثل ضربةً قاضيةً على دين شعوبهم التي بُعثوا فيها، كما أن الأفراد الذين كانوا قد خلعوا عليهم لقب (أكابر الأمة)، بدؤوا يتحولون إلى (أصاغر) وفق تحليل الأنبياء، الأمر الذي جعلهم يتذمرون على الأنبياء، ومع كونهم عاجزين عن الرد عليهم بواسطة الدليل، إلا أنهم كانوا حائزين على كل نوعٍ من الخيار في ظل النظام السائد وقتئذٍ، ومن ثم فقد سولت لهم عقليتهم الطاغية المتجبرة أن يجعلوا النبي شريداً، بإخراجه من مسكنه الذي يأوي إليه، ونفيه من الأرض التي يستقر فيها، فالشيء الذي عجزوا عن مقاومته بمنطق الدليل، إذا بهم قرروا مقاومته باستخدام وسائل القوة والعنف.

إن الأرض المتوفرة لدى المرء، إنما هي أتيحت له على وجه الامتحان وليس على وجه الاستحقاق، ولو أن المرء نظر إليها على أنها ملك الله، خوّله إياها بغرض الامتحان، لتولدت بذلك في داخله نفسية التواضع، وسيكون خائفاً من أن الله الذي وهب له ذلك، عسى أن ينتزعه من يده، غير أن الغافلين يعتبرونه حقاً ذاتياً لهم، وإحساسهم هذا هو الذي يجعلهم يظلمون ويتكبرون في الأرض .

وحين تنتهي دعوة النبي إلى نقطة كما لها، فإن ذلك يكون، بالنسبة إلى الشعب المخاطب (المدعو) مرادفاً لانتهاء مهلة الامتحان، ويجد هؤلاء بعدئذٍ الدنيا من حولهم

قد تغير فيها كل شيء، حيث يفاجئون بإدبارها عنهم وقد كانت مقبلةً عليهم من قبل، وتنفلت كل تلك الأشياء من أيديهم، التي كانوا يحيكون مؤامراتٍ عدوانيةً طاغيةً باعتبارها أشياءهم الذاتية، حتى يحين الوقت الذي تنتزع فيه الأرض منهم انتزاعاً، ويتم إعطاؤها لأناسٍ، هم أكثر منهم أهليةً للتمكين فيها وأجدر بإعمارها !

﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿١٧﴾ ﴾ .

وَاسْتَفْتَحُوا : استنصر الرسل بالله على الظالمين .

وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ : خسر وهلك كل متعاظم متكبر .

عَنِيدٍ : معاند للحق مجانب له .

صَدِيدٍ : ما يسيل من أجساد أهل النار .

يَتَجَرَّعُهُ : يتكلف بلعه لحرارته ومرارته .

وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ : يبتلعه لشدة كراهته ونتنه .

إن أكبر جريمةٍ عند الله، يرتكبها أحد الناس، هي أنه إذا دُعي إلى الله، يقابل تلك الدعوة بجبروت وعناد، ولأمثال هؤلاء هوان في الدنيا، وعذاب في الآخرة شديد، بحيث يجدون أنفسهم كل لحظةٍ على حافة الموت والدمار . وحين يتخذ المرء موقف الظلم والطغيان إزاء أحدٍ، فإنما يفعل ذلك اعتماداً على شيءٍ ما، وقد كان هؤلاء المعارضون يزعمون أنهم على دين «الأكابر»، وبالمقابل كان النبي وأتباعه يبدون لهم «أصاغر»، إن نفسية القوم هذه هي التي حثتهم على أن يستحلوا لأنفسهم ممارسة كل نوعٍ من الظلم والعدوان على النبي وأصحابه، وأنه بسبب انتمائهم إلى «الأكابر»- في زعمهم- تجرؤوا على اتخاذ الإجراءات العنيفة من كل نوعٍ ضد «الأصاغر» !

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

يَوْمٍ عَاصِفٍ : شديد هبوب الريح .

إنك لتجد ألواناً من المظاهر الدينية تقام لدى أولئك الذين أدركوا الدين متأثرين بالتقاليد والعادات القومية، بل ربما تجدهم يقيمون الدنيا ويقعدونها باسم الدين، على أن هذا لا يعدو أن يكون تديناً شكلياً ولا علاقة له بجوهر الدين وحقيقته الأصلية، ولكن الشيء المطلوب عند الله هو التدين الحقيقي وليس صخب الطقوس الظاهرية الفارغة .

الإنسان المطلوب عند الله هو الذي ظفر بالحق على مستوى الشعور الذاتي، والذي شاهد الله وهو في عالم الغيب، والذي عرف الحق في صورته المجردة فانضوى تحت لوائه، والذي انغمست روحه في بحر الله، واضطرب قلبه بحب الله، وسكبت عيناه دموعاً غزاراً من خوف الله .

إن تدين الصنف الأول من الناس تدين سطحي فارغ، وسوف تطيره عاصفة القيامة تماماً، كما تتطاير أهباء الأرض عند هبوب الريح الشديدة، أما تدين الصنف الأخير من الناس فهو تدين حقيقي، وهو يكون كامناً مندمجاً في أعمق أعماق الوجود الإنساني، بحيث يصير جزءاً لا يتجزأ منه وإنما تهب العواصف، بالنسبة لوجودٍ كهذا، لتثبت صموده ورسوخ دعائمه، دون أن تقتلع جذوره فتطير به حيث شاءت .

إن دراسة الكون تدلنا على أن إيجاده تمّ على أساسٍ من الحقائق، وفي كونٍ كهذا، لا يمكن أن تكون أية قيمة إلا للعمل الحقيقي وحده، وليس للافتراضات والأماني

المحضة!

﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) ﴾

وَبَرَزُوا : خرجوا من القبور للحساب .

مُّغْنُونَ عَنَّا : دافعون عنا .

مَّحِيصٍ : منجى ومهرب ومزاغ .

إن الإنسان، مع كونه في الواقع «بين يدي الله» كل لحظةٍ، إلا أنه لا يجد نفسه في العالم الراهن بين يديه تعالى في ظاهر الأمر، وسيزول هذا الحجاب في الآخرة، وسيرى المرء حينئذ بعيني رأسه أنه قد كان أمام الله في الدنيا بحيث لم يكن أي أمرٍ من أموره خافياً على الله - سبحانه وتعالى .

والذين يعرضون عن الحق في هذه الدنيا، فإن أكبر اعتمادهم في ذلك يكون على كبرائهم المزعومين، سواء أكان هؤلاء الكبراء من الأحياء أم من الموتى، فكل ما يفعله الضعفاء الصغار إنما يفعلونه ثقةً بكبرائهم الأقوياء، وحين يجد هؤلاء أنفسهم في الآخرة في حالة عجزٍ فاضحٍ، يتوسلون إلى كبرائهم قائلين : لقد كنا نعتمد في الدنيا على هدايتكم وإرشادكم، إذن فلترشدونا الآن هنا أيضاً إلى طريق النجاة والخلاص!!

ورداً على مقالة الصغار هذه سيقول لهم كبراؤهم : إن هذا اليوم إنما طلع لكي يكشف القناع عن كوننا غير هداةٍ ولا مرشدين، فما نملك الآن أن نزودكم بشيءٍ من الهداية أو الإرشاد، إذْ نحن أول فاقديه، وأحوج منكم إليه، ولم تكن هدايتنا لكم سوى خداعٍ وقتيٍ محضٍ ذهب مع ذهاب الدنيا، أما الآن فلا يسعنا ولا إياكم هنا، إلا أن تذوقوا أنتم وبال ضلالكم وغوايتكم، ونذوق نحن وبال انحرافنا وإغوائنا، وسواء

شئنا أو أبينا ؛ على أية حالٍ، فليس لنا أن ننتظر لأنفسنا الآن شيئاً غير الذي نحن فيه !

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾ .

بِسُلْطَانٍ : تسلط أو حجة .

بِمُصْرِخِكُمْ : بمغيثكم من العذاب.

بِمُصْرِخِيَّ : بمغيثي من العذاب .

إن دنيا الله هي دنيا الواقعيات دون الأوهام والتخيلات، والنهوض على وعود الشيطان هنا يعني أن يتوخى المرء بناء حياته على الأسس غير الواقعية، ومن صور الاعتماد على وعود الشيطان، أن يعرض المرء عن داعية الحق، وألا يعمل لأجل الآخرة، ويأمل في أنه سيفوز حتماً بالنجاة والسعادة الأبدية بناءً على افتراضات مزعومةٍ، وألا يمارس حياته وفق أحكام الله، ويعتقد اعتقاداً جازماً بأن اسمه سيسجل تلقائياً في قائمة العباد المحبوبين عند الله ... إلخ .

وسوف يعلم المرء في الآخرة أن وعد الله وحده هو الوعد الحق، وأن سائر الوعود سواه كانت محض اعتمادات كاذبةٍ لن تتحقق على صعيد الواقع أبداً .

إن الرجاء من أحدٍ غير الله في دنيا الله هو الشرك .. ولذا فالذين يعرضون عن الحقائق الإلهية، ويريدون تشييد صروح حياتهم على أساسٍ من التوقعات غير الإلهية، كأنما هم يشركون مع الله أشياء أخرى، وهذه الأشياء الأخرى دون الله لن تنصرهم ولن تغني عنهم يوم الدين شيئاً !

﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

إن تحية الإسلام المتمثلة في قولك لمن تلقاه : السلام عليكم ليست محض عادةٍ اجتماعيةٍ ، بل هي رمز أو علامة ظاهرية للعلاقة القلبية ، والسلام عليكم في هذه الدنيا هو، من حيث حقيقته، السلام عليكم في الآخرة بمزيدٍ من الإضافة .

فالذين عاشوا في هذه الدنيا بحيث كانت قلوبهم ملأى بمشاعر النصح للآخرين، والذين كانوا يعرفون كيف يتحابون بعضهم مع بعض، بغض النظر عن الشكاوى وحزازات النفوس، والذين كانوا ينطقون للغير بكلماتٍ تتضمن ما يستحقه من الاحترام والتقدير، وكانوا يحبون للآخرين ما يحبّونه لأنفسهم، وكانت صدورهم تفيض رحمةً وسلاماً للآخرين، وكانت تقر عيونهم برؤية الخير والفضل لدى غيرهم، هؤلاء هم الذين سيُعتبرون أهلاً للسكنى في الجنة .. فقد كان حالهم في الدنيا أنهم إذا قابلوا إخوانهم، نضح ما يكنّونه من الحب والنصح لهم بشكل: السلام عليكم، وستجري التحية نفسها على ألسنتهم في الآخرة كذلك، وبصورةٍ أخلص وأكثر لطافةً بالنسبة إلى جيرانهم في الجنة!

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

كَلِمَةً طَيِّبَةً : كلمة التوحيد والإسلام .

تُؤْتِي أُكُلَهَا : تعطي ثمرها الذي يؤكل.

كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ : كلمة الكفر والضلال .

اجْتُثَّتْ : اقتلعت جثتها من أصلها .

لقد أقام الله في العالم الراهن أمثلةً ظاهريةً ملموسةً لحقائق شتى، والشجرة الطيبة، هي مثال شخصية المؤمن.

إن من خصائص الشجر العجيبة أنه يتخذ من الكون بأكمله مائدة غذائيةً لنفسه، وهكذا هو يبدأ رحلة حياته من بذرة صغيرةٍ تأخذ في النمو والتطور والامتداد حتى تتحول، في نهاية المطاف، إلى شجرةٍ ضخمةٍ جذورها في أغوار الأرض وفروعها في السماء، والشجر ينمو بما يستمده من الأرض من الماء والمعادن والأملاح، كما أنه يتلقى - مع ذلك - غذاءه من الهواء والشمس، فهو يتغذى مما تحته ومما فوقه معاً !

وهكذا هو شأن المؤمن تماماً .. ولئن كان الشجر العادي شجراً مادياً، فإن المؤمن شجر شعوري، إن المؤمن يستلهم الدرس والعبرة - من ناحيةٍ - بما يراه من آثار قدرة الله في مخلوقاته ونظامها البديع، ومن ناحيةٍ أخرى لا تزال تصل إليه إفاضات الله من «فوقه» على الدوام، فهو يستمد غذاءً لتنمية إيمانه من المخلوقات، كما يكون على اتصالٍ مستمرٍ بالخالق ولا يزال يقترب منه كل لحظةٍ .

والشجر (الطيب) يعطي ثماره في كل موسمٍ، وكذلك المؤمن، يبدي في كل مناسبة ما ينبغي له أن يبديه من رد فعل صحيحٍ .. ففي كل حالٍ من أحوال: اليسر أو العسر، الفرح أو الحزن، السخط أو الرضا، الضعف أو القوة، لا يُظهر بلسانه أو سلوكه إلا رد الفعل نفسه الذي يليق به كعبدٍ صادقٍ مخلصٍ لله سبحانه وتعالى .

والمثال الثاني يتعلق بالشجرة الخبيثة (أي النباتات الطفيّليّة)، وإنه ليبدو للناظر إليها كما لو أنها تتلقى من الكون غذاءً من النوع المضاد تماماً، مما جعلها تنبت أشواكاً، وتحمل غصونها ثماراً مرةً فاسدة الطعوم، وإن دنا منها أحد، فهي تستقبله برائحتها الثقيلة الكريهة، فلا أحد يحب شجرةً كهذه، وحيثما تنبت، لا تلبث أن تقتلع من جذورها ويقذف بها في النار !

وكذلك شأن الكافر .. فهو ينبت في الأرض كوجودٍ طفيلي غير مطلوبٍ، ويصير الكون كله، بالنسبة إليه - مع ما يزخر به من آياتٍ رائعةٍ - كما لو أنه ليس ثمة دليلٍ يقتنع به، ولا عبرة يستفيد منها .. ومع أن فيوض الله لا تزال تمطر من السماء كل حينٍ، إلا أنه لا ينال منها شيئاً، ولا يكون لها أي تأثيرٍ أو انعكاسٍ على سلوكه ومعاملاته!

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾

فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا : في القبر عند السؤال .

قوله تعالى : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ ، أي : بكلمة التوحيد ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ المراد بالثبات في الحياة الدنيا هو بقاؤك على مسلك الخير والعمل الصالح في كل طورٍ من أطوار حياتك، وعند كل منعطفٍ من منعطفاتها .. أما الثبات في الآخرة فإن المراد بذلك هو نجاة المؤمن عند المسألة في قبره .. الإنسان في حالة امتحانٍ دائمٍ .. فلا تزال تطرأ عليه كل حينٍ أحوال شتى يكره بعضها ويحب بعضها الآخر.. وإنما يوفق للتمسك بالمنهج الإلهي القويم، في هذه المناسبات والأحوال المختلفة، أولئك وحدهم الذين قد غرسوا في قلوبهم شجرة الإيمان ، فهؤلاء يقابلون كل وضعٍ من الأوضاع يعرض لهم في الحياة برد الفعل الصحيح، ذلك الذي ينبغي لهم بحسب مرضاة الله .. وعلى العكس من ذلك فإن الشخص الذي نبتت شخصيته كما تنبت الطفيليات، فإنك لتجده، عند كل تجربةٍ، ينضح بالمرارة، وهو يقابلك، في كل مناسبةٍ، بما يقيم الدليل على أن خارجه شوْك حاد، وداخله نتن خبيث الرائحة لا غير .

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ

مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾

دَارَ الْبَوَارِ : دار الهلاك (جهنم) .

يَصْلَوْنَهَا : يدخلونها ، أو يقاسون حرها.

أَنْدَاداً : أمثالاً من الأوثان يعبدونها .

إن هذه الآيات يرجع خطابها أساساً -لخصوص موردها - إلى رؤساء قريش، إلا أنها تنطبق - بعموم لفظها - على جميع أولئك القادة والزعماء - الضالين المضلين - الذين يتولون زمام القيادة لحركة إنكار الحق ومحاربته .

وإن كبراء شعبٍ ما، إنما يكونون أناساً أتيحت لهم نعم ومواقع خاصة، وإن الاستخدام الصحيح لهذه المواقع والنعم المتاحة هو أن يقفوا إلى جانب دعوة الحق - إذا قامت بين ظهرانيهم - ويقوموا بمناصرتها وتدعيمها بكل ما أوتوا من أسباب القوة والجاه .. فإن الحق الأكبر في أشياء مُنحت من عند الله يكون لله وليس لأحدٍ سواه .

غير أن الأمر، في الأعم والأغلب، يكون على النقيض من ذلك، فإن أمثال هؤلاء لا يكتفون برفض قبول الحق من جانبهم فقط، بل ربما يقودون الحركة المعارضة له .

إن الإنسان بفطرته محتاج إلى إلهٍ ؛ يستطيع أن يرفعه إلى أرفع مقامٍ في حياته، ومن ثم فكلما صرف شخص ما اهتمام الناس عن الله الواحد، اتجه الناس، نتيجةً لذلك، إلى أحدٍ غير الله، فإن التخلي عن الله، إنما يتم دوْماً على حساب اتخاذ إلهٍ من دون الله، وبالإضافة إلى ذلك فإن الذين يحاولون صرف الناس عن الله الواحد، ينسبون إلى آلهتهم المزعومة، صفاتٍ عليا لا يتصف بها إلا الله وحده، ذلك لأن الناس لن يتجهوا إلى أحدٍ غير الله ما لم تثبت تلك الصفات العليا - الإلهية - في نِدّه .. وهذا هو السبب في أن المرء حين يتخلى عن عبادة الله الواحد، يتورط - تلقائياً - في عبادة الأوهام.

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾

وَلاَ خِلاَلٌ: لا مخالة ولا موادة .

حين يتعرض المرء لمصيبةٍ ما، فإنه يبذل كل جهدٍ ممكنٍ للتخلص منها، فإن كان له أصحاب أو أصدقاء، استعان بقوتهم، وإن كان هو ذا مال وغنىً، أنفق ثروته في سبيل ذلك .. إن رغبته الشديدة في إنقاذ نفسه تلجئه إلى الاندفاع وراء هذين الشيئين .

وإن الصلاة والإنفاق (الزكاة) لهما في الحقيقة مظهران دنيويان لإحساس المرء هذا بشأن قضية الآخرة .. فالصلاة بمثابة اللجوء إلى كنف الله مع استحضار أهوال الآخرة، حتى ينقذ نفسه بعوْن الله – سبحانه وتعالى .. وهكذا فإن الإنفاق في هذه الدنيا سراً وعلانيةً يعني أن تعطي كسبك في مصرف الآخرة، ليكون وسيلة الخلاص لك من مصائب الآخرة .

وإنه لن يجد في الآخرة ملجأً إلا الذي لجأ إلى الله واعتصم به في الدنيا .. ولن يفوز بالنجاة في الآخرة إلا الذي أنفق ماله في الدنيا عن يمينه وعن شماله لأجل الخلاص الأخروي .. والذين لم يوفقوا في هذه الدنيا إلى هذا، فسيندفعون في الآخرة بحثاً عن ملجإٍ، ولكنهم لن يعثروا هناك على ملجأٍ يأوون إليه .. وسيودّون في الآخرة أن يبذلوا وينفقوا، ولكن لا يتوفر لديهم هناك شيء يقدمونه فداءً لأنفسهم ليتخلصوا من مصائب ذلك اليوم العصيب!

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

دَآئِبَيْنِ : دائمين في منافعهما لكم .

لاَ تُحْصُوهَا : لا تطيقوا عدها لعدم تناهيها .

إن العالم الراهن ليشهد بوجود الله إلى حدٍ يبعث على الحيرة والذهول .. فمن حركة النجوم السيارات في الفضاء الرحيب، إلى إيجاد الحياة وتوفير الرزق فوق الأرض بالماء، إلى تمكين الإنسان من البر والبحر والجو بحيث يجعل من كل ذلك طرقاً يسوق فيها مراكبه السريعة، إلى صيرورة الأرض ملائمةً لسكنى الإنسان بسبب ما يغطي وجهها من البحار والجبال، إلى التنظيم الدقيق لاختلاف المواسم وتعاقب الليل والنهار عن طريق دوران الشمس والقمر بدأبٍ وانضباطٍ، كل ذلك أجل وأعظم وأفخم من أن تعبر عنه الألفاظ .. إن هناك توافقاً وانسجاماً كاملاً بين الإنسان والكون لدرجة أن كل حاجةٍ من حاجات الإنسان الضرورية توجد هنا بمقدارٍ وافرٍ سلفاً !

وإن هذه الأشياء كلها مثيرة للدهشة والحيرة لدرجة من شأنها أن تهز كيان المرء كله هزاً، وتغمره بمشاعر العبودية لمبدعها العظيم .. ولكن مع ذلك، لماذا لم يحدث أن تعتري المرء كيفية الذهول والاستغراب وهو يشاهد هذا الكون العجيب ؛ وأن يقشعر جلده، ويرتجف فؤاده بتصور خالق الكون؟! السبب في ذلك يكمن في أن المرء لا يزال يشاهد الكون منذ ولادته حتى ليعود الكون- لكثرة ما رآه طيلة عمره - يبدو له شيئاً عادياً مألوفاً؛ ليس فيه ما يُستغرب أو يتعجب منه .

وفوق ذلك فحين يحصل المرء في هذه الدنيا على شيءٍ ما، فإنما هو يحصل عليه - في ظاهر الأمر - من خلال الأسباب، مما يجعله ينظر إلى الشيء المتاح له على أنه حصيلة جهوده ومؤهلاته الذاتية ؛ وهذا هو السبب في أن نفس المرء لا تستيقظ فيها مشاعر الشكر والامتنان نحو الله المنعم الوهاب .

وإن غفلة الإنسان هذه هي التي عُبر هنا عنها بالظلم والكفر - أي جحود النعمة وكفرانها - حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ !

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

وَاجْنُبْنِي : أبعدني ونحني .

لقد كانت شعوب العالم وأقطارها كلها، إلى زمن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - بلغت من الضلال والانحراف منتهاه .. حيث كان الشرك سائداً متغلغلاً في كل مكانٍ، وكانت الشمس والقمر ومظاهر الطبيعة الأخرى قد تحولت إلى موضوع للعبادة والتقديس لدى البشر ؛ فقد غلب الشرك في الزمن القديم على كل شعبة من شعب الحياة، لدرجة أن قام تسلسل فكري للشرك في الأجيال البشرية المتعاقبة، وصار يبدو - ظاهراً - أن إخراج الناس من بيئة الشرك إلى دائرة التوحيد مستحيل!

وهنالك خرج سيدنا إبراهيم من وطنه العراق بأمرٍ من الله خاصٍ، متوجهاً إلى صحراء العرب التي كانت منطقةً غير مأهولةٍ وبعيدةً عن آثار الحضارة والمدنية حينذاك .. فأسكن - عليه الصلاة والسلام - زوجته هاجر وولده إسماعيل في هذه البيئة المنقطعة المعزولة، حتى ينشأ هنا جيل جديد بعيداً عن تسلسل الشرك الفكري، ويبقى على فطرته السليمة، لنشأته وتربيته في بيئةٍ حرةٍ .. وكلام سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يوضح هذه الحقيقة ذاتها في أسلوب الدعاء .

هذا الأمر الذى أراد الله تحقيقه من خلال إسكان بني إسماعيل في صحراء مجدبةٍ غير مسكونةٍ.. أما الآن، فإن الذين جعلوا من التوحيد - من سكانها - صوت قلوبهم، فقد كانوا بمثابة النتاج الصحيح لبستان إبراهيم، وعلى العكس من ذلك فإن الذين عادوا ثانيةً إلى طريق الشرك والوثنية، فسيعتبرون النتاج المنقوص الفاسد لهذا البستان الإبراهيمي!!

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

تَهْوِي إليهم : تسرع إليهم شوقا ووداداً .

إن عالم الحجاز القديم - حيث تم إسكان بني إسماعيل - المليء بالجبال والصحارى، قد كان بمثابة مدرسةٍ تربويةٍ طبيعيةٍ لمعرفة الله رب العالمين .. ومن جانبٍ آخر فإن الآية الوحيدة الجديرة بالاعتبار - من حيث الأبنية البشرية - كانت هي الكعبة، ففيها كانت بيئة الفطرة - من ناحيةٍ - تعمل على تذكير الإنسان بالله، ولفت انتباهه إلى آثار قدرته الباهرة، كان الشيء الآخر المثير لاهتمامه المتواجد على مقربةٍ منه، متمثلاً في ذلك المسجد الحجري الذي بناه سيدنا إبراهيم وإسماعيل، والذي لا يكاد يدخل فيه الإنسان المؤمن حتى يصير مشغولاً بذكر الله - عز وجل، لما يشيع فيها حوله من العبق الروحاني .

وقد تم توفير المياه لبني إسماعيل في هذه البيئة الجدباء من خلال تفجير بئر ((زمزم)) على نحوٍ معجزٍ.. وهيئت الأسباب ليتاح لهم رزق من أنواع الثمار والزروع لا تنبتها أراضيهم .. وقد كان ذلك بمثابة تدبيرٍ إلهي لتربيتهم على شكر الله .. فإن نفس المرء تستيقظ فيها عاطفة الشكر بصفةٍ غير عاديةٍ على النعيم غير العادي .. وتلك هي الحكمة الكامنة في دعاء سيدنا إبراهيم هذا الذي جاء فيه : وارزقهم - في هذه الصحراء القاحلة - من الثمرات (لعلهم يشكرون) !

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾

رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ .

إن دعاء سيدنا إبراهيم هذا ليعكس كل تلك المشاعر والعواطف التي تجيش بها نفس عبدٍ صادقٍ مخلص وهو يدعو ربه .. حيث يضطره إحساسه العميق بالعبودية إلى أن يقر بعجزه وضعفه بين يدي الله العظيم، وأن يسأله على أساس من الاحتياج دون الاستحقاق أو الجدارة .. ليعترف بالنعم المتاحة له، وليقدم طلبه إلى جناب ربه مراعياً لمقتضيات الأدب كافةً، فليقر - منذ الوهلة الأولى - إقراراً صريحاً بأن الله هو المعطي، والإنسان هو المتلقي.

وليسأل ربه التوفيق ليعيش في الدنيا عابداً لله وحده، وليطلب هذا الشيء لنفسه وأسرته ولسائر المؤمنين كذلك .. وليكن همه الأكبر عند الدعاء مسألة الآخرة، دون الدنيا الفانية، حيث سيعيش إلى الأبد.. وأيما دعاءٍ يتضمن هذه الآداب السامية، هو دعاء نبوي.

﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

تَشْخَصُ فِيهِ : ترفع دون أن تطرف من الهول الأَبْصَار .

مُهْطِعِينَ : مسرعين إلى الداعي بذلة .

مُقْنِعِي رؤوسِهِمْ : رافعيها مديمي النظر للأمام .

وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ : قلوبهم خالية لا تعي لفرط الحيرة .

حين يظهر الحق أمام المرء، فلا يلبث أن يتصدى لمعارضته ؛ وإنه ليبدي في سبيل مقاومته جرأةً وبسالةً تخيل إليك كما لو أنه ليس في الدنيا أحد أشجع ولا أبسل منه!

على أن هذا الحق، الذي يظهر في العالم الراهن على مستوى الداعي، سيظهر في الآخرة على مستوى الله، ويومئذٍ سوف تتبخر وتتلاشى شجاعة أمثال هؤلاء الشجعان كلها، فإنهم عندما يرون مشاهد القيامة المروعة، تبقى أبصارهم شاخصةً مبهوتةً، لا تكاد تطرف أو تغمض لحظةً لهول ما ترى ؛ وإنما هم سيندفعون سراعاً رافعين رؤوسهم نحو أرض المحشر ، وقلوبهم منخلعة فارغة يطير بها الفزع والخوف الشديد!

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

إن المرء لا يكاد يحس - لفرط غفلته - دنو مصيره منه حتى قبل مواجهته إياه بيوم واحدٍ . ولو أنه كان متمتعاً بقوةٍ أو بأي مركزٍ مرموقٍ ، فهو يبطر ويتغطرس، كما لو أنّ مركزه لن يُنتزع منه أبداً .. وهو يرفض دعوة الله ناسياً أن الأشياء التي يدفعه اعتماده عليها إلى رفض الدعوة، ليست كلها إلا عطايا الله، وقد تُعرض عليه أدلة وبراهين ساطعة، إلا أنه لا يلقي لها بالاً .. وتكون مصائر الطغاة الظالمين الذين سبقوه حاضرةً ماثلةً أمامه، ولكنه يزعم أن كل ما حدث إنما كان خاصاً بالآخرين، وأنه لن يحدث شيء من ذلك بالنسبة إلى نفسه البتة!

إن المتمتعين بالمواقع والإمكانات المواتية في حياة العالم الراهن، ربما يشعرون بالفخر بإعراضهم عن الحق.. ولكنهم عندما يرون مصير طغيانهم وعنادهم بعد الموت، فسوف يعتريهم الخجل والندامة على ماضيهم، لدرجة أنهم يودون لو أتيحت لهم المهلة، كي يرجعوا إلى الدنيا ثانيةً، فيفندوا أنفسهم بأنفسهم، ويبادروا بالتالي إلى الاعتراف بالشيء الذي كانوا قد أنكروه من قبل فخورين .

إن معارضة الحق معارضة الله .. وإنه لا يبوء المعارضون للحق الذي يصحبه الله تعالى ويرعاه إلا بالفشل الذريع ؛ مهما اتخذوا ضده من التدابير والحيل ما يكفي حتى لزحزحة الجبال عن أماكنها!

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾

وَبَرَزُوا لله : خرجوا من القبور للحساب .

مُّقَرَّنِينَ : مقرنا بعضهم مع بعض .

الأَصْفَادِ : القيود أو الأغلال .

سَرَابِيلُهُم : قمصانهم أو ثيابهم .

وَتَغْشَى وَجُوهَهُمُ : تغطيها وتجللها النَّارُ .

بَلاغٌ لِّلنَّاسِ : كفاية في العظة والتذكير .

النبي يؤدي الشهادة لدين الله في صورتها الكاملة، لذا فإن نصرة الله هي الأخرى تحصل للنبي في أتم صورها، .. وإنه بقدر ما يقترب الأتباع اللاحقون فيما بعد من سنة النبي، بقدر ما يستحقون نصرة الله.

إن الإنسان يخيل إليه اليوم كما لو أنه مالك للبر والبحر، وقادر على ضبط الفضاء المترامي الأطراف والتصرف المطلق فيه .. وأنه مختار ليستعمل أو لا يستعمل الوسائل المتاحة له كما يشاء .. بيد أن هذا كله ليس إلا لأن الله قد سخر الأرض والسماء للإنسان

إلى انقضاء فترة الامتحان المحددة، فعندما تنتهي فترة الامتحان هذه تنقلب الأوضاع رأساً على عقب، وبعدئذٍ ستتبدل الأرض أرضاً أخرى، والسماء سماءً أخرى .. وسيجد المرء نفسه فجأةً في عالمٍ غير الذي عهده وعاش في رحابه .

فحيث كان المرء يعتبر نفسه حاكماً، ستتحول هناك الحاكمية كلها إلى الله - تعالى - وحده، وحيث كان كل شيءٍ خاضعاً لأمره، سيتخلى هناك كل شيءٍ عن تبعيته والانقياد لأمره .. والذين كانوا كبراء في العالم الراهن، سيعودون يومئذٍ مجرمين عاجزين والثياب التي تزين أبدان لابسيها اليوم، ستتغير يومئذٍ بحيث تبدو الأبدان وكأنها مطلية بالقطران .. وستصبح الوجوه الناعمة المبتهجة يومئذٍ كالحةً مسودة لاحتراقها بالنار .. وإنما سيحدث هذا كله مع أولئك الذين لم يرضوا أن يعيشوا في الدنيا عباداً لله متواضعين .. الذين أعرضوا عن الإعلان المذاع من عند الله - سبحانه وتعالى .

إن كون الحقيقة حقيقةً ليس بكافٍ لكيما يتلقاها المرء بالاعتراف والقبول؛ فإن الإيمان بالحقيقة يستلزم - بالضرورة - أن يريد الإيمان بها من صميم قلبه .. إن الشخص الجاد بشأن الحقيقة، والذي يسمعها خالي الذهن، أي بدون أفكارٍ مسبقةٍ، سيتمكن من فهم الحقيقة، وسيوفق إلى أن يرحب بالحقيقة الترحيب الصحيح اللائق بها !

سورة الحجر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝ ﴾

رُّبَمَا «رب» للتقليل و «ما» زائدة .

ذَرْهُمْ : دعهم واتركهم .

وَلَهَا كِتَابٌ : أجل مقدر مكتوب في اللوح .

إن الحرية المتاحة للإنسان في هذه الدنيا، إنما تدوم إلى مدة الامتحان المحددة ؟ وإن هذا الوضع متناه في الخطورة .. لو أن المرء تخيل أن المدة التي يعيشها ستنتهي غداً أو قد انتهت اليوم.. هذه الفكرة من شأنها أن تهز كيانه هزاً .. ولكن المرء إنما يعيش في «يومه الحاضر» وحده، ولا يكترث «بعده» أيما اكتراثٍ.. فقد يُكشف القناع عن الحقيقة أمامه، ولكنه يبقى أسير الآمال والأماني الحالمة .. وهو يفترض من عند نفسه، بعض الدعائم الخيالية المزعومة، ويظن أن استناده عليها سوف تغني عنه يوم الجزاء !!

على أنه يُفاجأ بتبدد أحلام الغفلة والأماني اللذيذة هذه عندما تنقضي المدة، فيأتي إليه ملائكة الله، ليذهبوا به من عالم الامتحان إلى عالم المصير المحتوم .. وحينئذٍ تعود به ذاكرته إلى تلك المناسبات، عندما كان يحاول رفض دليلٍ صادقٍ بواسطة ألفاظٍ كاذبةٍ، وعندما كان يندفع وراء شهواته بدلاً من الاستجابة لنداء ضميره، وعندما كان يعرض عن داعية الله، رغم وجود الانعكاسات الإلهية في شخصه، أعرض عنه للحفاظ على

سمعته الذاتية، وهو إذْ يرى هناك أن أي تدبيرٍ من التدابير التي تبناها لم يغن عنه شيئاً، فسوف لا يلبث أن يصرخ قائلاً - والندم والحسرة يمزقان فؤاده: آه ! ليتني لم أكن قد فعلت ما فعلت .. يا ليتني كنت قد اخترت طريق «الإسلام» بدلاً من اختيار طريق «الكفر» !

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝ ﴾

لَّوْ مَا تَأْتِينَا : هلا تأتينا .

إلاَّ بالحق : إلا بالوجه الذي تقتضيه الحكمة .

مُّنظَرِينَ : مؤخرين في العذاب .

ظن مخاطبو النبي أنه مصاب بالجنون ! تُرى ماذا كان السبب وراء هذا الظن الفارغ؟ إن سبب ذلك يكمن في دعوة النبي التي كان مفادها : «إنني رسول الله إليكم؛ فمن آمن بكلامي نجح وأفلح ؛ ومن لم يؤمن فمصيره إلى الفشل والخسران الأبدي! » ولكن الذي كان يراه هؤلاء المخاطبون كان على العكس من ذلك .. فمن ناحية كان هؤلاء يحتلون مراكز السيادة والرئاسة في ظل النظام السائد - حينذاك، ومن ناحيةٍ أخرى كان النبي قد صار غريباً على هذا النظام السائد لا مكان له في ظله لكونه نهض داعياً إلى دينٍ غير رائجٍ .. ونظراً لهذا الفارق تجرأ المخاطبون على القول: إنك لتبدو لنا مجنوناً، حيث إن الله قد أتاح لنا - دونك - كل أنواع الخيرات والفضائل الدنيوية، وها أنت ذا تزعم أن النجاح والفلاح ليس إلا لك ولمن اتبعك !!

إلا أن هذا كان ناشئاً عن اختلاف وجهة نظرهم .. فقد كانوا ينظرون إلى الأشياء المتاحة لهم على أنها «إنعام»، في حين أن هذه الأشياء كلها لم تكن سوى أدوات «الابتلاء والامتحان»، تتاح لأحد الناس في العالم الراهن بصفةٍ وقتيةٍ .

وكانوا يقولون أيضاً : لِمَ لا نرى نحن هؤلاء الملائكة الذين تدعي أنهم يأتونك برسالة الله ؟! وهذا الاعتراض بدوره إنما نشأ عن اختلاف الزاوية أو وجهة النظر، فالملك الذي يأتي النبي يكون ملك الوحي يبلغ إليه كلام الله، وإن هناك ملائكة آخرين عداه، وإنما يبعث الله بهم لتجلية الحقيقة أمام أعين الناس، إلا أنهم لا يأتون إلا بعد اكتمال الدعوة، وعندما يأتون فيكون ذلك وقت القضاء الحاسم دون الدعوة إلى الإيمان.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ .

الذِّكْرَ : القرآن .

إن القرآن قد أنزله الله، وإنه – تعالى – هو المتكفل بحفظه من الضياع والتحريف . لقد كان الخطاب المباشر لهذه الآية الكريمة– إبان نزولها– موجهاً إلى قريش، ولكنها في أوسع معانيها كانت تحدياً عاماً وُجه إلى البشرية جمعاء .. وهكذا فقد وُضع أمام البشر، منذ القرن السابع الميلادي، وحتى قيام الساعة، معيار قطعي لكي يتحققوا في ضوئه مما إذا كان القرآن – حقاً – كتاب الله أم لا ؟!، وقد كانت كل الأحوال والإمكانات الظاهرية، عن إعلان هذا التحدي أول مرةٍ، غير مواتية له إطلاقاً .. فلأجل الحفاظ الدائم على كتاب متنازع عليه، لابد من وجود جماعةٍ قويةٍ وراءه تحميه، بينما كان حاملو القرآن– إبان نزوله– في غاية الضعف والقلة بإزاء أعدائهم، كما أن الدنيا لم تكن قد شهدت عصر القرطاس والمطبعة بعدُ، مما جعل الحفاظ على أي كتاب في العصر الحاضر أمراً بالغ السهولة .. وقد كان الاحتفاظ بشيءٍ مثل الكتاب، يتطلب بالضرورة الاحتفاظ بلغته هي الأخرى كذلك، في حين أن التاريخ يدلنا على أن أية لغةٍ لا يكتب لها البقاء الدائم أو الخلود أبداً .. وقد جاء القرآن الكريم في العصر التقليدي – أي قبل العصر العلمي الحديث بقرونٍ طويلةٍ – وفي حالة كهذه فقد كان لابد لبقائه حياً

ومحفوظاً أن تصدق مضامينه ومحتوياته في كل اختبارٍ على امتداد الزمن بصورةٍ أبديةٍ ..

وقد ظل القرآن الكريم محفوظاً إلى يوم الناس هذا، على أكمل وجه في مواجهة هذه التحديات كلها ؛ مما يقيم دليلاً قاطعاً على أنه كتاب الله ؛ إذْ ليس ثمة كتاب آخر، وُضع قبل ألف وخمسمائة سنةٍ، فظل حياً محفوظاً كما لا يزال القرآن حياً ومحفوظاً في العالم اليوم!

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

شِيَعِ الأَوَّلِينَ : فرق الأمم السابقة .

نَسْلُكُهُ : سلك التكذيب فى قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى .

خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ : مضت عادة الله بإهلاك المكذبين .

يَعْرُجُونَ : يصعدون فيرون الملائكة والعجائب .

سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا : سدت ومنعت من الإبصار .

قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ : أصابنا محمد بسحره .

لقد استهزئ برسل الله قاطبةً على اختلاف الأعصار والأمصار .. وكان السبب في ذلك أن الأنبياء لم يكونوا - طبق ذلك المعيار الفرضي الذي اصطنعه الناس من عند أنفسهم للتسليم بأحدٍ كرسولٍ لله .. بل كان النبي دائماً - وبطبيعة الحال - دون هذا المعيار المصطَنع ؛ مما دفع الناس إلى اتخاذ أنبياء الله موضوعاً للسخرية والاستهزاء .

إن أية حقيقة جديدةٍ لابد لإدراكها من أن يكون المرء مستعداً للتفكير فيها بذهنٍ مفتوحٍ، وبناء أحكامه على أساسٍ من الواقعات وحدها، والمنكرون للصدق إنما يتناولونه بالإنكار لأن الصدق يبدو لهم غريباً على معيارهم المألوف، وهذا المعيار المألوف يتغلغل - على مضي أحقابٍ من الزمن طويلةٍ - في قلوبهم لدرجة أنه يعود مستحيلاً عليهم أن يفكروا في أي موضوعٍ متحررين من أسره، وبالتالي فلا يكادون يستطيعون- حتى اللحظة الأخيرة- أن يعرفوا الصدق الموجود خارج إطارهم المألوف!

وقد كانت نتيجة عقلية الشعوب هذه أن الناس لم يؤمنوا حتى بالرغم من رؤية المعجزات الباهرة.. فالشخص الذي استقر في أذهانهم أنه عادي، ظلوا يعتبرونه عادياً كذلك على أية حالٍ .. وإن هو جاء فيما بعد ببعض خوارق العادات، ظنوه فناً من فنون السحر أو الشعوذة، وليس في الحقيقة دليلاً على كونه مرسلاً من عند الله - سبحانه وتعالى.

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾

بُرُوجاً : منازل للكواكب السيارة .

رَّجِيم : مطرود أو مرجوم بالنجوم .

اسْتَرَقَ السَّمْعَ : خطف المسموع من الملأ الأعلى .

فَأَتْبَعَهُ : أدركه ولحقه .

شِهَابٌ : شعلة نار منقضة من السماء .

مُّبِينٌ : ظاهر للمبصرين .

إن هناك نجوماً لا حصر لها تنتشر في رحاب الكون كله ؛ إلا أن هذه النجوم توجد بشكل مجموعاتٍ، وكل مجموعةٍ نجميةٍ تسمى المجرة، ويُحتمل أن يكون المراد بالبروج هنا هو هذه المجرات .

وليس المراد في قوله : ﴿ وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾ هو ببساطةٍ، : منظر السماء المذهل الذي يُلاحظ في الليل .. فلو أنك اتجهت ببصرك نحو السماء، في ليلةٍ صاحيةٍ، لرأيت منظر النجوم المتلألئة في الفضاء الرحب رائعاً إلى حدٍ محيرٍ يغمرك أثناءه إحساس بعظمة الله وجلاله .

وإنه مع إسكان الإنسان في الأرض قد أُسكن فيها الشياطين كذلك .. وقد أتيحت للشياطين هنا الحرية الكاملة ليذهبوا حيثما شاؤوا، وليُضلوا الناس كما يشاؤون، غير أن عالم الله الواقع ما وراء هذه الأرض، قد أقيمت في أنحائه حواجز لا يقدر الشياطين على اختراقها أو اجتيازها، فهم لا يستطيعون التسلل أو الدخول فيه إلى أبعد من حدٍ معينٍ !

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠ ﴾ .

وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا : بسطناها للانتفاع بها .

رَوَاسِيَ : جبالا ثوابت كيلا تميد .

مَّوْزُونٍ : مقدر بميزان الحكمة .

مَعَايِشَ : أرزاقا يعاش بها .

تدل الدراسات الجغرافية على أن الأرض كانت- في مبدأ أمرها- كتلة مستديرة جامدة ثم انشقت ؛ فتولّدت، نتيجةً لذلك، أعماق البحار السحيقة التي لم تلبث أن

اجتمع فيها الماء، ولأجل الحفاظ على توازنها ارتفعت على سطح الأرض جبال ضخمة عالية هنا وهناك .

ثم ظهرت إلى الوجود - بعدئذٍ - أنواع النباتات والحيوانات على ظهر الأرض؛ فانتشرت انتشاراً واسعاً، ومع أن كل واحدٍ منها ينطوي على صلاحية للنمو غير محدودة، إلا أنه يتضح لنا عند التأمل والإمعان فيها أن هناك «قدراً محدداً» يخضع له الكل بدون استثناءٍ، فكل شيءٍ لا يزال ينمو حتى يصل إلى حدٍ معينٍ فيقف عنده، لا يستطيع تجاوزه إلى أبعد من ذلك .. مما يدل على أن هناك مدبراً وخالقاً جباراً يقوم بضبط كل شيءٍ، ويهيمن عليه فلا يسمح له بتخطي الحد المرسوم له .

إن الإنسان بحاجةٍ إلى أشياء لا حصر لها لمعيشته وبناء حضارته، وقد وفرت هذه الأشياء كلها فوق الأرض بمقادير متناسبةٍ تماماً مع احتياجات البشر، والله - سبحانه وتعالى- هو الذي وفرّ لنا هذه الأشياء كلها، وقام بتهيئة أسبابٍ تضمن بقاءها .. ولو أننا كنا - نحن البشر- مسؤولين عن إيجاد الرزق لها، لم يعد ممكناً أن نحصل عليها بأية وسيلة!

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

عِندَنَا خَزَائِنُهُ : نحن قادرون على إيجاده وتدبيره .

نُنَزِّلُهُ : نوجده أو نعطيه .

بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ : بمقدار معين تقتضيه الحكمة .

الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ : حوامل للسحاب أو للماء تمجه فيه ، أو ملقحات للسحاب أو

للأشجار .

إن مبدأ ضبط الحدود والمقادير يسري في كل شيءٍ من أشياء هذا الكون ؛ فالرياح تجري في نطاقٍ محدودٍ ، وإن كان الله قد يُرينا أحياناً أن بإمكانها - أيضاً - أن تتحول إلى إعصارٍ أو عاصفةٍ مدمرةٍ، والشمس تبعد عنا بمسافةٍ معينةٍ دائمةٍ لا تتغير، ولو أن هذه المسافة صارت أبعد مما هي عليه الآن، لاستحالت الأرض إلى كرةٍ من الجليد، ولو أصبحت الشمس أقرب إلينا، بمقدار النصف أو أقل أو أكثر مثلاً، من المسافة الحالية، لجعلت الأرض تنوراً رهيباً .. وجاذبية الأرض متناسبة وموزونة للغاية، ولو أن حجم الأرض كان ضعف حجمها الحالي، لازدادت جاذبيتها إلى حدٍ تعذر معه أن يمشي المرء على ظهرها لتضاعف الضغط الواقع عليه، أما لو كان حجم الأرض - بالعكس - نصف حجمها الموجود فعلاً، لانخفضت جاذبيتها لدرجة أنها لم تكن لتمسكنا - نحن البشر - ولا بيوتنا فوقها لهبوط وزن الأشياء المترتب على انخفاض الجاذبية الأرضية، وهكذا هو حال كل تلك الأشياء التي يعيش الإنسان بينها .. فلكل شيءٍ قدر محدد مضبوط لا يزيد عنه ولا ينقص.

إن حياة الإنسان وسائر الحيوانات الأخرى فوق الأرض، تتوقف على الماء، ونظام توفير المياه للكائنات الحية- اعتباراً من المخزونات المائية تحت الأرض، إلى السحب الكثيفة المتراكمة في الفضاء- يجري على مستوى ضخمٍ وعجيبٍ لدرجة أن إقامته أو القيام على إدارته أمر خارج عن طوق الإنسان البتة، وإنما هو الله - جل شأنه - ما يزال قائماً بتدبير هذا النظام العجيب العظيم بصورةٍ ملائمةٍ لحاجة البشر تماما .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

وَنَحْنُ الوَارِثُونَ : الباقون بعد فناء الخلائق .

إن إسكان الإنسان في هذه الدنيا، ثم رفعه منها، يتم من عند الله تعالى، والأرض مشحونة بأشياء لا تقع تحت الحصر، ولكن كلاً منها له ميزته الخاصة التي يتفرد بها ؛ فكل شيءٍ يؤدي الدور الخاص والمحدد الذي ينبغي له أن يؤديه، الأمر الذي يقيم الدليل على أن خالق هذه الأرض يحيط بجميع الأشياء علماً، كل على حدة، وهو الذي ألزم كل شيءٍ بأداء الوظيفة المنوطة به، وحتى إن بصمة إبهام اليد تختلف بدورها من شخصٍ لآخر تمام الاختلاف، ولا تتكرر مع أي شخصٍ آخر أبداً !!

إذنْ ؛ فأية صعوبة يمكن أن يلقاها هذا الإله القادر الخبير ، في محاسبة كل شخصٍ على حدة، وفي أن يعامل الجميع بما يستحقه هو في واقع الأمر ؟!

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

صَلْصَالٍ : طين يابس كالفخار .

حَمَإٍ : طين أسود متغير .

مَّسْنُونٍ : مصور صورة إنسان أجوف .

نَّارِ السَّمُومِ : الريح الحارة القاتلة .

إن وجود الإنسان مؤلف من شيئين : أحدهما الجسم، والآخر هو الروح، أما الجسم فقد بُني هيكله كله من العناصر الأرضية المادية، حيث يدلنا تحليل الجسم الإنساني على أنه قد استمد أجزاءه التركيبية مما يُعرف عموماً بالماء والتربة، وهذا يعني أن الإنسان، بالنسبة إلى جسمه، علم على وجودٍ غير حيٍ وغير ذي شعورٍ تماماً، ولكن حين ينفخ الله فيه الروح من عنده، فإذا بهذا الجسم يعود حاملاً لقدراتٍ وصلاحياتٍ لا يتمتع بها أي مخلوق آخر في الكون المعلوم.

وإن هناك مخلوقاً آخر - عدا الإنسان - يوجد في هذا الكون، وهو الجن، وقد خُلق الجن من لهب النار .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

سَوَّيْتُهُ : أتممت خلقه وهيأته لنفخ الروح .

سَاجِدِينَ : سجود تحية لا سجود عبادة .

أَبَى : امتنع تكبراً .

مَا لَكَ : أي غرض لك أو ما عذرك .

قال إبليس- مبرراً لامتناعه عن السجود- إن مرجع ذلك إلى أن الإنسان أحقر مني شأناً ، ولكن الحقيقة هي أن السبب في ذلك كان يكمن في شعور إبليس نفسه بالنقص أو الضعة، فقد اضطرمت في داخله نيران الحقد والحسد، حين رأى : إنني مع كوني أسبق إلى الوجود في هذا الكون ، إلا أني لم أنل هذا التكريم بأن تؤمر الخلائق كلها بالسجود لي ، بينما هذا الإنسان الذي خُلق آنفاً ، إذا به تؤمر الخلائق كلها بأن تخر له ساجدةً! ، فلم يلبث أن رفض السجود للإنسان .. ومعنى زعمه القائل «بأن الإنسان أحقر مني شأناً» : أن المستحق الأصلي ليكون مسجود الخلائق كنت أنا ، إذن فكيف لي أن أسلم بهذا الإعزاز والتكريم لمن لا يستحق؟!

إن هذا الكبر والحسد هما مصدر كل الشرور والمفاسد الاجتماعية ، ولا يزال

الإنسان خلال حياته في العالم الراهن يمر بمواقف كهذه بين حين وآخر، فمن لم يُصب بمشاعر الحقد في مثل هذه المواقف، فقد اتبع الملائكة، وأما الذي راح ضحية الحسد، فكأنما انخرط في سلك أتباع الشيطان وأوليائه !

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾

رَجِيمٌ : مطرود من الرحمة أو مرجوم بالشهب .

اللَّعْنَةَ : الإبعاد على سبيل السخط .

فَأَنظِرْنِي : أمهلني ولا تمتني .

الوَقْتِ المَعْلُومِ : وقت النفخة الأولى .

إن الاتجاه الذي سارت فيه الأحداث المتلاحقة، في أعقاب خلق الإنسان، قد جعل من الشطيان عدو الإنسان الدائم، والآن، فلا يزال الشيطان واقفاً له بالمرصاد، ناصباً له حبائله في كل طريقٍ، إلى يوم القيامة، والأمر الأجدر بعناية الإنسان، وأكثره خطورةً وأهميةً بالنسبة إلى مصيره، هو أن يكون حذراً أشد الحذر من خدع الشيطان ومكائده. فإن هذا هو المكان الذي يتقرر عنده نجاح الإنسان أو فشله في العالم الراهن!

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

وَلأُغْوِيَنَّهُمْ : لأحملنهم على الغواية والضلال .

المُخْلَصِينَ : الذين أخلصتهم لطاعتك .

لقد تعرض إبليس لحالة امتحانٍ ؛ خرج منه فاشلاً .. والآن، فإن الموقف الصحيح الذي كان ينبغي له أن يتبناه، هو التسليم بفشله وهزيمته .. إلا أنه أخذ- بدلاً من ذلك- في توجيه التهمة إلى الله تعالى نفسه ؛ بأنه لم يصنع ما صنع إلا لكي يغويه ! إن الواقع الذي كان يكشف عن ضعفه هو، حاول أن يرمي الله - سبحانه وتعالى - بأسوأ جوانبه .. وإن من مظاهر اتباع هذه الأسوة الشيطانية ذاتها أن نلقي بتبعة هزائمنا ونكساتنا على عواتق الآخرين !!

وقد صرح إبليس بأن سبب امتناعه عن السجود للإنسان هو أن الإنسان مخلوق من طينٍ، وأنا خُلقت من نارٍ.. ومع أنه ليس هناك من سببٍ معقولٍ يدعو إلى تفضيل النار على الطين، إلا أن إبليس، قد استقر في مخيلته، بناءً على تصورٍ ذاتيٍ مزعومٍ، أن الطين شيء حقير تافه، وأن النار أعظم شأناً منه .. وهذا هو ما يسمى «التزيين» .. وهو أمر نفسي وليس بأمر عقلي .. فقد صمم إبليس- بدلاً من الاعتراف بخطئه- على أن يدفع الآخرين أيضاً إلى إعادة الخطأ نفسه، وأن يصيب البشر جميعاً بذلك الضعف النفسي الذي أصيب به هو!

وقال إبليس لله متحدياً : إنني - باستثناء «المخلصين» من عبادك - سوف أغوينهم أجمعين! فمن هؤلاء المخلصون من عباد الله ؟ إنهم أناس كُتب لهم التوفيق لالتزام الطريق القويم بإزاء الله، أي طريق العبودية.

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

صِرَاطٌ عَلَيَّ : حق عليَّ مراعاته .

سُلْطَانٌ : تسلط وقدرة على الإغواء .

جُزْءٌ مَّقْسُومٌ : فريق معين متميز عن غيره .

المراد بـ ((الصراط المستقيم))، كما رُوي عن مجاهد، والحسن، وقتادة، هو : ((طريق الحق، مرجعها إلى الله تعالى وإليه تنتهي)) [1].

ولو أن المرء سلك طريق الشرك، فإنه لن يؤدي به إلى الله، بل سيوصله إلى الشركاء، ولو أنه سار في اتجاه العناد والطغيان، فسوف تكون غايته وجود المرء نفسه دون الله سبحانه وتعالى، وأما إن آثر لنفسه حياةً حرةً طليقةً، فسوف يظل يتخبط في اتجاهات شتى، ولن ينتهي سفره إلى الله - تعالى - أبداً !

ولكن حين يجعل المرء من الله مركز اهتمامه وتوجهاته، وبالتالي يوجه حياته كلها نحو مرضاة الله، ويصبغها بالصبغة الإلهية، فمن الطبيعي أن يتوصل آخر الأمر إلى الله الذي كان هو وجهته ومقصوده منذ بداية سفره !!

الله قادر، والإنسان عاجز .. ولذا فإنه ليس ثمة من نسبةٍ أو علاقةٍ صحيحةٍ تقوم بين العبد والله سوى علاقةٍ واحدةٍ، ألا وهي علاقة العبودية، فاختيار طريق العبودية يعني إدراكنا لعلاقتنا الصحيحة مع الله تعالى .. والشخص الموصول بالله بعلاقة العبودية يكون بعيداً عن أثر الشيطان وسلطانه، وأما الذي لم يُقم علاقته مع الله، فإن علاقته ترتبط بالشيطان، فهو يسير على إيحاءات الشيطان، حتى يصل إلى حيث قدر للشيطان أن يصل في نهاية المطاف !

إن جهنم، التي هي المقر الأخير للشيطان وأوليائه، تتكون من دركات أو أدوارٍ سبعةٍ، قال عكرمة : ((سبعة أبواب سبعة أطباق)) [2].

فالجهنميون سوف يتوزعون- بحسب أعمالهم- إلى سبع جماعاتٍ كبيرةٍ، تدخل كل

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، ٢/ ٣١٢.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ، ٢/ ٣١٢.

واحدة منها في الدرك المناسب لها من دركات جنهم السبعة !

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ (٥٠) ﴾ .

غِلٍّ : حقد وضغينة وعداوة .

نَصَبٌ : تعب وإعياء .

إن حياة الجنة ستكون حياة خاليةً من الخوف، ولن يستحقها إلا أُناس خافوا من الله في الحياة الدنيا، فالخوف من الله في الدنيا هو ثمن الأمن و السلامة من الخوف في الآخرة !!.

إن الضغائن النفسية بين الأفراد تتولد لسببين : أحدهما الطغيان، وثانيهما سوء الفهم.. والضغينة الناشئة عن الطغيان هي كبرى الرذائل الاجتماعية إطلاقاً، ويتعين على أهل الإيمان أن يبادروا بالقضاء عليها في هذه الدنيا، والذين لا يقضون عليها في هذه الدنيا يعرضون أنفسهم لعذاب النار في الآخرة .

أما الضغينة الثانية فهي التي تتولد بسبب سوء الفهم، وهي قد تنتهي حيناً ويزول أثرها من القلوب بمضي الزمان، وحيناً آخر لا تزال باقيةً على مدى الحياة - رغم إخلاص الجانبين لبعضهما.. وهذا النوع الثاني من الضغائن سوف ينتهي في الآخرة على أكمل وجهٍ، ويحل محله صفاء لا يكدره شيء .. ذلك لأن الآخرة هي دار تظهر فيها الحقائق ظهوراً تاماً لا لبس فيه ولا غموض .

فإذا انكشف القناع عن الحقائق كلها، وأصبحت ماثلةً للعيان، فهل يبقى بعدئذٍ من

سببٍ يدفع رجلاً مخلصاً إلى أن يحقد أو يضغن على أخيه بدون لزوم؟ كلا !

إن حياة الجنة حياة لطيفة ورائعة إلى حد بعيد.. بيد أن لذائذ الحياة الراهنة تعريف لعالم الملذات والمسرات القادم، وعلى هذا، فبمستطاع أي شخصٍ أن يقدر كم ستكون الجنة بذاتها لذيذة وممتعةً، تلك التي بلغت مقدماتها الدنيوية (هذا المبلغ من اللذة والإمتاع !!

ولو فرضنا أن شخصاً ما تمكن من الحصول على كل أنواع اللذة في العالم الراهن، فإنه لن يسلم - مع ذلك - من منغصات تفسد عليه كل لذةٍ، وتجعل وجودها وعدمها سواء، غير أن الجنة مكان ستكون لذائذه منزهة عن كل أنواع المنغصات، فقد جاء في الحديث : «يقال لأهل الجنة : إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبداً».

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ : أضيافه وكانوا من الملائكة .

وَجِلُونَ : خائفون فزعون .

القَانِطِينَ : الآيسين من الخير ، أو الولد .

لقد جاءت الملائكة إلى سيدنا - إبراهيم عليه السلام - في صورة بشرٍ، وفي أثناء الحوار أخبروه بأننا أتيناك بالحق .. ماذا كان هذا «الحق» -الأمر الواقع- الذي جاءت

به الملائكة إلى سيدنا إبراهيم - عليه السلام ؟

إنه كان بشارةً بجائزةٍ أو إنعامٍ غير عاديٍ لا يُتوقع في الظروف المعتادة، وقد جرت عادة الله - سبحانه وتعالى - بأنه حين يريد التفضل على عبدٍ من عباده بإنعام غير عادي، فيرسل إليه لتحقيق هذا الغرض جماعةً خاصةً من الملائكة .

وأمثال هؤلاء الملائكة يأتون إلى الأنبياء وإلى غير الأنبياء على سواء، وإنما الفارق هو أن النبي، حين يأتي إليه ملائكة الله، يراهم رأي العين، ويكون على وعيٍ تامٍ ومعرفةٍ واضحةٍ بأنهم ملائكة .. وأما الإنسان العادي فلا يكون على مثل هذا الوعي والمعرفة القطعية، بيد أن قربه الخاص من الملائكة يولد في داخله كيفيات خاصة.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝ ﴾

كان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يسكن بفلسطين .. وكان في القرية المجاورة لها، بشاطئ البحر الميت، ابن أخيه لوط - عليه السلام - وقد أبلغ سيدنا لوط - عليه السلام - رسالة الله إلى سكان هذه القرية، إلا أنهم لم يرضوا بقبول الإصلاح، بل ظلوا يتمادون في العناد والطغيان يوماً بعد يوم، حتى قضى الله - عز وجل - بأن يهلكهم أجمعين .. وقد جاء هؤلاء الملائكة لتنفيذ هذا القضاء الإلهي نفسه .

ويُحتمل أن سيدنا لوطاً - عليه السلام - لم يؤمن به أحد من قومه سوى بضعة أفرادٍ من أسرته، والواقع أن الوقوف إلى جانب داعية الحق، بالنسبة إلى الأجانب - أي الذين لا تجمع بينه وبينهم رابطة الدم أو وشائج القربى - يكون أمراً عسيراً جداً .. فإن هناك عقباتٍ نفسيةً كثيرةً تحول دون ذلك .. أما الأقارب وذوو الأرحام، فإنهم لا يواجهون أية عقباتٍ من هذا النوع، ومن ثم فهؤلاء ربما يصبحون- وبسهولة أكثر نسبياً- أنصار الداعي إلى الحق ومؤيديه .

وهكذا حدث مع سيدنا لوط - عليه السلام - حيث لم يؤمن بدعوته - في أغلب الظن - سوى بناته، إن العلاقة القلبية الخاصة التي تربط الأبناء بالوالد، تعود عاملاً خاصاً يحملهم على تلقي دعوة الوالد بالقبول .. وقد نجت هؤلاء البنات المؤمنات مع أبيهن لوط من عذاب الله، غير أن زوجته - عليه السلام - لم تؤمن به من صميم قلبها، وبالتالي فلم تلبث أن أُهلكت مع المجرمين الآخرين، فإن قانون الله لا يُحابي أحداً على أساسٍ من القرابة أو النسب كائناً من كان !

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

قَوْمٌ مُّنكَرُونَ : أنكركم ولا أعرفكم .

فِيهِ يَمْتَرُونَ : يشكون ويكذبونك فيه .

بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ : بطائفة منه أو من آخره.

وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ : سر خلفهم لتطلع عليهم .

وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ : أوحينا إليه .

دَابِرَ هَؤُلاءِ : آخرهم والمراد جميعهم .

إن واحداً من مظاهر «الحق» هو الذي سبق أن جاءت به الملائكة إلى سيدنا إبراهيم - عليه السلام - والمظهر الثاني «للحق» هو هذا الذي جاؤوا به لوطاً -عليه السلام - وفيما كان «الحق الأول» إنعاماً من الله خاصاً، أخذ «الحق الأخير» شكل عذابٍ إلهي خاصٍ.

وقد جاءت الملائكة سيدنا لوطاً - عليه السلام - في صورة بشرٍ، وكان الغرض من مجيئهم أن يقوموا بتنفيذ القضاء المحتوم على المنكرين للنبي، ذلك الذي قدره الله تعالى جزاءً على طغيانهم .. وتبعاً لتعليمات الملائكة، خرج سيدنا لوط برفقة المؤمنين به من القرية في جنح الليل، وبعدئذٍ لم تكد تطلع شمس اليوم التالي حتى تعرضت تلك القرية بأكملها لرجّات زلزالٍ عنيف جعل عاليها سافلها، ولم يلبث المنكرون الطغاة أن تم إهلاكهم عن آخرهم بقسوة بالغةٍ !!

وأين وقعت هذه الكارثة المهلكة يا ترى؟ إنها حلت بدنياهم ذاتها، تلك التي كانوا يعدونها دنيا أنفسهم.. وحيث كان كل شيءٍ من أشيائها يبدو لهم كأنه أداة طيعة مسخرة لخدمتهم، ولكن حين يُصدر الله أمره، فتتحول تلك الخريطة إلى الهلاك والدمار، التي كان يحسبها المرء خريطة نجاحه وسعادته، والقصر الذي يزهو المرء ويفتخر بامتلاكه، يفاجأ به خراباً، كما لو أنه لم يكن إلا أنقاضاً قُذف بها على رأس المرء من يحث لا يشعر!

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

مُّصْبِحِينَ : داخلين في وقت الصباح .

عَنِ العَالَمِينَ : عن إجارة أو ضيافة أحد منهم .

إن الملائكة الذين جاؤوا إلى «سدوم» - قرية قوم لوط - طلعوا عليهم في صورة شباب حسان الوجوه للغاية، وكأن ذلك كان بمثابة الورقة الأخيرة لاختبار هذه الأمة الغارقة في الفجور والإباحية .. ومن ثم لم يلبث هؤلاء، بسبب طغيانهم المتزايد، أن تهافتوا على أولئك الشباب، وأرادوا - كعادتهم - أن يفعلوا بهم الفاحشة، إلا أنهم لم يكونوا على علمٍ بأن هؤلاء الذين خالوهم شباباً فاتنين أو «جذابين» ليسوا في الحقيقة

إلا ملائكة العذاب، وإنما جاؤوا هنا ليدعوهم وقد ألصقوا بهم وصمة خزي وعارٍ تبقى أبد الدهر! .

والمراد بـ ((بناتي ..)) بنات أمته .. فحين رأى سيدنا لوط - عليه السلام - الفجرة الظالمين وهم يتهافتون على الضيوف الكرام، رغم منعه إياهم ذلك، فناشدهم الله ألا تفضحوني في ضيفي هؤلاء، وأما إن أبيتم إلا قضاء ما تشتهون، فهؤلاء فتيات الشعب، لتتزوجوا من أيتهن شئتم !

﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

لَعَمْرُكَ : قسم من الله - عز وجل- بحياة محمد ﷺ .

سَكْرَتِهِمْ : غوايتهم وضلالتهم .

يَعْمَهُونَ : يعمون عن الرشد أو يتحيرون .

الصَّيْحَةُ : صوت مهلك من السماء .

مُشْرِقِينَ : داخلين في وقت الشروق .

سِجِّيلٍ : طين متحجر طبخ بالنار.

لِّلْمُتَوَسِّمِينَ : للمتفرسين المتأملين .

لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ : طريق ثابت مُعْلم مسلوك .

ما الذي جعل قوم لوطٍ يبلغون من الفجور والطغيان حداً أخرجهم عن طورهم؟

لقد كان السبب في ذلك أنهم نظروا في القضية بالنسبة إلى سيدنا لوط، وبما أنهم كانوا أقوياء أشداء بإزائه - عليه السلام - خُيل إليهم : أن لا أحد يستطيع أن ينال منا شيئاً، مهما فعلنا، فلنفعل ما نشاء .

ولو أنهم نظروا في القضية بالنسبة إلى الله، لكان الوضع بالعكس من ذلك تماماً .. ولأدركوا حينئذ أن طغيانهم سخيف بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، إذْ لا قبل لأحدٍ- مهما كان قوياً شديد البأس- بإزاء الله العزيز الجبار، وما هو إلا قليل حتى هلك القوم عن بكرة أبيهم !!

وللمتأملين في هذا الحادث درس مفاده أنه ليس أحد في هذه الدنيا حقيقةً في مواجهة أي إنسانٍ مثله،بل الكل في مواجهة الله .. ولو أن المرء أدرك هذه الحقيقة حق الإدراك لانتهى طغيانه كله تلقائياً !

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ .

أَصْحَابُ الأَيْكَةِ : سكان بقعة كثيفة من الأشجار الملتفة (قوم شعيب)عليه السلام .

وَإِنَّهُمَا : قرى قوم لوط والأيكة .

لبإمام مبين : لبطريق واضح يأتمون به في أسفارهم .

الحِجْرِ : ديار ثمود بين المدينة والشام .

مُصْبِحِينَ : داخلين في وقت الصباح .

المراد بـ ((أصحاب الأيكة)) : قوم شعيب - عليه السلام -، وقد كان اسمهم الأول

((بني مديان))، وكانوا يسكنون بمنطقة ((تبوك)) الحالية .. أما ((أصحاب الحجر)) فهم قوم ثمود، الذين بُعث فيهم سيدنا صالح - عليه السلام - وقد كانت مساكنهم في شمال المدينة، وهي اليوم ((مدائن صالح)) .

وإن عناد أصحاب الأيكة وطغيانهم لم يصبهم بالشرك فحسب، بل وصل بهم إلى أشنع الجرائم الأخلاقية.. وعندما لم يتلقوا أي درسٍ ولا عبرةٍ، رغم تذكير سيدنا شعيب وإنذاره إياهم باستمرارٍ، أمر الله الأرض، فإذا بها تتحول إلى مهدٍ للعذاب والدمار، وقد كانت قبلئذٍ مهد عيشهم الرغيد !

وقد كان قوم ثمود ماهرين في فنون النحت حيث كانوا قد حولوا الجبال- من خلال حفرها ونحتها- إلى بيوتٍ رائعةٍ فخمةٍ، وكانوا يظنون أنهم قد هيؤوا بذلك آخر الأسباب والتدابير الممكنة لحماية أنفسهم من الفناء أو التعرض لعذابٍ ما، ولكنهم لما أعرضوا عن نداء الله، جاء الأمر الإلهي، فما لبثت بيوتهم العظيمة الفخمة، أن انقلبت قبوراً تحتضن جثثهم الهامدة الخامدة !

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾ .

إن دراسة الأرض والسماء، وما بينهما من ظواهر وموجوداتٍ، تدلنا على أن هذا النظام الكوني البديع قد أنشئ كله بمنتهى الحكمة .. فما من شيءٍ هنا إلا تجده حيث ينبغي له أن يكون في الواقع، وإنما هو الإنسان وحده، الذي يتبنى موقفاً مناقضاً لمقتضى الحقيقة في هذا النظام الكوني بأسره، وإن هذا التناقض بين الإنسان والكون ليقضي بأنه لابد من وضع حد له، وعلى هذا الاعتبار فإن عقيدة القيامة عقيدة تتفق مع العقل والمنطق أتم الاتفاق، إذْ ليس ثمة من شيءٍ آخر، ما عدا القيامة من شأنه أن يضع حداً لهذا التناقض الصارخ !

إن واحداً من أهم عناصر عمل الدعوة إلى الله هو «الإعراض»، أي : أن تجتنب ما قد يثيره المخاطب من مناقشاتٍ ونزاعات جانبيةٍ، بدلاً من الخوض معه في غمارها .. وإنه بدون التزام مبدأ الإعراض لا يمكن إنجاز عمل الدعوة على نحوٍ مؤثرٍ ومثمرٍ ..

وحكمة الإعراض : هي أن المدعو ديدنه أن يثير - دائماً - نزاعاتٍ جانبيةً مع الداعي، فلو أن الداعي اصطدم بدوره مع المدعو في كل مناسبةٍ كهذه، فسوف تكون هناك معارك حامية ساخنة، تجري على قدمٍ وساقٍ، حول الأمور غير ذات الصلة بالموضوع، ولكن العمل الدعوى الأصيل سيبقى كما هو، دون أن يجد أحداً ينهض بأعبائه ويهتم بإنجازه على وجهه!

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

سَبْعاً : سبع آيات وهي الفاتحة .

مِّنَ الْمَثَانِي : التي تثنى وتكرر قراءتها في الصلاة .

أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ : أصنافاً من الكفار .

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ : تواضع وألِنْ جانبك .

الْمُقْتَسِمِينَ : أهل الكتاب .

عِضِينَ : أعضاء وأجزاء ، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض .

المراد بـ «السبع المثاني» سورة الفاتحة .. إن سورة الفاتحة خلاصة القرآن بأكمله، وبقية القرآن بيان وتفصيل لها .

وإن هذا القرآن – من غير شكٍ – أعظم نعمةٍ في الأرض والسماء إطلاقاً، فكونه كتاب هداية، يضمن للمؤمنين به النجاح في الآخرة .. وكونه آخر كتاب، يستلزم بالضرورة أن يُكتب له الغلبة والانتصار على معارضيه، إذْ بدون الغلبة لا يمكن أن يبقى هو كآخر كتاب إلى الأبد .

وينبغي للداعي ألا يقع فريسة اليأس والخيبة والأسف على الذين لا يؤمنون بدعوته، بل لينظر إلى من آمن به، فيطمئن قلبه ويرتاح باله، وليكن بهم رفيقاً لين الجانب، باذلاً جهده في تربيتهم وتزكية نفوسهم .

والمراد بـ : ﴿ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ : هو تجزئة التوراة أو تقسيمها .. فقد كان اليهود قسموا كتابهم السماوي – عملياً – إلى جزأين : فما تعارض من تعاليمه مع أهوائهم، تخلوا عنه، وما اتفق منها مع أهوائهم أخذوا به .. وإنما كانت الآيات – من القسم الأول – تظل مغلقة في خانة التقديس، فلم يكونوا يعيرونها أي اهتمام ولا يتناولونها بالنشر والإشاعة بين الناس، بينما كانوا ينشرون الآيات المتصلة بالقسم الثاني على أوسع نطاقٍ .. جعلوا الكتاب الإلهي تبعاً لمصالحهم، وليس تبعاً للأحكام والوصايا الإلهية .

ولوجود شيء ما مستويان : أحدهما وجود أجزائه، والآخر هو أن تجده ككلٍ جامعٍ لا يتجزأ .. فحين يعرف المرء الشجرة مثلاً بصفتها الكلية، يعبر عنها بقوله : إنها «شجرة» ولكن لو أنه لم يعرفها بصفتها الكلية، فسوف يردد أسماء الجذع، والغصن، والورق، والزهر، والثمر، ولا يكاد ينطق بتلك الكلمة الوحيدة التي تجمع بين سائر أجزائها المتفرقة حول أصلٍ واحدٍ فتأخذ بالتالي شكل وحدةٍ واحدة.

وهذا هو الشأن تماماً فيما يتعلق بكتاب الله كذلك .. فكتاب الله يحتوي على كثيرٍ من الأحكام المتفرقة والمتنوعة، كما أن هناك نقطةً محوريةً جامعةً يدور عليها الكتاب كله،

فالذين يستغرقون في كتاب الله، سيجدونه بصفته الكلية الجامعة، وأما الذين استغرقوا في ذات أنفسهم، فإن كتاب الله إنما يتراءى لهم مجموعةً من أحكامٍ شتى مبعثرةً هنا وهناك، وبالتالي فيأخذون منها أي جزءٍ يتلاءم مع أذواقهم وأحوالهم ويشرعون في التركيز والتأكيد عليه كما لو أنه كان هو وحده كل شيء !!

إن الشجرة لا تلبث أن ترتوي بأكملها إذا ما ألقيت الماء في جذورها، وهكذا لئن قمنا بإحياء الجانب الكلي والمركزي من كتاب الله، فسوف تستعيد معه بقية أجزاء الكتاب الأخرى حياتها وحيويتها بطبيعة الحال .. وبالعكس من ذلك لو أننا تناولنا جزءاً واحداً من أجزائه، وركزنا عليه كل التركيز.

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ : فاجهر به أو فأمضه ونفذه .

الْيَقِينُ : الموت المتيقن وقوعه .

إن كل شخصٍ في العالم الراهن له الحرية المطلقة ليقول ويفعل ما يشاء كما يشاء. ومن هنا فحين يبدأ الداعي بعمل الدعوة إلى الله، يوجه إليه الآخرون - بغية إحراجه وصرفه عن الدعوة - ألواناً شتى من الأقاويل الفارغة ، كما تثار أنواع من القضايا الجانبية غير ذات صلةٍ بالموضوع، وفي مناسباتٍ كهذه يجب على الداعي أن يعرض عن كل هذه الأباطيل، ولو أنه أخذ في مثل هذه المناسبات، يتخاصم مع الآخرين، فلن يستطيع إنجاز عمل دعوة الحق الإيجابي أبداً .

وإن هناك منهجاً إيجابياً واحداً، لا ثاني له، يتعين على داعية الحق أن يتبناه في هذه الدنيا، وهو يتلخص في أنه لا يتعرض لمن تعرض له .. وأن يجهر بالحق الذي ظفر به ويقوم بإعلانه على أكمل وجه، ويفوض إلى الله كل أمر يجد نفسه عاجزاً عن مواجهته.. وأن يوجه اهتمامه كله نحو الآخرة، إذا ما أصبحت أحوال الدنيا غير المواتية تزلزل مضجعه وتقلق باله، وأن ينشغل في ذكر الله إذا ما ضاق صدره بقلة مبالاة الناس وعدم اكتراثهم بما يقول.

ومن شأن الداعي الصادق أنه حين تنتابه حالة من حالات الهم أو الحزن ، يتوجه بكل كيانه إلى الله - عز وجل - ويحاول أن يجد من الله ما لم يستطع أن يجده من البشر، وتغمره موجة من السكينة والاطمئنان إذ يقف بين يدي الله مصلياً ، ويثلج فؤاده ، وتتخفف أعباء قلبه عندما تسكب عيناه دموعاً من خشية الله ، وحين ينشغل في المناجاة مع ربه ، فهو يشعر كأنه قد ظفر بكل ما كان يود أن يظفر به!

سورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝ ﴾ .

وَتَعَالَى : تعاظم بذاته وصفاته الجليلة .

بِالرُّوحِ : بالوحي ومنه القرآن العظيم .

حقيقة الدين هي أن يعرف الإنسان وجود الله وتصرفه المطلق وراء هذا الكون معرفة تجعله يرى ذات الله الواحدة هي كل شيء .. فلا يخاف إلا منه ، ولا يعقد آماله إلا عليه ويصبح الله الواحد الأحد مركز توجهات قلبه وعقله كلها .

وذلك معنى جعل الله إلها وإخلاص العبادة له تعالى ، وما جاء الأنبياء والرسل في هذا العالم إلا لخلق هذه الكيفية نفسها في قلوب الناس وضمائرهم ، وسيفوز بالنجاح والسعادة في يوم الجزاء الذين يقيمون الدليل على هذه العبودية ، وأما الذين يسيرون في الاتجاه المعاكس لذلك فسوف لا يلقون يوم الجزاء إلا الخيبة والشقاء الأبدي ، وسيواجه هذا المصير عامة البشر في يوم القيامة ، إلا أنه يبدأ ، بالنسبة إلى مخاطبي النبي المباشرين من هذه الدنيا .

إن الكون يتسم بوحدة كاملة ، وهو – إلى جانب ذلك – منطو على هدف عميق كذلك ، وإن وحدة الكون ترفض بشدة أن يكون من الجائز لأحد أن يتخذ من أحد غير الله .

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ .

تركيز توجهاته وانطوائه على الهدف يقتضي أن ينتهي آخر الأمر بغاية هادفة ، وليس بغاية غير هادفة ، وعلى هذا فبالإمكان القول بأن نظام الكون البديع يوفر لنا في وقت واحد دلائل الوحدانية ودلائل إمكان الآخرة معا !

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ .

نُّطْفَةٍ : ماء مهين .

هُوَ خَصِيمٌ : شديد الخصومة بالباطل .

وَالْأَنْعَامَ : الإبل والبقر والضأن والمعز .

فِيهَا دِفْءٌ : ما تتدفؤون به من البرد .

فِيهَا جَمَالٌ : تجمل وتزين ووجاهة .

حِينَ تُرِيحُونَ : تردونها بالعشي إلى المراح .

وَحِينَ تَسْرَحُونَ : تخرجونها بالغداة إلى المسرح .

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ : أمتعتكم الثقيلة الحمل .

بِشِقِّ الأَنفُسِ : بمشقتها وتعبها .

إن وجود الإنسان يبدأ من مادة حقيرة تافهة ، ولكنه عندما يكبر يحاول أن يصبح نداً لله منافسا له تعالى .. فهو يريد أن يعيش في كون الله غير خاضع لإله ، ولو أن الإنسان أخذ في اعتباره حقيقته البدائية لما سلك طريق البغي والعناد والطغيان في أرض الله أبداً .

ومن جملة النعم المتاحة للإنسان في العالم الراهن أنواع المواشي والأنعام ، وكأنها آلات طبيعية حية لا تزال مشغولة بسد مختلف حاجات الإنسان ، فهي تأكل العشب والعلف ، وتحوله إلى اللحم واللبن لغذاء الإنسان ، وهي تخرج فوق جلودها من الأشعار والأصواف والأوبار ما ينسج منه الإنسان ثيابا يستدفئ بها ... وهي تقوم بنقل أمتعة الإنسان من مكان إلى مكان ، كما أن قطعان هذه الأنعام والمواشي تزيد من وجاهة شأن مالكها وترفع من مكانته بين الآخرين .

والمراد بقوله : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ تلك المنافع التي نحصل عليها عن طريق الموارد الأخرى عدا المواشي والأنعام .. وقد كان جزء من هذه الموارد الأخرى متاحا للإنسان في العصر القديم أيضا ، غير أن الجزء الأكبر منها كشف عنه الإنسان أخيرا في هذا العصر الحديث ، ويستغله لبلوغ شتى مآربه ، كاستخدام الماكينة مثلا بدلا من الحيوان .

وإن ما يتمتع به الإنسان في هذه الدنيا من نعم لا تحصى ، ليست من صنع الإنسان نفسه ، بل هي وفرت له من عند الله - سبحانه وتعالى ، ومن هذا يتضح لنا أن خالق

هذا العالم رحيم ، مما يقتضي أن يكون الإنسان شاكرا لخالقه ، ويقوم بأداء الحق تجاه الله المنعم عز وجل .

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾ .

قَصْدُ السَّبِيلِ : بيان الطريق القاصد المستقيم .

وَمِنْهَا جَائِرٌ : من السبيل مائل عن الحق .

للارتحال من مكان إلى مكان آخر يلزمك أن تسير في شارع معين يؤدي بك مباشرة إلى المقصود .. فالمراكب تجري على الشوارع المستقيمة تبعا لمقاصدها المطلوبة ، على أن هناك طرقا وممرات أخرى كثيرة أيضا تتواجد بجانبي هذه الشوارع ، ولو أن شخصا ولج في هذه الطرق الجانبية المتفرقة ، باعتبارها هي الشارع الرئيسي ، فإنه لن يصل أبدا إلى غايته المقصودة ، وإنما يظل يتيه ويتخبط يمينا أو يسارا بعيدا عن مقصده الأصلي .. وهذا هو الشأن فيما يتعلق بالوصول إلى الله كذلك .. فقد بين الله للإنسان الطريق الذي يوصله إليه بسهولة .. هو طريق التوحيد والتقوى، فمن يسلكه يصل إلى الله ، ومن يسلك في سبل أخرى ، يبقى تائها هنا وهناك ، ولن يوفق أبدا للوصول إلى ربه .. وكل شيء في هذه الدنيا يسير في الطريق المحدد له من قبل الله تعالى ولو شاء الله لألزم الإنسان هو الآخر بطريق معين يسير فيه ولا يحيد عنه، غير أن تدبير الخالق الحكيم ، بالنسبة للإنسان ، مختلف عن تدبيره بالنسبة للأشياء الأخرى كل الاختلاف ، فالمطلوب من الأشياء الأخرى هو الالتزام المطلق والمطلوب من الإنسان هو الالتزام الاختياري الحر ، ونتيجة لإتاحة حرية الاختيار هذه انقسم الناس إلى سائر في الطريق الحق ، ومنحرف عنه متسكع في الدروب والطرق المزعومة!

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾ .

فِيهِ تُسِيمُونَ : فيه ترعون دوابكم .

السحب تمطر من أعلى الفضاء ماء ، فيترتب على ذلك فوق الأرض نتائج ذات مغزى عميق ومدهش .. إن هذا التنسيق والانسجام بين عمل السماء والأرض ليثبت بوضوح لا يبقى معه مجال للشك أو الارتياب ، أن إله السماء هو بذاته إله الأرض كذلك .

إن أجزاء الكون المختلفة منسجمة مع بعضها أكمل انسجام ، وهذا الانسجام دليل قاطع على أن خالق الكون كله ومالكه ليس إلا واحدا ، وهو الله عز وجل، إذ ليس هناك من مكان في الهيكل الحالي للكون لأكثر من إله واحد، وإذا لم يكن الخالق والملك حقيقة غير الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد فمن يرتفع من دون الله إلى درجة المعبود، سيكون باطلا كل البطلان !

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣﴾ .

ذَرَأَ لَكُمْ : خلق وأبدع لمنافعكم.

الشمس والقمر والنجوم كلها ، تدور في الفضاء الرحب بحكمة بالغة ودقة متناهية، والأرض مليئة بشتى أنواع المخلوقات – من الحيوانات والنباتات والجمادات – ولا تقع تحت الحصر ، وفي المشهد الأول يتجلى جانب « تسخير بالأمر» بينما يبرز في المشهد الأخير جانب « اختلاف الألوان » وإذا كان أحدهما يذكرنا بكون قدرة الله

مطلقة بلا حدود ، يدلنا ثانيهما على أن الصفات الإلهية لا تحصى ولا تعد.

وإن هذه المشاهد لمذهلة ومحيرة للعقل لدرجة أن أيما شخص يقف عندها متأملا لابد أن يتأثر بها أبلغ تأثير ، فإنه سيرى فيها آثار عظمة الله وربوبيته الباهرة ، وسيكتشف ما يكمن وراء هذه الوقائع الظاهرية من الأسرار والحقائق الغيبية السامية ، وبالتالي فسوف لا يلبث ، وهو يشاهد عجائب المخلوقات، أن يغوص ويستغرق في معرفة الخلاق المبدع العظيم !

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ : من البحر الملح خاصة .

مَوَاخِرَ فِيهِ : جواري فيه تشق الماء شقا .

لو ألقينا بقطعة من الحديد في البحر ، فسوف لا تلبث أن تستقر من فورها في القاع ولكن حين يتم تحويل الحديد نفسه إلى سفينة أو باخرة ،فإذا بها تبدأ تطفو على سطح الماء ، وتذهب بما تحمل من ركاب وأحمال ثقيلة من قطر إلى قطر آخر.

وهذا قانون إلهي خاص سخر الله من خلاله مخلوقا مهيبا عملاقا كالبحر لخدمة الإنسان ، كما أن البحر يتم في داخله إعداد لحم طري هو الأسماك على اختلاف أنواعها تحت نظام مدهش ، وتتكون في أغواره الجواهر واللآلئ النفيسة لزينة الإنسان .

وقد كانت هناك صور أخرى ممكنة لله - سبحانه وتعالى - لتدبير شؤون الدنيا ، حيث كان بالإمكان - مثلا - ألا تكون هنا بحار فوق الأرض أصلا ، أو أن يمكن

الإنسان من المشي على البحر تماما كما هو يمشى على البر ، ولكن الله لم يفعل – مع قدرته – شيئا من هذا القبيل وكانت الحكمة من ذلك هي خلق عاطفة الشكر في نفس الإنسان .

فالمرء حين يعجز عن المشي بأقدامه فوق البحر ، ثم يركب سفينة أو باخرة فتأخذ تمخر به عباب البحر بتمام السهولة، فمن الطبيعي أن يبعث ذلك موجة من مشاعر الشكر في قلبه ، إذ هو يفكر : إن البحر الذي لم أكن أستطيع اجتيازه بواسطة أقدامي أنا قد هيأ الله تعالى أسباب اجتيازه لي عن طريق السفن والبواخر ، والفضاء الذي لم يكن في طاقتي أن أطير بنفسي في رحابه ، قد مكنني الله من الطيران فيه عن طريق الطائرات بسرعة فائقة للغاية .. ولم توضع مثل هذه الفروق بين الأنظمة الطبيعية ، إلا لإيقاظ شعور الإنسان وإرهاف حسه ، وتوليد عواطف الشكر والامتنان لربه في داخله !

﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

رَوَاسِيَ : جبالاً ثوابت .

أَن تَمِيدَ بِكُمْ : لئلا تتحرك وتضطرب بكم .

وَعَلامَاتٍ : معالم للطرق تهتدون بها .

أشارت هاتان الآيتان إلى شيئين : أحدهما : نصب الجبال فوق الأرض لتبقى عليها توازنها ، وثانيهما : إقامة علامات في أنحاء الأرض والسماء ليستدل بها الناس على الطرق المؤدية إلى مقاصدهم .

وتدلنا الدراسات الجغرافية على أن الأرض حين تولدت فيها الأعماق السحيقة التي تحولت أخيرا إلى بحار باجتماع المياه فيها ، بدأت تهتز وتضطرب ، فارتفعت بعدئذ

شواهق الجبال في مناطق البر ، وهكذا استطاعت الأرض، نتيجة هذا العمل المزدوج ، أن تحتفظ بتوازنها ، ولولا هذا التوازن ، لأصبحت حياة الإنسان على ظهر الأرض ، مستحيلة أو –على أقل تقدير – صعبة جدا .

وكذلك فإن الإنسان بحاجة ماسة للقيام بأسفاره وتنقلاته إلى معالم يستعين بها للتعرف على اتجاهه فيصل إلى مقصده دون أن يضل الطريق أو يخطئه .. وقد هيأ الخالق جل وعلا أسباب ذلك أيضا على أحسن وجه وأكمله .. فقد كان إنسان العصر القديم يستدل على طرقه بواسطة أشياء كالأنهار والنجوم ، وها هو ذا يتعرف الآن على وجهته وعلى أمور أخرى ضرورية مستعينا بها اخترع من الآلات المغناطيسية، فعن طريق ذلك يتمكن من القيام برحلاته السريعة في البر والبحر وأيضا في الجو ، ولو أنه لم تكن ثمة علامات كهذه لتقلصت دائرة الأنشطة البشرية إلى حد بعيد جدا !

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

لاَ تُحْصُوهَا : لا تطيقوا حصرها لعدم تناهيها .

إنه ليس ثمة شيء في هذا العالم يقدر على الخلق والإبداع – أي إيجاد شيء ما من العدم – بما يثبت أن هذا العالم لم يخلق نفسه بنفسه ، وإنما خالقه هو الذي لديه القدرة على أن يوجد شيئا لم يكن موجودا ، وعلى هذا فإن عقيدة الإله الواحد هي عقيدة فطرية بكل معنى الكلمة ، إذ لا يمكن تفسير الكون بدون الإيمان بوجود إله يتمتع بصلاحية الخلق والإيجاد على أكمل وجه .. أما الآلهة التي اختلقها المشركون أندادا لله ، أو الأشياء التي حاول المنكرون (الملاحدة) إحلالها محل الإله الواحد ، باعتبارها

بدائل عن الله ، فإن أي واحد منها لا يمتلك صلاحية الخلق الذاتي ، وكفى بهذا الواقع دليلا على أن كل هذه الآلهة التي وضعها الشرك والإلحاد لا تعدو أن تكون افتراضات خيالية ، فإن من أبعد الأمور على الخلق والإنشاء، فالذي لا يملك لنفسه وجودا ذاتيا مستقلا،أنى له أن يسبغ الوجود على شئ آخر سواه ؟!

والشيء الذي يطلبه الله من عباده أكثر مما عداه هو الشكر على نعمائه ، ومع أن نعم الله من الكثرة والتنوع بحيث لا يستطيع أحد – كائنا من كان – أن يقوم بإحصائها وأداء الشكر عليها كما يجب ، إلا أن الله – سبحانه وتعالى – يتفضل بقبول القليل من الشكر على الكثير من النعم ، ولكن ينبغي أن يكون هذا الشكر شكراً حقيقيا ، وليس محض ترديد لكلمات الثناء والحمد الرسمية !

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

لاَ جَرَمَ : حق وثبت ، أو لا محالة أو حقاً .

يأخذ الشرك – في أكثر الأحيان – مظهرا واحدا ، هو : أن يعتبر الناس بعض من مضى من الشيوخ الصالحين من القدسية والتقرب إلى الله بمكان ، فيبدؤون أولا يعبدونهم مع الله ، في حين أن هذه العبادة تتسم بمنتهى الغباء والحماقة ، فالشيوخ المقبورون الذين يقوم الناس بتشييد أضرحة ضخمة لهم ، ويرجون منهم تحقيق آمالهم ومراداتهم ، يكونون بأنفسهم أمواتاً في عالم البرزخ ، وهم لا يدرون عن ذات أنفسهم متى سيبعثون ، ناهيك أن يمدوا يد العون لأحد سواهم!!

وليس معنى قوله : ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ أنهم يستكبرون على الله ، فمن يا ترى تبلغ به الجرأة إلى حد يتكبر معه على خالق الأرض والسماء ؟ إنما المقصود بذلك هو التكبر على داعية الله الواحد ، وليس التكبر على الله نفسه .

وقضية أمثال هؤلاء ، مع كونها قضية الغرور والاستكبار ، إلا أنهم يتناولونها بالتمويه، فيقدمونها كما لو أنها قضية مبدئية ومسألة نظرية ،بيد أن الله تعالى خبير بنفسياتهم الداخلية وسوف يعاملهم الله تعالى من حيث حقيقتهم الأصلية ، وليس من حيث أقوالهم الظاهرية!

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ : أباطيلهم المسطرة في كتبهم .

أَوْزَارَهُمْ : آثامهم وذنوبهم .

تقول الروايات : إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين بعث بمكة ، وترامت أنباء ذلك رويدا رويدا إلى قبائل العرب الأخرى ، كانوا كلما وفدوا إلى مكة ، يسألون رؤساءها : ما رأيكم في هذا الشخص الذي ادعى النبوة بينكم ؟ وقد كان رؤساء مكة ، يردون على السائلين بما من شأنه أن يجعلهم يقعون في الشك والارتياب حول شخصيته وكلامه – عليه الصلاة والسلام[1].

ومن الأساليب التي لجؤوا إليها لتحقيق هذا الغرض : التشويه المتعمد لكلامه

(١) انظر : التفسير المظهري .

– عليه الصلاة والسلام – فما ورد في القرآن – مثلا – من قصص الأنبياء والمرسلين ، كان بإمكانهم أن يصفوا ذلك بأنه « تاريخ الأنبياء السابقين » غير أنهم أطلقوا عليه اسم ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .

وإن صرف الناس عن دعوة الحق أو تشكيكهم فيها على هذا النحو ، أشنع جريمة عند الله تعالى .. وسيلقى أمثال هؤلاء عذابا مضاعفا في يوم القيامة ؛ لأنهم لم يضلوا بأنفسهم وحدهم عن الحق ، بل تسببوا في إضلال الآخرين كذلك!

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

ٱلْقَوَاعِدِ : الدعائم والعمُد . أو الأساس .

يُخْزِيهِمْ : يذلهم ويهينهم بالعذاب .

تُشَاقُّونَ فِيهِمْ : تخاصمون وتعادون الأنبياء فيهم .

الخِزْيَ : الذل والهوان .

وَالسُّوءَ : العذاب .

الذين تتاح لهم الفرصة لاحتلال مركز السيادة والكبرياء في المجتمع على أسس مزورة كاذبة ، يشعرون بالخطر على مركزهم عندما تلوح لهم بوادر دعوة تنهض لإظهار الحق ، فيبادرون باتخاذ تدابير عاجلة للحفاظ على مراكزهم ، وتتمثل هذه التدابير في نشر أقاويل ضد دعوة الحق، من شأنها أن تشكك الجماهير في صدقها ،

وبالتالي لا يفسحون لها صدورهم ، ولا يفكرون في التجمع حولها أو الانضواء تحت لوائها .

غير أن تدابير أمثال هؤلاء ضد دعوة الحق - مهما أتقنوها - لا تكلل بالنجاح أبدا.. فالقواعد التي يكون معارضو الحق معتمدين عليها ، تعود ضعيفة هشة بحيث لا يلبث سقفها أن يخر عليهم من فوقهم .. وقد يحدث أحيانا أن يفاجئوا بأي زلزال طبيعي ، يهز قواعدهم، فيهدم ما بنوه على رؤوسهم .. وتارة يتخلى عنهم أتباعهم معلنين انضمامهم إلى صفوف الحق وهكذا يضطرون – بفقد أنصارهم وأعوانهم – إلى أن يسلموا أسلحتهم أمام دعوة الحق على رغم أنفهم .. وسيواجهون هذا المصير المخزي في صورته النهائية والكاملة يوم تقوم الساعة ، يوم يشاهد هؤلاء المنكرون ما لحق بهم من ذل وهوان أبدي ، ولا يستطيعون أن يفعلوا شيئا !

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

فَأَلْقَوُا السَّلَمَ : أظهروا الاستسلام والخضوع .

مَثْوَى المُتَكَبِّرِينَ : مأواهم ومقامهم.

التكبر هو الجريمة الكبرى ، ويتخذ المتكبر – في الغالب – أحد شكلين: الأول: هو التكبر الذي يظهر بين العباد العاديين ، فقد يجد أحد الناس نفسه أقوى ، وأكثر مالا وأجزل نصيبًا من صنوف المتاع الدنيوي بإزاء الغير ، فيأخذ، بناءً على ذلك واغترارا به، يتكبر عليه ويزدريه .

أما المتكبر الآخر الأشد شناعة من هذا : فهو الذي يمارس بالنسبة إلى داعي الحق ،

والمرء حين يتكبر على داعي الحق ، فإنها يدفعه إلى ذلك ظنه إياه عاجزا عن أن ينال منه شيئا أو يمسه بمكروه ، إلا أنه حين تأتي ملائكة الموت، ويسلبونه كل قوة واختيار ، فسيعلم حينئذ أن الطرف الآخر للقضية لم يكن إنسانا بل الله عز وجل ، وقد يحتمل أن يكون إنسان أقوى من إنسان آخر ، ولكن هل هنالك أحد أشد قوة من الله .؟ كلا ،.. وإذ يقع الإنسان في قبضة ملائكة الله ، فلا يسعه وقتئذ إلا أن يلقي السلاح مستسلما .. غير أن عبد الله الصادق هو الذي يبادر بإلقاء السلاح ويستسلم قبل أن يحين هذا الوقت الذي لا يجدي في التسليم والانقياد شيئا !

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

طَيِّبِينَ : طاهرين من دنس الشرك والمعاصي.

المصابون بداء الكبرياء ، حين لا يستمعون إلى كلام الله ، تنطلق أذهانهم في الاتجاه المضاد ، ولهذا السبب فهم لا يستطيعون أن يستفيدوا منه أي درس ولا عبرة ، ولكن الشخص الذي امتلأ فؤاده بخشية الله ينصت إلى كلام الله بتجرد واهتمام بالغين ، وبالنسبة لشخص كهذا يعد كلام الله وسيلة إلى المعرفة، وهو يأخذ يلمح في ثناياه ومضات الحقيقة العليا .

إن صفة الجنة هي : أن فيها كل ما يشاء الإنسان وتتوق إليه نفسه .. وذلك شيء لم يستطع الحصول عليه قط حتى الملوك الكبار ، فأبدا لا يحدث في العالم الراهن بسبب

محدودية قوى الإنسان وعدم مواتاة الظروف الخارجية له ، أن يحصل الإنسان على كل ما يرغب فيه والتصور القائل بأن : ((الجنة فيها كل ما يشاء الإنسان وتشتهيه نفسه)) لذيذ ومنعش لدرجة أن أية تضحية في سبيل ذلك، مهما كانت جسيمة باهظة ، هي أهون ما يكون !

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

وَحَاقَ بِهِم : أحاط ، أو أنزل .

إن أمر الله يبين للإنسان أولا بلغة الدلائل .. وتلك هي مرحلة الدعوة والتبليغ.. ولو أنه لم يؤمن بواسطة الدلائل ، فيحين ذلك الوقت ، عندما يكشف النقاب عنه في صورة الموت الفردي أو الدمار الجماعي !

ولو أن المرء قابل أمر الله بالإهمال واللامبالاة ، وقد عرض عليه بواسطة الأدلة والبراهين ، فكأنما هو ينتظر تلك المرحلة الثانية الحاسمة ، إذ يفاجئه الله وملائكته بالظهور وبالتالي يضطر المرء بعدئذ إلى أن يعترف راغما ذليلا ، بذلك الأمر الذي أبيحت له فرصة الاعتراف به عزيزا كريما ، إلا أنه قابله بالرفض والإنكار !

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

من جملة الأقاويل التي يتقولها الإنسان الغافل ، تبريرا لانحرافه عن الحق ، قوله :

إنه إذا كان كل شيء في هذه الدنيا إنما يتم بمشيئة الله ، فإن عملنا الحالي هو الآخر صادر عن مشيئة الله ، إذ لو لم تكن وراءه مشيئته ، لما تمكنا من فعله البتة ، ولو أن الله كان كارها لأعمالنا حقا ، فهل كان يخلي بيننا وبين ما نفعل من هذه الأعمال التي لا يرضاها؟! وإنما يقول المرء هذا لكونه لا يأخذ أمر الحق والباطل بمآخذ الجد ، ولو أنه نظر في الأمر بجدية ، لأدرك من فوره أن الفرصة المتاحة له للقيام بعمله الحالي إنما هي بسبب الامتحان ، وليس بسبب رضا الله عنه أو إرادته إياه!

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

لقد بعث الله أنبياءه يبلغون عنه رسالته إلى الناس مباشرة في بقاع ، كما فتح أبواب هدايته ورحمته عن طريق خلفاء الرسل وممثليهم على نحو غير مباشر في بقاع أخرى..وقد اتفقت كلمة هؤلاء جميعا على تلقين الناس شيئا واحدا ، ألا وهو أن العبادة هي حق الله الواحد الأحد لا غير ، والشيطان يحاول دوما صرف الإنسان عن هذه العبادة، لذا فينبغي على الإنسان أن يجتنب الترغيبات الشيطانية ، وإلا فسيقوده الشيطان إلى طريق عبادة المعبودات الباطلة.

إن الهداية مع كونها واضحة تمام الوضوح ، غير أن القبول بها أو رفضها يتوقف كليا على مدى جدية المرء أو عدم جديته بشأنها .. فالشخص الجاد سوف لا يصعب عليه أن يدرك صدقها وصحتها ، أما الشخص الذي لا يأخذها بمأخذ جدي ، فسوف يظل متعلقا بتوافه الأمور ، ولن يحالفه التوفيق للوصول إلى الحق أبداً!

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ : مجتهدين في الحلف بأغلظها وأوكدها .

يقوم المنكرون للحق في كل زمان ومكان بالطعن في الحق الذي يرسل إليهم ويزينون هذا الطعن بالألفاظ الجميلة والعبارات الرقيقة ، ثم يؤكدونها بالقسم والأيمان الكاذبة ، مما يجعل بعض الناس يقع في شك وحيرة ويلتبس عليه الصواب والخطأ والحق والباطل ، وهذا أمر ينافي طبيعة الكون كل المنافاة ، فبإمكان المرء ، وهو يدرس العلوم المادية أن يتوصل إلى النتائج المقطوع بها، وأن تتجلى الحقائق القطعية عيانا فيما يتعلق بالمعاملات الإنسانية ، وذلك ما سيتحقق في يوم القيامة .

وقد كتب الشاه عبد القادر الدهلوي يقول : « لقد ظلت أمور كثيرة في هذا العالم موضع الشك والارتياب ، فمن الناس من آمن بالله ، ومنهم من أصر على إنكاره وجحوده، إذن ، فلابد من عالم ثان يتم فيه تمحيص النزاعات والاختلافات كلها ، وبالتالي يتميز الصدق من الكذب ، وينال كل من المؤمن المطيع والمنكر العاصي جزاء ما كسب في الحياة .

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

لَنُبَوِّئَنَّهُمْ : لننزلنهم .

حَسَنَةً : مباءة أو داراً أو عطية حسنة .

ذهب معظم المفسرين إلى أن هذه الآية تتحدث عن أولئك الثمانين من صحابة الرسول – عليهم رضوان الله – الذين كانوا لا يزالون يتعرضون لعدوان معارضي الإسلام واضطهادهم في مكة ، حتى هاجروا ، آخر الأمر ، إلى الحبشة ،مغادرين أوطانهم وإخوانهم وأموالهم .. وقد وقت هذه الهجرة في أثناء العهد المكي ، قبل الهجرة إلى المدينة بأعوام .

والحق دوما يلتف حوله طائفتان من الناس: أما إحداهما : فهى التي لا تعطي للحق من الأهمية ما يجعلها تتخلى لأجله عن الأشياء المتاحة لها ، أو تتناول خريطة حياتها بالتغيير والتبديل لتصوغها من جديد وفق مقتضيات الحق .. أما الآخرون: فهم الذين يختارون الحق بحيث إنه يصير عندهم هو الشيء الأهم ، وبالتالي فهم لا يزالون مستعدين لتحمل كل أذى في سبيله ، ويجعلونه وحده همهم الأكبر ، وشغلهم الشاغل فهم يستطيعون النزول عن كل شيء لأجل الحق ولكن العكس لا يستطيعونه!!!

وبديهي أن مصير الطائفتين كلتيهما لن يكون أبدا من نوع واحد ، فالذين أعطوا للحق الأهمية الكبرى في حياتهم ، سيعتبرون أهلا لنعم الله الأبدية ، وأما الذين أعرضوا عن الحق ، فسوف يعرض الله عنهم كذلك ، ولن يجدوا عند الله شيئا من العزة والكرامة ، وليس لهم نصيب في نعم الله وجناته !

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

بِالْبَيِّنَاتِ : أرسلناهم بالمعجزات .

وَالزُّبُرِ : كتب الشرائع والتكاليف .

المراد بـ « أهل الذكر » هنا أهل الكتاب ، أو هم الذين لديهم علم بأحوال الأمم والأنبياء السابقين التاريخية.. وليس موضوع السؤال المطلوب عرضه على أولئك العلماء ، عما هو الحق وما هو الباطل ، بل عما إذا كان الأنبياء المبعوثون في الأزمان الغابرة بشرا أم غير بشر ؟

حيث إن أهل مكة كانوا يستدلون بكون رسول الله ﷺ بشرا على أنه ليس نبيا مرسلا من الله ، فقيل لهم : إذن ، فاسألوا تلك الأمم التي بعث فيها الأنبياء والرسل من قبل ، سلوهم عما إذا كان الأنبياء والمرسلون بشرا أم ملائكة ؟

وإن النبي إنما يأتي للتذكير ، ومع أن هذا التذكير يتم أصلا عن طريق الأدلة والبراهين إلا أنه من الضروري أيضا أن يقيم النبي الدليل على تمام جديته بهذا الشأن فلو أن شخصا ما قام بإخبار الناس بأحوال الجنة والنار ، وهو – مع ذلك – يشتغل بأمور تثبت عدم جديته بشأن الجنة والنار ، لأصبح نشاطه الدعوي في أعين الناس هراء ومهزلة.

على أن الدعوة ، مهما تم عرضها على مستوى أعلى وأسلوب أرقى وأبلغ ما يكون لن يستفيد منها إلا الذين يتأملون فيها بأنفسهم أيضا ، أما الذين لا يتأملون فيها ، ولا يعيرونها أي اهتمام ، فلن ينتفعوا بدعوة الحق على أية حال!

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

يخسف : يغيب .

تَقَلُّبِهِمْ : أسفارهم ومتاجرهم .

بِمُعْجِزِينَ : فائتين من عذاب الله بالهرب .

تَخَوُّفٍ : مخافة من العذاب أو تنقص.

نزلت هذه الآيات في أواخر العهد المكي عندما كان المعارضون في مكة يتآمرون على قتل رسول الله ﷺ إن الرسول يكون مندوب الله في أرض الله ، لذا فإن تدبير مؤامرات كهذه ضده ، لا يقوم بها إلا الذين خلت قلوبهم من الخوف من بطش الله.

على حين أن الله قادر على الإنسان فلو شاء لخسف به الأرض ، أو يفاجئ المرء بعذاب مدمر في المكان الذي يعتبره دار أمان له ، أو يبطش الله بالناس فجأة وهم في غمار أعمالهم ، فلا يستطيعون إنقاذ أنفسهم من ذلك...كما في استطاعة الله أيضاً أن يفتك بهم وهم في كامل وعيهم بالخطر المحدق يحسون دنوه ، ويرتقبون وقوعه خائفين وجلين.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

مِن شَيْءٍ : من جسم قائم له ظل .

يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ : تميل وتنتقل من جانب إلى آخر .

سُجَّداً لله: منقادة لحكمه وتسخيره تعالى .

وَهُمْ دَاخِرُونَ : والظلال صاغرون منقادون كأصحابها .

إن الإنسان يتمرد ويطغى في عالم يعرض عليه فيه درس الخضوع والانقياد من كل

جانب ، وعلى سبيل المثال: ظلال الأجسام المادية .. فكل شيء قائم لا يلبث أن يسقط ظله على الأرض ، وهكذا فهو يمثل معنى السجود ، وهو يدلنا ، بأسلوب تمثيلي ، كيف ينبغي للإنسان أن يخضع لخالقه بوجوده كله !!! والملائكة ، وإن كانوا لا يقعون تحت أبصارنا – نحن البشر – إلا أن سير الكون الفسيح المترامي الأطراف بهذا القدر من القدرة والانضباط يثبت أن «الموظفين» الذين عهد الله إليهم بتسييره وإدارته أقوياء أشداء للغاية ، وهؤلاء الملائكة ، رغم كونهم أولي قوة وبأس شديد بصورة غير عادية مطيعين لله إلى أقصى الحدود ، ولو أنهم لم يكونوا على هذه الدرجة القصوى من الطاعة والامتثال لأمر الخالق جل وعلا لما أمكن أن يسير نظام هذا الكون بهذا التسلسل والصحة والانتظام الدقيق كما نراه الآن .

فالمسلك الصحيح للإنسان، والحالة هذه ، ليس إلا أن يسخر نفسه لطاعة الله، ويصبح عبدا خاضعا مطيعا له تعالى على أكمل وجه !

﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّـٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

وَلَهُ الدِّينُ : الطاعة والانقياد لله تعالى وحده .

وَاصِباً : دائما لازما أو خالصاً.

لقد حذر الله البشر ، على ألسنة أنبيائه ، من أن يتخذوا لأنفسهم آلهة أخرى دون الإله الواحد الأحد ، فلا إله لهذا الكون إلا إله واحد ، وينبغي للمرء ألا يخاف إلا إياه ، ولا يخضع إلا لمشيئته وحده .

ولو أن المرء أدرك أن الله تعالى وحده خالق البشر وسائر الموجودات ، وعليه وحده تتوقف حياته كلها ، فالكيفية التي ستتولد في داخل المرء – كنتيجة طبيعية لهذا الإدراك

- وهي التي تسمى «التقوى» وأنه ليس هناك من طاعة واجبة دائمة في الأرض ولا في السماء إلا لله تعالى وحده، فكل شئ هنا مربوط بالقانون الإلهي لا يستطيع الانفكاك أو الخروج عنه ،وفي عالم كهذا ليس التوجه إلى أحد غيره تعالى بالعبادة أوعقد الآمال علي أحد سواه، إلا باطلا محضا .

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

تَجْأَرُونَ : تضجون بالاستغاثة والتضرع .

تَفْتَرُونَ : تكذبونه على الله .

إن تجارب التاريخ بأكمله شاهدة بأن المرء حين يتورط في مصيبة ، يجد نفسه عاجزا عن التغلب عليها ، فلا يلبث أن يأخذ في التضرع والابتهال إلى الله ، ويفعل ذلك - عند حلول المصائب والنكبات - كل من المنكرين لوجود الله والمشركين به على سواء ومن هذه التجربة يتضح لنا بجلاء أن تصور الله الواحد كامن في الفطرة الإنسانية بصورة جبلية ، فعندما تنفصم عرى العلائق الأخرى كلها ، فإن الشيء الخير الوحيد الذي يبقى بعدئذ هو الله تعالى وحده لا غير !

ولكنها من مظاهر غفلة الإنسان العجيبة أنه لا يكاد يتخلص من المصيبة ، حتى يعود ثانية مشغولا بذكر آلهته الفرضية المزعومة ، ويعزو النعم المتاحة له إلى الأشياء الأخرى بدلا من عزوها إلى الله تعالى ، ولا يعود يذكر ذلك الدرس العظيم الذي لقنته فطرته نفسها قبل لحظة يسيرة من الزمن !!

ولقد قام الشيطان بترويج ألوان شتى من الطقوس والتقاليد الكاذبة وتزيينها في قلوب الناس توطيدا لعقيدة ألوهية المعبودات الفرضية الباطلة ، ومن بينها استخراج حصة معينة من دخلنا للآلهة والمعبودات الفرضية ، إن مثل هذه الطقوس والتقاليد بمثابة بهتان وافتراء في دنيا الله ؛ لأنها تعني إسداء الشكر إلى غير الله على الشيء الممنوح من عند الله عز وجل !

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

وَهُوَ كَظِيمٌ : ممتلئ غما وغيظا في قرارة نفسه.

يَتَوَارَى : يستخفي ويتغيب

هُونٍ : هوان أو ذل .

يَدُسُّهُ : يخفيه بالوأد فيدفنه حيا .

مَثَلُ السَّوْءِ : صفته القبيحة من الجهل والكفر .

إن الآلهة التي اتخذها الإنسان من دون الله الواحد تشتمل على آلهة (ذكور) وعلى إلهات (إناث) معا .. وقد ضرب القرآن هنا مثلا عاما لإبطال عقيدة الإلهات .. فبما أن المرأة تكون ضعيفة بالقياس إلى الرجل ، وهي – إلى جانب ذلك – تكون في الظروف المعتادة تبعة ومسئولية أكثر منها أثاثا وثروة ، لذا فإن الناس يكونون أشد فرحا وسرورا بولادة الابن منهم بولادة البنت ، إذن ، فما الذي كان يدفع الله إلى تفضيل

الإناث على الذكور ، فيما لو أراد – فرضا – أن يتخذ لنفسه ولداً ؟!

ولم يريد الإنسان الولد ؟ إنه يريد ذلك لكي يسد به عوزه ويتلافى نقصه ، غير أن الله تعالى عن مثل هذه النقائص علواً كبيراً ، فإن عظمة الله وقدرته التي تجلت آثارها في كونه هذا ، تدلنا على أنه تعالى أرفع وأسمى من أن يوجد فيه عيب أو نقص يحتاج لتلافيه إلى اتخاذ البنين أو البنات عنده .. والحقيقة هي أن الله لو كان ذا نقائص ، فلم يكن ليكون إلها ، وإنما صار الله إلها حقا ، لكونه منزها متعاليا عن النقائص والعيوب بكل أنواعها !

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ .

من صور المؤاخذة على الظلم أن يعاجل بالأخذ على يد الظالم – أيا كان – فور ممارسته الظلم ، فيعاقب بالتالي أشد العقاب .. ولكن سنة الله غير هذا ، إذ لو فعل الله ذلك لما بقى أحد يمشي على ظهر الأرض ... فقد أعطى الله لكل فرد ولكل أمة مهلة معينة ، وهو تعالى يتيح الفرصة للكل – حتى انقضاء هذه المدة – أن يستجيب لنداء ضميره، أو يتعظ بالإنذارات الخارجية – وما أكثرها – فيقوم بإصلاح نفسه وعمله ، حين يقوم الناس بإصلاح أنفسهم تغتفر لهم كل جرائمهم السابقة ، وهم يصيرون بعدئذ كما لو أنهم قد بدؤوا الآن حياة جديدة تمام الجدة.

والله لا يؤاخذ العاصين خلال المهلة المعينة المتاحة ، ولكن يلتزم بأن يبطش بهم حتما بعد انقضاء هذه المهلة وليس لهم فرص أخرى .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ .

لاَ جَرَمَ : حق وثبت . أو لا محالة أو حقا .

مُّفْرَطُونَ : مقدمون معجل بهم إلى النار .

إن السبب في الضلالات البشرية يكمن – إلى حد كبير – في إساءة التقدير لألوهية الله جل وعلا .. وإن أكثر العقائد الخاطئة المغلوطة لم تظهر إلى الوجود إلا لكون أصحابها ظنوا الله أقل بكثير مما هو في حقيقة الأمر ، حتى صار الناس لا يحرجون من نسبة أشياء إلى الله ، ولا يرضونها لأنفسهم ،باعتبارها تافهة في ذاتها أو ثقيلة لشعورهم بالأنفة والكبرياء ، كالبنات أو التسليم بمشاركة أحد سواهم في أملاكهم !

ومن نتائج هذا التقدير البخس لله – جل جلاله – أن الناس لا يزالون غير خائفين من الله مع اعتقادهم في وجود الله، ويعتقدون عن أشياء عادية للغاية أنها ستقربهم إلى الله ، وأن نعم الآخرة كلها سوف تكال لهم جزافا بغير حساب ، مهما كانت أعمالهم ، والشيء الذي ليس من شأنه أن يقع حتى عند رجل عادي موقع الرضا ، إذا بهم يزعمون أنه سيرضي الله !

إن أي عمل من هذا النوع ، زيادة الطغيان على الخطأ ، ولن يغفره الله تعالى أبداً !

﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

إن دعوة الرسول حين تتعالى أصداؤها في أرجاء المجتمع ، يخيل إلى المستمعين لها أنها تصطدم بديانتهم التقليدية الرائجة ، ولكون هذه الديانة التقليدية الرائجة مأنوسة ومألوفة لديهم ، ولارتباط الكثير من مصالحهم الحيوية بها ، فإنهم لا يزالون يأبون إلا التشبث بها بقوة ، وعندها يوحي الشيطان إليهم بألفاظ جميلة رائقة تمكنهم من تبرير

تخليهم عن دين الرسول وبقائهم على ديانتهم التقليدية الرائجة.

ولو أن المرء بادر إلى الإيمان بدعوة الرسول بدون لف ولا دوران ، لكان قد اتخذ من الله وليه ، أما لو لجأ إلى التأويلات الجميلة للصدود عن الدعوة، سيتخذ الشيطان له ولياً.

وبإرسال نبي آخر الزمان ﷺ فقد كان الله – سبحانه وتعالى – هيأ للناس أسباب الاهتداء إلى طريق الله الحق وسط غابة موحشة من الخلافات الدينية والنزاعات والمذهبية السائدة آنذاك .

وليس من شك في أن الدين الذي جاء به نبي آخر الزمان – عليه الصلاة والسلام – هو رحمة لعباد الله وهاديا لهم .

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ .

إن نظام المطر والنباتات ينطوي على درس بليغ جدا .. فعن طريق تفاعل موحد منسق بين عوامل شتى تتصاعد قطرات المياه نحو الفضاء لتنزل ثانية على الأرض بشكل المطر، ثم يتسبب هذا المطر ، بصورة مذهلة ، في إنبات العشب والزرع والشجر الأخضر في الأرض.

ولنا في هذه الواقعة – من ناحية – درس هو أن هذا الكون يحكمه ويتصرف في أنحائه كلها إله واحد لا غير، وهو الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه من المستحيل أن تتفاعل قوى الكون المختلفة منسجمة بعضها مع بعض على هذا النحو المدهش لأداء وظيفة مشتركة ، لو كان يتصرف وراءها عديد من الآلهة ، إن وحدة الأنظمة الكونية تدل دلالة صارخة على أن خالق الكون ومالكه واحد أحد، وليس أكثر من الواحد .

والدرس الثاني :هو أن قدرة الله عظيمة لدرجة أنها تستطيع بث الحياة في جسم ميت هامد ، وأنها تتمكن من إنبات حديقة من الخضرة والنضرة ، واللون الجميل ، والرائحة الفواحة ، والطعم اللذيذ في أشياء يابسة جدبة !!

وفيما تتضمن الواقعة الأولى دليل التوحيد ، تدلنا الواقعة الثانية في صورة التمثيل — على أن هناك مطرا إلهيا للأرواح البشرية كذلك ، ألا وهو الوحي ، وأن الشخص الذي يريد بث حياة جديدة في روحه الميتة اليابسة ، فعليه أن يغسل نفسه في مطر الوحي الإلهي!!

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

لَعِبْرَةً : لعظة عظيمة ودلالة على قدرتنا .

فَرْثٍ : ما في الكرش من الثفل .

سَكَراً : خمراً (ثم حرمت بالمدينة).

من خصائص الحيوانات ذوات الأثداء العجيبة أن كل ما يدخل في بطونها يتحول إلى الروث والدم، ويخرج من بينهما في الوقت نفسه سائل ثمين كالحليب الذي يمثل غذاء نافعا جدا للإنسان .

وهذا هو شأن الأشجار كذلك .. فهي تمتص مما حولها أشياء كعناصر التربة والماء ، ثم إنها لا تلبث أن تأخذ ، تحت نظامها الداخلي العجيب شكل ثمار حلوة رطبة تتدلى بأغصانها .

وإنما الغرض من هذه الواقعات هو أن تذكر الناس بربهم ، وأن يقف المرء عندها ، فيشعر بقشعريرة تغمر كيانه كله ، لما يرى فيها من آثار قدرة الله وحكمته البالغة..وحتى يأخذ هذا الإحساس من نفسه مأخذا لا يلبث معه يصرح قائلا : يا إلهي! يا من يخرج من بين الروث والدم شيئا نافعا كالحليب ، أظهر من خلال الظروف غير المواتية المحيطة بي نتائج إيجابية مواتية ، ويا من يحول عناصر التراب والماء إلى الثمر، اجعل من حياتي الفارغة حياة قيمة خصبة مفعمة بالمعنى .

وقوله : ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ يتضمن الإشارة إلى حقيقة أن كل ما خلق الله في هذه الدنيا من شيء يصلح – في آن واحد – للاستعمالين الصحيح والخاطئ معا.. فلو أننا أكلنا التمر والعنب بشكلهما الطبيعي لوجدناهما غذاءً مفيداً للصحة ومقويا للجسم والعقل كليهما .. وأما لو تم تحويلهما ، بفعل الصناعة البشرية ، إلى مسكر ، فإنه يصيب الجسم بأفدح الأضرار كما أنه يفسد العقل ويعطله عن القيام بأداء وظيفته على النحو المطلوب.

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

وَأَوْحَى رَبُّكَ : الإيحاء هنا الإلهام والإرشاد أو التسخير .

بُيُوتاً : أوكارا تبنيها لتعسل فيها .

يَعْرِشُونَ : يبني الناس من الخلايا للنحل .

ذُلُلاً : مذللة مسهلة لك .

النحل أعجوبة من أعاجيب قدرة الله المذهلة .. حيث إنه يقوم ببناء خلية متناهية في الدقة والكمال ملتزما بالقوانين الرياضية .. ثم يجمع – على نحو مخطط تخطيطا خاصا – رحيق الأزهار ، ويخزنه، تحت نظام أدق وأكمل ما يكون ، في خلاياه ، وبالتالي يعمل ، طبقا لقوانين الصحة ، على إنتاج العسل ، ذلك السائل الثمين الغالي الذي يمثل بالنسبة لنا – نحن البشر – مادة غذائية وعلاجية معا وكل ذلك يتم بأسلوب عجيب ومنظم لدرجة أنه رغم إعداد مجلدات ضخمة حول هذا الموضوع ، لم تزل هناك خبايا وأسرار عن مملكة النحل تحتاج إلى دراسة وبيان واستقصاء .

ومعمل العسل المعجز هذا أعقد وأكثر نجاحا من كل المعامل الإنسانية على الإطلاق وهو يدار ، على ما يبدو، بواسطة حشرات « النحل » لم تتلق تعليم فن الإدارة والتنظيم في أي معهد أو مدرسة أو جامعة ، بل لا تملك الشعور الذاتي بما تقوم به من أعمال .. مما يثبت أن هناك «قوة موجهة »هي التي تدفع هذه الحشرات لإنجاز هذه الأعمال المحيرة كلها ، ولو أن متأملا تأمل في نحل العسل وأنشطته الهادفة لبدأ يشاهد من خلالها تدبير الله الحكيم بصورة حية ملموسة .

ومن نواحي العبر في ضرب المثال هنا بنحل العسل ، أنه كما يعمل النحل ، بجهد ومثابرة ، على تخزين رحيق الأزهار ، وتحويله إلى العسل الذي فيه غذاء ودواء للناس ، ينبغي لعباد الله كذلك ، أن يكدوا أذهانهم لاستكشاف غوامض الحكمة وخفايا الأسرار عبر التأمل والتفكير في الكون ، مما يشكل غذاء لأرواحهم ، وفي الوقت نفسه علاجا لأمراضهم الخلقية، فالشيء الذي يكون «رحيقا » بالنسبة لنحل العسل ، يتحول إلى «المعرفة »عندما يصل إلى مستوى الإنسان !

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

أَرْذَلِ الْعُمُرِ : أرذله وأخسه (الخرف والهرم).

يشهد الإنسان جوانب عديدة من مظاهر الحياة المتواجدة على وجه الأرض.. فهناك شخص يصير موجودا في هذه الدنيا بعد أن كان معدوما .. ثم إن الكل يتعرض للموت حتما ، ولكن ليس للجميع وقت واحد معين ، فمنهم من يموت وهو طفل رضيع ، ومنهم من توافيه المنية وهو في عنفوان شبابه ، وآخر يموت في سن الشيخوخة.. ما أغربه منظرا كذلك أن المرء إذ يبلغ نهاية عمره، فلا يلبث أن يفارقه كل ما كان يتمتع به من عقل وعلم وقوة ، ومع أن الإنسان على ما يبدو ظاهرا حر في هذه الأرض ، غير أنه لا يملك خيارا ما تجاه أي شيء من الأشياء المتاحة له .

وإنما يحدث هذا كله لإشعار الإنسان بأن العلم والقدرة كليهما ليس إلا بيد الله تعالى وحده ، فأمثال هذه الوقائع الآنفة الذكر ، التي تمر بها الحياة الإنسانية ، لا دخل فيها للإنسان ، وهو ليس بقادر على إحداث أي نوع من التعديل فيها أو تغيير مسارها ومجراها ، وتثبت أن كل ما يحدث إنما تتحكم فيه إرادة فاعل آخر ، إن حياتنا منذ الطفولة المبكرة وحتى الموت ، تشهد بأن الله وحده ، دون أحد سواه ، هو الذي يملك هنا العلم كله ، والقدرة كلها كذلك .. إن عجز الإنسان واضطراره يقوم دليلا على وجود الله القادر المطلق جل جلاله !

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ .

فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ : أفهم في الرزق متساوون ؟؟ لا .

من خلال مثال بسيط ، تم هنا إثبات بطلان العقيدة القائلة بأن لله شركاء ، وأنه تعالى خولهم جزءا مما يملكه من القدرة والاختيار .. وذلك المثال هو أن توزيع الأرزاق

في هذه الدنيا ليس متساويا ، فمما يلاحظ أن بعض الناس يكون ذا ثراء عريض ، بينما يتوفر لدى البعض الآخر حظ ضئيل منه لدرجة أنه يضطر إلى أن يعمل عند الأول – صاحب الفضل والثراء – كخادم أو عبد مملوك له .. وإنه ليس من صاحب فضل يحلو له أن يوزع ثروته كلها بين خدمه .. وهكذا يستوي هو وخدمه بمحو ما بينهما من الفروق والامتيازات ، إذن فكيف يسوغ الاعتقاد ، عن الله بأنه قد وزع قدراته واختياراته على الآخرين من عبيده ؟!

وأيما شخص لا ينكر عظمة نفسه بنفسه ، إذن ، فالشيء الذي لا يكاد يرضاه أو يستسيغه هذا الإنسان الذي ليس لديه أي متاع أو بضاعة ذاتية،كيف سيرضاه الله لنفسه،بينما كل ما عنده تعالي هو ملكه الذاتي،وليس ممنوحا له من أحد سواه ؟! والحقيقة هي أن كل العقائد من هذا النوع تنفي وجود الله، وهي تجر أو تستنزل الله إلى مستوى غير الله ، الأمر الذي لا يمكن ولا يسوغ بأي حال من الأحوال !

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

وَحَفَدَةً : خدما وأعوانا ، أو أولاد أولاد.

الإنسان مخلوق له احتياجات كثيرة لا تقع تحت الحصر ، ولقد وجدت في هذا العالم أسباب تضمن الوفاء بهذه الاحتياجات كلها على أحسن وجه وأكمله .. فالمرء يشعر بالجوع والعطش فيجد فيما حوله مقدارا وافرا من أطايب الطعام والشراب ، وإذ كان المرء بحاجة إلى زوجة تمنحه السكينة والاطمئنان الذاتي ، فما تزال النساء يولدن هنا

بتسلسل واستمرار وفق مقتضياته تماما ، وإذا كان المرء يواجه مشكلة بقاء نسله ، فإن هناك نظاما لتوالد الأبناء، والأحفاد لا يزال جاريا كذلك .

وما هذا كله إلا من عند الله تعالى .. ولكن الخطأ الذي ما زال الإنسان يرتكبه في كل العصور ، هو أنه نسب هذه النعم الإلهية إلى غير الله ، فالمشركون يعزونها إلى الآلهة والإلهات ، أو الذوات الحية أو الميتة من الإنس والجن ، بينما ينظر إليها الملاحدة على أنها نتاج تفاعلات القوانين الطبيعية العمياء .

وقد كان الغرض من إقامة نظام النعم هذا أن تستيقظ في نفس المرء عواطف الشكر والامتنان لله ، إلا أن المزاعم والتخيلات المصطنعة لم تلبث أن جعلت من هذا النظام مصدر الكفر بالله وذريعة النكران لفضله ونعمته .

ومعظم الضلالات والانحرافات العقدية إنما تتولد بسبب ضرب الأمثال وافتعال الأشباه والنظائر ، فعقيدة وجود البنين والبنات لله ، مثلا ترجع إلى قياسه تعالى بالإنسان الذي يكون له أبناء وبنات ، وكما يكون لدى العظماء وكبار الناس أفراد مقربون ومشفعون ، شاع الاعتقاد ، بناءً على ذلك ، أن هناك أناسا يتمتعون بالحظوة والتقرب عند الله كذلك ، وأن شفاعتهم في جناب الله مقبولة لا ترد !

وإلى هذا النوع من التمثيلات والتشبيهات ترجع أكثر أنواع الكفر والضلال غير أن قياس الخالق على المخلوق - وذلك قياس باطل - مصدره الجهل المحض لا غير ، فإن الخالق مختلف عن مخلوقاته من كل النواحي والاعتبارات ، وأي مثال أو نظير للمخلوق لا ينطبق على الخالق .. ومع أن تقريب شيء ما إلى الأفهام عن طريق المثال ليس في حد ذاته خطأ ، غير أن المثال إنما يحقق الغرض المطلوب إذا كان المرء على علم بالأصل (أي المشبه) والمشبه به ، وإذا كان الإنسان يجهل حقيقة الله جهلا تاما ، كما هو الواقع ، فكيف يمكنه أن يأتي بمثال أو شبيه له تعالى !!!

﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ .

للتدليل على بطلان التمثيلات المشركة ضرب القرآن هنا مثلا عاما وبسيطا، وهو: أن هناك شخصا تتوفر لديه الأسباب والوسائل من كل نوع ، وهو مالك ذاتي لها ، وبجانبه شخص آخر لا يملك أي شيء ملكا ذاتيا ، وكلا هذين الشخصين يختلف أحدهما عن الآخر اختلافا نوعيا ، ولذا فلن ينطبق مثال أي واحد منهما على الآخر أبدا.

وإذا كان هذا الاختلاف أو الفارق النوعي قد بلغ منتهاه بين الله وعبده ، فكيف يمكن – وهذه الحالة – أن يستمد مثال لله – سبحانه وتعالى – من وقائع البشر ؟!

إن التقسيم أو المعادلة القائمة بين الله والأشياء الأخرى في هذا الكون ، هي معادلة الخالق والمخلوق ، دون معادلة الإله وأنداده .. فإن وجود الله مصدر ذاتي مستقل لكل الكمالات على اختلاف أنواعها .. وهو وحده واهب النعم كلها كذلك .. وإن أبعد الأمور عن القياس وأشدها تناقضا مع الواقع في هذا الكون ، هو أن نفترض لأحد غير الله أشياء ليس له فيها من شريك ولا منافس !

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) ﴾ .

أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ : أخرس خِلقة .

وَهُوَ كَلٌّ : عبء وعيال .

لقد دلت الآية السابقة على بطلان الشركاء والأنداد بإزاء الله عز وجل ، وها هي ذي الآية جاءت تسلط الضوء على زيف وبطلان أناس يقفون في وجه الرسول ، والذين يعرض المرء عن هداية الرسول ثقة بهم واعتمادا على دعاويهم ومزاعمهم ..

والله - سبحانه وتعالى - يهدي الرسول ، بعنايته الخاصة ، إلى ذلك الصراط أو الشرع الذي هو شرع الحق القويم ، والذي يؤدي بسالكه إلى الله تعالى مباشرة ، وفيما يسلك النبي وأتباعه بأنفسهم في هذا الشارع ذاته ، يقومون بإرشاد الآخرين إليه كذلك.

ومن جانب آخر فإن هناك أناسا يدعون الآخرين إلى سبل أخرى غير طريق الرسول، ومثلهم كمثل الأعمى والأصم ، فليست عندهم آذان يسمعون بها أصوات الله ، وليست لهم أعين يبصرون بها تجليات الله ، ولا هم يملكون عقولا وقلوبا تمكنهم من فهم الآيات المنبثة في الكون .

وإنما كان السمع والبصر قد منحا للإنسان لكيما يشاهد بواسطتهما انعكاس الخالق في مرآة مخلوقاته، ولكنه استخدم هذه القوى بحيث صار متعلقا بالمخلوقات نفسها!

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) ﴾ .

كَلَمْحِ البَصَرِ : كخطفة بالبصر واختلاس بالنظر .

وراء هذا العالم الظاهري يوجد نظام غيبي ، أقامه الله سبحانه وتعالى ، ومع أننا - بسبب قصور مداركنا ومحدوديتها - لا نشاهد هذا النظام الغيبي ، غير أن كل شأن من شؤون حياتنا مكشوف على هذا النظام الغيبي بتمام الوضوح ، فالله - سبحانه

وتعالى – لا يزال يشاهد من وراء الغيب كل صغيرة وكبيرة مما يجري في دنياه ، وهو يقدر كل أمر أصح تقدير وأدقه ، وحين يقضي الله بأن مدة امتحان الإنسان قد بلغت نهايتها الآن ، فما هو إلا أن يشير تعالى مجرد إشارة ، حتى يتحطم النظام الحالي دفعة واحدة في طرفة عين ، ويحل محله نظام جديد على أسس مختلفة كل الاختلاف ، لكيما يتم إيصال الكل إلى حيث كان في واقع الأمر ، دون أن يترك حيث كان قد أقحم نفسه بوجه مصطنع وبدون جدارة ولا استحقاق!

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

إن الإنسان ،حين يولد يكون طفلا عاجزا لا يعقل أمرا ولا يفهم شيئا ، ولكنه عندما يكبر يصبح مالكا لتلك القوى المدهشة التي تسمى السمع والبصر والعقل، وقد كان من الممكن أيضا ، أن تكون كل تلك الصلاحيات التي تتولد في الإنسان على التدريج مع تقدمه في السن ، موجودة لديه منذ يوم ولادته الأول !

ولكن هذا لم يحدث .. وليس ذلك إلا لكي تستيقظ في داخل الإنسان عاطفة الشكر فهو يرى – أولا – حالة ضعفه وعجزه البدائية ، ثم يلاحظ أنه بلغ بعدئذ حالة راقية متقدمة ، مما يجعله يشعر بنعمة الله وفضله عليه وبالتالي تغمره مشاعر الشكر والامتنان لله!

على أن هذه الكيفية لا تتولد في نفس امرئ ما ، إلا إذا هو استخدم الطاقات المتاحة له من عند الله على وجه صحيح ، فلا يبقى سمعه وبصره وفؤاده متعلقا ببريق العالم الظاهري وحده ، بل يصير له بمثابة فتحات منها أحد الناس على ومضات الغيب .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾.

تَسْتَخِفُّونَهَا : تجدونها خفيفة الحمل.

يَوْمَ ظَعْنِكُمْ : وقت ترحالكم

أَثَاثاً : متاعا لبيوتكم كالفرش .

وَمَتَاعاً : تنتفعون به في معايشكم ومتاجركم .

إن طيران الطيور عبر الفضاء ، إنما يكمن وفق تخطيط للطبيعة عظيم .. من جوانب هذا التخطيط الطبيعي تكوين بنية الطيور بحيث جاءت مناسبة جدا لغرض الطيران ، والتى تم تقليدها الميكانيكي في شكل اختراع الطائرة ، وتوافر الهواء فوق الأرض هو بالنسبة للطيور بمثابة البحر بالنسبة للأسماك والسفن ، وبقاء الهواء حول الأرض باستمرار بفعل الجاذبية الأرضية .. إلخ

لولا هذه التدابير البديعة المحكمة لما تمكنت الطيور من الطيران عبر الفضاء .. ولو أمعنا النظر في هذا الحادث ، لبدا لنا ، وكأننا نرى الله – سبحانه وتعالى – متصرفا في كونه ، ولأدركنا من خلال النظام الطبيعي العجيب وجود خالقه ومنظمه ، ولرأينا تجلى الصانع في مرآة مصنوعاته !!

وهذا هو الشأن نفسه .. فالبيت هو محل راحة وسكون للمرء .. ولكن السؤال هو : كيف يتكون البيت ؟!

إن هناك تدابير إلهية كثيرة هي التي تمكننا من إقامة بيت واحد على وجه الأرض

فكل تلك المواد التعميرية التي يحتاج إليها لبناء بيت ما ، تم توفيرها في عالمنا هذا سلفا.. وتوجد في الأرض قوة الجاذبية بنسبة متوازنة للغاية ، وبفضل هذه الجاذبية ذاتها لا تزال بيوتنا قائمة مستقرة على سطح الأرض ، ولولاها لقذفت هذه الأرض – الدائرة بسرعة ألف ميل في الساعة – ما عليها من أبنية ومنازل بعيدا في الفضاء الخارجي !!

وكذلك ثمة أشياء يصنع منها المرء أجساما خفيفة ، وأشياء أخرى تصلح لتتحول إلى ملابس للإنسان يرتديها لأجل الزينة ، ويتقي بها حر الصيف وبرد الشتاء ، وما إلى ذلك .

وما الغرض من توفير مثل هذه الأشياء كلها إلا لكي تستيقظ في داخل الإنسان عاطفة الشكر لربه على نعمه،ويدفعه الإحساس بجلاله وقدرته إلى أن ينطرح بكل وجوده بين يديه تعالى خاضعا مستسلما!

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ .

ظِلالاً : أشياء تستظلون بها كالأشجار .

أَكْنَاناً : مواضع تسكنون فيها (الغيران) .

سَرَابِيلَ : ما يلبس من الثياب أو دروع .

تَقِيكُم بَأْسَكُمْ : الضرب والطعن في حروبكم .

إن ظلال السقوف والأشياء الأخرى ، ربما لا يتضح مدى أهميتها للمرء إلا إذا

وجد في صحراء قاحلة ليس بها ظل من أي نوع .. وإنه نتيجة لكون حرارة الشمس مقدرة تقديرا متناهيا في الدقة الرياضية ، نستطيع أن نستظل حتى بأي حاجز عادي، في حين لو أن حرارة الشمس كانت أشد من حرارتها الحالية – الأمر الذي كان ممكنا حدوثه بلا ريب – لتحولت بيوتنا ذات الظلال المريحة كلها إلى أفران ملتهبة .. ووجود ثقوب في صخور الجبال الصماء بحيث يتمكن المرء من اتخاذها حصونا ومعاقل يتحصن بها من هجمات أعدائه من البشر والحيوانات المفترسة ، وتوافر أشياء في هذه الدنيا يمكن تحويلها إلى خيوط دقيقة تزود المرء بلباس يحمي جسده من الحر والبرد ، إن أشياء كهذه ذات أهمية بالغة لمخلوق كبني آدم، لدرجة أنه لولاها لم يكن ثمة وجود لإنسان ،ولا وجدت أية حضارة إنسانية على هذا الكوكب الأرضي !

وهذه المعرفة تولد في نفس المرء شيئين في آن واحد : أحدهما : عاطفة الامتنان لله ، لأنه تعالى هو الذي وهب مثل هذه النعم الغالية ، والثاني : عاطفة الخوف والرهبة ، لأن الله لو استرد نعمه ، لم يعد أمام المرء بعدئذ من سبيل إلى تلافي ذلك .. وهذه المشاعر والأحاسيس حين تهز ضمير الإنسان وتوقظه بحيث يبادر إلى الخضوع والاستسلام ويطرح نفسه بين يدي ربه وذلك ما يسمى ((العبادة)) .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

إن الشخص يقوم بدراسة الكون وظواهره ، سواء كان رجلا عاديا أو متضلعا في العلوم الطبيعية ، تمر عليه لمحات ، إذ يتجه ذهنه تلقائيا نحو الخالق وهو يتأمل في عجائب المخلوقات، حيث إنه يشعر بأن هذه الأشياء المحيرة للعقل لم توجد هكذا مصادفة واتفاقا .. ولا هي من صنع الآلهة الفرضية الباطلة .. بل إن موجدها وصانعها هو الله العلي العظيم من غير شك !

غير أن الإيمان بالله يستلزم بالضرورة أن تتناول حياتك بالإصلاح والتغيير ، ويفرض عليك الابتعاد عن الطرق المؤدية إلى المعاصي والمفاسد ، ولهذا السبب فحين يمر المرء بهذه التجربة ، فلا يلبث أن يصرف ذهنه عن هذا الاتجاه ، بعدما اعتراه تأثر وقتي عابر ، وبالتالي فهو يتخلى عن الله رغم إدراكه لوجود الله !!

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ : لا يطلب منهم إرضاء ربهم .

يُنظَرُونَ : يمهلون ويؤخرون .

إن نهوض النبي – ﷺ – وأتباعه المخلصين الصادقين كدعاة إلى الحق بين الشعوب والأمم ، يبدو في ظاهره واقعة عادية ، فقد ظلت هذه الوقائع تقابل بقلة الاهتمام والاستهانة بشأنها لدرجة أننا لا نجد هناك أي نبي آخر ، عدا نبي آخر الزمان – ﷺ – من اعتبر عمله جديرا بالذكر والتسجيل في التواريخ المعاصرة له .

غير أن هذا العمل يصير بالغ الأهمية ومتناهيا في الخطورة إذا نحن نظرنا إليه من منظور الآخرة .. فإن هؤلاء الأنبياء ودعاة الحق ، هم الذين سيقفون في محكمة الآخرة كشهداء لله، وعلى أساس شهادتهم ذاتها ستتقرر مصائر الناس الأبدية ، فسيدخل في عداد أصحاب النار هناك ، في ذلك العالم الأبدي ، أولئك الذين يصرح الشهداء الإلهيون بأنهم كانوا قد أنكروا الحق ورفضوا الطاعة والإذعان له ، فسيقذف بهم في نار جهنم الأبدية .

ولو أن أمة نهض فيها دعاة الله الصادقون ، وهي تقابل دعوتهم بالرفض والإنكار ، فإنما يكون ذلك دليلا قاطعا على كونها أمة مجرمة ظالمة ، وبعدئذ تفقد تلك الأمة حقها في الاعتذار بأننا لم نكن على علم بأمر الآخرة ولا الجنة ولا النار ، ولذا ينبغي أن يتم إعفاؤنا من عذاب هذا اليوم العصيب أو بالأحرى يخفف عنا نوعا ما !!

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

ٱلسَّلَمَ : الاستسلام والانقياد لحكمه تعالى .

عندما تقوم الساعة ، تنكشف هذه الحقيقة في أوضح صورة وأظهرها للعيان وهي أنه ليس هناك من أحد في هذا الكون ، غير الله سبحانه وتعالى ، يتمتع بأي نوع من القوة والسلطان .. وإذا رأى المشركون حينئذ آلهتهم التي كانوا يعبدونها ، في الدنيا ، فسوف يلجؤون إلى أقاويل تثبت براءتهم ، وكأنما هم يقصدون بذلك أن هذه الآلهة الباطلة قد ظلت تخدعنا عن أنفسنا إذ عبدنا ما لا يستحق العبادة من دون الله .. غير أن تلك الآلهة سوف لا تلبث بدورها أن ترد ذلك إليهم قائلة : إنه لم يكن إلا طغيانكم أنفسكم ، حيث قمتم باختلاق آلهة ومعبودات باطلة تنصلا من طاعة الله والانقياد لحكمه ، وما زلتم تستغلون أسماءها لتبرير دينكم القائم على الأهواء والآراء المزعومة !

هناك شخص لا يتلقى دعوة الحق بالقبول .. وآخر يحاول - إلى جانب إنكاره الشخصي للحق - أن يصد الآخرين عنها كذلك بشتى الطرق والأساليب ، ولئن كان الموقف الأول هو الضلال ، فإن الموقف الأخير هو قيادة الضلال .. وسيلقى هؤلاء

الذين يتولون قياد مسيرة الضلال في الدنيا ، سيلقون ضعف العذاب الذي يلقاه الضالون في الآخرة .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ .

لقد جرت سنة الله تعالى بأن يندب للاضطلاع بمهمة الإنذار والتبشير بين أمة ما ، «شخصا مختارا» من أبناء الأمة نفسها .. وللسبب ذاته كان كل الأنبياء المبعوثين في الأمم الغابرة ، أفرادا منتمين إلى الأمم نفسها ، أما الآن فإن الأمة الإسلامية هي المسئولة – بعد ختم النبوة – عن أن تنهض بأعباء الدعوة وشهادة الحق نحو شعوب العالم أجمع إلى يوم القيامة .. والقائمون بدعوة أمم الأرض إلى الحق هؤلاء سيكونون شهداء الله على الأمم في الآخرة ، وعلى أساس شهادتهم ذاتها سيحكم هناك على كل فرد من أفراد الأمة بالثواب أو بالعذاب .

ونعت القرآن بأن فيه « تبيانا » لك شيء ليس معناه أن الكتب السماوية الأخرى لم تكن تتضمن بيانا لكل شيء ، فالحقيقة هي أن كل كتاب سماوي نزل من عند الله كان محتويا على بيان لكل شيء .

بيد أن علاقة « كل شيء هذا ليست بالعلوم والفنون الدنيوية ، بل هو يتصل بمعرفة أسباب النجاح والفشل الأخرويين ، فقد اشتمل القرآن الكريم – مبدئيا – على بيان لكل تلك الأشياء التي تضمن لأحد النجاح في الآخرة ، أو تؤدي إلى الفشل فيها.. والآن فإن الذين سيقتبسون منه الهداية ، فإنه يصير لهم نعمة عظيمة غالية ، وأما الذين لا يهتدون بهديه ، فسوف لا يسعهم إلا أن يقيموا الحجة على أنفسهم، برفضه

وإنكاره ، وأن يقدموا بذلك مبررا لما ينتظرهم من الهلاك والدمار العاجل أو الآجل !

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ .

يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ : بالاعتدال والتوسط في الأمور اعتقاداً وعملاً وخلقا .

وَالإِحْسَانِ : إتقان العمل . أو نفع الخلق .

الفَحْشَاءِ : الذنوب المفرطة في القبح .

وَالْبَغْيِ : التطاول والتجبر على الناس .

كيف ينبغي لعبد من عباد الله أن يعيش في هذه الدنيا ؟

لقد انطوت هذه الآية الكريمة – على وجازتها – على إجابة واضحة شافية عن هذا السؤال .. ونظرا لما لها من هذه الأهمية البالغة ، كان الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز قد ضم هذه الآية إلى خطبة الجمعة الأسبوعية .

وأول ما يجب على أحد الناس أن يهتم به هو « العدل » .. وهو يعني : أن يدفع كل شخص ما لغيره ما عليه من الحقوق بتمامه من غير بخس ولا نقصان ، سواء كان صاحب الحق ضعيفا أو قويا ، ورجلا محبوبا أو مكروها ،ففيما يتعلق بأداء الحقوق إلى ذويها ، إنما ينظر إلى الحق وحده ، وليس إلى أية اعتبارات أخرى .

والشيء الثاني هو « الإحسان » ... والمراد به : هو أن نتخذ من السماحة شعارنا في دفع حقوق الآخرين .. فنجمع الرأفة والإشفاق إلى جانب العدل والإنصاف ، ونذهب أبعد من إطار المقتضيات القانونية ، ونتبنى موقف الفضل والعطف والكرم ، وأن تسمو همتنا بحيث نرضى لأنفسنا بأقل مما نستحقه فعلا ، ونحاول أن نعطي لغيرنا

أكثر مما يستحقه هو .

والشيء الثالث هو « إيتاء ذي القربى » .. وهو يعني أنه كما يملأ فؤاد المرء شعوره بما يعانيه أهله وعياله من شدة الحاجة ، قلقا واضطرابا يدفعه إلى السعي وراء دفع غوائلها عنهم ، ينبغي عليه أن يكون حساسا نحو حاجة أقاربه الآخرين كذلك .. فلا يحسب كل ذي سعة ويسار أن ماله ليس إلا لنفسه هو ولأهل بيته وحدهم ، بل ليعتبر تأدية حقوق أقربائه وقضاء حاجاتهم أيضا واحدا من واجباته الأساسية المنوطة به .

وبعدها تتوجه الآية إلى النهي عن الأمور الثلاثة الآتية :

أولاً : الفحشاء والمقصود بها جملة الرذائل الخلقية الظاهرة أو المكشوفة .. أي تلك الرذائل التي يكون كل أحد على علم بشناعتها بوحي ضميره الداخلي ، والناس – عادة– ينظرون إليها نظرة تقزز واشمئزاز ؛ لأنها تنافي الشرف والحياء ، وتجلب الخزي والعار على فاعليها .

وثانياً : المنكر ، وهو ضد المعروف ،فالمعروف هو الخصال الحميدة التي تستحسن في كل المجتمعات البشرية ، وعلى النقيض من ذلك فالمقصود بالمنكر هو تلك الأمور السخيفة التي لا تتفق مع المعيار الأخلاقي العام ، وهو يشمل كل ما يراه البشر قبيحا وسيئا بوجه عام، وما تأبى القبول به الفطرة الإنسانية .

وثالثاً : البغي ، ومعناه التجاوز والاعتداء .. وهو يتضمن كل نوع من الطغيان يتخطى فيه المرء حدوده الواقعية ، فيتطاول على غيره ، ويتخذ إجراءات عدوانية تعسفية ضد أحد الناس بغية النيل من نفسه أو ماله أو عرضه، ويأخذ في استخدام ما يحظى به من قوة ونفوذ لاقتناص الفوائد غير المشروعة !

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ

جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

كَفِيلاً : شاهدا . رقيبا . ضامنا .

قُوَّةٍ : إبرام وأحكام .

أَنكَاثاً : أنقاضا محلولة الفتل .

دَخَلاً بَيْنَكُمْ : مفسدة وخيانة وخديعة بينكم .

أَن تَكُونَ أُمَّةٌ : بأن تكون جماعة .

هِيَ أَرْبَى : أكثر وأعز وأوفر مالاً .

يَبْلُوكُمُ الله بِهِ : يختبركم به هل تفون بعهدكم.

عملية الغزل هي عبارة عن الكدح لجمع ألياف متناثرة متفككة ، وربطها برباط وثيق يحولها إلى خيطان تصنع منها أشياء نافعة لنا كالثياب والأقمشة ونحوها . والآن فلو أن أحد الرجال أو النساء ظل يكدح طوال النهار يغزل ، ثم لا يلبث أن ينقض خيوطه المغزولة مع المساء أنقاضا ، فسوف تذهب جهوده سدى ودون جدوى .

وهذا هو شأن أولئك الذين يبرمون فيما بينهم عهدا ما ثم يتناوله فريق منهم بالنقض بلا مبرر أو سبب معقول، فكما أن تبديد الخيوط المغزولة عبثا ، إحباط لما بذلناه من جهود مضنية ، كذلك نقض معاهدة مبرمة ، هدم لذلك العمل كله من الأساس الذي كان قد تسبب في إيجاد فرصة للوحدة واللقاء بين فريقين متخاصمين

من الناس .

والمرء لا يعيش في العالم الراهن بمفرده ، بل مع كثيرين آخرين من البشر وكل أحد مضطر إلى أن يمارس عمله ونشاطه في هذه الحياة مع أناس آخرين عداه ، ولهذا السبب كان للاعتماد أو الثقة المتبادلة أهمية كبيرة جدا في الحياة الاجتماعية ، ولأجل إقامة هذه الحياة الاجتماعية على أساس متين تمس الحاجة إلى عقد عهود ومواثيق شتى بين شخص وآخر ، وهي تكون مصحوبة مؤكدة بالقسم تارة وخالية من القسم تارة أخرى . والآن لو أن الناس أخذوا يتلاعبون بحرمة هذه المعاهدات ، وذلك بنقضها بدون أية دواعٍ أو مبررات حقيقية لانتشر الفساد والفوضى في الحياة الاجتماعية ، وأصبح القيام بأي عمل من أعمال البناء والتعمير ضربا من المستحيل .

وللعهد المؤكد باليمين نوعان أحدهما : أن تعاهد أحدا غيرك مع النطق بكلمات القسم المعهودة ، وثانيهما : أن نص المعاهدة مع كونه خلوا من أمثال هذه الكلمات ، إلا أنه ينطوي على إشارة إلى الله أيضا من بعض الوجوه .. وكأنما يريد المتعاهدان بذلك جعل الله شاهدا أو كفيلا على أمرهما ، ومن ثم فإن نقض العهود المؤكدة باسم الله نصا وصراحة كان أشد سوءا وأكثر شناعة ، فإن معنى ذلك أن المرء قد استغل اسم الله عندما كان يتوخى كسب ثقة الآخرين به ، ولكنه عندما سيطرت عليه مطالب النفس أو المصالح أعرض عن الله ونسيه .

والمعاهدات التي يتم إبرامها بين الأفراد أو الشعوب تنقسم إلى قسمين : أما أحدهما فهو الذي يخضع للمبادئ.. وأما الآخر : فهو الذي يخضع للمصالح ، وقد ظل الوضع السائد منذ أقدم العصور وحتى يوم الناس هذه أن المعاهدات تدور نقضا وإبراما مع المصالح وحدها ، أي يبادر الناس إلى إبرام المعاهدة إذا رأوها أوفق لصالحهم ، ويسارعون إلى نقضها إذا ما بدا لهم النقض محققا لفائدة ما ، وعلى العكس من ذلك

فقد جاءت تعاليم الإسلام تؤكد على ضرورة إخضاع المعاهدات للمبادئ الشرعية والقيم الأخلاقية الثابتة ، دون المصالح الشخصية أو المنافع المادية المتغيرة .

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

الدنيا مليئة بخلافات شتى .. وفي غمرة هذه الخلافات لا يكاد الحق والباطل يتميزان بعضهما عن بعض إلا لمن هداه الله لذلك .. وإنما السبب في ذلك هو التدبير الإلهي الذي أنشأ الله العالم الراهن بمقتضاه، وذلك هو الامتحان .

فقد وضع الإنسان في العالم الراهن بغرض الاختبار .. ولم يكن هذا الغرض ليتحقق بدون أن يكون كل شخص متمتعا بحرية كاملة للرفض والقبول، وأن تتاح له الحرية أيضا لكي يثبت الحق باطلا ، ويلبس الباطل ثوب الحق ولو لم تكن هذه الحكمة لأخضع الله البشر جميعا لحكمه تماما كما جعل بقية الكون خاضعا لحكمه .

وهذا الوضع سيدوم كما هو إلى يوم القيامة .. وسيتضح في يوم القيامة بجلاء من الذي قام باستخدام عقله وفهمه على نحو صحيح ومن الذي قابل الحق بالإعراض واللامبالاة حرصا على مصالحه هو ، وحينئذ سيعامل الله تعالى كل إنسان بما كان قد أثبت نفسه أهلا له في مرحلة الاختبار والامتحان الراهنة .

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ .

فَتَزِلَّ قَدَمٌ : فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام .

إن عقد المعاهدة مع الإقسام بالله ، هو الصورة النهائية للعهد المؤكد الغليظ ، وعلى هذا الاعتبار تندرج تحت هذه الآية كل العهود والمواثيق على اختلاف أنواعها .

فلئن أبرم المسلمون مع غيرهم معاهدات ، ثم نكثوها لأجل بعض المصالح العاجلة، فإن ذلك سيقضي حتما على اعتبار المسلمين الأخلاقي في المجتمع وبالتالي سيعود عملهم ذاك سببا في صد الناس عن سبيل الله ، وتشويه صورة المؤمنين بدين الحق في أعينهم ، وفي هذا الصدد قال ابن كثير « .. لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده،ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين ، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام »[1].

وإنما يلجأ المرء دوما إلى نكث العهد على نحو غير شرعي ، لما قد يخيل إليه أنه لو نقض العهد ، فسوف يمكنه الحصول على كذا من المنافع الدنيوية ، إلا أن نظرة المؤمن تكون متطلعة دوما نحو الآخرة ، فكلما حدثت إليه نفسه الغدر بإنسان ، كبح جماح نفسه قائلا لها : لئن كان نقض العهد ينطوي على منفعة الدنيا ، فإن عدم نقضه يتضمن منفعة الآخرة ، وأن المنفعة الأخيرة لهي – من غير شك – أكبر وأعظم من المنفعة الأولى بكثير .

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ .

يَنفَدُ : ينقضي ويفنى ويزول .

الوقوف إلى جانب الداعي إلى الله هو أن تربط نفسك بدين الله الحق ، حتى لو كان غير مألوف ولا سائد ، مع التخلي عن نظام ديني تقليدي يتمتع بالسيادة والسلطان . واتخاذ خطوة كهذه أشق وأصعب ما يكون على المرء دائما .. فإن ذلك يتطلب التغاضي

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤٥.

عن الفائدة القريبة الحاصلة من جانب البشر ، والتقدم نحو الفائدة البعيدة المرجوة من عند الله – سبحانه وتعالى .

والشيء الوحيد المطلوب لتبني قراراً من هذا النوع هو : ((الصبر)) .. أي أن يكون المرء قادرا على التحمل لخسارة اليوم لأجل منفعة الغد ، وأن يتوفر لديه هذا الاستعداد الذي يؤهله لإيثار ما لا يرى على ما يرى ، فيعطي الأول (غير المنظور) في حياته أهمية أكبر من الأخير ((المنظور)) وأن تسمو همته وترتفع معنويته بحيث يختار شيئا ما مقابل التضحية ، ليس طمعا فيما عساه يدر عليه من ربح وقتي عاجل .. وعباد الله الذين يقيمون الدليل على هذه العزيمة الفذة ، جديرون حقا بأن يتفضل عليهم بإنعاماته العليا .

والأفراد الذين يتكبدون ألوان الخسائر في ظل النظام السائد ، بسبب وقوفهم إلى جانب الحق الخالص ، ربما ينظر الناس إليهم على أنهم قد ضاعوا ضياعا محققا ، ولكن الله قد وعدهم – وهو تعالى لا يخلف وعده –بأنه سيعطيهم الأجر الوافي على ما قدموا في سبيله من تضحيات ، وأنه سيمنحهم حياة طيبة جدا في العالم الأبدي بعد الموت ، والأشياء التي فقدها هؤلاء في الحياة الدنيا بصفة وقتية ، سيردها إليهم هناك في أفضل صورها وأكملها وبصفة أبدية .

وإن وعد الله هذا يشمل النساء تماما كما هو يشمل الرجال ، إذ لا فرق ولا تمييز عند الله – سبحانه وتعالى – بين الرجل والمرأة فيما يتعلق بجزاء الأعمال .

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ .

فَاسْتَعِذْ بِالله : فاعتصم به - تعالى - والجأ إليه .

سُلْطَانٌ : تسلط وولاية .

يَتَوَلَّوْنَهُ : يتخذونه وليا مطاعا .

يقرأ القرآن لغرضين رئيسين : أولاً : تقرأه للتذكر والاعتبار الذاتي ، وثانياً : أن تتلو آياته على الآخرين لاستمالة نفوسهم إلى دعوة الحق .. ، وسواء تلونا كلمات القرآن الكريم كما هي ، أم قمنا بشرح معانيها وتوضيح ما تنطوي عليه آياته من أحكام وتشريعات ، لابد للقارئ في كلا الحالتين ، أن يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. و« التعوذ » لا يعني بتكرار ألفاظ محددة ، بل معناه أن نسلح أنفسنا شعوريا بحيث تعود هجمات الشيطان غير مؤثرة علينا .

الشيطان دوما يقف للمرء بالمرصاد ، وهو لا يلبث أن يغير مفاهيم ألفاظ القرآن في ذهن القارئ ، ويغريه بأن يضم ما ليس في النص إلى التفسير .. وهكذا فقد يثير الشيطان بين الداعي والمدعو ضروبا من الفتن والصراعات تحول دون استمرار عملية الدعوة .

على أن الله - سبحانه وتعالى - إنما أتاح للشيطان حرية الوسوسة والإغراء ، ولم يمنحه القدرة على أن يوقع أحداً إلى طريق الضلال قسرا ، فلا تنطلي حيله على أولئك الذين لا يزالون مرتبطين بالله بقلوبهم وعقولهم ، أما الغافلون عن الله والذين يصغون للشيطان وإغراءاته ، فإن الشيطان يسيطر عليهم ، ويركب رؤوسهم ، وبالتالي يسوقهم إلى أي اتجاه شاء .

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ .

رُوحُ الْقُدُسِ : الروح المطهرة جبريل عليه السلام.

إن القرآن كتاب دعوي .. نزل منجما على مدى ٢٣ عاما ، كما أن بعض أحكامه شرعت على التدريج ، تبعا لمصالح الدعوة والتربية ((وعلى سبيل المثال : أُمر المسلمون بالصبر على أذى المعارضين ، ثم أمروا فيما بعد بأن يقاتلوهم)) .

وبالنظر إلى ((تغييرات)) من هذا القبيل كان المعارضون يقولون : إن القرآن ليس كتابا منزلا من عند الله ، إنما هو من تأليف محمد نفسه ، والذي نسبه – كذبا وافتراء – إلى الله إذ لو أنه كان من عند الله ، لم يكن لتطرأ عليه تغييرات كهذه أبدا .

ولو أن هؤلاء المعارضين كانوا جادين بشأن القرآن ، ونظروا إلى واقع التغيير من زاوية صحيحة ، لتجلت لهم فيه حكمة التدرج في تنزيل الأحكام القرآنية ، لكن الشيء الذي كان منطويا على دواعي التصديق لهم ، اتخذوا منه ذريعة للتكذيب والافتراء !!

لقد نزل القرآن بالحق – المقصود بـ ((الحق)) هنا هو دين الله النقي الخالص – والذين يبحثون عن الصدق ، ولا يجدون في الأديان المحرفة ما يقنع عقولهم ، ويطمئن ضمائرهم ، يمثل الدين الإسلامى ، بالنسبة لأمثال هؤلاء الباحثين الحيارى جوابا شافيا على بحثهم وطلبهم ، وفي الوقت نفسه يزودهم أيضا بقناعة عقلية وسكينة قلبية وطمأنينة ضمير.

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ .

يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ : يميلون ويلبسون إليه أنه يعلمه .

كان هناك عدد من العبيد الأعاجم بمكة ، كانت أسماؤهم ، بحسب ما ورد في كتب التفاسير؛ جبر ويسار وعايش ، ويعيش .. إلخ ، وقد ذكر في هذا الخصوص اسم سلمان الفارسي هو الآخر ، الذي اعتنق الإسلام فيما بعد، وقد كان هؤلاء العبيد إما يهودا أو نصارى ، ومن ثم فقد كانت لديهم معلومات عن الديانتين السماويتين القديمتين : اليهودية والنصرانية .. وربما كان بعضهم يلتقي برسول الله - ﷺ - بين حين وآخر ، فما لبث زعماء قريش أن اتخذوا من هذه اللقاءات العابرة أساسا للقول بأن هؤلاء الأعاجم يخبرون محمداً ﷺ ببعض الأخبار،فإذا به يقدمها بدوره إلى الناس زاعما لهم أنها كلام إلهي!

الذي جعل زعماء المشركين هؤلاء يتداولون مثل هذا اللغو السخيف المثير للضحك؟! إنما يرجع السبب في ذلك إلى تلك الرذيلة العامة التي - كانت وما تزال - فاشية بين الناس على اختلاف الأعصار والأمصار، ألا وهي: عدم معرفة قدر الشخص المعاصر لنا .. قد كان رسول الله - ﷺ - شخصية معاصرة لقريش ، ولذا فقد أخفقوا في تقديره حق قدره .

ويتضح من هذه الآيات أن المصابين بعقدة المعاصرة -إن صح التعبير - أبدا لا يوفقون إلى قبول الحق ، وإنما ديدنهم أن يلفقوا أقاويل كاذبة ضد حملة لواء الحق بدلا من الاعتراف بالحق ، فهم لا يلقون بالا للحقائق الكبرى على غاية وضوحها ، بينما لا تفتأ تتداول ألسنتهم الأباطيل والترهات السخيفة بهدف تشويه سمعة الداعي،وهم يظلون مشغولين في ذلك،إلى أن يفاجئهم الموت ، فيتعرضون لبطش الله وعذابه !

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ .

اسْتَحَبُّوا : اختاروا وآثروا .

طَبَعَ : ختم .

لاَ جَرَمَ : حق وثبت أو لا محالة أو حقا .

إنما تكون العبرة عند الله تعالى بالحقيقة (الباطنة) ، وليس بالظاهر .. وللسبب ذاته اتسمت نظرة الإسلام إلى الإنسان بمنتهى اليسر والسماحة ، حيث قدم له كثيرا من الرخص.. ومن أمثلة ذلك أن الله – سبحانه وتعالى – لا يؤاخذ شخصا ينطق مكرها بكلمة الكفر ، بصفة وقتية ؛ حفاظا على حياته ، وهو وفي مخلص لله من صميم قلبه .. اللهم إلا الذين تغيروا من الداخل تغيرا جذريا ، وبالتالي ساروا في أي اتجاه آخر ، متأثرين بالشبهات الشيطانية أو بضغوط الأحوال الخارجية عن طيب خاطر وانشراح صدر فإنهم غير جديرين البتة بالعفو ولا بالمغفرة عند الله عز وجل .

وحين يختار المرء طريق الكفر بدلا من طريق الإيمان يرجع السبب في ذلك دوما إلى حب الدنيا والعبودية لزخارفها .. فهو إذ يرى بعض مصالحه الدنيوية يتهددها الخطر ، فلا يلبث أن يسير في الاتجاه المضاد للإيمان ، ولو أنه كان مدركا لقيمة الآخرة عارفا بقدرها ، لبدت له مصالح الدنيا لدى أحد الناس وهي الأهم والأعظم قدرا من الآخرة فتكون نتيجة ذلك – وبطبيعة الحال – أنه لا يكاد يستطيع النظر في الأمور من منظور الآخرة فهو مع كونه يرى ويسمع ، إلا أن ميله إلى الدنيا يحول دون رؤيته لجانب الأشياء الأخروية ، وإنما هو يقدر على رؤية الجانب وحده الذي له صلة بمصالح الدنيا

العاجلة ، والذين ينحدرون إلى هذا الدرك الأسفل من الغفلة ، لن يقع في نصيبهم سوى الخيبة والخسران الأبدي !

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ .

لِلَّذِينَ هَاجَرُوا : لهم بالولاية والنصر لا عليهم .

فُتِنُوا : ابتلوا وعذبوا لإسلامهم .

لئن كانت البيئة يسودها الباطل ، وتقدم آنئذ شخص ما بقبول الحق ،فإنه يتعرض عندها لمحنة قاسية جداً ، حيث تتوالى عليه الضغوط من كل أنحاء البيئة ، تضطره إلى أن يعود القهقري فيتشبث ثانية بالدين التقليدي الذي يحظى بالسيادة والنفوذ ، ولو أنه بقى ثابتا على جادة الحق ، بالرغم من الضغوط والإغراءات الخارجية ، وبالتالي رضي بالتخلي عن كل شيء ، حتى المال والعقار والأهل والوطن ، ولم يتخل عن الحق ، فقد انخرط في سلك المهاجرين والمجاهدين في سبيل الله ، وهو بذلك يصير عند الله أهلا لثواب عظيم .. وليس ثمة شيء يثبت الأقدام على جادة الحق ، ويحفز النفوس على التمسك به في معترك هذه الحياة سرعان ما سيصادفه ، وإنه سيكون يوما عصيبا قاسيا لدرجة أن المرء سيذهل حتى عن أصدقائه وأقرب أقربائه ، إذ لا أحد يستطيع هناك أن يتصدى للدفاع عن أحد سواه ، ولا أحد تبلغ به الجرأة إلى حد أن ينهض محاميا أو شافعا لأحد غيره ، وإنه لن يسع المرء في حالة ما إذا سيطر عليه الإحساس بمدى خطورة هذا اليوم القادم ، لن يسعه إلا أن يتحمل كل ألوان الخطوب والخسائر ، مهما كان حجمها ، عن رضا وسرور ، دون أن يتخلى عن الحق أبدا !

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ .

رَغَداً : طيبا واسعا أو هنيئا لا عناء فيه .

لئن كان أحد المجتمعات البشرية يسود أرجاءه الأمن والاستقرار ، ويتمتع أهله بالرخاء وسعة الرزق ورغد العيش ، ثم بعث الله فيه عبدا من عباده ، داعيا إلى الحق ، فإن المجتمع يقف دوما أحد موقفين لا ثالث لهما : فإما أن يبادر هذا المجتمع إلى قبول الحق فيصير أهلا للمزيد من الإنعامات الإلهية وإما أن يرفض الحق رفضا باتا ، مما يجعله يتعرض لضروب شتى من الكوارث والنكبات ، وهذه الكوارث لا تكون في حقه عذابا إلهيا ، بل تكون بالأحرى نذرا أو تحذيرات إلهية ، تهدف إلى تنبيه الناس من الغفلة وإيقاظ حساسيتهم من حالة الركود ، وبالتالي تجعلهم مستعدين لتلبية نداء الداعي إلى الله .

ولو أن التحذيرات من هذا النوع لم تعد تجدي نفعا ، وذهبت أدراج الرياح ، في أعقاب اكتمال الدعوة والبلاغ ، يفاجأ القوم بحلول المرحلة الأخيرة الحاسمة ، وهي أن يتم إهلاكهم جميعا ، ليصلوا إلى عالم الآخرة حيث ينتظرهم مصيرهم الأبدي المشؤوم .

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ .

وَالدَّمَ : المسفوح وهو السائل .

وَلَحْمَ الخِنزِيرِ : أي الخنزير بجميع أجزائه .

أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ : ذكر الضروة إلى التناول منه .

اضْطُرَّ : دعته الضرورة إلى التناول منه .

غَيْرَ بَاغٍ : غير طالب للمحرم للذة أو استئثار .

وَلاَ عَادٍ : ولا متجاوز ما يسد الرمق .

تتحدث هذه الآية عن المأكولات اليومية .. فالأشياء التي خلقها الله صالحة للأكل والتغذي، هي كلها حلال للإنسان ، باستثناء عدد معين منها ، غير أن الإنسان المشرك القديم لم يلبث أن حرم على نفسه من تلقاء نفسه الكثير من الأغذية التي أحلها الله ، بينما سلك الإنسان الملحد الجديد في اتجاه مضاد لذلك تماما ، حيث أحل لنفسه الكثير من الأغذية التي حرمها الله تعالى .. وكلا هذين الاتجاهين خانق لتلك الروح المطلوب إيجادها في ضمير الإنسان عبر النعم الغذائية المتاحة له .

إن الغذاء هو أشد حاجات الإنسان أهمية على الإطلاق ، فكل واحد منا يجرب ذلك صباح مساء ، ومطلوب الله بهذا الخصوص هو أن المرء إذ يقبل على تناول الغذاء ، فليأكله معتبرا إياه من الله ، فليشكر الله على منه وفضله ، ولكن الإنسان لم يلبث أن قلب الأمر كله رأسا على عقب .. فلئن كان هو قد نسب هذه الأغذية ، خلال العصر المشرك أو الوثني القديم إلى الآلهة المزعومة ، وهكذا جعل منها وسيلة لذكر الآلهة بدلا من ذكر الله الواحد ، فقد وصل الأمر بالإنسان في هذا العصر الإلحادي الحديث ،إلى أنه أخضع الأمر كله لمتعة نفسه وشهوتها ، فاستحل لنفسها كل شيء ، حتى الأغذية المحرمة من عند الله ، وكانت النتيجة أن تحولت الأشياء التي خلقها الله مائدة لإمتاع

نفسه وقضاء لذته وإشباع رغبته بصرف النظر عما إذا كانت هي حلالا طيبا أو حراما خبيثا !!

ولو أن شخصا ما همَّ بمخالفة تشريع الله الغذائي ، في حالة الاضطرار ، وذلك بأن يأكل من الحرام إبقاء على حياته ، فإنما هو يفعل ذلك مدفوعا بمشاعر الندم دون البغي والعدوان ، ومن ثم فلا يترتب على ذلك أي فساد في النفسية الإنسانية .

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

إن هذه الآية لا تتعلق بالتشريع العام أو سن القوانين العامة ، بل بالحكم على الأغذية والمأكولات بالتحريم والتحليل .. فقد ظل الإنسان دوما يعد بعض الأشياء الغذائية حراما وبعضها الآخر حلالا ، وذلك إما تمشيا مع الأوهام والخرافات أو انقيادا للأهواء والشهوات.. إلا أن القائلين بذلك لا يلبثون أن ينسبوه إلى الدين .

ومن الأضرار الناجمة عن هذا النوع المذكور من التحريم والتحليل أنه يولد في نفوس الناس ميلا إلى عبادة الأوهام والشهوات ، بينما الموقف الصحيح للمرء هو أن يعيش في الدنيا عابدا لله تعالى وحده .. والإنسان متمتع بحرية التصرف في الحياة الراهنة بسبب الامتحان ، فسوف يفاجأ الإنسان بإدراك أن لم يكن له هناك سوى طريق واحد ممكن ، ألا وهو تبني عبادة الله وعبوديته دينا لنفسه .. وأما ما عدا ذلك من الأشياء التي اختارها في حياته ، فلم يكن إلا سوء استعمال للحرية المتاحة له امتحانا ، وليس بأي حق مشروع له ، وحينئذ سيواجه المرء حتما العاقبة الوخيمة التي قدرت للفاشلين في الامتحان !

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ .

تنص أسفار اليهود على تحريم بعض الأشياء لم تحرمها شريعة الإسلام ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (النساء : ١٦٠) وليس السبب في ذلك أن الله – سبحانه وتعالى – قد شرع بنفسه نوعين من الأحكام مختلفين .. إذ الواقع أن اليهود قد حرم عليهم بدورهم تلك الأغذية التي ورد.ذكرها هنا – أي في الآية ١١٥من هذه السورة – غير أن اليهود لم يلبثوا فيها بعد أن حرموا على أنفسهم - تبعا لتصوراتهم المزعومة - أشياء كانت قد أحلت لهم ، وإنهم لم يرضوا بالتخلي عن دينهم المزعوم هذا ، بالرغم من نصح الأنبياء وتحذيرهم المتكرر . وفوق ذلك فإنهم حرموا – أولا – ما أباح الله لهم ، وهكذا ورطوا أنفسهم في حرج ومشقة لا داعي لها ، ثم إذا عجزوا عن تجنب هذا الحرام ، استحلوه لأنفسهم – عمليا – مع اعتبارهم إياه حراما على مستوى العقيدة .. وهكذا فقد ازدادوا جرما على جرم .

ولو أن المرء حرم على نفسه شيئا مباحا بموجب أية نظرية مزعومة ، وراح يتحمل من أجله ألوان المشقات أو يقدم ضروب التضحيات ، فإنما سيكون ذلك من باب ظلمه لنفسه هو ، وليس من باب التضحية في سبيل الله .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾ .

بِجَهَالَةٍ : بتعدي الطور وركوب الرأس .

إن فعل السوء ، حين تصاحبه مشاعر الطغيان والتعصب ، فأبدا لا يرضى فاعله

بالانصراف عنه ، مهما أتيت بأوضح الأدلة وأقواها على بطلان عمله ، على أن هناك نوعا آخر من السوء ينشأ عن محض الجهل أو السفه ، فالمرء ربما يرتكب خطأ ما على حين غفلة أو لكونه أخفق في مقاومة نوازع الشر في نفسه .. ومثل هذا الشخص يخلو في الغالب من العناد والتعنت ، ومن ثم فحين يتضح له خطؤه يعود من فوره إلى الصواب ، ويستمسك بالموقف الصحيح من جديد .

أما الصنف الأول من الناس فمن البديهي الذي لا يقبل أخذا ولا ردا أنهم غير جديرين بالعفو أو المغفرة ، وأما الصنف الأخير من الناس فله البشارة بأن الله سيتغمده برحماته ، لأنه تعالى غفور رحيم بهم !

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ .

كان أُمَّةً : معلما للخير ، أو مؤمنا وحده .

قَانِتاً لله : مطيعا خاضعا له تعالى .

حَنِيفاً : مائلا عن الباطل إلى الدين الحق .

اجْتَبَاهُ : اصطفاه واختاره للنبوة .

مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ : شريعته وهي التوحيد .

لقد قام سيدنا إبراهيم – عليه السلام – في القرآن الكريم كأنموذج للإنسان المطلوب عند الله سبحانه وتعالى.. ولماذا صار – عليه السلام – الإنسان « الأنموذج »

ذلك لأنه كان هو الإنسان الوحيد في قومه الذي تمسك بالإيمان على رغم فساد البيئة كلها من حوله ، والذي قد نهض بمفرده لأجل الله ، حيث لم يكن أحد يناصره أو يرافقه في هذا الطريق الشائك الطويل.

وقد كان سيدنا إبراهيم – عليه السلام- سخر وجوده كله لطاعة الله والقيام بأوامره، جعل من التوحيد محور اهتمامه ومركز توجهاته في عالم يسوده الشرك من أقصاه إلى أقصاه ، وكان ينظر إلى كل شيء يتاح له على أنه هبة من عند الله ، وبالتالي كان قلبه لا يزال يفيض شكرا وامتنانا لربه على ما أسدى إليه من نعم !!

ونظرا لبلوغ إيمان إبراهيم – عليه السلام- هذه الدرجة العليا من الكمال ، فتح الله عليه طرق هدايته ، واختاره للنبوة ، ليقوم بإعلام البشر بدين الله .

ولقد أعطى سيدنا إبراهيم – عليه السلام- حسنة الدنيا والآخرة معا ، ومن المعلوم أن سيدنا إبراهيم لم يحظ في حياته بحشود الجماهير المؤيدة له ، ولا بسرير الملك ولا فاز بأي شيء آخر من المباهج الدنيوية ، ولكن القرآن – مع ذلك – يشهد مؤكدا بأنه – عليه السلام- كان قد منح من عند الله حسنة الدنيا وخيرها .

ومن هذا نعلم أنه ليست الحسنة في الدنيا عند الله علما على القبول الشعبي العام ، أو الثروة والحكومة ، بل الحسنة في الدنيا عند الله تتمثل أصلا في تلك الصفات التي ذكرت هنا كخصائص مميزة لسيدنا إبراهيم – عليه السلام .

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ .

جُعِلَ السَّبْتُ : فرض تعظيمه والتخلي فيه للعبادة .

لقد ظل هناك يوم من أيام الأسبوع ، في كل الشرائع والملل ، مخصصا للعبادة

الجماعية ، فاليهود يحتفلون بذلك في يوم السبت ، والنصارى في يوم الأحد ، أما المسلمون فقد فرض عليهم القيام بالعبادة جماعيا في يوم الجمعة .

لقد وضع أحبار اليهود ، المولعون بالتعمق والتنفير ، وضعوا من تلقاء أنفسهم ضوابط والتزامات جديدة للسبت ، وكبلوا أنفسهم بقيود مصطنعة ، ولما بدا لأتباعهم أن العمل بتلك كالقيود ضرب من المستحيل ، أخذوا يسيرون – عمليا – في الاتجاه المعاكس لها ، وإن كانوا لا يستطيعون رفضها لقداسة أحبارهم وشيوخهم الماضين .

وإن ما أثاره العلماء والشيوخ المتأخرون من خلافات حول دين الله بشروحهم وتفسيراتهم المبنية على الآراء الذاتية ، لن ينحسم أمره في هذه الدنيا ، ولكن حين تقوم الساعة ، فسوف يكشف الله القناع عن الدين السماوي الأصيل الذي كان قد أنزله لعباده ، وما هي تلك الأشياء الدخيلة أو العناصر الإضافية التي ضمها الناس من جانبهم إلى الدين الإلهي .

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ .

إن عمل الدعوة عمل ينبثق عن غاية الجدية والنصح والإخلاص .. إن إحساس المرء بحتمية مثوله يوما بين يدي ربه للحساب ، يرغمه على أن يقوم داعيا بين عباد الله فهو إذ ينادي الآخرين ، فإنما يناديهم لكونه يحسب : لو أنني لم أفعل ذلك ، فسأتعرض للمؤاخذة في يوم القيامة ، والنتيجة الطبيعية التي تترتب على هذه النفسية أن المرء يتبنى لعمل الدعوة ذلك بالأسلوب الذي يتسم بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن ، والمقصود بالحكمة الدليل والبرهان ، وأي عمل دعوي لا يكون عملاً دعوياً حقا ما لم تصاحبه أدله تراعي ذهن المخاطب وعقليته مراعاة تامة ، والكلام الذي تتوفر فيه الشروط التي يراها المخاطب ضرورية لكون شيء ما عنده شيئا ثابتا

مبرهنا عليه ، هو الكلام الذي أطلق عليه هنا وصف « الحكمة » ، والكلام الذي لا يأخذ في اعتباره مستوى المخاطب العقلي والفكري هو كلام غير حكيم ، وإن كلاما كهذا لن يرقى بأحد الناس إلى مرتبة الدعاة .

وأما الموعظة الحسنة فهي اسم لتلك الخصوصية التي تسرى في كلام الشخص يخفق فؤاده بمشاعر النصح والشفقة ، فالداعي الذي تزلزلت شخصيته واهتز كيانه نتيجة استشعاره بجلال الله وعظمته ، حين يتكلم عن الله ، فمن الطبيعي أن يكون كلامه بحيث تلمع فيه ومضات العظمة الإلهية ، والداعي الذي يهب لإراءة الآخرين الجنة والنار ، وقد شهدهما بعين يقينه ، فليس من الشك في أن يجيء كلامه ناضحا بعبير الجنة ناطقا بأهوال جهنم . إن امتزاج هذه الأشياء بكلام الداعي من شأنه أن يجعله بليغا مؤثرا يذيب القلوب ويسيل العيون دموعا .

وهاتان هما الصفتان الإيجابيتان للكلام الدعوي .. أي الحكمة والموعظة الحسنة . على أن الدنيا لا تخلو أبدا من أناس ديدنهم إثارة مناقشات فارغة دون جدوى ، إذ يكون غرضهم من وراء ذلك الإحراج أو الإفحام وليس الاقتناع والإقناع ..، والمنهج الذي ينهجه الداعي ، من الطراز المذكور أعلاه ، بالنسبة لأناس كهؤلاء ، هو ما يسمى الجدال بالتي هي أحسن ، حتى أنه يرد على القول المعوج بالقول السديد ، وهو يستخدم دائما ألفاظا مفعمة بالرقة واللين ، مهما خوطب هو بألفاظ قاسية غليظة ، وهو يتعمد على الاستدلال الاستفزاز والإثارة .

ونظرة داعية الحق لا تكون متجهة نحو الإنسان الحاضر أمامه ، بل نحو الله العظيم الذي فوق الجميع ، ولذا فهو لا ينبس بشيء إلا ما يعد حقيقيا في ميزان الله .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ

﴿١٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ .

تتحدث هذه الآيات عما ينبغي أن يكون عليه سلوك الداعي تجاه المعارضين .. فنقول : لئن أصابك – أيها الداعي – من قبل بعض معارضيك مكروه أو أذى يفوق مقدرتك على التحمل ، فإنما أنت مسموح لك بأن تعامله بالمثل دون زيادة .. على أن هذه الإجازة ليست إلا بمثابة «تنازل » « أو إعفاء » نظرا لضعف الإنسان ، وإلا فسلوك الداعية هو أن يصبر على كل أذى يلحقه من جانب المدعو ، وأن يفوض كل المعاملات من هذا النوع إلى الله تعالى بدلا من تصفية الحساب مع المدعو .

ولو أن المخاطب لن يؤمن بالحق ، وبالعكس تصدى لمحوه ، ومحاولة الإجهاز عليه فإن أكبر تدبير يتعين على الداعي أن يلجأ إليه وقتئذ هو الصبر.. يعني الدأب على إبلاغ رسالة الحق بأسلوب إيجابي مع اجتناب نفسيات رد الفعل أو القيام بالعمليات المعاكسة السلبية .. فالمطلوب من الداعي أن يقيم الدليل على أنه يخشى الله حق خشيته ، وأنه تولد فيه ذلك السلوك الذي إنما يتولد حين يوفق المرء إلى اختراق حجب الدنيا الظاهرية ، فيرى الله بكل جبروته وعظمته المستترة وراء الغيب .. ولو أن الداعي أقام الدليل على ذلك ، لكفاه الله بعدئذ الأمور الباقية كلها ، وبالتالي لن يضر الداعي كيد المعارضين لدعوته شيئا ، مهما كان كيدهم عظيما ومحكما .

الناس في الدنيا صنفان : أحدهما هو الذي تعلق بصره بالبشر ،فهو لا يرى إلا إجراءات البشر فحسب.. أما الآخر فهو الذي تعلق بصره بالله ، والذي ينظر بعيونه إلى طاقات الله اللانهائية ، وإن الصنف الأول ليس بالذي يقدر على الصبر أبدا .. وإنما هم رجال من الصنف الثاني يمكنهم وحدهم أن يتحملوا كل أنواع الإساءات والشكاوى وسوء المعاملة ..وأن يضربوا صفحا عما ينالهم من جانب البشر لأجل ما سينالهم من عند الله وكما يجب على الداعي أن يكون على حذر من نفسية رد الفعل ، يتحتم عليه

كـذلك أن يجنـب نفـسه اتخـاذ الإجـراءات المعاكـسة فعـلا ، وربـما تـسبب مـؤامرات المعارضين ومكائدهم في إشاعة الخوف ظاهرا من أنها توشك أن تقتلـع جـذور الـداعي ودعوته ، غير أن الداعي لابد له من أن يضع ثقته في الله عـلى كـلا حـال مـن الأحـوال ، وله أن يتأكد من أن الله يراقب كل شيء ، وأنه تعالى سينصر دعوة الحق بلا ريب ويحبط أعمال المبطلين .

سورة الإسراء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ .

سُبْحَانَ الَّذِي : تنزيها لله وتعجبا من قدرته .

لِنُرِيَهُ : لنرفعه إلى السماء فنريه .

أَسْرَى بِعَبْدِهِ : جعل البراق يسري به .

لقد كانت ظروف مكة،قبل الهجرة بعام واحد،قد بلغت من القسوة حداً يبدو معه أن تاريخ الإسلام سينتهي قبل أن يتكون أو يكتمل .. وقد أرى الله – سبحانه وتعالى – رسول الإسلام في تلك الآونة ذاتها ، آية من آياته الكبرى .. وهذه الآية كانت إظهاراً حسياً لحقيقة أن تاريخ الإسلام سوف لا يبلغ تمامه فحسب، بل سيتم إحاطته بأحوال عملية تضمن بقاءه حياً ومحفوظاً بصفة أبدية . فإنه إنما جاء ليكون وحده مصدراً موثوقاً به لدين الله الذي وجد لشعوب العالم أجمع إلى يوم القيامة، وقد أسرى الله برسول الإسلام، تحت عنايته الخاصة ، من مكة إلى فلسطين (بيت المقدس) ، وكانت هذه الرحلة – بغض النظر عما إذا كانت بالجسد أو بالروح أو بهما معا – المحطة الأولى في طريقه لرحلة المعراج التي أعقبتها .. حيث كان الله قد جمع هنا أيضاً كل الأنبياء السابقين في رحاب بيت المقدس ، فصلى رسول الإسلام بإخوانه الأنبياء إماماً ، وكأن هذه الإمامة كانت رمزاً لهذا القضاء الإلهي بأن النبوات الأولى قد نسخت كلها من الآن فصاعداً كمصدر موثوق به للهداية الإلهية،وإنما ينبغي على كل

من يتوخى معرفة الهداية الإلهية من الأفراد والشعوب، أن يرجع الآن إلى الدين الذي جاء به رسول الإسلام ﷺ وقد كانت فلسطين أنسب مكان للاحتفال بهذه المناسبة القدسية ، لكونها ظلت مركز دعوة لمعظم الأنبياء الأولين ، ومن ثم فقد وقع اختيار الله –عز وجل– على هذه المنطقة المباركة ليعلن فيها عن قضائه هذا .

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ .

وَكِيلاً : ربا تكلون إليه أموركم .

ذُرِّيَّةَ : أخص ذرية أو يا ذرية .

إن واقعة الإسراء المذكورة كانت تعني إقصاء ذرية إسرائيل « اليهود » حملة الكتاب، وجعل ذرية إسماعيل مكانهم حملة الكتاب الإلهي . وقد تمت هذه الواقعة تبعا لسنة إلهية ، فالله – سبحانه وتعالى – يختار طائفة معينة أو شعبا بعينه للاضطلاع بمهمة إعلان الحق ، وذلك أكبر تكريم وإعزاز يمكن أن يحظى به إنسان في الدنيا .

على أن هذا الاختيار لا يتم على أساس النسل أو الشعب،بل إنما تستحقه طائفة ما إذا هي أقامت الدليل على الكفاءة اللازمة لذلك،وبانعدام الكفاءة سينعدم الاستحقاق كذلك ..وقد حدث ذلك مع كل من أمة آدم،إلى أمة نوح،إلى أمة موسى،إلى أمة عيسى المسيح،وتلك هي سنة الله الثابتة في خلقه،لا تتخلف ولا تتبدل،تنطبق على الآخرين تماما كما انطبقت على الأولين بدون أي استثناء .

والكفاءة المطلوبة لهذا المنصب هي ألا نتخذ أحداً من دون الله وكيلا ، أي أن نضع ثقتنا كلها في ذات الله الواحد ، ونكل إليه وحده جميع أمورنا وقضايانا .

والمرء المسلم الحق حين يعرف الله تعالى بكل قدرته وعظمته ويتخذه وكيله ، فسوف

يصل به الأمر – بطبيعة الحال – إلى أن يجعل الله تعالى وحده هو كل شيء له في هذه الدنيا،والذين يظفرون بالله على هذا النحو،هم وحدهم يستطيعون ممارسة الحياة الإيمانية في العالم الراهن،فلكي يمارس المرء الحياة الإيمانية لابد له من أن يسمو فوق المخلوقات كلها ، ولن يتاح هذا السمو والارتفاع إلا لشخص أدرك ما هو أكبر من كل موجود ومخلوق،أي أدرك خالق سائر المخلوقات ومالكها .

ومسئولية الدعوة إلى الحق هي الأخرى لا يستطيع القيام بها على وجهها ، إلا الذين حصلوا على هذه الدرجة العالية من معرفة الله ، إذ لابد للقيام بدعوة الحق من التجرد التام والتفرغ الكامل لها ، وهذا التفرغ الكلي والتجرد التام لن يصل إليه أحد إلا إذا كان آماله ومخاوفه كلها قد ارتبطت بالله ، وإلا إذا صار الله هو كل شيء .

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ .

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ : أوحينا اليهم وأعلمناهم بما سيقع منهم من الإفساد في الأرض.

وَلَتَعْلُنَّ : لتفرطن في الظلم والعدوان .

وَعْدُ أُولاهُمَا : العقاب الموعود على أولاهما .

أُوْلِي بَأْسٍ : ذوي قوة وبطش في الحروب.

فَجَاسُوا : ترددوا لطلبكم باستقصاء .

خِلالَ الدِّيَارِ : وسطها .

أَكْثَرَ نَفِيراً : أكثر عددا أو عشيرة من أعدائكم .

أريد بـ « الفساد » هنا هو الفساد الديني الذي فشا بين بني إسرائيل بعد سيدنا موسى – عليه السلام – وقد ظهر هذا الفساد على مرحلتين : توجد تفاصيل المرحلة الأولى في : « المزامير » (أي الزبور) ، وأشعياء ، وأرمياء وحزقيال من كتب العهد القديم ، أما فساد المرحلة الثانية فقد جرى الحديث عنه بدقة وإسهاب على لسان سيدنا المسيح عليه السلام – والذي يوجد الآن في إنجيلي متى ولوقا من أسفار العهد الجديد .

لقد أسري برسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس « لكي يريه الله بعض آياته » ، ومن هذه الآيات أيضا ذلك التاريخ الذي يتصل ببيت المقدس.

وهذا التاريخ هو في الحقيقة ظهور أو تحقق فعلي لإحدى السنن الإلهية،وتلك السنة هي أن الأمة الأمينة على الكتاب السماوي،إذا قامت بتأدية حقوق الكتاب الإلهي،كتب لها الغلب والتمكن في الأرض ، مع ما يدخر لها في الآخرة من الفوز العظيم ، وأما إذا هي لم تؤد حقوق الكتاب،أديل منها لشعوب العالم الغاشمة المستبدة،لتتخذ منها فريسة للظلم والاستغلال .. وكأن هذه علامة تدل في هذه الدنيا ذاتها على ما إذا كان الله راضيا عن تلك الأمة أم ساخطا عليها .. وقد نفذت هذه السنة على حملة الكتاب السابقين (اليهود) مرارا وتكرارا على مدى تاريخهم الطويل، وقد أشير هنا إلى حدثين بارزين ليكونا عبرة لمن يعتبر .

ولقد أنعم الله على بني إسرائيل – أول الأمر – بأن أنقذهم من ظلم فرعون .. ثم أحدث لهم ظروفا ، بعد سيدنا موسى ، مكنتهم من الاستيلاء على فلسطين وإقامة حكومتهم بها .. غير أن اليهود لم يلبثوا أن تسرب إليهم الفساد فيما بعد ، إذ إنهم بدل أن يكونوا دعاة مؤثرين على الأمم المشركة التي اختلطوا بها ، صاروا بأنفسهم مدعوين

متأثرين ومن ناحية أخرى نشبت بينهم خلافات في أوساطهم أعمال الشرك وطقوس الوثنية .. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نشبت بينهم خلافات شديدة حولتهم إلى فرق وأحزاب شتى .

ولعل من أبرز الوقائع التي مرت بها بنو إسرائيل نتيجة عصيانهم لله،ما أصابهم على يد ملك بابل((نبوخذ نصر))،الذي نجح في بسط نفوذه وسيادته على فلسطين مستغلا مواطن ضعف اليهود ونقائصهم الداخلية.. ثم جعل واحدا من أفراد الأسرة اليهودية الملكية نفسها ممثلا له،ليحكم بالنيابة عنها .

بيد أن اليهود نظروا إلى هذه ((التبعية)) على أنها وصمة عار على جبين مجدهم القومي العريق ، فهموا بالخروج عليها ثائرين .. كما نشأ بينهم إذ ذاك شعراء وخطباء أخذوا يلهبون مشاعرهم بخطب وأناشيد حماسية ، وقد حذر اليهود نبيهم ((أرمياء)) قائلا : إن هؤلاء كلهم زعماء كاذبون ، لا تنخدعوا بمعسول كلامهم ، فإنكم لن تنتصروا على ملك بابل إن أنتم تصديتم لقتاله على ما أنتم عليه الآن من ضعف وفرقة وانحلال .. وبدلا من ذلك يجدر بكم أن تهتموا بإصلاح أنفسكم دينيا ، وتكافحوا لبناء داخلكم ورفع معنوياتكم ، معترفين بسيادة ملك بابل السياسية ، إلى أن يهيئ الله لكم مستقبلا وإمكانات أخرى .

ولكن اليهود لم يعيروا نصيحة النبي أرمياء هذه أي اهتمام،وافتتنوا بأحاديث قادتهم المتفائلين أو الحالمين،وبالتالي أعلنوا الثورة ضد ملك بابل،وبعدئذ غضب ملك بابل أشد الغضب، فأغار ثانية على فلسطين عام ٥٨٦ ق. م. بمنتهى قوته،فهزم اليهود شر هزيمة،حيث إنه لم يكتف بما أصابهم من خسائر مادية فادحة وحدها،بل هدم هيكل أورشليم الذي كان يمثل الرمز الأخير لمجد اليهود!

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ

لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ .

لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ : ليحزنوكم حزنا يبدو في وجوهكم .

وَلِيُتَبِّرُوا : ليهلكوا ويدمروا .

مَا عَلَوْا : استولوا عليه.

حَصِيراً : سجنا ومهادا وفراشا .

لقد نصر الله بني إسرائيل ثانية عندما استيقظت في نفوسهم مشاعر الإنابة والرجوع إلى الله ، نتيجة لتوالي الأحداث والنكبات المريرة .. وقد أقام الله هذه المرة ملك فارس « قورش الكبير » ، الذي أغار على بابل عام ٥٣٩ ق. م . فاستولى عليها بعد أن كسر شوكة الحكومة القائمة بها .. وفي أعقاب ذلك أحسن إلى اليهود بأن سمح لهم بالعودة من بابل إلى فلسطين ، فانصرفوا عائدين إلى فلسطين ، حيث قاموا ، بعد برهة من الزمن ، بإعادة بناء معبدهم (الهيكل) من جديد .

على أن أجيال اليهود الجديدة عادت ثانية ضحية الفساد نفسه الذي كانت أجيالهم السابقة قد أصيبت به ، وقد مرت عليهم أحقاب طويلة وهم يتأرجحون فيها بين المد والجذر ، إلى أن بُعث فيهم أخيرًا سيدنا يحيى وسيدنا المسيح – عليهما السلام – وقد تناول هذان النبيان حياة اليهود بالشجب والانتقاد،وكشفا النقاب عن أنشطتهم اللادينية التي كانوا يمارسونها باسم الدين ، غير أن اليهود بدل أن يرحبوا بهذا النقد والتحليل ، تذمروا عليه ، حتى إنهم قتلوا سيدنا يحيى – عليه السلام – واستعدوا لإعدام المسيح صلبا !

وعندها غضب الله عليهم مرة أخرى .. ففي عام ٧٠ الميلادي ، قام الإمبراطور تيطس (TITUS) بحصار أورشليم فدمرها شر تدمير .

وإن وقائع تاريخ اليهود هذه من الوقائع المسلم بها حتى لدى اليهود أنفسهم،إلا أنهم حين يذكروها يرمون بأوزارها على أكتاف الظالمين المعتدين،بينما يلقي القرآن بالتبعة في هذا الشأن ، وبكل صراحة ، على عواتق اليهود أنفسهم .

ومن هذا نعلم أن الأوضاع السياسية تتبع دوما الأوضاع اللاأخلاقية ، فليس هناك من ظالم يظلم أحداً أو يعتدي عليه ، بل إن فساد الأمة دينيا وانحلالها خلقيا هو الذي يتيح للآخرين فرصة لاتخاذها عرضة للظلم والاستغلال والسلب والنهب !

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ﴾ .

هِيَ أَقْوَمُ : أسد الطرق (ملة الإسلام ـ والتوحيد) .

القرآن يدعو الناس كافة إلى التوحيد .. أي إلى أن نؤمن بالله الواحد الأحد ، ونسخر أنفسنا لطاعته وحده.. وتلك دعوة يستحيل أن توجد هناك أية دعوة أخرى أصوب منها ، ولا أدنى منها إلى العقل ، ولا أكثر منها توافقا وانسجاما مع الفطرة .. فالتوحيد هو الحقيقة الكبرى بلا ريب ، وهو الصدق الأعظم في الوقت نفسه .

وحيثية التوحيد هذه تقتضي أن يكون هو المقياس لفحص البشر جميعا ، فعلى أساس منه يعد بعضهم مصيبا وبعضهم الآخر مخطئا ، وبالتالي يحكم على أحد بالنجاح وعلى آخر بالفشل .

ومع أن هذا المقياس لا يبدو لنا سائدا في عالمنا الراهن ، حيث لا يتم تقويم الناس هنا أو تقسيمهم عمليًا على أساس منها .. إلا أن هذا الوضع ليس إلا بسبب سُنة الامتحان الإلهية ، ويمثل الموت ، على المستوى الفردي،والقيامة، على المستوى الجماعي الشامل،يمثلان الحد النهائي لمدة هذا الامتحان المحددة ، فعندما يأتي هذا الحد،حتى يفرز الناس كلهم إلى طائفتين مستقلتين منفصلتين بعضهما عن بعض ، أما السائرون على درب التوحيد ، فسيجدون أنفسهم في الجنة ، وأما المنحرفون عنه فسيصلون سعيرا.

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ .

اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ : نفسهما أو نيري الليل والنهار.

فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ : خلقنا القمر مطموس النور مظلما.

آيَةَ النَّهَارِ : الشمس مضيئة منيرة للأبصار .

إن نظام تتابع الليل والنهار يدل على أن سنة الله هي أن يسبق الظلام أولاً ، ثم يعقبه النور والضياء ثانياً.. فكلا الأمرين ضروري في الخريطة الإلهية على حد سواء ..فكما أن في النور منافع كذلك يتضمن الظلام أيضا منافع كثيرة .. ولو لم يعد هذا الاختلاف بين الليل والنهار في هذا الكون ، فعلى أي أساس سيقسم المرء أوقاته ، وكيف سينظم مواعيد عمله وراحته ؟

إذن ينبغي للمرء أن يشعر بالقلق أو الهلع تجاه ((الظلام)) ويعود طالبا ((النور)) وحده، فإن هذا يستحيل أن يتحقق في دنيا الله ، والذي يود أو يرغب في ذلك ، فليبحث لنفسه عن دنيا أخرى غير دنيا الله هذه !!! ولكن من العجائب أن هذا هو ضعف الإنسان الأكبر ؛ لأنه يطمع دوما في التحصل على النور فوراً وبدون أن يواجه مرحلة الظلام .. ونتيجة هذا الضعف نفسه ما يطلق عليه ((العجلة)) ، فالعجلة هي في الحقيقة اسم ثان لعدم الرضا بالتدبير الإلهي .. وإن عدم الرضا به هو مصدر كل ألوان الشقاء والضياع والدمار البشري .

إن الله يريد للإنسان أن يصبر على لذائذ الدنيا العاجلة ، حتى يتمكن من مواصلة مسيرته نحو الآخرة ، غير أن عجلة الإنسان تجعله يتهافت على لذائذ الدنيا الآنية ، ولا يستطيع أن يمضي قدما نحو الأمام ، فحب الإنسان للعاجلة هو السبب الأكبر وراء حرمانه من نعم الآخرة .

وهكذا هو الشأن تماما فيما يتصل بشئون الدنيا كذلك .. فالنجاح الحقيقي في هذه الدنيا أيضا إنما ينال بالصبر دون العجلة والتسرع .

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ .

أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ : عمله المقدر عليه لاينفك عنه .

حَسِيبًا : حاسبا وعادا أو محاسبا .

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ : لاتحمل نفس آثمة .

لقد كان عبدة الأوهام، منذ قديم الزمان ، كثيرا ما يحاولون التعرف على حظوظهم

ومصائرهم بحركات الطيور (يمينا وشمالا) ، أو بحسب مواقع النجوم ، أو بطريق ضروب شتى من الفأل .. وأم الذين لا يعتقدون في مثل هذه الأوهام والخرافة ، من مثقفي العصر الحديث، فهم الآخرون يربطون أحوال حظوظهم بأي سر من الأسرار الغامضة فيزعمون أن هناك عاملا خارجيا ، هو الفاعل أو المؤثر الحقيقي في هذا الخصوص .

وقد أرشد الله - سبحانه وتعالى - هنا إلى الحق الذي لا لبس فيه ولا غموض فقال : إن حظوظكم - أيها الناس - غير مرتبطة بحركة الطيور ولا بدوران النجوم ، ولا علاقة لها كذلك بأي شيء من الأشياء الخارجية .. وإنما مدار حظ كل إنسان منكم على نوع عمله وحده ، فكل ما يعمله المرء أو يفكر فيه لا يزال ينقش ويسجل على نفسه كل لحظة وسيجده المرء في يوم القيامة بشكل مذكرة تحتوي على كل صغيرة وكبيرة .

لقد أرسل الله إلى الأمم والشعوب أنبياء ، وأنزل عليهم الكتاب ، ليصبحوا على علم بخطورة اليوم القادم - يوم القيامة - قبل حلوله ، وإنما الأمر موكول الآن إلى إرادة المرء الذاتية عن أن يقرر المصير الذي يريده لنفسه في مرحلة الحياة الآتية الدائمة .

ومدى رغبته في الدخول إلى الجنة باتباع سبيل الهداية ، ومدى إعداد نفسه للوقوع في قعر جهنم بالتخلي عن سبيل الهداية .

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ .

أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا : أمرنا متنعميها بطاعة الله .

فَفَسَقُوا : فتمردوا وعصوا

فَدَمَّرْنَاهَا : استأصلناها ومحونا آثارها .

الْقُرُونِ : الأمم المكذبة .

إن صلاح أمة ما أو فسادها يقاس بصلاح طبقة من الأشراف أو الأثرياء من تلك الأمة وفسادها .. فإنها هي الطبقة التي تملك صلاحية التفكير والفهم ، وهي التي تتوفر لديها من الوسائل ما يمكنها من التأثير على الجماهير ، وهي التي تستطيع دفع ثمن القيادة أو الزعامة على طائفةٍ ما .

ولهذا السبب كان إصلاح طبقة الأثرياء في أمة ما هو إصلاح الأمة بأسرها ، وفساد الأثرياء هو فساد الأمة بأكملها ..ولو أننا قمنا باستعراض تاريخ الأمم والشعوب منذ سيدنا نوح عليه السلام وحتى يومنا هذا لوجدناه مصدقاً بصحة هذا المبدأ العام الشامل .

وهذا الحكم العام يشمل أيضا قضية أولئك « الأكابر » الذين يتخذون من الأمة مصيدة لقيادتهم ، وهكذا يوردونها - بسوء قيادتهم لها - موارد الهلاك والدمار .. حيث إنهم يلقنون الأمة دروس العاطفية ، بدلاً من الواقعية .. ويحببون إليهم فنون الألفاظ بدلاً من المعاني ، ويحلقون بهم في سماء الخيال ، بدلاً من أخذهم بالجدية ، ويعلمونهم العيش في الأحلام والأماني بدلاً من الاعتراف بالحقائق ، وخلاصة القول : إنهم يصرفون اهتمام الأمة عن الله إلى غير الله .

وإذا سيطر أمثال هؤلاء القادة على أمةٍ ما ، فإن هذا علامة تدل على أن الله تعالى قد قضى على تلك الأمة بالهلاك .. فإن واقعة كهذه إنما تحدث تبعا لإذن الله ، وليس هناك شيء من أعمال شخص أو أمة يخاف على الله عز وجل !

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ .

يَصْلاهَا : يدخلها ، أو يقاسي حرها .

إن المرء في العالم الراهن على مفترق طريقين : طريق يقوده إلى ربح قريب المنال ، وآخر يقوده إلى ربح بعيد المنال .. فأما من سار في الطريق الأول فقد أحب العاجلة . وأما من اختار الطريق الثاني فقد أحب الآخرة .

وإن المرء ليجد – من ناحية – مذهب النفعية ، الذي باختياره إياه لا يلبث أن يحصل من فوره على العزة والثروة .. ومن ناحية أخرى هناك مذهب اتباع الحق الخالص ، الذي سيفوز المرء بشرفه – لو اعتنقه وتمسك به – في حياة ما بعد الموت .

وكذلك لئن أساء إليك أحد الناس إساءةً ما ، فأنت منه على موقفين : فإما أن تملأ نفسك بمشاعر الثأر والانتقام نحوه ، وبالتالي تبذل كل ما في وسعك من الجهد للنيل منه ، وتتخذ كل إجراء أمكنك للنكاية له .. وحين تمسك زمام نفسك ، وتكبح جماحها، تعفو عنه وتصفح ، وتفوض الأمر كله إلى الله – سبحانه وتعالى – داعيا له أطيب الدعوات .

كما أن ما يتوفر لدى المرء من مال يمكن إنفاقه على وجهين اثنين : أحدهما أن يتم توظيفه في سبيل الأغراض الذاتية الخاصة،كتحقيق رغبات النفس ، وتأثير المجد ، وتوسيع النفوذ الشخصي .. أما الوجه الثاني فهو : أن نبذله في مصاريف دين الله وإعلاء كلمته .. وهكذا هو الحال في كل أمر من أمور الحياة ، إذ يستطيع المرء دوما أن يعالجه بمنهجين مختلفين : أحدهما : منهج العبودية لهوى النفس ، وثانيها : منهج العبودية لله تعالى .. ويتمثل الأول في إعطاء الأهمية والأولوية لما هو حاضر ومشهود فقط والأخير في إعطاء الأهمية والأولوية لحقائق الغيب وحدها .. الأول ترجيح للمصلحة والأخير للمبدأ .. والأول إقدام ناشئ عن العجلة وقلة الصبر وسوء التقدير ، والآخر إقدام على ما ينبغي الإقدام عليه بعد طول الصبر والروية والأناة .

المنهج الأول ينطوي على ربح مؤقت يعقبه الحرمان الدائم ، والمنهج الأخير يتضمن خسارة وقتية يعقبها العز الدائم والنجاح الأبدي !

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴿٢١﴾ ﴾

مَدْحُوراً : مطرودا مبعدا من رحمة الله .

كُلاًّ نمدُّ: نزيد من العطاء .

مَحْظُوراً : ممنوعا عمن يريده الله تعالى .

إن النجاح ، سواء أردنا به نجاح الدنيا ، أو نجاح الآخرة ، ليس إلا اسما ثانيا لاستعمال ما وفر الله تعالى من فرص وأسباب .. فمن يحصل على نجاح الدنيا ، فإنما يحصل عليه عبر الانتفاع بأسباب الله واتباع سننه ، وكذلك من يجعل من الآخرة هداه وغايته في هذه الحياة ، فقد هيأ الله له أيضاً من الأسباب والسنن ما يمهد له الطريق نحو سعادة الآخرة .

والناس في هذه الدنيا يتفاوت بعضهم عن بعض في أوضاعهم المادية والأدبية ، فهذا في قمة الرقي والمجد ، وذاك وحده في التخلف والهوان ، وهذا يملك الثراء العظيم ، وذاك لا يتوفر لديه إلا القليل التافه ، وهذا الواقع علامة تدلنا على أن في دنيا الله هذه فرصا وإمكانات لا تحد .. فبقدر ما يسعى أحد الناس للدنيا بقدر ما يجني ثمار سعيه هنا ، وهكذا فبقدر ما يعمل أحد الناس لأجل الآخرة ، بقدر ما سيفوز هناك بالإنعامات الإلهية ، وفوق ذلك فإن عطاء الآخرة سيكون عطاءً أبدياً ، بينما لا يكون عطاء الدنيا إلا عطاءً وقتياً محضاً!

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا

تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ .

مَخْذُولاً : غير منصور ولا معان من الله.

وَقَضَى رَبُّكَ : أمر وألزم وحكم .

أُفٍّ : كلمة تضجر وكراهية .

وَلاَ تَنْهَرْهُمَا : لا تزجرهما عما لا يعجبك.

قَوْلاً كَرِيماً : حسنا جميلا لينا .

لِلأَوَّابِينَ : للتوابين مما يفرط منهم .

إن من واجب الابن نحو أبويه ، وخصوصاً إذا كانا قد كبرا في السن أن يعاملهما معاملةً حسنةً ، وألا يُسمعهما قولاً سيئاً ، وأن يدعو لهما ، جزاء لما قدماه له عندما كان صغيراً وكانا هما اللذان يقومان بأمره .

وقد خص الله مرحلة الكبر ؛ لأن الوالدين إذا بلغا سن الشيخوخة لا يعود لهما أي قسر مادي على الأولاد وحين يحسن الولد سلوكه نحو أبويه الهرمين ، فإنما يفعل ذلك انطلاقاً من قراره العقلي الحر ، وليس مدفوعاً بأية قوة مادية قاهرة له .

إن العمل الاختياري الحر لهو أصعب امتحان يواجهه المرء في هذه الحياة ، بيد أن الله – سبحانه وتعالى – قد يسره على الإنسان برحمته الخاصة ، فهو لا يناقش الإنسان كأحد القضاة الصارمين العديمي الرحمة ، بل هو يأخذ المرء بالتسامح ، ويتجاوز عن

هفواته وخطاياه الصغيرة ، فيما إذا كان وفياً لله تعالى بصفة مبدئية ، ولو أن الإنسان بادر بالرجوع إلى الله فور صدور الخطأ عنه ، فهو تعالى يعفو ويصفح عنه ، مهما كان جرمه عظيماً !

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾ .

إن كل ما يكسبه المرء بمجهوده الذاتي ، له الحق في أن ينفقه على نفسه .. بيد أن الشريعة تنهى عن الإسراف والتبذير ، فيجب عليه أن يبذل ماله في سد حاجاته الحقيقية وليس في مظاهر البذخ والتفاخر والرياء .

كما ينبغي لكل امرئ أن يجعل في ماله أيضاً حقاً لغيره من المحتاجين ، سواء أكانوا ذوي قرابته أم جيرانه، أم كانوا مسافرين أو أصحاب بؤس ومسكنة .

وقد يحدث أحياناً أن المرء لا يكون قادراً على إعطاء ذي الحاجة شيئاً، غير أن الإسلام يفرض علينا ، حتى في مثل هذه الحالة،أن نرد أخانا المحتاج – إذا كنا عاجزين عن إعطائه مالاً – بميسور من القول،وأن نعتذر إليه برفقٍ ولينٍ .. لأنه إنما جاء ليتيح لنا فرصة البر والإحسان،ولكننا لم نتمكن من اغتنام تلك الفرصة لصالحنا نحن! إنه لن ينجح في إنفاق ماله وفق مرضاة الله سبحانه وتعالى،إلا شخص يصون ماله من الضياع والتبدد فيما لا طائل تحته،وإلا فسوف لا يبقى لديه شيءٌ من المال ينفقه في سبيل الله . والحقيقة هي أن التبذير والإسراف حيلة من حيل الشيطان يتوسل بها لاستدراج صاحب المال حتى يصير عاجزاً عن القيام بواجباته نحو غيره من البائسين والمحتاجين!

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ .

يَدَكَ مَغْلُولَةً : كناية عن الشح .

تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ : كناية عن التبذير.

مَّحْسُوراً: نادما أو منقطعا بك معدما.

وَيَقْدِرُ : يضيقه على من يشاء لحكمه.

الإسلام يحب القصد والاعتدال في كل شيء .. فالطريق الوسط ، الذي لا إفراط فيه ولا تفريط ، ولا غلو فيه ولا تقصير ، هو أفضل الطرق عند الإسلام ، حتى حد القول المأثور « خير الأمور أوسطها » .. ومن ثم فقد أمر الإسلام بالتزام هذا المبدأ نفسه فيما يتعلق بالبذل والإنفاق كذلك .. فلا ينبغي أن يكون المرء بخيلاً إلى حد يسقط معه من أعين الناس، ولا أن يتوسع في الإنفاق توسعاً مفرطاً بحيث يقعد صفر اليدين . ولقد ورد في الحديث : « ما عال من اقتصد » .

والعقلية غير المعتدلة بشأن المال إنما تنشأ لكون المرء تغيب عنه الحقيقة القائلة : إن المعطي هو الله سبحانه وتعالى ، فهو الذي يوسع الرزق على بعض ويضيقه على بعض من عباده بحسب الحكمة وقد جاء في حديث قدسي : « إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه » .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا

كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ .

خَشْيَةَ إِمْلاقٍ : خوف فقر وفاقة .

خِطْئاً كَبِيراً : إثما عظيما .

إن الله خالق كل حي ، وهو الذي يقوم بتهيئة أسباب الرزق للجميع ، وفي هذه الحالة ، فإن محاولة أحد الناس للقضاء على نفس ما ، بحجة الفقر ، إقدام على أمر لم يكن يعنيه ومما لا شأن له فيه البتة .. فإذا كان الرزق يتم توفيره من عند الله سبحانه وتعالى ، فكيف يحق لأحد أن يهلك أية نفس حذراً مما عساها أن تأكل ؟!

﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ من خلال هذه الكلمات قد وجه اهتمام الإنسان إلى البناء والإصلاح بدلاً من التخريب والهدم .. فلنفكّر ملياً في أفراد البشر الموجودين الآن ، كيف يحصلون على أقواتهم ؟! الجواب هو أنهم يحصلون عليها باستعمال ما أوجده الله تعالى من الموارد ووسائل الإنتاج ، إذن فهذه الطريقة نفسها مناسبة تماماً للأجيال التالية كذلك .. وإنما ينبغي لكم أن تقوموا بتوظيف الأعداد المتزايدة من المولودين في استثمار الموارد والوسائل الإنتاجية المهيأة من قبل الله ، وليس أن تبدؤوا بالحيلولة دون مجيء المولودين الجدد أنفسهم !

إن الزنا واحد من جملة الأعمال التي يريد الله لها أن تزول من بين الناس بصفة نهائية ومن ثم قال الله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾ أي أن الزنا رذيلة بلغت من الفحش والشناعة بحيث يجب عليكم أن تجتنبوا مقدماته ودواعيه .. وقد اكتفى هنا بحكم مبدئي بخصوص الزنا ، أما أحكامه التفصيلية فسيأتي بيانها في سورة «النور» إن شاء الله تعالى .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا

لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾ .

سُلْطَاناً : تسلطا على القاتل بالقصاص .

إن قتل نفس بغير حق شرعي محرم على الإطلاق .. وإذا قتل شخص ظلماً بدون حق شرعي موجب لقتله ، فإن أولياءه – أي ورثته – بالخيار في القاتل ، فإن شاؤوا قتلوه قصاصا ، وإن شاؤوا تركوه على الدية ، وإن شاؤوا عفوا عنه بدون دية . ويلاحظ أن المدعين الحقيقيين في قضية القتل ، بموجب التشريع الإسلامي ، هم أولياء القتيل ، دون الحكومة ، وإنما تنحصر وظيفة الجهاز الحكومي بهذا الخصوص في مساعدة أولياء القتيل على تنفيذ مشيئتهم .

والقتل جريمة مروعة لدرجة أنه جاء في السنن « لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم » وعلى الرغم من ذلك فليس يحق لأولياء القتيل أن يتجاوزوا الحد المشروع في الاقتصاص من القاتل ، بأن يمثلوا به – مثلاً – أو يقتلوا مكان القاتل أحد أصحابه أو إخوته الأبرياء ..إلخ ولئن أسرف أولياء القتيل في القصاص ، فعندئذ ستقف الحكومة في وجوههم تماما كما كانت قد وقفت إلى جانبهم فيما شرع لهم من حق القصاص .

وهذا مما يدلنا على روح الشريعة الإسلامية القائلة بأن شخصاً ، مهما كان مظلوماً إذا هو أراد الانتقام من الظالم المعتدي عليه ، فإنما يجوز له أن يعاقبه بمثل العدوان الواقع عليه سواءً بسواءٍ .. وأنه غير مسموح باتخاذ أي إجراء آخر مزيد على ذلك !

﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾ ﴾ .

يَبْلُغَ أَشُدَّهُ : قوته على حفظ ماله .

بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ : بالميزان العدل .

وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً :مآلا وعاقبة .

إن أولياء اليتيم غير البالغ هم أقرباؤه الأدنون.. بيد أن مال اليتيم إنما يبقى بيد هؤلاء الأولياء ما دام لم يبلغ سن البلوغ والرشد بعد ، فينبغي للأولياء ألا يتصرفوا في مال اليتيم أيما تصرف ، إلا إذا كان ذلك مما يقتضيه النصح له ضمانا لرقيه وتقدمه في مستقبل حياته هو ، وعند بلوغ اليتيم سن الإدراك والتمييز بين منافعه ومضاره يجب تسليم ماله إليه كاملا .

والوفاء بالعهد أهم صفة من صفات السلوك الإنساني .. الذي يعاهده غيره ثم لا يفي بما عاهده عليه ، إنما هو إنسان فاقد القيمة عديم الاعتبار لدى العباد ورب العباد على سواء .

﴿ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولاً ﴾ هذه الألفاظ تدلنا على أن شخصاً ما ، حين يتعاهد مع شخص آخر ، فإن ذلك لا يكون أمر اثنين من البشر وحدهما ، بل يكون الله – سبحانه وتعالى – هو الآخر شريكا فيه كطرف ثالث .. فينبغي للمرء ، وهو ينقض العهد ، أن يأخذ في حسبانه أن الطرف الثاني لعهده ، ليس إنساناً ضعيفا ، بل هو الله .

إن التعامل التجاري على اختلاف أنواعه ومجالاته يقوم على أساس الكيل والوزن ، وقد أمرنا الله بإتمام الكيل والوزن من غير تطفيفٍ ولا بخسٍ ولا احتيالٍ .

وهذه الطريقة لها جانبان مهمان .. فتطفيف المكيال دليل التدني الأخلاقي ، كما أن توفيته آية السمو الأخلاقي .. .. والفائدة الكبرى الثانية التي تعود على ذلك تتمثل في نمو التجارة وازدهارها ، فإن رقي التجارة يتوقف كليا على الثقة وتوفيته الوزن والكيل مما يغرس الثقة وحسن الظن بأحد التجار في قلوب الناس !!

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾ .

وَلَا تَقْفُ : لا تتبع .

مَرَحاً : فرحا وبطرا واختيالا وفخرا .

قال قتادة : « لا تقل : رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم »(١).

إن الذي يخاف من أنه سيسأل عند الله عن أقواله وأفعاله كلها ، لن يتجرأ أبداً على القول بما لم يتحقق من صدقه ، ولا هو يتبع خيراً غير محقق اتباع العميان .

وينبغي للإنسان أن يستخدم قوى السمع والبصر والعقل فيما هي جعلت له من أجله ، فلا يقول أو يعمل إلا بأمر ثابت على وجه أتم ما يكون .

وقد شمل هذا الحكم كل الأشياء الباطلة التي لا أساس لها من الصدق والصحة ، ومنها على سبيل المثال : شهادة الزور ، القذف والاتهام الكاذب للنيل من أحد على أساس ما تتناقله الأفواه والألسن من أخبار غير مؤكدة ولا ثابتة ، وتأييد الباطل بناءً على التعصب، وتكلف البحث والتنقيب عن أشياء لا يتمكن الإنسان من معرفة كنهها بسبب قصور مداركه ومحدوديتها ، وقوى السمع والبصر والفؤاد ، وهي – على ما يبدو ظاهراً – في قبضة الإنسان، وتحت نصرفه ، إلا أنها قد أودعت لدى الإنسان على سبيل الأمانة ، فلابد للإنسان أن يستعملها وفقا لمرضاة الله سبحانه وتعالى ، وإلا فسوف يحاسب عن ذلك حساباً جد عسير !!

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٧٧.

الإنسان يعيش على أرض لا يستطيع خرقها ، وهو في بيئة تكتنفها من حولها جبال شامخة تنفي كل ما يتظاهر به من علو وتطاول وكبرياء .. وإن هذا إعلان تمثيلي عن حقيقة وضع الإنسان بالقياس إلى الله جل جلاله ، وهو يقتضي ألا يعيش المرء في هذه الدنيا متكبراً مختالاً ، وله أن يختار هنا مسلك العجز والتواضع والانكسار ، دون التبختر والتعالي والطغيان!

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ .

مدْحُوراً : مبعدا من رحمة الله .

لقد أطلق هنا على ما ورد من الأحكام في الآيات السابقة وصف « الحكمة » ، والحكمة تعني الحقيقة الصلبة الثابتة ، والقول المتبصر المستنير .. وهذه الأمور التي ذكرت هنا كلها حقائق الحياة المحكمة ، يقوم على أساس منها بناء الحياة الصالحة المستقيمة ، وأي مجتمع إنساني يخلو منها ، لا ينتظره في دنيا الله شيء سوى الهلاك والدمار ، في العاجل والآجل معا .

وقد اختتمت الوصايا المذكورة بالتوحيد «الآية رقم ٣٩» كما كانت قد استهلت بالتوحيد (الآية رقم ٢٢)، الأمر الذي يشير إلى أن رأس كل الفضائل والحسنات ومحورها الأساسي هو أن يتخذ المرء من الله الواحد إلهه، فلا يخاف إلا منه ، ولا يحب إلا إياه ، فإن سر الاستقامة في الحياة الدنيا إنما يكمن في إقامة العلاقة الصحيحة والمستقيمة مع الله تعالى ، ولو أن العلاقة بالله لم تكن صحيحة ومستقيمة ، فليس هناك من شيء آخر من شأنه يصلح ويقوم نظام الحياة الإنسانية .. فالله - سبحانه وتعالى - هو مبدأ الإنسان وغايته ومنتهاه كذلك !

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم : أفضلكم ربكم فخصكم .

صَرَّفْنَا : كررنا القول بأساليب مختلفة .

نُفُوراً: تباعدا وإعراضا عن الحق .

لاَّبْتَغَوْا : لطلبوا .

سَبِيلاً : بالمغالبة والممانعة .

الحقيقة كاملة ومتكاملة لدرجة أن أي أمر باطل ينسب إليها يعود من فوره مبتور الصلة بها ، غير متناسق معها.. ومن أمثلة ذلك إشراك آلهة أخرى مع الله سبحانه وتعالى .

يزعم المشركون أن شركاءهم الفرضيين أولاد الله .. غير أن هذا الزعم يحمل بين طياته تناقضات تدحض دعواه.. فإن قيل لهؤلاء الشركاء «بنات الله» باعتبارهم إناثاً،فيثور على الفور الاعتراض القائل : بأن البنات ،طبقاً لاعتراف المشركين أنفسهم،ينتمين إلى الجنس الضعيف، إذن ، فَلِمَ أحب الله – سبحانه وتعالى – أن يتخذ من الجنس الضعيف شريكاً لنفسه ؟! ولكم سيكون الأمر مثيرا للدهشة والاستغراب

أن يهب الله للبشر ((البنين)) كذرية مفضلة لديهم ، بينما يختار لنفسه هو البنات؟! وبالعكس فلو افترضنا هؤلاء الشركاء ((بنين)) من حيث إن ((الابن)) يمثل في ضوء التجارب الإنسانية ، رمزا للقوة والطاقة ، فإن هذا الأمر يبقى مع ذلك ، غير معقول وبعيدا عن نطاق الفهم والإدراك من الناحية المنطقية،فإن السلطة شيء لا يقبل التجزئة والتقسيم، وكلما اجتمع في ظل نظام ما ، أكثر من ذي قوة وذي سلطان واحد، فلابد أن يندلع هناك صراع حاد بينهم ، إذ كل واحد منهم يريد أن يحصل على السلطة المطلقة ، ويستأثر بها دون غيره !!

إذن ، فلو كان هناك أكثر من إله قوي قدير واحد متصرف وراء الكون ، لنشبت بينهم بالضرورة الحرب على السلطة ، وبالتالي لأصيب النظام الكوني بأكمله بالخلل والفوضى ، وبما أن الكون خال من الخلل والفوضى كل الخلو ثبت من ذلك تلقائيا أنه ليس ثمة من ذوات أخرى كذلك يشاركن الله – سبحانه وتعالى – في قوته وملكوته . فسواء أقلنا للشركاء ((بنين)) ، أم أطلقنا عليهم ((بنات)) فإن هذا القول يصطدم ويتناقض في كلا الحالين ، مع الأمر الواقع ، والحقيقة هي أن الكون بسائر موجوداته ، يرفض القبول بأي تصور يدعي اشتراك أحد من دون الله في ألوهيته سبحانه وتعالى !؟

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾ .

حِجَاباً مَّسْتُوراً :ساترا أو مستورا عن الحس .

أَكِنَّةً : أغطية كثيرة مانعة .

وَقْراً : صمما وثقلا في السمع عظيما .

إن ما سمي هنا «حِجَابًا مَّسْتُورًا» هو «الحجاب النفسي» ،والمقصود به هو حال المرء إذ يحل في ذهنه أمر ليس من الصدق في شيء محل الصدق من تلقاء نفسه ..ومثل هذا الشخص حين يواجهه حق ينفي صدقه الفرضي المزعوم،فإن دعوة كهذه تعود غير قابلة للفهم لديه، فهو لا يكاد يفقه أو يتصور ، بناء على نفسيته الخاصة ، أنه يمكن أن تكون دعوة صادقة تلك التي يكشف الإيمان بها عن صيرورة ما قد ظل يعتبره الصدق المسلم به لحد الآن باطلاً تمام البطلان ! ومع أنه يجد نفسه عاجزاً عن مقاومة الأدلة المصاحبة للدعوة الجديدة ، إلا أن عقليته الخالصة تجعله لا يستعد أيضاً للتسليم بأن هذا هو الصدق المطلق الذي ينبغي عليه أن يؤمن به متخلياً عن كل الأشياء الأخرى عداه .

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ .

نَجْوَى : متناجون في أمرك فيما بينهم .

مسْحُوراً : مغلوبا على عقله بالسحر أو ساحرا.

لقد كانت دعوة رسول الله ﷺ تصحبها أدلة قوية لدرجة أن جماهير العرب أصبحت تنظر إليها بعيون مبهورة .. مما جعل رؤساء مكة يساورهم الخوف من أن هؤلاء ، لو اعتنقوا الدين الجديد بأعداد كبيرة ، فسوف تعود رئاستنا أثراً بعد عين !

وعندئذ لجأ هؤلاء الرؤساء إلى تدبير لصرف اهتمام الناس المتزايد عن الحق ، حيث قالوا لهم : إن القوة التي تلمسونها في كلام هذا الشخص ، إنما هي في الحقيقة قوة كلام ساحر أخاذ للقلوب والألباب .. فالقضية إذن هي قضية «الأدب» ، دون قضية

الصدق في واقع الأمر .. وهكذا فإن الكلام الذي كان الناس يرون في سموه وعظمته انعكاساً للصدق ، إذا بهؤلاء قد جعلوه في أعين الناس مرادفا لـ « سحر القلم » .

والذين ينظرون إلى دعوة ما ، لا على أساس ما هي في جوهرها ، بل ما إذا كانت تصدق بوضعهم أو ترفضه، فإنهم لن يحالفهم التوفيق لإدراك الصدق والحق أبدا !

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾ ﴾ .

وَرُفَاتاً : أجزاء مفتتة ، أو ترابا أو غبارا .

يَكْبُرُ : يعظم عن قبول الحياة كالسموات .

فَطَرَكُمْ: أبدعكم وأحدثكم.

بِحَمْدِهِ : منقادين انقياد الحامدين له .

إن وجود الإنسان الأول يثبت – بكل وضوح – إمكان وجوده الثاني .. ومن يسلم بولادة الإنسان الأولى كواقع لا سبيل إلى إنكاره،فإنه لا يملك أي دليل حقيقي على عدم تسليمه بولادة الإنسان الثانية .

ثم إن ولادة الإنسان الثانية هذه ، ليست بأمر مستبعد أيما استبعاد ، على الأقل ، بالنسبة لأولئك الذين ينظرون إلى الإنسان على أنه « حجارة » « وحديد » ، وبعبارة أخرى علم على مركب من الأشياء المادية ، فمع تحطم خلايا أجسامنا هنا ، نشهد في

هـذا العـالم المعلـوم نفسه أن كيـان الإنـسان المـادي لا يـزال يفنـى ثـم يتجـرد بتسلـسل واستمرار ، والحقيقة هي أن الإيمان بالبعث والنشور لـيس إلا إقـرارا بإمكـان حـدوث الواقع نفسه بعد الموت ، الذي نجربه ، خلال حياتنا قبل الموت مرة وأخرى .

وما القيامة سوى اسم لذلك اليوم الرهيب ، إذ يتمزق حجاب الغيب ويظهـر الله - سبحانه وتعالى - عيانا بكل قوته وجلاله وجبروتـه .. وعنـدما يحـدث ذلـك ، فسيظهر حتى الجاحد والمنكر ليفعـل ما لا يتمكن من فعله اليوم غـير المؤمن الـصادق الإيـمان ، فـالجميع سـيندفعون يومئـذٍ نحـو الله - سـبحانه وتعـالى - معترفـين بكـمالاتـه وقدراتـه اللانهائية !

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾ ﴾ .

يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ : يفسد ويهيج الشر بينهم .

تتحـدث هـذه الآيـة عـن العلاقـة الحـساسة بـين الـداعي والمـدعو ، حيـث تقـرر أن الداعي، مهـما وجـه إليـه مـن قبـل المـدعو كـلام يتـسم بالجفـاء والغلظـة ، ومهـما عومـل معاملة مفعمة بالإثارة والاستفزاز ينبغي عليه أن ينطق دائماً بالحسنى والكلمة الطيبة .. إذ لو اتخذ الداعي خطوة ما ، مدفوعاً بعوامل رد الفعل ، لتسبب ذلك في اسـتثارة مزيـد من مشاعر الكراهية والحقد والعناد في نفس المدعو ، وبالتالي سيحتدم هناك صراع بـين الداعي والمدعو ، لا يعود الناس معه قـابلين للاسـتماع إلى كـلام الـداعي بـذهن مفتـوح وبهدوء أعصـاب .

وإن نشوء جو مفعـم بالعنـاد والتنـافر بـين الـداعي والمـدعو هـو في صـالح الـشيطان تماما، فإنه يتخذ منه ذريعة لجعل رسالة الحق غير جديرة بالقبول لدى الناس ، ومن هنـا

فلئن أخذ الداعي ، من خلال بعض تصرفاته أو مواقفه ، في إيقاظ مشاعر العناد والكراهية في نفس المدعو ، فكأنما هو قام بمساعدة الشيطان وحقق بنفسه هو ما كان عدوه يبغيه ويطمح إلى تحقيقه !

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾ .

وَكِيلاً : موكولا إليك أمرهم .

زَبُوراً : كتابا فيه تحميد وتمجيد ومواعظ .

إذ يقوم أحد الناس بالدعوة إلى دين الحق ، ويقابله الآخر بالرفض والإنكار ، فإن ذلك مما يدفع الداعي – وقد غلب عليه الشعور بالقلق أو الضجر إزاءه إلى التساؤل المشوب بالحيرة من أمره : ما بال هذا الشخص ، لا يكاد يرضى بالتسليم بصدق بلاغ في منتهى الوضوح؟! وربما لا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل يتجاوز إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث إنه لا يلبث أن يعلق على هذا الشخص صراحةً بأنه من أصحاب النار! إن كلاماً كهذا لا يجوز للداعي ولا يليق به على أية حال .

هناك مهمتان الأولى : هي إبلاغ رسالة الحق ، أما الثانية ، فهي مكافأة الكل بحسب رد فعله على الرسالة .. المهمة الأولى ملقاة على عاتق الداعي ، أما المهمة الأخرى فهي من اختصاص الله – سبحانه وتعالى .. إذن فينبغي على الداعي ألا يقع في المحظور ، بأن يدخل أو يتدخل في دائرة الله ، متخطياً محيط دائرته هو .

لقد أرشد القرآن الدعاة إلى أن تفضيل أحد على أحد أو رفع أحد إلى درجة دون أحد ، مما لا شأن لكم فيه البتة ، إنما هو من شئون الله الخاصة به ، إذن فيجب عليكم أن

تركزوا كل جهودكم على مواصلة مسيرة البلاغ والدعوة إلى الرسالة الأساسية ، معرضين عن مثل هذه المناقشات التي لا جدوى لها !

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝ ﴾ .

تَحْوِيلاً : نقله إلى غيركم ممن لم يعبدهم .

الوَسِيلَةَ : القربة بالطاعة والعبادة .

إن كل الذوات التي يتخذها الإنسان آلهة له من دون الله لا تعدو أن تكون مخلوقات الله .. الشيوخ الصالحين أو الملائكة مثلا .

ولو أمعنا النظر لوجدنا هذا « التأليه » أحادي الجانب ، أي من طرف واحد تماما. فليست تلك الذوات هي التي قد ادعت عن نفسها أنها آلهة ، بل إنما هناك أناسٌ آخرون هم الذين زعموها معبودات ، وأخذوا في تقديسها وتعظيمها من تلقاء أنفسهم!

ولو أن أحداً مُنح القدرة على مشاهد ة الغيب ، كقدرته على مشاهدة الحاضر سيلاحظ أن الإنسان قد أله بعض الذوات من عند نفسه ، وصار يعبدها ويطلب منها قضاء حاجاته وتحقيق آماله ، على حين أن الذوات ترتعد في الوقت نفسه خوفاً وهلعاً لما يسيطر عليها من الإحساس بجلال الله وعظمته ، وهي مشغولة بكليتها في ابتغاء رحمة الله والتقرب إليه !

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ

كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ ﴾ .

إن قانون الفناء ، كما يسري على الأفراد ، يسري على الشعوب والقرى البشرية كذلك .. فأي قرية أو مدينة – مهما بلغت من القوة والبهجة – لابد لها من أن تزول وتفنى يوماً على كل حال ، سواء أكان ذلك بشكل إنزال الهلاك والدمار بها عاجلاً ، بسبب ذنوبها وطغيانها ، أم أن يُكتب لها البقاء ، حتى إذا حان موعد قيام الساعة ، قُضي عليها جنبا إلى جنب مع سائر بقاع الأرض ومدنها العامرة !

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ .

مُبْصِرَةً : آية بينة واضحة .

فَظَلَمُوا بِهَا : فكفروا بها ظالمين فأهلكوا .

إن ما يحدث مع الأنبياء – عليهم صلوات الله وسلامه – من وقائع غير عادية ، ينقسم إلى نوعين : أحدهما هو الذي يكون نصراً للنبي وأصحابه بوجه عام ، ويمكن أن نطلق عليه وصف « التأييد الإلهي » ، أما النوع الثاني فهو يشمل كل ما يتم إظهاره بحسب ما طلبه المشركون خرقا للعادة ، والذي يسمى بـ « المعجزة » ، ولقد جرى مع نبي آخر الزمان وأصحابه ما لا يحصى من وقائع التأييد الإلهي ، وأما ما يتعلق بالآيات المقترحة « المعجزات والخوارق » فقد أوقف إرسالها بالنسبة له – عليه الصلاة والسلام .

والسبب في ذلك هو أن كل شيء له مقتضيات معينة ، وعليه فبقدر ما يطالب الناس بالآية غير العادية ، بقدر ما تقع على عواتقهم مسئوليات غير عادية كذلك ، ومن ثم فقد جرت سنة الله في الذين لا يؤمنون ، حتى بالرغم من مشاهدة الآية غير

العادية (المعجزة) التي اقترحوها ، أن ينزل عليهم عذاباً شديداً يبيدهم ويستأصل شأفتهم .. وبما أن النبي العربي محمدا ﷺ جاء بالرسالة الخاتمة ، التي كان من المقرر انقطاع سلسلة النبوة بعدها ، لذا فلم يكن بالإمكان اتخاذ مثل هذه العملية الصارمة الحاسمة إزاء أمته ، فإن الأمة ستنقرض في حالة ما إذا نزل بها الدمار الشامل والعذاب المستأصل ، إذن ، فمن كان سيبقى هناك على إثر النبي ليقوم بتمثيله ونشر رسالته بين العالمين ؟!

ولقد كانت هذه رحمة من الله خاصة بمخاطبي النبي الخاتم – عليه الصلاة والسلام– أنه تعالى لم يرهم المعجزات والخوراق الحسية رغم مطالبتهم المتكررة .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ .

أَحَاطَ : علما وقدرة فهم في قبضته تعالى .

وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ :شجرة الزقوم (جعلناها فتنة) .

طُغْيَاناً: تجاوزا للحد .

الناس دائما يطالبون داعية الله بإظهار معجزة يقترحونها هم بأنفسهم ، على حين لو أنهم نظروا في الموضوع بذهن مفتوح ، لوجدوا أن المعجزة التي يريدون رؤيتها اختبار لصدق الداعي ، قد سبق أن تم إراؤتهم إياها بشكل النصرة الخاصة المتاحة للداعي .

لقد كان مخاطبو رسول الله ﷺ يطالبون بالمعجزات والخوارق الحسية ، فقيل لهم : أليست هذه المعجزة كافية لفتح عيونكم ، وأنه حين لم تكن الدعوة الإسلامية في أول

عهدها تمتلك أية قوة مادية ظاهرة ، أعلن القرآن حنيذاك في وجوه أعدائها يقول :﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ ولقد تحققت هذه النبوءة بالفعل من خلال امتداد نفوذ الإسلام وانتشاره بين قبائل العرب على أوسع نطاق ، ثم اكتملت بشكل الانتصار الحاسم في معركة بدر ، وفتح مكة المبين في أعقاب صلح الحديبية !

وهكذا حين أخبر رسول الله ﷺ صباح اليوم التالي للإسراء والمعراج : أنني قد ذهبت الليلة من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى . فلم يصدقه الناس ثم دعا هناك رجالاً سبق لهم أن زاروا بيت المقدس فوصف لهم – عليه الصلاة والسلام – بيت المقدس بتمام الدقة والتفصيل . غير أن القوم استخفوا بهذه الوقائع ، فلم يعيروها أي اهتمام، على حين أنها كانت الدليل الخارق على صدقه ﷺ والحقيقة أن المسألة ليست في إراءة المعجزات الحسية،بل تكمن المسألة في التأمل والتفكير الجاد في الدعوة،ولو أن الناس لم يكونوا جادين بشأن الدعوة،فسيعود كل شيء لديهم موضوع الهزء والسخرية،مهما كان ذلك الشيء جديرا بالنظر في حد ذاته .

وقد جاء في بعض الروايات أنه لما حذر القرآن الكفرة الآثمين من أن لهم في جهنم طعاما من شجرة الزقوم (سورة الصافات : ٦٢) قال أبو جهل : « هاتوا لنا ثمرا وزبدا. وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول : تزقموا ، فلا نعلم الزقوم غير هذا » ![(١)] .

وهكذا عندما نزلت هذه الآية الكريمة (الإسراء : ٦٠) تتحدث عن « الشجرة الملعونة » التي سيأكل منها أصحاب النار ، قال أحد رؤساء قريش تهكما : إن ابن أبي كبشة يوعدكم بنار تحرق الحجارة ، ثم يزعم أنها تنبت فيها شجرة ، وتعلمون أن النار تحرق الشجرة »[(٢)] .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٨٦.
(٢) تفسير المظهري .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

أَرَأَيْتَكَ : أخبرني .

لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ : لأستولين عليهم ، أو لأستأصلنهم بالإغواء .

إن قصة إبليس والملائكة تدلنا كيف يكون المطيعون،وكيف يكون العصاة المعاندون.. فالمطيعون إنما ينظرون إلى الحق من حيث هو حق، فلا يصعب عليهم أن يعرفوه ويتفهموه على وجهه،وبالتالي يبادرون من فورهم إلى الإيمان به،كما صنعت الملائكة عند خلق آدم – عليه الصلاة والسلام .

وأما الآخرون عداهم فهم الذين ينظرون إلى الحق بالنسبة إلى ذاتهم ، وليس بالنسبة إلى جوهره ، وهذا ما فعله الشيطان إذ نظر إلى الحق من خلال ذاته هو ، وبما أن الأمر بالسجود لآدم كان يكشف – على ما يبدو – عن كون آدم كبيراً ، وكونه صغيراً ، فلم يلبث أن رفض الإيمان بحق تعود معه ذاته صغيرة !

وهذا ما أخذنا في الاعتبار تحدي الشيطان كل شخص يرفض الحق ويعرض عنه لأنه لو آمن به ، صارت ذاته هو صغيرة بإزاء الآخرين !

﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

وَاسْتَفْزِزْ : استخف واستعجل وأزعج .

وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم : صح عليهم وسقهم .

بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ : بكل راكب وماش في معصية الله .

غُرُوراً : باطلا وخداعا .

عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ : تسلط وقدرة على إغوائهم .

إن قوله : ﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ (أي من أطاع الشيطان من ذرية آدم) ، يدل على أن الإنسان حر في العالم الراهن لكي يسير في طريق الشيطان ، أو في طريق الله .. وفي استعمال هذه الحرية ذاتها يمكن امتحان الإنسان الحقيقي، فهو إما أن يفوز بإنعام الله بنجاحه فيه ، أو يعود أهلاً لمصير الشيطان بفشله فيه .

والشيطان أيضاً يتمتع بالحرية في هذه الدنيا لكي يتخذ من الإنسان خليله ، وأن يستخدم كل حيلة للتغلغل في أعماقه ، فيعود شريكاً له في ماله وأولاده ، غير أن الشيطان لم يتح له أي نوع من التسلط أو السيطرة على الإنسان ؛ إذ ليس في مقدوره سوى أن يحاول إغواء الناس بالصوت والألفاظ ، ويتناول أشياء باطلة لا حقيقة لها بالتمويه والزخرفة ، فيعرضها عليهم كما لو أنها هي الحقيقة الكبرى .

وقوله ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ يدل على أن الشيطان أقوى من الإنسان من حيث إمكانياته ، إذاً فما سبيل الخلاص في عالم لا يلبث الشيطان فيه أن يهاجم الإنسان مع سائر جنوده من « الركبان والمشاة » ؟!

إنما السبيل الوحيد إلى النجاة منه هو أن يجعل الإنسان من الله وكيله وولي أمره بأصدق معاني الكلمة ، فمن يفعل ذلك فسوف يتكفل الله – سبحانه وتعالى – بحفظه ورعايته بحيث يصبح الشيطان – على كل طاقاته – عاجزاً عن مواجهته تمام العجز !

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾ .

يُزْجِي : يجري ويسير ويسوق برفق .

لقد جعل الله العالم الراهن خاضعاً لقوانين معينة ثابتة لا تتخلف .. الأمر الذي يمكن الإنسان من أن يسير سفينته في البحر ، ويسوق مراكبه السريعة عبر الجو .. وقد كان الغرض من هذا كله أن يعرف الإنسان ما أسدى إليه ربه من جليل النعم ،فيقوم في المقابل بالشكر والامتنان له تعالى .

غير أن الإنسان يظن كل حادث يراه واقعا تحت أبصاره،على أنه لابد له من وقوعه،كما ينظر إلى حدث إرادي مقصود،على أنه حدث يقع تلقائياً وليس وراءه أي إرادة أو قصد سابق. وهذا هو السبب في أنه لا يستقيظ هناك أي شعور رباني في داخله،رغم مشاهدته المتكررة لهذه الوقائع والأحداث .

إن معرفة الله – سبحانه وتعالى – حقيقة لدرجة أنها كامنة في صميم فطرة الإنسان ، لصيقة بأعماقها ، وتتجلى هذه الحقيقة إذا هو تعرض لكارثة ، يجد نفسه بإزائها عاجزا مكتوف اليدين لا قوة له ولا حول .. وعلى سبيل المثال : مجيء طوفان مفاجئ في البحر بحيث تتورط فيه سفينته وقد أحاط بها أمواج هائلة من كل جانب .. وفي لحظات كهذه ترتفع عن ذهن الإنسان كل الحجب الاصطناعية المتراكمة عليه ، وهو يأخذ ينادي الله الواحد الأحد طلباً للعون والنجدة ، ولا يكاد يعرف أو يتذكر وقتئذ أحداً سواه .

وإنما يبتلي الإنسان بهذه التجربة الوقتية لكي يصوغ حياته العملية كلها في قالبها فيحول اعترافه المؤقت إلى إيمانها الدائم .. غير أن الحقيقة التي يكرهها الإنسان ، وهو

متورط في طوفان البحر ، لا يلبث أن ينساها عقب وصوله إلى بر الأمان .

إن التسليم بألوهية الله الواحد الأحد وهو التوحيد كما أن عدم التسليم بألوهية الله الواحد هو الشرك .. وعلى هذا الاعتبار فحقيقة التوحيد الجوهرية هي الاعتراف، وحقيقة الشرك الجوهرية هي عدم الاعتراف .. والشيء الذي يطلبه الله من الإنسان أصلاً هو هذا الاعتراف بذاته ، ولكن الإنسان ظالم لدرجة أنه لا يكاد يرضى بتأدية حق الله حتى بمقدار الاعتراف المجرد !

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾ .

يَخْسِفَ بِكُمْ : يغور ويغيب بكم تحت الثرى .

حَاصِباً :ريحا شديدة ترميكم بالحصباء .

قَاصِفاً : عاصفا شديدا مهلكا .

تَبِيعاً: نصيرا أو مطالبا بالثأر منا .

إن الله لا يبطش بالإنسان فوراً ، رغم عصيانه وتمرده ، بل يصيبه ببعض النكبات المؤقتة ، ليوقظه من الغفلة ، ولكن عجيب أمر هذا الإنسان ، فإنه إذ يتعرض للنكبة ، يستيقظ بداخله الوعي والإحساس بصفة وقتية ، وحين تزول النكبة، تتلاشى يقظة إحساسه هي الأخرى ، فيعود بالتالي سيرته الأولى من التمادي في الغفلة والعصيان .. في حين أنه لا يزال بعدئذ في قبضة الله وتحت قدرته تماماً كما كان قبلئذ !

فلئن كان هو قد عاد سالماً غانماً هذه المرة من رحلة البحر فمن الممكن جداً أن

يضطر ثانية إلى القيام برحلة عبر البحر ، فيتورط من جديد في المصيبة نفسها التي كان قد تورط فيها من ذي قبل، وزيادة على ذلك فإن أخطار البر لا تقل عن أخطار البحر، فالشيء الذي يدعى الطوفان في البحر ، يأخذ شكل الرجفة والزلازل في منطقة البر ، إذن ، فهل ثمة موضع يجد فيه المرء شيئا من شأنه أن يحميه من بطش الله عز وجل ! كلا ، كلا !!

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ .

إن الإنسان يتميز ، من بين سائر مخلوقات الكون ، بفضيلة خاصة ، فالقمر والنجوم كائنات يعوزها الوعي والشعور ، بينما الإنسان يملك الشعور والإرادة ، ويمارس التصرف في الأشياء الأخرى بمحض اختياره ، والحيوانات إنما تعمل بواسطة أعضائها وجوارحها وحدها، غير أن الإنسان يحقق أعراضه ومآربه عن طريق اختراع دروب شتى من الآلات والمعدات ، والأنهار لا تسعها إلا أن تجري تجاه السهول والمنحدرات، ولكن الإنسان يصعد على الشواهق والمرتفعات وهو يقدر على أن يتحرك ويسافر في الاتجاه المعاكس للتيار .

كما قد اتخذت هناك ترتيبات ضخمة (على نحو ملكي) لتوفير الرزق للإنسان في هذه الدنيا.. ،فالحيوانات تأكل العشب لترده للإنسان في صورة الألبان واللحوم،وشغّالات النحل تصل الليل بالنهار سعيا وراء جمع رحيق الأزهار من أنحاء العالم كافة ، حتى تصنع للإنسان ذخائر العسل .. إلخ .

وبمقتضى هذا الإنعام والتكريم الإلهي ، كان ينبغي على الإنسان أن يكون شاكراً لله سبحانه وتعالى ، غير أن الإنسان هو المخلوق الكنود الجحود ، من بين سائر المخلوقات عداه، الذي قلما يشكر لربه !

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾ .

بِإِمَامِهِمْ : بمن ائتموا به أو بكتابهم .

فَتِيلاً : قدر الخيط في شق النواة من الجزاء .

إن كل الطوائف البشرية كما هي تكون وراء قادتها في هذه الدنيا ، ستدعى كل واحدة منها في الآخرة مع قائدها كذلك .. فالصالحون مع قادتهم والطالحون مع قادتهم .

وبعدئذ سيعطى الكل كتاب أعماله التي عملها في الحياة الدنيا ، وسيعطى الصالحون كتاب أعمالهم بأيمانهم والطالحون بشمائلهم وإنها ستكون بمثابة علامة ظاهرة محسوسة تدل على أن الطائفة الأولى قد فازت برضا الله ، وأن الأخرى قد باءت بسخطه تعالى .

وتقسيم الناس إلى صالح وطالح في الآخرة إنما سيتم على أساس من عاش في هذه الدنيا أعمى، ومن عاش هنا بصيراً.. وبما أن الله – سبحانه وتعالى – لا يكلم الإنسان في هذه الدنيا على نحو مباشر،لذا فليس هناك من سبيل إلى الاطلاع على رضوان الله تعالى ومشيئته في هذه الحياة الدنيا غير سبيل واحد،ألا وهو تدبر آيات الكون الصامتة،والتأمل في أحاديث دعاة الحق .. فالذين يتوصلون إلى المعرفة عن طريق هذا الكلام غير المباشر،هم عند الله ((ذوو البصر والبصيرة)) حقا، وأما الذين لا يفهمون هذا الكلام غير المباشر وينتظرون الوقت الذي سيظهر فيه الله عياناً، ليكلمهم بطريقة مباشرة،فإنهم عند الله ((عميان)) وأمثال هؤلاء لن ينفعهم شيئا،حتى الاستماع المباشر إلى الكلام الإلهي،فإنهم سيظلون عندئذ أيضا بعيدين عن الحقيقة تماماً كبعدهم عنها

اليوم !

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ .

لَيَفْتِنُونَكَ :ليوقعونك في الفتنة وليصرفونك .

لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا :لتختلق وتتقول علينا .

تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ : تميل إليهم.

ضِعْفَ الحَيَاةِ :عذابا مضاعفا في الحياة الدنيا.

إن المحور الأساسي لدعوة رسول الله ﷺ بمكة كان يتمثل في أن الله واحد أحد لا غير، وكل ما تعبدونه من دونه تعالى من الأصنام والأوثان هو باطل محض .. ومع أن أهل مكة كانوا يقرون بوجود ((إله كبير)) إلا أنهم – مع ذلك – كانوا يشركون به آلهة أخرى كذلك .

وقد حاول مشركو مكة مساومة النبي – عليه الصلاة والسلام- على أن يعبدوا إلهه مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم إلا أن منهج النبي هو الجهر بالحق وإعلانه بتمام الوضوح ، من غير اكتراث بها إذا كان له مساس بآلهتهم أو لا !؟

إن هدف العملية الدعوية الأصيل هو إعلان الحقيقة على وجه أتم وأوضح ما يكون ، وللسبب ذاته فأي تنازل أو قصور فيها يتصل بموضوع الإعلان أمر لا يساغ بحال من الأحوال.. إذن ، فكل من ينهض للدعوة إلى الحق سواء أكان نبيا أم غير نبي لابد له من الإعلان الصريح المكشوف للحقيقة ، حتى ولو اضطره ذلك إلى أن يبقى

وحيدا مخذولاً لا ناصر له ولا صديق في طول الدنيا وعرضها !!

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ .

لَيَسْتَفِزُّونَكَ :يستخفونك ويزعجونك .

تَحْوِيلاً :تغييرا وتبديلا

إن الدعوة إلى دين الحق أينما تنهض ، وبين أية طائفة ترتفع أصداؤها ، تكتنفها دوماً ظروف وأوضاع مماثلة... حيث يكون هناك – من ناحية – أناس يحتلون المناصب القائمة باسم الدين ، ومن ناحية أخرى يكون الداعي إلى الحق الذي يبدو وحيداً وضعيفا للغاية تبعا لمقياس القوة السائدة في بيئة العصر ،وهذا الفرق الظاهر يوقع القوم في سوء فهم وغرور، فلا يلبثون أن يعتبروا داعي الحق تافها لا يقام له وزن ، حتى إنهم يريدون أن يخرجوه من قريتهم .

ويغيب عن أمثال هؤلاء أن هذه الأرض هي أرض الله ، ومن هنا فإن تدبير أي خطة تخريبية ضد أحد عباد الله يعني إقامة الدليل على كون أنفسنا مجرمين عند الله سبحانه وتعالى.. إن إخراج داعي الله من قرية ما ، شأنه شأن إخراج شخص من إحدى المدن والولايات ، بعث هناك بصفته مندوبا للحكومة المعاصرة .. فانتزاع حق السكنى في المدينة من شخص كهذا يؤدي نهائيا إلى أن ينتزع حق السكنى من سكان المدينة أنفسهم !

المرء يطرد غيره في حين أنه لا يطرد إلا نفسه هو والمرء يحاول أن يحط من قدر الآخر، بينما هو لا يحط إلا من قدر ذاته في عين المالك الحقيقي الذي له الخيار المطلق في

أن يضع من شاء ويرفع من شاء ، فهو المعز وهو المذل وهو على كل شيء قدير !

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ .

لِدُلُوكِ الشَّمْسِ :بعد أو عند زوالها عن كبد السماء .

غَسَقِ اللَّيْلِ : ظلمته أو شدته .

وَقُرْآنَ الفَجْرِ : وأقم صلاة الصبح .

فَتَهَجَّدْ : التهجد الصلاة ليلا بعد الاستيقاظ

إن الجزء الأول من هذه الآية الكريمة معناه الحرفي : أن « أقيموا الصلاة من وقت زوال الشمس إلى وقت ظلمة الليل » .. وتفيد هذه الألفاظ ، على ما يبدو ظاهراً ، بوجوب إقامة الصلاة بتسلسل واستمرار ، من بعد الظهيرة حتى انتشار ظلام الليل .. وإنه ليس من الشك في أن عظمة الله وما أسدى إلى عبيده من نعم لا تحصى ، يتطلبان منهم أن يظلوا مشغولين بعبادته تعالى كل حين وآن دون انقطاع .

بيد أن تفسير الحديث للآية تناول عمومها بالتخصيص،وبذلك فقد حول الحديث النبوي هذا الحكم العسير إلى أمر بالغ اليسر والسهولة إذ قرر أن على الناس أن يقيموا صلتهم بالله ، خلال الأوقات المعتادة، على مستوى « الذكر » وحده ، وأن يقوموا ، في أثناء الفترة الممتدة منذ الظهيرة وحتى الليل ، بعبادته تعالى أربع مرات (وهي صلوات: الظهر، والعصر ، والمغرب ، والعشاء) .

وهكذا فإن الترجمة الحرفية للجزء الثاني من الآية تتلخص في : « وقراءة (القرآن) عند الفجر » .. ولئن أخذنا بهذا المفهوم الظاهري ، فسيكون معناه أنه يجب إمضاء أوقات الفجر كلها في تلاوة القرآن الكريم كل اليوم .. غير أننا نجد البيان النبوي هنا

مرة أخرى قد يسر علينا الأمر بكشف النقاب عن مراد الله تعالى .. فمعنى هذا الحكم على وجه التحديد ، طبقا لما ورد في السنة المتواترة ، أنه مطلوب أداء صلاة عند مطلع الفجر أيضا ، ولتكن هذه الصلاة (الخامسة) متميزة عن الصلوات الأربع الأخرى عداها ، بإطالة القراءة فيها !

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾ .

نَافِلَةٌ لَّكَ : فريضة زائدة خاصة بك .

مَقَاماً مَحْمُوداً :مقام الشفاعة العظمى .

روح صلاة التهجد هي ذكر الله في خلواتنا الخاصة .. والتهجد في اللغة : هو الاستيقاظ بالليل ؛ لأنه وقت يتسم بغاية الهدوء والخلوة ، وحين يصحو المرء من نومه في الهزيع – أي الثلث أو الربع – الأخير من الليل ، فإن ذلك ليكون أطيب أوقاته على الإطلاق ، في تلك اللحظات السعيدة ؛ إذ يتوجه المرء إلى الله ، ويتلو كلام الله في خشوع، واضعاً يمينه على يساره على هيئة المصلي ، فكأنما هو يرسم الصورة النهائية لعبوديته لربه ، وبخاصة عندما تكون نبضات قلبه هي الأخرى تتجاوب مع ما يقرأه بلسانه ، وتذوب شخصيته كلها بحيث لا يلبث أن تفيض دموعا من خلال عيونه !!

و« المقام المحمود » معناه الحرفي : هو « المقام الممدوح أو المثني عليه » وهذه « المحمودية » لها جانبان : دنيوي وأخروي .. أما الجانب الأخروي فهو : الذي يطلق عليه المفسرون « الشفاعة العظمى » ، فكما هو معلوم من الأحاديث الواردة في هذا الباب ، أن جميع الأنبياء سيشفعون يوم القيامة في حق المؤمنين بهم ، وستكون شفاعتهم تلك بمثابة تصديق لكونهم مؤمنين وبعدئذ سيدخل في الجنة من شاء الله إدخاله فيها .. وستكون شفاعة رسول الله ﷺ أكبر وأعظم من شفاعات سائر الأنبياء ، ذلك لأنه

سيشفع لعدد أكبر من الناس ، لكون عدد أتباعه أكثر من الجميع !

وأما الجانب الدنيوي لـ « محمودية » رسول الله ﷺ فهو أن يقترن به تاريخ مجيد يعود معه جديراً بالثناء والاعتراف لدي شعوب العالم أجمع ، وقد تحقق مراد الله هذا في حقه ﷺ على أكمل وجه ، حيث أصبح كل الناس في العالم اليوم لا يسعهم إلا أن يعترفوا به رغم أنفهم .. فقد صارت نبوته الآن نبوة مسلماً بها ، ولم تعد النبوة المتنازع عليها كما كانت في السنوات الأولى من بعثته – عليه الصلاة والسلام .

النبوة « المحمودية » هي من الناحية الدنيوية ، اسم ثان للنبوة الثابتة المبرهن عليها ، أي النبوة التي تصاحبها وتدعمها شواهد تاريخية قطعية لدرجة أنه لا يبقى هناك مجال للشك أو الارتياب في صدق صاحبها ولا في صحة تعاليمه .. وبالتالي يعود الإنسان مرغما، بموجب المعيار العلمي المسلم به عند نفسه هو ، على الاعتراف بمكانته ، ومن شأن الإقرار والاعتراف عندما يبلغ آخر مداه ، أن يتحول إلى المدح والثناء ، وهذا هو السر في أنه أطلق عليه هنا وصف « المقام المحمود » !

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ .

مُدْخَلَ صِدْقٍ : إدخالا مرضيا جيدا في أموره .

سُلْطَاناً نَّصِيراً : قهرا وعزا ننصر به الإسلام .

وَزَهَقَ البَاطِلُ :زال واضمحل الشرك.

لقد كان رؤساء العرب يريدون جعل رسول الإسلام « مذموماً » ، ولكن شاءت إرادة الله – عز وجل – إيصاله إلى مقام « المحمود » .. وتحقيقاً لذلك فقد كان تدبير الله يتمثل في خلق ظروف مواتية له في المدينة ، ونقله إليه مهاجراً من مكة ، ثم إرساء

دعائم الدولة الإسلامية بالمدينة ، وتكثير تعداد المسلمين إلى حد أقصى من خلال الجهود المكثفة في حقل الدعوة والتبليغ ، إلى أن يتمكن هؤلاء المسلمون من دخول مكة فاتحين ، وبالتالي تعود شبه الجزيرة العربية بأكملها خاضعة ومسخرة لهم ، وهكذا تنضوي تحت راية التوحيد قوى هائلة ، تقوم عن طريق عمل دؤوب متواصل ، بالقضاء على غلبة الشرك ومحو آثاره من العالم أجمع !

وقد كان ذلك هو التدبير الإلهي الذي تم إعلانه هنا على لسان رسول الإسلام بشكل الدعاء !

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ .

خَسَاراً : هلاك بسبب كفرهم به .

القرآن هو إعلان الصدق الخالص ، وحينما يعرض الصدق الخالص ، فإنه يمثل خطراً يتهدد كل أولئك الذين يعيشون إما محرومين من الصدق مطلقاً ، أو متمسكين بصدق زائف مغشوش .. والآن فمن كان منهم واقعياً ، إذا ما ظهر الصدق الخالص أمامه ، فإنه يتخذ من الصدق المعيار أو الحكم دون ذاته هو ، وهكذا فإن جديته وواقعيته تحولان القرآن إلى شفاء ورحمة له ، ولكل من سار على نهجه .

أما الصنف الذي يخشى اتباع الحق حرصا على ما في يديه من مطامع الدنيا ، فلا يزيده وضوح الحق إلا خسراناً .

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾ .

وَنَأَى بِجَانِبِهِ :لوى عطفه تكبرا وعنادا .

كَانَ يَئُوساً : شديد اليأس والقنوط من رحمة الله .

شَاكِلَتِهِ : مذهبه الذي يشكل حاله .

إن كل إنسان لابد وأن تمر عليه أحوال شتى من الخير والشر ، فإذا أتيحت له الرفاهية والرخاء، يبدي ثقة بالغة بنفسه،لدرجة أنه يصبح عنيداً ومتصلباً في الإذعان لأمر ما،كأنه حديد لا يلين .. ولكن حين يسلب منه أسبابه،وتعتريه حالة العجز وانعدام الحول والحيلة، يعود فجأة ساقط الهمة ، صريع اليأس والقنوط .

وتلك تجربة يمر بها الإنسان خلال حياته في العالم الراهن ، ولكن ليس هناك أحد يوفق لاكتشاف ذاته من خلال هذه التجربة ، بأن تقوده هذه التجربة إلى التفكير في أنه إنما يقف هنا موقف العناد والتعنت إزاء الحق في هذه الدنيا ، لكونه يتمتع فيها بالحرية ، ولكن إلام سيئول أمره عندما تفاجئه القيامة ، فتنتزع منه كل اختياراته انتزاعا ؟! ألا ما أضعف هذا الإنسان ، ولكنه – مع ذلك – كم يظن نفسه قوياً شديد البأس !!

المقصود بالشاكلة هو القالب الفكري .. إن كل امرئ له قالب فكري خاص يتكون شيئا فشيئا بحسب ميوله واتجاهاته في الحياة .. وهذا القالب هو الذي يصوغ أفكاره ووجهة نظره تجاه الأشياء والأمور .. غير أن وجهة النظر الصحيحة هي التي تكون صحيحة طبقا للعلم الإلهي ، والخاطئة هي التي تكون تبعاً للعلم الإلهي كذلك .

وهذا هو موضع امتحان المرء في هذه الحياة .. والمطلوب من المرء هو أن يحطم قوقعته الفكرية التي صاغتها وفرضتها عليه شاكلته ، حتى يتمكن من أن يرى الأشياء كما هي .. وإليها من وجهة النظر الربانية .

إن الذين حبسوا أنفسهم داخل قوقعتهم الفكرية إنما هم أناس ضالون منحرفون ،

وأما الذين حصلوا على وجهة النظر الإلهية، متحررين من أسر قوقعتهم الفكرية، فهم وحدهم المهتدون إلى سبيل الحق والرشاد!

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾.

المراد بالروح هنا: قيل: الروح التي في الجسد، وقيل: جبريل عليه السلام وقيل: ملك عظيم.. والذين وجهوا إلى رسول الله ﷺ هذا السؤال كان قصدهم من ورائه هو الكشف عن «جهل» رسول الله، زعمهم، وليس في الحقيقة دفع جهلهم أنفسهم !!

وقد كان ذلك في وقت لم يكن فيه رسول الله قد أحيط بتاريخ المجد والعظمة بعد،وإنما كان – عليه الصلاة والسلام – يبدو للناس رجلاً عادياً ليس غير، وبما أنهم لم يكونوا على يقين من أن ملك الله يأتيه بالوحي الإلهي، لذا فقد توجهوا إليه بهذا السؤال على وجه التهكم والسخرية.

على أن القرآن قد أشار هنا، في معرض الرد على هذا السؤال، إلى أمر مبدئي هام، ألا وهو أن الإنسان «لم يؤت من العلم إلا قليلا»، وأنه لا يتمتع بـ «العلم الكثير»، وعليه فمقتضى الواقعية هو ألا يخوض في أسئلة لا يتمكن – لكونه مفطورا على قلة العلم – من التوصل إلى الأجوبة الصحيحة عنها.

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾.

وَكِيلاً : من يتعهد بإعادته إليك .

ظَهِيراً :معينا .

إن القرآن الكريم ليس من كلام محمد ﷺ وإنما هو كلام صادر عن مستوى آخر فوق طبيعة البشر .

والذين كانوا يعدون القرآن كلاما بشرياً، قيل لهم : إن كنتم صادقين في زعمكم هذا إذن فينبغي أن يكون في مقدوركم أيضاً بصفتكم بشراً ، أن تأتوا – منفردين ، أو مجتمعين – بكلام مثل هذا القرآن ، إلا أن أحداً من أرباب اللغة والأدب ، وجهابذة العلم والفكر ، لم يستطع ، على مدى التاريخ،رد هذا التحدي ،لا في عصر نزول القرآن،ولا فيما تلاه من العصور ، وتدل الوقائع على أن هناك أناساً كثيرين حاولوا القيام بذلك ، إلا أن محاولاتهم سرعان ما باءت بالإخفاق والفشل الذريع ؛ إذ إنهم ظلوا عاجزين حتى عن الإتيان بسورة واحدة من طراز القرآن العظيم !

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾ ﴾ .

صَرَّفْنَا :رددنا بأساليب مختلفة.

كُلِّ مَثَلٍ :معني غريب حسن بديع .

فَأَبَى : فلم يرض . **كُفُوراً** :جحودا للحق .

يَنْبُوعاً :عينا لاينضب ماؤها.

كِسَفاً : قطعا .

قَبِيلاً : مقابله وعيانا. أو جماعة .

زُخْرُفٍ : ذهب.

حين عرض رسول الله ﷺ رسالة الحق ، قال له معاصروه : ((إننا لن نؤمن بك ، ما لم ترنا أعمالا خارقة للعادة)) ، غير أن مطالبات كهذه مخالفة لمنهج الله عن الخلق ، فقد خلق الله الإنسان كوجود ذي وعي وشعور ، وإنه لهبة نادرة فريدة من نوعها في هذا الكون بأكمله ، والسر في إعطائها للإنسان هو أن يعرف الحق باستخدام الوعي والشعور ، وليس بواسطة الخوارق والشعوذات السحرية ..

والحقيقة هي أن امتحان الإنسان في العالم الراهن إنما يجرى على مستوى ((الدليل)) فالمطلوب من كل أحد هنا هو أن يعرف الحق بلغة الدليل،وبالتالي يختاره عن وعي وبصيرة ، وأما الذين لا يعرفون الحق على مستوى الدليل والبرهان ، فأولئك هو الذين سيبوؤون آخر الأمر بالفشل والخيبة !

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ .

لقد كان السبب في امتناع أكثر الناس عن الإيمان تعجبهم من أن الذين أرسلوا

إليهم بشراً منهم ، وذلك على مر العصور والأمم السابقة .

فقال لهم : لو كان يسكن في الأرض ملائكة لأرسلنا إليهم رسولاً من جنسهم ملكاً، كما أرسلنا إليكم رسولاً من جنسكم بشراً ، ثم قال تعالى لنبيه : قل لهم : يكفي أن الله شاهد عليّ وعليكم ، وهو يعلم من منا على هدى ومن على ضلال .

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾ .

خَبَتْ : سكن لهبها.

سَعِيراً : لهبا وتوقدا .

وَرُفَاتاً : أجزاء مفتتة . أو تربا أو غبارا .

المرء يعيش في هذه الدنيا طبقاً لوضعه المادي ، وإنه سيبدو في الآخرة تبعاً لوضعه الروحي .. ولهذا السبب فإن الذين قد انحرفوا عن سبيل الحق في الدنيا ، عندما يبعثون يوم القيامة، فسيجدون أنفسهم عمياً وبكماً وصماً ، فما كان انحرافهم عن السبيل هنا إلا لكونهم لم يستعملوا أبصارهم وأسماعهم وألسنتهم في الهدف الذي منحوا إياها من أجله ، فهم لم يروا آيات الله ، ولا سمعوا أدلة الله ، ولم تنطق ألسنتهم تأييدا للحق أو دفاعا عنها ، فقد صاروا بالنسبة إلى الحق ، على تمتعهم بحواس البصر والسمع والنطق كما لو أنهم لا يملكون عيوناً تبصر ، ولا آذاناً تسمع ، ولا ألسنةً تنطق ، وفي أعقاب الموت ، حين يصلون إلى العالم الحقيقي ، فسيرون أنفسهم هناك في صورهم الأصلية ، وليس في تلك الصور المصطنعة التي كانت قد أتيحت لهم بصفة وقتية ، لكونهم في

حالة الامتحان في العالم الراهن .

﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا ﴾ تلك عبارة ينقسم القائلون بها إلى صنفين: أحدهما : هو الذي يرددها بلسان المقال،وأما الآخر: فهو الذي يقولها بلسان الحال ..وهذا الصنف الأخير يشتمل على أناس يستخدمون عيونهم وآذانهم وألسنتهم بخلاف الغاية المطلوبة من خلقها،ويزعمون أن عملهم هذا سوف يتبدد ويتلاشى في هذه الدنيا،وأنه غير باق إلى يوم القيامة ليسألوا عنها أو يجازوا عليه !

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ .

إن الأرض والسماء تتواجدان أمام أعيننا كحقيقة لا مرية فيها ، ولا سبيل إلى إنكارها .. وهذا الوجود يثبت أن هناك وجودا حيا يملك القدرة على الخلق لأول مرة، وعلى إبداع الوجود من العدم ، فإذا كان الخلق الأول ممكناً، فما الذي يدعو إذن إلى استبعاد إعادة الخلق مرة ثانية ؟! والحقيقة هي أنه ليس ثمة دليل علمي أو عقلي يمنع من التسليم بإمكان الخلق الثاني بعد تسليمنا بالخلق الأول ، بل العكس هو الصحيح .

والذي لا يسلم بإمكان الخلق الثاني ، بالرغم من هذه القرينة البالغة الوضوح ، فإنما هو ظالم على أرضية العناد والتعنت والمكابرة ، دون أرضية الدليل والبرهان والمعقولية!

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ .

قَتُوراً :مبالغا في البخل .

الإنسان – إلا من هداه الله – مطبوع على الشح والأثرة .. فهو يريد أن يستأثر بكل

أنواع المجد والشرف لنفسه هو أو لطائفته التي ينتمي إليها .. ولو أن الأرزاق والنعم قد عهد بتوزيعها إلى الإنسان ، لبادر الذين حصلوا على المجد والثراء ، إلى الاستئثار بالنبوة هي الأخرى لأنفسهم ، ولم يدعوها تذهب إلى الآخرين عداهم !! .

غير أن الله - سبحانه وتعالى - لا ينظر إلى الأمور من منظور العصبيات الطائفية .. إنه تعالى ينظر إلى كل الناس، ثم يختار منهم من هو أصلح وأفضل فيختصه بالنبوة .. ولو أن أمر الاختيار للنبوة صار موكولا إلى البشر ، لنشأ هنا أيضا من الفساد والفوضى ما نراه سائدا في الدوائر والمؤسسات البشرية لسيطرة هذه الجموع الغفيرة من أناس غير مؤهلين ولا أكفاء عليها بسبب المحسوبية والمحاباة !

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۢ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

مَسْحُوراً :مغلوبا علي عقلك بالسحر أو ساحرا .

بَصَائِرَ :بينات تبصر من يشهدها بصدقي .

مَثْبُوراً : هالكا أو مصروفا عن الخير.

يَسْتَفِزَّهُم :يستخفهم ويزعجهم للخروج .

لَفِيفاً : جميعا مختلطين .

فَرَقْنَاهُ : بيناه وفصلناه أو أنزلناه مفرقا .

عندما عرضت على فرعون آيات بينات – دالة على صدق موسى وصحة ما جاء به– لم يلبث أن كذب بها قائلا: ((إنما هي سحر!))ومعنى ذلك أنه مهما تقدم الداعي إلى الحق بدليل قوي،ومهما جاء بآية عظيمة باهرة،لا يزال الباب أمام الإنسان مفتوحا أن يرفضها مستخدما بعض الألفاظ،كأن يطلق على الآية الإلهية وصف السحر الإنساني،ويرد دليلاً علمياً متعللاً بأنه نتاج دراسة ناقصة غير ناضجة ،ويعرض عن القرائن الواضحة القاطعة واصفاً إياها باللامعقولية !!!

ومعارضو الحق يفشلون في إسكات صوت الحق بالمعارضة اللفظية ، يلجأون إلى الإجراءات العدوانية ولكن يغيب عن بالهم أن هذا ليس بأمر إنسان ما ، بل إنما هو أمر الله ومن ذا يستطيع أن ينجح في ممارسة العدوان ضد الله – عز وجل؟!

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

مُكْثٍ :على تؤدة وتأن .

إن القرآن هو إعلان الصدق الخالص غير أن الصدق الخالص شيء قلما يحظى بالقبول عند الناس .. ولهذا السبب فلم يلق الله – سبحانه وتعالى – هذه المسئولية على عاتق الداعي، بأن يرغم الناس على الإيمان به إرغاماً ، وإنما تكمن مسئولية الداعي في أن يبذل جهده في الجهر بالحق وإعلانه على أكمل وجه .

القرآن كتاب روعي فيه المخاطب – بمستوييه العقلي والاجتماعي ، وبأحواله المحيطة به – إلى أقصى حدود المراعاة .. وهذا من أسرار تنزيله منجماً على مدى ثلاث وعشرين سنة ، حتى يتمكن كل من يرغب في فهم القرآن من أن يفهمه ويستوعب مضامينه جيداً ، وبالتالي يصير القرآن شيئا فشيئا بلفظه ومعناه جزءاً لا يتجزأ من فكره

وسلوكه !

﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

إن كلام الله يتطلب من الإنسان الخشوع والتواضع .. غير أن الله – سبحانه وتعالى – لا يتجلى عياناً في العالم الراهن ليتلو كلامه على الناس بنفسه ، وإنما يجرى كلامه على لسان « بشر » ، والآن فإن الذين تنطوي صدورهم على مشاعر الكبر والغرور ، يعتبرون الخضوع أمامه مرادفاً للخضوع أمام « إنسان » ، مما يجعلهم يقابلونه بالرفض والإنكار .

وعلى النقيض من ذلك فإن الذين تخلو نفوسهم من مشاعر الكبر والغرور ، إنما هم ينظرون إلى القرآن من حيث هو كلام الله وكفى ، وبالتالي فهم لا يلبثون أن تتراءى لهم ومضات إلهية في الكلام الجاري على لسان الإنسان، وهو يصبحون من خلاله موصولين بالله ، ويدركون مدى عجزهم وضعفهم بإزاء عظمة الله وجلاله .. وهذا الإحساس يذيب أفئدتهم ، ويجعلهم يخرون بين يديه تعالى ساجدين على وجوههم باكين !

أما النوع الأول من الرجال ، فيمثله رؤساء قريش ، وأما النوع الثاني من الرجال فيمثله المؤمنون من صالحي أهل الكتاب ، أولئك الذين كانوا قد آمنوا برسول الله ﷺ في العهد الأول .

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ

وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ .

وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا : لا تسر بها حتى لا تسمع من خلفك .

إن الذين يعانون من الافتقار إلى إدراك جوهر الحق وفهمه بعمق ، يظلون دوما متشبثين بالقشور والمظاهر الشكلية .. فمنهم من يقول : إن مناداة الله بهذا الاسم أفضل ، وآخر يقول : لا بل دعاء الله بذاك الاسم أفضل .. ويذهب بعضهم إلى أن عبادة كذا يجب رفع الصوت في أدائها ، بينما يرى بعض آخر أنه لابد من خفض الصوت فيها .

لقد كان العرب هم الآخرون تدور بينهم مناقشات كهذه في صور شتى ، ومن ثم نزل القرآن يقول : بأي اسم جميل دعوتم الله – سبحانه وتعالى – فهو اسمه ، وله كل الأسماء الحسنى ، وهكذا قال عن العبادة : إن عبادة الله لا يتوقف أداؤها على رفع الصوت ولا على خفضه ، وإنما المطلوب هو أن تولدوا في داخلكم روح العبادة الأصلية ، وأن تلتزموا بالقصد والاعتدال في ممارستها .

وروح العبادة هي أن يتولد وعي عميق تام بعظمة الله وجلاله في ضمير الإنسان ، وأن يصير الإيمان بالله عنده بمثابة اكتشاف لوجود كامل وعظيم غني عن مساعدة أحد سواه والذي لا ند له ولا شريك في ملكوته ، ولا تعتريه أبداً حالة تحوجه أو تضطره إلى الاستنصار بغيره وهذا الاكتشاف عندما يتحول إلى كلمات تفيض عبر اللسان ، فذلك ما يسمى ((التكبير)) !

سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا
لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ
أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ
ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ
أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾.

وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ: اختلالا لا اختلافا ولا انحرافا عن الحق ولا خروجا عن الحكمة .

قَيِّماً : مستقيما معتدلا أو بمصالح العباد.

بَأْساً : عذابا آجلا أو عاجلا .

كَبُرَتْ كَلِمَةً : ما أعظمها في القبح كلمة.

إن القرآن هو الطبعة المصححة للكتب السماوية السابقة .

ولقد تعرضت الكتب (السماوية) السابقة لآفة التحريف من ناحتين : حيث عكف علماؤها المتأخرون – من جهة – على التفريعات والتعمقات غير الضرورية في التعاليم الإلهية، فلم يلبثوا أن جعلوها معقدة غاية التعقيد .

ومن جهة أخرى تنوولت مبادئ الدين بتفسيرات مزعومة ، أدت إلى تحويل مساره أو اتجاهه عما كان عليه في بداية الأمر .

وأما القرآن فهو طاهر نظيف من التحريفات والإضافات البشرية ... فهو لا يزال يحافظ على الدين الإلهي الأصيل في صورته الفطرية البسيطة ، ومن جانب آخر ما زال اتجاهه مستقيما نحو الله من غير عوج ولا انحراف ، كما ينبغي أن يكون من حيث الواقع .

وما سر عناية الله – سبحانه وتعالى – بأن يبعث بكتابه إلى سكان المعمورة ؟!

الغرض من ذلك هو إعلام الناس بتدبير الله ..فقد أسكن الله الإنسان في العالم الراهن لأجل الامتحان والاختبار، وسيأتي يوم عقب فناء العالم يحاسب الله فيه كل الناس ، فيقذف بكل أحد منهم في جهنم أو يدخله في الجنان الأبدية بحسب عمله ... والله – سبحانه وتعالى – يريد أن يصبح كل الناس مطلعين على هذه المسألة بكل أبعادها قبل الموت، حتى لا يكون لأحد عذر أو حجة على الله .

إن أحد أسباب ضلال الإنسان وانحرافه عن الصراط المستقيم في هذه الدنيا ، هو أن يتخذ من أحد غير الله سنده وموضع ثقته .. ومن أشنع صور ذلك افتراض أحد الناس ابنا أو ولدا لله - سبحانه وتعالى ... غير أن كل العقائد من هذه النوع لا تعدو أن تكون محض كذب وافتراء ؛ إذْ ليس ثمة من أحد في الأرض ولا في السماء يتمتع بأي نوع من الخيار أو السلطة غير الله عز وجل !.

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ .

بَاخِعٌ نَّفْسَكَ : قاتلها ومهلكها أو مجهدها .

أَسَفاً : غضبا . وحزنا عليهم أو غيظا .

لِنَبْلُوَهُمْ : لنختبرهم مع علمنا بحالهم .

أَحْسَنُ عَمَلاً : أزهَدُ فيها وأسْرَعُ في طاعتنا .

صَعِيداً جُرُزاً : ترابا أجرد لا نبات فيه .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفۡسَكَ ﴾ تدل هذه الجملة على حال الداعي بشأن الدعوة .. حيث إنه ربما يهلك نفسه حزنا وأسى على أن الناس لا يتلقون دعوة الحق بالقبول لو أن دعوة تصاحبها أدلة بلغت منتهى الوضوح ، والتي يكون عارضها غاية في النصح والإخلاص، يحاول جهد طاقته جعلها موضوعا للتأمل والتفكير الحاد لدى الناس ، ولكنهم – مع ذلك – لا يؤمنون بها ، فماذا يكون السبب وراء عدم إيمانهم هذا يا ترى؟! السبب في ذلك هو مفاتن الدنيا .،... فالدنيا جذابة خلابة لدرجة أن المرء لا يستطيع أن يترفع عنها بسهولة ، وبالتالي فهو لا يكاد يفهم أهمية دعوة تصرف اهتمامه وتوجهاته عن العالم الحاضر وزينته الماثلة بين ناظريه ، وتقوده نحو عالم لا تبدو مباهجه ظاهرة متجلية للعيان !

بيد أن مفاتن الأرض وزينتها عابرة وسريعة الزوال للغاية ، فهي لا تدوم إلا لمدة الامتحان المحددة ، ومع انقضاء هذه المدة سيُقضى على الأرض بما فيها من بهجة وجمال، حتى إنها ستعود ساحة خالية جرداء لا نبات فيها ولا حياة كصحراء مجدبة قاحلة !

﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَـٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِى ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَـٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَىُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ .

أَمْ حَسِبْتَ : بل أظننت .

أَصْحَابَ الكَهْفِ : النقب المتسع في الجبل .

وَالرَّقِيمِ : اللوح فيه أسماؤهم وقصتهم.

أَوَى الفِتْيَةُ : التجئوا هربا بدينهم .

رَشَداً : اهتداء إلى طريق الجنة.

فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ : أنمناهم إنامة ثقيلة .

بَعَثْنَاهُمْ : أيقظناهم من نومهم .

أَمَداً : مدة وعدد سنين أو غاية .

إن حادثة أصحاب الكهف حادثة رمزية ، تدلنا على المراحل التي تمر بها حياة المؤمنين الصادقين في إيمانهم .. فمن خلال ذلك يتضح لنا أن أهل الإيمان ربما يضطرون في بعض الأحايين ، عند اشتداد وطأة الظروف عليهم ، إلى الالتجاء إلى « كهف » ما ، غير أن هذا الكهف ، الذي كان يمثل – نظراً لظواهر الأحوال – مقبرة لهم ، يتدفق منه سيل عارم جديد من الحياة والحركة والنشاط ، وبالتالي يتكون لهم تاريخ جديد، من حيث كان معارضوهم وأعداؤهم يريدون وضع نهاية لتاريخهم .

ويذهب المفسرون والمؤرخون إلى أن أصحاب الكهف هم أولئك الذين يعرفون في التاريخ المسيحي بـ «النوام السبعة » (seven sleepers) وان قصتهم هذه تتصل بمدينة إفيسس (Ephesus) ،وهي من المدن الشهيرة في العصر القديم ، كانت تقع على الشاطئ الغربي من تركيا ، ولا تزال أطلالها الرائعة متواجدة هنالك حتى اليوم .

وقد كانت هذه المنطقة منذ عام ٢٤٩ وحتى ٢٥١ خاضعة لحكم الإمبراطور

الرومي داقيوس أو ديسيس ، (Decius) ، و كانت تسودها عبادة الأصنام وما يتبعها من تقاليد وطقوس وثنية ، وقد كان القمر يعتبر هناك إلها أو كبير الآلهة ، تقدم له الذبائح والقرابين... وقد ظهرت في أثناء تلك الفترة دعوة التوحيد عن طريق أتباع المسيح الأولين ، وبدأت تنتشر بين الناس ...وإن الإمبراطور الرومي ، كان بدوره وثنيا يعبد الأصنام ، لم يكد يسمع عن انتشار عقيدة التوحيد في أرجاء مملكته ، حتى ثار ثائره ، وأخذ يضطهد أتباع المسيح ويسومهم سوء العذاب .

وأصحاب الكهف المذكورون كانوا سبعة شبان من أسر شريفة في مدينة أفيسس والذي قاموا ، على الأغلب، باعتناق ديانة التوحيد عام ٢٥٠ ق م ، ومنذ ذلك الوقت، وقفوا حياتهم لنشرها والدعوة إليها ... وعندما شرعت الحكومة في مطاردتهم، خرجوا من المدينة سراً ، واتجهوا نحو جبل قريب ، حيث اختفوا في غار فسيح .

وأما أصحاب الرقيم فالأغلب أنه تسمية ثانية لأصحاب الكهف هؤلاء أنفسهم ، والرقيم بمعنى المرقوم، أي الشيء المكتوب .. إذ يقال : إنه لما فقد الشبان السبعة المذكورون من البيوت الرفيعة ، أمر الإمبراطور بكتابة أسمائهم وأحوالهم في لوحة رصاصية وإيداعها في الخزائن الملكية ، ومن هنا فقد صار يطلق عليهم -أيضا- « أصحاب الرقيم » (أي أصحاب اللوح المكتوبة فيه أسمائهم) [1] .

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/ ٧٣.

يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾ .

وَرَبَطْنَا : شددنا وقوينا بالصبر .

شَطَطاً : قولا مفرطا في البعد عن الحق .

﴿ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ ﴾ (برهان) توضح هذه الجملة أنه كان هناك حوار ونقاش طويل بين أولئك الفتية – بعد أن آمنوا بالتوحيد – وبين كبار قومهم ... غير أن الكبار ظلوا في خلال ذلك عاجزين عن الإتيان بأي دليل واضح في صالح الشرك ...وقد أسفرت هذه التجربة عن ازدياد أولئك الشبان الموحّدين يقينا إلى يقين ، وبالتالي بات مستحيلا عليهم أن يدعوا شيئا ثابتا لأجل شئ يفتقر إلى الإثبات !!!.

ولو أنهم أعطوا الأهمية لمكانة الكبار وكبريائهم لكانوا قد أصيبوا حتما بالارتباك والتذبذب وانعدام اليقين .. ولكنهم عندما علقوا الأهمية على الدليل والبرهان ، زادهم ذلك يقينا ورسوخا فيما آمنوا به ، فإن أولئك العمالقة الكبار قد صاروا في أعينهم ، باعتبار الدليل والبرهان ، أقزاما صغارا جدا ، إذْ وجدوهم ، على كل فخامتهم وأمجادهم الظاهرية ، قائمين على أرضية الكذب ، وليس على أرضية الحق !

﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ .

مِرْفَقاً : ما تنتفعون به في عيشكم .

إن العبد حين ينقطع عن الناس ، يرتبط في الوقت نفسه برب الناس ، حتى إنه ليقترب من الله لدرجة أنه يبدأ يناجيه ، ويكلم ربه ويتلقى منه جوابه .

إن إيمان أصحاب الكهف المتدفق حماسا وفتوة ، وانكبابهم على الدعوة والتبليغ غير

مبالين بأية أخطار أو مخاوف ، وإيثارهم للحق على كل شيء آخر سواه ، إن هذه الأشياء كانت قد رفعتهم إلى أسمى درجة من القرب الإلهي ، فكل ما كانوا يفقدونه في ظاهر الأمر، كان أهون عليهم وأقل قيمة عندهم بكثير مما كانوا قد وجدوه .

وهذا الشعور بالفوز والوجدان هو الذي كان قد حملهم على أن يرضوا بالحرمان من كل شيء ، ولا يرضوا بالحرمان من الحق ، ومن ثم فقد استعدوا أن يغادروا بيوتهم وبلدهم ، ويأووا إلى الغار ، ويظلوا – مع ذلك – واثقين من أن الله سينصرهم حتما ، ويصلح كل شئونهم ... ولقد روى ابن جرير عن عطاء قوله : إنهم كانوا سبعة ، وظلوا مذ لجأوا إلى الكهف ، عاكفين على عبادة الله يبكون ، ويسألون رحمته ونصرته ، إلى أن سلط الله عليهم آخر الأمر نوما عميقاً طويلاً !

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ .

تَّزَاوَرُ : تميل وتعدل .

تَّقْرِضُهُمْ : تعدل عنهم وتبتعد .

فَجْوَةٍ مِّنْهُ : متسع من الكهف .

يبدو أن أصحاب الكهف كانوا – والصراع بينهم وبين قومهم في تزايد مستمر خلال المرحلة الدعوية – قد سبقوا إلى اختيار غار معين تحسبا للخطر الوشيك ، ولقد كان هذا الغار من الفسحة والاتساع بحيث يتمكن سبعة نفر من الإقامة والاستقرار في فجوته بتمام السهولة ، كما يحتمل أنه كان شمالي الاتجاه ، ولذا فلم يكن ضوء الشمس، عند شروقها أو غروبها ، يصل إلى داخله مباشرة ، ولا كان بإمكان أحد المارة

أن يتفطن إلى أن بداخله عددا من البشر !

والمرء حين يخلص للحق إخلاصا يجعله في عينه فوق كل مصلحة ، فيضحي بها فى سبيله عن رضا وسرور، ولا ينفك موصول القلب بالله ، دائم التوجه نحوه ، شاكراً وصابراً، حتى في أشد الظروف ظلاما وقسوة ، فإن الله سبحانه يهديه إلى طرق تضمن الحفاظ على إيمانه من جهة ، وعدم انفلات زمام مسيرته الدعوية من يده من جهة أخرى ، قد أتيح هذا النصر لأصحاب الكهف ، باعتبار الأوضاع والملابسات الخاصة المحيطة بهم ، على وجه أكمل ما يكون ..

وبالإضافة إلى ذلك فقد اصطفاهم الله – سبحانه وتعالى – لأمر إلهي خاص .. فالسمو الروحي الذي كانوا قد أقاموا الدليل عليه بتجردهم وإخلاصهم للحق ، صاروا معه عند الله أهلاً لكي يجعل من وجودهم برهانا حسيا على إمكان الحياة بعد الموت ، إن استفاقة أهل الكهف من نوم دام قرنين أو أكثر من الزمان ، لهي واقعة من هذا النوع ذاته !

﴿ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا (١٨) ﴾ .

بِالْوَصِيدِ : بفناء الكهف أو عتبة بابه .

رُعْباً : خوفا وفزعا .

إنه – سبحانه وتعالى – إذْ سلط على أصحاب الكهف نوما هادئا متصلا ، تفضل – مع ذلك – بتهيئة مختلف الأسباب ضمانا للحفاظ عليهم أحياء سالمين ، منها – على سبيل المثال – أنهم كانوا لا يزالون يتقلبون يميناً ويساراً ، فإنه لولا ذلك ، لأكلت

الأرض من أجسامهم ، على حد قول ابن عباس ﷺ كما أن كلبا ظل هناك جالساً – باسطا ذراعيه – على مدخل الغار باستمرار ، لا يتحول عن مكانه ، يبدو أن ذلك لكي لا يتمكن أي إنسان أو حيوان من الدخول إليهم ، فيضايقهم أو يلحق بهم نوعا من الأذى ... ثم إن جو الغار الداخلي قد جعله الله مهيبا ومثيرا للرعب لدرجة أن أحد الناس لو حاول التطلع إليه من الخارج ، لا يلبث أن يفر هاربا عند النظرة الأولى خائفاً مذعوراً لا يلوي على شيء !!

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ .

بَعَثْنَاهُمْ : أيقظناهم من نومتهم الطويلة .

بِوَرِقِكُمْ : بدراهمكم المضروبة .

أَزْكَى طَعَاماً: أحل وأوجود طعاما .

يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ : يطلعوا عليكم أو يغلبوا .

لما استفاق أصحاب الكهف من رقدتهم ، أخذوا بطبيعة الحال يتساءلون فيما بينهم عن مدة رقادهم كم هي ؟ ولكن الزمن كان قد توقف بالنسبة إليهم بأمر الله سبحانه، ولذا فالمدة التي كانت للآخرين طويلة بحيث تشمل بضعة قرون ، إذا هي تبدو لأصحاب الكهف وكأنها إنما تساوي يوما أو بعض يوم فحسب !

وعلى إثر يقظتهم شعروا بالجوع ، وقد كانت عندهم بعض النقود الفضية ، ومن بين سكانها عدد قل أو كثر من المسيحيين ، لابد وأن يوجد هناك طعام حلال ، ولذا فقالوا لصاحبهم أن يحاول جهده ليشتري لهم من الأطعمة ما هو أطيب وأزكى ، كما نصحوا له مؤكدين على الأخذ بالحيطة والحذر ، واستخدام اللباقة وحسن التدبر في القيام بهذه المهمة ، ذلك لأنهم كانوا يخافون بناءً على خبرتهم السابقة – إن القوم إن علموا بمكان وجودنا ، لن يألوا جهداً في أن يردونا ثانية إلى الشرك وعبادة الأوثان ، وإن نحن أبينا ذلك ، فسيقتلوننا رجماً من غير شك !

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾ .

أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ : أطلعنا الناس عليهم .

الإنسان يعيش فوق هذه الأرض مائة عام لو لمدة أقل من ذلك ، ثم يموت ... ويبدو ظاهراً أنه قد أنعم وجوده إلى الأبد ، ولكن الحقيقة هي أنه لا يزال باقيا عقب الموت، ويفتح عينيه على عالم جديد ، حيث تنتظره إما راحة أبدية ، وإما عذاب سرمدي.

إن هذه أهم قضايا الإنسان وأشدها خطورة على الإطلاق ، وهي قد ظلت منذ أقدم العصور ، موضوع الجدل والنقاش بين الناس ، ونظراً لأهميتها البالغة هذه فقد اهتم الله – سبحانه وتعالى – بتوفير برهان حسي في حقها بجانب الأدلة العقلية ، حتى لا يبقى لأحد مجال للشك أو الريب فيما يتعلق بقضية « الحياة بعد الموت » .

وقد ظل البرهان الحسي يعرض في صور وأشكال شتى في مختلف أدوار التاريخ ،

وقد كان خروج أصحاب الكهف من الغار ، بعد رقدة طويلة تشبه ((الموت)) ، في القرن الخامس المسيحي ، واقعة من هذا النوع ذاته ، وفي العصر الراهن يمكن اعتبار ما توصلت إليه دراسات العلم الأسمى أو العلم التأملي (Meta Scidnce) من كشوف ، أمثلة من هذا القبيل ؛ إذْ هي تثبت نظرية الحياة بعد الموت على أساس مقاييس الاستدلال الحسية .

ولما خرج أصحاب الكهف من الغار ، بعد مائتي عام أو يزيد ، كانت مدينتهم قد تغيرت أوضاعها ومعالمها تغيراً كلياً ، فالغالب أنهم كانوا قد لجأوا إلى الكهف عام ٢٥٠ م ، مغادرين مدينتهم أفيسس ، وهي كانت إذْ ذاك خاضعة لحكم الإمبراطور ديسيس الوثني ، وخلال الأعوام المقبلة أسفرت جهود المبلغين المسيحيين عن تنصر الإمبراطور الرومي قسطنطين (٢٧٢-٣٣٧) ، فلم تلبث الديانة النصرانية بعدئذ أن انتشرت في كل المناطق الرومية، فعندما دخل أصحاب الكهف ثانيا إلى مدينتهم في عام ٤٤٧ م ، وجدوها تسودها النصرانية .

ولم يكد يخرج هؤلاء الشبان السبعة من الغار ، ويتم التأكد ، من خلال لوحة أسمائهم المودعة في الخزائن الملكية ، وغيرها من القرائن والشواهد ، من أنهم أولئك الفتية المؤمنون الذين كانوا اضطروا إلى مغادرة المدينة ، إبان الدولة الوثنية المضطهدة ، لأجل الحفاظ على عقائدهم النصرانية ، لم يكد يتم كل ذلك ، حتى صاروا موضع احترام الناس وإجلالهم ، لدرجة أن الإمبراطور الرومي الجديد ثيودوسيس (الثاني) زار كهفهم بنفسه ماشيا على الأقدام ليتبرك بهم ، وحين وافاهم الأجل المحتوم ، بُني على غارهم هيكل (معبد) عظيم تخليداً لذكراهم !

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا

تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ .

رَجْماً بِالْغَيْبِ : قذفا بالظن غير يقين .

فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ : فلا تجادل في عدتهم وشأنهم .

إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِراً : بمجرد تلاوة ما أوحي إليك في أمره .

لقد كان ثمة أناس خائضين في مناقشات غير ضرورية ولا مجدية بشأن أصحاب الكهف ، فمن قائل : إنهم كانوا ثلاثة يتبعهم كلبهم ، ومن زاعم أنهم خمسة سادسهم الكلب ، ومن ذاهب إلى أنهم سبعة والثامن كلبهم !. بيد أن المناقشات كهذه من أمارات فساد الطبائع والأمزجة ... إن الروح الديني حين يكون نابضا بالحياة والحيوية يركز على الجوهر والحقيقة ، وما إن تصاب الأمة بالانحطاط ، حتى يختفي الروح الديني الأصيل ، وتصير القشور الظاهرية والتفاصيل الجزئية الهامشية موضوع الجدل والمناظرة ...

وينبغي للمؤمن المخلص دينه لله ، ألا يخوض في مثل هذه المناقشات الفارغة أبداً ، ولئن أثار أمامه أي شخص آخر أسئلة من هذا النوع ، فليكتف بالإجابة المجملة أو ليرد العلم إلى علام الغيوب !

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ .

رَشَداً : هداية وإرشاد للناس .

بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود المدينة ، ليسألوهم عن محمد ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم الأنبياء ... فخرجا

حتى أتيا المدينة وقالا لأحبار اليهود: إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقول ...وقد كان أحد تلك الأسئلة عن أصحاب الكهف : ما قصتهم ، والثاني عن ذي القرنين : من هو وما كان خبره ، والثالث عن الروح ما هي ؟

إن عامة الناس ، بل وكثيرين من خاصتهم ، أيضاً ، لم يكونوا على علم بشيء مما يتصل بأصحاب الكهف قبل عصر المطبعة ، إذْ كانت قصتهم مدونة في بعض المخطوطات السريانية ، ولم يكن يعرفها سوى نخبة قليلة العدد من العلماء ، ولما وجه هذا السؤال إلى النبي ﷺ ، قال : « غدا أخبركم عما سألتم عنه » – ولم يستثن – حيث كان يرجو أن جبريل سيأتي غدا، وسوف يسأله عن الجواب،غير أن جبريل تأخر في المجيء إليه،حتى مضت خمس عشرة ليلة،ثم جاءه بعد ذلك بسورة الكهف .

ولقد طار معارضو مكة بحادث تأخر الوحي هذا ، فلم يلبثوا أن اغتنموه فرصة لتشويه سمعته ﷺ بين الناس ، وزعزعة ثقتهم به ، فقرر الله تعالى أن الشخص الذي تحاولون الطعن فيه ، وتشكيك الناس في صدقه بتحويل حادث بسيط إلى فضيحة ، سيجتمع على صدقه وصحة نبوته من الحجج والأدلة ما هو أعجب وأدل من قصة أصحاب الكهف [1] .

وقد تحقق هذا الأمر اليوم على أتم الوجوه وأكملها ، فقد اجتمع هناك اليوم على صدق رسول الله ﷺ من الأدلة والبراهين ما لا يستطيع معه شخص ما، وهو في تمام وعيه وعقله ، أن يجترئ على إنكاره ، إن نبوته ﷺ هي اليوم نبوة مسلم بها ، ولم تعد محض نبوة مدعاة !

﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

(١) انظر: التفسير المظهري ٦/ ٢٧.

لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ .

أَبْصِرْ بِهِ : ما أبصر الله بكل موجود .

إن مدة الثلاثمائة سنة أو الثلاثمائة وتسع سنين ، هي – تبعا للتفسير المنقول عن قتادة ومطرف بن عبدالله لهذه الآيات – حكاية قول الناس ، ومن ضمن آرائهم وتخرصاتهم في الموضوع ، وليس إخباراً من الله سبحانه وتعالى ، كما يؤيد ذلك قراءة عبد الله بن مسعود التي وردت بلفظ : « وقالوا ولبثوا في كفهم ...إلخ » فقد كان أهل الكتاب في ذلك الزمان، يحسبون ، اعتمادا على بعض القصص غير الموثوق بها ، أن مقدار لبث أصحاب الكهف في الغار هو ثلاثمائة عام بالتقويم الشمسي ، وثلاثمائة وتسعة أعوام بحسب التقويم الهلالي (١) .

ولقد أبطل القرآن رغم الناس هذا ، بعد حكايته إياه ، معقبا عليه بقوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ .

ولقد اكتشف الباحثون في العصر الحديث أن هذه المدة كانت ، باعتبار التقويم الشمسي ، مائة وستة وتسعين (١٩٦) عاما ، وهذا الكشف يدل على أن القرآن كتاب الله، الذي قد أحاط علماً بكل أحداث الماضي والحاضر والمستقبل على سواء لا تخفى عليه خافية، وبناءً على علمه المحيط الشامل ذاك ، لم يقبل بالقول الآنف الذكر ، ولو أن القرآن كان كلاماً إنسانياً لأخذ حتما بالقول المشهور في عصره والذي تعارض آخر الأمر مع اكتشافات الباحثين في العصور اللاحقة !

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٧٩.

دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ .

مُلْتَحَداً : ملجأ وموئلا .

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ : احبسها وثبتها .

وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ : لا تصرف عيناك النظر عنهم .

أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ : جعلناه غافلا ساهيا .

فُرُطاً: إسرافا . أو تضييعا وهلاكا.

إن الوقوف إلى جانب الرسول ﷺ واتخاذ الدين الخالص – الإسلام – دينا، لم يكن بالنسبة لطلائع المؤمنين الأولين من أهل مكة أمراً يسيراً ، فقد كان معناه حينذاك التخلي عن نظام ارتبطت به كل المصالح الحيوية،ومناصرة عقيدة لم تكن ترتبط بها في الظاهر أية مصلحة .. ومن هنا فلم تكد الطائفة الأولى تعتنق الدين الجديد حتى انقطعت صلتها عن نظام العصر السائد،في حين أن الطائفة الأولى كانت ترتكز تمام الارتكاز على نظام العصر السائد مما أتاح لها من الحماية والمنعة والضمان المادي ما قد حرمت منه الطائفة الأولى ... ولم يكن يتوفر لدى الطائفة الأولى غير وصايا، التي ستظهر أهميتها في عالم الآخرة ، بينما كانت الطائفة الأخرى تمتلك تلك الأشياء التي تحظى بمن يقدرها ويعرف قيمتها في سوق هذا العالم !

ولو أن هذا الفرق الظاهري قد أثر على الداعي ، واستبد بعقله ، فستكون النتيجة أن تتضاءل أهمية الدعوة إلى الدين الخالص في عينها، ويصبح الدين المغشوش في نظره أكثر أهمية ، ذلك الذي يتمتع من يحمل لواءه من الناس بمباهج الدنيا وزخارفها .

غير أن ذلك خطأ جد عظيم ...حيث إن أية انحراف عن تلك الرسالة الأصلية التي لها الأهمية الكبرى عند الله ، وهي بالتالي أولى بالاهتمام والرعاية من كل ما عداها.. ولو أن الدعي فعل هذا فسيعود محروما من نصر الله ، ويصل أمره في دنيا الله إلى أنه لا يكاد يجد شجرة تظله ، ولا ماءً يطفئ ظمأه .

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ .

سُرَادِقُهَا : فسطاطها . أو لهبها ودخانها .

كَالْمُهْلِ : كدري الزيت أو كالمذاب من المعادن .

وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً : متكأ أو مقر .

إن الحق الذي يأتي من عند الله – سبحانه وتعالى – يكون صدقاً بكامله ، لا تشوبه شائبةً ، ولا يتطرق إليه شك أو ريب .. ولذا فلا يمكن تناوله بأي نوع من التعديل مراعاةً للبشر ... فإن تناول الحق الإلهي بالتعديل يعني إحداث تغيير في ذلك المعيار الذي على ضوئه سيتم تحديد وضع كل شخص وتقرير مصيره النهائي !.

والذين يطمعون في أن يؤخذ الحق الإلهي بتعديل يبرر مسلكهم المنحرف الخاطئ في الحياة ، فإنما هم يضيفون التمرد والطغيان إلى جانب ضلالهم وانحرافهم ، وينبغي لأمثال هؤلاء ألا ينتظروا لأنفسهم سوى العذاب الشديد !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ

وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ .

جَنَّاتُ عَدْنٍ : جنات إقامة واستقرار .

سُندُسٍ :رقيق الديباج (الحرير).

وَإِسْتَبْرَقٍ : غليظ الديباج .

الأَرَائِكِ : السرر في الحجال .

إن الصدق الإلهي حين يتجلى أمام أناس خلت قلوبهم من التكبر وعبادة المصالح والظواهر ، لا يلبثون أن يعرفوه من فورهم ، حتى ولو كان ذلك الصدق قد أجري على لسان رجل مثلهم .

ثم إنه لا يسعهم ، وقد عرفوا الحق ، إلا أن يطرحوا أنفسهم بيديه ، ويأخذون في صوغ حياتهم طبقا لمقتضياته، دون أن يحاولوا صوغ الصدق نفسه طبقا لحياتهم... والذين يقيمون الدليل هكذا على عبوديتهم للحق ، هم عباد الله المحبوبون ، وإن أولئك سيتم تكريمهم في الآخرة بجوائز وإنعامات سلوكية فخمة !

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ .

جَنَّتَيْنِ : بستانين .

وَحَفَفْنَاهُمَا : أحطناهما وأطفناهما .

أُكُلَهَا : ثمرها الذي يؤكل .

وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ : لم تنقص من أكلها .

وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا :شققنا وأجرينا.

ثَمَرٌ : أموال كثيرة مثمرة .

وَأَعَزُّ نَفَراً :أقوى أعوانا أو عشيرة .

تَبِيدَ : تهلك وتفنى وتخرب .

مُنقَلَباً : مرجعا وعاقبة .

إن حديقة بلغت من البهجة والخضر غايتها ، ثم إذا بها تتعرض فجأة لكارثة من الكوارث الطبيعية تحيلها أثراً بعد عين، إن حديقة كهذه تمثل شخصا يبتلى بالزهو والكبرياء والغرور ، حين يظفر بالثروة والعزة في هذه الدنيا.

إن ما يحصل عليه أحد الناس في هذه الدنيا من أسباب الثراء والغنى أو المجد والعزة ، إنما يكون ذلك امتحاناً له من عند الله – سبحانه وتعالى – غير أن الإنسان الظالم كثيراً ما ينظر إليه على أنه إنعام إلهي أو حصيلة ذكائه ومجهوده الذاتي ، وتكون نتيجة ذلك أن تستيقظ بداخله مشاعر التمرد والطغيان ، وبالتالي فهو يأخذ يزدري أولئك الذين لا يتوفر لديهم أسباب المجد والثراء إلا حظ يسير ، ويستبد برأسه الغرور والاعتداد بالنفس بحيث يخيل إليه وكان دنياه لن يعتريها الفناء أبدا ، ولئن تعرضت هذه الدنيا – على سبيل الفرض – للفناء يوما ، وتكونت مكانها دنيا أخرى جديدة ،

فلا عجب في أن يكون هناك – أيضا – متمتعا بكل ما يتمتع به ها هنا من أسباب الخير والعافية والرفاهية.

إنه قياس لحالة الإنعام والمكافأة بحالة الامتحان والابتلاء ، وهو قياس مع الفارق الكبير ، إذْ إنهما حالتان منفصلتان تماماً ، لا تربط إحداهما بالأخرى أية علاقة بالضرورة!.

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾

لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي : لكن أنا أقول : هو الله ربي .

حُسْبَاناً : عذابا كالصواعق والآفات .

فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً : رملا هائلا أو أرضا جرزا لا نبات فيها يزلق عليها لملامستها .

غَوْراً :غائرا ذاهبا في الأرض .

ينبغي لأي إنسان خوله الله أسباب الثروة والغنى ، أن يعيش في الأرض عابداً شاكراً لله ... ولكن عقل المرء إنْ لم يكن صحيحاً سليماً ، يصير ينسى الله حتى في أشد أحوال الفقر والبؤس ، وهو يقنع بالقدر المتاح له ، آملاً في أن الله سيمنحه المزيد من فضله .

ولو أن المرء عاش في هذه الدنيا مفتوح العينين ، لما أصيب أبدا بالبطر والطغيان فالإنسان ينشأ وينمو هنا كوجود ضعيف ، وتواجهه ألوان شتى من الحوادث والأخطار طيلة حياته ، فهو يتعرض للأمراض ، ويعتريه ضعف الشيخوخة وخرفها ، وهو لا يملك الماء ولا أي شيء من تلك الأشياء التي يستمد منها عناصر الحياة والنماء والازدهار لـ «بستانه» في هذه الدنيا ولا هو قادر على الإمساك بها دائما في يده ، بل هي في يد الخالق ، وهو على انتزاعها منه إذا يشاء قدير !

وما هذا كله إلا لكيما يعيش المرء متواضعاً .. ولكن الإنسان الظالم لا يعتبر بشيء ، ولا يزجره زاجر ، حيث إنه لا يكاد يتنبه ويعود إلى رشده ، ما لم يحرم من كل شيء ، حتى يرى بعيني رأسه أنه لم يكن شيئا سوى العجز والعجز وحده !!! .

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ .

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ : أهلكت أمواله مع جنته .

يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ : كناية عن الندم والتحسر .

خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا : ساقطة على سقوفها التي سقطت .

الوَلايَةُ لله: النصرة له تعالى .

وَخَيْرٌ عُقْباً : عاقبة لأوليائه .

إن المرء يسخر بضاعته ومواهبه لأجل إنجاز مهمةٍ ما ، ويرواده الأمل في أن مواهبه وبضاعته سيعودان عليه آخر الأمر بأطيب النتائج ، ولكنه لا يلبث حتى يفجأ بضروبِ

شتى من الحوادث ، تحطم كل آماله تحطيماً ، ويجد المرء نفسه إزاء تلك الحوادث عاجزاً بحيث لا يعود ينقذه منها أي حيلةٍ من حيله أو موهبة من مواهبه التي طالما اعتز بها وعاش واضعاً كل ثقته فيها .

وإنما يُظهر الله أمثلةً أو نماذج كهذه من وقتٍ لآخر في العالم الراهن ، لكي تكون عبرةً للإنسان ، وحتى لا يقع هو في خطأ تعليق الأهمية والأمل على أي شيءٍ آخر غير الله جل جلاله!

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

هَشِيماً : يابسا متفتتا بعد نضارته.

تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ : تفرقه وتنسفه .

الدنيا تمثيل للآخرة .. فحين تكتسي الأرض ، عقب ارتوائها بالماء العذب ، خضرة ونضارة ، ويبدو ظاهرا وكأنها ستبقى كما هي الآن إلى الأبد ، ولكن سرعان ما يتغير الموسم بعدئذ ، وبالتالى يبدأ النبات الأخضر في الاصفرار ، وإذا به يعود هشيما يابسا تنسفه الرياح نسفا !

وهذا هو حال بهجة الدنيا وبهائها كذلك ... إن مباهج الدنيا الراهنة تجتذب اهتمام المرء وتأسر لبه ، غير أن هذه المباهج كلها عابرة مؤقتة للغاية ، فستقضي عليها القيامة عما قريب على نحو يبدو معه وكأن لم يكن لها وجود بالأمس !!

إن مباهج الدنيا وزخارفها غير باقية ...بيد أن ثمة شيئًا آخر قدر له البقاء والخلود ، ألا وهو أعمال المرء الصالحة ، فكما أن البذور الملقاة في الأرض تتحول إلى حديقة ،

تزدهر هناك حديقة كذلك من خلال ذكر الله وطاعته ، وهذه الحديقة لا يعتريها خريف أبدا ، فإن هذه الحديقة الثانية ، على نقيض من الحديقة الدنيوية ، تنبت وتزدهر في عالم الآخرة ، وسوف تسلم مقاليدها إلى صاحبها عند وصوله هناك !

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾ .

بَارِزَةً : ظاهرة لا يسترها شيء .

مَوْعِداً : وقتا لإنجازنا الوعد بالبعث والجزاء .

يوم تقوم الساعة سيحضر الجميع بين يدي ربهم ، يقفون في رحاب المحشر مكتوفي الأيدي لا ناصر لهم ولا معين ، الكل ينتظر قضاء مالكه فيه ، وسيكون عند الله سجل كامل ودقيق عن حياة كل شخص ، وبموجبه سيجزي الله بعض الناس أحسن الجزاء ، بينما يحكم على بعضهم الآخر بأسوأ العذاب !

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ .

وَوُضِعَ الكِتَابُ : صحف الأعمال في أيدي أصحابها .

مُشْفِقِينَ : خائفين وجلين .

يَا وَيْلَتَنَا : يا هلاكنا .

لاَ يُغَادِرُ : لا يترك ولا يبقي .

أَحْصَاهَا : عدها وضبطها وأثبتها.

إن ما يعمله الإنسان يتم تسجيله تحت تدبير الله بمنتهى الدقة ، فمن نيات المرء القلبية، إلى أقواله التي تجرى على لسانه ، إلى أعماله التي يمارسها بجوارحه ، كل ذلك ينعكس ويرتسم على شاشة الكون ... بيد أن هذا التدبير أو نظام التسجيل الإلهي لا يقع تحت أبصارنا اليوم ..وسيرفع هذا الستار حين تقوم الساعة ، وعندها سيقف المرء شاخص البصر من فرط الدهشة والذهول ؛ إذْ يجد أن كل ما كان يعمله في الدنيا ، ظاناً أن ليس ثمة من أحد يعلمه أو يطلع عليه ، تمَّ ضبطه وتقييمه هنا على نحو كامل بحيث لم يدع صغيرة ولا كبيرةً إلا احتواها !

وإن معاملة الإنسان في يوم القيامة – حسنة كانت أو سيئة – ستكون موجباتها – أو بالأحرى مبرراتها – واضحة وثابتة لدرجة أن المرء إذْ يلقي جزاء عمله يكون على يقين من أنه إنما يعامل بما هو أهل له في واقع الأمر ، لا أقل من ذلك ولا أكثر !

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ .

اسْجُدُوا لآدَمَ : سجود تحية وتعظيم لا عبادة .

لقد كان إبليس – كما تقول الروايات – عابداً من الجن ، ومع كونه عاكفا في الظاهر على العبادة والتنسك، إلا أنه قد امتنع عن امتثال أمر الله ، تكبراً ، حين أمره – تعالى – بالسجود لآدم – عليه الصلاة والسلام – والآن ، فكل أولئك الذين يرفضون الخضوع أمام الحق انسياقا مع عواطف الكبر والغرور ، إنما هم من ذرية إبليس ، وإن كانوا يتظاهرون أمام الخالق بالعبادة والتزهد !!

إن الخضوع لله –تعالى– هو في الأصل إقرار بعجزنا إزاء الله العلي القدير ، ولو كان

شخص ما خضع لله حقاً ، فإنه لا يلبث أن يخضع للحق من فوره أينما ظهر ، وبالعكس فإن الذي يكون « ساجداً » في ظاهره فقط ، وقلبه مفعم بمشاعر الكبرياء والغرور ، فسوف يستعد للسجود بتمام السهولة حيث لا تصدم السجدة « أناة » ولكنه ينقلب فجأة « إنساناً » متمرداً رافضاً للسجود وحيث يتطلب الأمر أن يخضع « أناة » !

وإذْ يرتفع صوت الحق ، ولا يتلقاه أناس بالقبول ، متأثرين بإبليس وذريته ، فكأنما هم يتخذون من إبليس وذريته بديلاً عن الله – سبحانه وتعالى – وهم يرفضون الخضوع أمام الحق من خشية الآلهة الباطلة ، حيث كان ينبغي عليهم أن يبادروا بالخضوع أمام الله جل جلاله ، وأمثال هؤلاء أناس ظالمون مسرفون في الظلم وإنهم سيعلمون عما قليل أن الذين قد اعتمدوا عليهم تاركين الله ، لم يكونوا مغنين عنهم شيئاً!.

﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ ﴾ .

عَضُداً : أعوانا وأنصارا.

إن أكابر الناس ، الذين يعتبرهم الناس جديرين بالثقة والاعتماد في الحياة الدنيا ، فيتشبثون بأذيالهم هم من العجز والضعف بمكان بحيث لا دخل لهم في إيجاد الكون ولا في إيجاد أنفسهم.

وبالإضافة إلى ذلك فإن هؤلاء بتمثيلهم دور « المضلين » في مواجهة دعوة الحق ، إنما يبرهنون على أنهم غير جديرين بالثقة والاعتماد البتة !

إن عالماً يسود ويتحكم في كل أنحائه الحق وحده ، كيف يمكن أن يكون في إبداعه أو تصريف شئونه دخل أو تأثير لشخصيات رأسماها الوحيد يتمثل في إبعاد الناس عن

الحق؟!

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ .

مَّوْبِقاً : مهلكا يشتركون فيه وهو النار .

مُّوَاقِعُوهَا : واقعون فيها أو داخلون فيها .

مَصْرِفاً : معدلا ومكانا ينصرفون إليه .

إن المرء لن تغني عنه في يوم القيامة شيئا ، تلك الشخصيات التي هو ينكر الحق في هذه الدنيا اعتماداً عليها ، واثقاً من نصرها إياه ... إنهم اليوم أصدقاء متحابون مع بعضهم البعض ، ولكن ما إن تنكشف الحقائق ، حتى يعودوا أعداء متباغضين بعضهم مع البعض الآخر ، وسيبدو حينئذ وكأنما قامت بين الفريقين هوة سحيقة دون اجتيازها الهلاك المحقق ! وإنهم ليعدون أنفسهم هنا في مأمن من كل ألوان الخطر في العالم الراهن ، غير أن مصيرهم المحتوم الذي سيواجهونه يوم القيامة ، هو أن يجدوا أنفسهم على أبواب جهنم ، ولن يجدوا إلى الهرب أو الخلاص منها سبيلاً !!

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾ .

صَرَّفْنَا : كررنا بأساليب مختلفة .

كُلِّ مَثَلٍ : معنى غريب بديع كالمثل في غرابته .

سُنَّةُ الأَوَّلِينَ : عذاب الاستئصال إذا لم يؤمنوا .

قُبُلاً : أنواعا وألوانا أو عيانا ومقابلة .

إن المرء يتمتع في العالم الراهن بحرية الامتحان ... ولهذا السبب فهو لا يلبث أن يفتعل هنا عذراً أو مبرراً ما لعدم اعترافه بالحق ، وأن يعثر على بعض الكلمات لرفض كل شيء لا يريد التسليم به .. وقد يحدث أحيانا أنه يحاول معارضة دليل واضح جلي بواسطة إثارة جدل فارغ عقيم حوله ، وقد يلجأ تارة إلى الاستهانة بالدليل المعروض من خلال الإعراض عنها وعدم الاكتراث به ، ويطلب شيئاً آخر لم يكن قد عرض عليه بعد لسبب من الأسباب .

ومن أمثلة هذه الصورة الأخيرة من التعنت والعناد ، أنه لما قدّم النبي ﷺ رسالته إلى مخاطبيه مصحوبة بأوضح الأدلة ، لم يعيروها جانب الاهتمام ، بل راحوا يطالبونه ، صارفين أنظارهم عن الرسالة الأصلية ، بأن ائتنا بالعذاب الذي تهددنا به لقاء إنكارنا ، إن كنت صادقا في دعواك !

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ .

لِيُدْحِضُوا : ليبطلوا ويزيلوا .

هُزُواً : استهزاء وسخرية .

أَكِنَّةً : أغطية كثيرة مانعة .

وَقْراً : صمما وثقلا في السمع عظيما .

إن أصدق الحديث حديث الله ، حيث تتآزر كل الأدلة والبراهين الساطعة على دعمه وتصديقه ... ومن ثم فإن الذين لا يريدون الإيمان به ، لا يجدون أي دليل حقيقي يستندون إليه في إنكارهم إياه ... وإنما هم يملكون دوما محض أباطيل لا أساس لها من الصحة ، يحاولون من خلالها محاولة فاشلة لمغالبة الصدق وإخضاعه .. إنهم يقاومون أدلة قوية صلبة باعتراضات كاذبة سخيفة ، يريدون عرقلة عمل جاد -وهو الدعوة إلى الحق - وصرف الاهتمام عنه عبر تحويله إلى موضوع للسخرية والاستهزاء .

وإنما هم يفعلون هذا كله لإفقاد الداعي اعتباره لدى الجماهير ، ولكن يغيب عن بالهم أنهم هم بصنيعهم ذاك إنما يفقدون اعتبارهم أنفسهم في عين الله !

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾

مَوْئِلاً : منجى وملجأ ومخلصا.

لِمَهْلِكِهِم :لهلاكهم .

لو آخذ الله الإنسان على ظلمه لأنزل العذاب عليه من فوره ، عقب اكتسابه الخطأ ، ولكن الله قد حدد موعدًا لمحاسبة الكل على أعمالهم .

وإنه بإمكان المرء ، لو أراد العظة والاعتبار ، أن يستفيد دروسا نافعة في حاضره من مصير القرون الماضية ... فقد ازدهرت فوق الأرض أمم شتى وحضارات مختلفة ، على مدار التاريخ ، ثم إنها جميعا لم تلبث،حين كفرت وظلمت،أن أهلكت ودُمرت

الواحدة تلو الأخرى في موعد حدده الله لهم أيضا .. وإذا كان قد حدث مع الأجيال السابقة أن نالت جزاء كفرها وطغيانها ، فلم يحدث الشيء نفسه مع الأجيال التالية !؟!

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ ﴾ .

لِفَتَاهُ : يوشع بن نون .

مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ : ملتقاهما .

أَمْضِيَ حُقُباً : أسير زمانا طويلا .

سَرَباً : مسلكا ومنفذا .

نَصَباً: تعبا وشدة وإعياء.

إن الله – سبحانه وتعالى – لم يزل ولا يزال يقوم على إدارة هذا العالم وتدبير أمره بواسطة الملائكة ... وبما أن الإنسان لا يشاهد اليد الإلهية متصرفةً وراء هذا النظام الكوني، لذا فهو لا يتمكن من الإحاطة بأسراره ، ولا حل ألغازه على نحو كامل ، وبالتالي يقع فريسة ألوان شتى من الشكوك والشبهات بسبب قلة عمله وقصور مداركه .

وعلاجاً لذلك ، فقد هيأ الله تعالى أسباب المشاهدة غير المباشرة ، إذْ أطلع نخبة مختارة من عباده على بعض أسرار العالم الغيبي ، ليشاهدوا بأعينهم ما فيه من حكم وأسرار غامضة، فيخبروا الآخرين بها ... وقصة موسى التي ذكرت هنا ، هي بدورها حدث استثنائي من هذا النوع ذاته ، كُشف له من خلاله عن بعض جوانب نظام الله

الخفي، وتنبيهاً لسيدنا موسى ، وهو على أهبة الرحيل ، إلى علامة لمنتهى سفره ، قال الله له: لا تبرح تواصل مسيرك ، حتى إذا وصلت حيث يلتقي بحران ، فستجد هناك عبداً من عبادنا ، فلتطلب منه أن يسمح لك بمرافقتك إياه !

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ .

أَرَأَيْتَ : أخبرني أو تنبه وتذكر .

أَوَيْنَا : التجأنا .

عَجَباً : سبيلا أو اتخاذًا يتعجب منه .

مَا كُنَّا نَبْغِ : الذي كنا نطلبه ونلتمسه.

فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا : رجعا على طريقهما الذي جاءا منه .

قَصَصاً : يقصان آثارهما ويتبعانها اتباعا.

عَبْداً : الخضر عليه السلام.

ولمزيد من الإيضاح لغاية سفره أخبر الله سيدنا موسى بأنك حين تصل إلى المكان المطلوب فسوف تفاجأ هناك بخروج الحوت – لسبب من الأسباب – يخبر موسى بأن حادثاً كهذا قد وقع ... ولما علم سيدنا موسى بذلك ، وقد سار هو وتلميذه بعيداً عن مكان الحادث ، رجعا على أعقابهما على الفور ، حيث وجدا في الموضع المذكور ذلك العبد الصالح (الخضر) الذي كانا قد قطعا هذه الرحلة الطويلة الشاقة من أجل لقائه .

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾ .

رُشْداً : صوابا ، أو إصابة خير .

خُبْراً : علما ومعرفة .

لقد كان الله – سبحانه وتعالى – منح عبده هذا (الخضر) علماً خاصًا وقدرة خاصة من عنده ، استطاع معهما أن يتصرف في شئون العالم تصرفاً غير عادي وتبعاً لعلمه ذاك، كثيرا ما كان يمارس أعمالاً لا تتفق مع ما تقتضيه القواعد العامة ، ومن ثم قال رداً على طلب سيدنا موسى – عليه الصلاة والسلام إنك لن تستطيع معي صبرا على ذلك!

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾ .

شَيْئاً إِمْراً : أمرا عظيما منكرا أو عجبا .

وَلاَ تُرْهِقْنِي : لا تغشني ولا تحملني .

عُسْراً : صعوبة ومشقة .

شَيْئاً نُكْراً : منكرا فظيعا.

إن إحداث عيب في سفينة صالحة سليمة ، وإهلاك طفل بريء ، عملان ، على ما يبدو ظاهراً ، لا خير فيهما ولا صواب،غير أنهما كانا منطويين،كما يتضح من الآيات التالية ، على مصلحة دقيقة للغاية ، إن هذين العملين الخاطئين في الظاهر،كانا،في الحقيقة، على أتم درجة من الصواب والحكمة والفائدة .

وفي هذا يمكن أيضا رد على تلك المسألة التي يطلق عليها عادة وصف مشكلة الشر (Problem of evil)، فهناك الكثير من الأشياء والظواهر في العالم البشري ، تلك التي يعتقد بالنظر إليها ، أن نظام الكون يسوده الشر والفوضى ، إلا أنها تكون مبنية على مصالح عميقة ... ولا شك في أن هذه المصلحة مختفية في حياتنا الراهنة وراء حجاب ، غير أن هذا الحجاب سيرفع عنها في الآخرة ، ويومئذ سيعلم المرء أن ما حدث هو الذي كان ينبغي بمقتضى الحكمة !

﴿ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾ .

فَأَبَوْا۟ : فامتنعوا .

يَنقَضَّ: يتهدم بسرعة .

بِتَأْوِيلِ : بمآل وعاقبة .

هنا يصل سيدنا موسى والخضر – عليهما السلام – إلى قرية ، وقد شعرا بالجوع رجاء أن يطعمهما أهل هذه القرية باعتبارهما ضيفين ، إلا أنهم يرفضان القيام

بضيافتهما، مما يدل على أن كون أحد الناس صادقا مقرباً عند الله ليس بكاف ليبدو هو للناظرين أيضا صادقاً ومقرباً ، ولو عرفهما أهل القرية ، لاستضافوهما بالضرورة ، ولتهافتوا عليهم لأجل التبرك بهم ، ولكنهم قابلوهم ، نظراً لزيهم العادي بالتنكر والاعتراض ، ولم يحالفهم التوفيق لينظروا إليهم من حيث حقيقتهم الداخلية .

وبالرغم من هذا التنكر والسلوك غير الجميل ، قام سيدنا الخضر بإصلاح جدار في القرية كان على وشك الانهيار ، من غير أجر يتقاضاه ... إن سلوك عباد الله الصادقين لا يكون سلوكاً معاكساً ، بل يكون دوما وعلى كل حال مطابقا لمقتضى الحق !

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾ .

وَرَاءَهُم : أمامهم وبين أيديهم.

غَصْباً : استلابا بغير حق .

لم يكن سيدنا الخضر قد أصاب السفينة بالعطل أو العطب الكلي ، وإنما جعلها معيبة بصورة مؤقتة ، وكانت المصلحة من ذلك أن السفينة كانت سائرة في اتجاه ينتهي بها إلى ملك كان يغتصب كل سفينة جيدة قهراً ، ومن ثم فقد جعلها الخضر بحيث إذا رآها رجال الملك تركوها باعتبارها غير صالحة للمهمة التي يصادرون السفن من أجلها .

ونعلم من هذا أن أحد الناس ، لو تعرض لمصيبة ما ، أو ابتلي بما يكره في هذه الحياة الدنيا ، فينبغي ألا يتضجر أو يكتئب ، وعليه أن يرضى بذلك ظاناً أن ما قد فعل الله لابد وأن يكون له فيه نوع من الخير أو الفائدة ، وإن كان هو لا يدري الآن ما هو بالضبط على وجه التحديد !

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾

فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ .

يُرْهِقَهُمَا : يكلفهما أو يغشيهما .

زَكَاةً : طهارة من السوء أو دينا وصلاحا .

وَأَقْرَبَ رُحْماً : رحمة عليهما وبرا بهما .

إن مثال الغلام هذا يدلنا على مدى سعة رحمة الله بعباده ونصرته إياهم من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ... حتى إنه تعالى لينصرهم في أمر لا يدرون من سوء عاقبته شيئا من شأنه أن يبعثهم على التوجه إلى ربهم طلباً للعون ... إذن،فينبغي للإنسان أن يتمسك دوماً بالصبر والشكر ، ويحسن بالله ظنه ، راجيا منه الخير على كل حال ... فالله – سبحانه وتعالى – يملك العلم الكلي الشامل ؛ ولذا فهو يعرف ما فيه الخير والفلاح لأحد عباده ، أكثر مما لا يستطيع حتى العبد نفسه أن يعرفه بسبب علمه الجزئي المحدود !

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ .

يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا : قوتهما وشدتهما وكمال عقلهما .

إن هذه الأمثلة توضح لنا أن الله – سبحانه وتعالى – لا يزال يراقب أحداث العالم الراهن ويشرف على شئونه كل حين وآن ، ومع أنه تعالى قد أقام نظام هذا العالم ، لحكمة الامتحان ، على أساس من الأسباب والمسببات، إلا أنه يتدخل بين الحين والحين في هذا النظام تدخلاً يأخذ تارةً شكل البناء والعمارة ، ويظهر طورا في صورة الهدم

والتخريب ، غير أنها جميعا ، إنما تكون من حيث المصالح البعيدة المدى مظاهر رحمته ، يقصد بها التحقق من عدم ضياع مقاصد الخلق الأصلية في دوامة الأسباب والعلل ، المتحركة ، على ما يبدو من غير ضابط ولا قيد !

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾ .

ذِي الْقَرْنَيْنِ : ملك صالح أعطى العلم والحكمة .

سَبَباً : علما وطريقا يوصله إليه .

ذو القرنين يعني لغةً : من برأسه قرنان ... وهو لقب ملك اتسعت فتوحاته حتى امتدت من أقصى الشرق ﴿ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ ﴾ إلى أقصى الغرب ﴿ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾ والأغلب أن المراد بذي القرنين هنا هو ملك فارس القديم قورش (Cyrus) الذي ظهر في القرن الخامس قبل الميلاد ، وفتح جزءاً كبيراً من البقاع المعمورة أيامئذ ... إلى أن مات آخر الأمر قتيلاً في إحدى المعارك الحربية ، وقد كان يتمتع بشخصية فاضلة ، غاية في العدل والإنصاف !

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ .

فَأَتْبَعَ سَبَبًا: سلك طريقا يوصله إلى المغرب .

تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ : بحسب رأي العين .

حَمِئَةٍ : ذات حمأة (الطين الأسود) .

حُسْناً : هو الدعوة إلى الحق والهدى.

عَذَاباً نُكْراً : منكرا وفظيعا .

ولعل ذا القرنين قد أوغل في غرب فارس ، وهو يواصل فتوحاته ، حتى وصل إلى آسيا الصغرى ، حيث يتهادى بحر إيجه (Aegenn Sea) « بمائه الأسود » ، مؤذنا بنهاية حدود البر ، وهنا لو وقف شخص ما على الساحل ، ووجه بصره نحو البحر ، لتراءت له الشمس في وقت الأصيل ، وكأنها تغيب في الماء ، وذلك ما صوره القرآن بقوله : ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ، وهو بيان ، بلغة المحاكاة ، للحد الذي قد انتهى إليه ذو القرنين في اتجاه المغرب ...

ولم يكن ذو القرنين قد جاء إلى ساحل البحر ذاك كسائح ، بل كفاتح ، وقد استطاع فعلاً أن يقهر الأمة التي كانت تقطن هنا حينذاك ، فخضعت لحكمه وبالتالي حصل له ، باعتباره الحاكم الفاتح ، خيار كامل في أن يفعل بها ما شاء غير أن ذا القرنين كان ملكاً عادلاً كريماً ، فلم يظلم أحداً وأصدر إعلانا عاماً : بأننا لن نستخدم وسائل القسوة إلا مع شخص يقبض عليه وهو يمارس الشر ويعيث في الأرض الفساد ، وأما الذين يعيشون مسالمين ، غير مخلين بقواعد الأمن والنظام في البلاد فلا عدوان عليهم ، وسنعاملهم بالرفق واللين !

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾ .

سِتْراً : ساتراً من اللباس والبناء .

خُبْراً : علما شاملا .

وقد كان لذي القرنين غزوة ثانية في شرق فارس ، فسار يواصل فتوحاته ومغامراته حتى وصل إلى مكان كان يسكن فيه هناك قوم بعيدون عن المدنية كل البعد ، ولعل معنى قوله تعالى : ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ ، أي من دون الشمس وقاية ، أنهم كانوا قبائل رحالة ، كانت تعيش هكذا في ميادين مكشوفة ، بدلاً من الأبنية والعمارات!

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ .

السَّدَّيْنِ : جبلين مُنِيفَينِ

يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ : قبيلتين من ذرية يافث بن نوح .

خَرْجاً : جعلا من المال تستعين به في البناء .

سَداً : حاجزا فلا يصلون إلينا .

وفي غزوته الثالثة كان ذو القرنين قد اتجه نحو شمالي شرق فارس ، وقد أفضى به المسير إلى منطقة يسكنها أناس غارقون في التخلف والهمجية ، حتى إنهم بسبب بعدهم عن المخاطبة والاحتكاك بالأمم الأخرى ، لم يكونوا يستطيعون فهم لغة غير لغتهم إلا بمشقة وصعوبة بالغة .

ولعل المراد بالسدين المذكورين هنا ، هما الجبلان الواقعان ما بين بحر قزوين والبحر الأسود ... وقد كانت تغير القبائل الوحشية من الجانب الآخر على هذه المنطقة بين حين وآخر ، فتفسد فيها بالقتل والسلب والنهب ، ثم تفر هاربة من خلال المنافذ أو

الثغرات الجبلية ... ولقد أقام ذو القرنين فيها حاجزا حديديا بين الجبلين ليقطع شرها عن أهل هذا الجانب !

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ .

رَدْماً : حاجزا حصينا متينا .

زُبَرَ الحَدِيدِ : قطعه العظيمة الضخمة .

الصَّدَفَيْنِ : جانبي الجبلين .

قِطْراً : نحاسا مذابا .

يَظْهَرُوهُ : يعلو على ظهره لارتفاعه .

نَقْباً : خرقا وثقبا لصلابته .

جَعَلَهُ دَكَّاءَ : مدكوكا مسوى بالأرض .

في جنوب الاتحاد السوفيتي (سابقاً) تقع سلسلة جبال القوقاز (Caucasus Mountains) ، وهي تمتد ما بين بحر قزوين والبحر الأسود ، وتشكل حاجزاً طبيعياً يفصل بين أوربا وآسيا،وقد كانت هذه الجبال تتخللها ثغرات هنا وهناك ، كانت تدخل منها قبيلتا يأجوج ومأجوج الوحشيتان نحو الشمال ، وتعيث في بلاد

المملكة الفارسية فساداً... ولا تزال توجد هناك حتى اليوم بقايا جدار قديم، وأغلب الظن أن هذا هو الجدار الذي كان قد بناه ذو القرنين لمنع غوائل المفسدين.

إنه ((جدار حديدي)) في وجه العدو إنجاز ربما يبعث في نفوس الناس عادة مشاعر الفخر والزهو والكبرياء، غير أن ذا القرنين، بالرغم من إقامته سداً منيعاً ضخماً كهذا، لم يفقد شعوره بالتواضع، حيث إن نظرته لم تكن موجهة نحو أعماله، وإنجازاته هو، بل نحو قدرات الله واختياراته، والحق أنه ليس ثمة من أحد يملك شيئا من القوة بإزاء الله عز وجل!

﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) ﴾.

يَمُوجُ: يختلط ويضطرب.

وَنُفِخَ فِي الصور: نفخة البعث.

غِطَاءٍ: غشاء غليظ وستر كثيف.

إن العالم الراهن – الذي نعيش فيه اليوم – سيتحول عند قيام الساعة إلى عالم آخر تماماً... ويبدو أن ما يوجد حالياً بين الجبال والبحار من حدود وفواصل ستنعدم يومئذ، بحيث تعود الأرض – على حد تعبير القرآن في موضع آخر – قاعاً صفصفاً، يضطرب فيه الناس بعضهم ببعض – لكثرتهم – كاضطراب أمواج البحر.

الناس يدعون اليوم لرؤية جهنم بعين عقولهم، وهم يتعامون عنها، وفي يوم القيامة ستعرض جهنم على الناس عرضا، فيراها عندئذ كل شخص بعيني رأسه، غير أن تلك الرؤية لن تغني هناك عن أحد شيئا، فإن الذي كشف الغطاء عن عيونه اليوم استجابة

للنصيحة ، هو البصير حقاً ، وأما كشف الغطاء عن العيون في يوم القيامة ، فإنما يكون ذلك لكي يساق الطغاة المتمردون إلى مصيرهم النهائي المحتوم !

﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلاً ﴿١٠٢﴾ ﴾ .

نُزُلاً : منزلا أو شيئا يتمتعون به.

الإيمان الحق بالله ، وإنكار الحق هو إنكار الله ...وإن المرء عندما ينكر الحق ، فإنما هو يفعل ذلك اعتمادا على شيء أو شخصية ما ... بيد أن كل الاعتماد من هذا النوع زائف وباطل ... فإنه ليس ثمة من أحد في هذه الدنيا غير الله يملك شيئا من الخيار أو القوة ... وسوف لا يجد أمثال هؤلاء في يوم الجزاء أي منقذ أو حام لهم ؛ لأن المنقذ والحامي الحقيقي إنما هو الله وحده ، وهؤلاء بعنادهم وطغيانهم قد فقدوا حمايته تعالى سلفاً !

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلاً ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

وَزْناً : مقدارا واعتبارا لحبوط عملهم .

إن المرء ليعمل في الدنيا .. ويرى أنه يجني ثمار عمله اليانعة في صورة العزة والثروة ويجد أن كل أموره مستقيمة تجري على ما يرام ، مما يجعله يحسب أنه سعيد ناجح !

غير أن هذا جهل محض .. إن مقياس النجاح والسعادة في خريطة الله هو

الآخرة... إذن ، فاعتبار رقي الدنيا رقيا ، والحالة هذه ، هو رسم خريطتنا على نقيض من الخريطة الإلهية .

إن الله يظهر آياته ، ولكن الذين شغلت عقولهم قضايا الدنيا ، لا يتأثرون بآيات الآخرة ، وإن الله ليوضح أدلته وبراهينه ، غير أن الغارقين في لذائذ الدنيا ، المفتونين بزخارفها ، لا تستهويهم أدلة الآخرة ... وأمثال هؤلاء يظلون محرومين من الهداية ، حتى مع كونهم على أبواب الهداية ، إنهم يقيمون لأحاديث الله في حياتهم وزناً ما ، إذن ، فكيف يمكن أن يعتبرهم الله عنده أهلاً لأي وزن ؟!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴿١٠٨﴾ ﴾ .

الفِرْدَوْسِ : أعلى الجنة وأوسطها وأفضلها .

حِوَلاً : تحولا وانتقالا .

إن بناء الحياة على أساس من الإيمان والعمل الصالح في العالم الراهن ، إقامة دليل على تضحية جد عظيمة... حيث إنه تخل عن الجنة المرئية لأجل الجنة غير المرئية ... إنه إحراز النجاح في أصعب امتحان ؛ إذ يتعرف المرء على الحق على مستوى الدليل المجرد، فيكرس حياته كلها في سبيله ، بينما لا يكون هناك أي ضغط أو تهديد خارجي يرغمه على ذلك إرغاماً ، وإنما هو يفعله بمحض اختياره وقناعته الداخلية .

والذين يبرهنون على هذا المستوى العالي من المعرفة والأداء العملي ، فلا جزاء لهم – بالطبع – إلا أن يدخلوا في الجنان الأبدية !

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى

وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

مِدَاداً : هو المادة التي يكتب بها .

لِكَلِمَاتِ رَبِّي : معلوماته وحكمته .

لَنَفِدَ الْبَحْرُ : فنى وفرغ.

مَدَداً : عونا وزيادة .

الذين لا يؤمنون برسالة الله ينكرون شيئاً هو أثبت من كل الأشياء الثابتة ... وهو مسلم به لدرجة أنه ستعود كل أشجار الأرض إذا تحولت أقلامًا غير كافية لتسطيره وستنفد سائر بحار العالم ، إذا صارت مداداً ، حتى قبل أن يتم مجرد فهرسته .

ولكن ما أظلم الإنسان ؛ إذْ إنه – على الرغم من هذا كله – لا يعرف الحق ، ولا يصوغ حياته طبقاً لمقتضيات الحق !!

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ .

النبي لا يكون إلهاً أو ملكاً ، وإنما هو يكون واحداً من البشر ، والشيء الوحيد الذي يتميز به عن غيره هو أنه يتلقى وحي الله بطريقة غير مرئية ، وهذا يعني أن النبي هو في ظاهره بشر مثل الآخرين تماماً ، ومن حيث حقيقته الداخلية مندوب الله إلى البشر !

وهذا هو السبب في أن إدراك الحق يتطلب من ثقوب النظر ونفاذ البصيرة ما يميز الجوهر من العرض ... إذن ، فلا يوفق لإدراك الحق إلا شخص يستطيع أن يرى الحقيقة في صورتها الغيبية ، ويقيم الدليل على معرفة « النبي » على مستوى « البشر » !

سورة مريم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ ﴾

نِدَاء خَفِيًّا : دعاء مستورا لم يسمعه أحد.

كان زكريا ختناً – وقيل: زوجاً – لخالة مريم .. وكان اسم والد مريم عمران، ولم تكد مريم تبلغ بضع سنوات من عمرها، حتى توفي أبوها، وكان رجلاً عظيما بين العلماء في بني إسرائيل، حيث كان مديرا للهيكل ورئيس كهنته، ومن بعده عهد بإدارة الهيكل ورئاسة الكهان فيه إلى زكريا، وقد كانت مريم في ذلك الزمن تم تقديمها لخدمة الهيكل تبعاً لنذر والدتها .. ولكوْن زكريا واحداً من أقرباء مريم الأدنين، إلى جانب شغله منصب رئيس الهيكل، فقد كان من نصيبه أن يتولى كفالة مريم، ويقوم بشأنها .

إن زكريا – عليه الصلاة والسلام ﴿ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ أي دعاه – « بصوت خفي » ولقد تحقق هذا الدعاء (الخفي) بالفعل على نحو يدعو إلى الدهشة والإكبار .. ومن هذا نعلم حقيقة الدعاء الصادق .. الذي هو: تعبير مفعم باللهفة والخشوع عن هذا اليقين بأن الخيار كله بيد الله وحده، فلا ينال المرء شيئاً إلا بعطائه عز وجل، وإن هو أمسك عن العطاء، فلن يظفر أحد بشيء ما أبداً

إن الدعاء الصادق إنما يكون موجهاً بكليته نحو الله الواحد الأحد لا غير، وهذا هو السر في أن الدعاء الصادق يفيض ويتدفق أكثر ؛ إذْ يكون المرء وحيداً خالياً إلى نفسه وحيث لا يكون ثمة بينه وبين الله ثالث !

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾

وهَنَ العَظْمُ : ضعُف ورق .

شَقِياً : خائبا في وقت ما .

خِفْتُ المَوَالِيَ : أقاربي العصبة وكانوا شرار اليهود.

وَلِيًّا : ابنا يلي الأمر بعدي .

رَضِيًّا : مرضيا عندك قولا وفعلا .

هذا دعاء صدر عن لسان عبد كان قد بلغ نهاية الكبر والشيخوخة، وهو يدأب جاهداً على تأدية رسالته الدينية .. ولم يكن يرى بين أهل أسرته أحداً يخلفه في حمل أعباء مسيرته من بعده .. فشعوره بعجزه هو من ناحية، وإحساسه بأهمية الرسالة من ناحية ثانية، قد انصب كلاهما في قالب الدعاء المذكور في هذه الآيات .. وعليه فإن هذا الدعاء لم يكن سؤالاً عادياً، بل كان رجاءً من الله أن يقيض له رجلاً كفؤاً يقوم بمواصلة مسيرته النبوية من بعده !

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾

أَنَّى يَكُونُ : كيف أو من أين يكون ؟

عِتِياً : حالة لا سبيل إلى مداواتها .

لقد أجيب هذا الدعاء في صورة ولد .. هو ولد لا يولد مثله لدى الناس عادةً فإن

ولادة طفل لرجل بلغ منتهى الكبر والهرم ، وظلت امرأته عاقراً لا تلد على مدى عمرها ، إنه - لا شك - أمر غير عادي للغاية .. ومن ثم فقد كانت هذه البشرى مثار الدهشة والتعجب لسيدنا زكريا مع شدة فرحه وسروره بها .. وشعوره بكون النعمة الحاصلة غير متوقعة،لم يلبث أن تفجر من فمه بشكل هذه الكلمات: يا رب ! كيف يكون لي ولد، بينما قد أصبحت أنا وزوجتي الآن عاطلين (غير صالحين) تماماً من هذه الناحية !

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ ﴾

آيَةً : علامة على تحقق المسؤول لأشكرك .

سَوِياً : سليما لا خرس بك وبلا علة .

مِنَ المِحْرَابِ : المصلى أو الغرفة التي يتعبد فيها .

بُكْرَةً وَعَشِيًّا : طرفي النهار .

كما أن إيجاد الإنسان الأول - آدم - من غير أب ولا أم، معجزة إلهية، كذلك فإن إيجاد الولد بواسطة الوالدين هو الآخر معجزة إلهية تماماً - سواء أكان هذان الوالدان شيخين هرمين أم شابين قويين - إذْ الحقيقة هي أنه ليس هناك إلا الله الذي يخلق الإنسان، فهو الذي قام بالخلق أولاً، وهو الذي يقوم بالخلق اليوم والى الأبد، وإن كان كل الأشياء الأخرى إنما هي حيلة أو وسيلة ظاهرية، دون العلة الحقيقية وراء عملية الخلق والإيجاد !

سأل زكريا عن علامة تدل على حصول الرحمة الإلهية، فقيل له: إنك إذا وجدت

نفسك، وقد أصبحت عاجزاً – مع كونك صحيحا سليماً – عن الكلام مع الناس بلسانك لثلاثة أيام بلياليهن، فلتتأكد وقتئذ من أن زوجتك قد حملت بيحيى .. فلما حان ذلك الوقت اعتقل لسانه، وصار لا يستطيع أن يكلم أحداً فخرج من مصلاه، وأشار إلى الناس بأن اذكروا الله صباحاً ومساءً، واشتغلوا بعبادته وامتثال أوامره بجد واجتهاد .. ويظهر أنه كان من عادة زكريا – عليه الصلاة والسلام – أن يعظ الناس كل اليوم .. حتى عندما حبس لسانه عن الكلام، فإنه لم يسعه إلا أن جاء إلى مكان الاجتماع، ووعظ الناس بما استطاع من الرمز والإيماء !

﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ ﴾ .

الْحُكْمَ : فهم التوراة والعبادة .

وَحَنَاناً : رحمة وعطفا على الناس .

وَزَكَاةً : بركة ، أو طهارة من الذنوب .

وَكَانَ تَقِياً : مطيعا مجتنبا للمعاصي .

وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ : كثير البر والإحسان إليهما .

جَبَّارًا عَصِيًّا : متكبرا مخالفا أمر ربه.

يُروى أن يحيى – عليه الصلاة والسلام – عندما كان صغيراً، قال له الصبيان في ذات يوم: ((اذهب بنا نلعب!)) فأنكر وقال: ((ما للعب خُلقنا)) .

ويتضح من ذلك أنه – عليه الصلاة والسلام – كان لديه منذ صغره وعي بأن الحياة

ينبغي أن تكون ذات هدف ومعنى .. كما أنه كان قد جُبل بالفطرة على رقة الشعور والشفقة والحنان، وكان متحرراً من العقد النفسية، باراً بأمه وأبيه محسناً إليهما، وكان خالياً من التمرد والعصيان كل الخلو.

تلك هي الأوصاف التي تؤهل المرء ليتمسك بكتاب الله، ولا ينحرف عنه قيد أنملة على أية حال .. والمتحلي بهذه الأوصاف هو الذي تنزل عليه رحمات الله في هذه الدنيا وفي تلك الدار الآخرة !

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾

انتَبَذَتْ : اعتزلت وانفردت .

حِجَاباً : ستراً .

رُوحَنَا : جبريل عليه السلام.

بَشَرًا سويا:إنسانا مستوي الخلق تامه .

غُلامًا زَكِيًّا : مزكى مطهرا بالخلقة .

بَغِيًّا: فاجرة تبغي الرجال .

لقد كانت مريم حررت لخدمة الهيكل (بيت المقدس) وفقاً لنذر والدتها .. وقد كان الجزء الشرقي من الهيكل القديم خاصاً بالنساء، فانزوت مريم في ناحية من هذا

الجزء عاكفة على ذكر الله وعبادته وراء حجاب أسدلته بينها وبين الموجودين الآخرين بالهيكل .. وإنها لكذلك إذْ فوجئت ذات يوم برجل موفور الشباب والقوة ماثلاً بين يديها وكان طبيعياً أن يأخذها الرعب والفزع من هذا الموقف.. ولكن الرجل أعلمها بأنه ملك أرسل من عند الله لكي يهب لها غلاماً زكياً على نحو معجز خارق للعادة .

لقد كانت ولادة عيسى ابن مريم – عليهما السلام – على هذا النحو المعجز آية من الله عظيمة، وكان الغرض منها ألا يشك اليهود في كونه نبياً مرسلاً من عند الله، وأن يبادروا إلى الإيمان بكل ما يبلغهم عن الله،ولكن بالرغم من هذه الآية الواضحة الباهرة فإنهم لم يلبثوا أن كذبوا بسيدنا المسيح وأنكروا نبوته !

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾

مَكَاناً قَصِيًّا : بعيدا من أهلها وراء الجبل .

فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ : فألجأها واضطرها وجع الولادة.

نَسْياً مَّنسِياً : شيئا حقيرا متروكا لا يخطر بالبال .

لقد كانت مريم عذراء – غير متزوجة – من بيت متدين شريف، وكون امرأة كهذه حبلى، لهو محنة قاسية تهون أمامها كل محنة .. وبعد أن ابتليت بهذه المحنة خرجت في صمت من الهيكل، وذهبت إلى مكان بعيد (بيت لحم)، ولما حان الأجل، واشتد بها وجع الولادة والطلْق، آوت إلى جذع نخلة خارج البلدة .. وإن الكيفية التي ستطرأ على امرأة عذراء طاهرة عفيفة، في مثل هذا الموقف، تصورها هذه الكلمات التي جرت على لسانها أدق تصوير: يا ليتني قد مت وتلاشيت قبل هذا اليوم، ولم أكن شيئاً يعرف أو يذكر لدى الناس !!

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾

فَنَادَاهَا : جبريل أو عيسى عليهما السلام .

سَرِياً : جدولا أو غلاما سامي القدر .

رُطَباً جَنِياً : صالحا للاجتناء ،أو طريا .

وَقَرِّي عَيْناً : طيبي نفسا ولا تحزني .

لم يكن أمام مريم، بعد أن ابتليت بهذه المحنة القاسية البالغة الخطورة، من سبيل إلى السكينة وهدوء البال، إلا أن يظهر لها ملك الله، ويعطيها من الثقة واليقين ما يقتل مخاوفها التي أخذت تزداد وتشتد مع اشتداد ألم الطلْق بها .. وقد حدث بالفعل.. حيث جاء الملك في الوقت المحدد، فناداها: ألا ترتاعي ولا تحزني، فإن كل هذا الذي يحدث، إنما يحدث تبعاً لخطة الله سبحانه وتعالى، ولقد فُجرت هنا عين ماء عذب رقراق على القرب منك وهذه النخلة ستوفر لك ثمراً شهياً طرياً كل حين وآن، إذن، فلك أن تأكلي وتشربي مما أنعم ربك عليك ، قريرة العين، مرتاحة الضمير !!

وفيما يتعلق بالصبي فقد طمأنها قائلاً: إن هذا المولود بمعجزة الله سيتولى بنفسه الدفاع عنك.. وإنما عليك أن تصومي عن الكلام حسبما جرت به عادة بني إسرائيل، وإن رآك أحد، أو رأيت أحداً من الناس وسألك شيئاً، فأومئي إلى المولود، الذي سيجيبه بدوره الجواب الشافي الدال على براءة ساحتك !!

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ

هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾

شَيْئاً فَرِياً : عظيما منكرا .

ولم تلبث مريم، بعدما سمعت كلام الملك، أن امتلأ صدرها ثقة واطمئنانا، فرجعت عائدة إلى أهلها، وعلى يديها المولود تحمله .. ولم يكد يراها اليهود في هذه الحال، حتى أخذوا في لومها والزراية عليها وتأنيبها على ما أتت به – في زعمهم – من فاحشة وعملاً بما أرشدها إليه الملك، فقد لاذت مريم نفسها بالسكوت والصمت، أشارت إلى المولود في حجرها، إيذاناً بأن هذا ليس بمولود من الطراز العادي، والدليل على ذلك أن توجهوا إليه بالكلام، فهو مع كونه طفلاً رضيعاً في المهد، سيفهم منكم ما تقولون، وبالتالي سيرد عليكم رداً واضحاً مقنعاً من غير لبس ولا غموض !..

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾.

كَانَ فِي المَهْدِ صَبِياً : وجد في فراش الصبية رضيعا .

وَبَراً بِوَالِدَتِي : بارا بها محسنا مكرماً .

وبالرغم من إشارة مريم المتكررة إلى ابنها، طالبة توجيه كل سؤال بشأنه إليه نفسه، لم يكد يفهم اليهود – لفرط الحيرة التي انتابتهم – كيف يمكنهم أن يكلموا طفلاً صغيراً ما زال في المهد يتغذى بلبان أمه !؟!

وبينما هم كذلك، إذْ أقبل عليهم سيدنا المسيح بوجهه فبادرهم بالكلام.. وقد كان

كلامه المعجز ينطوي – من جهة – على براءة أمه – ومن جهة أخرى – كان ذلك شهادة مسبقة على أن هذا الصبي حديث الولادة، إذا ما بلغ مبلغ الرجال، وادعى النبوة فلا يعود أمام أحد من الناس حينئذ مجال للريب أو الشك في نبوته !.

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾

لقد كان المسيح حادثا غريباً .. وقد اشتط العلماء المسيحيون في تفسير هذا الحادث الغريب، مما أدى بهم إلى اختلاق ألوان شتى من العقائد العجيبة الغامضة.. غير أن كل تفسير له دائماً حد معين، ولابد لنا من الوقوف عنده وعدم تجاوزه على أية حال، ونحن نحاول تفسير شيء أو ظاهرة ما .. إذن، فجعْل المسيح، في محاولة تفسير حادث ميلاده غير العادي، ابن الله، هو تجاوز للحد، فإنه لِمَا يتنافى مع وحدانية الله أشد التنافي أن يكون له ولد !!

وفوق ذلك فالكون يزخر بما لا يحصى من وقائع غريبة نشاهدها كل يوم، وكل شيء في هذا العالم حادث غريب في ذاته، فلئن ظهر الآن شيء غريب آخر، فإنما ينبغي على الإنسان أن يقول: إن الله – سبحانه وتعالى – كما أبدع أشياء غريبة أخرى لا تقع تحت الحصر، فهو ذاته خالق هذا الشيء الغريب الذي ظهر أمامنا اليوم !

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ : ما أسمعهم وما أبصرهم .

لقد كان المسيح – وكل الأنبياء الآخرين كذلك – لدعوة الناس إلى صراط مستقيم

واحد، لا غير، وهو أن يتخذ المرء الله ربه، ولا يعبد إلا إياه وحده .. ولكن ما حدث دوْماً أن الناس لم يلبثوا أن انحرفوا عن هذا الصراط المستقيم باعتساف تأويل وتفسيرات مزعومة، فمنهم مَنْ ذهب إلى رأي، ومنهم من ارتأى رأياً آخر مناقضاً للأول تماماً .. وهكذا نشأ الاختلاف الذي حوّل الدين الواحد إلى أديان شتى .

إن الحق لواضح غاية الوضوح حتى في هذه الدنيا .. غير أن الإنسان يتمتع هنا بالحرية لأجل الامتحان، وعليه فإن شاء آمن، وإن شاء رفض .. وبسبب هذه الحرية المؤقتة يقع الإنسان في سوء فهم، فإذا به يأخذ يتمرد ويطغى .. وقد يتم إرشاده هنا، ومن خلال صنوف الأدلة والبراهين الساطعة، إلى ما هو صراط الله المستقيم المطلوب اتباعه، إلا أنه لا يلقى إليه بالاً، ولا يتلقى الحق بالقبول.. وأما في الآخرة، حين تكون حرية الإنسان قد انتزعت منه بالمرة، فما أبصره و أسمعه سيصير هو يومئذ، وبنفس عيونه وآذانه، تلك، التي تبدو اليوم وكأنها لا تعرف رؤية ولا سماعاً !!.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

يَوْمَ الحَسْرَةِ : الندامة الشديدة على ما فات .

إن المرء إذْ يتعرض للفشل والإخفاق في هذه الدنيا، فربما لا تزال الفرصة أمامه مفتوحةً لكي يستأنف حياةً جديدةً، وهو يجد من حوله أصدقاء وأنصارًا يهبون من فورهم لنجدته، يمدون إليه يد العون، ويشدون من أزره .. غير أن فشل الآخرة هو فشل ليس بعده أي إمكانٍ للنهوض من جديد أبداً فما أعجبها ساعة حسرةٍ وندامةٍ، حين سيعلم المرء أنه قد كان بإمكانه أن يفعل كل شيء ، ولكنه لم يفعل شيئاً، حتى ذهب وقت العمل إلى غير عودةٍ !!

إن مصير كل أنواع الشر والفساد هو أن المرء يزعم أنه سيد نفسه ومالكها .. ولكن الحقيقة هي أن هذه ليست سوى فسحة أو فترة متوسطة عارضة، فإن الله وحده هو مالك كل شيء أول الأمر وآخره، وليس ثمة أحد غير الله يتمتع بصفة « المالكية » هنا بالمعنى الحقيقي !

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾

صِرَاطاً سَوِيًّا : طريقا مستقيما منجيا من الضلال .

عَصِيًّا : كثير العصيان .

وَلِيا : قرينًا تليه ويليك في النار .

ولد سيدنا إبراهيم في العراق .. ولما نُبئ، نصح أباه بأن اترك عبادة الأصنام، واعبد الله وحده، وإلا فسوف تتعرض لبطش الله وعقابه الشديد .

ومعنى عبادة الشيطان ليست عبادة الشيطان في ذاته، بل عبادة ما يأمره به الشيطان، وطاعته فيما يدعو إليه .. إن الإنسان يميل، بموجب فطرته التي فطر عليها، إلى أن نعطي أحداً المكان الأسمى في حياته، ويقدم له كل ما يجيش بداخله من مشاعر الحب والتفاني والاحترام والإجلال، إن المركز الحقيقي لهذه المشاعر والعواطف هو الله سبحانه وتعالى .

غير أن الشيطان يحاول صرف أذهان الناس وتوجهاتهم عن الحق بشتى الطرق لكي يورط الإنسان في الشر، ويجعله يعطي لغير الله ما ينبغي عليه ألا يعطيه إلا لله وحده !

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾

وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا : اجتنبني وفارقني دهرا طويلا .

حَفِيًّا : برا لطيفاً أو رحيما مكرما .

شَقِيا : خائباً ضائع السعي.

إن الأصنام التي يتناولها سيدنا إبراهيم بالنقد والتجريح، لم تكن قطعاً من الأحجار، بل كانت ممثلة لذوات ارتسمت عظمتها الطلسمية على العقول، بفعل تقاليد الأحقاب الماضية الطويلة، وفي هذه المقارنة بدا «إبراهيم الفتى» شخصاً عادياً، بينما تراءت أصنام العراق جبالاً من المجد والعظمة .. وذلك هو السر ف أن والد إبراهيم لم يلبث أن رفض نصيحة ابنه بغاية التحقير والازدراء .

إن دعوة الحق إذا ما بدأت في مكان ما، وبلغت بمضي الزمان إلى مرحلة يكون فيها الناس قد فهموها جيداً ولكنهم بدل أن يبادروا إلى الإيمان ، يقابلونها بالعنف والعدوان ، فإن الداعي يقوم حينئذٍ بتغيير مكان عمله، وهذا هو ما يسمى بـ «الهجرة».. وتغيير مكان العمل هذا يتم حيناً في الدائرة القريبة ، وأحياناً في الدائرة البعيدة .

إن عمل الدعوة عمل إلهي، ولهذا السبب فإنه كلما يبدأ، يبدأ مصحوباً بالنفسية الربانية .. والداعي لا يزال قلبه ينطوي على معاني الشفقة والحنان وحب الخير

للمدعو، حتى ولو عامله الأخير معاملة العدوان والاحتقار .. كما أن الداعي لا ييأس ولا يقنط حتى ولو أصبح في بيئته وحيداً بلا ناصر ولا معين .. ذلك لأن سنده الحقيقي هو الله – سبحانه وتعالى – فهو يكون واثقا أتم الثقة وآكدها من أن الله معه كعهده به، وأنه لن يزال معه دائماً، مهما تأزمت الأحوال، وتفاقمت الظروف والأوضاع !

﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾

لِسَانَ صِدْقٍ : ثناء حسنا في أهل كل دين .

إن المرء يعيش أو – بعبارة أدق – يتعايش مع أسرته وجماعته مرتبطاً بصلات وروابط شتى .. إذن فإن طرد شخص ما من محيط أسرته وجماعته يعني دفعه إلى صحراء الضياع والدمار.. غير أن الله – سبحانه وتعالى – قد أظهر لنا، بصورة دائمة، من خلال واقعة سيدنا إبراهيم، أن العبد الذي يخرج من بيته في سبيل الله وحده، فيعود شريداً بلا مأوى، يعطيه الله من عنده بيتا أحسن وأفضل.. وأن ما يلقى به في غيابة الخمول والمجهولية من أجل الله وحده كذلك، يكتب الله له الظهور وانتشار الذكر الجميل بين الخلائق على أوسع نطاق !!

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾

كَانَ مُخْلَصاً : أخلصه الله واصطفاه .

وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيا : مناجيا لنا .

لقد مر سيدنا موسى، وهو عائد من مدين إلى مصر، بجبل الطور، حيث أعطاه الله

النبوة.. وقد اصطفى الله الأنبياء والرسل في كل العصور الماضية، وأنزل عليهم كلامه، وكان هذا الكلام الإلهي يصل إليهم بواسطة الملك جبريل، ولكن الله تعالى قد اختص موسى بتكليمه مباشرةً، أي بلا واسطة ملك .. كما اختصه أيضاً بجعل نبي آخر معه، وهو أخاه هارون، استجابة لطلبه، ليدعم جانبه، ويساعده على حمل أعباء الرسالة .. وربما يكون سر ذلك التخصيص كامناً في تلك الظروف والملابسات الخاصة التي كان عليه أن يؤدي مهمته النبوية في ظلها.. إذْ كان أمامه ملك جبار كفرعون، ومن ناحية أخرى أمة كاليهود، التي كانت قد بلغت أقصى درجة من الفساد والانحطاط .

ومعاملة الرحمة والنصرة الإلهية هذه خاصة، في شكلها النهائي، بالأنبياء والرسل وحدهم، بيد أن الله تعالى يخص مَنْ شاء من عباده المؤمنين أيضاً بمثل هذه المعاملة، حيث يوفقهم – كل بحسب كفاءته واستعداده – للقيام بعمل من الأعمال المرضية عنده ويقذف في قلوبهم مراده بطريقة خفية، ويهيئ لنصرتهم وتأييدهم أسباباً خاصةً، لا تتأتى لأحد في ظل الظروف والأحوال العادية !

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾

كان سيدنا إسماعيل ولد سيدنا إبراهيم:.. وأما سيدنا إدريس فهو نبي ربما قد ولد قبل سيدنا نوح بأزمان طويلة .. ومن جملة الصفات الحميدة التي كان يتحلى بها هذان النبيان الجليلان، خُص بالذكر هنا صفتان هما: كونهما أولاً صادقين .. وثانياً قيامهما بحث الناس على الصلاة (عبادة الله وطاعته)، وعلى الزكاة (تأدية حقوق العباد)، ثم أكد القرآن على أن تلك الصفات هي التي جعلتهما عند ربهما مرضيين، وأوصلتهما إلى أعلى مراتب السمو والقرب الإلهي.

هذه الصفات تتوفر، على أتم درجة، وأكملها، في تلك الشخصيات التي اختارها الله للنبوة وإبلاغ رسالته .. غير أن عامة المؤمنين – دون الأنبياء – مطالبون هو الآخرون بخلق هذه الصفات في أنفسهم أيضاً، كما أنهم يتمتعون، على اختلاف درجاتهم، بما قد رتب الله تعالى على تلك الصفات من ثمرات ونتائج بصفة أبدية !

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) ﴾

وَاجْتَبَيْنَا : اصطفينا واخترنا للنبوة .

وَبُكِيًّا : باكين من خشية النار .

أشارت هذه الآية، بوجه خاص إلى أولئكم الأنبياء الذين انحدروا من نسل آدم، ومن نسل نوح، ثم من نسل إبراهيم، والذين رآهم الله أهلاً لكي ينعم عليهم بهدايته الخاصة، ويصطفيهم للقيام بتمثيله والتبليغ عنه أمام الناس أجمعين .

ولِمَ أنعم الله على هؤلاء السادة بتلك النعم الجليلة ؟! إن سر ذلك يكمن في هذا القاسم المشترك بينهم، وهو الذي يتمثل في كونهم شديدي الإحساس بألوهية الله، عميقي الشعور بكبريائه لدرجة أن صدورهم كانت تهتز حين يسمعون كلام ربهم، وبالتالي لم يكونوا يتمالكون أنفسهم أن يخروا على الأرض ساجدين له تعالى يبكون !!

وإن « السجود مع البكاء » هو أعلى درجة للاعتراف بعظمة الله جلاله، والذي يفوز بهذه الدرجة، فكأنما قد ذاق طعم الإيمان، الذي هو خاص بأنبياء الله ورسله الكرام !

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ ﴾

خَلْفٌ : عقب سوء .

يَلْقَوْنَ غَيًّا : جزاء الغي ، أو واديا في جهنم .

إن أبرز سمة يمتاز بها الرعيل الذي ينشأ ويتربى في أحضان مدرسة النبوة، تتمثل في أنهم يتسامون بأنفسهم فوق الشهوات ، ويكثرون من ذكر الله ، والذي يطلق على أحد مظاهره المّعينة وصف «الصلاة » .. إن جوهر الدين هو ذكر الله، وما الصلاة إلا صورة منظمة رتيبة لذكر الله هذا .

ولو أن الأجيال التالية لأتباع الأنبياء صارت غافلة عن الله، وبدأت في الانسياق وراء الشهوات، فإنها تعتبر عند الله في عداد الضالين الغاوين، وإن انتماءها إلى الأنبياء لن يغني عنها شيئاً.. وأمثال هؤلاء سيصلون ولابد إلى مصيرهم المحتوم، ولن ينجو منهم سوى أولئك الذين يبادرون بالعودة ثانيا إلى جوهر الدين الأصلي، ويختارون، بصدق وإخلاص، حياة الإيمان والعمل الصالح بمعناه الحقيقي .

والساعون لأجل الآخرة لا يحصلون على ثمرة جهودهم وتضحياتهم على الفور، الأمر الذي ربما يدفع بعضهم إلى الشك في أن هذا طريق كله عمل وكدح، دون أن يكون فيه ثمرة ذلك العمل والكدح .. غير أن هذا ليس إلا إساءة فهم للموضوع، إذْ الحقيقة هي أنه كما يحصل العاملون لأجل الدنيا على جزاء عملهم، فإن العاملين لأجل الآخرة سيفوزون بدورهم بالجزاء الأوفى على أعمالهم بكل تأكيد، وإنه ليس ثمة ما يدعو إلى الشك في هذا الأمر البتة!

﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾

مَأْتِيًّا : آتيا أو منجزا .

لَغْواً : قبيحا أو فضولاً من الكلام .

في العالم الراهن يتمتع الإنسان بالحرية التامة لأجل الامتحان.. فالأبرار والأشرار كلهم هنا أحرار، على حد سواء .. ونتيجة لذلك فإن إنساناً صادقاً ما، لا يكاد يحصل على الهدوء والاستقرار في رحاب العالم الراهن .. فمهما كان هو سوياً مستقيماً في حد ذاته، إلا أن أحاديث الآخرين وتصرفاتهم غير السوية ولا المستقيمة لا تلبث أن تعكر عليه صفوه، ولا تدعه يشعر بالراحة والسكون أبداً.. فالناس، بإساءة استخدام حرياتهم لا يفتأون يملئون الجو بكل ما هو فاحش ورديء ومنكر، من الكلام والأصوات .

أما الجنة فهي دار سيبعد عنها كل من كان على هذه الشاكلة .. وإنما سيسكن هنا الأناس ذوو الأذواق الرفيعة وحدهم،الذين كانوا قد أثبتوا في الدنيا،أنهم لا يعيشون كالأشواك،بل مثل الورود والأزهار.

والحياة التي ستظهر إلى الوجود في بيئة أناس كهؤلاء، لا شك في أنها ستكون جنة يسودها السلام الأبدي.

إن تجنب اللغو والفضول في هذه الدنيا وممارسة الحياة فيها، بحيث لا تخلو من الضرر والضرار، وتكون كلها الأمن والسلام، عمل عسير جداً، فإن ذلك يتطلب تحويل حياتنا الحرة الطليقة، بمحض اختيارنا وإرادتنا نحن إلى حياة مقيدة ملتزمة ..

إنها لتضحية شديدة الوطأة على النفس، لا يوفق لإقامة الدليل عليها، إلا شخص يخاف الله حق الخوف، فالخائفون من الله وحدهم، يستطيعون أن يعيشوا في هذه الدنيا عيشة أهل الجنة، وأولئك هم الذي سيدخلون في جنان الآخرة الأبدية !

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾

إن أخطر مرحلة وأشدها قسوة على الداعي هي التي تكون فيها الدعوة الإسلامية معرضة لألوان شتى من المعارضات والمعاكسات .. حيث يريد الداعي كل يوم أن يقدم أية خطوةٍ جديدة من شأنها أن تضع حداً للحالة الراهنة، بينما يأمره الله بأن اصبر وانتظر !!

ولقد واجهت ذات مرة حالة مماثلة رسول الله ﷺ إذ كان يترقب نزول الوحي من عند الله، نظراً لاشتداد وطأة الظروف وازديادها تفاقما .. ولكن، بحسب ما جاء في بعض الروايات، لم يأته جبريل بالوحي نحو أربعين يوماً، ولما أتاه جبريل، سأله عن سبب التأخير، فأجابه قائلاً: إننا ملزمون بمشيئة الله، فإذا نحن تلقينا منه تعالى شيئاً من الهداية، أتيناك، وإن لم نتلق من عنده هداية ما، فلا نأتيك .. وقد ذكرت هذه الواقع تأكيداً على ضرورة التمسك بالصبر على طول الخط، فالله – سبحانه وتعالى – يرى الوضع القائم حالياً بتمام الوضوح، وهو يحيط علماً بكل ما يحمل بين طياته من إيجابيات وسلبيات، لا تخفى عليه منه خافية، فلو أن الله تعالى لم يحدث – مع ذلك – شيئاً – ولم يبعث من عنده بتوجيه جديد، فمعنى ذلك أن المطلوب الآن هو أن يحتمل هذا الوضع ويصبر عليه، ولئن كان مقتضى الحكمة غير ذلك، لنزل حكم آخر بكل تأكيد، وإذ لم يكن هناك أحد أعلم من الله، فلا يمكن كذلك أن يكون توجيه أحد أحسن من توجيه

الله .

إذن، فليس من الصواب ولا من الجائز أن نبحث عن آية تسمح لنا بـ «الإقدام» في ظل ظروف تقتضي «الإحجام»، فإن ذلك بمثابة محاولة استنزال حكم لم ينزل على المرء بعد، لكونه سابقاً لأوانه !

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ﴾

جِثِياً : باركين على ركبهم لشدة الهول .

لقد كان العرب – مخاطبو القرآن الأول – يؤمنون بالحياة بعد الموت، غير أن إيمانهم هذا لم يكن إيماناً حقيقياً.. فكل الكلمات الواردة بشأن الآخرة وأحوالها في القرآن الكريم، هي التي كانت موجودة ومستعملة في لغتهم من ذي قبل، ولكن بدون أن يكون لها أي تأثير يذكر في حياتهم اليومية، فقد كانت حياتهم العملية كما لو أنهم يقولون بلسان حالهم: إن هي إلا حياتنا الدنيا هذه، فمن عساه يبعثنا بعد الموت، ومَنْ سيحاسبنا على أعمالنا!!

بيْد أن هذه الغفلة أو هذا الإنكار لا ويتأمل بجدية، ولو أنه يُتأمل حقاً لصار ميلاده الأول دليل عنده على ميلاده الثاني .

وقد أريد بـ «الشياطين» هنا قادة السوء .. فهؤلاء القادة يضللون الجماهير بالألفاظ المموّهة الخداعة، وعلى هذا الاعتبار فإنهم يمارسون عمل الشيطان نفسه .. وهؤلاء القادة يبدون في العالم الراهن على ذروة المجد والعظمة، مما يجعل أنظار الناس تتجه نحوهم في دهشة وإعجاب وبالتالي يتعذر عليهم أن يهملوهم أو يعرضوا عنهم،

إلا أن عظمتهم وأمجادهم كلها ستنعدم في الآخرة، وسيقذف هنالك بكبار الناس هؤلاء في هاوية الذل والهوان، تماما كما يقذف فيها بصغارهم !

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

عِتِياً : عصيانا ، أو جراءةً أو فجوراً .

صِلِياً : دخولاً أو مقاساة لحرها.

وَارِدُهَا : بالمرور علي الصراط الممدود عليها .

إن عدم الإيمان بالحق جريمة، وأما إقامة حركة تستهدف صد الآخرين عن الإيمان بالحق، فهي جريمة أكبر وأفظع .. ومن ثم فالذين يتولون قيادة حركة المعارضة عن الحق، يستحقون عند الله عقوبة أشد وأنكى، وسوف يعذب هؤلاء في الآخرة عذابا مضاعفا بالقياس إلى عامة المنكرين .

يتضح من بعض نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية أن الله – سبحانه وتعالى – سيمرّر الخلائق جميعا عبر جهنم، وهذا المرور أو الاجتياز سوف لا يكون من داخل جهنم بل من فوقها، تماما كما يجتاز الواحد منا نهرا عميقا بواسطة الجسر القائم فوقه، فقد يقع بصره على أمواج هائلة تتلاطم في النهر تحته، إلا أنه لا يغرق فيها .. وهكذا فسوف يمر الجميع على جهنم في يوم القيامة، أما الصالحون منهم، فسيفضى بهم المسير، في نهاية المطاف إلى أن يدخلوا الجنة ليخلدوا فيها أبداً .. وأما الطالحون فلن يستطيعوا العبور ولا التقدم نحو الأمام، حيث إن جهنم لن تلبث أن تعرف أنهم وقودها، فتجذبهم نحوها، ليستقروا في قاعها.

وسيكون الغرض من تلك التجربة تمكين الداخلين في الجنة من أن يشعروا حق الشعور وأعمقه بنعمة الله العظيمة، التي تمثلت في إنقاذه تعالى إياهم من شر دار وإيصالهم إلى خير دار!!

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾

خَيْرٌ مَّقَاماً : منزلا وسكنا .

وَأَحْسَنُ نَدِيًّا : مجلسا ومجتمعاً .

قَرْنٍ : أمة .

أَحْسَنُ أَثَاثا : متاعا من الفرش والثياب وغيرها.

وَرِءْيا: منظرا وهيئة .

إن الذين لا يهمهم أمر الحق والباطل شيئا، وهم يعطون الأهمية كلها لمصالح الدنيا دون الآخرة، ويهتمون بإرضاء الجماهير أكثر من إرضاء الله تعالى، إن أناساً كهؤلاء يظفرون دوماً بأوفر قسط من النجاح والتوفيق في الحياة الدنيا كما يتجمع حولهم أكبر قدر من المباهج المادية، ومظاهر الأبهة ووجاهة الشأن ما يجتذب الأنظار ويبهر العيون.

وبالمقابل فإن الذين ينظرون في كل أمر من حيث تمييز الحق من الباطل، وبالتالي يؤثرون مصالح الآخرة على مصالح الدنيا، والذين يكونون أكثر اهتماماً وأشد اكتراثاً بمرضاة الله منهم بالاتجاه الشعبي، فإن أمثال هؤلاء يظلون في الأغلب الأعم محرومين من أسباب الأبهة والفخامة الظاهرية .

وهذا الفارق ربما يتسبب في إيقاع الكثيرين في سوء الفهم، إذْ يحسبون أن الأفضل حالاً من الناحية الدنيوية، هو المحبوبون عند الله، وأما الذين هم أسوأ حالاً من الناحية الدنيوية فهم – بالعكس -- غير محبوبين عند الله .. ولكن هذا المعيار خاطئ بالمرة .. وإنما يكفي لدحضه والرد عليه نظرة تأمل في تاريخ الماضي، فكم من رؤوس متعالية فخراً وزهواً دفنت تحت التراب فصارت تراباً، وكم من قصورٍ شامخاتٍ فخمةٍ، عفا عليها الزمن، فلم تعد تُرى للرائين اليوم إلا في صورة خرائب وأطلال !

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ ﴾

فَلْيَمْدُدْ لَهُ :يمهله استدراجاً .

وَأَضْعَفُ جُنداً : أقل أعوانا وأنصارا .

إن إتاحة الفرصة للرجل الطاغي في الحياة، إنما تكون بسبب مهلة الامتحان، وليس بناءً على أي حق له .. ولكن المرء لا يدرك – في أكثر الأحيان – هذا الفارق، فإذا به ينظر إلى المهلة الوقتية على أنها هي حالته الدائمة، ولا تكاد تنفتح عيناه ويعود إليه صوابه، ما لم يتم إعلان انتهاء المهلة، ويسلب منه بالتالي حق ممارسة الطغيان .

وربما يقدر الله لأحد الناس، لحكمة هو أعلم بها، يقدر له أن يجرب ذلك في هذه الدنيا، بينما يترك بعضهم على ما هو عليه، حتى يوافيه الموت، فيريه الشيء الذي لم يكن قد استعد لرؤيته في الحياة الدنيا !

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾

وَخَيْرٌ مَّرَدًّا : مرجعا وعاقبة .

الاهتداء هو أن يستيقظ شعور المرء ويتحرك وعيه في الاتجاه الصحيح .. وإن شخصاً كهذا حين يواجهه وضع ما، يؤوله على وجهه، فيجعله غذاءً لروحه وفكره، وهكذا لا يزال هداه في زيادة مطردة باعتبار اليقين والكيفية.. إذ لا يكون هداه مثل صخرة جامدة صماء، بل شأنه شأن شجرة حية لا تزال تنمو وتزدهر باستمرار .

وكما أن العامل من أجل الدنيا يتقدم تقدما مستمرا نحو الأمام والأفضل،فإن عمل العامل الذي يضع الآخرة نصب عينيه،هو الآخر قابل للزيادة والنمو المتصل كذلك.. وبما أن هذه الزيادة يتم ادخارها لصاحبها في الآخرة،لذا فهي لا تُرى في هذه الدنيا،ولكن حين تمزق القيامة كل الحجب،فسوف يلاحظ الجميع هناك كيف أن هدى المهتدي كان في ازدياد مستمر جنبا إلى جنب مع نماء عمله وازدهاره المتواصل !.

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾

أَفَرَءَيْتَ : أخبرني .

أَطَّلَعَ الغَيْبَ : أَعَلِمَ الغيب (استفهام) .

وَنَمُدُّ لَهُ : نطول له أو نزيده .

حين يظفر المرء من الثروة والقوة بنصيب ما، يتولد في داخله نوعٌ كاذب من الثقة بالنفس، مما يجعله يسلك مسلكاً لا يتفق ووضعه الحقيقي، وتصدر من لسانه أقاويل لا ينبغي له أن يتفوه بها .

وقد حدثت واقعة كهذه في مكة.. إن العاص بن وائل كان واحداً من رؤساء المشركين بمكة، وكان عليه دين لخباب بن الأرت، فجاء إليه يتقاضاه، فقال: لا والله لا أقضيك،حتى تكفر بمحمد، فما وسع خباب إلا أن قال: لا والله لا أكفر بمحمد، حتى تموت ثم تبعث .. فرد عليه العاص بن وائل قائلاً: إذن فموعدك الآخرة، فإني عندما أبعث ثانيا بعد الموت، سأكون هناك أيضاً ذا مال وبنين !!

وما هذا كله إلا أقاويل فارغة مصدرها الثقة الكاذبة بالنفس، وإن الثقة الكاذبة بالنفس لن تغني عن أحد شيئاً .

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾

عِزًّا : شفعاء وأنصارًا يتعززون بهم .

ضِدًّا : ذلا وهوانا لا عزا أو أعوانا عليهم .

الإنسان يريد أن يفعل ما يشاء في هذه الدنيا، من غير أن يضطر إلى مواجهة ما يستتبع سوء عمله بالضرورة من وخيم العاقبة.. وإذْ لم يكن بإمكان شخص ما أن يحصل على ضمان كهذا من قبل الله، فإنه لم يلبث أن افترض ثمة ذوات هي أحب وأقرب ما تكون إلى الله، وهي بذلك تستطيع - فيما يزعم – أن تقف إلى جانبه شافعة له في جناب الله جل وعز .. غير أن هذه كلها قياسات باطلة لا أساس لها من الصحة، وبالتالي فهي غير مجدية عن أحد فتيلاً.. حتى إن تلك الذوات التي كان المرء قد أدى لها طقوسا عبادية، زاعما إياها شريكة في الألوهية، سوف لا تلبث بدورها أن تتبرأ منه ومن عبادته، يوم القيامة، حيث لن يجد الإنسان من جانبها شيئا سوى الكراهية والمقت والنفور الشديد !!

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾

عند رفض المرء للحق، وقد ظهر أمامه في صورته الواضحة الجليلة، لما يتسبب في تمكين الشيطان من التسلل إلى داخل النفس وإغرائها بالشر .. حيث لا يلبث عقل المرء بعدئذ أن يسير في الاتجاه المضاد تماما، وبالتالي فكل دليل يقدم إليه الآن ينقلب رأسا على عقب، وقد تتجلى آيات الله الباهرة بين يديه، إلا أنه يحولها إلى غذاء لطغيانه وتمرده بتفسيرها على هواه .

والذي يستند على دعائم وهمية كاذبة يصاب دوماً بمثل هذا الجهل والسفه، ولكن الذين يخافون من الله يتخذون من الله وحده سنادهم وموضع ثقتهم.. فإن الخوف من الله يبطل عندهم وجود كل تلك الذوات التي إنما يضل الناس وينحرفون عن طريق الحق السوي باعتمادهم الكاذب عليها .. وهؤلاء هم الذين سيتم استقبالهم في الآخرة كضيوف الله المكرمين !

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾

شَيْئًا إِدًّا : منكرا وفظيعا .

يَتَفَطَّرْنَ : يتشققن ويتفتتن من شناعته .

وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَداً : تسقط مهدودة عليهم.

إن هناك احتمالين اثنين يمكن اعتبار أحدهما أو كليهما معا مصدر هذا الزعم القائل بأن لله بنين وبنات.. فإما لكون الله تعالى في حاجة إلى معين، وإما لكونه يتمنى، كالبشر العاديين، أن يكون له ولد، ومن ثم فقد اتخذ لنفسه ولداً.. وكلا هذين الاحتمالين باطل لا أساس له من الصحة .

إن تكوين الأرض والسماء كامل ومحكم لدرجة غير ممكن التصور بالمرة أن يكون صانعها ومدبر شئونهما إلهاً يعاني من نقائص وعيوب كتلك التي نعاني منها نحن البشر، إن التصور القائل بولد لله ، لا ينطبق ، بأي وجه من الوجوه ، على ذلك الخالق العظيم الذي تعرفنا به مخلوقاته !

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾

وُدًّا : مودة ومحبة في القلوب .

ربما يحدث أن الذين ينهضون بالحق، يصبحون لدى الجماهير ثقيلي الظل مبغوضين، إذْ يأخذ القائمون على الصدق المغشوش ينظرون إلى حملة الحق غير الشرعي هؤلاء نظرة تقزز واشمئزاز .

على أن هذا شأن العالم الراهن وحده، وأما شأن الآخرة، فسيكون مختلفاً عن ذلك كل الاختلاف، حيث ستكون البيئة هناك بأكملها مع أولئك الذين يقيمون أنفسهم على الحق الخالص، إن الشرف والقبول في العالم الآخر، سيقعان كلياً في نصيب أولئك الأفراد وحدهم، الذين كانوا قد ربطوا وجودهم هنا بالحق الخالص، غير مبالين بسمعة الدنيا وقبولها.

في عالم الصدق المغشوش إنما يحظى بالشرف من يقوم على الصدق المغشوش كذلك، فإن الشرف في عالم يسوده الصدق الخالص، لن يفوز به إلا الذي كان قائماً على أرضية الصدق الخالص !

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾ ﴾

قَوْماً لُّداً : شديدي الخصومة بالباطل .

قَرْنٍ : أمة .

تُحِسُّ : تجد . أو ترى . أو تعلم .

رِكْزاً : صوتا خفياً .

إن كتاب الله قد نزل في لغة واضحة مفهومة لدى الإنسان .. كما أن مضامينه قد روعيت فيها كل تلك الجوانب التي تجعل كتاباً ما، بحيث يستطيع أي إنسان أن يقتبس منه – إذا شاء – نور الهداية والتوجيه.. غير أن القرآن – مع هذا كله – لا يكون وسيلة هداية وإرشاد إلا لأناس يتمتعون بالجدية، وهم يتطلعون نحو معرفة الحق من الباطل، كي يتجنبوا الباطل، ويبنوا حياتهم على أساس من الحق .. وأما الذين قلوبهم خالية من الجدية وجذوة التطلع نحو المعرفة، فإنهم إذْ يسمعون تعاليم القرآن، فإنما يثيرون مناقشات فارغة حولها، ولن يستفيدوا منها شيئاً ذا بال .

والذين يتصدرون لمعارضة دعوة الحق، يظلون دوما ضحايا الغرور وسوء الفهم بأن صنيعهم ذاك لن يعرضهم لخطر أو خسارة ما، ومع أن حوادث الدمار والهلاك الذي لحق بمعارضي الحق السابقين، تكون متوفرة من حولهم، إلا أنهم لا يعتبرون بها.. ولا يزالون يحسبون، حتى اللحظة الأخيرة الحاسمة، أن كان ما حدث، إنما كان للآخرين وحدهم، وأنه لن يحدث معهم شيء من ذلك أبداً .

غير أن قانون الله عام وشامل لا استثناء فيه.. فكل واحد هنا سيلقى حتماً ما قد لقيه الآخر حسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر !!

سورة طه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾

لِتَشْقَى : لتتعب بالإفراط في مكابدة الشدائد والتأسف على قومك .

عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى : استواء يليق به تعالى .

وَمَا تَحْتَ الثَّرَى : ما وراء التراب . أو ما وراء الأرض .

إن القرآن،مع كونه قد جاء للتذكير وحده، إلا أنه لا يكون تذكيراً تقوم معه الحجة على المدعو إلا إذا بذل الداعي إليه جهده وطاقته كلها في سبيله .. وإلا إذا بلغ من النصح وحب الخير للآخرين إلى حد نكران الذات، بحيث تنطلق الألسنة تقول: إن هذا قد عرّض نفسه للعناء والمشقة من أجل إرشاد الناس إلى طريق الحق .

على أن الدعوة ، مهما تم تقديمها بأسلوبٍ كاملٍ وبليغٍ ، إلا أنه لا يوفق للاهتداء بها عملياً ، سوى ذلك العبد الذي يكون عارفاً بالحق ، والذي يتوفر لديه استعداد للتلقي والقبول ، بحيث يكون وضوح الأمر على مستوى الدليل والبرهان يصير كافياً لفتح عيونه.

إن الله الذي قام بخلق العالم،هو الذي أنزل القرآن الكريم،ولذا فليس ثمة تناقض بين القرآن والفطرة .. إن القرآن تذكير بحقيقةٍ يوجد الاستعداد لمعرفتها وإدراكها في الفطرة الإنسانية بصورةٍ مسبقةٍ !

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ

ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾﴾

وَأَخْفَى : حديث النفس وخواطره .

ربما يضطرب قلب الداعي ، وتنتابه مشاعر الهم والقلق بين حينٍ وآخر ، فيتضرع إلى الله تارةً سراً ، وقد تنفجر كلمات الدعاء من فمه تارةً أخرى بصوتٍ مسموعٍ عالٍ ، ويبدو ظاهراً كأنه وحيد ليس له من صديقٍ ، ولا نصيرٍ في هذا العالم المليء بالبشر!!

بيد أن ذلك ليس إلا وضعاً ظاهرياً محضاً ، فإن الداعي يقوم ، من حيث الحقيقة ، على أمتن دعامةٍ وأقوى سندٍ ، إنه ينادي رباً يحيط علماً حتى بالألفاظ المنطوقة في الوحدة سراً ، وبالمناجاة التي تجري في أعماق القلوب .. وإنه يضع ثقته في الله العظيم الذي يملك كل ما يُتصور وما لا يتصور من الطاقات التي يُحتاج إليها لنجدة مستنجدٍ وإغاثة مستغيثٍ ملهوف!

﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴿١٠﴾﴾

آنَسْتُ نَاراً : أبصرتها بوضوح .

بِقَبَسٍ : بشعلة نار مقبوسة على رأس عود .

هُدًى : هاديا يهديني إلى الطريق .

وُلد موسى - عليه السلام - في مصر ، وقد قُتل يوماً رجل من القبط بيده عن غير عمدٍ، ففارق بعدئذٍ بلاد مصر ، وذهب إلى مدين ، حيث مكث عدداً من السنين .. وتزوج هناك من امرأةٍ ، ثم رجع عائداً برفقة زوجته إلى مصر ، وقد كان معه إذْ ذاك قطيع من الغنم أيضاً.

وفي أثناء سفره ذاك ، كان سيدنا موسى يمرّ بوادي الطور ، جنوبي شبه جزيرة سيناء، إذْ انتشر ظلام الليل الدامس ، فصار لا يتبين له وجه الطريق الصحيح ، وزيادةً

على ذلك فإنها كانت ليلة شتاء شديدة البرودة ، وبينما هو على هذه الحال رأى ناراً من بعيدٍ تتوقّد ؛ فاتجه نحوها ، لكي يأتي منها بجذوة يستدفئ بها هو وأهله ، وإن كان ثمة أحد يسأله عن الطريق!

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ۝ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ۝ ﴾

الْمُقَدَّسِ : المطهر أو المبارك .

طُوًى : اسم للوادي .

أَكَادُ أُخْفِيهَا : أقرب أن أسترها من نفسي .

فَتَرْدَى : فتهلك .

إن النار التي رآها موسى لم تكن ناراً عاديةً ، بل كانت إحدى تجليات الله .. ومن ثم فلما دنا منها ، تم إشعاره بأية بقعةٍ هو الآن .. كما أُمر بخلع النعلين من قدميه ، لكي ينصت لما يلقى إليه في تواضع وأدبٍ ، ثم قرع سمعه صوت يقول : إن الذي يكلمك الآن – يا موسى – إنما هو الله جل جلاله ، وقد اختارك الله لإبلاغ رسالته.

وإن ما أوحي إلى موسى حينذاك ، هو التعاليم التي توحي إلى كل الأنبياء والمرسلين على الدوام ، ألا وهي اتخاذ الله الواحد إلهاً ، وإفراده وحده بالعبادة ، وذكره تعالى على كل حالٍ ، وفي كل حينٍ .. ثم أخبر موسى بحقيقة الحياة هذه ، بأن العالم الراهن هو عالم امتحانٍ واختبارٍ ، وقد أخفى الله الحقائق وراء ستار الغيب إلى أمدٍ معينٍ محدودٍ، ومع قيام الساعة لا يلبث أن يتمزق هذا الستار ، فتنكشف الحقائق كلها بجلاءٍ ، وستبدأ بعدئذٍ المرحلة التالية لحياة الإنسان ، حيث يجد الكل مكانه بحسب أعماله التي

كان قد مارسها في الحياة الدنيا .

والمرء حين يستبد به الهوى ، وتغلبه الشهوات ، وبالتالي ينغمس في ملاذ الدنيا ومتعها ، غير مكترث بالآخرة ولا حاسبٍ لها أي حسابٍ ، فإنه يخترع نظرياتٍ شتى تبريراً لفعله ويبين موقفه وسلوكه بعباراتٍ جميلةٍ رائعةٍ ، مما يجعل الآخرين أيضاً غافلين عن الآخرة ، وفي مثل هذه الحالة ينبغي للمؤمن أن يكون على حذرٍ دائمٍ ، يُمكّنه من صوْن نفسه من أن تتأثر بالغافلين عن الله واللامبالين بمطالب الآخرة ، أو تنخدع بمعسول كلامهم ، فيتخلى عن السعي لأجل سعادة الآخرة!

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

أَتَوَكَّأُ : أتحامل عليها في المشي ونحوه .

وَأَهُشُّ بِهَا : أخبط بها الشجر ليساقط الورق .

مَآرِبُ أُخْرَى : حاجات ومنافع أخرى .

حَيَّةٌ تَسْعَى : تمشي بسرعة وخفة .

سِيرَتَهَا الأُولَى إلى حالتها التي كانت عليها .

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ... ﴾ لقد وُجه هذا السؤال إلى موسى إيقاظاً لوعيه .. وكان الغرض منه أن يتجدد لدى موسى الشعور بكون عصاه عصاً لا غير .. حتى إذا انقلبت، بقدرة الله، إلى حيةٍ في اللحظة التالية، أدرك مدى أهميتها وقيمتها حق الإدراك .

إن صيرورة عصا موسى حيةً ، قد كانت حادثةً غريبةً تماماً كصيرورة التراب والماء إلى خشبةٍ .. وإن كل ما نراه فوق الأرض ، إنما هو تحول شيءٍ إلى شيءٍ آخر ، كتحول الغازات إلى مركب الماء ، وتحول التراب إلى صنوف النبات والشجر .. إلخ ، وبما أن

هذه التحولات تتم ، في الظروف المعتادة ، على نحوٍ تدريجي ، لا يكاد الإنسان يشعر بما فيها من جوانب الدهشة ، والإعجاز .. وأما عصا موسى فلكونها أخذت فجأةً شكل حيةٍ تسعى ، أصبحت تبدو عجيبةً .

والحقيقة هي أن كل ما يوجد في هذا العالم أو يحدث فيه ، هو برمته معجزات الله ، سواء كان ذلك خروج الخشب من باطن الأرض ، أو تحول خشبةٍ إلى حيةٍ .. وإنما يتم إظهار المعجزات غير العادية على أيدي الأنبياء ، لكيما يصير البشر أهلاً لرؤية المعجزات العادية المنبثة هنا وهناك في أرجاء الكون المحيط بهم ، حتى وفي ذات أنفسهم كذلك!

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾

إِلَىٰ جَنَاحِكَ : إلى جانبك تحت العضد الأيسر .

بَيْضَاءَ : لها شعاع يغلب شعاع الشمس .

غَيْرِ سُوءٍ : غير داء برص ونحوه .

طَغَى : جاوز الحد في العتو والتجبر .

إن وقائع الأنبياء السابقين ذُكرت في التوراة كما ذكرت في القرآن الكريم ، غير أن هناك فروقاً ذات مغزىً بالغ الأهمية ، في أكثر من موضعٍ، بين روايتي القرآن والتوراة .. وعلى سبيل المثال جاء في التوراة فيما يتصل بمعجزة اليد هذه ما يلي : «ثم قال له الرب أيضاً: أدخل يدك في عبك ، فأدخل يده في عبه ، ثم أخرجها ، وإذا يده برصاء مثل الثلج» . (سفر الخروج ٤:٧) .

تصف التوراة بياض يد موسى بـ «البرص»، وفي حالةٍ كهذه، فإن زيادة القرآن عبارة ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾، في معرض الحديث عن معجزة اليد البيضاء،مما يدل صراحةً على

أن القرآن غير مستمدّ من التوراة ، بل هو تنزيل من الله علام الغيوب ، وهو بذلك جاء مصححاً لما وقع في التوراة من تحريفاتٍ بشريةٍ .

وقد أُعطي موسى – عليه السلام – معجزتين خاصتين : وقد كانت معجزة الحية بمثابة رمزٍ للقوة بالنسبة إليه.. بينما كانت معجزة اليد البيضاء علامةً على أنه على حقٍ وضّاء منيرٍ .

أما طغيان فرعون أي تجاوزه الحد فهو أنه حين امتلك زمام السلطة ، ظن نفسه إلهاً.. ومعنى فرعون اللفظي هو : ابن الشمس ، فقد كان المصريون القدامى يعتبرون الشمس كبير الآلهة (الرب الأعلى) ، فادعى فرعون أنه المظهر الأرضي لإله الشمس ، وبالتالي نُحتت له تماثيل وأصنام ، وُضعت في كل مدن مصر وقراها ، وأصبحت موضع التقديس والعبادة .

إن السلطة نعمة من الله تعالى .. وينبغي على المرء ، إذا ما أتيحت له هذه النعمة ، أن تستيقظ في داخله مشاعر الشكر والامتنان لربه ، غير أن الإنسان الطاغي حين يحصل على السلطة ، يأخذ في اعتبار نفسه هو إلهاً !

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾

وَزِيراً : ظهيرا ومعينا .

أَزْرِي : ظهري وقوتي .

أُوتِيتَ سُؤْلَكَ : أعطيت مسؤولك ومطلوبك .

عقب حصوله على النبوة ، كان من الممكن أن تتولد في نفس موسى مشاعر الفخر ،

غير أن ما سأله ربه حينذاك ، يوضح أنه لم ينظر إلى النبوة على أنها مفخرةً ، بل على أنها مسئولية .. فالكلمات التي نطق بها حينذاك ، هي التي تصدر من لسان مَنْ يستشعر ويعي خطورة مسئولية الدعوة الملقاة على عاتقه .

وانشراح الصدر بالنسبة للداعي هو أن تتوارد على قلبه تلقائياً معانٍ بليغة ومؤثرة بحسب مقتضيات الأحوال .. وتيسير الأمر هو : ألا ينجح المعارضون في عرقلة طريق الدعوة أبداً .. وأما حل عقدة اللسان فهو: حصول القدرة على عرض الدعوة أمام جموعٍ حاشدةٍ من الناس من غير تلعثم ولا تهيب .

ولقد منح الله موسى كل هذا تمكيناً له من القيام بأداء واجبات النبوة والرسالة كما أيده - استجابةً لطلبه - بجعل أخيه - هارون - مساعداً قوياً له .. وهذا النصر أو التأييد الذي اختص به النبي ، يمكن أن يحصل للداعي غير النبي كذلك .. وذلك بشرط أن يربط الداعي وجوده كله بعمل الدعوة تماماً كما كان النبي قد ربط به كل وجوده .

إن التسبيح والذكر هو المقصود الأصلي للدين ، غير أن المراد بالتسبيح والذكر ليس أي نوعٍ من الأوراد اللفظية ، بل إنما المراد بذلك تلك الكيفية التي تتولد كنتيجةٍ طبيعيةٍ لإدراك الحق .. فحينئذٍ - يجرب وجود الإنسان صفات الله الكمالية بحيث ينغمس فيها، ويغمره الشعور بالجلال الإلهي بحيث يعود مبشراً به ، داعياً إليه أينما حل وسار !

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ : فألقيه واطرحيه في نهر النيل.

وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي : لتربى بمراقبتي أو بمرأى مني .

مَن يَكْفُلُهُ : من يضمه إليه ويحفظه ويربيه .

تَقَرَّ عَيْنُهَا : تسر بلقائك .

وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً : خلصناك من المحن تخليصاً .

جِئْتَ عَلَى قَدَر: على وفق الوقت المقدر لإرسالك .

لقد كان الأقباط سكان مصر الأصليين ، وكان يمثلهم - سياسياً ودينياً - فرعون الطاغية .. أما بنو إسرائيل فقد كانوا شعباً وافداً على مصر من الخارج ، حيث جاءوا هنا واستوطنوا في عهد سيدنا يوسف - عليه السلام - .. وفي الزمن الذي وُلد موسى في بيتٍ من بني إسرائيل ، كان فرعون قد أصدر أمره بالقضاء على نسل إسرائيل ؛ بإعدام كل طفلٍ يُولد في بيوت الإسرائيليين ، وقد أنقذت أم موسى وليدها من القتل ، إذْ وضعته - على حسب الإلهام الإلهي - في سلةٍ وألقتها في النيل .

وانطلقت هذه السلة تجري مع تيار الماء ، حتى اقتربت من قصر فرعون ، حيث وقع بصره هو وزوجته على الطفل الصغير بداخلها ، فرقّ له فؤادهما ، فأمرا بعض الخدم بانتشاله من الماء ، وإدخاله القصر .. ثم جيء بأم موسى، امتثالاً لطلب أخته ، لتتولى حضانته وإرضاعه ، إذْ كان الله قد زهّده في المراضع الأخرى ، فلم يكن يقُبل على ثدي إحداهن .. وإنها لمعجزة من الله ، أن تتم تنشئة موسى وتربيته بواسطة فرعون نفسه ، الذي سيصبح مستقبلاً أعدى أعدائه !!

وذات يومٍ ، وقد كبر موسى وصار فتىً قوي البأس وافر القوة ، رأى قبطياً كان يتشاجر مع أحد الإسرائيليين، فوكزه وكزةً مات في إثرها على نحوٍ غير متوقعٍ ، وبعدئذٍ صدر من جانب الحكومة قرار بإلقاء القبض على موسى ، ولكنه نجح في الفرار من

مصر خفيةً ، ووصل إلى مدين ، حيث ذاق المزيد من ألوان التجارب الحياتية ، في أحضان بيئة صحراويةٍ طبيعيةٍ .. وقد تضرع موسى ، في أعقاب هلاك القبطي على يده، إلى الله ، ودعاه، وكانت نتيجة ذلك أن جعل الله تعالى هذا الحادث وسيلةً أخرى لتعليمه وتربيته!.

﴿ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي : اصطفيتك لرسالتي وإقامة حجتي .

وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي :لا تفترا في تبليغ الرسالة.

لما بلغ سيدنا موسى – بعد مروره بصنوف البلاء وألوان التجارب – إلى آخر درجةٍ من كمال الشعور ونضج الوعي ، ألقى الله على عاتقه أمانة الدعوة النبوية وتبعة إبلاغ الرسالة .. وقد أوصاه الله حينذاك بوصيتين خاصتين : أولاهما : عدم التقصير أو التراخي في ذكر الله .. والثانية هي: الأخذ بأسلوب الملاطفة واللين في الدعوة .

والمراد بذكر الله هو امتزاج اليقين بالله بقلب المرء وفكره بحيث لا يفتأ يعاوده ذكره تعالى كل حينٍ وآنٍ.. وأن تكون كل مشاهدةٍ وكل حادثةٍ من حياته مرتبطةً بشعوره الإلهي ، بحيث تصير موقظةً له من الفتور والغفلة على الدوام.

إن البشر العاديين يعيشون على الأغذية المادية ، أما داعية الحق فهو يعيش على ذكر الله ، وكما أن ذكر الله رأس مال المؤمن في هذه الحياة فهو ذاته بضاعة الداعي كذلك .

الوصية الثانية تؤكد على ضرورة الأخذ بمنهج الرفق واللين في الدعوة .. والتأكيد على ذلك ، وبخاصةٍ عند البعث بالرسول إلى طاغية جبار كفرعون ، مما يبرهن على أن الرفق واللين في الدعوة مطلوب على نحوٍ مطلقٍ ودائمٍ ، فأي عنادٍ أو سوء معاملةٍ من قبل المدعو لا يعطي للداعية الحق في أن يتخلى عن منهج اللين والملاطفة في ممارسة

نشاطه الدعوي !.

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

يَفْرُطَ عَلَيْنَا : يعجل علينا بالعقوبة .

يَطْغَى : يزداد طغيانا وعتواً وجرأة .

إِنَّنِي مَعَكُمَا : حافظكما وناصركما .

كان فرعون قد بلغ أقصى حدود التكبر والطغيان؛إذْ كان يظن نفسه إلهاً،اغتراراً بما أتيح له من السلطة والقوة .. ولذلك فقد أحس موسى بنوعٍ من الخوف من أن فرعون حين يستمع إلى رسالته التي يبلغها إليه عن إلهٍ آخر سواه،فلن يلبث أن يشتعل غضباً.. غير أن نبي الله يكون في عصمةٍ من الله،وتحت رعايته الدائمة،ومن ثم أُمر بأن اذهب إلى فرعون واثقاً تمام الثقة،من أنه لن يستطيع إصابتك بأي أذىً أو مضرةٍ .

إن بني إسرائيل كانوا مسلمي العصر القديم .. ومع كونهم في الأصل شعباً موحّداً، إلا أنهم بسبب تعايشهم جنباً إلى جنبٍ مع شعب مصر الوثني منذ أمدٍ بعيدٍ ، كانوا قد تأثروا بالحضارة الوثنية السائدة أسوأ التأثر ، ويضاف إلى ذلك أن الحكام المشركين كانوا قد استبعدوهم وسخروهم في الخدمات والأعمال الشاقة ، بحيث لم يعودوا معها أهلاً ليتفكروا بجديةٍ فيما يتعلق بالتوحيد والآخرة من حقائق ومعانٍ ساميةٍ ، ولهذا السبب أُمر سيدنا موسى بإخراجهم من تلك البيئة الوثنية الموبوءة ، والذهاب بهم إلى بقعةٍ أخرى مستقلةٍ ، لكي يمكن إصلاحهم وتربيتهم بعيداً عن مناخ الشرك والجاهلية !

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾

خَلْقَهُ : صورته اللائقة بخاصته ومنفعته .

هَدَى : أرشده إلى ما يصلح حاله .

فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى ؟ : فما حال وما شأن الأمم ؟

لاَّ يَضِلُّ رَبِّي : لا يغيب عن علمه شيء ما .

إن سؤال فرعون ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ لم يكن يعني أنه على غير علمٍ بأي إلهٍ آخر سواه ، أو أنه لا يعترف بوجود ربٍ أعلى إطلاقاً .. بل إنما كان ذلك استخفافاً منه بقول موسى ، وليس إنكاراً له على الإطلاق .. فقد سبق أن قام سيدنا يوسف - عليه السلام - بنشر عقيدة التوحيد في مصر ، وكان لا يزال هناك مئات الآلاف من بني إسرائيل موجودين وهم يؤمنون بالإله الواحد ، الأحد ، الفرد الصمد ، وهكذا فإن عقيدة الرب الواحد الأعلى، وإن كانت باقيةً بمصر ، إلا أن كل أسباب القوة ومظاهر الأبهة والسلطان كانت قد تجمعت بالفعل حول فرعون الطاغية ، الذي كان يمثل ، طبقاً لاعتقاد المصريين ، المظهر الأرضي لكبير آلهتهم (الشمس) ، وهو بذلك كان يعتبر الملك الإلهي أو الشبيه بالإله (God-king) وبالتالي صارت تماثيله موضع التقديس والعبادة في طول البلاد المصرية وعرضها.

وفي مقابل ذلك فإن موسى - عليه السلام - كان فرداً من بني إسرائيل ، الذين كانوا يُعدون قوماً من العبيد والعمال في مصر يومذاك ، وللسبب ذاته فقد كانت عقيدتهم الدينية هي الأخرى عقيدةً لا يُقام لها وزن ولا تستحق الذكر بجانب عقائد المصريين .

الدنيا حافلة بأشياء لا تُعد ولا تُحصى .. وكل شيءٍ له هيئة أو تكوينه المتفرد ، كما أن له منهج عملٍ محدد يختلف عما سواه تمام الاختلاف. ومن المستحيل إحداث تغييرٍ ما في تكوين أحد الأشياء ولا في منهج عمله .. ولا يُستثنى من ذلك حتى طاغية جبار كفرعون .. مما يقيم دليلاً صارخاً على وجود خالقٍ عظيمٍ وربٍ أعلى.

وحين قدم موسى هذا الدليل ، حتى شعر فرعون بأنه عاجز عن رده بطريقٍ مباشرٍ ، فما لبث أن غيّر مسار الحديث .. وحيث أراد ، بعد أن بدا ضعفه وعجزه في ميدان الدليل ، أن يستثير عواطف التعصب الكامنة في النفوس، حفاظاً على تفوقه وكبريائه بين الناس ، فقال: إن كان ما تقوله أنت - يا موسى - هو الحق ، فأي مصيرٍ لقي أو سيلقاه أسلافنا العظماء الذين قد ماتوا في حالة ضلالٍ وانحرافٍ عن الحق ، بمقتضى نظريتك التي جئت بها .. وفي جواب ذلك سلك سيدنا موسى مسلك الإعراض .. إذْ قال له : مالك ولمن مضى من الناس ؟ لتفوض أحوالهم ومآلهم إلى الله العليم الخبير ، وإنما عليك بنفسك ، فلتفكر في إصلاحها .. فتلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولك ما كسبتَ ، ولا تُسأل عما كانوا يفعلون !.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

مَهْداً : كالفراش الذي يوطأ للصبي .

سُبُلاً : طرقا تسلكونها لقضاء مآربكم .

أَزْوَاجاً :أصنافاً أو ضروباً .

شَتَّى : مختلفة الصفات والخصائص .

لأُوْلِي النُّهى : لأصحاب العقول والبصائر .

إن خلق الأرض ، وإقامة نظام المطر ، ونمو النباتات ، وما إلى ذلك من التدابير الأخرى التي جعلت العالم الراهن صالحاً لسكنى الكائنات الحية بما فيها الإنسان ، تبلغ من العظمة والروعة حداً يبعث على الدهشة والذهول .. إنها آية تبرهن على أن خالق هذا العالم وما لكه إله عظيم ؛ فإن إيجاد عالمٍ كعالمنا الراهن ، يتطلب قدرةً كبيرةً وشاملةً لا يتمتع بها أي شمسٍ ولا أي ملكٍ .. فلا مناص إذن من أن نؤمن بأن صانعه والقائم بإدارته وتدبير شئونه هو الله الواحد العلي العظيم لا غير .

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾

وَأَبَىٰ : امتنع عن الإيمان والطاعة .

سُوًى : وسطا أو مستويا من الأرض .

يَوْمُ الزِّينَةِ : يوم عيدكم (يوم مشهود) .

لم يزل موسى - عليه السلام - يدعو فرعون مدةً من الزمان طويلةً .. وقد بين له في أثنائها دلائل وبراهين عقليةً من جهةٍ كما أراه معجزاتٍ وخوارق حسيةً من جهةٍ أخرى.. إلا أنه لم يؤمن بموسى .. فإن الإيمان بصدق موسى كان سيعني _ بالنسبة إلى فرعون - نفياً لذاته ، ومن ثم فقد حالت نفسية فرعون المفعمة بالغرور والاستكبار دون إقراره بالصدق على حساب ذاته !

وقد حاول فرعون إبطال أدلة موسى العقلية وإضعاف تأثيرها على النفوس بإثارة قضايا غير ذات الصلة بالموضوع ، ووصف ما جاء به من المعجزات بأنه سحر ، أي أنه شيء لا علاقة له بالله البتة ، وأن كل شخصٍ يستطيع تحصيل المهارة التي تمكنه من إظهار الشعوذات من هذا القبيل .. وقد جرّه هذا العناد والتعنت إلى أن يتحدى قائلاً :

إنه بإمكاننا أيضاً أن نُظهر ، بواسطة سحرتنا ، شعوذةً مثل التي أظهرتها أمامنا .. وهنا ينتهي الحوار باتفاق الطرفين على أن يُحشر السحرة الماهرون من مختلف أنحاء الدولة ، بمناسبة المهرجان القومي القادم ، لتُقام بينهم وبين موسى مبارزة أو مسابقة يشهدها الناس!

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾

فَجَمَعَ كَيْدَهُ :سحرته الذين يكيد بهم .

فَيُسْحِتَكُم : فيستأصلكم ويبدكم .

بعث فرعون برسله ليأتوا بالخبراء بفنون السحر من سائر أنحاء مملكته ، ولما اجتمع هؤلاء في مكان المهرجان ، ألقى عليهم سيدنا موسى خطبةً ، قبل الشروع في المسابقة .. ولم تكن تلك الخطبة تحتوي على شيءٍ جديدٍ على الناس بالمرة ، بل كانت نوعاً من التذكير .. إذْ من المؤكد أن السحرة وغيرهم من الناس كانوا قد تعرفوا مسبقاً على حقيقة رسالة موسى، وذلك من خلال دعوته - عليه الصلاة والسلام - منذ أمدٍ غير قصيرٍ .. فكانوا يعرفون جيداً بأن موسى قد نهض برسالة التوحيد في مواجهة الشرك .

وفي هذه الخلفية ، أراد سيدنا موسى أن يتوجّه إليهم أخيراً بالتذكير والنصيحة من باب قطع العذر وإقامة الحجة .. فقال لفرعون وسحرته : لا تعتبروا هذه القضية سحراً؛ فإن وصف الآية الإلهية بالسحر ، ومحاولة التغلب عليها بواسطة السحر الإنساني ، أمر متناهٍ في الخطورة .. إنها معارضة حقيقةٍ واقعةٍ بشيءٍ لا حقيقة له إطلاقاً .. وهي لا ولن تؤدي بكم إلا إلى الهلاك والدمار المحقق .. وأنتم تريدون إثبات أني كاذب ، غير أن ذلك - والعياذ بالله - محاولة لإثبات الله نفسه كاذباً .. والذين يمارسون هذا النوع من العناد والطغيان ، لن يُكتب لهم النجاح والفلاح في دنيا الله

أبداً!

﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾

وَأَسَرُّوا النَّجْوَى : أخفوا التناجي أشد الإخفاء .

بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى : بسنتكم وشريعتكم الفضلى .

فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ : فأحكموا سحركم واعزموا عليه .

أَفْلَحَ : فاز بالمطلوب .

لقد أحدث خطاب موسى الفرقة في صفوف السحرة ، وبالتالي أخذوا يتشاجرون فيما بينهم ؛ فمن قائل : ليس هذا بكلام ساحرٍ ، إنما هذا كلام نبيٍ ، ومن قائل : بل هو ساحر مثلنا تماما [1].

لقد كان السحرة – من غير شكٍ – يعرفون نظراءهم .. فما لبث المحنكون وذوو الخبرة منهم أن أحسوا بأنها ليست بقضية سحرٍ ، إنما هي قضية معجزةٍ إلهيةٍ .. ومن ثم فقدوا همتهم للمبارزة .. إلا أنهم تقدموا للمبارزة – رغماً عنهم – بناءً على تحريضات فرعون وأصحابهم المتحمسين المتكررة .. و«الطريقة المثلى» تعني الطريقة الأفضل .. إن بنيان حياة المصريين أيامئذٍ ، كان بأكمله قائماً على العقائد المشركة .. وقد كانت شخصية فرعون ، باعتبارها المظهر الجثماني لكبير الآلهة (الشمس) ، تمثل أساس نظامهم السياسي والاجتماعي.. فاستشار فرعون كوامن التعصب لدى شعبه قائلاً : إن هذا النظام هو نظامنا القومي المفضل.. ولئن كانت الكرة اليوم لحملة التوحيد علينا ، فسوف ينهار نظامنا القومي هذا من القواعد ، ولن تقوم له قائمة بعدئذٍ !

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٨٥.

﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ : أضمر أو جد . وأحس في نفسه .

تَلْقَفْ : تبتلع وتلتقم بسرعة .

كانت كيفية بدء المبارزة أن ألقى السحرة أولاً ما جاءوا به من عصيٍ وحبالٍ في الساحة ، فإذا بها تتراءى حياتٍ وثعابين تتحرك وتسعى .. بيد أن ذلك لم يكن يعدو الشعوذة أو عملية التصرف في العيون بالحيل .. أي أن العصي والحبال لم تتحول إلى حياتٍ وثعابين في واقع الأمر ، وإنما استولى أولئك السحرة على ملكة الخيال لدى الحاضرين ، من خلال التصرف في عيونهم بالحيلة والدجل ، بحيث بدا لهم كأن الحبال والعصى قد انقلبت حيات تسعى .

وعندها ألقى سيدنا موسى - بأمر الله - عصاه في الميدان ، فصارت من فورها ثعباناً عظيماً هائلاً يسعى، ولم يلبث أن ابتلع طلاسم السحرة وحيل تصرفهم في العين والخيال ، وبالتالي عادت تلك الأشياء - التي كانت تبدو قبل لحظةٍ متحركةً مثل الحيات - حبالاً وعصياً كما كانت .

وكان السحرة قد سبق لهم أن تأثروا بكلام موسى منذ الوهلة الأولى .. وها هم أولاء يرون الآن - بعد أن تمت المواجهة العملية - صدق موسى وصحة دعواه رأي العين .. ويعلمون علم اليقين بأن ما جاء به موسى ليس من السحر البشري في شيء ، وإنما هو معجزة إلهية .. وقد بلغ هذا اليقين من العمق حداً جعلهم يبادرون في الوقت

نفسه بإعلان قبولهم بدين موسى على رؤوس الأشهاد!.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾

إن هذه المبارزة لم تكن مواجهةٍ بين فريقين من المشعوذين والدجالين ، بل كانت مواجهةً بين التوحيد والشرك .. أي كان المفروض أن يتقرر من خلالها كون الصدق إلى جانب الشرك ، أو إلى جانب التوحيد .. وبما أن مجد فرعون وسلطانه كانا قائمين على دعائم الشرك ، لم يكد يتحمل هزيمة الشرك هذه ، وبالتالي حكم على السحرة المؤمنين بأشد العقوبات قسوة كانت رائجة لدى المصريين في ذلك الزمان .

ولما انهزم فرعون في ميدان الدليل ، حاول قهر الحق بالقوة .. وتلك هي نفسية أرباب السلطة بوجهٍ عام ، وعلى اختلاف الزمان والمكان ، وسواء في ذلك أكانوا هم من ذوي السلطات الملوكية ، أم ذوي السلطات غير الملوكية !

﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾

وَالَّذِي فَطَرَنَا : أبدعنا وأوجدنا وهو الله تعالى.

لقد كان أمام السحرة - من جانب - بينات موسى .. ومن جانب آخر شخصية فرعون الطاغية الغشوم .. وقد كانت هذه مقابلةً أو موازنةً بين "دليل" و"شخصية" ، وقد فضل السحرة الدليلَ على الشخصية .. مع العلم بأنهم سيضطرون إلى دفع الثمن غالياً جداً لقاء هذا التفضيل ..

إن إيمان السحرة لم يكن بأي إيمان رسمي تقليدي أو متوارثٍ أباً عن جدٍ .. إن إيمانهم كان عندهم بمثابة اكتشافٍ .. والإيمان الذي يفوز به أحد الناس كاكتشافٍ ، يكون قوياً لدرجة أن كل شيء آخر عداه يبدو له بعدئذٍ تافهاً عديم القيمة .

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾

تَزَكَّى : تطهر من دنس الشرك والكفر .

ما معنى كوْن أحد الناس مجرماً ؟ إن كوْنه مجرماً يعني عدم اعتباره واتعاظه بآية الله تتجلى أمامه .. وإهماله للحق يُوضح له بلغة الأدلة والبراهين الساطعة .. وعدم تمكنه من الاعتراف بالحقيقة ، متحرراً من أسر القوى الظاهرية والمصالح المادية الزائلة .

ولأمثال هؤلاء عذاب شديد في الآخرة .. إن مصيبةً ما من مصائب الدنيا ، مهما كانت عظيمة قاسيةً ، إلا أنها محدودة الأمد ، قصيرة الأجل على كل حالٍ ، وهي تنتهي لا محالة بمجيء الموت يوماً ما .. غير أن الآخرة مكان يحيط بالمرء فيه طوفان المصائب والآلام من كل جانبٍ ، والمرء لا ولن يجد إلى الهرب من هناك سبيلاً ، كما لن يأتيه الموت ليضع حداً لسلسلة الآلام التي لا تُوصف !!

الجنة لمن زكّى نفسه .. والتزكية تعني : أن يترك المرء حياة الغفلة والفتور ، ويختار حياة اليقظة والشعور .. ويجنّب نفسه كل ما يحول دون تقدمه نحو الحق .. فإن اعترضت طريقه المصلحة ، مضى أمامها معرضاً عنها ، غير ملقٍ لها بالاً .. وإذا انبعثت شهوة من شهوات النفس ، كبتها على الفور .. وإذا ما تيقظت مشاعر الغرور والكبرياء والظلم ، وأدها في داخله .

وهؤلاء هم المؤمنون الصادقو الإيمان .. وقد نما إيمانهم في الدنيا وازدهر بشكل

حديقةٍ من الأعمال الصالحة .. وإنها لسوف تُرد إليهم في الآخرة بشكل الجنان الخالدة ، التي لا يفنى بهاؤها ، ولا تذهب نضارتها ، وبهجتها إلى الأبد !!

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾

أَسْرِ بِعِبَادِي : سر ليلا بهم من مصر .

يَبَساً : يابسا لا ماء فيه ولا طين .

لاَّ تَخَافُ دَرَكاً : لا تخشى إدراكا ولحاقا أو تبعه .

وَلاَ تَخْشَى : الغرق من الأمام .

فَغَشِيَهُم : علاهم وغمرهم .

في أعقاب المبارزة التي جرت بينه وبين السحرة ، بقي موسى بمصر عدداً من السنين.. وفي خلال ذلك ما زال يدأب - من ناحيةٍ - على دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان بالله الحق ، وطالبهم - من ناحيةٍ أخرى - بأن اسمحوا لي بالذهاب بأصحابي إلى بريّة سيناء ، حيث نعبد الله الواحد الأحد بكامل الحرية .. غير أن فرعون لم يتقبل الدعوة ، ولم يسمح لموسى بالانطلاق مع بني إسرائيل .

وقد قرر موسى آخر الأمر - وعلى حسب الإرشاد الإلهي - أن يهاجر من أرض مصر في صمت .. فاجتمع كل من آمن بموسى من بني إسرائيل وغير بني إسرائيل في مصر يومذاك ، اجتمعوا ، تحت خطةٍ مدروسةٍ مسبقاً ، في مكانٍ معينٍ ، وانطلقوا من هناك مجتمعين في جوف الليل المظلم .

ولم تكد تبلغ هذه القافلة شمالي الخليج المتفرع من البحر الأحمر ، حتى طلع عليهم فرعون وجنوده يتعقبونهم .. وقد كان ذلك موقفاً حرجاً للغاية ، حيث يتقدم نحوهم

جنود فرعون من الخلف سراعاً ، ويمتد أمامهم خليج واسع عريض يشبه البحر .. وهنا ضرب موسى سطح الماء بعصاه - كما أمره الله تعالى - فانفلق الماء ، ووقف كالسور يميناً وشمالاً ، حتى استطاع موسى وأصحابه أن يسيروا فيه على اليبس ، ويعبروا إلى الضفة الأخرى .. ولم يلبث فرعون وجنوده أن اقتحموا هم الآخرون الطريق اليابس بين المياه المنحسرة ، خلف بني إسرائيل ، إذ رأوهم يسيرون فيه ، دون أن يمسهم أذىً ، إلا أنهم حين توسطوا البحر ، انطبق عليهم الماء من كلا الجانبين ، فهلكوا عن آخرهم غرقى ، لم يفلت أحد منهم ممن دخلوا الماء.. إن بحراً واحداً ، قد صار بالنسبة لعباد الله الأوفياء طريق النجاة والخلاص ، بينما أصبح ، بالنسبة إلى أعداء الله ، هاوية الموت والدمار !!

والناس كثيراً ما يهملون الحق ويعرضون عنه ، اعتماداً على قادتهم وكبرائهم .. غير أن مثال فرعون يدلنا على أن سناد القادة أهون وأضعف ما يكون ، وإنما المتكئ على سنادٍ حقيقي في هذا العالم ، هو الذي يحدد طريقه ووجهة حياته في ضوء آيات الله ، وليس في ضوء آراء أكابر الشعب وأحلامهم !!

﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾

الْمَنَّ : مادة صمغية حلوة كالعسل .

وَالسَّلْوَى : الطائر المعروف بالسمان .

وَلاَ تَطْغَوْا : لا تكفروا نعمه . أو لا تظلموا .

فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ : فيجب عليكم ويلزمكم .

هَوَى : هلك . أو وقع في الهاوية .

عقب اجتياز الخليج ما برح موسى وأصحابه يسيرون ، حتى وصلوا إلى برية سيناء .. ثم استقدمهم الله إلى سفح جبل الطور ، حيث منحهم الشريعة تحت عناية خاصةٍ .. وقد قضى هؤلاء في برية سيناء أربعين عاماً، أتيح لهم خلالها طعام وشراب (المن والسوى) كنعمةً خاصةٍ .. وقد ظلت هذه النعمة توُفَّر لهم من غير انقطاعٍ، إلى أن دخلت أجيالهم التالية في أرض فلسطين الخصبة الحافلة بالخيرات .

إن من حق العباد على الله أن يتيح لهم أسباب الرزق على كل حالٍ وفي كل مكانٍ .. ومن حق الله على عباده ألا يطغوا ولا يتمردوا عليه أبداً ، فالذين يعيشون شاكرين لأنعم الله، يعطون المزيد من رحمات الله ، وأما الذين يسلكون مسلك التمرد والطغيان ، فإنما ينتظرهم عند ربهم عذاب غليظ شديد ، لن يزول ولن يخفف عنهم أبداً !

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ ﴾

وَمَا أَعْجَلَكَ : ما حملك على العجلة ؟

فَتَنَّا قَوْمَكَ : ابتليناهم . أو أوقعناهم في فتنة .

عقب خروجه من مصر ، ضرب الله لموسى موعداً ، ليأتي مرة أخرى إلى سفح جبل الطور نفسه ، حيث كان قد تلقى النبوة أول الأمر .. وقد كان على موسى أن يذهب هناك ، مصطحباً قومه معه ، ليتسلّم التوراة من عند ربه فيها هدى ونور .. إلا أنه تقدمهم وحده إلى المكان الموعود ، بدافع الشوق الشديد ، فوصل قبل الموعد المضروب بأيام، وقد صار ابتعاد موسى عن قومه فتنةً لهم ؛ إذْ كان لا يزال بينهم أناس ذوو نزعاتٍ وأفكارٍ وثنيةٍ، وكان زعيمهم السّامري .. فانتهز هؤلاء فرصة غياب موسى عن القوم ، فأضلوهم عن جادة الحق ، وشغلوهم بعبادة العجل ، كما كانت شائعة مألوفةً

لدى المصريين في ذلك الزمان!

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ ﴾

أَسِفاً : حزينا . أو شديد الغضب .

موْعِدِي : وعدكم لي بالثبات على ديني .

لما أخبر الله تعالى موسى بافتتان قومه عن دينهم ، رجع إليهم غضبان حزيناً .. وأخذ في لومهم وتأنيبهم ؛ مذكراً إياهم بأن العهد قريب ، والأمد غير بعيد ، إذ أنعم الله عليكم بإحسانات عظيمةٍ ، وأظهر لكم من آيات قدرته الباهرة ما هو أعظم وأكثر ، إذن ، فما أسرع نسيانكم لها ، وما أسرع سقوطكم في الغي والضلالة!!

ولقد ذهب موسى إلى الطور ليأتي من عند ربه بكتابٍ فيه هدىً وموعظةً ورحمة لبني إسرائيل .. وفي أثناء غيبته تلك ، انخدعت غالبية بني إسرائيل بكلام بعض الغواة منهم ، فانشغلت في عبادة غير الله .. مما يدل على مدى تأثر بني إسرائيل وانبهارهم ببيئة مصر الوثنية، وعلى صيرورتهم بذلك في حاجةٍ ماسةٍ إلى أن يتم إخراجهم من أرض مصر في المقام الأول ، حتى يمكن إعادة تربيتهم على مبادئ التوحيد وعبادة الله الواحد من جديدٍ.

إن أنشطة موسى التي قام بها إزاء فرعون ، كانت من باب الدعوة إلى الدين الحق.. وأما أنشطته التي مارسها بالنسبة إلى بني إسرائيل ، فكانت من باب الحفاظ على الدين .. وقد عُني بتأدية كلا العملين جنباً إلى جنبٍ وفي وقتٍ واحدٍ .. مما يوضح لنا أهمية هذين العملين وضرورة العناية بهما بنفس الدرجة .. فلو كان المسلمون "فاسدين" ، فليس ذلك بمستلزمٍ لترك القيام بواجب الدعوة والتبليغ العام ، كما لو

أُريد القيام بالدعوة والبلاغ العام ، فلن يكون ذلك بأن نتخلى بالمرة عن عملية الإصلاح الداخلي بين المسلمين .. بل يجب أن يسير هذا وهذا معاً ، من غير أن يطغى أحدهما على الآخر ، أو يتم إنجاز أحدهما على حساب الآخر !

﴿ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾

مَلْكِنَا : بقدرتنا وطاقتنا .

أَوْزَاراً : أثقالا وآثاما وتبعات .

من زِينَةِ القَوْمِ : من حلي قبط مصر .

عِجْلاً جَسَداً : مجسدا : أي أحمر من ذهب.

لهُ خُوَارٌ : صوت كصوت البقر.

لعل نساء بني إسرائيل كن قد خرجن - على حسب العادة المتبعة قديماً - وهن متبرجاتٍ بأحمالٍ من الزينة والحلي ثقيلةٍ .. وعندما حل القوم رحالهم للاستراحة في بعض الطريق ، خلعن حليهن تلك ، ووضعنها في مكانٍ بعضها فوق بعضٍ .. وكان بينهم «السامري» لديه خبرة بصناعة نحت الأصنام المصرية القديمة ، فعمد إلى هذه الحلي ، فأذابها في النار ، وصاغ منها تمثالاً على هيئة عجلٍ .. وقد كان العجل فارغاً من الداخل ، مسبوكاً بمهارةٍ فنيةٍ فائقةٍ ؛ بحيث إذا مرت الريح من داخله ، سُمع له خوار مثل خوار البقر .. وعندها توجه السامري إلى سفهاء بني إسرائيل قائلاً : هذا هو معبودكم الذي يتواجد هنا بين أيدينا ، وما بال موسى راح يبحث عن المعبود في بعض الجبال!!

وإن "السامري" له أشباه ونظائر في كل زمانٍ ، يتغفلون الجماهير الغبية على هذا النحو .. فهم يتخذون من أحد الأشياء المحسوسة هدفاً ، ثم يقيمون الأدلة المفتعلة على أنه هو الحق الأعظم والصدق الأوحد ، وإذا بالعوام البسطاء ينساقون وراءهم زرافاتٍ ووحدانا ، مخدوعين بطلاسم الألفاظ الوهمية .. إن عبادة الظواهر المحسوسة تمثل موطن ضعف الإنسان الأكبر.. ولا فرق في ذلك بين إنسان العصر القديم ، وبين إنسان العصر الحديث !!

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾

كان سيدنا هارون هو المسئول - بعد ذهاب موسى إلى الطور - عن رعاية شئون القوم ، والنظر في مصالحهم .. وقد حاول إفهامهم أنهم فُتنوا بالعجل ، وجهد أن يردهم عن عبادته .. إلا أنهم لم يلتفتوا إليه ، ولم تفلح محاولاته في ردهم عن تلك الفتنة ..ومرجع ذلك إلى أن هارون لم يكن لدى القوم مهيباً مرهوب الجانب كما كان سيدنا موسى .. ومن ثم قالوا له في صرامةٍ وتصميم ، عندما شدد النكير عليهم : إن ما قد جرى بالفعل ، سيبقى الآن كما هو ، ولن نبرح قائمين عليه ، حتى يرجع إلينا موسى ويبتّ في هذا الأمر .. ولو أن هارون قام باستعمال وسائل القسوة معهم حينذاك ، لم يكن ذلك ليجدي نفعاً ما ، لأن عدد أصحابه الواقفين إلى جانبه كان قليلاً .. ولذلك رأى أن لزوم الصبر - بصفةٍ وقتيةٍ - والتوجه إلى الله بالدعاء لهداية الناس ، وإعادتهم إلى سبيل الرشد ، قد يكون خيراً وأحسن مغبةً في الحالة الراهنة ، من اتخاذ إجراءات لا تثمر شيئاً ذا بالٍ ، بل ربما تؤدي إلى نتائج عكسيةٍ !.

﴿ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾

مَا مَنَعَكَ : ما حملك واضطرك .

لقد حاسب سيدنا موسى أخاه أعنف محاسبةٍ وأقساها .. فاعتذر إليه هارون بأنني لم أقصر في النصح أيا تقصير .. ولم آلُ جهداً في نهي السفهاء والجاهلين من القوم عن هذا العمل الوثني المنكر ، وإفهامهم بكل صراحةٍ وقوةٍ أنهم قد ضلوا عن الطريق السوي .. ولكن المشكلة هي أن غالبيتهم وقفوا إلى جانب السامري مفتونين بمكره وحيلته.. ولما اشتد نكيري عليهم استعدوا للحرب والقتال ، فخشيت لو استمر إلحاحي في النكير عليهم أن يؤدي ذلك إلى تناحر القوم وإراقة بعضهم دماء بعضٍ .

وبعدما استفحل الأمر إلى هذا الحد ، وكاد الشر أن يستطير ، كنت بين اثنين: فإما أن يقاتل بعضنا بعضاً ، وإما أن نؤجل حسم هذه القضية إلى حين عودتك .. وقد اخترت الخيار الثاني ؛ باعتباره أهون الخيارين مضرةً وأقلهما شراً .

إن هناك كثيراً من الظروف والمناسبات ، حيث يكون مقتضى الدين ، أن نلزم الصمت والسكوت على الأمر الواقع - بصورةٍ وقتيةٍ - تفادياً لنشوب القتال الداخلي بين المسلمين ، أو تجنباً للفرقة بين صفوف الجماعة ، حتى ولو كان ذلك الأمر متناهياً في القبح والشناعة كالشرك!

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾

فَمَا خَطْبُكَ : فما شأنك الخطير ؟

بَصُرْتُ : علمت بالبصيرة .

أَثَرِ الرَّسُولِ : أثر فرس جبريل عليه السلام

فَنَبَذْتُهَا :القيتها في الحلي المذاب .

سَوَّلَتْ :زينت وحسنت .

لاَ مِسَاسَ : لا تمسني ولا أمسك .

لَنَنسِفَنَّهُ : لنذرينه .

لما علم موسى بأن السامري هو رأس الفتنة وموقد نارها ، توجه إليه يستجوبه ، ويسأله عن الأسباب التي حدت به إلى هذا العمل المنكر .. وإذا بالسامري يستخدم مرةً أخرى وسائل المكر والدهاء ، حيث أخذ في تبرير فعله قائلاً : إنما صنعت ما صنعت بناءً على "كشفٍ" حصل لي خاصةً دون غيري ، وقد أضفت إليه أيضاً حفنةً من أثر الرسول على وجه التبرك!! . وبسبب محاولته لخداع النبي ومراوغته ، ازداد السامري جرماً على جرمٍ ؛ إذْ جاء تبريره من قبيل العذر الذي هو أقبح من الذنب كما يقال .. وقد عاقبة الله تعالى ، على حسب رواية التوراة ، بأن أصابه بمرض "البرص" ، مما أحال بدنه مبعث الكراهية والنفرة لدرجة أن الناس أصبحوا يتجنبون مواجهته ، ويفرون منه تقززاً ، واشمئزازاً.

لقد سعى السامري ليكون شخصاً محبوباً لدى الشعب على أساسٍ من الكذب والتدجيل ، فكان عقابه في الدنيا ، أن جُعل أبغض ما يكون إلى الناس .. وأما ما ينتظره في الآخرة من عذابٍ ، فهو أشد وأخزى من ذلك بكثيرٍ .

ولكي يقضي على ما رسخ في قلوب فريقٍ من إسرائيل من مشاعر التعظيم والإجلال نحو المظاهر الوثنية ، عمد موسى إلى العجل الذي عبدوه فحرقه أمام أعينهم ، وذرا رماده في مياه البحر !

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

وِزْراً : عقوبة ثقيلة على إعراضه .

زُرْقاً : زرق العيون . أو عمياً . أو عطاشاً .

يَتَخَافَتُونَ : يتسارون ويتهامسون.

أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً : أعدلهم وأفضلهم رأيا ومذهبا .

إن المصير الذي لقيه المكذبون للأنبياء والرسل على مدى الأحقاب والأجيال ، كان بمثابة ظهورٍ جزئيٍ في هذا العالم ، لذلك القضاء الإلهي الذي سيواجه البشرية جمعاء في يوم القيامة بصورة كليةٍ شاملةٍ .. وقد جاء القرآن الكريم "مذكراً" بهذه الحقيقة البالغة الخطورة .

والمرء حين يقابل الحق في هذه الدنيا بالإهمال واللامبالاة ، فربما يبدو له ذلك أمراً هيناً جداً .. غير أن صنيع المرء هذا سيتحول في الآخرة إلى عبءٍ باهظٍ ثقيلٍ ينوء بحمله .. فحين سيعلن البوق الإلهي (الصور) بدويّه المجلجل الرهيب بأن فترة الامتحان المحددة قد انتهت ، سيجد الناس أنفسهم فجأة في عالمٍ آخر تماماً .. وإذ يفجأ المرء باكتشاف أن الدنيا التي ظل يتصرف فيها على هواه ، باعتبارها دنياه هو ، إنما كانت في الحقيقة دنيا الله ، فسوف يعتريه وقتئذٍ من الهول والرهبة الشديدة ما يتغير بسببه حتى لون وجهه !

وطالما يعرض الإنسان عن أمر الآخرة في هذه الحياة الدنيا ، غير مكترثٍ به أيما

اكتراث ؛ كما لو كان ذلك شيئاً بعيداً بعيداً .. ولكن بعد ما تقوم الساعة ، ستبدو حياة هذه الدنيا للمرء كما لو أنها لم تكن سوى أيامٍ معدوداتٍ قصيراتٍ ، وبعد انقضائها تواجهه الحياة الباقية ، والتي ستكون في طبيعتها من جنس عمله ، خيراً أو شراً ، سيظل يعيشها في عالم الآخرة إلى الأبد !

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

يَنسِفُهَا : يقتلعها أو يفتتها ويفرقها بالرياح .

قَاعاً : أرضا ملساء لا نبات فيها ولا بناء فيها .

صَفْصَفاً : ارضا مستوية أو لا نبات فيها .

عِوَجاً : مكانا منخفضا . أو إنخفاضا .

أَمْتاً : مكانا مرتفعا . أو ارتفاعا .

لاَ عِوَجَ لَهُ : لا يعوج له مدعو ولا يزيغ عنه .

هَمْساً : صوتا خفيا خافتا .

عند قيام الساعة ، سوف تُحول أرضنا هذه إلى فراشٍ واسعٍ ممهدٍ ، بحيث لن يبقى ها هنا يومئذٍ أعالي الجبال ولا أعماق البحار .. وسيبُعث الناس كلهم ثانيةً ، ويُحشرون فوق هذه الأرض الجديدة .. إن صوت الله ، إذْ يرتفع في العالم الراهن على لسان داعي الله ؛ فالناس يقابلونه بالإعراض وعدم الاكتراث ، وأما في يوم القيامة ، حين سينادي الناس ربُ الناس بنفسه ، فلن يلبث الناس أن يتجهوا نحو ندائه مسرعين ، من غير تلفتٍ ولا انحرافٍ .. وسيكون الموقف كله حينذاك تسوده الرهبة ، والنفوس يخيّم عليها الرعب والهول ، لدرجة أن أحداً لن يجرؤ على أن يتفوه بكلمةٍ .. فلا يُسمع هناك

صوت ولا كلام سوى وقع أقدام الناس وهم سائرون نحو ساحة المحشر في صمتٍ وخشوعٍ وسكونٍ !

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾

وَعَنَتِ الوُجُوهُ : ذل الناس وخضعوا

لِلْحَيِّ : الدائم الحياة بلا زوال .

القَيُّوم : الدائم القيام بتدبير الخلق .

حَمَلَ ظُلْماً : شركا وكفراً .

هَضْماً : نقصاً من ثوابه .

إن كون الشفاعة مؤثرة في ذاتها على القضاء الإلهي زعم باطل كل البطلان ؛ إذْ ليس الله – عز وجل – بغافلٍ أو جاهلٍ عن شئون العباد حتى يحتاج إلى مَنْ يخبره بها ، ولا هو ضعيف حتى يضغط عليه أحد أي نوعٍ من "الضغط".. على أنه من غير المستبعد كذلك أن يشاء الله بنفسه ، في بعض الأحوال الخاصة ، التكرم على أحد عباده بقبول ما يرفعه إليه من طلبٍ يرتضيه .. و إنما ستكون الأهمية كل الأهمية في يوم القيامة ، لما قد يأتي به كل شخصٍ بنفسه من رصيد القول والعمل .. فالذي سيكون قد أقام حياته في العالم الراهن على أساسٍ من الباطل ، محكوم عليه بالفشل والخيبة في الآخرة ولا ريب .. وإنما سيُكتب النجاح والفوز هناك لأولئك الذين عرفوا ربهم في الغيب ، وصاغوا حياتهم العملية وفق مرضاته سبحانه وتعالى !.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ

لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

وَصَرَّفْنَا فِيهِ : كررنا في بأساليب شتى .

ذِكْراً : عظة واعتباراً .

أَن يُقْضَى إِلَيْكَ : أن يفرغ ويتم إليك .

قد أنزل الله كتابه ، الذي يحوي الدلائل والبراهين من كل نوعٍ ، بإحدى اللغات البشرية ، وهي اللغة العربية.. مما حول هذه اللغة إلى لغةٍ حيةٍ خالدةٍ تبقى بقاء الدهر .. وهكذا فقد صارت هداية الله بحيث يتمكن إنسان كل عصرٍ من أن يقرأها ويتفهمها متى شاء .

وينبغي للداعي ، إذا نهض بالدعوة إلى الحق ، أن يضع نصب عينيه هدفين اثنين : أما الهدف المطلوب السعي إلى تحقيقه بالدرجة الأولى؛ فهو أن تتولد في داخل المخاطب ثورة نفسية ؛ تحيله إنساناً يتقي الله ويخشاه .. أما الهدف الثاني : فهو أن يصبح كلامُ الداعي مثار تساؤل واستفهام في ذهن المخاطب .

وفي أثناء مسيرة الدعوة الإسلامية بمكة كانت تُثار ألوان شتى من الأسئلة من جانب الناس كل اليوم ، كما كانت تتولد قضايا ومشكلات جديدةٍ بين الحين والآخر ، ومن ثم كان طبيعياً أن يرغب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في أن تكون فترات الوحي متقاربةً ، حتى لا يزال يتلقى التوجيه الإلهي بأكبر قدرٍ ممكنٍ من السرعة تتناسب وسرعة تطور الأحداث وبروز مشاكل جديدةٍ .. فقرر الله تعالى أن منهج التدرج والمرحلية، الذي تم الأخذ به في تنزيل القرآن ، إنما هو شرع إلهي ثابت لا يتغير .. وإنه سيظل يتنزل هكذا ، وسيبلغ تمامه على أية حالٍ .. إذن ، فليس لك أن تطمع في استنزال قرآن المستقبل في الحال ، وإنما عليك بالأحرى أن تسأل الله أن يزيد

من فهمك للقرآن، ويمنحك الاستعداد لسبْر أغوار آي القرآن الحكيم ، وإدراك ما يمكن فيها من معانٍ ساميةٍ دقيقةٍ ، ومرام بعيدةٍ عميقةٍ.. وبدلاً من الاستعجال بما لم ينزل عليك من القرآن بعد ، يجب عليك أن تحرص على معرفة الحكمة والسير في تنزيله على هذا النحو من التدرج والترتيب المرحلي.

ونخلص من ذلك إلى أن الداعي ينبغي له أن يكون على حذرٍ دائمٍ من العجلة والإسراع .. فشرح مسائل الجهاد والقتال في مرحلة الدعوة والتبليغ ، وتلقين الأحكام المتصلة بالإقدام الجماعي في طور الإصلاح الفردي ، والاستشهاد بآيات القتال في مواقع تتطلب الصبر ، كل هذا يدخله في نفس هذا الباب ، ولابد للداعي أن يحترس من ذلك أشد الاحتراس !

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾

عَهِدْنَا إِلَىٰٓ ءَادَمَ : أمرناه أو أوحينا إليه .

أَبَىٰ :امتنع من السجود استكباراً .

للاستقامة على أمر الله لابد من إرادة صلبةٍ وتصميمٍ قويٍ .. وسوف ينحرف المرء عن طريق الله حتماً ، لو أنه مازال يتأثر ويفتتن بأشياء أخرى لا تهمه .. وليست المعرفة بأمر الله وحدها كافيةً لكي تظل أقدامك ثابتةً على جادة الحق ، بل يجب – مع ذلك – أن يتوفر لديك عزم أكيد على الاستمرار في مقاومة كل شيءٍ يقف حجر عثرةٍ دون امتثالك لأمر الله، ويقظة دائمة لتحصين نفسك ضد كل المؤثرات الخارجية الطارئة على طول الخط .

لقد خر الملائكة كلهم ساجدين ، فور سماعهم لأمر الله بالسجود لآدم .. وأما

الشيطان فأبى أن يكون من الساجدين .. وما هو سر هذا الفارق؟ السر في ذلك أن الملائكة كانوا قد اعتبروا ذلك الأمر أمر الله ، وأما إبليس فقد اعتبره - بالعكس - أمر إنسانٍ .. وإنه إذْ يُعتبر أمر ما أمراً إلهياً ، فلا يكون أمام المرء إزاءه غير خيارٍ واحدٍ لا ثاني له، وهو أن يذعن له ويطيع .. ولكن حين يتم اعتباره أمر إنسانٍ ، فسوف ينظر المرء إلى الإنسان المتواجد بين يديه ، فإن كان قوياً ذا بأسٍ ، خضع واستسلم على الفور، وإن كان غير ذي قوةٍ ولا بأسٍ، أبى الخضوع والاستسلام ، حتى ولو كان مقتضى الحق الواضح أن يُخضع نفسه له من غير إباءٍ أو جدالٍ !

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾

وَلاَ تَعْرَى : لا يصيبك عرى عن الملابس .

وَلاَ تَضْحَى : لا تبرز للشمس فيصيبك حرها .

لاَّ يَبْلَى : لا يزول ولا يفنى .

سَوْءَاتُهُمَا : عوراتهما .

وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ : أخذا يلصقان ويلزقان .

وَعَصَى آدَمُ : خالف النهي سهوا أو بتأول .

فَغَوَى : فضل عن مطلوبه أو عن النهي .

اجْتَبَاهُ : اصطفاه للنبوة وقربه .

إن الجنة التي وُضع فيها آدم وزوجته ، كانت تتوفر فيها كل حاجات الحياة اللازمة، بما فيه الكفاية وأكثر .. حيث هيأ الله لهما هناك كل شيءٍ من الغذاء واللباس ، والماء ،

والظل (المسكن الطيب المريح) .. إلخ .. مجاناً .. إن هذه الأشياء - التي لا تتأتى للمرء في العالم الراهن إلا بعد كدحٍ طويلٍ وجهدٍ جهيد - كانت متاحةً لهما في الجنة بدون كدحٍ ولا مشقةٍ .

وإنما كانت ثمة شجرة واحدة ، حُظر على آدم أن يأكل من ثمرها .. فوسوس إليه الشيطان ، مغرياً إياه بأكلها، زاعماً له أنها تضمن لمن أكلها الخلود والأبدية.. وما لبث آدم وزوجته أن تأثرا بكلامه ، فأكلا من ثمار تلك الشجرة.. ففوجئ الاثنان بعدئذٍ بأنهما قد عريا من اللباس الذي كان يستر عوراتهما .. مما كان بمثابة علامةٍ دالةٍ على أن ذمة الله قد رُفعت عنهما ، تلك التي كانت هي السبب في تمتعهما بالرزق المتاح من غير كسبٍ ولا تعبٍ حتى ذلك الوقت .. ومع أن آدم وزوجته قد عُفي عنهما بعد ذلك ، نظراً لمبادرتهما بالتوبة والتضرع إلى الله طلباً للغفران والرحمة ، إلا أنهما أُخرجا منذئذٍ من عالم الرزق «المجاني» ؛ وأدخلا عالم الرزق المتوقف على الكسب والسعي ، وما يستلزمه من الكد والمشقة والإرهاق .. وهكذا كانت بداية النوع البشري الحالي على وجه هذه الأرض .

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾

مَعِيشَةً ضَنكاً : ضيقة شديدة (في قبره) .

لقد أسكن الله كلاً من آدم وإبليس في الأرض .. مع إنذارهما مسبقاً بأنه سيكون هناك صراع مستمر بين ذريتيكما إلى يوم القيامة .

حيث سيبذل إبليس جهده في إغواء النوع البشري وإضلاله .. وفي مقابل ذلك يتعين على الإنسان أن يفهم عدوه الأكبر - إبليس - فهماً دقيقاً ، ويحاول بالتالي جهد طاقته تحصين نفسه ضد وساوسه وإغراءاته .. ولمزيدٍ من هداية الإنسان وإرشاده إلى سبيل الحق والخير ، فقد أرسل الله رسله تترى .. الذين ظلوا ، الواحد تلو الآخر ، يخبرون البشر بحقيقة الحياة باللغة المفهومة لديهم .. والآن ، فإنما يتوقف نجاح الإنسان وفشله على ما إذا كان يؤمن بهدي الأنبياء أم لا .. فالذي يؤمن به ، ستتاح له من جديدٍ حياة الجنة الحافلة بالنعيم المقيم وأسباب الراحة الأبدية .. وأما الذي يرفض الإيمان به، فسوف تكون حياته غايةً في القسوة والشدة ، وهو لن يستطيع التخلص منها أبداً .

المعرضون عن الهداية سيُبعثون في الآخرة عمياناً .. ذلك لأنهم إنما مُنحت لهم العيون في الدنيا لكي يبصروا بها آيات الله ، فيعرفوها ويؤمنوا بها .. ولكنهم كانوا ، كلما تجلت لهم آيات الله ، يتعامون عنها ، ولا يعرفونها .. وهكذا أقاموا الدليل على أنهم عميان ، رغم تمتعهم بالعيون في ظاهر الأمر .. ومن ثم يقول الله يوم القيامة : لِمَ سأعطي العميان كهؤلاء عيوناً ، ما داموا قد اختاروا بأنفسهم العمى على الهدى ؟!!

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ : أغفلوا فلم يبين لهم مآلهم .

كَمْ أَهْلَكْنَا :كثرة إهلاكنا الأمم الماضية .

لأُوْلِي النُّهَى : لذوي العقول والبصائر .

لَكَانَ لِزَاماً : لكان إهلاكهم عاجلا لازما .

وَأَجَلٌ مُّسَمًّى : يوم القيامة (عطف على كلمة)

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ : صل وأنت حامد لربك .

آنَاءِ اللَّيْلِ : ساعاته .

إن سر إبادة أمةٍ ما ، أو صيرورتها مغلوبة على أمرها ، بعد أن كانت تتمتع بالغلبة والرفعة وعز السلطان في الأرض ، يكمن دوماً في طغيانها وتجاوزها حد العبودية .. وكل أمةٍ بائدةٍ تمثل موطن درسٍ وعبرةٍ لمن يأتون بعدها ، ويتبوؤون الأرض مكانها .. غير أن الناس قلما يعتبرون بمثل هذه الوقائع ، بل يعيش أكثرهم في غفلةٍ ، وإذا مروا عليها أو ذُكِّروا بها لا يتذكرون .

وما جاء في هذه الآيات من الحث على التسبيح والصلاة ، يرجع إلى العهد المكي ، حيث كانت الظروف قد بلغت منتهى القسوة .. ومن هذا يتضح لنا أن الصلاة وذكر الله جُنة المؤمن ضد عواصف الإنكار الهوجاء ، وفي غمار أشد أحوال المعارضة عنفاً وخطورةً .. فمن خلال ذلك تتمهّد له السبل ، وتنفتح أبواب الفتوح والانتصارات ، وبذلك ينال المرء كل شيءٍ بمقدار هائلٍ يملأ صدره رضاً وحبوراً وطمأنينةً !!

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾

أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ : أصنافا من الكفار .

زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا : زينتها وبهجتها .

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ : لنجعله فتنة لهم وابتلاء .

هذه الآيات ، وإن كان الخطاب فيها موجهاً إلى الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – ولكن المراد سائر المؤمنين .

إن شخصاً حين يختار حياة الإيمان والدعوة في هذا العالم، تتحول معيشته، نتيجةً لذلك، إلى معيشةٍ كلها كفاح مرير، وعناء متصل، وسلسلة آلام ومحنٍ لا تعرف حداً تقف عنده .. هذا في جانبٍ .. وفي جانبٍ آخر فإن الذين يعيشون متحررين من مثل هذه المسئوليات والالتزامات، ربما يصبحون ويمسون في عافيةٍ وهناءةٍ وفراغ بال.. والشيطان يتناول هذا الوضع بالتضخيم في عين المرء، ويثير في قلبه ألواناً شتى من الوساوس وخواطر السوء؛ كل ذلك سعياً منه إلى زلزلة أقدام المؤمنين والدعاة، وبث مشاعر النقص والحرمان واللايقين في نفوسهم، حتى تحدو بهم الرغبة في الاستمتاع بنعيم الدنيا، واقتناء خيراتها، إلى نبذ الوفاء بمقتضيات الإيمان، والتقاعس عن النهوض بمسئوليات الدعوة.

ولكن لو نظرنا بإمعانٍ ودقةٍ، لرأينا ثمة فارق آخر وأولى بالاهتمام من هذا الفارق الظاهري .. وذلك الفارق هو أن كل ما أتيح لمحبي الدنيا، إنما أتيح لهم من أجل الامتحان والابتلاء، وهو متاع عارض وقتي سريع الزوال .. ثم ليس لهؤلاء من بعد ذلك شيء في الحياة الأبدية القادمة .. وأما الشيء الذي حصل عليه المؤمن والداعي، ثمرة ولائه لله وارتباطه به، فهو أثمن وأغلى من الدنيا وما فيها .. ألا وهو: ذكر الله، وهمّ الآخرة، وحياة قوامها العبادة والتقوى، والسهر على إنقاذ عباد الله من عقاب الآخرة .. إلخ، وهذا أيضاً رزق .. بل هو رزق أفضل وأسمى وأرفع درجةً من سائر أنواع الرزق الأخرى بكثير؛ ذلك لأنه سوف يُرد إلى المرء في الآخرة في صورة نعم لا تُحصى ولا تنفد أبداً!

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ

أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

بَيِّنَةُ : هي القرآن المعجز أم الآيات .

مَن قَبْلِهِ : من قبل الإثبات بالبينة .

وَنَخْزَى : نفتضح في الآخرة بالعذاب .

مُتَرَبِّصٌ : منظر مآله .

الصِّرَاطِ السَّوِيِّ : الطريق المستقيم .

إن من عناية الله سبحانه وتعالى بنبي آخر الزمان - صلى الله عليه وسلم - ، أن بشّر بمجيئه مسبقاً على ألسنة الأنبياء السابقين ، وفي الكتب المنزلة عليهم كذلك .. وهذه البشائر أو النبوءات لا تزال توجد - رغم كل التحريفات والإضافات البشرية - في الكتب السماوية السابقة حتى اليوم .. وقد كان ذلك أكبر دليلٍ على صدق نبي آخر الزمان - صلى الله عليه وسلم - ، غير أن فهم الدليل والإحساس بقوته وثقله ، يتطلب الجدية.. وهي شيء كان وما يزال أندر ما في الوجود على الدوام !

سورة الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن
رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ
رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

اقترب : قرب ودنا .

محدث : تنزيله بالوحي .

وأسروا النجوى : بالغوا في إخفاء تناجيهم .

كل امرئ في هذا العالم أقرب إلى الموت منه إلى الحياة .. وعلى هذا الاعتبار فالكل أدنى ما يكون من يوم حسابه .. ولكن عجيب أمر هذا الإنسان ، حيث إنه لا يلقى بالاً لأي تذكيرٍ يُوجه إليه ، سواء تم ذلك بواسطة النبي أو غير النبي .. وإنه ينظر إلى قول داعية الحق على أنه قول «بشرٍ» ، لا غير ، وبالتالي يقابله بالرفض والإهمال .

ولما بدأ رسول الله ﷺ دعوته في مكة عبر القرآن ، أخذت آياته تأسر قلوب الناس ، مما أقض مضاجع الرؤساء هناك ؛ فإن ذلك كان يمثل خطراً يتهدد رئاستهم .. حيث كان القرآن يدعو إلى التوحيد ، بينما كان رؤساء مكة قد أسسوا رئاستهم على دعائم الشرك والوثنية .. ومن ثم شرعوا في محاولة صرف اهتمام الناس عن القرآن قائلين : إن ما ترونه في الظاهر من روعةٍ وتأثيرٍ أخاذٍ في هذا الكلام ، ليس لأنه كلام الله ، إن قوته غير مستمدةٍ من الصدق ، بل إنما هي قوة مستمدة من السحر .. إذن فهي قضية السحر

البياني ، وليست بقضية الكلام الإلهي .

والذين يلوكون مثل هذه الأقاويل ، وإن كانوا يشيرون إلى الله ويرددون اسمه في غضون أحاديثهم ، إلا أنهم ليسوا على يقينٍ من أن الله يراهم ويسمع ما يقولون .. ولو أنهم أيقنوا حقاً بكون الله عالم الغيب ، لم يكن ليصدر من ألسنتهم كلام غير جادٍ كهذا أبداً !

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ .

أضغاث أحلام: تخاليط أحلام رآها في نومه .

إن الداعي إلى الحق إنما يقدم دعوته دوْماً معتمداً على قوة الدليل والبرهان .. وعندما يشعر المعارضون بأنهم عاجزون كل العجز عن مقاومتها بالدليل ، يلجأون إلى إثارة ألوانٍ شتى من الأباطيل ضدها ، في محاولتهم لتنفير الجماهير منها .. ومن ذلك مثلاً قولهم : إن هذا شعر .. أو إنه سحر أبدي ، أو إنه تخيلات مجنونةٍ .. أو إنه حديث مفترىً .. إلخ .

وبما أن رسول الله ﷺ لم يأت أهل مكة بأية معجزةٍ حسيةٍ ، لذا فقد كانوا يقولون أيضاً، بغية التشكيك في صدق رسالته : إن كان هذا رسول الله حقاً ، فلِمَ لم يأتنا إذن بأية معجزةٍ من عند ربه ، كما بُعث بها الأنبياء السابقون إلى أممهم !؟!

بيد أن تجارب التاريخ شاهدة بأن الذين يرفضون التصديق بأمر الحق اقتناعاً بالدليل ، لا يستعدون للتصديق به حتى بالرغم من رؤيتهم لما اقترحوا من المعجزات والخوارق، ولذلك فإن مقتضى النصح وحب الخير للناس أن تظل عملية تذكيرهم وإنذارهم من خلال الأدلة والبراهين جارية باستمرارٍ ، رجاء عودتهم إلى الرشد

والصواب ، دون أن يقفل باب التذكير ، وتقام عليهم الحجة بإظهار المعجزة في أول فرصةٍ ، فإن المعجزة ، إذا ما تمادى القوم في الإنكار والتكذيب بعد ظهورها ، إنما تعقبها مرحلة الهلاك والدمار العاجل بدون تأجيلٍ ولا إمهالٍ !

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ .

جسداً : أجساداً ، أو ذوي جسد.

الذين كانوا ينكرون رسالة النبي ﷺ محتجين بأنه ليس إلا بشراً مثلنا ؛ قيل لهم رداً على ذلك : لو كنتم جادّين ، بمعنى الكلمة ، في اعتراضكم هذا ، فالخطب هين ، والسبيل إلى حله غير عسيرٍ .. وهو أن هناك عدداً جماً من العلماء المطلعين على أحوال الكثير من تلك الشخصيات السابقة التي لا جدال في كونها عندهم ولا عندكم من أنبياء الله المرسلين ، إذن ، فاسألوا هؤلاء العلماء عما إذا كانوا هم بشراً أم غير بشرٍ .. فإن كانوا بشراً ، فكيف يسوغ لكم أن ترفضوا التسليم برسالة النبي الحالي لكونه وُلد من أبٍ وأمٍ كما يُولد الآخرون عداه من بني البشر !؟!

كما يدل تاريخ الأنبياء السابقين أيضاً أن مقابلتهم بالإقرار أو الإنكار لم يكن بالنسبة إلى أقوامهم محض إقرارٍ أو إنكارٍ يسير .. بل أدّى ذلك بكل واحدٍ من الفريقين إلى مصير حتمي مختلفٍ عن الآخر بشكلٍ واضحٍ ملموسٍ ؛ حيث فاز المقرّون المؤمنون بالنجاة والفلاح ، بينما نزل بالمنكرين الجاحدين عذاب قطع دابرهم .. ومن ثم فينبغي لكم أن تكونوا جادين فيما يتعلق بهذا الأمر إلى أقصى حدود الجدية !

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن

قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

فيه ذكركم: موعظتكم أو شرفكم وصيتكم.

وكم قصمنا: كثيراً أهلكنا.

أحسو بأسنا : أدركوا بحاستهم عذابنا الشديد.

يركضون: يهربون مسرعين.

أترفتم فيه : نعمتم فيه فبطرتم.

حصيداً: كالنبات المحصود بالمناجل.

خامدين: ميتين كالنار التي سكن لهبها.

إن كتاب الله ليس محض كتابٍ بالمعنى العادي المعروف ، وإنما هو تذكير وإنذار بأن مجيء الإنسان إلى العالم الراهن ليس نتيجة صدفةٍ واتفاق ، بل هو نتيجة تدبير إلهي .. وذلك التدبير هو أن تُتاح للإنسان هنا حرية مؤقتة لأجل الامتحان والابتلاء ، ثم يُكافأ الكل ، بعد انقضاء مدة الامتحان بحسب عمله ، خيراً أو شراً .. وقد ظلت هذه الحقيقة تتجلى ، بصورةٍ جزئيةٍ ، من خلال وقائع الهلاك والدمار النازل بالأمم الظالمة بين فترةٍ وأخرى على مدار التاريخ الإنساني .. وإنها لسوف تظهر في يوم القيامة بصورةٍ كليةٍ شاملةٍ ، حيث سيُبعث كل الناس من جديدٍ ، ويُحضرون بين يدي ربهم للحساب الأخير .

وإنه حين تلوح بوادر البطش الإلهي ، تصير كل الأسباب والوسائل المادية في عين المرء مدعاةً للمصيبة والشقاء، تلك التي كان اعتماده عليها مبعث إعراضه عن دعوة الحق من ذي قبل .. فهو لا يستعدّ للخروج من الغفلة، ما لم تتخل عنه الأسباب المادية ، وإذا تخلت عنه تلك الأسباب ، انفتحت عيناه للحال ، ولكن حيث لا ينفعه ، ولا يغني عنه ذلك شيئاً .. فإن كل الأشياء حينذاك تكون قد فقدت طاقتها ، وأن الله وحده هو القادر بعدئذٍ على أن ينفع أحداً ، دون الآلهة والمعبودات الباطلة!

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

نتخذ لهوا: ما يُتلهى به من صاحبة أو ولد.

نقذفُ بالحق: نرمي به ونورده.

فيدمغه: يمحقه ويدحضه.

زاهق : ذاهب مضمحل.

الويل: الهلاك أو الخزي أو وادٍ بجهنم.

إن الذين لا يقفون من دعوة الله موقفاً جدياً ؛ كأنما هم يعتبرون العالم الراهن نوعاً من اللعبة الإلهية ، والتي ليس وراءها من هدفٍ أو غايةٍ تذكر سوى التسلية الوقتية .. ولكننا حين نتعرف على صفات الخالق ، التي يستلزمها بالضرورة ما يوجد في هذا العالم من الروح المدهشة والحكمة اللامتناهية ، يبدو لنا مستحيلاً أن يكون هذا الخالق إلهاً أوجد هذا العالم عبثاً للهو والتسلية فقط .. كلا .. كلا.

إن العالم الراهن يضم في أحضانه مخلوقاً فذاً كالإنسان ، الذي تكمن في فطرته القدرة على تمييز الحق من الباطل .. وإن وجود مخلوقٍ كهذا في العالم ، يحكم على منهجٍ معينٍ بأنه حق ، وعلى آخر بأنه باطل ، ثم نشوب صراعاتٍ ومواجهاتٍ تحت شعاري الحق والباطل بين حينٍ وحينٍ ؛ مما يوضح أن وقتاً سيأتي لا محالة ، تنحسم فيه هذه القضية نهائيا ، إذْ يظهر بصورةٍ جليةٍ لا يكتنفها غموض ، ما هو الحق وما هو الباطل في الواقع ، ثم يكتب النجاح للذين كانوا قد آمنوا بالحق ونصروه ، ويُقضى على الذين رفضوا الحق وخذلوه بالفشل والخسران .

إن العالم الذي توجد فيه «حجارة» تحطم «رأس» أي شخص يُرمى بها ، أفلا يُوجد هناك حق من شأنه أن يبرهن على بطلان الباطل ويزهقه!؟!

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝ ﴾ .

وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ : لا يكلون ولا يعيون .

لاَ يَفْتُرُونَ : لا يسكنون عن نشاطهم في التسبيح والعبادة .

إن كل ما في الأرض والسماوات إنما هو مخلوق .. وكل شيء لا يفعل إلا ما قد أُمر أن يفعل من «فوق» ، أي من جهة الرب الأعلى .. وإنما هو الإنسان وحده ، من بين سائر موجودات الكون،الذي يتمرد ويطغى .

أما الذين لا يؤمنون بوجود الله مطلقاً ، فإنهم يمارسون التمرد والطغيان ، قائلين بأنه ليس ثمة مالك ولا حاكم أعلى فوق رؤوسنا ، إذن فنحن أحرار في أن نفعل هنا ما نشاء ، ونتصرف في أنفسنا وفيما حولنا كما نشاء .

وأما الذين يؤمنون بوجود الله مبدئياً ، فهم الآخرون يتمردون ويطغون ، إلا أنهم

يبَرِّرون طغيانهم بوجهٍ آخر .. حيث يفترضون أحداً من غير الله شفيعاً ووسيلة النجاة لهم في الآخرة .. وبجعله «مقرباً» إلى الله ، يزعمون أنه سيشفع لنا عند الله ، وشفاعته لن تُرد ، وبالتالي سينقذنا حتماً من عذاب الله ، ما دمنا نُبدي إزاءه مشاعر التعظيم والاحترام ، ونحيطه بهالةٍ من الإجلال والتقديس والتمجيد .. ومن الناس مَنْ يتخذون من الملائكة شفعاء لهم ، ومنهم مَنْ يتخذون شفعاء آخرين سواهم .

غير أن كل النظريات من هذا القبيل تبلغ من البطلان والسخافة حداً يدعو للضحك والسخرية .. ولو أن أحداً أتيح له بصر يُمَكِّنه من النظر إلى الحقيقة على المستوى الكوني ، فسيرى أن الشفعاء (المزعومين) لا يسعهم إلا أن يظلوا خاضعين بين يدي الله خاشعين ، لما يغمرهم من الرهبة والجلال الإلهي ، بينما الإنسان يمارس الطغيان في الدنيا باسمهم ، ثقةً منه بنصرتهم ، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً !.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

هُمْ يُنشِرُونَ : هم يحيون الموتى - كلا .

لَفَسَدَتَا : لاختل نظامهما وخربتا للتنازع

إن الأرض ليست بمنفصلةٍ عن بقية الكون .. بل هي مرتبطة ارتباطاً دائماً مستمراً بهذا الكون الفسيح المترامي الأطراف .. وإنه لا يمكن بقاء الحياة ونمو النبات الأخضر فوق الأرض ، إلا إذا وُجد بينها وبين بقية الكون توافق وانسجام كامل .. وإن هذا التفاعل المتوافق المتكامل بين الأرض والسماء بكافة أجزائهما ، يُثبت أن تدبير وإدارة

شئون الأرض والسماء بيد ذاتٍ واحدةٍ ليس إلا ، إذ لو كان ذلك بيد ذاتين اثنتين أو أكثر ، لاندلع بين بعضها حتماً تنازع وصدام متصل ، وبالتالي بات قيام الحياة الراهنة فوق الأرض مستحيلاً .

وإن الخالق الذي يعرفنا به هذا الكون العظيم ، بنظامه البديع العجيب ، وما ينطوي عليه من روحٍ غريبةٍ وحكمةٍ تدعو إلى الدهشة والإكبار ، هو من غير شكٍ ولا ريبٍ إله منزه عن كل أنواع العيوب والنقائص .. وإنه لتقدير بخْس للكون الحالي ، واستخفاف بعظمته، أن نجعل خالقه ومدبره ذاتاً تُعافى من النقائص ومواطن الضعف والقصور ! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

إن افتراض آلهةٍ أخرى غير الله الواحد الأحد ، لا يستند على أي دليلٍ واقعيٍ ، وإنما يستند على جهلٍ محضٍ.. إذْ لا يتوفر لدى القائلين بأن لله شركاء وأنداداً ، لا دليل أو برهان لصالح عقيدتهم ، لا في ضوء العلم الإنساني ، ولا في ضوء الوحي السماوي .. وإذا كان هؤلاء يُعرضون عما قد يقدم إليهم من الأدلة والبراهين القاطعة على صدق عقيدة التوحيد ، فإن السبب في ذلك لا يرجع إلى قناعتهم الاستدلالية بشركهم ، بل إلى تعصبهم الكامن لا غير .. إن طبيعتهم المتعصبة هي التي جعلت عقيدتهم ترسخ وتضرب بجذورها في أعماق أنفسهم لدرجة أنهم لا يكادون يستعدون للتخلي عنها ، ولا يرضون بها بديلاً ، رغم كونها باطلةً لا حقيقة لها من حيث الاستدلال بنوعيه العقلي والنقلي!

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

وَلَداً : قالوا الملائكة بنات الله .

مُشْفِقُونَ : خائفون حذرون .

الملائكة من المخلوقات الغيبية .. وإنما تم إعلام الإنسان بوجودهم عن طريق الأنبياء والمرسلين ، ليستشعر قدرة الله ، ولكن من العجائب أنه لم يلبث أن جعل من الملائكة بنات الله ، وراح يعتقد ، بناءً على خرافاتٍ لا أساس لها ، أنه إذا نجح في نيل رضاهن بممارسة بعض الطقوس العبادية بأسمائهن ، فسوف يشفعن له عند ((أبيهن)) ، ويتكفلن بمغفرته ونجاته في الآخرة !!

إن كل العقائد من هذا النوع تنفي ألوهية الله .. إذْ ليس الله إلهاً إلا لأنه منزه عن مثل هذه النقائص جميعاً ، وإنه لم يكن ليكون إلهاً لو كان يعاني من هذه النقائص كلها أو بعضها!

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

كَانَتَا رَتْقاً : كانتا ملتصقتين .

كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ : كل شيء نام حيوانا أو نباتا .

((الرتق)) معناه كوْن شيءٍ ما ملتحماً منضم الأجزاء .. أما ((الفتق)) فيعني فك تلك

الأجزاء الملتحمة المنضمة ، وفصلها بعضها عن بعض .. وربما يكون المراد بذلك حالة الأرض والسماء البدائية ، تلك التي تسمى في العصر الحديث بـ «نظرية الانفجار العظيم» .. حيث كانت جميع العناصر المكونة للأرض والسماء ، تبعاً للكشوف العلمية الحديثة ، توجد في البداية بشكل كتلةٍ ضخمةٍ (خارقةٍ للعادة) ، وقد كانت كل أجزائها حينذاك ، طبقاً لقوانين الطبيعة المعلومة ، متماسكةً مشدودةً حول مركزها الداخلي ، ومرتبطةً بعضها ببعض بمنتهى القوة ، ثم حدث في هذه الكتلة المركزة المتماسكة انفجار شديد ، فإذا بأجزائها أخذت تتمدد وتنتشر ، وأطرافها تتباعد نحو الفضاء الخارجي .. مما أدى نهائياً إلى تشكل هذا الكون الفسيح المترامي الأطراف الذي نراه اليوم .. ولا يمكن تصور حدوث هذه الواقعة غير العادية في الكتلة المادية الأولى ، بدون تدخّل خارجي .. وهكذا فإن تاريخ بداية الكون يثبت بوضوح أن هناك إلهاً مستقلاً قائماً بذاته وراء هذا الكون ، وأنه يتصرف في الكون ويؤثر عليه بقدرته الذاتية كما يشاء .

إن الماء يشكل العنصر الأساسي الأكبر في تركيب كل الكائنات الحية في هذا العالم .. ولولاه لانتهت الحياة الآدمية والحيوانية والنباتية بالمرّة .. وهذا الماء لا يتوفر في أي مكانٍ آخر غير الأرض .. إن توفر الماء ، على نحوٍ استثنائي ، في مكانٍ واحدٍ ، في هذا الكون الرحيب ، له دلالته الواضحة على «خصوصية الخلق والتكوين» .. إذن ، فما أكثر إثارةً للدهشة والاستغراب ألا يتوصل الإنسان إلى الله ، ويظل محروماً من معرفته تعالى ، رغم مشاهدته مثل هذه الآيات البينات المنبثة في مختلف أرجاء الوجود!

﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

رَوَاسِيَ : جبالا ثوابت .

أَن تَمِيدَ بِهِمْ : لئلا تضطرب بهم فلا تثبت .

فِجَاجاً سُبُلاً : طرقا واسعة مسلوكة .

سَقْفاً مَّحْفُوظاً : مصونا من الوقوع أو التغير .

كُلٌّ : من الشمس والقمر .

فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ : يدورون . أو يجرون في السماء .

ذُكرت هنا بعض أبرز آيات الأرض ؛ التي من شأنها أن تذكر الإنسان بربّه ، حتى يعيش عبداً شاكراً له على ما خوّله من نعمٍ جليلةٍ لا تحصى .. منها سلاسل الجبال هذه ، التي قد ارتفعت هنا وهناك فوق سطح الأرض ، حفاظاً على توازنها ، بإزاء المواد الثقيلة المنخفضة في أعماق البحار .. ولعل المراد بذلك هو الذي يُعرف في اصطلاح العلم الجيولوجي الحديث باسم «توازن القشرة الأرضية» (Isostasy).

ومن الآيات الإلهية كذلك كوْن الأرض صالحةً لكي يتخذ الإنسان فيها سبلاً ومسالك شتى لتنقله عبر القارات والأقاليم : في شكل الميادين الفسيحة المعبدة في مكانٍ ، وعلى هيئة الثغور والممرات الجبلية في مكانٍ آخر ، وفي صورة الثقوب أو الأخاديد البحرية في مكانٍ ثالثٍ .

أما «سقف» السماء ، وهو الغلاف الجوي الذي فوقنا ، فقد تم تصميمه بحيث إنه يحمينا من أشعة الشمس الضارة ، ويحول دون وصول الشهب والنيازك المتساقطة باستمرارٍ نحونا .. وكذلك حركة الشمس والقمر كل في فلكٍ محدودٍ ، وطريقٍ مرسومٍ؛ دون اصطدام أحدهما بالآخر ، وما يترتب على ذلك من تعاقب الليل والنهار على الأرض في غاية الضبط والانتظام .. إن هناك آياتٍ لا تعد ولا تحصى من هذا النوع ؛

يزخر بها هذا الكون ، لو تأمل المرء فيها بجديةٍ وإمعانٍ ، لغمره الإحساس بقدرة الله الباهرة وآلائه العظيمة المدهشة .. غير أن المرء يُعرض عنها ، ولا يعيرها أي اهتمامٍ .. ولا يزال أعمى وأصم ، كأنه لم ير ولم يسمع شيئاً يدعو إلى التفكر والاعتبار!!

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

وَنَبْلُوكُم : نختبركم مع عملنا بحالكم .

كان أهل مكة مشغولين ، ليل نهار ، باتخاذ كل التدابير والمحاولات الممكنة ، لإفشال رسول الله ﷺ حتى إنهم قد عقدوا النيّة على القضاء عليه بصورةٍ أو أخرى ، وذلك ظناً منهم أن هذه الرسالة إذا صارت مقطوعة الصلة بأصلها ومصدر طاقتها - وهو الرسول صلى الله عليه وسلم - فلن تقوم لها بعدئذٍ قائمة إلى الأبد .. وهنا يكشف القرآن عن مدى جهلهم وغرورهم حيث يقرر أن الذين يحيكون مثل هذه المؤامرات ضد النبي ، ينسون هذه الحقيقة البديهية القائلة: بأن القبر الذي هم يحفرونه للغير ، هو ذاته مثواهم الأخير كذلك .. فإن الجميع يصير إلى الفناء لا محالة ، ولا خلود لأحدٍ في هذه الحياة .. إذن، فماذا عساهم يفعلون دفعاً عن أنفسهم ، حين سيمثلون بين يدي المالك الحقيقي بعد الموت!!

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

إن آلهة قريش كانت ، في الغالب ، تمثل أكابر قومهم .. وقد كانت عظمة هؤلاء الأكابر الخيالية مستقرةً في أعماق أفئدتهم وعقولهم .. بينما كان النبي - من جهة أخرى - لم يكن حينذاك بأكثر من رجلٍ عاديٍ .. وعبر هذه المقارنة كان النبي يبدو لهم

شخصاً ضئيلاً جداً .. وبالتالي كثيراً ما كانوا يقولون على سبيل التهكم والازدراء : أهذا الذي جاء يتناول أكابرنا بالنقد ، ويقدم إلينا ديناً آخر غير الدين الذي نحن عليه ، والذي كان عليه آباؤنا وأكابرنا من قبل!؟!

لقد كان رسول الله - ﷺ - يدعو الناس إلى الله الواحد وحده ، غير أن الله لم يكن عندهم موضع اهتمامٍ ، وإنما كانت اهتماماتهم كلها مرتبطةً بأكابرهم ، حيث كانوا قد أحاطوهم بهالةٍ من القدسية ، ورفعوهم إلى درجة الألوهية .. وبما أن دعوته - ﷺ - كانت تصدم مشاعر القوم تجاه أكابرهم ، ناصبوه العداء ، وتصدوا لمعارضته بأقصى طاقتهم .. وقد غاب عن هؤلاء أنه - عليه الصلاة والسلام - إذ رفض الآلهة والمعبودات (الباطلة) ، فإنما كان يقدم مكانها الله رب العالمين ، دون ذاته هو! ، فلا داعي إذن لمهاجمته والنقمة عليه ، اللهم إلا أن يكون القوم يسوءهم ذكر الرحمن والدعوة إلى إفراده وحده بالعبادة والتعظيم دون أحدٍ سواه ، كائناً من كان !!

﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

لاَ يَكُفُّونَ : لا يمنعون ولا يدفعون.

بَغْتَةً : فجأة .

فَتَبْهَتُهُمْ : تحيرهم وتدهشهم .

يُنظَرُونَ : يمهلون ويؤخرون .

فَحَاقَ : أحاط وأنزل .

إن العرب لم يكونوا منكري الآخرة أصلاً .. وإنما كانوا ينكرون الآخرة في طبيعتها الموضوعية تلك ، التي جاء ينذرهم بها رجل منهم وهو «محمد بن عبد الله» . فقد كانوا فخورين بأنهم على دينٍ هو ضمان فلاحهم الأكيد ، لا يتطرق إليه شك .. ومن ثم ثار ثائرهم عندما تناول النبي محمد - ﷺ - يقينهم ذاك بالرفض والإبطال.. وبلغت بهم الجرأة إلى أن أخذوا يقولون له متعجلين : ائتنا بالعذاب الذي تهددنا به إن كنت صادقاً !!

فقال تعالى رداً عليهم : إن سبب استعجالهم هذا إنما يرجع إلى ما يبدو ظاهراً من بُعد المسافة بينهم وبين العذاب الموعود ، لكونهم في مرحلة الامتحان .. وأما إذا حان اليوم الذي تنتهي فيه هذه المهلة ، ويحيط بهم عذاب الله من كل جانبٍ ، فعندئذٍ سيدركون كم كانوا قد ارتكبوا خطأً فادحاً عظيماً ، إذْ لم يأخذوا دعوة الرسول بمأخذ الجد!!

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

يَكْلَؤُكُم : يحفظكم ويحرسكم .

يُصْحَبُونَ : يجارون ويمنعون أو ينصرون .

إن قضية مؤاخذة الله ليست بقضيةٍ متعلقةٍ بأي مستقبلٍ بعيدٍ .. بل هي قضية الساعة الراهنة ؛ بحيث إنها تكمن في صميم هذه الأيام والليالي التي يحسب المرء نفسه

فيها آمناً محفوظاً من كل خطرٍ يتهدد وجوده أو حياته .. فعلى سبيل المثال : لو اقتربت الشمس من الأرض ، بمقدار النصف من مسافتها الحالية ، لارتفعت حرارة أيامنا لدرجة تحرقنا كلنا بالنار.. وعلى نقيضٍ من ذلك ، فلو ابتعدت مسافة الشمس عن الأرض ، ضعف ما هي عليه الآن، لاشتدت برودة ليالينا إلى حدٍ نتجمد معه مثل الثلج !!

وإن الوجود الذي أنشأ هذا النظام الكوني البديع الملائم للحياة والأحياء إلى أقصى الحدود ، ويقوم على إدارته وحفظه من الخلل والاضطراب كل حينٍ وآنٍ ، هو وحده الجدير بأن يخصه الإنسان بأسمى عواطفه ، ويوجه إليه كل ما يخفق به فؤاده من مشاعر الحب والتعظيم والولاء .. دون أن يأخذ في عبادة تلك المعبودات الباطلة التي لا تقدر على إعطائه شيئاً !

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

كان المكيون في ذلك الزمان يُعدّون قادة العرب عامةً .. وقد كانت هذه المكانة القيادية نعمةً من الله عليهم .. إلا أنهم إنما استمدوا منها غذاء الكبر والغرور .. مما كان سبباً في إنكارهم لمحمدٍ ﷺ حين جهر بالحق أمامهم ، ودعاهم إلى اتباعه .

هذا كان حال الإسلام في مكة .. أما سكان القرى الأخرى خارج مكة ؛ الذين لم يكونوا مصابين بتعقيداتٍ نفسيةٍ كهذه ، فقد كان الإسلام ينتشر بينهم بشكلٍ ملحوظٍ .. فبينما كان الإسلام قد قُوبل في مكة بالرفض ، كان، في الوقت نفسه ، يحظى بالقبول والتوسع لدى القبائل العربية القاطنة في أطرافها .. وبدخول مجموعةٍ كبيرةٍ من سكان يثرب (المدينة) في الإسلام قد ظهر بجلاءٍ أن نفوذ المكيين بدأ يتقلص ، ودائرة قيادتهم آخذةً في الانكماش .. وقد كان ذلك تحذيراً واضحاً .. غير أن المصابين بعقدة

الاستعلاء والتكبر قلما يعتبرون بالتحذيرات ، مهما كانت صريحةً قاطعةً!

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

نَفْحَةٌ : دفعة يسيرة . أو نصيب يسير .

«الإنذار بالوحي» يعني تحذير الناس بواسطة الدليل .. فالداعي إلى الحق يعرض أمره دائماً بلغة الدليل .. كما لا يكون أمام الناس كذلك من سبيلٍ إلى معرفته ، إلا أن يعرفوه بلغة الدليل ذاتها .

وأما الذين لا يزالون يتعامون ويتصامون عن دلائل الحق ، فلا تنفتح عيونهم إلا إذا تجلت قدرة الله بصورةٍ واضحةٍ مكشوفةٍ ، وعندها سيعترف لتوّه كل متكبرٍ جبارٍ عنيدٍ، غير أن الاعتراف وقتئذٍ لن يغني عن أحدٍ شيئاً !

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

القِسْطَ : العدل . أو ذوات العدل .

«الميزان» علَم على أداةٍ يقاس بها وزن شيءٍ ما في العالم الراهن .. ومن ثم فقد استخدم الله – سبحانه وتعالى- هذا الاصطلاح الشائع المعروف لدى البشر لتقريب شئون الآخرة إلى أفهامهم .. إن الميزان الدنيوي يقيس وزن الأشياء المادية .. أما ميزان العدل الإلهي في الآخرة ، فإنه سيقيس وزن الحقائق المعنوية بمنتهى الضبط والدقة .

وإنه لا يحصل المرء على شيءٍ أو سلعةٍ ما في هذه الدنيا إلا إذا دفع ثمنها ، ومن يبذل هنا الكثير ، ينال الكثير ، والعكس بالعكس .

وهكذا سيكون الشأن في الآخرة تماماً .. فلن يحصل المرء على شيءٍ من نفائسها إلا بدفع الثمن .. وكما لا ينال أحد شيئاً من أشياء الدنيا بدون ثمنٍ ، فإن أشياء الآخرة بدورها ، لن تُتاح إلا لِمَنَ يتقدم بدفع أثمانها اللازمة .. وإنما جاء القرآن كدليلٍ أو كتابِ مرشدٍ للناس إلى هذا «الثمن» نفسه ، المطلوب دفعه لنيل ما في عالم الآخرة من نفائس قيّمةٍ ، وسلعٍ غاليةٍ !!

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

مِثْقَالَ حَبَّةٍ : وزن أقل شيء .

مُشْفِقُونَ : خائفون حذرون .

إن ما أُعطي لسيدنا موسى عليه السلام من «الفرقان» ، و«ضياءٍ» و«ذكرٍ» ، هو مثل ما أُعطي كل الأنبياء والمرسلين من عند الله .. والمراد بالفرقان : هو ذلك المعيار النظري الذي يُمَكِّن المرء من التمييز بين الحق والباطل .. والمقصود بالضياء : هداية الله التي تُخرج الإنسان من ظلمات الغي والضلال ، وتقوده إلى سبيل الرشاد المستقيم المنير .. وأما الذكر فهو التذكير والعظة .. أي بيان ما تنطوي عليه الأشياء من جوانب النصيحة والعبرة ، وتصبح مستودعاً لكنوز المعرفة والدرس والعبرة .

هكذا هيأ الله - بفضله ورحمته - أسباب هداية الإنسان .. غير أن صحيفة الهداية الإلهية لا تكون مصدر الهداية للمرء حقاً ، إلا إذا كان يهمّه أمر عاقبته ، وبالتالي يعيش على خوفٍ وحذرٍ من سوء المصير .. وتجعله يعير أمر الحق والصدق اهتماماً أكبر وأهميةً أكثر من أي أمرٍ أو شيءٍ آخر سواه!

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

التَّمَاثِيلُ : الأصنام المصنوعة بأيديكم .

لقد جرت سنة الله تعالى بالعطاء بقدر الاستعداد أو الكفاية .. وقد علم الله الكفاية التي أقام سيدنا إبراهيم الدليل عليها ، عبر اجتيازه لضروب المحن والاختبارات بنجاحٍ .. فأعطاه بحسب ذلك الهداية والمعرفة وتلك هي معاملة الله - سبحانه وتعالى- مع كل عبدٍ من عباده .

لم يتأثر إبراهيم - عليه السلام - ببيئته المشركة التي نشأ وترعرع فيها ، بل حاول استكناه الأشياء وفحصها بعقله هو ، حتى توصل إلى صدق التوحيد على رغم البيئة .. وقد كان هو في عالمٍ ارتبطت فيه كل أنواع الشرف والرقي بالشرك .. غير أنه لم يبال بأي شيءٍ، وتناول معتقدات قومه الخرافية بالنقد الصريح ، وجهر أمامهم بالحق ، بغض النظر عن كل المصالح والأخطار .

وهذه هي الصفات التي تؤهل شخصاً ما لتلقي هداية الله!!

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

فَطَرَهُنَّ : خلقهن وأبدعهن.

جُذَاذاً : قطعا وكسرا .

إن الأفكار الوثنية والأوهام المشركة ، كانت ، في زمن سيدنا إبراهيم ، قد بلغت من السيطرة والغلبة على عقول الناس ، بحيث أنهم ظنوا أن إبراهيم في نقده أول الأمر هازلاً غير جادٍ .. ومن ثم سألوه قائلين : ترى هل كلامك هذا صادر حقاً عن الرويّة والتدبر والتفكير، أو هو تلاعب بالألفاظ على سبيل المزاح والتفكّه !؟!

فأجاب سيدنا إبراهيم،في عزمٍ وتأكيد،قائلاً: إنه لمما يدل على مدى جهلكم وسخافة عقولكم أن تعدّوا هذه الحقيقة البالغة الأهمية أمراً غير جادٍ .. في حين يشهد بصدقها كل ما في السموات والأرض .. ثم إنه - إلى جانب تلك المحاجة الكلامية - أقدم بشجاعةٍ فذةٍ وجرأةٍ نادرةٍ على خطوة أخرى ، وهي أنه توجه في اليوم التالي إلى أصنام القوم، فأهوى على رؤوسها تحطيماً .. وكأنما أراهم سيدنا إبراهيم بذلك عملياً: إن هذه الأصنام باطلة لا حقيقة لها في الواقع ، تماماً كما سبق أن بيّنت لكم ذلك شفهياً بالأمس !

﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ : ظاهراً بمرأى من الناس .

وقد كانت الصدمة قاسيةً شديدة الوطأة على نفوس القوم ، عندما دخلوا في المعبد صبيحة اليوم التالي ، فوجدوا أصنامه محطّمةً مكسورةً .. وترجح لديهم آخر الأمر أنه لابد أن يكون هذا صنيع ذلك الفتى الذي ثار على دين آبائنا ، وقد سمعناه يصرح بآراء مناقضةٍ له تماماً !

وخلال تحطيمه لأصنام المعبد، كان سيدنا إبراهيم قد ترك، عن عمدٍ، الصنم الأكبر، ولم يمسه بسوءٍ .. فلما دُعي الآن للمحاكمة والاستجواب، رد عليهم قائلاً: إنه يجدر بكم أن توجهوا هذا السؤال إلى صنمكم الأكبر ذاك، الذي مازال صحيحاً سليماً .. فلْيشرحْ لكم، إن كان في الحقيقة إلهاً كما تزعمون، كيف جرى هذا الحادث مع تلك الأصنام المكسورة!!، ولم ينطق سيدنا إبراهيم في هذه المناسبة بأي كلمةٍ على نحوٍ مباشرٍ، وإنما عبّر عن مراده باستخدام الأسلوب غير المباشر، الذي كان في ذلك الحين أوقع في النفوس وأفعل في هزّ الضمائر من الكلام الصريح المباشر!!

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ: رجعوا إلى الباطل والعناد.

أُفٍّ لَّكُمْ: كلمة تضجر وكراهية وتبرم.

وقد كان من المحتمل، بعد سماع ردود إبراهيم الحاسمة هذه، أن يتذمّر القوم ويشتعلوا غضباً عليه، باعتباره سيئ الأدب، طويل اللسان كما جرت بذلك عادة الناس في مثل هذه المواقف .. ولكن، بالرغم من جمودهم على عبادة الأصنام، كانت ضمائرهم لم تخل من شرارة الحياة بعد .. ومن ثم فقد استشعروا ما احتوت عليه أجوبته من قوة الحجة وثقل البرهان .. واعترفوا، مطرقين رؤوسهم خجلاً وحياءً، بكونهم على ضلالٍ وبعدهم عن الحق .. ولولا أن استبدت بهم مشاعر التعصب وحمية الجاهلية الرعناء في نهاية المطاف، لكادت تلك التجربة أن تكون كافية لإدخالهم في حظيرة الإيمان!

﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

إن أصحاب السلطات ، إذا خسروا المعركة في ميدان الدليل ، يلجأون دوْماً إلى ممارسة الظلم والعدوان على خصومهم .. وقد تكررت نفس هذا الأسلوب مع سيدنا إبراهيم كذلك .. ففي أعقاب حادثة تحطيم الأصنام ، عندما أحس قادة القوم بعجزهم عن مقاومة إبراهيم بالدليل والبرهان ، أخذوا في مخاشنته وتضييق الخناق عليه .. حتى انتهى بهم الغرور بالقوة يوماً إلى حدّ أنهم ألقوه في محرقةٍ رهيبةٍ .

غير أن رسول الله يكون ممثلاً لله في الأرض .. وقضيته تكون قضية الله ؛ ولذلك فإن الله ينصر رسوله نصراً غير عاديٍ ، ويعْصمه على نحوٍ استثنائيٍ ، ومن ثم فقد أمر الله بالنار التي أضرموها لإبراهيم ، فاستحالت برداً وسلاماً عليه .. ويمكن أن تنزل مثل هذه النصرة الإلهية لغير الأنبياء كذلك ؛ بشرط أن يربط هؤلاء أنفسهم بشرع الله ، تماماً كما يربط به الرسول نفسه !

﴿ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ .

إِلَى ٱلۡأَرۡضِ : منتهيا إلى أرض الشام .

نَافِلَةٗ : عطية أو زيادة عما سأل .

وُلد سيدنا إبراهيم في العراق .. ولما صار قومه ، من جمهور الشعب ، إلى الكهنة ، إلى الملك نمرود يناصبونه الشر والعداء ، غادر وطنه ، بعد أن بلغ الدعوة ، وأقام الحجة .. واتجه ، كما أمره الله تعالى ، نحو بلاد الشام وفلسطين الخصيبة .. ومع كونه لم

يحظ بين أبناء وطنه بالأتباع والأنصار ، إلا أن الله تعالى قد وهب له من الأولاد والأحفاد مَنْ ساروا على دربه ، واقتدوا بقدوته .. حتى إن صلاحهم تقبله الله بقبولٍ حسنٍ لدرجة أنه بدأ في نسله سلسلة النبوة ، حيث كانت أكثرية الأنبياء الذين جاءوا بعده من ذريته - عليه الصلاة والسلام .

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

قَوْمَ سَوْءٍ : فساد وفعل مكروه .

المراد بالحكمة : المعرفة ، وبالعلم : الوحي .. وقد أُعطي ذلك لسيدنا لوط ، تماماً كما أُعطي ذلك لكل مَنْ سبقه ومَنْ جاء بعده من الأنبياء والمرسلين من عند الله .. وأما بعد ختم النبوة ، فإن القرآن هو قائم مقام الوحي الآن، وأما الحكمة (المعرفة) فإن غير الأنبياء أيضاً يظفرون منها بنصيبهم ؛ كل بقدر كفايته واستعداده .

والذين يكونون موضع عناية الله ، فإن الله يصير كفيلهم وولي أمرهم ، بحيث يخرجهم من مجتمع الأشرار والفاسقين ، ويبوئ لهم مكاناً في مجتمع الأخيار والصالحين .. ويأخذ بأيديهم عند كل شدةٍ ، ويمدهم بنصره في كل طورٍ من أطوار الحياة .. ويحبوهم بالحكمة التي تغتسل أرواحهم بعدها في فيض الرحمات الإلهية!!

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

لقد ظل سيدنا نوح عليه السلام يدعو قومه إلى الله لمدةٍ طويلةٍ جداً ، غير أن دعوته إلى الإصلاح لم يتلقاها بالقبول سوى نفرٍ قليلٍ .. فلم يلبث نوح أن توجه آخر الأمر إلى

ربه بالدعاء على قومه بالهلاك .. فجاء بعدئذٍ طوفان عارم شديد لدرجة عجزت معها حتى قمم الجبال الشاهقة من أن تنقذ الناس! ومع أن هذه الحادثة وقعت على مستوى النبي .. إلا أنها تنطوي على جانبٍ عظيمٍ من العزاء والسلوى للبشر العاديين كذلك.. إذْ يتضح لنا من خلالها أن المفسدين في هذه الدنيا ليسوا أحراراً مطلق الحرية .. وأن مَنْ يتقدم هنا برفع لواء الحق ليس وحيداً مطلق الوحدة كذلك .. فلو أن شخصاً ربط وجوده بالحق بحيث هو يصير في هذه الدنيا ممثلاً للحق ، فإنه لا يعود بعدئذٍ في هذه الدنيا وحيداً ، بل يكون الله معه، ومَنْ كان الله معه ، تُرى هل يستطيع أحد أن يقهره أو يتغلب عليه؟! كلا !!

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

الْحَرْثِ : الزرع . أو الكرم .

نَفَشَتْ فِيهِ : انتشرت فيه ليلا بلا راع فرعته .

صَنْعَةَ لَبُوسٍ : عمل الدروع تلبس في الحرب .

لِتُحْصِنَكُم : لتحفظكم وتقيكم .

ذكرت هذه الآيات نبيين من أنبياء بني إسرائيل ، وهما : سيدنا داود ونجله سيدنا سليمان – عليهما السلام – .. لقد وهب الله لهما القدرة على الفصل بين الناس ، وإصابة الحكم في القضايا الإنسانية .. وقد كان سيدنا داود يسبّح لله – تبارك وتعالى – بطريقة رائعة ، لدرجة أن الجبال والطيور كانت تأخذ بدورها في التجاوب معه .. كما قد علمه الله – سبحانه وتعالى – كيفية استعمال

الحديد .. وإنها لحقيقة لا سبيل إلى إنكارها أن أنبياء الله هم الذين علموا الإنسان كيف يسبّح لربه ويمارس عبادته .. غير أن هذه الآيات تدلنا - إلى جانب ذلك - على أن الأنبياء يرجع إليهم الفضل كذلك في تزويد الإنسان بمعرفة الأشياء الضرورية الأخرى على وجهها .. كمبدأ العدالة الاجتماعية ، وكيفية استعمال المعادن مثلاً، إنما تَعَرَّف الناس عليها عن طريق الأنبياء .. وربما يكون الإنسان قد حصل على المعرفة الأولية (البدائية) عن كل أمرٍ ضروريٍ من أمور الحياة بواسطة حضرات الأنبياء أنفسهم - عليهم صلوات الله وسلامه !

﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

عَاصِفَةً : شديدة الهبوب .

يَغُوصُونَ لَهُ : في البحار لاستخراج نفائسها .

لَهُمْ حَافِظِينَ : من الزيغ عن أمره أو الإفساد .

المراد بـ «تسخير الرياح» هنا : هو المِلاحة البحرية .. إن السفر البحري في الزمان القديم قد فوجئ بثورةٍ نقلته من طورٍ إلى طورٍ آخر ؛ عندما اكتشف الإنسان طريقة إنشاء السفن الشراعية .. حيث كانت هذه الأشرعة بمثابة أجهزة تسخير الرياح ، وكانت تقوم ، بالنسبة إلى سفن ذلك الزمان بوظيفة المحركات في أيامنا هذه .. إن اختراع السفن الشراعية مكّن من استخدام البحار لأغراض النقل والمواصلات على أوسع نطاقٍ .. يوضح أن علم الملاحة البحرية ربما يكون هو الآخر مما تلقاه الإنسان بواسطة الأنبياء الكرام ، عليهم صلوات الله وسلامه .

وزيادةً على ذلك ، فقد سخر الله تعالى لسليمان ﷺ طائفةً من الجن كذلك .. وقد كان هؤلاء يُنجزون له أعمالاً رفاهيةً ضخمةً يعجز البشر العاديون عن القيام بمثلها .. إن هناك صنوفاً من الأجهزة والآلات اختُرعت في هذا العصر التكنولوجي الحديث لتتولى القيام بالأعمال الأكبر مشقةً والأكثر فائدةً للإنسان .. وقد جعل الله الجن مسخَّرين لنبيّه ، قبل العصر التكنولوجي ، لإنجاز مثل هذه الأعمال والمشروعات الكبيرة!

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

إن الله – سبحانه وتعالى – يُقيم ، بواسطة أنبيائه ، أروع الأمثلة وأسماها من كل نوعٍ ؛ لكي يكونوا للناس قدوةً يقتدون بها في حياتهم .. ومن ذلك مثال سيدنا أيوب – عليه الصلاة والسلام – وسيدنا أيوب ، هو ، في أغلب الظن ، نبي من بني إسرائيل بُعث في القرن التاسع قبل الميلاد .. وقد كان أول الأمر ، على حسب ما جاء في التوراة ، رجلاً ذا مالٍ وثروةٍ كبيرةٍ .. حيث بلغ ما كان عنده من الزروع والمواشي والمساكن والأولاد من الكثرة حداً راح يُوصف معه بأن «هذا الرجل أعظم كل بني المشرق» .. وبالرغم من ذلك كله فقد كان أيوب عبداً شاكراً وفياً لله .. وبالتالي صارت حياته نموذجاً حياً يدل الناس كيفية استمرارية المرء عبداً متواضعاً مطيعاً لربه ، رغم حصوله على مراتب الشرف والعزة ، وأسباب الغنى والثراء !

بيد أن الشيطان لم يلبث أن جعل هذه الواقعة مثار فتنةٍ للناس ، إذْ ألقى في نفوسهم أن اهتمام أيوب غير العادي هذا بعبادة ربه ، ليس إلا لكونه يتمتع بنعمٍ غير عاديةٍ ، ولو سُلب كل هذه النعم ، لأصبح ما يمارسه من شكرٍ وطاعةٍ في خبر كان !

وقد أقام الله بعد ذلك من خلال ذاته مثالاً آخر .. حيث هلكت مواشيه ، وضاعت زروعه ، ومات أولاده ، وحتى راح جسده هو الآخر ضحية مرضٍ ألزمه الفراش ؛ فتخلى عنه الصديق والقريب ، ولم يبق معه سوى زوجةٍ واحدةٍ .. ولكن أيوب قابل القضاء الإلهي بالرضا التام والصبر الجميل ، وقد ذكرت التوراة هذا الموقف في العبارة التالية : «.. فقام أيوب ، ومزق جبّه ، وجزّ شعر رأسه ، وخرّ على الأرض ، وسجد ، وقال : عرياناً خرجت من بطن أمي ، وعرياناً وأعود إلى هناك ؛ الربّ أعطى ، والرب أخذ ؛ فليكن اسم الرب مباركاً .. في كل هذا لم يخطئ أيوب ، ولم ينسب لله جهالةً ».

(سفر أيوب ، الإصحاح الأول ٢٠-٢٢) .

ولما بدا من سيدنا أيوب هذا الصبر والرضا الكامل بما أصابه من ألوان البلاء والمكروه كُتب له أحسن الأجر في الآخرة وجُوزي في هذه الدنيا بتحسين أحواله كذلك .. « فزاد الرب - كما تحكي التوراة - على كل ما كان لأيوب ضعفاً، وبارك الرب آخرة أيوب أكثر من أولاه..» . (انظر سفر أيوب، الإصحاح الثاني والأربعين) .

وقد عُبّر عن ذلك في الحديث بلغة التمثيل كما يلي : «لما عافى الله أيوب ، أمطر عليه جراداً من ذهب..» [1].

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

وَذَا الكِفْلِ : قيل هو إلياس عليه السلام .

كان سيدنا إسماعيل ولد سيدنا إبراهيم الخليل - عليهما السلام - وأما إدريس ، فقد ذهب بعض علماء التفسير إلى أنه النبي الذي ورد ذكره في التوراة باسم «أخنوخ»

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٥١٨ .

(Enouch).. وأما ذو الكفل فربما يكون المراد به هو النبي المذكور في التوراة باسم ((حزقيال)).

وأبرز صفةٍ كان يتسم بها هؤلاء الأنبياء ، حسبما أشارت إليه الآية ، هي : ((الصبر))؛ ذلك لأن الصبر أساس كل الأعمال التعبدية التي يُقصد بها وجه الله تعالى .. ومعنى الصبر : هو أن تتجنّب نفسية رد الفعل ، والذي لا يتجنب نفسية رد الفعل ، لن يوفق في عالم الامتحان هذا أبداً للثبات على مرضاة الله سبحانه وتعالى . والحقيقة هي أن الصبر هو المدخل إلى رحمات الله في هذه الدنيا وفي تلك الدار الآخرة!

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

وَذَا النُّونِ : صاحب الحوت يونس عليه السلام.

مُغَاضِباً : غضبان على قومه لكفرهم.

لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ : لن نضيق عليه بحبس ونحوه .

بُعث سيدنا يونس عليه السلام برسالة الله إلى ((نينوى)) ؛ إحدى مدن العراق القديم .. وقد كان عدد سكانها إذْ ذاك يبلغ مائة ألف نسمةٍ أو أكثر من ذلك بقليلٍ .. وقد ظل يدعو أهل المدينة إلى التوحيد والآخرة ردحاً من الزمن .. إلا أنهم مازالوا يعاندون ويصّرون على ما هم عليه من الكفر والإباء عن الإيمان .. وقد جرت سنة الله في الأنبياء بأن قوماً إذا ما تمادوا في الغي والإنكار ، رغم إنذار النبي إليهم ، وإقامة الحجة عليهم من خلال تبليغ الرسالة وأداء الأمانة المنوطة به ، أمر النبي بمغادرة القرية ، وأخذ القوم بالعذاب .. ومن ثم خيّل إلى سيدنا يونس أن ذلك الوقت قد حان ، فلم

يلبث أن فارق قومه من غير انتظارٍ لأمر الله إياه بالهجرة .

وفي أعقاب خروجه من القرية توجه إلى الساحل ، حيث ركب في سفينةٍ .. وفي بعض الطريق أخذت السفينة تضطرب وكادت أن تغرق ، مما جعل الركاب يظنون أن عبداً قد أبق (هرب من سيده) ، واندس بينهم .. وكان الحل ، تبعاً للعادة المتبعة قديماً ، وهو العثور على ذلك العبد وإلقاؤه في البحر ، فاقترعوا فيما بينهم ، فوقعت القرعة على يونس ، وبالتالي ألقوه في البحر .. وقيض الله في الوقت نفسه حوتاً عظيماً لالتهامه ؛ فمكث في بطنه ما شاء الله أن يمكث ، إلى أن نبذه الحوت بالساحل وهو سقيم ، فلما أفاق ، انصرف عائداً إلى قومه من جديدٍ .

إنها قصة جرت مع نبيٍ لكونه تخلى عن جبهة الدعوة قبل بلوغها حد التمام ، فما عسى أن يكون مصير ورثة الأنبياء أولئك ، الذين تخلوا عن جبهة الدعوة بالمرة !؟!

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٨٩) فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ (٩٠) ﴾

رَغَباً وَرَهَباً : وجاء في الثواب وخوفا من العقاب.

خَاشِعِينَ : متذللين خاضعين .

إن الأنبياء هم صفوة خلق الله المنعم عليهم بوجهٍ خاصٍ .. وأكبر صفةٍ شخصيةٍ يمتازون بها عمن سواهم هي أن سعيهم في الحياة لا يكون موجَّهاً نحو الدنيا ، بل نحو أشياء لها قيمة واعتبار في الآخرة .. وهم يدركون عظمة الله وجلاله بحيث يبدو لهم الله تعالى وحده كل شيءٍ ؛ فلا يخافون إلا منه ، ولا يتضرعون إلا إليه ، ولا يزالون ملتزمين بالخشوع والتواضع له تعالى على كل حالٍ من الأحوال .

وقد كانت هذه الصفات متوفرةً في سيدنا زكريا والأنبياء الآخرين عداه على أتم درجةٍ وأكملها .. ولهذا السبب أغدق الله عليهم بنعمه الخاصة .. وبقدر ما يقيم عامة المؤمنين الدليل على هذه الأوصاف العالية ، بقدر ما سيُعتبرون أهلاً لنصرة الله وعناياته !

﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا : حفظته من الحلال والحرام .

مِن رُّوحِنَا : من جهة روحنا وهو جبريل .

الصفة الخاصة التي نُعتت بها مريم – عليها السلام – هنا ، هي أنها ملكت شهوتها .. فكوُفِئتْ على ذلك بأن جُعلت والدة نبي خُلق عن طريق معجزةٍ إلهية مباشرةٍ .

وهذا الأمر نفسه ينطبق على النساء والرجال العاديين كذلك .. إذ المطلوب من الإنسان في العالم الراهن أن يملك نفسه وشهواتها ، وبقدر ما يبرهن المرء على هذا الضبط والالتزام ، بقدر ما يكون نصيبه من ألطاف الله وعناياته الخاصة!

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ .

أُمَّتُكُمۡ :ملتكم (الإسلام) .

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم : تفرقوا في دينهم فرقا وأحزابا .

لقد بعث الله كل الأنبياء بدينٍ واحدٍ لا غير ، وهو يتلخص في توحيد الله ، وإفراده تعالى بالعبادة .. ولو ظل الناس قائمين على هذا الدين الأصلي وحده ، لكانوا كلهم أمةً واحدةً .. غير أن الناس لم يلبثوا أن أعدوا نسخاً مختلفةً للدين باختراع مباحث وتفريعاتٍ جديدةٍ حوله من عند أنفسهم ؛ فمنهم مَنْ استمسك بهذه ، ومنهم من أخذ بتلك.. وهكذا تحول الدين الواحد إلى أديانٍ شتى .

إن العبرة عند الله إنما هي بالإيمان والعمل الصالح .. أي معرفة الله الصادقة ، وطاعة الله الصادقة كذلك .. وأما ما عداهما من شيء ؛ فلن يُقابل عند الله بأي تقديرٍ ولا اعتبارٍ ؛ مهما كان ذلك الشيء لدى أحد الناس جديراً بالتقدير والاعتبار وفق منظوره الذاتي!

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ .

وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ : ممتنع البتة على أهل القرية.

لاَيَرْجِعُونَ : إلينا بالبعث والجزاء .

حَدَبٍ : مرتفع من الأرض .

يَنسِلُونَ : يسرعون المشي في الخروج .

الوَعْدُ الحَقُّ : البعث والحساب والجزاء .

شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ : مرتفعة لا تكاد تطرف .

إن كون رجوع قريةٍ ما إلى الإيمان حراماً - أي ممتنعاً عليها - يعني أن يفقد أهلها استعدادهم لقبول الإيمان.. فمن شأن الحق ، إذا ظهر مصحوباً بأدلةٍ وبراهين واضحةٍ، أن المرء يجد نفسه مضطراً ، بحكم فطرته ، إلى معرفته ، والذين لا يعرفون الحق في لغة الدلائل ، لن يعرفوه إلا إذا مزّقت القيامة غشاوة أبصارهم ؛ بيد أن الإيمان وقتئذٍ ، سوف لا يغني عن أحدٍ شيئاً ، لأنه يكون وقت نيل جزاء الإيمان وليس وقت الإيمان!

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

حَصَبُ جَهَنَّمَ : حطبها ووقودها الذي به تهيج .

لَهَا وَارِدُونَ : فيها داخلون .

زَفِيرٌ : تنفس شديد تنتفخ منه الضلوع .

حَسِيسَهَا : صوت حركة تلهبها .

الفَزَعُ الأَكْبَرُ : حين نفخة البعث .

كان عبد الله بن الزِّبعري من فحول شعراء العرب الجاهليين .. ولما نزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ ، قال للناس أن سلوا محمداً : عما إذا كنت تزعم أن كل الآلهة من دون الله تَرِد مع عابديها إلى جهنم ،

فإننا نعبد الملائكة ، والنصارى يعبدون المسيح ، واليهود يعبدون عزيراً ؛ أفهم جميعاً من حصب جهنم؟! وقد طار المشركون فرحاً بمقالته هذه وذهبوا يسألون النبي ﷺ عن الجواب.. فقال عليه الصلاة والسلام .. : ((كل مَنْ أحب أن يعبد من دون الله فهو مع مَنْ عبده)) ، وقد كان هذا الرد حاسماً لم يدعْ لعبد الله بن الزبعري متسعاً لمزيد من الأخذ والرد، ويقال إنه قد اعتنق بعدئذٍ الإسلام [1].

ومن هذا نعلم أن مصداق الآية هو الأصنام المنحوتة من الحجارة ونحوها ، أو الذي كان راضياً باتخاذ الآخرين إياه إلهاً يُعبد من دون الله .. وإنما يُلقى بمن اتخذ أحداً من دون الله إلهاً ، وبمن رضي بهذا التأليه لنفسه ، يلقى بكليهما معاً في نار الجحيم ليكون عبرةً للناس .

إن يوم القيامة سيكون يوماً رهيباً للغاية .. غير أن الذين كُتب لهم التوفيق ليكونوا على وجلٍ وخوفٍ من الساعة قبل حلولها ، سيكونون في مأمنٍ من فزع ذلك اليوم الرهيب ، وسيدخلون في دنيا الجنة الحافلة بصنوف النعم وأسباب الراحة والهناء!

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

السِّجِلِّ : الصحيفة التي يكتب فيها .

لِلْكُتُبِ : على ما كتب في السجل .

الزَّبُورِ : الكتب المنزلة .

الذِّكْرِ : اللوح المحفوظ .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٩.

لَبَلاغاً : كفاية أو وصولا إلى البغية.

إن امتداد الكون الحالي إنما كان لأجل إيجاد عالم الامتحان .. وأما حين يأتي وقت بناء عالم الجزاء ، فسوف يطوي الله بساط هذا العالم ويلم أطرافه ، ولعله سيبني من هذه «المادة» عالماً آخر جديداً يناسب متطلبات القضاء والجزاء الأخير .. وإن ظهور عالم إلى حيز الوجود يكفي بحد ذاته دليلاً على إمكان إيجاد عالم آخر كذلك .

وإنه لطالما يتمكن شرار الناس من احتلال مراكز الشرف والكبرياء في العالم الراهن .. غير أن ذلك ليس إلا لحين انقضاء فترة الامتحان المحددة ، فإذا انتهت فترة الامتحان ، وتكوّن العالم الأبدي الكامل على أنقاض هذا العالم ، فإنما ستقع هناك كل ألوان العزة والراحة في نصيب أولئك وحدهم ، الذين كانوا خلال فترة الامتحان الحالية عباداً أوفياء مخلصين لله حقاً.

وقد ورد هذا المعنى أيضاً في الزبور - وهو يُعرف عند أهل الكتاب اليوم بسفر «المزامير» - بشيء من التفصيل.. وهاك عبارة من الإصحاح السابع والثلاثين ، وهي تقول : «لا تغرْ من الأشرار ، ولا تحسد عمال الإثم ، فإنهم مثل الحشيش سريعاً يُقطعون ، ومثل العشب الأخضر يذبلون .. اتكل على الرب ، وافعل الخير ، (فهو) يخرج مثل النور برَّك ، وحقَّك مثل الظهيرة .. لأن الرب يحب الحق ، ولا يتخلى عن أتقيائه ؛ إلى الأبد يُحفظون .. أما نسل الأشرار فينقطع ، الصديقون يرثون الأرض ، ويسكنونها إلى الأبد»!!

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا

تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ .

آذَنتُكُمْ : أعلمتكم ما أمرت به .

عَلَى سَوَاءٍ : مستوين جميعا في الإعلام به .

وَإِنْ أَدْرِي : وما أدري وما أعلم .

فِتْنَةٌ لَّكُمْ : امتحان لكم .

إن كل الأنبياء المرسلين من عند الله – سبحانه وتعالى – إنما بُعثوا لغاية واحدةٍ ليس إلا .. حيث كان الله تعالى يريد من خلالهم جميعاً تزويد البشر بعلم الحقيقة الذي يجعلهم – إن هم أخذوا به وساروا على ضوئه – أهلاً لسكنى الجنان الأبدية .. غير أن البشر مازالوا يرفضون الأنبياء والرسل الواحد تلو الآخر .. وعلى هذا فقد كان سائر أنبياء الله رحمةً من الله للخلق .. وإنما تكمن ميزة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في أن الله تعالى جعل منه وسيلةً لعنايةٍ خاصةٍ بعباده ، وهي أن الله تعالى قرر أن يفتح بواسطته – عليه الصلاة والسلام – باب الهداية ذاك ، الذي كان قد ظل مغلقاً ولهذا السبب قضى الله بالنسبة إلى أمته المدعوة قضاءً حتمياً خاصاً بإرشادها إلى طريق الحق على أية حالٍ .. ذلك لكي تقف إلى جانب الرسول جماعة مؤمنة قوية تقوم بتفجير ثورةٍ في العالم ؛ تغير مجرى التاريخ ! ومن نافلة القول أن شرع الرحمة الإلهية الخاص هذا ، قد تحقق على يد النبي العربي وأصحابه الكرام على نحوٍ أتم وأكمل ما يكون!

سورة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾.

زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ : أهوال القيامة وشدائدها.

تَذْهَلُ : تغفل وتشغل لشدة الهول .

مَّرِيدٍ : متمرد عان متجرد للفساد.

تَوَلَّاهُ : اتخذه وليا وتبعه .

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ هذه العبارة تبين أهوال القيامة بلغة التمثيل .. أي سيصل أمر الناس يومئذٍ إلى أنه لو كانت هناك مرضعة ، ذهلت عن الرضيع في أحضانها لما ينتابها من هولٍ مروعٍ ، وإن كانت ثمة حامل ، سقط حملها من شدة الفزع الطارئ عليها!!

والزلازل التي تقع في عالمنا الراهن هي صورة صغيرة جداً لحادث القيامة .. وأما إذا جاء زلزال القيامة العظيم، فسوف لا يلبث المرء أن ينسى كل شيءٍ كان اهتمامه به وإقباله عليه قد أنساه يوم القيامة ، وهو لا يكاد يذكر ساعتئذٍ حتى أحب الأشياء لديه

في الحياة الدنيا !!

إن كلام النبي يرتكز على أساسٍ من العلم .. وهو يُوضحه ويثبته بأدلةٍ وبراهين قاطعةٍ.. غير أن الذين يأبون عن الاعتراف بوجود حقٍ ما خارج ذواتهم ، يثيرون حول كلام النبي جدلاً كاذباً ، ليتظاهروا بأنهم على الحق أو باحثون عن الحق على أقل تقديرٍ .. إن موقفاً كهذا بمثابة التمرد على الله .. والذين يعتمدون على مثل هذا الجدال بالباطل ، تبريراً لعدم اعترافهم بالحق ، كأنما هم جعلوا من الشيطان مستشاراً لهم ، ويقيمون بذلك الدليل على أن أفئدتهم خالية من خوف الله كل الخلو .

إن نفسية اللاخوف تجرد المرء من صلاحية معرفة الحق والاعتراف به .. وهو يصبح أداة «طيعةً» في يد الشيطان يستخدمها كما يشاء .. ومثل هذا الشخص لن يوقظه شيء سوى هدير القيامة الرهيب ؛ إلا أن زلزلة القيامة إنما تأتي لتفتح لأمثال هؤلاء العتاة المتمردين أبواب جهنم ، لا لتقودهم إلى طريق الهداية !

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾

نُّطْفَةٍ : مَنِيّ .

عَلَقَةٍ : قطعة دم جامدة .

مُضْغَةٍ : قطعة لحم قدر ما يمضغ

مُخَلَّقَةٍ : مستبينة الخلق مصورة .

لِتَبْلُغُوا : كمال قوتكم وعقلكم .

أَرْذَلِ الْعُمُرِ : أخسه ، أي الخوف والهرم .

هَامِدَةً : ميتة يابسة قاحلة .

اهْتَزَّتْ : تحركت بالنبات .

وَرَبَتْ : ازدادت وانتفخت .

زَوْجٍ بَهِيجٍ : صنف حسن نضير

إن اشتباه المرء في الحياة الآخرة إنما يرجع إلى كونه يتعذر عليه أن يفهم أن الإنسان إذا مات ، وأصبح رميماً ؛ كيف سيقوم حياً من جديد ؛ كيف سيعود الوجود الميت إلى وجودٍ نابضٍ بالحياة ؟!!

وردّ هذه الشبهة يكمن في تكوين عالمنا الراهن نفسه .. فما هذا العالم الذي نعيش فيه الآن ؟ إنه تغير حالٍ إلى حالٍ .. فالشيء الذي نطلق عليه «الوجود الحي» ، ليس في حقيقته سوى نتاج تغيرٍ طارئ على وجودٍ غير ذي حياةٍ.. إن تحليل الجسم الإنساني يدلنا على أنه يتألف من : الحديد ، والفحم (الكربون) ، والكالسيوم ، والأملاح ، والمياه، والغازات .. إلخ . وكل هذه العناصر التركيبية للوجود الإنساني جامدة ولا روح فيها .. ولكن نفس هذه العناصر غير الحية، تأخذ شكل أعضاء حيةٍ ، يتكون من مجموعها المتناسق إنسان يتحرك ويمشي .. إذن ، فما الذي يدعو إلى الدهشة أو

الاستغراب في أن يعود هذا الإنسان مرةً أخرى إلى الحياة بعد الموت ، كما قد صار حياً بعد أن كان ميتاً أول مرةٍ ؟!

وهكذا فلننظر في نبات الأرض .. إن التراب أو الأشياء الأخرى التي يتكوّن منها النبات ؛ كلها تخلو في مبدأ الأمر من تلك الخصائص التي يطلق على مجموعها اسم «النبات».. غير أن هذا «اللانبات» هو الذي يتحول إلى «نبات» ، وهذا التحول يحدث أمام أعيننا كل اليوم ، إذن فما الذي يجعلنا نستبعد وقوع هذا الحادث مرةً ثانيةً ؟!

الحقيقة هي أن ظهور العالم الأول إلى الوجود يقوم في ذاته دليلاً قاطعاً على إمكان ظهور العالم الآخر .. إنه بعد تجربة الحياة الأولى لا تعود ثمة صعوبة ما في فهم الحياة الثانية من الناحية العقلية والمنطقية!

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝ ﴾

ثَانِيَ عِطۡفِهِ : لاويا لجانبه تكبرا وإباء .

خِزْيٌ : ذل وهوان .

أعدى أعداء الدعاة إلى الدين الخالص ، على اختلاف الأعصار والأمصار أولئك الذين يقوم صرح قيادتهم على أساس من الدين المغشوش .

وهؤلاء كثيراً ما يثيرون جدلاً فارغاً حول دعوة الحق ودعاته ، سعياً منهم إلى تشكيك أتباعهم في صدق الدعوة الجديدة ، وجعْلهم بالتالي يظلون آخذين بأهداب الدين التقليدي السائد ، معتقدين - كسابق عهدهم - أنه وحده الحق وما سواه باطل .

وإنما يتصدى هؤلاء لمعاداة الحق حفاظاً على كبريائهم ومجدهم الكاذب الذي يتمتعون به في ظل الدين المزعوم.. فإن اهتمامهم يكون مصروفاً نحو ذاتهم أكثر منه نحو الحق .. وأمثال هؤلاء من أشد الناس جرماً عند الله سبحانه وتعالى ، وإنهم لن يحصلوا في الآخرة على شيءٍ سوى الخزي وعذاب الحريق !

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾

عَلَى حَرْفٍ : شك وقلق وتزلزل في الدين .

الناس رجلان : رجل يكتشف الدين من حيث إنه هو الحق المطلق .. وبالتالي يأخذ الدين من عقله وقلبه كل مأخذٍ.. فيسلم نفسه ويسخر وجوده كله للدين بدون أدنى تحفظٍ .. ويصير كل شيءٍ آخر سواه في نظره ثانوياً .. وهذا هو المؤمن الصادق عند الله سبحانه وتعالى .

أما الآخرون فهم الذين يربطون أنفسهم بالدين بدافعٍ سطحي أو تأثرٍ وقتي فقط ، بينما ترتبط اهتماماتهم الحقيقية بمصالحهم .. وارتباطهم هذا بالدين إنما يدوم مالم يجرّ عليهم خسارةً ما ، أو يعرّض مصالحهم لخطر الضياع.. ومن ثم فحين يحسّون بأن الدين ومصلحتهم لا يستطيعان أن يسيرا جنباً بجنبٍ ، يتمسكون بمصلحتهم الذاتية ، متخلين عن الدين بالمرة!!

وهذا الصنف الثاني من الناس هو الذي يُطلق عليه «المنافق» .. والمنافق يظل فاشلاً في الحصول على الدنيا والآخرة معاً .. وسبب ذلك أن النجاح في كلٍ من الدنيا والآخرة يتوقف على توافر شرطٍ واحدٍ ، ألا وهو تركيز الفكر .. وتلك هي الصفة القلبية التي لا تكاد تتوفر لدى الإنسان المنافق أبداً .. فإنه بسبب ميوله واهتماماته

الثنائية أو المزدوجة لا يتمكن من تركيز فكره على الآخرة ولا على الدنيا على نحوٍ تام، وإنما يظل يتردد بين هذه وهذه، وهكذا فلا يوفق لدفع الثمن اللازم للظفر بأي واحدةٍ منهما .. وينتهي الأمر بأمثال هؤلاء إلى أن يصبحوا رمزاً للحرمان المزدوج!

﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾

المَوْلَى: الناصر .

العَشِيرُ: المصاحب المعاشر .

التخلي عن الله يكون دوماً نتيجة الاعتماد على غير الله .. فحين ينحرف أحد الناس عن طريق الله المستقيم أو يُعرض عنه ، فإنما يرجع السبب في ذلك إلى كونه معتمداً على أي شيءٍ آخر غير الله .. و«غير الله» هذا قد يكون وثناً أو صنماً ، وقد يكون شيئاً آخر عدا الأصنام والأوثان .

على أن أحداً من دون الله في هذا العالم - كائناً من كان - لا يتمتع بشيءٍ من القدرة أو الطاقة .. ومن ثم فحين يضع المرء ثقته في الآخرين دون الله فإنه يتخلى عن القادر ذي القوة ، ويلجأ إلى شيءٍ وهميٍ لا وجود له من حيث القدرة والطاقة .. فهل هناك حماقة يمكن تصورها أشد من هذه الحماقة ؟ !!

وفوق ذلك ، فإن ارتباطك بالله واعتمادك عليه ليس مقتضى الضرورة وحدها ، بل هو مقتضى الحقيقة كذلك.. فإنه من حق الله على الإنسان .. ولذا فحين يلجأ المرء إلى الأشياء الوهمية متخلياً عن الله ، تُقدر له أضرار ذلك بصورةٍ فوريةٍ وحتميةٍ .. وأما

منافع هذا اللجوء فإنها غير عائدةٍ عليه أبداً ، لأنها هي الأخرى وهمية لا وجود لها بالفعل .

وفي دنيا كهذه ، فإن الذين أقاموا الدليل على سمو الفكر برفع أنفسهم عن البيئة المحيطة ، واكتشاف الله الحق في خضم الآلهة الباطلة .. ثم بصبغ حياتهم كلها بالصبغة الإلهية من أجل الآخرة وحدها ، هم أثمن وأغلى أرواح هذه الدنيا إطلاقاً .. وسوف يتلقاهم ربهم بحفاوةٍ وتقديرٍ ؛ بحيث يُسكنهم في عالم الجنة الكامل ، ليستمتعوا بما فيه من راحةٍ ونعيمٍ مقيمٍ إلى الأبد!

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

يَنصُرَهُ اللهُ : ينصر الله رسوله ﷺ .

بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ : بحبل إلى سقف بيته.

ثُمَّ لْيَقْطَعْ : ثم ليختنق به حتى يموت .

كَيْدُهُ : صنيعه بنفسه .

أخذت هوة الخلاف والمعارضة تتسع بين النبي ﷺ والمشركين على توالي الأيام.. حتى بدا أن رافعي راية الباطل سيقضون يوماً على حملة لواء الحق .. وهنالك نشأ في قلوب بعض المسلمين – وهم يمرون بأحوال بالغة الخطورة كهذه – تساؤل عما إذا كنا نحن على الحق ؛ فلم لا يُمدنا الله تعالى بنصره ؛ وما الذي جعله يقف على الحياد من هذا الصراع المحتدم بين الحق والباطل ؟!

فقال : إن الله ينصر الحق دائماً ولا ريب .. ولكن ليس من سنة الله أن يتدخل تدخلاً فورياً .. وإنما هو ينتظر حتى تصل الأحداث إلى حد ؛ يقوم معه الدليل القاطع على كوْن أحد الفريقين على الحق وكوْن الأخرى على الباطل .. وحين يأتي هذا الحد ، يتدخل الله في الأمر ويحسمه بدون تأخيرٍ ولا مزيد إمهالٍ .

وتلك هي سنة الله .. وينبغي للمرء أن يوطّن نفسه على قبول هذه السنة الإلهية كما هي .. إذْ لا يمكن أي شيءٍ آخر سواها في هذا الكون .. وكل طريق لا يتفق وهذه السنة يقود إلى الموت وليس إلى الحياة!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

وَالصَّابِئِينَ : عبدة الملائكة أو الكواكب .

ذكرت هذه الآية ست طوائف دينية :

- المسلمين (وهم الذين آمنوا برسالة النبي العربي ﷺ) .

- اليهود (المنتسبين إلى سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام) .

- الصابئة (وهم قوم كانوا يؤمنون - على حد بعض الأقوال الواردة فيهم - بسيدنا يحيى - عليه الصلاة والسلام) .

- النصارى (وهم المنتسبون إلى ملة عيسى عليه السلام) .

- المجوس (وهم أتباع زرادشت) .

- ومشركي مكة (وهم الذين كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم - عليه السلام) .

وقد كان هؤلاء جميعاً موحِّدين في البداية .. ولكنهم لم يلبثوا أن أفسدوا دينهم ..

وهم الآن قائمون على هذا الدين الفاسد .. أما المسلمون فبالإمكان أن يصير حالهم مثل الطوائف الضالة الأخرى تماماً .. فإن المسلمين ، وإن كان كتابهم (القرآن) لا يزال محفوظاً ، ولكن ليس ثمة ما يمنعهم في عالم الامتحان هذا من أن يتخذوا ديناً مزعوماً بتأويل القرآن والسنة على هواهم ؛ ويحسبوا ، وهم متمسكون بدينهم المزعوم ذاك ، أنهم على دين الله!!

إن دين الله الحقيقي واحد لا غير .. إلا أنه يتحول إلى ألف دينٍ ودينٍ نتيجة التفسيرات البشرية .. ومن ثم فحين يكون الناس على دين الله الحق ، تزدهر بينهم الوحدة .. وأما إذا أخذ الناس في اتباع الدين المزعوم ، حل الشقاق محل الوحدة ، وثارت بينهم خلافات دينية شتى .. وهذه الخلافات لا تزال تتفاقم وتزداد حدةً وعمقاً إلى غير نهايةً ، ولا تكاد تعرف حداً تقف عنده .. بيْد أن الله – سبحانه وتعالى – يحيط علماً بأحوال كل شخصٍ ، وأخبار كل طائفةٍ .. وهو تعالى سيكشف القناع في يوم القيامة عمّن كان على الحق ومَنْ كان على الباطل !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨) ﴾

يَسْجُدُ لَهُ : يخضع له وينقاد لإرادته تعالى.

حَقَّ عَلَيْهِ : ثبت ووجب عليه .

إن لله قانوناً سنّه لبقية الكون تماماً كما جعل الله قانوناً معيناً لبني الإنسان. وإن الكون كله يسير على قانون الله بمنتهى التوافق والانسجام ، وبدون أي اعتراضٍ ولا اختلافٍ .. إنما هو الإنسان وحده الذي يثير صنوف الاعتراضات والخلافات .. ويتبع

سبلاً جديدةً باختلاق تفسيرات مزعومةٍ شتى للقانون الإلهي .

وإنهم لمن أكابر المجرمين عند الله ؛ الذين يُحدثون الخلافات في دين الله .. فإنهم يريدون أن يعيشوا ((مختلفين)) في كون منسجمٍ ((غير مختلفٍ)) .. وهم مشغولون بوضع ((أديانٍ عديدةٍ)) في عالمٍ يُلقنّ في كل أنحائه درس ((الدين الواحد)) على أوسع وأشمل نطاقٍ !

إن كون الله مظهر عملي لمرضاة الله .. والذين يسيرون على عكس هذا الأنموذج العملي الذي أقامه الله تعالى، فإنهم يبرهنون اليوم على استحقاقهم للعذاب الإلهي .. وإنما ستأتي القيامة لتعلن إعلاناً لفظياً عن تلك النتيجة التي يتم إعلانها العملي في العالم الراهن كل حينٍ وآنٍ !!

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾

خَصْمَانِ : المؤمنون وسائر الكفار .

الحَمِيمُ : الماء البالغ نهاية الحرارة .

يُصْهَرُ بِهِ : يذاب به .

مَّقَامِعُ : مطارق أو سياط .

إن الطوائف البشرية - حسب التقسيم الإجمالي - نوعان : أهل الحق ، ومعارضوهم. والذين يتخاصمون مع أهل الحق في العالم الراهن ، ربما يحسبون أنهم

يستندون على جبلٍ من الأدلة والبراهين .. غير أنه ليس إلا عدم جديتهم الذي يجعلهم ينظرون إلى جدالهم العقيم على أنه معارضة الدليل بالدليل .. وبما أنهم لا يريدون الاعتراف بالحق إطلاقاً، يثيرون حوله ضروباً من النزاعات الباطلة . وأمثال هؤلاء سيلقون في الآخرة عاقبة عَدم اعترافهم عذاباً شديداً لن يجدوا منه مهرباً إلى الأبد!

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾

صِرَاطِ الحَمِيدِ : الإسلام الذي ارتضاه لعباده .

إن التعرف على صدق الإيمان عمل صعب جداً ؛ ولا سيما في بيئةٍ تروج فيها بضاعة الألفاظ الخادعة والأفكار المموهة .. وحيث يتمتع بالغلبة والسيادة المنحرفون عن جادة الحق .. وأشد من ذلك صعوبةً أن تأخذ نفسك عملياً باتباع طريق الإيمان هذا .. إنهم أناس كُتب لهم التوفيق لتلقي «القول الطيب» وسط ضجيج من الأقوال الصاخبة .. والذين وقعت أبصارهم على «صراط الحميد» في خضم السبل الملتوية الكثيرة فعرفوه .. وإن الذين يقيمون الدليل على هذه الكفاية العظيمة في هذا العالم ، هم أثمن وأغلى أفراد البشرية .. وهم جديرون حقاً بأن يتم إسكانهم في الجنان الأبدية !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ ﴾

وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ : مكة (الحرم) .

العَاكِفُ فِيهِ : المقيم فيه الملازم له .

وَالْبَادِ : الطارئ غير المقيم .

بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ : بميل عن الحق .

إن أحد الأمثلة على إنكار الحق هو الذي شهدته مكة القديمة إبان فجر الدعوة الإسلامية .. حيث لم يتحمل أهلها حتى أن يقوم رسول الله ﷺ بالدعوة والتبليغ بطريقةٍ سلميةٍ للغاية .. وفرضوا عليه قيوداً شتى وضيقوا عليه الخناق .. وجعلوا منه ومن أصحابه - عليه الصلاة والسلام - عرضةً للظلم والعدوان بغير حقٍ .. وأوغلوا في الظلم إلى حد أنهم منعوه وأصحابه عن دخول المسجد الحرام!!

وسلوك أهل مكة هذا كان إضافة الطغيان إلى جانب الإنكار .. وأمثال هؤلاء الطغاة الظالمين ينتظرهم عند الله عذاب شديد ؛ سواء أكانوا ظالمي الماضي أو الحاضر ، وسواء أكان طغيانهم يتصل بالمسجد الذي بناه سيدنا إبراهيم أو بذلك "المسجد الفسيح" الذي أنشأه الله في صورة الأرض لعباده أجمعين!

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾

بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ : وطأنا . أو بينا له .

أمر الله تعالى سيدنا إبراهيم أن يذهب إلى منطقة الحجاز غير المأهولة ، ويسكن ذريته هناك. وقد كان الغرض من هذا الإسكان في منطقةٍ نائيةٍ غير مأهولةٍ ، أن ينشأ جيل جديدٍ في مناخٍ فطري بسيطٍ بعيداً عن آثار الشرك والوثنية .

وتبعاً لهذه الخطة الإلهية أسكن سيدنا إبراهيم ذريته في مكة التي كانت غير مأهولةٍ بالمرة حينذاك .. كما قام سيدنا إبراهيم - إلى جانب ذلك - ببناء مسجدٍ وهو الكعبة ، ليكون لهذا الجيل الجديد - وبالتالي للعالم أجمع - مركزاً لعبادة الله الواحد الأحد!!

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

وَأَذِّن فِي النَّاسِ : ناد فيهم وأعلمهم .

رِجَالاً : مشاة على أرجلهم .

ضَامِرٍ :بعير مهزول من بعد الشقة .

فَجٍّ عَمِيقٍ : طريق بعيد .

بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ :الإبل والبقر والضأن والمعز .

لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ : ثم ليزيلوا بالتحلل أوساخهم أو ثم ليؤدوا مناسكهم .

لقد كان الغرض من بناء الكعبة أن تكون مركزاً لعبادة الله الواحد للعالم أجمع .. وقد تحقق هذا الغرض على أكمل وجهٍ .. وإن المناسك التي يؤديها الحاج هنا ، تم بيانها في القرآن الكريم بإيجازٍ وفي السنة النبوية بكل دقةٍ وتفصيلٍ .

ومعنى قوله :﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ أن يشاهدوا هناك فوائد الدين بالفعل ، تلك التي يسلمون بها كعقيدةٍ.. فإن الأماكن التي يزورها الحاج يرتبط بها تاريخ مجيد لدين

الله .. ومن ثم تتسبب زيارتها في إلانة قلوب الزائرين وإرهاف مشاعرهم .. ويجتمع المسلمون هناك من أقطار العالم كافة ، وهكذا يتجلى للعيون ظاهراً ما يتمتع به الإسلام من امتدادٍ ونفوذٍ دولي .

واجتماع الحج السنوي يكون باعثاً على إيجاد الوحدة وتمتين روابط الإخاء والتآلف بين المسلمين على المستوى العالمي .. كما يكتسب المرء خلال رحلة الحج هذه تجارب دينيةً ودنيويةً كثيرةً ، وهي بدورها تكون خير مِعوانٍ له على بناء الحياة .. وما إلى ذلك من المعاني السامية والفوائد الجليلة التي لا يتسع المقام لحصرها هنا!

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾

حُرُمَاتِ اللهِ : تكاليفه من مناسك الحج وغيرها .

الرِّجْسَ : القذر والنجس وهو الأوثان.

قَوْلَ الزُّورِ : قول الباطل والكذب القبيح .

ما هو الحلال وما الحرام ؟ وأي شيءٍ يستحق التقديس ، وأي شيءٍ لا يستحق التقديس ؟ ، وما الطرق الصحيحة للعبادة ، وما الطرق الخاطئة؟ كل ذلك مما بيّنه الله - سبحانه وتعالى - على ألسنة أنبيائه ورسله بوضوحٍ تامٍ .. ولا يجوز تناوله بأي نوعٍ من التغيير أو التعديل .. وكل تعديلٍ يتم إدخاله على هذه الأمور بناءً على الأهواء والآراء البشرية ، يُعتبر عند الله كذباً ، بل هو الكذب الأعظم .. إذن فيجب على الإنسان أن يقف في هذا الخصوص عند تعاليم الأنبياء ويتمسك بها حرفياً، ولا يزيد فيها أو ينقص منها شيئاً على أية حالٍ.

إنها أمور لا يعرف حقيقتها إلا الله سبحانه وتعالى .. وحين يقول المرء عنها شيئاً من

عند نفسه ، فإنه يدّعي العلم بشيءٍ لا علم له به إطلاقاً .. ومن الظاهر - والحالة هذه - أن هذا كذب ، بل هو كذب ليس بعده من كذبٍ أعظم منه!

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

حُنَفَاءَ لله: مائلين عن الباطل إلى الدين الحق .

تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ : تسقطه وتقذفه .

مَكَانٍ سَحِيقٍ : موضع بعيد مهلك .

إن القوة المركزية في هذا الكون واحدة لا غير .. ألا وهي ذات الله الواحد الأحد الفرد الصمد .. فمن ربَط نفسه بالله ، فقد حصل على مستقرٍ حقيقيٍ له ، وارتكز على أرضيةٍ صلبةٍ .. وعلى نقيضٍ من ذلك فمن لم يربط نفسه بالله ، أو هو يقر بوجود الله بمحض لسانه ، بينما يقيم علاقته القلبية بأحدٍ سواه ، فكأنه مقطوع الصلة بالمركز الذي ليس ثمة مركز آخر عداه لهذا الكون .. ومثل هذا الشخص كمثل الذي صوّرته هذه الآية الكريمة أبلغ تصويرٍ!

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾

شَعَائِرَ اللهِ : الأنعام المهداة للبيت المعظم .

مَحِلُّهَا : وجوب نحرها .

إِلَى البَيْتِ العَتِيقِ : منهية إلى أرض الحرم كله .

كلمة «الشعيرة» تعني : العلامة (Symbol) .وإن العبادات التي شرعها

الإسلام لها جانبان : ظاهري وباطني .. أما الجانب الباطني فهو أصل العبادة وجوهرها .. وأما الجانب الظاهري فهو علامة (شعيرة) على الجانب الباطني .. والشعائر التي قررها الله - سبحانه وتعالى- ولا نستطيع الوفاء بحقها بأن نعظمها تعظيماً شكلياً ظاهرياً فقط ، بل لابد لتأدية حقّها من تقوى القلوب ..

ومن شعائر الله حيوانات الهدْي والنذور .. وهي بدورها تمثل علامةً على حقيقةٍ ، وليست حقيقة في حد ذاتها.. وليس مما يسر الله ويقع عنده موقع الرضا أن نصبغ هذه الأضاحي والهدايا بفاقع الألوان ، أو نتجنب الركوب على ظهورها ، ولا ننتفع بها أية فائدةٍ.. وإنما يكمن رضا الله - سبحانه وتعالى - في ألا نعمل عملاً ما إلا خالصاً لوجهه الكريم .. فإن العبرة عند الله بالحالة القلبية ، وليس بالحالة الشكلية الظاهرية!

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ ﴾.

مَنسَكاً : نسكا وعبادة (الذبح قربة لله) .

وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ : المطمئنين إلى الله أو المتواضعين له .

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ : خافت هيبة وإجلالا منه تعالى .

هناك نفسيتان تتولّدان في داخل المرء إزاء ما يحصل عليه في هذا العالم من المنتوجات؛ زراعيةً كانت أو حيوانيةً أو صناعيةً .. أولاهما : هي أنها نتيجة كدْحي أنا ، أو أنها بركة الآلهة والمعبودات .. وهذه نفسية وثنية مشركة تماماً .

أما النفسية الثانية : فهي أن يعتبر المرء كل ما يحصل عليه هبةً من الله .. وتمثل الزكاة والعشر والتضحية أساليب محددة للتعبير الخراجي عن هذه العاطفة الداخلية .. حيث

ينذر المرء جزءاً مما كسبه في سبيل الله ، فيقر بذلك إقراراً عملياً بأن كل ما يتوفر لديه إنما هو من عطايا الله ، وليس نتاج كدْحه هو .

ولو أن الإنسان عرف ربه حق المعرفة ، لطرأت على قلبه بعدئذٍ تلك الحالة التي أطلق عليها هنا «الإخبات» ، فمثل هذا الشخص يتوجه بكيانه كله إلى الله ، وتغمره كيفية العجز والتواضع والخشوع .. ويرتعد فؤاده بتصور جلال الله وعظمته .. وهو يأخذ ينظر إلى كل شيءٍ على أنه ملك الله ، وليس ملكه الذاتي!!

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وَالْبُدْنَ : الإبل . أو هي البقر المهداة للبيت .

شَعَائِرِ اللهِ : أعلام شريعته في الحج.

صَوَافَّ : قائمات صففن أيديهن .

وَجَبَتْ جُنُوبُهَا : سقطت على الأرض بعد النحر .

وَأَطْعِمُوا القَانِعَ : السائل .

وَالْمُعْتَرَّ : الذي يتعرض لكم دون سؤال.

لو لم تكن هناك البهائم والأنعام كالإبل وغيرها على الأرض .. وإنما وُجدت الأسود والدببة والذئاب وحدها ، لواجه الإنسان صعوبةً كبيرةً في تسخيرها واستخدامها .. وإن هذه لمنة من الله عظيمة أنه لم يخلق الوحوش والسباع المفترسة

فحسب ، بل خلق - إلى جانب ذلك - حيواناتٍ تنقاد لإرادة الإنسان وتمكنه من نفسها بصورةٍ جبليةٍ .. وحين يقوم الإنسان بذبحها للغذاء أو التضحية ، تبلغ طبيعة الانقياد المودعة في فطرتها إلى أقصى الحدود!

وإن الله - سبحانه وتعالى - لم يشرع التضحية لكونه في حاجةٍ إلى اللحم والدم إذْ أن التضحية ليست سوى عملٍ رمزيٍ .. والتضحية بالحيوان صورة ظاهرية للإنسان الذي يكون قد ذبح نفسه لله .. إنها في الحقيقة ((ذبيحة النفس)) التي تتجسد في ((ذبيحة الحيوان)) .. والسعداء هم الذين تصير التضحية بالحيوان عندهم بمثابة التضحية بالنفس!!

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

خَوَّانٍ كَفُورٍ :خائن الأمانات جاحد النعم .

صَوَامِعُ :معابد رهبان النصارى.

وَبِيَعٌ : كنائس النصارى.

وَصَلَوَاتٌ : كنائس اليهود .

وَمَسَاجِدُ : للمسلمين .

إن عبداً من عباد الله ، أو حزباً من الأحزاب إذْ يتبع سبيل الله ، فلا يعود وحيداً في

هذه الدنيا ؛ فحين يتخذ الغافلون والطغاة منهم عرضةً لظلمهم وعدوانهم يقف الله إلى جانبهم ..والله - سبحانه وتعالى - يمتحن أول الأمر المؤمنين بل ويمحص قلوبهم ..والذين يقيمون الدليل على إخلاصهم عبر هذا الامتحان ينصرهم الله حتماً ، ويخلق لهم ظروفاً تمكنهم من الثبات على جادة الحق والوفاء بمقتضياته رغم كل العوائق والصعوبات .

وإن إقدام أهل الإيمان الحقيقي هو الدعوة ليس غير .. فهم يبدؤون نشاطهم بالدعوة ، ولا يزالون قائمين بالدعوة وحدها على طول الخط .. وقد يقومون تارةً بالحرب كذلك عند الضرورة ، ولكن حربهم تكون دوماً للدفاع دون الاعتداء .

ولو أن طائفةً ما ظلت قابضةً على زمام الحكم والسلطة لمدةٍ من الزمن طويلةٍ ، أصابها البطر والطغيان والغرور.. ولذلك سن الله - سبحانه وتعالى - قانون «الدفع» في هذا العالم .. حيث إنه تعالى لا يزال ينحي طائفةً عن مركز السلطة بيد طائفةٍ أخرى حيناً بعد حينٍ ، وهكذا يبقى التوازن السياسي مستمراً عبر الأجيال .. ولو لم يفعل الله ذلك لاشتد عناد الناس وبلغ طغيانهم حداً لن تسلم معه من أيديهم المشغولة بالهدم والتخريب حتى المؤسسات المقدسة كدور العبادة !!

وهناك أسلوبان لهذا الدفع .. أولهما : أن يتم القضاء على هيمنة طائفةٍ ما بصورةٍ مطلقةٍ .. وأحد الأمثلة لذلك بريطانيا ؛ التي قُضي على ما كان لها من هيمنةٍ ونفوذٍ واسعين بواسطة حركات الاستقلال الوطني .

والأسلوب الثاني : هو الذي رأينا مثالاً له خلال الحرب الباردة بين الكتلة الشيوعية (المتمثلة في الاتحاد السوفيتي) والكتلة الرأسمالية الإمبريالية (المتمثلة في الولايات المتحدة) ، وهو يتلخص في الحدّ من طغيان قوةٍ بأخرى حفاظاً على التوازن في ساحة السياسة الدولية!

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾

الشرط الأساسي لاستحقاق نصرة الله هو أن يكون الإنسان بحيث إذا حصل على السلطة لم يبطر .. وإذا نال الرفعة والكبرياء لم يزده ذلك إلا شعوراً بالعجز والتواضع .. والذين يقيمون الدليل على صلاحهم هذا في أحوال ما قبل الحصول على السلطة ؛ أولئك وحدهم يمكن أن يظلوا صالحين مستقيمين في أحوال ما بعد الحصول على السلطة كذلك .. وهؤلاء هم الذين إذْ يتم تمكينهم من السلطة، يخضعون لله ، ويقومون بتأدية حقوق العباد خير قيامٍ .. ويتصرفون في كل شأنٍ من شئون الحياة بحسب ما يرضاه الله ، ويتجنبون كل ما لا يرضاه الله من قولٍ وفعلٍ !

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾

وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ : قوم شعيب عليه السلام.

فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ : أمهلتهم وأخرت عقوبتهم.

كَانَ نَكِيرِ : إنكاري عليهم بإهلاكهم .

المراد بالذين «كذبوا إبراهيم وموسى وغيرهما من الأنبياء» هم معاصروهم ، وليس الذين كانوا في عصر نزول القرآن ؛ فإن كل الناس في ذلك العصر كانوا يدّعون الإيمان بأولئكم الأنبياء الكرام – عليهم صلوات الله وسلامه .

وتلك هي قصة جميع الأنبياء والمرسلين .. حيث كذبهم معاصروهم ، بينما رفعهم

اللاحقون إلى مقام العظمة والجلال والقدسية .

ومن هذا ندرك مَنْ هم المؤمنون بالرسول حقاً .. إن المؤمنين بالرسول في الحقيقة هم الذين يتعرفون على ((رسول الدعوة)) .. وأما الذين يتعرفون على ((رسول المجد)) وحده ، فإنهم مؤمنون بالتاريخ وليسوا حقيقةً مؤمنين برسول الله !

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾

فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ : فكثير من القرى .

خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا : ساقطة حيطانها على سقوفها االمتهدمة .

وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ : مرفوع البنيان خال من سكانه.

المُبصرون عند الله هم الذين ينظرون إلى الأشياء بعين التذكر والاعتبار.. أما الذين يشاهدون الوقائع ولا يتعظون بها ؛ فإنهم عند الله عميان .. ورؤيتهم رؤية الحيوان ، وليست رؤية الإنسان .

ولقد بثّ الله - سبحانه وتعالى - عبراً لا تحصى فوق الأرض .. منها المآثر والتذكارات القديمة التي خلّفتها الأمم الغابرة في هذه الدنيا .. وقد كانت تلك الأمم على ذروةٍ سامقةٍ من المجد والسلطان في يومٍ من الأيام .. ولكن لم تعد هناك علامة على وجودها اليوم سوى هذه الأطلال والخرائب المحطّمة!!

وهذه الواقعة تذكر كل إنسانٍ بمصيره المحتوم .. ولكن الناس إذا فقدوا ((عين القلب)) فإن ((عين الرأس)) لا تعود تُريهم شيئاً معبِراً ذا معنىً!.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾

أَمْلَيْتُ لَهَا : أمهلتها.

إن شخصاً أو أمةً ما لابد وأن تتعرض لمؤاخذة الله إذا هي عتت عن أمره تعالى وتمردت عليه .. غير أن الله لا يعجل بالمؤاخذة أبداً .. وقد يمكن أن يعود الإنسان فارغ الصبر في يومٍ واحدٍ ، ولكن الله تعالى لا يستنفد حلمه وصبَره .. حيث إنه تعالى يرى الناس يقترفون شتى الآثام والذنوب وينتهكون محارمه ، ثم هو يُمهلهم - مع ذلك - لمدةٍ من الزمن طويلةٍ ؛ لكي يقوموا بإصلاح أنفسهم إن أرادوا الإصلاح .. وإن الله لا يؤاخذ فرداً أو شعباً ما إلا إذا هو أقام الدليل على إجرامه بصورةٍ قاطعةٍ .. وقد عامل الله السابقين هذه المعاملة .. وسوف يعامل الله اللاحقين بدورهم وفق سنته هذه!

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾

مُعَاجِزِينَ : ظانين أنهم يعجزوننا ويفوتوننا .

إن قضية الإنسان المصيرية هي أنه سيصل بعد الموت إلى عالمٍ حيث يُتاح للمؤمنين الصالحين راحة أبديّة ونعيم مقيم .. وللذين رفضوا الحق ووقفوا إزاءه موقف العناد والطغيان عذاب النار الأبدية .

وإن إنذار الناس بهذا اليوم القادم هو هدف الدعوة الإسلامية الحقيقي .. وطبيعة

العمل هذه توضح أن الواجب الرئيسي الملقى على عاتق الداعي ينحصر في الإعلام والإنذار وحسب.. وأما ما وراء ذلك فمرجعه إلى الله ، وهو وحده يقدر على البت في الأمر وتحديد مصيره النهائي ، كما يشاء !

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

تَمَنَّى : قرأ الآيات المنزلة عليه .

أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ : ألقى في قلوب أوليائه الشبهة فيما يقرأه للفتنة .

فَتُخْبِتَ لَهُ : فتطمئن وتسكن للقرآن .

إن الداعي إلى الحق ، سواء أكان نبياً أم غير نبي ، يحدث معه دائماً أنه حين يقوم بإعلان أمر الله ، يتلمس المعاندون ألواناً شتى من العيوب والمطاعن في كلامه لكي يشككوا بها الناس في صدقه .

ومثل هذه المطاعن تكون دوماً باطلةً لا تستند على أساسٍ من الصحة .. وهي حين تثار تسنح للداعي الفرصة لمزيد من البرهنة على أحقية كلامه بتسليط الضوء الكاشف على بطلانها.. مما يزيد المخلصين يقيناً إلى يقينهم .. وتصبح صلتهم بالله أقوى وآكد من ذي قبل.. وأما الذين تخلو قلوبهم من الإخلاص ، فإن هذه المطاعن تصير فتنةً لهم، فتبهرهم بطلائها وتُبعدهم عن الحق .. وقوله : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ

صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ يعني ، أن الجادّين بشأن الإيمان حق الجدية ، لا يتأثرون أبداً بالدعايات الكاذبة ، ولا ينخدعون بطلاسم الألفاظ البراقة .. حيث يصبح الإيمان بالنسبة إليهم علماً يسبرون معه أغوار كل أمرٍ ، ولا يدعهم يتعلقون بالقشور وظواهر الأمور !

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ ﴾

مِرْيَةٍ مِّنْهُ : شك وقلق من القرآن .

يَوْمٍ عَقِيمٍ : لا يوم بعده (يوم القيامة) .

ظل المشركون دوماً أسرى الشكوك والشبهات ؛ لأنهم يريدون رؤية الحق عبر الأمجاد الظاهرية ، وأما سنة الله فقد جرت بعرض الحق على الناس في صورةٍ مجردةٍ ، لكي يتعرف عليه وينضوي تحت رايته ذوو البصر العارفون بالحقيقة .. ويقيم السطحيون - الذين لا يرون غير المظاهر - الدليل على إجرامهم بتجاهله وإهماله .

و((تكذيب الآيات)) هو أن يتجاهل المرء الحق الذي يظهر على مستوى الدليل ..وألا يرضى بقبول الصدق يتجلى أمامه في صورته المجردة!

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾

مُّدْخَلاً : الجنة . أو درجات رفيعة .

إن المؤمن المخلص في إيمانه يستعدّ للتضحية بكل شيء آخر عدا الإيمان .. فإنه لا يستعدّ للتضحية به على أية حالٍ .. فهو يترك وطنه فيما لو اضطُر إلى تركه في سبيل الإيمان.. ولا يبالي بأن يقع قتيلاً وهو يدافع عن الإيمان، وبالجملة فإنه يظل متمسكاً بالإيمان ، مربوطاً برباطه على مدى الحياة ، إلى أن يلفظ آخر أنفاسه !

والذين يقيمون الدليل في الحياة الدنيا على مثل هذا الإخلاص للإيمان والتفاني في سبيله وبذل النفس والنفيس من أجله ، فإن الله سيشكر لهم ويقدر عملهم بحيث يمنحهم أثمن أشياء الآخرة ، وهي الجنة ، التي سيعيشون فيها خالدين حياةً سعيدةً هانئةً إلى الأبد!

﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ : ظلم بمعاودة العقاب .

إن أهل الإيمان كانوا قد أمروا بأن يتخذوا منهج الله الغفور الرحيم منهجاً لهم في الحياة .. فهو تعالى لا يزال يعفو ويصفح عن عباده رغم إساءتهم وبغيهم ، ومن ثم فقد كانت جماعة الصحابة الكرام – رضى الله عنهم أجمعين – متحليةً على العموم بهذه الأخلاق الرّبانية .. حيث كانوا يصبرون على الأذى والظلم يقع عليهم .. ويتجاوزون عن الشتائم والكلمات الاستفزازية توجّه إليهم .. على أن هناك مواقف عديدةً قام فيها بعض المسلمين بردّ العدوان بمثله بدافع الانتقام الفوري وسبّبوا بعض الخسائر لمن كبّدهم خسائر فادحةً في الأموال أو الأرواح .. وقد جعل الأعداء من هذا ذريعةً للدعاية المكثفة ضد المسلمين .. وقد نسي هؤلاء أو تناسوا أعمالهم العدوانية بالمرة ،

وباتوا يشوهون سمعة المسلمين بتضخيم مواقفهم العادية واعتبارها ظلماً وعدواناً !!

وسيلقى هؤلاء عاقبة ظلمهم عذاباً شديداً ، ولن تستطيع دعاياتهم الكاذبة كهذه أن تضر أهل الحق أو تنال منهم شيئاً !

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾

يُولِجُ : يدخل .

إن نظام الكون يلقّن الإنسان درساً عظيماً بلسان الصمت .. فيحدث هنا كل يوم أن الليل يغشى النهار بظلامه ، ثم يعقبه النهار المضيء فيقضي بدوره على ظلام الليل .. إنه إعلان كوني ، بلغة التمثيل ، عن هذه الحقيقة القائلة بأن طائفةً ما إن كانت تتمتع بمظاهر الأبهة والسلطان ، فينبغي لها ألا تغتر بأن سلطانها لن يزول أبداً .. وهكذا فإن كانت هناك طائفة ما مقهورةً ومظلومةً فليس لها أن تظن أنها هي الأخرى ستبقى مظلومة ومقهورةً بقاء الدهر .

فإن الله الذي يتحكم في عالم الأفلاك بتحويل النور إلى الظلام تارةً وإحلال الظلام محل النور تارةً أخرى، هو قادر على إحداث وقائع من هذا النوع في عالم البشر كذلك .. وليس ثمة قوة تحول دون فعل الله هذا ، فهو الفعال لما يريد .. وإذا أراد شيئاً أن يكون ، قال له: كن فيكون !

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ ﴾

إن الله - سبحانه وتعالى - يعرض علينا مشهداً معبراً كل عام ، وهو مشهد الأرض إذْ يصفر نباتها ويتهشّم لشدة حرارة الصيف ، وتبدو تربتها قاحلة مجدبة،كأنما لم يعد فيها أي إمكانٍ للحياة .. ثم يهطل المطر، فإذا بها تنتعش وتمتلئ نباتاً آخر وزهوراً وثماراً مختلفة الألوان والروائح والطعوم!!

إن هذا نموذج من قدرة الله يتم إظهاره على المستوى المادي كل سنةٍ .. إذن ، فهل يعجز الله أو يصعب عليه أن يظهر معجزةً مماثلةً على المستوى الإنساني كذلك؟ كلا !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

إن كل الأشياء فوق الأرض لا تزال محتفظةً بتوازنٍ خاص في داخلها بصورةٍ مستمرةٍ .. ولو اختل هذا التوازن لسببٍ من الأسباب لانقلبت الأشياء ضارةٍ بدلاً من أن تكون نافعةً .. وإذا نحن ألقينا بقطعةٍ من حديدٍ في إناءٍ مملوءٍ بالماء استقرت في قاع الإناء على الفور .. ولكن الله جعل الماء خاضعاً لقانونٍ خاصٍ ، وهو الذي يمكن السفن المتخذة من الحديد أو الخشب أن تطفو فوق الماء دون أن تغرق فيه .. وهناك كواكب ونجوم لا حصر لها تدور في الفضاء الفسيح ؛ ينبغي لها - على ما يبدو - أن تقع على الأرض .. ولكنها لا تزال معلقةً في الفضاء تتحرك في مداراتها المعينة وفق نظامٍ دقيقٍ خاصٍ .

وإن الإنسان لم يخلق نفسه بنفسه .. وإنما خلقه الله - سبحانه وتعالى - ثم أسكنه في عالم كله رحمة له.. ولكن الإنسان قد أصبح ، بسبب الحرية المتاحة له ، عنيداً وطاغياً لدرجة أنه لا يعترف بإحسان أكبر المحسنين إليه !!

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

مَنْسَكاً : شريعة خاصة أو نسكا أو عبادة .

للعبادة جانبان : أولهما : حقيقتها الداخلية .. والآخر : أسلوب أدائها الظاهري . أما الحقيقة الداخلية فهي جزء أصلي للعبادة .. وأما أسلوب الأداء الظاهري فهو جزء إضافي لها .. ولكن طائفةً ما حين تظل تمارسها مدةً طويلةً من الزمن بأسلوبٍ معينٍ ، يغيب عنها هذا الفارق الجوهري بين الجزأين .. حيث إنها تأخذ في النظر إلى الممارسة الشكلية على أنها أصل العبادة .

وهذا هو الجمود عينه .. ومن ثم فقد جرت سنة الله بأن يُدخل نوعاً من التغيير على الشريعة (الأسلوب الشكلي) التي يبعث بها الرسول القادم .. ويكون الغرض من ذلك تحطيم جمود الناس ، وإخراجهم من حالة العبودية للمظاهر والشكليات وتربيتهم على العبادة الحية.. والآن فإن الذين يعتبرون الآداب والقواعد الشكلية هي كل شيء ؛ يرفضون الطاعة للنبي الجديد .. وعلى نقيضٍ من ذلك فإن الذين يدركون حقيقة العبادة ؛ يبادرون إلى اتباع النبي والعمل بشريعته .. وهذا التغيير يبعث روحاً جديدةً في عبادتهم ، ويخرجهم من حالة الإيمان الجامد إلى حالة الإيمان الحي المتجدد!

وهذه هي الحكمة الخاصة من تنويع المناسك (أساليب العبادة) واختلافها بين نبي وآخر.. وكلما جاء نبي بمنسكٍ جديدٍ ، بدأ الجامدون على القديم المألوف في إثارة زوبعةٍ من الاعتراضات ضده .. إلا أن الله قد أمر الأنبياء والرسل بأن يركزّوا كل

جهودهم على نشر التعاليم الأساسية والجوهرية وحدها ، ولا يسمحوا لمثل هذه الأمور الجانبية بالتحوّل إلى موضوع للجدل والنقاش العقيم !

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾

سُلْطَاناً : حجة وبرهانًا .

المُنكَرَ : الأمر المستقبح من العبوس والتجهم .

يَسْطُونَ : يثبون ويبطشون غيظا وغضبا .

إن الدعوة إلى التوحيد الخالص تكون دوماً أمراً لا يُحتمل لدى أولئك الذين يعبدون أنداداً آخرين غير الله الواحد ..ويتوجهون إليهم حباً واحتراماً وإجلالاً . فهؤلاء لا يكادون يسمعون نقداً يوجه إلى معبوداتهم وشخصياتهم المحببة ؛ حتى يشتعلوا غضباً .. وعجزهم عن مقاومة دعوة الحق بالدليل ، يملؤهم غيظاً وحنقاً على دعاة الحق ، لدرجة لا يلبثون معها أن يهاجموهم بغية القضاء عليهم .

وقد قيل لأمثال هؤلاء: إن موقفكم هذا موقف سخيف غير عاقل تماماً .. إنكم لا تطيقون اليوم صبراً على النقد اللفظي ، تُرى ، ماذا سيكون حالكم غداً إذ يُرمى بكم في نار الجحيم لقاء موقفكم هذا ؟ فهل تقدرون على احتمالها وتطيقون الصبر عليها ؟!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ

ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

مَا قَدَرُوا الله : ما عظموه ، أو ما عرفوه.

إن الذباب كائن تافه حقير للغاية .. ومع ذلك ليس في مقدور كل مَنْ في السموات والأرض أن يقوموا بإيجاد ذبابةٍ واحدةٍ .. إذن ، فكيف يجوز اعتبار أحد غير الله مقدساً؟!

والحق أن كل العقائد من هذا النوع نتاج تقدير بخسٍ لألوهية الله وجلاله .. فالناس رغم كونهم - مبدئياً - يؤمنون بالله ، إلا أنهم غير عارفين بعظمة الله وقدرته .. ولو أنهم آمنوا بالله كما ينبغي أن يؤمنوا به ، لبدت لهم عقائدهم تلك لغواً مثيراً للضحك والسخرية ، وبالتالي تخلّو عنها من تلقاء أنفسهم !

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

إن الخطة المعينة التي خلق الله الإنسان وأسكنه في الأرض بمقتضاها ، كانت تستوجب أن يهيئ الله أسباب هداية البشر ؛ فيدلهم على طريق الجنة ليسلكوه ، وعلى طريق النار ليجتنبوه .. ومن ثم جرت عادة الله - سبحانه وتعالى - بأن يختار من بين البشر رسلاً يبلغون عنه، وينزل عليهم كلامه بواسطة بعض ملائكته .

وعن طريق هذا التدبير يتم إبلاغ الإنسان بالحقيقة الأصلية من ناحيةٍ ، بينما يقوم الله تعالى بالمراقبة الدائمة على أعمال الناس من ناحيةٍ أخرى .. ثم يُرجع البشر عن آخرهم إلى خالقهم ومالكهم ، ليلقى الجميع عاقبة أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾ .

هُوَ اجْتَبَاكُمْ : اختاركم لدينه وعبادته ونصرته .

حَرَجٍ : ضيق بتكليف يشق ويعسر .

هُوَ مَوْلاكُمْ :مالككم وناصركم ومتولِّي أموركم

الخطاب في هذه الآيات موجه أصلاً إلى صحابة الرسول ، وبالتبعية إلى سائر المؤمنين بالقرآن .. فقد اختار الله هذه الأمة لمهمة خاصةٍ ، وهي العمل على إبلاغ دين الله الحق إلى شعوب الأرض قاطبةً إلى يوم القيامة .. وقد قام الرسول - صلى الله عليه وسلم - بواجب الشهادة هذا بالنسبة لمعاصريه ، والمطلوب من أتباعه أن يقوموا بهذا الواجب بالنسبة إلى معاصريهم .

وإن هذا عمل خطير للغاية .. ولابد للقيام به من الجهاد والكفاح الدائب .. وإنه لن يُوفق لتأديته على الوجه الحقيقي المطلوب سوى أولئك الذين أصبحوا خاضعين لله حقاً .. والذين يشتد نصحهم للآخرين لدرجة يبذلون معها وقتهم وأموالهم في سبيل هدايتهم عن رضا وسرور .. والذين يضعون كل ثقتهم في الله الواحد الأحد دون أي شيء آخر سواه .. وعلى الجملة هم أولئك الذين صاروا في الحقيقة مصداق وصف «المسلمين» الذي أُطلق عليهم بوجه خاص . على أن الله تعالى قد اختص عمل الشهادة هذا بعناية خاصةٍ .. حيث أزال من طريقه كل العوائق والعقبات الخارجية للأبد .. فالثورة التي تم تفجيرها على يد رسول الله ﷺ قضت ، وبصورة دائمة ، على

كل تلك العوائق التي كانت تواجه الأنبياء السابقين وأتباعهم .. فلم تعْد الآن أية عقبةٍ حقيقية تحول دون هذا العمل.. اللهم إلا أن يضع حاملو القرآن، بسبب جهلهم أو سوء تدبيرهم، بعض العراقيل المزعومة في طريقهم، ويحولوا بالتالي عملاً سهلاً إلى عمل صعب عسير التحقق على نحو مصطنع!

سورة المؤمنون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ : فازوا وسعدوا ونجوا .

خَاشِعُونَ :متذللون خائفون ساكنون .

اللَّغْوِ : ما لا يجمُل من القول والفعل .

العَادُونَ : المجاوزون الحلال إلى الحرام .

الفِرْدَوْسَ : أعلى الجنان وأوسطها وأفضلها.

لا نجاح في دنيا الله هذه إلا للمؤمن وحده .. الذي يكون موصول القلب بالله الواحد مقطوع الصلة بكل مَنْ عداه .. والذي تكون حياته الداخلية والخارجية قد انصهرت في بوتقة الإيمان .

وإن شخصاً إذْ يوفق للحصول على الإيمان ؛ فلا يكون ذلك أمراً يسيراً .. إنه يكون مرادفاً لتفجرّ ثورةٍ في حياته .. فهو يعود الآن عابداً لله خاضعاً لجلاله .. وتبلغ جديته

حداً يرى معه الاشتغال باللغو وإضاعة الوقت فيما لا طائل تحته مؤدياً إلى الهلاك في الدنيا والآخرة .. وهو يقتطع جزءاً مما يكسبه باسم الله ، ويبذله ابتغاء مرضاته تعالى في إعانة الفقراء والمحتاجين .. وهو يمتلك زمام رغباته الشهوانية ، فلا يشبعها إلا في إطار الحدود التي قررها الله سبحانه وتعالى .. وهو يمارس حياته في الدنيا كإنسانٍ مسئول ملتزمٍ ؛ فلا يخون أمانة الآخرين أبداً ، ولا يخلف عهداً إذا ما عاهد أحد الناس .

والذين يتحلّون بالأوصاف الجليلة ، هم عباد الله المطلوبون .. وهؤلاء هم الذين هيأ الله لهم عالم الفردوس الأعلى .. وسيدخلون بعد الموت في أجوائه العطرة ، ليتمتعوا بالنعيم الأبدي والسعادة السرمدية!

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

سُلالَةٍ : خلاصة (مائية مكونة من الغذاء) .

قَرَارٍ مَّكِينٍ : مستقر متمكن وهو الرحم .

عَلَقَةً : دما متجمداً.

مُضْغَةً : قطعة لحم قدر ما يمضغ .

خَلْقاً آخَرَ : مباينا للأول بنفخ الروح فيه .

فَتَبَارَكَ الله : فتعالى ، أو تكاثر خيره وإحسانه .

أَحْسَنُ الخَالِقِينَ :أتقن الصانعين، أو المصورين .

ينشأ طفل الإنسان في بطن أمه .. ولقد كانت فترة ما بين حصول الحمل وحتى الولادة ، وكل ما يجري خلالها سراً مكتوماً في الزمان القديم .. وإنما استطاع الإنسان أخيراً، في القرن العشرين ، أن يتوصل إلى معلوماتٍ مباشرةٍ فيما يتعلق بنشأة الجنين ونموه داخل البطن عبر المشاهدة بواسطة الآلات العلمية المخترعة حديثاً .

ومما يدعو إلى الدهشة والإكبار أن مراحل خلق الإنسان التطورية أو التدريجية التي قررها القرآن قبل الأربعة عشر قرناً ، جاءت مطابقةً تماماً للمشاهدة الآلية في العصر الحديث.. وهذا دليل ناطق بأن القرآن كتاب الله .. ولولا ذلك لم يكن ممكناً أن يُوجد ثمة هذا التوافق التام بين تصريح القرآن الكريم والكشوف الحديثة .

وواقع الخلق هذا ، الذي يحدث في بطن الأم كل اليوم ، يدل على أن خالق هذا العالم يتصف بمنتهى الكمال.. وواقعة خلق الإنسان الأول المذهلة ، التي نشهدها بأعيننا كل يوم ، كافية في ذاتها للإقناع بما لا يدع مجالاً للشك ، بأن واقعة الخلق الثاني هي الأخرى ستحدث كذلك ، وأنها ستكون مطابقةً تماماً لما أخبر به الأنبياء والمرسلون الصادقون !

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

سَبْعَ طَرَائِقَ : سبع سموات طباقا أو طرقا للملائكة أو للكواكب في مسيرها .

بِقَدَرٍ : بمقدار الحاجة والمصلحة .

وَشَجَرَةً :هي شجرة الزيتون .

بِالدُّهْنِ : ملتبسا ثمرها بالزيت .

وَصِبْغٍ : إدام لهم يغمس فيه الخبز .

الأَنْعَامِ : الإبل والبقر والضأن والمعز .

لَعِبْرَةً : لعظة وآية على القدرة والرحمة

وَعَلَيْهَا : وعلى الإبل منها .

الإنسان كائن حقير بالمقارنة مع هذا الكون الفسيح الذي يبلغ من العظمة والاتساع وترامي الأطراف درجةً تبعث على الحيرة والذهول .. وأكثر جوانب هذا الكون إثارةً للدهشة هو أنه ملائم لحياة الإنسان إلى أقصى الحدود!

والمطر لو بدأ يهطل بغزارةٍ مفرطةٍ ، لهلك كل الناس غرقاً ، ولكن المطر بدوره له حد معيّن لا يتجاوزه .

والمخزونات المائية التي تتوافر على الأرض يمكن أن تذهب كلها في أغوارها ، أو تتحول إلى البخار وتتلاشى في الفضاء اللامتناهي ، غير أن هذا لا يحدث أبداً . وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الأرض - التي نعيش على ظهرها - هي كوكب استثنائي، بحيث يبدو وكأنها أوجده الخالق آخذاً في الاعتبار كل حاجات الإنسان الحياتية بصفةٍ خاصةٍ.. ومن ثم يتوافر هنا كل شيءٍ يحتاج إليه الإنسان، ابتداءً بالمواد الغذائية ، وانتهاءً بالمتطلبات الصناعية .. وحيوانات الأرض مع كونها في الظاهر مخلوقات وحشية، إلا أن الله تعالى قد جعلها مفيدةً للإنسان بشتى الوجوه .. فمنها حيوانات - مثلاً - بطونها مصنع عجيب يأخذ العشب والعلف الرخيص ويحوّلها إلى أشياء ثمينة كالحليب

واللحم.. و منها أخرى تنقاد للإنسان وتمكنه من نفسها بسهولةٍ لكي يركبها ويستخدمها في أغراضه الأخرى .

وهذه الواقعات تفرض على الإنسان أن يعرف ربّه الكريم المحسن ، ويعيش عبداً شاكراً له على الدوام!

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

المَلأُ : وجوه القوم وسادتهم .

يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ : يترأس ويشرف عليكم .

بِهِ جِنَّةٌ : به جنون أو جنٌّ يخبلونه .

فَتَرَبَّصُوا بِهِ :انتظروا واصبروا عليه .

إن الأمة التي بُعث فيها سيدنا نوح عليه السلام لم تكن «كافرةً» بالمعنى المعروف .. بل هي كانت أمة آدم عليه السلام التي كانت مؤمنةً بالله وبالرسالة مبدئياً.. وأما سبب إبائها – مع ذلك – عن الإيمان برسالة نوحٍ ، فإنما يرجع إلى أن نوحاً عليه السلام بدا لها كواحدٍ من أفرادها ليس غير! يعدّونه رجلاً يدعى النبوة بدافع البروز والتفوق على أقرانه ، فلا يلبثون أن يعرضوا عنه باعتباره مصاباً بالجنون!!

وما من أمةٍ إلا قد توصل أمرها في عصرٍ لاحقٍ ؛ إلى أنها تخلت عن تعاليم الله الأصلية، وتمسكت – بدلاً من ذلك – بتقاليد أسلافها .. ولما جاء النبي لكي يعرض

تعاليم الدين من جديد في صورتها النقية الصافية ، بدا لها دين النبي وتقاليد السلف على طرفي نقيضٍ.. وظهر لها السلف - وفقاً لشاكلتها الفكرية - في القمة ، ونبي العصر في الحضيض.. وهذا هو السبب الأكبر في أن دعوة الأنبياء ظلت غريبةً عن معاصريهم على اختلاف العصور!

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

بِأَعْيُنِنَا : برعايتنا وكلاءتنا .

وَفَارَ التَّنُّورُ : نبع الماء من التنور المعروف .

فَاسْلُكْ فِيهَا : فأدخل في الفلك .

لقد استمر سيدنا نوح يدعو قومه إلى الحق مدةً طويلةً من الزمن .. إلا أن القوم مازالوا يأبون عن الإيمان بدعوته .. فلم يسع نوحاً آخر الأمر إلا أن دعا الله قائلاً : يارب ! إنني لم أتمكن ، رغم استفراغ مجهودي في سبيل الدعوة والتبليغ ، من استمالتهم لقبول الحق ، فالأمر الآن إليك ، وأنت وحدك قادر على أن تهديهم - إن شئت - إلى الحق .. ولكن عندما ينتهي العمل الإنساني إلى آخر حدوده ، وتبدأ دائرة العمل الإلهي، فإنه يكون أوان البطش والمؤاخذة ، وليس أوان الوعظ والتذكير .. ومن ثم فقد جاء أمر الله في صورة طوفانٍ عارمٍ لا يُقاوم .. وبالتالي هلك القوم عن بكرة أبيهم غرقاً ، ما عدا القلة القليلة التي آمنت بسيدنا نوحٍ - عليه الصلاة والسلام .

إن عدم الاعتراف بأمر الحق هو الظلم الأكبر .. والذين يرتكبون هذا الظلم يتعرضون حتماً لبطش الله عاجلاً أو آجلاً .. وليس هناك شيء آخر - غير الإيمان بالحق

- من شأنه أن ينقذهم من هذا البطش الإلهي !

﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

مُنزَلاً : إنزالا . أو مكان إنزال .

لَمُبْتَلِينَ : لمختبرين عبادنا بهذه الآيات .

إن الأفراد القلائل الذين آمنوا بسيدنا نوحٍ كانوا قد دخلوا فور إيمانهم إلى سفينة الله من الناحية المعنوية .. وأما حين ركبوا في السفينة المتخذة من ألواح الخشب ، عند مجيء الطوفان ، فإنما كان ذلك بمثابة تنفيذٍ فعلي لقرارهم البدائي .. لقد انتشل هؤلاء أنفسهم من طوفان الشر فكرياً ؛ فأنقذهم الله بالتالي من سوء عاقبة الشر عملياً .

المؤمن يعدّ كل نجاحٍ هبةً من الله .. ولذلك فهو يتقدم بالشكر إلى الله على كل نجاحٍ يُتاح له .. أما النجاة من طوفان نوحٍ ، فكانت واقعة النصرة الإلهية في أجلى مظاهرها .. والكلمات التي تجري على لسان المؤمن في مناسبةٍ كهذه ، هي التي سجّلتها الآية المذكورة .. حيث إنه يأخذ في التماس المزيد من عنايات الله للمستقبل ؛ معترفاً بقدرته، شاكراً لما أسدى إليه من فضلٍ ونعمةٍ في الحال .. ذلك لأنه يكون على يقينٍ من أن الحال والمستقبل كليهما بيد الله وحده .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ

مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

قَرْناً آخَرِينَ : هم عاد الأولى قوم هود .

وَأَتْرَفْنَاهُمْ : نعمناهم ووسعنا عليهم فبطروا .

في أعقاب الطوفان بدأ نسل المؤمنين بنوحٍ ﷺ بالتكاثر .. وتوالت عليهم قرون طويلة ، إلى أن أصيبوا من جديدٍ بالفساد والضلال نفسه الذي كان قد أصيب به سابقوهم .. وربما يكون المراد بـ ﴿ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴾ هنا هم الذين يقال لهم ((عاد)) .. وقد بات هؤلاء مشغولين بعبادة الآلهة الباطلة غير الله الواحد الأحد .. فبعث الله إليهم مرةً أخرى رسولاً يبلغهم دعوة الحق .

ولم يكن بدعاً أن تصدى رؤساء القوم لمعارضة الرسول، كما حدث مع غيره من الأنبياء والرسل من قبل .. وقد كان هؤلاء الرؤساء أناساً يمتلكون زمام قيادة الشعب انسياقاً مع اتجاهات العصر الفكرية السائدة .. وكانوا متمتعين بالرخاء المادي . والذين يُتاح لهم الثراء والسلطة ، غالباً ما ينظرون إليهما على أنهما يقومان دليلاً على كونهم على الحق ، ولم ينج هؤلاء الرؤساء بدورهم من هذه العقدة .. حيث وقف ثراؤهم وسلطتهم حجر عثرةٍ دون إدراك أنهم يمكن أن يكونوا خاطئين!!

فقد رأوا الرسول لا يملك ثروةً طائلةً ، ولا يشغل منصب السلطة ، فاعتبروه حقيراً ضئيل الشأن.. وقد حالت عبوديتهم للمظاهر دون رؤيتهم لعظمة الرسول المعنية!!

﴿ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ .

هَيْهَاتَ : بعد وقوع ذلك الموعود .

الكلمات المنقولة هنا عن الآخرة تُقال تارةً بلسان الحال ، وطوراً بلسان المقال .. فقد يحدث حيناً أن المرء يكون بكليته مشغولاً بالدنيا وللدنيا وحدها، ويبدو غافلاً عن الآخرة كما لو أنها كانت عنده أمراً مستبعداً خارجاً عن القياس إطلاقاً .. وقد يحدث حيناً آخر أن غفلته عن الآخرة وطغيانه يبلغان به حداً لا يتحرج معه حتى من التصريح بلسانه بأن الآخرة شيء أبعد ما يكون عن القياس ، وهيهات هيهات أن يقع بالفعل .. ولذا فينبغي أن نسعى للحصول على ما هو متاح لنا اليوم .. دون أن نضيع فائدة اليوم الأكيدة من أجل فائدة الغد الوهمية!!

وقولهم : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ هو الآخر يُفسر على وجهين: فإما أن يؤدي المرء بلسانه هذه الجملة.. وإما أن يقابل داعية الحق بالإهمال واللامبالاة كما لو أن كلامه هراء مخبولٍ ؛ لا علاقة له بالله البتة!

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ : صيحة جبريل أو العذاب المصطلم .

فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً : هالكين كغثاء السيل (حميله) .

فَبُعْداً : هلاكا .. أو بعداً من الرحمة .

الشيء الذي يأتي رسول الله لإعلام البشر به ، هو أكبر حقيقةٍ وأشدها خطورةً في هذا الكون .. على أن الرسول إنما يعرض هذه الحقيقة في صورة الدليل وحده .. والمؤمنون حقاً ، هم الذين يتعرفون عليها عبر الدليل ، ويسلمون أنفسهم لها .

وحين تثبت طائفة ما ، بشكلٍ قاطعٍ ، أنها لا تمتلك الاستعداد للتعرف على الحقيقة عبر الدليل المصاحب لها ، فيظهر الله الحقيقة بعدئذٍ في صورة «الصيحة» .. حيث تتحول الحقيقة إلى هديرٍ مروّع لا يقدر أحد على مواجهته .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قُرُوناً آخَرِينَ : أمما أخرى .

تَتْرَا : متتابعين على فترات.

وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ : مجرد أخبار للتعجب والتلهي .

ما زالت أمم الأنبياء تُصاب بالفساد والانحلال على أعقابهم ؛ كما قد ظل الأنبياء والمرسلون يُبعثون تباعاً ، الواحد تلو الآخر ، لإصلاحها .. فجاء سيدنا نوح إلى أمة آدم .. وأرسل بعد ذلك سيدنا هود إلى أمة نوح (وهي قوم عاد) .. ثم بُعث سيدنا صالح في أمة هود (وهي قوم ثمود) .. وهكذا .. ولكن الذي حدث دائماً هو أن الذين كانوا يؤمنون بنبي الماضي بلا جدالٍ ؛ أبوا عن الإيمان بنبي الحال!

وقوله : ﴿ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، يعني: بعداً وهلاكاً للذين لا يكادون يتعرفون على سفير الله من حيث هو سفير الله ، وإنما يتعرفون على سفير الله إذا هو صار بطلهم القومي نتيجة العمل التاريخي!!

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا

عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ : برهان بَيِّنٍ مظهر للحق .

قَوْماً عَالِينَ : متكبرين أو متطاولين بالظلم .

لقد شكل وضع بني إسرائيل - وهو أنهم كانوا عبيداً للمصريين وخدماً - عائقاً لفرعون وأصحابه الذين كانوا إزاءهم في موقع الغالب المتفوق .. وبالتالي أبوْا عن التسليم بنبي من بني إسرائيل بوصفه ممثلاً لله .. ومع أن سيدنا موسى قدّم إليهم أدلةً محكمةً وبراهين ساطعةً جداً .. إلا أن ثقل الأدلة والبراهين لم يكد يُجبرهم على أن يغيروا ما بأنفسهم من غرورٍ وكبرياء ، ويعترفوا بصدقٍ جاءهم به رجل ينتمي إلى الشعب «المحكوم» المغلوب على أمره !!

وكانت نتيجة ذلك أن نصر الله - سبحانه وتعالى- نبيّه .. فأغرق فرعون مع كل قوته وجبروته.. وقد امتنّ الله على الذين ناصروا النبي ووقفوا إلى جانبه، امتن عليهم بأن أعطاهم كتاب هدايته؛ الذي يستطيع المرء،عن طريق العمل بتعاليمه،أن يضمن لنفسه النجاح والسعادة في الدنيا والآخرة !

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

وَآوَيْنَاهُمَا : صيرناهما وأوصلناهما .

إِلَى رَبْوَةٍ : إلى مكان مرتفع من البلاد .

وَمَعِينٍ : ماء جار ظاهر للعيون .

إن ولادة سيدنا المسيح عليه السلام من غير أبٍ كانت واقعةً عجيبةً خارقةً للعادة .. وماذا

كانت الحكمة من ذلك؟ إنما حدثت هذه الواقعة بوصفها ((آيةً من آيات الله)) لقد كان اليهود حاملي الرسالة الإلهية في قديم الزمان .. ولكنهم ، بسبب عنادهم الطويل، وطغيانهم المستمر ، فقدوا أهليتهم لهذا المنصب .. وكان الوقت قد حان أن تنتزع هذه الأمانة من أيديهم وتُحول إلى بني إسماعيل .. ولكي تقوم على اليهود حجة الله القاطعة ، وينقطع عذرهم ، خلق آخر أنبيائهم على وجهٍ معجزٍ .. كما أعطى لهذا النبي المزيد من الخوارق والمعجزات غير العادية .. ولما أصر اليهود - مع كل ذلك - على العناد والإنكار لسيدنا المسيح عليه السلام ثبت بذلك نهائياً أنهم لم يعودوا أهلاً لحمل الأمانة الإلهية.

وأما بالنسبة إلى مريم العذراء والدة المسيح - عليهما السلام - فقد كان ذلك موقفاً حرجاً للغاية .. فكانت في حاجة ماسة - وهي تعاني من آلام الحمل والمخاض - إلى مكانٍ تأوي إليه بعيداً عن أنظار الناس .. حيث تشعر بالسكينة والاطمئنان ، ويتاح لها - إلى جانب هذا - كل حاجات الحياة الأساسية .. وإذا كان الله قد ابتلاها بتلك المحنة الخطيرة ، فقد هيّأ لها مأوىً هادئاً آمناً بالقرب من وطنها كذلك!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾

أُمَّتُكُمْ : ملتكم وشريعتكم .

الدين في جوهره واحد ليس غير .. وقد بُعث كل الأنبياء بهذا الدين الواحد نفسه.. وهو أن يجد المرءُ الله كواجب للوجود عظيمٍ يمتلئ خوفاً ورهبةً منه .. وأن يسيطر على قلبه وعقله إحساس دائم بأن فوقه رباً يراه ويراقبه أينما كان، ويرصد كل حركاته وسكناته ، وهو سيحاسبه بعد الموت عن كل قولٍ وفعلٍ باشره في الحياة الدنيا.

وهذه المعرفة هي أصل الدين وجوهره .. والحياة التي تنبثق عن هذه المعرفة وذلك

الإحساس لابد أن يكون صاحبها بحيث لا يأخذ من أشياء الدنيا إلا ما كان طيباً ونظيفاً .. ويسلك في كل شئونه ومعاملاته مسلك الخير والصلاح والإحسان .. فإن معرفة الله تؤدي حتماً إلى الخوف من الله .. والخوف من الله يؤدي حتماً إلى الحياة الطيبة الصالحة!

﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم : تفرقوا في أمر دينهم.

زُبُراً : قطعا وفرقا وأحزابا مختلفة .

غَمْرَتِهِمْ : جهالتهم وضلالتهم .

أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ : ما نجعله مددا لهم .

إن دين الله حين يكون حياً ، محتفظاً بروحه الأصلية ، يبعث الخوف في النفوس .. أما إذا فارق الدين روحه الأصلية ، فيعود باعثاً على الفخر .. وعندها يتفرق أهل الدين شيعاً وأحزاباً شتى ، حيث يأخذ كل حزبٍ من الدين بجانب ينطوي على دواعي الفخر له بحسب ميوله وأحواله .. وإن دين الفخر أبداً لا يكون واحداً ، بل يكون ألف دينٍ ودينٍ .. وبالمقابل فإن دين الخوف يكون دوماً واحداً ليس غير .. فإن نفسية اللاخوف تسبب الاختلاف في الآراء والتعددية في المذاهب .. وأما نفسية الخوف فهي تثمر وحدة الآراء واتحاد المذاهب .

الإنسان في العالم الراهن في حالة امتحان واختبار .. ولذا فإن شخصاً أو طائفةً ما ، لابد وأن يتاح لها متاع الحياة إلى المدة المقدرة لها في علم الله .. مما قد يجعل الغافلين

يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، وأن كل ما يفعلونه هو عين الصواب .. ولو أنهم كانوا على خطأ ، لانتزع منهم كل ما يتمتعون به من مالٍ ومتاعٍ بالمرة .. في حين أن سنة الله قد جرت بأن يتم انتزاع المال والمتاع عند انتهاء مهلة الامتحان ، وليس عند الانحراف عن طريق الهداية في أثناء الامتحان !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

إن مَنْ يجد الله بحيث تغمره خشية الله ، يكون إنساناً مختلفاً عن البشر العاديين كل الاختلاف .. فإن نفسية الخوف تجعله جاداً إلى أقصى حدٍ ، وتصبح جديته المتناهية كفيلةً بأن يُدرك ثقل الدلائل الإلهية حق الإدراك ، وبالتالي يخضع لها على الفور .. ويفقد كل شيءٍ – مما عدا الله – وزنه وقيمته عنده ، وهو يحسب دوماً أنه لم يفعل شيئاً حتى لو فعل كل شيءٍ !!

هناك طريقان للسعي والكدح مفتوحان أمام الجميع في العالم الراهن .. أحدهما طريق الدنيا ، والثاني طريق الآخرة .. وإن الذين يتحلّون بالصفات المذكورة أعلاه ، إنما هم أولئك الذين يسعون بخطىً حثيثة نحو الآخرة .

على أن السعي للآخرة عمل غير هينٍ .. بل هو أشق عملٍ في هذه الدنيا .. ومهما حاول الإنسان جهده تقع من جانبه تقصيرات شتى في أدائه .. بيد أن الله تعالى يطالب كل امرئ بقدر طاقته ، وليس فوق طاقته .. والله – سبحانه وتعالى – يحيط علماً بمدى استطاعة المرء وأعماله كماً وكيفاً .. وفي هذا ضمان أكيد لأن ينال كل شخصٍ يوم القيامة

من الإعفاء ما ينبغي أن يُتاح له بمقتضى العدل ، وأن يفوز الكل بالإنعام الذي كان يستحقه في الواقع !

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

غَمْرَةٍ : جهالة وغفلة وغطاء .

مُتْرَفِيهِم :منعميهم الذين أبطرتهم النعم .

تَنكِصُونَ : ترجعون معرضين عن سماعها.

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ : مستعظمين بالبيت الحرم.

سَامِراً : سمّارا حوله بالليل .

تَهْجُرُونَ : تهذون بالطعن في القرآن .

العابدون للدنيا ، الغارقون في ملذاتها قلما يرغبون في أحاديث الآخرة .. فإن اهتماماتهم تختلف أساساً عن اهتمامات أهل الإيمان الصادقين .. ومهما كان الحديث عن الله والآخرة بليغاً ومؤثراً ، فإنه لا يستهويهم ولا يحرك منهم ساكناً .. وبالتالي فهم لا يزالون مشغولين باهتماماتهم الأخرى معرضين عن مثل هذه الأحاديث ، ويخرجون من مجلس الداعي إلى الحق سراعاً كما لو أنهم قد انسلّوا من مجلس أحد السمّار الثرثارين !!

ولكن حين يفاجأ أمثال هؤلاء بمؤاخذة الله ، يأخذون في الصراخ والتضرع إلى الله

مستغيثين ، ناسين كل غفلتهم وطغيانهم ، وهم لا يلبثون حينئذٍ أن يخضعوا لله .. غير أن الخضوع وقتئذٍ لا يجدي شيئاً .. لأن الخضوع المعتبر به عند الله هو أن يكون المرء قد خضع لله بالنظر إلى آياته تعالى .. وأما إذا تجلى الله بقوته وجبروته ، فلا قيمة للخضوع أمامه حينذاك !.

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

بِهِ جِنَّةٌ : به جنون .

بِذِكْرِهِمْ : بفخرهم وشرفهم وهو القرآن .

الحق هو الذي يكون مطابقاً للحقيقة الواقعة .. غير أن الإنسان العابد للهوى يريد أن يستتبع الحق لهواه .. وأمثال هؤلاء الناس لا يلبثون أن يشتعلوا غضباً على الداعي حين يرفع عقيرته بالحق .. ولكونهم لا يرغبون في اتباع الحق ، يرغبون بالعكس في جعل الحق تابعاً لأنفسهم .. وهذه النفسية تجعلهم لا يلقون بالاً إلى صوت الحق .. والحق يبدو لهم غريباً .. وهم لا يستطيعون التعرف على داعي الحق في وضعه الحقيقي، ويأخذون في الطعن على الداعي وتشويه سمعته ليتظاهروا بأنهم هم المحقون المصيبون!

إن الكون - كما نشاهده - على أتم درجةٍ من الصلاح والانتظام بحيث لا نجد فيه خللاً ولا اضطراباً .. وأما العالم الإنساني فهو يسوده الفساد والفوضى في كل ناحيةٍ من نواحيه .. ومرجع ذلك إلى أن نظام الكون يسير على أساسٍ من الحق .. يعني أن يكون

ما ينبغي أن يكون ، ولا يكون ما ينبغي ألا يكون .. إذن ، فلو أن نظام الكون أخذ يسير هو الآخر تبعاً لأهواء البشر ، لعمّ هذا الفساد السائد في العالم الإنساني بقية الكائنات كذلك !!

إن النصيحة والنقد يكونان دوماً من أشد الأشياء مرارةً لدى الإنسان .. وإن هناك قلة هزيلة العدد جداً من عباد الله ، هي التي تستمع إلى النصيحة والنقد بذهنٍ مفتوحٍ .. وأما أكثر الناس فيمرون بهما معرضين أو متجاهلين!

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

خَرْجاً : جعلا وأجرا من المال .

لَنَاكِبُونَ : لعادلون عن الحق زائغون .

النبي لا يرجو أبداً تحقيق أي غرضٍ مادي من قبل مخاطبيه .. فإن علاقته بهم تكون علاقة (الداعي) ، و(المدعوّ) .. وعلاقة الداعي والمدعو هي علاقة حساسة للغاية .. ولو عرض الداعي على الناس رسالة الآخرة من ناحيةٍ ، وأثار معهم الصراع حول المطالب الدنيوية من ناحيةٍ أخرى ، لأصبحت دعوته مثار السخرية لدى الناس ، ولهذا السبب لا يطالب النبي مدعويه بأي مطلبٍ مادي ، على أيةِ حالٍ .. مهما اضطره ذلك إلى تحملّ شتى ألوان الخسائر من طرفٍ واحدٍ.

إن أجر الداعي الحقيقي إنما يكمن في ذلك الحق نفسه ، الذي ينهض للدعوة إليه. ويكون اكتشاف الله هو رصيده ورأسماله الأكبر .. والتجارب الربانية التي يكتسبها خلال مسيرته الدعوية تغذي روحه الغذاء الأفضل .. وتكمن سكينته الكبرى في تلك اللذة التي يذوقها عبر نشاطه الدائب في سبيل تحقيق هدف حياته الأسمى !!

وإن دعوة الحق لن يتلقاها بالقبول إلا الذي يحذر الآخرة .. فإن الإحساس بخطورة الآخرة يجعل المرء جاداً ، والجدية هي العامل الوحيد الذي يرغم المرء على أن يسلم بالحقيقة.. وأما الشخص غير الجادّ فلا ولن يسلم بالحقيقة أبداً ، مهما جُعلت ثابتةً بالدلائل الواضحة والبراهين الساطعة!

﴿ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ : لتمادوا في ضلالهم وكفرهم .

يَعْمَهُونَ : يعمون عن الرشد أو يتحيرون.

فَمَا اسْتَكَانُوا : فما خضعوا وأظهروا المسكنة .

وَمَا يَتَضَرَّعُونَ : ما يتذللون له تعالى بالدعاء .

مُبْلِسُونَ : متحيرون آيسون من كل خير .

لما رفضت قريش دعوة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خلال العهد المكي ، أصاب الله أهل مكة بقحطٍ دام بضع سنين.. وكان هذا القحط شديداً لدرجة أن كثيراً منهم قد اضطروا إلى أكل الميتة!!

وتلك سنة من سنن الله العامة .. وهي أن طائفةً ما إذا استمر أفرادها في العناد والطغيان ، وأبوْا عن قبول النصيحة ، أنزل عليهم عذاباً (تحذيرياً) لكي تلين قلوبهم ، فتصغي إلى نداء الحق !

غير أن التاريخ يشهد بأن الإنسان لا يعتبر بأحوال الخير والعافية ولا بأحوال الشر

والشدة أيما اعتبارٍ .. والغرض من كلا نوعي الأحوال إنما يكمن في أن يبادر المرء بالرجوع إلى الله .. ولكن الموقف الذي يتبناه الإنسان عادةً إزاء هذه الأحوال هو أنه يعدّ الخير نتيجةً تدبيره هو ، بينما ينظر إلى الشر على أنه نتيجة تقلبات الدهر .. وهكذا فهو لا يزال محروماً من تعلّم أي درسٍ أو عبرةٍ من كلا نوعي الأحداث !!

ويظل المرء غافلاً كعهده ؛ إلى أن يفاجئه قضاء الله الأخير .. فإذا به يقف حائراً مشدوهاً لما يدرك وقتئذٍ أن الشيء الذي أهمله باعتباره غير ذي أهميةٍ ، هو الذي كان الحقيقة الكبرى ، وذات الأهمية العظمى في هذا الكون!!

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

ذَرَأَكُمْ : خلقكم وبثكم بالتناسل .

الإنسان هو المخلوق ، الذي تم تزويده بقوى السمع والبصر والتفكير العليا .. ومن المؤكد أن هذه القوى الخاصة إنما مُنحت له لأجل هدفٍ خاصٍ .. وذلك الهدف هو أن يستخدمها الإنسان في معرفة حقيقة الحياة .. فيسمع بآذانه صوت الصدق الذي يتردد صداه في أرجاء الوجود .. ويرى بعيونه تلك الآيات التي يجدها منبثة هنا وهناك في كل ما حوله .. ثم يستعمل قدرته على التفكير لتفهم تلك الآيات بعمق ، وسبر أغوارها البعيدة .. وهذا هو الشكر على نعمة السمع والبصر والفؤاد .. والذين لا يقيمون الدليل على هذا الشكر في الحياة الدنيا ، فإنهم يفقدون أهليتهم للتمتع بهذه النعم في الحياة الأبدية !

ومن صفات الله التي تتجلى أمامنا في هذا العالم أنه يحيي الميت ويميت الحي ..

وسوف يجمع الله كل الموتى عنده أحياءً في اليوم الآخر ، وكما أنه يحوّل الليل المظلم إلى النهار المضيء ، كذلك سيُزيح ستار الغفلة عن أعين الناس ، وبعدئذٍ ستنكشف على الناس حقيقة الأشياء كما هي من غير لبسٍ ولا غموضٍ !

﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ :أكاذيبهم المسطورة في كتبهم .

لقد زُوِّد الإنسان بالعقل .. والعقل يتمتع بالقدرة على أن يغوص في أعماق الأمور ويسبر أغوارها ، بحثاً عن الحقيقة الجوهرية ليتفهمها بعمقٍ ودقةٍ .. ولكن قلما يحدث أن يستعمل الإنسان عقله بالمعنى الحقيقي .. وإنما هو يتبنّى رأياً حول قضيةٍ ما ، في الأغلب الأعم ، بناءً على الانفعالات السطحية العابرة ، ويأخذ في ترديده بلا رويةٍ .. وهذا كان ديدن الناس في الماضي ، وعلى هذا المنوال ينسج أكثر الناس اليوم كذلك !.

وإن تعداد منكري البعث بعد الموت ، إنكاراً شعورياً أو لفظياً ، كان ولا يزال قليلاً جداً .. أما غالبية الناس فيمكن أن يُوصف موقفهم من هذه العقيدة بـ «الإنكار العملي» .. فإن هؤلاء ، مع إقرارهم الرسميّ بالحياة بعد الموت ، يمارسون حياتهم عملياً ، كما لو أنهم غير موقنين بأنهم سيُبعثون بعد الموت ، وسيُحضرون أحياءً بكامل وعيهم ومداركهم بين يدي الله ، تماماً كما هم أحياء اليوم يعون ويدركون!!

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ

إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

مَلَكُوتُ : هو المُلْك الواسع العظيم .

وَهُوَ يُجِيرُ :يغيث ويحمي من يشاء ويمنع.

وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ : لا يغاث أحد منه ولا يمنع .

فَأَنَّى تُسْحَرُونَ؟: فكيف تخدعون عن توحيده ؟

أشارت هذه الآيات إلى ذلك التناقض الفكري الذي كان معظم البشر - وما زالوا- يعانون منه على اختلاف الأعصار والأمصار ، سواء أكانوا مشركين أم غير مشركين ، مؤمنين في ظاهرهم بالله الواحد الأحد ، أو القائلين بتعدد الآلهة .

فالكثرة الكاثرة من الناس تؤمن بأن خالق السموات والأرض إنما هو الله الواحد ، وهو مالكها ومدبر أمرها بلا منازعٍ ، وهو وحده المتصرف المختار القادر على كل شيء .. إلخ .. ولكنك لو ذهبت تستعرض حياتهم العملية، فلا تجد فيها أي أثرٍ إيجابي لما يستلزمه هذا الإيمان بالضرورة!

ومقتضى هذا الإيمان العظيم أن يصبح هو جزءاً لا يتجزأ من تفكيرهم .. ويتحول شعورهم بالله إلى خوفٍ دائمٍ منه ؛ يجري في عروقهم مجرى الدم .. ويتولد في داخلهم الاستعداد للاعتراف بالحق فور ظهوره أمامهم .. وأن تنصهر حياتهم وأعمالهم كلها في بوتقته .. غير أن هذا كله لا يحدث .. فبالرغم من إيمان الناس بالله كعقيدة ، إلا أن حياتهم الحقيقية تبقى في وادٍ ، واعتقادهم بالله في وادٍ آخر !

إن تصور جمال الله وجلاله لا يُعجب الإنسان ولا يستهويه .. بينما تصير الأشياء الأخرى عنده مهمة وجذابةً لدرجة لا يدري معها كيف يتصرف لفرط إعجابه وشدة افتتانه بسحرها .. ألا ما أعجب أمر هذا الإنسان وما أكثره إثارةً للدهشة

والاستغراب؟!

﴿ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

من طبيعة السلطة أنها لا ترضى بالتقسيم .. كما نرى أصحاب السلطات من البشر في كل زمانٍ ومكانٍ ، يصارع بعضهم بعضاً في محاولة التغلب عليه أو إخضاعه لسيادته .. حتى إنك لتجد ميثولوجيا (مجموعة أساطير) الشعوب الوثنية - القائلة بتعدد الآلهة وأنصاف الآلهة - كثيراً ما تتحدث عن معارك ساخنةٍ دارت بين إلهٍ وآخر !!

وإذا كان وضع هذا الكون - الذي نعيش فيه - بحيث لا يقع ثمة صدام بين بعض أجزائه وبعضه الآخر ، فإن هذا ينهض دليلاً على أن إله كل جزءٍ إله واحد ليس غير .. إذْ لو كانت هناك آلهة شتى لكل جزءٍ على حدةٍ ، لانفرد كل إلهٍ بجزئه ، ولا نعدم بالتالي هذا التوازن والانسجام المدهش ، الذي نراه حالياً ، بين مختلف أجزاء الكون .. بل تحول نظام الكون البديع ، نتيجة صراع الآلهة بعضهم مع بعض ، إلى فسادٍ واختلالٍ وفوضى .. إذن ، فنظرية التوحيد ، والحالة هذه ، هي الصدق عينه ، ونظرية الشرك هي باطل محض!

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ .

إن دعاء الرسول هذا يتعلق بحالة قلبه هو وليس بعذاب الله .. فهذا الدعاء يدل على أن المؤمن يكون إنساناً خائفاً من الله على كل حالٍ .. وأن قلبه ليرتعد خشيةً من

عذاب الله، حتى لو كان العذاب نازلاً على الآخرين دونه.. فلا يلبث أن يأخذ في التضرع والابتهال إلى ربه ؛ لكونه يعلم أن الإنسان إنما ينجو من العذاب بمحض عناية الله ، وليس بفضل قوته أو بأي عملٍ من أعماله

وقضاء الله قد يتم تنفيذه على منكري الرسول تارةً في حياة الرسول ، وطوراً بعد انتقاله إلى رحمة الله .. ويتضح من الآية الأخيرة (رقم ٩٥) أن قضاء الله هذا قد تم تنفيذه على منكري النبي العربي – صلى الله عليه وسلم – وهو حي ، حيث قَضى على أعدائه – عليه الصلاة والسلام – قبل رحيله إلى الرفيق الأعلى !

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾

أَعُوذُ بِكَ : أعتصم وأمتنع بك .

هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ : نزغاتهم ووساوسهم المغرية .

إن داعي الله حين يدعو الناس إلى الحق ، فكثيراً ما يحدث أن يصير الناس له أعداء .. يشنون ضده حملة الدعايات الكاذبة .. ويتخذون منه هدفاً لصنوف الأذى والإساءة .. وعندئذٍ تستيقظ في نفس الداعي هو الآخر بواعث رد الفعل .. وقد يخطر بباله خاطر، يقول : إنه لابد لك الآن من القيام بالإساءة إلى الذين أساؤوا إليك ، فإنك إن لزمت الصمت طويلاً، ارتفعت «معنوياتهم» ، وازدادوا جرأة على النيل منك ، واتخاذ الإجراءات العدوانية ضدك!!

غير أن مثل هذه الأفكار والخواطر (السلبية) هي من وساوس الشيطان . فالشيطان يغري المرء في هذه المناسبة الحساسة ، ليحرّفه عن الجادة .. ولذا فينبغي على الداعي والمؤمن، في مناسبة كهذه ، أن يتعوذ بالله من الإغراءات الشيطانية ، دون أن يندفع إلى

الانتقام والتشفي من معارضيه استجابةً لتلك الإغراءات الشيطانية !!

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

وَمِن وَرَائِهِم : أمامهم .

بَرْزَخٌ : حاجز دون الرجعة .

تَلْفَحُ : تحرق .

كَالِحُونَ : عابسون أو متقلصو الشفاة عن الأسنان من أثر اللفح .

الموت يفصل المرء عن العالم الراهن .. ففي أعقاب الموت يقوم بينه وبين الدنيا حاجز، لن يستطيع العودة من ورائه إليها أبداً .

والمرء حين يدخل إلى العالم الآخر بعد الموت ، تزول فجأةً تلك الغشاوة التي كانت على بصره وبصيرته.. حيث إنه يدرك الآن أن الآخرة التي كان قد أهملها وأسقطها من حسابه تماماً ، كانت ، في الحقيقة ، هي قضية الحياة الكبرى .. وأما أسباب الدنيا فإنما كانت قد أتيحت لكي نستعين بها على كسب ثواب الآخرة، دون أن يتم اعتبارها هي نفسها المقصودة.. ومن ثم فهو يودّ ، وفؤاده يحترق هما والتياعا ، لو أعيد إلى الدنيا من جديدٍ !! غير أن هذا مستحيل .. فقد جرت سنة الله بأن تُتاح الفرصة لأي شخصٍ مرةً واحدةً فقط، لا مرتين!!

والمرء يعتمد في الحياة الدنيا على أصحابه وذوي قرابته .. إلا أنه سيكون وحيداً بلا ناصر ولا معينٍ في يوم القيامة .. وإنما سينفعه هناك عمله الذاتي وحده ، ولن يغني عنه أي شيءٍ آخر سواه!

﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

غَلَبَتْ عَلَيْنَا : استولت علينا .. وملكتنا .

شِقْوَتُنَا : شقاوتنا . أو لذاتنا وشهواتنا .

اخْسَـُٔوا فِيهَا : انزجروا وابعدوا كالكلاب .

إن الإنسان لن تُتاح له الفرصة ، بعد أن يرى مشاهد الآخرة رأي العين ، ليعود ثانيةً إلى الدنيا ، ويبرهن على العمل الصحيح الصالح .. فإن هدف الحياة الدنيا هو الامتحان .. وهو امتحان ما إذا كان المرء يخضع للحق بدون الرؤية المباشرة أم لا ؟! وأما بعد مشاهدة الآخرة بالفعل ، فلا قيمة للخضوع ، ولا أمل في الرجوع إلى الدنيا من جديدٍ!

وليس امتحان المرء في الإقرار عبر المشاهدة ، بل في الإقرار عبر التأمل والتفكير .إن طلبة العلم ، إنما يمتحنون قبل انكشاف ورقة الأسئلة ، وأما إذا صارت ورقات الأسئلة مكشوفة ، تتناقلها الصحف والجرائد ، فلا داعي بعدئذٍ لامتحان الطلبة !

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ

(١١٠) إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (١١١) ﴾

سِخْرِياً : مهزوءا بهم .

فَتَعَالَى اللهُ: ارتفع بعظمته وتنزه عن العبث .

إن لله عباداً تعرفوا عليه تعالى بجلاله وكماله في الحياة الدنيا ؛ حيث لم تكن حقائق الآخرة قد تجلّت للعيان بعد .. وظهرت دعوة الحق أمامهم في ثوب الدليل المحض ، ولكنهم - مع ذلك - تيقنوا بصدقها .. وبلغت جديتهم بشأنها لدرجة أنهم جعلوها معيار نجاحهم وفشلهم .. وقد اضطُروا إلى دفع ثمن ارتباطهم الكلي بحقٍ غريبٍ غير مألوفٍ ، بأن صاروا موضوع التهكم والسخرية في المجتمع ، إلا أنهم لم يقطعوا - بالرغم من ذلك - ارتباطهم به لحظةً واحدةً ، بل ظلوا أوفياء له على مدى الحياة ، غير مبالين بلومة اللائمين، وسخرية الساخرين!

وهذه الاستقامة الفكرية هي الصبر الأعظم .. وإنما يفوز المرء بإنعام الآخرة مقابل هذا الصبر ذاته.. والسعداء الناجحون حقاً هم الذين وُفقوا لإقامة الدليل على هذا الصبر في عالم الامتحان الراهن!

﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ (١١٣) قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) ﴾

الترف الحقيقي هو الذي يكون أبدياً .. أما الترف الذي لا يكون أبدياً ، فإنه يبدو - حين ينتهي - كما لو كان لمحة طارئة ، لم تكد تأتي حتى مضت إلى غير رجعةٍ !.

وإن المرء ليظل غافلاً عن هذه الحقيقة في الحياة الدنيا .. إلا أنها ستنكشف عليه في الآخرة بجلاءٍ ، فيدركها حينئذٍ تمام الإدراك ، ولكن من غير جدوى !

والحق يتجلى أمام المرء في الدنيا ، ولكنه لا يتلقاه بالقبول ، حرصاً على حياته الهادئة الرتيبة ؛ حيث لا ترضى نفسه بالتخلي عن الفائدة المتاحة (العاجلة) لأجل الفائدة الموعودة (الآجلة) .. وتبدو له عزة الحياة الراهنة وراحتها ومصالحها ثمينةً وغاليةً لدرجةٍ لا يدري معها كيف يصرف نظره عن « الشيء » ليوجه اهتمامه نحو « اللاشيء » ؟! في حين أن مهلة عمر الفرد المحددة ، وإن طالت مائة عام أو أكثر ، عندما تبلغ نهايتها ، تبدو وكأنها لم تكن إلا يوماً واحداً قصيراً ، جاء وانقضى في لمح البصر !!

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

الناس رجلان : رجل يمارس حياةً مبدئيةً .. وآخر لا مبدأ له في هذه الحياة .. ومنهم مَنْ يضحي بنفسه في سبيل الصدق غير المرئي .. ومنهم مَنْ يظل مشغولاً بالأشياء المرئية وحدها .. ومنهم مَنْ يتقبل دعوة الحق على كل غرابتها في ما حولها .. ومنهم مَنْ يتجاهلها ويعرض عنها مستهزئاً بها .. ومنهم مَنْ يمسك يده عن الظلم ؛ لأن ربه قد نهاه عنه ، بينما يتحين بعض منهم الفرص للظلم والتعدي على الآخرين ، لأن نفسه تدعوه إلى ذلك!!

ولو أن هذا العالم ليس له من مصيرٍ ، وإنما هو وُجد لكي يسير هكذا وينتهي هكذا بدون هدفٍ أو غايةٍ محددةٍ، فمعنى ذلك أنه لم يكن سوى مسرحيةٍ عبثيةٍ لا معقولة! غير أن الكون ، بما فيه من روحٍ وحكمةٍ عجيبةٍ ، ينفي كل نظريةٍ فارغة عن المعنى كهذه ..

وإن نظام الكون البديع يرفض بشدةٍ أن يكون خالقه وجوده عبثاً غير جادٍ!!

إن خالق هذا الكون الفسيح ، كما نتعرف عليه من خلال الأنظمة الكونية الهائلة المليئة بالأسرار ، هو إله يتصف في ذاته بمنتهى الكمال والعدل .. وإن أبعد الأمور عن القياس وأعظمها استحالةً ، أن نتصور خالقاً هذا شأنه يرضى بالتسوية بين نوعين مختلفين من البشر!! بل الذي هو كائن حتماً أن يأتي يوم يرفض فيه مالك الكون ويهين فريقاً من الناس كما هم رفضوا الحق واستهانوا به .. ويُقدِّر فريقاً آخر منهم ويكرمهم مثلما هم قدروا الحق وأكرموه!

سورة النور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ .

وَفَرَضْنَاهَا :أوجبنا أحكامها عليكم .

كُلَّ وَاحِدٍ : إذا كان حرا غير محصن .

نزلت سورة النور سنة ٦ هجرية في أعقاب غزوة بني المصطلق .. وقد اتخذ منافقو المدينة من حادثٍ عاديٍ بسيطٍ ، وقع خلال هذه الغزوة ، ذريعةً لتشويه سمعة السيدة عائشة ورسول الله - ﷺ - .. فجاءت هذه السورة الكريمة تؤكد - من ناحيةٍ - على البراءة التامة للسيدة عائشة ، وتبين - من ناحيةٍ أخرى - أحكاماً عامة يجب تنفيذها عند حدوث حالاتٍ مماثلةٍ في المجتمع المسلم .

وإن الزنا من أشد الجرائم الاجتماعية خطورةً وشناعةً في نظر القانون الإسلامي . غير أن القانون الإسلامي يفرق بين نوعين من البشر ، أحدهما : هو الذي يقيم العلاقات الجنسية اللامشروعة ؛ رغم توفر فرص العلاقات الجنسية المشروعة لديه . وثانيهما : هو الذي لم تتوفر لديه بعدُ فرص إقامة العلاقة الجنسية المشروعة .

((والمائة جلدةٍ)) هي عقوبة الزنا قبل الإحصان ، أي إذا كان الزاني والزانية غير متزوجين .. وأما عقوبة الزنا بعد الإحصان (الزواج) فهي الرجم ، أي رمي المجرم بالحجارة حتى الموت .. وقد ورد حكم الرجم في القرآن الكريم (المائدة : ٤٣) على وجه الإشارة والتلميح .. وهو ثابت بالسنة النبوية المتواترة بما لا يدع مجالاً للشك في

مشروعيته أو الارتياب .. وإقامة حد الزنا بمشهدٍ من الناس هي ، في الحقيقة ، إضافة جانب العبرة إلى العقوبة .. والمقصود من ذلك أن يرتدع الآخرون ، من ذوي النفوس المريضة ، عن ارتكاب مثل هذه الجريمة البشعة مستقبلاً ، خوفاً من العاقبة الوخيمة التي لقيها أحد المجرمين في الحال .

وسيصبح الزاني والزانية مثل غيرهما من المسلمين العاديين من جديدٍ ، فيما إذا بادرا بالتوبة وإصلاح سيرتهما بعد العقوبة .. وأما إن لم يتوبا ويُصلحا ، فلا يستحقان بعدئذٍ أن يقُبلا لروابط النكاح والقرابة في ظل المجتمع الإسلامي .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ .

يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ : يقذفون العفيفات بالزنا .

ومن الطبيعي ، وقد اعتبر الزنا جريمةً من أشنع الجرائم الاجتماعية ، أن يُعدّ قذف أحد الأبرياء بالزنا هو الآخر جرماً عظيماً .. ومن ثم فقد أمر الله بمن يرمي غيره بتهمة الزنا ؛ ولا يتمكن من إثبات دعواه وفق القاعدة الشرعية ، أن يُجلد ثمانين جلدةً ؛ مضافاً إلى إسقاط اعتباره بجعله مردود الشهادة ما دام مصراً على بهتانه .. وقد ذهب الأحناف إلى أن شهادة القاذف لن تُقبل أبداً ، حتى ولو تاب وأناب وأصبح من الصالحين !! لأن رمي أحد الناس بالتهمة الكاذبة محاولة لقتله من الناحية الأخلاقية . وقد شرع الإسلام عقوباتٍ شديدةً صارمةً على مثل هذه الجريمة ، ليقطع ألسنة السوء، وليسدّ الباب على الذين يتلمسون للأبرياء العيب .. ولو أن شخصاً أفلت من العقوبة الدنيوية ، فإنه لن يفلت من عقاب الآخرة على أية حال .. اللهم إلا أن يتوب توبةً نصوحاً ، سائلاً الله – سبحانه وتعالى – العفو والمغفرة ، فإنه لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى!

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ

أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ .

وَيَدْرَأُ عَنْهَا : يدفع عنها العقوبة .

ومن مسائل هذا الباب أن شخصاً لو اتهم زوجته بالفاحشة ، ولم يكن لديه أي شهود عيان سوى نفسه هو ، فكيف يُحسم الأمر في هذه الحالة؟ والجواب هو: أن القضية ستحسم عن طريق الحلف ، وهو المعروف في الاصطلاح الشرعي بـ ((اللعان)) .

فإذا أقسم الرجل بالصيغة المذكورة ، وظلت المرأة صامتة ؛ أي امتنعت عن اللعان ، أقيم عليها حد الزّنا أخذاً بشهادة الرجل .. وأما إذا حلفت المرأة بدورها بالصيغة المذكورة أعلاه ، وادعت أنه كاذب فيما رماها به من الزنا ؛ فلا يقام عليها الحد ، ولكن يُفرق بعد ذلك بين الزوجين (المتلاعنين) بصورةٍ مؤبدةٍ .

إن القضايا الاجتماعية والأسرية تكون معقدةً غاية التعقيد .. وعندما يحاول الإنسان وضع القوانين والتشريعات في هذه القضايا ، فكثيراً ما يجنح إلى جانب على حساب الجانب الآخر .. أما التشريع الإلهي فهو يشتمل على مراعاةٍ تامةٍ دقيقةٍ للجوانب كلها .. ومن هنا كان التشريع الإلهي رحمةً للناس عظيمةً جداً !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

بِالإِفْكِ : أقبح الكذب وأفحشه .

عُصْبَةٌ : جماعة منكم .

تَوَلَّى كِبْرَهُ :تحمل معظمه (رأس المنافقين) .

إذا كان الداعي على حقٍ في الواقع ؛ فإن الدعايات المغرضة الكاذبة ضده لا تضره شيئاً ، بل تكون دوْماً في صالحه .. ذلك لأن الدعايات الكاذبة ، لابد أن يفتضح سرها في النهاية .. وعندما يفتضح السر ، يعود صدق الداعي وكونه على الحق أكثر وضوحاً وأجلى برهاناً .. هذا من جانبٍ .. ومن جانب آخر فإن الذين كانوا في حيرةٍ أو ارتيابٍ بشأنه ، يصلون بعدئذٍ إلى درجة اليقين .. إذْ يرون عملياً أن معارضي الداعي إلى الحق لا يملكون إزاءه سوى التهم والافتراءات الباطلة .

وقد كان لِعبد الله بن أبي ابن سلول (رأس المنافقين) اليد الكبرى في تلفيق وإشاعة التهمة النكراء ضد السيدة عائشة الصديقة . . وقد أخبر القرآن بأن له عذاباً عظيماً في الآخرة .. إلا أنه لم يُعاقب بأية عقوبةٍ عاجلةٍ في الدنيا ، وإنما خُلي سبيله ، حتى مات حتف أنفه .. وكان عمر قد أشار على رسول الله - ﷺ - بعد هذا الحادث بأن يُضرب عنقه .. فالتفت - عليه الصلاة والسلام - إلى عمر وقال : ((فكيف، يا عمر ، إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه)) الأمر الذي يوضح أنه قد يكون مقتضى الحكمة أحياناً ألا يؤخذ حتى أكابر المجرمين بأي عقابٍ عاجلٍ في الدنيا، بل يُحال أمرهم على محكمة الآخرة !

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

إن من حق المسلم على أخيه المسلم أن يحسن به الظن دائماً .. فإن إساءة الظن بالآخر دليل على فساد النفس وسوء الطوية .. وإحسان الظن به هو بالعكس دليل صلاح النفس ونقاء السريرة .

والأسلوب الصحيح ، إذا ما أخبر شخص عن آخر بالسوء ، أن نطالبه على الفور بإقامة الدليل والبرهان .. بحيث لا ينبغي أن يأخذ الكل في ترديد ما سمع وإشاعته بلا أناةٍ ، بل يطلب من المخبر أن يأتي بالشهداء على صدق دعواه تبعاً للقاعدة الشرعية . فلو أنه جاء بالشهداء لكان كلامه حريّا بالنظر والاعتبار ، وإن لم يأت بمن يشهدون

على صحة دعواه ، فإنه هو المجرم الأكبر .. إذْ لا يحق لأحدٍ ، كائناً من كان ، أن يتهم غيره بلا دليلٍ أو برهانٍ !

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

أَفَضْتُمْ فِيهِ : خضتم فيه من حديث الإفك .

وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً : تظنونه سهلا لا تبعة له .

سُبْحَانَكَ : تعجب من شناعة هذا الإفك .

بُهْتَانٌ : كذب يحير سامعه لفظاعته .

إن رسول الله - ﷺ - كان في مركز الداعي إلى الحق .. وأمر الداعي إلى الحق يكون أمراً بالغ الخطورة ؛ حتى إن زلّةً سلوكيةً واحدةً تكفي - لو وقع فيها فرضاً - لهدم رسالته كلها من الأساس .. وفي مثل هذا الوضع فإن الذين تلقّفوا إشاعة باطلةً عن سيدةٍ مؤمنة هي قمّة الطهر والعفة ، وراحوا ينشرونها هنا وهناك بدون تحفظٍ ، لقد ضربوا أسوأ مثالٍ لقلة الأناة واللامسئولية .. ولولا أن تفضّل الله - سبحانه وتعالى - بإبطال تلك التهمة الشنيعة عند الوهلة الأولى ، لكادت أن تتسبّب في إصابة الدعوة الإسلامية بما لا يُقدّر من خسائر ونكسات فادحةٍ ، إذْ كان من المحتمل جداً أن يقع المجتمع الإسلامي كله نتيجة لذلك فريسة سوء الظن والأراجيف ، وينقسم المسلمون بالتالي على أنفسهم ، يحارب بعضهم بعضاً ، حتى لو وصل الأمر بهذا الانقسام الداخلي والحرب الأهلية في نهاية المطاف إلى أن تقضي الأمة على نفسها بنفسها ، تلك التي أخرجها الله لكي تضطلع بمهمة القضاء على سيادة الشرك العالمية!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى

ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

المراد بإشاعة «الفاحشة» هنا إشاعة ما أُطلق عليه «الإفك» في الآية رقم (١١) من هذه السورة .. وهو يعني تلفيق تهمةٍ كاذبةٍ ضد شخص ما ، والعمل على نشرها بين الناس .

وللحديث أسلوبان : أحدهما : ألا يتفوه المرء إلا بما يتوفر لديه من دليل على صدقه في الواقع .. ويمكن إثباته شرعياً .. والثاني : أن يخترع المرء من تلقاء نفسه أمراً لا يستند على أساسٍ .. ويأخذ في إذاعته بين الناس ..

إن الأسلوب الأول هو وحده الأسلوب المشروع ، بينما الأسلوب الثاني غير مشروعٍ إطلاقاً !!

ومما يحدث على وجه العموم أن المرء حين يسمع شيئاً عن بعض خصومه ، فلا يرى ثمة حاجة إلى تناوله بالتحقيق أو التحري والتثبت من صحته أو بطلانه ، بل سرعان ما يتلقاه بالقبول بدون تمحيصٍ ولانقاشٍ ، وينطلق يردده ويحدث به إلى الآخرين .. وإن هذا ليس فعلاً يتسم باللامسئولية فحسب ، بل هو جريمة عظيمة جداً ؛ يستحق فاعلها عقوبةً شديدةً في الدنيا والآخرة !

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾

خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ : طرقه وآثارها ومذاهبه .

بِالْفَحْشَاءِ : ما عظم قبحه من الذنوب .

وَالْمُنكَرِ : ما ينكره الشرع ويكرهه الله .

مَا زَكَى : ما تطهر من دنس الذنوب .

اتباع خطوات الشيطان يعني استجابة المرء للوساوس الشيطانية .. فحين تتولد مشاعر سوء الظن أو الريبة في النفس إزاء أحد الناس ، بناءً على بهتانٍ أو تهمةٍ كاذبةٍ ، فإنما يكون ذلك نتاج وسوسةٍ شيطانيةٍ .. وكذلك حين تستيقظ الأفكار السلبية في داخل المرء ضد خصمه ، بدون مبررٍ ، فإنها هي الأخرى تمثل إحدى حيل الشيطان الخفية للسيطرة على القلب وتصريفه كما يشاء ، وينبغي للمرء إذا ما استيقظت مثل هذه الأفكار والمشاعر في داخله ، أن يقضي عليها في الداخل على الفور ، دون أن يندفع وراءها .. فإن تلبية نداء مثل هذه المشاعر والأحاسيس استجابة لنداء الشيطان رأساً !.

والاشتغال بالدعايات المغرضة ضد الآخرين عمل يتنافى مع روح التواضع.. إن المرء عادة ما يكون حسن الظن بنفسه أكثر مما يلزم ، وسيئ الظن بغيره أكثر مما يلزم كذلك .. وكلا هذين الأمرين لا يتفق والإيمان .. ولو نشأ التواضع الإيماني في داخل المرء حقاً ، لجعله مشغولاً بمحاسبة نفسه لدرجة لن يجد معها الفرصة لكي ينبري لمحاسبة الآخرين !!

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾

وَلاَ يَأْتَلِ : لا يحف أو لا يقصر .

أُوْلُوا الفَضْلِ : أصحاب الزيادة في الدين .

وَالسَّعَةِ : الغنى .

كان «مسطح بن أثاثة» واحداً من أولئك الذين قدحوا في عرض السيدة عائشة .. وهو من فقراء المهاجرين ، وكانت تربطه بأبي بكرٍ صلة قرابةٍ بعيدةٍ ، وكان أبو بكر يساعده بشيءٍ من المال .. غير أن وقوف «مسطح» إلى جانب مروّجي تلك الدعاية المغرضة ضد عائشة – رضى الله عنها – وهي ابنة أبي بكرٍ ،كلفه – بطبيعة الحال – ألماً لا يُطاق ، فحلف أبو بكر ألا ينفق عليه شيئاً أبداً .

إن إعانة المحتاجين والفقراء ، كما دعا إليها الإسلام ، إنما تكون - أولاً وآخراً - نظراً إلى حاجتهم ، وليس نظراً إلى أي اعتبارٍ آخر .. ومن ثم نزل القرآن الكريم في أعقاب هذا الحادث ، يأمر المؤمنين بأنه لا يحق لأصحاب الغنى واليسار منكم أن يمتنعوا عن مساعدة المحرومين والبؤساء بناءً على أي إساءةٍ أو شكايةٍ ذاتيةٍ .. ألا تحبون - أيها المؤمنون - أن يعفو الله عنكم ويغفر لكم ذنوبكم ؟! وإذا كنتم ترجون من الله العفو والمغفرة ، فينبغي عليكم أيضاً أن تعفوا وتصفحوا عن إساءات الآخرين .. ولما سمع أبو بكر هذه الآية الكريمة قال ((بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي)) ، فأعاد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه من قل ، وقال : ((والله لا أنزعها منه أبداً)) !

وإن المؤمن إنما يعطي الأهمية الكبرى لأمر الله ، فحين يتضح أمر الله ، يبادر بامتثاله والانقياد له من فوره ، ولو كان ذلك الأمر الإلهي شديد الوطأة على نفسه ، مناقضاً لهواه تماماً !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾

المُحْصَنَاتِ : العفائف ، ومثلهن المحصنون .

دِينَهُمُ الحَقَّ : جزاءهم الثابت لهم بالعدل .

الإنسان ينطق ضد الآخرين بكلمات السوء ؛ وهو لا يدري أن الكلمات الصادرة من لسانه تصل إلى الله قبل وصولها إلى الآخرين ! وإن المرء يستعمل يديه ورجليه للظلم والاعتداء على الآخرين ؛ ويغيب عن باله أن القيامة حين تقوم ، فلن تعود يداه ورجلاه في حيازته هو ، بل ستصبح شاهدةً عليه أمام الله !!

وإن هذه الغفلة هي مصدر كل الشرور والآثام .. ولو أحسّ المرء هذه الحقيقة حق الإحساس بأنه في عالمٍ ، حيث يراقبه الله كل حين وآنٍ ، لا تخفى عليه خافية ، وحيث يُسجل كل قولٍ أو فعلٍ يصدر منه تحت النظام الإلهي ، لتغيرت حياته تغيراً جذرياً

شاملاً ؛ فهو يزن كل كلمةٍ قبل أن ينطق بها وزناً دقيقاً ، ويستخدم أعضاءه وجوارحه بمنتهى الحذر والاحتياط !

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

المراد بـ «الخبيثات» هو الكلمات الخبيثة .. وكذلك المراد بـ «الطيبات» هو الكلمات الطيبة .. ومعنى ذلك أن شخصاً لا يصبح سيئاً بسبب تناوله شخصاً آخر بنعت السوء .. إذْ لا ينطبق على المرء إلا وصف يتفق مع ما هو عليه في هذا الأمر .. وأما لو وجّه الأشرار إلى الفضلاء من الناس قول السوء ، فإنما يصدق ذلك آخر الأمر على القائلين أنفسهم ، بينما يتبرأ الفضلاء مما وُجّه إليهم كل البراءة .

والذين هم طيبون في ذات أنفسهم ، لابد أن يتبرءوا مما قد يُلصق بهم من التهم الكاذبة في هذه الدنيا ، إلى جانب كون براءتهم في الآخرة مضمونةً بكل تأكيدٍ .. كما أنهم سيفوزون في الآخرة بمزيدٍ من إنعامات الله وكرامته ، ذلك لأن الأقاويل الباطلة المثارة ضدهم كانت ، في الحقيقة ، ثمناً لكونهم قطعوا صلتهم بالباطل ، واندمجوا بأنفسهم في الحق وحده!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

تَسْتَأْنِسُوا : تستأذنوا ممن يملك الإذن .

أَزْكَى لَكُمْ : اطهرلكم من دنس الريبة والدناءة .

جُنَاحٌ : إثم .

مَتَاعٌ لَّكُمْ : منفعة ومصلحة لكم .

في الحياة الاجتماعية كثيراً ما يحتاج الناس إلى اللقاء أو الزيارة فيما بينهم تحت شتى العوامل والأغراض .. ولما كان توجُّه المرء إلى أحدٍ بدون إعلامه سلفاً واقتحامه عليه داره فجأةً ؛ مما قد يسبب الحرج والإزعاج للزائر والمزور على السواء ؛ أدرجت قاعدة الاستئذان المسبق في آداب اللقاء والزيارة .

والأفضل أن يتم الاتصال - إن أمكن - بالشخص المطلوب زيارته قبل التوجه إليه، وتحديد موعد اللقاء معه سلفاً ، ثم ينبغي على الزائر ، حالما يصل إلى منزل أخيه ، أن يطلب منه أولاً السماح للدخول.. وقد يمكن أن تكون هناك أساليب مختلفة لهذا الاستئذان بحسب الأحوال التمدنية والثقافية ، ولكن لابد لكل أسلوبٍ يُتبع بهذا الخصوص أن يكون على مستوى الأدب الإسلامي الرفيع .. وإن الإسلام يريد بناء كل شئون الحياة الاجتماعية ، مهما كانت صغيرةً أو كبيرةً ، على أساسٍ من السماحة .. وهذه السماحة ذاتها مطلوبة فيما يتصل باللقاء والزيارة كذلك .. فلو توجّهت إلى بيت أحد الناس قاصداً لزيارته ، واعتذر إليك رب البيت عن اللقاء في ذلك الوقت ، فلك أن تتقبل الرجوع برحابة صدرٍ وارتياح بالٍ . على أن هذا الحكم (حكم الاستئذان) لا ينسحب على تلك الأماكن الاجتماعية، حيث الدخول مسموح للجميع بوجهٍ عام!

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ : يكفوا نظرهم عن المحرمات .

لقد أرشدت هذه الآية الكريمة إلى أدبين رئيسين ، يجب على كل رجلٍ مؤمن أن يتحلى بهما أينما كان ، أحدهما : ستر العورة ، وثانيهما : غض البصر .. (وهذا الحكم يشمل أيضاً النساء المؤمنات ، كما هو موضح في الآية التالية رقم ٣١) .

أما عورة الرجل - أي الجزء الذي لابد له من أن يستره من بدنه على كل حالٍ من الأحوال - فهي : من السرّة إلى الركبة .. فلا يحل للرّجل أن يكشف عورته هذه أمام

أحدٍ سوى زوجته ؛ اللهم إلا أن تعرض له حاجة أو ضرورة يُباح عندها حتى المحظور، كالفحص الطبي والعلاج مثلاً .

والأمر الثاني المطلوب من الرجال: أن يغضوا أبصارهم ، إذا ما التقوا بالنساء وجهاً لوجه .. إذْ لا ينبغي أن يتم اللقاء بين الرجل والمرأة بأسلوبٍ حرٍ طليقٍ كتلاقي الرجال بعضهم مع بعض .. وإنما الرجل هو المطالب بخفض بصره عند لقائه المرأة .. ولو تصادف أن وقع بصر الرجل على أجنبيةٍ ، فليصرف نظره عنها من فوره ، ولا يتعمد النظر إليها مرةً أخرى !!

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

زِينَتَهُنَّ : مواضع زينتهن من الجسد .

ظَهَرَ مِنْهَا : الوجه والكفين والقدمين .

وَلْيَضْرِبْنَ : وليلقين ويسدلن .

بِخُمُرِهِنَّ : أغطية رؤوسهن (المقانع) .

عَلَى جُيُوبِهِنَّ : على مواضعها (صدورهن وما حواليها) .

لِبُعُولَتِهِنَّ : لأزواجهن .

أَوْ نِسَائِهِنَّ : المختصات بهن بالصحبة أو الخدمة .

الإِرْبَةِ : أصحاب الحاجة إلى النساء .

﴿لَمْ يَظْهَرُوا﴾ : لم يبلغوا حد الشهوة .

إن أحكام الإسلام عن النساء لها جانبان: أحدهما : هو الذي يسمى «ستر العورة»، والآخر : هو الذي يحمل عنوان «الحجاب» .. أما الأحكام المتصلة بستر العورة فهي بيان ما يجوز للمرأة أن تكشف ، وما لا يجوز لها أن تكشف من أجزاء بدنها ، سواء كانت في البيت أو خارجه ، ومَنْ هم الذين يُباح لها أن تبدي زينتها لهم ، وما حد الزينة المسموح بإبدائها ، وما هي مرات بالمسموح لهم النظر إليها .. إلخ .

وأما الحجاب فهو يتعلق بتستّر المرأة خارج البيت خاصةً .. أي ما هو الوضع الذي فرضته الشريعة الإسلامية على المرأة أن تلتزم به عند خروجها من البيت وفي السفر .. والآية محل التفسير الآن تتحدث أساساً عن مسائل «العورة» ، بينما ورد الحديث عن مسألة «الحجاب» في سورة «الأحزاب» ، وسوف نبينها في موضعها إن شاء الله تعالى .

وقوله : ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يدل على أن العنصر الرئيسي والأكبر أهمية بشأن تنفيذ أحكام الشريعة هو توفر الاستعداد الداخلي في النفوس لتقبلها وامتثالها .. وقد كان الصحابة والصحابيات - عليهم رضوان الله - المثل الأعلى في هذا الخصوص .. ويتضح ذلك مما روته السيدة عائشة تقول : «إني - والله - ما رأيت أفضل من نساء الأنصار ؛ أشد تصديقاً لكتاب الله ، وإيماناً بالتنزيل ، لما أنزلت في سورة النور ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ ، انقلب رجالهن إليهن ؛ يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل ، فاعتجرت - أي التفت - به ، تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه .. فأصبحن وراء رسول الله - ﷺ - معتجراتٍ كأن على رؤوسهن الغربان!»[1].

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٦٠٠.

حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

وَأَنكِحُوا الأَيَامَى : من لا زوج لها ، ومن لا زوجة له .

يَبْتَغُونَ الكِتَابَ : يطلبون عقد المكاتبة المعروف .

فَتَيَاتِكُمْ :إمائكم .

البِغَاءِ : الزنى .

تَحَصُّناً : تعففا وتصونا عنه .

الإسلام يفضل الحياة الزوجية للرجل والمرأة .. فلا يجوز لأحدهما أن يمتنع عن الزواج لأي عذرٍ من الأعذار .. وإذا وُجد ثمة رجال أو نساء في المجتمع الإسلامي لم يتزوجوا ، أو لا يقدرون على التزوج بسبب عائقٍ مادي أو غيره من الأسباب ، فإن الإسلام يريد لأتباعه عندئذٍ أن يعتبروها قضيةً مشتركةً تهم الجميع ، وبالتالي فلا يهدأ بالهم ولا يستريحون ما لم يقوموا بإيجاد حل شرعي للقضية .

والمراد بالكتاب أو المكاتبة تحرير وثيقة يعاهد فيها العبد - أو الأمَة - سيده بأنه سيدفع إليه في مدة كذا من الزمان مبلغ كذا من المال ، فإذا أداه ، تحرر من رق عبوديته .

ولما جاء الإسلامي كان الاسترقاق عادةً متبعةً وعرفاً سائداً في شبه الجزيرة العربية وفي سائر أنحاء العالم يومذاك.. وقد شرع الإسلام منذ أول ظهوره في القضاء على تلك العادة بصورةٍ منظمةٍ للغاية .. ومن بين الوسائل أو الأساليب التي تبناها لتحقيق هذا الغرض ما يسمى «المكاتبة» .. غير أن الإسلام قد سار ، وهو يقود مسيرة فك الرقاب (أي تحرير العبيد) على خطة التدرج ، كما هو شأنه في كل ما نفذه من الأحكام التشريعية والبرامج الإصلاحية .. فما زال الأرقّاء يُحررون بشتى الطرق ، حتى كادت

هذه المؤسسة أن تنعدم وتتلاشى في أواخر العهد الراشدي!!

والناس في قديم الزمان كانوا يأمرون إماءهم بالتكسّب من وراء الدعارة .. وقد كانت لدى عبد الله بن أبيّ – رأس المنافقين بالمدينة – جاريات يحترفن له البغاء ، وهو يستدرّ من خلال ذلك الماء الوفير .. وعندما أسلمت إحداهن فامتنعت عن البغاء ، أخذ في إجبارها عليه بالضرب والتهديد .. وفي نهاية المطاف تم تخليص تلك الجارية المؤمنة من يد عبد الله بن أبي بأمرٍ من رسول الله ﷺ .

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾

اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ : منورهما أو هادي أهلهما أو موجدهما .

كَمِشْكَاةٍ : كنور كورة غير نافذة .

مِصْبَاحٌ :سراج ضخم ثاقب .

زُجَاجَةٍ : قنديل .

كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ : مضيء متلألئ صاف .

هذا تمثيل مركب .. وقد أُريد بالنور في الآية هداية الله .. وبالمشكاة – وهي الكوة – قلب الإنسان .. وبالمصباح استعداده للإيمان .. وأما الزجاجة والزيت فهما يكشفان عن مزيد من خصائص ذلك الاستعداد .. فالزجاجة تشير إلى كون هذا الاستعداد داخل القلب الإنساني مصوناً من المؤثرات الخارجية .. بينما يدل الزيت الصافي على أن هذا الاستعداد قوي وعارم لدرجة أنه ينتظر في لهفةٍ وشوقٍ ، متى يظهر الحق أمامه ، حتى يسرع إلى قبوله بدون توقفٍ !!

وإنها لحقيقة لا سبيل إلى إنكارها أن الذات الإلهية هي وحدها مصدر النور في هذا الكون .. وإنما يستمد الكل النور والهداية منها وحدها لا غير .. فوق ذلك فإن الله –

سبحانه وتعالى - قد أنشأ الإنسان بحيث أودع طلب الحق في فطرته .. وهذا الطلب شديد وقوي إلى غير نهاية .. ولو أنه قد حُوفظ عليه من الضياع ، لبقي في حالة عدم الاستقرار والاضطراب الدائم بحثاً عن إجابته وتلبيته .. إن استعداد الإنسان للقبول متدفق وعارم في طبيعته ، كأنما هو النفط النقي الذي حين تقرب منه نار يشتعل من فوره !

والمؤمن هو الإنسان الحقيقي الذي لم يعرض استعداده الفطري للضياع ، فإذا ما قُدمت إليه دعوة الحق ، تحرك استعداده الكامن ، وبالتالي لم يلبث وجوده أن يصير بأكمله مضيئاً ومشرقاً بانضمام نور الفطرة إلى جانب نور الهداية الربانية !

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

بُيُوتٍ : هي المساجد كلها .

أَن تُرْفَعَ : أن تُعظم وتطهر

بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ : أول النهار وآخره .

بِغَيْرِ حِسَابٍ : بلا نهاية لما يعطي أو بتوسع .

إن المسجد من المجتمع الإنساني بمنزلة القلب من الجسم الإنساني .. وقلب الإنسان يعمر بالإيمان ، وأما المساجد فتعمر بعبادة الله .. وإن المساجد بيوت الله ، وهي لا تُبنى إلا لكي يُذكر اسم الله فيها وتتلى آياته آناء الليل وأطراف النهار .. وإن الذين يرتادونها ليس لهم من غرضٍ سوى أن يتوجهوا بقلوبهم إلى الله في رحابها ، حيث يسود جوّ روحي مشرق ، وأن يقضوا هناك بعض الوقت في عبادة ربهم بتجردٍ وإخلاصٍ بالغين .

والذي كُتب له التوفيق لكي يتعرف على صوت فطرته ، فيؤمن بالله ، ثم يشغل

نفسه بأعمال المسجد ؛ فإن الله يملأ فؤاده بخشيته والشعور برقابته الدائمة .. وإنها - بحقٍ - لأعظم نعمةٍ يفوز بها إنسان في العالم الراهن .. فإن أصحابها هم الذين يختارون طريق العبودية لله على مستوى التضحية والفداء ، ويقطعون صلتهم بالأرباب ليرتبطوا برب الأرباب وحده !

وذلك هو الإنسان الذي يستحق عند الله الإنعام الأفضل .. وإنه تعالى سيرزقه من فضله بغير حسابٍ !!

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) ﴾

كَسَرَابٍ : شعاع يُرى ظهرا في البر عند اشتداد الحر كالماء الشارب .

بِقِيعَةٍ : في مبسط من الأرض .

بَحْرٍ لُجِّيٍّ : عميق كثير الماء .

يَغْشَاهُ : يعلوه ويغطيه .

سَحَابٌ : غيم يحجب أنوار السماء .

هناك نوعٌ من البشر سبق ذكره في الآية رقم (٣٥) .. وهو الذي يحتفظ باستعداده الفطري ؛ فيُوفق - ثمرة ذلك - للفوز بنعمة الإيمان .. وهنا تتحدث الآيتان (٣٩ ، ٤٠) عن نوعين آخرين من البشر ؛ عن أناسٍ لا يكاد «زيْتهم» يشتعل - ولو مسّته نار دعوة الحق - غير مرةٍ !

أما أحد هذين النوعين : فهو الذي يظل متمسكاً بدين مزعومٍ ، ما أنزل الله به من سلطانٍ ، ويعيش فرحاً مسروراً بالآمال الزائفة مغتراً بالأوهام الباطلة .. وهكذا لا تبرح الأماني الحالمة مسيطرةً على قلبه ، مستبدةً بعقله على مدى الحياة ، حتى إذا وافاه

الأجل المحتوم تبخّرت آماله وأحْلامه كلها ، حيث يفاجأ بإدراك أن الشيء الذي كان يعتبره مستقره ومأواه ، لم يكن سوى هاوية الدمار والهلاك المؤبد!!

وأما النوع الثاني: فهو يشمل المنكرين والسائرين في طريق البغي والطغيان علناً وجهاراً ، وهؤلاء يحاولون أن يخترعوا الهداية من عند أنفسهم تاركين الهداية المنزلة من عند الله ، على أن محاولتهم هذه سرعان ما تنتهي بالفشل التام والخيبة المطلقة ؛ فإنه ليس ثمة من هادٍ في هذا العالم غير الله الواحد الأحد ، ولا يقع في نصيب المرء ، بعد التخلي عن الله - تبارك وتعالى - سوى أن يظل يتخبط في الظلام الحالك ويعمه في الضلال البعيد إلى الأبد!!

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾

صَافَّاتٍ : باسطات أجنحتهن في الهواء .

إن ما يطلبه الله سبحانه من الإنسان هو أن يعيش الإنسان في هذه الدنيا كما ينبغي له أن يعيش بمقتضى الحقيقة .. وهذا هو دين الحق .. والكون كله - من هذه الناحية - على دين الحق .. فإن كل شيءٍ في هذا الكون إنما يعمل ويتحرك تماماً كما ينبغي له أن يعمل ويتحرك بحكم الواقع .. وليس هناك شيءٍ في رحاب هذا الكون - ما عدا الإنسان - يتصادم في سيره وحركته مع الحقيقة الواقعة .

ومن بين هذه الأشياء التي لا تقع تحت الحصر ، لنتدبر مثال الطير ؛ الذي يجسد لنا ، وهو يطير باسطاً جناحيه في الهواء ، النموذج العملي الكامل لهذه الحقيقة .. حيث يبدو وكأنه يسبح في عالم الحقيقة الأبدية بمنتهى التوافق والانسجام ، وكأنه قد دمج وجوده الفردي في بحر الحقائق الممتد إلى غير نهايةٍ !!

ولكل أحدٍ من المخلوقات تسبيح إلهي ، وهو المطلوب منه.. كما أن للإنسان تسبيحاً إلهياً معيناً ، وهو مطالب به .. ولو وقف الإنسان إزاءه موقف التجاهل والغفلة أو

العناد والطغيان ، فإنه سيُضطر إلى دفع ثمن باهظٍ لذلك ، عندما يلقى ربه وجهاً لوجهٍ !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾

يُزْجِي سَحَاباً : يسوقه برفق إلى حيث يريد .

يَجْعَلُهُ رُكَاماً : متجمعا فوق بعضه .

الوَدْقَ : المطر .

مِنْ خِلالِهِ : من فتوقه ومخارجه .

سَنَا بَرْقِهِ : ضوء برقه .

ذُكرت هنا بعض الظواهر الكونية على سبيل المثال ، ثم جاء التعقيب القرآني عليها بأن فيها عبرةً لذوي البصائر .. وأصل العبرة من العبور أي الاجتياز .. ويُراد بها تلك الرحلة الذهنية التي ينتقل المرء عبرها من شيء إلى شيءٍ آخر .. فحين يربط المرء واقعةً ما بالحقيقة العليا ، وحين يدرك الجانب المعنوي لشيءٍ ما من خلال التأمل في جانبه الظاهري ، فذلك ما يُسمى «العبرة» . ولننظرْ إلى هذا السحاب المتراكم الذي ينتج عن تفاعل ما لا يُحصى من الكائنات بدءاً من الأرض وحتى الشمس ، في نظامٍ متكاملٍ عجيبٍ .. ثم إن هذه السحب تنزل تارةً مطراً ينعش الأرض الهامدة وطوراً تمطر برداً يتلف الزرع ويهلك المخلوقات الحية بما فيها الإنسان .. وهذا هو شأن ضوء الرعد وتقلب الليل والنهار كذلك .. إن هذه المظاهر تنطوي على حقائق معنوية لا تحصى ، والذين يستطيعون ربط الظاهر بالمعنى ، أو الشكل بالمضمون ، هم وحدهم عند الله أصحاب البصر والبصيرة !

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

إن أشياء الدنيا تتسم – على ما يبدو ظاهراً – بالتعدّدية .. مما جعل المشركين قديماً وحديثاً يزعمون – قياساً على ذلك – أن الأشياء لابد أن يكون لها أكثر من خالقٍ واحدٍ .. على أن الأمر ينقلب رأساً على عقبٍ حينما ننظر إلى الأشياء من حيث الوحدة والمماثلة التي تكمن فيها جميعاً ، رغم تنوعها الشكلي وتعدديتها الظاهرية !

وللحيوانات المتواجدة على وجه الأرض أنواع تتجاوز مئات الآلاف .. ولكن الدراسة المتعمقة تدلنا على أن أصل الجميع واحد ، وأن كل الحيوانات خاضعة لنظامٍ حياتي موحّد .. وعلى ضوء هذه الدراسة تتحول ظاهرة تعددية الأشياء واختلافها شكلاً ونوعاً ووظيفةً ، إلى دلائل قدرة الخالق المبدع وعظمته .. والأمر الذي كان يبدو، من ناحيةٍ، مؤشراً لتعدّد الخالق ، فإذا به يصبح ، من ناحيةٍ أخرى ، دليلاً على توحيد الخالق !!

وإن العالم الراهن لا يمكن فيه العثور على الحقيقة إلا وسط غبارٍ قاتم يلفّها ، وفي خضم دواعي الغواية والخداع تحول دون الوصول إليها .. فلابد للمرء هنا من أن يرتفع بنفسه عن صنوف المغريات والمضلّلات ، حتى يستطيع مشاهدة الحق .

وقد زوّد الله الإنسان بالعقل لهذه الغاية السامية .. فمن يستعمل هذا المشعل الإلهي على الوجه الصحيح يهتدِ إلى سبيل الرشاد .. ومن لا يستعمله أو يسيء استعماله ، فليس له من مصيرٍ في هذا العالم سوى التخبط في متاهات الضلال!!

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ

يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾

مُذۡعِنِينَ : منقادين مطيعين.

أَن يَحِيفَ : أن يجور .

كانت هناك طبقة من أهل المدينة قد انضمت إلى صفوف المسلمين ظاهراً ، غير أنها لم تكن مخلصةً في إيمانها ولا صادقةً في ولائها للإسلام .. وهي التي تُعرف بطبقة المنافقين .. ومع أن هؤلاء كانوا يقولون بألسنتهم «سمعاً وطاعةً» لله ولرسوله .. ولك حين يتعرضون يوماً لمحنةٍ أو اختبارٍ ، يكذبون دعواهم تلك بعملهم!!

وبما أن المدينة حينذاك لم تكن قد تأسست فيها المحكمة الشرعية الإسلامية بعد ، ما برح الزعماء اليهود يشغلون مركز القضاء التقليدي بين الناس كعهدهم منذ مئات السنين .. وإنما بدأ هذا الوضع يتغير ، على أثر قدوم رسول الله - ﷺ - مهاجراً من مكة إلى المدينة .. حيث أصبح - عليه الصلاة والسلام - منذئذٍ هو مرجع المؤمنين في كل شئونهم الدينية والاجتماعية .. وأما المنافقون فقد اتخذوا في هذا الشأن موقفاً مزدوجاً أو بالأحرى انتهازياً كما جرت بذلك عادتهم في كل الأمور والمعاملات .. فلو ثارت خصومة ما بين رجلين أحدهما منافق والآخر من المسلمين الصادقين ، ودعاه المسلم إلى تحكيم رسول الله ، فإنه لم يكن يرضى بذلك إلا إذا كان على يقينٍ من أنه صاحب الحق في القضية محل النظر ، وبالتالي سيصدر الحكم في مصلحته هو .. وإذا كان الأمر على النقيض من هذا ، عارض المنافق خصمه قائلاً : لنذهب إلى الزعيم الفلاني من اليهود ليحكم بيننا !

وهذا على ما يبدو لباقة أو دهاء .. غير أن صاحبه ظالم لنفسه أشد الظلم .. فإن الكاسبين على هذا النحو سيصلون إلى الآخرة وقد خسروا قضيتهم كل الخسران !

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ

وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

إن الرجل العادي يكون تابعاً لمصلحته .. أما المؤمن فهو الذي يجعل من نفسه تابعاً لله ولرسوله .. فإذا ما اتضح له حكم الله ورسوله ، أذعن إليه ونفذه كما هو من غير تلكؤ ولا ترددٍ أو انتحال معاذير ، سوءا أكان ذلك الحكم مطابقاً لهواه أم مناقضاً له ، كفيلاً بالحفاظ على مصالحه أم مؤدياً إلى ضياع مصالحه!!

وفلاح الآخرة ليس إلا من نصيب مَنْ أخضعه إيمانه لحكم الله ورسوله .. والذي قد استقر الشعور بالله في أعماق قلبه بحيث يخاف منه أشد الخوف ، ويصبح لا هم له سوى العمل على إنقاذ نفسه من غضب الله وسخطه ، باعتبار ذلك هو قضية الحياة الكبرى!

﴿ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ : مجتهدين في الحلف بأغلظها وأوكدها .

طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ : طاعتكم طاعة معروفة باللسان .

مَا حُمِّلَ : ما أمر به من التبليغ .

مَّا حُمِّلْتُمْ : ما أمرتم به من الطاعة والانقياد .

إن الشخص الذي يستقر الله في أعماق قلبه ، ويتغلغل الخوف منه تعالى في أحشائه، يعود خافض البصر ومعقود اللسان تواضعاً وخشوعاً .. وقد يدفعه شعوره بالمسئولية إلى تقديم التضحيات الجسام ، إلا أنه يبدو للناظرين أخرس لا يعرف الكلام ، بينما يتعالى فيما حوله ضجيج الادعاءات اللسانية الجوفاء !!

وعلى نقيضٍ من ذلك فإن الذي يكون «ناقصاً» في علاقته بالله ، يصبح «كثير الكلام» حيث يحاول أن يتلافى نقص عمله بوفرة الألفاظ .. ولكونه لا يملك شهادة السلوك الحقيقي، يلجأ إلى التشدق بالكلمات الفخمة والشعارات المدوية لإقامة الدليل على اعتباره وقيمته !! والذين يريدون التأثير على الآخرين وكسب إعجابهم بهم عن طريق التلاعب بالألفاظ ، يحسبون أن القضية هي قضية البشر وحدهم ليس غير .. ولكن تفكير المرء ومنهج حياته سيتغيران تماماً ، فيما لو أيقن بأن القضية الحقيقة هي التي سيواجهها عند الله – سبحانه وتعالى !

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (٥٥) ﴾

إن وعد الغلبة الذي ذكرته الآية الكريمة موجّه أصلاً إلى الرسول وأصحابه – عليه الصلاة والسلام – إلا أنه يشمل بالتبع سائر الأمة المحمدية كذلك .. ويتضح من هذا أن الغلبة والسلطة لا تمثلان هدف نشاط المؤمنين أو غاية عملهم في هذا العالم ، فإنما هي منحة إلهية ، ينعم الله بها على الجماعة المؤمنة ثمرة الإيمان والعمل الصالح .

والغرض من هذه الغلبة هو تمكين أهل الإيمان من التماسك والاستقرار في الأرض، وأن تُتاح لهم الفرصة لكي يعيشوا آمنين من كل الأخطار التي تتهدد كيانهم من قِبَل أعداء الحق .. بحيث يعبدون الله بحريةٍ تامةٍ .. ويمارسون حياتهم كعبادٍ لله الواحد الأحد .. وسيظل أهل الإيمان متمتعين بهذه الغلبة والتمكين في الأرض ما داموا شاكرين لنعمة ربهم ، ولم يفقدوا صفة التقوى .

والخليفة في اللغة : هو الذي يخلف غيره فيقوم مقامه .. والاستخلاف يعني : إتاحة الغلبة والتمكين في الأرض لأمةٍ مكان أمةٍ بالتعاقب .. وإن الغلبة هي في الحقيقة ورقة امتحان إلهي .. فالله – سبحانه وتعالى – يمنح الغلبة لكل الشعوب والأمم ، الواحدة

تلو الأخرى ، لكي يختبرها بذلك .

وأما بالنسبة إلى الجماعة الإسلامية المؤمنة فإن هذه الغلبة إنعام وتكريم أيضاً إلى جانب كونها بلاءً وامتحاناً من الله العزيز الحكيم!

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾

مُعْجِزِينَ : فائتين من عذابنا بالهرب .

إن رحمة الله هي أن تُتاح الغلبة في الدنيا والجنة في الآخرة .. والذين يرجون رحمة الله هذه ، ينبغي عليهم أن يتحلوا بصفاتٍ ثلاث ، وهي :

١ - إقامة الصلاة .. وهي من الناحية الشكلية علم على إقامة نظام الصلوات الخمس الرتيبة .. وأما من الناحية المعنوية فإنها تعني أن يعيش الناس على الخشوع والتواضع ، وليس على التكبر والطغيان .

٢ - إيتاء الزكاة .. وللزكاة بدورها صورة وحقيقة .. أما صورتها فهي أن تدفع مبلغاً معيناً من مالك - إذا بلغ حد النصاب - إلى بيت المال على مدار السنة ، وأما الزكاة - من حيث حقيقتها الجوهرية - فهي تطهير للنفوس من الجشع والأثرة ، وتربية للناس على معاني الإيثار والنصح وحب الخير للآخرين .. حتى تتمكن هذه المعاني من قلوبهم لدرجة يعتبرون معها أن في أنفسهم وأموالهم حقاً لغيرهم !

٣- طاعة الرسول .. إنّ طاعة الرسول كانت في عصره طاعة لذات الرسول .. وقد صارت فيما بعد طاعة سنة الرسول .. ومعنى ذلك : أنه يجب على الناس جميعاً أن يتخذوا من رسول الله النموذج الأعلى للحياة ؛ فينظروا إليه على أنه هو قائدهم ومرشدهم الأوحد في كل الشئون والمعاملات الحياتية .. فحين تتجلى سنة الرسول في أمرٍ من الأمور يتخلى الجميع عن آرائهم الشخصية ، وليكن الرسول دائماً إلى الأمام ، بينما يسير الكل وراءه طائعين منقادين!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

جُنَاحٌ : حرج في الدخول بلا استئذان .

وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ : العجائز اللاتي قعدن عن الحيض .

مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ : مظهرات للزينة الخفية .

يبدو أن هذه الآيات نزلت متأخرةً بعض الشيء ، وألحقت بهذا الجزء الأخير من السورة ؛ لتكون تتمةً أو توضيحاً لما سبق أن ذُكر من الأحكام والتشريعات الاجتماعية في المقاطع الأولى من هذه السورة .. ففيما كانت الآية رقم (٣١) مثلاً ، وهي تتضمن التوجيهات الخاصة بالنساء من غض البصر وستر العورات والتزام الحشمة والوقار .. إلخ ، قد أكدت على وجوب إلقاء الخمار على صدورهن ، نجد هنا الآية رقم (٦٠) قد استثنت من ذلك الحكم العام النسوة العجائز اللاتي تجاوزن سن الزواج ، حيث تقرر : إنه ليس عليهن من حرجٍ أو إثمٍ فيما إذا لم يبالغن في التستّر ، ووضعن بعض ثيابهن كالرداء والجلباب.. وقد كان من الممكن أن ينزل كلا هذين النوعين من الأحكام معاً ؛ ولكن هناك أربعة مقاطع تفصل بينهما ، تناولت موضوعات أخرى مثل آيات الله في الكون وطبيعة المنافقين ، وحسن آداب المؤمنين .. إلخ .. وكما يُستفاد من الروايات أن مجموعةً من المسائل العملية تولّدت في أعقاب نزول الأحكام المتقدم ذكرها ، فأنزل الله

هذه الآيات التوضيحية رفعاً للحرج والمشقة عن المؤمنين .. ويتضح من هذا أيضاً أن منهج القرآن الكريم هو منهج التدرج والمرحلية ، وليس منهج الإقدام على التنفيذ والتطبيق دفعةً واحدةً .. فقد كان بإمكان الله - سبحانه وتعالى - أن ينزل كل الأحكام والتشريعات في آنٍ واحدٍ ، غير أنه تعالى أنزلها تدريجياً بحسب الأحوال والظروف!

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ : مما في تصرفكم وكالة أو حفظا.

أَشْتَاتاً : متفرقين .

لم يكن في المجتمع العربي قبل الإسلام أية قيود ولا التزامات ولا آداب يتعين على الأفراد مراعاتها خلال التعامل بعضهم مع بعض .. ولما جاء الإسلام وفرض على الرجال والنساء ما سبق ذكره من الأحكام والتشريعات المتصلة بغض الأبصار وحفظ الفروج، والحجاب وأدب الاستئذان قبل الدخول إلى بيوت الآخرين.. إلخ ، خُيل إلى بعض الناس أن حياتنا الاجتماعية ستعود ، بسبب هذه القيود والالتزامات ، محدودةً وضيقةً للغاية.. فنزلت هذه الآية توضح للناس أن الله - سبحانه وتعالى - إنما يريد بفرض تلك القيود والآداب تنظيم حياتكم الاجتماعية ، وليس القضاء على حرياتكم المشروعة .. إذْ هو يعلم أن ذوي الأعذار والعاهات كالأعمى والأعرج والمريض مثلاً ، لو حيل بينهم وبين أقاربهم لكلفهم ذلك عناءً بالغاً ، فإنهم سيصبحون

بعد ذلك عملياً بلا سندٍ ولا معينٍ يرعاهم .. وظاهر أن هذا ليس مما يتوخاه الإسلام في شيء .. ومن ثم رفع عنهم الحرج ببيان جانب اليسر والتخفيف المتاح لهم في الأحكام السابقة ، مع التأكيد على ضرورة الاحتفاظ بروحها الأصلية .

وقد بين - سبحانه وتعالى - هنا أن مطلوب الإسلام الحقيقي يتلخص في أن تكون قلوب المؤمنين منطوية على مشاعر النصح والمودة وحب الخير بعضهم لبعض .. وأن الواحد منهم إذا دخل بيت أخيه فليقل : « السلام عليك ورحمة الله وبركاته » .. وهو تعبير عن تلك الروح السامية التي لو وُجدت في النفوس حقاً ، فإن معظم الشرور والمفاسد الاجتماعية ستنعدم وتتلاشى تلقائياً !

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) ﴾

أَمْرٍ جَامِعٍ : أمر مهم يجب اجتماعهم له .

إن أناساً حين يرتبطون بالإسلام ويرتضونه لأنفسهم ديناً ومنهج حياةٍ ، فكثيراً ما تدعو الحاجة إلى أن يتم حشدهم في صعيدٍ واحد ، إما للتشاور حول أمرٍ من الأمور يهم المسلمين بعامةٍ ، أو لأجل الحصول على التعاون والمساعدة (المادية والمعنوية) على تحقيق مشروعٍ من المشاريع الاجتماعية ، أو لغير ذلك من الأغراض والمصالح العامة.. ويحدث في مثل هذه المناسبات أن الذي تغلب عليهم مطالبهم الفردية الخاصة ، سرعان ما يفتر حماسهم ونشاطهم ، ويدب في نفوسهم دبيب الملل والسآمة ، وبالتالي يريدون أن ينصرفوا من المجلس في صمتٍ وسريةٍ .. وهذا المزاج ليس من المزاج الإسلامي الصحيح في شيءٍ .. على أنه قد يكون هناك أفراد حتى من بين أولئك الذين يُعرفون بصدق الولاء والنزاهة والإخلاص ، يودون الذهاب قبل انتهاء الاجتماع لبعض الضرورات الوقتية القاهرة .. ومنهج أمثال هؤلاء هو أنهم لا يذهبون إلا بعد طلب

الإذن من الشخص المسئول (كما كان المؤمنون يستأذنون الرسول بوصفه هو المسئول الأوحد عن جميع شئونهم ما دام بين أظهرهم) ، وإذا لم يسمح لهم المسئول بالانصراف لأي سببٍ من الأسباب ، فإنهم لا يبرحون مكانهم حتى ينتهي آخر أعمال الاجتماع من غير شعورٍ بالضجر أو الاستياء .. هذا ، وأما الذي يكون مسئولاً عن شئون المسلمين الاجتماعية ، فينبغي له أن يتقبل من صميم قلبه عذر مَنْ يعتذر إليه بناءً على ضرورةٍ طارئةٍ ، وأن يدعو الله له بالعفو والمغفرة والتوفيق !!

﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤) ﴾

دُعَاءَ الرَّسُولِ : دعوته لكم للاجتماع أو نداءكم له .

يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ : يخرجون منكم تدريجا في خفية.

لِوَاذاً : يستتر بعضهم ببعض في الخروج .

يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ : يعرضون أو يصدون .

فِتْنَةٌ : بلاء ومحنة في الدنيا .

إن طاعة الرسول المذكورة هنا كانت تتعلق بشخص الرسول في حياته ، وهي الآن، بعد وفاة الرسول ، تتصل بكل شخص يُعهد إليه بولاية أمر المسلمين .. والذين يحاولون التهرّب من أداء دورهم في المُعاملات الاجتماعية ، ربما يحسبون أنهم بعدم تبديد الوقت فيما يهم الجماعة ، يدعمون أمورهم الفردية .. غير أن الطائفة التي تفتقد الوحدة والجماعية ، يجد أعداؤها منفذ التسلل إلى صفوفها .

سورة الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾

تَبَارَكَ الَّذِي : تعالى وتمجد .. أو تكاثر خيره .

نَزَّلَ الفُرْقَانَ : القرآن الفاصل بين الحق والباطل

فَقَدَّرَهُ : فهيأه لما يصلح له ويليق به .

نُشُوراً : بعثا بعد الموت في الآخرة .

كلمة «الفرقان» تعني المعيار الذي يُفرق به بين الحق والباطل .. والمراد به هنا : القرآن الكريم .. وإن نزول هذا الفرقان أو الكتاب الفارق من عند الله ، الذي هو عليم وخبير ، وهو الحاكم المطلق للمخلوقات كلها ، يدل على أمرين في آنٍ معاً ، أحدهما : أنه صحيح بكل تأكيد ؛ لا يتطرق إلى صحته وقطعيته أي شكٍ أو ريبٍ .. والثاني : أن عاقبة الإيمان به وعدم الإيمان به لن تكون سواء !!

إن الله هو وحده المالك لكل قوةٍ واختيارٍ .. ولا أحد يقدر على التأثير على حكمه وليس بمستطاع أحدٍ أن يحول بينه وبين أقضيته وقراراته .. وهذا الواقع كفيل بأن مَنْ

يتخذ من القرآن مرشداً له في حياته سيكتب له النجاح والسعادة في الدارين ، وأن مَنْ يهمله ويعرض عنه ، فإنه لن يتمكن أبداً من إنقاذ نفسه من ذلك الفشل المرير المحتوم الذي قدّره الله للمعرضين عن الحق !

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾

إِفْكٌ : كذب اخترعه من عند نفسه .

وَزُوراً : كذبا عظيماً لا تبلغ غايته .

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ : أكاذيبهم المسطورة في كتبهم .

بُكْرَةً وَأَصِيلاً : أول النهار وآخره : أي دائما .

يَعْلَمُ السِّرَّ : يعلم كل ما يغيب ويخفى .

لقد كان الكافرون في ظاهرهم يصفون القرآن بأنه كذب وافتراء .. إلا أن قولهم ذاك كان في الحقيقة موجهاً إلى شخص الرسول .. حيث كان الرسول يتراءى لهم إذْ ذاك إنساناً عادياً ، لدرجة أنه كان يتعذر على أفهامهم أن يكون إنسان عادي مثله صاحب كتابٍ غير عاديٍ مثل القرآن العظيم !!

إن القرآن الكريم يتناول كل أنواع الموضوعات : الدينية ، التاريخية ، النفسية ، العلمية، الاجتماعية ، وما إلى ذلك .. ولكن لم يمكن لأحد العلماء والباحثين حتى الآن أن يعثر على خطأ حقيقي واحدٍ في مضامينه .. مما يبرهن على أن القرآن كلام صادر عن

إله يحيط علماً بكل أسرار الكون خفيّها وجليها ، صغيرها وكبيرها .. ولولا ذلك لوجدنا في القرآن هو الآخر أخطاء كما نجدها في الكتب البشرية الأخرى .. وهذا الواقع يمثل في ذاته أكبر دليلٍ على كون القرآن كتاباً إلهياً !!

وإن الذين يلوكون أقاويل باطلةً حول القرآن ، هم أناس بلغوا من الجرأة والتمرد على الله إلى أبعد حدٍ .. وليس من الشك في أن أمثال هؤلاء سيتعرضون - عاجلاً أو آجلاً - لبطش الله الشديد.. ولكن لو أنهم تابوا وأنابوا إلى ربهم ، فليس من عادته - سبحانه وتعالى- أن ينتقم ممن يعود إليه تائباً .

﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾

جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا : بستان مثمر يتعيش منه .

رَجُلاً مَّسْحُوراً : غلب السحر على عقله .

حين يرى أهل الباطل بعض الناس يتأثرون بكلام النبي ، يحاولون التقليل من فاعليته وإضعاف تأثيره قائلين : إن هذا مجنون ، أو إنه رجل مسحورٍ مغلوب على عقله، أو ما إلى ذلك من الأباطيل والاتهامات .. إنهم يلجأون إلى الطعن وتلمس العيوب إذْ يجدون أنفسهم عاجزين تماماً في ميدان الدليل .. في حين أن مقاومة أحدٍ بواسطة الدليل والبرهان أمر جائز لا غبار عليه .. وأما تشويه سمعة أحد الناس بالطعن فيه فلا يجوز مطلقاً !

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ

وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾

سَعِيراً : ناراً عظيمة شديدة الاشتعال .

تَغَيُّظاً : صوت غليان كصوت المتغيظ .

وَزَفِيراً : صوتاً شديداً كصوت الزافر .

مُّقَرَّنِينَ : مقرونة أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال .

ثُبُوراً : هلاكاً فقالوا وا ثبوراه .

وَعْداً مَّسْئُولاً : موعودا حقيقاً أن يسأل ويطلب .

إن معارضي الحق يتخذون غالباً من ذات الداعي إلى الحق موضوع الطعن والتشويه ، حيث يثيرون حوله أباطيل شتى لإهدار كرامته زعزعة ثقة الناس به .. وهكذا يضللون الرأي العام بأنهم أول من يبادر إلى تلبية نداء الداعي إلى الحق فيما لو كان هو طبقاً لمعيارهم .. غير أن هذا مغالطة سافرة .. فليست القضية هي أن داعي الحق ليس في نظرهم جديراً بالثقة والاعتبار ، وإنما القضية كامنة أصلاً في أنهم لا يخافون من مؤاخذة يوم القيامة ، مما جعلهم يبدأون ويعيدون ما بدا لهم من الألفاظ والعبارات الفارغة بدون أدنى تهيب ولا شعورٍ بالمسئولية .

وإن أمر الحق والباطل إنما يستمد أهميته كلها من حيث إن الإنسان مسئول عنه في

الآخرة ، وأما الذين صاروا لا يخافون من حساب الآخرة فإنهم لا يلبثون أن يعودوا غير جادّين تماماً في أمر الحق والباطل ، والمرء إذْ لم يكن جاداً بالنسبة إلى شيءٍ ما ، فإنه لن يستشعر مدى أهميته وخطورته أبداً ، مهما قدمت إليه الأدلة الواضحة في صالحه .. وسوف لا ينفذ رصيد الألفاظ لدى أناسٍ كهؤلاء ، إلا إذا انتزعت زلزلة الساعة منهم ألفاظهم!

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

نَسُوا الذِّكْرَ : غفلوا عن دلائل الوحدانية .

قَوْماً بُوراً : هالكين أو فاسدين .

صَرْفاً : دفعاً للعذاب عن أنفسكم .

في معرض تفسيره لقوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ ﴾ قال ابن كثير: «أي نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك»[1].

والحقيقة هي أن الأمم المعاصرة للأنبياء الكرام لم تكن أمماً كافرةً ومشركةً بالمعنى المعروف ، وإنما كانت كل واحدةٍ منها أمةً منتميةً إلى أحد الأنبياء السابقين .. فقد أبلغها الأنبياء المرسلون إليها هداية الله ، إلا أنها لم تلبث ، على مرور الزمان ، أن

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٦٢٧ .

تشاغلت بالدنيا ، وانهمكت في لذائذها ، واصطنعت عن صلحائها وأنبيائها عقيدةً قائلةً: بأنهم سيكونون لها شفعاء عند الله .. ولكن القيامة ، حين تقوم ، سوف تبطل كل العقائد المزعومة من هذا النوع بالمرة ، وسيدرك أصحابها حينئذٍ أنه لم يكن هناك أي منقذٍ آخر من بطش الله وعقابه غير الله، سبحانه وتعالى .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

فِتْنَةً : ابتلاء ومحنة .

إن الرسول وأهل الإيمان ابتلاء واختبار للمنكرين ، وكذلك العكس صحيح .. أما ابتلاء المنكرين فيكمن في أن يكتشفوا العظمة المخبوءة وراء مظهر الرسول البسيط الخالي - على ما يبدو - من أي عظمةٍ ، وأما ابتلاء المؤمنين فهو ألا يثوروا ولا يفقدوا السيطرة على أعصابهم تجاه أقوال المنكرين الاستفزازية وتصرفاتهم السخيفة .. بل يجب أن يظلوا صابرين وشاكرين لربهم على كل حالٍ !

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾

لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا : لا يأملون لكفرهم بالبعث .

عُتُواً : تجاوزا الحد في الطغيان والظلم .

حِجْراً مَّحْجُوراً : حراما محرما عليكم البشرى .

هَبَآءً : كالهباء (ما يرى في الكوى مع ضوء الشمس كالغبار) .

مَّنثُوراً : مفرقاً ذاهباً .

مَقِيلاً : مكان استرواح وتمتع ظهيرة .

إن الذين يطالبون بظهور الله وملائكته عياناً كشرطٍ للإيمان برسالة الداعي ، إنما يقيمون الدليل على عدم جديتهم ليس غير .. حيث إنهم لا يدرون ماذا يعني ظهور الله والملائكة؟! والحقيقة هي أن ما يتمتعون به من فرصة للقول والفعل إنما هي قائمة ما دام الحق قد تم إظهاره على مستوى الداعي ، وأما حين يظهر الحق على مستوى الله والملائكة ، فيكون ذلك ساعة القضاء الحاسم وليس وقت الإيمان والتصديق به !

إن كثيراً من الناس يعيشون في سوء فهمٍ أو تفاؤلٍ مؤداه أن الله إذا سأل أحدهم يوم القيامة عما جئت به ؟! فسأتقدم إليه بعملي الفلاني ، أو سأقول : إن لي شرف الانتماء إلى فلان وفلان من عبادك الصالحين !! ولكن مثل هذه الآمال والأماني الحالمة سوف لا تلبث ، عند قيام الساعة ، أن تتلاشى ، كقطرةٍ من ماء تتبخر فور سقوطها على حديدٍ حارٍ .. وإنما سينفع المرء يومئذٍ عمله الحقيقي وحده ، وليس أي نوعٍ من الآمال الوهمية الكاذبة!!

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

تَشَقَّقُ السَّمَاءُ : تتفتح السماوات .

بِالْغَمَامِ : بالسحاب الأبيض الرقيق .

سَبِيلاً : طريقا إلى الهدى أو إلى النجاة .

لِلإِنسَانِ خَذُولاً : كثير الخذلان لمن يواليه .

مَهْجُوراً : متروكاً مهملاً .

حين تقوم دعوة الحق في أي مكانٍ ؛ فسرعان ما ينبري لعرقلتها ومعاداتها أولئك الذين يتخذون الحق مطيةً للمتاجرة بالباطل .. وهم يثيرون شتى الأباطيل حول شخصية الداعي لتلبيس صدقه على الناس ، وبالتالي يتحول عدد كبير منهم ، نتيجة هذه الدعاية المغرضة ، إلى أنصار ومؤيّدين لهم!

والذين يرفضون مناصرة الداعي إلى الحق ، متأثرين بكلام قادة الضلال هؤلاء ، سيدركون يوم القيامة أن أدلة القادة لم تكن أدلةً حقاً ، وإنما كانت أباطيل ملفّقة بخبثٍ ودهاءٍ ، تناولوها بالتصديق لكونها تتفق ومصالحهم ، وجعلوا منها مبرراً لابتعادهم عن الحق.. وسيندمون حينئذٍ ، دون جدوى، على كونهم ظلوا مخدوعين ببريق أباطيل القادة المضللين، ولم يستجيبوا لنداء داعية الحق!!

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾

وَرَتَّلْنَاهُ : فرقناه آية بعد آية . أو بيناه .

وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً : اصدق بياناً وتفصيلاً .

لم ينزل القرآن الكريم في صورة كتابٍ دفعةً واحدةً ، بل تم تنزيله منجماً على مدى ٢٣ سنةً .. وقد اتخذ المنكرون من ذلك مجالاً للقدح فيه ؛ حيث قالوا: إن هذا يدل على أنه كتاب إنسانٍ ، وليس كتاب الله ، فإن إعداد كتابٍ بكامله في آنٍ واحدٍ ليس بأمرٍ عسيرٍ على الله !! فقال تعالى رداً على شبهتهم : إن القرآن ليس محض تأليف ، وإنما هو دعوة .. ومن مصالح الدعوة أن يتم عرضها على التدريج ، حتى تتمكن من القلوب رويداً رويداً ، وتضرب بجذورها في أعماق البيئة بهدوءٍ وثباتٍ .

وكل اعتراضٍ يُوجّه إلى دعوةٍ تمثل الحق الكامل ، يكون اعتراضاً كاذباً واهياً ، وإذا ما أثير أي اعتراضٍ ضدها، فتم إدحاضه بالجواب المقنع الشافي ، ثبت بذلك صدق الدعوة بمزيد الوضوح والقوة ، دون أن يكون باعثاً على أدنى درجةٍ من الشك أو الارتياب فيها !

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾

فَدَمَّرْنَاهُمْ : فأهلكناهم .

وَأَصْحَابَ الرَّسِّ: البشر – قتلوا نبيهم ودسوه فيها .

وَقُرُوناً : أمما .

تَبَّرْنَا تَتْبِيراً : أهلكنا إهلاكاً عجيبا .

مَطَرَ السَّوْءِ : حجارة من السماء .

لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً : لا يتوقعون بعثا بل ينكرونه .

إن الأنبياء الذين يعرض القرآن قصصهم بعنايةٍ وتكرارٍ ، لا نكاد نجد لأكثرهم ذكراً في صحائف تاريخ البشرية المدّون .. مما يدل على أن المعاصرين لأولئك الأنبياء لم يعيروهم أي اهتمامٍ ، أو بالأحرى لم يعتبروهم من الأهمية بمكان .. فبينما قام هؤلاء بتسجيل أحوال الملوك والأباطرة والأبطال العسكريين بحماسٍ بالغٍ ؛ لكون أحوالهم تنطوي على الجانب السياسي ، أهملوا ذكر الأنبياء ؛ لأن أحوالهم كانت تخلو من بواعث المتعة واللذة لذوي الميول السياسية!

والغريب أن هذا المزاج لا يزال باقياً كما هو حتى يوم الناس هذا ، فالذين يبرزون اليوم على المسرح السياسي يحتلون على الفور مكان الصدارة في الصحف والإذاعة والتلفزيون .. وأما العاملون في المجال غير السياسي ، فإنهم نادراً ما يُعدّون أهلاً للذكر والتنويه لدى إنسان اليوم كذلك .

وإن المطلوب الأساسي من الإنسان هو أن يعتبر بالأحداث والوقائع .. غير أن هذا هو الشيء قلما وُجد لدى البشر بقدرٍ ملحوظٍ ، سواء في عصرنا هذا ، أو فيما سبق من العصور !!

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾

هُزُواً : مهزوءاً به .

«إنه كاد أن يصرفنا عن عبادة آلهتنا ، لولا أن ثبتنا عليها» يتضح من قول المشركين هذا أن سر بقائهم على دينهم كان يكمن في تعصبهم وليس في أي دليلٍ .. حيث كانوا قد صاروا مجردين من كل سلاحٍ في ميدان الدليل عاجزين عن المقاومة .. غير أن التعصب الأعمى مكّنهم من الاستمرار على دين آبائهم .. وهكذا يكون حال أكثر الناس ؛ إذْ لا يرتكز أكثرهم على شيءٍ سوى أرضية التعصب ، بينما يدّعون بألسنتهم قائمون على أرضية الدليل والبرهان !!

لمواجهة دعوةٍ ما منهجان : أحدهما : الرد عليها بواسطة الدليل .. والآخر : يتمثل في السخرية والاستهزاء بها.. والمنهج الأول جائز ومقبول تماماً .. وأما المنهج الثاني فهو غير جائزٍ ولا مقبول إطلاقاً .. وإن الذين يتلقون دعوةً ما بالتهكم والسخرية ، إنما يثبتون أنهم خسروا الرهان في ميدان الدليل ، وهم يحاولون الآن جاهدين تغطية خسرانهم بوسائل السخرية والاستهزاء !!

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾

أَرَأَيْتَ : أخبرني .

وَكِيلاً : حفيظا تمنعه من عباده ما يهواه .

ورد في حديث أن النبي - ﷺ - قال : «ما تحت ظل السماء من إلهٍ يُعبد من دون الله تعالى، أعظم عند الله عز وجل من هوى يُتبع» .

(رواه الطبراني ، عن أبي أمامة) .

وإنها لحقيقة لا مراء فيها أن هوى النفس هو أكبر الأصنام التي يعبدها إنسان .. بل هو وحده الصنم الأصلي ، وأما بقية الأصنام عداه ، فإنما وُضعت لتبرير العبودية

للهوى ليس غير !

وحين يتخذ الإنسان قائده ومرشده في الحياة من هواه ، ينحط إلى مستوى البهائم والحيوانات .. إن الحيوانات لا تتحرك بناءً على تأملٍ أو تفكيرٍ ، بل تبعاً لدوافع الغريزة وحدها .. إذن ، فأي فرقٍ سيبقى بين الإنسان والحيوان ، في حالة ما إذا أصبح الإنسان هو الآخر لا يستعمل مواهبه الفكرية ، ولا يسترشد عقله ، وإنما يسير في الاتجاه الذي يدفعه إليه هوى نفسه !!

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾

مَدَّ الظِّلَّ : بسطه بين الفجر وطلوع الشمس .

اللَّيْلَ لِبَاساً : ساترا لكم بظلامه كاللباس .

وَالنَّوْمَ سُبَاتاً : راحة لأبدانكم ، بقطع أعمالكم .

النَّهَارَ نُشُوراً : انبعاثا من النوم للسعي والعمل .

الرِّيَاحَ بُشْراً : مبشرات بالرحمة وهي المطر .

تحوي هذه الآيات الكريمة إشارةً رائعةً ، بلغة المشاهدة العامة ، إلى تلك الظاهرة التي تُعرف اليوم بدوران الأرض المحوري .. فالأرض تتم دورةً واحدةً حول محورها في كل أربعٍ وعشرين ساعةً .. وهذا الدوران المنتظم هو سبب مجيء الليل والنهار

بالتعاقب .. وإن هذا لَمن عجائب قدرة الله الباهرة .. فلولا دوران الأرض محورياً لظلّ نصفها معرضاً دائماً لأشعة الشمس الشديدة الحرارة ، وغمر نصفها الآخر ظلام حالك دائم ، ولأصبحت الحياة فوق الأرض نتيجة ذلك ، جحيماً لا يُطاق !

ونظام الأرض هذا ينطوي على كثيرٍ من العبر والنصائح البليغة .. فكما أنه لابد من مجيء ضوء النهار بعد ظلمة الليل، كذلك ليس ثمة بد من سيادة الحق على هذه الأرض عقب اندحار الباطل .. والنهوض صباحاً على أثر النوم ليلاً ، يذكرنا كل يومٍ بوقوع البعث بعد الموت في العالم الآخر .. وما إلى ذلك.

وهكذا هناك درس ذو مغزيٍ هامٍ يكمن في نظام المطر إلى جانبه المادي .. فكما تصبح الأرض الهامدة ناضرةً خضراء بسبب المطر ، كذلك تحوّل هداية الله القلب الإنساني إلى حديقة الإيمان والتقوى ؛ فيما إذا كان القلب يحمل جذوة الاستعداد حقاً ، ولم يكن قد صار كأرضٍ سبخةٍ بائرةٍ فقدت كل مقومات الحياة!

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ : أنزلنا المطر على أنحاء مختلفة .

كُفُوراً : جحودا وكفرانا بالنعمة .

لقد بيّن القرآن قضايا التوحيد والآخرة مراراً وتكراراً وبأساليب مختلفةٍ ومتنوعةٍ ، ولو أنصت المرء إلى آيات القرآن هذه بجديةٍ ، لألهبت فؤاده ، وملأته باللهفة والقلق الدائم على مصيره.. غير أن الإنسان الغافل لا يتأثر بأي دليلٍ مهما بلغ من الوضوح وقوة التأثير !

وقوله : ﴿ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾ ﴾ يعني جاهد بالقرآن جهاداً كبيراً .. ويتضح من هذا أن الجهاد بالقرآن ، وبعبارة أخرى كفاح الدعوة السلمي ، هو الجهاد الحقيقي ، بل هو الجهاد الأكبر .. حتى لو حاول المنكرون توريط أهل الإيمان في المجالات الأخرى ، بصرفهم عن المجال الدعوي ؛ فينبغي لأهل الإيمان أن يحاولوا جاهدين حصر نشاطهم في مجال الدعوة القرآنية ، و أن يتخذوا كل التدابير الممكنة للعودة بنشاطتهم إلى حقل الدعوة من جديدٍ في حالة ما إذا تغير مساره يوماً بسبب خصومات أو معارك ، يوقد نيرانها المعارضون!!

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴿٥٤﴾ ﴾

مَرَجَ البَحْرَيْنِ : أرسلهما في مجاريهما أو أجراهما .

عَذْبٌ فُرَاتٌ : حلو شديد العذوبة .

مِلْحٌ أُجَاجٌ : شديد الملوحة والحرارة أو المرارة .

بَرْزَخاً : حاجزا عظيماً يمنع اختلاطهما .

وَحِجْراً مَحْجُوراً : حراما محرماً تغير صفاتهما .

نَسَباً : ذوي نسب ذكورا تغير صفاتهما .

وَصِهْراً : ذوات صهر إناثا يصاهر بهن .

عندما يلتقي نهران في ممرٍ مائيٍ واحدٍ ؛ أو ينصب نهر كبير في أحد البحار ، فإن كلا الماءين ، رغم التقائهما، يبقى أحدهما مستقلاً عن الآخر، ويبدو أن ثمة خيطاً يمر بينهما،

كحدٍ فاصلٍ على مدى البصر .. وقد اتفق لكاتب هذه السطور أن شاهد هذا المنظر عند ملتقى نهري الكنج والجامونا في مدينة «الله آباد» .. ويحدث هذا الواقع بموجب القانون الطبيعي الذي يسمى في العصر الحديث بـ «قانون المطّ أو التوتر السطحي» .. وهذا هو شأن الأنهار القريبة من السواحل ، حيث يطغي ماء البحر ، عند حدوث «المدّ» ، على ماء النهر ، ولكنهما لا يختلطان ، بل يفصل التوتر السطحي أحدهما عن الآخر ، وحين يقع «الجزر» ، فيرجع الماء البحري الأجاج أدراجه من فوق ، بينما يبقى ماء النهر تحته عذباً كالمعتاد .. وإن قانون التوتر السطحي هذا هو السر في أن تتواجد ذخائر مياه عذبةٍ حتى في وسط بحار مالحةٍ، لتوفر الماء العذب للمسافرين عبر البحار!!

إن أصل الجسم الإنساني هو الماء .. فقد خُلق الإنسان من الماء .. ثم بدأ نسله يتوالد ويتكاثر عن طريق روابط النسب والمصاهرة .. وهناك وقائع شتى كثيرة من هذا القبيل في هذا الأرض ، فلو وقفنا عندها وقفة تأملٍ ، لرأينا فيها من آيات قدرة الله - جل جلاله - ما يحير العقول ويبهر الأبصار!

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً : معينا للشيطان على ربه بالشرك .

لقد أسكن الله الإنسان في عالمٍ ، يشهد كل شيءٍ فيه وكل ما حوله على وحدانية الخالق .. غير أن الإنسان لا يهتدي بذلك إلى نور الحق .. بل هو يتوغل في ضلاله وغوايته إلى حد أنه يبني نظام حياته على أساس الشرك بدلاً من التوحيد .. وإذا قام عبد من عباد الله يدعو الناس إلى التوحيد ، تصدى لمعارضة دعوته والحيلولة دون انتشارها

بكل وسيلةٍ .

بيد أن داعي الحق - مع ذلك - غير مسموحٍ له باللجوء إلى وسائل العنف والعدوان لنشر دعوته، وإنها يجب عليه أن يواصل عمله في إطار التذكير والنصيحة وحده ، ولو أن الدعوة لم تعد تجدي شيئاً ، فليس من شأنه أن يضيف العنف والعدوان إلى الدعوة، وإنها المطلوب إضافته منه في هذه الحالة يتلخص في : الدعاء والابتهال إلى الله، وإنهاء كل النزاعات المادية من طرفٍ واحدٍ، والتأثير على قلب المدعو عن طريق النزاهة والإخلاص والأخلاق النبيلة السامية!

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾

وَسَبِّحْ : نزهه تعالى عن جميع النقائص .

بِحَمْدِهِ : مثنيا عليه بأوصاف الكمال .

اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ : استواء يليق بكماله تعالى .

وَزَادَهُمْ نُفُوراً : تباعداً عن الإيمان .

إن التأكيد في قوله : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ ينصب على المسؤول عنه ، وهو الرحمن ، وليس على الشخص الخبير به .. والمعنى : أنه لو كان هناك شخص يعرف عجائب قدرة الرحمن وروائع خلقه حق المعرفة ، لأخبركم بمدى عظمة ذاته وكمال صفاته .. وإن الكشوف الكونية التي قام بها علماء الطبيعة في العصر الحديث هي

مصداق ، بصورةٍ جزئيةٍ ، لهذه الآية الكريمة .. فأسرار الكون التي ظهرت نتيجة بحوث العلماء ، مدهشة لدرجة أن المرء يشعر برعدةٍ ، وهو يقرؤها ، تدبّ في أوصاله ، بحيث لا يلبث معها أن يخضع لعظمة الخالق وجبروته في عجزٍ وتواضعٍ وخشوعٍ!

والمراد بـ «ستة أيام» هو أيام الله .. وبالإمكان التعبير عنها ، بلغة البشر ، بستة أدوارٍ أو مراحل .. وإتمام عملية الخلق في ست مراحل ، يدل على أن إيجاد الكون تم على نحوٍ مخطّطٍ .. والشيء الذي يتم إيجاده بعنايةٍ ووفق تخطيطٍ معينٍ ، لا ولن يكون عبثاً وبلا هدفٍ أبداً !!

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

تَبَارَكَ الَّذِي : تعالى وتمجد أو تكاثر خيره .

بُرُوجاً : منازل للكواكب السيارة .

خِلْفَةً : يخلف أحدهما الآخر ويتعاقبان .

لفظ البرج يعني الحصن أو القصر العالي .. وأما بروج السماء التي يذكرها القرآن الكريم ، فقد ذهب المفسرون ، قديماً وحديثاً ، في تفسيرها مذاهب شتى .. ولكن لم تتفق كلمتهم بعد ، على ما هو المراد بها بالضبط .. ويُحتمل أن يكون المراد بها ما يطلق عليه اليوم وصف «النظام الشمسي» .. حيث توجد في هذا الكون آلاف الملايين من الأنظمة الشمسية.. ومنها هذا النظام الذي يقع قريباً منا ، والذي يضم أرضنا ، وشمسنا ، وقمرنا وغيرها من الكواكب .

ومن آيات هذا النظام الشمسي التي لا تعد ولا تحصى ، حركة الأرض حول الشمس بانتظام .. وهي دورتها الانتقالية أو السنوية في مدارها ، التي تنشأ عنها

الفصول الأربعة .. ولها دورة أخرى حول محورها ، تتم في كل ٢٤ ساعة ، تتسبب في حدوث الليل والنهار وتعاقبهما .

إن دوران الأرض في الفضاء الرحيب المترامي الأطراف بدقةٍ متناهيةٍ ، وكونه ملائماً للاحتياجات والمصالح البشرية إلى حدٍ لا يوصف ، لواقع مدهش لدرجة أن الشخص الذي يتأمل فيه بإمعانٍ ، لا يلبث أن يغرق في فيضٍ غامرٍ من عواطف الشكر والامتنان لله رب العالمين!

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾
وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾
إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ
بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾

هَوْناً : بسكينة ووقار وتواضع .

قَالُوا سَلاماً : قولاً سديداً يسلمون به من الأذى .

كَانَ غَرَاماً : لازما أو ممتداً . كلزوم الغريم .

وَلَمْ يَقْتُرُوا :لم يضيقوا تضييق الأشحاء .

قَوَاماً : عدلا وسطا بين الطرفين .

إن «المشي» علامة على شخصية الإنسان بكاملها .. والذين تمتلئ قلوبهم إيماناً ويقيناً بالله ، يصيرون كأنهم كلهم تواضع وانكسار .. فخشية الله تسلب منهم الشعور بالكبرياء والاستعلاء .. وينطبع غدوّهم ورواحهم ، وقيامهم وقعودهم ، وحركاتهم

وسكناتهم كلها بطابع العبودية الصادقة .

ولو وقف أمر عباد الرحمن عند هذا الحد ، لما تعرض لهم أحد في الدنيا أبداً .. غير أن معرفة الله – سبحانه وتعالى – تجعلهم أيضاً دعاةً إلى الله .. ومن هنا يحتدم الصراع بينهم وبين الآخرين .. حيث يعود إعلانهم عن الحق أمراً لا يُحتمل لدى أنصار الباطل .. مما يدفعهم إلى التصدي لهم والاصطدام بهم .. بيْد أن خوف الله يمنع عباده ، حتى عند هذه النقطة ، عن الاصطدام المضاد ، وإنما هم يعرضون عنهم داعين لهم بالهداية للإيمان .

ومما يترتب على معرفة الله أيضاً أن نوعاً من الاضطراب والقلق الدائم يعود جزءاً لا يتجزأ من حياتهم ، بحيث إنهم لا يتضرعون إلى الله في لهفةٍ وخشوعٍ في أوقات النهار فحسب، بل تصبح خلوتهم في ساعات الليل هي الأخرى عامرةً بذكر الله وحمده .

كما يجعلهم الإحساس بجلال الله حذرين أبلغ الحذر في كافة شئون الحياة ، واستحضار ساعة المثول بين يدي الله للحساب يلزمهم جادة الاعتدال والاحتياط فيما يتعلق بالتكسب والإنفاق .. وقد جاء في حديثٍ نبويٍ أنه : ((من فقه الرجل قصدُه في معيشته)) . (أخرجه الإمام أحمد في مسنده) .

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾

يَلْقَ أَثَاماً : عقاباً وجزاءً في الآخرة .

ذُكرت هنا ذنوب ثلاثة: الشرك ، وقتل النفس بغير حق ، والزنا .. وهذه الذنوب الثلاثة هي أكبر الكبائر في حق الله وفي حق العباد .. وآية الإيمان الحقيقي بالله أن يتجنّب المرء هذه الكبائر الثلاث .. وأما الذين سبق أن ارتكبوها بالفعل ، فبإمكانهم أن يتخلصوا من وخيم عاقبتها بالتوبة النصوح .. وأما الذين يموتون بدون التوبة والإنابة ، فإن لهم عند الله عذاباً شديداً لن يجدوا إلى الخلاص منه سبيلاً أبداً !

الحسنة الأصلية عند الله هي أن يصير المرء دائم الحذر والخوف من الله .. إن الحسنة التي تجرد صاحبها من خوف الله في الحقيقة سيئة .. وبالعكس فإن السيئة التي تملأ فؤاد صاحبها بخوف الله ، هي حسنة من حيث عُقْباها .. ولو اقترف المرء سيئةً ، ثم ذكر الله، وتصور شدة بطش الله وحسابه ، فارتعدت فرائصه وجلاً وإشفاقاً ، فاندفع نحو ربه تائباً مستغفراً ، فإن الله سيبدل من فضله ورحمته سيئةً كهذه بالحسنة ، لكونها قد صارت باعثاً على رجوع المرء وإنابته إلى الله سبحانه وتعالى!!

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾

مَرُّوا بِاللَّغْوِ : بما ينبغي أن يلغى ويطرح .

مَرُّوا كِرَاماً : مكرمين أنفسهم بالإعراض عنه.

لَمْ يَخِرُّوا : لم يسقطوا ولم يقعوا .

قُرَّةَ أَعْيُنٍ : مسرة وفرحاً .

إِمَاماً : قدوة وحجة أو أئمة .

إن الرذائل والأعمال الخاطئة التي توجد في العالم الراهن ، قد جعلها الشيطان ، من الناحية الشكلية الظاهرية ، جميلةً ومزخرفةً .. فكل متبعٍ للباطل يعرض نظريته في ثوبٍ قشيبٍ من الألفاظ والعبارات الرائقة .

وبسبب هذا التمويه الشكلي والخلابة الظاهرية يميل الناس نحو هذه الأشياء ، ولو أُزيح عنها هذا الغلاف الخارجي الأنيق ، لبدا كل شيءٍ منها بشعاً كريه المنظر بدرجة أن شخصاً ما لن يرضى بالاقتراب منه!

وعلى هذا الاعتبار فكل رذيلةٍ نوع من الكذب والتمويه الذي يُبتلى به المرء ، وإن امتحان المرء في العالم الراهن هو أن يتعرف على الكذب ، ويمزق الستار الظاهري ليرى الأشياء كما هي في صورها الحقيقية .

وحينما يُوجه إلى أحد الناس نصيحة تصدم كبرياءه ، فلا يلبث أن يثور ويشتعل غضباً على الفور .. إن شخصاً كهذا أصم أعمى عند الله .. فإنه لم يستعمل بصره لرؤية الحقيقة .. ولا استخدم آذانه لسماع صوت الحق .. إنه لم يستقبل النصيحة كإنسان سميعٍ وبصيرٍ ، وإنما استقبلها كمن حُرم مواهب السمع والبصر .. وإن البصير والسميع عند الله حقاً هو الذي إذا رأى اللغو أعرض عنه ، وإذا قُدِّمت إليه نصيحة صادقة تلقاها من فوره بالقبول .. وكل رب عائلةٍ «إمام» لعائلته .. فإن كان أفراد عائلته «متقين» ، فهو إمام للمتقين ، والعكس بالعكس !!

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ
فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾ ﴾

يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ : أعلى نازل الجنة وأفضلها.

يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي : ما يكترث وما يبالي بكم .

دُعَاؤُكُمْ : عبادتكم له .

يَكُونُ لِزَاماً : يكون جزاء تكذيبهم عذابا دائما .

إن غرف الجنة العليا سيدخلها أولئك الذين كانوا قد أذلّوا أنفسهم لأجل الحق في هذه الدنيا .. وحيث إنهم كانوا قد تواضعوا لله في الأرض،يرفع الله درجاتهم في الآخرة،ويقابلهم بغاية التوقير والإكرام .. وقد عبر سيدنا المسيح عن هذا المعنى حين قال: ((طوبى للمساكين بالروح،لأن لهم ملكوت السماوات))! والأوصاف التي تؤدي بأحد الناس إلى الجنة،إنما يُوفقّ للتحلّي بها من يكون مستعداً للصبر .. والجنة هي مقام أعلى،حيث تتحقق كل رغبات الإنسان بصورةٍ كاملةٍ.. غير أن أبوابها لن تُفتح إلا لذلك الإنسان الصبور الذي منع نفسه عن الانسياق وراء رغباته في الدنيا منعاً باتاً .. إن الجنة سلعة غالية ثمنها الصبر .. وأما جهنم فهي مصير الشخص الذي لم يكن قد رضي بدفع ثمن الصبر المطلوب في الحياة الدنيا !

سورة الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ ﴾

بَاخِعٌ نَّفْسَكَ : مهلكها حسرة وحزناً .

أَعْنَاقُهُمْ : جماعاتهم أو رؤساؤهم ومقدموهم .

تظهر دعوة الحق ، حينما تظهر ، في ثوب «الكلام المبين» .. فمن علامات كون دعوةٍ ما دعوةً إلهيةً أن تكون واضحةً غاية الوضوح ، وأن تكون كل مبادئها قائمةً على أساسٍ من الدلائل الساطعة ، لدرجة أن شخصاً قد يمكنه أن يقابلها بالإنكار ، ولكنه لا يستطيع أن يقول - إذا التزم الصدق والإنصاف - بأنها رسالة غامضة يتعذر عليه فهمها !!

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ تدل هذه الجملة على ذلك النصح التام الذي يُكنّه الداعي للمدعو .. إن العمل الدعوي ينبع من عاطفة النصح الخالص .. ومن ثم فحين يرى الداعي إصرار المدعو على رفض رسالته ؛ يأخذ يذوب حسرةً وأسىً ، تماماً كما تذوب الأم الساهرة على تربية ولدها همّا وغما إذا انحرف عن الطريق السوي .. ولقد وردت جملة القرآن هذه مورد التنويه بما يضمره الداعي من مشاعر النصح الفياض ، وليس في

معرض النقد له .

إن دعوة الحق تكون دعوةً إلى الله .. وإن الله هو الوجود القوي الجبار ، الذي لو شاء لأخضع الجميع لإرادته، ولم يترك لأحدٍ مجالاً للإنكار والعناد والطغيان ، غير أن هذا الوضع ناشئ عن الخطة الإلهية نفسها .. حيث يريد الله لإعمار جنّته أرواحاً ذكيةً نفيسةً تتعرف على الحق في دنيا حافلةٍ بأسباب الخداع والتدجيل .. وبالتالي تخضع له طوعاً بدون قهرٍ ولا أي ضغوطٍ خارجيةٍ .. وانتخاب أناسٍ كهؤلاء لم يكن ممكناً إلا في ظل أحوال تكون حرّية الفكر والعمل فيها متاحةً لكل أحدٍ !

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

زَوْجٍ كَرِيمٍ : صنف حسن كثير النفع .

إن خروج شجرةٍ خضراء مثمرةٍ من باطن الأرض واقعة عجيبة تماماً كما لو خرج من باطن الأرض - مثلاً - جمل يمشي!! ولو أن الناس فوجئوا ذات يومٍ بحدوث الواقعة الأخيرة، لأصيبوا بدهشةٍ وذهول يفوق الوصف .. بينما تحدث على الأرض كل لحظةٍ واقعة أعجب وأكبر من ذلك بكثيرٍ ، ولكنهم لا يندهشون بها ، ولا يرون فيها درساً أو عبرةً !

والشيء الذي يطلبه الله من الإنسان هو أن يلاحظ الجوانب غير العادية الكامنة وراء الوقائع العادية .. وأن يشاهد التصرف الإلهي المباشر في إحداث ما يبدو ناتجاً عن الأسباب والعلل الظاهرة .. والذين يقيمون الدليل على هذه البصيرة النافذة ، هم المؤمنون بالله حقاً .. وهم الذين سيُغدق الله عليهم فيوض رحماته الأبدية !

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾

بُعث سيدنا موسى بدعوة التوحيد إلى فرعون ، طاغية مصر ، الذي كان يحكم أكبر دولةٍ متحضرةٍ في العالم آنذاك .. بينما كان سيدنا موسى ، من ناحيةٍ أخرى ، رجلاً من بني إسرائيل ، الذين كانوا بمنزلة العبيد والعمال أو أحط منهم شأناً في مصر وقتذاك .. وكان قد قُتل على يده رجل من القبط - قوم فرعون - عن غير قصدٍ .. هذا بالإضافة إلى أن سيدنا موسى كان يشعر في نفسه بضعف المقدرة على البيان ، وعدم طلاقة اللسان .. بيْد أن الله - سبحانه وتعالى- اختاره لتبليغ رسالته .

والحقيقة هي أن الله ينظر إلى باطن المرء أكثر من ظاهره .. وإذا ما وجد أحداً يحمل الجوهر الباطني ، اختاره لخدمة دينه .. إذن ، فعلى المرء أن يعنى بجوهره الباطني ، ويعمل على تربيته وإنمائه بقدر المستطاع .. أما لو أنه كان يعاني من عوزٍ أو نقصٍ ما في الظاهر ، فإنما يتم تلافيه من عند الله عز وجل !!

﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

الكَافِرِينَ : الجاحدين لنعمتي .

إن الشخص الذي يقع اختيار الله عليه لتمثيله والتبليغ عنه ، يكون بكل المقاييس ، في عصمةٍ من الله وتحت حمايته .. كما يتم تأييده بآياتٍ خاصةٍ صريحة الدلالة على أن أمره أمر إلهي ، غير أن الإنسان ظالم لدرجة أنه لا يستعد ، مع ذلك ، للاعتراف به .

ماذا كان الغرض من مطالبة موسى فرعون بإرسال بني إسرائيل معه؟ إن القرآن لا

يورد أي تفاصيل بهذا الشأن.. وأما التوراة فقد جاء فيها بهذا الخصوص ما يلي :

- ((وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون ، هكذا يقول الرب إله إسرائيل، أطلق شعبي ليعيّدوا لي في البريّة)) (خروج ٥ : ١) .

- ((فدعا فرعون موسى وهارون وقال : اذهبوا ، اذبحوا لإلهكم في هذه الأرض ، فقال موسى: لا يصلح أن نفعل هكذا ، لأننا إنما نذبح رجس المصريين للرب إلهنا ، إن ذبحنا رجس المصريين أمام عيونهم أفلا يرجموننا؟!.. نذهب سفر ثلاثة أيام في البرية ، ونذبح للرب إلهنا كما يقول لنا)) (خروج ٨: ٢٥ - ٢٧) .

ومن بيان التوراة يبدوا ظاهراً أن سفر موسى هذا لم يكن للهجرة ، بل كان لأجل التربية ، فقد كانت البقرة تعتبر معبودةً مقدّسة لدى المصريين .. وبفعل التعايش معهم منذ قرونٍ طويلةٍ ، كان بنو إسرائيل هم الآخرون قد تأثروا بمعتقداتهم وطقوسهم الوثنية .. فأراد موسى أن يذهب بهم لمدةٍ من الزمان ، بعيداً عن المجتمع المصري المشرك ، ويقوم بتربيتهم وتزكية نفوسهم في مناخ نقي!

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾

الضَّالِّينَ : المخطئين لا المتعمدين .

عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ : اتخذتهم عبيداً لك مستذلين .

عرض موسى دعوة التوحيد على فرعون ، فما لبث فرعون أن ذكّره في هذه المناسبة لتقليل أهميته والحط من شأنه أمام الملأ ، بحادثين من سابق حياته : أحدهما : كونه - عليه السلام - قد نشأ وتربى وليداً في البلاط الفرعوني.. والآخر : ما كان من قتله للرجل القبطي .. وقد أجاب موسى عن ذلك قائلاً : إن كنت قد تربيت في بيتكم ،

فإنما يرجع السبب في ذلك إلى ظلمكم واضطهادكم ؛ إذْ كنتم تقتلون أطفال بني إسرائيل ، فخبأتني والدتي في صندوقٍ وألقته في البحر ، ثم التقطت بعد ذلك بأيديكم أنفسكم ، وأُدخلت داركم ، وأما قتل القبطي ، فإنني لم أفعل ذلك عن عمدٍ ، وإنما كان بمحض الصدفة حين ضربته دفاعاً عن أخي الإسرائيلي المضطهد.

وعلى إثر قتل القبطي فارق سيدنا موسى بلاد مصر وذهب إلى مَدين ، حيث أقام سنين عديدةً .. وربما كان خروجه – عليه الصلاة والسلام – من جو المدينة المصطنع ، ليقضي أعواماً في أحضان البيئة الفطرية البسيطة أمراً ضرورياً لتربيته وإعداده .. فبينما هو ينصرف من مدين عائداً إلى مصر ، شرفه الله بالنبوة و الرسالة في الطريق!

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

الضَّالِّينَ : المخطئين لا المتعمدين .

عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ : اتخذتهم عبيداً لك مستذلين .

﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؟ إن سؤال فرعون هذا كان في الحقيقة على وجه

الاستهزاء وليس على وجه الاستفسار .. غير أن موسى أجاب عنه بهدوءٍ بالغٍ وبدون أدنى تأففٍ أو تذمرٍ .. فحاول فرعون مرةً أخرى احتقار موسى ، حيث قال لحاشيته بأسلوبٍ ساخرٍ : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؟! ولكن موسى مضى يتابع حديثه بتلطفٍ كالمعتاد وغير حافلٍ بسخريته اللاذعة.. حتى اشتعل فرعون غضباً جعله ينسب موسى إلى الجنون ، على أن موسى - مع ذلك- لم يفقد هدوءه ورزانته .. ولما هدّد فرعون بإلقائه في غياهب السجن ، أظهر له موسى أدلته ممثلاً في المعجزة الباهرة، بحيث لم يعد بعدئذٍ أمام فرعون مجال لمزيد من الأخذ والرد ، إلا أنه أرغى وأزبد ، ولم يعترف بهزيمته ، بل تمادى في عناده وتعنته ، فاستخف بشأن المعجزة التي أراها موسى إياه قائلاً : إنها ليست بواقعة إلهيةٍ ، وإنها هي واقعة سحرية .. وبإمكان أي ساحرٍ أن يعرض شعوذةً كهذه .

لقد كانت دعوة موسى دعوةً سلميةً بمعنى الكلمة .. ولم يكن لها أية صلةٍ مباشرةٍ بالسياسة والحكم كذلك .. وإنها كان فرعون يقصد إثارة قومه ضد موسى إذْ قال : إنه يريد أن يخرجنا من بلادنا .. ويكفي دليلاً على عدم جدية فرعون أنه رمى موسى بمحاولة إخراجه هو وقومه من أرض مصر، بينها كان - عليه السلام - قد طلب منه أن يسمح له بالانطلاق مع قومه - بني إسرائيل - من مصر !

﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

أَرْجِهْ وَأَخَاهُ : أخر أمرهما ولا تعجل بعقوبتهما .

حَاشِرِينَ : الشرط يجمعون كل السحرة .

هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ؟: حث على الاجتماع واستعجال له .

نظر فرعون وحاشيته إلى قضية موسى على أنها لا تعدو أن تكون قضية السحر . ولذلك وضعوا خطةً لمواجهته عن طريق السحر ، لئن كان موسى يقدر على تحويل عصاه إلى حية ، فإن عندنا أيضاً من السحرة الماهرين مَنْ يستطيعون الإتيان بمثل ذلك، هذا هو الحد الذي وصل إليه تفكيرهم ولم يتجاوز إلى ما وراءه .. وحيث قد اعتبر القوم أمر موسى أمراً بشرياً ، أرادوا مقاومته بواسطة البشر .. وغاب عن بالهم أن أمر موسى أمر إلهي .. ومَنْ ذا يستطيع من البشر أن ينبري لمواجهة الله أو محاربته !؟

وتعيّن يوم الزينة ، وهو عيد سنوي كان يحتفل به المصريون القدامى ، للمقابلة بين موسى والساحرين .. وقد اختير لهذا الغرض ساحة كبيرة جداً ، ليجتمع هناك أكبر عددٍ ممكنٍ من الناس ، مما سيكون ، طبعاً أقوى حافزٍ مشجّع للسحرة على إتقان صناعتهم وإبراز مهارتهم!

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

لما ألقى السحرة بحبالهم وعصيّهم في الساحة ؛ خُيل إلى الناظرين وكأنها قد انقلبت حيات وثعابين تتحرك .. غير أن هذا لم يكن أي تغير حقيقي ، وإنما كان محض تصرفٍ في العيون ، وعلى العكس من ذلك كان تحوّل عصا موسى إلى الحية ، يعني صيرورة العصا إلى معجزةٍ إلهيةٍ ، ومن ثم فلم تكد تتحول عصا موسى إلى حيةٍ تسعى في الساحة، حتى أبطلت كل طلاسم السحرة بالمرة ، وبالتالي أصبحت حبالهم وعصيهم

حبالاً وعصياً فقط كما كانت من قبل .

لقد كان السحرة يعتبرون موسى قبلئذٍ ساحراً مثلهم ، إلا أن التجربة فتحت عيونهم الآن ؛ ولكونهم خبراء بفنون السحر أدركوا من فورهم أن هذا ليس بسحرٍ ، بل هو النبوة والرسالة .. بيد أنه كان بإمكانهم ألا يعترفوا برسالة موسى ، ويرفضوه مجاراةً لفرعون ، معتمدين على بعض الألفاظ الرنانة الكاذبة ، ولكن الإنسان الحي يستحيل عليه ألا يعترف بالحق بعد ظهوره بجلاءٍ ووضوح تامٍ ، وقد كان السحرة من هذا الصنف الحي من البشر ، ومن ثم لم يلبثوا أن اعترفوا على التوّ بصدق سيدنا موسى – عليه السلام.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

لاَ ضَيْرَ : لا ضرر علينا فيما يصيبنا .

كان إيمان السحرة بموسى مبعث إهانةٍ كبيرةٍ بالنسبة لفرعون .. ولكي يدفعها عن نفسه راح يصف كل ما جرى بأنه نتاج مؤامرة مدروسة سلفاً ضد الحكم القائم ، فقال موجهاً خطابه للسحرة: إنكم متواطئون مع موسى، وإنما تظاهرتم بالهزيمة أمامه عن قصدٍ مبيتٍ ، حتى تسري هيبة موسى في النفوس ، وبالتالي يسهل عليكم تحقيق نواياكم وأهدافكم المشتركة.

وباعتبارهم متمردين على الدولة ، أصدر فرعون حكمه النهائي على السحرة : ستقطع أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ، وستُصلبون على مشهدٍ من الناس .

وبالرغم من هذا الحكم الشديد البالغ القسوة ، لم يفقد السحرة همتهم ؛ ففيما كان هؤلاء السحرة من ذي قبل يقسمون بعزة فرعون وسلطانه ، تودداً إليه ، راجين منه جزيل العطاء والتكريم ، إذا بهم الآن توجهوا إليه قائلين دونما خوفٍ أو وجلٍ : افعل بنا ما شئت .. فإننا لن نتخلى عن دين موسى على أية حال .

وقد كان سر هذه العزيمة وعلوّ الهمة يكمن في الاكتشاف الإيماني .. فإن المرء إنما يتحمل فقدان شيء ما ، إذا كان يرجو الحصول على شيءٍ أكبر مما يفقده .. وقبل الإيمان بالحق كان أكبر شيءٍ في نظر السحرة هو التقرب من فرعون وجوائزه الغالية ، بينما صار الله ورضوانه يبدو لهم هو الشيء الأكبر بعد الإيمان .. وهذا هو السبب في أنهم لم يلبثوا، عقب إيمانهم ، أن استعدوا للتضحية عن رضاً وسرورٍ ، بما كان يتعذر عليهم أن يضحوا به قبل الإيمان !

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾

إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ : يتبعكم فرعون وجنوده .

حَاشِرِينَ : جامعين الجيش ليتبعوهم .

لَشِرْذِمَةٌ : لطائفة قليلة بالنسبة إلينا .

حَاذِرُونَ : محترزون ، أو متأهبون بالسلاح .

على الرغم من جهودٍ دعويةٍ مضنيةٍ دامت سنواتٍ طوال ، لم يؤمن فرعون برسالة

موسى .. إلى أن أمر الله موسى ، بعد قيام الحجة ، بمغادرة مصر مع بني إسرائيل .. وحين بلغ نبأ انطلاق بني إسرائيل الجماعي من مصر إلى فرعون ، خرج بجنوده وأمراء مملكته يطاردونهم .

إن إقدام فرعون هذا كان ، على ما يبدو ، ضد بني إسرائيل ، ولكنه صار عملياً إقداماً ضد نفسه هو .. إذْ توصل فرعون وأصحابه هكذا ، تاركين بلادهم الخصبة ومساكنهم الأنيقة الفخمة ، إلى حيث قدر لهم الهلاك غرقاً عن بكرة أبيهم !

ولقد حرم الله فرعون وأصحابه ، لقاء ظلمهم من كل نعمه التي أغدقها عليهم في مصر ، هذا من جانب .. ومن جانبٍ آخر فقد منَّ الله - سبحانه وتعالى - على صلحاء بني إسرائيل بأن أوصلهم ، بعد مدةٍ من الزمان ، إلى بلاد فلسطين ، حيث أعطاهم من فضله هذه النعم كلها وزيادة!

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

مُّشْرِقِينَ : داخلين في وقت الشروق .

تَرَاءَى الجَمْعَانِ : رأى كل منهما الآخر .

فَانفَلَقَ : انشق اثني عشر فرقا .

فِرْقٍ : قطعة من البحر مرتفعة .

كَالطَّوْدِ العَظِيمِ : كالجبل المنطاد في السماء .

أفضي المسير ببني إسرائيل في نهاية المطاف إلى حيث وجدوا أنفسهم أمام بحرٍ هائلٍ مترامي الأطراف ، ومن ورائهم فرعون وجنوده يتعقبونهم مسرعين .. وقد أفزع هذا الموقف الخطير بني إسرائيل لدرجة أنهم توجهوا إلى موسى – طبقاً لراوية التوراة – قائلين : ((هل لأنه ليست قبور في مصر ، أخذتنا لنموت في البرية ، ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر))؟! (خروج ١٤:١١) .

بيد أن سيدنا موسى كان على يقينٍ من أن الله سينصره حتماً .. فأمر الله موسى عندئذٍ أن يضرب البحر بعصاه ؛ فانشق الماء على أثر الضرب ، ووقف كالجدران الشامخة إلى جانبي اليمين واليسار ، وبينهما طريق يابس ، سار بنو إسرائيل عبره إلى الشاطئ الآخر .. ،

لم يكد يقتحم فرعون وجنوده الطريق اليابس خلف بني إسرائيل ، ويتوسطون البحر ، حتى انطبقت المياه المنحسرة عليهم بأمر الله من كلا الجانبين ، فغرق فرعون وجنوده عن آخرهم ، ولم يفلت منهم أحد .. إن خريطة واحدةً بعينها كانت تنطوي على النجاة لطائفةٍ والهلاك لطائفةٍ أخرى!!

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ : قربنا هنالك آل فرعون من البحر .

كان هناك – من جانبٍ – قوم إبراهيم ، الذين أخذوا بدورهم في ممارسة ما رأوا آباءهم السابقين يفعلون من عبادة الأصنام والتماثيل .. ومن جانبٍ آخر كان سيدنا

إبراهيم الذي فكر بعقله هو ، وارتفع بنفسه عما حوله بحثاً عن الصدق ، وهذه هي الصفة الخاصة التي توصل المرء إلى معرفة الله .. والذي يتمتع بهذه الصفة إلى درجة الكمال ، يختاره الله - سبحانه وتعالى - لتمثيل دينه وإبلاغ رسالته .. وعبارة ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴾ تدل على أن القوم قد وجدوا أنفسهم عاجزين تماماً عن التقدم بأي دليل في أثناء جدالهم مع سيدنا إبراهيم - عليه السلام - إلا أنهم أبوا عن الإيمان ، ومازالوا متمسكين بدين آبائهم على أساس التعصب الأعمى .

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾

أَفَرَأَيْتُم : أتأملتم فعلمتم .

يأتي الإنسان إلى هذا العالم كوجودٍ مستقلٍ ، يتمتع بعقل يميز الخير من الشر ، ويستخرج الكليات من الجزئيات ، ويتوصل إلى المعقول عبر المحسوس .. وتوجد هنا أشياء تعمل وفق نظامٍ رائعٍ دقيقٍ ، على توفير الرزق اللازم للإنسان بصورةٍ مستمرةٍ ، كما يجد المرء أيضاً ، حين يمرض ، أن كل الأسباب الضرورية متوفرة هنا ، لإبراز فن الطب والعلاج إلى الوجود .. ثم يكتشف المرء كيف أنه ، مع تمتعه في ظاهر الأمر بكامل الاختيار وحرية التصرف في ذاته وفيما حوله ، عاجز تمام العجز أمام الموت ، فكل إنسان له عمر معين محدود ، حين يبلغه يموت دون تأخير أو تأجيلٍ !.

وهذه الوقائع لا يمكن أن تكون لها علاقة بأحدٍ سوى الله الواحد ، إذن فكيف يسوغ لأحدٍ أن يعبد شيئاً أو شخصاً ما من دون الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ،

وينبغي للمرء ، بالإضافة إلى ذلك ، أن يكون جاداً بهذا الشأن إلى أقصى حدود الجدية .. لأن نفس هذه الوقائع تشير أيضاً إلى أن الله الذي هو فاعل كل هذا ، سوف يستحضر جميع البشر أمامه يوماً للحساب عما صنعوه في الحياة الدنيا .. وإن الموت هو بداية عملية الاستحضار هذه !

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾

لِسَانَ صِدْقٍ :ثناء حسنا ورزقا جميلا .

وَلاَ تُخْزِنِي : لا تفضحني ولا تذلني بعقابك.

بِقَلْبٍ سَلِيمٍ : برئ من مرض النفاق والكفر .

المراد بـ ((الحكم)) هنا هو الفهم الصحيح الصائب ، وهو يعني رؤية الأشياء كما هي في الواقع .. وهو أعظم نعمةٍ يفوز بها عبد بعد النبوة .. وقد جاء في الحديث : ((مَن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)) .

وقد أجيب سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام في جميع دعواته ، ما عدا دعاءه بالمغفرة لأبيه (آزر) .

إن القيمة الحقيقة عند الله إنما هي لـ ((القلب السليم)) .. والقلب السليم هو القلب الصحيح أو القلب النقي الطاهر من رجس الشرك والنفاق ، ومن مشاعر الحسد والبغضاء .. وبعبارة أخرى أن يلقى المرء ربه وهو يحمل بين جوانحه نفس القلب

الذي كان الله قد أعطاه إياه يوم ولدته أمه ، دون أن يلقاه تعالى حاملاً أي قلب آخر سواه!!

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ :قربت بحيث يرى نعيمها .

وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ : أظهرت بحيث ترى أهوالها .

لِلْغَاوِينَ : الضالين عن طرق الحق .

فَكُبْكِبُوا : فألقي الأصنام على وجوههم مراراً .

إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ: نجعلكم وإياه سواء في استحقاق العبادة وأنتم أعجز الخلق .

حَمِيمٍ : قريب أو شفيق يهتم بأمرنا .

كَرَّةً : رجعة إلى الدنيا .

لا يبعد المرء عن جنته أو جحيمه بمسافةٍ كبيرةٍ ، وإنما يحول بينه وبينها ستار مؤقت ، وحين تزيح القيامة هذا الستار، فسوف يرى كل امرئ أنه كان من جنته أو جحيمه على

قاب قوسين أو أدنى ، وإن كان الإنسان الغافل يراها بعيدةً ، بعيدةً جداً !

المقصود بـ «المجرمين» هنا القادة الكاذبون المضللون .. الذين كانوا يحتلون مراكز السيادة والكبرياء في مجتمعهم .. وهؤلاء لم يرفضوا دعوة الحق ، حين رفضوها ، إلا حفاظاً على كبريائهم وسيادتهم .. ولقد وقف كبرهم وشعورهم بالاستعلاء حجر عثرةٍ دون اعترافهم بالحق .. مما جعل أتباعهم هم الآخرين لم يعيروا دعوة الحق جانب اهتمامٍ، ولا اعتبروها شيئاً يقام له وزن!

و«تسوية القادة برب العالمين» يعني : وضع كلمتهم في مستوى كلمة الله رب العالمين.. وقد شرح ذلك ابن كثير ، يقول : «أي نجعل أمركم مطاعاً ، كما يُطاع أمر رب العالمين»[1].

والذين كانوا يمتثلون لأمر قادتهم في الدنيا كامتثالهم لأمر الله ، سينادون قادتهم في الآخرة بوصف «المجرمين» .. إلا أن ذلك لن يغني عنهم شيئاً ؛ فإن مكان التعرف على «المجرم» من «متبع الحق» كان هذا العالم دون العالم الآخر!!

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

ٱلْأَرْذَلُونَ : السفلة الأدنياء من الناس .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٦٥١.

قُوبل سيدنا نوح بالتكذيب من قبل قومه .. في حين أن دعوته - عليه الصلاة والسلام - كانت تحمل معها أقوى الأدلة وأوضحها .. كما كانت سيرته - عليه السلام - إلى جانب ذلك ، تؤكد على صدقه وحقيته .. حيث كان قومه يعرفون - في ضوء خبرتهم - أن نوحاً رجل صادق وأمين .. وأن الدعوة التي يعرضها عليهم لا ترتبط بها أية مصلحةٍ من مصالحه الذاتية .. وقد كانت هذه الخصوصيات كافيةً للبرهنة على جديته المتناهية .. والذي يكون جاداً بالنسبة إلى المخلوق ، لن يكون غير جادٍ بالنسبة إلى الخالق !

لقد وقف قوم نوحٍ من دعوة نبيهم موقف الرفض والإنكار ، مع أنهم لم يكونوا يملكون في حق إنكارهم هذا شيئاً سوى أقاويل غير ذات صلةٍ بالموضوع .. فإن رفض دعوة ما بحجة أن أنصارها أناس عاديون ، ليس تفنيداً للدعوة ، بل هو تفنيد للذات .. فمعنى ذلك أن المرء ، وإن كان لا يجد مجالاً للقول ضد الدعوة على أساس الدليل ، إلا أنه إنما يستنكف عن مناصرتها لأن أتباعها من ضعفاء الناس وفقرائهم ، ولكونه لا يرجو ما إذا كان انضمامه إليها سيُعلي قدره أو يمكّنه من الحصول على أي مركز مرموقٍ ذي بالٍ !

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾

فَافْتَحْ : فاحكم .

المَشْحُونِ : المملوء بالناس والداوب والمتاع .

استمر نوح - عليه السلام - يدعو قومه إلى الحق قروناً طويلةً ، ولكنهم ظلوا يأبون الاستجابة لدعوته .. إلى أن قرروا أخيراً أن يرموه بالحجارة حتى يموت ، ويستريحوا بالتالي من سماع موعظته التي كان يغاديهم ويراوحهم بها .. ولما وصل عناد القوم وطغيانهم إلى هذا الحد ، صدر الحكم الإلهي بالقضاء عليهم .. وحكم الله هذا هو الذي برز في صورة دعاء سيدنا نوحٍ على قومه .. وصنع نوح بأمرٍ من الله تعالى سفينةً كبيرةً ضخمةً ، شحنها بجميع أصحابه ، وبزوجين اثنين من كل أنواع الحيوانات .. ثم أرسل الله طوفاناً عارماً شديداً، بحيث أخذ الماء يتدفق من باطن الأرض، ويهطل بغزارة من السماء ، حتى هلك كل مخلوق حي غرقاً ، ما عدا ركاب السفينة .

وهذا مثال تاريخي يوضح بها لا يدع مجالاً للشك أن النجاة والفلاح في هذا العالم من نصيب المؤمنين إيماناً صادقاً وحدهم ، أما بقية الناس فلا ينتظرهم هنا سوى الهلاك والدمار!

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ
لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾
وَٱتَّقُوا ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾
إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾

رِيعٍ : طريق . أو مكان مرتفع .

آيَةً : بناء شامخاً كالعلم في الارتفاع .

تَعْبَثُونَ : ببناءها أو من يمر به .

مَصَانِعَ : حصونا أو قصوراً أو حياضاً للماء .

أَمَدَّكُم : أنعم عليكم .

إن ﴿ عَادٌ ﴾ هو الشعب الذي كُتب له التألق والازدهار في الدنيا بعد هلاك قوم نوح .. كما قال تعالى في شأنهم : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

فقد حباهم الله سبحانه بكل نعمه ، من صحة الأجساد ، وقوة الأبدان ، وخصوبة الأرض ، ورغد العيش ، والسلطة .. إلخ ، ولو أنهم شكروا الله على هذه الأشياء ، لاستيقظت في قلوبهم مشاعر التواضع والانكسار .. إلا أنهم جعلوا منها موضع التفاخر والمباهاة .. وكان نتيجة ذلك أن صاروا لا همّ لهم إلا أن يكرسوا كل ما عندهم من وسائل وأسباب في رفع مستوى معيشتهم ، وتخليد أسمائهم ، وفي تشييد آثارٍ حجريةٍ تنطق بمجدهم وعظمتهم ، باعتبار ذلك كله هو العمل الأكبر والأولى بالاهتمام في هذه الحياة !

وأمثال هؤلاء تستولي على نفوسهم مشاعر الكبر والغرور والتعالي بحيث إنهم إذا اختلفوا مع أحدٍ ، أو ثارت بينهم وبينه خصومة ما ، فلا يعرفون حداً يقفون عنده ، بل يستبيحون لأنفسهم كل ألوان الجور والعدوان ضده ، ويريدون أن يسحقوه بكل قوتهم .. فإن استقامة أمور دنياهم تجعلهم لا يخافون بطش الآخرة .. ومَنْ يعتبر نفسه في مأمنٍ من بطش الآخرة ، لن يبقى الآخرون في مأمنٍ من غوائل بطشه وفتكه بهم أبداً !

والذين يتاح لهم أسباب الرخاء والقوة والتفوق المادي ، تتولد فيهم ثقة كاذبة

بأنفسهم .. وهذه الثقة الكاذبة تقف حجر عثرةٍ دون اعترافهم بأي صدقٍ يأتي من الخارج.. فهم لا يكترثون بقول الناصح ولا يقيمون له وزناً ، مهْما كان قوله مهماً وجديراً بالاعتبار في ذاته ، حتى ولو كان صادراً من رسول الله .. ولا يكاد يعترف أناس كهؤلاء إلا إذا أجبرهم عذاب الله على الاعتراف بذلك !

﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾

خُلُقُ الأَوَّلِينَ : عادتهم في اعتقاد أن لا بعث .

حالت ثقة قوم عاد الكاذبة بأنفسهم دون إذعانهم لكلام رسولهم .. حتى إنهم ظلوا يسخرون منه ويستهزئون برسالته .. ويعتبرون ما هم فيه من سعة ورغد عيشٍ علامةً على أنهم شعب الله (المدلّل) المنعم عليه .. وعجزوا عن أن يدركوا السر القائل بأن: متاع الدنيا إنما يتاح للمرء على سبيل الامتحان وليس على سبيل الاستحقاق .

ولما قام الدليل القاطع على أنهم لا يؤمنون ، سلّط الله عليهم عاصفة هوجاء مصحوبةً بالمطر والبرد الشديدين ، دامت تهب بكل أهوالها ليل نهار على مدى سبعة أيامٍ ، إلى أن دمرت عاد بمدنيتها الفخمة شر تدميرٍ .. ولم يعد لديار هذا الشعب من أثرٍ اليوم سوى رمال الصحراء المترامية الأطراف ، تلك التي تمتد ما بين عُمان واليمن الحاليّين .. ولقد كانت هذه المنطقة خصبةً وعامرةً للغاية في قديم الزمان ، ولكن لا يوجد هناك اليوم أي نوعٍ من الحياة أو العمران !

﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا

عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

طَلْعُهَا : ثمرها الذي يؤول إليه الطلع .

هَضِيمٌ : رطب نضيج أو متدل لكثرته .

فَارِهِينَ : حاذقين بنحتها أو متجبرين .

كانت ثمود هي الشعب الذي ازدهر بعد قوم عاد،وقطع في ميدان التقدم والرقي أشواطاً شاسعةً .. (الأعراف ٧٤) .. وقد كانت مساكنهم بالمنطقة الواقعة ما بين خيبر وتبوك ، التي يقال لها «الحجر».. ولقد نال هذا الشعب من أسباب الرخاء ، والهناءة ومظاهر القوة والغلبة أوفر منال .. غير أن أفراده لم يلبثوا بدورهم أن اتجه اهتمامهم كله نحو الارتقاء المادي وترفيه العيش الدنيوي وحده ، شأنهم في ذلك شأن عاد الذين سبقوهم .. وربما يكون هذا الشعب - ثمود - هو الذي بدأ ، ولأول مرةٍ في التاريخ، بتحويل الجبال إلى البيوت الضخمة عن طريق النحت والحفر ؛ ذلك الفن العريق الذي يوجد له نماذج أكثر تطوراً في صورة كهوف أجانتا وأيلورا (Ajanta-Ellora) في الهند على مقربة من مدينة أورنغ آباد .

وإنه ما من شخصٍ أو شعبٍ يحصل على أسباب الدنيا وزخارفها ، إلا يقع في سوء فهم قائلٍ بأن هذا حقه ، وله أن يستعمله كما يشاء .. بيد أن هذه حماقة كبرى .. إذْ الحقيقة هي أن أسباب الحياة الدنيا إنما تتاح لأجل الامتحان بصفةٍ مؤقتةٍ، وإنها ستنتزع، بعد انقضاء فترة الامتحان المحدودة ، من يد صاحبها بحيث لن يبقى لديه منها

شيء!!.

والمسرف هو الشخص الذي إذا نال الثروة ، أصيب بنفسية الفخر بدلاً من الشكر .. وإذا حصل على السلطة، امتلأ بمشاعر الكبر والخيلاء .. وإذا ما عُهد إليه بوظيفةٍ أو منصبٍ، استغله لتدعيم جاهه بروزه الشخصي ، بدلاً من أداء الواجب وخدمة الصالح العام.. وإن إساءة استخدام الفرص والمواقع هي التي تورث الفساد في المجتمع .. وقد كان كبراء قوم ثمود مصابين بهذا النوع من الإسراف .. وكان عامتهم ينسجون على منوالهم .. ومن هنا حذّرهم النبي - صالح - قائلاً : إن هؤلاء الذين تعدّونهم «كبراء» ، هم بأنفسهم ضالون منحرفون ، إذن ، فكيف يستطيعون هداية غيرهم إلى طريق الرشاد !!

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾

مِنَ المُسَحَّرِينَ : المغلوب على عقولهم بكثرة السحر .

لَّهَا شِرْبٌ : نصيب مشروب من الماء .

لم يلبث قوم صالح أن رموا صالحاً بالجنون .. واستمر هذا الصراع قائماً إلى زمنٍ طويلٍ .. ثم اقترحوا عليه آخر الأمر بالإتيان بمعجزةٍ .. فأظهر الله - سبحانه وتعالى - آيةً كانت معجزةً باهرةً ومظهر العدالة الإلهية في حق الشعب في وقتٍ واحدٍ .

وقد تمثلت تلك المعجزة في ناقة خُلقت على وجهٍ خارقٍ للعادة .. فقال سيدنا صالح

لقومه : إن هذه ناقة الله؛ دعوها تطوف بحقولكم وبساتينكم ترتع فيها ، بحرية تامة وتختص بشرب الماء وحدها يوماً ؛ لا تقربون منه في اليوم الخاص بها .. فمكث القوم على ذلك مدةً غير طويلةٍ ، إلى أن قام رجل طاغٍ منهم بقتل الناقة .. فلم تكد تمضي عليهم بعد ذلك ليالٍ ثلاث حتى فوجئوا بزلزالٍ عنيف أهلكهم أجمعين!

ومع أن جريمة قتل الناقة ارتكبها رجل واحد ، ولكن عُبّر عنها بصيغة الجمع حيث قال : ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ ، والسبب في ذلك أن القوم لم يمنعوا الرجل عن قتل الناقة عندما همّ بها.. ولا رفعوا أصواتهم بالنكير والتنديد بفعله فيما بعد .. وإنما راح الجميع يدافعون عنه ، ساخرين من إنذار صالح إياهم بأن العذاب سيحل بهم بعد ثلاثٍ ، لما انتهكوا من حرمة الله، فلئن كان العاقر قد اقترف الجريمة بيده ، كان الباقون مشاركين معه في الجريمة بقلوبهم وألسنتهم ، ومن ثم أصبح الجميع عند الله في عداد المجرمين !

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

قَوْمٌ عَادُونَ : متجاوزون الحد في المعاصي .

بُعث لوط إلى قوم كانوا قد تجاوزوا الحد في العبودية للشهوات والاندفاع وراء اللذات.. حيث لم يكتفوا بما أحلّ الله لهم من الاستمتاع بأزواجهم ، بل أخذوا في ممارسة الفاحشة بالغلمان .. فدعاهم سيدنا لوط إلى عبادة الله وتقواه .. ونهاهم عن سوء ما كانوا يفعلون .

وقد نهض لوط بينهم كداعيةٍ تمتاز شخصيته بنزاهة السلوك والابتعاد الكلي عن

الكذب واللغو وسفاسف الأمور .. كما أنه لم يُثر مع قومه أي نزاعٍ على المطالب المادية .. وقد كانت هذه الوقائع كافية لإثبات أن ما يقوله لوط ، إنما يقوله عن جدّيةٍ وإخلاصٍ تامين.. غير أنهم لم يلبثوا أن ناصبوه العداء ؛ لأن دعوته كانت مناقضةً لاتجاههم وأهوائهم ، .. ولإعطاء كلام لوط أهميةً تُذكر ، كان لابد من توفر خوف الله في النفوس .. على حين أن هذا هو الشيء الذي كانت نفوس قومه قد خلت منه كل الخلو .. إذن ، فما الذي كان سيجعلهم يعيرون كلام نبيهم أبي اهتمامٍ!؟

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ ﴾

مِنَ القَالِينَ : من المبغضين أشد البغض .

فِي الغَابِرِينَ : في الباقين من العذاب كأمثالها .

دَمَّرْنَا الآخَرِينَ : أهلكناهم أشد إهلاك .

مَّطَراً : حجارة من سجيل مهلكة .

المناطق الواقعة بجنوبي وشرقي البحر الميت تبدو اليوم خربةً مقفرةً .. غير أنها كانت خلال الفترة ٢٣٠٠ – ١٩٠٠ ق.م منطقةً خصبةً للغاية .. وكانت مساكن قوم لوط بهذه المنطقة ، ورغم جهود سيدنا لوط الدائبة في التذكير والبلاغ ، إلا أنهم لم يقوموا بإصلاح أنفسهم .. وبلغ بهم التعنت والعناد إلى حد أنهم تصّدوا لقتل النبي .. فعندئذٍ تم إهلاكهم بزلزالٍ رهيبٍ .. ومنذ ذلك الحين وجزء من هذه المنطقة الخربة

مدفون تحت البحر الميت .. بينما تحول الجزء الآخر منها إلى خرائب وأطلال .. وقد حلت بها هذه الكارثة المدمرة في القرن ١٩ قبل الميلاد .

وإن امرأة لوط لم تستطع أن تسمو بنفسها عن مستوى التقاليد القومية ، حيث إنها قد ظلت - مع كونها زوجة النبي - وفيةً لديانتها القومية ، وكانت النتيجة أن هلكت هي الأخرى عندما نزل العذاب الإلهي بعامة المنكرين!

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾

الأَيْكَةِ المُرْسَلِينَ : أصحاب الغيضة الكثيفة الملتفة الشجر (قرب مدين) .

المُخْسِرِينَ : من الناقصين للحقوق بالتطفيف .

وَلاَ تَبْخَسُوا : لا تنقصوا .

وَلاَ تَعْثَوْا : لا تفسدوا أشد الإفساد .

وَالجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ : وخلق الخليقة والأمم الماضين .

«الأيكة» في اللغة هي : الشجر الملتف ، أو البقعة الكثيرة الأشجار الملتفة الأغصان .. وهي الاسم القديم لمدينة تبوك ؛ التي كانت عاصمة البلاد التي سكنها قوم شعيب .. ولذلك سماهم القرآن الكريم «أصحاب الأيكة» .. وقد كان هؤلاء من سلالة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام .

إن أصل كل الشرور الأخلاقية والمفاسد الاجتماعية واحد ، ألا وهو الإخلال بـ «الميزان» .. والميزان الصحيح (المستقيم) هو أن يعطي المرء غيره ما ينبغي له أن يعطيه بمقتضى الحق ، ويأخذ منه ما ينبغي له أن يأخذه بمقتضى الحق كذلك ، من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ .. وهذا هو الميزان الإلهي .. وحين يتم الإخلال بهذا الميزان ، تتعرض الحياة الاجتماعية للفساد والاضطراب .. وسر الثبات على هذا الميزان يكمن في خوف الله .. ولو أصبح فؤاد المرء فارغاً عن مشاعر خوف الله ، فلن يعود ثمة شيء يرغمه على التمسك بميزان الحق والعدل!

وكل رسولٍ بُعث من عند الله خاطب قومه قائلاً : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ .. ومن هذا يُفهم أن الداعي لابد له من التحلي بصفة الأمانة والاعتبار .. ومن وجوانب هذا الاعتبار ألا يثير الداعي مع شعبه المدعو أي نزاعٍ اقتصاديٍ أو مادي ، حتى لا تشوب إخلاصه ونزاهته شوائب جرّ أية منفعةٍ .. وهذا الاعتبار بالغ الأهمية لدرجة أن الحصول عليه ضروري على كل حالٍ ، وبأي ثمنٍ .. حتى ولو اضطُر الداعي ، من أجل الحصول عليه ، إلى التخلي عن حقوقه المادية .

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

المُسَحَّرِينَ : المغلوبة عقولهم بكثرة السحر .

كِسَفاً : صحابة أظلتهم ثم أمطرتهم ناراً .

كان قوم شعيب متأكدين من صدق منهج آبائهم لدرجة أن كلام الرسول بدا لهم لغواً فارغاً .. ومن ثم قالوا له : لعل بعض الخلق تناولك بسحرٍ شديدٍ أفقدك صوابك، وجعلك بالتالي تخلط وتتكلم بما لا ينبغي ولا يُعقل !!

وقولهم : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ لم يكن موجهاً إلى الله ، بل إلى شعيب ، وإنما تحدّوْه بذلك استخفافاً بشأنه ، إذا لم يكونوا يظنونه - عليه السلام - بحيث ينزل عليهم العذاب السماوي لقوله فقط !!

وقد أسفر عن تمادي القوم في العناد والطغيان ، أن ساق الله إليهم في نهاية المطاف ، غمامةً كالعريش ، فاجتمعوا للاستظلال بها من وهج الشمس ، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا أجمعين!

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾

زُبُرِ الأَوَّلِينَ : كتب الرسل السابقين .

لئن كان القرآن الكريم قد نزل بأحد الألسنة البشرية ، فإن عظمته الأدبية غير عادية لدرجة أنه يشهد - من حيث لغته وأسلوبه - على كونه كلاماً إلهيًّا أعلى .. وهناك دليل آخر على صدق القرآن وحقيقته .. وهو أن الأنبياء الذين جاءوا قبل نزول القرآن بأزمانٍ طويلةٍ ، قد تنبئوا به ، ولا زالت نبوءاتهم تلك موجودةً في كتبهم حتى الآن ، ولا سيما في صحائف التوراة والزبور والإنجيل .. وبناءً على هذه النبوءات آمن به عدد من العلماء المسيحيين واليهود في فجر الإسلام ، ولم يزل هذا العمل جارياً مستمراً على امتداد التاريخ وإلى يومنا هذا دون انقطاع!

وتنزيل كلام الله باهتمامٍ خاصٍ وعنايةٍ بالغة كهذه ، لابد وأن يكون لأجل هدفٍ خاصٍ بالغ الأهمية .. وذلك الهدف هو أن يتم إنذار الإنسان بخطورة اليوم القادم الذي ينتظره .. ولقد جاءت كل الكتب السماوية السابقة تهدف أساساً إلى إنذار الآخرة، وإن القرآن الكريم يتخذ بدوره من إنذار الآخرة هدفه الرئيسي كذلك.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

بَغْتَةً : فجأة .

هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ : ممهلون لنؤمن ؟ كلا .

نزل القرآن باللغة العربية ، وقد كانت العربية هي اللغة الأم للنبي الذي جاء به .. مما أتاح للمنكرين فرصة القول بأن هذا الكلام من وضعه هو .. فمن حيث إنه عربي ، قام بتأليف «قرآنٍ» بالعربية!

وأسلوب الاعتراض هذا ينم في ذاته عن أنه ليس باعتراضٍ جادٍ .. والذين لا يكونون جادين بشأن أمرٍ ما، يفتعلون دوماً بعض المآخذ وأسباب المعارضة .. ولنفترض - مثلاً - أن هذا القرآن العربي لو تم إنزاله على عجمي ، فقرأه على هؤلاء ، مع كونه غير عارفٍ بلسان العرب ، قراءةً صحيحةً فصيحةً ، لأنكروه من فورهم قائلين : «إنه لابد أن يكون أحد العرب قد قام بتعليمه وتلقينه هذا الكلام» !!

والذين يقيمون بنيان حياتهم على أسس الباطل ، يكون الاعتراف بالحق عندهم بمثابة نفي الذات .. وإذا تجلّى الحق أمام أناسٍ كهؤلاء ، فلم يعترفوا به مؤثرين

مصالحهم الذاتية عليه ، اندمج مزاج الإنكار في نفسياتهم بحيث لا يستطيعون الفكاك من أسره مرةً أخرى!

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾

أَفَرَأَيْتَ : أخبرني .

مَا أَغْنَى عَنْهُم : أي شئ أغنى عنهم – لم يغن .

إن الدعوة إلى الله ، حينما تظهر على مستوى النبي ، تظهر في أكمل صورها .. ولهذا السبب يتحتم نزول العذاب الإلهي على الشعب الذي يقابل النبي بالجحود والإنكار .. على أن الإنسان ربما يعتبر نفسه بمأمنٍ من العذاب ما لم يباغته بالفعل .. فهو لا يزال يتبجح ويتلاعب بالألفاظ الكاذبة سعياً وراء الإجهاض على دعوة الحق .. فيلجأ تارةً إلى الاستخفاف بشخصية الرسول وتلويث سمعته .. ويرمي كلامه تارةً أخرى بالكذب والافتراء، ويقول طوراً : إن الله إذا لم يكن معنا كما تزعم ، فلِمَ لا يعذّبنا!؟

وإن مسئولية النبي ، أو بالتبع مسئولية الداعي ، إنما تنحصر في قيامه بإعلام الناس بأمر الحق خير قيامٍ .. وأما ما وراء ذلك من شئونٍ فمرجعها إلى الله ، وهو تعالى وحده يُحدثها متى يشاء !

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ

فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ : ألن جانبك وتواضع .

وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ : ويرى تقلبك في الصلاة مع المصلين .

إن اتخاذ أحدٍ غير الله إلهاً أعظم جريمةٍ عند الله عز وجل .. وبعد اقترافها لن ينجو أحد - كائناً مَنْ كان - من العقوبة الإلهية أبداً .. حتى ولا الشخص الذي كان يتظاهر برفع شعار التوحيد وإعلاء كلمته بواسطة اللسان والقلم !

وواجب الداعي الأساسي هو أن يجنب نفسه الشرك بكل ألوانه ومظاهره ، ويدعو الناس جميعاً إلى الحق ، بمن فيهم أهله وقرابته من باب أولى .

ولكي تناصر الحق لابد أولاً من أن تحطّم صنم كبريائك .. وذلك هو السر في أن الكبراء قلّما يستعدون للوقوف إلى جانب الحق وتأييده .. وإنما ينهض لمناصرة الحق ، في الأغلب الأعم ، المستضعفون ، وأصحاب الحيثيات الضئيلة في المجتمع .. وهذا الواقع يكون بالنسبة إلى الداعي امتحاناً عسيراً جداً، إذْ يتعين عليه أن يتحاشى النظر إليهم بعين الاحتقار كما يراهم الآخرون .. حتى لا يشعر هؤلاء بأنهم ، رغم انضمامهم إلى المحيط الإسلامي، مازالوا من الضعة والهوان حيث كانوا في المجتمع غير الإسلامي .

والداعي هو الإنسان الذي تتوثق صلته بالله لدرجة أنه لا يلبث أن يقوم من فراشه آناء الليل قلقاً مضطرب البال يذكر ربه ويدعوه في ضراعةٍ وابتهالٍ .. والذي تشتد عنايته بأصحابه الساجدين ويغالي بقيمتهم إلى حد أنه يجعل منهم مركز اهتماماته كلها !

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ

ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

أَفَّاكٍ أَثِيمٍ : كثير الكذب والإثم كالكهنة.

يَهِيمُونَ : يخوضون ويذهبون كل مذهب .

لقد كان الإعجاز في كلام النبي واضحاً لدرجة أنه لم يكن حتى بإمكان المنكرين أن يتجاهلوه أو يكذبوه .. ومن ثم لم يجدوا إلى طمأنة الجماهير الضالعة معهم سبيلاً إلا أن يقولوا : إن هذا الرجل كاهن وساحر .. وسر إعجاز كلامه إنما يكمن في كونه كاهناً وساحراً، وليس في كونه نبياً مرسلاً .. وكذلك كانوا يصفون القرآن الكريم أحياناً بأنه شعر.. فقال تعالى رداً عليهم : إنه يكفي لتفنيد هذا الزعم الفارغ أن تقارنوا بين النبي وبين الكُهّان والشعراء .. فإنكم ستجدون بين حياة الفريقين بوناً هائلاً لن يتمكن معه رجل جاد - وهو بكامل عقله ووعيه - أن يقيس أحدهما بالآخرة !!

فالشعر يعتمد على الخيال دون الحقائق والواقعات .. وهذا هو السبب في أن الشعراء تجدهم دوْماً يحلقون في عالم الخيالات والأحلام ؛ يتحدثون عن شيءٍ تارةً ، وعن نقيضه تارةً أخرى!

وأما النبي وأصحابه ، فإنهم - بالعكس - قائمون على أساس الله الذي هو الحقيقة الكبرى في هذا الوجود .. وحياتهم تقدم أروع الأمثلة العملية على الانسجام بين القول والفعل .. ومعرفة الله العميقة قد جعلتهم مشغولين بذكر الله على الدوام .. وهم يمارسون حياتهم بحذرٍ شديدٍ لدرجة أنهم لا يتخذون إجراءً ما ضد أحد الناس إلا إذا

هو كان قد تجنّى عليهم وظلمهم ظلماً سافراً .

إن خطورة المستقبل تجعل المرء جاداً بالنسبة لحاله .. والشخص الذي لا يكون يقظاً مرهف الحس إزاء مستقبله، لن يكون يقظاً مرهف الحس نحو حاضره كذلك !

سورة النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ (١) هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ (٤) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) ﴾

هُدًى : هاد من الضلالة .

فَهُمْ يَعْمَهُونَ : يعمون عن الرشد أو يتحيرون .

إذا تجلى الحق أمام المرء ، فتلقاه بالاعتراف والقبول بدون أدنى تحفظٍ ؛ نتج عن ذلك أنه يسير من فوره في الاتجاه الصحيح ، وتأخذ حياته تصلح وتستقيم من سائر النواحي .. وأما الشخص الذي لا يرضى بصياغة نفسه طبقاً للحق ، فإنه يُضطر بالعكس إلى أن يصوغ الحق طبقاً لهوى نفسه .. وإن «تزيين الأعمال» هو الاسم الآخر لهذه الحالة النفسية .

ويصير أمثال هؤلاء غافلين تماماً عن إصلاح شأنهم .. وفي مقابل اعتبار خطئهم صواباً يدفعون الثمن باهظاً ؛ إذْ يظلون يسيرون في طريقٍ لا يؤدي بهم في نهاية المطاف إلا إلى هاوية الجحيم!

﴿ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ

قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

آنَسْتُ نَاراً : أبصرتها إبصاراً بيناً .

بِشِهَابٍ قَبَسٍ : بشعلة نار ساطعة مقبوسة من أصلها .

تَصْطَلُونَ : تستدفئون بها من البرد .

بُورِكَ : قدس وطهر وزيد خيرا .

مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا : الذين في ذلك الوادي الذي:بدا فيه النور وهم موسى والملائكة .

بعد هلاك القبطي كان موسى قد فارق بلاده مصر وذهب إلى مدين .. وقد كانت مدين على الساحل الشرقي لخليج العقبة الذي يتفرع من البحر الأحمر .. ولقد قضى موسى – عليه السلام – بهذه المنطقة نحو ثمانية أعوام.. ثم انصرف برفقة زوجته عائداً إلى مصر .. وفي أثناء سفره هذا مر بناحية الجبل الواقع بين خليجي البحر الأحمر ، ذلك الذي كان يسمى قديماً بـ «الطور» ، وهو يُعرف الآن بـ «جبل موسى» .

ولعلها كانت ليلة شتاء شديدة البرودة .. وقد لاحت لموسى من بعيدٍ نار تتوهج فوق الجبل .. فيّمم نحوها .. ولكنه لما اقترب منها نعلم أنها تجلّي الرب ، وفوق هذا الجبل ، حيث كان موسى قد أبصر النار ، لا تزال تتواجد حتى اليوم شجرة قديمة يُعتقد أنها هي الشجرة التي سمع موسى من وسطها صوت الله يناديه .. ولقد بنى المسيحيون هنا فيما بعد ديراً وكنيسةً يزورها الناس اليوم من شتى أقطار العالم للسياحة والتبرك!!

﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ

وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

تَهْتَزُّ : تتحرك بشدة واضطراب .

كَأَنَّهَا جَانٌّ : حية خفيفة في سرعة حركتها .

وَلَمْ يُعَقِّبْ : لم يرجع على عقبيه أو لم يلتفت .

فِي جَيْبِكَ : فتحة القميص حيث يدخل الرأس .

بَيْضَاءَ : نيرة يغلب نورها نور الشمس .

غَيْرِ سُوءٍ : غير داء برص ونحوه .

مُبْصِرَةً : واضحة بينة هادية .

وَعُلُواً : ترفعا واستكبارا على الإيمان بها .

كان موسى قد توجه نحو الجبل ليأتي بجذوةٍ نارٍ ، ولكنه بعدما وصل هناك ، علم أنه قد جيء به للنبوة .. والله سبحانه وتعالى إذْ يمنح أحد عباده عطيةً خاصةً فإنما يمنحها بصورةٍ مفاجئةٍ وغير متوقعةٍ كهذه ؛ لكيما يعتبرها العبد منحةً من عند الله مباشرةً ، وبالتالي يمتلئ كيانه كله بمشاعر الشكر والامتنان لربه المنعم الوهاب!

وإن بني إسرائيل ، مع كونهم أمةً مسلمةً في ذلك الزمان ، إلا أنهم كانوا قد صاروا بالفعل كتلةً هامدةً لا حياة فيها .. هذا إلى جانب أن موسى عليه السلام كان عليه أن يعرض

دعوة التوحيد على ملك جبارٍ كفرعون .. ولذلك فقد أعطاه الله منذ الوهلة الأولى معجزة العصا.. وقد كانت هذه العصا تأييداً إلهياً دائماً لسيدنا موسى .. وقد ظهرت بواسطتها تسع معجزاتٍ في مواجهة فرعون .. وأما المعجزات الأخرى التي ظهرت خاصةً لبني إسرائيل ، فكانت علاوةً على التسع الأولى .

ولقد كان صدق موسى قام عليه الدليل القاطع من خلال معجزاته .. ولكن فرعون وأصحابه أبوا الاعتراف بنبوته ﷺ وسر ذلك كان يكمن في ظلمهم وعلّوهم .. حيث لم يكن فرعون ولا أصحابه مستعدّين لوضع القيود على حرياتهم ، وكانوا يعرفون أن الإيمان بموسى يعني نفياً لكبريائهم أنفسهم .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾

مَنطِقَ الطَّيْرِ : فهم أغراضه كلها من أصواته .

كان داود - ﷺ- ملكاً من ملوك بني إسرائيل ونبياً من أنبيائهم ، وكان ولده سليمان هو الآخر ملكاً ونبياً .. وقد اتسع ملكه إلى درجةٍ كبيرةٍ ؛ حتى شمل فلسطين وشرق الأردن والشام .. وقد أعطاه الله شتى أنواع المعلومات الفنية والصناعية .. كما خصّه بخصوصيات خارقةً للعادة .. حيث علمه لغات الطيور ، وكيفية تدريبها على نقل الرسائل وما إلى ذلك .. وكان سيدنا سليمان قد توافرت له أسباب العظمة ومظاهر الأبهة والغلبة غير العادية على أهل زمانه .. غير أن هذا كله لم يزده إلا تواضعاً .. إذا كان ينظر إلى كل ما يملكه على أنه عطية من الله مباشرة ، لا دخل لمواهبه أو رجاحة عقله في الحصول عليها .. وعهد مملكة سليمان - ﷺ-

يتراوح بين سنة ٩٦٥ق.م وحتى سنة ٩٢٦ ق.م وعلى هذا فقد دام حكمه زهاء أربعين عاماً !

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

فَهُمْ يُوزَعُونَ : يوقف أوائلهم لتلحقهم أواخرهم .

لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ : لا يكسرنكم ويهلكم .

أَوْزِعْنِي : الهمني وحرضني واجعلني .

إن جيوش سليمان – عليهما السلام – لم تكن مشتملةً على البشر وحدهم ، بل كانت تضم الجن والطيور أيضاً .. وذات يومٍ مرَ سليمان ، وهو يقود جيشه ، بوادٍ فيه نمل كثير .. وقد اعترفت النملات هناك بمجد سليمان وضخامة جيشه على نحو غير عاديٍ .. ولم يفت سليمان أن فهم بدوره الحديث الذي دار بين النمل في تلك المناسبة.

إن واقعةً كهذه ربما تكفي لإصابة إنسانٍ عادي بالفخر والغرور والاستعلاء ، بيد أن سليمان عندما نظر إلى حاله ذاك ، صار كله شكراً وخضوعاً .. وكل ما كان ملكاً له في ظاهر الأمر ، لم يلبث أن عزاه برمته إلى فضل الله.. وهذا هو منهج الإنسان المؤمن الصالح في كل زمانٍ ومكانٍ !

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾

لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ
بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ
ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا
يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾

بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ: بحجة تبين عذره في غيبته.

يُخْرِجُ الْخَبْءَ: يظهر المخبوء المستور أيا كان.

كانت سبأ أو السبئيّون من أغنى شعوب العالم القديم .. ويمتد زمانهم من سنة ١١٠٠ ق.م إلى سنة ١١٥ ق.م. وكانت عاصمتهم مدينة مأرب باليمن .. حيث لا تزال توجد بهذه المنطقة حتى هذا اليوم بعض أطلالٍ رائعةً تذكر بغابر مجدهم .. وفي عهد سليمان - عليه السلام - كانت تحكم امرأة تُدعى "بلقيس" .. وقد كان هؤلاء يعبدون الشمس ؛ إذا ألقى الشيطان في قلوبهم بأنه لا يكون إلهاً جديراً بالعبادة إلا ما كان أبرز وأشد وضوحاً .. وبما أن الشمس هي أبرز وأوضح شيءٍ من بين كل الأشياء المرئية ، لذا فهي وحدها تصلح لكي تُتخذ إلهاً يُعبد!

وقد حصل سيدنا سليمان على معلوماتٍ مستفيضةٍ عن قوم سبأ وملكتهم بوساطة الهدهد .. وربما كان هذا الهدهد من ضمن طيوره المجنّدة ، وكان قد تلقى تدريباتٍ عمليةً راقيةً !

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ

إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

تَوَلَّ عَنْهُمْ: تنح عنهم قليلاً.

أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ: لا تتكبروا عليَّ .

مُسْلِمِينَ: مؤمنين. أو منقادين مستسلمين.

لقد كانت قوة سليمان ودولته هبةً إلهيةً .. وكذلك الموقف الذي تبناه ﷺ إزاء مملكة سبأ كان هو الآخر أمراً إلهياً .. وقد كتب «الشاه عبد القادر الدهلوي» في شرح هذه الآيات الكريمة وما يليها فقال : «إن أي نبي من الأنبياء لم يخاطب أحدً - خاصةً في مبدأ الأمر - بمثل هذا الأسلوب (القطعي الصارم) ، وإنما خاطب سليمان بهذا الأسلوب لكونه متمتعاً - على وجه الاستثناء - بقوة ملكوت الله عز وجل» .

أما ملكة سبأ (بلقيس) فقد نظرت في الموضوع نظرة واقعية خالصة .. إذ رأت : إننا لو اصطدمنا بسليمان،فأغلب الظن أننا سوف نرجع خائبين مهزومين،وبالتالي سيعاملوننا معاملة الغالب للمغلوب .. وعلى العكس من هذا فلو أننا خضعنا لطاعته، لنجونا من الهوان والدمار .. بيْد أن الملكة لجأت إلى إرسال الهدايا والتحف بهدف تقدير أولي لحقيقة الأمر .. ولكي تعلم جيداً ما إذا كان سليمان مجرد طامع في ثروتها وخيرات بلادها ، أو ينطوي طلبه منها الحضور إليه خاضعةً بلا ترددٍ على أي جانبٍ

مبدئي ؟!

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا : لا طاقة لهم بمقاومتها .

وَهُمْ صَاغِرُونَ : ذليلون بالأسر والاستعباد .

إن الثروة الثمينة التي كان سليمان قد نالها بشكل المعرفة الإلهية والحكمة والنبوة ، جعلت كل ثروةٍ أخرى دونها تفقد قيمتها في نظره .. ومن ثم حين وصلت إليه هدايا الذهب والفضة من جانب ملكة سبأ ، لم يقبلها ، حتى ولم ينظر إليها .

وبموقفه العملي هذا ترك سليمان في نفوس السفراء المبعوثين من ملكة سبأ انطباعاً فحواه : إن أمري هو أمر المبدأ دون أمر المصلحة .. وقد كتب المفسر ابن كثير في شرح ذلك ما نصه : «أي أتصانعونني بمالٍ ؛ لأترككم على شرككم وملككم»؟![1]

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ ﴾

الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ : آصف أو جبريل أو ملك آخر .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٦٧١ .

لِيَبْلُوَنِي : ليختبرني ويمتحنني

إن سليمان – عليه السلام – وإن كان يمتلك قوةً غير عاديةٍ ، إلا أنه خطّط لإخضاع قوم سبأ عن طريق عرض القوة بدلاً من استعمال القوة .. ومن ثم أحضر عرش الملكة من قصرها الكائن بمأرب إلى أورشليم (فلسطين) بواسطة أحد رجاله المخصوصين .. وربما يكون قد فكر في إحضار العرض لما خرجت الملكة من بلاد اليمن في إثر عودة الرسل إليها ، قاصدةً زيارة سليمان في عاصمة ملكه لكي تتفاوض معه مباشرةً .. ومن المقطوع به أنها تكون قد اعتزمت على هذه الرحلة ، بخدمها وحشمها ، حينما علمت أحوال عظمة سليمان وحكمته غير العادية وخلقه العظيم بألسنة سفرائها العائدين من فلسطين .

وتقع مدينة مأرب على بعد ألف وخمسمائة ميل تقريباً من أورشليم .. وقد طُويت هذه المسافة بحيث لم يكد يفرغ سليمان من إصدار أمره ، حتى كان العرش الذهبي المرصع بالجواهر واللآلئ ماثلاً بين ناظريه .. وبالرغم من هذه القوة الخارقة لم تتولد في نفس سليمان عاطفة الفخر للحظةٍ ، وإنما ظل – عليه السلام – خاضعاً لله تواضعاً على مدى الحياة !

﴿ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

نَكِّرُوا : غيروا .

ادْخُلِي الصَّرْحَ : القصر . أو ساحته أو بركته .

حَسِبَتْهُ لُجَّةً : ظنته ماءا عذبا .

صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ : مملس مسوى .

مِّن قَوَارِيرَ : زجاج شفاف .

ووصلت ملكة سبأ إلى بيت المقدس ، حيث دخلت قصر سليمان ؛ ففوجئت بسريرٍ وُضع في المكان المهيأ لاستقبالها على هيئةٍ غريبةٍ ، وقيل لها : ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾؟! فوقعت في حيرةٍ شديدةٍ من قدرة الله ، إذْ وجدت أن العرش الذي كانت قد تركته في قصر مأرب وراء الأبواب والأقفال ، ها هو ذا قد وصل إلى بيت المقدس قبل وصولها هي طاوياً مسافة الألف والخمسمائة ميل الهائلة بطريقةٍ عجيبةٍ غامضةٍ !!

وانتهت الملكة ، وهي تمشي داخل قصر سليمان ، إلى حيث كان البلاط مكوناً من صفائح سميكة من الزجاج البلوري الشفاف ، يجري تحته الماء الرقراق .. فخيل إليها وكأن أمامها حوض ماءٍ ، فراحت تفعل عندئذٍ ما يفعله الشخص الذي يريد اقتحام الماء ؛ أي شمرت أذيالها في حركةٍ غير إراديةٍ لا شعوريةٍ خشية أن تبتل .

ومن خلال هذا كأنها تم إعلامها بأن الإنسان كثيراً ما ينخدع بالظاهر ، بينما تكون الحقيقة الأصلية في أغلب الأحوال مختلفةً عما تراه العيون ظاهراً .. وهكذا ربما يأخذ الإنسان في عبادة الشمس والقمر بالنظر إلى بروزهما ولمعانهما الظاهريين ؛ في حين أن الإله الحقيقي موجود وراء وفوق هذه الظواهر كلها .

وقد كانت ملكة سبأ تعبد الشمس تأثراً بتقاليدها القومية .. ولكن الذي سمعت ورأت عند سليمان غسل دماغها من كل أحاسيس التعظيم والإجلال لغير الله .. فنبذت بالتالي دين الشرك ، واختارت دين التوحيد عن صدقٍ وإخلاصٍ وتفانٍ !

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

اطَّيَّرْنَا : تشاءمنا حيث أصبنا بالشدائد .

طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ : شؤمكم عملكم المكتوب عليكم عنده تعالى .

قَوْمٌ تُفْتَنُونَ : يفتنكم الشيطان بوسوسته .

لما بدأ صالح – عليه السلام – بدعوة التوحيد الخالص ، انقسم قومه إلى قسمين :

القسم الأول : عارضوه ووقفوا ضده ، والقسم الثاني : لبوا نداءه ووقفوا إلى جانبه.. ونشبت بين هاتين الطائفتين مناقشات خلافية حادة .. وقد كان معارضوه يقولون في زهوٍ وتبجحٍ : إننا نرفض دينك .. إذن ، فلتأتنا بما شئت من العذاب لقاء إنكارنا .. وكانوا إذا حلت بهم نكبةٌ أو مصيبةٌ ما، قالوا إنما أصبنا بهذا بسبب شؤم صالح وأصحابه لا غير .. ولقد كانوا يرددون هذا الأقاويل استخفافاً بدعوة صالح ، وليس إظهاراً لأي فكرةٍ جادةٍ .. وقد كانت أحوالهم الحسنة والسيئة كلتا هما من عند الله تعالى .. ولكنهم فيما استمدوا من حسن حالهم غذاء الفخر الزائف ، استمدوا من سوء حالهم غذاء الشكوى الكاذبة!!

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ

كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

تِسْعَةُ رَهْطٍ : أشخاص من الرؤساء مع كل رهط .

تَقَاسَمُوا بِاللهِ : تحالفوا بالله ، أو احلفوا به .

لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ : لنقتلنهم ليلاً بغتة .

مَهْلِكَ أَهْلِهِ : هلاكهم .

دَمَّرْنَاهُمْ : أهلكناهم .

خَاوِيَةً : خالية خربة أو ساقطة متهدمة .

كان في القوم تسعة رؤساء كبراء .. ولأجل الحفاظ على كبريائهم كانوا لا يزالون في محاولةٍ دائبةٍ لتصغير الحق ، وإن محاولةً كهذه مبعث الفساد الأكبر في الأرض ولا ريب.

وفي نهاية المطاف دبّر هؤلاء مؤامرةً لإهلاك صالح – عليه السلام – .. ولكن الله قد بادرهم بالبطش قبل أن يُنفذوا على خطتهم الخفية الجائرة ضد النبي صالح .. حيث تم تدميرهم ، رغم كل مظاهر عظمتم ، بحيث لا يوجد على وجودهم من أثرٍ في مساكنهم اليوم سوى خرائب وأطلال محطمة .

وإن الوقائع التاريخية كهذه لتنطوي على أغلى الدروس والعظات .. على أنه لن يتعظ بها إلا شخص يربطها بالقانون الإلهي .. وأما الذين يردونها بالعكس إلى القوانين الطبيعية ، فإنهم لن يستفيدوا منها أي درسٍ أو عبرةٍ أبداً!

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ

لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ : لا تبالون إظهارها مجانة .

يَتَطَهَّرُونَ : يزعمون التنزه عما نفعل .

قَدَّرْنَاهَا : حكمنا عليها .

مِنَ الغَابِرِينَ : يجعلها من الباقين في العذاب .

مَّطَراً : حجارة من السماء مهلكة .

كان قوم لوط قد بلغ بهم المجون والاستهتار إلى حد اللواط .. فقال لوط ، وهو يؤنب قومه ويهز ضمائرهم النائمة : لقد مُنحتم - يا عباد الله - عيوناً لتصبروا وعقولاً لكي تميزوا الخير من الشر ، وما ينبغي مما لا ينبغي ، فكيف إذن ، تمارسون عملاً هو غاية في القبح والشناعة على رؤوس الأشهاد دون تحرجٍ أو استحياء» ؟!

ولم يكن القوم يملكون جواباً على هذا السؤال .. ولا كانوا يستطيعون أن يردوا كلام النبي بالدليل .. ولذلك ما لبثوا أن استعدوا للاعتداء عليه .. ولكنه عندما يصل الأمر إلى هذه النقطة ، يظهر القضاء الإلهي الحاسم من غير تأخير .. فأمطر الله عليهم مواد محرقةً أهلكتهم أجمعين .. ولم يخلص من هذا العذاب حتى امرأة لوطٍ التي كانت ضالعةً مع المشركين .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى إنما يعامل كل شخصٍ بناءً على عمله

الذاتي، وليس بناءً على نسبه أو عشيرته أو انتمائه !!

وإن الشخص الذي يتأمل في وقائع التاريخ الآنفة الذكر، سوف يخرج من تأملاته وهو يصرخ قائلاً: إن الحمد الكثير والشكر الوافر الدائم لله العظيم الذي تفضل بتهيئة أسباب هداية الإنسان في كل العصور .. كما سيمتلئ صدره بمشاعر الحب والاحترام والتقدير لأولئك العباد الأخيار الذين وهبوا أنفسهم وحياتهم كلها لله عن رضاً وسرورٍ، لأجل تكميل مشروع إبلاغ الهداية الإلهية إلى البشرية جمعاء!

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

الكون عظيم إلى حدٍ لا يمكن تصوره .. وفي مقابل سعته وعظمته تعود كل الألفاظ والتعابير غير كافية إطلاقاً، تلك التي ظل المنحرفون الضالون من الناس يرددونها في كل عصرٍ لتفسير الكون على أساسٍ غير إلهي .. سواء تمثل ذلك في أصنام الإنسان المشرك القديم، أو في نظريات الإنسان الملحد الحديث التي هو يعرضها في ثوب مصطلحات براقةٍ مثل قوانين العلة والمعلول والصدفة والإتقان .. إلخ .

إن خلق أجرامٍ لا تحصى وتحريكها في الفضاء اللانهائي في نظام دقيقٍ، وجعْل الكرة الأرضية ملائمة للحياة إلى أقصى الحدود .. وتوفير أشياء لا تُثمن كالماء والنبات بمقادير هائلةٍ للغاية، وإيجاد أحوال السكون التام فوق هذه الأرض المتحركة باستمرارٍ، وجعْل الأرض قابلةً للسكنى والاستقرار بواسطة إرساء الجبال والبحار .. ومنع المياه العذبة والمالحة عن الاختلاط أحدهما في الآخر عن طريق قانون التوتّر

السطحي .. إن هذه الوقائع وأمثالها هي أعظم من أن يتمكن من إحداثها صنم ، أو يبرزها أي قانون من قوانين الطبيعة العمياء إلى الوجود!

والحقيقة هي أن تفسير الكون على أسسٍ أخرى غير الله الواحد الأحد ، وضع لتفسير باطلٍ في موضع التفسير الحق .. وهو في الواقع انحراف وضلال ، وليس من التفسيرات في شيءٍ!

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

رَحْمَتِهِ : المطر الذي به تحيا الأرض .

إن الوفاء بحاجة أحد المحتاجين لا يمكن إلا إذا واتته كل الأسباب الكونية وفي حالة كهذه ، تُرى ، هل ثمة من أحد غير الله الواحد ، القادر المطلق ، يتمكن من تنسيق جميع الأسباب المواتية ، وتطويعها على هذا المستوى الضخم؟! كلا .

وهكذا فإن زوال أمة واحتلال أمة أخرى مكان الصدارة دونها .. ومواصلة السفن البحرية ، والطائرات في العصر الحديث رحلاتها في الظلام والنور على السواء عبر الاستفادة من إمكانات الطبيعية .. وارتفاع مياه البحر بخاراً في الجو ، ثم تساقطها مطراً مدراراً على الأرض ، وإيجاد الأشياء من العدم ، وإعادة خلقها من جديدٍ ، وتهيئة أسباب الرزق بمختلف أنواعه للإنسان على نطاقٍ واسعٍ .. كل هذه أمور ذات مستوىً إلهي .. ولن يستطيع القيام بها أحد غير الله الواحد الكبير المتعال وحده! وهذا هو شأن

كل الوقائع تحدث على وجه الأرض .. حتى إن واقعة بسيطةً واحدةً يتطلب إحداثها توفر عناصر جمةٍ لا يمكن إحضارها إلا للوجود الذي في قبضته الكون كله .. إذن ، فما أسخفه من رجلٍ ، مَنْ يجعل من أحدٍ غير الله الواحد مركزاً لعواطف عبوديته .. ومَنْ يتوجه إلى أحد من دون الله الواحد بالعبادة والخضوع!

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ : تكامل واستحكم علمهم بأحوالها وهو تهكم بهم لفرط جهلهم بها .

عَمُونَ : عمي البصائر عن دلائلها البينة .

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ : أكاذيبهم المسطرة في كتبهم .

إن القوى اللازمة للقضاء بين الأمم وتحديد مصائرها ، لا يمتلكها إلا الله الواحد علام الغيوب .. وقد ينفذ تعالى قضاءه في عالمنا الراهن بصفةٍ جزئيةٍ ، وهو وحده سيقضي بين الخلائق أجمعين في عالم الآخرة بصورةٍ كليةٍ شاملةٍ وأبديةٍ !

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ

(٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٧٥)﴾

ضَيْقٍ : حرج وضيق صدر .

وقوله ((ولا تحزن..)) ليس نهياً للداعي إلى الحق عن الحزن لذاته .. إذْ الحزن هو غذاء الداعي ، وحياته سلسلة أحزان متواصلة .. وهذا في الحقيقة رفض للإحساس الذي قد يطرأ على النفس بهوان الحق وضعفه عند تأزّم الأحوال.. والمعنى إن الحق وأنصاره سيُكتب لهم النجاح آخر الأمر حتماً رغم كل العقبات والظروف غير الملائمة .

ليس ثمة حماقة يرتكبها المرء أكبر من أن يعتبر الفرصة المتاحة له على وجه الاختبار والابتلاء فرصةً للتمرد والطغيان !

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١)﴾

مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ : ما تخفي وتستر من الأسرار .

غَائِبَةٍ : شيء يغيب ويخفى عن الخلق .

الإنسان مخلوق يتمتع بقدرات السمع والبصر والتعقل .. وهذه القدرات لو تم استخدامها بتمام اليقظة والانفتاح ، لكانت وسائل فعالةً تعين صاحبها على رؤية

الحقائق كما هي والتعرف عليها بدون خطأ أو التباسٍ .. ولكن لو أن شخصاً فرض على نفسه أي تصورٍ مصطنعٍ ، فإن قواه المدركة لا تلبث أن تتعطل وتفتقد فاعليتها تلقائياً .. وبعدئذٍ تتجلى له الحقيقة في صورتها المكشوفة العارية ، ولكنه يظل غافلاً عنها كما لو أنه أصم وأعمى .. والحق أنه لا يمكن إراءة الطريق في هذه الدنيا إلا لشخصٍ يبحث عن الطريق بدأبٍ وإخلاصٍ .. وأما الذي يخلو فؤاده من شرارة البحث والشوق للاهتداء ، فلن يجدي عنه هداية ولا توجيه مرشدٍ شيئاً .

ولكي تكون متبع الحق لابد لك أن تتحلى بخاصية الاعتراف .. فإن الهداية لا ينالها في هذا العالم إلا الشخص الذي يملك استعداداً للمبادرة إلى قبول الأمر فوراً ، إذا قام لديه الدليل على صحته ويجعل حياته بالتالي تابعةً له من غير أدنى ترددٍ أو تفظٍ .

والذين يأبون عن الخضوع لدعوة الله ، يضطرون في نهاية المطاف إلى الخضوع لقضاء الله المبرم ، غير أن الخضوع وقتئذٍ لن يغن أحدٍ شيئاً !

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

وَقَعَ القَوْلُ : دنت الساعة وأهوالها الموعودة .

دَابَّةٌ : هي من أشراط الساعة الكبرى.

فَوْجاً : جماعة وزمرة .

فَهُمْ يُوزَعُونَ : يوفق أوائلهم لتلحقهم أواخرهم ثم يساقون جميعا .

إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يضع نهايةً لتسلسل تاريخ العالم الراهن ، ظهرت ، قبل الختام الأخير، علامات غير عاديةٍ .. منها خروج الدّابة .. فالأمر الذي رفض الناس الإيمان به ، وقد بلّغ إليه دعاة من البشر أمثالهم ، سيتم إعلانه على لسان مخلوقٍ غير إنسانيٍ.. بيد أن هذا سيكون بمثابة جرس الإنذار بانتهاء مهلة الامتحان ، وليس إعلاناً عن بداية موعد الامتحان !

وإذا جُمع الأولون والآخرون يوم القيامة ، وُزِّعوا على مجموعاتٍ .. المؤمنون في جانبٍ .. والمنكرون في جانبٍ آخر .. وبعد ذلك سيُسأل المنكرون عما هو الدليل العلمي الذي كنتم تستندون عليه حين قابلتم الحق بالرفض والإنكار؟! ووقوف القوم في ساحة المحشر يومئذٍ مبهوتين ذاهلين لا يحيرون جواباً ، سيقيم الدليل القاطع على أن إنكارهم إنما كان مرتكزاً على أساسٍ من العناد والتعصب ليس غير ؛ وإن كانوا يقدمون في الدنيا أدلةً زائفةً للتظاهر بأنهم على الحق .. كما سينكشف عليهم حينئذٍ أن أمر الحق كان من الوضوح والجلاء في الحياة الدنيا بحيث كان نظام الليل والنهار هو الآخر ينبّهم إليه بلغةٍ غير منطوقةٍ إلى جانب كلام الداعي المنطوق .. حيث كان النوم ليلاً يمثل الموت ، والنهوض صباحاً يمثل البعث بعد الموت .. ولكنهم ، بالرغم من هذه العناية الفائقة والاهتمام غير العادي بإعلان الحق وتجليته ، ظلوا محرومين من اكتشاف الحق ، فيا له من حرمانٍ وشقاءٍ مرير!!

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ

مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

فَفَزِعَ : خاف خوفا يستتبع الموت .

دَاخِرِينَ : صاغرين أذلاء بعد الموت .

فَكُبَّتْ : ألقوا منكوسين .

حين ينفخ في الصور تنهار كل صروح المجد والعظمة والكبرياء كجدران الرمال .. وإنها ستكون لحظةً رهيبةً مروعةً لدرجة تستحيل معها حتى الجبال الراسيات هباءً منثوراً، ناهيك عن الإنسان ذلك المخلوق الضعيف .. وحينئذٍ سكون العجز كله إلى جانبٍ .. والقدرة كلها إلى جانبٍ آخر .

وسوف تفقد يومئذٍ كل الأشياء أهميتها ، تلك التي كان الناس يعتبرونها ذات الأهمية القصوى في الحياة الدنيا.. والعمل الصالح وحده سيكون هناك ذا وزنٍ واعتبارٍ .. وكم من «الخاسرين» سيفلحون يومئذٍ ، وكم من «المفلحين» هنا سيصبحون هناك في عداد الخائبين المحرومين إلى الأبد!!

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

وردت الإشارة إلى مكة في الآية (٩١) : ﴿ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ﴾ مراعاةً لمخاطبي القرآن الأولين .. وهذا أمر يعني به الباحثون في أسلوب القرآن وبلاغته .. وأما مقتضى

الآية الأصلي فهو تنبيه الإنسان إلى الحقيقة الأزلية القائلة بأنه له في هذه الحياة منهجاً صحيحاً واحداً ليس غير ، ألا وهو أن يعيش عبداً عابداً لله الواحد الأحد .

ومهمة الداعي تتلخص في «التلاوة» .. أي إعلان أمر الحق .. والإنسان مطالب بإدراك الحقيقة المعنوية الكامنة في نداء الداعي اللفظي .. وبمشاهدة تجلي القوة الإلهية في الدعوة المجردة - على ما يبدو - من كل أسباب القوة .. والذين يقيمون الدليل على هذه الصلاحية ، هم الذين سيُعتبرون أهلاً لإنعامات الله الأبدية .

«سيريكم آياته» هذه النبوءة يتصل أحد جوانبها بقريش مكة - المخاطبين الأوائل - للقرآن الكريم - حيث أراهم الله آياته في القرآن الأول في صورة غزوة بدر الكبرى وفتح مكة .. ولها جانب آخر يتعلق بخلود القرآن وأبديته.. ومن هذه الناحية الثانية تنطبق هذه النبوءة غير العادية أيضاً ، بمعناها الواسع الشامل ، على الآيات والكشوف العلمية التي ظهرت في عصرنا الحديث !

سورة القصص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

عَلا فِى الأَرْضِ : تجبر وطغى فى أرض مصر .

شِيَعاً : أصنافا فى الخدمة والتسخير والإذلال .

وَيَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ : يستبقى بناتهم للخدمة .

يَحْذَرُونَ :يخافون من ذهاب ملكهم .

أُدين فرعون هنا بجريمة الإفساد فى الأرض .. وقد كان إفساد فرعون تمييزه فى التعامل مع شعبين فى مصر .. فبينما أتاح للقبط - قومه هو - أفضل الفرص العملية من كل نوع حرم بنى إسرائيل من كل الفرص .. وليس ذلك فحسب ، بل أخذ يقتل مواليدهم الذكور ، حتى ينقطع نسلهم رويداً رويداً .. وقد كان عمل فرعون هذا تدخلاً صريحاً فى نظام الفطرة .. وبمقتضى القانون الإلهى فإن التوافق مع نظام الفطرة اسمه الإصلاح ، بينما التدخل فى نظام الفطرة اسمه الإفساد .

إن القضاء بالعزة أو بالهوان إنما يكون من عند الله تعالى .. وقد قرر الله على عكس ما قرره فرعون .. إذ قرر الله تعالى أن يعطى بنى إسرائيل العزة والسلطة ، ويهلك فرعون مع جنوده .. ولقد أثبت فرعون ، بإصراره على العناد والطغيان والظلم ، بعد قيام الحجة عن طريق موسى - عليه السلام - أثبت أنه مستحق للعقاب .. فما لبث أن أغرقه الله فى البحر وقضى على تجبره وطغيانه إلى الأبد .. وجعل من بنى إسرائيل حكام سوريا وفلسطين بعد إخراجهم من أرض مصر بسنين!!

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

كَانُوا خَاطِئِينَ : مذنبين آثمين .

قُرَّتُ عَيْنٍ : هو مسرة وفرح .

وُلد موسى وعملية ذبح المواليد الذكور من بنى إسرائيل جارية على قدمٍ وساقٍ ، مما أقضَّ مضجع أمه وملأ صدرها خوفاً وقلقاً على حياته .. فأعلمها الله ساعتئذٍ - ربما فى المنام - هذا التدبير ، بأن تضعه فى قارب صغير وترسله فى بحر النيل .. وقد فعلت هكذا بعد ثلاثة أشهرٍ .. وجرى هذا القارب مع الماء ، حتى انتهى به المسير إلى الساحل المواجه لقصر فرعون ، ولقد كانت امرأة فرعون (آسية بنت مزاحم) امرأة طيبةً ، فحين وقع بصرها على الطفل موسى البريء الوسيم الطلعة ، فاض قلبها رقةً وعطفاً عليه .. فلم يلبث موسى أن أُدخل قصر فرعون واستُبقى هناك نزولاً على طلبها

ورغبتها .

ويُروى أن زوجة فرعون حينما قالت لزوجها : "إن هذا الغلام قرة عينٍ لنا" ، أجابها قائلاً : "أما لك فنعم ، وأما لى فليس بقرة عينٍ" .. وهذه الكلمة ربما تكون قد صدرت من فرعون بسبب الفارق النفسى بين طبيعة الرجل وطبيعة المرأة .. إلا أنها تحققت بالفعل حرفياً فيما بعدُ !

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

فَارِغاً : خاليا من كل ما سوى موسى .

لَتُبْدِى بِهِ : لتصرح بأنه ابنها لشدة وجدها .

رَّبَطْنَا : بالعصمة والصبر والتثبيت .

قُصِّيهِ : اتبعى أثره وتعرفى خبره .

فَبَصُرَتْ بِهِ : أبصرته .

عَن جُنُبٍ : عن بعد أو عن مكان بعيد .

يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ :يقومون بتربيته لأجلكم .

تَقَرَّ عَيْنُهَا : تسر وتفرح بولدها .

بَلَغَ أَشُدَّهُ : قوة بدنه ونهاية نموه .

وَاسْتَوَى : اعتدل عقله وكمل .

لقد نسب الله أمر صيانة موسى بحذافيره إلى ذاته العليا .. بينما تفاصيل ذلك تشير على أن كل ما جرى إنما حصل بمقتضى الأسباب والعلل .. ومن هذا نعلم أن ظهور المشيئة الإلهية فى عالم الامتحان الراهن يتم على نمط الأسباب والمسببات ، وليس على نمط الخوارق والشعوذات المطلسمة .

وقد أُلقى بموسى ، وهو طفل عاجز ضعيف ، فى أمواج البحر .. إلا أنه بلغ الساحل بسلامٍ وعافيةٍ بالغين .. وخطط ملك زمانه لقتله .. ولكن الله هيأ أسباب تربيته بوساطة ذلك الملك نفسه .. وقد وُلد - عليه السلام - فى أسرةٍ عاديةٍ متواضعةٍ ، بيد أن الله - جل شأنه - بإيصاله إلى القصر الملكى أتاح له فرصة تعلم العلوم والآداب والفنون الرائجة فى ذلك العصر على مستوى أعلى وأرقى .. وهذا مثال يدل على أن قدرة الله لا تُحد .. وأنه ليس فى مقدور أحدٍ ، كائناً من كان ، أن يقف فى وجه تحقق ، تدبير الله ومراده!

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فَوَكَزَهُ مُوسَى : ضربه فى صدره بجمع كفه .

ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ : معينا لهم .

ومن أحداث ما قبل النبوة ؛ إذْ كان موسى فى عاصمة مصر ، أن رأى ذات يوم رجلين - أحدهما إسرائيلي والآخر قبطى - يتنازعان .. فناداه الإسرائيلى ، لكونه واحداً من بنى شعبه ، طالباً نجدته ليدفع عنه شر القبطى ، ولما أراد موسى أن يفصل بينهما ، خاض معه القبطى فى جدالٍ ومشاكسةٍ ، فوكزه موسى - على سبيل الدفاع والتأديب - وكزةً أصابت - صدفةً - بعض مقاتله ، فمات فى الحال !

ولقد كان الأقباط فى ذلك الوقت يضطهدون بنى إسرائيل شر اضطهاد ، ويذيقونهم ألوان العذاب .. وفى مثل هذا الوضع فلو أن موسى نظر فى هذا الحادث من المنظور القومى ، لملئ فخراً واعتزازاً باعتباره بطولةً جهاديةً .. ولكنه بالعكس ندم على هلاك القبطى أشد الندم ، فتوجه من فوره إلى الله يسأله العفو والمغفرة .

وقوله : ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ يعنى لن أنصر أحداً من الآن فصاعداً بدون تحقيقٍ أو تحرٍ .. فإن مجرد انتماء شخصٍ إلى شعبٍ مظلوم مضطهد ، أو استنصاره ضد غيره بوصفه ظالماً ، ليس بكافٍ لإثبات أن الشخص الأخير ظالم فى الواقع ، وأن المستغيث هو المظلوم .. ولذلك فالمنهج الصحيح هو أن نتناول الأمر فى مثل هذه المناسبات بالتحرى الدقيق ، ولا نندفع لنصر أحد الأطراف إلا إذا ثبت لدينا كونه مظلوماً معتدى عليه فى ضوء تحرياتٍ نزيهةٍ غير متحيزةٍ !

﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا

ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

يَتَرَقَّبُ : يتوقع المكروه .

يَسْتَصْرِخُهُ : يستغيثه من بعد .

إِنَّكَ لَغَوِى : ضال عن الرشد .

يَبْطِشَ : يأخذ بقوة وعنف .

يَسْعَى : يسرع فى المشى .

إِنَّ الْمَلَأَ : وجوه القوم وكبرائهم .

يَأْتَمِرُونَ بِكَ : يتشاورون فى شأنك .

وفى اليوم التالى كان ذلك الإسرائيلى نفسه يتنازع مع قبطى آخر .. وقد كان هذا قرينةً واضحةً الدلالة على أنه رجل ديدنه النزاع واللدد والخصومة ، فما يمر عليه يوم إلا وهو يتشاجر أو يتقاتل مع بعض الناس .. ومن هنا فبالرغم من كونه ينتمى إلى شعبه هو ، أنحى عليه موسى باللائمة ، واعتبره مجرماً .. وقد ثبت كون الإسرائيلى المذكور مجرماً بمزيد الوضوح من أنه حين رأى موسى لا يتقدم لنجدته اليوم ، بل أخذ يزجره ويندد بفعله على عكس رجائه منه ، فلم يلبث أن فضح ، بمنتهى الدناءة واللامسئولية ، أمر قتيل الأمس ، الذى لم يكن قد علم به أحد غيرهما بعدُ .

ولم يكد ينطق الإسرائيلى باسم القاتل حتى التقطته آذان القبطى وآخرين عداه من المارة ، فسرى هذا الخبر فى طول البلاد وعرضها سريان النار فى الهشيم .. حتى أخذ المسئولون يتشاورون فى إعدام موسى .. فاطلع على ذلك رجل شريف من آل فرعون،

فاتصل بموسى سراً ، وأعلمه علم القوم ، وأشار عليه: إن الأحرى بك الآن أن تغادر هذا المكان .. فقبل موسى منه هذه النصيحة الغالية ، وذهب على وجهه يريد أرض مدين ، التى كانت تقع على الساحل الشرقى لخليج العقبة ، وكانت خارجةً عن حدود المملكة الفرعونية.

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

تِلْقَاءَ مَدْيَنَ : جهتها ونحوها (قرية شعيب)

سَوَاءَ السَّبِيلِ : الطريق الذى فيه النجاة .

أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ : جماعة كثيرة منهم .

تَذُودَانِ : تمنعان أغنامهما عن الماء .

مَا خَطْبُكُمَا ؟: ما شأنكما ؟ ما مطلوبكما ؟

يُصْدِرَ الرِّعَاءُ : يصرف الرعاء مواشيهم عن الماء .

كانت رحلة موسى هذه بمثابة رحلةٍ إلى المجهول .. والكيفية التى تعترى قلب المؤمن فى ظروفٍ كهذه ، كانت طارئةً عليه تماماً .. حيث كان يتابع سيره بخطىً حثيثةً فى ظلال الأدعية المتدفقة حرارةً وخشوعاً .. حتى وصل، بعد مسير عشرة أيامٍ تقريباً ، إلى مدين ؛ وقد أرهقه التعب ، ونزل به أيضاً ، فى أغلب الظن ، جوع شديد.

وتقدّم موسى بإعانة المرأتين من أهل مدين بدافع العطف على الضعفاء ؛ مما مهّد له الطريق للوصول إلى أبيهما.. وقد كان هذا الشيخ من ذرية مديان بن إبراهيم ، وموسى من ذرية إسحاق بن إبراهيم ، وعلى هذا فقد كانت بين كليهما رابطة القرابة السلالّية كذلك.

وفى ذلك الوقت خرج من فم موسى الدعاء التالى : ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ،وهذا الدعاء يدلنا كيف يكون حال المؤمن فى مثل هذه الأوقات .. إنه يفوض أمره كله إلى الله ؛ لكونه واثقاً من أن كل ما ينال العبد فإنما يناله من عند الله ، وأن الخير هو الذى يتلقاه من عند الله - سبحانه وتعالى !

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

تَأْجُرَنِى : تكون لى أجيرا فى رعى الغنم .

حِجَجٍ : سنين .

عادت البنتان إلى البيت فى يومها ذاك مبكرتين بعض الشيء على خلاف المعتاد ، وعندما سألهما الشيخ أبوهما عن سبب التبكير بالعودة ، أخبرتاه بما كان من تطوع

الرجل الغريب لسقى أغنامهما .. فقال الشيخ : لِمَ لم تأتيا بالرجل حتى يتناول معنا الطعام؟! فانطلقت إحداهما إلى البئر وجاءت بموسى إلى منزلها .. ومن تجربة أيام عدة ظهر للعائلة المضيفة أن موسى رجل جدٍ واجتهادٍ وإنسان صدقٍ وأمانةٍ .. ومن ثم فقد اتفق الشيخ مع رأى إحدى ابنتيه على استبقاء موسى أجيراً عنده .. والواقع أن كلا هذين الوصفين : الأمانة والقوة ، جامع لكل الأوصاف الضرورية.. ولو أردنا تحديد مقياسٍ لاختيار الرجل الكفء ، فلن نجد هناك ما يعبر عنه تعبيراً أدق وأفضل من هاتين الكلمتين .

وقد زوج الشيخ موسى بإحدى ابنتيه فيما بعد .. وبما أنه كان إذْ ذاك فى حاجةٍ ماسةٍ إلى رجل يتعهد شئونه المنزلية والعقارية ، طلب من موسى أن يقيم عنده ثمانى أو عشر سنواتٍ ثم له بعد ذلك أن يذهب إلى حيث يشاء !

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

آنَسَ : أبصر بوضوح.

نَاراً : هى فى الواقع نور ربانى .

جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ : عود فيه نار بلا لهب .

تَصْطَلُونَ: تستدفئون بها من البرد .

تَهْتَزُّ :تتحرك بشدة واضطراب .

كَأَنَّهَا جَانٌّ: حية خفيفة فى سرعة حركتها .

وَلَمْ يُعَقِّبْ : لم يرجع على عقبة أو لم يلتفت .

جَيْبِكَ : فتحة القميص حيث يدخل الرأس .

بَيْضَاءَ : لها شعاع يغلب شعاع الشمس .

غَيْرِ سُوءٍ: غير داء برص ونحوه .

وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ : الخوف من الحية .

قضى موسى فى بلاد مدين نحواً من عشرة أعوام ..ثم انصرف موسى ومعه زوجته وولدان أيضاً – طبقاً لرواية التوراة – عائدين إلى أرض مصر .. وقد مرت عليه وهو فى بعض الطريق تجربة الطور .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

رِدْءاً : عوناً .

سَنَشُدُّ عَضُدَكَ : سنقويك ونعينك .

سُلْطَاناً : حجة أو تسلطاً وغلبة .

إن الله – سبحانه وتعالى – حين يعين أحد الناس بوصفه مأموراً للدعوة إليه والتبليغ عنه ، يوفر له أيضاً كل الأسباب الضرورية لأداء العمل الدعوى على نحوٍ مؤثرٍ فعالٍ .. ومن ثم فقد أعطى لسيدنا موسى من عند الله أشياء عديدة بحسب ظروفه وأحواله .. حيث مُنح خوارق ومعجزاتٍ كشهادةٍ على تعيينه أو مأموريته من قبل الله تعالى .. وقُيّض له مساعد يشد من أزره ، ويتعاون معه فى تحمل أعباء الدعوة والصدع بالحق .. وأُسبغ عليه نوع من الهيبة الشخصية تحول دون أن يجرؤ فرعون وأصحابه على التعرض له أو النيل منه .. هذا إلى جانب ما سبق تقديره من الله أن الغلبة نهائياً لا تكون إلا لموسى وأتباعه (بنى إسرائيل) وحدهم !

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

مُّفْتَرًى : تنسبه إلى الله كذبا .

صَرْحاً : قصراً أو بناءً عالياً مكشوفاً

إن شخصاً يعدّ نفسه كبيراً ، إذْ يتناوله رجل عادى فى مظهره بالنقد الصريح فإنه لا يلبث أن يشتعل غضباً ، ويأخذ فى الاستهزاء بناقده ، والنيل منه بكل حيلةٍ ووسيلةٍ .. وقد اتخذ فرعون هذا الموقف تجاه النبى موسى لما عرض عليه دعوة الحق، وهدم دعوى ربوبيته من الأساس .

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ ليس هذا بأى قولٍ جادٍ ، ولم يقصد فرعون من هذه العبارة بيان الحقيقة، بل أراد الاستخفاف بشأن موسى .. وهكذا لما توجه فرعون إلى وزيره هامان قائلاً : بأن اطبخ الآجر ، و ابن لى عمارةً شامخةً رفيعةً ، تأخذ فى السماء صعداً ، لأطلع إلى إله موسى . لم يكن ذلك أمراً جدّياً ؛ فلم يكن معناه أنه يصدر أمراً إنشائياً إلى وزيره ، وإنما كان ذلك سخرية من موسى .

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

فَنَبَذْنَاهُمْ فِى اليَمِّ : ألقيناهم وأغرقناهم فى البحر .

أَئِمَّةً : قادة فى الضلال .

لَعْنَةً : طردا وإبعاداً عن الرحمة .

مِّنَ المَقْبُوحِينَ : المبعدين أو المشوهين فى الخلقة .

القُرُونَ الأُولَى : الأمم الماضية المكذبة

بَصَائِرَ لِلنَّاسِ : أنوار لقلوبهم تبصر بها الحقائق .

لقد كانت دعوة موسى تهدف إلى تفجير الثورة الرّبانية فى ضمير الفرد الإنسانى.. كان مؤداها – باختصارٍ – أن يخاف الإنسان من الله وحده ، وأن يعيش فى هذه الدنيا

عبداً مطيعاً لله رب العالمين .. وقد عرض موسى هذه الرسالة نفسها على الأفراد والآخرين بعامة ن تماماً كما عرضها ، بوجهٍ خاصٍ ، على ذلك الفرد الذى كان جالساً على سدة الحكم!

إن الإنسان عادةً يصاب بنفسية الكبر والغرور حين يحصل على السلطة والاختيار .. وهكذا كان حال فرعون هو الآخر تماماً .. فحذَّره موسى قائلاً : إنك لو عشت متكبراً فى أرض الله ، لتعرضت لبطش الله ، ولكن فرعون لم يتلق النصيحة بالقبول .. وكانت النتيجة أن أهلك هو وجنوده أجمعون .

كان فرعون إمام الحضارة الوثنية القديمة .. وكان يحتل مركزاً مرموقاً عالياً فى ظل الحضارة الوثنية .. غير أن حضارة الشرك والوثنية قد انتهت ودالت دولتها ، لا من أرض مصر وحدها ، بل من كل بقاع المعمورة .. وغالبية سكان العالم اليوم إما مسلمون أو يهود أو نصارى .. وكل هؤلاء يعتبرون فرعون ملعوناً بالإجماع .. وليس هناك من أحدٍ فى عالم اليوم يؤمن بعظمة فرعون أو يعتقد فى ربوبيته!

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قَضَيْنَا : عهدنا .

ثَاوِياً : مقيما .

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبين - عبر القرآن - وقائع موسى على نحوٍ مفصلٍ ، كما لو أنه واقف على مسرح الأحداث يسمع ويرى كل ما يجرى

هناك.. بينما الواقع أنه - ﷺ- وُلد فى مكة بعد موسى بألفى عام.. وقد كان هذا دليلاً واضحاً على أن القرآن كلام الله ، لأن أى إنسانٍ ليس بقادر على أن يدلى ببيانٍ كهذا .

ففى عهد الرسول - ﷺ- لم تكن توجد كتب ولا مؤلفات ، كما هو الحال فى أيامنا هذه .. أما وقائع موسى فقد كانت مذكورةً فى كتب اليهود غير العربية ، والتى لم يكن لها سوى عدة نسخٍ محفوظةً فى معابد اليهود .. وهى بكل تأكيدٍ كانت بعيدة عن متناول النبى - صلى الله عليه وسلم - .. وفوق ذلك فإننا نجد هناك فروقاً ذات مغزى دقيقٍ بين ما جاء فى القرآن الكريم وما جاء فى الكتب اليهودية .. والقرينة تدل على أن ما جاء فى القرآن هو الأصح والأجدر بالقبول .. وعلى سبيل المثال فإن هلاك القبطى على يد موسى ، طبقاً لما ورد فى القرآن بهذا الخصوص ، إنما حدث عن غير عمدٍ ، بينما تقول التوراة عن موسى فى موقفه ما نصه : "فالتفت إلى هنا وهناك.. ورأى أن ليس أحد ، فقتل المصرى ، وطمره فى الرمل" (سفر الخروج ٢ : ١٢) .

ومن الواضح أن بيان القرآن هو أنسب وأليق بمكانة شخصية جليلةٍ كموسى ﷺ، وليس بيان التوراة .. إذن ، فكيف استطاع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بدون أية وسيلةٍ ظاهرةٍ ، أن يعرض وقائع موسى بهذا القدر من الصواب والدقة؟!.. ونحن لن نجد جواباً مقنعاً عن هذا سوى أن الله عالم الغيب والشهادة هو الذى أخبره بكل ذلك عن طريق الوحى !

﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ

قَالُوا سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قَضَيْنَا : عهدنا .

ثَاوِياً : مقيما .

لما عرض موسى رسالته على المصريين الأقدمين ، أردف ذلك أيضاً بإظهار معجزات العصا واليد ، تأكيداً على صدقه وحقية رسالته .. غير أن القوم لم يؤمنوا به ، وأنكروه قائلين: إن هذا سحر ليس غير .. وأما حين عرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعوة الحق على سكان الجزيرة العربية المعاصرين له ، على أساسٍ من الدلائل والبراهين ، فقالوا : إن كان هذا نبياً ، فما باله لا يُظهر معجزات مثلما أظهر موسى؟!

كل هذه أقاويل خرجت عن الأذهان غير الجادة .. إن ألزم شرطٍ للإيمان بالحق فى العالم الراهن هو أن يكون المرء جاداً .. وأما الذى لا يكون جاداً بالنسبة إلى قضية الحق والباطل ، فلن يجبره أى شيءٍ على الاعتراف بالحق ، حيث إنه سيفتعل كل مرةٍ عذراً جديداً، وسيعثر لرفض كل حديثٍ على ألفاظٍ جديدةٍ !!

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

وَصَّلْنَا لَهُمُ القَوْلَ : أنزلنا القرآن عليهم متواصلا .

إن المعيار الحقيقى للإيمان أو عدم الإيمان برسالة الحق واحد ، أو ينبغى أن يكون واحداً ليس غير ، وهو أن ننظر فى الرسالة من حيث جوهرها الذاتى وحده ، فلو

وجدناها تحمل فى ذاتها دليلاً على أنها الصدق الأعلى ، لكان ذلك كافياً لكى نؤمن بها، ولم نعد بعد ذلك بحاجةٍ إلى أى شيءٍ آخر للإيمان بها .

وإن الصدق إنما يقابل بالصدق مثله .. ولو أن المرء وقف من الصدق موقف الإنكار، ثم لم يتقدم فى مقابل ذلك بصدقٍ آخر أسمى ، فمعنى ذلك أنه إنما ينكر بسبب عبوديته لهوى النفس ، والذين لا يستطيعون ردّ الصدق بالعقل أو المنطق ، ثم إنهم - مع ذلك - لا يؤمنون به انسياقاً مع الأهواء ودواعى التعصب الأعمى ، هم أكثر الناس ضلالاً .. وسيُعتبر أمثال هؤلاء عند الله فى عداد الظالمين !

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

وَيَدْرَءُونَ : يدفعون .

اللَّغْوَ : السب والشتم من الكفار .

سَلامٌ عَلَيْكُمْ: سلمتم منا لا نعارضكم بالشتم .

الإيمان نوعان .. أحدهما : أن تؤمن بالحق لأنه حق .. وثانيهما : أن تؤمن به لأن عارضه ينتمى إلى طائفتك.. وأول هذين النوعين من الناس وحده يوفق للاهتداء إلى الصراط المستقيم .. ومن هذا الطراز كان أولئك الرجال الذين آمنوا فى القرن الأول

بالقرآن الكريم والنبى العربى - عليه الصلاة والسلام .

كان هناك عدد من النصارى واليهود لم يكد يستمع إلى آيات القرآن حتى انضم إلى صفوف المؤمنين به .. وقد كان هؤلاء ما زالوا متمسكين بتعاليم الأنبياء السابقين الحقيقية .. ولذا فلم يصعب عليهم أن يتعرفوا على نبى آخر الزمان .. ولقد تعرف هؤلاء بالفعل على النبى الجديد تماماً كما كانوا قد تعرفوا على الأنبياء الذى سبقوه .. غير أن تأهيل أنفسهم لذلك كان قد فرض عليهم المرور بمراحل "الصبر" العسيرة .

إنهم حافظوا على أذهانهم من التأثر بعوامل لا تدع المرء صالحاً لمعرفة الحق .. تلك العوامل التاريخية والاجتماعية التى تحوّل الدين الإلهى فى ذهن المرء إلى دين طائفى ، وبالتالى لا يكاد المرء يعرف من أمر الدين شيئاً إلا ما تلقاه من طائفته ، ويفشل فى التعرف على الدين الذى يأتيه من غير طائفته .. ولكى يبقى المرء محفوظاً من هذه المؤثرات يُضطر إلى تقديم تضحياتٍ نفسيةٍ عظيمةٍ ، ولهذا تم التعبير عن ذلك بالصبر .. وسيعطى أمثال هؤلاء ثوابهم مضاعفاً ، أولاً : على التضحية التى قاموا بها ؛ حيث لم يسمحوا لإيمانهم السابق بأن يتحول إلى إيمان طائفى .. وثانياً: على ثقوب نظرهم ؛ إذْ عرفوا النبى الجديد فور ظهوره .. وبادروا بالانضواء تحت رايته دون تحفظٍ أو ترددٍ !

وإن الأوصاف الخلقية السامية إنما تزدهر فى أناسٍ يملكون صلاحية التعرف على الحق.. فهم يحسنون إلى الناس مهما أساء الناس إليهم .. وهم ينصرون الآخرين لينصرهم ربهم .. ويسلكون فى حياتهم مسلك الإعراض والعفو دون التصدى والاشتباك !

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

نُتَخَطَّفْ : ننتزع بسرعة .

يُجْبَى إليه : يجلب ويحمل إليه من كل جهة .

يحسب المرء ، إذا ارتبطت مصالحه بنظامٍ ما ، أن الفضل فى كل ما يناله من خيرٍ ، إنما يرجع إلى هذا النظام القائم ذاته.. إنه يعلم فوائد الحاضر وحدها ، ولكنه لا يدرى عن فوائد المستقبل شيئاً !

وهكذا كان حال مشركى مكة القديمة تماماً .. حيث كانوا قد نصبوا فى الكعبة أصنام سائر القبائل العربية ، وحصلوا بذلك على الزعامة الدينية العامة للعرب ، كما كانت النذور والقرابين التى تُقدم إلى تلك الأصنام مورداً اقتصادياً خاصاً لهم . غير أن ابتعاد القوم عن الإسلام بحجة أنه يسبب لهم متاعب كثيرة ، ويحرمهم من المنافع التى يتمتعون بها الآن ، لم يكن إلا آية الضيق فى أفق تفكيرهم .. إذْ إن رسول الله كان يدعوهم إلى دينٍ كان سيجعل منهم أئمة العالم أجمع ، بينما هم كانوا يتخلون عنه من أجل دينٍ لم يكن لديه شيء سوى زمام الرئاسة العادية لقبائل الجزيرة !!

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

وَكَمْ أَهْلَكْنَا : كثيراً أهلكنا .

بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا : طغت وتمردت فى أيام حياتها .

إن أحد الناس إذْ يحصل على الاستحكام المادى فى الأرض ، فلا يلبث أن يصاب

بالغرور والاستعلاء .. بينما لا تفتأ تجارب التاريخ تعلم الدرس القائل بأن: الاستحكام المادى الذى يفوز به أى شخصٍ أو شعبٍ هنا غير دائم مطلقاً .. فكلما قابل قوم الحق بالإهمال واللامبالاة ، دُمِّروا ، مع كل مظاهر عظمتهم وأمجادهم!

فقد سبق أن برزت فى شبه الجزيرة العربية وما حولها أمم وشعوب شتى : مثل عاد، وثمود ، وسبأ ، وأصحاب مدين ، وقوم لوط .. إلخ ، وقد ابتلى الكل بالبطر والاستكبار ، غير أن استكبار كل أحدٍ منهم لم يلبث أن عفا عليه الزمن ، وأصبحوا آخر الأمر أحاديث تُروى أو قصص تحكى .. وأطلال هذه الأمم المنبثة هنا وهناك ، كانت تنفى العظمة الإنسانية .. وبالرغم من ذلك فإن الذين كانوا يتمتعون بالسيادة والكبرياء فى عهد رسول الإسلام كذبوه تكذيباً، كما لو أن وقائع الماضى لا تنطوى على عبرةٍ أو موعظةٍ لهم فى حاضرهم !

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾

مِنَ المُحْضَرِينَ : ممن أحضروا للنار .

مهما كان لدى المرء من مالٍ طائلٍ أو متاعٍ وافرٍ فى هذه الحياة الدنيا ، فإنه لا يلبث أن يتخلى عنه عند الموت كره أم أحب .. وإنما الشيء الذى يصحب المرء بعد الموت هو الأعمال الصالحة دون الجاه الدنيوى أو الأسباب المادية ، فالعاقل ، والحالة هذه ، هو الذى يفضل السعادة الأبدية على السعادة الوقتية الفانية .. وبالتالى يوجه اهتمامه نحو بناء الآخرة بدلاً من بناء الدنيا!

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ

حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

أَغْوَيْنَا : دعوناهم إلى الغى فاتبعونا .

المراد بـ "الشركاء" القادة المضلون .. أى أولئك السادة الكبار الذين امتثل الناس لأمرهم كما ينبغى أن يُمتثل لأمر الله .. وإنه سيكون مشهداً عجيباً لا يوصف عندما يرى أتباع أولئك الكبار مصيرهم المشئوم يوم القيامة.. حيث يجدون هناك أن الكبار الذين كانوا يتفاخرون بالانتماء إليهم ، لم يقودوهم إلا إلى نار جهنم المستعرة .. وعندها سيقولون لهم متذمرين : إن تبعة دمارنا وهلاكنا تقع على أكتافكم أنتم .. وسيرد الكبار (المتبوعون) عليهم قائلين : ليس ثمة أحد ، غير أنفسكم ، مسئولاً عن دماركم .. فإنكم وإنْ سرتم فى طريق الغواية ظاهراً تلبيةً لندائنا ، إلا أنكم لم تلبوا نداءنا إلا لكونه يتفق مع أهوائكم ، إذن ، فقد كنتم فى الحقيقة تابعين لأهوائكم وليس تابعين لنا .. فكما اتبعنا نحن أهواءنا ، اتبعتم أنتم أهواءكم .. وكل منا الآن يلاقى مصيراً واحداً .. فلا فائدة تُرجى من التلاوم أو تبادل اللعنات وتوزيع التبعات!

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

إن المرء حين ينكر الحق فى الدنيا ، فإنما ينكره اعتماداً على شيء .. وسيُقال له فى الآخرة: أن ادع أولئك الذين كنت قد رفضت الإيمان بالحق اعتماداً عليهم لكى ينقذوك – إن استطاعوا – من سوء عاقبة الإنكار للحق!! غير أن هذا سيكون يوم ظهور الله

جل جلاله ، ومَنْ ذا يستطيع أن ينصر أحداً على الله ؟! لا يكاد المرء يرضى بالصمت فى الدنيا .. فهو لا يلبث أن يجد هنا لرفض كل دليلٍ ألفاظاً جميلةً .. ولكن كل هذه الألفاظ سينكشف زيفها وبطلانها فى يوم القيامة ، وسوف يتجرع المرء مرارة الندم والحسرة ، إذْ يدرك هناك عظم الشيء الذى خسره لأجل شيءٍ هو أتفه ما يكون!

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

الخِيَرَةُ : الاختيار .

مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ : ما تضمر من الباطل والعداوة .

إن الله – سبحانه وتعالى – يخلق البشر .. ثم هو يختار من بين هؤلاء البشر بعض الأفراد للاضطلاع بمهمةٍ خاصةٍ .. وهذا الاختيار لا يكون بناءً على قدسيته الذاتية ، وإنما يكون بناء على قضاء الله وحده .. ومن ثم فإن إحاطة أفرادٍ كهؤلاء بهالةٍ من التقديس ، وبالتالى رفعهم إلى درجة الألوهية أمر لا يستند على أساسٍ ، ولا مجال فى كون الله لمثل هذه الخرافات والمزاعم الباطلة .. وطالما يلجأ المرء لإنكار الحق إلى ألفاظٍ يرددها بلسانه ، إلا أنه يضمر فى قلبه شيئاً آخر تماماً .. فهو لا يؤمن بالحق حرصاً على مصالحه الذاتية بينما هو يظهر بالألفاظ أنه إنما ينكره على أساس من الدليل والمعقولية .. وسوف لا يبقى هذا الحجاب حائلاً بين القلوب والألسنة فى الآخرة .. وعندها سيتضح بجلاءٍ أن قلب المرء كان منطوياً على غير ما ظل يبديه بترديد الألفاظ والعبارات المنمقة من أجل الحفاظ على كبريائه!

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ

ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

أَرَأَيْتُمْ : أخبرونى .

سَرْمَدا : دائما مطردا .

يُستدعى الأنبياء والذين اتبعوهم بإحسان وترسموا خطاهم من دعاة الحق ، بوصفهم شهداء الله يوم القيامة .. وسيخبرون هناك عن الأمم التى أبلغوها رسالة الله، كيف كانت مواقفها أو ردود فعلها تجاه الرسالة؟! وسيقف يومئذٍ حيارى واجمين ، كل أولئك الذين كانوا قد أهملوا دعوة الحق معتمدين على غير الله.. وسيكون حالهم فى ذلك اليوم الرهيب أنهم إذا أرادوا الدفاع عن أنفسهم ندّت عنهم الألفاظ لفرط الدهشة والهلع ، ولم تطاوعهم ألسنتهم التى طالما استخدموها بلباقةٍ واقتدارٍ فى معارضة الحق والدفاع عن مفترياتهم فى الحياة الدنيا!!

﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

يَفْتَرُونَ : يختلقونه من الباطل فى الدنيا .

إن كرة الأرض - التى يسكنها الإنسان - منطوية على جوانب عجيبة مدهشة لا تُحصى .. ومنها أنها دائرة فى محورها حول الشمس بانتظامٍ ، وهى تتم دورتها المحورية

هذه فى كل أربعٍ وعشرينِ ساعةٍ .. ولهذا السبب لا يزال يتعاقب عليها الليل والنهار الواحد تلو الآخر .. ولو توقفت الأرض عن الدوران حول محورها ، لخيم على نصف الكرة ليل دائم ، وعلى نصفها الآخر نهار دائم .. وسيترتب على ذلك أن تتحول هذه الأرض التى هى موضع الراحة والسكون للإنسان ، إلى جحيم لا يطاق !

وإن دوران الأرض فى رحاب الفضاء بهذه الدقة والانضباط لواقع عظيم لدرجة أن كل قوى الإنس والجن لا تكفى لإحداثه .. وإنه ليس ثمة أحد غير الله القادر المطلق ، يستطيع أن يحدث واقعاً عظيماً كهذا .. وفى هذه الحالة فما أعظمه من ضلال وانحرافٍ أن يتوجه الإنسان بمشاعر خوفه ومحبته نحو أحدٍ غير الله الواحد؟!

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

فَبَغَى عَلَيْهِمْ : ظلمهم . أو تكبر عليهم .

لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ: لتثقل الجماعة الكثيرة وتمل بهم .

لاَ تَفْرَحْ : لا تبطر ولا تأشر بكثرة المال .

ذُكر قارون فى المصادر اليهودية باسم قورح (Korah) ، ومع أنه كان رجلاً من بنى إسرائيل ، (وقيل: واحداً من أقارب موسى – عليه السلام) ، إلا أنه اعتزل قومه وأضحى وفياً لفرعون .. ونال ثمن ذلك بأن جعله فرعون من رجاله المقربين عنده .. وقد تمكن الرجل ، باستغلال مواهبه العملية ، من كسب المال وإحراز المتاع الدنيوى

بمقدارٍ هائلٍ ، لدرجة أنه أصبح أغنى رجلٍ فى مصر آنذاك .. وكان المفروض أن تتولد فى نفسه عاطفة الشكر على ما حصل عليه من ثروةٍ كبيرةٍ ، غير أن الثروة إنما بعثت فيه عاطفة الزهور والفخر والغطرسة ، وبالتالى لم يوجه عنايته لكسب الحسنة التى كان ينبغى أن يكسبها بوسائله الاقتصادية الجبارة .

وما هو الإفساد فى الأرض؟ إن من صور الإفساد فى الأرض ، طبقاً لمضمون الآية (٧٧) ، أن يضن المرء بما حصل عليه من الثراء العريض ، فلا يصرفه إلا فيما يخص ذاته وحدها ، دون غيره من الناس .. إن مياه الأنهار إذْ تجتمع فى البحر من شتى جهات الأرض ، فإن البحر بدوره لا يلبث أن يرفع مياهه بخاراً لتتحول ثانيةً إلى ماءٍ عذبٍ يتوزع على كل بقاع الأرض .. وهذا أحد نماذج الإصلاح فى دنيا الله .. وهذا الشيء مطلوب من البشر ، بحيث لو اجتمع لدى أحدهم - لسببٍ من الأسباب - ثروة طائلة عريضة ، فينبغى عليه أن يردها - بمختلف الطرق - إلى أناسٍ لم ينالوا من التقسيم الاقتصادى سوى حظٍ يسيرٍ .. وجملة القول : إن تمكين الأموال المتكدسة من التداول هو الإصلاح ، بينما الاحتفاظ بالأموال المتكدسة ومنعها من التداول هو الإفساد !

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

مِنَ الْقُرُونِ : من الأمم .

وَلاَ يُسْأَلُ : سؤال استعلام بل سؤال توبيخ .

إن الدور الذى حُكِى عن قارون ، هو نفسه الدور الذى ما زال يمثله الأغنياء والأثرياء على اختلاف الأعصار والأمصار .. فالرجل الثرى يحسب دوماً أن ما عنده

إنما حصل عليه بفضل علمه .. ولكن علم أى غنى أو ثرى لا يخبره بأنه قد كان هناك كثيرون قبلك ، نالوا من الغنى والثراء أكثر مما نلت ، غير أن ثروتهم لم تتمكن من إنقاذهم من الموت أو الدمار .. إذن ، فكيف ستكون ثروتك منقذةً لك من بأس الله ؟!

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

فِى زِينَتِهِ : فى مظاهر غناه وترفه .

وَيْلَكُمْ : زجر لهم عن هذا التمنى .

وَلاَ يُلَقَّاهَا : لا يوفق للعمل للمثوبة .

الرجل الذى يمتلك الثروة ، تتجمع حوله زخارف الدنيا وزينتها بطبيعة الحال .. مما يجعل كثيراً من السفهاء وضعاف العقول يرمقونه بعين الغبطة والإعجاب .. أما الذين رزقوا علم الحقيقة فسرعان ما يدركون أن هذا رونق أيامٍ معدوداتٍ .. وإنه لا قيمة لرونقٍ لا يدوم سوى أيامٍ معدودةٍ قصيرةٍ .. وعلمُ الحقيقة هو أثمن شيء فى هذا الوجود.. غير أن تحصيل علم الحقيقة يتطلب الصبر ، يعنى أن تُكوّن ذهنك من غير خضوعٍ لضغط الأحوال الخارجية، وتفكر بعيداً عن تأثير المظاهر السطحية الخلابة ، وأن تبنى رأيك بصرف النظر عن الأشياء ذات البريق الوقتى الخادع.. وهذا من غير شكٍ أصعب أنواع الصبر إطلاقاً ، غير أن المرء بعد اجتيازه هذا الامتحان العسير الشاق بنجاحٍ - وليس قبله - ينال ذلك الشيء الذى يسمى العلم والحكمة !!

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ

وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

وَيْكَأَنَّ الله : ألم تر أن الله .

وَيَقْدِرُ : يضيق على من يشاء لحكمه .

وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ :ألم تر الشأن لا يفلح .

طبقاً لرواية التوراة دعا موسى بالهلاك على قارون بسبب سوء أعماله ، فلم يلبث أن خُسف به وبأصحابه وبكنوزه الأرض .. وقد أظهر الله بذلك ، على مستوى الشهود ما هو المصير الذى يلقاه من يعبد المال والثروة متخلياً عن عبادة الله وحده؟!

وإن رزق الدنيا إنما هو فى الأصل متاع الامتحان .. وكل امرئ يُعطى منه نصيباً قل أو كثر بحسب مشيئة الله وحكمته .. فينبغى للمرء إذا قل نصيبه من الرزق أن يصبر ، وإذا نال حظاً وافراً من الرزق أن يشكر .. فإن هذا هو الطريق الوحيد الذى يؤدى بسالكه إلى النجاة والفلاح فى الدنيا والآخرة !.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

المؤهلون لسكنى الجنة هم الذين خلت صدورهم من مشاعر الكبرياء والتعالى نحو أنفسهم .. والذين أدركوا عظمة الله وجلاله بحيث لم يعودوا يرون إلى جانب ذاتهم شيئاً سوى الصغار والهوان .

إن الفساد فى الأرض هو عدم توافق المرء مع مراد الله .. وأن يأخذ يسير فى دنيا الله

على عكس مرضاة الرب - سبحانه وتعالى .. والذين تخلو صدورهم من الكبر و الغرور ، فإن نفوسهم تخلو بالضرورة من جراثيم الفساد كذلك .. والذين يتحلون بهذه الأوصاف العالية هم أولئك الذين يسكنهم الله فى جنانه الأبدية !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

مَعَادٍ : مكة المكرمة ظاهراً عليها .

ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ : معينا لهم على ما هم عليه .

إن أمر النبى يكون ، بكل المقاييس والاعتبارات ، أمراً إلهياً .. حيث إنه يُعطَى النبوة من عند الله دون طلبٍ منه .. وهو يكون قائماً على الحق بوجوده كله ، ويكون مكلفاً بأن يصدع بالصدق الخالص النقى من كل شوبٍ ، مهما كان ذلك مزعجاً للناس ، أو شديد الوطأة على نفوسهم .. كما يُقدر له سلفاً أن يصل عاقبة الأمر إلى غايته المنشودة على كل حالٍ ، لا تستطيع أية عقبات أو عوائق الطريق ، مهما كثرت وصعبت، أن تحول دونه .

وهكذا يكون الأمر تماماً بالنسبة إلى الداعى الذى يسير على درب النبوة من بعد النبى ويقتدى بهداه .. فبقدر ما يتشبه الداعى بالنبى ، إيماناً وعملاً ومنهجاً وسلوكاً ، بقدر ما يصير أهلاً لكى تتحقق فيه وعود الله تلك ، التى وعدها لأنبيائه فى كتابه الكريم!

فهرس الموضوعات

التذكير القويم

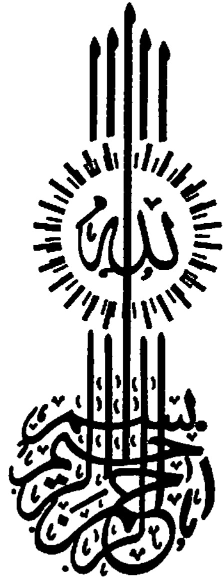
في

تفسير القرآن الحكيم

للعلامة / وحيد الدين خان

الجزء الثالث

دار الوفاء


بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝ ﴾

لاَ يُفْتَنُونَ: لا يمتحنون بالمشاق والشدائد ليتميز المخلص من المنافق.

إن كون المرء مؤمناً ومسلماً لا يتحقق ولا يُعتبر بالنظر إلى العمل الذي يمارسه في الأحوال المعتادة ، بل على أساس العمل الذي يمارسه المرء في الأحوال غير المعتادة .. وهذه الأحوال غير المعتادة تتمثل في مواقف غير عادية ؛ ينكشف عندها ما إذا كان المرء حقاً كما يدعي بعمله الظاهري ، أو هو ليس كذلك .. وإنما المؤمن المسلم المعتبر عند الله هو الذي يقيم الدليل على تمسكه بالإيمان والإسلام في غمار الأحوال غير المعتادة .

واجتياز المحنة أو الامتحان الإلهي بنجاحٍ يعني ، بعبارةٍ أخرى ، الوفاء بمقتضيات الإيمان والإسلام على مستوى التضحية .. أي أن تبادر إلى التصديق بالحق ، حتى لو تناوله عامة الناس بالتكذيب .. وأن توقن به حين يكون الناس من حولك مرتابين في أمره .. وأن تبقى مؤمناً ساعة يطالبك الإيمان بأن تدوس أنانيتك .. وأن تبذل بسخاء ساعة تدعو الظروف إلى الإمساك وعدم الإنفاق .. وأن تظل صامداً عندما تتزلزل الأقدام .. وأن تسلم نفسك دون تحفظٍ ، إذْ تميل النفوس إلى التهرب طلباً للنجاة ، وبحثاً عن السلامة .. وأن تذعن وتنقاد حين تكون فرص العناد والطغيان متاحة .. وأن تتقدم لمناصرة الحق حيث تعني مناصرته الحرمان من كل شيء .

ففي مواقف غير عادية كهذه تبرز خبايا القلوب ، وتتجلى كوامن الصدور للعيان ..

وساعتئذٍ لا يبقى لأحدٍ مجال اللف والدوران لكي يتظاهر ، عن طريق ترديد الألفاظ المفترضة، وإطلاق الشعارات المدوية الجوفاء ، بما هو ليس في حقيقة الأمر!

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

أَن يَسْبِقُونَا: أن يعجزونا ويفوتونا.

أَجَلَ الله : الوقت المعين للبعث والجزاء

الدخول في الإيمان يكون في أغلب الحالات ، مرادفاً للسير في الاتجاه المضاد للعصر.. إنه عبادة الله في بيئة تسودها عبادة الأسلاف والأكابر .. وهو وضع المبدأ في المقام الأول والأسمى حيث يُوضع الهدى في المقام الأسمى .. وهو طموح نحو العيش لأجل منفعة الآخرة ، في مناخ تُكرس فيه الحياة لمنفعة الدنيا .

وإن حياة كهذه تتطلب مجاهدةً عنيفةً مستمرةً .. وإنه لا يوفق للاستمرار والصبر على تكاليف هذه المجاهدة إلا الذين أيقنوا بالله أتم الإيقان ، والذين جعلوا من إنعام الله الموعود وحده مركزاً لآمالهم وطموحاتهم!

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾

وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ: أمرناه.

حُسْناً: براً بهما وعطفا عليهما.

إن أعظم المخلوقين حقاً على الإنسان والداه .. ولكن كما أن لكل شيء حداً يقف عنده ، كذلك فإن حقوق الوالدين هي الأخرى لها حد لا تتعداه .. وذلك ما عبر عنه الرسول – ﷺ – بقوله : "لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق" (رواه أحمد والحاكم) .

وعلى هذا لابد من القيام بحقوق الوالدين ، ما دامت لا تتعارض مع حقوق الله ، وأما إذا تعارضت طاعة الوالدين مع طاعة الله ، فإن عدم الطاعة لهما عندئذٍ تصير واجبةً تماماً كما تجب طاعتهما في الأحوال المعتادة .

ويُلاحظ أن المقصود بحقوق الوالدين في الإسلام هو خدمة الوالدين وليس عبادتهما !

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

فِتْنَةَ النَّاسِ: ما يصيبه من أذاهم وعذابهم.

إن شخصاً يدعي الإيمان .. والشأن أنه إذا رأى في الانضمام إلى صف المؤمنين بعض الأرباح المادية ، بالغ في إظهار إيمانه وحماسته .. وأما إذا كان الانضمام إلى المؤمنين ينطوي على بعض المخاطر أو يسبب له بعض الخسائر الدنيوية ، فلا يلبث أن يرجع القهقرى.. إن شخصاً كهذا يطلق عليه القرآن مصطلح المنافق .. والمنافقون قوم كانوا مؤمنين في ظاهر أمرهم ، ولكنهم أبوْا عن دفع ثمن إيمانهم .. وبالتالي فشلوا حيث كان المفروض أن يبرهنوا على النجاح!

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

خَطَايَاكُمْ: أوزاركم.

أَثْقَالِهِمْ : خطاياهم الفادحة.

يَفْتَرُونَ: يختلقونه من الأباطيل والأكاذيب.

الافتراء هو أن يتقول المرء شيئاً من تلقاء نفسه ، وينسبه إلى الله سبحانه وتعالى .. ويندرج تحته كل ألوان البِدَع المستحدثة والتأويلات الفاسدة .. ومن صور هذا الافتراء أن يقول قادة الكفر والضلال لمن دونهم من الجماهير أن الزموا طريقنا ، وترسموا خطانا ، وسنأخذ تبعة ذلك على عواتقنا فيما لو سُئلتم عنه عند الله !.

ولما كان الله – عز وجل –لم يمنح أحداً حقاً من هذا النوع ، فإن القول بذلك ضرب من الافتراء واختلاق الكذب على الله!!

إن المرء كثيراً ما يقول أقوالاً لا يحسب لها أي حسابٍ ، وهي من الخطورة بحيث لو أنه رأى وخيم عاقبتها ، لما نطق منها بحرفٍ أبداً .. ومن ثم حين يشاهد هؤلاء المتقولون أهوال القيامة ، فسيكون حالهم هناك مختلفاً كل الاختلاف عن حالهم في دنيا اليوم !

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

عاش نوح - عليه السلام - يدعو قومه تسعمائة وخمسين عاماً .. وقد كان - عليه السلام - قبل نبوته أيضاً رجلاً صالحاً عاملاً بشريعة آدم - عليه السلام - .. ثم نهض بعدما نُبئ داعياً إلى الله يواصل الليل بالنهار في إنذار قومه.. ولكن بالرغم من جهوده المخلصة التي دامت مئات السنين ، لم يؤمنوا بدعوته .. فما لبثوا أن أُغرقوا جميعاً - ما عدا ثلةً مؤمنةً صالحةً قليلة العدد - بطوفانٍ عظيم .

وفي سلسلة الجبال الواقعة بشرقي الأناضول على حدود تركيا وروسيا ، قمة شاهقة تعرف بأرارات أو أراراط (Ararat) ، يقدر ارتفاعها بما يزيد عن خمسة آلاف متر .. وقد أخبر الطيارون من فوق هذه الجبال أنهم رأوا على قمة أراراط المغطاة بالثلوج شيئاً أشبه بسفينةٍ .. ومن هنا بُذلت ولا تزال محاولات شتى للوصول إلى تلك السفينة .. ويعتقد العلماء أنها الشيء الذي ورد ذكره في القصص الدينية باسم "سفينة نوح" .

ولو كان هذا الخبر صحيحاً ، فمعناه أن الله - سبحانه وتعالى - قد حفظ سفينة نوحٍ من الضياع حتى هذا اليوم ، لكي تكون للناس علامةً ناطقةً بأن النجاة من طوفان الله تتطلب سفينة النبي ، وأنه ليس ثمة من شيءٍ آخر البتة من شأنه أن ينقذ المرء من طوفان الله!

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾

وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً: تكذبون: أو تنحتون كذبا.

كل ما يتخذه المرء من دون الله الواحد الأحد مركزاً لأسمى عواطفه ، لا يعدو كونه ضرباً من الكذب والبهتان .. فإنه يفترض الأوصاف الإلهية في غير الله .. إذْ لا يمكن للمرء أن يتوجه إلى غير الله بالعبادة ، إلا بعد أن يفترض فيه تلك الخصوصيات العليا التي ينفرد بها الله وحده بلا ندٍ ولا شريكٍ !

وقد كان الإنسان في عصر الشرك القديم يفترض وجود هذه الصفات الإلهية في الأصنام والتماثيل .. وأما إنسان اليوم فهو الآخر يمارس الشيء نفسه ، اللهم إلا أن أسماء الأصنام لدى الإنسان الحديث تختلف عن أسمائها لدى المشركين القدامى .. وكل ما يفرق بين القديم والحديث هو أن الإنسان القديم إذا كان يجني ثمرات الأرض على أنها نعمة أحد الآلهة المزعومة ، فإن إنسان اليوم يعبر عن ذلك بهذه الألفاظ : إن ثورتنا الخضراء (النباتية) إنما هي نتاج لتقدم علومنا الزراعية !!

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِى وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ: تردون وترجعون لا إلى غيره.

بِمُعْجِزِينَ: فائتين من عذابه بالهرب.

الإنسان لم يكن موجوداً أولاً ، ثم وُجد بعد .. إذن ، فالخلق الذي صار ممكناً مرةً واحدةً ، لِمَ لا يكون ممكناً مرةً أخرى ؟ وقد كتب الشاه عبد القادر الدهلوي في هذا

المقام تعليقاً موجزاً مفيداً يقول : "إنكم ترون البداية كيف تحصل ، ففي ضوئها يمكنكم أن تفهموا عملية الإعادة كيف تكون" !!

إن كل امرئٍ موجودٍ مثال في ذاته على الخلق الأول .. ولو أراد المرء مزيداً من الأمثلة، فله أن يجل بصره في أرجاء كون الله الفسيح ويتأمل في ظواهره .. وإنه إذ يفعل ذلك فسيجد أن الكون بأكمله نموذج حي لهذا الواقع ذاته.. وإنما وضع الله هذه النماذج الناطقة في كونه لكي يتفهم الإنسان منها حقيقة الخلق الثاني ، ويقبل بالتالي على العمل الذي ينفعه في مرحلة الحياة القادمة !

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ: للتواد والتواصل بينكم لاجتماعكم على عبادتها.

وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ: منزلكم الذي تأوون إليه النار.

الشيء الذي يتخذ شكل العرف أو العادة القومية في مجتمعٍ ما ، لا يلبث طويلاً حتى يصير حاجة كل فردٍ من أفراده .. فعلى أساسٍ منه تقوم علاقاتهم المتبادلة .. وبه ترتبط مصالحهم الحياتية على اختلاف ألوانها .. وعلى حسب قيام الفرد بمقتضاه أو

نبذه إياه تتحدد قيمته أو يسقط اعتباره بين الناس .. ولقد كان الشرك في قديم الزمان تحول إلى عادةٍ قوميةٍ كهذه .. وقد أفهم سيدنا إبراهيم أهل العراق بأن عبادة الأصنام التي أنتم جامدون عليها ، لا تعدو كونها عادة شعبية وليست بأي صدقٍ واقعي .. ومع انتهاء حياتكم الراهنة ستنتهي كل أهميتها تلقائياً .. غير أنه لم يقف إلى جانبه أحد سوى ابن أخيه لوطٍ - عليهما السلام - وذهب القوم في معاداته إلى حد أنهم ألقوه في النار .. ولكن الله تعالى أنقذه منها سالماً .. ولم يستحق إبراهيم بذلك إنعام الآخرة الأعلى وحده، بل مُنح من عند الله ذريةً صالحةً استمرت فيها سلسلة النبوة لمدة أربعة آلاف سنةٍ .. حيث كان ولده إسحاق نبياً .. ثم كان حفيده يعقوب هو الآخر نبياً .. ومنذئذ لم يُبعث نبي من أنبياء الله إلى سيدنا المسيح إلا وهو ينتمي إلى أسرة يعقوب - عليه السلام - ، ومن أولاد إبراهيم أيضاً كان مديان (مدين) الذي وُلد في نسله شعيب - عليه السلام - كما كان ولده إسماعيل بدوره نبياً.. ومن ذريته بُعث خاتم النبيين محمد - ﷺ - الذي تبقى نبوته مستمرةً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وتاريخ إبراهيم هذا كما ينطوي على عظاتٍ وعبرٍ لعَبدة الباطل ، يتضمن كذلك إشعاع النور الساطع للذين يقيمون أنفسهم على أساس الحق صامدين في وجه أعاصير الظلم والقهر والاضطهاد !

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ: بمقارفة المعاصي والقبائح.

نَادِيكُمُ: مجلسكم الذي تجتمعون فيه.

هاجر لوط من مدينة بابل إلى بلاد الأردن .. حيث أعطاه الله النبوة ، وكلفه بإصلاح قومه .. وقد كانت مساكن قومه بمنطقة سدوم قرب البحر الميت ، وكان هؤلاء مصابين بعادة اللواط غير الفطرية .. كما تفشت بينهم - إلى جانب ذلك - رذائل خلقية واجتماعية أخرى .. غير أنهم لم يقبلوا الإصلاح ، وظلوا غارقين في شهواتهم .. وقولهم﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ كان في الأصل موجهاً إلى لوط دون الله .. فقد ظنوا لوطاً من الحقارة بحيث كانوا يستبعدون أن يتعرضوا لبطش الله في حالة ما إذا لم يؤمنوا به .. ومن ثم قالوا على وجه التهكم والسخرية : أن ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين حقاً !

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

الغَابِرِينَ: من الباقين في العذاب كأمثالها.

سِيءَ بِهِمْ: اعتراه الغم بمجيئهم خوفا عليهم.

وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً: ضعفت طاقته عن تدبير خلاصهم.

رِجْزاً: عذاباً شديداً.

دُمرت مناطق قوم لوط (سدوم وعامورة) عن طريق زلزالٍ رهيبٍ جعل عاليها سافلها.. وإن الوادي الخصيب الذي كانوا قاطنين فيه منذ أربعة آلاف سنةٍ ، تمتد فيه الآن مياه البحر الميت الكثيفة .

وطبقاً لما ورد في القرآن الكريم فإن حادث التدمير هذا، إنما وقع بواسطة ملائكة الله .. ولكن علماء الجيولوجيا والآثار القديمة يقولون : إن هذه المنطقة عندما برزت فيها جبال نتيجة العملية الجيولوجية (ظاهرة التعرج) ، حدث إلى جانب ذلك أن تولد في بعض أجزائها أخدود أو منحدر ، ثم لم يلبث الجزء الجنوبي من هذا المنحدر بعدئذٍ أن امتلأ بمياه البحر .. وهكذا أصبحت تلك البقعة اليابسة من الأرض تحت الماء التي تعرف اليوم بضفة البحر الميت الجنوبية الأقل انخفاضاً .

إن الشيء الذي يراه القرآن آيةً إلهيةً ، إذا به يتحول من خلال الرؤية غير القرآنية ، إلى حادثةٍ طبيعيةٍ محضةٍ !

ويعتقد الخبراء أن أطلال هذه المدينة الخربة لا تزال توجد مطمورة تحت مياه البحر حتى هذا اليوم .. ولا شك أن في هذا موطن عبرةٍ عظيمةٍ .. غير أنها عبرة لأولئك وحدهم الذين يستعملون عقولهم في محاولة اكتشاف الأشياء والوقوف على دقائق الأمور!

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وَلاَ تَعْثَوْا: لا تفسدوا أشد الإفساد.

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ: الزلزلة الشديدة بسبب الصيحة.

جَاثِمِينَ: هامدين ميتين لا حراك لهم.

أُرسل شعيب - عليه السلام - إلى قومٍ كانوا أهل تجارةٍ .. وقد اشتد حرصهم على اقتناء المال لدرجة أنهم أخذوا في كسبه بأساليب الغش والخداع .. وهذا كان إفسادهم في الأرض .. لئن كانت التجارة المشروعة أسلوباً لكسب المعاش ينطوي على الإصلاح، فإن الغش والابتزاز والسلب والنهب أسلوب لكسب المعاش يؤدي إلى الفساد!.

وقال شعيب لقومه : لا تغفلوا عن الآخرة سعياً وراء الدنيا .. ولتمارسوا أعمالكم الدنيوية بطريقةٍ يمكنكم أن ترجوا بها حسن العاقبة في الآخرة .. ولكن القوم ، رغم كل جهود نبيهم ، لم يقوموا بإصلاح شأنهم ، بل أنكروا عليه ما جاء به أشد الإنكار .. ومازالوا يفعلون الشرور ولا يرتدعون .. إلى أن يأذن الله بهلاكهم ، وفق سنته الجارية.. فتحولت بيوتهم ، التي ظنوها دار حياةٍ لهم ، تحولت إلى مقابر لهم ، إذْ أخذتهم الرجفة (وهي الزلزال الشديد) ، فصاروا كأن لم يغنوا فيها!

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ: عقلاء متمكنين من التدبر.

ما لبث قوم عاد وثمود بدورهم طويلاً حتى حاق بهم عذاب الله .لقد كان هؤلاء أذكياء فيما يتعلق بشئون الدنيا ، غير أنهم كانوا غايةً في الحمق والغباء فيما يتعلق بشأن الآخرة.. ففيما اكتشفوا سر بناء البيوت والقصور من الجبال والصخور ، لم يتعاموا سر بناء الحياة والسعادة من نبي الله .. وإنما كان السبب في ذاته ما أطلق عليه القرآن "تزيين الأعمال" ، إذْ غرّهم الشيطان قائلاً بأن بناء الدنيا هو البناء

كله .. وإذا تمكنتم من بناء الدنيا ، لم تعد هناك أية مشكلةٍ تكدر صفو حياتكم أو تتهدد مصيركم. غير أن هذا الغرور ما أغنى عنهم شيئاً ، ولا هو مُغنٍ عن أحدٍ فيما يأتي شيئاً !

كانت مساكن عاد في المناطق الواقعة بجنوبي الجزيرة العربية التي تعرف اليوم باليمن والأحقاف وحضرموت .. وأما الجزء الشمالي من الحجاز ، بدءًا من رابغ حتى العقبة ، ومروراً بالمدينة وخيبر ، وانتهاءً بتيماء وتبوك ، فهو المنطقة التي كان يسكنها ثمود في قديم الزمان!

﴿ وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

سَابِقِينَ: فائتين من عذابه تعالى.

حَاصِباً: ريحا عاصفا ترميهم بالحصباء.

أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ: صوت من السماء مهلك مرجف.

إن أمم الأنبياء لما كذبتهم وأنكرت دعوتهم ، دُمرت بالعذاب السماوي والأرضي.. فحلّ بقوم لوط عذاب الحاصب (وهو الريح العاصفة تمطر الحصباء أي الحجارة) ، ونزل بقوم عاد ، وثمود ، وأصحاب مدين عذاب الصيحة (الرعد والبرق) ، وأُهلك قارون بعذاب الخسف ، بينما أهلك فرعون وهامان وجنودهما بعذاب الغرق..إلخ.

وكان السبب المشترك الذي استوجب هذا العذاب بمختلف ألوانه ، يكمن في

استكبار الناس ؛ أي عدم قبول دعوة الحق لكونها ستقضي على كبريائهم وسيادتهم!

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

العَنكَبُوتِ: حشرة معروفة.

أرشدت الآيات هنا إلى أن الشخص الذي يدرك درس الحقيقة، وهو يشاهد بيت "العنكبوت" ، هو العالم حقاً..

ومن هذا يتضح لنا مَنْ هم العلماء الحقيقيون عند الله .. إنهم ليسوا خبراء المباحث الكتابية .. بل هم أولئك الذين يستلهمون الموعظة من الآيات الطبيعية المنبثة في كون الله .. والذين تتحول وقائع الدنيا الصغيرة في أذهانهم إلى دروسٍ وعبرٍ عظيمةٍ .. والإيمان ليس إلا اسماً آخر لهذا العلم ذاته حين يبلغ درجة المعرفة اليقينية القصوى!.

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

قوله : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ يعني أن كيفية الصلاة هي التي تنهي عن الفحشاء والمنكر.

ولو أن المرء أضحى في الواقع راكعاً ساجداً لله ، لتولّد في نفسه الشعور بالمسئولية والتواضع .. وإن السلوك الذي ينبثق عن الشعور بالمسئولية والتواضع ، إنما يتمثل في

إتيان المرء ما ينبغي لله وحده ، وابتعاده عما لا ينبغي له كل الابتعاد.

والمراد بالذكر هو استحضار الله .. فحين يحصل المرء على معرفة الله الكاملة ، وحين يتوجه بكامل وجوده إلى الله ، فتكون النتيجة أن يتصور الله يستولي عليه ، وتتفجر في داخله ينابيع الذكر الإلهي .. والكلمات اللطيفة السامية التي يناجي بها المرء ربه ، عند بلوغه هذا المستوى الروحاني ، هي الذكر .. وليس من الشك في أن هذا الذكر هو أسمى مراتب العبادة.. والمقصود بتلاوة الوحي هنا هو تبليغ الوحي .. أي قراءة آيات القرآن على الناس ، وإخبارهم من خلال ذلك بمرضاة الله .. وعملية الدعوة والتبليغ عملية شاقة تتطلب غاية الصبر والتحمل .. حيث إنها تفرض على الذي ينهض بأعبائها أن يكون ناصحاً لمعارضيه .. وأن يعرض عن أذاهم وإساءاتهم من طرفٍ واحدٍ ، كما يتعين عليه أن يعتبر مخاطبه "مدعوا"، حتى لو كان هذا المخاطب منافساً عنيداً سافر الخصومة له!!

وكما تنهى الصلاة المؤمن في حياته اليومية عن السوء ، تنهي كذلك الداعي عن سلوك مسلك أو تبنّي خطوة لا تليق به كداعيةٍ .. وإنه لن يكون داعي الله حقاً إلا الشخص الذي أصبح صدره معموراً بذكر الله ، والذي يكون قد صار بكل كيانه خاضعاً لله – سبحانه وتعالى!

﴿ ۞ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

المنهج الصحيح للداعي ، إذا حاول بعض الناس جره إلى نقاشٍ عقيمٍ لا طائل تحته، أن يفارقه بسلامٍ .. وأما الذين يستمعون إليه بجديةٍ ، فعليه أن يبذل جهده في إيضاح

أمر الحق لهم .. وينبغي أيضاً أن يكون الكلام الدعوي كلاماً حكيماً .. ومن مزايا الكلام الحكيم أن يراعى فيه نفسية المدعو مراعاةً تامةً .. إذْ أن الداعي يفرض حديثه بأسلوبٍ يجعل المدعو يأنس به لدرجة يعتبره معها حديثاً نابعاً من قلبه هو .. دون أن يعتبره - لفظاظة أسلوب العرض - حديث الغير ، فيزداد منه نفوراً وكراهيةً .

إن أسلوب الكلام الدعوي هو أسلوب النصح والموعظة ، وليس أسلوب الجدل والمناظرة !

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

الناس نوعان ، نوع يشمل أولئك الذين يتمتعون بعلم الحق سلفاً (أهل الكتاب) ، وآخر يضم أناساً لا يتمتعون بعلم الحق في ظاهر الأمر ، غير أنهم مع ذلك ، يكونون عارفين بالحق على مستوى الفطرة ، فلئن كان أولئك حاملي الكتاب ، فإن هؤلاء حاملو الفطرة .

وإن الناس سيعرفون الحق من فورهم لو كانوا جادين في الواقع .. فإن مجموعةً منهم إذا عرفته على مستوى الكتاب السماوي ، عرفه آخرون على مستوى كتاب الفطرة .. وعلى هذا سيبدو الحديث عن الحق للكل كأنما هو حديث قلبه .. بيد أن الناس لا يلبثون في الأعم الأغلب أن يصابوا بمختلف ألوان العُقَد النفسية ؛ مما يولِّد في نفوسهم مزاج الإنكار والجحود ؛ فهم لا يفتؤون ينكرون الصدق ، مهما اجتمعت القرائن الواضحة على ظهوره ، وتضافرت الأدلة والبراهين القاطعة لتأييده!!

﴿ وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

رداً على أولئك الذين كانوا يقولون : ما بال هذا النبي لم يأت من عند ربه بالآيات كما جاء بها – مثلاً – موسى من قبل ؟! قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ، أي أن أمر المعجزات يتعلق بالله وليس بالنبي .

إن دعوة النبي تعتمد أساساً على الدلائل .. والنبي دوماً يعرض دعوته ، وهو يستند إلى قوة الدلائل .. بيد أن الله سبحانه وتعالى قد يعطي ، نظراً لمصالح واعتبارات أخرى، لبعض الأنبياء آيةً (معجزةً) ، وقد لا يعطيها لبعضهم الآخر .

وإن الإيمان حدث شعوري .. وإنما الإيمان الحقيقي هو الذي يكون قد انبثق في قلب العبد اقتناعاً بدلائل الحق .. والمحق هو الذي يؤمن بالشيء بعدما فحصه واختبره جيداً في ضوء الدليل ، وأما الذي يثير مناقشاتٍ فارغة لا صلة بها بجوهر الموضوع ، فهو المبطل ذاته!.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

أَجَلٌ مُّسَمًّى: هو يوم القيامة.

بَغْتَةً: فجأة.

يَغْشَاهُمُ العَذَابُ: يجللهم ويحيط بهم.

إن أعمال الإنسان هي جنته ، وهي جحيمه .. ولو أُتيح لنا بصر نتمكن به من رؤية حياة الكافر العنيد الطاغي من حيث نهايتها المعنوية المحتومة ، لوجدنا كأن أعماله السيئة محيطة به من كل جانبٍ في صورة العذاب، ثم يأتي الموت ليقذف به في جهنم من صنع يده!

وطغيان الإنسان كثيراً ما يكون نتاجاً لغفلته وعدم وعيه بحقيقة ذاته، ولو زالت غفلته هذه ، واسترد وعيه وشعوره لعاد فجأة إنساناً آخر تماماً !!

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ۝٥٦ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٠ ﴾

لَنُبَوِّئَنَّهُم: لننزلنهم على وجه الإقامة.

غُرَفاً: منازل رفيعة عالية.

وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ: كثير من الدواب.

إن الهجرة هي ، من إحدى النواحي ، علم على تغيير منهج العمل .. وهذا التغيير يتمثل حيناً في تغيير مكان العمل ، كالانتقال من مكة إلى المدينة مثلاً ، ويتمثل حيناً آخر في تغيير ميدان العمل ، كالانتقال من ميدان الحرب إلى ميدان الدعوة، عن طريق صلح

الحديبية مثلاً .

وقد نزلت هذه الآيات تقول لضعفاء أهل الإيمان المقيمين بمكة: إنه لو كان أهل مكة يتناولونكم بصنوف الأذى والإساءة ، فلتغادروا إذن أرض مكة إلى أية بقعةٍ أخرى من بقاع أرض الله الواسعة .. ولتعبدوا ربكم هناك .. ومن هذا نعلم أن معنى الصبر والتوكل هنا هو الثبات على العبادة ، دون الإصرار على مجابهة العدو .. إذْ لو كان المقصود هو المجابهة لذاتها مهما كانت الظروف ، لأمر هؤلاء المستضعفين من أهل الإيمان أن يستميتوا في قتال المعارضين بلا هوادةٍ ، ولا يفكروا في الخروج من هناك على أية حالٍ !!

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ: فكيف يصرفون عن توحيده.

وَيَقْدِرُ لَهُ: يضيقه على من يشاء لحكمة.

إن خلق السماء والأرض واقعة عظيمة لدرجة أنه لن يتمكن من إنجازها إلا الله الواحد القهار القادر المطلق .. وهكذا فإن دوران الشمس والقمر ، وهطول الأمطار ، وخروج الشجر والنبات من الأرض ، كل ذلك وقائع أعظم من أن يقوم بإيجادها أحد غير الله – سبحانه وتعالى !!

وليس هناك حتى من بين الذين يمارسون بعض أنواع الشرك ، من يعتقد عن إلهه المزعوم أنه قام بإيجاد هذه الوقائع العظيمة .. وبالرغم من ذلك فإن كثيراً من الناس

يعبدون أشياء أو أولياء من الأحياء أو الأموات رجاء أنهم سيلقون البركة في أرزاقهم .. ولكن لما كانت كل القدرات والاختيارات العليا بيد الله وحده ، فمن هناك غيره تعالى يقدر على التدخل أو التصرف في تقسيم الرزق للعباد!

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

لَهْوٌ وَلَعِبٌ: لذائذ متصرمة ، وعبث باطل.

لَهِيَ الحَيَوَانُ: لهي دار الحياة الدائمة والخالدة.

الدِّينَ: العبادة والطاعة.

السبب الأصلي في ضلال الإنسان يرجع إلى أنه يستغرق في مباهج الدنيا ومسائلها إلى حدٍ لا يستطيع معه أن يفكر متحرراً من أسرارها ، مترفعاً عن مغرياتها ، فلكي تدرك الحقيقة لابد من أن تسمو بنفسك فوق الظاهر .. وبما أن أكثر الناس يعجزون عن السمو بأنفسهم فوق الظاهر، فإنهم لا يحالفهم التوفيق إلى إدراك الحقيقة كذلك .

ومن حينٍ إلى حينٍ يمر الإنسان في هذه الدنيا بتجارب شتى تذكره بمقدار عجزه وضعفه .. فعندها تتلاشى كل أفكاره المصطنعة عن نفسه .. ويستيقظ فيه "إنسان" الفطرة الحقة .. ولكن حين يعتدل الجو ويستقيم أمره ، يعود سيرته الأولى من الغفلة والطغيان .. ومن تلك التجارب الدقيقة تجربة السفر التي أشارت إليها الآية الكريمة .

ينبغي على المرء أن يضع في اعتباره دائماً أن فرصة الحرية والانطلاق هذه إنما هي

متاحة لمدة الحياة الدنيا القصيرة الأجل وحدها ، وأنه سيدخل بعد الموت إلى عالم جديدٍ تماماً، حيث تواجهه مشاكل وقضايا أخرى لم يكن له بها عهد !.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ: يستلبون قتلا وأسرًا.

مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ: مكان يثوون فيه ويقيمون.

إن الحرم المكي نعمة من الله عجيبة .. لقد فرض الله له هيبةً على النفوس، لدرجة أنه يَذْهَل هناك حتى الظالمون والطغاة عن ظلمهم وطغيانهم .. وقد كانت قدسية الحرم هذه آيةً من آيات قدرة الله .. وكان مقتضاها أن تخضع قلوب الناس ورقابهم لله رب العالمين وحده.. غير أن عبدة الباطل لم يلبثوا أن صرفوا اتجاه مشاعر العبودية لدى الناس إلى غير الله بإسباغ أوصاف الله عليه كذباً وبهتاناً .. ثم ازداد هؤلاء ظلماً على ظلمٍ إذْ نصح لهم رسول الله بأن ينبذوا تقديس هذه الآلهة المزعومة ، ويخضعوا أمام الله الواحد الأحد ، فناصبوه العداء وتناولوه بالأذى .

إن اتباع الحق في بيئةٍ تسودها عبادة الباطل ضرب من المجاهدة العنيفة .. والذي يتصدى لها يُنتزع منه كل ما عنده ، حيث تنقلب راحته وسكينته إلى قلقٍ واضطراب لا ينتهي .. ولكن يكمن في هذا الحرمان ذاته سر فوزٍ عظيمٍ .. ألا وهو المعرفة والبصيرة .. فلئن كان أمثال هؤلاء قد سُدَّت في وجوههم أبواب الناس ، فإن أبواب الله تنفتح لهم على مصاريعها ، فيأخذون ينالون من الله خيراً مما فقدوه في الدنيا .. وإنهم

بقدر ما يبتعدون عن أسباب الراحة المادية ، يقتربون من الكيفيات الربانية .. وإذ تكون الأشياء الظاهرية قد غابت عن أنظارهم ، فإن الأشياء المعنوية تتجلى لعيونهم ، وتبدأ تنكشف عليهم أسرار دقيقة لا يدري عنها العظماء والأغنياء وأرباب الجاه والسلطان الدنيوي شيئاً !

سورة الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

غُلِبَتِ الرُّومُ : قهرت فارس الروم .

أَدْنَى الأَرْضِ : أقرب أرض الروم إلى فارس .

غَلَبِهِمْ : كونهم مغلوبين .

وَأَجَلٍ مُّسَمًّى : وقت مقدر أزلاً لبقائها .

عند ظهور الإسلام كانت هناك إمبراطوريتان عظيمتان في العالم ؛ تعرف إحداهما بالإمبراطورية الرومانية المسيحية ، والأخرى بالإمبراطورية الفارسية المجوسية ، وقد كان بينهما عداء مستحكم وتنافس شديد من أجل السيطرة والتوسع ، وقد أغار الفرس في عام ٦٠٣ الميلادي على الإمبراطورية الرومانية مستغلين بعض مواطن ضعفها ، فأنزلوا بجيوشها هزائم متتالية ؛ مكنتهم من الاستيلاء حتى عام ٦١٦م على جزء كبير من المناطق الشرقية الخاضعة لدولة الرومان بما فيه القدس .

وقد نال رسول الله – ﷺ – النبوة عام ٦١٠ الميلادي ، وقام على إثر ذلك ، بدعوة

التوحيد في قلب الجزيرة العربية ، وعلى هذا فقد كانت تلك الأحداث متزامنةً مع الصراع بين التوحيد والشرك الذي كان يدور في مكة المكرمة حينذاك ، وتفاؤلاً بما جرى على حدود الجزيرة ، راح مشركو مكة يقولون للمسلمين : لقد هزم إخواننا الوثنيون (المجوس) إخوانكم من أهل الكتاب (المسيحيين) ، وكذلك سوف نقضي بدورنا عليكم وعلى دينكم الجديد!!

وفي ذلك الوقت ، وعلى النقيض تماماً من مؤشرات الأحوال القائمة ، تنبأ القرآن الكريم قائلاً بأن الروم سيغلبون الفرس مرةً أخرى في أقل من عشر سنواتٍ ، وفي أعقاب ذلك - كما يقول المؤرخون الروم - سرعان ما أخذ تغير مفاجئٍ يظهر في شخصية هرقل الملك الرومي المهزوم الفاقد العزيمة - على نحوٍ غامضٍ ، إلى أن شنَّ هجوماً معاكساً على الفرس في عام ٦٢٣م ، وأحرز عليهم انتصاراً حاسماً في عام ٦٢٤م ، ولم يكد ينتهي عام ٦٢٧ الميلادي، حتى كان قد استرد كل الأراضي الرومية المحتلة من قبضة الفرس ، وبذلك تحققت النبوءة القرآنية بكاملها حرفاً حرفاً .

ومن هذا يثبت أن مؤلف القرآن - إن صح التعبير - هو الله ؛ إذْ ليس ثمة من أحدٍ، غير الله - سبحانه وتعالى - يمكنه أن يخبر عن شئون المستقبل إخباراً يتسم بهذا القدر من الصحة والضبط !

كما يدل هذا الواقع على أن النصر والهزيمة بيد الله وحده ، فبقضائه تعالى يحصل أحد الناس على السلطة ، وينتزع زمامها من يد الآخر، وإن سقوط أمةٍ وصعود أخرى حدث دنيوي في ظاهر الأمر ، غير أن لهذا الظاهر باطناً،فوراء كل الأحداث تكون ملائكة الله يعملون بطريقةٍ مؤثرةٍ وحاسمةٍ،وإن كانت العيون البشرية لا تستطيع رؤيتهم،وهكذا فإن لهذا العالم الظاهري هو الآخر باطناً،ألا وهو عالم الآخرة !!

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ

وَأَجَلٍ مُسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

وَأَثَارُوا الأَرْضَ : حرثوها وقلبوها للزراعة .

السُّوأَى : العقوبة المتناهية في السوء (النار) .

إن الله – سبحانه وتعالى – إنما يُدرك على مستوى الذكر والفكر ، أي أن المرء يصل إلى الله عن طريق التدبر والتفكر ، ولقد بثّ الله دلائله في أرجاء هذا الوجود ؛ حيث أودعها في الإنسان ذاته ، ثم في آفاق الكون الخارجي المحيط به ، وأخيراً في تعاليم الأنبياء والمرسلين ، وإنه لن يظفر بالله سبحانه إلا الذين يقفون عند هذه الآيات الإلهية، وينظرون إليها بعين التأمل والاعتبار ، فالدليل ممثل الله في عالمنا الراهن ، فلو أهمل شخص دليلاً عُرض عليه ، فكأنما أهمل الله نفسه ، وإنه ليس لأمثال هذا عند الله شيء سوى الحرمان الأبدي!!

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُولَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨)﴾

يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ: تنقطع حجتهم . أو ييأسون .

يُحْبَرُونَ: يسرون . أو يكرمون .

فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ: لا يغيبون عنه أبداً

وَحِينَ تُظْهِرُونَ: تدخلون في وقت الظهيرة .

إن وجود عالمٍ كاملٍ متكاملٍ - كعالمنا هذا الذي نعيش في رحابه - برهان قاطع على الخلق الأول ، فإذا أمكن الخلق الأول فعلاً ، تُرى ، ماذا سيجعل الخلق الثاني مستحيل الوقوع ؟! بل الحق أن مَنْ ينكر الآخرة وهو يقر بالعالم الراهن ، فإنما ينكر مقتضى حتمياً لما هو مقر به بالفعل ، وعليه فإنه يعاني من التناقض مع ذاته من حيث يشعر أو لا يشعر .

والمراد بـ "المجرمين" أولئك الكبار الذين تزعّموا مسيرة إنكار الحق ، وقاموا بحشد الأدلة المفتعلة لإنكار الحق ، وحين يتغير نظام الكون ، عند قيام الساعة ، فسيرى هؤلاء المجرمون فجأةً أن كل تلك الدعائم كانت باطلة تماماً ، التي كانوا مرتكزين عليها في ثقة واعتزازٍ ، وأن الألفاظ التي كانوا يعتبرونها دلائل لا تُدحض في صالح موقفهم ، إذا بها صارت كلها هباءً ، لا تزن شيئاً في ميزان الحق ، وعندما يصادف القوم هناك هذا الوضع المناقض كلياً لآمالهم وأمنياتهم الحالمة ، فسوف يتملكهم ذهول ودهشة لا يوصفان!!

والناس في ساحة المحشر يوزعون على صنفين : المسبّحين بحمد الله ، وآخرين مُلئت حياتهم بكل شيءٍ عدا الحمد والتسبيح لله رب العالمين ، والمسبّحون بحمد الله هم الذين أدركوا الله بحيث أمسى ذكره تعالى يجري من أنفسهم مجرى الدماء في

عروقهم ، ويستقر شعور حي متجدّد بعظمته وجلاله في أعماق أفئدتهم ، فلا تكلّ عقولهم عن إدمان التأمل والتفكير في آلائه ، ولا تمل ألسنتهم من دوام التحدث بفضله ونعمائه ، والصلوات الخمس ما هي إلا أحد الأشكال المعينة لممارسة هذا التحميد والتسبيح ، فالمقصود بالتسبيح وقت الصباح هو صلاة الفجر ، بينما يشمل تسبيح المساء صلاتي المغرب والعشاء الآخرة ، أما التسبيح عند الدخول في الظهيرة فالمراد به صلاة الظهر ، وأما التسبيح عشياً (أي في آخر النهار) فالمراد به صلاة العصر !

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

تَنتَشِرُونَ: تتصرفون في شؤون معيشتكم .

لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا : لتميلوا إليها وتألفوها .

إن عالمنا الراهن يزخر بوقائع شتى كثيرة تدعو إلى الدهشة والاستغراب، ومنها تحول شيءٍ إلى شيءٍ آخر ، إذ تتحول هنا المادة غير القابلة للنمو إلى مادةٍ قابلةٍ للنمو ، كما يتحول التراب الجامد الهامد ، إلى شكل إنسانٍ يمشى ويتكلم ! كما أن كل هذا يحدث على نحوٍ هادفٍ حكيم، وعلى سبيل المثال حين يمر "التراب" بشتى الأطوار والمراحل، لكي يستحيل إنساناً ، فيصب نصفه تقريباً في قالب الرجل ، والنصف المتبقي في قالب المرأة ، وإلى هذا التقسيم يرجع الفضل في بقاء النوع البشري واستمرار الحضارة الإنسانية منذ آلاف السنين ، إن هذا التحول العجيب ، والذي يخضع لنظام ضبطٍ وتنسيقٍ دقيق ، لا يمكن أن يقع إلا إذا أقررنا بوجود إلهٍ قادرٍ مطلق القدرة يتصرف

وراءه !!

الحقيقة هي أن المرء لو تأمل في خلق الله ، لبدا له كأن الله يتجلى في كل شيء ، وكأنه تعالى يشرف بوجهه الكريم من خلال كل شيء !!

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

الكون ، بكل موجوداته آية الله ، فإنشاؤه من العدم يشهد بقدرة الله على الإبداع، والتنوع الهائل في المخلوقات يدل على اتساع قدرة الله إلى غير نهاية ، وكون الأشياء على أتم درجةٍ من الحكمة والمعنوية يعكس اتصاف الله باللطف والرحمة ، ووجود أشياء مدمرةٍ كصاعقة الرعد والبرق يعرفنا بالله بوصفه عزيزاً ذا انتقامٍ ، واستحالة الأرض ، بعد تعرضها مدةً تطول أو تقصر لليبس والجفاف ، ناضرةً خضراء من جديد ، تشير إلى إمكان الخلق الثاني (البعث بعد الموت) .

كل هذه آيات الله ، غير أنها آيات لأولئك وحدهم الذين يصغون إلى نداء الكون الصامت ، والذين يستعملون عقلهم وعملهم في الاتجاه الصحيح !

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

لَهُ قَانِتُونَ: مطيعون منقادون لإرادته .

وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى : الوصف الأعلى في الكمال والجلال

إن نظام الأرض والشمس والكواكب والنجوم البديع في هذا الفضاء اللانهائي ، واقعة فذة ومدهشة، لدرجة أنه دليل صارخ في ذاته بأنه لم يقم إلا بقدرة "قيوم" ، وأنه لا يسير هكذا في غاية الانضباط والدقة إلا بقوة مسيّر ، ولو فارقه هذا الإشراف والدعم الخارجي المتواصل لمجرد لحظةٍ واحدةٍ ، لعم الكون كله فساد واختلال وفوضى ، إن طائرةً عاديةً في هذا العالم لا تلبث أن تتعرض للانفجار والعطب عندما تفلت من سيطرة الطيار عليها ، فكيف يُتصور إذن أن يسير هذا المصنع الكوني الهائل بدون أي مسيطرٍ أو ضابطٍ يشرف عليه ليل نهار!!

إن إعادة خلق الإنسان من جديدٍ بعد موته ، لأمر أيسر وأكثر سهولةً على خالق الكون ؛ بالنظر إلى آثار قدرته المتجلّية في أرجاء هذا الوجود ، وإن التسليم بالخلق الثاني، بعد مشاهدة الخلق الأول الذي يتم عرضه في هذا الكون كل حينٍ وآنٍ ، هو بمثابة التسليم بأمرٍ ثابتٍ لا يحتاج إلى مزيد برهانٍ ، حيث إن الكون زاخر بمظاهر قدرة الله وآيات حكمته الباهرة على مستوىً أعلى، ليس من المستبعد معه أن يُنسبَ إلى الله -جل وعلا - أي عملٍ إبداعيٍ يمكن تخيله أو هو يخرج عن نطاق الخيال البشري ؛ فإنما أمره تعالى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون!!

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن

يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

إن هناك من الأموال والعقارات ما يشترك فيه أكثر من رجلٍ ؛ وبالتالي يكون كل واحدٍ من الشركاء ملزماً بأن يراعي فيه حق الشريك الآخر ، أما أمر الله - سبحانه وتعالى - فإنه ليس من هذا القبيل ، إذْ أنه تعالى هو وحده مالك الكون كله بلا منازعٍ ولا شريك ، والمثال الصحيح لله هو مثال السيد والمملوك ، دون مثال الشركاء العديدين في مالٍ أو عقارٍ ، حيث توجد بين الله ومخلوقاته على نطاقٍ أوسع وأشمل النسبة نفسها التي نراها بين سيدٍ ومملوكٍ ، وكما لا يعطي السيد لمملوكه أو خادمه درجةً مساويةً مع نفسه هو ، كذلك ليس في الكون أحد يمكنه أن يرقى إلى مستوى الله أو ينافسه في ملكوته الأعلى، فإن إلى جانب الله السيادة المطلقة من غير ندٍ ولا شريكٍ ، بينما ليس إلى جانب الخلق كله سوى العبودية والمحكومية!!

وخضوع الموجودات كافةً للأنظمة التي فرضها عليها الخالق المبدع ، يدلنا على أن النسبة الصحيحة بين الله وخلقه هي نسبة السيد المختار على عبده الذليل ، وكل نسبةٍ أخرى سواها ستكون قائمةً على أساس فرضية إنسانية محضةٍ ، لا على أساس أي دليلٍ واقعيٍ!

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

فَأَقِمْ وَجْهَكَ : قومه وعدله .

لِلدِّينِ : دين التوحيد والإسلام .

حَنِيفًا : مائلا إليه مستقيما عليه .

فِطْرَةَ الله : الزموها وهي دين الإسلام .

فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا: جبلهم وطبعهم عليها.

لِخَلْقِ اللَّهِ : لدينه الذي فطرهم عليه .

ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ : المستقيم الذي لا عوج فيه .

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ : راجعين إليه بالتوبة والإخلاص .

وَكَانُوا شِيَعًا : فرقا مختلفة الأهواء .

الدين الحقيقي واحد ، وإنه قد نزل بشكله الكامل على كل نبي من الأنبياء ، وهو يُلخص في : الرجوع إلى الله الواحد ، وعبادة الله الواحد ، والتوجه الكلي إلى الله الواحد دون سواه ، هذا هو دين الفطرة ، وهذا الدين كامن في نفسية كل إنسانٍ بصورةٍ أبديةٍ ، وقد جاء الأنبياء قاطبة لتعليم البشر هذا الدين الواحد نفسه ليس غير ، ولكن الأجيال اللاحقة بأتباعهم الأولين لم تلبث أن حوّلت الدين الواحد إلى أديانٍ متعددةٍ ، وتعدّد الأديان والمذاهب ينشأ دوما عن تلك المباحث الإضافية التي يخترعها الناس على مر الأيام في تعاليم الأنبياء الأساسية ، كاختلاق تفريعات مستحدثة في العقائد ، وابتداع المسائل والآداب المزعومة في العبادات ، وإلباس الدين ثوب تفسيراتٍ جديدةٍ مجاراة للاتجاهات العصرية السائدة .. إلخ.

تلك هي الأشياء التي تجعل من الدين الواحد أدياناً في القرون المتأخرة ، وحين تتولد هذه الإضافات ، تعود هي ذاتها محور اهتمام الناس بدلاً من الدين الحقيقي ، مما يؤدي إلى التفريق والتحزّب على أساس إضافةٍ معينةٍ أو مجموعةٍ معينةٍ من تلك الإضافات ، بحيث تأخذ طائفة منهم تؤكد على هذه ، وأخرى تركز على تلك ، وهكذا

يصل الأمر في نهاية المطاف أن الأمة الواحدة (أتباع الدين الواحد) تنقسم على نفسها ، فإذا بها تتحول عملياً إلى فرقٍ وأحزابٍ دينيةٍ شتى ، وكل حزبٍ بما لديهم فرحون!

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

سُلْطَانًا : كتابا أو حجة .

يجد المرء نفسه في ظل الأحوال العادية مختاراً حرّ التصرف ، مما يجعله يطغى ويتفرعن في تلك الأحوال بلا حدودٍ .. وأما حين تُشعره الظروف الحرجة الدقيقة بمدى عجزه وضعفه، فعندئذٍ يرتفع عن ذهنه كل حجابٍ ، وبالتالي يرجع الإنسان إلى حجمه الحقيقي كما هو ، وعندها يأخذ ينادي الله في ضراعةٍ وخشوع معترفاً بعجزه وقلة حيلته .

وإن هذا لدليل نفسي على وحدانية الله ، فهكذا يُكشف للإنسان عن وجه الحقيقة ، لكي يراه من خلال تجربته الذاتية ، غير أن المرء ظلوم جهول لدرجة أنه حين تتغير الظروف والأحوال ، يعود سيرته الأولى من التمرد والغفلة والطغيان !

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ

فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾

فَرِحُوا بِهَا : بطروا وأسروا .

هُمْ يَقْنَطُونَ: ييأسون من رحمة الله .

وَيَقْدِرُ : يضيقه على من يشاء لحكمة .

رِّبًا : هو الربا المحرم المعروف .

لِّيَرْبُوَ : ليزيد ذلك الربا .

فَلاَ يَرْبُو : فلا يزكوا ولا يبارك فيه .

المُضْعِفُونَ : ذوو الأضعاف من الحسنات .

إن المؤمن يعد كل ما يصيبه في هذه الدنيا من الراحة أو البلاء من عند الله تعالى ، ولذا فهو يتوجه إلى الله في كلتا الحالتين ؛ شاكراً عند الراحة ، وصابراً عند البلاء والمحنة.

أما غير المؤمن فإنه يضع ثقته في نفسه ، مما يجعله يمرح ويتغطرس في أحوال الرخاء والعافية ، وعندما يشعر بأن قواه قد شُلّت ، ولم يعد لديه الآن حول ولا حيلة ، فلا يلبث أن يقع فريسة اليأس والقنوط ، لكونه يحس أنه قد بلغ حده الأقصى! وكأنها هذه شهادة الفطرة تدلنا على أن الاتجاه الأول هو الاتجاه الحقيقي ، وأن الاتجاه الأخير غير حقيقي .

ومن أمارات المؤمن أنه يبذل ماله ابتغاء مرضاة الله ، حيث إنه يخصص جزءاً من أمواله أيضاً لغيره من الفقراء والمحتاجين ؛ بغض النظر عما إذا كانت تربطه بهم صلة القرابة أم لا .. وإنما هو ينفق ماله لكسب أرباح الآخرة ، وليس لمجرد كسب الأرباح

الدنيوية وحدها كما هو شأن المرابين (آكلي الربا) !

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

إن خلق الإنسان أولاً ، وتوفير ما يحتاج إليه من القوت اليومي صباح مساء ثانياً ، ثم تعرضه للموت أخيراً ، كل هذه وقائع عظيمة لدرجة أن إحداثها يتطلب القوة الكونية ، وليس هناك أي موجودٍ مفترضٍ ، عدا خالق الكون ، يتمتع بمثل هذه القوة الكونية الجبارة ، والحقيقة هي أن التوحيد يحمل معه دليل صدقه ، والشرك يحمل معه دليل بطلانه .

إن مركز توجهات الجميع يكون واحداً ، فيما لو اتخذ كل إنسانٍ من الله الواحد الأحد إلهه ، الأمر الذي يتسبب في إيجاد مناخٍ من الوحدة والإخاء بين البشر ، وأما حين تُتخذ آلهة شتى من دون الله ، فإن أشياء كثيرة لا تُحصى تصبح مركز التوجه ومحور الاهتمام، مما يولد العناد والاختلاف والفرقة بين الأفراد والشعوب، وبالتالي يمتلئ البر والبحر والجو بالشر والفساد!

إن عاقبة انحراف الإنسان، وإن كانت ستواجهه في صورتها الكاملة الأبدية بعد الموت، إلا أنها قد يتم إظهارها، بصفةٍ جزئيةٍ مؤقتةٍ ، في هذه الدنيا ذاتها لكي تكون عبرةً وذكرى للناس!

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ

يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

لِلدِّينِ الْقَيِّمِ : المستقيم (دين الإسلام) .

لاَّ مَرَدَّ لَهُ : لا يقدر أحد على رده .

يَصَّدَّعُونَ: يتفرقون إلى الجنة وإلى النار .

يَمْهَدُونَ: يوطئون مواطن النعيم .

إن الأبرار والفجار مختلطون ببعضهم في العالم الراهن ، وستأتي الآخرة لكي تفرز كلا هذين الصنفين من الناس فرزاً ، ويومئذٍ سيكون الإنعام الإلهي خالصاً للذين عاشوا في العالم الراهن ربانيين متجردين مخلصين دينهم لله وحده ، وأما الذين كانت اهتماماتهم ورغباتهم مرتبطةً بغير الله ، فإنهم سوف يُحرمون هناك من رحمات الله للأبد!

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

إن هبوب الرياح الباردة الندية قُبيل نزول المطر ، إعلان بأن إله هذا الكون إله ذو رحمةٍ واسعةٍ ، إن الملاحة البحرية لها أهميتها البالغة في بناء التمدّن ، ولكن الملاحة في البحر لا تكون ممكنةً إلا إذا ظلت الرياح في إطارٍ معينٍ محدودٍ ، وهكذا ، فإن الرحلة الجوية في عصرنا الحاضر هي الأخرى تعتمد إلى حدٍ كبيرٍ جداً على ذلك الغلاف الهوائي السميك الذي يحوط الأرض من كل جانبٍ ، وليس هذا إلا بتدبير من الله

العزيز الرحيم .

وإنما الغرض من كل هذه العناية والتدبير هو أن يعيش الإنسان عبداً شاكراً لله رب العالمين ، وما بُعث الأنبياء والمرسلون إلا لكي يلفتوا انتباه الناس إلى هذه الحقائق البالغة الخطورة ، فمنهم مَنْ آمنوا بهم ، ومنهم من كفروا بهم ، وعندها نصر الله المؤمنين ، ودمر الكافرين ، وسيُعامل كلا الفريقين هذه المعاملة في الآخرة على نطاقٍ أوسع وأشمل وأمم!

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

فَتُثِيرُ سَحَابًا : تحركه وتنشره .

وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا : قطعا متفرقة .

الوَدْقَ : المطر .

مِنْ خِلالِهِ : فُرَجِه ووسَطِه .

لَمُبْلِسِينَ: آيسين من نزوله.

فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا : فرأوا النبات مصفرا بعد الخضرة .

حين يختار المرء طريق الحق ، كثيراً ما يتعرض لصعوبات شديدةٍ تقصم ظهره، كما حدث مع الرسول - ﷺ - وأصحابه الكرام في فجر التاريخ الإسلامي ، ولكن لا داعي لليأس والقلق مهما أحيط المؤمن بظروف بالغة القسوة، فإن الله الذي هو رحيم لدرجة أنه إذا كانت الحقول والمزارع بحاجةٍ إلى الماء ، سقاها بتحريك النظام الكوني ، لينصر السالكين في طريقه أيضاً بكل تأكيدٍ ، بيْد أن هذا النصر إنما يأتي بحسب تقدير الله نفسه ، وهٰذا فليس ينبغي ، إذا تأخر مجيئه ، أن يمتلئ قلب المرء كآبةً أو يأساً .

إن حديث الله حديث أوضح وأقطع ما يكون برهاناً، على أنه لا يُوفق إلى الإيمان بحديث الله إلا الذي ينظر في الأشياء نظرة فاحصةً متعمقةً ، ويُصغي إلى الأحاديث بانتباهٍ حادٍ، والذي يخلو مزاجه من عنصر العناد والتعنت ، بحيث إذا فهم أمراً بادر إلى الإقرار به فوراً ، وإذا اتضح له كون طريقٍ ما صحيحاً ، سار عليه في الحال!!

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

وَشَيْبَةً : حال الشيخوخة والهرم .

يُؤْفَكُونَ: يصرفون عن الحق والصدق .

وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ: لا يطلب منهم إزالة عتبه وغضبه تعالى عليهم – بالتوبة والطاعة .

إن الإنسان حين يولد يكون طفلاً غاية في الضعف ، ثم تليه سنوات عدة حافلةً بالقوة والشباب والحيوية ، إلى أن يفاجئه مرةً أخرى ضعف الكهولة والشيخوخة ، ومعنى هذا أن قوة الإنسان ليست ذاتيةً ، بل إنما هي معارة له لفترة محدودةٍ ، والخيار كله هنا بيد "المعطي" وحده ، فيُبقي عطاءه إلى متى شاء ، ويسترده متى يشاء !

وإنه لا يكاد المرء يهتم أو يكترث بأمر الآخرة في الحياة الدنيا ، ذلك لأن القيامة تبدو له شيئاً بعيداً ، بعيداً جداً ، كأنها ليست بواقعةٍ ، غير أن هذا ليس إلا جهلاً محضاً .. فإن القيامة يوم تقوم ، سيخيل إليه كأنه لم يلبث في العالم السابق غير برهةٍ يسيرةٍ من الزمن حتى وجد نفسه في العالم الآخر !!

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ : لا يحملنك على الخفة والقلق .

كان الناس في مكة يطالبون الرسول بأن يظهر لهم بعض الخوارق إن كان هو نبي الله حقاً ، غير أن طلب القوم هذا لم يلق الإجابة ، والسبب في ذلك أن الخوارق كانت غير مجديةٍ تماماً في تحقيق الهدف الأصلي المنشود ، فقد كان الإسلام يهدف إلى تغيير عمل الناس، وإنما يتغير العمل بتغير الفكر ، وليس بإدهاش الناس بخوارق العادات !.

ومن هنا نرى القرآن الكريم يركز كل التركيز على جوانب الاستدلال والإقناع وحده، فإنه يتوخى تغيير ذهن الإنسان عن طريق الدليل والبرهان ، ويبغي تأهيل المرء ليرى الواقعات من الوجهة الصحيحة ، ويتبنّى أحكاماً وآراء صائبةً سديدةً تجاه

القضايا والأمور الحياتية المختلفة.

والحقيقة هي أن مشكلة الإنسان الجوهرية تكمن في صحة الفكر، ولو أن المرء لم يكن قد أيقظ في نفسه الفكر الصحيح السليم، لما منعه شيء، حتى بعد مشاهدة المعجزات والخوارق، أن يرفضها بدورها بترديد بعض الألفاظ الفارغة الحمقاء،كرفضه من قبل الأدلة والبراهين باللجوء إلى ألفاظٍ مماثلةٍ.

والطبع على القلوب لكون أصحابها من : "الذين لا يعلمون"، يعني أن يُحال بينهم وبين إدراك الأمور بسبب انعدام الصحة الفكرية لديهم، والمرء إذا كان يعوزه القدرة على الحكم أو تكوين الرأي فإنه لا يستطيع رؤية الأشياء من وجهتها الصحيحة، ومن أجل ذلك فهو لا يتمكن بطبيعة الحال من استخلاص التوجيه الصحيح المفيد لنفسه من دراسة الأشياء.

وإن العبد الذي ينهض بدعوة الحق الخالص النقي، يواجه دوْماً برد فعلٍ مثبطٍ من قِبل الناس، إذ الداعي يتحدث عن الآخرة وحدها، بينما تكون أذهان المستمعين مشغولةً بالهموم والقضايا الدنيوية البحتة، مما يجعل الناس يحتقرون الداعي أيما احتقارٍ، ويحاولون الاستخفاف بشأنه والتقليل من أهميته من جميع النواحي، حتى ليبدو حديث الداعي كأنه حديث تافه لا يقام له وزن ولا يستحق أن يُصغى إليه !.

وهذا الوضع، كما هو ابتلاء بالنسبة إلى المدعو، محنة للداعي كذلك، وفي وقتٍ كهذا يجب على الداعي ألا يفقد ثقته ويقينه بدعوته، فلو أنه فقد يقينه تحت ضغطٍ من الظروف، واشتداد وطأة الأحوال، فسيأخذ يتحدث حديثاً ربما يبدو ذا أهميةٍ لعامة الناس، ولكنه سيكون كلاماً عديم الأهمية فاقد القيمة على الإطلاق عند الله – سبحانه وتعالى!!

سورة لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ .

الإحسان في أصل معناه اللغوي : الإتقان للعمل ، أي إنجازه على أفضل وجهٍ ، والمحسن: فاعل الإحسان أو المتقن لعمله ، ومقياس كوْن عملٍ ما حسناً في هذه الدنيا هو أن يكون مطابقاً للحقيقة الواقعة ، وعليه فالمحسن هو : الذي يعترف بالحقيقة الواقعة ، والذي يكون عمله كما ينبغي أن يكون وليس بالعكس .

والذين يمتلكون مزاج التكيف مع الحقيقة الواقعة ، إذا ما تبيّن لهم الصدق ، فلا يلبثون أن يتلقوه بالقبول ، لا تحول بينهم وإياه أية تعقيداتٍ أو عوائق نفسية ، ويأخذون في ممارسة كل مقتضيات العملية من غير تحفظٍ ولا ترددٍ ، وهم بالتالي يصبحون : مقيمي الصلاة ، التي هي علامة لتأدية حق الله ، ويؤدون الزكاة ، حيث إنها تعني أداء حق العباد في دائرة المال ، ويصيرون محبين للآخرة بدلاً من حب الدنيا ، لكونهم يعلمون أن الآخرة ، لا الدنيا، هي الدار التي يتقرر فيها مصير الإنسان النهائي إلى الفلاح أو إلى الخسران !

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

لَهْوَ الحَدِيثِ : الباطل المُلهي عن الخير والعبادة .

هُزُواً : سخرية - مهزوءا بها .

وَلَّى مُسْتَكْبِراً : أعرض متكبرا عن تدبرها .

وَقْراً : صمما مانعا من السماع .

الأحاديث نوعان: النصيحة والتسلية ، وبما أن النصيحة تبعث في النفس الشعور بالمسئولية ، وتدعو المرء إلى فعل شيءٍ وترك شيءٍ ، فإنها كانت - ولا تزال - موضع اهتمام قلةٍ من الناس قليلةٍ جداً في كل العصور ، وأما مزاج الإنسان العام فقد ظل دوماً مولعاً بأحاديث التسلية والمجون ، وفي مقابل «كتاب» النصيحة والموعظة ، فإنه يحرص غالباً ، على شراء الكتاب الذي يتضمن مواد التسلية والمتعة الذهنية ، دون أن يفرض عليه أية مسئوليات والتزامات ، أو يأمره بأداء واجبٍ ما . ومن أعظم الناس جرماً الشخص الذي لا يكتفي بذاته في الاشتغال باللهو والمجون ، بل يأخذ في إلهاء الآخرين بفنون التسلية الفارغة والمتعة الباطلة كذلك ؛ ذلك لأنه نصب من نفسه قائداً لهذا الانحراف الذهني ، وأنه شغل أذهان الناس بما لا خير فيه ولا فائدة ، حتى جعلهم غير صالحين لكي يوجهوا عنايتهم نحو الأحاديث الجدية والمفيدة .

إن نفسية الاستكبار هي أسوأ النفسيات إطلاقاً ، والذي يكون مصاباً بنفسية الاستكبار ، فإنه لا يكاد يعترف بالحق وإن ظهر أمامه في أجلى مظاهره ، بل إن شعوره بالكبرياء والاستعلاء يدفعه إلى مقابلة الحق بالاحتقار وعدم الاكتراث ، وعلى نقيضٍ من هذا تماماً يكون حال أهل الإيمان ، فإن مزاجهم المولع بالنصيحة يرغمهم على أن

يبادروا إلى الاعتراف بالحق وأن يسخروا حياتهم كلها لخدمته !!

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾.

بِغَيْرِ عَمَدٍ : بغير دعائم وأساطين تقيمها .

رَوَاسِيَ : جبالاً ثوابت .

أَن تَمِيدَ بِكُمْ : لئلا تضطرب بكم .

وَبَثَّ فِيهَا : نشر وفرق وأظهر فيها .

زَوْجٍ كَرِيمٍ : صنف حسن كثير المنفعة .

الكون فضاء رحيب إلى غير نهايةٍ ، يدور فيه ما لا يُحصى من الأجرام السماوية الضخمة بانتظامٍ ، وإن بقاء هذه الأجرام متماسكة في أماكنها ، رغم دورانها المستمر في الفضاء اللامتناهي ، واقع عظيم لدرجة تثير الدهشة والإكبار ، ثم إن أرضنا هذه كوكب استثنائي فذ ، بكل معنى الكلمة ، في هذا الكون ، حيث توجد هنا أسباب وتدابير لا يحصيها عدّ ؛ جعلت الحياة الإنسانية فوقها ممكنةً وجديرةً بأن تُعاش ، ومن بين هذه الأسباب والتدابير : وجود التوازن المدهش في الأرض بسبب ارتفاع الجبال على سطحها ، وتوافر أشياء عجيبة وضرورية للحياة كالماء والهواء والنبات بمقادير هائلةٍ .. إلخ.

وإنه ليس هناك من أحدٍ ، غير الله الواحد الكبير المتعال ، يقدر على إقامة هذا النظام العظيم وإدارته .. إذن ، فكيف يجوز للإنسان أن يتخذ من أشياء أخرى دون الله مركز عبادته!!

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ .

لُقْمَانَ : كان صالحا حكيما وليس نبياً .

الحِكْمَةَ : العقل والفهم والفطنة وإصابة القول .

إن شخصية لقمان الحكيم يكتنفها الغموض من الناحية التاريخية ، وقد وردت عنه أخبار كلها غير مقطوعٍ بصحتها ، إلا أنه - على أية حالٍ - كان رجلاً صالحاً حكيماً عابداً لله - عز وجل !

حيث يقول القرآن الكريم: إن لقمان كان عبداً شكوراً لله ، وإنه أوصى ولده بتجنب الشرك ، وكلاهما أمر واحد ، إذ التوحيد ينبع من نظرنا إلى الله على أنه وحده ولي نعمتنا وصاحب المنة والإحسان إلينا ، وأما الشرك فهو أن يجعل المرء أحداً من دون الله ولي نعمته والمتفضل عليه ، وبالتالي يأخذ في توجيه عواطف الشكر والامتنان الجياشة في صدره نحوه!!. ولئن كان المعطي واحداً لا ثاني له ؛ فإن الشكر هو الآخر ينبغي أن يكون خالصاً له وحده كذلك!

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ : أمرناه وألزمناه .

وَهْناً : ضعفاً .

وَفِصَالُهُ : فطامه عن الرضاع .

أَنَابَ إِلَيَّ : رجع إليّ بالإخلاص والطاعة .

أعظم حق على الإنسان - بعد حق الله - لوالديه ، بيد أنه إذا ما تعارض أمر الوالدين مع أمر الله - سبحانه وتعالى - كان أمر الله مقدماً على أمر الوالدين ، ولكن لابد - مع ذلك - من القيام بخدمتهما ومواصلة البر بهما على مدى الحياة .. وهذه الموازنة الدقيقة بين واجبين أو مطلبين متقابلين هي أسمى صور الحكمة الإسلامية، وفي هذه الحكمة السامية يكمن سر النجاح الأعلى في كل شعب الحياة !

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ .

مِثْقَالَ حَبَّةٍ : وزن أصغر شيء .

وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ : لا تمل وجهك عنهم كبراً وتعاظماً .

مَرَحاً : فرحا وبطراً وخيلاء .

مُخْتَالٍ فَخُورٍ : متكبر ، مباه متطاول بمناقبه .

وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ : توسط فيه بين الإسراع والإبطاء .

وَاغْضُضْ : اخفض وانقص .

لقد أثبت التقدم العلمي الحديث أن كلمات الحاجز والفاصل والبعد (الزماني والمكاني) كلها نسبية ؛ فالأشعة السينية (أشعة إكس) بإمكانها أن ترى حتى داخل الجسم الإنساني ، كما أن الأشياء البعيدة أو المتناهية في الصغر ، التي تخفى عن عيوننا المجردة ، تبدو واضحةً جليةً عن طريق التلسكوب والميكروسكوب ، وهذا الإمكان الذي نجرِّبه هنا على مستوى محدودٍ ، يوجد عند الله سبحانه على مستوى غير محدودٍ .

إن عملك بالدين أو قيامك بدعوة الآخرين إلى الدين ، كلاهما مهمّة شاقة وعسيرة تتطلب الصبر ، والنهوض بأعبائها يفرض عليك أن تأخذ الأناة والتريث قبل الإقدام ، وتخالف هوى نفسك بدلاً من الانقياد لرغباتها ، وأن تتنازل عن كبريائك ، بدلاً من الحفاظ عليها ، وأن تتحمل أذى الآخرين وإساءاتهم من طرفٍ واحدٍ .

وكل هذه من عزائم الأعمال ، وإن الخلق المفعم بروح الجد والعزيمة هو الخلق الإسلامي ذاته!!

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾ .

سَخَّرَ لَكُم : لمنافعكم ومصالحكم .

وَأَسْبَغَ : أتم وأوسع وأكمل .

لقد أنشئ عالمنا الراهن بحيث يجده الإنسان ملائماً لنفسه من كل الوجوه والنواحي، هذا إلى جانب أن هذا العالم يتوفر فيه كل شيءٍ يحتاج إليه الإنسان بمقدار هائل ، ولكن الإنسان لا يشكر خالق الكون ، بل ربما يحاول - بإثارة مجادلاتٍ عقيمةٍ

فارغةٍ - أن يصرف توجه الناس عن الله رب العالمين!

وإن سبب انحراف الإنسان يرجع، في الأعم الأغلب ، إلى أنه لا يستعمل عقله ، ولا يُعمل فكره مترفعاً على العادات والتقاليد السائدة ، ولو أن المرء قد ارتفع بنفسه على التقاليد والعادات ، وتحرر من أسرها ، لصار العقل الذي زوّده الله به كافياً في ذاته لكي يوجهه نحو الاتجاه الصحيح!!

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝ ﴾.

يُسْلِمْ وَجْهَهُ : يفوض أمره كله .

اسْتَمْسَكَ : تمسك وتعلق واعتصم .

بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى : بالعهد الأوثق الذي لا نقض فيه .

عَذَابٍ غَلِيظٍ : شديد ثقيل (عذاب النار) .

إن كل امرئ له اتجاه معين في هذه الحياة ، وهو يكون منصرفاً إليه بكليته فكراً وعملاً ، والمؤمن هو الذي يتجه بكيانه كله نحو الله ، إن الحياة الإيمانية هي حياة إلهية الاتجاه، وأما الحياة غير الإيمانية فهي حياة لا إلهية الاتجاه .. ومنَ اتجه نحو الله ، فقد سار في اتجاه الهدف الصحيح ، وإنه واصل حتماً إلى مصيرٍ طيب وعاقبةٍ محمودةٍ .. وعلى نقيضٍ من هذا فإن مَنْ يغفل عن الله ويتجه بالتالي نحو غيره ، فقد صار بلا اتجاه صحيحٍ ولا هدفٍ معينٍ ، وقد يمكن أن ينال هذا الشخص بعض الفوائد الآنية في مجال هذه الحياة الفانية ، ولكن ليس ينتظره في حياة الآخرة الأبدية شيء سوى عذاب غليظٍ !!

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

يَمُدُّهُ : يزيده وينصب إليه .

سَبْعَةُ أَبْحُرٍ :مملوءة ماء .

مَا نَفِدَتْ : ما فرغت وما فنيت .

كَلِمَاتُ الله : مقدوراته وعجائبه أو معلوماته .

إن الكون يبلغ من العظمة والاتساع حداً لا يستطيع معه أي شخصٍ ادعاء أن له صانعاً آخر غير الله - جل وعلا ، ولكن الإنسان ، مع اعترافه بهذه الحقيقة الجلية ، يرفع أشياء أخرى من دون الله إلى مقام العظمة والقداسة ، وما الشرك إلا اسم آخر لهذا المسلك اللامعقول .

وإن عظمة الكون لأعظم من أن يُستطاع وصفها بالألفاظ ، إن تاريخ العلوم الطبيعية يغطي من المساحة الزمانية آلاف السنين ، ولكن ، بالرغم من أبحاث ودراسات هائلة تفوق الحصر ، لم يتمكن علم الإنسان بعدُ ، حتى من الإحاطة بأسرار شيءٍ واحدٍ وخفاياه إحاطةً كليةً شاملةً .. فكم في رحاب الفضاء عدد النجوم والكواكب؟ ، وكم عدد أنواع النبات والحيوان الموجودة على ظهر البسيطة ؟ وما كُنْه ذرةٍ من ذرات الرمال ، وحقيقة ورقةٍ من أوراق الشجر؟ ، وكم من عجائب ونفائس مخبوءة في أعماق البحار؟

وجملة القول: فإن أي شيء من أشياء الدنيا، مهما كان صغيراً أو كبيراً، لم يستطع الإنسان أن يستقصي عنه معلومات كاملةً وشاملةً .. إذن، أفلا يكفي هذا الواقع وحده للبرهنة على أن الإنسان لن يستطيع أبداً، حتى ولو صارت له كل أشجار الأرض أقلاماً، واستحالت بحارها مداداً، أن يدون آلاء الله ويصف عجائب صنعه التي لا تُعدّ ولا تحصى!!

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

يُولِجُ: يدخل.

الإنسان دليل في ذاته على أن ظهور الحياة الأولى ممكن، وإذا أمكن ظهور الحياة مرةً واحدةً، فإن ظهور الحياة مرةً ثانيةً وثالثةً بل مراتٍ ومراتٍ يصير ممكناً بطريق الأَوْلى والأحْرى.

وهكذا، كل واحدٍ منا يعلم، من واقع تجربته الذاتية، أنه يستطيع أن يسمع صوتاً، وأن يرى منظراً، وإذا كان سماع صوتٍ واحدٍ ورؤية منظرٍ واحدٍ ممكناً، فماذا يجعل من سماع الأصوات الكثيرة ورؤية المناظر الكثيرة أمراً مستبعداً أو مستحيلاً ؟!

وإيلاج النهار في الليل وبالعكس إشارة، في لغة الكناية، إلى تلك الظاهرة التي تُعرف في عصرنا الحديث بدورة الأرض المحورية، إن دوران الأرض في محورها بانتظامٍ ودقةٍ، وما إلى ذلك من ظواهر أخرى مماثلةٍ، يدل على أن خالق هذا الكون ومالكه إله عظيم إلى حدٍ لا يمكن تصوره، فمن هناك سواه، والحالة هذه، الذي

يستحق أن نعبده ونرفعه إلى مقام العلو والكبرياء في حياتنا؟!

والحقيقة هي أن كل ما يُرفع إلى درجة الكبرياء والعظمة من دون الله الواحد الأحد، الفرد الصمد ، فإنما يكون ذلك كذبًا وباطلًا ، إذْ ليس ثمة من أحد غير الله الواحد يتمتع بأية عظمة أو مجدٍ ذاتي حقيقيٍ !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

غَشِيَهُم مَّوْجٌ : علاهم وغطاهم

كَٱلظُّلَلِ :كالسحاب . أو الجبال المظلة .

فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ :موف بعهده شاكر لله .

خَتَّارٍ كَفُورٍ : غدار جحود للنعم .

لو أننا ألقينا بشيءٍ ما في البحر لغرق من فوره ، ولكن الله سبحانه قد أخضع الماء لقانون خاصٍ ، مما يجعل السفن والباخرات الضخمة لا تغرق في أعماق البحار ، بل تطفو على سطح المياه ، وتنتقل بالإنسان وأمتعته من مكانٍ إلى مكانٍ ، وهذا من غير شكٍ آية عظيمة ، بيد أن هذه الآية لن يعتبر بها إلا الإنسان الصابر والشاكر. أما الصابر فهو الذي يجنب نفسه الاندفاع وراء الأحاسيس الخاطئة والنزوات الطائشة . وأما الشاكر فهو الذي يستطيع أن يعترف بالحقيقة التي توجد خارج ذاته هو ، على أن البحر حين يهيج ، وتحيط بالمرء أمواجه العاتية كالجبال ، تتأرجح فيها سفينته كالقشة ، فيدرك كم هو عاجز وضعيف، عندئذٍ لا يلبث أن يذهل عن كل مظاهر الكبرياء والعظمة ، ويتوجه إلى الله وحده ؛ ليستغيثه في ضراعةٍ وابتهالٍ . وهذه التجربة التي يمر بها رُكاب

السفينة في البحر خليقة أن يستخلص الناس منها الدرس والعبرة ، ولكن قليل جداً هم الذين ينظرون إلى أمثال هذه الحوادث بعين التذكر والاعتبار ، ويسيرون بالتالي على جادة الحق والعدل بثباتٍ واستقامةٍ ، وأما أكثر الناس فتراهم إذا وقعوا في مصيبةٍ ما ، ذكروا الله وأنابوا إليه ، وإذا انقشعت غيوم المصيبة، عادوا ثانيةً سيرتهم الأولى من الجحود والطغيان ونكران الجميل !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

يَوْماً لاَّ يَجْزِي : لا يقضي فيه شيء .

فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ : فلا تخدعنكم وتلهينكم بلذاتها .

الغَرُورُ : ما يغر ويخدع من شيطان وغيره .

قد يبدو ظاهراً أن المرء مهما فعل من شيءٍ ، لن يؤاخذه أحد أبداً ، بينما تنتظره ساعة رهيبة لدرجة تنقطع معها الروابط حتى بين الوالد وولده ، فلا يعود يغني أحدهما عن الآخر فتيلاً !

"متى ستأتي هذه الساعة إن كانت آتيةً ؟!" .

إن طرح سؤال كهذا تجاوز عن حدودنا ، فالإنسان لا يدري شيئاً عن أحداث الغد القريب حتى في إطار عالمه المعلوم ، وعلى سبيل المثال ليس بإمكاننا التنبؤ ، بصيغةٍ

حتمية أكيدة ، عن نزول المطر ، وعن شئون الأجنة في الأرحام ، وعن مستقبلنا الاقتصادي ، وأين يفاجئ أحدنا الموت وفي أي مكان يُقبر ، إلخ . ولكن بالرغم من هذا القصور العلمي فإن الإنسان يسلم بهذه الحقائق كواقعةٍ لا مندوحة عنها ، وهكذا ينبغي عليه أن يوقن بيوم القيامة أيضاً على أساس الخبر الإجمالي غير المحدد!

سورة السجدة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ٱفۡتَرَىٰه : اختلق القرآن من تلقاء نفسه .

"هذا كتاب الله " : جملة وجيزة تتألف - على ما يبدو - من ثلاث كلمات غير أنها جملة صعبة وثقيلة ، لدرجة أنه لم يجرؤ على التفوه بها أحد على مدار التاريخ سوى أولئك النخبة الممتازة من البشر الذين كانوا قد نزل عليهم كتاب من عند الله حقاً ، ولو تجرأ أحد يوماً على التفوه بهذه الجملة ، فإنه لن يكون إلا مهرجاً أو مصاباً بالجنون، وإن كونه مهرجاً أو مجنوناً لن يلبث أن يتضح بجلاءٍ بعد مدةٍ غير طويلةٍ من الزمن.

أما القرآن الكريم فهو يحمل في ذاته برهان صدقه وحقيّته ؛ فأسلوبه المعجز ، وعدم ثبوت أية أخطاء علميةٍ في محتوياته على (مرجع سابق) القرون ، وانتصاره الحاسم على أعدائه ومعارضيه.. إن هذه وما إليها من خصائص أخرى مماثلة تقيم الدليل القاطع على أن القرآن كتاب منزل من عند الله - سبحانه وتعالى ، وما دام هو كتاب الله ، كان لزاماً على كل شخصٍ أن يصغي إلى إنذاره ، ويتأمل فيه بمنتهى الجدّية والإخلاص !

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ

ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾

اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ : استواء يليق بكماله وجلاله تعالى .

يَعْرُجُ إِلَيْهِ : يصعد الأمر ويرتفع إليه .

أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ : أحكمه وأتقنه .

سُلالَةٍ : خلاصة .

مَاءٍ مَّهِينٍ : منى ضعيف حقير .

سَوَّاهُ : قومه بتصوير أعضائه وتكاملها .

المقصود بالخلق في ستة أيامٍ (بمعنى ست مراحلٍ أو فتراتٍ) هو التنبيه على ما صاحب عملية الخلق من عنايةٍ وتدرّجٍ .. وإن إبداع الكون المتدرج ونظامه البديع الحكيم يدلنا على أن للخالق – جل وعلا – هدفاً خاصاً من هذا الإبداع العظيم .

ثم إن هذا الكون تجري في أرجائه أعمال شتى ووظائف لا تحصى بإتقانٍ وانتظامٍ عجيبٍ .. مما يثبت بمزيد الوضوح أن خالق الكون يقوم على تدبير شئونه بأسلوبٍ مخطط تخطيطاً واعياً دقيقاً .

والإنسان كائن حي فذ ،كل جانب من جوانبه مثار دهشةٍ واستغرابٍ ، حيث يظهر، من تحليل جسده كيماوياً،أنه مركب أساساً من التراب – أي العناصر الأرضية – ثم إن

خلقه الأوّلي هذا لم يتعرض للفناء وحده،بل تسبب في إيجاد غيره،فظل نوعه هكذا يتكاثر عن طريق التوالد والتناسل دون انقطاع.

وكل شخصٍ يتأمل في هذه الوقائع بإمعانٍ ، ستنعدم وتتلاشى من صفحة ذهنه كل مظاهر العظمة الأخرى غير عظمة الله الواحد القهار ، وسيعود بالتالي عبداً شاكراً لله .. ولكن قليل جداً أولئك الذين يتأملون بعمق وجديةٍ ، وللسبب ذاته قليلون جداً مَنْ يقومون بواجب الحمد والشكر لله رب العالمين!!

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ ۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ : ضعنا فيها وصرنا تراباً.

نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ : مطرقوها خزيا وحياءً وندماً .

حَقَّ القَوْلُ : ثبت وتحقق ونفذ القضاء .

الجِنَّةِ : الجن .

إذا وقف المرء بين يدي الله - عز وجل - للحساب ، تلاشت كل معاذيره .. وسيقول الطغاة والمتجبرون يومئذٍ ، وهم منكسو الرؤوس : ها نحن قد أيقنا يا رب ، فردنا إلى الدنيا مرةً أخرى لكي نعمل صالحاً .. غير أن إيمانهم هذا لن يجدي شيئاً .. إذ

لو كان الله سبحانه يريد إيماناً قسرياً كهذا ، لأرغم الناس جميعاً على الإيمان في الحياة الدنيا!. إن القيمة عند الله إنما هي للاعتراف الذي يتم بدون مشاهدةٍ ، أما الاعتراف بعد المشاهدة ، فلا قيمة له مطلقاً !!

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾

تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ : ترتفع وتتنحى للعبادة .

مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ : من موجبات المسرة والفرح.

إن الهداية لا يوفق لها إلا الذين يملكون مزاج تلقي الصدق بالقبول الفوري إذا ما ظهر أمامهم ، حتى ولو تم إظهاره على يد رجلٍ "صغيرٍ" عادي المظهر، ولو كان الإقرار به بمثابة الإقرار على أنفسهم بالخطأ، ولو كان التسليم به مؤدياً إلى هدم خريطة حياتهم من القواعد وإقامتها على أسسٍ أخرى جديدةٍ . إن الذين يتمتعون بهذه الروح المعنوية العالية هم الذين يظفرون بالصدق . وأما الذين يريدون أن يقروا بالصدق إقراراً لا يهدد كبرياءهم، ويضمن بقاء سيادتهم كما هي ، فإنهم لن يوفقوا للظفر بالصدق أبداً .

وإن مَنْ يفقد كبرياءه لأجل الحق يظفر بأكبر شيءٍ في الوجود ؛ ألا وهو كبرياء الله وجلاله ، ويسري الشعور بالله في أعماقه ، ويمتزج في حياته العملية بحيث إنه ينام وهو يذكره، ويقوم من الفراش وهو يذكره ، وتعود مشاعر خوفه ورجائه كلها مرتبطةً بالله وحده .. ويهب نفسه وكل ما عنده لله ، بحيث لا يستبقى منه لذاته شيئاً . وأمثال هذا

هم الذين ستقرّ أعينهم في جنات النعيم الأبدية!!

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

نُزُلاً : ضيافة وعطاء وتكرمة .

المؤمن هو الذي يعترف بالصدق الإلهي ، وأما الفاسق فهو الذي حين يظهر الصدق أمامه ، يقابله بالإنكار والتكذيب حفاظاً على ذاته ومصالحه ، وظاهر أن هـذين "دوران" يختلف كل واحدٍ منهما في جوهره عن الآخر تمام الاختلاف ، وأن مصير دورين ، بينهما هذا الاختلاف والتباين ، لن يكون متساوياً ومماثلاً أبداً .

وإن الشخص الذي يعترف بالصدق في العالم الراهن ، يقيم دليلاً على أنه يجعل الصدق أكبر الأشياء إطلاقاً ، ومثل هذا الشخص سيجعل في الآخرة "كبيراً" ، وعلى العكس من ذلك فإن الذي يعرض عن الصدق ، فإنما يعد نفسه هو الأكبر . وسوف يدخل شخص كهذا في عالم الآخرة الحقيقي ، قد جُعل منه أصغر الصاغرين!!

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾

فِي مِرْيَةٍ : في شك .

مِن لِّقَائِهِ : تلقيه إياه بالرضا والقبول .

أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ ؟: أغفلوا ولم يبين لهم مآلهم .

كَمْ أَهْلَكْنَا : كثرة إهلاكنا الأمم السابقة.

الْقُرُونِ : الأمم الخالية .

إن تحميل طائفةٍ ما أمانة الكتاب الإلهي يعني تسليمها مقاليد الإمامة للعالم ، غير أن مقام الإمامة العالمية لا ترتقي إليه طائفة إلا إذا أقامت الدليل على الصبر، وفي تفسير ﴿ لَمَّا صَبَرُوا ﴾ روي عن قتادة قوله : "أي لما صبروا عن الدنيا"[(١)].

والناس لا يدينون بالولاء لجماعةٍ أو شخصٍ ما ، باعتباره إماماً لهم إلا إذا وجدوه يفوقهم بمزايا فكرية وعملية، ويمتاز عليهم بخصائص معنويةٍ ساميةٍ ؛ تجعله يعيش للمبدأ في وقتٍ يعيش فيه الناس للمصلحة ، ويتحمس لمناصرة العدل ، عندما يتحمس الناس لمناصرة مطالبهم القومية .. إلخ ، وهذا هو الصبر ، والذين يقيمون الدليل على هذا الصبر ، يُقدر لهم وحدهم أن يكونوا أئمة الشعوب والأمم .

وإن الذين يثيرون الخلافات بين صفوف الأمة باختراع تفاسير جديدةٍ للدين ، إنما يعرّضون أنفسهم لخطر أن يرفضهم الله وما أحدثوه في دينه رفضاً باتاً ، ولا يقع بالتالي في نصيبهم شيء سوى الخزي والهوان الأبدي .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الثالث ، ص٧٧.

وإنه لا يكاد الإنسان ، في أغلب الأحوال ، يتذكر أو يعتبر ، إلا أن يمر عليه بدوره ما مرّ على غيره من قبل!!

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

الأَرْضِ الجُرُزِ : اليابسة التي قطع نباتها .

هَذَا الفَتْحُ : النصر علينا، أو الفصل للخصومة .

يُنظَرُونَ : يمهلون .

لقد كان المشركون في مكة القديمة يتمتعون بالغلبة والتفوق بكل المقاييس ، بينما كان الإسلام مغلوباً مقهوراً من جميع النواحي والاعتبارات ، مما جعل المشركين يسخرون من ضعف الإسلام وسوء حال المسلمين، وقد رد الله تعالى عليهم هنا بضرب مثالٍ بليغٍ فقال : ألستم تشاهدون من دلائل القدرة الإلهية أنه حين تكون بعض بقاع الأرض يابسة جرداء ، بحيث يخيل للناظر وكأنها لن تعود ناضرةً خضراء من جديدٍ أبداً ، يسوق الله نحوها السحب السوداء الثقال ؛ تهطل بالمطر الغزير ، فإذا بتلك البقعة التي كانت قبل أيامٍ يلفها الغبار القاتم والسموم اللافحة إذا بها تكتسي بصنوف النباتات والأزاهير الجميلة ، فالله الذي يقدر على هذا ، قادر أيضاً على أن يمكّن الإسلام من الازدهار والانتشار إلى حدٍ يصير معه هو الفكر الغالب السائد في هذا العصر وفيما يليه من العصور كذلك!!.

سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾

اتَّقِ الله : دُمْ على تقواه أو ازدد منها .

وَكِيلاً : حافظاً مفوضاً إليه كل أمر .

لقد كان رسول الإسلام - ﷺ - داعياً إلى الحق الخالص .. وإن مَنْ ينهض داعياً إلى الحق الخالص في هذه الدنيا ، تواجهه ظروف قاسية وأوضاع مثبطة للغاية .. حيث إنه يعود "غريباً" في مجتمعه بكل معنى الكلمة ، فالناس من حوله بين محبٍ للدنيا لا يروقه دين الداعي القائم أساساً على حب الآخرة ، وبين نفعيّ مساير لتيار العصر تتعارض مصالحه مع ما يدعو إليه الداعي من التجرد والإخلاص الكامل للحق وحده .. ومنهم مَنْ يكون قد أحال الدين "ملحقاً" بمذهبه القومي ، بينما يطالب الداعي بإقامة الدين على أساسٍ من العبودية الإلهية المحضة .

وفي هذه الحالة لو أن الداعي خضع واستسلم لضغوط البيئة ، لوجد في الناس كثيراً من الأعوان والأنصار يلتفون حوله ويقفون إلى جانبه . أما لو أنه ثبت على الحق الخالص ، لم يترك من دون الله ناصراً ولا معيناً ، وليس للداعي ، بأي حالٍ من الأحوال، أن يختار الطريق الأول: طريق الاستسلام والمداهنة. وإنما يتعين عليه أن يثبت على الحق الخالص معتمداً على الله ، واثقاً من أنه تعالى حكيم وعليم ، سينصر

عبده بكل تأكيدٍ ، ولن يخذله أبداً !!

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾

تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ : تحرمونهن كحرمة أمهاتكم .

أَدْعِيَاءَكُمْ : من تتبنونهم من أبناء غيركم .

أَقْسَطُ : أعدل .

وَمَوَالِيكُمْ : أولياؤكم في الدين .

إن عدم امتلاك المرء لقلبين اثنين في جوفه ، مما يدل على أن التناقض الفكري لا يتفق وشروع الله التكويني . ولئن كان الإنسان قد مُنح قلباً واحداً ؛ فإن فكره هو الآخر ينبغي أن يكون واحداً ليس غير ، فمن المستحيل أن يكون قلب واحد ملتقى نقيضين في آنٍ واحدٍ : بأن يجمع بين الإخلاص والنفاق ، وبين عبادة الله ، وعبادة الدنيا ، وبين العدل والظلم ، وبين الكبر والتواضع .. إلخ .

إذ المرء لا يسعه إلا أن يكون إلى أحد الجانبين ، وينبغي عليه بالأحرى أن يكون كذلك !!

هذا أمر مبدئي ، تندرج تحته بعض التقاليد التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي مثل : الظهار والتبني،فقد كان من عادة العرب في الجاهلية أن الرجل إذا قال لزوجته :

"أنت عليّ كظهر أمي" طُلقت منه،وصارت محرمة عليه إلى الأبد كما تكون الأم محرمةً على ابنها،وسُمي هذا ظهاراً. وهكذا كان اعتقادهم في الولد المتبنيّ أنه يصير كابن الرجل من صلبه ، وكانوا بالتالي يُجرون عليه أحكام الابن الحقيقي نفسها. وقد أبطل القرآن الكريم هذه العادة الخرافية من الأساس ، وأعلن صراحةً : أنه لما يتنافى تماماً مع النظام التكويني الفطري أن تصبح الزوجة - المظاهر منها - كالأم الحقيقية،أو يمسي المتبني كالابن الصُلبي سواء بسواء .

وإن الله سبحانه ليعفو عن الأخطاء ما دامت هي صادرةً عن جهالةٍ وعدم العلم . أما لو أصر المرء على مسلكه الخاطئ ، حتى بالرغم من بيان حقيقة الأمر له على نحوٍ واضحٍ جليٍ ، فإنه لا يعود بعدئذٍ جديراً بعفو الله وغفرانه !

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾

أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ : أرأف بهم ، وأنفع لهم .

وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ : مثلهن في تحريم نكاحهن وتعظيم حرمتهن .

وَأُوْلُو الأَرْحَامِ : ذوو القرابات .

إن النبي في حياته شخصياً ، وبعد وفاته مبدئياً ، أحق بأهل الإيمان حتى من أنفسهم . فأمره ينبغي أن يكون مقدماً على كل أمرٍ ، وحبه يجب أن يفوق كل حبٍ؛ ذلك لأن النبي يكون مندوب الله في هذه الدنيا ، ولكي تترسخ عظمة تعاليمه في النفوس ، لابد من أن يكون وجوده مقدساً في أنظار الناس ، حتى تعتبر أزواجه بدورهن بمثابة أمهاتهم في التوقير والاحترام وحرمة النكاح.

وأما بقية أفراد الأمة ، بعد النبي وأزواجه الطاهرات ، فإن أساس علاقات التوارث وتقاضي الحقوق فيما بينهم أخذا وعطاءً ، يقوم على القرابة الرحمية (النسبية) انطلاقاً من الأدنى فالأدنى . وقد يمكن ، بسبب بعض الضرورات الدينية الطارئة ، إقامة شركة مؤقتةٍ في الحقوق مع غير ذوي الأرحام ، كما حدث في أول العهد المدني في أعقاب الهجرة النبوية من المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين ، على أن ذوي الأرحام والقرابات النسبية هم الأولى ، والأحق بعضهم ببعض من حيث التنظيم الاجتماعي العتيد ، وسيظلون كذلك على الدوام!

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾

مِيثَاقَهُمْ : العهد على الوفاء بما حملوا .

مِّيثَاقاً غَلِيظاً : عهدا قويا على الوفاء .

إن المشروع الذي خلق الله الإنسان بمقتضاه هو الامتحان ، أي إسكانه في بيئةٍ حرةٍ مع تزويده بكل أسباب الحياة في العالم الراهن ، ثم مجازاة كل إنسان بما صنع ، إن خيراً فنعيم أبدي ، وإن شراً فعذاب أبدي.

ونوعية الحياة الامتحانية هذه تقتضي بالضرورة أن يتم إعلام الإنسان بالوضع الحقيقي على أكمل وجهٍ ، ولهذا الغرض ذاته أجرى الله سبحانه وتعالى سلسلة النبوة والرسالة . وليست النبوة إعلاناً بواسطة مكبر الصوت ، بل إنها مهمة باهظة التكاليف تتطلب غاية الصبر . ومن ثم أخذ من كل الأنبياء والمرسلين هذا الميثاق المؤكد الغليظ بأنهم سيقومون بأداء مهمة تبليغ الرسالة الخطيرة هذه مع رعاية جميع شروطها وآدابها،

ولن يدخروا أي جهدٍ في سبيل الوفاء بمقتضياتها أبداً !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ : الأحزاب يوم الخندق سنة خمس .

زَاغَتِ الأَبْصَارُ : مالت عن سننها حيرة ودهشة .

وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ : نهايات الحلاقيم (تمثيل لشدة الخوف) .

ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ : اختبروا بالشدائد ومحصوا .

وَزُلْزِلُوا : اضطربوا كثيرا من شدة الفزع .

كانت غزوة الأحزاب (عام ٥ من الهجرة) غارةً مشتركةً من قبائل العرب واليهود على المدينة، وكان عدد المغيرين فيها زهاء اثني عشر ألفاً ، ولم يكن المسلمون قادرين على الالتحام مع هذه الجيوش الضخمة، بيد أن الله تعالى أدخل إلى قلوب الأعداء -بتدابيره الخاصة - رعباً جعلهم ينصرفون بأنفسهم عن أطراف المدينة بعد حصارهم إياها قريباً من شهرٍ ، وإن مثل هذه الأحوال الشديدة إنما تواجه الدعوة الإسلامية لكي تميز المخلص من جماعة المسلمين من غير المخلص ، وثانياً : لتعلم القُوَى المعادية أن الله يتولى بنفسه حماية دينه، وأنه لن يدعه يُقهر ويُغلب على أمره أبداً !

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ

ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

غُرُوراً : قولا باطلاً . أو خداعا .

يَثْرِبَ: اسم المدينة المنورة قديماً .

لاَ مُقَامَ لَكُمْ : لا إقامة لكم ههنا .

إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ : قاصية يُخشى عليها العدو .

فِرَاراً : هربا من القتال مع المؤمنين .

مِنْ أَقْطَارِهَا : نواحيها وجوانبها .

سُئِلُوا الفِتْنَةَ : طلب منهم مقاتلة المسلمين .

وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا : ما أخروا المقاتلة .

يَعْصِمُكُم مِّنَ الله : يمنعكم من قدرة الله تعالى .

طارت نفوس المنافقين شعاعاً لما عرفوا مبلغ الخطر المحدق في غزوة الأحزاب .. وراحوا يبحثون عن المهارب للفرار بأنفسهم ، وأما أهل الإيمان الصادقون فقد ظلوا صامدين اعتماداً على الله ؛ لكونهم يعلمون جيداً أنه ليس أمامهم سوى الله ، وليس وراءهم سوى الله كذلك ، إذاً ، فالفرار من خطر أعداء الإسلام تعريض للنفس لبطش الله الذي عذابه أشد وعاقبته

أوخم .. وقد كانت أفئدتهم مشحونة بيقين يؤكد لهم: إننا لو ثبتنا في مواجهة العدو، لجاءنا نصر من الله وفتح قريب ، أما لو فررنا هاربين من جبهة الدفاع عن حمى الإسلام ، فإننا لن نستطيع إنقاذ أنفسنا آخر الأمر من الخزي والدمار حتى في هذه الدنيا، فضلاً عما سنلقاه في الآخرة من عقاب الله الشديد!

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾

الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ : المثبطين منكم عن الرسول ﷺ .

هَلُمَّ إِلَيْنَا : أقبلوا أو قربوا أنفسكم إلينا .

الْبَأْسَ : الحرب والقتال .

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ : بخلاء عليكم بكل ما ينفعكم .

يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ : تصيبه الغشية من سكراته.

سَلَقُوكُم : آذوكم ورموكم .

بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ : ذربة سليطة قاطعة كالحديد .

أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ : بخلاء حريصين على المال والغنيمة .

فَأَحْبَطَ الله : فأبطل الله .

بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ : كانوا معهم في البادية .

هناك رجل لو تخلف أو تهاون يوماً في الاستجابة لداعي الفداء والتضحية، لاعتراه ندم يعقد لسانه ، وآخر لا يتقدم للفداء والتضحية حين يُدعى إليها فحسب، بل يسعى لصدّ الآخرين عنها كذلك ، إن هذا إضافة التمرد إلى جانب التهاون ، وقد يمكن أن يقابل التهاون بالعفو ، ولكن التمرد غير جدير بالعفو البتة .

والذين تنطوي نفوسهم على التمرد والعناد ، لا قيمة لأعمالهم ولا يقام لها وزن .. حتى لو كانت صالحةً طيبةً في ظاهر الأمر ، فإن روح العمل الأصيل هو الإخلاص ، وهو الذي تخلو منه قلوب القوم كل الخلو .

وعدم التضحية للدين يكون دوْماً نتيجة حب الدنيا ؛ فالمرء يفقد دينه من أجل الحفاظ على دنياه ؛ ومن ثم فحيثما يجد أمثال هذا أن الدين قد اقترنت به بعض الفوائد الدنيوية أيضاً ، فإنهم يلجؤون هناك إلى استخدام مهاراتهم الكلامية ، لكي يتمكنوا من الحصول على أوفر قسطٍ من المغانم إيهاماً للمؤمنين بأن صلتهم بالدين لا تقل عن أحدهم متانةً بل تزيد ، وغيرتهم عليه مثل غيرتهم بل أشد ، وأما حيث يكون معنى الدين هو التضحية فلا يشعرون هناك بحاجةٍ أو رغبةٍ ما في إظهار التدين !

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ : قدوة صالحة في كل الأمور .

قَضَى نَحْبَهُ : وفي بنذره . أو مات شهيدا .

إن حياة الرسول وأصحابه تمثل نموذجاً دائماً للحياة العابدة لله يحتذي به أهل الإيمان إلى يوم القيامة .. إنها نموذج نتبين من خلاله ماذا يعني رجاء الله واليوم الآخر، وما معنى ذكر الله كثيراً ، وما الصمود في وجه المآزق الحرجة والظروف الصعبة، وكيف تكون الثقة في مواعيد الله، وما الإيمان الذي ينمو ويتجدد دائماً ، وكيف السبيل إلى الفوز به .. وما أسلوب الوفاء بالعهد الذي يعاهد المؤمن عليه ربه ؟!

ولقد قدّم الرسول وأصحابه أرفع نموذج عملي لهذه المعاني كلها ، فما وهنوا ولا ضعفوا ولا استكانوا في أحلك الظروف وأحرج الساعات . وقد أقاموا الدليل الباهر على الفكر الإسلامي والخلق الإسلامي في كل الشؤون والقضايا التي عالجوها أفراداً وجماعاتٍ .. وكانوا متمسكين بالحق قبل أن يمتحنوا ، كما ظلوا ثابتين على جادة الحق حتى في أثناء المحنة وبعدها ، لم يحيدوا عنها قيد شعرةٍ.

ثم إن حياة الرسول وأصحابه هي أيضاً النموذج الحي لحقيقة أن مصير فردٍ أو جماعةٍ ما لا يتقرر عند الله بدون امتحان ، فقد جرت سنة الله بخلق الظروف القاسية والأزمات لكي يتميز المؤمنون الصادقون من المدّعين الكاذبين ، ولم يكن في هذه السنة الإلهية أي استثناء من قبل ، ولن يكون هناك أي استثناء فيها .

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾

الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم : يهود قريظة الذين عاونوا الأحزاب .

صَيَاصِيهِمْ : حصونهم ومعاقلهم .

الرُّعْبَ : الخوف الشديد .

كانت الظروف في غزوة الخندق (الأحزاب) قد بلغت منتهى الشدة ، ولكن لم تندلع هناك نار الحرب الفعلية بين الفريقين ، حيث كفى الله المؤمنين القتال بأن أرسل ريحاً عاصفةً هوجاء وجنوداً من الملائكة ملأت قلوب الأعداء ذعراً ويأساً دفعهم إلى الانسحاب والعودة على أدراجهم . وقد كان ليهود المدينة (بني قريظة) مع المسلمين عهد الموادعة ، ولكنهم غدروا في تلك الساعة الحرجة ، فنقضوا العهد وانضموا إلى صفوف المشركين .

فلما انصرفت حشود المهاجمين عن المدينة ، زحف رسول الله - ﷺ - بأمرٍ من الله على مستوطنات بني قريظة ، حيث ضرب المسلمون حصاراً مشدوداً حول حصونهم وقلاعهم ، وظل هذا الحصار خمساً وعشرين ليلةً ، إلى أن تم تحكيم سعد بن معاذ بناء على طلب سادة بني قريظة أنفسهم ، وقد حكم سعد بن معاذ فيهم ما هو مقرر في شريعة التوراة نفسها للمجرمين أمثالهم ، أي أن يقتل شبانهم ، وتسبى نساؤهم وأطفالهم ، وتصادر أموالهم وعقاراتهم !! [(١)].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ﴾

---

(١) انظر : سفر التثنية ٢٠ : ١٠ -١٤.

أُمَتِّعْكُنَّ : أعطيكن متعة الطلاق .

وَأُسَرِّحْكُنَّ : أطلقكن.

سَرَاحاً جَمِيلاً : طلاقا حسنا لا ضرار فيه .

بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ :بمعصية كبيرة ظاهرة القبح .

تعطلت أنشطة المسلمين التجارية بسبب الهجرة ، هذا إلى جانب أنهم دخلوا في سلسلة حروبٍ متصلةٍ أضرمها أعداء الإسلام ، وترتب على ذلك أن بلغت حالة المسلمين الاقتصادية منتهى السوء والتردي ، وقد انعكست آثار ذلك على بيت الرسول - ﷺ - في أسوأ مظاهرها، حيث صار من المتعذر عليه حتى القيام بتوفير الحاجيّات الأساسية اللازمة لأهله .. إلى أن بدأت أزواجه - عليه الصلاة والسلام - في مطالبته بالزيادة في نفقاتهن .

إن الأزواج المطهرات لم يطالبن إلا بالنفقة الضرورية، ولكن الله سبحانه عبر عنها بزينة الحياة الدنيا ، وهذا في الحقيقة شدة في الإظهار ،كما أن كلمة "الفاحشة" هي الأخرى إنما جاءت هنا للغرض نفسه ، فقد كان رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم- مكلفاً بتكميل أعظم رسالةٍ في التاريخ البشري، ألا وهي القضاء على عصر الشرك ، وتأسيس عصر التوحيد ، وبالتالي كان مستحيلاً عليه - والحالة هذه - أن يعطي الأهمية لأي شيءٍ آخر في حياته؛ ومن ثم نزل الوحي يخيّر زوجات الرسول بين أمرين لا ثالث لهما: إما مرافقته - عليه الصلاة والسلام - بالصبر والقناعة ، أو مفارقته بالمعروف والإحسان ، أما إحراج الرسول وتشتيت فكره بإثارة النزاعات العائلية ، فذلك ما لا يُحتمل بأي حالٍ من الأحوال !

﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا

لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾

يَقْنُتْ مِنكُنَّ : تطع أو تخضع منكن .

فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ : لا تلن القول ولا ترققنه للرجال .

إن نساء النبي كن يتمتعن بمكانةٍ شبه قيادية في المجتمع . والقيادة مسئولية باهظة التكاليف ، حيث يضطر أصحابها في سبيل الخضوع للحق إلى تقديم تضحية أكبر من الرجل العادي ، ولهذا السبب وعد الله تعالى أمثال هؤلاء بالأجر المضاعف ، فلئن كان هؤلاء يستخدمون للعمل قوة إرادية أكثر بالقياس إلى غيرهم ، فإنهم يستحقون بالطبع أن ينالوا على أعمالهم جزاءً أكثر وأوفر من الآخرين .

وقد كانت نساء النبي ، لمكانتهن الخصوصية هذه ، يتكرر اتصال الآخرين بهن من حينٍ إلى حينٍ ، إذْ كان الناس كثيراً ما يختلفون إليهن للاستفسار في شتى الأمور الدينية .. ومن ثم أمرن بالتحدث إلى الآخرين بأسلوبٍ فيه شيء من الخشونة والجفاف، وليس بأسلوب يتسم بالرقة وعدم الكلفة كما يكون الحديث مع أحد الأقارب وذوي الأرحام!.

﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ : الزمن بيوتكن وكذا جميع النساء .

وَلاَ تَبَرَّجْنَ :لا تبدين الزينة الواجب سترها .

الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى : ما كان قبل الإسلام من الجهالات .

الرِّجْسَ : الذنب أو الإثم أو النقص .

وَالحِكْمَةِ : هدي النبوة أو أحكام القرآن .

في خطابٍ موجهٍ إلى أزواج الرسول يرشد الله تعالى هنا نساء المسلمين إلى كيفية معاشرتهن في البيوت ، فينبغي لهن - مبدئياً - أن يقرن في بيوتهن ، وألا يتخذن من التبرج والترفل في الحلل والحلي مقصدهن في الحياة كشأن النسوة الغارقات في حب الدنيا المبهورات بزخارفها ، بل يجب أن يكون مركز اهتمامهن أن يصبحن عابداتٍ لله حقاً ، باذلاتٍ أموالهن في سبيل الله بسخاءٍ ، ويبادرن إلى امتثال أمر الله ورسوله في كل شئون الحياة ، صغيرها وكبيرها ؛ وافق هواهن أو خالفه ، ويقضين معظم أوقاتهن في الاستماع إلى أحاديث الله ورسوله وتدبر معانيها ، وهذا أسلوب للحياة والمعاشرة يجعل مَنْ يتبعه إنساناً طاهراً وإنما الإنسان الطاهر هو الذي يحبه الله ويقع عند الله موقع الرضا والقبول!

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

وَالْقَانِتِينَ : المطيعين الخاضعين لله .

هذه الآية الكريمة تبين لنا ما هي الصفات التي يريد الله أن يراها في الرجال أو

النساء، إنها الصفات العشر التالية : الإسلام ، والإيمان ، والقنوت ، والصدق ، والصبر ، والخشوع، والتصدق ، والصيام ، والعفة ، وذكر الله .

وإن هذه الكلمات العشر لم تدع جانباً من جوانب العقيدة الإسلامية والسلوك الإسلامي إلا احتوته ، وخلاصتها أن كل شخصٍ يرجو المغفرة والإنعام عند الله ؛ ينبغي له أن يجعل من نفسه خاضعاً لأمر الله ، وموقناً بالله ، وأن ينقطع بوجوده كله لله ، وأن تكون حياته خاليةً من التناقض بين القول والفعل ، ويكون صامداً ثابتاً على الحق في كل الظروف والأحوال ، وأن يكون الشعور بعظمة الله وجلاله قد جعله إنساناً متواضعاً ؛ فصار يعد حتى القيام بسد حاجات الآخرين جزءاً من مسئوليته ، ويهتم بالصيام الذي هو تربية لضبط النفس، وأن يكون عفيفاً طاهر الذيل في مواجهة الرغبات الشهوانية ، وأن تصير آناء ليله وأطراف نهاره عامرةً بذكر الله سبحانه وتعالى. وهذه الأوصاف كما هي مطلوبة من الرجال، مطلوبة من النساء كذلك ، ومع أن دائرة ممارسة هذه الأوصاف تختلف من جنسٍ إلى آخر من بعض النواحي ، إلا أن الأوصاف نفسها متماثلة لكلا الجنسين على حدٍ سواء ، فأيما امرأةٍ أو رجلٍ لن يعد عند الله جديراً بالقبول إلا إذا وصل إليه تعالى متحلياً بالصفات العشر المذكورة أعلاه !!

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾

الخِيَرَةُ : الاختيار .

إن الإنسان خُلق مختاراً ؛ وهو مُطالب بتفويض اختياره هذا إلى الله. وذلك هو امتحان الإنسان الحقيقي في العالم الراهن. وإنما المهتدي إلى الصراط المستقيم حقاً هو الذي يجتاز هذا الامتحان الخطير بنجاحٍ .

ومن الأمثلة على ذلك : واقعة زواج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش؛ فقد كان زيد عبداً مُعتقاً ، بينما كانت زينب - وهي ابنة أميمة بنت عبد المطلب - تنتمي إلى أسرةٍ عاليةٍ من قريشٍ. ولما خطبها رسول الله - ﷺ - على مولاه زيد ، لم يرض أفراد أسرتها بذلك ، حتى امتنعت زينب بنفسها قائلةً : "أنا خير منه نسباً" ، ولكن حين تُليت عليهم الآية القرآنية المذكورة ، أذعنوا من فورهم ؛ فتم زواجهما في العام الرابع من الهجرة، تلك هي طبيعة الإسلام ، وما أحراها أن تكون هي طبيعة كل مسلمٍ ومسلمة!

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) ﴾

وَطَراً : حاجته المهمة كناية عن الطلاق .

حَرَجٌ : ضيق أو إثم .

أَدْعِيَائِهِمْ : من تبنوهم قبل نسخ التبني .

تزوج زيد من السيدة زينب في السنة الرابعة من الهجرة ، ولكنهما كانا في حياتهما الزوجية كالتنوين والإضافة - إن جاز التعبير - فتعذر الوفاق بينهما ، مما أدى إلى الفصل بينهما في العام التالي ، ولما جاء زيد إلى رسول الله - ﷺ - يستأذنه في تطليق زوجته ، سأله عن السبب ، فأجاب قائلاً : "إنها تتعظم علي لشرفها"، بيد أن النبي لم يسمح له بذلك بادئ ذي بدءٍ وقال : أمسك عليك زوجك واتق الله ، ولكنه عندما تكررت شكواه ، وزاد إلحاحه ، أذن له آخر الأمر في أن يفارق زينب .

ومن خلال تزويج زينب من زيد كان قد تم القضاء أولاً على عادةٍ متأصلةٍ في

نفوس العرب ؛ قائمةٍ على دوافع العصبية وحدها ، وهي أن الفوارق الاجتماعية لا ينبغي أن تقف عقبةً في طريق النكاح والزواج ، وأما بعد أن وقع الفصل بينهما ، فقد شاءت إرادة الله أن تكون هذه الحادثة سبباً في تحطيم عادةٍ خاطئةٍ أخرى .

فمن عادات العرب في الجاهلية أنهم كانوا يعتدّون المتبني كالابن الصلبي تماماً ، وبالتالي كانوا يجرون عليه أحكامه حتى في الميراث وفي حرمة النسب والمصاهرة. ولهدم هذه العادة ربما لم تكن هناك من صورةٍ عمليةٍ أفضل من أن يتم تزويج زينب من رسول الله - ﷺ- بعد تطليق زيد إياها ، حيث كان زيد مولى رسول الله تبناه، حتى صار يُدعى زيد بن محمدٍ ، وفي هذه الحالة كان زواجه - عليه الصلاة والسلام - من زوجة متبنّاه ، بمثابة انفجارٍ ضد هذه العادة ؛ إذْ كانوا يعتقدون أن حليلة المتبني محرمة على الأب كحرمة حليلة ابنه الحقيقي .

وكان رسول الله - ﷺ- قد تم إعلامه مسبقاً بأن زينب ستدخل بعد أن يطلقها زيد في عداد أزواجه ، كوسيلةٍ لإبطال هذه العادة الجاهلية، وبما أن نكاحاً كهذا كان من شأنه أن يجعله عرضةً للطعن والتشويه في المجتمع القديم ، لذا فما زال رسول الله - ﷺ- ينصح زيداً بإمساك زوجه عليه ، عساه ، إن لم يطلقها ، أن يتخلص من هذه المحنة الشديدة ، بيد أن الأمر المقدر في العلم الإلهي لابد أن يتحقق ، لا يحول دونه شيء ؛ فلم يلبث زيد أن طلق زينب ، التي زُوِّجت بعد ذلك من النبي - ﷺ- في عام ٥ من الهجرة، كتدبيرٍ عملي لنقض تلك العادة البالية من أساسها!!

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن

رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

فَرَضَ الله لَهُ : قسم له أو قدر أو أحل له .

خَلَوْا مِن قَبْلُ : مضوا من قبلك من الأنبياء .

قَدَراً مَّقْدُوراً : مرادا أزلا أو قضاء مقضيا .

حَسِيباً : محاسبا على الأعمال .

وعقب هذا الحادث ، وكما كان متوقعاً ، بدأت الدعايات المغرضة ضده - عليه الصلاة والسلام - على قدمٍ وساقٍ ، ودار على ألسنة الناس أن محمداً تزوج حليلة ابنه ، بينما تكون حليلة الابن حراماً على أبيه ، فقال تعالى رداً على تلك الأقاويل : إن محمداً لم يُرزق من الولد سوى البنات ، وإنه ليس أبا أحدٍ من الرجال ، أما زيد بن حارثة ، فإنما هو مولاه الذي تبناه ، ومتى كان المتبني ابناً حقيقياً ، حتى يكون الزواج من طليقته محرماً على من تبناه!؟.

ولِمَ تعرض - عليه الصلاة والسلام - في حياته لهذه التقلبات وأحداث المدّ والجزر، مع أنه كان رسول الله ؟!.

وجواب ذلك : أن الرسول مع كونه يتلقى الوحي من الله سبحانه وتعالى إلا أنه ملزماً أن يعيش عيشة البشر العاديين ، فيواجهه في عالم الامتحان الراهن من الأحوال والظروف ما يواجه الآخرين عداه ، ولولا ذلك ، لم تكن حياة النبي حجةً على عامة البشر ، وهذا هو السر في أن التوجيه النبوي إنما يُقدم في قالب الظروف الحقيقية ، وليس في قالب الظروف الخيالية المصطنعة ..

إن خاتم النبيين يعني حرفياً: هو الذي ختمت به النبوات والرسالات السماوية ، وكلمة "الخاتم" لا ترد بمعنى الطابع (Stamp) ، بل بمعنى المهر أو الختم (Seal) ، أي

العملية الختامية ، وختم الغلاف معناه إغلاقه بصورةٍ نهائيةٍ لا يدخل إليه أو يخرج منه بعدها شيء ، ومن هنا تقول العرب : "خاتم القوم آخرهم" .

وإعلان كونه - عليه الصلاة والسلام - "خاتم النبيين" في سياق هذا الحادث ذاته ، إن دل على شيءٍ فإنما يدل على أنه إذا كان لا نبي بعده ، صار من الضروري أن يتم إظهار كل الأحكام الإلهية والتوجيهات الربانية عن طريقه - ﷺ !

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾

بُكْرَةً وَأَصِيلاً : أول النهار وآخره .

إن اعتناق الدين الحق ، لا سيما في بيئةٍ يسودها الدين الزائف المغشوش ، يكون دوماً أصعب الأعمال على الإطلاق ، مما يجعل أهل الإيمان تغمرهم أحياناً مشاعر التذمر والخيبة واليأس ، وليس هناك لتفادي هذا الوضع غير طريق واحدٍ ، ألا وهو تركيز الأنظار على الجانب الحلو الجميل الذي يكمن وراء المنغصات والمثبطات الظاهرة ..

الناس في الغالب يعيشون على الماديات ، أما المؤمن فإنه يُضطر إلى أن يعيش على الأفكار (Ideas) ، والعيش على مستوى الأفكار يعني أن يعيش المرء غارقاً في ذكر الله الدائم ، وتأخذ آذانه تلتقط همسات الملائكة غير المسموعة، وينظر إلى الاكتشاف الفكري الذي يتوصل إليه في صورة الهدف الصحيح ، ينظر إليه على أنه هو الشيء الأكبر في الحياة ، ويمتلئ قلبه رضاً وطمأنينةٍ بما سيفوز به في الآخرة مقابل الدنيا يضحي بها في سبيل الحق!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

إن "الشاهد"، و"المبشر"، و"النذير"، و"الداعي"، كلها كلمات تعبر عن جوانب مختلفةٍ لحقيقة واحدةٍ، ورسالة النبي تتلخص في إعلام الناس بحقيقة الحياة، وإخبارهم بأحوال الجنّة والنار، وهذه مهمة دعوية، وعلى أساس هذه المهمة الدعوية ذاتها سوف يدلي النبي بشهادته أمام محكمة الآخرة على أولئك الذين أبلغ إليهم أمر الحق في الدنيا؛ فمنهم مَنْ آمن به ومنهم مَنْ كفر وناصبه العداء.

ورسالة النبي هي نفسها رسالة الأمة المسلمة كذلك، وفي هذا الطريق لابد من مواجهة شتى ألوان الأذى وضروب الإساءة من قبل الناس؛ فقد لا يخرج من بينهم نصير واحد للحق، وقد يقف بعضهم إلى جانبه ويناصره لبعض الوقت، ثم لا يلبث أن يتخلى عنه وينسحب هو الآخر مردداً بعض الألفاظ الكاذبة. وفي مثل هذه الأحوال فإن التوكل على الله وحده، هو العامل الوحيد الذي من شأنه أن يُثبت أقدام النبي – أو الدعاة السائرين على هداه – على العمل الدعوي، فالصبر على أذى الناس والإعراض عن إساءاتهم، والتوجه الدائم إلى الله على كل حالٍ، هما رأس مال العاملين في مجال الدعوة الإسلامية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

سَرَاحاً جَمِيلاً: عاريا عن أذى ومنع واجب.

يتزوج رجل من امرأةٍ ، ثم يطلقها قبل المساس أو الاتصال الزوجي ، فلا تجب العدة في هذه الحالة كما هو الشأن في حالات الطلاق العادية على أن من مقتضى الخلق الإسلامي أن تجري عملية التفريق بين الزوجين على نحوٍ مهذبٍ شريفٍ تماماً كما جرت به عملية الاقتران بينهما ، فلئن كانت المرأة قد فرض لها مهر ، فعلى الزوج أن يدفع إليها نصف المهر المفروض ، وألا يودعها بإحسانٍ بعد أن يمتّعها بشيءٍ حسب سعته ووفقاً للعرف السائد ، وللمرأة - إذا شاءت - حق في أن تتزوج بعد ذلك من أي رجلٍ آخر على الفور ؛ حيث إنها غير ملزمةٍ في هذه الحالة بقضاء العدة كما تقدم!

﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾

آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ: أعطيتهن مهورهن .

أَفَاءَ الله عَلَيْكَ : رجعه إليك من الغنيمة .

لقد حُصر عدد الزوجات ، بالنسبة إلى عامة المسلمين ، في أربع لا يحل تجاوزه ، غير أن النبي - ﷺ - لم يكن ملزماً بهذا القيد ، حيث تزوج - عليه الصلاة والسلام - بإذنٍ خصوصيٍ من الله - سبحانه وتعالى - بأكثر من أربع نسوةٍ . وقد كانت الحكمة من ذلك ألا يكون على الرسول أي نوعٍ من الحرج أو المشقة .

والمراد بالمشقة هو المشقة في أداء المهمة النبوية ، فبالنظر إلى شتى الأغراض الدعوية والمقتضيات الإصلاحية والتعليمية كان رسول الله - ﷺ - يشعر بالحاجة إلى التزوج

بعددٍ أكثر من النساء ، وبناءً على هذه المصلحة الدينية ، لم يوجب الله عليه الاكتفاء بالأربع كما أوجبه على المؤمنين ، وعلى سبيل المثال فقد كانت الحكمة من زواجه بالسيدة عائشة أن تكون بصحبته الدائمة امرأة صغيرة السن حادة الذكاء قوية الحافظة

لكي تقوم بعده - عليه الصلاة والسلام - بتعليم الناس أمور دينهم لمدةٍ طويلةٍ من الزمان ، ولقد ظلت السيدة عائشة بالفعل ، بعد وفاته - ﷺ - نصف قرنٍ تقريباً ، تنقل للأمة أقواله وأخباره وأفعاله المنزلية كشريطٍ مسجل حي ، كما نتج عن زواجه من السيدتين أم سلمة وأم حبيبة أن انتهت خصومة خالد بن الوليد وأبي سفيان بن حرب وخمدت عداوتهما لرسول الإسلام والمؤمنين به إلى الأبد ... وما إلى ذلك .

﴿ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾

تُرْجِي : تؤخر ولا تضاجع .

وَتُؤْوِي إِلَيْكَ : تضم إليك وتضاجع .

ابْتَغَيْتَ : طلبت .

عَزَلْتَ : اجتنبت بالإرجاء.

رَقِيباً : حفيظا ومطلعا .

يكثر إمكان التخاصم أو التظالم إلى حدٍ بعيدٍ حيث يتعلق الأمر بأكثر من امرأةٍ ،

ولقد كانت تحت رسول الله - ﷺ - عدة نساءٍ ، وكان من المحذور ، بناءً على ذلك ، أن تشكو زوجاته من عدم التسوية بينهن في حقوق الزوجية ، وبالتالي لا يتمكن - عليه السلام - من التفرغ لأداء مهمته الدينية والقيام بأعبائها على أحسن وجهٍ وأكمله ، ومن ثم أعلن الله - سبحانه وتعالى - مقرراً أن أمر النبي أمر خصوصي ، وهو غير ملزمٍ كآحاد المسلمين بالتسوية بين الأزواج ، فإذا ما تعارضت حقوق الزوجية مع حقوق الإسلام، جاز للنبي أن يفضل الأخيرة على الأولى ، وقد كان الغرض من استثناء الرسول - ﷺ - من القاعدة العامة: الحيلولة دون تولّد العقلية الاحتجاجية في زوجاته الطاهرات.. بيد أن الرسول - ﷺ - لم يستعمل هذا التخيير عملياً إلا في القليل النادر!

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾

غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ : غير منتظرين نضجه واستواءه .

فَانتَشِرُوا : فتفرقوا ولا تمكثوا عنده.

سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً : حاجة ينتفع بها .

في معرض بيان الأحكام الخاصة برسول الله - ﷺ - تم إرشاد المسلمين هنا إلى

آدابٍ ساميـةٍ لابـد مـن مراعاتها في حيـاتهم الاجتماعيـة ، فيجـب ألا يـدخلوا بيـوت الآخـرين إلا بعـد الاسـتئذان ، وإذا دعـاهم أحـد لتنـاول الطعـام في منزلـه أو لأي غرضٍ آخر ، فلا يطيلوا المكث عنده إلا بقدر الحاجة ، وليعودوا أدراجهم فور تفرغهم من ذلك ، وليجتنبوا الخوض في الأحاديث غير الضرورية فيما إذا توجهوا لزيارة بعض إخوانهم ، وإن كان الأمر يتعلق بالنساء ، فليؤدوه من وراء حاجزٍ وحجابٍ .. إلخ.

وفي الحياة الاجتماعية ينبغي على كل فردٍ ألا يضع نصب عينه مجرد رغبته أو حاجته الذاتية وحدها ، بل عليه أن يأخذ في اعتباره دائماً ألا يتسبب سلوكه في إلحاق الأذى أو الضرر بغيره ، ولا تكون أحاديثه غير الضرورية مضيعة لأوقات أخيه الثمينة!!.

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾

كـان الرجـال ، بموجـب الآيـة السـابقة (٥٣) قـد نُهـوا عـن مخاطبـة أزواج الرسـول مباشرةً - أي وجهاً لوجهٍ - وأمروا بالتحدث إليهن مـن وراء حـاجزٍ وحجـابٍ ، وقـد جاءت هذه الآية (٥٥) تستثني المحارم من الرجال والنساء من وجوب الاحتجاب من بعضهم ، وسيندرج تحت قائمة الأقارب المذكورين هنا تلـك القرابـات التـي تـدخل في حكمهم، وهذا التوجيه القرآني قد سبق ذكـره بمزيـدٍ مـن التفـصيل في الآيـة (٣١) مـن سورة النور .

وخلاصة كل الأحكام الشرعية هي: أن كل إنسانٍ - ذكـراً كـان أو أنثـى - يجـب أن يكـون قلبـه مفعـماً بخـوف الله وتقـواه ، ويـمارس حياتـه آخـذاً في حـسبانه أن الله - عـز وجل- يراقبه كل حينٍ وآنٍ !

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾ ﴾

يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ : يثنون عليه بإظهار شرفه وتعظيم شأنه ﷺ .

بُهْتَاناً : فعلا شنيعاً أو كذباً فظيعا .

لقد بُعث رسول الله – ﷺ – لإظهار دين الله في هذا العالم، وإن العبد الذي ينهض لعملٍ مقدسٍ كهذا – يحظى ولا ريب – بتأييد كاملٍ شاملٍ من الله وملائكته ، وبالتالي يكون مسايرته مسايرةً لله وملائكته، والإعراض عنه إعراضاً عن الله وملائكته .

وإن الذين تناولوا رسول الله بصنوف الأذى ، كان في حسبانهم أنهم إنما يؤذون أحد البشر، وغاب عنهم أنهم يؤذون في الواقع ممثل الله، والذين يتناولون ممثل الله بالأذى ، فإنما يجعلون من أنفسهم ملعونين عند مالك الكون إلى أبد الآبدين!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾ ﴾

يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ : يرخين ويسدلن عليهن .

جَلابِيبِهِنَّ : ما يسترن به كالملاءة .

وَالْمُرْجِفُونَ : المشيعون للأخبار الكاذبة .

لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ : لنسلطنك عليهم .

ثُقِفُوا : وجدوا وأُدركوا .

كيف تخرج المرأة المسلمة ، فيما إذا ألجأتها الضرورة إلى الخروج من بيتها ؟ ينبغي لها أن تخرج وهي مرتدية لباساً سابغاً يكون في ذاته إعلاناً صامتاً بأنها امرأة نبيلة ومتعفّفة، وأنها إنما خرجت لغرضٍ جادٍ وليس للتسلية ، وإن المشية الوقورة المحتشمة ، وكون البدن مغطى بالملحفة أو البرقع لمن علامات تلك الجدية والاحتشام والوقار ، والحقيقة هي أن المرأة إذا ما خرجت سافرةً متبرجة فكأنها تدعو الآخرين إلى التلفت نحوها وتعقبها بالنظرات الجارحة والتعليقات الماجنة . وأما إذا خرجت غير سافرة ولا متبرجةٍ فكأنها تقول للآخرين بلسان حالها : إنما أنا خرجت لأمرٍ يهمني ، وليس لي معكم من شأنٍ !!

ولعل المراد بـ"مرضى القلوب" هنا هم اليهود، إذْ أنهم هم الذين كانوا كثيراً ما يؤذون المسلمين والمسلمات كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، وهم الذين كانوا قد قُتلوا أو تم نفيهم عن المدينة وضواحيها وفق التحذير المذكور أعلاه!!

﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ : يرخين ويسدلن عليهن .

جَلابِيبِهِنَّ : ما يسترن به كالملاءة .

وَالْمُرْجِفُونَ : المشيعون للأخبار الكاذبة .

لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ : لنسلطنك عليهم .

ثُقِفُوا : وجدوا وأُدركوا .

إن السؤال عن وقت قيام الساعة على التحديد لا يعني أنهم لم يكونوا مؤمنين بقيام الساعة أصلاً، فالواقع أنه لم يكن استهزاءً بالقيامة ، بل بالذي جاء يخبر عن القيامة وينذر من أهوالها . إنهم لم يكونوا منكرين للقيامة في ظاهر الأمر ، وإنما منكرين لنوعية القيامة تلك،التي كان ينبئهم بها رسول الله وأصحابه .

وكان خطؤهم الحقيقي يكمن في أنهم قد اعتبروا رؤساء قومهم كبراء ، ولم يعتبروا الرسول كبيراً ؛ مما جعلهم يعدون حديث كبرائهم القوميين جديراً بالاعتبار ، ويعدون حديث الرسول غير ذي قيمةٍ ولا جدير بالاعتبار ، ومن ثم فحين تنكشف عليهم الحقيقة يوم القيامة ، يندمون أشد الندم قائلين : يا ليتنا أدركنا الفرق بين الكبرياء الزائف والكبرياء الصادق ، ولم نكن قد ضللنا وانحرفنا عن السبيل منخدعين ببريق الكبرياء الزائف !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

وَجِيهاً : ذا جاه وقدر مستجاب الدعوة .

قَوْلاً سَدِيداً : صواباً أو صدقاً أو قاصدا إلى الحق .

ما المراد بالنهي عن إيذاء "الرسول كاليهود الذين آذوا رسولهم موسى" ؟

يمكننا أن نفهم ذلك في ضوء واقعةٍ رواها الإمام أحمد ، نقلاً عن عبد الله بن مسعود قال : "قسم رسول الله - ﷺ - ذات يومٍ بين الناس مالاً ، فقال رجل من الأنصار : والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة" ، ولما ذُكر ذلك للنبي - ﷺ - قال : "رحمة الله على موسى ، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر" [(١)].

الكلام نوعان ، سديد وغير سديدٍ . أما الكلام السديد فهو الذي يطابق الحقيقة كل المطابقة ، والذي يكون مبنياً على التحليل الواقعي ، مصحوباً بالدلائل القوية الصلبة، وأما الكلام غير السديد فهو - بالعكس - الكلام الذي لا يراعي الحقيقة ، وإنما يقوم على أساسٍ من الظن والتخمين ، والذي لا يعدو كونه رأياً ارتآه صاحبه ، دون أن يكون تعبيراً عن الحقيقة الواقعة . إن النوع الأول هو كلام المؤمن ، والنوع الأخير هو كلام المنافق!!

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾

عَرَضْنَا الأَمَانَةَ : التكاليف من أوامر ونواهٍ .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الثالث ، ص١١٦.

فَأَبَيْنَ : امتنعن .

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا : خفن من الخيانة فيها .

المقصود بالأمانة: الاختيار. وإنما عبر عن الاختيار بلفظ الأمانة؛لأنه وديعة من الله خوّلها إلى الإنسان على سبيل الابتلاء لفترةٍ محدودةٍ من الزمان؛حتى يأخذ الإنسان نفسه بطاعة الله تعالى بمحض إرادته،والأمانة، بمعنى آخر،هي أن نقوم على أنفسنا ونتعهدها كنائبين عن الله،فنفعل بها ما يفعل الله بالنجوم والكواكب وسائر موجودات هذا الكون الفسيح، أي نخضع أنفسنا بإرادتنا واختيارنا لسيطرة الله المطلقة.

لا حاكم في هذا الكون إلا الله، وكل ما عداه محكوم ، ولكن شاءت إرادة الله - سبحانه وتعالى - أن يخلق كائناً حراً يمتثل لأمر خالقه باختياره الذاتي ، وبدون أي قهرٍ أو إجبارٍ خارجي . وقد كانت هذه الطاعة الاختيارية بلاءً جد عظيم؛عجز عن تحمل أعبائها حتى السماوات والأرض والجبال،ولكن الإنسان أخذها على عاتقه رغم خطرها الشديد. وقد صار الإنسان بذلك أميناً على أمانة إلهيةٍ في هذه الأرض. وهو الآن مطالب بأن يفعل بنفسه ما يفعله الله بالأشياء الأخرى . وهو مكلف بتنفيذ أحكام الله على نفسه بنفسه. إن الإنسان في حالة امتحانٍ،وهذا العالم الراهن هو بالنسبة إليه قاعة الامتحان الفسيحة.

وهذه الأمانة مسئولية جسيمة بالغة الخطورة ؛ لأنها مناط التكليف ، وعليها تترتب مسألة الثواب والعقاب ، وبما أن المخلوقات الأخرى مجبورة مقهورة ، لا تواجهها مسألة الثواب والعقاب . أما الإنسان فلكونه مختاراً حر التصرف يستحق الثواب أو العقاب بحسب عمله.

وقد رُوي عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أنه لما سأل الله آدم - وقد عرض عليه الأمانة بعد عرضها على السموات والأرض والجبال وإبائهن عن حملها - قائلاً : "هل أنت آخذ بما فيها"؟ ، قال آدم : "يا رب وما فيها"؟ ، قال : "إن أحسنت جُزيتَ ، وإن أسأت عُوقبتَ" !! [١].

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ، ٣ / ١١٧.

سورة سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝ ﴾

مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ : ما يدخل فيها من مطر وغيره .

وَمَا يَعْرُجُ : ما يصعد من الملائكة والأعمال .

إن الكون دليل خالقه المبدع ، فاتساعه الرهيب يدلنا على عظمة الخالق ، وكونه على أتم درجةٍ من التناسق والانسجام يعرفنا بأن مبدعه وجود كامل متكامل ، وكون أجزائه كلها تسير وتؤدي وظائفها بمنتهى التوافق ، بحيث لا يقع في سيرها أدنى خللٍ أو اضطرابٍ أبداً ، يبرهن على أن القائم بإدارته وتدبير شئونه ذو حكمةٍ وعلمٍ لا ينتهيان . وكونه ملائماً للإنسان إلى الحد الأقصى ، مما يوضح أن خالقه كريم ورحيم بمخلوقاته بلا حدودٍ ، والذي يتأمل في الكون بجديةٍ وإمعانٍ سوف لا يلبث أن يغمره شعور عارم بجلال الله وكماله ، وسوف يخرج من تأملاته مقتنعاً اقتناعاً لا يمازجه شك أن كل الأمجاد ومظاهر العظمة والكبرياء ، من الأزل حتى الأبد ، إنما هي لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، وليس هناك من أحدٍ غيره يستحق شيئاً منها على الإطلاق !!

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ

إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾

ولاَيَعْزُبُ عَنْهُ : لا يغيب عنه ولا يخفى عليه .

مِثْقَالُ ذَرَّةٍ : مقدار أصغر نملة أو هباءة .

مُعَاجِزِينَ : مسابقين ظانين أنهم يفوتوننا .

من رِّجْزٍ : أشد العذاب وأسوئه .

إن مخاطبي القرآن الكريم لم يكونوا منكرين للقيامة ، وإنما كانوا منكرين لأن القيامة ستكون بالنسبة إليهم خزياً أبدياً وعذاباً سرمدياً لا يزول ، إذْ كانوا يجدون أنفسهم آمنين من الناحية المادية ، في هذا العالم الراهن ، مما جعلهم يستبعدون كيف سينعكس حالهم ؛ فيعودون غير آمنين إذا دخلوا العالم الآتي ؟!

بيد أن هذا القياس باطل من أساسه ؛ فدراسة العالم الراهن تدلنا على أنه مؤسس على مبادئ أخلاقية خالدة ، ومنذ أن كان الكون قد تم إنشاؤه على الأساس الأخلاقي، فلابد إذن ، أن يتقرر مصيره النهائي هو الآخر على الأساس الأخلاقي ، وليس على أي أساسٍ مزعومٍ آخر .

وإن حقيقة الحياة والكون هذه الموجودة في كل الكتب السماوية ، ورسالة القرآن تلخص في إظهار هذه الحقيقة بشكلها الخالص النقي من كل شائبةٍ ، والآن فالذين يتصدون لمعارضتها ، هم يرتكبون خسارة جد عظيمةٍ ؛ يستحقون عليها عند الله أشد

العذاب .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

مُزِّقْتُمْ : قطعتم وصرتم رفاتا وترابا .

بِهِ جِنَّةٌ : به جنون يوهمه ما يقول .

نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ : نغيب بهم الأرض كقارون .

كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ : قطعا منها كأصحاب الأيكة .

مُّنِيبٍ : راجع إلى ربه بالتوبة والطاعة .

كان أهل مكة ينظرون إلى الرسول وأصحابه نظرة احتقار وازدراء ؛ دفعتهم إلى تناول كل ما يقولون بالسخرية والاستخفاف ، والسبب الحقيقي في ذلك كان يرجع إلى عدم تيقنهم من الآخرة. إن قلوبهم كانت خاويةً من رهبة المؤاخذة في الآخرة؛ مما جعلهم ، بطبيعة الحال ، لا يأخذون الأحاديث المتصلة بشأن الآخرة بالكثير أو القليل من الجدّية .

وإن أكبر عذاب يلقاه أحد في هذا العالم هو أن يُحرم من صحة الفكر، فإن شخصاً كهذا لا يتمكن من رؤية شيء ما في صورته الصحيحة ، ولا يوفق للاعتبار حتى بالحقائق الواضحة الصارخة ، وعلى سبيل المثال : لا تزال تتجه من جانب الفضاء

العلوي أحجار لا تُحصى نحو الأرض بسرعةٍ فائقةٍ ، ولو بدأت هذه الأحجار تنهال على المساكن الإنسانية ؛ لهلك الجيل البشري عن آخره في غضون أيامٍ معدوداتٍ. وهكذا يتكون الجزء الأكبر من باطن الأرض من مواد مصهورةٍ شديدة الحرارة (اللافا) ؛ لو أنها انفجرت يوماً على نطاقٍ غير محدودٍ ، لاحترق كل شيءٍ على وجه البسيطة واستحال رماداً ..

غير أن الله - سبحانه وتعالى - قد اتخذ في هذا الكون تدابير خصوصية تحول دون وقوع كارثةٍ شاملةٍ كهذه . وإن السماوات والأرض تزخر بأمثال هذه الآيات البينات التي تدل على مدى عجز الإنسان ، ولكن المرء إذا حُرم صحة التفكير ، لم تعد أية آية ، مهما كانت صارخة الدلالة عميقة المغزى ، تهديه إلى الصراط المستقيم .

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

أَوِّبِي مَعَهُ : سبحي أو راجعي معه التسبيح .

اعْمَلْ سَابِغَاتٍ : دروع واسعة كاملة .

وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ : أحكم صنعتك في نسج الدروع .

إن المؤمن حين يسبح لله ؛ وهو مستغرق في ذكره تعالى، فإنه يتناغم في ذلك الوقت مع الكون كله ؛ حيث يتجاوب كل شيءٍ في السماء والأرض معه في نغمات التسبيح الإلهي، بيد أن تجاوب الكون هذا يكون ، بالنسبة إلى عامة المؤمنين ، بلسان الصمت .

أما سيدنا داود - عليه الصلاة والسلام - فقد اختصه الله سبحانه بأنه إذا رفع عقيرته بالتسبيح ، أخذت الجبال والطيور في ترديد تسابيحه على نحوٍ محسوسٍ مسموعٍ .. كما علّم الله - سبحانه وتعالى - نبيه داود صناعة الحديد ، فقام - عليه

الصلاة والسلام - بتطوير فن إذابة الحديد وصوغه إلى حد أنه بدأ يعمل الدروع الخفيفة ذات الحلقات المتناسبة المتناهية في الدقة ؛ بحيث يتمكن المرء من أن يلبسها كما يلبس الثوب. ولم يكن هذا الفن قد ظهر في العالم إلى يومه ذاك، وإنما علمه الله إياه عن طريق الملائكة مباشرة .

والمؤمن يستطيع أن يبلغ أعلى درجات التطور والرقي في مجال الصناعة والعلوم ، ولكن يجب عليه أن يحصر استعمال التقدم الإنساني في دائرة الإصلاح وحده ، وأن يفعل ما يفعل آخذاً بعين الاعتبار دائماً أنه سيحضر في نهاية المطاف بين يدي ربه للحساب !!

﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

غُدُوُّهَا شَهْرٌ : جريها بالغداة مسيرة شهر .

وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ : جريها بالعشي كذلك .

عَيْنَ القِطْرِ : عين النحاس فنبع ذائبا كالماء .

يَزِغْ مِنْهُمْ : يمل ويعدل منهم .

مِن مَّحَارِيبَ : قصور أو مساجد .

وَتَمَاثِيلَ : صور مجسمة من نحاس وغيره .

وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ : ثابتات على المواقد لعظمها .

لقد قام سليمان - عليه السلام - بتطوير السفر البحري والتجارة البحرية إلى حدٍ كبيرٍ جداً، بحيث أعد السفن الشراعية من الطراز الأعلى ، هذا إلى جانب ما أنعم الله به عليه من جعل الرياح تجري وفق ما تشتهي سفنه البحرية في أكثر الأحيان. كما تطور في عصره فن إذابة النحاس وتحويله إلى ضروب الأواني والأمتعة تطوراً عظيماً . وقد كان سليمان - عليه السلام - يستخدم هذه المواهب والقوى غير العادية في شتى الأعمال البنائية والإصلاحية ، بما فيها صناعة تلك الأشياء التي ورد ذكرها ضمن الآية الأخيرة. إن الإنسان غارق في نعم الله تعالى من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، ولذا ينبغي أن تشغل عاطفة الشكر لله والثناء عليه الحيز الأكبر من وجوده وحياته ، ولكن هذا هو الشيء الذي لا يوجد لدى الإنسان بمقدارٍ أقل ما يكون .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ (١٤) ﴾

دَابَّةُ الأَرْضِ :الأرضة التي تأكل الخشب .

تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ : تأرض عصاه .

كان سيدنا سليمان متوكئاً عصاه يراقب الجن يشتغلون ببعض الأعمال الإنشائية ؛ إذْ وافته منيّته ، فقبض ملك الموت روحه ، ولكن جسده الهامد الميت مازال قائماً على عصاه كعهده ، فظل الجن مشغولين في عملهم ، وهم يظنون أنه - عليه السلام - جالس بالقرب منهم يشرف عليهم كعادته ، وبعد ذلك وقعت الأرضة في عصاه ، فأكلتها حتى نخرت ، فسقط جثمانه على الأرض ، وعندها أدرك الجن أنه قد مات منذ مدةٍ من الزمان!!. ولعل هذه الواقعة أن تكون قد وقعت بهذا الشكل لتقوم دليلاً عملياً

على بطلان عقيدة الناس القائلة بأن الجن يعلمون الغيب !

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾

لِسَبَإٍ : حي بمأرب باليمن .

لآيَةٌ : على قدرتنا أو عبرة وعظة .

جَنَّتَانِ : بستانان أو جماعتان من البساتين .

بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ : زكية مستلذة .

فَأَعْرَضُوا: عن الشكر أو كذبوا أنبياءهم .

سَيْلَ العَرِمِ : سيل السد أو المطر الشديد .

أُكُلٍ خَمْطٍ : ثمر مر حامض بشع .

وَأَثْلٍ : ضرب من الطرفاء .

سِدْرٍ: الضال أو شجرة النبق .

كان السبئيون من أرقى الشعوب المتمدنة في قديم الزمان ، وكانت مساكنهم باليمن الحالية ، وقد اتخذوا من مدينة مأرب عاصمةً لدولتهم ، ولقد استطاع هؤلاء إحراز تقدمٍ حضاريٍ كبيرٍ جداً في عصر ما قبل المسيح ، وظلوا حوالي ألف سنةٍ في قمة المجد والازدهار ، حيث إنهم كانوا قد بسطوا نفوذهم التجاري براً وبحراً ، وقاموا بإنشاء السدود والخزانات وفق تصميماتٍ هندسيةٍ دقيقةٍ . وقد كان لهم قرب مأرب سد كبير

كان يبلغ ارتفاعه ١٤ متراً طوله نحو ٦٠٠ مترٍ ؛ حصروا داخله مياه الجداول والممرات الجبلية ، واستخرجوا من شتى جوانبه قنواتٍ منسّقة متعددة الاتجاهات لسقي المزارع وإرواء الأراضي المرتفعة . وهكذا أضحت بلادهم تتدفق حيوية ونضارةً وخصوبةً لدرجةً أن المرء أينما توجه ببصره ، تراءت له عن يمينه وشماله سلسلة حدائق غناء وبساتين رائقة المنظر لا تكاد تنتهي.

وإنما أمكنهم إحراز كل هذا التقدم بسبب التدابير الإلهية ؛ ولذا كان ينبغي على السبئيين أن يكونوا شاكرين لله المنعم الوهاب . ولكنهم لم يلبثوا أن وقعوا ضحايا الغفلة والطغيان كما يكون حال الأمم الغنية السعيدة في الأعم الأغلب. وقد أخذ سد مأرب بعد ذلك يحدث فيه من حين إلى حينٍ ثقوب وتصدعات ، وكان ذلك بمثابة تحذيرٍ أوّلي من الله ، إلا أنهم تمادوا في غفلتهم ولم يعودوا إلى رشدهم ، حتى انكسر السد – كما تقول دائرة المعارف البريطانية – على إثر زلزال في أواخر القرن السادس الميلادي ، إلى حدٍ لم يعد معه أمل في إصلاحه وترميمه ، مما أسفر عن سيلٍ عارم جبار لا يقف دونه شيء ، خرّب المنطقة من أقصاها إلى أقصاها ، يضاف إلى ذلك أن هذه المنطقة بعد ذلك – لانعدام التربة ذات الخصوبة من أراضيها – لم تعد تصلح لشيء سوى الأحراش والنباتات البرية!!

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾

القُرَى : قرى الشام .

قُرًى ظَاهِرَةً : متواصلة متقاربة .

وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ : جعلناها على مراحل متقاربة.

فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ : أخبارًا يتلهى به ويتعجب منه .

وَمَزَّقْنَاهُمْ : فرقناهم في البلاد .

المراد بالقرى المباركة منطقة الشام الناضرة الخصيبة ، فقد كانت هذه المنطقة تمتد في رحابها طوابير متلاحقة من مستوطنات جميلة رائعةٍ من قلب اليمن حتى الشام . وبذلك كان السفر من خلالها قد صار نوعاً من النزهة اللطيفة الممتعة. وقد كانت هذه البيئة ، باعتبار حقيقتها ، مثيرة للعواطف الربانية ، وكأنها نصب الله ، ثمة يافطة صامتة تقول: امشوا هنا آمنين من كل خطرٍ ، واشكروا لربكم!

غير أن السبئيين الغافلين لم يتمكنوا من قراءة هذه اليافطة الإلهية ، وبالتالي فقدوا بمسلكهم العملي الشائن ذاك استحقاقهم لتلك النعم الجليلة ، فبادوا واندثرت آثارهم بحيث أصبحوا قصةً تحكى وحديثاً يُروى؛ إذْ نزحت قبائلهم بعد خراب المنطقة من ديارها وتشتت في مختلف الجهات النائية ، حتى ضرب بهم المثل فقيل : «تفرقوا أيادي سبأ» .

إن هذه الأحداث من وقائع التاريخ المعلومة ، غير أن العالم بها حقاً هو الذي يستخلص منها درساً يجعله لا يصاب بالأشر والبطر حين يتاح له من أسباب الرخاء والسعادة نصيب ، وإنما يعده هبة الله ، فيعيش شاكراً له - سبحانه وتعالى !!

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾

صَدَّقَ عَلَيْهِمْ : حقق عليهم .

سُلْطَانٍ : تسلط واستيلاء بالوسوسة والإغواء .

إن إبليس وأعوانه يرسمون خطتهم دوماً ضد مصلحة الإنسان . والمطلوب من الإنسان بهذا الصدد أن يعمل على إفشال خطتهم بتجنيب نفسه أن تقع ضحيةً لها ، إلا أن السبئيين لم يتمكنوا من إقامة الدليل على هذا الحذر والتعقل والبصيرة ، وإنما ساروا في طريق الغواية والدمار مندفعين وراء الترغيبات الشيطانية ، ولم يكن هناك سوى عددٍ يسير من أتباع الحق الذين نجحوا في هذا الامتحان .

وإن الله – عز وجل – لم يعط الشيطان أو ممثله أي سيطرةٍ فعليةٍ على أحد الناس ، وإنما أعطاه القدرة على الإغواء والوسوسة في النفوس ليس غير ، وذلك لكي يمتحن عباده. والناجح في هذا الامتحان الإلهي هو الذي يستمسك بالحق ويظل ثابتاً عليه بعيداً عن التأثر أو الميل إلى الترغيبات الشيطانية !!

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ : وزنها من نفع أو ضر .

ظَهِيرٍ: معين على الخلق والتدبير .

فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ : أزيل عنها الفزع والخوف .

الحَقَّ : قال القول الحق (الإذن بالشفاعة) .

على الرغم من أن أكثر الناس كانوا – ولا يزالون – يؤمنون بالآخرة في كل

العصور، إلا أن الشيطان مازال ينشر بينهم دائماً عقائد مزعومة تجعلهم غير خائفين ولا حذرين من عقاب الآخرة ، ومن بينها هذه العقيدة الفرضية القائلة بأن لبعض الذّوات عند الله مقاماً سامياً يمكنها من أن تشفع لمن تشاء شفاعة تقبل بالضرورة ولا تُرد أبداً !

غير أن كل عقيدةٍ من هذا النوع تقدير بخس لألوهية الله وجلاله. فما أغرب هذا الواقع وأكثره إثارة للعجب والدهشة أن الذوات التي قد استولى عليها من الشعور بعظمة الله ما يملؤها خوفاً وهلعاً دائمين لا ينقطعان ، يعتقد عبادها أنها ستكون كافيةً لنجاتهم عند الله عز وجل!!

﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

أَجْرَمْنَا :اكتسبنا من الزّلات .

يَفْتَحُ بَيْنَنَا : يقضي ويحكم بيننا .

وَهُوَ الفَتَّاحُ : القاضي والحاكم .

كَلاَّ : ارتدعوا عن دعوى الشركةِ .

إن الكون عظيم إلى حدٍ لا يمكن تصوره. وهو إلى جانب ذلك منطوٍ على حكمةٍ بالغةٍ ومعنويةٍ تدعو إلى الدهشة والإكبار. وإن كوناً هذا شأنه لابد أن يكون من صنع الله العزيز الحكيم. وإنه ليس بإمكان شخصٍ يدعي جاداً أن خالقه ومالكه تلك الذوات الأخرى التي قد افترضها الإنسان قديماً أو حديثاً من دون الله ، إذن، فهل ثمة

أحد غير الله الواحد يستحق مقام الكبرياء والجلالة في هذا الكون ؟ كلا !!

الحقيقة هي أن دراسة الكون تبطل كل النظريات المشركة ، فكل عقيدةٍ تتضمن الاعتراف بأي نوعٍ من العظمة لأحدٍ غير الله الواحد لا تلبث أن تتعارض مع طبيعة هذا الكون. وفي هذه الحالة فإن النظرية الصحيحة إنما هي التي تُبنى على أساس وحدانية الله ، وأما النظرية التي تقوم على التسليم بتصرف أي وجودٍ آخر من دون الله الواحد ، فهي نظرية مناقضة لذاتها !

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

كَآفَّةً لِّلنَّاسِ : إلى الناس جميعا .

كل نبيٍ مارس نشاطه الدعوي على نحوٍ مباشرٍ بين بني قومه وحدهم ، وذلك ما كان ممكناً من الناحية الفعلية وهكذا قام رسول الإسلام - ﷺ - منذراً ومبشراً لقومه مباشرةً (الأنعام : ٩٢) ، ولكنه لما كان خاتم الأنبياء والمرسلين قد انتهت به الرسالات السماوية ، صار - حكماً - هو المنذر والمبشر لجميع الشعوب والأمم إلى يوم القيامة . وإنما تقع المسئولية الآن على عاتق أمته - عليه الصلاة والسلام - أن تؤدي بالنيابة عنه واجب الإنذار والتبشير تجاه الآخرين ، تماماً كما أداه الرسول تجاه مخاطبيه الأولين في عصره . وستُعد هذه العملية الدائبة امتداداً لنبوته - ﷺ - ، فالعمل الدعوي الذي تم إنجازه في حياته داخل في دائرة نبوته بصفةٍ مباشرةٍ ، وينضم إليها ما سيؤدي من الأعمال بعد وفاته بصفة غير مباشرة. إن عمل النبي يقتصر دوماً على الإبلاغ وحده ، أما تقرير مصائر الشعوب العملية فهو مما

اختص به الله تعالى نفسه في هذا العالم وفي العالم الآتي بعده على السواء!.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

مَوْقُوفُونَ : محبوسون في موقف الحساب .

يَرْجِعُ : يرد .

مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ : صدنا مكركم بنا فيهما .

أَندَادًا: أمثالا من مخلوقاته نعبدها .

وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ : أخفوا الندم أو أظهروه .

الأَغْلالَ: القيود تجمع الأيادي إلى الأعناق .

إن إنكار الحقيقة هو الجريمة الكبرى على الإطلاق . وبما أن عاقبة هذه الجريمة لا تظهر في هذه الدنيا ، لا يزال المرء ينكر الحقيقة دونما خوفٍ ولا وجل. ولكن سينقلب حال الناس فجأة إلى حالٍ يبعث على الدهشة والرثاء معاً ، حين ستدهمهم عاقبة إنكار الحق المشئومة في الآخرة .

وسوف تصب الجماهير هناك أغلظ اللعنات على أكابرها الذين كانوا موضوع

فخرها في الحياة الدنيا ، باعتبارهم مسئولين عن ضلالها وضياعها. وسيرد عليهم أولئك الكبراء قائلين : لا تلقوا بالتبعة كلها علينا تخليصاً لأنفسكم من مرارة الشعور بالندم والحسرة. إذْ لم نكن نحن الذين أضلوكم ، بل إنما كانت أهواؤكم هي التي انحرفت بكم عن سواء السبيل ، فما وقفتم إلى جانبنا إلا لكون ما ندعو إليه يتفق وأهواءكم ، حيث كنتم تبتغون ديناً يمكن صاحبه من الحصول على شرف التدين بدون تكليفٍ ولا عناءٍ ولا حاجةٍ إلى تغيير النفس وإصلاح العمل. وهو الذي هيأناه لكم فتلقيتموه بالقبول . إذن فأنتم بأيديكم أنفسكم جعلتم في أعناقكم هذه الأغلال التي صنعناها ، وإلا فلم نكن نملك قدرةً على أن نطوّقها إياكم!!

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

مُتْرَفُوهَا : متنعموها وقادة الشر فيها .

وَيَقْدِرُ : يضيق على من يشاء بحكمته .

زُلْفَى : تقريباً .

لَهُمْ جَزَاءُ الضِعْفِ : لهم الثواب المضاعف .

فِي الغُرُفَاتِ : المنازل الرفيعة العالية في الجنة .

مُعَاجِزِينَ : مسابقين ظانين إنهم يفوتوننا .

مُحْضَرُونَ: تحضرهم الزبانية إلى جهنم .

وَيَقْدِرُ لَهُ : يضيق على من يشاء بحكمته .

إن الذين تتوافر لديهم أسباب القوة والثروة ، يرتقون إلى مقام الكبرياء في العالم الراهن، وهذا الشيء يولد في أنفسهم ثقةً كاذبةً. وأمثال هؤلاء حين يتم تخويفهم من الآخرة لا يعطونها أهميةً تُذكر ؛ إذ يصعب عليهم التأكد من أن الله سيُذلهم في الآخرة ، مع ما أعطاهم في هذه الدنيا من العز والجاه والكرامة !

وهذه الثقة الكاذبة هي التي كانت – ولا تزال – العقبة الكئود دون إيمان الكبار بدعوة الحق في كل عصرٍ ومصرٍ ، حيث إن كبار العصر إذا احتقروا شيئاً ما ، عاد الصغار هم الآخرون ينظرون إلى ذلك الشيء بعين الاحتقار، وهكذا يحرم كل من العامة والخاصة من تلقي الحق بالقبول .

إن الثروة وأسباب الحياة الدنيا كلها امتحان وليس بإنعامٍ، فكثرة المال والأسباب الدنيوية لدى أحد الناس ليست علامة على كونه من المقربين ، ولا قلتها لدى الآخر علامة على أنه من غير المقربين. وإن مقام التقرب والزلفى عند الله إنما يحظى به شخص يقيم الدليل على أنه قد عاش فيما أوتي من مالٍ ومتاعٍ ذاكراً لله، مراقباً إياه في كل حركاته وسكناته ، وواقفاً بنفسه عند الحدود التي قررها الله سبحانه وتعالى ، فأمثال هؤلاء هم الذين سيعتبرون في الآخرة أهلاً لإنعامات الله الأبدية !

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم

مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

أَنتَ وَلِيُّنَا: أنت الذي نواليه.

إن الملائكة لا تُرى للناس، وإنما هم الأنبياء والمرسلون الذين أخبروا الناس بوجود الملائكة. وقد كان المقصود من هذا الإخبار أن يستشعروا عظمة الله وجلاله حق الاستشعار، فيقبلون بكيانهم كله على عبادته وتمجيده سبحانه وتعالى، ولكن الشيطان ألقى في قلوب الناس بطريقةٍ عجيبةٍ أن الحصول على قرب الله مباشرةً يكاد يكون أمراً مستحيلاً، لذا ينبغي لهم أن يعبدوا الملائكة؛ توسلاً بذلك للاقتراب من الله! ومن هنا بدأت تنصب تماثيل منحوتة للملائكة في شتى أنحاء المعمورة، وراح الناس يقيمون أمامها طقوس العبادة والتقديس. وما عقيدة تعدد الآلهة والإلاهات لدى الشعوب الوثنية إلا صورة مشوهة لتأليه الملائكة، فالملك الذي كان موكلاً بالمطر، اعتبروه إله المطر، والذي كان موكّلاً بالهواء، حسبوه إلهاً للهواء، وهكذا.. وستتبرأ الملائكة في الآخرة من أمثال هؤلاء العباد وعبادتهم، وبالتالي لن ينالهم هناك من جانب الله ولا من جانب الملائكة نصر ولا عون، وإنما سيظلون مخذولين دون سندٍ ولا معينٍ إلى الأبد!

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

أَنْتَ وَلِيُّنَا : أنت الذي نواليه .

إِفْكٌ مُّفْتَرًى : كذب مختلق

مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ : عشر ما أعطيناهم من النعم .

كَانَ نَكِيرِ : إنكاري عليهم بالتدمير .

لقد جاء القرآن بأدلةٍ وبراهين في منتهى الوضوح والجلاء . ومع أن مخاطبيه الأول كانوا عاجزين عن مقاومته بقوة الدليل ، إلا أنهم نجحوا في صدّ الجماهير التابعة لهم عن دعوته ، وإنما كان السر الوحيد في نجاحهم ذاك ، يكمن في أنهم جعلوه "مشبوهاً" في أعين الناس قائلين : إنه لا يتفق مع ما كان عليه أسلافنا الكرام ! وأما ما كان يتميز به القرآن من أدبٍ رفيعٍ وأسلوب بديعٍ معجز لا سبيل إلى إنكاره أو تجاهله ، فقد صرفوا اهتمام الناس عنه زاعمين لهم بأن هذا لا يخرج عن كونه مظهراً من مظاهر البراعة الأدبية وسحر البيان. دون أن يكون له علاقة ما بالوحي الإلهي. إنه قوة قلمٍ وليس بقوة علم الحقيقة !

إنه لمن أغرب تجارب التاريخ البشري أن التعصب كان دوماً - ولا يزال - أعظم سلطاناً على عقول الناس وأشد تحكماً في نفوسهم من الدليل والبرهان !! كان على مخاطبي القرآن الكريم ، إذْ هم أبوْا إلا إنكاره ومعارضته ، أن يلجؤوا إما إلى أدلةٍ عقليةٍ تفنّده ، أو إلى كتابٍ سماوي يستمدون منه نصاً ينقض دعواه، غير أنهم كانوا يفتقدون كلا هذين الشيئين معاً ، مضافاً إلى ذلك أنهم كانوا متخلفين جداً عن الشعوب الأخرى حتى في مجال التقدم المادي والرفاهية الدنيوية. وإن أناساً هذا شأنهم لئن تناولوا دعوة الحق بالرفض والإنكار فإنما يرجع سبب ذلك إلى دواعي التعنت والعنجهية ، وليس إلى مقتضى العقل والمنطق !.

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

من جِنَّةٍ : من جنون .

وقف المعاصرون للنبي - ﷺ - تجاه دعوته موقف الرفض والإنكار. ولكن موقفهم ذاك لم يكن يعتمد على شيء سوى العناد والتعصب . والحقيقة هي أنهم لو فكروا يوماً خالي الأذهان من مشاعر العناد والتعصب - سواء على مستوى فردي أو جماعي - لوجدوا أن رسولهم ليس برجلٍ مجنون ، ولرأوا حياته السابقة التي قضاها بين أظهرهم تشهد بجديته وإخلاصه ولهجته الوالهة المؤثرة تدل على أن ما يجري على لسانه هو بعينه ما يختلج في فؤاده ، ولوجدوا في أسلوب كلامه الحكيم شهادةً داخليةً ناطقة بصدقه وصحته، وفي كونه لا يطلب من الناس أي أجر أو تعوضٍ عن دعوته وبرهاناً صارخاً على أنه إنما قام بهذا العمل خالصاً لوجه الله ، وليس لأجل أية منفعةٍ أو تجارةٍ ذاتيةٍ ، ففي ضوء التأمل النزيه والتفكير المحايد كان بإمكان القوم أن يدركوا أن لهفته - عليه الصلاة السلام - ليست بلهفة الجنون ، بل مصدرها أن الخطر الذي نهض لإنذار الآخرين منه ، هو يراه رأي العين يدنو ويقترب بسرعةٍ والناس عنه غافلون ! ولكن القوم إذا لم يكونوا جادين بشأن دعوة الحق ، فقد عجزوا - وبطبيعة الحال - عن أن يبصروا هذه الحقائق الواضحة الجليلة !!

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

يَقْذِفُ بِالْحَقِّ : يرمي به الباطل فيدمغه .

لقد أنشئ هذا العالم بالحق ، حيث القوة كلها فيه إلى جانب الحق ، كما أن كل الدلائل هنا تؤيد الحق وتدعمه . وأما الباطل فلا يملك من حيث الحقيقة الواقعة أي قوةٍ ولا دليلٍ أو برهانٍ . وقد كان ينبغي، والحالة هذه أن يكون الحق هنا هو الغالب السائد ومرفوع الراية دائماً ، وبالمقابل يصير الباطل عديم الوزن فاقد الأهمية مغلوباً على أمره في كل مكانٍ ، ولكن هذا لا يحدث فعلاً ، إذْ ليس الحق في هذا العالم من القوة بحيث يمكنه أن يمحو الباطل بحكم قوته الذاتية ، ولا الباطل من التفاهة بحيث لا يتمكن شخص ما من أن يفوز بالمجد والرفعة على أساسٍ منه!

وهذه الواقعة سوف تظهر في أكمل صورها يوم تقوم الساعة ، ولكن الله قد يظهرها، متى يشاء ، ولو بصورةٍ جزئيةٍ في هذه الدنيا أيضاً ، كي تكون عبرةً للناس ، ولقد كانت غلبة الإسلام في القرن الأول إظهاراً جزئياً من هذا القبيل ، ومن ثم فحين فُتحت مكة ، وانتصر التوحيد على الشرك انتصاراً حاسماً ، كان رسول الله - ﷺ - تتردد على لسانه إذْ ذاك هذه الآية الكريمة: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ !.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ۝ ﴾

فَزِعُوا : خافوا عند الموت أو البعث .

فَلَا فَوْتَ : فلا مهرب ولا نجاة من العذاب .

مكَانٍ قَرِيبٍ: موقف الحساب .

التَّنَاوُشُ : تناول الإيمان والتوبة .

مَّكَانٍ بَعِيدٍ: هو الآخرة .

وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ : يرجمون بالظنون .

بِأَشْيَاعِهِم : بأمثالهم من الكفار .

مُّرِيبٍ : موقع في الريبة والقلق .

إن المرء إذْ يتناول الحق بالإنكار في العالم الراهن ، لا يتعرض من فوره لمصيره المحتوم. وهذا الوضع يجعله عنيداً جسوراً على إنكار الحق، فهو لا يعتبر دعوة الحق جديرةً بالاهتمام الجدي ، ويذكرها بألفاظٍ مفعمةٍ بالسخرية اللاذعة والازدراء الشديد، ويرفضها كلما عرضت عليه بعدم الاكتراث واللامبالاة ، ويعلق عليها بأسلوب هزلي عابثٍ كما لو أنها لا تستحق أن يقام لها حساب ما !

على أن الأمر سيتبدل فجأةً غير الأمر، حين سينتهي نظام هذا العالم الراهن ، وسيرى المرء وقتئذٍ أن ما قد أهمله الإهمال كله، كان هو الشيء الأهم والأعظم قيمةً في هذا الوجود، وعندها سيتبخرّ كل عناده ويتلاشى بطره وكبرياؤه ، وهو يسارع إلى الاعتراف بالحق الذي كان لا يعده خليقاً بأدنى عنايةٍ ولا اهتمام في الحياة الدنيا، ولكن الوقت الآن سيكون قد فات، وسيقال له: إن الاعتراف كانت له قيمة في عالم الغيب ، أما في عالم الشهود هذا فلا قيمة للاعتراف البتة !

«الشك المريب» هو الشك الباعث على التردد والحيرة والارتياب ، وهذا الوصف يصوره حالة المنكرين النفسية، فالحق الذي كان يُعرض عليهم في الدنيا ، كان من حيث اللغة والبيان قوياً لدرجة أنهم لم يكونوا يجدون أنفسهم قادرين على رده بواسطة الدليل

والبرهان ، ولكنهم - مع ذلك - لم يتمكنوا من توطين أنفسهم على قبول هذا الحق ؛ لكونه لا يتفق مع شاكلتهم الفكرية. وقد أصابهم هذا الوضع الثنائي أو المزدوج بنوعٍ من التذبذب الداخلي المتصل ، إلى أن جاء ملك الموت ، فرفع عن أعينهم الغطاء الذي كان المفروض أن يرفعوه بأيديهم أنفسهم ، إلا أنهم لم يوفقوا إلى ذلك!

سورة فاطر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ① مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ② ﴾

فَاطِرِ : مبدع ومخترع.

مَا يَفْتَحِ اللهُ : ما يرسل الله .

لقد خلق الله الملائكة لحمل رسالته والقيام بتنفيذ أحكامه، ولكن الشيطان ألقى في قلوب الناس أن الملائكة يتمتعون بالاستقلال الذاتي التام ، بحيث يمكن أن يُتوسل بهم لتحصيل البركات في الدنيا ونيل النجاة في الآخرة، ومن هنا أخذت بعض الأمم تعبدهم باتخاذ تماثيل مزعومةٍ لهم بأسماء اللات والمناة ونحوهما، بينما جعلت بعض الأمم الأخرى من الملائكة آلهةً أنداداً لله ، وبدأت بعبادتها وتقديسها، وإن تعظيم قانون الطبيعة (Low of nature) في عصرنا الحاضر هو الآخر ليس إلا طبعةً جديدةً لهذا الضلال القديم .. ولكن الحقيقة هي أنه بأي اسم سمينا القوى المدبرة لشئون الكون - بقوانين الطبيعة ، أم بالملائكة - فإنها جميعاً محكومةً خاضعةً لمشيئة الله الواحد ، عاملةً طبقاً لأمر الله الواحد ، لا تطيق الخروج عليه ولا الانحراف عنه أبداً .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾

فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ : فكيف تصرفون عن توحيده .

إن الإنسان يحتاج لأجل حياته إلى أشياء لا تُحصى ، وهذه الأسباب الضرورية للحياة لا يتمكن من توفيرها أحد غير الله الواحد ، فإذا كان الله وحده هو خالق هذه الأشياء ومدبرها بلا منازع ولا شريك ، فكيف يجوز اتخاذ آلهة أخرى سواه !؟!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾

فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ : فلا تخدعنكم ولا تلهينكم بالزخارف والملذات .

الغَرُورُ : ما يغر ويخدع من شيطان وغيره .

إن نوعية الحياة الدنيا ، كما أخبرنا الله بها عن طريق رسله ، ربما تبدو صورةً أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة؛ لأن المرء لا يتعرض لها في الحال . أما أشياء الدنيا فهي - على نقيضٍ من ذلك - تبدو حقيقةً ؛ لأن المرء يعاني منها ويجربها في اللحظة الراهنة .. وإن الموت والزلازل والحوادث والنكبات لا تفتأ تنبه المرء من سبات الغفلة ، كأنها هي سابق إنذارٍ بالقيامة قبل أن تقوم بالفعل ، غير أن الشيطان لا يلبث أن يصرف أذهان الناس عن التفكير في ذلك مقرراً أن كل هذه وقائع تحدث بموجب الأسباب والعلل ،

دون تدخل الإرادة الإلهية.. بيد أن كل فكرةٍ من هذا النوع خدعة شيطانية ، إذْ لابد من يومٍ يتميز فيه الصدق من الكذب ، والحق من الباطل .. يوم يلقى المحسن جزاء إحسانه ، والمسيء عقابه إساءته!!

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾

فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ: فلا تهلك نفسك عليهم غموما وأحزانا لكفرهم .

لقد أعطى الله كل إنسان قدرة التأمل والتفكير ؛ لكيما يميز الحق من غير الحق، فمن يستعمل استعداده الفطري هذا يهتد ، ومَنْ يهمل هذا الاستعداد الفطري لا يوفق للاهتداء !.

وإن المرء حين يظهر أمامه الحق ، يشعر بهزّةٍ ذهنيةٍ ؛ يجد نفسه معها على مفترق طريقين : فإن هو أسرع إلى الاعتراف بالحق ، سار ذهنه من فوره في الاتجاه الصحيح المستقيم ، ودخل هو بالتالي في عداد المسافرين لأجل الحق . وعلى العكس من ذلك فإن عرضت له عندئذٍ أية مصلحةٍ أو عقدةٍ نفسيةٍ ، يمتنع عن الاعتراف بالحق خضوعاً لسلطانها ، فيأخذ ذهنه في تلفيق ألوانٍ شتى من المبررات لعدم اعترافه ، وهو يحاول أن يظهر عمله القبيح في ثوب العمل الحسن ، وهذا مرض ذهني . والمصابون بهذا المرض الذهني أبداً لا يوفقون إلى الاعتراف بالحق ، حتى يفاجئهم الموت ، وهم على حالهم ذاك ، فيقودهم إلى محكمة الله ، ليلقوا جزاء ما عملوا!!

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ

ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾

فَتُثِيرُ سَحَاباً: تعركه وتهيجه

النُّشُورُ: بعث الموتى من القبور للجزاء .

يُرِيدُ العِزَّةَ: الشرف والمنعة .

الكَلِمُ الطَّيِّبُ: كلمة التوحيد وجميع عبادات اللسان.

وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ: يرفع الله العمل الصالح ويقبله .

يَبُورُ: يفسد ويبطل .

إن العالم الراهن تمثيل للآخرة ، فمن ظواهره المطر ، الذي يمثل لنا بشكل واقعةٍ معلومةٍ واقعةً غير معلومةٍ ، وما المطر؟ إنه - باختصار - نتيجة عملٍ موحّد يشترك فيه الكون بأسره ، فمن خلال تفاعل الشمس والهواء والبحر والجاذبية ، وما إلى ذلك من العوامل والأسباب الكونية الهائلة ينشأ ذلك المطر الذي يبعث الحياة والحيوية في الأرض اليابسة المجدبة .

وظاهرة المطر هذه تبرهن على أن مدبر الكون يتمتع بالاختيار الكامل والقدرة المطلقة على الكون كله، حيث إنه يُحدث واقعةً بحسب خطته ، ثم هو يقوم إذا انمحت آثارها بإعادتها من جديدٍ ؛ ولو استدعى الأمر تحريك الكون وتشغيله بما فيه !!. وإن إعادة الأرض الهامدة ناضرةً خضراء من جديدٍ ، وإحياء الإنسان الميت من جديدٍ ، واقعتان مماثلتان تماماً .. فإذا قام الدليل على إمكان الواقعة الأولى، فيقوم الدليل تلقائياً على كون الواقعة الأخرى المماثلة لها ممكنة الحدوث !

إن العالم الراهن موضع امتحانٍ ، ومن ثم فقد يُتاح العزة هنا حتى لمن لا يستحقها من الناس على نحوٍ مؤقتٍ ، ولكن العزة ستكون في الآخرة خالصةً لأولئك وحدهم ، الذين يستحقونها في واقع الأمر ، ومعيار هذا الاستحقاق هو الكلم الطيب والعمل الصالح ، أي أن يجد المرء ربه بحيث يصير ذكره تعالى جزءاً لا يتجزأ من كيانه ، وابتغاء مرضاته هو عمله الذي يكرس لأجله كل طاقاته. والذين يبنون حياتهم على هذا الطراز ، يتكفل الله لهم بالنصر والتأييد ، ومَنْ صار الله نصيره ومؤيده ، فلن يجد إلى النيل منه أو التغلب عليه أحد سبيلاً !

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

أَزْوَاجاً : ذكورا وإناثا .

مُعَمَّرٍ : طويل العمر .

خلق الإنسان الأول - آدم عليه السلام - وقد تم تركيبه من الأجزاء الأرضية . ثم أودع الله سر الإنسان في قطرة ماء ، شأنها شأن البذرة تحوي - على صغرها - شجرةً كاملةً، ثم بدأ تعالى النسل الإنساني ومكّنه من البقاء والاستمرار بجعل البشر أزواجاً - ذكراً وأنثى - وهذه الواقعة تدلنا على قدرة الله اللاّمتناهية.

هذا ، وإن جنينا حين يبدأ بالنمو داخل الرحم ، فيجد هناك كل الأسباب الضرورية الملائمة مهيّأة له دون طلبٍ . وهذا الواقع يقيم الدليل - إلى جانب إثبات القدرة - على أن خالق الجنين كان على سابق علمٍ بحاجاته ، وإلا فكيف استطاع أن يقوم بهذا الترتيب الكامل الدقيق لما يلزم لنشأة الجنين ونموه بصورةٍ مسبقةٍ !؟ وهذا هو شأن

العمر كذلك .. إذْ ليس في مقدور أحدٍ منا أن يجدد عمره وفق مرضاته هو ، حيث يبدو أن قضية تحديد الأعمار إنما تتعلق بأي وجودٍ خارجي أعلى ، فهو يرفع (يتوفى) مَنْ يشاء ولّما يتجاوز عمره سنوات قصيرة معدودات ، ويهب لمن يشاء عمراً طويلاً ، وليس في هذه الوقائع كلها دخل لأحدٍ من دون الله ، إذن ، فكيف يجوز أن يخاف الإنسان من أحدٍ غير الله ، وأن يعقد آماله على أحدٍ سواه !؟!

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾

عَذْبٌ فُرَاتٌ : طيب حلو شديد العذوبة .

مِلْحٌ أُجَاجٌ : شديد الملوحة أو المرارة .

حِلْيَةً : اللؤلؤ والمرجان من الملح .

مَوَاخِرَ : جواري بريح واحدة .

يُولِجُ : يدخل .

لأَجَلٍ مُّسَمًّى : مقدارا لفنائهم (يوم القيامة)

قِطْمِيرٍ : هو القشرة الرفيعة للنواة .

يوجد على سطح الأرض مخزون مائي هائل ؛ وهو موزع على البحار والمحيطات الواسعة بشكل المياه المالحة من ناحيةٍ ، وعلى الأنهار والترع والينابيع بشكل المياه العذبة من ناحيةٍ أخرى ، وإن الماء مصدر فوائد كثيرة لا تحصى للإنسان ، حيث إنه يُستخدم للشرب والري ، وهو يمثل بما يعيش فيه من شتى ألوان الحيوانات المائية مورد غذاءٍ ثمين للإنسان، وإن هذه البحار الممتدة على ثلاثة أرباع الكرة الأرضية هي بمثابة شوارع مائية فسيحةٍ قد جعلت الأسفار ونقل البضائع من قارةٍ إلى أخرى أمراً بالغ السهولة، كما يُستخرج من أغوار البحار اللؤلؤ والمرجان وغيرها من النفائس الغالية الأخرى .. إلخ .

وبالإضافة إلى هذا فقد سخر الله الشمس والقمر في الفضاء الرحيب . وفي ذلك من المنافع العظيمة ما لا يقع تحت الحصر . وقد جعل الأرض تدور في محورها حول الشمس بحسابٍ دقيقٍ يترتب عليه اختلاف الليل والنهار بانتظامٍ . وهناك أنظمة كونية لا تحصى من هذا النوع أنشأها الله وحده ، وهو وحده يقوم بإدارتها .. إذن ، فمن يستحق أن يوجه إليه الإنسان عواطف شكره غير الله ؟ ومَنْ يقدر على قضاء حاجات الإنسان ؛ آلله الذي طاقاته لانهائية ؛ أم تلك الآلهة المفترضة التي لا تمتلك من السلطة والاختيار شيئاً ؟!

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ : لا تحمل نفس آثمة .

مُثْقَلَةٌ : نفس أثقلتها الذنوب

حِمْلِهَا: ذنوبها التي أثقلتها .

تَزَكَّى : تطهر من الكفر والمعاصي .

إن الإنسان في العالم الراهن موجود غير منيع بكل ما تتسع له هذه الكلمة من معنى. وإنما يتوقف أمر الإنسان بكليته على توازن الطبيعة الخاص . ولو اختل هذا التوازن يوماً ، لانتهت الحياة الإنسانية في أقل من لمح البصر .

فلو غادرت الشمس موقعها الحالي ، فاقتربت من الأرض ، لاحترق جميع البشر واستحالوا رماداً . وإن جزءاً كبيراً من باطن الأرض عبارة عن مادة ملتهبة شديدة الحرارة ؛ ولو اتجهت حركة هذه المادة الملتهبة إلى جانب السطح الأعلى ، لتعرضت الأرض لزلزال عنيف يحول مدنها العامرة إلى خرائب موحشةٍ . ومن جهة الفضاء العلوي لا تزال تتساقط الشهب أو النيازك كل حينٍ وآنٍ ، ولو فسد نظام الكون الحالي، لتحولت هذه النيازك إلى وابلٍ من الحجارة لن يقينا من ويلاته شيء . وثمة إمكانات مدمرة كهذه لا حصر لها هي محيطة بالإنسان من كل صوبٍ ، والحقيقة هي أن الإنسان مخلوق كله احتياج ، وإن الإنسان بحاجة إلى الله ، وليس الله بحاجة إلى الإنسان .

إن أثقال يوم القيامة ستكون أثقال الذنوب التي اقترفها المرء في حياته ، وليست أثقال الطوب والحجارة، وقد يمكن أن يشارك شخص ما أخاه أو صديقه في حمل أثقالٍ من الطوب والحجارة ، ولكن الخزي والألم اللذين يلحقان أحد الناس لقاء ما عمله من سوء ، فإنما يكون ذلك عذاباً ذاتياً محضاً ؛ لا مجال فيه للمشاركة من قبل أحد الناس .

الحقيقة واضحة غاية الوضوح، ولكن الحقيقة لا يفهمها إلا مَنْ يريد أن يفهمها أما الذي لا يكون جاداً بشأن معرفة الحقيقة فلا يمكن إفهامه أي شيءٍ مهما كان سهلاً قريب المنال!

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

الْحَرُورُ : شدة الحر ليلا كالسموم .

وَبِالزُّبُرِ : الكتب المكتوبة كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام .

كَانَ نَكِيرِ : إنكاري عليهم بالتدمير .

من البديهي أن ما يُرجى من النور لا يُرجى من الظلام .. وهكذا ما يُتوقع من الظل غير متوقع حصوله من الحر ، وهذا هو شأن الإنسان ، فالناس بين بصيرٍ وأعمى . أما البصير فسرعان ما يتعرف على سبيله حين يراه ، وأما الأعمى فلا يسعه إلا أن يبقى تائهاً يتخبط ؛ دون أن يتمكن من التعرف على سبيله أبداً .

وكذلك ينقسم الناس - من حيث المعرفة الداخلية - إلى نوعين : حيّ وميتٍ ، أما الإنسان الحي فهو الذي ينظر في الأقوال نظرة متعمقة فاحصةً ، فيسبر أغوارها ، ويدرك المعاني مخترقاً الحواجز اللفظية البراقة ، ويحاول الوصول إلى الحقيقة الأصلية

متخطياً القشور والجوانب السطحية . والذي يختبر الأشياء ويحكم عليها باعتبار جوهرها وليس باعتبار مظهرها الشكلي وحده ، ويركز بصره دائماً على الحقيقة الأصلية وليس على التفريعات الهامشية ، والذي لا يطيق صبراً ، إذا ما عرف الصدق ، على ألا يربط نفسه ومصيره به ، إن أمثال هذا هم الأحياء ، وهم الذين يكتب لهم التوفيق لقبول الحق في العالم الراهن. وأما الذين يتصفون بصفاتٍ هي على نقيضٍ مما تقدم ذكره آنفاً ، فهم الموتى، لا يحالفهم التوفيق أبداً لقبول الحق في عالم الامتحان هذا، وإنما هم يظلون عمياناً أو كالعميان إزاء دعوة الحق ، إلى أن تنتهي آجالهم فيصلوا إلى الله لكي يذوقوا وبال عماهم !!

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

جُدَدٌ : ذات طرائق وخطوط مختلفة الألوان .

وَغَرَابِيبُ سُودٌ : متناهية في السواد كالأغربة .

ينزل من السحاب ماء واحد ؛ وتنبت به أشياء ذات أنواع وألوان شتى ، بما فيها أشجار مثمرة وأحراش شائكة .. وهكذا فإن مادةً واحدةً هي التي تتجمد فتأخذ شكل الجبال والصخور ، ولكنها هي الأخرى تأتي متعددة الألوان ، بين أحمر وأبيض وأسود فاحم.. وكذلك تأكل جميع الحيوانات غذاءً واحداً ، ولكن بعضها مفيد للإنسان وبعضها الآخر غير مفيد!

ونعلم من هذا أن العطاء وإن كان عاماً ، إلا أن الكل ينتفع به على قدر كفايته

واستعداده ، وهذا هو شأن الإنسان كذلك ، فإن فيوض الرحمة الإلهية التي تُغدق في صورة الدعوة إلى الحق ، وإن كانت واحدةً في حد ذاتها ، إلا أن تأثر الناس بها يختلف - كماً وكيفاً - باختلاف أمزجتهم وتنوع ميولهم وأذواقهم ، فمنهم من يجد في دعوة الحق غذاءً لروحه .. فسرعان ما يتلقاها بالقبول ويربط نفسه بها بأوثق رباطٍ .. ومنهم مَنْ تحول نفسيته المعقدة دون اعترافه بالحق ، فيبتعد عنه ، بل ربما لا يلبث حتى يتصدى لمعارضته ومحاربته .

وإنما العالم حقاً هو الذي تكون دعوة الحق صدى لنبضات قلبه ، حيث إنه كان لا يزال محتفظاً بنور الفطرة الإلهي ، مما جعله يتعرف على الحق فور ظهوره، وبالمقابل فإن الجاهل هو الذي أخفى نور فطرته وراء حجب كثيفةٍ ، ومن ثم لا ولن يحالفه التوفيق للتعرف على الحق إذا ما تجلّى أمامه!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾

لَّن تَبُورَ : لن تكسد وتفسد ، أو لن تهلك .

إن رجل العلم هو رجل المعرفة ، والذي يفوز بالمعرفة يتخذ من كتاب الله دليله ومرشده الفكري ، وهو يصبح عبداً عابداً لله ، ويعود سمحاً كريماً فيما يتعلق بحقوق الناس، لدرجة أنه يخصص لهم أيضاً جزءاً من ماله الذي كسبه بمجهوده الذاتي .. وترتفع معنوياته بحيث إنه يسخر وجوده كله في سبيل إعلاء كلمة الله قانعاً راضي النفس بأنه سينال أجره في الآخرة !

ومن الأدلة الناطقة بصدق القرآن الكريم وحقيّته: أنه مطابق كل المطابقة لتلك النبوءات التي كانت قد وردت في الكتب السماوية قبل نزوله بقرونٍ . وإنه لو كان أحد الناس جاداً حق الجدية لصار هذا الواقع كافياً لإيمانه بالقرآن الكريم !!

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم : رجحت سيئاته على حسناته .

مُّقْتَصِدٌ : استوت حسناته وسيئاته .

سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ : رجحت خيراته على سيئاته .

الْحَزَنَ : كل ما يحزن ويغم .

دَارَ الْمُقَامَةِ : دار الإقامة الدائمة (الجنة) .

نَصَبٌ :تعب ومشقة .

كان سيدنا يعقوب حفيداً لسيدنا إبراهيم - عليهما السلام - وقد ظل الأنبياء ، بدءاً من يعقوب وانتهاءً بالمسيح عيسى ابن مريم - عليهم صلوات الله وسلامه - يبعثون في سلالة بني إسرائيل .. وهكذا فقد استمرت سلسلة النبوة في نسل اليهود نحو ألفي سنةٍ ، غير أن اليهود لم يعودوا فيها بعد أهلاً لكي يُؤتمنوا على الكتاب الإلهي ، ومن ثم وقع اختيار الله على أمة حية أخرى (بني إسماعيل) لتكون حاملة أمانة الكتاب

الإلهي . وقد كانت ولادة رسول الله - ﷺ - في بني إسماعيل تنفيذاً لهذا القرار الإلهي ذاته ، وبنو إسماعيل هؤلاء هم الذين عناهم الله في قوله ﴿ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ..﴾ .

ولما عرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القرآن على بني إسماعيل ، انقسموا إلى أصناف ثلاثة: فمنهم مَنْ تصدوا لمعارضته ، وآخرون اختاروا طريقاً وسطاً .

وأما الطائفة الثالثة فهي طائفة السابقين المقدمين ، وهؤلاء هم الذين صنعوا تاريخ الإسلام العظيم بمناصرتهم لنبي آخر الزمان - صلى الله عليه وسلم - .

وقد اضطرُ هؤلاء لأجل حماية القرآن رفع لوائه عالياً خفاقاً إلى الحرمان من كل ألوان الراحة ، وتحولت حياتهم العملية، نتيجةً لذلك ، إلى حياة كلها صبر وكفاح ومشقة وتعب .. وسيعوضهم الله في الآخرة ، بدل تضحيتهم تلك ، بأن يدخلهم جناتٍ لن يعكر صفو عيشهم فيها أي حزنٍ أو ألمٍ إلى الأبد!

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

لُغُوبٌ : إعياء من التعب وفتور.

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ : يستغيثون ويصيحون بشدة .

إن المنكرين للحق في الدنيا سيعترفون به في الآخرة أتم الاعتراف .. ولكنه لن يغني عنهم يومئذٍ شيئاً ؛ ذلك لأن الاعتراف في الآخرة هو اعتراف الإنسان المقهور ، بينما

الاعتراف المطلوب عند الله هو الاعتراف الاختياري دون الإجباري !.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ﴾

جَعَلَكُمْ خَلائِفَ : خلفاء من كان قبلكم .

مَقْتاً : أشد البغض والغضب والاحتقار .

خَسَاراً : هلاكا وخسرانا.

المراد بالخلافة هنا هو خلافة الأمم والشعوب الغابرة ، وعليه فمعنى قوله : ﴿ جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي استعمركم في الأرض بعد ذهاب الأمم السابقة . وقد جرت سنة الله تعالى بأن يتيح لإحدى الأمم فرصة السكنى والاستقرار والعمل في جنبات الأرض ، ثم إذا أقامت تلك الأمة الدليل على عدم كفايتها وفقدانها للأهلية ، استبدل بها أمة أخرى مكانها . وهكذا ستبقى عملية استخلاف الأمم ، الواحدة تلو الأخرى، جاريةً فوق الأرض، إلى أن يرثها الله ومَنْ عليها !

إن قوانين الطبيعة ، تلك التي تم اكتشافها في العصر الحديث ، تدلنا على أنه يمكن هنا التقاط صورة شيءٍ يغمره ظلام حالك ، وتحويل صوتٍ غير مسموعٍ في ظاهر الأمر بواسطة الآلة إلى صوتٍ مسموعٍ بوضوحٍ ! إن هذه الإمكانات الكامنة في المخلوقات تعرفنا بقدرة الخالق العظيم ، إذْ نعلم منها أن خالق الكون هو إله يعلم الغيب ، وهو يقدر على أن يسمع حتى خبايا القلوب ، وعلى الجملة فإن أمر الإنسان مع إلهٍ عليمٍ وقديرٍ لا يمكنه أن يخفى عنه جرماً، صغيراً كان أو كبيراً ، كما إنه ليس في مقدوره أن يغير قضاءه أو يعدّله بأية حيلةٍ أو وسيلةٍ !!

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

جَعَلَكُمْ خَلائِفَ : خلفاء من كان قبلكم .

مَقْتاً : أشد البغض والغضب والاحتقار .

خَسَاراً : هلاكا وخسرانا .

هل الأصنام والأنداد التي تعبد من دون الله تستطيع خلق شيء ، أو لها نصيب في السماوات والأرض ؟ كلا، والذي يقول بذلك إنما يتبع أهواء نفسه وأمنياتها ، وما ذلك إلا محض كذب وخداع . فإن الله هو خالق كل شيء وهو المتصرف في جميع شئون هذا الكون.

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ : مجتهدين في الحلف بأغلظها وأوكدها .

نُفُوراً : تباعدا عن الحق وفرارا منه .

وَمَكْرَ السَّيِّئِ : والمكر السيئ (الكيد للرسول) .

وَلاَ يَحِيقُ : ولا يحيط أو لا ينزل .

فَهَلْ يَنظُرُونَ : فما ينتظرون .

سُنَّةَ الأَوَّلِينَ : سنة الله فيهم بتعذيبهم لتكذيبهم .

كان العرب ، كلما سمعوا أن اليهود وغيرهم من الأمم كذبوا أنبياءهم وعصوا أمر رسلهم ، قالوا بحماسٍ بالغٍ: لو ظهر بيننا نبي لصدقنا به ولأطعناه على أحسن وجهٍ وأكمله.. ولكنه لم يكد يُبعث فيهم نبي حتى ناصبوه العداء !

وهذه النفسية توجد - بشكلٍ أو آخر - في كل الناس .. فما من امرئٍ في هذه الدنيا إلا تجده يتظاهر بأنه محب للحق ، ويدعي أنه إذا ما أتاه أمر صحيح فسوف يذعن إليه ويتقبله دون توقفٍ أو ترددٍ ، ولكن حين يتجلى الحق مصحوباً بأدلةٍ واضحةٍ ساطعة لا سبيل إلى إنكارها ، فإذا به يقابله بالإعراض ، بل وينبري لمعارضته وزرع العراقيل في طريقه .

وسر ذلك أن إنكار الحق ليس من خصوصيات أمةٍ دون أمةٍ ، وإنما هو من خصائص النفس البشرية العامة ؛ فالإيمان بالحق يكون ، في الأعم الأغلب ، مرادفاً للقضاء على كبرياء الذات ، وبما أن المرء لا يريد أن يفقد كبرياءه الذاتي ، لذا فهو لا يكاد يستعد بطبيعة الحال للإيمان بالحق ، ويغيب عن باله أن إنكار الحق ، وإن كان في مقدوره ، إلا أن إنقاذ نفسه من عاقبة إنكار الحق الوخيمة ليس في مقدوره البتة !

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾

كان الإنسان قد منح حرية العمل في هذا العالم ، ولكنه أساء استخدام هذه الحرية،

حيث تبلغ إساءات الإنسان وأخطاؤه من الكثرة إلى حد أنه لو صار يؤاخذ عليها فور اقترافها ، لانقرض النوع الإنساني من الأرض بيد أن حرية الإنسان أتيحت له من أجل الامتحان .. وهذا الامتحان له مهلة معينة ، وتمتد هذه المهلة - بالنسبة للفرد - إلى حين وفاته ، وبالنسبة إلى البشرية جمعاء إلى يوم القيامة ، وذلك هو سر بقاء نسل الإنسان واستمراره على وجه البسيطة .. ولكن كما أن هناك حقيقةً تقول بأن الله لا يؤاخذ أحداً قبل انقضاء المهلة المحددة ، فكذلك ثمة حقيقة أخرى تقول بأنه تعالى سيؤاخذ الإنسان حتماً على أثر انقضاء المهلة المحددة ، ولن يجد أحد ، كائناً من كان ، إلى الهرب من بطشه ومؤاخذته سبيلاً !

سورة يس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يسٓ (١) وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ (٦) ﴾

من دلائل كون محمد العربي – صلى الله عليه وسلم – رسول الله : هذا القرآن الحكيم الذي عرضه مقراً أنه أوحي إليه من عند الله ، وأما كوْن القرآن "حكيماً" فمعناه : إنه داعٍ إلى الصراط المستقيم ، أي يهدي إلى الطريق الذي هو أقوم الطرق وأصوبها ؛ إذْ ليس في محتوياته شيء يتعارض مع العقل والفطرة ، فبالرغم من مضي أكثر من أربعة عشر قرناً على نزول القرآن ، إلا أن أحداً من الناس لم يستطع حتى الآن إبطال شيءٍ مما جاء بحجة أنه منافٍ للعقل أو الفطرة ، وإن هذه الميزة الفريدة لهي أكبر دليلٍ على كونه كتاباً منزلاً من عند الله العزيز الحكيم.

والمقصود من القوم في قوله : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا ﴾ بنو إسماعيل ، وإن كل نبيٍ إنما يأتي لإنذار قومه في المقام الأول ، وكذلك كان المخاطبون الأولون لنبي الإسلام بدوره هم أفراد قومه هو ، ولكن بما أن النبوة قد انتهت بعده – عليه الصلاة والسلام – لذلك فما زالت نبوته باقيةً مستمرةً إلى يوم القيامة ، وإنما الفارق هو أنه – عليه الصلاة والسلام – أعذر في حياته إلى بني إسماعيل وأقام عليهم الحجة بصفةٍ مباشرةٍ ، بينما تضطلع أمته بعد وفاته ، نيابةً عنه، بواجب الدعوة والتبليغ والإعذار إلى مختلف شعوب العالم !

﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا

فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ :والله لقد ثبت ووجب العقاب .

أَغْلالاً :قيوداً تشد أيديهم إلى أعناقهم .

فَهُم مُّقْمَحُونَ : رافعوا الرؤوس غاضوا الأبصار

سَداً : حاجزاً ومانعاً .

فَأَغْشَيْنَاهُمْ : فألبسنا أبصارهم غشاوة .

لئن امتلأ عنق المرء أغلالاً وقيوداً ؛ فإن رأسه سيبقى مرفوعاً متجهاً إلى فوق ، بحيث لا يمكنه أن يبصر موضع قدميه . وهذا تمثيل لأولئك المغرورين الذين قد استغرقوا في كبرياء أنفسهم ، لدرجة أنهم لا يكادون يرون أية حقيقةٍ خارج ذواتهم ، وأمثال هؤلاء لا يوفقون للاعتراف بالحق أبداً !

وإن أهم شيءٍ فيما يتعلق بالاهتداء إلى الحق ، هو أن يتوافر في داخل المرء مادة الاعتراف، وأن يكون هو على حذرٍ دائمٍ من لحظة المثول بين يدي رب العالمين، وألا ترضى نفسه الطموح بشيءٍ أقل من الصدق الكلي الشامل، فأمثال هذا هم الذين يندفعون سراعاً وراء الحق إذا تجلّى ، وبالتالي يستحقون عند الله الجزاء الأوفى ، والإنعام الأكبر !!

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

وَآثَارَهُمْ : ما سنوّه من حسنٍ أو سيئ .

أَحْصَيْنَاهُ : أثبتناه وحفظناه .

إِمَامٍ مُّبِينٍ : أصل بين ، (اللوح المحفوظ)

لقد أثبتت الكشوف العلمية الحديثة أن كل صوتٍ يخرجه الإنسان من فمه يبقى كما هو في "الأثير" في حالة نقوشٍ ، وهكذا كل ما يمارسه الإنسان من عملٍ تنعكس صورته أيضاً بشكل الموجات الحرارية على شاشة الكون وتحفظ إلى الأبد ، وهذا يعني أن حياة كل منا تُصور تصويراً دقيقاً كاملاً كشرائط التسجيل التلفزيونية . وهذه التجربة تدلنا على أنه من الممكن في هذا العالم أن تسجل جميع أعمال الإنسان وأقواله بدقةٍ تامةٍ ، من حيث لا يدري ولا يسعه الحيلولة دونها أو الهرب منها ، ثم يُعاد عرضها عليه في أية لحظة!

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ
ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ
مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ
لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ
تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن
ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

الْقَرْيَةِ : أنطاكية .

فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ : فقويناهما وشددناهما به .

تَطَيَّرْنَا بِكُمْ : تشاءمنا بكم .

طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ : شؤمكم كفركم المصاحب لكم .

أَئِن ذُكِّرْتُم : أين وعظتم تطيرتم .

لعل المراد بالقرية هنا بلاد مصر ، حيث بُعث لإنذار أهلها برسولين اثنين (موسى وهارون) في زمانٍ واحدٍ ، ولكنهم قابلوها بالجحود والإنكار، ثم نهض من بني جلدتهم رجل ثالث أيد الرسولين بحماسٍ ويقينٍ ، وربما يكون المراد بهذا الرجل الثالث هو الرجل المؤمن الذي ذكره القرآن في سورة المؤمن بالتفصيل .

وإن أشد الأشياء مرارةً بالنسبة إلى الإنسان ، مازال يتمثل ، على اختلاف العصور ، في النصيحة تسدى إليه وهي لا تتفق ومزاجه؛ إذْ لا يلبث المرء أن يثور ويمتعض فور سماعه إياها ، وتكون النتيجة أنه لا يكاد يتأمل فيها بذهنٍ هادئٍ معتدلٍ ، وبدل أن يختبرها من حيث الدليل والبرهان ، يلجأ إلى ترديد أقاويل غير ذات الصلة ضدها ، تحت دواعي العناد والكراهية، وإن اختبار أمرٍ ما والحكم عليه في ضوء الدليل هو لزوم الحد والوقوف عنده . وأما معارضته العمياء بدون دليلٍ ولا برهان فهو تعدٍ ومجاوزة لحدود العقل والشرع!

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

يَسْعَى : يسرع في مشيه لنصح قومه .

جاء الرجل الثالث – مع ذلك – ووقف إلى جانب الرسولين ، إذْ لابد للمرء ، وهو يشهد معركة الحق والباطل ، من مناصرة الحق لأنه حق ، حتى ولو كان ذلك مرادفاً لمناصرة الضعيف في مواجهة القوي!! وقد قال الرجل الثالث – فيما قال – لقومه : إن هؤلاء المرسلين لا يسألونكم أجراً على دعوتهم ، وهم – إلى جانب هذا – مهتدون.

ونعلم من هذا أن النزاهة أو الإخلاص وحده ليس بدليلٍ كافٍ على كون المرء على الهدى ، بل يجب أن يُختبر كلامه ، بغض النظر عن كونه مخلصاً وحسن النية ، على محك الدليل ، ثم إنه لن يعدّ صواباً إلا إذا ثبت صوابه على محك الدليل !

﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

فَطَرَنِي : خلقني وأبدعني .

لا تُغْنِ عَنِّي : لا تدفع عني .

كان رجل الحق قد أيد المرسلين معرضاً حياته للخطر . وقد كان عمله هذا قيماً لدرجة أنه أدخل بعده إلى الجنة ، وعلى إثر دخوله في الجنة لا يتناول الرجل قومه الظالمين بالذم أو التشنيع ، وإنما يود لو أنهم قد علموا مصيره ، لما تصدوا لمعارضته الحق !!

تلك هي صورة المؤمن الصادق ؛ إذْ لا يزال المؤمن ناصحاً للناس يتمنى لهم الخير على كل حالٍ ، حتى ولو عامله الناس معاملة الجور والعدوان !

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

صَيْحَةً وَاحِدَةً : صوتا مهلكاً من السماء .

خَامِدُونَ : ميتون كما يخمد النار .

يَا حَسْرَةً : يا ويلاً . أو يا تندماً .

كَمْ أَهْلَكْنَا : كثيراً أهلكنا .

القُرُونِ : الأمم .

لَّمَا جَمِيعٌ : إلا مجموعون .

مُحْضَرُونَ : نحضرهم للحساب والجزاء .

إن الله – عز وجل – حين يحكم على أمةٍ ما بالهلاك ، فيكفي لذلك أن يحرك الأسباب الأرضية ضدها ؛ ولا يستدعي الأمر أن يستعمل جميع القوى السماوية الجبارة .

لِمَ استهزئ بالرسل على مدار التاريخ ؟ إن جواب ذلك يكمن في لفظ "الاستهزاء" نفسه ؛ فالمستهزئون إنما يستهزئون دوماً بإنسان يبدو لهم حقيراً . وهذا ما حدث مع الأنبياء والمرسلين ، حيث أبى معاصروهم أن يؤمنوا بهم لكونهم اعتبروا شخصياتهم أهون شأناً من أن يتم إعلان الصدق الإلهي على ألسنتهم !!

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

وَفَجَّرْنَا فِيهَا : شققنا في الأرض .

خَلَقَ الأَزْوَاجَ : الأصناف والأنواع .

إن وجود التربة الخصبة على سطح الأرض ، وتوفير الماء والحرارة والهواء بمقادير مناسبة لها ، وكون البذور الملقاة فيها تتمتع بصلاحية النمو الازدهار. وما إلى ذلك مما لا يحصى من عوامل وأسباب معلومةٍ وغير معلومةٍ كهذه؛ تتحول آخر الأمر إلى الحبوب وأنواع الثمار والخضراوات لتكون غذاء الإنسان ، وإن هذا النظام قد وُجد بأكمله من غير أن يوجده الإنسان ، وإنما يتم إيجاده وتصريفه بفضلٍ من الله ورحمته ليس غير ، ولو فكر الإنسان في ذلك ، لامتلأ كيانه كله شكراً وعرفاناً .

ثم إن هذا النظام يتضمن أيضاً آيةً على حقيقةٍ عظمى، حيث تدلنا الدراسات على أن كل شيءٍ من أشياء هذا العالم يسري فيه مبدأ الزوجية، فإذا كان نظام الكون قائماً على هذا المبدأ الذي يفرض على جميع الموجودات أن تكمل نفسها عبر الانضمام إلى أزواجها، فلابد أن يكون لعالمنا الراهن هو الآخر "زوج" يكمّله، وهكذا يثبت نظام الزوجية السائد في العالم الحالي إمكان وقوع الآخرة !

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ : ننزع من مكانه الضوء .

قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ : قدرنا سيره في منازل ومسافات .

كَالْعُرْجُونِ القَدِيمِ : كعود عذق النخلة العتيق .

وَلاَ اللَّيْلُ :ولا آية الليل (القمر) .

سَابِقُ النَّهَارِ : سابق آية النهار (الشمس) .

يَسْبَحُونَ : يسيرون بانبساط .

لكلٍ من الأرض والقمر والشمس مدار معين لا يتخطاه، والكل يتحرك في مداره بدقةٍ فائقةٍ ، ويترتب على هذا الدوران ظواهر شتى ، كتعاقب الليل والنهار على وجه الأرض بانتظامٍ ، وأداء القمر دور "تقويمٍ فلكيٍ" بما يعتريه من زيادةٍ ونقصانٍ .. إلخ . ومع أن هذا النظام لا زال قائماً منذ آلاف القرون ، إلا أنه لم يحدث في سيره أي خللٍ أو اضطرابٍ ولو للحظةٍ واحدةٍ !.

وهذه المشاهدة تعرفنا بقدرة الله اللانهائية ، ولو أن المرء نظر فيها بعين الاعتبار لغمره شعور بعظمة الله الواحد القهار بحيث تنعدم بعدها كل آثار العظمة غير الإلهية من ذهنه تلقائياً !

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

ذُرِّيَّتَهُمْ : أولادهم وضعفائهم

المَشْحُونِ :المملوء .

فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ : فلا مغيث لهم من الغرق .

إن أرضنا هذه يوجد بها مناطق البر جنباً إلى جنبٍ مع البحار المترامية الأطراف، كما يحيط بنا من فوقنا فضاء رحيب هائل . ولقد أودع الله في هذا الكون إمكاناتٍ لا يعجز

معها المرء عن السفر في أي جزء شاء من هذه الأجزاء الثلاثة ، فهو يستطيع أن يسافر براً وبحراً وجواً على حدٍ سواء.

وإنما يمكن القيام بكل هذه الأسفار تحت التدبير الإلهي، وهي رحمة للإنسان عظيمة لدرجة أنه لو تأمل فيها لطرح نفسه خاشعاً متضرعاً ذليلاً بين يدي الله ، ولما سلك في طريق المعصية والطغيان أبداً !

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

إن المرء تتبعه من ورائه أعماله ، وبين يديه يوم الحساب العسير، وكأنما الحياة رحلة من دنيا العمل إلى دنيا الجزاء ، وهذا وضع خطير للغاية ، ولو شعر المرء بخطورته حق الشعور ، لارتعدت فرائصه وجلاً وإشفاقاً، ولكن ما بال الإنسان ، فلا هو يأخذ نفسه بالتأمل والتفكير الجاد ، ولا تكاد آية ما تجعله يفتح عيونه! وإنما هو يظل مشغولاً بتبرير أعماله وتصرفاته عن طريق التأويلات الكاذبة حتى يموت !

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

صَيْحَةً وَاحِدَةً : نفخة الموت .

وَهُمْ يَخِصِّمُونَ : يختصمون في أمورهم غافلين .

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ : نفخة البعث .

الأَجْدَاثِ : القبور .

يَنسِلُونَ : يسرعون في الخروج .

صَيْحَةً وَاحِدَةً : نفخة البعث .

مُحْضَرُونَ : نحضرهم للحساب والجزاء .

إن الذين لا يوقنون بالآخرة يقفون منها موقف اللامبالاة وعدم الاكتراث ، كما لو أنها شيء مستبعد جداً. أما الذين هم أشد افتقاراً إلى الجدية نسبياً بين هؤلاء ، قد تبلغ بهم الجراءة أحياناً إلى حد اتخاذ الآخرة موضوع السخرية والاستهزاء، وسيبقى أمثال هؤلاء الناس غارقين في غفلتهم هذه ، إلى أن تقوم القيامة . وإن القيامة ستأخذهم بغتةً لن يتمكنوا معها من اتخاذ أية إجراءات أو تدابير ضدها .. وقد جاء في الحديث ما معناه: أن إسرافيل مازال ينظر نحو العرش ، واضعاً الصور في فمه ، يرتقب متى يصدر إليه الأمر الإلهي حتى ينفخ فيه! وإن النفخ في الصور شأنه شأن الجرس يدق إيذاناً بانتهاء مهلة الامتحان ، وبعدئذٍ سيعتري نظام هذا العالم تغير مفاجئ شامل ، حيث ستبدأ بعد ذلك مرحلة الجزاء ، بينما نحن الآن نمر بمرحلة العمل !

﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾

شُغُلٍ : نعيم عظيم يلهيهم عما سواه .

فَاكِهُونَ : متلذذون . أو فرحون .

الأَرَائِكِ : السرر في الحجال .

وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ : ما يتمنونه أو ما يطلبونه .

إن المرء لا تواجهه في العالم الراهن النتائج المعنوية لعمله . أما الآخرة فهي المكان الذي يلقى فيه كل أحدٍ من الناس نتائج عمله المعنوية، فالشخص الذي كان قد اقتصر سعيه ونشاطه في الأرض على إحراز المنافع الوقتية وحدها ، سيُبعث في عالم الآخرة الأبدي صفر اليدين تماماً . وعلى نقيضٍ من ذلك فإن الذين كرسوا حياتهم الدنيوية في سبيل الهدف الأسمى، سيفرحون هناك بما ينتظرهم من راحةٍ ونعيمٍ لا يفني . ذلك إلى جانب تكريم الله إياهم بعناياته الخاصة!!

﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا
تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾
وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ
تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ
وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

وَامْتَازُوا : تميزوا وانفردوا عن المؤمنين .

أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ : أوصكم . أو أكلفكم .

جِبِلاًّ : خلقا . أو جماعة عظيمة .

اصْلَوْهَا : ادخلوها . أو قاسوا حرها.

الناس في الحياة الراهنة ، يتعايشون - بَرُهم مع فاجرهم - في دنيا واحدةٍ، أما في الحياة القادمة فسوف تفُصل دنيا كلا الفريقين عن دنيا الآخر، فصلاً تاماً ، بحيث يكون عُبّاد الشيطان مع الشيطان ، وعُبّاد الرحمن مع الرحمن. وإنه ليس ثمة أحد يعبد الشيطان باسم الشيطان. ولكن كل عابدٍ لغير الله هو في الحقيقة عابد للشيطان بصورةٍ غير مباشرةٍ ، لأنه إنما يفعل ذلك تحت تزيين الشيطان نفسه .

أثبتت الأبحاث والتجارب العلمية الجديدة أن جلد الإنسان شأنه كشأن إسطوانة تسجيل حساسة ، ترتسم عليه كل الأصوات الصادرة عن المرء ، وأنه يمكن إعادة هذه الأصوات كما هي في أي وقتٍ لاحقٍ . إنها آية تقرب إلى أفهامنا كيف أن جوارح الإنسان (يديه ورجليه) ستأخذ تحكي عليه في الآخرة أخباره وفصول حياته أولاً بأول؟!!

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

لَطَمَسْنَا :لصيرناها ممسوحة لا يرى لها شق .

فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ: ابتدروا الطريق لتجتازوه .

فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ؟: فكيف يبصرون الطريق؟

عَلَى مَكَانَتِهِمْ : في مكان معاصيهم .

وَمَن نُّعَمِّرْهُ : نطل عمره .

نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ :نرده إلى أرذل العمر .

طالما يغترّ الإنسان بما يتمتع به من نعمة العين واليدين والرجلين وغيرها من المواهب والقدرات الأخرى ، فيعدو طورَه ويتمرد على الله فيتجاوز حدوده ، وينتهك محارمه، على حين لو أنه فكرّ ملياً لكفاه هذا الواقع عظةً واعتباراً بأن مواهبه وقدراته تلك ليست من صنعه هو ، بل هي مما أعطاه الخالق إياه ، وإذا كان المعطي إلهاً آخر ، فبإمكانه أن يسترد عطاءه تماماً كما أعطاه .

وبالإضافة إلى ذلك فإن لمحةً سريعةً لهذا الإمكان لا تزال تعرض على الناس بالفعل في صورة الشيخوخة ؛ فالمرء حين يهرم ويبلغ نهاية الشيخوخة ، تنزع منه كل قدراته تلقائياً، حتى إنه ليعود ثانياً من شدة الضعف والاحتياج كما كان أيام طفولته الأولى، غير أن الإنسان غبي بليد الحس، لدرجة أنه رغم مشاهدته كل هذه الأحوال صباح مساء لا يستخلص منها درساً ولا عبرةً !

﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

لقد كان أسلوب القرآن المعجز يجذب إليه السامعين جذباً ، ومن ثم أخذ معارضوه يحاولون التقليل من تأثيره على الناس قائلين بأنه شعر وليس بكلامٍ إلهي.

غير أن هذه دعوى لا تستند على أساسٍ ، فما يسود القرآن من جوٍ مفعمٍ بالجدية اللامحدودة ، وما يحمل بين طياته من أسمى التعاليم عن معرفة الحق ، ومن كشفٍ لا مثيل له عن حقائق الغيب وأسرار الكون ، وما يوجد بين مضامينه - على اختلاف موضوعاتها - من نظم بديعٍ ووحدةٍ فكريةٍ فذةٍ ، وما يتخلل صحائفه من الإشراقات الربانية وانعكاساتٍ لألوهية الله وجلاله لا توصف ، كل ذلك يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك على أن القرآن كلام أعلى وأرفع من أن يصح وصفه بالشعر الإنساني .

بيد أن الحقيقة إنما يؤمن بها دوماً الأحياء وحدهم .. وهكذا فإن صدق القرآن هو الآخر لن يراه إلا من كان حياً ، وأما الإنسان الميت فلن يوفق لرؤيته أبداً !

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ : صيرناها لهم مسخرة منقادة لهم .

وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ: والأصنام جند معدون للكفار نحضرهم معهم في النار لعذابهم .

إن الحيوانات الداجنة بمثابة علامات حية تدلنا على أن صانع العالم المادي قد صنعه بحيث يستطيع الإنسان أن يقوم بتسخير موجوداته واستغلالها بشتى الوجوه ، وعلى أساس من صلاحية العالم المادي هذه يقوم بناء الحضارة الإنسانية بأكمله ، ولو كان الحصانُ والثور هما الآخران من وحشية الطبع والغريزة حيث تكون الدببة والذئاب ، أو كان الحديد والبترول وراء مقدرة الإنسان تماماً ، كما هو شأن المواد البركانية الدفينة تحت الأرض ؛ إذن لاستحال رقي الحضارة الإنسانية وتطورها كل الاستحالة .

وإن الخالق الذي أسدى هذه النعم الجليلة ، كان ينبغي على الإنسان أن يشكر له وحده ، ويفرده بالعبادة من غير شريك ، ولكنه يتخذ من الآخرين دونه آلهةً ، وإذا ذُكر فلا يتذكر ، بل لا يكاد يلقى إلى التذكير والنصيحة بالاً ، وهذا بدون شك هو الطغيان الأكبر ، وليس بإمكان أحدٍ يرتكبه أن ينقذ نفسه من مصيره المحتوم على أية حالٍ !

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا
مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ
أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ
أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ
مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ
﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

هُوَ خَصِيمٌ : مبالغ في الخصومة بالباطل .

وَهِيَ رَمِيمٌ : بالية أشد البلى .

بَلَى : هو قادر على خلق مثلهم .

مَلَكُوتُ : هو الملك التام .

ليس الإنسان خالق نفسه ، وإنما هو مخلوق الخالق المبدع بلا جدالٍ ، وهذا الواقع كان يقتضي أن يتصف الإنسان بصفة التواضع والخضوع، ولكنه طالما ينحرف عن منهج الواقعية ، ويثير مناقشات تتنافى مع حيثيته المتواضعة العاجزة ..

إن خلق الإنسان والكون للمرة الأولى يكفي في حد ذاته للبرهنة على أن عملية الخلق هذه يمكن إعادتها مرة أخرى ، ولكن الإنسان يتعامى عن هذا البرهان الجلي الصارخ ويتساءل جدلاً كيف سيعود الميت حياً من جديد؟! ومع أن حادث تحول الإنسان الميت ثانيةً إلى إنسانٍ حي يقع - ولا ريب - يوم القيامة ، غير أن هذا الإمكان يبدو لنا اليوم جلياً في الأشياء الأخرى ، فلننظر إلى الشجر مثلاً : إن الشجر يكون في ظاهر الأمر أخضر ، ولكنه حين يقطع ويحرق أخشاباً ، فيتخذ شكلاً مختلفاً عن حالته

الأولى كل الاختلاف : يُسمى النار!

إن تحول شيء إلى شيء آخر واقعة ثابتة لا تحتاج إلى مزيد برهانٍ ، وقد جعلها الله بالنسبة إلى بقية الأشياء ممكنة الحدوث والتكرار في عالمنا الراهن. وأما بالنسبة إلى الكائن البشري ، فإنه تعالى سيجعل ذلك ممكناً في يوم القيامة، إلا أنه لن يكون لأجل الإرغام على الإيمان ، بل لمجازاة الإنسان على عناده وطغيانه !!

سورة الصافات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ ﴾

وَالصَّافَّاتِ صَفاً : قسم بالجماعات تصطف للعبادة .

فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً : تزجر عن المعاصي بالأقوال والأفعال .

فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً : تتلو آيات الله للعلم والتعليم .

إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ : جواب القسم .

من جملة الحقائق الغيبية التي أخبر عنها الأنبياء الكرام وجود الملائكة . وقد ذُكرت هنا ثلاث وظائف خاصة بالملائكة . أما أولاها: فهي تتمثل في خضوعهم التام وانقيادهم الكلي لمشيئة الله ، حيث إنهم لا يزالون يقفون في جناب الله تعالى صفوفاً ، وهم على أتم الاستعداد لامتثال أمره ، دون أن يخطر ببال أحدٍ منهم خاطر العصيان أو التمرد عليه أبداً .

ومن الملائكة : طائفة أخرى تقوم بتنفيذ العقوبات الإلهية على الناس ، إما بشكل النوازل والآفات والنكبات أو بأي شكلٍ آخر سواها .

وأما ثالث الوظائف المنسوبة إلى الملائكة هنا: فهي أنهم يتنزلون بذكر الله وموعظته على قلوب عباد الله ؛ في صورة الإلهام أو الإلقاء بالنسبة إلى البشر العاديين ، وفي صورة الوحي بالنسبة إلى الأنبياء والمرسلين !.

إن الله هو مالك هؤلاء الملائكة الذين لا يراهم الإنسان ، كما أنه تعالى هو مالك هذه السماوات والأرض التي يراها الكل رأي العين . وفي حالة كهذه فإن كل ما يُتخذ من دون الله الواحد إلهاً سيكون هو إلهاً لا يستحق أن يؤلّه أو يُعبد إطلاقاً! .

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾

شَيْطَانٍ مَّارِدٍ : متمرد خارج عن الطاعة .

وَيُقْذَفُونَ : يرجمون .

دُحُوراً : إبعادا وطرداً .

عَذَابٌ وَاصِبٌ : دائم لا ينقطع .

خَطِفَ الخَطْفَةَ : اختلس الكلمة مسارقة بسرعة .

شِهَابٌ : مايرى كالكواكب منقضا من السماء .

ثَاقِبٌ : مضيء أو محرق .

ربما يكون المراد بـ "السماء الدنيا" هو هذا الجزء من الفضاء الذي يقع قريباً منا نحن البشر ، والذي يمكننا أن نشاهده بالعيون المجردة من غير استعانةٍ بأية وسائط أو آلاتٍ .

وكما أن الإنسان كائن مختار ، فكذلك يتمتع الجن بحرية الاختيار ، ومن ثم فهم يحلقون في أجواء الفضاء في محاولة التوصل إلى الملأ الأعلى (العالم العلوي) كي يستمعوا – خلسةً ومسارقةً – إلى أخبار المستقبل ، غير أن الله – جلّت قدرته – قد اتخذ

في السماء الدنيا تدابير محكمة لدرجة أنهم لا يكادون يقتربون منها حتى يُطردوا خائبين، ولا تسنح لهم فرصة للوصول أو الاستماع إلى الملأ الأعلى !

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

طِينٍ لَّازِبٍ : ملتزق بعضه ببعض .

وَيَسْخَرُونَ : يهزأون ويتعجبون .

يَسْتَسْخِرُونَ : يبالغون في سخريتهم .

دَاخِرُونَ : صاغرون أذلاء.

إن هذا الكون الذي يمتد أمام أبصارنا يبلغ من الدقة والتعقيد والعظمة والاتساع حداً يبدو بجانبه إعادة خلق البشر في عالم آخر عملاً هيناً صغيراً نسبياً، إذْ كيف يستحيل أو يُستبعد على خالقٍ نشاهد الأنموذج الأعظم من قدرته على الخلق والإبداع؛ أن يقوم بعملية إبداعية أصغر من ذلك بكثير؟!

ومن تحليل الجسم الإنساني ندرك أنه علم على مزيج من الأجزاء الأرضية ، حيث تم تكوين الإنسان من تركيب المواد أو العناصر المتوافرة في أرضنا كالماء ، والكالسيوم ، والحديد ، والصوديوم ، والتنجستين ، وما إلى ذلك، وكل هذه العناصر توجد في هذا العالم بمقادير هائلةٍ جداً ، إذن ، فالعناصر التي أنشأ الخالق بتركيبها هذا الإنسان مرةً واحدةً ، كيف لا يستطيع أن يفعل ذلك بإعادة تركيب هذه العناصر نفسها مرةً

أخرى؟!

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ : صيحة واحدة (نفخة البعث)

يَا وَيْلَنَا : يا هلاكنا أحضر .

يَوْمُ الدِّينِ : يوم الجزاء والحساب .

وَأَزْوَاجَهُمْ : أشباههم . أو قرناءهم .

وَقِفُوهُمْ : احبسوهم في موقف الحساب .

يساق الحديث عن الحياة القادمة في العالم الراهن كما يُساق خبر من الأخبار . ولكن المرء لا يلقى إلى هذا الخبر بالاً ولا يعطيه أهميةً تُذكر ، وأما إذا فوجئ الناس بالحياة القادمة، وقد استحالت حقيقةً قاسيةً لا مندوحة عنها ، فسوف لا يلبث المرء يومئذٍ أن يلقى بنفسه بين يدي الله خاضعاً مستسلماً ناسياً كل عناده وطغيانه. وإنه سيكون مشهداً فظيعاً مروعاً لا يوصف. وقد سُلطت بعض الأضواء على ما سيؤول إليه حال الناس يومئذٍ في ساحة المحشر في الآيات التالية .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

عَنِ اليَمِينِ : من جهة الدين فتصدوننا عنه.

قَوْماً طَاغِينَ : مجاوزين الحد في العصيان .

فَحَقَّ عَلَيْنَا : ثبت ووجب علينا .

فَأَغْوَيْنَاكُمْ : فدعوناكم إلى الغي فاستجبتم .

هذا حوار بين العوام (الأتباع) والقادة (المتبوعين) ، ففي يوم القيامة سوف يلقي العوام بتبعة هلاكهم وضياعهم على قادتهم قائلين : إنكم أنتم الذين أغويتمونا بشتى وسائل الإغواء والتضليل .. وسيرد عليهم القادة بقولهم: إن اتهامكم هذا خاطئ ، إذْ لا يغوي أحد أحداً ، وإنما كانت أنفسكم منطويةً على مزاج التمرد والطغيان ، وبالتالي فقد استجبتم لنا واتبعتمونا لكون كلامنا يتفق مع مزاجكم ، والواقع أن استجابتكم إنما كانت أساساً لأهوائكم وليست لنا .. إذن فكلنا في الجريمة سواء .

والحقيقة أن كلا الفريقين - القادة والأتباع - سيلاقون يوم القيامة مصيراً مشتركاً واحداً ، فلن تتمكن عظمة القائد من إنقاذه من العذاب ، ولن ينجي العوام اعتذارهم : إننا كنا جهلة ، وإنما أضلنا قادتنا عن سواء السبيل !.

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

ليس معنى قوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ أنهم

كانوا يقفون موقف الاستكبار إزاء الله .. إذْ لا أحد يفعل ذلك فإن عظمة الله أجل وأكبر من يجترئ أحد على التعالي والاستكبار تجاهه ، وإنما كان استكبارهم في الحقيقة بالنسبة إلى رسول الله وليس بالنسبة إلى الله تعالى !.

وحيث إن رسالة التوحيد التي جاء بها الرسول كانت تمثل ضربة موجهةً نحو أكابرهم أولئك الذين كانوا يمارسون أعمالهم المشركة بأسمائهم ؛ فإذا قارنوا بين شخصية الرسول -من ناحيةٍ - وبين أكابرهم المزعومين - من ناحيةٍ أخرى - بدا لهم الرسول في ظاهر الأمر أقل وأنزل رتبةً من أكابرهم ، وكانوا بالتالي لا يلبثون أن يعرضوا عن الرسول ازدراءً واستهانةً بشأنه . وكانوا يظنون باستمرارهم على التشبث بأهداب أكابرهم المزعومين ، أنهم مرتبطون بالكبار .

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

الْمُخْلَصِينَ : الذين أخلصهم الله لطاعته .

بِكَأْسٍ : بخمر . أو بقدح فيه خمر .

مِن مَّعِينٍ : من شراب نابع من العيون .

لاَ فِيهَا غَوْلٌ : ليس فيها ضرر ما كخمر الدنيا .

قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ : حور لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

عِينٌ : واسعات العيون حسانها .

بَيْضٌ مَّكْنُونٌ :مصون مستور لم يصبه غبار .

الذين سيقيمون بأقوالهم وأعمالهم الدليل على أنهم أهل للسكنى في عالم الجنة اللطيف النفيس ، سوف يختارهم ربهم للإسكان في جنته، وسوف يوفر لهم هناك كل أنواع النعم الرفيعة، ثم يقال لهم : عيشوا في حدائق اللذات والراحات خالدين أبد الدهر!.

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

لَمَدِينُونَ : لمجزيون محاسبون ؟

سَوَاءِ الجَحِيمِ : وسطها .

إن كِدتَّ لَتُرْدِينِ : إنك قاربت لتهلكني بالإغواء .

المُحْضَرِينَ : للعذاب مثلك .

إن الجنة ستكون عالماً حافلاً بأنشطةٍ لطيفةٍ وممتعةٍ للغاية ؛ حيث ستكون هناك اجتماعات يسودها الأنس والمودة والصفاء ، ومشاهدات رائعة تبعث البهجة والسرور في النفس ، وسيدور بين أصحابها أحاديث وأسمار لذيذة هادئة ؛ إذْ ستكون كل ألوان القيود والحدود قد ألغيت هناك ، وكل أنواع المنغصات قد انعدمت وتلاشت إلى غير

رجعةٍ.

وليس المراد من الإيمان بالآخرة إقرارها اللفظي بسهولةٍ ، وإنما اعتبار أمرها من الأهمية والخطورة بحيث يطغى ذلك على حياة المرء بأكملها ، وبالتالي يسخّر المرء كل ما يملك في سبيل الآخرة ، والذين كانوا يعتبرون محبي الآخرة مجانين أو مغفلين ، سوف يتملكهم الذهول حين يرون فوزهم ونجاحهم الباهر في الآخرة، ومن جهةٍ أخرى سينظر المحبون للآخرة إلى مصيرهم الرائع نظرة ملؤها الدهشة والإكبار ، كما لو أنهم غير متأكدين من أن الله كافأهم على عملهم الصغير بهذا الجزاء الكبير .. ما أعجب ذلك الإنسان الذي لا يحترق شوقاً إلى جنةٍ هذا شأنها ، والذي لا يعمل جهده لأجل الحصول عليها !!

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا
شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ
مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ
مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ
يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

خَيْرٌ نُّزُلًا : ضيافة وتكرمة ولذة .

شَجَرَةُ الزَّقُّومِ : شجرة من أخبث الشجر بتهامة .

فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ : محنة وعذاباً لهم في الآخرة .

أَصْلِ الجَحِيمِ : قعر جهنم .

طَلْعُهَا : ثمرها الشبيه بطلع النخل .

كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ : تمثيل لتناهيه في البشاعة والقبح .

لَشَوْباً : لخلطا ومزاجاً .

مِنْ حَمِيمٍ : ماء بالغ غاية الحرارة .

عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ : يزعجون ويحثون على الإسراع الشديد على آثارهم .

لقد جاء في القرآن غير مرةٍ أن في جهنم شجرة من زقومٍ ، سيأكل أهل جهنم من ثمارها إذا اشتد بهم الجوع . (الدخان : ٤٢ ، الواقعة: ٥٢) .

ولما أخبر القرآن بذلك اتخذه قدماء العرب موضوع التندر والسخرية ، فقال أحد الرؤساء : كيف ستنبت الشجرة وسط نيران جهنم الملتهبة ، بينما النار تحرق الشجر ؟ وقال آخر : إن محمداً يحذرنا من الزقوم ، وإنما هو في لغة البربر التمر والزبد . وذات يومٍ ذهب أبو جهلٍ ببعض الناس إلى داره ، فنادى جاريته بأن ائتيني بالتمر والزبد ، فلما أحضرت ، قال لأصحابه : "تزقموا ، هذا ما يخوفنا به محمد "[١].

وقد كانت مثل هذه التصريحات القرآنية أفضل وسيلةٍ يستغلها المعارضون للدعاية المغرضة ضد القرآن وتشكيك الجماهير في شأنه ، وقد كان بالإمكان ألا يستعمل الله – سبحانه وتعالى – في القرآن أية كلمةٍ يجد فيها المعارضون مأخذاً أو موضوع الطعن والانتقاص ، غير أن الله سبحانه لم يفعل ذلك . وسر ذلك أن هذا هو المكان الذي يتم فيه امتحان المرء ، فلكي يدخل المرء في عداد الناجين لابد له من أن يقيم الدليل على أنه قد ركز اهتمامه على الحقيقة الجوهرية بغض النظر عن المطاعن والمآخذ ، وأدرك المراد الحقيقي من الكلام مع اجتياز مزالق سوء الفهم بسلامةٍ ، وجنّب نفسه الانحراف

(١) انظر : تفسير الطبري ٢٣/ ٤١.

الذهني رغم توافر إمكاناته .

إن عباد الله "المخلصين" هم الذين يكتشفون الصدق متحررين من أسر الدين التقليدي الموروث ، ويدركون المعاني مترفعين عن الظواهر، والذين يتعرفون على مندوب الله البشري ، وبالتالي يقفون إلى جانبه بكل ما عندهم من همةٍ ونشاطٍ !

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

لم يلبث قوم نوح أن صاروا له أعداء ، فنادى - عليه السلام- ربه طالباً نصرته على قومه ، فنصره الله على أفضل وجه وأكمله، وتوضح هذه الكلمات أن عبداً من عباد الله حين ينادي ربه ، فيتلقى من لدنه تعالى أحسن الجواب . ولكن لكي نفهم هذا الأمر على وجهه لابد أن نضيف إليه أمراً آخر، وهو أن نوحاً - عليه السلام- استمر يعمل ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً ، ظل فيها يدعو قومه إلى الله ، متحلياً بالصبر والحكمة ، ومراعياً كل آداب النصح والموعظة الحسنة ، وهكذا بعد مضي حقب طويلة من الزمان حافلة بالجهد الدءوب والعناء المتصل ، حان الوقت الذي لم يعد يسعه فيه إلا أن يدعو الله على قومه ، وبالتالي تتوجه عناية الله إلى نصره بكل قواه .

وقد هلك معارضو نوح في طوفانٍ هائلٍ بحيث لم يبق لهم ذكر ولا أثر. وأما نسل البشر الذي بدأ في أعقاب ذلك بالتكاثر ، فإنما جاء من ذرية أولئك الأفراد القلائل الذين ركبوا في السفينة مع نوحٍ فنجوا من الغرق !

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ

وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

مِن شِيعَتِهِ : ممن شايعه على منهاجه وملته .

أَئِفْكاً : أكذباً وباطلاً.

كان سيدنا إبراهيم هو الآخر على الدين نفسه الذي كان عليه سيدنا نوح من قبل؛ فقد ظلت دعوة جميع الأنبياء والمرسلين ، على اختلاف الزمان والمكان ، واحدةً ، ألا وهي أن يصل المرء إلى ربه وهو يحمل بين جنبيه قلباً سليماً . والقلب السليم معناه القلب الطاهر ، أي القلب المصون من الآفات . وهذا هو الشيء الأصيل الذي يطلبه الله من الإنسان.

لقد بعث الله بالإنسان إلى الدنيا بعد أن خلقه على الفطرة الصحيحة . واختباره الآن يكمن في أن يجنب نفسه فتن الدنيا ومغرياتها ، حتى يلقى ربه وهو منزّه نقي من كل دنسٍ أو لوثةٍ شيطانية ونفسانيةٍ . وإن هذا الإنسان الطاهر المصون هو الذي يسكنه الله وأمثاله في جنانه الأبدية!

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

فَنَظَرَ : تأمل تَأَمُّل الكاملين .

إِنِّي سَقِيمٌ : يريد أنه سقيم القلب لكفرهم .

فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ : فمال إليها خفية ليحطمها .

ضَرْباً بِالْيَمِينِ : يضربهم ضرباً ملتبسا بالقوة .

يَزِفُّونَ : يسرعون في مشيهم .

بِغُلامٍ حَلِيمٍ : رجح كثير أنه إسماعيل عليه السلام.

ربما كان قوم إبراهيم يتهيأون للذهاب إلى خارج البلدة لأجل الاحتفال ببعض أعيادهم ، وبالمناسبة طلب منه - عليه السلام- أهل أسرته أن يخرج معهم هو الآخر، إلا أنه اعتذر إليهم عن ذلك بأسلوب التورية . ولما ذهب جميع الناس ، توجه ليلاً صوب معبدهم ، وحطّم أصنامهم ، وإنه - عليه السلام- لم يقدم على هذا إلا بعد ما استنفد كل جهوده في دعوة القوم إلى الحق وأقام عليهم الحجة، ولما لم يقتنعوا بكون الأصنام باطلةً عن طريق الأدلة والبراهين ، أعلمهم بلسان العمل بأنها باطلة لا حقيقة لها ؛ إذْ لو كانت لها حقيقة ما لأنقذت نفسها من التحطم تحت ضربات المعول !.

وبعد قيامه - عليه السلام- باتخاذ هذه الخطوة النهائية الحاسمة ، لم يلبث القوم أن رموه بآخر سهامهم ، حيث ألقوه في النار المستعرة ، ولكن الله أنقذه منها سالماً، وقد اضطر بعد ذلك إلى الفرار من قومه ، فغادر وطنه (العراق) ورحل إلى الشام ، ويتردد على لسانه آنذاك الدعاء التالي : اللهم ارزقني أولاداً صالحين ، حتى أقوم بتربيتهم على معاني الإيمان والإسلام ، لكي يضطلعوا من بعدي بأعباء دعوة التوحيد ويستمروا في إبلاغها إلى الأجيال اللاحقة!

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ

قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ
لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾
إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا
عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾

بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ : درجة العمل معه في حوائجه .

أَسْلَمَا : استسلما وانقادا لأمره تعالى .

وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ : أضجعه على جبينه على الأرض .

البَلاءُ المُبِينُ : الاختبار البين . أو المحنة البينة .

بِذِبْحٍ : بكبش يذبح .

لقد غلب الشرك في زمن سيدنا إبراهيم وسرى نفوذه في كل شعبةٍ من شعب الحياة البشرية بحيث قام له تسلسل فكري عبر الأجيال المتعاقبة، فما من مولود يولد في ذلك الزمان إلا ترسخت جذور الشرك في أعماقه بتأثير البيئة المحيطة به ، لدرجة أن أية محاولات دعوية لم تعد تنجح في تنقية ذهنه من آثار الشرك ، ولما خرج سيدنا إبراهيم، بعد كفاحٍ دعوي طويلٍ من أرض العراق ، لم يكن معه حينذاك سوى مؤمنين اثنين : أحدهما زوجه سارة ، والآخر ابن أخيه لوط!!

ولما كان الناس يأبون قبول التوحيد على كثرة دعوات الأنبياء وطول مداها ، شاءت إرادة الله أن يضع خطةً لإعداد نسلٍ جديدٍ من البشر ينشأ بمعزلٍ عن مؤثرات بيئة

الشرك ، وقد اختير لهذا الغرض منطقة الحجاز النائية التي كانت غير مسكونةٍ تماماً ، وكانت تتلخص هذه الخطة الإلهية في أن يتم إسكان شخصٍ في تلك المنطقة غير المأهولة ، ويُعد من أعقابه وذريته نسل محفوظ نقي، غير أن الحجاز لم يكن يعدو أن يكون صحراء مجدبة حينذاك ، فكان إسكان أحد الناس في هذه الصحراء المجدبة مرادفاً لذبحه حياً .. وقد أمر الله خليله إبراهيم بأن يقدم ابنه البكر إسماعيل لهذا الذبح، فما لبث أن أحضر ولده للذبح امتثالاً لأمر الله.. فكأن إسماعيل تعرض للذبح مرتين وقد نجاه الله فيهما!!

وكان لسيدنا إبراهيم ولد آخر هو سيدنا إسحاق - عليه السلام - وقد ظلت النبوة مستمرةً في نسله إلى أن وُلد النبي الخاتم في بني إسماعيل ، وهو الذي فجر - باستخدام "النسل المحفوظ" الآنف الذكر ثورة توحيديةً عامةً قضت على غلبة الشرك الفكرية إلى الأبد!!

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

لقد نصر الله موسى وقومه ونجاهم من ظلم فرعون . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : كيف تم ذلك؟ إنما تم ذلك عن طريق الدعوة إلى الله ، حيث دعا موسى فرعون إلى الحق ، وبذل في هذا السبيل قصارى جهده حتى أعذر إليه وأقام عليه الحجة . وبعدئذٍ حان الوقت الذي لم يعدْ فيه بد من أن يُدان فرعون ويهلك ، ويكتب لموسى وقومه الغلبة والتمكين في الأرض، ومما يُستفاد من هداية الصراط المستقيم في

هذا السياق أنه قد وُفقوا إلى الحل الصحيح لقضية فرعون .. وبالرغم من أنها كانت قضية قومية بالنسبة إلى بني إسرائيل ، إلا أنهم أُرشدوا إلى حلها في إطار الدعوة ؛ ومن ثم فإن الغلبة التي حصلوا عليها إنما جاءت ثمرة كفاحهم الدعوي ، وليس نتيجة أي نضالٍ قومي ضد الطاغية فرعون !.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) ﴾

أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ : أتعبدون الصنم المسمى بعلاً تحضرهم الزبانية في النار .

إِلْ يَاسِينَ : إلياس أو إلياس وأتباعه .

كان إلياس - عليه السلام - من نسل هارون - عليه السلام - عاش في القرن التاسع قبل المسيح وفي عهده كانت فلسطين يحكمها الملك اليهودي أخْآب (Ahab) ، وكانت لبنان خاضعةً لحكومة الشعب الفينيقي ، الذي كان شعباً مشركاً يعبد صنماً يقال له: "بعل" . وقد تزوج أخآب من ابنة الملك المشرك ، وبتأثيرٍ من هذه الأميرة المشركة انتشرت عبادة الصنم بعل بين اليهود، وعندها قام إلياس يحذر اليهود مغبة انحرافهم ، ودعاهم إلى عبادة الله الواحد ؛ دين آبائهم وأسلافهم الحقيقي. وقد ذُكرت أحوال سيدنا إلياس (باسم إيليا) في أسفار التوراة .

ولم يقف إلى جانب إلياس - عليه السلام - في زمانه سوى عددٍ قليلٍ من اليهود ، بينما وقفت أغلبيتهم الساحقة منه موقف الجحود والمعارضة ، حتى تآمروا على سفك

دمه .. فأذاقهم الله جزاء ذلك شتى العقوبات ، على أن إلياس لم يلبث أن نال مقاماً رفيعاً جداً لدى اليهود فيما بعد ؛ حيث إنه يُعد الآن من كبار الأنبياء في تاريخ الشعب اليهودي!

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ
بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾
فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى
ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ
عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ
﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم
مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

فِي الغَابِرِينَ : في الباقين في العذاب .

دَمَّرْنَا الآخَرِينَ : أهلكناهم .

مُّصْبِحِينَ : داخلين في وقت الصبح .

كان سيدنا لوط ابن أخٍ لسيدنا إبراهيم – عليهما الصلاة والسلام – وقد أُرسل إلى قريتي سدوم وعاموره قرب البحر الميت لهداية أهلهما الذين كانوا مصابين بعبادة غير الله وسوء الأخلاق ، غير أنهم لم يتقبلوا الهداية ، فما لبثوا أن حل بهم آخر الأمر عذاب الله ، فأهلكوا عن آخرهم ما عدا لوطاً ونفراً قليلاً من الذين آمنوا به .

وقد كانت قريش كثيراً ما تمر قوافلها التجارية ، وهي في طريقها إلى بلاد الشام وفلسطين ، بأطلال مساكن قوم لوط الواقعة على شواطئ البحر الميت ، ولكن من

عجائب أمر الإنسان أنه لا يعرف إلا الحادث الذي يقع على نفسه هو، أما مصائر الآخرين فقلما يأخذ منها درساً أو ينظر فيها بعين التدبر والاعتبار !

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

أَبَقَ: هرب .

المَشْحُونِ : المملوء .

فَسَاهَمَ : فقارع مَنْ في الفلك.

المُدْحَضِينَ : المغلوبين بالقرعة .

فَالْتَقَمَهُ الحُوتُ : ابتلعه .

وَهُوَ مُلِيمٌ : آت بما يلام عليه .

المُسَبِّحِينَ : الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح .

فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ : طرحناه بالأرض الفضاء الواسعة .

يَقْطِينٍ : هو القرع المعروف وقيل غيره .

يرجع عهد يونس - عليه السلام - إلى القرن الثامن قبل المسيح ، وقد أرسله الله إلى نينوى - إحدى مدن العراق القديم - فمكث هناك يدعو أهلها إلى الحق مدةً من الزمان ،

حتى يئس من إيمانهم ، فغادر المدينة ولم ينتظر أمر الله بمفارقة قومه . ولعله حين أزمع الرحيل قصد نحو شاطئ دجلة ، حيث ركب في سفينة كانت مكتظة بالمسافرين ، فلم تكد السفينة تتوسط النهر حتى اضطربت وكادت أن تغرق ، فاضطر ركابها أن يقترعوا على من يُلقى في البحر منهم ، فخرجت القرعة على يونس وألقوه في الماء ، فابتلعه - بإذن الله - حوت عظيم، ثم نبذه بالساحل بعدما لبث في بطنه ما شاء الله أن يلبث .. وبما أن يونس - عليه السلام - كان قد ترك قومه قبل الآوان ، أمره الله بأن يعود مرةً أخرى إلى قومه ، فجاء ، واستأنف دعوته ، ولم يلبث حتى آمن به جميع سكان المدينة البالغ عددهم أكثر من مائة ألف نسمةٍ .. وهذا يفيد أن الداعي لابد له من التزام الصبر على كل حالٍ ، حتى في الوقت الذي يكون سلوك الناس قد صار في ظاهر أمره باعثاً على اليأس !

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

إِفْكِهِمْ : كذبهم على الله .

أَصْطَفَى ؟: اختار ؟ (استفهام توبيخ) .

سُلْطَانٌ : حجة وبرهان .

إن ترغيب الشيطان أو تفسير البشر الخاطئ لحقائق الغيب كثيراً ما يؤدي إلى انحرافات فكرية وضلالات عقيدية عظيمة ، ومنها ما يعتقده بعض الناس أن الملائكة بنات الله ... ، إن هذا زعم سخيف باطل لا يستند على أساسٍ من العقل أو النقل،

وحسبك دليلاً على بطلانه بأمرٍ بديهي وهو أنه لو كان الله - فرضاً - بحاجةٍ إلى الولد لمساعدته ، لاتخذ لنفسه الذكور دون الإناث التي هي رمز للضعف حتى لدى المشركين أنفسهم !!

﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

الجِنَّةِ : الملائكة ، أو الشياطين .

إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ : إن الكفار لمحضرون للنار .

عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ : مضلين أو مفسدين على الله أحداً.

صَالِ الجَحِيمِ : داخلها أو مقاسٍ حرها .

الصَّافُّونَ : أنفسنا في مقام العبادة .

المُسَبِّحُونَ : المنزهون الله تعالى عما لا يليق بجلاله .

تعتقد الأمم الضالة عن الجن أنهم أنداد ومنافسون لله سبحانه وتعالى ؛ حيث تزعم أن الجن يملكون قوى الشر كما يملك الملائكة قوى الخير ، وأن كلاهما قادر على أن يجرّ من شاء إلى هوة الشقاء والتعاسة ، ويقود من شاء إلى طريق النجاح والسعادة، كشأن المجوس القائلين بالثنوية ؛ أي بوجود مبدأين أو إلهين اثنين: أحدهما "أرْمُزد" وهو - في زعمهم - إله النور والخير ، وثانيهما "أهريمان" وهو إله الظلمة والشر .

إن الإنسان يؤله الملائكة ويعبدهم في الدنيا بناءً على افتراضاته الكاذبة ، بينما الملائكة

لا يزالون يقفون بين يدي الله الواحد القهار صفوفاً كالخدم المطيعين ، وألسنتهم لا تفتأ تلهج بتكبير الله الواحد وتسبيحه كل حينٍ وآن !

﴿ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

الناس يهملون أمر دعاة الحق بعد الاكتراث ، ويغيب عن بالهم أن دعاة الحق هم جنود الله في هذه الدنيا ، وأن كلمتهم تعلو على كل حالٍ ، مهما اشتدت معارضة المعارضين لها ، ومهما وضعوا في طريق انتشارها من صنوف العراقيل !

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

بِسَاحَتِهِمْ : بفنائهم . والمراد .بهم .

رَبِّ العِزَّةِ : الغلبة والقدرة والبطش .

كان الرسول ينذر الناس قائلاً بأنكم لئن لم تؤمنوا بما جئتكم به،حل عليكم عذاب من الله شديد .. بيد أن الناس ما برحوا يعتبرون هذا القول ضرباً من اللغو أو الهذيان ، فظلوا يسخرون منه ومن قائله .

ولكن بالرغم من سخرية الناس واستهزائهم لم ينزل عليهم العذاب فوراً ، لأن العذاب الإلهي لابد له من قيام الحجة وبلوغ الدعوة إلى حد انقطاع العذر ، ولهذا

السبب يؤمر الأنبياء بالصبر والإعراض حتى يأتي الأجل المقدور بحسب العلم الإلهي !

سورة ص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝ ﴾

وَالْقُرْآنِ : (قسم) جوابه ما الأمر كما تزعمون .

ذِي الذِّكْرِ : ذي البيان لما يحتاج إليه في الدين .

عِزَّةٍ : حمية وتكبر عن الحق .

وَشِقَاقٍ : مشاقة ومخالفة لله ولرسوله .

كَمْ أَهْلَكْنَا : كثيرا أهلكنا .

قَرْنٍ : أمة . **فَنَادَوْا** : فاستغاثوا حين عاينوا العذاب .

وَ لاَ تَ حِينَ مَنَاصٍ : ليس الوقت وقت فرار وخلاص .

حيث إن التذكير إنما يتم بشيء يكون موجوداً بالفعل بصورة مسبقة ، فيكون معنى كون القرآن "ذي الذكر" أي مذكراً أنه يدعو إلى التسليم بتلك الحقائق التي هي مودعة في فطرة الإنسان سلفاً ، وإنه لم يكن لأحد الناس أن يعثر في القرآن على شيء يتعارض مع الواقع أو ينافي الفطرة ، وهذا بحد ذاته دليل كاف على أن القرآن حق لاريب فيه ، والذين يأبون الإيمان بالقرآن فمن المؤكد أن الباعث على إنكارهم نفسي وليس بعقلي، أي إنهم لا ينكرونه استناداً إلى دليل أو برهان ، بل لأن كبرياءهم يزول فيها لو آمنوا به .

وإن القرآن ليس إلا امتداداً لدعوة التوحيد تلك التي ظلت جارية على أيدي

الأنبياء فيما خلا من العصور ، وكلما قابل قوم هذه الدعوة بالتكذيب والإنكار في الأزمان الغابرة ، لم يلبثوا أن أهلكوا وجُعلوا أحاديث ، وينبغي لمنكري الحال أن يعتبروا بهذا المصير المحتوم الذي لقيه منكرو الماضي !

﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾

عُجَابٌ : بالغ الغاية في العجب .

المَلأُ مِنْهُمْ : الوجوه من كفار قريش .

امْشُوا : سيروا على طريقتكم ودينكم .

المِلَّةِ الآخِرَةِ : دين قريش الذي هم عليه .

اخْتِلاقٌ : كذب وافتراء منه .

كان القرآن - من جهةٍ - بأسلوبه الفذ وكلامه البليغ المؤثر على نحوٍ غير عادي ، يصيب المعارضين بذهولٍ واندهاشٍ بالغين ، وكان مظهر صاحب القرآن العادي يوقعهم - من جهةٍ أخرى - في شكٍ وارتيابٍ ، ومن ثم كانوا لا يزالون يرددون صنوفاً من الأقاويل لرفضه وتكذيبه ؛ فيقولون تارة: إنه ساحر ، ويرمونه طوراً بالكذب والافتراء ، ويزعمون حيناً أن له وراء ذلك بعض الأغراض المادية ، ويتساءلون حيناً آخر كيف يمكن أن يكون أسلافنا الكبار جميعاً على خطأ ، وهذا الرجل العادي وحده

على الصواب ؟!

وقولهم ﴿ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ مما يوضح أنهم كانوا يجدون أنفسهم عاجزين في ميدان الدليل ، ولذلك حاولوا إنقاذ الجماهير التابعة لهم من التيار القرآني برفع شعار التعصب !!

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾

الأَسْبَابِ : المعارج إلى السماء .

جُندٌ مَّا : هم مجتمع حقير و"ما" زائدة .

هُنَالِكَ : بمكة يوم الفتح أو يوم بدر .

ذُو الأَوْتَادِ : الجنود أو المباني القويتين .

وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ : سكان الغيضة الكثيفة الملتفة الشجر (قوم شعيب).

وَمَا يَنظُرُ : ما ينتظر .

صَيْحَةً وَاحِدَةً : نفخة البعث .

مَا لَهَا مِن فَوَاقٍ : ما لها توقف قدر فواق ناقة ، وهو ما بين حلبتيها .

قِطَّنَا : نصيبنا من العذاب الذي أوعدته .

إن رحمة الهداية الإلهية لا تُوزع بحيث إن مَنْ نال العظمة الدنيوية ، يُمنح بالضرورة هداية الله الأخرى ؛ إذْ لو كانت العظمة الدنيوية مما يجعل صاحبها عند الله عظيماً ، لكان بإمكانه هو وأمثاله من عظماء الناس أن يعطوا رحمة الله من شاءوا ، ويمسكوها عمن شاءوا.. ولكن الحقيقة أن الله يقسم رحمته حسب معياره هو ، وليس بحسب معيار عبدة الظواهر من البشر ، وقد كان المنكرون للرسول يسخرون منه قائلين: بأن ائتنا بالعذاب الإلهي الذي تخوفنا به !

وإنما تولدت هذه الجراءة في نفوسهم لكونهم يحسبون أن عذاب الله لن ينزل عليهم أبداً ، فتم تنبيههم إلى أنه قد مضت قبلكم أمم ظنت هي الأخرى نفسها بمأمنٍ من العذاب اعتماداً على أمثال هذه الأصنام التي تظنون أنفسكم آمنين في جوارها ، ولكنها لم تلبث طويلاً حتى أهلكت عن بكرة أبيها ، إذن ، فما الذي سيجعلكم لا تلقون هذا المصير المحتوم!!

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾

ذَا الأَيْدِ : ذا القوة في الدين والعبادة .

إِنَّهُ أَوَّابٌ : رَجَّاعٌ إلى الله تعالى وطاعته .

بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ : من الزوال للغروب ، ووقت الضحى .

وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ : قويناه بأسباب القوة كلها .

وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ : النبوة وكمال العلم وإتقان العمل .

وَفَصْلَ الخِطَابِ : علم فصل الخصومات .

الخَصْمِ : ملكين في صورة إنسانين .

للصبر أهمية بالغة في الدين ، ولكن لا يطيق الصبر على أذى الإنسان إلا الذي يستطيع تفويض أمر الإنسان إلى الله ، فإن الشخص الذي يكون غارقاً في تسبيح الله وحمده ، يمكنه أن يعرض عما يلقاه من أخيه الإنسان من منكر القول وسوء الأخلاق .

وقد كان سيدنا داود - عليه السلام - النموذج الأعلى لهذه الصفة ، فمع ما أعطاه الله من قوة خارقةٍ ومملكةٍ عظيمةٍ واسعةٍ ، إلا أنه كان رجاعاً إلى الله في كل الأمور والمعاملات، وكان لا يزال مستغرقاً في التسبيحات الإلهية المترددة أصداؤها في أرجاء الكون.. وقد كان - عليه السلام - يعزف ، وهو جالس في سفح الجبل ، نغمات الحمد الإلهي بصوته الجميل الممتزج بحرقةٍ وشوقٍ ووله يجعل كل ما حوله يتجاوب معه ، حتى إن الجبال والطيور والأشجار كانت بدورها تردد تسابيحه .

وإن المملكة التي أعطاها الله داود كانت مملكةً قويةً متماسكةً للغاية، وسر هذه القوة والتماسك كان يكمن في الحكمة وفصل الخطاب، والمقصود بالحكمة أنه كان يعالج دائماً كل ما يعرض له من قضايا وشئون بأسلوبٍ حكيم ومتعقلٍ . وأما فصل الخطاب فمعناه أنه كان يتمتع بصلاحية الحكم الصحيح واتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، وهذان الشيئان هما اللذان يجعلان من أحد الحكام حاكماً صالحاً ؛ إذْ وجود الحكمة فيه كفيل بأنه لن يقدم على ما قد يكون ضرره أكبر من نفعه، بينما يتكفل فصل الخطاب بأن قضاءه سيكون دوماً قضاءً عادلاً !

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ

فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ ﴾

تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ : علوا سور مصلاه ونزلوا إليه .

بَغَى بَعْضُنَا : تعدى وظلم وجار .

وَلاَ تُشْطِطْ : لا تجر في حكمك .

سَوَاءِ الصِّرَاطِ : وسط الطريق وهو عين الحق .

يقولون: إن داود - عليه السلام - كان قد نظم أوقاته بحيث خصص يوماً لتصريف شئون الملك وللقضاء بين الناس ، ويوماً لأهله وعياله ، ويوماً للخلوة والعزلة يتفرغ فيها لعبادة الله وتسبيحه ، وفي ذات يوم - وهو يوم عبادته - فوجئ بشخصين يتسوران المحراب الذي كان يتعبد فيه وحيداً منفرداً بنفسه ؛ ففزع من هذه المفاجأة بعض الشيء، ولكنهما بادرا يطمئنانه قائلين : إننا متخاصمان ، وإنما جئناك لتحكم بيننا بالحق في أمرٍ هو مثار الخصومة بيننا !

﴿ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

أَكْفِلْنِيهَا : انزل لي عنها حتى أكفلها .

وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ : غلبني وقهرني في المحاجة .

الْخُلَطَاءِ : الشركاء.

فَتَنَّاهُ : ابتليناه وامتحناه .

وَخَرَّ رَاكِعاً : ساجداً لله تعالى .

وَأَنَابَ : رجع إلى الله بالتوبة .

لَزُلْفَى : لقربة ومكانة .

وَحُسْنَ مَآبٍ : حسن مرجع في الآخرة (الجنة) .

والقضية التي عرضها المتحاكمان لم تكن قضية حقيقيةٍ ، وإنما كانت بلسان التمثيل، تنبيهاً لداود ﷺنفسه إلى بعض شئونه الخاصة ، ومن ثم فما لبث أن تذكر ، وهو يقضي بين الخصمين ، شأنه الخاص الذي كان مماثلاً للقضية المعروضة ، مما جعله يرجع عنه في الحال ، ويخر بين يدي ربه ساجداً في خشوعٍ وإنابةٍ .

وقد كان داود - ﷺ- يمتلك في ذلك الوقت زمام سلطةٍ جد عظيمةٍ ، ولكنه ما عاقب الرجلين الداخلين عليه من غير مدخلٍ ، ولا تناولهما بالزجر أو التأنيب . وهذا هو منهج عباد الله الصادقين ، حيث لا تنبعث في نفوسهم مشاعر العناد والتعنت تجاه أي أمرٍ من الأمور ، وإذا ما تم إشعارهم ببعض نقائصهم ، بادروا إلى الاعتراف بها وإصلاحها من فورهم ، حتى لو كانوا هم أصحاب قوة واقتدارٍ ، وكان المُشعرون لهم قد أشعروهم بأسلوبٍ فظٍ غير لائقٍ ولا مهذبٍ !!

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾

إن الحاكم - أي حاكمٍ - يكون دوماً أمام مفترق طريقين لا ثالث لهما : فإما أن يقضي في الخصومات على هواه ، أو بحسب مبدأ الحق ، وإن الحاكم الذي يحكم أهواءه ورغباته فيما يعرض عليه من القضايا ، والخصومات قد ضل عن الطريق السوي والجادة المستقيمة ، وإنه سيحاسب عند الله أشد الحساب ، وبالعكس فإن الحاكم الذي يقضي في الخصومات ملتزماً بمبدأ الحق والعدل ، هو وحده على الطريق القويم ، وإنه سينال عند الله الثواب والإنعام بغير حساب .. وهذا التوجيه ضروري لعامة البشر تماماً كما هو ضروري بالنسبة إلى مَنْ يتولى الحكم والقضاء ، فكل امرئٍ مطالب بأن يفعل في حدود اختياره نفس ما أمر به الحاكم صاحب السلطة في هذه الآية الكريمة !

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾

بَاطِلاً : لعبا وعبثا .

عندما نتأمل الكون وما فيه ، نجد أن نظامه قائم على أسسٍ حكيمةٍ للغاية ، بينما كان من المحتمل أيضاً أن يكون هذا النظام عشوائياً ؛ كل شيءٍ فيه يسير كيفما اتفق بلا ضابطٍ أو قانونٍ . وإن وجود أنسب الاحتمالين في هذا الكون قرينة دالة على أن خالقه قد خلقه تحت خطةٍ هادفةٍ .. إذن ، فالكون الذي يكون هادفاً في بدايته ، كيف سيعود غير ذي هدفٍ ، ولا معنىً في منتهاه؟!

ومرةً أخرى تدلنا الملاحظة على أن من الناس من يعترف بالحقيقة ، ويخضع نفسه لمقتضيات الحق والعدل بمحض إرادته واختياره ، ومنهم من لا يعترف بالحقيقة ، وإنما

يعيش حراً طليقاً من كل القيود والالتزامات ؛ فيقول ما شاء ، ويفعل كما يشاء ، وإن العقل ليرفض التسليم بأن ينتهي كلا هذين النوعين من البشر ، على ما بينهما من التفاوت البين والبون البعيد ، إلى مصيرٍ مماثلٍ واحدٍ !.

ولئن أخذنا وضع العالم هذا بعين الاعتبار ، فإن تصريح القرآن عن الحياة وحده سيبدو لنا أقرب إلى الواقع وأكثر تطابقاً معه ، وليس مزاعم أولئك الذين يحاولون تفسير الحياة على نحوٍ مضادٍ لذلك !.

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾

فَوَيْلٌ : هلاك . أو واد في جهنم .

إِنَّهُ أَوَّابٌ : رجاع إليه تعالى بالتوبة .

بِالْعَشِيِّ : ما بعد الزوال إلى الغروب .

الصَّافِنَاتُ : الخيول الواقفة على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة .

الجِيَادُ : السراع السوابق .

أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ : آثرت حب الخيل.

عَن ذِكْرِ رَبِّي : لأجله تعالى تقوية لدينه .

تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ : غربت الشمس أو غابت الخيل عن بصره لظلمة الليل .

رُدُّوهَا عَلَيَّ : ردُّوا الخيل عليَّ .

فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ : فشرع يقطع سوقها وأعناقها بالسيف .

كان سليمان بن داود - عليهما السلام - رئيس دولةٍ عظيمةٍ بلا منازعٍ ، وقد عُرض عليه عشية يومٍ من الأيام الخيول المطعمة المدربة من جيشه ، ثم كان بينها سباق ، حتى اختفت الخيول ، وهي تعدو مسرعةً كالبرق الخاطف ، عن بصره ، وغابت في الأفق البعيد ، ثم عادت إليه بعد برهةٍ من الزمان ، ومثل هذا المنظر يكون دوماً رائعاً إلى حدٍ بالغٍ ، وإنه ليملأ قلب الإنسان العادي بمشاعر الزهو والكبرياء ، ولكن سليمان - عليه السلام - لم يكد يشاهد ذلك المنظر الرائع حتى أخذ يذكر الله عز وجل .. فقال: إنني لم أحب هذه الخيول إظهاراً لأبهتي أنا ، وإنما أحببتها لله - سبحانه وتعالى - وحده ، حيث بدا له في شكل تلك الخيول بديع صنع الله وآثار قدرته الباهرة؛ مما جعله يمرّر يده على سوقها وأعناقها اعترافاً بعظمة الله وجلاله . إن المؤمن ينظر في كل شيءٍ كبرياء الله ، أما غير المؤمن فإنما يرى في كل شيءٍ كبرياء نفسه هو !!

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

وَالأَعْنَاقِ : قرباناً لله تعالى وكان ذلك مشروعا في ملته .

فَتَنَّا سُلَيْمَانَ : ابتليناه وامتحناه .

جَسَداً : شق إنسان ولد له .

أَنَابَ : رجع إلى الله تعالى بالتوبة .

رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ : لينة . أو منقادة حيث أراد .

وَغَوَّاصٍ : في البحر لاستخراج نفائسه .

الأَصْفَادِ : الأغلال تجمع الأيدي إلى الأعناق .

بِغَيْرِ حِسَابٍ : غير محاسب على شيء من الأمرين

لَزُلْفَى : لقربا وكرامة .

ما من إنسان إلا تصدر منه هفوات أو تقصيرات ، غير أن التقصير بالنسبة إلى عباد الله الصالحين يعود مبعث خيرٍ عظيمٍ ، إذْ أنهم لا يلبثون على أثره أن يرجعوا إلى ربهم بمزيدٍ من الخشوع ، وبالتالي يستحقون مزيداً من الإنعام والتكريم .

وذات مرةٍ صدر من سليمان – عليه السلام – بدوره تقصير اجتهادي في بعض الأمور ، ولما تبين له وجه الحقيقة أناب إلى الله مبتهلاً مستغفراً ، فعفا الله عنه ، وأنعم عليه بأن أعطاه ملكاً كبيراً ، واختصه بقدرات وصلاحيات غير عادية لم تُمنح لأحدٍ من البشر سواه!

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

وَحُسْنَ مَآبٍ : حسن مرجع في الآخرة .

بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ : بتعب ومشقة وألم وضر .

ارْكُضْ بِرِجْلِكَ : اضرب بها في الأرض .

هَذَا مُغْتَسَلٌ : ماء تغتسل به . فيه شفاؤك .

ضِغْثاً : قبضة من قضبان أو عثكال النخل بشماريخه .

كان أيوب – عليه السلام – من أنبياء بني إسرائيل ، ويرجع عهده – في أغلب الظن – إلى القرن التاسع قبل المسيح ، وكان قد أوتي من المال والثروة أوفر نصيبٍ ، ولكنه بدل أن يتلهى بماله وثروته كان يشتغل بعبادة الله ويدعو الناس إلى الله .

بيد أن بعض الخبثاء لم يلبثوا أن راحوا يقولون : إن أيوب عابد متدين بسبب ما هو فيه من نعمة ومال وعافية، لكنه لو ابتلى بالفقر والحاجة والمرض لخرج عن طاعة الله ولما صار متديناً .

ولكي يقيم الله على الناس الحجة ، فقد ابتلى عبده أيوب بأشد أنواع الفقر والبؤس .. إلا أنه مازال عابداً لله كعادته ، وقال : "الرب أعطى ، والرب أخذ ، فليكن اسم الرب مباركاً" . وأصيب – عليه السلام – بمرض جلدي شديد ، فامتلأ جسده كله قروحاً ودمامل.. ولكنه ظل كما هو مثالاً حياً للصبر والشكر .. ولما قامت على الناس الحجة القاطعة ، فجّر الله تعالى لأيوب عيناً ، لم يكد يغتسل بمائها ويشرب منه حتى برئ جسمه من سقامه ، وعاد سليماً معافى .. كما أعاد الله إليه مرةً أخرى ما ذهب عنه من مالٍ وولد، وزاد عليه من فضله ونعمته .. وفي حالة مرضه كان أيوب قد حلف أن يضرب زوجته مائة ضربةٍ بعصا ، بعد إبلاله من المرض ، لموجدةٍ وجدها في نفسه منها، ولكي يبر بقسمه ذاك أرشده الله تعالى إلى تدبير لطيف، وهو أن يأخذ مكنسةً عدد عيدانها مائة عود ، فيضرب بها زوجته ضربةً واحدةً خفيفةً ، ومن هذا نعلم أن اللجوء إلى الحيل مشروع في حالات خاصة ؛ بشرط ألا يؤدي ذلك إلى إلغاء أي حكم شرعي .

وإن الله سبحانه إذْ يستعمل شخصاً لدينه ، ويسلم ذلك الشخص نفسه إلى الله بدون أدنى تحفظٍ ، فإنه تعالى يعوضه عما يفقده خلال قيامه بالعمل المذكور بما يفوقه كماً ونوعاً إلى حدٍ كبيرٍ !!

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

أُوْلِي الأَيْدِي : أصحاب القوة في الطاعة .

وَالأَبْصَارِ : والبصائر في الدين والعلم .

أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ : خصصناهم بخصلة لا شوب فيها .

ذُكر هنا عدد من الأنبياء وأطلق عليهم وصف ﴿ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ ، أي إنهم كانوا على مستوى أعلى في كلٍ من القوة الجسدية والبصيرة الذهنية، حيث كانوا - من ناحيةٍ - يتمتعون بالقدرات العملية ، كما أقاموا الدليل - من ناحيةٍ أخرى - على أنهم يمتلكون النظرة الصائبة نحو الأشياء ، وصلاحية تكوين الحكم الصحيح على الأمور، ومن هنا فقد اصطفاهم الله لتبليغ رسالته .

ما هو العمل الخاص الذي يختار الله لأجل القيام به أنبياءه من البشر ؟ إنه يتمثل في التذكير بدار الآخرة ، فقد ظل المحور الرئيسي لرسالة الأنبياء على اختلاف الأعصار والأمصار ، هو أن يلفتوا انتباه البشر إلى الحقيقة القائلة بأن الآخرة هي منزل الإنسان الحقيقي، وينبغي له أن يستعد لها وحدها ، فإن هذه هي القضية الكبرى بالنسبة إلى الإنسان، وأكبر عملٍ يقوم به إنسان في هذا العالم هو أن ينبه أخاه الإنسان إلى هذه القضية البالغة الخطورة!

﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ

ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾

هَٰذَا ذِكْرٌ : المذكور من محاسنهم شرف لهم .

قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ : حور لا ينظرن إلى غير أزواجهن .

أَتْرَابٌ : مستويات في الشباب .

نَفَادٍ : انقطاع وفناء .

إنها تفتح أبواب الجنة لأناسٍ فتحوا أبواب قلوبهم للذكر والنصيحة والذين عاشوا خائفين وجلين من الله قبل ظهوره عياناً. وهؤلاء السعداء هم الذين سيحظون بنعيم الآخرة الأبدي .

ونعم الآخرة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم هي ما يستمتع الإنسان بأمثالها في الحياة الراهنة ، ولكن بينهما فارق كبير جداً لابد أن يُلاحظ ، وهو أن هذه النعم وُجدت في العالم الراهن بصورةٍ وقتيةٍ وبدائيةٍ ، بينما ستوفر تلك النعم في الآخرة بشكلها النهائي والأبدي ، يضاف إلى ذلك أن هذه النعم العليا سيُحذف منها هناك كل أنواع الخوف أو عوامل التكدير التي لا يمكن حذفها عن مثيلاتها في عالمنا الراهن على أية حالٍ !!

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾

وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾

لَشَرَّ مَآبٍ : لأسوأ منقلب ومصير .

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا : يدخلونها أو يقاسون حرها .

فَبِئْسَ المِهَادُ : فبئس الفراش ، أي المستقر جهنم .

حَمِيمٌ : ماء بالغ نهاية الحرارة .

وَغَسَّاقٌ : صديد يسيل من أجسامهم .

وَآخَرُ : وعذاب آخر .

مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ : من مثله أصناف في الفظاعة .

هَذَا فَوْجٌ : جمع كثيف من أتباعكم الضالين .

مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ: دخل معكم النار قهراً عنه .

لاَ مَرْحَباً بِهِمْ : لا رحبت بهم النار ولا اتسعت .

صَالُواْ النَّارِ : داخلوها . أو مقاسو حرها .

فَبِئْسَ القَرَارُ : فبئس المقر للجميع جهنم .

أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِياً ؟: مهزوءا بهم في الدنيا فأخطأنا ؟

زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ :مالت عنهم فلم نعلم مكانهم .

إن جهنم هي الصورة النهائية والأبدية لأنواع الألم تلك التي يمكن تصورها في العالم الراهن، وحين يُساق الطغاة والمكذبون بالحق في الدنيا إلى جهنم فوجاً بعد فوجٍ ،

فسيحتدم تخاصم شديد بين الأتباع والمتبوعين، فالأتباع الذين كانوا يفتخرون بعظمة قادتهم ، يوجهون إليهم الشتائم واللعنات إذا رأوا سوء المصير الذي يلاقونه هناك، ولقد صورت هذه الآيات بعض جوانب ذلك المشهد الفظيع أدق تصوير .

وإذا رأى المنكرون للحق مصيرهم المشئوم في الآخرة ، فسوف ترجع بهم الذاكرة إلى رجالٍ كانوا قد انضووا تحت راية الحق ، وصاروا نتيجة ذلك يقابلون في مجتمعهم بغاية الاحتقار والازدراء ، وقد كان المنكرون يرمونهم بأنهم تناولوا الأكابر والأسلاف بالإهانة والتجريح ، وأنهم قد انحرفوا عن دين الآباء ، واتخذوا لأنفسهم طريقاً آخر غير طريق الأمة، ولقد كان هؤلاء المنكرون يظنون أنفسهم على حق والآخرين على غير الحق ، ولكن الأمر في الآخرة لن يلبث أن ينعكس تماماً ، حيث سينكشف أن الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا باعتبارهم حقراء تافهين ، هاهم أولاء قد نالوا أعلى درجات الفوز والسعادة في الآخرة!!

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

بِالْمَلإِ الأَعْلَى : الملائكة .

إِذْ يَخْتَصِمُونَ : في شأن آدم وخلقه وخلافته .

الاختصام المشار إليه هنا ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ هو الجدل الذي أثاره إبليس عند خلق آدم وأمر الله الملائكة بالسجود له،وقد جاء في القرآن الكريم أن إبليس أصبح عدواً لدوداً لآدم منذ بدء الخليقة ، وهو لا يزال يعمل جاهداً على أن يضل بني آدم عن

الصراط المستقيم بحيله ووساوسه المغرية .. ، لذلك ينبغي على الإنسان أن يأخذ حذره، ويتجنب الوقوع في أحابيله ، وإن قصة آدم بما تتضمن من اختلاف الملائكة قبل خلقه، وجدال إبليس واستكباره عن السجود له بعد خلقه ، كما سردها القرآن بإسهابٍ تارةً وبصورةٍ مقتضبة تارةً أخرى ، إنما كانت من ألفها إلى يائها وحياً منزلاً؛ لأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم يكن حينذاك حاضراً في الملأ الأعلى حتى يتمكن من حكاية ما جرى هناك على أساسٍ من العلم الذاتي .

إن أهم نبأ بالنسبة إلى الإنسان وأجدر أن يحظى باهتمامه هو إعلامه بطبيعة الحياة هذه المتمثلة في أن الشيطان لا يفتأ يلاحقه كل الوقت ، ويسعى إلى إغوائه من خلال الاندماج في تفكيره والتغلغل في عواطفه ومشاعره ، فيجب على الإنسان أن ينقذ نفسه من هذا الخطر ، وبالإمكان القول :إن الأنبياء إنما جاؤوا – باعتبار ما – لكي ينذروا البشر من هذا الخطر الخطير !!

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾

سَوَّيْتُهُ : أتممت خلقه بالصورة الإنسانية .

سَاجِدِينَ : تحية له وتكريما .

العَالِينَ : المستحقين للعلو والرفعة – كلا .

رَجِيمٌ : مطرود من كل خير وكرامة .

لقد خلق الله الإنسان كمخلوقٍ أعلى وأشرف ما يكون. وللتدليل على ذلك أمر الملائكة والجن بأن يقعوا أمامه ساجدين ، ولما كان إبليس قد أبى عن السجود لآدم امتثالاً لأمر الله ، لم يلبث أن صار محكوماً عليه باللعنة إلى الأبد، بيد أن أهمية هذا الحادث لم تكن بالنسبة إلى إبليس وحده ، وإنما كانت له أهميته البالغة حتى بالنسبة لآدم نفسه..

فقد صار إبليس بامتناعه عن الخضوع لآدم خصماً أو منافساً عنيداً لذرية آدم على نحوٍ أبدي .. وهكذا سار التاريخ البشري من أول يومه في اتجاه جديدٍ ، إذْ قرر ذلك الحادث أن رحلة الحياة لن تكون بالنسبة إلى الإنسان رحلةً سهلةٍ ميسورةً ، وإنما ستكون رحلةً كلها معاناة ومزاحمات عنيفة مضنية ، حيث يتعين على الإنسان أن يظل ثابتاً على جادة الحق والصواب في مواجهة إغراءات إبليس وتدابيره الخادعة ، حتى يستطيع الوصول إلى منزله ومستقره بسلامٍ .. وإن الإنسان تحول بينه وبين الجنة مكائد الشيطان وتمويهاته، ولن يدخل حدائق الجنة الأبدية إلا من يجنب نفسه مكائد الشيطان، وأما الذين يفشلون في استكناه مكائد الشيطان وتجنبها ، فأولئك هم المحكوم عليهم بالحرمان المؤبد من الجنة!.

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

فَأَنظِرْنِي : أمهلني ولا تمتني .

يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ : وقت النفخة الأولى .

فَبِعِزَّتِكَ : فبسلطانك وقهرك .

لأُغْوِيَنَّهُمْ : لأضلنهم بتزيين المعاصي لهم .

لقد أتيح للشيطان في عالم الامتحان الراهن فرصة تامة ليغوي الإنسان . بيد أن الشيطان إنما يتمكن من الإغواء ما دامت الحقيقة مستترة وراء الغيب . أما حين تمزق القيامة حجاب الغيب ، فسوف يتجلى كل شيء عياناً ، بحيث لن يبقى بعدئذٍ مغوٍ ولا غاوٍ .

ومعنى "المخلص" الخلو من الغش أو الزيف ، والعبد المخلص هو الذي يكون سليماً مبرئاً من الأمراض النفسية، وحال الشيطان أنه لا يملك أي سلطةٍ فعليةٍ ، وإنما هو يغوي الناس دوماً عن طريق التزيين ؛ أي إلباس الباطل ثوب الحق ، وعرض الأوهام والخرافات الواهية في قالب الألفاظ الجميلة والعبارات المزخرفة ، وتشكيك الناس في أمرٍ مستقيمٍ لا عوج فيه بإثارة زوبعةٍ من الاعتراضات أو المطاعن المفتعلة حوله .

على أن تزيين الشيطان لا ينخدع به إلا أناس تنطوي صدورهم على الزيف النفسي. وأما الذين لا يزالون يحتفظون بنفسياتهم على حالتها الفطرية الصافية النقية ، ويستعملون عقولهم بنزاهة وانفتاح ، فسرعان ما يتعرفون على المكيدة الشيطانية ، وبالتالي لا ينحرفون عن الجادة أبداً متأثرين بطلائها الظاهري الخلاّب !!

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾

المُتَكَلِّفِينَ : المتصنعين المتقولين على الله .

نَبَأَهُ : صدق أخباره .

من ألزم صفات الداعية أنه لا يطلب من المدعو أجراً ، ولا هو يثير فيما بينه وبين المدعو أي نزاعٍ مادي ، إن دعوة القرآن الكريم هي دعوة الآخرة ، ومن ثم فالذي ينصب نفسه - من جهةٍ - حاملاً للواء دعوة الآخرة القرآنية ، ويشن - من جهةٍ أخرى- حملة المطالبات المادية ضد الشعب المدعو ، هو في نظر المدعو رجل هازل غير جادٍ ، والشخص الذي يبرهن بنفسه - بلسان المقال أو بلسان الحال - على عدم جديته، فمن ذا يلقي إلى كلامه بالاً ، أو يعيره اهتماماً يذكر؟! وهكذا فمن شأن الداعي أنه لا يقول شيئاً يختلقه من تلقاء نفسه ، وإنما هو يقول ما تلقاه من عند الله تعالى لا يزيد عليه أو ينقص منه شيئاً .

قال مسروق (التابعي) : أتينا عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - فقال : يا أيها الناس مَنْ علم شيئاً فليقل به ، ومَنْ لم يعلم فليقل : الله أعلم ، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم ، فإن الله - عز وجل - قال لنبيكم - صلى الله عليه وسلم- : "قل ما أسألكم عليه من أجرٍ ، وما أنا من المتكلفين" [(١)].

ومن صفات الداعية أيضاً أن يعرض الدعوة في قالب الموعظة الحسنة ، وينطبع كلامه بطابع النصح وحب الخير للآخرين ، وليس بطابع الجدل والمناظرة !!

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٠.

سورة الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾

مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ : ممحضا له الطاعة والعبادة .

زُلْفَى : تقريبا .

إن القرآن هو تبيين إلهي للحقيقة . وإن أسلوبه الحكيم ومضامينه القوية الناضجة على نحوٍ غير عاديٍ ؛ برهان داخلي على أنه في الواقع من عند الله ؛ إذْ لا أحد من البشر يقدر على أن يأتي بكلامٍ غير عادى من هذا الطراز ! ومعنى إخلاص الدين لله: إخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى إلهاً.. "أي فاعبد الله وحده ، مخلصاً له في عبادتك"(١).

وعاطفة العبادة كامنة في فطرة كل إنسان بطريقة غامضةٍ عجيبةٍ . وهي تعني : أن تتصور إلهاً من الكبرياء والجلال بحيث يتولد في نفسك إحساس بالروعة أو الرهبة تجاهه ، والإله الذي يشعر المرء نحوه بهذا الإحساس ، يعتبره بالتالي أقدس ما يكون ، فيخضع له كل كيانه ، ويبالغ أمامه في التمسك بمراسم التوقير والاحترام . وهو يخافه أشد الخوف ، كما يحبه أشد الحب، وبذكره يلتذ روحه ، وتقر عيناه ، وإنه يعود هو

---

(١) صفوة التفاسير ، ٣/ ٦٩.

السند الأكبر له في هذه الحياة.

وذلك ما يسمى العبادة. وهذه العبادة هي حق الله الواحد وحده فقط، ولكن الإنسان طالما يشرك غير الله في العبادة والتقديس مع إيمانه بالله،ويمارس ألوان الطقوس والأفعال العبادية لغير الله،وهذا هو ضلال الإنسان الأصلي ، والحقيقة أن العبادة شأنها شأن الألوهية لا تقبل التقسيم أو التجزئة على الإطلاق !

﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٥﴾ ﴾

سُبْحَانَهُ : تنزيها له عن اتخاذ الولد .

يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ : يلفه على النهار لف اللباس على اللابس .

الإنسان مدفوع بفطرته إلى أن يهفو نحو الله ، ويتوجه إليه بالعبادة والتعظيم . والشيطان يحاول دوماً أن يصرف هذه العاطفة الفطرية عن الله نحو اتجاهٍ آخر ، وتحقيقاً لهذا الغرض فإنه يلقي في أذهان الناس أن جناب الله أرفع وأعلى من أن ترتقوا إليه مباشرةً ، ولذا فينبغي أن تحاولوا الوصول إليه عبر التوسل بالصالحين ، كما يغرس في أذهانهم العقيدة القائلة بأن لله أولاداً تماماً مثلما يكون للبشر ، وأن أيسر طريق لنيل رضا الله هو أن تعملوا على إرضاء أولاده، وإن عبادة المادة في العصر الحديث – التي صرفت عاطفة العبادة المودعة في الفطرة الإنسانية عن الخالق نحو المخلوق – لا تعود أن تكون صورة مشوهة لتلك العقيدة البالية ذاتها .

وكل المعتقدات والطقوس من هذا القبيل تصغير لله عز وجل ، فالله الذي يسيّر

النظام الشمسي الهائل ، والذي يدبر أمر هذا الكون الفسيح ، هو بالطبع أجل وأسمى من أن تروج عنده شفاعة شافعٍ أو يكون له ولد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !!

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾

وَأَنزَلَ لَكُم : أنشأ وأحدث لأجلكم .

ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ : ظلمة البطن والرحم والمشيمة .

فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ؟: فكيف تصرفون عن عبادته .

ظهر إلى الوجود أول الأمر إنسان واحد ، ثم استخرج منه زوجه على هيئة مطابقة له تماماً، وهكذا تسلسل الجنس البشري عن طريق رجل وامرأة بدائيين ، ثم أنشأ الله أشياء لا تحصى لشتى مصالح الإنسان ومختلف حاجاته، وقد ظلت الإبل والبقر والضأن والمعز (وهي بذكورها وإناثها ثمانية أنواعٍ) ظلت في أولى مراحل الحضارة المورد الرئيسي لمعيشة الإنسان، فلما انتقلت الحضارة إلى طورٍ جديدٍ بدأ الإنسان باستعمال أشياء أخرى لا حصر لها ، صنعها الله منذ بدء الخليقة ليتمكن الإنسان من الانتفاع بها واستخدامها لصالحه ، فكما أن الحيوانات الداجنة مسخرة بطبعها لخدمة الإنسان . فكذلك سخرت له أنواع الغازات والمعادن هي الأخرى ، وإلا لما استطاع الإنسان أن يستعملها بأي وجهٍ من الوجوه ، والثمانية أصنافٍ من الأنعام المشار إليها آنفاً ، إنما ذُكرت على سبيل المثال دون الحصر ..

والظلمات الثلاثة التي ذكرتها الآية هنا فيما يتصل بخلق الإنسان هي : ظلمة جدار البطن ، ثم تليها ظلمة جدار الرحم ، ثم تليها ظلمة الأغشية الخارجية المحيطة بالجنين

من كل جانب .

وهذا النظام معقد وعظيم إلى حدٍ مذهل لا يقدر معه على إيجاده أحد سوى خالق الكون ، إذن ، فمن ذا الذي يستحق سواه أن يُرفع إلى درجة الإله المعبود!!

﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ :لا تحمل نفس آثمة .

إن الإيمان بالله والشكر له من مقتضيات العقل الإنساني نفسه ؛ لأن ذلك اعتراف بالحقيقة الواقعة ، وليس من شك في أن الاعتراف بالحقيقة الواقعة هو أكبر المطالب العقلية على الإطلاق.

والآخرة هي ظهور للعدل الكامل . ومستحيل أن يبقى هذا الوضع الناقص -الذي نراه يسود عالمنا الراهن - مستمراً في عالم العدل الكامل ذاك ، إذْ يقتضي العدل أن يظهر كل شخصٍ كما هو في واقع الأمر ، وأن ينال بالتالي جزاءً وفاقاً لما يستحقه في الحقيقة ، وهذا ما لا يحدث في العالم الراهن ، وستأتي الآخرة لتصلح هذا العيب ، وتجعل من هذه الدنيا الناقصة دنيا كاملة إلى أقصى حدود الكمال !!

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا

يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

مُنِيباً إِلَيْهِ : راجعًا إليه ، مستغيثا به.

خَوَّلَهُ نِعْمَةً : أعطاه نعمة عظيمة تفضلاً وإحساناً .

أَندَاداً : أمثالاً يعبدونها من دون الله .

هُوَ قَانِتٌ : مطيع خاضع عابد لله تعالى .

آنَاءَ اللَّيْلِ : ساعاته .

ما من امرئ إلا تمر عليه لمحات يجد فيها نفسه عاجزاً كل العجز ، والأشياء التي كانت موضع ثقته واعتماده تخذله هي الأخرى في تلك الساعة الحرجة ، وعندها ينسى المرء كل شيء ويأخذ يتضرع إلى الله في خشوع واستسلام، وهكذا فكل امرئ يدرك في لحظات الشدة أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، ولكن الشدة لا تكاد تزول حتى يعود هو سيرته الأولى ! ويزداد الإنسان كفراً وطغياناً ؛ إذْ هو يأخذ ينسب نجاته إلى أشياء أخرى غير الله ، فبعضهم يعدها نتيجة الأسباب ، وبعضهم الآخر يعتبرها معجزة الآلهة المفترضة ، ولو أن المرء لزم الصمت بعد اقترافه خطأً أو خطيئةً ما، لانحصر ضلاله في شخصه وحده ، ولكنه حين يأخذ في تبرير خطئه ويجعله عين الصواب بتأويله الكاذب ، يتعدى ضلاله إلى غيره ، فيعود ضالاً ومضلاً في الوقت نفسه!

من الناس مَنْ لا يقلقه سوى الهموم المادية وحدها ، وهناك إنسان آخر يهمه ويقلقه ذكر الله . وهذا الإنسان الأخير هو الإنسان الرباني حقاً. إن إقراره بالله لا يكون نتاج الظروف والأحوال ، وإنما يكون اكتشافه الشعوري الواعي ؛ حيث إنه يظفر بالله كموجود أعلى ترتبط كل آماله ومخاوفه بذاته وحدها . وهمومه الداخلية تجعله يتعد

عن فراشه حتى في ساعات الليل ، وخلوته لا تكون خلوة لاهيةً غافلةً ، وإنما تصبح خلوةً عامرةً بذكر الله سبحانه وتعالى .

العالم هو الذي يمتلئ كيانه النفسي وجلاً واضطراباً بذكر الله ، أما غير العالم فهو الذي لا تهز نفسيته إلا الأحوال المادية ، والذي إنما يستيقظ لبرهةٍ من الزمان على أثر الصدمات المادية ، ثم يعود مرةً أخرى إلى سبات غفلته الطويل العميق!

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾

بِغَيْرِ حِسَابٍ : بلا نهاية لما يعطي أو بتوسعة .

حين يحصل المرء معرفة عميقةً بالله ، يترتب على ذلك بالضرورة أن يمتلئ كيانه كله خوفاً وخشيةً من الله ؛ فإن إدراك عظمة الله وجلاله يجعله خاشعاً ذليلاً بين يديه تعالى ، وتعود حياته العملية تسير وفق الأحكام الإلهية لا تحيد عنها قيد أنملةٍ ، و يصير جاداً مخلصاً في هذا الشأن لدرجة يرضى معها بالتخلي عن كل شيءٍ لأجل الله ولا يرضى بالعكس أبداً !

إن بناء الحياة على أساسٍ من الإيمان امتحان جد عسيرٍ بالنسبة إلى المرء ، وإنما ينجح في هذا الامتحان أولئك وحدهم الذين يعتبرون الإيمان كنزاً ثميناً غالياً بحيث يستعدون من أجله للصبر على الحرمان من أي شيءٍ آخر ، والحياة الإيمانية بمعناها العملي اسم آخر للحياة الصابرة ، و الذين يرضون بدفع ثمن الصبر حتى يكونوا مؤمنين ، هم الذين سيُعطون أوفر نصيب من الإنعامات الإلهية العليا !

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ

دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٌۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ : أطباق منها ، كثيرة متراكمة .

إن دعوة النبي يدور محورها الرئيسي حول أن يصير الناس كلهم عابدين لله الواحد وحده ، ويتركوا عبادة كل شيءٍ سواه ، وإنها لا تكون بالنسبة إلى النبي مسألة قيادية بالمعنى المعروف ، وإنما تكون مسألته الذاتية ، ومن ثم فهو يكون أول القائمين بذلك . وبما أن النبي يكون على يقينٍ من أن مصير الإنسان إلى الفلاح أو الخسران سيتقرر نهائياً في الآخرة ، لذا فهو يكرس حياته في سبيل الآخرة ، ويدعو الآخرين أيضاً إلى تكريس حياتهم في سبيلها، ونوعية عمل النبي هذه تدلنا على نوعية عمل الداعي ، فالداعي إلى الحق إنما هو الشخص الذي يصير الحق عنده بمثابة مسألته الذاتية ، والذي تكون دعوته تعبيراً تلقائياً عن قلقه الداخلي ، وليس ترديداً خارجياً محضاً لبعض الهتافات الفارغة كترديد مكبرات الصوت!

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾

اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ : الأوثان والمعبودات الباطلة .

وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ : رجعوا إلى عبادته وحده .

المطلوب من المرء أن يثبت أنه يملك عقلاً يميز به الصحيح من الغلط ، ويتمكن

من رؤية الحقيقة بتمزيق حجاب الخداع والتمويه الشيطاني. والذين يقيمون الدليل على هذه البصيرة ، أولئك هم السعداء الذين سيوفقون إلى إدراك الصدق الإلهي. أما الذين يخفقون في إقامة الدليل على هذه البصيرة ، فليس لهم في هذا العالم من مصير سوى أن يظلوا متعلقين بغير أحسن الجوانب للقول ، ويُبعثوا بالتالي عند الله كعبدة الطاغوت!!

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ (١٩) لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ (٢٠) ﴾

حَقَّ عَلَيْهِ : وجب وثبت عليه .

لَهُمْ غُرَفٌ : منازل رفيعة عالية في الجنة .

كل إنسانٍ محاط بعواقب أعماله ، حيث تحيط بصاحب الجنة أجواء الجنة العطرة ، وتحيط بصاحب النار أجواء النار اللافحة المحرقة. ولو امتلك الناس بصراً نفاذاً إلى الحقائق غير المرئية لرأوا صاحب الجنة يتمتع بنعيمها في هذه الدنيا، ولوجدوا صاحب الجحيم يصلى نارها في هذه الدنيا ذاتها .

والجنة هي الصورة المثالية الكاملة لدنيا الأحلام والأماني التي ينشدها المرء في الحياة الراهنة ، ولكنه لا يستطيع الحصول عليها ، وثمن هذه الجنة تقوى الله ، فالذين يبرهنون على خوف الله في الدنيا ، هم وحدهم الذين سينعمون بحياة الجنة الخالية من كل خوفٍ !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ

لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ : أدخله في عيون ومجار .

يَهِيجُ : ييبس في أقصى غايته .

يَجْعَلُهُ حُطَاماً : يصيره فتاتا هشيما متكسرا .

فَوَيْلٌ : هلاك أو حسرة أو شدة عذاب .

إن الوقائع المادية التي نشهدها على الأرض كنظام المطر العجيب المدهش ، وخروج النبات الأخضر به ، وتهيئة أسباب أخرى لإنضاج الزرع بمختلف أنواعه وألوانه ، تنطوي هذه الوقائع على ما لا يُحصى من النصائح المعنوية القيمة ، ولكن هذه النصائح لا يدركها إلا ذوو نفوس طُلعةٍ تحب استكناه الأشياء وسبر أغوار الأمور .

لقد أنشأ الله العالم الخارجي بحيث صار كل شيءٍ فيه علامةً على الحقيقة العليا ، وأودع في الإنسان مواهب وقدرات تمكنه من قراءة تلك العلامات وفهم أسرارها . والذين يحافظون على مواهبهم الفطرية ، ويستخدمونها في تأمل أشياء الكون والوقوف على دقائق صنع الخالق جل وعلا ، فسوف تنفتح في صدورهم أبواب المعرفة ، وأما الذين لا يتمكنون من الاحتفاظ بمواهبهم الفطرية ، فإنهم سيظلون محرومين من الاعتبار والاتعاظ حتى في خضم العبر والعظات ، وإنهم سينظرون ولا يرون ، ويستمعون ولا يسمعون .

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ

مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾

أَحْسَنَ الحَدِيثِ : أبلغه وأصدقه وأوفاه (القرآن)

كِتَاباً مُّتَشَابِهاً : في إعجازه وهدايته وخصائصه .

مَّثَانِيَ : مكررا فيها الأحكام والمواعظ والقصص وغيرها .

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ : تضطرب وترتعد من قوارعه .

تَلِينُ جُلُودُهُمْ : تسكن وتطمئن لينة غير منقبضة .

لقد أعطى الله الإنسان أحسن كتاب في صورة القرآن الكريم ، وهو يمتاز بصفتين خاصتين : إحداهما : كونه متشابهاً أي إنه كتاب خالٍ من التناقض كل الخلو ، حيث لا يتعارض بعض أجزائه مع بعضها الآخر. وميزة القرآن هذه تدل على أنه كتاب مبني على بيان الحقيقة ، ولو لم تكن بياناته هي الحقيقة بعينها ، لأدى ذلك حتماً إلى حدوث التضارب وانعدام التشابه بين مختلف أجزائه !

وأما الميزة الثانية للقرآن : فهي كونه "مثاني" ، أي إنه كتاب تُنُوولت مضامينه بالإعادة والتكرار مرةً وأخرى بأساليب شتى . وميزة القرآن هذه تدل على كونه كتاب نصيحةٍ ؛ إذْ الناصح يبتغي دوْماً أن يستقر كلامه في ذهن السامع . وهو يلجأ لهذا الغرض إلى تقديم كلامه بطرائق منوعة ، وقد جاءت هذه الحكمة في القرآن الكريم في أرفع مستوياتها وأبهى صورها !

ومن خصوصيات الإنسان أنه إذا سمع نبأ مروعاً ، اقشعر جلده وسرت رعدة في أوصاله ، وتولد في كيانه نوع من اللينة الخاشعة ، وهكذا يكون حال الإنسان الجاد عند تلاوته لآي القرآن الكريم ، فقد بين القرآن حقائق الحياة الخطيرة بأسلوبٍ قويٍ مؤثرٍ للغاية ، ومن هنا فلو أن مخلوقاً كالإنسان قرأه قراءة فهمٍ وتدبرٍ، لطرأت على جسمه

الكيفية الانفعالية التي ينبغي أن تعتريه عند استماعه إلى أي نبإٍ خطيرٍ بطبيعة الحال!

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

الخِزْيَ : الذل والهوان.

إن المرء يحاول دوْماً أن يقي وجهه من المؤثرات أو الإصابات ، ولكن عذاب يوم القيامة سيكون محيطاً بالمرء من كل جانبٍ بحيث لن يسعه هناك أن يمنع أي جزءٍ من أجزاء جسده من التعرض له ؛ فإنه سيقف يومئذٍ أمام عذاب لا يُقاوم ، كما لو أنه قد جعل من وجهه جُنّة يتقي بها منه! وأكبر جريمة عند الله هي ألا يعترف المرء بالحق حين يتجلى أمامه، وأمثال هؤلاء لن يفلتوا من بطش الله وعقابه على أية حالٍ !!.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

عِوَجٍ : اختلاف واختلال واضطراب .

شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ : متنازعون شَرِسُو الطباع.

سَلَماً لِّرَجُلٍ : خالصا له من الشركة والمنازعة .

جاءت مضامين القرآن الكريم في لغةٍ معلومةٍ لدى البشر ، وفي حدود ما يسعه

العلم البشري وتتسع له مداركهم ؛ وذلك لكي لا يصعب فهمها على أحدٍ . وقد بين القرآن هنا، بلسان التمثيل ، أن مبدأ التوحيد أقرب إلى العقل والمنطق وأكثر تطابقاً مع الفطرة بالقياس إلى عقيدة الشرك ، حيث يدلنا الكون الخارجي على أن شئونه إنما يقوم بتصريفها إرادة واحدة فحسب.

ولو كانت هناك إرادات متعددة تتصرف في هذا الكون لاستحال أن يسير نظامه بهذا القدر من الدقة والانسجام ، ثم إن تكوين الإنسان النفسي جُعل بحيث يميل بطبعه إلى وحدة الولاء ، وإنه لما ينافي التكوين الإنساني تمام المنافاة أن يلقى على عاتق امرئٍ ما مسئولية عددٍ من الولاءات المختلفة في آنٍ واحدٍ ، ويستطيع بالتالي أن يقوم حتى بحق أي واحدٍ منها على النحو المطلوب .

إذن ، فكل الدلائل والقرائن تشير إلى أنه ليس ثمة إله سوى إله واحدٍ هو وحده خالق الإنسان ومعبوده بحقٍ ، وهذه الحقيقة يتم إعلانها في العالم الراهن على لسان بشرٍ مثلنا، أما في يوم القيامة فسيعلنها خالق الكون نفسه على رؤوس الخلائق ، وعندها لن يستطيع أحد أن يقابل هذا الأمر بغير الإذعان والاعتراف والتسليم !!

﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ : مأوى ومقام لهم .

كل نظرية لا تطابق الحقيقة فهي كذب وافتراء على الله . وقد كان الناس ولا يزالون

يعيشون في كل عصرٍ على أساس من هذا الكذب والافتراء ، وإن داعي الله إنما ينهض لكي يقيم الدليل القاطع والحجة الدامغة على كونه كذباً وافتراءً والذين يظلون مع ذلك متشبثين بمفترياتهم ، فإنهم أناس معاندون ؛ سيُلقى بهم في نار جهنم . أما الذين رجعوا عما كانوا عليه من الكذب والافتراء واتبعوا الحق ، فأولئك هم المتقون الخائفون من الله ، وسيمحو الله سيئاتهم من صحائف أعمالهم ، ويتلقاهم بالحفاوة والتقدير بناء على صالح أعمالهم !

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

كان رسول الله - ﷺ - داعي التوحيد ، ولكن أسلوب دعوته لم يكن هو الاكتفاء بهذا الإعلان الإيجابي القائل : "الله واحد" ، بل كان يكشف - إلى جانب ذلك - عن بطلان تلك الذوات غير الإلهية التي كان الناس قد اتخذوها آلهةً تُعبد من تلقاء أنفسهم وهذا الجزء الثاني من دعوته - عليه الصلاة والسلام - هو الذي صار عند الناس أمراً لا يُستساغ ولا يُحتمل .

وهذه الذوات غير الإلهية كانت في الأصل أكابرهم القوميين ، وقد مضت قرون ، وهم لم ينفكوا يستمعون إلى قصص كراماتهم المبالغ فيها ، حتى استولت عظمتهم على نفوسهم لدرجة أن رسول الله - ﷺ - لما ردّ على قدسيتهم تعذر على أفهامهم كيف يمكن أن يكون أولئك غير متصفين بالقدسية ؟ ومن ثم هددوه قائلين : لتكفن عن شتم آلهتنا ، أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون!!

على أن داعي الحق مأمور بألا يكترث لمثل هذه المزاعم والأقاويل السخيفة ، وإنما عليه أن يواصل عمله معتمداً على الله وحده ؛ إذْ بدون ذلك لا يمكن أن يتجلى أمر الحق .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾

أَفَرَأَيْتُم : أخبروني .

حَسْبِيَ الله : كافي في جميع أموري .

مَكَانَتِكُمْ : حالتكم المتمكنين منها .

يُخْزِيهِ : يذله ويهينه .

وَيَحِلُّ عَلَيْهِ : يجب عليه .

مازال الإنسان يعبد غير الله على اختلاف الزمان والمكان ، ولكن أحداً من الناس لا يجترئ - مع ذلك - على القول بأن آلهته المفضلة هي التي قامت بخلق السموات والأرض ، أو أنها تمتلك أزمة الأسباب الحقيقية لإيجاد أحوال الراحة والألم والسعادة والشقاء ،وعجيب اقتناع الناس هذا الذي يجعلهم لا يرضون بالتخلي عن معبوداتهم الباطلة .

وإن الداعي لا يسعه ، إذا لم تعد أدلته وبراهينه تؤثر في المدعو وتحرك منه ساكناً ، لا يسعه حينئذ إلا أن يقول: افعلوا ما شئتم فإذا جاء يوم القضاء الأخير ، فسيعلم الجميع مَنْ كان على حق ممن كان على غير الحق . وهذا إظهار لليقين بعد إقامة الدليل

والبرهان، وتلك هي الكلمة الأخيرة تنطلق من لسان الداعي دوماً ؛ إذ يكون قد استنفد كل طاقاته ، وعاد لا يملك إلا نفسه !!

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

يَتَوَفَّى الأَنفُسَ : يقبضها عن الأبدان .

يطرأ على المرء في أثناء النوم حالة الذهول واللا وعي ، فالنوم بهذا الاعتبار أشبه ما يكون بالموت ، وعندما يستيقظ المرء من نومه يعود إلى حالة الوعي والشعور مرةً أخرى ، وكأنما هذا يمثل البعث بعد الموت .

وفي ضوء هذه الظاهرة الطبيعية يتم تبصير كل امرئ ، على مستوى بدائي محدودٍ ، كيف أنه سيموت يوماً ، وكيف سيُعاد حياً من جديدٍ . ولو تأمل المرء بجديةٍ لوجد في هذه الواقعة الدنيوية درساً لآخرته !!

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ

سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾

لله الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً : لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه .

اشْمَأَزَّتْ : نفرت وانقبضت عن التوحيد .

فَاطِرَ : يا مبدع ومخترع .

يَحْتَسِبُونَ : يظنونه ويوقعونه .

وَحَاقَ بِهِم : نزل أو أحاط بهم .

الذين كان مشركو الجزيرة العربية يعتقدون أنهم سيكونون لهم عند الله شفعاء ، لم يكونوا في الحقيقة أصناماً من الحجر ، وإنما كانوا أسلافهم الكبار الذين اتخذوا لهم أصناماً وتماثيل من الحجر بمثابة رموزٍ أو علاماتٍ، إن شفعاءهم كانوا أصلاً أكابرهم القوميين ، أحاطوهم بهالةٍ من القدسية جعلتهم يظنون أن التمسك بأهدابهم سيكون كافياً لهم عند الله عز وجل !!

والذين يعتقدون في غير الله اعتقاداً كهذا ، يصل بهم الأمر شيئاً فشيئاً إلى حدٍ ترتبط معه كل عواطفهم السامية من الحب والخضوع والاحترام والإجلال بتلك الشخصيات غير الإلهية ، وبالتالي فإنهم يفرحون أشد الفرح إذا ذُكرت محاسن تلك الشخصيات ، ولكن أرواحهم لا تجد لذةً ولا متعةً فيها إذا ذُكرت كبرياء الله الواحد الأحد !

وأمثال هؤلاء لن يؤمنوا بالتوحيد الخاص ، مهما أقيم عليه من الدلائل القوية والبراهين الساطعة ، ولن تنفتح عيونهم إلا إذا انكشفت القيامة عن جلال الله وجبروته ...، وحال المرء اليوم أنه لا يكاد يستعد حتى بكلمة اعترافٍ واحدةٍ ، أما يومئذٍ فإنه سيقدم كل ما عنده فداءً لنفسه من عقاب ذلك اليوم العصيب ، ولكن لن

يغني عن المرء هناك شيء سوى أعماله الصالحة!

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾

خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً : أعطيناه إياه تفضلا وإحسانا .

هِيَ فِتْنَةٌ :تلك النعمة امتحان وابتلاء .

بُمُعْجِزِينَ : بفائتين من العذاب .

وَيَقْدِرُ : يضيقه على من يشاء بحكمته .

عندما يحصل المرء على شيءٍ في هذه الدنيا يفرح باعتباره نتيجة مؤهلاته هو ، على حين أن أشياء الدنيا هي متاع اختبارٍ وليست جزاء مؤهلاتٍ ، وإدراك هذه الحقيقة هو العلم الأكبر .

إن سعة رزق الدنيا أو ضيقه كلاهما خارج عن حدود الاختيار الإنساني ، حيث يبدو أن هناك قوةً فوق الإنسان هي التي تقرر من يوسع عليه في الرزق ومَنْ لا يُرزق إلا بقدر يسير.

﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝ ﴾

أَسْرَفُوا : تجاوزوا الحد في المعاصي .

لاَ تَقْنَطُوا : لا تيأسوا .

الذُّنُوبَ جَمِيعاً : إلا الشرك .

وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ : ارجعوا إليه بالتوبة والطاعة .

وَأَسْلِمُوا لَهُ : أخلصوا له عبادتكم.

إن ذوي القلوب المرهفة الحس حين يوفقون إلى معرفة الله - سبحانه وتعالى - يظل يؤرقهم ويقض عليهم مضاجعهم سؤال مؤداه : ما بال تلك الذنوب التي سبق وأن اقترفناها في ماضي حياتنا؟ فحسهم المرهف قد يجعلهم نهباً للقلق والاضطراب وعدم الاستقرار النفسي ، حتى إن هذا الإحساس يصل ببعضهم أحياناً إلى حد اليأس والقنوط!

ولأمثال هؤلاء أعلن الله في كتابه أنه يجب عليهم أن يتأكدوا من أن أمرهم مع إلهٍ هو الغفور الرحيم ، والذي لا ينظر إلى ماضي المرء وإنما ينظر إلى حاضره ، ولا ينظر إلى ظاهره بل إلى باطنه ، وأنه يعامل المرء معاملةً سمحةً ، وليس معاملةً شحيحةً نكدةً . وللسبب ذاته فإن المرء إذا ما رجع إليه تعالى وأناب ، أخذه في كنف رحمته من جديدٍ ، مهما عظمت وكثرت ذنوبه التي صدرت منه فيما سلف !

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

بَغْتَةً : فجأة .

يَا حَسْرَتَى : يا ندامتي ويا حزني .

فَرَّطتُ : قصرت .

فِي جَنبِ الله : في طاعته وأمره وحقه تعالى .

السَّاخِرِينَ : المستهزئين بدينه وكتابه وأهله .

كَرَّةً : رجعة إلى الدنيا .

مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ : مأوى ومقام لهم .

بِمَفَازَتِهِمْ: بفوزهم وظفرهم بالجنة .

إن كلام الله لا ينقسم إلى أحسن وغير الأحسن ، ولم يأت القرآن بدوره مشتملاً على آيات بعضها أحسن وبعضها غير الأحسن ، وليس هناك فرق بين القرآن وبين الكتب السماوية الأخرى من حيث إن بعضها أحسن جوهراً وحقيقةً وبعضها ليس كذلك .

والأصل أن المرء في عالم الامتحان الراهن قد مُنحت له حرية الاختيار والعمل، فبإمكانه هنا أن يأخذ أحد الأقوال مأخذاً مستقيماً أو مأخذا ملتوياً معكوساً ، وأن يوجه اهتمامه - إن شاء - نحو المراد الحقيقي من الكلام أو يفتعل فيه المطاعن ويحمّله من المعاني المغلوطة ما لا يحتمل ، وإن الاستهزاء بالكلام الإلهي هو من أمثلة هذا الباب ،

حيث يلوي المرء أعناق بعض الآيات ويستخرج منها مفهوماً عكسياً ، ثم يأخذ يسخر منها بناءً على فهمه المزعوم ذاك !

وإن المرء ليخفي حقيقته في هذه الدنيا ؛ إذْ هو ينكر الحق بدافع التكبر وحده ، ولكنه يتشدق بألفاظٍ كما لو أنه ينكره على أساسٍ مبدئي ، وفي يوم القيامة سيعود وجه المرء ناطقاً بحالته الداخلية ، فسوف يشهد وجهه يومئذٍ بأن الجوانب " غير الأحسن" التي جعل منها مبرراً لإنكاره الحق ، إنما كانت ألفاظه الكاذبة الملفقة ، وإلا فقد كان الحق في ذاته صافياً نقياً من كل شائبةٍ ، واضحاً تمام الوضوح ، وعندها سيذوب المرء أسفاً وحسرةً على تفريطه في جنب الله، إلا أن أسفه حينئذٍ لن يغني عنه فتيلاً !

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

لَّهُۥ مَقَالِيدُ : مفاتيح وخزائن .

لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ : ليبطلن عملك ويفسد .

إن وجود الكون دليل على وجود خالقه ، وهكذا فإن سير الكون على هذا النحو الدقيق المنظم، وبهذا الأسلوب الهادف الحكيم مما يثبت أن هناك مراقباً لا يزال يراقبه ويرصد حركته كل حينٍ وآنٍ ، ولو تأمل المرء بجدية لوجد في الكون آية خالقه وآية منظّمه ومدبر شئونه كذلك .

وفي مثل هذه الحالة فإن الذين يتوجهون إلى ذوات أخرى دون الله بالعبادة والتعظيم، إنما يعملون عملاً لا قيمة له في كوننا الحالي ، لأنه إذا كان الخالق والوكيل

واحداً ليس غير ، فإن عبادته وحدها ستنفع المرء ، أما عبادة أحدٍ سواه فهي بمثابة توجيه النداء إلى آلهةٍ لا وجود لها إطلاقاً !!.

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

وَمَا قَدَرُوا الله : ما عرفوه ، أو ماعظموه .

قَبْضَتُهُ : ملكه وفي مقدوره وتصرفه .

مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ : بقدرته كطي السجل للكتب .

الصُّورِ : القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل .

فَصَعِقَ : مات ، وهي النفخة الأولى .

وَوُضِعَ الكِتَابُ : أعطيت صحف الأعمال لأربابها .

إن إساءة تقدير الله أو بخْس قدْره هو المصدر الرئيسي لمعظم الضلالات والانحرافات ؛ فالمرء إنما تستبد بعقله مظاهر العظمة الأخرى لكونه لا يدري عظمة الله اللانهائية ، وهو إذْ يظن الارتباط بأكابره وسيلةً للنجاة ، فإنما يبعثه على هذا الظن جهله بأن الله أكبر بكثير من أن يجترئ أحد عنده على تحريك لسانه بدون إذنٍ منه ، والقيامة حين تزيل عن أبصار الناس الغشاوة ، فسيدركون أن الله سبحانه كان عظيماً

وجليل الشأن ، وأن الأرض في قبضته كعملةٍ صغيرةٍ ، والسماء مطوية بيمينه كالورق العادي!

وكما يدق الجرس في قاعة الامتحان إيذاناً بانتهاء فترة الامتحان المحددة ، فكذلك سوف يُنفخ في الصور عند انقضاء أجل عالمنا الراهن ، وبعدئذٍ سيتغير النظام الكوني بأكمله، ويظهر إلى الوجود عالم جديد ، وإن عالمنا الراهن يستنير بضوء الشمس الذي لا يمكّننا إلا من رؤية الأشياء المادية وحدها . أما عالم الآخرة فإن سيستضيء بنور الله تعالى مباشرةً ، ومن ثم فسيمكن هناك أن نرى الحقائق المعنوية المجردة هي الأخرى رأي العين .. وسيُحضر الجميع يومئذٍ أمام محكمة الله . ولقد كان الأنبياء والدعاة السائرون على هداهم قوبلوا من جهة غالبية البشر في هذه الدنيا بالاحتقار وعدم الاكتراث ، ولكن الناس في الآخرة سوف لا يلبثون أن يتملكهم دهشة ووجوم إذْ يرون أن مصائر العباد إنما يتم تقريرها هناك على أساس مَنْ وقف إلى جانبهم مؤمناً بما جاءوا به ، ومَنْ تلقاهم بالإنكار والتكذيب!

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

زُمَراً : جماعات متفرقة متتابعة .

حَقَّتْ : وجبت وثبتت .

للإعراض عن الحق وإنكاره درجات ، وبحسبها تتفاوت درجات أصحاب جهنم كذلك ، وسوف يقسم هؤلاء في الآخرة إلى جماعاتٍ شتى على حسب درجاتهم ، ثم

يُقذف بكل جماعةٍ إلى الدرك الذي تستحقه من دركات الجحيم ، وكم سيكون المشهد فظيعاً ومخزياً يوم يُوجه إلى جهنم أصحابها ، ويمكننا أن نتخيل ذلك بوضوحٍ من خلال الحوار الذي يجري ساعتئذٍ بينهم وبين الملائكة الموكلين بحراسة جهنم .

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

طِبْتُمْ : طهرتم من دنس المعاصي .

صَدَقَنَا وَعْدَهُ : أنجزنا ما وعدنا من النعيم .

نَتَبَوَّأُ : ننزل .

حَافِّينَ : محدقين محيطين .

وأهل الجنة هم الذين تتوافر فيهم صفة التقوى ، وإذ يدرك المرء كبرياء الله على نحوٍ يقضي على شعوره بكبرياء ذاته ، يترتب على ذلك - بطبيعة الحال - أن يمتلئ فؤاده بالخشية الإلهية ، وإحساسه بمدى عجزه - من ناحيةٍ - وبعظيم قدرة الله - من ناحيةٍ أخرى - يجعله شديد الحذر والاحتياط في أمر الله ، وهو لا يزال كل الوقت في حالة قلق وتخوفٍ دائم مما عسى أن يعامله به ربه في الآخرة ، والذين خافوا من الله في الحياة الدنيا هذا الخوف ، هم الذين سيعتبرون من ورثة الحياة الخالية من كل المخاوف والهموم في الآخرة !

وسيُعامل أهل الجنة في الآخرة معاملة الضيوف الوافدة على الملوك ، حيث سيذهب بهم إلى دور إقامتهم بغاية التوقير والإكرام ، وسوف لا يلبثون أن تفيض على ألسنتهم كلمات الشكر والحمد والثناء تلقائياً إذا رأوا الجنة بعيونهم ، ولن تُعدّ لهم في الجنة مساكن عالية مريحة فحسب ، بل ولن يكون هناك حظر ما على التجول والاجتماع وتبادل الزيارات فيما بينهم ، كما ستوفر لهم كل وسائل السفر والمواصلات من أرفع طرازٍ وبكميةٍ هائلة لا تُقدر.

إن المستحق للحمد والثناء هو ذات الله الواحد الأحد ليس غير ، ولكن هذه الحقيقة لا تتجلى في عالم الامتحان الراهن ، وستكون الآخرة يوم ظهور الحمد الإلهي في أكمل صوره ، فيومئذٍ ستصدح جميع الألسنة ، متجاوبةً معها سائر الموجودات بنغمات الحمد الإلهي ، وستنهار كل الأمجاد الزائفة ومظاهر العظمة الكاذبة ، ولن تكون هناك سوى ذاتٍ واحدةٍ يتوجه إليها المرء بالدعاء والتمجيد ، وسوى كبرياء ذي الجلال الواحد يسبح بحمده ويثني عليه غارقاً في خضم كبريائه وجبروته اللامتناهي!!

سورة غافر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝ ﴾

غَافِرِ الذَّنبِ : ساتر الذنب للمؤمنين .

وَقَابِلِ التَّوْبِ : التوبة من الذنب من كل مذنب .

ذِي الطَّوْلِ: الغنى أو الإنعام والتفضل أو المن .

استُعملت كلمتا ﴿ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝ ﴾ هنا استدلالاً على حقيقة القرآن الكريم ، ولئن كان ذلك إبان نزول القرآن ضرباً من التنبؤ ، فإنه قد أصبح الآن واقعةً ثابتةً لا جدال فيها .

فقد نزل القرآن قبل عصر العلم في ظروف غير مواتية للغاية ، ولكنه لم يلبث أن أحرز الانتصار والغلبة على جميع معارضيه حسب دعواه ، ففي فترةٍ وجيزةٍ من الزمان جداً استطاع أن يقهر كل مَنْ تصدى له وناصبه العداء من المشركين العرب ، إلى يهود الجزيرة ، إلى الإمبراطوريتين العظيمتين: الفارسية والرومانية ... إلخ ، وهذا واقع لا يوجد له مثيل في التاريخ البشري بأكمله ، وهو برهان ناطق بأن هذا القرآن منزل من عند الله العزيز الغالب الذي يَقْهَر ولا يُقهر .

والميزة الثانية للقرآن هي أنه كتاب صحيح من ألفه إلى يائه ، فحتى بعد مرور ما يقرب من خمسة عشر قرناً لم يكن العثور على شيءٍ من محتوياته ينافي أو يتعارض مع

الحقيقة الواقعة ؛ مما يبرهن بها لا يدع مجالاً للشك على أن منزّله إله عليم وخبير ، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وأنه يحيط علماً بالماضي والحاضر والمستقبل على حدٍ سواء ، وأن هذا الإله هو المعبود الحقيقي للإنسان ، ومن مقتضى قدرته وعلمه أن يجمع يوماً جميع البشر على صعيدٍ واحدٍ ، ويحاسبهم على أعمالهم ، ثم يحكم على الكل حكمه العادل ، بأن يعفو عن الذين رجعوا إليه تعالى وأنابوا ، ويعاقب الطغاة والمتجبرين على عصيانهم وسوء أعمالهم!!

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾
كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ
لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾
وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾

يَغْرُرْكَ : فلا يخدعنك .

تَقَلُّبُهُمْ : تنقلهم سالمين غانمين فإنه استدراج .

لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ : ليبطلوا ويزيلوا بالباطل الحق .

حَقَّتْ : وجبت وثبتت بالإهلاك .

المراد بـ ﴿ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ هنا تلك الأدلة التي تقدّم إثباتاً لدعوة الحق ، والذين ليسوا بجادين في أمر الله ، طالما يثيرون مناقشاتٍ فارغةً إيهاماً للجماهير وتمويهاً عليها بأن هذه الدعوة ليست بدعوة الحق ، إنما هي فكرة مبتكرة نبتت في مخيلة أحد الناس الداعي!!

إن مجادلة باطلة كهذه جريمة جد عظيمة ، بيد أن المهلة لا تزال متاحة لأصحابها إلى مدة معينةٍ في عالم الامتحان الراهن ، وينتظرهم ، عقب انقضائها ، المصير المشئوم نفسه

الذي لقيه من قبل قوم نوح ، وعاد وثمود، وغيرهم ، حيث إن الذين ظنوا أنفسهم كباراً لم يلبثوا أن صاروا صغاراً ، وأما الذين كانوا قد اعتبروا صغاراً ، فقد أدخلوا عند الله في عداد الكبار!

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

سَبِيلَكَ : طريق الهدى (دين الإسلام) .

وَقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيمِ : احفظهم منه .

وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ : المعاصي أو عقوبتها .

إن عباد الله الذين يقومون بدعوة الحق ، يتعرضون دوْماً لألوان الأذى والعنت والاضطهاد ، ويُتخذ منهم موضوع السخرية والتحقير والامتهان في مجتمعهم ، ولكن في الوقت الذي يسوء حالهم بين عبدة الظواهر من الناس إلى هذا الحد ، في الوقت نفسه تكون السموات والأرض ناطقة بكونهم على الحق ، ويكون الملائكة الموكلون بتدبير شئون الكون منتظرين لحسن مآلهم وجميل عاقبتهم التي يصيرون إليها في نهاية المطاف ، فالذين قُوبلوا بمنتهى الإهانة ولم يعتبروا أهلاً حتى للذكر في هذا العالم الفاني، ويتبوءون في ذلك العالم الأبدي مقام العز والكرامة بحيث لا تفتأ ألسنة أقرب المقربين من ملائكة الله تلهج بالدعاء والاستغفار في حقهم!!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾

لَمَقْتُ الله : لبغضه الشديد وغضبه عليكم .

تُؤْمِنُوا : تذعنوا وتقروا بالشرك .

لقد بعث الله – سبحانه وتعالى – ورحمته إلى عالمنا الراهن في ثوب الهداية ، ولكن الناس لم يتلقوها بالقبول ، وستكون عاقبة هذا الرفض في الآخرة أن يحرم أصحابه من الرحمة الإلهية حرماناً مؤبداً ؛ فإنهم لما كانوا قد أعرضوا عن رحمة الله المهداة في الدنيا ، فسوف تعرض عنهم رحمة الله في الآخرة جزاءً وفاقاً .

وعندها سيقول هؤلاء المنكرون الجاحدون : يا ربنا ! لقد خلقتنا من تراب ، فكأننا كنا أمواتاً ، فنفخت فينا الحياة ، ثم تعرضنا للموت مرةً أخرى عندما انقضت أعمارنا المحددة، وها نحن قد بُعثنا من جديدٍ في عالم الآخرة ، وهكذا فقد أمتّنا – يارب – مرتين وأحييتنا مرتين . ولئن أتحت لنا الآن فرصةً ثالثةً ، فتردنا إلى الدنيا ، كي نعيش فيها عمراً آخر ، ثم نحضر إليك بعد الموت ، فإننا سنعترف هناك بصدقك ، ونمارس حياةً صالحةً تقيةً !

غير أن طلبهم هذا لن يلقى الإجابة أو القبول ، ذلك لكونهم قد أثبتوا عن أنفسهم أنهم لا يستطيعون إدراك الصدق ؛ مادام الصدق مستتراً وراء الغيب ، وإنما هم يستطيعون أن يتعرفوا على الآلهة "الظاهرة المنظورة" ، ولا يقدرون على معرفة الإله الغيبي ، وإنه لا قيمة لعبدة الظواهر كهؤلاء عند الله سبحانه وتعالى .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾

يُنِيبُ : يرجع إلى التفكير في الآيات .

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ : رافع السماوات بعضها فوق بعض .

يُلْقِي الرُّوحَ : ينزل الوحي أو القرآن أو جبريل .

يَوْمَ التَّلاقِ : يوم الاجتماع في المحشر .

هُم بَارِزُونَ: خارجون من القبور ظاهرون لا يسترهم شيء .

يزخر الكون بآياتٍ لا تُحصى ؛ تعلمنا درس الحقيقة بلغة التمثيل ، ومن هذه الآيات نظام المطر ، فهذا الحدث المادي يمثل أمر الوحي المعنوي ، فكما أن المطر نافع للأراضي الخصبة ، وغير نافع للأراضي البور ، فكذلك الوحي - وهو مطر الله المعنوي - إذْ يدخل في أعماق الذين جعلوا صدورهم مفتوحةً ، يملأ وجودهم خصوبةً ونضارةً ، وعلى نقيض من ذلك فإن الذين مُلئت صدورهم بالأمجاد غير الإلهية ، شأنهم شأن الأراضي البور ، لن يزالوا محرومين من فوائد الوحي الإلهي .

إن الله سبحانه خبير بعباده على أتم وجهٍ وأكمله ، وإنه تعالى يختار من بينهم مَنْ يجده

أهلاً لتبليغ رسالته ، وهذه الرسالة تهدف - أساساً - إلى إنذار الناس باليوم الذي يُحضرون فيه بين يدي مالك الكون ذي العزة والجلال الذي لا يخفى عليه شيء من أحوال الناس ، وليس ثمة أحد من شأنه أن يؤثر أو يتدخل في قضائه يومئذ!!

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾

يَوْمَ الآزِفَةِ : يوم القيامة لقربها .

الحَنَاجِرِ : التراقي والحلاقيم .

كَاظِمِينَ : ممسكين على الغم الممتلئين منه .

حَمِيم : قريب مشفق يهتم بهم .

خَائِنَةَ الأَعْيُنِ : النظرة الخائنة إلى ما لا يحل .

يتمتع الإنسان بكل أنواع الفرص والإمكانات في العالم الراهن ، فهو حر ليفعل ما يشاء ؛ مما يوقع المرء في سوء الفهم والتقدير ، حيث إنه ينظر إلى حالته المؤقتة الراهنة هذه على أنها حالته الدائمة ، في حين أن هذه الفرص والإمكانات التي أتيحت للإنسان إنما هي على وجه الامتحان وليس على وجه الاستحقاق ،فحين تنقضي مدة الامتحان تُنتزع منه كل الفرص والإمكانات المتاحة حالياً ، وعندها سيدرك الإنسان أنه لا يتوافر لديه غير العجز شيء يستند عليه !

ويميل المرء إلى أن يعيش حياة حرةً طليقةً من كل القيود ، وبسبب هذا المزاج ذاته يتخذ المرء لله أنداداً وشركاء في ألوهيته ، لكي يستغل أسماءهم لإضفاء صبغة الشرعية

على ضلاله وانحرافه ، ولكن عندما تتجلى الحقيقة سافرةً عاريةً في يوم القيامة ، فسيعلم المرء حينئذٍ أنه لم يكن هناك غير الله أحد يتمتع بأي نوعٍ من القدرة أو الاجتهاد في الأرض ولا في السماء !!

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾

وَاقٍ : دافع يدفع عنهم العذاب .

إن تاريخ العالم غني بأمثلة كثيرة تدلنا على أن أمةً ازدهرت ثم اندثرت ، وأخرى شيدت صرح مدنية رائعة على وجه الأرض ، وإذا بآثار مدنيتها لا توجد اليوم إلا في صورة أطلال مدفونة تحت الأرض ، وأمة ثالثة كانت في يومٍ من الأيام واقعةً حيةً ملموسةً في دنيا الناس ، ولكنها لم تعد تُذكر الآن إلا كواقعة تاريخية مضت!

ومثل هذه الوقائع ، وإن كانت وقائع معلومة عند الناس ، إلا أنهم أدرجوها تحت عنوان الحوادث الأرضية أو الانقلابات السياسية ، أما حقيقة الأمر فهي أنها كانت أحكاماً إلهية نفذت على تلك الأمم نتيجة إنكارها للحق ، ولو أتيح لنا بصر نتمكن به من رؤية الحقائق المعنوية لوجدنا أن كل واقعةٍ من تلك الوقائع كان يتم إحداثها بواسطة ملائكة الله ، وإن بدت للناظرين ، كأنها تحدث تحت العوامل والأسباب الدنيوية !

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾﴾

وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ : استبقوا بناتهم للخدمة .

ضَلالٍ : ضياع وبطلان ووبال .

يُؤيِّد الأنبياء - إلى جانب الحجج والبراهين العامة - بمعجزات وخوارق تدل بها لا يدع مجالاً للشك على كونهم مرسلين من عند الله ، ولكن الإيمان بالحق يتم دوْماً في مقابل نفي الذات وعلى حساب كبريائها ، وهو أصعب تضحيةٍ على نفس إنسانٍ بلا ريب. وهذا هو السبب في أن فرعون وملأه لم يقروا بنبوة موسى - عليه السلام - رغم إتيانه بدلائل واضحةٍ غاية الوضوح!

وبدلاً من ذلك راحوا يوهمون الناس بأن ادعاء موسى النبوة لا حقيقة له ، وأن معجزاته لا تخرج عن كونها سحراً ، وصمّموا على تنفيذ سياستهم القمعية السابقة لتقليل تعداد بني إسرائيل بمزيدٍ من الشدة والاهتمام ، حتى لا يتمكن موسى من إقامة أرضية صلبةٍ يقف عليها بين أبناء قومه ، ولكنهم لم يكونوا يدرون أن تدابيرهم تلك لا يتخذونها إزاء موسى ، وإنما بإزاء الله عز وجل ، وأن أي مكيدة تُحاك إزاء الله تبوء دوماً بالفشل الذريع!

﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

عُذْتُ بِرَبِّي : اعتصمت وتحصنت به تعالى .

وقوله : ﴿ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ ﴾ يعني أن يقضي على ما أنتم عليه من طريقتكم

الدينية، والتي ما زلتم تتوارثونها خلفاً عن سلفٍ ، وبالتالي يروج بينكم دين جديد لم تألفوه، ولذلك نسمع من حينٍ إلى حينٍ أن المتطرفين الهنادك في الهند يطالبون بفرض الحظر على حرية الدعاية الدينية قانونياً ، بحجة أنه إذا لم يتم ذلك فسوف لا يلبث أن يغير أهل الأديان الأخرى بدعايتهم دين البلاد الرسمي!!

والمراد بالفساد هو البلبلة والاضطراب ، أي إن موسى سوف لا يلبث أن يجد من بني شعبه أنصاراً وأعواناً ، فيسعى معهم إلى إثارة الفوضى والقلاقل في طول البلاد وعرضها ، ولذا يجب أن نقتله قبل أن يستفحل أمره !

وإن أكبر عائق يحول دون إيمان المرء بالحق هو نفسيته المفعمة بالتكبر والصلف والغرور ، فإنه لكيما يحتفظ برأسه عالياً مرفوعاً يحاول أن ينكس راية الحق ، ولكن الحق نصيره هو الله ب العالمين ، ولئن تمكن معارضوه - بادئ ذي بدءٍ - من كسب جولةٍ أو جولات في صراعهم مع الحق ، فإن نصر الله كفيل؛ لأن النجاح الأخير سيكتب للحق على أية حالٍ!!

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾

ظَاهِرِينَ : غالبين عالين .

بَأْسِ اللَّهِ : عذابه ونقمته .

مَا أُرِيكُمْ : ما أشير عليكم .

إن الرجل المؤمن الذي ورد ذكره هنا كان ينتمي إلى أسرة فرعون الملكية ، ولعله كان من ذوي المناصب العليا في البلاط الفرعوني،وقد تأثر بما جاء به موسى – عليه السلام– من دعوة التوحيد،فآمن بها سراً ، وما زال يكتم إيمانه،ولكنه لم يكد يرى فرعون وملأه يأتمرون بموسى لقتله،حتى انبرى لحماية موسى مما يُكاد له علناً وجهاراً ، وقد دافع عن موسى – عليه السلام– بأسلوب قوي مؤثر وحكيم للغاية .

ومن العبر التي ينطوي عليها هذا الحادث : أن التبليغ قوة تخلق لنفسها أنصاراً ومؤيدين ، حتى في صفوف الأعداء ، ولو كان العدو أسرة ظالمة متكبرة كآل فرعون!!

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

ٱلْأَحْزَابِ : الأمم الماضية المتحزبة على الأنبياء .

دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ : عادتهم في الإقامة على التكذيب .

يَوْمَ ٱلتَّنَادِ : يوم القيامة (للنداء فيه للمحشر) .

عَاصِمٍ : مانع ودافع .

كان فرعون قد حذر موسى من عقاب الدنيا ، ورداً على ذلك فقد حذر الرجل المؤمن فرعون من عقاب الآخرة ، وذلك هو منهج الداعي إلى الحق دائماً ، ففيما يهتم الناس بشئون الدنيا ، يهتم الداعي بشئون الآخرة ، وفيما يتحدث الناس بمصطلحات الدنيا ، يصوغ الداعي كلامه في مصطلحات الآخرة ، وفيما يعتبر الناس قضايا الدنيا

أحق بالذكر ، تكون أولى القضايا بالذكر وأجدرها بالعناية في نظر الداعي هي التي تتصل بالآخرة !!

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

مُّرْتَابٌ : في دين الله شاك في وحدانيته .

بِغَيْرِ سُلْطَانٍ : بغير برهان وحجة .

كَبُرَ مَقْتاً : عظم جدالهم بغير حجة بغضا .

رفض أغلب المصريين التسليم بنبوة يوسف ما دام حياً بين أظهرهم ، ولكن لما بدأ الفساد يتسرب على أثر وفاته إلى أجهزة الحكم في البلاد ، أحس المصريون عندئذ بمدى عظمته – عليه السلام – فإذا بهم يقولون : إن وجود يوسف كان مصدر اليمن والبركة لمصر ، وأنى سيأتي الآن رسول مثله ، وإن يوسف – رغم كونه نبياً مرسلاً من عند الله – كان بشراً ، وعليه فقد كان المجال مفتوحاً أمام أعين الناس ليتساءلوا قائلين : هل من الضروري أن يكون يوسف نبياً حتى يصدر عنه ما صدر من العجائب والكمالات ، إذْ من المحتمل أيضاً أن يكون هو إنساناً ذكياً ، أتى بهذه العجائب والكمالات بناءً على ذكائه الخارق ! ولقد كانت مثل هذه الأقاويل والمزاعم السخيفة هي التي جعلت المصريين يقعون ضحايا الشك والارتياب في نبوته – عليه السلام –

ومهما يكن الحق واضحاً ، فإنه لا يزال بإمكان المرء دوْماً في عالم الامتحان الراهن أن ينكره بإثارة أية شبهة مفتعلة حوله ، والذين تنطوي نفوسهم على مزاج التمرد

والاستكبار ، والذين يحسبون أنهم سيفقدون كبرياءهم فيها لو آمنوا بالحق ، يظلون ، بحكم طبيعتهم ومزاجهم متورطين في هذه الشبهات ، وهم يتناولون هذه الشبهات بالتفخيم لدرجة أنها تستولي على قلوبهم وعقولهم ، وتكون النتيجة أنهم لا يكادون يستطيعون التفكير في أمر الحق على نحوٍ مستقيمٍ ، وبالتالي فإنهم لا يزالون مصرين على إنكاره حتى تنتهي آجالهم !

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

صَرْحاً : قصراً أو بناء عالياً ظاهراً .

أَبْلُغُ الأَسْبَابَ : الأبواب أو الطرق .

تَبَابٍ : خسران وهلاك .

إن القول الذي وجهه فرعون إلى وزيره هامان لم يكن قولاً صادراً عن جد ، وإنما كان كيداً ، أي تدبيراً وقتياً محضاً ، حيث إنه لما رأى الملأ من حوله يتأثرون بخطاب الرجل المؤمن البليغ المدعم بأدلةٍ منطقيةٍ لا تقاوم ، أراد أن يلقي " فتيشةً " – على حد تعبير أهل الشام – تصرف اهتمام الحاضرين ، وبالتالي تتحول دعوة موسى إلى موضوع التهكم والسخرية بدل أن تصير موضوع التأمل والدراسة الجادة .

و" صيرورة سوء العمل مزيناً " هي أن يرفض المرء أمر الحق بترديد بعض الألفاظ البراقة ، وذلك هو منشأ ضلال المرء الحقيقي ، أي إعطاء الأهمية للمطاعن والاعتراضات المفتعلة بدلاً من الأدلة الجوهرية ، ومحاولة الستر على انحراف سافرٍ صريحٍ بغلاف من التبريرات الكاذبة ... إلخ ، وأمثال هؤلاء يغيب عن بالهم أن الحق

يكون قائماً على أساس دليلٍ محكمٍ لا يمكن التغلب عليه بافتعال المطاعن الباطلة !

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾

بِغَيْرِ حِسَابٍ : بلا نهاية من الرازق لما يعطي .

لاَ جَرَمَ : حق وثبت أو لا محالة أو حقاً

لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ : مستجابة . أو استجابة دعوة .

مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ : رجوعنا بعد الموت إليه تعالى للجزاء.

إن خطاب الرجل المؤمن من آل فرعون هذا واضح غاية الوضوح ، وهو – إلى جانب ذلك – خطاب نموذجي يدلنا كيف ينبغي أن يكون خطاب الدعاة إلى الحق ، وما المحور الرئيسي لدعوة الحق ؟

﴿ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ

دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ ... الآيات . هذه الجملة تمثل خلاصة خطاب الرجل المؤمن ، فمن خلالها يتضح لنا بجلاء ما هو الشيء الذي كان محل الجدل والنقاش في البلاط الفرعوني آنذاك ، وقد كان ذلك يتمثل في السؤال الآتى : إلى من نتوجه بالدعاء ؟ إلى الله الواحد الأحد ، أم إلى هذه الأصنام التي صنعها الإنسان بيده؟

فقال الرجل المؤمن لمن حوله : إن الله حقيقة حية قاهرة غلابة . ودعاؤنا إياه دعاء لإله حقيقي ، وأما أصنامكم هذه فإنما هي من اختراع أوهامكم ، وإنها لن تنفعكم شيئا في الدنيا ولا في الآخرة ، فإذا لم يكن لها وجود في حقيقة الأمر ، فكيف يمكن أن يرجى منها أية فوائد حقيقية ؟! وقد نقل ابن كثير في تفسير هذه الآية عن قتادة قوله : "يعني الوثن لا ينفع ولا يضر "[١].

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ (٤٥) ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ (٤٦) ﴾

وَحَاقَ : أحاط وأنزل .

غُدُواً وَعَشِياً : صباحاً ومساءً أو دائماً في البرزخ .

إن الرجل المؤمن من رجال البلاط الفرعوني لم يكن نبياً ، ولكن بالرغم من كونه وحيداً ، أنقذه الله من مكر فرعون ونواياه العدوانية الجائرة ، ومن هذا نعلم أن غير الأنبياء ينالون حماية الحق – من النصر والتأييد الخصوصي – مثل ما وعُد به الأنبياء والمرسلون.

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٤٥.

وإن مصائر العباد الأخروية ، وإن كان سيتم تحديدها بصورة حتمية يوم القيامة ، إلا أن المرء لا يكاد يدخل بعد الموت أبواب العالم الآخر حتى يدرك من فوره ماذا جناه في حياته السابقة ، وأي مصير ينتظره هنا الآن، وهكذا فإنه يتعرض على مستوى الشعور ، عقب الموت مباشر لمصيره المحتوم الذي سيواجهه على المستوى الجسدي يوم القيامة، بعد أن تقام المحكمة الإلهية الأخيرة !

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

مُّغْنُونَ عَنَّا : دافعون، أو حاملون عنا .

تعرض هذه الآيات مشهداً من مشاهد جهنم ، وهو مشهد تتقابل فيه صورتان : صورة الرؤساء الذين عاشوا في الدنيا مستكبرين ومتعالين ، وها هم أولاء ينسون يومئذ علوهم واستكبارهم بالمرة ، تقابلها صورة العوام الذين كانوا يعتزون هنا بكبريائهم هؤلاء ، فإذا بهم يبدون هناك مشاعر التبرم والاستياء نحوهم .

إن الذي لم يكونوا يستعدون للخضوع أمام الحق في الدنيا سوف لا يلبثون أن يخضعوا للحق هناك في تواضع وخضوع ، غير أن خضوع الآخرة لن يغني عن أحد فتيلاً!

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾

يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ
﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ
وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾

يَقُومُ الأَشْهَادُ : الملائكة والرسل والمؤمنون .

مَعْذِرَتُهُمْ : عذرهم أو اعتذارهم حين يعتذرون .

بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ : طرفي النهار أو دائماً .

إن للأنبياء وأتباعهم وعداً حتمياً أكيداً بنصر من الله لا يتخلف ، ولكن الاستحقاق لهذا النصر يتأتى دوماً بعد الصبر ، وما كان الصبر من الأهمية بهذا المكان إلا لكي يتميز أهل الحق من الظالمين بتمام الوضوح والجلاء ، ولأجل الإتيان بهذه المرحلة المميزة (الفاصلة) يضطر أهل الحق إلى أن يصبروا من طرف واحد ، وصبر أهل الحق هذا يؤهلهم في الدنيا لنصر الله ، كما يثبت بهذا الصبر جدارتهم بأن يقاموا شهداء لله على الظالمين يوم القيامة.

وإن الكتاب الذي يبعث من عند الله إنما يبعث للهداية والتذكير ليس غير، بيد أن هذا التذكير لا ينفع إلا ذوي الألباب والعقول،أي الذين ليسوا مكبلين بقيود المصالح،ويستطيعون التأمل في مضامينه متحررين من كل العقد النفسية،والذين يختبرون ما يُقال لهم بقياس الدليل وحده،وليس بأي مقياس آخر عداه ، وهذا هو الموقف العاقل من الهداية الإلهية،والذين يتخذون إزاء الهداية موقفاً غير عاقل هم الظالمون حقاً ، أما الذين يقفون منها موقفاً يتسم بالتعقل والتصبر فأولئك هم الفائزون بالنجاح والسعادة!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾

سُلْطَانٍ :حجة وبرهان .

مَا هُم بِبَالِغِيهِ : ببالغي مقتضى الكبر والتعاظم .

إن الحق واضح ومبرهن عليه ؛ لدرجة لا يصعب معها أن يفهمه الإنسان كائناً من كان ، ولكن الحق إذْ يظهر فإنما يظهر عن طريق " إنسان " ، ومن ثم يغدو الاعتراف بالحق عملياً مرادفاً بحامل الحق ، وهذا هو السر في أنه لا يكاد يستعد للاعتراف بالحق أناس تنطوي صدورهم على نفسية الاستكبار ، حيث إنهم يخافون أنهم سوف لا يلبثون أن يفقدوا كبرياءهم وتفوقهم على حامل الحق حين يعترفون بالحق ، وبسبب نفسيتهم تلك ينبري هؤلاء لمعارضته ، بيد أن الله – جل وعلا – قدّر لدنياه ألا ينجح في جنباتها أمثال هؤلاء أبداً !

﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

إن عظمة هذا الكون تنطق بعظمة خالقه ، وهذه العظمة هائلة لدرجة أن إعادة خلق الإنسان مرة أخرى أمر هين ويسير جداً بالقياس إليها،وهكذا فإن خلق الكون يبرهن على إمكان خلق الإنسان الثاني .

وإذا أَجَلْنا أبصارنا في المجتمع الإنساني،فإن قيام عالم الآخرة يبدو لنا ضرورة

أخلاقية لابد منها ، ففي المجتمع أناس يقيمون الدليل على تمتعهم ببصيرة نفاذة إلى الحقيقة ، وآخرون يقفون من الحقيقة موقف الصم العمي، ونجد في المجتمع أيضاً أفراداً لا يزالون متمسكين بالعدل على كل حالٍ من الأحوال ، كما نجد فيه آخرين يحيدون عن جادة العدل، ويعاملون الناس معاملةً جائرة ظالمةً ، وإن حس الإنسان الخلقي ليقرر بأنه لا ينبغي أن ينتهي هذان الصنفان من البشر إلى مصير واحد مماثل ! ولو أننا أمعنا النظر في هذه الأمور لاتضح لنا أن ظهور الآخرة ضروري من وجهة النظر الأخلاقية !

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

دَاخِرِينَ : صاغرين أذلاء .

فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ : فكيف تصرفون عن توحيده ؟

يُؤْفَكُ : يصرف عن التوحيد الحق .

إن تعاقب الليل والنهار على وجه الأرض بانتظام ، وما إلى ذلك من الظواهر الحيوية الأخرى من هذا القبيل ، لأكبر من أن يقدر على إيجادها إنسان أو كل الخلائق مجتمعة . وهذه قرينة واضحة تدلنا على أن الله الذي قام بالخلق والإيجاد ، هو وحده يستحق أن يُتخذ إلهاً يُعبد ، فينبغي للمرء ألا يخضع إلا له ، ولا يعلق آماله إلا عليه ، على أن المرء لا يتمكن من إقامة صلة الدعاء والعبادة الحقيقية بخالق الكون ، والسبب

في ذلك أنه قد لا يكون متعلقاً بشيء دون الخالق ، حيث يتعلق بعضهم بأصنام حية أو ميتة ، وهذا ما يقال له الشرك ، بينما يكون بعضهم الآخر متعلقاً بذاته هو ، وذلك ما يسمى " الكبر " ومن حين لآخر يبرز الله – سبحانه وتعالى – أدلة وبراهين تنقض هذا الخداع والتزييف من الأساس ، ولكن الإنسان لا يلبث أن يعرض عنها استناداً على بعض التبريرات الكاذبة .

وكل سلوك من هذا النوع استهانة بخالق الكون وعدم تقدير له ، والذين يستهينون بخالق الكون ، ولا يقدرونه حق تقديره ، لن يجدوا لأنفسهم مكاناً أو ملجأ إلا في نار جهنم !

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

الأَرْضَ قَرَاراً: مستقرا تعيشون فيه .

وَالسَّماءَ بِنَاءً : سقفاً مرفوعاً كالقبة فوقكم .

فَتَبَارَكَ الله : تعالى أو تمجد أو كثر خيره .

إنه لم يكن ممكناً بالنسبة إلى مخلوق كالإنسان أن يقوم ببناء التمدن والحضارة على وجه الأرض لولا ما أودع فيها من أسباب وإمكانيات تفوق الحصر ، وهكذا فإن هناك تدابير محكمة لا تحصى قد اتخذت في الفضاء العلوي فوق الأرض إن حدث فيها أدنى خللٍ لفسد نظام الحياة الإنسانية بالمرة ، ثم إن الإنسان قد تم تكوينه وتشكيله على طراز رفيعٍ جعله – من الناحيتين : العقلية والجسمانية – المخلوق الأسمى في هذا الكون ....، إذن فهل من أحدٍ – غير الخالق – يستحق أن يتوجه إليه الإنسان بالعبادة

والتعظيم ! كلا ... كلا !! ودعاء الله مع إخلاص الدين له وحده معناه أن تكون عواطفنا الدينية كلها موجهة نحو الله سبحانه وتعالى !

﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾

أَنْ أُسْلِمَ : أن أنقاد أو أخلص ديني .

لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ : كمال عقلكم وقوتكم .

قَضَى أَمْراً : أراد إيجاد أمر .

تناولت هذه الآيات بعض وقائع الطبيعة ، ثم عقب عليها بقوله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مما يعني أن هناك دروساً معنويةً تكمن في هذه الوقائع المادية من عالم الطبيعة، والمطلوب من الإنسان أن يصل إلى تلك الدروس الكامنة عن طريق التأمل والتفكير .

ووقائع الطبيعة التي ذُكرت هنا تتلخص في : تحوّل المادة الهامدة التي لا حياة فيها إلى وجود ذي حياة ، وتخلّق ونسوئه التدريجي ، وبلوغ الإنسان سن الشباب ثم الرشد ثم تعرضه للهرم والشيخوخة .. وأخيراً استحالة الإنسان الحي مرة أخرى إلى وجود ميت عن عمر يقصر حيناً، ويطول حيناً آخر ، وهذه الوقائع تعرفنا بمختلف صفات الخالق جلَّ وعلا، فمنها نعلم أن موجد هذه الكون هو إله قادر وحكيم وهو عزيز وغالب لا يقهر ... إلخ ، وإنه لو اعتبر المرء بهذه الوقائع حق الاعتبار لصرخ عقله

قائلاً بأن الله الواحد الأحد هو وحده حقيق بأن نعبده ونعدّه مطلبنا الأسمى والأخير .

وإن خريطة العالم هذه تبطل بلسان الحال ، جميع المعبودات التي تكون قد اتخذت من دون الله الواحد الأحد !

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

أَنَّى يُصْرَفُونَ : كيف يصرفون عن الآيات مع صدقها ووضوحها؟

الأَغْلالُ : القيود تجمع الأيدي إلى الأعناق .

الحَمِيمِ : الماء البالغ نهاية الحرارة.

يُسْجَرُونَ : توقد أو تملأ بهم .

تَفْرَحُونَ : تبطرون وتأشرون .

تَمْرَحُونَ : تتوسعون في الفرح والبطر.

مَثْوَى المُتَكَبِّرِينَ : مأواهم ومقامهم .

من هم الذين كانوا يفرحون ويمرحون في الأرض بغير الحق ؟ إنهم كانوا كبار عصرهم فبسبب النصيب أتيح لهم من متاع الدنيا ومظاهر كبريائها ، لم يلبثوا أن أصيبوا

بالغرور والاعتزاز والخيلاء ، وقد جعلهم ما أحرزوه من النجاح المادي يزعمون أنهم أناس محظوظون ، على حين أنهم لم يكونوا في حقيقة الأمر إلا أناساً محرومين تماماً .

وكبار العصر هؤلاء يكونون أول من ينكر الحق ، ثم لا تلبث الجماهير بدورها أن تقف من الحق ، اقتداءً بهم، موقف الجحود والإنكار ، وقد عرضت هذه الآيات مشهد العالم الآتي ، حيث سيكون هؤلاء قد ألقي بهم في نار جهنم جزاء علوهم واستكبارهم، فإن كبرياءهم الكاذبة لن تنتهي بهم آخر الأمر إلى شيء سوى الهوان الأبدي الذي لن يجدوا إلى الخلاص منه سبيلاً !

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

إن هذا وعد من الله بأنه سينصر الدعاة إلى الحق ويقهر القوى المعادية له ، غير أن هذا الوعد إنما يتحقق بعد الصبر ، فالداعي يتعين عليه أن يصبر على كل أذى وعنت يلقاه من جانب المدعو ، إلى أن يحين وقت ظهور وعد الله بمقتضى سنته الأزلية ، ومع أن معارضي الحق يلقون عقابهم الحقيقي في الآخرة ، إلا أنهم ربما يعرضون لبوادره في العالم الراهن كذلك، وإن لم يكن من الضروري اللازم أن يفعل بهم ذلك دائما !

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

إن قصص الأنبياء وأحوال المرسلين لم تُذكر في القرآن الكريم على وجه التاريخ ، وإنما على وجه التذكير ، ولذلك فإن القرآن لا يتناول من أحوال الرسل إلا القدر الذي كان يلزم عند الله – سبحانه وتعالى – لأجل الذكر والنصيحة .

وإن مهمة الرسول الأساسية إنما تكمن في قيامه بإبلاغ رسالة الله إلى الناس مراعياً كل آدابها ومقتضياتها الضرورية ، وأما ما يتعلق بإظهار المعجزات والخوارق ، فإن ذلك بيد الله ، يظهرها تارة ، ولا يظهرها تارة أخرى بحسب حكمته ومشيئته التي لا يعلمها إلا هو .

وقد تم إظهار المعجزات (الحسية) في الأغلب لأمم كان الله قد قرر إهلاكها نظراً لتماديها في الطغيان ، ومن ثم أجريت على يد أنبيائها صنوف المعجزات وخوارق العادات إعذاراً لها ولإقامة الحجة عليها .

وأما أمة رسول آخر الزمان – صلى الله عليه وسلم – فقد كان المفروض أن كثرتها الكاثرة ستدخل في حظيرة الإيمان عاجلاً أو آجلاً ، حيث إنهم كانوا أناساً يمتلكون هذه الكفاية الكامنة التي أهّلتهم ليكونوا أول جماعة في تاريخ البشرية اعترفت بالحق على أساس الدليل وحده ، وبالتالي سلمت نفسها إليه وتفانت في سبيل خدمته عن طواعية وإرادة حرة .

ومن هنا لم تُعرض عليهم الخوارق والمعجزات (الحسية) رغم اقتراحهم إياها بين الحين والحين ، باعتباره اقتراحاً صادراً عن جهل وحماقة وتعصبٍ !

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ : أمراً ذا بالٍ تهتمون به .

إن الإنسان محتاج إلى أشياء كثيرة للإبقاء على حياته وتمدنه ، كالغذاء والمراكب ، ومختلف أنواع الحرف والصناعات ، وأدوات نقل الأمتعة من مكان إلى آخر ، وكل

هذه الأشياء تتوافر في عالمنا الراهن بكميات هائلة ، وقد جعل الله أشياء الدنيا على نحو تبقى معه دوُماً مسخرة خاضعةً لإرادة الإنسان ، بحيث يستخدمها في تحقيق شتى أغراضه ومآربه كيف يشاء .

وكل هذه الأشياء بمثابة آيات الله ، تعلن عن الحقائق الغيبية بلسان مادي وهذا الإعلان، إن كان بأسلوب غير مباشر ، إلا أن الخير للإنسان أن يتفهم الكلام الموجه إليه بالأسلوب غير المباشر ، لأن الله – سبحانه وتعالى – إذا تكلم بالأسلوب المباشر فسيكون ذلك إعلاناً عن انتهاء مهلة العمل وليس بدء فرص العمل !

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم : فما دفع عنهم وما نفعهم .

مِّنَ ٱلْعِلْمِ : بأمور الدنيا مستهزئين بالدين.

وَحَاقَ بِهِم : أحاط . أو نزل بهم .

رَأَوْاْ بَأْسَنَا : عاينوا شدة عذابنا في الدنيا .

خَلَتْ : مضت .

العلم نوعان : علم يمكن صاحبه من إحرازه الرقي والتقدم الدنيوي ، وعلم

يهدي صاحبه إلى طريق النجاح الأخروي ، والذين يتمتعون بعلم الدنيا ، تظهر نتائجه الباهرة على الفور في صورة التطورات والإنجازات المادية الملموسة ، وعلى النقيض من ذلك وبشكل محسوس أصحاب العلم الأخروى !!

وهذا الفارق ربما يولد في نفوس المتضلعين في علوم الدنيا مركب الاستعلاء ، ومن هنا لما بعث أنبياء الله في أمم كهذه قابلتهم بالاحتقار والازدراء ، ناظرةً إلى نفسها على أنها أعلى وأعظم منهم شأناً ، حتى إنها أخذت تسخر منهم وتستهزئ بما جاءوا به ، بيد أن الله – عز وجل – أهلك تلك الأمم ، الواحدة تلو الأخرى ، رغم كل قواها الجبارة ومظاهر تقدمها العلمي والحضاري المدهش ، وإنما توجد آثارها التاريخية ومعالم حضارتها البائدة اليوم إما بشكل أطلال وخرائب متهدمة ، أو مطمورة تحت الرغام ... وهكذا فقد أقام الله للناس كافة مثالاً تاريخياً معبراً يقرر أن سر النجاح الدائم الباقي يكمن في علم الآخرة وليس في علم الدنيا!

وقد كذبت هذه الأمم برسالة أنبيائها ....، ومع كون أولئك الأنبياء تتوافر لديهم قوة الدليل والبرهان ، إلا أنها لم تكد ترضى بالخضوع أمام قوة الدليل ، إلى أن نبّأهم الله تعالى بأمر الحق في نهاية المطاف بلغة العذاب ....، وعندها لم يلبث هؤلاء أن بادروا بالإقرار والتسليم في ضراعة وخضوع غير أن هذا الإقرار لم يغن عنهم شيئا لك، لأن الإقرار المطلوب هو الذي يتم على أساس الدليل ، ولا قيمة لإقرار يلجأ إليه بعد رؤية العذاب الإلهي رأي العين !

سورة فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ ﴾

فُصِّلَتْ آيَاتُهُ : ميزت ونوعت أو بينت .

أَكِنَّةٍ : أغطية خلقية تمنع الفهم .

وَقْرٌ : صمم وثقل يمنع السمع .

حِجَابٌ : ستر غليظ يمنع التواصل .

إن دعوة النبي تكون دعوة إلى الدين الخالص النقي ، وأما حال الناس فهو على نقيضٍ من ذلك ، إذْ يكون أكثرهم على دين أكابرهم ، ويسيطر على عقولهم ما توارثوه من تقاليد وعادات قومية عبر الأجيال ، وما يسود عصرهم من الأفكار والاتجاهات ، ومن ثم فإن ما يدعو إليه الرسول من الدين الخالص النقي لا يكاد يتوافق مع شاكلتهم الفكرية ، فسيبدو لهم شيئاً غريباً لم تألفه النفوس ، ويقف هذا الفرق بمثابة حاجز ذهني بين الرسول ومخاطبيه، وبما أنهم لا يستطيعون أن ينظروا إلى دعوة الرسول في صورتها الأصلية ، لا يرضونْ بالتالي أنْ يتلقوها بالإيمان والقبول .

وإن دعوة النبي تكون في حد ذاتها مدعمةً بأقوى الأدلة وأوضح البراهين لدرجة

أنها تكون في نفسها دليلاً على كونها أمراً جاء من عند الله ، غير أن الحاجز الذهني الآنف الذكر يكون من القوة والضخامة بحيث لا يتمكن الإنسان من أن يخترقه حتى يرى دعوة الرسول كما هي . إن الله - سبحانه وتعالى - يفتح للإنسان أبواب رحمته ، ولكن الإنسان يأبى أن يدخل فيها ! فيا له من شقاء وحرمان!!

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾

فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ : توجهوا له بطاعته وعبادته .

وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ : هلاك أو حسرة أو شدة عذاب لهم .

غَيْرُ مَمْنُونٍ : غير مقطوع عنهم .

إن دعوة الحق تقوم على مستوى "البشر" ، وقد يتعذر على أفهام الناس كيف يمكن أن يتكلم بشر بلسان الله؟ ومن ثم يقابلونه بالرفض والإنكار ، بيد أن الله تعالى قد جرت سنته منذ قديم الأزل بأن يعلن أمره على لسان بشر ، فمن لم يتمكن من التعرف على الكلام الإلهي الجاري على لسان الداعي متجاوزاً عن بشريته ، سوف لا يزال محروماً من الهداية في عالم الامتحان الراهن .

ولا عبرة بالإيمان بالآخرة إلا إذا صاحبه الإقرار بالتوحيد الكامل وبالإنفاق في سبيل الله ، و الذي يدرك الله حق الإدراك ، لن يعود قلبه عالقاً بأية عظمة أخرى سواه .. وكذلك فإن من يظفر بالله حقاً ، لن يبخل بماله عن الله أبداً !

وقوله ﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ يعني أخلصوا له العبادة ، أي يجب أن تكون اهتماماتكم

كلها موجهةً نحو الله وحده ، وأن يكون الله الواحد الأحد هو المرجع الوحيد لعبادتكم ودعواتكم ، وأن ينطبع تفكيركم بالطابع الإلهي الخالص . والمتحلون بهذه الصفات هـم الذين سيُعطون إنعامات الله الأبدية !!

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

أَندَاداً : أمثالاً من مخلوقاته .

رَوَاسِيَ : جبالاً ثوابت تمنعها الميدان .

وَبَارَكَ فِيهَا : كثر خيرها ومنافعها .

أَقْوَاتَهَا : أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم .

فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ : في تتمة أربعة أيام .

سَوَاءً : استوت الأربعة استواء (تمت) .

اسْتَوَى : عمد وقصد قصداً سوياً .

وَهِيَ دُخَانٌ : مكونة مما يشبه الدخان .

ائْتِيَا : افعلا ما أمرتكما به وجيئا به .

فَقَضَاهُنَّ : أحكم وأبدع خلقهن .

وَأَوْحَى : كون ، أو دبر في اليومين .

وَحِفْظاً : حفظناها حفظا من الآفات .

إن دراسة الكون تدلنا على أن خلقه تم في عدة مراحل على نحوٍ تدريجي ، والخلق التدريجي هو خلق مخطط ، وإذا كان الكون قد خلق بأسلوبٍ مخططٍ ، فلابد أن يكون هناك مخطط قام بصنعه عن قصد وإرادة حسب خطته المرسومة !، وهكذا تتواجد على سطح الأرض جبال شامخات هنا وهناك تحفظ توازنها ، وفي جنبات هذا العالم توجد الآلاف من الأنواع الحية ؛ كل نوعٍ منها يحتاج إلى رزق معينٍ ، ولكن الجميع يجد رزقه المطلوب متوافراً فيما حوله بتمام اليسر والسهولة .

ومما تدلنا عليه دراسة الكون أيضاً أن كل الأشياء كانت بدايةً في حالة مادةٍ غازية منتشرةٍ ، ثم بدأت هذه المادة بالتكثف والانكماش ، وتشكلت بالتالي بأشكالٍ مختلفةٍ ، كما يتضح لنا من دراسة الكون أن هذا الكون على اتساعه الهائل مربوط بقانون طبيعي واحدٍ ربطاً محكماً للغاية ، إن هذه المشاهدات تثبت - بما لا مرية فيه - أن خالق الكون عليم خبير، وأنه صاحب القوة والقهر والغلبة، إذن ، فهل أحد سواه ؛ يليق بالإنسان أن يتخذه إلهه ويعبده ؟ كلا .. كلا !!

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً : خوفتكم عذاباً شديداً مهلكاً .

إن مقابلة دعوة الحق بالإنكار أشنع جريمة عند الله سبحانه وتعالى ، ولئن كان هذا

الإنكار إزاء دعوة النبي ، فإن عقاب صاحبه يبدأ في هذه الدنيا ، كما حدث مع عاد وثمود وغيرهما من الأمم الغابرة ، أما لو كان الأمر يتصل بالدعاة العاديين ، فإن المنكرين سيلقون عاقبة إنكارهم الوخيمة في الآخرة .

وقد ظل المحور الرئيسي لدعوة الحق يدور دوْماً حول أن يصير الإنسان عابداً لله وحده ، وأن يربط عواطف حبه وخوفه كلها بالله الواحد الأحد متخلياً عما سواه ، إلا أن الأنبياء مازالت شخصياتهم تبدو لمعاصريهم ، على اختلاف الزمان والمكان ، أقل وأهون من أن يختارهم الله - عز وجل - لإبلاغ رسالته ، ومن ثم لم يلبثوا أن قابلوا أنبياءهم بالإنكار والتكذيب !

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

رِيحاً صَرْصَراً : شديدة السموم ، أو البرد ، أو الصوت .

أَيَّام نَّحِسَاتٍ : مشؤومات ، أو ذوات غبار وتراب .

أَخْزَى : أشد إذلالا وإهانة .

فَهَدَيْنَاهُمْ : بينا لهم طريقي الضلالة والهداية .

العَذَابِ الْهُونِ : المهين .

يجد المرء نفسه في عالم ، حيث تنفي عظمة السماء والأرض كبرياءه ، وحيث تقيم حادثة الموت كل يومٍ دليلاً على ضعف الإنسان وعجزه ، ولكن المرء لا يزال يتعاظم ويزعم أنه صاحب الحول والقوة والسلطان!

وإن الله سبحانه لا يفتأ يقيِّض من حينٍ لآخر مَنْ يقوم بإعلان الحقيقة ، وهو بذلك ينقض دعاوى الكبرياء والاستعلاء من الأساس كلما رفع الإنسان عقيرته بها ، ولكن لا أحد يعتبر ما لم يتم سحقه وإبادته ، وما أطلال قوم عاد وثمود وغيرهما من الأمم الهالكة إلا أمثلة ناطقة بذلك ؛ فالأيام التي كانوا قد اعتبروها سعيدةً ومباركةً لأنفسهم، إذا بها تعود بأمرٍ من الله أياماً كلها نحس وشؤم!

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

فَهُمْ يُوزَعُونَ : يحبس سوابقهم ليلحقهم تواليهم .

تَسْتَتِرُونَ :تستخفون عند ارتكابكم الفواحش .

أَن يَشْهَدَ : مخافة أن يشهد ...

ظَنَنتُمْ : اعتقدتم عند استتاركم من الناس .

كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ : وهو ما عملتم خِفْيَةً .

أَرْدَاكُمْ : أهلككم .

مَثْوًى لَّهُمْ : محل ثواء وإقامة أبدية لهم .

وَإِن يَسْتَعْتِبُوا : يطلبوا رضا ربهم يومئذ .

مِنَ الْمُعْتَبِينَ : من المجابين إلى ما طلبوا .

لقد أخبر القرآن الكريم بأن جلد الإنسان وجوارحه مما سيشهد عليه يوم القيامة بأعماله التي مارسها في الحياة الدنيا ، وقد جاءت نظرية النطق الجلدي (skin speech) في العصر الحديث تثبت إمكان ذلك بالفعل ، حيث اكتشف الآن أن كل كلمةٍ يلفظها الإنسان ترتسم على جلده ، وبالإمكان أن يعاد استماعها من جديدٍ تماماً كما تُعاد الأصوات المسجلة بطريقة آلية .

وإن الله سبحانه لكونه لا يُرى ، يظن الإنسان أن الله تعالى هو الآخر لا يراه ، وسوء الفهم هذا هو الذي يولد الطغيان في نفس المرء ، ولو أدرك المرء أن الله يراه كل حينٍ وآن ، لتغير سلوكه تغيراً جذرياً شاملاً ...، وسيُظهر المرء الطاعة الكاملة بعد أن يتجلى الرب ذو الجلال عياناً في عالم الآخرة ، غير أنها لن تجدي عنه فتيلاً .

﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ : سببنا وهيأنا لهم .

وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ : وجب وثبت عليهم وعيد العذاب .

يتردد الإنسان في العالم الراهن بين دعاة الله من ناحيةٍ ؛ ينصحون له بالحق ، وبين

القادة المستغلين من ناحيةٍ أخرى ؛ يريدون استمالته إلى أنفسهم بمعسول كلامهم ، وإن مَنْ يقابل نصيحة دعاة الله بعدم الاكتراث واللامبالاة ، لا يلبث أن يندفع في السبل غير الحقيقة متأثراً بطنطنة أولئك القادة وأقاويلهم المزخرفة ...، وهؤلاء القادة المستغلون يلهون الناس بأحلام ماضيهم الجميلة تارةً ، وبعرض صورة خيالية براقة لغدهم المرتقب تارةً أخرى ، والذين يندفعون وراء أمثال هؤلاء القادة ، مخدوعين بألفاظهم الكاذبة ، لا ولن ينتهي بهم الأمر في نهاية المطاف إلا إلى الضياع والخسران الأبدي !

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

وَالْغَوْا فِيهِ : ائتوا باللغو والباطل عند قراءته .

فسر عبد الله بن عباس قوله ﴿ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾ بلفظ "عيبوه" (١). أي اطعنوا في القرآن وصاحبه ، وهكذا نفّروا الناس منه!. إن للحكم على شيءٍ أو شخصٍ ما طريقتين اثنتين : إحداهما النقد ، وثانيتهما التعييب ، أما النقد فمعناه : أن تتناول الموضوع محل النظر بالتحليل على أساسٍ من الحقائق، وأما التعييب فهو ألا يناقش المرء القضية موضوع البحث استناداً على دليل أو برهان ، وإنما يلجأ إلى افتعال المطاعن وإثارة الاعتراضات الفارغة .

وإذا كانت طريقة النقد طريقة مشروعة لا غبار عليها ، فإن طريقة التعييب هي طريقة أهل الكفر . يضاف إلى ذلك أنها إنكار لآيات الله ؛ إذْ كل دليل صادق آية من آيات الله ، والذين لا يستسلمون للدليل بل يحاولون تشويهه ولي عنقه عن طريق

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٦١ .

التعييب والاتهام ، كأنما يجحدون بآية الله ، وسيعتبر أمثال هؤلاء أهلاً لأشد ألوان العذاب وأسوأها في الآخرة !

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

الْأَسْفَلِينَ : في الدرك الأسفل من النار .

اسْتَقَامُوا : على الحق اعتقاداً وعملاً وإخلاصاً

مَا تَدَّعُونَ : ما تتمنونه وتطلبونه .

نُزُلاً : رزقا أو ضيافة وتكرمة ، أو مناً .

الناس صنفان : أحدهما : هو الذي يسلم قياد نفسه إلى القادة الكاذبين من الإنس والجن ، وهؤلاء – الأتباع والمتبوعون – مع كونهم يتحابون بعضهم مع بعض في الحياة الدنيا حباً جماً ، إلا أن الوضع سينقلب في الآخرة رأساً على عقبٍ ؛ حيث ستمتلئ نفوس الأتباع بالبغض والكراهية نحو قادتهم الكاذبين أولئك ، حين يرون أنهم لم يقودوهم إلا إلى الجحيم، ويودّون بالتالي أن يطأوهم تحت أقدامهم انتقاماً وتشفّياً لصدورهم المحترقة حنقاً وغيظاً !!

وأما الصنف الآخر من الناس: فهم الذين يجعلون من الملائكة قرناءهم،وأمثال هؤلاء يجدون الملائكة جلساء لهم، يوالونهم ويؤنسون وحشتهم على طول الطريق من

الدنيا إلى تلك الدار الآخرة، والملائكة يفيضون على قلوبهم مشاعر ربانية، ويزودونهم بالأمن والسكينة والطمأنينة الداخلية عند اشتداد وطأة الظروف والأزمات،ويسوقون إليهم بشريات الله من خلال التجارب الروحانية اللطيفة السامية، ثم إن هؤلاء الملائكة هم الذين سيرحبون بهم في الآخرة أجمل ترحيبٍ ويدخلونهم في نهاية المطاف إلى الجنان الأبدية !!

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾

وَلِيٌّ حَمِيمٌ : صديق قريب يهتم لأمرك .

وَمَا يُلَقَّاهَا : ما يؤتى هذه الخصلة الشريفة .

يَنزَغَنَّكَ : يصيبنَّك . أو يصرفنَّك .

نَزْغٌ : وسوسة . أو صارف .

إن دعوة القرآن الكريم هي دعوة إلى الله ، إن ربط صلة الإنسان بربه ، وتربية الإنسان على أن يعيش في ذكر الله ومراقبته الدائمة ، وإيقاظ هذا الوعي في نفس الإنسان بأن يتخذ من الله الواحد الأحد مركزاً لاهتمامه وتوجهاته ، ذلك هو الهدف الرئيسي الذي تنشده الدعوة القرآنية ، وليس هناك بالطبع دعوة أحسن من هذه.

غير أنه لن يوفق ليكون داعي الله حقاً إلا الذي تبلغ به الجدية في دعوته حداً يكون معه قد سبق إلى الإيمان بما يبغي من الآخرين أن يؤمنوا به، والذي يكون قد صار أول

عامل بها يدعو الآخرين إلى العمل به . وأكبر سلاحٍ يملكه الداعي هو أن يُحسن دائماً سلوكه ومعاملته مع الناس ، حتى ولو عامله الآخرون بالسوء ، وأن يقف تجاه حملات الإثارة والاستفزاز موقف الإعراض ، ويقابل أذى المعارضين بالصبر، ولقد أودع الله تعالى في السلوك الحسن قوةً تسخيرية جبارة ، والداعي إلى الله يكون خبيراً بفطرة الله هذه ، وهو بالتالي يستعملها إلى أقصى حدٍ مستطاعٍ ، مهما اضطره ذلك إلى أن يكظم غيظه ، ويدوس عواطفه المشتعلة ، وأن يئد الانفعالات وردود الفعل السلبية ساعة تولد في داخله !

وطالما خطر ببال الداعي أنه لابد من الرد على الأمر الفلاني ، أو أنه لابد من اتخاذ الخطوة الرادعة ضد الاعتداء الفلاني وإلا ازداد الطرف المعادي جراءةً على العدوان والاضطهاد ، فينبغي له أن يتفطن إلى أن هذا من وساوس الشيطان ونزغاته ، ويجب على المؤمن والداعي أن يستعيذ بالله من أمثال هذه الخواطر والنزغات الشيطانية دون أن يندفع وراءها بدون رويةٍ ولا تبصرٍ !!

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾

لا يَسْأَمُونَ : لا يملون التسبيح .

أكبر ضلال يقع فيه الإنسان يتمثل في عبوديته للظواهر ، فمنذ أن بدت الشمس والقمر والنجوم اللامعة أبرز شيءٍ في الوجود لإنسان العصر القديم ، لم يلبث أن اعتبرها آلهةً وأخذ في عبادتها و تقديسها ، أما في عصرنا الحديث فإن بريق الحضارة المادية هو الذي يبهر الأبصار ويبدو للناس أبرز من كل شيءٍ ، ومن هنا فقد أحلّوا

الحضارة المادية اليوم المكان نفسه الذي كانت تحتله الشمس والقمر قديم الزمان ، على حين أن كل المظاهر ، لا تخرج عن كونها مخلوقات الله ، إذن ، فينبغي على الإنسان أن يتوجه بالعبادة والتعظيم إلى الخالق وليس إلى مخلوقاته!! ، وإن استكبار المستكبرين لا يكون بإزاء الدعوة ، وإنما يكون دوْماً بالقياس إلى الداعي ، حيث يبدو الداعي لكبار عصره أصغر منهم في ظاهر الأمر ، مما يجعلهم يستصغرونه هو ورسالته معاً !!

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

الأَرْضَ خَاشِعَةً : يابسة متطامنة جدبة .

اهْتَزَّتْ : تحركت بالنبات .

وَرَبَتْ : انتفخت وعلت .

يُلْحِدُونَ : يميلون عن الحق والاستقامة.

إن نزول المطر على الأرض اليابسة الجرداء وما يتبعه من خروج النبات الأخضر والثمار والأزهار ، من الظواهر التي تتكرر أمام أبصار كل إنسان بين الحين والحين. إنها تمثيل مادي لحقيقة معنوية ، فمن خلالها يتم إشعار الإنسان بأن الله قد هيّأ هنا أسباباً واسعة النطاق لإخصاب وجوده اليابس وتجديد حيويته ، وإنه إذْ يسمح تراب الأرض للماء بالنفوذ إلى أعماقها ، يمكن حينئذٍ فقط أن يتسبب المطر في اكتساء جنباتها بالخضرة والنضارة والجمال.. وهكذا فلو أن الإنسان سمح لهداية الله بالنفوذ إلى أعماقه، لازدهر وجوده بفضل الهداية، والسبب الأكبر في عدم الانتفاع بهداية الله يرجع إلى

كون الإنسان يلحد في أحاديث الله ، فحين يُعرض عليه بعض التوجيهات الإلهية لا يأخذه بمعناه الواضح المستقيم ، وإنما يلوي عنقه ويبغيه عوجاً ، ومن هنا لا يكاد التوجيه الإلهي يكون جزءاً من صميم فكره ، ولا يعود يغذي قلبه وروحه أي غذاءٍ .. وإن للذين يتلقون التوجيه الإلهي بالقبول من غير لفٍ ولا دورانٍ ، نعيمَ الجنة الأبدي. أما الذين يبغون عوجاً ويحيدون عن مدلوله القريب المستقيم، فإن لهم عذاب جهنم الأبدي !!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا : خبر "إن" تقديره " لا يخفون علينا" أو "هالكون" .

إن القرآن كتاب عزيز منيع الجانب ، ودليل كونه عزيزاً أن الباطل لا يمكنه أن يتطرق إليه، وليس هناك من سبيل إلى التدخل فيه من أية جهةٍ ، ولا يُستطاع إدخال أي نوعٍ من الفساد عليه بطريقٍ مباشرٍ أو غير مباشرٍ !

إنها نبوءة غير عادية للغاية ، ولكي تتحقق هذه النبوءة لابد من استمرار وجود أمة قوية تحمل القرآن ما دامت السماوات والأرض ، وألا يظهر تناقض ما أو عدم تطابق بوجهٍ من الوجوه بين مضامينه وبين ما صح من تعاليم الأنبياء السابقين أبداً ، وألا يتمكن أحد من الرد على تحدي القرآن بإصدار كلامٍ من طرازه أبداً ، وألا يكشف تقدم العلوم عن أية أخطاء علمية فيه ، وألا يؤثر عليه ما يمر به التاريخ من أحداث المد والجزر أيما تأثيرٍ ، وأن تبقى لغة القرآن (العربية) دوماً لغة حية خالدة !

إن تاريخ ما بعد نزول القرآن الممتد على قرون طويلةٍ ، ليشهد بأن كل هذه الأسباب

لم تزل مجتمعةً في صالحه على نحوٍ مدهشٍ ، وإن تضافر هذه الوقائع مجتمعةً أمر نادر فذ لدرجة أنه لم يحدث قط أن ظلت متضافرة في صالح أي كتاب آخر غير القرآن لمدة خمسة عشر قرناً من الزمان ، ويكفي ذلك دليلاً على أن القرآن كتاب الله .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

قُرْآناً أَعْجَمِياً : بلغة العجم كما اقترحوا .

لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ : هلا بينت آياته بلسان نعرفه .

أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ : أقرآن أعجمي ورسول عربي .

آذَانِهِمْ وَقْرٌ : صمم مانع من سماعه .

وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى : ظلمة وشبهة مستولية عليهم .

لما نزل القرآن باللغة العربية اندفع المعارضون قائلين : ليس من العسير على محمد أن يعرض كتاباً باللغة العربية، حيث إنها هي لغته الأم ، ولو كان نبياً حقاً ، لفوجئنا به وهو يتكلم بتأييدٍ من الله بإحدى اللغات الأجنبية !!

إن أقاويل كهذه إنما يرددها دائماً أناس غير جادين، والإنسان غير الجاد ليس إلى إقناعه أو إسكات لسانه من سبيل ، فمثلاً لو جاء النبي إلى العرب وأخذ يحدثهم باليونانية أو السريانية أو الفارسية ... إلخ ، لاعترضوا عندها قائلين : ما بال هذا النبي، جاء فيما يزعم لهداية الناس إلى الحق وها هو ذا يخاطبهم بلغةٍ لا يقدرون على فهمها!؟

الحقيقة هي أن الحق إنما يوفق لتلقيه بالقبول أولئك وحدهم الذين يأخذون أمر

الحق بمأخذ الجد ، أما الذين ليسوا بجادين في أمر الحق ، فإنهم لا يتمكنون حتى من استيعاب أبسط الأقوال وأوضحها لفظاً ومعنىً ، ومثلهم كمثل شخصٍ يُنادى من مكانٍ بعيدٍ جداً ، فإنه ربما يسمع شيئاً من الصوت ، غير أنه سيبقى محروماً من فهم المراد الحقيقي من النداء الموجه إليه!

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾

مُرِيبٍ : مُوقِع في الريبة والقلق .

لما انكشف الصدق الإلهي على يد الأنبياء السابقين صار الناس بين مؤمن به ومنكرٍ له ، وقد حدث الشيء نفسه عندما بُعث نبي آخر الزمان - ﷺ.

لماذا يقف البشر تجاه الصدق الإلهي هذا الموقف الخلافي؟ إن السبب في ذلك يرجع إلى حالة الامتحان الراهنة .. فكلما يظهر الصدق في عالم الامتحان الراهن ، يصحبه نوعٍ من الحجاب بالضرورة ، وبالتالي لا يلبث الناس أن تتعلق أبصارهم بهذا الحجاب، وأن الحجاب الذي كان عليهم أن يمزقوه لكى يروا الصدق المستتر وراءه في أجلي صوره ، إذا بهم يتخذون منه مبعث الشك والارتياب !.

غير أن هذا الشك والارتياب لن يكون عذراً لأحد الناس يوم تقوم الساعة ، فإنه إنما يقوم دليلاً على أن الإنسان لم يكن جاداً بشأن الحق، وإن الإنسان إذْ يكون جاداً تمام الجدية بشأن مصالحه الدنيوية ، فسرعان ما يتوصل إلى حقيقتها باختراق كل الحجب والأقنعة .. وهكذا فلو أنه صار جاداً فيما يتصل بمصالح أخراه ، لرأى الحقيقة عاريةً سافرةً ، مخترقاً كل حجب الشك والريب المسدولة على وجهها!!

﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ﴾

أَكْمَامِهَا : أوعيتها .

آذَنَّاكَ : أخبرناك وأعلمناك .

مَّحِيصٍ : مهرب ومفر من العذاب .

إن انبثاق عالم الآخرة من خلال العالم الراهن واقع أشبه ما يكون في طبيعته بخروج ثمرةٍ من شجرها ، أو تولد كائن حي من بطن الأم .. فما هو الثمر ؟ إنه تحول اللاثمر إلى الثمر ! وما هو الإنسان ؟ إنه اتخاذ اللاإنسان شكل الإنسان!. وهكذا شأن الآخرة تماماً ، فالآخرة بدورها ليست سوى اسمٍ آخر لاستحالة اللاآخرة إلى الآخرة ، والنوع الأول من التحول يقع تحت سمعنا وبصرنا كل اليوم ، إذاً فأي شيء يدعو إلى استبعاد حدوث واقعةٍ مماثلةٍ من النوع نفسه ، وهي تحول العالم الراهن إلى الآخرة !؟

إن يوم الآخرة سيكون يوم ظهور الحقائق في أجلى صورها ، وإذا جاء ذلك اليوم الرهيب فسوف تنهار كل الدعائم والأسس الكاذبة ، تلك التي كان الناس قد أقاموا بنيان حياتهم عليها في العالم الراهن!!

﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

لَا يَسْأَمُ الإِنسَانُ :لا يمل ولا يفتر .

دُعَاءِ الخَيْرِ : طلبه العافية والسعة في النعمة .

فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ : من فضل الله ورحمته .

هَذَا لِي : هذا حقي أستحقه بعملي .

عَذَابٍ غَلِيظٍ : شديد لا يفتر عنهم .

إن لحظة المصيبة تكون بالنسبة إلى الإنسان لحظة اكتشافه نفسه ، ومن ثم فإنه لا يكاد يتعرض للمصيبة حتى يذهل عن العناد والتعنت ، ويأخذ في ذكر الله والتضرع إليه ، وعندها يدرك أنه عبد وأن الله هو معبوده .

ولكنه سرعان ما ينسى حالته السابقة فيما إذا أذهب الله عنه المصيبة ، وأنعم عليه بالعافية والرخاء ، حيث إنه يرد النعمة المتاحة له إلى الأسباب الظاهرة ، وينظر إليها على أنها ثمرة تدبيره ومؤهلاته هو ، وتعود نفسيته كما لو أن الحياة إنما هي هذه الحياة الدنيا ، وليس وراءها بعث ولا نشور ولا مثول أمام المحكمة الإلهية . ويضاف إلى ذلك أن رخاءه يوقعه في سوء فهم وغرور قائل : إنني لما كنت هنا حسن الحال ، فلابد أن يكون حالي حسناً في العالم الآتي كذلك !!

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾

وَنَأَى بِجَانِبِهِ : تباعد عن الشكر بكليته وتكبر .

دُعَاءٍ عَرِيضٍ : كثير مستمر .

أَرَأَيْتُمْ : أخبروني .

إنما يُعطى الإنسان النعمة لكي يشكر الله باعتبارها هبةً منه تعالى وفضلاً ، ولكن الإنسان حين يظفر بالنعمة يتمرد ويطغى . أما إذا تعرض لألمٍ أو شدةٍ ، فلا يلبث حينئذٍ أن يدعو الله في ضراعةٍ وابتهالٍ ، غير أن الدعاء القسري كهذا لا قيمة له عند الله تعالى ، وإنما يجمل بالإنسان أن يخضع لربه ويدعوه عند الرخاء والنعمة تماماً كما يدعوه ويخضع له في أوان الشدة والألم !

وإن نفسية الإنسان هذه هي التي تبعثه على إنكار الحق ، فالحق لا يُرغم أحداً على القبول ، و إنما هو ينشد التسليم أو الإذعان الاختياري ، ومن ثم فإن الذين لا تنطوي قلوبهم على عنصر الإذعان الاختياري ، يُهملون الحق الذي لا يؤدي إهماله في ظاهر الأمر إلى تعرضهم لأية كارثةٍ أو خسارة فادحة عاجلة!!

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأَفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾

ٱلْأَفَاقِ : أقطار السموات والأرض .

مِرْيَةٍ : شك عظيم .

إن قصة كل من برز من عظماء الناس ومن العباقرة في أنحاء العالم قديماً وحديثاً ، إنما هي قصة الحال - أي منحصرة في حدود شخصه وزمانه لم تتعداها - وليست قصة أحدٍ منهم قصة المستقبل ، فإن مستقبل أي واحدٍ منهم لم يكد أن يكون مصدقاً بما كان عليه حاله ، بل جاء بالأحرى مكذباً في الأعم الأغلب . وفي عالمٍ كهذا ، فوجئ الناس منذ خمسة عشر قرناً مضت ، بنبوءةٍ تقرر أن أحداث المستقبل ، وكل الحقائق والأسرار

التي ستنكشف للإنسان عبر القرون التالية لنزول القرآن ، ستأتي كلها مصدقةً بالقرآن الكريم ...، وأن القرآن سوف لا يبقى محتفظاً بصدقة وحقيقته في كل عصر لاحق فحسب ، وإنما سيزيده وضوحاً وبرهنةً وتوثيقاً على مر الأيام ، وإنه بذلك سيظل دوْماً كتاب الساعة ، لا تنقضي عجائبه ولا تبلى جدته أبد الدهر !!

وقد تحققت هذه النبوءة حرفاً حرفاً وبصورةٍ تدعو إلى الدهشة والإكبار ، فما برحت الكشوف العلمية ، والأحداث التاريخية ، والانقلابات الزمانية تتضافر في صالحه، بحيث تجد اليوم حتى الباحثين من غير المسلمين يشهدون صراحةً بأن القرآن ، بما يمتاز به من خصوصيات فريدةٍ ، دليل في نفسه على أنه كتاب منزل من عند الله، إذْ لا يمكن أن تتوافر مثل هذه الخصوصيات الأبدية الفذة في أي تأليفٍ بشريٍ !

وإن الذين لا يسلمون بصدق القرآن على الرغم من هذه الحقيقة الصارخة ، فإنما هم يثبتون أن نفسيتهم الخالية من الخوف قد جعلتهم غير جادين ، فإن موقفاً غير معقولٍ كهذا لن يصدر إلا من الإنسان غير الجاد الذي يرى الشواهد الواضحة الجلية رأي العين ، ولا يتناولها بالإقرار والتسليم !!

سورة الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴾

يَتَفَطَّرْنَ : يتشققن من عظمته تعالى وجلاله .

أَوْلِيَآءَ : معبودات يزعمون نصرتها لهم .

الله حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ : رقيب على أعمالهم ومجازيهم .

بِوَكِيلٍ : بموكول إليك أمرهم .

لو أن المرء أتيح له بصر غير محدود ، فسوف يلاحظ أن هناك إلهاً هو مالك السماوات والأرض بما فيهن ، وقوته هائلة لدرجة أن الكون يكاد ينفطر ويتصدع من استشعار هيبته وجلاله ، والملائكة ، الذين هم على علمٍ مباشرٍ بألوهية الله - جل جلاله- لا تفتأ ألسنتهم تلهج بحمده وتسبيحه كل لحظة ، غارقين في الخشية الإلهية ، ثم إنه سيلاحظ أن الله - عز وجل - يختار بمشيئته وقدرته الخاصة بعض البشر ويوصل إليهم كلامه على نحوٍ غير مباشرٍ، لكي يقوموا بإخبار الناس أجمعين بالحقيقة الواقعة .

وإن الإنسان ، وإن كان لا يرى هذه الحقائق بصورة مباشرةٍ ، إلا أنه يستطيع أن يدركها عن طريق العقل بصورةٍ غير مباشرةٍ ، وهذا هو امتحان المرء الحقيقي ، فالمسئولية الملقاة على عاتق الإنسان أن يرى بعين بصيرته الأشياء التي لا يراها ببصره ، ويسمع صوت الله في كلام الأنبياء ، فيأخذ نفسه بالخضوع والإذعان إليه ، وأن يؤمن بالغيب إيماناً كما لو أنه يرى كل شيءٍ رأي العين !!

وإن أحداً لن يُعذر يوم القيامة بالنظر إلى أنه لم يكن قد رأى الحقيقة مباشرةً ، إذْ أن رؤية الحقيقة مباشرةً غير مطلوبة أصلاً في عالمنا الراهن ، فلئن وصلت الرسالة الجوهرية إلى شخصٍ ما على أتم الوجوه وأكملها ، فإن حجة الله تقوم عليه بعدئذٍ ، وإن انكشاف الحقيقية عليه بلغة الدليل وحده كافٍ لكي يُدان ذلك الشخص بجريمة إنكار الحق ، ويعاقب بالتالي بالعقوبة المقدرة لمنكري الحق أمثاله !

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾

أُمَّ القُرَى : مكة : أي أهلها .

يَوْمَ الجَمْعِ: يوم القيامة لاجتماع الخلائق فيه .

الهدف الرئيسي الذي تنشده دعوة الرسول هو أن يتم إعلام البشر كافةً بأنهم سيحضرون آخر الأمر بين يدي الله ، حيث يُجزى الكل ، حسب عمله في الحياة الدنيا ؛ إما بالجنة الأبدية أو الجحيم الأبدي !.

ولقد بعث رسول الله - ﷺ- لأجل إعلام البشرية جمعاء بهذه الحقيقة نفسها. وقد كانت بعثته - عليه الصلاة والسلام - ذات مرحلتين : مباشرة وغير مباشرة .

أما بعثته المباشرة فقد كانت إلى مكة وما حولها من القرى والبلاد ، وقد قام - عليه

الصلاة والسلام - بإكمال هذه المرحلة في حياته قبل رحيله إلى الرفيق الأعلى ..

وأما بعثته غير المباشرة فهي للعالم أجمع بواسطة أمته ، وبعثته الثانية هذه مازالت مستمرةً - ولا تزال - إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وقد عرض رسول الله ﷺ رسالته على العرب باللغة العربية ، وإن الأمة المحمدية بدورها مطالبة بأن تسير على هذا المبدأ ذاته ، وهي تؤدي وظيفتها الدعوية بالنيابة عنه - عليه الصلاة والسلام - بحيث تقوم بإبلاغ رسالة الحق إلى كل أمةٍ بلغتها ، فإنه لا يتسنى الوفاء بحق التبليغ بالنسبة إلى أمةٍ ما ، ما لم يتم إيصال رسالة الحق إليها بلغتها هي !!

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾

وَإِلَيْهِ أُنِيبُ : إليه أرجع في كل الأمور .

لقد فتح الله للإنسان باباً إلى رحمةٍ غير عادية لم يفتحه لأحدٍ سواه ، وهو أن يختار هداية الله بمحض إرادته هو ، فيعود بالتالي أهلاً لإنعام الله غير العادي ، وما اختيار الناس طرقاً مختلفة الاتجاهات في الحياة إلا نتيجة هذه الحرية نفسها ، وهذا الاختلاف وإن كان أمراً غير مستحسنٍ ، إلا أنه ليس ثمة إلى انتخاب ذلك الإنسان الغالي الثمين من سبيل آخر غير هذا .

وإن الله سبحانه مع كونه خلق الإنسان حراً مختاراً ، إلا أنه أودع لهداية الإنسان في نفسه وفيما حوله من الدوافع والأسباب الكثيرة ما يجعل المرء لا يتجه نحو الطريق الخاطئ أبداً، فيما لو كان جاداً حق الجدية ، والذين يتجهون نحو الطريق الخاطئ هم

ظالمون ، وإنهم لن يعتبروا عند الله أهلاً للعفو والمغفرة البتة !

﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

فَاطِرُ : مبدع ومخترع .

مِنْ أَنفُسِكُمْ : حلائل .

وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً : أصنافا ذكوراً وإناثاً .

يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ : يكثركم بسبب هذا التزويج .

لَهُ مَقَالِيدُ : مفاتيح وخزائن .

وَيَقْدِرُ : يضيقه على من يشاء بحكمته .

إنها لواقعة عظيمة ، هذه التي نشهدها أمامنا بشكل السماء والأرض ؛ لدرجة لا يتصور معها أن يكون قد أوجدها إله من تلك الآلهة التي يُعظّمها الناس ويقدسونها من دون الله ، وهكذا نظام التوالد والتناسل لدى البشر والحيوانات يبلغ من الدقة والتعقيد حداً لا يمكن معه أن يُنسب بحقٍ إلى أحد الناس ولا أحد الآلهة التي يعبدها الناس من دون الله سبحانه وتعالى .

وصفات الخالق تلك التي ندركها عن طريق مشاهدة مخلوقاته ، كافية في حد ذاتها لإثبات مدى عظمة هذا الخالق ، فهو سميع وبصير ، وهو مالك لكل أنواع القوة والقدرة والاختيار الأعلى ، وأن كل ما يناله شخص ما فإنما يناله بعطاءٍ منه تعالى ، وما ينتزع منه فإنما ينتزع بانتزاعه تعالى . وهو تعالى لا ندّ له ولا نظير في ذاته ولا في صفاته ،

وليس كمثله شيء !!

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾

شَرَعَ لَكُم : بين وسن لكم طريقاً واضحاً .

مَا وَصَّى : ما أمر به وألزم .

أَقِيمُوا الدِّينَ : دين التوحيد ، وهو دين الإسلام.

كَبُرَ : عظم وشق .

يَجْتَبِي : يختار ويصطفي لدينه .

يُنِيبُ : يرجع إليه ويقبل على طاعته .

لقد جاء كل الأنبياء – على اختلاف الزمان والمكان – بدين واحدٍ ليس غير ، ألا وهو دين التوحيد ، ولكن أتباع أولئكم الأنبياء والمرسلين لم يلبثوا أن انقسموا إلى فرقٍ دينيةٍ شتى فيما بعد . وكان السبب في ذلك يرجع إلى تغير مركز الاهتمام ، فقد كان الله هو مركز الاهتمام الرئيسي في الدين الذين جاء به الأنبياء الكرام ، إذْ كانت دعوة الجميع أن اعبدوا الله الواحد الأحد ، ولا تشركوا في عبادته شيئاً ، غير أن أممهم ما لبثت أن غيرت مركز اهتمامها فيما بعد حيث صارت عابدةً لغير الله بدلاً من عبادة الله وحده!.

إن الدين الذي يطلبه الله سبحانه من عباده إنما يتلخص في أن يتمسكوا بالتوحيد الخالص ، وأن يصير الله الواحد هو مركز اهتمام الجميع ، وهذا هو إقامة الدين . وأما الشرك فهو الاسم الآخر لتغيير مركز الاهتمام هذا ، وحين يتسرب الشرك إلى الناس

فسرعان ما ينشب بينهم الاختلاف والفرقة ؛ ذلك لأن مركز اهتمام الجميع يبقى واحداً ما دام التوحيد هو السائد ، بينما تتعدد مراكز الاهتمام عندما يحل الشرك محل التوحيد .

ودين النبي العربي - ﷺ- وإن كان ديناً محفوظاً من حيث متنه السماوي ، إلا أن أمته ليست أمة محفوظة (معصومة) ، فلا تزال الفرصة مفتوحة أمام أفرادها لكي يجعلوا من الأشياء الجديدة مركز اهتمامهم ، ويُدخلوا على الدين الأصيل ألوان التغييرات أو التعديلات عن طريق تفسيره وتأويله المزعوم ، ويحيلوا بالتالي الدين الواحد عملياً إلى أديان ومذاهب عديدةٍ !!

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ (١٤) ﴾

بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ : عداوة أو طلبًا للدنيا .

مُرِيبٖ : موقع في الريبة والقلق .

التفرق بعد مجيء العلم معناه أن ترتفع دعوة الدين الحق ، ويبقى المرء ، مع ذلك ، بمعزلٍ عنها ، أو يقف في وجهها معارضاً . لقد أبرز الله - سبحانه وتعالى - حقيقة الدين بواسطة رسوله الأخير في صورتها الخالصة النقية .. ومن هنا فقد كان ينبغي لجميع طلاب رضا الله أن ينضووا تحت رايته - عليه الصلاة والسلام - غير أنهم لم يستعدوا للانضواء تحت الراية المحمدية ؛ ذلك بأنهم كانوا بعزْو أنفسهم إلى الأنبياء السابقين يحتلون مركز التدين بين الناس ، فظنوا أن في هذا كفاية ، وأنهم في غنى عن أي رسولٍ أو رسالةٍ جديدةٍ بينما يتحتم على الناس كافة ، إذا ما ارتفعت دعوة الدين الصحيح الخالص ، أن يحطموا قوقعاتهم ، ويربطوا أنفسهم بالدين الصحيح

الخالص ....، وأما الذين لا يفعلون ذلك فإنهم مجرمون عند الله ، سواء كانوا غير متدينين أصلاً أو متدينين في ظاهر الأمر .

ومن الناس من ينكر دعوة الدين الحق إذا ارتفعت ، بدافع "البغي" بينما يبتعد بعضهم عنها بناءً على الشك والارتياب . والمراد بالبغي هو الحسد والتكبر ، وهو شأن أولئك الذين يتمتعون بمقام الكبرياء والسيادة في المجتمع ، والاعتراف بالحق يضطر هؤلاء إلى النزول عن مقام الكبرياء ، وحيث إنهم لا يرضون بتصغير أنفسهم ، ينصرف اهتمامهم نحو تصغير دعوة الحق تبريراً لموقفهم .

وأما الشك والتردد فحالة تعتري غالباً العوام من الناس ، فهؤلاء وإن كانوا يريدون كلام الداعي الخطير والمؤثر على مستوى الدليل ، إلا أنه يصعب عليهم أن يتخلوا عن أكابرهم أولئك الذين تكون عظمتهم قد استولت على أذهانهم بصورةٍ مسبقةٍ ، ويقف هذا المطلب المزدوج عائقاً دون توصلهم إلى قرارٍ حاسم ، فإذا كان الفريق الأول قد أهمل الحق تحت عوامل الحقد والتكبر ، فإن الفريق الأخير لا يتمكن من اختياره تحت عوامل الحيرة، وبالتالي يظل هذا وهذا محروماً من قبول الحق واعتناقه .

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾

بَغْياً بَيْنَهُمْ : عداوة : أو طلبًا للدنيا .

مُرِيبٍ : موقع في الريبة والقلق .

المراد بالكتاب هنا هو الدين الأصلي الذي جاء به الأنبياء والمرسلون ، وأما "الأهواء" فالمراد بها تلك الإضافات المزعومة التي أدخلها الناس من عند أنفسهم على الدين الحق ، وقد أمر الله رسوله بأن اثبت واستقم على الدين الأصلي وحده ، ولا يجوز بحالٍ من الأحوال أن تلين قناتك بالنسبة إلى دين الناس المزعوم أو تميل إلى التواؤم معه حتى ولو بالنظر إلى أية مصالح دعوية، فإن الواجب المنوط بك أساساً هو إقامة العدل، أي الفصل في الخلافات الدينية، والإبانة عن حقيقة الحق وحقيقة الباطل ، وتمييز الجزء الذي جاء من عند الله من الجزء الذي تم إقحامه في الدين نتيجة التحريفات البشرية .

وقوله : ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ يعني أننا لن نخوض معكم في خصامٍ حتى ولو تخاصمتم معنا ، وإننا سنظل متمسكين بمسلكنا الإيجابي من طرفٍ واحدٍ ، وإن اتخذتم إزاءنا موقفاً سلبياً ، إن مسئولية الداعي إنما تتمثل في إبلاغ رسالة الحق وحده ، أما ما عدا ذلك من أمورٍ ، فإنه يفوضها كلها إلى الله عز وجل . وإن اللجاج بالباطل وإثارة الجدل المغرض بغية إحراج أولئك الذين استجابت قلوبهم للحق ، عملية منكرة جائرة للغاية ، وإن أصحابها يعرضون أنفسهم لخطر أن يحل عليهم غضب الله ، والعذاب الشديد في الآخرة !!

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

وَالْمِيزَانَ : العدل والتسوية في الحقوق .

مُشْفِقُونَ مِنْهَا : خائفون منها مع اعتنائهم بها .

يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ : يجادلون أو يشكون فيه .

كما يكون هناك ميزان توزن به الأشياء المادية ، كذلك أنزل الله - سبحانه وتعالى- كتابه ميزاناً توزن به الحقائق المعنوية ، إن كتاب الله هو محك التمييز بين الحق والباطل ، فكل شيءٍ آخر ، كائناً ما كان ، يجب أن يتم فحصه واختباره بمعيار الكتاب الإلهي وليس بالعكس .

وإن الذين وقفوا من الرسول في عصره موقف المعارضة ، إنما كان خطؤهم يكمن في أنهم كانوا ينظرون إلى كتاب الله في ضوء الدين الذي تكوّن لديهم من تقاليدهم القومية الرائجة ، وما أثر عن أكابرهم من أقوالٍ وأفعالٍ ، بينما كان ينبغي لهم أن ينظروا إلى التقاليد القومية وأقوال الصالحين وأفعالهم المأثورة في ضوء كتاب الله ، وأن يأخذوا منها ما يتفق كتاب الله ، ويدعوا ما لا يتفق مع كتاب الله .

وإن المرء هو المسئول عن القيام بعملية النظر والفحص والاختبار هذه في العالم الراهن، وسيتم إنجاز هذه العملية في الآخرة من جانب الله - سبحانه وتعالى - على وجهٍ أكمل وأشمل، والعاقل هو الذي يزن نفسه قبل أن يوزن في يوم القيامة ؛ لأن الوزن يومئذٍ سيكون للقضاء الأخير ، وليس لإعطاء فرصة العمل !

﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

الله **لَطِيفٌ** : برٌّ رفيق بهم .

حَرْثَ الآخِرَةِ : ثوابها الموعود. أو العمل لها .

إن الحياة الدنيا لأجل الامتحان ، حيث يتاح لكل امرئٍ هنا من الأسباب والوسائل بقدر ما هو ضروري ولازم للامتحان، والآن فإن من يكون محباً للآخرة ، سيستعمل

أسباب الدنيا الراهنة لبناء الآخرة ، وسيلقى بالتالي جزاءه في الآخرة بشكل مضاعف.

وعلى نقيضٍ من ذلك فإن من يكون محباً للدنيا فسيعمل آخذاً في اعتباره مطالب الحياة الراهنة وحدها، ومثل هذا الشخص يمكنه بالطبع أن يجني ثمار جهده في العالم الحالي ، غير أنه سيظل محروماً في الآخرة كل الحرمان فإنه إذا لم يكن قد عمل شيئاً يذكر لأجل الآخرة ، فيكف يمكن أن يُعطى شيئاً من نعيم الآخرة ؟!

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

كَلِمَةُ الفَصْلِ : الحكم بتأخير العذاب للآخرة .

رَوْضَاتِ الجَنَّاتِ : محاسنها وملاذها أو أطيب بقاعها وأنزهها .

يَقْتَرِفْ حَسَنَةً : يكتسب طاعة .

إن شيئاً ما إذا لم يثبت من كتاب الله ، ولكن المرء يصر مع ذلك على كونه صواباً ، فمعنى ذلك أنه يتخذ من الآخرين أنداداً لله ، وأنه يعطي الآخرين دون الله الحق في أن يضعوا للناس دينهم!!

وهذا أمر بالغ الخطورة ، إذ الحقيقة أن تقرير أمر ما من أمور "الدين" ليس إلا من حق الله وحده ، وإن إعطاء هذا الحق لأحدٍ سواه هو الشرك الصريح . والشرك جريمة

لا تُغتفر عند الله على أية حال .

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ لقد تم تلقين الرسول - ﷺ - هذا القول عندما كانت قبيلته قريش تزرع شتى العقبات والعراقيل في طريق دعوته، وفي ظل ظروف قاسيةٍ إذا أبيتم قبول الدين الذي جئتكم به ، فلتكفوا أذاكم مراعاةً للقرابة ، ولو كان ثمة بيني وبينكم خلاف ديني،فلا يجرنكم هذا الخلاف إلى الانحطاط حتى عن مستوى الشرف والمروءة والأخلاق .. وهكذا فكأنما تم إشعار المعارضين لرسول الله بأسلوبٍ غير مباشرٍ ، بأنهم ليسوا معارضين فقط ، وإنما هم مجرمون أيضاً ، حيث إنهم يثبتون كون أنفسهم على خطأ وضلالٍ على المستوى الأخلاقي الذي له أهمية لا تنكر حتى في أنظارهم كذلك!

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

إن من سنة الله في هذا العالم أن يتجلى الحق هنا بصورة الحق ، ويظهر الباطل في مظهر الباطل ، فإن كانت هناك روح كاذبة ، فلن يصدر منها كلام صادق أبداً ، وهذا هو السر في أنه لا يمكن هنا لغير النبي أن يتكلم بلسان النبي ، فلو أن شخصاً جاء يزعم أنه نبي وما هو بنبي ، لاصطبغ كلامه بالضرورة بطابع النبي الكاذب ، إذْ ليس في مقدور أحدٍ ، كائناً من كان ، أن يتكلم بأسلوبِ النبي الصادق على نحوٍ مصطنع أبداً .

وقوله : ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ معناه : لو أنك افتريت على الله كذباً لختم على قلبك ، ولعاد لسانك عندئذٍ عاجزاً عن إصدار ذلك الكلام الرباني المقدس الذي

يمثل كلامك نموذجاً حياً له. والحقيقة هي أن كلام الرسول الأسمى دليل في نفسه على كونه رسول الله ، ولو أنه لم يكن رسول الله حقاً ، لما صدر مثل هذا الكلام الرفيع الأسمى من لسانه أبداً !

والذين يعارضون الحق ، لا يفعلون ذلك استجابةً لنداء قلوبهم ، وإنما يتصدون لمعارضته تلبيةً لدواعي العناد والتمرد ليس غير، ويصح القول أن أمثال هؤلاء يصيرون بذلك مجرمين أمام محكمة ضمائرهم نفسها ، ومن ثم فقد قامت عليهم حجة الله بالفعل ، ولم يعد لهم عذر ، اللهم إلا أن يبادروا بالتوبة والرجوع عما هم فيه من ضلالةٍ ، ويتضرعوا إلى الله تعالى سائلين إياه العفو والمغفرة لذنوبهم !!

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

لَبَغَوْا : لطغوا وتجبروا ، أو لتظالموا.

يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ : بتقدير حكيم محكم .

قَنَطُوا : يأسوا من نزوله

بَثَّ فِيهِمَا : فرق ونشر فيهما .

إن حياة البشر فوق الأرض تتوقف على الماء، ولكن الماء بكليته في قبضة الله – سبحانه وتعالى – فلو أن الله لم يتفضل بتوفير الماء ، لما استطاع الإنسان أن يحصل الماء أو يوجده من عند نفسه ، وهكذا فإن الرزق هو الآخر يتم تقسيمه من عند الله ، وفي هذا

التقسيم ينظر الله سبحانه إلى استعداد الإنسان وكفايته ، فيعطي كلاً بقدر كفايته واستعداده، ولو صار الناس يُعطون أكثر من أقدارهم واستعداداتهم ، لعادوا كلهم طغاةً بغاةً ، ولملئت الأرض بالتالي جوراً وفساداً وظلماً وعدواناً .

وإننا نشاهد أن فلاحاً حين يبذر الحبوب في مزرعته ، فهو يقدر أيضاً على جمع تلك الحبوب متى يشاء، وهذه المشاهدة الإنسانية قرينة تدلنا على أن الله سبحانه قادر كذلك على جمع مخلوقاته المبثوثة في أرجاء الوجود واستحضارها أمام محكمته ، ليتم تحديد مصائر العباد النهائية هناك على صعيدٍ واحدٍ ، فإن الخالق الذي كان بإمكانه أن يبث الخلائق بعد إيجادها ، كيف سيعود مستحيلاً عليه أن يجمعها ويستحضرها من جديدٍ بعد الموت ؟!

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾

بِمُعْجِزِينَ : بفائتين من العذاب بالهرب .

لقد أنشئ العالم الراهن تبعاً لقانون السببية ، فحين يتعرض المرء هنا لمصيبةٍ ما ، فإنها تكون من غير شكٍ نتيجة لبعض تقصيراته هو ، وقد يحدث أحياناً أن أحد الناس يرتكب خطأً أو تقصيراً ، ولكنه ينجو من سوء عاقبته .

وإنما تحدث هذه الوقائع في الدنيا لكي يعتبر بها الإنسان ، فإذا ما رأى أن الناس إنما ينالون ما ينالون بقدر عملهم ، فليتعظ بذلك لأن كل شخصٍ سيلقى جزاءه في الآخرة كذلك بحسب عمله كماً ونوعاً ....، وهكذا إذا وقع بصره على امرئ صدر منه تقصير ، ولكنه خلص من سوء مغبته ، فليأخذ من ذلك درساً مفاده أن الله غاية فى الرأفة والرحمة بعباده، فلو أن المرء رجع إليه تعالى ، لأنقذه برحمته الخاصة من عاقبة

تقصيراته .. وهكذا يصبح حال المرء إذا رسخ الإيمان في قلبه ، حيث إنه يأخذ يرى في أحداث الدنيا صور الآخرة !

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

الجَوَارِ : السفن الجارية .

كَالأَعْلامِ : كالجبال ، أو القصور العالية .

فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ : فيصرن ثوابت سواكن .

يُوبِقْهُنَّ : يهلكهن بالغرق أي أهلهن .

مَحِيصٍ : مهرب ومخلص من العذاب .

إن الإنسان يجري سفنه في البحر ، ويطيّر طائراته في الجو ، وإنما يمكنه أن يفعل ذلك لكون الله سبحانه قد جعل نواميس الطبيعة ملائمة لنا نحن البشر ، ولو أن نواميس الطبيعة لم تتواءم معنا ، لما جرت لنا سفينة في البحر ، ولا طارت لنا طائرة عبر الفضاء .

وكل واقعة من وقائع الحياة تنطوي على عبرةٍ ، ولكن الاعتبار بالوقائع يتطلب الصبر والشكر ، فالحياة لا تسير دوْماً على وتيرةٍ واحدةٍ ، بل لابد فيها من الشدة والألم حيناً ، ومن الراحة والعافية حيناً آخر . وفي آوان الشدة والألم يتعين على المرء أن يسمو فوق الأحداث والأحوال الظاهرية ، حتى يتمكن من رؤية الواقع من زاوية أخرى ، وهذا شيء لا يتأتى بدون الصبر .. وهكذا يقتضي الأمر عند الراحة والعافية أن ننظر

إلى الشيء الناتج - على ما يبدو ظاهراً - عن جهودنا ، على أنه شيء موهوب من عند الله تعالى ، وإنه لن يوفق لهذا إلا شخص تولد في داخله ذلك الشعور الأسمى الذي يقال له "الشكر" .

والجدال في الآيات هو أن المرء إذا نُبِّه إلى مكان العظة الإلهية في واقعةٍ ما ، فلا يلقي لذلك بالاً ، وإنما يحاول تفسير الواقعة بوجوهٍ أخرى مفتعلةٍ .

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

إن مَنْ يتوكل على الله من شأنه وحده أن يكون مريداً للآخرة ، فكلما يتقدم المرء نحو الآخرة ، تبدو له فوائد الدنيا مهددةً بالخطر ، وتتراءى له مصالحه العاجلة كأنما ينفلت زمامها من يديه ... إذن ، فليس هنالك من شيءٍ يثبت المرء على طريق الآخرة ، إلا أن يكون واثقاً بوعد الله ، ومتأكداً من أنه بقدر ما يفقد لأجل الله في هذه الدنيا ، يجد عوضه مضاعفاً عند ربه في تلك الدار الآخرة .

وكل نعمة من نعم الدنيا موقوتة سريعة الزوال ، أما نعم الآخرة فهي أبدية لا يعتريها زوال ولا فناء، وإنه لا حقيقة للنعمة الوقتية الفانية ، بالقياس إلى النعيم الأبدي الباقي !!

﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ

ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ
وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ
ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

وَالْفَوَاحِشَ : ما عظم قبحه من الذنوب .

وَأَمْرُهُمْ شُورَى : يتشاورون ويتراجعون فيه .

أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ : نالهم الظلم والعدوان .

يَنتَصِرُونَ : ينتقمون ممن ظلمهم ولا يعتدون .

وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ : يفسدون ، أو يتجبرون فيها .

إن الإيمان ، حين يفوز به أحد بمعناه الحقيقي ، لا يلبث أن يحدث في داخله ثورة ، ويجعل منه بالتالي رجلاً غير الرجل ، وإن الصفات المذكورة هنا ، المميزة لعباد الله المؤمنين ، كلها مما يتجلى في شخصية المؤمن على عقب الثورة الإيمانية .

فمثل هذا الشخص ينشأ في داخله مزاج الاعتراف بالحقيقة الواقعة ، حيث إنه يخضع لله معترفاً له تعالى بالألوهية ، ولنفسه هو بالعبودية ، ويعود مستحيلاً عليه إذا سمع منادياً يدعو إلى الله ألا يستجيب له ، وشعوره الإيماني يجعله مرهف الحس إزاء الصواب والغلط ، فهو يفعل ما ينبغي له أن يفعل ، ويجتنب ما لا ينبغي له أن يفعل .

واعترافه بوضعه الحقيقي - العبودية - يملأ نفسه تواضعاً ينتزع منه مزاج الغضب والظلم والبغي والعناد ، وهذا التواضع هو الذي يرغمه على أن يستفيد في الشئون الاجتماعية من مشورة الآخرين ، ويتحرز من الإقدام بناءً على رأيه الشخصي وحده . والصلة التي تربطه بغيره يكون قوامها النصح والمودة دون الاستبداد والاستغلال .

وإن شخصاً كهذا لا يعتدي على الآخرين على أية حالٍ ، أما إذا اتخذ ضد الآخرين خطوةً ما ، فإنما يتخذها كإجراءٍ دفاعي ، وبالقدر الذي يلزم لصد عدوانهم ، هذا إلى جانب كونه دائماً مستعداً ، حتى في أشد الظروف إثارةً واستفزازاً ، لكي يعفو عن الناس ، وينسى كل إساءاتهم السابقة .. وإن العبد المؤمن إذْ يفعل كل هذا ، فإنما يفعله مدفوعاً بعواطفه الإيمانية ، بيد أن الله تعالى يقدره ويعلي من شأنه بحيث يخلع عليه لقب صاحب العزم والهمة العالية ، ويدخله في جنانه الأبدية !

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

خَٰشِعِينَ : خاضعين متضائلين .

يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ : يسارقون النظر من شدة الخوف .

إن الهداية يتم إيضاحها في هذا العالم بواسطة الدليل ، وتلك هي سنة الله بالنسبة لهذا العالم . ومعنى ذلك أن الهداية لا يوفق لها في هذا العالم إلا من يثبت مقدرته على فهم الحديث بلغة الدليل ، وأن يكفيه كون أمر ما قد ثبت صدقه بواسطة الدليل ، لكي يخضع له ويذعن إليه . أما الذين لا يكفيهم الدليل مقنعاً وباعثاً على التسليم، فإنهم لن يهتدوا في هذا العالم أبداً . والذي لا يخضع للدليل في العالم الراهن ، يعرض نفسه لخطر أن يُقهر يوم القيامة على الخضوع أمام القوة والجبروت الإلهي ، غير أن الخضوع يومئذٍ لن يغني عن أحدٍ فتيلاً...، حيث إنه سيكون لتسجيل الذل والهوان على المرء وليس

لتأهيله للإنعام والتكريم!

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

نَكِيرٍ : إنكار لذنوبكم أو منكر لعذابكم .

فَرِحَ بِهَا : بطر لأجلها .

إن امتحان المرء الحقيقي في العالم الراهن هو أن يواجه كل وضع من أوضاع الحياة برد فعل صحيح ، ولكن الإنسان لا يفعل هذا ، حيث إنه حين يحصل على نجاح يصاب بنفسية الفخر والزهو والاعتزاز ، أما حين يتعرض لمصيبة ما ، يأخذ في إظهار المشاعر السلبية .

وهؤلاء هم الذين لا يوفقون إلى رد الفعل أو الاستجابة الصحيحة إزاء دعوة الحق، فإن مزاجهم غير الواقعي يجعلهم غير واقعيين بشأنها كذلك . والاستجابة الصحيحة لدعوة الحق تتمثل في أن يعترف المرء بصدقها من فوره ، غير أن المرء يتخذ منها قضية تتصل بكرامته ، وبالتالي تأخذه العزة بالإثم ، فيقول: إنني سأعود "صغيراً" أمام الداعي فيها لو آمنت بدعوته ، وهذا الإحساس يقف عائقاً دون قبوله الحق ، فيقابله بالإهمال واللامبالاة حرصاً على مصالحه الذاتية رغم تيقنه من صدقه!.

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

إن أساس الدين يقوم على التصور القائل بأن كل أنواع القدرة والاختيار في هذا الكون إنما هي بيد الله الواحد وحده ، وأنه لا يملك أحد سواه أي قدرةٍ ولاخيارٍ ، سواء أكان الأمر يتعلق بتدبير نظام السماء والأرض ، أم بإعطاء الإنسان الذرية ، فكل ما يناله المرء إنما يناله بعطاء الله ، وهو الذي ينتزع عطاءه منه متى يشاء .

وهذا الاعتقاد عن الله هو الذي يولد في نفس المرء ذلك الشعور الصحيح الذي يسمى " العبودية " ، كما أن هذا الاعتقاد عن الله هو الذي يرغم المرء على أن يتبع في حياته العملية المنهج الذي تضمنته الشريعة الإلهية!!

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

رُوحاً : قرآنا أو نبوة ، أو جبريل .

الإِيمَانُ : الشرائع التفصيلية التي لا تعلم إلا بالوحي .

إنه ليس من شأن إنسانٍ أن يكلم الله مواجهةً في العالم الراهن ؛ إذْ يحول عجز الإنسان وقصوره دون اتصالٍ مباشر كهذا ، ومن ثم فقد نزل على الأنبياء ما نزل من الكلام الإلهي بأسلوب غير مباشرٍ ، وللكلام غير المباشر هذا طرق متعددة ، نجد أمثلتها في حياة الأنبياء والرسل في صور شتى .

إن أحد العلماء أو المفكرين حين يؤلف كتاباً أو يعرض كلاماً ، فإننا نجد في ماضيه من صنوف الأسباب والعوامل ما يمكننا من تعليل بطولته العلمية والفكرية ، ولكن

أمر النبي مختلف عن هذا تماماً . فحياة النبي بعد النبوة تختلف عن حياته قبل النبوة كل الاختلاف ، وإذا كان كلام غير النبي في حاضره يبدو امتداداً لماضي حياته ، فإن الكلام الذي يجري على لسان النبي بعد النبوة يكون فريداً متميزاً بلفظه ومعناه عن كلامه قبل النبوة لدرجة أنه لا يمكن تفسير هذا التميز والاختلاف بماضي النبي ، وإن هذه لقرينة واضحة تدل على أن كلام النبي كلام إلهي ، وليس كلاماً بشرياً عادياً .

ومن مزايا النبي العربي - ﷺ- أن القرآن الذي نزل عليه ، والكلام الذي صدر من لسانه ، لا يزال كلاهما محفوظاً في صورته الأصلية حتى هذا اليوم ، وأي شخصٍ يعرف اللغة العربية ، لو تناولها بدراسة مقارنة ، لوجد بينهما فرقاً واضحاً جلياً حيث تبدو لغة الحديث النبوي لغة محمد بن عبد الله ﷺ بالبداهة ، ولغة القرآن المجيد لغة كلام الله - عز وجل - بالبداهة كذلك!!

سورة الزخرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝ ﴾

أُمّ الكِتَابِ : اللوح المحفوظ أو العلم الأزلي .

المراد بـ ﴿ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ هو اللوح المحفوظ عند الله . وقد أثبت الله في اللوح المحفوظ ذلك الدين الأصيل الذي يطلبه من البشر ، وهذا الدين الأصيل هو الذي نزل على الأنبياء والمرسلين بلغات شتى على اختلاف العصور ، وقد نزل على نبي آخر الزمان - ﷺ- باللغة العربية ، وهذا القرآن العربي هو وحده ممثل للدين الإلهي الحق في عالمنا الراهن ، وإنما المسئولية الآن ملقاة على عواتق حاملي القرآن الكريم أن يوصلوا رسالته إلى شعوب الأرض كافةً بنقله إلى سائر لغات العالم ، حتى يتمكن الآخرون بدورهم من أن يفهموه تماماً كما فهمه العرب . وكون القرآن متصفاً بالعلو ومليئاً بالحكمة دليل على كونه كتاباً إلهياً ، فلغة القرآن الكريم ومضامينه على مستوى العظمة الإلهية تماماً ، وهذا في حد ذاته برهان صارخ بأنه كتاب الله ، ولو أن القرآن كان كلاماً إنسانياً ، لم يكن ليبلغ ما هو عليه الآن من هذا المستوى غير العادي من العظمة والروعة والجلال!!

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ ﴾

أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ: أفنترك تذكيركم وإلزامكم الحجة بإنزال القرآن .

صَفْحاً : إعراضاً أو معرضين عنكم .

أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ؟: لكونكم مفرطين في الجهالة والضلالة لا نتركه .

وَكَمْ أَرْسَلْنَا : كثيراً أرسلنا.

فِي الأَوَّلِينَ : في الأمم السابقة .

بَطْشاً : قوة .

هناك عدد لا يحصى من الناس في العالم اليوم يردد أسماء الأنبياء السابقين بمنتهى التوقير والاحترام ، وهذا الوضع يبدو مثيراً للدهشة والاستغراب ، إذْ قارنّاه بما قوبل به أولئك الأنبياء - بما فيهم رسول الإسلام - من التحقير والاستهزاء من قبل معاصريهم !.

وليس مرجع ذلك إلى كون الناس في سالف الدهور همجيّين ، وكونهم اليوم في أعلى مراتب التحضر والمدنية ، وإنما يرجع السبب في ذلك إلى فارق الزمن ، فاليوم ، بعد أن بَعُد العهد ، ومضت قرون متطاولة ، قد صار اسم كل نبي من الأنبياء مقروناً بالأمجاد التاريخية ، مما يجعل عبدة الظواهر اليوم سرعان ما يتعرفون عليه بدون عوائق ، أما بالنسبة إلى معاصريه، فقد كان النبي يبدو في صورة إنسانٍ عاديٍ ليس غير ، وللتعرف عليه حينذاك - بوصفه نبياً- كان لابد من توفر بصرٍ ثاقب نفاذ إلى الحقيقة ، وليس من شكٍ في أن هذا البصر النفاذ - كان ولا يزال - أقل شيءٍ وُجد في هذا العالم!

ومهما كان سلوك المخاطبين لدعوة الحق خاطئاً أو حتى سيئاً ، فإن الداعي لا يبرح يواصل عمله الدعوي بدأبٍ ونشاطٍ ، إلى أن يحين الوقت الذي يقضي الله فيه من عنده بما يحسم الصراع الدائر بين دعاة الحق ومعارضيه .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾
وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ
﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾
لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ
ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

مَثَلُ الأَوَّلِينَ : صفتهم أو قصتهم العجيبة .

الأَرْضَ مَهْداً : فراشاً ممهداً للاستقرار عليها .

سُبُلاً : طرقا تسلكونها ، أو معايش .

مَاءً بِقَدَرٍ : بتقدير محكم أو بمقدار الحاجة .

فَأَنشَرْنَا بِهِ : فأحيينا بالماء .

خَلَقَ الأَزْوَاجَ : أوجد أصناف المخلوقات وأنواعها .

وَالأَنْعَامِ : ومن الأنعام وهو الإبل .

لِتَسْتَوُوا : لتستقروا ، وتستعلوا .

سَخَّرَ : ذلل .

إن أكثر الناس كانوا – ولا يزالون – في كل زمانٍ يؤمنون بأن خالق هذا الكون

ومالكه هو الله ، وهو الذي منحنا كل ما نحتاج إليه في الحياة الدنيا .

إن إيجاد الكون وتوفير الأسباب الضرورية للحياة فوق الأرض ، لعمل عظيم هائل لدرجة أنه لا يمكن لشخصٍ ما إن يعزوه إلى أحدٍ غير الله الواحد الأحد .

وهذا الإقرار يقضي بأن يكون الله هو موضع اهتمام الإنسان الأكبر ، وأن تصطبغ حياته بالصبغة الإلهية ، ولكن الإنسان يتخذ من أشياء أخرى مقصوده ، ويجعل من غير الله مركز اهتمامه وتوجهاته .

لقد كشف الله الحقيقة بواسطة أنبيائه ، ثم إنه تعالى أنشأ هذا الكون بحيث صار بكل موجوداته وظواهره تمثيلاً عملياً حياً للحقائق المعنوية .

ومن هذه الحقائق مثلاً أن الإنسان سيبعث بعد موته من جديدٍ ، ويتم تمثيل هذه الحقيقة مرةً بعد أخرى على مستوى النبات ، حيث يشاهد الإنسان كل عامٍ أن الأرض قد يبست ، ثم ينزل عليها المطر ، فإذا بها تعود مرةً أخرى ناضرة خضراء .

وفي هذا إشارة بليغة إلى أن الإنسان بدوره سوف يُبعث بعد موته من جديدٍ كذلك .

والميزة الثانية للعالم الراهن تكمن في كونه ملائماً للإنسان على نحوٍ مدهشٍ ، فقد صُنع كل شيءٍ هنا بحيث يتمكن الإنسان من استخدامه لتحقيق شتى أغراضه كما يشاء، ممّا يقتضي أن تستيقظ في نفس الإنسان عواطف الشكر والعرفان .

فينبغي له إذا استعمل شيئاً من مصنوعات الله أن يخضع قلبه لله ، وتفيض من لسانه كلمات الاعتراف والحمد والابتهال.

﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

مُقْرِنِينَ : مطيقين وغالبين أو ضابطين .

وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ : أخلصكم وآثركم بهم .

مَثَلاً : شبها ومماثلاً .

وَهُوَ كَظِيمٌ : مملوء في قلبه غيظا وغماً .

يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ : يربى في الزينة والنعمة (البنات) .

فِي الخِصَامِ : المخاصمة والجدال.

من صور الإشراك بالله أن يتخذ المرء من أحدٍ شريكاً في الذات الإلهية ، كالاعتقاد أن الملائكة بنات الله ، أو القول بأن المسيح ابن الله ، أو كنظرية وحدة الوجود التي تفسر الكون باعتبار كل موجوداته أجزاء من ذات الله .

إن كل العقائد من هذا النوع باطلة محضة لا تستند إلى أي دليل حقيقي مطلقاً .

والآية رقم (١٨) قد تضمنت وصفين جامعين يتميز بهما صنف الإناث عن صنف الرجال : أما أحدهما : فهو أن المرأة ميالة بطبعها إلى الزينة والتحلي . وأما الآخر: فيكمن في كونها لا تقدر عند الجدال والخصومة على التعبير عن موقفها بأسلوبٍ قوي مؤثرٍ . وهذا النقص الطبيعي في صنف الإناث حقيقة تفرض نفسها . ونظراً إلى هذه الحقيقة ذاتها أخذ الإسلام بمبدأ تقسيم الواجبات الاجتماعية بين الجنسين : إذْ ألقي على عاتق الرجل تبعة العمل خارج البيت ، بينما جعل المرأة مسئولةً عن تدبير شئون البيت الداخلية!.

﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

يَخْرُصُونَ : يكذبون فيما قالوه .

عَلَىٰٓ أُمَّةٍ : على دين وطريقة تؤم وتقصد .

قَالَ مُتْرَفُوهَا : متنعموها المنغمسون في شهواتهم .

إن المرء لا يعدم الفرص لأي عملٍ يريد ممارسته في العالم الراهن ؛ مما يوقع كثيراً من الناس في سوء فهمٍ ، مؤداه أن كل ما يفعلونه هو الصواب عينه ، وأنهم لو كانوا على

خطأ، لم يحالفهم النجاح في ترويج طريقتهم، ومثل هذه الأقاويل يرددها غالباً أولئك الذين ينتمون إلى طبقة "المترفين".

غير أن هذا سوء فهمٍ خطير جداً، فإن رواج طريقةٍ ما في رحاب هذا العالم إنما يرجع إلى حرية الامتحان المتاحة هنا للجميع، للصالحين والطالحين على سواء، وحيث إن فترة الامتحان ستكون قد انتهت في عالم الآخرة، فلن يجد أحد هناك هذه الفرصة بطبيعة الحال، وأشد مواجهةٍ أو مقاومةٍ ظل يتعرض لها دين الأنبياء والرسل على اختلاف العصور هي التي كانت بينه وبين دين الآباء الموروث، إذْ إن "الآباء" يكونون قد تحولوا عند الأمم إلى "أكابر"، ويبدو لهم نبي العصر - بالقياس إليهم - من أصاغر الناس؛ ولهذا السبب يعود مستحيلاً على القوم أن يختاروا دين أحد الصغار متخلين عن دين الكبار، غير أن تكذيب أولئك "الصغار" هو الذي جرّ على الشعوب الهالكة ذلك العذاب الذي كان في حسبانها أنها لن تتعرض له إلا بتكذيب "الكبار"!!

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

إِنَّنِي بَرَاءٌ : بريء.

فَطَرَنِي : خلقني وأبدعني.

كَلِمَةً بَاقِيَةً : كلمة التوحيد، أو البراءة.

فِي عَقِبِهِ : ذريته إلى يوم القيامة.

إن كلمة إبراهيم المذكورة هنا ، والتي تضمنت إعلان التوحيد الخالص والتبرؤ المطلق من عبادة غير الله ، كانت قد صدرت من لسانه ﷺ في المرحلة الأخيرة من حياته الدعوية ، ولم تكن هذه الكلمة مجموعة من بعض الحروف والألفاظ ، وإنما كانت هي خلاصة تاريخ حافل عظيم ، فحين بلغ سيدنا إبراهيم سن التمييز اكتشف أن إله الإنسان إله واحد ليس غير ، وأن كل الآلهة سواه باطلة محضة لا أصل لها ولا حقيقة. ولقد بنى ﷺ حياته على أساسٍ من هذه العقيدة ، كما نهض يدعو إليها أفراد أسرته وقومه، وما برح ﷺ قائماً بذلك ، باذلاً جهد طاقته بدأبٍ ونشاطٍ في سبيل دعوته ، حتى غدا كونه موحّداً هو الطابع المميز له وهوّيته التي راح يعرف بها في بيئته، وبعد ممارسة حياةٍ طويلةٍ كهذه ، عندما قال ﷺ الكلمة المذكورة ، وهو يغادر وطنه مهاجراً ، فكان من الطبيعي أن تعود كلمته تلك "كلمةً باقيةً " ، فإنها كانت مرتبطةً بحادثةٍ تتجدد ذكراها في النفوس كلما ذُكر إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - .

وقد كان المفروض أن تكون سنة إبراهيم العظيمة هذه معلماً أو نبراساً مضيئاً يهتدي به ذريته من بعده إلى طريق الحق ، غير أن العكوف على متاع الدنيا ، جعل من جاء في عقبه غافلين عن هذا ، لدرجة أنه لما أتاهم عبد من عباد الله في العهد الأخير يذكرهم بما نسوه من درس ماضيهم ، لم يلبثوا أن تلقوه بالإنكار والتكذيب !

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ

وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴿٣٥﴾

مِنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ : من إحدى القريتين مكة والطائف .

سُخۡرِيّاً : مسخراً في العمل ، مستخدماً فيه .

أُمَّةً وَاحِدَةً : مطبقة على الكفر حبا للدنيا .

وَمَعَارِجَ : مصاعد ومراقي ودرجا من فضة

يَظۡهَرُونَ : يصعدون ويرتقون .

وَزُخۡرُفاً : ذهبا ، أو زينة مزوقة .

لَّمَّا مَتَاعُ : إلا متاع .

لما ظهر رسول الإسلام في مكة ، كان يبدو لمن حوله أنه إنسان عادي ، فتساءل الناس قائلين : إذا كان الله يريد أن يبعث مندوباً له لأجل هدايتنا ، فهلاّ وقع اختياره لهذا الغرض على عظيمٍ من عظماء هاتين المدينتين المركزيتين (مكة والطائف) من جزيرة العرب ؟! غير أن هذا الاعتراض إنما كان نابعاً من قصور نظرهم ، فالإنسان لا يكاد يرى إلا الحاضر الماثل أمامه وحده ، بينما كان التعرف على عظمة رسول الإسلام يتطلب عيناً تبصر المستقبل ، وبما أن القوم لم يكونوا يمتلكون هذا البصر البعيد المدى ، عجزوا بالتالي عن تفهم عظمة رسول الإسلام ﷺ .

وكان السبب في استصغار الناس لرسول الإسلام يرجع إلى أن حياته - عليه الصلاة والسلام - كانت خاليةً من بريق الأشياء المادية وبهرجها ، ولكن الأشياء المادية لا أهمية لها عند الله عز وجل . والواقع أن هذه الأشياء لمن زهادة القيمة والهوان على الله بحيث لو شاء تعالى لأعطى الناس كلهم أكواماً هائلةً من الذهب والفضة ، إلا أنه تعالى لم يفعل ذلك ، لأن الناس كانوا سيعودون بعدئذٍ مشغولين بهذه الأشياء وحدها ،

ولا يستطيعون الانطلاق من أسرها حتى يدركوا الحقيقة في صورتها المجردة الخالصة !

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

وَمَن يَعْشُ : من يتعام ويعرض ويتغافل .

نُقَيِّضْ لَهُ : نسبب ، أو نتح له .

لَهُ قَرِينٌ : مصاحب له لا يفارقه .

الإعراض عن النصيحة (الذِّكر) هو أن تتجلى أمامه الحقيقة الإلهية مصحوبةً بأدلةٍ لا يستطيع دحضها أو إنكارها ، إلا أنه يقابلها بالإهمال واللامبالاة حفاظاً على مصالحه الذاتية! ومثل هذا الشخص ربما يلجأ إلى إثارة صنوف الأباطيل ضدها تبريراً لموقفه ، وهذا هو الوقت الذي يجد فيه الشيطان فرصته لكي يتسلّط عليه ، ويسوق عقله في اتجاهٍ خاطئٍ ، فلا يزال الشيطان يلهيه بالتأويلات المفترضة في محاولة إقناعه بأنه على الحق والصواب ، وإنما ينكشف هذا الخداع حين يُفجأ المرء بالموت ، فيُقام بين يدي ربه للحساب الأخير !

وفي الحياة الدنيا طالما يتخذ المرء قرينه وصديقه ممن يمالئه على كذبه وانحرافه ، ولكنه سوف يلعن كل القرناء والأصدقاء من هذا النوع في الآخرة ، ويود لو كانت بينه وبينهم مسافة شاسعة لدرجة أنه لم ير وجه أحدٍ منهم ولا سمع صوته أبداً !!

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا

نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

لو أن ذا بصرٍ أغمض عينيه ، لما أمكنه أن يرى شيئاً ، ولو أن ذا سَمْعٍ سدّ أذنيه ، لما استطاع أن يسمع شيئاً...، وهكذا مَنْ لا يستعمل عقله ، ويأخذ في السير على هواه معطلاً عقله ، فإن إفهام شخصٍ كهذا وتذكيره لن يجدي فتيلاً ، حيث إن عملية الفهم والتذكر إنما تتم بواسطة العقل ، وهذا قد عطّل عقله وغطّاه تحت ستارٍ - من شهواته ورغباته - كثيفٍ، على أن المدعو ، مهما يكن سلوكه وموقفه ، فإن الداعي مطالب على كل حالٍ ، بمواصلة نشاطه الدعوي بجدّ ، وإخلاص إلى أن يبلغ حد الإعذار ، وإلزام الحجة .

ومع أن الداعي إلى الحق يكون إنساناً ، إلا أن أمر الحق هو أمر الله ، وقد يحسب المرء، وهو ينكر داعية الحق ، أنه قد نجا من ضربة الحق ، بينما هو لا يلبث أن يقع في الوقت نفسه تحت ضربة الله وسخطه .. وسيرتجف فؤاد المرء بشدةٍ ويشعر بقشعريرةٍ تدب في أوصاله ، وهو يقابل داعي الحق بالإعراض والإهمال ، فيما إذا هو أدرك هذا السر حق الإدراك ، لأنه سيعلم عندئذٍ أن إهمال داعية الحق إهمال للحق نفسه ، وأن إهمال الحق هو إهمال لله - عز وجل!!

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ

ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

عرض موسى دعوة التوحيد على فرعون ، مبرهناً على صدقه بمعجزة العصا واليد، وحين رأى فرعون وملؤه ذلك راحوا يضحكون منه ساخرين ، وكان السبب في ذلك أنهم لم يروا موسى عليه السلام في دعوته ، وإنما رأوه في شخصه ، حيث بدا لهم ظاهراً أن شخصية موسى أضأل شأناً من شخصياتهم هم ، كما ظنوا بالنسبة إلى معجزته أنها سحرٍ ، وأن بإمكان سحرة الدولة أن يأتوا بسحرٍ مثله!! وهذا ما حدث - ولا يزال - مع دعوة الحق دائماً ، فالناس يرفضون الدعوة بالنظر إلى شخصية الداعي ، ويُعرضون عن الآيات بقياسها على الوقائع العادية المألوفة.

ولما أبى فرعون وأصحابه التسليم بما جاء به موسى ، أصابهم الله بشتى ألوان العقوبات تحذيراً لهم وتنبيهاً ، حتى يرجعوا إلى الله تعالى، وقد جاء ذكر هذه العقوبات التحذيرية بالتفصيل في سورة الأعراف (١٣٣-١٣٥) ، وكانت كل عقوبةٍ تنزل بدعاء موسى ثم تنتهي بدعائه كذلك ، وقد كان ذلك سبباً إضافياً من شأنه أن يبعثهم على الرجوع والإنابة، ولكنهم ما رجعوا ولا أنابوا ....، والحقيقة هي أن الذين لا يؤمنون بالدليل والبرهان ، فإنهم لا يؤمنون بالتحذير والبلاء كذلك ، اللهم إلا أن يحاصرهم نهائياً عذاب الآخرة الذي لا يُرد !!

﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ

فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

هُوَ مَهِينٌ : ضعيف حقير .

يُبِينُ : يفصح الكلام للثغة في لسانه .

مُقْتَرِنِينَ : مقرونين به يصدقونه .

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ : وجدهم خفاف العقول .

آسَفُونَا : أغضبونا أشد الغضب بأعمالهم .

سَلَفاً : قدوة للكفار في استحقاق العقاب .

وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ : عظة وعبرة للكفار بعدهم .

إن منكري الحق إنما قابلوا الحق بالإنكار دوماً ناظرين إلى ضآلة شأن الداعي إليه ومكانته العادية ، ففي مصر كان فرعون حاكم البلاد الأوحد ، وكانت الأنهار المتفرعة من النيل تجري بحسب أمره ومشيئته ، هذا إلى جانب كون كل أسباب العزة والسلطان والأبّهة متوفرةً لديه ، بينما كان موسى يبدو إنساناً عادياً لا يملك جاهاً ولا أبهة سلطانٍ، وبالإشارة إلى هذا الفارق المظهري ذاته استغفل فرعون قومه وأغواهم ، فما لبثوا أن مالؤوه على إنكار موسى وتكذيبه .

ويظهر أن قوم فرعون إنما وقفوا إلى جانبه وأطاعوه بناءً على مثل هذه الأدلة (السطحية) ، ولكن الحقيقة هي أن السبب في ذلك كان يرجع إلى ضعف القوم أنفسهم، وليس إلى قوة أدلة فرعون ، فاتباع موسى في ذلك الوقت كان معناه تحطيم خريطة الحياة الجاهزة ، وقليل جداً هم الذين يتجرؤون على مناصرة الحق بتحطيم خريطة حياتهم الجاهزة...، ومن ثم فحين تعرض فرعون لعذاب الله جزاء إنكار الحق، لم يلبث قومه بدورهم أن صاروا معه ضحايا العذاب الإلهي.

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

مِنْهُ يَصِدُّونَ : من أجله يضجون ويصيحون فرحًا وجذلاً .

قَوْمٌ خَصِمُونَ : لد شداد الخصومة بالباطل .

مَثَلاً : آية وعبرة عجيبة كالمثل السائر.

لَجَعَلْنَا مِنكُم : بدلكم . أو لولدنا منكم .

وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ :يعلم قربها بنزوله ﷺ .

فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا :فلا تشكن في قيامها .

بإمكان المرء في عالمنا الراهن أن يلوي مقصود أي كلامٍ عن استقامته ، ويستخرج منه عكس مراده الحقيقي . ومن أمثلة ذلك أن رسول الله - ﷺ- قال ذات يومٍ ما معناه: "ليس أحد يُعبد من دون الله فيه خير" ، فاعترض المعارضون عليه قائلين : إن هؤلاء النصارى يعبدون المسيح ، إذن ، أفليس في المسيح هو الآخر خير" ؟!

ومن الواضح أن هذا لم يكن إلا اعتراضاً فارغاً وشبهةً مفتعلةً ؛ فإن قول الرسول ﷺ كان موجهاً أساساً إلى العابد دون المعبود ، وحتى لو اعتبرناه موجهاً إلى المعبود ، فإنما كان المراد به صراحةً هو الذي يرضى بتأليه نفسه ، ولكن المرء إذا لم يأخذ حديثاً ما بمأخذه المستقيم ، فإنه يستطيع أن يعكس مفهومه ، مهما كان الحديث في حد ذاته

صحيحاً مستقيم المعنى .

لقد كانت شخصية عيسى عليه السلام من بعض النواحي مشابهةً للملائكة ، ومن هنا ألهه الكثيرون من أتباعه وعبدوه ، غير أن خلق عيسى الملكوتي كان مثالاً على قدرة الله وليس مثالاً على قدرة عيسى الذاتية. والحقيقة أن عملية خلقٍ كهذه ليست بصعبةٍ على الله إطلاقاً ، إذْ لو شاء تعالى لجعل من سكان الأرض كافة ملائكةً ، ولكن هؤلاء الملائكة سيظلون ؛ على أية حالٍ ملائكةً ، ولن يعودوا أبداً آلهةً يُعبدون!!

وقد أيد الله عيسى بمعجزات وخوارق عديدة ، منها أنه كان يُحيي الموتى ، وكان ينفخ في الطين هيئة طير ، فتدب فيه الروح والحياة والحركة ... إلخ ، وهذا كله كان في الأصل آيةً إلهيةً أظهرت لتدل على إمكان الحياة بعد الموت ، ولكن الناس بدل أن يستلهموا منها الدرس الحقيقي المطلوب ، راحوا يعبدون المسيح عليه السلام باعتباره فوق البشر.. وهكذا تتجلى الآيات الإلهية دوْماً في صور شتى ، وإنها لتفيدنا عبراً هامة جداً فيما لو اعتبرناها آية ، أما لو تم اعتبارها شيئاً آخر غير الآية ، فإنها تصبح سببا لوقوع البشر في الضلالة والانحراف . والشيطان يحاول دائماً أن يحول بين المرء وبين اعتباره واتعاظه بالآيات الإلهية .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾

فَوَيْلٌ : هلاك أو حسرة أو شدة عذاب .

المراد بـ "الحكمة" هنا روح الدين .. وأما "الصراط المستقيم" فالمقصود منه الشيء نفسه الذي أطلق عليه ضمن هذه الآيات "تقوى الله، وعبادته وطاعة رسوله" . وهذا هو لُبّ الدين وجوهره، وقد انتهى الأمر باليهود في القرون المتأخرة إلى أنهم فقدوا روح الدين، واستخرجوا عن طريق التفريع والتنقير في أصول الدين مسائل جديدة لا تحصى، ومازالت هذه المسائل المستحدثة موجودة في كتب اليهود حتى يوم الناس هذا . وبسبب هذه الإضافات المزعومة ذاتها، انقسم القوم إلى طوائف شتى، حيث أكد البعض على مسألة خلافيةٍ معينةٍ، بينما ركز بعضهم على مسألة خلافية أخرى، وهكذا تحول الدين الواحد عندهم إلى أديان متعددة. ولقد جاء سيدنا المسيح عليه السلام لكي يلفت انتباه اليهود إلى أن الأهمية في الدين إنما هي للروح وحده دون الشكليات والمظاهر، وأن الشيء الذي يتوقف عليه خلاص المرء يتمثل في اتباع الدين المنزل من عند الله، وليس في اتباع الدين الذي وضعتموه من تلقاء أنفسكم !!

وقد قرر سيدنا المسيح أن جوهر الدين هو أن تخافوا الله ، وألا تعبدوا إلا إياه، ولا تشركوا بعبادته أحداً ، وأن تتخذوا من الرسول قدوةً في شئون الحياة كلها. أما ما استحدثتم من مسائل لا تحصى بتنطّعكم وتفريعاتكم ، فإنما هي إضافاتكم أنتم ، لا تمت إلى صميم الدين الإلهي بصلةٍ ، وإنما عليكم أن تستمسكوا بروح الدين الأصيل وتتخلوا عن هذه الإضافات. وأحاديث سيدنا المسيح عليه السلام هذه مازالت موجودةً في الأناجيل حتى اليوم!.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا

تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

هَلْ يَنظُرُونَ : هل ينتظرون .

بَغْتَةً : فجأة .

الأَخِلاَّءُ : الأحباء في غير ذات الله .

تُحْبَرُونَ : تسرون سروراً ظاهر الأثر .

وَأَكْوَابٍ : أقداح لا عري لها ولا خراطيم .

حين يتبنى المرء في الدنيا موقفاً معادياً للحق ، فإنه يجد من حوله أصدقاء كثيرين يوالونه ويشدون من أزره،واعتماداً على أولئك الأصدقاء لا يفتأ المرء يزداد تعنتاً وعناداً وطغياناً،ولكن كل هؤلاء الأصدقاء لن يلبثوا أن يتخلوا عنه ويخذلوه يوم القيامة،وستبقى يومئذٍ صداقة واحدة فقط،وهي التي قامت على أساسٍ من خوف الله وتقواه .

إن حياة العبودية للحق في الدنيا محفوفة بألوان شتى من الأخطار والمحاذير ، بيد أن جزاءها في الآخرة رائع بحيث سيفوز المرء هناك بالنجاة والأمان المطلق الدائم من كل أنواع الحزن والخوف والألم . والذين يثقون بهذا الوعد الإلهي أتم الثقة ، هم وحدهم يستطيعون الثبات على جادة الحق في العالم الراهن، وسيعطيهم الله في الآخرة كل ما كانوا قد فقدوه في الحياة الدنيا لأجل الله - سبحانه وتعالى!

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ

قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ : لا يخفف عنهم .

مُبْلِسُونَ : ساكنون أو حزينون من شدة اليأس .

لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ : ليمتنا حتى نخلص من هذا العذاب .

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً : بل أحكموا كيداً له ﷺ .

وَنَجْوَاهُم : تناجيهم فيما بينهم .

الأمل يخفف الإحساس بالألم دائماً ، فإذا أصيب المرء بألم ما ، وهو يأمل أن هذا الألم سينتهي يوماً ، تولدت في داخله مقدرة التحمل لذلك ، غير أن آلام جهنم هي آلام لن يكون للإنسان بارقة أملٍ في الخروج منها ، أما استغاثة أهل جهنم بالملائكة ، فإنما يكون ذلك بمثابة صرخةٍ اضطراريةٍ تعبر عن غاية عجزهم وضعفهم ، وإلا فالمستغيثون بأنفسهم سيكونون على علمٍ بأن الله قد قضى بين العباد قضاء مبرماً ، وأنه لم يعد الآن إلى تغييره أو تحويله عنهم من سبيل !!

ودخول أحد الناس إلى جهنم إنما يكون جزاءً وفاقاً لتقصيره هو، لقد زوّد الله الإنسان بقوة فهمٍ وتمييزٍ على أرفع مستوىً ، وفتح أمامه سبل الحق والرشاد ، ولكن الإنسان أعرض عن الحق رغم علمه ومعرفته به ، ووصل به التمرد والعناد إلى حد أن تصدى لإنهاء حياة الداعي إلى الحق وتدميره ، فما عساه أن يكون مصيره ، سوى أن يُلقى به في عذابٍ دائمٍ لا يزول !؟!

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ۝ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝ ﴾

يَخُوضُوا : يدخلوا مداخل الباطل .

﴿ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ۝ ﴾ هذه الجملة تدل على أن العقيدة التي يجهر بها الرسول ، يعتبرها هي عين الحقيقة ، وأنه ليس واقفاً على أرضية التقليد القومي، والعصبية الطائفية ، وإنما هو مرتكز على أرضية الدليل والبرهان ، ولقد جاء يدعو إلى هذه العقيدة لأن كل الحقائق تؤيدها وتشهد بصدقها . ومن هذا يتضح أن أمر الداعي يكون أمر الشعور بالحقيقة ، وليس أمر التقليد القومي . ومصنع الله الإبداعي ، هذا الذي يمتد أمامنا في صورة الأرض والسماء ، يدلنا على أن إلهه ليس إلا إلهاً واحداً ، إن الكون بنظامه المحكم وتناسقه البديع ينفي أن يكون إلهه أكثر من إلهٍ واحدٍ .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ ﴾

فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ : هو معبود في السماء.

وَتَبَارَكَ الَّذِي : تعالى أو تكاثر خيره وإحسانه .

إن الأرض والسماء تؤديان وظائفهما في غاية الانسجام والتوافق ، حيث يوجد في كلا العالمين - العلوي والسفلي - حكمة واحدة وعلم واحدة على أتم درجةٍ وأكملها . وهذا دليل ناطق بأن ليس هناك إلا إله واحد هو الذي يدبر وحده شئون كلٍ من

الأرض والسماء ، ويقوم وحده بإدارة نظامها العجيب المدهش . والكون يعرفنا بقدرة الله الهائلة ورحمته الواسعة في آنٍ معاً ، وهذا يقتضي أن يكون المرء خائفاً من الله أشد الخوف ، وراجياً فضله تعالى أقوى الرجاء ، والذين يقيمون الدليل على هذا الشعور وهذا السلوك هم وحدهم أولئك الذين إذا لقوا ربهم أغدق عليهم شآبيب رحمته إغداقاً !.

﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ : فكيف يصرفون عن عبادته تعالى .

وَقِيلِهِ : وعنده علم قول الرسول ﷺ .

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ : فأعرض عنهم .

سَلامٌ : أمري تسلم ومتاركه لكم .

إن الشفاعة التي يتقدم بها الأنبياء ودعاة الحق يوم القيامة ليست في الحقيقة شفاعةً ، وإنما هي شهادة ، وهي تعني أن يشهد المرء بشيء هو يعلمه شخصياً ، فحين تُعرض قضايا الناس في محكمة الآخرة ، فإن الله سبحانه رغم إحاطة علمه بكل شيء ، سيقيم من بين أهل المحشر - لمزيد التوكيد والتوثيق - عباده الذين عاصروا الأمم والشعوب، واضطلعوا بإبلاغ رسالة الحق إليها ، فآمن بعضهم وكفر بعضهم ، ووقف قوم إلى جانب الحق ، بينما تصدى آخرون لمحاربة الحق . هذه التجربة التي عاشها أولئك الصالحون الأبرار سيحكونها أمام الله ، وسيكون ذلك تماماً كما يدلي أحد الشهود ببيانٍ صادقٍ أمام المحكمة في ضوء مشاهدته الذاتية .

هذا ، ولن يكون في مقدورِ أحد يوم القيامة أن يقوم شفيعاً لأحدٍ من المجرمين ، بحيث يتوخى بشفاعته تغيير ذلك الحكم الإلهي الذي كان من المقرر صدوره في حقه بموجب العدل والواقع .. كلا .. فالله سبحانه أرفع بكثيرٍ من أن يحاول شخص في حضرته محاولة كهذه ، وعمل الدعوة إلى الحق عمل كله نصيحة ، حتى في المرحلة النهائية ، إذْ يكون الداعي قد انكشف عليه بوضوحٍ أن الناس لن يؤمنوا بدعوته على أية حالٍ ، فإنه لا يلبث - مع ذلك - أن يتوجه إلى ربه يدعو للناس ، ولا يزال يتمنى لهم الخير صابراً على أذاهم وإساءتهم !!

سورة الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣
فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم
مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ ﴾

لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ : ليلة القدر من شهر رمضان .

فِيهَا يُفْرَقُ : يفصل ويبين .

أَمْرٍ حَكِيمٍ : محكم لا مبرم أو متلبس بالحكمة .

إن كون القرآن " كتاباً مبيناً " دليل في نفسه على أنه كتاب الله ، ومنذ أن كان القرآن كتاب الله، فإن أخباره ونبوءاته كلها قطعية، لا ولن يتطرق إليها شك أوْ ريب، وقد بدأ نزول القرآن الكريم في ليلةٍ خاصةٍ، وهي ليلة لإصدار القضايا أوْ القرارات الإلهية الهامة . إن تنزيل القرآن الكريم لم يكن حادثاً يسيراً، وإنما كان ذلك قراراً بظهور تاريخٍ جديدٍ، وللسبب ذاته تم إنزاله في ليلة الفصل والقضاء، وقد كان القرآن في المقام الأول إعلاناً عن الحق، حيث إنه قد جاء لإبطال الشرك وإحقاق التوحيد، ثم إنه كان يرمي - على أساسٍ من ذلك - إلى التفريق بين الشعوب والأمم، ولقد تم هذا التفريق على صعيد الواقع العملي المعاش، حتى انتهى - ولأول مرةٍ في تاريخ البشرية - عصر الشرك وبدأ عصر التوحيد !

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝ ﴾

فَارْتَقِبْ :انتظر بهؤلاء الشاكين .

بِدُخَانٍ : كناية عن إصابتهم بالجدب والمجاعة .

يَغْشَى النَّاسَ : يشملهم ويحيط بهم .

أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى: كيف يتذكرون .

مُعَلَّمٌ :يعلمه بشر .

يَوْمَ نَبْطِشُ : يوم نأخذ بشدة وعنف (يوم بدر أو يوم القيامة) .

لم تكن قضية وجود الله- تلك التي كان هؤلاء المخاطبون للقرآن في شك منها يلعبون - إنما كانت قضية توحيد الله ، إذْ إنهم كانوا متمسكين عملياً بدين أكابرهم، مع التسليم - على وجه التقليد الأعمى - بوجود الله خالق الكون . ومع أن القرآن أقام الدليل ساطعاً على بطلان أكابرهم أولئك، إلا أنهم لم يرضوا بالإذعان إلى ذلك، فقد كانوا يجدون أنفسهم عاجزين عن مقاومة دليل القرآن، وكان محو عظمة الأكابر من أذهانهم يبدو لهم هو الآخر أمراً خارجاً عن مقدورهم، ولم يلبث هذا المطلب المزدوج أن أوقعهم في دوامة الشك والارتياب، وقد بدا لهم الداعي إلى الله أهون وأقل شأناً من أن يتركوا أكابرهم المزعومين لأجل قوله !

والذين لا يؤمنون بالحق عن طريق النصح والتذكير، يعرضون أنفسهم لخطر أن يتم

إجبارهم على التسليم به عن طريق العذاب ...، وعندئذ سيبادرون بالاعتراف والتسليم، غير أن الاعتراف وقتئذٍ لن يجدي عنهم شيئاً !!

﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ ﴾

فَتَنَّا :ابتلينا وامتحنا .

أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ : سلموا إلى عباد الله .

لاَّ تعلوا: لاتتكبروا ، أو لا تفتروا .

بِسُلْطَانٍ : حجة وبرهان على صدقي .

وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي : استجرت به والتجأت إليه .

تَرْجُمُونِ : تؤذوني ، أو تقتلوني بالحجارة .

إن قيام دعوة الحق معناه ظهور القوة الإلهية في ثوب الدليل والبرهان ، وهكذا يعلن الله سبحانه، وهو لا يزال في الغيب، عن أمره على مستوى البشر ، ومن هنا تعود دعوة الحق بالنسبة إلى المخاطبين فتنةً وابتلاءً . وإن العارفين بالحقيقة سرعان ما يتعرفون عليها ويأخذون أنفسهم بالخضوع والإذعان لها ، أما الذين أبصارهم متعلقة بالظواهر، فلا يلبثون أن يعرضوا عنها باعتبارها غير هامة .

غير أن المرء بعد رفضه لدعوة الحق لن ينجو من وخيم عاقبته . وفي عصر الرسول تبدأ هذه العاقبة الوخيمة في الحياة الراهنة ، كما حدث - مثلاً - مع فرعون مصر في زمن موسى ﷺ أما في عصر ما بعد النبوة فسيلقى الطغاة كهؤلاء مصيرهم المحتوم

في أعقاب الموت ، ويُلاحظ - إلى جانب ذلك - أن الرسول يكون مؤيداً بنصرةٍ من الله خاصةٍ؛ لا يمكن معها لأحدٍ أن ينجح في إهلاكه وتدميره .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً : سر ليلاً بعبادي .

إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ : يتبعكم فرعون وجنوده .

الْبَحْرَ رَهْواً : ساكناً ، أو منفرجا مفتوحا .

جُندٌ : جماعة .

وَنَعْمَةٍ : تنعم أو نضارة عيش ولذاذته .

فَاكِهِينَ : ناعمين متفكهين .

مُنظَرِينَ : ممهلين بالعذاب إلى وقت آخر .

لقد قامت الحجة على فرعون وقومه بعد جهود موسى التبليغية التي استمرت سنين طوال ، وقد ثبت الآن أنهم مجرمون ، وعندئذ أُمر سيدنا موسى بالخروج مع قومه (بني إسرائيل) من مصر ليلاً ، فسار موسى حتى وصل إلى شاطئ البحر، فانحسرت مياهه من الجانبين عن طريقٍ يابسٍ مكّنه من الاجتياز نحو الشاطئ الآخر .

وكان فرعون قد انطلق بجنوده يتعقب موسى وبني إسرائيل ، فلما رأى الطريق اليابس وسط البحر، خُيّل إليه أن بإمكانه أن يجتاز عبره تماماً كما اجتاز موسى، ولكن

طريق البحر لم يكن طريقاً للمرور بالمعنى الظاهر لغوياً، وإنما كان ذلك أمر الله، وقد كان أمر الله إذ ذاك يحتّم النجاة لموسى ومن معه والهلاك لفرعون ومن معه ، ومن ثم فلما يكد يدخل فرعون وجنوده إلى البحر، حتى التقى الماء من كلا الجانبين، وبالتالي هلكوا عن آخرهم غرقاً، إن من يُرزق نصيباً من نعم الدنيا طالما يعتبرها ملكه الذاتي، على حين أنها ليست ملكاً ذاتياً لأحد، وإنما هو الله الذي يعطيها لمن يشاء، ثم ينزعها من يده متى يشاء لكي يخولها إلى الآخرين! .

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

كَانَ عَالِياً : متكبرا جبارا .

العَالَمِينَ : عالمي زمانهم .

فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ : اختبار ظاهر أو نعمة ظاهرة .

إن سقوط أمةٍ وصعود أخرى في هذا العالم لا يحدث على وجه المصادفة ، وليس معنى ذلك أن أمةً ظالمةً ما غلبت أمةً أخرى بإجراءاتها العدوانية الغاشمة ، وإنما يتم هذا كله تبعاً لحكم الله وحده ، فالله تعالى هو الذي يقضي بالغلبة لبعض الخلق وبالهزيمة لبعضهم الآخر، وكل قضاء يصدره تعالى فإنما يصدره بناء على علمه الكلي الشامل، وليس على نحوٍ جزافي .

وصدور القضاء حسب العلم الإلهي معناه: أن كل ما يحدث إنما يحدث بموجب الأهلية أوْ الاستحقاق ، حيث ينظر الله إلى الشعوب في ضوء علمه الكلي، فيقضي بالغلبة لمن يجده مستحقاً لها، ويكتب الذل والهوان على من يراه لم يعدْ أهلاً للغلبة

والقيادة.

وفي حياة الشعوب والأمم تتجلى آيات تدل على أن ما حدث معها هو حكم صادر من عند الله – جل وعلا – ولو كانت بصيرة المرء حية نابضةً لرأى في هذه الآيات انعكاساً لتلك الأسباب التي بموجبها أصدر الله أحكامه على الشعوب !

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

بِمُنشَرِينَ : بمبعوثين بعد موتتنا .

قَوْمُ تُبَّعٍ : أبو كرب الحميري ملك اليمن .

إن مصدر ضلال الإنسان وانحرافه في كل العصور يتمثل في أنه فقد ثقته ويقينه في الحياة بعد الموت ، وانعدام اليقين هذا ربما يُبديه بعضهم بلسانه صراحةً، بينما لايتبدى ذلك من أفواه بعضهم على نحوٍ صريحٍ، إلا أن قلوب هؤلاء بدورها تكون خاويةً من اليقين بأنهم مبعوثون مرةً أخرى بعد موتهم، ومحاسبون بالتالي على أعمالهم بين يدي الله رب العالمين !

والسبب في سوء الفهم هذا من الناحية النفسية، يرجع غالباً إلى أن المرء يغتر بمركزه العتيد الذي يحتله في هذه الدنيا، بحيث يخيل إليه كأنه لن يفقد مركزه أبداً .. على حين أن نظرةً واحدةً في مصائر الشعوب الغابرة تكفي لإبطال هذا الغرور والخداع النفسي .

كان " تبع " لقب الملوك الحميريّين في اليمن القديم ، وقد ازدهرت بلادهم واتسعت ثروتهم وامتد سلطانهم خلال الفترة بين سنة ١٠١٥ق.م. وحتى سنة ٣٠٠ب.م. وقد كان قدماء العرب كثيراً ما يتحدثون عن مجدهم وشوكتهم بمنتهى

الإعجاب والإكبار ، ومن هنا كان ازدهار قوم تبع وأفولهم أمراً معروفاً ومشهوراً بالنسبة إلى قريش - المخاطبين الأولين للقرآن الكريم - وقد كان لهم في ذلك دليلاً على أن قانون المكافأة والمجازاة هو الذي يسري في هذا العالم ، وهكذا لسائر الناس هناك "قوم تبع " يلقنونهم بالمصير الذي آل إليه وأمرهم درساً بليغاً ، ولكن الإنسان ينظر إلى مثل هذه الحوادث دوماً على أنها حوادث جرت وفق العادة، وتكون النتيجة أنه لا يكاد يتعلم منها الدرس الذي كان الله - عز وجل - قد أودعه فيها !!

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾

يَوْمَ الفَصْلِ : يوم القيامة والحساب .

لاَ يُغْنِي مَوْلًى : لا يدفع قريب ، ولا صديق .

إن المتأمل في نظام السماوات والأرض ليجد أنه قد تم إيجاده على نحوٍ هادفٍ للغاية، حيث يعمل الكون بكل ما فيه لأجل هدفٍ معينٍ ، ولولا ذلك لبات مستحيلاً على الإنسان أن يبني هذه المدينة الرائعة في رحاب العالم الراهن .

وعقيدة الآخرة هي امتداد وتوسيع لهذه الروح أوْ المعنوية الكونية ذاتها، فلا يمكن أن ينتهي هذا الكون، وقد صُنع على هذا النحو الهادف، بلا غايةٍ أوْ معنىً ما، إن وجود القصد والمعنى في كوننا الحالي قرينة تدل على أنه صائر إلى غايةٍ هادفةٍ ذات معنىً، وما الآخرة إلا اسم آخر لهذه الغاية الهادفة .

وإن مرحلة الحياة الراهنة هي مرحلة الامتحان والابتلاء ، ومن ثم يجد كل شخصٍ

هنا نصيبه مما يكمن في هذا العالم من هدفٍ ومعنىً، وأما حين تأتي الآخرة فلن يتمتع هناك من هدفها ومعنوياتها بنصيبٍ إلا أولئك الذين يُعتبرون عند الله أهلاً لذلك في واقع الأمر !!

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

شَجَرَتَ الزَّقُّومِ : من أخبث الشجر تنبت في النار .

كَالْمُهْلِ : دردى الزيت ، أو المعدن المذاب .

الحَمِيمِ : الماء البالغ غاية الحرارة .

فَاعْتِلُوهُ : فجروه بعنف وقهر .

سَوَاءِ الجَحِيمِ : وسط النار .

بِهِ تَمْتَرُونَ : فيه تجادلون وتمارون .

إن مشاهد جهنم التي عرضها القرآن الكريم في هذا المقام وفي مواضع أخرى، كافية لتملأ قلب كل إنسان ينبض بالحياة قلقاً واضطراباً ، فأي شخصٍ يكون جاداً بشأن مستقبله ومصيره حق الجدية، لابد أن تهزّه هذه الكلمات المروعة هزاً، وتجعله بالتالي يدع طريق الجحيم ويندفع نحو الطريق المؤدي إلى الجنة .

أما الذين ليسوا بجادين بشأن الحقائق، والذين لا يعلمون إلا شهواتهم وحدها، ولا يشعرون بحاجةٍ ما إلى التأمل فيما وراء شهواتهم من عالم الحقائق، فإنهم سيسمعون

هذا النبأ ولا يلقون إليه بالاً، كأنهم لم يسمعوا شيئاً ، فمثل هذه الألفاظ العنيفة المفزعة بالنسبة إلى أمثال هؤلاء كمثل الماء يُراق على حجرٍ صلدٍ، فيسيل من فرقه دون أن ينفذ إلى أعماقه ليرطّبه من الداخل !

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾

سُندُسٍ : رقيق الديباج .

وَإِسْتَبْرَقٍ : غليظه .

وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ: قرناهم بنساء بيض مخلوقات في الجنة واسعات الأعين حسانها .

يَدْعُونَ فِيهَا : يطلبون فيها .

تتضمن هذه الآيات صورةً لدنيا الإنسان المفضلة، تلك التي هي مستقرة في أحلامه، فما من امرئٍ إلا هو يحترق شوقاً إلى دنياه المفضلة هذه، إلا إنه لا يتمكن من الظفر بها في الحياة الراهنة، وإنما سيفوز بدنيا أحلامه هذه في الجنة وبشكل أرقى .

وتلك الدنيا الخالية من جملة أنواع الهم والخوف إنما سيظفر بها أولئك الذين كانوا قد خافوا من الله في الحياة الدنيا ، وسيتمتع بالحياة المليئة بصنوف النعم الأبدية هناك أولئك الذين كانوا قد ضحوا من أجلها بنعم الدنيا المؤقتة ، وسيسعد بذلك الفوز الأخروي العظيم أولئك الذين كانوا قد اجترؤوا على تعريض نجاحهم الدنيوى

للخطر فى سبيل الحصول عليه !!

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

فَارْتَقِبْ : فانتظر ما يحل بهم .

إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ : منتظرون ما يحل بك .

إن القرآن كتاب عظيم ولا ريب ، كما أنه كتاب سهل وميسر للغاية ، غير أن كونه سهلاً وميسراً إنما هو من ناحية التذكر والاعتبار ، يعني أن الشخص الذي يدرسه بحثاً عن الحق، سيجده بالطبع ما يكون، وأما الشخص الذي لا يكون جاداً بشأن البحث عن الحق، فليس له من يسرٍ أوْ سهولةٍ ما في القرآن الكريم، ومن شروط كون المرء جاداً في العالم الراهن ألا يكونَ مصاباً بنفسية الانتظار، أي: إن ظهور الحقيقة على مستوى الدليل وحده يكفيه ليؤمن بها !!

سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝ ﴾

يَبُثُّ : ينشر ويفرق .

وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ : تقليبها في مهابها وأحوالها .

إن القرآن إذْ يقول بأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم ، فكأنما هو يضع بذلك أمام المخاطبين معياراً قطعياً يمكن على ضوئه أن يختبروا صدقه ، فمعنى كونه نزل من الله "العزيز " إنه كتاب لن يتمكن أحد من التغلب عليه أبداً، وأنه سيفوز بالغلبة والانتصار على معارضيه وأعدائه على أية حالٍ، لا يقف في وجهه أية عقبات أوْ صعوبات مهما كثرت، وقد تم هذا الإعلان في العهد المكي، عندما كانت الظروف غير مواتيةٍ للقرآن تماماً، ولكن الأحداث والتطورات التي وقعت فيما بعد لم تلبث أن صدقت بهذه الحقيقة على نحوٍ مدهشٍ، حيث نالت دعوة القرآن أكبر نجاحٍ في التاريخ البشري على الإطلاق .

وهكذا يقتضي نزوله من عند الله " الحكيم" أن تكون محتوياته كلها مبنية على العقل

والحكمة ، وهذا الأمر هو الآخر ما زالت تتأكد صحته منذ خمسة عشر قرناً من الزمان، لقد نزل القرآن الكريم قبل عصر العلم .. ولكن لم يمكن لأحد بعد - حتى في عصرنا العلمي هذا - أن يعثر على نصٍ من نصوص القرآن يتنافى مع العقل .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الكون هذا الذي يحيط بنا من كل جانبٍ، ويمتد إلى مالا نهاية، قد صار بكل ما فيه مصدقاً برسالة القرآن ، بيد أن هذا التصديق لن يكون تصديقاً إلا للذين يتمتعون بعقلية التيقّن والاقتناع، والذين يملكون الاستعداد لإدراك الأمر وهو يُعرض عبر الآيات والإشارات !!

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

وَيْلٌ : هلاك أو حسرة أو شدة عذاب .

أَفَّاكٍ أَثِيمٍ : كذاب كثير الإثم .

اتَّخَذَهَا هُزُواً : سخرية أو مهزوءا بها .

وَلاَ يُغْنِي : لا يدفع عنهم .

رِجْزٍ : أشد العذاب .

الاعتراف بالحق يكون، في معظم الأحوال، مرادفاً للتخلي عن كبرياء الذات، وبما أن المرء لا يرضى بالتخلي عن كبريائه، لذا فهو لا يوفق إلى الاعتراف بالحق ، ولكن

الإباء عن الخضوع للحق إباء عن الخضوع لله، ولأمثال هؤلاء عذاب شديد عند الله عز وجل ! والمرء وإن كان يعرض عن الحق بدافع الاستكبار، إلا أنه طالما يتقدم بالدليل النظري تبريراً لمواقفه، غير أن هذا الدليل لا يخرج عن كونه ترديد ألفاظ كاذبةٍ ، فإن شخصاً كهذا يعمد إلى شيءٍ ما ويتخذ منه موضع الطعن والعيب بتأويله على غير وجهه، ثم يأخذ في الاستهزاء والتهكم من الحق، ومن الداعي إليه بناء على ذلك المطعن أوْ العيب المفتعل ، وأمثال هؤلاء يستحقون أشد العذاب وأقساه، لأنهم يزيدون التمرد والطغيان إلى جانب المعصية وسوء العمل ، والأمر الذي يدفع هؤلاء إلى الطغيان هو مركزهم الدنيوي، غير أن المركز الدنيوي لن يغني عن صاحبه في الآخرة فتيلاً !

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

إن الماء – على ما يبدو – شيء مغرق ، ولكن الله تعالى قد جعله خاضعاً لنواميس تمكن السفن والباخرات العملاقة أن تسير على سطح البحار والمحيطات الهائلة من جهةٍ إلى أخرى وتصل إلى مقاصدها بسلامٍ ، وهذا هو شأن الكون بأسره ، فقد جُعل الكون بما فيه مسخراً لخدمة الإنسان، بحيث يستطيع الإنسان أن يستخدمه في تحقيق شتى مآربه كما يشاء، وميزة العالم الراهن هذه هي التي مكنت الإنسان من أن يشيّد هنا صرح المدنية والحضارة الرائع ، وإن هيكل الكون الحالي ليس هو هيكله الوحيد والنهائي، إذْ كان من الممكن أيضاً أن يتم تشكيله بطرق أخرى مختلفة لا تقع تحت الحصر ، ولكن من بين احتمالات كثيرة شتى، إنما تحقق على صعيد الواقع الفعلي احتمال واحد ، وهو الذي كان مفيداً وملائماً لنا نحن البشر !! إن هذه آية، لو وقف عندها

أرباب البصر و البصيرة متأملين لوجدوا فيها درساً عظيماً !

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ الله : لا يتوقعون وقائعه بأعدائه .

إن الذين لا يوقنون بأن يوم الدينونة أوْ القضاء الإلهي آتٍ عليهم لا محالة، تبلغ منهم الجراءة على ممارسة الظلم والعدوان مبلغاً عظيماً ، حيث إنهم لا يدعون أي طريق ممكن لإلحاق الأذى والضرر بداعي الحق إلا سلكوه ، وعندها تستيقظ في نفس الداعي بواعث الانتقام، ولكن ينبغي للداعي أن يقابل المدعو على أذاه بالعفو والصفح عنه حتى اللحظة الأخيرة ، وأن يركز اهتمامه كله على الدعوة وحدها ، مفوضاً أمر مؤاخذة الناس على سوء أعمالهم إلى الله جل جلاله ، وإن كفاح الداعي لا يتم تقييمه وتقديره باعتبار النسبة العددية لأولئك الأفراد الذين استطاع جذبهم إلى دائرة الحق، وإنما يتم تقييم كفاحه وتقديره عند الله سبحانه بالنظر إلى شدة تمسكه بالحق، وإلى مدى وفائه بمقتضيات كونه داعياً إلى الحق !

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

بَغْياً بَيْنَهُمْ : حسدا وعداوة بينهم .

شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ : طريقة ومنهاج من أمر الدين .

لَن يُغْنُوا عَنكَ : لن يدفعوا عنك .

بَصَائِرُ لِلنَّاسِ : بينات تبصرهم سبيل الفلاح .

إن قوله: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ - أي بني إسرائيل - هو نفس ما جاء في شأن الأمة المحمدية ، حيث قال : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ... ﴾ [آل عمران ١١٠] إن تحميل شعب ما أمانة الكتاب الإلهي بمثابة تعيين له مسئولاً عن هداية الشعوب الأخرى ، وهذا هو معنى كونه أفضل الأمم أوْ خير الأمم ، وقد كان لبني إسرائيل - من الناحية المبدئية - اعتبار عالمي تماماً كما هو شأن الأمة المسلمة ، غير أن بني إسرائيل لم يلبثوا أن فقدوا استحقاقهم لذلك بإدخال التحريفات على كتابهم .

إن تعاليم الدين الجوهرية تتسم دائماً بالوحدة ، ولكن إضافات العلماء تحدث فيها الاختلاف والتعددية ، حيث يأتي كل عالمٍ بإضافةٍ جديدةٍ بحسب ذوقه وميوله ، ثم ينشغل هذا العالم وأتباعه بعد ذلك في إثبات صحة إضافاتهم وتخطئة إضافات الآخرين، ومن هنا تبدأ الفرق الدينية بالتشكل ، ويصل الأمر في نهاية المطاف إلى انقسام الدين الواحد إلى أديانٍ شتى .

ولما أحال بنو إسرائيل الدين المنزّل إلى دينٍ محرّفٍ، أنزل الله سبحانه على محمد ﷺ هذا القرآن ، وإذْ لم يكن سيُبعث بعده - عليه الصلاة والسلام - نبي ولا رسول، فقد عني الله - سبحانه وتعالى - عناية خاصةً بحفظ القرآن الكريم وصيانته من التحريف، حتى لا تتكرر تلك المأساة من جديدٍ بأن يضيع دين الله في خضم الإضافات البشرية !

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّئَاتِ : اكتسبوا المعاصي والكفر .

إن مَن يزعم أنه سواء عليه أكان يعيش هنا صالحاً أمْ طالحاً، إذْ ينتهي أمره في كلا الحالين إلى الموت والفناء، فإنما يبني في دماغه فكرةً خاطئةً للغاية ، إن زعماً كهذا يتعارض مع الشعور بالعدل، الذي يكمن في فطرة كل إنسانٍ بصورة جبليةٍ . وزد على ذلك أنه إنكار لروح الكون التي تسري في نظامه وتشمل موجوداته . والحقيقة هي أن فطرة الإنسان الداخلية والكون الفسيح المحيط به من الخارج، كلاهما، يدمغ الفكرة القائلة بأن الحياة عبث محض، ليس وراءها غاية معينة أوْ مصير هادف معلوم !!

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

أَفَرَأَيْتَ : أخبرني .

غِشَاوَةً : غطاء حتى لا يبصر الرشد .

اتخاذ الهوى إلهاً معناه : أن تعطي لهواك المقام الأول والأسمى في حياتك. إن من يفكر تبعاً لهواه، ويعمل بمقتضاه، فكأنما قد اتخذ من هواه إلهه . إن عقل الإنسان مزود بالقدرة التامة على تمييز الحق من الباطل ، بيْد أن الشخص الذي يجعل عقله تابعاً لهواه، يصل به الأمر إلى حيث إنه يرى دلائل الحق ساطعةً متجليةً أمامه، ولكنه لا يكاد يستشعر بثقلها ، فيرفض كل دليلٍ مستنداً على بعض التأويلات الكاذبة الواهية ، وسلوك الإنسان هذا لا يلبث أن يطمس قواه العقلية كلها، إذْ تعود أذناه تسمعان

الألفاظ ولكن من غير إدراكٍ لمعانيها ، وعيناه تبصران الحقيقة، إلا أنهما تعجزان عن استلهام الدرس أوْ العبرة منها ، وقد يصل كلام بليغ مؤثر إلى قلبه، ولكنه لا يكاد يهز مشاعره أوْ يحرك منه ساكناً !!. لقد جعل الله من القوى العقلية مدخل الهداية ، ولكن الشخص الذي يغلق هذه الأبواب لانغماسه في عبادة هواه، فمن أي طريقٍ يستدخل الهداية الإلهية إلى قلبه ؟!

﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ ليس هذا بقول عامة الناس ، وإنما يردد أقاويل كهذه دوْماً أفراد من صفوة الناس ، وهم الذين غالباً ما يحتلون مركز القيادة الفكرية في المجتمع بسبب ذكائهم ، غير إنهم إنما يقولون ذلك بناءً على الظن والقياس ، وليس بناء على أي علمٍ حقيقي ، وفي مقابل ذلك فإن ما يأتي به الرسول يكون مبنياً على أساسٍ من الحقيقة الصلبة .

إننا نشاهد كل يومٍ أن شخصاً يولد فيدخل في حيز الوجود بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ، ثم يعتريه الموت بعد ذلك مرةً أخرى فيعود غير موجودٍ،وعليه فكأن كل امرئ هنا ينال الحياة بعد "موتٍ" ، ويموت مرة أخرى بعد الحياة ، وهذه قرينة تشير إلى أنه كما كانت الحياة بعد الموت أول مرةٍ ، كذلك ستكون حياة بعد الموت مرةً أخرى . ومن هذا يثبت إمكان الحياة بعد الموت بوضوحٍ تامٍ .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ

﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾
هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

جَاثِيَةً : باركة على الركب لشدة الهول .

كِتَابِهَا : صحائف أعمالها .

نَسْتَنسِخُ : نأمر الملائكة بنسخ .

القائمون على أساسِ الله في الدنيا إنما يقومون على أساسٍ من الحق . أما الذين قاموا هنا على أساسٍ آخر سواه، فإنهم قائمون على أساسٍ من الباطل ، وأمثال هؤلاء سيعودون في الآخرة بلا موطئ قدمٍ يستقرون عليه؛ ذلك لأن الشيء الذي ظنوه في الدنيا "أساساً"، لم يكن من الأساس في شيءٍ ، وإنما كان خداعاً محضاً ، فحين تجلى وجه الحقيقة اختفى وتلاشى. والمراد بـ "استنساخ الأعمال" ليس هو الاستكتاب بالقلم بمعناه المعروف، وإنما هو تسجيل للأعمال ، حيث يتم تسجيل نيات الإنسان وأقواله وأفعاله ، أولاً بأول ، وفق تدبير إلهي بمنتهى الدقة ، وعلى حسب هذا التسجيل ذاته ستكون معاملة الإنسان في الآخرة سلباً أو إيجاباً ، وسيكون هذا التسجيل دقيقاً وحقيقياً لدرجةٍ لن يستطيع معها أحد أن ينكره هناك!!

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾

ليس المراد بالاستكبار هنا هو الاستكبار بإزاء الله ، وإنما بإزاء الداعي إلى الله ،

حيث إن الإيمان بأمر الله في العالم الراهن يكون عملياً مرادفاً للإيمان بأمر الداعي ، وعليه فالمصابون بداء الاستكبار ربما يستشعرون بالدون أو يعتبرون عاراً عليهم أن يؤمنوا بقول إنسانٍ مثلهم ، ومن ثم يقابلوه بالإهمال والإعراض ، وعلى نقيضٍ من ذلك فإن الذين تخلو صدورهم من نفسية التكبر والاستعلاء ، سرعان ما يخضعون له ، إن الطائفة الأولى تستحق غضب الله ، بينما تستحق الطائفة الأخيرة رحمة الله .

وإن شخصاً عندما ينكر الحق ، فيلجأ إلى ترديد ألوانٍ شتى من الأقاويل تبريراً لإنكاره، إذْ يحاول تارةً إثبات أن الداعي ممن لا يوثق به ، ويثير طوراً بعض الشكوك أو الشبهات المفتعلة حول رسالته، إلا أنه سينكشف يوم القيامة بجلاءٍ أن كل هذه كانت أقاويل خرجت من العقلية الإجرامية العنيدة ، وليس من العقلية الجادة المحبة للحق!!

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٣) وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٣٤) ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) ﴾

وَحَاقَ بِهِم : نزل أو أحاط بهم .

نَنسَاكُمْ : نترككم في العذاب .

وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ : منزلكم ومقركم النار .

وَغَرَّتْكُمُ : خدعتكم ببهرجها .

يُسْتَعْتَبُونَ : يطلب منهم الرجوع إلى ما يرضي الله .

إن المرء حين يمارس عملاً سيئاً ما في العالم الراهن ، فلا يواجه عاقبته الوخيمة من

فوره؛ مما يجعله يزداد جراءة على ارتكاب المعصية وفعل السوء ، وإذا تم تخويفه من نتائج سوء العمل ، فلا يكاد يصغي إلى هذا التخويف بجديةٍ، غير أن نتائج سيئاته ستكون حاضرةً أمامه في الآخرة ، وسيجد نفسه وقد حُوصر بسوء أعماله من كل جانبٍ، وعندها سوف لا يلبث أن يبادر بإقرار الحق الذي كان قد اعتبره من الهوان والخسّة بحيث لم يزل يستهزئ به طول حياته .

وسيقر الإنسان في الآخرة بالحق الذي ظل ينكره ويكذبه في الحياة الدنيا، غير أن ذلك لن يحظى بالقبول هناك، ذلك بأن الإقرار بالحق لا قيمة له إلا إذا تم على مستوى الغيب وليس على مستوى الشهود .

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

وَلَهُ الكِبْرِيَاءُ : العظمة والملك والجلال .

لما كان خالق الكون ، ومالكه واحداً ليس غير ، وجب أن يكون الحمد كله له وحده ، وأن يوجه الإنسان اهتمامه بكليته إليه وحده ، وأن يتخذه هو كل شيءٍ في حياته .

سورة الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝ ﴾

وَأَجَلٍ مُّسَمًّى : بتقدير أجل مسمى وهو يوم القيامة.

إن دراسة الكون تدلنا على أن هناك حكمةً ومعنىً يسودان كل ناحيةٍ من نواحيه ، إذن فإن مصنعاً كهذا ، الذي ينطوي منذ بدايته على قصدٍ ومعنىً ، تُرى هل يمكن أن يعود في نهايته عبثاً محضاً بلا معنىً ؟! كلا .. كلا .. الحق في ذاته شيء محكم للغاية. إنه أعظم قوةٍ في هذا الوجود ، ومع ذلك فما السر في أن الحق إذا ما تم عرضه على الناس ، تلقاه أكثرهم بالرفض والإنكار؟

السر في ذلك أن الناس إنما يساق إليهم الحق في عالمنا الراهن في صيغة الخبر ، وأما في الآخرة فسوف يستحيل الحق واقعاً يفرض نفسه على الناس فرضاً ، وعندئذ سيخر أمام الحق هناك في خضوعٍ واستسلام حتى أولئك الذين كانوا قبلئذٍ يقابلون الحق بالإهمال والإعراض باعتباره غير ذي أهميةٍ أو قيمةٍ تذكر !!

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟

بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

أَرَأَيْتُم : أخبروني .

لَهُمْ شِرْكٌ : شركة ونصيب مع الله تعالى .

أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ : بقية من علم عندكم .

في تفسير قوله : ﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ ، قال ابن كثير: "أي لا دليل لكم لا نقلياً ولا عقلياً على ذلك" (١).

العلم في الحقيقة نوعان : أحدهما : العلم الموحى أو الملهَم (Revealed knowledge)، وهو الذي وصل إلى الناس بواسطة الأنبياء والمرسلين . وثانيهما : العلم الثابت أو المبرهن عليه (Established knowledge) ، وهو الذي يكون قد ثبت كونه علماً عن طريق الأبحاث والتجارب الإنسانية ، وأي واحدٍ من هذين العلمين لا يدل على أن هناك موجوداً آخر في هذا الكون ، غير الله الواحد الأحد .

وإذا لم يكن أي مصدرٍ من مصدري العلم النقلي والعقلي شاهداً على الشرك ، فكيف إذن ، يجوز للإنسان أن يشرك بالله شيئاً اعتقاداً أو عملاً ؟!، والحق أن كل شيءٍ يتخذه المرء سنداً له وموضع ثقته من دون الله سيتبرأ منه يوم القيامة ، ولن يمده بنصرٍ أومعونةٍ ما ، وهو أحوج ما يكون إلى النصر والمعونة يومئذٍ!

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾

---

(١) انظر : مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٥ .

تُفِيضُونَ فِيهِ : تندفعون فيه طعنا وتكذيبا .

لقد كان المخاطبون الأولون للقرآن الكريم من العرب يرفضون دعوة القرآن زاعمين أنها لا تتفق مع دين أكابرهم ، ولم تكد الجماهير تسمع ذلك ، وقد رسخت في عقولها الساذجة عظمة الأكابر وقداستهم ، حتى تنفر من رسالة القرآن،غير أن القرآن كان ينطوي على جانبٍ آخر،وهو إعجازه الأدبي، حيث كان كل عارفٍ بلسان العرب يشعر في قرارة نفسه بأن هذا كلام غير عاديٍ،وللتهوين من شأن القرآن وتقليل أهميته من هذه الناحية الثانية،لم يلبث قادة الكفر والضلال أن قالوا: إن هذا سحرٌ مبين .

صحيح أن كلام بعض الناس يتميز بروعةٍ بيانية فائقة وبلاغة غير عادية لا تداني ، ولكن بلاغة الكلام الإنساني تقف عند حدٍ لا تتجاوزه، أما بلاغة القرآن وإعجازه الأدبي فهما أبعد من هذا الحد بكثيرٍ ، بل ليس هنالك من حدٍ يقفان عنده، إن عظمة القرآن الأدبية أجل من أن تُعد من نتاج العقل الإنساني القاصر المحدود .

وعندما يأبى الطرف المقابل إلا الإصرار على العناد والمكابرة ، فإن الإنسان الجاد لا يسعه عندئذٍ سوى أن يلوذ بالصمت قائلاً بأن أمري وأمرك إلى الله ، وكفى به شهيداً بيني وبينك ، بيد أن هذا ليس بالتراجع أو الانسحاب ، وإنما هو تدبير إقدامي أو هجوم خلقي إن صح هذا التعبير ، فحين يلزم المرء الصمت أمام رجلٍ عنيدٍ مكابرٍ ، فإنه يوقفه بين يدي ضميره هو بإبعاد نفسه عن مواجهته ، حتى يستيقظ شعوره إن لم يكن قد فتر وخمد خموداً نهائياً !

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى

ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

بِدْعاً : بديعا منفردا فيما جئت به .

أَرَأَيْتُمْ : أخبروني ماذا حالكم .

كان اليهود عند مشركي مكة حاملين لعلوم الدين ، وقد كان هؤلاء يعتبرونهم شعب الأنبياء والرسل ، كما كان المشركونَ واليهود يلتقي بعضهم ببعض أثناء الرحلات التجارية . وفي خلال العهد المكي سأل بعض المشركين بعض اليهود عن النبي ، فأجاب أحد الأحبار قائلاً : إن هناك نبياً كان سيُبعث في هذه المنطقة حسب النصوص الواردة في كتبنا. وغير بعيد أن يكون هذا هو ذلك النبي المرتقب. وقد أقر هذا الحبر اليهودي بنبوته - عليه الصلاة والسلام - على نحوٍ غير مباشرٍ .

وكان التاريخ يشهد - من ناحية - بأن أنبياء الله يأتون بكتابٍ من عند الله ، ومن ناحيةٍ أخرى كان مكتوباً في الصحفُ السماوية السابقة أن نبياً سوف يُبعث من بني إسماعيل، هذا إلى جانب كون كلام الرسول - ﷺ- وحياته منطويتين على كل العلامات بوضوحٍ ، تلك التي لا توجد إلا في أشخاص الأنبياء والمرسلين وحدهم ، وبالرغم من توافر هذه العلامات والقرائن الصارخة ، فإن الذين كانوا ينكرون رسالة النبي العربي- ﷺ - لم يكونوا يفعلون ذلك لأي سببٍ معقولٍ ، وإنما فعلوا ذلك حفاظاً على كبريائهم وسيادتهم التي بدا لهم أنها ستنهار فيما لو آمنوا بشخصٍ مازالوا يعدونه رجلاً عادياً ، على أنه نبي مرسل من عند الله!. والشأن أن الذين يصل بهم الأمر إلى حيث يستبد بهم الغرور وتتملكهم نفسية الاستكبار إذا ما ظهر الحق أمامهم ، فإن عقولهم تقودهم دائماً نحو الاتجاه الخاطئ المعوج ، ولا تتجه بهم الوجهة الصحيحة القويمة أبداً .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

إِفْكٌ قَدِيمٌ : كذب متقادم .

إن الذين سبقوا إلى الإيمان برسول الله - ﷺ - وبادروا بالانضواء تحت رايته ، كان من بينهم أناس ينتمون إلى طبقة الضعفاء والعبيد ، مثل: بلال، وعمار، وصهيب ، وخباب وغيرهم ، كما كان فيهم - إلى جانب هؤلاء - أفراد ينتمون إلى الأسر الشريفة ، مثل : أبي بكر بن أبي قحافة ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب .. إلخ .. غير أن خصومه - عليه الصلاة والسلام - إنما كانوا يذكرون الصنف الأول من أتباعه وحده، ولم يكونوا يتناولون بالذكر الصنف الأخير . ومرجع ذلك إلى أن المرء إذا امتلأ بمشاعر الحقد والعناد والمكابرة نحو أحدٍ ، فإنه يصير بالنسبة إليه أحادي الجانب ، بحيث يصرف نظره عما فيه من جوانب الخير ، ولا يتناول بالذكر سوى الجوانب التي يمكن أن يتخذها ذريعةً إلى تحقيره والتهوين من شأنه .

هكذا فقد كان واقعاً لا مرية فيه أن رسول الله - ﷺ - إنما جاء بما جاء به سائر الأنبياء والرسل السابقين من ذي قبل ، فقد جاء - عليه الصلاة والسلام - بصدقٍ أزلي أبدي ، وقد كان في إمكان خصومه أن يصفوا هذا الواقع بأن : "هذا صدق قديم" ، ولكنهم وصفوه ، بدلاً من ذلك ، بقولهم : ﴿ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ ، وهذا النوع من الجور وعدم الإنصاف كان لدى البشر في قديم الزمان ، وهو لم يزل يوجد في الناس اليوم كذلك!!

﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟

فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

من دلائل صدق القرآن الكريم أن الكتب السماوية السابقة قد ظلت تتنبأ به قرناً بعد قرنٍ ، ولا زالت هذه النبوءات موجودةً في التوراة والإنجيل حتى هذا اليوم، وهكذا جاء القرآن مصداقاً ومصدقاً لكل ما سبق بشأنه من البشائر والنبوءات السماوية، وهذا قرينة واضحة تبرهن على أن القرآن كتاب إلهي في واقع الأمر ، ولولا ذلك لما أمكن التنبؤ به على هذا النحو الدقيق قبل نزوله بمئات بل آلاف السنين، وفي شرح قوله : ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ روي عن عبد الله بن عباس ما معناه : ثم استقاموا على أداء فرائضه.

إن الإيمان عهد مقدس ، وفي أثناء حياته يمر المرء من حينٍ لآخر بمواقف يجد نفسه فيها بين خيارين : أحدهما يتفق مع عهد إيمانه ، والآخر يتعارض معه ، فمن أخذ نفسه في مواقف كهذه بالعمل وفق عهد إيمانه ، فقد أثبت الاستقامة ، وأما من عجز عن أن يعمل في تلك اللحظات الحاسمة بمقتضى عهد إيمانه ، فقد فشل في إثبات الاستقامة، إن الذين لا يقيمون الدليل على الاستقامة ، هم الظالمون ، ولن يغني دعواهم الإيمانَ عنهم شيئاً ، وأما الذين أقاموا الدليل على الاستقامة فأولئك هم الذين سيتم إسكانهم في الجنان الأبدية !!

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي

أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (١٦) ﴾

وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ : أمرناه وألزمناه .

كُرْهاً : ذات كره ومشقة .

وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ :مدة حمله وفطامه من الرضاع .

بَلَغَ أَشُدَّهُ : بلغ كمال قوته وعقله .

رَبِّ أَوْزِعْنِي : ألهمني ووفقني ورغبني .

أسلوب التناسل البشري باختصارٍ هو أن الإنسان يستمد وجوده عن طريق أمٍ وأبٍ، ثم إنهما يقومان بعد ذلك بتنشئته ورعايته حتى يكبر ويقوم على رجليه،وكأن هذا نظام فطري لتربية الإنسان، والحكمة منه أن يتولد في نفس الإنسان هكذا شعوره بما له من حقوقٍ وما عليه من واجباتٍ، وأن تستيقظ في داخله العاطفة القائلة بأن عليه أن يشكر لوليّ نعمته ويؤدي حقه عليه ، وهذه العاطفة كما تُعلِّم الإنسان القيام بتأدية حقوق الآخرين من بني نوعه ، تعلمه كذلك الوفاء بحقوق الله خالقه ومالكه العظيم ، والذين يتلقون الدرس من معلم الفطرة ، ويوقظون بالتالي شعورهم ووعيهم لدرجة تجعلهم يتعرفون على حقوق الكل ، فيقومون بأدائها خير قيامٍ ، أولئك هم الذين يُعتبرون في الآخرة أهلاً لرحمات الله الأبدية !

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٧) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ (١٨) ﴾

أُفٍّ لَّكُمَا : كلمة تضجر وتبرم وكراهية .

أَنْ أُخْرَجَ : أبعث من القبر بعد الموت .

خَلَتِ الْقُرُونُ : مضت الأمم ولم تبعث .

وَيْلَكَ : هلكت والمراد حثه على الإيمان .

آمِنْ : صدق بالله وبالبعث .

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ : أباطيلهم المسطرة في كتبهم .

حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ : وجب عليهم وعيد العذاب .

قَدْ خَلَتْ : مضت وتقدمت .

الولد البار المطيع لوالديه يكون بالطبع مطيعاً لله سبحانه وتعالى كذلك ، وأما الولد العاق فلا يكاد يبلغ أشده حتى ينسى أو يتناسى أن والديه قد تحملا ما لا يُحصى من المتاعب والآلام والمشقات حتى أوصلاه إلى ما هو عليه اليوم.

وإنه ليس هنالك أحد أنصح للمرء من أبويه ، وإن مشورة الأبوين التي يقدمانها إلى أولادهما تكون نابعةً من النصح الخالص ، بكل ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى ، ولذا فينبغي للإنسان أن يُعنى بمشورة أبويه الصالحين أشد العناية وأوفاها، وأما الشخص الذي ينهر أبويه الصالحين استخفافاً بمشورتهما ، فإنه يُبدي بسلوكه هذا أنه إنسان قاسي القلب إلى أقصى حدود القسوة ، وهؤلاء هم الذين سيلقون في نهاية المطاف خسراناً ما بعده خسران!

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ

ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

عَذَابَ الْهُونِ : الهوان والذل .

إن الحق إذْ يتجلى أمام شخصٍ ما ، وهو لا يختاره لأجل المصلحة الدنيوية والمنفعة المادية ، فيكون معنى ذلك أنه أعطى الأهمية للدنيا بالقياس إلى الآخرة ، وأنه فضل لنفسه طيبات الدنيا على طيبات الآخرة، وهكذا الشعور بكبرياء ذاته هو الآخر شيء ألذ ما يكون عند المرء ، وحين يقتضي الحق أن يتقبله المرء على حساب كبريائه ، وهو لا يتلقاه بالقبول حفاظاً على كبريائه ، فكأنما هو يؤثر طيبات الدنيا متخلياً عن طيبات الآخرة باعتبارها تافهةً لا تستحق أن يعيرها جانب اهتمامٍ .

وفي الآخرة سيتعرض لعذاب الذلة والهوان كل أولئك الذين أهملوا طيبات الآخرة لأجل طيبات الدنيا على هذا النحو ، وإنما سينال الكل جزاءه هناك بحسب عمله في هذه الدنيا قل أو كثر ، خيراً كان أو شراً !

﴿ ۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

أَخَا عَادٍ : هوداً عليه السلام .

بِالأَحْقَافِ : واد بين عمان وأرض مهرة .

لِتَأْفِكَنَا : لتصرفنا ، أو لتزيلنا بالإفك .

كانت مساكن عاد بجنوب الجزيرة العربية في تلك المنطقة التي تعرف اليوم بالربع

الخالي ، لقد قطع هذا الشعب أشواطاً شاسعةً في ميدان الرقي والتقدم ، غير أن رقيه لم يلبث أن أصابه بالغفلة والبطر والطغيان ، فبعث الله من بين أبنائه هوداً لكي يبلغه رسالة ربه ، وقام هود يدعو قومه إلى الله ويحذرهم بأسه ونقمته ، إلا أنهم لم يرضوا بقبول الإصلاح ، وقد استقبلوا نبيهم بجهالةٍ وسوء أدبٍ ، إلى أن تعرضوا لبطش الله ، حيث أخذهم عذاب شديد لدرجة أن مناطقهم الخصبة العامرة لم تلبث أن تحولت إلى صحراء قاحلة مجدبة!!

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

عَارِضاً : سحابا يعرض فى الأفق .

تُدَمِّرُ : تهلك .

عندما رأى قوم عاد سحاب العذاب يزحف نحو أوديتهم ظنوه سحاب المطر العادي، ولم يتمكنوا من إدراك حقيقته إلا بعد أن فوجئوا بعاصفة العذاب وقد دخلت مسكانهم تدمر كل شيءٍ تدميراً .. آه ! ما أظلم هذا الإنسان وأعتاه !! حيث إنه لا يعترف بالحق حتى قبل تعرضه للهلاك بلحظةٍ واحدةٍ ، وإنه لا يكاد يتقدم للاعتراف إلا حين يكون أوان الاعتراف قد فات!.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ

وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا
ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

مَكَّنَّاهُمْ : أقدرناهم وبسطنا لهم .

فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ : في الذي ما مكناكم فيه .

فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ : فما دفع عنهم .

وَحَاقَ بِهِم : أحاط أو نزل بهم .

وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ : كررنا بأساليب مختلفة .

قُرْبَاناً آلِهَةً : متقربا بهم إلى الله .

إِفْكُهُمْ : أثر كذبهم في اتخاذها آلهة .

يَفْتَرُونَ : يختلقونه في قولهم إنها آلهة .

إن المكانة الدنيوية التي كان يتمتع بها سادة قريش جعلت منهم طغاةً متمردين ، فجاء القرآن يصرف أنظارهم إلى قوم عاد المجاورين لهم ، والذين كانوا من الناحية التمدنية، على درجةٍ أعلى وأكبر منهم بكثيرٍ ، ولكن عندما جاء القضاء الإلهي لم تلبث مظاهر عظمتهم وأمجادهم كلها أن صارت هباءً ، ولم يعد ينجدهم من بأس الله أي شيءٍ من تلك الأشياء التي كانوا قد وضعوا ثقتهم فيها معتبرين إياها سنداً لهم .

وإن الإنسان وإن كان سيصير آخر الأمر صغيراً بإزاء الله ، إلا أن نظام دنيانا قد أنشئ على نحو يضطر المرء بين الحين والحين إلى أن يصغر أمام الآخرين في عالمنا الراهن، وإن وقائع كهذه آيات الله ، ولو تأمل المرء هذه الآيات واعتبر بها لتناول نفسه بالتصغير هنا قبل أن يصغّر في اليوم الآخر ، وعاد واقعياً في هذه الدنيا ذاتها قبل

الآخرة . إن هناك أنواعاً شتى من الحوادث والواقعات تتجلى أمام الإنسان بوصفها آيات إلهية، غير أنه يقف تجاهها موقف الأصم والأعمى ، ولا يكاد يستعد لكي يستلهم منها درساً أو عبرة !!

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

صَرَفْنَا إِلَيْكَ : أملنا ووجهنا نحوك .

أَنصِتُوا : اسكتوا واصغوا لنسمعه .

قُضِيَ : أتم وفرغ من قراءة القرآن .

فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ : لله فائت منه بالهرب .

في العام العاشر من البعثة النبوية كانت الظروف المحيطة برسول الله - ﷺ- في مكة قد اشتدت وطأتها إلى أقصى الحدود فخرج - عليه الصلاة والسلام - إلى الطائف رجاء أن يجد بين أهلها من ينصرونه ويقفون إلى جانبه ، ولكنهم استقبلوه شر استقبالٍ ، وفي طريق عودته إلى مكة نزل بوادي النخلة، حيث قام من نومه في جوف الليل يصلي، فاستمع إليه - وهو يتلو في صلاته آيات القرآن الكريم - طائفة من الجن ، فلم يلبثوا أن آمنوا به في الحال .

إن هناك طائفة كانت ترفض القرآن أشنع الرفض ، بينما كانت طائفة أخرى في الوقت نفسه تتلقى القرآن بالقبول ، وكان قبولها للقرآن مصحوباً بحماسٍ بالغٍ واندفاعٍ شديدٍ لدرجة أنها عادت مبلغةً له منذرةً به لبني جنسها!!

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) ﴾

وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ : لم يتعب به أو لم يعجز عنه .

بَلَى : هو قادر على إحياء الموتى .

إن ظهور هذا الكون الهائل - الممتد أمامنا بشكل السموات والأرض - إلى حيز الوجود ، ثم سيره الدائب المتأصل بمنتهى الدقة والتوافق والانسجام منذ بلايين السنين ، مما يثبت أن خالقه يملك قوى عظيمة وطاقات جبارة . كما يدل أيضاً على أن إيجاد الكون لم يسبب له التعب أو الإعياء ، ولو كانت عملية الخلق والإيجاد قد أرهقته، لما رأينا الكون يسير بهذه الدقة المتناهية ، وإن قدرة الله وطاقاته الجبارة التي تتجلى آثارها الباهرة على مستوى الكون المنظور ، كافية في حد ذاتها للتأكد من أن إحياء النوع الإنساني بعد موته من جديدٍ ، ومحاسبته على أعماله أيسر وأهون ما يكون عليه ، فإنه على كل شيءٍ قدير.

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ (٣٥) ﴾

أُوْلُو العَزْمِ : ذوو الجد والثبات والصبر .

بَلاغٌ : هذا تبليغ من رسولنا .

الداعي إلى الحق لابد له من الارتكاز الدائم على دعامة الصبر ، والصبر في جوهره هو إعراض الداعي عن أذى المدعو وإساءاته واستمراره في إيصال الدعوة إلى المدعو رغم عناده وتعنته وإنكاره ، وكون الداعي ناصحا للمدعو على كل حالٍ ، مهما كان يعاني من جانب المدعو من ألوان المتاعب ، وهذا الصبر ضروري لأنه بدون ذلك لا تقوم حجة الله على المدعو ، وقد سار أنبياء الله ورسله العظام قاطبةً على هذا الدرب ، درب الصبر والاستقامة ، في صدد القيام بواجب الدعوة إلى الحق على اختلاف الأزمان والأماكن ...، إذن فلا بد للذين يريدون النهوض بأعباء الدعوة إلى الحق بالنيابة عن حضرات الأنبياء والمرسلين أن يتأسوا بأسوتهم هذه ، إن مقام الدعاة محجوز عند الله لأولئك الذين يستطيعون إظهار الشجاعة للصبر والتحمل .

سورة محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾

أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ : أحبطها وأبطلها فلا نفع لها .

كَفَّرَ عَنْهُمْ : أزال ومحا عنهم .

وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ : حالهم وشأنهم في الدين والدنيا .

أضل - أي أبطل وأحبط- أعمال الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله؛ لأنهم إذْ لم يقيموا الدليل على تديّنهم على المستوى الشعوري؛ فقد اعتُبرت كل حسناتهم وصالح أعمالهم التي كانوا يمارسونها باطلةً لا قيمة لها .

لقد كان قدماء العرب يعدون أنفسهم من أمة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - حيث كانوا يتمتعون بشرف إدارة شئون الكعبة - بيت الله الحرام- كما كانت تُقام عندهم أيضاً عبادات الصلاة والصيام والحج بشكلٍ ما، هذا إلى جانب تمسكهم ببعض عادات النبل والكرم والمروءة كخدمة الحجاج، والإحسان إلى ذوي القربى، ونجدة المظلوم وقري الضيف وما إلى ذلك ، غير أن هذه الأعمال كلها لم تكن جزءاً أصيلاً من تدينهم الشعوري، وإنما كانت جزءاً من حياتهم على وجه التقليد المحض، فلم يكونوا

يمارسونها إلا لكونها مازالت رائجةً بينهم منذ مئات السنين .

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾

فَضَرْبَ الرِّقَابِ : فاضربوا الرقاب ضربا .

أَثْخَنتُمُوَهُمْ : أوسعتموهم قتلا وجراحا وأسرا .

فَشُدُّوا الوَثَاقَ : فأحكموا قيد الأسارى منهم .

مَناًّ : بإطلاق الأسرى بغير عوض .

فِدَاءً : بالمال أو بأسارى المسلمين .

حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا : آلاتها وأثقالها ، والمراد حتى تنقضي الحرب .

لِّيَبْلُوَ : ليختبر ، فيمحص المؤمنين ويمحق الكافرين .

فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ : فلن يبطلها بل يوفيهم ثوابها .

المراد بالكافرين هنا: الذين رفضوا الإيمان رغم قيام الحجة عليهم، وأشعلوا ضد رسول الله - ﷺ- نيران الحرب بغير الحق، وهكذا اضطروه - عليه الصلاة والسلام - إلى اتخاذ خطوة دفاعيةٍ ، وبالنسبة إلى مثل هؤلاء الكافرين المعتدين أمر الله سبحانه المؤمنين بأنكم إذا ما التقيتم به في ميدان الحرب، فاستميتوا في قتالهم حتى تحطموا قوتهم وتكسروا شوكتهم، لكي لا يعودوا قادرين مستقبلاً على الوقوف في وجه دعوة الحق!!

وقد جرت سنة الله تعالى بإهلاك الأمم والشعوب التي أنكرت أنبياءها بعد قيام الحجة، وأما بالنسبة إلى نبي آخر الزمان، فقد كان مطلوب الله هو أن يتم القضاء بواسطته هو وأصحابه على عصر الشرك، وبناءُ تاريخٍ جديدٍ على أساسٍ من التوحيد ، وانتخاب الأفراد صانعي التاريخ كهؤلاء لم يكن ممكناً إلا في ظل ظروفٍ صعبة وشديدة ، ومن ثم فقد تم الوصول إلى هذا الغرض نفسه بدفع الرسول وصحابته إلى الخوض في غمار الحرب التي أوقدها أعداء الإسلام .

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾ بمعنى : هداهم إليها، وقال محمد بن كعب : يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾

فَتَعْساً لَّهُمْ : فهلاكا ، أو عثارا أو شقاء لهم .

فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ : فأبطلها لكراهتهم القرآن .

دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ : أطبق الهلاك عليهم .

مَوْلَى : ولي وناصر .

إن الله هو مُظهر الأحداث والوقائع كلها ، إلا أنه يُظهر الوقائع في ستار الأسباب والعلل ، وهذا هو الشأن فيما يتعلق بالدين كذلك ، فالله – سبحانه وتعالى – وإن كان

يريد أن تتحطم قوة الباطل وتندحر، ويتمتع الحق بالغلبة والاستقرار في الأرض، غير أن إظهار هذه الواقعة يتطلب أفراداً يكونون بمثابة ستارٍ بشريٍ لتصرف اليد الإلهية وراءها ، وذلك ما عُبّر عنه في هذا المقام بـ " نصرة الله " وحينها تهب طائفة لنصرة الله، فإنها تعمل على إثبات كون المنكرين منكرين، حيث إن القائمين بنصرة الله من شأنهم أن يدعوا الناس إلى الله بمنتهى الجدية والنصح والإخلاص، ويتجنبوا كل سلوكٍ ينافي الحق، وهم يشهدون لدين الله، ويجعلوا أمر الحق بالتالي واضحاً ثابتاً إلى أقصى الحدود، حتى تقوم على المنكرين تلك الحجة التي يريدها الله تعالى للقضاء بين العباد في محكمة الآخرة !

إن المبطلين مقضي عليهم أن يُغلبوا على أمرهم حتماً، وإن أتباع الحق مكتوب لهم أن ينتصروا ويتغلبوا عليهم حتماً كذلك، ولكن بشرط أن يقوم أتباع الحق بذلك العمل الذي لابد من القيام به لاستحقاق نصر الله وحمايته وفق السنة الإلهية !

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾

مَثْوًى : موضع ثواء وإقامة لهم .

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ : كثير من القرى .

هذا وعيد تنبأ به رسول الله - ﷺ- بأمرٍ من الله، مخاطباً كفار مكة الذين اضطروه إلى الخروج منها، بأن أكلكم وشربكم وتقلبكم في أعطاف العيش الناعم، لا يجعلكم تظنون أنفسكم أحراراً، وإنها أنتم في قبضة الله محاصرون بقدرته التي لا تحد، ودليل ذلك أنكم إن ظللتم مصرين على كفركم وعنادكم، فسوف يحل بكم الهلاك والدمار

المستأصل وفق الناموس الإلهي،وقد تحقق هذا الواقع على حسب النبوءة تماماً،حيث تمكن حَملة لواء التوحيد من إحراز الغلبة والانتصار في نهاية المطاف!

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

مَثَلُ الجَنَّةِ : وصفها – ما تسمعون .

غَيْرِ آسِنٍ : غير متغير ولا منتن .

عَسَلٍ مُّصَفًّى : منقى من جميع الشوائب .

القيام على بينةٍ – أي على دليلٍ – يعني بناء حياتنا على أساسٍ من الحقيقة الواقعة . أما الذي يقوم على أهوائه فهو ينحرف عن الحقيقة الواقعة. إنه يريد أن يبني لنفسه في دنيا الله هذه دنيا مستقلةً على غير مرضاة الله !

وفي عالم الامتحان الراهن ، وإن كانت الفرص والمواقع متاحةً لكلا الفريقين على حدٍ سواء، إلا أن الفريق الأول وحده هو الذي سينال نصيباً من نعيم الله الأبدي في عالم الآخرة الحقيقي ، أما الفريق الآخر فسيظل هناك يتجرع مرارة الذل والخيبة والخسران أبد الآبدين !!

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ

ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

مَآءً حَمِيمًا : بالغا الغاية في الحرارة.

مَاذَا قَالَ ءَانِفًا : ماذا قال الآن أو الساعة القريبة ؟

من علامات المنافق أنه إذا حضر مجلساً جاداً، تظاهر بسمت الأدب والجد والوقار، غير أنه يجلس هناك شارد الذهن مصروف الاهتمام إلى أشياء أخرى، بحيث لا يكاد يعي شيئاً مما يدور فيما حوله من حديث، ومن ثم فإذا خرج من المجلس، توجه إلى أهل العلم الآخرين سائلاً ! " ماذا كان يقول الشيخ الساعة في مجلسه"؟!

وهذا ثمن يُضطرون إلى دفعه بسبب عبوديتهم للشهوات، فهم يجعلون هواهم هو الغالب المسيطر على نفوسهم، ويأخذون في الانسياق وراءه بدلاً من الانسياق وراء الدليل والبرهان، وتكون النتيجة أن تنطمس حواسهم وتصاب شيئاً فشيئاً بالبلادة والخمول، ولا تعود عقولهم قادرة على إدراك الحقائق السامية اللطيفة .

وعلى نقيضٍ من ذلك فالذين يعطون الأهمية للحقائق ويأخذون أنفسهم بالخضوع والاستسلام للدليل الصادق، فإنهم ينعشون بذلك استعدادهم الفكري، ولا تزال معرفة أناسٍ كهؤلاء تتزايد يوماً بعد يومٍ، إذْ أنهم يظفرون بإيمان دائم التجدد والنماء وغير قابلٍ للجمود أوْ النقصان أبداً !

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

جَآءَ أَشْرَاطُهَا : علاماتها ومنها مبعثه ﷺ .

فَأَنَّى لَهُمْ ؟: فكيف . أو من أين لهم ؟

ذِكْرَاهُمْ : تذكرهم ما ضيعوا من طاعة الله .

يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ : متصرفكم حيث تستقرون .

الشخص الذي لا يتنبه على سابق إنذار بوقوع الزلزال، فكأنما هو ينتظر أن يقع الزلزال فعلاً، لأن كل ثانية تمضي تُقَرِّبه من الزلزال ، وكذلك لا يكاد يتنبه المرء ولا يأخذ حذره من نذير القيامة ، ولكنه إذا فوجئ بقيام الساعة، فسيأخذ في الاعتراف والتسليم !!

الاستغفار في جوهره تعبير عن الشعور بالعجز ، إن الاضطراب أَوْ التهيّج النفسي الذي يتمخض عن استحضار أهوال القيامة، وعن الإحساس بقدرة الله وبرقابته وعلمه الشامل المحيط بكل شيء، لا يزال ينسبك في صورة كلماتٍ لطيفةٍ، وهذه الكلمات هي التي يقال لها الذكر والدعاء والاستغفار !

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾

وَمَثْوَاكُمْ : مقامكم حيث تستقرون .

المَغْشِيِّ عَلَيْهِ : من أصابته الغشية والسكرة .

فَأَوْلَى لَهُمْ : قاربهم ما يهلكهم واللام مزيدة ، أو العقاب أحق وأولى بهم .

طَاعَةٌ : خير لهم أو أمر طاعة .

عَزَمَ الأَمْرُ : جد ولزمهم الجهاد .

فَهَلْ عَسَيْتُمْ : فهل يتوقع منكم ؟ (أي يتوقع) .

تَوَلَّيْتُمْ : الحكم وكنتم ولاة أمر الأمة .

المنافق يكون أسبق الناس في مجال القول، وآخِرهم في ميدان العمل، حيث لا يفتأ يتحدث عن الجهاد قبل وقوع الجهاد بالفعل، وأما إذا جد الجد، وتحتم الجهاد، فلا يلبث أن يفر هاربا!!، وأما المؤمن الصادق فإنه يكون دوماً على أتم الاستعداد للسمع والطاعة والانقياد ، فإذا عزم الأمر، وقرّ رأي القيادة على تبني خطوةٍ جادة، أثبت بعمله أنه وفي كل الوفاء بعهده الذي عاهد عليه ربَّه !

وقد يتظاهر المنافقون بالحرص على الأمن والسلام تهرباً من متاعب الجهاد ، ولكن واقعهم العملي يشهد بالنقيض؛ فحيثما وجدوا الفرصة، راحوا ينشرون الفساد والفوضى، ولا يتحرجون حتى من التمالؤ والتعاون مع أعداء المسلمين غير مبالين بما بين هؤلاء وإياهم من وشائج القربى فضلاً عن أخوة الدين !! ومثل هؤلاء ملعونون عند الله، وكون المرء ملعوناً يؤدي إلى أن يسلب منه قوى التفكير والإدراك، فيعود لا يرى مع كونه يملك البصر، ولا يسمع وعنده أذنان !!

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾

أَقْفَالُهَا : مغاليقها التي لا تفتح .

سَوَّلَ لَهُمْ : زين وسهل لهم خطاياهم ومناهم .

وَأَمْلَى لَهُمْ : مد لهم في الأماني الباطلة .

يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ : إخفاءهم كل قبيح .

القرآن كتاب موعظةٍ ، ولكن لكي يتغط المرء بشيءٍ ما، لابد أن يكون جاداً بشأن الموعظة ، ولو أن عاطفةً خاطئةً استمكنت من نفس المرء وجعلته غير جادٍ بشأن الموعظة، فإنه لن يستطيع الانتفاع بها أبداً، مهما تم عرضها بأسلوبٍ رائعٍ جميلٍ .

وإن المرء إذْ يُعرض عليه حكم من أحكام الدين يتطلب التضحية بشهواته ومصالحه، فإذا بالشيطان يلقن المرء بعض الأعذار الكاذبة، وبسبب مهلة الامتحان المتاحة في عالمنا الراهن فقد لا يعدم المرء الفرصة لكي يختار ذلك العذر الشيطاني الكاذب عملياً ، غير أن ذلك لا يدوم سوى أيامٍ معدوداتٍ، فحين يوافيه الأجل المحتوم، تنقلب الأوضاع والموازين والقيم كلها رأساً على عقبٍ !

لقد وُصف النفاق هنا بعبارة الارتداد على الأدبار من بعد ما تبين لأصحابه الهدى، ولكن من المعلوم أن منافقي المدينة هؤلاء لم يعاقبوا بعقوبة الردة المقررة في التشريع الإسلامي، ومن هذا نعلم أن عقوبة الارتداد الشرعية إنما تنفذ على الذين يرتدون جهراً وعلانيةً ، إذن، فليس من الجائز لنا أن نحكم على شخصٍ ما، من تلقاء أنفسنا، بأنه مرتد في الباطن، ثم نأخذ في تنفيذ عقوبة الردة الشرعية عليه، لا، بل يجب التعامل معه بحسب ظاهره، وتوكل سرائره إلى الله علام الغيوب، كما هو منهج الإسلام في معاملة الناس !

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ

لأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

أَضْغَانَهُمْ : أحقادهم الشديدة الكامنة .

بِسِيمَاهُمْ : بعلامات نسمهم بها .

فِي لَحْنِ الْقَوْلِ : بفحوى وأسلوب كلامهم الملتوي .

إنما كان مرض المنافقين هو كون صدورهم منطويةً على الحقد والضغينة والكراهية للمؤمنين الصادقين ؟! وهؤلاء المنافقون وإن كانوا يحاولون إخفاء حالتهم الداخلية تلك بإظهار المودة والولاء في سلوكهم الظاهري، إلا إنها لم تكن خافية على ذوي العقول والبصائر ، حيث إن لهجتهم المصطنعة، ونبرات صوتهم الباردة الخالية من الهم والإخلاص للدعوة المحمدية كانت تشي بأن علاقتهم بالإسلام إنما هي علاقة شكلية بحتة وليست علاقة قلبيةً بالمعنى الحقيقي !

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ : لنختبرنكم بالتكاليف الشاقة .

وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ : نظهرها ونكشفها .

عندما ينهض المرء بالإيمان، فتمر عليه ظروف وأحوال شتى ، وهذه الأحوال تكون محكاً يكشف عن صدق إيمانه ، فهي تقتضي أن يقيم المرء الدليل على كونه مؤمناً في مقابل التضحية؛ بأن يهضم نفسه ويقمع شهواتها، ويصرف نظره عن مصالحه المادية العاجلة، ويتحمل أذى الناس، ويظل ثابتاً على جادة الإيمان ولو كلفه ذلك حياته وما

ملكت يمينه !!

ولإلقاء المؤمن في أحوالٍ كهذه لابد وأن تُتاح لغير المؤمنين الحرية التامة، حتى يتمكنوا من اتخاذ أي إجراءٍ شاؤوا ضد أهل الإيمان ، وبينما تسفر هذه الإجراءات المعادية - من ناحيةٍ - عن قيام البرهان على جريمة المخالفين، يثبت أهل الإيمان - من ناحيةٍ أخرى - بصمودهم واستقامتهم في تلك الأحوال القاسية، أنهم مؤمنون حقاً، وجديرون بأن يختارهم الله لإسكانهم في عالمه الأبدي الكامل !

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾

فَلَا تَهِنُوا : فلا تضعفوا عن مقاتلة الكفار .

السَّلْمِ : الصلح والمواعدة .

يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ :ينقصكم أجورها .

جاء في رواية عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع - لا إله إلا الله - ذنب؛ فنزلت هذه الآية ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ وعلى ضوء هذه الرواية يكون معنى الآية أنه ينبغي للمرء أن يجمع بين الإيمان والطاعة، وألا يقوم بالتكاليف السهلة اليسيرة فحسب، بل عليه أن يقوم كذلك بالتكاليف العسيرة التي تستلزم هضم النفس، وكبت الشهوات، وتعريض المصالح الذاتية للخطر ، وإن هو لم يفعل ذلك فإن إتيانه بالنوع الأول من التكاليف وحده ، لن يعود عليه بأي فائدةٍ !

وشأن ضعاف المسلمين أنهم إنما يؤيدون الحق ما دام لا يجرّ عليهم ذلك غضب كبار العصر ، وإذا رأوا أن تأييد الحق يتسبب في إثارة غضب كبار العصر، مالوا إلى مهادنتهم، حتى ولو كان هؤلاء الكبار منكرين للحق صادين الناس عن سبيله .

والذين ينكرون الحق ويتصدون لمعارضته ووضع العقبات في طريقه، لن ينالوا نصيباً من رحمة الله أبداً، إذن فما بال أناسٍ يقفون إلى جانب المنكرين كهؤلاء، هل سيكون مصيرهم مختلفاً عنهم في شيء؟ كلا!

إن الإسلام يسمح بالحرب والقتال تماماً كما يدعو إلى الصلح والمسالمة ، إلا أنها ليست من الحرب الإسلامية في شيء، تلك التي يدخل فيها المقاتلون متأثرين بعوامل الإثارة والاستفزاز، كما أنه ليس من الصلح الإسلامي في شيء، وذلك الذي يكون الباعث عليه الجبن والخور وسقوط الهمة، ولإحراز النجاح والانتصار لابد من أن يتم كلا الأمرين تحت قرار مدبر مدروس بدل من أن يكون صادراً عن رد فعلٍ عاطفي !!

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾

فَيُحْفِكُمْ : يجهدكم بطلب المال .

أَضْغَانَكُمْ : أحقادكم الشديدة على الإسلام .

إن الشيء الذي يحول دون اختيار حياة الإيمان والتقوى هو فوائد الدنيا ومباهجها ، فالمرء يعلم جيداً ما الطريق الذي سيؤدي به إلى النجاح والفلاح في الآخرة ، ولكن همّ

المصالح الوقتية يملك عليه مشاعره كلها ويجعله بالتالي يتجه نحو طريق الضلال والانحراف ، على حين أن الله - جل شأنه - غاية اللطف والرحمة بعباده، حيث إنه لا يطالب المرء أبداً بما يخرج عن طوقه أوْ يفوق مقدرته على التحمل، مما قد يؤدي إلى انكشاف سرائره واطلاع الناس على مكامن ضعفه الفطري .

الإسلام دين الله ، غير أن واجب القيام بنشره وحفظه منوط، في عالم الأسباب هذا بطائفةٍ من البشر، وإن المسلمين هم هذه المجموعة البشرية ، وستكون لهم قيمة ويقام لهم عند الله وزن ماداموا يؤدون واجبهم ذاك على أفضل وجهٍ ممكنٍ، أما لو أنهم تقاعسوا عن القيام بهذا الواجب أوْ قصروا في أدائه، فسيوفق الله الشعوب الأخرى غيرهم إلى الإيمان، ويدعم بها دينه ليتمكن من البقاء والتوسع والاستمرار إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها !

سورة الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝ ﴾

فَتْحاً مُّبِيناً: هو صلح الحديبية عام ستة هجرية .

في سنة ٦ هجرية خرج رسول الله - ﷺ- من المدينة برفقة أصحابه إلى مكة لأداء العمرة . ولما اقترب - عليه الصلاة والسلام - من موضع الحديبية، تصدى له المشركون يمنعونه من دخول مكة، ثم بدأت بينه وبين قريش مفاوضات انتهت بتوقيع الفريقين هدنةً تعرف بـ " صلح الحديبية " .

وكانت هذه المعاهدة قد تمت، على ما يبدو، نزولاً على شروط المشركين من جانب واحدٍ، مما ملأ قلوب أصحاب الرسول كآبةً وتذمراً ، وكانوا يعتبرون ذلك صلح الذل والهوان ، ولكن الرسول - ﷺ- لم يكد ينصرف من الحديبية عائداً إلى المدينة حتى نزل عليه الوحي في بعض الطريق بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ ﴾ .

والسر في ذلك أن: معاهدة الصلح هذه قضت بوضع السلاح وعدم لجوء الفريقين إلى الحرب لمدة عشر سنوات ، وقد كان وقف الحرب يعني انفتاحاً لباب الدعوة على مصراعيه، ففي أعقاب الهجرة النبوية كانت عملية الدعوة والتبليغ قد توقفت تماماً أو كادت بسبب استمرار حالة الحرب بين أهل الإسلام وأهل الشرك ، أما الآن فقد أسفرت الهدنة عن مناخ هادئ معتدل يسمح بالحوار وتبادل وجهات النظر بين كلا الفريقين دون عوائق، مما غيّر ميدان المواجهة ، ففيما كان الصراع بين الجانبين قبلئذٍ يدور

في ساحة الحرب والقتال، حيث كان الفريق الثاني يتمتع بالغلبة والتفوق، فإذا بالصراع ينتقل مركز ثقله الآن إلى ميدان النظرية الأيديولوجية ، حيث كان التوحيد طبعاً في موقع الغالب المتفوق إزاء الشرك بصورة صريحة وحاسمةٍ ، وذلك هو " الصراط المستقيم " في هذا السياق، الذي قد امتن الله على الرسول بإرشاده إليه، أي الطريق الذي كان فيه الضمان الحتمي الأكيد لانتصار حاملي لواء التوحيد !

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾

السَّكِينَةَ: السكون والطمأنينة والثبات.

ظَنَّ السَّوْءِ: ظن الأمر الفاسد المذموم.

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ: دعاء عليهم بنصره.

المراد بـ " السكينة " هنا : التزام الهدوء وعدم الثورة رغم كل محاولات الإثارة والاستفزاز ، فقد لجأ معارضو الإسلام أثناء سفر الحديبية إلى استفزاز المسلمين بشتى الطرق، حتى يندفعوا إلى تبني خطوة يتخذ منها المعارضون ذريعة للاعتداء عليهم ، غير أن المسلمين تحملوا كل استفزازٍ برحابة صدر، وظلوا متمسكين بخطة الإعراض

من جانبٍ واحدٍ حتى آخر لحظةٍ، وإنه لو شاء الله - وهو القوى العزيز - لأخضع الباطل وأظهر عليه الحق بتدخلٍ منه مباشر ، إذن، فما السر في أنه تعالى يعرّض أهل الإيمان لأحوال كأحوال " صلح الحديبية " عبر مسيرتهم الإيمانية ؟

الحكمة من هذا الابتلاء هي زيادة إيمان المؤمنين ، فحين يكبت المرء دوافع الانتقام في داخله، ويصالح قوماً طاغين لأن هذا هو مقتضى دعوة الحق، فإنه يفعل حينذاك بموجب قراره الشعوري شيئاً لم يكن قلبه راضياً بفعله ، وهكذا فهو يعمل على تنمية شعوره الإيماني، ويجعل من وجوده مهبطاً لكيفيات ربانية لا يمكن التمتع بها بأي طريقة أوْ تدبير آخر . كما تنطوي سنة الابتلاء الإلهية هذه على فائدةٍ أخرى، وهي أنها تمحص الناس وتميز من يستحق منهم الجنة ممن هو من أصحاب النار .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

وَتُعَزِّرُوهُ: تنصروه تعالى بنصرة دينه.

وَتُوَقِّرُوهُ: تعظموه تعالى وتبجلوه.

وَتُسَبِّحُوهُ: تنزهوه عما لا يليق بجلاله.

بُكْرَةً وَأَصِيلاً: غدوة وعشيا أو جميع النهار.

نَكَثَ: نقض البيعة والعهد.

في ترجمته الفارسية لمعاني القرآن الكريم قد فسر شاه ولي الله الدهلوي وصفه

"شاهداً " بعبارة : (إظهار حق كننده) يعني مبيناً للحق ومظهراً له وهذا هو المدلول الأقرب إلى الصحة والصواب لهذا اللفظ، فالمسئولية الأساسية الملقاة على عاتق الرسول تتلخص في أن يتناول الحقيقة بالتبيين والإظهار، ويوضح للناس من الذين ينعمون في الحياة الأبدية بعد الموت بثواب الله ، ومن الذين يتعرضون لعذاب الله ، وقيام شاهد للحق كهذا يضع مخاطبيه على محك اختبار أقسى ما يكون، إذْ يُضطر هؤلاء إلى أن يستمعوا صوت الله من خلال صوت أحد البشر، وأن يروا في شخص " إنسانٍ " مندوبَ الله مع كونه لا يختلف عنهم من حيث مظهره في شيء ، وأن يحسبوا - وهم يضعون أيديهم في يده للمبايعة - أنهم يضعون أيديهم في يد الله ! والذين يقيمون الدليل على هذه الدرجة العالية من المعرفة لهم عند الله أجر عظيم، وأما الذين يفشلون في هذا الامتحان فلهم عذاب غليظ !!

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾

ٱلْمُخَلَّفُونَ: عن صحبتك في عمرة الحديبية.

لَّن يَنقَلِبَ: لن يعود إلى المدينة.

قَوْماً بُوراً: هالكين أو فاسدين.

رأى رسول الله - ﷺ- في منامه - وهو بالمدينة - أنه يزور مكة معتمراً ، وبمقتضى هذه الرؤيا خرج - عليه الصلاة والسلام - مع أصحابه إلى مكة لأداء العمرة ، غير أن الظروف يومئذٍ كانت سيئةً للغاية، حيث كان من المحذور جداً أن يقع صدام عنيف مع قريش يُسفر - بطبيعة الحال - عن سفك دماء المسلمين بغزارةٍ ، وقد حدث بالفعل أن المسلمين لما اقتربوا من مكة حاولت قريش استفزازهم بشتى الأساليب ، حتى رمى بعض فتيانهم المعسكر الإسلامي بالحجارة والنبل، ليثور غضب المسلمين فيندفعوا إلى قتالهم ، ولكن تمسك الرسول وأصحابه بالصبر والإعراض خيب آمال قريش وأحبط محاولاتهم العدوانية الشريرة .

وتحسباً لهذه المخاوف ذاتها لم يَخرج معه - عليه الصلاة والسلام - أعراب المدينة وكثير من ضعاف المسلمين ، ولما رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة سالماً على خلاف توقعاتهم السيئة، جاءوا إليه يعتذرون ويُظهرون له صدق الولاء والوفاء ، ولكن اعتذارهم قوبل بالرفض ، لأنه كان اعتذاراً كاذباً ولم يكن صادقاً، وبينما يحظى الاعتذار الصادق عند الله دوماً بالقبول الحسن، لا يقابل الاعتذار الكاذب إلا بالرفض المطلق !!

ولم يكن تقاعس هؤلاء عن الخروج مع رسول الله بناء على عذرٍ حقيقي ، وإنما كان نتيجة ضعف الإيمان وانعدام اليقين ، وقد ظنوا أنهم بابتعادهم عن رحلة محفوفة بالأخطار كهذه يحفظون مصالحهم، وما درَوْا أن مالك النفع والضرر هو الله، وأن التدابير الوقائية، مهما بلغت من الدقة والإتقان، لن تنقذ صاحبها لو لم يرد الله إنقاذه ، بل ربما تكون هي السبب في هلاكه، وليس لأمثال هؤلاء إلا الضياع والدمار في الدنيا والآخرة !!

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ

يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ
فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾

ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ: اتركونا نخرج معكم لخيبر.

كَلامَ الله : حكمه باختصاص أهل الحديبية بالمغنم.

لقد كان اليهود ، قبل صلح الحديبية جريئين جداً في معاداة المسلمين، ويرجع ذلك إلى أنهم كانوا يتمتعون بتعاون قريش الكامل معهم في هذا الصدد ، ولكن هدنة الحديبية لم تلبث أن قطعت أواصرهم مع قريش، كما جعلتهم في شبه عزلةٍ تامةٍ عن حلفائهم من القبائل العربية الأخرى كذلك ، فانهارت على إثر ذلك، معنويات اليهود القاطنين في خيبر وتيماء وفدك .. إلخ، ومن ثم حين زحف رسول الله - ﷺ - بجيوش المسلمين، بعد عقد الصلح بثلاثة أشهر فقط، نحو يهود خيبر، لم يتحمسوا للنضال طويلاً، وإنما اضطروا، بعد مقاومةٍ محدودةٍ ، إلى الاستسلام، والتنازل عن قدر هائلٍ من أموالهم للمسلمين مقابل الصلح ، وضعاف الإيمان الذين لم يخرجوا مع الرسول في سفر الحديبية باعتباره سفراً خطيراً غير مضمون النتائج، هاهم أولاء يرغبون هذه المرة في الانضمام إلى الجيش الإسلامي الزاحف نحو خيبر، ليكون لهم من مغانمها المرجوة نصيب ، ولكنهم منعوا من الخروج صراحةً ، فقد جرت سنة الله بأن من يتحدى الأخطار هو الذي يحصل على الربح والمنفعة، وأما إذا أراد المرء الحصول على المنفعة بدون مخاطرة ولا مجازفة؛ فكأنما يرغب في تبديل السنة الإلهية، ولكن ليس في مقدور أحدٍ أن يتناول سنة الله هنا بالتغيير أوْ التعديل !!

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ
يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ

يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ: أصحاب شدة وقوة في الحرب.

حَرَجٌ: إثم في التخلف عن الجهاد.

إن الذين تقاعسوا عن الخروج في عمرة الحديبية (سنة ٦هـ) لضعف إيمانهم، وإن كانوا قد حُرموا نتيجة ذلك، مما ساق الله إلى المسلمين من فتح قريب وغنائم عاجلة كثيرة، إلا أن الباب لم يُغلق في وجوههم بعدُ، إذْ كانت ثمة معارك أخرى كبيرة لا تزال تنتظر مسيرة التوحيد الطويلة، فكأنما قيل لهؤلاء : لئن أقمتم الدليل على التضحية والفداء في تلك المعارك المرتقبة مستقبلاً، إنكم ستعودون من جديدٍ أهلاً لفيض الرحمة الإلهية !!

ومثل هذا الامتحان يقرر ما إذا كان المرء مؤمناً أوْ منافقاً ، ولا يُستثنى من هذا سوى أولئك الذين يعانون من بعض الأعذار ، والله - سبحانه وتعالى - يعفو عن التقصير الاضطراري، ولكنه لا يعفو عن التقصير الصادر عمداً !!

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

يُبَايِعُونَكَ: بيعة الرضوان بالحديبية.

فَتْحاً قَرِيباً: فتح خيبر عام سبعة .

أَحَاطَ الله بِهَا: أعدها لكم أو حفظها لكم.

في أثناء سفر الحديبية تأزم الموقف إلى أبعد الحدود عندما انتشرت بين المسلمين شائعة مؤداها أن قريشاً قتلوا عثمان بن عفان الذي كان قد ذهب إليهم بوصفه سفيراً لرسول الله - ﷺ- وقد كان ذلك اعتداءً سافراً ، مما جعل رسول الله - ﷺ - يأخذ البيعة من أصحابه، وعددهم يومذاك ألفاً وأربعمائة رجلٍ، تحت شجرة "سمرة" بالحديبية، على أنهم سيظلون صامدين أمام العدو حتى الموت، ولن يولّوه الأدبار بأي حالٍ من الأحوال - وهذه البيعة تعرف بـ " بيعة الرضوان " في التاريخ الإسلامي . والمكان الذي تمت فيه هذه البيعة كان يبعد عن المدينة بمائتين وخمسين ميلاً، وعن مكة باثني عشر ميلاً فقط ، مما يعني أن المسلمين كانوا على مسافة شاسعةٍ من مركزهم، بينما كانت قريش في عقر دارها .

هذا إلى جانب كون المسلمين لا يتوافر لديهم سوى زاد المسافر وما يلزم في الطريق، لأنهم خرجوا بقصد العمرة، وأما قريش فقد كانوا متسلحين بكل أنواع المعدات الحربية . وفي موقف حرج بالغ الخطورة كهذا لم يحمل المؤمنين على مناصرة الرسول وتأييده شيء سوى عواطف الصدق والإخلاص والتفاني وحدها؛ إذْ لم يكن يوجد هناك أي ضغطٍ خارجي على الإطلاق ، والمراد بقوله : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ هو الحزن والاضطراب الذي كان قد ملأ قلوب الصحابة عقب صلح الحديبية، حيث كانت بنوده - في الظاهر - مجحفة بحقوقهم ، بيد أنهم أذعنوا لهذا الأمر الإلهي في صبر وسكونٍ، ونتيجة لذلك، لم يكد يمضي على عقد الصلح إلا بضعة أشهرٍ حتى بدأت فوائده الإيجابية بالظهور ، فقد

أدت هذه الهدنة إلى عزل قريش عن جبهة اليهود، وهكذا صار إخضاع اليهود أمراً ميسوراً، وبانتهاء حالة الحرب حظيت الدعوة الإسلامية بالتوسع والانتشار المتزايد يوماً بعد يوم، إلى أن تم عن طريق الدعوة تسخير قريش أنفسهم الذين لم يمكن تسخيرهم عن طريق الحرب على امتداد السنين !

﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) ﴾

لقد جرت سنة الله تعالى بالنسبة إلى المخاطبين الأوائل للنبي بأن يبيدهم عن آخرهم، إذا هم وقفوا من رسالته موقف الرفض والإنكار ، وعند الحديبية كان إنكار قريش قد تجلى بشكل نهائي واضح، ولو نشب يومئذٍ بين الفريقين قتال، والحالة هذه، لتنزلت جنود الملائكة لتقوية المسلمين وقطع دابر أعدائهم الكافرين . ولكن شاءت حكمة الله فيما يتعلق بأولئك المشركين ألا تتم إبادتهم شأن الشعوب الماضية، وإنما سيتم استخدام طاقاتهم وكفاياتهم البشرية غير العادية في خاتمة المطاف لصالح الدين الإلهي ، ولأجل ذلك أرشد الله تعالى رسوله إلى عقد الهدنة السلمية معهم .

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾

إن رؤساء قريش كانوا بمواقفهم المتعنتة وتصرفاتهم المعادية ضد رسول الله قد

جعلوا أنفسهم أهلاً للعذاب وأجدر بأن يُقاتلوا أعنف قتالٍ ، ولكن لأجل مصلحةٍ عليا عقد معهم الصلح بدلاً من الحرب ، وتلك المصلحة هي أن جماعة قريش كانت تشتمل إذ ذاك على أفراد آمنوا بدعوة التوحيد سراً تائبين عن الشرك، وآخرين لم يؤمنوا بعد، ولكن من المؤكد أن صلاحهم الداخلي سيجعلهم يبادرون باعتناق الإسلام إذا ما انتهى التوتر القائم واعتدل الجو ، ولذلك لم يسمح الله سبحانه بنشوب الحرب بين الفريقين، حتى تدخل تلك العناصر الصالحة في الإيمان، وتؤدي دورها الإسلامي المطلوب في هذه الدنيا؛ لتنعم بجزاء الله الأبدي في الآخرة . إن مصلحة الدعوة أكثر أهميةً عند الله من أية مصلحة أخرى سواها .

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

إن خشية الله إذا تمكنت من نفس امرئ ما، أخرجت من داخله أهمية كل شيء آخر سوى الله الواحد الأحد ، فهو يأخذ الآن يعطي الأهمية كلها لله وحده ، وقد كان موقف الحديبية امتحاناً قاسياً شديداً من هذا النوع بالنسبة إلى صحابة الرسول، وقد وُفقوا إلى اجتيازه بنجاحٍ ، ففي ذلك الموقف تجاوز الفريق الثاني كل الحدود في إظهار الحمية الجاهلية والعنجهية والعصبية القبلية ، ولكن الصحابة درجوا على تفويض كل شيء إلى الله. إن تقوى الله المتغلغلة في أحشائهم قد حالت بينهم وبين أن يسلكوا طريق العناد الجاهلي المعاكس أوْ العصبية المضادة، فلزموا الهدوء وملكوا أعصابهم ولم يثوروا حتى اللحظة الأخيرة رغم كل محاولات الإثارة والاستفزاز من الجانب الآخر .

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ

ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾

كان سفر الحديبية بناءً على رؤيا رآها رسول الله - ﷺ- حيث رأى - عليه الصلاة والسلام - في منامه بالمدينة أنه زار مكة معتمرا ففرح المسلمون بهذه الرؤيا باعتبارها بشارةً من الله، فانطلقوا من المدينة نحو مكة ، ولكن قريشاً حاصروهم بالحديبية ولم يسمحوا لهم بدخول مكة، حتى انصرف المسلمون آخر الأمر عائدين من حيث جاؤوا بدون أداء العمرة ، مما جعل بعضهم يتساءل : أين هي رؤيا النبي، ألم تكن صادقةً ؟ غير أن هذا كان شبهة فارغة ، إذْ لم يكن في الرؤيا تصريح ما بأن العمرة ستتم سنة ست هجرية !! ولقد تحقق ذلك بالفعل، وفق شروط المعاهدة نفسها، في ذي القعدة سنة سبع من الهجرة في غاية الأمن والوئام، وتسمى هذه العمرة في التاريخ الإسلامي بـ"عمرة القضاء".

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

كان لرسول الله - ﷺ- حيثيتان : أما أولها: فهي كونه نبي الله، وأما ثانيتهما : فهي كونه خاتم النبيين؛ إذْ لن يبعث بعده نبي إلى قيام الساعة ، وفيما يتعلق بالحيثية الأولى فقد كان واجبه - عليه الصلاة والسلام - يتمثل في القيام بما قام به كل من سبقه من الأنبياء والمرسلين، يعني إعلان التوحيد وإنذار الناس وتبشيرهم بما سيلقونه في الآخرة من نعيم أبدي أوْ عذاب مقيم .

غير أن الأمر كان مختلفاً بالنسبة إلى الحيثية الثانية ، فمن هذه الحيثية كان المطلوب أن يتم بواسطته - عليه الصلاة والسلام - إيجاد أحوالٍ وظروفٍ تاريخية ستكون كفيلةً

بالحفاظ على الكتاب الإلهي والسنة النبوية من الضياع أوْ التحريف؛ حتى لا ينشأ مرةً أخرى ذلك الفراغ الذي يتحتم معه بعث النبي الجديد، وقد كان من مقتضيات ذلك ألا تنتهي دعوته - عليه الصلاة والسلام - عقب " الإعلان " وكفى، بل تدخل مرحلة " الثورة " . والمراد بالثورة هو إحداث تغيرٍ في التاريخ العالمي بحيث تنتهي إلى الأبد تلك الأحوال والملابسات التي كانت وراء تعرض هداية الله بين الحين والآخر للتلاشي أوْ التشويه عبر القرون السالفة ، مما كان يقتضي أن يأتي نبي جديدٍ ليقوم بإحياء الهداية الإلهية في صورتها الأصلية النقية الخالصة ..!!

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ .

كان رسول الله - ﷺ- قد انتدبته العناية الإلهية لأداء دورٍ تاريخي عظيم ، أطلق عليه القرآن الكريم " إظهارا الدين " . ولكي يقوم - عليه الصلاة والسلام- بهذا الدور التاريخي خير قيام كان بحاجةٍ إلى جماعةٍ من البشر المتازين ، وقد تم إعداد هذه المجموعة البشرية بإسكان سيدنا إسماعيل في قلب الصحراء العربية، ولقد كانت مجموعة بني إسماعيل هذه تتميز بسمات حيويةٍ جعلتها بحقٍ مجموعّة فذةً لا نظير لها في التاريخ، ومن هنا فحين استنارت كفاياتها الكامنة بنور القرآن الكريم، تحولت، على حد تعبير البروفيسور "مرغوليوث " إلى شعب من الأبطال ، وقد كانت هذه الجماعة بالغة الأهمية عند الله لدرجة أنه عرّف أنبياءه بها سلفاً ، ففيما كانت التوراة تتضمن السمات الشخصية لأفراد هذه الجماعة، جاء الإنجيل يحتوي على خصائصهم الجماعية ،

وقد وُصف أفراد تلك الجماعة بأنهم غلاظ شداد بالنسبة إلى الكافرين ورحماء لينو العريكة بالنسبة إلى إخوانهم المؤمنين ، أي إن سلوكهم يتحدد بحكم المبدأ وليس بحكم الأهواء والرغبات ، وقد شرح ذلك الشاه عبد القادر الدهلوى بقوله : " إن الشدة واللين من شأنهما – ماداما في حالتهما الغريزية الأولى- أن يظهرا تلقائياً وبدون أي ضابطٍ أوْ تمييزٍ حيثما وُجد التهييج الخارجي لهما ، وأما إذا تم صقلهما وتهذيبهما بالإيمان، فإن كليهما لا يظهر إلا في مكانه المناسب ولا يتعداه بحالٍ من الأحوال !!

كما أن من السمات المزاجية المميزة لأفراد هذه الجماعة : إكثارهم من الخضوع والسجود أمام الله، وانشغالهم الدائم في عبادته وذكره عز وجل . وقد بلغ منهم التوجه نحو الله حداً يُرى معه أثر ذلك متجلياً في وجوههم ، إن صفة أصحاب الرسول هذه لا توجد بهذا التفصيل في التوراة المحرفة لدى اليهود ، غير أن لفظة " القديسين " مازالت موجودة في سفر " التثنية " حتى أيامنا هذه . (راجع : التثنية، الإصحاح الثالث والثلاثون).

أما نبوءة الإنجيل فلم تزل موجودةً حتى الآن في الإصحاح الرابع من إنجيل مرقس وفي الإصحاح الثالث عشر من إنجيل متىّ ، وهي تمثيل بليغ ، فحواه أن دعوة الإسلام ستبدأ في مكة شأنها شأن نبتةٍ صغيرةٍ ناعمةٍ ، ثم تأخذ في النمو والازدهار شيئاً فشيئاً حتى تستحيل شجرةً وارفةً عملاقةً ، وإنها لتبلغ في نهاية المطاف من القوة والرسوخ والتماسك درجةً يفرح بها أهل الحق ويسرون ، بينما يأكل الغيظ والحقد قلوب أهل الباطل لكونهم يرونها تمتد وتزدهر رغم أنوفهم ، وهم لا يقدرون على النيل منها أو اقتلاع جذورها بأية حيلة أو وسيلةٍ !!

سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾

لاَ تُقَدِّمُوا: لا تقطعوا أمرا وتجزموا به.

إن وضع رأينا الشخصي فوق رأي الرسول حرام بصريح هذا النص القرآني . وقد كانت صورة ذلك الرسول - ﷺ- على قيد الحياة ، أن يسبقه أحد بالجواب في مسألة تعرض في مجلسه ، وبالتالي يحاول تقديم قوله على قول الرسول . وأما بعد وفاته - عليه الصلاة والسلام - فيعني ذلك أن يأخذ المرء في تكوين آرائه ومواقفه تجاه شتى القضايا والشئون الحياتية متحرراً من هداية الله غير متقيد بتوجيهات رسوله الكريم ، وإنما يقع المرء في غفلةٍ كهذه لأنه يغيب عن باله أن الله رقيب عليه يرصد كل حركاته وسكناته ، ولو أدرك المرء أن صوته يصل إلى الله قبل وصوله إلى مسامع الناس لاحتبس لسانه في فمه ، ولصار أكثر ميلاً إلى أن يلزم الصمت منه إلى أن يتكلم !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ: كراهة أن تبطل أعمالكم.

يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ: يخفضونها ويخافتون بها.

امْتَحَنَ الله قُلُوبَهُمْ: أخلصها وصفاها.

الْحُجُرَاتِ: حجرات زوجاته ﷺ .

إن أعراب البوادي لم يكونوا على جانبٍ كبيرٍ من النضج الفكري والشعوري ، حتى إن بعض رؤسائهم كانوا إذا جاءوا إلى مجلس رسول الله - ﷺ - يخاطبونه باسمه قائلين " "يا محمد" بدلاً من : "يا رسول الله"، أو "يا نبي الله" . كما كان أسلوب حديثهم معه يتسم بالكبر والتعالي بدلاً من التواضع والانكسار، فنزل الوحي ينهاهم عن هذا الأسلوب وتلك الطريقة في المحادثة والخطاب . وحيث إن الرسول يكون مندوب الله في الأرض ؛ فإن سوء الأدب في حضرته على هذا النحو سوء تأدبٍ مع الله - عز وجل، مما من شأنه أن يحبط علم المرء ويجرده من كل قيمةٍ !!

والهدي الذي جاء به الرسول الكريم - ﷺ- يقوم مقامه في هذه الدنيا بعد وفاته، فنحن الآن مطالبون بالتبعية لهذا الهدي النبوي المقدس تماماً كما كان المعاصرون للرسول مطالبين بالتبعية لذات الرسول في كل شئونهم .

إن مخافة الله تجعل الإنسان غايةً في الجدية، فلو استقرت مخافة الله في قلب أحد الناس حقاً ، لاهتدى بمقتضى طبيعته إلى الأمور التي لا يكاد يدركها الآخرون حتى بالرغم من إرشادهم إليها مرةً وأخرى !

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ

فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾

لَعَنِتُّمْ: لأثمتم وهلكتم.

إذا أخبر شخص ما عن غيره بما يسيء إلى سمعة الأخير ؛ فإن تصديق مثل هذا الخبر فور سماعه يتنافى مع مزاج التحفظ والاحتياط الإيماني تمام المنافاة ، إذْ يجب على السامع في هذه الحالة أن يتخذ كل ما يلزم للتأكد من صحة الخبر أو كذبه ، وألا يبني رأياً أو حكماً إلا بعد التحقق النزيه المحايد وليس قبله ، وكثيراً ما يحدث أن المرء إذا بلغه خبر من هذا النوع ، يأخذ أصحابه من فورهم في الحديث عن القيام ببعض الإجراءات ضد الشخص المخبر عنه ، وهذا موقف يتسم بمنتهى عدم المسؤولية فلا يجوز لامرئٍ ما أن يحكم على أخيه بناء على خبرٍ قبل التثبت منه ، كما لا ينبغي لأصحابه بدورهم أن يشيروا عليه بالإقدام قبل الوقوف على حقيقة الأمر .

والذين يوفقون إلى طريق الرشد والهداية ينشأ في داخلهم مزاج يختلف عما كانوا عليه قبلئذٍ ، حيث تعود نفوسهم الآن تتقزز من توجيه التهم نحو الآخرين ، وهم يفضلون الصمت على الكلام في أمر لا يعرفون كنهه ، ومزاجهم هذا علامة تدل على أنهم قد ظفروا من رحمات الله بنصيبٍ ، وأن حياتهم وأعمالهم يتحكم فيها في الواقع ذلك الإيمان الذي هم يقرونه بألسنتهم !!

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا

بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

بَغَتْ: اعتدت واستطالت وأبت الصلح .

تَفِيءَ: ترجع.

وَأَقْسِطُوا: اعدلوا في كل أموركم.

المُقْسِطِينَ: العادلين فيحسن جزاءهم.

لاَ يَسْخَرْ: لا يهزأ ولاينتقص.

كيف ينبغي أن يعايش المسلمون بعضهم بعضاً ؟ جواب ذلك باختصارٍ هو أن يتعايشوا كإخوةٍ متحابين، فرابطة الدين ليست بأقل من رابطة الدم والقرابة بأي وجه من الوجوه، وإذا وقع بين رجلين من المسلمين خصام أدى إلى قتال ، فلا يجوز للباقين أن يلوذوا بالصمت أو يوسعوا شقة الخلاف بين الاثنين بوسائل التحريش والوشاية ، وإنما يجب عليهم أن يهبوّا بدافع الأخوة والمحبة لتسوية النزاع بمقتضى الحق والعدل وإيجاد الصلح والتفاهم بينهما .

وقد يحتمل إذا تخاصم رجلان أو طائفتان من المسلمين أن يقف الباقون من المتقاتلين على الحياد ، أو ينحاز بعضهم إلى طائفة وبعضهم الآخر إلى طائفة أخرى ، استجابة لدواعي التعصب العائلي أو التحزب المذهبي ، فيتقاتلون جميعاً بينهم ، وكل هذه الطرق بعيدة عن روح الإسلام تماماً ، والمنهج الإسلامي الصحيح هو البحث عن وجه الحق في الأمر المتنازع عليه ، والوقوف إلى جانب المحق ، وإرغام مَنْ ليس على الحق على قبول الحكم العادل في القضية محل النزاع ، والذي يخاف الله ويخشاه ليس من شأنه أبداً أن يتلذذ برؤية أخويه في الدين يتقاتلان ، وإنما هو يحزن أشد الحزن ويتململ

تململ السليم إذا ما وقع بصره على منظرٍ كهذا ، ولن يشعر بالهدوء أو الراحة ما لم يبذل جهده في الإصلاح وتطبيع العلاقات بين الاثنين ، وهؤلاء الذين يصير الإيمان بالله وتقواه عندهم مدخلاً إلى عالم الرحمات الإلهية!!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ: ولا يعب ، ولا يطعن بعضكم بعضًا.

وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ: لا تداعوا بالألفاظ المستكرهة.

إن عاطفة التعاظم والاستكبار - بمعنى التطلع نحو العظمة والكبرياء وحب البروز - كامنة داخل بعض البشر ، وهذا هو السر في أن شخصاً لا يكاد يعثر في غيره على نقيصةٍ ما ، حتى يتناولها بالتضخيم ويبالغ في إبرازها للناس ؛ وذلك لكي يثبت لهم أنه " كبير " وغيره " صغير " ... وهكذا يهزأ الإنسان بأخيه الإنسان ، وهو يلمزه ويذكره بلقب السوء سعياً منه وراء إشباع عاطفة التعاظم والكبرياء الكامنة فيه .

غير أن أساس التفاضل ومعيار الصلاح ليس ما يقرره المرء من تلقاء نفسه ، وإنما الصالح هو الذي يعتبر صالحاً عند الله ، والعكس صحيح . ولو استقر الشعور بهذه الحقيقة في نفس الإنسان لقضي على عاطفة كبريائه ، ولصار الاشتغال بلمز الغير والنيل من عرضه، وتناول الآخرين بالتعييب وذكرهم بما يكرهونه من الأسماء والألقاب لصار يبدو له كل ذلك لغواً فارغاً ، وعبثاً محضاً ؛ لأنه سيدرك أن مراتب الناس ودرجاتهم سيتم تحديدها عند الله عز وجل .. إذن فكم سأكون سخيف الرأي لو أنني احتقرت اليوم أحد الناس وكان هو في عالم الآخرة من بين عباد الله المكرمين ؟!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ: هو ظن السوء بأهل الخير.

وَلاَ تَجَسَّسُوا: لا تتبعوا عورات المسلمين.

فَكَرِهْتُمُوهُ: فقد كرهتموه فلا تفعلوه.

إذا ساء ظن الواحد منا بشخصٍ ما ، صار كل أمره عنده موضع الريبة والاشتباه ، حيث يسير ذهنه بالنسبة إلى ذلك الشخص بعدئذٍ في الاتجاه السلبي ، مما يجعله يفتش عن عيوبه أكثر من محاسنه ، ويعود النيل من عرضه وتشويه سمعته بنشر مساوئه بين الناس هوايته المفضلة..! وسوء الظن هو مصدر معظم الشرور والمفاسد الاجتماعية ، ومن هنا لابد للمرء أن يكون على حذر دائم بهذا الخصوص ، فلا يسمح للظن السيئ باقتحام قلبه أو ذهنه أبداً .

ولئن بلغك عن أحد الناس شيء يبعث على سوء الظن به ، فبإمكانك أن تلتقي به مباشرة لكي تتحدث إليه في هذا الشأن ، وأما ذكرك إياه بالسوء في غيابه ، حيث لا يمكنه أن يتولى الدفاع عن نفسه ، فذلك عمل دنيء جداً وبعيد عن الأخلاق والمروءة كل البعد ، ومن المحتمل أن يقع المرء في أخطاء كهذه بصورة وقتيةٍ ، إلا أنه لن يصر على خطئه أبدا لو كان قلبه مليئاً بخوف الله ، فإن خوف الله سرعان ما ينبهه على خطئه ويجعله بالتالي يتخلى عن فعله ويرجع إلى الله راجياً عفوه وغفرانه !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

توجد بين الناس فوارق شتى ؛ كفارق اللون والجنس والشعب والوطن .. إلخ ، والغاية من جميع هذه الفوارق إنما هي التعارف وليس التمايز أو التفاضل ، والسبب في معظم الشرور والآفات أن الناس يأخذون في تفضيل بعضهم على بعض بناء على مثل هذه الفوارق؛ مما يؤدي إلى الفرقة والخصومة والعصبية التي لا تعرف حداً تقف عنده !!

والبشر كلهم وحدة واحدة من حيث مبدؤهم ، وإن كان هناك أساس للتمييز أو التفاضل بينهم فإنما يتمثل ذلك في شيء واحد هو تقوى الله . والتقوى شيء لا يعلمه علماً حقيقياً إلا الله ... ولذا فالله وحده دون أحدٍ سواه يستطيع أن يحدد قيم الناس وأقدارهم تحديد العليم الخبير !!

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

آمَنَّا: صدقنا بألسنتنا وقلوبنا.

أَسْلَمْنَا: استسلمنا خوفا وطمعا .

كانت هناك عدة قبائل صغيرة في ضواحي المدينة، وهؤلاء ، وإن كانوا قد اعتنقوا الإسلام في أعقاب الهجرة النبوية ، إلا أن إسلامهم لم يكن وليد ثورة فكرية عميقة ، والمؤمن عند الله حقاً هو الذي يدرك الإسلام كحقيقة تسري في أعماق قلبه وتشربها روحه، والذين يدخلون في دين الله على هذا النحو ، يظفرون بيقين راسخ لا يزول ولا يتزلزل ، وهم يكونون مستعدين للثبات عليه حتى ولو اقتضى الأمر التضحية بالمال

والنفس، والمرء إذا صدر منه عمل صالح فقلما يطيق الصبر على إخفائه ، وإنما هو يميل في الغالب الأعم إلى إظهاره ، في حين أن هذا الإظهار يحبط عمله ، والعمل الصالح في الواقع هو الذي يُمارس لأجل الله ، وإذا كان الله خبيراً بكل شيء ، لا تخفى عليه خافية، فما الذي يدعو المرء إلى إظهار عمله والإعلان عنه ؟!

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

لا يَلِتْكُم: لا ينقصكم.

أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ: أتخبرونه بقولكم آمنا.

لو اهتدى شخص ما إلى الإسلام أو تحقق على يديه عمل إسلامي ما ، فيجدر به أن يعتبر ذلك نتيجة النصر الإلهي ، إذ الإيمان والعمل الصالح كلاهما يتوقف على توفيق الله وفضله ؛ ولذا يجب على المرء إذا وفق إلى خيرٍ ما أن يتوجه إلى الله بالشكر والامتنان ..

وبدلاً من هذا إذا أخذ الرجل يمن بذلك على إخوانه في الدين ، فكأنما هو يقول بلسان حاله: إن لم أكن قد فعلت ما فعلت ابتغاء وجه الله ، وإنما فعلت ذلك رياءً ونيلاً للحظوة لدى الناس!!. إن الله سبحانه يحيط علماً بكل شيءٍ على نحوٍ مباشرٍ فمن يعمل شيئاً لأجل الله ، فليكن واثقاً من أن ربه مطلع على عمله بدون اطلاعه إياه عليه !!

سورة ق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝ ﴾

وَالْقُرْآنِ: قسم جوابه لتبعثن.

رَجْعٌ بَعِيدٌ: رجوع إلى الحياة غير ممكن.

أَمْرٍ مَّرِيجٍ: مختلط مضطرب.

إن تاريخ الأنبياء والمرسلين يشهد بأن الأمم المعاصرة لهم قلما تستعد للإيمان بهم وتلقي دعوتهم بالقبول، ولكن الناس في العصور اللاحقة لا يلبثون أن يعترفوا لهم بالنبوة والرسالة دون إباءٍ أو عناد كثير . وسر ذلك أن النبي يبدو لمعاصريه "شخصاً مساوياً" لهم، ومن هنا قد يكون من دواعي العجب والدهشة لدى القوم أن يتحول هذا الشخص الذي كانوا يعدونه مساوياً لأنفسهم - فجأةً إلى كبير يعظهم وينصح لهم!!. وأما في الأزمان التالية، فإن النبي يكون قد اقترن باسمه تاريخ الأمجاد والبطولات، مما يجعله يتراءى لمن يأتون بعده "شخصاً متفوقاً" عليهم ؛ ولهذا السبب لا يصعب على الناس أن يعترفوا برسالة النبي في القرون المتأخرة ....، إن النبي يكون بالنسبة إلى أفراد الجيل المعاصر له شخصية خلافية (متنازعاً فيها) وبالنسبة إلى الأجيال التالية شخصية مسلماً بها ، وإذ يتعين على الجيل الأول أن يقطع رحلة شعورية لكي

يملأ الفراغ الحائل بينه وبين النبي، فإن هذا الفراغ يكون قد ملأه التاريخ نفسه في القرون المتأخرة .

والذين يشكّون في نبوّة النبي، يصير كل ما يدعو إليه في أعينهم موضع الشك والارتياب، حتى العقيدة التي تكون معروفة لديهم على وجه التقليد ، غير أن هذا الشيء لن يصلح عذراً للناس في تكذيبهم لدعوة النبي ، وسيجد المنكرون للنبي أنفسهم مضطرين إلى الإيمان به رسولاً من الله، لو أنهم تدبروا ما يتميز به كتابه من عظمة لا تدانى !.

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ ﴾

فُرُوجٍ: فتوق وشقوق.

وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا: بسطناها للاستقرار عليها.

رَوَاسِيَ: جبالاً ثوابت تمنعها الميدان.

زَوْجٍ بَهِيجٍ: صنف حسن نضر.

عَبْدٍ مُّنِيبٍ: راجع إلينا مذعن بقدرتنا.

وَحَبَّ الحَصِيدِ: حب الزرع الذي يحصد.

وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ: طوالا . أو حوامل.

لَّهَا طَلْعٌ: هو ثمرها ما دام في وعائه.

نَضِيدٌ: متراكم بعضه فوق بعض.

كَذَٰلِكَ الخروج: من القبور أحياء عند البعث.

إن هذا الكون، بما ينطوي عليه من روح وحكمة، وما يوجد فيه من روائع الخلق والإبداع، وكونه خالياً من كل نقصٍ أو خللٍ، وتلاؤمه مع الحاجات الإنسانية تمام التلاؤم.. إلخ، ليرغم كل ذي لبٍ على التأمل والتفكير، والذي يتأمل في النظام الكوني بجدية وإمعانٍ، سيدرك الخالق عبر مخلوقاته، وسيرى انعكاس الآخرة في مشاهد الدنيا، فإن عالم الآخرة ليس سوى صورة أخرى لازمة لعالمنا الراهن!!.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

وَأَصْحَابُ الرَّسِّ: البئر ، رسوا نبيهم فيها فأهلكوا.

وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ: سكان الغيضة الكثيفة الملتفة الشجر (قوم شعيب) .

وَقَوْمُ تُبَّعٍ: أبو كرب الحميري (ملك اليمن) .

أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ: أفعجزنا عنه – كلا.

فِي لَبْسٍ: خلط وشبهة وشك.

لقد حدث مرةً بعد أخرى، حسب التصوير القرآني للتاريخ، أن تعرضت الأمم والشعوب للهلاك والدمار لقاء إنكارها للأنبياء والمرسلين، وقد أشير هنا إلى بعض تلك الشعوب المهلكة على سبيل المثال دون الحصر، وإن إهلاك الأمم إنما هو في الأصل

جزء من الآخرة، حيث يتم من خلاله إظهار حظ يسير من العذاب الذي سوف يلقاه منكرو الحق هناك في حياتهم الراهنة ذاتها ليكون عبرة لمن يعتبر! إن عملية الخلق الأولى لهذا العالم تبرهن على إمكان الخلق الثاني ، ولو كان المرء جاداً حق الجدية لم يعد بحاجة ما إلى دليلٍ آخر بعد ذلك حتى يؤمن بالآخرة !!

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

حَبْلِ الوَرِيدِ: عرق كبير في العنق.

يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ: يحفظ ويكتب الملكان.

قَعِيدٌ: ملك قاعد.

رَقِيبٌ عَتِيدٌ: ملك حافظ لأقواله معد حاضر.

لقد أثبتت الدراسات العلمية أن هناك نظام "تسجيل" متناهياً في الدقة والإحكام، يوجد في هذا الكون، فتفكير الإنسان يرتسم على شاشته الذهنية بصفةٍ دائمة، وكل ما ينطق به الإنسان من الكلمات يبقى بشكل موجات هوائية في "الأثير" إلى الأبد ، وجميع أعمال الإنسان، القلبية منها واللسانية والعضوية، كلها تسجل عبر الموجات الحرارية بحيث يمكن إعادتها في أي وقتٍ ، وكل ذلك من الحقائق المعروفة لدى إنسان اليوم ، وهذه الحقائق المعروفة تقرب إلى أفهامنا خبر القرآن هذا بأن نية الإنسان وكلامه وعمله يحيط بها الخالق علماً، لا يخفى عليه شيء من ذلك صغيراً كان أو كبيراً ، وأن كل ما يقترفه الإنسان يتم تسجيله على الفور في سجل الملائكة بدقة فائقةٍ !

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ
ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ
مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا
لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾
ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا
مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم
بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾

سَكْرَةُ المَوْتِ: شدته وغمرته الذاهبة بالعقل.

تَحِيدُ: تميل عنه وتفر منه وتهرب.

غِطَآءَكَ: حجاب غفلتك عن الآخرة.

حَدِيدٌ: نافذ قوي.

عَتِيدٌ: معد حاضر مهيأ للعرض.

عَنِيدٍ: شديد العناد والمجافاة للحق.

مُرِيبٍ: شاك في الله وفي دينه.

مَا أَطْغَيْتُهُ: ما قهرته على الطغيان والغواية.

في هذه الآيات تصوير لغمرة الموت، يتبعه عرض لبعض مشاهد القيامة وأهوالها ، ومن خلال ذلك يتضح لنا ماذا سيجري هناك على أولئك الذين كانوا قد طغوا وبغوا في عالم الامتحان الراهن لكونهم يتمتعون فيه بالاختيار وحرية التصرف ، وإن هذا التصوير فظيع رهيب لدرجة أنه يكفي ليقض مضجع الإنسان الحي ويملأ قلبه بالقلق

والتوجس والاضطراب !!

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ: قربت وأدنيت.

أَوَّابٍ: رجاع إلى الله بالتوبة.

حَفِيظٍ: لما استودعه الله من خلقه.

بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ: مخلص مقبل على طاعة الله.

مَنْ الذين يستحقون جنان الله الأبدية ؟، إنهم أناس ظلوا طيلة حياتهم الدنيا خائفين وجلين من عذاب الله ، والذين قد استشعروا الخوف قبل رؤية العذاب، أولئك وحدهم سيكونون آمنين من كل أنواع الخوف والحزن يوم يصبح الخوف ماثلاً أمام الناس يرونه رأي العين . إن خشية الله تولد في نفس المرء صفات أهل الجنة، بينما يولد انعدام الخشية الإلهية صفات أهل النار!!

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

وَكَمْ أَهْلَكْنَا: كثيراً أهلكنا.

قَرْنٍ: أمة.

بَطْشاً: قوة أو أخذاً شديداً في كل شيء .

فَنَقَّبُوا فِي البِلادِ: طوفوا في الأرض.

مَحِيصٍ: مهرب ومفر من الله.

إن الشعوب تنهض وتأخذ بأسباب الرقي والتقدم حتى تبلغ قمة المجد والازدهار، ولكنها حين تتعرض للبطش الإلهي، نتيجة سوء أعمالها، لا تكاد تجد في جنبات الأرض من مهرب أو ملجأٍ تأوي إليه !.

ووقائع التاريخ هذه تنطوي على عبر ودروس عظيمةٍ ، غير أن الاعتبار لن يوفق إليه إلا شخص يتوافر لديه استعداد للتفكير ، يمكّنه من أن يتلقى بنفسه ما تحمله الأحداث والوقائع من إيحاءات ورسائل صامتة ، أو تكون عنده حاسة للسمع واعية بحيث إذا ذُكر له شيء من ذلك وصل إلى أعماق نفسه بدون عائقٍ !

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾

إن خلق السماوات والأرض في ستة أيامٍ، أو بلفظ آخر في ستة أدوارٍ، يوحي بأن منهج الله هو منهج العمل التدريجي ، وإذا كان الله رغم تمتعه بكل القوى والطاقات، يُظهر الأحداث والوقائع على التدريج خلال حقبة الزمن، فينبغي لنا نحن البشر - كذلك - أن نتجنب التسرع والاستعجال، ونحاول تحصيل النتائج المطلوبة عن طرق الجهد الصبور الدائب.

وعملية الدعوة عملية صبرٍ من بدايتها حتى النهاية ، حيث إنها تفرض أن يتحمل الداعي كل ما يواجهه من قبل الآخرين من الأذى والتجارب المريرة برحابة صدر،

وأن يواصل نشاطه على طول الطريق، وهذا العمل بما فيه من جهدٍ ومشقةٍ، وما يتطلب من تصبير دائم للنفس، لن يقوى على القيام به والاستمرار فيه إلا الذي يقضي ليله ونهاره مشغولاً بالذكر والعبادة، والذي يتلقى من ربه ما لا يجده من البشر، والذي لا يتمكن منه الشعور بالخيبة والحرمان أبداً حتى لو فقد كل شيءٍ !!

وقوله : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ تعبير ضمني يتناول بالتصحيح ما ورد في التوراة الحالية المحرفة من أن الله قد أكمل خلق السماوات والأرض في ستة أيامٍ ، ثم استراح بعد ذلك في اليوم السابع! (انظر سفر التكوين : الإصحاحين الأول والثاني)، إنما يستريح مَنْ يشعر بالتعب، وبما أن الله – سبحانه وتعالى – لا يمسه شيء من التعب أو اللغوب أو الإرهاق، لا يحتاج إلى الاستراحة أو الاستجمام البتة !

﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ: نفخة البعث.

تَشَقَّقُ الأَرْضُ: تنفلق وتتصدع.

سِرَاعاً: مسرعين إلى الداعي.

ليس لقيام الساعة موعد معين ، وإنما يصدر الله – عز وجل – أمره في أي وقتٍ شاء إلى "إسرافيل" الذي ينفخ في الصور إيذاناً بقيامها فجأةً !

والغافلون عن الله يرون القيامة أمراً بعيداً وربما يستبعدون وقوعها ، وأما المؤمن الصادق الإيمان فلا يزال في كل لحظةٍ في توجس وحذر وارتقاب : متى يُنفخ في الصور

فيفاجأ بمجيء الساعة الرهيبة ؟! وبعد أن ينفخ في الصور سوف تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، ويُحشر الناس كلهم في عالمٍ جديدٍ، حيث ينال الكل جزاءه الأبدي بحسب عمله!.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

بِجَبَّارٍ: بمسلط تجبرهم على الإيمان.

لقد ورد في القرآن الكريم عن رسول الله - ﷺ- مراراً وتكراراً ما معناه أن عملك الأساسي - أيها الرسول - إنما ينحصر في البلاغ وحده ، وليس المطلوب منك أن تقوم بتغيير الناس بالفعل ، ومن جانبٍ آخر أكد القرآن كذلك - في أكثر من موضعٍ - على أن الله - عز وجل - قد بعث رسوله بدين الحق لكي يظهره على كل الأديان سواه!!

سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ ﴾

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً: (قسم) بالرياح تذرو الرياح وتفرق التراب وغيره ذرواً.

فَالْحَامِلاتِ وِقْراً: السحب تحمل الأمطار حملاً

فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً: السفن تجري على الماء جريا سهلاً.

فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً: الملائكة تقسم المقدرات الربانية.

إِنَّمَا تُوعَدُونَ: من البعث (جواب القسم) .

وَإِنَّ الدِّينَ: الجزاء بعد البعث.

ذَاتِ الْحُبُكِ: الطرق التي تسير فيها الكواكب.

قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ: متناقض فيما كلفتم الإيمان به.

يُؤْفَكُ عَنْهُ: يصرف عن الحق الآتي به الرسول.

تصور هذه الآيات عملية المطر أبدع تصوير ، فأولاً تهب الرياح عاصفةً فتحمل ، بعد مرورها بمراحل شتى ، السحب المثقلة بالماء ، ثم تسوقها سوقاً لتمطر رحمةً ونعمةً على قومٍ ، وتجلب نقمة وعذاباً على آخرين في شكل الكوارث والفيضانات .

وهذه الواقعة تدلنا على أن عالم الله هذا يسوده قانون "تقسيم الأمر" ، فالناس هنا يتفاوتون في حظوظهم من متاع الحياة والرزق ، حيث ينال بعضهم قليلاً وبعضهم الآخر كثيراً ، ومنهم مَنْ يُعطي بلا حساب ومنهم مَنْ يُسلب بعد العطاء وفي هذا إشارة لنا إلى مآل الإنسان الذي ينتظره في العالم الآتي بعد الموت ، فمبدأ "تقسيم الأمر" هذا سيُنفذ هناك في أتم الوجوه وأكملها ، فإنما ينال الكل هناك ما ينبغي أن يناله بمقتضى العدل دون زيادة أو نقصان ، ولن يناله ما لم يكن يستحق أن يناله بموجب العدل كذلك.

وفي السماء نجوم وكواكب لا يحصيها العد ؛ كلها تتحرك في مداراتها المقررة وفق نظام محكم للغاية ، ولئن استطعنا إلقاء نظرة شاملة عليها ، وبالتالي رسمنا لها صورةً في مجموعها ، إنها ستبدو لنا كالشبكة أو كزرد منسق متشابك ذي حلقات متداخلة بعضها في بعضٍ ، ومثل هذا النظام المدهش يوحي بانطوائه على قصد ومعنى عميقٍ ، والذين يستعملون عقولهم سيجدون فيه مادة الدرس والعبرة ، وأما الذين لا يستعملون عقولهم فهو عندهم رقصة عابثة فارغة عن أي درس أو عظة ذات بالٍ !!

﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

قُتِلَ الخَرَّاصُونَ: لعن وقبح الكذابون.

غَمْرَةٍ: جهالة غامرة بأمور الآخرة.

سَاهُونَ: غافلون عما أمروا به.

أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ؟: متى يوم الجزاء ؟ (إنكار له)

يُفْتَنُونَ: يحرقون ويعذبون.

يَهْجَعُونَ: ينامون.

وَبِالأَسْحَارِ: أواخر الليل.

وَالْمَحْرُومِ: الذي حرم الصدقة لتعففه عن السؤال مع حاجته.

إن ألزم ما يلزم المرء لتفهم أمرٍ من الأمور هو الجدية ، فالذين لا يأخذون أمراً ما بمأخذ الجد ، لا يعيرون القرائن والأدلة المصاحبة له أي اهتمامٍ ، ومن ثم لا يستطيعون أن يفهموه بطبيعة الحال ، وهم يلجؤون بالتالي إلى الاستهزاء به إيهاماً للآخرين بأن هذا أمر بالغ السخافة، لدرجة لا يستحق معها أن يعتبر موضوع التأمل والتفكير الجدي!.

وأما أصحاب الجدية فحالهم على نقيضٍ من هذا تماماً ، فإن جديتهم تجعلهم يعيشون على حذر واحتياط دائم، وتنتزع من نفوسهم مزاج التعنت والطغيان وحساسيتهم المرهفة تجبرهم على القيام حتى في آناء الليل ، وهم يقضون أوقاتهم في ذكر الله وعبادته والتوجه إليه صباح مساء بطلب الرحمة والغفران ، وهم لا يعدون أموالهم نتاج كدهم وجهدهم الذاتي ، وإنما عطية من عطايا الله ، ولهذا السبب فإنهم يرون فيها حقاً لغيرهم أيضاً مثلما يرون فيها حقاً لأنفسهم !

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

لقد جعل الله عالمنا الراهن بحيث أصبح هذا العالم المعلوم بما فيه آية على العالم الآتي

المجهول ، فالوقائع المادية المبثوثة في جنبات الأرض والأحاسيس والمشاعر الكامنة في نفس الإنسان كلها تنبئنا سلفاً بالحدث الذي سوف يواجهه الإنسان مباشرةً بعد الموت .. ومن هذه الآيات ظاهرة النطق المشار إليها هنا.

وقد جاء في حديث عن شئون الآخرة أن النبي - ﷺ - قال : "إنما هي أعمالكم ترد عليكم" مما يعني أن عالم الآخرة لا يعدو أن يكون صنواً (Double) للعالم الحالي، ويتجلى لنا هذا الإمكان ، بصفة جزئية ، من خلال ظاهرة النطق البشري ، وذلك حين نسجل صوت شخص ما في الشريط ، ثم نشغله في آلة التسجيل ، فإذا بنا نسمع صوت الشخص ذاته كما هو مرةً أخرى ، بينما الحقيقة أن صوت الشريط إنما هو صنو للصوت الأصلي، وهكذا يمكننا النطق على المستوى الجزئي المحدود من تجربة الواقع الذي سيظهر في الآخرة على المستوى الكلي اللامحدود .

وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ معناه أنه إذا كان تكرار نطقكم ممكناً فلم لا يمكن إذن تكرار وجودكم؟! وإذا كنا نشاهد تكرار جزءٍ واحدٍ من الكيان البشري في حياتنا الراهنة ذاتها ، فمن اليسير ، قياساً على ذلك ، أن نفهم إمكان وقوع التكرار والإعادة للكيان البشري بأكمله!!

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾

ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ: أضيافه من الملائكة.

قَوْمٌ مُّنكَرُونَ: قاله في نفسه لغرابتهم.

فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ: ذهب إليهم في خفية من ضيفه.

فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ: فأحس في نفسه لغرابتهم.

بِغُلَامٍ عَلِيمٍ: هو هنا إسحاق عند الجمهور.

صَرَّةٍ: صيحة وضجة.

فَصَكَّتْ وَجْهَهَا: لطمته بيدها تعجبا.

تتحدث الآيات هنا عن قصة إبراهيم عليه السلام إذْ جاءته الملائكة تبشره بالولد وهو يومئذٍ قد تجاوز المائة سنة من عمره. لقد وُلد سيدنا إبراهيم في العراق القديم، حيث ظل يدعو قومه إلى التوحيد والآخرة زمناً طويلاً، ولكن لم يكد يستجب لدعوته من قومه سوى زوجته وابن أخيه، إلى أن بلغ عليه السلام سن الشيخوخة.

والآن، لم يعد للإبقاء على تسلسل رسالته واستمراريتها غير شكل واحدٍ، هو أن يولد له ولد، فيقوم على تربيته وإعداده لهذا الغرض، والعلاقة بين الأب وولده تقوم على أساس الدم، مما يكسبها قوة إضافية من شأنها أن تربط الولد بأبيه برباط متين لا ينفصم على اختلاف الأحوال والظروف، كما تجعله بالأحرى مناصراً متحمساً لأفكاره وآرائه، يسره أن تنتشر بين الناس وتنتقل إلى الأجيال القادمة. ولقد وهب الله لإبراهيم في آخر حياته ولدين اثنين: أولهما: إسماعيل الذي تم استخدامه كالنواة لجيل فريد من البشر يتربى في أحضان الصحراء، وثانيهما: إسحاق الذي بواسطته قام تسلسل دعوة التوحيد في بني إسرائيل .. ثم يقف في النهاية إلى جانب نبي آخر الزمان ويتعاون معه على تكميل رسالته التاريخية !!.

﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾

فَمَا خَطْبُكُمْ ؟: فما شأنكم الخطير ؟

مُسَوَّمَةً: معلمة بأنها حجارة عذاب.

كان إبراهيم ﷺ حينذاك في فلسطين ، وعلى مقربة منها كانت قريتا سدوم وعامورة - مساكن قوم لوط - بجنوبي البحر الميت ، ورغم بقاء لوط ﷺ بين أولئك القوم مدة طويلة من الزمان يدعوهم إلى الحق وينذرهم - إن لم يؤمنوا به - ببأس الله ، إلا أنهم لم يرضوا بنبذ حياتهم المنحرفة الغافلة عن الله ، فخرج لوط وأصحابه من بينهم إلى حيث أمرهم الله ، فلم يلبث الملائكة الذين سبق ذكرهم آنفاً أن أهلكوا القوم عن بكرة أبيهم بالرجفة والعواصف وبوابل من الحجارة المعلَّمة لا يعلم حقيقتها إلا الله سبحانه وتعالى . لقد اندثر قوم لوط منذ ألفي سنة مضت ، غير أن مساكنهم الخربة - بالمنطقة الواقعة جنوبي البحر الميت - ما زالت إلى يومنا هذا تلقن الدرس والعبرة لمن يتوافر لديهم مزاج التذكر والاعتبار بالأحداث والوقائع!!

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن

قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

وَفِي مُوسَى: وجعلنا في قصة موسى آية.

فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ: فأعرض فرعون بقوته وسلطانه عن الإيمان .

وَهُوَ مُلِيمٌ: آت بما يلام عليه.

الرِّيحَ الْعَقِيمَ: المهلكة لهم القاطعة لنسلهم.

كَالرَّمِيمِ: كالشيء البالي المفتت الهالك.

فَعَتَوْا: فاستكبروا.

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ: فأهلكتهم صيحة أو نار من السماء.

اعتبر فرعون ما جاء به نبي الله موسى من الخوارق والمعجزات سحراً ، كما عبر عن يقينه الذي كان يشهد بكونه على الحق بأنه جنون ! وهذا هو التلبيس عينه. والتلبيس هو الملجأ الدائم للذين لا يستعدون للإيمان بالحق رغم تضافر الأدلة والبراهين على إحقاقه .

ولا ينفلت الطغاة والمتعنتون إزاء الحق كهؤلاء من بطش الله أبداً ، فقد أغرق فرعون وجنوده بناء على هذا ، كما حل بقوم عاد وقوم ثمود وقوم نوح ما حل من العذاب والدمار للسبب نفسه، وليس لأمثال هؤلاء في دنيا الله هذه من متاع سوى هذا المتاع القليل المقدور لهم لحكمة الامتحان إلى أجل محدودٍ !

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾

بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ: بقوة وقدرة.

وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ: لقادرون.

وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا: مهدناها وبسطناها كالفراش للاستقرار عليها.

فَنِعْمَ المَاهِدُونَ: المسوون المصلحون.

خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ: صنفين ونوعين مختلفين.

فَفِرُّوا إِلَى اللهِ: فاهربوا من عقابه إلى ثوابه.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧)﴾ هذه الفقرة الواردة هنا في سياق الحديث عن خلق السماء ربما تتضمن الإشارة إلى طبيعة الكون تلك التي لم يتم اكتشافها إلا في مطالع القرن العشرين ، وأعني بذلك تمدّد الكون واتساعه بالتسلسل الدائم في كل الاتجاهات، وتمدّد الكون على هذا النحو دليل على أنه لم يُخلق من تلقاء نفسه وإنما خلقه خالق ، إذْ أن هـذا التمدّد يعني أنه كان في بدايته " منكمشاً " ، فبموجب القوانين المادية المعروفة كانت كل الأجزاء التركيبية لكتلة الكون البدائية هذه مركزةً ومجتمعةً بعضها مع بعضٍ بشدة ، وفي هذه الحالة فإن أخذها في الاتساع نحو الفضاء الخارجي وتباعد الأجرام بعضها عن بعض بسرعات هائلةٍ لا يتصور بدون تدخل من "الخارج" .. وإيماناً بهذا التدخل الخارجي يستلزم الإيمان بالله بالضرورة .

إن نظام كوننا هذا نظام ينطوي على حكمة بالغةٍ ومعنى عميق ، مما يثبت أن العالم الراهن أُنشئ لغاية سامية ، ولكنا نرى الإنسان قد ملأ الأرض شراً وفساداً ، وشأن هذا الواقع العبثي اللامعقول بالنسبة إلى هذا الكون الهادف المعقول كشأن النغمة النشاز في اللحن المتناسق ! وهذا الوضع يقضي بظهور عالم يخلو من كل ألوان الشر والفساد.

ومرة أخرى نلتقي هنا بظاهرة من ظواهر الكون الحالي تتولى الإجابة عن هذا السؤال، وهي كون الأشياء هنا زوجين زوجين ، فالذرة - وإليها يرجع بناء الكون كله - مؤلفة من زوج من الكهرباء : موجب وسالب ، وينقسم النبات بدوره إلى ذكر وأنثى تماماً كما هو حالنا نحن البشر ؛ مما يدلنا على قاعدة تسري في هذه الوجود ، وهذا أن كل شيء يتلاقى في نقصه ويستكمل ذاته عبر الانضمام إلى زوجه، وتلك قرينة تبرهن على إمكان وقوع الآخرة . فكأن عالم الآخرة هو زوج عالمنا الراهن بحيث لا يكتمل هذا الأخير إلا بالانضمام إلى الأول !!

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

طَاغُونَ: متجاوزون الحد في الكفر.

من شأن الرجل الجاد إذا طالب بإقامة الدليل على أمرٍ ما ، أن يؤمن به فور ظهور الدليل المطلوب، وأما الذين مزاجهم التعنت والعناد فلا يمكن إقناعهم أو إسكات ألسنتهم بأي دليلٍ ، حيث إنهم سيجدون لرفض كل دليل تأتي به بعض الألفاظ الجديدة ، حتى إنك لو أتيت بدليلٍ لا سبيل إلى دحضه منطقياً لأعرضوا عنه قائلين : إن هذا سحر!!. وينبغي للداعي ألا يقع فريسة اليأس إذا أنكر هؤلاء دعوة الحق، فإنه سوف يجد أنصاره بين آخرين عداهم ليسوا مصابين بعقدة الشعور بالكبرياء الكاذبة!.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى

يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

لِيَعْبُدُونِ: ليعرفوني أو ليخضعوا لي ويتذللوا.

ذَنُوباً: نصيبا من العذاب.

إن الهدف الوحيد وراء خلق الإنس والجن هو عبادة الله ، ومعنى العبادة أن نخضع أنفسنا بين يدي الله، ونعود عابدين له تعالى بأتم معاني الكلمة ، وجوهر العبادة هو المعرفة ، ومن ثم شرح ابن جريج قوله : ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ بعبارة : "إلا ليعرفون"، كما حكي عنه ابن كثير في تفسيره . يعني أن المطلوب من الإنسان أن يدرك الله على وجه الاكتشاف ، ويتعرف على الله من غير أن يراه رأي العين ، وهذا ما يسمى المعرفة ، والحياة التي تظهر باعتبارها نتيجة تلقائية لهذه المعرفة هي التي يقال لها العبادة والعبودية .

إن الدلو حين يمتلئ فلا يلبث أن ينغمر في الماء ، وهكذا لا يكاد المرء يستكمل فرصة العمل المتاحة له على هذه الأرض حتى يبتلعه الموت ، فمن أصلح نفسه قبل "امتلاء الدلو" نجا وأفلح ، وأما من ظل غافلاً حتى اللحظة الأخيرة الحاسمة فقد خاب وهلك . ولا يظن الظالمون إذا كانوا لا يتعرضون للمؤاخذة أنهم قد أهملوا ولن يؤاخذوا .. ! وإنما تُركوا أحراراً يتصرفون كما شاؤوا؛ لأن سنة الله قد جرت بعدم التعجيل بالمؤاخذة ، لا لأن الله غير مؤاخذهم .

سورة الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾
وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن
دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا
﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾
اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

وَالطُّورِ: (قسم) بجبل طور سيناء الذي كلم الله عنده موسى.

وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ: مكتوب على وجه الانتظام.

فِي رَقٍّ: ما يكتب فيه جلدا أو غيره.

مَّنْشُورٍ: مبسوط غير مختوم عليه.

وَالْبَيْتِ المَعْمُورِ: هو الضراح في السماء أو الكعبة.

وَالسَّقْفِ المَرْفُوعِ: السماء.

وَالْبَحْرِ المَسْجُورِ: الموقد ناراً يوم القيامة.

إِنَّ عَذَابَ : (جواب القسم) بما سبق.

تَمُورُ السَّمَاءُ: تضطرب وتدور كالرحى.

فَوَيْلٌ: هلاك أو حسرة أو شدة عذاب.

خَوْضٍ: اندفاع في الأباطيل والأكاذيب.

يُدَعُّونَ: يدفعون بعنف وشدة.

اصْلَوْهَا: ادخلوها. أو قاسوا حرها.

الطور هو اسم الجبل الذي منح عنده موسى عليه السلام النبوة في برية سيناء، والمراد بالكتاب المسطور التوراة، أما البيت المعمور والسقف المرفوع فالمقصود منهما الأرض والسماء على التوالي، وأما البحر المسجور فهو البحر الهائج المتلاطم الأمواج، كل هذه الأشياء شاهدة على أن يوم المؤاخذة الإلهية قادم ولا ريب، وبهذا النبأ ذاته بعث الله رسله تترى عبر القرون الخالية ، وهو مسجل في كل الكتب السماوية منذ أقدم العصور، كما تعلن عنه السماء والأرض بلغة الصمت والسكون، ويحكي البحر بأمواجه المتلاطمة قصة ذلك لكل سامع !!

إن الإنسان مجزي بعمله لا محالةً ، وهو ينبأ بذلك في الحياة الراهنة كإنذارٍ مسبقٍ، والذين لا يتنبّهون على هذا الإنذار المسبق، فإنما سيفاجئون غداً باستحالة غفلتهم وطغيانهم عذاباً أليماً يحيط بهم من كل جانبٍ بحيث لا يستطيعون دفعه عن أنفسهم ولا يجدون إلى الهرب منه سبيلاً!

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

فَاكِهِينَ: متلذذين ناعمين مسرورين.

سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ: موصول بعضها ببعض باستواء.

وَزَوَّجْنَاهُم: قرناهم.

بِحُورٍ عِينٍ: بنساء بيض نجل العيون حسانها.

إن أكبر جريمة يرتكبها الإنسان على هذه الأرض تتمثل في تكذيبه للحق، حيث إنها هي مصدر سائر جرائمه الأخرى، كما أن الاعتراف بالحق هو حسنة الإنسان الكبرى، إذْ تأتي كل الحسنات الأخرى كثمرة طبيعية لها، وبالاعتراف بالحق يتحطّم كبرياء الإنسان وتنهار عظمته، ومن ثم كان ذلك أصعب عملٍ وأشد وطأةً على نفس الإنسان، ولا ينجح في القيام بحقه إلا من جعلته مخافة الله وتقواه جاداً إلى أقصى حدود الجدية، والذين يقيمون الدليل على هذه الحسنة الكبرى يستحقون بالأحرى أن تفتح لهم أبواب جنان الخلد والنعيم المقيم !!

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾

وَمَا أَلَتْنَاهُم: ما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق.

رَهِينٌ: مرهون عند الله تعالى.

يَتَنَازَعُونَ: يتجاذبون ويتعاورون.

كَأْساً: خمراً. أو إناء فيه خمر.

لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ: لا كلام ساقط في أثناء شربها ولا فعل يوجب الإثم.

لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ: مستور مصون في أصدافه.

مُشْفِقِينَ: خائفين من العاقبة.

عَذَابَ السَّمُومِ: نار جهنم النافذة في المسام.

هُوَ البَرُّ الرَّحِيمُ: المحسن العطوف ، العظيم الرحمة.

إن كل إنسان سيكون في الآخرة مرهوناً بعمله وحده ، فلا يحدث أن يُحمّل شخص شيئاً من ذنوب شخصٍ آخر، ولا أحد يُسمح له بالدخول إلى الجنة بدون الإيمان والعمل الصالح ، بيد أن الله سبحانه يمتنّ على أهل الجنة بفضلٍ خاصٍ، هو أن الآباء المؤمنين لو كانوا في درجات عالية، وذريتهم في درجات أخرى دونها، فسوف يُلحق هؤلاء بأولئك، لتقر أعينهم برؤية بعضهم بعضاً، فيزدادوا سروراً إلى سرورٍ .

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

رَيْبَ المَنُونِ: صروف الدهر المهلكة.

قَوْمٌ طَاغُونَ: متجاوزون الحد في العناد.

تَقَوَّلَهُ: اختلق القرآن من تلقاء نفسه.

إذا كان المرء لا يرغب في قبول دعوةٍ ما، رغم كونه لا يملك في مواجهتها دليلاً أوْ

برهاناً يبرر إنكاره إياها؛ فطالما يلجأ إلى توجيه التهم والعيوب المفتعلة نحو شخص الداعي، ويتخذ بذلك هدفه من ذات المتكلم بدلاً من كلامه، تلك هي النفسية التي دفعت المخاطبين إلى وصف الرسول بأنه شاعر ومجنون وكاهن .. إلخ . لقد كانوا عاجزين عن مقاومة دعوته – عليه الصلاة والسلام – ودحضها بالدليل، ومن ثم راحوا يقولون عنه ما يجعله في ذاته مثار الشك والريبة ! ولكن النبي لا ينطق من عند نفسه ، وإنما يتلقى كلامه من عند الله، والذي يتكلم متلقياً كلامه عن الله، يأتي كلامه فذاً ممتازاً عن كلام الآخرين، لدرجة لا يقدر معها أحد على الإتيان بمثله ، وهذه الواقعة هي الدليل الأكبر على أن كلامه كلام الله، وليس كلاماً إنسانياً مجرداً بالمعنى العادي .

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

خَزَائِنُ رَبِّكَ: خزائن رزقه ورحمته أو مقدوراته.

هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ: الأرباب الغالبون أو المسلطون.

لَهُمْ سُلَّمٌ: مرقى إلى السماء يصعدون به.

إن الحقائق التي تم إعلانها من جانب الله تتسم كلها بغاية الوضوح والمعقولية ، حيث يستطيع المرء لو تأمل في أن يفهمها فيها يسر وسهولةٍ ، فما السبب إذن في مقابلة الناس إياها بالجحود والإنكار ؟ السبب يرجع إلى عدم تيقن الناس من الآخرة ، فبما أن الناس ليسوا على يقينٍ حيٍ من أنهم سيحاسبون في الآخرة، لا يأخذون هذه الأمور بمأخذ جديٍ، وبالتالي لا يتمكنون من تفهمها كذلك ، ولو استقر اليقين بحتمية الجزاء

والحساب عن الأعمال يوم القيامة في أعماق المرء، لأدرك من فوره تلك الأشياء التي تستعصي على فهمه وإدراكه الآن !!

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ: من التزام غرم متعبون.

هُمُ الْمَكِيدُونَ: المجزيون بكيدهم ومكرهم.

إن الشعب المدعو يكون دوْماً على مستوى المادية ، فلو أحسّ المدعو، والحالة هذه، أن الداعي يريد أن يأخذ شيئاً من أشيائه المادية، لابتعد عنه من فوره مرتاباً ومستوحشاً .. ولهذا السبب ذاته يلتزم النبي بالحذر الشديد من أن يثور بينه وبين المخاطبين صراع أوْ نقاش ما حول المطالب المادية أبداً ، وهو يحاول جهده الاحتفاظ بجو النزاهة والسمو على الأغراض بينه وبين من يبلغهم رسالته؛ وإن اضطره ذلك إلى تحمّل خسائر مادية فادحة !!

وإذا برهن الداعي على هذا المقدار من الجدية والإخلاص تجاه دعوته، صار أهلاً لنصرة الله المتمثلة في إحباط كيد المنكرين، ورد مكرهم في نحورهم، وعدم تمكنهم من النجاح في التغلب على الداعي بأي تدبير أوْ وسيلة .

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

كِسْفاً: قطعة عظيمة.

سَحَابٌ مَّرْكُومٌ: مجموع بعضه على بعض يمطرنا.

فِيهِ يُصْعَقُونَ: يهلكون (يوم بدر).

لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ: لا يدفع عنهم.

عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ: عذابا قبل ذلك هو القحط.

ما الذي جعل أهل مكة في قديم الزمان إذا رأوا العذاب في صورة قطعة من السماء تسقط عليهم قالوا : ﴿ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؟ ليس السبب في ذلك أنهم لم يكونوا مؤمنين أصلاً بوجود الله أوْ بالقوى الإلهية.. وإنما كان السبب الحقيقي وراء ذلك يرجع إلى كونهم شاكين في نبوة النبي محمد؛ الذي كان يتراءى لهم رجلاً مثلهم تماماً، وبالتالي لم يكونوا على يقين من أن إنكارهم إياه قد يكون جريمة تعرّضهم للهلاك والدمار المحقق !

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾

بِأَعْيُنِنَا: في حفظنا وحراستنا.

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ: نزهه تعالى حامداً له.

وَإِدْبَارَ النُّجُومِ: وقت غيبتها بضوء الصباح.

قوله ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ معناه : داوم على تذكير المخاطب واسْتمرّ في العمل على دعوته إلى الحق، رغم كل ما تلقاه من جانبه من ألوان الأذى وسوء المعاملة، وذلك حتى يبلغ عملك حده النهائي في علم الله ، وعندما يأتي هذا الحد يتجلى القضاء الإلهي

تلقائياً لكي يظهر بصورةِ عمليةِ الفارق المميز بين الحق والباطل، ذلك الذي كانت المحاولات تجرى لإظهاره من الناحية النظرية وحدها .

ويكون الداعي طوال هذه المدة في حفظ الله وتحت رعايته التامة ، وإنما يجب على الداعي أن يظل متوجهاً دائماً نحو ربه ، واثقاً من أن عين الله تحرسه وترعاه كل حين وآنٍ!!

سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى: (قسم) بالنجم إذا غرب وسقط.

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ: ما عدل الرسول عن الحق والهدى (جواب القسم).

وَمَا غَوَى: ما اعتقد باطلا قط.

شَدِيدُ الْقُوَى: أمين الوحي جبريل عليه السلام.

ذُو مِرَّةٍ: قوة أو خلق حسن أو آثار بديعة.

فَاسْتَوَى: فاستقام على صورته الخلقية.

دَنَا: قرب جبريل من النبي ﷺ .

قَابَ قَوْسَيْنِ: قدر قوسين أو ذراعين من النبي ﷺ .

عَبْدِهِ: عبد الله وهو محمد ﷺ .

أَفَتُمَارُونَهُ: أتكذبونه فتجادلونه ﷺ .

نَزْلَةً أُخْرَى: مرة أخرى في صورته الخلقية.

سِدْرَةِ الْمُنتَهَى: التي تنتهي إليها علوم الخلائق.

جَنَّةُ الْمَأْوَى: مقام أرواح الشهداء.

يَغْشَى السِّدْرَةَ: يغطيها ويسترها.

مَا زَاغَ الْبَصَرُ: ما مال بصره عما أمر برؤيته.

وَمَا طَغَى: ما جاوزه إلى ما يؤمر برؤيته.

لَقَدْ رَأَى: ليلة المعراج.

القسم بالنجم إذا هوى - أي انحدر للغروب - فيه إشارة إلى النظام المحكم الدقيق لحركة النجوم والكواكب في الفضاء الهائل، ونظام الكواكب والنجوم هذا واحد من أنظمة الكون المادي التي تتسم بمنتهى الدقة والانضباط، بحيث لا يعتريها أدنى خلل أوْ اضطرابٍ أبداً، مما يتضمن قرينة توحي بأن النظام الروحاني الذي أنشأه الله - سبحانه وتعالى - في صورة الوحي النبوة لابد وأن يكون هو الآخر نظاماً محكماً دقيقاً كذلك.

وتجربة الرسول، من خلال الوحي والملك، تجربة حقيقية واقعة؛ يكفي لإثبات صحتها بيان القرآن وحده، فكلام القرآن المعجز يبرهن على كونه كتاب الله، وإذا أثبت كونه كتاباً إلهياً، فإن كل ما ورد في القرآن الكريم سيُعتبر، فور وروده فيه، بياناً صادقاً موثوقاً به لا يقبل الجدل والمراء !

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ

﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾

أَفَرَأَيْتُمُ: فأخبروني ألهذه الأصنام قدرة.

اللاَّتَ وَالْعُزَّى: أصناماً كانوا يعبدونها في الجاهلية.

وَمَنَاةَ: أصناماً كانوا يعبدونها في الجاهلية.

قِسْمَةٌ ضِيزَى: جائرة أو عوجاء.

أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى: بل إله كل ما يشتهيه – لا.

اللات والعزى ومناة من أصنام العرب في الجاهلية، وقد كانت اللات بالطائف، والعزّى بنخلة بين مكة والطائف، وأما مناة فكانت عند قديد على مقربةٍ من يثرب، وكانوا يعتقدون أن هذه الثلاثة بنات الله، ومن ثم كانوا يعبدونها، والحق أن عقيدة كهذه لا تعدو أن تكون محض فرضية باطلة لا تستند إلى أساسٍ، وهي مناقضة لذاتها، حيث كان أولئك المشركون يكرهون ولادة البنات لأنفسهم، فما أغربه من زعم وأكثره إثارةً للعجب والدهشة أن الله الذي هو خالق البنين والبنات كليهما، يتخذ لنفسه من الولد – لو أراد على سبيل الافتراض – إناثاً دون الذكور !!

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ شرح ذلك شاه عبد القادر الدهلوي بقوله : "يعني هل ينال الإنسان من عبادة الأصنام والأوثان شيئاً؟ كلا ! وإنما يناله فقط ما يعطيه الله، الذي هو وحده مالك الدنيا والآخرة بلا شريك !!"

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ

لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾

لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ: لا تدفع، أو لا تنفع.

إن اتخاذ الأصنام المنحوتة من الحجر آلهةً تعبد من دون الله، ووصف الملائكة بأنهم بنات الله، والأمل في دخول الجنة بناءً على الشفاعات المزعومة، كل هذه معتقدات غير جادة، والمعتقدات غير الجادة تنشأ دوْماً في العقل الفارغ من خوف المؤاخذة، والخوف قاتل للغو وفضول الكلام، فمن يخلو من الخوف لا يلبث أن يتحول مخه - بطبيعة الحال- إلى مصنع لفنون اللغو والعبث .

والذين أصيبوا بنفسية اللاخوف من العبث أن تخوض معهم في جدالٍ أوْ مناقشةٍ فكرية، فإنهم قلما يعيرون الدليل والمنطق أي اهتمامٍ، وبالتالي لا يكادون يستعدون للإذعان إلى أمر الحق فالأفضل الإعراض عنهم . بيْد أن الله - سبحانه وهو خالق البشر - خبير بحقيقتهم، مطلع على أحوالهم الظاهرة والخفية كلها، وإنه تعالى سيجازي كل أحد بحسب ذلك جزاء وافياً عادلاً !

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾

وَالْفَوَاحِشَ: ماعظم قبحه من الكبائر.

اللَّمَمَ: صغائر الذنوب.

فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ: فلا تمدحوها بحسن الأعمال.

إن هذا الكون الفسيح وما نشهد فيه من نظام متناهٍ في الإحكام والإتقان ليدل على أن خالقه ومالكه إله قوي جبار إلى حدٍ لا يحيط به الوصف، وهذه الواقعة في ذاتها تكفي لإدراك أنه سيؤاخذ الإنسان حتماً، وعندما يؤاخذ الإنسان فلن يمكنه أن يفلت من قبضته بأي حيلةٍ من الحيل .

وحيث إن الإنسان مخلوق يعاني من شتى ألوان الضعف والنقائص هي مقتضى بشريته، لم يكن مطالباً بأن يقيم الدليل على طهارة مطلقة عن المعاصي كما هو شأن الملائكة الأبرار ، والله - سبحانه وتعالى - إذْ تفضل على الإنسان بإيضاح ما يجب عليه أن يتركه ، فقد أعفاه من "اللمم " ، وهو يعني : تورط الإنسان في بعض المعاصي والذنوب تحت عاطفة وقتية قاهرةٍ ، بشرط أن يشعر من فوره بالندم على ما اقترفه من سوء فيرجع إلى ربه تائباً، ومستغفراً !

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾

وَأَكْدَى: قطع عطيته بخلا.

الَّذِي وَفَّى: أتم وأكمل ما أمر به.

تَزِرُ وَازِرَةٌ: لا تحمل نفس آثمة.

المُنتَهَى: المصير في الآخرة للجزاء.

هناك أناس كثيرون يرغبون إلى الحق قليلاً، ثم لا يلبثون أن تغلب عليهم مصالحهم المادية، فإذا بهم ينقلبون على أعقابهم راجعين إلى ما كانوا عليه قبلئذٍ، وربما يصطنع هؤلاء بعض العقائد الجميلة تبريراً لمواقفهم الخاطئ، ولكن هذا التبرير إنما يضاعف قبح جريمتهم، لأنه بمثابة زيادة الطغيان على الخطأ !!

والحقيقة التي كشفها الله سبحانه وتعالى بواسطة رسله تتلخص في أن كل إنسان مجزي بعمله لا محالةً، فلا أحد يستطيع أن ينقذ نفسه أوْ غيره من عاقبة ما قدمت يداه، وعليه، فليس ثمة أشد غباء وحماقةً في هذا العالم من الذين لا يتنبّهون ولا يفيقون من غفلتهم رغم هذا التحذير الإلهي المتكرر على ألسنة الأنبياء على تعاقب العصور والأجيال، والذي تم إعلانه مجدداً وبصورة نهائية من خلال هذا القرآن الكريم !!

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾

تُمْنَى: تدفق في الرحم.

النَّشْأَةَ الأُخْرَى: الإحياء بعد الإماتة كما وعد.

وَأَقْنَى: أفقر، أو أرضى بما أعطى.

الشِّعْرَى: كوكب معروف كانوا يعبدونه في الجاهلية.

كل واقعة من وقائع الدنيا تتعلق بأسباب ما ورائية فوق الطبيعية، بحيث لا يقدر

على إظهارها أحد غير الله - عز وجل - فالحياة والموت، والسرور والحزن، والغنى والفقر، وما يلاحظ في هذا الكون من نظام بديع مدهش ، كل ذلك من مظاهر قوة أسمى وأعظم ، وقد كان الإنسان في قديم الزمان ينظر إلى النجوم على أنها علة الحياة ، ثم جاء العصر الحديث الذي برزت فيه فلسفات ومذاهب اعتبرت نواميس الطبيعة علة الوجود والحياة ، ولكن الحقيقة أن هناك علةً أيضاً وراء هذه العلل والأسباب الظاهرة، ألا وهي الله رب العالمين ، فكيف يسوغ للإنسان إذن، أن يجعل من أحدٍ سواه مركز اهتمامه وتوجهاته !!

﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

عَاداً الأُولَى: قرى قوم هود عليه السلام.

وَثَمُودَ: قرى قوم صالح عليه السلام.

وَالْمُؤْتَفِكَةَ: قرى قوم لوط عليه السلام.

أَهْوَى: أسقطها إلى الأرض بعد رفعها.

فَغَشَّاهَا: ألبسها وغطاها بأنواع من العذاب.

آلاءِ رَبِّكَ: نعمه تعالى ودلائل قدرته.

تَتَمَارَى: تتشكك.

إننا نرى في الأرض شعباً يحالفه التوفيق للأخذ بأسباب الرقي والتقدم، فلا يلبث أن يبرز ويتفوق على الشعوب الأخرى، لدرجة يكاد يبدو معها مستحيلاً أن يقهره أوْ

يتغلب عليه أحد ، ثم تظهر بعد ذلك عوامل شتى تتسبب في تعريض هذا الشعب الراقي، وهو في قمة مجده وازدهاره، للفناء أو التدهور والانحطاط بحيث يعود حديثاً يُروى وموضوعاً لا يهم إلا المؤرخين !! وهذه الواقعة تدل على أن هناك قوة فوق البشر هي التي تحسم مصائر الشعوب والأمم ، ولو أن وقائع التاريخ الصارخة هذه لم تنجح في فتح عيون الإنسان، فمن أي واقعةٍ بعدها سيستفيد الإنسان درساً أَوْ عبرةً !؟

﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾

أَزِفَتِ الآزِفَةُ: اقتربت الساعة ودنت.

كَاشِفَةٌ: نفس تكشف أهوالها وشدائدها.

وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ: لاهون غافلون.

يتضح من تاريخ الأنبياء والمرسلين، كما حكاه القرآن الكريم، أن إنكار الحق وعاقبته الوخيمة ملتصقان أحدهما بالآخر كإصبعين من أصابع اليد ، فلو كان ضمير المرء حياً لرأى بطش الله قادماً نحوه حالما يضع أولى خطواته على طريق الإنكار والطغيان، فلا يلبث بالتالي أن يعود لتوّه إلى حظيرة الطاعة والانقياد منصرفاً عن اتجاه الطغيان، غير أن الإنسان غارق في اللهو والغفلة إلى حد أنه لا يكاد يرى حتى الشيء الماثل أمام ناظريْه !!

سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾

وَانشَقَّ القَمَرُ: قد انفلق فلقتين معجزة له ﷺ .

سِحْرٌ: دائم. أو محكم أو ذاهب.

مُسْتَقِرٌّ: منته إلى غاية يستقر عليها.

مُزْدَجَرٌ: ازدجار وانتهار وردع عما هم فيه من الكفر والضلال.

النُّذُرُ: الرسل أو الأمور المخوفة لهم.

شَيْءٍ نُّكُرٍ: منكر فظيع (هول القيامة) .

خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ: ذليلة خاضعة من شدة الهول.

الأَجْدَاثِ: القبور.

مُهْطِعِينَ: مسرعين مادي أعناقهم.

يَوْمٌ عَسِرٌ: صعب شديد لعظم أهواله.

يُظهر الله سبحانه من حين لآخر في عالمنا الراهن وقائع وأحداثاً من شأنها أن تقرب إلى الأفهام كيفية وقوع القيام مسبقاً ، وقد حدثت واقعة كهذه على عهد رسول الله ﷺ قبل الهجرة بسنوات عدة ، إذْ رأى الناس بأعينهم أن القمر قد انشق فلقتيْن ، فقال الرسول ﷺ للناس : " اشهدوا"؛ موجهاً أنظارهم إلى أنه كما رأيتم القمر ينشق، فكذلك سيتحطم هذا العالم بأسره، ثم يعاد بناؤه وترتيبه من جديدٍ !!

ومثل هذه الوقائع تنطوي حقاً على دروسٍ وعبر لا تُثمن ، ولكن الاعتبار بها لا يمكن إلا إذا وقف الإنسان عندها يتأمل ويتدبر ، وأما الذين تمكنت منهم أهواؤهم، فسيعرضون عنها قائلين : " إنها سحر" ، وقد يفسرون تلك الوقائع على هواهم بحيث لا تعود تؤثر في نفوسهم أوْ تحرك منهم ساكناً ، ومع أناسٍ كهؤلاء لا يجدي أي دليلٍ مهما بلغ من القوة والوضوح والجلاء .

﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾

وَازْدُجِرَ: زجر عن تبليغ رسالته بالسب وغيره.

مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ: مقهور فانتقم لي منهم.

أَبْوَابَ السَّمَاءِ: السحاب.

بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ: منصب بشدة وغزارة.

وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ: شققناها.

أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ: قدرناه أزلاً (هلاكهم بالطوفان).

وَدُسُرٍ: مسامير تشد بها الألواح.

تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا: بحفظنا أو بمرأى منا أو بأمرنا.

تَّرَكْنَاهَا آيَةً: أبقينا ذكرها عبرة وعظة.

مُّدَّكِرٍ: معتبر متعظ بها.

وَنُذُرِ: إنذاري.

لقد كانت أنظار السادة والأكابر من قوم نوحٍ معلقةً بأمجادهم الكاذبة ومظاهر كبريائهم الجوفاء، فلم يستعدوا للاعتراف بنوح ﷺ، وكان من نتيجة ذلك أن وقعوا تحت العذاب الإلهي، وقد حل بهم هذا العذاب في صورة فيضان هائل، غرقوا فيه بقضهم وقضيهم، ولم ينجُ من الهلاك سوى نوحٍ وأتباعه المؤمنين بدعوته، حيث ركبوا كلهم بإذن الله في سفينةٍ ظلت تجري بهم في موجٍ كالجبال إلى أن استقرت على جبل أراراط.

وأما أراراط فهو أعلى جبال تركيا، يقع بشرقي الأناضول قرب الحدود الإيرانية الروسية، يبلغ ارتفاع قمته ١٦٨٥٣ قدماً، ويحكي بعض الطيارين الذين اتفق لهم الطيران من فوق قمة أراراط الثلجية أنهم قد لمحوا هناك شيئاً منغرزاً وسط الثلوج، وهو أشبه ما يكون بالسفينة، وإنْ صحّ هذا فمعناه أن سفينة نوح هي الأخرى ربما يتم اكتشافها يوماً لتكون للناس آية من آيات الله، تماماً كما أمكن العثور على جثة فرعون التي ظلت مدفونةً بالأهرام حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي فصارت آية الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ

كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس] .

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾

رِيحاً صَرْصَراً: شديدة السموم أو البرد أو الصوت.

يَوْمِ نَحْسٍ: شؤم عليهم.

مُّسْتَمِرٌّ: دائم نحسه. أو محكم أو بشع.

تَنزِعُ النَّاسَ: تقلعهم من أماكنهم وترمي بهم.

أَعْجَازُ نَخْلٍ: أصوله بلا رؤوس.

مُّنقَعِرٍ: منقلع عن قعره ومغرسه.

عندما حقت كلمة العذاب على قوم عاد، سلط الله عليهم ريحاً عاصفة شديدة لدرجة لم يعودوا معها يقوَوْن على التماسك أوْ الاستقرار على الأرض، وقد كانت العاصفة ترفعهم في الهواء ثم تقذف بهم هنا وهناك بحيث يصطدم هذا بالحائط وهذا بالشجر .. بينما انهار السقف على بعضهم من فوقه فاندفن حياً تحت أنقاض داره !! ولقد كان ذلك إعلاناً بأن الإنسان عاجز مطلق؛ لا يملك إزاء الله - عز وجل - أي نوع من الخيار أوْ القدرة .

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ

ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

وَسُعُرٍ: شدة عذاب ونار أو جنون.

كَذَّابٌ أَشِرٌ: بطر متكبر.

فِتْنَةً لَّهُمْ: امتحانا وبلاء لهم.

وَاصْطَبِرْ: اصبر على آذاهم ولا تعجل.

قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ: مقسوم بينهم وبين الناقة.

كُلُّ شِرْبٍ: كل نصيب وحصة من الماء.

مُّحْتَضَرٌ: يحضره صاحبه في نوبته.

فَتَعَاطَى: فتناول الناقة بسيفه اجتراءً منه.

كَهَشِيمِ: كاليابس المفتت من شجر الحظيرة.

الْمُحْتَظِرِ: صانع الحظيرة (الزريبة) لمواشيه من هذا الشجر.

كانت ناقة الله المرسلة فتنةً واختباراً لقوم ثمود كناقة عادية في ظاهر الأمر، ولذلك لم يستطيعوا التعرف عليها ولا قدروها حق قدرها، بل أقدموا على قتلها ظلماً وعدواناً! فعاقبهم الله على ذلك، فأبادهم عن آخرهم، ولم تبق لهم باقية!

إن القرآن الكريم - وإنْ كان كتاباً يحوي معاني عميقة - إلا أن أسلوبه البيان يتسم بمنتهى الوضوح، وبسبب هذا الوضوح فقد صار تفهم القرآن سهلاً ميسراً على كل

من يقرؤه بجدية وإمعانٍ، سواء أكان من عامة الناس أم من المثقفين والمتعلمين .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

حَاصِباً: ريحا ترميهم بالحصباء.

نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ: عند انصداع الفجر.

فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ: فكذبوا بها متشاكين.

رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ: طلبوا منه تمكينهم منهم.

فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ: أعميناهم أو أزلنا أثرها بمسحها.

بُكْرَةً: أول النهار.

لما نهض لوط عليه السلام يدعو قومه إلى الحق، آمن به بعضهم؛ حيث رضوا بالعيش صغيرين أمام الحق باعتباره كبيراً ومقدماً على أهوائهم، وأما أكثرهم فلم يستعدوا لذلك، فبدلاً من الاعتراف بالأدلة والبراهين الساطعة حاولوا دحضها بإثارة مجادلات كلامية عقيمة ، وهذا الموقف تجاه دعوة الحق جريمة جد عظيمة، ومن ثم لم يلبثوا أن تعرضوا جميعاً للبطشة الإلهية الشديدة، ماعدا المعترفين القلائل، وهذا مثال واقعي على أن المنكرين للحق إنما ينتظرهم هنا الهلاك والدمار، بينما يفوز المعترفون بالحق بالنجاة والخلاص !

﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

فِي الزُّبُرِ: في الكتب السماوية.

لقد كان فرعون ملكاً في منتهى القوة والجبروت في عصره، ولكنه صار عند الله تافهاً عديم القيمة بوقوفه من الحق موقف الرفض والإنكار، فما لبث أن أُهلك كإنسان عاجز ذليل، وإن من يقف إلى جانب الحق في هذا العالم هو القوي، ومن يقف ضد الحق هو الضعيف العاجز !!

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾

نَحْنُ جَمِيعٌ: جماعة. مجتمع أمرنا.

مُّنتَصِرٌ: ممتنع، لا نغلب.

وَالسَّاعَةُ أَدْهَى: أعظم داهية وأفظع.

وَأَمَرُّ: أشد مرارة من عذاب الدنيا.

وَسُعُرٍ: نيران مسعرة أو جنون.

لقد كان للمكذبين نبى آخر الزمان ﷺ عظة بالغة فيما جرى على المكذبين بالأنبياء السابقين من قبل، ولكنهم لم يتعظوا بأحداث الماضي، وهذا هو شأن كل الأمم

والشعوب في هذه الأرض ، فكل أمة تعدّ نفسها " استثناءً " ، وفي أمانٍ كاملٍ على الرغم من توافر الآيات الواضحة، المبطلة لمثل هذه المزاعم ، مما يجعل كل أمةٍ تسلك بدورها مسلك الطغيان نفسه ، الذي سلكته الأمم السابقة، فاستحقت بذلك عذاب الله !!

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾

خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ: بتقدير سابق أو مقدَّرًا محكمًا .

إِلاَّ وَاحِدَةٌ: كلمة واحدة وهي " كن" .

أَشْيَاعَكُمْ: أمثالكم في الكفر.

الزُّبُرِ: كتب الحفظة.

مُسْتَطَرٌ: مسطور مكتوب في اللوح المحفوظ.

مَقْعَدِ صِدْقٍ: مكان مرضي.

لكل شيء في هذا العالم ضابط معين لا ينفك عنه ، وينسحب هذا المبدأ على الإنسان كذلك ، فقد أتيح للإنسان فرصة العمل في هذه الأرض وفق ضابط محددٍ، ثم يتم إخراجه، بموجب هذا الضابط نفسه، من مكان العمل هذا إلى مكان الجزاء ، وآثار قدرة الخالق التي نشهدها في أرجاء الكون الحالي كافية لإقناعنا بأن هذا الأمر سيتحقق في موعده المقرر له دون تأخير أوْ تأجيلٍ . وهكذا فإن وجود نظام التسجيل الدقيق في العالم الراهن هو إعلان مسبق بحقيقة أن كل أحدٍ إنما سيُعامل في الآخرة بحسب عمله

خيراً أوْ شراً .

النجاح والشرف سيفوز بهما في الآخرة الجالسون على مقعد الصدق وحده، أي الذين وقفوا بأنفسهم على أرضية الصدق في واقع الأمر ، وظهور القدرة الإلهية على أكمل الوجوه في الآخرة سيعود كفيلاً بتفادي وقوع أي اختلاطٍ في القيم والموازين؛ فلن يغني الجلوس على غير مقعد الصدق يومئذٍ عن صاحبه شيئاً !

سورة الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ ﴾

عَلَّمَ القُرْآنَ: علم الإنسان القرآن.

بِحُسْبَانٍ: يجريان بحساب مقدر في بروجهما.

وَالنَّجْمُ: النبات الذي ينجم ولا ساق له.

يَسْجُدَانِ: ينقادان لله فيما خلقا له،

وَوَضَعَ المِيزَانَ: شرع العدل وأمر به الخلق.

أَلاَّ تَطْغَوْا: لئلا تتجاوزوا العدل والحق.

بِالْقِسْطِ: بالعدل.

وَلاَ تُخْسِرُوا المِيزَانَ: لا تنقصوا موزون الميزان.

إن الله سبحانه خلق الإنسان، وزوّده بقدرة النطق الفذة التي لا يتمتع بها أحد سواه في الكون المعلوم ، ثم إنه تعالى قد وضع نموذجاً عملياً في هذا الكون للمسلك العادل المطلوب من الإنسان ، إن هذا الكون المحيط بالإنسان يقوم بأكمله

على مبدأ العدل ذاته الذي يطلبه الله من البشر ، ولقد جاء القرآن الكريم يبين هذا العدل نفسه بصورة لفظية واضحةٍ ، فالقرآن إذن تعبير لفظي مقروء عن العدل الإلهي، بينما الكون تعبير عملي منظور عن العدل الإلهي ، والآن، فمن واجب العباد أن يزنوا أقوالهم وأفعالهم دائماً بهذا الميزان ؟ فلا يجوروا في الأخذ ولا في العطاء !!

﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾

وَالأَرْضَ وَضَعَهَا: خلقها مخفوضة عن السماء.

ذَاتُ الأَكْمَامِ: أوعية الثمر وهي الطلع.

ذُو العَصْفِ: القشر أو التبن أو الورق اليابس.

وَالرَّيْحَانُ: النبات المشموم الطيب الرائحة.

آلاءِ رَبِّكُمَا: نعمه تعالى.

تُكَذِّبَانِ: تكفران أيها الثقلان.

صَلْصَالٍ: طين يابس يسمع له صلصلة.

كَالْفَخَّارِ: هو الطين يحترق حتى يتحجر.

مَارِجٍ: لهب صاف لا دخان فيه.

مَرَجَ البَحْرَيْنِ: أرسل العذب والملح في مجاريهما.

يَلْتَقِيَانِ: يتجاوزان أو يلتقي طرفاهما.

بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ: حاجز أرضي أو من قدرته تعالى.

لاَّ يَبْغِيَانِ: لا يطغى أحدهما على الآخر .

وَلَهُ الجَوَارِ: السفن الجارية.

المُنشَآتُ: المرفوعات الشرع (القلوع) .

كَالأَعْلامِ: كالجبال الشاهقة.

يتكون الجزء الأكبر من كوننا هذا من النّجوم التي هي كرات نارية هائلة ، وقد خُلق الجن من هذه المادة النارية ، وأما الإنسان، فقد صنعه الله من التراب الذي هو أندر شيء في هذا الكون الفسيح . إن الأرض استثناء فذ في هذا الكون ، حيث وُفرت هنا كل العناصر والأسباب بنسبها المتوازنة للغاية، تلك التي كان لابد منها لاستمرار حياة مخلوقٍ كالإنسان وتمكنه من بناء المدنية والحضارة على ظهرها ، ومن جملة هذه التدابير وجود " المشرقين " و" المغربين " في الأرض ، فموضع شروق الشمس وغروبها في فصل الشتاء يكون مختلفاً عنه في الصيف ، وهكذا تتعدد هنا المشارق والمغارب ، وهذا التغير الموسمي (المناخي) ينشأ عن ميْل الأرض المحوريّ وهو ظاهرة نادرة جداً في هذا الكون؛ ويترتب عليه ما لا يحصى من فوائد حياتية وتمدّنية للإنسان .

إن هذا الاستثناء المتمثل في الكائن البشري والكوكب الأرضي فى هذا الكون المترامي الأطراف إلى حدٍ لا يُتصور، هذا الاستثناء مظهر عظيم من مظاهر قدرة الله وفضله وإنعامه، لدرجة أن الإنسان لن يقدر على أداء واجب الشكر نحوه على أية

حالٍ !!

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾

فَانٍ: هالك.

ذُو الجَلالِ: العظمة والاستغناء المطلق.

وَالإِكْرَامِ: الفضل التام.

فِي شَأْنٍ: يأتي بأحوال ويذهب بأحوال بالحكمة.

يتضح من دراسة الكون أن كل شيءٍ فيه معرض للفناء .. ووجود الأشياء، رغم كونها عرضةً للفناء، يثبت أن خالقها ومدبِّرها إله غير فانٍ، إذْ لم تكن هذه الأشياء لتُوجد البتة، لو كان الخالق فانياً، أوْ لكانت - إن وُجدت -قد تلاشت ومُحيت من الوجود تماماً حتى الآن ! كما تدلنا دراسة الكون أيضاً على أن شيئاً من أشياء هذا العالم لا يتمتع بصلاحية الخلق والإيجاد ، ومعنى هذا أن الأشياء لم تخل بنفسها ما هي في حاجةٍ إليه لبقاء وجودها ، وهذا الواقع يشهد مرة أخرى بقدرة الخالق اللامتناهية ، وهذه الحقائق تبلغ من الوضوح والجلاء حداً لا يمكن معه لأي رجلٍ جادٍ أن يتناولها بالتكذيب والإنكار .

إن آيات الله متوافرة في أرجاء هذا الوجود بكثرة ، بحيث لا يستطيع إنسان جاد أن يتجاهلها أوْ يعرض عنها ، بيْد أن الإنسان ظالم لدرجة أنه لا يتحرج من إنكار الآيات وهي تغمره وتحيط به من كل جانبٍ !

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

سَنَفْرُغُ لَكُمْ: سنقصد لمحاسبتكم بعد الإمهال.

أَيُّهَا الثَّقَلَانِ: الإنس والجن.

تَنفُذُوا: تخرجوا هربا من قضائي.

فَانفُذُوا: فاخرجوا (أمر تعجب).

بِسُلْطَانٍ: بقوة وقهر. وهيهات .

شُوَاظٌ: لهب خالص لا دخان فيه.

وَنُحَاسٌ: صفر مذاب أو دخان بلا لهب.

بالرغم من الحرية التي أعطاها الله للإنس والجن إلا أنه ليس في مقدور أي منهم أن يخرج من حدود الكون ويذهب إلى ما وراءها ... ! وهذه الواقعة في ذاتها كافية للبرهنة على أن الإنسان في قبضة الله وتحت سيطرته الكاملة ، ومن ثم فحين يبطش الله بالناس، بعد انتهاء فترة الامتحان، لن يتمكن أحد من أن يفلت من يده عز وجل .

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

﴿٤١﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ
ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾

فَكَانَتْ وَرْدَةً: كالوردة في الحمرة.

كَالدِّهَانِ: كدهن الزيت في الذوبان.

بِسِيمَاهُمْ: بسواد الوجوه ، وزرقة العيون.

فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي: بشعور مقدم الرؤوس.

حَمِيمٍ آنٍ: ماء حار تناهى حره.

إن الإنكار والطغيان ينشآن دوماً عن انعدام الخوف ، وسوف ينسى المجرمون تمردهم وطغيانهم بالمرة عندما يفاجئون بلحظة القيامة الرهيبة ، وسوف يبادرون يومئذٍ إلى الإقرار والتسليم بالحق الذي كانوا لا يستعدون للتسليم به في الحياة الدنيا، رغم توفر الأدلة والبراهين القوية على ظهره ، غير أن التسليم ساعتئذٍ لن يغني عن صاحبه شيئاً ، إذْ المطلوب هو الإيمان لقدرات الله وهي في الغيب ، لا بعد أن صارت ظاهرة ماثلةً للعيان !!

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾
فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾
فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا
مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ
لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ

وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

جَنَّتَانِ: بستان داخل القصر وآخر خارجه.

ذَوَاتَا أَفْنَانٍ: أغصان، أو أنواع من الثمار.

عَيْنَانِ: التسنيم والسلسبيل.

زَوْجَانِ: صنفان معروف وغريب.

إِسْتَبْرَقٍ: غليظ الديباج.

وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ: ما يجنى من ثمارهما.

دَانٍ: قريب من يد المتناول.

قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ: قصرن أبصارهن على أزواجهن.

لَمْ يَطْمِثْهُنَّ: لم يفتضهن قبل أزواجهن.

للجنة حسب التقسيم الإجمالي العريض، درجتان كبيرتان ، وقد ذكرت الآيات هنا أولى هاتين الدرجتين، وهي تتألف من جنتيْن تحتويان على نعيمٍ من الطراز الملوكي ، وهذا النعيم الأسْنى إنما سيفوز به أناس كانوا لسيطرة شعور الله عليهم ودوام استحضاره قد أقاموا أنفسهم في الحياة الراهنة ذاتها بين يدي الله، وبالتالي أقاموا الدليل على الصلة بربهم وعبادته إلى حدّ الإحسان!!

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ: أعلى أو أدنى من السابقتين.

مُدْهَامَّتَانِ: خضراوان شديدتا الخضرة.

نَضَّاخَتَانِ: فوارتان بالماء لا تنقطعان.

خَيْرَاتٌ حِسَانٌ: خيرات الأخلاق حسان الوجوه.

حُورٌ: نساء بيض حسان.

مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ: مخدرات في بيوت من اللؤلؤ.

رَفْرَفٍ: وسائد ذات فرش مرتفعة.

وَعَبْقَرِيٍّ: بسط ذات خمل رقيق.

تَبَارَكَ: تعالى أو كثر خيره وإحسانه.

ذِي الْجَلَالِ: العظمة والاستغناء المطلق.

وَالإِكْرَامِ: الفضل التام والإحسان .

تصف هذه الآيات الدرجة الثانية من الجنة، وهي بدورها تتألف - كالدرجة الأولى- من جنتيْن اثنتين، وهما لعامة المتقين ، وإن ما فيهما من نعيمٍ ومتاعٍ ، وإن كان

سيكون، بالقياس إلى النعم الدنيوية، كثيراً وفائقاً إلى حدٍ لا يوصف، إلا أنه سيكون دون نعيم ومتاع الدرجة الأولى السابقة الذكر ، وبالجملة ستكون الجنة، بكلتا درجتيْها، كما يليق بجلال خالق الكون ومالكه الذي تجلت آثار قدرته ودلائل عظمته في العالم الراهن بحيث يراها اليوم كل ذي بصرٍ وبصيرةٍ !!

سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ ﴾

وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ: قامت القيامة بنفخة البعث.

كَاذِبَةٌ: نفس كاذبة تنكر وقوعها.

خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ: هي خافضة للأشقياء رافعة للسعداء .

رُجَّتِ الأَرْضُ: زلزلت وحركت تحريكا بشدة.

وَبُسَّتِ الجِبَالُ: فتتت كالسويق الملتوت.

هَبَاءً مُّنْبَثاً: غباراً متفرقاً منشرا.

وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً: أصنافاً.

إن الإنسان يرى في حياته الراهنة أنه حر ليفعل ما يشاء ، مما يجعله يستبعد الآخرة ولا يكاد يصغي إلى الحديث عما سيكون هناك من حسابٍ وجزاءٍ ، غير أن بناء العالم الآخر ممكن الوقوع تماماً كواقعة بناء العالم الحالي .

وحين يأتي يوم القيامة ستنقلب الأوضاع وتتغير الموازين والقيم كلها ، وحيث تتبدل أقدار الناس فيعود أعلاهم أسفل وأسفلهم أعلى ، وسينقسم الناس يومئذٍ، بحسب أعمالهم، إلى أصنافٍ ثلاثة : السابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال .

﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ
ٱلْمَشْـَٔمَةِ (٩) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ
(١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا
مُتَقَٰبِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ
(١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا
يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ
(٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا (٢٦) ﴾

فَأَصْحَابُ المَيْمَنَةِ: اليمن والبركة. أو ناحية اليمين.

ثُلَّةٌ: هو أمة من الناس كثيرة.

سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ: منسوجة من الذهب بإحكام.

وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ: مبقون على هيئة الولدان في البهاء.

بِأَكْوَابٍ: أقداح لها عرى وخراطيم.

وَأَبَارِيقَ: أوان لها عرى وخراطيم.

وَكَأْسٍ: خمر أو قدح فيه خمر.

مِن مَّعِينٍ: خمر جارية من العيون.

لاَ يُصَدَّعُونَ عَنهَا: لا يصيبهم صداع بشربها.

وَ لاَ يُنزِفُونَ: لا تذهب عقولهم بسببها.

وَحُورٌ عِينٌ: نساء بيض واسعات الأعين حسانها.

اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ: المصون في أصدافه مما يغيره.

لَغْواً: كلاما لا خير فيها أو باطلاً.

وَلاَ تَأْثِيماً: ولا نسبة إلى الإثم أو لا ما يوجبه.

السابقون هم : الذين يتقبلون الحق فور ظهوره أمامهم، وبالتالي يُسَخِّرون أنفسهم وكل ما يملكون للحق دون تحفظٍ أوْ ترددٍ . وقد روت السيدة عائشة عن النبي - ﷺ- أنه قال : " أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : "الذين إذا أعُطوا الحق قبلوه، وإذا سُئلوه بذلوه ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم " [1].

والذين يبادرون إلى قبول الإسلام في أولى مراحل الدعوة، يكون الإسلام بالنسبة إليهم نوعاً من الاكتشاف، بينما هو يكون بالنسبة إلى أجيالهم اللاحقة شيئاً وراثياً ، وهذا الفارق الجوهري بين الاكتشاف والوراثة هو الذي يجعل الرعيل الأول أعلى مرتبةً ممن يأتي بعده ، ومع كون الطائفة الأولى أقل الطائفة الأخيرة أكثر عدداً بطبيعة الحال، إلا أن نعيم الأولى في الآخرة سيكون أعلى من الأخرى !!

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

فِي سِدْرٍ: في شجر النبق يتنعمون به .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٨٣ .

مَّخۡضُودٖ: مقطوع شوكه.

وَطَلۡحٖ: شجر الموز أو مثله.

مَّنضُودٖ: نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه.

وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ: دائم لا يتقلص أو ممتد منبسط.

وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ: مصبوب يجري في غير أخاديد.

مَّرۡفُوعَةٍ: على الأسرة أو منضدة مرتفعة.

عُرُباً: متحببات إلى أزواجهن.

أَتۡرَاباً: مستويات في السن.

أما أصحاب اليمين فالمراد بهم : عامة أهل الجنة ، وينخرط في سلكهم كل أولئك الذين كانوا صالحين من حيث اعتقادهم وسلوكهم وعملهم ، وإنهم ، وإنْ لم يبلغوا المستوى الشعوري الأعلى من الإيمان، إلا أنهم كانوا مخلصين صادقين في الولاء لله ولرسوله، وظلوا ثابتين على جادة العدل والتقوى طيلة حياتهم الدنيوية ، وسيحتوي هذا الصنف على عددٍ كبير من الأولين ، كما سيضم عدداً كبيراً من الآخرين كذلك .

﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ
﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى
ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ
﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ
مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن
زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ

ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾

سَمُومٍ: ريح شديدة الحرارة تدخل المسام.

وَحَمِيمٍ: ماء بالغ الحرارة.

يَحْمُومٍ: دخان شديد السواد أو نار.

وَلاَ كَرِيمٍ: لا نافع من أذى الحر.

مُتْرَفِينَ: منعمين متبعين أهواء أنفسهم.

الحِنثِ: الذنب العظيم – الشرك.

زَقُّومٍ: شجر كريه جداً في النار.

شُرْبَ الهِيمِ: الإبل العطاش التي لا تروى.

هَذَا نُزُلُهُمْ: ما أعد لهم من الجزاء.

يَوْمَ الدِّينِ: يوم الجزاء (يوم القيامة).

وأما أصحاب الشمال فهم: الذين يُحكم عليهم بالعذاب، لقد غرتهم الأشياء التي كانت قد أتيحت لهم في الدنيا على وجه الامتحان والابتلاء، وسيُعتبر أمثال هؤلاء أهلاً لأقسى ألوان العذاب والنكال في يوم الدينونة الكبرى!!

﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوۡ نَشَآءُ

لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾
أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾
لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ
أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾
فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

أَفَرَأَيْتُم: أخبروني.

مَا تُمْنُونَ: المني الذي تقذفونه في الأرحام.

تَخْلُقُونَهُ: تصورونه بشراً سويا.

بِمَسْبُوقِينَ: بمغلوبين عاجزين.

مَا تَحْرُثُونَ: البذر الذي تلقونه في الأرض.

تَزْرَعُونَهُ: تنبتونه حتى يشتد ويبلغ الغاية.

حُطَاماً: هشيما متكسرا لا ينتفع به.

تَفَكَّهُونَ: تتعجبون من سوء حاله ومصيره.

إِنَّا لَمُغْرَمُونَ: مهلكون بهلاك رزقنا.

مَحْرُومُونَ: ممنوعون الرزق بالكلية.

الْمُزْنِ: السحاب أو الأبيض منه.

جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً: ملحا زعاقا أو مراً لا يمكن شربه.

النَّارَ الَّتِي تُورُونَ: تقدحون الزناد لاستخراجها.

تَذْكِرَةً: تذكير لنار جهنم.

وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ: منفعة للمسافرين في القواء (الفقر) أو المحتاجين إليها.

إن تخلق الجنين البشري ونموه في رحم المرأة، وخروج النبات والزرع من باطن الأرض، ونزول المطر من السحاب ، وحصول النار من الوقود ، كل ذلك من عند الله مباشرةً ، فينبغي للإنسان، وهو ينتفع بهذه النعم الجليلة، أن يشكر الله، باعتبارها هبةً منه تعالى وفضلاً، وليس بنتاج عمله وجهده الذاتي !

وفي هذه الوقائع عظات لا تُحصى لمن يقف عندها وقفة تأملٍ ، فهي تتضمن دليل الحياة الثانية التي تلي حياتنا الراهنة ، كما أن فيها آيةً على أن الذي أعطاها قادر على أن يسلبها كذلك ، ويتضح لنا هذا الأمر في أجلى صوره عندما نتدبر، مثلاً، قضية الماء الذي نشربه ، إن ذخائر المياه توجد على هذا الكوكب الأرضي بشكل البحار والمحيطات، ومعظمها مالح ، فالبحار تحتوي على حوالي ٩٨ في المائة من الماء الموجود في الأرض، وتسعة أعشارها ملح، وإنه لمن معجزات الناموس الإلهي الذي يجعل ماء البحر إذا تبخّر تحت حرارة الشمس يرتفع في الجو خالصاً تاركاً الملح تحته ، والحقيقة أن عملية المطر هي عملية كونية هائلة لإزالة الملوحة . ولولا هذا التدبير الطبيعي لصار الماء بكافة أشكاله مالحاً كماء البحر؛ حتى لكانت الثلوج فوق الجبال والمياه الجارية في الأنهار هي الأخرى ملحاً أجاجاً، وبالتالي تعذر على البشر الحصول على الماء العذْب السائغ رغم تواجد كتلةٍ مائية ضخمةٍ من حولهم تغمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ، والتفكير في هذا الواقع حقيق بأن يملأ صدر الإنسان بمشاعر الحمد والشكر والتمجيد لله رب العالمين !

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا

ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

فَلاَ أُقْسِمُ: فأقسم و"لا" مزيدة للتأكيد.

بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ: بمغاربها أو منازلها.

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ: نفاع جم المنافع. أو رفيع القدر.

كِتَابٍ مَّكْنُونٍ: مستور مصون عند الله في اللوح المحفوظ من السوء.

لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ: صفة أخرى للقرآن.

أَنتُم مُّدْهِنُونَ: متهاونون أو مكذبون.

وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ: شكركم على الإنعام به.

المواقع صيغة جمع مفردها موقع، وهو اسم مكان معناه موضع الوقوع أوْ السقوط ، ومن ثم يقال للموضع الذي يسقط فيه المطر : مواقع القطر . وربما يكون المراد بمواقع النجوم هنا أفلاكها . حيث يوجد في الفضاء الكوني الهائل ما لا عداد له ولا حصر من الكواكب والنجوم الضخمة، وكلها تدور في أفلاكها بمنتهى الدقة .

وهذا الحدث عظيم إلى حدٍ مذهل ، وإن من ينظر في هذا النظام الفضائي بجديةٍ سوف لا يجد بداً من الاعتراف بأن خالق هذا الكون عظيم إلى حدٍ لا يحيط به الوصف . إذن، فالكتاب الذي جاء من لدن خالقٍ هذا شأنه، سيكون بدوره عظيماً بكل تأكيدٍ .. وليس من شكٍ في أن القرآن كتاب عظيم بأعمق معاني هذه الكلمة .

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ : بلغت الحلقوم عند الموت .

وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ : بعلمنا وقدرتنا.

غَيْرَ مَدِينِينَ : غير مربوبين مقهورين.

إذا بلغت الروح عند الحلق وذلك حين الاحتضار ، وأنتم حينئذ تنظرون إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت ، ونحن أقرب إليه منكم بملائكتنا ولكن لا ترونهم ، فلولا إن كنتم غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون فردوا هذه النفس إلى مكانها الأول ومقرها في الجسد.

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾

فَرَوْحٌ : فله استراحة أو رحمة .

رَيْحَانٌ : رزق حسن.

فَنُزُلٌ : فله قرى وضيافة.

حَمِيمٍ : ماء تناهت حرارته.

وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ : مقاساة لحر النار أو إدخال فيها.

أحوال الناس ثلاثة عند احتضارهم ، أما أن يكون من المقربين ، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين، وإما أن يكون من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى.

فإن كان المحتضر من الذين فعلوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات، فلهم الرحمة والرزق الحسن وتبشرهم الملائكة بذلك

عند الموت.

وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين ، فتقول له الملائكة سلام لك أي لا بأس عليك أنت إلى سلامة أنت من أصحاب اليمين.

وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى ، له ضيافة من حميم وهو سائل تبلغ درجة حرارته مبلغاً تصهر به ما في بطون هؤلاء وجلودهم .

وإن هذا الخبر لهو حق اليقين الذي لا مرية فيه ولا محيد لأحد عنه ، وإذا آمنت بذلك فسبح باسم ربك العظيم الذي هو تدبيره وهذه قدرته[1].

(١) ابن كثير ، ٤ / ٣٠٠ (ط. دار الحديث ، القاهرة).

سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾

سَبَّحَ لله : نزه الله ومجده ودل عليه.

العَزِيزُ: القادر الغالب على كل شيء.

الأَوَّلُ: السابق على جميع الموجودات.

وَالآخِرُ: الباقي بعد فنائها.

وَالظَّاهِرُ: بوجوده ومصنوعاته وتدبيره.

وَالْبَاطِنُ: بكنه ذاته عن العقول.

اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ: استواء يليق بكماله تعالى.

مَا يَلِجُ: ما يدخل من مطر وغيره.

وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا: ما يصعد إليها من الملائكة والأعمال.

وَهُوَ مَعَكُمْ: بعلمه المحيط بكل شيء.

يُولِجُ اللَّيْلَ: يدخله.

إن صفات الخالق جل وعلا، تلك التي يشهد بها الكون بلسان حاله، لقد تُنوولت بصياغةٍ لفظيةٍ عبر القرآن الكريم ، فحين يظهر هنا شيء ما إلى الوجود، ينطلق بلسان الحال أن وراءه موجداً، وكذلك إذْ ينتهي ذلك الشيء فيعلن بأن هناك من يتولى إنهاءه، وهكذا الشأن في سائر الصفات الإلهية الأخرى !

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾

قَبْلِ الفَتْحِ: فتح مكة أو صلح الحديبية.

الحُسْنَى: المثوبة الحسنى (الجنة) .

ترتكز الدعوة الإسلامية عند قيامها ابتداءً على أساس " آيات بينات " . ثم إنها تدخل مرحلتها الثانية إذْ يُكتب لها " الفتح " في بيئتها ، ولا يتحمس للتضحية والفداء في سبيل الدعوة الإسلامية، ما دامت في مرحلتها الأولي، سوى أولئك الذين يتمتعون

بالقدرة على إدراك عظمة شيء ما على مستوى الدلائل والبراهين ، وأما إذا تمكن الإسلام من إحراز النصر والغلبة، فكل أحدٍ يرى عظمته ومجده رأي العين، وبالتالي يحاول الكل أن يتقدم في فخر واعتزازٍ ببذل النفس والنفيس في سبيله !!

إن الذي ينفق إبان المرحلة الأولى من الدعوة إنما يُضطر إلى الإنفاق في سبيلها وليس هناك رجاء أوْ طمعا في عوضٍ أوْ منفعة قريبة المنال ، بينما تكون الظروف والأوضاع قد تغيرت لصالح الإسلام في المرحلة الثانية، بحيث ينال المرء ثمرة إنفاقه ألوانا وأشكالاً في هذه الدنيا ذاتها، وهذا هو السر في مدى ما بين الفريقين من تفاوت الدرجات عند الله - عز وجل !

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝ ﴾

قَرْضاً حَسَناً: محتسبا به ، طيبة به نفسه.

انظُرُونَا: انتظرونا.

نَقْتَبِسْ: نصب ونأخذ ونستضيء.

بِسُورٍ: حاجز بين الجنة والنار (الأعراف)

يُنَادُونَهُمْ: ينادي المنافقون المؤمنين.

فَتَنتُمْ أَنْفُسَكُمْ: محنتموها وأهلكتموها بالنفاق.

وَتَرَبَّصْتُمْ: انتظرتم بالمؤمنين النوائب.

وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ: خدعتكم الأباطيل.

الغَرُورُ: الشيطان وكل خادع.

هِيَ مَوْلاكُمْ: النار أولى بكم ، أو ناصركم.

إن التقدم نحو الإسلام الصادق الخالص، وهو غريب في بيئته، يكون مرادفاً لإلقاء النفس في محنةٍ وبلاءٍ ، فإن حقيقة الإسلام تكون إذْ ذاك محجوبةً بأغطيةٍ من الشبهات ، والبذل في سبيله آنذاك شأنه شأن إعطاء الدين لأحدٍ على أملٍ موهومٍ ، حيث يحيط بالناس جو من الشك والتذبذب، وتتراءى الفوائد الحاضرة بين أيديهم آكد وأكثر ضماناً من الوعود الأخروية، وتفويض النفس والمال إلى الإسلام، والحالة هذه، يتطلب قوة إرادة وتصميم عظيمة ، وفي حالةٍ كهذه لا يكاد يجرؤ على المبادرة والتقدم نحو الأمام إلا الذي يملك كفاية التعرف على كنه الأشياء بقوة العقل والبصيرة . والذين يقيمون الدليل على هذه البصيرة في الحياة الدنيا، فإنها ستتحول يوم القيامة نوراً يمكّنهم من قطع أشواط رحلتهم الصعبة هناك في يسر وأمانٍ، إن البصيرة التي كانت مرشدهم في الدنيا إلى سبيل الرشاد ستقوم بدور المرشد لهم إلى دار السلام في الآخرة كذلك !!

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا

يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

أَلَمْ يَأْنِ: ألم يجئ.

أَن تَخْشَعَ: وقت أن تخضع وترق وتلين.

الْأَمَدُ: الأجل أو الزمان.

إن الإسلام، وإن لم يكن عند نزول هذه الآيات، قد صار قويا من الناحية المادية، إلا أنه كان مؤيداً بقوة الدلائل والتحذيرات الإلهية على الوجه الأكمل، فالذي لا يستشعر في هذه الحالة نقل الدلائل؛ والذي لا تتمكن التحذيرات الإلهية من أن تهز كيانه وتحرك وجدانه، فإنما هو يثبت بعمله ذاك أنه مصاب بداء القسوة والبلادة . إن التربة تكتسب الخصوبة والنضارة والحيوية بعد ارتوائها من الماء، إذن، فكم سيكون الأمر مثار الدهشة والعجب لولم ينتبه الإنسان ويستيقظ من رقدته رغم استماعه إلى الدلائل والبراهين الواضحة الصارخة !

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

إن إعطاء المال ابتغاء رضوان الله للمحتاجين، وبذله في مقتضيات الدين عمل جد عظيم ، ومن ينفق من الرجال والنساء على هذا النحو، هم الذين قد أقاموا الدليل على

صدق إيمانهم ، حيث إنهم رأوا الحق ، بينما كان الحق تثار حوله الشبهات والمطاعن ، ولمّا يقم له في المجتمع قائمة ، ولذا فسوف يصير عملهم في الآخرة نوراً يسعى بين أيديهم ، وهم يعتبرون من الصديقين الذين صدقوا بآيات الله إذْ كذب بها الآخرون ، وهم يرفعون إلى درجة الشهداء عند ربهم ؛ يعني المتحدثين عن أحوال الناس وأعمالهم أمام محكمة الآخرة!!

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾

وَتَكَاثُرٌ: مباهاة وتطاول بالعدد والعدد.

أَعْجَبَ الكُفَّارَ: راق الزراع.

يَهِيجُ: ييبس في أقصى غايته.

يَكُونُ حُطَامَاً: فتاتاً هشيما متكسراً بعد يبسه.

سَابِقُوا: سارعوا مسارعة المتسابقين في المضمار.

لقد وضع الله في هذا العالم أمثلةً لشئون الآخرة ، منها مثال الزرع ، فحين يبلغ الزرع تمامه ويكتمل نضجه بعد نزول الغيث عليه ، يكون منظره لفترة من الزمان قصيرة رائقاً جذاباً يأخذ القلوب والأبصار ، ولكن سرعان ما تهب الرياح الحارة ، فإذا

بخضرته تأخذ في الاصفرار والجفاف ، ثم لا يلبث طويلاً حتى يُحصد ويستحيل هشيماً يابساً متكسراً يتطاير في الهواء هنا وهناك!!. وهكذا مباهج العالم الراهن هي الأخرى موقوتة زائلة . وإن المرء ليغتر بحصوله عليها إذا يعتبرها هي كل شيء ، ولكنه عندما يرد إلى ربه في نهاية المطاف، فسيدرك أن مباهج الدنيا لم تكن لها بإزاء قيم الآخرة حقيقة وليس لهم وزن !.

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾

نَبْرَأَهَا: نخلق هذه الكائنات.

لِكَيْلا تَأْسَوْا: لكيلا تحزنوا حزن قنوط .

وَلاَ تَفْرَحُوا: فرح بطر واختيال.

مُخْتَالٍ فَخُورٍ: متكبر مباه متطاول بما أُتي.

إن المقصود من العطاء والمنع في هذه الحياة هو الامتحان ، حيث قضى الله سبحانه سلفاً بالصور والمواقف التي سيُعطى فيها شخص ما ورقة امتحانه ، إذن ، فالمسألة التي ينبغي أن تشغل بال الإنسان وتكون محور اهتمامه أصلاً ليست : ما الذي حصل عليه أو ماذا يُنتزع منه؟ وإنما تتمثل في : ما هو نوع استجابته أو رد فعله إزاء موقفٍ من المواقف الحياتية؟؟. والاستجابة أو رد الفعل الصحيح المطلوب من الإنسان هو ألا يجزع إذا فقد ، ولا يصاب بالفخر والغرور إذا نال .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) ﴾

وَالْمِيزَانَ: العدل وأمرنا به أو الآلة المعروفة.

وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ: خلقناه. أو هيأناه للناس.

بَأْسٌ شَدِيدٌ: قوة شديدة.

على المرء واجبان رئيسيان تجاه الدين : أحدهما : اتباع الدين ، وثانيهما : نصرة الدين، وكأن الميزان تمثيل رمزي لاتباع الدين .. فكما نعلم مقدار شيء من الأشياء المادية، قل أو كثر ، من خلال وزنه بالميزان ، فإن كتاب الله هو الآخر ميزان للحق ، وينبغي للناس أن يتناولوا أعمالهم دائماً بالنقد والتقويم في ضوء الكتاب الإلهي ، حتى يعلموا مدى قربها أو بعدها من الحق والصواب !؟ وهكذا فإن الحديد مثال رمزي لنصرة الدين ، فيجب على المرء إذا ما رأى الدين مهدداً ببعض الأخطار ، أن يصمد أمامه كالطود الشامخ ، وأن يدافع عن الدين ويزود عن حماه بإرادة فولاذية لا تلين ولا تتضعضع !!.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) ﴾

قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم: أتبعناهم وبعثنا بعدهم.

الإِنجِيلَ: وقد حرفوه بعد.

الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ: على دينه الذي أرسل به.

رَأْفَةً وَرَحْمَةً: مودة ولينا ، وشفقة وتعطفاً.

وَرَهْبَانِيَّةً: مغالاة في التعبد والتقشف.

مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ: ما فرضناها عليهم بل ابتدعوها.

فَمَا رَعَوْهَا: بل ضيعها أخلاقهم وكفروا بدين عيسى عليه السلام .

إن جميع الأنبياء الذين بُعثوا من عند الله ، إنما بُعثوا ، على اختلاف الأزمان والأماكن ، بدينٍ واحدٍ ليس غير ، ولكن الناس لم يلبثوا ، بعد مضي الزمان ، أن اخترعوا ألواناً شتى من البدع والطقوس ونسبوها إلى الأنبياء ، ومن أمثلة ذلك : اتباع سيدنا المسيح عليه السلام فقد كانت مهمة المسيح عليه السلام مقصورةً على إبلاغ الدعوة وحدها ؛ إذْ لم يكن القتال جزءاً من مسئولياته النبوية ، ومن ثم أكد عليه السلام على أخلاق الداعية أكثر من كل شيء ، وأخلاق الداعية قوامها الرحمة والرأفة ، ولهذا أمر عليه السلام أتباعه بأن يتعاملوا مع الناس بأسلوب الرأفة والرحمة ، غير أن أتباع المسيح الذين جاؤوا بعده لم يستطيعوا إدراك هذا السر ، فطغى عليهم هذا المزاج حتى انتهى بهم إلى الرهبنة .. وبالتالي راحوا يبالغون في الابتعاد عن الدنيا والزهد في طيبات الحياة باعتباره هو المقصود الأصلي من الدين، مع كونهم إنما أمروا بذلك ابتداءً كي يتمكنوا من التجرد للدعوة!!.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ

ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ: نصيبين (أجرين) .

لِئَلاَّ يَعْلَمَ: ليعلم و "لا " مزيدة.

المراد بـ" الذين آمنوا" هنا هم المؤمنون بسيدنا المسيح عليه السلام إن الذين يؤمنون بمن سبق من الأنبياء والمرسلين ، ثم يكتشفون صدق نبي آخر الزمان - ﷺ- فيؤمنون به ، لهم أجر مضاعف ، وهكذا فإن الذين هم مسلمون بالإرث ، لو أنهم قاموا بدراسة الإسلام من جديد ، لكي يولّدوا في أنفسهم وعياً إسلامياً يجدد إيمانهم وإسلامهم ، فإنهم سيعتبرون عند الله بدورهم أهلاً للأجر المضاعف !!

سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾

تُجَادِلُكَ: تحاورك وتراجعك الكلام.

تَحَاوُرَكُمَا: مراجعتكما القول.

كان من عادة العرب في الجاهلية أن الرجل إذا قال لزوجته : "أنت علي كظهر أمي"، حُرمت عليه إلى الأبد ، وكان ذلك يُسمى ظهاراً ، وقد حدث ذات مرة أن قال أحد المسلمين في المدينة ، وهو أوْس بن الصامت ، لامرأته خولة بنت ثعلبة الأنصارية هذا الكلام ، فتوجهت إلى رسول الله ﷺ تحكي عليه ما جرى بينها وبين زوجها ، فأجابها - عليه الصلاة والسلام - قائلاً : "ما أراك إلا قد حُرمت عليه" مما جعل خولة تحزن وتقلق على مستقبلها هي وأولادها الصغار ، وما قد يتعرضون له من الضياع والتشرد ، فأخذت في البكاء والعويل ، فنزلت هذه الآية وما يليها تبياناً للحكم الإسلامي فيما يتعلق بقضية الظهار .

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ

مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

يُظَاهِرُونَ: يحرمون نساءهم تحريم أمهاتهم.

مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ: فظيعا منه ينكره الشرع والعقل.

وَزُوراً: كذبا باطلاً منحرفاً عن الحق.

يَتَمَاسَّا: يستمتعا بالوقاع ، أو دواعيه.

الإسلام يفرق بين الجوهر والمظهر أو بين الصورة والحقيقة ، ومن ثم رفض الإسلام الإقرار بهذه العادة المتبعة من قديم الزمان التي تجعل المرأة كالأم الحقيقية تماماً فور مناداة زوجها إياها بلفظ الأم !! ، وإذا كان كلام كهذا لغواً من القول وزوراً ، فإنه ليس من شأنه البتة أن يغير قوانين الفطرة .

وقد بين القرآن الكريم أن المرأة لا يقع عليها الطلاق عقب ظهار زوجها منها حسب الطريقة المألوفة، إلا أنه ألزم الزوج المظاهر بأداء الكفارة قبل أن يستمتع بزوجته مرة أخرى، وحين يؤدي المرء الكفارة على هذا النحو ، إثر وقوعه في خطأ ما ، فإنما هو يبعث يقينه من جديد ، ويعمل على تقوية وترسيخ عقيدته في ذلك المبدأ الذي كان قد تخلى عنه بسبب الغفلة أو الحماقة !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾

يُحَادُّونَ: يعادون ويشاقون ويخالفون.

كُبِتُوا: أذلوا ، أو أُهلكوا ، أو لعنوا.

أَحْصَاهُ الله: أحاط به علماً.

إن مخالفة الحق مخالفة لله ، ومخالفة الله إنما يجني المرء بمخالفته إياه على نفسه هو ليس غير ، وإن المرء لا يستطيع أن يخفي شيئاً مما يعمله سراً أو جهراً عن الله ، وليس في مقدوره أن ينقذ نفسه من مؤاخذة الله - عز وجل!!

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٨) ﴾

نَّجْوَى ثَلاثَةٍ: تناجيهم ومسارتهم.

هُوَ رَابِعُهُمْ: بعلمه حيث يطلع على نجواهم.

هُوَ مَعَهُمْ: بعلمه المحيط بكل شيء.

لَوْلا يُعَذِّبُنَا: هلا يعذبنا.

حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ: كافيهم جهنم.

يَصْلَوْنَهَا: يدخلونها أو يقاسون حرها.

كان بعض اليهود والمنافقين إذا جاؤوا إلى رسول الله ﷺ حيّوه قائلين : السّام عليك ،

بدلاً من السلام عليك ، ولقد كان هذا - ولا يزال - دين السطحيين من البشر دائماً ، وقد يشعر ذوو الأذواق السطحية كهؤلاء بموجةٍ من الفرح تغمرهم إذا هم نجحوا في النيل من عرض إنسان صادقٍ أو الحطّ من قدره ، ويغيب عن بالهم أن مظاهر الألوهية المنبثة في أرجاء الوجود تكون شاهدةً بعلو مكانة الإنسان الصادق حتى في الوقت الذي يكونون هم قد استعملوا آخر ما في عقولهم الضيقة المحدودة من كلمات التحقير والإهانة !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ ﴾

إِنَّمَا النَّجْوَى: المنهي عنها.

لِيَحْزُنَ: ليوقع في الهم الشديد.

إن المناجاة أي إفضاء بذات نفسه سراً مما لا يُستحسن في الأحوال العادية ، ولكن ربما تدعو الحاجة في بعض الأحايين إلى المناجاة والمحادثات السرية لبعض الأغراض النبيلة كذلك ، ومدار الأمر في هذا الصدد على نية المتناجين ، فإن كان التناجي بنية حسنةٍ فلا بأس به ، وأما إنْ كان بنية سيئةٍ فلا يجوز .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝ ﴾

تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ: توسعوا فيها ولا تضاموا.

انشُزُوا: انهضوا للتوسعة أو لعبادة أو خير.

ربما يحدث ، بمقتضى أدب المجالس ، أن يُطالب شخص بالتأخر عن مكانه ليجلس فيه غيره ، كما يحدث في بعض الأحيان أن يقال للحاضرين ، على خلاف رغبتهم في مواصلة الحديث واستمرار الجلسة : "ارجعوا الآن" !! إن اتخاذ أمورٍ كهذه مسألة كرامةٍ دليل على تدني المستوى الشعوري ، وأما الذي لا يتخذ منها مسألة كرامة فقد برهن على كونه بالغاً أعلى مستويات الشعور!!

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

أَأَشْفَقْتُمْ: أخفتم الفقر والعيلة.

وَتَابَ الله عَلَيْكُمْ: خفف عنكم بنسخ حكمها.

شاءت إرادة الله سبحانه ألا يلقى الرسول إلا من يرغب في لقائه لأي غرضٍ جادٍ في واقع الأمر ، وأن يُفرز من بينهم الفضوليون الذين إنما يتسببون في إضاعة الوقت من غير جدوى بثرثراتهم وأحاديثهم الفارغة ، ومن ثم فُرض على كل راغبٍ في لقاء الرسول والتناجي معه أن يتصدق قبل نجواه ، وإن عجز عن تقديم الصدقة فليتطوع بفعل بعض الحسنات الأخرى ...، وهذا الحكم ، وإن كان في الأصل مطلوباً بالنسبة لرسول الله ﷺ ، إلا أنه سيبقى بعد الرسول مطلوباً كذلك ، حسب مقتضيات الأحوال، بالنسبة إلى قادة الأمة على قدر مراتبهم !!

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾

إِلَى الَّذِينَ: هم المنافقون.

تَوَلَّوْا قَوْماً: اتخذوا اليهود أولياء.

غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم: هم اليهود.

جُنَّةً: وقاية لأنفسهم وأموالهم.

لقد كان منافقو المدينة منضمين إلى جماعة أهل الإسلام ، كما كانوا إلى جانب ذلك متواطئين مع اليهود أيضاً . وهكذا يكون دائماً موقف أولئك الذين لا يعتنقون الحق بالإخلاص والتجرد الكاملين ، وأمثال هؤلاء يتظاهرون بالولاء للجميع ، إلا أنهم في الحقيقة يكونون أوفياء لمصالحهم وحدها ، وإن كانوا يحلفون على كونهم أتباع الحق بكل محرجةٍ من الأيمان !!

﴿ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾

لَن تُغْنِيَ: لن تدفع.

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ: استولى وغلب على عقولهم.

يُحَادُّونَ: يعادون ويشاقون ويخالفون.

الأَذَلِّينَ: الزائدين في الذلة والهوان.

عَزِيزٌ: غالب على أعدائه غير مغلوب.

إن الإنسان النفعي عندما يعارض ويعرقل دعوة الحق ؛ يخيل إليه كأنه يحافظ بذلك على مصالحه وأسباب سعادته ، إلا أنه سيقف مبهوتاً في الآخرة ، يوم يرى أن الأشياء التي كان قد جعل منها موضع ثقته في الدنيا ، لم تعد تجدي عنه في ساعة القضاء الرهيبة هذه فتيلاً !

والرجل المنافق يتحذلق ويتكلم بملء شدقيه لكي يبرر موقفه ، حتى إنه يحلف بالأيمان الغليظة تأكيداً على صدقه وإخلاصه ، وهو إذ يفعل كل ذلك يعتقد أنه "على شيء" وأنه قد هيّأ في صالحه أرضيّة واقعية صلبة يستند عليها ، ولكن انفجار القيامة حين يكتشف النقاب عن الحقائق ، فإنه سيدرك عندئذٍ أنها كانت كلمات زائفة من إلقاء الشيطان ، تلك التي ظل يرددها باعتبارها أدلة قاطعةً على براءته!!

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

بِرُوحٍ مِّنْهُ: بنور يقذفه في قلوبهم. أو بالقرآن.

إن الفوز والنجاح في هذا العالم لحزب الله وحده ، وما حزب الله ؟ أو ما أوصاف

رجاله ؟؟ إنهم أناس ثبت الإيمان في قلوبهم كأعظم حقيقةٍ ، وهم الذين بلغوا من ولائهم لله بحيث راحوا يتلقون من لدن ربهم فيضاً روحياً غامراً ، وهم الذين يكون ارتباطهم بالحقائق الإلهية عميقاً لدرجة أنه يصير عندهم هو الأساس للحب والبغض والصداقة والعداوة ، فهم أقرب ما يكونون ممَنْ هو قريب من الصدق الإلهي وأبعد ما يكون عمن هو بعيد عن الصدق الإلهي ، ولو كان من آبائهم أو ذوي قرباهم !!

سورة الحشر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝ ﴾

سَبَّحَ لله: نزهه ومجده تعالى ودل عليه.

الَّذِينَ كَفَرُوا: هم يهود بني النضير قرب المدينة.

لأَوَّلِ الحَشْرِ: في أول إخراج وإجلاء إلى الشام.

في شرقي المدينة،كانت هناك مساكن يهود بني النضير،وقد كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد أبرموه عقب قدومه إلى المدينة،مؤداه : أن يقفوا منه على الحياد،لا له ولا عليه، ولكنهم لم يفوا بهذا العهد ، وما زالوا يغدرون بأهل الإسلام كلما سنحت لهم الفرصة ، إلى أن هيّأ الله – جل شأنه-في أوائل السنة الرابعة من الهجرة النبوية ظروفاً مكنت المسلمين من إرغامهم على الجلاء عن المدينة .

فكان منهم من سار إلى خيبر وأقام بها ، بينما ارتحل الباقون إلى منطقة أذرعات ، بيد أنهم لم يزالوا على عهدهم بالدسّ والوقيعة بين الناس ، حتى تم طردهم نهائياً ، مع سائر القبائل اليهودية من جزيرة العرب في زمن الخليفة الثاني عمر الفاروق ﷺ ،

فتوجهوا بعدئذٍ إلى بلاد الشام واستوطنوها .

وقوله : ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ﴾ يشرحه الفقرة التالية :

﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ ... فقد قاموا باتخاذ كل ما يلزم من العدة والعتاد والمؤن والتحصينات الخارجية، إلا أن الجيش الإسلامي لم يكد يزحف نحو مساكنهم ويضرب الحصار من حولها ، حتى تسربت موجة من الانهزامية إلى نفوسهم ، وفقدوا روح المقاومة ، مما اضطرهم بالتالي إلى التسليم دون حربٍ أو قتالٍ !!

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ ﴾

فَأَتَاهُمُ الله: فأتاهم أمره وعقابه.

لَمْ يَحْتَسِبُوا: لم يظنوا ولم يخطر لهم ببال.

وَقَذَفَ: ألقى وأنزل إنزالا شديداً

الجَلاءَ: الخروج من الوطن بالأهل والولد.

شَاقُّوا: عادوا وعصوا وحادوا.

لِّينَةٍ: نخلة ، أو نخلة كريمة .

عَلَى أُصُولِهَا: على سوقها.

إن العقوبة التي أنزلت بيهود الجزيرة العربية ، كانت بموجب القانون الإلهي ،

وهذه العقوبة مقدرة على كل أولئك الذين يقفون من الرسول موقف المعارض ، كما أن ما جرى أثناء حصار بني النضير من قطع بعض الأشجار من نخيلهم وتحريقها لمصلحة حربية ، كان هو الآخر تبعاً لأمرٍ من الله مباشرٍ ، ولكن هذا ليس بالمبدأ العام، وإنما هو حكم استثنائي يتم تنفيذه في صورة أو أخرى بالنسبة إلى معاصري الرسول !.

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾

وَمَا أَفَاءَ الله: وما رد وما أعاد.

فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ: فما أجريتم على تحصيله.

رِكَابٍ: ما يركب من الإبل خاصة.

دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ: ملكا متداولاً بينهم خاصة.

ما يحصل للمسلمين من أموال العدو بعد الحرب والقتال يسمى غنيمةً ، وما يحصل لهم من مال العدو بدون حرب أو قتال يسمى فيئاً ، والغنائم تُوزع أربعة أخماسها على رجال الجيش ، وأما الفيء فهو ملك خالص للحكومة الإسلامية تصرفها في وجوه الخير والمصالح العامة .

إن الإسلام يريد ألا يكون المال محصوراً في طبقة بعينها بحيث يحرم منه الآخرون كلياً، بل يجب أن يصل إلى طبقات المجتمع كافةً ، ولتحقيق هذا الغرض لم يلجأ الإسلام إلى سياسة القسر والإجبار ، وإنما شرع من القوانين الاقتصادية الحكيمة ما يتكفل بعدم تكدّس الأموال وصيرورتها حكراً على طبقةٍ دون أخرى ، ويضمن تداولها المستمر بين الجميع!!

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ: توطنوا المدينة وأخلصوا الإيمان.

حَاجَةً: حزازة وحسداً.

خَصَاصَةٌ: فقر واحتياج.

وَمَن يُوقَ: من يجنب ويكف.

شُحَّ نَفْسِهِ: بخلها مع الحرص على المنع.

غِلاًّ: حقداً وبغضاً وغشاً.

لقد كان المهاجرون الذين قدموا المدينة فراراً بدينهم من كفار قريش تاركين ديارهم وأموالهم بمكة، كانوا "كلاً " أو "عالةً" على الأنصار (سكان المدينة الأصليين) ، ولكنهم استقبلوا إخوانهم في الدين أولئك ، بمنتهى الحفاوة وبأحسن ما يكون من

الترحاب، ولما استولى النبي ﷺ على أموال بني النضير قسمها على المهاجرين وحدهم، (ما عدا رجلين من الأنصار كانا يعانيان من الفقر والحاجة وهما سهل بن حنيف وأبو دجانة بن سماك) ، وقد رضي الأنصار بهذا التقسيم عن طيب نفسٍ) ، ولم يظهر منهم أي تذمر أو استياء، ولقد ظلت قلوبهم تفيض بمشاعر الحب والتقدير للمهاجرين ، وألسنتهم تدعو لهم بأفضل الدعوات . إن هذه الروح العالية من المروءة والإيثار والكرم هي التي تؤهل جماعةً ما لتكون صانعة التاريخ!

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

عندما أعلن رسول الله ﷺ جلاء بني النضير عن المدينة توجه إليهم المنافقون قائلين: اثبتوا ، ولا تبرحوا مكانكم ، وإن كان ثمة قتال ، فسنقف إلى جانبكم وننصركم بكل ما نملك من العدد والسلاح، غير أن أقوال المنافقين هذه إنما كانت لتحريض بني النضير ضد المسلمين ، إذْ لم يكونوا صادقين مطلقاً فيما قالوا لهم ولا مخلصين فيما وعدوهم به من النصر والمساعدة ، ومن هنا فلما زحف المسلمون نحوهم وضيقوا عليهم الخناق بحصارهم الذي دام بضعاً وعشرين ليلةً ، لم يتقدم أحد من المنافقين ليقف إلى جانبهم أو يقاتل دونهم، وهذه هي الأخلاقيات المميزة لعبيد المصالح والمنافع في كل زمانٍ ومكانٍ.

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ

تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ: قتالهم فيما بينهم.

وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى: متفرقة لتعاديهم.

إن قوة الله لا تُرى ظاهراً ، بينما قوة البشر يراها الجميع رأي العين ، مما يجعل عبدة الظواهر والمظاهر يعيشون في غير خوف ولا رهبةٍ من الله ، ولكن سرعان ما يدب الخوف والذعر في قلوبهم إذا ما وجدوا أنفسهم في مواجهة أحد الأقوياء الأشداء من البشر ، وكونهم يفتقرون إلى الوعي والشعور فيما يتعلق بجلال الله وعظمته يفقدهم الوعي والشعور حتى فيما يتعلق بأمور دنياهم !!

والذين يجتمعون على هدف سلبي ؛ بحيث يكون هذا الهدف السلبي هو وحده أساس ما يُرى بين صفوفهم من اتحاد وائتلافٍ،فإنهم قلما يتمكنون من الإبقاء على الوحدة القائمة فيما بينهم إلى أمد طويلٍ ؛ ذلك لأن الاتحاد الحقيقي الدائم يتطلب أساساً إيجابياً ، وهو ما لا يوجد عندهم البتة .

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

وَبَالَ أَمْرِهِمْ: سوء عاقبة كفرهم.

كان المنافقون في المدينة يحرضون بني النضير ضد المسلمين ويغرونهم بالمقاومة ، وفاتهم أن يتعلموا درساً من الواقع أن قريشاً ويهود بني النضير قد قاموا بشن الهجوم المشترك عليهم في قريب الماضي ، ولكنهم باؤوا بالهزيمة النكراء، وهكذا يكون دائماً

حال أولئك الذين يتخذون من الشيطان مستشاراً لهم ويتبعون خطواته ، حيث إنهم لا يعتبرون بالأحداث أي اعتبارٍ ، فهم يعملون أول الأمر على إغراء الناس بالممارسات الإجرامية في حماس بالغ ، ثم إذا رأوا نهايتها البائسة الوبيلة ، بدؤوا في محاولة تبرئة أنفسهم من تبعتها ، ولكن محاولاتٍ كهذه لن تنجي أصحابها من بطش الله - عز وجل!!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

نَسُوا الله: لم يراعوا أوامره ونواهيه.

فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ: فلم يقدموا لها ما ينفعها عنده.

إن الحياة الإنسانية مقسومة بين "اليوم" و"الغد" . والعالم الراهن هو يوم الإنسان الحاضر ، وعالم الآخر هو غده المرتقب ، وكل ما يفعله الإنسان من خير أو شر خلال حياته الراهنة سيلاقي جزاءه الوفاق حتماً في حياته القادمة الأبقى والأوسع مدىً .

وتلك الحقيقة الكبرى في هذا الوجود ، والإسلام هو الاسم الآخر لهذه الحقيقة ذاتها، ونجاح الإنسان في أن يأخذ هذه الحقيقة في الحسبان في غدوه ورواحه ويضعها نصب عينيه دائماً ، فإن من يغفل عنها سارت حياته كلها في اتجاه خاطئ ، ولا فرق في هذا الخصوص بين المسلم وغير المسلم ، فلن يحصل المسلمون من فوائد هذه الحقيقة العظيمة على شيء إلا إذا كانوا متمسكين بها في واقع حياتهم ، وأما لو نسيها المسلمون أو غفلوا عنها فإنهم سينتهون بدورهم إلى المصير البائس المشئوم نفسه ، الذي قد انتهى

إليه اليهود من قبل لما أصيبوا بالغفلة والنسيان !!

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾

خَاشِعاً: ذليلاً.

مُّتَصَدِّعاً: متشققاً.

المَلِكُ: المالك لكل شيء المتصرف فيه.

القُدُّوسُ: البليغ في النزاهة عن النقائص.

السَّلامُ: ذو السلامة من كل عيب ونقص.

المُؤْمِنُ: المصدق لرسله بالمعجزات.

المُهَيْمِنُ: الرقيب على كل شيء.

العَزِيزُ: القوي الغالب.

الجَبَّارُ: القهار أو العظيم.

المُتَكَبِّرُ: البليغ الكبرياء والعظمة.

البَارِئُ: المبدع المخترع.

الْمُصَوِّرُ: خالق الصور على ما يريد.

الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى: الدالة على محاسن المعاني.

القرآن إعلان بحقيقة عظيمة هي أن الإنسان ليس حراً طليقاً من أية قيود أو التزامات في هذه الحياة ، بل هو مسئول عن كل أعماله وأقواله بين يدي الله الذي لا إله إلا هو ، والذي هو ذو قوةٍ وجبروتٍ لا يحيط بهما الوصف ، وهو مطلع بذاته على كل ما يصدر من الإنسان في الظلام أو النور ، وهذا النبأ عظيم وشديد الوطأة لدرجة أنه يكفي لهز الجبال الراسيات ، ولكن الإنسان قد يبلغ من الغفلة وتحجّر القلب وموات الإحساس إلى أنه لا يتنبّه ولا يقلق باله رغم استماعه المكرر إلى هذا النبأ الرهيب المزلزِل!

وأسماء الله الحسنى التي ورد ذكرها هنا هي من جهةٍ تعرفنا بالله تعالى، ومن جهة أخرى تدلنا على مدى عظمة الله الذي هو خالق كل شيء، وهو خالق الناس أجمعين، والذي يراقبهم من فوقهم كل حين وآنٍ، ولو أدرك المرء هذا الواقع حقاً، لاستغرق كيانه كله في حمد الله وتسبيحه .

وإن الكون بما يكمن وراء ظواهره من حكمة ومعنى وروعة إبداعية هو مرآة لصفات الله - عز وجل -. وإنه من خلال انشغاله بكل موجوداته في الحمد والتسبيح ليدعو الإنسان أيضاً إلى الانسجام والتجاوب معه، حتى لا يكون كالنغمة النشاز في هذه الترنيمة الكونية للتحميد والتسبيح الإلهي !!

سورة الممتحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾

أَوْلِيَاءَ: أعوانا توادونهم وتناصحونهم.

أَن تُؤْمِنُوا: لإيمانكم أو كراهة إيمانكم.

يَثْقَفُوكُمْ: يظفروا بكم. أو يصادفوكم.

وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ: يمدوا إليكم.

عندما قرر رسول الله ﷺ غزو مكة في السنة الثامنة من الهجرة، وضع خطته بمنتهى السرية، حذراً من أن تتسرب الأخبار إلى قريش فيتأهبوا للمقاومة، وعندئذٍ وجه أحد الصحابة، وهو حاطب بن أبي بلتعة، وكان ممن شهد بدراً، رسالةً سرية إلى أهل مكة يخبرهم فيها بما عزم عليه الرسول، وقد أراد بذلك أن يصنع معهم جميلاً يرضيهم عنه فلا ينال بنيه وأقرباءه المقيمين بمكة منهم أذىً، ولكن الله – جلت قدرته– أعلم رسوله

بذلك عن طريق الوحي، فأرسل ﷺ من أدرك حامل الرسالة وانتزعها منه قبل أن يصل إلى مكة ..

إن كل عملٍ من هذا القبيل لا يتفق مع مقتضيات الإيمان بصورة مطلقة؛ فالصراع بين الإسلام وغير الإسلام إذا بلغ ذروته التي تتكون عندها جبهتان منفصلتان تحارب إحداهما الأخرى؛ فإن من واجب أهل الإيمان حينئذٍ أن يقطعوا كل ما يربطهم بالجبهة غير الإسلامية من صلات المودة أو التعاطف، حتى لو كانت الجبهة غير الإسلامية تضم أهلهم وذوي قرابتهم . إن الإيمان بالحق، وإقامة صلةٍ ما بالمناوئين للحق ضدان لا يجتمعان معاً في قلب واحدٍ !!

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ: قدوة حميدة في التبري من الضالين .

بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ: أبرياء منكم.

وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا: إليك رجعنا تائبين.

لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً: مفتونين بهم معذبين بأيديهم.

عرض سيدنا إبراهيم عليه السلام رسالة التوحيد على أهل بيته أول الأمر بأسلوب النصح والموعظة ، ولكنهم لما أبوا عن الإيمان وأصروا على العناد والتعنت، رغم قيام الحجة عليهم، فارقهم معلناً براءته منهم بصيغةٍ حاسمة جازمةٍ ، بيْد أنها كانت مرحلة قاسية جداً ، فإن إعلان البراءة كان معناه دعوة أولئك الجاحدين المعاندين للحق ليتناولوه هو ومن آمن معه بكل ما يستطيعون من ألوان الأذى والاضطهاد ، ويلجأوا، بعدما انهزموا في مواجهة الدليل، إلى التنكيل بالمؤمنين وإذلالهم بوسائل القوة والقهر ، وهذا هو السر أن إبراهيم سأل الله بوجهٍ خاص وهو يدعوه بعد ذلك في ضراعةٍ قائلاً : ربنا لا تجعلنا فتنةً للذين كفروا، أي لا تسلط الكفار علينا ولا تمكنهم من رقابنا ليتخذوا منا عرضةً لممارساتهم العدوانية الظالمة .

وإظهار البراءة من ذوي بالأرحام والأقارب ليس إظهاراً للعداوة بالمعنى المعروف، إنما هو تعبير نهائي حازم عما يتمتع به الداعي من ثقةٍ ويقينٍ، وعليه فإن تبرؤ الداعي هو الآخر يحمل في طياته جانباً من الأهمية الدعوية، إذْ يحدث أحياناً أن الشخص الذي لم يكن قد تأثر مطلقاً بلغة " النصح والبلاغ "، قد تنجح لغة " الثقة واليقين " في إثارة اهتمامه واجتذابه بالتالي إلى حظيرة الإيمان !

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

أَن تَبَرُّوَهُمْ: تحسنوا إليهم وتكرموهم.

وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ: تفضوا إليهم بالقسط والعدل.

وَظَاهَرُوا: عاونوا الذين قاتلوكم وأخرجوكم.

أَن تَوَلَّوْهُمْ: أن تتخذوهم أولياء.

يأمر الإسلام أتباعه أن يتعاملوا مع الناس كافة بالعدل والإنصاف حيثما كانوا، وبغض النظر عما إذا كان الفريق الآخر من معسكر العدو أوْ غير العدو. أما صلة المودة والولاء فإنه لا يسمح بإقامتها مع كل أحدٍ دون تحفظٍ، وإنما تجوز الموالاة في أحد وضعيْن لا ثالث لهما : أن يكون مَن تواليه موالياً لله، أوْ لا يكون، على الأقل، عدواً لله !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

فَامْتَحِنُوهُنَّ: فاختبروهن وكان ذلك بالتحليف.

أُجُورَهُنَّ: مهورهن.

بِعِصَمِ الكَوَافِرِ: بعقود نكاح المشركات.

فَاتَكُمْ شَيْءٌ: انفلت أحد بردة.

فَعَاقَبْتُمْ: فغزوتم فغنمتم منهم.

تتناول هاتان الآيتان بالشرح بعض قوانين الإسلام المتصلة بالقضايا العائلية التي قد تنشأ بين دار الإسلام ودار الحرب في ظروف وملابساتٍ خاصةٍ، كالتي نشأت في أعقاب صلح الحديبية .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾

بِبُهْتَانٍ: بإلصاق اللقطاء بالأزواج.

يَفْتَرِينَهُ: يختلقنه.

تتضمن هذه الآية بيان الشروط التي لابد من إقرارها لأي امرأةٍ تريد الدخول في الإسلام ، ومن بين هذه الشروط هناك شرطان أساسيان هما : عدم الإشراك بالله، وعدم معصية الرسول ، وأما مطالب الدين الأخرى سواء المذكورة منها في هذا النص وغير المذكورة، فهي تندرج تلقائياً تحت هذين الشرطين الأساسيين!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ (١٣) ﴾

لاَ تَتَوَلَّوْا: لا تتخذوا أولياء.

قَوْماً: هم اليهود، أو الكفار عامة.

إن اليهود المؤمنين بالكتب السماوية، والكفار الذين لا يؤمنون بها إطلاقاً، كلاهما

سواء فيما يتعلق بالآخرة، فالكفار لا يعلقون رجاءً ما بالموتى لاعتقادهم أن أمرهم قد انتهى وأنهم لن يُبعثوا الآن من قبورهم مرة أخرى ، وهكذا يكون حال أولئك المؤمنين أيضاً الذين لا يلبثون أن يصابوا، على مر الزمن، بالغفلة والقساوة وبلادة الإحساس شأن اليهود، بحيث لا تعود حياتهم العملية - رغم إقرارهم بالآخرة بألسنتهم - تختلف عن حياة الكفار الصرحاء في شيء !!

سورة الصف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾

سَبَّحَ لِلَّهِ: نزهه ومجده تعالى ودل عليه.

كَبُرَ مَقْتاً: عظم بغضا بالغ الغاية.

صَفاً: صافين أنفسهم أو مصفوفين.

بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ: متلاصق محكم لا فرجة فيه.

الكون كله – ماعدا الإنسان – يخلو من التناقص في كل ناحية من نواحيه ، فالخشب في هذا العالم يبقى خشباً أينما وُجد، وما نراه في صورة الحديد أوْ الحجر مثلاً، نجده على محك التجربة العملية حديداً أو حجراً كذلك . والمطلوب من الإنسان أيضاً أن يكون كذلك ، فينبغي أن يكون ظاهره وفقاً لباطنه، وأن يكون فعله مطابقاً لقوله، حتى لو اضطر إلى دفع ثمن قوله بالصبر والصمود كالجبل الشامخ في وجه العقبات والشدائد على اختلاف أنواعها !!

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾

زَاغُوا: مالوا باختيارهم عن الحق.

أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ: حرمهم التوفيق لاتباع الحق.

بُعث موسى ﷺ في بني إسرائيل، وقد كان بنو إسرائيل يوم ذاك شعباً أصيب بالفساد والانحطاط، بحيث لم يعد في نفوسهم من الشجاعة الإيمانية ما يجعلهم يفعلون ما يقولون، ويقولون ما يفعلون، ففيما كانوا يدّعون الإيمان بموسى ﷺ من جهةٍ، لم يكونوا يتحرجون من نقض العهود والمواثيق ولا يتورعون عن إتيان المعاصي والمنكرات من جهةٍ أخرى، حتى إنهم كانوا يواجهون ضروب الاتهامات الكاذبة إلى موسى تبريراً لسلوكهم الشائق معه ﷺ (ولمزيد من التفصيل في هذا الشأن يراجع سفر الخروج وسفر العدد من العهد القديم). وكلما خالف الإنسان العهد أوْ نقضه بعد إبرامه، اتسعت الفجوة بينه وبين الحق أكثر من ذي قبل !

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾

نُورَ اللهِ: الحق الذي جاء به الرسول ﷺ.

وَأُخْرَى: ولكم من النعم نعم أخرى.

لقد كانت معجزات سيدنا المسيح ﷺ تتضمن دليلاً قاطعاً على أنه نبي مرسل

من عند الله ، ولكن اليهود قابلوه بالإعراض والتكذيب باعتبار معجزاته سحراً وشعوذةً ، وهكذا كانت الكتب السماوية السابقة تحتوي على نبوءةٍ واضحةٍ بمجيء نبي آخر الزمان ﷺ ولكنه لما جاء قوبل بأشنع الرفض والإنكار من جانب اليهود والنصارى على حدٍ سواء .

إن الإنسان ظالم لدرجة أنه يأبى الاعتراف حتى بالحقائق الجلية الصارخة التي لا سبيل إلى إنكارها !! والمقصود من الغلبة في الآية ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ هي الغلبة الفكرية ، يعني تمكين عقيدة التوحيد من البقاء وحدها كفكرة غالبةٍ في أنحاء العالم كافة، وجعل ما سواها من المعتقدات غير التوحيدية عن قضايا الألوهية والدين والعبادة، مغلوباً على أمره من الناحية الفكرية إلى الأبد ، ولقد نزلت هذه النبوءة القرآنية سنة ٣ هجرية في ظروف غير مواتية للغاية، إلا أنها تحققت حرفاً حرفاً فيما تلاها من الأعوام والقرون !

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

في عالم التجارة يقوم الإنسان بالبذل والعطاء أولاً، ليظفر بما يعود عليه من الربح أخيراً ، وكفاح الدين هو الآخر نوع من التجارة، من حيث إن المرء يُضطر في سبيله كذلك إلى بذل الكثير من وقته ونفسه وماله، بيْد أن ربح التجارة الدنيوية محدود وهو يقتصر على الحياة الراهنة وحدها، وأما تجارة الدين فأرباحها لا تُحد وهي تشمل كلتا

الحياتين الدنيا والآخرة ، كما أن هذه " التجارة " تفتح باب الغلبة والتمكين، الذي هو الوسيلة الكبرى بالنسبة إلى طائفةٍ ذات مبدأ ورسالة للحصول على حياةٍ كريمةٍ تحت ظلالٍ وارفة من الأمن والاستقرار على هذه الأرض!!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

لِلْحَوَارِيِّينَ: أصفياء عيسى وخواصه.

فَأَيَّدْنَا: قوينا المحقين بالإيمان.

ظَاهِرِينَ: غالبين بالحجج والبينات.

إن سيدنا المسيح ﷺ وإن كان قد قوبل بالرفض والإنكار من جانب الأغلبية العظمى من بني إسرائيل، إلا أن بعضاً منهم وقفوا إلى جانبه ﷺ وناصروه ما دام بين أظهرهم بكامل الإخلاص والوفاء، ثم قاموا بعد رفعه، بنشر تعاليمه ودفع مسيرته إلى الأمام بهمةٍ ونشاطٍ ، وهم الذين عرفوا بالحواريّين ، وهذه الفئة القليلة العدد هي وحدها قد أُعتبرت عند الله في عداد المؤمنين، بينما أُعتبر سائر اليهود، رغم إيمانهم بالأنبياء السابقين على المسيح، كافرين !

والغلبة المشار إليها في هذه الآية هي غلبة المؤمنين برسالة المسيح عامةً، على المكذبين برسالته من بني إسرائيل عامةً، كما حدث في التاريخ بالفعل ، فعلى إثر المسيح اعتنق الإمبراطور الروماني قسطنطين الثاني (٢٧٢-٣٣٧م) الديانة النصرانية ، وقد كانت رقعة مملكته تمتد من بلاد الشام إلى فلسطين، مما جعل معظم رعاياه الرومانيين يدخلون في دين المسيح زرافات ووحداناً، حتى بات اليهود إزاءهم أقليةً مغلوبةً على أمرها ، كما

أن دولة إسرائيل اليهودية في العصر الحديث هي الأخرى ليست مستقلةً بذاتها أوْ قائمة على رجليها ، وإنما هي تابعة لكبرى الدول المسيحية من كل الوجوه والاعتبارات !!

سورة الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾

يُسَبِّحُ لله: ينزهه ويمجده ويدل عليه.

المَلِكِ: مالك الأشياء كلها.

القُدُّوسِ: البليغ في النزاهة عن النقائص.

العَزِيزِ: القادر الغالب القاهر.

الأُمِّيِّينَ: العرب المعاصرين له ﷺ.

وَيُزَكِّيهِمْ: يطهرهم من أدناس الجاهلية.

وَآخَرِينَ مِنْهُمْ: من العرب.

لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ: لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون.

إن بعث الله - سبحانه وتعالى - بالرسل لهداية بني الإنسان، يتمثل، على المستوى البشري، ظهور نفس تلك الصفات الإلهية التي تجلت في هذا الكون على المستوى المادي . ولقد بُعث رسول الإسلام ﷺ شأنه شأن من سبقه من الأنبياء والمرسلين،

للقيام بوظيفة ذات جانبين: أحدهما: تلقي الوحي عن الله وإبلاغه إلى الناس كافةً، وثانيهما: العمل على إيقاظ وعي الناس وتنبيه شعورهم لكي يفهموا كلام الله، ويتمكنوا من الربط بينه وبين حياتهم الواقعية برباطٍ عملي وثيق، وسيبقى هذان العملان - تعليم القرآن والتربية العقلية - هما المحور الرئيسي الذي يدور عليه جهد الدعوة والإصلاح فيما بعد عصر النبوة كذلك.

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ: كلفوا العمل بما فيها (اليهود).

يَحْمِلُ أَسْفَاراً: كتبا عظاما ولا ينتفع بها.

هَادُوا: تدينوا باليهودية.

إن شعباً ما حين يُؤتمن على كتاب الله، فإنما يؤتمن عليه لكي يُقرّه في صميم كيانه، ويسير في حياته العملية على هداه، ولكن الشعب الذي لا ينهض بحمل أمانة الكتاب السماوي بهذا المعنى، فإن مثله كمثل حمار ينوء بالكتب العلمية الضخمة وهو لا يدري ماذا يحمل على ظهره ؟! وإن اليهود، وإن كانوا قد نبذوا دين الله عملياً وراء ظهورهم، إلا أنهم كانوا قد اتخذوا منه موضع الفخر والاعتزاز القومي، غير أن فخراً مجرداً كهذا لن يغني عن أحدٍ فتيلاً، ومثل هذا الفخر يقوم دوْماً على الزيف والخداع، وحسبك

دليلاً على ذلك أنك تراه يحاول التنصل، إذ جدّ الجد، من تقديم أية تضحيات لهذا الدّين الذي يكون قد جعل منه أداة فخره واعتزازه ، على أن أمثال هذا سيدركون، إذا حضرهم الموت، أن الفخر الذي كانوا يعيشون عليه في الدنيا لم يكن ليعود عليهم في الآخرة بشيء سوى الذل والهوان!!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

وَذَرُوا الْبَيْعَ: اتركوه وتفرغوا لذكر الله.

فَانتَشِرُوا: تفرقوا للتصرف في حوائجكم.

انفَضُّوا إِلَيْهَا: تفرقوا عنك قاصدين إليها.

الإنسان في هذه الحياة مطالب بمقتضيين اثنين في آنٍ واحدٍ،أحدهما : مقتضى المعاش، والآخر مقتضى الدين،وكلاهما ضروري لابد من العناية بتحقيقه على السواء،إلا أنه ينبغي أن يتم تقسيم الوقت والجهد والطاقة بينهما بحيث تبقى الأنشطة المتصلة بكسب المعاش تابعةً دائماً للمقتضيات الدينية . فلا بأس في أن يكدح المؤمن سعياً وراء ابتغاء المعاش في إطار الحدود المشروعة ، ولكن يجب عليه أن يعدّ نجاح مسعاه ذاك منةً خالصةً من الله وفضله،وأن يظل موصول القلب بالله، دائم الذكر له تعالى في أثناء اشتغاله بالكسب والارتزاق،كما ينبغي له – إلى جانب ذلك – أن يكون دوْماً على أهبة الاستعداد للاستجابة وتلبية النداء إذا ما دُعي إلى

القيام ببعض مقتضيات الدين،نافضاً يده في ذلك الوقت من كل المشاغل الأخرى سواه .

ولقد حدث ذات مرةٍ أن نهض بعض الصحابة، والرسول قائم في المسجد يخطبهم للجمعة، وانصرفوا مسرعين إلى سوق المدينة لشراء ما جاء به أحد التجار من الطعام ، خشية أن ينفد لو انتظروا تمام الصلاة ، وفي تلك المناسبة نزلت هذه الآيات الكريمة بما فيها من تعقيب على الحادث وتوجيه وتأديب لمن تركوا الرسول في أثناء الخطبة خاصةً، وللمسلمين عامةً. وهذا الحكم ، وإن كان يتعلق أساساً بصلاة الجمعة، إلا إنه ينسحب، بصورة غير مباشرةٍ، على كل الأعمال الدينية ، فكلما جُمع المسلمون على صعيد واحدٍ لأي مهمة خاصةٍ من مهام الدين، فإن مغادرة المجلس عندئذٍ، بدون إذن الأمير أو القائد، حرمان عظيم لا يعدله حرمان !!

سورة المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾

جُنَّةً: وقاية لأنفسهم وأموالهم.

آمَنُوا: بألسنتهم لا غير.

من علامة نفاق المرء أن يرفع عقيرته بالأقوال والدعاوى الكبيرة، ويحلف بالله تأكيداً على كلامه ليصدقه الآخرون مخدوعين بأيمانه الكذوب . إن الإنسان المخلص يتميز بسمة التواضع والخشوع لسيطرة الخشية الإلهية عليه دائماً .. فهو ينطق بقلبه أكثر مما ينطق بلسانه ، والمنافق إنما يحرص على إيصال صوته إلى مسامع البشر أمثاله وحدهم، بينما يود الإنسان المخلص أن يُسمع صوته الله رب البشر، ولا يتحقق ذلك إلا إذا كان صادراً من قلب نقيٍ وضمير خالصٍ ، وحين يؤمن شخص ما، فإنه يقطع على نفسه عهداً جاداً، ثم تواجهه من بعد ذلك شتى المواقف العملية في الحياة اليومية، حيث يقتضي الأمر أن يعمل وفقاً لعهده ذاك ، والآن، فمن ينصت في مواقف كهذه لنداء ضميره، ويوفي بمقتضيات العهد، يزداد إيمانه قوةً ورسوخاً باستمرارٍ ، وعلى العكس من هذا، فإن من لا يلتفت إلى نداء ضميره حين يناديه بالتزام العهد، ويعمل بخلاف مقتضاه، سيصل به الأمر شيئاً فشيئاً إلى أن يفقد حساسيته مطلقاً إزاء العهد

الذي كان قد قطعه على نفسه يوم نطق بكلمة الإيمان ، وهذا هو معنى الطبع على القلب الذي لا يعود صاحبه بعد ذلك يفقه أوْ يَعي من أمر الحق شيئاً !!

﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾

فَطُبِعَ: ختم بسبب الكفر.

لاَ يَفْقَهُونَ: لا يعرفون حقيقة الإيمان.

خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ: إلى الحائط ، أجسام بلا أحلام.

هُمُ العَدُوُّ: الراسخون في العداوة.

أَنَّى يُؤْفَكُونَ: كيف يصرفون عن الحق ؟.

لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ: عطفوها إعراضا واستهزاء.

المنافق يحافظ على مصالحه بالسير على سياسة الانتهازية والمداهنة في حياته،فهو لا يتعرض أبداً لموضوع الحق والباطل في خلال معاملاته وارتباطاته مع الناس،مما يجعله يلقى الحفاوة والترحيب أينما حل وسار ،وهو يعيش خالي البال من كل هم وغم؛ فيسمن بدنه نتيجة ذلك، بحيث يعود محل الإعجاب لدى الناظرين،وهو إذ يتحدث، يتخير في كل مناسبة من المواضيع والألفاظ والأساليب ما يتفق مع أمزجتهم وميولهم، ولذا يجد الكل في حديثه ما يثير اهتمامه ويستهويه،بيد أن هذه الأشجار الضخمة

المتفرعة الباسقة، على ما يبدو ظاهراً، لا تعدو في الحقيقة أن تكون خشباً جافاً ليس فيها حياة ولا حركة ، وهكذا المنافق يخدع العيون بمظهره الوقور الأنيق وملء إهابه الجبن والخور والبلادة، وتكون مصالح دنياه عنده أكثر أهمية وأجدر بالعناية من كل مصلحة دينيةٍ ، وأمثال هذا، رغم كونهم يدّعون الإيمان بأصواتٍ مدويةٍ مجلجلة، ليسوا من المؤمنين في شيء !!

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

حَتَّى يَنفَضُّوا: كي يتفرقوا عنه ﷺ .

رَّجَعْنَا: من غزوة بني المصطلق.

لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ: الأشد والأقوى يعنون أنفسهم.

الأَذَلَّ: الأضعف والأهون ، يعنون الرسول ﷺ والمؤمنين.

وَللهِ العِزَّةُ: الغلبة والقهر.

كان المجتمع المدني في عهد الرسول يضم صنفين من المسلمين : مهاجرين وأنصار ، ولقد جاء المهاجرون إلى المدينة بوصفهم مشردين مطرودين تركوا ديارهم وأموالهم في مكة ، فكان سندهم الظاهري الوحيد في هذا المجتمع الجديد هو ما أبداه المسلمون المحليون - الذين عُرفوا بالأنصار - من روح التضامن والسماحة والإيثار ، وبناء على هذا كان عبيد المادة السطحيون ينظرون إلى المهاجرين باحتقارٍ شديدٍ باعتبارهم فئةً ذليلةً لا يقام لها وزن، وبالمقابل كان الأنصار عندهم أصحاب العزة والكرامة ، حتى

بلغت الجرأة والوقاحة بعبد الله بن أبي، زعيم المنافقين، إلى حد أنه استخف بشأن المهاجرين على مسمع من بعض الأنصار قائلاً : ما حقيقة هؤلاء ؟ فلئن أخرجناهم من بلادنا، إنهم لن يجدوا في الأرض مأوى يلجؤون إليه ! إن ألفاظاً كهذه لا يمكن أن يتفوه بها إلا من يجهل حقيقة أن ما في السماوات والأرض كله لله، وأنه تعالى هو وحده يعطي من يشاء وينتزع ممن يشاء ؛ لحكمة دقيقة لا يعلمها إلا هو !!.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾

لاَ تُلْهِكُمْ: لا تشغلكم وتصرفكم.

ذِكْرِ الله: عبادته وطاعته.

لَوْلا أَخَّرْتَني: هلا أمهلتني وأخرت أجلي.

إن قضية الآخرة هي القضية الكبرى بالنسبة لكل إنسان في هذا العالم ، غير أن الانشغال في الأموال والأولاد يلهي الإنسان عن هذه القضية الكبرى ، ويجدر بالإنسان أن يدرك -قبل فوات الأوان - أن المال والولد ليسا غاية وجوده، بل إنهما وسيلة فقط، وإنما يتاح لأحد الناس ما يُتاح من ذلك لكي يوظفه في تحقيق مشيئة الله وإنجاز منهجه، وفي سبيل الإعداد لآخرته وتحسين عاقبته الدائمة هناك ، ولكن الجاهل ينظر إلى المال والولد على أنهما الغاية المقصودة ذاتها من هذه الحياة ، وحين ينتهي الجهلة الغافلون المغرورون كهؤلاء إلى المصير النهائي البائس الذي ينتظرهم، فلن يملكوا إزاءه سوى أن يتجرعوا مرارة الندم والحسرة إلى الأبد !

سورة التغابن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٤) ﴾

يُسَبِّحُ لله: ينزهه ويمجده ويدل عليه.

لَهُ المُلْكُ: التصرف المطلق في كل شيء.

بِالحَقِّ: بالحكمة البالغة.

فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ: أتقنها وأحكمها.

قوله : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ معناه أن الكون كله آية مصداق للحقيقة، التي كشفها الله - سبحانه وتعالى - عبر القرآن الكريم ، وأنه يؤيدها بلسان حاله تأييداً يبلغ درجة الحمد والثناء ، فالذين لا يؤمنون، رغم هذا الإعلان الثاني، إنما ينبغي لهم أن يرتقبوا الإعلان الثالث الذي سيحضر البشر على إثره بين يدي الله، لكي يستمعوا إلى رب الكون نفسه وهو ينطق بقضائه الأخير في شأن مصيرهم الأبدي !!

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥)

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾

وَبَالَ أَمْرِهِمْ: سوء عاقبة كفرهم في الدنيا.

وَتَوَلَّوْا: أعرضوا عن الإيمان بالرسل.

يتضمن تاريخ الأنبياء والمرسلين الذين جاؤوا برسالة الحق في مختلف العصور الماضية، رصيداً دائماً لا ينفد من العبر والعظات الغالية لبني الإنسان ، فمثلاً : بُعث إلى قوم عاد وثمود وأهل مدين وقوم لوط وغيرهم رسل من الله، ولم يكن يملك هؤلاء للدلالة على صدقهم أي مهارة أو خصوصيةٍ فوق البشرية، سوى الدليل ، وإن إنكار الحق على مستوى الدليل هو ما جعل تلك الشعوب تستحق العذاب الإلهي ، ومن هذا نعلم أن امتحان المرء في هذه الدنيا هو أن يتعرف على الحق على مستوى الدليل، ومن يفشل في معرفة الحق على مستوى الدليل سيظل محروماً من الحق ما دامت السماوات والأرض .

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾

وَالنُّورِ: القرآن.

لِيَوْمِ: في يوم القيامة حيث تجتمع الخلائق للحساب والجزاء.

يَوْمُ التَّغَابُنِ: يظهر فيه غبن الكافر بتركه الإيمان وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان.

الناس يحسبون الدنيا موضع الربح والخسارة (التغابن) ، فإذا حصل بعضهم هنا على النجاح طار فرحاً ومرحاً. وأما إذا تعرض شخص ما للفشل تحامته العيون ازدراءً واحتقاراً لشأنه، ولكن الحقيقة هي أن خسارة الدنيا وربحها كلاهما عديم القيمة والجدوى على حدٍ سواءٍ .

إن مكان الربح والخسران الحقيقي هو الآخرة ، فالخاسر هو الذي يخسر في الآخرة، وكذلك الرابح هو من يربح في الآخرة ، ومقياس الربح والخسران هناك يختلف عن مقياسهما في حياتنا الراهنة ، حيث يقاس الربح والخسارة في الدنيا بالأسباب والمظاهر المادية المحسوسة، بينما هما يقاسان في الآخرة بمدى قرب الإنسان أو بعده من مستوى الأخلاق الإلهية ، وسيُصاب الناظرون يومئذٍ بالدهشة ، إذ يرون أن الأمر ها هنا قد تغير تماماً ، فما كان يعده الناس فوزاً كان في الحقيقة خسراناً، وما ظلوا ينظرون إليه على أنه خسران، كان هو الأحْرى والأحق بأن يُسمى بالفوز. والواقع أن ربح يومئذٍ هو الربح وخسارة يومئذٍ هي الخسارة !!

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

بِإِذْنِ اللهِ: بإرادته وقضائه وقدره تعالى.

يَهْدِ قَلْبَهُ: يوفقه لليقين والصبر والتسليم.

إن المصيبة - أية مصيبةٍ - لا تجيء تلقائياً، بل تأتي المصائب كلها - صغيرة كانت أوْ

كبيرةً – من عند الله وبإذنه تعالى ، وهي تأتي لكي يُتاح للإنسان عَبْرَها فرصة لتلقي الهداية ، فالمصيبة تُلين قلب الإنسان وتُرقق فؤاده، وتهز نفسيته هزاً عنيفاً ، وعليه فالمصائب تلعب دور الموقظ أوْ المنشِّط للعقل الإنساني ، ولو حفظ المرء نفسه من الانفعالات السلبية، لصارت المصيبة بالنسبة إليه أفضل معلم رباني!! .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١٨) ﴾

فِتْنَةٌ: بلاء ومحنة واختبار.

يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ: يكف بخلها الشديد مع حرصها.

قَرْضاً حَسَناً: احتسابا بطيبة نفس وإخلاص.

إن نفس الإنسان أشد ما تكون تعلقاً بأولاده في هذه الحياة ، حيث تراه يتحدث كثيراً عن المبدأ ويؤكد عليه بشدةٍ ما دام الأمر يتصل بأشياء أخرى غير أولاده، ولكنه سرعان ما ينسلخ من كل المبادئ والالتزامات ويضرب بها عرض الحائط إذا كان في الأمر مساس بمصلحة من مصالح أولاده ، ومن هنا جاء في الحديث : " الولد مجبنة مبخلة ، كما ورد في حديث آخر : " يؤتى برجلٍ يوم القيامة فيقال : أكَل عيالُه حسناته" . يضن الإنسان بماله فيمسك يده عن البذل والإنفاق في سبيل الله من أجل أولاده ، في حين أنه لو أعطى في سبيل الله عن طيب نفسٍ، لعوّضه الله من ذلك في

صورٍ شتى ما يزيد على عطائه هو في سبيله تعالى أضعافاً كثيرةً ، وفوق هذا سيتلقاه الله يوم القيامة بما هو أحوج ما يكون إليه يومئذٍ، ألا وهو العفو عن الخطايا وغفران الذنوب !!

سورة الطلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾

فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ: مستقبلات لعدتهن (الطهر) .

وَأَحْصُوا العِدَّةَ: اضبطوها وأكملوها ثلاثة قروء.

بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ: بمعصية كبيرة ظاهرة.

بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ: قاربن انقضاء عدتهن.

مَخْرَجاً: من كل شدة وضيق وبلاء.

لاَ يَحْتَسِبُ: لا يخطر بباله ولا يكون في حسابه.

فَهُوَ حَسْبُهُ: كافيه ما أهمه في جميع أموره.

قَدْراً: أجلا ينتهي إليه أو تقديرا أزلا.

شرّع الإسلام الطلاق كعلاجٍ لا مفر منه لحالة استثنائية؛ يتعذر معها ارتباط الزوجين أحدهما بالآخر واشتراكهما في حياة واحدةٍ في جوٍ من المودة والتعاون الإيجابي البنّاء والثقة المتبادلة،ولكنه حدّد لإيقاعه أسلوباً خاصاً يستغرق فترةً معينةً من الزمان،وهكذا تم تقييد عملية الطلاق ببعض الحدود والحكمة من هذا التقييد أن تظل فرصة المعاودة بين الفريقين قائمة حتى اللحظة الأخيرة، وألا يتسبب حادث الطلاق ما أمكن في إثارة أي نوعٍ من الفساد الأسري أوْ الفوضى الاجتماعية. ويُلاحظ هنا أن الطلاق لا يكون على وفق الشريعة الإسلامية إلا إذا كان يصحبه روح الخشية الإلهية عبر كل مراحله !!

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ ﴾

يَئِسْنَ: انقطع رجاؤهن لكبرهن.

وَاللائِي لَمْ يَحِضْنَ: لصغرهن عدتهن ثلاثة أشهر.

يُسْراً: تيسيرا وفرجا.

فرضت الشريعة الإلهية على الإنسان فيما يتعلق بقضية الطلاق وغيرها من قضايا الحياة الاجتماعية مجموعةً من الضوابط والقيود، وقد تبدو هذه الضوابط والقيود للوهلة الأولى كأنها حاجز يحول بين الإنسان وبين استخدامه حريته كيفما يشاء، ولكنها نعمة وأي نعمةٍ ، فالمرء إذا التزم بهذه الضوابط في حياته اليومية، صار بمنجاةٍ من كثيرٍ

من المتاعب والخسائر غير الضرورية ، وبالإضافة إلى ذلك فقد جُعل نظام هذا العالم بحيث يتم هنا تلافي كل خسارةٍ بالضرورة على نحو ما .. غير أن هذا التلافي ليس إلا من نصيب مَن لا يخرج من دائرة الفطرة على أية حالٍ !

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾

وُجْدِكُمْ: وسعكم وطاقتكم.

وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم: تشاوروا في الأجرة والإرضاع.

تَعَاسَرْتُمْ: تضايقتم وتشاحنتم فيهما.

ذُو سَعَةٍ: غنى وطاقة.

قُدِرَ عَلَيْهِ: ضيق عليه.

المطلوب من المسلم – كما يريده الإسلام – أن يعامل الآخرين بروح السماحة وسعة القلب، فيقابل ما لا يروق له أوْ يزعجه من سلوك الغير بجميل الصبر والتحمل ، ويؤدي إلى الغير حقه مهما ساءت العلاقات بينهما، والمرء إذْ يفعل ذلك فإنه لا يحسن إلى غيره فقط، وإنما يحسن إلى نفسه كذلك ، حيث إنه يولّد بذلك في داخله مزاج الواقعية ، وليس من شكٍ في أن مزاج الواقعية هو الوسيلة الكبرى لإحراز النجاح في أي مجالٍ من مجالات الحياة .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ: كثير من أهل قرية.

عَتَتْ: تجبرت وتكبرت وأعرضت.

عَذَاباً نُّكْراً: منكرا شنيعا في الآخرة.

وَبَالَ أَمْرِهَا: سوء عاقبة عتوها.

خُسْراً: خسرانا وهلاكا.

ذِكْراً: قرآنا.

رَسُولاً: أرسل رسولاً، أو جبريل.

قوله ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ جاء هنا في سياق القوانين التي شرعها الإسلام عن تنظيم الأسرة . لقد كان العالم في قديم الزمان تسوده الأوهام والخرافات من أقصاه إلى أقصاه، كما كانت هناك شتى العقائد الخرافية التي أقامت العلاقات بين الرجل والمرأة على الأسس غير الفطرية ، ولما نزل القرآن الكريم قضى على هذه الخرافات البالية قضاءً مبرماً، وأقام العلاقة بين الجنسيْن على أساس الفطرة من جديد ، والذين لا يسلكون في طريق الصلاح، رغم هذا التدبير

الإلهي، فليس لهم في دنيا الله هذه شيء سوى الهلاك والخسران عاجلاً أوْ آجلاً ..

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ هذه الفقرة تدلنا على أن مصدر التقوى هو العقل، فعن طريق استخدام العقل والشعور وحده يرقى المرء إلى ذلك المقام الأسمى الذي يُسمى في الاصطلاح الديني بالتقوى !!

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾

يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ: يجري قضاءه وقدره أو تدبيره.

لئن كان المراد بقوله : ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ هو السبع أرضين كالسماوات السبع، فإن العلوم الفلكية لم تتمكن بعدُ من اكتشافها ،فالأرض هذه - طبقاً للمعلومات المتوافرة لدينا، إلى حين كتابة هذه السطور - استثناء فريد من نوعه في هذا الكون بأسره ، لذا فالله وحده أعلم بالمقصود من قوله هذا .

﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا يوضح لنا أن ما يطلبه الله من الإنسان أصلاً إنما هو " العلم". يعني الشعور بالذات الإلهية. إن هذا المصنع الكوني الضخم إنما تم إيجاده لكي يتعرف المرء من خلاله على الخالق، ولكي يصل عبره إلى معرفة قدرة الله المطلقة اللانهائية !!

سورة التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾

مَا أَحَلَّ الله لَكَ: شرب العسل.

تَبْتَغِي: تطلب.

تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ: تحليلها بالكفارة.

وَاللهُ مَوْلاكُمْ: ناصركم ومتولى أموركم.

حلف رسول الله ﷺ في مواجهة بعض المشكلات العائلية المثارة من قبل زوجاته، بأنه لن يشرب العسل أبداً، ولكن فعل الرسول تشريع؛ فكل ما يُلزم به نفسه يصير نموذجاً يحتذى به بالنسبة إلى أمته جمعاء، ولذلك أمره الله سبحانه بأن يتحلل من يمينه بأداء كفارتها الشرعية، ويعود بالتالي إلى الاستمتاع بما حرمه على نفسه مما هو حلال له، ذلك لكيلا يأخذ أفراد أمته فيما بعد في اجتناب العسل وعدم تناوله مطلقا باعتبار هذا العمل من لوازم الورع والتقوى!!

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ

إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾

نَبَّأَتْ بِهِ : أخبرت به غيرها.

وَأَظْهَرَهُ الله عَلَيْهِ: أطلعه الله تعالى على إفشائه.

صَغَتْ قُلُوبُكُمَا: مالت عن حقه ﷺ عليكما.

تَظَاهَرَا عَلَيْهِ: تتعاونا عليه بما يسوؤه.

هُوَ مَوْلاهُ: وليه وناصره.

ظَهِيرٌ: فوج مظاهر معين له.

قَانِتَاتٍ: مطيعات خاضعات لله.

سَائِحَاتٍ: مهاجرات ، أو صائمات.

تعقيباً على الحادث المذكور أعلاه، جاءت هذه الآيات تلفت انتباه زوجات الرسول إلى خطورة ما أحدثه بعضهن من الأزمة العائلية في بيته - عليه الصلاة والسلام - بأسلوب يشبه التهديد والإنذار، ومن هذا يتبين لنا أهمية النساء في شؤون الحياة .. والحقيقة أن النساء هن " النصف الأفضل " لأزواجهن إذا قمن بواجب مرافقتهم على خير ما يرام من الصدق والإخلاص والوفاء .. وأما إذا لم يرضين بأداء دورهن كرفيقات مخلصات على مدى العمر، فإنهن يستطعن إحباط مشروع إنسان هادف بأكمله بإثارة الضجة أوْ الشغب في بيته على توافه الأمور !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

قُوا أَنْفُسَكُمْ: جنبوها بالطاعات.

غِلاظٌ شِدادٌ: قساة أقوياء وهم الزبانية.

كثيراً ما يحدث في حياتنا الراهنة أن المرء ينظر إلى بعض الأشياء على أنه حق، ولكن حبه الزائد الشديد لزوجته وأولاده يحمله على ترك ما يعتقده في قرارة نفسه حقاً، وفعل ما يُرضي أولاده وزوجته ولو بالوسائل اللامشروعة أو الطرق غير المحمودة ، بيْد أن هذا خطأ وخيم العواقب ، فلْيأخذْ المرء في حسبانه دائماً أن أولاده هؤلاء الذين يبالغ في الاعتناء بتلبية رغباتهم لدرجة أن ينسى - أوْ يتناسى - معها الاعتناء بالحق، سيتم تسليمهم غداً، من جراء سلوكهم المنحرف هذا، إلى زبانية جهنم الموكّلين بتعذيب أهل النار، وهم من القسوة والغلظة بحيث لا يعرفون اللين والرحمة، كالإنسان الآلي (الروبوت)، وإنما همهم الوحيد أن ينفذوا ما وُكلوا به فوراً بلا هوادة ولا محاباة !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾

تَوْبَةً نَّصُوحاً: خالصة، أو صادقة أو مقبولة.

لاَ يُخْزِي الله النَّبِيَّ: لا يذله بل يعزه ويكرمه.

وضُع الإنسان في هذا العالم وسط ظروف وأحوال مهيأةٍ للامتحان والاختبار، ولذا فلا مندوحة للإنسان هنا من الوقوع بين حينٍ وآخر في خطأ ما ، ولكن بإمكانه أيضاً أن

يتلافى ذلك بالتوبة، أي بالرجوع إلى الله. وحقيقة التوبة هي الندم ولو أحس المرء بسوء ما فعل حقاً ، لأصيب بأشد حالات الندم والأسى، مما سيرغمه على تجنب ذلك الفعل فيما بعد قدر المستطاع .. ومن ثم جاء في الحديث : " الندم توبة " . كما روي عن بعض الصحابة، وهو يصف الإنسان التائب، قوله : "يتوب ثم لا يعود". والتوبة هي ما كانت توبةً نصوحاً أي صادقةً . وهي ليست علماً على التفوه ببعض الكلمات وترديدها دون وعْي أوْ ندمٍ، فعن عليّ ﷺ أنه سمع أعرابياً يقول :" اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك " وذلك على إثر اقترافه بعض الذنوب، فقال علي : " يا هذا إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين .. " إن التوبة الصادقة هي نور الآخرة، بينما التوبة الكاذبة ستنقلب ظلاماً في الآخرة !

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ: شدد. أو اقس عليهم.

فَخَانَتَاهُمَا: بالنفاق أو النميمة.

فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا: فلم يدفعا ولم يمنعا عنهما.

إن الأمر بجهاد المنافقين – إلى جانب جهاد الكفار – هنا يعني تناولهم بالمحاسبة الشديدة ، وهذا حكم دائم،حيث ينبغي للكبار والمسئولين في المجتمع الإسلامي أن يتعهدوا أفراد المجتمع بالإشراف والرعاية دائماً، ويرصدوا كل تحركاتهم بعيونٍ ساهرة، فمن واجبهم إذا ما رأوا أحداً منهم يباشر ما لا يليق به كفرد مسلمٍ،أوْ يعود عليه وعلى المجتمع بالضرر،أن يحاولوا منعه من ذلك بكل الطرق والأساليب الممكنة ، وإن

الإنسان ليس ينفعه عند الله يوم القيامة شيء سوى عمله الذاتي،حتى قرابته من الصالحين أوْ انتسابه إليهم لن يغني عنه يومئذٍ فتيلاً. فلقد كان نوح ولوط نبيين عظيمين من أنبياء الله، غير أن زوجتيْهما لم تكونا وفيتيْن لهما بإضمارهما المودة القلبية والولاء لأعداء الحق ، مما أدى إلى انخراط كل واحدةٍ منهما، رغم كونها في عصمة النبي، في سلك أهل النار !!

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا: عفت وصانته من الرجال.

مِن رُّوحِنَا: روحا من خلقنا بلا توسط أب (عيسى) .

مِنَ القَانِتِينَ: من القوم المطيعين لربهم.

كان فرعون رجلاً كافراً وظالماً ، ولكن زوجته (آسية بنت مزاحم) كانت امرأة مؤمنةً صالحةً ، ولما أخذت الزوجة نفسها بالتزام طريق الصلاح والاستقامة، لم يضرها فساد الزوج شيئاً ، حيث أُلقي بالزوج في نار جهنم، بينما حظيت الزوجة بمقام أمين كريم في جنات النعيم !!

قوله: ﴿ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ كناية عن الحفاظ على عفتها ، فقد ظلت السيدة مريم -عليها السلام- عفيفةً طاهرة مصونة من كل ما يخدش الشرف أوْ العرض مذ كانت طفلة صغيرةً إلى أن بلغت سن الشباب ، ومن ثم اختارها الله سبحانه لتكون أماً للنبي "المعجزة "،وقد نفخ جبريل بأمرٍ من الله - كما ورد في بعض الروايات - نفخةً في جيب قميصها، فحملت بسيدنا عيسى عليه السلام بدون أب !

سورة الملك

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ
وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ
سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن
فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

تَبَارَكَ الَّذِي: تعالى وتمجد أو تكاثر خيره.

بِيَدِهِ الْمُلْكُ: له الأمر والنهي والسلطان.

خَلَقَ الْمَوْتَ: أوجده، أو قدره أزلا.

لِيَبْلُوَكُمْ: ليختبركم فيما بين الحياة والموت.

أَحْسَنُ عَمَلاً: أصوبه وأخلصه أو أسرع طاعة.

طِبَاقاً: كل سماء مُقْبِيَّةٌ على الأخرى.

تَفَاوُتٍ: اختلاف وعدم تناسب.

فُطُورٍ: شقوق وصدوع أو خلل.

كَرَّتَيْنِ: رجعتين رجعة بعد رجعة.

خَاسِئاً: صاغراً لعدم وجدان الفطور.

وَهُوَ حَسِيرٌ: كليل من كثرة المراجعة.

إن شخصاً ما حين يدرس عالمنا الراهن يفاجأ بوجود نوعٍ من التناقض ، حيث يرى الكون بأكمله، ما عدا الإنسان؛ يتسم بمنتهى الكمال ودقة التنظيم والانسجام؛ ولا يوجد فيه نقص أوْ خلل في أي ناحية من نواحيه، بينما تبدو الحياة الإنسانية، على نقيض من هذا، مملوءةً ظلماً وفساداً وفوضى . والسبب في هذا التناقض بين العالَمَيْن - عالم الطبيعة وعالم البشر - يرجع إلى وضعية الإنسان المتميزة ، فالإنسان يمر في هذه الدنيا بحالة امتحان، والامتحان يستلزم توفير حرية العمل والتصرف بالضرورة .. وحرية العمل هذه هي التي أتاحت للناس فرصتهم ليملؤوا البر والبحر بألوان الظلم والفساد .

إن مظالم العالم الإنساني هي ثمن الحرية المتاحة للإنسان امتحاناً ، ولولا هذا الوضع فكيف يمكن إذن انتقاء تلك النفوس الغالية التي تجنّبت الظلم رغم توافر إمكاناته ودواعيه، والتي ترفعت عن العناد والطغيان رغم القدرة على ممارسته .

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾

بِمَصَابِيحَ: بكواكب عظيمة مضيئة.

رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ: بانقضاض الشهب منها عليهم.

شَهِيقاً: صوتا منكرا كصوت الحمير.

تَكَادُ تَمَيَّزُ: تتقطع وتفرق وتنشق.

فَوْجٌ: جماعة من الكفار.

فَسُحْقاً: فبعدا من الرحمة والكرامة.

صور القرآن أحوال جهنم وأهوالها في مواضع منه شتى ، وهذه جهنّم ، وإن كانت خارجةً عن حدود مشاهدة الإنسان المباشرة اليوم ، إلا أنها متجلية، بصورة غير مباشرةٍ، فيما ينطوي عليه هذا الكون العجيب من حكمة ومعنى وغايةٍ شاملةٍ ، والحقيقة هي أنه لولا وعيد اليوم الآخر الذي يؤاخذ فيه المجرمون ويلاقون جزاء إجرامهم،لصار هذا الكون، بكل ما يسري في أرجائه من حكمة وغاية، غير قابلٍ للتفسير !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

كون عذاب الآخرة غير قابلٍ للمشاهدة والتجربة في عالمنا الراهن مطابق تماماً للتدبير الإلهي ، حيث يريد الله سبحانه أن ينتقى من بين البشر أفراداً يسلمون بعظمته وهم لم يروه، ويمتثلون أوامره ويجتنبون نواهيه وهم لم يروه، وليس للتعرف على أمثال هؤلاء من سبيل إلا إذا أخفي عن أعين الناس مصيرهم الأخروي المحتوم، حتى يعمل المرء ما يعمل بمحض اختياره، لا خضوعاً لأوامر قسرية مفروضة عليه من الخارج فرضاً !

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم

مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ ﴾

الأَرْضَ ذَلُولاً: مذللة لينة سهلة تستقرون عليها.

مَنَاكِبِهَا: جوانبها، أو طرقها وفجاجها.

وَإِلَيْهِ النُّشُورُ: إليه تبعثون من القبور.

مَّن فِي السَّمَاءِ: أمره وقضاؤه وسلطانه.

يَخْسِفَ بِكُمُ: يغور بكم.

هِيَ تَمُورُ: ترتج وتضطرب فتعلو عليكم.

حَاصِباً: ريحا من السماء فيها حصباء.

كَيْفَ نَذِيرِ: كيف إنذاري وقدرتي على العقاب.

كَانَ نَكِيرِ: إنكاري عليهم بالإهلاك.

كل شيء في هذا الكوكب الأرضي يتسم بالتوازن إلى أقصى حدٍ، وهذا التوازن هو الذي جعل الأرض صالحةً لسكنى الإنسان ، ولو حدث أدنى خللٍ في هذا التوازن لأصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يطاق،ودوام التوجه إلى الله بالشكر والامتنان على هذا العالم المتوازن الذي هيّأه لنا، والتعوذ به تعالى من المتاعب التي يمكن أن نتعرض لها في حالة اختلال هذا التوازن الكوني فجأةً، هو ما يطلبه الله من البشر !!

﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ

ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى
عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾

صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ: باسطات أجنحتهن في الجو عند الطيران ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن.

أَمَّنْ هَذَا: بل من هذا ؟

جُندٌ لَّكُمْ: أعوان لكم ومنعة.

غُرُورٍ: خديعة من الشيطان.

لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ: تمادوا في استكبار وعناد.

وَنُفُورٍ: شراد وتباعد عن الحق.

إن طيران الطيور في الجو، وخروج الرزق من باطن الأرض ونحوهما من الظواهر والوقائع مما يحير العقل، ويدعو إلى الدهشة والإكبار الشديدين ، ولو تأمل الإنسان في هذه الوقائع بجديةٍ لغمره فيض من الشعور الإلهي ، ولكن الإنسان غافل لدرجة أنه يعاند ويتمرد على الله في عالم يلقنه فيه كل ما حوله من الأشياء درساً واحداً ليس غير، ألا وهو درس الطاعة الإلهية !

﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ
﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

مُكِباً عَلَى وَجْهِهِ: ساقطا عليه لا يأمن العثور.

يَمْشِي سَوِياً: يمشي مستويا منتصبا سالماً من العثور (مثل للمشرك والموحد) .

ذَرَأَكُمْ: خلقكم وبثكم وفرقكم.

خُلق الإنسان مزوداً بقوى السمع والبصر والتعقل ، والناس، بالنسبة إلى استخدام هذه المواهب، صنفان: فمنهم مَن يندفع وراء ما يسمع بلا رويّةٍ، ويصدق بها وقع عليه بصره كما يبدو ظاهراً دون التحقق من حقيقة أمره ، ويتمسك بالفكرة تنبت في رأسه من غير تمحيصٍ أوْ مراجعةٍ ، وهذا الإنسان شأنه شأن الحيوان يأخذ في السير على أي طريقٍ وُجه إليه وبصره ملتصق بمواطئ أقدامه، لا يلتفت إلى اليمين ولا إلى اليسار، وهو لا يدري إلى أين المسير ولماذا !؟

أما الإنسان الآخر فهو الذي يتحقق مما سمع، ويحاول الاطلاع على ما رآه بمزيدٍ من الدقة والصواب، وهو الذي يكتشف الصدق متحرراً من أنانيته وتحطيم قوقعته الذاتية. هذا الإنسان الأخير هو الذي يسير منتصباً معتدلاً على طريق واضح المعالم مستقيم لا عوج فيه، وإنما زُوِّد الإنسان بملكات السمع والبصر والفؤاد، كي يتعرف على الحق، لا أن يظل جاهلاً به غافلاً عنه كالأعمى الأصم !!

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

رَأَوْهُ زُلْفَةً: رأوا العذاب قريبا منهم.

سِيئَتْ: كئبت واسودت غماً وذلاً.

بِهِ تَدَّعُونَ: تطلبون أن يعجل لكم استهزاء.

أَرَأَيْتُمْ: أخبروني أو أروني.

يُجِيرُ الكَافِرِينَ: ينجيهم أو يمنعهم أو يؤمنهم.

غَوْراً: غائرا ذاهبا في الأرض لا ينال.

بِمَاءٍ مَّعِينٍ: جار أو ظاهر سهل التناول.

إذا أبى المخاطب الإذعان للدليل، ولم تعدْ وسائل الإقناع المنطقي تجدي معه شيئاً، فإن الداعي يلجأ إلى تنبيه ضميره معبراً عن يقينه بقوةٍ ، والآيات محل تدبرنا هي بمثابة كلمات اليقين من هذا النوع ، ولئن كان المرء لا يزال يحتفظ بشعوره حياً لدرجةٍ ما، فإن هذه الكلمات الأخيرة ستقلق باله وتقض عليه مضجعه بكل تأكيدٍ، وأما الذي تبلد إحساسه وخمد شعوره كلياً، فإنه لا يستيقظ بأي تدبيرٍ أوْ وسيلةٍ، وهو لا يسلم بقيمة "الماء" ولا يقدره حق قدره إلا إذا حُرم منه وقذف به وحيداً في أحضان الصحراء !·

سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ ﴾

وَالْقَلَمِ: (قسم) بالقلم الذي يكتب به.

وَمَا يَسْطُرُونَ: والذي يكتبونه بالقلم.

مَا أَنْتَ: يامحمد ﷺ.

غَيْرَ مَمْنُونٍ: غير مقطوع عنك .

بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ: في أي الفريقين منكم المجنون.

الخلق العظيم هو أن يتعامل الإنسان مع الآخرين بطريقة أسمى من طريقة تعاملهم معه، فهو لا يتبنى أسلوب المعاملة بالمثل؛ بأن يسيء إلى من أساء إليه، ويحسن إلى من أحسن إليه سواء بسواء، بل هو يحسن إلى الكل، حتى ولو كان الآخرون يسيئون إليه ، ولقد كان خلق رسول الله ﷺ من هذا النوع ذاته ، مما يثبت أنه - عليه الصلاة والسلام - كان رجل المبدأ، وأن شخصيته لم تكن وليدة الظروف المحيطة به، وإنما كانت شخصيته نتاج مبادئه العليا ، وكونه متحلياً بهذا الخلق الأسمى يتفق تماماً مع دعواه : أني رسول الله !

وأما القسم بالقلم وما يسطرون فالمقصود منه هو التسجيل التاريخي ، إن القرآن

وشخصية صاحبه - عليه الصلاة والسلام - يحتلان مكانةً استثنائيةً فذةً في كل ما تم تسجيله من الأحداث والذكريات الإنسانية في صورة التاريخ منذ أقدم العصور إلى يوم الناس هذا، وهذا الاستثناء لا يمكن تفسيره إلا بأن ننظر إلى القرآن على أنه كتاب الله وإلى محمدٍ على أنه رسول الله ﷺ.

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ: أحبوا لو تلاينهم وتصانعهم.

فَيُدْهِنُونَ: فهم يلاينونك ويصانعونك.

حَلَّافٍ: كثير الحلف في الحق والباطل.

مَّهِينٍ: حقير في الرأي والتمييز أو كذاب.

هَمَّازٍ: عياب أو مغتاب للناس.

مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ: بالسعاية والإفساد بين الناس.

عُتُلٍّ: فاحش لئيم ، أو غليظ جاف.

زَنِيمٍ: دعي ملصق بقومه شرير.

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ: أباطيلهم المسطرة في كتبهم.

سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم: سنلحق به عارا لا يفارقه كالوشم على الأنف.

قوله: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ معناة أن المكذبين ليسوا جديرين بأن يطاعوا البتة ، فهناك - من جهةٍ - حامل لواء الحق الذي يقف على أرضية الدليل، والذي لا يوجد تناقض بين قوله وفعله ، - ومن جهةٍ أخرى - يعارضه قوم لا بضاعة عندهم سوى الأكاذيب والأخلاقيات الهابطة ، ويضع الداعي ثقته كلها في الحق والصدق، بينما يضع معارضوه ثقتهم في أوضاعهم المادية، والداعي إلى الحق ملتزم بالمبدأ، وأما معارضوه فليس نصب أعينهم أية مبادئ يراعونها ، ومن ثم لا يثبت هؤلاء على قولٍ أوْ رأي محدد، فتارةً يقولون كلاماً، وتارةً أخرى يقولون ما يناقضه تماماً ، ومَن رُزق نصيباً من العقل والفطنة يكفيه هذا الفارق وحده لكي يعرف المحق من المبطل !!

﴿ إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

بَلَوْنَاهُمْ: امتحنا أهل مكة بالقحط.

الجَنَّةِ: بستان بالقرب من صنعاء.

لَيَصْرِمُنَّهَا: ليقطعن ثمارها بعد الاستواء.

مُصْبِحِينَ: داخلين في وقت الصباح.

وَلاَ يَسْتَثْنُونَ: حصة المساكين مخالفين لأبيهم.

فَطَافَ عَلَيْهَا: أحاط نازلا عليها.

طَائِفٌ: بلاء وعذاب (نار محرقة) .

كَالصَّرِيمِ: كالليل الأسود أو البستان المصروم.

فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ: نادى بعضهم بعضا حين أصبحوا.

اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ: باكروا مقبلين على ثماركم.

صَارِمِينَ: قاصدين قطعها .

يَتَخَافَتُونَ: يتسارون بالحديث فيما بينهم.

وَغَدَوْا: ساروا غدوة إلى حرثهم.

عَلَى حَرْدٍ: على انفراد عن المساكين.

قَادِرِينَ: على الصرام.

إِنَّا لَضَالُّونَ: الطريق ، وما هذه جنتنا.

أَوْسَطُهُمْ: أحسنهم رأيا وأرجحهم عقلا.

لَوْلا تُسَبِّحُونَ: هلا تستغفرون الله من فعلكم وخبث نيتكم.

يَتَلاوَمُونَ: يلوم بعضهم بعضا على قصدهم.

إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ: طالبون منه الخير والعفو.

إن ما يكسبه المرء في هذه الدنيا يبدو ظاهراً كأنه يأتيه من الحقل أوْ من أي موردٍ آخر ، ولكنه في الحقيقة من هبات الله سبحانه، ومَن ينظر إليه على أنه هبة الله ، ويخرج منه بالتالي حق العباد الآخرين، يبارك الله في كسبه . أما الذي يعد كسبه نتيجة مؤهلاته الذاتية ، ويأبى أداء حقوق الآخرين منه،فلن يغني عنه ما كسب شيئاً،وتلك سنة الله في الأفراد والأمم لا تتخلف أبداً ،وهي قد تنطبق على البعض في الحياة الراهنة ذاتها، وإنها ستفرض نفسها حتماً في الآخرة على كل الناس بدون أي استثناء أو محاباة !!

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

لَمَا تَخَيَّرُونَ: للذي تختارونه لأنفسكم.

لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا: عهود مؤكدة بالأيمان.

لَمَا تَحْكُمُونَ: للذي تحكمون به أنفسكم.

زَعِيمٌ: كفيل بأن يكون لهم ذلك.

إن مَن لا يستشعر بقلبه مخافة الله يعطى الأهمية كلها للأشياء المحسوسة الماثلة بين يديه وحدها ، وفي مقابل ذلك فإن الخائف من الله هو الذي يصبح جاداً بالنسبة إلى حقائق الغيب، وهذان دوران متغايران تماماً ، وليس من شك في أن مصيرهما عند الله لن يكون سواءً!

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَـٰشِعَةً

أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى
وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ
كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾

يُكْشَفُ عَن سَاقٍ: كناية عن شدة هول القيامة.

خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ: ذليلة منكسرة.

تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ: يغشاهم ذل وخسران وندامة.

فَذَرْنِي: دعني وخلّني (تهديد شديد).

سَنَسْتَدْرِجُهُم: سندنيهم من العذاب درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه.

وَأُمْلِي لَهُمْ: أمهلهم ليزدادوا إثما.

في يوم القيامة؛ إذْ يتجلى الحق - سبحانه وتعالى - للعيان، فلن يلبث جميع أهل الإيمان أن يخرّوا أمامه ساجدين تماماً كما خروا له ساجدين في سابق حياتهم ، ولن يوفق إلى هذا السجود لله يومئذٍ إلا المؤمنون الصادقون وحدهم ، وأما الذين كانوا يتظاهرون بالسجود في الدنيا كذباً ورياءً للناس، فستتصلب ظهورهم ساعتئذٍ مثلما كانت في واقع أمرهم متصلبةً عناداً واستكباراً في الحياة الدنيا ، وعبثاً يحاول هؤلاء أن يسجدوا هناك مع الساجدين ولكنهم لا يستطيعون ، وإنه لتقدير لأهل الإيمان المخلصين أيما تقدير يوم يتجلى الله سبحانه بنفسه ليتلقى سجودهم له بالقبول، وبالمقابل فإنها ستكون ساعة خزي وهوان لا يوصفان بالنسبة لأدعياء الإيمان الكاذبين، حيث يقفون بحضرة خالقهم ومالكهم ، ولا يملكون الإقرار بعبوديتهم له عملياً !!

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ

﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن
تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ
وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

مَّغْرَمٍ: غرامة ذلك الأجر.

مُّثْقَلُونَ: مكلفون حملا ثقيلا.

كَصَاحِبِ الْحُوتِ: يونس عليه السلام.

مَكْظُومٌ: مملوء غيظا في قلبه على قومه.

لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ: لطرح من بطن الحوت بالأرض الفضاء المهلكة.

فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ: فاصطفاه بعودة الوحي إليه.

لَيُزْلِقُونَكَ: ليزلون قدمك فيرمونك.

العلاقة بين الداعي والمدعو علاقة جد حساسة ، والداعي مطالب بالتزام حسن السلوك وسمو الخلق من جانبٍ واحدٍ، فمهما فعل المدعو من إثارة الأقاويل السخيفة والشبهات حول الدعوة، ومهما قابل الداعي بالاحتقار والازدراء، ورماه بألوان التهم الكاذبة، ينبغي للداعي، على كل حال، أن يجَنِّب نفسه مشاعر رد الفعل، وسر نجاح الداعي يكمن في شيئين اثنين هما : الصبر على إساءات المدعو، وعدم انتظار أية عوائد أوْ تعويضات مادية من المدعو على إرشاده إلى طريق الرشد والهداية.

سورة الحاقة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ
﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ
﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ
أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ
وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا
طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾

ٱلْحَآقَّةُ: الساعة يتحقق فيها ما أنكروه.

مَا الحَاقَّةُ: أي شيء هي في أهوالها.

بِالْقَارِعَةِ: بالقيامة تقرع القلوب بأفزاعها.

بِالطَّاغِيَةِ: بالصيحة المجاوزة للحدِّ في الشدة.

بِرِيحٍ صَرْصَرٍ: شديدة السموم أو البرد أو الصوت.

عَاتِيَةٍ: شديدة العصف.

سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ: سلَّطها عليهم بقدرته تعالى.

حُسُوماً: متتابعات. أو مشؤومات.

أَعْجَازُ نَخْلٍ: جذوع النخل بلا رؤوس.

خَاوِيَةٍ: ساقطة أو فارغة أو بالية.

وَالْمُؤْتَفِكَاتُ: قرى قوم لوط (أهلها).

بِالْخَاطِئَةِ: بالفعلات ذات الخطأ الجسيم.

أَخْذَةً رَّابِيَةً: زائدة في الشدة على الأخذات.

الْجَارِيَةِ: سفينة نوح عليه السلام.

تَذْكِرَةً: عبرة وعظة.

وَتَعِيَهَا: ولتحفظها.

من الناس مَن ينكر الآخرة صراحةً ، ومنهم مَن لا ينكر الآخرة بألسنتهم، ولكن الهمّ الذي يشغل بالهم ليل نهار إنما يتمثل في هذه الدنيا وحدها ، وبالتالي لا يكون ثمة فارق يُذكر بين حياتهم العملية وحياة المنكرين الصرحاء ، فكلا هذين الصنفين من الناس واحد من حيث الحقيقة، وكلاهما عند الله مكذب بالآخرة، وإن كان تكذيب أحدهما بلسان المقال وتكذيب الآخر بلسان العمل ، وأمثال هؤلاء معرضون للهلاك حتماً بموجب القانون الإلهي .. ولقد شهدت عصور الأنبياء وقوع هذا الهلاك بالمكذبين في الحياة الراهنة ذاتها، وسيقع ذلك بمن يستحقّه بعد عصر النبوة في الآخرة .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾

نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ: النفخة الأولى لخراب العالم.

وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالجِبَالُ: رفعت من أماكنها بأمرنا.

فَدُكَّتَا: فدقتا وكسرتا، أو فسويتا.

وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ: قامت القيامة.

وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ: تفطرت وتصدعت من الهول.

وَاهِيَةٌ: ضعيفة متداعية بعد الإحكام.

عَلَى أَرْجَائِهَا: جوانبها وأطرافها.

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ: بعد النفخة الثانية للحساب والجزاء.

إن العالم الراهن بُني تبعاً لمصلحة الامتحان، وإذا انقضت مهلة هذا الامتحان، فسوف يتم بناء عالم جديدٍ على أنقاض هذا العالم وفق مقتضيات جديدةٍ ، وبينما يظهر جلال الله اليوم بصورة غير مباشرةٍ، سيظهر الجلال الإلهي يومئذٍ بصورة مباشرةٍ !!

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي
مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾
كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ
فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ
﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ
صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا
طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

هَاؤُمُ: خذوا أو تعالوا.

كِتَابِيَهْ: كتابي والهاء للسكت.

رَّاضِيَةٍ: مرضية لا مكروهة .

قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ: ثمارها قريبة التناول إذ يجنى.

هَنِيئاً: أكلا غير منغص ولا مكدر.

كَانَتِ القَاضِيَةَ: الموتة القاطعة لأمري ولم أبعث.

مَا أَغْنَى عَنِّي: ما دفع العذاب عني .

مَالِيَهْ: الذي كان لي من مال ونحوه .

سُلْطَانِيَهْ: حجتي أو تسلطي وقوتي.

فَغُلُّوهُ: اجعلوا الغُلَّ في يديه وعنقه.

الجَحِيمَ صَلُّوهُ: أدخلوه أو احرقوه فيها.

فَاسْلُكُوهُ: فأدخلوا فيها.

وَلاَ يَحُضُّ: لا يحث ولا يحرض.

حَمِيمٌ: قريب مشفق يحميه من العذاب.

غِسْلِينٍ: صديد أهل النار.

الخَاطِئُونَ: الكافرون.

النجاح في عالم الآخرة سيكون حليف من يعيش حياته الراهنة وهو يخاف الله ويخشى عقابه، أما الذي يعيش هنا وقلبه خاوٍ من كل خوف أوْ حذرٍ، ويعامل عباد الله

بالتجبر والعناد والطغيان، فإنه سيتورط في الآخرة في أشد العذاب وأقساه فلن يخفف عنه ساعةً ولن ينقذه منه أحد !!

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾

فَلاَ أُقْسِمُ: أقسم و"لا" مزيدة.

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ: يبلغه عن الله أوحي إليه.

تَقَوَّلَ عَلَيْنَا: اختلق وافترى علينا.

بِالْيَمِينِ: بيمينه. أو بالقوة والقدرة.

الْوَتِينَ: نياط القلب. أو نخاع الظهر.

عَنْهُ حَاجِزِينَ: مانعين الهلاك عنه.

لَحَسْرَةٌ: ندامة عظيمة.

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ: نزهه عما لا يليق به تعالى.

إن ما تبصرون وما لا تبصرون كلاهما شاهد على صدق هذا الكلام يعني أن المعلومات التي كانت في متناول الإنسان عند نزول القرآن الكريم، والمعلومات التي

كانت ستدخل في متناول الإنسان عبر العصور التالية، كلتاهما تتضافر على إثبات حقيقة هذا الكلام، فهذا الكلام لا يُبطله علم الحاضر، ولن يتمكن علم المستقبل من دحضه وإبطاله كذلك ، وعلى الرغم من هذا، فإن الذين لا يؤمنون به، إنما يقيمون الدليل على خلوّ أنفسهم من الجديّة فيما يتعلق بقضية الحق والباطل !!

سورة المعارج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى
ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ
۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ
ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ
يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢
وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ ﴾

سَأَلَ سَائِلٌ: دعا داع على نفسه وقومه .

ذِي المَعَارِجِ: ذي السموات مصاعد الملائكة.

تَعْرُجُ المَلائِكَةُ: تصعد في تلك المعارج.

وَالرُّوحُ: جبريل عليه السلام .

فِي يَوْمٍ: هو يوم القيامة.

مِقْدَارُهُ: في حق الكفار.

صَبْراً جَمِيلاً: لا شكوى فيه لغيره.

السَّماءُ كَالْمُهْلِ: كالمعدن المذاب أو دُرْدِيِّ الزيت.

الجِبَالُ كَالْعِهْنِ: كالصوف المصبوغ ألوانا.

حَمِيمٌ: قريب مشفق لشدة الهول.

يُبَصَّرُونَهُمْ: يعرف الأحماء أحماءهم.

وَفَصِيلَتِهِ: عشيرته الأقربين المنفصل عنهم.

تُؤْوِيهِ: تضمه في النسب. أو عند الشدة.

إن مشاهد القيامة لا يمكن وصفها على نحوٍ حقيقي في عالمنا الراهن، وإنما تناولها القرآن بالتقريب من خلال الإشارة أوْ التصوير أوْ التمثيل في مواضع منه شتى، لكيما يتمكن الإنسان من استشعارها على وجه الإجمال، والقيامة إذا قامت فإنها ستكون رهيبة مروعة لدرجة أن المرء يذهل عندئذٍ عن أقاربه ومصالحه، تلك التي هو يعتبرها اليوم من الأهمية بحيث يهمل من أجلها أمر الحق ولا يكاد يلقى إليه بالاً !!

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ
﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا
﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ
حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ
هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ
لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ
﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

إِنَّهَا لَظَىٰ: جهنم، أو الدركة الثانية منها.

نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى: قاَّعَة للأطراف أو جلد الرأس.

فَأَوْعَى: أمسك ماله في وعاء بخلا.

جَزُوعاً: كثير الجزع والأسى.

مَنُوعاً: كثير المنع والإمساك.

وَالْمَحْرُومِ: من العطاء لتعففه عن السؤال.

مُّشْفِقُونَ: خائفون استعظاما لله تعالى.

العَادُونَ: المجاوزون الحلال إلى الحرام.

بينت هذه الآيات باختصارٍ صفات كلا النوعين من البشر؛ حيث عرّفت الذين سيُعتبرون أهلا لدخول الجنة، إلى جانب وصف أولئك الذين سيصبح ما قدمت أيديهم من سوء الأعمال سبباً في دفعهم إلى نار جهنم يوم القيامة .

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

مُهْطِعِينَ: مسرعين مادي أعناقهم إليك.

عِزِينَ: جماعات متفرقين.

مِّمَّا يَعْلَمُونَ: من نطف مهينة مذرة.

إن الذين يقومون على غير الحق يرون في الدعوة الصريحة إلى الحق الخالق زوال سيادتهم واعتبارهم ، مما يجعلهم يسعون وراء إحباط دعوة كهذه واقتلاع جذورها

بكل ما يملكون من حول وطولٍ ، وتصرفاتهم اللاعقلانية هذه تحدو بهم شيئاً فشيئاً إلى الجحيم، ولكنهم يحسبون - بناءً على آمالهم الزائفة - أنهم يواصلون رحلتهم السريعة نحو جنات النعيم !!

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

فَلاَ أُقْسِمُ: أقسم و"لا" مزيدة.

بِمَسْبُوقِينَ: مغلوبين عاجزين.

فَذَرْهُمْ: فدعهم وخلهم غير مكترث بهم.

يَخُوضُوا: ينغمسوا في باطلهم.

الأَجْدَاثِ: من القبور.

سِرَاعاً: مسرعين إلى الداعي.

نُصُبٍ: أحجار عظموها في الجاهلية.

يُوفِضُونَ: يسرعون.

خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ: ذليلة منكسرة لا يرفعونها.

تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ: تغشاهم مهانة شديدة.

إن تعدد مشارق الأرض ومغاربها من حين لآخر يرجع إلى خصوصية فذة من

خصائص الأرض، وهي ما يُعرف بالميل المحوري، والذي يتسبب في حدوث الفصول المختلفة على مدار السنة، ولولا ميل الكرة الأرضية هذا بالنسبة إلى الشمس، لكانت الأرض أقل فائدةً بكثيرٍ مما هي عليه الآن ، فبفضل هذا الميل المحوري قد صارت الأرض لنا نحن البشر مصدر خيرات لا تحصى ومنافع لا توصف ، والعالم الذي يشهد مثالاً لتحويل الأقل نفعاً إلى الأكثر نفعاً كما ذكرنا آنفاً، ليس من المستبعد أيضاً أن تحدث فيه وقائع أخرى مماثلة ، وأما الذين لا يتّعظون، رغم هذه الآيات الصارخة، فإنهم - ولا ريب - أناس يفتقرون إلى الجدية، وقلما يتعظ المفتقرون إلى الجدية أوْ يعتبرون، اللهم إلا إذا كانوا قد أرغموا على ذلك إرغاماً !

سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ
(١) قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ (٢) أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغۡفِرۡ
لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ
كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٤) ﴾

إِنَّ أَجَلَ الله : وقت مجيء عذابه إن لم تؤمنوا.

سيدنا نوح عليه السلام هو أول الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم - عليه السلام - وقد لخص القرآن هنا فحوى رسالته التي عرضها على الفاسدين من أهل زمانه في النقاط الثلاث التالية : العبادة، التقوى، وإطاعة الرسول . يعني التخلي عن عبادة غير الله وإفراد الله وحده بالعبادة دون شريك ، وتأسيس الحياة الدنيا على تقوى الله وخشيته ، وأخيراً اعتبار الرسول هو القدوة في كل شأن من شؤون الحياة ، وهذه النقاط تمثل دعوة جميع الأنبياء المرسلين على اختلاف الأزمنة والأمكنة، كما أنها هي جوهر دعوة القرآن الكريم كذلك .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا (٥) فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا (٦) وَإِنِّي
كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ
وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا (٨) ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ
إِسۡرَارٗا (٩) فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا (١٠) يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم

مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ
لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ
سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم
مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾

فِرَاراً: تباعداً ونفاراً عن الإيمان.

وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ: بالغوا في التغطي بها كراهة لي.

وَأَصَرُّوا: تشددوا وانهمكوا في الكفر.

يُرْسِلِ السَّمَاءَ: المطر الذي في السحاب.

مِّدْرَاراً: غزيراً متتابعاً.

لاَ تَرْجُونَ لله وَقَاراً: لا تعتقدون أو لا تخافون عظمة الله.

خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً: مُدَرِّجا لكم في حالات مختلفة.

سَمَوَاتٍ طِبَاقاً: كل سماء مقبية على الأخرى.

نُوراً: منوراً لوجه الأرض في الظلام.

الشَّمْسَ سِرَاجاً: مصباحاً مضيئاً يمحو الظلام.

أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ: أنشأكم من طينها.

الأَرْضَ بِسَاطاً: فراشاً مبسوطاً للاستقرار عليها.

سُبُلاً فِجَاجاً: طرقا واسعات.

يتضح من خطبة نوح هذه أنه قد اختار لدعوته الأسلوب نفسه الذي تبناه القرآن لإقناع الناس بما يدعوهم إليه، حيث عرض ﷺ دعوته مستَدِلاً بشتى الظواهر الكونية، كما خاطب قومه بكل الطرق الممكنة سراً وعلانيةً، وعلى المستويَيْن الفردي والجماعي،وقد استنفد كل طاقته في سبيل إصلاحهم وإرشادهم إلى الحق ، ولكنهم أبوا الإيمان بدعوته وتمادوا في غيّهم وطغيانهم يعمهون ، وقال ابن عباس في تفسير قوله : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ أي ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته [١].

ومن هذا نعلم أن قوم نوح كانوا يسلِّمون بوجود الله، إلا أن الشعور بعظمة الله وجلاله لم يكن مستولياً على نفوسهم كما ينبغي، والحقيقة أن هذا هو المعيار الحقيقي لعبادة الله وعبوديته .. فمن يعيش هنا وقلبه مملوء بعظمة الله، فهو عابد لله حقاً، وأما من كان قلبه خاوياً من الإحساس بعظمة الله فليس من عباد الله وعبوديته في شيء !

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾

خَسَاراً: ضلالاً في الدنيا وعقاباً في الآخرة.

مَكْراً كُبَّاراً: بالغ الغاية في الكفر.

وَداًّ: أصنام عبدوها ثم انتقلت إلى العرب ، فكان ود لكلب.

سُوَاعاً: وسواع لهذيل .

---

(١) تفسير الطبري ٢٩/ ٥٩ .

يَغُوثَ: ويغوث لغطفان.

وَيَعُوقَ: ويعوق لهمذان.

وَنَسْراً: ونسر لآل ذي الكلاع من حمير.

مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ: من أجل ذنوبهم و"ما" زائدة.

لماذا قوبلت دعوة نوح – عليه السلام – من جانب قومه بالرفض والإنكار ؟ لقد كان السبب في ذلك أن كلام نوح بدا للقوم أقل قيمةً ووزناً من كلام أولئك الذين كانوا يحتلون يومئذٍ مراكز السيادة والكبرياء والوجاهة الدنيوية ، فبينما جحد كبار العصر بدعوة الحق معتزّين بمكانتهم وكبريائهم، تناولها الصغار بالجحود نظراً إلى كون كبارهم جاحدين لها !

ولقد دبر معارضو نوح مكائد عظيمة ضده ، من بينها دعايتهم المغرضة ! إن نوحاً قد جاء بما يتنافى مع ما كان عليه أكابرنا وهم ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وهؤلاء الخمسة كانوا أفراداً صالحين في قديم الزمان ، ثم وصل بهم الأمر شيئاً فشيئاً إلى أن صاروا موضع الإجلال والتقديس لدى الأجيال التالية ، وبالتالي راحوا يعبدونهم باتخاذ أصنام وتماثيل ترمز إليهم ، ولقد كان من السهولة بمكانٍ أن يتم تحريك مشاعر العامة وتحريضهم ضد نوحٍ بأسماء هذه الرموز ، وقد استطاع الرؤساء بالفعل أن يجعلوه – عليه السلام – "مشبوهاً " في أعين الجماهير قائلين : إنه سائر في طريق آخر جديدٍ حائداً عن طريق أسلافنا الصالحين !

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

دَيَّاراً: أحداً يدور ويتحرك في الأرض.

تَبَاراً: هلاكا ودماراً.

يظهر من دعاء سيدنا نوحٍ هذا أن الفساد في عصره كان قد استفحل حتى بلغ منتهاه، حيث صار المجتمع بأسره خاضعاً لسيطرة العقائد الضالة والأفكار المنحرفة، وأصبح كل طفلٍ يولد في رحاب ذلك المجتمع يومئذٍ يرث جرثومة الانحراف الفكري والضلال العقائدي، ويتربى عليها ، وإذا بلغ مجتمع ما إلى هذا الحد من التدهور والانحراف، وطغيان الشر، فلا ينتظره بعد ذلك شيء سوى أن يُقضى عليه بطوفانٍ كطوفان نوحٍ !!

سورة الجن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ
فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾
وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ
ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ ﴾

قُرْآناً عَجَباً: عجباً بديعاً في بلاغته وفصاحته.

الرُّشْدِ: الحق والصواب. أو التوحيد والإيمان.

تَعَالَى: ارتفع وعظم.

جَدُّ رَبِّنَا: جلاله أو سلطانه أو غناه.

يَقُولُ سَفِيهُنَا: جاهلنا (إبليس اللعين).

شَطَطاً: قولا مفرطاً في الكذب والضلال.

يَعُوذُونَ: يستعيذون ويستجيرون.

فَزَادُوَهُمْ رَهَقاً: إثما. أو طغيانا وسفها.

هناك نوع من المخلوقات يسكن في هذا الكون، له خصائص وصفات مختلفة عن البشر، يقال له : الجن، وهم من جملة المخلوقات المستترة عن الحواس غير المرئية

للإنسان، وقد ورد ذكرهم في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، وهذه الآيات توضح لنا أن الجن بدورهم ينقسمون إلى فريقين : ضالين ومهتدين ، وكما يوجد بين الإنس قادة سفهاء يضللون الجماهير، يوجد أمثالهم في عالم الجن كذلك، وهم يعملون على تغرير أتباعهم من الجن وإضلالهم عن سبيل الرشد والهدى !

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

حَرَساً شَدِيداً: حراسا أقوياء من الملائكة.

وَشُهُباً: شعل نار تنقض كالكواكب.

شِهَاباً رَّصَداً: راصدا ، مترقبا يرجمه.

رَشَداً: خيرا وصلاحا ورحمة.

طَرَائِقَ قِدَداً: ذوي مذاهب متفرقة مختلفة.

ظَنَنَّا: علمنا وأيقنا الآن.

فَلاَ يَخَافُ بَخْساً: فلا يخشى نقصا من ثوابه.

وَلاَ رَهَقاً: غشيان ذلة له.

وَمِنَّا القَاسِطُونَ: الجائرون بكفرهم العادلون عن طريق الحق.

تَحَرَّوْا رَشَداً: قصدوا خيراً وصلاحاً.

لِجَهَنَّمَ حَطَباً: للنار وقوداً.

إن نفراً من الجن، أولئك الذين استمعوا إلى الرسول وهو يتلو القرآن الكريم، لم يتلقوه بالإيمان والقبول فور سماعهم إياه فقط، وإنما عادوا مبشرين بدعوته كذلك، مما يدل على أن الكلام الصادق حين يصل إلى مسامع أصحاب القلوب الحية والضمائر النابضة بالحياة، يحدث في نفوسهم أثراً مزدوجاً يتمثل أولاً في مبادرتهم إلى الاعتراف بصدقه، وثانياً في قيامهم بتبليغه إلى بني جنسهم !

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾

عَلَى الطَّرِيقَةِ: طريقة الهدى "ملة الإسلام".

مَّاءً غَدَقاً: كثيراً يتسع به العيش.

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ: لنختبرهم فيما أعطيناهم.

يَسْلُكْهُ: يدخله.

عَذَاباً صَعَداً: شاقا يعلوه ويغلبه فلا يطيقه.

عَبْدُ الله يَدْعُوهُ: هو النبي ﷺ يعبد ربه.

عَلَيْهِ لِبَداً: متراكمين من ازدحامهم عليه تعجباً.

رَشَداً: نفعاً أو هداية.

لَن يُجِيرَنِي مِنَ الله : لن يمنعني من عذابه إن عصيته.

مُلْتَحَداً: ملجأ أو حرزا أركن إليه.

إن نظام العالم الراهن وُضع تبعاً لمصلحة الامتحان .. ولذا يتم إظهار الحق هنا على مستوى البلاغ والتبيين وحده، ولو لم تكن ثمة مصلحة الامتحان، وأُزيح الستار المسدل بيننا وبين الغيب المكنون، لرأى الناس رأي العين أن الملائكة ومَن صلَح من أفراد الجن كلهم يعترفون بألوهية الله وجلاله في تواضع وخشوع .. كما يجدون الكون أيضاً مصداقاً لذلك بكل ظواهره وموجوداته .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

أَمَداً: زمانا بعيداً.

رَصَداً: حرسا من الملائكة يحرسونه.

وَأَحَاطَ: علم علما تاما.

وَأَحْصَى: ضبط ضبطاً كاملاً.

الداعي إلى الحق لا يعدو في ظاهره أن يكون إنساناً عادياً، ومن هنا يتكالب على أذاه والنيل منه كل أولئك الذين تصدم دعوته مشاعرهم أوْ تمس مصالحهم من قريب أوْ بعيدٍ، ويعزب عن بالهم أن أي إجراء يتُخذ ضد الداعي إلى الحق هو في الواقع إجراء ضد الله نفسه، ومَن ذا يستطيع، أن ينجح في اتخاذ إجراءات ضد الله - عز وجل !؟

سورة المزمل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝ ﴾

المُزَّمِّلُ: المتلفف بثيابه (النبي ﷺ).

وَرَتِّلِ القُرْآنَ: اقرأه بتمهل ، وتبيين حروف.

قَوْلاً ثَقِيلاً: شاقاً على المكلفين (القرآن) .

قوله : ﴿ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝ ﴾ يعني : اقرأه في مهلٍ وتُؤدةٍ، مع تركيز الانتباه على المعاني ، وعندما يفعل المرء ذلك تبتدئ بينه وبين القرآن عملية مزدوجة؛ فمن جهة يكون القرآن بالنسبة إليه خطاباً إلهياً، ومن جهة أخرى لا يزال قلبه يستجيب لكل آية يمر بها من آيات هذا الخطاب، فإذا ذكر القرآن عظمة الله وجلاله، خشع كيان القارئ كله استشعاراً لكبرياء الله وهيبته ، وإذا عدّد القرآن نعم الله وإحساناته، امتلأ فؤاد القارئ بمشاعر الشكر والامتنان ، وإذا حذّر القرآن من وعيد الله وعقابه، ارتعدت فرائص القارئ وَجَلاً وخوفاً .. وإذا بين القرآن حكماً من أحكام الله، تجدّد عزم القارئ على امتثاله في حياته طاعةً لربه وابتغاءً لمرضاته .

والمراد بـ " القول الثقيل " هو الأمر بالإنذار الوارد في السورة التالية: ﴿ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝ ﴾ [المدثر] أي تنبيه الناس إلى خطورة قضية الآخرة ، وهذا من غير شكٍ أشد الأعمال صعوبة ومشقةً في هذا العالم على الإطلاق ، حيث يضطر الداعي في سبيل ذلك إلى

التمسك بالحق الخالص والثبات عليه حتى ولو صار " غريباً " بين ذويه ومن حوله جميعاً ، وهو يُضطر إلى تحمل أذى الناس وإساءتهم؛ إبقاءً على علاقة الداعي والمدعو، بينه وبين المخاطبين حتى اللحظة الأخيرة، كما يلزمه فوق هذا أن يأخذ نفسه بالصبر والإعراض من طرف واحدٍ، تفادياً من أن تنْخدش سمعته كداعٍ إلى الحق بأي حالٍ من الأحوال !!

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ﴿١٤﴾ ﴾

نَاشِئَةَ اللَّيْلِ: العبادة التي تنشأ به وتحدث.

أَشَدُّ وَطْئاً: ثباتاً للقدم ورسوخاً في العبادة.

وَأَقْوَمُ قِيلاً: أثبت قراءة لحضور القلب فيها.

سَبْحاً: تصرفاً وتقلباً في مهماتك.

وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ: انقطع إلى عبادته تعالى ، واستغرق في مراقبته.

هَجْراً جَمِيلاً: اعتزالاً حسناً لا جزع فيه.

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ: دعني وإياهم فسأكفيكهم.

أُوْلِي النَّعْمَةِ: أرباب التنعم ، ورغادة العيش.

وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً: أمهلهم زمانا قليلاً بعده النكال.

أَنكَالاً: قيوداً شديدة ثقالاً.

وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ: ذا نشوب في الحلق فلا ينساغ.

يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ: تضطرب وتتزلزل (يوم القيامة).

النهوض بدعوة الحق الخالص نهوض بأصعب مهمةٍ وأعسرها إطلاقاً، حيث إن الناهض بها لا يلبث أن يعود في بيئته شخصاً غير مرغوب تماماً، وبالتالي فإن الإله الذي يجده الداعي إلى الحق أنيساً له في وحشته، وكفيلا بأن يكل إليه جميع أموره قرير العين مرتاح البال، هو الله ربه، ومن ثم فهو لا يذكر الله في النهار وحده، وإنما يقف بين يديه تعالى مصلياً ومناجياً في آناء الليل كذلك، والليل هو وقت التفرغ والصفاء والسكون الشامل، إذْ تهدأ فيه الأصوات وتنقطع الحركات، وهو بذلك أنسب الأوقات ليتمكن الإنسان فيه من الإقبال على ذكر الله ومناجاته بتجرد كاملٍ وتركيزٍ ذهني تامٍ، وذلك هو الزاد الحقيقي لمن يسلك في طريق الدعوة الطويل المليء بشتى المصاعب والمتاعب المحفوف بضروب الأهوال والمخاطر..

والداعي الصادق إذا ما أصابه مكروه من جانب المدعو فهو لا يتعرض له، وإنما يندفع نحو الله راجياً منه العون على احتمال الأذى والتثبيت على الجادة، وهو يجنب نفسه مشاعر الانتقام ورد الفعل جهد طاقته، وإن العمل المصحوب بالاستعلاء على نفسية رد الفعل هو الشرط الضروري الوحيد الذي يجعل من شخصٍ ما داعي الحق بمعناه الصحيح.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾
فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ
ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولاً ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ

فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴿١٩﴾ ﴾

كَثِيباً مَّهِيلاً: رملا متجمعاً – سائلا منهالاً.

أَخْذاً وَبِيلاً: شديداً ثقيلاً وخيم العقبى.

إن الغاية الرئيسية من بعث الرسل هي الفصل بين الحق والباطل، ولقد تم هذا الفصل قبلئذٍ بين موسى وفرعون، وها هو ذا يتم الآن بين رسول الإسلام وبين كفار قريش، والذين لا يخضعون أمام الداعي إلى الله، في هذه الدنيا، عن رضا وطواعية، فإنما يعرضون أنفسهم لخطر أن يخضعوا لعذاب الله في الآخرة رغم أنوفهم!

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ: شيء منشق في ذلك اليوم لهوله.

أَن لَّن تُحْصُوهُ: لن تطيقوا ضبط وقت قيامه.

فَتَابَ عَلَيْكُمْ: بالترخيص في ترك قيامه المقدر.

فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ: فصلوا ما سهل عليكم من صلاة الليل.

القُرْآنِ: وفي الصلاة قرآن.

يَضْرِبُونَ: يسافرون للتجارة.

وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ: المفروضة.

قَرْضاً حَسَناً: احتساباً بطيبة نفس.

إن كل ما هو مفروض من الأعمال والتكاليف الدينية قد تم تحديده بحسب استطاعة الإنسان العادي ، غير أن هذه الفرائض والواجبات إنما تدل فقط على النصاب اللازم أوْ القدر الضروري الذي لابد من أدائه لكل إنسان يقر بعبوديته لله ويرجو رحمته ويخشى عذابه، فإن الأعمال المطلوبة منا لا تنتهي عند هذا الحد، بل تتجاوزه إلى أبعد من ذلك بكثير، ولكنها نافلةٌ، يأتي بها العبد طوعاً من غير إيجاب عليه، كصلاة التهجّد فوق الصلوات الخمس المفروضة، أوْ صدقة التطوع فوق الزكاة الواجبة مثلاً ، وهنا مجال التنافس والمسابقة بين أرباب الطموح والعزائم من الرجال ، فبقدر ما يُكثر المرء من النوافل والطاعات، يزداد نصيبه من ثواب الآخرة وترتفع منزلته عند الله - سبحانه وتعالى !

سورة المدثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ (٧) ﴾

الْمُدَّثِّرُ: المتغشى بثيابه (النبي ﷺ).

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ: اخصص ربك بالتكبير والتعظيم.

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ: كناية عن تطهير النفس من المذام.

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ: اهجر المآثم الموجبة للعذاب.

وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ: لا تعط طالبا الكثير عوضا عنه.

إن العمل النبوي الأصيل في هذه الدنيا هو الإنذار ، أي إعلام الناس بخطورة القضية التي تواجههم في الآخرة، ولا يستطيع القيام بهذا العمل على الوجه المطلوب إلا الذي يملأ قلبَه دائماً الشعور بكبرياء الله وجلاله،والذي يتحلى بحسن الأخلاق ونبالة السلوك،والذي يكون بعيداً عن السوء بكل أنواعه وأشكاله ، والذي يعمل الخير ويسدي المعروف إلى غيره غير متطلع إلى عوضٍ أوْ مكافأةٍ ما ، والذي يتمكن من الصبر على إساءات الآخرين وتحمل أذاهم من طرفٍ واحدٍ !

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ (٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا (١٦)

سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾

نُقِرَ فِي النَّاقُورِ: نفخ في الصور للبعث والنشور.

ذَرْنِي: دعني وخلني (تهديد ووعيد) .

مَالاً مَّمْدوداً: كثيرا دائماً غير منقطع عنه.

وَبَنِينَ شُهُوداً: حضوراً معه ، لا يفارقونه للتكسب لغناهم عنه.

وَمَهَّدتُّ لَهُ: بسطت له النعمة والرياسة والجاه.

كَلاَّ: كلمة ردع وزجر عن المطمع الفارغ.

لآيَاتِنَا عَنِيداً: معانداً جاحداً أو مجانبا للحق.

سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً: سأكلفه عذابا شاقا لا يطاق.

إن مَن يجد نفسه بحيث يتوافر لديه مال وثروة طائلة ، هذا إلى جند من الأعوان والأنصار يلتفون حوله، تتولد في داخله ثقة كاذبة ؛ مما يجعله يقول : سأكون في الآخرة أيضاً من حسن الحال واستقامة الأمور حيث أنا في حياتي الراهنة ، ولكن حين يأتي يوم القيامة ينقلب الوضع كله رأساً على عقبٍ ، فالذي كان يرى أسباب الرفاهية وصنوف التسهيلات تحيط به من كل جانبٍ، إذا به يجد نفسه يوم القيامة متورطاً في مآزق حرجة لا يمكن اجتيازها!!

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾

وَقَدَّرَ: هيأ في نفسه قولاً طاعناً في القرآن والرسول ﷺ.

فَقُتِلَ: لعن وعذب أو قُبِّحَ.

نَظَرَ: تأمل فيما قدر وهيأ من الطعن.

عَبَسَ: قطب وجهه لما ضاقت عليه الحيل.

وَبَسَرَ: اشتد في العبوس وكلوح الوجه.

سِحْرٌ: يروى ويتعلم من السحرة.

إن أكبر عائق عن تلقى دعوة الحق بالقبول هو الاستكبار ، فالذين يحتلون مقام الزعامة والكبرياء في مجتمعهم، يرفضون الاعتراف بالحق، لما يخيل إليهم أن الاعتراف به سيقضى على زعامتهم وكبريائهم ، وهم يمعنون في الإجرام، إذْ يأخذون في تعييب كلام الداعي والطعن فيه، تبريراً لعدم اعترافهم بصدقه ، وإذْ يحاولون الحط من قدر الداعي وتلويث كرامته من خلال إشاعة التهم والدعايات الكاذبة ضده بين الجماهير .

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ: سأدخله جهنم.

لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ: مسودة للجلود محرقة لها.

فِتْنَةً: سبب فتنة وضلال.

وَمَا هِيَ: وما سقر.

إن أحوال جهنم وأهوالها التي وصفها القرآن الكريم تتعلق بالعالم غير المرئي لنا تماماً، وقيام التسعة عشر من الملائكة حراساً على جهنم، هو الآخر حقيقة من هذا القبيل .. فلو انشغل المرء في التنقير أوْ اتخذ من هذه الأشياء الغيبية موضوع الجدل والمماحكة، فإنها ستزيده حيرةً وارتياباً، أما لو سار المرء على نهج الإيمان المجمل بما كشفه الله من حقائق الغيب، لازداد خوفه وحذره من الآخرة.

﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ: ولى وذهب (قسم).

وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ: أضاء وانكشف (قسم).

إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ: لإحدى الدواهي العظيمة (جواب القسم).

أَن يَتَقَدَّمَ: إلى الخير والطاعة.

بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ: مرهونة عنده تعالى بعلمه.

مَا سَلَكَكُمْ: أي شيء أدخلكم.

وَكُنَّا نَخُوضُ: نشرع في الباطل ولا نبالي.

بِيَوْمِ الدِّينِ: بيوم البعث والحساب والجزاء

إن هذا الكون يسوده نظام الحركة والدوران ، وإليه يرجع تعاقب الليل والنهار على سطح الأرض، وما يعتري القمر من أحوال شتى على مدار الشهر ، وكأن نظام الحركة والتغيير هذا يتضمن إشارة إلى أن عالم الدنيا الحالي سيظل يتغير هكذا ما شاء الله أن يتغير وينتقل من حال إلى حالٍ، ليحل محله في النهاية عالم الآخرة، والذين يتأملون في هذا النظام الكوني سيودّون أن يستفيدوا من " نهارهم " قبل أن يغشاهم " الليل " بظلامه، وسيفرون من الأعمال الجهنمية إلى الاشتغال بالأعمال المؤدية إلى الجنة .

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأَخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾

حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ: حمر وحشية شديدة النفار.

قَسْوَرَةٍ: أسد. أو الرماة القنص.

أَهْلُ التَّقْوَى: أهل أن يتقيه عباده .

إن الموعظة، مهما كانت بليغة مؤيَّدةً بالأدلة والبراهين، لا تكاد تؤثر في نفس السامع إلا إذا هو وقف منها موقف الجد، ولو لم يكن السامع جاداً، فإن أبلغ المواعظ وأقواها تأثيراً لن تتمكن من تحريك ساكنه أوْ النفاذ إلى قلبه، وإن الدليل الذي يُلهب فؤاد إنسان جادٍ ويملك عليه مشاعره كلها، سوف لا يزيد غير الجاد إلا رغبةً في إثارة الجدل العقيم والخوض فيما لا طائل تحته !!

سورة القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾

لا أُقْسِمُ: أقسم و"لا" مزيدة.

بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ: كثيرة اللوم والندم على ما فات .

بَلَى: نجمعها بعد التفرق والبلى.

نُسَوِّيَ بَنَانَهُ: أطراف أصابعه فنرد عظامها كما كانت على صغرها بقدرتنا فكيف بكبارها.

لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ: ليدوم على فجوره مدة عمره.

بَرِقَ الْبَصَرُ: دهش وتحير فزعا مما أري.

وَخَسَفَ الْقَمَرُ: ذهب ضوؤه.

جُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ: في الطلوع من المغرب مظلمين.

أَيْنَ الْمَفَرُّ: المهرب من العذاب أو الهول.

لاَ وَزَرَ: لا ملجأ ولا منجى له من الله.

وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ: لو جاء بكل عذر لم ينفعه.

إن الإنسان مفطور على الشعور بالخير والشر والتمييز بين الحسن والقبيح ، وهو يريد، بحكم فطرته، أن يلقى المسيء عقوبة إساءته ويلقى المحسن جزاء إحسانه بالضرورة ، وهذا الشعور هو الذي أطلق عليه القرآن هنا تسمية " النفس اللوامة " . إن هذه النفس اللوامة تمثل شهادة نفسية على كون عالم الآخرة حقيقة واقعةً ، والذي يتقاعس، بعد هذه الشهادة الداخلية، عن الوفاء بمقتضياتها اللازمة، فكأنما هو ينكر حقيقة كامنة في فطرته ذاتها!!

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾

جَمْعَهُ: في صدرك وحفظك إياه.

وَقُرْآنَهُ: أن تقرأه بلسانك متى شئت.

قَرَأْنَاهُ: أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل.

بَيَانَهُ: تفسير ما أشكل من معانيه.

كان رسول الله ﷺ إذا ما نزل عليه الوحي أسرع في تلقيه، فنهاه الله سبحانه عن ذلك، كما أمره في هذا السياق أيضاً بأنه ينبغي لك أن تركز اهتمامك كله على الجزء الذي تم نزوله من القرآن والذي أصبحت أنت مخاطباً به بالفعل، بدلاً من التطلع إلى بقية أجزاء القرآن التي لم تنزل عليك بعد، ولم يتوجه خطابها إليك فعلاً ! ومن هذا نعلم أن

المطلوب من الفرد المؤمن أن يوجه كل عنايته نحو الجزء الذي هو مكلف به من القرآن في وقتٍ معينٍ، دون الاندفاع في ذلك الوقت وراء ما لم يكلف به بعد، إما لانعدام شروطه أوْ لكونه لم يأت أوانه بعد، فإن ذلك من " العجلة " التي تتنافى مع الحكمة القرآنية كلياً !!

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾

نَّاضِرَةٌ: حسنة مشرقة متهللة.

بَاسِرَةٌ: شديدة الكلوحة والعبوس .

فَاقِرَةٌ: داهية عظيمة تقصم فقار الظهر.

بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ: وصلت الروح لأعالي الصدر.

مَنْ رَاقٍ: من يداويه: وينجيه من الموت

وَالْتَفَّتِ: التوت. أو التصقت.

المَسَاقُ: سوق العباد للجزاء.

الغفلة عن الآخرة ترجع دوماً إلى سبب واحدٍ ليس غير ، ألا وهو حب العاجلة . أي رغبة المرء في الحصول على ثمرة عمله فوراً بدون تأخير ، وبما أن العمل لأجل الآخرة لا يُثمر إلا آجلاً، لا يعيرها المرء أي اهتمامٍ ، وأما الدنيا فهو يلهث وراءها لأنه يجني ثمار عمله وسعيه لها في الحال .

والناس يشاهدون أن الإنسان – أي إنسانٍ – يعتريه الموت في نهاية المطاف حتماً، وبالتالي يهدم الموت صرح أمجاده ويحيل كل نجاحاته أثراً بعد عينٍ ، ولكن ليس ثمة أحدٍ يعتبر بهذا المشهد الواقع المتكرر تحت سمعه وبصره كل حين وآنٍ، وهو يظل كذلك – إلى أن يقترب هو نفسه من موته فينتزع منه الفرصة لتلقى الدرس والاعتبار !

﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

يَتَمَطَّىٰ: يتبختر في مشيته اختيالاً.

أَوْلَىٰ لَكَ: قاربك ما يهلكك.

يُتْرَكَ سُدًى: مهملا فلا يكلف ولا يجازى.

مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ: يصب في الرحم.

فَسَوَّىٰ: فعدله وكمّله ونفخ فيه الروح.

إنَّ الإنسان يدخل إلى بطن أمه في البداية ، وهو نطفة صغيرة من ماء مهينٍ، ثم يأخذ شكل علقةٍ (وهي دودة مائية تمتص الدم)، ثم يمر بمراحل أخرى من النمو والتطور؛ تتكون خلالها أعضاؤه وأجهزته المختلفة وتتشكل صورته بتخطيطها وملامحها الدقيقة، حتى يصير آخر الأمر جنيناً معتدلاً، منسقةً أعضاؤه أروع تنسيقٍ، فيخرج إلى النور ذكراً أوْ أنثى ، وكل هذه التغيرات المدهشة تتم على مدى الرحلة الجنينية الطويلة دون تدخلٍ أوْ محاولةٍ من الإنسان، إذنْ، أفليست يد القدرة الإلهية الخلاقة المبدعة التي

تحدث هذه العجائب كل يوم، بقادرٍ على تكوين عالمٍ آخر جديدٍ بعد فناء العالم الحالي؟! والحقيقة هي أن الشيء الذي يحول بين الناس وبين اعترافهم بالحق إنما هو أنانيتهم، وليس قلة أوْ عدم توافر الدلائل والقرائن المؤيدة للحق !

سورة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾

أَمْشَاجٍ: أخلاط ممتزجة متباينة الصفات.

نَّبْتَلِيهِ: مبتلين له بالتكاليف فيما بعد.

هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ: بينا له طريق الهداية والضلال.

نزل القرآن الكريم في القرن السابع الميلادي، وعندئذٍ لم يكن هناك من أحدٍ في العالم أجمع يدري أن جنين الإنسان (أوْ الحيوان) يتولد في رحم المرأة ابتداءً من نطفةٍ أمشاجٍ أي مختلطةٍ، ولم تعرف البشرية، رغم تقدمها العلمي المدهش في ميادين المعرفة، إلا في أوائل القرن العشرين، أن الخلية الأولية للجنين الإنساني تنشأ عن التمازج بين عنصرين : أحدهما بويضة المرأة (ovum) وثانيهما حُوَيْمن الرجل أوْ الحيوان المنوي (sperm)، فحينما يلتقي هذان الجزيئان المجهريان (الميكروسكوبيان) أحدهما بالآخر ويتحدان، يبدأ داخل رحم المرأة تكّون ذلك الشيء الذي يتحول، بعد المرور بأطوارٍ مختلفة متباينةٍ، إلى إنسانٍ، وإن ورود لفظ " النطفة الأمشاج " - أي المختلطة - في القرآن الكريم للدلالة على بداية نشأة الإنسان الجنينية قبل أكثر من ألفٍ وأربعمائة عامٍ، برهان ناطق بأن القرآن كتاب الله .

والقرآن حافل بأمثلةٍ من هذا النوع كثيرةٍ، وهي تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن

القرآن منزل من عند الله العليم الخبير، وإذا ثبت كون القرآن كتاب الله بصورة قطعية، فإن كل ما ورد فيه يعد صحيحاً بالضرورة لوروده في هذا الكتاب الإلهي !!

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

سَلاسِلَ: بها يقادون وفي النار يسحبون.

وَأَغْلالاً: بها تجمع أيديهم إلى أعناقهم ويقيدون.

كَأْسٍ: خمر أو زجاجة فيها خمر.

مِزَاجُهَا: ما تمزج الكأس به وتخلط.

كَافُوراً: ماء كالكافور في أحسن أوصافه.

عَيْناً: ماء عين أو خمر عين.

يَشْرَبُ: يشرب منها. أو يرتوي بها.

يُفَجِّرُونَهَا: يجرونها حيث شاؤوا من منازلهم.

مُسْتَطِيراً: فاشيا منتشراً غاية الأنتشار.

يَوْماً عَبُوساً: تكلح فيه الوجوه لهوله.

قَمْطَرِيراً: شديد العبوس.

وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً: اعطاهم حسنا وبهجة في الوجوه.

الأَرَائِكِ: السرر في الحجال (١).

زَمْهَرِيراً: برداً شديداً. أو قمراً.

وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا: قريبة منهم ظلال أشجارها.

وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا: قربت ثمارها لمتناولها.

وَأَكْوَابٍ: أقداح بلا عرى ولا خراطيم.

قَوَارِيرَ: كالزجاجات في الصفاء.

قَدَّرُوهَا: جعلواها شرابها على قدر الري.

كَأْساً: خمراً أو زجاجة فيها خمر .

خلق الله الإنسان مزوداً بالحرية وبشتى وسائل المعرفة والإدراك . ثم كشف له عن طريق الشكر وطريق الكفران ، ثم تركه ليختار بنفسه أي الطريقين شاء في حياته المحدودة على وجه الأرض ، فإن اختار طريق الكفران صار في الآخرة إلى عذاب السعير، وإن اختار طريق الشكر فاز هناك بالجنة وما فيها من نعيم مقيم .

---

(١) جمع حجلة محركة – بيت يزين بالثياب والأسرة والستور.

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾

مِزَاجُهَا: ما تمزج به وتخلط.

زَنجَبِيلاً: ماء كالزنجبيل في أحسن أوصافه.

تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً: يوصف شرابها بالسلاسة في الانسياغ.

وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ: مبقون على هيئة الولدان في البهاء.

لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً: كاللؤلؤ المفرق في الحسن والصفاء.

ثِيَابُ سُندُسٍ: ثياب من ديباج رقيق.

وَإِسْتَبْرَقٌ: ديباج غليظ.

هذا وصف الجنة العليا، حيث يسكن أولئك الذين أقاموا الدليل على أرفع مستويات الإيمان، وصنوف النعيم والمتاع والكرامة المتاحة لأهل هذه الجنة ستكون من الطراز الملوكي الفخم !!

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلاً ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَـٰهُمْ

وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ
إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ
مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾

بُكْرَةً وَأَصِيلاً: أول النهار وآخره. أو دائما.

يَوْماً ثَقِيلاً: شديد الأهوال (يوم القيامة).

وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ: أحكمنا خلقهم.

يأبى الإنسان قبول دعوة الحق لأحد سببين لا ثالث لهما : فإما أن تكون أمامه مصلحة من مصالح دنياه يقف حرصه عليها، أوْ خوف الحرمان منها بمثابة حجر عثرة دون تقدمه نحو الحق، أوْ يكون مصاباً بنفسية الكبر والغرور، مما يحول بينه وبين التسليم بأية عظمة أوْ كبرياء خارج ذاته ، وكلا هذين الصنفين من الناس يزرعون في طريق دعوة الحق شتى العقبات والعراقيل، ولكن الداعي إلى الحق مأمور بأن يواصل مسيرته صابراً على أذاهم غير مبالٍ بما يبيتون لإحراجه أوْ النيل منه، فإن الله يكفيه شرهم .

سورة المرسلات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾

وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً: (أقسم الله) برياح العذاب متتابعة كعرف الفرس.

فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً: الرياح الشديدة الهبوب المهلكة.

وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً: كاللؤلؤ المفرق في الحسن والصفاء.

الْفَارِقَاتِ فَرْقاً: الملائكة تنشر أجنحتها في الجو عند النزول بالوحي.

فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً: الملائكة تأتي بالوحي فرقانا بين الحق والباطل.

عُذْراً: للإعذار من الله للخلق.

نُذْراً: للإنذار والتخويف بالعقاب.

تتصاعد البخارات من البحر وتتجه نحو أعالي الفضاء؛ لتتحول سحاباً تزجيه الرياح من جهة إلى أخرى ، وبينما تقف الرياح أثناء سيرها بالسحاب فوق بعض المناطق ليتساقط عليها مطر يعيد إليها خضرتها ونضارتها من جديدٍ، تمر به من فوق منطقة أخرى مراً سريعاً تاركة إياها وراءها مجدبة كما هي بدون إمطارٍ ، وهذا يوضح لنا أن نظام هذا الكون يسير على مبدأ التفريق بين بعضه وبعضٍ ، ولقد ظهر هذا المبدأ في عالمنا الراهن بصورة جزئيةٍ، وهو سيظهر في عالم الآخرة في أتم صوره وأكملها .

وطبيعة الرياح الفارقة هذه تحمل نذيراً للإنسان، ففي صيرورتها رحمةً ببعضهم

ونقمةً بالنسبة لبعضهم الآخر وفي ذلك تذكير بحقيقة أنه إذا كان هناك نوعان من البشر مختلفان في هذا العالم، فإن قضاء الله فيهما لن يكون متشابهاً أبداً ، كما أن طبيعة الرياح هذه إعذار من الله أيضاً لعباده، حيث لا يبقى لأحدٍ منهم بعدها حجة أوْ معذرة عند الله - عز وجل !!

﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

النُّجُومُ طُمِسَتْ: مُحِيَ نورها وأذهب ضوؤها.

السَّمَاءُ فُرِجَتْ: شقت، أو فتحت فكانت أبواباً.

الجِبَالُ نُسِفَتْ: قلعت من أماكنها بسرعة.

أُقِّتَتْ: بلغت ميقاتها (يوم القيامة) .

لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ: يقال لأي يوم أخرت.

لِيَوْمِ الفَصْلِ: بين الخلائق أو الحق والباطل.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ: هلاك في هذا اليوم الهائل.

إذا جاء يوم القيامة تحطم نظام العالم الحالي وانقلبت موازينه وقيمه رأساً على عقبٍ، والذين يعدون أنفسهم اليوم أقوياء شديدي البأس، وبالتالي يرفضون دعوة الحق اغتراراً بما عندهم من وسائل القوة، سيصير حالهم يومئذٍ أضعف الناس قوةً وأشدهم عجزاً!!

﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

مَّاءٍ مَّهِينٍ: مني ضعيف حقير.

قَرَارٍ مَّكِينٍ: متمكن ، وهو الرحم.

فَقَدَرْنَا : فقدرنا ذلك تقديراً.

الأَرْضَ كِفَاتاً: وعاءً تضم الأحياء على ظهرها.

أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً: والأموات في باطنها.

رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ: جبالاً ثوابت مرتفعات.

مَّاءً فُرَاتاً: حلوا عذباً.

لقد بُني العالم الراهن بحيث يستطيع المتأمل فيه أن يرى الآخرة في مرآته ، وعلى الرغم من ذلك فإن بعضهم لا يزال يكذب بها، ومن يكذب بالحق هو من غير شك أعظم الناس جرماً على الإطلاق !

﴿ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ

لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) ﴾

ظِلٍّ: هو دخان جهنم.

ثَلاثِ شُعَبٍ: فرق ثلاث كالذوائب.

لاَ ظَلِيلٍ: لا مظلّلٍ من الحر.

وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ: لا يدفع شيئا من حره.

تَرْمِي بِشَرَرٍ: هو ما تطاير من النار متفرقاً.

كَالْقَصْرِ: كل شررة كالبناء المشيد في العظم والارتفاع.٠

كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ: كأن الشرر إبل سود و"وتسميها العرب صفراء " في الكثرة والتتابع وسرعة الحركة واللون.

لَكُمْ كَيْدٌ: حيلة لاتقاء العذاب.

إن الإنسان حين يُواجَه بأهوال الآخرة، سيجد نفسه إزاءها عاجزاً كل العجز، وستَخرس يومئذٍ ألسنة أولئك الثرثارين الذين كانوا يتكلمون في الحياة الدنيا كما لو أن ثروة ألفاظهم لن تنفد أبداً !!

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ (٥٠) ﴾

إن نعم الله في هذه الدنيا إنما وُضعت لفترةٍ محدودة لحكمة الامتحان والابتلاء ، أما نعم الله في الآخرة فإنها ستظهر في أكمل صورة وأدومها لتبقى أبد الدهر ، واليوم ينال كل أحدٍ من هذه النعم نصيباً قل أوْ كثر ، ولكن نعم الآخرة الأبدية لن تقع إلا في نصيب أولئك الذين أطاعوا الله حين عصاه غيرهم، والذين خضعوا له تعالى حين أبى الآخرون الخضوع له ، إن الذين " يركعون " استجابة للقول، أولئك لهم الجنة ، وأما الذين " يركعون " بعد أن رأوا " الويل " رأي العين فمصيرهم إلى جهنم !!

سورة النبـأ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾

عَمَّ: عن أي شيء عظيم الشأن.

عَنِ النَّبَأِ العَظِيمِ: عن القرآن أو البعث.

كَلاَّ: ردع وزجر عن الاختلاف فيه.

الأَرْضَ مِهَاداً: فراشا موطأ للاستقرار عليها.

وَالجِبَالَ أَوْتَاداً: كالأوتاد للأرض لئلا تميد.

وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً: أصنافاً ذكوراً وإناثاً للتناسل.

نَوْمَكُمْ سُبَاتاً: قطعاً لأعمالكم وراحة لأبدانكم .

اللَّيْلَ لِبَاساً: ساتراً لكم بظلمته كاللباس.

النَّهَارَ مَعَاشاً: تحصلون فيه ما تعيشون به.

سَبْعاً شِدَاداً: سموات قويات محكمات.

سِرَاجاً وَهَّاجاً: مصباحاً منيراً وقاداً (الشمس) .

المُعْصِرَاتِ: السحائب التي حان لها أن تمطر.

مَاءً ثَجَّاجاً: منصبا بكثرة مع التتابع.

وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً: بساتين ملتفة الأشجار.

إن العرب لم يكونوا منكرين للآخرة أصلاً، وإنما كانوا ينكرون وقوعها على النحو الذي وصفه القرآن الكريم، أي أنهم كانوا في شكٍ من أن عدم إيمانهم بـ" محمدٍ "، وهو لا يعدو أن يكون بشراً مثلهم، سيؤدي بهم إلى الخزي والهوان الأبديَيْن في عالم الآخرة !!

إن الوقائع الطبيعية التي توجد في عالمنا الراهن تشير إلى حتمية اليوم الآخر ، إن حاضر العالم الراهن يقتضي أن يكون مستقبله مطابقاً له ، وإذا نحن تأملنا، من وجهة النظر هذه، وجدنا أنفسنا مضطرين إلى الاعتراف بأن هذه البداية العظيمة ستعقبها نهاية عظيمة حتماً. وأن هذا العالم لن ينتهي عبثاً !

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾
وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ
كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا
وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ
حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟
فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾

فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً: أمما أو جماعات مختلفة الأحوال.

فَكَانَتْ أَبْوَاباً: صارت ذات أبواب.

فَكَانَتْ سَرَاباً: كالسراب الذي لا حقيقة له.

كَانَتْ مِرْصَاداً: موضع ترصد وترقب للكافرين.

لِلطَّاغِينَ مَآباً: مرجعاً ومأوى لهم.

أَحْقَاباً: دهوراً متتابعة لا نهاية لها.

بَرْداً: نوما أو روحا من حر النار.

حَمِيماً: ماء بالغا نهاية الحرارة.

وَغَسَّاقاً: صديداً يسيل من جلودهم.

جَزَاءً وِفَاقاً: جزيناهم جزاء موافقاً لأعمالهم.

كِذَّاباً: تكذيبا شديداً.

أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً: حفظناه وضبطناه مكتوبا.

يجد الإنسان في ممارسة الطغيان في هذه الحياة لذة كبيرة ، حيث إنه يغذي كبرياءه ويُرضي أنانيته ، بيْد أن الوضع سينقلب رأساً على عقبٍ حين يظهر طغيانه بشكله الحقيقي في عالم الآخرة، فالشيء الذي كان مثار اللذة والمتعة لدى الإنسان في الحياة الدنيا، سيفاجأ به هناك ، وقد تحول إلى عذابٍ فظيع يحيط به من كل جانبٍ !!

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا
﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾

مَفَازاً: فوزاً وظفرًا بكل محبوب.

وَكَوَاعِبَ: فتيات ناهدات (نساء الجنة) .

أَتْرَاباً: مستويات في السن.

وَكَأْساً دِهَاقاً: مترعة مليئة من خمر الجنة.

لَغْواً: كلاما غير معتد به. أو قبيحا.

كِذَّاباً: تكذيباً.

عَطَاءً حِسَاباً: إحسانا كافيا أو كثيراً.

خِطَاباً: إلا بإذنه.

الرُّوحُ: جبريل عليه السلام .

مَآباً: مرجعا بالإيمان والطاعة.

كُنتُ تُرَاباً: في هذا اليوم فلا أعذب

إن بيئة الجنة ستكون خلواً من كل ألوان اللغو والأكاذيب،ومن ثم فلن يُختار لسكنى الجنة - وهي عالم النظافة والسمو والجمال في أكمل صورها المادية والمعنوية- إلا ذوو الأذواق الرفيعة وحدهم؛ أولئك الذين أقاموا الدليل في حياتهم الراهنة على أنهم مؤهلون للعيش بعيداً عن اللغو والفضول والأكاذيب .

سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا (١) وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا (٢) وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا (٣) فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا (٤) فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا (٥) يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ (٦) تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ (٨) أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ (٩) يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ (١٠) أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ (١١) قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ (١٣) فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ (١٤) ﴾

وَالنَّازِعَاتِ: (أقسم) الله بالملائكة تنزع أرواح الكفار من أقاصي أجسامهم.

غَرْقاً: نزعاً شديداً مؤلما بالغ الغاية.

وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً: الملائكة تسل أرواح المؤمنين برفق.

وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً: الملائكة تنزل مسرعة لما أمرت به.

فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً: الملائكة تستبق بالأرواح إلى مستقرها ناراً أو جنة.

فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً: الملائكة تنزل بالتدبير المأمور به.

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ: لتبعثن (جواب القسم) يوم تضطرب الأجرام بالصيحة الهائلة (نفخة الموت) .

تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ: نفخة البعث التي تردف الأولى.

وَاجِفَةٌ: مضطربة أو خائفة وجلة.

أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ: ذليلة منكسرة من الفزع.

فِي الْحَافِرَةِ: إلى الحالة الأولى (الحياة).

كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً: بالية مفتتة.

كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ: رجعة غابنة.

زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ: صيحة واحدة (نفخة البعث) .

هُم بِالسَّاهِرَةِ: هم أحياء على وجه الأرض.

نرى الدنيا كل عامٍ من حولنا ساكنة هادئة ، ثم لا نلبث طويلاً حتى تهب الرياح الشديدة التي تزجى السحب الثقال فينزل منها مطر غزير ، وما هو إلا قليل حتى يفاجأ الناس بقيام عالم جديدٍ بهيجٍ حيث لم يكن بالأمس سوى أرضٍ يابسة جرداء ، إن واقعة الطبيعة هذه تدلنا على إمكان الآخرة ، إنها تشهد، بلغةٍ رمزيةٍ، أن انبثاق العالم الآخر من العالم الحالي ممكن تماماً كانبثاق الحقول الناضرة الخضراء من باطن الأراضي الخالية الجرداء !!

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾

طُوًى: اسم الوادي المقدس.

طَغَى: عتا وتجبر وكفر بالله تعالى.

تَزَكَّى: تطهر من الكفر والطغيان.

الآيَةَ الكُبْرَى: معجزة العصا واليد البيضاء .

يَسْعَى: يجد في الإفساد والمعارضة.

فَحَشَرَ: جمع السحرة أو الجند.

نَكَالَ: عقوبة. أو بعقوبة.

إن حياة فرعون وأمثاله من المنكرين دليل على أن مَن ينكر الحق يلقى عقوبته حتماً، وفي هذه الأمثلة التاريخية ما يكفى درساً وعظةً للإنسان ، غير أن أي عظة ما لا يعتبر بها إلا الذي يحمل نفسية الحذر والخوف ، والذي ينظر نحو عملٍ ما من حيث نهايته وليس من حيث بدايته وحدها !!

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾

رَفَعَ سَمْكَهَا: جعل ثخنها مرتفعا جهة العلو.

فَسَوَّاهَا: فجعلها مستوية الخلق بلا عيب.

وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا: أظلمه.

وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا: أبرز نهارها المضيء بالشمس.

دَحَاهَا: بسطها وأوسعها لسكنى أهلها.

وَمَرْعَاهَا: أقوات الناس والدواب.

وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا: أثبتها في الأرض كالأوتاد.

إن وجود هذا الكون الممتد أمام أعيننا إلى غير نهايةٍ، واقعة عظيمة لدرجة أن كل واقعة أخرى إزاءها تعود أصغر وأهون ، فالعالم الذي أمكن فيه ظهور الواقعة العظيمة، لِمَ لا يمكن فيه ظهور الواقعة الأصغر منها بكثيرٍ ؟!

فقول القرآن إذن، بأن الإنسان سيُبعث من جديدٍ، خبر لا غرابة فيه، إذْ يتوفر من حولنا بصورة مسبقةٍ أسباب لا حصر لها تجعله في متناول كل الأفهام !

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾

الطَّآمَّةُ الكُبْرَى: الداهية العظمى (القيامة) .

وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ: أظهرت إظهارا بيناً.

هِيَ المَأْوَى: هي المرجع والمقام له لا غيرها.

أَيَّانَ مُرْسَاهَا: متى يقيمها الله ويثبتها ؟

يجد المرء نفسه هنا بين شيئين : أحدهما : هذه الدنيا الماثلة أمام ناظريه ، وثانيهما : عالم الآخرة المستتر وراء الغيب ، وامتحان المرء الحقيقي هو أن يؤثر الآخرة على الدنيا الحاضرة ، غير أن هذا لا يقدر عليه سوى أولئك الذين يملكون الشجاعة الكافية لضبط النفس والحيلولة دون انسياقها وراء الأهواء والشهوات .

سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ
فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ
﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ
﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾
كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾

عَبَسَ: قطب وجهه الشريف ﷺ .

وَتَوَلَّى: أعرض بوجهه الشريف ﷺ .

لَعَلَّهُ يَزَّكَّى: يتطهر بتعليمك من دنس الجهل.

يَذَّكَّرُ: يتعظ.

لَهُ تَصَدَّى: تتعرض له بالإقبال عليه.

جَاءَكَ يَسْعَى: وصل إليك مسرعا ليتعلم.

عَنْهُ تَلَهَّى: تتلهى – تتشاغل وتعرض.

كَلاَّ: حقا أو إرشاد ، بليغ لترك المعاودة.

إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ: إن آيات القرآن موعظة وتذكير.

فِي صُحُفٍ: منتسخة منه اللوح المحفوظ.

مَرْفُوعَةٍ: رفيعة القدر والمنزلة عنده تعالى.

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ: ملائكة ينسخونها من اللوح المحفوظ.

بَرَرَةٍ: مطيعين له تعالى أو صادقين.

كان النبي ﷺ ذات يوم مشغولاً بالحديث إلى سادة قريش يعرض عليهم دعوة الإسلام، رجاء أن يستجيبوا له؛ إذْ جاءه الصحابي الأعمى عبد الله بن أم مكتوم، فقال : " يا رسول الله،علمني مما علمك الله " وكرر ذلك،فأعرض عنه رسول الله كارهاً مجيئه في تلك الساعة وقطْعه لكلامه ، فنزلت هذه الآيات بما فيها من عتاب الرسول على إعراضه عن الأعمى القادم راغباً في العلم والهداية .

وهذه الآيات ، وإن كان سبب نزولها حادثاً فردياً عابراً، وخطابها موجه أساساً إلى رسول الله – ﷺ- إلا أنها جاءت تهدف إلى تقرير حقيقة من الحقائق الدينية المطلقة، وهي أن الله – عز وجل – لا قيمة عنده لأولئك السادة والكبراء الذين هم بعيدون عن الدين، وإنما القيمة عند الله تعالى لمن يحمل بين جنبَيْه روحاً ملؤها الخشية والخشوع، حتى ولو كان رجلاً أعمى !!

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

قُتِلَ الإِنسَانُ: لعن الكافر. أو عُذب .

فَقَدَّرَهُ: أطوارًا أو هيأه لما يصلح له.

السَّبِيلَ يَسَّرَهُ: سهل له طريقي الهدى والضلال.

فَأَقْبَرَهُ: أمر بدفنه في قبر تكرمة له.

أَنشَرَهُ: أحياه بعد موته.

لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ: لم يفعل ما أمره الله به بل قصر.

شَقَقْنَا الأَرْضَ: بالنبات أو بالحرث.

وَقَضْباً: علفاً رطبا للدواب كالبرسيم.

وَحَدَائِقَ غُلْباً: بساتين عظاماً متكاثفة الأشجار.

وَأَبّاً: كلأ وعشباً. أو هو التبن خاصة.

الدافع الأصلي الكامن وراء العبادة المطلوبة من الإنسان هو الشكر والعرفان بالجميل، ولو فكر الإنسان في كيفية خلقه، وفيما حوله من الأسباب والتدابير الطبيعية اللازمة لحياته، لتولدت في داخله عاطفة الشكر والامتنان لربه، والسلوك الذي ينبثق من عاطفة الشكر والامتنان هذه هو ما يسمى العبادة والعبودية لله رب العالمين.

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ (٤٢) ﴾

جَاءَتِ الصَّاخَّةُ: الصيحة تصم الآذان لشدتها (النفخة الثانية).

مُّسْفِرَةٌ: مشرقة مضيئة (وجوه المؤمنين) .

غَبَرَةٌ: غبار وكدورة (وجوه الكافرين) .

تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ: تغشاها ظلمة سوداء.

إن إنكار الحق واتخاذ موقف العناد والطغيان إزاءه، هو الجريمة الكبرى على الإطلاق، ومَن يرتكبها سيعود عديم القيمة فاقداً لكل اعتبار في الآخرة ، وأما الذين يعترفون بالحق ويخضعون أنفسهم له، فهم وحدهم سيُعتبرون ذوي قيمة واعتبار في الآخرة ، وأولئك وحدهم سيفوزون بها في الآخرة من ضروب النعيم والعزة والكرامة .

سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا
ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾ وَإِذَا
ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ
نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾
عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴿١٤﴾ ﴾

الشَّمْسُ كُوِّرَتْ: أزيل ضياؤها أو لفت وطويت.

النُّجُومُ انكَدَرَتْ: تساقطت وهوت.

الجِبَالُ سُيِّرَتْ: أزيلت عن مواقعها.

العِشَارُ عُطِّلَتْ: النوق الحوامل أهملت بلا راع.

الوُحُوشُ حُشِرَتْ: جمعت من كل صوب.

البِحَارُ سُجِّرَتْ: أوقدت فصارت ناراً تضطرم.

النُّفُوسُ زُوِّجَتْ: قرنت كل نفس بشكلها.

المَوْءُودَةُ: البنت التي تدفن حية.

الصُّحُفُ نُشِرَتْ: صحف الأعمال فرقت بين أصحابها.

السَّمَاءُ كُشِطَتْ: قلعت كما يقلع السقف.

الجَحِيمُ سُعِّرَتْ: أوقدت وأضرمت للكفار.

الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ: قربت وأذنت من المتقين.

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ: ما عملت من خير أو شر (جواب إذ) .

في هذه السورة، كما في غيرها من سور القرآن العديدة، تصوير رائع لما يقع من أحداث عند قيام الساعة وبعد قيامها ، وحين تقوم الساعة، يختل هذا التوازن الدقيق الذي يعم الكون كله، وسيقف الإنسان حينئذٍ حائراً مكتوف الأيدي لا يستطيع أن يفعل شيئاً لشعوره بالعجز المطلق ، وسيفقد يومئذٍ كل شيءٍ قيمته ووزنه ما عدا أعمال البر والصالحات، وسيكون من حق المظلوم هناك أن ينتقم من الظالم كيفما شاء !

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا
تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ
ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى
ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

فَلاَ أُقْسِمُ: (أقسم) و"لا" مزيدة.

بِالخُنَّسِ: بالكواكب السيارة تخنس نهارا وتختفي عن البصر وهي فوق.

الجَوَارِ الكُنَّسِ: الأفق ، وتظهر ليلاً ثم تكنس وتستتر في مغيبها تحت الأفق.

وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ: أقبل ظلامه ، أو أدبر.

وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ: أقبل وأضاء وتبلج.

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ: جبريل ﷺ (جواب القسم) .

مَكِينٍ: ذي مكانة رفيعة وشرف.

رَآهُ: رأى الرسول جبريل بصورته الخلقية.

الغَيْبِ: الوحي وخبر السماء.

بِضَنِينٍ: ببخيل فيقصر في تبليغه.

إن تعاقب الليل والنهار وانتقال النجوم من مكان إلى آخر، كما يتراءى لعيوننا نحن البشر، كلاهما يترتب على حركة الأرض حول محورها،وعلى هذا فمعنى القسم بهاتين الظاهرتين الكونيتين أن نظام الدورة المحورية للأرض شاهد بأن محمداً رسول الله، وأن القرآن كلام الله الذي أنزل عليه بواسطة الملك .

ودوران الأرض حول محورها ظاهرة فذة وعظيمة للغاية ، وإنها بمثابة نموذج كوني يجعل قضية الوحي في متناول أفهامنا ، فلو تخيلنا الأرض ، وهي تدور حول محورها أمام الشمس في الفضاء الهائل، لبدا لنا كأن هناك نظاماً مضبوطاً للتحكم عن بعدٍ هو الذي يتحكم في ذلك بمنتهى الدقة ، وقيام الاتصال بين الله وبين أحد عباده المختارين عن طريق الملك، هو الآخرة واقعة من هذا النوع ، فالواقعة الأولى تساعدنا، في صورة التمثيل، على فهم حقيقة الواقعة الثانية .

سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣
وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ
بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ
۝٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ
مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۝١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ
ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا
يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩ ﴾

السَّمَاءُ انفَطَرَتْ: انشقت عند قيام الساعة.

الكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ: تساقطت متفرقة.

البِحَارُ فُجِّرَتْ: شققت جوانبها فصارت بحراً واحداً.

القُبُورُ بُعْثِرَتْ: قلب ترابها وأخرج موتاها.

مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ: ما خدعك وجرأك على عصيانه؟

فَسَوَّاكَ: جعل أعضاءك سوية سليمة.

فَعَدَلَكَ: جعلك معتدلاً متناسب الخلق.

تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ: بالبعث والجزاء أو بالإسلام.

الأَبْرَارَ: الذين بروا وصدقوا في إيمانهم.

يَصْلَوْنَهَا: يدخلونها أو يقاسون حرها.

أخبر القرآن الكريم مراراً وتكراراً بأن يوماً للدينونة أوْ الجزاء النهائي العادل قادم، يُحشر فيه الناس بأجمعهم، ليُعاقَبوا أوْ يُكافَئوا بحسب أعمالهم في الحياة الراهنة ، وهذا الخبر يتفق مع وضع عالمنا الراهن تماما الاتفاق ، حيث يجد واقع خلق الإنسان الهادف تفسيراً له في هذا الخبر، كما يمكننا في ضوء هذا الخبر أيضاً أن ندرك السر فيما يوجد في هذا الكون من نظام تسجيل دقيق لأقوال الإنسان وأعماله [1] !

(١) ولمزيد من المعلومات في هذا الموضوع يراجع فصل " دليل الآخرة " من كتاب " الإسلام يتحدى " للمؤلف .

سورة المطففين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو
وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ
لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦) كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ (٧) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ (٨)
كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ
بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ
عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ
لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (١٧) ﴾

وَيْلٌ: عذاب أو هلاك أو واد في جهنم.

لِلْمُطَفِّفِينَ: المنقصين في الكيل أو الوزن.

اكْتَالُوا: اشتروا بالكيل ، ومثله الوزن.

كَالُوهُمْ: أعطوا غيرهم بالوزن.

وَزَنُوهُمْ: أعطوا غيرهم بالوزن.

يُخْسِرُونَ: ينقصون الكيل والوزن.

لِرَبِّ العَالَمِينَ: لأمره وحكمه.

كِتَابَ الفُجَّارِ: ما يكتب من أعمالهم.

لَفِي سِجِّينٍ: لمثبت في ديوان الشر

كِتَابٌ مَّرْقُومٌ: بين الكتابة ، أو معلم بعلامة.

مُعْتَدٍ: فاجر متجاوز عن نهج الحق.

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ: أباطيلهم المسطرة في كتبهم.

كَلاَّ: ردع وزجر عن قولهم الباطل.

رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم: غلب وغطى عليها أو طبع عليها.

لَصَالُوا الجَحِيمِ: لداخلوها أو لمقاسو حرها.

كل إنسانٍ يريد أن يأخذ حقه من الآخرين وافياً كاملاً، ولكن من سمو الخُلُق الإنساني أن يدفع المرء ما يجب عليه تجاه الآخرين كاملاً غير منقوصٍ كذلك ، وأن يحب للآخرين ما يحب لنفسه، وأما الذين يستوفون إذا أخذوا، ويبخسون إذا أعطوا، فإنهم سيدخلون عالم الآخرة وما ينتظرهم هناك سوى الدمار والخسران ، والآخذ لنفسه وافياً، كأنما يؤكد بعمله ذاك على وجوب استيفاء الإنسان حقه،وفي هذه الحالة، فهو إذْ يعطي غيره ناقصاً، فإنما يقلّل من حساسيته تجاه الحق الواجب عليه للآخرين،ومن يفعل ذلك عن عمدٍ مرةً بعد أخرى ويصر عليه، يصل به الأمر في نهاية المطاف إلى أن تنعدم حساسيته تماماً فيما يتعلق بحقوق غيره، ويغلب على قلبه صدأ أعماله بحيث تنطمس بصيرته فلا يعود يعرف الرشد من الغي .

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٌۚ وَفِي

ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

كِتَابَ الأَبْرَارِ: ما يكتب من أعمالهم.

لَفِي عِلِّيِّينَ: لمثبت في ديوان الخير.

الأَرَائِكِ: الأسرة .

نَضْرَةَ النَّعِيمِ: بهجته ورونقه وبهاءه.

رَحِيقٍ: أجود الخمر وأصفاه.

مَخْتُومٍ: إناؤه حتى يفكه الأبرار.

خِتَامُهُ مِسْكٌ: ختام إنائه المسك بدل الطين.

فَلْيَتَنَافَسِ: فليتسارع أو فليستبق.

وَمِزَاجُهُ: ما يمزج به ويخلط.

تَسْنِيمٍ: عين عالية شرابها أشرف شراب.

يَشْرَبُ بِهَا: يشرب منها.

يَتَغَامَزُونَ: يشيرون إليهم بالأعين استهزاء.

فَكِهِينَ: متلذذين باستخفافهم بالمؤمنين .

ثُوِّبَ الكُفَّارُ: جوزوا بسخريتهم من المؤمنين.

أغلب الناس في هذا العالم قلما يهمهّم أن يعطوا الآخرين حقوقهم كاملةً، وإنما يهمهّم أولاً وآخراً أن يستوفوا ما لهم عند الآخرين من حقوق كاملةً ، وأمثال هؤلاء سيعودون في الآخرة محرومين ، والعاقلون هم الذين يهتمون أشد الاهتمام بإعطاء الآخرين حقوقهم من غير بخسٍ ، لأنهم هم الذين سيُعتبرون في الآخرة أهلاً لما أعده الله هناك من نعيم وافرٍ وسعادة دائمةٍ . ومَن يُهمل مصالحه الدنيوية لأجل الآخرة ربما يعود حقيراً لدى عبد الدنيا، ولكن عندما تأتي الآخرة فسيتضح بجلاءٍ أن الذين تم اعتبارهم في الدنيا سفهاءَ كانوا في الحقيقة هم الأذكياء !

سورة الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ
مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ
كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا
۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ
يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن
يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧
وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ
عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ
أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢٥ ﴾

السَّماءُ انشَقَّتْ: انصدعت عند قيام الساعة.

وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا: استمعت وانقادت له تعالى.

وَحُقَّتْ: حق الله عليها الاستماع والانقياد.

الأَرْضُ مُدَّتْ: بسطت وسويت كمد الأديم.

وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا: لفظت ما في جوفها من الموتى.

وَتَخَلَّتْ: خلت عنه غاية الخلو.

كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ: جاهد في عملك إلى لقاء ربك.

فَمُلاقِيهِ: فملاق لا محالة جزاء عملك.

يَدْعُو ثُبُوراً: ينادي هلاكاً قائلاً يا ثبوراه.

وَيَصْلَى سَعِيراً: يدخلها أو يقاسي حرها.

لَن يَحُورَ: لن يرجع إلى ربه تكذيباً بالبعث.

فَلاَ أُقْسِمُ: أقسم و"لا" مزيدة.

بِالشَّفَقِ: بالحمرة في الأفق بعد الغروب.

وَمَا وَسَقَ: ما ضم وجمع ما انتشر بالنهار.

اتَّسَقَ: اجتمع وتكامل وتم نوره.

لَتَرْكَبُنَّ: لتلاقن أيها الناس (جواب القسم) .

طَبَقاً: أحوالاً بعد أحوال متطابقة في الشدة.

يُوعُونَ: يضمرونه أو يجمعونه من السيئات.

غَيْرُ مَمْنُونٍ: غير مقطوع عنهم.

إن ما قيل عن القيامة هنا، يبدو ظاهراً كأنه إخبار مجرد عن العالم المجهول ، على أن ثمة شواهد وقرائن عديدة تدل على صدقه ، ومن ذلك، مثلاً، عالمنا الراهن ، فوجود عالم قائم بالفعل دليل في ذاته على إمكان بروز عالم آخر إلى حيز الوجود مماثل لهذا العالم أوْ مختلفٍ عنه ، ومن تلك الشواهد أيضاً تميّز القرآن الكريم بجوانب غير عادية تثبت

أنه كتاب الله ، وأن كل ما ورد فيه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (١).

والذين لا يؤمنون بالآخرة، رغم توافر هذه القرائن الواضحة، ويقضون أعمارهم في غفلة وذهول عن الآخرة، فإنما يرتكبون جريمة تؤهلهم في الواقع لعذاب السعير !!

(١) وقد تناول المؤلف هذا الموضوع بالبسط والتفصيل في كتابه " عظمة القرآن " ونرجو أن نتمكن بإذن الله تعالى من نقله إلى اللغة العربية في قريب المستقبل.

سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾

وَالسَّمَاءِ: (أقسم) الله بها وبما بعدها.

ذَاتِ الْبُرُوجِ: ذات المنازل المعروفة للكواكب.

وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ: يوم القيامة.

وَشَاهِدٍ: من يشهد على غيره فيه.

وَمَشْهُودٍ: من يشهد عليه غيره فيه.

قُتِلَ: لقد لعن أشد اللعن (جواب القسم).

الأُخْدُودِ: الشق العظيم ، كالخندق.

وَمَا نَقَمُوا: ما كرهوا وما عابوا وما أنكروا.

فَتَنُوا: عذبوا أو أحرقوا.

بَطْشَ رَبِّكَ: أخذه الجبابرة والظلمة بالعذاب.

هُوَ يُبْدِئُ: يخلق ابتداء بقدرته.

وَيُعِيدُ: يبعث الموتى يوم القيامة بقدرته.

الوَدُودُ: المتودد إلى أوليائه بالكرامة.

المَجِيدُ: العظيم الجليل المتعالي.

إن نظام الكون يقضي بأن يأتي يوم للجزاء الأخير ، وقد ظل الأنبياء، والذين تحملوا الأمانة من بعدهم عن صدق وإخلاص، ينبّئون الناس بهذا اليوم المرتقب (الموعود) على اختلاف العصور والأمصار ، وبالرغم من ذلك فإن الذين لا يعترفون بالحق، ويناصرون العداء لدعاة الحق، فإنما يمارسون طغياناً لن يستطيعوا النجاة بأنفسهم من عاقبته الوخيمة على أية حال ، أما الذين يلّبون نداء الحق، رغم كل العقبات والصعوبات التي تقف أمامهم، فإنهم سينالون من لدن ربهم الودود مكافأةً .

إن القرآن هو الكتاب الوحيد المحفوظ من بين سائر الكتب السماوية ، مما يوحي بأن القرآن مؤيّد بنصرةٍ من الله خاصةٍ، وليس في مقدور أحد أن ينال منه أوْ يتغلب عليه إلى أن تقوم الساعة !

سورة الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ
نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ
مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا
لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ
لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ
ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾ ﴾

وَالطَّارِقِ: (قسم) بالنجم الثاقب يطلع ليلاً.

النَّجْمُ الثَّاقِبُ: المضيء المتوهج أو المرتفع العالي.

لَـمَّا عَلَيْهَا: إلا عليها.

حَافِظٌ: : مهيمن ورقيب وهو الله تعالى.

مَاءٍ: ممتزج من مائي الرجل والمرأة.

دَافِقٍ: مصبوب بدفع وسرعة في الرحم.

مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ: ظهر كل من الرجل والمرأة.

وَالتَّرَائِبِ: عظام الصدر أو الأطراف من كل منهما ، أو يخرج من كل البدن منهما ، والصلب والترائب كناية عنه.

رَجْعِهِ: إعادة الإنسان بعد فنائه.

تُبْلَى السَّرَائِرُ: تكشف مكنونات القلوب.

ذَاتِ الرَّجْعِ: المطر لرجوعه إلى الأرض مراراً.

ذَاتِ الصَّدْعِ: النبات الذي تنشق عنه.

لَقَوْلٌ فَصْلٌ: فاصل بين الحق والباطل.

وَأَكِيدُ كَيْداً: أجازيهم على فعلهم بالاستدراج.

فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ: فلا تستعجل بالانتقام منهم.

أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً: إمهالاً قريباً أو قليلاً حتى يأتيهم العذاب.

إن تلألؤَ النجم فوق الإنسان فيه تذكير - بلغة التمثيل - بأن هناك " مراقبًا " يراقب الإنسان ، وأنه يسجل على الإنسان كل حركاته وسكناته ، وأنه سيعيد الإنسان حياً بعد موته ليحاسبه عما صدر منه من قولٍ وفعل في الحياة الدنيا، وإنما هي مهلة الامتحان، تلك التي تقف حاجزاً بين الإنسان وبين تلك الساعة الرهيبة، فحين تنتهي هذه المهلة، يواجهه مصيره المحتوم ذاك الذي يتراءى له اليوم بعيداً جداً !

سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾
وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا
شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ
ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ
﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾
بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ
ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ: نزهه ومجده تعالى عما لا يليق به.

خَلَقَ: أوجد كل شيء بقدرته.

فَسَوَّى: بين خلقه في الإحكام والإتقان.

قَدَّرَ: جعل الأشياء على مقادير مخصوصة.

فَهَدَى: فوجه كل واحد منهما إلى ما ينبغي له.

أَخْرَجَ المَرْعَى: أنبت العشب رطبا غضًا.

فَجَعَلَهُ غُثَاءً: يابسا هشيما من بعد كالغثاء [1].

---

(١) هو ما يحمله السيل من البالي . من أوراق الشجر مخالطا زبده .

أَحْوَى: أسود وأسمر بعد الخضرة.

سَنُقْرِئُكَ: ما نوحي إليك بواسطة جبريل عليه السلام.

فَلاَ تَنسَى: أبدا من قوة الحفظ والإتقان.

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى: نوفقك للطريقة اليسرى في كل أمر.

يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَى: يدخل جهنم أو يقاسي حرها.

أَفْلَحَ: فاز بالبغية.

تَزَكَّى: تطهر من الكفر والمعاصي.

إِنَّ هَذَا: المذكور (الآيات الأربع السابقة).

إن هناك تخطيطاً ملحوظاً وراء خلق الإنسان والكون، وهذا التخطيط يستلزم أن يكون لهذا الخلق غاية ، ولقد جاء الوحي لكي يكشف للإنسان عن هذه الغاية ذاتها ، بيد أن الوحي لا يتعظ به إلا مَن يتوافر لديه مزاج التأمّل والتأثّر ، وأمثال هذا سيدخلهم ربهم في الجنان الأبدية حيث كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وأما الذين حال طغيانهم بينهم وبين تلقيهم الموعظةَ بالقبول، فما ينتظرهم شيء سوى أن يظلوا يحترقون بنار جهنم إلى الأبد.

سورة الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾
تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا
يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ
عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ
مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ
كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾
وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم
بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ
﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾

الغَاشِيَةِ: القيامة تغشى الناس بأهوالها.

خَاشِعَةٌ: ذليلة خاضعة من الخزي.

عَامِلَةٌ: تجر السلاسل والأغلال في النار.

نَاصِبَةٌ: تعبة مما تلاقيه فيها من العذاب.

تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً: تدخل أو تقاسي ناراً تناهى حرها.

عَيْنٍ آنِيَةٍ: بلغت أناها (غايتها) في الحرارة.

ضَرِيعٍ: شي ء في النار ، كالشوك مر منتن.

وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ: لا يدفع عنهم جوعا.

نَاعِمَةٌ: ذات بهجة وحسن ونضارة.

لاغِيَةً: لغواً وباطلاً.

سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ: مرتفعة السمك أو رفيعة القدر.

وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ: أقداح بين أيديهم للشرب منها.

وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ: وسائد ومرافق يتكأ عليها موضوع بعضها إلى جنب بعض.

وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ: بسط فاخرة مفرقة في المجالس.

يَنظُرُونَ: يتأملون فيدركون.

بِمُسَيْطِرٍ: بمتسلط جبار.

إِيَابَهُمْ: رجوعهم بعد الموت بالبعث.

عندما يحيل المرء بصره فيما حوله فيرى، مثلاً، أن الجمل، وهو حيوان ضخم يتميز بتكوينه العضوي العجيب، خاضع لأمره يستخدمه كيف يشاء ، وأن السماء بأجرامها الهائلة مسخرة له ، وأن الأرض جُعلت بخصائصها الفريدة ملائمةً لنا نحن البشر إلى أقصى الحدود دون أدنى سعي منا . وهذه الوقائع تُذَكِّر مَن يتأملها ويديم النظر إليها بعظمة الله، وبالآخرة ، والذين يستمدّون من هذه المظاهر الكونية زاد التذكر والاعتبار فقد برهنوا على جدارتهم بنعم الله الأبدية ، وأما الذين ظلوا سادرين في الغفلة، فإنما يقيمون الدليل على أنهم لا يستحقون إلا أن يُحرموا من كل ألوان النعم إلى الأبد !

سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِى ذَٰلِكَ
قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ
يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِى
ٱلْأَوْتَادِ ۝ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ
سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ
وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ
أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝
وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝ كَلَّآ إِذَا
دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ
بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى
۝ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ
ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝
وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝ ﴾

وَالْفَجْرِ: (أقسم تعالى) بالوقت المعروف.

وَلَيَالٍ عَشْرٍ: العشر الأُوَل من ذي الحجة.

وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ: يوم النحر ، ويوم عرفة.

وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ: إذا يمضي ويذهب أو يسار فيه.

هَلْ فِي ذَلِكَ: المذكور الذي أقسمنا به.

قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ؟: مقسم به حقيق بالتعظيم لدى العقلاء – نعم – (وجواب قسمه) لنعذبن الكافرين.

بِعَادٍ: قوم هود ، سموا باسم أبيهم.

إِرَمَ: هو اسم جدهم وبه سميت القبيلة.

ذَاتِ العِمَادِ: الشدة أو الأبنية الرفيعة المحكمة بالعمد.

جَابُوا الصَّخْرَ: قطعوه ونحتوا فيه بيوتهم.

ذِي الأَوْتَادِ: الجيوش الكثيرة التي تشد ملكه.

سَوْطَ عَذَابٍ: عذابا شديداً مؤلما دائماً.

إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ: يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها.

ابْتَلاهُ رَبُّهُ: امتحنه واختبره بالنعم أو النقم.

فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ: فضيقه عليه ولم يبسطه له.

كَلاَّ: ردع للإنسان عما قاله في الحالتين.

وَلاَ تَحَاضُّونَ: لا يحث بعضكم بعضاً.

وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ: ميراث النساء والصغار.

أَكْلاً لَّمًّا: جمعا بين الحلال والحرام.

حُبًّا جَمًّا: كثيراً مع حرص وشره.

دُكَّتِ الأَرْضُ: دقت وكسرت بالزلازل.

دَكًّا دَكًّا: دكا متتابعاً حتى صارت هباء.

وَالْمَلَكُ: ملائكة كل سماء.

وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى: من أين له منفعتها ؟ هيهات .

ولا يُوثِقُ: لا يشد بالسلاسل والأغلال.

يتأرجح الإنسان في هذه الحياة بين نوعين من الأحوال : الفوز بما يشتهي تارة، والحرمان منه تارة أخرى ، والمقصود من كلا هذين الحالين هو الامتحان ، أي اختبار الإنسان ماذا سيكون رد فعله إزاء موقف معين ، فأما الذي يُصاب بالبطر والتفاخر والغرور إذا حصل على شيء، وتتملكه المشاعر السلبية إذا حُرم منه، فقد فشل في هذا الامتحان . وأما الذي إذا أُعطى شيئاً خضع لربه شاكراً، وإذا انتُزع منه شيء خضع لربه ثانياً معترفاً بعجزه وقلة حيلته، فهذا الإنسان الأخير هو الذي أُطلق عليه هنا "النفس المطمئنة " أي " الروح المطمئنة".

وإن مقام النفس المطمئنة إنما يناله الشخص الذي يتدبر في آيات الله وآثار قدرته المنبثة في أرجاء الكون، وهو الذي يستمد زاد العبرة والعظة من أحداث التاريخ ، وهو الذي يقيم الدليل على أنه يُؤْثر الحق على ذاته كلما وقع صدام بين الحق وبين ذاته ، وهو الذي لا يخذل الحق بعد اعتناقه للمرة الأولى ولا يتخلى عنه أبداً، حتى لو اضطُر في سبيله إلى أن يضع نفسه وكبرياءه تحت قدميه، وحتى لو صارت حياته نتيجة استمساكه به خاليةً مُقفرةً!!

سورة البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ
خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا
لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ
﴿٩﴾ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ
رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ
﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ
أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ
مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

لا أُقْسِمُ: (أقسم) و"لا" مزيدة.

بِهَذَا البَلَدِ: بمكة المكرمة.

حِلٌّ بِهَذَا البَلَدِ: حلال لك ما تصنع به يومئذ.

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ: آدم وجميع ذريته أو الصالحين منهم.

لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ: نصب ومشقة ومكابدة للشدائد.

أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً: كثيراً في المكرمات مباهاة وتعاظماً.

وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ: بينا له طريقي الخير والشر.

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ: فهلا جاهد نفسه في أعمال البر.

فَكُّ رَقَبَةٍ: تخليصها من الرق والعبودية .

ذِي مَسْغَبَةٍ: مجاعة.

يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ: قرابة في النسب.

مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ: فاقة شديدة لصق منها بالتراب.

بِالْمَرْحَمَةِ: بالرحمة فيما بينهم.

أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ: اليمن. أو ناحية اليمين.

أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ: الشؤم أو ناحية الشمال.

نَارٌ مُؤْصَدَةٌ: مطبقة مغلقة أبوابها.

إن الإنسان لا يكاد يستطيع في هذه الحياة أن يحرر نفسه من التعب والعناء والمشقة، وهذا الواقع يدل على أن الإنسان خاضع لقوة عليا ، وهكذا يدل وجود العينين لدى الإنسان أن هناك " عيناً " فوقه لا تزال تراه وإن لم يكن يراها ، وما يتمتع به الإنسان من قوة النطق يشير إلى أن هناك صاحب نطقٍ أعلى هو الذي وهب له القدرة على النطق والإبانة ، وأرشده إلى طريق الرشد والهداية ، ولو أن الإنسان عرف نفسه حقاً لعرف ربه أيضاً بكل تأكيد ، لقد أمر الله سبحانه الإنسان بالصعود في مرتفعَيْن معاً : أحدهما : أن يعامل أخاه الإنسان بالعدل وأن يواسيه ويمد إليه يد العون عند الحاجة، وثانيهما : الإيمان واليقين بالله ، وهذا الإيمان واليقين حين يتمكن من نفس المرء ويتغلغل في أعماقه، فلا يبقى محصوراً في ذاته وحدها، بل يتعدى أثره إلى ما حوله ومَن حوله بالضرورة ، فإن إنساناً كهذا لا يهدأ له بال إلا أن يحاول جهده لدعوة الآخرين كذلك إلى سلوك طريق الحق ذاته الذي اختاره لنفسه !

سورة الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾

وَالشَّمْسِ: (قسم بها وبما بعدها) .

وَضُحَاهَا: ضوئها إذا أشرقت.

تَلاهَا: تبعها في الإضاءة بعد غروبها.

جَلاَّهَا: أظهر الشمس للرائين.

يَغْشَاهَا: يغطيها حين تغيب فتظلم الآفاق.

وَمَا بَنَاهَا: والذي خلقها وهو الله تعالى.

وَمَا طَحَاهَا: والذي بسطها ووطأها.

وَمَا سَوَّاهَا: والذي عدل أعضاءها ومنحها قواها.

فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا: معصيتها وطاعتها وخيرها وشرها.

قَدْ أَفْلَحَ: فاز بالبغية وظفر (جواب القسم).

مَن زَكَّاهَا: ظهرها وأنماها بالتقوى.

وَقَدْ خَابَ: خسر.

مَن دَسَّاهَا: نقصها وأخفاها وأخملها بالفجور.

بِطَغْوَاهَا: بسبب طغيانها وعدوانها.

انْبَعَثَ أَشْقَاهَا: قام مسرعا يعقر الناقة .

نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا: احذروا عقرها ونصيبها من الماء.

فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ: أهلكهم وأطبق عليهم العذاب.

فَسَوَّاهَا: فجعل الدمدمة عليه سواء.

عُقْبَاهَا: عاقبة هذه العقوبة، لهداية الإنسان قد اتخذ الله بلطفه تدابير ثلاثة .

أولاً : أنه صنع الكون بحيث أصبح مظهراً عملياً لمرضاته .

ثانياً : أنه أودع في فطرة الإنسان، قوة التمييز.

ثالثاً : أنه أرسل الرسل كي يبينوا للناس الحق والباطل بلغةٍ واضحةٍ مفهومةٍ لديهم .

إذن، فالذين يتنكبون عن الصراط المستقيم، رغم هذه التدابير الإلهية كلها، هم الظالمون المعتدون حقاً . لقد كانت ناقة النبي صالح - عليه السلام - بمثابة علامةٍ على أنه لابد من احترام صاحب الحق وأداء حقه إليه كاملاً؛ ولو كان ضعيفاً وعاجزاً عن الدفاع عن نفسه، وأن ما يبدو للناظرين في ظاهره مجرد " ناقة " عساه أن يكون آية أقامها الله بلاءً واختباراً للناس!!

سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ
لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ (٧)
وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِى
عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ (١٣)
فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى (١٥) ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦)
وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى (١٧) ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ
(١٩) إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١) ﴾

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى: يغطي الأشياء بظلمته (قسم).

وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى: ظهر ضوؤه ووضح.

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى: إن عملكم لمختلف في الجزاء (جواب القسم).

وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى: بالملة الحسنى وهي الإسلام.

فَسَنُيَسِّرُهُ: فسنوفقه ونهيئه.

لِلْيُسْرَى: للخصلة المؤدية إلى اليسر والراحة.

لِلْعُسْرَى: للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة.

وَمَا يُغْنِي: ما يدفع العذاب عنه.

تَرَدَّى: هلك أو سقط في النار.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى: الدلالة على الحق أو بيان طريقه.

نَاراً تَلَظَّى: تتلهب وتتوقد.

لاَ يَصْلاهَا: لا يدخلها أو لا يقاسي حرها.

وَسَيُجَنَّبُهَا: سيبعد عنه.

يَتَزَكَّى: يطهر به من الذنوب.

تُجْزَى: تكافأ ، نزلت في الصديق ﷺ .

إن مبدأ الزوجية يسري في أجزاء هذا الكون كافة، فمن الذكر والأنثى . إلى الليل والنهار ، إلى الجزيء السالب والجزيء الموجب ، إلى المادة والمادة المضادة (اللاّمادة) ، كل شيءٍ في هذا العالم يحقق الغاية من وجوده عبر الانضمام إلى زوجه ، وهذا دليل واضح على أن هذا الكون يتصف بالغائيّة، أي يكمن وراء إيجاده هدف ومعنىً ، وفي كونٍ هادفٍ كهذا لا يمكن أن ينتهي كل من العمل الصالح والطالح إلى مصير واحدٍ مماثلٍ ، فإن هذا لا يتفق مع عظمة الخالق الذي يعرفنا به هذا الكون ، وصلة الله بعباده ليست كصلة الحاكم بمحكوميه فحسب، بل هو ناصرهم ومعينهم كذلك ، فهو يأخذ بأيدي عباده الذين يرغبون في الوصول إليه، ويتكفل بتذليل العقبات التي تواجههم على طول الطريق ، وأما الذين يسيرون في الاتجاه المعاكس، في طريق التمرد والطغيان فهو يدعهم يتخبطون في الطريق الذي اختاروه!

سورة الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾ ﴾

وَالضُّحَى: (أقسم) بوقت ارتفاع الشمس.

سَجَى: سكن أو اشتد ظلامه.

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ: ما تركك منذ اختارك (جواب القسم).

وَمَا قَلَى: ما أبغضك منذ أحبك.

أَلَمْ يَجِدْكَ: ألم يعلمك ربك – قد علمك.

يَتِيماً: طفلاً مات أبوك وأنت جنين.

فَآوَى: فضمك إلى من يكفلك ويرعاك.

ضَالاًّ: غافلاً عن أحكام الشرائع.

فَهَدَى: فهداك إلى مناهجها بما أوحي إليك.

عَائِلاً: فقيراً عديماً.

فَأَغْنَى: فرضاك بما أعطاك ومنحك.

فَلاَ تَقْهَرْ: فلا تغلبه على ماله ولا تستذله.

فَلاَ تَنْهَرْ: فلا تزجره وارفق به.

لقد جُعل نظام هذا الكون بحيث يسطع فيه ضوء النهار تماماً كما يغشاه ظلام الليل، بتعاقب الاثنين، الواحد بعد الآخر، يكتمل هنا نظام الوجود ، وهكذا لابد لارتقاء الإنسان وتكامله الظاهري والمعنوي أيضاً أن يجرب قسوة العيش ونعومته معاً، فما تشتد وطأة الظروف والأحوال على عبد من عبيد الله في هذه الحياة إلا لكي تستيقظ مواهبه الكامنة ، وإنما توضع العقبات والعراقيل في طريقه لكي يكون مستقبله أفضل من حاضره.

وقد وُلد رسول الله ﷺ يتيماً، فقيّض الله له خير كفيلٍ شمله بعطفه وتعهده بالرعاية ، وكان - عليه الصلاة والسلام - يعاني من الحيرة والقلق بحثاً عن الحق، ففتح الله له باب الحق على مصراعيه ، وكان - عليه الصلاة والسلام - فقيراً من المال، فأغناه الله بزوجته خديجة ، وهذا مثال تاريخي خالد يدلنا على كيفية تولي الله عباده بالنصر والتأييد من حيث يحتسبون ولا يحتسبون .

وينبغي للإنسان أن يُعين الضعفاء حتى يستحق عون الله ، وأن يكون حديثه شكراً لله وإظهاراً لنعمته، حتى يُتم الله عليه نعمه في هذه الدنيا وفي الدار الآخرة !

سورة الشرح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾

أَلَمْ نَشْرَحْ: ألم نفسح بالحكمة والنبوة – قد أفسحنا.

وَوَضَعْنَا عَنكَ: خففنا عنك وسهلنا عليك. **وِزْرَكَ**: حملك "أعباء النبوة" والرسالة.

الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ: أثقله حتى سمع له نقيض " صوت ".

فَإِذَا فَرَغْتَ: (من عبادة) أديتها.

فَانصَبْ: فاجتهد وأتبعها بعبادة أخرى.

فَارْغَبْ: فاجعل رغبتك في جميع شؤونك.

كان رسول الله خلال حياته قبل النبوة قلقاً مضطرب البال وهو يبحث عن الحقيقة في لهفةٍ وشوقٍ ، فأعطاه الله علم الحقيقة وحول بحثه إلى المعرفة ، فانشرح صدره لمعرفة الحقائق وكتمانه الأسرار ، ثم إنه لما بدأ بدعوة التوحيد في مكة، تعرض لأقسى ألوان المعارضة ، ولكن بسبب هذه المعارضة ذاتها انتشر ذكره في طول الجزيرة العربية وعرضها، وتلك هي سنة الله في هذا العالم ، ففي البداية يتعرض الإنسان هنا لأحوال العسر، ولكنه لو تذرّع بالصبر وظل ثابتاً على الجادة، لصار هذا العسر مطية للوصول إلى يُسر جديدٍ ، ولذا ينبغي للإنسان أن يواصل جهده وكفاحه على قدر المستطاع متوجهاً دائماً نحو ربه !!

سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨) ﴾

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ: (قسم بمنبتهما من الأرض المباركة) .

وَطُورِ سِينِينَ: جبل المناجاة للكليم موسى عليه السلام .

البَلَدِ الأَمِينِ: مكة المكرمة.

لَقَدْ خَلَقْنَا: (جواب القسم) بالأربعة قبله.

أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ: أكمل تعديل وأحسن صورة.

رَدَدْنَاهُ: رددنا الكافر أو جنس الإنسان .

أَسْفَلَ سَافِلِينَ: إلى النار أو الهرم وأرذل العمر.

غَيْرُ مَمْنُونٍ: غير مقطوع عنهم.

بِالدِّينِ: بالجزاء بعد البعث والحساب.

التين والزيتون جبلان، يقع على القرب منهما بيت المقدس، يعني مولد السيد المسيح وموضع نشاطه الدعوى، وطور سينين هو الجبل بشبه جزيرة سيناء الذي كلم الله عليه

سيدنا موسى ، وأما البلد الأمين فالمراد به مكة، حيث بُعث رسول الإسلام ﷺ .

لقد خلق الله الإنسان مزوداً بأفضل المواهب ، وما زوده تعالى بتلك المواهب إلا ليتعرف بها على الحق المُعلَن عن طريق الأنبياء، ويضع حياته العملية على أساسٍ منه ، والذين يفعلون ذلك يتبوءون أعلى مراتب العزة والرفعة في دار الخلود، أما الذين لا يستخدمون مواهبهم تبعاً لمرضاة الله، فإنهم سيُجردون من كل النعم المتاحة لهم في الحياة الراهنة، هذا إلى جانب كونهم لن يجدوا في الآخرة مكاناً يلجؤون إليه سوى دار الحرمان الأبدي، وهذه حقيقة تشهد بصدقها رسالات الأنبياء والمرسلين وما نتج عن كفاحهم الطويل من الأحداث والتحولات التاريخية عبر مختلف العصور !

سورة العلق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾
ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ
ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ
إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ
يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ
﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾

عَلَقٍ: دم جامد استحال إليه المني.

عَلَّمَ: علم الإنسان الكتابة بالقلم .

كَلاَّ: حقا.

لَيَطْغَى: ليجاوز الحد في العصيان.

الرُّجْعَى: الرجوع في الآخرة للجزاء.

أَرَأَيْتَ: أخبرني.

لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ: لنسحبنه بناصيته إلى النار.

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ: أهل مجلسه من قومه وعشيرته.

سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ: ملائكة العذاب لجره إلى النار.

الآيات الخمسة الأولى من هذه السورة هي أول ما نزل به الوحي على رسول الله ﷺ.

لقد خلق الله الإنسان من الأجزاء المادية التافهة ، ثم منحه هذه القوة الفذّة التي تمكنه من القراءة وإدراك المعاني بواسطة الألفاظ ، كما علمه كيفية استعمال القلم، ليضبط به شتى العلوم والمعارف ويحفظها من الضياع والنسيان ، فإذا كانت قدرة القراءة تؤهل الإنسان للتعلم الذاتي، فإن القلم يؤهله لإبلاغ عمله إلى الآخرين على أوسع نطاقٍ .

إن الذين يعاندون الحق، ويضعون العراقيل في طريق أَتْبَاع الحق عاقبتهم وخيمة جداً، والسند الحقيقي بالنسبة إلى داعي الحق، وهو يمر بمثل هذه الظروف غير المواتية ، أن يعبد الله راجياً فضله؛ إذ انقطع رجاؤه من الناس، وأن يقترب من رب الناس إذ ابتعد هو عن الناس أو ابتعد عنه الناس !!

سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝ ﴾

أَنزَلْنَاهُ: ابدأنا إنزال القرآن العظيم.

لَيْلَةِ القَدْرِ: ليلة الشرف والعظمة.

وَالرُّوحُ: جبريل عليه السلام.

مِن كُلِّ أَمْرٍ: بكل أمر من الخير والبركة.

سَلامٌ هِيَ: على أولياء الله وأهل طاعته.

هناك ليلة من ليالي السنة (والمعروف أنها واحدة من الليالي العشر الأخيرة من شهر رمضان) اختصها الله سبحانه بالقضاء والحكم ، حيث يغدو الملائكة ويروحون طوال هذه الليلة بين الأرض والملأ الأعلى بإذن ربهم لاتخاذ ما يلزم لتنفيذ القرارات الإلهية المتصلة بتدبير مختلف شئون العباد على مدار العام ، وقد شهدت ليلة خاصة كهذه بدء نزول القرآن الكريم على قلب محمد - ﷺ .

ويبدو أن الأرض تشهد في هذه الليلة من كل عام تجمّع عددٍ كبيرٍ من الملائكة، مما يخلق على الأرض مناخاً روحياً خاصاً، والآن، فالذين يتمتعون باليقظة الروحية الدائمة يتأثرون بهذا الفيض القدسي الغامر، ويتولد في داخلهم، نتيجة ذلك، تأثير روحي غير عادي يزيد من قيمة أعمالهم الدينية إلى حد أكبر بكثير مما هي في الأحوال المعتادة !

سورة البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ
(١) رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ (٤) وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ
حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ (٧) جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ
جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ
ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ (٨) ﴾

مُنفَكِّينَ: مزايلين ما هم عليه من الكفر.

تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ: الحجة الواضحة هي الرسول ﷺ.

صُحُفاً: مكتوبا فيها القرآن العظيم.

مُطَهَّرَةً: منزهة عن الباطل والشبهات.

فِيهَا كُتُبٌ: آيات وأحكام مكتوبة.

قَيِّمَةٌ: مستقيمة حقة عادلة محكمة.

وَمَا تَفَرَّقَ: في الرسول بين مؤمن وجاحد.

جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ: بالهدى وكان الحق ألا يتفرقوا.

الدِّينَ: العبادة.

حُنَفَاءَ: مائلين عن الباطل إلى الإسلام.

دِينُ الْقَيِّمَةِ: الملة المستقيمة أو الكتب القيمة.

الْبَرِيَّةِ: الخلائق أو البشر.

كان المشركون في شبه الجزيرة العربية وأهل الكتاب يطالبون رسول الله ﷺ بأن يريهم معجزةً ما، أوْ ينزل من السماء ملاك يكلمهم وجهاً لوجهٍ، فإذا تمّ ذلك، صدقوا برسالته ، ولكن مطالب كهذه إنما يقترحها دوماً أناس غير جادين ، فلقد طالبت الشعوب والأمم فيما مضى من القرون رسلها بمثل ذلك، ولكنها لم تؤمن رغم الاستجابة لطلبها على الوجه الأكمل .

إن دين الله القيم يتلخص في ألا يعبد الإنسان إلا الله الواحد الأحد، وأن يصير محباً له من صميم قلبه ، وأن يقيم الصلاة ويؤدي الزكاة ، ذلك هو الدين الأصيل الذي جاء من عند الله سبحانه على اختلاف العصور ، وخير الخلائق هم الذين يتمسكون بهذا الدين القيم، وشر الخليقة هم الذين يرفضون التمسك به، أوْ يختلقون من عند أنفسهم ديناً آخر سواه، ثم يطلقون عليه تسمية الدين القيم كذباً وافتراءً على الله !!

سورة الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾

زُلْزِلَتِ الأَرْضُ: حركت تحريكاً عنيفاً متكرراً عند النفخة الأولى .

أَثْقَالَهَا: كنوزها وموتاها في النفخة الثانية.

تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا: تدل بحالها على ما عمل عليها.

أَوْحَى لَهَا: جعل حالها دلالة على ذلك.

يَصْدُرُ النَّاسُ: يخرجون من قبورهم إلى المحشر.

أَشْتَاتاً: متفرقين على حسب أحوالهم.

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ: وزن أصغر نملة أو هباءة.

إن زلزلة القيامة ستكون إيذاناً بانتهاء مهلة الامتحان ، وإنها ستعني أن الحرية المتاحة للناس لحكمة الامتحان والاختبار في الحياة الدنيا قد انتزعت منهم الآن، وأنهم واقفون الآن بين يدي الساعة الحاسمة التي يُجزى فيها الكل بما عمل جزاءً وفاقاً !

إن عالم الله اليوم يسوده الصمت والسكون في ظاهر الأمر ، ولكن عندما تتغير

الأوضاع وتبدل الأرض غير الأرض والسموات على إثر زلزال القيامة، فإذا بكل شيء هنا يعود " ناطقاً " ، فلقد أثبتت المخترعات الحديثة أن الأشياء الجامدة هي الأخرى تتمتع بقدرة " النطق " ، فالأفلام السينمائية وشرائط الفيديو مثلاً تعيد كل ما يجرى بالأستوديو بمنتهى الدقة ، وهكذا فكأنما العالم الراهن هو أستوديو إلهي ضخم، وكل ما يصدر عن الإنسان في رحابه من قولٍ أوْ فعلٍ يتم تسجيله لحظة صدوره، وسيقوم هذا الكون بإعادة عرض قصة حياة كل إنسان يومَ الجزاء الأخير بحيث لن يغادر شأناً من شئون حياته مهما كان صغيراً أوْ كبيراً !!

سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝ ﴾

وَالْعَادِيَاتِ: (قسم) بالخيل تعدو في الغزو.

ضَبْحاً: هو صوت أنفاسها إذ عدت.

فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً: المخرجات النار بصك حوافرها الأحجار .

فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً: المباغتات للعدو وقت الصباح.

فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً: هيجن في الصباح غباراً.

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً: فتوسطن فيه من الأعداء.

إِنَّ الإِنسَانَ: بطبعه إلا من رحم الله (جواب قسم) .

لَكَنُودٌ: لكفور جحود.

وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ: لأجل حب المال.

لَشَدِيدٌ: لقوي مجد في تحصيله متهالك عليه.

بُعْثِرَ: أثير وأخرج ونثر.

وَحُصِّلَ: جمع وأخرج ونشر.

الفرس حيوان غاية في الوفاء ، فهو يضحي بنفسه لأجل سيده إلى أقصى حدٍ؛ حيث إنه يرمي بوجوده في الخطر، ولا يتخلى عن سيده حتى في ساحات الوغى ، وهذا مثال رمزي يوضح لنا كيف ينبغي للإنسان أن يكون ؟ فينبغي على الإنسان أن يكون بدوره وفياً لربه تماماً كما يكون الفرس وفياً لسيده ، ولكن الواقع القائم بالفعل غير هذا .

فالحيوان في هذا العالم شاكر لسيده، ولكن الإنسان كنود لربه ناكر لفضله . والحيوان هنا يعرف حق سيده عليه، ولكن الإنسان لا يعرف حق مولاه عليه ، والحيوان هنا يجدّ في خدمة سيده والانقياد له، ولكن الإنسان يتقاعس عن طاعة ربه وامتثال أوامره .

والإنسان لا يُقَدِّر من الحيوانات إلا الحيوان الذي يكون وفياً له، فكيف يمكن إذن، أن يجهل الإنسان السر القائل بأنه لن يُعتبر أهلاً للتقدير عند الله كذلك إلا الذي يكون وفياً له تعالى ، غير أن حب المال الزائد يُعمي الإنسان ويسلبه بصيرته ، مما يجعله محروماً من معرفة الحقيقة التي كان قد شهدها وجرّبها مراراً وتكراراً خلال حياته اليومية !!

سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾

الْقَارِعَةُ: القيامة تقرع القلوب بأهوالها.

كَالْفَرَاشِ: هو طير كالبعوض يتهافت في النار.

الْمَبْثُوثِ: المتفرق المنتشر.

كَالْعِهْنِ: كالصوف المصبوغ بألوان مختلفة.

الْمَنفُوشِ: المفرق بالأصابع ونحوها.

ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ: رجحت مقادير حسناته.

خَفَّتْ مَوَازِينُهُ: رجحت مقادير سيئاته.

فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ: فمأواه جهنم يهوى فيها.

مَاهِيَهْ: ما هي – والهاء للسكت.

إن زلزال القيامة سيحطّم كل شيء ، وسيعود الناس عقبه، وكل ما كانوا مرتكزين عليه في الحياة الدنيا – وإن كان في قوته ورسوخه كالجبال – هباءً، تتقاذفه الرياح ،

وبعدئذٍ سيتكون عالم جديد؛ حيث يكون الثقل كله إلى جانب الحق وحده، وستفقد كل الأشياء الأخرى سواه ثقلها يومئذٍ ، والعالم الراهن يسوده هوى الناس؛ تستمد فيه الأشياء قيمتها ووزنها من اعتبارات الناس وتقويمهم، أما الآخرة فهي عالم الله، وسيثقل هناك شيء ما أوْ يصير عديم الثقل والقيمة بحسب مشيئة الله وتقويمه وحدهما .

وتوزن الأعمال في الدنيا باعتبار ظاهرها، بينما توزن في الآخرة باعتبار جوهرها الداخلي ، فبقدر ما يكون عمل الإنسان منطوياً على الإخلاص، يزداد ثقله في ميزان الآخرة، وبقدر ما يكون عمله خالياً من الإخلاص، يكون خفيف الوزن هناك، مهما بدا ثقيلاً وضخماً لعبَدة الظواهر في الدنيا !!

سورة التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾

أَلْهَاكُمُ: شغلكم عن طاعة الله ربكم.

التَّكَاثُرُ: التباهي بكثرة متاع الدنيا

زُرْتُمُ المَقَابِرَ: متم ودفنتم في القبور.

لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ: لو تعلمون ما لكم علما يقينا لما ألهاكم.

لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ: والله لترون الجحيم.

عَيْنَ اليَقِينِ: نفس اليقين وهو المشاهدة.

النَّعِيمِ: الذي ألهاكم عن طاعة ربكم.

الإنسان يرغب في أن يكسب أوفر قدرٍ من المال وأن يقتني من المتاع الدنيوي أنواعاً وألواناً، وهو لا يزال مشغولاً بتحقيق رغبته تلك، حتى يوافيه الموت، وساعتها يدرك - ولكن بعد وفات الأوان - أن الجدير بالكسب والاقتناء كان شيئاً آخر غير الذي ظل يكد ويسعى وراءه طيلة حياته ! إن الزيادة في أعراض الحياة الدنيا إنما تزيد من تبعة الإنسان ومسئوليته، بينما هو يحسب، لفرط حماقته وغروره، أنه يعمل على زيادة أسباب نجاحه وسعادته!!

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾

وَالْعَصْرِ: (قسم) بالدهر أو عصر النبوة.

إِنَّ الإِنسَانَ: جنس الإنسان (جواب القسم) .

لَفِي خُسْرٍ: خسران ونقصان وهلكة.

وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ: الخير كله اعتقاداً وعملاً.

وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ: عن المعاصي وعلى الطاعات والبلاء

الإنسان يتقدم كل لحظةٍ نحو موته ، وهذا يعني أنه لو غفل عن استعمال عمره فيما يعود عليه بالنفع والخير، فلن يحصل في نهاية المطاف على شيءٍ سوى الضياع والهلاك ، والإنسان إذا أراد النجاح في هذه الحياة تحتّم عليه أن يعمل، وأما الفشل فلا يتطلب عملاً من أي نوعٍ، وإنما هو يسعى نحو كل عاطلٍ من تلقاء نفسه !

وقد روي عن بعض السلف أنه قال: فهمت معنى السورة (العصر) من بائع الثلج، كان يصيح ويقول : ارحموا من يذوب رأسماله، ارحموا من يذوب رأسماله !! فقلت : هذا معنى {إن الإنسان لفي خسر} يمر به العصر (الوقت) فيمضي عمره؛ ولا يكتسب فإذا هو خاسر. (نقلاً عن التفسير الكبير، للرازي)

والمُستعمِل لوقته خير استعمالٍ هو الذي يقيم الدليل على ثلاثة أمور ، وهي :

أولاً : الإيمان ، أي الشعور بالحقيقة والاعتراف بها .

ثانياً : العمل الصالح ، أي أن يفعل ما ينبغي أن يفعل ويدع ما لا ينبغي أن يفعل .

ثالثاً : التواصي بالحق وبالصبر ، أي أن يدرك الحقيقة إدراكاً عميقاً يعود معه داعياً إليها ومبشراً بها بين الناس!!

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ
أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ
﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾ ﴾

وَيْلٌ: عذاب أو هلاك أو واد في جهنم.

هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ: طعان غيَّاب عيَّاب للناس .

وَعَدَّدَهُ: أحصاه أو أعده للنوائب.

أَخْلَدَهُ: يخلده في الدنيا.

لَيُنْبَذَنَّ: ليطرحن.

الْحُطَمَةِ: جهنم، لحطمها كل ما يلقى فيها.

تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ: تغشى حرارتها أوساط القلوب.

مُؤْصَدَةٌ: مطبقة مغلقة أبوابها.

فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ: بأعمدة ممدودة على أبوابها.

إذا ثار بينك وبين أحد الناس خلاف، فبإمكانك أن ترد عليه بالدليل، وهذا وحده سائغ ومقبول شرعاً وعقلاً، أما لو تناولت عرضه بالطعن، وسُمْعَته بالتشويه، وألصقت به ألوان التهم الكاذبة، فذلك ما لا يجوز ولا يُساغ إطلاقاً.

والذين يفعلون ذلك إنما يشجعهم عليه ما يرونه من أن مركزهم الدنيوي محفوظ وراسخ الجذور، وبالتالي يحسبون أنهم لن يخسروا شيئاً أَوْ يتعرضوا لأي مكروهٍ بتوجيه الاتهامات الباطلة نحو الغير جزافاً ، ولكن هذا الحسبان صادر عن الحماقة المحضة ، إذ الحقيقة أن فعلاً كهذا يعني اقتحام هاويةٍ من نارٍ، وهي هاوية لن يسأل عمن يقع فيها أحد، ولا يجد إلى الخروج منها سبيلاً !

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ
مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾

بِأَصْحَابِ الفِيلِ: وقعت القصة أول عام مولده ﷺ .

يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ: سعيهم لتخريب الكعبة.

تَضْلِيلٍ: تضييع وإبطال وخسار.

طَيْراً أَبَابِيلَ: جماعات متفرقة متتابعة.

سِجِّيلٍ: طين متحجر محرق (آجر) .

كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ: كتبن أكلته الدواب فراثته.

كان أبرهة ملكا حبشياً يحكم جنوبي الجزيرة العربية في القرن السادس الميلادي، وفي سنة ٥٧٠م قام - بدافعٍ من الجنون الديني - بالهجوم على مكة ناوياً هدم الكعبة ليصرف عنها حجاج العرب ، وكان معه جيش كبير مزود بنحو اثني عشر فيلا، ولذلك سمي هؤلاء بأصحاب الفيل .

وعندما اقترب هؤلاء من أرض مكة، أبت الفيلة عن التقدم نحو الأمام ، ومن جانبٍ آخر جاءت أسراب من الطيور تحمل في مخالبها ومناقيرها أحجاراً صغيرةً، وأخذت تلقيها على أبرهة وجنوده، فأصيب الجميع بمرضٍ من نوعٍ غريبٍ، مما جعلهم

يفرون هاربين وقد تملكهم الذعر والفزع الشديد، لكن أكثرهم، بمن فيهم أبرهة، لم يلبثوا أن هلكوا في منتصف الطريق !!، ولقد حدثت هذه الواقعة في العام نفسه الذي شهد مولد الرسول - ﷺ - وقد كان ذلك إرهاصاً من الله بأن رسول الإسلام قد كتب له الغلبة والظهور، فما من أحدٍ يصطدم معه أوْ يتعرض لدينه إلا سيبوء حتماً بالهزيمة والذل والهوان !!

سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝ ﴾

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ: اعجبوا لإيلافهم الرحلتين وتركهم عبادة رب البيت.

كانت قريش شعباً تجارياً، وقد كانت قوافلهم التجارية تتجه نحو بلاد الشام وفلسطين في أيام الصيف، ونحو اليمن في أيام الشتاء ، وعلى هاتين الرحلتين كانت تتوقف معيشتهم ، وفيما كان التجار في قديم الزمان يتعرضون عموماً لغارات السلب والنهب، كانت قوافل قريش تسير آمنة، وتعود رابحة، وحيثما حلت وجدت الكرامة والرعاية، وكان الفضل في ذلك يرجع إلى صلة قريش بالكعبة، حيث إنهم كانوا سدنة الكعبة وخدامها ، وبما أن الكعبة كانت لها حرمة عظيمة في نفوس العرب، كانوا يقابلون خدامها وسدنتها أيضاً بمنتهى التكريم والحفاوة والاحترام، ولا يمسونهم بسوء أبداً .

وقد تم تكريمهم هنا بهذا الواقع بغية استمالتهم إلى الإسلام بأسلوب حكيم، فكأنما قيل لقريش: إنه سيكون جحوداً للنعمة نكراناً للجميل أن تتمتعوا بالفوائد الدنيوية لجوار بيت الله، ولا تقوموا بأداء مقتضيات هذا الجوار ! إن الله الذي يفيض على الإنسان بالفوائد المادية هو وحده يستحق أن يعبده الإنسان بلا شريك !!

سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾

أَرَأَيْتَ الَّذِي: أخبرني الذي يكذب من هو؟

يُكَذِّبُ بِالدِّينِ: يجحد الجزاء لإنكار البعث.

يَدُعُّ الْيَتِيمَ: يدفعه دفعا عنيفاً عن حقه.

وَلاَ يَحُضُّ: لا يحث ولا يبعث أحداً.

فَوَيْلٌ: عذاب أو هلاك ، أو واد في جهنم.

لِّلْمُصَلِّينَ: نفاقاً أو رياءً

سَاهُونَ: غافلون غير مبالين بها.

يُرَاءُونَ: يقصدون الرياء بأعمالهم.

وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ: ما يتعاوره الناس بينهم بخلاً.

إن اليقين بمؤاخذة الآخرة إذا استقر في قلب الإنسان جعله صالح العمل مستقيم السلوك، أما الذي يخلو قلبه من هذا اليقين فإنه سيكون خالياً من كل أنواع الصلاح والاستقامة ، فيصبح غافلاً عن عبادة الله، ولا يخجل حتى من أن يدفع الضعيف

العاجز بطريقة عنيفةٍ وقحة، وهو لا يشعر بحاجة ما لمساعدة الفقراء والمساكين، ولا تسمح نفسه بأن يعطي للناس الشيء الذي لا يسبب إعطاءه إياهم أية خسارة له !!

سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣ ﴾

أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ: نهر في الجنة أو الخير الكثير.

وَانْحَرْ: الأضاحي نسكاً شكراً لله تعالى.

هُوَ الأَبْتَرُ: المقطوع الأثر ،أو الخير.

كان رسول الله – ﷺ – قد نهض بدعوة الحق الخالص ، وذلك أصعب عملٍ على الإطلاق يقوم به إنسان في هذا العالم .. ومن ثم فقد اضطر – عليه الصلاة والسلام – في سبيل دعوته إلى التضحية بكل ما يملك، حيث انقطع عن قومه، وتدهورت حالته المعيشية، وأظلم مستقبل أولاده، ولم يقف إلى جانبه سوى قلة قليلة ليس عندها قوة ولا عتاد ، ولكن في تلك الظروف نفسها القاسية المثبطة أخبر الله – عز وجل – نبيه قائلاً بأننا قد أعطيناك – يا محمد – الكوثر، يعني خيراً كثيراً، وهو يشمل النجاح بأشكاله وأنواعه كافة ، وقد تحققت هذه النبوءة القرآنية حرفاً حرفاً خلال الأعوام التالية .

وهذا الوعد الإلهي بالخير الكثير كما تحقق لرسول الإسلام على الوجه الأكمل، يمكن أن يتحقق أيضاً – مع تفاوت الدرجات – بالنسبة إلى أفراد أمته كذلك، بشرط أن ينهضوا بذلك الدين الخالص الذي نهض به الرسول وأصحابه من قبل ، وهذا الخير الكثير يمتد من الدنيا إلى الآخرة، لا يتوقف ولا ينتهي فيضه أبداً !!

سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾

لَكُمْ دِينُكُمْ: شرككم وكفركم أو جزاؤه.

وَلِىَ دِينِ: إخلاص وتوحيدي أو جزاؤه.

نزلت هذه السورة في ختام العهد المكي، وقد ظل الرسول - ﷺ - حقبةً من الزمان يدعو الناس منادياً إياهم بـ " يا قوم " ولكنهم حين أبوا الإيمان رغم قيام الحجة عليهم، خاطبهم بقوله : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ ﴾ والمقصود من هذا الخطاب في هذه المرحلة الحاسمة هو البراءة دون الدعوة .

وقوله : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ لا يتضمن تصديقاً بدين الآخرين، وإنما هو تأكيد على التمسك بالحق والثبات عليه بمنتهى القوة والتصميم، وإعلام بأنكم - أيها المخاطبون - قد بلغتم بدوركم من العناد والتعنت إلى نقطة اللاعودة، أي الحد الأقصى الذي لا يعود بعده أمل في الرجوع إلى الحق أبداً !

سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾

جَاءَ نَصْرُ الله : عونه لك على الأعداء.

وَالْفَتْحُ: فتح مكة في السنة الثامنة الهجرية.

أَفْوَاجاً: جماعات كثيرة.

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ: فنزهه تعالى ، حامداً له.

كَانَ تَوَّاباً: كثير القبول لتوبة عباده.

إن النصر الإلهي الذي يسمى " فتحاً " إنما يأتي دوماً عن طريق الدعوة،إن إدخال الناس في دين الله أفواجاً هو النصر الإلهي الأعظم،وعن طريقه يتوصل أهل الدين الحق إلى مرحلة الفتح والغلبة،وقد تولدت في السنوات الأخيرة من حياة الرسول (٩-١٠ هـ) - ﷺ - أحوال مهدت الطريق إلى دخول الناس في دين الله بأعداد كبيرة، وبالتالي انفتح باب الانتصارات والفتوحات على مصراعيه .

إن فتح المؤمن إنما يزيد من شعوره بالعجز والتواضع، وهو يتوجه إلى الله سائلاً العفو حتى عن عمله الذي لا بأس به في ظاهر الأمر، وهو يحيل على الله كل شيء، حتى النجاح الذي أحرزه - على ما يبدو - بجهوده الذاتية !

سورة المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾

تَبَّتْ: هلكت أو خسرت أو خابت.

وَتَبَّ: وقد هلك أو خسر أو خاب.

مَا أَغْنَى عَنْهُ: ما دفع التباب عنه.

وَمَا كَسَبَ: الذي كسبه بنفسه.

سَيَصْلَى نَاراً: سيدخلها أو يقاسي حرها.

فِي جِيدِهَا: في عنقها.

مِن مَّسَدٍ: مما يفتل قويا من الحبال.

" أبو لهب " هو اسم لأحد الأشخاص من ناحية، وهو، من ناحية ثانية، علم على "دور معين "، إنه رمز تاريخي لمعارض الدعوة إلى الحق، الذي يذهب في سبيل العداء والكيد لها إلى حد الخسة والنذالة ، وهذا " الدور " كما واجهه الرسول الكريم - ﷺ- يمكن أن يواجهه الدعاة الآخرون من أمته كذلك ، على أن الداعية لو كان قد نهض لأجل الله حقاً، فإن نصر الله سيدركه لا محالةَ، وبالتالي ستذهب محاولات كل معاندٍ كأبي لهبٍ أدراج الرياح دون أن تنال من الداعي أو من دعوته شيئاً ، وسيتعرض هو - عاجلاً أوْ آجلاً - للدمار المحقق رغم كل ما يتوافر لديه من وسائل القوة والثروة ،

وسيحترق هو نفسه بنار عناده، وسيتم سوقه في النهاية - وبصورة أبدية - إلى تلك العاقبة المشئومة ذاتها التي كان يريد أن يسوق داعي الله إليها !!

سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾

الله الصَّمَدُ: هو وحده المقصود في الحوائج.

كُفُواً: مكافئاً ومماثلاً ونظيراً.

هذه السورة هي سورة التوحيد ، تعرض مفهوم الإله خالصاً من كل الشوائب والانحرافات التي ظلت غالبة على أفكار البشر ومعتقداتهم في كل العصور ، فليس هناك آلهة متعددة ، إنما هو إله واحد أحد وهو الله، الجميع محتاجون إليه، وهو غنى عن الكل لا يحتاج إلى أحد، وهو قادر على كل شيء قدرةً ذاتيةً، وهو أسمى وأرفع من أن يكون مولوداً لأحدٍ أوْ يكون له ولد كما هو شأن المخلوقين. إنه إله فذ ليس كمثله، ولا يشاركه أوْ يماثله أحد بأي وجه من الوجوه وفي أي ناحية من النواحي !!

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾

أَعُوذُ: أعتصم وأستجير.

بِرَبِّ الفَلَقِ: برب الصبح أو الخلق كلهم.

وَقَبَ: دخل ظلامه في كل شيء.

النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَدِ: النساء السواحر ينفثن في عقد الخيط.

إن الله هو الوجود الحي القادر الذي يشق ظلمة الليل ليستخرج منها ضياء الفجر .. وهو القادر كذلك على أن يكشف عن الإنسان ما يحيط به من غيوم المصائب السوداء، ويغمره بنور العافية والهدوء والطمأنينة .

ولقد أُنشئ هذا العالم الذي نعيش فيه لمصلحة الامتحان ، مما اقتضى هنا أن يقترن الخير بالشر ، ولا سبيل إلى النجاة من هذا الشر سوى أن يستعيذ الإنسان بالله منه ، وهذا الشر له أنواع شتى ، منها - على سبيل المثال - ما يعمله الخبثاء الفاسدو الطوية في ظلام الليل ، وما يصنعه السحرة وأمثالهم غالباً عن طريق النفث في العقد، وهكذا الذين يصابون بالحسد على الغير إذا ما رأوه في نعمة وحسن حالٍ، وبالتالي يتخذون إجراءات حاقدة شريرة سعياً وراء إزالتها ، وينبغي للمؤمن أن يستعيذ بالله ويلوذ بحماه من كل هؤلاء ، والله وحده يقدر على أن يعيذ الإنسان من كل أنواع الشرور !

سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦ ﴾

أَعُوذُ: أعتصم، وأستجير.

بِرَبِّ النَّاسِ: مربيهم ومدبر أحوالهم.

مَلِكِ النَّاسِ: مالكهم ملكا تاماً .

إِلَهِ النَّاسِ: معبودهم الحق.

الوَسْوَاسِ: الموسوس جنيا أو إنسيا.

الخَنَّاسِ: المتواري المختفي.

الجِنَّةِ: الجن.

الإنسان مخلوق عاجز ضعيف ، وهو في أمس حاجة إلى " حِمىً " يلجأ إليه ، وهذا الحمى لا يمكن أن يوفره له أحد غير الله الواحد الأحد، فهو وحده رب الناس جميعاً، وهو وحده مليكهم ومعبودهم بلا شريك، فمن هناك سواه إذن، يصلح ليكون سناد الناس وملاذهم ضد الشرور والفتن ؟!

الشيطان هو الفتنة الأشد خطورةً على الإطلاق، الذي ينبغي على الإنسان أن يتعوذ بالله منه ، وهو أشد خطورةً لأنه يخفى حقيقة ذاته دائماً، فهو يُغوي الإنسان بأساليب الخداع والتمويه، ومن ثم لا يستطيع أن ينجو من حبال الشيطان إلا الذي يكون غاية

في الحذر والتيقظ، والذي أعطاه الله فهماً يميز به الحق من غير الحق، ويدرك به ما له حقيقة وما لا حقيقة له من القضايا والأمور .

وليس الشياطين من الجن وحدهم هم الذين يقومون بهذه الوسوسة الماكرة والإغراء الخفي، وإنما هناك شياطين من الإنس أيضاً يتظاهرون بأزياء مصطنعة، ويحاولون صرف الناس بمعسول كلامهم عن طريق الهدى إلى طريق الضلال ..

عن أبي ذرٍ قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد، فجلست، فقال : يا أبا ذر ! هل صليت ؟ قلت : لا، قال : قم فصل، قال : فقمت فصليت ثم جلست، فقال : " يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن " قال : فقلت : يا رسول الله وللإنس شياطين ؟ قال : " نعم "(١).

والاستعاذة بالله من الفتن عملية مزدوجة ، فهي من ناحيةٍ طلب من الله أن يوجه إلينا عنايته ويبسط لنا كنفه ، ومن ناحية أخرى يُقصد بها إيقاظ وعينا تجاه الفتن لكي نتمكن من مواجهتها بحذرٍ أشد وتيقظٍ أكثر !

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤/ ٥٧٥ .

فهرس الموضوعات

التذكير القويم

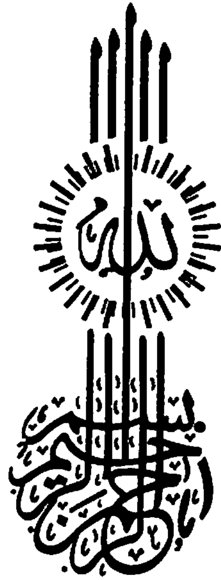
في

تفسير القرآن الحكيم

للعلامة / وحيد الدين خان

الجزء الثاني

دار الوفاء



سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝ ﴾

قَدَمَ صِدْقٍ: سابقة فضل ومنزلة رفيعة .

إن كلام النبي يكون مرتكزاً على دلائل محكمة للغاية، وهو بأسلوبه غير العادي يكون في ذاته برهاناً جلياً على أنه إنما يُبَلِّغ عن الله، ولا يتكلم من عند نفسه، على أن الأنبياء - مع هذا كله - قوبلوا بالإنكار والتكذيب في كل العصور .

ورسالة النبى قوامها : الإنذار والتبشير، أي تخويف الناس من بطش الله، وتبليغ بشارة الجنة إلى من يرضى منهم بأن يعيش في هذه الدنيا خائفاً من الله، وإنما يُبعث النبي لكي يُعلِم الإنسان بهذه الحقيقة القائلة بأنه: ليس حراً مطلق الاختيار والتصرف في هذه الدنيا، وأن قصة الحياة ليست بمنتهيةٍ مع انتهاء أجل المرء على وجه الأرض، بل إن هناك حياة أبديةً بعد الموت، ينبغى للمرء أن يعيرها من اهتمامه الجانب الأكبر، وأن الشخص الذى يعيش هنا فى غفلة أو طغيان، لن يجد فى العالم الآخر بعد الموت سوى الألم وحده .

وقد ظل الإنسان العابد للظواهر يحسب دائماً أن العزة والرقي لا ينالهما إلا شخص يمتلك زمام سلطة الدنيا، والذي تتوفر لديه ثروات الدنيا وزخارفها، أما النبي فهو يهدم هذا التصور من أساسه، ويعلن صراحةً بأنه ليس إلا وهماً باطلاً وخداعاً محضاً،

حيث إنهما عزة ورقي يحظى بهما المرء بين بني جنسه في الحياة العابرة الراهنة وبصفةٍ مؤقتةٍ، فسرعان ما يصبحان أثراً بعد عينٍ، بينما العزة والرقي حقاً أن يوفق المرء للفوز بهما عند الله ربه في الحياة الأبدية القادمة، فذانك وحدهما عزة ورقي حقيقيان، كما أنهما دائمان لا يعتريهما الفناء أو الزوال، لكن المنكرين لا يلبثون أن يستخفوا به قائلين : إنه ساحر وما يقول إلا سحر البيان.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝ ﴾

اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ: استواء يليق به سبحانه .

بِالْقِسْطِ: بالعدل .

حَمِيمٍ: ماء بالغ غاية الحرارة.

يزخر الكون بشتى أنواع المخلوقات، وتدلنا الدراسة العلمية للكون على أن كل هذه المخلوقات لم تظهر إلى الوجود دفعةً واحدةً، بل هي ظهرت بالتدرج واحداً فواحداً، ويقسم القرآن عملية الخلق هذه إلى ست فترات أو مراحل، وهذا التكوين الدوري أو المرحلي يثبت أن الكون لم يوجد نتيجة صدفةٍ، وإنما تم إيجاده تحت خطة حكيمة واعيةٍ، كما أن دراسة الكون تهدينا أيضاً إلى أن نظامه يخضع لقوانين محكمة للغاية، فكل شيء فيه يعمل تماماً كما ينبغى له أن يعمل تبعاً لمقتضى الكل، وهذا الواقع دليل واضح على أن لهذا المصنع الكونى الهائل مدبراً حياً عاقلاً يقوم على إدارة شئونه كل لحظة .

إن نظام هذا الكون العجيب المدهش، لشهادة صارخة فى حد ذاته بأن مالكه إله كامل وعظيم لدرجة أنه لا يتصور أن يكون عنده وزن أو اعتبار ما لشفاعة شافعٍ كائناً مَنْ كان، فالكون فى مرآة خصائصه يعكس صفات خالقه العظيم.

ويسود هذا الكون كله نظام ((القسط))، فما من شيء هنا إلا يلقى النتيجة بحسب عمله، فيكسب ما كان قد سعى له، ويخسر ما لم يسع له، فلابد من أن يخيم الظلام على جزءٍ من الأرض، توفرت فيه أسباب الليل، وأن تطلع الشمس المنيرة على جزءٍ من الأرض آخر، تهيأت له أسباب النور والضياء .

ذلك شأن النتائج المادية، غير أننا نجد صورة العالم مختلفةً عن ذلك تمام الاختلاف بالنسبة إلى النتائج الأخلاقية، فنرى شخصاً يعمل الصالحات ولا يجني ثمار صلاحه، ونشاهد آخر يظل يمارس الطغيان طيلة حياته دون أن يوصله طغيانه إلى الجزاء الذي يستحقه، فالسؤال هو : إن مشيئة الخالق التي نراها ساريةً فى عالم المخلوقات الأخرى، لماذا لا تظهر أو تسود المشيئة ذاتها فى العالم البشرى !؟

والجواب عليه هو : أن الله تعالى قد أجل تنفيذ عدله الكامل في حياة الإنسان إلى قيام العالم الآخر، فقد اتيحت الحياة الأولى للإنسان للعمل، وستُتاح الحياة الآخرة له ليلقى جزاء عمله، ولا ريب فى أن ظهور الحياة الثانية أمر ممكن تماماً كما أمكن ظهور الحياة الأولى !

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾

وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ: صير القمر ذا منازل يسير فيها .

إن الشمس تبعد عن أرضنا بمسافةٍ ملائمةٍ ومنضبطةٍ للغاية، الأمر الذي جعلها مصدر نعمٍ حيوية لا غنى لنا عنها كالنور والحرارة، وإنه لو طرأ أدنى تغير على هذا الفاصل المقرر، لانقلب الوضع تماماً ؛ فأصبحت الشمس بعدئذٍ جحيماً لا يطاق، وصارت نذيراً للموت بدلاً من كونها وسيلة الحياة ..

وكذلك القمر يدور في فلكه المقرر طبقاً لنظامٍ رياضي متناهٍ في الدقة والضبط، مما يمكن القمر، رغم كونه غير مشعٍ أو مضيء في ذاته، من أن ينشر لنا نوراً بارداً، ويوفر لنا تقويماً طبيعياً لمعرفة عدد الشهور والأعوام، إن هذه الآيات الفلكية تثبت أن الكون ينطوي على هدفٍ عميقٍ، وبالتالي فلن يكون مصير الكون عبثاً محضاً أي بدون هدف ولا معنىً!

ثم إن مجيء النهار بعد الليل يشير في لغة التمثيل المادي، إلى الحقيقة الأخلاقية القائلة بأنه لابد - تبعاً للسنة الجارية في عالمنا الراهن - من أن يسود النور بعد الظلام، وأن يحلّ هنا نظام تأدية الحقوق محل انتهاك الحقوق ، وأن يملأ العدل الإلهي ربوع العالم بعد أن ملأه الإنسان ظلماً وعدواناً، وأنه من المقرر أن يأتي هنا يوم تنكس فيه راية الباطل إلى الأبد، وتتجاوب أرجاء الكون كله بأصداء الاعتراف بالحق..

إن الله يتجلى فى العالم الراهن فى صورة الدليل، وليس فى صورة المشاهدة الحسية، إذًا فلا سبيل إلى أن نظفر بالله فى أى مظهرٍ آخر غير الذي اختاره الله ليتجلى فيه .

وقد فتح الله في هذا العالم طرق الهداية، غير أن هذه الهداية لا يصل إليها إلا الذين يتبعون معالمها وفق التدبير الإلهي، وإنما يوفق للسير على الطريق المستقيم هنا أولئك الذين يكفيهم فهماً لأمر الحق واقتناعاً به أن يُعرض عليهم بلغة الدليل والبرهان، فالذين لا يخضعون أمام البرهان الصادق، كأنما هم لم يخضعوا أمام الله، وكأنما هم لم يؤمنوا بالله، وينبغي لأمثال هؤلاء ألا ينتظروا لأنفسهم شيئاً سوى النار !

ومع أن هناك آيات لا حصر لها منبثة في السماوات والأرض، إلا أنها لا تكون مادة

درس وعبرة إلا للذين تمتلئ صدورهم خوفاً، إن الخوف من شأنه أن يجعل المرء جاداً، وإن المرء لا يكاد يركز اهتمامه كله على شيء ما، ولا يفهم مختلف جوانبه وأبعاده ما لم يكن جاداً تمام الجدية بصدده .

إن كوننا هذا كله مربوط بتوازن إبداعي عظيم، وهذا إشارة ناطقة بأن مالك الكون إله يقدر على أن يبطش بالإنسان متى شاء، وهكذا فإن حياتنا الأولى - هذه التي نحن نجربها الآن - هي دليل قاطع على أن الحياة الثانية هي الأخرى ممكنة كذلك، إن بروز النتائج المادية في العالم الراهن، وعدم بروز النتائج الأخلاقية، يقتضي وجود عالم تظهر فيه النتائج الأخلاقية بأوضح وأكمل صورها، كل هذه أمور محكمة للغاية،غير أن كونها محكمةً لن يدركه إلا الشخص الذي ينظر إلى قضية الحياة نظرة ملؤها الحذر والخوف !

لمن أُعدت نار الجحيم ؟

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا: لا يتوقعون لإنكارهم البعث .

دَعْوَاهُمْ: دعاؤهم .

إنها لأولئك الذين نسوا اليوم الذي يلقون فيه ربهم، والذين رضوا بأشياء الدنيا الزائلة فآثروها على نعيم الآخرة الأبدي، والذين صاروا مطمئنين تمام الاطمئنان إلى ما أتيح لهم في هذه الدنيا من أجل الامتحان والاختبار، وتعلقت قلوبهم بالأشياء غير

الإلهية إلى حدٍ باتوا معه غافلين عن الحقائق الإلهية المتجلية في صفحة الكون، كل هذه طرق مؤدية إلى الجحيم، ومن المستحيل أن يصل السائرون فيها إلى أي مكانٍ آخر غير الجحيم!

وقوله: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾ يوضح أن الإيمان هداية وإرشاد للمرء، فهو ينقذ المرء من التخبط فى الطرق الخاطئة المعوجة، ولا يزال يسير به على الجادة المستقيمة، حتى يوصله إلى هدفه المنشود .

الإيمان هو اكتشاف الله، والذي يظفر بالإيمان يدرك رأس العلم وزمامه، وبالتالي يصبح قادراً على أن يبدأ تفكيره فى كل أمرٍ من المنطلق الصحيح، مما يصونه من الضلال والانحراف الفكرى، ويحافظ على سلامة تفكيره وسداد رأيه .

وبالإضافة إلى ذلك فليس التسليم بالله هو التسليم بأية فلسفة نظرية جامدة، بل هو إقرار بإلهٍ حي، والبشر كلهم سيحضرون آخر الأمر بين يديه للحساب، وهكذا يحوّل الإيمان صاحبه، بما يبعث في قلبه من مشاعر الخوف والحذر نحو مصيره النهائى الغامض، يحوله إلى إنسانٍ غاية فى الجدية، بحيث إنه يجد نفسه مضطراً إلى أن ينظر في أعماله وتصرفاته كلها في ضوء الصواب والخطأ، وأن يأخذ نفسه بالسير في الاتجاه الصحيح فقط، ولا يميل أبداً إلى الاتجاه الخاطئ .

وهكذا يمنح الإيمان صاحبه فكراً صائباً سديداً من ناحية، كما يزوده، من ناحية أخرى، بقدرة التمييز بين الخير والشر، تلك التى ترافقه مدى الحياة كمرشدٍ عمليٍ يقظٍ .

وإنما يدخل الجنة في الآخرة أولئك الذين أثبتوا جدارتهم وأهليتهم لها في الحياة الدنيا، إن الجنة مكان للارتواء من تجليات الله المباشرة، فلن تتاح فرصة السكنى فيها إلا للأرواح التى كانت قد ارتوت من تجليات الله غير المباشرة في الدنيا، وستكون قلوب أهل الجنة ملأى بمشاعر السلام والنصح نحو كل إخوانهم؛ لذا فلن يجد هناك

مكاناً بين سكانها إلا الذين أقاموا الدليل فى الدنيا على أن قلوبهم لم تنطوِ على شىء سوى عواطف السلام والنصح للآخرين !

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ: لأهلكوا وأبيدوا .

فِي طُغْيَانِهِمْ: في تجاوزهم الحد في الكفر .

يَعْمَهُونَ: يعمون عن الرشد أو يتحيرون .

الضُّرُّ: الجهد والبلاء والشدة .

دَعَانَا لِجَنْبِهِ: استغاث بنا لكشفه ملقى لجنبه .

مَرَّ: استمر على كفره ولم يتعظ .

إن سنة الله هى أن شخصاً ما إذا أتى عملاً صالحاً يستوجب الأجر، تم تسجيله على الفور في صحيفة أعماله، وأما إذا ارتكب شخص عملاً سيئاً يستلزم العقوبة فإن الله يمهله لكي يعود إلى رشده عاجلاً أو آجلاً، فيقوم بإصلاح نفسه وعمله، إن سنة الله هذه لرحلة عظيمة جداً، وإلا فالإنسان ظلوم لدرجة أنه لا يزال مستعداً كل الوقت لفعل السوء وإتيان المنكر، ولو أن الله بدأ يؤاخذ الناس على سيئاتهم مؤاخذةً فوريةً لسرعان ما انتهت آجالهم، ولأقفرت الأرض من بشرٍ يمشون على ظهرها !!

وإنما يتجه إلى الطغيان والتفرعن فى الحياة الدنيا، أولئك الذين يعيشون فيها ظانين أنهم لن يمثلوا أبداً بين يدي الله بعد الموت، والذين يمارسون حياتهم دونما خوفٍ من

البطش أو المؤاخذة على تصرفاتهم، ويحسبون أنهم أحرار غير مسئولين عن أى دجلٍ أو تزوير يلجؤون إليه توسلاً إلى مآربهم الخسيسة، ولا عن أي فسادٍ ينشرونه فى الأرض تحقيقاً لأغراضهم الدنيئة، والحقيقة هى أنه ليس هناك ما يبعث الناس على التعامل بالحق والعدل فيما بينهم، سوى باعثٍ واحدٍ، هو اعتقاد المرء بأن فوق كل ذي قوةٍ قوياً، والكل بإزائه ضعيف غاية الضعف وأنه سيبطش يوماً بجميع البشر، وسيكون الكل مضطراً إلى التسليم بحكمه فيه بدون اعتراضٍ، سواء كان له أو عليه .

إن الإنسان فى أثناء حياته في هذه الدنيا، يتعرض بين الفينة والأخرى، لنكبةٍ من النكبات أو لكارثةٍ من الكوارث، حيث يبدأ يشعر بأنه عاجز كل العجز أمام القوى الخارجية ؛ لا يملك إزاءها شيئاً يقاومها به إياها، وفي تلك اللحظة لا يلبث المرء أن يأخذ في التضرع والابتهال إلى الله، ويعترف بغاية ضعفه وعجزه أمام قدرة الخالق، غير أن هذه الحالة لا تدوم إلا ما دام المرء في قبضة المصائب، فعندما يتخلص منها يعود ثانية غافلاً وطاغياً، تماماً كما كان قبلئذٍ، والله - عز وجل - لا يسلم ولا يعتبر بما يظهر أمثال هؤلاء من العبودية له، فإن العبودية المطلوبة هي التي يتم إظهارها فى الظروف الحرة، وأما العبودية التى تظهر تحت ضغط الظروف القاهرة، فلا قيمة لها عند الله سبحانه وتعالى.

إن الإنسان كائن ميال بطبعه إلى التبرير ؛ فهو يبحث دوماً عن مبررٍ لكل عملٍ يصدر عنه، ولو أن المرء أحب لنفسه موقف الطغيان، لانصرف إليه عقله كذلك، وستكون أنشطته العملية كلها منطبعةً بطابع الطغيان، إلا أن عقله سيعمل بدوره على تزويده بألفاظٍ جميلةٍ تبرر طغيانه، وهذا هو ما سُمى بـ ((تزيين الأعمال))، إذ يطمئن المرء نفسه بأنه على الحق، من خلال وصف أخطائه بكلماتٍ براقةٍ وعباراتٍ منمقةٍ، غير أن مثله كمثل شخص يضع على كفه شعلةً من النار، ويظن أنها لا تحرق، لكونه قد أطلق عليها لقب ((الوردة الحمراء))!!

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا
كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ
مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

القُرُونَ: الأمم كقوم نوح وعاد وثمود.

ظَلَمُوا: بالكفر وتكذيب الرسل .

جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ: استخلفناكم بعد إهلاك أولئك .

الداعي إلى الله يقوم دوماً على أساسٍ من الدلائل والبراهين، وعلى المستوى ذاته يتعين على الناس أن يعرفوه.. أما لو أراد الناس أن يجدوا الداعي إلى الله في خضم الأمجاد الظاهرية، والاستقبالات الشعبية الحاشدة، فإنهم لن يجدوه أبداً ؛ لأن داعي الله لا يوجد هناك البتةَّ.. ومع أن النبي يأتي بالمعجزات والخوارق، إلا أن المعجزة إنما تظهر في المرحلة النهائية، وعند إقامة الحجة، بينما يقوم نشاطه في المرحلة الدعوية كلها على أساس الدلائل والبراهين وحدها.

إن كون طائفةٍ ما ظالمةً هو : ألا تعرف الدعوة الإلهية القائمة على الدليل، وبالتالي تقابلها بالرفض والإنكار لعدم كونها طبقاً لمستواها المزعوم، وبسبب موقفهم هذا يتعرض أمثال هؤلاء لضربة القانون الإلهي .

وقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ إن الخليفة - في أصل اللغة- هو الذي يجيء مكان غيره بعد ذهابه، وقد يطلق هذا اللفظ على مَنْ يقوم مقام غيره أو ينوب عنه، وبخاصةٍ، في تولى الحكم والسلطة، وهذه النيابة تكون عن الإنسان، وليس عن الله عز وجل؛ إذْ لا يتصور أن يكون الإنسان نائباً عن الله في أمر السلطة والملك، وإنما ينوب الإنسان دوماً عن أحد المخلوقات، وكل استخدامات القرآن الكريم لكلمة ((الخلافة)) إنما وردت بمعنى النيابة عن المخلوق وليس بمعنى

النيابة عن الله .

كما يُلاحظ أن جَعْل أحدٍ خليفةً لغيره لا يكون لأجل التكريم، بل يكون للامتحان والاختبار، فالاستخلاف يعني أن تُتاح فرصة العمل للواحد بعد الآخر، وأن توضع أمة تلو أخرى موضع الامتحان والاختبار، كما أديل - مثلاً - في الهند للمغول من الأقيال أو الراجوات الهنود، ثم انتزعت الدولة منهم وحُولت إلى الإنجليز، وما لبث الأخيرون بعدئذٍ حتى تم جلاؤهم أيضاً عن البلاد، وخُلي المكان بالتالي للطائفة ذات الأغلبية الساحقة، فقد كان كل لاحقٍ من هؤلاء خليفةً لسابقه .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ: لا أعلمكم الله به بواسطتي .

يُفْلِحُ المُجْرِمُونَ: لا يفوزون بمطلوب.

لقد كان أهل مكة يزعمون أنهم يؤمنون بالله والرسول، حيث كانوا يدّعون أنهم متبعو الملة الإبراهيمية، حتى إن كثيراً من مصطلحات الإسلام الدينية مثل : الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج .. إلخ، كانت مستعملةً رائجةً لديهم منذ قديم الزمان، فما الذي دفعهم إذًا إلى مطالبة رسول الإسلام - عليه الصلاة والسلام - بأن يأتي بقرآن غير هذا القرآن، أو يتناوله بشيءٍ من التبديل أو التعديل، وأنه إذا استجاب لطلبهم آمنوا بدعوته ؟!. السبب في ذلك يكمن في أن القرآن جاء يُعلن عن دين الله النقي

الخالص من كل الشوائب، بينما كانت قريش قد اصطنعت ديناً مغشوشاً مزوراً باسم الدين الإلهي.

إن دعوة القرآن إلى التوحيد كانت تمثل ضربةً قاضيةً على عقيدتهم الوثنية عن الله، كما أن عباداتهم كانت تبدو مجرد لهوٍ ولعبٍ بالقياس إلى تصور العبادة الذي قدمه القرآن الكريم، وإنهم كانوا قد جعلوا من النبي رمزاً لفخارهم القومي، بينما كان القرآن يدعوهم إلى الإيمان بنبي يتولى زمام القيادة والتوجيه في حياتهم العملية، وقد كانوا يعدون خدمة الكعبة وسدانتها أكبر دليلٍ على تدينهم، بينما أكد القرآن على أن التدين هو أن يخشى المرء من الله، وأن يضع الآخرة نصب عينيه في كل ما يأتي وما يدع في الحياة الدنيا.

وكثيراً ما يعرض المرء عن الحق أو ينكره معتمداً على بضع كلماتٍ يتفوه بها معتقداً أنها كافية لإبطال الحق أو تبرير موقفه منه على أقل تقدير، وإنما هو يجترئ على ذلك؛ لأن قلبه يخلو من الخوف أو الإشفاق، ولو أن قلب المرء امتلأ خوفاً وإشفاقاً من أنه محاسب ومسئول عند الله، عن كل قولٍ وفعلٍ يصدر عنه في هذه الحياة، لأصبح من فوره جاداً إلى أقصى حدود الجدية، وإن الشخص الجاد لينظر إلى الأمر من وجهة النظر الواقعية، ويستحيل عليه أن يقابله بالإهمال أو يقف منه موقف العابث المتفرج!

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

سُبْحَانَهُ: تنزيها له تعالى.

ليس هناك من أحدٍ في هذا العالم، غير الله يقدر على إيصال نفعٍ أو دفع ضررٍ ما،

وإن مَنْ يدرك هذه الحقيقة ينصرف اهتمامه كله نحو الله تعالى، فهو لا يعبد إلا الله، ولا يخاف إلا إياه، ولا يعلق آماله إلا عليه، ويصير الله الواحد هو كل شيء عنده .

وعلى العكس من ذلك فإن الذين تعلقت قلوبهم بالأشياء، وانحبست نفوسهم فى إطارها الضيق المحدود، لا يلبثون أن يتخذوا من أحدٍ غير الله إلهاً لهم، ويعلقون على هذه الآلهة الباطلة الآمال والمخاوف التى يجب ألا تُعلّق إلا على الله الواحد الأحد . ومَنْ صور هذا الضلال عقيدة الشفاعة، حيث يفترض أصحابها أن هناك «ذواتاً عليا» - من البشر أو من غير البشر - هي عند الله مقدسة ومسموعة الكلمة، وأن الله يقضي بناءً على شفاعتها ونزولاً عند رغبتها، بسعة الرزق الدنيوي أو الخلاص الأخروي، غير أن عقيدةً من هذا النوع باطلة كل البطلان، إنها استخفاف بألوهية الله، وتقدير بخس لعظمة شأنه وعلو قدره - عز وجل.

إن الله متنزه عن الشرك على اختلاف ألوانه. إن كل العقائد من هذا النوع غير منسجمة إطلاقاً مع صفات الله، التي يعرفنا بها في كونه العظيم المترامي الأطراف، ومعنى عقيدة كهذه أن الله ليس هو المبدع الخلاق الذي يبدو لنا متجلياً في مرآة صفاته الإبداعية، أو أن صفات الله تنطوى على تناقضاتٍ، وواضح أن كلا هذين الأمرين مستحيل، لقد أنشأ الله البشرية على دين الفطرة، فلم يكن وقتئذٍ لأبناء البشر قاطبةً إلا دين واحد، ثم نشب اختلاف بين الناس، انتهى بهم إلى جعل الدين صوراً وأشكالاً شتى، وإنما يرجع السبب في ذلك إلى إساءة استخدام الحرية التي مُنحت للناس لأجل الامتحان، ولو أن الله ظهر للعيان بقوته وجبروته، لانعدم عناد الناس وتلاشى طغيانهم فجأةً، وحل الاتحاد بينهم محل الاختلاف والانقسام .

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ۝ ﴾

ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ: نائبة أصابتهم (الجوع والقحط) .

لَهُم مَّكْرٌ: دفع وطعن واستهزاء .

الله أَسْرَعُ مَكْراً: أعجل جزاء وعقوبة .

لما أصر أهل مكة على الجحود والإنكار، ولم يزدادوا مع مضى الزمان، إلا توغلاً في العناد والمكابرة، سلط الله عليهم قحطاً استمر سبع سنوات، وانتهى - آخر الأمر - بدعاء رسول الله ﷺ.. إنها كانت آية كان لهم أن يستمدوا منها الدرس القائل بأن إنكار النبي سيعرضهم لضربة البطش الإلهي، غير أنهم خرجوا من المحنة كما دخلوا فيها، فعندما يكون القحط مسلطاً عليهم يبتهلون ويتضرعون إلى الله، وحين يذهب عنهم يقولون: إنما هي صروف الدهر وتقلبات الأيام يتعرض لها كل الأحياء على وجه البسيطة، ولا علاقة لها البتة بالإيمان بالنبي أو عدم الإيمان به !!

الناس يطلبون من النبي الآية، ولكن المسألة لا تكمن أصلاً في ظهور الآية، بل في استلهام الدرس والعبرة منها، فإن الآية إنما تكون للمشاهدة، دون الإلزام أو الإجبار على الإيمان، ومن ثم فلا يزال هذا الخيار، حتى بعد ظهور الآية، بيد المرء نفسه، سواء كان يؤمن بها أم يرفضها، باللجوء إلى أي تفسير باطل لها !!

على أن آية الله الأخيرة - الحاسمة - إذا ظهرت، فلا يملك الإنسان إزاءها أي خيارٍ، إذْ تأتي هذه الآية الأخيرة، على أثر قيام الحجة القاطعة، محققةً للعدل الإلهي، وهي تأخذ صوراً مختلفةً من نبي إلى آخر، فقد تمثلت هذه الآية الإلهية بالنسبة لنبي آخر الزمان في صورة غلبة المؤمنين وانتصارهم الكامل على الكفار والمشركين، وفي هذا الصدد كتب الشيخ شاه عبد القادر الدهلوى (*) فى ((موضح القرآن)) يقول : ((يعنى لو سألوا : كيف لنا أن نعرف أن ما تقوله حقا ، فقال رداً عليهم : إن الله تعالى سيكتب لهذا

(*) الشاه عبد القادر الدهلوى (١٧٥٣ - ١٨١٣) هو الابن الثاني للشاه ولي الله الدهلوي صاحب كتاب ((حجة الله البالغة)) ، كان أول من نقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الأردوية (المترجم) .

الدين في القادم الغلبة والازدهار، ولمعارضيه الذلة والدمار، ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾، وقد حدث ذلك بالفعل، وظهور الآية المؤيدة للحق مرةً واحدةً فيه غنىً وكفاية ؛ إذْ لو نزلت الهزيمة والذلة والهوان في كل مرةٍ بالمعارضين وحدهم، لانحسم الأمر وتحقق القضاء، في حين أن الدنيا ليست موضع الحسم أو القضاء النهائى)) .

إن المرء حين يعاند ويتعنت، ثم يجد أنه لا يصيبه، بسبب ذلك أذىً أو خسارة ما، فلا يلبث أن يصبح أكثر عناداً وأشد تعنتاً، حيث إنه يظن أنه أبعد متناولاً عن بطش الله، على حين أن هذا يتم حسب تدبير الله، فإن الله تعالى يُمهل المعاند الطاغي ليعاند ويطغى ما وسعه العناد والطغيان، غير مبالٍ ولا مكترثٍ بالعواقب، وفي أثناء ذلك لا يزال حفظة الله يسجلون كل أعماله وأقواله في صمتٍ وخفاءٍ، حتى إذا انقضى أجله، فاجأه ملك الموت، فيبطش به ليحضره أمام الله رب العالمين للحساب عن أعماله كلها !

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

رِيحٌ عَاصِفٌ: شديدة الهبوب.

أُحِيطَ بِهِمْ: أحدق بهم الهلاك.

يَبْغُونَ: يفسدون .

الإنسان وجود مرهف الحس للغاية ؛ لا يطيق تحمل الألم أو الصبر عليه، وهذا هو السبب فى أن الإنسان ما إن تعتريه ساعة ألمٍ ما، حتى يصبح جاداً على نحوٍ تلقائي، وترتفع حينئذٍ كل الحجب المصطنعة عن ذهنه، ففى لحظات الهم لا يلبث الإنسان أن يعترف بالحقيقة التى لم يكن يستعد للاعتراف بها فى لحظات فراغ البال .

ومن أمثلة ذلك السفر البحري، فإذا كان البحر هادئاً ساكناً والسفينة تجرى بركابها جرياً سريعاً نحول المنزل، فإنها تكون بالنسبة إليهم لحظة طيبةً ورائعة جداً، وعندها تمتلئ نفوسهم بمشاعر الغرور والثقة الكاذبة، حيث يظنون أن أمرهم مستقيم تمام الاستقامة، فلا أحد يستطيع الآن أن يفسده عليهم أو يحدث فيه خللاً ما !!

وإنهم لكذلك إذْ تهب الرياح البحرية، وتتدافع أمواج هائلة كالجبال تحيط بركاب السفينة من كل جانبٍ، مما يجعل حتى البواخر العملاقة تتمايل وتتأرجح على سطح الماء كأنها قشة تافهة، ويبدو ظاهراً أن ليس هناك من مصير سوى الهلاك غرقاً، وهنالك يعترف بالله من كان ينكر وجوده، ويأخذ عبدة الأوثان والتماثيل يدعون الله الواحد الأحد فى ضراعةٍ وخشوعٍ، ويعود المعتمدون على قوتهم وتدابيرهم الذاتية لا يذكرون الآن شيئاً سوى الله وحده ، وإن هذا لدليل تجريبى على أن التوحيد عقيدة فطرية، وأن كل العقائد، ما عدا التوحيد باطلة الأساس.

وهذه التجربة تدلنا على أن المرء مهما تفلسف وتعقلن في محاولة الهروب من الإيمان بالله ، فإن كل الأقاويل من هذا القبيل ليست في حقيقتها سوى ترفٍ ذهني أو تنظيرٍ خيالي فارغٍ مصدره اللا مبالاة، وانعدام الهم ليس غير، ولو أن الإنسان علم أن ما أتيح له من فرصٍ ومواقع في هذه الدنيا، إنما أتيح لأجل الامتحان، وبصفةٍ مؤقتة للغاية، لأصبح من فوره جاداً تمام الجدية، ولتهدمت كل الحواجز الاصطناعية المحيطة بذهنه ولم يجد بداً ولا مناصاً من الإيمان بالله الواحد الأحد .

وإن وقتاً سيحين ، فيه يهتز كيان الإنسان كله وترتعد فرائصه لرؤية جلال الله

وجبروته، وإذ يجد نفسه مضطراً إلى الإقرار بكل الأمور الإلهية، ولكن العاقل هو الذى يرى حقائق الحياة القادمة فى تجارب الحياة الراهنة ، والذي يبادر اليوم إلى الاعتراف بالأمر الذى سيضطر الكل إلى الاعتراف به غداً، غير أن اعتراف الغد لن يغنى عنه شيئاً !

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا: حالها في سرعة تقاضيها وزوالها.

زُخْرُفَهَا: نضارتها وبهجتها ـ بألوان النبات .

أَمْرُنَا: ما يجتاحها من الآفات والعاهات.

حَصِيداً: كالنبات المحصود بالمناجل .

لَّمْ تَغْنَ: لم تمكث زروعها ولم تقم .

الحياة الدنيا فترة امتحان؛ ولذا فقد مُنح الإنسان هنا الحرية الكاملة، وأتيحت له كل أنواع الفرص والإمكانات، ويبدو ظاهراً أن الإنسان حر طليق يفعل ما يشاء، وبني مستقبله على نمط صادف هواه ، على أن هذه الأحوال تتخللها أحداث ووقائع تنطوي على دروسٍ وعبرٍ غالية لقومٍ يتفكرون، وهي تشير إلى الحقيقة القائلة بأن هذا كله لا يعدو أن يكون مجرد متاعٍ عارضٍ مؤقتٍ، وسرعان ما سينتزع من أصحابه !!

ومن ذلك مثلاً واقع اخضرار الأرض ونضارتها، فإذا أنزل المطر، اكتست الأرض بألوانٍ شتى من النباتات، ومنظرها يملأ أفئدة أصحابها نشوةً وسروراً، يجعلهم يظنون

أن الأمر كله فى مُكنتهم وتحت تصرفهم، وأنهم لسرعان ما سيصبحون ملاّكاً لزروعٍ جاهزةٍ، ولكن هذا الحلم لا يكاد يتحقق حتى تفاجئهم كارثة من الكوارث ؛ كهبوب إعصارٍ، أو سقوط البرد، أو غزو الجراد ؛ مما يقضى على مزروعاتهم كلها فى لمح البصر!!

وهذا هو شأن الحياة الإنسانية كذلك، فالمرء يولد مع جسدٍ متكامل الأعضاء، جميل المنظر، مزودٍ بمختلف القوى والاستعدادات، وتواتيه أسباب الدنيا فينجح في أن يبني لنفسه حياةً سعيدةً ورائعةً؛ مما يُشعره بنوعٍ من الثقة والاعتماد على ذاته، حيث يخيل إليه أنه هو صاحب الاختيار المطلق في أمر نفسه، يتصرف فيه كما يشاء، وبينما هو كذلك إذْ تفاجئه منيته في ذات ضحىً أو ليلةٍ، وإذا بالذي كان يعد نفسه صاحب الاختيار، ينتهي أمره إلى حيث لا يتوفر لديه شيء سوى العجز والاضطرار . ولو أن المرء وضع هذه الحقيقة نصب عينيه، لما اتجه في الدنيا أبداً إلى البغى والطغيان، ولما عامل أحداً معاملة الظلم والعدوان أبداً!

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

ٱلْحُسْنَىٰ: المنزلة الحسنى (الجنة) .

وَزِيَادَةٌ: النظر إلى وجه الله الكريم فيها .

وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ: لا يغشى وجوهم ولا يعلوها .

قَتَرٌ: غبار ما فيه سواد .

ذِلَّةٌ: أثر هوان ما .

عَاصِمٍ: مانع يمنع سخطه وعذابه .

أُغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ: كسيت وألبست .

ينخدع المرء بظواهر أحوال الدنيا ؛ فيعتبر المتاع الوقتي متاعاً دائماً، ويخيل إليه أنه يتمكن من الحصول على الحياة المليئة بالمسرة والراحة، التي تطمح إليها نفسه، في هذه الدنيا، على حين أن دنيا الآمال البشرية إنما تتكون حقيقةً في الآخرة، ولن يصل إليها إلا مَنْ حاول الوصول إليها وفق المنهج الذي قرره الله تعالى .

ولو افترضنا - جدلاً - أن المرء يستطيع الحصول على كل شيءٍ في هذه الدنيا، فإنه ليس بقادرٍ على أن يطهر حياته من مكدرات الحزن والألم، فما من سرورٍ هنا إلا يصحبه خوفٍ ما، إن الحياة الخالية من الحزن والخوف والألم لهي حياة فذة لن يتمتع بها المرء إلا في بيئة الجنة وحدها، والذين يعون هذا السر، هم الذين سيختارون طريق الجنة، وسيصلون آخر الأمر إلى جنان الله الأبدية .

إن حياة الرفاهية والمسرة التي يتمناها الإنسان، ستتاح لعباد الله الأوفياء في الجنة بصفةٍ دائمةٍ، على أن هناك درجةً أخرى من الرفاهية والمسرة، هي أعلى وأرفع جداً من أنواعها المألوفة ؛ ألا وهي رؤية مالك الكون التي سيفوز بها أهل الجنة بوجهٍ خاصٍ، فالله الذي هو خالق اللذات والرفاهيات، هو - من غير شك - الكنز الأكبر لسائر ألوان اللذة والرفاهية، وقد جاء في الحديث أنه : «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون : وما هو، ألم يثقِّل موازيننا؟ ألم يُبيض وجوهنا؟، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فو الله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم»[1].

وإنه ليس ثمة من حالة أشد ولا أقسى على المرء من أن يعتريه عجز وهوان لا

(١) أخرجه احمد ، ومسلم وجماعة من الأئمة .

ينقضي إلى الأبد، ومن أن يجد نفسه وقد كُتب عليه فشل لا يمكن تحويله إلى النجاح ثانيةً، وفي الآخرة سيواجه هذه الحالة نفسها ، أولئك الذين سيحكم عليهم بالخلود في نار جهنم، حيث يطرأ على وجوههم - لفرط اليأس والقنوط - سواد حالك يبدو معه وكأنهم غارقون في ظلماتٍ كثيفة متراكمةٍ بعضها فوق بعضٍ، ومع أن المرء لن يجازى على سيئته إلا بقدرها سواءً بسواءٍ، إلا أن الشعور بالحرمان الأبدي سيكون قاسياً ثقيل الوطأة عليه لدرجة أن وجهه سيعود بسبب ذلك أسود قاتماً !

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

مَكَانَكُمْ: ألزموا مكانكم .

فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ: فرقنا بينهم وقطعنا صلتهم .

تَبْلُو: تخبر أو تعلم أو تعاين .

إن قوام الشرك وعماد أمره كله هو الآمال الزائفة، فالوقائع التي تحدث بفعل قدرة الله سبحانه وتعالى، يعزوها المشرك إلى الآلهة الباطلة، وهكذا يجعل منها - بناءً على تصوره الوهمي المزعوم - مركزاً لعقيدته وعبادته، ويزداد اعتماده على آلهته تلك لدرجة أنه يظنها ستقف إلى جانبه بإزاء الله تعالى في الآخرة، وبالتالي ستحميه من البطش الإلهي !!

وما هذه كلها سوى آمالٍ زائفةٍ، غير أن زيفها لا يظهر للعيان في الحياة الدنيا، وإن الحقائق كلها ستنكشف في الآخرة، وسيعلم الجميع هناك أنه لم يكن يملك أحد في هذا الكون شيئاً من القوة سوى الله الواحد الأحد!

يعيش المرء فى العالم الراهن وتراوده هذه الأمنية الحالمة بأنه لسوف يجتاز مرحلة الآخرة بنجاحٍ بمعونة أكابره أو نصرة آلهته المزعومة، ولكن سيفاجأ فى الآخرة بإدراك أن اعتماده كان باطلاً محضاً، حيث لن يجد أحد في الآخرة إلا ما كان قد عمل هو بنفسه، وستنعدم وتتلاشى كل الدعامات الخيالية المفترضة كما لو لم يكن لها من وجودٍ البتة !

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

رَبُّكُمُ الحَقُّ: الثابتة ربوبيته بالبرهان ثبوتا لا ريب فيه .

فَأَنَّى تُصْرَفُونَ: فكيف تستجيزون العدول عن الحق إلى الكفر والضلال .

حَقَّتْ: ثبتت ووجب .

لابد للإنسان من الرزق، فكيف يتأتى له هذا الرزق ؟ الجواب هو : عن طريق عمل الكون الكلي المتكامل، فالكون بأكمله يعمل بكافة موجوداته في اتجاهٍ خاصٍ ، وعلى أقصى درجةٍ من التوافق والانسجام، حتى يمكن أن يتوافر للإنسان ذلك الرزق الذي يستحيل بدونه وجوده على وجه الأرض، ولا يقدر شركاء الألوهية الفرضيون، أو المعبودات الباطلة، تبعاً لعقيدة المشركين أنفسهم، لا يقدرون على توفير هذا الرزق للإنسان؛ لأن كل شريك فرضى إنما هو إله لجزءٍ من الأجزاء، ولن يتمكن إله الجزء أبداً من إحداث واقعةٍ تتطلب توافق الأجزاء كلها بعضها مع البعض الآخر !!

وهكذا – مثلاً – يتوفر لدى الإنسان قوىً مدهشة كالسمع والبصر .. إلخ، وهي الأخرى لا يمكن أن تكون من صنع أي معبودٍ باطلٍ، فهذه المعبودات إما محرومة من هذه القوى أصلاً، أو إذا كان هناك أى معبودٍ فرضى يتمتع بهذه القوى فإنه ليس

بخالقها، حتى إن هذه القوى لتنتزع منه تماماً كما تُنتزع من عامة الناس!!

وكذلك بث الحياة في الأشياء الميتة، ونزع الحياة من الأحياء، هو الآخر أمر مستحيل على المعبودات الفرضية، فليس هناك من دليل أو برهان على ذلك، ولا يعتقد فيها أحد عابديها اعتقاداً من هذا النوع، فكيف يمكن إذن أن يتلقى الإنسان هذه الأشياء من تلك الآلهة والمعبودات الباطلة؟! ومن البديهيات أن فاقد الشيء لا يعطيه .

وإن تعجب فعجب أن يعترف الإنسان بوجود إلهٍ عظيم، ثم هو ينسب إليه أموراً تتضمن النفي لكل صفاته العليا، والسبب في ذلك هو أنه لا يخاف الله، وأنه قد أقنع نفسه استناداً إلى الآراء والأفكار الكاذبة، بأن الله غير محاسبٍ إياه .

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ: فكيف تصرفون عن طرق الرشد .

لا يَهِدِّي: لا يهتدى بنفسه .

كل من يتم رفعه إلى درجة الألوهية،سواء كان بشراً أو من غير البشر،لا يقدر على إيجاد شيء ما من العدم،وإنما هو الله تعالى وحده الذي قامت الأدلة والبراهين على كونه خالق الخلق كله،وإذا ثبت عمل الحق لله مرةً واحدةً،فيقوم الدليل بذلك أيضًا على أنه يستطيع إعادته متى شاء،وسيعيده حتماً،وإذا كان الخلق الأول والخلق الثانى كلاهما لا يقدر عليه إلا الله تعالى وحده، فمن العبث المحض أن يتوجه المرء إلى الشركاء الآخرين سواه، إذْ إنه لا ولن يظفر منهم بشيء فى حياته الأولى ولا في حياته الأخرى القادمة .

همٍ أو خوفٍ من مستقبل حياتهم!

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

إن القهر والغلبة له تعالى في ملكه .

مَنْ الذى يمسك السموات والأرض، ويقوم بتدبير الأمر وتصريف الشئون فيما بينهما؟

إن هذا أحد الأسئلة الرئيسية التي شغلت أذهان الباحثين عن الحقيقة في كل العصور، غير أن الجواب الصحيح عن هذا السؤال لا يمكن الوصول إليه إلا إذا استطاع الإنسان أن ينظر إلى ما وراء الطبيعة، وبما أن أحد الناس لا يتمتع بعين تنظر إلى ما وراء الطبيعة، لذا يكون كل جوابٍ من أجوبته التي يتوصل إليها بعد جهدٍ جهيدٍ، قائماً على أساس الحدس والقياس وليس على أساس علمٍ حقيقيٍ !

والمتكلمون عن علم حقيقيٍ في هذه الدنيا إنما هم أولئك الذين يسمون «الأنبياء» ليس غير، إن هؤلاء صفوة من الناس يقوم بينهم وبين العالم العلوي اتصال مباشر ؛ حيث يخبرهم الله تعالى بالحقيقة؛ ولذا فإن علم النبي إنما هو العلم الوحيد في هذه الدنيا، الذي يمكن الاعتماد عليه على وجه اليقين .

ومع أننا لا نملك أي وسيلة مباشرةٍ لمعرفة صدق دعوى الأنبياء، إلا أن هناك وسيلةً غير مباشرة لذلك، وهي تتمثل في آيات الكون، فهذه الآيات تصدق تصديقاً عملياً بتلك الحقائق المعنوية التي بيّنها الأنبياء والمرسلون .

وعلى سبيل المثال فنحن نشاهد أن الليل والنهار يتعاقبان على أرضنا هذه ، الواحد

تلو الآخر بانتظام، وهذا الدوران ينشأ عن نظام محكم ومنضبطٍ للغايةِ، بحيث لا يعتريه أي خلل أو اضطراب أبداً، ونلاحظ أن هذا الدوران ملائم لحياتنا فوق الأرض إلى حدٍ يدعو إلى الدهشة والإكبار، ويبدو واضحاً أن هناك خطةً هادفةً وراء هذا النظام الكوني البديع، إن هذا الوضع دليل ناطق على وجود قادرٍ مطلقٍ ورحمانٍ ورحيم يخبرنا الأنبياء عنه، ويدعوننا إلى الإيمان به !

والذين يتبعون «الشركاء» بحسب زعمهم، سواء أكانوا الشركاء الإلهيين القدامى، أم الشركاء الماديين المحدثين، ليسوا بمتبعي أية حقيقةٍ واقعيةٍ، بل هم متبعون لظنونهم وقياساتهم وحدها، وإن الكون بأكمله يصدق بالحقيقة التي تم إعلانها عن طريق الأنبياء، ولكن ليس هناك من أحد يصدق بما يدعيه «المشركون» !

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

سُبْحَانَهُ: تنزيها له تعالى عما نسبوه إليه .

سُلْطَانٍ: حجة وبرهان .

إن زعم البنين والبنات لله مصدره قياس الذات الإلهية على الإنسان .. إن الإنسان يعاني من جملة النقائص والتقصيرات ؛ مما يجعله يشعر بالحاجة الماسة إلى الأولاد لكي يتلافى بهم ما ينقصه، ويتدارك بهم ما هو قاصر عن إدراكه وحده، غير أن هذا القياس بالنسبة إلى الله باطل محض .

إن نظام المخلوقات في ذاته رد صارخ على مثل هذا الخالق، فإن الله الذي يشهد له نظام المخلوقات الكوني إله كامل في ذاته إلى أقصى حد الكمال، وهو منزه عن العيوب

يَنظُرُ إِلَيْكَ: يعاين دلائل نبوتك الواضحة .

الذين لا يؤمنون هم عند الله مفسدون؛ إذْ لا يمكن أن يمتنع أحد عن قبول الحق إلا بعد أن يكون قد أفسد فطرته وشوهها، ومثل هذا الشخص يكبت صوت ضميره، ولا يستخدم عقله وقوة تفكيره، ويعرض عن الدلائل الواضحة استناداً إلى ألفاظٍ كاذبةٍ، وهو يستمع ولا يسمع، ويفهم ولا يحاول أن يعي، وهو بالتالي يؤثر مصالحه الذاتية ونوازعه العصبية على تلبية نداء الحق!!

المولعون بالجدل والمناظرة يأبون إلا أن يواصلوا جدالهم العقيم حتى الساعة الأخيرة، وهم لذلك يعتبرون النطق بجملة كهذه: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ بمثابة التسليم بهزيمتهم، إلا أن الداعي إلى الحق يعمل مترفعاً عن دواعي الانتصار والهزيمة، ومن ثم فإذا وجد مخاطبه وقد لجأ إلى العناد والتعنت والمكابرة، ولم يعد لاستمرار الحديث معه أي معنىً أو جدوى سوى إضاعة الوقت، بادر بإنهاء النقاش قائلاً بأن القضاء الحقيقي بيد الله، وأن الكل سيلقى عند الله تعالى مصيره تبعاً لوضعه الذي سيكشف عنه الميزان الإلهي !

ومن المنكرين للحق طائفة تعلن صراحة عن كونها منكرة منذ البداية ، غير أن هناك أقواماً أكثر دهاءً ؛ يتظاهرون بالإصغاء إلى القول كما لو أنهم يريدون حقاً أن يفهموه، بينما تضمر قلوبهم التصميم على عدم تفهمه على أية حالٍ ، كما أنهم ينظرون إلى الآيات الدالة على صدق الداعي كما لو أنهم يرغبون في مشاهدتها بأعين مفتوحةٍ وقلوب صافية، بينما تكون عقولهم قد قررت مسبقاً بعدم تناولها بالرؤية ولا بالاعتراف بها، وربما يحسن الداعي الظن بأمثال هؤلاء، فيأمل في هدايتهم، ولكنهم عند الله أناس أصبحوا صماً وعمياناً رغم تمتعهم بالآذان والأعين، ولا يكتب لأمثال هؤلاء التوفيق من الله للاهتداء إلى الحق أبداً .

لقد منح الإنسان قوىً وصلاحيات رائعةً جداً، ولو أنه استخدم هذه الصلاحيات

لما ضل طريق الحق والخير أبداً، غير أن الإنسان يقع في سوء فهم ؛ إذْ يجد نفسه حراً طليقاً، فيأخذ في التمرد والطغيان بدون وجه حقٍ، وإنما هو يفعل ذلك لكونه لم يفهم منهج الله؛ فالشيء الذي أتيح له على وجه الاختبار والابتلاء، قد اعتبره حقاً ذاتياً له !

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

بِالْقِسْطِ: بالعدل في الدنيا أو يوم الجزاء .

ليست الآخرة اليوم ماثلةً أمام الإنسان، ويحتاج الرائي اليوم أن ينظر إليها بمنظار التصور ؛ولذا فإن الشخص الذي لا يكون جاداً بالنسبة إلى الآخرة، تبدو له وكأنها شيء بعيد، ولكن حين تدهم الآخرة الإنسان كحقيقة كبرى، ويأخذ ينظر إليها بكل خطورتها وأهوالها، فإنه سيذهل حينئذٍ عن عناده وطغيانه الحالي، وستتراءى له لمحات الدنيا ضئيلة وتافهة جداً، تلك التي كان قد وقع من أجلها في الغفلة، ولم يكن يستعد حتى لمجرد التفكير في شأن الآخرة، والآخرة لن تقع في عالم غريبٍ مجهولٍ، بل ستقع في عالمٍ مألوفٍ ومعروفٍ لدينا تماماً، فسيجد المرء نفسه هناك في البيئة نفسها التي كان قد أنكر فيها الحق من ذي قبل، وسيرى فيما حوله أولئك الذين كان يمارس البغي والطغيان اعتماداً عليهم، غير أنهم لا يغنون عنه شيئاً، وسيتجدد حينئذٍ في ذهنه كل شيء كأنه حادث الآن ولم تمض عليه أية مدةٍ من الزمان !

إن قضية الداعي والمدعو هي أخطر القضايا القائمة تحت أديم السماء، ولو أن الداعي كان قد نهض بالحق في واقع الأمر، فإنه ممثل الله في هذه الدنيا، وبالتالي فالإقرار به هو الإقرار بالله، وإنكاره إنكار لله، وإن واقعةً كهذه لن تكون خاليةً من المصير أو

العاقبة ؛ ففي أعقاب ظهور الداعي إلى الحق يحدث بالضرورة أن يصير كل الناس مجردين عن أي دليل يقاومون به الكلام الرباني الذي يجري على لسانه، وهذا أول انتصارٍ يحرزه الحق على الباطل، والانتصار الثاني سيتم في الآخرة، حيث سيقف معارضوه بإذن الله تعالى، عاجزين مكتوفي الأيدي أمامه، إن الواقعة الأولى لابد وأن تحدث في هذه الدنيا ، وأما الواقعة الثانية فقد تحدث هي الأخرى في العالم الراهن بصفة جزئية، فيما إذا شاءت إرادة الله إحداثها فيه، وإنه لابد لكل طائفةٍ من أن تمر بمرحلةٍ تقف فيها بين يدي ممثل الله في العالم الراهن على نحوٍ مباشرٍ، قبل أن تقف بين يدي الله تعالى مباشرةً، وهكذا يرى الله - سبحانه وتعالى - مَنْ الذي يسلم نفسه إلى الله في وقتٍ مازال الله فيه وراء الغيب، ومَنْ الذي لا يفعل ذلك، وللصنف الأول الجنة، وللصنف الأخير نار جهنم !!

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

أَرَأَيْتُمْ: أخبروني عن عذاب الله .

بَيَاتاً: وقت بيات أي ليلا .

آلآنَ: آلآنَ تؤمنون بوقوع عذابه .

الإنسان يجد نفسه في العالم الراهن حراً ؛ فهو يرى ظاهراً أنه يفعل ما يشاء، ولا أحد هناك يبطش به أو يعاقبه على فعله، وهذا الوضع يوقعه في الغفلة، حتى إن داعية الله حين يحذره من عاقبة عمله الوخيمة، يستهزئ به ويسخر منه قائلاً : متى سينزل بنا هذا

العذاب الذي جئت تنذرنا به على طغياننا؟!

ومصدر مثل هذه الأقاويل ليس إلا الغباء وسخافة العقل ؛ لأن عذاب الله لن يأتي من قبل الداعي إلى الحق نفسه، بل من عند الله تعالى، والله - سبحانه وتعالى - ينبئنا كل حينٍ وآنٍ، من خلال الأحداث الجارية في كونه بأن منهجه ليس منهج التعجيل أو الإسراع .

لو كان هناك ثقب في جانب من جوانب سفينةٍ ما، وألقى بها أحد النواتي في البحر غير مكترثٍ بذلك الثقب، فإن سنة الله تقضي بأن تغرق مثل هذه السفينة في الماء لا محالة، إلا أن سفينة كهذه لا تغرق على الفور، بل هي تغرق في حينها تبعاً للسنة الإلهية .. إن أمثلة من هذا النوع كثيرة منتشرة في كل أرجاء الوجود، وهي تعرف الإنسان بالسنة الإلهية، ولكنه - بالرغم من مشاهدتها مرةً وأخرى - يقول : إن كانت هذه الأعمال التي نمارسها تستلزم عذاب الله، فماذا يؤخر ذلك العذاب عنا، ولم لا ينزل بنا على عجلٍ وفي أسرع ما يمكن من الزمان؟! وإنما يبعث الإنسان على هذا القول عدم جديته بشأن البطش الإلهى .

إن الزلازل والطوفانات وقائع إلهية، وهذه الوقائع تدل على أن الأمر حين يكون بين الله وبين الإنسان، فإن الخيار كله إنما يكون في يد الطرف الأول وحده، غير أن الإنسان لا يقف عندها وقفة تدبر واعتبار، وإنما هو ينظر فقط أن سنة الله لا تنشط أو تتحرك من فورها، وبما أنها لا تتحرك فوراً، فهو لا يزال أسير الغفلة واللامبالاة، ولكن حين يأتي أمر الله، فسيُضطر الإنسان عندئذٍ إلى أن يعترف بكل شيءٍ لكونه عاجزاً لا يملك إزاءه شيئاً من حولٍ وحيلةٍ، بينما الاعتراف وقتئذٍ لن يُغني عنه فتيلاً ؛ لأنه سيكون موعد نيل جزاء العمل دون مباشرة العمل!

﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾
وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟

ٱلۡعَذَابَ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾

وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ: يستخبرونك مستهزئين عن العذاب

إِي وَرَبِّيٓ: نعم وربي .

أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ: بفائتين من عذاب الله بالهرب.

وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ: أخفوا الغم والحسرة.

لما حذر رسول الله ﷺ كفار العرب قائلاً بأنكم إن لم تبادروا بإصلاح أنفسكم فسوف تتعرضون لعذاب الآخرة، فلم يلبثوا أن راحوا يستهزئون بتحذيره ويسخرون منه .

الإنسان كائن جد حساس ؛ لا يطيق تحمل الألم، وإنه لا يزال يستهزئ بالحق ويرفضه باستغناء تام، ما دام لا يتعرض في هذه الدنيا لعذابٍ ولا عقابٍ، ولكن عندما يواجهه عذاب الآخرة، ينتابه هلع وخوف ينخلع معه قلبه، ويبدو له كل شيءٍ حقيراً تافهاً، حتى إن كان لديه يومئذٍ ثروات الدنيا وخيراتها كلها، فإنه سيراها بإزاء العذاب غير ذات قيمة لدرجة أنه يود لو دفعها برمتها ليتخلص من ذلك العذاب المؤلم !!

غير أن مسألة الآخرة ليست مسألة مساومةٍ، إنما هي مسألة لقاء كل نفسٍ جزاء ما كسبت جزاءً وفاقاً، وإنها لجزء لا يتجزأ من خطة الله التي رسمها عن الحياة والموت، ويقتضي العدل الإلهي أن ذلك يجب أن يكون، والقدرة الإلهية كفيلة بأن ذلك كائن لا محالةَ.

وما يحول دون تحقق هذا كله سوى ذلك الموعد المحدد الذي بحلوله تنتهى فترة الامتحان الراهنة، وبالتالى سيحضر البشر جميعاً بين يدي ربهم لسماع قضائه عن

مصيرهم النهائي! .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

أَرَأَيْتُم: أخبروني .

أَذِنَ لَكُمْ: أعلمكم بهذا التحليل والتحريم.

تَفْتَرُونَ: تكذبون في نسبة ذلك إليه .

الإنسان كائن نفسي ؛ وهو يصلح بصلاح نفسيته، ويفسد بفسادها، وإن الهداية التي نزلت في صورة كتاب الله - القرآن الكريم- هي رحمة للإنسان، وهي تتضمن أحسن موعظةٍ له، غير أن الانتفاع بهذه الموعظة يستلزم ألا يكون المرء قد فقد سداد فكره، فالشخص الذي مسخ أو شوّه استعداده لسداد التفكير، ستذهب موعظة الله عنده هباءً منثوراً، ولن تحرك ساكناً لديه البتة !!

إن أشياء العالم الراهن ومباهجه تكون «حاضرة بين يدي المرء، فهو يجرب لذتها وجودتها في كل حينٍ، وفي مقابل ذلك فإن نعم الآخرة لا تعْدو أن تكون مجرد «وعدٍ»، يسمع عنها المرء، دون أن يجربها أو يتمتع بها عملياً في حياته، الأمر الذي يجعل أكثر الناس يتهافتون على أشياء الدنيا الحاضرة، غير أن الشخص الذي يفكر في الموضوع بعمقٍ، سيُسر سروراً عظيماً بأن الله - بإنزال كتاب هدايته - قد فتح باب الحصول على النعم الأبدية.

كل ما أعطى الله الإنسان، سواء كان في صورة المحاصيل الزراعية أو في صورة أخرى سواها، هو من رزق الله المسخر له، ولو أن المرء نظر إلى هذه الأشياء على أنها عطاء الله، وتصرف فيها تبعاً للمنهج الذي أرشد الله إليه، لاستيقظت في داخله عواطف الشكر والامتنان لله، ولكن الشيطان يحاول دوماً أن يقلب هذه النسبة، حتى يعود الإنسان عند استعماله هذا «الرزق»، لا يتذكر الله، بل يتذكر الأشياء الأخرى عداه .

ففي العصر القديم عمل الشيطان على ترويج مراسم وطقوس خرافية لإرضاء الآلهة والمعبودات الخيالية بشأن الزروع والثمار، لكي يتناولها المرء وهو يذكر هذه الآلهة والمعبودات دون الله، كما حقق الشيطان هذا الغرض نفسه في العصر الحديث عن طريق التفسيرات أو التعليلات المادية، حيث إنه يصور للناس ما يحصل لهم عند الله على أنه من معطيات العوامل المادية، حتى إذا ظفر الناس به لم يعدّوه رزقاً من الله، بل ظنوه مجرد نتاج تفاعل عناصر المادة!

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾

تَكُونُ فِي: في أمر هام معتنى به .

تُفِيضُونَ فِيهِ: تشرعون وتخوضون فيه.

وَمَا يَعْزُبُ: ما يبعد وما يغيب .

مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ: وزن أصغر من نملة أو هباءة.

الدعوة هي أشق عملٍ من أعمال هذه الدنيا، فإن حامل رسالةٍ ما لا يكون داعياً إليها إلا بعد أن يسخر وجوده كله للعمل الدعوي، والمرحلة الأقسى والأشد وطأةً من ذلك هي التي يواجهها من قبل المخاطبين، فحين يعرض الداعي دين الله في صورته النقية الخالصة، ويقيم على صدقه أوضح الأدلة والبراهين، فلا يلبث أن يثور جميع أولئك الذين كانوا يتظاهرون بالتدين على أساس دينٍ مزعومٍ خلعوا عليه شعار الدين الإلهي، أو الذين يحتلون مركز الإمامة الدينية، وبالتالي يتصدون لإخضاع الداعي والتغلب عليه بكل حول وحيلةٍ، ويستحلون للوصول إلى هذا الغرض كل شيءٍ، حتى الدعاية الكاذبة، والمؤامرات الخسيسة، والإجراءات العدوانية العنيفة، وما إلى ذلك .

إن حرية التصرف المتاحة في العالم الراهن تجعلهم لا يتحرجون من اتخاذ أية خطوةٍ جائرةٍ ضد الداعي، ومن اللجوء إلى أية وسيلةٍ دنيئةٍ للنيل منه .. ويصل هذا الوضع إلى حدٍ تتركز معه قوة الدليل كلها في جانبٍ، بينما تتركز القوى المادية كلها في جانبٍ آخر .

إن من المستحيل ألا يقف الله إلى جانب الحق .. إن صيرورة المعارضين مجردين عن الدليل، وتركز قوة الدليل كلها في جانب الداعي وحده، مما يثبت أن الله مع الداعي وليس مع الطائفة الثانية؛ لأن الدليل ممثل الله في العالم الراهن ؛ فمن كان معه الدليل كان الله معه!!

وإنما تسنح فرص العدوان لمعارضي الحق بسبب تلك الحرية التي أتيحت لهم من أجل الامتحان، فعندما تنقضي فترة الامتحان ينقلب الوضع تماماً، وستكون العزة والغلبة حينئذٍ لمن كان قائماً على أساس الدليل، وأما الذين كانوا خلواً من الدليل، فسوف لا يظفرون هناك بشيء سوى الخزي والخيبة والفشل .

إن طائفة دعاة الله الصادقين هي طائفة أولياء الله، ويبشرهم الله في الآخرة بحياة أسمى وأرقى لن يكدر عليهم صفوها أي حزنٍ أو حسرةٍ على ماضي حياتهم،ولا أي

همٍ أو خوفٍ من مستقبل حياتهم!

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

إن القهر والغلبة له تعالى في ملكه .

مَنْ الذى يمسك السموات والأرض، ويقوم بتدبير الأمر وتصريف الشئون فيما بينهما؟

إن هذا أحد الأسئلة الرئيسية التي شغلت أذهان الباحثين عن الحقيقة في كل العصور، غير أن الجواب الصحيح عن هذا السؤال لا يمكن الوصول إليه إلا إذا استطاع الإنسان أن ينظر إلى ما وراء الطبيعة، وبما أن أحد الناس لا يتمتع بعين تنظر إلى ما وراء الطبيعة، لذا يكون كل جوابٍ من أجوبته التي يتوصل إليها بعد جهدٍ جهيدٍ، قائماً على أساس الحدس والقياس وليس على أساس علمٍ حقيقيٍ !

والمتكلمون عن علم حقيقيٍ في هذه الدنيا إنما هم أولئك الذين يسمون «الأنبياء» ليس غير، إن هؤلاء صفوة من الناس يقوم بينهم وبين العالم العلوي اتصال مباشر ؛ حيث يخبرهم الله تعالى بالحقيقة؛ ولذا فإن علم النبي إنما هو العلم الوحيد في هذه الدنيا، الذي يمكن الاعتماد عليه على وجه اليقين .

ومع أننا لا نملك أي وسيلة مباشرةٍ لمعرفة صدق دعوى الأنبياء، إلا أن هناك وسيلةً غير مباشرة لذلك، وهي تتمثل في آيات الكون، فهذه الآيات تصدق تصديقاً عملياً بتلك الحقائق المعنوية التي بيّنها الأنبياء والمرسلون .

وعلى سبيل المثال فنحن نشاهد أن الليل والنهار يتعاقبان على أرضنا هذه ، الواحد

تلو الآخر بانتظام، وهذا الدوران ينشأ عن نظام محكم ومنضبطٍ للغايةِ، بحيث لا يعتريه أي خلل أو اضطراب أبداً، ونلاحظ أن هذا الدوران ملائم لحياتنا فوق الأرض إلى حدٍ يدعو إلى الدهشة والإكبار، ويبدو واضحاً أن هناك خطةً هادفةً وراء هذا النظام الكوني البديع، إن هذا الوضع دليل ناطق على وجود قادرٍ مطلقٍ ورحمانٍ ورحيم يخبرنا الأنبياء عنه، ويدعوننا إلى الإيمان به !

والذين يتبعون «الشركاء» بحسب زعمهم، سواء أكانوا الشركاء الإلهيين القدامى، أم الشركاء الماديين المحدثين، ليسوا بمتبعي أية حقيقةٍ واقعيةٍ، بل هم متبعون لظنونهم وقياساتهم وحدها، وإن الكون بأكمله يصدق بالحقيقة التي تم إعلانها عن طريق الأنبياء، ولكن ليس هناك من أحد يصدق بها يدعيه «المشركون» !

﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

سُبْحَانَهُ: تنزيها له تعالى عما نسبوه إليه .

سُلْطَانٍ: حجة وبرهان .

إن زعم البنين والبنات لله مصدره قياس الذات الإلهية على الإنسان .. إن الإنسان يعاني من جملة النقائص والتقصيرات ؛ مما يجعله يشعر بالحاجة الماسة إلى الأولاد لكي يتلافى بهم ما ينقصه، ويتدارك بهم ما هو قاصر عن إدراكه وحده، غير أن هذا القياس بالنسبة إلى الله باطل محض .

إن نظام المخلوقات في ذاته رد صارخ على مثل هذا الخالق، فإن الله الذي يشهد له نظام المخلوقات الكوني إله كامل في ذاته إلى أقصى حد الكمال، وهو منزه عن العيوب

والنقائص من كل نوع ، ولو أن الله لم يكن كاملاً في ذاته، ولو أنه كان إلهاً ذا عيوب ونقائص، لما تمكن أبداً من أن يصنع كوناً بديعاً مثل كوْننا، ولا استطاع إدارته وتسييره، كما نراه يسير بمنتهى الدقة والانضباط والتوازن .

ومعنى ذلك أن مفهوم الإله الواحد الذي يدعو إليه النبي، هو إله تتضافر آيات السموات والأرض كلها على إثبات وجوده، ولكن مفهوم الإله الذي كوّنه المشركون، لا يوجد له أي دليل في الكون الحالي، ومن الظاهر الآن أن الاعتقاد في إلهٍ بلا دليل هو في ذاته دليل على أن أصحابه لن يفلحوا أبداً، لأن الإله الذي لا وجود له أصلاً، كيف سيأتي لنجدة أحدٍ، وكيف سيسعد أحداً في الحياة وبعد المهات .. إن الإله الذي هو موجود في الحقيقة، لا يؤمن به المشركون، بينما الإله الذي يؤمنون به هو غير موجودٍ في أي مكانٍ، فلا أمل إذًا فى أن يُكتب للمشركين النجاح في الكون الحالي، وإنما المصير الوحيد المقدر لهم هو أن يصبحوا آخر الأمر عاجزين لا يملكون قوةً ولا يجدون نصيراً، ويتجرعون مرارة الذل والفشل ولا يتخلصون منه إلى الأبد !!

إن إعطاء نعمةٍ عظيمةٍ كالعقل للإنسان يقتضى بطبيعة الحال أن تكون مسئوليته هي الأخرى عظيمة، وللسبب ذاته كان إنكار الحق أكبر جريمةٍ عند الله تعالى، إن الحق - إذا قام عليه الدليل القاطع - تعين على المرء أن يعترف به لا محالة، ولو أنه قابل الحق بالإنكار، بعد أن تم إثباته عقلياً، فإنه يرتكب جريمةً لا تغتفر، فإذا كان الله قد منح الإنسان عقلاً يمكنه من أن يعرف حقيقة الحق وبطلان الباطل، فماذا عساه يعتذر به بعد ذلك عند الله سبحانه وتعالى ؟!

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى

ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

كَبُرَ عَلَيْكُم: عظم وشق عليكم .

مقَامِي: إقامتي بينكم دهرا طويلا .

فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ: اعزموا وصمموا على كيدكم .

وَشُرَكَاءَكُمْ: مع شركائكم .

غُمَّةً: ضيقا شديدا ، أو مبهما ملتبسا .

وَلاَ تُنظِرُونِ: لا تمهلوني .

وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ: يخلفون المغرقين .

سيدنا نوح - عليه الصلاة والسلام - نبي عصرٍ سحيقٍ في القدم، وقد ظل شعبه يقابله بالحفاوة والتكريم ما دام صامتاً، ولكنه لم يكد يقوم داعياً إلى الحق، مرشداً للناس إلى ما ينبغي لهم، وما لا ينبغي من قولٍ وفعلٍ، حتى صار عندهم رجلاً بغيضاً ثقيل الظل، مما دفعهم إلى أن يهددوه قائلين: وإنك إن لم تنْته عن إزعاجنا بهذا التبليغ والتذكير فلن نسمح لك بالبقاء في أرضنا ولنطردنك من أقطارها طرداً .

فقال سيدنا نوح - عليه الصلاة والسلام - إنكم تعتبرون أمري أمراً بشرياً، ولذا تقولون مثل هذا القول، غير أن هذا الأمر أمر إلهي، وقتالكم معي سيضطركم إلى القتال مع الله، ولكي تتأكدوا من صدق ما أقول بإمكانكم أن تقوموا بتجربةٍ، وهي أن تدبروا أنتم بالتعاون مع أنصاركم و شركائكم أجمعين، أية خطوةٍ جماعيةٍ ضدي، ثم نفذوها بكل قوتكم تنفيذاً فورياً، وسترون أن كل خطة من خططكم التي تدبرونها للقضاء علي، تبوء بالفشل الذريع .. إن معيار صدق الداعي إلى الحق في العالم الراهن هو أنه يوفق لإنجاز عمله وأداء واجبه في كل الظروف والأحوال، وأن أية محاولةٍ ترمي

إلى إخضاعه أو القضاء عليه لا تكلل بالنجاح البتة !!

إن الشخص الذي يبعث من عند الله للقيام بدعوة الحق، ليقوم دوماً على أساس الآية - أي الدليل - وبما أن الدليل أمر ذهني؛ لذا فالإنسان المحب للظواهر لا يكاد يتفطن إلى عظمته وجلاله، وهو بالرغم من كونه عاجزاً عن دحضه عقلياً لا يلبث أن يرفض الإذعان والخضوع له .

ومن آداب الدعوة التي لابد لداعية الحق من مراعاتها ألا يطالب المدعو بأي نوع من المطالبات المادية أو الاقتصادية ؛ مهما جرّ عليه هذا التنازل الأحادي الجانب من خسائر باهظةٍ، إن طبيعة العلاقة القائمة بين الطرفين هي التي تحتم ذلك، فمن الضروري أن تبقى بينهما علاقة الداعي والمدعو حتى الساعة الأخيرة ولا تتحول إلى علاقة الند القومي والمنافس المادي على أية حالٍ، لقد ظل نوح - عليه الصلاة والسلام يبلغ رسالة الحق حتى أقام الحجة على قومه، ولكنهم - مع ذلك - مازالوا مصرين على التمرد والطغيان، وبالتالي تم إهلاك الطغاة والمتمردين بالطوفان غرقاً، وجُعل مكانهم المؤمنون بنوحٍ ورثة الأرض ليسكنوها ويعمروها، وهذا ما يُسمى في اصطلاح القرآن بـ ((الخلافة أو الاستخلاف))، فقبل الطوفان كان قوم نوحٍ خلفاء الأرض، وفي أعقاب الطوفان عُهد بخلافة الأرض إلى المؤمنين بسيدنا نوحٍ - عليه الصلاة والسلام.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

نَطْبَعُ: نختم .

أطلقت هذه الآية اسم ((المعتدين)) على أولئك الذين إذا ما أنكروا الحق مرةً واحدةً، جعلوا من ذلك مسألة كرامتهم أو اعتبارهم الذاتي؛ فلا يزالون يهملونه ويعرضون عنه، خشية أن تتضعضع ثقة الناس - إن هم قبلوا الحق - بكونهم محقين وعلماء أسرار الدين!!

والذين يتبنون مثل هذا الموقف يُعاقبون في هذه الدنيا بالطبع على قلوبهم، يعني أن نفسياتهم تفقد شيئاً فشيئاً من رهافة إحساسهم نحو الحق، حتى تصاب، آخر الأمر، بالتحجر والجمود، وبالتالي فهم لا يعودون يشعرون بلهفة ما بشأن الحق وغير الحق، لكي يتقدموا نحو الأول متخلين عن الأخير، إن تاريخ سيدنا نوحٍ ومعظم الأنبياء المرسلين من بعده يصدق هذا الواقع .

وأي داعٍ إلى الحق حينما يقيمه الله تعالى، فلا يكون محاطاً بأي نوعٍ من العظمة أو الأمجاد الظاهرية، وإنما الشيء الوحيد الذى يملكه هو الدليل وحده، فالذين يعترفون بالحق في لغة الدليل، هم الذين سيعترفون بداعية الحق، وأما الذين لا تتمكن لغة الدليل من التأثير عليهم، فإنهم يظلون محرومين من معرفة الداعي إلى الحق ومن الانضواء تحت رايته معاً !

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

لِتَلْفِتَنَا: لتلوينا وتصرفنا .

لم يؤمن فرعون وأشراف قومه، بسبب عقليتهم الإجرامية، بما جاء به موسى وهارون - عليهما السلام - حيث إنهم كانوا ينظرون إلى الأشياء ويحكمون عليها بمعيار الجاه والسلطة بدلاً من معيار الدليل والبرهان، وقد اعتبروا أنفسهم، بناءً على هذا المعيار المزعوم، أعظم شأناً وأرفع قدراً من موسى وهارون، وبالتالي فقد حالت نفسيتهم هذه دون قبولهم للحق الذي كان يعرضه عليهم رجل صغير ضئيل الشأن في

أعينهم !

ولما عجز فرعون عن فهم كلام موسى المدعوم بالأدلة والبراهين الواضحة، أظهر موسى أمامه معجزات العصا واليد البيضاء، ولم يكن لدى فرعون شيء يقاوم به هذه المعجزات الباهرة، فانطلق يقول : إن هذا لسحر مبين، وهكذا حاول فرعون أن يستر هزيمته وراء تبريرٍ كاذب، وأوهم الناس بأن قضية موسى ليست قضية الحق، بل هي قضية السحر، وصحيح أن السحر يماثل المعجزة بعض المماثلة الشكلية، ولكن سرعان ما يظهر للعيان جلياً أن السحر لم يكن إلا شعوذةً، وبالمقابل فإن المعجزة تفوز بنجاحٍ دائم لا يزول، وهكذا يقوم الدليل نهائياً على كون السحر سحراً وكون المعجزة معجزةً.

ولكي ينفر الناس من دعوة موسى عليه السلام قال فرعون في هذه المناسبة شيئين آخرين : أحدهما: قوله عن موسى بأنه يريد أن يصرفنا عن الدين الذي توارثناه عن آبائنا، وقد كان ينبغي لفرعون أن يحاول فهم رسالة موسى عليه السلام في ضوء مصطلحي الحق والباطل، ولكنه فحصها بالمقياس الآبائي وغير الآبائي، وكان السبب في ذلك أنه لو نظر في الموضوع في ضوء معيار الحق والباطل لوجد نفسه مضطراً إلى الاعتراف بأنه مبطل، بينما كان يجد مبرراً للبقاء على موقفه عبر تقسيم الأمر إلى الآبائى وغير الآبائى !!

والشيء الثانى الذى قاله فرعون هو : أن موسى وهارون يرغبان في أن يفرضا كبرياءهما على أرض مصر، وهذا أيضاً لم يكن سوى ((فقفشة سياسية)) قُصد بها تهييج الجماهير وإلهاب مشاعرها، فإن سيدنا موسى عليه السلام كان قد أوضح لفرعون، ومنذ أول لحظةٍ، أن هدفه يتمثل أولاً في أن يبلغ فرعون رسالة الله، وثانياً في أن يخرج بني إسرائيل من مصر، ليذهب بهم إلى صحراء سيناء، وفي هذه الحالة فقد كان القول بأنه يخطط للاستيلاء على حكومة مصر تُهمة لا أساس لها !

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

لم يكن استدعاء فرعون السحرة الماهرين لكونه يظن أن بإمكانه أن يهزم موسى ويتغلب عليه بواسطة هؤلاء السحرة، لقد كان هذا - بالدرجة الأولى - نتيجة عناد فرعون الزائد ورغبته الجامحة في الإصرار على إنكار موسى، ولم يكن بأي قرارٍ عقلي جادٍ، فقد كان فشل الخطة الرامية إلى هزيمة رسول الله وإحراز الغلب عليه بواسطة السحرة واضحاً معلوماً منذ البداية، ولكن المرء حين لا يكون راغباً في التسليم بحقيقة ما، فإن رغبته هذه تذهب به إلى حدٍ يحاول معه أن يقاومها بالتدابير السخيفة الحمقاء محاولةً فاشلةً، شأنه في ذلك شأن من يقيم سداً من الرمل أو القش في مواجهة سيل جارفٍ ؛ مع العلم بأن لا حقيقة للقش أمام السيل!

ومن ثم فقد كان ما لم يكن منه بد ؛ إذْ رمى السحرة بما جاءوا به من حبالٍ وعصيٍ في الميدان، فتراءت للناظرين وكأنها حيات تزحف وتتلوى، وبعدئذٍ ألقى سيدنا موسى عصاه التي تحولت بدورها إلى ثعبانٍ عظيم، أخذ يسعى في الميدان، ولم يكن «ثعبان» موسى هذا مجرد ثعبانٍ، بل كان قوةً من الله ظهرت لإحقاق الحق وإبطال الباطل، فعندما برزت استحالت حيات السحرة حبالاً وعصياً كما كانت من ذى قبل!!

وتلك هزيمة لقيها فرعون في الميدان الذي كان قد اختاره بنفسه، ولكن فرعون - مع ذلك - لم يعترف بهزيمته، حيث إنه لم يلبث أن بحث عن ألفاظٍ أخرى للرد على سيدنا موسى تماماً كما كان قد عثر على بعض الألفاظ للرد عليه في المرحلة الأولى !

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن

يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

أَن يَفْتِنَهُمْ: أن يبتليهم ويعذبهم .

لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً: موضع عذاب .

إن اعتناق فكرة جديدة يتسبب دوماً في تعرض المرء لشتى المشاكل والصعوبات الجديدة في مجتمعه، وللسبب ذاته فإن المتقدمين في السن كثيراً ما يقفون موقف الحذر والاحتياط من قبول أية فكرة جديدة، فإن الكبار تتغلب على أذهانهم المصلحة بفعل عوامل مختلفة، مما يجعلهم لا يبادرون إلى مناصرة الفكرة الجديدة رغم اعترافهم بصحتها .

أما الشباب فإنهم لا يكونون - عادةً - أسرى المصالح من هذا النوع، ولذا فلقد حدث دائماً وعلى امتداد التاريخ البشري أن غالبية المبادرين إلى اعتناق أية دعوةٍ جديدةٍ كانت من أولئك الذين لم تتقدم بهم السن بعد، وقد حدثت الظاهرة نفسها مع سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام .

وقد كان الشبان المناصرون لسيدنا موسى ﷺ يحسون خطراً على أنفسهم من فرعون، كما أنهم لم يلقوا أي تشجيع من قبل كبار قومهم، ومع أن هؤلاء الكبار كانوا يقرون بنبوة سيدنا موسى، إلا أنهم لم يكونوا يريدون - لرجحان جانب المصلحة عندهم - أن يتحمس أبناؤهم وبناتهم لتأييد موسى ومناصرته، فيتعرضوا، نتيجةً لذلك، لظلم فرعون الطاغية واضطهاده .

على أن وضعاً كهذا لا يقتضي أن يلوذ المرء بالصمت خوفاً من قهر المعارضين للحق، بل ينبغي عليه أن يتوجه ببصره نحو النصرة الإلهية في مواجهة المعاكسات

البشرية، وأن يهب بالتالى - معتمداً على الله واثقاً به - لمناصرة الحق الذي كان يجد نفسه عاجزاً عن القيام بمناصرته وحده!

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا: اتخذا واجعلا لقومكما.

قِبْلَةً: مساجد نحو الكعبة .

اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ: أهلكها وأذهبها ، أو أتلفها .

معنى القبلة في لغة العرب هو المرجع أو مركز التوجه، وقد أُريد بجعْل البيوت قبلةً هنا أن يخصص بنو إسرائيل بعض البيوت في قراهم أو بعض الأجزاء المناسبة من هذه البيوت، لكي يستخدمها سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - كمراكز لكفاحه الديني، بحيث تُعقد فيها اجتماعات تنظيمية، وتدور المشاورات حول الأمور المهمة، ويتم التخطيط الصامت للعمل الدعوي، وما إلى ذلك من أغراضٍ ومقاصد دينية .

لقد كانت أحاديث سيدنا موسى عليه السلام عن التوحيد والآخرة، مثار الكراهية والاستياء الشديدين لدى فرعون ملك مصر، حيث كان قد فرض عليها قيوداً والتزاماتٍ قاسيةً جداً؛ حتى صار القيام بالأنشطة الدينية علناً أمراً متعذراً عليه، فأمر الله -سبحانه وتعالى - حينئذ بأنه ينبغي لكم الآن أن تحصروا عملكم في أقرب المجالات وأيسرها متناولاً، بدلاً من الاصطدام بفرعون وجنوده، فلتتخذوا في مساكنكم مراكز دعوية وتنظيمية صغيرةً، ولتواصلوا عملكم على هذا النطاق المحدود في صمتٍ كاملٍ ... أما الحكم الثاني الذي أُمروا به في ظل تلك الظروف القاسية فهو إقامة الصلاة ؛ أى المبالغة فى الاهتمام بتأدية الصلوات والإكثار منها ؛ لتوطيد الصلة بالله تعالى وطلب النصر والعون منه، والصلاة هي في الواقع وسيلة لطلب نصرة الله

بالتقرب إليه، فإن العبد بانشغاله في الصلاة يصل بنفسه إلى مقام العجز والتواضع، والعجز والتواضع هو وحده المقام الذي يتم فيه اللقاء بين العبد وربه، وليس هناك من موضع آخر سواه لالتقاء العبد بربه !!

وقد كان إنجاز هذا البرنامج العملي منطوياً على سر فلاحهم ونجاتهم، وكأن إرشادهم إليه بشارةٌ لهم بأن الله سيخلصهم قريباً من تلك الحالة السيئة التي سلطها عليهم أعداؤهم!

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلاً فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ: اطبع عليها.

إن الذين يهتمون للآخرة ؛ ربما يتخلفون في جمع الأسباب والأمتعة الدنيوية عن أولئك الذين ينشغلون بكل وجودهم في الحصول على الدنيا، غير مهتمين للآخرة، فالنقص الدنيوي ثمن توجيه الاهتمام نحو الآخرة، والوفرة الدنيوية هي ثمن الغفلة عن الآخرة.

وبالإضافة إلى ذلك فإن مَنْ تتوفر لديه كميات ضخمة من زخارف الدنيا ومتاعها، يُصاب بمركب الاستعلاء، وتكون النتيجة أن أمثال هؤلاء يفقدون الاستعداد ليعرفوا الحق المعلن على لسان أحدٍ سواهم، فيأخذوا أنفسهم بالخضوع والإذعان له، ولو أنهم اعتبروا ما يمتلكون من وسائل وأسباب هبة الله، لاستخدموه في سبيل تدعيم الحق، إلا أنهم يعدونه نتاج مهاراتهم ومؤهلاتهم الذاتية، مما جعلهم يستخدمونه للإجهاض على الحق وأهله حفاظاً على كبريائهم وعلو مكانتهم في المجتمع!!

ومعنى قوله : ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ أنهم اتخذوا مما أعطاهم الله من مالٍ وأسبابٍ ذريعةً لإبعاد عباد الله عن الله، ووظفوه في خدمة الباطل بدلاً من توظيفه في خدمة الحق.. وقد تغير هنا أسلوب الكلام لأجل التأكيد على هذا المعنى .

لقد عرض سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - دعوة الحق على فرعون وأصحابه، وحاول تقريبها إلى أفهامهم باستخدام مواهبه العليا والمعجزات الباهرة التي أيده الله بها حتى قامت عليهم الحجة وانقطع عنهم العذر، وبالرغم من ذلك لم يؤمن فرعون وأصحابه برسالته - عليه الصلاة والسلام - وحينئذٍ دعا سيدنا موسى عليهم فقال: «يارب: أنزل عليهم العقوبة التي يستحقها الطغاة أمثالهم تبعاً لسنتك ..»، إن دعاء النبي على قومٍ في مثل هذه المناسبة يكون إعلاناً عن قضاء الله نفسه، يجري على لسان ممثل الله عز وجل!!

وقد استجاب الله لدعاء سيدنا موسى - عليه السلام - ولكن حسبما جاء في بعض الروايات - نقلها الطبري - هناك مسافة زمنية تمتد إلى أربعين عاماً بين دعاء سيدنا موسى وبين هلاك فرعون غرقاً، مما يعني أنه بالرغم من دعاء النبي المستجاب هذا، لم يزل الوضع قائماً كما هو إلى أمدٍ بعيدٍ ؛ بحيث كان سيدنا موسى وأتباعه يجدون أنفسهم عاجزين مقهورين، بينما ظل فرعون وأصحابه - من ناحية أخرى - متمتعين بالسيادة والسلطان والسطوة في طول البلاد وعرضها كسابق عهدهم، وفي هذه الحالة فلو أن المرء لم يكن على علمٍ ودرايةٍ بأن سنة الله تقتضي إمهال الطغاة والمتمردين، لتخلى عن الواجب الأصلي الملقى على عاتقه بدافع الاستعجال، وبالتالى وقع فريسة الضجر والتذمر واليأس من نصر الله!

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ

بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

بَغْياً وَعَدْواً: ظلما واعتداء .

آلآنَ: آلآنَ تؤمن حين أيقنت بالهلاك .

آيَةً: عبرة ونكالا .

بَوَّأْنَا: أنزلنا وأسكنا .

مُبَوَّأَ صِدْقٍ: منزلا صالحا مرضيا .

لقد كانت رسالة سيدنا موسى عليه السلام فى مصر ثنائية ؛ حيث كان يهدف - أولاً - إلى أن يدعو فرعون إلى التوحيد والآخرة .. و- ثانياً - أن يخرج بني إسرائيل من أرض مصر ليذهب بهم إلى بيئة صحراوية، ويقوم على تربيتهم هناك، وبعد أن بذل قصارى جهده في دعوة فرعون إلى الحق، أمره الله تعالى بالخروج مع بني إسرائيل تحت قيادة سيدنا موسى عليه السلام إلى ساحل البحر، ضربه عليه السلام بعصاه، فانشق الماء من وسطه وقام إلى اليمين واليسار كالطود العظيم - على حد التعبير القرآني الوارد في موضع آخر - وإذا بسيدنا موسى وبني إسرائيل من مصر ، وقد كان الطريق إلى صحراء سيناء يعترضه البحر وجدوا أمامهم طريقاً جافاً انتقلوا عبره إلى الناحية الأخرى بتمام السهولة .

وتقدم فرعون مع جيشه نحو الأمام يطارد بني إسرائيل، وعندما وصل إلى حافة البحر وجد موسى وبني إسرائيل يمرون بطريقٍ جافٍ وسط الماء ؛ إذْ كان عرض البحر الفسيح قد انشق عن ممر لسيدنا موسى وأصحابه، وقد كان هذا الحدث آيةً من آيات الله، وكان ينبغي لفرعون أن يتعلم منها أن موسى على الحق، وأن الله معه، ولكنه اعتبر انشقاق البحر حدثاً عادياً بدلاً من أن يعده حدثاً إلهياً، فلم ير فرعون بينه وبين موسى سوى البحر، وكانت نتيجة ذلك أن الحدث الذي كان ينطوي على رسالة الطاعة والإنابة لفرعون لم يتسبب إلا في ازدياده عناداً وطغياناً، فظن أن بإمكانه أن يجتاز البحر

تماماً كما اجتازه موسى وأصحابه، وقد اقتحم فرعون وجنوده البحر تحت عقليتهم هذه .

إن انقسام البحر إلى شقين إنما كان قد حدث لموسى وأصحابه، ولم يحدث لفرعون وأصحابه، ومن ثم فلم يكد فرعون وجنوده يصلون إلى وسط البحر ، حتى تدفق الماء من كلا الجانبين ، وهلك فرعون وجنوده في أمواجه العاتية المتراكمة غرقاً ، وقد أقر فرعون،وهو يغرق بالإيمان ، ولكنه لم يكن ليجدي عنه شيئاً،لأن الإيمان المعتد به عند الله هو الذي يصدر عن اختيارٍ وليس الإيمان الذي يضطر إليه المرء اضطراراً.

إن عاقبة عصيان الله والتمرد عليه هي الهلاك والدمار، وقد كان الإنسان يشاهد أمثلة ذلك مرة وأخرى في عصر الرسالات، بيد أن الله تعالى قد حفظ أمثلة كهذه من الضياع بصفةٍ دائمة لتظل موضع درسٍ وعبرةٍ للإنسان حتى في العصور المتأخرة ؛ إذْ تكون سلسلة بعث الأنبياء قد انقطعت، وأحد الأمثلة التاريخية من هذا القبيل فرعون موسى - رعمسيس الثاني - الذي عثر علماء الآثار على جثته المحنّطة (أي المومياء) في المدينة المصرية القديمة طيبة أو تيبس (Thebes)، وهي الآن معروضة للزوار بمتحف القاهرة.

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

بَوَّأْنَا: أنزلنا وأسكنا .

مُبَوَّأَ صِدْقٍ: منزلا صالحا مرضيا .

لقد كان بنو إسرائيل حملة دين الله فى قديم الزمان، وقد أنعم الله عليهم بأن خلّصهم من عدوهم الغاشم فرعون، ثم ذهب بهم إلى جوّ سيناء الطلق، وهيأ لهم هناك الطعام والشراب وفق نظامٍ خاص، كما أنشأ فيهم جيلاً جديداً يتدفق قوةً وحرارة إيمانٍ عن

طريق تربية صحراوية، وقد فتح هذا الجيل، بعد وفاة سيدنا موسى عليه السلام ملكاً عظيماً، وأقام دولة بني إسرائيل في بلاد خصبةٍ خضراء كالشام والأردن وفلسطين دامت عدة قرونٍ .

وكان يجب على بني إسرائيل كنتيجةٍ طبيعية لهذا الإنعام الإلهي العظيم، أن يظلوا مطيعين لله شاكرين له، وأن يجعلوا من خدمة دين الله هدفاً لحياتهم، ولكنهم لم يلبثوا أن ضلوا عن الصراط المستقيم رغم وجود الهداية الواضحة لديهم، وماذا كان ضلالهم وانحرافهم ؟ إنه كان متمثلاً في الاختلاف الناشئ فيما بينهم، لقد كان عندهم العلم المنزل من عند الله الذي كان هو الحق الوحيد، إلا أنهم اختلفوا في تأويل هذا العلم وتفسيره وتفرقوا بالتالي شيعاً وأحزاباً شتى [١].

إن الأمة – أية أمة – لا تزال متحدة ما دامت مستمسكةً بالدين «العلم» المنزل من عند الله، ولكنها لا تلبث إلا قليلاً حتى تنشب بينها خلافات حادة في تفسير هذا العلم، وبالتالي يتعصب بعضهم لرأي خلافي، ويميل بعض آخر إلى رأي آخر مناقضٍ له تماماً .. وكل أحدٍ يثير زوبعةً من الخطب والمناظرات والمباحثات العقيمة دفاعاً عن مذهبه وإثباتاً لصوابه، ويصل الأمر إلى أن يصبح العلم الأصلي مغلقاً بين دفتي الكتاب، وتنصب الجهود والطاقات كلها على تأويلاته وتفسيراته المزعومة، وهكذا فبالرغم من اتحاد كلمة القوم واتفاقهم على التعاليم الدينية الأساسية تختلف آراؤهم وتتعدد مذاهبهم لانشغالهم في التعاليم الفرعية الهامشية .

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ يبدو معناه : أن الله حين يظهر للعيان يوم القيامة فإن الكل سيذهل يومئذٍ عما كان يختلف فيه، ويبادر إلى الاعتراف بالأمر الذي كان هو الحق الوحيد، ولو أنهم كانوا يخافون الله، لانتهوا جميعاً في يومهم هذا إلى رأي موحدٍ لا خلاف فيه ولا جدال، ولكنهم تفرقوا وانحرفوا إلى سبلٍ شتى

(١) انظر : تفسير النسفي.

لخلو أفئدتهم من خوف الله، فانعدام الخوف ينتج عن تعدد الآراء والمذاهب، والخوف يؤدي إلى اتحاد الآراء والمذاهب !

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

المُمْتَرِينَ: الشاكين والمتزلزلين .

الرسول ينهض بالحق النقي الخالص من كل شوبٍ، وقبول دعوة الحق الخالص يكون صعباً ؛ لذلك فإنه يقابل بالإعراض والهوان .

وحين يرى الداعي هذا الهوان الذي يلقاه الحق في بيئته، فقد يخطر على باله خاطر شكٍ أو ارتيابٍ، فيتساءل فيما بينه وبين نفسه : هل أنا على خطأ؟!

وقد أكدت هذه الآية على ضرورة احتراز الداعي من هذه النفسية ذاتها، ومن أوضح الأدلة على كون هذا الشك خاطئاً أن جميع الأنبياء والدعاة السابقين أيضاً قد مروا بأوضاعٍ مماثلةٍ تماماً على اختلاف الأعصار والأمصار، فالمطلعون على تاريخ الأنبياء السابقين يعرفون جيداً أنه لم يحدث في هذه الدنيا قط أن بُعث نبي في قوم فحظي من فوره بقبولٍ عامٍ، فما الذي يدعو إلى الحيرة أو القلق فيما لو تعرض الدعاة في الأزمان التالية لهذا الوضع نفسه؟!

ولو أن عقل المرء كان يشهد على صدق أمرٍ ما، وهو يتخلى عنه لعدم اعتناء الناس به أو معارضتهم إياه، فإن ذلك بمثابة التكذيب بآيات الله، إن الله - سبحانه وتعالى - إنما يتجلى للإنسان في صورة الآيات (أي الدلائل والبراهين)، ولذا فالشيء الذى قام الدليل على صدقه، يصير الإقرار به من حق الله على المرء، وما ظنك بشخصٍ لا يفي بحق الله هل سيظفر عاقبة الأمر بشيء سوى الخسران والدمار؟!!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾ ﴾

عَذَابَ الخِزْيِ: الذل والهوان.

حين يظهر أمام الإنسان أمر حق ؛ فإن عقله يشهد بأن هذا صحيح لا يتطرق إليه شك، غير أن أخذك بحقٍ ما يفرض عليك أن تدفع له "ثمناً"، والمرء لا تكاد نفسه ترضى بدفع هذا الثمن، حيث إن قبول الحق يعرض مصالحه لخطر الضياع، ويدعوه إلى التخلي عن رأيه واعتباره الذاتي، فهذه المخاوف تشكل عقبةً صعبةً دون قبول المرء بالحق ؛ وبالتالي فإن الشيء الذي كان ينبغي عليه أن يقابله بالحفاوة والاعتراف، إذا به يأخذ يقابله بالإنكار والمعارضة وقد جُعلت نفسية المرء بحيث إنها إذا سارت مرةً في اتجاه، فلا يلبث أن يبدأ ذهنه كله يسير في الاتجاه نفسه، وللسبب ذاته فقلما يحدث أن يرجع المرء إلى الحق ثانيةً بعد ما انحرف عنه مرةً واحدةً ؛ لأنه لا يزال يزداد رسوخاً وتصلباً في موقفه يوماً بعد يومٍ، حتى لا يعود قابلاً للرجوع إلى الحق البتةَ !!

ويستخدم أمثال هؤلاء - في معرض الحديث عن موقفهم - كلمات وعباراتٍ تخيل إليك أن قضيتهم قضية نظرية، إلا أنها لا تعدو في الحقيقة أن تكون مجرد قضية العناد والتعصب والتعنت، يتبنونها حرصاً على مصالحهم الدنيوية ليس غير، ولكن العذاب الإلهي حين يظهر، سيقضى على عناد المرء وغروره هذا قضاءً تاماً، فإن حالة الخوف الطارئة عليه وقتئذٍ ستجبره على الخضوع أمام الشىء الذى كان يأبى الخضوع أمامه فى حالة انعدام الخوف .

وقد حدث مع كل الأنبياء والرسل المبعوثين في القرون السالفة، أن أممهم لم تؤمن بهم حتى آخر ساعةٍ ؛ اللهم إلا إذا أُخذوا بالعذاب فقالوا: ها نحن نؤمن الآن. إنهم لم يعترفوا بالإيمان مادام الله يناديهم بلغة الدليل والبرهان، وعندما أصابهم الله ببعض

ضرباته رفعوا عقيرتهم بالاعتراف والتسليم، غير أن مثل هذا الاعتراف لا عبرة به عند الله تعالى ؛ إذْ الاعتراف المطلوب عند الله هو أن يذعن المرء بدافع الدليل، وليس بدافع القوة!!

لقد بُعث سيدنا يونس - عليه الصلاة والسلام - في نينوى - إحدى مدن العراق القديم - حيث قام بعملية الدعوة والتبليغ، ولكن قومه لم يؤمنوا به، إلى أن هاجر من بلده آخر الأمر تبعاً لما جرت به سنة الأنبياء والمرسلين، مهدداً قومه بأنه سينزل عليهم عذاب الله عما قليلٍ، وفي أعقاب هجرة سيدنا يونس ﷺ ظهرت نُذُر العذاب الإلهي وبوادره، ولكنهم لم يفعلوا في ذلك الوقت ما فعل قوم هودٍ، إذْ رأوا سحاب العذاب قادماً إليهم، فقالوا : ﴿ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ !! بل سرعان ما دب في نفوس القوم دبيب اليقظة والحذر والتنبه، فهرع الجميع بدوابهم ونسائهم وولدانهم إلى الميدان، وأخذوا يدعون الله في ضراعةٍ وابتهالٍ، وبعدئذٍ لم يلبث عذاب الله أن رُفع عنهم، وكما أن الإيمان قبيل ظهور العذاب جدير بالاعتبار، يمكن أن يُعتبر كذلك بالإيمان والعذاب على وشك الحلول ؛ بشرط أن يبلغ ذلك الإيمان من درجة الكمال ما بلغ إيمان قوم يونس!

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ: العذاب والسخط .

معنى قوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ أن الله تعالى كان قادراً على أن يسنّ نظام العالم الإنساني أيضاً على غرار نظام العالم غير الإنساني، حيث كل شيء خاضع لأمر الله أتم الخضوع، غير أن تدبير الله بالنسبة إلى الإنسان،

ليس من هذا في شيء، فإن مشروع الله عن الإنسان هو أن يتم إسكانه في بيئة حرة تتاح له فيها فرصة لكي يقوم بطاعة الله طوعاً، أي تحت قراره الذاتي، ويفعل بمحض اختياره فعل بقية العالم قسراً، فنعيم الجنة الأبدي هو ثمن هذه الطاعة الاختيارية ذاتها.

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ يعنى أنه لن يظفر أحد بنعمة الإيمان في العالم الراهن إلا باتباع السبيل الذي قرره الله تعالى لذلك، والسبيل إلى الإيمان في العالم الراهن هو أن يفهم المرء دعوة الإيمان باستخدام عقله، وأما الذي سيطرت على عقله مصالحه الدنيوية، فكأنما تلطخ أو تورط عقله في وحلٍ من الأقذار والأرجاس، وليس ثمة أمل في أن يوفق شخص كهذا للظفر بنعمة الإيمان في هذه الدنيا .. كلا!!

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

إن هذا الكون المترامي الأطراف، المحيط بنا من كل الجهات، يزخر بما لا حصر له من آيات تبرهن على وجود الله ووحدانيته، وتدلنا أيضاً على منهج الله تعالى في هذا الكون، وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الدنيا لا تزال تشهد بين حين وآخر وقائع تتضمن نذراً، كالعواصف والزلازل المدمرة مثلاً، من شأنها أن تجعل الإنسان جاداً فى أمر الله والآخرة، غير أن هذا كله يحدث في عالم الامتحان، حيث يملك الإنسان الاختيار ليؤمن أو ليرفض، ومن ثم فإذا ظهرت الآيات والإنذارات أمام المرء، تناولها بأي تفسير مزعومٍ يوجه الأمر إلى وجهةٍ أخرى يبقى معها محروماً من العظة والاعتبار .

والمرء إذا هولم يؤمن بأمر الحق على أساس الدليل، فكأنما هو ينتظر اليوم الذي يُرفع

فيه ستار الامتحان، ويتجلى رب الكون للعيان ليعلن عن قضائه النهائي الحاسم، غير أنه سيكون يوماً مختلفاً عن يوم الناس هذا تمام الاختلاف، فاليوم يبدو المؤمنون والمنكرون سواءً من حيث أوضاعهم وأحوالهم، ولكن إذا حانت ساعة القضاء، فلن يجد الأمن بعدئذٍ سوى أولئك الذين كانوا أتباع الحق وأنصاره في الواقع ؛ وأما الباقون عداهم فسيحيط بهم العذاب بحيث لا يكادون يجدون إلى الهرب أو التخلص منه سبيلاً !

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ: اصرف ذاتك كلها للدين الحنيفي .

حَنِيفاً: مائلا عن الأديان الباطلة كلها .

يعرض الداعي أمره - أولاً - في لغة الدليل، ولكن إذا ظل الناس، رغم سماع الدليل والبرهان، أسرى الشكوك والشبهات، فلا يسعه نهائياً إلا أن يؤكد صدق رسالته في لغة العزم والتصميم .

وقول داعية التوحيد للمشركين هذا بأني لا : ﴿ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ليس محض دعوى، بل هو دليل في حد ذاته، إذْ معنى ذلك أنني أيضاً بشر مثلكم، كما أنني أملك العقل نفسه الذي يتوفر لديكم، إذن فالشيء الذي أفهم صدقه أنا، لم تعجز عن إدراك صدقه عقولكم أنتم؟!

إن الحق لو أصبح قابلاً للفهم على مستوى الفرد الواحد، فيقوم بذلك الدليل على أنه قابل للفهم بالنسبة إلى غيره من أبناء البشر كذلك، وبالرغم من ذلك فإذا وقف الآخرون منه موقف الجحود والإنكار، فإن السبب في ذلك يرجع حتماً إلى أي قصورٍ أو عيبٍ في أنفسهم، وليس إلى عيب في دعوة الحق، إن الشيء الذي يراه ذو بصرٍ من الناس، ولا يراه ذو بصرٍ آخر، إنما يدل ذلك على أن الأخير ليس في الحقيقة بذي بصرٍ ؛ إذْ من المستحيل في هذه الدنيا أن يكون هناك شيء يراه ذو بصرٍ، بينما لا يستطيع رؤيته شخص آخر مع تمتعه بالبصر !

الموت إعلان ناطق بأن المرء لا يملك أي اختيار في هذه الدنيا، فالموت يقيم الدليل على بطلان كل تلك الأشياء التي يلجأ المرء إلى الطغيان والإنكار اعتماداً عليها واغتراراً بها، والموت يعرف المرء بمدى عجزه وضعفه من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى يشعره بقدرة الله المطلقة، وهو يدل على أنه ليس ثمة من أحدٍ في هذه الدنيا يقدر على إيصال نفعٍ أو دفع ضرٍ، وهكذا يقطع الموت صلة المرء بكل شيء آخر ويقوده نحو الله عز وجل، وهو يجعل الإنسان عابداً لله حقاً، ولو أن المرء كان لديه الاستعداد لتلقي الدرس والعبرة لصار واقع الموت وحده كافياً لإصلاحه وتقويم سلوكه .

وكل إنسانٍ يمر عليه وقت لا يسعه فيه إلا أن يسلم نفسه للموت شاء أو أبى، كما أنه ليس في مقدور أحدٍ من الناس أن يسير أمور حياته كلها دوماً نحو الاتجاه الذي يريده هو؛ بحيث يحصل على المنفعة المطلوبة لديه على أية حالٍ، وينجو من الخسارة غير المطلوبة على أية حالٍ كذلك، كلا .. كلا .. بل الأمر كله بيد الله، وهو يفعل ما يشاء.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

بِوَكِيلٍ: بحفيظ موكول إلى أمركم .

إن عمليـة الـدعوة هـي في الأصـل عمليـة إعـلان الحـق، ويفـرغ الداعيـة مـن أداء مسئوليته تجاه تبليغ الرسالة إلى طائفةٍ ما، إذا هو أوضح لها أمر الحق بالأدلة والبراهين على أكمل وجهٍ، وإذا أقام الدليل على أنه جاد في هذا الشأن تمام الجدية .

ولو أن الداعي جعل أمر الحق واضحاً مبرهناً عليه، تبعاً لمقياس العصر، وأدى شهادة الحق كاملةً غير مكترث بالمنفعة والخسارة، وظل يواصل مسيرته الدعوية محتملاً كل أنواع الأذى والإساءة التي يلقاها على طول الطريق، فتقوم بعدئذٍ على المخاطب (المدعو) تلك الحجة القاطعة التي لا يبقى معها مجال القول عند الله لأي معتذرٍ .

وواجب الداعي الحقيقي هو اتباع الوحي، يعني ألا يبرح دائباً على دعوة الآخرين إلى مرضاة الرب، مع التمسك عملياً بمرضاة الرب والثبات عليها فيما يتصل بذاته وحياته هو، وهذا العمل لابد من مواصلته بالحكمة والصبر والنصيحة على أية حالٍ، وأما المراحل الباقية بعد ذلك، فهي كلها مرتبطة بالله تعالى ارتباطاً مباشراً، ولا يصح أن يُقدم الداعي على أية خطوةٍ عمليةٍ أخرى - غير الدعوة والتبليغ - إلا إذا كان ذلك مما قد قضي به من عند الله تعالى وبدأت آثاره وبوادره تلوح بوضوحٍ .

وإنما يظهر قضاء الله دوماً في صورة الأحوال والظروف، فحين يكون الداعي قد وصل من عمله الدعوي إلى الحد المطلوب عند الله تعالى، فإن الله - سبحانه وتعالى - يُحدث في الظروف والأوضاع القائمة آنئذٍ، تطوراتٍ وتغييراتٍ يستخدمها الداعي كجسرٍ ينتقل عبره إلى المرحلة التالية من عمله !

سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ: نظمت نظما محكما رصينا .

فُصِّلَتْ: فرقت في التنزيل نجوما بالحكمة .

تتلخص دعوة القرآن الكريم في ألا يعبد المرء إلا الله الواحد الأحد ، لا يشرك بعبادته شيئاً ، فلا يخاف إلا منه، ولا يرجو إلا إياه ، وأن يكون تعالى هو المسيطر على عقله وقلبه، وأن يكون رضاه تعالى أشد ما يراعيه في شئون حياته العملية ، وأن يضع نفسه في مقام «العابد» ويرفع الله - عز وجل - إلى مقام "المعبود" وهو منشرح الصدر مرتاح البال.

والدعوة النبوية تتمثل أصلاً غاية وبأسلوب أوضح ما يكون .. والمطلوب من الإنسان الآن هو أن يقابل ذلك برد فعلٍ صحيح ؛ بألا يرفضه أو يعرض عنه متأثراً بعوامل الحقد والكبرياء والنفعية والعصبية الطائفية ، وما إلى ذلك من المشاعر والعواطف السلبية ، بل يبادر إلى الاعتراف به من غير ترددٍ أو مراوغة ، ويرجع إلى الله

سائلاً إياه العفو عن أخطائه الماضية، ويطلب منه العون والنصر لمستقبل حياته .

إذا قُدم إلى المرء طعام ، فتناوله بالقبول ، فمعنى ذلك أنه هيأ أسباب تنشئته الجسدية، وعلى العكس من ذلك لو أنه رفض الطعام .

وهكذا شأن دعوة الحق تماماً ؛ فحين يتقبل المرء الحق فإنه يتقبل في الحقيقة ذلك الرزق الرباني الذي يتسبب دخوله إلى أعماق وجوده في التنشئة الصالحة لروحه وجسمه معاً، والذي يفضي به في نهاية المطاف إلى درجةٍ من الارتقاء الروحي تجعله أهلاً لنعيم الجنة.

والذي يرفض قبول دعوة الحق فكأنه فرض على روحه الحرمان من فرص التنشئة الربانية .. وإذا كان المؤمن بالحق يعيش في التواضع ، فسيعيش هذا الأخير في البطر والكبرياء، وإذا كانت لحظات المؤمن بالحق عامرةً بذكر الله ، فستكون لحظات الأخير عامرةً بذكر غير الله ، وإذا كان ذلك متمسكاً بمسلك الطاعة الإلهية في مواقع الحياة كلها ، فإنه سيسلك فيها مسلك العناد والطغيان ، وستكون النتيجة أن الأول سيذهب من هذه الدنيا وروحه سليمة معافاة ، قد أخذت من السمو والارتقاء حظاً وافراً وصارت معه أهلاً لكي تسكن في أجواء الجنة الطيبة ، بينما ستكون روح الآخر مريضة ومنحطة ، بحيث لا تصلح لشيء سوى أن يُرمى بها في مزبلة جهنم !

﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ ﴾

يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ: يطوونها على الكفر والعداوة .

لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ: من الله تعالى جهلا منهم .

يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ: يتغطون بها مبالغة في الاستخفاء .

وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا: موضع استقرارها في الأصلاب ، أو في الأرحام ونحوها .

وَمُسْتَوْدَعَهَا: موضع استيداعها في الأصلاب ، أو في الأرحام ونحوها ، أو في: الأصلاب.

حين عرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعوة التوحيد على بعض رؤساء قريش وساداتهم ، ما لبثوا أن التفوا بأرديتهم وانصرفوا من عنده غير مبالين به ولا بدعوته.

إن هذا مظهر من مظاهر الإعراض عن شيء ما ؛ فحين ينظر أحد الناس إلى الداعي بعين الاحتقار ، يجعل نفسه أرفع منه مكانةً وأعظم شأناً ، غير أن المرء ينسى أو يتناسى أن الله تعالى خبير بتلك المشاعر والدوافع الكامنة التي هي مصدر إعراضه وتحقيره .. وأن ذلك ليس مجرد إعراضٍ أو إهمالٍ لأحد البشر ، بل هو إهمال لله - سبحانه وتعالى - بالذات ؛ الذي يعلم السر والعلانية ، لا تخفى عليه خافية.

إذًا ، فكيف سيكون حال المرء حين يمثل بين يدي ربه ، وسيرى بعيني رأسه أن الله الذي كان قد أهمله وأعرض عنه في الدنيا ، كان هو الموجود الذي أعطاه كل ما كان عنده، حتى سائر أسباب القوة والجاه ، تلك التي كانت مبعث رفضه لأمر الله .. إن المرء في دنيا الله، وهو راجع آخر الأمر إلى الله تعالى ، ولكنه يعيش هنا كما لو أنه ليس ثمة علاقة ما تربطه بالله اليوم ، ولا هو مضطر إلى لقاء الله أو الاتصال به في القادم !!

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨ ﴾

لِيَبْلُوَكُمْ: ليختبركم وهو أعلم بأمركم .

أَحْسَنُ عَمَلاً: أطوع لله وأروع عن محارمه .

أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ: طائفة من الأيام قليلة .

وَحَاقَ بِهِم: نزل وأحاط بهم .

لقد أنشأ الله العالم الراهن في ستة أيام ، أي في ست فتراتٍ أو مراحل (periods) ، وقد مر على الأرض حين من الدهر كان سطحها فيه مغطي بالماء ، إذا لم يكن يُرى وقتئذٍ في هذا الجزء من مملكة الله - عز وجل - سوى الماء ليس غير ، ثم ارتفعت من بعد ذلك مناطق البر ، واجتمعت المياه في أعماق البحار بإذن الله - سبحانه وتعالى - وهكذا صار ممكناً أن تظهر على وجه الأرض هذه الأنواع المختلفة من الكائنات الحية .

ومع أن الله قادر على أن يحدث الوقائع فجائياً ، أي دفعةً واحدةً ، غير أن هذا العالم أنشئ كدار امتحان للإنسان ، وللسبب ذاته فقد أوجد الله العالم الراهن تبعاً لخطة مرسومة ، ووضع على إبداعاته العظيمة ستار الأسباب والعلل .

والهدف من إيجاد العالم وتوطين البشر في أرجائه هو انتخاب من يحسن منهم عملاً.. و«العمل الحسن» أو «العمل الصالح» هو في الحقيقة اسم ثانٍ للعمل الواقعي يعني أن يعمل المرء ما ينبغي له أن يعمل بمقتضى الحقيقة وبدون أي ضغطٍ خارجي ، فالشخص الواقعي هو الذي ينظر إلى تدبير الله الخفي من خلال الأسباب الظاهرية ، والذي يجرد نفسه من كل خيارٍ مع تمتعه - في ظاهر الأمر - بالاختيار الكامل ، ويصبح خاضعاً لأمر الله ، مطيعاً له مع قدرته على العيش طاغياً ومتمرداً .

وفي العالم الراهن تجرى عملية الانتخاب لأمثال هؤلاء الواقعيين ، وحينما تنتهي فترة الانتخاب هذه فسيتم إحلال نظامٍ معياريٍ آخر محل النظام الحالي ، حيث المحسنون وحدهم سيتمتعون بكل الأشياء الحسنة والطيبة ، وللمسيئين وحدهم

ستكون كل الأشياء السيئة والخبيثة هناك!!

إن الله – سبحانه وتعالى – لا يؤاخذ المنكرين والطغاة مؤاخذةً فوريةً ، بسبب سنته الجارية عن الإمهال .. فهو يتيح لهم الفرصة إلى أقصى الحدود ، فإما أن تستيقظ ضمائرهم فيقوموا بإصلاح أنفسهم ، وإما أن يقيموا بأنفسهم الدليل على جريمتهم وطغيانهم بصورةٍ قطعيةٍ ، وسنة الإمهال هذه توقع بعض الطغاة والمتمردين في سوءِ فهمٍ وغرورٍ ، مما يخرجهم عن طورهم ، ويجعلهم يتحذلقون أمام دعاة الله ويتحدّونهم، ولكنهم حين يتعرضون لبطش الله وعقابه ، فسيتضح لهم كم كانوا ضعفاء عاجزين إزاء الله عز وجل ؟!

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ ﴾

إِنَّهُ لَيَئُوسٌ: شديد اليأس والقنوط .

كَفُورٌ: كثير الكفران للنعم.

ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ: نائبة ونكبة أصابته .

إِنَّهُ لَفَرِحٌ: لبطر بالنعمة ، مغتر بها .

فَخُورٌ: على الناس بما أوتي من النعم .

يمر المرء في العالم الراهن بأحوالٍ وظروفٍ شتى ؛ يُتاح له الرخاء والعافية حيناً ، ويصيبه البلاء والشدة حيناً آخر ، ولكن ليست العافية هنا على وجه الإنعام ، ولا المصيبة لأجل التعذيب ؛ إذْ الهدف النهائي من كلتيهما هو الابتلاء والاختبار ، إن هذه الدنيا دار امتحانٍ ، وإن كل ما يواجهه المرء إنما يكون بغرض معرفة رد الفعل الذي يقدمه في ظل مختلف الظروف والأحوال .. وإنه لفاشل ذلك الشخص الذي إذا منحه

الله نعمة الرخاء والعافية ، أصيب بنفسية الفخر ، وبالتالي أخذ في البطر والتعاظم على الذين يراهم دونه .. كما أنه فاشل أيضاً ذلك الذي إذا ما انتزع منه شيء ما وابتلى بمصيبة ما ، بات يكفر بالله .. إن المرء لا يزال يتوفر لديه الكثير من نعم الله تعالى حتى بعد حرمانه من بعض الأشياء ، إلا أنه يذهل عن ذلك كله ، وتسقط همته ، حزناً وأسفاً على ما فاته أو فقده ، إلى حدٍ يبدو معه كما لو أنه سلب منه كل شيء!!

وعلى نقيضٍ من ذلك ، فإن المؤمنين الصادقين في الإيمان هم الصابرون والعاملون صالح الأعمال ؛ أي الذين لا يحيدون عن جادة الاعتدال والاستقامة رغم كل صدمةٍ أو هزةٍ تصيبهم في الحياة ، والذين يفعلون دوماً ما ينبغي لهم أن يفعلوا كعبادٍ لله مخلصين .

والصبر هو : ألا تتكون نفسية المرء نتيجة التأثر بالأحوال والظروف ، بل تتكون تبعاً للمبادئ والنظريات ، فمهما تأزمت الظروف ، واشتد الظلام ، ينبغي عليه أن يبني رأيه مترفعاً عنها على ضوء الحق الخالص وحده ، وأن يكون قادراً على البقاء حياً على مستوى عقيدته وشعوره الداخلي من غير تأثرٍ أو انفعالٍ بالظروف والأحوال الخارجية، وأن حياة كهذه هي الحياة الصالحة حقاً ، والذين يقيمون الدليل على هذا الصلاح العملي في الحياة الدنيا ، هم الذين سيفوزون في الحياة القادمة بأوفر نصيب من رحمات الله ، وسيدخلون جنات الله الأبدية .

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

وَكِيلٌ: قائم به حافظ له .

حين قام رسول الله ﷺ بإبطال الشرك ، ودعا الناس إلى التوحيد ، لم يلبث مخاطبوه أن تزمروا عليه .. ذلك لأن دعوته - عليه الصلاة والسلام - كانت تتضمن النقد والتجريح لأكابرهم ، الذين كانوا يتبعون دينهم ، ويعتزون بالانتماء إليهم .. فقد كان العرب يثورون بشدةٍ إذْ يسمعون رجلاً يتحدث بما يجرد أكابرهم وعظماءهم من كل ثقةٍ واعتبارٍ !

وربما يخطر ببال الداعي ، وهو يواجه هذه الثورة ضده ، أن يتخلى ، ولو بصفةٍ وقتيةٍ عن الأسلوب النقدي ، ويكتفي بعرض رسالته فقط ، والمراد بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ نفس هذا الجانب الانتقادي من الوحي الإلهي .. بيد أن المطلوب عند الله تعالى هو التبيين والإيضاح ، والإيضاح لا يمكن بدون الانتقاد، إذًا فما الذي يدعو إلى الشعور بالضيق أو الانزعاج فيما لو اتخذ الناس من الداعي موضوع الاستهزاء والمعارضة نتيجة قيامه بإيضاح الحق على أكمل وجهٍ ؟! إن هذا الموقف المعارض الذي يتبناه المدعو ، هو الثمن الذي لابد من دفعه لكل مَنْ يقيم نفسه مقام الداعي إلى الحق في هذه الدنيا!!

إن أوثق وأقطع دليلٍ على كون داعية الله على الحق ، هو كلامه المعجز الذي لا يُستطاع تقليده ولا محاكاته ، فالذين كانوا ينظرون إلى النبي بعين الاحتقار ، ولم يكونوا مستعدين للاقتناع بأن هذا الرجل قد ظفر بصدقٍ لم يظفر به حتى أكابرهم الأقدمون؟ قيل لهم: لا تختبروا صدق النبي بالقياس إلى وضعه المادي ، بل انظروا إليه من حيث إن الكلام الذي يعرض به دعوته هو كلام عظيم لدرجة أنكم أنتم وأكابركم لن تستطيعوا الإتيان بمثله.. إن هذا التمييز الفريد المعجز ليقيم دليلاً قطعياً على أن النبي إنما يبلغ عن الله ، ولا يتكلم من عند نفسه ، وماذا ينتظر الناس ، بعد قيام هذا البرهان الجلي على كون النبي محقاً وصادقاً ؟ ماذا ينتظرون بعده لكي يستسلموا لله ويذعنوا لأوامره تعالى!؟!

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ ﴾

لاَ يُبْخَسُونَ: لا ينقصون شيئا من أجور أعمالهم .

وَحَبِطَ: بطل في الآخرة .

الدين نوعان: دين مغشوش ، ودين خالص .

أما الدين المغشوش : فهو عبارة عن إضفاء شعار الدين على الدنيا ، وهو يبرز إلى الوجود نتيجة المصالحة أو الملاءمة بين الدنيا والدين ، وهذا هو السبب في أننا نجد هناك مؤسساتٍ ضخمة تُقام على أساسٍ من الدين المغشوش في كل العصور ؛ حيث يحصل النفعيون عن طريقه على زخارف الدنيا باسم الدين!

أما الدين الخالص : فأمره بالعكس من ذلك تماماً ، فحين تقوم دعوة الدين الخالص في بيئةٍ ما ، لا تعدو أن تكون صدقاً نظرياً ؛ لا ترتبط به المنافع الاقتصادية ، ولا المصالح القيادية ، وفي وضع كهذا ، حين تُعرض دعوة الدين الخالص على أولئك الذين تبوأوا مراكز الشرف والسيادة في المجتمع باسم الدين المغشوش ، لا يلبثون أن ينزعجوا أشد الانزعاج ، إذْ يخيل إليهم ، فيما إذا تلقوها بالقبول ، أن كل الأشياء الدنيوية التي يتمتعون بها الآن ، ستنتزع منهم انتزعاً !

وعلى هذا الاعتبار فقيام دعوة الدين الخالص في بيئةٍ ما ، يعني تفجر امتحان خطير هناك ، وفي مثل هذه المناسبة فالذين يفضلون شرف الدنيا ومنافعها ولا يناصرون الدين الخالص ، تُسجل جهودهم وأعمالهم كلها في خانة الدنيا ؛ لأنهم وقفوا إلى جانب الدين الذي رأوا فيه ضماناً لمنافعهم الدنيوية ، ولم ينضووا تحت راية الدين الذي بدا لهم أنه سيسلب منهم كل امتيازاتهم ومنافعهم الدنيوية ، وهؤلاء ، وإن كانوا مشغولين في

ظاهر الأمر بأعمالٍ دينيةٍ ، إلا أنهم ، من حيث مقصدهم الأصلي ، إنما يسعون وراء الحصول على الدنيا ، ومن الواضح أن جهوداً ومحاولاتٍ كهذه لن تثمر في الآخرة شيئاً ! ، ومع أن هؤلاء كانوا يسمون أنشطتهم وأعمالهم بأسماء دينية ، فكانوا يعلقون على مهرجاناتهم القومية يافطات تحمل عنوان ((الاحتفال الديني)) ، وكانوا يطلقون على معاركهم القومية اسم الحرب المقدسة ، وكانوا يصفون مناوراتهم القيادية بالمؤتمر الديني ، وكانوا يتحدثون عن صراعاتهم السياسية بمصطلحات الدين ، وكانوا يملؤون الدنيا صراخاً وعويلاً مدفوعين بعواطفهم الدنيوية ، وكانوا ينسبون ذلك إلى الله ورسوله .. غير أن هذه التعبيرات كلها كانت على أرض الدنيا ، ولم تكن على أرض الآخرة ، ولذا فسوف يدمرها زلزال القيامة كل التدمير ، وبالتالي فلن يعود على أصحابها أي فائدةٍ منها في العالم القادم!!

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

بَيِّنَةٍ: يقين وبرهان واضح وهو القرآن .

شَاهِدٌ: على تنزيله من عند الله .

مِرْيَةٍ مِّنْهُ: شك من تنزيله من عند الله .

الأَشْهَادُ: الملائكة والنبيون والجوارح .

حين عرض رسول الله ﷺ دعوة التوحيد على العرب ، آمن به منهم قليلون ، وصار أكثرهم كافرين به منكرين لدعوته ، وقد تكررت هذه الظاهرة مع دعوة الحق في كل عصور التاريخ .

لقد خلق الله كل إنسانٍ على الفطرة الصحيحة ، والعالم المحيط بنا من كل جهةٍ ،

يزخر بآياتٍ تشهد بوجود الخالق ، وتشير إلى تدبيره التكويني ، ثم إن البشرية مازالت ، منذ بدء الخليقة ، يُبعث فيها أنبياء الله ، يرشدون الناس إلى أحكام الله ووصاياه ، وقد كان من بين أولئك الأنبياء سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - الذي لم يزل كتابه الذي جاءه به - أي التوراة - موجوداً - ولو بصورةٍ محرفةٍ - بين أيدي الناس حتى اليوم، والآن فالشخص الذي يكون جاداً ، ويعرف كيفية تلقي الدرس من الأشياء ، فإن الحقيقة ستكون مألوفة لديه لدرجة أن الداعي عندما يقوم بإعلان الحقيقة أمامه يعرفها على الفور ، ويجد قلبه وعقله يشهدان بحقية الحق ، وبالتالي فهو يبادر إلى القبول به.

على أن أكثر الناس لا ينظرون إلى الأمور بكثير من الجدية ، وهم يفسدون أمزجتهم وعقولهم بإغراقهم في الملذات السطحية والرغبات الوقتية ، وانشغالهم بالأمور الفارغة لا تتيح لهم الفرصة لكي يقفوا عند الداعي ودعوته وقفة تأملٍ وتدبرٍ ، ومن ثم فحين تُقدّم إليهم دعوة الحق فلا يستطيعون معرفتها ، ولا يلبثون ، أن يتصدوْا لإنكارها بل ولمعارضتها ومناصبة العداء لها ، هؤلاء أناس لم يقدروا الله حق قدره ، وليس لهم في الآخرة شيء سوى نار جهنم!

إن الفطرة الإنسانية ، والأحداث الجارية بين السماوات والأرض ، والكتب السماوية السابقة ، كلها شاهدة على كون القرآن كتاب حقٍ حتى لو كان أغلبية الناس تقابله بالرفض والإنكار ؛ فإنما ينبغي أن يُبحث عن سبب ذلك لدى المنكرين ، دون أن يُشك في كون القرآن نفسه كتاب الحق!

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ
وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾
ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾
أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ



يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً: يطلبونها معوجة أو ذات اعوجاج .

مُعْجِزِينَ: فائتين من عذاب الله بالهرب .

لاَ جَرَمَ: حق وثبت أو لا محالة أو حقا .

ليس المراد بـ «افتراء الكذب على الله» الكذب على ذات الله ؛ بل الكذب على رسالة الله ؛ فالله – سبحانه وتعالى – لا يظهر بنفسه أمام الناس لإعلامهم برسالته ، بل يعلنها على لسان رجلٍ من البشر ، ويكون هذا الرجل وقتئذٍ إنساناً عادياً ، غير أن كلامه يكون متضمناً لتوجيهات الله الواضحة الجلية ، ولو أن الناس نظروا إليه من حيث كلامه ، لأدركوا الله في جوانب عظمته وروعته ، ولكن سطحية الناس وعبوديتهم للظواهر تجعل أنظارهم تتورط في وضع المبلّغ العادي ؛ فهم يشاهدون كون الرسول المبلغ عادياً، ولا يشاهدون كون رسالته على مستوىً غير عاديٍ ، ومن ثم فهم يقابلونها بالتهكم والاستهزاء، ويفتعلون اعتراضات كاذبةً واهيةً على كلامه ، ويعرضون عنه كما لو أنه لا يتمتع بأية أهمية أو قيمة تُذكر!!

والسبب الأصلي وراء هذا الموقف الظالم هو نفسية انعدام الخوف ، حيث إن الناس يعوذهم اليقين بالآخرة ، وقلوبهم خاوية عن الخشية من الله القاهر الجبار ، ولذا فهم لا يأخذون رسالته بمأخذٍ جدي ، ولا يزال المرء فاشلاً دوماً في تقديم رد فعلٍ صحيح إزاء كل شيءٍ لا يأخذه بتمام الجد .

على أن عدم جدية الناس هذا سيزول عنهم حين يمثلون بين يدي مالك الكون يوم القيامة ، فإن حريتهم الحالية ستكون وقتئذٍ قد انتزعت منهم ، كما أن الأسباب



والوسائل التي كانت مصدر غرورهم وطغيانهم ، ستتحول إلى شرائط مسجلةٍ تنطق بالشهادة ضدهم، وحينئذٍ سيتضح بجلاءٍ أن السبب فى تكذيبهم بداعية الله لم يكن يرجع إلى عجزهم عن فهمه، بل إلى كونهم غير جادين بشأنه ، إن أهوال القيامة المروعة ستجعلهم فجأةً ، وعلى نحوٍ تلقائى ، جادين إلى أقصى حدود الجدية ، وبالتالى ففى حالة العجز الطارئة عليهم يومئذٍ لن يلبثوا أن يفهموا الأمر الذي لم يكونوا يستطيعون فهمه على وجهه في ظل الحرية المتاحة لهم فى الدنيا!!

لقد منح الله الإنسان مواهب عليا ؛ لو أنه أحسن استخدامها لتمكن من أن يتفهم كل أمرٍ بدقةٍ و عمق بالغين، والواقع أنه يكون هكذا تماماً فيما يتصل بشئونه الدنيوية ، إلا أنه يصبح فيما يتعلق بأمور الآخرة أصمّ ، رغم تمتعه بالسمع ، ويصير أعمى ، مع تمتعه بالبصر !!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ: اطمأنوا إلى وعده أو خشعوا له .

معنى الإخبات : هو التخشع والانكسار .. يقال : هو خبيت القلب أي منكسره، وهذا هو جوهر الإيمان وخلاصته ، فليس الإيمان بشيء يُورث ولا هو أداء لسانيا لمجموعة لفظيةً ما .. إن الإيمان اكتشاف ؛ فحين يظفر المرء بالله باستخدام سمعه وبصره ، ويدرك في مقابل ذلك حقيقة وضعه هو ، فإن الكيفية التي تعتريه ساعتئذٍ هي التي تسمى الخشوع (الإخبات) ، والخشوع هو نتيجة لازمة لمعرفتك وضع نفسك الواقعي بالمقارنة مع الله عز وجل .

إن الإيمان والإخبات والعمل الصالح ، كل هذه الثلاثة ليست إلا أبعاداً أو جوانب

مختلفةً لحقيقةٍ واحدةٍ .. فالإيمان هو اكتشاف شعوري لوجود الله وما يتصف به من صفات الكمال ، والإخبات علم على تلك الحالة القلبية التي تتولد بالضرورة في داخل المرء نتيجة اكتشافه لله ، أما العمل الصالح فهو المظهر الخارجي لذلك الشعور ولهذه الكيفية الداخلية ، فحين يفكر المرء بذهن الله ، وحين يمتلئ صدره بالكيفيات الإلهية ؛ فإن حياته الظاهرية تتحول بعدئذٍ إلى العمل الرباني ، وهذا هو العمل الصالح والشخص الذي تجسدت في كيانه حقيقة الإيمان والإخبات والعمل الصالح ، هو الإنسان المطلوب عند الله تعالى ، وذلك هو الإنسان الذي سيتم إسكانه في حدائق الجنة الأبدية .

ومن خلال إيجاد ظروف الامتحان من مستوىً عالٍ في هذه الدنيا ، ينظر الله إلى أي الفريقين من الناس يضم كل واحدٍ منا نفسه ؟! أما أحد الفريقين فهو الذي عرف الحقيقة الواقعة باستخدام سمعه وبصره - أي شعوره - على نحوٍ صحيح،وبالتالي قام بصوغ فكره وعمله تبعاً لمقتضاها ، وهذا هو الفريق الموصوف بالسميع والبصير ، أما الفريق الآخر فهو الذي لم يستخدم سمعه وبصره على نحوٍ صحيح ، فلا هو ظفر بمعرفة الحقيقة الواقعة، ولا تمكن من إفراغ فكره وعمله في قالبها ، ومن ثم فهو الأعمى والأصم .. وواضح أن كلا هذين النوعين يختلفان كل الاختلاف ، وبالتالي فلا يمكن أن يلقيا مصيراً مماثلاً .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

المَلأُ: السادة والرؤساء .

بَادِيَ الرَّأْيِ: ظاهرين دون تعمق وثبت .

إن كل الأنبياء المبعوثين من عند الله ، إنما بُعثوا لإعلام البشر بمنهج الله الذي يتلخص في أن الإنسان إنما وضع في العالم الراهن بغرض الامتحان والاختبار ، ومع أن الفرصة هنا متاحة - على ما يظهر - لعبادة أشياء مختلفة ، غير أن المطلوب الأصلي من الإنسان هو أن يعبد الله وحده ، والذين لا يأخذون أنفسهم بعبادة الله وحده ، فقد فشلوا في الامتحان .. ولأمثال هؤلاء عذاب شديد في الحياة القادمة بعد الموت.

وقد عرض سيدنا نوح - عليه الصلاة والسلام - على قومه هذا الأمر نفسه ، وصار لهم نذيراً مبيناً ، على أن قومه - عليه السلام - لم يؤمنوا بدعوته .

إن داعية الله حين يبعث، فإنه يبدو لمعاصريه واحداً من البشر ليس غير ، إذْ لا يحيط به أي رمزٍ أو هالةٍ من المجد والعظمة الدنيوية بعد، ومن ناحية أخرى فإن الدين الذي يحمل لواءه لا يكون قد ارتبطت به المنافع الدنيوية بعد، ولذلك فإن أغلب المبادرين إلى اعتناقه يكونون من الفقراء والبائسين الذين لا يُضطرون إلى فقْد شيءٍ ما رخيصٍ أو غالٍ نتيجة اعتناقهم للدين الجديد ، ويصير هذا الوضع بالنسبة إلى أكابر العصر على وجه أخص ، فتنةً ، حيث إنهم يحسبون أن هؤلاء إذا كانوا لا تتوفر لديهم أسباب الدنيا، فإن الحق لا يمكن أن يكون معهم، وقد يخرج من بين القوم رجال لا يتحرجون حتى من رمْي الداعية وأتباعه بالكذب والخداع!

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ

لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣١)﴾

أَرَأَيْتُمْ: أخبروني .

فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ: أخفيت عليكم .

خَزَائِنُ الله: خزائن رزقه وماله .

تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ: تستحقروهم وتستهين بهم .

أريد بـ ((البينة)) هنا الدليل والبرهان ، وبـ ((الرحمة)) النبوة [1].

ويتضح من هذا أن النبي حين يدعو قوماً ما ، فإنه يستند إلى شيئين اثنين ، و هما : الدليل والنبوة .. وإذا نهض أحد من الدعاة للدعوة على أثر النبي ، لا ولن يكون داعياً حقاً، إلا إذا كان قائماً على أساسٍ من هذين الشيئين ، مع الفارق القائل بأن الشيء الأخير الذي يوجد لديه بعد الدليل والبرهان ، سيكون متاحاً له عن طريق النبي بصفةٍ غير مباشرةٍ ، بينما يتلقاه النبى مباشرةً من قبل الله عز وجل .

وإن قوماً حين يُهملون داعية الله ويعرضون عنه نظراً لكونه لا يتمتع - على ما يبدو- بشيءٍ هامٍ جديرٍ بالاعتبار ، فإنه يتوفر لديه ، في الوقت نفسه ، شيء بالغ الأهمية، ألا وهو الدليل والهداية .. فالداعي إلى الله لا يزال متمتعاً بعظمة الدليل والهداية على أكمل وجهٍ ، إلا أنها - على أية حالٍ - عظمة معنوية ، وأن تتجلى العظمة المعنوية لأقوامٍ تعلقت عيونهم بالمظاهر والأشكال السطحية . وعمل الدعوة إلى الله عمل أخروي خالص ، ولابد لتأديته على وجهه ألا يثور نزاع ما حول المال أو الأرض بين الداعي والمدعو ، وإن الداعي هو المسئول عن إبقاء العلاقات بينه وبين المدعو هادئةً

---

(١) تفسير النسفي.

وغير متوترة ، وبالتالي يتعين عليه أن يقوم بإنهاء كل النزاعات المادية والاقتصادية معه من طرفٍ واحدٍ ، وأما الداعي الذي ينهض ، للدعوة ، ويقود مسيرة الاحتجاج والمطالبة ضد المدعو لأجل الأشياء والمطالب الدنيوية ، فإنه ليس بداعٍ ، بل هو مهرّج ساخر، ولا يمكن أن تكون له قيمة ما في عين المدعو ، ولا يقام له وزن عند الله تعالى !

وامتحان المدعو يتمثل في أن يتمكن من مشاهدة عظمة الحق في إنسانٍ غير عظيم في ظاهر الأمر ، كما أن امتحان الداعي هو ألا يأخذ يرحب بشخصٍ غير متدينٍ ويحسن استقباله لأنه ذو مالٍ وجاهٍ ، ولا يعتبر شخصاً متديناً غير ذي أهميةٍ واعتبارٍ لكونه لا تتوفر لديه مظاهر الأبّهة الدنيوية ، وإن فعل الداعي ذلك فسيكون معناه أنه يعظ بلسانه عن أهمية الآخرة ، بينما يبرهن بعمله على أهمية الدنيا ، والظاهر أن هذا مناقضة.. فهل يمكن أن تكون لدى الآخرين قيمة ما لشخصٍ يناقض نفسه بنفسه؟! كلا !

﴿ قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

أَنتُم بِمُعْجِزِينَ: بفائتين من عذاب الله بالهرب .

أَن يُغْوِيَكُمْ: يضلكم .

لم يكن سيدنا نوح عليه السلام قد عمد إلى الجدال - أي الخصومة والمناظرة - مع قومه ، وإنما كان يبلغهم رسالته الصالحة بأسلوبٍ جادٍ ، غير أن دعوته الجادة كانت تبدو لقومه على غير وجهها، والسبب في ذلك يرجع إلى ضعف الإنسان ، الذي يجعله يفقد جديّته وتوازنه حين تتعرض ذاته للنقد والتجريح ، فهو لا ينظر إلى مثل هذا الحديث

من حيث الدليل والبرهان ، بل إنه يرفضه من غير رويةٍ ولا تفكرٍ ، حتى إن دلائل داعية الحق الواضحة المحكمة تتراءى له كأنها جدل ونقاش فارغ !!

وعبارة ﴿ فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا ﴾ ليست أصلاً للدلالة على ما قاله نوح ، بل هي تدل على أي محملٍ كان سامعوه قد حملوا قوله!!

وهكذا لم يكن استعجال معارضى نوحٍ للعذاب حقيقةً استعجال العذاب ، بل كان ذلك تهكماً واستهزاءً بنوحٍ ، لاعتبارهم إياه يدعي أمراً لن يكون أبداً .. حيث إنهم كانوا يعدّون مركزهم وطيداً راسخ الدعائم إلى حدٍ لم يكن معه ، حسب زعمهم ، أي احتمال لمجيء العذاب من أي مكان .. وانطلاقاً من هذا الزعم قالوا له : ائتنا بالعذاب الذي تعدنا به جزاء إنكارنا وتكذيبنا لرسالتك .. وبما أن عذاباً كهذا لم يكن ليأتي أبداً في زعمهم ، لذا فقد كان المفهوم الضمنى لذلك : إننا على الحق وأنت وأتباعك على الباطل !! ، فأجابهم سيدنا نوح ﷺ : إنكم تنظرون إلى الأمر بالنسبة إليّ أنا ، وبما أنني ضعيف ، يتعذر على أفهامكم أن هذا العذاب يمكن أن يحل عليكم يوماً ما ، ولكن لو أنكم نظرتم إلى الأمر بالنسبة إلى الله عز وجل، لما قلتم ما تقولون ، ولأدركتم جيداً أن حلول العذاب على الظالمين في هذا العالم حتمي تماماً كطلوع الشمس وانفجار البركان .

إن إيمانك بقول الداعي إلى الحق يتوقف كلياً على ألا تنظر إليه من حيث القائل ، بل من حيث ما قال ، وبما أن قوم نوحٍ ﷺ كانوا يعدون أمره أمر إنسانٍ عاديٍ محضٍ ، لذا فقد صرح لهم قائلاً : إنكم لن تستطيعوا أبداً ما دمتم أسرى هذا التفكير المعوج، أن تقدروا كلامي حق قدره ، وليس لي الآن سوى أن أرتقب اليوم الذي يتجلى فيه رب السموات والأرض عياناً !

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ٣٥ ﴾

فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي : عقاب اكتسابي ذنبي .

إن الذين كانوا يقولون إن النبي قد اختلق هذا الكلام من عند نفسه ، وأنه ليس من عند الله ، لم يكونوا منكرين للوحي والإلهام أصلاً ، حتى إنهم كانوا يؤمنون بالأنبياء السابقين ؛ إذًا فما الذى جعلهم يقولون هكذا؟!

إنه لم يكن فى الواقع إنكاراً لوحى ، بل كان إنكاراً لمن أوحى إليه .. فإن الذى قام مبلغاً عن الله ، كان يبدو للناظرين آنئذٍ إنساناً عادياً وبالتالي كان يصعب عليهم ، لكونهم عبدة الظواهر ، أن يفهموا أن يكون رجل كهذا اختاره الله لتبليغ رسالته إلى الناس !!

وإن قوله : ﴿ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ هو فى الأصل كلمة وداع ، فحين لا يؤمن المخاطَب بالدعوة ، اقتناعاً بالدليل ، ولا يزال مصراً على الجمود والإنكار ، رغم كل بيانٍ وإيضاحٍ ، فيشعر الداعي عندئذٍ بأنه لا يسعه الآن إلا أن يلوذ بالصمت قائلاً : أنا وأنتم جميعاً محضرون آخر الأمر بين يدي الحاكم الحقيقي ، حيث سيُكشف عن سرائر الجميع ، وسيُجزى الكل هناك تبعاً لما كان عليه من حيث الحقيقة جزاءً وفاقاً !!

وإنه حين يصبح منطق الدليل غير ذي أثرٍ فعالٍ لدى المدعو لشدة عناده وقسوة قلبه فلا يبقى أمام الداعية مجال سوى أن يعتزله مودعاً إياه بكلمات الثقة واليقين!

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

فَلَا تَبْتَئِسْ: فلا تحزن .

بِأَعْيُنِنَا: بحفظنا وكلأتنا الكاملين .

يُخْزِيهِ: يذله ويهينه .

وَيَحِلُّ عَلَيْهِ: يجب عليه وينزل به .

الإيمان المطلوب من الإنسان هو الإيمان الذي يعتنقه عن وعي وبناءً على قراره الحر والذين لا يؤمنون، رغم قيام النبي بعمل دعوي يدوم مدةً من الزمان طويلةً ، فإنما هم يثبتون بذلك أنهم غير مستعدين ليكونوا مؤمنين بالله بناءً على قرارهم الحر ، وتكون المرحلة الثانية والأخيرة لأمثال هؤلاء أن تُنتزع منهم حريتهم ، ويُساقوا مباشرةً إلى الله ذي الجلال والجبروت، حتى يسلموا كمجرمين بالشيء الذي لم يكونوا قد سلموا به كمؤمنين ، ويلقوا بالتالي أسوأ الجزاء على عنادهم وطغيانهم!

وقد كانت هذه الساعة - الساعة الحاسمة - اقتربت من قوم نوحٍ بعد أن ظل يدعوهم إلى الله ويبلغهم رسالة ربه لمئاتٍ من السنين - تسعمائة وخمسة وخمسون سنة - وبعدئذ أمر سيدنا نوح - عليه السلام - بأن يتفرغ من عمل الدعوة والبلاغ ، ويقوم بإعداد سفينة ؛ يتحصن بها هو وأتباعه المؤمنون ؛ حين يجيء طوفان الله لإهلاك الطغاة غرقاً !

وقد قام سيدنا نوح عليه السلام بإعداد سفينة ضخمة ذات طبقاتٍ ثلاثٍ ، وقد استغرق إعدادها عدة سنواتٍ ، وعندما كان نوح مشغولاً برفقة أصحابه بإعداد السفينة، كان طغاة قومه يمرون عليهم ، وبما أنهم كانوا يعدون أمر العذاب شيئاً افتراضياً محضاً ؛ راحوا يستهزئون ويتندرون بهم بوقاحة أشد وأكثر !!

لو أن أحد الناس كان يدخر أموالاً طائلةً عن طريق العدوان والجور ، فإن عبدة الظواهر سيعتبرونه ناجحاً بالنظر إلى ما يحيط به من زخارف الدنيا ومباهجها ، غير أن الرجل البصير الذي يعلم أن نظام العالم يسير تبعاً للقوانين الأخلاقية الثابتة ، سوف يرى في النجاح الوقتي المتاح للشخص المذكور مشهد دمارٍ رهيبٍ سيلحق به عاجلاً

أو آجلاً .. وعبدة الظواهر من قوم نوحٍ وإن كانوا يسخرون من سيدنا نوحٍ عليه السلام غير أنهم كانوا هم الآخرين موضوع السخرية والاستهزاء في عين الحقيقة الواقعة!

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

وَفَارَ التَّنُّورُ: نبع الماء وجاش بشدة من تنور الخبز المعروف .

مَجْرَاهَا: وقت إجرائها .

وَمُرْسَاهَا: وقت إرسالها .

سَآوِي: سألتجئ وأستند .

لاَ عَاصِمَ: لا مانع ولا حافظ .

أَقْلِعِي: أمسكي عن إنزال المطر .

وَغِيضَ المَاءُ: نقص وذهب في الأرض.

وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ: استقرت على جبل بقرب الموصل .

بُعْداً: هلاكا وسحقا .

ولم يكد يتم إعداد السفينة ، حتى بدأت تهبّ العواصف الهوجاء بإذن الله ، وتفجرت الأرض ينابيع تفور ، وبدأ ينزل المطر من السماء بغزارةٍ واستمرارٍ ، حتى بلغ السيل الزبي ، وطغى الماء في كل مكانٍ ، وهلك فيه كل الناس غرقاً ، ولم ينج من الهلاك سوى ذلك العدد القليل - من البشر والحيوانات - الذي كان راكباً في سفينة نوحٍ ، حتى إن ابن سيدنا نوح صار هو الآخر من المغرقين !

إن قيمة أحد الناس عند الله إنما تُقدر بعمله ، وليس بقرابته ، حتى ولو كانت قرابة النبى !!

ولما هلك كل أولئك الذين قُضي عليهم بالغرق عن آخرهم ، أمر الله الطوفان بأن يهدأ ، فهدأ الطوفان ، بحيث انصبت المياه في البحار والأنهار ، وصارت الأرض ثانيةً جديرة بالسكنى والعمران .

وقد رأى الراؤون بمناسبة طوفان نوحٍ أن الصاعدين على قمم الجبال الشامخة ، هلكوا غرقاً ، بينما بقي ركاب السفينة سالمين رغم تدافع أمواجٍ هائلةٍ من حولها ، ولم يكن سبب ذلك كامناً في الجبل أو السفينة ، وإنما كان السبب في ذلك يكمن في أنه كان أمر الله، فلو أن أمر الله كان مع الجبل ، لنجا الصاعدون عليه من الهلاك ، ولهلك الراكبون في السفينة ، على أن أمر الله كان بهذه المناسبة مع السفينة ، ومن ثم فقد نجا ركابها ، وذهب المتحصنون بالأشياء الأخرى عداها ضحايا الطوفان !

إن نظام الأسباب والعلل السائد في هذه الدنيا ليس إلا ستاراً محضاً ، وإلا فكل ما يحدث هنا إنما يحدث بأمر الله مباشرةً ، وإن امتحان الإنسان هو أن ينظر إلى الحقيقة الأصلية من خلال الستار الظاهري ، ويدرك القدرات الإلهية من حيث أنها هي المتصرفة في الأسباب ، العاملة وراءها كما تشاء!

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا

لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

لقد كان كنعان ، ولد نوحٍ أيضاً ، من بين أولئك الذين راحوا ضحايا الطوفان ، وقد حاول سيدنا نوح أن يُركبه في سفينته ، إلا أنه لم يركب معه ، لكونه قد كُتب عليه الهلاك غرقاً .. ثم تضرع الوالد المفجوع إلى الله تعالى، سائلاً إياه النجاة لولده ، فأجيب بأن هذا سؤال لا يليق بك ، إنما هو سؤال الجاهلين ، فلا تكن منهم !

والواقع أن قضاء الله محايد لا محاباة فيه ولا مواربة ؛ فهو لا يمنح أحداً من الناس النجاة ويدخله الجنة لأنه من أبناء الصالحين ، أو أنه من المتمسكين بأذيال بعض الشيوخ ، وإنما يصدر قضاء الله بالنجاة لأحدٍ على أساسٍ من العمل الخالص ، وليس على أساسٍ من أواصر القربى أو الانتماءات الطائفية .

وإن كانت العبرة في هذه الدنيا بالقرابة الرحمية ، فإنما العبرة في الآخرة بالقرابة الأخلاقية ، إن صح التعبير .. وما جاء طوفان نوحٍ إلا لكي يحطم كل التقسيمات الأخرى القائمة بين الناس ، ويحل محلها التقسيم الأخلاقي وحده، وبالتالي يتم إنقاذ أصحاب العمل الصالح بحملهم في السفينة الإلهية ، ويقذف بأصحاب العمل غير الصالح كلهم في أمواج الطوفان القاهرة ، وسيتكرر حدوث هذه الواقعة ذاتها في يوم القيامة على نطاقٍ أوسع ، وعلى وجهٍ أكمل وأشمل!

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

وَبَرَكَاتٍ: خيرات ثابتة .

لقد هدأ الطوفان ، بعدما التهمت أمواجه كل شريرٍ عنيدٍ من الناس ، وذهب الماء ،

رويداً رويداً، في أغوار الأرض ، وأعماق البحار ، واستقرت سفينة نوح على جبل الجودى، حيث نزل منها هو وأصحابه إلى الأرض ، وقد أصبحت الأرض بإذن الله نضرةً خضراء ، ومأهولةً بالسكان من جديد .. إن سيدنا نوحاً عليه السلام بُعث في قوم كانوا مؤمنين بنبوة سيدنا آدم عليه السلام وقد بقيت أمته بعد وفاته عليه السلام على الصراط المستقيم لمدة من الزمان ، ولما تسرب الفساد بعدئذ إلى أجيالها التالية ، بعث الله فيهم أنبياءه الواحد بعد الآخر ، وقد بُعث هؤلاء الأنبياء اللاحقون في أقوامٍ كانت مؤمنةً بنبوة نوح عليه السلام ، غير أنهم - بالرغم من ذلك - لم يلبثوا أن أهلكوا بعذاب الله ، حين لم يؤمنوا بنبي العصر ولم يصلحوا أنفسهم ؛ مما يعنى أن الإيمان بنبيٍ من الأنبياء أو الانتماء إلى أمته ، غير كافٍ للفوز بالنجاة ، بل الإيمان المطلوب هو الإيمان الحي ، ذلك الذي يحوّل حياة المرء إلى حياةٍ قوامها الصلاح والتقوى .

ونتعلم من قصة نوح عليه السلام أن أنصار الباطل مهما بلغوا من الكثرة والقوة ، ومهما طالت أعمارهم على الأرض ، فإن ما قُدر لهم في نهاية المطاف هو الهلاك والدمار المحقق وفي مقابل ذلك فإن أهل الإيمان مهما قل عددهم ، وضعفت قوتهم في ظاهر الأمر ، إلا أن القضاء الإلهي حين يظهر ، فإن هؤلاء هم الذين ينالون من رحمات الله أوفر نصيب ابتداءً من هذه الدنيا ، وانتهاءً بتلك الدار الآخرة !!

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

فَطَرَنِي: خلقني وأبدعني .

السَّماءَ: المطر .

مِّدْراراً: غزيرا متتابعا بلا ضرر .

ولهداية قوم عادٍ بُعث سيدنا هود ، الذي كان أخاهم ، أي واحداً منهم ، وذلك مما جرت به سنة الله بشأن الأنبياء دائماً ، لكونهم أبناء الشعب نفسه ، يتقنون لغة شعبهم ، ويعرفون جيداً نفسيته وما يعيشه من أحوالٍ وظروفٍ، وبالتالي يستطيعون القيام بمهمة دعوة الحق بينهم على أفضل وجهٍ .

وقد عرض سيدنا هود عليه السلام على قومه رسالة عبادة الله الواحد الأحد ، وبالإضافة إلى ذلك قال لهم ناعياً عليهم دينهم الباطل ، إنه ليس إلا افتراءً محضاً ؛ مما يوضح أن أسلوب دعوة النبي ليس أسلوب «العرض الإيجابى» لرسالته بالمعنى المعروف ، بل هو يتصدى - مع ذلك - للنقد الصريح ، فإن حقانية الحق لا يمكن تقريبها إلى أفهام الناس ما لم يتم إبطال الباطل عن طريق النقد والتحليل .

وقد حدث في عصر كل نبي أن كان معارضوه يشترطون - لأجل التصديق برسالته- أن يكون النبي ذا جاهٍ ومنصبٍ خطيرٍ ، وأن تتوفر لديه ثروات طائلة ، وأن يكون مسكنه فخماً أنيقاً .. إلخ ، غير أن هذا المعيار لمعرفة صدق الداعي إلى الحق غير صحيحٍ ، وإنما المعيار الأصلي لاختبار صدق الداعية هو أن يكون جاداً تمام الجدية ، في دعوته ، وتكون رسالته مدعمةً بأقوى الأدلة وأوضح البراهين ، وأن يترفع بنفسه عن كل نوعٍ من الأغراض الدنيوية، وأن يكون ما يقوله هو عين الحقيقة الواقعة ، وتنسجم رسالته مع النظام الكوني أتم الانسجام ، بحيث يكون الإيمان بها بمثابة السير على طريق النجاح والسعادة .

﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ إن هذه الجملة لا تعني إضافة القوة المادية ، فإن عاداً كانوا في غاية القوة في زمانهم ، حيث حكى القرآن عنهم قولهم : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ الذي قالوه رداً على النبي لما أنذرهم من عذاب الله ، ومن ثم فإن الحديث عن زيادة القوة المادية لم يكن ليثير اهتمامهم أو يجذب انتباههم إلى الدعوة .

وإنما تعني زيادة القوة هنا إضافة القوة الإيمانية إلى جانب القوة المادية ، وكأنما كان النبي - هود - يقول لهم : لو أنكم اخترتم الحياة الإيمانية ، فستحصلون بذلك على طاقةٍ خلقيةٍ وروحيةٍ ، وبالتقاء الطاقة الخلقية والروحية مع طاقتكم المادية ، لن تنقص قوتكم أيما نقصان ، بل ستزداد إلى حدٍ كبيرٍ جداً .

﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾

اعْتَرَاكَ: أصابك .

بِسُوءٍ: بجنون وخبل .

فَكِيدُونِي: فاحتالوا في كيدي وضرري .

لاَ تُنظِرُونِ: لا تمهلوني .

آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا: مالكها وقادر عليها .

لقد رد القوم على سيدنا هودٍ قائلين : إنه ليس عندك من دليلٍ أو برهانٍ على كونك محقاً وصادقاً . ولا يعني ذلك أن سيدنا هود كان يعوزه الدليل والبرهان في واقع الأمر؛ حيث كان لديه الدليل بكل تأكيدٍ ، غير أنه لم يكن يبدو دليلاً للقوم ، وكان السبب في ذلك أن المرء عادةً لا يستطيع النظر إلى أمرٍ ما من حيث الدلائل التي تصاحبه ، بل ينظر إليه من حيث الشخص الذي يعرضه ، مَنْ يكون؟ وما مكانته ؟ وبما أن العارض كان يبدو لمعاصريه رجلاً فاقد الأهمية والاعتبار ، لذا فقد صار قوله هو الآخر يتراءى للناس غير ذي أهمية ملحوظة.

وحين ينهض شخص للدعوة إلى الدين الخالص ، متخلياً عن الدين التقليدي السائد ، فدائماً ما يحدث أن يصبح ذلك الشخص غريباً ، بل حقيراً في المجتمع ، حيث ينظر إليه الناس كما لو أنه شخص أصيب بجنونٍ وخبلٍ في عقله ، وقد كان سيدنا هود يواجه نفس هذا الوضع ؛ إذْ تجرأ قومه أن يقولوا : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ على أن الشاهد على صدق داعية الحق ، بعد الأدلة والبراهين النظرية ، هو أن معارضيه لا يستطيعون إخضاعه وإحراز الغلب عليه ، على الرغم من كل الجهود والمحاولات العدوانية الغاشمة .

إن الأمم والشعوب التي بُعث فيها أنبياء الله ، كانت كلها تؤمن بوجود الله ، مما يعني أن كلاً من الداعي والمدعو كان يدعي أنه مؤمن بالله عابد له ، وهنا ينشأ سؤال من يتمتع بمعية الله وتوفيقه من كلا هذين الفريقين ؟!

إن أيسر جوابٍ على هذا السؤال هو أن الله على صراطٍ مستقيم ، ومن ثم فإنما سيُوفق للوصول إلى الله رأساً ، مَنْ كان يمشي على خط الدين المستقيم ، وأما الذي يمشي على الطرق المعوجة ، فإنه سيظل تائهاً هنا وهناك ، ولن يحالفه التوفيق أبداً للوصول إلى جناب الله تعالى .

وعندما قال سيدنا هود : ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ ، فكأنما كان يقول – بعبارةٍ أخرى – إن الشيء الذي أنا أدعوكم إليه هو صراط مستقيم ، أي طريق الدين الحق ، بينما الأشياء التي اتخذتموها ديناً ، ليست من الدين في شيءٍ ، إنما هي طرق جانبية أو سبل فرعية نُسجت من حول صراط الدين القويم ، وأنتم تسعون عليها ، إن سعياً كهذا لا ولن يوصل صاحبه إلى الله ، وإنما يدعه حائراً يتيه ويتخبط هنا وهناك .

وبإمعان النظر في هذه الآيات تتضح لنا معالم الصراط المستقيم الذي دعا سيدنا هود قومه إليه ، وتتمثل تلك المعالم في النقاط التالية : التوحيد ، عبادة الله ، الاستغفار ، التوبة ، الشكر على نعم الله ، التوكل على الله ، التسليم بالله رباً ، واعتبار الله وحده

مالكاً للقوى والطاقات كلها، واتخاذ الله حارساً أو رقيباً على النفس، واختيار مسلك الطاعة بدلاً من الاستكبار.

وكل هذه هي تعاليم الدين الأساسية، واتباع هذه التعاليم واتخاذها وجهتنا ومركز اهتمامنا في الحياة، هو بمثابة السير على صراط الدين، والسائر عليه يصل مباشرةً إلى الله سبحانه وتعالى.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

حَفِيظٌ: رقيب مهيمن.

غَلِيظٍ: شديد مضاعف.

جَبَّارٍ: متعاظم متكبر.

بُعْداً: هلاكا سحقا لهم.

الذين يُعرِضُون عن رسالة الله، فإن الله أيضاً يعرض عنهم، وهذه الواقعة التي تحدث في العالم الراهن بصورة جزئية، ستحدث يوم القيامة بصورةٍ كلية ونهائية، فحينئذٍ سيتم طرد الطغاة كافة عن رحمة الله، وستكون الرحمات الإلهية يومئذٍ خالصةً لأولئك وحدهم، الذين عاشوا حياتهم الدنيا مطيعين وأوفياء لله عز وجل.

وقد نفذ الله في هذا العالم مبدأ «الاستخلاف» وهو يعني تمكين أمةٍ مكان أمةٍ في الأرض على التوالي، وإنما يُتاح هذا التمكن في هذه الدنيا بغرض الامتحان وبصفةٍ

عارضةٍ مؤقتةٍ ، وسيفوز أهل الإيمان الصادقون دون غيرهم ، بالتمكن الدائم في دنيا الله الكاملة في اليوم الآخر وعلى وجه الإنعام والتكريم .

وقد جُعل نظام العالم الراهن بحيث يجد المرء هنا نفسه دوْماً بين خياريْ الخير والشر وهو يكون حراً في اختيار أيهما شاء ، وفوق ذلك فإن هذا العالم يسوده الشر في الأغلب والأعم ؛ حيث لا يكون إلى جانب الخير سوى قوة الآيات – أي الأدلة النظرية – وحدها ، ومن جهةٍ أخرى يوجد إلى جانب الشر قوة مادية هائلة لدرجة أن حملة لوائه يصابون بالغرور والبطر والطغيان ، مما يجعلهم يفرضون على البيئة جواً من الضغط و القهر عاماً يرتجف معه فؤاد الرجل العادي ، فقد لا يستطيع التفكير في التقدم نحو الحق، فضلاً عن اعتناقه على مرأى ومسمع من القوم!

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) ﴾

وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا: جعلكم عمارها وسكانها .

مُرِيبٍ: موقع في الريبة والقلق .

أَرَأَيْتُمْ: أخبروني .

بَيِّنَةٍ: يقين وبرهان وبصيرة .

تَخْسِيرٍ: خسران إن عصيته.

لقد دعا سيدنا صالح عليه السلام قومه إلى عبادة الله الواحد ، وقد كان هذا هو الهدف الأساسي لدعوة الأنبياء جميعاً في كل العصور ، غير أن قوم صالح لم يقبلوا برسالته ، وكان السبب في ذلك أنه عليه السلام كان يريد أن يربط صلتهم بالله تعالى مباشرة ، على حين أن القوم كانوا قد ربطوا أنفسهم بأكابرهم وعظمائهم وحدهم باسم الله!

ويصل الأمر بأمثال هؤلاء إلى أنهم لا يستطيعون إدراك أهمية شيء ما إلا إذا وجدوا تصديقه فيما أثر عن شيوخهم القوميين من قولٍ وعملٍ ، وبما أن صالحاً عليه السلام لم يكن يتوفر لديه سوى قوة الدليل ، لم يكن قومه يشعرون بأهمية دعوته، إن الدين الذي نهض صالح يدعوهم إليه ، إنما كانت أهميته تتضح عند التأمل في الوحي وفى آيات السموات والأرض ، بينما كان قومه لا يعرفون سوى أهمية دينٍ يستمد عناصر وجوده من أقوال أكابر القوم وعاداتهم المأثورة ، وكانت نتيجة ذلك أنهم ظلوا أسرى نوعٍ من الشك والارتياب ، مع كونهم قد صاروا عاجزين عن مقاومة الأدلة والبراهين التي جاء بها نبيهم.

وقد كان صالح ، مثل جميع الأنبياء الآخرين ، رجلاً يمتاز بشخصيةٍ فذةٍ وذكاءٍ نادرٍ بين أبناء شعبه ، وكان الناس يأملون أنه سيكون ، بعد أن يبلغ أشده ، سيساعد الشعب الأيمن، ولكنه عندما بلغ سن الرشد ، حتى أخذ يتناول دين الشعب التقليدي بالنقد والتجريح ، مما جعل رجاء الشعب فيه يتحول إلى يأسٍ منه مرير ، فقالوا : لقد كان في حسباننا أنك ستصبح يوماً ركناً من أركان نظامنا الديني القائم ، ولكن ها نحن أولاء نراك - بالعكس - وأنت تبذل قصارى جهدك في إبطال نظامنا الديني وتعمل على هدم قواعده .

﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ

مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾

آيَةً: معجزة دالة على صدق نبوتي .

جَاثِمِينَ: هامدين ميتين لا يتحركون .

لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا: لم يقيموا فيها طويلا فى رغد .

بُعْداً لِّثَمُودَ: هلاكا وسحقا لهم .

إن صالحاً ﷺ كان يقول لقومه: إني رسول الله إليكم ، ولئن لم تؤمنوا برسالتي ، فسوف تتعرضون لبطش الله الشديد ، ولما أصر قوم صالح على العناد ، وما زالوا يأبوْن الإذعان للآيات النظرية ، بُعث لهم ، في المرحلة الأخيرة ، بالآية (المعجزة) الحسية هي الأخرى ، والتي كانت ، حسب طلبهم ، ناقةً خرجت أمام أعينهم من صخرةٍ صماء ، وسنة الله ، بالنسبة إلى آيةٍ كهذه ، هى : إنها حينما يتم إظهارها ، فلا يبقى للناس بعدئذٍ مزيد من مهلة الامتحان المتاحة لهم من ذي قبل ، وبالتالي فقد صاح بهم سيدنا صالح قائلاً : إنكم الآن - يا قومى - بين اثنتين: فإما أن تؤمنوا برسالتي تائبين إلى الله تعالى ، وإلا فستهلكون عن بكرة أبيكم!

على أن الذين لا يستطيعون أن يحسوا بثقل الدلائل النظرية ، فإنهم يظلون فاشلين في الاعتبار بالدلائل الحسية كذلك ، ومن ثم فلم يمتنع شعب صالح عناده وطغيانه ، حتى إنه لم يلبث أن ذبح الناقة ، وبعدئذٍ لم يكن ثمة حاجة لإتاحة مزيد من المهلة له ، فلم يلبث أن قُطع دابره ، ومحي من صفحة الوجود!!

لقد كان ثمود ، شعب صالح ﷺ يسكن مدائن الحجر ، في شمال غربي الجزيرة العربية، وقد أُمر سيدنا صالح - فى نهاية المطاف - بمغادرتها ، فخرج منها برفقة

أصحابه المخلصين متوجهاً نحو الشام ، وفى أعقاب ذلك فوجئ الشعب كله بزلزالٍ عنيفٍ دمّره شر تدميرٍ ، وأ-: له أثراً بعد عينٍ !

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

بِعِجْلٍ حَنِيذٍ: مشوي بالحجارة المحماة في حفرة .

نَكِرَهُمْ: أنكرهم ونفر منهم .

وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً: أحس في قلبه خوفا منهم.

يَا وَيْلَتَى: كلمة تعجب .

مَجِيدٌ: كثير الخير والإحسان.

ذات يومٍ دخل في بيت سيدنا إبراهيم - وكان قد بلغ من عمره يومئذٍ نحو مائة سنة- شبان حسان الوجوه للغاية ، وقد ظنهم أضيافاً فقام من فوره بتحضير الطعام لهم ، غير أنهم لم يكونوا بشراً ، بل كانوا ملائكة الله ، جاؤوا لأجل غرضين في آنٍ واحدٍ أحدهما: تبشير إبراهيم بالولد ، والآخر: إهلاك شعب لوطٍ ، الذي كان قد بلغ من الإنكار والطغيان غايته.

وإن تبشير إبراهيم وزوجته بإسحاق (الابن) ويعقوب (الحفيد) ، لم يكن بشارة بالأولاد بالمعنى المعروف ، وإنما كان المقصود من ذلك تكوين أسرةٍ أو عائلةٍ تتألف من

الصالحين والداعين إلى الله ، ومن تجارب التاريخ أنه ربما تكون هناك عائلة ما، هى التى تنهض لخدمة الدين الحق ، كما يشهد بهذه الحقيقة ذاتها تاريخ الأنبياء وسير التابعين لهم بصدقٍ وإخلاصٍ خلال القرون المتأخرة ، والسبب في ذلك هو أن الفرد الذي ينكشف عليه الحق ، يكون في أعين المعاصرين له إنساناً عادياً ، ومن ثم فإن معرفة مكانته والقيام بمناصرته يكون أمراً بالغ الصعوبة بالنسبة إلى عامة الناس، أما أهل بيته وأفراد أسرته ، فإن القرابة الذاتية تصبح بالنسبة إليهم عاملاً إضافياً ، فالشيء الذي لا يكاد يراه الآخرون بسبب سطحيتهم ، لا يلبث أهل بيته أن يلمسوه ويحسوا به بسبب العلاقة الذاتية التي تربطهم به، وبالتالى يقفون إلى جانبه يقاسمونه هموم رسالته وتبعاتها الثقال !

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

الرَّوْعُ: الخوف والفزع .

لَحَلِيمٌ: متأن غير عجول .

أَوَّاهٌ: كثير التأوه من خوف الله .

مُّنِيبٌ: راجع إلى الله سبحانه .

لقد دار جدال إبراهيم مع الملائكة الذين مروا عليه في طريقهم لإهلاك قوم لوطٍ ، وبما أن هؤلاء الملائكة جاؤوا من عند الله تنفيذاً لأمره تعالى ، نسبه الله إلى نفسه ، وقد ذُكر جزء من هذا الحوار الذي جرى بين إبراهيم والملائكة في الآية الثانية والثلاثين من سورة العنكبوت ، كما ورد ذكره بالإسهاب في سفر التكوين (الإصحاح الثامن عشر) من التوراة المتداولة اليوم.

إن دعاء سيدنا إبراهيم لقوم لوطٍ لم يُقبل ، كما لم يستجب دعاء سيدنا نوحٍ لولده من قبل ، والسبب في ذلك أن دعاء العفو والمغفرة لأحدٍ ليس بأي شفاعةٍ يتقدم بها شخص لآخر ، وبالتالي يتم القبول به في حق المدعو له نظراً لصلاح الداعي وتقواه ، كلا .

الدعاء هو أن تتقدم بنفسك إلى جناب الله عز وجل ، ولو أن ولد نوحٍ أو قوم لوطٍ استيقظت فى أنفسهم عاطفة الدعاء – بعد الإيمان - فتضرعوا إلى الله طلباً للنجاة ، لعفا الله عنهم ، ولتغمدهم برحمته .. فإن ردّ العذاب ممكن ؛ كما يتضح من مثال قوم يونس لما آمنوا.. على أن العذاب حينما يُرد ، فإنما يُرد بأدعية الأفراد محل التعذيب أنفسهم ، وليس بدعاء أحدٍ غيرهم، حتى ولو كان هذا ((الغير)) نبى الله!

نعم ، ومن المستحسن أن يدعو شخص لشخصٍ آخر غيره أيضاً ، وقد ظل الأنبياء وعباد الله الصالحون يدعون للآخرين في كل العصور ، على أن هذا الدعاء يكون في الحقيقة إظهاراً لكون الداعي نفسه حليماً أواهاً منيباً ؛ فإن العبد الذي يخاف من الله ، ترتعد فرائصه ويهتز كيانه كله بالنظر إلى عذاب الله ، فيأخذ يدعو لنفسه وللآخرين عداه في حرارةٍ وخشوعٍ .

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ ﴾

سِيءَ بِهِمْ: نالته المساءة بمجيئهم خوفا عليهم .

وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً: ضعفت طاقته عن تدبير خلاصهم .

يَوْمٌ عَصِيبٌ: شديد شره وبلاؤه .

يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ: يسرعون إليه كأنهم يدفعون.

وَلاَ تُخْزُونِ: لا تفضحوني ولا تهينوني .

مِنْ حَقٍّ: من حاجة وأرب .

إن الملائكة الذين جاؤوا لوطاً ، كانوا ملائكة العذاب ، إلا أنهم دخلوا في القرية على هيئة غلمانٍ حسان الوجوه للغاية ، وما كان ذلك إلا لإقامة الدليل القاطع على جريمة القوم، فالمرء حين يظل يقترف ذنباً ما باستمرارٍ فإنه لا يلبث أن يصبح إزاءه بليد الحس تماماً ، وهكذا كان حال قوم لوطٍ ، إذْ كانوا قد بدؤوا يعملون الفاحشة الآن علناً وجهاراً وبدون خجلٍ ولا حياءٍ ، ومن ثم فلم يكد يترامى إليهم أن الغلمان الحسان نزلوا في دار لوطٍ ضيوفاً، حتى أسرعوا إلى داره ﷺ مدفوعين بدواعي الشهوة، وأخذوا يطالبون ويلحون عليه بمنتهى الوقاحة بأنه لابد من تسليم هؤلاء الغلمان إليهم !

ولما رأى سيدنا لوط أشرار قومه مسرعين إليه على هذا النحو، انقبض صدره بذلك غيرةً واحتشاماً ، فقال لهم: هؤلاء بنات الشعب ، فلتتزوجوا بأيتهنّ شئتم ، فذلك أفضل طريقٍ لتحقيق رغباتكم الفطرية ! ومن عادة الشيوخ والمتقدمين في السن في أي شعبٍ ، أنهم ينادون فتيات الشعب جميعاً بلقب البنات ، وفي هذا المعنى نفسه قال سيدنا لوط : ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى ﴾ يريد فتيات شعبه .

غير أنهم لم يلبثوا أن رفضوا اقتراح لوطٍ المشروع ، وظلوا ينساقون وراء اللامشروع كعهدهم ، وبذلك قام الدليل قطعياً على أن هؤلاء قوما مجرمون ، وأنهم حقاً جديرون بأن يُهلكوا ، فما لبثوا بعدئذٍ أن تم إهلاكهم عن بكرة أبيهم !

﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ هذه آخر كلمة يقولها عبد الله ذاك ، الذي لا يملك القوة المادية لزجر الأشرار، الذين لم تعد تزجرهم أحاديث العقل والمنطق ، ولا مواعظ الأخلاق والفضيلة ، فعندئذٍ يحاول ، باستخدام كلمةٍ كهذه ، استثارة حمية القوم ، وإيقاظ ضمائرهم ، ولو أن الناس ظلوا ، مع ذلك ، قساة القلوب ، بليدي

الإحساس ، موتى الضمائر كسابق عهدهم ، فإنما يعني ذلك أنه لم يبق في نفوسهم، مقدار ذرةٍ من صفات النبل والفضيلة والإنسانية !

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

آوِي إِلَى رُكْنٍ: انضم إلى قوي انتصر به عليكم .

بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ: بطائفة منه أو من آخره .

سِجِّيلٍ: طين طبخ بالنار كالفخار .

مَّنضُودٍ: متتابع أو مجموع معد للعذاب .

مُّسَوَّمَةً: معلمة للعذاب .

لقد كان سيدنا لوط عليه السلام يظن الشبان القادمين إليه بشراً في بداية الأمر وعندما اشتد قلقه وانزعاجه ، وبات يشعر بأنه قد صار بسبب استضافته إياهم في خطرٍ محدقٍ ؛ أخبروه : إننا ملائكة ، أُرسلنا من عند الله تعالى ، يعني أن هذا أمر إلهي ، وليس بأمرٍ إنسانيٍ ، فلن يستطيع هؤلاء أن يمسونا ولا إياك بسوءٍ .. فقد جاء في بعض الروايات أن رجال قوم لوطٍ حين لم يرضوا بالتراجع إلى الوراء ، ضرب أحد الملائكة وجوههم بجناحه ، فأصبح الجميع بعدئذٍ عمياناً ، وانصرفوا على أعقابهم يصيحون : النجاة.. النجاة!!.

إن الله – جل وعلا – حين يقضي بإهلاك شعبٍ ما جزاء ظلمه ، فإن ذلك يكون

قضاءً عاماً يشمل تلك المنطقة بأكملها ، ففي مناسبةٍ كهذه ، تتعرض كل نسمةٍ في تلك المنطقة للعذاب الإلهي ، بيد أن الذين كانوا قد قاموا بإعلان الحق بين يدي أولئك الطغاة ، يعم إنقاذهم منه برحمةٍ من الله خاصة ، إن إعلان الحق أكبر ضمان للنجاة من بطش الله في الدنيا وفي الآخرة .

وتقول الروايات: إن امرأة لوطٍ لم تكن مخلصةً لسيدنا لوطٍ ، ولا مؤمنةً به من صميم قلبها ، ولكن في نهاية المطاف ، عندما خرج سيدنا لوط من القرية قائلاً : بأن عذاب الله سيحل هنا مع صباح اليوم التالي ، فانضمت زوجته هي الأخرى إلى ركبه ، ولم يكد يتجاوز هؤلاء منتصف الطريق حتى سمعوا من ورائهم أصواتاً مزعجةً تتعالى من الزلزال والطوفان الشديد ، فلم يلتفت سيدنا لوط ولا أصحابه المخلصون إلى الوراء أيما التفاتٍ ، وإنما مضوا مسرعين نحو الأمام ، إلا أن امرأة لوطٍ أخذت تنظر إلى الوراء ، فلما رأت ما رأت من الدخان وسمعت الصراخ والعويل لم تلبث أن ألقت من فمها صرخةً تقول : واقوماه!! فأصابها حجرٌ من السماء ، فهلكت حيث كانت !

ونتعلم من هذا أن شخصاً ما ، إذا هو لم يكن مخلصاً وفياً لله ورسوله في حقيقة أمره فإنه لن يفوز بالنجاة بانضمامه إلى قافلة الحق استجابةً لأي دافعٍ أو محركٍ آخر ، فإن ضعفه الكامن لابد أن يظهر في مكانٍ ما ، وبالتالي يجعله يكبو لوجهه كبوةً لا يستطيع معها أن يتقدم أو يتأخر!

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾

أَرَاكُم بِخَيْرٍ: بسعة تغنيكم عن التطفيف .

يَوْمٍ مُّحِيطٍ: مهلك .

بِالْقِسْطِ: بالعدل بلا زيادة ولا نقصان .

وَلاَ تَبْخَسُوا: لا تنقصوا .

وَلاَ تَعْثَوْا: لا تفسدوا أشد الإفساد .

بَقِيَّتُ الله: ما أبقاه لكم من الحلال .

بِحَفِيظٍ: برقيب فأجازيكم بأعمالكم .

إن مَدْيَن قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام ، وقول نبيهم شعيب لهم:﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يدل على أنهم كانوا مدعي الإيمان ، بمعنىً آخر : إنهم كانوا قوماً مسلمين في زمانهم ، حيث كانوا ينتمون إلى أمة نبيٍ سابقٍ على سيدنا شعيب وبمضي أحقابٍ طويلةٍ من الزمن كان قد فشا في أجيالهم اللاحقة الشر والفساد.

فقال لهم شعيب : أما إذا كنتم تدعون أنكم مؤمنون ، فلن يُعتبر بدعواكم عند الله إلا إذا قمتم بتأدية مقتضيات دعواكم ، إذ لا قيمة لدعوى ما بدون الوفاء بمقتضياتها !!

إن إيمانكم يقتضي ألا تعبدوا إلا الله الواحد الأحد ، وتلتزموا بالعدل في كل أموركم ومعاملاتكم، وأن تحبوا للآخرين ما تحبون لأنفسكم ، وليؤد كل أحدٍ منكم إلى الناس ما لهم عليه من حقوقٍ كاملةً ، دون أن ينقصهم منها شيئاً ، وأن تعيشوا في الأرض كما يريد الله لعباده أن يعيشوا ، وأن تقنعوا بما يُتاح لكم من الرزق - قل أو كثر - عن الطريق المشروع، دون أن تحاولوا الحصول على المزيد إثماً وعدواناً ، ولن تكونوا مؤمنين عند ربكم حقاً ، ما لم تفعلوا هذا كله ، وإلا فالمحذور أن يفتك بكم عذاب من الله شديد!.

إن شعيباً عليه السلام قال – من جهة :﴿ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ ، ومن جهةٍ أخرى نراه يقول : ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ أي في سعةٍ من العيش، مما يوضح أن قوم شعيب كان فيهم فقراء ، كما كان فيهم أغنياء وموسرون ، فكان بعضهم يحصلون على أوفر الحظوظ ، بينما كانت حقوق أناسٍ آخرين تُؤدى إليهم منقوصةً ، إذْ لو كان الجميع من الصنف الأخير ، أي من الذين كانوا يعطون أقل مما يستحقون ، فمن يا تُرى كان فيهم ((بخيرٍ)) على حد قول سيدنا شعيب عليه السلام .

ومن هنا نعلم أن المخاطبين الذين ورد ذكرهم هنا ، هم أصحاب النفوذ والثراء وذوو الحيثيات البارزة في الشعب ، فإن الأنبياء ، مع كونهم يبعثون لهداية كل الناس على اختلاف طبقاتهم ، إلا أن خطابهم يكون موجهاً ، على الأخص ، نحو رجال الطبقة الممتازة في عصرهم ؛ لأن العوام يكونون تابعين لهؤلاء أنفسهم ، فهم يقتدون عادةً بأكابرهم وزعمائهم ، ومن ثم فبلوغ الدعوة إلى الخاصة يعني بلوغها – على نحوٍ غير مباشرٍ – إلى العامة كذلك !

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾

قال الإمام الرازي في تفسير هذه الآية : ((.. وقد يُراد بالصلاة الدين ، والمعنى : دينك يأمرك بذلك؟ وأطلق عليه الصلاة لأنها أظهر شعائر الدين))[1].

إن قوم شعيب كانوا مدعي التدين ، كانوا يمارسون العبادة كذلك ، غير أنهم كانوا قد جمعوا أيضاً الشرك وسوء المعاملة إلى جانب تدينهم وعباداتهم ، وقد دعاهم سيدنا شعيب إلى عبادة الله الخالصة وحسن المعاملة مع الناس، وصرّح لهم بأنه لا قيمة عند الله البتةَ لدين يصاحبه الشرك ، ولا لعبادةٍ لا تنهى عن سوء المعاملة.

---

(١) انظر تفسير الرازي ١٨/ ٤٢.

إن دعوةً كهذه كانت تمثل ضربةً قاضيةً على اعتبار القوم الديني وعلى زعمهم القائل بأنهم متدينون وحائزون على وسام التعبّد ، حتى بالرغم من كل ما يفعلون من قبائح الأعمال ومساوئ الأخلاق؛ فما لبثوا أن ثاروا على شعيب وتذمروا عليه ، وقالوا : هل أنت وحدك عابد لله ، فهل كان شيوخنا وزعماؤنا الدينيون أولئك ، الذين اتخذنا منهم قدوةً، أكانوا كلهم جهلةً لا يدرون من أمر الدين شيئاً ، وهل ليس ثمة من أحدٍ سواك يعرف ما العبادة وما مقتضياتها؟

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

أَرَأَيْتُمْ: أخبروني .

بَيِّنَةٍ: هداية وبصيرة .

لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ: لا يكسبنكم أو لا يحملنكم .

الإيمان نوعان: أحدهما : أن تؤمن على وجه التقليد ، وثانيهما : أن تؤمن عن وعيٍ وبصيرةٍ.

وفي النوع الأول يؤمن المرء بشيءٍ ما لأن الناس كانوا - وما زالوا - يؤمنون به ، بينما هو يؤمن به - في النوع الثاني - لكونه قد أدرك بنفسه في ضوء الدليل والبرهان أنه صحيح ، وإذا كان الأول إقراراً رسمياً محضاً ، فإن الأخير اكتشاف شعوري واعٍ .

إن إدراك الحق على مستوى الدليل أو الشعور هو بضاعة المؤمن ورأسماله الحقيقي ، إذْ بذلك يحصل له ذلك اليقين الحي الذي يجعله يقف أمام الناس ليمثل الحق غير مبالٍ

بأي شيء آخر ؛ حيث إن الإدراك الشعوري بديل عن كل شيء ، فمن حصل على هذه النعمة ، صار في غنىً عن كل شيء آخر سواها .

التناقض بين القول والعمل ينتج عن الإيمان الرسمي التقليدي ، والانسجام أو التوافق بين القول والعمل ينتج عن الإيمان الشعوري الواعي. وفي معنى «شقاقي» رُوي عن الحسن البصري قوله : «لا يحملنكم معاداتي على ترك الإيمان ، فيصيبكم ما أصاب الكفار» [1].

وبما أن الداعي يبدو لمعاصريه رجلاً عادياً ، لذا فإن ملاحظاته النقدية تستفز أولئك الذين يتمتعون بالوجاهة والمكانة البارزة في المجتمع ، إن جراءة رجلٍ عاديٍ على أن يتناول هؤلاء وزعماءهم الكبار بالنقد والتجريح ، تصير عند القوم شيئاً لا يُحتمل ولا يُستساغ ، مما يبعث في نفوسهم مشاعر الحقد والكراهية والعناد ضد الداعي إلى الحق .

إن انبعاث نفسية من هذا النوع في داخل أحد الناس ، يجعله عرضة لامتحانٍ بالغ الخطورة ، فإن رجلاً كهذا ، لكونه ينظر إلى شخصٍ بعين الاحتقار ، لا يلبث أن يحتقر ويزدري حتى الأمر الإلهي الصادر عن ذلك الشخص كذلك ، إن إعراضه عن إنسانٍ يقوده إلى أن يعرض عن الله تعالى نفسه!

﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾

---

(١) القرطبي ٩/ ٩٠.

رَهْطُكَ: جماعتك وعشيرتك .

وَرَاءَكُمْ ظِهْرِياً: منبوذا وراء ظهوركم منسيا .

مَكَانَتِكُمْ: غاية تمكنكم من أمركم .

وَارْتَقِبُوا: انتظروا العافية والمال .

سُمي سيدنا شعيب في حديثٍ نبوي بـ ((خطيب الأنبياء)) ، حيث كان ﷺ يعظ قومه وينصح لهم في لغتهم المفهومة لديهم وبأسلوبٍ مؤثرٍ بليغٍ للغاية ، إذن ، فما الذي جعل قومه يقولون: ((يا شعيب ما نفقه (أى نفهم) كثيراً مما تقول)) .. إن السبب في ذلك كان يرجع إلى فساد شاكلة القوم الذهنية ، فقد كان منهج تفكيرهم يختلف عن منهج تفكير شعيب تمام الاختلاف ، وبالتالى تعذر عليهم أن يفهموا كلامه على وجهه .

فقد كان قومه ﷺ مشغولين بتعظيم البشر ، بينما كان شعيب يدعوهم إلى تعظيم الله الواحد ، وكانوا يعدّون الآمال والأماني وسيلة النجاة ، فى حين أنه ﷺ كان يؤكد على أنه لا نجاة إلا بالعمل فقط .

وهكذا فقد نشأت فجوة عقلية أو ذهنية بين سيدنا شعيب وقومه، حالت دون تفهم القوم لكلامه مع كونه غايةً في الصدق والوضوح .

﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ تدل هذه الجملة على مبلغ القسوة والبلادة والسطحية الذي كان قد انتهى إليه قوم شعيب ، والقصة بإيجازٍ أن سيدنا شعيب لم يكد يقوم بكشف القناع عن مزاعم القوم الدينية ، حتى تصدوْا لمعاداته والنيل منه ، ولم يكن يصحب شعيباً إذْ ذاك حشود من الجماهير تقف في وجه أعدائه وخصومه ، ولا كان يملك من الوجاهة والثروة ما يبهر عيون القوم ويملأ نفوسهم هيبةً ورعباً منه ، وإنما كانت تتوفر لديه قوة الصدق والمعقولية ، ولا يعطي أمثال هؤلاء أهمية لمن يتوفر لديه الصدق والمعقولية .

وقد كان من المتوقع - والحالة هذه - أن يندفعوا إلى قتله أو اغتياله ﷺ غير أن الشيء الذي حال دون قيامهم بعملية كهذه ، هو الخوف من ثأر القبيلة، ففي العصر القبلي القديم كان قتل فردٍ من أفراد القبيلة يعني أن تهب القبيلة ، عن بكرة أبيها للانتقام من القاتل ، وقد شكل هذا المحذور حاجزاً منع قوم شعيب من اتخاذ أية خطوةٍ نهائيةٍ ضده ﷺ تماماً كما يأمن الناس اليوم في معظم الأحيان شرورَ الأشرار والمشاغبين لخوفهم من الوقوع في قبضة رجال البوليس أو التعرض للمحاكمة .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

الصَّيْحَةُ: صوت من السماء مهلك مرجف.

جَاثِمِينَ: هامدين ميتين لا يتحركون .

لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا: لم يقيموا فيها طويلا في رغد .

بُعْداً لِّمَدْيَنَ: هلاكا وسحقا لهم .

بَعِدَتْ ثَمُودُ: هلكت من قبل .

إن قوم شعيب كانوا يحسبون أنهم مُلاّك لبلاد مدين ، وأن الشيء الذي كان قد أتيح لهم لمصلحة الامتحان ، اعتبروه حقهم الذاتي ، ودفعتهم هذه العقلية إلى أن بيّتوا تدابير عدوانية عنيفةً ضد نبيهم ، حتى إنهم هددوه قائلين : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ﴾ [الأعراف : ٨٨] غير أن الأرض التي كانوا يعتبرونها ملكاً لهم ، قد انفجر فيها بإذن الله زلزال بصوته المخيف ودويّه الرهيب ، دمر هذه المنطقة من أقصاها

إلى أقصاها، وانمحت آثارهم في دنياهم أنفسهم كما لو لم يكن لهم هناك وجود بالأمس القريب ولا البعيد !!

على أن الذين آمنوا بشعيبٍ ووقفوا إلى جانبه ، تم إنقاذهم من العذاب يومئذٍ بنصرةٍ من الله خاصةٍ!

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾

وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ: برهان بين على صدق رسالته .

يَقْدُمُ قَوْمَهُ: يتقدمهم كما يتقدم الوارد .

فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ: أدخلهم فيها بكفره وكفرهم.

الوِرْدُ المَوْرُودُ: المدخل المدخول فيه وهو النار.

الرِّفْدُ المَرْفُودُ: العطاء المعطى لهم وهو اللعنة .

لقد أبلغ سيدنا موسى ﷺ دعوة الحق إلى أقصى حدٍ ممكنٍ ، ولم يكن قد أفحم فرعون وأصحابه من الناحية النظرية فحسب ، بل أقام الدليل الظاهري المحسوس على صدقه أيضاً ، وذلك عن طريق إظهار معجزات العصا واليد التي أيّده الله بها ، ولكن قوم فرعون لم يزالوا - بالرغم من ذلك كله - مع فرعون ، ولم يرضوا باتباع موسى - عليه الصلاة والسلام.

وإنما كان السبب في ذلك أن هؤلاء كانوا يعطون الأهمية للسلطة الدنيوية وحدها ، ولم يكونوا يرون هذه الأشياء عند سيدنا موسى ، ومع أن أحاديثه ﷺ كانت مثار

الدهشة والاستغراب لديهم ، وبالتالى كانت تبعثهم على الوقوف عندها وقفة تأملٍ وتفكيرٍ ، إلا أنهم عندما كانوا يقارنون بين موسى وفرعون ، تراءى لهم إلى جانب الأول حرمان ظاهر من كل متاعٍ دنيويٍ ، وإلى جانب الأخير كل أنواع المباهج والأبهة المادية ، وقد صارت هذه المقارنة عندهم هى الحاسمة ، فلم يرضوا ، بالرغم من مشاهدة الدلائل الواضحة والمعجزات الباهرة ، بأن يتخلوا عن فرعون ، وينضووا تحت راية موسى عليه السلام .

والذين يصاحبون إنساناً في الدنيا ، سيُضمون إلى جانبه في الآخرة كذلك ، على أن هذا سيكون - على نقيضٍ من الدنيا - انضماماً أو مصاحبةً سيئةً للغاية ، فإن ذلك الشخص - المتبوع - سيُنتزع منه يومئذٍ كل أسباب ، وسيكون وجوده الآن رمزاً للهوان والضياع المحقق ، وسينتهي بأتباعه أيضاً إلى النار التي قُدرت له نتيجة قيادته الضالة المنحرفة!

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

وَحَصِيدٌ: عافي الأثر ، كالزرع المحصود .

غَيْرَ تَتْبِيبٍ: غير تخسير وإهلاك .

إن أسفار التاريخ القديمة تتضمن أحوال الملوك والقادة العسكريين ، غير أنها خلت تماماً من أحوال الأنبياء وشعوبهم ، هذا من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرى فإذا درسنا القرآن الكريم ، وجدناه يولي أعظم جانب من العناية والاهتمام بتسجيل حالات الأنبياء ومواقف الشعوب التي بعثوا فيها ، بينما أهمل كل الأشياء الأخرى سواها ، إن التاريخ الذي قام الإنسان بتدوينه ، حُذف منه أجدر شيء بالذكر وأحق بالتسجيل في

نظر الخالق !!

ومن هذه القرى المهلكة خلال عصور النبوة ، ما لم يزل عامراً حتى الآن ، كمصر التي كانت موطن فرعون ، ومن جهةٍ أخرى هناك شعوب كقوم هود وقوم لوطٍ ، قد اندثرت قراهم بمن عليها ، اللهم إلا بعض آثارهم التي ما زالت قائمةً في صورة أطلالٍ وخرائب ، أو التي تم العثور عليها عن طريق حفر الأرض ، وإهلاك هذه القرى ، يبدو - في ظاهر الأمر - واقعةً ظالمةً ، ولكن عندما نتساءل : لم حدث هذا؟ نتوصل إلى أن ذلك يطابق الحقيقة أتم المطابقة ، فإن هذا الدمار الذي لحق بهم ، لم يكن إلا نتيجة فسادهم العملي، فالذي حدث إنما حدث بعدما فسد عملهم وليس قبل ذلك.

وعندما يلجأ المرء إلى الطغيان والظلم ، يعتمد على بعض الأشياء أو الذوات سنداً له ، ويظن أنها ستمد إليه يد العون والمساعدة في أوان الشدة، غير أن هذه الأسندة أو الاعتمادات لا تدوم إلا ما دام الله يُمهل ، وإذا ما انتهت مدة الإمهال تبعاً لقانون الله ، وأصدر الله قضاءه النهائي ، فعندئذٍ يعلم المرء أن كل تلك الأشياء التي كان قد اعتبرها - بسبب جهله - سنده وموضع ثقته ، لم تكن سوى أوهامٍ وافتراضاتٍ كاذبةٍ محضةٍ !

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

إن فرصة العيش والسكنى في رحاب العالم الراهن إنما أتيحت للإنسان بناءً على الامتحان ليس غير ، والذين لا يزالون يصرون على الإنكار والعناد ، حتى بعد قيام الحجة عليهم بواسطة الأنبياء ، فإنهم يفقدون بعدئذٍ حق الإقامة فى أرض الله ، وللسبب ذاته أهلك الله منكرى الأنبياء ومكذبى الرسل عن آخرهم ، وقد تم هذا الإهلاك ، في أغلب الحالات ، بزيادة درجة الشدة إلى الكوارث الأرضية العادية ،

كالريح العاصفة ، والطوفان أو الزلزال الذى لا يتجاوز حداً معيناً فى الأحوال العادية، زيد من شدته وقوة تدميره إلى غير نهايةٍ .

ووقائع تدمير الأمم والشعوب كهذه ، التي حدثت في القرون الغابرة ، يطلق عليها علماء التاريخ الجغرافي وصف التغيرات المناخية (Climatic pulsation) ، يعنى أن كل ما حدث لم يكن سوى نتاج التقلبات الجغرافية لا غير ، على أنهم لا يملكون أية إجابةٍ مقنعةٍ عن السؤال القائل : لم حدث هذا النوع من التغيرات المناخية الشديدة في الماضي وحده ، وما بالها لا تحدث الآن ، أي في عصر ما بعد النبوة ؟!

والحقيقة أن هذه الوقائع لم تكن وقائع جغرافية، بل كانت إظهاراً للقضاء الإلهي ، وبذلك يقوم الدليل على أن نظام العالم الراهن بُني على أساس العدل. إن قانون الله نفسه يستلزم أن يلقى الظالم هنا عقوبة ظلمه ، وفوز العادل بمكافأة عدله ، ووصف هذه الوقائع بأنها تغيرات مناخية إقحام لها في خانة الجغرافية ، وعلى العكس من ذلك فلو أنا اعتبرناها تغييراتٍ إلهيةً لتحولت إلى دروسٍ عن الخوف الإلهى وهم الآخرة!

وكأن هذه الوقائع التي حدثت في زمن الأنبياء ، كانت بمثابة علاماتٍ صغيرةٍ للقيامة الكبرى ، ففي أثناء ذلك تم إمهال المنكرين والظالمين إلى مدةٍ من الزمان معينةٍ ، وعندما ظهر قضاء الله بعد انتهاء المهلة ، فلم يلبثوا أن أهلكوا عن بكرة أبيهم ، وإنما نجا من الهلاك أولئك وحدهم ، الذين صاروا عند الله سعداء بسبب مناصرتهم للحق ، وأما مَنْ عداهم من الذين كانوا طغاةً وأشقياء في ميزان الله ، فقد تعرضوا كلهم للعذاب ، حتى إن شفاعة الأنبياء لم تغن عنهم شيئاً ، كما يتضح لنا من مثال سيدنا نوحٍ وسيدنا إبراهيم الخليل - عليهما صلوات الله وسلامه .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً

غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ ﴾

زَفِيرٌ: إخراج شديد للنفس من الصدر .

شَهِيقٌ: رد النفس إلى الصدر .

غَيْرَ مَجْذُوذٍ: غير مقطوع عنهم .

إن الشيء الذي علق عليه القرآن الكريم الأهمية الكبرى ، وبالتالي أعاد ذكره في صحائفه أكثر من أي شيءٍ آخر عداه هو أن الناس لن يُتركوا على ما هم عليه في العالم الراهن ، بل سيُحضرون بعد الموت إلى محكمة الله للحساب عن حياتهم الدنيا ، وسيُساق كل إنسان هناك إما إلى الجنة أو إلى جهنم وفقاً لعمله هو .

وسبب هذه الأهمية وهذا التكرار وإعادة الذكر يرجع إلى شك الناس ، حيث إنهم يرون أن هناك عدداً لا يُحصى من البشر لا يؤمن بهداية الله ، وعدداً لا يحصى منهم كذلك يعمل متحرراً من توجيهات الله ، وكثيرين آخرين يمارسون حياتهم تبعاً لهواهم وليس تبعاً لمرضاة الله ، وهم - مع ذلك - لا يتعرضون لخسارةٍ أو مصيبةٍ ما ، وناجحون موفقون في هذه الدنيا ، ولا توجد هنا - على ما يبدو ظاهراً - أية بقعة من بقاع الأرض يفوز فيها أوفياء الله بأي إنعامٍ خاص على وفائهم ، أو يعاقب عصاة الله من أية عقوبةٍ خاصةٍ على عصيانهم .

ونظراً لهذا الوضع يقع معظم الناس في الشك والارتياب ، إذْ يصعب عليهم أن يستيقنوا بأن هناك مصيراً آخر قُدِّر لهؤلاء البشر غير مصيرهم الحالي الذي لا يزالون يشاهدونه بأعينهم ، وهنا يكشف القرآن القناع عن حقيقة أن تمادي الناس في الباطل وإصرارهم على اتباعه ، ليس لأنهم قد بحثوا في الموضوع طرداً وعكساً ، ثم اختاروه اقتناعاً بأنه يتسم بالمعقولية ، وهو لذلك أجدر بالاتباع ، بل السبب الحقيقى فى ذلك

هو الإذعان لسلطان التقليد ، وليس الإذعان لسلطان الدليل والمعقولية .

وأما إذا كان الناس – مع ذلك – لا تواجههم عاقبة أعمالهم الوخيمة ، فإنما يرجع ذلك إلى مهلة الامتحان المتاحة ، فالحياة ما قبل الموت – التي نمارسها على وجه الأرض – هي حياة الاختبار ، ولذلك يتم إمهال الإنسان هنا لقول ما يشاء ويفعل ما يشاء ، والموت هو خاتمة هذه الفقرة المحددة ، فمعنى الموت هو أن يُوصل المرء من دار الامتحان إلى دار المحاكمة ، وسينال الكل هناك ما كان يستحق في واقع الأمر ، وسيُنتزع من الكل ما كان قد جمعه من حوله بدون استحقاقٍ ولا جدارةٍ !

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ ﴾

مُرِيبٍ: موقع في الريبة وقلق النفس .

معنى «الاختلاف في كتاب موسى» أن مخاطبيه تعددت مذاهبهم وتفرقت آراؤهم فيما يتصل بمحتويات الكتاب وتصريحاته ، فكذب به بعضهم وصدق به بعضهم.

والشأن أنه كلما عُرض أمر ما ، فإن المرء يجد نفسه بإزائه دوماً بين خيارين : أحدهما : التفسير الصحيح ، والآخر التفسير الخاطئ ، ولو أن المتلقين كانوا في الواقع جادين لتوصلوا دائماً إلى التفسير الصحيح وحده ، وستصبح جديتهم ضماناً أكيداً لاتحاد الآراء بينهم ، وعلى النقيض من ذلك فلو أنهم لم يكونوا جادّين بشأن الأمر المعروض ، فسوف لا يعطونه أية أهمية من حيث هو ، بل سيذهبون مذاهب شتى في تفسيره كل بحسب نزعته واتجاهه الخاص ، وهكذا سيؤدي عدم جديتهم إلى نشوب اختلاف الآراء بينهم .

وقد تكررت هذه الظاهرة مع جميع الأنبياء والرسل ، وما زال الله – مع ذلك –

يستسيغها ، دون أن يقضي قضاءه الحاسم بين هؤلاء المختلفين في أمر دينه ، وسبب ذلك أن الله جعل العالم الراهن مكان عمل ، وجعل العالم الآخر القادم مكان الجزاء والمكافأة .

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

وَلاَ تَطْغَوْا: لا تجاوزوا ما حده الله لكم .

وَلاَ تَرْكَنُوا: لا تمل قلوبكم بالمحبة .

وَزُلَفاً مِّنَ: ساعات منه قريبة من النهار .

ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ: عظة للمتعظين .

يتم استقبال دعوة الحق بدايةً بشكل الإعراض عنها،ثم يليه دور المعارضة،التي لا تزال تشتد وتتصاعد حدتها شيئاً فشيئاً حتى تبلغ ذروتها،وإنها لتكون أخطر مرحلةٍ يمر بها الدعاة خلال مسيرتهم الطويلة .

وعندها ينقسمون إلى طائفتين : حيث يبلغ الحنق والتذمر من نفوس بعضهم مبلغاً يريدون معه أن يصطدموا بالمعارضين ، ويقاوموا هؤلاء الذين لم تحرك الدلائل النظرية منهم ساكناً ، يقاوموهم بوسائل القوة والعنف ، بينما يتجه بعض آخر إلى أن يتناول الدعوة بشيءٍ من التعديل بغية استمالة قلوب المخاطبين إليها ، فيحذف بالتالي من عناصر الدعوة ما يتسبب في إثارة المخاطبين !!

وإذا كان الاتجاه الأول طغياناً أي مجاوزة الحد ، فإن الاتجاه الثاني هو تفاهم أو

تصالح مع الباطل ، وكلا هذين الاتجاهين خاطئ عند الله على حدٍ سواءٍ ، ويكاد الاتجاه الثاني ، على وجه الأخص ، (وهو الذي يرغب في إدخال تعديلات على الدعوة بغية استمالة القلوب) ، يكاد أن يكون جرماً ، فإن الشيء المطلوب عند الله أولاً وأخيراً هو إعلان الحق ، ولا يمكن إعلان الحق بما ينبغي من الصراحة والوضوح ، بعد أن يتم التصالح مع الباطل ، عن طريق التنازل عن بعض عناصر الدعوة!!

وكلما صادف الداعي في طريق الدعوة صعوبات أو مشاكل ، رجع دائماً إلى الله تعالى؛ لأنه تعالى هو الفاعل الحقيقي لكل شيء ، وإن نصرة الله هي الضمان القطعي الوحيد لحل المشكلات كافةً !

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

ٱلْقُرُونِ: الأمم .

أُوْلُوا بَقِيَّةٍ: أصحاب فضل وخير .

مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ: ما أنعموا فيه من الخصب والسعة .

المراد بـ ((القرون السابقة)) هنا الأمم السباقة ، وبلفظ آخر الشعوب المسلمة السابقة، وإنما تُصاب الأمة - أية أمةٍ - بالفساد والانحلال إذْ يتحول المتاع الدنيوي الذي أعطاها الله إياه - لكيما تستيقظ به في نفوس أفرادها عاطفة الشكر - إلى وسائل الترف وحب الدنيا والانغماس في لذاتها . والعمل الذي يجب القيام به في هذه الحالة بهدف إصلاح الأمة المسلمة،أطلقت عليه الشريعة عنوان ((الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر))، وهذا يشير إلى واجب الفرد المسلم الملقى على عاتقه بشأن إصلاح بيئته القريبة والمراد بذلك أنه لابد وأن يتواجد في المجتمع المسلم دوماً أفراد يعملون على تذكير

إخوانهم بالله وبالآخرة ، وأن يقوموا بمراقبة سلوكهم وأخلاقهم ، ويحاولوا تثبيتهم على الجادة المستقيمة في كل شئونهم ومعاملاتهم ، وعدم نهوض أخيار كهؤلاء من بين أمةٍ ما للاضطلاع بهذه المهمة،يرجع دوماً إلى أحد سببين: فإما أن تكون الأمة بأكملها قد أصيبت بالفساد والانحلال الشامل،بحيث لم يعد يوجد فيها حتى ولا فرد صالح، وإما أن يتواجد هناك أفراد صالحون،ولكنهم لا يجترئون على الجهر بالحق،بسبب الفساد العام الشامل، حيث يساورهم الخوف من أنهم إن جاهروا بالحق فسيصبحون موضع الإهانة والتحقير بين أوساط الأمة !!

وفي كلتا الحالتين تفقد الأمة ثقتها واعتبارها عند الله تعالى ، وتستحق بالتالي أن تتعرض بصورةٍ أو أخرى لضربة العقاب الإلهي !

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

وَتَمَّتْ: وجبت وثبتت .

إن هناك مخلوقات أخرى لا تقع تحت الحصر ، ما عدا الإنسان ، توجد أيضاً في عالمنا هذا الذي نعيش فيه ، وهذه المخلوقات كلها تسير دوماً في اتجاه الفطرة المحدد لها ، لا تنحرف عنه ولا تحيد قيد أنملة ، وهكذا كان بالإمكان تماماً أن يُلزم الله الإنسان هو الآخر بالسير على الصراط المستقيم الواحد ، على أن خطة الله عن الإنسان غير هذا ، فقد كان التدبير الإلهي عن الإنسان أن ينشئه كمخلوق يأخذ شيئاً ويتخلى عن شيء آخر بمحض اختياره وكامل حريته ، وظاهرة الاختلاف في عالم الإنسان ليست في الحقيقة إلا نتيجة هذا المنهج الإلهي الخاص ذاته!

ومعنى هذا المنهج البالغ الخطورة أنه سيكون هناك كثيرون من الناس يسيؤون

استخدام حرياتهم ، وبالتالي يجعلون أنفسهم أهلاً لنار جهنم .

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

مَكَانَتِكُمْ: غاية تمكنكم من أمركم .

لقد سجل القرآن أحوال الأنبياء وقصص المرسلين ، لتكون مادة درسٍ وعبرة لمن يلحق بهم من دعاة الحق فيما بعد ، فالداعي يلاحظ في قصص الأنبياء هذه أن شعوبهم أثارت معهم خصوماتٍ وصراعاتٍ ، وتصدت لتشويه سمعتهم بتأويل كلامهم السديد على غير وجهه ، وأساءت إليهم ألواناً شتى من الإساءة ، ورفضتهم كما لو أنهم لا قيمة لهم البتة!

بيد أن الله تعالى أمدهم بنصرته آخر الأمر ، فصارت كلمتهم هي العليا ، وباءت كل محاولات المعارضين لهم بالفشل الذريع ، ولقد لقيت كلتا الطائفتين مصيرها المختلف ، بشكله البدائى ، فى العالم الراهن ، وسوف تلقاه بشكله النهائى الكامل فى الآخرة .

ومن هذه الأمثلة يحصل الداعى على هذه الثقة التاريخية القائلة بأنه لا داعي لليأس ولا للقلق والانزعاج بما يواجهه في طريق الدعوة إلى الحق من صعوباتٍ ومشاكل ، إذْ لابد من مواجهة هذه الأشياء في طريق الدعوة ، وأنه سيكتب لها النجاح فى نهاية المطاف تماماً كما نجح دعاة الله الصادقون من قبله !

سورة يوسف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

نَقُصُّ عَلَيْكَ : نحدثك أو نبين لك يا محمد .

مع أن القرآن الكريم قد نزل لهداية العالم أجمع ، إلا أن مخاطبيه الأول كانوا عرباً ؛ مما اقتضى تنزيله باللغة العربية ، والمسئولية الآن ملقاة على عواتق المؤمنين به أن ينقلوا تعاليمه إلى سائر لغات العالم ، ويقوموا بتبليغها إلى شعوب الأرض قاطبةً .

ولقد بين القرآن تعاليمه وتوجيهاته بأساليبِ بيانيةٍ شتى ، إذْ يعرضها تارةً بلغة الشواهد والدلائل الكونية ، وأخرى بلغة الإنذار والتبشير ، وثالثةً على لسان التاريخ ، أما في سورة يوسف ، فقد عُرضت هذه التعاليم في شكل قصة يوسف - عليه الصلاة والسلام - وقد أرشدت هذه السورة أهل الإيمان ، في قالبٍ قصصي لأحداث حياة هذا النبي، إلى أن الله قادر على كل شيء ، وأنه تعالى ينصر القائمين بخدمة الحق ، ويكللهم بالنجاح آخر الأمر، رغم ما يدبره المعارضون من صنوف المكائد والمؤامرات ضدهم ، ولكن بشرط أن يتصف أهل الإيمان بصفات التقوى والصبر، ويظلوا ثابتين على جادة الحق على كل حالٍ من الأحوال!

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ

إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

يَجْتَبِيكَ : يصطفيك لأمور عظام .

تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ : تعبير الرؤيا وتفسيرها .

ورد في حديث ما معناه أن الرؤيا ثلاثة أنواعٍ : حديث النفس ، وتخويف من الشيطان، وبشارة من الله ، ورؤيا الرجل العادي يمكن أن تكون أي واحدٍ من هذه الأنواع الثلاثة ، غير أن رؤيا النبي تكون دوماً بشارةً من الله ، وهي تكون تارةً بصورةٍ واضحةٍ مباشرةٍ ، وطوراً بصورةٍ تمثيلية غير مباشرةٍ .

إن عصر سيدنا يوسف عليه السلام يرجع إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، وكان أبوه سيدنا يعقوب يسكن في فلسطين .. وقد كان سيدنا يوسف وأخوه بنيامين من أمٍ واحدةٍ ، وإخوته العشرة الباقون من أمهاتٍ شتى.. وفي هذه الرؤيا تشير الشمس والقمر إلى أبويه ، وتشير الكواكب الأحد عشر إلى إخوته الأحد عشر ، وقد كانت هذه الرؤيا تتضمن البشارة – من جهةٍ – بأن سيدنا يوسف سيُشرف بالنبوة ، ومن جهةٍ أخرى كانت تمثيلاً لما قد أتيح له من الرقي والازدهار والسلطة بعد وصوله إلى مصر ، مما اضطر أهل أسرته جميعاً إلى التسليم والاعتراف بمجده وعظمته .

لقد كان أخوة يوسف العشرة (من غير أمه) يضمرون مشاعر الحقد والحسد إزاءه ، نظراً لما كان يتمتع به من شخصيةٍ فذةٍ رائعةٍ جعلته محط الآمال والأنظار ، ومن ثم فلم يكد أبوه (يعقوب) يستمع إلى منامه حتى نصح له من فوره قائلاً : لا تخبر إخوتك بذلك ، وإلا فسيصبحون أكثر لدداً في عدواتك والتآمر عليك !

إن الحسد أو الحقد على عظمة أحدٍ غيرك من الأفعال الشيطانية المحضة ، والذي توجد فيه هذه الصفة الذميمة، ينبغي عليه أن يبادر بالتوبة ، فإن ذلك دليل على أنه غير راضٍ بقضاء الله ، وهو سائر على هدي الشيطان ، وليس على هدى الله .

لقد وردت كلمة ((إتمام النعمة)) هنا بالنسبة إلى سيدنا يوسف ، الذي حصل على الحكومة ، كما وردت بالنسبة إلى سيدنا إبراهيم الخليل الذي لم يحصل على حكومةٍ ما ، إذن ، فما هو القاسم المشترك بين الاثنين الذين أطلق عليه ((إتمام النعمة)) ، إنه النبوة ؛ أي التوفيق إلى هداية الله الخاصة ، تلك التي تؤدي بمن يوفق إليها إلى الدرجات العليا في الآخرة ، إن هداية الله هي تتمة النعم الإلهية على الإنسان ، وتتاح هذه النعمة للأنبياء - عليهم السلام - مباشرةً ، ولعامة الصالحين على نحوْ غير مباشرٍ !

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

وَنَحْنُ عُصْبَةٌ : جماعة كفاة للقيام بأمره دونهما.

ضَلالٍ مُّبِينٍ : خطأ بيّن في إيثارهما علينا.

اطْرَحُوهُ أَرْضاً : ألقوه في أرض بعيدة عن أبيه.

يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ : يخلص لكم حبه وإقباله عليكم .

غَيَابَةِ الجُبِّ : ما غاب واظلم من قعر البئر .

السَّيَّارَة: المسافرين .

لقد اشتد الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ من قبل أهل مكة في أواخر أيامه بها، وبخاصةٍ بعد أن فقد نصيريه : عمه أبا طالب ، وزوجته الطاهرة الحنون السيدة خديجة - رضي الله عنها - وقد سأله إذْ ذاك رجال من أهل مكة عن قصة سيدنا يوسف ، الذي كانوا قد سمعوا اسمه وطرفاً من أخباره عن بعض اليهود خلال رحلاتهم ، ومع أن هذا السؤال إنما كان بغرض السخرية والاستهزاء به ﷺ غير أن الله - تعالى- رده على السائلين أنفسهم ، فعن طريق حكاية هذه القصة تم إشعارهم - بصورةٍ غير مباشرة - بأنهم قوم شاء لهم القدر أن يقوموا بإعادة تمثيل الدور الذي لعبه أخوة يوسف من قبل ، بينما سيكون مصير النبى بفضلٍ من الله ورحمته ، ما لقيه يوسف في مصر ، لقد كان سيدنا يعقوب يلاحظ أن يوسف هو أكثر أبنائه صلاحاً وأحسنهم استعداداً ومواهب ، وقد كانت تتراءى له فيه ملامح شخصية نبي المستقبل ، مما جعله شديد الميل إلى يوسف كثير العطف والإقبال عليه ، ولكن أبناءه العشرة كانوا ينظرون إلى هذا الأمر من وجهة النظر الدنيوية ، حيث كانوا يزعمون أنه يجب أن تكون عصبتهم أي جماعتهم هي الأهم والأفضل عند الوالد؛ لأنها هي التي تستطيع أن تقوم بنجدة الأسرة وحمايتها، وقد انتهى موقفهم الأحادي الجانب هذا إلى حدٍ خُيِّل معه إليهم أنهم لو قاموا بتنحية يوسف عن الميدان، لانعطف حنان الوالد وإقباله كله نحوهم .

ولما اجتمع هؤلاء لوضع الخطة الحاسمة ضد يوسف ، عرض ((يهوذا)) كبير الأخوة، هذا الاقتراح بأنه ينبغى أن نُلقي بيوسف في قعر جبٍ قديمٍ بدلاً من إراقة دمه وقد كان ذلك تدبيراً إلهياً خاصاً ، فمن سنة الله أنه حين تتصدى طائفة ما لإيذاء أحد عباد الله والنيل منه بغير الحق ، فيخرج من بين تلك الطائفة نفسها ، شخص يُوفق إلى استرضاء إخوانه وجمع كلمتهم على خطةْ معتدلة نوعاً ما ، ربما تكون منطويةً على إمكانٍ بل إمكاناتٍ جديدةٍ لعبد الله ذاك!

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

وَيَلْعَبْ : يسابق ويرم بالسهام .

يتضح مما قاله سيدنا يعقوب رداً على طلب أبنائه ، (في معرض اعتذاره عن عدم إرساله يوسف معهم)، أنه كان قد أدرك ، بدراسة الأحوال والملابسات ، أن هذا ليس بأمر اللعب والنزهة في رحاب الصحراء ، بل هو أمر تآمر الإخوة على يوسف وكيدهم له ، وبيد أن الإنسان الخائف من الله يكون إنساناً واثقاً من الله معتمداً عليه كذلك ، فمع أن يعقوب كان قد أحس ، بفطنته وفراسته ، ما عسى أن يحدث ، إلا أنه كان يعدّ قدرة الله فوق كل شيءٍ آخر ، وكان موقناً بهيمنة الله المطلقة تمام اليقين ، ومن ثم فلم يلبث أن بعث بيوسف مع إخوته ، توكلاً على الله ، رغم إحساسه بالأخطار المحدقة .

تلك هي صورة الإنسان الخائف من الله ، ومن جهةٍ أخرى نلاحظ في إخوة يوسف صورة أناسٍ قلوبهم خالية من خوف الله كل الخلو ، فقد كان هؤلاء يبيتون مؤامراتٍ للقضاء على أحد عباد الله بغير الحق ، ناسين أو متناسين أنهم في عالمٍ لا يملك فيه أحد غير الله أيما قدرةٍ ولا خيار ، وقد كانوا يحاولون إثبات أنهم ناصحون بألفاظهم ، بينما الناصح عند الله حقاً ، هو الذي يثبت نُصحه بعمله!

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ

كُنَّا صَٰدِقِينَ (١٧) وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾

وَأَجْمَعُوا: عزموا وصمموا .

نَسْتَبِقُ : ننتضل في الرمي بالسهام .

سَوَّلَتْ : زينت وسهلت .

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ : لاشكوى فيه لغير الله تعالى .

من المؤكد أن قصة يوسف أوسع وأكثر تفصيلاً مما ورد ذكره في القرآن الكريم ، غير أن هدف القرآن الأصلى هو النصيحة وليس سرد الأحداث والوقائع .. ولذا فهو لا يأخذ سوى تلك الجوانب التى تنطوي على الذكر والنصيحة ، ويهمل ما عدا ذلك من أجزاء القصة الباقية ليضطلع المؤرخون بجمعها وترتيبها . وقد رُوي أن سيدنا يوسف مكث في الجب ثلاثة أيامٍ ، ويُحتمل أنه أرى فى المنام ، خلال هذه الأيام الثلاثة نفسها ، ما سيؤول إليه حاله في المستقبل ، فقد رأى فيما رأى أنه يخرج من البئر ثم يصل إلى درجةٍ من المجد والعظمة رفيعةٍ ، حتى يصل الفرق بينه وبين إخوته ، من حيث الوضع والمكانة ، إلى حد أنهم عندما يروه لا يستطيعون أن يعرفوه!!

وإن ما فعله إخوة يوسف كان عملاً استفزازياً للغاية ، غير أن يوسف لم يلبث أن فوض أمره كله إلى الله ، وبقي في قلب صحراء موحشةٍ ، داخل بئرٍ مظلمةٍ عميقةٍ ، بقي ينتظر نصر الله دون شكوى ولا مللٍ .. هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى فقد تمسك أبوه يعقوب هو الآخر بمسلك الصبر الجميل .. وجاء في بعض التفاسير أنه قال لبنيه : لو أكله الذئب ، لخرق قميصه أيضاً ، يعني ما أحلم هذا الذئب وما أنبله ، افترس يوسف وسلم إليكم قميصه المتلطخ بالدم سليماً غير ممزق !!

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

السَّيَّارَةٌ : رفقة من مسافرون من مدين لمصر.

وَارِدَهُمْ : من يتقدم الرُّفقة ليستقي لهم.

فَأَدْلَى دَلْوَهُ : فأرسلها في الجب ليملأها ماء.

وَأَسَرُّوهُ : أخفاه الوارد عن بقية الرفقة أو أخفى إخوته أمره.

بِضَاعَةً : متاعاً للتجارة .

وَشَرَوْهُ : باعه إخوته ، أو السيارة .

بِثَمَنٍ بَخْسٍ : ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً.

لما انصرف إخوة يوسف ، بعد إلقائه في غيابة الجب ، مر بتلك الناحية ، (حسب ما جاء في بعض الروايات بعد ليالٍ ثلاث) قافلة تجارٍ ، كانوا ذاهبين من مدين إلى مصر ، واقترب أحد رجال القافلة من البئر ليستقي منها الماء فأدلى دلوه ، فإذا بيوسف - الذي كان يومئذٍ ابن ستة عشر عاماً تقريباً - يتشبث بطرف الحبل ، وما هي إلا سويعات ، حتى كان خارج البئر!!

ومن حيث إن ذلك كان عصراً تروج فيه تجارة الرقيق ، طار رجال القافلة فرحاً وسروراً ، بما سيحصلون عليه من الربح إذْ يبيعون هذا الغلام في أعقاب وصولهم إلى مصر ، فما إن وصلوا إلى مصر حتى عرضوا بضاعتهم في أسواقها ، وفيها يوسف هو الآخر للبيع ! وقد اشتراه هناك رجل مقابل عشرين درهماً بما توسم فيه من خيرٍ .

لقد جعل إخوة يوسف أخاهم عرضةً للتشرد والضياع المحقق حين ألقوا به في غيابة الجب ، ثم باعه رجال القافلة بدورهم كعبدٍ مملوكٍ لأول مشترٍ ، وبعدئذٍ كانت ثالثة الأثافي حين ألصقت به ((زليخا))، زوجة أحد كبار الموظفين الرسميين بمصر يومذاك ، تهمةً كاذبةً أفضت به إلى غياهب السجن!!

غير أن الله – سبحانه وتعالى – جعل من هذه المحن كلها سلماً ارتقى عبره إلى أعلى مراتب الشرف والمجد ، ما أعظم الفرق بين العلم الإنساني والعلم الإلهي .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

أَكْرِمِي مَثْوَاهُ : اجعلي محل إقامته كريماً مرضياً.

غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ : لا يقهره شيءُ ، ولا يدفعه عنه أحد .

بَلَغَ أَشُدَّهُ : منتهى شدة جسمه.

قيل: إن الذي اشترى يوسف كان واحداً من كبار الموظفين في الحكومة المصرية يأمئذٍ، وكان اسمه ((فوطيفار))، فقد استطاع أن يعرف ما كان يختفي وراء ثياب الغلام التافهة من شخصية رائعةٍ ، وأدرك أنه ليس بعبدٍ ولا بشبه عبد ، بل هو ابن عائلة ذات نبلٍ وشرفٍ ، وإنما وقع ، بسببٍ من الأسباب ، في يد رجال القافلة ، فاسترقوه وباعوه هنا بأبخس الأثمان ، ومن ثم ألحّ على زوجته قائلاً : لا تعاملي هذا الغلام معاملة العبد أو الرقيق ، فإنه يبدو لي فتىً موهوباً ، وأراه كفؤاً للقيام بما يثقل كاهلي من أعباء تدبير الأمور المتصلة بداخل بيتنا ، وما نملك من ثروةٍ وعقارٍ، بالإضافة إلى ذلك فإن

(فوطيفار) ، مع تقدمه في السن ، لم يكن قد رُزق ولداً ، وكان يود أن يتبنى أحداً يكون معيناً له في شيخوخته ، ومن ثم فقد انعقد عزمه على أن هذا الفتى إن كان عند حسن ظنه به ، وحقق الآمال المعقودة عليه، فسوف يتخذه ولداً له .

وعندما بلغ سيدنا يوسف الأربعين من عمره ، منحه الله النبوة من ناحيةٍ ، ومكنه من الحكم والسلطة من ناحيةٍ أخرى ، وإنما حصل على هذا الإنعام بحسن عمله وصلاحه ، وباب إنعام الله مفتوح دائماً للمحسنين ، مع هذا الفارق بين الأمس واليوم، إنه كان ممكناً أيضا ، خلال عصر النبوة، أن يُجعل من أحد الناس نبياً ثمرة إحسانه وتقواه، ولكن لن تتاح في الأزمان اللاحقة ، أي بعد ختم النبوة ، سوى جوائز وإنعاماتٍ أخرى ما عدا النبوة!

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

وَرَاوَدَتْهُ : تحايلت لمواقعته إياها .

هَيْتَ لَكَ : أقبل ، أسرع — إرادتى لك.

مَعَاذَ الله: أعوذ بالله معاذاً مما دعوتنى إليه .

وَهَمَّ بِهَا : أى هم بدفعها عنه.

الْمُخْلَصِينَ : المختارين لطاعته أو لرسالته .

لقد أغرمت امرأة العزيز بيوسف ، فظلت تغريه وتراوده عن نفسه ، حتى اغتنمت الفرصة في ذات يومٍ فغلقت أبواب الغرفة .

ولقد كان ذلك موقفاً حرجاً جداً بالنسبة إلى شابٍ غير متزوجٍ ، غير أن يوسف كان قد احتفظ بسلامة فطرته الربانية ، وهذه الفطرة هي التي حالت دون وقوعه في الرذيلة وقوة التمييز بين الحق والباطل وبين الفضيلة والرذيلة ، هذه مودعة بصورةٍ جبليةٍ في كل إنسان ، وهي لا تزال تنبه الإنسان وتناديه في كل طورٍ من أطوار حياته ، والذي يعرض عن ذلك فكأنما هو أعرض عن نداء الله ، ومثل هذا الشخص لا يلبث أن يضعف فطرته شيئاً فشيئاً لكونه أصبح محروماً من نصر الله ، وعلى نقيضٍ من ذلك ، فإن الذي يبادر بالاستجابة الفورية للنداء الإلهي عقب ظهوره ، لا يزال نصر الله يشحذ من صلاحيته واستعداده النفسي، وبالتالي يؤهله لكي يصمد مستقبلاً في وجه دوافع الفتنة والإغراء بمزيدٍ من الثقة والاقتدار .

والشيء الذي منع يوسف عن ارتكاب الفاحشة ، كان في الحقيقة خوفاً من الله ، على أن تذكير «زليخا» وقتئذٍ بالله ، لم يكن ليحرك منها ساكناً ، فإنه لم يكن موقف إعلان الحق ، بل موقف إنقاذ النفس من مأزقٍ خطيرٍ ، ونظراً لهذه الخطورة ذاتها حاول عليه السلام إثارة ضمير زليخا بتذكيرها بزوجها ، حيث قال : إنه سيدي ، قد أنزلني في بيته بمنتهى الحفاوة والتكريم ، إذًا ، فكيف يمكن لي أن أسيء إلى مَنْ أحسن إليّ بالخيانة في حرمه والاعتداء على عرضه؟!

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ : تسابقا إليه يريد الخروج وهى تمنعه .

وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ : قطعته وشقته .

وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا : وجدا زوجها.

وَشَهِدَ شَاهِدٌ : صبي في المهد أنطقه الله ببراءته.

وما وسع يوسف إلا أن اندفع نحو الباب لينقذ نفسه، فإذا بزليخا تنطلق وراءه تلاحقه إلى الباب، فأمسكت بذيل قميصه من خلفٍ، ونتج عن تبادل الشد والجذب بين الاثنين أن تمزقت مؤخرة القميص، على أن يوسف قد نجح في أن يفتح الباب ويصل إلى الخارج، حيث كان زوج زليخا متواجداً بطريق الصدفة، وما إن رأت زليخا زوجها حتى ألقت بالتبعة على غارب يوسف، فالشخص الذي كانت تبدي حبها له قبل لحظةٍ، إذا بها تقلب له الآن ظهر المجن، وتأخذ في قذفه بتهمةٍ كاذبةٍ، بينما صرّح يوسف بأن الأمر على العكس من ذلك تماماً، وكان السؤال الآن : كيف يمكن الحكم على أحد الفريقين بالإدانة؟! إذْ لم يكن ثمة من رجل ثالثٍ حاضراً بمكان الحادث، حتى يدلي بشهادة عيانيةٍ، وعندئذٍ قام رجل حكيم من أهل البيت بحل هذه المعضلة، وأغلب الظن أن هذا الشخص كان على إلمام مسبقٍ بشئون البيت الداخلية كلها، كما أنه كان قد لاحظ أيضاً أن قميص يوسف ممزق من خلفه بدلاً من قدامه، إلا أنه أدلى ببيانه على نحوٍ كأنما هو يقول للناس : إذا لم يكن هناك من شاهدٍ عيانٍ، فلنحكمْ في هذه القضية على أساس من شهادة الظروف أو القرائن، وكانت شهادة القرائن هنا كون قميص يوسف ممزقاً من خلف، وقد كان ذلك دليلاً واضحاً على أن الإقدام في هذا الأمر كان من جهة زليخا، وليس من جهة يوسف -عليه الصلاة والسلام.

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا

وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

شَغَفَهَا حُباً : شق حبه سويداء قلبها .

وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً : هيأت لهن ما يتكئن عليه.

أَكْبَرْنَهُ : دهشن برؤية جماله الرائع .

وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ : خدشنها بالسكاكين لفرط ذهولهن ودهشهن .

حَاشَ للهَّ : تنزيهاً لله عن العجز عن خلق مثله.

فَاسْتَعْصَمَ : فامتنع امتناعاً شديداً وأبى.

أَصْبُ إِلَيْهِنَّ : أَمِل إلى إجابتهنَّ .

تمثل هذه القصة نساء الطبقة العليا في مصر من جانب ، وسيدنا يوسف ﷺ من جانب آخر ، وأما النساء فإنها كن ينظرن إلى يوسف على أنه فتىً جميل وكفى، وهكذا كان ممكناً أن ينظر يوسف هو الآخر إليهن على أنهن أداةٍ لتسلية النفس ليس غير ، إلا أنه لم يفعل ذلك رغم كونه محاطاً بظروفٍ مثيرة ومغريةٍ للغاية.

ولقد انتهى الأمر بأولئك النسوة إلى أن اتجهت أنظارهن نحو شخصيته الآخذة وتركزت عليها ، حتى بلغن من فرط الاستغراق والدهشة لمرآه بحيث لم يلبثن أن

جرحن أيديهن بالسكاكين وهن يقطعن الفواكه ، ولكن سيدنا يوسف كان متجهاً بكليته نحو الله سبحانه وتعالى ، وقد كان الإحساس بعظمة الله وجلاله مسيطراً على ذهنه لدرجة أنه لم يتمكن أى شىء آخر من جذب انتباهه إليه !! ألا ما أعظم الفرق بين إنسانٍ وآخر !!

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

أَعْصِرُ خَمْراً : عنبا يؤول لخمر أسقيه الملك .

حين فشلت محاولات النسوة من الطبقة العليا في مصر ، في مراودة يوسف عن نفسه واستمالته إلى أنفسهن ، ورجعن بخفي حنين ، أدخلنه السجن وبما أن وضعه عليه السلام كان إذْ ذاك وضع عبدٍ مملوكٍ ، لذا فلم تكن ثمة حاجةٍ ، تبعاً للعرف السائد يومئذاك ، إلى أية محاكمةٌ شرعيةٍ للزج به في السجن ، حيث كان لسيده الحق المطلق في أن يحبسه متى شاء بمحض اختياره وقراره الذاتى.

على أن السجن قد صار بالنسبة إليه سلماً جديداً إلى الرقي والازدهار ، ففيما كان ذكره - حتى الآن - محصوراً في نطاق أسرةٍ أو عدة أسرٍ لبعض كبار الموظفين الرسميين في مصر ، أصبح الآن ممكناً أن يترامى الخبر عن شخصيته وكماله إلى آذان ملك مصر نفسه .

فقد اتفق أن حُبس فتيان آخران في السجن نفسه الذي وُضع فيه سيدنا يوسف عليه السلام كان كلاهما من خدم القصر الملكي ، وبعد زمنٍ يسيرٍ رأى السجينان رؤيا شغلت بالهما ، فسألاه عليه السلام عن تأويلها ، فأخبرهما بتأويل ما رأياه ، وما هي إلا أيامٌ قلائل حتى تحقق هذا التأويل على أتم الوجوه ، إذْ يُفرج عن أحد الفتيين ويصل ثانيةً إلى القصر

الملكى ، وتسنح له فرصة ينتهزها ليخبر الملك بأن في السجن رجلاً صالحاً لديه قدرة عجيبة على تأويل ما يتراءى للناس في منامهم تأويلاً يأتي كفلق الصبح!

وهكذا تحول دخوله ﷺ فى السجن إلى درجةٍ بدائيةٍ للوصول إلى القصر الملكى !!

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

ذَٰلِكُمَا : التأويل والإختبار بما يأتى .

الدِّينُ القَيِّمُ : المستقيم . أو الثابت بالبراهين .

لقد رجع السجينان الشابان إلى سيدنا يوسف ﷺ لاستفسار ما رأياه في المنام، وقد كانت طريقة استفسارهما تدل بوضوحٍ على أنهما معجبان بشخصيته ويثقان برأيه ، وما كان ذلك سوى نتيجة طبيعية لقضاء مدة ملحوظة من الزمن بصحبة إنسانٍ صالحٍ وصاحب مبدأ ورسالة كسيدنا يوسف ﷺ .

ولم تلبث عاطفة يوسف الدعوية أن جاشت من فورها ، إذْ أدركت أن هذه أطيب فرصة سنحت لإبلاغ هذين الفتيين برسالة الدين الحق ، وأدرك أنه لو أخبرهما بتفسير منامهما في الحال لانصرفا عنه ، قبل أن يعلمهما بهذه الرسالة ، فلجأ ﷺ إلى أسلوب

حكيم ، حيث أخر التأويل لفترة قصيرةٍ ، ثم ألقى كلمةً وجيزةً عن التوحيد ، عرض من خلالها رسالته مراعياً نفسية المخاطبين ، مع التلطف في حسن الاستدلال .

إن الذين يعبدون الشجر أو الحجر أو الكواكب والنجوم أو الأرواح وأشباهها ، إنما يرجع ذلك إلى أنهم يضفون عليها ، من تلقاء أنفسهم ، ألقاباً مثل : «قاضي الحاجات» ، و«دافع البليات» ، و«حالّ المشكلات» ، ويزعمون بالتالي أنها لكذلك في واقع الأمر .. على حين أن كل هذه أسماء فارغة اختلقها الإنسان من عند نفسه ، ولا وجود لمسمياتها في أي مكانٍ في الخارج!

﴿ يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

الفتيان اللذان اقتيدا إلى السجن ، كان أحدهما ساقي ملك مصر (ريان بن الوليد) ، والآخر خَبّازه ، وكانا متهمين بمحاولة تسميم طعام الملك تآمراً على حياته ، وقد ثبتت براءة الساقي بعد التحقيق في التهمة ، فأطلق سراحه وعُين ثانيةً ساقياً للملك ، وكان معنى ما رآه في المنام أنه كما رأى الآن نفسه يسقي الملك خمراً ، وهو نائم ، سيسقيه الخمر عما قريبٍ وهو يقظان ، وأما الخباز فقد صدر الحكم بإدانته، فما لبث أن سيق إلى الصلب وترك معلقاً على أبواب السجن ، لتنهش الطيور جثته وليكون عبرةً للناظرين .

وقد حققت الأيام هذين التفسيرين كليهما على أكمل وجهٍ ، بيد أن الساقي لم يكد يصل إلى القصر ثانيةً ، بعد ما تم الإفراج عنه ، حتى نسي ما وعد يوسف من إثارة ذكره عند الملك ، وإنما تذكر وعده ذاك حين رأى الملك مناماً فاستدعى رجال حاشيته في جوف الليل يسألهم في قلقٍ وإلحاحٍ عما عسى أن يكون تعبيره ومغزاه؟!

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾

عِجَافٌ : مهازيل جدا .

تَعْبُرُونَ : تعلمون تأويلها وتفسيرها .

أَضْغَاثُ أَحْلامٍ : تخاليطها وأباطيلها.

وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ : تذكر بعد مدة من الزمن .

مع أن ملك مصر كان مشركاً ومدمن خمرٍ ، إلا أن الله - سبحانه وتعالى - قدر له أن يرى مناماً صادقاً له صلة مصيرية بمستقبل بلاده ، ومن هذا نعلم كيف أن الله تعالى ينصر دعاة الحق بطرقٍ شتى ، ومن جملة هذه الطرق أن يتم إراءة الطرف الآخر مناماً يغرس في ذهنه إحساساً عميقاً بعظمة الداعي وأهميته ، مما يُلين فؤاده في حق الداعي فتنفتح له آفاق للعمل جديدة.

وعندما وصل الخبر عن منام الملك إلى أسماع الساقي عادت إليه ذكريات السجن، فأخبر الملك وحاشيته ، في ضوء تجربته الذاتية ، كيف أن تأويل يوسف لرؤيا السجينين تحقق حرفياً ، ثم استأذن الملك ليذهب إلى السجن ويسأل يوسف عن تأويل رؤيا الملك .

وبذيوع صيت يوسف من هذه الحيثية - أي كمفسر الرؤيا - انفتح الطريق أمامه للخروج من السجن ، وقد كان الله قادراً على ألا يدع يوسف في السجن لمزيدٍ من الأيام بعد أن تم الإفراج عن الساقي، حيث كان بإمكانه تعالى أن يذكرّ الساقي بما وعد

يوسف من إثارة الحديث عن أمره أمام الملك حال وصوله إلى القصر ، غير أن أفعال الله كلها مرهونةٌ بأوقاتها ، فليس من سنة الله أن يعمل شيئاً أو يحدث حادثاً ما في غير أوانه!

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

دَأَباً : دائبين كعادتكم في الزراعة .

تُحْصِنُونَ : تخبؤونه من البذر للزراعة.

يُغَاثُ النَّاسُ : يمطرون فتخصب أراضيهم .

يَعْصِرُونَ : ما شأنه أن يُعصر ، كالزيتون.

لقد فسر سيدنا يوسف رؤيا الملك بأن البقرات السبع السمان والسنبلات السبع الخضر عبارة عن أعوامٍ سبعةٍ بالغة الخصوبة والرخاء ، تنمو فيها الزروع والحيوانات نمواً متصلاً رائعاً ، ثم يعقب ذلك الرخاء والخصوبة قحط وجدب يدوم سبع سنين ؛ تأكلون فيها سائر ما سبق لكم أن ادخرتموه خلال السنوات الماضية ، بحيث لا يبقى لديكم سوى ذلك القدر اليسير من الحبوب تستخدمونه للزراعة ، وكأن السبعة أعوام اللاحقة هذه بقرات هزيلة وسنبلات يابسات تلتهم تلك البقرات السمينة والسنبلات الخضر .

هذا ، وقد أرشد سيدنا يوسف – مع ذلك – إلى تدبير ملائمٍ لمواجهة الأزمة ، إذْ أكد

على ضرورة الحفاظ على محاصيل السنوات السبع الأولى بحذرٍ بالغٍ والاقتصاد في استهلاكها ، فاقترح أن يُحفظ ما زاد عن المقدار الضروري من الحبوب والغلال في سنابله ، ليظل قادراً على البقاء مصوناً من السوس أو الديدان ، وهكذا سيمكن الانتفاع بمحاصيل السبعة أعوامٍ لمدة أربعة عشر عاماً ، وبالإضافة إلى ذلك فقد بشر عليه السلام بأن العالم الذي سيعقب هذه السنوات السبع المجدبات ، سيكون عام الخصوبة والرخاء ، فسينزل فيه المطر بغزارةٍ ، وتمتلئ البلاد حبوباً وثماراً وعسلاً ولبناً !

لقد أرى الله الملك في منامه رؤيا «عجيبة» ، ثم أظهر تأويله الشافي عن طريق سيدنا يوسف عليه السلام وهكذا مكنه من أن يحصل على أسمى مكانةٍ وأرفع منصب في النظام الإداري بحكومة مصرٍ إذْ ذاك !

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

مَا بَالُ النِّسْوَةِ ؟: ما حالهن وما شأنهن ؟

مَا خَطْبُكُنَّ ؟ : ما شأنكن وما أمركن ؟

حَاشَ للهِ : تنزيهاً لله وتعجيبا من عفة يوسف .

حَصْحَصَ الحَقُّ : ظهر وانكشف بعد خفاء.

لقد كان على سيدنا يوسف ، عقب خروجه من السجن ، أن يلعب دوراً وطنياً ،

ولذا كان من الضرورى أن تصبح شخصيته معروفةً على المستوى الوطني ، وقد تم ذلك عن طريق رؤيا الملك ، فقد رأى الملك مناماً عجيباً أقض عليه مضجعه ، وأشاع القلق والاضطراب في نفسه لدرجة أنه دعا بجميع الكهنة والمنجمين والعلماء من أنحاء دولته كلها إلى قصره ليسألهم عن تأويله ، إلا أنهم خيبوا أمله ، حيث حارت عقول الجميع ، وعجزت كتبهم أن تسعفهم بالتفسير المقنع الشافي ، وهكذا نالت واقعة الرؤيا شهرة شعبية عامةً ، ومن ثم فما إن بيّن يوسف عليه السلام تفسير الرؤيا وتلقاه الملك بالإعجاب والاستحسان ، حتى أصبح عليه السلام فجأةً محط أنظار البلاد من أقصاها إلى أقصاها.

وبعد أن سمع الملك كل التفاصيل المتصلة بقضية يوسف ، أخذ يحقق في شأنها مع النسوة ، فما وسعهن إلا أن أقررن كلهن ببراءة يوسف ، وأما امرأة العزيز فقد ذهبت في الاعتراف بالحق إلى أبعد حدٍ ، إذْ أعلنت بكل صراحةٍ وعلى رؤوس الأشهاد : قد ظهر وجه الحق الآن ، فالحقيقة هي أنني أنا وحدي كنت الخاطئة المذنبة ، ولا ذنب ليسوف البتةَ .

إن هذا الإقرار الصريح من قبل امرأة العزيز (زليخا) عمل عظيم لدرجة أنه لا غرابة في أن تكون بعدئذٍ قد وفقت إلى الإيمان !

إن يوسف عليه السلام لم يبادر بالخروج من السجن لفوره حين استدعاه الملك.. بل طلب إليه أنه ينبغي - أولاً - إجراء تحقيق في شأن الحادثة التي اتخذت ذريعةً للزج به في السجن ، ومع أنه عليه السلام كان بريئاً كل البراءة عند الله تعالى ، إلا أن المسألة هي أنه كان عليه إيصال أمانة الهداية الإلهية إلى عباد الله ، وفي الحادثة المذكورة كان قد أُتهم بالخيانة في حرم سيده ، وقد كان ذلك أمراً بالغ الخطورة ، وكان ضرورياً ألا يأتى أمام الناس إلا بعد استيقانهم من براءته ونزاهته من التهمة الموجهة إليه ؛ ذلك لأن الشخص الذي لا يعتبره الناس أميناً فى شئون العباد ، لن يعتبروه - بالطبع - أميناً فى شئون الله تعالى.

إن المؤمن يكون - في وقتٍ واحدٍ - بين اثنين : أحدهما الإنسان والآخر هو الله سبحانه وتعالى ، فمن خلال التعامل مع الناس ربما يحدث أنه يضطر إلى النطق بكلمةٍ ، ليكشف لهم عن جلية الأمر ، تبدو وكأنها من باب الادعاء أو التزكية للنفس ، غير أن قلبه يكون في الوقت نفسه مليئاً بإحساس العجز والتواضع ، فإنه حين ينظر إلى نفسه بالنسبة إلى الله عز وجل ، يجد أنه عاجز محض ، ولا شيء سواه.

إن تصوّر الله واستحضاره الدائم لا يزال يقف بالمؤمن عند حده ، ويبقيه في حالة اتزان في كل لحظةٍ ، وكلام سيدنا يوسف الآنف الذكر صورة ناطقة لهذه الثنائية التي تتسم بها شخصية المؤمن!

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

مَكِينٌ : ذو مكانة رفيعة ونفوذ أمر.

يَتَبَوَّأُ مِنْهَا : يتخذ منها مباءة ومنزلاً.

قوله: ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾ أراد بـ «الخزائن» ، مخازن القمح وغيره من غلات الأرض ، فحين رأى سيدنا يوسف الملك معجباً به سأله أن يفوض إليه السلطة لاستخدام الأجهزة الحكومية لإقامة مخازن ضخمةٍ ، يختزن فيها ما سيقوم بشرائه من فائض محصول الزرّاع لحساب الدولة خلال السنوات السبع الأولى ، وما وسع الملك إلا أن رضي بهذا العرض الحكيم ، وبالتالي فوض إليه السلطة والخيار من كل نوعٍ بحكم سيادته الدستورية والتشريعية .

لقد كان ملك مصر مشركاً ، كما يتضح من الآية رقم ٧٦ من هذه السورة، إن تشريع أو قانون الملك نفسه (وقد عُبر عنه في الآية المشار إليها آنفاً بـ «دين الملك») مازال سارياً نافذ المفعول في مصر لمدة عشر سنواتٍ تقريباً حتى استلام سيدنا يوسف الفعلي لوزارة مالية الدولة ،وهذا يدلنا على أن تقلد منصبٍ ما ثانوي أو فرعي في ظل الحكومة غير الإسلامية لا يتعارض مع الإسلام ، وانطلاقاً من هنا فقد قبل السلف بمناصب القضاء تحت حكم الأمراء والملوك الظالمين (١).

ما هو الهدف الذي كان سيدنا يوسف يتوخى تحقيقه من تسلمه زمام الحكم في مصر؟ في ضوء ما سرده القرآن من تفاصيل القصة ، يبدو لنا ظاهراً أن الهدف الرئيسي الأول من ذلك كان يتمثل في إنقاذ عباد الله من ويلات قحط وجدب طويل الأمد ، وثانياً في إتاحة الفرصة لبني إسرائيل - كنتيجة لذلك - للاستقرار بوادي النيل في أمنٍ ودعةٍ .

لقد وعد الله للذين يختارون طريق الإيمان والتقوى بالجنة وعداً قطعياً مؤكداً ، كما يتاح لهم نصر الله في الحياة الدنيا كذلك ، غير أن هناك فارقاً جوهرياً بين الأمرين لابد أن يُلاحظ ، فأما ما يتصل بمهمة إعلان الحق ، فإن توفيق الله إلى ذلك يحالف كل المؤمنين المتقين على حدٍ سواء ، غير أن التوفيق أو النصر للفوز العملي لا يتاح للجميع على وتيرةٍ واحدةٍ فإن النصرة العملية تختلف من أحدٍ لآخر درجةً ونوعاً !

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ

---

(١) انظر في هذا المعنى : تفسير النسفي.

عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ : أعطاهم ما فى حاجة إليه.

لقد شهدت السنوات السبع الأولى ، في أعقاب تولي سيدنا يوسف ﷺ مقاليد الحكم ، نمواً وازدهاراً بالغين في المحاصيل الزراعية ، فأقبل ﷺعلى إقامة مخازن ضخمةٍ في كل أنحاء البلاد، وظل يختزن فيها ما يشتري من فائض محصول الزراع كل عامٍ ، حتى إذا بدأت سنوات القحط والجدب ، استجلب هذا المخزون من الغلات إلى عاصمة الدولة ، وشرع في بيعها بأسعارٍ معقولةٍ.

وبما أن هذا القحط لم يكن مقصوراً على مصر وحدها ، بل امتد أثره إلى بلاد الشام وفلسطين وشرقي الأردن وغيرها من المناطق المجاورة ، لذا فما إن ذاع الخبر عن توافر الحبوب بمصر وبيعها بأثمانٍ رخيصة ، حتى توجه إخوة يوسف هم الآخرون إلى مصر لشراء الغلة ، ومع كونهم قد رأوا يوسف هنا بعد مرور عشرين عاماً ، إلا أنهم لمسوا في وجهه ﷺ ملامح أخيهم ، ولكنهم سرعان ما كذبوا خاطرهم ذاك ، إذْ تعذر على أفهامهم أن الشخص الذي ألقوه في غيابة الجب قبل عشرات السنين يمكن أن يكون متربعاً على عرش مصر!

وقد أصدر سيدنا يوسف ﷺ أوامره بأن يُعطى لكل واحد من إخوته حمل بعير من الحبوب، الأمر الذي أطمعهم في أن يحصلوا على حمل بعيرٍ آخر من الحبوب باسم أخيهم بنيامين ، فطلبوا إليه ﷺ : إن لنا أخاً صغيراً احتبسه والدنا العجوز عنده ، وإننا سنكون شاكرين لو تكرمت بإعطائنا حصة هذا الأخ أيضاً ، فأجابهم سيدنا يوسف قائلاً : إن دفع حصة الغائب إلى غيره لا يتفق ونظام عملنا ، وبإمكانكم أن تحصلوا على حصته ، فيما إذا أتيتم به معكم في المرة القادمة ، فقد جربتم هنا كرمي وعطائي ، فهل أنتم بعدئذٍ تخافون أو تترددون في الإتيان بأخيكم معكم؟! واستطرد سيدنا يوسف

قائلاً : ولو أنكم لم تأتوا في رحلتكم التالية بهذا الأخ الذي تتحدثون عنه الآن ، فسيكون لنا الحق في أن نعتبركم كذبةً ، وأنكم بالغش والخداع حاولتم الحصول على حمل بعيرٍ آخر من الحبوب ، وبالتالي ستكون عقوبة ذلك ألا يُدفع إليكم مستقبلاً ما تستحقونه أنتم!

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

بِضَاعَتَهُمْ : ثمن ما اشتروه من الطعام .

رِحَالِهِمْ : أوعيتهم التي فيها الطعام وغيره.

ولعل سيدنا يوسف عليه السلام رأى فى أخذ الثمن من إخوته ما ينافي المروءة، أو ظناً منه أن الفقر أو ضيق ذات اليد ربما يحول دون قدومهم ثانيةً إلى هنا ، فأوْعز لبعض موظفيه بوضع النقود التي دفعوها عوضاً عن الحبوب فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون ، حتى يجدوها ، إذا فتحوا أوعيتهم ، فى إثر عودتهم إلى منازلهم ، وبالتالى يبادروا بالعودة السريعة مصطحبين أخاهم (بنيامين) معهم .

لقد أظهر سيدنا يعقوب - من جهةٍ - عدم ثقته بأبنائه العشرة بشأن بنيامين ، ومن جهةٍ أخرى صرح أيضاً بأنه ليس أحد منكم ولا أحد سواكم يملك شيئاً من القدرة أو الطاقة، فلن يحدث إلا ما يريده الله سبحانه وتعالى.. غير أن ما يحدث إنما يتم إحداثه على يد البشر ، لكيما يقيم المسيء الدليل على حقيقته بسوء عمله ، وسيكتب الصالح المحسن اسمه ضمن القائمة التى يستحقها وتليق به وبصلاحه وحسن عمله!

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ
هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ
يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن
يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

مَتَاعَهُمْ : طعامهم . أو رحالهم .

مَا نَبْغِي : ما نطلب من الإحسان بعد ذلك .

وَنَمِيرُ أَهْلَنَا : نجلب لهم الطعام من مصر .

مَوْثِقاً : عهدا مؤكدا باليمين يوثق به .

يُحَاطَ بِكُمْ : تغلبوا . أو تهلكوا جميعاً.

وَكِيلٌ : مطلع رقيب.

فرح الإخوة عندما عثروا على نقودهم ، عقب العودة إلى منازلهم ، عائدةً إليهم ، ضمن جواليقهم التي وضعوا فيها الحبوب ، ومن ثم باتوا يلحون على أبيهم قائلين : أرسل معنا بنيامين ، فسنحاول جهد طاقتنا أن نحفظه من كل سوءٍ ، وندفع عنه كل مكروهٍ ، كما أننا سنجلب ما يستحقه هو من الحبوب علاوةً على حصصنا نحن ، فإن القدر الذي أتينا به الآن من الحبوب ، لا يكفينا سوى قليلٍ من الزمن .

ولعل نظام توزيع المؤن الذي أقامه سيدنا يوسف عليه السلام كان لا يعطي بموجبه - على ما يبدو - للوافدين من الخارج إلا حمل بعيرٍ واحدٍ من الميرة على كل رأس !

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم
مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

إن عاصمة مصر القديمة كانت بلداً أحيط من جوانبه الأربعة بأسوارٍ عاليةٍ ، تتخللها مداخل كثيرة من جهاتٍ شتى وقول سيدنا يعقوب لبنيه : لا تدخلوا – مجتمعين – من بابٍ واحدٍ ، بل لتدخلوا من أبوابٍ متفرقةٍ ، كان يرجع إلى خوفه من ألا يفطن بهم أعداؤهم ، فيحتالوا لإهلاكهم [١].

وقد ألقت الآية رقم (٧٣) من هذه السورة الضوء الكاشف على حقيقة هذا الخوف، إذْ يدافع إخوة يوسف عن أنفسهم قائلين : و﴿ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

لقد كان إخوة يوسف وافدين على مصر من الخارج ، فكانت ملابسهم مختلفة عن ملابس السكان المحليين ، ولم يكن ليصعب على المصريين أن يعرفوا أنهم أجانب بالنظر إلى زيهم الخاص ، وقد كان دخول أحد عشر رجلاً كهؤلاء إلى البلد مجتمعين ، خليقاً أن يجعلهم ((مشبوهين)) في أعين الناس ، ومن ثم أوصاهم أبوهم ، تفادياً لأي صدامٍ يمكن أن يقع بينهم وبين السكان الأصليين ، أوصاهم بألا يدخلوا البلد بشكل مجموعة تجتذب أنظار القوم إليهم فيظنوا بهم السوء.

إن المؤمن ينظر – من ناحيةٍ – إلى قدرة الله الكاملة ، فيرى أنه لا أحد في هذا الكون يتمتع بأي خيارٍ غير الله عز وجل ، كما أنه يعلم أن هذه الدنيا دار امتحانٍ ؛ حيث أخضع الله كل أمرٍ من الأمور للأسباب الظاهرية لمصلحة الامتحان وللسبب ذاته نجد

---

(١) تفسير النسفي.

سيدنا يعقوب - عليه السلام - ينصح أبناءه - من جانب - باتخاذ بعض التدابير الدنيوية، ومن جانب آخر يصرح أيضاً بأن كل ما سيحدث ، فإنما يحدث بأمر الله وإذنه تعالى ، لأنه ليس ثمة أحد يملك شيئاً من القوة غير الله عز وجل.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ : ضم إليه أخاه الشقيق بنيامين .

فَلاَ تَبْتَئِسْ : فلا تحزن .

السِّقَايَةَ : إناء من ذهب للشرب اتخذ للكيل.

أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ : نادى مناد أو أعلن معلم.

العِيرُ : القافلة التي فيها الأحمال .

صُوَاعَ المَلِكِ : صاعه ((مكياله)) وهو السقاية .

زَعِيمٌ : كفيل أؤديه إليه.

كِدْنَا لِيُوسُفَ : دبرنا لتحصيل غرضه .

دِينِ المَلِك : شريعة ملك مصر أو حكمه .

وفيما كان إخوة يوسف على أهبة الرحيل ، إذْ وضع يوسف ، بدافع الشفقة والحنان، كأساً له - كان يشرب فيه الماء ، ويحتمل أنها كانت من فضةٍ ، وضعها في وعاء أخيه بنيامين ، بحيث لم يشعر بذلك بنيامين ولا أحد من موظفي البلاط الملكي ، ثم حدث بعد ذلك بتدبير من الله ولحكمةٍ أرادها ، أن فقد المكيال الملكي - والذي كان هو الآخر نفيساً وغالياً جداً - أو وُضع في غير موضعه ، وعندما فشلت محاولات الموظفين في البحث عنه والعثور عليه في مظانه ، ذهبت عوامل الشك والارتياب بخيالهم إلى إخوة يوسف الذين كانوا قد رحلوا من عندهم آنفاً ، فأسرع أحد الموظفين نحوهم واستوقفهم حيث كانوا ، ثم شرع في الاستجواب والتحقيق معهم ، وفي أثناء ذلك قرر الإخوة بأنفسهم للسارق تلك العقوبة التي كانت متبعةً ، أو بالأحرى مأخوذاً بها عندهم تبعاً للشريعة الإبراهيمية ، وهي أن يُدفع السارق إلى المسروق ليبقى عنده كعبدٍ مملوك له لمدة سنةٍ كاملةٍ .

وبعدئذٍ بدأ الموظف بالبحث والتنقيب ، ومع أنه لم يجد عندهم مكيال الحبوب ، إلا أنه عثر على شيءٍ آخر نفيس من نفائس البلاط الملكي في وعاء بنيامين - وهو الكأس الفضية- ومن ثم لم يلبث بنيامين أن دُفع إلى سيدنا يوسف بموجب القرار المتفق عليه بين الجانبين، ولو أنهم اتفقوا على التحاكم في هذه القضية إلى قانون الملك المصري ، لما أمكن يوسف أن يستبقي أخاه لديه ؛ ذلك لأن جزاء السرقة ، بحكم قانون الملك السائد في مصر أيامئذٍ ، كان عبارةً عن إشباع السارق ضرباً ، وتغريمه ثمن الشيء المسروق . إن هذا الحادث لم يكن وراءه أي تعمدٍ أو نيةٍ مقصودةً من قبل سيدنا يوسف عليه السلام وإنما حدث ذلك بتدبير إلهي ، ولذلك نسبه الله تعالى إلى نفسه حيث قال:

﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ .

تنبيه : لقد وُضع في وعاء بنيامين «السقاية» التي أشير إليها بضمير المؤنث (ها) ، بينما كان الموظف الملكي يبحث عن «الصواع» المشار إليه بضمير المذكر : (ه) ، ثم إن الشيء الذي وقع في يد الموظف بعد البحث والتنقيب ، أعاد عليه القرآن ضمير المؤنث في قوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ ، مما يدل على أن وعاء بنيامين إنما وُجد فيه سقاية يوسف - التي وضعها فيه هو بنفسه خفيةً - دون صُواع الملك المفقود!

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

مَعَاذَ الله : نعوذ بالله معاذاً ونعتصم به.

كتب المفسرون أن يوسف عليه السلام اختلس ذات يومٍ - وهو صغير - صنماً كان في بيت بعض جداته ، فحطمه شر تحطيمٍ ، وقد اتخذ أخوة يوسف من هذه الحادثة ذريعة للطعن عليه عندما قالوا : ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ . إن حادثةً كانت تنمّ عن مدى غيرته على التوحيد ، أقحموها ، لمجرد المماثلة الشكلية، في خانة السرقة!

لقد كان حال إخوة يوسف ينطوي على نوعٍ من التناقض الغريب ، حيث إنهم كانوا ينادون يوسف المتربع على عرش مصر بـ «يا أيها العزيز» (أي حضرة السيد المبجل ، وصاحب السمو والجلالة)، ويتظاهرون بين يديه بغاية التواضع والانكسار ، ولكن يوسف الذى كان عندهم مجرد فتىً من فتيان البدو، كانوا يرمونه فى الوقت نفسه بتهمة السرقة بغير الحق.

ومع كون يوسف على علم بأن وضعه السقاية في رحل أخيه بنيامين قد تسبب في جعله - من غير جريرة - سارقاً ، إلا أنه لزم الصمت لمصلحة وقتية وترك الحادث الذي كان يدور بين إخوته والموظفين الملكيين ، تركه يسير ويتلاحق بسرعته الطبيعية ليبلغ آخر مداه ، وحين اضطر مرةً في أثناء ذلك إلى القول فلم يقل : ((من سرق متاعنا)) بل قال بدلاً من ذلك : ﴿ مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ !.

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ : يئسوا من إجابة يوسف لهم .

خَلَصُوا نَجِياً : انفردوا متناجين متشاورين.

مَا فَرَّطتُمْ : قصرتم و (ما) زائدة .

وَالْعِيرَ : القافلة .

لعل واحداً من إخوة يوسف العشرة كان مختلفاً بطبيعته عن الآخرين ، وذلك هو الأخ الذي كان قد أشار عليهم في المرحلة البدائية بألا تقتلوا يوسف ، بل اقذفوا به في بعض الآبار، يلتقطه بعض القوافل السيارة ، وهكذا صار حاله الآن في مصر ، حيث اعتزل عن الإخوة الآخرين ، فإن شعوره بالغيرة والحمية لم يعد يطيق أن يواجه والده الآن باعتباره فاقداً ومضيعاً لثاني الأخوين ، بعدما سبق له أن حضر مرةً أمام الوالد نفسه كمضيع لأخيه !

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

سَوَّلَتْ : زينت وسهلت.

يَا أَسَفَى : ياحزني الشديد .

وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ : أصابتهما غشاوة فابيضا.

كَظِيمٌ : ممتلىء من الغيظ أو الحزن يكتمه ولا يبديه .

تَفْتَأُ : لا تفتأ ولا تزال.

تَكُونَ حَرَضاً : تصير مريضاً مشرفاً على الهلاك .

بَثِّي : أشد غمي وهمي.

فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ : تعرفوا من خبر يوسف .

رَّوْحِ الله : رحمته وفرجه .

لقد كشف سيدنا يعقوب بقوله : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ ، القناع عما انطوت عليه قلوب الإخوة من غشٍ وزيفٍ ، فإنهم حين استسمحوا أباهم باصطحاب بنيامين في رحلتهم الثانية ، أعطوه عهداً وثيقاً مؤكداً بالحفاظ عليه ، ولكن عندما خرجت الكأس من متاعه ، لم يستطيعوا الدفاع عنه ، حتى بأن يقولوا للمسئولين :

كيف سيصبح أخونا سارقاً خروج الكأس من رحله ، إذْ من الممكن أن يكون أحد سواه قد وضعها فيه ، أو أنها قد اندست تلقائياً - من حيث لم يشعر - ضمن متاعه وهو يشده للرحيل ، وعلى العكس من ذلك فإنهم لم يلبثوا أن أكدوا على جريمته أمام المصريين عندما قالوا لهم: إن أخاً له قد سرق قبل كذلك .

ومع أن سيدنا يعقوب عليه السلام كان حزيناً مهموماً للغاية ، بسبب فقد ولديه الحبيبين ، إلا أنه كان - مع ذلك - عظيم الأمل في رحمة الله ، فمازال واثقاً حتى الآن من أن رؤيا يوسف التي رآها في صغر سنه كانت بشارةً إلهيةً ، ولابد لها أن تتحقق يوماً ، ومن ثم أمر أبناءه : أن اذهبوا فابحثوا عن يوسف ، وحاولوا أيضاً تخليص أخيه بنيامين!

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) ﴾

الضُّرُّ : الهزال من شدة الجوع .

بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ : بأثمان رديئة كاسدة.

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) ﴾ ، هذه العبارة هي خلاصة قصة سيدنا يوسف بأكملها ، لقد كان الله يريد إقامة مثالٍ واضحٍ ناطقٍ بأن الشخص الذي يخاف من الله في معالجة الأمور الدنيوية ، ويمتنع عن اللجوء إلى الطرق غير الصابرة ، فإنه لابد أن يُكتب له النجاح آخر الأمر بنصرٍ من الله وعونه تعالى ، وقد جُعلت قصة سيدنا يوسف - عليه الصلاة والسلام - أنموذجاً حياً

ملموساً لهذه الحقيقة ذاتها.

وإن ما شهدت مصر بدايةً من سنوات الخصب السبع ، ثم ما تلاه من سنوات الجدب السبع ، إنما حدث كل ذلك بإذن الله تعالى ، ولو شاء الله لجعل السنين كلها ذات خصوبةٍ ، ورخاء لأهالي مصر وهكذا فقد تم إلقاء يوسف ﷺ أولاً في البئر ، ثم وصوله ثانياً إلى القصر ، تم كلاهما على علمٍ من الله وتحت رعايته ، ولو شاء الله لمكنه -عليه السلام- من أن يقبض على زمام الحكم بمصر رأساً، بدون المرور بالمراحل القاسية التي سبقت ذلك ، ولكنه ﷺ إن لم يواجه كل هذه الأحوال غير العادية التي واجهها ، إذن فكيف تسنى له أن يكون في رحاب عالم الأسباب هذا ، مثالاً للحقيقة القائلة بأن الله يمد بنصره أولئك الذين لا يزالون متمسكين بمسلك التقوى والصبر على كل حالٍ من الأحوال.

تنقسم الواقعات إلى نوعين : أحدهما : هو الذي يحمل بين طياته مادة الذيوع والانتشار ، والآخر هو الذي يخلو من مادة الذيوع والانتشار ، وقد يمكن أن تكون هناك واقعتان من نوعٍ مماثلٍ وعلى درجةٍ واحدةٍ من الأهمية ، غير أن إحداهما لا تلبث طويلاً حتى تحظى بالذيوع والانتشار الواسع ، بينما تبقى أخراهما مغمورةً لا تكاد تُذكر .. إن النصر والتوفيق الإلهي الذي حالف سيدنا يوسف ﷺ يحالف أيضاً الآخرين عداه من الصلحاء والمحسنين ، إلا أن واقعة سيدنا يوسف تتميز بما كانت تنطوي عليه من مادة الذيوع والانتشار ، ولذا فهي لم تلبث أن صارت مثار اهتمام الناس وموضوع حديثهم على نطاقٍ أوسع وأشمل!

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا : اختارك وفضلك علينا .

لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ : لا تأنيب ولا لوم عليكم .

يَأْتِ بَصِيراً : يصر بصيراً من شدة السرور .

وما إن ارتفع الحجاب عن الحقيقة حتى بادر الإخوة إلى الإقرار بخطئهم مع الاعتراف صراحةً بعظمة يوسف وفضله عليهم ، ومن جانبٍ آخر ضرب سيدنا يوسف بدوره مثلاً رائعاً لتلك السماحة الخلقية التي ينبغي على أمثاله من عباد الله الصادقين أن يأخذوا أنفسهم بها في مثل هذه المناسبة ، فلم يقابل عليه السلام إخوته بأي لومٍ أو تأنيبٍ ، بل سحب ذيْل العفو والنسيان دفعةً واحدةً على كل ذكريات الماضي المرة ، وبالتالي أقام مع الإخوة جميعاً العلاقات الودية الخالصة من جديدٍ .

وهذه الواقعة تنطوي أيضاً على مثالٍ للنصرة الجماعية بجانب النصرة الفردية ، فعن طريق ذلك تولدت تلك الظروف والملابسات التي مكنت بني إسرائيل من أن يخرجوا من فلسطين ويصلوا إلى مصر ، ليتمتعوا هناك بالعزة والكرامة وخفض العيش ، ومن ثم فقد انتقلت أسرة سيدنا يعقوب عليه السلام إلى مصر في زمن سيدنا يوسف عليه السلام حيث عاشت حوالي خمسمائة سنة حياةً سعيدةً كريمةً ، وتقول لنا التوراة : إن العدد الكلي لأفراد عائلة سيدنا يوسف الذين وفدوا على مصر بدعوته عليه السلام كان يبلغ ٦٧ شخصاً .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ

ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾

فَصَلَتِ العِيرُ : فارقت القافلة عريش مصر.

تُفَنِّدُونِ : تسفهوني أو تكذبوني .

ضَلالِكَ : ذهابك عن الصواب .

لقد مكث سيدنا يوسف ﷺ ما يربو على عشرين سنة ، عقب اختفائه عن أبيه ، في بلاد مصر المجاورة ، غير أن سيدنا يعقوب ﷺ لم يتمكن من الاطلاع على وجوده هناك ، اللهم إلا عندما انطلق قميصه من مصر في نهاية المطاف ، أخذ يشم رائحته عن بُعدٍ قبل وصول القميص إليه ، مما يدل على أن علم الأنبياء لا يكون علماً ذاتياً ، بل يكون هبةً من الله ، ولو أنه كان علماً ذاتياً لعلم سيدنا يعقوب أن ولده (يوسف) في أرض مصر ، ولكنه لم يستطع أن يطلع على وجود يوسف وأحواله إلا حين أخبره الله تعالى بذلك عن طريق الوحي.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

ليس المراد بـ ((العرش)) هنا هو سرير الملك ، بل هو سرير سيدنا يوسف الذي كان ﷺ يجلس عليه وهو يقوم بتأدية المسئوليات المنوطة به ، وهكذا ليس المراد بـ ((السجدة)) هو السجود التعبدي المعروف ، بل الخضوع أو الانحناء بشكل الركوع ،

فقد جرت عادة الناس منذ قديم الزمان بممارسة هذا النوع من الخضوع تعظيماً واحتراماً .

ومعنى قوله : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ إن ربي إذا أراد أمراً قيّض لتحقيق مشيئته أسباباً وطرقاً غايةً في الدقة والخفاء ، وإن الله تعالى يبدع لإكمال مشروعه تدابير تعجز عقول البشر العاديين أن تشعر بها أو تدرك سِرُّها!

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

فَاطِرَ : يا مبدع ومخترع.

إن الكافر ينظر إلى كل شيء بالنسبة إلى الإنسان ، بينما ينظر المؤمن إلى كل شيء بالنسبة إلى الله عز وجل ، وها هو سيدنا يوسف عليه السلام الذي يقرّ أن ما أتيح له من منصبٍ حكوميٍ أعلى ، تقديراً لمواهبه ومؤهلاته الشخصية ، هبة من الله .. ويصف ما مُنح من علم تفسير الرؤيا وتعبيره : بأن ذلك مما علمني ربي، وحين يستعيد ذكرى المحنة التي عرضه لها إخوته فيقول : إنها لم تكن سوى تدبير لطيف من جملة تدابير الله، أراد أن يمكنني بها من قطع ما قدر لي من أشواطٍ في ميدان الرقي والتقدم والازدهار.

إن الشعور بعظمة الله المسيطر على ذهنه ، كان قد انتزع منه كل أحاسيس العظمة الذاتية ، مما جعله لا يطيق، حتى رغم وصوله إلى قمة المجد الدنيوي ، إلا أن ينبس بالكلمات التالية في ضراعة وخشوع: يا رب ! إنك وحدك المالك لكل القوى والطاقات ، وأنت وحدك مدبر أموري كلها ، فانصرني في الدنيا والآخرة ، وضُمني إلى أولئك العباد السعداء الذين يحالفهم التوفيق لاتباع مرضاتك في الحياة الدنيا ، وبالتالي يفوزون بنعيمك الأبدي في الدار الآخرة !

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ : عزموا على الكيد ليوسف

إن قصة سيدنا يوسف – عليه السلام – التي جرت على لسان رسول الله – ﷺ – هي في حد ذاتها برهان ناطق على أن القرآن وحي رباني وليس بكلام إنساني.. فإنها تتضمن وقائع وأحداثاً يرجع تاريخها إلى نحو ألفين وخمسمائة سنة قبل ولادة رسول الله – ﷺ – فلم يكن قد شهدها بنفسه، كما أنها لم تكن مكتوبةً في أي سجلٍ تاريخي حتى يقرأها هو، أو يستمع إلى أحدٍ غيره وهو يتلوها عليه وإنما كانت بين دفتي التوراة ، والتي كانت بدورها ، فيما قبل عصر المطبعة على وجه التحديد ، كتاباً لم يكن أحد ملماً به سوى العديد من أحبار اليهود والمنتمين إلى مراكز الديانة اليهودية ، ليس غير .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن رواية القرآن لهذه القصة ، مع كونها تتفق ، فيما يتصل بأصل الموضوع ونقاطه الجوهرية ، مع رواية التوراة ، إلا أنها مختلفة عنها في كثيرٍ من التفاصيل ، وهذا الاختلاف على كون القرآن وحياً إلهياً؛ لأننا حين نتناول نقاط الاختلاف والتباعد بين الروايتين بدراسةٍ مقارنةٍ موضوعية ، يبدو لنا واضحاً أن رواية القرآن تتطابق مع العقل والفطرة من كل الوجوه ، حيث يغمرنا إحساسٍ واقعي عميق ونحن نقرأ رواية القرآن ، أنها أليق ما تكون ، باعتبار لغتها وأسلوبها ، بسيرة سيدنا يعقوب وسيدنا يوسف النبوية ، بينما رواية التوراة غير لائقةٍ ، باعتباراتٍ شتى ، بأدب السيرة النبوية.

وكذلك ثمة عناصر عديدة من هذه القصة بالغة الأهمية (كخطاب سيدنا يوسف في السجن مثلاً ، الوارد في الآيات : ٣٧ : ٤٠) اشتملت عليها الرواية القرآنية ، لا نجد

لها ذكراً في صحائف التوراة ولا التلمود ، وحتى إن بعض الغلطات التاريخية التي توجد في التوراة ، لم تتكرر في القرآن الكريم، وعلى سبيل المثال : تطلق التوراة على الملك المعاصر لسيدنا يوسف - عليه السلام - لقب فرعون ، على حين أن أسرة الفراعنة إنما تولت مقاليد الحكم في مصر بعد سيدنا يوسف - عليه السلام - بخمسمائة عام ، أما الأسرة الحاكمة في مصر في زمن سيدنا يوسف - عليه السلام - فقد كانت من سلالة العرب يقال لهم : "الملوك الرعاة" (Hyksos kings) (قارن بـ : التوراة ، سفر التكوين).

لو أن إنكار الحق كان يرجع إلى عدم وجود الدليل ، لبادر المرء بالإيمان حين يظهر الدليل أمامه ، غير أن إنكار الحق يرجع سببه في معظم الحالات إلى العناد والتعنت ، فالمعاندون لا يؤمنون بالحق لكونهم لا يريدون أن يؤمنوا به .

إن الإيمان بالحق يكون في الغالب مرادفاً لتصغير النفس ، وتصغير النفس أصعب وأشق عملٍ على المرء دائماً ، ولهذا السبب لا يتخلى أمثال هؤلاء عن موقفهم العنيد حتى بالرغم من ظهور كل أنواع الأدلة والقرائن .. إذْ لا يرى هؤلاء بأساً ولا غضاضةً في أن يصبح الحق صغيرا ورايته منكوسةً ، ولكنهم لا يرضون بأن يصغروا أنفسهم له وينكسوا أمامه رؤوسهم، ويغيب عنهم أن الذي يقوم بتصغير نفسه في الدنيا لأجل الحق سيكبر في الآخرة ، ومَنْ لا يصغر نفسه في الدنيا ، فإنما هو الشخص الذي سيصبح ويظل صغيراً في العالم الآتي إلى أبد الآبدين !.

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ : كم من آية – كثير من الآيات

الـذين لا يؤمنـون بـالحق عقـب ظهـوره ، يلجـأون إلى تمويـه إنكـارهم لـه ، بحيـث يقولون: إن الحق يعوزه دليل مقنـع يـصح الاعـتماد عليـه ، ولـو أنـه كـان يـصحبه دليـل كهـذا، لبادرنـا إلى الإيـمان بـه بالـضرورة ، مما يعنـي أن سـبب إعراضـهم عـن الحـق أو إنكارهم له يرجع إلى الخارج وليس إلى الداخل !

بيد أن الواقع على العكس مـن ذلـك تمامـاً ، فـالحق واضـح لدرجـة أنـه حـين يـتجلى تشهد لـصدقه آيـات الأرض والـسموات كلهـا ، ولا يكـون في الكـون بأكملـه أي شيء آخر سواه أكثر ثبوتاً وأسطع برهاناً منه .. غير أن الظفر بالحق يتطلب في الحقيقـة العـين المبصرة والعقل المعتبر ، وهذا هو الشيء الذي لا يتوفر لدى هؤلاء المنكرين.

حين يقف المرء إزاء الحق موقف العناد والطغيان ، فإنما يكون الـسبب وراء ذلـك في معظم الحالات ، هـو "الإشراك بـالله" ، مـن حيـث إن أكثـر النـاس ، قـد افترضـوا ، إلى جانب إيمانهم بالله ، ذواتـا مـن الأحيـاء أو المـوتى ، وضـعوا فـيهم ثقـتهم ، يرفعونهـا إلى مقام الكبرياء والعظمة ، وهكذا فالجميع قد اتخذوا لأنفسهم مجموعةً من "الأكـابر" مـا عدا الله ، هم موضع ثقتهم واعتمادهم في الحياة وبعد الممات ، على حين أنه لا كبير هنـاك إلا الله الواحد ، والكل بإزائه صغير ، ولن يفوز أحد بالنجـاة عنـده بـشيء سـوى عملـه الذاتي .

إن الواجب الأساسي الملقـى عـلى عـاتق النبي هـو الـدعوة إلى الله الواحـد الأحـد ، وذلك هو رسالته في حياته ، وقد اختار هذه الرسـالة عـن وعـيٍ وعـلى بـصيرةٍ ، ولـيس على وجه التقليد ، ومعنى ذلك أن الدعوة النبوية هي دعوة تهدف إلى ربط الإنسان بالله الواحد ، والتي يكون صدقها واضحاً مكشوفاً على الـداعي لدرجـة أنهـا تـصير بالنـسبة إليه بصيرةً ومعرفةً، وهكذا فإن أتباع النبي إنما هـم الـذين يـدركون الحـق عـلى مـستوى البصيرة ، ويقومون بإعلانه والصدع به على مستوى التوحيد .

إن المرء ربما يعتبر استقراره الوقتي استقرارا دائماً لا يزول ، بينما لا يدري أحد بالضبط متى ستنتهي فترة عمره، ولا يعلم أحد متى سيأتي الموت فيبطل كل مزاعمه وأحلامه اللذيذة ، ومتى سيتفجر زلزال القيامة ليدمر دنياه العامرة ويجعل عاليها سافلها .. إن المرء يحسب أنه في عالمٍ مضمون النتائج مأمون العواقب ، بينما هو على وشك أن يواجهه في أي لحظةٍ مصير غير مضمونٍ ولا معلومٍ مسبقاً !.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾

غَاشِيَةٌ : عقوبة تغشاهم وتجللهم

بَغْتَةً : فجأة

اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ : يئسوا من النصر لتطاول الزمن .

وَظَنُّوا : توهم الرسل أو حدثتهم أنفسهم .

قَدْ كُذِبُوا : كذبهم رجاؤهم النصر في الدنيا .

بَأْسُنَا : عذابنا.

يدلنا التاريخ على أن الذين كانوا مؤمنين بالنبوة والرسالة ، لم يلبثوا أن صاروا منكرين لها ، عندما بعث الله فيهم نبياً من أنفسهم .

إن خرائب القرى المهلكة لقوم عادٍ ، وثمود ، وأصحاب مدين ، وقوم لوطٍ وغيرهم كانت متواجدةً على مقربة من قريش مكة ، أي في المناطق المجاورة لها ، وقد كانوا يشاهدونها بين حينٍ وآخر خلال رحلاتهم ، وكأن هذه الآثار والأطلال كانت

تنطق - بلسان حالها - أن هذه الأمم لم تتعرض للعذاب الإلهي والدمار المحقق إلا بسبب عدم معرفتها بنبي الله ، ولكن قريشا ، بالرغم من ذلك ، لم تستفد منها درساً ولا عبرةً ؛ وسر ذلك يكمن في موطن ضعفٍ في الإنسان ، وهو أنه ربما يمارس عملاً خاطئاً ولكنه لا يلبث أن يخرج نفسه من عداد الخاطئين بناءً على بعض الأفكار المزعومة ، والآية رقم ١١٠ من سورة يوسف ، تفسرها الآية رقم ٢١٤ من سورة البقرة خير تفسيرٍ - على حد المبدأ القائل : القرآن يفسر بعضُه بعضه - حيث قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾" [البقرة : ٢١٤] .

إن الله ينصر الداعي إلى الحق دوماً ، ذلك مما لا شك فيه ، ولكن هذا النصر يمثل قضاء الله لصالح الداعي ضد المدعو ، ولذلك فلا يأتي هذا النصر الإلهي الحاسم إلا إذا كان الكفاح الدعوي قد بلغ منتهى كماله ، حتى ولو أخذت تعتمل في نفوس الدعاة ، بسبب هذا التأخير ، بواعث اليأس وخيبة أملٍ !!.

ويتضح لنا من قوله : ﴿ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ ﴾ [يوسف :١٠٩] أن السلوك الذي يُعامل به أهل الإيمان في الدنيا ، يكون علامةً على السلوك الذي سيُعاملون به في الآخرة .

وينصر الله دعاة الحق في هذه الدنيا ، بحيث تصبح كلمتهم هي العليا فوق سائر الكلمات الأخرى، ويحالفهم التوفيق لإنجاح مسيرتهم رغم كل المعارضات والمؤامرات ، وسيعطون هذه العزة والرفعة في الآخرة على وجهٍ أفضل وأكمل.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ (111) ﴾

عِبْرَةٌ : عظة وتذكرة .

يُفْتَرَى : يُختلق .

إن قصة الأنبياء السابقين وأممهم هي قصة البشر كافةً من حيث ما تنطوي عليه من درس وعبرة ولو أن المرء استخدم عقله ، لظفر بنصيحة الحاضر في واقع الماضي ، وبالتالي فلا يسعه إلا أن يقوم بإصلاح نفسه وأحواله نظراً لمصير الآخرين .

ليس القرآن بكتابٍ موضوعٍ بيد أحد الناس ، إنما هو كتاب منزل من عند الله تعالى وقد جاء هذا الكتاب مصدقاً حقاً لتلك النبوءات التي وردت بشأنه في الكتب السماوية السابقة ، وهو يحتوي على أوضح بيانٍ وأبلغه لكل ما هو ضروري فيما يتصل بالهداية والإرشاد ، وإنه كتاب أوله هدىً للناس وآخره رحمة لهم!.

سورة الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ (١) ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ (٢) ﴾

بِغَيْرِ عَمَدٍ : بغير دعائم وأساطين تقيمها .

اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ : استواء يليق به سبحانه .

يُدَبِّرُ الأَمْرَ : يصرف العوالم كلها بقدرته وحكمته .

مَدَّ الأَرْضَ : بسطها في رأي العين .

القرآن يدعو إلى الإيمان بالله الواحد، وأكبر دليل يستند إليه المنكرون لوجود الله، يتلخص في التساؤل الآتي : إن كان ثمة إله، فلم لا نراه عياناً ؟ غير أن الكون المعلوم لدينا يدل على أن عدم وقوع شيء ما تحت أبصارنا ليس بدليل على أنه لا وجود لذلك الشيء البتة، ومن أمثلة ذلك : قوة الجاذبية، إن الفضاء تتحرك فيه كواكب لا حصر لها في اتجاهات ومساراتٍ شتى، والعلم الإنساني يقول : إن هناك قوة جاذبة غير مرئية توجد بين هذه الأجرام السماوية، هي التي تمسكها في رحاب الفضاء الواسع، فإذا كان الإنسان يقر بوجود قوة الجاذبية، مع كونها غير مرئية إذن، فكيف سيكون محقاً في إنكاره لوجود الله بحجة أنه غير مرئي؟ وهذا هو شأن الوحي والرسالة كذلك ..

إن دارس العلوم الكونية حين يدرس الكون يجد أن كل شيء هنا خاضع لنظام

معين، وأن كل الأشياء مكبلة بحكم خاص، لا تستطيع الخروج عليه أو الانحراف عنه، وهذا «الحكم» لا يوجد داخل هذه الأشياء ذاتها، وإنما هو مفروض عليها من الخارج بلا ريب، مما يعني أن العالم يتلقى التوجيهات من «الخارج» لأداء وظيفته، وهذا التوجيه الخارجي يسمى- بالنسبة إلى سائر العالم - ما عدا الإنسان، بـ «القانون الطبيعي»، ويُطلق عليه فيما يتصل بعالم الإنسان اسم الوحي والإلهام .

إن الكون بمثابة ماكينةٍ والقرآن دليل أو مرشد لها، فالأول مثال : تدبير الأمر﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، والأخير مثال : تفصيل الآيات ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾، وبين كليهما يوجد انسجام وتوافق تام، فكل ما يُشاهد في أرجاء الكون عملياً، هو موجود في صحائف القرآن لفظياً، ويُبرهن هذا التوافق والانسجام - في آنٍ واحدٍ - على أمرين اثنين : أولاً: على أن لهذا الكون خالقاً مبدعاً، وثانياً : على أن هذا القرآن كتاب ذلك الخالق نفسه، وليس إبداع العقل الإنساني المحدود! .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

رَوَاسِيَ : جبالاً ثوابت كيلا تميد .

زَوْجَيْنِ : نوعين وضربين .

يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ : يلبس النهار ظلمة الليل أو العكس .

فالأرض منبسطة وممتدة تحت أقدامنا كفرشٍ طبيعي، تتواجد فيها البحار العميقة من ناحيةٍ ، والجبال الشامخة من ناحيةٍ أخرى، ذلك لتبقى الأرض في حالة توازنٍ دائم، وقد كان ممكناً أن تكون الأشجار منفردةً مستقلةً بعضها عن بعض ، ولكن فيها

أزواجاً، تتكاثر البذور والثمار من خلال عملية التلاقح أو الإخصاب التلقائي بينها . وأرضنا هذه، مع حركتها الانتقالية أو السنوية في مدارها حول الشمس، تدور أيضاً في محورها باستمرارٍ، وهي تتم هذه الدورة في كل أربعٍ وعشرين ساعةً ؛ الأمر الذي يترتب عليه تتابع الليل والنهار.

وأيما شخصٍ يقف عند آياتٍ كهذه وقفة تأملٍ، ويتفكر فيها بجديةٍ، سيجد نفسه مضطراً إلى التسليم بأن هذه الدنيا تحت سلطان مالكٍ مختارٍ قديرٍ، وأنه لم يخلقها عبثاً أو اعتباطاً، بل أنشأها بإرادته وفق تخطيطٍ هادفٍ حكيمٍ، إذْ لم يكن من الممكن البتة أن توجد هذه الروح المعنوية الغريبة في الأرض بدون تخطيطٍ واعٍ !.

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

قِطَعٌ : بقاع مختلفة الطبائع والصفات .

وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ : نخلات يجمعها أصل واحد .

الأُكُلِ : ما يؤكل ، وهو الثمر والحب .

في تفسير هذه الآية رُوى عن السلف أقوال منها ما يلي : قال عبد الله بن عباس: «أرض طيبة، وأرض سبخة، تنبت هذه، وهذه إلى جنبها لا تنبت»، وقال مجاهد :« (إن ذلك) كمثل بني آدم، صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد»، وقال الحسن البصري : «هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم» .

إن في الأرض آيةً عجيبةً تتمثل فيما نشاهد من اختلاف الأشجار والنباتات وتنوع ثمارها طعماً ولوناً وقلةً وكثرةً، رغم كون التربة واحدةً، تُسقى بماءٍ واحدٍ كذلك، إن

هذا تمثيل أرضي للواقع الإنساني، فمن خلال ذلك يتضح لنا أن البشر، وإن كانوا سواء في الظاهر، تصل إليهم جميعاً هداية واحدة، ولكن البون شاسع والفرق عظيم بين إنسانٍ وآخر، فيما يتعلق بالاستفادة من الهداية والانتفاع بها، فمنهم من يهتدي بها، ومنهم من يتصدى لرفضها وإنكارها، ومنهم من لا يتلقى من الهداية إلا أقلها، ومنهم من تزدهر وتتألق حياته كلها بنور الهداية .

﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾

الأَغْلالُ : الأطواق من الحديد .

إن قضية المنكرين للحياة الثانية (أي البعث بعد الموت) غريبة إلى حدٍ بعيدٍ، فالواقع الذي يسلمون بظهوره مرةً، لا يسلمون بظهوره نفسه مرةً أخرى!!

وهؤلاء المنكرون لوقوع البعث كثيراً ما يتعجبون من المؤمنين بعقيدة البعث، ظناً منهم أن الإيمان بالحياة الثانية تسليم بأمرٍ غير علميٍ، ولكن الحقيقة هي أن الوضع على العكس من ذلك تماماً، فإن منكراً ما، مهما توغل في العناد، لا يسعه إلا أن ينكر الحياة الثانية وحدها، وأما ما يتصل بالحياة الأولى، فليس يمكن لأحد أن ينكرها؛ لأنها لا تزال ماثلةً أمام كل شخصٍ كواقع حيٍ ملموسٍ، فلئن كان ممكناً أن تبرز الحياة الأولى إلى الوجود، إذن، فلم لا يمكن أن تبرز الحياة الثانية إلى الوجود كذلك ؟!

وقد كان عدد المنكرين لوجود الله وما يزال قليلاً، بل أقل من القليل في كل العصور، فإن أكثر الناس يؤمنون بوجود خالقٍ، ولكنهم - مع ذلك - لا يؤمنون بالآخرة، غير أنه لا تعود أية قيمةٍ للإقرار بوجود الخالق بعد إنكار الآخرة، إن الله ليس مجرد خالق لهذا الكون فحسب، بل هو حق في ذاته كذلك، وإن كون الله هو الحق كله

والعدل كله، يقتضي - بالضرورة - أن تتسم كل أفعاله بالحق والعدل، والآخرة هي في الحقيقة مظهر العدل الإلهي ولا عبرة بالإيمان بالله، ما لم يقترن به الإيمان بالآخرة كذلك، إذْ لا يكتمل الإيمان بالله بدون الإيمان بالآخرة .

والذين لا يتلقون رسالة الحق الواضحة السديدة بالقبول، فإنما يرجع السبب في ذلك إلى كونهم ضحايا الجمود والتعصب والأنانية، وحين تتحدث إليهم أو تتناقش معهم حول موضوعٍ ما، فسيتضح لك أن القوم أسرى أفكارهم وخيالاتهم الذاتية، لا يطيقون الخروج من إطارها الضيق، حتى يتأملوا في أي حقيقةٍ خارجية بحريةٍ ونزاهةٍ، وقدتم التعبير عن هذه الحالة ذاتها بكون «الأغلال في أعناقهم»، فإن «الغل أو القيد» في العنق علامة العبودية وشارتها، ومعنى ذلك أن هؤلاء عبيد أفكارهم وخيالات أنفسهم، والذين يجعلون من أنفسهم مغلولين مقيدين في الدنيا على هذا النحو، سيكون نصيبهم في الآخرة - أيضاً - القيود والأغلال !

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾

المَثُلاتُ : العقوبات الفاضحات لأمثالهم .

مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ : ستر وإمهال .

لقد كان رسول الله - ﷺ - يقول لأهل مكة : آمنوا بهداية الله، وإلا ستتعرضون لبطش الله وعقابه، فما كان جوابهم إلا أن قالوا : اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً، فأمطر علينا حجارةً من السماء، وقد كان هذا الدعاء على ما يبدو، مرفوعاً إلى الله، إلا أنه كان في الحقيقة موجهاً إلى الرسول، فإنه - ﷺ - كان يبدو لأهل مكة آنئذٍ شخصاً لا يقام له وزن، وكان يتعذر عليهم التيقن من أن الله سيعاقبهم فعلاً فيما لو أنكروا رجلاً عادياً - في نظرهم - كهذا . إن نزول العذاب لقاء إنكار «محمدٍ» كان يتراءى لهم أمراً

بعيداً عن الإمكان ، لدرجة أنهم كانوا يقولون على وجه التهكم والاستهزاء : إننا نود لو ينزل علينا هذا العذاب الإلهي الذي تهددنا به يا محمد بأسرع ما يمكن من الزمان .

فأجابهم قائلاً : إن إنكاركم للحق الذي جئت به لابد أن يجرّ عليكم عذاب الله يوماً، لن يرده عنكم راد، وإنما هي شقاوتكم وحدها التي جعلتكم تستعجلون به، حيث كان ينبغي لكم أن تغتنموا هذه الفرصة، فتستخدمونها في تدبر الدعوة القرآنية واتباعها، وليس في استنزال العذاب قبل موعده.

إن من سنة الله تعالى أنه يتيح للإنسان مهلة العمل، على أن للمهلة حداً لا تتجاوزه، والشيء الذي ينتظرهم وراء هذا الحد ليس سوى العذاب الأليم الذي لن يستطيعوا إنقاذ أنفسهم منه أبداً !.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ﴾

لم يكن لدى أهل مكة مقياس للنبوة سوى مقياس الثروة والسيادة والنفوذ الشعبي، وعلى هذا الاعتبار لم يكن - عليه الصلاة والسلام - يبدو لهم غير عادي، ومن ثم أرادوا أن تكون معه أية آيةٍ غير عاديةٍ تقوم برهاناً قاطعاً على كونه نبياً مرسلاً من عند الله .. فقيل رداً عليهم : إن هؤلاء يطلبون شيئاً لا يتفق والتدبير الإلهي، ولذا فلا يمكن أن يتاح ذلك لأحد.

لقد أقام الله في كل قومٍ من أنفسهم رجلاً يبلغ إليهم رسالة الله باللغة المألوفة والمفهومة لديهم، وما كان ذلك إلا بغية التسهيل أو التيسير على تلك الأمم، غير أن هذه الأمم حملت ذلك- في معظم الأحيان- على غير محمله، فلم تلبث أن كذبت برسل الله، حيث ظلت أنظارهم متعلقةً بشخصية الرسول العادية، ولم يتمكنوا من النظر إلى عظم رسالته وطابعها غير العادي!

﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝ ﴾

وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ : ما تنقصه أو تسقطه .

بِمِقْدَارٍ : بقدر واحد لا يتعداه .

الكَبِيرُ : العظيم الذي كل شيء دونه.

المُتَعَالِ : المستعلي على كل شئ بقدرته .

وَسَارِبٌ : ذاهب في سربه وطريقه ظاهراً .

إن بطن الأم مصنع عجيب، ومن بواعث العجب والغرابة في هذا المصنع الإلهي الذي يُعني بإنتاج البشر، أنه يعمل وفق «مقدارٍ معينٍ»، وبالإمكان القول، على حد التعبير العصري الرائج اليوم، إنه لا يزال هناك توازن بين العرض والطلب قائماً بصفةٍ منتظمةٍ ومستمرةٍ .

وعلى سبيل المثال فإن هذا المصنع مازال يعمل ويعمل منذ الآلاف من السنين، ويخرج منه الرجال، كما تخرج النساء، إلا أنه لا يزال بين الجنسين كليهما تناسب عددي ملحوظ، فلا يحدث أبداً أن يبدأ يتولد من هذا المصنع الرجال وحدهم أو النساء وحدهن، وربما تعمل كارثةٌ ما، كالحرب مثلاً، على الإخلال بهذا التناسب العددي على نطاقٍ محلي محدودٍ، ولكن الأمر المثير للدهشة والاستغراب أنه لا يكاد يمضي إلا يسير من الزمن حتى يملأ هذا المصنع الطبيعي ذلك الفراغ الطارئ، ويعيد التناسب العددي بين كلا الجنسين إلى سيرته الأولى من جديد!

وهذا هو الشأن تماماً فيما يتعلق بتوازن الصلاحيات والاستعدادات بين الرجال

والنساء الخارجين من هذا المصنع، حيث تدلنا الدراسات على أن الرجل والمرأة لا يستويان في مواهبهما الفطرية، بل ثمة اختلاف كبير وتنوع هائل بين كفاءات كلٍ من الجنسين، ولهذا التنوع والاختلاف أهمية غير عاديةٍ من وجهة النظر التمدنية، فإن بناء التمدن والقيام على إدارة شؤونه يتطلب أفراداً ذوي كفاءات متنوعةٍ ومختلفةٍ، وعندما نلاحظ أن مصنع الأم لا ينفك يعمل في صمتٍ على إعداد الأفراد ذوي الكفاءات من كل نوعٍ ، يخيل إلينا كما لو أنه يتلقى «طلباتٍ» من الخارج، وبالتالي يقوم بصياغة البشر داخل البطن طبقاً لها، ولو أن الإنتاج البشري لم يعدْ يتسم بهذا التنوع والاختلاف لأصيب النظام التمدني كله بشللٍ، ولأصبحت كل مظاهر الرقي والتطور هباءً .

وإن وجود هذا التخطيط الدقيق في وظيفة بطن المرأة، لدليل حي ناطق بأن وراء ذلك خالقا مدبرا قديراً ، إذْ بدون تخطيط إرادي مسبقٍ لا يتصور أن ينهض نظام كهذا، ويسير بهذا القدر من الدقة والانتظام.

ويثبت من ذلك أيضاً أن خالق هذا العالم ومالكه إله لا يعلم بما هو ظاهر مشهود فحسب، بل هو يعلم الخفي والغائب كذلك، فالله الذي يعلم ظاهر الواحد وباطنه، لم لا يكون مطلعاً على ظاهر الآخر وباطنه؟! كما أن عقيدة الملائكة هي الأخرى تثبت ذلك تلقائياً، ومن ثم فهو بمثابة امتدادٍ لنظام «الرقابة» أو «الإشراف» الإلهي الراهن!

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ : ملائكة تعتقب في حفظه .

مِنْ أَمْرِ الله: بأمره تعالى بحفظه .

مِن وَالٍ : من ناصر أو وال يلي أمورهم .

إن ظاهرة نهوض الأمم وسقوطها في هذه الدنيا لا تحدث على نحوٍ عشوائيٍ أو اعتباطيٍ، بل تحت إشرافٍ من الله -تعالى- وتبعاً لقضائه الأعلى، فحين يغدق الله -تعالى- نعمه على أمةٍ ما، فإنما هو يُديم تلك النعم عليها، ما دامت هي محافظةً على جدارتها بها، وعندما تفقد الأمة جدارتها، تفقد معها بالضرورة ما أتيح لها من النعم الإلهية كذلك، كحرماننا مثلاً مما كان لنا من هيبةٍ ورعبٍ يسود العالم الخارجي بعدما فقدنا الوحدة بين صفوفنا، وما إلى ذلك.

هذا، وإن ما تحصل عليه أمة ما في هذه الدنيا، إنما تحصل عليه بموجب القانون الإلهي، وما تفقده، فإنما تفقده بموجب القانون الإلهي كذلك، فالله - سبحانه وتعالى- وحده هو المعطي وهو المانع ، وليس هناك من أحدٍ سواه يقدر على العطاء أو على السلب!

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾

ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ : المحملة بالماء المثقلة به .

شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ : المكايدة . أو القوة . أو العقوبة .

البرق يومض، فيكون تارةً بشيراً بحلول موسم الربيع الجديد، ويتحول طوراً إلى صاعقة تسقط على الأرض فتحرق ما عليها من رطبٍ ويابسٍ، وهكذا حين تتلبد السماء بالسحب الكثيفة، فتنزل على الأرض تارةً بشكل غيث نافعٍ، وتكون أخرى مطراً نذيراً بالطوفان والسيل الجارف .

ومعنى هذا أننا نعيش في عالم ينطوي فيه الشيء الواحد على جانبي الخوف والرجاء معاً، فالشيء الذي يتخذه مدبر أمور الدنيا وسيلةً سوْق رحمته إلى أهل الأرض، يقدر أيضاً على أن يحوله - إن شاء - إلى عذابٍ مدمرٍ، وهذا الوضع يقتضي ألا يحسب المرء نفسه أبداً في مأمنٍ من بطش الله.

والغافلون ينتظرون دوماً ظهور بعض الخوارق والآيات الطلسمية، غير أن الذين يملكون شعوراً حياً وضمائر يقظةً، يجدون فيما حولهم آياتٍ رائعةً من كل نوعٍ ضمن وقائع الحياة اليومية، فلمعان البرق وصاعقة الرعد مما يجعل قلوبهم ترتجف وتنبض بسرعةٍ أكثر، وبرؤية قطرات المطر لا يتمالكون أن تسكب عيونهم سيلاً من الدموع الحارة، والحالة التي تعتري الملائكة، وهم يرون قدرات الله اللانهائية مباشرة، تطرأ الحالة نفسها على الصادقين من الناس وهم لم يروا بعدُ قدرات الله اللانهائية مباشرةً !

﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ ﴾

لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ : لله الدعوة الحق « كلمة التوحيد » .

لو أنك بسطت يدك نحو البحر، وناديت مياهه، فلن يحدث أبداً أن يلبي البحر نداءك، وبالتالي تتدفق المياه من قاع البحر، ثم تتقدم إليك مسرعةً، لتروي غلتك، وتسقي ما تملك من حقولٍ وبساتين .. ولكننا نرى هذا البحر نفسه، إذْ ترتفع مياهه إلى الفضاء، متخليةً عما فيها من أجزاء الملح -وفق قانون الطبيعة- ثم تتحول إلى سحبٍ متراكمةٍ، نتيجة تفاعل الحرارة والجاذبية والهواء، تمتد فوق قريتك، وتتساقط بشكل الماء العذب، فتتبدل أراضيك بجفافها وجدوبتها خصوبةً ونضارةً، ومن هذا نعلم أن البحر، مع كونه عظيماً هائلاً على ما يبدو لنا ظاهراً، إلا أنه عاجز محض، خاضع لإرادة عليا، لا يملك إزاءها أي خيارٍ .

وهذا هو حال كل الأشياء في هذه الدنيا، وفي حالةٍ كهذه فإن العاقل هو الـذي يعبـد الخالق وحده دون المخلوق، والذي يتخذ من رب الأشياء مركز اهتمامه وتوجهـه دون الأشياء ذاتها !!

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ (١٥) قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ (١٦) ﴾

وَللهِ يَسْجُدُ : لأمره تعالى ينقاد ويخضع .

وَظِلالُهم : تنقاد لأمره تعالى وتخضع .

بِالْغُدُوِّ : جمع غداة – أو ل النهار .

وَالآصَالِ : جمع أصيل – آخر النهار .

إن مطلوب الله من الإنسان هو أن يخضع أمامه بكل كيانه، وهذا "الخضوع" هو دين الكون بأكمله، فكل شيءٍ خاضع لأمر الله تمام الخضوع، ومن علامات هذا الخضوع ذاته سقوط ظلال الأشياء شرقاً وغرباً في أوائل النهار وأواخره، وكأن ظلال الأشياء هذه تمثل - على المستوى المادي - ذلك السجود المطلوب أداؤه من الإنسان على مستوى الوعي والإرادة، فالأول صورة رمزية للسجدة، والأخير صورة حقيقية لها .

وتدلنا دراسة هذا الكون الفسيح المترامي الأطراف على أن الكون مربوط، بكل ما فيه، بقانونٍ عالمي واحدٍ، وهذا دليل على أن خالقه ومالكه واحد ليس غير، فإن

دراسات الإنسان العلمية وتأملاته العقلية لا تثبت، بأي وجهٍ من الوجوه أن وراء هذا الكون أكثر من قوةٍ واحدةٍ تتصرف فيه، وفي هذه الحالة فإن التسليم بوجود آلهةٍ أخرى غير الله الواحد الأحد لا يعدو أن يكون محض فرض بلا أساسٍ أو دليلٍ يستند إليه !

إن مشاهدة «العين» إنما تخبرنا بوجود الله الواحد لا غير، لذا فالذين يعتقدون بأكثر من إلهٍ واحدٍ، إنما يقيمون الدليل على أنهم عميان، حيث إنهم افترضوا العديد من الآلهة بسبب عماهم، وليس بناءً على أساسٍ من العلم والمشاهدة بالمعنى الدقيق !

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

بِقَدَرِهَا : بمقدراها الذي أقتضته الحكمة .

زَبَداً : هو الغثاء (الرغوة) الطافي فوق الماء .

رَّابِياً : مرتفعاً منتفخاً.

زَبَدٌ : هو الخبث الطافي عند إذابة المعادن .

جُفَاءً : مرمياً به مطروحاً . أومتفرقاً.

لقد أنشأ الله الدنيا بحيث صارت وقائعها المادية تمثيلاً للحقائق الأخلاقية، فكل ما يطلبه الله منا - نحن البشر - على المستوى الشعوري يتم عرضه في سائر العالم المحيط بنا على المستوى المادي .

وقد لفت القرآن انتباهنا هنا إلى ظاهرتين من ظواهر الطبيعة، إحداهما : هي أنه حين ينزل المطر، ويصل ماؤه إلى الجداول والأنهار، فيطفو على وجهه زبد أو غثاء يراه الناظر

ممتداً هنا وهناك، والثانية: حين تُسبك الفضة وغيرها من المعادن في النار لتنقيتها، يعلو خبثها بشكل الزبد، ولكن سرعان ما نلاحظ أن زبد الاثنين، الذي لا ينطوي على أية منفعة للإنسان، يضمحل ويتلاشى في الفضاء، ويبقى الماء الصافي والمعدن الخالص كما هما، بما فيهما من خيرٍ وفائدةٍ للإنسان .

إنها من ظواهر الطبيعة، يُرينا الله تعالى من خلالها، على وجه التمثيل، ما هو المبدأ الذي قرره تعالى للنجاح والفشل في الحياة، ويتلخص ذلك المبدأ في أنه لا يتبوأ في هذا العالم مكانةً ما، إلا شخص أو شعب يقيم الدليل على كونه نافعاً للآخرين، وأما الفرد أو الشعب الذي يفقد صلاحية النفع والإفادة للآخرين، فلا مكان له في دنيا الله هذه!.

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾

وَبِئْسَ المِهَادُ: بئس الفراش والمستقر جهنم .

إن من سنة الله في هذه الدنيا أن الخبث والغثاء، مهما طفا وعلا فوق السطح فإنه بصفةٍ مؤقتةٍ، وأن الشيء الذي يُكتب له البقاء وعلو المكانة هنا، هو الذي كان حقيقياً، ومنطوياً على قابلية النفع والإفادة، وهذا هو شأن البشر تماماً فيما يتعلق بالآخرة كذلك، فقد يمكن أحياناً أن يبرز أناس وتتألق أسماؤهم في هذه الدنيا بناءً على أوضاعهم الإضافية، ولكن لن يتبوأ في الآخرة المكانة العالية إلا الذين يملكون أوصافاً حقيقيةً .

والذين لا يلبون نداء الحق في الدنيا، فإنما يرجع السبب في ذلك دوما إلى ما يتراءى لهم من ذهاب المنافع الدنيوية من أيديهم فيما لو تقدموا نحو الحق الخالص، والثمرة التي يجتنيها أمثال هؤلاء لقاء إعراضهم عن الحق، تتمثل دوماً فيما يتاح لهم من العزة وبُعد الصيت ورغد العيش في الحياة الدنيا، حيث يتخذون من إنكار الحق مطيةً

للوصول إلى المناصب الرفيعة واحتلال المراكز المرموقة . بيد أن هذه الأشياء شأنها شأن الخبث والغثاء، فسيقذف بأمثال هؤلاء كلهم في الآخرة بعيداً، تماماً كما يقذف بالغثاء الطافي المؤقت، وسيبرز ويلمع هناك أولئك وحدهم الذين كانوا قد سلموا أنفسهم للحق بغض النظر عن كل المنافع الوقتية .

والذين يعطون الأوضاع والمراكز والفوائد الدنيوية من الأهمية البالغة ما يجعلهم يعرضون لأجلها عن الحق، ستبدو لهم هذه الأشياء في الآخرة تافهةً لدرجة أنهم يودون أن يدفعوا هذه الدنيا برمتها، ودنيا أخرى مثلها - إن أتيحت لهم - فداءً لأنفسهم للتخلص من العذاب يومئذٍ !

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩) ﴾

ينقسم الناس دوما إلى نوعين : أحدهما : هو الإنسان الذي يفكر بالعقل الذي منحه الله إياه، ويتوصل بالتالي، في ضوء الحقائق، إلى قرارٍ قطعي، والشيء الذي يقتنع به قلبه، نتيجة هذا التفكير المجرد والاستعراض الموضوعي، يختاره عن وعيٍ وإرادة .

أما الآخرون عداه : فهم الذين يدور تفكيرهم في إطار العادات القومية والأفكار التقليدية، والذين يحكمون على الأشياء نظراً للعرف السائد وليس بالنظر إلى الدلائل والبراهين، ثم لا يلبثون أن يختاروا الشيء الذي يرونه مقبولاً شائعاً لدى الجماهير باعتباره أنه هو الحق!!

إن الأول في نظر القرآن هو الشخص الذي يؤمن في ضوء العلم، وفي مقابل ذلك يصف القرآن الشخص الآخر بالأعمى، فإن الأول يعرف الحق من الباطل ببصيرته الذاتية، بينما رأسمال الأخير لا يعدو أن يكون أحاديث مسموعة، فالباطل عنده ما يعده الناس باطلاً، وما يعتبره الناس حقاً، صار هو الآخر ينظر إليه على أنه لا يكون إلا

الحق!!.

وإنما تنهض دعوة الحق للبحث عن أناسٍ يستطيعون أن يحكموا على الأشياء ويتخذوا قراراتهم باستخدام عقولهم أنفسهم، وأما الذين أصبحوا عمياناً، رغم تمتعهم بالأعين، فإن دعوة الحق لن تغني عنهم فتيلاً !.

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ (٢٠) وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ (٢١) وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٢) جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٤) ﴾

وَيَدْرَءُونَ : يدفعون ويجازون .

عُقْبَى الدَّارِ : عاقبتها المحمودة ، وهي الجنات .

إن الله خلق الإنسان، فأسكنه في عالمٍ كله روعة وجمال، وما يزال يربيه ويوفر له أسباب البقاء والنماء كل لحظةٍ، إن هذا الواقع يربط الإنسان بخالقه ومالكه برباط عهدٍ فطريٍ، وهو يقتضي ألا يكون الإنسان طاغياً متمرداً على ربه، بل عليه أن يخضع أمامه ويستسلم له معترفاً بالحقيقة الواقعة .

إن حياة الإنسان في هذه الدنيا تعتمد على ضروبٍ شتى من العلاقات والروابط مع الآخرين، ومن مقتضيات عبودية الإنسان ألا يتصل إلا بمن يحب الله أن يتصل به، وينقطع عمن أمر بالانقطاع عنه، ويسيطر عليه الإحساس بعظمة الله وكبريائه بشدة، لا يلبث معها أن يخضع له تعالى بكل كيانه، والصلاة هي إحدى الصور المعينة لهذا

الخضوع ذاته، وأن يعطي للآخرين مما يملك هو، تماماً كما أعطاه الله تعالى مما يملك، وأن يقابل إساءة الآخرين إليه بالإحسان إليهم، لأنه يرغب هو الآخر في أن يصفح الله عن سيئاته في الآخرة ويتغمده بفضله ورحمته الواسعة .

وكل هذا يتطلب الصبر الطويل المستمر ؛ الصبر في مواجهة الدوافع النفسانية، والصبر على ضياع المنافع الوقتية العاجلة، والصبر على الضغوط القاهرة المفروضة من البيئة أو المجتمع.. إلخ، إلا أن المؤمن لابد له من الصبر على هذه الأشياء كلها لأجل الجنة، فإن الصبر هو ثمن الجنة، وبدون دفع هذا الثمن لن يظفر أحد بجنة الله الأبدية !

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

سُوءُ الدَّارِ : عاقبتها السيئة ، وهي النار .

وَيَقْدِرُ : يضيقه على من يشاء لحكمة .

مَتَاعٌ : شيء قليل ذاهب زائل .

الإنسان مربوط بربه برباط عهد الفطرة، وبالآخرين من بني جنسه برباط عهد الآدمية ونقض هذين العهدين كليهما مثار الفساد في أرض الله، وعيشك في أرض الله صالحاً مصلحاً يعني أن تمارس حياتك فيها ملتزماً بكلا العهدين المذكورين، وأما كون المرء مفسداً في أرض الله، فهو أن يتحرر من هذين العهدين ويطلق لنفسه العنان، فلا يبالي بما عليه من حقوق الله ولا من حقوق العباد .

وأمثال هؤلاء ملعونون عند الله، فلن يتاح لهم نصيب ما من رحمات الله ؛ إنهم أناس

لوثوا أرض الله بالأقذار، ولذا فلا يستحقون في الآخرة إلا أن يُزج بهم في أسوأ دار .

إن أرزاق الناس في هذه الدنيا تتفاوت بين بعضٍ وآخر، فمنهم من يحصل على الكثير، ومنهم من لا يحصل إلا على القليل، أما المكثر فكثيرا ما يُصاب بمركب الاستعلاء، بينما يعاني المقل من مركب النقص، إلا أن كليهما خاطئ عند الله على حدٍ سواء، وإنما الموقف أو رد الفعل الصحيح هو أن يكون المرء شاكراً لله إذا ما وُسع عليه، ويتمسك بالصبر والقناعة إذا ما ضيق عليه .

المحبون للدنيا يقابلون داعية الحق دوماً بالإعراض عنه والاستهانة بأمره، والسبب في ذلك هو أن المحب للدنيا إنما يعرف مظاهر العظمة الظاهرية، وبما أن الداعي لا يملك سوى العظمة المعنوية وحدها، فلا يتمكن من معرفتها وتقديرها كما ينبغي، وإنما يهملها ويصرف نظره عنها باعتبارها شيئاً حقيراً لا يستحق النظر إليه، ولكن حين يتمزق الحجاب عن وجه الحقيقة فسوف يعلم الإنسان -وقتئذ- أن المباهج المرئية التي كان قد اعتبرها كل شيء لم تكن تحمل أي قيمة تذكر ، وإنما الشيء الذي كان يتمتع في الحقيقة بالقيمة والأهمية البالغة هو الذي لم يكد يتحول إلى مركز اهتمامه وتوجهه لكونه خارجاً عن دائرة المرئيات !.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

أَنَابَ : رجع بقلبه إلى الله .

طُوبَى لَهُمْ : عيش طيب لهم في الآخرة .

وَحُسْنُ مَئَابٍ: حُسن مرجع ومنقلب .

إن هذه الدنيا دار امتحانٍ ، وإنما يسع المرء هنا أن يظفر بالقرب من الله على مستوى «الذكر»، وليس في مقدوره أن يظفر بهذا القرب منه تعالى على مستوى «المشاهدة»، وسيظفر بالله من يرضى بهذا التدبير الإلهي، ومن لم يرض بذلك لا يزال محروماً من الظفر بقرب الله تماماً، كما يُحرم من رؤية الشمس الشخص الذي يلح على رؤيتها بالعين العارية.

وإنه لا يُكتب التوفيق والنجاح في هذه الدنيا إلا لشخصٍ يسلم بمنهج الله، وبالتالي يصوغ حياته العملية وفقاً له ؛ لأن مبدع العالم هو الله تعالى وحده، وليس أحدا من البشر!

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

وَإِلَيْهِ مَتَابِ : إلى الله وحده مرجعي وتوبتي .

إذا كانت هذه الدنيا دار امتحانٍ، فإن ذلك يقتضي - بطبيعة الحال - أن يُحكم على الناس بالقضاء الحاسم بعد إراءتهم الآيات الحسية، والآن فلو أن الله بادر بإظهار آيةٍ حسيةٍ على الفور، بحسب طلب الناس، ظل الناس - مع ذلك - مصرين على الجحود والإنكار، فإنهم سيصبحون بعدئذٍ أهلاً للهلاك والدمار، غير أن هذه من عنايات الله الرحمن الرحيم الخاصة، أنه لا يظهر الآيات الحسية رغم إلحاح الناس في طلبها، بل ما يزال يبلغ إليهم رسالة الحق في لغة النصح والدليل، وهكذا تتاح للناس المهلة إلى أقصى حدٍ ممكنٍ، ليقوموا بإصلاح أنفسهم فيستحقون رحمات الله .

وينبغي على الداعي - والحالة هذه - ألا يقع فريسة القلق أو الانزعاج بسبب مطالبات الناس السخيفة الحمقاء، وأن يظل يدعوهم إلى الله راضياً بمنهجه الحكيم.

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ
ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا
يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ
ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟
ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾

أَفَلَمْ يَيْأَسِ: أفلم يعلم ويتبين .

قَارِعَةٌ : داهية تقرعهم بصنوف البلايا .

فَأَمْلَيْتُ : أمهلت في أمن ودعة .

السبب الأصلي في إنكار الحق لا يرجع إلى فقدان الدليل، بل إلى حرية الإنسان هذه التي تؤهله ليؤمن إن شاء أو يرفض إن شاء، ولن يعجز الإنسان أبداً عن افتعال بعض الأعذار أو المبررات لإنكار أي شيء، مادامت حرية الإنكار متاحةً له .

فلو أنك عرضت عليه دليلاً مؤلفاً من الألفاظ، لعارضه استناداً إلى مجموعةٍ أخرى من الألفاظ المضادة لذلك، وإن لفت انتباهه إلى الآيات المنبثة في أرجاء الكون، فلن يلبث أن يلجأ إلى أي تفسيرٍ مزعومٍ للرد عليك، حتى وإن سيّرت الجبال، وقطعت الأرض، وأحييت الموتى، فإنه لن يمنعه شيء عن القول بأن هذا ليس إلا سحراً .

وقد يحدث أحياناً أن بعض المنكرين يطالب الداعي بالدليل في ظاهر الأمر، إلا أنه يرمي حقيقةً إلى السخرية والاستهزاء به، حيث إنه يريد إشعار الناس بأن الشيء الذي يعرضه هذا الرجل ليس من الحق في شيء، إذْ لو كان حقاً في الواقع، لكان يصحبه دليل يضطر معه الجميع إلى الإيمان به رغم أنوفهم .

لقد أتاح الله للناس المهلة ؛ مما جعل قلوبهم خالية من الخوف والرهبة، ولكن حين

تنقضي المهلة المتاحة، ويبطش الله بالناس بغتةً، فسيدرك المرء حينئذٍ كم كان عاجزاً عديم الاختيار، وإن كان يزعم نفسه صاحب الاختيار المطلق !.

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

وَاقٍ : حافظ وعاصم .

تدلنا الدراسات على أن في الكون نظام تسجيلٍ، فكل ما ينطق به المرء، أو يفعله يتم تسجيله فى الحال تحت النظام الكوني، ومن ثم فلا يصح أن نؤمن بإله لهذا الكون إلا أن يكون إلهاً يتصف بصفتى «السمع» و«البصر»، غير أن جميع الآلهة التي افترضها المشركون حتى الآن لا يقدر أي واحدٍ منها على السمع ولا على الرؤية، إذن، فكيف يمكن أن تكون هذه الآلهة المزعومة خالقةً ومالكةً لعالمٍ بديعٍ مثل كوننا الحالي!! فالذي ليس في مقدوره أن يسمع أو يبصر بنفسه، كيف يتسنى له أن يوجد في مخلوقاته حاسة البصر أو يزودها بصلاحية الرؤية والإبصار؟! . وهكذا فإن كوننا هذا يتسم بالوحدة في كل شيء لدرجة أنه لا يسيغ أو يتقبل الشرك بأي وجهٍ من الوجوه، فلتسم أي شريك شئت، تجد الكون كله يرفض التسليم به رفضاً باتاً !

وقوله :﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ ﴾ المراد بالمكر هنا هو «قولهم»، الذي سبقت إليه الإشارة في هذه الآية، فكلما يقابل المرء الحق بالإنكار، فإن عقله لا يلبث أن يخترع أى قولٍ من الأقاويل تبريراً لإنكاره، ومع أن هذا القول لا يعدو أن يكون مجموعة من الألفاظ الفارغة، إلا أن الذين لا يأخذون أمر الحق بالكثير أو القليل من الجدية، يحسبون أنهم قد أثبتوا - بنطقهم بألفاظٍ كهذه - صواب موقفهم، حتى ولو كانت

ألفاظهم المنطوقة لا تحمل أية قيمة تُذكر خارج مخيلاتهم .

إن ألفاظاً كاذبةً كهذه لا يمكن أن تساند أحداً إلا في العالم الراهن وحده .

﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾

أُكُلُهَا دَائِمٌ : ثمرها الذي يؤكل لا ينقطع .

إن ثمن الجنة هو التقوى ؛ يعني سيطرة الإحساس القوي الشديد بعظمة الله وجلاله على المرء، بحيث لا يلبث أن يتحول إلى خوفٍ يستقر في أعماق قلبه، والذين يخافون من الله في الحياة الدنيا، هم أولئك الذين سيتم إسكانهم في دور الآخرة، تلك التي لا يُقلق بالهم فيها أي نوعٍ من الخوف ولا الحزن، وستحيط بها حدائق غناء وبساتين خضراء تزيدها روعةً وبهاءً إلى روعتها وبهائها .

أما الذين يعيشون في هذه الدنيا غير خائفين، فسيكون حالهم على العكس من ذلك تماماً، حيث إنهم سيجدون أنفسهم في الآخرة في عالم النار!

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ : إلى الله وحده مرجعي للجزاء.

عندما نزل القرآن الكريم انقسم اليهود والنصارى بشأنه إلى طائفتين : فالذين كانوا يخافون الله، وكانوا مستمسكين بتعاليم سيدنا موسى وعيسى - عليهما السلام -

الصادقة، اعتبروا القرآن صوت قلوبهم، وبالتالي لم يلبثوا أن تلقوه بالقبول عن رضا وسرورٍ واقتناعٍ، إلا أن الذين كانوا يعدون العصبية والتحزّب ديناً، لم يوفقوا لمعرفة الحق القادم من الخارج، أي من خارج الإطار التقليدي المألوف لديهم، فتصدّوْا لمعارضته وعرقلة مسيرته .

والذي ينبري لمعارضة الحق انسياقاً مع دواعي العصبية والتحزب، إنما يتبع أهواءه، متخلياً عن الله وأوامره ، ومن ثم لا يجوز للداعي أن يتناول دعوة الحق بشيءٍ من التعديل أو التبديل مراعاةً لخواطر أناسٍ كهؤلاء، بل يجب عليه أن يثبت على الحق النقي الخالص قولاً وفعلاً، فإن المطلوب منه بإزاء أمثال هؤلاء، إنما هو الاستقامة وليس التفاهم أو المصالحة .

وإنه لأمر خطير جداً أن يظل المرء أسير شهواته منقاداً لأهوائه، حتى بعد أن وصل إليه علم الحق بلغةٍ واضحةٍ ومفهومةٍ لديه، فإنه صنيع يتسبب في حرمان المرء كلياً من نصرة الله وعونه!

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ: لكل وقت حكم معين بالحكمة .

أُمُّ الكِتَابِ : اللوح المحفوظ أو العلم الإلهي .

إن الأنبياء المبعوثين من عند الله، كانوا كلهم بشراً كالبشر العاديين، وكان لهم حاجات وعلائق دنيوية مثل غيرهم تماماً من أزواج وذرية وغير ذلك .

والمراد بـ «أم الكتاب» هنا هو السجل أو الصحيفة الأصلية المحفوظة عند الله تعالى،

والتي تتضمن كل ما يريده الله من عباده من أمور الهداية المبدئية، وقد كانت كتب الأنبياء التي نزلت في مختلف العصور مأخوذة من أم الكتاب ، وقد أنزل الله كتبه هذه تارةً في لغةٍ، وطوراً في لغةٍ أخرى، وجاءت مضامينها حيناً في صيغة التمثيل، وعُرضت حيناً آخر بأسلوبٍ مباشرٍ، وقد ألقيت مسئولية الحفاظ عليها، بعد نزولها، على عواتق البشر تارةً، وقد ناط الله هذه المسئولية بنفسه تارةً أخرى !!

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ ﴾

لاَ مُعقِّبَ لِحُكْمِهِ : لا راد ولا مبطل له .

إن عاقبة عدم القبول بدين الله مما يواجهه المرء عادةً في الآخرة، إلا أن الشعب المخاطب للرسول مباشرةً، إذا هو قابل دعوة النبي بالرفض والإنكار والعناد، فلا يلبث أن يلاقي أسوأ العواقب على ذلك في هذه الدنيا .

بيد أن هذا العقاب الدنيوي لا يجري دوماً على نمطٍ أو منوالٍ واحدٍ، بل ظل يأخذ أشكالاً وصوراً شتى في مختلف عصور الأنبياء، وقد ظهر قضاء الله الحاسم هذا بالنسبة لنبي آخر الزمان - ﷺ - بناءً على مصالح خاصةٍ، بحيث أتيح لأتباع النبي الغلبة والانتصار الكامل على منكري النبي - ﷺ - ففي أواخر العهد المكي، عندما كان رؤساء مكة قد بلغوا في إنكاره ومعارضته - عليه الصلاة والسلام - كل مبلغٍ، كانت دعوة الإسلام، في الوقت نفسه، تنتشر في المدينة وبين القبائل المجاورة لمكة، مما يعني أن قوة الإسلام الدعوية كانت تزحف نحو مكة فاتحةً أطرافها، لقد ظهرت سنة الله، بالنسبة لنبي آخر الزمان - عليه الصلاة والسلام - في صورة الفتوح أو الانتصارات

الدعوية.

كانت الأمم السابقة تحاول المكر بأنبيائها، إلا أن الله هو خالق هذا المكر، فلا يضر إلا بإذنه، وفي الآخرة سيعلم هؤلاء لمن تكون العاقبة ولمن الخسران .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

في الوقت الذي يثير فيه عبدة الظواهر ألواناً شتى من الشكوك والشبهات عن صدق الداعي إلى الحق لعدم رؤيتهم لديه آياتٍ (ماديةً) تدعمه وتؤديه، في الوقت نفسه تتوفر هناك آيات معنوية تنطوي على تصديقه، فإن الصدق هو في ذاته دليل على ذاته، غير أن استشعار ذلك لا يتسنى إلا لشخصٍ يكون قد اكتسب القدرة على رؤية الحقائق مروراً بالظواهر، وأما الذين وقفت أنظارهم عند حدود الظواهر، وتعلقت بها أبصارهم، فسينكرون الحق باعتباره مجرداً من الدليل، على حين أنه سيكون فيها حولهم، وفي نفس الوقت، عدد لا يُحصى من الأدلة والبراهين شاهدةً على صدقه !

سورة إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾

بِإِذْنِ رَبِّهِمْ : بتيسيره وتوفيقه لهم أو بأمره .

العَزِيزِ : الغالب ، أو الذى لا مثل له .

الحَمِيدِ : المحمود المثني عليه .

وَوَيْلٌ : هلاك ، أو حسرة ، أو وادٍ في جهنم .

يَسْتَحِبُّونَ : يختارون ويؤثرون .

وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً : يطلبونها معوجة أو ذات أعواج .

إن الإيمان هو أن يظفر المرء برضا الله كواجب للوجود القوى والطاقات كلها، ويتصف بكل الصفات الحميدة، وإن واقعاً كهذا لا يكون بالنسبة للإنسان عقيدة رسمية فارغةً ، إنه يعني خروج المرء من ظلام الجهل إلى نور العلم، وإدراكه للآخرة مع كونه لم يفارق الدنيا بعد، إن الإيمان من حيث حقيقته اكتشاف شعوري واعٍ، وليس تكراراً عقيماً جامداً لأية مجموعةٍ من الألفاظ والعبارات، وإنما يأتي كتاب الله ليبلغ بالمرء هذه الدرجة الرفيعة من الوعي والشعور .

وربط الهداية بـ ((إذن الله))، عزو لأمر الهداية - على ما يبدو - إلى الله تعالى . غير أن هذا الكلام موجه حقيقةً إلى الإنسان نفسه، فإن المراد بـ ((الإذن)) هنا ذلك القانون الإلهي الذي قرره الله تعالى لاهتداء الإنسان وضلاله، وبموجب هذا القانون يكون الشرط الوحيد الذي من شأنه أن يضمن وصول المرء إلى الهداية، هو طلبه الجاد، ليس غير، فالذي يظفر بالهداية في هذه الدنيا، لا يظفر بها بمحض الجهود الدعوية يبذلها أحد الدعاة، وإنما هو يظفر بها بحكم القانون الإلهي، وقانون الله يقتضي ألا يصل إلى الهداية إلا الشخص الطالب للهداية الجاد في طلبها، وبدون هذا الطلب الذاتي الجاد لا ولن يظفر أحد بالهداية أبداً .

وقد جعل الله طريق الهداية واضحاً ومضيئاً إلى أقصى الحدود، فالأرض والسماء تملأهما الآيات والمعالم المشيرة إليه، وكتاب الله يوفر أدلة وبراهين لا تُجحد، والفطرة الإنسانية لا تزال تشهد لصدقه وحقانيته، مما يعني أن كل القرائن الطيبة متضافرة لتأييده ؛ إذن، فإن الذين لا يختارون طريق الهداية، والحالة هذه، فإنما يفعلون ذلك حرصاً على المصالح الدنيوية، وليس بناءً على أي سببٍ واقعيٍ، ومع أن أمثال هؤلاء يقدمون أيضاً بعض الدلائل إثباتاً لصواب موقفهم، إلا أن هذه الدلائل لا تعدو أن تكون نتيجة لالتماس العوج في أمرٍ سديدٍ مستقيمٍ، وهم لا يقدمونها إلا تبريراً لعنادهم وتماديهم في الإنكار في أعين الناس .

وفي هذه الحالة فلن يُحرم من الهداية إلا شخص جعله حبه للمنافع العاجلة، وانغماسه في الملذات الدنيوية أعمى وأصم !!

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

إن من سنة الله -تعالى- أنه يبعث الرسل من الشعب المدعو نفسه ؛ لكي يقوموا بدعوة الناس إلى الحق مراعين نفسياتهم وباللغة المفهومة لديهم، ولكن الأمر المثير

للدهشة أن الإجراء الذي تم اتخاذه لخير الإنسان، لم يلبث أن خرجت منه نتيجة عكسية؛ فعندما وجدوا أن النبي رجلاً مثلهم، يتحدث إليهم بلغتهم المألوفة لديهم، قابلوه بالرفض والإنكار باعتباره عادياً .

وليس من سنن الله الكونية أنه -تعالى- يستعمل أمورًا غير واقعية أو غريبة لاجتذاب أنظار الناس إليه، أو يبعث إلى أمةٍ ما برسولٍ يتحدث إليها بلغةٍ غريبةٍ، أو أسلوبٍ طلسمي غامضٍ، ليوقعها في الحيرة والاندهاش، ولا يعمد الله تعالى إلى خرق العادات لكون الناس مولعين بالعجائب والغرائب، إن منهج الله هو منهج اليسر والواقعية، فلقد أنشأ الله تعالى دنياه على أساسٍ من الحقائق، وهو بالتالي يسيّر خطة هداية الإنسان هي الأخرى على أساسٍ من الحقائق دون الطلاسم والألغاز .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ ﴾

بِأَيَّامِ الله : بنعمائه أو وقائعه في الأمم الخالية .

المراد بـ ((آيات الله)) الآيات المنبثة في أرجاء الكون الدالة على حقيقة الأمر الإلهي، وأما ((أيام الله)) فقد أريد بها وقائع التاريخ الخالدة، تلك التي ظهر عندها قضاء الله، فانتصر الحق على الباطل انتصاراً ظاهراً بنصرةٍ من الله خاصة، ولئن كان أحدهما دليلاً كونياً، فإن الآخر دليل تاريخي .

وفي التذكير بأيام الله آيات ودلالات لكل عبد صابر على طاعة الله وبعيد عن معاصيه، وشكور لنعم الله، وإنما خص الصبار الشكور ؛ لأنه هو الذي يعتبر بها ولا يغفل عنها .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى

ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

يَسُومُونَكُمْ : يذيقونكم ويكلفونكم .

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ : يستبقون بناتكم للخدمة .

بَلاءٌ : ابتلاء بالنعم والنقم .

تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ : أعلم إعلاماً لا شبهة معه .

إن خطاب سيدنا موسى عليه السلام المشار إليه في هذه الآيات، هو خطابه الذي ألقاه - في أغلب الظن - قبيل وفاته بأيامٍ بين يدي بني إسرائيل وهم في برية سيناء، ولقد ورد هذا الخطاب بالتفصيل في سفر التثنية من التوراة المتداولة اليوم .

وفحوى خطاب موسى عليه السلام المفصل هذا : إنكم لئن عشتم في هذه الدنيا ربانيين ؛ همكم في الحياة أن تذكروا الله كثيراً وتسبحوا بحمده أينما كنتم، فستكون أشياء الدنيا كلها معكم، وستنظر أمم الأرض قاطبةً إليكم نظرة تهيبٍ وإجلالٍ، وسيخضع الله أعداءكم جميعاً، وحتى لو أن البحر اعترض طريقكم يوماً، فسينشق البحر بإذن الله ليفسح لكم الطريق، بينما تبتلع أمواج البحر نفسه أعداءكم عن آخرهم !!

وعلى العكس من ذلك فإن لم تفعلوا هذا، فستصبحون عند الله ملعونين، أي تُطردون من رحمات الله، وسيأكل الآخرون محاصيل جهودكم، وسيفسد كل أمرٍ من أموركم، وبالتالي تعودون مغلوبين على أمركم، تتسلط عليكم الشعوب الأخرى فكرياً وعملياً .

وقانون الله هذا ليس «لليهود» بالمعنى المعروف، بل هو عام شامل لكل شعبٍ مؤتمنٍ على كتاب الله، فأيما شعبٍ كان حاملاً الكتاب الإلهي، يعامله الله تعالى هذه

المعاملة، سواء أكانوا حملة الكتاب فيما مضى أو حملة الكتاب في الحاضر !

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ: عضوا أناملهم من الرسل وكلامهم .

مُرِيبٍ : موقع في الريبة والقلق .

إنها قصة واحدة، تكرر حدوثها مع أنبياء الله قاطبةً، على اختلاف العصور والأمم التي بعثوا فيها، حيث تصدت كل أمةٍ لمعارضة رسلها، وبذلت الجهود في كل مكان، ودبرت صنوف المكائد لتكميم أفواههم وكبت أصواتهم .

ترى ماذا كان السبب وراء ذلك ؟ إن سبب ذلك كان يكمن في «شك» تلك الأمم، وكان الباعث على هذا الشك أنهم وجدوا أنفسهم بين أمرين متقابلين : فمن ناحيةٍ كان أمامهم دياناتهم الآبائية التي كانت تحمل على ظهرها أسماء الأكابر والعظماء المبجلين، ومن ناحيةٍ أخرى كان النبي الذي جاء يقدمه إليهم – على ما يبدو – رجل عادي، وقد كان دين النبي تصحبه قوة الدلائل والبراهين الساطعة، إلا أن الأمجاد التاريخية وحشود الجماهير الغفيرة كانت مع الدين الآبائي، فبينما وجد المخاطبون للنبي أنفسهم عاجزين كل العجز عن مقاومة الأدلة المصاحبة لدينه، تعذر عليهم أيضاً أن يفهموا كيف يمكن اعتبار أولئك الأكابر والعظماء خاطئين ؟!، ومن هنا فقد تسبب هذا الوضع المزدوج في إصابتهم بداء الشك والارتياب، ومع كونهم ظلوا – عملياً – مرتبطين بالدين الآبائي، إلا أنهم لم يتمكنوا من تحرير قلوبهم وعقولهم من الشك والارتياب كذلك !

﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن

تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾

فَاطِرِ : مبدع وخالق .

بِسُلْطَانٍ : حجة وبرهان على صدقكم .

تتعلق هذه الآية أصلاً بالشعوب القديمة، ولكن من مزايا القرآن الكريم أنه يعرض تعاليم الله الأبدية بصوغها في قالب التاريخ، وللسبب ذاته يستخدم القرآن كلمات وتعابير تناسب الأجيال اللاحقة من البشر تماماً، إلى جانب كونها مناسبة للرعيل الأول.

ومن أمثلة ذلك كلمة «فاطر» الواردة في هذه الآية، ومعنى الفاطر - في أصل اللغة: «هو الذي يفتق أو يشق» ، ومع أنه قد استعمل هنا بمعنى الخالق المبدع حسب المفهوم الشائع عموماً، إلا أننا لو أخذنا بالترجمة الحرفية للكلمة، فسيكون معنى الآية : أفي الله تشكون - أيها الكفار - الذي شق السموات والأرض وفتقهما (ويؤيد هذا المعنى ما ورد في الآية ٣٠ من سورة الأنبياء : ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَا ﴾ ، وهذه الآية بمعناها الحرفي المذكور آنفاً، تقيم الدليل على وجود الله لملاحدة العصر الحديث، حيث تدل الأبحاث والكشوف الفلكية الجديدة على أن مادة الأرض والسماء كانت بدايةً في صورة كتلة جامدة سليمة، تُعرف بالمادة العليا (فوق العادة)، وكانت كل أجزائها إذْ ذاك - طبقاً لمعلوماتنا عن القوانين الطبيعية الثابتة - منضمةً متداخلةً بعضها مع بعضٍ بمنتهى القوة، وقد وُجد هذا الكون الفسيح المترامي الأطراف نتيجة انفجارٍ عظيم حدث في نفس هذه المادة فوق العادة، وكلمة «فاطر» في هذه الآية تتضمن الإشارة إلى هذا الحدث الكوني الذي يقوم دليلاً قطعياً على وجود خالقٍ للكون، فإن أجزاء المادة فوق العادة التي كانت منكمشة ومشدودة بمجموعها إلى الداخل، لم تكن لتتحرك، وتتمدد نحو الفضاء الخارجي

تلقائياً أو اتفاقاً، بل يستلزم ذلك - بالضرورة - أن نسلم بأن هناك قوة عليا هى التى صنعت ذلك الأمر وهى مظهر من مظاهر وجود الله تبارك وتعالى .

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

حين رد مخاطبو الرسل على الأنبياء المعاصرين لهم قائلين : إن أنتم إلا بشر مثلنا، فلم يكن الباعث على ذلك يكمن في كونهم - حقيقةً - يرون ضرورياً أن يكون النبي من غير البشر، بل إنما كان السبب في ذلك يرجع في الحقيقة إلى ذلك الفرق الذي كان يتراءى لهم، بحسب تصورهم أنفسهم، بين النبي السابق والنبي المعاصر .

فمع أن النبي السابق كان في عصره تماماً مثلما كان غيره من الأنبياء في عصورهم، ولكن بعد مضي أحقابٍ من الزمن، لم يلبث أتباع الأنبياء السابقين أن نسجوا حولهم هالةً من القصص والأساطير الطلسمية، فقد صُبغت شخصيات الأنبياء، خلال العصور اللاحقة، بصبغةٍ أسطورية لم تكن موجودة لديهم في بداية الأمر، والآن، فقد كان بين يدي الشعوب من جانب النبي صاحب الشعوذات والخوارق الفرضية، ومن جانبٍ آخر نبي الواقعات الحقيقية، وقد أسفرت هذه المقارنة عن صيرورة النبي السابق كنموذجٍ مثاليٍ معياريٍ للنبوة والرسالة، وفي ضوء هذا المعيار عندما نظرت الشعوب إلى نبي العصر الحقيقي بدا لهم دون نبي الماضي الأسطوري شأناً، مما جعلهم يقابلونه بالإهمال واللامبالاة باعتبار شأنه شأن البشر العاديين .

فقال الرسل لمخاطبيهم: إننا لا نملك، إزاء أقاويلكم هذه، غير الصبر وحده، إنكم تطلبون الهداية على المستوى غير البشرى، في حين أن الله لم يخولْنا سوى قوة الهداية على

المستوى البشري، فهل يسعنا أن نفعل شيئاً، والحالة هذه، إلا أن نتحمل أذاكم، ونكل هذا الأمر كله إلى الله عز وجل !

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾

خَافَ مَقَامِي : موقفه بين يدي للحساب .

إن دعوة الأنبياء كانت تمثل ضربةً قاضيةً على دين شعوبهم التي بُعثوا فيها، كما أن الأفراد الذين كانوا قد خلعوا عليهم لقب (أكابر الأمة)، بدؤوا يتحولون إلى (أصاغر) وفق تحليل الأنبياء، الأمر الذي جعلهم يتذمرون على الأنبياء، ومع كونهم عاجزين عن الرد عليهم بواسطة الدليل، إلا أنهم كانوا حائزين على كل نوعٍ من الخيار في ظل النظام السائد وقتئذٍ، ومن ثم فقد سولت لهم عقليتهم الطاغية المتجبرة أن يجعلوا النبي شريداً، بإخراجه من مسكنه الذي يأوي إليه، ونفيه من الأرض التي يستقر فيها، فالشيء الذي عجزوا عن مقاومته بمنطق الدليل، إذا بهم قرروا مقاومته باستخدام وسائل القوة والعنف.

إن الأرض المتوفرة لدى المرء، إنما هي أتيحت له على وجه الامتحان وليس على وجه الاستحقاق، ولو أن المرء نظر إليها على أنها ملك الله، خوّله إياها بغرض الامتحان، لتولدت بذلك في داخله نفسية التواضع، وسيكون خائفاً من أن الله الذي وهب له ذلك، عسى أن ينتزعه من يده، غير أن الغافلين يعتبرونه حقاً ذاتياً لهم، وإحساسهم هذا هو الذي يجعلهم يظلمون ويتكبرون في الأرض .

وحين تنتهي دعوة النبي إلى نقطة كما لها، فإن ذلك يكون، بالنسبة إلى الشعب المخاطب (المدعو) مرادفاً لانتهاء مهلة الامتحان، ويجد هؤلاء بعدئذٍ الدنيا من حولهم

قد تغير فيها كل شيءٍ، حيث يفاجئون بإدبارها عنهم وقد كانت مقبلةً عليهم من قبل، وتنفلت كل تلك الأشياء من أيديهم، التي كانوا يحيكون مؤامراتٍ عدوانيةً طاغيةً باعتبارها أشياءهم الذاتية، حتى يحين الوقت الذي تنتزع فيه الأرض منهم انتزاعاً، ويتم إعطاؤها لأناسٍ، هم أكثر منهم أهليةً للتمكين فيها وأجدر بإعمارها !

﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ (١٥) مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ (١٦) يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ (١٧) ﴾ .

وَاسْتَفْتَحُوا : استنصر الرسل بالله على الظالمين .

وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ : خسر وهلك كل متعاظم متكبر .

عَنِيدٍ : معاند للحق مجانب له .

صَدِيدٍ : ما يسيل من أجساد أهل النار .

يَتَجَرَّعُهُ : يتكلف بلعه لحرارته ومرارته .

وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ : يبتلعه لشدة كراهته ونتنه .

إن أكبر جريمةٍ عند الله، يرتكبها أحد الناس، هي أنه إذا دُعي إلى الله، يقابل تلك الدعوة بجبروت وعناد، ولأمثال هؤلاء هوان في الدنيا، وعذاب في الآخرة شديد، بحيث يجدون أنفسهم كل لحظةٍ على حافة الموت والدمار . وحين يتخذ المرء موقف الظلم والطغيان إزاء أحدٍ، فإنما يفعل ذلك اعتماداً على شيءٍ ما، وقد كان هؤلاء المعارضون يزعمون أنهم على دين «الأكابر»، وبالمقابل كان النبي وأتباعه يبدون لهم «أصاغر»، إن نفسية القوم هذه هي التي حثتهم على أن يستحلوا لأنفسهم ممارسة كل نوعٍ من الظلم والعدوان على النبي وأصحابه، وأنه بسبب انتمائهم إلى «الأكابر»- في زعمهم- تجرؤوا على اتخاذ الإجراءات العنيفة من كل نوعٍ ضد «الأصاغر» !

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

يَوْمٍ عَاصِفٍ : شديد هبوب الريح .

إنك لتجد ألواناً من المظاهر الدينية تقام لدى أولئك الذين أدركوا الدين متأثرين بالتقاليد والعادات القومية، بل ربما تجدهم يقيمون الدنيا ويقعدونها باسم الدين، على أن هذا لا يعدو أن يكون تديناً شكلياً ولا علاقة له بجوهر الدين وحقيقته الأصلية، ولكن الشيء المطلوب عند الله هو التدين الحقيقي وليس صخب الطقوس الظاهرية الفارغة .

الإنسان المطلوب عند الله هو الذي ظفر بالحق على مستوى الشعور الذاتي، والذي شاهد الله وهو في عالم الغيب، والذي عرف الحق في صورته المجردة فانضوى تحت لوائه، والذي انغمست روحه في بحر الله، واضطرب قلبه بحب الله، وسكبت عيناه دموعاً غزاراً من خوف الله .

إن تدين الصنف الأول من الناس تدين سطحي فارغ، وسوف تطيره عاصفة القيامة تماماً، كما تتطاير أهباء الأرض عند هبوب الريح الشديدة، أما تدين الصنف الأخير من الناس فهو تدين حقيقي، وهو يكون كامناً مندمجاً في أعمق أعماق الوجود الإنساني، بحيث يصير جزءاً لا يتجزأ منه وإنما تهب العواصف، بالنسبة لوجودٍ كهذا، لتثبت صموده ورسوخ دعائمه، دون أن تقتلع جذوره فتطير به حيث شاءت .

إن دراسة الكون تدلنا على أن إيجاده تمّ على أساسٍ من الحقائق، وفي كونٍ كهذا، لا يمكن أن تكون أية قيمة إلا للعمل الحقيقي وحده، وليس للافتراضات والأماني

المحضة!

﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾

وَبَرَزُوا : خرجوا من القبور للحساب .

مُّغْنُونَ عَنَّا : دافعون عنا .

مَّحِيصٍ : منجى ومهرب ومزاغ .

إن الإنسان، مع كونه في الواقع «بين يدي الله» كل لحظةٍ، إلا أنه لا يجد نفسه في العالم الراهن بين يديه تعالى في ظاهر الأمر، وسيزول هذا الحجاب في الآخرة، وسيرى المرء حينئذ بعيني رأسه أنه قد كان أمام الله في الدنيا بحيث لم يكن أي أمرٍ من أموره خافياً على الله - سبحانه وتعالى .

والذين يعرضون عن الحق في هذه الدنيا، فإن أكبر اعتمادهم في ذلك يكون على كبرائهم المزعومين، سواء أكان هؤلاء الكبراء من الأحياء أم من الموتى، فكل ما يفعله الضعفاء الصغار إنما يفعلونه ثقةً بكبرائهم الأقوياء، وحين يجد هؤلاء أنفسهم في الآخرة في حالة عجزٍ فاضحٍ، يتوسلون إلى كبرائهم قائلين : لقد كنا نعتمد في الدنيا على هدايتكم وإرشادكم، إذن فلترشدونا الآن هنا أيضاً إلى طريق النجاة والخلاص!!

ورداً على مقالة الصغار هذه سيقول لهم كبراؤهم : إن هذا اليوم إنما طلع لكي يكشف القناع عن كوننا غير هداةٍ ولا مرشدين، فما نملك الآن أن نزودكم بشيءٍ من الهداية أو الإرشاد، إذْ نحن أول فاقديه، وأحوج منكم إليه، ولم تكن هدايتنا لكم سوى خداعٍ وقتيٍ محضٍ ذهب مع ذهاب الدنيا، أما الآن فلا يسعنا ولا إياكم هنا، إلا أن تذوقوا أنتم وبال ضلالكم وغوايتكم، ونذوق نحن وبال انحرافنا وإغوائنا، وسواء

شئنا أو أبينا ؛ على أية حالٍ، فليس لنا أن ننتظر لأنفسنا الآن شيئاً غير الذي نحن فيه !

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

بِسُلْطَانٍ : تسلط أو حجة .

بِمُصْرِخِكُمْ : بمغيثكم من العذاب.

بِمُصْرِخِيَّ : بمغيثي من العذاب .

إن دنيا الله هي دنيا الواقعيات دون الأوهام والتخيلات، والنهوض على وعود الشيطان هنا يعني أن يتوخى المرء بناء حياته على الأسس غير الواقعية، ومن صور الاعتماد على وعود الشيطان، أن يعرض المرء عن داعية الحق، وألا يعمل لأجل الآخرة، ويأمل في أنه سيفوز حتماً بالنجاة والسعادة الأبدية بناءً على افتراضات مزعومةٍ، وألا يمارس حياته وفق أحكام الله، ويعتقد اعتقاداً جازماً بأن اسمه سيسجل تلقائياً في قائمة العباد المحبوبين عند الله ... إلخ .

وسوف يعلم المرء في الآخرة أن وعد الله وحده هو الوعد الحق، وأن سائر الوعود سواه كانت محض اعتمادات كاذبةٍ لن تتحقق على صعيد الواقع أبداً .

إن الرجاء من أحدٍ غير الله في دنيا الله هو الشرك .. ولذا فالذين يعرضون عن الحقائق الإلهية، ويريدون تشييد صروح حياتهم على أساسٍ من التوقعات غير الإلهية، كأنما هم يشركون مع الله أشياء أخرى، وهذه الأشياء الأخرى دون الله لن تنصرهم ولن تغني عنهم يوم الدين شيئاً !

﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

إن تحية الإسلام المتمثلة في قولك لمن تلقاه : السلام عليكم ليست محض عادةٍ اجتماعيةٍ ، بل هي رمز أو علامة ظاهرية للعلاقة القلبية ، والسلام عليكم في هذه الدنيا هو، من حيث حقيقته، السلام عليكم في الآخرة بمزيدٍ من الإضافة .

فالذين عاشوا في هذه الدنيا بحيث كانت قلوبهم ملأى بمشاعر النصح للآخرين، والذين كانوا يعرفون كيف يتحابون بعضهم مع بعض، بغض النظر عن الشكاوى وحزازات النفوس، والذين كانوا ينطقون للغير بكلماتٍ تتضمن ما يستحقه من الاحترام والتقدير، وكانوا يحبون للآخرين ما يحبّونه لأنفسهم، وكانت صدورهم تفيض رحمةً وسلاماً للآخرين، وكانت تقر عيونهم برؤية الخير والفضل لدى غيرهم، هؤلاء هم الذين سيُعتبرون أهلاً للسكنى في الجنة .. فقد كان حالهم في الدنيا أنهم إذا قابلوا إخوانهم، نضح ما يكنّونه من الحب والنصح لهم بشكل: السلام عليكم، وستجري التحية نفسها على ألسنتهم في الآخرة كذلك، وبصورةٍ أخلص وأكثر لطافةً بالنسبة إلى جيرانهم في الجنة!

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

كَلِمَةً طَيِّبَةً : كلمة التوحيد والإسلام .

تُؤْتِي أُكُلَهَا : تعطي ثمرها الذي يؤكل.

كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ : كلمة الكفر والضلال .

اجْتُثَّتْ : اقتلعت جثتها من أصلها .

لقد أقام الله في العالم الراهن أمثلةً ظاهريةً ملموسةً لحقائق شتى، والشجرة الطيبة، هي مثال شخصية المؤمن.

إن من خصائص الشجر العجيبة أنه يتخذ من الكون بأكمله مائدة غذائيةً لنفسه، وهكذا هو يبدأ رحلة حياته من بذرة صغيرةٍ تأخذ في النمو والتطور والامتداد حتى تتحول، في نهاية المطاف، إلى شجرةٍ ضخمةٍ جذورها في أغوار الأرض وفروعها في السماء، والشجر ينمو بما يستمده من الأرض من الماء والمعادن والأملاح، كما أنه يتلقى - مع ذلك - غذاءه من الهواء والشمس، فهو يتغذى مما تحته ومما فوقه معاً !

وهكذا هو شأن المؤمن تماماً .. ولئن كان الشجر العادي شجراً مادياً، فإن المؤمن شجر شعوري، إن المؤمن يستلهم الدرس والعبرة - من ناحيةٍ - بما يراه من آثار قدرة الله في مخلوقاته ونظامها البديع، ومن ناحيةٍ أخرى لا تزال تصل إليه إفاضات الله من «فوقه» على الدوام، فهو يستمد غذاءً لتنمية إيمانه من المخلوقات، كما يكون على اتصالٍ مستمرٍ بالخالق ولا يزال يقترب منه كل لحظةٍ .

والشجر (الطيب) يعطي ثماره في كل موسمٍ، وكذلك المؤمن، يبدي في كل مناسبة ما ينبغي له أن يبديه من رد فعل صحيحٍ .. ففي كل حالٍ من أحوال: اليسر أو العسر، الفرح أو الحزن، السخط أو الرضا، الضعف أو القوة، لا يُظهر بلسانه أو سلوكه إلا رد الفعل نفسه الذي يليق به كعبدٍ صادقٍ مخلصٍ لله سبحانه وتعالى .

والمثال الثاني يتعلق بالشجرة الخبيثة (أي النباتات الطفيْليّة)، وإنه ليبدو للناظر إليها كما لو أنها تتلقى من الكون غذاءً من النوع المضاد تماماً، مما جعلها تنبت أشواكاً، وتحمل غصونها ثماراً مرةً فاسدة الطعوم، وإن دنا منها أحد، فهي تستقبله برائحتها الثقيلة الكريهة، فلا أحد يحب شجرةً كهذه، وحيثما تنبت، لا تلبث أن تقتلع من جذورها ويقذف بها في النار !

وكذلك شأن الكافر .. فهو ينبت في الأرض كوجودٍ طفيلي غير مطلوبٍ، ويصير الكون كله، بالنسبة إليه - مع ما يزخر به من آياتٍ رائعةٍ - كما لو أنه ليس ثمة دليلٍ يقتنع به، ولا عبرة يستفيد منها .. ومع أن فيوض الله لا تزال تمطر من السماء كل حينٍ، إلا أنه لا ينال منها شيئاً، ولا يكون لها أي تأثيرٍ أو انعكاسٍ على سلوكه ومعاملاته!

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾

فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا : في القبر عند السؤال .

قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ ، أي : بكلمة التوحيد ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ المراد بالثبات في الحياة الدنيا هو بقاؤك على مسلك الخير والعمل الصالح في كل طورٍ من أطوار حياتك، وعند كل منعطفٍ من منعطفاتها .. أما الثبات في الآخرة فإن المراد بذلك هو نجاة المؤمن عند المسألة في قبره .. الإنسان في حالة امتحانٍ دائمٍ .. فلا تزال تطرأ عليه كل حينٍ أحوال شتى يكره بعضها ويحب بعضها الآخر.. وإنما يوفق للتمسك بالمنهج الإلهي القويم، في هذه المناسبات والأحوال المختلفة، أولئك وحدهم الذين قد غرسوا في قلوبهم شجرة الإيمان ، فهؤلاء يقابلون كل وضعٍ من الأوضاع يعرض لهم في الحياة برد الفعل الصحيح، ذلك الذي ينبغي لهم بحسب مرضاة الله .. وعلى العكس من ذلك فإن الشخص الذي نبتت شخصيته كما تنبت الطفيليات، فإنك لتجده، عند كل تجربةٍ، ينضح بالمرارة، وهو يقابلك، في كل مناسبةٍ، بما يقيم الدليل على أن خارجه شوْك حاد، وداخله نتن خبيث الرائحة لا غير .

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ

مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾

دَارَ الْبَوَارِ : دار الهلاك (جهنم) .

يَصْلَوْنَهَا : يدخلونها ، أو يقاسون حرها.

أَندَاداً : أمثالاً من الأوثان يعبدونها .

إن هذه الآيات يرجع خطابها أساساً -لخصوص موردها- إلى رؤساء قريش، إلا أنها تنطبق - بعموم لفظها - على جميع أولئك القادة والزعماء - الضالين المضلين - الذين يتولون زمام القيادة لحركة إنكار الحق ومحاربته .

وإن كبراء شعبٍ ما، إنما يكونون أناساً أتيحت لهم نعم ومواقع خاصة، وإن الاستخدام الصحيح لهذه المواقع والنعم المتاحة هو أن يقفوا إلى جانب دعوة الحق - إذا قامت بين ظهرانيهم - ويقوموا بمناصرتها وتدعيمها بكل ما أوتوا من أسباب القوة والجاه .. فإن الحق الأكبر في أشياء مُنحت من عند الله يكون لله وليس لأحدٍ سواه .

غير أن الأمر، في الأعم والأغلب، يكون على النقيض من ذلك، فإن أمثال هؤلاء لا يكتفون برفض قبول الحق من جانبهم فقط، بل ربما يقودون الحركة المعارضة له .

إن الإنسان بفطرته محتاج إلى إلهٍ ؛ يستطيع أن يرفعه إلى أرفع مقامٍ في حياته، ومن ثم فكلما صرف شخص ما اهتمام الناس عن الله الواحد، اتجه الناس، نتيجةً لذلك، إلى أحدٍ غير الله، فإن التخلي عن الله، إنما يتم دوْماً على حساب اتخاذ إلهٍ من دون الله، وبالإضافة إلى ذلك فإن الذين يحاولون صرف الناس عن الله الواحد، ينسبون إلى آلهتهم المزعومة، صفاتٍ عليا لا يتصف بها إلا الله وحده، ذلك لأن الناس لن يتجهوا إلى أحدٍ غير الله ما لم تثبت تلك الصفات العليا - الإلهية - في نِدّه .. وهذا هو السبب في أن المرء حين يتخلى عن عبادة الله الواحد، يتورط - تلقائياً - في عبادة الأوهام.

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾

وَلاَ خِلالٌ: لا مخالة ولا موادة .

حين يتعرض المرء لمصيبةٍ ما، فإنه يبذل كل جهدٍ ممكنٍ للتخلص منها، فإن كان له أصحاب أو أصدقاء، استعان بقوتهم، وإن كان هو ذا مال وغنىً، أنفق ثروته في سبيل ذلك .. إن رغبته الشديدة في إنقاذ نفسه تلجئه إلى الاندفاع وراء هذين الشيئين .

وإن الصلاة والإنفاق (الزكاة) لهما في الحقيقة مظهران دنيويان لإحساس المرء هذا بشأن قضية الآخرة .. فالصلاة بمثابة اللجوء إلى كنف الله مع استحضار أهوال الآخرة، حتى ينقذ نفسه بعوْن الله - سبحانه وتعالى .. وهكذا فإن الإنفاق في هذه الدنيا سراً وعلانيةً يعني أن تعطي كسبك في مصرف الآخرة، ليكون وسيلة الخلاص لك من مصائب الآخرة .

وإنه لن يجد في الآخرة ملجأً إلا الذي لجأ إلى الله واعتصم به في الدنيا .. ولن يفوز بالنجاة في الآخرة إلا الذي أنفق ماله في الدنيا عن يمينه وعن شماله لأجل الخلاص الأخروي .. والذين لم يوفقوا في هذه الدنيا إلى هذا، فسيندفعون في الآخرة بحثاً عن ملجأٍ، ولكنهم لن يعثروا هناك على ملجأٍ يأوون إليه .. وسيودّون في الآخرة أن يبذلوا وينفقوا، ولكن لا يتوفر لديهم هناك شيء يقدمونه فداءً لأنفسهم ليتخلصوا من مصائب ذلك اليوم العصيب!

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ .

دَائِبَيْنِ : دائمين في منافعهما لكم .

لاَ تُحْصُوهَا : لا تطيقوا عدها لعدم تناهيها .

إن العالم الراهن ليشهد بوجود الله إلى حدٍ يبعث على الحيرة والذهول .. فمن حركة النجوم السيارات في الفضاء الرحيب، إلى إيجاد الحياة وتوفير الرزق فوق الأرض بالماء، إلى تمكين الإنسان من البر والبحر والجو بحيث يجعل من كل ذلك طرقاً يسوق فيها مراكبه السريعة، إلى صيرورة الأرض ملائمةً لسكنى الإنسان بسبب ما يغطي وجهها من البحار والجبال، إلى التنظيم الدقيق لاختلاف المواسم وتعاقب الليل والنهار عن طريق دوران الشمس والقمر بدأبٍ وانضباطٍ، كل ذلك أجل وأعظم وأفخم من أن تعبر عنه الألفاظ .. إن هناك توافقاً وانسجاماً كاملاً بين الإنسان والكون لدرجة أن كل حاجةٍ من حاجات الإنسان الضرورية توجد هنا بمقدارٍ وافرٍ سلفاً !

وإن هذه الأشياء كلها مثيرة للدهشة والحيرة لدرجة من شأنها أن تهز كيان المرء كله هزاً، وتغمره بمشاعر العبودية لمبدعها العظيم .. ولكن مع ذلك، لماذا لم يحدث أن تعتري المرء كيفية الذهول والاستغراب وهو يشاهد هذا الكون العجيب ؛ وأن يقشعر جلده، ويرتجف فؤاده بتصور خالق الكون؟! السبب في ذلك يكمن في أن المرء لا يزال يشاهد الكون منذ ولادته حتى ليعود الكون- لكثرة ما رآه طيلة عمره - يبدو له شيئاً عادياً مألوفاً؛ ليس فيه ما يُستغرب أو يتعجب منه .

وفوق ذلك فحين يحصل المرء في هذه الدنيا على شيءٍ ما، فإنما هو يحصل عليه - في ظاهر الأمر - من خلال الأسباب، مما يجعله ينظر إلى الشيء المتاح له على أنه حصيلة جهوده ومؤهلاته الذاتية ؛ وهذا هو السبب في أن نفس المرء لا تستيقظ فيها مشاعر الشكر والامتنان نحو الله المنعم الوهاب .

وإن غفلة الإنسان هذه هي التي عُبر هنا عنها بالظلم والكفر - أي جحود النعمة وكفرانها - حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ !

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾.

وَاجْنُبْنِي : أبعدني ونحني .

لقد كانت شعوب العالم وأقطارها كلها، إلى زمن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - بلغت من الضلال والانحراف منتهاه .. حيث كان الشرك سائداً متغلغلاً في كل مكانٍ، وكانت الشمس والقمر ومظاهر الطبيعة الأخرى قد تحولت إلى موضوع للعبادة والتقديس لدى البشر ؛ فقد غلب الشرك في الزمن القديم على كل شعبة من شعب الحياة، لدرجة أن قام تسلسل فكري للشرك في الأجيال البشرية المتعاقبة، وصار يبدو - ظاهراً - أن إخراج الناس من بيئة الشرك إلى دائرة التوحيد مستحيل!

وهنالك خرج سيدنا إبراهيم من وطنه العراق بأمرٍ من الله خاصٍ، متوجهاً إلى صحراء العرب التي كانت منطقةً غير مأهولةٍ وبعيدةً عن آثار الحضارة والمدنية حينذاك .. فأسكن - عليه الصلاة والسلام - زوجته هاجر وولده إسماعيل في هذه البيئة المنقطعة المعزولة، حتى ينشأ هنا جيل جديد بعيداً عن تسلسل الشرك الفكري، ويبقى على فطرته السليمة، لنشأته وتربيته في بيئةٍ حرةٍ .. وكلام سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يوضح هذه الحقيقة ذاتها في أسلوب الدعاء .

هذا الأمر الذى أراد الله تحقيقه من خلال إسكان بني إسماعيل في صحراء مجدبةٍ غير مسكونةٍ.. أما الآن، فإن الذين جعلوا من التوحيد - من سكانها - صوت قلوبهم، فقد كانوا بمثابة النتاج الصحيح لبستان إبراهيم، وعلى العكس من ذلك فإن الذين عادوا ثانيةً إلى طريق الشرك والوثنية، فسيعتبرون النتاج المنقوص الفاسد لهذا البستان الإبراهيمي!!

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ (٣٧) ﴾

تَهْوِي إليهم : تسرع إليهم شوقا ووداداً .

إن عالم الحجاز القديم - حيث تم إسكان بني إسماعيل - المليء بالجبال والصحارى، قد كان بمثابة مدرسةٍ تربويةٍ طبيعيةٍ لمعرفة الله رب العالمين .. ومن جانبٍ آخر فإن الآية الوحيدة الجديرة بالاعتبار- من حيث الأبنية البشرية - كانت هي الكعبة، ففيما كانت بيئة الفطرة - من ناحيةٍ - تعمل على تذكير الإنسان بالله، ولفت انتباهه إلى آثار قدرته الباهرة، كان الشيء الآخر المثير لاهتمامه المتواجد على مقربةٍ منه، متمثلاً في ذلك المسجد الحجري الذي بناه سيدنا إبراهيم وإسماعيل، والذي لا يكاد يدخل فيه الإنسان المؤمن حتى يصير مشغولاً بذكر الله - عز وجل، لما يشيع فيما حوله من العبق الروحاني .

وقد تم توفير المياه لبني إسماعيل في هذه البيئة الجدباء من خلال تفجير بئر «زمزم» على نحوٍ معجزٍ.. وهيئت الأسباب ليتاح لهم رزق من أنواع الثمار والزروع لا تنبتها أراضيهم .. وقد كان ذلك بمثابة تدبيرٍ إلهي لتربيتهم على شكر الله .. فإن نفس المرء تستيقظ فيها عاطفة الشكر بصفةٍ غير عاديةٍ على النعيم غير العادي .. وتلك هي الحكمة الكامنة في دعاء سيدنا إبراهيم هذا الذي جاء فيه : وارزقهم - في هذه الصحراء القاحلة - من الثمرات (لعلهم يشكرون) !

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ (٣٨) ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٩) رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ (٤٠)

رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ .

إن دعاء سيدنا إبراهيم هذا ليعكس كل تلك المشاعر والعواطف التي تجيش بها نفس عبدٍ صادقٍ مخلص وهو يدعو ربه .. حيث يضطره إحساسه العميق بالعبودية إلى أن يقر بعجزه وضعفه بين يدي الله العظيم، وأن يسأله على أساس من الاحتياج دون الاستحقاق أو الجدارة .. ليعترف بالنعم المتاحة له، وليقدم طلبه إلى جناب ربه مراعياً لمقتضيات الأدب كافةً، فليقر - منذ الوهلة الأولى - إقراراً صريحاً بأن الله هو المعطي، والإنسان هو المتلقي.

وليسأل ربه التوفيق ليعيش في الدنيا عابداً لله وحده، وليطلب هذا الشيء لنفسه وأسرته ولسائر المؤمنين كذلك .. وليكن همه الأكبر عند الدعاء مسألة الآخرة، دون الدنيا الفانية، حيث سيعيش إلى الأبد.. وأيما دعاءٍ يتضمن هذه الآداب السامية، هو دعاء نبوي.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

تَشْخَصُ فِيهِ : ترفع دون أن تطرف من الهول الأَبْصَار .

مُهْطِعِينَ : مسرعين إلى الداعي بذلة .

مُقْنِعِي رؤوسِهِمْ : رافعيها مديمي النظر للأمام .

وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ : قلوبهم خالية لا تعي لفرط الحيرة .

حين يظهر الحق أمام المرء، فلا يلبث أن يتصدى لمعارضته ؛ وإنه ليبدي في سبيل مقاومته جرأةً وبسالةً تخيل إليك كما لو أنه ليس في الدنيا أحد أشجع ولا أبسل منه!

على أن هذا الحق، الذي يظهر في العالم الراهن على مستوى الداعي، سيظهر في الآخرة على مستوى الله، ويومئذٍ سوف تتبخر وتتلاشى شجاعة أمثال هؤلاء الشجعان كلها، فإنهم عندما يرون مشاهد القيامة المروعة، تبقى أبصارهم شاخصةً مبهوتةً، لا تكاد تطرف أو تغمض لحظةً لهول ما ترى ؛ وإنما هم سيندفعون سراعاً رافعين رؤوسهم نحو أرض المحشر ، وقلوبهم منخلعة فارغة يطير بها الفزع والخوف الشديد!

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

إن المرء لا يكاد يحس – لفرط غفلته – دنو مصيره منه حتى قبل مواجهته إياه بيوم واحدٍ . ولو أنه كان متمتعاً بقوةٍ أو بأي مركزٍ مرموقٍ ، فهو يبطر ويتغطرس، كما لو أنّ مركزه لن يُنتزع منه أبداً .. وهو يرفض دعوة الله ناسياً أن الأشياء التي يدفعه اعتماده عليها إلى رفض الدعوة، ليست كلها إلا عطايا الله، وقد تُعرض عليه أدلة وبراهين ساطعة، إلا أنه لا يلقي لها بالاً .. وتكون مصائر الطغاة الظالمين الذين سبقوه حاضرةً ماثلةً أمامه، ولكنه يزعم أن كل ما حدث إنما كان خاصاً بالآخرين، وأنه لن يحدث شيء من ذلك بالنسبة إلى نفسه البتة!

إن المتمتعين بالمواقع والإمكانات المواتية في حياة العالم الراهن، ربما يشعرون بالفخر بإعراضهم عن الحق.. ولكنهم عندما يرون مصير طغيانهم وعنادهم بعد الموت، فسوف يعتريهم الخجل والندامة على ماضيهم، لدرجة أنهم يودون لو أتيحت لهم المهلة، كي يرجعوا إلى الدنيا ثانيةً، فيفندوا أنفسهم بأنفسهم، ويبادروا بالتالي إلى الاعتراف بالشيء الذي كانوا قد أنكروه من قبل فخورين .

إن معارضة الحق معارضة الله .. وإنه لا يبوء المعارضون للحق الذي يصحبه الله تعالى ويرعاه إلا بالفشل الذريع ؛ مهما اتخذوا ضده من التدابير والحيل ما يكفي حتى لزحزحة الجبال عن أماكنها!

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾

وَبَرَزُوا لله : خرجوا من القبور للحساب .

مُّقَرَّنِينَ : مقرنا بعضهم مع بعض .

الأَصْفَادِ : القيود أو الأغلال .

سَرَابِيلُهُم : قمصانهم أو ثيابهم .

وَتَغْشَى وَجُوهَهُمُ : تغطيها وتجللها النَّارُ .

بَلاغٌ لِّلنَّاسِ : كفاية في العظة والتذكير .

النبي يؤدي الشهادة لدين الله في صورتها الكاملة، لذا فإن نصرة الله هي الأخرى تحصل للنبي في أتم صورها، .. وإنه بقدر ما يقترب الأتباع اللاحقون فيها بعد من سنة النبي، بقدر ما يستحقون نصرة الله.

إن الإنسان يخيل إليه اليوم كما لو أنه مالك للبر والبحر، وقادر على ضبط الفضاء المترامي الأطراف والتصرف المطلق فيه .. وأنه مختار ليستعمل أو لا يستعمل الوسائل المتاحة له كما يشاء .. بيد أن هذا كله ليس إلا لأن الله قد سخر الأرض والسماء للإنسان

إلى انقضاء فترة الامتحان المحددة، فعندما تنتهي فترة الامتحان هذه تنقلب الأوضاع رأساً على عقب، وبعدئذٍ ستتبدل الأرض أرضاً أخرى، والسماء سماءً أخرى .. وسيجد المرء نفسه فجأةً في عالمٍ غير الذي عهده وعاش في رحابه .

فحيث كان المرء يعتبر نفسه حاكماً، ستتحول هناك الحاكمية كلها إلى الله - تعالى - وحده، وحيث كان كل شيءٍ خاضعاً لأمره، سيتخلى هناك كل شيءٍ عن تبعيته والانقياد لأمره .. والذين كانوا كبراء في العالم الراهن، سيعودون يومئذٍ مجرمين عاجزين والثياب التي تزين أبدان لابسيها اليوم، ستتغير يومئذٍ بحيث تبدو الأبدان وكأنها مطلية بالقطران .. وستصبح الوجوه الناعمة المبتهجة يومئذٍ كالحةً مسودة لاحتراقها بالنار .. وإنما سيحدث هذا كله مع أولئك الذين لم يرضوا أن يعيشوا في الدنيا عباداً لله متواضعين .. الذين أعرضوا عن الإعلان المذاع من عند الله - سبحانه وتعالى .

إن كون الحقيقة حقيقةً ليس بكافٍ لكيما يتلقاها المرء بالاعتراف والقبول؛ فإن الإيمان بالحقيقة يستلزم - بالضرورة - أن يريد الإيمان بها من صميم قلبه .. إن الشخص الجاد بشأن الحقيقة، والذي يسمعها خالي الذهن، أي بدون أفكارٍ مسبقةٍ، سيتمكن من فهم الحقيقة، وسيوفق إلى أن يرحب بالحقيقة الترحيب الصحيح اللائق بها !

سورة الحجر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝ ﴾

رُّبَمَا «رب» للتقليل و «ما» زائدة .

ذَرْهُمْ : دعهم واتركهم .

وَلَهَا كِتَابٌ : أجل مقدر مكتوب في اللوح .

إن الحرية المتاحة للإنسان في هذه الدنيا، إنما تدوم إلى مدة الامتحان المحددة ؟ وإن هذا الوضع متناه في الخطورة .. لو أن المرء تخيل أن المدة التي يعيشها ستنتهي غداً أو قد انتهت اليوم.. هذه الفكرة من شأنها أن تهز كيانه هزاً .. ولكن المرء إنما يعيش في «يومه الحاضر» وحده، ولا يكترث «بعده» أيما اكتراثٍ.. فقد يُكشف القناع عن الحقيقة أمامه، ولكنه يبقى أسير الآمال والأماني الحالمة .. وهو يفترض من عند نفسه، بعض الدعائم الخيالية المزعومة، ويظن أن استناده عليها سوف تغني عنه يوم الجزاء !!

على أنه يُفاجأ بتبدد أحلام الغفلة والأماني اللذيذة هذه عندما تنقضي المدة، فيأتي إليه ملائكة الله، ليذهبوا به من عالم الامتحان إلى عالم المصير المحتوم .. وحينئذٍ تعود به ذاكرته إلى تلك المناسبات، عندما كان يحاول رفض دليلٍ صادقٍ بواسطة ألفاظٍ كاذبةٍ، وعندما كان يندفع وراء شهواته بدلاً من الاستجابة لنداء ضميره، وعندما كان يعرض عن داعية الله، رغم وجود الانعكاسات الإلهية في شخصه، أعرض عنه للحفاظ على

سمعته الذاتية، وهو إذْ يرى هناك أن أي تدبيرٍ من التدابير التي تبناها لم يغن عنه شيئاً، فسوف لا يلبث أن يصرخ قائلاً - والندم والحسرة يمزقان فؤاده: آه ! ليتني لم أكن قد فعلت ما فعلت .. يا ليتني كنت قد اخترت طريق «الإسلام» بدلاً من اختيار طريق «الكفر» !

﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾

لَوْ مَا تَأْتِينَا : هلا تأتينا .

إلاَّ بالحق : إلا بالوجه الذي تقتضيه الحكمة .

مُّنظَرِينَ : مؤخرين في العذاب .

ظن مخاطبو النبي أنه مصاب بالجنون ! تُرى ماذا كان السبب وراء هذا الظن الفارغ؟ إن سبب ذلك يكمن في دعوة النبي التي كان مفادها : «إنني رسول الله إليكم؛ فمن آمن بكلامي نجح وأفلح ؛ ومن لم يؤمن فمصيره إلى الفشل والخسران الأبدي! » ولكن الذي كان يراه هؤلاء المخاطبون كان على العكس من ذلك .. فمن ناحية كان هؤلاء يحتلون مراكز السيادة والرئاسة في ظل النظام السائد - حينذاك، ومن ناحيةٍ أخرى كان النبي قد صار غريباً على هذا النظام السائد لا مكان له في ظله لكونه نهض داعياً إلى دينٍ غير رائجٍ .. ونظراً لهذا الفارق تجرأ المخاطبون على القول: إنك لتبدو لنا مجنوناً، حيث إن الله قد أتاح لنا - دونك - كل أنواع الخيرات والفضائل الدنيوية، وها أنت ذا تزعم أن النجاح والفلاح ليس إلا لك ولمن اتبعك !!

إلا أن هذا كان ناشئاً عن اختلاف وجهة نظرهم .. فقد كانوا ينظرون إلى الأشياء المتاحة لهم على أنها «إنعام»، في حين أن هذه الأشياء كلها لم تكن سوى أدوات «الابتلاء والامتحان»، تتاح لأحد الناس في العالم الراهن بصفةٍ وقتيةٍ .

وكانوا يقولون أيضاً : لِمَ لا نرى نحن هؤلاء الملائكة الذين تدعي أنهم يأتونك برسالة الله ؟! وهذا الاعتراض بدوره إنما نشأ عن اختلاف الزاوية أو وجهة النظر، فالملك الذي يأتي النبي يكون ملك الوحي يبلغ إليه كلام الله، وإن هناك ملائكة آخرين عداه، وإنما يبعث الله بهم لتجلية الحقيقة أمام أعين الناس، إلا أنهم لا يأتون إلا بعد اكتمال الدعوة، وعندما يأتون فيكون ذلك وقت القضاء الحاسم دون الدعوة إلى الإيمان.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

الذِّكْرَ : القرآن .

إن القرآن قد أنزله الله، وإنه - تعالى - هو المتكفل بحفظه من الضياع والتحريف . لقد كان الخطاب المباشر لهذه الآية الكريمة- إبان نزولها- موجهاً إلى قريش، ولكنها في أوسع معانيها كانت تحدياً عاماً وُجه إلى البشرية جمعاء .. وهكذا فقد وُضع أمام البشر، منذ القرن السابع الميلادي، وحتى قيام الساعة، معيار قطعي لكي يتحققوا في ضوئه مما إذا كان القرآن - حقاً - كتاب الله أم لا ؟!، وقد كانت كل الأحوال والإمكانات الظاهرية، عن إعلان هذا التحدي أول مرةٍ، غير مواتية له إطلاقاً .. فلأجل الحفاظ الدائم على كتاب متنازع عليه، لابد من وجود جماعةٍ قويةٍ وراءه تحميه، بينما كان حاملو القرآن- إبان نزوله- في غاية الضعف والقلة بإزاء أعدائهم، كما أن الدنيا لم تكن قد شهدت عصر القرطاس والمطبعة بعدُ، مما جعل الحفاظ على أي كتاب في العصر الحاضر أمراً بالغ السهولة .. وقد كان الاحتفاظ بشيءٍ مثل الكتاب، يتطلب بالضرورة الاحتفاظ بلغته هي الأخرى كذلك، في حين أن التاريخ يدلنا على أن أية لغةٍ لا يكتب لها البقاء الدائم أو الخلود أبداً .. وقد جاء القرآن الكريم في العصر التقليدي - أي قبل العصر العلمي الحديث بقرونٍ طويلةٍ - وفي حالة كهذه فقد كان لابد لبقائه حياً

ومحفوظاً أن تصدق مضامينه ومحتوياته في كل اختبارٍ على امتداد الزمن بصورةٍ أبديةٍ ..

وقد ظل القرآن الكريم محفوظاً إلى يوم الناس هذا، على أكمل وجه في مواجهة هذه التحديات كلها ؛ مما يقيم دليلاً قاطعاً على أنه كتاب الله ؛ إذْ ليس ثمة كتاب آخر، وُضع قبل ألف وخمسمائة سنةٍ، فظل حياً محفوظاً كما لا يزال القرآن حياً ومحفوظاً في العالم اليوم!

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝ ﴾ .

شِيَعِ الأَوَّلِينَ : فرق الأمم السابقة .

نَسْلُكُهُ : سلك التكذيب فى قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى .

خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ : مضت عادة الله بإهلاك المكذبين .

يَعْرُجُونَ : يصعدون فيرون الملائكة والعجائب .

سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا : سدت ومنعت من الإبصار .

قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ : أصابنا محمد بسحره .

لقد استهزئ برسل الله قاطبةً على اختلاف الأعصار والأمصار .. وكان السبب في ذلك أن الأنبياء لم يكونوا - طبق ذلك المعيار الفرضي الذي اصطنعه الناس من عند أنفسهم للتسليم بأحدٍ كرسولٍ لله .. بل كان النبي دائماً - وبطبيعة الحال - دون هذا المعيار المصطَنع ؛ مما دفع الناس إلى اتخاذ أنبياء الله موضوعاً للسخرية والاستهزاء .

إن أية حقيقة جديدةٍ لابد لإدراكها من أن يكون المرء مستعداً للتفكير فيها بذهنٍ مفتوحٍ، وبناء أحكامه على أساسٍ من الواقعات وحدها، والمنكرون للصدق إنما يتناولونه بالإنكار لأن الصدق يبدو لهم غريباً على معيارهم المألوف، وهذا المعيار المألوف يتغلغل - على مضي أحقابٍ من الزمن طويلةٍ - في قلوبهم لدرجة أنه يعود مستحيلاً عليهم أن يفكروا في أي موضوعٍ متحررين من أسره، وبالتالي فلا يكادون يستطيعون- حتى اللحظة الأخيرة- أن يعرفوا الصدق الموجود خارج إطارهم المألوف!

وقد كانت نتيجة عقلية الشعوب هذه أن الناس لم يؤمنوا حتى بالرغم من رؤية المعجزات الباهرة.. فالشخص الذي استقر في أذهانهم أنه عادي، ظلوا يعتبرونه عادياً كذلك على أية حالٍ .. وإن هو جاء فيما بعد ببعض خوارق العادات، ظنوه فناً من فنون السحر أو الشعوذة، وليس في الحقيقة دليلاً على كونه مرسلاً من عند الله - سبحانه وتعالى.

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾

بُرُوجاً : منازل للكواكب السيارة .

رَّجِيم : مطرود أو مرجوم بالنجوم .

اسْتَرَقَ السَّمْعَ : خطف المسموع من الملأ الأعلى .

فَأَتْبَعَهُ : أدركه ولحقه .

شِهَابٌ : شعلة نار منقضة من السماء .

مُّبِينٌ : ظاهر للمبصرين .

إن هناك نجوماً لا حصر لها تنتشر في رحاب الكون كله ؛ إلا أن هذه النجوم توجد بشكل مجموعاتٍ، وكل مجموعةٍ نجميةٍ تسمى المجرة، ويُحتمل أن يكون المراد بالبروج هنا هو هذه المجرات .

وليس المراد في قوله : ﴿ وَزَيَّنَّهَا لِلنَّظِرِينَ ﴾ هو ببساطةٍ، : منظر السماء المذهل الذي يُلاحظ في الليل .. فلو أنك اتجهت ببصرك نحو السماء، في ليلةٍ صاحيةٍ، لرأيت منظر النجوم المتلألئة في الفضاء الرحب رائعاً إلى حدٍ محيرٍ يغمرك أثناءه إحساس بعظمة الله وجلاله .

وإنه مع إسكان الإنسان في الأرض قد أُسكن فيها الشياطين كذلك .. وقد أتيحت للشياطين هنا الحرية الكاملة ليذهبوا حيثما شاؤوا، وليُضلوا الناس كما يشاؤون، غير أن عالم الله الواقع ما وراء هذه الأرض، قد أقيمت في أنحائه حواجز لا يقدر الشياطين على اختراقها أو اجتيازها، فهم لا يستطيعون التسلل أو الدخول فيه إلى أبعد من حدٍ معينٍ !

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝ ﴾ .

وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا : بسطناها للانتفاع بها .

رَوَاسِيَ : جبالا ثوابت كيلا تميد .

مَّوْزُونٍ : مقدر بميزان الحكمة .

مَعَايِشَ : أرزاقا يعاش بها .

تدل الدراسات الجغرافية على أن الأرض كانت - في مبدأ أمرها - كتلة مستديرة جامدة ثم انشقت ؛ فتولّدت، نتيجةً لذلك، أعماق البحار السحيقة التي لم تلبث أن

اجتمع فيها الماء، ولأجل الحفاظ على توازنها ارتفعت على سطح الأرض جبال ضخمة عالية هنا وهناك .

ثم ظهرت إلى الوجود - بعدئذٍ - أنواع النباتات والحيوانات على ظهر الأرض؛ فانتشرت انتشاراً واسعاً، ومع أن كل واحدٍ منها ينطوي على صلاحية للنمو غير محدودة، إلا أنه يتضح لنا عند التأمل والإمعان فيها أن هناك «قدراً محدداً» يخضع له الكل بدون استثناءٍ، فكل شيءٍ لا يزال ينمو حتى يصل إلى حدٍ معينٍ فيقف عنده، لا يستطيع تجاوزه إلى أبعد من ذلك .. مما يدل على أن هناك مدبراً وخالقاً جباراً يقوم بضبط كل شيءٍ، ويهيمن عليه فلا يسمح له بتخطي الحد المرسوم له .

إن الإنسان بحاجةٍ إلى أشياء لا حصر لها لمعيشته وبناء حضارته، وقد وفرت هذه الأشياء كلها فوق الأرض بمقادير متناسبةٍ تماماً مع احتياجات البشر، والله - سبحانه وتعالى- هو الذي وفرّ لنا هذه الأشياء كلها، وقام بتهيئة أسبابٍ تضمن بقاءها .. ولو أننا كنا - نحن البشر- مسؤولين عن إيجاد الرزق لها، لم يعد ممكناً أن نحصل عليها بأية وسيلة!

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

عِندَنَا خَزَائِنُهُ : نحن قادرون على إيجاده وتدبيره .

نُنَزِّلُهُ : نوجده أو نعطيه .

بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ : بمقدار معين تقتضيه الحكمة .

الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ : حوامل للسحاب أو للماء تمجه فيه ، أو ملقحات للسحاب أو

للأشجار .

إن مبدأ ضبط الحدود والمقادير يسري في كل شيءٍ من أشياء هذا الكون ؛ فالرياح تجري في نطاقٍ محدودٍ ، وإن كان الله قد يُرينا أحياناً أن بإمكانها - أيضاً - أن تتحول إلى إعصارٍ أو عاصفةٍ مدمرةٍ، والشمس تبعد عنا بمسافةٍ معينةٍ دائمةٍ لا تتغير، ولو أن هذه المسافة صارت أبعد مما هي عليه الآن، لاستحالت الأرض إلى كرةٍ من الجليد، ولو أصبحت الشمس أقرب إلينا، بمقدار النصف أو أقل أو أكثر مثلاً، من المسافة الحالية، لجعلت الأرض تنوراً رهيباً .. وجاذبية الأرض متناسبة وموزونة للغاية، ولو أن حجم الأرض كان ضعف حجمها الحالي، لازدادت جاذبيتها إلى حدٍ تعذر معه أن يمشي المرء على ظهرها لتضاعف الضغط الواقع عليه، أما لو كان حجم الأرض - بالعكس - نصف حجمها الموجود فعلاً، لانخفضت جاذبيتها لدرجة أنها لم تكن لتمسكنا - نحن البشر - ولا بيوتنا فوقها لهبوط وزن الأشياء المترتب على انخفاض الجاذبية الأرضية، وهكذا هو حال كل تلك الأشياء التي يعيش الإنسان بينها .. فلكل شيءٍ قدر محدد مضبوط لا يزيد عنه ولا ينقص.

إن حياة الإنسان وسائر الحيوانات الأخرى فوق الأرض، تتوقف على الماء، ونظام توفير المياه للكائنات الحية- اعتباراً من المخزونات المائية تحت الأرض، إلى السحب الكثيفة المتراكمة في الفضاء- يجري على مستوى ضخمٍ وعجيبٍ لدرجة أن إقامته أو القيام على إدارته أمر خارج عن طوق الإنسان البتة، وإنما هو الله - جل شأنه - ما يزال قائماً بتدبير هذا النظام العجيب العظيم بصورةٍ ملائمةٍ لحاجة البشر تماما .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

وَنَحْنُ الوَارِثُونَ : الباقون بعد فناء الخلائق .

إن إسكان الإنسان في هذه الدنيا، ثم رفعه منها، يتم من عند الله تعالى، والأرض مشحونة بأشياء لا تقع تحت الحصر، ولكن كلاً منها له ميزته الخاصة التي يتفرد بها ؛ فكل شيءٍ يؤدي الدور الخاص والمحدد الذي ينبغي له أن يؤديه، الأمر الذي يقيم الدليل على أن خالق هذه الأرض يحيط بجميع الأشياء علماً، كل على حدة، وهو الذي ألزم كل شيءٍ بأداء الوظيفة المنوطة به، وحتى إن بصمة إبهام اليد تختلف بدورها من شخصٍ لآخر تمام الاختلاف، ولا تتكرر مع أي شخصٍ آخر أبداً !!

إذنْ ؛ فأية صعوبة يمكن أن يلقاها هذا الإله القادر الخبير ، في محاسبة كل شخصٍ على حدة، وفي أن يعامل الجميع بما يستحقه هو في واقع الأمر ؟!

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

صَلْصَالٍ : طين يابس كالفخار .

حَمَإٍ : طين أسود متغير .

مَّسْنُونٍ : مصور صورة إنسان أجوف .

نَّارِ السَّمُومِ : الريح الحارة القاتلة .

إن وجود الإنسان مؤلف من شيئين : أحدهما الجسم، والآخر هو الروح، أما الجسم فقد بُني هيكله كله من العناصر الأرضية المادية، حيث يدلنا تحليل الجسم الإنساني على أنه قد استمد أجزاءه التركيبية مما يُعرف عموماً بالماء والتربة، وهذا يعني أن الإنسان، بالنسبة إلى جسمه، علم على وجودٍ غير حيٍ وغير ذي شعورٍ تماماً، ولكن حين ينفخ الله فيه الروح من عنده، فإذا بهذا الجسم يعود حاملاً لقدراتٍ وصلاحياتٍ لا يتمتع بها أي مخلوق آخر في الكون المعلوم.

وإن هناك مخلوقاً آخر - عدا الإنسان - يوجد في هذا الكون، وهو الجن، وقد خُلق الجن من لهب النار .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

سَوَّيْتُهُ : أتممت خلقه وهيأته لنفخ الروح .

سَاجِدِينَ : سجود تحية لا سجود عبادة .

أَبَى : امتنع تكبراً .

مَا لَكَ : أي غرض لك أو ما عذرك .

قال إبليس- مبرراً لامتناعه عن السجود- إن مرجع ذلك إلى أن الإنسان أحقر مني شأناً ، ولكن الحقيقة هي أن السبب في ذلك كان يكمن في شعور إبليس نفسه بالنقص أو الضعة، فقد اضطرمت في داخله نيران الحقد والحسد، حين رأى : إنني مع كوني أسبق إلى الوجود في هذا الكون ، إلا أني لم أنل هذا التكريم بأن تؤمر الخلائق كلها بالسجود لي ، بينما هذا الإنسان الذي خُلق آنفاً ، إذا به تؤمر الخلائق كلها بأن تخر له ساجدةً! ، فلم يلبث أن رفض السجود للإنسان .. ومعنى زعمه القائل «بأن الإنسان أحقر مني شأناً» : أن المستحق الأصلي ليكون مسجود الخلائق كنت أنا ، إذن فكيف لي أن أسلم بهذا الإعزاز والتكريم لمن لا يستحق؟!

إن هذا الكبر والحسد هما مصدر كل الشرور والمفاسد الاجتماعية ، ولا يزال

الإنسان خلال حياته في العالم الراهن يمر بمواقف كهذه بين حين وآخر، فمن لم يُصب بمشاعر الحقد في مثل هذه المواقف، فقد اتبع الملائكة، وأما الذي راح ضحية الحسد، فكأنما انخرط في سلك أتباع الشيطان وأوليائه !

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾

رَجِيمٌ : مطرود من الرحمة أو مرجوم بالشهب .

اللَّعْنَةَ : الإبعاد على سبيل السخط .

فَأَنظِرْنِي : أمهلني ولا تمتني .

الوَقْتِ المَعْلُومِ : وقت النفخة الأولى .

إن الاتجاه الذي سارت فيه الأحداث المتلاحقة، في أعقاب خلق الإنسان، قد جعل من الشطيان عدو الإنسان الدائم، والآن، فلا يزال الشيطان واقفاً له بالمرصاد، ناصباً له حبائله في كل طريقٍ، إلى يوم القيامة، والأمر الأجدر بعناية الإنسان، وأكثره خطورةً وأهميةً بالنسبة إلى مصيره، هو أن يكون حذراً أشد الحذر من خدع الشيطان ومكائده. فإن هذا هو المكان الذي يتقرر عنده نجاح الإنسان أو فشله في العالم الراهن!

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

وَلأُغْوِيَنَّهُمْ : لأحملنهم على الغواية والضلال .

المُخْلَصِينَ : الذين أخلصتهم لطاعتك .

لقد تعرض إبليس لحالة امتحانٍ ؛ خرج منه فاشلاً .. والآن، فإن الموقف الصحيح الذي كان ينبغي له أن يتبناه، هو التسليم بفشله وهزيمته .. إلا أنه أخذ- بدلاً من ذلك- في توجيه التهمة إلى الله تعالى نفسه ؛ بأنه لم يصنع ما صنع إلا لكي يغويه ! إن الواقع الذي كان يكشف عن ضعفه هو، حاول أن يرمي الله - سبحانه وتعالى - بأسوأ جوانبه .. وإن من مظاهر اتباع هذه الأسوة الشيطانية ذاتها أن نلقي بتبعة هزائمنا ونكساتنا على عواتق الآخرين !!

وقد صرح إبليس بأن سبب امتناعه عن السجود للإنسان هو أن الإنسان مخلوق من طينٍ، وأنا خُلقت من نارٍ.. ومع أنه ليس هناك من سببٍ معقولٍ يدعو إلى تفضيل النار على الطين، إلا أن إبليس، قد استقر في مخيلته، بناءً على تصورٍ ذاتي مزعومٍ، أن الطين شيء حقير تافه، وأن النار أعظم شأناً منه .. وهذا هو ما يسمى «التزيين» .. وهو أمر نفسي وليس بأمر عقلي .. فقد صمم إبليس- بدلاً من الاعتراف بخطئه- على أن يدفع الآخرين أيضاً إلى إعادة الخطأ نفسه، وأن يصيب البشر جميعاً بذلك الضعف النفسي الذي أصيب به هو!

وقال إبليس لله متحدياً : إنني - باستثناء «المخلصين» من عبادك - سوف أغوينهم أجمعين! فمن هؤلاء المخلصون من عباد الله ؟ إنهم أناس كُتب لهم التوفيق لالتزام الطريق القويم بإزاء الله، أي طريق العبودية.

﴿ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

صِرَاطٌ عَلَيَّ : حق عليَّ مراعاته .

سُلْطَانٌ : تسلط وقدرة على الإغواء .

جُزْءٌ مَّقْسُومٌ : فريق معين متميز عن غيره .

المراد بـ ((الصراط المستقيم))، كما رُوي عن مجاهد، والحسن، وقتادة، هو : ((طريق الحق، مرجعها إلى الله تعالى وإليه تنتهي)) (١).

ولو أن المرء سلك طريق الشرك، فإنه لن يؤدي به إلى الله، بل سيوصله إلى الشركاء، ولو أنه سار في اتجاه العناد والطغيان، فسوف تكون غايته وجود المرء نفسه دون الله سبحانه وتعالى، وأما إن آثر لنفسه حياةً حرةً طليقةً، فسوف يظل يتخبط في اتجاهات شتى، ولن ينتهي سفره إلى الله - تعالى - أبداً !

ولكن حين يجعل المرء من الله مركز اهتمامه وتوجهاته، وبالتالي يوجه حياته كلها نحو مرضاة الله، ويصبغها بالصبغة الإلهية، فمن الطبيعي أن يتوصل آخر الأمر إلى الله الذي كان هو وجهته ومقصوده منذ بداية سفره !!

الله قادر، والإنسان عاجز .. ولذا فإنه ليس ثمة من نسبةٍ أو علاقةٍ صحيحةٍ تقوم بين العبد والله سوى علاقةٍ واحدةٍ، ألا وهي علاقة العبودية، فاختيار طريق العبودية يعني إدراكنا لعلاقتنا الصحيحة مع الله تعالى .. والشخص الموصول بالله بعلاقة العبودية يكون بعيداً عن أثر الشيطان وسلطانه، وأما الذي لم يُقم علاقته مع الله، فإن علاقته ترتبط بالشيطان، فهو يسير على إيحاءات الشيطان، حتى يصل إلى حيث قدر للشيطان أن يصل في نهاية المطاف !

إن جهنم، التي هي المقر الأخير للشيطان وأوليائه، تتكون من دركات أو أدوارٍ سبعةٍ، قال عكرمة : ((سبعة أبواب سبعة أطباق)) (٢).

فالجهنميون سوف يتوزعون- بحسب أعمالهم- إلى سبع جماعاتٍ كبيرةٍ، تدخل كل

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، ٢/ ٣١٢.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ، ٢/ ٣١٢.

واحدة منها في الدرك المناسب لها من دركات جنهم السبعة !

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾.

غِلٌّ : حقد وضغينة وعداوة .

نَصَبٌ : تعب وإعياء .

إن حياة الجنة ستكون حياة خاليةً من الخوف، ولن يستحقها إلا أُناس خافوا من الله في الحياة الدنيا، فالخوف من الله في الدنيا هو ثمن الأمن و السلامة من الخوف في الآخرة !!.

إن الضغائن النفسية بين الأفراد تتولد لسببين : أحدهما الطغيان، وثانيهما سوء الفهم.. والضغينة الناشئة عن الطغيان هي كبرى الرذائل الاجتماعية إطلاقاً، ويتعين على أهل الإيمان أن يبادروا بالقضاء عليها في هذه الدنيا، والذين لا يقضون عليها في هذه الدنيا يعرضون أنفسهم لعذاب النار في الآخرة .

أما الضغينة الثانية فهي التي تتولد بسبب سوء الفهم، وهي قد تنتهي حيناً ويزول أثرها من القلوب بمضي الزمان، وحيناً آخر لا تزال باقيةً على مدى الحياة - رغم إخلاص الجانبين لبعضهما.. وهذا النوع الثاني من الضغائن سوف ينتهي في الآخرة على أكمل وجهٍ، ويحل محله صفاء لا يكدره شيء .. ذلك لأن الآخرة هي دار تظهر فيها الحقائق ظهوراً تاماً لا لبس فيه ولا غموض .

فإذا انكشف القناع عن الحقائق كلها، وأصبحت ماثلةً للعيان، فهل يبقى بعدئذٍ من

سببٍ يدفع رجلاً مخلصاً إلى أن يحقد أو يضغن على أخيه بدون لزوم؟ كلا !

إن حياة الجنة حياة لطيفة ورائعة إلى حد بعيد.. بيد أن لذائذ الحياة الراهنة تعريف لعالم الملذات والمسرات القادم، وعلى هذا، فبمستطاع أي شخصٍ أن يقدر كم ستكون الجنة بذاتها لذيذة وممتعةً، تلك التي بلغت مقدماتها الدنيوية (هذا المبلغ من اللذة والإمتاع !!

ولو فرضنا أن شخصاً ما تمكن من الحصول على كل أنواع اللذة في العالم الراهن، فإنه لن يسلم - مع ذلك - من منغصات تفسد عليه كل لذة، وتجعل وجودها وعدمها سواء، غير أن الجنة مكان ستكون لذائذه منزهة عن كل أنواع المنغصات، فقد جاء في الحديث : «يقال لأهل الجنة : إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبداً».

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ : أضيافه وكانوا من الملائكة .

وَجِلُونَ : خائفون فزعون .

القَانِطِينَ : الآيسين من الخير ، أو الولد .

لقد جاءت الملائكة إلى سيدنا - إبراهيم عليه السلام - في صورة بشرٍ، وفي أثناء الحوار أخبروه بأننا أتيناك بالحق .. ماذا كان هذا «الحق» -الأمر الواقع- الذي جاءت

به الملائكة إلى سيدنا إبراهيم – عليه السلام ؟

إنه كان بشارةً بجائزةٍ أو إنعامٍ غير عاديٍ لا يُتوقع في الظروف المعتادة، وقد جرت عادة الله – سبحانه وتعالى – بأنه حين يريد التفضل على عبدٍ من عباده بإنعام غير عاديٍ، فيرسل إليه لتحقيق هذا الغرض جماعةً خاصةً من الملائكة .

وأمثال هؤلاء الملائكة يأتون إلى الأنبياء وإلى غير الأنبياء على سواء، وإنما الفارق هو أن النبي، حين يأتي إليه ملائكة الله، يراهم رأي العين، ويكون على وعيٍ تامٍ ومعرفةٍ واضحةٍ بأنهم ملائكة .. وأما الإنسان العادي فلا يكون على مثل هذا الوعي والمعرفة القطعية، بيد أن قربه الخاص من الملائكة يولد في داخله كيفيات خاصة.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

كان سيدنا إبراهيم – عليه السلام – يسكن بفلسطين .. وكان في القرية المجاورة لها، بشاطئ البحر الميت، ابن أخيه لوط – عليه السلام – وقد أبلغ سيدنا لوط – عليه السلام – رسالة الله إلى سكان هذه القرية، إلا أنهم لم يرضوا بقبول الإصلاح، بل ظلوا يتمادون في العناد والطغيان يوماً بعد يومٍ، حتى قضى الله – عز وجل – بأن يهلكهم أجمعين .. وقد جاء هؤلاء الملائكة لتنفيذ هذا القضاء الإلهي نفسه .

ويُحتمل أن سيدنا لوطاً – عليه السلام – لم يؤمن به أحد من قومه سوى بضعة أفرادٍ من أسرته، والواقع أن الوقوف إلى جانب داعية الحق، بالنسبة إلى الأجانب – أي الذين لا تجمع بينه وبينهم رابطة الدم أو وشائج القربى – يكون أمراً عسيراً جداً .. فإن هناك عقباتٍ نفسيةً كثيرةً تحول دون ذلك .. أما الأقارب وذوو الأرحام، فإنهم لا يواجهون أية عقباتٍ من هذا النوع، ومن ثم فهؤلاء ربما يصبحون– وبسهولة أكثر نسبياً– أنصار الداعي إلى الحق ومؤيديه .

وهكذا حدث مع سيدنا لوط - عليه السلام - حيث لم يؤمن بدعوته - في أغلب الظن - سوى بناته، إن العلاقة القلبية الخاصة التي تربط الأبناء بالوالد، تعود عاملاً خاصاً يحملهم على تلقي دعوة الوالد بالقبول .. وقد نجت هؤلاء البنات المؤمنات مع أبيهن لوط من عذاب الله، غير أن زوجته - عليه السلام - لم تؤمن به من صميم قلبها، وبالتالي فلم تلبث أن أُهلكت مع المجرمين الآخرين، فإن قانون الله لا يُحابي أحداً على أساسٍ من القرابة أو النسب كائناً من كان !

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

قَوْمٌ مُّنكَرُونَ : أنكركم ولا أعرفكم .

فِيهِ يَمْتَرُونَ : يشكون ويكذبونك فيه .

بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ : بطائفة منه أو من آخره.

وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ : سر خلفهم لتطلع عليهم .

وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ : أوحينا إليه .

دَابِرَ هَؤُلاءِ : آخرهم والمراد جميعهم .

إن واحداً من مظاهر ((الحق)) هو الذي سبق أن جاءت به الملائكة إلى سيدنا إبراهيم - عليه السلام - والمظهر الثاني ((للحق)) هو هذا الذي جاؤوا به لوطاً -عليه السلام - وفيما كان ((الحق الأول)) إنعاماً من الله خاصاً، أخذ ((الحق الأخير)) شكل عذابٍ إلهي خاصٍ .

وقد جاءت الملائكة سيدنا لوطاً - عليه السلام - في صورة بشرٍ، وكان الغرض من مجيئهم أن يقوموا بتنفيذ القضاء المحتوم على المنكرين للنبي، ذلك الذي قدره الله تعالى جزاءً على طغيانهم .. وتبعاً لتعليمات الملائكة، خرج سيدنا لوط برفقة المؤمنين به من القرية في جنح الليل، وبعدئذٍ لم تكد تطلع شمس اليوم التالي حتى تعرضت تلك القرية بأكملها لرجّات زلزالٍ عنيف جعل عاليها سافلها، ولم يلبث المنكرون الطغاة أن تم إهلاكهم عن آخرهم بقسوة بالغةٍ !!

وأين وقعت هذه الكارثة المهلكة يا ترى؟ إنها حلت بدنياهم ذاتها، تلك التي كانوا يعدونها دنيا أنفسهم.. وحيث كان كل شيءٍ من أشيائها يبدو لهم كأنه أداة طيعة مسخرة لخدمتهم، ولكن حين يُصدر الله أمره، فتتحول تلك الخريطة إلى الهلاك والدمار، التي كان يحسبها المرء خريطة نجاحه وسعادته، والقصر الذي يزهو المرء ويفتخر بامتلاكه، يفاجأ به خراباً، كما لو أنه لم يكن إلا أنقاضاً قُذف بها على رأس المرء من يحث لا يشعر!

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

مُّصْبِحِينَ : داخلين في وقت الصباح .

عَنِ العَالَمِينَ : عن إجارة أو ضيافة أحد منهم .

إن الملائكة الذين جاؤوا إلى ((سدوم)) - قرية قوم لوط - طلعوا عليهم في صورة شباب حسان الوجوه للغاية، وكأن ذلك كان بمثابة الورقة الأخيرة لاختبار هذه الأمة الغارقة في الفجور والإباحية .. ومن ثم لم يلبث هؤلاء، بسبب طغيانهم المتزايد، أن تهافتوا على أولئك الشباب، وأرادوا- كعادتهم- أن يفعلوا بهم الفاحشة، إلا أنهم لم يكونوا على علمٍ بأن هؤلاء الذين خالوهم شباباً فاتنين أو ((جذابين)) ليسوا في الحقيقة

إلا ملائكة العذاب، وإنما جاؤوا هنا ليدعوهم وقد ألصقوا بهم وصمة خزي وعارٍ تبقى أبد الدهر! .

والمراد بـ ((بناتي ..)) بنات أمته .. فحين رأى سيدنا لوط - عليه السلام - الفجرة الظالمين وهم يتهافتون على الضيوف الكرام، رغم منعه إياهم ذلك، فناشدهم الله ألا تفضحوني في ضيفي هؤلاء، وأما إن أبيتم إلا قضاء ما تشتهون، فهؤلاء فتيات الشعب، لتتزوجوا من أيتهن شئتم !

﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٧١ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِى سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٧٢
فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةً مِّن
سِجِّيلٍ ۝٧٤ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَأٓيَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٧٧ ﴾ .

لَعَمۡرُكَ : قسم من الله - عز وجل - بحياة محمد ﷺ .

سَكۡرَتِهِمۡ : غوايتهم وضلالتهم .

يَعۡمَهُونَ : يعمون عن الرشد أو يتحيرون .

الصَّيۡحَةُ : صوت مهلك من السماء .

مُشۡرِقِينَ : داخلين في وقت الشروق .

سِجِّيلٍ : طين متحجر طبخ بالنار.

لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ : للمتفرسين المتأملين .

لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ : طريق ثابت مُعْلم مسلوك .

ما الذي جعل قوم لوطٍ يبلغون من الفجور والطغيان حداً أخرجهم عن طورهم؟

لقد كان السبب في ذلك أنهم نظروا في القضية بالنسبة إلى سيدنا لوط، وبما أنهم كانوا أقوياء أشداء بإزائه - عليه السلام - خُيل إليهم : أن لا أحد يستطيع أن ينال منا شيئاً، مهما فعلنا، فلنفعل ما نشاء .

ولو أنهم نظروا في القضية بالنسبة إلى الله، لكان الوضع بالعكس من ذلك تماماً .. ولأدركوا حينئذ أن طغيانهم سخيف بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، إذْ لا قبل لأحدٍ- مهما كان قوياً شديد البأس- بإزاء الله العزيز الجبار، وما هو إلا قليل حتى هلك القوم عن بكرة أبيهم !!

وللمتأملين في هذا الحادث درس مفاده أنه ليس أحد في هذه الدنيا حقيقةً في مواجهة أي إنسانٍ مثله،بل الكل في مواجهة الله .. ولو أن المرء أدرك هذه الحقيقة حق الإدراك لانتهى طغيانه كله تلقائياً !

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ .

أَصْحَابُ الأَيْكَةِ : سكان بقعة كثيفة من الأشجار الملتفة (قوم شعيب)عليه السلام .

وَإِنَّهُمَا : قرى قوم لوط والأيكة .

لبإمام مبين : لبطريق واضح يأتمون به في أسفارهم .

الحِجْرِ : ديار ثمود بين المدينة والشام .

مُصْبِحِينَ : داخلين في وقت الصباح .

المراد بـ ((أصحاب الأيكة)) : قوم شعيب - عليه السلام -، وقد كان اسمهم الأول

((بني مديان))، وكانوا يسكنون بمنطقة ((تبوك)) الحالية .. أما ((أصحاب الحجر)) فهم قوم ثمود، الذين بُعث فيهم سيدنا صالح - عليه السلام - وقد كانت مساكنهم في شمال المدينة، وهي اليوم ((مدائن صالح)) .

وإن عناد أصحاب الأيكة وطغيانهم لم يصبهم بالشرك فحسب، بل وصل بهم إلى أشنع الجرائم الأخلاقية.. وعندما لم يتلقوا أي درسٍ ولا عبرةٍ، رغم تذكير سيدنا شعيب وإنذاره إياهم باستمرارٍ، أمر الله الأرض، فإذا بها تتحول إلى مهدٍ للعذاب والدمار، وقد كانت قبلئذٍ مهد عيشهم الرغيد !

وقد كان قوم ثمود ماهرين في فنون النحت حيث كانوا قد حولوا الجبال- من خلال حفرها ونحتها- إلى بيوتٍ رائعةٍ فخمةٍ، وكانوا يظنون أنهم قد هيؤوا بذلك آخر الأسباب والتدابير الممكنة لحماية أنفسهم من الفناء أو التعرض لعذابٍ ما، ولكنهم لما أعرضوا عن نداء الله، جاء الأمر الإلهي، فما لبثت بيوتهم العظيمة الفخمة، أن انقلبت قبوراً تحتضن جثثهم الهامدة الخامدة !

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾ .

إن دراسة الأرض والسماء، وما بينهما من ظواهر وموجوداتٍ، تدلنا على أن هذا النظام الكوني البديع قد أنشئ كله بمنتهى الحكمة .. فما من شيءٍ هنا إلا تجده حيث ينبغي له أن يكون في الواقع، وإنما هو الإنسان وحده، الذي يتبنى موقفاً مناقضاً لمقتضى الحقيقة في هذا النظام الكوني بأسره، وإن هذا التناقض بين الإنسان والكون ليقضي بأنه لابد من وضع حد له، وعلى هذا الاعتبار فإن عقيدة القيامة عقيدة تتفق مع العقل والمنطق أتم الاتفاق، إذ ليس ثمة من شيءٍ آخر، ما عدا القيامة من شأنه أن يضع حداً لهذا التناقض الصارخ !

إن واحداً من أهم عناصر عمل الدعوة إلى الله هو ((الإعراض))، أي : أن تجتنب ما قد يثيره المخاطب من مناقشاتٍ ونزاعات جانبيةٍ، بدلاً من الخوض معه في غمارها .. وإنه بدون التزام مبدأ الإعراض لا يمكن إنجاز عمل الدعوة على نحوٍ مؤثرٍ ومثمرٍ ..

وحكمة الإعراض : هي أن المدعو ديدنه أن يثير - دائماً - نزاعاتٍ جانبيةً مع الداعي، فلو أن الداعي اصطدم بدوره مع المدعو في كل مناسبةٍ كهذه، فسوف تكون هناك معارك حامية ساخنة، تجري على قدمٍ وساقٍ، حول الأمور غير ذات الصلة بالموضوع، ولكن العمل الدعوى الأصيل سيبقى كما هو، دون أن يجد أحداً ينهض بأعبائه ويهتم بإنجازه على وجهه!

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

سَبْعاً : سبع آيات وهي الفاتحة .

مِّنَ الْمَثَانِي : التي تثنى وتكرر قراءتها في الصلاة .

أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ : أصنافاً من الكفار .

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ : تواضع وألِنْ جانبك .

الْمُقْتَسِمِينَ : أهل الكتاب .

عِضِينَ : أعضاء وأجزاء ، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض .

المراد بـ ((السبع المثاني)) سورة الفاتحة .. إن سورة الفاتحة خلاصة القرآن بأكمله، وبقية القرآن بيان وتفصيل لها .

وإن هذا القرآن - من غير شكٍ - أعظم نعمةٍ في الأرض والسماء إطلاقاً، فكونه كتاب هداية، يضمن للمؤمنين به النجاح في الآخرة .. وكونه آخر كتاب، يستلزم بالضرورة أن يُكتب له الغلبة والانتصار على معارضيه، إذْ بدون الغلبة لا يمكن أن يبقى هو كآخر كتاب إلى الأبد .

وينبغي للداعي ألا يقع فريسة اليأس والخيبة والأسف على الذين لا يؤمنون بدعوته، بل لينظر إلى من آمن به، فيطمئن قلبه ويرتاح باله، وليكن بهم رفيقاً لين الجانب، باذلاً جهده في تربيتهم وتزكية نفوسهم .

والمراد بـ : ﴿ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ : هو تجزئة التوراة أو تقسيمها .. فقد كان اليهود قسموا كتابهم السماوي - عملياً - إلى جزأين : فما تعارض من تعاليمه مع أهوائهم، تخلوا عنه، وما اتفق منها مع أهوائهم أخذوا به .. وإنما كانت الآيات - من القسم الأول - تظل مغلقة في خانة التقديس، فلم يكونوا يعيرونها أي اهتمام ولا يتناولونها بالنشر والإشاعة بين الناس، بينما كانوا ينشرون الآيات المتصلة بالقسم الثاني على أوسع نطاقٍ .. جعلوا الكتاب الإلهي تبعاً لمصالحهم، وليس تبعاً للأحكام والوصايا الإلهية .

ولوجود شيء ما مستويان : أحدهما وجود أجزائه، والآخر هو أن تجده ككلٍ جامعٍ لا يتجزأ .. فحين يعرف المرء الشجرة مثلاً بصفتها الكلية، يعبر عنها بقوله : إنها «شجرة» ولكن لو أنه لم يعرفها بصفتها الكلية، فسوف يردد أسماء الجذع، والغصن، والورق، والزهر، والثمر، ولا يكاد ينطق بتلك الكلمة الوحيدة التي تجمع بين سائر أجزائها المتفرقة حول أصلٍ واحدٍ فتأخذ بالتالي شكل وحدةٍ واحدة.

وهذا هو الشأن تماماً فيما يتعلق بكتاب الله كذلك .. فكتاب الله يحتوي على كثيرٍ من الأحكام المتفرقة والمتنوعة، كما أن هناك نقطةً محوريةً جامعةً يدور عليها الكتاب كله،

فالذين يستغرقون في كتاب الله، سيجدونه بصفته الكلية الجامعة، وأما الذين استغرقوا في ذات أنفسهم، فإن كتاب الله إنما يتراءى لهم مجموعةً من أحكامٍ شتى مبعثرةً هنا وهناك، وبالتالي فيأخذون منها أي جزءٍ يتلاءم مع أذواقهم وأحوالهم ويشرعون في التركيز والتأكيد عليه كما لو أنه كان هو وحده كل شيء !!

إن الشجرة لا تلبث أن ترتوي بأكملها إذا ما ألقيت الماء في جذورها، وهكذا لئن قمنا بإحياء الجانب الكلي والمركزي من كتاب الله، فسوف تستعيد معه بقية أجزاء الكتاب الأخرى حياتها وحيويتها بطبيعة الحال .. وبالعكس من ذلك لو أننا تناولنا جزءاً واحداً من أجزائه، وركزنا عليه كل التركيز.

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ : فاجهر به أو فأمضه ونفذه .

اليَقِينُ : الموت المتيقن وقوعه .

إن كل شخصٍ في العالم الراهن له الحرية المطلقة ليقول ويفعل ما يشاء كما يشاء. ومن هنا فحين يبدأ الداعي بعمل الدعوة إلى الله، يوجه إليه الآخرون - بغية إحراجه وصرفه عن الدعوة - ألواناً شتى من الأقاويل الفارغة ، كما تثار أنواع من القضايا الجانبية غير ذات صلةٍ بالموضوع، وفي مناسباتٍ كهذه يجب على الداعي أن يعرض عن كل هذه الأباطيل، ولو أنه أخذ في مثل هذه المناسبات، يتخاصم مع الآخرين، فلن يستطيع إنجاز عمل دعوة الحق الإيجابي أبداً .

وإن هناك منهجاً إيجابياً واحداً، لا ثاني له، يتعين على داعية الحق أن يتبناه في هذه الدنيا، وهو يتلخص في أنه لا يتعرض لمن تعرض له .. وأن يجهر بالحق الذي ظفر به ويقوم بإعلانه على أكمل وجه، ويفوض إلى الله كل أمرٍ يجد نفسه عاجزاً عن مواجهته.. وأن يوجه اهتمامه كله نحو الآخرة، إذا ما أصبحت أحوال الدنيا غير المواتية تزلزل مضجعه وتقلق باله، وأن ينشغل في ذكر الله إذا ما ضاق صدره بقلة مبالاة الناس وعدم اكتراثهم بما يقول.

ومن شأن الداعي الصادق أنه حين تنتابه حالة من حالات الهم أو الحزن ، يتوجه بكل كيانه إلى الله - عز وجل - ويحاول أن يجد من الله ما لم يستطع أن يجده من البشر، وتغمره موجة من السكينة والاطمئنان إذ يقف بين يدي الله مصلياً ، ويثلج فؤاده ، وتتخفف أعباء قلبه عندما تسكب عيناه دموعاً من خشية الله ، وحين ينشغل في المناجاة مع ربه ، فهو يشعر كأنه قد ظفر بكل ما كان يود أن يظفر به!

سورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ ﴾ .

وَتَعَالَىٰ : تعاظم بذاته وصفاته الجليلة .

بِالرُّوحِ : بالوحي ومنه القرآن العظيم .

حقيقة الدين هي أن يعرف الإنسان وجود الله وتصرفه المطلق وراء هذا الكون معرفة تجعله يرى ذات الله الواحدة هي كل شيء .. فلا يخاف إلا منه ، ولا يعقد آماله إلا عليه ويصبح الله الواحد الأحد مركز توجهات قلبه وعقله كلها .

وذلك معنى جعل الله إلها وإخلاص العبادة له تعالى ، وما جاء الأنبياء والرسل في هذا العالم إلا لخلق هذه الكيفية نفسها في قلوب الناس وضمائرهم ، وسيفوز بالنجاح والسعادة في يوم الجزاء الذين يقيمون الدليل على هذه العبودية ، وأما الذين يسيرون في الاتجاه المعاكس لذلك فسوف لا يلقون يوم الجزاء إلا الخيبة والشقاء الأبدي ، وسيواجه هذا المصير عامة البشر في يوم القيامة ، إلا أنه يبدأ ، بالنسبة إلى مخاطبي النبي المباشرين من هذه الدنيا .

إن الكون يتسم بوحدة كاملة ، وهو – إلى جانب ذلك – منطو على هدف عميق كذلك ، وإن وحدة الكون ترفض بشدة أن يكون من الجائز لأحد أن يتخذ من أحد غير الله .

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ ﴾ .

تركيز توجهاته وانطوائه على الهدف يقتضي أن ينتهي آخر الأمر بغاية هادفة ، وليس بغاية غير هادفة ، وعلى هذا فبالإمكان القول بأن نظام الكون البديع يوفر لنا في وقت واحد دلائل الوحدانية ودلائل إمكان الآخرة معا !

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾ .

نُّطْفَةٍ : ماء مهين .

هُوَ خَصِيمٌ : شديد الخصومة بالباطل .

وَالأَنْعَامَ : الإبل والبقر والضأن والمعز .

فِيهَا دِفْءٌ : ما تتدفؤون به من البرد .

فِيهَا جَمَالٌ : تجمل وتزين ووجاهة .

حِينَ تُرِيحُونَ : تردونها بالعشي إلى المراح .

وَحِينَ تَسْرَحُونَ : تخرجونها بالغداة إلى المسرح .

وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ : أمتعتكم الثقيلة الحمل .

بِشِقِّ الأَنفُسِ : بمشقتها وتعبها .

إن وجود الإنسان يبدأ من مادة حقيرة تافهة ، ولكنه عندما يكبر يحاول أن يصبح نداً لله منافسا له تعالى .. فهو يريد أن يعيش في كون الله غير خاضع لإله ، ولو أن الإنسان أخذ في اعتباره حقيقته البدائية لما سلك طريق البغي والعناد والطغيان في أرض الله أبداً .

ومن جملة النعم المتاحة للإنسان في العالم الراهن أنواع المواشي والأنعام ، وكأنها آلات طبيعية حية لا تزال مشغولة بسد مختلف حاجات الإنسان ، فهي تأكل العشب والعلف ، وتحوله إلى اللحم واللبن لغذاء الإنسان ، وهي تخرج فوق جلودها من الأشعار والأصواف والأوبار ما ينسج منه الإنسان ثيابا يستدفئ بها ... وهي تقوم بنقل أمتعة الإنسان من مكان إلى مكان ، كما أن قطعان هذه الأنعام والمواشي تزيد من وجاهة شأن مالكها وترفع من مكانته بين الآخرين .

والمراد بقوله : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ تلك المنافع التي نحصل عليها عن طريق الموارد الأخرى عدا المواشي والأنعام .. وقد كان جزء من هذه الموارد الأخرى متاحا للإنسان في العصر القديم أيضا ، غير أن الجزء الأكبر منها كشف عنه الإنسان أخيرا في هذا العصر الحديث ، ويستغله لبلوغ شتى مآربه ، كاستخدام الماكينة مثلا بدلا من الحيوان .

وإن ما يتمتع به الإنسان في هذه الدنيا من نعم لا تحصى ، ليست من صنع الإنسان نفسه ، بل هي وفرت له من عند الله – سبحانه وتعالى ، ومن هذا يتضح لنا أن خالق

هذا العالم رحيم ، مما يقتضي أن يكون الإنسان شاكرا لخالقه ، ويقوم بأداء الحق تجاه الله المنعم عز وجل .

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾ .

قَصْدُ السَّبِيلِ : بيان الطريق القاصد المستقيم .

وَمِنْهَا جَائِرٌ : من السبيل مائل عن الحق .

للارتحال من مكان إلى مكان آخر يلزمك أن تسير في شارع معين يؤدي بك مباشرة إلى المقصود .. فالمراكب تجري على الشوارع المستقيمة تبعا لمقاصدها المطلوبة ، على أن هناك طرقا وممرات أخرى كثيرة أيضا تتواجد بجانبي هذه الشوارع ، ولو أن شخصا ولج في هذه الطرق الجانبية المتفرقة ، باعتبارها هي الشارع الرئيسي ، فإنه لن يصل أبدا إلى غايته المقصودة ، وإنما يظل يتيه ويتخبط يمينا أو يسارا بعيدا عن مقصده الأصلي .. وهذا هو الشأن فيما يتعلق بالوصول إلى الله كذلك .. فقد بين الله للإنسان الطريق الذي يوصله إليه بسهولة .. هو طريق التوحيد والتقوى، فمن يسلكه يصل إلى الله ، ومن يسلك في سبل أخرى ، يبقى تائها هنا وهناك ، ولن يوفق أبدا للوصول إلى ربه .. وكل شيء في هذه الدنيا يسير في الطريق المحدد له من قبل الله تعالى ولو شاء الله لألزم الإنسان هو الآخر بطريق معين يسير فيه ولا يحيد عنه، غير أن تدبير الخالق الحكيم ، بالنسبة للإنسان ، تختلف عن تدبيره بالنسبة للأشياء الأخرى كل الاختلاف ، فالمطلوب من الأشياء الأخرى هو الالتزام المطلق والمطلوب من الإنسان هو الالتزام الاختياري الحر ، ونتيجة لإتاحة حرية الاختيار هذه انقسم الناس إلى سائر في الطريق الحق ، ومنحرف عنه متسكع في الدروب والطرق المزعومة!

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ

(١٠) يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (١١) ﴾ .

فِيهِ تُسِيمُونَ : فيه ترعون دوابكم .

السحب تمطر من أعلى الفضاء ماء ، فيترتب على ذلك فوق الأرض نتائج ذات مغزى عميق ومدهش .. إن هذا التنسيق والانسجام بين عمل السماء والأرض ليثبت بوضوح لا يبقى معه مجال للشك أو الارتياب ، أن إله السماء هو بذاته إله الأرض كذلك .

إن أجزاء الكون المختلفة منسجمة مع بعضها أكمل انسجام ، وهذا الانسجام دليل قاطع على أن خالق الكون كله ومالكه ليس إلا واحدا ، وهو الله عز وجل، إذ ليس هناك من مكان في الهيكل الحالي للكون لأكثر من إله واحد، وإذا لم يكن الخالق والملك حقيقة غير الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد فمن يرتفع من دون الله إلى درجة المعبود، سيكون باطلا كل البطلان !

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ (١٣) ﴾ .

ذَرَأَ لَكُمْ : خلق وأبدع لمنافعكم.

الشمس والقمر والنجوم كلها ، تدور في الفضاء الرحب بحكمة بالغة ودقة متناهية، والأرض مليئة بشتى أنواع المخلوقات – من الحيوانات والنباتات والجمادات – ولا تقع تحت الحصر ، وفي المشهد الأول يتجلى جانب « تسخير بالأمر» بينما يبرز في المشهد الأخير جانب « اختلاف الألوان » وإذا كان أحدهما يذكرنا بكون قدرة الله

مطلقة بلا حدود ، يدلنا ثانيهما على أن الصفات الإلهية لا تحصى ولا تعد.

وإن هذه المشاهد لمذهلة ومحيرة للعقل لدرجة أن أيما شخص يقف عندها متأملا لابد أن يتأثر بها أبلغ تأثير ، فإنه سيرى فيها آثار عظمة الله وربوبيته الباهرة ، وسيكتشف ما يكمن وراء هذه الوقائع الظاهرية من الأسرار والحقائق الغيبية السامية ، وبالتالي فسوف لا يلبث ، وهو يشاهد عجائب المخلوقات، أن يغوص ويستغرق في معرفة الخلاق المبدع العظيم !

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ : من البحر الملح خاصة .

مَوَاخِرَ فِيهِ : جواري فيه تشق الماء شقا .

لو ألقينا بقطعة من الحديد في البحر ، فسوف لا تلبث أن تستقر من فورها في القاع ولكن حين يتم تحويل الحديد نفسه إلى سفينة أو باخرة ،فإذا بها تبدأ تطفو على سطح الماء ، وتذهب بما تحمل من ركاب وأحمال ثقيلة من قطر إلى قطر آخر.

وهذا قانون إلهي خاص سخر الله من خلاله مخلوقا مهيبا عملاقا كالبحر لخدمة الإنسان ، كما أن البحر يتم في داخله إعداد لحم طري هو الأسماك على اختلاف أنواعها تحت نظام مدهش ، وتتكون في أغواره الجواهر واللآلئ النفيسة لزينة الإنسان .

وقد كانت هناك صور أخرى ممكنة لله - سبحانه وتعالى - لتدبير شؤون الدنيا ، حيث كان بالإمكان - مثلا - ألا تكون هنا بحار فوق الأرض أصلا ، أو أن يمكن

الإنسان من المشي على البحر تماما كما هو يمشى على البر ، ولكن الله لم يفعل – مع قدرته – شيئا من هذا القبيل وكانت الحكمة من ذلك هي خلق عاطفة الشكر في نفس الإنسان .

فالمرء حين يعجز عن المشي بأقدامه فوق البحر ، ثم يركب سفينة أو باخرة فتأخذ تمخر به عباب البحر بتمام السهولة، فمن الطبيعي أن يبعث ذلك موجة من مشاعر الشكر في قلبه ، إذ هو يفكر : إن البحر الذي لم أكن أستطيع اجتيازه بواسطة أقدامي أنا قد هيأ الله تعالى أسباب اجتيازه لي عن طريق السفن والبواخر ، والفضاء الذي لم يكن في طاقتي أن أطير بنفسي في رحابه ، قد مكنني الله من الطيران فيه عن طريق الطائرات بسرعة فائقة للغاية .. ولم توضع مثل هذه الفروق بين الأنظمة الطبيعية ، إلا لإيقاظ شعور الإنسان وإرهاف حسه ، وتوليد عواطف الشكر والامتنان لربه في داخله !

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

رَوَاسِيَ : جبالاً ثوابت .

أَن تَمِيدَ بِكُمْ : لئلا تتحرك وتضطرب بكم .

وَعَلامَاتٍ : معالم للطرق تهتدون بها .

أشارت هاتان الآيتان إلى شيئين : أحدهما : نصب الجبال فوق الأرض لتبقى عليها توازنها ، وثانيهما : إقامة علامات في أنحاء الأرض والسماء ليستدل بها الناس على الطرق المؤدية إلى مقاصدهم .

وتدلنا الدراسات الجغرافية على أن الأرض حين تولدت فيها الأعماق السحيقة التي تحولت أخيرا إلى بحار باجتماع المياه فيها ، بدأت تهتز وتضطرب ، فارتفعت بعدئذ

شواهق الجبال في مناطق البر ، وهكذا استطاعت الأرض، نتيجة هذا العمل المزدوج ، أن تحتفظ بتوازنها ، ولولا هذا التوازن ، لأصبحت حياة الإنسان على ظهر الأرض ، مستحيلة أو –على أقل تقدير – صعبة جدا .

وكذلك فإن الإنسان بحاجة ماسة للقيام بأسفاره وتنقلاته إلى معالم يستعين بها للتعرف على اتجاهه فيصل إلى مقصده دون أن يضل الطريق أو يخطئه .. وقد هيأ الخالق جل وعلا أسباب ذلك أيضا على أحسن وجه وأكمله .. فقد كان إنسان العصر القديم يستدل على طرقه بواسطة أشياء كالأنهار والنجوم ، وها هو ذا يتعرف الآن على وجهته وعلى أمور أخرى ضرورية مستعينا بما اخترع من الآلات المغناطيسية، فعن طريق ذلك يتمكن من القيام برحلاته السريعة في البر والبحر وأيضا في الجو ، ولو أنه لم تكن ثمة علامات كهذه لتقلصت دائرة الأنشطة البشرية إلى حد بعيد جدا !

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

لاَ تُحْصُوهَا : لا تطيقوا حصرها لعدم تناهيها .

إنه ليس ثمة شيء في هذا العالم يقدر على الخلق والإبداع – أي إيجاد شيء ما من العدم – بما يثبت أن هذا العالم لم يخلق نفسه بنفسه ، وإنما خالقه هو الذي لديه القدرة على أن يوجد شيئا لم يكن موجودا ، وعلى هذا فإن عقيدة الإله الواحد هي عقيدة فطرية بكل معنى الكلمة ، إذ لا يمكن تفسير الكون بدون الإيمان بوجود إله يتمتع بصلاحية الخلق والإيجاد على أكمل وجه .. أما الآلهة التي اختلقها المشركون أندادا لله ، أو الأشياء التي حاول المنكرون (الملاحدة) إحلالها محل الإله الواحد ، باعتبارها

بدائل عن الله ، فإن أي واحد منها لا يمتلك صلاحية الخلق الذاتي ، وكفى بهذا الواقع دليلا على أن كل هذه الآلهة التي وضعها الشرك والإلحاد لا تعدو أن تكون افتراضات خيالية ، فإن من أبعد الأمور على الخلق والإنشاء، فالذي لا يملك لنفسه وجودا ذاتيا مستقلا،أنى له أن يسبغ الوجود على شئ آخر سواه ؟!

والشيء الذي يطلبه الله من عباده أكثر مما عداه هو الشكر على نعمائه ، ومع أن نعم الله من الكثرة والتنوع بحيث لا يستطيع أحد – كائنا من كان – أن يقوم بإحصائها وأداء الشكر عليها كما يجب ، إلا أن الله – سبحانه وتعالى – يتفضل بقبول القليل من الشكر على الكثير من النعم ، ولكن ينبغي أن يكون هذا الشكر شكراً حقيقيا ، وليس محض ترديد لكلمات الثناء والحمد الرسمية !

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

لاَ جَرَمَ : حق وثبت ، أو لا محالة أو حقاً .

يأخذ الشرك – في أكثر الأحيان – مظهرا واحدا ، هو : أن يعتبر الناس بعض من مضى من الشيوخ الصالحين من القدسية والتقرب إلى الله بمكان ، فيبدؤون أولا يعبدونهم مع الله ، في حين أن هذه العبادة تتسم بمنتهى الغباء والحماقة ، فالشيوخ المقبورون الذين يقوم الناس بتشييد أضرحة ضخمة لهم ، ويرجون منهم تحقيق آمالهم ومراداتهم ، يكونون بأنفسهم أمواتاً في عالم البرزخ ، وهم لا يدرون عن ذات أنفسهم متى سيبعثون ، ناهيك أن يمدوا يد العون لأحد سواهم!!

وليس معنى قوله : ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ أنهم يستكبرون على الله ، فمن يا ترى تبلغ به الجرأة إلى حد يتكبر معه على خالق الأرض والسماء ؟ إنما المقصود بذلك هو التكبر على داعية الله الواحد ، وليس التكبر على الله نفسه .

وقضية أمثال هؤلاء ، مع كونها قضية الغرور والاستكبار ، إلا أنهم يتناولونها بالتمويه، فيقدمونها كما لو أنها قضية مبدئية ومسألة نظرية ،بيد أن الله تعالى خبير بنفسياتهم الداخلية وسوف يعاملهم الله تعالى من حيث حقيقتهم الأصلية ، وليس من حيث أقوالهم الظاهرية!

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ : أباطيلهم المسطرة في كتبهم .

أَوْزَارَهُمْ : آثامهم وذنوبهم .

تقول الروايات : إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين بعث بمكة ، وترامت أنباء ذلك رويدا رويدا إلى قبائل العرب الأخرى ، كانوا كلما وفدوا إلى مكة ، يسألون رؤساءها : ما رأيكم في هذا الشخص الذي ادعى النبوة بينكم ؟ وقد كان رؤساء مكة ، يردون على السائلين بما من شأنه أن يجعلهم يقعون في الشك والارتياب حول شخصيته وكلامه – عليه الصلاة والسلام[1].

ومن الأساليب التي لجؤوا إليها لتحقيق هذا الغرض : التشويه المتعمد لكلامه

(١) انظر : التفسير المظهري .

– عليه الصلاة والسلام – فيما ورد في القرآن – مثلا – من قصص الأنبياء والمرسلين ، كان بإمكانهم أن يصفوا ذلك بأنه « تاريخ الأنبياء السابقين » غير أنهم أطلقوا عليه اسم ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .

وإن صرف الناس عن دعوة الحق أو تشكيكهم فيها على هذا النحو ، أشنع جريمة عند الله تعالى .. وسيلقى أمثال هؤلاء عذابا مضاعفا في يوم القيامة ؛ لأنهم لم يضلوا بأنفسهم وحدهم عن الحق ، بل تسببوا في إضلال الآخرين كذلك!

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

القَوَاعِدِ : الدعائم والعمُد . أو الأساس .

يُخْزِيهِمْ : يذلهم ويهينهم بالعذاب .

تُشَاقُّونَ فِيهِمْ : تخاصمون وتعادون الأنبياء فيهم .

الخِزْيَ : الذل والهوان .

وَالسُّوءَ : العذاب .

الذين تتاح لهم الفرصة لاحتلال مركز السيادة والكبرياء في المجتمع على أسس مزورة كاذبة ، يشعرون بالخطر على مركزهم عندما تلوح لهم بوادر دعوة تنهض لإظهار الحق ، فيبادرون باتخاذ تدابير عاجلة للحفاظ على مراكزهم ، وتتمثل هذه التدابير في نشر أقاويل ضد دعوة الحق، من شأنها أن تشكك الجماهير في صدقها ،

وبالتالي لا يفسحون لها صدورهم ، ولا يفكرون في التجمع حولها أو الانضواء تحت لوائها .

غير أن تدابير أمثال هؤلاء ضد دعوة الحق - مهما أتقنوها - لا تكلل بالنجاح أبدا.. فالقواعد التي يكون معارضو الحق معتمدين عليها ، تعود ضعيفة هشة بحيث لا يلبث سقفها أن يخر عليهم من فوقهم .. وقد يحدث أحيانا أن يفاجئوا بأي زلزال طبيعي ، يهز قواعدهم، فيهدم ما بنوه على رؤوسهم .. وتارة يتخلى عنهم أتباعهم معلنين انضمامهم إلى صفوف الحق وهكذا يضطرون – بفقد أنصارهم وأعوانهم – إلى أن يسلموا أسلحتهم أمام دعوة الحق على رغم أنفهم .. وسيواجهون هذا المصير المخزي في صورته النهائية والكاملة يوم تقوم الساعة ، يوم يشاهد هؤلاء المنكرون ما لحق بهم من ذل وهوان أبدي ، ولا يستطيعون أن يفعلوا شيئا !

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

فَأَلْقَوُا السَّلَمَ : أظهروا الاستسلام والخضوع .

مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ : مأواهم ومقامهم.

التكبر هو الجريمة الكبرى ، ويتخذ المتكبر – في الغالب – أحد شكلين: الأول: هو التكبر الذي يظهر بين العباد العاديين ، فقد يجد أحد الناس نفسه أقوى ، وأكثر مالا وأجزل نصيبًا من صنوف المتاع الدنيوي بإزاء الغير ، فيأخذ، بناءً على ذلك واغترارا به، يتكبر عليه ويزدريه .

أما المتكبر الآخر الأشد شناعة من هذا : فهو الذي يمارس بالنسبة إلى داعي الحق ،

والمرء حين يتكبر على داعي الحق ، فإنما يدفعه إلى ذلك ظنه إياه عاجزا عن أن ينال منه شيئا أو يمسه بمكروه ، إلا أنه حين تأتي ملائكة الموت، ويسلبونه كل قوة واختيار ، فسيعلم حينئذ أن الطرف الآخر للقضية لم يكن إنسانا بل الله عز وجل ، وقد يحتمل أن يكون إنسان أقوى من إنسان آخر ، ولكن هل هنالك أحد أشد قوة من الله .؟ كلا ،.. وإذ يقع الإنسان في قبضة ملائكة الله ، فلا يسعه وقتئذ إلا أن يلقي السلاح مستسلما .. غير أن عبد الله الصادق هو الذي يبادر بإلقاء السلاح ويستسلم قبل أن يحين هذا الوقت الذي لا يجدي في التسليم والانقياد شيئا !

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

طَيِّبِينَ : طاهرين من دنس الشرك والمعاصي.

المصابون بداء الكبرياء ، حين لا يستمعون إلى كلام الله ، تنطلق أذهانهم في الاتجاه المضاد ، ولهذا السبب فهم لا يستطيعون أن يستفيدوا منه أي درس ولا عبرة ، ولكن الشخص الذي امتلأ فؤاده بخشية الله ينصت إلى كلام الله بتجرد واهتمام بالغين ، وبالنسبة لشخص كهذا يعد كلام الله وسيلة إلى المعرفة، وهو يأخذ يلمح في ثناياه ومضات الحقيقة العليا .

إن صفة الجنة هي : أن فيها كل ما يشاء الإنسان وتتوق إليه نفسه .. وذلك شيء لم يستطع الحصول عليه قط حتى الملوك الكبار ، فأبدا لا يحدث في العالم الراهن بسبب

محدودية قوى الإنسان وعدم مواتاة الظروف الخارجية له ، أن يحصل الإنسان على كل ما يرغب فيه والتصور القائل بأن : «الجنة فيها كل ما يشاء الإنسان وتشتهيه نفسه» لذيذ ومنعش لدرجة أن أية تضحية في سبيل ذلك، مهما كانت جسيمة باهظة ، هي أهون ما يكون !

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

وَحَاقَ بِهِم : أحاط ، أو أنزل .

إن أمر الله يبين للإنسان أولا بلغة الدلائل .. وتلك هي مرحلة الدعوة والتبليغ.. ولو أنه لم يؤمن بواسطة الدلائل ، فيحين ذلك الوقت ، عندما يكشف النقاب عنه في صورة الموت الفردي أو الدمار الجماعي !

ولو أن المرء قابل أمر الله بالإهمال واللامبالاة ، وقد عرض عليه بواسطة الأدلة والبراهين ، فكأنما هو ينتظر تلك المرحلة الثانية الحاسمة ، إذ يفاجئه الله وملائكته بالظهور وبالتالي يضطر المرء بعدئذ إلى أن يعترف راغما ذليلا ، بذلك الأمر الذي أبيحت له فرصة الاعتراف به عزيزا كريما ، إلا أنه قابله بالرفض والإنكار !

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

من جملة الأقاويل التي يتقولها الإنسان الغافل ، تبريرا لانحرافه عن الحق ، قوله :

إنه إذا كان كل شيء في هذه الدنيا إنما يتم بمشيئة الله ، فإن عملنا الحالي هو الآخر صادر عن مشيئة الله ، إذ لو لم تكن وراءه مشيئته ، لما تمكنا من فعله البتة ، ولو أن الله كان كارها لأعمالنا حقا ، فهل كان يخلي بيننا وبين ما نفعل من هذه الأعمال التي لا يرضاها؟! وإنما يقول المرء هذا لكونه لا يأخذ أمر الحق والباطل بمآخذ الجد ، ولو أنه نظر في الأمر بجدية ، لأدرك من فوره أن الفرصة المتاحة له للقيام بعمله الحالي إنما هي بسبب الامتحان ، وليس بسبب رضا الله عنه أو إرادته إياه!

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

لقد بعث الله أنبياءه يبلغون عنه رسالته إلى الناس مباشرة في بقاع ، كما فتح أبواب هدايته ورحمته عن طريق خلفاء الرسل وممثليهم على نحو غير مباشر في بقاع أخرى..وقد اتفقت كلمة هؤلاء جميعا على تلقين الناس شيئا واحدا ، ألا وهو أن العبادة هي حق الله الواحد الأحد لا غير ، والشيطان يحاول دوما صرف الإنسان عن هذه العبادة، لذا فينبغي على الإنسان أن يجتنب الترغيبات الشيطانية ، وإلا فسيقوده الشيطان إلى طريق عبادة المعبودات الباطلة.

إن الهداية مع كونها واضحة تمام الوضوح ، غير أن القبول بها أو رفضها يتوقف كليا على مدى جدية المرء أو عدم جديته بشأنها .. فالشخص الجاد سوف لا يصعب عليه أن يدرك صدقها وصحتها ، أما الشخص الذي لا يأخذها بمأخذ جدي ، فسوف يظل متعلقا بتوافه الأمور ، ولن يحالفه التوفيق للوصول إلى الحق أبداً!

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ : مجتهدين في الحلف بأغلظها وأوكدها .

يقوم المنكرون للحق في كل زمان ومكان بالطعن في الحق الذي يرسل إليهم ويزينون هذا الطعن بالألفاظ الجميلة والعبارات الرقيقة ، ثم يؤكدونها بالقسم والأيمان الكاذبة ، مما يجعل بعض الناس يقع في شك وحيرة ويلتبس عليه الصواب والخطأ والحق والباطل ، وهذا أمر ينافي طبيعة الكون كل المنافاة ، فبإمكان المرء ، وهو يدرس العلوم المادية أن يتوصل إلى النتائج المقطوع بها، وأن تتجلى الحقائق القطعية عيانا فيما يتعلق بالمعاملات الإنسانية ، وذلك ما سيتحقق في يوم القيامة .

وقد كتب الشاه عبد القادر الدهلوي يقول : « لقد ظلت أمور كثيرة في هذا العالم موضع الشك والارتياب ، فمن الناس من آمن بالله ، ومنهم من أصر على إنكاره وجحوده، إذن ، فلابد من عالم ثان يتم فيه تمحيص النزاعات والاختلافات كلها ، وبالتالي يتميز الصدق من الكذب ، وينال كل من المؤمن المطيع والمنكر العاصي جزاء ما كسب في الحياة .

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْأَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

لَنُبَوِّئَنَّهُمْ : لننزلنهم .

حَسَنَةً : مباءة أو داراً أو عطية حسنة .

ذهب معظم المفسرين إلى أن هذه الآية تتحدث عن أولئك الثمانين من صحابة الرسول – عليهم رضوان الله – الذين كانوا لا يزالون يتعرضون لعدوان معارضي الإسلام واضطهادهم في مكة ، حتى هاجروا ، آخر الأمر ، إلى الحبشة ،مغادرين أوطانهم وإخوانهم وأموالهم .. وقد وقت هذه الهجرة في أثناء العهد المكي ، قبل الهجرة إلى المدينة بأعوام .

والحق دوما يلتف حوله طائفتان من الناس: أما إحداهما : فهى التي لا تعطي للحق من الأهمية ما يجعلها تتخلى لأجله عن الأشياء المتاحة لها ، أو تتناول خريطة حياتها بالتغيير والتبديل لتصوغها من جديد وفق مقتضيات الحق .. أما الآخرون: فهم الذين يختارون الحق بحيث إنه يصير عندهم هو الشيء الأهم ، وبالتالي فهم لا يزالون مستعدين لتحمل كل أذى في سبيله ، ويجعلونه وحده همهم الأكبر ، وشغلهم الشاغل فهم يستطيعون النزول عن كل شيء لأجل الحق ولكن العكس لا يستطيعونه!!!

وبديهي أن مصير الطائفتين كلتيهما لن يكون أبدا من نوع واحد ، فالذين أعطوا للحق الأهمية الكبرى في حياتهم ، سيعتبرون أهلا لنعم الله الأبدية ، وأما الذين أعرضوا عن الحق ، فسوف يعرض الله عنهم كذلك ، ولن يجدوا عند الله شيئا من العزة والكرامة ، وليس لهم نصيب في نعم الله وجناته !

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

بِالْبَيِّنَاتِ : أرسلناهم بالمعجزات .

وَالزُّبُرِ : كتب الشرائع والتكاليف .

المراد بـ « أهل الذكر » هنا أهل الكتاب ، أو هم الذين لديهم علم بأحوال الأمم والأنبياء السابقين التاريخية.. وليس موضوع السؤال المطلوب عرضه على أولئك العلماء ، عما هو الحق وما هو الباطل ، بل عما إذا كان الأنبياء المبعوثون في الأزمان الغابرة بشرا أم غير بشر؟

حيث إن أهل مكة كانوا يستدلون بكون رسول الله ﷺ بشرا على أنه ليس نبيا مرسلا من الله ، فقيل لهم : إذن ، فاسألوا تلك الأمم التي بعث فيها الأنبياء والرسل من قبل ، سلوهم عما إذا كان الأنبياء والمرسلون بشرا أم ملائكة ؟

وإن النبي إنما يأتي للتذكير ، ومع أن هذا التذكير يتم أصلا عن طريق الأدلة والبراهين إلا أنه من الضروري أيضا أن يقيم النبي الدليل على تمام جديته بهذا الشأن فلو أن شخصا ما قام بإخبار الناس بأحوال الجنة والنار ، وهو - مع ذلك - يشتغل بأمور تثبت عدم جديته بشأن الجنة والنار ، لأصبح نشاطه الدعوي في أعين الناس هراء ومهزلة.

على أن الدعوة ، مهما تم عرضها على مستوى أعلى وأسلوب أرقى وأبلغ ما يكون لن يستفيد منها إلا الذين يتأملون فيها بأنفسهم أيضا ، أما الذين لا يتأملون فيها ، ولا يعيرونها أي اهتمام ، فلن ينتفعوا بدعوة الحق على أية حال!

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

يخسف : يغيب .

تَقَلُّبِهِمْ : أسفارهم ومتاجرهم .

بِمُعْجِزِينَ : فائتين من عذاب الله بالهرب .

تَخَوُّفٍ : مخافة من العذاب أو تنقص.

نزلت هذه الآيات في أواخر العهد المكي عندما كان المعارضون في مكة يتآمرون على قتل رسول الله ﷺ إن الرسول يكون مندوب الله في أرض الله ، لذا فإن تدبير مؤامرات كهذه ضده ، لا يقوم بها إلا الذين خلت قلوبهم من الخوف من بطش الله.

على حين أن الله قادر على الإنسان فلو شاء لخسف به الأرض ، أو يفاجئ المرء بعذاب مدمر في المكان الذي يعتبره دار أمان له ، أو يبطش الله بالناس فجأة وهم في غمار أعمالهم ، فلا يستطيعون إنقاذ أنفسهم من ذلك...كما في استطاعة الله أيضاً أن يفتك بهم وهم في كامل وعيهم بالخطر المحدق يحسون دنوه ، ويرتقبون وقوعه خائفين وجلين.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

مِن شَيْءٍ : من جسم قائم له ظل .

يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ : تميل وتنتقل من جانب إلى آخر .

سُجَّداً لله: منقادة لحكمه وتسخيره تعالى .

وَهُمْ دَاخِرُونَ : والظلال صاغرون منقادون كأصحابها .

إن الإنسان يتمرد ويطغى في عالم يعرض عليه فيه درس الخضوع والانقياد من كل

جانب ، وعلى سبيل المثال: ظلال الأجسام المادية .. فكل شيء قائم لا يلبث أن يسقط ظله على الأرض ، وهكذا فهو يمثل معنى السجود ، وهو يدلنا ، بأسلوب تمثيلي ، كيف ينبغي للإنسان أن يخضع لخالقه بوجوده كله !!! والملائكة ، وإن كانوا لا يقعون تحت أبصارنا – نحن البشر – إلا أن سير الكون الفسيح المترامي الأطراف بهذا القدر من القدرة والانضباط يثبت أن «الموظفين» الذين عهد الله إليهم بتسييره وإدارته أقوياء أشداء للغاية ، وهؤلاء الملائكة ، رغم كونهم أولي قوة وبأس شديد بصورة غير عادية مطيعين لله إلى أقصى الحدود ، ولو أنهم لم يكونوا على هذه الدرجة القصوى من الطاعة والامتثال لأمر الخالق جل وعلا لما أمكن أن يسير نظام هذا الكون بهذا التسلسل والصحة والانتظام الدقيق كما نراه الآن .

فالمسلك الصحيح للإنسان، والحالة هذه ، ليس إلا أن يسخر نفسه لطاعة الله، ويصبح عبدا خاضعا مطيعا له تعالى على أكمل وجه !

﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝ ﴾ .

وَلَهُ الدِّينُ : الطاعة والانقياد لله تعالى وحده .

وَاصِباً : دائما لازما أو خالصاً.

لقد حذر الله البشر ، على ألسنة أنبيائه ، من أن يتخذوا لأنفسهم آلهة أخرى دون الإله الواحد الأحد ، فلا إله لهذا الكون إلا إله واحد ، وينبغي للمرء ألا يخاف إلا إياه ، ولا يخضع إلا لمشيئته وحده .

ولو أن المرء أدرك أن الله تعالى وحده خالق البشر وسائر الموجودات ، وعليه وحده تتوقف حياته كلها ، فالكيفية التي ستتولد في داخل المرء – كنتيجة طبيعية لهذا الإدراك

– وهي التي تسمى «التقوى» وأنه ليس هناك من طاعة واجبة دائمة في الأرض ولا في السماء إلا لله تعالى وحده، فكل شئ هنا مربوط بالقانون الإلهي لا يستطيع الانفكاك أو الخروج عنه، وفي عالم كهذا ليس التوجه إلى أحد غيره تعالى بالعبادة أوعقد الآمال على أحد سواه، إلا باطلا محضا.

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

تَجْأَرُونَ: تضجون بالاستغاثة والتضرع.

تَفْتَرُونَ: تكذبونه على الله.

إن تجارب التاريخ بأكمله شاهدة بأن المرء حين يتورط في مصيبة، يجد نفسه عاجزا عن التغلب عليها، فلا يلبث أن يأخذ في التضرع والابتهال إلى الله، ويفعل ذلك – عند حلول المصائب والنكبات – كل من المنكرين لوجود الله والمشركين به على سواء ومن هذه التجربة يتضح لنا بجلاء أن تصور الله الواحد كامن في الفطرة الإنسانية بصورة جبلية، فعندما تنفصم عرى العلائق الأخرى كلها، فإن الشيء الخير الوحيد الذي يبقى بعدئذ هو الله تعالى وحده لا غير!

ولكنها من مظاهر غفلة الإنسان العجيبة أنه لا يكاد يتخلص من المصيبة، حتى يعود ثانية مشغولا بذكر آلهته الفرضية المزعومة، ويعزو النعم المتاحة له إلى الأشياء الأخرى بدلا من عزوها إلى الله تعالى، ولا يعود يذكر ذلك الدرس العظيم الذي لقنته فطرته نفسها قبل لحظة يسيرة من الزمن!!

ولقد قام الشيطان بترويج ألوان شتى من الطقوس والتقاليد الكاذبة وتزيينها في قلوب الناس توطيدا لعقيدة ألوهية المعبودات الفرضية الباطلة ، ومن بينها استخراج حصة معينة من دخلنا للآلهة والمعبودات الفرضية ، إن مثل هذه الطقوس والتقاليد بمثابة بهتان وافتراء في دنيا الله ؛ لأنها تعني إسداء الشكر إلى غير الله على الشيء الممنوح من عند الله عز وجل !

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

وَهُوَ كَظِيمٌ : ممتلئ غما وغيظا في قرارة نفسه.

يَتَوَارَى : يستخفي ويتغيب

هُونٍ : هوان أو ذل .

يَدُسُّهُ : يخفيه بالوأد فيدفنه حيا .

مَثَلُ السَّوْءِ : صفته القبيحة من الجهل والكفر .

إن الآلهة التي اتخذها الإنسان من دون الله الواحد تشتمل على آلهة (ذكور) وعلى إلهات (إناث) معا .. وقد ضرب القرآن هنا مثلا عاما لإبطال عقيدة الإلهات .. فبما أن المرأة تكون ضعيفة بالقياس إلى الرجل ، وهي – إلى جانب ذلك – تكون في الظروف المعتادة تبعة ومسئولية أكثر منها أثاثا وثروة ، لذا فإن الناس يكونون أشد فرحا وسرورا بولادة الابن منهم بولادة البنت ، إذن ، فما الذي كان يدفع الله إلى تفضيل

الإناث على الذكور ، فيما لو أراد – فرضا – أن يتخذ لنفسه ولداً ؟!

ولم يريد الإنسان الولد ؟ إنه يريد ذلك لكي يسد به عوزه ويتلافى نقصه ، غير أن الله تعالى عن مثل هذه النقائص علواً كبيراً ، فإن عظمة الله وقدرته التي تجلت آثارها في كونه هذا ، تدلنا على أنه تعالى أرفع وأسمى من أن يوجد فيه عيب أو نقص يحتاج لتلافيه إلى اتخاذ البنين أو البنات عنده .. والحقيقة هي أن الله لو كان ذا نقائص ، فلم يكن ليكون إلها ، وإنما صار الله إلها حقا ، لكونه منزها متعاليا عن النقائص والعيوب بكل أنواعها !

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) ﴾ .

من صور المؤاخذة على الظلم أن يعاجل بالأخذ على يد الظالم – أيا كان – فور ممارسته الظلم ، فيعاقب بالتالي أشد العقاب .. ولكن سنة الله غير هذا ، إذ لو فعل الله ذلك لما بقى أحد يمشي على ظهر الأرض ... فقد أعطى الله لكل فرد ولكل أمة مهلة معينة ، وهو تعالى يتيح الفرصة للكل – حتى انقضاء هذه المدة – أن يستجيب لنداء ضميره، أو يتعظ بالإنذارات الخارجية – وما أكثرها – فيقوم بإصلاح نفسه وعمله ، حين يقوم الناس بإصلاح أنفسهم تغتفر لهم كل جرائمهم السابقة ، وهم يصيرون بعدئذ كما لو أنهم قد بدؤوا الآن حياة جديدة تمام الجدة.

والله لا يؤاخذ العاصين خلال المهلة المعينة المتاحة ، ولكن يلتزم بأن يبطش بهم حتما بعد انقضاء هذه المهلة وليس لهم فرص أخرى .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) ﴾ .

لاَ جَرَمَ : حق وثبت . أو لا محالة أو حقا .

مُّفْرَطُونَ : مقدمون معجل بهم إلى النار .

إن السبب في الضلالات البشرية يكمن – إلى حد كبير – في إساءة التقدير لألوهية الله جل وعلا .. وإن أكثر العقائد الخاطئة المغلوطة لم تظهر إلى الوجود إلا لكون أصحابها ظنوا الله أقل بكثير مما هو في حقيقة الأمر ، حتى صار الناس لا يحرجون من نسبة أشياء إلى الله ، ولا يرضونها لأنفسهم ،باعتبارها تافهة في ذاتها أو ثقيلة لشعورهم بالأنفة والكبرياء ، كالبنات أو التسليم بمشاركة أحد سواهم في أملاكهم !

ومن نتائج هذا التقدير البخس لله – جل جلاله – أن الناس لا يزالون غير خائفين من الله مع اعتقادهم في وجود الله، ويعتقدون عن أشياء عادية للغاية أنها ستقربهم إلى الله ، وأن نعم الآخرة كلها سوف تكال لهم جزافا بغير حساب ، مهما كانت أعمالهم ، والشيء الذي ليس من شأنه أن يقع حتى عند رجل عادي موقع الرضا ، إذا بهم يزعمون أنه سيرضي الله !

إن أي عمل من هذا النوع ، زيادة الطغيان على الخطأ ، ولن يغفره الله تعالى أبداً !

﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

إن دعوة الرسول حين تتعالى أصداؤها في أرجاء المجتمع ، يخيل إلى المستمعين لها أنها تصطدم بديانتهم التقليدية الرائجة ، ولكون هذه الديانة التقليدية الرائجة مأنوسة ومألوفة لديهم ، ولارتباط الكثير من مصالحهم الحيوية بها ، فإنهم لا يزالون يأبون إلا التشبث بها بقوة ، وعندها يوحي الشيطان إليهم بألفاظ جميلة رائقة تمكنهم من تبرير

تخليهم عن دين الرسول وبقائهم على ديانتهم التقليدية الرائجة.

ولو أن المرء بادر إلى الإيمان بدعوة الرسول بدون لف ولا دوران ، لكان قد اتخذ من الله وليه ، أما لو لجأ إلى التأويلات الجميلة للصدود عن الدعوة، سيتخذ الشيطان له ولياً.

وبإرسال نبي آخر الزمان ﷺ فقد كان الله – سبحانه وتعالى– هيأ للناس أسباب الاهتداء إلى طريق الله الحق وسط غابة موحشة من الخلافات الدينية والنزاعات والمذهبية السائدة آنذاك .

وليس من شك في أن الدين الذي جاء به نبي آخر الزمان – عليه الصلاة والسلام – هو رحمة لعباد الله وهاديا لهم .

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ .

إن نظام المطر والنباتات ينطوي على درس بليغ جدا .. فعن طريق تفاعل موحد منسق بين عوامل شتى تتصاعد قطرات المياه نحو الفضاء لتنزل ثانية على الأرض بشكل المطر، ثم يتسبب هذا المطر ، بصورة مذهلة ، في إنبات العشب والزرع والشجر الأخضر في الأرض.

ولنا في هذه الواقعة – من ناحية – درس هو أن هذا الكون يحكمه ويتصرف في أنحائه كلها إله واحد لا غير، وهو الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه من المستحيل أن تتفاعل قوى الكون المختلفة منسجمة بعضها مع بعض على هذا النحو المدهش لأداء وظيفة مشتركة ، لو كان يتصرف وراءها عديد من الآلهة ، إن وحدة الأنظمة الكونية تدل دلالة صارخة على أن خالق الكون ومالكه واحد أحد، وليس أكثر من الواحد .

والدرس الثاني :هو أن قدرة الله عظيمة لدرجة أنها تستطيع بث الحياة في جسم ميت هامد ، وأنها تتمكن من إنبات حديقة من الخضرة والنضرة ، واللون الجميل ، والرائحة الفواحة ، والطعم اللذيذ في أشياء يابسة جدبة !!

وفيما تتضمن الواقعة الأولى دليل التوحيد ، تدلنا الواقعة الثانية في صورة التمثيل – على أن هناك مطرا إلهيا للأرواح البشرية كذلك ، ألا وهو الوحي ، وأن الشخص الذي يريد بث حياة جديدة في روحه الميتة اليابسة ، فعليه أن يغسل نفسه في مطر الوحي الإلهي!!

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

لَعِبْرَةً : لعظة عظيمة ودلالة على قدرتنا .

فَرْث : ما في الكرش من الثفل .

سَكَراً : خمراً (ثم حرمت بالمدينة).

من خصائص الحيوانات ذوات الأثداء العجيبة أن كل ما يدخل في بطونها يتحول إلى الروث والدم، ويخرج من بينهما في الوقت نفسه سائل ثمين كالحليب الذي يمثل غذاء نافعا جدا للإنسان .

وهذا هو شأن الأشجار كذلك .. فهي تمتص مما حولها أشياء كعناصر التربة والماء ، ثم إنها لا تلبث أن تأخذ ، تحت نظامها الداخلي العجيب شكل ثمار حلوة رطبة تتدلى بأغصانها .

وإنها الغرض من هذه الواقعات هو أن تذكر الناس بربهم ، وأن يقف المرء عندها ، فيشعر بقشعريرة تغمر كيانه كله ، لما يرى فيها من آثار قدرة الله وحكمته البالغة..وحتى يأخذ هذا الإحساس من نفسه مأخذا لا يلبث معه يصرح قائلا : يا إلهي! يا من يخرج من بين الروث والدم شيئا نافعا كالحليب ، أظهر من خلال الظروف غير المواتية المحيطة بي نتائج إيجابية مواتية ، ويا من يحول عناصر التراب والماء إلى الثمر، اجعل من حياتي الفارغة حياة قيمة خصبة مفعمة بالمعنى .

وقوله : ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ يتضمن الإشارة إلى حقيقة أن كل ما خلق الله في هذه الدنيا من شيء يصلح – في آن واحد – للاستعمالين الصحيح والخاطئ معا.. فلو أننا أكلنا التمر والعنب بشكلهما الطبيعي لوجدناهما غذاءً مفيداً للصحة ومقويا للجسم والعقل كليهما .. وأما لو تم تحويلهما ، بفعل الصناعة البشرية ، إلى مسكر ، فإنه يصيب الجسم بأفدح الأضرار كما أنه يفسد العقل ويعطله عن القيام بأداء وظيفته على النحو المطلوب.

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

وَأَوْحَى رَبُّكَ : الإيحاء هنا الإلهام والإرشاد أو التسخير .

بُيُوتاً : أوكارا تبنيها لتعسل فيها .

يَعْرِشُونَ : يبني الناس من الخلايا للنحل .

ذُلُلاً : مذللة مسهلة لك .

النحل أعجوبة من أعاجيب قدرة الله المذهلة .. حيث إنه يقوم ببناء خلية متناهية في الدقة والكمال ملتزما بالقوانين الرياضية .. ثم يجمع – على نحو مخطط تخطيطا خاصا – رحيق الأزهار ، ويخزنه، تحت نظام أدق وأكمل ما يكون ، في خلاياه ، وبالتالي يعمل ، طبقا لقوانين الصحة ، على إنتاج العسل ، ذلك السائل الثمين الغالي الذي يمثل بالنسبة لنا – نحن البشر – مادة غذائية وعلاجية معا وكل ذلك يتم بأسلوب عجيب ومنظم لدرجة أنه رغم إعداد مجلدات ضخمة حول هذا الموضوع ، لم تزل هناك خبايا وأسرار عن مملكة النحل تحتاج إلى دراسة وبيان واستقصاء .

ومعمل العسل المعجز هذا أعقد وأكثر نجاحا من كل المعامل الإنسانية على الإطلاق وهو يدار ، على ما يبدو، بواسطة حشرات « النحل » لم تتلق تعليم فن الإدارة والتنظيم في أي معهد أو مدرسة أو جامعة ، بل لا تملك الشعور الذاتي بما تقوم به من أعمال .. مما يثبت أن هناك «قوة موجهة »هي التي تدفع هذه الحشرات لإنجاز هذه الأعمال المحيرة كلها ، ولو أن متأملا تأمل في نحل العسل وأنشطته الهادفة لبدأ يشاهد من خلالها تدبير الله الحكيم بصورة حية ملموسة .

ومن نواحي العبر في ضرب المثال هنا بنحل العسل ، أنه كما يعمل النحل ، بجهد ومثابرة ، على تخزين رحيق الأزهار ، وتحويله إلى العسل الذي فيه غذاء ودواء للناس ، ينبغي لعباد الله كذلك ، أن يكدوا أذهانهم لاستكشاف غوامض الحكمة وخفايا الأسرار عبر التأمل والتفكير في الكون ، مما يشكل غذاء لأرواحهم ، وفي الوقت نفسه علاجا لأمراضهم الخلقية، فالشيء الذي يكون «رحيقا » بالنسبة لنحل العسل ، يتحول إلى «المعرفة »عندما يصل إلى مستوى الإنسان !

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

أَرْذَلِ العُمُرِ : أرذله وأخسه (الخرف والهرم).

يشهد الإنسان جوانب عديدة من مظاهر الحياة المتواجدة على وجه الأرض.. فهناك شخص يصير موجودا في هذه الدنيا بعد أن كان معدوما .. ثم إن الكل يتعرض للموت حتما ، ولكن ليس للجميع وقت واحد معين ، فمنهم من يموت وهو طفل رضيع ، ومنهم من توافيه المنية وهو في عنفوان شبابه ، وآخر يموت في سن الشيخوخة.. ما أغربه منظرا كذلك أن المرء إذ يبلغ نهاية عمره، فلا يلبث أن يفارقه كل ما كان يتمتع به من عقل وعلم وقوة ، ومع أن الإنسان على ما يبدو ظاهرا حر في هذه الأرض ، غير أنه لا يملك خيارا ما تجاه أي شيء من الأشياء المتاحة له .

وإنما يحدث هذا كله لإشعار الإنسان بأن العلم والقدرة كليهما ليس إلا بيد الله تعالى وحده ، فأمثال هذه الوقائع الآنفة الذكر ، التي تمر بها الحياة الإنسانية ، لا دخل فيها للإنسان ، وهو ليس بقادر على إحداث أي نوع من التعديل فيها أو تغيير مسارها ومجراها ، وتثبت أن كل ما يحدث إنما تتحكم فيه إرادة فاعل آخر ، إن حياتنا منذ الطفولة المبكرة وحتى الموت ، تشهد بأن الله وحده ، دون أحد سواه ، هو الذي يملك هنا العلم كله ، والقدرة كلها كذلك .. إن عجز الإنسان واضطراره يقوم دليلا على وجود الله القادر المطلق جل جلاله !

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ .

فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ : أفهم في الرزق متساوون ؟؟ لا .

من خلال مثال بسيط ، تم هنا إثبات بطلان العقيدة القائلة بأن لله شركاء ، وأنه تعالى خولهم جزءا مما يملكه من القدرة والاختيار .. وذلك المثال هو أن توزيع الأرزاق

في هذه الدنيا ليس متساويا ، فمما يلاحظ أن بعض الناس يكون ذا ثراء عريض ، بينما يتوفر لدى البعض الآخر حظ ضئيل منه لدرجة أنه يضطر إلى أن يعمل عند الأول – صاحب الفضل والثراء – كخادم أو عبد مملوك له .. وإنه ليس من صاحب فضل يحلو له أن يوزع ثروته كلها بين خدمه .. وهكذا يستوي هو وخدمه بمحو ما بينهما من الفروق والامتيازات ، إذن فكيف يسوغ الاعتقاد ، عن الله بأنه قد وزع قدراته واختياراته على الآخرين من عبيده ؟!

وأيما شخص لا ينكر عظمة نفسه بنفسه ، إذن ، فالشيء الذي لا يكاد يرضاه أو يستسيغه هذا الإنسان الذي ليس لديه أي متاع أو بضاعة ذاتية،كيف سيرضاه الله لنفسه،بينما كل ما عنده تعالي هو ملكه الذاتي،وليس ممنوحا له من أحد سواه ؟! والحقيقة هي أن كل العقائد من هذا النوع تنفي وجود الله، وهي تجر أو تستنزل الله إلى مستوى غير الله ، الأمر الذي لا يمكن ولا يسوغ بأي حال من الأحوال !

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

وَحَفَدَةً : خدما وأعوانا ، أو أولاد أولاد.

الإنسان مخلوق له احتياجات كثيرة لا تقع تحت الحصر ، ولقد وجدت في هذا العالم أسباب تضمن الوفاء بهذه الاحتياجات كلها على أحسن وجه وأكمله .. فالمرء يشعر بالجوع والعطش فيجد فيما حوله مقدارا وافرا من أطايب الطعام والشراب ، وإذ كان المرء بحاجة إلى زوجة تمنحه السكينة والاطمئنان الذاتي ، فما تزال النساء يولدن هنا

بتسلسل واستمرار وفق مقتضياته تماما ، وإذا كان المرء يواجه مشكلة بقاء نسله ، فإن هناك نظاما لتوالد الأبناء، والأحفاد لا يزال جاريا كذلك .

وما هذا كله إلا من عند الله تعالى .. ولكن الخطأ الذي ما زال الإنسان يرتكبه في كل العصور ، هو أنه نسب هذه النعم الإلهية إلى غير الله ، فالمشركون يعزونها إلى الآلهة والإلهات ، أو الذوات الحية أو الميتة من الإنس والجن ، بينما ينظر إليها الملاحدة على أنها نتاج تفاعلات القوانين الطبيعية العمياء .

وقد كان الغرض من إقامة نظام النعم هذا أن تستيقظ في نفس المرء عواطف الشكر والامتنان لله ، إلا أن المزاعم والتخيلات المصطنعة لم تلبث أن جعلت من هذا النظام مصدر الكفر بالله وذريعة النكران لفضله ونعمته .

ومعظم الضلالات والانحرافات العقدية إنما تتولد بسبب ضرب الأمثال وافتعال الأشباه والنظائر ، فعقيدة وجود البنين والبنات لله ، مثلا ترجع إلى قياسه تعالى بالإنسان الذي يكون له أبناء وبنات ، وكما يكون لدى العظماء وكبار الناس أفراد مقربون ومشفعون ، شاع الاعتقاد ، بناءً على ذلك ، أن هناك أناسا يتمتعون بالحظوة والتقرب عند الله كذلك ، وأن شفاعتهم في جناب الله مقبولة لا ترد !

وإلى هذا النوع من التمثيلات والتشبيهات ترجع أكثر أنواع الكفر والضلال غير أن قياس الخالق على المخلوق - وذلك قياس باطل - مصدره الجهل المحض لا غير ، فإن الخالق مختلف عن مخلوقاته من كل النواحي والاعتبارات ، وأي مثال أو نظير للمخلوق لا ينطبق على الخالق .. ومع أن تقريب شيء ما إلى الأفهام عن طريق المثال ليس في حد ذاته خطأ ، غير أن المثال إنما يحقق الغرض المطلوب إذا كان المرء على علم بالأصل (أي المشبه) والمشبه به ، وإذا كان الإنسان يجهل حقيقة الله جهلا تاما ، كما هو الواقع ، فكيف يمكنه أن يأتي بمثال أو شبيه له تعالى !!!

﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

للتدليل على بطلان التمثيلات المشركة ضرب القرآن هنا مثلا عاما وبسيطا، وهو: أن هناك شخصا تتوفر لديه الأسباب والوسائل من كل نوع ، وهو مالك ذاتي لها ، وبجانبه شخص آخر لا يملك أي شيء ملكا ذاتيا ، وكلا هذين الشخصين يختلف أحدهما عن الآخر اختلافا نوعيا ، ولذا فلن ينطبق مثال أي واحد منهما على الآخر أبدا.

وإذا كان هذا الاختلاف أو الفارق النوعي قد بلغ منتهاه بين الله وعبده ، فكيف يمكن – وهذه الحالة – أن يستمد مثال لله – سبحانه وتعالى – من وقائع البشر ؟!

إن التقسيم أو المعادلة القائمة بين الله والأشياء الأخرى في هذا الكون ، هي معادلة الخالق والمخلوق ، دون معادلة الإله وأنداده .. فإن وجود الله مصدر ذاتي مستقل لكل الكمالات على اختلاف أنواعها .. وهو وحده واهب النعم كلها كذلك .. وإن أبعد الأمور عن القياس وأشدها تناقضا مع الواقع في هذا الكون ، هو أن نفترض لأحد غير الله أشياء ليس له فيها من شريك ولا منافس !

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ : أخرس خِلقة .

وَهُوَ كَلٌّ : عبء وعيال .

لقد دلت الآية السابقة على بطلان الشركاء والأنداد بإزاء الله عز وجل ، وها هي ذي الآية جاءت تسلط الضوء على زيف وبطلان أناس يقفون في وجه الرسول ، والذين يعرض المرء عن هداية الرسول ثقة بهم واعتمادا على دعاويهم ومزاعمهم ..

والله – سبحانه وتعالى – يهدي الرسول ، بعنايته الخاصة ، إلى ذلك الصراط أو الشرع الذي هو شرع الحق القويم ، والذي يؤدي بسالكه إلى الله تعالى مباشرة ، وفيما يسلك النبي وأتباعه بأنفسهم في هذا الشارع ذاته ، يقومون بإرشاد الآخرين إليه كذلك.

ومن جانب آخر فإن هناك أناسا يدعون الآخرين إلى سبل أخرى غير طريق الرسول، ومثلهم كمثل الأعمى والأصم ، فليست عندهم آذان يسمعون بها أصوات الله ، وليست لهم أعين يبصرون بها تجليات الله ، ولا هم يملكون عقولا وقلوبا تمكنهم من فهم الآيات المنبثة في الكون .

وإنما كان السمع والبصر قد منحا للإنسان لكيما يشاهد بواسطتهما انعكاس الخالق في مرآة مخلوقاته، ولكنه استخدم هذه القوى بحيث صار متعلقا بالمخلوقات نفسها!

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) ﴾ .

كَلَمْحِ البَصَرِ : كخطفة بالبصر واختلاس بالنظر .

وراء هذا العالم الظاهري يوجد نظام غيبي ، أقامه الله سبحانه وتعالى ، ومع أننا – بسبب قصور مداركنا ومحدوديتها – لا نشاهد هذا النظام الغيبي ، غير أن كل شأن من شؤون حياتنا مكشوف على هذا النظام الغيبي بتمام الوضوح ، فالله – سبحانه

وتعالى – لا يزال يشاهد من وراء الغيب كل صغيرة وكبيرة مما يجري في دنياه ، وهو يقدر كل أمر أصح تقدير وأدقه ، وحين يقضي الله بأن مدة امتحان الإنسان قد بلغت نهايتها الآن ، فما هو إلا أن يشير تعالى مجرد إشارة ، حتى يتحطم النظام الحالى دفعة واحدة في طرفة عين ، ويحل محله نظام جديد على أسس مختلفة كل الاختلاف ، لكيما يتم إيصال الكل إلى حيث كان في واقع الأمر ، دون أن يترك حيث كان قد أقحم نفسه بوجه مصطنع وبدون جدارة ولا استحقاق!

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

إن الإنسان ،حين يولد يكون طفلا عاجزا لا يعقل أمرا ولا يفهم شيئا ، ولكنه عندما يكبر يصبح مالكا لتلك القوى المدهشة التي تسمى السمع والبصر والعقل، وقد كان من الممكن أيضا ، أن تكون كل تلك الصلاحيات التي تتولد في الإنسان على التدريج مع تقدمه في السن ، موجودة لديه منذ يوم ولادته الأول !

ولكن هذا لم يحدث .. وليس ذلك إلا لكي تستيقظ في داخل الإنسان عاطفة الشكر فهو يرى – أولا – حالة ضعفه وعجزه البدائية ، ثم يلاحظ أنه بلغ بعدئذ حالة راقية متقدمة ، مما يجعله يشعر بنعمة الله وفضله عليه وبالتالي تغمره مشاعر الشكر والامتنان لله!

على أن هذه الكيفية لا تتولد في نفس امرئ ما ، إلا إذا هو استخدم الطاقات المتاحة له من عند الله على وجه صحيح ، فلا يبقى سمعه وبصره وفؤاده متعلقا ببريق العالم الظاهري وحده ، بل يصير له بمثابة فتحات منها أحد الناس على ومضات الغيب .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾.

تَسْتَخِفُّونَهَا : تجدونها خفيفة الحمل.

يَوْمَ ظَعْنِكُمْ : وقت ترحالكم

أَثَاثاً : متاعا لبيوتكم كالفرش .

وَمَتَاعاً : تنتفعون به في معايشكم ومتاجركم .

إن طيران الطيور عبر الفضاء ، إنما يكمن وفق تخطيط للطبيعة عظيم .. من جوانب هذا التخطيط الطبيعي تكوين بنية الطيور بحيث جاءت مناسبة جدا لغرض الطيران ، والتى تم تقليدها الميكانيكي في شكل اختراع الطائرة ، وتوافر الهواء فوق الأرض هو بالنسبة للطيور بمثابة البحر بالنسبة للأسماك والسفن ، وبقاء الهواء حول الأرض باستمرار بفعل الجاذبية الأرضية .. إلخ

لولا هذه التدابير البديعة المحكمة لما تمكنت الطيور من الطيران عبر الفضاء .. ولو أمعنا النظر في هذا الحادث ، لبدا لنا ، وكأننا نرى الله – سبحانه وتعالى – متصرفا في كونه ، ولأدركنا من خلال النظام الطبيعي العجيب وجود خالقه ومنظمه ، ولرأينا تجلى الصانع في مرآة مصنوعاته !!

وهذا هو الشأن نفسه .. فالبيت هو محل راحة وسكون للمرء .. ولكن السؤال هو : كيف يتكون البيت ؟!

إن هناك تدابير إلهية كثيرة هي التي تمكننا من إقامة بيت واحد على وجه الأرض

فكل تلك المواد التعميرية التي يحتاج إليها لبناء بيت ما ، تم توفيرها في عالمنا هذا سلفا.. وتوجد في الأرض قوة الجاذبية بنسبة متوازنة للغاية ، وبفضل هذه الجاذبية ذاتها لا تزال بيوتنا قائمة مستقرة على سطح الأرض ، ولولاها لقذفت هذه الأرض – الدائرة بسرعة ألف ميل في الساعة – ما عليها من أبنية ومنازل بعيدا في الفضاء الخارجي !!

وكذلك ثمة أشياء يصنع منها المرء أجساما خفيفة ، وأشياء أخرى تصلح لتتحول إلى ملابس للإنسان يرتديها لأجل الزينة ، ويتقي بها حر الصيف وبرد الشتاء ، وما إلى ذلك .

وما الغرض من توفير مثل هذه الأشياء كلها إلا لكي تستيقظ في داخل الإنسان عاطفة الشكر لربه على نعمه،ويدفعه الإحساس بجلاله وقدرته إلى أن ينطرح بكل وجوده بين يديه تعالى خاضعا مستسلما!

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ .

ظِلالاً : أشياء تستظلون بها كالأشجار .

أَكْنَاناً : مواضع تسكنون فيها (الغيران) .

سَرَابِيلَ : ما يلبس من الثياب أو دروع .

تَقِيكُم بَأْسَكُمْ : الضرب والطعن في حروبكم .

إن ظلال السقوف والأشياء الأخرى ، ربما لا يتضح مدى أهميتها للمرء إلا إذا

وجد في صحراء قاحلة ليس بها ظل من أي نوع .. وإنه نتيجة لكون حرارة الشمس مقدرة تقديرا متناهيا في الدقة الرياضية ، نستطيع أن نستظل حتى بأي حاجز عادي، في حين لو أن حرارة الشمس كانت أشد من حرارتها الحالية – الأمر الذي كان ممكنا حدوثه بلا ريب – لتحولت بيوتنا ذات الظلال المريحة كلها إلى أفران ملتهبة .. ووجود ثقوب في صخور الجبال الصماء بحيث يتمكن المرء من اتخاذها حصونا ومعاقل يتحصن بها من هجمات أعدائه من البشر والحيوانات المفترسة ، وتوافر أشياء في هذه الدنيا يمكن تحويلها إلى خيوط دقيقة تزود المرء بلباس يحمي جسده من الحر والبرد ، إن أشياء كهذه ذات أهمية بالغة لمخلوق كبني آدم، لدرجة أنه لولاها لم يكن ثمة وجود لإنسان ،ولا وجدت أية حضارة إنسانية على هذا الكوكب الأرضي !

وهذه المعرفة تولد في نفس المرء شيئين في آن واحد : أحدهما : عاطفة الامتنان لله ، لأنه تعالى هو الذي وهب مثل هذه النعم الغالية ، والثاني : عاطفة الخوف والرهبة ، لأن الله لو استرد نعمه ، لم يعد أمام المرء بعدئذ من سبيل إلى تلافي ذلك .. وهذه المشاعر والأحاسيس حين تهز ضمير الإنسان وتوقظه بحيث يبادر إلى الخضوع والاستسلام ويطرح نفسه بين يدي ربه وذلك ما يسمى ((العبادة)) .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

إن الشخص يقوم بدراسة الكون وظواهره ، سواء كان رجلا عاديا أو متضلعا في العلوم الطبيعية ، تمر عليه لمحات ، إذ يتجه ذهنه تلقائيا نحو الخالق وهو يتأمل في عجائب المخلوقات، حيث إنه يشعر بأن هذه الأشياء المحيرة للعقل لم توجد هكذا مصادفة واتفاقا .. ولا هي من صنع الآلهة الفرضية الباطلة .. بل إن موجدها وصانعها هو الله العلي العظيم من غير شك !

غير أن الإيمان بالله يستلزم بالضرورة أن تتناول حياتك بالإصلاح والتغيير ، ويفرض عليك الابتعاد عن الطرق المؤدية إلى المعاصي والمفاسد ، ولهذا السبب فحين يمر المرء بهذه التجربة ، فلا يلبث أن يصرف ذهنه عن هذا الاتجاه ، بعدما اعتراه تأثر وقتي عابر ، وبالتالي فهو يتخلى عن الله رغم إدراكه لوجود الله !!

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ : لا يطلب منهم إرضاء ربهم .

يُنظَرُونَ : يمهلون ويؤخرون .

إن نهوض النبي – ﷺ – وأتباعه المخلصين الصادقين كدعاة إلى الحق بين الشعوب والأمم ، يبدو في ظاهره واقعة عادية ، فقد ظلت هذه الوقائع تقابل بقلة الاهتمام والاستهانة بشأنها لدرجة أننا لا نجد هناك أي نبي آخر ، عدا نبي آخر الزمان – ﷺ – من اعتبر عمله جديرا بالذكر والتسجيل في التواريخ المعاصرة له .

غير أن هذا العمل يصير بالغ الأهمية ومتناهيا في الخطورة إذا نحن نظرنا إليه من منظور الآخرة .. فإن هؤلاء الأنبياء ودعاة الحق ، هم الذين سيقفون في محكمة الآخرة كشهداء لله، وعلى أساس شهادتهم ذاتها ستتقرر مصائر الناس الأبدية ، فسيدخل في عداد أصحاب النار هناك ، في ذلك العالم الأبدي ، أولئك الذين يصرح الشهداء الإلهيون بأنهم كانوا قد أنكروا الحق ورفضوا الطاعة والإذعان له ، فسيقذف بهم في نار جهنم الأبدية .

ولو أن أمة نهض فيها دعاة الله الصادقون ، وهي تقابل دعوتهم بالرفض والإنكار ، فإنما يكون ذلك دليلا قاطعا على كونها أمة مجرمة ظالمة ، وبعدئذ تفقد تلك الأمة حقها في الاعتذار بأننا لم نكن على علم بأمر الآخرة ولا الجنة ولا النار ، ولذا ينبغي أن يتم إعفاؤنا من عذاب هذا اليوم العصيب أو بالأحرى يخفف عنا نوعا ما !!

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

السَّلَمَ : الاستسلام والانقياد لحكمه تعالى .

عندما تقوم الساعة ، تنكشف هذه الحقيقة في أوضح صورة وأظهرها للعيان وهي أنه ليس هناك من أحد في هذا الكون ، غير الله سبحانه وتعالى ، يتمتع بأي نوع من القوة والسلطان .. وإذا رأى المشركون حينئذ آلهتهم التي كانوا يعبدونها ، في الدنيا ، فسوف يلجؤون إلى أقاويل تثبت براءتهم ، وكأنما هم يقصدون بذلك أن هذه الآلهة الباطلة قد ظلت تخدعنا عن أنفسنا إذ عبدنا ما لا يستحق العبادة من دون الله .. غير أن تلك الآلهة سوف لا تلبث بدورها أن ترد ذلك إليهم قائلة : إنه لم يكن إلا طغيانكم أنفسكم ، حيث قمتم باختلاق آلهة ومعبودات باطلة تنصلا من طاعة الله والانقياد لحكمه ، وما زلتم تستغلون أسماءها لتبرير دينكم القائم على الأهواء والآراء المزعومة !

هناك شخص لا يتلقى دعوة الحق بالقبول .. وآخر يحاول - إلى جانب إنكاره الشخصي للحق - أن يصد الآخرين عنها كذلك بشتى الطرق والأساليب ، ولئن كان الموقف الأول هو الضلال ، فإن الموقف الأخير هو قيادة الضلال .. وسيلقى هؤلاء

الذين يتولون قياد مسيرة الضلال في الدنيا ، سيلقون ضعف العذاب الذي يلقاه الضالون في الآخرة .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) ﴾ .

لقد جرت سنة الله تعالى بأن يندب للاضطلاع بمهمة الإنذار والتبشير بين أمة ما ، ((شخصا مختارا)) من أبناء الأمة نفسها .. وللسبب ذاته كان كل الأنبياء المبعوثين في الأمم الغابرة ، أفرادا منتمين إلى الأمم نفسها ، أما الآن فإن الأمة الإسلامية هي المسئولة – بعد ختم النبوة – عن أن تنهض بأعباء الدعوة وشهادة الحق نحو شعوب العالم أجمع إلى يوم القيامة .. والقائمون بدعوة أمم الأرض إلى الحق هؤلاء سيكونون شهداء الله على الأمم في الآخرة ، وعلى أساس شهادتهم ذاتها سيحكم هناك على كل فرد من أفراد الأمة بالثواب أو بالعذاب .

ونعت القرآن بأن فيه ((تبيانا)) لك شيء ليس معناه أن الكتب السماوية الأخرى لم تكن تتضمن بيانا لكل شيء ، فالحقيقة هي أن كل كتاب سماوي نزل من عند الله كان محتويا على بيان لكل شيء .

بيد أن علاقة ((كل شيء هذا ليست بالعلوم والفنون الدنيوية ، بل هو يتصل بمعرفة أسباب النجاح والفشل الأخرويين ، فقد اشتمل القرآن الكريم – مبدئيا – على بيان لكل تلك الأشياء التي تضمن لأحد النجاح في الآخرة ، أو تؤدي إلى الفشل فيها.. والآن فإن الذين سيقتبسون منه الهداية ، فإنه يصير لهم نعمة عظيمة غالية ، وأما الذين لا يهتدون بهديه ، فسوف لا يسعهم إلا أن يقيموا الحجة على أنفسهم، برفضه

وإنكاره ، وأن يقدموا بذلك مبررا لما ينتظرهم من الهلاك والدمار العاجل أو الآجل !

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ .

يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ : بالاعتدال والتوسط في الأمور اعتقاداً وعملاً وخلقا .

وَالإِحْسَانِ : إتقان العمل . أو نفع الخلق .

الفَحْشَاءِ : الذنوب المفرطة في القبح .

وَالْبَغْيِ : التطاول والتجبر على الناس .

كيف ينبغي لعبد من عباد الله أن يعيش في هذه الدنيا ؟

لقد انطوت هذه الآية الكريمة – على وجازتها – على إجابة واضحة شافية عن هذا السؤال .. ونظرا لما لها من هذه الأهمية البالغة ، كان الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز قد ضم هذه الآية إلى خطبة الجمعة الأسبوعية .

وأول ما يجب على أحد الناس أن يهتم به هو « العدل » .. وهو يعني : أن يدفع كل شخص ما لغيره ما عليه من الحقوق بتمامه من غير بخس ولا نقصان ، سواء كان صاحب الحق ضعيفا أو قويا ، ورجلا محبوبا أو مكروها ،ففيما يتعلق بأداء الحقوق إلى ذويها ، إنما ينظر إلى الحق وحده ، وليس إلى أية اعتبارات أخرى .

والشيء الثاني هو « الإحسان » ... والمراد به : هو أن نتخذ من السماحة شعارنا في دفع حقوق الآخرين .. فنجمع الرأفة والإشفاق إلى جانب العدل والإنصاف ، ونذهب أبعد من إطار المقتضيات القانونية ، ونتبنى موقف الفضل والعطف والكرم ، وأن تسمو همتنا بحيث نرضى لأنفسنا بأقل مما نستحقه فعلا ، ونحاول أن نعطي لغيرنا

أكثر مما يستحقه هو .

والشيء الثالث هو « إيتاء ذي القربى » .. وهو يعني أنه كما يملأ فؤاد المرء شعوره بما يعانيه أهله وعياله من شدة الحاجة ، قلقا واضطرابا يدفعه إلى السعي وراء دفع غوائلها عنهم ، ينبغي عليه أن يكون حساسا نحو حاجة أقاربه الآخرين كذلك .. فلا يحسب كل ذي سعة ويسار أن ماله ليس إلا لنفسه هو ولأهل بيته وحدهم ، بل ليعتبر تأدية حقوق أقربائه وقضاء حاجاتهم أيضا واحدا من واجباته الأساسية المنوطة به .

وبعدها تتوجه الآية إلى النهي عن الأمور الثلاثة الآتية :

أولاً : الفحشاء والمقصود بها جملة الرذائل الخلقية الظاهرة أو المكشوفة .. أي تلك الرذائل التي يكون كل أحد على علم بشناعتها بوحي ضميره الداخلي ، والناس – عادة– ينظرون إليها نظرة تقزز واشمئزاز ؛ لأنها تنافي الشرف والحياء ، وتجلب الخزي والعار على فاعليها .

وثانياً : المنكر ، وهو ضد المعروف ،فالمعروف هو الخصال الحميدة التي تستحسن في كل المجتمعات البشرية ، وعلى النقيض من ذلك فالمقصود بالمنكر هو تلك الأمور السخيفة التي لا تتفق مع المعيار الأخلاقي العام ، وهو يشمل كل ما يراه البشر قبيحا وسيئا بوجه عام، وما تأبى القبول به الفطرة الإنسانية .

وثالثاً : البغي ، ومعناه التجاوز والاعتداء .. وهو يتضمن كل نوع من الطغيان يتخطى فيه المرء حدوده الواقعية ، فيتطاول على غيره ، ويتخذ إجراءات عدوانية تعسفية ضد أحد الناس بغية النيل من نفسه أو ماله أو عرضه، ويأخذ في استخدام ما يحظى به من قوة ونفوذ لاقتناص الفوائد غير المشروعة !

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ

جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

كَفِيلاً : شاهدا . رقيبا . ضامنا .

قُوَّةٍ : إبرام وأحكام .

أَنكَاثاً : أنقاضا محلولة الفتل .

دَخَلاً بَيْنَكُمْ : مفسدة وخيانة وخديعة بينكم .

أَن تَكُونَ أُمَّةٌ : بأن تكون جماعة .

هِيَ أَرْبَى : أكثر وأعز وأوفر مالاً .

يَبْلُوكُمُ الله بِهِ : يختبركم به هل تفون بعهدكم.

عملية الغزل هي عبارة عن الكدح لجمع ألياف متناثرة متفككة ، وربطها برباط وثيق يحولها إلى خيطان تصنع منها أشياء نافعة لنا كالثياب والأقمشة ونحوها . والآن فلو أن أحد الرجال أو النساء ظل يكدح طوال النهار يغزل ، ثم لا يلبث أن ينقض خيوطه المغزولة مع المساء أنقاضا ، فسوف تذهب جهوده سدى ودون جدوى .

وهذا هو شأن أولئك الذين يبرمون فيما بينهم عهدا ما ثم يتناوله فريق منهم بالنقض بلا مبرر أو سبب معقول، فكما أن تبديد الخيوط المغزولة عبثا ، إحباط لما بذلناه من جهود مضنية ، كذلك نقض معاهدة مبرمة ، هدم لذلك العمل كله من الأساس الذي كان قد تسبب في إيجاد فرصة للوحدة واللقاء بين فريقين متخاصمين

من الناس .

والمرء لا يعيش في العالم الراهن بمفرده ، بل مع كثيرين آخرين من البشر وكل أحد مضطر إلى أن يمارس عمله ونشاطه في هذه الحياة مع أناس آخرين عداه ، ولهذا السبب كان للاعتماد أو الثقة المتبادلة أهمية كبيرة جدا في الحياة الاجتماعية ، ولأجل إقامة هذه الحياة الاجتماعية على أساس متين تمس الحاجة إلى عقد عهود ومواثيق شتى بين شخص وآخر ، وهي تكون مصحوبة مؤكدة بالقسم تارة وخالية من القسم تارة أخرى . والآن لو أن الناس أخذوا يتلاعبون بحرمة هذه المعاهدات ، وذلك بنقضها بدون أية دواعٍ أو مبررات حقيقية لانتشر الفساد والفوضى في الحياة الاجتماعية ، وأصبح القيام بأي عمل من أعمال البناء والتعمير ضربا من المستحيل .

وللعهد المؤكد باليمين نوعان أحدهما : أن تعاهد أحدا غيرك مع النطق بكلمات القسم المعهودة ، وثانيهما : أن نص المعاهدة مع كونه خلوا من أمثال هذه الكلمات ، إلا أنه ينطوي على إشارة إلى الله أيضا من بعض الوجوه .. وكأنما يريد المتعاهدان بذلك جعل الله شاهدا أو كفيلا على أمرهما ، ومن ثم فإن نقض العهود المؤكدة باسم الله نصا وصراحة كان أشد سوءا وأكثر شناعة ، فإن معنى ذلك أن المرء قد استغل اسم الله عندما كان يتوخى كسب ثقة الآخرين به ، ولكنه عندما سيطرت عليه مطالب النفس أو المصالح أعرض عن الله ونسيه .

والمعاهدات التي يتم إبرامها بين الأفراد أو الشعوب تنقسم إلى قسمين : أما أحدهما فهو الذي يخضع للمبادئ.. وأما الآخر : فهو الذي يخضع للمصالح ، وقد ظل الوضع السائد منذ أقدم العصور وحتى يوم الناس هذه أن المعاهدات تدور نقضا وإبراما مع المصالح وحدها ، أي يبادر الناس إلى إبرام المعاهدة إذا رأوها أوفق لصالحهم ، ويسارعون إلى نقضها إذا ما بدا لهم النقض محققا لفائدة ما ، وعلى العكس من ذلك

فقد جاءت تعاليم الإسلام تؤكد على ضرورة إخضاع المعاهدات للمبادئ الشرعية والقيم الأخلاقية الثابتة ، دون المصالح الشخصية أو المنافع المادية المتغيرة .

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ .

الدنيا مليئة بخلافات شتى .. وفي غمرة هذه الخلافات لا يكاد الحق والباطل يتميزان بعضهما عن بعض إلا لمن هداه الله لذلك .. وإنما السبب في ذلك هو التدبير الإلهي الذي أنشأ الله العالم الراهن بمقتضاه، وذلك هو الامتحان .

فقد وضع الإنسان في العالم الراهن بغرض الاختبار .. ولم يكن هذا الغرض ليتحقق بدون أن يكون كل شخص متمتعا بحرية كاملة للرفض والقبول، وأن تتاح له الحرية أيضا لكي يثبت الحق باطلا ، ويلبس الباطل ثوب الحق ولو لم تكن هذه الحكمة لأخضع الله البشر جميعا لحكمه تماما كما جعل بقية الكون خاضعا لحكمه .

وهذا الوضع سيدوم كما هو إلى يوم القيامة .. وسيتضح في يوم القيامة بجلاء من الذي قام باستخدام عقله وفهمه على نحو صحيح ومن الذي قابل الحق بالإعراض واللامبالاة حرصا على مصالحه هو ، وحينئذ سيعامل الله تعالى كل إنسان بما كان قد أثبت نفسه أهلا له في مرحلة الاختبار والامتحان الراهنة .

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) ﴾ .

فَتَزِلَّ قَدَمٌ : فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام .

إن عقد المعاهدة مع الإقسام بالله ، هو الصورة النهائية للعهد المؤكد الغليظ ، وعلى هذا الاعتبار تندرج تحت هذه الآية كل العهود والمواثيق على اختلاف أنواعها .

فلئن أبرم المسلمون مع غيرهم معاهدات ، ثم نكثوها لأجل بعض المصالح العاجلة، فإن ذلك سيقضي حتما على اعتبار المسلمين الأخلاقي في المجتمع وبالتالي سيعود عملهم ذاك سببا في صد الناس عن سبيل الله ، وتشويه صورة المؤمنين بدين الحق في أعينهم ، وفي هذا الصدد قال ابن كثير ((.. لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده،ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين ، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام))[1].

وإنما يلجأ المرء دوما إلى نكث العهد على نحو غير شرعي ، لما قد يخيل إليه أنه لو نقض العهد ، فسوف يمكنه الحصول على كذا من المنافع الدنيوية ، إلا أن نظرة المؤمن تكون متطلعة دوما نحو الآخرة ، فكلما حدثت إليه نفسه الغدر بإنسان ، كبح جماح نفسه قائلا لها : لئن كان نقض العهد ينطوي على منفعة الدنيا ، فإن عدم نقضه يتضمن منفعة الآخرة ، وأن المنفعة الأخيرة لهي – من غير شك – أكبر وأعظم من المنفعة الأولى بكثير .

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ .

يَنفَدُ : ينقضي ويفنى ويزول .

الوقوف إلى جانب الداعي إلى الله هو أن تربط نفسك بدين الله الحق ، حتى لو كان غير مألوف ولا سائد ، مع التخلي عن نظام ديني تقليدي يتمتع بالسيادة والسلطان . واتخاذ خطوة كهذه أشق وأصعب ما يكون على المرء دائما .. فإن ذلك يتطلب التغاضي

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤٥.

عن الفائدة القريبة الحاصلة من جانب البشر ، والتقدم نحو الفائدة البعيدة المرجوة من عند الله – سبحانه وتعالى .

والشيء الوحيد المطلوب لتبني قراراً من هذا النوع هو : « الصبر » .. أي أن يكون المرء قادرا على التحمل لخسارة اليوم لأجل منفعة الغد ، وأن يتوفر لديه هذا الاستعداد الذي يؤهله لإيثار ما لا يرى على ما يرى ، فيعطي الأول (غير المنظور) في حياته أهمية أكبر من الأخير « المنظور » وأن تسمو همته وترتفع معنويته بحيث يختار شيئا ما مقابل التضحية ، ليس طمعا فيما عساه يدر عليه من ربح وقتي عاجل .. وعباد الله الذين يقيمون الدليل على هذه العزيمة الفذة ، جديرون حقا بأن يتفضل عليهم بإنعاماته العليا .

والأفراد الذين يتكبدون ألوان الخسائر في ظل النظام السائد ، بسبب وقوفهم إلى جانب الحق الخالص ، ربما ينظر الناس إليهم على أنهم قد ضاعوا ضياعا محققا ، ولكن الله قد وعدهم – وهو تعالى لا يخلف وعده – بأنه سيعطيهم الأجر الوافي على ما قدموا في سبيله من تضحيات ، وأنه سيمنحهم حياة طيبة جدا في العالم الأبدي بعد الموت ، والأشياء التي فقدها هؤلاء في الحياة الدنيا بصفة وقتية ، سيردها إليهم هناك في أفضل صورها وأكملها وبصفة أبدية .

وإن وعد الله هذا يشمل النساء تماما كما هو يشمل الرجال ، إذ لا فرق ولا تمييز عند الله – سبحانه وتعالى – بين الرجل والمرأة فيما يتعلق بجزاء الأعمال .

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ .

فَٱسْتَعِذْ بِاللهِ : فاعتصم به - تعالى - والجأ إليه .

سُلْطَانٌ : تسلط وولاية .

يَتَوَلَّوْنَهُ : يتخذونه وليا مطاعا .

يقرأ القرآن لغرضين رئيسين : أولاً : تقرأه للتذكر والاعتبار الذاتي ، وثانياً : أن تتلو آياته على الآخرين لاستمالة نفوسهم إلى دعوة الحق .. ، وسواء تلونا كلمات القرآن الكريم كما هي ، أم قمنا بشرح معانيها وتوضيح ما تنطوي عليه آياته من أحكام وتشريعات ، لابد للقارئ في كلا الحالتين ، أن يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. و((التعوذ)) لا يعني بتكرار ألفاظ محددة ، بل معناه أن نسلح أنفسنا شعوريا بحيث تعود هجمات الشيطان غير مؤثرة علينا .

الشيطان دوما يقف للمرء بالمرصاد ، وهو لا يلبث أن يغير مفاهيم ألفاظ القرآن في ذهن القارئ ، ويغريه بأن يضم ما ليس في النص إلى التفسير .. وهكذا فقد يثير الشيطان بين الداعي والمدعو ضروبا من الفتن والصراعات تحول دون استمرار عملية الدعوة .

على أن الله - سبحانه وتعالى - إنما أتاح للشيطان حرية الوسوسة والإغراء ، ولم يمنحه القدرة على أن يوقع أحداً إلى طريق الضلال قسرا ، فلا تنطلي حيله على أولئك الذين لا يزالون مرتبطين بالله بقلوبهم وعقولهم ، أما الغافلون عن الله والذين يصغون للشيطان وإغراءاته ، فإن الشيطان يسيطر عليهم ، ويركب رؤوسهم ، وبالتالي يسوقهم إلى أي اتجاه شاء .

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ .

رُوحُ الْقُدُسِ : الروح المطهرة جبريل عليه السلام.

إن القرآن كتاب دعوي .. نزل منجما على مدى ٢٣عاما ، كما أن بعض أحكامه شرعت على التدريج ، تبعا لمصالح الدعوة والتربية « وعلى سبيل المثال : أُمر المسلمون بالصبر على أذى المعارضين ، ثم أمروا فيما بعد بأن يقاتلوهم » .

وبالنظر إلى « تغييرات » من هذا القبيل كان المعارضون يقولون : إن القرآن ليس كتابا منزلا من عند الله ، إنما هو من تأليف محمد نفسه ، والذي نسبه – كذبا وافتراء – إلى الله إذ لو أنه كان من عند الله ، لم يكن لتطرأ عليه تغييرات كهذه أبدا .

ولو أن هؤلاء المعارضين كانوا جادين بشأن القرآن ، ونظروا إلى واقع التغيير من زاوية صحيحة ، لتجلت لهم فيه حكمة التدرج في تنزيل الأحكام القرآنية ، لكن الشيء الذي كان منطويا على دواعي التصديق لهم ، اتخذوا منه ذريعة للتكذيب والافتراء !!

لقد نزل القرآن بالحق –المقصود بـ « الحق » هنا هو دين الله النقي الخالص – والذين يبحثون عن الصدق ، ولا يجدون في الأديان المحرفة ما يقنع عقولهم ، ويطمئن ضمائرهم ، يمثل الدين الإسلامى ، بالنسبة لأمثال هؤلاء الباحثين الحيارى جوابا شافيا على بحثهم وطلبهم ، وفي الوقت نفسه يزودهم أيضا بقناعة عقلية وسكينة قلبية وطمأنينة ضمير.

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ .

يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ : يميلون ويلبسون إليه أنه يعلمه .

كان هناك عدد من العبيد الأعاجم بمكة ، كانت أسماؤهم ، بحسب ما ورد في كتب التفاسير؛ جبر ويسار وعايش ، ويعيش .. إلخ ، وقد ذكر في هذا الخصوص اسم سلمان الفارسي هو الآخر ، الذي اعتنق الإسلام فيما بعد، وقد كان هؤلاء العبيد إما يهودا أو نصارى ، ومن ثم فقد كانت لديهم معلومات عن الديانتين السماويتين القديمتين : اليهودية والنصرانية .. وربما كان بعضهم يلتقي برسول الله – ﷺ – بين حين وآخر ، فما لبث زعماء قريش أن اتخذوا من هذه اللقاءات العابرة أساسا للقول بأن هؤلاء الأعاجم يخبرون محمداً ﷺ ببعض الأخبار،فإذا به يقدمها بدوره إلى الناس زاعما لهم أنها كلام إلهي!

الذي جعل زعماء المشركين هؤلاء يتداولون مثل هذا اللغو السخيف المثير للضحك؟! إنما يرجع السبب في ذلك إلى تلك الرذيلة العامة التي – كانت وما تزال – فاشية بين الناس على اختلاف الأعصار والأمصار، ألا وهي: عدم معرفة قدر الشخص المعاصر لنا .. قد كان رسول الله – ﷺ – شخصية معاصرة لقريش ، ولذا فقد أخفقوا في تقديره حق قدره .

ويتضح من هذه الآيات أن المصابين بعقدة المعاصرة –إن صح التعبير – أبدا لا يوفقون إلى قبول الحق ، وإنما ديدنهم أن يلفقوا أقاويل كاذبة ضد حملة لواء الحق بدلا من الاعتراف بالحق ، فهم لا يلقون بالا للحقائق الكبرى على غاية وضوحها ، بينما لا تفتأ تتداول ألسنتهم الأباطيل والترهات السخيفة بهدف تشويه سمعة الداعي،وهم يظلون مشغولين في ذلك،إلى أن يفاجئهم الموت ، فيتعرضون لبطش الله وعذابه !

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

اسْتَحَبُّوا : اختاروا وآثروا .

طَبَعَ : ختم .

لاَ جَرَمَ : حق وثبت أو لا محالة أو حقا .

إنما تكون العبرة عند الله تعالى بالحقيقة (الباطنة) ، وليس بالظاهر .. وللسبب ذاته اتسمت نظرة الإسلام إلى الإنسان بمنتهى اليسر والسماحة ، حيث قدم له كثيرا من الرخص.. ومن أمثلة ذلك أن الله – سبحانه وتعالى – لا يؤاخذ شخصا ينطق مكرها بكلمة الكفر ، بصفة وقتية ؛ حفاظا على حياته ، وهو وفي مخلص لله من صميم قلبه .. اللهم إلا الذين تغيروا من الداخل تغيرا جذريا ، وبالتالي ساروا في أي اتجاه آخر ، متأثرين بالشبهات الشيطانية أو بضغوط الأحوال الخارجية عن طيب خاطر وانشراح صدر فإنهم غير جديرين البتة بالعفو ولا بالمغفرة عند الله عز وجل .

وحين يختار المرء طريق الكفر بدلا من طريق الإيمان يرجع السبب في ذلك دوما إلى حب الدنيا والعبودية لزخارفها .. فهو إذ يرى بعض مصالحه الدنيوية يتهددها الخطر ، فلا يلبث أن يسير في الاتجاه المضاد للإيمان ، ولو أنه كان مدركا لقيمة الآخرة عارفا بقدرها ، لبدت له مصالح الدنيا لدى أحد الناس وهي الأهم والأعظم قدرا من الآخرة فتكون نتيجة ذلك – وبطبيعة الحال – أنه لا يكاد يستطيع النظر في الأمور من منظور الآخرة فهو مع كونه يرى ويسمع ، إلا أن ميله إلى الدنيا يحول دون رؤيته لجانب الأشياء الأخروية ، وإنما هو يقدر على رؤية الجانب وحده الذي له صلة بمصالح الدنيا

العاجلة ، والذين ينحدرون إلى هذا الدرك الأسفل من الغفلة ، لن يقع في نصيبهم سوى الخيبة والخسران الأبدي !

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ .

لِلَّذِينَ هَاجَرُوا : لهم بالولاية والنصر لا عليهم .

فُتِنُوا : ابتلوا وعذبوا لإسلامهم .

لئن كانت البيئة يسودها الباطل ، وتقدم آنئذ شخص ما بقبول الحق ،فإنه يتعرض عندها لمحنة قاسية جداً ، حيث تتوالى عليه الضغوط من كل أنحاء البيئة ، تضطره إلى أن يعود القهقري فيتشبث ثانية بالدين التقليدي الذي يحظى بالسيادة والنفوذ ، ولو أنه بقى ثابتا على جادة الحق ، بالرغم من الضغوط والإغراءات الخارجية ، وبالتالي رضي بالتخلي عن كل شيء ، حتى المال والعقار والأهل والوطن ، ولم يتخل عن الحق ، فقد انخرط في سلك المهاجرين والمجاهدين في سبيل الله ، وهو بذلك يصير عند الله أهلا لثواب عظيم .. وليس ثمة شيء يثبت الأقدام على جادة الحق ، ويحفز النفوس على التمسك به في معترك هذه الحياة سرعان ما سيصادفه ، وإنه سيكون يوما عصيبا قاسيا لدرجة أن المرء سيذهل حتى عن أصدقائه وأقرب أقربائه ، إذ لا أحد يستطيع هناك أن يتصدى للدفاع عن أحد سواه ، ولا أحد تبلغ به الجرأة إلى حد أن ينهض محاميا أو شافعا لأحد غيره ، وإنه لن يسع المرء في حالة ما إذا سيطر عليه الإحساس بمدى خطورة هذا اليوم القادم ، لن يسعه إلا أن يتحمل كل ألوان الخطوب والخسائر ، مهما كان حجمها ، عن رضا وسرور ، دون أن يتخلى عن الحق أبدا !

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

رَغَداً : طيبا واسعا أو هنيئا لا عناء فيه .

لئن كان أحد المجتمعات البشرية يسود أرجاءه الأمن والاستقرار ، ويتمتع أهله بالرخاء وسعة الرزق ورغد العيش ، ثم بعث الله فيه عبدا من عباده ، داعيا إلى الحق ، فإن المجتمع يقف دوما أحد موقفين لا ثالث لهما : فإما أن يبادر هذا المجتمع إلى قبول الحق فيصير أهلا للمزيد من الإنعامات الإلهية وإما أن يرفض الحق رفضا باتا ، مما يجعله يتعرض لضروب شتى من الكوارث والنكبات ، وهذه الكوارث لا تكون في حقه عذابا إلهيا ، بل تكون بالأحرى نذرا أو تحذيرات إلهية ، تهدف إلى تنبيه الناس من الغفلة وإيقاظ حساسيتهم من حالة الركود ، وبالتالي تجعلهم مستعدين لتلبية نداء الداعي إلى الله .

ولو أن التحذيرات من هذا النوع لم تعد تجدي نفعا ، وذهبت أدراج الرياح ، في أعقاب اكتمال الدعوة والبلاغ ، يفاجأ القوم بحلول المرحلة الأخيرة الحاسمة ، وهي أن يتم إهلاكهم جميعا ، ليصلوا إلى عالم الآخرة حيث ينتظرهم مصيرهم الأبدي المشؤوم .

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾.

وَالدَّمَ : المسفوح وهو السائل .

وَلَحْمَ الخِنزِيرِ : أي الخنزير بجميع أجزائه .

أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ : ذكر الضروة إلى التناول منه .

اضْطُرَّ : دعته الضرورة إلى التناول منه .

غَيْرَ بَاغٍ : غير طالب للمحرم للذة أو استئثار .

وَلاَ عَادٍ : ولا متجاوز ما يسد الرمق .

تتحدث هذه الآية عن المأكولات اليومية .. فالأشياء التي خلقها الله صالحة للأكل والتغذي، هي كلها حلال للإنسان ، باستثناء عدد معين منها ، غير أن الإنسان المشرك القديم لم يلبث أن حرم على نفسه من تلقاء نفسه الكثير من الأغذية التي أحلها الله ، بينما سلك الإنسان الملحد الجديد في اتجاه مضاد لذلك تماما ، حيث أحل لنفسه الكثير من الأغذية التي حرمها الله تعالى .. وكلا هذين الاتجاهين خانق لتلك الروح المطلوب إيجادها في ضمير الإنسان عبر النعم الغذائية المتاحة له .

إن الغذاء هو أشد حاجات الإنسان أهمية على الإطلاق ، فكل واحد منا يجرب ذلك صباح مساء ، ومطلوب الله بهذا الخصوص هو أن المرء إذ يقبل على تناول الغذاء ، فليأكله معتبرا إياه من الله ، فليشكر الله على منه وفضله ، ولكن الإنسان لم يلبث أن قلب الأمر كله رأسا على عقب .. فلئن كان هو قد نسب هذه الأغذية ، خلال العصر المشرك أو الوثني القديم إلى الآلهة المزعومة ، وهكذا جعل منها وسيلة لذكر الآلهة بدلا من ذكر الله الواحد ، فقد وصل الأمر بالإنسان في هذا العصر الإلحادي الحديث ،إلى أنه أخضع الأمر كله لمتعة نفسه وشهوتها ، فاستحل لنفسها كل شيء ، حتى الأغذية المحرمة من عند الله ، وكانت النتيجة أن تحولت الأشياء التي خلقها الله مائدة لإمتاع

نفسه وقضاء لذته وإشباع رغبته بصرف النظر عما إذا كانت هي حلالا طيبا أو حراما خبيثا !!

ولو أن شخصا ما همَّ بمخالفة تشريع الله الغذائي ، في حالة الاضطرار ، وذلك بأن يأكل من الحرام إبقاء على حياته ، فإنما هو يفعل ذلك مدفوعا بمشاعر الندم دون البغي والعدوان ، ومن ثم فلا يترتب على ذلك أي فساد في النفسية الإنسانية .

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

إن هذه الآية لا تتعلق بالتشريع العام أو سن القوانين العامة ، بل بالحكم على الأغذية والمأكولات بالتحريم والتحليل .. فقد ظل الإنسان دوما يعد بعض الأشياء الغذائية حراما وبعضها الآخر حلالا ، وذلك إما تمشيا مع الأوهام والخرافات أو انقيادا للأهواء والشهوات.. إلا أن القائلين بذلك لا يلبثون أن ينسبوه إلى الدين .

ومن الأضرار الناجمة عن هذا النوع المذكور من التحريم والتحليل أنه يولد في نفوس الناس ميلا إلى عبادة الأوهام والشهوات ، بينما الموقف الصحيح للمرء هو أن يعيش في الدنيا عابدا لله تعالى وحده .. والإنسان متمتع بحرية التصرف في الحياة الراهنة بسبب الامتحان ، فسوف يفاجأ الإنسان بإدراك أن لم يكن له هناك سوى طريق واحد ممكن ، ألا وهو تبني عبادة الله وعبوديته دينا لنفسه .. وأما ما عدا ذلك من الأشياء التي اختارها في حياته ، فلم يكن إلا سوء استعمال للحرية المتاحة له امتحانا ، وليس بأي حق مشروع له ، وحينئذ سيواجه المرء حتما العاقبة الوخيمة التي قدرت للفاشلين في الامتحان !

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ .

تنص أسفار اليهود على تحريم بعض الأشياء لم تحرمها شريعة الإسلام ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (النساء : ١٦٠) وليس السبب في ذلك أن الله – سبحانه وتعالى – قد شرع بنفسه نوعين من الأحكام مختلفين .. إذ الواقع أن اليهود قد حرم عليهم بدورهم تلك الأغذية التي ورد.ذكرها هنا – أي في الآية ١١٥من هذه السورة – غير أن اليهود لم يلبثوا فيها بعد أن حرموا على أنفسهم - تبعا لتصوراتهم المزعومة - أشياء كانت قد أحلت لهم ، وإنهم لم يرضوا بالتخلي عن دينهم المزعوم هذا ، بالرغم من نصح الأنبياء وتحذيرهم المتكرر . وفوق ذلك فإنهم حرموا – أولا – ما أباح الله لهم ، وهكذا ورطوا أنفسهم في حرج ومشقة لا داعي لها ، ثم إذا عجزوا عن تجنب هذا الحرام ، استحلوه لأنفسهم – عمليا – مع اعتبارهم إياه حراما على مستوى العقيدة .. وهكذا فقد ازدادوا جرما على جرم .

ولو أن المرء حرم على نفسه شيئا مباحا بموجب أية نظرية مزعومة ، وراح يتحمل من أجله ألوان المشقات أو يقدم ضروب التضحيات ، فإنما سيكون ذلك من باب ظلمه لنفسه هو ، وليس من باب التضحية في سبيل الله .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾ .

بِجَهَالَةٍ : بتعدي الطور وركوب الرأس .

إن فعل السوء ، حين تصاحبه مشاعر الطغيان والتعصب ، فأبدا لا يرضى فاعله

بالانصراف عنه ، مهما أتيت بأوضح الأدلة وأقواها على بطلان عمله ، على أن هناك نوعا آخر من السوء ينشأ عن محض الجهل أو السفه ، فالمرء ربما يرتكب خطأ ما على حين غفلة أو لكونه أخفق في مقاومة نوازع الشر في نفسه .. ومثل هذا الشخص يخلو في الغالب من العناد والتعنت ، ومن ثم فحين يتضح له خطؤه يعود من فوره إلى الصواب ، ويستمسك بالموقف الصحيح من جديد .

أما الصنف الأول من الناس فمن البديهي الذي لا يقبل أخذا ولا ردا أنهم غير جديرين بالعفو أو المغفرة ، وأما الصنف الأخير من الناس فله البشارة بأن الله سيتغمده برحماته ، لأنه تعالى غفور رحيم بهم !

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ .

كان أُمَّةً : معلما للخير ، أو مؤمنا وحده .

قَانِتاً لله : مطيعا خاضعا له تعالى .

حَنِيفاً : مائلا عن الباطل إلى الدين الحق .

اجْتَبَاهُ : اصطفاه واختاره للنبوة .

مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ : شريعته وهي التوحيد .

لقد قام سيدنا إبراهيم – عليه السلام– في القرآن الكريم كأنموذج للإنسان المطلوب عند الله سبحانه وتعالى.. ولماذا صار – عليه السلام– الإنسان «الأنموذج»

ذلك لأنه كان هو الإنسان الوحيد في قومه الذي تمسك بالإيمان على رغم فساد البيئة كلها من حوله ، والذي قد نهض بمفرده لأجل الله ، حيث لم يكن أحد يناصره أو يرافقه في هذا الطريق الشائك الطويل.

وقد كان سيدنا إبراهيم – عليه السلام- سخر وجوده كله لطاعة الله والقيام بأوامره، جعل من التوحيد محور اهتمامه ومركز توجهاته في عالم يسوده الشرك من أقصاه إلى أقصاه ، وكان ينظر إلى كل شيء يتاح له على أنه هبة من عند الله ، وبالتالي كان قلبه لا يزال يفيض شكرا وامتنانا لربه على ما أسدى إليه من نعم !!

ونظرا لبلوغ إيمان إبراهيم – عليه السلام- هذه الدرجة العليا من الكمال ، فتح الله عليه طرق هدايته ، واختاره للنبوة ، ليقوم بإعلام البشر بدين الله .

ولقد أعطى سيدنا إبراهيم – عليه السلام- حسنة الدنيا والآخرة معا ، ومن المعلوم أن سيدنا إبراهيم لم يحظ في حياته بحشود الجماهير المؤيدة له ، ولا بسرير الملك ولا فاز بأي شيء آخر من المباهج الدنيوية ، ولكن القرآن – مع ذلك – يشهد مؤكدا بأنه – عليه السلام- كان قد منح من عند الله حسنة الدنيا وخيرها .

ومن هذا نعلم أنه ليست الحسنة في الدنيا عند الله علما على القبول الشعبي العام ، أو الثروة والحكومة ، بل الحسنة في الدنيا عند الله تتمثل أصلا في تلك الصفات التي ذكرت هنا كخصائص مميزة لسيدنا إبراهيم – عليه السلام .

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ .

جُعِلَ السَّبْتُ : فرض تعظيمه والتخلي فيه للعبادة .

لقد ظل هناك يوم من أيام الأسبوع ، في كل الشرائع والملل ، مخصصا للعبادة

الجماعية ، فاليهود يحتفلون بذلك في يوم السبت ، والنصارى في يوم الأحد ، أما المسلمون فقد فرض عليهم القيام بالعبادة جماعيا في يوم الجمعة .

لقد وضع أحبار اليهود ، المولعون بالتعمق والتنفير ، وضعوا من تلقاء أنفسهم ضوابط والتزامات جديدة للسبت ، وكبلوا أنفسهم بقيود مصطنعة ، ولما بدا لأتباعهم أن العمل بتلك كالقيود ضرب من المستحيل ، أخذوا يسيرون – عمليا – في الاتجاه المعاكس لها ، وإن كانوا لا يستطيعون رفضها لقداسة أحبارهم وشيوخهم الماضين .

وإن ما أثاره العلماء والشيوخ المتأخرون من خلافات حول دين الله بشروحهم وتفسيراتهم المبنية على الآراء الذاتية ، لن ينحسم أمره في هذه الدنيا ، ولكن حين تقوم الساعة ، فسوف يكشف الله القناع عن الدين السماوي الأصيل الذي كان قد أنزله لعباده ، وما هي تلك الأشياء الدخيلة أو العناصر الإضافية التي ضمها الناس من جانبهم إلى الدين الإلهي .

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ .

إن عمل الدعوة عمل ينبثق عن غاية الجدية والنصح والإخلاص .. إن إحساس المرء بحتمية مثوله يوما بين يدي ربه للحساب ، يرغمه على أن يقوم داعيا بين عباد الله فهو إذ ينادي الآخرين ، فإنما يناديهم لكونه يحسب : لو أنني لم أفعل ذلك ، فسأتعرض للمؤاخذة في يوم القيامة ، والنتيجة الطبيعية التي تترتب على هذه النفسية أن المرء يتبنى لعمل الدعوة ذلك بالأسلوب الذي يتسم بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن ، والمقصود بالحكمة الدليل والبرهان ، وأي عمل دعوي لا يكون عملاً دعوياً حقا ما لم تصاحبه أدله تراعي ذهن المخاطب وعقليته مراعاة تامة ، والكلام الذي تتوفر فيه الشروط التي يراها المخاطب ضرورية لكون شيء ما عنده شيئا ثابتا

مبرهنا عليه ، هو الكلام الذي أطلق عليه هنا وصف ((الحكمة)) ، والكلام الذي لا يأخذ في اعتباره مستوى المخاطب العقلي والفكري هو كلام غير حكيم ، وإن كلاما كهذا لن يرقى بأحد الناس إلى مرتبة الدعاة .

وأما الموعظة الحسنة فهي اسم لتلك الخصوصية التي تسرى في كلام الشخص يخفق فؤاده بمشاعر النصح والشفقة ، فالداعي الذي تزلزلت شخصيته واهتز كيانه نتيجة استشعاره بجلال الله وعظمته ، حين يتكلم عن الله ، فمن الطبيعي أن يكون كلامه بحيث تلمع فيه ومضات العظمة الإلهية ، والداعي الذي يهب لإراءة الآخرين الجنة والنار ، وقد شهدهما بعين يقينه ، فليس من الشك في أن يجيء كلامه ناضحا بعبير الجنة ناطقا بأهوال جهنم . إن امتزاج هذه الأشياء بكلام الداعي من شأنه أن يجعله بليغا مؤثرا يذيب القلوب ويسيل العيون دموعا .

وهاتان هما الصفتان الإيجابيتان للكلام الدعوي .. أي الحكمة والموعظة الحسنة . على أن الدنيا لا تخلو أبدا من أناس ديدنهم إثارة مناقشات فارغة دون جدوى ، إذ يكون غرضهم من وراء ذلك الإحراج أو الإفحام وليس الاقتناع والإقناع ..، والمنهج الذي ينهجه الداعي ، من الطراز المذكور أعلاه ، بالنسبة لأناس كهؤلاء ، هو ما يسمى الجدال بالتي هي أحسن ، حتى أنه يرد على القول المعوج بالقول السديد ، وهو يستخدم دائما ألفاظا مفعمة بالرقة واللين ، مهما خوطب هو بألفاظ قاسية غليظة ، وهو يتعمد على الاستدلال الاستفزاز والإثارة .

ونظرة داعية الحق لا تكون متجهة نحو الإنسان الحاضر أمامه ، بل نحو الله العظيم الذي فوق الجميع ، ولذا فهو لا ينبس بشيء إلا ما يعد حقيقيا في ميزان الله .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ

﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ .

تتحدث هذه الآيات عما ينبغي أن يكون عليه سلوك الداعي تجاه المعارضين .. فنقول : لئن أصابك – أيها الداعي – من قبل بعض معارضيك مكروه أو أذى يفوق مقدرتك على التحمل ، فإنما أنت مسموح لك بأن تعامله بالمثل دون زيادة .. على أن هذه الإجازة ليست إلا بمثابة «تنازل» «أو إعفاء» نظرا لضعف الإنسان ، وإلا فسلوك الداعية هو أن يصبر على كل أذى يلحقه من جانب المدعو ، وأن يفوض كل المعاملات من هذا النوع إلى الله تعالى بدلا من تصفية الحساب مع المدعو .

ولو أن المخاطب لن يؤمن بالحق ، وبالعكس تصدى لمحوه ، ومحاولة الإجهاز عليه فإن أكبر تدبير يتعين على الداعي أن يلجأ إليه وقتئذ هو الصبر .. يعني الدأب على إبلاغ رسالة الحق بأسلوب إيجابي مع اجتناب نفسيات رد الفعل أو القيام بالعمليات المعاكسة السلبية .. فالمطلوب من الداعي أن يقيم الدليل على أنه يخشى الله حق خشيته ، وأنه تولد فيه ذلك السلوك الذي إنما يتولد حين يوفق المرء إلى اختراق حجب الدنيا الظاهرية ، فيرى الله بكل جبروته وعظمته المستترة وراء الغيب .. ولو أن الداعي أقام الدليل على ذلك ، لكفاه الله بعدئذ الأمور الباقية كلها ، وبالتالي لن يضر الداعي كيد المعارضين لدعوته شيئا ، مهما كان كيدهم عظيما ومحكما .

الناس في الدنيا صنفان : أحدهما هو الذي تعلق بصره بالبشر ،فهو لا يرى إلا إجراءات البشر فحسب.. أما الآخر فهو الذي تعلق بصره بالله ، والذي ينظر بعيونه إلى طاقات الله اللانهائية ، وإن الصنف الأول ليس بالذي يقدر على الصبر أبدا .. وإنما هم رجال من الصنف الثاني يمكنهم وحدهم أن يتحملوا كل أنواع الإساءات والشكاوى وسوء المعاملة ..وأن يضربوا صفحا عما ينالهم من جانب البشر لأجل ما سينالهم من عند الله وكما يجب على الداعي أن يكون على حذر من نفسية رد الفعل ، يتحتم عليه

كـذلك أن يجنـب نفـسه اتخـاذ الإجـراءات المعاكـسة فعـلا ، وربـما تـسبب مـؤامرات المعارضين ومكائدهم في إشاعة الخوف ظاهرا من أنها توشك أن تقتلع جذور الـداعي ودعوته ، غير أن الداعي لابد له من أن يضع ثقته في الله عـلى كـلا حـال مـن الأحـوال ، وله أن يتأكد من أن الله يراقب كل شيء ، وأنه تعالى سينصر دعوة الحق بلا ريب ويحبط أعمال المبطلين .

سورة الإسراء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ .

سُبْحَانَ الَّذِي : تنزيها لله وتعجبا من قدرته .

لِنُرِيَهُ : لنرفعه إلى السماء فنريه .

أَسْرَى بِعَبْدِهِ : جعل البراق يسري به .

لقد كانت ظروف مكة،قبل الهجرة بعام واحد،قد بلغت من القسوة حداً يبدو معه أن تاريخ الإسلام سينتهي قبل أن يتكون أو يكتمل .. وقد أرى الله – سبحانه وتعالى – رسول الإسلام في تلك الآونة ذاتها ، آية من آياته الكبرى .. وهذه الآية كانت إظهاراً حسياً لحقيقة أن تاريخ الإسلام سوف لا يبلغ تمامه فحسب، بل سيتم إحاطته بأحوال عملية تضمن بقاءه حياً ومحفوظاً بصفة أبدية . فإنه إنما جاء ليكون وحده مصدراً موثوقاً به لدين الله الذي وجد لشعوب العالم أجمع إلى يوم القيامة، وقد أسرى الله برسول الإسلام، تحت عنايته الخاصة ، من مكة إلى فلسطين (بيت المقدس) ، وكانت هذه الرحلة – بغض النظر عما إذا كانت بالجسد أو بالروح أو بهما معا – المحطة الأولى في طريقه لرحلة المعراج التي أعقبتها .. حيث كان الله قد جمع هنا أيضاً كل الأنبياء السابقين في رحاب بيت المقدس ، فصلى رسول الإسلام بإخوانه الأنبياء إماماً ، وكأن هذه الإمامة كانت رمزاً لهذا القضاء الإلهي بأن النبوات الأولى قد نسخت كلها من الآن فصاعداً كمصدر موثوق به للهداية الإلهية،وإنما ينبغي على كل

من يتوخى معرفة الهداية الإلهية من الأفراد والشعوب، أن يرجع الآن إلى الدين الذي جاء به رسول الإسلام ﷺ وقد كانت فلسطين أنسب مكان للاحتفال بهذه المناسبة القدسية ، لكونها ظلت مركز دعوة لمعظم الأنبياء الأولين ، ومن ثم فقد وقع اختيار الله –عز وجل– على هذه المنطقة المباركة ليعلن فيها عن قضائه هذا .

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ .

وَكِيلاً : ربا تكلون إليه أموركم .

ذُرِّيَّةَ : أخص ذرية أو يا ذرية .

إن واقعة الإسراء المذكورة كانت تعني إقصاء ذرية إسرائيل « اليهود » حملة الكتاب، وجعل ذرية إسماعيل مكانهم حملة الكتاب الإلهي . وقد تمت هذه الواقعة تبعا لسنة إلهية ، فالله – سبحانه وتعالى – يختار طائفة معينة أو شعبا بعينه للاضطلاع بمهمة إعلان الحق ، وذلك أكبر تكريم وإعزاز يمكن أن يحظى به إنسان في الدنيا .

على أن هذا الاختيار لا يتم على أساس النسل أو الشعب،بل إنما تستحقه طائفة ما إذا هي أقامت الدليل على الكفاءة اللازمة لذلك،وبانعدام الكفاءة سينعدم الاستحقاق كذلك ..وقد حدث ذلك مع كل من أمة آدم،إلى أمة نوح،إلى أمة موسى،إلى أمة عيسى المسيح،وتلك هي سنة الله الثابتة في خلقه،لا تتخلف ولا تتبدل،تنطبق على الآخرين تماما كما انطبقت على الأولين بدون أي استثناء .

والكفاءة المطلوبة لهذا المنصب هي ألا نتخذ أحداً من دون الله وكيلا ، أي أن نضع ثقتنا كلها في ذات الله الواحد ، ونكل إليه وحده جميع أمورنا وقضايانا .

والمرء المسلم الحق حين يعرف الله تعالى بكل قدرته وعظمته ويتخذه وكيله ، فسوف

يصل به الأمر – بطبيعة الحال – إلى أن يجعل الله تعالى وحده هو كل شيء له في هذه الدنيا،والذين يظفرون بالله على هذا النحو،هم وحدهم يستطيعون ممارسة الحياة الإيمانية في العالم الراهن،فلكي يمارس المرء الحياة الإيمانية لابد له من أن يسمو فوق المخلوقات كلها ، ولن يتاح هذا السمو والارتفاع إلا لشخص أدرك ما هو أكبر من كل موجود ومخلوق،أي أدرك خالق سائر المخلوقات ومالكها .

ومسئولية الدعوة إلى الحق هي الأخرى لا يستطيع القيام بها على وجهها ، إلا الذين حصلوا على هذه الدرجة العالية من معرفة الله ، إذ لابد للقيام بدعوة الحق من التجرد التام والتفرغ الكامل لها ، وهذا التفرغ الكلي والتجرد التام لن يصل إليه أحد إلا إذا كان آماله ومخاوفه كلها قد ارتبطت بالله ، وإلا إذا صار الله هو كل شيء .

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ .

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ : أوحينا اليهم وأعلمناهم بما سيقع منهم من الإفساد في الأرض.

وَلَتَعْلُنَّ : لتفرطن في الظلم والعدوان .

وَعْدُ أُولاهُمَا : العقاب الموعود على أولاهما .

أُوْلِي بَأْسٍ : ذوي قوة وبطش في الحروب.

فَجَاسُوا : ترددوا لطلبكم باستقصاء .

خِلالَ الدِّيَارِ : وسطها .

أَكْثَرَ نَفِيراً : أكثر عددا أو عشيرة من أعدائكم .

أريد بـ « الفساد » هنا هو الفساد الديني الذي فشا بين بني إسرائيل بعد سيدنا موسى – عليه السلام – وقد ظهر هذا الفساد على مرحلتين : توجد تفاصيل المرحلة الأولى في : « المزامير » (أي الزبور) ، وأشعياء ، وأرمياء وحزقيال من كتب العهد القديم ، أما فساد المرحلة الثانية فقد جرى الحديث عنه بدقة وإسهاب على لسان سيدنا المسيح عليه السلام – والذي يوجد الآن في إنجيلي متى ولوقا من أسفار العهد الجديد .

لقد أسري برسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس « لكي يريه الله بعض آياته » ، ومن هذه الآيات أيضا ذلك التاريخ الذي يتصل ببيت المقدس.

وهذا التاريخ هو في الحقيقة ظهور أو تحقق فعلي لإحدى السنن الإلهية،وتلك السنة هي أن الأمة الأمينة على الكتاب السماوي،إذا قامت بتأدية حقوق الكتاب الإلهي،كتب لها الغلب والتمكن في الأرض ، مع ما يدخر لها في الآخرة من الفوز العظيم ، وأما إذا هي لم تؤد حقوق الكتاب،أديل منها لشعوب العالم الغاشمة المستبدة،لتتخذ منها فريسة للظلم والاستغلال .. وكأن هذه علامة تدل في هذه الدنيا ذاتها على ما إذا كان الله راضيا عن تلك الأمة أم ساخطا عليها .. وقد نفذت هذه السنة على حملة الكتاب السابقين (اليهود) مرارا وتكرارا على مدى تاريخهم الطويل، وقد أشير هنا إلى حدثين بارزين ليكونا عبرة لمن يعتبر .

ولقد أنعم الله على بني إسرائيل – أول الأمر – بأن أنقذهم من ظلم فرعون .. ثم أحدث لهم ظروفا ، بعد سيدنا موسى ، مكنتهم من الاستيلاء على فلسطين وإقامة حكومتهم بها .. غير أن اليهود لم يلبثوا أن تسرب إليهم الفساد فيما بعد ، إذ إنهم بدل أن يكونوا دعاة مؤثرين على الأمم المشركة التي اختلطوا بها ، صاروا بأنفسهم مدعوين

متأثرين ومن ناحية أخرى نشبت بينهم خلافات في أوساطهم أعمال الشرك وطقوس الوثنية .. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نشبت بينهم خلافات شديدة حولتهم إلى فرق وأحزاب شتى .

ولعل من أبرز الوقائع التي مرت بها بنو إسرائيل نتيجة عصيانهم لله،ما أصابهم على يد ملك بابل((نبوخذ نصر))،الذي نجح في بسط نفوذه وسيادته على فلسطين مستغلا مواطن ضعف اليهود ونقائصهم الداخلية.. ثم جعل واحدا من أفراد الأسرة اليهودية الملكية نفسها ممثلا له،ليحكم بالنيابة عنها .

بيد أن اليهود نظروا إلى هذه ((التبعية)) على أنها وصمة عار على جبين مجدهم القومي العريق ، فهموا بالخروج عليها ثائرين .. كما نشأ بينهم إذ ذاك شعراء وخطباء أخذوا يلهبون مشاعرهم بخطب وأناشيد حماسية ، وقد حذر اليهود نبيهم ((أرمياء)) قائلا : إن هؤلاء كلهم زعماء كاذبون ، لا تنخدعوا بمعسول كلامهم ، فإنكم لن تنتصروا على ملك بابل إن أنتم تصديتم لقتاله على ما أنتم عليه الآن من ضعف وفرقة وانحلال .. وبدلا من ذلك يجدر بكم أن تهتموا بإصلاح أنفسكم دينيا ، وتكافحوا لبناء داخلكم ورفع معنوياتكم ، معترفين بسيادة ملك بابل السياسية ، إلى أن يهيئ الله لكم مستقبلا وإمكانات أخرى .

ولكن اليهود لم يعيروا نصيحة النبي أرمياء هذه أي اهتمام،وافتتنوا بأحاديث قادتهم المتفائلين أو الحالمين،وبالتالي أعلنوا الثورة ضد ملك بابل،وبعدئذ غضب ملك بابل أشد الغضب، فأغار ثانية على فلسطين عام ٥٨٦ ق. م. بمنتهى قوته،فهزم اليهود شر هزيمة،حيث إنه لم يكتف بما أصابهم من خسائر مادية فادحة وحدها،بل هدم هيكل أورشليم الذي كان يمثل الرمز الأخير لمجد اليهود!

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ

لِيَسُۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ .

لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ : ليحزنوكم حزنا يبدو في وجوهكم .

وَلِيُتَبِّرُوا : ليهلكوا ويدمروا .

مَا عَلَوْا : استولوا عليه.

حَصِيراً : سجنا ومهادا وفراشا .

لقد نصر الله بني إسرائيل ثانية عندما استيقظت في نفوسهم مشاعر الإنابة والرجوع إلى الله ، نتيجة لتوالي الأحداث والنكبات المريرة .. وقد أقام الله هذه المرة ملك فارس « قورش الكبير » ، الذي أغار على بابل عام ٥٣٩ ق. م . فاستولى عليها بعد أن كسر شوكة الحكومة القائمة بها .. وفي أعقاب ذلك أحسن إلى اليهود بأن سمح لهم بالعودة من بابل إلى فلسطين ، فانصرفوا عائدين إلى فلسطين ، حيث قاموا ، بعد برهة من الزمن ، بإعادة بناء معبدهم (الهيكل) من جديد .

على أن أجيال اليهود الجديدة عادت ثانية ضحية الفساد نفسه الذي كانت أجيالهم السابقة قد أصيبت به ، وقد مرت عليهم أحقاب طويلة وهم يتأرجحون فيها بين المد والجذر ، إلى أن بُعث فيهم أخيرًا سيدنا يحيى وسيدنا المسيح – عليهما السلام – وقد تناول هذان النبيان حياة اليهود بالشجب والانتقاد،وكشفا النقاب عن أنشطتهم اللادينية التي كانوا يمارسونها باسم الدين ، غير أن اليهود بدل أن يرحبوا بهذا النقد والتحليل ، تذمروا عليه ، حتى إنهم قتلوا سيدنا يحيى – عليه السلام – واستعدوا لإعدام المسيح صلبا !

وعندها غضب الله عليهم مرة أخرى .. ففي عام ٧٠ الميلادي ، قام الإمبراطور تيطس (TITUS) بحصار أورشليم فدمرها شر تدمير .

وإن وقائع تاريخ اليهود هذه من الوقائع المسلم بها حتى لدى اليهود أنفسهم،إلا أنهم حين يذكروها يرمون بأوزارها على أكتاف الظالمين المعتدين،بينما يلقي القرآن بالتبعة في هذا الشأن ، وبكل صراحة ، على عواتق اليهود أنفسهم .

ومن هذا نعلم أن الأوضاع السياسية تتبع دوما الأوضاع اللاأخلاقية ، فليس هناك من ظالم يظلم أحداً أو يعتدي عليه ، بل إن فساد الأمة دينيا وانحلالها خلقيا هو الذي يتيح للآخرين فرصة لاتخاذها عرضة للظلم والاستغلال والسلب والنهب !

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ﴾ .

هِيَ أَقْوَمُ : أسد الطرق (ملة الإسلام ـ والتوحيد) .

القرآن يدعو الناس كافة إلى التوحيد .. أي إلى أن نؤمن بالله الواحد الأحد ، ونسخر أنفسنا لطاعته وحده.. وتلك دعوة يستحيل أن توجد هناك أية دعوة أخرى أصوب منها ، ولا أدنى منها إلى العقل ، ولا أكثر منها توافقا وانسجاما مع الفطرة .. فالتوحيد هو الحقيقة الكبرى بلا ريب ، وهو الصدق الأعظم في الوقت نفسه .

وحيثية التوحيد هذه تقتضي أن يكون هو المقياس لفحص البشر جميعا ، فعلى أساس منه يعد بعضهم مصيبا وبعضهم الآخر مخطئا ، وبالتالي يحكم على أحد بالنجاح وعلى آخر بالفشل .

ومع أن هذا المقياس لا يبدو لنا سائدا في عالمنا الراهن ، حيث لا يتم تقويم الناس هنا أو تقسيمهم عمليًا على أساس منها .. إلا أن هذا الوضع ليس إلا بسبب سُنة الامتحان الإلهية ، ويمثل الموت ، على المستوى الفردي،والقيامة، على المستوى الجماعي الشامل،يمثلان الحد النهائي لمدة هذا الامتحان المحددة ، فعندما يأتي هذا الحد،حتى يفرز الناس كلهم إلى طائفتين مستقلتين منفصلتين بعضهما عن بعض ، أما السائرون على درب التوحيد ، فسيجدون أنفسهم في الجنة ، وأما المنحرفون عنه فسيصلون سعيرا.

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ .

اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ : نفسهما أو نيري الليل والنهار.

فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ : خلقنا القمر مطموس النور مظلما.

آيَةَ النَّهَارِ : الشمس مضيئة منيرة للأبصار .

إن نظام تتابع الليل والنهار يدل على أن سنة الله هي أن يسبق الظلام أولاً ، ثم يعقبه النور والضياء ثانياً.. فكلا الأمرين ضروري في الخريطة الإلهية على حد سواء ..فكما أن في النور منافع كذلك يتضمن الظلام أيضا منافع كثيرة .. ولو لم يعد هذا الاختلاف بين الليل والنهار في هذا الكون ، فعلى أي أساس سيقسم المرء أوقاته ، وكيف سينظم مواعيد عمله وراحته ؟

إذن ينبغي للمرء أن يشعر بالقلق أو الهلع تجاه ((الظلام)) ويعود طالبا ((النور)) وحده، فإن هذا يستحيل أن يتحقق في دنيا الله ، والذي يود أو يرغب في ذلك ، فليبحث لنفسه عن دنيا أخرى غير دنيا الله هذه !!! ولكن من العجائب أن هذا هو ضعف الإنسان الأكبر ؛ لأنه يطمع دوما في التحصل على النور فوراً وبدون أن يواجه مرحلة الظلام .. ونتيجة هذا الضعف نفسه ما يطلق عليه ((العجلة)) ، فالعجلة هي في الحقيقة اسم ثان لعدم الرضا بالتدبير الإلهي .. وإن عدم الرضا به هو مصدر كل ألوان الشقاء والضياع والدمار البشري .

إن الله يريد للإنسان أن يصبر على لذائذ الدنيا العاجلة ، حتى يتمكن من مواصلة مسيرته نحو الآخرة ، غير أن عجلة الإنسان تجعله يتهافت على لذائذ الدنيا الآنية ، ولا يستطيع أن يمضي قدما نحو الأمام ، فحب الإنسان للعاجلة هو السبب الأكبر وراء حرمانه من نعم الآخرة .

وهكذا هو الشأن تماما فيما يتصل بشئون الدنيا كذلك .. فالنجاح الحقيقي في هذه الدنيا أيضا إنما ينال بالصبر دون العجلة والتسرع .

﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ .

أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ : عمله المقدر عليه لاينفك عنه .

حَسِيبًا : حاسبا وعادا أو محاسبا .

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ : لاتحمل نفس آثمة .

لقد كان عبدة الأوهام، منذ قديم الزمان ، كثيرا ما يحاولون التعرف على حظوظهم

ومصائرهم بحركات الطيور (يمينا وشمالا) ، أو بحسب مواقع النجوم ، أو بطريق ضروب شتى من الفأل .. وأم الذين لا يعتقدون في مثل هذه الأوهام والخرافة ، من مثقفي العصر الحديث، فهم الآخرون يربطون أحوال حظوظهم بأي سر من الأسرار الغامضة فيزعمون أن هناك عاملا خارجيا ، هو الفاعل أو المؤثر الحقيقي في هذا الخصوص .

وقد أرشد الله - سبحانه وتعالى - هنا إلى الحق الذي لا لبس فيه ولا غموض فقال : إن حظوظكم - أيها الناس - غير مرتبطة بحركة الطيور ولا بدوران النجوم ، ولا علاقة لها كذلك بأي شيء من الأشياء الخارجية .. وإنما مدار حظ كل إنسان منكم على نوع عمله وحده ، فكل ما يعمله المرء أو يفكر فيه لا يزال ينقش ويسجل على نفسه كل لحظة وسيجده المرء في يوم القيامة بشكل مذكرة تحتوي على كل صغيرة وكبيرة .

لقد أرسل الله إلى الأمم والشعوب أنبياء ، وأنزل عليهم الكتاب ، ليصبحوا على علم بخطورة اليوم القادم - يوم القيامة - قبل حلوله ، وإنما الأمر موكول الآن إلى إرادة المرء الذاتية عن أن يقرر المصير الذي يريده لنفسه في مرحلة الحياة الآتية الدائمة .

ومدى رغبته في الدخول إلى الجنة باتباع سبيل الهداية ، ومدى إعداد نفسه للوقوع في قعر جهنم بالتخلي عن سبيل الهداية .

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ .

أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا : أمرنا متنعميها بطاعة الله .

فَفَسَقُوا : فتمردوا وعصوا

فَدَمَّرْنَاهَا : استأصلناها ومحونا آثارها .

الْقُرُونِ : الأمم المكذبة .

إن صلاح أمة ما أو فسادها يقاس بصلاح طبقة من الأشراف أو الأثرياء من تلك الأمة وفسادها .. فإنها هي الطبقة التي تملك صلاحية التفكير والفهم ، وهي التي تتوفر لديها من الوسائل ما يمكنها من التأثير على الجماهير ، وهي التي تستطيع دفع ثمن القيادة أو الزعامة على طائفةٍ ما .

ولهذا السبب كان إصلاح طبقة الأثرياء في أمة ما هو إصلاح الأمة بأسرها ، وفساد الأثرياء هو فساد الأمة بأكملها ..ولو أننا قمنا باستعراض تاريخ الأمم والشعوب منذ سيدنا نوح عليه السلام وحتى يومنا هذا لوجدناه مصدقاً بصحة هذا المبدأ العام الشامل .

وهذا الحكم العام يشمل أيضا قضية أولئك « الأكابر » الذين يتخذون من الأمة مصيدة لقيادتهم ، وهكذا يوردونها - بسوء قيادتهم لها - موارد الهلاك والدمار .. حيث إنهم يلقنون الأمة دروس العاطفية ، بدلاً من الواقعية .. ويحببون إليهم فنون الألفاظ بدلاً من المعاني ، ويحلقون بهم في سماء الخيال ، بدلاً من أخذهم بالجدية ، ويعلمونهم العيش في الأحلام والأماني بدلاً من الاعتراف بالحقائق ، وخلاصة القول : إنهم يصرفون اهتمام الأمة عن الله إلى غير الله .

وإذا سيطر أمثال هؤلاء القادة على أمةٍ ما ، فإن هذا علامة تدل على أن الله تعالى قد قضى على تلك الأمة بالهلاك .. فإن واقعة كهذه إنما تحدث تبعا لإذن الله ، وليس هناك شيء من أعمال شخص أو أمة يخاف على الله عز وجل !

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ .

يَصْلاهَا : يدخلها ، أو يقاسي حرها .

إن المرء في العالم الراهن على مفترق طريقين : طريق يقوده إلى ربح قريب المنال ، وآخر يقوده إلى ربح بعيد المنال .. فأما من سار في الطريق الأول فقد أحب العاجلة . وأما من اختار الطريق الثاني فقد أحب الآخرة .

وإن المرء ليجد – من ناحية – مذهب النفعية ، الذي باختياره إياه لا يلبث أن يحصل من فوره على العزة والثروة .. ومن ناحية أخرى هناك مذهب اتباع الحق الخالص ، الذي سيفوز المرء بشرفه – لو اعتنقه وتمسك به – في حياة ما بعد الموت .

وكذلك لئن أساء إليك أحد الناس إساءةً ما ، فأنت منه على موقفين : فإما أن تملأ نفسك بمشاعر الثأر والانتقام نحوه ، وبالتالي تبذل كل ما في وسعك من الجهد للنيل منه ، وتتخذ كل إجراء أمكنك للنكاية له .. وحين تمسك زمام نفسك ، وتكبح جماحها، تعفو عنه وتصفح ، وتفوض الأمر كله إلى الله – سبحانه وتعالى – داعيا له أطيب الدعوات .

كما أن ما يتوفر لدى المرء من مال يمكن إنفاقه على وجهين اثنين : أحدهما أن يتم توظيفه في سبيل الأغراض الذاتية الخاصة،كتحقيق رغبات النفس ، وتأثير المجد ، وتوسيع النفوذ الشخصي .. أما الوجه الثاني فهو : أن نبذله في مصاريف دين الله وإعلاء كلمته .. وهكذا هو الحال في كل أمر من أمور الحياة ، إذ يستطيع المرء دوما أن يعالجه بمنهجين مختلفين : أحدهما : منهج العبودية لهوى النفس ، وثانيهما : منهج العبودية لله تعالى .. ويتمثل الأول في إعطاء الأهمية والأولوية لما هو حاضر ومشهود فقط والأخير في إعطاء الأهمية والأولوية لحقائق الغيب وحدها .. الأول ترجيح للمصلحة والأخير للمبدأ .. والأول إقدام ناشئ عن العجلة وقلة الصبر وسوء التقدير ، والآخر إقدام على ما ينبغي الإقدام عليه بعد طول الصبر والروية والأناة .

المنهج الأول ينطوي على ربح مؤقت يعقبه الحرمان الدائم ، والمنهج الأخير يتضمن خسارة وقتية يعقبها العز الدائم والنجاح الأبدي !

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴿٢١﴾ ﴾

مَدْحُوراً : مطرودا مبعدا من رحمة الله .

كُلاًّ نمدُّ: نزيد من العطاء .

مَحْظُوراً : ممنوعا عمن يريده الله تعالى .

إن النجاح ، سواء أردنا به نجاح الدنيا ، أو نجاح الآخرة ، ليس إلا اسما ثانيا لاستعمال ما وفر الله تعالى من فرص وأسباب .. فمن يحصل على نجاح الدنيا ، فإنما يحصل عليه عبر الانتفاع بأسباب الله واتباع سننه ، وكذلك من يجعل من الآخرة هداه وغايته في هذه الحياة ، فقد هيأ الله له أيضاً من الأسباب والسنن ما يمهد له الطريق نحو سعادة الآخرة .

والناس في هذه الدنيا يتفاوت بعضهم عن بعض في أوضاعهم المادية والأدبية ، فهذا في قمة الرقي والمجد ، وذاك وحده في التخلف والهوان ، وهذا يملك الثراء العظيم ، وذاك لا يتوفر لديه إلا القليل التافه ، وهذا الواقع علامة تدلنا على أن في دنيا الله هذه فرصا وإمكانات لا تحد .. فبقدر ما يسعى أحد الناس للدنيا بقدر ما يجني ثمار سعيه هنا ، وهكذا فبقدر ما يعمل أحد الناس لأجل الآخرة ، بقدر ما سيفوز هناك بالإنعامات الإلهية ، وفوق ذلك فإن عطاء الآخرة سيكون عطاءً أبدياً ، بينما لا يكون عطاء الدنيا إلا عطاءً وقتياً محضاً!

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا

تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ .

مَخْذُولاً : غير منصور ولا معان من الله.

وَقَضَى رَبُّكَ : أمر وألزم وحكم .

أُفٍّ : كلمة تضجر وكراهية .

وَلاَ تَنْهَرْهُمَا : لا تزجرهما عما لا يعجبك.

قَوْلاً كَرِيماً : حسنا جميلا لينا .

لِلأَوَّابِينَ : للتوابين مما يفرط منهم .

إن من واجب الابن نحو أبويه ، وخصوصاً إذا كانا قد كبرا في السن أن يعاملهما معاملةً حسنةً ، وألا يُسمعهما قولاً سيئاً ، وأن يدعو لهما ، جزاء لما قدماه له عندما كان صغيراً وكانا هما اللذان يقومان بأمره .

وقد خص الله مرحلة الكبر ؛ لأن الوالدين إذا بلغا سن الشيخوخة لا يعود لهما أي قسر مادي على الأولاد وحين يحسن الولد سلوكه نحو أبويه الهرمين ، فإنما يفعل ذلك انطلاقاً من قراره العقلي الحر ، وليس مدفوعاً بأية قوة مادية قاهرة له .

إن العمل الاختياري الحر لهو أصعب امتحان يواجهه المرء في هذه الحياة ، بيد أن الله - سبحانه وتعالى - قد يسره على الإنسان برحمته الخاصة ، فهو لا يناقش الإنسان كأحد القضاة الصارمين العديمي الرحمة ، بل هو يأخذ المرء بالتسامح ، ويتجاوز عن

هفواته وخطاياه الصغيرة ، فيما إذا كان وفياً لله تعالى بصفة مبدئية ، ولو أن الإنسان بادر بالرجوع إلى الله فور صدور الخطأ عنه ، فهو تعالى يعفو ويصفح عنه ، مهما كان جرمه عظيماً !

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾ .

إن كل ما يكسبه المرء بمجهوده الذاتي ، له الحق في أن ينفقه على نفسه .. بيد أن الشريعة تنهى عن الإسراف والتبذير ، فيجب عليه أن يبذل ماله في سد حاجاته الحقيقية وليس في مظاهر البذخ والتفاخر والرياء .

كما ينبغي لكل امرئ أن يجعل في ماله أيضاً حقاً لغيره من المحتاجين ، سواء أكانوا ذوي قرابته أم جيرانه، أم كانوا مسافرين أو أصحاب بؤس ومسكنة .

وقد يحدث أحياناً أن المرء لا يكون قادراً على إعطاء ذي الحاجة شيئاً، غير أن الإسلام يفرض علينا ، حتى في مثل هذه الحالة،أن نرد أخانا المحتاج – إذا كنا عاجزين عن إعطائه مالاً – بميسور من القول،وأن نعتذر إليه برفقٍ ولينٍ .. لأنه إنما جاء ليتيح لنا فرصة البر والإحسان،ولكننا لم نتمكن من اغتنام تلك الفرصة لصالحنا نحن! إنه لن ينجح في إنفاق ماله وفق مرضاة الله سبحانه وتعالى،إلا شخص يصون ماله من الضياع والتبدد فيما لا طائل تحته،وإلا فسوف لا يبقى لديه شيءٌ من المال ينفقه في سبيل الله . والحقيقة هي أن التبذير والإسراف حيلة من حيل الشيطان يتوسل بها لاستدراج صاحب المال حتى يصير عاجزاً عن القيام بواجباته نحو غيره من البائسين والمحتاجين!

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ .

يَدَكَ مَغْلُولَةً : كناية عن الشح .

تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ : كناية عن التبذير.

مَّحْسُوراً: نادما أو منقطعا بك معدما.

وَيَقْدِرُ : يضيقه على من يشاء لحكمه.

الإسلام يحب القصد والاعتدال في كل شيء .. فالطريق الوسط ، الذي لا إفراط فيه ولا تفريط ، ولا غلو فيه ولا تقصير ، هو أفضل الطرق عند الإسلام ، حتى حد القول المأثور ((خير الأمور أوسطها)) .. ومن ثم فقد أمر الإسلام بالتزام هذا المبدأ نفسه فيما يتعلق بالبذل والإنفاق كذلك .. فلا ينبغي أن يكون المرء بخيلاً إلى حد يسقط معه من أعين الناس، ولا أن يتوسع في الإنفاق توسعاً مفرطاً بحيث يقعد صفر اليدين . ولقد ورد في الحديث : ((ما عال من اقتصد)) .

والعقلية غير المعتدلة بشأن المال إنما تنشأ لكون المرء تغيب عنه الحقيقة القائلة : إن المعطي هو الله سبحانه وتعالى ، فهو الذي يوسع الرزق على بعض ويضيقه على بعض من عباده بحسب الحكمة وقد جاء في حديث قدسي : ((إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه)) .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا

كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ .

خَشْيَةَ إِمْلاقٍ : خوف فقر وفاقة .

خِطْئاً كَبِيراً : إثما عظيما .

إن الله خالق كل حي ، وهو الذي يقوم بتهيئة أسباب الرزق للجميع ، وفي هذه الحالة ، فإن محاولة أحد الناس للقضاء على نفس ما ، بحجة الفقر ، إقدام على أمر لم يكن يعنيه ومما لا شأن له فيه البتة .. فإذا كان الرزق يتم توفيره من عند الله سبحانه وتعالى ، فكيف يحق لأحد أن يهلك أية نفس حذراً مما عساها أن تأكل ؟!

﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ من خلال هذه الكلمات قد وجه اهتمام الإنسان إلى البناء والإصلاح بدلاً من التخريب والهدم .. فلنفكّر ملياً في أفراد البشر الموجودين الآن ، كيف يحصلون على أقواتهم ؟! الجواب هو أنهم يحصلون عليها باستعمال ما أوجده الله تعالى من الموارد ووسائل الإنتاج ، إذن فهذه الطريقة نفسها مناسبة تماماً للأجيال التالية كذلك .. وإنما ينبغي لكم أن تقوموا بتوظيف الأعداد المتزايدة من المولودين في استثمار الموارد والوسائل الإنتاجية المهيأة من قبل الله ، وليس أن تبدؤوا بالحيلولة دون مجيء المولودين الجدد أنفسهم !

إن الزنا واحد من جملة الأعمال التي يريد الله لها أن تزول من بين الناس بصفة نهائية ومن ثم قال الله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾ أي أن الزنا رذيلة بلغت من الفحش والشناعة بحيث يجب عليكم أن تجتنبوا مقدماته ودواعيه .. وقد اكتفى هنا بحكم مبدئي بخصوص الزنا ، أما أحكامه التفصيلية فسيأتي بيانها في سورة «النور» إن شاء الله تعالى .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا

لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾ .

سُلْطَاناً : تسلطا على القاتل بالقصاص .

إن قتل نفس بغير حق شرعي محرم على الإطلاق .. وإذا قتل شخص ظلماً بدون حق شرعي موجب لقتله ، فإن أولياءه – أي ورثته – بالخيار في القاتل ، فإن شاؤوا قتلوه قصاصا ، وإن شاؤوا تركوه على الدية ، وإن شاؤوا عفوا عنه بدون دية . ويلاحظ أن المدعين الحقيقيين في قضية القتل ، بموجب التشريع الإسلامي ، هم أولياء القتيل ، دون الحكومة ، وإنما تنحصر وظيفة الجهاز الحكومي بهذا الخصوص في مساعدة أولياء القتيل على تنفيذ مشيئتهم .

والقتل جريمة مروعة لدرجة أنه جاء في السنن « لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم » وعلى الرغم من ذلك فليس يحق لأولياء القتيل أن يتجاوزوا الحد المشروع في الاقتصاص من القاتل ، بأن يمثلوا به – مثلاً – أو يقتلوا مكان القاتل أحد أصحابه أو إخوته الأبرياء ..إلخ ولئن أسرف أولياء القتيل في القصاص ، فعندئذ ستقف الحكومة في وجوههم تماما كما كانت قد وقفت إلى جانبهم فيما شرع لهم من حق القصاص .

وهذا مما يدلنا على روح الشريعة الإسلامية القائلة بأن شخصاً ، مهما كان مظلوماً إذا هو أراد الانتقام من الظالم المعتدي عليه ، فإنما يجوز له أن يعاقبه بمثل العدوان الواقع عليه سواءً بسواءٍ .. وأنه غير مسموح باتخاذ أي إجراء آخر مزيد على ذلك !

﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾ ﴾ .

يَبْلُغَ أَشُدَّهُ : قوته على حفظ ماله .

بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ : بالميزان العدل .

وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً :مآلا وعاقبة .

إن أولياء اليتيم غير البالغ هم أقرباؤه الأدنون.. بيد أن مال اليتيم إنما يبقى بيد هؤلاء الأولياء ما دام لم يبلغ سن البلوغ والرشد بعد ، فينبغي للأولياء ألا يتصرفوا في مال اليتيم أيما تصرف ، إلا إذا كان ذلك مما يقتضيه النصح له ضمانا لرقيه وتقدمه في مستقبل حياته هو ، وعند بلوغ اليتيم سن الإدراك والتمييز بين منافعه ومضاره يجب تسليم ماله إليه كاملا .

والوفاء بالعهد أهم صفة من صفات السلوك الإنساني .. الذي يعاهده غيره ثم لا يفي بما عاهده عليه ، إنما هو إنسان فاقد القيمة عديم الاعتبار لدى العباد ورب العباد على سواء .

﴿ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولاً ﴾ هذه الألفاظ تدلنا على أن شخصاً ما ، حين يتعاهد مع شخص آخر ، فإن ذلك لا يكون أمر اثنين من البشر وحدهما ، بل يكون الله — سبحانه وتعالى — هو الآخر شريكا فيه كطرف ثالث .. فينبغي للمرء ، وهو ينقض العهد ، أن يأخذ في حسبانه أن الطرف الثاني لعهده ، ليس إنساناً ضعيفا ، بل هو الله .

إن التعامل التجاري على اختلاف أنواعه ومجالاته يقوم على أساس الكيل والوزن ، وقد أمرنا الله بإتمام الكيل والوزن من غير تطفيفٍ ولا بخسٍ ولا احتيالٍ .

وهذه الطريقة لها جانبان مهمان .. فتطفيف المكيال دليل التدني الأخلاقي ، كما أن توفيته آية السمو الأخلاقي .. .. والفائدة الكبرى الثانية التي تعود على ذلك تتمثل في نمو التجارة وازدهارها ، فإن رقي التجارة يتوقف كليا على الثقة وتوفيته الوزن والكيل مما يغرس الثقة وحسن الظن بأحد التجار في قلوب الناس !!

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾ .

وَلاَ تَقْفُ : لا تتبع .

مَرَحاً : فرحا وبطرا واختيالا وفخرا .

قال قتادة : « لا تقل : رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم »(١).

إن الذي يخاف من أنه سيسأل عند الله عن أقواله وأفعاله كلها ، لن يتجرأ أبداً على القول بها لم يتحقق من صدقه ، ولا هو يتبع خيراً غير محقق اتباع العميان .

وينبغي للإنسان أن يستخدم قوى السمع والبصر والعقل فيما هي جعلت له من أجله ، فلا يقول أو يعمل إلا بأمر ثابت على وجه أتم ما يكون .

وقد شمل هذا الحكم كل الأشياء الباطلة التي لا أساس لها من الصدق والصحة ، ومنها على سبيل المثال : شهادة الزور ، القذف والاتهام الكاذب للنيل من أحد على أساس ما تتناقله الأفواه والألسن من أخبار غير مؤكدة ولا ثابتة ، وتأييد الباطل بناءً على التعصب، وتكلف البحث والتنقيب عن أشياء لا يتمكن الإنسان من معرفة كنهها بسبب قصور مداركه ومحدوديتها ، وقوى السمع والبصر والفؤاد ، وهي – على ما يبدو ظاهراً – في قبضة الإنسان، وتحت نصرفه ، إلا أنها قد أودعت لدى الإنسان على سبيل الأمانة ، فلابد للإنسان أن يستعملها وفقا لمرضاة الله سبحانه وتعالى ، وإلا فسوف يحاسب عن ذلك حساباً جد عسير !!

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٧٧.

الإنسان يعيش على أرض لا يستطيع خرقها ، وهو في بيئة تكتنفها من حولها جبال شامخة تنفي كل ما يتظاهر به من علو وتطاول وكبرياء .. وإن هذا إعلان تمثيلي عن حقيقة وضع الإنسان بالقياس إلى الله جل جلاله ، وهو يقتضي ألا يعيش المرء في هذه الدنيا متكبراً مختالاً ، وله أن يختار هنا مسلك العجز والتواضع والانكسار ، دون التبختر والتعالي والطغيان!

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ .

مدْحُوراً : مبعدا من رحمة الله .

لقد أطلق هنا على ما ورد من الأحكام في الآيات السابقة وصف « الحكمة » ، والحكمة تعني الحقيقة الصلبة الثابتة ، والقول المتبصر المستنير .. وهذه الأمور التي ذكرت هنا كلها حقائق الحياة المحكمة ، يقوم على أساس منها بناء الحياة الصالحة المستقيمة ، وأي مجتمع إنساني يخلو منها ، لا ينتظره في دنيا الله شيء سوى الهلاك والدمار ، في العاجل والآجل معا .

وقد اختتمت الوصايا المذكورة بالتوحيد «الآية رقم ٣٩» كما كانت قد استهلت بالتوحيد (الآية رقم ٢٢)، الأمر الذي يشير إلى أن رأس كل الفضائل والحسنات ومحورها الأساسي هو أن يتخذ المرء من الله الواحد إلهه، فلا يخاف إلا منه ، ولا يحب إلا إياه ، فإن سر الاستقامة في الحياة الدنيا إنما يكمن في إقامة العلاقة الصحيحة والمستقيمة مع الله تعالى ، ولو أن العلاقة بالله لم تكن صحيحة ومستقيمة ، فليس هناك من شيء آخر من شأنه يصلح ويقوم نظام الحياة الإنسانية .. فالله – سبحانه وتعالى – هو مبدأ الإنسان وغايته ومنتهاه كذلك !

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا
عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل
لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ
وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ
وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا
غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ .

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم : أفضلكم ربكم فخصكم .

صَرَّفْنَا : كررنا القول بأساليب مختلفة .

نُفُوراً: تباعدا وإعراضا عن الحق .

لاَّبْتَغَوْا : لطلبوا .

سَبِيلاً : بالمغالبة والممانعة .

الحقيقة كاملة ومتكاملة لدرجة أن أي أمر باطل ينسب إليها يعود من فوره مبتور الصلة بها ، غير متناسق معها.. ومن أمثلة ذلك إشراك آلهة أخرى مع الله سبحانه وتعالى .

يزعم المشركون أن شركاءهم الفرضيين أولاد الله .. غير أن هذا الزعم يحمل بين طياته تناقضات تدحض دعواه.. فإن قيل لهؤلاء الشركاء «بنات الله» باعتبارهم إناثاً،فيثور على الفور الاعتراض القائل : بأن البنات ،طبقاً لاعتراف المشركين أنفسهم،ينتمين إلى الجنس الضعيف، إذن ، فَلِمَ أحب الله – سبحانه وتعالى – أن يتخذ من الجنس الضعيف شريكاً لنفسه ؟! ولكم سيكون الأمر مثيرا للدهشة والاستغراب

أن يهب الله للبشر « البنين » كذرية مفضلة لديهم ، بينما يختار لنفسه هو البنات؟!
وبالعكس فلو افترضنا هؤلاء الشركاء « بنين » من حيث إن « الابن » يمثل في ضوء التجارب الإنسانية ، رمزا للقوة والطاقة ، فإن هذا الأمر يبقى مع ذلك ، غير معقول وبعيدا عن نطاق الفهم والإدراك من الناحية المنطقية،فإن السلطة شيء لا يقبل التجزئة والتقسيم، وكلما اجتمع في ظل نظام ما ، أكثر من ذي قوة وذي سلطان واحد، فلابد أن يندلع هناك صراع حاد بينهم ، إذ كل واحد منهم يريد أن يحصل على السلطة المطلقة ، ويستأثر بها دون غيره !!

إذن ، فلو كان هناك أكثر من إله قوي قدير واحد متصرف وراء الكون ، لنشبت بينهم بالضرورة الحرب على السلطة ، وبالتالي لأصيب النظام الكوني بأكمله بالخلل والفوضى ، وبما أن الكون خال من الخلل والفوضى كل الخلو ثبت من ذلك تلقائيا أنه ليس ثمة من ذوات أخرى كذلك يشاركن الله – سبحانه وتعالى – في قوته وملكوته . فسواء أقلنا للشركاء « بنين » ، أم أطلقنا عليهم « بنات » فإن هذا القول يصطدم ويتناقض في كلا الحالين ، مع الأمر الواقع ، والحقيقة هي أن الكون بسائر موجوداته ، يرفض القبول بأي تصور يدعي اشتراك أحد من دون الله في ألوهيته سبحانه وتعالى !؟

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾ .

حِجَاباً مَّسْتُوراً :ساترا أو مستورا عن الحس .

أَكِنَّةً : أغطية كثيرة مانعة .

وَقْراً : صمما وثقلا في السمع عظيما .

إن ما سمي هنا «حِجَابًا مَّسْتُورًا» هو «الحجاب النفسي» ،والمقصود به هو حال المرء إذ يحل في ذهنه أمر ليس من الصدق في شيء محل الصدق من تلقاء نفسه ..ومثل هذا الشخص حين يواجهه حق ينفي صدقه الفرضي المزعوم،فإن دعوة كهذه تعود غير قابلة للفهم لديه، فهو لا يكاد يفقه أو يتصور ، بناء على نفسيته الخاصة ، أنه يمكن أن تكون دعوة صادقة تلك التي يكشف الإيمان بها عن صيرورة ما قد ظل يعتبره الصدق المسلم به لحد الآن باطلاً تمام البطلان ! ومع أنه يجد نفسه عاجزاً عن مقاومة الأدلة المصاحبة للدعوة الجديدة ، إلا أن عقليته الخالصة تجعله لا يستعد أيضاً للتسليم بأن هذا هو الصدق المطلق الذي ينبغي عليه أن يؤمن به متخلياً عن كل الأشياء الأخرى عداه .

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ .

نَجْوَى : متناجون في أمرك فيما بينهم .

مسْحُوراً : مغلوبا على عقله بالسحر أو ساحرا.

لقد كانت دعوة رسول الله ﷺ تصحبها أدلة قوية لدرجة أن جماهير العرب أصبحت تنظر إليها بعيون مبهورة .. مما جعل رؤساء مكة يساورهم الخوف من أن هؤلاء ، لو اعتنقوا الدين الجديد بأعداد كبيرة ، فسوف تعود رئاستنا أثراً بعد عين !

وعندئذ لجأ هؤلاء الرؤساء إلى تدبير لصرف اهتمام الناس المتزايد عن الحق ، حيث قالوا لهم : إن القوة التي تلمسونها في كلام هذا الشخص ، إنما هي في الحقيقة قوة كلام ساحر أخاذ للقلوب والألباب .. فالقضية إذن هي قضية «الأدب» ، دون قضية

الصدق في واقع الأمر .. وهكذا فإن الكلام الذي كان الناس يرون في سموه وعظمته انعكاساً للصدق ، إذا بهؤلاء قد جعلوه في أعين الناس مرادفا لـ « سحر القلم » .

والذين ينظرون إلى دعوة ما ، لا على أساس ما هي في جوهرها ، بل ما إذا كانت تصدق بوضعهم أو ترفضه، فإنهم لن يحالفهم التوفيق لإدراك الصدق والحق أبدا !

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾ ﴾ .

وَرُفَاتاً : أجزاء مفتتة ، أو ترابا أو غبارا .

يَكْبُرُ : يعظم عن قبول الحياة كالسموات .

فَطَرَكُمْ: أبدعكم وأحدثكم.

بِحَمْدِهِ : منقادين انقياد الحامدين له .

إن وجود الإنسان الأول يثبت – بكل وضوح – إمكان وجوده الثاني .. ومن يسلم بولادة الإنسان الأولى كواقع لا سبيل إلى إنكاره،فإنه لا يملك أي دليل حقيقي على عدم تسليمه بولادة الإنسان الثانية .

ثم إن ولادة الإنسان الثانية هذه ، ليست بأمر مستبعد أيما استبعاد ، على الأقل ، بالنسبة لأولئك الذين ينظرون إلى الإنسان على أنه « حجارة » « وحديد » ، وبعبارة أخرى علم على مركب من الأشياء المادية ، فمع تحطم خلايا أجسامنا هنا ، نشهد في

هـذا العـالم المعلـوم نفسه أن كيـان الإنـسان المـادي لا يـزال يفنـى ثـم يتجـرد بتسلـسل واستمرار ، والحقيقة هي أن الإيمان بالبعث والنشور ليس إلا إقرارا بإمكـان حـدوث الواقع نفسه بعد الموت ، الذي نجربه ، خلال حياتنا قبل الموت مرة وأخرى .

وما القيامة سوى اسم لذلك اليوم الرهيب ، إذ يتمزق حجاب الغيب ويظهـر الله — سبحانه وتعالى — عيانا بكل قوته وجلاله وجبروتـه .. وعنـدما يحـدث ذلـك ، فسيظهر حتى الجاحد والمنكر ليفعـل ما لا يتمكن من فعله اليوم غـير المؤمن الـصـادق الإيـمان ، فـالجميع سـيندفعون يومئذٍ نحـو الله — سـبحانه وتعـالى — معترفـين بكمالاتـه وقدراتـه اللانهائية !

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ .

يَنزَغُ بَيْنَهُمْ : يفسد ويهيج الشر بينهم .

تتحـدث هـذه الآيـة عـن العلاقـة الحـساسة بـين الـداعي والمـدعو ، حيـث تقـرر أن الداعي، مهـما وجـه إليـه مـن قبـل المـدعو كـلام يتـسم بالجفـاء والغلظـة ، ومهـما عومـل معاملة مفعمة بالإثارة والاستفزاز ينبغي عليه أن ينطق دائماً بالحسنى والكلمة الطيبة .. إذ لو اتخذ الداعي خطوة ما ، مدفوعاً بعوامل رد الفعل ، لتسبب ذلك في اسـتثارة مزيـد من مشاعر الكراهية والحقد والعناد في نفس المدعو ، وبالتالي سيحتدم هناك صراع بـين الداعي والمدعو ، لا يعود الناس معه قـابلين للاستماع إلى كـلام الـداعي بـذهن مفتـوح وبهدوء أعصـاب .

وإن نشوء جو مفعـم بالعنـاد والتنـافر بـين الـداعي والمـدعو هـو في صـالح الـشيطان تماما، فإنه يتخذ منه ذريعة لجعل رسالة الحق غير جديرة بالقبول لدى الناس ، ومن هنا

فلئن أخذ الداعي ، من خلال بعض تصرفاته أو مواقفه ، في إيقاظ مشاعر العناد والكراهية في نفس المدعو ، فكأنما هو قام بمساعدة الشيطان وحقق بنفسه هو ما كان عدوه يبغيه ويطمح إلى تحقيقه !

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾ .

وَكِيلاً : موكولا إليك أمرهم .

زَبُوراً : كتابا فيه تحميد وتمجيد ومواعظ .

إذ يقوم أحد الناس بالدعوة إلى دين الحق ، ويقابله الآخر بالرفض والإنكار ، فإن ذلك مما يدفع الداعي – وقد غلب عليه الشعور بالقلق أو الضجر إزاءه إلى التساؤل المشوب بالحيرة من أمره : ما بال هذا الشخص ، لا يكاد يرضى بالتسليم بصدق بلاغ في منتهى الوضوح؟! وربما لا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل يتجاوز إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث إنه لا يلبث أن يعلق على هذا الشخص صراحةً بأنه من أصحاب النار! إن كلاماً كهذا لا يجوز للداعي ولا يليق به على أية حال .

هناك مهمتان الأولى : هي إبلاغ رسالة الحق ، أما الثانية ، فهي مكافأة الكل بحسب رد فعله على الرسالة .. المهمة الأولى ملقاة على عاتق الداعي ، أما المهمة الأخرى فهي من اختصاص الله – سبحانه وتعالى .. إذن فينبغي على الداعي ألا يقع في المحظور ، بأن يدخل أو يتدخل في دائرة الله ، متخطياً محيط دائرته هو .

لقد أرشد القرآن الدعاة إلى أن تفضيل أحد على أحد أو رفع أحد إلى درجة دون أحد ، مما لا شأن لكم فيه البتة ، إنما هو من شئون الله الخاصة به ، إذن فيجب عليكم أن

تركزوا كل جهودكم على مواصلة مسيرة البلاغ والدعوة إلى الرسالة الأساسية ، معرضين عن مثل هذه المناقشات التي لا جدوى لها !

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ .

تَحْوِيلاً : نقله إلى غيركم ممن لم يعبدهم .

الوَسِيلَةَ : القربة بالطاعة والعبادة .

إن كل الذوات التي يتخذها الإنسان آلهة له من دون الله لا تعدو أن تكون مخلوقات الله .. الشيوخ الصالحين أو الملائكة مثلا .

ولو أمعنا النظر لوجدنا هذا « التأليه » أحادي الجانب ، أي من طرف واحد تماما. فليست تلك الذوات هي التي قد ادعت عن نفسها أنها آلهة ، بل إنما هناك أناسٌ آخرون هم الذين زعموها معبودات ، وأخذوا في تقديسها وتعظيمها من تلقاء أنفسهم!

ولو أن أحداً مُنح القدرة على مشاهد ة الغيب ، كقدرته على مشاهدة الحاضر سيلاحظ أن الإنسان قد أله بعض الذوات من عند نفسه ، وصار يعبدها ويطلب منها قضاء حاجاته وتحقيق آماله ، على حين أن الذوات ترتعد في الوقت نفسه خوفاً وهلعاً لما يسيطر عليها من الإحساس بجلال الله وعظمته ، وهي مشغولة بكليتها في ابتغاء رحمة الله والتقرب إليه !

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ

كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٥٨﴾ ﴾ .

إن قانون الفناء ، كما يسري على الأفراد ، يسري على الشعوب والقرى البشرية كذلك .. فأي قرية أو مدينة – مهما بلغت من القوة والبهجة – لابد لها من أن تزول وتفنى يوماً على كل حال ، سواء أكان ذلك بشكل إنزال الهلاك والدمار بها عاجلاً ، بسبب ذنوبها وطغيانها ، أم أن يُكتب لها البقاء ، حتى إذا حان موعد قيام الساعة ، قُضي عليها جنبا إلى جنب مع سائر بقاع الأرض ومدنها العامرة !

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾ ﴾ .

مُبۡصِرَةٗ : آية بينة واضحة .

فَظَلَمُواْ بِهَا : فكفروا بها ظالمين فأهلكوا .

إن ما يحدث مع الأنبياء – عليهم صلوات الله وسلامه – من وقائع غير عادية ، ينقسم إلى نوعين : أحدهما هو الذي يكون نصراً للنبي وأصحابه بوجه عام ، ويمكن أن نطلق عليه وصف « التأييد الإلهي » ، أما النوع الثاني فهو يشمل كل ما يتم إظهاره بحسب ما طلبه المشركون خرقا للعادة ، والذي يسمى بـ « المعجزة » ، ولقد جرى مع نبي آخر الزمان وأصحابه ما لا يحصى من وقائع التأييد الإلهي ، وأما ما يتعلق بالآيات المقترحة « المعجزات والخوارق » فقد أوقف إرسالها بالنسبة له – عليه الصلاة والسلام .

والسبب في ذلك هو أن كل شيء له مقتضيات معينة ، وعليه فبقدر ما يطالب الناس بالآية غير العادية ، بقدر ما تقع على عواتقهم مسئوليات غير عادية كذلك ، ومن ثم فقد جرت سنة الله في الذين لا يؤمنون ، حتى بالرغم من مشاهدة الآية غير

العادية (المعجزة) التي اقترحوها ، أن ينزل عليهم عذاباً شديداً يبيدهم ويستأصل شأفتهم .. وبما أن النبي العربي محمدا ﷺ جاء بالرسالة الخاتمة ، التي كان من المقرر انقطاع سلسلة النبوة بعدها ، لذا فلم يكن بالإمكان اتخاذ مثل هذه العملية الصارمة الحاسمة إزاء أمته ، فإن الأمة ستنقرض في حالة ما إذا نزل بها الدمار الشامل والعذاب المستأصل ، إذن ، فمن كان سيبقى هناك على إثر النبي ليقوم بتمثيله ونشر رسالته بين العالمين ؟!

ولقد كانت هذه رحمة من الله خاصة بمخاطبي النبي الخاتم – عليه الصلاة والسلام– أنه تعالى لم يرهم المعجزات والخوراق الحسية رغم مطالبتهم المتكررة .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ .

أَحَاطَ : علما وقدرة فهم في قبضته تعالى .

وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ :شجرة الزقوم (جعلناها فتنة) .

طُغْيَاناً: تجاوزا للحد .

الناس دائما يطالبون داعية الله بإظهار معجزة يقترحونها هم بأنفسهم ، على حين لو أنهم نظروا في الموضوع بذهن مفتوح ، لوجدوا أن المعجزة التي يريدون رؤيتها اختبار لصدق الداعي ، قد سبق أن تم إراؤتهم إياها بشكل النصرة الخاصة المتاحة للداعي .

لقد كان مخاطبو رسول الله ﷺ يطالبون بالمعجزات والخوارق الحسية ، فقيل لهم : أليست هذه المعجزة كافية لفتح عيونكم ، وأنه حين لم تكن الدعوة الإسلامية في أول

عهدها تمتلك أية قوة مادية ظاهرة، أعلن القرآن حنيذاك في وجوه أعدائها يقول :﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ ولقد تحققت هذه النبوءة بالفعل من خلال امتداد نفوذ الإسلام وانتشاره بين قبائل العرب على أوسع نطاق، ثم اكتملت بشكل الانتصار الحاسم في معركة بدر، وفتح مكة المبين في أعقاب صلح الحديبية !

وهكذا حين أخبر رسول الله ﷺ صباح اليوم التالي للإسراء والمعراج : أنني قد ذهبت الليلة من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى . فلم يصدقه الناس ثم دعا هناك رجالاً سبق لهم أن زاروا بيت المقدس فوصف لهم – عليه الصلاة والسلام – بيت المقدس بتمام الدقة والتفصيل . غير أن القوم استخفوا بهذه الوقائع، فلم يعيروها أي اهتمام، على حين أنها كانت الدليل الخارق على صدقه ﷺ والحقيقة أن المسألة ليست في إراءة المعجزات الحسية،بل تكمن المسألة في التأمل والتفكير الجاد في الدعوة،ولو أن الناس لم يكونوا جادين بشأن الدعوة،فسيعود كل شيء لديهم موضوع الهزء والسخرية،مهما كان ذلك الشيء جديرا بالنظر في حد ذاته .

وقد جاء في بعض الروايات أنه لما حذر القرآن الكفرة الآثمين من أن لهم في جهنم طعاما من شجرة الزقوم (سورة الصافات : ٦٢) قال أبو جهل : « هاتوا لنا ثمرا وزبدا. وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول : تزقموا، فلا نعلم الزقوم غير هذا » ![١] .

وهكذا عندما نزلت هذه الآية الكريمة (الإسراء : ٦٠) تتحدث عن « الشجرة الملعونة » التي سيأكل منها أصحاب النار، قال أحد رؤساء قريش تهكما : إن ابن أبي كبشة يوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تنبت فيها شجرة، وتعلمون أن النار تحرق الشجرة »[٢] .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٨٦.
(٢) تفسير المظهري .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ .

أَرَأَيْتَكَ : أخبرني .

لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ : لأستولين عليهم ، أو لأستأصلنهم بالإغواء .

إن قصة إبليس والملائكة تدلنا كيف يكون المطيعون،وكيف يكون العصاة المعاندون.. فالمطيعون إنما ينظرون إلى الحق من حيث هو حق، فلا يصعب عليهم أن يعرفوه ويتفهموه على وجهه،وبالتالي يبادرون من فورهم إلى الإيمان به،كما صنعت الملائكة عند خلق آدم – عليه الصلاة والسلام .

وأما الآخرون عداهم فهم الذين ينظرون إلى الحق بالنسبة إلى ذاتهم ، وليس بالنسبة إلى جوهره ، وهذا ما فعله الشيطان إذ نظر إلى الحق من خلال ذاته هو ، وبما أن الأمر بالسجود لآدم كان يكشف – على ما يبدو – عن كون آدم كبيراً ، وكونه صغيراً ، فلم يلبث أن رفض الإيمان بحق تعود معه ذاته صغيرة !

وهذا ما أخذنا في الاعتبار تحدي الشيطان كل شخص يرفض الحق ويعرض عنه لأنه لو آمن به ، صارت ذاته هو صغيرة بإزاء الآخرين !

﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ .

وَاسْتَفْزِزْ : استخف واستعجل وأزعج .

وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم : صح عليهم وسقهم .

بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ : بكل راكب وماش في معصية الله .

غُرُوراً : باطلا وخداعا .

عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ : تسلط وقدرة على إغوائهم .

إن قوله : ﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ (أي من أطاع الشيطان من ذرية آدم) ، يدل على أن الإنسان حر في العالم الراهن لكي يسير في طريق الشيطان ، أو في طريق الله .. وفي استعمال هذه الحرية ذاتها يمكن امتحان الإنسان الحقيقي، فهو إما أن يفوز بإنعام الله بنجاحه فيه ، أو يعود أهلاً لمصير الشيطان بفشله فيه .

والشيطان أيضاً يتمتع بالحرية في هذه الدنيا لكي يتخذ من الإنسان خليله ، وأن يستخدم كل حيلة للتغلغل في أعماقه ، فيعود شريكاً له في ماله وأولاده ، غير أن الشيطان لم يتح له أي نوع من التسلط أو السيطرة على الإنسان ؛ إذ ليس في مقدوره سوى أن يحاول إغواء الناس بالصوت والألفاظ ، ويتناول أشياء باطلة لا حقيقة لها بالتمويه والزخرفة ، فيعرضها عليهم كما لو أنها هي الحقيقة الكبرى .

وقوله ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ يدل على أن الشيطان أقوى من الإنسان من حيث إمكانياته ، إذاً فما سبيل الخلاص في عالم لا يلبث الشيطان فيه أن يهاجم الإنسان مع سائر جنوده من « الركبان والمشاة » ؟!

إنما السبيل الوحيد إلى النجاة منه هو أن يجعل الإنسان من الله وكيله وولي أمره بأصدق معاني الكلمة ، فمن يفعل ذلك فسوف يتكفل الله – سبحانه وتعالى – بحفظه ورعايته بحيث يصبح الشيطان – على كل طاقاته – عاجزاً عن مواجهته تمام العجز !

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾ .

يُزْجِي : يجري ويسير ويسوق برفق .

لقد جعل الله العالم الراهن خاضعاً لقوانين معينة ثابتة لا تتخلف .. الأمر الذي يمكن الإنسان من أن يسير سفينته في البحر ، ويسوق مراكبه السريعة عبر الجو .. وقد كان الغرض من هذا كله أن يعرف الإنسان ما أسدى إليه ربه من جليل النعم ،فيقوم في المقابل بالشكر والامتنان له تعالى .

غير أن الإنسان يظن كل حادث يراه واقعا تحت أبصاره،على أنه لابد له من وقوعه،كما ينظر إلى حدث إرادي مقصود،على أنه حدث يقع تلقائياً وليس وراءه أي إرادة أو قصد سابق. وهذا هو السبب في أنه لا يستقيظ هناك أي شعور رباني في داخله،رغم مشاهدته المتكررة لهذه الوقائع والأحداث .

إن معرفة الله – سبحانه وتعالى – حقيقة لدرجة أنها كامنة في صميم فطرة الإنسان ، لصيقة بأعماقها ، وتتجلى هذه الحقيقة إذا هو تعرض لكارثة ، يجد نفسه بإزائها عاجزا مكتوف اليدين لا قوة له ولا حول .. وعلى سبيل المثال : مجيء طوفان مفاجئ في البحر بحيث تتورط فيه سفينته وقد أحاط بها أمواج هائلة من كل جانب .. وفي لحظات كهذه ترتفع عن ذهن الإنسان كل الحجب الاصطناعية المتراكمة عليه ، وهو يأخذ ينادي الله الواحد الأحد طلباً للعون والنجدة ، ولا يكاد يعرف أو يتذكر وقتئذ أحداً سواه .

وإنما يبتلي الإنسان بهذه التجربة الوقتية لكي يصوغ حياته العملية كلها في قالبها فيحول اعترافه المؤقت إلى إيمانها الدائم .. غير أن الحقيقة التي يكرهها الإنسان ، وهو

متورط في طوفان البحر ، لا يلبث أن ينساها عقب وصوله إلى بر الأمان .

إن التسليم بألوهية الله الواحد الأحد وهو التوحيد كما أن عدم التسليم بألوهية الله الواحد هو الشرك .. وعلى هذا الاعتبار فحقيقة التوحيد الجوهرية هي الاعتراف، وحقيقة الشرك الجوهرية هي عدم الاعتراف .. والشيء الذي يطلبه الله من الإنسان أصلاً هو هذا الاعتراف بذاته ، ولكن الإنسان ظالم لدرجة أنه لا يكاد يرضى بتأدية حق الله حتى بمقدار الاعتراف المجرد !

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾ .

يَخْسِفَ بِكُمْ : يغور ويغيب بكم تحت الثرى .

حَاصِباً :ريحا شديدة ترميكم بالحصباء .

قَاصِفاً : عاصفا شديدا مهلكا .

تَبِيعاً: نصيرا أو مطالبا بالثأر منا .

إن الله لا يبطش بالإنسان فوراً ، رغم عصيانه وتمرده ، بل يصيبه ببعض النكبات المؤقتة ، ليوقظه من الغفلة ، ولكن عجيب أمر هذا الإنسان ، فإنه إذ يتعرض للنكبة ، يستيقظ بداخله الوعي والإحساس بصفة وقتية ، وحين تزول النكبة، تتلاشى يقظة إحساسه هي الأخرى ، فيعود بالتالي سيرته الأولى من التمادي في الغفلة والعصيان .. في حين أنه لا يزال بعدئذ في قبضة الله وتحت قدرته تماماً كما كان قبلئذ !

فلئن كان هو قد عاد سالماً غانماً هذه المرة من رحلة البحر فمن الممكن جداً أن

يضطر ثانية إلى القيام برحلة عبر البحر ، فيتورط من جديد في المصيبة نفسها التي كان قد تورط فيها من ذي قبل، وزيادة على ذلك فإن أخطار البر لا تقل عن أخطار البحر، فالشيء الذي يدعى الطوفان في البحر ، يأخذ شكل الرجفة والزلازل في منطقة البر ، إذن ، فهل ثمة موضع يجد فيه المرء شيئا من شأنه أن يحميه من بطش الله عز وجل ! كلا ، كلا !!

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ .

إن الإنسان يتميز ، من بين سائر مخلوقات الكون ، بفضيلة خاصة ، فالقمر والنجوم كائنات يعوزها الوعي والشعور ، بينما الإنسان يملك الشعور والإرادة ، ويمارس التصرف في الأشياء الأخرى بمحض اختياره ، والحيوانات إنما تعمل بواسطة أعضائها وجوارحها وحدها، غير أن الإنسان يحقق أعراضه ومآربه عن طريق اختراع دروب شتى من الآلات والمعدات ، والأنهار لا تسعها إلا أن تجري تجاه السهول والمنحدرات، ولكن الإنسان يصعد على الشواهق والمرتفعات وهو يقدر على أن يتحرك ويسافر في الاتجاه المعاكس للتيار .

كما قد اتخذت هناك ترتيبات ضخمة (على نحو ملكي) لتوفير الرزق للإنسان في هذه الدنيا.. ،فالحيوانات تأكل العشب لترده للإنسان في صورة الألبان واللحوم،وشغّالات النحل تصل الليل بالنهار سعيا وراء جمع رحيق الأزهار من أنحاء العالم كافة ، حتى تصنع للإنسان ذخائر العسل .. إلخ .

وبمقتضى هذا الإنعام والتكريم الإلهي ، كان ينبغي على الإنسان أن يكون شاكراً لله سبحانه وتعالى ، غير أن الإنسان هو المخلوق الكنود الجحود ، من بين سائر المخلوقات عداه، الذي قلما يشكر لربه !

﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٧٢﴾ ﴾ .

بِإِمَامِهِمْ : بمن ائتموا به أو بكتابهم .

فَتِيلاً : قدر الخيط في شق النواة من الجزاء .

إن كل الطوائف البشرية كما هي تكون وراء قادتها في هذه الدنيا ، ستدعى كل واحدة منها في الآخرة مع قائدها كذلك .. فالصالحون مع قادتهم والطالحون مع قادتهم .

وبعدئذ سيعطى الكل كتاب أعماله التي عملها في الحياة الدنيا ، وسيعطى الصالحون كتاب أعمالهم بأيمانهم والطالحون بشمائلهم وإنها ستكون بمثابة علامة ظاهرة محسوسة تدل على أن الطائفة الأولى قد فازت برضا الله ، وأن الأخرى قد باءت بسخطه تعالى .

وتقسيم الناس إلى صالح وطالح في الآخرة إنما سيتم على أساس من عاش في هذه الدنيا أعمى، ومن عاش هنا بصيراً.. وبما أن الله – سبحانه وتعالى – لا يكلم الإنسان في هذه الدنيا على نحو مباشر،لذا فليس هناك من سبيل إلى الاطلاع على رضوان الله تعالى ومشيئته في هذه الحياة الدنيا غير سبيل واحد،ألا وهو تدبر آيات الكون الصامتة،والتأمل في أحاديث دعاة الحق .. فالذين يتوصلون إلى المعرفة عن طريق هذا الكلام غير المباشر،هم عند الله ((ذوو البصر والبصيرة)) حقا، وأما الذين لا يفهمون هذا الكلام غير المباشر وينتظرون الوقت الذي سيظهر فيه الله عياناً، ليكلمهم بطريقة مباشرة،فإنهم عند الله ((عميان)) وأمثال هؤلاء لن ينفعهم شيئا،حتى الاستماع المباشر إلى الكلام الإلهي،فإنهم سيظلون عندئذ أيضا بعيدين عن الحقيقة تماماً كبعدهم عنها

اليوم !

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ .

لَيَفْتِنُونَكَ :ليوقعونك في الفتنة وليصرفونك .

لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا :لتختلق وتتقول علينا .

تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ : تميل إليهم.

ضِعْفَ الحَيَاةِ :عذابا مضاعفا في الحياة الدنيا.

إن المحور الأساسي لدعوة رسول الله ﷺ بمكة كان يتمثل في أن الله واحد أحد لا غير، وكل ما تعبدونه من دونه تعالى من الأصنام والأوثان هو باطل محض .. ومع أن أهل مكة كانوا يقرون بوجود ((إله كبير)) إلا أنهم – مع ذلك – كانوا يشركون به آلهة أخرى كذلك .

وقد حاول مشركو مكة مساومة النبي – عليه الصلاة والسلام- على أن يعبدوا إلهه مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه آباؤهم إلا أن منهج النبي هو الجهر بالحق وإعلانه بتمام الوضوح ، من غير اكتراث بها إذا كان له مساس بآلهتهم أو لا !؟

إن هدف العملية الدعوية الأصيل هو إعلان الحقيقة على وجه أتم وأوضح ما يكون ، وللسبب ذاته فأي تنازل أو قصور فيها يتصل بموضوع الإعلان أمر لا يساغ بحال من الأحوال.. إذن ، فكل من ينهض للدعوة إلى الحق سواء أكان نبيا أم غير نبي لابد له من الإعلان الصريح المكشوف للحقيقة ، حتى ولو اضطره ذلك إلى أن يبقى

وحيدا مخذولاً لا ناصر له ولا صديق في طول الدنيا وعرضها !!

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ .

لَيَسْتَفِزُّونَكَ :يستخفونك ويزعجونك .

تَحْوِيلاً :تغييرا وتبديلا

إن الدعوة إلى دين الحق أينما تنهض ، وبين أية طائفة ترتفع أصداؤها ، تكتنفها دوماً ظروف وأوضاع مماثلة... حيث يكون هناك – من ناحية – أناس يحتلون المناصب القائمة باسم الدين ، ومن ناحية أخرى يكون الداعي إلى الحق الذي يبدو وحيداً وضعيفا للغاية تبعا لمقياس القوة السائدة في بيئة العصر ،وهذا الفرق الظاهر يوقع القوم في سوء فهم وغرور، فلا يلبثون أن يعتبروا داعي الحق تافها لا يقام له وزن ، حتى إنهم يريدون أن يخرجوه من قريتهم .

ويغيب عن أمثال هؤلاء أن هذه الأرض هي أرض الله ، ومن هنا فإن تدبير أي خطة تخريبية ضد أحد عباد الله يعني إقامة الدليل على كون أنفسنا مجرمين عند الله سبحانه وتعالى.. إن إخراج داعي الله من قرية ما ، شأنه شأن إخراج شخص من إحدى المدن والولايات ، بعث هناك بصفته مندوبا للحكومة المعاصرة .. فانتزاع حق السكنى في المدينة من شخص كهذا يؤدي نهائيا إلى أن ينتزع حق السكنى من سكان المدينة أنفسهم !

المرء يطرد غيره في حين أنه لا يطرد إلا نفسه هو والمرء يحاول أن يحط من قدر الآخر، بينما هو لا يحط إلا من قدر ذاته في عين المالك الحقيقي الذي له الخيار المطلق في

أن يضع من شاء ويرفع من شاء ، فهو المعز وهو المذل وهو على كل شيء قدير !

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) ﴾ .

لِدُلُوكِ الشَّمْسِ :بعد أو عند زوالها عن كبد السماء .

غَسَقِ اللَّيْلِ : ظلمته أو شدته .

وَقُرْآنَ الفَجْرِ : وأقم صلاة الصبح .

فَتَهَجَّدْ : التهجد الصلاة ليلا بعد الاستيقاظ

إن الجزء الأول من هذه الآية الكريمة معناه الحرفي : أن « أقيموا الصلاة من وقت زوال الشمس إلى وقت ظلمة الليل » .. وتفيد هذه الألفاظ ، على ما يبدو ظاهراً ، بوجوب إقامة الصلاة بتسلسل واستمرار ، من بعد الظهيرة حتى انتشار ظلام الليل .. وإنه ليس من الشك في أن عظمة الله وما أسدى إلى عبيده من نعم لا تحصى ، يتطلبان منهم أن يظلوا مشغولين بعبادته تعالى كل حين وآن دون انقطاع .

بيد أن تفسير الحديث للآية تناول عمومها بالتخصيص،وبذلك فقد حول الحديث النبوي هذا الحكم العسير إلى أمر بالغ اليسر والسهولة إذ قرر أن على الناس أن يقيموا صلتهم بالله ، خلال الأوقات المعتادة، على مستوى « الذكر » وحده ، وأن يقوموا ، في أثناء الفترة الممتدة منذ الظهيرة وحتى الليل ، بعبادته تعالى أربع مرات (وهي صلوات: الظهر، والعصر ، والمغرب ، والعشاء) .

وهكذا فإن الترجمة الحرفية للجزء الثاني من الآية تتلخص في : « وقراءة (القرآن) عند الفجر » .. ولئن أخذنا بهذا المفهوم الظاهري ، فسيكون معناه أنه يجب إمضاء أوقات الفجر كلها في تلاوة القرآن الكريم كل اليوم .. غير أننا نجد البيان النبوي هنا

مرة أخرى قد يسر علينا الأمر بكشف النقاب عن مراد الله تعالى .. فمعنى هذا الحكم على وجه التحديد ، طبقا لما ورد في السنة المتواترة ، أنه مطلوب أداء صلاة عند مطلع الفجر أيضا ، ولتكن هذه الصلاة (الخامسة) متميزة عن الصلوات الأربع الأخرى عداها ، بإطالة القراءة فيها !

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ .

نَافِلَةً لَّكَ : فريضة زائدة خاصة بك .

مَقَاماً مَّحْمُوداً :مقام الشفاعة العظمى .

روح صلاة التهجد هي ذكر الله في خلواتنا الخاصة .. والتهجد في اللغة : هو الاستيقاظ بالليل ؛ لأنه وقت يتسم بغاية الهدوء والخلوة ، وحين يصحو المرء من نومه في الهزيع – أي الثلث أو الربع – الأخير من الليل ، فإن ذلك ليكون أطيب أوقاته على الإطلاق ، في تلك اللحظات السعيدة ؛ إذ يتوجه المرء إلى الله ، ويتلو كلام الله في خشوع، واضعاً يمينه على يساره على هيئة المصلي ، فكأنما هو يرسم الصورة النهائية لعبوديته لربه ، وبخاصة عندما تكون نبضات قلبه هي الأخرى تتجاوب مع ما يقرأه بلسانه ، وتذوب شخصيته كلها بحيث لا يلبث أن تفيض دموعا من خلال عيونه !!

و((المقام المحمود)) معناه الحرفي : هو ((المقام الممدوح أو المثني عليه)) وهذه ((المحمودية)) لها جانبان : دنيوي وأخروي .. أما الجانب الأخروي فهو : الذي يطلق عليه المفسرون ((الشفاعة العظمى)) ، فكما هو معلوم من الأحاديث الواردة في هذا الباب ، أن جميع الأنبياء سيشفعون يوم القيامة في حق المؤمنين بهم ، وستكون شفاعتهم تلك بمثابة تصديق لكونهم مؤمنين وبعدئذ سيدخل في الجنة من شاء الله إدخاله فيها .. وستكون شفاعة رسول الله ﷺ أكبر وأعظم من شفاعات سائر الأنبياء ، ذلك لأنه

سيشفع لعدد أكبر من الناس ، لكون عدد أتباعه أكثر من الجميع !

وأما الجانب الدنيوي لـ « محمودية » رسول الله ﷺ فهو أن يقترن به تاريخ مجيد يعود معه جديراً بالثناء والاعتراف لدي شعوب العالم أجمع ، وقد تحقق مراد الله هذا في حقه ﷺ على أكمل وجه ، حيث أصبح كل الناس في العالم اليوم لا يسعهم إلا أن يعترفوا به رغم أنفهم .. فقد صارت نبوته الآن نبوة مسلماً بها ، ولم تعد النبوة المتنازع عليها كما كانت في السنوات الأولى من بعثته – عليه الصلاة والسلام .

النبوة « المحمودية » هي من الناحية الدنيوية ، اسم ثان للنبوة الثابتة المبرهن عليها، أي النبوة التي تصاحبها وتدعمها شواهد تاريخية قطعية لدرجة أنه لا يبقى هناك مجال للشك أو الارتياب في صدق صاحبها ولا في صحة تعاليمه .. وبالتالي يعود الإنسان مرغما، بموجب المعيار العلمي المسلم به عند نفسه هو ، على الاعتراف بمكانته ، ومن شأن الإقرار والاعتراف عندما يبلغ آخر مداه ، أن يتحول إلى المدح والثناء ، وهذا هو السر في أنه أطلق عليه هنا وصف « المقام المحمود » !

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ .

مُدْخَلَ صِدْقٍ : إدخالا مرضيا جيدا في أموره .

سُلْطَاناً نَّصِيراً : قهرا وعزا ننصر به الإسلام .

وَزَهَقَ البَاطِلُ :زال واضمحل الشرك.

لقد كان رؤساء العرب يريدون جعل رسول الإسلام « مذموماً » ، ولكن شاءت إرادة الله – عز وجل – إيصاله إلى مقام « المحمود » .. وتحقيقاً لذلك فقد كان تدبير الله يتمثل في خلق ظروف مواتية له في المدينة ، ونقله إليه مهاجراً من مكة ، ثم إرساء

دعائم الدولة الإسلامية بالمدينة ، وتكثير تعداد المسلمين إلى حد أقصى من خلال الجهود المكثفة في حقل الدعوة والتبليغ ، إلى أن يتمكن هؤلاء المسلمون من دخول مكة فاتحين ، وبالتالي تعود شبه الجزيرة العربية بأكملها خاضعة ومسخرة لهم ، وهكذا تنضوي تحت راية التوحيد قوى هائلة ، تقوم عن طريق عمل دؤوب متواصل ، بالقضاء على غلبة الشرك ومحو آثاره من العالم أجمع !

وقد كان ذلك هو التدبير الإلهي الذي تم إعلانه هنا على لسان رسول الإسلام بشكل الدعاء !

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ .

خَسَاراً : هلاك بسبب كفرهم به .

القرآن هو إعلان الصدق الخالص ، وحينما يعرض الصدق الخالص ، فإنه يمثل خطراً يتهدد كل أولئك الذين يعيشون إما محرومين من الصدق مطلقاً ، أو متمسكين بصدق زائف مغشوش .. والآن فمن كان منهم واقعياً ، إذا ما ظهر الصدق الخالص أمامه ، فإنه يتخذ من الصدق المعيار أو الحكم دون ذاته هو ، وهكذا فإن جديته وواقعيته تحولان القرآن إلى شفاء ورحمة له ، ولكل من سار على نهجه .

أما الصنف الذي يخشى اتباع الحق حرصا على ما في يديه من مطامع الدنيا ، فلا يزيده وضوح الحق إلا خسراناً .

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾ .

وَنَأَى بِجَانِبِهِ :لوى عطفه تكبرا وعنادا .

كَانَ يَئُوساً : شديد اليأس والقنوط من رحمة الله .

شَاكِلَتِهِ : مذهبه الذي يشكل حاله .

إن كل إنسان لابد وأن تمر عليه أحوال شتى من الخير والشر ، فإذا أتيحت له الرفاهية والرخاء، يبدي ثقة بالغة بنفسه،لدرجة أنه يصبح عنيداً ومتصلباً في الإذعان لأمر ما،كأنه حديد لا يلين .. ولكن حين يسلب منه أسبابه،وتعتريه حالة العجز وانعدام الحول والحيلة، يعود فجأة ساقط الهمة ، صريع اليأس والقنوط .

وتلك تجربة يمر بها الإنسان خلال حياته في العالم الراهن ، ولكن ليس هناك أحد يوفق لاكتشاف ذاته من خلال هذه التجربة ، بأن تقوده هذه التجربة إلى التفكير في أنه إنما يقف هنا موقف العناد والتعنت إزاء الحق في هذه الدنيا ، لكونه يتمتع فيها بالحرية ، ولكن إلام سيئول أمره عندما تفاجئه القيامة ، فتنتزع منه كل اختياراته انتزاعا ؟! ألا ما أضعف هذا الإنسان ، ولكنه – مع ذلك – كم يظن نفسه قوياً شديد البأس !!

المقصود بالشاكلة هو القالب الفكري .. إن كل امرئ له قالب فكري خاص يتكون شيئا فشيئا بحسب ميوله واتجاهاته في الحياة .. وهذا القالب هو الذي يصوغ أفكاره ووجهة نظره تجاه الأشياء والأمور .. غير أن وجهة النظر الصحيحة هي التي تكون صحيحة طبقا للعلم الإلهي ، والخاطئة هي التي تكون تبعاً للعلم الإلهي كذلك .

وهذا هو موضع امتحان المرء في هذه الحياة .. والمطلوب من المرء هو أن يحطم قوقعته الفكرية التي صاغتها وفرضتها عليه شاكلته ، حتى يتمكن من أن يرى الأشياء كما هي .. وإليها من وجهة النظر الربانية .

إن الذين حبسوا أنفسهم داخل قوقعتهم الفكرية إنما هم أناس ضالون منحرفون ،

وأما الذين حصلوا على وجهة النظر الإلهية ، متحررين من أسر قوقعتهم الفكرية ، فهم وحدهم المهتدون إلى سبيل الحق والرشاد!

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ .

المراد بالروح هنا : قيل : الروح التي في الجسد ، وقيل : جبريل عليه السلام وقيل: ملك عظيم .. والذين وجهوا إلى رسول الله ﷺ هذا السؤال كان قصدهم من ورائه هو الكشف عن « جهل » رسول الله ، زعمهم ، وليس في الحقيقة دفع جهلهم أنفسهم !!

وقد كان ذلك في وقت لم يكن فيه رسول الله قد أحيط بتاريخ المجد والعظمة بعد،وإنما كان – عليه الصلاة والسلام – يبدو للناس رجلاً عادياً ليس غير ، وبما أنهم لم يكونوا على يقين من أن ملك الله يأتيه بالوحي الإلهي ، لذا فقد توجهوا إليه بهذا السؤال على وجه التهكم والسخرية .

على أن القرآن قد أشار هنا ، في معرض الرد على هذا السؤال ، إلى أمر مبدئي هام ، ألا وهو أن الإنسان « لم يؤت من العلم إلا قليلا » ، وأنه لا يتمتع بـ « العلم الكثير » ، وعليه فمقتضى الواقعية هو ألا يخوض في أسئلة لا يتمكن – لكونه مفطورا على قلة العلم – من التوصل إلى الأجوبة الصحيحة عنها .

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ .

وَكِيلاً : من يتعهد بإعادته إليك .

ظَهِيراً :معينا .

إن القرآن الكريم ليس من كلام محمد ﷺ وإنما هو كلام صادر عن مستوى آخر فوق طبيعة البشر .

والذين كانوا يعدون القرآن كلاما بشرياً، قيل لهم : إن كنتم صادقين في زعمكم هذا إذن فينبغي أن يكون في مقدوركم أيضاً بصفتكم بشراً ، أن تأتوا – منفردين ، أو مجتمعين – بكلام مثل هذا القرآن ، إلا أن أحداً من أرباب اللغة والأدب ، وجهابذة العلم والفكر ، لم يستطع ، على مدى التاريخ،رد هذا التحدي ،لا في عصر نزول القرآن،ولا فيما تلاه من العصور ، وتدل الوقائع على أن هناك أناساً كثيرين حاولوا القيام بذلك ، إلا أن محاولاتهم سرعان ما باءت بالإخفاق والفشل الذريع ؛ إذ إنهم ظلوا عاجزين حتى عن الإتيان بسورة واحدة من طراز القرآن العظيم !

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾ ﴾ .

صَرَّفْنَا :رددنا بأساليب مختلفة.

كُلِّ مَثَلٍ :معني غريب حسن بديع .

فَأَبَى : فلم يرض . **كُفُوراً** :جحودا للحق .

يَنْبُوعاً :عينا لاينضب ماؤها.

كِسَفاً : قطعا .

قَبِيلاً : مقابله وعيانا. أو جماعة .

زُخْرُفٍ : ذهب.

حين عرض رسول الله ﷺ رسالة الحق ، قال له معاصروه : ((إننا لن نؤمن بك ، ما لم ترنا أعمالا خارقة للعادة)) ، غير أن مطالبات كهذه مخالفة لمنهج الله عن الخلق ، فقد خلق الله الإنسان كوجود ذي وعي وشعور ، وإنه لهبة نادرة فريدة من نوعها في هذا الكون بأكمله ، والسر في إعطائها للإنسان هو أن يعرف الحق باستخدام الوعي والشعور ، وليس بواسطة الخوارق والشعوذات السحرية ..

والحقيقة هي أن امتحان الإنسان في العالم الراهن إنما يجرى على مستوى ((الدليل)) فالمطلوب من كل أحد هنا هو أن يعرف الحق بلغة الدليل،وبالتالي يختاره عن وعي وبصيرة ، وأما الذين لا يعرفون الحق على مستوى الدليل والبرهان ، فأولئك هو الذين سيبوؤون آخر الأمر بالفشل والخيبة !

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ .

لقد كان السبب في امتناع أكثر الناس عن الإيمان تعجبهم من أن الذين أرسلوا

إليهم بشراً منهم ، وذلك على مر العصور والأمم السابقة .

فقال لهم : لو كان يسكن في الأرض ملائكة لأرسلنا إليهم رسولاً من جنسهم ملكاً، كما أرسلنا إليكم رسولاً من جنسكم بشراً ، ثم قال تعالى لنبيه : قل لهم : يكفي أن الله شاهد عليّ وعليكم ، وهو يعلم من منا على هدى ومن على ضلال .

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾ .

خَبَتْ : سكن لهبها.

سَعِيراً : لهبا وتوقدا .

وَرُفَاتاً : أجزاء مفتتة . أو تربا أو غبارا .

المرء يعيش في هذه الدنيا طبقاً لوضعه المادي ، وإنه سيبدو في الآخرة تبعاً لوضعه الروحي .. ولهذا السبب فإن الذين قد انحرفوا عن سبيل الحق في الدنيا ، عندما يبعثون يوم القيامة، فسيجدون أنفسهم عمياً وبكماً وصماً ، فما كان انحرافهم عن السبيل هنا إلا لكونهم لم يستعملوا أبصارهم وأسماعهم وألسنتهم في الهدف الذي منحوا إياها من أجله ، فهم لم يروا آيات الله ، ولا سمعوا أدلة الله ، ولم تنطق ألسنتهم تأييدا للحق أو دفاعا عنها ، فقد صاروا بالنسبة إلى الحق ، على تمتعهم بحواس البصر والسمع والنطق كما لو أنهم لا يملكون عيوناً تبصر ، ولا آذاناً تسمع ، ولا ألسنةً تنطق ، وفي أعقاب الموت ، حين يصلون إلى العالم الحقيقي ، فسيرون أنفسهم هناك في صورهم الأصلية ، وليس في تلك الصور المصطنعة التي كانت قد أتيحت لهم بصفة وقتية ، لكونهم في

حالة الامتحان في العالم الراهن .

﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا ﴾ تلك عبارة ينقسم القائلون بها إلى صنفين: أحدهما : هو الذي يرددها بلسان المقال،وأما الآخر: فهو الذي يقولها بلسان الحال ..وهذا الصنف الأخير يشتمل على أناس يستخدمون عيونهم وآذانهم وألسنتهم بخلاف الغاية المطلوبة من خلقها،ويزعمون أن عملهم هذا سوف يتبدد ويتلاشى في هذه الدنيا،وأنه غير باق إلى يوم القيامة ليسألوا عنها أو يجازوا عليه !

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ .

إن الأرض والسماء تتواجدان أمام أعيننا كحقيقة لا مرية فيها ، ولا سبيل إلى إنكارها .. وهذا الوجود يثبت أن هناك وجودا حيا يملك القدرة على الخلق لأول مرة، وعلى إبداع الوجود من العدم ، فإذا كان الخلق الأول ممكناً، فما الذي يدعو إذن إلى استبعاد إعادة الخلق مرة ثانية ؟! والحقيقة هي أنه ليس ثمة دليل علمي أو عقلي يمنع من التسليم بإمكان الخلق الثاني بعد تسليمنا بالخلق الأول ، بل العكس هو الصحيح .

والذي لا يسلم بإمكان الخلق الثاني ، بالرغم من هذه القرينة البالغة الوضوح ، فإنما هو ظالم على أرضية العناد والتعنت والمكابرة ، دون أرضية الدليل والبرهان والمعقولية!

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ .

قَتُوراً :مبالغا في البخل .

الإنسان – إلا من هداه الله – مطبوع على الشح والأثرة .. فهو يريد أن يستأثر بكل

أنواع المجد والشرف لنفسه هو أو لطائفته التي ينتمي إليها .. ولو أن الأرزاق والنعم قد عهد بتوزيعها إلى الإنسان ، لبادر الذين حصلوا على المجد والثراء ، إلى الاستئثار بالنبوة هي الأخرى لأنفسهم ، ولم يدعوها تذهب إلى الآخرين عداهم !! .

غير أن الله - سبحانه وتعالى - لا ينظر إلى الأمور من منظور العصبيات الطائفية .. إنه تعالى ينظر إلى كل الناس، ثم يختار منهم من هو أصلح وأفضل فيختصه بالنبوة .. ولو أن أمر الاختيار للنبوة صار موكولا إلى البشر ، لنشأ هنا أيضا من الفساد والفوضى ما نراه سائدا في الدوائر والمؤسسات البشرية لسيطرة هذه الجموع الغفيرة من أناس غير مؤهلين ولا أكفاء عليها بسبب المحسوبية والمحاباة !

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

مَسْحُوراً :مغلوبا علي عقلك بالسحر أو ساحرا .

بَصَائِرَ :بينات تبصر من يشهدها بصدقي .

مَثْبُوراً : هالكا أو مصروفا عن الخير.

يَسْتَفِزَّهُم :يستخفهم ويزعجهم للخروج .

لَفِيفاً : جميعا مختلطين .

فَرَقْنَاهُ : بيناه وفصلناه أو أنزلناه مفرقا .

عندما عرضت على فرعون آيات بينات – دالة على صدق موسى وصحة ما جاء به– لم يلبث أن كذب بها قائلا: ((إنما هي سحر!))ومعنى ذلك أنه مهما تقدم الداعي إلى الحق بدليل قوي،ومهما جاء بآية عظيمة باهرة،لا يزال الباب أمام الإنسان مفتوحا أن يرفضها مستخدما بعض الألفاظ،كأن يطلق على الآية الإلهية وصف السحر الإنساني،ويرد دليلاً علمياً متعللاً بأنه نتاج دراسة ناقصة غير ناضجة ،ويعرض عن القرائن الواضحة القاطعة واصفاً إياها باللامعقولية !!!

ومعارضو الحق يفشلون في إسكات صوت الحق بالمعارضة اللفظية ، يلجأون إلى الإجراءات العدوانية ولكن يغيب عن بالهم أن هذا ليس بأمر إنسان ما ، بل إنما هو أمر الله ومن ذا يستطيع أن ينجح في ممارسة العدوان ضد الله – عز وجل؟!

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

مُكْثٍ :على تؤدة وتأن .

إن القرآن هو إعلان الصدق الخالص غير أن الصدق الخالص شيء قلما يحظى بالقبول عند الناس .. ولهذا السبب فلم يلق الله – سبحانه وتعالى – هذه المسئولية على عاتق الداعي، بأن يرغم الناس على الإيمان به إرغاماً ، وإنما تكمن مسئولية الداعي في أن يبذل جهده في الجهر بالحق وإعلانه على أكمل وجه .

القرآن كتاب روعي فيه المخاطب – بمستوييه العقلي والاجتماعي ، وبأحواله المحيطة به – إلى أقصى حدود المراعاة .. وهذا من أسرار تنزيله منجماً على مدى ثلاث وعشرين سنة ، حتى يتمكن كل من يرغب في فهم القرآن من أن يفهمه ويستوعب مضامينه جيداً ، وبالتالي يصير القرآن شيئا فشيئا بلفظه ومعناه جزءاً لا يتجزأ من فكره

وسلوكه !

﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

إن كلام الله يتطلب من الإنسان الخشوع والتواضع .. غير أن الله – سبحانه وتعالى – لا يتجلى عياناً في العالم الراهن ليتلو كلامه على الناس بنفسه ، وإنما يجرى كلامه على لسان ((بشر)) ، والآن فإن الذين تنطوي صدورهم على مشاعر الكبر والغرور ، يعتبرون الخضوع أمامه مرادفاً للخضوع أمام ((إنسان)) ، مما يجعلهم يقابلونه بالرفض والإنكار .

وعلى النقيض من ذلك فإن الذين تخلو نفوسهم من مشاعر الكبر والغرور ، إنما هم ينظرون إلى القرآن من حيث هو كلام الله وكفى ، وبالتالي فهم لا يلبثون أن تتراءى لهم ومضات إلهية في الكلام الجاري على لسان الإنسان، وهو يصبحون من خلاله موصولين بالله ، ويدركون مدى عجزهم وضعفهم بإزاء عظمة الله وجلاله .. وهذا الإحساس يذيب أفئدتهم ، ويجعلهم يخرون بين يديه تعالى ساجدين على وجوههم باكين !

أما النوع الأول من الرجال ، فيمثله رؤساء قريش ، وأما النوع الثاني من الرجال فيمثله المؤمنون من صالحي أهل الكتاب ، أولئك الذين كانوا قد آمنوا برسول الله ﷺ في العهد الأول .

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ

وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ .

وَلَا تُخَافِتْ بِهَا : لا تسر بها حتى لا تسمع من خلفك .

إن الذين يعانون من الافتقار إلى إدراك جوهر الحق وفهمه بعمق ، يظلون دوما متشبثين بالقشور والمظاهر الشكلية .. فمنهم من يقول : إن مناداة الله بهذا الاسم أفضل ، وآخر يقول : لا بل دعاء الله بذاك الاسم أفضل .. ويذهب بعضهم إلى أن عبادة كذا يجب رفع الصوت في أدائها ، بينما يرى بعض آخر أنه لابد من خفض الصوت فيها .

لقد كان العرب هم الآخرون تدور بينهم مناقشات كهذه في صور شتى ، ومن ثم نزل القرآن يقول : بأي اسم جميل دعوتم الله – سبحانه وتعالى – فهو اسمه ، وله كل الأسماء الحسنى ، وهكذا قال عن العبادة : إن عبادة الله لا يتوقف أداؤها على رفع الصوت ولا على خفضه ، وإنما المطلوب هو أن تولدوا في داخلكم روح العبادة الأصلية ، وأن تلتزموا بالقصد والاعتدال في ممارستها .

وروح العبادة هي أن يتولد وعي عميق تام بعظمة الله وجلاله في ضمير الإنسان ، وأن يصير الإيمان بالله عنده بمثابة اكتشاف لوجود كامل وعظيم غني عن مساعدة أحد سواه والذي لا ند له ولا شريك في ملكوته ، ولا تعتريه أبداً حالة تحوجه أو تضطره إلى الاستنصار بغيره وهذا الاكتشاف عندما يتحول إلى كلمات تفيض عبر اللسان ، فذلك ما يسمى ((التكبير)) !

سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾.

وَلَمْ يَجْعَل لَّه: اختلالا لا اختلافا ولا انحرافا عن الحق ولا خروجا عن الحكمة .

قَيِّماً : مستقيما معتدلا أو بمصالح العباد.

بَأْساً : عذابا آجلا أو عاجلا .

كَبُرَتْ كَلِمَةً : ما أعظمها في القبح كلمة.

إن القرآن هو الطبعة المصححة للكتب السماوية السابقة .

ولقد تعرضت الكتب (السماوية) السابقة لآفة التحريف من ناحتين : حيث عكف علماؤها المتأخرون – من جهة – على التفريعات والتعمقات غير الضرورية في التعاليم الإلهية، فلم يلبثوا أن جعلوها معقدة غاية التعقيد .

ومن جهة أخرى تنوولت مبادئ الدين بتفسيرات مزعومة ، أدت إلى تحويل مساره أو اتجاهه عما كان عليه في بداية الأمر .

وأما القرآن فهو طاهر نظيف من التحريفات والإضافات البشرية ... فهو لا يزال يحافظ على الدين الإلهي الأصيل في صورته الفطرية البسيطة ، ومن جانب آخر ما زال اتجاهه مستقيما نحو الله من غير عوج ولا انحراف ، كما ينبغى أن يكون من حيث الواقع .

وما سر عناية الله – سبحانه وتعالى – بأن يبعث بكتابه إلى سكان المعمورة ؟!

الغرض من ذلك هو إعلام الناس بتدبير الله ..فقد أسكن الله الإنسان في العالم الراهن لأجل الامتحان والاختبار، وسيأتي يوم عقب فناء العالم يحاسب الله فيه كل الناس ، فيقذف بكل أحد منهم في جهنم أو يدخله في الجنان الأبدية بحسب عمله ... والله – سبحانه وتعالى – يريد أن يصبح كل الناس مطلعين على هذه المسألة بكل أبعادها قبل الموت، حتى لا يكون لأحد عذر أو حجة على الله .

إن أحد أسباب ضلال الإنسان وانحرافه عن الصراط المستقيم في هذه الدنيا ، هو أن يتخذ من أحد غير الله سنده وموضع ثقته .. ومن أشنع صور ذلك افتراض أحد الناس ابنا أو ولدا لله - سبحانه وتعالى ... غير أن كل العقائد من هذه النوع لا تعدو أن تكون محض كذب وافتراء ؛ إذْ ليس ثمة من أحد في الأرض ولا في السماء يتمتع بأي نوع من الخيار أو السلطة غير الله عز وجل !.

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ .

بَاخِعٌ نَّفْسَكَ : قاتلها ومهلكها أو مجهدها .

أَسَفاً : غضبا . وحزنا عليهم أو غيظا .

لِنَبْلُوَهُمْ : لنختبرهم مع علمنا بحالهم .

أَحْسَنُ عَمَلاً : أزهَدُ فيها وأسْرَعُ في طاعتنا .

صَعِيداً جُرُزاً : ترابا أجرد لا نبات فيه .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ تدل هذه الجملة على حال الداعي بشأن الدعوة .. حيث إنه ربما يهلك نفسه حزنا وأسى على أن الناس لا يتلقون دعوة الحق بالقبول لو أن دعوة تصاحبها أدلة بلغت منتهى الوضوح ، والتي يكون عارضها غاية في النصح والإخلاص، يحاول جهد طاقته جعلها موضوعا للتأمل والتفكير الحاد لدى الناس ، ولكنهم – مع ذلك – لا يؤمنون بها ، فماذا يكون السبب وراء عدم إيمانهم هذا يا ترى؟! السبب في ذلك هو مفاتن الدنيا .،... فالدنيا جذابة خلابة لدرجة أن المرء لا يستطيع أن يترفع عنها بسهولة ، وبالتالي فهو لا يكاد يفهم أهمية دعوة تصرف اهتمامه وتوجهاته عن العالم الحاضر وزينته الماثلة بين ناظريه ، وتقوده نحو عالم لا تبدو مباهجه ظاهرة متجلية للعيان !

بيد أن مفاتن الأرض وزينتها عابرة وسريعة الزوال للغاية ، فهي لا تدوم إلا لمدة الامتحان المحددة ، ومع انقضاء هذه المدة سيُقضى على الأرض بما فيها من بهجة وجمال، حتى إنها ستعود ساحة خالية جرداء لا نبات فيها ولا حياة كصحراء مجدبة قاحلة !

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ .

أَمْ حَسِبْتَ : بل أظننت .

أَصْحَابَ الكَهْفِ : النقب المتسع في الجبل .

وَالرَّقِيمِ : اللوح فيه أسماؤهم وقصتهم.

أَوَى الفِتْيَةُ : التجئوا هربا بدينهم .

رَشَداً : اهتداء إلى طريق الجنة.

فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ : أنمناهم إنامة ثقيلة .

بَعَثْنَاهُمْ : أيقظناهم من نومهم .

أَمَداً : مدة وعدد سنين أو غاية .

إن حادثة أصحاب الكهف حادثة رمزية ، تدلنا على المراحل التي تمر بها حياة المؤمنين الصادقين في إيمانهم .. فمن خلال ذلك يتضح لنا أن أهل الإيمان ربما يضطرون في بعض الأحايين ، عند اشتداد وطأة الظروف عليهم ، إلى الالتجاء إلى « كهف » ما ، غير أن هذا الكهف ، الذي كان يمثل – نظراً لظواهر الأحوال – مقبرة لهم ، يتدفق منه سيل عارم جديد من الحياة والحركة والنشاط ، وبالتالي يتكون لهم تاريخ جديد، من حيث كان معارضوهم وأعداؤهم يريدون وضع نهاية لتاريخهم .

ويذهب المفسرون والمؤرخون إلى أن أصحاب الكهف هم أولئك الذين يعرفون في التاريخ المسيحي بـ «النوام السبعة » (seven sleepers) وان قصتهم هذه تتصل بمدينة إفيسس (Ephesus) ،وهي من المدن الشهيرة في العصر القديم ، كانت تقع على الشاطئ الغربي من تركيا ، ولا تزال أطلالها الرائعة متواجدة هنالك حتى اليوم .

وقد كانت هذه المنطقة منذ عام ٢٤٩ وحتى ٢٥١ خاضعة لحكم الإمبراطور

الرومي داقيوس أو ديسيس ، (Decius) ، و كانت تسودها عبادة الأصنام وما يتبعها من تقاليد وطقوس وثنية ، وقد كان القمر يعتبر هناك إلها أو كبير الآلهة ، تقدم له الذبائح والقرابين... وقد ظهرت في أثناء تلك الفترة دعوة التوحيد عن طريق أتباع المسيح الأولين ، وبدأت تنتشر بين الناس ...وإن الإمبراطور الرومي ، كان بدوره وثنيا يعبد الأصنام ، لم يكد يسمع عن انتشار عقيدة التوحيد في أرجاء مملكته ، حتى ثار ثائره ، وأخذ يضطهد أتباع المسيح ويسومهم سوء العذاب .

وأصحاب الكهف المذكورون كانوا سبعة شبان من أسر شريفة في مدينة أفيسس والذي قاموا ، على الأغلب، باعتناق ديانة التوحيد عام ٢٥٠ ق م ، ومنذ ذلك الوقت، وقفوا حياتهم لنشرها والدعوة إليها ... وعندما شرعت الحكومة في مطاردتهم، خرجوا من المدينة سراً ، واتجهوا نحو جبل قريب ، حيث اختفوا في غار فسيح .

وأما أصحاب الرقيم فالأغلب أنه تسمية ثانية لأصحاب الكهف هؤلاء أنفسهم ، والرقيم بمعنى المرقوم، أي الشيء المكتوب .. إذ يقال : إنه لما فقد الشبان السبعة المذكورون من البيوت الرفيعة ، أمر الإمبراطور بكتابة أسمائهم وأحوالهم في لوحة رصاصية وإيداعها في الخزائن الملكية ، ومن هنا فقد صار يطلق عليهم -أيضا- « أصحاب الرقيم » (أي أصحاب اللوح المكتوبة فيه أسمائهم) »[1] .

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/ ٧٣.

يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾ .

وَرَبَطْنَا : شددنا وقوينا بالصبر .

شَطَطاً : قولا مفرطا في البعد عن الحق .

﴿ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ ﴾ (برهان) توضح هذه الجملة أنه كان هناك حوار ونقاش طويل بين أولئك الفتية – بعد أن آمنوا بالتوحيد – وبين كبار قومهم ... غير أن الكبار ظلوا في خلال ذلك عاجزين عن الإتيان بأي دليل واضح في صالح الشرك ...وقد أسفرت هذه التجربة عن ازدياد أولئك الشبان الموحّدين يقينا إلى يقين ، وبالتالي بات مستحيلا عليهم أن يدعوا شيئا ثابتا لأجل شئ يفتقر إلى الإثبات !!!.

ولو أنهم أعطوا الأهمية لمكانة الكبار وكبريائهم لكانوا قد أصيبوا حتما بالارتباك والتذبذب وانعدام اليقين .. ولكنهم عندما علقوا الأهمية على الدليل والبرهان ، زادهم ذلك يقينا ورسوخا فيما آمنوا به ، فإن أولئك العمالقة الكبار قد صاروا في أعينهم ، باعتبار الدليل والبرهان ، أقزاما صغارا جدا ، إذْ وجدوهم ، على كل فخامتهم وأمجادهم الظاهرية ، قائمين على أرضية الكذب ، وليس على أرضية الحق !

﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ .

مِرْفَقاً : ما تنتفعون به في عيشكم .

إن العبد حين ينقطع عن الناس ، يرتبط في الوقت نفسه برب الناس ، حتى إنه ليقترب من الله لدرجة أنه يبدأ يناجيه ، ويكلم ربه ويتلقى منه جوابه .

إن إيمان أصحاب الكهف المتدفق حماسا وفتوة ، وانكبابهم على الدعوة والتبليغ غير

مبالين بأية أخطار أو مخاوف ، وإيثارهم للحق على كل شيء آخر سواه ، إن هذه الأشياء كانت قد رفعتهم إلى أسمى درجة من القرب الإلهي ، فكل ما كانوا يفقدونه في ظاهر الأمر، كان أهون عليهم وأقل قيمة عندهم بكثير مما كانوا قد وجدوه .

وهذا الشعور بالفوز والوجدان هو الذي كان قد حملهم على أن يرضوا بالحرمان من كل شيء ، ولا يرضوا بالحرمان من الحق ، ومن ثم فقد استعدوا أن يغادروا بيوتهم وبلدهم ، ويأووا إلى الغار ، ويظلوا – مع ذلك – واثقين من أن الله سينصرهم حتما ، ويصلح كل شئونهم ... ولقد روى ابن جرير عن عطاء قوله : إنهم كانوا سبعة ، وظلوا مذ لجأوا إلى الكهف ، عاكفين على عبادة الله يبكون ، ويسألون رحمته ونصرته ، إلى أن سلط الله عليهم آخر الأمر نوما عميقاً طويلاً !

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ .

تَزَاوَرُ : تميل وتعدل .

تَقْرِضُهُمْ : تعدل عنهم وتبتعد .

فَجْوَةٍ مِّنْهُ : متسع من الكهف .

يبدو أن أصحاب الكهف كانوا – والصراع بينهم وبين قومهم في تزايد مستمر خلال المرحلة الدعوية – قد سبقوا إلى اختيار غار معين تحسبا للخطر الوشيك ، ولقد كان هذا الغار من الفسحة والاتساع بحيث يتمكن سبعة نفر من الإقامة والاستقرار في فجوته بتمام السهولة ، كما يحتمل أنه كان شمالي الاتجاه ، ولذا فلم يكن ضوء الشمس، عند شروقها أو غروبها ، يصل إلى داخله مباشرة ، ولا كان بإمكان أحد المارة

أن يتفطن إلى أن بداخله عددا من البشر !

والمرء حين يخلص للحق إخلاصا يجعله في عينه فوق كل مصلحة ، فيضحي بها في سبيله عن رضا وسرور، ولا ينفك موصول القلب بالله ، دائم التوجه نحوه ، شاكراً وصابراً، حتى في أشد الظروف ظلاما وقسوة ، فإن الله سبحانه يهديه إلى طرق تضمن الحفاظ على إيمانه من جهة ، وعدم انفلات زمام مسيرته الدعوية من يده من جهة أخرى ، قد أتيح هذا النصر لأصحاب الكهف ، باعتبار الأوضاع والملابسات الخاصة المحيطة بهم ، على وجه أكمل ما يكون ..

وبالإضافة إلى ذلك فقد اصطفاهم الله - سبحانه وتعالى - لأمر إلهي خاص .. فالسمو الروحي الذي كانوا قد أقاموا الدليل عليه بتجردهم وإخلاصهم للحق ، صاروا معه عند الله أهلاً لكي يجعل من وجودهم برهانا حسيا على إمكان الحياة بعد الموت ، إن استفاقة أهل الكهف من نوم دام قرنين أو أكثر من الزمان ، لهي واقعة من هذا النوع ذاته !

﴿ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾ ﴾ .

بِالْوَصِيدِ : بفناء الكهف أو عتبة بابه .

رُعْباً : خوفا وفزعا .

إنه - سبحانه وتعالى - إذْ سلط على أصحاب الكهف نوما هادئا متصلا ، تفضل - مع ذلك - بتهيئة مختلف الأسباب ضمانا للحفاظ عليهم أحياء سالمين ، منها - على سبيل المثال - أنهم كانوا لا يزالون يتقلبون يميناً ويساراً ، فإنه لو لا ذلك ، لأكلت

الأرض من أجسامهم ، على حد قول ابن عباس ﷺ كما أن كلبا ظل هناك جالساً – باسطا ذراعيه – على مدخل الغار باستمرار ، لا يتحول عن مكانه ، يبدو أن ذلك لكي لا يتمكن أي إنسان أو حيوان من الدخول إليهم ، فيضايقهم أو يلحق بهم نوعا من الأذى ... ثم إن جو الغار الداخلي قد جعله الله مهيبا ومثيرا للرعب لدرجة أن أحد الناس لو حاول التطلع إليه من الخارج ، لا يلبث أن يفر هاربا عند النظرة الأولى خائفاً مذعوراً لا يلوي على شيء !!

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ .

بَعَثْنَاهُمْ : أيقظناهم من نومتهم الطويلة .

بِوَرِقِكُمْ : بدراهمكم المضروبة .

أَزْكَى طَعَاماً: أحل وأوجود طعاما .

يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ : يطلعوا عليكم أو يغلبوا .

لما استفاق أصحاب الكهف من رقدتهم ، أخذوا بطبيعة الحال يتساءلون فيما بينهم عن مدة رقادهم كم هي ؟ ولكن الزمن كان قد توقف بالنسبة إليهم بأمر الله سبحانه، ولذا فالمدة التي كانت للآخرين طويلة بحيث تشمل بضعة قرون ، إذا هي تبدو لأصحاب الكهف وكأنها إنما تساوي يوما أو بعض يوم فحسب !

وعلى إثر يقظتهم شعروا بالجوع ، وقد كانت عندهم بعض النقود الفضية ، ومن بين سكانها عدد قل أو كثر من المسيحيين ، لابد وأن يوجد هناك طعام حلال ، ولذا فقالوا لصاحبهم أن يحاول جهده ليشتري لهم من الأطعمة ما هو أطيب وأزكى ، كما نصحوا له مؤكدين على الأخذ بالحيطة والحذر ، واستخدام اللباقة وحسن التدبر في القيام بهذه المهمة ، ذلك لأنهم كانوا يخافون بناءً على خبرتهم السابقة – إن القوم إن علموا بمكان وجودنا ، لن يألوا جهداً في أن يردونا ثانية إلى الشرك وعبادة الأوثان ، وإن نحن أبينا ذلك ، فسيقتلوننا رجماً من غير شك !

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾ .

أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ : أطلعنا الناس عليهم .

الإنسان يعيش فوق هذه الأرض مائة عام لو لمدة أقل من ذلك ، ثم يموت ... ويبدو ظاهراً أنه قد أنعم وجوده إلى الأبد ، ولكن الحقيقة هي أنه لا يزال باقيا عقب الموت، ويفتح عينيه على عالم جديد ، حيث تنتظره إما راحة أبدية ، وإما عذاب سرمدي.

إن هذه أهم قضايا الإنسان وأشدها خطورة على الإطلاق ، وهي قد ظلت منذ أقدم العصور ، موضوع الجدل والنقاش بين الناس ، ونظراً لأهميتها البالغة هذه فقد اهتم الله – سبحانه وتعالى – بتوفير برهان حسي في حقها بجانب الأدلة العقلية ، حتى لا يبقى لأحد مجال للشك أو الريب فيما يتعلق بقضية « الحياة بعد الموت » .

وقد ظل البرهان الحسي يعرض في صور وأشكال شتى في مختلف أدوار التاريخ ،

وقد كان خروج أصحاب الكهف من الغار ، بعد رقدة طويلة تشبه ((الموت)) ، في القرن الخامس المسيحي ، واقعة من هذا النوع ذاته ، وفي العصر الراهن يمكن اعتبار ما توصلت إليه دراسات العلم الأسمى أو العلم التأملي (Meta Scidnce) من كشوف ، أمثلة من هذا القبيل ؛ إذْ هي تثبت نظرية الحياة بعد الموت على أساس مقاييس الاستدلال الحسية .

ولما خرج أصحاب الكهف من الغار ، بعد مائتي عام أو يزيد ، كانت مدينتهم قد تغيرت أوضاعها ومعالمها تغيراً كلياً ، فالغالب أنهم كانوا قد لجأوا إلى الكهف عام ٢٥٠ م ، مغادرين مدينتهم أفيسس ، وهي كانت إذْ ذاك خاضعة لحكم الإمبراطور ديسيس الوثني ، وخلال الأعوام المقبلة أسفرت جهود المبلغين المسيحيين عن تنصر الإمبراطور الرومي قسطنطين (٢٧٢-٣٣٧) ، فلم تلبث الديانة النصرانية بعدئذ أن انتشرت في كل المناطق الرومية، فعندما دخل أصحاب الكهف ثانيا إلى مدينتهم في عام ٤٤٧ م ، وجدوها تسودها النصرانية .

ولم يكد يخرج هؤلاء الشبان السبعة من الغار ، ويتم التأكد ، من خلال لوحة أسمائهم المودعة في الخزائن الملكية ، وغيرها من القرائن والشواهد ، من أنهم أولئك الفتية المؤمنون الذين كانوا اضطروا إلى مغادرة المدينة ، إبان الدولة الوثنية المضطهدة ، لأجل الحفاظ على عقائدهم النصرانية ، لم يكد يتم كل ذلك ، حتى صاروا موضع احترام الناس وإجلالهم ، لدرجة أن الإمبراطور الرومي الجديد ثيودوسيس (الثاني) زار كهفهم بنفسه ماشيا على الأقدام ليتبرك بهم ، وحين وافاهم الأجل المحتوم ، بُني على غارهم هيكل (معبد) عظيم تخليداً لذكراهم !

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا

تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ .

رَجْماً بِالْغَيْبِ : قذفا بالظن غير يقين .

فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ : فلا تجادل في عدتهم وشأنهم .

إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِراً : بمجرد تلاوة ما أوحي إليك في أمره .

لقد كان ثمة أناس خائضين في مناقشات غير ضرورية ولا مجدية بشأن أصحاب الكهف ، فمن قائل : إنهم كانوا ثلاثة يتبعهم كلبهم ، ومن زاعم أنهم خمسة سادسهم الكلب ، ومن ذاهب إلى أنهم سبعة والثامن كلبهم !. بيد أن المناقشات كهذه من أمارات فساد الطبائع والأمزجة ... إن الروح الديني حين يكون نابضا بالحياة والحيوية يركز على الجوهر والحقيقة ، وما إن تصاب الأمة بالانحطاط ، حتى يختفي الروح الديني الأصيل ، وتصير القشور الظاهرية والتفاصيل الجزئية الهامشية موضوع الجدل والمناظرة ...

وينبغي للمؤمن المخلص دينه لله ، ألا يخوض في مثل هذه المناقشات الفارغة أبداً ، ولئن أثار أمامه أي شخص آخر أسئلة من هذا النوع ، فليكتف بالإجابة المجملة أو ليرد العلم إلى علام الغيوب !

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ .

رَشَداً : هداية وإرشاد للناس .

بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود المدينة ، ليسألوهم عن محمد ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم الأنبياء ... فخرجا

حتى أتيا المدينة وقالا لأحبار اليهود: إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقول ...وقد كان أحد تلك الأسئلة عن أصحاب الكهف : ما قصتهم ، والثاني عن ذي القرنين : من هو وما كان خبره ، والثالث عن الروح ما هي ؟

إن عامة الناس ، بل وكثيرين من خاصتهم ، أيضاً ، لم يكونوا على علم بشيء مما يتصل بأصحاب الكهف قبل عصر المطبعة ، إذْ كانت قصتهم مدونة في بعض المخطوطات السريانية ، ولم يكن يعرفها سوى نخبة قليلة العدد من العلماء ، ولما وجه هذا السؤال إلى النبي ﷺ ، قال : « غدا أخبركم عما سألتم عنه » – ولم يستثن – حيث كان يرجو أن جبريل سيأتي غدا، وسوف يسأله عن الجواب،غير أن جبريل تأخر في المجيء إليه،حتى مضت خمس عشرة ليلة،ثم جاءه بعد ذلك بسورة الكهف .

ولقد طار معارضو مكة بحادث تأخر الوحي هذا ، فلم يلبثوا أن اغتنموه فرصة لتشويه سمعته ﷺ بين الناس ، وزعزعة ثقتهم به ، فقرر الله تعالى أن الشخص الذي تحاولون الطعن فيه ، وتشكيك الناس في صدقه بتحويل حادث بسيط إلى فضيحة ، سيجتمع على صدقه وصحة نبوته من الحجج والأدلة ما هو أعجب وأدل من قصة أصحاب الكهف (١) .

وقد تحقق هذا الأمر اليوم على أتم الوجوه وأكملها ، فقد اجتمع هناك اليوم على صدق رسول الله ﷺ من الأدلة والبراهين ما لا يستطيع معه شخص ما، وهو في تمام وعيه وعقله ، أن يجترئ على إنكاره ، إن نبوته ﷺ هي اليوم نبوة مسلم بها ، ولم تعد محض نبوة مدعاة !

﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

(١) انظر: التفسير المظهري ٦/ ٢٧.

لَبِثُواْ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾ ﴾ .

أَبۡصِرۡ بِهِ : ما أبصر الله بكل موجود .

إن مدة الثلاثمائة سنة أو الثلاثمائة وتسع سنين ، هي – تبعا للتفسير المنقول عن قتادة ومطرف بن عبدالله لهذه الآيات – حكاية قول الناس ، ومن ضمن آرائهم وتخرصاتهم في الموضوع ، وليس إخباراً من الله سبحانه وتعالى ، كما يؤيد ذلك قراءة عبد الله بن مسعود التي وردت بلفظ : « وقالوا ولبثوا في كفهم ...إلخ » فقد كان أهل الكتاب في ذلك الزمان، يحسبون ، اعتمادا على بعض القصص غير الموثوق بها ، أن مقدار لبث أصحاب الكهف في الغار هو ثلاثمائة عام بالتقويم الشمسي ، وثلاثمائة وتسعة أعوام بحسب التقويم الهلالي [1] .

ولقد أبطل القرآن رغم الناس هذا ، بعد حكايته إياه ، معقبا عليه بقوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ .

ولقد اكتشف الباحثون في العصر الحديث أن هذه المدة كانت ، باعتبار التقويم الشمسي ، مائة وستة وتسعين (١٩٦) عاما ، وهذا الكشف يدل على أن القرآن كتاب الله، الذي قد أحاط علماً بكل أحداث الماضي والحاضر والمستقبل على سواء لا تخفى عليه خافية، وبناءً على علمه المحيط الشامل ذاك ، لم يقبل بالقول الآنف الذكر ، ولو أن القرآن كان كلاماً إنسانياً لأخذ حتما بالقول المشهور في عصره والذي تعارض آخر الأمر مع اكتشافات الباحثين في العصور اللاحقة !

﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٧٩.

دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ .

مُلْتَحَداً : ملجأ وموئلا .

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ : احبسها وثبتها .

وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ : لا تصرف عيناك النظر عنهم .

أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ : جعلناه غافلا ساهيا .

فُرُطاً: إسرافا . أو تضييعا وهلاكا.

إن الوقوف إلى جانب الرسول ﷺ واتخاذ الدين الخالص – الإسلام – دينا، لم يكن بالنسبة لطلائع المؤمنين الأولين من أهل مكة أمراً يسيراً ، فقد كان معناه حينذاك التخلي عن نظام ارتبطت به كل المصالح الحيوية،ومناصرة عقيدة لم تكن ترتبط بها في الظاهر أية مصلحة .. ومن هنا فلم تكد الطائفة الأولى تعتنق الدين الجديد حتى انقطعت صلتها عن نظام العصر السائد،في حين أن الطائفة الأولى كانت ترتكز تمام الارتكاز على نظام العصر السائد مما أتاح لها من الحماية والمنعة والضمان المادي ما قد حرمت منه الطائفة الأولى ... ولم يكن يتوفر لدى الطائفة الأولى غير وصايا، التي ستظهر أهميتها في عالم الآخرة ، بينما كانت الطائفة الأخرى تمتلك تلك الأشياء التي تحظى بمن يقدرها ويعرف قيمتها في سوق هذا العالم !

ولو أن هذا الفرق الظاهري قد أثر على الداعي ، واستبد بعقله ، فستكون النتيجة أن تتضاءل أهمية الدعوة إلى الدين الخالص في عينها، ويصبح الدين المغشوش في نظره أكثر أهمية ، ذلك الذي يتمتع من يحمل لواءه من الناس بمباهج الدنيا وزخارفها .

غير أن ذلك خطأ جد عظيم ... حيث إن أية انحراف عن تلك الرسالة الأصلية التي لها الأهمية الكبرى عند الله ، وهي بالتالي أولى بالاهتمام والرعاية من كل ما عداها.. ولو أن الدعي فعل هذا فسيعود محروما من نصر الله ، ويصل أمره في دنيا الله إلى أنه لا يكاد يجد شجرة تظله ، ولا ماءً يطفئ ظمأه .

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ .

سُرَادِقُهَا : فسطاطها . أو لهبها ودخانها .

كَالْمُهْلِ : كدري الزيت أو كالمذاب من المعادن .

وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً : متكأ أو مقر .

إن الحق الذي يأتي من عند الله – سبحانه وتعالى – يكون صدقاً بكامله ، لا تشوبه شائبةً ، ولا يتطرق إليه شك أو ريب .. ولذا فلا يمكن تناوله بأي نوع من التعديل مراعاةً للبشر ... فإن تناول الحق الإلهي بالتعديل يعني إحداث تغيير في ذلك المعيار الذي على ضوئه سيتم تحديد وضع كل شخص وتقرير مصيره النهائي !.

والذين يطمعون في أن يؤخذ الحق الإلهي بتعديل يبرر مسلكهم المنحرف الخاطئ في الحياة ، فإنما هم يضيفون التمرد والطغيان إلى جانب ضلالهم وانحرافهم ، وينبغي لأمثال هؤلاء ألا ينتظروا لأنفسهم سوى العذاب الشديد !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ

وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسۡتَبۡرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ .

جَنَّاتُ عَدْنٍ : جنات إقامة واستقرار .

سُندُسٍ :رقيق الديباج (الحرير).

وَإِسْتَبْرَقٍ : غليظ الديباج .

الأَرَائِكِ : السرر في الحجال .

إن الصدق الإلهي حين يتجلى أمام أناس خلت قلوبهم من التكبر وعبادة المصالح والظواهر ، لا يلبثون أن يعرفوه من فورهم ، حتى ولو كان ذلك الصدق قد أجري على لسان رجل مثلهم .

ثم إنه لا يسعهم ، وقد عرفوا الحق ، إلا أن يطرحوا أنفسهم بيديه ، ويأخذون في صوغ حياتهم طبقا لمقتضياته، دون أن يحاولوا صوغ الصدق نفسه طبقا لحياتهم... والذين يقيمون الدليل هكذا على عبوديتهم للحق ، هم عباد الله المحبوبون ، وإن أولئك سيتم تكريمهم في الآخرة بجوائز وإنعامات سلوكية فخمة !

﴿ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٍ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٍ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعًا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾ ﴾ .

جَنَّتَيْنِ : بستانين .

وَحَفَفْنَاهُمَا : أحطناهما وأطفناهما .

أُكُلَهَا : ثمرها الذي يؤكل .

وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ : لم تنقص من أكلها .

وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا :شققنا وأجرينا.

ثَمَرٌ : أموال كثيرة مثمرة .

وَأَعَزُّ نَفَراً :أقوى أعوانا أو عشيرة .

تَبِيدَ : تهلك وتفنى وتخرب .

مُنقَلَباً : مرجعا وعاقبة .

إن حديقة بلغت من البهجة والخضر غايتها ، ثم إذا بها تتعرض فجأة لكارثة من الكوارث الطبيعية تحيلها أثراً بعد عين، إن حديقة كهذه تمثل شخصا يبتلى بالزهو والكبرياء والغرور ، حين يظفر بالثروة والعزة في هذه الدنيا.

إن ما يحصل عليه أحد الناس في هذه الدنيا من أسباب الثراء والغنى أو المجد والعزة ، إنما يكون ذلك امتحاناً له من عند الله – سبحانه وتعالى – غير أن الإنسان الظالم كثيراً ما ينظر إليه على أنه إنعام إلهي أو حصيلة ذكائه ومجهوده الذاتي ، وتكون نتيجة ذلك أن تستيقظ بداخله مشاعر التمرد والطغيان ، وبالتالي فهو يأخذ يزدري أولئك الذين لا يتوفر لديهم أسباب المجد والثراء إلا حظ يسير ، ويستبد برأسه الغرور والاعتداد بالنفس بحيث يخيل إليه وكان دنياه لن يعتريها الفناء أبدا ، ولئن تعرضت هذه الدنيا – على سبيل الفرض – للفناء يوما ، وتكونت مكانها دنيا أخرى جديدة ،

فلا عجب في أن يكون هناك – أيضا – متمتعا بكل ما يتمتع به ها هنا من أسباب الخير والعافية والرفاهية.

إنه قياس لحالة الإنعام والمكافأة بحالة الامتحان والابتلاء ، وهو قياس مع الفارق الكبير ، إذْ إنهما حالتان منفصلتان تماماً ، لا تربط إحداهما بالأخرى أية علاقة بالضرورة!.

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾

لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي : لكن أنا أقول : هو الله ربي .

حُسْبَاناً : عذابا كالصواعق والآفات .

فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً : رملا هائلا أو أرضا جرزا لا نبات فيها يزلق عليها لملامستها .

غَوْراً :غائرا ذاهبا في الأرض .

ينبغي لأي إنسان خوله الله أسباب الثروة والغنى ، أن يعيش في الأرض عابداً شاكراً لله ... ولكن عقل المرء إنْ لم يكن صحيحاً سليماً ، يصير ينسى الله حتى في أشد أحوال الفقر والبؤس ، وهو يقنع بالقدر المتاح له ، آملاً في أن الله سيمنحه المزيد من فضله .

ولو أن المرء عاش في هذه الدنيا مفتوح العينين ، لما أصيب أبدا بالبطر والطغيان فالإنسان ينشأ وينمو هنا كوجود ضعيف ، وتواجهه ألوان شتى من الحوادث والأخطار طيلة حياته ، فهو يتعرض للأمراض ، ويعتريه ضعف الشيخوخة وخرفها ، وهو لا يملك الماء ولا أي شيء من تلك الأشياء التي يستمد منها عناصر الحياة والنماء والازدهار لـ «بستانه» في هذه الدنيا ولا هو قادر على الإمساك بها دائما في يده ، بل هي في يد الخالق ، وهو على انتزاعها منه إذا يشاء قدير !

وما هذا كله إلا لكيما يعيش المرء متواضعاً .. ولكن الإنسان الظالم لا يعتبر بشيء ، ولا يزجره زاجر ، حيث إنه لا يكاد يتنبه ويعود إلى رشده ، ما لم يحرم من كل شيء ، حتى يرى بعيني رأسه أنه لم يكن شيئا سوى العجز والعجز وحده !!! .

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ .

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ : أُهلكت أمواله مع جنته .

يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ : كناية عن الندم والتحسر .

خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا : ساقطة على سقوفها التي سقطت .

الوَلايَةُ لله: النصرة له تعالى .

وَخَيْرٌ عُقْباً : عاقبة لأوليائه .

إن المرء يسخر بضاعته ومواهبه لأجل إنجاز مهمةٍ ما ، ويرواده الأمل في أن مواهبه وبضاعته سيعودان عليه آخر الأمر بأطيب النتائج ، ولكنه لا يلبث حتى يفجأ بضروب

شتى من الحوادث ، تحطم كل آماله تحطيماً ، ويجد المرء نفسه إزاء تلك الحوادث عاجزاً بحيث لا يعود ينقذه منها أي حيلةٍ من حيله أو موهبة من مواهبه التي طالما اعتز بها وعاش واضعاً كل ثقته فيها .

وإنما يُظهر الله أمثلةً أو نماذج كهذه من وقتٍ لآخر في العالم الراهن ، لكي تكون عبرةً للإنسان ، وحتى لا يقع هو في خطأ تعليق الأهمية والأمل على أي شيءٍ آخر غير الله جل جلاله!

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

هَشِيماً : يابسا متفتتا بعد نضارته.

تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ : تفرقه وتنسفه .

الدنيا تمثيل للآخرة .. فحين تكتسي الأرض ، عقب ارتوائها بالماء العذب ، خضرة ونضارة ، ويبدو ظاهرا وكأنها ستبقى كما هي الآن إلى الأبد ، ولكن سرعان ما يتغير الموسم بعدئذ ، وبالتالى يبدأ النبات الأخضر في الاصفرار ، وإذا به يعود هشيما يابسا تنسفه الرياح نسفا !

وهذا هو حال بهجة الدنيا وبهائها كذلك ... إن مباهج الدنيا الراهنة تجتذب اهتمام المرء وتأسر لبه ، غير أن هذه المباهج كلها عابرة مؤقتة للغاية ، فستقضي عليها القيامة عما قريب على نحو يبدو معه وكأن لم يكن لها وجود بالأمس !!

إن مباهج الدنيا وزخارفها غير باقية ...بيد أن ثمة شيئًا آخر قدر له البقاء والخلود ، ألا وهو أعمال المرء الصالحة ، فكما أن البذور الملقاة في الأرض تتحول إلى حديقة ،

تزدهر هناك حديقة كذلك من خلال ذكر الله وطاعته ، وهذه الحديقة لا يعتريها خريف أبدا ، فإن هذه الحديقة الثانية ، على نقيض من الحديقة الدنيوية ، تنبت وتزدهر في عالم الآخرة ، وسوف تسلم مقاليدها إلى صاحبها عند وصوله هناك !

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾ .

بَارِزَةً : ظاهرة لا يسترها شيء .

مَوْعِداً : وقتا لإنجازنا الوعد بالبعث والجزاء .

يوم تقوم الساعة سيحضر الجميع بين يدي ربهم ، يقفون في رحاب المحشر مكتوفي الأيدي لا ناصر لهم ولا معين ، الكل ينتظر قضاء مالكه فيه ، وسيكون عند الله سجل كامل ودقيق عن حياة كل شخص ، وبموجبه سيجزي الله بعض الناس أحسن الجزاء ، بينما يحكم على بعضهم الآخر بأسوأ العذاب !

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ .

وَوُضِعَ الكِتَابُ : صحف الأعمال في أيدي أصحابها .

مُشْفِقِينَ : خائفين وجلين .

يَا وَيْلَتَنَا : يا هلاكنا .

لاَ يُغَادِرُ : لا يترك ولا يبقي .

أَحْصَاهَا : عدها وضبطها وأثبتها.

إن ما يعمله الإنسان يتم تسجيله تحت تدبير الله بمنتهى الدقة ، فمن نيات المرء القلبية، إلى أقواله التي تجرى على لسانه ، إلى أعماله التي يمارسها بجوارحه ، كل ذلك ينعكس ويرتسم على شاشة الكون ... بيد أن هذا التدبير أو نظام التسجيل الإلهي لا يقع تحت أبصارنا اليوم ..وسيرفع هذا الستار حين تقوم الساعة ، وعندها سيقف المرء شاخص البصر من فرط الدهشة والذهول ؛ إذْ يجد أن كل ما كان يعمله في الدنيا ، ظاناً أن ليس ثمة من أحد يعلمه أو يطلع عليه ، تمَّ ضبطه وتقييمه هنا على نحو كامل بحيث لم يدع صغيرة ولا كبيرةً إلا احتواها !

وإن معاملة الإنسان في يوم القيامة – حسنة كانت أو سيئة – ستكون موجباتها – أو بالأحرى مبرراتها – واضحة وثابتة لدرجة أن المرء إذْ يلقي جزاء عمله يكون على يقين من أنه إنما يعامل بما هو أهل له في واقع الأمر ، لا أقل من ذلك ولا أكثر !

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ .

اسْجُدُوا لآدَمَ : سجود تحية وتعظيم لا عبادة .

لقد كان إبليس – كما تقول الروايات – عابداً من الجن ، ومع كونه عاكفا في الظاهر على العبادة والتنسك، إلا أنه قد امتنع عن امتثال أمر الله ، تكبراً ، حين أمره – تعالى – بالسجود لآدم – عليه الصلاة والسلام– والآن ، فكل أولئك الذين يرفضون الخضوع أمام الحق انسياقا مع عواطف الكبر والغرور ، إنما هم من ذرية إبليس ، وإن كانوا يتظاهرون أمام الخالق بالعبادة والتزهد !!

إن الخضوع لله –تعالى– هو في الأصل إقرار بعجزنا إزاء الله العلي القدير ، ولو كان

شخص ما خضع لله حقاً ، فإنه لا يلبث أن يخضع للحق من فوره أينما ظهر ، وبالعكس فإن الذي يكون « ساجداً » في ظاهره فقط ، وقلبه مفعم بمشاعر الكبرياء والغرور ، فسوف يستعد للسجود بتمام السهولة حيث لا تصدم السجدة « أناة » ولكنه ينقلب فجأة « إنساناً » متمرداً رافضاً للسجود وحيث يتطلب الأمر أن يخضع « أناة » !

وإذْ يرتفع صوت الحق ، ولا يتلقاه أناس بالقبول ، متأثرين بإبليس وذريته ، فكأنما هم يتخذون من إبليس وذريته بديلاً عن الله – سبحانه وتعالى – وهم يرفضون الخضوع أمام الحق من خشية الآلهة الباطلة ، حيث كان ينبغي عليهم أن يبادروا بالخضوع أمام الله جل جلاله ، وأمثال هؤلاء أناس ظالمون مسرفون في الظلم وإنهم سيعلمون عما قليل أن الذين قد اعتمدوا عليهم تاركين الله ، لم يكونوا مغنين عنهم شيئاً!.

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ .

عَضُداً : أعوانا وأنصارا.

إن أكابر الناس ، الذين يعتبرهم الناس جديرين بالثقة والاعتماد في الحياة الدنيا ، فيتشبثون بأذيالهم هم من العجز والضعف بمكان بحيث لا دخل لهم في إيجاد الكون ولا في إيجاد أنفسهم.

وبالإضافة إلى ذلك فإن هؤلاء بتمثيلهم دور « المضلين » في مواجهة دعوة الحق ، إنما يبرهنون على أنهم غير جديرين بالثقة والاعتماد البتة !

إن عالماً يسود ويتحكم في كل أنحائه الحق وحده ، كيف يمكن أن يكون في إبداعه أو تصريف شئونه دخل أو تأثير لشخصيات رأسمالها الوحيد يتمثل في إبعاد الناس عن

الحق؟!

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ .

مَّوْبِقاً : مهلكا يشتركون فيه وهو النار .

مُّوَاقِعُوهَا : واقعون فيها أو داخلون فيها .

مَصْرِفاً : معدلا ومكانا ينصرفون إليه .

إن المرء لن تغني عنه في يوم القيامة شيئا ، تلك الشخصيات التي هو ينكر الحق في هذه الدنيا اعتماداً عليها ، واثقاً من نصرها إياه ... إنهم اليوم أصدقاء متحابون مع بعضهم البعض ، ولكن ما إن تنكشف الحقائق ، حتى يعودوا أعداء متباغضين بعضهم مع البعض الآخر ، وسيبدو حينئذ وكأنما قامت بين الفريقين هوة سحيقة دون اجتيازها الهلاك المحقق ! وإنهم ليعدون أنفسهم هنا في مأمن من كل ألوان الخطر في العالم الراهن ، غير أن مصيرهم المحتوم الذي سيواجهونه يوم القيامة ، هو أن يجدوا أنفسهم على أبواب جهنم ، ولن يجدوا إلى الهرب أو الخلاص منها سبيلاً !!

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾ .

صَرَّفْنَا : كررنا بأساليب مختلفة .

كُلِّ مَثَلٍ : معنى غريب بديع كالمثل في غرابته .

سُنَّةُ الأَوَّلِينَ : عذاب الاستئصال إذا لم يؤمنوا .

قُبُلاً : أنواعا وألوانا أو عيانا ومقابلة .

إن المرء يتمتع في العالم الراهن بحرية الامتحان ... ولهذا السبب فهو لا يلبث أن يفتعل هنا عذراً أو مبرراً ما لعدم اعترافه بالحق ، وأن يعثر على بعض الكلمات لرفض كل شيء لا يريد التسليم به .. وقد يحدث أحيانا أنه يحاول معارضة دليل واضح جلي بواسطة إثارة جدل فارغ عقيم حوله ، وقد يلجأ تارة إلى الاستهانة بالدليل المعروض من خلال الإعراض عنها وعدم الاكتراث به ، ويطلب شيئاً آخر لم يكن قد عرض عليه بعد لسبب من الأسباب .

ومن أمثلة هذه الصورة الأخيرة من التعنت والعناد ، أنه لما قدّم النبي ﷺ رسالته إلى مخاطبيه مصحوبة بأوضح الأدلة ، لم يعيروها جانب الاهتمام ، بل راحوا يطالبونه ، صارفين أنظارهم عن الرسالة الأصلية ، بأن ائتنا بالعذاب الذي تهددنا به لقاء إنكارنا ، إن كنت صادقا في دعواك !

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ .

لِيُدْحِضُوا : ليبطلوا ويزيلوا .

هُزُواً : استهزاء وسخرية .

أَكِنَّةً : أغطية كثيرة مانعة .

وَقْراً : صمما وثقلا في السمع عظيما .

إن أصدق الحديث حديث الله ، حيث تتآزر كل الأدلة والبراهين الساطعة على دعمه وتصديقه ... ومن ثم فإن الذين لا يريدون الإيمان به ، لا يجدون أي دليل حقيقي يستندون إليه في إنكارهم إياه ... وإنما هم يملكون دوما محض أباطيل لا أساس لها من الصحة ، يحاولون من خلالها محاولة فاشلة لمغالبة الصدق وإخضاعه .. إنهم يقاومون أدلة قوية صلبة باعتراضات كاذبة سخيفة ، يريدون عرقلة عمل جاد -وهو الدعوة إلى الحق - وصرف الاهتمام عنه عبر تحويله إلى موضوع للسخرية والاستهزاء .

وإنما هم يفعلون هذا كله لإفقاد الداعي اعتباره لدى الجماهير ، ولكن يغيب عن بالهم أنهم هم بصنيعهم ذاك إنما يفقدون اعتبارهم أنفسهم في عين الله !

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾

مَوْئِلاً : منجى وملجأ ومخلصا.

لِمَهْلِكِهِم :لهلاكهم .

لو آخذ الله الإنسان على ظلمه لأنزل العذاب عليه من فوره ، عقب اكتسابه الخطأ ، ولكن الله قد حدد موعدًا لمحاسبة الكل على أعمالهم .

وإنه بإمكان المرء ، لو أراد العظة والاعتبار ، أن يستفيد دروسا نافعة في حاضره من مصير القرون الماضية ... فقد ازدهرت فوق الأرض أمم شتى وحضارات مختلفة ، على مدار التاريخ ، ثم إنها جميعا لم تلبث،حين كفرت وظلمت،أن أهلكت ودُمرت

الواحدة تلو الأخرى في موعد حدده الله لهم أيضا .. وإذا كان قد حدث مع الأجيال السابقة أن نالت جزاء كفرها وطغيانها ، فلم يحدث الشيء نفسه مع الأجيال التالية !؟!

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ ﴾ .

لِفَتَاهُ : يوشع بن نون .

مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ : ملتقاهما .

أَمْضِيَ حُقُباً : أسير زمانا طويلا .

سَرَباً : مسلكا ومنفذا .

نَصَباً: تعبا وشدة وإعياء.

إن الله – سبحانه وتعالى – لم يزل ولا يزال يقوم على إدارة هذا العالم وتدبير أمره بواسطة الملائكة ... وبما أن الإنسان لا يشاهد اليد الإلهية متصرفةً وراء هذا النظام الكوني، لذا فهو لا يتمكن من الإحاطة بأسراره ، ولا حل ألغازه على نحو كامل ، وبالتالي يقع فريسة ألوان شتى من الشكوك والشبهات بسبب قلة عمله وقصور مداركه .

وعلاجاً لذلك ، فقد هيأ الله تعالى أسباب المشاهدة غير المباشرة ، إذْ أطلع نخبة مختارة من عباده على بعض أسرار العالم الغيبي ، ليشاهدوا بأعينهم ما فيه من حكم وأسرار غامضة، فيخبروا الآخرين بها ... وقصة موسى التي ذكرت هنا ، هي بدورها حدث استثنائي من هذا النوع ذاته ، كُشف له من خلاله عن بعض جوانب نظام الله

الخفي، وتنبيهاً لسيدنا موسى ، وهو على أهبة الرحيل ، إلى علامة لمنتهى سفره ، قال الله له: لا تبرح تواصل مسيرك ، حتى إذا وصلت حيث يلتقي بحران ، فستجد هناك عبداً من عبادنا ، فلتطلب منه أن يسمح لك بمرافقتك إياه !

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ .

أَرَأَيْتَ : أخبرني أو تنبه وتذكر .

أَوَيْنَا : التجأنا .

عَجَباً : سبيلا أو اتخاذًا يتعجب منه .

مَا كُنَّا نَبْغِ : الذي كنا نطلبه ونلتمسه.

فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا : رجعا على طريقهما الذي جاءا منه .

قَصَصاً : يقصان آثارهما ويتبعانها اتباعا.

عَبْداً : الخضر عليه السلام.

ولمزيد من الإيضاح لغاية سفره أخبر الله سيدنا موسى بأنك حين تصل إلى المكان المطلوب فسوف تفاجأ هناك بخروج الحوت – لسبب من الأسباب – يخبر موسى بأن حادثاً كهذا قد وقع ... ولما علم سيدنا موسى بذلك ، وقد سار هو وتلميذه بعيداً عن مكان الحادث ، رجعا على أعقابهما على الفور ، حيث وجدا في الموضع المذكور ذلك العبد الصالح (الخضر) الذي كانا قد قطعا هذه الرحلة الطويلة الشاقة من أجل لقائه .

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٦٧﴾ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴿٧٠﴾ ﴾ .

رُشْـداً : صـوابا ، أو إصـابة خير .

خُبْراً : علما ومعرفة .

لقد كان الله – سبحانه وتعالى – منح عبده هذا (الخضر) علماً خاصًا وقدرة خاصة من عنده ، استطاع معهما أن يتصرف في شئون العالم تصرفاً غير عادي وتبعاً لعلمه ذاك، كثيرا ما كان يمارس أعمالاً لا تتفق مع ما تقتضيه القواعد العامة ، ومن ثم قال رداً على طلب سيدنا موسى – عليه الصلاة والسلام إنك لن تستطيع معي صبرا على ذلك!

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾ ﴾ .

شَيْئاً إِمْراً : أمرا عظيما منكرا أو عجبا .

وَلاَ تُرْهِقْنِي : لا تغشني ولا تحملني .

عُسْراً : صعوبة ومشقة .

شَيْئاً نُكْراً : منكرا فظيعا.

إن إحداث عيب في سفينة صالحة سليمة ، وإهلاك طفل برىء ، عملان ، على ما يبدو ظاهراً ، لا خير فيهما ولا صواب،غير أنهما كانا منطويين،كما يتضح من الآيات التالية ، على مصلحة دقيقة للغاية ، إن هذين العملين الخاطئين في الظاهر،كانا،في الحقيقة، على أتم درجة من الصواب والحكمة والفائدة .

وفي هذا يمكن أيضا رد على تلك المسألة التي يطلق عليها عادة وصف مشكلة الشر (Problem of evil)، فهناك الكثير من الأشياء والظواهر في العالم البشري ، تلك التي يعتقد بالنظر إليها ، أن نظام الكون يسوده الشر والفوضى ، إلا أنها تكون مبنية على مصالح عميقة ... ولا شك في أن هذه المصلحة مختفية في حياتنا الراهنة وراء حجاب ، غير أن هذا الحجاب سيرفع عنها في الآخرة ، ويومئذ سيعلم المرء أن ما حدث هو الذي كان ينبغي بمقتضى الحكمة !

﴿ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾ .

فَأَبَوْا : فامتنعوا .

يَنقَضَّ: يتهدم بسرعة .

بِتَأْوِيلِ : بمآل وعاقبة .

هنا يصل سيدنا موسى والخضر – عليهما السلام – إلى قرية ، وقد شعرا بالجوع رجاء أن يطعمهما أهل هذه القرية باعتبارهما ضيفين ، إلا أنهم يرفضان القيام

بضيافتهما، مما يدل على أن كون أحد الناس صادقا مقرباً عند الله ليس بكاف ليبدو هو للناظرين أيضا صادقاً ومقرباً ، ولو عرفهما أهل القرية ، لاستضافوهما بالضرورة ، ولتهافتوا عليهم لأجل التبرك بهم ، ولكنهم قابلوهم ، نظراً لزيهم العادي بالتنكر والاعتراض ، ولم يحالفهم التوفيق لينظروا إليهم من حيث حقيقتهم الداخلية .

وبالرغم من هذا التنكر والسلوك غير الجميل ، قام سيدنا الخضر بإصلاح جدار في القرية كان على وشك الانهيار ، من غير أجر يتقاضاه ... إن سلوك عباد الله الصادقين لا يكون سلوكاً معاكساً ، بل يكون دوما وعلى كل حال مطابقا لمقتضى الحق !

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾ .

وَرَاءَهُم : أمامهم وبين أيديهم.

غَصْباً : استلابا بغير حق .

لم يكن سيدنا الخضر قد أصاب السفينة بالعطل أو العطب الكلي ، وإنما جعلها معيبة بصورة مؤقتة ، وكانت المصلحة من ذلك أن السفينة كانت سائرة في اتجاه ينتهي بها إلى ملك كان يغتصب كل سفينة جيدة قهراً ، ومن ثم فقد جعلها الخضر بحيث إذا رآها رجال الملك تركوها باعتبارها غير صالحة للمهمة التي يصادرون السفن من أجلها .

ونعلم من هذا أن أحد الناس ، لو تعرض لمصيبة ما ، أو ابتلي بما يكره في هذه الحياة الدنيا ، فينبغي ألا يتضجر أو يكتئب ، وعليه أن يرضى بذلك ظاناً أن ما قد فعل الله لابد وأن يكون له فيه نوع من الخير أو الفائدة ، وإن كان هو لا يدري الآن ما هو بالضبط على وجه التحديد !

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾

فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ .

يُرْهِقَهُمَا : يكلفهما أو يغشيهما .

زَكَاةً : طهارة من السوء أو دينا وصلاحا .

وَأَقْرَبَ رُحْماً : رحمة عليهما وبرا بهما .

إن مثال الغلام هذا يدلنا على مدى سعة رحمة الله بعباده ونصرته إياهم من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ... حتى إنه تعالى لينصرهم في أمر لا يدرون من سوء عاقبته شيئا من شأنه أن يبعثهم على التوجه إلى ربهم طلباً للعون ... إذن،فينبغي للإنسان أن يتمسك دوماً بالصبر والشكر ، ويحسن بالله ظنه ، راجيا منه الخير على كل حال ... فالله – سبحانه وتعالى – يملك العلم الكلي الشامل ؛ ولذا فهو يعرف ما فيه الخير والفلاح لأحد عباده ، أكثر مما لا يستطيع حتى العبد نفسه أن يعرفه بسبب علمه الجزئي المحدود !

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ .

يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا : قوتهما وشدتهما وكمال عقلهما .

إن هذه الأمثلة توضح لنا أن الله – سبحانه وتعالى – لا يزال يراقب أحداث العالم الراهن ويشرف على شئونه كل حين وآن ، ومع أنه تعالى قد أقام نظام هذا العالم ، لحكمة الامتحان ، على أساس من الأسباب والمسببات، إلا أنه يتدخل بين الحين والحين في هذا النظام تدخلاً يأخذ تارةً شكل البناء والعمارة ، ويظهر طورا في صورة الهدم

والتخريب ، غير أنها جميعا ، إنما تكون من حيث المصالح البعيدة المدى مظاهر رحمته ، يقصد بها التحقق من عدم ضياع مقاصد الخلق الأصلية في دوامة الأسباب والعلل ، المتحركة ، على ما يبدو من غير ضابط ولا قيد !

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾ .

ذِي القَرْنَيْنِ : ملك صالح أعطى العلم والحكمة .

سَبَباً : علما وطريقا يوصله إليه .

ذو القرنين يعني لغةً : من برأسه قرنان ... وهو لقب ملك اتسعت فتوحاته حتى امتدت من أقصى الشرق ﴿ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ ﴾ إلى أقصى الغرب ﴿ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾ والأغلب أن المراد بذي القرنين هنا هو ملك فارس القديم قورش (Cyrus) الذي ظهر في القرن الخامس قبل الميلاد ، وفتح جزءاً كبيراً من البقاع المعمورة أيامئذ ... إلى أن مات آخر الأمر قتيلاً في إحدى المعارك الحربية ، وقد كان يتمتع بشخصية فاضلة ، غاية في العدل والإنصاف !

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ .

فَأَتْبَعَ سَبَبا: سلك طريقا يوصله إلى المغرب .

تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ : بحسب رأي العين .

حَمِئَةٍ : ذات حمأة (الطين الأسود) .

حُسْناً : هو الدعوة إلى الحق والهدى.

عَذَاباً نُكْراً : منكرا وفظيعا .

ولعل ذا القرنين قد أوغل في غرب فارس ، وهو يواصل فتوحاته ، حتى وصل إلى آسيا الصغرى ، حيث يتهادى بحر إيجه (Aegenn Sea) ((بمائه الأسود)) ، مؤذنا بنهاية حدود البر ، وهنا لو وقف شخص ما على الساحل ، ووجه بصره نحو البحر ، لتراءت له الشمس في وقت الأصيل ، وكأنها تغيب في الماء ، وذلك ما صوره القرآن بقوله : ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ، وهو بيان ، بلغة المحاكاة ، للحد الذي قد انتهى إليه ذو القرنين في اتجاه المغرب …

ولم يكن ذو القرنين قد جاء إلى ساحل البحر ذاك كسائح ، بل كفاتح ، وقد استطاع فعلاً أن يقهر الأمة التي كانت تقطن هنا حينذاك ، فخضعت لحكمه وبالتالي حصل له ، باعتباره الحاكم الفاتح ، خيار كامل في أن يفعل بها ما شاء غير أن ذا القرنين كان ملكاً عادلاً كريماً ، فلم يظلم أحداً وأصدر إعلانا عاماً : بأننا لن نستخدم وسائل القسوة إلا مع شخص يقبض عليه وهو يمارس الشر ويعيث في الأرض الفساد ، وأما الذين يعيشون مسالمين ، غير مخلين بقواعد الأمن والنظام في البلاد فلا عدوان عليهم ، وسنعاملهم بالرفق واللين !

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ﴾ .

سِتْراً : ساتراً من اللباس والبناء .

خُبْراً : علما شاملا .

وقد كان لذي القرنين غزوة ثانية في شرق فارس ، فسار يواصل فتوحاته ومغامراته حتى وصل إلى مكان كان يسكن فيه هناك قوم بعيدون عن المدنية كل البعد ، ولعل معنى قوله تعالى : ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ ، أي من دون الشمس وقاية ، أنهم كانوا قبائل رحالة ، كانت تعيش هكذا في ميادين مكشوفة ، بدلاً من الأبنية والعمارات!

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ .

السَّدَّيْنِ : جبلين مُنِيفَيْنِ

يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ : قبيلتين من ذرية يافث بن نوح .

خَرْجاً : جعلا من المال تستعين به في البناء .

سَداً : حاجزا فلا يصلون إلينا .

وفي غزوته الثالثة كان ذو القرنين قد اتجه نحو شمالي شرق فارس ، وقد أفضى به المسير إلى منطقة يسكنها أناس غارقون في التخلف والهمجية ، حتى إنهم بسبب بعدهم عن المخاطبة والاحتكاك بالأمم الأخرى ، لم يكونوا يستطيعون فهم لغة غير لغتهم إلا بمشقة وصعوبة بالغة .

ولعل المراد بالسدين المذكورين هنا ، هما الجبلان الواقعان ما بين بحر قزوين والبحر الأسود ... وقد كانت تغير القبائل الوحشية من الجانب الآخر على هذه المنطقة بين حين وآخر ، فتفسد فيها بالقتل والسلب والنهب ، ثم تفر هاربة من خلال المنافذ أو

الثغرات الجبلية ... ولقد أقام ذو القرنين فيها حاجزا حديديا بين الجبلين ليقطع شرها عن أهل هذا الجانب !

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَٰعُوٓا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَٰعُوا لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ .

رَدْماً : حاجزا حصينا متينا .

زُبَرَ الحَدِيدِ : قطعه العظيمة الضخمة .

الصَّدَفَيْنِ : جانبي الجبلين .

قِطْراً : نحاسا مذابا .

يَظْهَرُوهُ : يعلو على ظهره لارتفاعه .

نَقْباً : خرقا وثقبا لصلابته .

جَعَلَهُ دَكَّاءَ : مدكوكا مسوى بالأرض .

في جنوب الاتحاد السوفيتي (سابقاً) تقع سلسلة جبال القوقاز (Caucasus Mountains) ، وهي تمتد ما بين بحر قزوين والبحر الأسود ، وتشكل حاجزاً طبيعياً يفصل بين أوربا وآسيا،وقد كانت هذه الجبال تتخللها ثغرات هنا وهناك ، كانت تدخل منها قبيلتا يأجوج ومأجوج الوحشيتان نحو الشمال ، وتعيث في بلاد

المملكة الفارسية فساداً... ولا تزال توجد هناك حتى اليوم بقايا جدار قديم ، وأغلب الظن أن هذا هو الجدار الذي كان قد بناه ذو القرنين لمنع غوائل المفسدين .

إنه ((جدار حديدي)) في وجه العدو إنجاز ربما يبعث في نفوس الناس عادة مشاعر الفخر والزهو والكبرياء ، غير أن ذا القرنين ، بالرغم من إقامته سداً منيعاً ضخماً كهذا، لم يفقد شعوره بالتواضع ، حيث إن نظرته لم تكن موجهة نحو أعماله ، وإنجازاته هو ، بل نحو قدرات الله واختياراته ، والحق أنه ليس ثمة من أحد يملك شيئا من القوة بإزاء الله عز وجل !

﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾ .

يَمُوجُ : يختلط ويضطرب .

وَنُفِخَ فِي الصور : نفخة البعث .

غِطَاءٍ : غشاء غليظ وستر كثيف .

إن العالم الراهن – الذي نعيش فيه اليوم – سيتحول عند قيام الساعة إلى عالم آخر تماماً ... ويبدو أن ما يوجد حالياً بين الجبال والبحار من حدود وفواصل ستنعدم يومئذ ، بحيث تعود الأرض – على حد تعبير القرآن في موضع آخر – قاعاً صفصفاً،يضطرب فيه الناس بعضهم ببعض – لكثرتهم – كاضطراب أمواج البحر.

الناس يدعون اليوم لرؤية جهنم بعين عقولهم ، وهم يتعامون عنها ، وفي يوم القيامة ستعرض جهنم على الناس عرضا، فيراها عندئذ كل شخص بعيني رأسه ، غير أن تلك الرؤية لن تغني هناك عن أحد شيئا ، فإن الذي كشف الغطاء عن عيونه اليوم استجابة

للنصيحة ، هو البصير حقاً ، وأما كشف الغطاء عن العيون في يوم القيامة ، فإنما يكون ذلك لكي يساق الطغاة المتمردون إلى مصيرهم النهائي المحتوم !

﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ .

نُزُلاً : منزلا أو شيئا يتمتعون به.

الإيمان الحق بالله ، وإنكار الحق هو إنكار الله ...وإن المرء عندما ينكر الحق ، فإنما هو يفعل ذلك اعتمادا على شيء أو شخصية ما ... بيد أن كل الاعتماد من هذا النوع زائف وباطل ... فإنه ليس ثمة من أحد في هذه الدنيا غير الله يملك شيئا من الخيار أو القوة ... وسوف لا يجد أمثال هؤلاء في يوم الجزاء أي منقذ أو حام لهم ؛ لأن المنقذ والحامي الحقيقي إنما هو الله وحده ، وهؤلاء بعنادهم وطغيانهم قد فقدوا حمايته تعالى سلفاً !

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

وَزْناً : مقدارا واعتبارا لحبوط عملهم .

إن المرء ليعمل في الدنيا .. ويرى أنه يجني ثمار عمله اليانعة في صورة العزة والثروة ويجد أن كل أموره مستقيمة تجري على ما يرام ، مما يجعله يحسب أنه سعيد ناجح !

غير أن هذا جهل محض .. إن مقياس النجاح والسعادة في خريطة الله هو

الآخرة... إذن ، فاعتبار رقي الدنيا رقيا ، والحالة هذه ، هو رسم خريطتنا على نقيض من الخريطة الإلهية .

إن الله يظهر آياته ، ولكن الذين شغلت عقولهم قضايا الدنيا ، لا يتأثرون بآيات الآخرة ، وإن الله ليوضح أدلته وبراهينه ، غير أن الغارقين في لذائذ الدنيا ، المفتونين بزخارفها ، لا تستهويهم أدلة الآخرة ... وأمثال هؤلاء يظلون محرومين من الهداية ، حتى مع كونهم على أبواب الهداية ، إنهم يقيمون لأحاديث الله في حياتهم وزناً ما ، إذن ، فكيف يمكن أن يعتبرهم الله عنده أهلاً لأي وزن ؟!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴿١٠٨﴾ ﴾ .

الفِرْدَوْسِ : أعلى الجنة وأوسطها وأفضلها .

حِوَلاً : تحولا وانتقالا .

إن بناء الحياة على أساس من الإيمان والعمل الصالح في العالم الراهن ، إقامة دليل على تضحية جد عظيمة... حيث إنه تخل عن الجنة المرئية لأجل الجنة غير المرئية ... إنه إحراز النجاح في أصعب امتحان ؛ إذ يتعرف المرء على الحق على مستوى الدليل المجرد، فيكرس حياته كلها في سبيله ، بينما لا يكون هناك أي ضغط أو تهديد خارجي يرغمه على ذلك إرغاماً ، وإنما هو يفعله بمحض اختياره وقناعته الداخلية .

والذين يبرهنون على هذا المستوى العالي من المعرفة والأداء العملي ، فلا جزاء لهم – بالطبع – إلا أن يدخلوا في الجنان الأبدية !

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى

وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

مِدَاداً : هو المادة التي يكتب بها .

لِكَلِمَاتِ رَبِّي : معلوماته وحكمته .

لَنَفِدَ البَحْرُ : فنى وفرغ.

مَدَداً : عونا وزيادة .

الذين لا يؤمنون برسالة الله ينكرون شيئاً هو أثبت من كل الأشياء الثابتة ... وهو مسلم به لدرجة أنه ستعود كل أشجار الأرض إذا تحولت أقلامًا غير كافية لتسطيره وستنفد سائر بحار العالم ، إذا صارت مداداً ، حتى قبل أن يتم مجرد فهرسته .

ولكن ما أظلم الإنسان ؛ إذْ إنه – على الرغم من هذا كله – لا يعرف الحق ، ولا يصوغ حياته طبقاً لمقتضيات الحق !!

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ .

النبي لا يكون إلهاً أو ملكاً ، وإنما هو يكون واحداً من البشر ، والشيء الوحيد الذي يتميز به عن غيره هو أنه يتلقى وحي الله بطريقة غير مرئية ، وهذا يعني أن النبي هو في ظاهره بشر مثل الآخرين تماماً ، ومن حيث حقيقته الداخلية مندوب الله إلى البشر !

وهذا هو السبب في أن إدراك الحق يتطلب من ثقوب النظر ونفاذ البصيرة ما يميز الجوهر من العرض ... إذن ، فلا يوفق لإدراك الحق إلا شخص يستطيع أن يرى الحقيقة في صورتها الغيبية ، ويقيم الدليل على معرفة « النبي » على مستوى « البشر » !

سورة مريم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝ ﴾

نِدَاء خَفِيًّا : دعاء مستورا لم يسمعه أحد.

كان زكريا ختناً – وقيل: زوجاً – لخالة مريم .. وكان اسم والد مريم عمران، ولم تكد مريم تبلغ بضع سنوات من عمرها، حتى توفي أبوها، وكان رجلاً عظيما بين العلماء في بني إسرائيل، حيث كان مديرا للهيكل ورئيس كهنته، ومن بعده عهد بإدارة الهيكل ورئاسة الكهان فيه إلى زكريا، وقد كانت مريم في ذلك الزمن تم تقديمها لخدمة الهيكل تبعاً لنذر والدتها .. ولكوْن زكريا واحداً من أقرباء مريم الأدنين، إلى جانب شغله منصب رئيس الهيكل، فقد كان من نصيبه أن يتولى كفالة مريم، ويقوم بشأنها .

إن زكريا – عليه الصلاة والسلام ﴿ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ أي دعاه – « بصوت خفي » ولقد تحقق هذا الدعاء (الخفي) بالفعل على نحو يدعو إلى الدهشة والإكبار .. ومن هذا نعلم حقيقة الدعاء الصادق .. الذي هو: تعبير مفعم باللهفة والخشوع عن هذا اليقين بأن الخيار كله بيد الله وحده، فلا ينال المرء شيئاً إلا بعطائه عز وجل، وإن هو أمسك عن العطاء، فلن يظفر أحد بشيء ما أبداً

إن الدعاء الصادق إنما يكون موجهاً بكليته نحو الله الواحد الأحد لا غير، وهذا هو السر في أن الدعاء الصادق يفيض ويتدفق أكثر ؛ إذْ يكون المرء وحيداً خالياً إلى نفسه وحيث لا يكون ثمة بينه وبين الله ثالث !

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ ﴾

وهَنَ العَظْمُ : ضعُف ورق .

شَقِياً : خائبا في وقت ما .

خِفْتُ المَوَالِيَ : أقاربي العصبة وكانوا شرار اليهود.

وَلِيًّا : ابنا يلي الأمر بعدي .

رَضِيًّا : مرضيا عندك قولا وفعلا .

هذا دعاء صدر عن لسان عبد كان قد بلغ نهاية الكبر والشيخوخة، وهو يدأب جاهداً على تأدية رسالته الدينية .. ولم يكن يرى بين أهل أسرته أحداً يخلفه في حمل أعباء مسيرته من بعده .. فشعوره بعجزه هو من ناحية، وإحساسه بأهمية الرسالة من ناحية ثانية، قد انصب كلاهما في قالب الدعاء المذكور في هذه الآيات .. وعليه فإن هذا الدعاء لم يكن سؤالاً عادياً، بل كان رجاءً من الله أن يقيض له رجلاً كفؤاً يقوم بمواصلة مسيرته النبوية من بعده !

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝ ﴾

أَنَّى يَكُونُ : كيف أو من أين يكون ؟

عِتِياً : حالة لا سبيل إلى مداواتها .

لقد أجيب هذا الدعاء في صورة ولد .. هو ولد لا يولد مثله لدى الناس عادةً فإن

ولادة طفل لرجل بلغ منتهى الكبر والهرم ، وظلت امرأته عاقراً لا تلد على مدى عمرها ، إنه – لا شك – أمر غير عادي للغاية .. ومن ثم فقد كانت هذه البشرى مثار الدهشة والتعجب لسيدنا زكريا مع شدة فرحه وسروره بها .. وشعوره بكون النعمة الحاصلة غير متوقعة،لم يلبث أن تفجر من فمه بشكل هذه الكلمات: يا رب ! كيف يكون لي ولد، بينما قد أصبحت أنا وزوجتي الآن عاطلين (غير صالحين) تماماً من هذه الناحية !

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾

آيَةً : علامة على تحقق المسؤول لأشكرك .

سَوِياً : سليما لا خرس بك وبلا علة .

مِنَ المِحْرَابِ : المصلى أو الغرفة التي يتعبد فيها .

بُكْرَةً وَعَشِيًّا : طرفي النهار .

كما أن إيجاد الإنسان الأول – آدم – من غير أب ولا أم، معجزة إلهية، كذلك فإن إيجاد الولد بواسطة الوالدين هو الآخر معجزة إلهية تماماً – سواء أكان هذان الوالدان شيخين هرمين أم شابين قويين – إذْ الحقيقة هي أنه ليس هناك إلا الله الذي يخلق الإنسان، فهو الذي قام بالخلق أولاً، وهو الذي يقوم بالخلق اليوم والى الأبد، وإن كان كل الأشياء الأخرى إنما هي حيلة أو وسيلة ظاهرية، دون العلة الحقيقية وراء عملية الخلق والإيجاد !

سأل زكريا عن علامة تدل على حصول الرحمة الإلهية، فقيل له: إنك إذا وجدت

نفسك، وقد أصبحت عاجزاً – مع كونك صحيحا سليماً – عن الكلام مع الناس بلسانك لثلاثة أيام بلياليهن، فلتتأكد وقتئذ من أن زوجتك قد حملت بيحيى .. فلما حان ذلك الوقت اعتقل لسانه، وصار لا يستطيع أن يكلم أحداً فخرج من مصلاه، وأشار إلى الناس بأن اذكروا الله صباحاً ومساءً، واشتغلوا بعبادته وامتثال أوامره بجد واجتهاد .. ويظهر أنه كان من عادة زكريا – عليه الصلاة والسلام – أن يعظ الناس كل اليوم .. حتى عندما حبس لسانه عن الكلام، فإنه لم يسعه إلا أن جاء إلى مكان الاجتماع، ووعظ الناس بما استطاع من الرمز والإيماء !

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ .

الْحُكْمَ : فهم التوراة والعبادة .

وَحَنَاناً : رحمة وعطفا على الناس .

وَزَكَاةً : بركة ، أو طهارة من الذنوب .

وَكَانَ تَقِياً : مطيعا مجتنبا للمعاصي .

وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ : كثير البر والإحسان إليهما .

جَبَّارًا عَصِيًّا : متكبرا مخالفا أمر ربه.

يُروى أن يحيى – عليه الصلاة والسلام – عندما كان صغيراً، قال له الصبيان في ذات يوم: « اذهب بنا نلعب!» فأنكر وقال: « ما للعب خُلقنا» .

ويتضح من ذلك أنه – عليه الصلاة والسلام – كان لديه منذ صغره وعي بأن الحياة

ينبغي أن تكون ذات هدف ومعنى .. كما أنه كان قد جُبل بالفطرة على رقة الشعور والشفقة والحنان، وكان متحرراً من العقد النفسية، باراً بأمه وأبيه محسناً إليهما، وكان خالياً من التمرد والعصيان كل الخلو.

تلك هي الأوصاف التي تؤهل المرء ليتمسك بكتاب الله، ولا ينحرف عنه قيد أنملة على أية حال .. والمتحلي بهذه الأوصاف هو الذي تنزل عليه رحمات الله في هذه الدنيا وفي تلك الدار الآخرة !

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾

انتَبَذَتْ : اعتزلت وانفردت .

حِجَاباً : سترا .

رُوحَنَا : جبريل عليه السلام.

بَشَرًا سويا:إنسانا مستوي الخلق تامه .

غُلامًا زَكِيًّا : مزكى مطهرا بالخلقة .

بَغِيًّا: فاجرة تبغي الرجال .

لقد كانت مريم حررت لخدمة الهيكل (بيت المقدس) وفقاً لنذر والدتها .. وقد كان الجزء الشرقي من الهيكل القديم خاصاً بالنساء، فانزوت مريم في ناحية من هذا

الجزء عاكفة على ذكر الله وعبادته وراء حجاب أسدلته بينها وبين الموجودين الآخرين بالهيكل .. وإنها لكذلك إذْ فوجئت ذات يوم برجل موفور الشباب والقوة ماثلاً بين يديها وكان طبيعياً أن يأخذها الرعب والفزع من هذا الموقف.. ولكن الرجل أعلمها بأنه ملك أرسل من عند الله لكي يهب لها غلاماً زكياً على نحو معجز خارق للعادة .

لقد كانت ولادة عيسى ابن مريم – عليهما السلام – على هذا النحو المعجز آية من الله عظيمة، وكان الغرض منها ألا يشك اليهود في كونه نبياً مرسلاً من عند الله، وأن يبادروا إلى الإيمان بكل ما يبلغهم عن الله،ولكن بالرغم من هذه الآية الواضحة الباهرة فإنهم لم يلبثوا أن كذبوا بسيدنا المسيح وأنكروا نبوته !

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾

مَكَاناً قَصِيًّا : بعيدا من أهلها وراء الجبل .

فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ : فألجأها واضطرها وجع الولادة.

نَسْياً مَّنسِياً : شيئا حقيرا متروكا لا يخطر بالبال .

لقد كانت مريم عذراء – غير متزوجة – من بيت متدين شريف، وكون امرأة كهذه حبلى، لهو محنة قاسية تهون أمامها كل محنة .. وبعد أن ابتليت بهذه المحنة خرجت في صمت من الهيكل، وذهبت إلى مكان بعيد (بيت لحم)، ولما حان الأجل، واشتد بها وجع الولادة والطلْق، آوت إلى جذع نخلة خارج البلدة .. وإن الكيفية التي ستطرأ على امرأة عذراء طاهرة عفيفة، في مثل هذا الموقف، تصورها هذه الكلمات التي جرت على لسانها أدق تصوير: يا ليتني قد مت وتلاشيت قبل هذا اليوم، ولم أكن شيئاً يعرف أو يذكر لدى الناس !!

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ ﴾

فَنَادَاهَا : جبريل أو عيسى عليهما السلام .

سَرِياً : جدولا أو غلاما سامي القدر .

رُطَباً جَنِياً : صالحا للاجتناء ،أو طريا .

وَقَرِّي عَيْناً : طيبي نفسا ولا تحزني .

لم يكن أمام مريم، بعد أن ابتليت بهذه المحنة القاسية البالغة الخطورة، من سبيل إلى السكينة وهدوء البال، إلا أن يظهر لها ملك الله، ويعطيها من الثقة واليقين ما يقتل مخاوفها التي أخذت تزداد وتشتد مع اشتداد ألم الطلْق بها .. وقد حدث بالفعل.. حيث جاء الملك في الوقت المحدد، فناداها: ألا ترتاعي ولا تحزني، فإن كل هذا الذي يحدث، إنما يحدث تبعاً لخطة الله سبحانه وتعالى، ولقد فُجرت هنا عين ماء عذب رقراق على القرب منك وهذه النخلة ستوفر لك ثمراً شهياً طرياً كل حين وآن، إذن، فلك أن تأكلي وتشربي مما أنعم ربك عليك ، قريرة العين، مرتاحة الضمير !!

وفيما يتعلق بالصبي فقد طمأنها قائلاً: إن هذا المولود بمعجزة الله سيتولى بنفسه الدفاع عنك.. وإنما عليك أن تصومي عن الكلام حسبما جرت به عادة بني إسرائيل، وإن رآك أحد، أو رأيت أحداً من الناس وسألك شيئاً، فأومئي إلى المولود، الذي سيجيبه بدوره الجواب الشافي الدال على براءة ساحتك !!

﴿ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ

هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾

شَيْئاً فَرِياً : عظيما منكرا .

ولم تلبث مريم، بعدما سمعت كلام الملك، أن امتلأ صدرها ثقة واطمئنانا، فرجعت عائدة إلى أهلها، وعلى يديها المولود تحمله .. ولم يكد يراها اليهود في هذه الحال، حتى أخذوا في لومها والزراية عليها وتأنيبها على ما أتت به – في زعمهم – من فاحشة وعملاً بما أرشدها إليه الملك، فقد لاذت مريم نفسها بالسكوت والصمت، أشارت إلى المولود في حجرها، إيذاناً بأن هذا ليس بمولود من الطراز العادي، والدليل على ذلك أن توجهوا إليه بالكلام، فهو مع كونه طفلاً رضيعاً في المهد، سيفهم منكم ما تقولون، وبالتالي سيرد عليكم رداً واضحاً مقنعاً من غير لبس ولا غموض !..

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ .

كَانَ فِي المَهْدِ صَبِياً : وجد في فراش الصبية رضيعا .

وَبَراً بِوَالِدَتِي : بارا بها محسنا مكرماً .

وبالرغم من إشارة مريم المتكررة إلى ابنها، طالبة توجيه كل سؤال بشأنه إليه نفسه، لم يكد يفهم اليهود – لفرط الحيرة التي انتابتهم – كيف يمكنهم أن يكلموا طفلاً صغيراً ما زال في المهد يتغذى بلبان أمه !؟!

وبينما هم كذلك، إذْ أقبل عليهم سيدنا المسيح بوجهه فبادرهم بالكلام.. وقد كان

كلامه المعجز ينطوي – من جهة – على براءة أمه – ومن جهة أخرى – كان ذلك شهادة مسبقة على أن هذا الصبي حديث الولادة، إذا ما بلغ مبلغ الرجال، وادعى النبوة فلا يعود أمام أحد من الناس حينئذ مجال للريب أو الشك في نبوته !.

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾

لقد كان المسيح حادثا غريباً .. وقد اشتط العلماء المسيحيون في تفسير هذا الحادث الغريب، مما أدى بهم إلى اختلاق ألوان شتى من العقائد العجيبة الغامضة.. غير أن كل تفسير له دائماً حد معين، ولابد لنا من الوقوف عنده وعدم تجاوزه على أية حال، ونحن نحاول تفسير شيء أو ظاهرة ما .. إذن، فجعْل المسيح، في محاولة تفسير حادث ميلاده غير العادي، ابن الله، هو تجاوز للحد، فإنه لِمَا يتنافى مع وحدانية الله أشد التنافي أن يكون له ولد !!

وفوق ذلك فالكون يزخر بما لا يحصى من وقائع غريبة نشاهدها كل يوم، وكل شيء في هذا العالم حادث غريب في ذاته، فلئن ظهر الآن شيء غريب آخر، فإنما ينبغي على الإنسان أن يقول: إن الله – سبحانه وتعالى – كما أبدع أشياء غريبة أخرى لا تقع تحت الحصر، فهو ذاته خالق هذا الشيء الغريب الذي ظهر أمامنا اليوم !

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ : ما أسمعهم وما أبصرهم .

لقد كان المسيح – وكل الأنبياء الآخرين كذلك – لدعوة الناس إلى صراط مستقيم

واحد، لا غير، وهو أن يتخذ المرء الله ربه، ولا يعبد إلا إياه وحده .. ولكن ما حدث دوْماً أن الناس لم يلبثوا أن انحرفوا عن هذا الصراط المستقيم باعتساف تأويل وتفسيرات مزعومة، فمنهم مَنْ ذهب إلى رأي، ومنهم من ارتأى رأياً آخر مناقضاً للأول تماماً .. وهكذا نشأ الاختلاف الذي حوّل الدين الواحد إلى أديان شتى .

إن الحق لواضح غاية الوضوح حتى في هذه الدنيا .. غير أن الإنسان يتمتع هنا بالحرية لأجل الامتحان، وعليه فإن شاء آمن، وإن شاء رفض .. وبسبب هذه الحرية المؤقتة يقع الإنسان في سوء فهم، فإذا به يأخذ يتمرد ويطغى .. وقد يتم إرشاده هنا، ومن خلال صنوف الأدلة والبراهين الساطعة، إلى ما هو صراط الله المستقيم المطلوب اتباعه، إلا أنه لا يلقى إليه بالاً، ولا يتلقى الحق بالقبول.. وأما في الآخرة، حين تكون حرية الإنسان قد انتزعت منه بالمرة، فما أبصره و أسمعه سيصير هو يومئذ، وبنفس عيونه وآذانه، تلك، التي تبدو اليوم وكأنها لا تعرف رؤية ولا سماعاً !!.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

يَوْمَ الحَسْرَةِ : الندامة الشديدة على ما فات .

إن المرء إذْ يتعرض للفشل والإخفاق في هذه الدنيا، فربما لا تزال الفرصة أمامه مفتوحةً لكي يستأنف حياةً جديدةً، وهو يجد من حوله أصدقاء وأنصارًا يهبون من فورهم لنجدته، يمدون إليه يد العون، ويشدون من أزره .. غير أن فشل الآخرة هو فشل ليس بعده أي إمكانٍ للنهوض من جديد أبداً فما أعجبها ساعة حسرةٍ وندامةٍ، حين سيعلم المرء أنه قد كان بإمكانه أن يفعل كل شيء ، ولكنه لم يفعل شيئاً، حتى ذهب وقت العمل إلى غير عودةٍ !!

إن مصير كل أنواع الشر والفساد هو أن المرء يزعم أنه سيد نفسه ومالكها .. ولكن الحقيقة هي أن هذه ليست سوى فسحة أو فترة متوسطة عارضة، فإن الله وحده هو مالك كل شيء أول الأمر وآخره، وليس ثمة أحد غير الله يتمتع بصفة « المالكية » هنا بالمعنى الحقيقي !

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾

صِرَاطاً سَوِيًّا : طريقا مستقيما منجيا من الضلال .

عَصِيًّا : كثير العصيان .

وَلِيا : قرينًا تليه ويليك في النار .

ولد سيدنا إبراهيم في العراق .. ولما نُبئ، نصح أباه بأن اترك عبادة الأصنام، واعبد الله وحده، وإلا فسوف تتعرض لبطش الله وعقابه الشديد .

ومعنى عبادة الشيطان ليست عبادة الشيطان في ذاته، بل عبادة ما يأمره به الشيطان، وطاعته فيما يدعو إليه .. إن الإنسان يميل، بموجب فطرته التي فطر عليها، إلى أن نعطي أحداً المكان الأسمى في حياته، ويقدم له كل ما يجيش بداخله من مشاعر الحب والتفاني والاحترام والإجلال، إن المركز الحقيقي لهذه المشاعر والعواطف هو الله سبحانه وتعالى .

غير أن الشيطان يحاول صرف أذهان الناس وتوجهاتهم عن الحق بشتى الطرق لكي يورط الإنسان في الشر، ويجعله يعطي لغير الله ما ينبغي عليه ألا يعطيه إلا لله وحده !

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾

وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا : اجتنبني وفارقني دهرا طويلا .

حَفِيًّا : برا لطيفاً أو رحيما مكرما .

شَقِيا : خائباً ضائع السعي.

إن الأصنام التي يتناولها سيدنا إبراهيم بالنقد والتجريح، لم تكن قطعاً من الأحجار، بل كانت ممثلة لذوات ارتسمت عظمتها الطلسمية على العقول، بفعل تقاليد الأحقاب الماضية الطويلة، وفي هذه المقارنة بدا ((إبراهيم الفتى)) شخصاً عادياً، بينما تراءت أصنام العراق جبالاً من المجد والعظمة .. وذلك هو السر ف أن والد إبراهيم لم يلبث أن رفض نصيحة ابنه بغاية التحقير والازدراء .

إن دعوة الحق إذا ما بدأت في مكان ما، وبلغت بمضي الزمان إلى مرحلة يكون فيها الناس قد فهموها جيداً ولكنهم بدل أن يبادروا إلى الإيمان ، يقابلونها بالعنف والعدوان ، فإن الداعي يقوم حينئذٍ بتغيير مكان عمله، وهذا هو ما يسمى بـ ((الهجرة)).. وتغيير مكان العمل هذا يتم حيناً في الدائرة القريبة ، وأحياناً في الدائرة البعيدة .

إن عمل الدعوة عمل إلهي، ولهذا السبب فإنه كلما يبدأ، يبدأ مصحوباً بالنفسية الربانية .. والداعي لا يزال قلبه ينطوي على معاني الشفقة والحنان وحب الخير

للمدعو، حتى ولو عامله الأخير معاملة العدوان والاحتقار .. كما أن الداعي لا ييأس ولا يقنط حتى ولو أصبح في بيئته وحيداً بلا ناصر ولا معين .. ذلك لأن سنده الحقيقي هو الله – سبحانه وتعالى – فهو يكون واثقا أتم الثقة وآكدها من أن الله معه كعهده به، وأنه لن يزال معه دائماً، مهما تأزمت الأحوال، وتفاقمت الظروف والأوضاع !

﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾

لِسَانَ صِدْقٍ : ثناء حسنا في أهل كل دين .

إن المرء يعيش أو – بعبارة أدق – يتعايش مع أسرته وجماعته مرتبطاً بصلات وروابط شتى .. إذن فإن طرد شخص ما من محيط أسرته وجماعته يعني دفعه إلى صحراء الضياع والدمار.. غير أن الله – سبحانه وتعالى – قد أظهر لنا، بصورة دائمة، من خلال واقعة سيدنا إبراهيم، أن العبد الذي يخرج من بيته في سبيل الله وحده، فيعود شريداً بلا مأوى، يعطيه الله من عنده بيتا أحسن وأفضل.. وأن ما يلقى به في غيابة الخمول والمجهولية من أجل الله وحده كذلك، يكتب الله له الظهور وانتشار الذكر الجميل بين الخلائق على أوسع نطاق !!

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾

كَانَ مُخْلَصاً : أخلصه الله واصطفاه .

وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيا : مناجيا لنا .

لقد مر سيدنا موسى، وهو عائد من مدين إلى مصر، بجبل الطور، حيث أعطاه الله

النبوة.. وقد اصطفى الله الأنبياء والرسل في كل العصور الماضية، وأنزل عليهم كلامه، وكان هذا الكلام الإلهي يصل إليهم بواسطة الملك جبريل، ولكن الله تعالى قد اختص موسى بتكليمه مباشرةً، أي بلا واسطة ملك .. كما اختصه أيضاً بجعل نبي آخر معه، وهو أخاه هارون، استجابة لطلبه، ليدعم جانبه، ويساعده على حمل أعباء الرسالة .. وربما يكون سر ذلك التخصيص كامناً في تلك الظروف والملابسات الخاصة التي كان عليه أن يؤدي مهمته النبوية في ظلها.. إذْ كان أمامه ملك جبار كفرعون، ومن ناحية أخرى أمة كاليهود، التي كانت قد بلغت أقصى درجة من الفساد والانحطاط .

ومعاملة الرحمة والنصرة الإلهية هذه خاصة، في شكلها النهائي، بالأنبياء والرسل وحدهم، بيد أن الله تعالى يخص مَنْ شاء من عباده المؤمنين أيضاً بمثل هذه المعاملة، حيث يوفقهم – كل بحسب كفاءته واستعداده – للقيام بعمل من الأعمال المرضية عنده ويقذف في قلوبهم مراده بطريقة خفية، ويهيئ لنصرتهم وتأييدهم أسباباً خاصةً، لا تتأتى لأحد في ظل الظروف والأحوال العادية !

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾

كان سيدنا إسماعيل ولد سيدنا إبراهيم:.. وأما سيدنا إدريس فهو نبي ربما قد ولد قبل سيدنا نوح بأزمان طويلة .. ومن جملة الصفات الحميدة التي كان يتحلى بها هذان النبيان الجليلان، خُص بالذكر هنا صفتان هما: كونهما أولاً صادقين .. وثانياً قيامهما بحث الناس على الصلاة (عبادة الله وطاعته)، وعلى الزكاة (تأدية حقوق العباد)، ثم أكد القرآن على أن تلك الصفات هي التي جعلتهما عند ربهما مرضيين، وأوصلتهما إلى أعلى مراتب السمو والقرب الإلهي.

هذه الصفات تتوفر، على أتم درجة، وأكملها، في تلك الشخصيات التي اختارها الله للنبوة وإبلاغ رسالته .. غير أن عامة المؤمنين – دون الأنبياء – مطالبون هو الآخرون بخلق هذه الصفات في أنفسهم أيضاً، كما أنهم يتمتعون، على اختلاف درجاتهم، بما قد رتب الله تعالى على تلك الصفات من ثمرات ونتائج بصفة أبدية !

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) ﴾

وَاجْتَبَيْنَا : اصطفينا واخترنا للنبوة .

وَبُكِيًّا : باكين من خشية النار .

أشارت هذه الآية، بوجه خاص إلى أولئكم الأنبياء الذين انحدروا من نسل آدم، ومن نسل نوح، ثم من نسل إبراهيم، والذين رآهم الله أهلاً لكي ينعم عليهم بهدايته الخاصة، ويصطفيهم للقيام بتمثيله والتبليغ عنه أمام الناس أجمعين .

ولِمَ أنعم الله على هؤلاء السادة بتلك النعم الجليلة ؟! إن سر ذلك يكمن في هذا القاسم المشترك بينهم، وهو الذي يتمثل في كونهم شديدي الإحساس بألوهية الله، عميقي الشعور بكبريائه لدرجة أن صدورهم كانت تهتز حين يسمعون كلام ربهم، وبالتالي لم يكونوا يتمالكون أنفسهم أن يخروا على الأرض ساجدين له تعالى يبكون !!

وإن « السجود مع البكاء » هو أعلى درجة للاعتراف بعظمة الله جلاله، والذي يفوز بهذه الدرجة، فكأنما قد ذاق طعم الإيمان، الذي هو خاص بأنبياء الله ورسله الكرام !

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ ﴾

خَلْفٌ : عقب سوء .

يَلْقَوْنَ غَيًّا : جزاء الغي ، أو واديا في جهنم .

إن أبرز سمة يمتاز بها الرعيل الذي ينشأ ويتربى في أحضان مدرسة النبوة، تتمثل في أنهم يتسامون بأنفسهم فوق الشهوات ، ويكثرون من ذكر الله ، والذي يطلق على أحد مظاهره المّعينة وصف «الصلاة» .. إن جوهر الدين هو ذكر الله، وما الصلاة إلا صورة منظمة رتيبة لذكر الله هذا .

ولو أن الأجيال التالية لأتباع الأنبياء صارت غافلة عن الله، وبدأت في الانسياق وراء الشهوات، فإنها تعتبر عند الله في عداد الضالين الغاوين، وإن انتماءها إلى الأنبياء لن يغني عنها شيئاً.. وأمثال هؤلاء سيصلون ولابد إلى مصيرهم المحتوم، ولن ينجو منهم سوى أولئك الذين يبادرون بالعودة ثانيا إلى جوهر الدين الأصلي، ويختارون، بصدق وإخلاص، حياة الإيمان والعمل الصالح بمعناه الحقيقي .

والساعون لأجل الآخرة لا يحصلون على ثمرة جهودهم وتضحياتهم على الفور، الأمر الذي ربما يدفع بعضهم إلى الشك في أن هذا طريق كله عمل وكدح، دون أن يكون فيه ثمرة ذلك العمل والكدح .. غير أن هذا ليس إلا إساءة فهم للموضوع، إذْ الحقيقة هي أنه كما يحصل العاملون لأجل الدنيا على جزاء عملهم، فإن العاملين لأجل الآخرة سيفوزون بدورهم بالجزاء الأوفى على أعمالهم بكل تأكيد، وإنه ليس ثمة ما يدعو إلى الشك في هذا الأمر البتة!

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ ﴾

مَأْتِيًّا : آتيا أو منجزا .

لَغْواً : قبيحا أو فضولاً من الكلام .

في العالم الراهن يتمتع الإنسان بالحرية التامة لأجل الامتحان.. فالأبرار والأشرار كلهم هنا أحرار، على حد سواء .. ونتيجة لذلك فإن إنساناً صادقاً ما، لا يكاد يحصل على الهدوء والاستقرار في رحاب العالم الراهن .. فمهما كان هو سوياً مستقيماً في حد ذاته، إلا أن أحاديث الآخرين وتصرفاتهم غير السوية ولا المستقيمة لا تلبث أن تعكر عليه صفوه، ولا تدعه يشعر بالراحة والسكون أبداً.. فالناس، بإساءة استخدام حرياتهم لا يفتأون يملئون الجو بكل ما هو فاحش ورديء ومنكر، من الكلام والأصوات .

أما الجنة فهي دار سيبعد عنها كل من كان على هذه الشاكلة .. وإنما سيسكن هنا الأناس ذوو الأذواق الرفيعة وحدهم،الذين كانوا قد أثبتوا في الدنيا،أنهم لا يعيشون كالأشواك،بل مثل الورود والأزهار.

والحياة التي ستظهر إلى الوجود في بيئة أناس كهؤلاء، لا شك في أنها ستكون جنة يسودها السلام الأبدي.

إن تجنب اللغو والفضول في هذه الدنيا وممارسة الحياة فيها، بحيث لا تخلو من الضرر والضرار، وتكون كلها الأمن والسلام، عمل عسير جداً، فإن ذلك يتطلب تحويل حياتنا الحرة الطليقة، بمحض اختيارنا وإرادتنا نحن إلى حياة مقيدة ملتزمة ..

إنها لتضحية شديدة الوطأة على النفس، لا يوفق لإقامة الدليل عليها، إلا شخص يخاف الله حق الخوف، فالخائفون من الله وحدهم، يستطيعون أن يعيشوا في هذه الدنيا عيشة أهل الجنة، وأولئك هم الذي سيدخلون في جنان الآخرة الأبدية !

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾

إن أخطر مرحلة وأشدها قسوة على الداعي هي التي تكون فيها الدعوة الإسلامية معرضة لألوان شتى من المعارضات والمعاكسات .. حيث يريد الداعي كل يوم أن يقدم أية خطوةٍ جديدة من شأنها أن تضع حداً للحالة الراهنة، بينما يأمره الله بأن اصبر وانتظر !!

ولقد واجهت ذات مرة حالة مماثلة رسول الله ﷺ إذ كان يترقب نزول الوحي من عند الله، نظراً لاشتداد وطأة الظروف وازديادها تفاقما .. ولكن، بحسب ما جاء في بعض الروايات، لم يأته جبريل بالوحي نحو أربعين يوماً، ولما أتاه جبريل، سأله عن سبب التأخير، فأجابه قائلاً: إننا ملزمون بمشيئة الله، فإذا نحن تلقينا منه تعالى شيئاً من الهداية، أتيناك، وإن لم نتلق من عنده هداية ما، فلا نأتيك .. وقد ذكرت هذه الواقع تأكيداً على ضرورة التمسك بالصبر على طول الخط، فالله – سبحانه وتعالى – يرى الوضع القائم حالياً بتمام الوضوح، وهو يحيط علماً بكل ما يحمل بين طياته من إيجابيات وسلبيات، لا تخفى عليه منه خافية، فلو أن الله تعالى لم يحدث – مع ذلك – شيئاً – ولم يبعث من عنده بتوجيه جديد، فمعنى ذلك أن المطلوب الآن هو أن يحتمل هذا الوضع ويصبر عليه، ولئن كان مقتضى الحكمة غير ذلك، لنزل حكم آخر بكل تأكيد، وإذ لم يكن هناك أحد أعلم من الله، فلا يمكن كذلك أن يكون توجيه أحد أحسن من توجيه

الله .

إذن، فليس من الصواب ولا من الجائز أن نبحث عن آية تسمح لنا بـ «الإقدام» في ظل ظروف تقتضي «الإحجام»، فإن ذلك بمثابة محاولة استنزال حكم لم ينزل على المرء بعد، لكونه سابقاً لأوانه !

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ﴾

جِثِياً : باركين على ركبهم لشدة الهول .

لقد كان العرب – مخاطبو القرآن الأول – يؤمنون بالحياة بعد الموت، غير أن إيمانهم هذا لم يكن إيماناً حقيقياً.. فكل الكلمات الواردة بشأن الآخرة وأحوالها في القرآن الكريم، هي التي كانت موجودة ومستعملة في لغتهم من ذي قبل، ولكن بدون أن يكون لها أي تأثير يذكر في حياتهم اليومية، فقد كانت حياتهم العملية كما لو أنهم يقولون بلسان حالهم: إن هي إلا حياتنا الدنيا هذه، فمن عساه يبعثنا بعد الموت، ومَنْ سيحاسبنا على أعمالنا!!

بيْد أن هذه الغفلة أو هذا الإنكار لا ويتأمل بجدية، ولو أنه يُتأمل حقاً لصار ميلاده الأول دليل عنده على ميلاده الثاني .

وقد أريد بـ «الشياطين» هنا قادة السوء .. فهؤلاء القادة يضللون الجماهير بالألفاظ المموّهة الخداعة، وعلى هذا الاعتبار فإنهم يمارسون عمل الشيطان نفسه .. وهؤلاء القادة يبدون في العالم الراهن على ذروة المجد والعظمة، مما يجعل أنظار الناس تتجه نحوهم في دهشة وإعجاب وبالتالي يتعذر عليهم أن يهملوهم أو يعرضوا عنهم،

إلا أن عظمتهم وأمجادهم كلها ستنعدم في الآخرة، وسيقذف هنالك بكبار الناس هؤلاء في هاوية الذل والهوان، تماما كما يقذف فيها بصغارهم !

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

عِتِياً : عصيانا ، أو جراءةً أو فجوراً .

صِلِياً : دخولاً أو مقاساة لحرها.

وَارِدُهَا : بالمرور علي الصراط الممدود عليها .

إن عدم الإيمان بالحق جريمة، وأما إقامة حركة تستهدف صد الآخرين عن الإيمان بالحق، فهي جريمة أكبر وأفظع .. ومن ثم فالذين يتولون قيادة حركة المعارضة عن الحق، يستحقون عند الله عقوبة أشد وأنكى، وسوف يعذب هؤلاء في الآخرة عذابا مضاعفا بالقياس إلى عامة المنكرين .

يتضح من بعض نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية أن الله – سبحانه وتعالى – سيمرّر الخلائق جميعا عبر جهنم، وهذا المرور أو الاجتياز سوف لا يكون من داخل جهنم بل من فوقها، تماما كما يجتاز الواحد منا نهرا عميقا بواسطة الجسر القائم فوقه، فقد يقع بصره على أمواج هائلة تتلاطم في النهر تحته، إلا أنه لا يغرق فيها .. وهكذا فسوف يمر الجميع على جهنم في يوم القيامة، أما الصالحون منهم، فسيفضى بهم المسير، في نهاية المطاف إلى أن يدخلوا الجنة ليخلدوا فيها أبداً .. وأما الطالحون فلن يستطيعوا العبور ولا التقدم نحو الأمام، حيث إن جهنم لن تلبث أن تعرف أنهم وقودها، فتجذبهم نحوها، ليستقروا في قاعها.

وسيكون الغرض من تلك التجربة تمكين الداخلين في الجنة من أن يشعروا حق الشعور وأعمقه بنعمة الله العظيمة، التي تمثلت في إنقاذه تعالى إياهم من شر دار وإيصالهم إلى خير دار!!

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾

خَيْرٌ مَّقَاماً : منزلا وسكنا .

وَأَحْسَنُ نَدِيًّا : مجلسا ومجتمعاً .

قَرْنٍ : أمة .

أَحْسَنُ أَثَاثا : متاعا من الفرش والثياب وغيرها.

وَرِءْيا: منظرا وهيئة .

إن الذين لا يهمهم أمر الحق والباطل شيئا، وهم يعطون الأهمية كلها لمصالح الدنيا دون الآخرة، ويهتمون بإرضاء الجماهير أكثر من إرضاء الله تعالى، إن أناساً كهؤلاء يظفرون دوماً بأوفر قسط من النجاح والتوفيق في الحياة الدنيا كما يتجمع حولهم أكبر قدر من المباهج المادية، ومظاهر الأبهة ووجاهة الشأن ما يجتذب الأنظار ويبهر العيون.

وبالمقابل فإن الذين ينظرون في كل أمر من حيث تمييز الحق من الباطل، وبالتالي يؤثرون مصالح الآخرة على مصالح الدنيا، والذين يكونون أكثر اهتماماً وأشد اكتراثاً بمرضاة الله منهم بالاتجاه الشعبي، فإن أمثال هؤلاء يظلون في الأغلب الأعم محرومين من أسباب الأبهة والفخامة الظاهرية .

وهذا الفارق ربما يتسبب في إيقاع الكثيرين في سوء الفهم، إذْ يحسبون أن الأفضل حالاً من الناحية الدنيوية، هو المحبوبون عند الله، وأما الذين هم أسوأ حالاً من الناحية الدنيوية فهم – بالعكس -- غير محبوبين عند الله .. ولكن هذا المعيار خاطئ بالمرة .. وإنما يكفي لدحضه والرد عليه نظرة تأمل في تاريخ الماضي، فكم من رؤوس متعالية فخراً وزهواً دفنت تحت التراب فصارت تراباً، وكم من قصورٍ شامخاتٍ فخمةٍ، عفا عليها الزمن، فلم تعد تُرى للرائين اليوم إلا في صورة خرائب وأطلال !

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ ﴾

فَلْيَمْدُدْ لَهُ :يمهله استدراجاً .

وَأَضْعَفُ جُنداً : أقل أعوانا وأنصارا .

إن إتاحة الفرصة للرجل الطاغي في الحياة، إنما تكون بسبب مهلة الامتحان، وليس بناءً على أي حق له .. ولكن المرء لا يدرك – في أكثر الأحيان – هذا الفارق، فإذا به ينظر إلى المهلة الوقتية على أنها هي حالته الدائمة، ولا تكاد تنفتح عيناه ويعود إليه صوابه، ما لم يتم إعلان انتهاء المهلة، ويسلب منه بالتالي حق ممارسة الطغيان .

وربما يقدر الله لأحد الناس، لحكمة هو أعلم بها، يقدر له أن يجرب ذلك في هذه الدنيا، بينما يترك بعضهم على ما هو عليه، حتى يوافيه الموت، فيريه الشيء الذي لم يكن قد استعد لرؤيته في الحياة الدنيا !

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾

وَخَيْرٌ مَّرَدًّا : مرجعا وعاقبة .

الاهتداء هو أن يستيقظ شعور المرء ويتحرك وعيه في الاتجاه الصحيح .. وإن شخصاً كهذا حين يواجهه وضع ما، يؤوله على وجهه، فيجعله غذاءً لروحه وفكره، وهكذا لا يزال هداه في زيادة مطردة باعتبار اليقين والكيفية.. إذ لا يكون هداه مثل صخرة جامدة صماء، بل شأنه شأن شجرة حية لا تزال تنمو وتزدهر باستمرار .

وكما أن العامل من أجل الدنيا يتقدم تقدما مستمرا نحو الأمام والأفضل،فإن عمل العامل الذي يضع الآخرة نصب عينيه،هو الآخر قابل للزيادة والنمو المتصل كذلك.. وبما أن هذه الزيادة يتم ادخارها لصاحبها في الآخرة،لذا فهي لا تُرى في هذه الدنيا،ولكن حين تمزق القيامة كل الحجب،فسوف يلاحظ الجميع هناك كيف أن هدى المهتدي كان في ازدياد مستمر جنبا إلى جنب مع نماء عمله وازدهاره المتواصل !.

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾

أَفَرَءَيْتَ : أخبرني .

أَطَّلَعَ الغَيْبَ : أَعَلِمَ الغيب (استفهام) .

وَنَمُدُّ لَهُ : نطول له أو نزيده .

حين يظفر المرء من الثروة والقوة بنصيب ما، يتولد في داخله نوعٌ كاذب من الثقة بالنفس، مما يجعله يسلك مسلكاً لا يتفق ووضعه الحقيقي، وتصدر من لسانه أقاويل لا ينبغي له أن يتفوه بها .

وقد حدثت واقعة كهذه في مكة.. إن العاص بن وائل كان واحداً من رؤساء المشركين بمكة، وكان عليه دين لخباب بن الأرت، فجاء إليه يتقاضاه، فقال: لا والله لا أقضيك،حتى تكفر بمحمد، فما وسع خباب إلا أن قال: لا والله لا أكفر بمحمد، حتى تموت ثم تبعث .. فرد عليه العاص بن وائل قائلاً: إذن فموعدك الآخرة، فإني عندما أبعث ثانيا بعد الموت، سأكون هناك أيضاً ذا مال وبنين !!

وما هذا كله إلا أقاويل فارغة مصدرها الثقة الكاذبة بالنفس، وإن الثقة الكاذبة بالنفس لن تغني عن أحد شيئاً .

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾

عِزًّا : شفعاء وأنصارًا يتعززون بهم .

ضِدًّا : ذلا وهوانا لا عزا أو أعوانا عليهم .

الإنسان يريد أن يفعل ما يشاء في هذه الدنيا، من غير أن يضطر إلى مواجهة ما يستتبع سوء عمله بالضرورة من وخيم العاقبة.. وإذْ لم يكن بإمكان شخص ما أن يحصل على ضمان كهذا من قبل الله، فإنه لم يلبث أن افترض ثمة ذوات هي أحب وأقرب ما تكون إلى الله، وهي بذلك تستطيع - فيما يزعم - أن تقف إلى جانبه شافعة له في جناب الله جل وعز .. غير أن هذه كلها قياسات باطلة لا أساس لها من الصحة، وبالتالي فهي غير مجدية عن أحد فتيلاً.. حتى إن تلك الذوات التي كان المرء قد أدى لها طقوسا عبادية، زاعما إياها شريكة في الألوهية، سوف لا تلبث بدورها أن تتبرأ منه ومن عبادته، يوم القيامة، حيث لن يجد الإنسان من جانبها شيئا سوى الكراهية والمقت والنفور الشديد !!

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾

عند رفض المرء للحق، وقد ظهر أمامه في صورته الواضحة الجليلة، لما يتسبب في تمكين الشيطان من التسلل إلى داخل النفس وإغرائها بالشر .. حيث لا يلبث عقل المرء بعدئذ أن يسير في الاتجاه المضاد تماما، وبالتالي فكل دليل يقدم إليه الآن ينقلب رأسا على عقب، وقد تتجلى آيات الله الباهرة بين يديه، إلا أنه يحولها إلى غذاء لطغيانه وتمرده بتفسيرها على هواه .

والذي يستند على دعائم وهمية كاذبة يصاب دوماً بمثل هذا الجهل والسفه، ولكن الذين يخافون من الله يتخذون من الله وحده سنادهم وموضع ثقتهم.. فإن الخوف من الله يبطل عندهم وجود كل تلك الذوات التي إنما يضل الناس وينحرفون عن طريق الحق السوي باعتمادهم الكاذب عليها .. وهؤلاء هم الذين سيتم استقبالهم في الآخرة كضيوف الله المكرمين !

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾

شَيْئًا إِدًّا : منكرا وفظيعا .

يَتَفَطَّرْنَ : يتشققن ويتفتتن من شناعته .

وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَداً : تسقط مهدودة عليهم.

إن هناك احتمالين اثنين يمكن اعتبار أحدهما أو كليهما معا مصدر هذا الزعم القائل بأن لله بنين وبنات.. فإما لكون الله تعالى في حاجة إلى معين، وإما لكونه يتمنى، كالبشر العاديين، أن يكون له ولد، ومن ثم فقد اتخذ لنفسه ولداً.. وكلا هذين الاحتمالين باطل لا أساس له من الصحة .

إن تكوين الأرض والسماء كامل ومحكم لدرجة غير ممكن التصور بالمرة أن يكون صانعها ومدبر شئونها إلهاً يعاني من نقائص وعيوب كتلك التي نعاني منها نحن البشر، إن التصور القائل بولد لله ، لا ينطبق ، بأي وجه من الوجوه ، على ذلك الخالق العظيم الذي تعرفنا به مخلوقاته !

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾

وُدًّا : مودة ومحبة في القلوب .

ربما يحدث أن الذين ينهضون بالحق، يصبحون لدى الجماهير ثقيلي الظل مبغوضين، إذْ يأخذ القائمون على الصدق المغشوش ينظرون إلى حملة الحق غير الشرعي هؤلاء نظرة تقزز واشمئزاز .

على أن هذا شأن العالم الراهن وحده، وأما شأن الآخرة، فسيكون مختلفاً عن ذلك كل الاختلاف، حيث ستكون البيئة هناك بأكملها مع أولئك الذين يقيمون أنفسهم على الحق الخالص، إن الشرف والقبول في العالم الآخر، سيقعان كلياً في نصيب أولئك الأفراد وحدهم، الذين كانوا قد ربطوا وجودهم هنا بالحق الخالص، غير مبالين بسمعة الدنيا وقبولها.

في عالم الصدق المغشوش إنما يحظى بالشرف من يقوم على الصدق المغشوش كذلك، فإن الشرف في عالم يسوده الصدق الخالص، لن يفوز به إلا الذي كان قائماً على أرضية الصدق الخالص !

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۝ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝ ﴾

قَوْماً لُدّاً : شديدي الخصومة بالباطل .

قَرْنٍ : أمة .

تُحِسُّ : تجد . أو ترى . أو تعلم .

رِكْزاً : صوتا خفياً .

إن كتاب الله قد نزل في لغة واضحة مفهومة لدى الإنسان .. كما أن مضامينه قد روعيت فيها كل تلك الجوانب التي تجعل كتاباً ما، بحيث يستطيع أي إنسان أن يقتبس منه – إذا شاء – نور الهداية والتوجيه.. غير أن القرآن – مع هذا كله – لا يكون وسيلة هداية وإرشاد إلا لأناس يتمتعون بالجدية، وهم يتطلعون نحو معرفة الحق من الباطل، كي يتجنبوا الباطل، ويبنوا حياتهم على أساس من الحق .. وأما الذين قلوبهم خالية من الجدية وجذوة التطلع نحو المعرفة، فإنهم إذْ يسمعون تعاليم القرآن، فإنما يثيرون مناقشات فارغة حولها، ولن يستفيدوا منها شيئاً ذا بال .

والذين يتصدرون لمعارضة دعوة الحق، يظلون دوما ضحايا الغرور وسوء الفهم بأن صنيعهم ذاك لن يعرضهم لخطر أو خسارة ما، ومع أن حوادث الدمار والهلاك الذي لحق بمعارضي الحق السابقين، تكون متوفرة من حولهم، إلا أنهم لا يعتبرون بها.. ولا يزالون يحسبون، حتى اللحظة الأخيرة الحاسمة، أن كان ما حدث، إنما كان للآخرين وحدهم، وأنه لن يحدث معهم شيء من ذلك أبداً .

غير أن قانون الله عام وشامل لا استثناء فيه.. فكل واحد هنا سيلقى حتماً ما قد لقيه الآخر حسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر !!

سورة طه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝ ﴾

لِتَشْقَى : لتتعب بالإفراط في مكابدة الشدائد والتأسف على قومك .

عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى : استواء يليق به تعالى .

وَمَا تَحْتَ الثَّرَى : ما وراء التراب . أو ما وراء الأرض .

إن القرآن،مع كونه قد جاء للتذكير وحده، إلا أنه لا يكون تذكيراً تقوم معه الحجة على المدعو إلا إذا بذل الداعي إليه جهده وطاقته كلها في سبيله .. وإلا إذا بلغ من النصح وحب الخير للآخرين إلى حد نكران الذات، بحيث تنطلق الألسنة تقول: إن هذا قد عرّض نفسه للعناء والمشقة من أجل إرشاد الناس إلى طريق الحق .

على أن الدعوة ، مهما تم تقديمها بأسلوبٍ كاملٍ وبليغٍ ، إلا أنه لا يوفق للاهتداء بها عملياً ، سوى ذلك العبد الذي يكون عارفاً بالحق ، والذي يتوفر لديه استعداد للتلقي والقبول ، بحيث يكون وضوح الأمر على مستوى الدليل والبرهان يصير كافياً لفتح عيونه.

إن الله الذي قام بخلق العالم،هو الذي أنزل القرآن الكريم،ولذا فليس ثمة تناقض بين القرآن والفطرة .. إن القرآن تذكير بحقيقةٍ يوجد الاستعداد لمعرفتها وإدراكها في الفطرة الإنسانية بصورةٍ مسبقةٍ !

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ

ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾

وَأَخْفَى : حديث النفس وخواطره .

ربما يضطرب قلب الداعي ، وتنتابه مشاعر الهم والقلق بين حينٍ وآخر ، فيتضرع إلى الله تارةً سراً ، وقد تنفجر كلمات الدعاء من فمه تارةً أخرى بصوتٍ مسموعٍ عالٍ ، ويبدو ظاهراً كأنه وحيد ليس له من صديقٍ ، ولا نصيرٍ في هذا العالم المليء بالبشر !!

بيد أن ذلك ليس إلا وضعاً ظاهرياً محضاً ، فإن الداعي يقوم ، من حيث الحقيقة ، على أمتن دعامةٍ وأقوى سندٍ ؛ إنه ينادي رباً يحيط علماً حتى بالألفاظ المنطوقة في الوحدة سراً ، وبالمناجاة التي تجري في أعماق القلوب .. وإنه يضع ثقته في الله العظيم الذي يملك كل ما يُتصور وما لا يتصور من الطاقات التي يُحتاج إليها لنجدة مستنجدٍ وإغاثة مستغيثٍ ملهوف!

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾

آنَسْتُ نَاراً : أبصرتها بوضوح .

بِقَبَسٍ : بشعلة نار مقبوسة على رأس عود .

هُدًى : هاديا يهديني إلى الطريق .

وُلد موسى - عليه السلام - في مصر ، وقد قُتل يوماً رجل من القبط بيده عن غير عمدٍ، ففارق بعدئذٍ بلاد مصر ، وذهب إلى مدين ، حيث مكث عدداً من السنين .. وتزوج هناك من امرأةٍ ، ثم رجع عائداً برفقة زوجته إلى مصر ، وقد كان معه إذْ ذاك قطيع من الغنم أيضاً.

وفي أثناء سفره ذاك ، كان سيدنا موسى يمرّ بوادي الطور ، جنوبي شبه جزيرة سيناء، إذْ انتشر ظلام الليل الدامس ، فصار لا يتبين له وجه الطريق الصحيح ، وزيادةً

على ذلك فإنها كانت ليلة شتاء شديدة البرودة ، وبينما هو على هذه الحال رأى ناراً من بعيدٍ تتوقّد ؛ فاتجه نحوها ، لكي يأتي منها بجذوة يستدفئ بها هو وأهله ، وإن كان ثمة أحد يسأله عن الطريق!

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝ ﴾

المُقَدَّسِ : المطهر أو المبارك .

طُوًى : اسم للوادي .

أَكَادُ أُخْفِيهَا : أقرب أن أسترها من نفسي .

فَتَرْدَى : فتهلك .

إن النار التي رآها موسى لم تكن ناراً عاديةً ، بل كانت إحدى تجليات الله .. ومن ثم فلما دنا منها ، تم إشعاره بأية بقعةٍ هو الآن .. كما أُمر بخلع النعلين من قدميه ، لكي ينصت لما يلقى إليه في تواضع وأدبٍ ، ثم قرع سمعه صوت يقول : إن الذي يكلمك الآن – يا موسى – إنما هو الله جل جلاله ، وقد اختارك الله لإبلاغ رسالته.

وإن ما أوحي إلى موسى حينذاك ، هو التعاليم التي توحي إلى كل الأنبياء والمرسلين على الدوام ، ألا وهي اتخاذ الله الواحد إلهاً ، وإفراده وحده بالعبادة ، وذكره تعالى على كل حالٍ ، وفي كل حينٍ .. ثم أخبر موسى بحقيقة الحياة هذه ، بأن العالم الراهن هو عالم امتحانٍ واختبارٍ ، وقد أخفى الله الحقائق وراء ستار الغيب إلى أمدٍ معينٍ محدودٍ، ومع قيام الساعة لا يلبث أن يتمزق هذا الستار ، فتنكشف الحقائق كلها بجلاءٍ ، وستبدأ بعدئذٍ المرحلة التالية لحياة الإنسان ، حيث يجد الكل مكانه بحسب أعماله التي

كان قد مارسها في الحياة الدنيا .

والمرء حين يستبد به الهوى ، وتغلبه الشهوات ، وبالتالي ينغمس في ملاذ الدنيا ومتعها ، غير مكترث بالآخرة ولا حاسبٍ لها أي حسابٍ ، فإنه يخترع نظرياتٍ شتى تبريراً لفعله ويبين موقفه وسلوكه بعباراتٍ جميلةٍ رائعةٍ ، مما يجعل الآخرين أيضاً غافلين عن الآخرة ، وفي مثل هذه الحالة ينبغي للمؤمن أن يكون على حذرٍ دائمٍ ، يُمكّنه من صوْن نفسه من أن تتأثر بالغافلين عن الله واللامبالين بمطالب الآخرة ، أو تنخدع بمعسول كلامهم ، فيتخلى عن السعي لأجل سعادة الآخرة!

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

أَتَوَكَّأُ : أتحامل عليها في المشي ونحوه .

وَأَهُشُّ بِهَا : أخبط بها الشجر ليساقط الورق .

مَآرِبُ أُخْرَى : حاجات ومنافع أخرى .

حَيَّةٌ تَسْعَى : تمشي بسرعة وخفة .

سِيرَتَهَا الأُولَى إلى حالتها التي كانت عليها .

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ... ﴾ لقد وُجه هذا السؤال إلى موسى إيقاظاً لوعيه .. وكان الغرض منه أن يتجدد لدى موسى الشعور بكون عصاه عصاً لا غير .. حتى إذا انقلبت، بقدرة الله، إلى حيةٍ في اللحظة التالية، أدرك مدى أهميتها وقيمتها حق الإدراك .

إن صيرورة عصا موسى حيةً ، قد كانت حادثةً غريبةً تماماً كصيرورة التراب والماء إلى خشبةٍ .. وإن كل ما نراه فوق الأرض ، إنما هو تحول شيءٍ إلى شيءٍ آخر ، كتحول الغازات إلى مركب الماء ، وتحول التراب إلى صنوف النبات والشجر .. إلخ ، وبما أن

هذه التحولات تتم ، في الظروف المعتادة ، على نحوٍ تدريجي ، لا يكاد الإنسان يشعر بما فيها من جوانب الدهشة ، والإعجاز .. وأما عصا موسى فلكونها أخذت فجأةً شكل حيةٍ تسعى ، أصبحت تبدو عجيبةً .

والحقيقة هي أن كل ما يوجد في هذا العالم أو يحدث فيه ، هو برمته معجزات الله ، سواء كان ذلك خروج الخشب من باطن الأرض ، أو تحول خشبةٍ إلى حيةٍ .. وإنما يتم إظهار المعجزات غير العادية على أيدي الأنبياء ، لكيما يصير البشر أهلاً لرؤية المعجزات العادية المنبثة هنا وهناك في أرجاء الكون المحيط بهم ، حتى وفي ذات أنفسهم كذلك!

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾

إِلَىٰ جَنَاحِكَ : إلى جانبك تحت العضد الأيسر .

بَيْضَاءَ : لها شعاع يغلب شعاع الشمس .

غَيْرِ سُوءٍ : غير داء برص ونحوه .

طَغَىٰ : جاوز الحد في العتو والتجبر .

إن وقائع الأنبياء السابقين ذُكرت في التوراة كما ذكرت في القرآن الكريم ، غير أن هناك فروقاً ذات مغزىً بالغ الأهمية ، في أكثر من موضعٍ، بين روايتي القرآن والتوراة .. وعلى سبيل المثال جاء في التوراة فيما يتصل بمعجزة اليد هذه ما يلي : «ثم قال له الرب أيضاً: أدخل يدك في عبك ، فأدخل يده في عبه ، ثم أخرجها ، وإذا يده برصاء مثل الثلج» . (سفر الخروج ٤:٧) .

تصف التوراة بياض يد موسى بـ «البرص»، وفي حالةٍ كهذه، فإن زيادة القرآن عبارة ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾، في معرض الحديث عن معجزة اليد البيضاء،مما يدل صراحةً على

أن القرآن غير مستمدّ من التوراة ، بل هو تنزيل من الله علام الغيوب ، وهو بذلك جاء مصححاً لما وقع في التوراة من تحريفاتٍ بشريةٍ .

وقد أُعطي موسى – عليه السلام – معجزتين خاصتين : وقد كانت معجزة الحية بمثابة رمزٍ للقوة بالنسبة إليه.. بينما كانت معجزة اليد البيضاء علامةً على أنه على حقٍ وضّاء منيرٍ .

أما طغيان فرعون أي تجاوزه الحد فهو أنه حين امتلك زمام السلطة ، ظن نفسه إلهاً.. ومعنى فرعون اللفظي هو : ابن الشمس ، فقد كان المصريون القدامى يعتبرون الشمس كبير الآلهة (الرب الأعلى) ، فادعى فرعون أنه المظهر الأرضي لإله الشمس ، وبالتالي نُحتت له تماثيل وأصنام ، وُضعت في كل مدن مصر وقراها ، وأصبحت موضع التقديس والعبادة .

إن السلطة نعمة من الله تعالى .. وينبغي على المرء ، إذا ما أتيحت له هذه النعمة ، أن تستيقظ في داخله مشاعر الشكر والامتنان لربه ، غير أن الإنسان الطاغي حين يحصل على السلطة ، يأخذ في اعتبار نفسه هو إلهاً !

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾

وَزِيراً : ظهيرا ومعينا .

أَزْرِي : ظهري وقوتي .

أُوتِيتَ سُؤْلَكَ : أعطيت مسؤولك ومطلوبك .

عقب حصوله على النبوة ، كان من الممكن أن تتولد في نفس موسى مشاعر الفخر ،

غير أن ما سأله ربه حينذاك ، يوضح أنه لم ينظر إلى النبوة على أنها مفخرةً ، بل على أنها مسئولية .. فالكلمات التي نطق بها حينذاك ، هي التي تصدر من لسان مَنْ يستشعر ويعي خطورة مسئولية الدعوة الملقاة على عاتقه .

وانشراح الصدر بالنسبة للداعي هو أن تتوارد على قلبه تلقائياً معانٍ بليغة ومؤثرة بحسب مقتضيات الأحوال .. وتيسير الأمر هو : ألا ينجح المعارضون في عرقلة طريق الدعوة أبداً .. وأما حل عقدة اللسان فهو: حصول القدرة على عرض الدعوة أمام جموعٍ حاشدةٍ من الناس من غير تلعثم ولا تهيب .

ولقد منح الله موسى كل هذا تمكيناً له من القيام بأداء واجبات النبوة والرسالة كما أيده - استجابةً لطلبه - بجعل أخيه - هارون - مساعداً قوياً له .. وهذا النصر أو التأييد الذي اختص به النبي ، يمكن أن يحصل للداعي غير النبي كذلك .. وذلك بشرط أن يربط الداعي وجوده كله بعمل الدعوة تماماً كما كان النبي قد ربط به كل وجوده .

إن التسبيح والذكر هو المقصود الأصلي للدين ، غير أن المراد بالتسبيح والذكر ليس أي نوعٍ من الأوراد اللفظية ، بل إنما المراد بذلك تلك الكيفية التي تتولد كنتيجةٍ طبيعيةٍ لإدراك الحق .. فحينئذٍ - يجرب وجود الإنسان صفات الله الكمالية بحيث ينغمس فيها، ويغمره الشعور بالجلال الإلهي بحيث يعود مبشراً به ، داعياً إليه أينما حل وسار !

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ : فألقيه واطرحيه في نهر النيل.

وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي : لتربى بمراقبتي أو بمرأى مني .

مَن يَكْفُلُهُ : من يضمه إليه ويحفظه ويربيه .

تَقَرَّ عَيْنُهَا : تسر بلقائك .

وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً : خلصناك من المحن تخليصاً .

جِئْتَ عَلَى قَدَر: على وفق الوقت المقدر لإرسالك .

لقد كان الأقباط سكان مصر الأصليين ، وكان يمثلهم - سياسياً ودينياً - فرعون الطاغية .. أما بنو إسرائيل فقد كانوا شعباً وافداً على مصر من الخارج ، حيث جاءوا هنا واستوطنوا في عهد سيدنا يوسف - عليه السلام - .. وفي الزمن الذي وُلد موسى في بيتٍ من بني إسرائيل ، كان فرعون قد أصدر أمره بالقضاء على نسل إسرائيل ؛ بإعدام كل طفلٍ يُولد في بيوت الإسرائيليين ، وقد أنقذت أم موسى وليدها من القتل ، إذْ وضعته - على حسب الإلهام الإلهي - في سلةٍ وألقتها في النيل .

وانطلقت هذه السلة تجري مع تيار الماء ، حتى اقتربت من قصر فرعون ، حيث وقع بصره هو وزوجته على الطفل الصغير بداخلها ، فرقّ له فؤادهما ، فأمرا بعض الخدم بانتشاله من الماء ، وإدخاله القصر .. ثم جيء بأم موسى، امتثالاً لطلب أخته ، لتتولى حضانته وإرضاعه ، إذْ كان الله قد زهّده في المراضع الأخرى ، فلم يكن يقُبل على ثدي إحداهن .. وإنها لمعجزة من الله ، أن تتم تنشئة موسى وتربيته بواسطة فرعون نفسه ، الذي سيصبح مستقبلاً أعدى أعدائه !!

وذات يومٍ ، وقد كبر موسى وصار فتىً قوي البأس وافر القوة ، رأى قبطياً كان يتشاجر مع أحد الإسرائيليين، فوكزه وكزةً مات في إثرها على نحوٍ غير متوقعٍ ، وبعدئذٍ صدر من جانب الحكومة قرار بإلقاء القبض على موسى ، ولكنه نجح في الفرار من

مصر خفيةً ، ووصل إلى مدين ، حيث ذاق المزيد من ألوان التجارب الحياتية ، في أحضان بيئة صحراويةٍ طبيعيةٍ .. وقد تضرع موسى ، في أعقاب هلاك القبطي على يده، إلى الله ، ودعاه، وكانت نتيجة ذلك أن جعل الله تعالى هذا الحادث وسيلةً أخرى لتعليمه وتربيته!.

﴿ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي : اصطفيتك لرسالتي وإقامة حجتي .

وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي :لا تفترا في تبليغ الرسالة.

لما بلغ سيدنا موسى – بعد مروره بصنوف البلاء وألوان التجارب – إلى آخر درجةٍ من كمال الشعور ونضج الوعي ، ألقى الله على عاتقه أمانة الدعوة النبوية وتبعة إبلاغ الرسالة .. وقد أوصاه الله حينذاك بوصيتين خاصتين : أولاهما : عدم التقصير أو التراخي في ذكر الله .. والثانية هي: الأخذ بأسلوب الملاطفة واللين في الدعوة .

والمراد بذكر الله هو امتزاج اليقين بالله بقلب المرء وفكره بحيث لا يفتأ يعاوده ذكره تعالى كل حينٍ وآنٍ.. وأن تكون كل مشاهدةٍ وكل حادثةٍ من حياته مرتبطةً بشعوره الإلهي ، بحيث تصير موقظةً له من الفتور والغفلة على الدوام.

إن البشر العاديين يعيشون على الأغذية المادية ، أما داعية الحق فهو يعيش على ذكر الله ، وكما أن ذكر الله رأس مال المؤمن في هذه الحياة فهو ذاته بضاعة الداعي كذلك .

الوصية الثانية تؤكد على ضرورة الأخذ بمنهج الرفق واللين في الدعوة .. والتأكيد على ذلك ، وبخاصةٍ عند البعث بالرسول إلى طاغية جبار كفرعون ، مما يبرهن على أن الرفق واللين في الدعوة مطلوب على نحوٍ مطلقٍ ودائمٍ ، فأي عنادٍ أو سوء معاملةٍ من قبل المدعو لا يعطي للداعية الحق في أن يتخلى عن منهج اللين والملاطفة في ممارسة

نشاطه الدعوي !.

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

يَفْرُطَ عَلَيْنَا : يعجل علينا بالعقوبة .

يَطْغَى : يزداد طغيانا وعتواً وجرأة .

إِنَّنِي مَعَكُمَا : حافظكما وناصركما .

كان فرعون قد بلغ أقصى حدود التكبر والطغيان؛إذْ كان يظن نفسه إلهاً،اغتراراً بما أتيح له من السلطة والقوة .. ولذلك فقد أحس موسى بنوعٍ من الخوف من أن فرعون حين يستمع إلى رسالته التي يبلغها إليه عن إلهٍ آخر سواه،فلن يلبث أن يشتعل غضباً.. غير أن نبي الله يكون في عصمةٍ من الله،وتحت رعايته الدائمة،ومن ثم أُمر بأن اذهب إلى فرعون واثقاً تمام الثقة،من أنه لن يستطيع إصابتك بأي أذىً أو مضرةٍ .

إن بني إسرائيل كانوا مسلمي العصر القديم .. ومع كونهم في الأصل شعباً موحّداً، إلا أنهم بسبب تعايشهم جنباً إلى جنبٍ مع شعب مصر الوثني منذ أمدٍ بعيدٍ ، كانوا قد تأثروا بالحضارة الوثنية السائدة أسوأ التأثر ، ويضاف إلى ذلك أن الحكام المشركين كانوا قد استبعدوهم وسخروهم في الخدمات والأعمال الشاقة ، بحيث لم يعودوا معها أهلاً ليتفكروا بجديةٍ فيما يتعلق بالتوحيد والآخرة من حقائق ومعانٍ ساميةٍ ، ولهذا السبب أُمر سيدنا موسى بإخراجهم من تلك البيئة الوثنية الموبوءة ، والذهاب بهم إلى بقعةٍ أخرى مستقلةٍ ، لكي يمكن إصلاحهم وتربيتهم بعيداً عن مناخ الشرك والجاهلية !

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ
هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ
رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾

خَلْقَهُ : صورته اللائقة بخاصته ومنفعته .

هَدَى : أرشده إلى ما يصلح حاله .

فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى ؟: فما حال وما شأن الأمم ؟

لاَّ يَضِلُّ رَبِّي : لا يغيب عن علمه شيء ما .

إن سؤال فرعون ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ لم يكن يعني أنه على غير علم بأي إلهٍ آخر سواه ، أو أنه لا يعترف بوجود ربٍ أعلى إطلاقاً .. بل إنما كان ذلك استخفافاً منه بقول موسى ، وليس إنكاراً له على الإطلاق .. فقد سبق أن قام سيدنا يوسف – عليه السلام – بنشر عقيدة التوحيد في مصر ، وكان لا يزال هناك مئات الآلاف من بني إسرائيل موجودين وهم يؤمنون بالإله الواحد ، الأحد ، الفرد الصمد ، وهكذا فإن عقيدة الرب الواحد الأعلى، وإن كانت باقيةً بمصر ، إلا أن كل أسباب القوة ومظاهر الأبهة والسلطان كانت قد تجمعت بالفعل حول فرعون الطاغية ، الذي كان يمثل ، طبقاً لاعتقاد المصريين ، المظهر الأرضي لكبير آلهتهم (الشمس) ، وهو بذلك كان يعتبر الملك الإلهي أو الشبيه بالإله (God-king) وبالتالي صارت تماثيله موضع التقديس والعبادة في طول البلاد المصرية وعرضها.

وفي مقابل ذلك فإن موسى – عليه السلام – كان فرداً من بني إسرائيل ، الذين كانوا يُعدون قوماً من العبيد والعمال في مصر يومذاك ، وللسبب ذاته فقد كانت عقيدتهم الدينية هي الأخرى عقيدةً لا يُقام لها وزن ولا تستحق الذكر بجانب عقائد المصريين .

الدنيا حافلة بأشياء لا تُعد ولا تُحصى .. وكل شيء له هيئة أو تكوينه المتفرد ، كما أن له منهج عملٍ محدد يختلف عما سواه تمام الاختلاف. ومن المستحيل إحداث تغييرٍ ما في تكوين أحد الأشياء ولا في منهج عمله .. ولا يُستثنى من ذلك حتى طاغية جبار كفرعون .. مما يقيم دليلاً صارخاً على وجود خالقٍ عظيمٍ وربٍ أعلى.

وحين قدم موسى هذا الدليل ، حتى شعر فرعون بأنه عاجز عن رده بطريقٍ مباشرٍ ، فما لبث أن غيّر مسار الحديث .. وحيث أراد ، بعد أن بدا ضعفه وعجزه في ميدان الدليل ، أن يستثير عواطف التعصب الكامنة في النفوس، حفاظاً على تفوقه وكبريائه بين الناس ، فقال: إن كان ما تقوله أنت - يا موسى - هو الحق ، فأي مصيرٍ لقي أو سيلقاه أسلافنا العظماء الذين قد ماتوا في حالة ضلالٍ وانحرافٍ عن الحق ، بمقتضى نظريتك التي جئت بها .. وفي جواب ذلك سلك سيدنا موسى مسلك الإعراض .. إذْ قال له : مالك ولمن مضى من الناس ؟ لتفوض أحوالهم ومآلهم إلى الله العليم الخبير ، وإنما عليك بنفسك ، فلتفكر في إصلاحها .. فتلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولك ما كسبتَ ، ولا تُسأل عما كانوا يفعلون !.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

مَهْداً : كالفراش الذي يوطأ للصبي .

سُبُلاً : طرقا تسلكونها لقضاء مآربكم .

أَزْوَاجاً :أصنافاً أو ضروباً .

شَتَّى : مختلفة الصفات والخصائص .

لأُوْلِي النُّهَى : لأصحاب العقول والبصائر .

إن خلق الأرض ، وإقامة نظام المطر ، ونمو النباتات ، وما إلى ذلك من التدابير الأخرى التي جعلت العالم الراهن صالحاً لسكنى الكائنات الحية بما فيها الإنسان ، تبلغ من العظمة والروعة حداً يبعث على الدهشة والذهول .. إنها آية تبرهن على أن خالق هذا العالم وما لكه إله عظيم ؛ فإن إيجاد عالمٍ كعالمنا الراهن ، يتطلب قدرةً كبيرةً وشاملةً لا يتمتع بها أي شمسٍ ولا أي ملكٍ .. فلا مناص إذن من أن نؤمن بأن صانعه والقائم بإدارته وتدبير شئونه هو الله الواحد العلي العظيم لا غير .

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾

وَأَبَى : امتنع عن الإيمان والطاعة .

سُوًى : وسطا أو مستويا من الأرض .

يَوْمُ الزِّينَةِ : يوم عيدكم (يوم مشهود) .

لم يزل موسى – عليه السلام – يدعو فرعون مدةً من الزمان طويلةً .. وقد بين له في أثنائها دلائل وبراهين عقليةً من جهةٍ كما أراه معجزاتٍ وخوارق حسيةً من جهةٍ أخرى.. إلا أنه لم يؤمن بموسى .. فإن الإيمان بصدق موسى كان سيعني _ بالنسبة إلى فرعون – نفياً لذاته ، ومن ثم فقد حالت نفسية فرعون المفعمة بالغرور والاستكبار دون إقراره بالصدق على حساب ذاته !

وقد حاول فرعون إبطال أدلة موسى العقلية وإضعاف تأثيرها على النفوس بإثارة قضايا غير ذات الصلة بالموضوع ، ووصف ما جاء به من المعجزات بأنه سحر ، أي أنه شيء لا علاقة له بالله البتة ، وأن كل شخصٍ يستطيع تحصيل المهارة التي تمكنه من إظهار الشعوذات من هذا القبيل .. وقد جرّه هذا العناد والتعنت إلى أن يتحدى قائلاً :

إنه بإمكاننا أيضاً أن نُظهر ، بواسطة سحرتنا ، شعوذةً مثل التي أظهرتها أمامنا .. وهنا ينتهي الحوار باتفاق الطرفين على أن يُحشر السحرة الماهرون من مختلف أنحاء الدولة ، بمناسبة المهرجان القومي القادم ، لتُقام بينهم وبين موسى مبارزة أو مسابقة يشهدها الناس!

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾

فَجَمَعَ كَيْدَهُ :سحرته الذين يكيد بهم .

فَيُسْحِتَكُم : فيستأصلكم ويبدكم .

بعث فرعون برسله ليأتوا بالخبراء بفنون السحر من سائر أنحاء مملكته ، ولما اجتمع هؤلاء في مكان المهرجان ، ألقى عليهم سيدنا موسى خطبةً ، قبل الشروع في المسابقة .. ولم تكن تلك الخطبة تحتوي على شيءٍ جديدٍ على الناس بالمرة ، بل كانت نوعاً من التذكير .. إذْ من المؤكد أن السحرة وغيرهم من الناس كانوا قد تعرفوا مسبقاً على حقيقة رسالة موسى، وذلك من خلال دعوته - عليه الصلاة والسلام - منذ أمدٍ غير قصيرٍ .. فكانوا يعرفون جيداً بأن موسى قد نهض برسالة التوحيد في مواجهة الشرك .

وفي هذه الخلفية ، أراد سيدنا موسى أن يتوجّه إليهم أخيراً بالتذكير والنصيحة من باب قطع العذر وإقامة الحجة .. فقال لفرعون وسحرته : لا تعتبروا هذه القضية سحراً؛ فإن وصف الآية الإلهية بالسحر ، ومحاولة التغلب عليها بواسطة السحر الإنساني ، أمر متناهٍ في الخطورة .. إنها معارضة حقيقةٍ واقعةٍ بشيءٍ لا حقيقة له إطلاقاً .. وهي لا ولن تؤدي بكم إلا إلى الهلاك والدمار المحقق .. وأنتم تريدون إثبات أني كاذب ، غير أن ذلك - والعياذ بالله - محاولة لإثبات الله نفسه كاذباً .. والذين يمارسون هذا النوع من العناد والطغيان ، لن يُكتب لهم النجاح والفلاح في دنيا الله

أبداً!

﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾

وَأَسَرُّوا النَّجْوَى : أخفوا التناجي أشد الإخفاء .

بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى : بسنتكم وشريعتكم الفضلى .

فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ : فأحكموا سحركم واعزموا عليه .

أَفْلَحَ : فاز بالمطلوب .

لقد أحدث خطاب موسى الفرقة في صفوف السحرة ، وبالتالي أخذوا يتشاجرون فيما بينهم ؛ فمن قائل : ليس هذا بكلام ساحرٍ ، إنما هذا كلام نبيٍ ، ومن قائل : بل هو ساحر مثلنا تماما [1].

لقد كان السحرة – من غير شكٍ – يعرفون نظراءهم .. فما لبث المحنكون وذوو الخبرة منهم أن أحسوا بأنها ليست بقضية سحرٍ ، إنما هي قضية معجزةٍ إلهيةٍ .. ومن ثم فقدوا همّتهم للمبارزة .. إلا أنهم تقدموا للمبارزة – رغماً عنهم – بناءً على تحريضات فرعون وأصحابهم المتحمسين المتكررة .. و«الطريقة المثلى» تعني الطريقة الأفضل .. إن بنيان حياة المصريين أيامئذٍ ، كان بأكمله قائماً على العقائد المشركة .. وقد كانت شخصية فرعون ، باعتبارها المظهر الجثماني لكبير الآلهة (الشمس) ، تمثل أساس نظامهم السياسي والاجتماعي.. فاستشار فرعون كوامن التعصب لدى شعبه قائلاً : إن هذا النظام هو نظامنا القومي المفضل.. ولئن كانت الكرة اليوم لحملة التوحيد علينا ، فسوف ينهار نظامنا القومي هذا من القواعد ، ولن تقوم له قائمة بعدئذٍ !

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٨٥.

﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ : أضمر أو جد . وأحس في نفسه .

تَلْقَفْ : تبتلع وتلتقم بسرعة .

كانت كيفية بدء المبارزة أن ألقى السحرة أولاً ما جاءوا به من عصيٍ وحبالٍ في الساحة ، فإذا بها تتراءى حياتٍ وثعابين تتحرك وتسعى .. بيد أن ذلك لم يكن يعدو الشعوذة أو عملية التصرف في العيون بالحيل .. أي أن العصي والحبال لم تتحول إلى حياتٍ وثعابين في واقع الأمر ، وإنما استولى أولئك السحرة على ملكة الخيال لدى الحاضرين ، من خلال التصرف في عيونهم بالحيلة والدجل ، بحيث بدا لهم كأن الحبال والعصى قد انقلبت حيات تسعى .

وعندها ألقى سيدنا موسى - بأمر الله - عصاه في الميدان ، فصارت من فورها ثعباناً عظيماً هائلاً يسعى، ولم يلبث أن ابتلع طلاسم السحرة وحيل تصرفهم في العين والخيال ، وبالتالي عادت تلك الأشياء - التي كانت تبدو قبل لحظةٍ متحركةً مثل الحيات - حبالاً وعصياً كما كانت .

وكان السحرة قد سبق لهم أن تأثروا بكلام موسى منذ الوهلة الأولى .. وها هم أولاء يرون الآن - بعد أن تمت المواجهة العملية - صدق موسى وصحة دعواه رأي العين .. ويعلمون علم اليقين بأن ما جاء به موسى ليس من السحر البشري في شيء ، وإنما هو معجزة إلهية .. وقد بلغ هذا اليقين من العمق حداً جعلهم يبادرون في الوقت

نفسه بإعلان قبولهم بدين موسى على رؤوس الأشهاد!.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾

إن هذه المبارزة لم تكن مواجهةٍ بين فريقين من المشعوذين والدجالين ، بل كانت مواجهةً بين التوحيد والشرك .. أي كان المفروض أن يتقرر من خلالها كون الصدق إلى جانب الشرك ، أو إلى جانب التوحيد .. وبما أن مجد فرعون وسلطانه كانا قائمين على دعائم الشرك ، لم يكد يتحمل هزيمة الشرك هذه ، وبالتالي حكم على السحرة المؤمنين بأشد العقوبات قسوة كانت رائجة لدى المصريين في ذلك الزمان .

ولما انهزم فرعون في ميدان الدليل ، حاول قهر الحق بالقوة .. وتلك هي نفسية أرباب السلطة بوجهٍ عام ، وعلى اختلاف الزمان والمكان ، وسواء في ذلك أكانوا هم من ذوي السلطات الملوكية ، أم ذوي السلطات غير الملوكية !

﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾

وَالَّذِي فَطَرَنَا : أبدعنا وأوجدنا وهو الله تعالى.

لقد كان أمام السحرة - من جانب - بينات موسى .. ومن جانب آخر شخصية فرعون الطاغية الغشوم .. وقد كانت هذه مقابلةً أو موازنةً بين "دليل" و"شخصية" ، وقد فضل السحرة الدليلَ على الشخصية .. مع العلم بأنهم سيضطرون إلى دفع الثمن غالياً جداً لقاء هذا التفضيل ..

إن إيمان السحرة لم يكن بأي إيمان رسمي تقليدي أو متوارثٍ أباً عن جدٍ .. إن إيمانهم كان عندهم بمثابة اكتشافٍ .. والإيمان الذي يفوز به أحد الناس كاكتشافٍ ، يكون قوياً لدرجة أن كل شيءٍ آخر عداه يبدو له بعدئذٍ تافهاً عديم القيمة .

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾

تَزَكَّى : تطهر من دنس الشرك والكفر .

ما معنى كوْن أحد الناس مجرماً ؟ إن كوْنه مجرماً يعني عدم اعتباره واتعاظه بآية الله تتجلى أمامه .. وإهماله للحق يُوضح له بلغة الأدلة والبراهين الساطعة .. وعدم تمكنه من الاعتراف بالحقيقة ، متحرراً من أسر القوى الظاهرية والمصالح المادية الزائلة .

ولأمثال هؤلاء عذاب شديد في الآخرة .. إن مصيبةً ما من مصائب الدنيا ، مهما كانت عظيمة قاسيةً ، إلا أنها محدودة الأمد ، قصيرة الأجل على كل حالٍ ، وهي تنتهي لا محالة بمجيء الموت يوماً ما .. غير أن الآخرة مكان يحيط بالمرء فيه طوفان المصائب والآلام من كل جانبٍ ، والمرء لا ولن يجد إلى الهرب من هناك سبيلاً ، كما لن يأتيه الموت ليضع حداً لسلسلة الآلام التي لا تُوصف !!

الجنة لمن زكّى نفسه .. والتزكية تعني : أن يترك المرء حياة الغفلة والفتور ، ويختار حياة اليقظة والشعور .. ويجنّب نفسه كل ما يحول دون تقدمه نحو الحق .. فإن اعترضت طريقه المصلحة ، مضى أمامها معرضاً عنها ، غير ملقٍ لها بالاً .. وإذا انبعثت شهوة من شهوات النفس ، كبتها على الفور .. وإذا ما تيقظت مشاعر الغرور والكبرياء والظلم ، وأدها في داخله .

وهؤلاء هم المؤمنون الصادقو الإيمان .. وقد نما إيمانهم في الدنيا وازدهر بشكل

حديقةٍ من الأعمال الصالحة .. وإنها لسوف تُرد إليهم في الآخرة بشكل الجنان الخالدة ، التي لا يفنى بهاؤها ، ولا تذهب نضارتها ، وبهجتها إلى الأبد !!

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾

أَسْرِ بِعِبَادِي : سر ليلا بهم من مصر .

يَبَساً : يابسا لا ماء فيه ولا طين .

لاَّ تَخَافُ دَرَكاً : لا تخشى إدراكا ولحاقا أو تبعه .

وَلاَ تَخْشَى : الغرق من الأمام .

فَغَشِيَهُم : علاهم وغمرهم .

في أعقاب المبارزة التي جرت بينه وبين السحرة ، بقي موسى بمصر عدداً من السنين.. وفي خلال ذلك ما زال يدأب – من ناحيةٍ – على دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان بالله الحق ، وطالبهم – من ناحيةٍ أخرى – بأن اسمحوا لي بالذهاب بأصحابي إلى بريّة سيناء ، حيث نعبد الله الواحد الأحد بكامل الحرية .. غير أن فرعون لم يتقبل الدعوة ، ولم يسمح لموسى بالانطلاق مع بني إسرائيل .

وقد قرر موسى آخر الأمر – وعلى حسب الإرشاد الإلهي – أن يهاجر من أرض مصر في صمت .. فاجتمع كل من آمن بموسى من بني إسرائيل وغير بني إسرائيل في مصر يومذاك ، اجتمعوا ، تحت خطةٍ مدروسةٍ مسبقاً ، في مكانٍ معينٍ ، وانطلقوا من هناك مجتمعين في جوف الليل المظلم .

ولم تكد تبلغ هذه القافلة شمالي الخليج المتفرع من البحر الأحمر ، حتى طلع عليهم فرعون وجنوده يتعقبونهم .. وقد كان ذلك موقفاً حرجاً للغاية ، حيث يتقدم نحوهم

جنود فرعون من الخلف سراعاً ، ويمتد أمامهم خليج واسع عريض يشبه البحر .. وهنا ضرب موسى سطح الماء بعصاه - كما أمره الله تعالى - فانفلق الماء ، ووقف كالسور يميناً وشمالاً ، حتى استطاع موسى وأصحابه أن يسيروا فيه على اليبس ، ويعبروا إلى الضفة الأخرى .. ولم يلبث فرعون وجنوده أن اقتحموا هم الآخرون الطريق اليابس بين المياه المنحسرة ، خلف بني إسرائيل ، إذ رأوهم يسيرون فيه ، دون أن يمسهم أذىً ، إلا أنهم حين توسطوا البحر ، انطبق عليهم الماء من كلا الجانبين ، فهلكوا عن آخرهم غرقى ، لم يفلت أحد منهم ممن دخلوا الماء.. إن بحراً واحداً ، قد صار بالنسبة لعباد الله الأوفياء طريق النجاة والخلاص ، بينما أصبح ، بالنسبة إلى أعداء الله ، هاوية الموت والدمار !!

والناس كثيراً ما يهملون الحق ويعرضون عنه ، اعتماداً على قادتهم وكبرائهم .. غير أن مثال فرعون يدلنا على أن سناد القادة أهون وأضعف ما يكون ، وإنما المتكئ على سنادٍ حقيقي في هذا العالم ، هو الذي يحدد طريقه ووجهة حياته في ضوء آيات الله ، وليس في ضوء آراء أكابر الشعب وأحلامهم !!

﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾

المَنَّ : مادة صمغية حلوة كالعسل .

وَالسَّلْوَى : الطائر المعروف بالسمان .

وَلاَ تَطْغَوْا : لا تكفروا نعمه . أو لا تظلموا .

فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ : فيجب عليكم ويلزمكم .

هَوَى : هلك . أو وقع في الهاوية .

عقب اجتياز الخليج ما برح موسى وأصحابه يسيرون ، حتى وصلوا إلى برية سيناء .. ثم استقدمهم الله إلى سفح جبل الطور ، حيث منحهم الشريعة تحت عناية خاصةٍ .. وقد قضى هؤلاء في برية سيناء أربعين عاماً، أتيح لهم خلالها طعام وشراب (المن والسوى) كنعمةً خاصةٍ .. وقد ظلت هذه النعمة تُوفَّر لهم من غير انقطاعٍ، إلى أن دخلت أجيالهم التالية في أرض فلسطين الخصبة الحافلة بالخيرات .

إن من حق العباد على الله أن يتيح لهم أسباب الرزق على كل حالٍ وفي كل مكانٍ .. ومن حق الله على عباده ألا يطغوا ولا يتمردوا عليه أبداً ، فالذين يعيشون شاكرين لأنعم الله، يعطون المزيد من رحمات الله ، وأما الذين يسلكون مسلك التمرد والطغيان ، فإنما ينتظرهم عند ربهم عذاب غليظ شديد ، لن يزول ولن يخفف عنهم أبداً !

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ ﴾

وَمَا أَعْجَلَكَ : ما حملك على العجلة ؟

فَتَنَّا قَوْمَكَ : ابتليناهم . أو أوقعناهم في فتنة .

عقب خروجه من مصر ، ضرب الله لموسى موعداً ، ليأتي مرة أخرى إلى سفح جبل الطور نفسه ، حيث كان قد تلقى النبوة أول الأمر .. وقد كان على موسى أن يذهب هناك ، مصطحباً قومه معه ، ليتسلّم التوراة من عند ربه فيها هدى ونور .. إلا أنه تقدمهم وحده إلى المكان الموعود ، بدافع الشوق الشديد ، فوصل قبل الموعد المضروب بأيام، وقد صار ابتعاد موسى عن قومه فتنةً لهم ؛ إذْ كان لا يزال بينهم أناس ذوو نزعاتٍ وأفكارٍ وثنيةٍ، وكان زعيمهم السّامري .. فانتهز هؤلاء فرصة غياب موسى عن القوم ، فأضلوهم عن جادة الحق ، وشغلوهم بعبادة العجل ، كما كانت شائعة مألوفةً

لدى المصريين في ذلك الزمان!

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ ﴾

أَسِفاً : حزينا . أو شديد الغضب .

مَوْعِدِي : وعدكم لي بالثبات على ديني .

لما أخبر الله تعالى موسى بافتتان قومه عن دينهم ، رجع إليهم غضبان حزيناً .. وأخذ في لومهم وتأنيبهم ؛ مذكراً إياهم بأن العهد قريب ، والأمد غير بعيد ، إذ أنعم الله عليكم بإحسانات عظيمةٍ ، وأظهر لكم من آيات قدرته الباهرة ما هو أعظم وأكثر ، إذن ، فما أسرع نسيانكم لها ، وما أسرع سقوطكم في الغي والضلالة!!

ولقد ذهب موسى إلى الطور ليأتي من عند ربه بكتابٍ فيه هدىً وموعظةً ورحمة لبني إسرائيل .. وفي أثناء غيبته تلك ، انخدعت غالبية بني إسرائيل بكلام بعض الغواة منهم ، فانشغلت في عبادة غير الله .. مما يدل على مدى تأثر بني إسرائيل وانبهارهم ببيئة مصر الوثنية، وعلى صيرورتهم بذلك في حاجةٍ ماسةٍ إلى أن يتم إخراجهم من أرض مصر في المقام الأول ، حتى يمكن إعادة تربيتهم على مبادئ التوحيد وعبادة الله الواحد من جديدٍ.

إن أنشطة موسى التي قام بها إزاء فرعون ، كانت من باب الدعوة إلى الدين الحق.. وأما أنشطته التي مارسها بالنسبة إلى بني إسرائيل ، فكانت من باب الحفاظ على الدين .. وقد عُني بتأدية كلا العملين جنباً إلى جنبٍ وفي وقتٍ واحدٍ .. مما يوضح لنا أهمية هذين العملين وضرورة العناية بهما بنفس الدرجة .. فلو كان المسلمون "فاسدين" ، فليس ذلك بمستلزمٍ لترك القيام بواجب الدعوة والتبليغ العام ، كما لو

أُريد القيام بالدعوة والبلاغ العام ، فلن يكون ذلك بأن نتخلى بالمرة عن عملية الإصلاح الداخلي بين المسلمين .. بل يجب أن يسير هذا وهذا معاً ، من غير أن يطغى أحدهما على الآخر ، أو يتم إنجاز أحدهما على حساب الآخر !

﴿ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾

مَلْكِنَا : بقدرتنا وطاقتنا .

أَوْزَاراً : أثقالا وآثاما وتبعات .

من زِينَةِ القَوْمِ : من حلي قبط مصر .

عِجْلاً جَسَداً : مجسدا : أي أحمر من ذهب.

لهُ خُوَارٌ : صوت كصوت البقر.

لعل نساء بني إسرائيل كن قد خرجن - على حسب العادة المتبعة قديماً - وهن متبرجاتٍ بأحمالٍ من الزينة والحلي ثقيلةٍ .. وعندما حل القوم رحالهم للاستراحة في بعض الطريق ، خلعن حليهن تلك ، ووضعنها في مكانٍ بعضها فوق بعضٍ .. وكان بينهم «السامري» لديه خبرة بصناعة نحت الأصنام المصرية القديمة ، فعمد إلى هذه الحلي ، فأذابها في النار ، وصاغ منها تمثالاً على هيئة عجلٍ .. وقد كان العجل فارغاً من الداخل ، مسبوكاً بمهارةٍ فنيةٍ فائقةٍ ؛ بحيث إذا مرت الريح من داخله ، سُمع له خوار مثل خوار البقر .. وعندها توجه السامري إلى سفهاء بني إسرائيل قائلاً : هذا هو معبودكم الذي يتواجد هنا بين أيدينا ، وما بال موسى راح يبحث عن المعبود في بعض الجبال!!

وإن "السامري" له أشباه ونظائر في كل زمانٍ ، يتغفلون الجماهير الغبية على هذا النحو .. فهم يتخذون من أحد الأشياء المحسوسة هدفاً ، ثم يقيمون الأدلة المفتعلة على أنه هو الحق الأعظم والصدق الأوحد ، وإذا بالعوام البسطاء ينساقون وراءهم زرافاتٍ ووحدانا ، مخدوعين بطلاسم الألفاظ الوهمية .. إن عبادة الظواهر المحسوسة تمثل موطن ضعف الإنسان الأكبر.. ولا فرق في ذلك بين إنسان العصر القديم ، وبين إنسان العصر الحديث !!

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾

كان سيدنا هارون هو المسئول – بعد ذهاب موسى إلى الطور – عن رعاية شئون القوم ، والنظر في مصالحهم .. وقد حاول إفهامهم أنهم فُتنوا بالعجل ، وجهد أن يردهم عن عبادته .. إلا أنهم لم يلتفتوا إليه ، ولم تفلح محاولاته في ردهم عن تلك الفتنة ..ومرجع ذلك إلى أن هارون لم يكن لدى القوم مهيباً مرهوب الجانب كما كان سيدنا موسى .. ومن ثم قالوا له في صرامةٍ وتصميم ، عندما شدد النكير عليهم : إن ما قد جرى بالفعل ، سيبقى الآن كما هو ، ولن نبرح قائمين عليه ، حتى يرجع إلينا موسى ويبتّ في هذا الأمر .. ولو أن هارون قام باستعمال وسائل القسوة معهم حينذاك ، لم يكن ذلك ليجدي نفعاً ما ، لأن عدد أصحابه الواقفين إلى جانبه كان قليلاً .. ولذلك رأى أن لزوم الصبر – بصفةٍ وقتيةٍ – والتوجه إلى الله بالدعاء لهداية الناس ، وإعادتهم إلى سبيل الرشد ، قد يكون خيراً وأحسن مغبةً في الحالة الراهنة ، من اتخاذ إجراءات لا تثمر شيئاً ذا بالٍ ، بل ربما تؤدي إلى نتائج عكسيةٍ !.

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾

مَا مَنَعَكَ : ما حملك واضطرك .

لقد حاسب سيدنا موسى أخاه أعنف محاسبةٍ وأقساها .. فاعتذر إليه هارون بأنني لم أقصر في النصح أيما تقصيرٍ .. ولم آلُ جهداً في نهي السفهاء والجاهلين من القوم عن هذا العمل الوثني المنكر ، وإفهامهم بكل صراحةٍ وقوةٍ أنهم قد ضلوا عن الطريق السوي .. ولكن المشكلة هي أن غالبيتهم وقفوا إلى جانب السامري مفتونين بمكره وحيلته.. ولما اشتد نكيري عليهم استعدوا للحرب والقتال ، فخشيت لو استمر إلحاحي في النكير عليهم أن يؤدي ذلك إلى تناحر القوم وإراقة بعضهم دماء بعضٍ .

وبعدما استفحل الأمر إلى هذا الحد ، وكاد الشر أن يستطير ، كنت بين اثنين: فإما أن يقاتل بعضنا بعضاً ، وإما أن نؤجل حسم هذه القضية إلى حين عودتك .. وقد اخترت الخيار الثاني ؛ باعتباره أهون الخيارين مضرةً وأقلهما شراً .

إن هناك كثيراً من الظروف والمناسبات ، حيث يكون مقتضى الدين ، أن نلزم الصمت والسكوت على الأمر الواقع - بصورةٍ وقتيةٍ - تفادياً لنشوب القتال الداخلي بين المسلمين ، أو تجنباً للفرقة بين صفوف الجماعة ، حتى ولو كان ذلك الأمر متناهياً في القبح والشناعة كالشرك!

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

فَمَا خَطْبُكَ : فما شأنك الخطير ؟

بَصُرْتُ : علمت بالبصيرة .

أَثَرِ الرَّسُولِ : أثر فرس جبريل عليه السلام

فَنَبَذْتُهَا :القيتها في الحلي المذاب .

سَوَّلَتْ :زينت وحسنت .

لاَ مِسَاسَ : لا تمسني ولا أمسك .

لَنَنسِفَنَّهُ : لنذرينه .

لما علم موسى بأن السامري هو رأس الفتنة وموقد نارها ، توجه إليه يستجوبه ، ويسأله عن الأسباب التي حدت به إلى هذا العمل المنكر .. وإذا بالسامري يستخدم مرةً أخرى وسائل المكر والدهاء ، حيث أخذ في تبرير فعله قائلاً : إنما صنعت ما صنعت بناءً على "كشفٍ" حصل لي خاصةً دون غيري ، وقد أضفت إليه أيضاً حفنةً من أثر الرسول على وجه التبرك!! . وبسبب محاولته لخداع النبي ومراوغته ، ازداد السامري جرماً على جرمٍ ؛ إذْ جاء تبريره من قبيل العذر الذي هو أقبح من الذنب كما يقال .. وقد عاقبة الله تعالى ، على حسب رواية التوراة ، بأن أصابه بمرض "البرص" ، مما أحال بدنه مبعث الكراهية والنفرة لدرجة أن الناس أصبحوا يتجنبون مواجهته ، ويفرون منه تقززاً ، واشمئزازاً.

لقد سعى السامري ليكون شخصاً محبوباً لدى الشعب على أساسٍ من الكذب والتدجيل ، فكان عقابه في الدنيا ، أن جُعل أبغض ما يكون إلى الناس .. وأما ما ينتظره في الآخرة من عذابٍ ، فهو أشد وأخزى من ذلك بكثيرٍ .

ولكي يقضي على ما رسخ في قلوب فريقٍ من إسرائيل من مشاعر التعظيم والإجلال نحو المظاهر الوثنية ، عمد موسى إلى العجل الذي عبدوه فحرقه أمام أعينهم ، وذرا رماده في مياه البحر !

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

وِزْراً : عقوبة ثقيلة على إعراضه .

زُرْقاً : زرق العيون . أو عمياً . أو عطاشاً .

يَتَخَافَتُونَ : يتسارون ويتهامسون.

أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً : أعدلهم وأفضلهم رأيا ومذهبا .

إن المصير الذي لقيه المكذبون للأنبياء والرسل على مدى الأحقاب والأجيال ، كان بمثابة ظهورٍ جزئيٍ في هذا العالم ، لذلك القضاء الإلهي الذي سيواجه البشرية جمعاء في يوم القيامة بصورة كليةٍ شاملةٍ .. وقد جاء القرآن الكريم "مذكراً" بهذه الحقيقة البالغة الخطورة .

والمرء حين يقابل الحق في هذه الدنيا بالإهمال واللامبالاة ، فربما يبدو له ذلك أمراً هيناً جداً .. غير أن صنيع المرء هذا سيتحول في الآخرة إلى عبءٍ باهظٍ ثقيلٍ ينوء بحمله .. فحين سيعلن البوق الإلهي (الصور) بدويّه المجلجل الرهيب بأن فترة الامتحان المحددة قد انتهت ، سيجد الناس أنفسهم فجأة في عالمٍ آخر تماماً .. وإذ يفجأ المرء باكتشاف أن الدنيا التي ظل يتصرف فيها على هواه ، باعتبارها دنياه هو ، إنما كانت في الحقيقة دنيا الله ، فسوف يعتريه وقتئذٍ من الهول والرهبة الشديدة ما يتغير بسببه حتى لون وجهه !

وطالما يعرض الإنسان عن أمر الآخرة في هذه الحياة الدنيا ، غير مكترثٍ به أيما

اكتراث ؛ كما لو كان ذلك شيئاً بعيداً بعيداً .. ولكن بعد ما تقوم الساعة ، ستبدو حياة هذه الدنيا للمرء كما لو أنها لم تكن سوى أيامٍ معدوداتٍ قصيراتٍ ، وبعد انقضائها تواجهه الحياة الباقية ، والتي ستكون في طبيعتها من جنس عمله ، خيراً أو شراً ، سيظل يعيشها في عالم الآخرة إلى الأبد !

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

يَنسِفُهَا : يقتلعها أو يفتتها ويفرقها بالرياح .

قَاعاً : أرضا ملساء لا نبات فيها ولا بناء فيها .

صَفْصَفاً : ارضا مستوية أو لا نبات فيها .

عِوَجاً : مكانا منخفضا . أو إنخفاضا .

أَمْتاً : مكانا مرتفعا . أو ارتفاعا .

لاَ عِوَجَ لَهُ : لا يعوج له مدعو ولا يزيغ عنه .

هَمْساً : صوتا خفيا خافتا .

عند قيام الساعة ، سوف تُحول أرضنا هذه إلى فراشٍ واسعٍ ممهدٍ ، بحيث لن يبقى ها هنا يومئذٍ أعالي الجبال ولا أعماق البحار .. وسيبُعث الناس كلهم ثانيةً ، ويُحشرون فوق هذه الأرض الجديدة .. إن صوت الله ، إذْ يرتفع في العالم الراهن على لسان داعي الله ؛ فالناس يقابلونه بالإعراض وعدم الاكتراث ، وأما في يوم القيامة ، حين سينادي الناس ربُ الناس بنفسه ، فلن يلبث الناس أن يتجهوا نحو ندائه مسرعين ، من غير تلفتٍ ولا انحرافٍ .. وسيكون الموقف كله حينذاك تسوده الرهبة ، والنفوس يخيّم عليها الرعب والهول ، لدرجة أن أحداً لن يجرؤ على أن يتفوه بكلمةٍ .. فلا يُسمع هناك

صوت ولا كلام سوى وقع أقدام الناس وهم سائرون نحو ساحة المحشر في صمتٍ وخشوعٍ وسكونٍ !

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ : ذل الناس وخضعوا

لِلْحَيِّ : الدائم الحياة بلا زوال .

الْقَيُّوم : الدائم القيام بتدبير الخلق .

حَمَلَ ظُلْماً : شركا وكفراً .

هَضْماً : نقصاً من ثوابه .

إن كون الشفاعة مؤثرة في ذاتها على القضاء الإلهي زعم باطل كل البطلان ؛ إذْ ليس الله – عز وجل – بغافلٍ أو جاهلٍ عن شئون العباد حتى يحتاج إلى مَنْ يخبره بها ، ولا هو ضعيف حتى يضغط عليه أحد أي نوعٍ من "الضغط".. على أنه من غير المستبعد كذلك أن يشاء الله بنفسه ، في بعض الأحوال الخاصة ، التكرم على أحد عباده بقبول ما يرفعه إليه من طلبٍ يرتضيه .. و إنما ستكون الأهمية كل الأهمية في يوم القيامة ، لما قد يأتي به كل شخصٍ بنفسه من رصيد القول والعمل .. فالذي سيكون قد أقام حياته في العالم الراهن على أساسٍ من الباطل ، محكوم عليه بالفشل والخيبة في الآخرة ولا ريب .. وإنما سيُكتب النجاح والفوز هناك لأولئك الذين عرفوا ربهم في الغيب ، وصاغوا حياتهم العملية وفق مرضاته سبحانه وتعالى !.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ

لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

وَصَرَّفْنَا فِيهِ : كررنا في بأساليب شتى .

ذِكْراً : عظة واعتباراً .

أَن يُقْضَى إِلَيْكَ : أن يفرغ ويتم إليك .

قد أنزل الله كتابه ، الذي يحوي الدلائل والبراهين من كل نوعٍ ، بإحدى اللغات البشرية ، وهي اللغة العربية.. مما حول هذه اللغة إلى لغةٍ حيةٍ خالدةٍ تبقى بقاء الدهر .. وهكذا فقد صارت هداية الله بحيث يتمكن إنسان كل عصرٍ من أن يقرأها ويتفهمها متى شاء .

وينبغي للداعي ، إذا نهض بالدعوة إلى الحق ، أن يضع نصب عينيه هدفين اثنين : أما الهدف المطلوب السعي إلى تحقيقه بالدرجة الأولى؛ فهو أن تتولد في داخل المخاطب ثورة نفسية ؛ تحيله إنساناً يتقي الله ويخشاه .. أما الهدف الثاني : فهو أن يصبح كلامُ الداعي مثار تساؤل واستفهام في ذهن المخاطب .

وفي أثناء مسيرة الدعوة الإسلامية بمكة كانت تُثار ألوان شتى من الأسئلة من جانب الناس كل اليوم ، كما كانت تتولد قضايا ومشكلات جديدةٍ بين الحين والآخر ، ومن ثم كان طبيعياً أن يرغب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أن تكون فترات الوحي متقاربةً ، حتى لا يزال يتلقى التوجيه الإلهي بأكبر قدرٍ ممكنٍ من السرعة تتناسب وسرعة تطور الأحداث وبروز مشاكل جديدةٍ .. فقرر الله تعالى أن منهج التدرج والمرحلية، الذي تم الأخذ به في تنزيل القرآن ، إنما هو شرع إلهي ثابت لا يتغير .. وإنه سيظل يتنزل هكذا ، وسيبلغ تمامه على أية حالٍ .. إذن ، فليس لك أن تطمع في استنزال قرآن المستقبل في الحال ، وإنما عليك بالأحرى أن تسأل الله أن يزيد

من فهمك للقرآن، ويمنحك الاستعداد لسبْر أغوار آي القرآن الحكيم ، وإدراك ما يمكن فيها من معانٍ ساميةٍ دقيقةٍ ، ومرام بعيدةٍ عميقةٍ.. وبدلاً من الاستعجال بها لم ينزل عليك من القرآن بعد ، يجب عليك أن تحرص على معرفة الحكمة والسير في تنزيله على هذا النحو من التدرج والترتيب المرحلي.

ونخلص من ذلك إلى أن الداعي ينبغي له أن يكون على حذرٍ دائمٍ من العجلة والإسراع .. فشرح مسائل الجهاد والقتال في مرحلة الدعوة والتبليغ ، وتلقين الأحكام المتصلة بالإقدام الجماعي في طور الإصلاح الفردي ، والاستشهاد بآيات القتال في مواقع تتطلب الصبر ، كل هذا يدخله في نفس هذا الباب ، ولابد للداعي أن يحترس من ذلك أشد الاحتراس !

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾

عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ : أمرناه أو أوحينا إليه .

أَبَىٰ :امتنع من السجود استكباراً .

للاستقامة على أمر الله لابد من إرادة صلبةٍ وتصميمٍ قويٍ .. وسوف ينحرف المرء عن طريق الله حتماً ، لو أنه مازال يتأثر ويفتتن بأشياء أخرى لا تهمه .. وليست المعرفة بأمر الله وحدها كافيةً لكي تظل أقدامك ثابتةً على جادة الحق ، بل يجب - مع ذلك - أن يتوفر لديك عزم أكيد على الاستمرار في مقاومة كل شيءٍ يقف حجر عثرةٍ دون امتثالك لأمر الله، ويقظة دائمة لتحصين نفسك ضد كل المؤثرات الخارجية الطارئة على طول الخط .

لقد خر الملائكة كلهم ساجدين ، فور سماعهم لأمر الله بالسجود لآدم .. وأما

الشيطان فأبى أن يكون من الساجدين .. وما هو سر هذا الفارق؟ السر في ذلك أن الملائكة كانوا قد اعتبروا ذلك الأمر أمر الله ، وأما إبليس فقد اعتبره - بالعكس - أمر إنسانٍ .. وإنه إذْ يُعتبر أمر ما أمراً إلهياً ، فلا يكون أمام المرء إزاءه غير خيارٍ واحدٍ لا ثاني له، وهو أن يذعن له ويطيع .. ولكن حين يتم اعتباره أمر إنسانٍ ، فسوف ينظر المرء إلى الإنسان المتواجد بين يديه ، فإن كان قوياً ذا بأسٍ ، خضع واستسلم على الفور، وإن كان غير ذي قوةٍ ولا بأسٍ، أبى الخضوع والاستسلام ، حتى ولو كان مقتضى الحق الواضح أن يُخضع نفسه له من غير إباءٍ أو جدالٍ !

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾

وَلاَ تَعْرَى : لا يصيبك عرى عن الملابس .

وَلاَ تَضْحَى : لا تبرز للشمس فيصيبك حرها .

لاَّ يَبْلَى : لا يزول ولا يفنى .

سَوْءَاتُهُمَا : عوراتهما .

وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ : أخذا يلصقان ويلزقان .

وَعَصَى آدَمُ : خالف النهي سهوا أو بتأول .

فَغَوَى : فضل عن مطلوبه أو عن النهي .

اجْتَبَاهُ : اصطفاه للنبوة وقربه .

إن الجنة التي وُضع فيها آدم وزوجته ، كانت تتوفر فيها كل حاجات الحياة اللازمة، بما فيه الكفاية وأكثر .. حيث هيأ الله لهما هناك كل شيءٍ من الغذاء واللباس ، والماء ،

والظل (المسكن الطيب المريح) .. إلخ .. مجاناً .. إن هذه الأشياء - التي لا تتأتى للمرء في العالم الراهن إلا بعد كدحٍ طويلٍ وجهدٍ جهيد - كانت متاحةً لهما في الجنة بدون كدحٍ ولا مشقةٍ .

وإنما كانت ثمة شجرة واحدة ، حُظر على آدم أن يأكل من ثمرها .. فوسوس إليه الشيطان ، مغرياً إياه بأكلها، زاعماً له أنها تضمن لمن أكلها الخلود والأبدية.. وما لبث آدم وزوجته أن تأثرا بكلامه ، فأكلا من ثمار تلك الشجرة.. ففوجئ الاثنان بعدئذٍ بأنهما قد عريا من اللباس الذي كان يستر عوراتهما .. مما كان بمثابة علامةٍ دالةٍ على أن ذمة الله قد رُفعت عنهما ، تلك التي كانت هي السبب في تمتعهما بالرزق المتاح من غير كسبٍ ولا تعبٍ حتى ذلك الوقت .. ومع أن آدم وزوجته قد عُفي عنهما بعد ذلك ، نظراً لمبادرتهما بالتوبة والتضرع إلى الله طلباً للغفران والرحمة ، إلا أنهما أُخرجا منذئذٍ من عالم الرزق «المجاني» ؛ وأدخلا عالم الرزق المتوقف على الكسب والسعي ، وما يستلزمه من الكد والمشقة والإرهاق .. وهكذا كانت بداية النوع البشري الحالي على وجه هذه الأرض .

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾

مَعِيشَةً ضَنكاً : ضيقة شديدة (في قبره) .

لقد أسكن الله كلاً من آدم وإبليس في الأرض .. مع إنذارهما مسبقاً بأنه سيكون هناك صراع مستمر بين ذريتيكما إلى يوم القيامة .

حيث سيبذل إبليس جهده في إغواء النوع البشري وإضلاله .. وفي مقابل ذلك يتعين على الإنسان أن يفهم عدوه الأكبر - إبليس - فهماً دقيقاً ، ويحاول بالتالي جهد طاقته تحصين نفسه ضد وساوسه وإغراءاته .. ولمزيدٍ من هداية الإنسان وإرشاده إلى سبيل الحق والخير ، فقد أرسل الله رسله تترى .. الذين ظلوا ، الواحد تلو الآخر ، يخبرون البشر بحقيقة الحياة باللغة المفهومة لديهم .. والآن ، فإنما يتوقف نجاح الإنسان وفشله على ما إذا كان يؤمن بهدي الأنبياء أم لا .. فالذي يؤمن به ، ستتاح له من جديدٍ حياة الجنة الحافلة بالنعيم المقيم وأسباب الراحة الأبدية .. وأما الذي يرفض الإيمان به، فسوف تكون حياته غايةً في القسوة والشدة ، وهو لن يستطيع التخلص منها أبداً .

المعرضون عن الهداية سيُبعثون في الآخرة عمياناً .. ذلك لأنهم إنما مُنحت لهم العيون في الدنيا لكي يبصروا بها آيات الله ، فيعرفوها ويؤمنوا بها .. ولكنهم كانوا ، كلما تجلت لهم آيات الله ، يتعامون عنها ، ولا يعرفونها .. وهكذا أقاموا الدليل على أنهم عميان ، رغم تمتعهم بالعيون في ظاهر الأمر .. ومن ثم يقول الله يوم القيامة : لِمَ سأعطي العميان كهؤلاء عيوناً ، ما داموا قد اختاروا بأنفسهم العمى على الهدى ؟!!

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ : أغفلوا فلم يبين لهم مآلهم .

كَمْ أَهْلَكْنَا :كثرة إهلاكنا الأمم الماضية .

لأُوْلِي النُّهَى : لذوي العقول والبصائر .

لَكَانَ لِزَاماً : لكان إهلاكهم عاجلا لازما .

وَأَجَلٌ مُّسَمًّى : يوم القيامة (عطف على كلمة)

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ : صل وأنت حامد لربك .

آنَاءِ اللَّيْلِ : ساعاته .

إن سر إبادة أمةٍ ما ، أو صيرورتها مغلوبة على أمرها ، بعد أن كانت تتمتع بالغلبة والرفعة وعز السلطان في الأرض ، يكمن دوماً في طغيانها وتجاوزها حد العبودية .. وكل أمةٍ بائدةٍ تمثل موطن درسٍ وعبرةٍ لمن يأتون بعدها ، ويتبوؤون الأرض مكانها .. غير أن الناس قلما يعتبرون بمثل هذه الوقائع ، بل يعيش أكثرهم في غفلةٍ ، وإذا مروا عليها أو ذُكِّروا بها لا يتذكرون .

وما جاء في هذه الآيات من الحث على التسبيح والصلاة ، يرجع إلى العهد المكي ، حيث كانت الظروف قد بلغت منتهى القسوة .. ومن هذا يتضح لنا أن الصلاة وذكر الله جُنة المؤمن ضد عواصف الإنكار الهوجاء ، وفي غمار أشد أحوال المعارضة عنفاً وخطورةً .. فمن خلال ذلك تتمهّد له السبل ، وتنفتح أبواب الفتوح والانتصارات ، وبذلك ينال المرء كل شيءٍ بمقدار هائلٍ يملأ صدره رضاً وحبوراً وطمأنينةً !!

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾

أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ : أصنافا من الكفار .

زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا : زينتها وبهجتها .

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ : لنجعله فتنة لهم وابتلاء .

هذه الآيات ، وإن كان الخطاب فيها موجهاً إلى الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - ولكن المراد سائر المؤمنين .

إن شخصاً حين يختار حياة الإيمان والدعوة في هذا العالم ، تتحول معيشته ، نتيجةً لذلك ، إلى معيشةٍ كلها كفاح مرير ، وعناء متصل ، وسلسلة آلام ومحنٍ لا تعرف حداً تقف عنده .. هذا في جانبٍ .. وفي جانبٍ آخر فإن الذين يعيشون متحررين من مثل هذه المسئوليات والالتزامات ، ربما يصبحون ويمسون في عافيةٍ وهناءةٍ وفراغ بال.. والشيطان يتناول هذا الوضع بالتضخيم في عين المرء ، ويثير في قلبه ألواناً شتى من الوساوس وخواطر السوء ؛ كل ذلك سعياً منه إلى زلزلة أقدام المؤمنين والدعاة ، وبث مشاعر النقص والحرمان واللايقين في نفوسهم ، حتى تحدو بهم الرغبة في الاستمتاع بنعيم الدنيا ، واقتناء خيراتها ، إلى نبذ الوفاء بمقتضيات الإيمان ، والتقاعس عن النهوض بمسئوليات الدعوة.

ولكن لو نظرنا بإمعانٍ ودقةٍ ، لرأينا ثمة فارق آخر وأولى بالاهتمام من هذا الفارق الظاهري .. وذلك الفارق هو أن كل ما أتيح لمحبي الدنيا ، إنما أتيح لهم من أجل الامتحان والابتلاء ، وهو متاع عارض وقتي سريع الزوال .. ثم ليس لهؤلاء من بعد ذلك شيء في الحياة الأبدية القادمة .. وأما الشيء الذي حصل عليه المؤمن والداعي ، ثمرة ولائه لله وارتباطه به ، فهو أثمن وأغلى من الدنيا وما فيها .. ألا وهو : ذكر الله ، وهمّ الآخرة ، وحياة قوامها العبادة والتقوى ، والسهر على إنقاذ عباد الله من عقاب الآخرة .. إلخ ، وهذا أيضاً رزق .. بل هو رزق أفضل وأسمى وأرفع درجةً من سائر أنواع الرزق الأخرى بكثير ؛ ذلك لأنه سوف يُرد إلى المرء في الآخرة في صورة نعمٍ لا تُحصى ولا تنفد أبداً !

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ

أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

بَيِّنَةٌ : هي القرآن المعجز أم الآيات .

مَن قَبْلِهِ : من قبل الإثبات بالبينة .

وَنَخْزَى : نفتضح في الآخرة بالعذاب .

مُتَرَبِّصٌ : منتظر مآله .

الصِّرَاطِ السَّوِيِّ : الطريق المستقيم .

إن من عناية الله سبحانه وتعالى بنبي آخر الزمان - صلى الله عليه وسلم - ، أن بشّر بمجيئه مسبقاً على ألسنة الأنبياء السابقين ، وفي الكتب المنزلة عليهم كذلك .. وهذه البشائر أو النبوءات لا تزال توجد - رغم كل التحريفات والإضافات البشرية - في الكتب السماوية السابقة حتى اليوم .. وقد كان ذلك أكبر دليلٍ على صدق نبي آخر الزمان - صلى الله عليه وسلم - ، غير أن فهم الدليل والإحساس بقوته وثقله ، يتطلب الجدية.. وهي شيء كان وما يزال أندر ما في الوجود على الدوام !

سورة الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

اقترب : قرب ودنا .

محدث : تنزيله بالوحي .

وأسروا النجوى : بالغوا في إخفاء تناجيهم .

كل امرئ في هذا العالم أقرب إلى الموت منه إلى الحياة .. وعلى هذا الاعتبار فالكل أدنى ما يكون من يوم حسابه .. ولكن عجيب أمر هذا الإنسان ، حيث إنه لا يلقى بالاً لأي تذكيرٍ يُوجه إليه ، سواء تم ذلك بواسطة النبي أو غير النبي .. وإنه ينظر إلى قول داعية الحق على أنه قول «بشرٍ» ، لا غير ، وبالتالي يقابله بالرفض والإهمال .

ولما بدأ رسول الله ﷺ دعوته في مكة عبر القرآن ، أخذت آياته تأسر قلوب الناس ، مما أقض مضاجع الرؤساء هناك ؛ فإن ذلك كان يمثل خطراً يتهدد رئاستهم .. حيث كان القرآن يدعو إلى التوحيد ، بينما كان رؤساء مكة قد أسسوا رئاستهم على دعائم الشرك والوثنية .. ومن ثم شرعوا في محاولة صرف اهتمام الناس عن القرآن قائلين : إن ما ترونه في الظاهر من روعةٍ وتأثيرٍ أخاذٍ في هذا الكلام ، ليس لأنه كلام الله ، إن قوته غير مستمدةٍ من الصدق ، بل إنما هي قوة مستمدة من السحر .. إذن فهي قضية السحر

البياني ، وليست بقضية الكلام الإلهي .

والذين يلوكون مثل هذه الأقاويل ، وإن كانوا يشيرون إلى الله ويرددون اسمه في غضون أحاديثهم ، إلا أنهم ليسوا على يقينٍ من أن الله يراهم ويسمع ما يقولون .. ولو أنهم أيقنوا حقاً بكون الله عالم الغيب ، لم يكن ليصدر من ألسنتهم كلام غير جادٍ كهذا أبداً !

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ .

أضغاث أحلام: تخاليط أحلام رآها في نومه .

إن الداعي إلى الحق إنما يقدم دعوته دوْماً معتمداً على قوة الدليل والبرهان .. وعندما يشعر المعارضون بأنهم عاجزون كل العجز عن مقاومتها بالدليل ، يلجأون إلى إثارة ألوانٍ شتى من الأباطيل ضدها ، في محاولتهم لتنفير الجماهير منها .. ومن ذلك مثلاً قولهم : إن هذا شعر .. أو إنه سحر أبدي ، أو إنه تخيلات مجنونةٍ .. أو إنه حديث مفترىً .. إلخ .

وبما أن رسول الله ﷺ لم يأت أهل مكة بأية معجزةٍ حسيةٍ ، لذا فقد كانوا يقولون أيضاً، بغية التشكيك في صدق رسالته : إن كان هذا رسول الله حقاً ، فلِمَ لم يأتنا إذن بأية معجزةٍ من عند ربه ، كما بُعث بها الأنبياء السابقون إلى أممهم !؟!

بيد أن تجارب التاريخ شاهدة بأن الذين يرفضون التصديق بأمر الحق اقتناعاً بالدليل ، لا يستعدون للتصديق به حتى بالرغم من رؤيتهم لما اقترحوا من المعجزات والخوارق، ولذلك فإن مقتضى النصح وحب الخير للناس أن تظل عملية تذكيرهم وإنذارهم من خلال الأدلة والبراهين جارية باستمرارٍ ، رجاء عودتهم إلى الرشد

والصواب ، دون أن يقفل باب التذكير ، وتقام عليهم الحجة بإظهار المعجزة في أول فرصةٍ ، فإن المعجزة ، إذا ما تمادى القوم في الإنكار والتكذيب بعد ظهورها ، إنما تعقبها مرحلة الهلاك والدمار العاجل بدون تأجيلٍ ولا إمهالٍ !

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ .

جسداً : أجساداً ، أو ذوي جسد.

الذين كانوا ينكرون رسالة النبي ﷺ محتجين بأنه ليس إلا بشراً مثلنا ؛ قيل لهم رداً على ذلك : لو كنتم جادّين ، بمعنى الكلمة ، في اعتراضكم هذا ، فالخطب هين ، والسبيل إلى حله غير عسيرٍ .. وهو أن هناك عدداً جماً من العلماء المطلعين على أحوال الكثير من تلك الشخصيات السابقة التي لا جدال في كونها عندهم ولا عندكم من أنبياء الله المرسلين ، إذن ، فاسألوا هؤلاء العلماء عما إذا كانوا هم بشراً أم غير بشرٍ .. فإن كانوا بشراً ، فكيف يسوغ لكم أن ترفضوا التسليم برسالة النبي الحالي لكونه وُلد من أبٍ وأمٍ كما يُولد الآخرون عداه من بني البشر !؟!

كما يدل تاريخ الأنبياء السابقين أيضاً أن مقابلتهم بالإقرار أو الإنكار لم يكن بالنسبة إلى أقوامهم محض إقرارٍ أو إنكارٍ يسير .. بل أدّى ذلك بكل واحدٍ من الفريقين إلى مصير حتمي مختلفٍ عن الآخر بشكلٍ واضحٍ ملموسٍ ؛ حيث فاز المقرّون المؤمنون بالنجاة والفلاح ، بينما نزل بالمنكرين الجاحدين عذاب قطع دابرهم .. ومن ثم فينبغي لكم أن تكونوا جادين فيما يتعلق بهذا الأمر إلى أقصى حدود الجدية !

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن

قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾.

فيه ذكركم: موعظتكم أو شرفكم وصيتكم.

وكم قصمنا: كثيراً أهلكنا.

أحسو بأسنا: أدركوا بحاستهم عذابنا الشديد.

يركضون: يهربون مسرعين.

أترفتم فيه: نعمتم فيه فبطرتم.

حصيداً: كالنبات المحصود بالمناجل.

خامدين: ميتين كالنار التي سكن لهبها.

إن كتاب الله ليس محض كتابٍ بالمعنى العادي المعروف، وإنما هو تذكير وإنذار بأن مجيء الإنسان إلى العالم الراهن ليس نتيجة صدفةٍ واتفاق، بل هو نتيجة تدبير إلهي.. وذلك التدبير هو أن تُتاح للإنسان هنا حرية مؤقتة لأجل الامتحان والابتلاء، ثم يُكافأ الكل، بعد انقضاء مدة الامتحان بحسب عمله، خيراً أو شراً.. وقد ظلت هذه الحقيقة تتجلى، بصورةٍ جزئيةٍ، من خلال وقائع الهلاك والدمار النازل بالأمم الظالمة بين فترةٍ وأخرى على مدار التاريخ الإنساني.. وإنها لسوف تظهر في يوم القيامة بصورةٍ كليةٍ شاملةٍ، حيث سيُبعث كل الناس من جديدٍ، ويُحضرون بين يدي ربهم للحساب الأخير.

وإنه حين تلوح بوادر البطش الإلهي ، تصير كل الأسباب والوسائل المادية في عين المرء مدعاةً للمصيبة والشقاء، تلك التي كان اعتماده عليها مبعث إعراضه عن دعوة الحق من ذي قبل .. فهو لا يستعدّ للخروج من الغفلة، ما لم تتخل عنه الأسباب المادية ، وإذا تخلت عنه تلك الأسباب ، انفتحت عيناه للحال ، ولكن حيث لا ينفعه ، ولا يغني عنه ذلك شيئاً .. فإن كل الأشياء حينذاك تكون قد فقدت طاقتها ، وأن الله وحده هو القادر بعدئذٍ على أن ينفع أحداً ، دون الآلهة والمعبودات الباطلة!

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

نتخذ لهوا: ما يُتلهى به من صاحبة أو ولد.

نقذفُ بالحق: نرمي به ونورده.

فيدمغه: يمحقه ويدحضه.

زاهق : ذاهب مضمحل.

الويل: الهلاك أو الخزي أو وادٍ بجهنم.

إن الذين لا يقفون من دعوة الله موقفاً جدياً ؛ كأنما هم يعتبرون العالم الراهن نوعاً من اللعبة الإلهية ، والتي ليس وراءها من هدفٍ أو غايةٍ تذكر سوى التسلية الوقتية .. ولكننا حين نتعرف على صفات الخالق ، التي يستلزمها بالضرورة ما يوجد في هذا العالم من الروح المدهشة والحكمة اللامتناهية ، يبدو لنا مستحيلاً أن يكون هذا الخالق إلهاً أوجد هذا العالم عبثاً للهو والتسلية فقط .. كلا .. كلا.

إن العالم الراهن يضم في أحضانه مخلوقاً فذاً كالإنسان ، الذي تكمن في فطرته القدرة على تمييز الحق من الباطل .. وإن وجود مخلوقٍ كهذا في العالم ، يحكم على منهجٍ معينٍ بأنه حق ، وعلى آخر بأنه باطل ، ثم نشوب صراعاتٍ ومواجهاتٍ تحت شعاري الحق والباطل بين حينٍ وحينٍ ؛ مما يوضح أن وقتاً سيأتي لا محالة ، تنحسم فيه هذه القضية نهائيا ، إذْ يظهر بصورةٍ جليةٍ لا يكتنفها غموض ، ما هو الحق وما هو الباطل في الواقع ، ثم يكتب النجاح للذين كانوا قد آمنوا بالحق ونصروه ، ويُقضى على الذين رفضوا الحق وخذلوه بالفشل والخسران .

إن العالم الذي توجد فيه «حجارة» تحطم «رأس» أي شخص يُرمى بها ، أفلا يُوجد هناك حق من شأنه أن يبرهن على بطلان الباطل ويزهقه!؟!

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝ ﴾ .

وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ : لا يكلون ولا يعيون .

لاَ يَفْتُرُونَ : لا يسكنون عن نشاطهم في التسبيح والعبادة .

إن كل ما في الأرض والسماوات إنما هو مخلوق .. وكل شيءٍ لا يفعل إلا ما قد أُمر أن يفعل من «فوق» ، أي من جهة الرب الأعلى .. وإنما هو الإنسان وحده ، من بين سائر موجودات الكون،الذي يتمرد ويطغى .

أما الذين لا يؤمنون بوجود الله مطلقاً ، فإنهم يمارسون التمرد والطغيان ، قائلين بأنه ليس ثمة مالك ولا حاكم أعلى فوق رؤوسنا ، إذن فنحن أحرار في أن نفعل هنا ما نشاء ، ونتصرف في أنفسنا وفيما حولنا كما نشاء .

وأما الذين يؤمنون بوجود الله مبدئياً ، فهم الآخرون يتمردون ويطغون ، إلا أنهم

يبّررون طغيانهم بوجهٍ آخر .. حيث يفترضون أحداً من غير الله شفيعاً ووسيلة النجاة لهم في الآخرة .. وبجعله «مقرباً» إلى الله ، يزعمون أنه سيشفع لنا عند الله ، وشفاعته لن تُرد ، وبالتالي سينقذنا حتماً من عذاب الله ، ما دمنا نُبدي إزاءه مشاعر التعظيم والاحترام ، ونحيطه بهالةٍ من الإجلال والتقديس والتمجيد .. ومن الناس مَنْ يتخذون من الملائكة شفعاء لهم ، ومنهم مَنْ يتخذون شفعاء آخرين سواهم .

غير أن كل النظريات من هذا القبيل تبلغ من البطلان والسخافة حداً يدعو للضحك والسخرية .. ولو أن أحداً أتيح له بصر يُمَكّنه من النظر إلى الحقيقة على المستوى الكوني ، فسيرى أن الشفعاء (المزعومين) لا يسعهم إلا أن يظلوا خاضعين بين يدي الله خاشعين ، لما يغمرهم من الرهبة والجلال الإلهي ، بينما الإنسان يمارس الطغيان في الدنيا باسمهم ، ثقةً منه بنصرتهم ، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً !.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

هُمْ يُنشِرُونَ : هم يحيون الموتى - كلا .

لَفَسَدَتَا : لاختل نظامهما وخربتا للتنازع

إن الأرض ليست بمنفصلةٍ عن بقية الكون .. بل هي مرتبطة ارتباطاً دائماً مستمراً بهذا الكون الفسيح المترامي الأطراف .. وإنه لا يمكن بقاء الحياة ونمو النبات الأخضر فوق الأرض ، إلا إذا وُجد بينها وبين بقية الكون توافق وانسجام كامل .. وإن هذا التفاعل المتوافق المتكامل بين الأرض والسماء بكافة أجزائهما ، يُثبت أن تدبير وإدارة

شئون الأرض والسماء بيد ذاتٍ واحدةٍ ليس إلا ، إذ لو كان ذلك بيد ذاتين اثنتين أو أكثر ، لاندلع بين بعضها حتماً تنازع وصدام متصل ، وبالتالي بات قيام الحياة الراهنة فوق الأرض مستحيلاً .

وإن الخالق الذي يعرفنا به هذا الكون العظيم ، بنظامه البديع العجيب ، وما ينطوي عليه من روحٍ غريبةٍ وحكمةٍ تدعو إلى الدهشة والإكبار ، هو من غير شكٍ ولا ريبٍ إله منزه عن كل أنواع العيوب والنقائص .. وإنه لتقدير بخْس للكون الحالي ، واستخفاف بعظمته، أن نجعل خالقه ومدبره ذاتاً تُعافى من النقائص ومواطن الضعف والقصور ! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

إن افتراض آلهةٍ أخرى غير الله الواحد الأحد ، لا يستند على أي دليلٍ واقعي ، وإنما يستند على جهلٍ محضٍ.. إذْ لا يتوفر لدى القائلين بأن لله شركاء وأنداداً ، لا دليل أو برهان لصالح عقيدتهم ، لا في ضوء العلم الإنساني ، ولا في ضوء الوحي السماوي .. وإذا كان هؤلاء يُعرضون عما قد يقدم إليهم من الأدلة والبراهين القاطعة على صدق عقيدة التوحيد ، فإن السبب في ذلك لا يرجع إلى قناعتهم الاستدلالية بشركهم ، بل إلى تعصبهم الكامن لا غير .. إن طبيعتهم المتعصبة هي التي جعلت عقيدتهم تترسخ وتضرب بجذورها في أعماق أنفسهم لدرجة أنهم لا يكادون يستعدون للتخلي عنها ، ولا يرضون بها بديلاً ، رغم كونها باطلةً لا حقيقة لها من حيث الاستدلال بنوعيه العقلي والنقلي!

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

وَلَداً : قالوا الملائكة بنات الله .

مُشْفِقُونَ : خائفون حذرون .

الملائكة من المخلوقات الغيبية .. وإنما تم إعلام الإنسان بوجودهم عن طريق الأنبياء والمرسلين ، ليستشعر قدرة الله ، ولكن من العجائب أنه لم يلبث أن جعل من الملائكة بنات الله ، وراح يعتقد ، بناءً على خرافاتٍ لا أساس لها ، أنه إذا نجح في نيل رضاهن بممارسة بعض الطقوس العبادية بأسمائهن ، فسوف يشفعن له عند ((أبيهن)) ، ويتكفلن بمغفرته ونجاته في الآخرة !!

إن كل العقائد من هذا النوع تنفي ألوهية الله .. إذْ ليس الله إلهاً إلا لأنه منزه عن مثل هذه النقائص جميعاً ، وإنه لم يكن ليكون إلهاً لو كان يعاني من هذه النقائص كلها أو بعضها!

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

كَانَتَا رَتْقاً : كانتا ملتصقتين .

كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ : كل شيء نام حيوانا أو نباتا .

((الرتق)) معناه كوْن شيءٍ ما ملتحماً منضم الأجزاء .. أما ((الفتق)) فيعني فك تلك

الأجزاء الملتحمة المنضمة ، وفصلها بعضها عن بعض .. وربما يكون المراد بذلك حالة الأرض والسماء البدائية ، تلك التي تسمى في العصر الحديث بـ «نظرية الانفجار العظيم» .. حيث كانت جميع العناصر المكونة للأرض والسماء ، تبعاً للكشوف العلمية الحديثة ، توجد في البداية بشكل كتلةٍ ضخمةٍ (خارقةٍ للعادة) ، وقد كانت كل أجزائها حينذاك ، طبقاً لقوانين الطبيعة المعلومة ، متماسكةً مشدودةً حول مركزها الداخلي ، ومرتبطةً بعضها ببعض بمنتهى القوة ، ثم حدث في هذه الكتلة المركزة المتماسكة انفجار شديد ، فإذا بأجزائها أخذت تتمدد وتنتشر ، وأطرافها تتباعد نحو الفضاء الخارجي .. مما أدى نهائياً إلى تشكل هذا الكون الفسيح المترامي الأطراف الذي نراه اليوم .. ولا يمكن تصور حدوث هذه الواقعة غير العادية في الكتلة المادية الأولى ، بدون تدخّل خارجي .. وهكذا فإن تاريخ بداية الكون يثبت بوضوح أن هناك إلهاً مستقلاً قائماً بذاته وراء هذا الكون ، وأنه يتصرف في الكون ويؤثر عليه بقدرته الذاتية كما يشاء .

إن الماء يشكل العنصر الأساسي الأكبر في تركيب كل الكائنات الحية في هذا العالم .. ولولاه لانتهت الحياة الآدمية والحيوانية والنباتية بالمرّة .. وهذا الماء لا يتوفر في أي مكانٍ آخر غير الأرض .. إن توفر الماء ، على نحوٍ استثنائي ، في مكانٍ واحدٍ ، في هذا الكون الرحيب ، له دلالته الواضحة على «خصوصية الخلق والتكوين» .. إذن ، فما أكثر إثارةً للدهشة والاستغراب ألا يتوصل الإنسان إلى الله ، ويظل محروماً من معرفته تعالى ، رغم مشاهدته مثل هذه الآيات البينات المنبثة في مختلف أرجاء الوجود!

﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

رَوَاسِيَ : جبالا ثوابت .

أَن تَمِيدَ بِهِمْ : لئلا تضطرب بهم فلا تثبت .

فِجَاجاً سُبُلاً : طرقا واسعة مسلوكة .

سَقْفاً مَّحْفُوظاً : مصونا من الوقوع أو التغير .

كُلٌّ : من الشمس والقمر .

فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ : يدورون . أو يجرون في السماء .

ذُكرت هنا بعض أبرز آيات الأرض ؛ التي من شأنها أن تذكر الإنسان بربّه ، حتى يعيش عبداً شاكراً له على ما خوّله من نعمٍ جليلةٍ لا تحصى .. منها سلاسل الجبال هذه ، التي قد ارتفعت هنا وهناك فوق سطح الأرض ، حفاظاً على توازنها ، بإزاء المواد الثقيلة المنخفضة في أعماق البحار .. ولعل المراد بذلك هو الذي يُعرف في اصطلاح العلم الجيولوجي الحديث باسم «توازن القشرة الأرضية» (Isostasy).

ومن الآيات الإلهية كذلك كوْن الأرض صالحةً لكي يتخذ الإنسان فيها سبلاً ومسالك شتى لتنقله عبر القارات والأقاليم : في شكل الميادين الفسيحة المعبدة في مكانٍ ، وعلى هيئة الثغور والممرات الجبلية في مكانٍ آخر ، وفي صورة الثقوب أو الأخاديد البحرية في مكانٍ ثالثٍ .

أما «سقف» السماء ، وهو الغلاف الجوي الذي فوقنا ، فقد تم تصميمه بحيث إنه يحمينا من أشعة الشمس الضارة ، ويحول دون وصول الشهب والنيازك المتساقطة باستمرارٍ نحونا .. وكذلك حركة الشمس والقمر كل في فلكٍ محدودٍ ، وطريقٍ مرسومٍ؛ دون اصطدام أحدهما بالآخر ، وما يترتب على ذلك من تعاقب الليل والنهار على الأرض في غاية الضبط والانتظام .. إن هناك آياتٍ لا تعد ولا تحصى من هذا النوع ؛

يزخر بها هذا الكون ، لو تأمل المرء فيها بجديةٍ وإمعانٍ ، لغمره الإحساس بقدرة الله الباهرة وآلائه العظيمة المدهشة .. غير أن المرء يُعرض عنها ، ولا يعيرها أي اهتمام .. ولا يزال أعمى وأصم ، كأنه لم ير ولم يسمع شيئاً يدعو إلى التفكر والاعتبار!!

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾ .

وَنَبْلُوكُم : نختبركم مع عملنا بحالكم .

كان أهل مكة مشغولين ، ليل نهار ، باتخاذ كل التدابير والمحاولات الممكنة ، لإفشال رسول الله ﷺ حتى إنهم قد عقدوا النيّة على القضاء عليه بصورةٍ أو أخرى ، وذلك ظناً منهم أن هذه الرسالة إذا صارت مقطوعة الصلة بأصلها ومصدر طاقتها – وهو الرسول صلى الله عليه وسلم – فلن تقوم لها بعدئذٍ قائمة إلى الأبد .. وهنا يكشف القرآن عن مدى جهلهم وغرورهم حيث يقرر أن الذين يحيكون مثل هذه المؤامرات ضد النبي ، ينسون هذه الحقيقة البديهية القائلة: بأن القبر الذي هم يحفرونه للغير ، هو ذاته مثواهم الأخير كذلك .. فإن الجميع يصير إلى الفناء لا محالة ، ولا خلود لأحدٍ في هذه الحياة .. إذن، فماذا عساهم يفعلون دفعاً عن أنفسهم ، حين سيمثلون بين يدي المالك الحقيقي بعد الموت!!

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٣٦) ﴾ .

إن آلهة قريش كانت ، في الغالب ، تمثل أكابر قومهم .. وقد كانت عظمة هؤلاء الأكابر الخيالية مستقرةً في أعماق أفئدتهم وعقولهم .. بينما كان النبي – من جهة أخرى – لم يكن حينذاك بأكثر من رجلٍ عاديٍ .. وعبر هذه المقارنة كان النبي يبدو لهم

شخصاً ضئيلاً جداً .. وبالتالي كثيراً ما كانوا يقولون على سبيل التهكم والازدراء : أهذا الذي جاء يتناول أكابرنا بالنقد ، ويقدم إلينا ديناً آخر غير الدين الذي نحن عليه ، والذي كان عليه آباؤنا وأكابرنا من قبل!؟!

لقد كان رسول الله - ﷺ - يدعو الناس إلى الله الواحد وحده ، غير أن الله لم يكن عندهم موضع اهتمام ، وإنما كانت اهتماماتهم كلها مرتبطةً بأكابرهم ، حيث كانوا قد أحاطوهم بهالةٍ من القدسية ، ورفعوهم إلى درجة الألوهية .. وبما أن دعوته - ﷺ - كانت تصدم مشاعر القوم تجاه أكابرهم ، ناصبوه العداء ، وتصدوا لمعارضته بأقصى طاقتهم .. وقد غاب عن هؤلاء أنه - عليه الصلاة والسلام - إذ رفض الآلهة والمعبودات (الباطلة) ، فإنما كان يقدم مكانها الله رب العالمين ، دون ذاته هو! ، فلا داعي إذن لمهاجمته والنقمة عليه ، اللهم إلا أن يكون القوم يسوءهم ذكر الرحمن والدعوة إلى إفراده وحده بالعبادة والتعظيم دون أحدٍ سواه ، كائناً من كان !!

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

لاَ يَكُفُّونَ : لا يمنعون ولا يدفعون.

بَغْتَةً : فجأة .

فَتَبْهَتُهُمْ : تحيرهم وتدهشهم .

يُنظَرُونَ : يمهلون ويؤخرون .

فَحَاقَ : أحاط وأنزل .

إن العرب لم يكونوا منكري الآخرة أصلاً .. وإنما كانوا ينكرون الآخرة في طبيعتها الموضوعية تلك ، التي جاء ينذرهم بها رجل منهم وهو «محمد بن عبد الله» . فقد كانوا فخورين بأنهم على دينٍ هو ضمان فلاحهم الأكيد ، لا يتطرق إليه شك .. ومن ثم ثار ثائرهم عندما تناول النبي محمد - ﷺ - يقينهم ذاك بالرفض والإبطال.. وبلغت بهم الجرأة إلى أن أخذوا يقولون له متعجلين : ائتنا بالعذاب الذي تهددنا به إن كنت صادقاً !!

فقال تعالى رداً عليهم : إن سبب استعجالهم هذا إنما يرجع إلى ما يبدو ظاهراً من بُعد المسافة بينهم وبين العذاب الموعود ، لكونهم في مرحلة الامتحان .. وأما إذا حان اليوم الذي تنتهي فيه هذه المهلة ، ويحيط بهم عذاب الله من كل جانبٍ ، فعندئذٍ سيدركون كم كانوا قد ارتكبوا خطأً فادحاً عظيماً ، إذْ لم يأخذوا دعوة الرسول بمأخذ الجد!!

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

يَكْلَؤُكُم : يحفظكم ويحرسكم .

يُصْحَبُونَ : يجارون ويمنعون أو ينصرون .

إن قضية مؤاخذة الله ليست بقضيةٍ متعلقةٍ بأي مستقبلٍ بعيدٍ .. بل هي قضية الساعة الراهنة ؛ بحيث إنها تكمن في صميم هذه الأيام والليالي التي يحسب المرء نفسه

فيها آمناً محفوظاً من كل خطرٍ يتهدد وجوده أو حياته .. فعلى سبيل المثال : لو اقتربت الشمس من الأرض ، بمقدار النصف من مسافتها الحالية ، لارتفعت حرارة أيامنا لدرجة تحرقنا كلنا بالنار.. وعلى نقيضٍ من ذلك ، فلو ابتعدت مسافة الشمس عن الأرض ، ضعف ما هي عليه الآن، لاشتدت برودة ليالينا إلى حدٍ نتجمد معه مثل الثلج !!

وإن الوجود الذي أنشأ هذا النظام الكوني البديع الملائم للحياة والأحياء إلى أقصى الحدود ، ويقوم على إدارته وحفظه من الخلل والاضطراب كل حينٍ وآنٍ ، هو وحده الجدير بأن يخصه الإنسان بأسمى عواطفه ، ويوجه إليه كل ما يخفق به فؤاده من مشاعر الحب والتعظيم والولاء .. دون أن يأخذ في عبادة تلك المعبودات الباطلة التي لا تقدر على إعطائه شيئاً !

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

كان المكيّون في ذلك الزمان يُعدّون قادة العرب عامةً .. وقد كانت هذه المكانة القيادية نعمةً من الله عليهم .. إلا أنهم إنما استمدوا منها غذاء الكبر والغرور .. مما كان سبباً في إنكارهم لمحمدٍ ﷺ حين جهر بالحق أمامهم ، ودعاهم إلى اتباعه .

هذا كان حال الإسلام في مكة .. أما سكان القرى الأخرى خارج مكة ؛ الذين لم يكونوا مصابين بتعقيداتٍ نفسيةٍ كهذه ، فقد كان الإسلام ينتشر بينهم بشكلٍ ملحوظٍ .. فبينما كان الإسلام قد قُوبل في مكة بالرفض ، كان، في الوقت نفسه ، يحظى بالقبول والتوسع لدى القبائل العربية القاطنة في أطرافها .. وبدخول مجموعةٍ كبيرةٍ من سكان يثرب (المدينة) في الإسلام قد ظهر بجلاءٍ أن نفوذ المكيين بدأ يتقلص ، ودائرة قيادتهم آخذةً في الانكماش .. وقد كان ذلك تحذيراً واضحاً .. غير أن المصابين بعقدة

الاستعلاء والتكبر قلما يعتبرون بالتحذيرات، مهما كانت صريحةً قاطعةً!

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

نَفْحَةٌ: دفعة يسيرة. أو نصيب يسير.

«الإنذار بالوحي» يعني تحذير الناس بواسطة الدليل .. فالداعي إلى الحق يعرض أمره دائماً بلغة الدليل .. كما لا يكون أمام الناس كذلك من سبيلٍ إلى معرفته، إلا أن يعرفوه بلغة الدليل ذاتها.

وأما الذين لا يزالون يتعامون ويتصامون عن دلائل الحق، فلا تنفتح عيونهم إلا إذا تجلت قدرة الله بصورةٍ واضحةٍ مكشوفةٍ، وعندها سيعترف لتوّه كل متكبرٍ جبارٍ عنيدٍ، غير أن الاعتراف وقتئذٍ لن يغني عن أحدٍ شيئاً!

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

القِسْطَ: العدل. أو ذوات العدل.

«الميزان» علَم على أداةٍ يقاس بها وزن شيءٍ ما في العالم الراهن .. ومن ثم فقد استخدم الله - سبحانه وتعالى- هذا الاصطلاح الشائع المعروف لدى البشر لتقريب شئون الآخرة إلى أفهامهم .. إن الميزان الدنيوي يقيس وزن الأشياء المادية .. أما ميزان العدل الإلهي في الآخرة، فإنه سيقيس وزن الحقائق المعنوية بمنتهى الضبط والدقة.

وإنه لا يحصل المرء على شيءٍ أو سلعةٍ ما في هذه الدنيا إلا إذا دفع ثمنها، ومن يبذل هنا الكثير، ينال الكثير، والعكس بالعكس.

وهكذا سيكون الشأن في الآخرة تماماً .. فلن يحصل المرء على شيءٍ من نفائسها إلا بدفع الثمن .. وكما لا ينال أحد شيئاً من أشياء الدنيا بدون ثمنٍ ، فإن أشياء الآخرة بدورها ، لن تُتاح إلا لِمَنَ يتقدم بدفع أثمانها اللازمة .. وإنما جاء القرآن كدليلٍ أو كتابٍ مرشدٍ للناس إلى هذا «الثمن» نفسه ، المطلوب دفعه لنيل ما في عالم الآخرة من نفائس قيّمةٍ ، وسلعٍ غاليةٍ!!

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

مِثْقَالَ حَبَّةٍ : وزن أقل شيء .

مُشْفِقُونَ : خائفون حذرون .

إن ما أُعطي لسيدنا موسى عليه السلام من «الفرقان» ، و«ضياءٍ» و«ذكرٍ» ، هو مثل ما أُعطي كل الأنبياء والمرسلين من عند الله .. والمراد بالفرقان : هو ذلك المعيار النظري الذي يُمَكِّن المرء من التمييز بين الحق والباطل .. والمقصود بالضياء : هداية الله التي تُخرج الإنسان من ظلمات الغي والضلال ، وتقوده إلى سبيل الرشاد المستقيم المنير .. وأما الذكر فهو التذكير والعظة .. أي بيان ما تنطوي عليه الأشياء من جوانب النصيحة والعبرة ، وتصبح مستودعاً لكنوز المعرفة والدرس والعبرة .

هكذا هيأ الله - بفضله ورحمته - أسباب هداية الإنسان .. غير أن صحيفة الهداية الإلهية لا تكون مصدر الهداية للمرء حقاً ، إلا إذا كان يهمّه أمر عاقبته ، وبالتالي يعيش على خوفٍ وحذرٍ من سوء المصير .. وتجعله يعير أمر الحق والصدق اهتماماً أكبر وأهميةً أكثر من أي أمرٍ أو شيءٍ آخر سواه!

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

ٱلتَّمَاثِيلُ : الأصنام المصنوعة بأيديكم .

لقد جرت سنة الله تعالى بالعطاء بقدر الاستعداد أو الكفاية .. وقد علم الله الكفاية التي أقام سيدنا إبراهيم الدليل عليها ، عبر اجتيازه لضروب المحن والاختبارات بنجاحٍ .. فأعطاه بحسب ذلك الهداية والمعرفة وتلك هي معاملة الله - سبحانه وتعالى- مع كل عبدٍ من عباده .

لم يتأثر إبراهيم - عليه السلام - ببيئته المشركة التي نشأ وترعرع فيها ، بل حاول استكناه الأشياء وفحصها بعقله هو ، حتى توصل إلى صدق التوحيد على رغم البيئة .. وقد كان هو في عالمٍ ارتبطت فيه كل أنواع الشرف والرقي بالشرك .. غير أنه لم يبال بأي شيءٍ، وتناول معتقدات قومه الخرافية بالنقد الصريح ، وجهر أمامهم بالحق ، بغض النظر عن كل المصالح والأخطار .

وهذه هي الصفات التي تؤهل شخصاً ما لتلقي هداية الله!!

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

فَطَرَهُنَّ : خلقهن وأبدعهن.

جُذَاذاً : قطعا وكسرا .

إن الأفكار الوثنية والأوهام المشركة ، كانت ، في زمن سيدنا إبراهيم ، قد بلغت من السيطرة والغلبة على عقول الناس ، بحيث أنهم ظنوا أن إبراهيم في نقده أول الأمر هازلاً غير جادٍ .. ومن ثم سألوه قائلين : ترى هل كلامك هذا صادر حقاً عن الرويّة والتدبر والتفكير، أو هو تلاعب بالألفاظ على سبيل المزاح والتفكّه !؟!

فأجاب سيدنا إبراهيم،في عزمٍ وتأكيد،قائلاً: إنه لما يدل على مدى جهلكم وسخافة عقولكم أن تعدّوا هذه الحقيقة البالغة الأهمية أمراً غير جادٍ .. في حين يشهد بصدقها كل ما في السموات والأرض .. ثم إنه - إلى جانب تلك المحاجة الكلامية - أقدم بشجاعةٍ فذةٍ وجرأةٍ نادرةٍ على خطوة أخرى ، وهي أنه توجه في اليوم التالي إلى أصنام القوم، فأهوى على رؤوسها تحطيماً .. وكأنما أراهم سيدنا إبراهيم بذلك عملياً: إن هذه الأصنام باطلة لا حقيقة لها في الواقع ، تماماً كما سبق أن بيّنت لكم ذلك شفهياً بالأمس !

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ : ظاهراً بمرأى من الناس .

وقد كانت الصدمة قاسيةً شديدة الوطأة على نفوس القوم ، عندما دخلوا في المعبد صبيحة اليوم التالي ، فوجدوا أصنامه محطّمةً مكسورةً .. وترجح لديهم آخر الأمر أنه لابد أن يكون هذا صنيع ذلك الفتى الذي ثار على دين آبائنا ، وقد سمعناه يصرح بآراء مناقضةٍ له تماماً !

وخلال تحطيمه لأصنام المعبد ، كان سيدنا إبراهيم قد ترك ، عن عمدٍ ، الصنم الأكبر، ولم يمسه بسوءٍ .. فلما دُعي الآن للمحاكمة والاستجواب ، رد عليهم قائلاً : إنه يجدر بكم أن توجهوا هذا السؤال إلى صنمكم الأكبر ذاك، الذي مازال صحيحاً سليماً .. فلْيشرحْ لكم ، إن كان في الحقيقة إلهاً كما تزعمون ، كيف جرى هذا الحادث مع تلك الأصنام المكسورة!! ، ولم ينطق سيدنا إبراهيم في هذه المناسبة بأي كلمةٍ على نحوٍ مباشرٍ ، وإنما عبّر عن مراده باستخدام الأسلوب غير المباشر ، الذي كان في ذلك الحين أوقع في النفوس وأفعل في هزّ الضمائر من الكلام الصريح المباشر!!

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ : رجعوا إلى الباطل والعناد .

أُفٍّ لَّكُمْ : كلمة تضجر وكراهية وتبرم .

وقد كان من المحتمل ، بعد سماع ردود إبراهيم الحاسمة هذه ، أن يتذمّر القوم ويشتعلوا غضباً عليه ، باعتباره سيئ الأدب ، طويل اللسان كما جرت بذلك عادة الناس في مثل هذه المواقف .. ولكن ، بالرغم من جمودهم على عبادة الأصنام ، كانت ضمائرهم لم تخل من شرارة الحياة بعد .. ومن ثم فقد استشعروا ما احتوت عليه أجوبته من قوة الحجة وثقل البرهان .. واعترفوا ، مطرقين رؤوسهم خجلاً وحياءً ، بكونهم على ضلالٍ وبعدهم عن الحق .. ولولا أن استبدت بهم مشاعر التعصب وحمية الجاهلية الرعناء في نهاية المطاف ، لكادت تلك التجربة أن تكون كافية لإدخالهم في حظيرة الإيمان !

﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝ ﴾ .

إن أصحاب السلطات ، إذا خسروا المعركة في ميدان الدليل ، يلجأون دوْماً إلى ممارسة الظلم والعدوان على خصومهم .. وقد تكررت نفس هذا الأسلوب مع سيدنا إبراهيم كذلك .. ففي أعقاب حادثة تحطيم الأصنام ، عندما أحس قادة القوم بعجزهم عن مقاومة إبراهيم بالدليل والبرهان ، أخذوا في مخاشنته وتضييق الخناق عليه .. حتى انتهى بهم الغرور بالقوة يوماً إلى حدّ أنهم ألقوه في محرقةٍ رهيبةٍ .

غير أن رسول الله يكون ممثلاً لله في الأرض .. وقضيته تكون قضية الله ؛ ولذلك فإن الله ينصر رسوله نصراً غير عاديٍ ، ويعْصمه على نحوِ استثنائيٍ ، ومن ثم فقد أمر الله بالنار التي أضرموها لإبراهيم ، فاستحالت برداً وسلاماً عليه .. ويمكن أن تنزل مثل هذه النصرة الإلهية لغير الأنبياء كذلك ؛ بشرط أن يربط هؤلاء أنفسهم بشرع الله ، تماماً كما يربط به الرسول نفسه !

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ۝ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ۝ ﴾ .

إِلَى ٱلْأَرْضِ : منتهيا إلى أرض الشام .

نَافِلَةً : عطية أو زيادة عما سأل .

وُلد سيدنا إبراهيم في العراق .. ولما صار قومه ، من جمهور الشعب ، إلى الكهنة ، إلى الملك نمرود يناصبونه الشر والعداء ، غادر وطنه ، بعد أن بلغ الدعوة ، وأقام الحجة .. واتجه ، كما أمره الله تعالى ، نحو بلاد الشام وفلسطين الخصيبة .. ومع كونه لم

يحظ بين أبناء وطنه بالأتباع والأنصار ، إلا أن الله تعالى قد وهب له من الأولاد والأحفاد مَنْ ساروا على دربه ، واقتدوا بقدوته .. حتى إن صلاحهم تقبله الله بقبولٍ حسنٍ لدرجة أنه بدأ في نسله سلسلة النبوة ، حيث كانت أكثرية الأنبياء الذين جاءوا بعده من ذريته - عليه الصلاة والسلام .

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

قَوْمَ سَوْءٍ : فساد وفعل مكروه .

المراد بالحكمة : المعرفة ، وبالعلم : الوحي .. وقد أُعطي ذلك لسيدنا لوط ، تماماً كما أُعطي ذلك لكل مَنْ سبقه ومَنْ جاء بعده من الأنبياء والمرسلين من عند الله .. وأما بعد ختم النبوة ، فإن القرآن هو قائم مقام الوحي الآن، وأما الحكمة (المعرفة) فإن غير الأنبياء أيضاً يظفرون منها بنصيبهم ؛ كل بقدر كفايته واستعداده .

والذين يكونون موضع عناية الله ، فإن الله يصير كفيلهم وولي أمرهم ، بحيث يخرجهم من مجتمع الأشرار والفاسقين ، ويبوئ لهم مكاناً في مجتمع الأخيار والصالحين .. ويأخذ بأيديهم عند كل شدةٍ ، ويمدهم بنصره في كل طورٍ من أطوار الحياة .. ويحبوهم بالحكمة التي تغتسل أرواحهم بعدها في فيض الرحمات الإلهية!!

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

لقد ظل سيدنا نوح عليه السلام يدعو قومه إلى الله لمدةٍ طويلةٍ جداً ، غير أن دعوته إلى الإصلاح لم يتلقاها بالقبول سوى نفرٍ قليلٍ .. فلم يلبث نوح أن توجه آخر الأمر إلى

ربه بالدعاء على قومه بالهلاك .. فجاء بعدئذٍ طوفان عارم شديد لدرجة عجزت معها حتى قمم الجبال الشاهقة من أن تنقذ الناس! ومع أن هذه الحادثة وقعت على مستوى النبي .. إلا أنها تنطوي على جانبٍ عظيم من العزاء والسلوى للبشر العاديين كذلك.. إذْ يتضح لنا من خلالها أن المفسدين في هذه الدنيا ليسوا أحراراً مطلق الحرية .. وأن مَنْ يتقدم هنا برفع لواء الحق ليس وحيداً مطلق الوحدة كذلك .. فلو أن شخصاً ربط وجوده بالحق بحيث هو يصير في هذه الدنيا ممثلاً للحق ، فإنه لا يعود بعدئذٍ في هذه الدنيا وحيداً ، بل يكون الله معه، ومَنْ كان الله معه ، تُرى هل يستطيع أحد أن يقهره أو يتغلب عليه؟! كلا !!

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

الْحَرْثِ : الزرع . أو الكرم .

نَفَشَتْ فِيهِ : انتشرت فيه ليلا بلا راع فرعته .

صَنْعَةَ لَبُوسٍ : عمل الدروع تلبس في الحرب .

لِتُحْصِنَكُم : لتحفظكم وتقيكم .

ذكرت هذه الآيات نبيين من أنبياء بني إسرائيل ، وهما : سيدنا داود ونجله سيدنا سليمان - عليهما السلام - .. لقد وهب الله لهما القدرة على الفصل بين الناس ، وإصابة الحكم في القضايا الإنسانية .. وقد كان سيدنا داود يسبّح لله - تبارك وتعالى - بطريقة رائعة ، لدرجة أن الجبال والطيور كانت تأخذ بدورها في التجاوب معه .. كما قد علمه الله - سبحانه وتعالى - كيفية استعمال

الحديد .. وإنها لحقيقة لا سبيل إلى إنكارها أن أنبياء الله هم الذين علموا الإنسان كيف يسبّح لربه ويمارس عبادته .. غير أن هذه الآيات تدلنا - إلى جانب ذلك - على أن الأنبياء يرجع إليهم الفضل كذلك في تزويد الإنسان بمعرفة الأشياء الضرورية الأخرى على وجهها .. كمبدأ العدالة الاجتماعية ، وكيفية استعمال المعادن مثلاً، إنما تَعَرَّف الناس عليها عن طريق الأنبياء .. وربما يكون الإنسان قد حصل على المعرفة الأولية (البدائية) عن كل أمرٍ ضروريٍ من أمور الحياة بواسطة حضرات الأنبياء أنفسهم - عليهم صلوات الله وسلامه !

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

عَاصِفَةً : شديدة الهبوب .

يَغُوصُونَ لَهُ : في البحار لاستخراج نفائسها .

لَهُمْ حَافِظِينَ : من الزيغ عن أمره أو الإفساد .

المراد بـ «تسخير الرياح» هنا : هو المِلاحة البحرية .. إن السفر البحري في الزمان القديم قد فوجئ بثورةٍ نقلته من طورٍ إلى طورٍ آخر ؛ عندما اكتشف الإنسان طريقة إنشاء السفن الشراعية .. حيث كانت هذه الأشرعة بمثابة أجهزة تسخير الرياح ، وكانت تقوم ، بالنسبة إلى سفن ذلك الزمان بوظيفة المحركات في أيامنا هذه .. إن اختراع السفن الشراعية مكّن من استخدام البحار لأغراض النقل والمواصلات على أوسع نطاقٍ .. يوضح أن علم الملاحة البحرية ربما يكون هو الآخر مما تلقاه الإنسان بواسطة الأنبياء الكرام ، عليهم صلوات الله وسلامه .

وزيادةً على ذلك ، فقد سخر الله تعالى لسليمان عليه السلام طائفةً من الجن كذلك .. وقد كان هؤلاء يُنجزون له أعمالاً رفاهيةً ضخمةً يعجز البشر العاديون عن القيام بمثلها .. إن هناك صنوفاً من الأجهزة والآلات اختُرعت في هذا العصر التكنولوجي الحديث لتتولى القيام بالأعمال الأكبر مشقةً والأكثر فائدةً للإنسان .. وقد جعل الله الجن مسخَّرين لنبيّه ، قبل العصر التكنولوجي ، لإنجاز مثل هذه الأعمال والمشروعات الكبيرة!

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

إن الله – سبحانه وتعالى – يُقيم ، بواسطة أنبيائه ، أروع الأمثلة وأسماها من كل نوعٍ ؛ لكي يكونوا للناس قدوةً يقتدون بها في حياتهم .. ومن ذلك مثال سيدنا أيوب – عليه الصلاة والسلام – وسيدنا أيوب ، هو ، في أغلب الظن ، نبي من بني إسرائيل بُعث في القرن التاسع قبل الميلاد .. وقد كان أول الأمر ، على حسب ما جاء في التوراة ، رجلاً ذا مالٍ وثروةٍ كبيرةٍ .. حيث بلغ ما كان عنده من الزروع والمواشي والمساكن والأولاد من الكثرة حداً راح يُوصف معه بأن «هذا الرجل أعظم كل بني المشرق» .. وبالرغم من ذلك كله فقد كان أيوب عبداً شاكراً وفياً لله .. وبالتالي صارت حياته نموذجاً حياً يدل الناس كيفية استمرارية المرء عبداً متواضعاً مطيعاً لربه ، رغم حصوله على مراتب الشرف والعزة ، وأسباب الغنى والثراء !

بيد أن الشيطان لم يلبث أن جعل هذه الواقعة مثار فتنةٍ للناس ، إذْ ألقى في نفوسهم أن اهتمام أيوب غير العادي هذا بعبادة ربه ، ليس إلا لكونه يتمتع بنعمٍ غير عاديةٍ ، ولو سُلب كل هذه النعم ، لأصبح ما يمارسه من شكرٍ وطاعةٍ في خبر كان !

وقد أقام الله بعد ذلك من خلال ذاته مثالاً آخر .. حيث هلكت مواشيه ، وضاعت زروعه ، ومات أولاده ، وحتى راح جسده هو الآخر ضحية مرضٍ ألزمه الفراش ؛ فتخلى عنه الصديق والقريب ، ولم يبق معه سوى زوجةٍ واحدةٍ .. ولكن أيوب قابل القضاء الإلهي بالرضا التام والصبر الجميل ، وقد ذكرت التوراة هذا الموقف في العبارة التالية : «.. فقام أيوب ، ومزق جبّه ، وجزّ شعر رأسه ، وخرّ على الأرض ، وسجد ، وقال : عرياناً خرجت من بطن أمي ، عرياناً وأعود إلى هناك ؛ الربّ أعطى ، والرب أخذ ؛ فليكن اسم الرب مباركاً .. في كل هذا لم يخطئ أيوب ، ولم ينسب لله جهالةً ».

(سفر أيوب ، الإصحاح الأول ٢٠-٢٢) .

ولما بدا من سيدنا أيوب هذا الصبر والرضا الكامل بما أصابه من ألوان البلاء والمكروه كُتب له أحسن الأجر في الآخرة وجُوزي في هذه الدنيا بتحسين أحواله كذلك .. « فزاد الرب - كما تحكي التوراة - على كل ما كان لأيوب ضعفاً، وبارك الرب آخرة أيوب أكثر من أولاه..» . (انظر سفر أيوب، الإصحاح الثاني والأربعين) .

وقد عُبّر عن ذلك في الحديث بلغة التمثيل كما يلي : «لما عافى الله أيوب ، أمطر عليه جراداً من ذَهب..» [1].

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

وَذَا الكِفْلِ : قيل هو إلياس عليه السلام .

كان سيدنا إسماعيل ولد سيدنا إبراهيم الخليل - عليهما السلام - وأما إدريس ، فقد ذهب بعض علماء التفسير إلى أنه النبي الذي ورد ذكره في التوراة باسم «أخنوخ»

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٥١٨ .

(Enouch).. وأما ذو الكفل فربما يكون المراد به هو النبي المذكور في التوراة باسم «حزقيال».

وأبرز صفةٍ كان يتسم بها هؤلاء الأنبياء ، حسبما أشارت إليه الآية ، هي : «الصبر»؛ ذلك لأن الصبر أساس كل الأعمال التعبدية التي يُقصد بها وجه الله تعالى .. ومعنى الصبر : هو أن تتجنّب نفسية رد الفعل ، والذي لا يتجنب نفسية رد الفعل ، لن يوفق في عالم الامتحان هذا أبداً للثبات على مرضاة الله سبحانه وتعالى . والحقيقة هي أن الصبر هو المدخل إلى رحمات الله في هذه الدنيا وفي تلك الدار الآخرة!

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

وَذَا النُّونِ : صاحب الحوت يونس عليه السلام.

مُغَاضِباً : غضبان على قومه لكفرهم.

لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ : لن نضيق عليه بحبس ونحوه .

بُعث سيدنا يونس عليه السلام برسالة الله إلى «نينوى» ؛ إحدى مدن العراق القديم .. وقد كان عدد سكانها إذْ ذاك يبلغ مائة ألف نسمةٍ أو أكثر من ذلك بقليلٍ .. وقد ظل يدعو أهل المدينة إلى التوحيد والآخرة ردحاً من الزمن .. إلا أنهم مازالوا يعاندون ويصّرون على ما هم عليه من الكفر والإباء عن الإيمان .. وقد جرت سنة الله في الأنبياء بأن قوماً إذا ما تمادوا في الغي والإنكار ، رغم إنذار النبي إليهم ، وإقامة الحجة عليهم من خلال تبليغ الرسالة وأداء الأمانة المنوطة به ، أمر النبي بمغادرة القرية ، وأخذ القوم بالعذاب .. ومن ثم خيّل إلى سيدنا يونس أن ذلك الوقت قد حان ، فلم

يلبث أن فارق قومه من غير انتظارٍ لأمر الله إياه بالهجرة .

وفي أعقاب خروجه من القرية توجه إلى الساحل ، حيث ركب في سفينةٍ .. وفي بعض الطريق أخذت السفينة تضطرب وكادت أن تغرق ، مما جعل الركاب يظنون أن عبداً قد أبق (هرب من سيده) ، واندس بينهم .. وكان الحل ، تبعاً للعادة المتبعة قديماً ، وهو العثور على ذلك العبد وإلقاؤه في البحر ، فاقترعوا فيما بينهم ، فوقعت القرعة على يونس ، وبالتالي ألقوه في البحر .. وقيض الله في الوقت نفسه حوتاً عظيماً لالتهامه ؛ فمكث في بطنه ما شاء الله أن يمكث ، إلى أن نبذه الحوت بالساحل وهو سقيم ، فلما أفاق ، انصرف عائداً إلى قومه من جديدٍ .

إنها قصة جرت مع نبيٍ لكونه تخلى عن جبهة الدعوة قبل بلوغها حد التمام ، فما عسى أن يكون مصير ورثة الأنبياء أولئك ، الذين تخلوا عن جبهة الدعوة بالمرة !؟!

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

رَغَباً وَرَهَباً : وجاء في الثواب وخوفا من العقاب.

خَاشِعِينَ : متذللين خاضعين .

إن الأنبياء هم صفوة خلق الله المنعم عليهم بوجهٍ خاصٍ .. وأكبر صفةٍ شخصيةٍ يمتازون بها عمن سواهم هي أن سعيهم في الحياة لا يكون موجَّهاً نحو الدنيا ، بل نحو أشياء لها قيمة واعتبار في الآخرة .. وهم يدركون عظمة الله وجلاله بحيث يبدو لهم الله تعالى وحده كل شيءٍ ؛ فلا يخافون إلا منه ، ولا يتضرعون إلا إليه ، ولا يزالون ملتزمين بالخشوع والتواضع له تعالى على كل حالٍ من الأحوال .

وقد كانت هذه الصفات متوفرةً في سيدنا زكريا والأنبياء الآخرين عداه على أتم درجةٍ وأكملها .. ولهذا السبب أغدق الله عليهم بنعمه الخاصة .. وبقدر ما يقيم عامة المؤمنين الدليل على هذه الأوصاف العالية ، بقدر ما سيُعتبرون أهلاً لنصرة الله وعناياته !

﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا : حفظته من الحلال والحرام .

مِن رُّوحِنَا : من جهة روحنا وهو جبريل .

الصفة الخاصة التي نُعتت بها مريم – عليها السلام – هنا ، هي أنها ملكت شهوتها .. فكوُفِئتْ على ذلك بأن جُعلت والدة نبي خُلق عن طريق معجزةٍ إلهية مباشرةٍ .

وهذا الأمر نفسه ينطبق على النساء والرجال العاديين كذلك .. إذ المطلوب من الإنسان في العالم الراهن أن يملك نفسه وشهواتها ، وبقدر ما يبرهن المرء على هذا الضبط والالتزام ، بقدر ما يكون نصيبه من ألطاف الله وعناياته الخاصة!

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ .

أُمَّتُكُمْ :ملتكم (الإسلام) .

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم : تفرقوا في دينهم فرقا وأحزابا .

لقد بعث الله كل الأنبياء بدينٍ واحدٍ لا غير ، وهو يتلخص في توحيد الله ، وإفراده تعالى بالعبادة .. ولو ظل الناس قائمين على هذا الدين الأصلي وحده ، لكانوا كلهم أمةً واحدةً .. غير أن الناس لم يلبثوا أن أعدوا نسخاً مختلفةً للدين باختراع مباحث وتفريعاتٍ جديدةٍ حوله من عند أنفسهم ؛ فمنهم مَنْ استمسك بهذه ، ومنهم من أخذ بتلك.. وهكذا تحول الدين الواحد إلى أديانٍ شتى .

إن العبرة عند الله إنما هي بالإيمان والعمل الصالح .. أي معرفة الله الصادقة ، وطاعة الله الصادقة كذلك .. وأما ما عداهما من شيء ؛ فلن يُقابل عند الله بأي تقديرٍ ولا اعتبارٍ ؛ مهما كان ذلك الشيء لدى أحد الناس جديراً بالتقدير والاعتبار وفق منظوره الذاتي!

﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ .

وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ : ممتنع البتة على أهل القرية.

لاَيَرْجِعُونَ : إلينا بالبعث والجزاء .

حَدَبٍ : مرتفع من الأرض .

يَنسِلُونَ : يسرعون المشي في الخروج .

الوَعْدُ الحَقُّ : البعث والحساب والجزاء .

شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ : مرتفعة لا تكاد تطرف .

إن كون رجوع قريةٍ ما إلى الإيمان حراماً - أي ممتنعاً عليها - يعني أن يفقد أهلها استعدادهم لقبول الإيمان.. فمن شأن الحق ، إذا ظهر مصحوباً بأدلةٍ وبراهين واضحةٍ، أن المرء يجد نفسه مضطراً ، بحكم فطرته ، إلى معرفته ، والذين لا يعرفون الحق في لغة الدلائل ، لن يعرفوه إلا إذا مزّقت القيامة غشاوة أبصارهم ؛ بيد أن الإيمان وقتئذٍ ، سوف لا يغني عن أحدٍ شيئاً ، لأنه يكون وقت نيل جزاء الإيمان وليس وقت الإيمان!

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

حَصَبُ جَهَنَّمَ : حطبها ووقودها الذي به تهيج .

لَهَا وَارِدُونَ : فيها داخلون .

زَفِيرٌ : تنفس شديد تنتفخ منه الضلوع .

حَسِيسَهَا : صوت حركة تلهبها .

الفَزَعُ الأَكْبَرُ : حين نفخة البعث .

كان عبد الله بن الزِّبعري من فحول شعراء العرب الجاهليين .. ولما نزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ ، قال للناس أن سلوا محمداً : عما إذا كنت تزعم أن كل الآلهة من دون الله تَرد مع عابديها إلى جهنم ،

فإننا نعبد الملائكة ، والنصارى يعبدون المسيح ، واليهود يعبدون عزيراً ؛ أفهم جميعاً من حصب جهنم؟! وقد طار المشركون فرحاً بمقالته هذه وذهبوا يسألون النبي ﷺ عن الجواب.. فقال عليه الصلاة والسلام .. : «كل مَنْ أحب أن يعبد من دون الله فهو مع مَنْ عبده» ، وقد كان هذا الرد حاسماً لم يدعْ لعبد الله بن الزبعري متسعاً لمزيد من الأخذ والرد، ويقال إنه قد اعتنق بعدئذٍ الإسلام[1].

ومن هذا نعلم أن مصداق الآية هو الأصنام المنحوتة من الحجارة ونحوها ، أو الذي كان راضياً باتخاذ الآخرين إياه إلهاً يُعبد من دون الله .. وإنما يُلقى بمن اتخذ أحداً من دون الله إلهاً ، وبمن رضي بهذا التأليه لنفسه ، يلقى بكليهما معاً في نار الجحيم ليكون عبرةً للناس .

إن يوم القيامة سيكون يوماً رهيباً للغاية .. غير أن الذين كُتب لهم التوفيق ليكونوا على وجلٍ وخوفٍ من الساعة قبل حلولها ، سيكونون في مأمنٍ من فزع ذلك اليوم الرهيب ، وسيدخلون في دنيا الجنة الحافلة بصنوف النعم وأسباب الراحة والهناء!

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

السِّجِلِّ : الصحيفة التي يكتب فيها .

لِلْكُتُبِ : على ما كتب في السجل .

الزَّبُورِ : الكتب المنزلة .

الذِّكْرِ : اللوح المحفوظ .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٩.

لَبَلاغاً : كفاية أو وصولا إلى البغية.

إن امتداد الكون الحالي إنما كان لأجل إيجاد عالم الامتحان .. وأما حين يأتي وقت بناء عالم الجزاء ، فسوف يطوي الله بساط هذا العالم ويلم أطرافه ، ولعله سيبني من هذه «المادة» عالماً آخر جديداً يناسب متطلبات القضاء والجزاء الأخير .. وإن ظهور عالمٍ إلى حيز الوجود يكفي بحد ذاته دليلاً على إمكان إيجاد عالمٍ آخر كذلك .

وإنه لطالما يتمكن شرار الناس من احتلال مراكز الشرف والكبرياء في العالم الراهن .. غير أن ذلك ليس إلا لحين انقضاء فترة الامتحان المحددة ، فإذا انتهت فترة الامتحان ، وتكوّن العالم الأبدي الكامل على أنقاض هذا العالم ، فإنما ستقع هناك كل ألوان العزة والراحة في نصيب أولئك وحدهم ، الذين كانوا خلال فترة الامتحان الحالية عباداً أوفياء مخلصين لله حقاً.

وقد ورد هذا المعنى أيضاً في الزبور - وهو يُعرف عند أهل الكتاب اليوم بسفر «المزامير» - بشيء من التفصيل.. وهاك عبارة من الإصحاح السابع والثلاثين ، وهي تقول : «لا تغرْ من الأشرار ، ولا تحسد عمال الإثم ، فإنهم مثل الحشيش سريعاً يُقطعون ، ومثل العشب الأخضر يذبلون .. اتكل على الرب ، وافعل الخير ، (فهو) يخرج مثل النور برَّك ، وحقَّك مثل الظهيرة .. لأن الرب يحب الحق ، ولا يتخلى عن أتقيائه ؛ إلى الأبد يُحفظون .. أما نسل الأشرار فينقطع ، الصديقون يرثون الأرض ، ويسكنونها إلى الأبد»!!

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا

تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ .

آذَنتُكُمْ : أعلمتكم ما أمرت به .

عَلَى سَوَاءٍ : مستوين جميعا في الإعلام به .

وَإِنْ أَدْرِي : وما أدري وما أعلم .

فِتْنَةٌ لَّكُمْ : امتحان لكم .

إن كل الأنبياء المرسلين من عند الله - سبحانه وتعالى - إنما بُعثوا لغاية واحدةٍ ليس إلا .. حيث كان الله تعالى يريد من خلالهم جميعاً تزويد البشر بعلم الحقيقة الذي يجعلهم - إن هم أخذوا به وساروا على ضوئه - أهلاً لسكنى الجنان الأبدية .. غير أن البشر مازالوا يرفضون الأنبياء والرسل الواحد تلو الآخر .. وعلى هذا فقد كان سائر أنبياء الله رحمةً من الله للخلق .. وإنما تكمن ميزة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في أن الله تعالى جعل منه وسيلةً لعنايةٍ خاصةٍ بعباده ، وهي أن الله تعالى قرر أن يفتح بواسطته - عليه الصلاة والسلام - باب الهداية ذاك ، الذي كان قد ظل مغلقاً ولهذا السبب قضى الله بالنسبة إلى أمته المدعوة قضاءً حتمياً خاصاً بإرشادها إلى طريق الحق على أية حالٍ .. ذلك لكي تقف إلى جانب الرسول جماعة مؤمنة قوية تقوم بتفجير ثورةٍ في العالم ؛ تغير مجرى التاريخ ! ومن نافلة القول أن شرع الرحمة الإلهية الخاص هذا ، قد تحقق على يد النبي العربي وأصحابه الكرام على نحوٍ أتم وأكمل ما يكون!

سورة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝ ﴾ .

زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ : أهوال القيامة وشدائدها.

تَذْهَلُ : تغفل وتشغل لشدة الهول .

مَّرِيدٍ : متمرد عان متجرد للفساد.

تَوَلَّاهُ : اتخذه وليا وتبعه .

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ هذه العبارة تبين أهوال القيامة بلغة التمثيل .. أي سيصل أمر الناس يومئذٍ إلى أنه لو كانت هناك مرضعة ، ذهلت عن الرضيع في أحضانها لما ينتابها من هولٍ مروعٍ ، وإن كانت ثمة حامل ، سقط حملها من شدة الفزع الطارئ عليها!!

والزلازل التي تقع في عالمنا الراهن هي صورة صغيرة جداً لحادث القيامة .. وأما إذا جاء زلزال القيامة العظيم، فسوف لا يلبث المرء أن ينسى كل شيءٍ كان اهتمامه به وإقباله عليه قد أنساه يوم القيامة ، وهو لا يكاد يذكر ساعتئذٍ حتى أحب الأشياء لديه

في الحياة الدنيا !!

إن كلام النبي يرتكز على أساسٍ من العلم .. وهو يُوضحه ويثبته بأدلةٍ وبراهين قاطعةٍ.. غير أن الذين يأبون عن الاعتراف بوجود حقٍ ما خارج ذواتهم ، يثيرون حول كلام النبي جدلاً كاذباً ، ليتظاهروا بأنهم على الحق أو باحثون عن الحق على أقل تقديرٍ .. إن موقفاً كهذا بمثابة التمرد على الله .. والذين يعتمدون على مثل هذا الجدال بالباطل ، تبريراً لعدم اعترافهم بالحق ، كأنما هم جعلوا من الشيطان مستشاراً لهم ، ويقيمون بذلك الدليل على أن أفئدتهم خالية من خوف الله كل الخلو .

إن نفسية اللاخوف تجرد المرء من صلاحية معرفة الحق والاعتراف به .. وهو يصبح أداة «طيعةً» في يد الشيطان يستخدمها كما يشاء .. ومثل هذا الشخص لن يوقظه شيء سوى هدير القيامة الرهيب ؛ إلا أن زلزلة القيامة إنما تأتي لتفتح لأمثال هؤلاء العتاة المتمردين أبواب جهنم ، لا لتقودهم إلى طريق الهداية !

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧ ﴾

نُّطْفَةٍ : مَنيّ .

عَلَقَةٍ : قطعة دم جامدة .

مُضْغَةٍ : قطعة لحم قدر ما يمضغ

مُخَلَّقَةٍ : مستبينة الخلق مصورة .

لِتَبْلُغُوا : كمال قوتكم وعقلكم .

أَرْذَلِ الْعُمُرِ : أخسه ، أي الخوف والهرم .

هَامِدَةً : ميتة يابسة قاحلة .

اهْتَزَّتْ : تحركت بالنبات .

وَرَبَتْ : ازدادت وانتفخت .

زَوْجٍ بَهِيجٍ : صنف حسن نضير

إن اشتباه المرء في الحياة الآخرة إنما يرجع إلى كونه يتعذر عليه أن يفهم أن الإنسان إذا مات ، وأصبح رميماً ؛ كيف سيقوم حياً من جديد ؛ كيف سيعود الوجود الميت إلى وجودٍ نابضٍ بالحياة ؟!!

وردّ هذه الشبهة يكمن في تكوين عالمنا الراهن نفسه .. فما هذا العالم الذي نعيش فيه الآن ؟ إنه تغير حالٍ إلى حالٍ .. فالشيء الذي نطلق عليه «الوجود الحي» ، ليس في حقيقته سوى نتاج تغيرٍ طارئ على وجودٍ غير ذي حياةٍ.. إن تحليل الجسم الإنساني يدلنا على أنه يتألف من : الحديد ، والفحم (الكربون) ، والكالسيوم ، والأملاح ، والمياه، والغازات .. إلخ . وكل هذه العناصر التركيبية للوجود الإنساني جامدة ولا روح فيها .. ولكن نفس هذه العناصر غير الحية، تأخذ شكل أعضاء حيةٍ ، يتكون من مجموعها المتناسق إنسان يتحرك ويمشي .. إذن ، فما الذي يدعو إلى الدهشة أو

الاستغراب في أن يعود هذا الإنسان مرةً أخرى إلى الحياة بعد الموت ، كما قد صار حياً بعد أن كان ميتاً أول مرةٍ ؟!

وهكذا فلننظر في نبات الأرض .. إن التراب أو الأشياء الأخرى التي يتكوّن منها النبات ؛ كلها تخلو في مبدأ الأمر من تلك الخصائص التي يطلق على مجموعها اسم «النبات».. غير أن هذا «اللانبات» هو الذي يتحول إلى «نبات» ، وهذا التحول يحدث أمام أعيننا كل اليوم ، إذن فما الذي يجعلنا نستبعد وقوع هذا الحادث مرةً ثانيةً ؟!

الحقيقة هي أن ظهور العالم الأول إلى الوجود يقوم في ذاته دليلاً قاطعاً على إمكان ظهور العالم الآخر .. إنه بعد تجربة الحياة الأولى لا تعود ثمة صعوبة ما في فهم الحياة الثانية من الناحية العقلية والمنطقية!

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝ ﴾

ثَانِيَ عِطْفِهِ : لاويا لجانبه تكبرا وإباء .

خِزْيٌ : ذل وهوان .

أعدى أعداء الدعاة إلى الدين الخالص ، على اختلاف الأعصار والأمصار أولئك الذين يقوم صرح قيادتهم على أساس من الدين المغشوش .

وهؤلاء كثيراً ما يثيرون جدلاً فارغاً حول دعوة الحق ودعاته ، سعياً منهم إلى تشكيك أتباعهم في صدق الدعوة الجديدة ، وجعْلهم بالتالي يظلون آخذين بأهداب الدين التقليدي السائد ، معتقدين - كسابق عهدهم - أنه وحده الحق وما سواه باطل .

وإنما يتصدى هؤلاء لمعاداة الحق حفاظاً على كبريائهم ومجدهم الكاذب الذي يتمتعون به في ظل الدين المزعوم.. فإن اهتمامهم يكون مصروفاً نحو ذاتهم أكثر منه نحو الحق .. وأمثال هؤلاء من أشد الناس جرماً عند الله سبحانه وتعالى ، وإنهم لن يحصلوا في الآخرة على شيء سوى الخزي وعذاب الحريق !

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (١١) ﴾

عَلَىٰ حَرْفٍ : شك وقلق وتزلزل في الدين .

الناس رجلان : رجل يكتشف الدين من حيث إنه هو الحق المطلق .. وبالتالي يأخذ الدين من عقله وقلبه كل مأخذٍ.. فيسلم نفسه ويسخر وجوده كله للدين بدون أدنى تحفظٍ .. ويصير كل شيءٍ آخر سواه في نظره ثانوياً .. وهذا هو المؤمن الصادق عند الله سبحانه وتعالى .

أما الآخرون فهم الذين يربطون أنفسهم بالدين بدافعٍ سطحي أو تأثرٍ وقتي فقط ، بينما ترتبط اهتماماتهم الحقيقية بمصالحهم .. وارتباطهم هذا بالدين إنما يدوم مالم يجرّ عليهم خسارةً ما ، أو يعرّض مصالحهم لخطر الضياع.. ومن ثم فحين يحسّون بأن الدين ومصلحتهم لا يستطيعان أن يسيرا جنباً بجنبٍ ، يتمسكون بمصلحتهم الذاتية ، متخلين عن الدين بالمرة!!

وهذا الصنف الثاني من الناس هو الذي يُطلق عليه «المنافق» .. والمنافق يظل فاشلاً في الحصول على الدنيا والآخرة معاً .. وسبب ذلك أن النجاح في كلٍ من الدنيا والآخرة يتوقف على توافر شرطٍ واحدٍ ، ألا وهو تركيز الفكر .. وتلك هي الصفة القلبية التي لا تكاد تتوفر لدى الإنسان المنافق أبداً .. فإنه بسبب ميوله واهتماماته

الثنائية أو المزدوجة لا يتمكن من تركيز فكره على الآخرة ولا على الدنيا على نحوٍ تام ، وإنما يظل يتردد بين هذه وهذه ، وهكذا فلا يوفق لدفع الثمن اللازم للظفر بأي واحدةٍ منهما .. وينتهي الأمر بأمثال هؤلاء إلى أن يصبحوا رمزاً للحرمان المزدوج!

﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾

المَوْلَى : الناصر .

العَشِيرُ : المصاحب المعاشر .

التخلي عن الله يكون دوماً نتيجة الاعتماد على غير الله .. فحين ينحرف أحد الناس عن طريق الله المستقيم أو يُعرض عنه ، فإنما يرجع السبب في ذلك إلى كونه معتمداً على أي شيءٍ آخر غير الله .. و«غير الله» هذا قد يكون وثناً أو صنماً ، وقد يكون شيئاً آخر عدا الأصنام والأوثان .

على أن أحداً من دون الله في هذا العالم - كائناً من كان - لا يتمتع بشيءٍ من القدرة أو الطاقة .. ومن ثم فحين يضع المرء ثقته في الآخرين دون الله فإنه يتخلى عن القادر ذي القوة ، ويلجأ إلى شيءٍ وهميٍ لا وجود له من حيث القدرة والطاقة .. فهل هناك حماقة يمكن تصورها أشد من هذه الحماقة ؟ !!

وفوق ذلك ، فإن ارتباطك بالله واعتمادك عليه ليس مقتضى الضرورة وحدها ، بل هو مقتضى الحقيقة كذلك.. فإنه من حق الله على الإنسان .. ولذا فحين يلجأ المرء إلى الأشياء الوهمية متخلياً عن الله ، تُقدر له أضرار ذلك بصورةٍ فوريةٍ وحتميةٍ .. وأما

منافع هذا اللجوء فإنها غير عائدةٍ عليه أبداً ، لأنها هي الأخرى وهمية لا وجود لها بالفعل .

وفي دنيا كهذه ، فإن الذين أقاموا الدليل على سمو الفكر برفع أنفسهم عن البيئة المحيطة ، واكتشاف الله الحق في خضم الآلهة الباطلة .. ثم بصبغ حياتهم كلها بالصبغة الإلهية من أجل الآخرة وحدها ، هم أثمن وأغلى أرواح هذه الدنيا إطلاقاً .. وسوف يتلقاهم ربهم بحفاوةٍ وتقديرٍ ؛ بحيث يُسكنهم في عالم الجنة الكامل ، ليستمتعوا بما فيه من راحةٍ ونعيمٍ مقيمٍ إلى الأبد!

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

يَنصُرَهُ اللهُ : ينصر الله رسوله ﷺ .

بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ : بحبل إلى سقف بيته.

ثُمَّ لْيَقْطَعْ : ثم ليختنق به حتى يموت .

كَيْدُهُ : صنيعه بنفسه .

أخذت هوة الخلاف والمعارضة تتسع بين النبي ﷺ والمشركين على توالي الأيام.. حتى بدا أن رافعي راية الباطل سيقضون يوماً على حملة لواء الحق .. وهنالك نشأ في قلوب بعض المسلمين - وهم يمرون بأحوال بالغة الخطورة كهذه - تساؤل عما إذا كنا نحن على الحق ؛ فلم لا يُمدنا الله تعالى بنصره ؛ وما الذي جعله يقف على الحياد من هذا الصراع المحتدم بين الحق والباطل ؟!

فقال : إن الله ينصر الحق دائماً ولا ريب .. ولكن ليس من سنة الله أن يتدخل تدخلاً فورياً .. وإنما هو ينتظر حتى تصل الأحداث إلى حد ؛ يقوم معه الدليل القاطع على كوْن أحد الفريقين على الحق وكوْن الأخرى على الباطل .. وحين يأتي هذا الحد ، يتدخل الله في الأمر ويحسمه بدون تأخيرٍ ولا مزيد إمهالٍ .

وتلك هي سنة الله .. وينبغي للمرء أن يوطّن نفسه على قبول هذه السنة الإلهية كما هي .. إذْ لا يمكن أي شيءٍ آخر سواها في هذا الكون .. وكل طريق لا يتفق وهذه السنة يقود إلى الموت وليس إلى الحياة!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

وَالصَّابِئِينَ : عبدة الملائكة أو الكواكب .

ذكرت هذه الآية ست طوائف دينية :

- المسلمين (وهم الذين آمنوا برسالة النبي العربي ﷺ) .

- اليهود (المنتسبين إلى سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام) .

- الصابئة (وهم قوم كانوا يؤمنون - على حد بعض الأقوال الواردة فيهم - بسيدنا يحيى - عليه الصلاة والسلام) .

- النصارى (وهم المنتسبون إلى ملة عيسى عليه السلام) .

- المجوس (وهم أتباع زرادشت) .

- ومشركي مكة (وهم الذين كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم - عليه السلام) .

وقد كان هؤلاء جميعاً موحّدين في البداية .. ولكنهم لم يلبثوا أن أفسدوا دينهم ..

وهم الآن قائمون على هذا الدين الفاسد .. أما المسلمون فبالإمكان أن يصير حالهم مثل الطوائف الضالة الأخرى تماماً .. فإن المسلمين ، وإن كان كتابهم (القرآن) لا يزال محفوظاً ، ولكن ليس ثمة ما يمنعهم في عالم الامتحان هذا من أن يتخذوا ديناً مزعوماً بتأويل القرآن والسنة على هواهم ؛ ويحسبوا ، وهم متمسكون بدينهم المزعوم ذاك ، أنهم على دين الله!!

إن دين الله الحقيقي واحد لا غير .. إلا أنه يتحول إلى ألف دينٍ ودينٍ نتيجة التفسيرات البشرية .. ومن ثم فحين يكون الناس على دين الله الحق ، تزدهر بينهم الوحدة .. وأما إذا أخذ الناس في اتباع الدين المزعوم ، حل الشقاق محل الوحدة ، وثارت بينهم خلافات دينية شتى .. وهذه الخلافات لا تزال تتفاقم وتزداد حدةً وعمقاً إلى غير نهايةً ، ولا تكاد تعرف حداً تقف عنده .. بيْد أن الله – سبحانه وتعالى – يحيط علماً بأحوال كل شخصٍ ، وأخبار كل طائفةٍ .. وهو تعالى سيكشف القناع في يوم القيامة عمّن كان على الحق ومَنْ كان على الباطل !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨) ﴾

يَسْجُدُ لَهُ : يخضع له وينقاد لإرادته تعالى.

حَقَّ عَلَيْهِ : ثبت ووجب عليه .

إن لله قانوناً سنّه لبقية الكون تماماً كما جعل الله قانوناً معيناً لبني الإنسان. وإن الكون كله يسير على قانون الله بمنتهى التوافق والانسجام ، وبدون أي اعتراضٍ ولا اختلافٍ .. إنما هو الإنسان وحده الذي يثير صنوف الاعتراضات والخلافات .. ويتبع

سبلاً جديدةً باختلاق تفسيرات مزعومةٍ شتى للقانون الإلهي .

وإنهم لمن أكابر المجرمين عند الله ؛ الذين يُحدثون الخلافات في دين الله .. فإنهم يريدون أن يعيشوا ((مختلفين)) في كون منسجم ((غير مختلفٍ)) .. وهم مشغولون بوضع ((أديانٍ عديدةٍ)) في عالم يُلقنّ في كل أنحائه درس ((الدين الواحد)) على أوسع وأشمل نطاقٍ !

إن كون الله مظهر عملي لمرضاة الله .. والذين يسيرون على عكس هذا الأنموذج العملي الذي أقامه الله تعالى، فإنهم يبرهنون اليوم على استحقاقهم للعذاب الإلهي .. وإنما ستأتي القيامة لتعلن إعلاناً لفظياً عن تلك النتيجة التي يتم إعلانها العملي في العالم الراهن كل حينٍ وآنٍ !!

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾

خَصْمَانِ : المؤمنون وسائر الكفار .

الحَمِيمُ : الماء البالغ نهاية الحرارة .

يُصْهَرُ بِهِ : يذاب به .

مَّقَامِعُ : مطارق أو سياط .

إن الطوائف البشرية - حسب التقسيم الإجمالي - نوعان : أهل الحق ، ومعارضوهم. والذين يتخاصمون مع أهل الحق في العالم الراهن ، ربما يحسبون أنهم

يستندون على جبلٍ من الأدلة والبراهين .. غير أنه ليس إلا عدم جديتهم الذي يجعلهم ينظرون إلى جدالهم العقيم على أنه معارضة الدليل بالدليل .. وبما أنهم لا يريدون الاعتراف بالحق إطلاقاً، يثيرون حوله ضروباً من النزاعات الباطلة . وأمثال هؤلاء سيلقون في الآخرة عاقبة عَدم اعترافهم عذاباً شديداً لن يجدوا منه مهرباً إلى الأبد!

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾

صِرَاطِ الحَمِيدِ : الإسلام الذي ارتضاه لعباده .

إن التعرف على صدق الإيمان عمل صعب جداً ؛ ولا سيما في بيئةٍ تروج فيها بضاعة الألفاظ الخادعة والأفكار المموهة .. وحيث يتمتع بالغلبة والسيادة المنحرفون عن جادة الحق .. وأشد من ذلك صعوبةً أن تأخذ نفسك عملياً باتباع طريق الإيمان هذا .. إنهم أناس كُتب لهم التوفيق لتلقي «القول الطيب» وسط ضجيج من الأقوال الصاخبة .. والذين وقعت أبصارهم على «صراط الحميد» في خضم السبل الملتوية الكثيرة فعرفوه .. وإن الذين يقيمون الدليل على هذه الكفاية العظيمة في هذا العالم ، هم أثمن وأغلى أفراد البشرية .. وهم جديرون حقاً بأن يتم إسكانهم في الجنان الأبدية !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ ﴾

وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ : مكة (الحرم) .

العَاكِفُ فِيهِ : المقيم فيه الملازم له .

وَالْبَادِ : الطارئ غير المقيم .

بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ : بميل عن الحق .

إن أحد الأمثلة على إنكار الحق هو الذي شهدته مكة القديمة إبان فجر الدعوة الإسلامية .. حيث لم يتحمل أهلها حتى أن يقوم رسول الله ﷺ بالدعوة والتبليغ بطريقةٍ سلميةٍ للغاية .. وفرضوا عليه قيوداً شتى وضيقوا عليه الخناق .. وجعلوا منه ومن أصحابه - عليه الصلاة والسلام - عرضةً للظلم والعدوان بغير حقٍ .. وأوغلوا في الظلم إلى حد أنهم منعوه وأصحابه عن دخول المسجد الحرام!!

وسلوك أهل مكة هذا كان إضافة الطغيان إلى جانب الإنكار .. وأمثال هؤلاء الطغاة الظالمين ينتظرهم عند الله عذاب شديد ؛ سواء أكانوا ظالمي الماضي أو الحاضر ، وسواء أكان طغيانهم يتصل بالمسجد الذي بناه سيدنا إبراهيم أو بذلك "المسجد الفسيح" الذي أنشأه الله في صورة الأرض لعباده أجمعين!

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾

بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ : وطأنا . أو بينا له .

أمر الله تعالى سيدنا إبراهيم أن يذهب إلى منطقة الحجاز غير المأهولة ، ويسكن ذريته هناك. وقد كان الغرض من هذا الإسكان في منطقةٍ نائيةٍ غير مأهولةٍ ، أن ينشأ جيل جديدٍ في مناخٍ فطري بسيطٍ بعيداً عن آثار الشرك والوثنية .

وتبعاً لهذه الخطة الإلهية أسكن سيدنا إبراهيم ذريته في مكة التي كانت غير مأهولةٍ بالمرة حينذاك .. كما قام سيدنا إبراهيم - إلى جانب ذلك - ببناء مسجدٍ وهو الكعبة ، ليكون لهذا الجيل الجديد - وبالتالي للعالم أجمع - مركزاً لعبادة الله الواحد الأحد!!

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

وَأَذِّن فِي النَّاسِ : ناد فيهم وأعلمهم .

رِجَالاً : مشاة على أرجلهم .

ضَامِرٍ :بعير مهزول من بعد الشقة .

فَجٍّ عَمِيقٍ : طريق بعيد .

بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ :الإبل والبقر والضأن والمعز .

لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ : ثم ليزيلوا بالتحلل أوساخهم أو ثم ليؤدوا مناسكهم .

لقد كان الغرض من بناء الكعبة أن تكون مركزاً لعبادة الله الواحد للعالم أجمع .. وقد تحقق هذا الغرض على أكمل وجهٍ .. وإن المناسك التي يؤديها الحاج هنا ، تم بيانها في القرآن الكريم بإيجازٍ وفي السنة النبوية بكل دقةٍ وتفصيلٍ .

ومعنى قوله :﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ أن يشاهدوا هناك فوائد الدين بالفعل ، تلك التي يسلمون بها كعقيدةٍ.. فإن الأماكن التي يزورها الحاج يرتبط بها تاريخ مجيد لدين

الله .. ومن ثم تتسبب زيارتها في إلانة قلوب الزائرين وإرهاف مشاعرهم .. ويجتمع المسلمون هناك من أقطار العالم كافة ، وهكذا يتجلى للعيون ظاهراً ما يتمتع به الإسلام من امتدادٍ ونفوذٍ دولي .

واجتماع الحج السنوي يكون باعثاً على إيجاد الوحدة وتمتين روابط الإخاء والتآلف بين المسلمين على المستوى العالمي .. كما يكتسب المرء خلال رحلة الحج هذه تجارب دينيةً ودنيويةً كثيرةً ، وهي بدورها تكون خير مِعوانٍ له على بناء الحياة .. وما إلى ذلك من المعاني السامية والفوائد الجليلة التي لا يتسع المقام لحصرها هنا!

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾

حُرُمَاتِ اللهِ : تكاليفه من مناسك الحج وغيرها .

الرِّجْسَ : القذر والنجس وهو الأوثان.

قَوْلَ الزُّورِ : قول الباطل والكذب القبيح .

ما هو الحلال وما الحرام ؟ وأي شيءٍ يستحق التقديس ، وأي شيءٍ لا يستحق التقديس ؟ ، وما الطرق الصحيحة للعبادة ، وما الطرق الخاطئة؟ كل ذلك مما بيّنه الله - سبحانه وتعالى - على ألسنة أنبيائه ورسله بوضوحٍ تامٍ .. ولا يجوز تناوله بأي نوعٍ من التغيير أو التعديل .. وكل تعديلٍ يتم إدخاله على هذه الأمور بناءً على الأهواء والآراء البشرية ، يُعتبر عند الله كذباً ، بل هو الكذب الأعظم .. إذن فيجب على الإنسان أن يقف في هذا الخصوص عند تعاليم الأنبياء ويتمسك بها حرفياً، ولا يزيد فيها أو ينقص منها شيئاً على أية حالٍ.

إنها أمور لا يعرف حقيقتها إلا الله سبحانه وتعالى .. وحين يقول المرء عنها شيئاً من

عند نفسه ، فإنه يدّعي العلم بشيءٍ لا علم له به إطلاقاً .. ومن الظاهر - والحالة هذه - أن هذا كذب ، بل هو كذب ليس بعده من كذبٍ أعظم منه!

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

حُنَفَاءَ لله: مائلين عن الباطل إلى الدين الحق .

تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ : تسقطه وتقذفه .

مَكَانٍ سَحِيقٍ : موضع بعيد مهلك .

إن القوة المركزية في هذا الكون واحدة لا غير .. ألا وهي ذات الله الواحد الأحد الفرد الصمد .. فمن ربَط نفسه بالله ، فقد حصل على مستقرٍ حقيقيٍ له ، وارتكز على أرضيةٍ صلبةٍ .. وعلى نقيضٍ من ذلك فمن لم يربط نفسه بالله ، أو هو يقر بوجود الله بمحض لسانه ، بينما يقيم علاقته القلبية بأحدٍ سواه ، فكأنه مقطوع الصلة بالمركز الذي ليس ثمة مركز آخر عداه لهذا الكون .. ومثل هذا الشخص كمثل الذي صوّرته هذه الآية الكريمة أبلغ تصويرٍ!

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾

شَعَائِرَ اللهِّ : الأنعام المهداة للبيت المعظم .

مَحِلُّهَا : وجوب نحرها .

إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ : منهية إلى أرض الحرم كله .

كلمة «الشعيرة» تعني : العلامة (Symbol) .وإن العبادات التي شرعها

الإسلام لها جانبان : ظاهري وباطني .. أما الجانب الباطني فهو أصل العبادة وجوهرها .. وأما الجانب الظاهري فهو علامة (شعيرة) على الجانب الباطني .. والشعائر التي قررها الله - سبحانه وتعالى- ولا نستطيع الوفاء بحقها بأن نعظمها تعظيماً شكلياً ظاهرياً فقط ، بل لابد لتأدية حقّها من تقوى القلوب ..

ومن شعائر الله حيوانات الهدْي والنذور .. وهي بدورها تمثل علامةً على حقيقةٍ ، وليست حقيقة في حد ذاتها.. وليس مما يسر الله ويقع عنده موقع الرضا أن نصبغ هذه الأضاحي والهدايا بفاقع الألوان ، أو نتجنب الركوب على ظهورها ، ولا ننتفع بها أية فائدةٍ.. وإنما يكمن رضا الله - سبحانه وتعالى - في ألا نعمل عملاً ما إلا خالصاً لوجهه الكريم .. فإن العبرة عند الله بالحالة القلبية ، وليس بالحالة الشكلية الظاهرية!

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

مَنسَكاً : نسكا وعبادة (الذبح قربة لله) .

وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ : المطمئنين إلى الله أو المتواضعين له .

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ : خافت هيبة وإجلالا منه تعالى .

هناك نفسيتان تتولّدان في داخل المرء إزاء ما يحصل عليه في هذا العالم من المنتوجات؛ زراعيةً كانت أو حيوانيةً أو صناعيةً .. أولاهما : هي أنها نتيجة كدْحي أنا ، أو أنها بركة الآلهة والمعبودات .. وهذه نفسية وثنية مشركة تماماً .

أما النفسية الثانية : فهي أن يعتبر المرء كل ما يحصل عليه هبةً من الله .. وتمثل الزكاة والعشر والتضحية أساليب محددة للتعبير الخراجي عن هذه العاطفة الداخلية .. حيث

ينذر المرء جزءاً مما كسبه في سبيل الله ، فيقر بذلك إقراراً عملياً بأن كل ما يتوفر لديه إنما هو من عطايا الله ، وليس نتاج كدْحه هو .

ولو أن الإنسان عرف ربه حق المعرفة ، لطرأت على قلبه بعدئذٍ تلك الحالة التي أطلق عليها هنا «الإخبات» ، فمثل هذا الشخص يتوجه بكيانه كله إلى الله ، وتغمره كيفية العجز والتواضع والخشوع .. ويرتعد فؤاده بتصور جلال الله وعظمته .. وهو يأخذ ينظر إلى كل شيءٍ على أنه ملك الله ، وليس ملكه الذاتي!!

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وَالْبُدْنَ : الإبل . أو هي البقر المهداة للبيت .

شَعَائِرِ اللهَّ : أعلام شريعته في الحج.

صَوَافَّ : قائمات صففن أيديهن .

وَجَبَتْ جُنُوبُهَا : سقطت على الأرض بعد النحر .

وَأَطْعِمُوا القَانِعَ : السائل .

وَالْمُعْتَرَّ : الذي يتعرض لكم دون سؤال.

لو لم تكن هناك البهائم والأنعام كالإبل وغيرها على الأرض .. وإنما وُجدت الأسود والدببة والذئاب وحدها ، لواجه الإنسان صعوبةً كبيرةً في تسخيرها واستخدامها .. وإن هذه لمنة من الله عظيمة أنه لم يخلق الوحوش والسباع المفترسة

فحسب ، بل خلق - إلى جانب ذلك - حيواناتٍ تنقاد لإرادة الإنسان وتمكنه من نفسها بصورةٍ جبليةٍ .. وحين يقوم الإنسان بذبحها للغذاء أو التضحية ، تبلغ طبيعة الانقياد المودعة في فطرتها إلى أقصى الحدود!

وإن الله - سبحانه وتعالى - لم يشرع التضحية لكونه في حاجةٍ إلى اللحم والدم إذْ أن التضحية ليست سوى عملٍ رمزيٍ .. والتضحية بالحيوان صورة ظاهرية للإنسان الذي يكون قد ذبح نفسه لله .. إنها في الحقيقة ((ذبيحة النفس)) التي تتجسد في ((ذبيحة الحيوان)) .. والسعداء هم الذين تصير التضحية بالحيوان عندهم بمثابة التضحية بالنفس!!

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ﴾

خَوَّانٍ كَفُورٍ :خائن الأمانات جاحد النعم .

صَوَامِعُ :معابد رهبان النصارى.

وَبِيَعٌ : كنائس النصارى.

وَصَلَوَاتٌ : كنائس اليهود .

وَمَسَاجِدُ : للمسلمين .

إن عبداً من عباد الله ، أو حزباً من الأحزاب إذْ يتبع سبيل الله ، فلا يعود وحيداً في

هذه الدنيا ؛ فحين يتخذ الغافلون والطغاة منهم عرضةً لظلمهم وعدوانهم يقف الله إلى جانبهم ..والله – سبحانه وتعالى – يمتحن أول الأمر المؤمنين بل ويمحص قلوبهم ..والذين يقيمون الدليل على إخلاصهم عبر هذا الامتحان ينصرهم الله حتماً ، ويخلق لهم ظروفاً تمكنهم من الثبات على جادة الحق والوفاء بمقتضياته رغم كل العوائق والصعوبات .

وإن إقدام أهل الإيمان الحقيقي هو الدعوة ليس غير .. فهم يبدؤون نشاطهم بالدعوة ، ولا يزالون قائمين بالدعوة وحدها على طول الخط .. وقد يقومون تارةً بالحرب كذلك عند الضرورة ، ولكن حربهم تكون دوماً للدفاع دون الاعتداء .

ولو أن طائفةً ما ظلت قابضةً على زمام الحكم والسلطة لمدةٍ من الزمن طويلةٍ ، أصابها البطر والطغيان والغرور.. ولذلك سن الله – سبحانه وتعالى – قانون «الدفع» في هذا العالم .. حيث إنه تعالى لا يزال ينحي طائفةً عن مركز السلطة بيد طائفةٍ أخرى حيناً بعد حينٍ ، وهكذا يبقى التوازن السياسي مستمراً عبر الأجيال .. ولو لم يفعل الله ذلك لاشتد عناد الناس وبلغ طغيانهم حداً لن تسلم معه من أيديهم المشغولة بالهدم والتخريب حتى المؤسسات المقدسة كدور العبادة !!

وهناك أسلوبان لهذا الدفع .. أولهما : أن يتم القضاء على هيمنة طائفةٍ ما بصورةٍ مطلقةٍ .. وأحد الأمثلة لذلك بريطانيا ؛ التي قُضي على ما كان لها من هيمنةٍ ونفوذٍ واسعين بواسطة حركات الاستقلال الوطني .

والأسلوب الثاني : هو الذي رأينا مثالاً له خلال الحرب الباردة بين الكتلة الشيوعية (المتمثلة في الاتحاد السوفيتي) والكتلة الرأسمالية الإمبريالية (المتمثلة في الولايات المتحدة) ، وهو يتلخص في الحدّ من طغيان قوةٍ بأخرى حفاظاً على التوازن في ساحة السياسة الدولية!

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾

الشرط الأساسي لاستحقاق نصرة الله هو أن يكون الإنسان بحيث إذا حصل على السلطة لم يبطر .. وإذا نال الرفعة والكبرياء لم يزده ذلك إلا شعوراً بالعجز والتواضع .. والذين يقيمون الدليل على صلاحهم هذا في أحوال ما قبل الحصول على السلطة ؛ أولئك وحدهم يمكن أن يظلوا صالحين مستقيمين في أحوال ما بعد الحصول على السلطة كذلك .. وهؤلاء هم الذين إذْ يتم تمكينهم من السلطة، يخضعون لله ، ويقومون بتأدية حقوق العباد خير قيامٍ .. ويتصرفون في كل شأنٍ من شئون الحياة بحسب ما يرضاه الله ، ويتجنبون كل ما لا يرضاه الله من قولٍ وفعلٍ !

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾

وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ : قوم شعيب عليه السلام.

فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ : أمهلتهم وأخرت عقوبتهم.

كَانَ نَكِيرِ : إنكاري عليهم بإهلاكهم .

المراد بالذين «كذبوا إبراهيم وموسى وغيرهما من الأنبياء» هم معاصروهم ، وليس الذين كانوا في عصر نزول القرآن ؛ فإن كل الناس في ذلك العصر كانوا يدّعون الإيمان بأولئكم الأنبياء الكرام - عليهم صلوات الله وسلامه .

وتلك هي قصة جميع الأنبياء والمرسلين .. حيث كذبهم معاصروهم ، بينما رفعهم

اللاحقون إلى مقام العظمة والجلال والقدسية .

ومن هذا ندرك مَنْ هم المؤمنون بالرسول حقاً .. إن المؤمنين بالرسول في الحقيقة هم الذين يتعرفون على ((رسول الدعوة)) .. وأما الذين يتعرفون على ((رسول المجد)) وحده ، فإنهم مؤمنون بالتاريخ وليسوا حقيقةً مؤمنين برسول الله !

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾

فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ : فكثير من القرى .

خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا : ساقطة حيطانها على سقوفها االمتهدمة .

وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ : مرفوع البنيان خال من سكانه.

المُبصرون عند الله هم الذين ينظرون إلى الأشياء بعين التذكر والاعتبار.. أما الذين يشاهدون الوقائع ولا يتعظون بها ؛ فإنهم عند الله عميان .. ورؤيتهم رؤية الحيوان ، وليست رؤية الإنسان .

ولقد بثّ الله - سبحانه وتعالى - عبراً لا تحصى فوق الأرض .. منها المآثر والتذكارات القديمة التي خلّفتها الأمم الغابرة في هذه الدنيا .. وقد كانت تلك الأمم على ذروةٍ سامقةٍ من المجد والسلطان في يومٍ من الأيام .. ولكن لم تعد هناك علامة على وجودها اليوم سوى هذه الأطلال والخرائب المحطّمة!!

وهذه الواقعة تذكر كل إنسانٍ بمصيره المحتوم .. ولكن الناس إذا فقدوا ((عين القلب)) فإن ((عين الرأس)) لا تعود تُريهم شيئاً معبِراً ذا معنىً!.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾

أَمْلَيْتُ لَهَا : أمهلتها.

إن شخصاً أو أمةً ما لابد وأن تتعرض لمؤاخذة الله إذا هي عتت عن أمره تعالى وتمردت عليه .. غير أن الله لا يعجل بالمؤاخذة أبداً .. وقد يمكن أن يعود الإنسان فارغ الصبر في يومٍ واحدٍ ، ولكن الله تعالى لا يستنفذ حلمه وصبَره .. حيث إنه تعالى يرى الناس يقترفون شتى الآثام والذنوب وينتهكون محارمه ، ثم هو يُمهلهم - مع ذلك - لمدةٍ من الزمن طويلةٍ ؛ لكي يقوموا بإصلاح أنفسهم إن أرادوا الإصلاح .. وإن الله لا يؤاخذ فرداً أو شعباً ما إلا إذا هو أقام الدليل على إجرامه بصورةٍ قاطعةٍ .. وقد عامل الله السابقين هذه المعاملة .. وسوف يعامل الله اللاحقين بدورهم وفق سنته هذه!

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾

مُعَاجِزِينَ : ظانين أنهم يعجزوننا ويفوتوننا .

إن قضية الإنسان المصيرية هي أنه سيصل بعد الموت إلى عالمٍ حيث يُتاح للمؤمنين الصالحين راحة أبديّة ونعيم مقيم .. وللذين رفضوا الحق ووقفوا إزاءه موقف العناد والطغيان عذاب النار الأبدية .

وإن إنذار الناس بهذا اليوم القادم هو هدف الدعوة الإسلامية الحقيقي .. وطبيعة

العمل هذه توضح أن الواجب الرئيسي الملقى على عاتق الداعي ينحصر في الإعلام والإنذار وحسب.. وأما ما وراء ذلك فمرجعه إلى الله ، وهو وحده يقدر على البت في الأمر وتحديد مصيره النهائي ، كما يشاء !

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

تَمَنَّى : قرأ الآيات المنزلة عليه .

أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ : ألقى في قلوب أوليائه الشبهة فيما يقرأه للفتنة .

فَتُخْبِتَ لَهُ : فتطمئن وتسكن للقرآن .

إن الداعي إلى الحق ، سواء أكان نبياً أم غير نبي ، يحدث معه دائماً أنه حين يقوم بإعلان أمر الله ، يتلمس المعاندون ألواناً شتى من العيوب والمطاعن في كلامه لكي يشككوا بها الناس في صدقه .

ومثل هذه المطاعن تكون دوماً باطلةً لا تستند على أساسٍ من الصحة .. وهي حين تثار تسنح للداعي الفرصة لمزيد من البرهنة على أحقية كلامه بتسليط الضوء الكاشف على بطلانها.. مما يزيد المخلصين يقيناً إلى يقينهم .. وتصبح صلتهم بالله أقوى وآكد من ذي قبل.. وأما الذين تخلو قلوبهم من الإخلاص ، فإن هذه المطاعن تصير فتنةً لهم، فتبهرهم بطلانها وتُبعدهم عن الحق .. وقوله : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ

صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ يعني ، أن الجادّين بشأن الإيمان حق الجدية ، لا يتأثرون أبداً بالدعايات الكاذبة ، ولا ينخدعون بطلاسم الألفاظ البراقة .. حيث يصبح الإيمان بالنسبة إليهم علماً يسبرون معه أغوار كل أمرٍ ، ولا يدعهم يتعلقون بالقشور وظواهر الأمور !

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ ﴾

مِرْيَةٍ مِّنْهُ : شك وقلق من القرآن .

يَوْمٍ عَقِيمٍ : لا يوم بعده (يوم القيامة) .

ظل المشركون دوماً أسرى الشكوك والشبهات ؛ لأنهم يريدون رؤية الحق عبر الأمجاد الظاهرية ، وأما سنة الله فقد جرت بعرض الحق على الناس في صورةٍ مجردةٍ ، لكي يتعرف عليه وينضوي تحت رايته ذوو البصر العارفون بالحقيقة .. ويقيم السطحيون - الذين لا يرون غير المظاهر - الدليل على إجرامهم بتجاهله وإهماله .

و«تكذيب الآيات» هو أن يتجاهل المرء الحق الذي يظهر على مستوى الدليل ..وألا يرضى بقبول الصدق يتجلى أمامه في صورته المجردة!

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾

مُّدْخَلاً : الجنة . أو درجات رفيعة .

إن المؤمن المخلص في إيمانه يستعدّ للتضحية بكل شيء آخر عدا الإيمان .. فإنه لا يستعدّ للتضحية به على أية حالٍ .. فهو يترك وطنه فيما لو اضطُر إلى تركه في سبيل الإيمان.. ولا يبالي بأن يقع قتيلاً وهو يدافع عن الإيمان، وبالجملة فإنه يظل متمسكاً بالإيمان ، مربوطاً برباطه على مدى الحياة ، إلى أن يلفظ آخر أنفاسه !

والذين يقيمون الدليل في الحياة الدنيا على مثل هذا الإخلاص للإيمان والتفاني في سبيله وبذل النفس والنفيس من أجله ، فإن الله سيشكر لهم ويقدر عملهم بحيث يمنحهم أثمن أشياء الآخرة ، وهي الجنة ، التي سيعيشون فيها خالدين حياةً سعيدةً هانئةً إلى الأبد!

﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ : ظلم بمعاودة العقاب .

إن أهل الإيمان كانوا قد أمروا بأن يتخذوا منهج الله الغفور الرحيم منهجاً لهم في الحياة .. فهو تعالى لا يزال يعفو ويصفح عن عباده رغم إساءتهم وبغيهم ، ومن ثم فقد كانت جماعة الصحابة الكرام – رضى الله عنهم أجمعين – متحليةً على العموم بهذه الأخلاق الرّبانية .. حيث كانوا يصبرون على الأذى والظلم يقع عليهم .. ويتجاوزون عن الشتائم والكلمات الاستفزازية توجّه إليهم .. على أن هناك مواقف عديدةً قام فيها بعض المسلمين بردّ العدوان بمثله بدافع الانتقام الفوري وسبّبوا بعض الخسائر لمن كبّدهم خسائر فادحةً في الأموال أو الأرواح .. وقد جعل الأعداء من هذا ذريعةً للدعاية المكثفة ضد المسلمين .. وقد نسي هؤلاء أو تناسوا أعمالهم العدوانية بالمرة ،

وباتوا يشوهون سمعة المسلمين بتضخيم مواقفهم العادية واعتبارها ظلماً وعدواناً !!

وسيلقى هؤلاء عاقبة ظلمهم عذاباً شديداً ، ولن تستطيع دعاياتهم الكاذبة كهذه أن تضر أهل الحق أو تنال منهم شيئاً !

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٦٢ ﴾

يُولِجُ : يدخل .

إن نظام الكون يلقّن الإنسان درساً عظيماً بلسان الصمت .. فيحدث هنا كل يوم أن الليل يغشى النهار بظلامه ، ثم يعقبه النهار المضيء فيقضي بدوره على ظلام الليل .. إنه إعلان كوني ، بلغة التمثيل ، عن هذه الحقيقة القائلة بأن طائفةً ما إن كانت تتمتع بمظاهر الأبهة والسلطان ، فينبغي لها ألا تغتر بأن سلطانها لن يزول أبداً .. وهكذا فإن كانت هناك طائفة ما مقهورةً ومظلومةً فليس لها أن تظن أنها هي الأخرى ستبقى مظلومة ومقهورةً بقاء الدهر .

فإن الله الذي يتحكم في عالم الأفلاك بتحويل النور إلى الظلام تارةً وإحلال الظلام محل النور تارةً أخرى، هو قادر على إحداث وقائع من هذا النوع في عالم البشر كذلك .. وليس ثمة قوة تحول دون فعل الله هذا ، فهو الفعال لما يريد .. وإذا أراد شيئاً أن يكون ، قال له: كن فيكون !

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ۝٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝٦٤ ﴾

إن الله – سبحانه وتعالى – يعرض علينا مشهداً معبراً كل عام ، وهو مشهد الأرض إذْ يصفر نباتها ويتهشّم لشدة حرارة الصيف ، وتبدو تربتها قاحلة مجدبة،كأنها لم يعد فيها أي إمكانٍ للحياة .. ثم يهطل المطر، فإذا بها تنتعش وتمتلئ نباتاً آخر وزهوراً وثماراً مختلفة الألوان والروائح والطعوم!!

إن هذا نموذج من قدرة الله يتم إظهاره على المستوى المادي كل سنةٍ .. إذن ، فهل يعجز الله أو يصعب عليه أن يظهر معجزةً مماثلةً على المستوى الإنساني كذلك؟ كلا !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

إن كل الأشياء فوق الأرض لا تزال محتفظةً بتوازنٍ خاص في داخلها بصورةٍ مستمرةٍ .. ولو اختل هذا التوازن لسببٍ من الأسباب لانقلبت الأشياء ضارةٍ بدلاً من أن تكون نافعةً .. وإذا نحن ألقينا بقطعةٍ من حديدٍ في إناءٍ مملوءٍ بالماء استقرت في قاع الإناء على الفور .. ولكن الله جعل الماء خاضعاً لقانونٍ خاصٍ ، وهو الذي يمكن السفن المتخذة من الحديد أو الخشب أن تطفو فوق الماء دون أن تغرق فيه .. وهناك كواكب ونجوم لا حصر لها تدور في الفضاء الفسيح ؛ ينبغي لها – على ما يبدو – أن تقع على الأرض .. ولكنها لا تزال معلقةً في الفضاء تتحرك في مداراتها المعينة وفق نظامٍ دقيقٍ خاصٍ .

وإن الإنسان لم يخلق نفسه بنفسه .. وإنها خلقه الله – سبحانه وتعالى – ثم أسكنه في عالم كله رحمة له.. ولكن الإنسان قد أصبح ، بسبب الحرية المتاحة له ، عنيداً وطاغياً لدرجة أنه لا يعترف بإحسان أكبر المحسنين إليه !!

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

مَنْسَكاً : شريعة خاصة أو نسكا أو عبادة .

للعبادة جانبان : أولهما : حقيقتها الداخلية .. والآخر : أسلوب أدائها الظاهري . أما الحقيقة الداخلية فهي جزء أصلي للعبادة .. وأما أسلوب الأداء الظاهري فهو جزء إضافي لها .. ولكن طائفةً ما حين تظل تمارسها مدةً طويلةً من الزمن بأسلوبٍ معينٍ ، يغيب عنها هذا الفارق الجوهري بين الجزأين .. حيث إنها تأخذ في النظر إلى الممارسة الشكلية على أنها أصل العبادة .

وهذا هو الجمود عينه .. ومن ثم فقد جرت سنة الله بأن يُدخل نوعاً من التغيير على الشريعة (الأسلوب الشكلي) التي يبعث بها الرسول القادم .. ويكون الغرض من ذلك تحطيم جمود الناس ، وإخراجهم من حالة العبودية للمظاهر والشكليات وتربيتهم على العبادة الحية.. والآن فإن الذين يعتبرون الآداب والقواعد الشكلية هي كل شيء ؛ يرفضون الطاعة للنبي الجديد .. وعلى نقيضٍ من ذلك فإن الذين يدركون حقيقة العبادة ؛ يبادرون إلى اتباع النبي والعمل بشريعته .. وهذا التغيير يبعث روحاً جديدةً في عبادتهم ، ويخرجهم من حالة الإيمان الجامد إلى حالة الإيمان الحي المتجدد!

وهذه هي الحكمة الخاصة من تنويع المناسك (أساليب العبادة) واختلافها بين نبي وآخر.. وكلما جاء نبي بمنسكٍ جديدٍ ، بدأ الجامدون على القديم المألوف في إثارة زوبعةٍ من الاعتراضات ضده .. إلا أن الله قد أمر الأنبياء والرسل بأن يركزوا كل

جهودهم على نشر التعاليم الأساسية والجوهرية وحدها ، ولا يسمحوا لمثل هذه الأمور الجانبية بالتحوّل إلى موضوع للجدل والنقاش العقيم !

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾

سُلْطَاناً : حجة وبرهانًا .

المُنكَرَ : الأمر المستقبح من العبوس والتجهم .

يَسْطُونَ : يثبون ويبطشون غيظا وغضبا .

إن الدعوة إلى التوحيد الخالص تكون دوماً أمراً لا يُحتمل لدى أولئك الذين يعبدون أنداداً آخرين غير الله الواحد ..ويتوجهون إليهم حباً واحتراماً وإجلالاً . فهؤلاء لا يكادون يسمعون نقداً يوجه إلى معبوداتهم وشخصياتهم المحببة ؛ حتى يشتعلوا غضباً .. وعجزهم عن مقاومة دعوة الحق بالدليل ، يملؤهم غيظاً وحنقاً على دعاة الحق ، لدرجة لا يلبثون معها أن يهاجموهم بغية القضاء عليهم .

وقد قيل لأمثال هؤلاء: إن موقفكم هذا موقف سخيف غير عاقل تماماً .. إنكم لا تطيقون اليوم صبراً على النقد اللفظي ، تُرى ، ماذا سيكون حالكم غداً إذ يُرمى بكم في نار الجحيم لقاء موقفكم هذا ؟ فهل تقدرون على احتمالها وتطيقون الصبر عليها ؟!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ

ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

مَا قَدَرُوا الله : ما عظموه ، أو ما عرفوه.

إن الذباب كائن تافه حقير للغاية .. ومع ذلك ليس في مقدور كل مَنْ في السموات والأرض أن يقوموا بإيجاد ذبابةٍ واحدةٍ .. إذن ، فكيف يجوز اعتبار أحد غير الله مقدساً؟!

والحق أن كل العقائد من هذا النوع نتاج تقدير بخسٍ لألوهية الله وجلاله .. فالناس رغم كونهم – مبدئياً – يؤمنون بالله ، إلا أنهم غير عارفين بعظمة الله وقدرته .. ولو أنهم آمنوا بالله كما ينبغي أن يؤمنوا به ، لبدت لهم عقائدهم تلك لغواً مثيراً للضحك والسخرية ، وبالتالي تخلّو عنها من تلقاء أنفسهم !

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

إن الخطة المعينة التي خلق الله الإنسان وأسكنه في الأرض بمقتضاها ، كانت تستوجب أن يهيئ الله أسباب هداية البشر ؛ فيدلهم على طريق الجنة ليسلكوه ، وعلى طريق النار ليجتنبوه .. ومن ثم جرت عادة الله – سبحانه وتعالى – بأن يختار من بين البشر رسلاً يبلغون عنه، وينزل عليهم كلامه بواسطة بعض ملائكته .

وعن طريق هذا التدبير يتم إبلاغ الإنسان بالحقيقة الأصلية من ناحيةٍ ، بينما يقوم الله تعالى بالمراقبة الدائمة على أعمال الناس من ناحيةٍ أخرى .. ثم يُرجع البشر عن آخرهم إلى خالقهم ومالكهم ، ليلقى الجميع عاقبة أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

هُوَ اجْتَبَاكُمْ : اختاركم لدينه وعبادته ونصرته .

حَرَجٍ : ضيق بتكليف يشق ويعسر .

هُوَ مَوْلاكُمْ :مالككم وناصركم ومتولِّي أموركم

الخطاب في هذه الآيات موجه أصلاً إلى صحابة الرسول ، وبالتبعية إلى سائر المؤمنين بالقرآن .. فقد اختار الله هذه الأمة لمهمة خاصةٍ ، وهي العمل على إبلاغ دين الله الحق إلى شعوب الأرض قاطبةً إلى يوم القيامة .. وقد قام الرسول - صلى الله عليه وسلم - بواجب الشهادة هذا بالنسبة لمعاصريه ، والمطلوب من أتباعه أن يقوموا بهذا الواجب بالنسبة إلى معاصريهم .

وإن هذا عمل خطير للغاية .. ولابد للقيام به من الجهاد والكفاح الدائب .. وإنه لن يُوفق لتأديته على الوجه الحقيقي المطلوب سوى أولئك الذين أصبحوا خاضعين لله حقاً .. والذين يشتد نصحهم للآخرين لدرجة يبذلون معها وقتهم وأموالهم في سبيل هدايتهم عن رضا وسرور .. والذين يضعون كل ثقتهم في الله الواحد الأحد دون أي شيءٍ آخر سواه .. وعلى الجملة هم أولئك الذين صاروا في الحقيقة مصداق وصف «المسلمين» الذي أُطلق عليهم بوجه خاص . على أن الله تعالى قد اختص عمل الشهادة هذا بعناية خاصةٍ .. حيث أزال من طريقه كل العوائق والعقبات الخارجية للأبد .. فالثورة التي تم تفجيرها على يد رسول الله ﷺ قضت ، وبصورة دائمة ، على

كل تلك العوائق التي كانت تواجه الأنبياء السابقين وأتباعهم .. فلم تعْد الآن أية عقبةٍ حقيقية تحول دون هذا العمل.. اللهم إلا أن يضع حاملو القرآن ، بسبب جهلهم أو سوء تدبيرهم ، بعض العراقيل المزعومة في طريقهم، ويحولوا بالتالي عملاً سهلاً إلى عمل صعب عسير التحقق على نحو مصطنع!

سورة المؤمنون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ : فازوا وسعدوا ونجوا .

خَاشِعُونَ :متذللون خائفون ساكنون .

اللَّغْوِ : ما لا يجمُل من القول والفعل .

العَادُونَ : المجاوزون الحلال إلى الحرام .

الفِرْدَوْسَ : أعلى الجنان وأوسطها وأفضلها.

لا نجاح في دنيا الله هذه إلا للمؤمن وحده .. الذي يكون موصول القلب بالله الواحد مقطوع الصلة بكل مَنْ عداه .. والذي تكون حياته الداخلية والخارجية قد انصهرت في بوتقة الإيمان .

وإن شخصاً إذْ يوفق للحصول على الإيمان ؛ فلا يكون ذلك أمراً يسيراً .. إنه يكون مرادفاً لتفجرّ ثورةٍ في حياته .. فهو يعود الآن عابداً لله خاضعاً لجلاله .. وتبلغ جديته

حداً يرى معه الاشتغال باللغو وإضاعة الوقت فيما لا طائل تحته مؤدياً إلى الهلاك في الدنيا والآخرة .. وهو يقتطع جزءاً مما يكسبه باسم الله ، ويبذله ابتغاء مرضاته تعالى في إعانة الفقراء والمحتاجين .. وهو يمتلك زمام رغباته الشهوانية ، فلا يشبعها إلا في إطار الحدود التي قررها الله سبحانه وتعالى .. وهو يمارس حياته في الدنيا كإنسانٍ مسئول ملتزمٍ ؛ فلا يخون أمانة الآخرين أبداً ، ولا يخلف عهداً إذا ما عاهد أحد الناس .

والذين يتحلّون بالأوصاف الجليلة ، هم عباد الله المطلوبون .. وهؤلاء هم الذين هيأ الله لهم عالم الفردوس الأعلى .. وسيدخلون بعد الموت في أجوائه العطرة ، ليتمتعوا بالنعيم الأبدي والسعادة السرمدية!

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

سُلالَةٍ : خلاصة (مائية مكونة من الغذاء) .

قَرَارٍ مَّكِينٍ : مستقر متمكن وهو الرحم .

عَلَقَةً : دما متجمداً.

مُضْغَةً : قطعة لحم قدر ما يمضغ .

خَلْقاً آخَرَ : مباينا للأول بنفخ الروح فيه .

فَتَبَارَكَ الله : فتعالى ، أو تكاثر خيره وإحسانه .

أَحْسَنُ الخَالِقِينَ :أتقن الصانعين، أو المصورين .

ينشأ طفل الإنسان في بطن أمه .. ولقد كانت فترة ما بين حصول الحمل وحتى الولادة ، وكل ما يجري خلالها سراً مكتوماً في الزمان القديم .. وإنما استطاع الإنسان أخيراً، في القرن العشرين ، أن يتوصل إلى معلوماتٍ مباشرةٍ فيما يتعلق بنشأة الجنين ونموه داخل البطن عبر المشاهدة بواسطة الآلات العلمية المخترعة حديثاً .

ومما يدعو إلى الدهشة والإكبار أن مراحل خلق الإنسان التطورية أو التدريجية التي قررها القرآن قبل الأربعة عشر قرناً ، جاءت مطابقةً تماماً للمشاهدة الآلية في العصر الحديث.. وهذا دليل ناطق بأن القرآن كتاب الله .. ولولا ذلك لم يكن ممكناً أن يُوجد ثمة هذا التوافق التام بين تصريح القرآن الكريم والكشوف الحديثة .

وواقع الخلق هذا ، الذي يحدث في بطن الأم كل اليوم ، يدل على أن خالق هذا العالم يتصف بمنتهى الكمال.. وواقعة خلق الإنسان الأول المذهلة ، التي نشهدها بأعيننا كل يوم ، كافية في ذاتها للإقناع بما لا يدع مجالاً للشك ، بأن واقعة الخلق الثاني هي الأخرى ستحدث كذلك ، وأنها ستكون مطابقةً تماماً لما أخبر به الأنبياء والمرسلون الصادقون !

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

سَبْعَ طَرَائِقَ : سبع سموات طباقا أو طرقا للملائكة أو للكواكب في مسيرها .

بِقَدَرٍ : بمقدار الحاجة والمصلحة .

وَشَجَرَةً :هي شجرة الزيتون .

بِالدُّهْنِ : ملتبسا ثمرها بالزيت .

وَصِبْغٍ : إدام لهم يغمس فيه الخبز .

الأَنْعَامِ : الإبل والبقر والضأن والمعز .

لَعِبْرَةً : لعظة وآية على القدرة والرحمة

وَعَلَيْهَا : وعلى الإبل منها .

الإنسان كائن حقير بالمقارنة مع هذا الكون الفسيح الذي يبلغ من العظمة والاتساع وترامي الأطراف درجةً تبعث على الحيرة والذهول .. وأكثر جوانب هذا الكون إثارةً للدهشة هو أنه ملائم لحياة الإنسان إلى أقصى الحدود!

والمطر لو بدأ يهطل بغزارةٍ مفرطةٍ ، لهلك كل الناس غرقاً ، ولكن المطر بدوره له حد معيّن لا يتجاوزه .

والمخزونات المائية التي تتوافر على الأرض يمكن أن تذهب كلها في أغوارها ، أو تتحول إلى البخار وتتلاشى في الفضاء اللامتناهي ، غير أن هذا لا يحدث أبداً . وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الأرض - التي نعيش على ظهرها - هي كوكب استثنائي، بحيث يبدو وكأنها أوجده الخالق آخذاً في الاعتبار كل حاجات الإنسان الحياتية بصفةٍ خاصةٍ.. ومن ثم يتوافر هنا كل شيءٍ يحتاج إليه الإنسان، ابتداءً بالمواد الغذائية ، وانتهاءً بالمتطلبات الصناعية .. وحيوانات الأرض مع كونها في الظاهر مخلوقات وحشية، إلا أن الله تعالى قد جعلها مفيدةً للإنسان بشتى الوجوه .. فمنها حيوانات - مثلاً - بطونها مصنع عجيب يأخذ العشب والعلف الرخيص ويحوّلها إلى أشياء ثمينة كالحليب

واللحم.. و منها أخرى تنقاد للإنسان وتمكنه من نفسها بسهولةٍ لكي يركبها ويستخدمها في أغراضه الأخرى .

وهذه الواقعات تفرض على الإنسان أن يعرف ربّه الكريم المحسن ، ويعيش عبداً شاكراً له على الدوام!

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

المَلأُ : وجوه القوم وسادتهم .

يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ : يترأس ويشرف عليكم .

بِهِ جِنَّةٌ : به جنون أو جنٌّ يخبلونه .

فَتَرَبَّصُوا بِهِ :انتظروا واصبروا عليه .

إن الأمة التي بُعث فيها سيدنا نوح عليه السلام لم تكن «كافرةً» بالمعنى المعروف .. بل هي كانت أمة آدم عليه السلام التي كانت مؤمنةً بالله وبالرسالة مبدئياً.. وأما سبب إبائها – مع ذلك – عن الإيمان برسالة نوحٍ ، فإنما يرجع إلى أن نوحاً عليه السلام بدا لها كواحدٍ من أفرادها ليس غير! يعدّونه رجلاً يدعى النبوة بدافع البروز والتفوق على أقرانه ، فلا يلبثون أن يعرضوا عنه باعتباره مصاباً بالجنون!!

وما من أمةٍ إلا قد توصل أمرها في عصرٍ لاحقٍ ؛ إلى أنها تخلت عن تعاليم الله الأصلية، وتمسكت – بدلاً من ذلك – بتقاليد أسلافها .. ولما جاء النبي لكي يعرض

تعاليم الدين من جديد في صورتها النقية الصافية ، بدا لها دين النبي وتقاليد السلف على طرفي نقيضٍ.. وظهر لها السلف - وفقاً لشاكلتها الفكرية - في القمة ، ونبي العصر في الحضيض.. وهذا هو السبب الأكبر في أن دعوة الأنبياء ظلت غريبةً عن معاصريهم على اختلاف العصور!

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

بِأَعْيُنِنَا : برعايتنا وكلاءتنا .

وَفَارَ التَّنُّورُ : نبع الماء من التنور المعروف .

فَاسْلُكْ فِيهَا : فأدخل في الفلك .

لقد استمر سيدنا نوح يدعو قومه إلى الحق مدةً طويلةً من الزمن .. إلا أن القوم مازالوا يأبون عن الإيمان بدعوته .. فلم يسع نوحاً آخر الأمر إلا أن دعا الله قائلاً : يارب ! إنني لم أتمكن ، رغم استفراغ مجهودي في سبيل الدعوة والتبليغ ، من استمالتهم لقبول الحق ، فالأمر الآن إليك ، وأنت وحدك قادر على أن تهديهم - إن شئت - إلى الحق .. ولكن عندما ينتهي العمل الإنساني إلى آخر حدوده ، وتبدأ دائرة العمل الإلهي، فإنه يكون أوان البطش والمؤاخذة ، وليس أوان الوعظ والتذكير .. ومن ثم فقد جاء أمر الله في صورة طوفانٍ عارمٍ لا يُقاوم .. وبالتالي هلك القوم عن بكرة أبيهم غرقاً ، ما عدا القلة القليلة التي آمنت بسيدنا نوحٍ - عليه الصلاة والسلام .

إن عدم الاعتراف بأمر الحق هو الظلم الأكبر .. والذين يرتكبون هذا الظلم يتعرضون حتماً لبطش الله عاجلاً أو آجلاً .. وليس هناك شيء آخر - غير الإيمان بالحق

- من شأنه أن ينقذهم من هذا البطش الإلهي !

﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

مُنزَلاً : إنزالا . أو مكان إنزال .

لَمُبْتَلِينَ : لمختبرين عبادنا بهذه الآيات .

إن الأفراد القلائل الذين آمنوا بسيدنا نوحٍ كانوا قد دخلوا فور إيمانهم إلى سفينة الله من الناحية المعنوية .. وأما حين ركبوا في السفينة المتخذة من ألواح الخشب ، عند مجيء الطوفان ، فإنما كان ذلك بمثابة تنفيذٍ فعليٍ لقرارهم البدائي .. لقد انتشل هؤلاء أنفسهم من طوفان الشر فكرياً ؛ فأنقذهم الله بالتالي من سوء عاقبة الشر عملياً .

المؤمن يعدّ كل نجاحٍ هبةً من الله .. ولذلك فهو يتقدم بالشكر إلى الله على كل نجاحٍ يُتاح له .. أما النجاة من طوفان نوحٍ ، فكانت واقعة النصرة الإلهية في أجلى مظاهرها .. والكلمات التي تجري على لسان المؤمن في مناسبةٍ كهذه ، هي التي سجّلتها الآية المذكورة .. حيث إنه يأخذ في التماس المزيد من عنايات الله للمستقبل ؛ معترفاً بقدرته، شاكراً لما أسدى إليه من فضلٍ ونعمةٍ في الحال .. ذلك لأنه يكون على يقينٍ من أن الحال والمستقبل كليهما بيد الله وحده .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ

مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرًا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

قَرْناً آخَرِينَ : هم عاد الأولى قوم هود .

وَأَتْرَفْنَاهُمْ : نعمناهم ووسعنا عليهم فبطروا .

في أعقاب الطوفان بدأ نسل المؤمنين بنوحٍ ﷺ بالتكاثر .. وتوالت عليهم قرون طويلة ، إلى أن أصيبوا من جديدٍ بالفساد والضلال نفسه الذي كان قد أصيب به سابقوهم .. وربما يكون المراد بـ ﴿قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ هنا هم الذين يقال لهم ((عاد)) .. وقد بات هؤلاء مشغولين بعبادة الآلهة الباطلة غير الله الواحد الأحد .. فبعث الله إليهم مرةً أخرى رسولاً يبلغهم دعوة الحق .

ولم يكن بدعاً أن تصدى رؤساء القوم لمعارضة الرسول، كما حدث مع غيره من الأنبياء والرسل من قبل .. وقد كان هؤلاء الرؤساء أناساً يمتلكون زمام قيادة الشعب انسياقاً مع اتجاهات العصر الفكرية السائدة .. وكانوا متمتعين بالرخاء المادي . والذين يُتاح لهم الثراء والسلطة ، غالباً ما ينظرون إليهما على أنهما يقومان دليلاً على كونهم على الحق ، ولم ينج هؤلاء الرؤساء بدورهم من هذه العقدة .. حيث وقف ثراؤهم وسلطتهم حجر عثرةٍ دون إدراك أنهم يمكن أن يكونوا خاطئين!!

فقد رأوا الرسول لا يملك ثروةً طائلةً ، ولا يشغل منصب السلطة ، فاعتبروه حقيراً ضئيل الشأن.. وقد حالت عبوديتهم للمظاهر دون رؤيتهم لعظمة الرسول المعنية!!

﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ .

هَيْهَاتَ : بعد وقوع ذلك الموعود .

الكلمات المنقولة هنا عن الآخرة تُقال تارةً بلسان الحال ، وطوراً بلسان المقال .. فقد يحدث حيناً أن المرء يكون بكليته مشغولاً بالدنيا وللدنيا وحدها، ويبدو غافلاً عن الآخرة كما لو أنها كانت عنده أمراً مستبعداً خارجاً عن القياس إطلاقاً .. وقد يحدث حيناً آخر أن غفلته عن الآخرة وطغيانه يبلغان به حداً لا يتحرج معه حتى من التصريح بلسانه بأن الآخرة شيء أبعد ما يكون عن القياس ، وهيهات هيهات أن يقع بالفعل .. ولذا فينبغي أن نسعى للحصول على ما هو متاح لنا اليوم .. دون أن نضيع فائدة اليوم الأكيدة من أجل فائدة الغد الوهمية!!

وقولهم : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ هو الآخر يُفسر على وجهين: فإما أن يؤدي المرء بلسانه هذه الجملة.. وإما أن يقابل داعية الحق بالإهمال واللامبالاة كما لو أن كلامه هراء مخبولٍ ؛ لا علاقة له بالله البتة!

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ : صيحة جبريل أو العذاب المصطلم .

فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً : هالكين كغثاء السيل (حميله) .

فَبُعْداً : هلاكا .. أو بعداً من الرحمة .

الشيء الذي يأتي رسول الله لإعلام البشر به ، هو أكبر حقيقةٍ وأشدها خطورةً في هذا الكون .. على أن الرسول إنما يعرض هذه الحقيقة في صورة الدليل وحده .. والمؤمنون حقاً ، هم الذين يتعرفون عليها عبر الدليل ، ويسلمون أنفسهم لها .

وحين تثبت طائفة ما ، بشكلٍ قاطعٍ ، أنها لا تمتلك الاستعداد للتعرف على الحقيقة عبر الدليل المصاحب لها ، فيظهر الله الحقيقة بعدئذٍ في صورة ((الصيحة)) .. حيث تتحول الحقيقة إلى هديرٍ مروّع لا يقدر أحد على مواجهته .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قُرُوناً آخَرِينَ : أمماً أخرى .

تَتْرَا : متتابعين على فترات.

وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ : مجرد أخبار للتعجب والتلهي .

ما زالت أمم الأنبياء تُصاب بالفساد والانحلال على أعقابهم ؛ كما قد ظل الأنبياء والمرسلون يُبعثون تباعاً ، الواحد تلو الآخر ، لإصلاحها .. فجاء سيدنا نوح إلى أمة آدم .. وأرسل بعد ذلك سيدنا هود إلى أمة نوح (وهي قوم عاد) .. ثم بُعث سيدنا صالح في أمة هود (وهي قوم ثمود) .. وهكذا .. ولكن الذي حدث دائماً هو أن الذين كانوا يؤمنون بنبي الماضي بلا جدالٍ ؛ أبوا عن الإيمان بنبي الحال!

وقوله : ﴿ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، يعني: بعداً وهلاكاً للذين لا يكادون يتعرفون على سفير الله من حيث هو سفير الله ، وإنما يتعرفون على سفير الله إذا هو صار بطلهم القومي نتيجة العمل التاريخي!!

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا

عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ : برهان بَيِّنٍ مظهر للحق .

قَوْماً عَالِينَ : متكبرين أو متطاولين بالظلم .

لقد شكل وضع بني إسرائيل – وهو أنهم كانوا عبيداً للمصريين وخدماً – عائقاً لفرعون وأصحابه الذين كانوا إزاءهم في موقع الغالب المتفوق .. وبالتالي أبوْا عن التسليم بنبي من بني إسرائيل بوصفه ممثلاً لله .. ومع أن سيدنا موسى قدّم إليهم أدلةً محكمةً وبراهين ساطعةً جداً .. إلا أن ثقل الأدلة والبراهين لم يكد يُجبرهم على أن يغيروا ما بأنفسهم من غرورٍ وكبرياء ، ويعترفوا بصدقٍ جاءهم به رجل ينتمي إلى الشعب «المحكوم» المغلوب على أمره !!

وكانت نتيجة ذلك أن نصر الله – سبحانه وتعالى– نبيّه .. فأغرق فرعون مع كل قوته وجبروته.. وقد امتنّ الله على الذين ناصروا النبي ووقفوا إلى جانبه، امتن عليهم بأن أعطاهم كتاب هدايته؛ الذي يستطيع المرء،عن طريق العمل بتعاليمه،أن يضمن لنفسه النجاح والسعادة في الدنيا والآخرة !

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

وَآوَيْنَاهُمَا : صيرناهما وأوصلناهما .

إِلَى رَبْوَةٍ : إلى مكان مرتفع من البلاد .

وَمَعِينٍ : ماء جار ظاهر للعيون .

إن ولادة سيدنا المسيح عليه السلام من غير أبٍ كانت واقعةً عجيبةً خارقةً للعادة .. وماذا

كانت الحكمة من ذلك؟ إنما حدثت هذه الواقعة بوصفها ((آيةً من آيات الله)) لقد كان اليهود حاملي الرسالة الإلهية في قديم الزمان .. ولكنهم ، بسبب عنادهم الطويل، وطغيانهم المستمر ، فقدوا أهليتهم لهذا المنصب .. وكان الوقت قد حان أن تنتزع هذه الأمانة من أيديهم وتحُول إلى بني إسماعيل .. ولكي تقوم على اليهود حجة الله القاطعة ، وينقطع عذرهم ، خلق آخر أنبيائهم على وجهٍ معجزٍ .. كما أعطى لهذا النبي المزيد من الخوارق والمعجزات غير العادية .. ولما أصر اليهود - مع كل ذلك - على العناد والإنكار لسيدنا المسيح عليه السلام ثبت بذلك نهائياً أنهم لم يعودوا أهلاً لحمل الأمانة الإلهية.

وأما بالنسبة إلى مريم العذراء والدة المسيح - عليهما السلام - فقد كان ذلك موقفاً حرجاً للغاية .. فكانت في حاجة ماسة - وهي تعاني من آلام الحمل والمخاض - إلى مكانٍ تأوي إليه بعيداً عن أنظار الناس .. حيث تشعر بالسكينة والاطمئنان ، ويتاح لها - إلى جانب هذا - كل حاجات الحياة الأساسية .. وإذا كان الله قد ابتلاها بتلك المحنة الخطيرة ، فقد هيّأ لها مأوىً هادئاً آمناً بالقرب من وطنها كذلك!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾

أُمَّتُكُمْ : ملتكم وشريعتكم .

الدين في جوهره واحد ليس غير .. وقد بُعث كل الأنبياء بهذا الدين الواحد نفسه.. وهو أن يجد المرءُ الله كواجب للوجود عظيمٍ يمتلئ خوفاً ورهبةً منه .. وأن يسيطر على قلبه وعقله إحساس دائم بأن فوقه رباً يراه ويراقبه أينما كان، ويرصد كل حركاته وسكناته ، وهو سيحاسبه بعد الموت عن كل قولٍ وفعلٍ باشره في الحياة الدنيا.

وهذه المعرفة هي أصل الدين وجوهره .. والحياة التي تنبثق عن هذه المعرفة وذلك

الإحساس لابد أن يكون صاحبها بحيث لا يأخذ من أشياء الدنيا إلا ما كان طيباً ونظيفاً .. ويسلك في كل شئونه ومعاملاته مسلك الخير والصلاح والإحسان .. فإن معرفة الله تؤدي حتماً إلى الخوف من الله .. والخوف من الله يؤدي حتماً إلى الحياة الطيبة الصالحة!

﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم : تفرقوا في أمر دينهم.

زُبُراً : قطعا وفرقا وأحزابا مختلفة .

غَمْرَتِهِمْ : جهالتهم وضلالتهم .

أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ : ما نجعله مددا لهم .

إن دين الله حين يكون حياً ، محتفظاً بروحه الأصلية ، يبعث الخوف في النفوس .. أما إذا فارق الدين روحه الأصلية ، فيعود باعثاً على الفخر .. وعندها يتفرق أهل الدين شيعاً وأحزاباً شتى ، حيث يأخذ كل حزبٍ من الدين بجانب ينطوي على دواعي الفخر له بحسب ميوله وأحواله .. وإن دين الفخر أبداً لا يكون واحداً ، بل يكون ألف دينٍ ودينٍ .. وبالمقابل فإن دين الخوف يكون دوماً واحداً ليس غير .. فإن نفسية اللاخوف تسبب الاختلاف في الآراء والتعددية في المذاهب .. وأما نفسية الخوف فهي تثمر وحدة الآراء واتحاد المذاهب .

الإنسان في العالم الراهن في حالة امتحان واختبار .. ولذا فإن شخصاً أو طائفةً ما ، لابد وأن يتاح لها متاع الحياة إلى المدة المقدرة لها في علم الله .. مما قد يجعل الغافلين

يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، وأن كل ما يفعلونه هو عين الصواب .. ولو أنهم كانوا على خطأ ، لانتزع منهم كل ما يتمتعون به من مالٍ ومتاعٍ بالمرة .. في حين أن سنة الله قد جرت بأن يتم انتزاع المال والمتاع عند انتهاء مهلة الامتحان ، وليس عند الانحراف عن طريق الهداية في أثناء الامتحان !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

إن مَنْ يجد الله بحيث تغمره خشية الله ، يكون إنساناً مختلفاً عن البشر العاديين كل الاختلاف .. فإن نفسية الخوف تجعله جاداً إلى أقصى حدٍ ، وتصبح جديته المتناهية كفيلةً بأن يُدرك ثقل الدلائل الإلهية حق الإدراك ، وبالتالي يخضع لها على الفور .. ويفقد كل شيءٍ – مما عدا الله – وزنه وقيمته عنده ، وهو يحسب دوماً أنه لم يفعل شيئاً حتى لو فعل كل شيءٍ !!

هناك طريقان للسعي والكدح مفتوحان أمام الجميع في العالم الراهن .. أحدهما طريق الدنيا ، والثاني طريق الآخرة .. وإن الذين يتحلّون بالصفات المذكورة أعلاه ، إنما هم أولئك الذين يسعون بخطىً حثيثة نحو الآخرة .

على أن السعي للآخرة عمل غير هينٍ .. بل هو أشق عملٍ في هذه الدنيا .. ومهما حاول الإنسان جهده تقع من جانبه تقصيرات شتى في أدائه .. بيد أن الله تعالى يطالب كل امرئ بقدر طاقته ، وليس فوق طاقته .. والله – سبحانه وتعالى – يحيط علماً بمدى استطاعة المرء وأعماله كماً وكيفاً .. وفي هذا ضمان أكيد لأن ينال كل شخصٍ يوم القيامة

من الإعفاء ما ينبغي أن يُتاح له بمقتضى العدل ، وأن يفوز الكل بالإنعام الذي كان يستحقه في الواقع !

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

غَمْرَةٍ : جهالة وغفلة وغطاء .

مُتْرَفِيهِم :منعميهم الذين أبطرتهم النعم .

تَنكِصُونَ : ترجعون معرضين عن سماعها.

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ : مستعظمين بالبيت الحرم.

سَامِراً : سمّارا حوله بالليل .

تَهْجُرُونَ : تهذون بالطعن في القرآن .

العابدون للدنيا ، الغارقون في ملذاتها قلما يرغبون في أحاديث الآخرة .. فإن اهتماماتهم تختلف أساساً عن اهتمامات أهل الإيمان الصادقين .. ومهما كان الحديث عن الله والآخرة بليغاً ومؤثراً ، فإنه لا يستهويهم ولا يحرك منهم ساكناً .. وبالتالي فهم لا يزالون مشغولين باهتماماتهم الأخرى معرضين عن مثل هذه الأحاديث ، ويخرجون من مجلس الداعي إلى الحق سراعاً كما لو أنهم قد انسلّوا من مجلس أحد السمّار الثرثارين !!

ولكن حين يفاجأ أمثال هؤلاء بمؤاخذة الله ، يأخذون في الصراخ والتضرع إلى الله

مستغيثين ، ناسين كل غفلتهم وطغيانهم ، وهم لا يلبثون حينئذٍ أن يخضعوا لله .. غير أن الخضوع وقتئذٍ لا يجدي شيئاً .. لأن الخضوع المعتبر به عند الله هو أن يكون المرء قد خضع لله بالنظر إلى آياته تعالى .. وأما إذا تجلى الله بقوته وجبروته ، فلا قيمة للخضوع أمامه حينذاك !.

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

بِهِ جِنَّةٌ : به جنون .

بِذِكْرِهِمْ : بفخرهم وشرفهم وهو القرآن .

الحق هو الذي يكون مطابقاً للحقيقة الواقعة .. غير أن الإنسان العابد للهوى يريد أن يستتبع الحق لهواه .. وأمثال هؤلاء الناس لا يلبثون أن يشتعلوا غضباً على الداعي حين يرفع عقيرته بالحق .. ولكونهم لا يرغبون في اتباع الحق ، يرغبون بالعكس في جعل الحق تابعاً لأنفسهم .. وهذه النفسية تجعلهم لا يلقون بالاً إلى صوت الحق .. والحق يبدو لهم غريباً .. وهم لا يستطيعون التعرف على داعي الحق في وضعه الحقيقي، ويأخذون في الطعن على الداعي وتشويه سمعته ليتظاهروا بأنهم هم المحقون المصيبون!

إن الكون – كما نشاهده – على أتم درجةٍ من الصلاح والانتظام بحيث لا نجد فيه خللاً ولا اضطراباً .. وأما العالم الإنساني فهو يسوده الفساد والفوضى في كل ناحيةٍ من نواحيه .. ومرجع ذلك إلى أن نظام الكون يسير على أساسٍ من الحق .. يعني أن يكون

ما ينبغي أن يكون ، ولا يكون ما ينبغي ألا يكون .. إذن ، فلو أن نظام الكون أخذ يسير هو الآخر تبعاً لأهواء البشر ، لعمّ هذا الفساد السائد في العالم الإنساني بقية الكائنات كذلك !!

إن النصيحة والنقد يكونان دوماً من أشد الأشياء مرارةً لدى الإنسان .. وإن هناك قلة هزيلة العدد جداً من عباد الله ، هي التي تستمع إلى النصيحة والنقد بذهنٍ مفتوحٍ .. وأما أكثر الناس فيمرون بهما معرضين أو متجاهلين!

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

خَرْجاً : جعلا وأجرا من المال .

لَنَاكِبُونَ : لعادلون عن الحق زائغون .

النبي لا يرجو أبداً تحقيق أي غرضٍ مادي من قبل مخاطبيه .. فإن علاقته بهم تكون علاقة (الداعي) ، و(المدعوّ) .. وعلاقة الداعي والمدعو هي علاقة حساسة للغاية .. ولو عرض الداعي على الناس رسالة الآخرة من ناحيةٍ ، وأثار معهم الصراع حول المطالب الدنيوية من ناحيةٍ أخرى ، لأصبحت دعوته مثار السخرية لدى الناس ، ولهذا السبب لا يطالب النبي مدعويه بأي مطلبٍ مادي ، على أيةِ حالٍ .. مهما اضطره ذلك إلى تحمّل شتى ألوان الخسائر من طرفٍ واحدٍ.

إن أجر الداعي الحقيقي إنما يكمن في ذلك الحق نفسه ، الذي ينهض للدعوة إليه. ويكون اكتشاف الله هو رصيده ورأسماله الأكبر .. والتجارب الربانية التي يكتسبها خلال مسيرته الدعوية تغذي روحه الغذاء الأفضل .. وتكمن سكينته الكبرى في تلك اللذة التي يذوقها عبر نشاطه الدائب في سبيل تحقيق هدف حياته الأسمى !!

وإن دعوة الحق لن يتلقاها بالقبول إلا الذي يحذر الآخرة .. فإن الإحساس بخطورة الآخرة يجعل المرء جاداً ، والجدية هي العامل الوحيد الذي يرغم المرء على أن يسلم بالحقيقة.. وأما الشخص غير الجادّ فلا ولن يسلم بالحقيقة أبداً ، مهما جُعلت ثابتةً بالدلائل الواضحة والبراهين الساطعة!

﴿ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ : لتمادوا في ضلالهم وكفرهم .

يَعْمَهُونَ : يعمون عن الرشد أو يتحيرون.

فَمَا اسْتَكَانُوا : فما خضعوا وأظهروا المسكنة .

وَمَا يَتَضَرَّعُونَ : ما يتذللون له تعالى بالدعاء .

مُبْلِسُونَ : متحيرون آيسون من كل خير .

لما رفضت قريش دعوة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خلال العهد المكي ، أصاب الله أهل مكة بقحطٍ دام بضع سنين.. وكان هذا القحط شديداً لدرجة أن كثيراً منهم قد اضطروا إلى أكل الميتة!!

وتلك سنة من سنن الله العامة .. وهي أن طائفةً ما إذا استمر أفرادها في العناد والطغيان ، وأبوْا عن قبول النصيحة ، أنزل عليهم عذاباً (تحذيرياً) لكي تلين قلوبهم ، فتصغي إلى نداء الحق !

غير أن التاريخ يشهد بأن الإنسان لا يعتبر بأحوال الخير والعافية ولا بأحوال الشر

والشدة أيما اعتبارٍ .. والغرض من كلا نوعي الأحوال إنما يكمن في أن يبادر المرء بالرجوع إلى الله .. ولكن الموقف الذي يتبناه الإنسان عادةً إزاء هذه الأحوال هو أنه يعدّ الخير نتيجةً تدبيره هو ، بينما ينظر إلى الشر على أنه نتيجة تقلبات الدهر .. وهكذا فهو لا يزال محروماً من تعلّم أي درسٍ أو عبرةٍ من كلا نوعي الأحداث !!

ويظل المرء غافلاً كعهده ؛ إلى أن يفاجئه قضاء الله الأخير .. فإذا به يقف حائراً مشدوهاً لما يدرك وقتئذٍ أن الشيء الذي أهمله باعتباره غير ذي أهميةٍ ، هو الذي كان الحقيقة الكبرى ، وذات الأهمية العظمى في هذا الكون!!

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

ذَرَأَكُمْ : خلقكم وبثكم بالتناسل .

الإنسان هو المخلوق ، الذي تم تزويده بقوى السمع والبصر والتفكير العليا .. ومن المؤكد أن هذه القوى الخاصة إنما مُنحت له لأجل هدفٍ خاصٍ .. وذلك الهدف هو أن يستخدمها الإنسان في معرفة حقيقة الحياة .. فيسمع بآذانه صوت الصدق الذي يتردد صداه في أرجاء الوجود .. ويرى بعيونه تلك الآيات التي يجدها منبثة هنا وهناك في كل ما حوله .. ثم يستعمل قدرته على التفكير لتفهم تلك الآيات بعمق ، وسبر أغوارها البعيدة .. وهذا هو الشكر على نعمة السمع والبصر والفؤاد .. والذين لا يقيمون الدليل على هذا الشكر في الحياة الدنيا ، فإنهم يفقدون أهليتهم للتمتع بهذه النعم في الحياة الأبدية !

ومن صفات الله التي تتجلى أمامنا في هذا العالم أنه يحيي الميت ويميت الحي ..

وسوف يجمع الله كل الموتى عنده أحياءً في اليوم الآخر ، وكما أنه يحوّل الليل المظلم إلى النهار المضيء ، كذلك سيُزيح ستار الغفلة عن أعين الناس ، وبعدئذٍ ستنكشف على الناس حقيقة الأشياء كما هي من غير لبسٍ ولا غموضٍ !

﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ :أكاذيبهم المسطورة في كتبهم .

لقد زُوِّد الإنسان بالعقل .. والعقل يتمتع بالقدرة على أن يغوص في أعماق الأمور ويسبر أغوارها ، بحثاً عن الحقيقة الجوهرية ليتفهمها بعمقٍ ودقةٍ .. ولكن قلما يحدث أن يستعمل الإنسان عقله بالمعنى الحقيقي .. وإنما هو يتبنّى رأياً حول قضيةٍ ما ، في الأغلب الأعم ، بناءً على الانفعالات السطحية العابرة ، ويأخذ في ترديده بلا رويةٍ .. وهذا كان ديدن الناس في الماضي ، وعلى هذا المنوال ينسج أكثر الناس اليوم كذلك !.

وإن تعداد منكري البعث بعد الموت ، إنكاراً شعورياً أو لفظياً ، كان ولا يزال قليلاً جداً .. أما غالبية الناس فيمكن أن يُوصف موقفهم من هذه العقيدة بـ «الإنكار العملي» .. فإن هؤلاء ، مع إقرارهم الرسميّ بالحياة بعد الموت ، يمارسون حياتهم عملياً ، كما لو أنهم غير موقنين بأنهم سيُبعثون بعد الموت ، وسيُحضرون أحياءً بكامل وعيهم ومداركهم بين يدي الله ، تماماً كما هم أحياء اليوم يعون ويدركون!!

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ

إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

مَلَكُوتُ : هو المُلْك الواسع العظيم .

وَهُوَ يُجِيرُ :يغيث ويحمي من يشاء ويمنع.

وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ : لا يغاث أحد منه ولا يمنع .

فَأَنَّى تُسْحَرُونَ؟: فكيف تخدعون عن توحيده ؟

أشارت هذه الآيات إلى ذلك التناقض الفكري الذي كان معظم البشر - وما زالوا- يعانون منه على اختلاف الأعصار والأمصار ، سواء أكانوا مشركين أم غير مشركين ، مؤمنين في ظاهرهم بالله الواحد الأحد ، أو القائلين بتعدد الآلهة .

فالكثرة الكاثرة من الناس تؤمن بأن خالق السموات والأرض إنما هو الله الواحد ، وهو مالكها ومدبر أمرها بلا منازعٍ ، وهو وحده المتصرف المختار القادر على كل شيء .. إلخ .. ولكنك لو ذهبت تستعرض حياتهم العملية، فلا تجد فيها أي أثرٍ إيجابي لما يستلزمه هذا الإيمان بالضرورة!

ومقتضى هذا الإيمان العظيم أن يصبح هو جزءاً لا يتجزأ من تفكيرهم .. ويتحول شعورهم بالله إلى خوفٍ دائمٍ منه ؛ يجري في عروقهم مجرى الدم .. ويتولد في داخلهم الاستعداد للاعتراف بالحق فور ظهوره أمامهم .. وأن تنصهر حياتهم وأعمالهم كلها في بوتقته .. غير أن هذا كله لا يحدث .. فبالرغم من إيمان الناس بالله كعقيدة ، إلا أن حياتهم الحقيقية تبقى في وادٍ ، واعتقادهم بالله في وادٍ آخر !

إن تصور جمال الله وجلاله لا يُعجب الإنسان ولا يستهويه .. بينما تصير الأشياء الأخرى عنده مهمة وجذابةً لدرجة لا يدري معها كيف يتصرف لفرط إعجابه وشدة افتتانه بسحرها .. ألا ما أعجب أمر هذا الإنسان وما أكثره إثارةً للدهشة

والاستغراب؟!

﴿ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ۝ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ ﴾

من طبيعة السلطة أنها لا ترضى بالتقسيم .. كما نرى أصحاب السلطات من البشر في كل زمانٍ ومكانٍ ، يصارع بعضهم بعضاً في محاولة التغلب عليه أو إخضاعه لسيادته .. حتى إنك لتجد ميثولوجيا (مجموعة أساطير) الشعوب الوثنية - القائلة بتعدد الآلهة وأنصاف الآلهة - كثيراً ما تتحدث عن معارك ساخنةٍ دارت بين إلهٍ وآخر !!

وإذا كان وضع هذا الكون - الذي نعيش فيه - بحيث لا يقع ثمة صدام بين بعض أجزائه وبعضه الآخر ، فإن هذا ينهض دليلاً على أن إله كل جزءٍ إله واحد ليس غير .. إذْ لو كانت هناك آلهة شتى لكل جزءٍ على حدةٍ ، لانفرد كل إلهٍ بجزئه ، ولا نعدم بالتالي هذا التوازن والانسجام المدهش ، الذي نراه حالياً ، بين مختلف أجزاء الكون .. بل تحول نظام الكون البديع ، نتيجة صراع الآلهة بعضهم مع بعض ، إلى فسادٍ واختلالٍ وفوضى .. إذن ، فنظرية التوحيد ، والحالة هذه ، هي الصدق عينه ، ونظرية الشرك هي باطل محض!

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ۝ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ۝ ﴾ .

إن دعاء الرسول هذا يتعلق بحالة قلبه هو وليس بعذاب الله .. فهذا الدعاء يدل على أن المؤمن يكون إنساناً خائفاً من الله على كل حالٍ .. وأن قلبه ليرتعد خشيةً من

عذاب الله، حتى لو كان العذاب نازلاً على الآخرين دونه.. فلا يلبث أن يأخذ في التضرع والابتهال إلى ربه ؛ لكونه يعلم أن الإنسان إنما ينجو من العذاب بمحض عناية الله ، وليس بفضل قوته أو بأي عملٍ من أعماله

وقضاء الله قد يتم تنفيذه على منكري الرسول تارةً في حياة الرسول ، وطوراً بعد انتقاله إلى رحمة الله .. ويتضح من الآية الأخيرة (رقم ٩٥) أن قضاء الله هذا قد تم تنفيذه على منكري النبي العربي – صلى الله عليه وسلم – وهو حي ، حيث قَضى على أعدائه – عليه الصلاة والسلام – قبل رحيله إلى الرفيق الأعلى !

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾

أَعُوذُ بِكَ : أعتصم وأمتنع بك .

هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ : نزغاتهم ووساوسهم المغرية .

إن داعي الله حين يدعو الناس إلى الحق ، فكثيراً ما يحدث أن يصير الناس له أعداء .. يشنون ضده حملة الدعايات الكاذبة .. ويتخذون منه هدفاً لصنوف الأذى والإساءة .. وعندئذٍ تستيقظ في نفس الداعي هو الآخر بواعث رد الفعل .. وقد يخطر بباله خاطر، يقول : إنه لابد لك الآن من القيام بالإساءة إلى الذين أساؤوا إليك ، فإنك إن لزمت الصمت طويلاً، ارتفعت «معنوياتهم» ، وازدادوا جرأة على النيل منك ، واتخاذ الإجراءات العدوانية ضدك!!

غير أن مثل هذه الأفكار والخواطر (السلبية) هي من وساوس الشيطان . فالشيطان يغري المرء في هذه المناسبة الحساسة ، ليحرّفه عن الجادة .. ولذا فينبغي على الداعي والمؤمن، في مناسبة كهذه ، أن يتعوذ بالله من الإغراءات الشيطانية ، دون أن يندفع إلى

الانتقام والتشفي من معارضيه استجابةً لتلك الإغراءات الشيطانية !!

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

وَمِن وَرَائِهِم : أمامهم .

بَرْزَخٌ : حاجز دون الرجعة .

تَلْفَحُ : تحرق .

كَالِحُونَ : عابسون أو متقلصو الشفاة عن الأسنان من أثر اللفح .

الموت يفصل المرء عن العالم الراهن .. ففي أعقاب الموت يقوم بينه وبين الدنيا حاجز، لن يستطيع العودة من ورائه إليها أبداً .

والمرء حين يدخل إلى العالم الآخر بعد الموت ، تزول فجأةً تلك الغشاوة التي كانت على بصره وبصيرته.. حيث إنه يدرك الآن أن الآخرة التي كان قد أهملها وأسقطها من حسابه تماماً ، كانت ، في الحقيقة ، هي قضية الحياة الكبرى .. وأما أسباب الدنيا فإنما كانت قد أتيحت لكي نستعين بها على كسب ثواب الآخرة، دون أن يتم اعتبارها هي نفسها المقصودة.. ومن ثم فهو يودّ ، وفؤاده يحترق هما والتياعا ، لو أعيد إلى الدنيا من جديدٍ !! غير أن هذا مستحيل .. فقد جرت سنة الله بأن تُتاح الفرصة لأي شخصٍ مرةً واحدةً فقط، لا مرتين!!

والمرء يعتمد في الحياة الدنيا على أصحابه وذوي قرابته .. إلا أنه سيكون وحيداً بلا ناصر ولا معينٍ في يوم القيامة .. وإنما سينفعه هناك عمله الذاتي وحده ، ولن يغني عنه أي شيءٍ آخر سواه!

﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

غَلَبَتْ عَلَيْنَا : استولت علينا .. وملكتنا .

شِقْوَتُنَا : شقاوتنا . أو لذاتنا وشهواتنا .

اخْسَـُٔوا فِيهَا : انزجروا وابعدوا كالكلاب .

إن الإنسان لن تُتاح له الفرصة ، بعد أن يرى مشاهد الآخرة رأي العين ، ليعود ثانيةً إلى الدنيا ، ويبرهن على العمل الصحيح الصالح .. فإن هدف الحياة الدنيا هو الامتحان .. وهو امتحان ما إذا كان المرء يخضع للحق بدون الرؤية المباشرة أم لا ؟! وأما بعد مشاهدة الآخرة بالفعل ، فلا قيمة للخضوع ، ولا أمل في الرجوع إلى الدنيا من جديدٍ!

وليس امتحان المرء في الإقرار عبر المشاهدة ، بل في الإقرار عبر التأمل والتفكير .إن طلبة العلم ، إنما يمتحنون قبل انكشاف ورقة الأسئلة ، وأما إذا صارت ورقات الأسئلة مكشوفة ، تتناقلها الصحف والجرائد ، فلا داعي بعدئذٍ لامتحان الطلبة !

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ

إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾

سِخْرِياً : مهزوءا بهم .

فَتَعَالَى اللهُ: ارتفع بعظمته وتنزه عن العبث .

إن لله عباداً تعرفوا عليه تعالى بجلاله وكماله في الحياة الدنيا ؛ حيث لم تكن حقائق الآخرة قد تجلّت للعيان بعد .. وظهرت دعوة الحق أمامهم في ثوب الدليل المحض ، ولكنهم - مع ذلك - تيقنوا بصدقها .. وبلغت جديتهم بشأنها لدرجة أنهم جعلوها معيار نجاحهم وفشلهم .. وقد اضطُروا إلى دفع ثمن ارتباطهم الكلي بحقٍ غريبٍ غير مألوفٍ ، بأن صاروا موضوع التهكم والسخرية في المجتمع ، إلا أنهم لم يقطعوا - بالرغم من ذلك - ارتباطهم به لحظةً واحدةً ، بل ظلوا أوفياء له على مدى الحياة ، غير مبالين بلومة اللائمين، وسخرية الساخرين!

وهذه الاستقامة الفكرية هي الصبر الأعظم .. وإنما يفوز المرء بإنعام الآخرة مقابل هذا الصبر ذاته.. والسعداء الناجحون حقاً هم الذين وُفقوا لإقامة الدليل على هذا الصبر في عالم الامتحان الراهن!

﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾

الترف الحقيقي هو الذي يكون أبدياً .. أما الترف الذي لا يكون أبدياً ، فإنه يبدو - حين ينتهي - كما لو كان لمحة طارئة ، لم تكد تأتي حتى مضت إلى غير رجعةٍ !.

وإن المرء ليظل غافلاً عن هذه الحقيقة في الحياة الدنيا .. إلا أنها ستنكشف عليه في الآخرة بجلاءٍ ، فيدركها حينئذٍ تمام الإدراك ، ولكن من غير جدوى !

والحق يتجلى أمام المرء في الدنيا ، ولكنه لا يتلقاه بالقبول ، حرصاً على حياته الهادئة الرتيبة ؛ حيث لا ترضى نفسه بالتخلي عن الفائدة المتاحة (العاجلة) لأجل الفائدة الموعودة (الآجلة) .. وتبدو له عزة الحياة الراهنة وراحتها ومصالحها ثمينةً وغاليةً لدرجةٍ لا يدري معها كيف يصرف نظره عن « الشيء » ليوجه اهتمامه نحو « اللاشيء » ؟! في حين أن مهلة عمر الفرد المحددة ، وإن طالت مائة عامٍ أو أكثر ، عندما تبلغ نهايتها ، تبدو وكأنها لم تكن إلا يوماً واحداً قصيراً ، جاء وانقضى في لمح البصر !!

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

الناس رجلان : رجل يمارس حياةً مبدئيةً .. وآخر لا مبدأ له في هذه الحياة .. ومنهم مَنْ يضحي بنفسه في سبيل الصدق غير المرئي .. ومنهم مَنْ يظل مشغولاً بالأشياء المرئية وحدها .. ومنهم مَنْ يتقبل دعوة الحق على كل غرابتها في ما حولها .. ومنهم مَنْ يتجاهلها ويعرض عنها مستهزئاً بها .. ومنهم مَنْ يمسك يده عن الظلم ؛ لأن ربه قد نهاه عنه ، بينما يتحين بعض منهم الفرص للظلم والتعدي على الآخرين ، لأن نفسه تدعوه إلى ذلك!!

ولو أن هذا العالم ليس له من مصيرٍ ، وإنما هو وُجد لكي يسير هكذا وينتهي هكذا بدون هدفٍ أو غايةٍ محددةٍ، فمعنى ذلك أنه لم يكن سوى مسرحيةٍ عبثيةٍ لا معقولة! غير أن الكون ، بما فيه من روحٍ وحكمةٍ عجيبةٍ ، ينفي كل نظريةٍ فارغة عن المعنى كهذه ..

وإن نظام الكون البديع يرفض بشدةٍ أن يكون خالقه وجوده عبثاً غير جادٍ!!

إن خالق هذا الكون الفسيح ، كما نتعرف عليه من خلال الأنظمة الكونية الهائلة المليئة بالأسرار ، هو إله يتصف في ذاته بمنتهى الكمال والعدل .. وإن أبعد الأمور عن القياس وأعظمها استحالةً ، أن نتصور خالقاً هذا شأنه يرضى بالتسوية بين نوعين مختلفين من البشر!! بل الذي هو كائن حتماً أن يأتي يوم يرفض فيه مالك الكون ويهين فريقاً من الناس كما هم رفضوا الحق واستهانوا به .. ويُقدِّر فريقاً آخر منهم ويكرمهم مثلما هم قدروا الحق وأكرموه!

سورة النور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ .

وَفَرَضْنَاهَا :أوجبنا أحكامها عليكم .

كُلَّ وَاحِدٍ : إذا كان حرا غير محصن .

نزلت سورة النور سنة ٦ هجرية في أعقاب غزوة بني المصطلق .. وقد اتخذ منافقو المدينة من حادثٍ عاديٍ بسيطٍ ، وقع خلال هذه الغزوة ، ذريعةً لتشويه سمعة السيدة عائشة ورسول الله - ﷺ - .. فجاءت هذه السورة الكريمة تؤكد - من ناحيةٍ - على البراءة التامة للسيدة عائشة ، وتبين - من ناحيةٍ أخرى - أحكاماً عامة يجب تنفيذها عند حدوث حالاتٍ مماثلةٍ في المجتمع المسلم .

وإن الزنا من أشد الجرائم الاجتماعية خطورةً وشناعةً في نظر القانون الإسلامي . غير أن القانون الإسلامي يفرق بين نوعين من البشر ، أحدهما : هو الذي يقيم العلاقات الجنسية اللامشروعة ؛ رغم توفر فرص العلاقات الجنسية المشروعة لديه . وثانيهما : هو الذي لم تتوفر لديه بعدُ فرص إقامة العلاقة الجنسية المشروعة .

((والمائة جلدةٍ)) هي عقوبة الزنا قبل الإحصان ، أي إذا كان الزاني والزانية غير متزوجين .. وأما عقوبة الزنا بعد الإحصان (الزواج) فهي الرجم ، أي رمي المجرم بالحجارة حتى الموت .. وقد ورد حكم الرجم في القرآن الكريم (المائدة : ٤٣) على وجه الإشارة والتلميح .. وهو ثابت بالسنة النبوية المتواترة بما لا يدع مجالاً للشك في

مشروعيته أو الارتياب .. وإقامة حد الزنا بمشهدٍ من الناس هي ، في الحقيقة ، إضافة جانب العبرة إلى العقوبة .. والمقصود من ذلك أن يرتدع الآخرون ، من ذوي النفوس المريضة ، عن ارتكاب مثل هذه الجريمة البشعة مستقبلاً ، خوفاً من العاقبة الوخيمة التي لقيها أحد المجرمين في الحال .

وسيصبح الزاني والزانية مثل غيرهما من المسلمين العاديين من جديدٍ ، فيما إذا بادرا بالتوبة وإصلاح سيرتهما بعد العقوبة .. وأما إن لم يتوبا ويُصلحا ، فلا يستحقان بعدئذٍ أن يقُبلا لروابط النكاح والقرابة في ظل المجتمع الإسلامي .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ .

يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ : يقذفون العفيفات بالزنا .

ومن الطبيعي ، وقد اعتبر الزنا جريمةً من أشنع الجرائم الاجتماعية ، أن يُعدّ قذف أحد الأبرياء بالزنا هو الآخر جرماً عظيماً .. ومن ثم فقد أمر الله بمن يرمي غيره بتهمة الزنا ؛ ولا يتمكن من إثبات دعواه وفق القاعدة الشرعية ، أن يُجلد ثمانين جلدةً ؛ مضافاً إلى إسقاط اعتباره بجعله مردود الشهادة ما دام مصراً على بهتانه .. وقد ذهب الأحناف إلى أن شهادة القاذف لن تُقبل أبداً ، حتى ولو تاب وأناب وأصبح من الصالحين !! لأن رمي أحد الناس بالتهمة الكاذبة محاولة لقتله من الناحية الأخلاقية . وقد شرع الإسلام عقوباتٍ شديدةً صارمةً على مثل هذه الجريمة ، ليقطع ألسنة السوء، وليسدّ الباب على الذين يتلمسون للأبرياء العيب .. ولو أن شخصاً أفلت من العقوبة الدنيوية ، فإنه لن يفلت من عقاب الآخرة على أية حال .. اللهم إلا أن يتوب توبةً نصوحاً ، سائلاً الله – سبحانه وتعالى – العفو والمغفرة ، فإنه لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى!

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ

أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ .

وَيَدْرَأُ عَنْهَا : يدفع عنها العقوبة .

ومن مسائل هذا الباب أن شخصاً لو اتهم زوجته بالفاحشة ، ولم يكن لديه أي شهود عيان سوى نفسه هو ، فكيف يُحسم الأمر في هذه الحالة؟ والجواب هو: أن القضية ستحسم عن طريق الحلف ، وهو المعروف في الاصطلاح الشرعي بـ ((اللعان)) .

فإذا أقسم الرجل بالصيغة المذكورة ، وظلت المرأة صامتة ؛ أي امتنعت عن اللعان ، أقيم عليها حد الزّنا أخذاً بشهادة الرجل .. وأما إذا حلفت المرأة بدورها بالصيغة المذكورة أعلاه ، وادعت أنه كاذب فيما رماها به من الزنا ؛ فلا يقام عليها الحد ، ولكن يُفرق بعد ذلك بين الزوجين (المتلاعنين) بصورةٍ مؤبدةٍ .

إن القضايا الاجتماعية والأسرية تكون معقدةً غاية التعقيد .. وعندما يحاول الإنسان وضع القوانين والتشريعات في هذه القضايا ، فكثيراً ما يجنح إلى جانب على حساب الجانب الآخر .. أما التشريع الإلهي فهو يشتمل على مراعاةٍ تامةٍ دقيقةٍ للجوانب كلها .. ومن هنا كان التشريع الإلهي رحمةً للناس عظيمةً جداً !

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

بِالإِفْكِ : أقبح الكذب وأفحشه .

عُصْبَةٌ : جماعة منكم .

تَوَلَّى كِبْرَهُ :تحمل معظمه (رأس المنافقين) .

إذا كان الداعي على حقٍ في الواقع ؛ فإن الدعايات المغرضة الكاذبة ضده لا تضره شيئاً ، بل تكون دوْماً في صالحه .. ذلك لأن الدعايات الكاذبة ، لابد أن يفتضح سرها في النهاية .. وعندما يفتضح السر ، يعود صدق الداعي وكونه على الحق أكثر وضوحاً وأجلى برهاناً .. هذا من جانبٍ .. ومن جانب آخر فإن الذين كانوا في حيرةٍ أو ارتيابٍ بشأنه ، يصلون بعدئذٍ إلى درجة اليقين .. إذْ يرون عملياً أن معارضي الداعي إلى الحق لا يملكون إزاءه سوى التهم والافتراءات الباطلة .

وقد كان لِعبد الله بن أبي ابن سلول (رأس المنافقين) اليد الكبرى في تلفيق وإشاعة التهمة النكراء ضد السيدة عائشة الصديقة . . وقد أخبر القرآن بأن له عذاباً عظيماً في الآخرة .. إلا أنه لم يُعاقب بأية عقوبةٍ عاجلةٍ في الدنيا ، وإنما خُلي سبيله ، حتى مات حتف أنفه .. وكان عمر قد أشار على رسول الله - ﷺ - بعد هذا الحادث بأن يُضرب عنقه .. فالتفت - عليه الصلاة والسلام - إلى عمر وقال : «فكيف، يا عمر ، إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» الأمر الذي يوضح أنه قد يكون مقتضى الحكمة أحياناً ألا يؤخذ حتى أكابر المجرمين بأي عقابٍ عاجلٍ في الدنيا، بل يُحال أمرهم على محكمة الآخرة !

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

إن من حق المسلم على أخيه المسلم أن يحسن به الظن دائماً .. فإن إساءة الظن بالآخر دليل على فساد النفس وسوء الطوية .. وإحسان الظن به هو بالعكس دليل صلاح النفس ونقاء السريرة .

والأسلوب الصحيح ، إذا ما أخبر شخص عن آخر بالسوء ، أن نطالبه على الفور بإقامة الدليل والبرهان .. بحيث لا ينبغي أن يأخذ الكل في ترديد ما سمع وإشاعته بلا أناةٍ ، بل يطلب من المخبر أن يأتي بالشهداء على صدق دعواه تبعاً للقاعدة الشرعية . فلو أنه جاء بالشهداء لكان كلامه حريًا بالنظر والاعتبار ، وإن لم يأت بمن يشهدون

على صحة دعواه ، فإنه هو المجرم الأكبر .. إذْ لا يحق لأحدٍ ، كائناً من كان ، أن يتهم غيره بلا دليلٍ أو برهانٍ !

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

أَفَضْتُمْ فِيهِ : خضتم فيه من حديث الإفك .

وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً : تظنونه سهلا لا تبعة له .

سُبْحَانَكَ : تعجب من شناعة هذا الإفك .

بُهْتَانٌ : كذب يحير سامعه لفظاعته .

إن رسول الله – ﷺ – كان في مركز الداعي إلى الحق .. وأمر الداعي إلى الحق يكون أمراً بالغ الخطورة ؛ حتى إن زلّةً سلوكيةً واحدةً تكفي – لو وقع فيها فرضاً – لهدم رسالته كلها من الأساس .. وفي مثل هذا الوضع فإن الذين تلقّفوا إشاعة باطلةً عن سيدةٍ مؤمنة هي قمّة الطهر والعفة ، وراحوا ينشرونها هنا وهناك بدون تحفظٍ ، لقد ضربوا أسوأ مثالٍ لقلة الأناة واللامسئولية .. ولو لا أن تفضّل الله – سبحانه وتعالى – بإبطال تلك التهمة الشنيعة عند الوهلة الأولى ، لكادت أن تتسبّب في إصابة الدعوة الإسلامية بما لا يُقدّر من خسائر ونكسات فادحةٍ ، إذْ كان من المحتمل جداً أن يقع المجتمع الإسلامي كله نتيجة لذلك فريسة سوء الظن والأراجيف ، وينقسم المسلمون بالتالي على أنفسهم ، يحارب بعضهم بعضاً ، حتى لو وصل الأمر بهذا الانقسام الداخلي والحرب الأهلية في نهاية المطاف إلى أن تقضي الأمة على نفسها بنفسها ، تلك التي أخرجها الله لكي تضطلع بمهمة القضاء على سيادة الشرك العالمية!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى

ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٠﴾﴾

المراد بإشاعة «الفاحشة» هنا إشاعة ما أُطلق عليه «الإفك» في الآية رقم (١١) من هذه السورة .. وهو يعني تلفيق تهمةٍ كاذبةٍ ضد شخص ما ، والعمل على نشرها بين الناس .

وللحديث أسلوبان : أحدهما : ألا يتفوه المرء إلا بما يتوفر لديه من دليل على صدقه في الواقع .. ويمكن إثباته شرعياً .. والثاني : أن يخترع المرء من تلقاء نفسه أمراً لا يستند على أساسٍ .. ويأخذ في إذاعته بين الناس ..

إن الأسلوب الأول هو وحده الأسلوب المشروع ، بينما الأسلوب الثاني غير مشروعٍ إطلاقاً !!

ومما يحدث على وجه العموم أن المرء حين يسمع شيئاً عن بعض خصومه ، فلا يرى ثمة حاجة إلى تناوله بالتحقيق أو التحري والتثبت من صحته أو بطلانه ، بل سرعان ما يتلقاه بالقبول بدون تمحيصٍ ولانقاشٍ ، وينطلق يردده ويحدث به إلى الآخرين .. وإن هذا ليس فعلاً يتسم باللامسئولية فحسب ، بل هو جريمة عظيمة جداً ؛ يستحق فاعلها عقوبةً شديدةً في الدنيا والآخرة !

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾﴾

خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ : طرقه وآثارها ومذاهبه .

بِالْفَحْشَاءِ : ما عظم قبحه من الذنوب .

وَالْمُنكَرِ : ما ينكره الشرع ويكرهه الله .

مَا زَكَى : ما تطهر من دنس الذنوب .

اتباع خطوات الشيطان يعني استجابة المرء للوساوس الشيطانية .. فحين تتولد مشاعر سوء الظن أو الريبة في النفس إزاء أحد الناس ، بناءً على بهتانٍ أو تهمةٍ كاذبةٍ ، فإنها يكون ذلك نتاج وسوسةٍ شيطانيةٍ .. وكذلك حين تستيقظ الأفكار السلبية في داخل المرء ضد خصمه ، بدون مبررٍ ، فإنها هي الأخرى تمثل إحدى حيل الشيطان الخفية للسيطرة على القلب وتصريفه كما يشاء ، وينبغي للمرء إذا ما استيقظت مثل هذه الأفكار والمشاعر في داخله ، أن يقضي عليها في الداخل على الفور ، دون أن يندفع وراءها .. فإن تلبية نداء مثل هذه المشاعر والأحاسيس استجابة لنداء الشيطان رأساً !.

والاشتغال بالدعايات المغرضة ضد الآخرين عمل يتنافى مع روح التواضع.. إن المرء عادة ما يكون حسن الظن بنفسه أكثر مما يلزم ، وسيئ الظن بغيره أكثر مما يلزم كذلك .. وكلا هذين الأمرين لا يتفق والإيمان .. ولو نشأ التواضع الإيماني في داخل المرء حقاً ، لجعله مشغولاً بمحاسبة نفسه لدرجة لن يجد معها الفرصة لكي ينبري لمحاسبة الآخرين !!

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾

وَلاَ يَأْتَلِ : لا يحف أو لا يقصر .

أُوْلُوا الفَضْلِ : أصحاب الزيادة في الدين .

وَالسَّعَةِ : الغنى .

كان «مسطح بن أثاثة» واحداً من أولئك الذين قدحوا في عرض السيدة عائشة .. وهو من فقراء المهاجرين ، وكانت تربطه بأبي بكرٍ صلة قرابةٍ بعيدةٍ ، وكان أبو بكر يساعده بشيءٍ من المال .. غير أن وقوف «مسطح» إلى جانب مروّجي تلك الدعاية المغرضة ضد عائشة – رضى الله عنها – وهي ابنة أبي بكرٍ ،كلفه – بطبيعة الحال – ألماً لا يُطاق ، فحلف أبو بكر ألا ينفق عليه شيئاً أبداً .

إن إعانة المحتاجين والفقراء ، كما دعا إليها الإسلام ، إنما تكون - أولاً وآخراً - نظراً إلى حاجتهم ، وليس نظراً إلى أي اعتبارٍ آخر .. ومن ثم نزل القرآن الكريم في أعقاب هذا الحادث ، يأمر المؤمنين بأنه لا يحق لأصحاب الغنى واليسار منكم أن يمتنعوا عن مساعدة المحرومين والبؤساء بناءً على أي إساءةٍ أو شكايةٍ ذاتيةٍ .. ألا تحبون - أيها المؤمنون - أن يعفو الله عنكم ويغفر لكم ذنوبكم ؟! وإذا كنتم ترجون من الله العفو والمغفرة ، فينبغي عليكم أيضاً أن تعفوا وتصفحوا عن إساءات الآخرين .. ولما سمع أبو بكر هذه الآية الكريمة قال ((بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي)) ، فأعاد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه من قل ، وقال : ((والله لا أنزعها منه أبداً)) !

وإن المؤمن إنما يعطي الأهمية الكبرى لأمر الله ، فحين يتضح أمر الله ، يبادر بامتثاله والانقياد له من فوره ، ولو كان ذلك الأمر الإلهي شديد الوطأة على نفسه ، مناقضاً لهواه تماماً !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾

المُحْصَنَاتِ : العفائف ، ومثلهن المحصنون .

دِينَهُمُ الحَقَّ : جزاءهم الثابت لهم بالعدل .

الإنسان ينطق ضد الآخرين بكلمات السوء ؛ وهو لا يدري أن الكلمات الصادرة من لسانه تصل إلى الله قبل وصولها إلى الآخرين ! وإن المرء يستعمل يديه ورجليه للظلم والاعتداء على الآخرين ؛ ويغيب عن باله أن القيامة حين تقوم ، فلن تعود يداه ورجلاه في حيازته هو ، بل ستصبح شاهدةً عليه أمام الله !!

وإن هذه الغفلة هي مصدر كل الشرور والآثام .. ولو أحسّ المرء هذه الحقيقة حق الإحساس بأنه في عالمٍ ، حيث يراقبه الله كل حين وآنٍ ، لا تخفى عليه خافية ، وحيث يُسجل كل قولٍ أو فعلٍ يصدر منه تحت النظام الإلهي ، لتغيرت حياته تغيراً جذرياً

شاملاً ؛ فهو يزن كل كلمةٍ قبل أن ينطق بها وزناً دقيقاً ، ويستخدم أعضاءه وجوارحه بمنتهى الحذر والاحتياط !

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) ﴾

المراد بـ ((الخبيثات)) هو الكلمات الخبيثة .. وكذلك المراد بـ ((الطيبات)) هو الكلمات الطيبة .. ومعنى ذلك أن شخصاً لا يصبح سيئاً بسبب تناوله شخصاً آخر بنعت السوء .. إذْ لا ينطبق على المرء إلا وصف يتفق مع ما هو عليه في هذا الأمر .. وأما لو وجّه الأشرار إلى الفضلاء من الناس قول السوء ، فإنما يصدق ذلك آخر الأمر على القائلين أنفسهم ، بينما يتبرأ الفضلاء مما وُجّه إليهم كل البراءة .

والذين هم طيبون في ذات أنفسهم ، لابد أن يتبرءوا مما قد يُلصق بهم من التهم الكاذبة في هذه الدنيا ، إلى جانب كون براءتهم في الآخرة مضمونةً بكل تأكيدٍ .. كما أنهم سيفوزون في الآخرة بمزيدٍ من إنعامات الله وكرامته ، ذلك لأن الأقاويل الباطلة المثارة ضدهم كانت ، في الحقيقة ، ثمناً لكونهم قطعوا صلتهم بالباطل ، واندمجوا بأنفسهم في الحق وحده!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) ﴾

تَسْتَأْنِسُوا : تستأذنوا ممن يملك الإذن .

أَزْكَى لَكُمْ : اطهرلكم من دنس الريبة والدناءة .

جُنَاحٌ : إثم .

مَتَاعٌ لَّكُمْ : منفعة ومصلحة لكم .

في الحياة الاجتماعية كثيراً ما يحتاج الناس إلى اللقاء أو الزيارة فيما بينهم تحت شتى العوامل والأغراض .. ولما كان توجُّه المرء إلى أحدٍ بدون إعلامه سلفاً واقتحامه عليه داره فجأةً ؛ مما قد يسبب الحرج والإزعاج للزائر والمزور على السواء ؛ أدرجت قاعدة الاستئذان المسبق في آداب اللقاء والزيارة .

والأفضل أن يتم الاتصال - إن أمكن - بالشخص المطلوب زيارته قبل التوجه إليه، وتحديد موعد اللقاء معه سلفاً ، ثم ينبغي على الزائر ، حالما يصل إلى منزل أخيه ، أن يطلب منه أولاً السماح للدخول.. وقد يمكن أن تكون هناك أساليب مختلفة لهذا الاستئذان بحسب الأحوال التمدنية والثقافية ، ولكن لابد لكل أسلوبٍ يُتبع بهذا الخصوص أن يكون على مستوى الأدب الإسلامي الرفيع .. وإن الإسلام يريد بناء كل شئون الحياة الاجتماعية ، مهما كانت صغيرةً أو كبيرةً ، على أساسٍ من السماحة .. وهذه السماحة ذاتها مطلوبة فيما يتصل باللقاء والزيارة كذلك .. فلو توجّهت إلى بيت أحد الناس قاصداً لزيارته ، واعتذر إليك رب البيت عن اللقاء في ذلك الوقت ، فلك أن تتقبل الرجوع برحابة صدرٍ وارتياح بالٍ . على أن هذا الحكم (حكم الاستئذان) لا ينسحب على تلك الأماكن الاجتماعية، حيث الدخول مسموح للجميع بوجهٍ عام!

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ : يكفوا نظرهم عن المحرمات .

لقد أرشدت هذه الآية الكريمة إلى أدبين رئيسين ، يجب على كل رجلٍ مؤمن أن يتحلى بهما أينما كان ، أحدهما : ستر العورة ، وثانيهما : غض البصر .. (وهذا الحكم يشمل أيضاً النساء المؤمنات ، كما هو موضح في الآية التالية رقم ٣١) .

أما عورة الرجل - أي الجزء الذي لابد له من أن يستره من بدنه على كل حالٍ من الأحوال - فهي : من السرّة إلى الركبة .. فلا يحل للرّجل أن يكشف عورته هذه أمام

أحدٍ سوى زوجته ؛ اللهم إلا أن تعرض له حاجة أو ضرورة يُباح عندها حتى المحظور، كالفحص الطبي والعلاج مثلاً .

والأمر الثاني المطلوب من الرجال: أن يغضوا أبصارهم ، إذا ما التقوا بالنساء وجهاً لوجه .. إذْ لا ينبغي أن يتم اللقاء بين الرجل والمرأة بأسلوبٍ حرٍ طليقٍ كتلاقي الرجال بعضهم مع بعض .. وإنما الرجل هو المطالب بخفض بصره عند لقائه المرأة .. ولو تصادف أن وقع بصر الرجل على أجنبيةٍ ، فليصرف نظره عنها من فوره ، ولا يتعمد النظر إليها مرةً أخرى !!

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

زِينَتَهُنَّ : مواضع زينتهن من الجسد .

ظَهَرَ مِنْهَا : الوجه والكفين والقدمين .

وَلْيَضْرِبْنَ : وليلقين ويسدلن .

بِخُمُرِهِنَّ : أغطية رؤوسهن (المقانع) .

عَلَى جُيُوبِهِنَّ : على مواضعها (صدورهن وما حواليها) .

لِبُعُولَتِهِنَّ : لأزواجهن .

أَوْ نِسَائِهِنَّ : المختصات بهن بالصحبة أو الخدمة .

الإِرْبَةِ : أصحاب الحاجة إلى النساء .

لَمْ يَظْهَرُوا : لم يبلغوا حد الشهوة .

إن أحكام الإسلام عن النساء لها جانبان: أحدهما : هو الذي يسمى «ستر العورة»، والآخر : هو الذي يحمل عنوان «الحجاب» .. أما الأحكام المتصلة بستر العورة فهي بيان ما يجوز للمرأة أن تكشف ، وما لا يجوز لها أن تكشف من أجزاء بدنها ، سواء كانت في البيت أو خارجه ، ومَنْ هم الذين يُباح لها أن تبدي زينتها لهم ، وما حد الزينة المسموح بإبدائها ، وما هي مرات بالمسموح لهم النظر إليها .. إلخ .

وأما الحجاب فهو يتعلق بتستّر المرأة خارج البيت خاصةً .. أي ما هو الوضع الذي فرضته الشريعة الإسلامية على المرأة أن تلتزم به عند خروجها من البيت وفي السفر .. والآية محل التفسير الآن تتحدث أساساً عن مسائل «العورة» ، بينما ورد الحديث عن مسألة «الحجاب» في سورة «الأحزاب» ، وسوف نبينها في موضعها إن شاء الله تعالى .

وقوله : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ يدل على أن العنصر الرئيسي والأكبر أهمية بشأن تنفيذ أحكام الشريعة هو توفر الاستعداد الداخلي في النفوس لتقبلها وامتثالها .. وقد كان الصحابة والصحابيات - عليهم رضوان الله - المثل الأعلى في هذا الخصوص .. ويتضح ذلك مما روته السيدة عائشة تقول : «إني - والله - ما رأيت أفضل من نساء الأنصار ؛ أشد تصديقاً لكتاب الله ، وإيماناً بالتنزيل ، لما أنزلت في سورة النور ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ ، انقلب رجالهن إليهن ؛ يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل ، فاعتجرت - أي التفت - به ، تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه .. فأصبحن وراء رسول الله - ﷺ - معتجراتٍ كأن على رؤوسهن الغربان!»[1].

﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٦٠٠.

حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

وَأَنكِحُوا الأَيَامَى : من لا زوج لها ، ومن لا زوجة له .

يَبْتَغُونَ الكِتَابَ : يطلبون عقد المكاتبة المعروف .

فَتَيَاتِكُمْ :إمائكم .

البِغَاءِ : الزنى .

تَحَصُّناً : تعففا وتصونا عنه .

الإسلام يفضل الحياة الزوجية للرجل والمرأة .. فلا يجوز لأحدهما أن يمتنع عن الزواج لأي عذرٍ من الأعذار .. وإذا وُجد ثمة رجال أو نساء في المجتمع الإسلامي لم يتزوجوا ، أو لا يقدرون على التزوج بسبب عائقٍ ماديٍ أو غيره من الأسباب ، فإن الإسلام يريد لأتباعه عندئذٍ أن يعتبروها قضيةً مشتركةً تهم الجميع ، وبالتالي فلا يهدأ بالهم ولا يستريحون ما لم يقوموا بإيجاد حل شرعي للقضية .

والمراد بالكتاب أو المكاتبة تحرير وثيقة يعاهد فيها العبد - أو الأمَة - سيده بأنه سيدفع إليه في مدة كذا من الزمان مبلغ كذا من المال ، فإذا أداه ، تحرر من رق عبوديته .

ولما جاء الإسلامي كان الاسترقاق عادةً متبعةً وعرفاً سائداً في شبه الجزيرة العربية وفي سائر أنحاء العالم يومذاك.. وقد شرع الإسلام منذ أول ظهوره في القضاء على تلك العادة بصورةٍ منظمةٍ للغاية .. ومن بين الوسائل أو الأساليب التي تبناها لتحقيق هذا الغرض ما يسمى «المكاتبة» .. غير أن الإسلام قد سار ، وهو يقود مسيرة فك الرقاب (أي تحرير العبيد) على خطة التدرج ، كما هو شأنه في كل ما نفذه من الأحكام التشريعية والبرامج الإصلاحية .. فما زال الأرقّاء يُحررون بشتى الطرق ، حتى كادت

هذه المؤسسة أن تنعدم وتتلاشى في أواخر العهد الراشدي!!

والناس في قديم الزمان كانوا يأمرون إماءهم بالتكسّب من وراء الدعارة .. وقد كانت لدى عبد الله بن أبيّ - رأس المنافقين بالمدينة - جاريات يحترفن له البغاء ، وهو يستدرّ من خلال ذلك الماء الوفير .. وعندما أسلمت إحداهن فامتنعت عن البغاء ، أخذ في إجبارها عليه بالضرب والتهديد .. وفي نهاية المطاف تم تخليص تلك الجارية المؤمنة من يد عبد الله بن أبي بأمرٍ من رسول الله ﷺ .

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ : منورهما أو هادي أهلهما أو موجدهما .

كَمِشْكَاةٍ : كنور كورة غير نافذة .

مِصْبَاحٌ :سراج ضخم ثاقب .

زُجَاجَةٍ : قنديل .

كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ : مضيء متلألئ صاف .

هذا تمثيل مركب .. وقد أُريد بالنور في الآية هداية الله .. وبالمشكاة - وهي الكوة - قلب الإنسان .. وبالمصباح استعداده للإيمان .. وأما الزجاجة والزيت فهما يكشفان عن مزيد من خصائص ذلك الاستعداد .. فالزجاجة تشير إلى كون هذا الاستعداد داخل القلب الإنساني مصوناً من المؤثرات الخارجية .. بينما يدل الزيت الصافي على أن هذا الاستعداد قوي وعارم لدرجة أنه ينتظر في لهفةٍ وشوقٍ ، متى يظهر الحق أمامه ، حتى يسرع إلى قبوله بدون توقفٍ !!

وإنها لحقيقة لا سبيل إلى إنكارها أن الذات الإلهية هي وحدها مصدر النور في هذا الكون .. وإنما يستمد الكل النور والهداية منها وحدها لا غير .. فوق ذلك فإن الله -

سبحانه وتعالى – قد أنشأ الإنسان بحيث أودع طلب الحق في فطرته .. وهذا الطلب شديد وقوي إلى غير نهاية .. ولو أنه قد حُوفظ عليه من الضياع ، لبقي في حالة عدم الاستقرار والاضطراب الدائم بحثاً عن إجابته وتلبيته .. إن استعداد الإنسان للقبول متدفق وعارم في طبيعته ، كأنما هو النفط النقي الذي حين تقرب منه نار يشتعل من فوره !

والمؤمن هو الإنسان الحقيقي الذي لم يعرض استعداده الفطري للضياع ، فإذا ما قُدمت إليه دعوة الحق ، تحرك استعداده الكامن ، وبالتالي لم يلبث وجوده أن يصير بأكمله مضيئاً ومشرقاً بانضمام نور الفطرة إلى جانب نور الهداية الربانية !

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

بُيُوتٍ : هي المساجد كلها .

أَن تُرْفَعَ : أن تُعظم وتطهر

بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ : أول النهار وآخره .

بِغَيْرِ حِسَابٍ : بلا نهاية لما يعطي أو بتوسع .

إن المسجد من المجتمع الإنساني بمنزلة القلب من الجسم الإنساني .. وقلب الإنسان يعمر بالإيمان ، وأما المساجد فتعمر بعبادة الله .. وإن المساجد بيوت الله ، وهي لا تُبنى إلا لكي يُذكر اسم الله فيها وتتلى آياته آناء الليل وأطراف النهار .. وإن الذين يرتادونها ليس لهم من غرضٍ سوى أن يتوجهوا بقلوبهم إلى الله في رحابها ، حيث يسود جوّ روحي مشرق ، وأن يقضوا هناك بعض الوقت في عبادة ربهم بتجردٍ وإخلاصٍ بالغين .

والذي كُتب له التوفيق لكي يتعرف على صوت فطرته ، فيؤمن بالله ، ثم يشغل

نفسه بأعمال المسجد ؛ فإن الله يملأ فؤاده بخشيته والشعور برقابته الدائمة .. وإنها - بحقٍ - لأعظم نعمةٍ يفوز بها إنسان في العالم الراهن .. فإن أصحابها هم الذين يختارون طريق العبودية لله على مستوى التضحية والفداء ، ويقطعون صلتهم بالأرباب ليرتبطوا برب الأرباب وحده !

وذلك هو الإنسان الذي يستحق عند الله الإنعام الأفضل .. وإنه تعالى سيرزقه من فضله بغير حسابٍ !!

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

كَسَرَابٍ : شعاع يُرى ظهرا في البر عند اشتداد الحر كالماء الشارب .

بِقِيعَةٍ : في مبسط من الأرض .

بَحْرٍ لُّجِّيٍّ : عميق كثير الماء .

يَغْشَاهُ : يعلوه ويغطيه .

سَحَابٌ : غيم يحجب أنوار السماء .

هناك نوعٌ من البشر سبق ذكره في الآية رقم (٣٥) .. وهو الذي يحتفظ باستعداده الفطري ؛ فيُوفق - ثمرة ذلك - للفوز بنعمة الإيمان .. وهنا تتحدث الآيتان (٣٩ ، ٤٠) عن نوعين آخرين من البشر ؛ عن أناسٍ لا يكاد «زيْتهم» يشتعل - ولو مسّته نار دعوة الحق - غير مرةٍ !

أما أحد هذين النوعين : فهو الذي يظل متمسكاً بدين مزعومٍ ، ما أنزل الله به من سلطانٍ ، ويعيش فرحاً مسروراً بالآمال الزائفة مغتراً بالأوهام الباطلة .. وهكذا لا تبرح الأماني الحالمة مسيطرةً على قلبه ، مستبدةً بعقله على مدى الحياة ، حتى إذا وافاه

الأجل المحتوم تبخّرت آماله وأحْلامه كلها ، حيث يفاجأ بإدراك أن الشيء الذي كان يعتبره مستقره ومأواه ، لم يكن سوى هاوية الدمار والهلاك المؤبد!!

وأما النوع الثاني: فهو يشمل المنكرين والسائرين في طريق البغي والطغيان علناً وجهاراً ، وهؤلاء يحاولون أن يخترعوا الهداية من عند أنفسهم تاركين الهداية المنزلة من عند الله ، على أن محاولتهم هذه سرعان ما تنتهي بالفشل التام والخيبة المطلقة ؛ فإنه ليس ثمة من هادٍ في هذا العالم غير الله الواحد الأحد ، ولا يقع في نصيب المرء ، بعد التخلي عن الله - تبارك وتعالى - سوى أن يظل يتخبط في الظلام الحالك ويعمه في الضلال البعيد إلى الأبد!!

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾

صَافَّاتٍ : باسطات أجنحتهن في الهواء .

إن ما يطلبه الله سبحانه من الإنسان هو أن يعيش الإنسان في هذه الدنيا كما ينبغي له أن يعيش بمقتضى الحقيقة .. وهذا هو دين الحق .. والكون كله - من هذه الناحية - على دين الحق .. فإن كل شيءٍ في هذا الكون إنما يعمل ويتحرك تماماً كما ينبغي له أن يعمل ويتحرك بحكم الواقع .. وليس هناك شيءٍ في رحاب هذا الكون - ما عدا الإنسان - يتصادم في سيره وحركته مع الحقيقة الواقعة .

ومن بين هذه الأشياء التي لا تقع تحت الحصر ، لنتدبر مثال الطير ؛ الذي يجسد لنا ، وهو يطير باسطاً جناحيه في الهواء ، النموذج العملي الكامل لهذه الحقيقة .. حيث يبدو وكأنه يسبح في عالم الحقيقة الأبدية بمنتهى التوافق والانسجام ، وكأنه قد دمج وجوده الفردي في بحر الحقائق الممتد إلى غير نهايةٍ !!

ولكل أحدٍ من المخلوقات تسبيح إلهي ، وهو المطلوب منه.. كما أن للإنسان تسبيحاً إلهياً معيناً ، وهو مطالب به .. ولو وقف الإنسان إزاءه موقف التجاهل والغفلة أو

العناد والطغيان ، فإنه سيُضطر إلى دفع ثمن باهظٍ لذلك ، عندما يلقى ربه وجهاً لوجهٍ !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾

يُزْجِي سَحَاباً : يسوقه برفق إلى حيث يريد .

يَجْعَلُهُ رُكَاماً : متجمعا فوق بعضه .

الوَدْقَ : المطر .

مِنْ خِلالِهِ : من فتوقه ومخارجه .

سَنَا بَرْقِهِ : ضوء برقه .

ذُكرت هنا بعض الظواهر الكونية على سبيل المثال ، ثم جاء التعقيب القرآني عليها بأن فيها عبرةً لذوي البصائر .. وأصل العبرة من العبور أي الاجتياز .. ويُراد بها تلك الرحلة الذهنية التي ينتقل المرء عبرها من شيء إلى شيءٍ آخر .. فحين يربط المرء واقعةً ما بالحقيقة العليا ، وحين يدرك الجانب المعنوي لشيءٍ ما من خلال التأمل في جانبه الظاهري ، فذلك ما يُسمى «العبرة» . ولننظرْ إلى هذا السحاب المتراكم الذي ينتج عن تفاعل ما لا يُحصى من الكائنات بدءاً من الأرض وحتى الشمس ، في نظام متكاملٍ عجيبٍ .. ثم إن هذه السحب تنزل تارةً مطراً ينعش الأرض الهامدة وطوراً تمطر برداً يتلف الزرع ويهلك المخلوقات الحية بما فيها الإنسان .. وهذا هو شأن ضوء الرعد وتقلب الليل والنهار كذلك .. إن هذه المظاهر تنطوي على حقائق معنوية لا تحصى ، والذين يستطيعون ربط الظاهر بالمعنى ، أو الشكل بالمضمون ، هم وحدهم عند الله أصحاب البصر والبصيرة !

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

إن أشياء الدنيا تتسم - على ما يبدو ظاهراً - بالتعدّدية .. مما جعل المشركين قديماً وحديثاً يزعمون - قياساً على ذلك - أن الأشياء لابد أن يكون لها أكثر من خالقٍ واحدٍ .. على أن الأمر ينقلب رأساً على عقبٍ حينما ننظر إلى الأشياء من حيث الوحدة والمماثلة التي تكمن فيها جميعاً ، رغم تنوعها الشكلي وتعدّديتها الظاهرية !

وللحيوانات المتواجدة على وجه الأرض أنواع تتجاوز مئات الآلاف .. ولكن الدراسة المتعمقة تدلنا على أن أصل الجميع واحد ، وأن كل الحيوانات خاضعة لنظامٍ حياتي موحّد .. وعلى ضوء هذه الدراسة تتحول ظاهرة تعددية الأشياء واختلافها شكلاً ونوعاً ووظيفةً ، إلى دلائل قدرة الخالق المبدع وعظمته .. والأمر الذي كان يبدو، من ناحيةٍ، مؤشراً لتعدّد الخالق ، فإذا به يصبح ، من ناحيةٍ أخرى ، دليلاً على توحيد الخالق !!

وإن العالم الراهن لا يمكن فيه العثور على الحقيقة إلا وسط غبارٍ قاتمٍ يلفّها ، وفي خضم دواعي الغواية والخداع تحول دون الوصول إليها .. فلابد للمرء هنا من أن يرتفع بنفسه عن صنوف المغريات والمضلّلات ، حتى يستطيع مشاهدة الحق .

وقد زوّد الله الإنسان بالعقل لهذه الغاية السامية .. فمن يستعمل هذا المشعل الإلهي على الوجه الصحيح يهتدِ إلى سبيل الرشاد .. ومن لا يستعمله أو يسيء استعماله ، فليس له من مصيرٍ في هذا العالم سوى التخبط في متاهات الضلال!!

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ

يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

مُذْعِنِينَ : منقادين مطيعين.

أَن يَحِيفَ : أن يجور .

كانت هناك طبقة من أهل المدينة قد انضمت إلى صفوف المسلمين ظاهراً ، غير أنها لم تكن مخلصةً في إيمانها ولا صادقةً في ولائها للإسلام .. وهي التي تُعرف بطبقة المنافقين .. ومع أن هؤلاء كانوا يقولون بألسنتهم «سمعاً وطاعةً» لله ولرسوله .. ولك حين يتعرضون يوماً لمحنةٍ أو اختبارٍ ، يكذبون دعواهم تلك بعملهم!!

وبما أن المدينة حينذاك لم تكن قد تأسست فيها المحكمة الشرعية الإسلامية بعد ، ما برح الزعماء اليهود يشغلون مركز القضاء التقليدي بين الناس كعهدهم منذ مئات السنين .. وإنما بدأ هذا الوضع يتغير ، على أثر قدوم رسول الله - ﷺ - مهاجراً من مكة إلى المدينة .. حيث أصبح - عليه الصلاة والسلام - منذئذٍ هو مرجع المؤمنين في كل شئونهم الدينية والاجتماعية .. وأما المنافقون فقد اتخذوا في هذا الشأن موقفاً مزدوجاً أو بالأحرى انتهازياً كما جرت بذلك عادتهم في كل الأمور والمعاملات .. فلو ثارت خصومة ما بين رجلين أحدهما منافق والآخر من المسلمين الصادقين ، ودعاه المسلم إلى تحكيم رسول الله ، فإنه لم يكن يرضى بذلك إلا إذا كان على يقينٍ من أنه صاحب الحق في القضية محل النظر ، وبالتالي سيصدر الحكم في مصلحته هو .. وإذا كان الأمر على النقيض من هذا ، عارض المنافق خصمه قائلاً : لنذهب إلى الزعيم الفلاني من اليهود ليحكم بيننا !

وهذا على ما يبدو لباقة أو دهاء .. غير أن صاحبه ظالم لنفسه أشد الظلم .. فإن الكاسبين على هذا النحو سيصلون إلى الآخرة وقد خسروا قضيتهم كل الخسران !

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ

وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

إن الرجل العادي يكون تابعاً لمصلحته .. أما المؤمن فهو الذي يجعل من نفسه تابعاً لله ولرسوله .. فإذا ما اتضح له حكم الله ورسوله ، أذعن إليه ونفذه كما هو من غير تلكؤ ولا ترددٍ أو انتحال معاذير ، سوءا أكان ذلك الحكم مطابقاً لهواه أم مناقضاً له ، كفيلاً بالحفاظ على مصالحه أم مؤدياً إلى ضياع مصالحه!!

وفلاح الآخرة ليس إلا من نصيب مَنْ أخضعه إيمانه لحكم الله ورسوله .. والذي قد استقر الشعور بالله في أعماق قلبه بحيث يخاف منه أشد الخوف ، ويصبح لا هم له سوى العمل على إنقاذ نفسه من غضب الله وسخطه ، باعتبار ذلك هو قضية الحياة الكبرى!

﴿ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ : مجتهدين في الحلف بأغلظها وأوكدها .

طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ : طاعتكم طاعة معروفة باللسان .

مَا حُمِّلَ : ما أمر به من التبليغ .

مَّا حُمِّلْتُمْ : ما أمرتم به من الطاعة والانقياد .

إن الشخص الذي يستقر الله في أعماق قلبه ، ويتغلغل الخوف منه تعالى في أحشائه، يعود خافض البصر ومعقود اللسان تواضعاً وخشوعاً .. وقد يدفعه شعوره بالمسئولية إلى تقديم التضحيات الجسام ، إلا أنه يبدو للناظرين أخرس لا يعرف الكلام ، بينما يتعالى فيما حوله ضجيج الادعاءات اللسانية الجوفاء !!

وعلى نقيضٍ من ذلك فإن الذي يكون «ناقصاً» في علاقته بالله ، يصبح «كثير الكلام» حيث يحاول أن يتلافى نقص عمله بوفرة الألفاظ .. ولكونه لا يملك شهادة السلوك الحقيقي، يلجأ إلى التشدق بالكلمات الفخمة والشعارات المدوية لإقامة الدليل على اعتباره وقيمته !! والذين يريدون التأثير على الآخرين وكسب إعجابهم بهم عن طريق التلاعب بالألفاظ ، يحسبون أن القضية هي قضية البشر وحدهم ليس غير .. ولكن تفكير المرء ومنهج حياته سيتغيران تماماً ، فيما لو أيقن بأن القضية الحقيقة هي التي سيواجهها عند الله - سبحانه وتعالى !

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

إن وعد الغلبة الذي ذكرته الآية الكريمة موجّه أصلاً إلى الرسول وأصحابه - عليه الصلاة والسلام - إلا أنه يشمل بالتبع سائر الأمة المحمدية كذلك .. ويتضح من هذا أن الغلبة والسلطة لا تمثلان هدف نشاط المؤمنين أو غاية عملهم في هذا العالم ، فإنما هي منحة إلهية ، ينعم الله بها على الجماعة المؤمنة ثمرة الإيمان والعمل الصالح .

والغرض من هذه الغلبة هو تمكين أهل الإيمان من التماسك والاستقرار في الأرض، وأن تُتاح لهم الفرصة لكي يعيشوا آمنين من كل الأخطار التي تتهدد كيانهم من قِبَل أعداء الحق .. بحيث يعبدون الله بحريةٍ تامةٍ .. ويمارسون حياتهم كعبادِ لله الواحد الأحد .. وسيظل أهل الإيمان متمتعين بهذه الغلبة والتمكين في الأرض ما داموا شاكرين لنعمة ربهم ، ولم يفقدوا صفة التقوى .

والخليفة في اللغة : هو الذي يخلف غيره فيقوم مقامه .. والاستخلاف يعني : إتاحة الغلبة والتمكين في الأرض لأمةٍ مكان أمةٍ بالتعاقب .. وإن الغلبة هي في الحقيقة ورقة امتحان إلهي .. فالله - سبحانه وتعالى - يمنح الغلبة لكل الشعوب والأمم ، الواحدة

تلو الأخرى ، لكي يختبرها بذلك .

وأما بالنسبة إلى الجماعة الإسلامية المؤمنة فإن هذه الغلبة إنعام وتكريم أيضاً إلى جانب كونها بلاءً وامتحاناً من الله العزيز الحكيم!

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾

مُعْجِزِينَ : فائتين من عذابنا بالهرب .

إن رحمة الله هي أن تُتاح الغلبة في الدنيا والجنة في الآخرة .. والذين يرجون رحمة الله هذه ، ينبغي عليهم أن يتحلوا بصفاتٍ ثلاث ، وهي :

١- إقامة الصلاة .. وهي من الناحية الشكلية علم على إقامة نظام الصلوات الخمس الرتيبة .. وأما من الناحية المعنوية فإنها تعني أن يعيش الناس على الخشوع والتواضع ، وليس على التكبر والطغيان .

٢- إيتاء الزكاة .. وللزكاة بدورها صورة وحقيقة .. أما صورتها فهي أن تدفع مبلغاً معيناً من مالك - إذا بلغ حد النصاب - إلى بيت المال على مدار السنة ، وأما الزكاة - من حيث حقيقتها الجوهرية - فهي تطهير للنفوس من الجشع والأثرة ، وتربية للناس على معاني الإيثار والنصح وحب الخير للآخرين .. حتى تتمكن هذه المعاني من قلوبهم لدرجة يعتبرون معها أن في أنفسهم وأموالهم حقاً لغيرهم !

٣- طاعة الرسول .. إنّ طاعة الرسول كانت في عصره طاعة لذات الرسول .. وقد صارت فيما بعد طاعة سنة الرسول .. ومعنى ذلك : أنه يجب على الناس جميعاً أن يتخذوا من رسول الله النموذج الأعلى للحياة ؛ فينظروا إليه على أنه هو قائدهم ومرشدهم الأوحد في كل الشئون والمعاملات الحياتية .. فحين تتجلى سنة الرسول في أمرٍ من الأمور يتخلى الجميع عن آرائهم الشخصية ، وليكن الرسول دائماً إلى الأمام ، بينما يسير الكل وراءه طائعين منقادين!

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

جُنَاحٌ : حرج في الدخول بلا استئذان .

وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ : العجائز اللاتي قعدن عن الحيض .

مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ : مظهرات للزينة الخفية .

يبدو أن هذه الآيات نزلت متأخرةً بعض الشيء ، وألحقت بهذا الجزء الأخير من السورة ؛ لتكون تتمةً أو توضيحاً لما سبق أن ذُكر من الأحكام والتشريعات الاجتماعية في المقاطع الأولى من هذه السورة .. ففيما كانت الآية رقم (٣١) مثلاً ، وهي تتضمن التوجيهات الخاصة بالنساء من غض البصر وستر العورات والتزام الحشمة والوقار .. إلخ ، قد أكدت على وجوب إلقاء الخمار على صدورهن ، نجد هنا الآية رقم (٦٠) قد استثنت من ذلك الحكم العام النسوة العجائز اللاتي تجاوزن سن الزواج ، حيث تقرر : إنه ليس عليهن من حرجٍ أو إثمٍ فيما إذا لم يبالغن في التستّر ، ووضعن بعض ثيابهن كالرداء والجلباب .. وقد كان من الممكن أن ينزل كلا هذين النوعين من الأحكام معاً ؛ ولكن هناك أربعة مقاطع تفصل بينهما ، تناولت موضوعات أخرى مثل آيات الله في الكون وطبيعة المنافقين ، وحسن آداب المؤمنين .. إلخ .. وكما يُستفاد من الروايات أن مجموعةً من المسائل العملية تولّدت في أعقاب نزول الأحكام المتقدم ذكرها ، فأنزل الله

هذه الآيات التوضيحية رفعاً للحرج والمشقة عن المؤمنين .. ويتضح من هذا أيضاً أن منهج القرآن الكريم هو منهج التدرج والمرحلية ، وليس منهج الإقدام على التنفيذ والتطبيق دفعةً واحدةً .. فقد كان بإمكان الله - سبحانه وتعالى - أن ينزل كل الأحكام والتشريعات في آن واحدٍ ، غير أنه تعالى أنزلها تدريجياً بحسب الأحوال والظروف!

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ : مما في تصرفكم وكالة أو حفظا.

أَشْتَاتاً : متفرقين .

لم يكن في المجتمع العربي قبل الإسلام أية قيود ولا التزامات ولا آداب يتعين على الأفراد مراعاتها خلال التعامل بعضهم مع بعض .. ولما جاء الإسلام وفرض على الرجال والنساء ما سبق ذكره من الأحكام والتشريعات المتصلة بغض الأبصار وحفظ الفروج، والحجاب وأدب الاستئذان قبل الدخول إلى بيوت الآخرين.. إلخ ، خُيل إلى بعض الناس أن حياتنا الاجتماعية ستعود ، بسبب هذه القيود والالتزامات ، محدودةً وضيقةً للغاية.. فنزلت هذه الآية توضح للناس أن الله - سبحانه وتعالى - إنما يريد بفرض تلك القيود والآداب تنظيم حياتكم الاجتماعية ، وليس القضاء على حرياتكم المشروعة .. إذْ هو يعلم أن ذوي الأعذار والعاهات كالأعمى والأعرج والمريض مثلاً ، لو حيل بينهم وبين أقاربهم لكلفهم ذلك عناءً بالغاً ، فإنهم سيصبحون

بعد ذلك عملياً بلا سندٍ ولا معينٍ يرعاهم .. وظاهر أن هذا ليس مما يتوخاه الإسلام في شيء .. ومن ثم رفع عنهم الحرج ببيان جانب اليسر والتخفيف المتاح لهم في الأحكام السابقة ، مع التأكيد على ضرورة الاحتفاظ بروحها الأصلية .

وقد بين – سبحانه وتعالى – هنا أن مطلوب الإسلام الحقيقي يتلخص في أن تكون قلوب المؤمنين منطوية على مشاعر النصح والمودة وحب الخير بعضهم لبعض .. وأن الواحد منهم إذا دخل بيت أخيه فليقل : « السلام عليك ورحمة الله وبركاته » .. وهو تعبير عن تلك الروح السامية التي لو وُجدت في النفوس حقاً ، فإن معظم الشرور والمفاسد الاجتماعية ستنعدم وتتلاشى تلقائياً !

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) ﴾

أَمْرٍ جَامِعٍ : أمر مهم يجب اجتماعهم له .

إن أناساً حين يرتبطون بالإسلام ويرتضونه لأنفسهم ديناً ومنهج حياةٍ ، فكثيراً ما تدعو الحاجة إلى أن يتم حشدهم في صعيدٍ واحد ، إما للتشاور حول أمرٍ من الأمور يهم المسلمين بعامةٍ ، أو لأجل الحصول على التعاون والمساعدة (المادية والمعنوية) على تحقيق مشروعٍ من المشاريع الاجتماعية ، أو لغير ذلك من الأغراض والمصالح العامة.. ويحدث في مثل هذه المناسبات أن الذي تغلب عليهم مطالبهم الفردية الخاصة ، سرعان ما يفتر حماسهم ونشاطهم ، ويدب في نفوسهم دبيب الملل والسآمة ، وبالتالي يريدون أن ينصرفوا من المجلس في صمتٍ وسريةٍ .. وهذا المزاج ليس من المزاج الإسلامي الصحيح في شيءٍ .. على أنه قد يكون هناك أفراد حتى من بين أولئك الذين يُعرفون بصدق الولاء والنزاهة والإخلاص ، يودون الذهاب قبل انتهاء الاجتماع لبعض الضرورات الوقتية القاهرة .. ومنهج أمثال هؤلاء هو أنهم لا يذهبون إلا بعد طلب

الإذن من الشخص المسئول (كما كان المؤمنون يستأذنون الرسول بوصفه هو المسئول الأوحد عن جميع شئونهم ما دام بين أظهرهم) ، وإذا لم يسمح لهم المسئول بالانصراف لأي سببٍ من الأسباب ، فإنهم لا يبرحون مكانهم حتى ينتهي آخر أعمال الاجتماع من غير شعورٍ بالضجر أو الاستياء .. هذا ، وأما الذي يكون مسئولاً عن شئون المسلمين الاجتماعية ، فينبغي له أن يتقبل من صميم قلبه عذر مَنْ يعتذر إليه بناءً على ضرورةٍ طارئةٍ ، وأن يدعو الله له بالعفو والمغفرة والتوفيق !!

﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾ ﴾

دُعَاءَ الرَّسُولِ : دعوته لكم للاجتماع أو نداءكم له .

يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ : يخرجون منكم تدريجا في خفية.

لِوَاذاً : يستتر بعضهم ببعض في الخروج .

يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ : يعرضون أو يصدون .

فِتْنَةٌ : بلاء ومحنة في الدنيا .

إن طاعة الرسول المذكورة هنا كانت تتعلق بشخص الرسول في حياته ، وهي الآن، بعد وفاة الرسول ، تتصل بكل شخص يُعهد إليه بولاية أمر المسلمين .. والذين يحاولون التهرّب من أداء دورهم في المُعاملات الاجتماعية ، ربما يحسبون أنهم بعدم تبديد الوقت فيما يهم الجماعة ، يدعمون أمورهم الفردية .. غير أن الطائفة التي تفتقد الوحدة والجماعية ، يجد أعداؤها منفذ التسلل إلى صفوفها .

سورة الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝ ﴾

تَبَارَكَ الَّذِي : تعالى وتمجد .. أو تكاثر خيره .

نَزَّلَ الفُرْقَانَ : القرآن الفاصل بين الحق والباطل

فَقَدَّرَهُ : فهيأه لما يصلح له ويليق به .

نُشُوراً : بعثا بعد الموت في الآخرة .

كلمة «الفرقان» تعني المعيار الذي يُفرق به بين الحق والباطل .. والمراد به هنا : القرآن الكريم .. وإن نزول هذا الفرقان أو الكتاب الفارق من عند الله ، الذي هو عليم وخبير ، وهو الحاكم المطلق للمخلوقات كلها ، يدل على أمرين في آنٍ معاً ، أحدهما : أنه صحيح بكل تأكيد ؛ لا يتطرق إلى صحته وقطعيته أي شكٍ أو ريبٍ .. والثاني : أن عاقبة الإيمان به وعدم الإيمان به لن تكون سواء !!

إن الله هو وحده المالك لكل قوةٍ واختيارٍ .. ولا أحد يقدر على التأثير على حكمه وليس بمستطاع أحدٍ أن يحول بينه وبين أقضيته وقراراته .. وهذا الواقع كفيل بأن مَنْ

يتخذ من القرآن مرشداً له في حياته سيكتب له النجاح والسعادة في الدارين ، وأن مَنْ يهمله ويعرض عنه ، فإنه لن يتمكن أبداً من إنقاذ نفسه من ذلك الفشل المرير المحتوم الذي قدّره الله للمعرضين عن الحق !

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾

إِفْكٌ : كذب اخترعه من عند نفسه .

وَزُوراً : كذبا عظيماً لا تبلغ غايته .

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ : أكاذيبهم المسطورة في كتبهم .

بُكْرَةً وَأَصِيلاً : أول النهار وآخره : أي دائما .

يَعْلَمُ السِّرَّ : يعلم كل ما يغيب ويخفى .

لقد كان الكافرون في ظاهرهم يصفون القرآن بأنه كذب وافتراء .. إلا أن قولهم ذاك كان في الحقيقة موجهاً إلى شخص الرسول .. حيث كان الرسول يتراءى لهم إذْ ذاك إنساناً عادياً ، لدرجة أنه كان يتعذر على أفهامهم أن يكون إنسان عادي مثله صاحب كتابٍ غير عاديٍ مثل القرآن العظيم !!

إن القرآن الكريم يتناول كل أنواع الموضوعات : الدينية ، التاريخية ، النفسية ، العلمية، الاجتماعية ، وما إلى ذلك .. ولكن لم يمكن لأحد العلماء والباحثين حتى الآن أن يعثر على خطأ حقيقي واحدٍ في مضامينه .. مما يبرهن على أن القرآن كلام صادر عن

إله يحيط علماً بكل أسرار الكون خفيّها وجليها ، صغيرها وكبيرها .. ولولا ذلك لوجدنا في القرآن هو الآخر أخطاء كما نجدها في الكتب البشرية الأخرى .. وهذا الواقع يمثل في ذاته أكبر دليلٍ على كون القرآن كتاباً إلهياً !!

وإن الذين يلوكون أقاويل باطلةً حول القرآن ، هم أناس بلغوا من الجرأة والتمرد على الله إلى أبعد حدٍ .. وليس من الشك في أن أمثال هؤلاء سيتعرضون - عاجلاً أو آجلاً - لبطش الله الشديد.. ولكن لو أنهم تابوا وأنابوا إلى ربهم ، فليس من عادته - سبحانه وتعالى- أن ينتقم ممن يعود إليه تائباً .

﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝ ﴾

جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا : بستان مثمر يتعيش منه .

رَجُلاً مَّسْحُوراً : غلب السحر على عقله .

حين يرى أهل الباطل بعض الناس يتأثرون بكلام النبي ، يحاولون التقليل من فاعليته وإضعاف تأثيره قائلين : إن هذا مجنون ، أو إنه رجل مسحورٍ مغلوب على عقله، أو ما إلى ذلك من الأباطيل والاتهامات .. إنهم يلجأون إلى الطعن وتلمس العيوب إذْ يجدون أنفسهم عاجزين تماماً في ميدان الدليل .. في حين أن مقاومة أحدٍ بواسطة الدليل والبرهان أمر جائز لا غبار عليه .. وأما تشويه سمعة أحد الناس بالطعن فيه فلا يجوز مطلقاً !

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا
﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا
ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا
كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً
وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ ﴾

سَعِيراً : ناراً عظيمة شديدة الاشتعال .

تَغَيُّظاً : صوت غليان كصوت المتغيظ .

وَزَفِيراً : صوتاً شديداً كصوت الزافر .

مُّقَرَّنِينَ : مقرونة أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال .

ثُبُوراً : هلاكاً فقالوا وا ثبوراه .

وَعْداً مَّسْئُولاً : موعودا حقيقاً أن يسأل ويطلب .

إن معارضي الحق يتخذون غالباً من ذات الداعي إلى الحق موضوع الطعن والتشويه ، حيث يثيرون حوله أباطيل شتى لإهدار كرامته زعزعة ثقة الناس به .. وهكذا يضللون الرأي العام بأنهم أول من يبادر إلى تلبية نداء الداعي إلى الحق فيما لو كان هو طبقاً لمعيارهم .. غير أن هذا مغالطة سافرة .. فليست القضية هي أن داعي الحق ليس في نظرهم جديراً بالثقة والاعتبار ، وإنما القضية كامنة أصلاً في أنهم لا يخافون من مؤاخذة يوم القيامة ، مما جعلهم يبدأون ويعيدون ما بدا لهم من الألفاظ والعبارات الفارغة بدون أدنى تهيب ولا شعور بالمسئولية .

وإن أمر الحق والباطل إنما يستمد أهميته كلها من حيث إن الإنسان مسئول عنه في

الآخرة ، وأما الذين صاروا لا يخافون من حساب الآخرة فإنهم لا يلبثون أن يعودوا غير جادّين تماماً في أمر الحق والباطل ، والمرء إذْ لم يكن جاداً بالنسبة إلى شيءٍ ما ، فإنه لن يستشعر مدى أهميته وخطورته أبداً ، مهما قدمت إليه الأدلة الواضحة في صالحه .. وسوف لا ينفذ رصيد الألفاظ لدى أناسٍ كهؤلاء ، إلا إذا انتزعت زلزلة الساعة منهم ألفاظهم!

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

نَسُوا الذِّكْرَ : غفلوا عن دلائل الوحدانية .

قَوْماً بُوراً : هالكين أو فاسدين .

صَرْفاً : دفعاً للعذاب عن أنفسكم .

في معرض تفسيره لقوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ ﴾ قال ابن كثير: «أي نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك»[1].

والحقيقة هي أن الأمم المعاصرة للأنبياء الكرام لم تكن أمماً كافرةً ومشركةً بالمعنى المعروف ، وإنما كانت كل واحدةٍ منها أمةً منتميةً إلى أحد الأنبياء السابقين .. فقد أبلغها الأنبياء المرسلون إليها هداية الله ، إلا أنها لم تلبث ، على مرور الزمان ، أن

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٦٢٧ .

تشاغلت بالدنيا ، وانهمكت في لذائذها ، واصطنعت عن صلحائها وأنبيائها عقيدةً قائلةً: بأنهم سيكونون لها شفعاء عند الله .. ولكن القيامة ، حين تقوم ، سوف تبطل كل العقائد المزعومة من هذا النوع بالمرة ، وسيدرك أصحابها حينئذٍ أنه لم يكن هناك أي منقذٍ آخر من بطش الله وعقابه غير الله، سبحانه وتعالى .

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾ ﴾

فِتۡنَةً : ابتلاء ومحنة .

إن الرسول وأهل الإيمان ابتلاء واختبار للمنكرين ، وكذلك العكس صحيح .. أما ابتلاء المنكرين فيكمن في أن يكتشفوا العظمة المخبوءة وراء مظهر الرسول البسيط الخالي - على ما يبدو - من أي عظمةٍ ، وأما ابتلاء المؤمنين فهو ألا يثوروا ولا يفقدوا السيطرة على أعصابهم تجاه أقوال المنكرين الاستفزازية وتصرفاتهم السخيفة .. بل يجب أن يظلوا صابرين وشاكرين لربهم على كل حالٍ !

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴿٢٤﴾ ﴾

لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا : لا يأملون لكفرهم بالبعث .

عُتُواً : تجاوزا الحد في الطغيان والظلم .

حِجْراً مَّحْجُوراً : حراما محرما عليكم البشرى .

هَبَاءً : كالهباء (ما يرى في الكوى مع ضوء الشمس كالغبار) .

مَّنثُوراً : مفرقاً ذاهباً .

مَقِيلاً : مكان استرواح وتمتع ظهيرة .

إن الذين يطالبون بظهور الله وملائكته عياناً كشرطٍ للإيمان برسالة الداعي ، إنما يقيمون الدليل على عدم جديتهم ليس غير .. حيث إنهم لا يدرون ماذا يعني ظهور الله والملائكة؟! والحقيقة هي أن ما يتمتعون به من فرصة للقول والفعل إنما هي قائمة ما دام الحق قد تم إظهاره على مستوى الداعي ، وأما حين يظهر الحق على مستوى الله والملائكة ، فيكون ذلك ساعة القضاء الحاسم وليس وقت الإيمان والتصديق به !

إن كثيراً من الناس يعيشون في سوء فهمٍ أو تفاؤلٍ مؤداه أن الله إذا سأل أحدهم يوم القيامة عما جئت به ؟! فسأتقدم إليه بعملي الفلاني ، أو سأقول : إن لي شرف الانتماء إلى فلان وفلان من عبادك الصالحين !! ولكن مثل هذه الآمال والأماني الحالمة سوف لا تلبث ، عند قيام الساعة ، أن تتلاشى ، كقطرةٍ من ماء تتبخر فور سقوطها على حديدٍ حارٍ .. وإنما سينفع المرء يومئذٍ عمله الحقيقي وحده ، وليس أي نوعٍ من الآمال الوهمية الكاذبة!!

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ
لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ
يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً
﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولاً
﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

تَشَقَّقُ السَّمَاءُ : تتفتح السماوات .

بِالْغَمَامِ : بالسحاب الأبيض الرقيق .

سَبِيلاً : طريقا إلى الهدى أو إلى النجاة .

لِلإِنسَانِ خَذُولاً : كثير الخذلان لمن يواليه .

مَهْجُوراً : متروكاً مهملاً .

حين تقوم دعوة الحق في أي مكانٍ ؛ فسرعان ما ينبري لعرقلتها ومعاداتها أولئك الذين يتخذون الحق مطيةً للمتاجرة بالباطل .. وهم يثيرون شتى الأباطيل حول شخصية الداعي لتلبيس صدقه على الناس ، وبالتالي يتحول عدد كبير منهم ، نتيجة هذه الدعاية المغرضة ، إلى أنصار ومؤيّدين لهم!

والذين يرفضون مناصرة الداعي إلى الحق ، متأثرين بكلام قادة الضلال هؤلاء ، سيدركون يوم القيامة أن أدلة القادة لم تكن أدلةً حقاً ، وإنما كانت أباطيل ملفّقة بخبثٍ ودهاءٍ ، تناولوها بالتصديق لكونها تتفق ومصالحهم ، وجعلوا منها مبرراً لابتعادهم عن الحق.. وسيندمون حينئذٍ ، دون جدوى، على كونهم ظلوا مخدوعين ببريق أباطيل القادة المضللين، ولم يستجيبوا لنداء داعية الحق!!

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾

وَرَتَّلْنَاهُ : فرقناه آية بعد آية . أو بيناه .

وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً : اصدق بياناً وتفصيلاً .

لم ينزل القرآن الكريم في صورة كتابٍ دفعةً واحدةً ، بل تم تنزيله منجماً على مدى ٢٣ سنةً .. وقد اتخذ المنكرون من ذلك مجالاً للقدح فيه ؛ حيث قالوا: إن هذا يدل على أنه كتاب إنسانٍ ، وليس كتاب الله ، فإن إعداد كتابٍ بكامله في آنٍ واحدٍ ليس بأمرٍ عسيرٍ على الله !! فقال تعالى رداً على شبهتهم : إن القرآن ليس محض تأليف ، وإنما هو دعوة .. ومن مصالح الدعوة أن يتم عرضها على التدريج ، حتى تتمكن من القلوب رويداً رويداً ، وتضرب بجذورها في أعماق البيئة بهدوءٍ وثباتٍ .

وكل اعتراضٍ يُوجّه إلى دعوةٍ تمثل الحق الكامل ، يكون اعتراضاً كاذباً واهياً ، وإذا ما أثير أي اعتراضٍ ضدها، فتم إدحاضه بالجواب المقنع الشافي ، ثبت بذلك صدق الدعوة بمزيد الوضوح والقوة ، دون أن يكون باعثاً على أدنى درجةٍ من الشك أو الارتياب فيها !

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾

فَدَمَّرْنَاهُمْ : فأهلكناهم .

وَأَصْحَابَ الرَّسِّ: البشر - قتلوا نبيهم ودسوه فيها .

وَقُرُوناً : أمما .

تَبَّرْنَا تَتْبِيراً : أهلكنا إهلاكاً عجيبا .

مَطَرَ السَّوْءِ : حجارة من السماء .

لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً : لا يتوقعون بعثا بل ينكرونه .

إن الأنبياء الذين يعرض القرآن قصصهم بعنايةٍ وتكرارٍ ، لا نكاد نجد لأكثرهم ذكراً في صحائف تاريخ البشرية المدّون .. مما يدل على أن المعاصرين لأولئك الأنبياء لم يعيروهم أي اهتمامٍ ، أو بالأحرى لم يعتبروهم من الأهمية بمكان .. فبينما قام هؤلاء بتسجيل أحوال الملوك والأباطرة والأبطال العسكريين بحماسٍ بالغٍ ؛ لكون أحوالهم تنطوي على الجانب السياسي ، أهملوا ذكر الأنبياء ؛ لأن أحوالهم كانت تخلو من بواعث المتعة واللذة لذوي الميول السياسية!

والغريب أن هذا المزاج لا يزال باقياً كما هو حتى يوم الناس هذا ، فالذين يبرزون اليوم على المسرح السياسي يحتلون على الفور مكان الصدارة في الصحف والإذاعة والتلفزيون .. وأما العاملون في المجال غير السياسي ، فإنهم نادراً ما يُعدّون أهلاً للذكر والتنويه لدى إنسان اليوم كذلك .

وإن المطلوب الأساسي من الإنسان هو أن يعتبر بالأحداث والوقائع .. غير أن هذا هو الشيء قلما وُجد لدى البشر بقدرٍ ملحوظٍ ، سواء في عصرنا هذا ، أو فيما سبق من العصور !!

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾

هُزُواً : مهزوءاً به .

((إنه كاد أن يصرفنا عن عبادة آلهتنا ، لولا أن ثبتنا عليها)) يتضح من قول المشركين هذا أن سر بقائهم على دينهم كان يكمن في تعصبهم وليس في أي دليلٍ .. حيث كانوا قد صاروا مجردين من كل سلاحٍ في ميدان الدليل عاجزين عن المقاومة .. غير أن التعصب الأعمى مكّنهم من الاستمرار على دين آبائهم .. وهكذا يكون حال أكثر الناس ؛ إذْ لا يرتكز أكثرهم على شيءٍ سوى أرضية التعصب ، بينما يدّعون بألسنتهم قائمون على أرضية الدليل والبرهان !!

لمواجهة دعوةٍ ما منهجان : أحدهما : الرد عليها بواسطة الدليل .. والآخر : يتمثل في السخرية والاستهزاء بها.. والمنهج الأول جائز ومقبول تماماً .. وأما المنهج الثاني فهو غير جائزٍ ولا مقبول إطلاقاً .. وإن الذين يتلقون دعوةً ما بالتهكم والسخرية ، إنما يثبتون أنهم خسروا الرهان في ميدان الدليل ، وهم يحاولون الآن جاهدين تغطية خسرانهم بوسائل السخرية والاستهزاء !!

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾

أَرَأَيْتَ : أخبرني .

وَكِيلاً : حفيظا تمنعه من عباده ما يهواه .

ورد في حديث أن النبي – ﷺ – قال : ((ما تحت ظل السماء من إلهٍ يُعبد من دون الله تعالى، أعظم عند الله عز وجل من هوى يُتبع)) .

(رواه الطبراني ، عن أبي أمامة) .

وإنها لحقيقة لا مراء فيها أن هوى النفس هو أكبر الأصنام التي يعبدها إنسان .. بل هو وحده الصنم الأصلي ، وأما بقية الأصنام عداه ، فإنما وُضعت لتبرير العبودية

للهوى ليس غير !

وحين يتخذ الإنسان قائده ومرشده في الحياة من هواه ، ينحط إلى مستوى البهائم والحيوانات .. إن الحيوانات لا تتحرك بناءً على تأملٍ أو تفكيرٍ ، بل تبعاً لدوافع الغريزة وحدها .. إذن ، فأي فرقٍ سيبقى بين الإنسان والحيوان ، في حالة ما إذا أصبح الإنسان هو الآخر لا يستعمل مواهبه الفكرية ، ولا يسترشد عقله ، وإنما يسير في الاتجاه الذي يدفعه إليه هوى نفسه !!

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾

مَدَّ الظِّلَّ : بسطه بين الفجر وطلوع الشمس .

اللَّيْلَ لِبَاساً : ساترا لكم بظلامه كاللباس .

وَالنَّوْمَ سُبَاتاً : راحة لأبدانكم ، بقطع أعمالكم .

النَّهَارَ نُشُوراً : انبعاثا من النوم للسعي والعمل .

الرِّيَاحَ بُشْراً : مبشرات بالرحمة وهي المطر .

تحوي هذه الآيات الكريمة إشارةً رائعةً ، بلغة المشاهدة العامة ، إلى تلك الظاهرة التي تُعرف اليوم بدوران الأرض المحوري .. فالأرض تتم دورةً واحدةً حول محورها في كل أربعٍ وعشرين ساعةً .. وهذا الدوران المنتظم هو سبب مجيء الليل والنهار

بالتعاقب .. وإن هذا لَمِن عجائب قدرة الله الباهرة .. فلولا دوران الأرض محورياً لظلّ نصفها معرضاً دائماً لأشعة الشمس الشديدة الحرارة ، وغمر نصفها الآخر ظلام حالك دائم ، ولأصبحت الحياة فوق الأرض نتيجة ذلك ، جحيماً لا يُطاق !

ونظام الأرض هذا ينطوي على كثيرٍ من العبر والنصائح البليغة .. فكما أنه لابد من مجيء ضوء النهار بعد ظلمة الليل، كذلك ليس ثمة بد من سيادة الحق على هذه الأرض عقب اندحار الباطل .. والنهوض صباحاً على أثر النوم ليلاً ، يذكرنا كل يومٍ بوقوع البعث بعد الموت في العالم الآخر .. وما إلى ذلك.

وهكذا هناك درس ذو مغزىٍ هامٍ يكمن في نظام المطر إلى جانبه المادي .. فكما تصبح الأرض الهامدة ناضرةً خضراء بسبب المطر ، كذلك تحوّل هداية الله القلب الإنساني إلى حديقة الإيمان والتقوى ؛ فيما إذا كان القلب يحمل جذوة الاستعداد حقاً ، ولم يكن قد صار كأرضٍ سبخةٍ بائرةٍ فقدت كل مقومات الحياة!

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢ ﴾

صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ : أنزلنا المطر على أنحاء مختلفة .

كُفُوراً : جحودا وكفرانا بالنعمة .

لقد بيّن القرآن قضايا التوحيد والآخرة مراراً وتكراراً وبأساليب مختلفةٍ ومتنوعةٍ ، ولو أنصت المرء إلى آيات القرآن هذه بجديةٍ ، لألهبت فؤاده ، وملأته باللهفة والقلق الدائم على مصيره.. غير أن الإنسان الغافل لا يتأثر بأي دليلٍ مهما بلغ من الوضوح وقوة التأثير !

وقوله : ﴿ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ يعني جاهد بالقرآن جهاداً كبيراً .. ويتضح من هذا أن الجهاد بالقرآن ، وبعبارة أخرى كفاح الدعوة السلمي ، هو الجهاد الحقيقي ، بل هو الجهاد الأكبر .. حتى لو حاول المنكرون توريط أهل الإيمان في المجالات الأخرى ، بصرفهم عن المجال الدعوي ؛ فينبغي لأهل الإيمان أن يحاولوا جاهدين حصر نشاطهم في مجال الدعوة القرآنية ، و أن يتخذوا كل التدابير الممكنة للعودة بنشاطتهم إلى حقل الدعوة من جديدٍ في حالة ما إذا تغير مساره يوماً بسبب خصومات أو معارك ، يوقد نيرانها المعارضون!!

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾

مَرَجَ البَحْرَيْنِ : أرسلهما في مجاريهما أو أجراهما .

عَذْبٌ فُرَاتٌ : حلو شديد العذوبة .

مِلْحٌ أُجَاجٌ : شديد الملوحة والحرارة أو المرارة .

بَرْزَخاً : حاجزا عظيماً يمنع اختلاطهما .

وَحِجْراً مَّحْجُوراً : حراما محرماً تغير صفاتهما .

نَسَباً : ذوي نسب ذكورا تغير صفاتهما .

وَصِهْراً : ذوات صهر إناثا يصاهر بهن .

عندما يلتقي نهران في ممرٍ مائيٍ واحدٍ ؛ أو ينصب نهر كبير في أحد البحار ، فإن كلا الماءين ، رغم التقائهما، يبقى أحدهما مستقلاً عن الآخر، ويبدو أن ثمة خيطاً يمر بينهما،

كحدٍ فاصلٍ على مدى البصر .. وقد اتفق لكاتب هذه السطور أن شاهد هذا المنظر عند ملتقى نهري الكنج والجامونا في مدينة «الله آباد» .. ويحدث هذا الواقع بموجب القانون الطبيعي الذي يسمى في العصر الحديث بـ «قانون المطّ أو التوتر السطحي» .. وهذا هو شأن الأنهار القريبة من السواحل ، حيث يطغي ماء البحر ، عند حدوث «المدّ» ، على ماء النهر ، ولكنهما لا يختلطان ، بل يفصل التوتر السطحي أحدهما عن الآخر ، وحين يقع «الجزر» ، فيرجع الماء البحري الأجاج أدراجه من فوق ، بينما يبقى ماء النهر تحته عذباً كالمعتاد .. وإن قانون التوتر السطحي هذا هو السر في أن تتواجد ذخائر مياه عذبةٍ حتى في وسط بحار مالحةٍ، لتوفر الماء العذب للمسافرين عبر البحار!!

إن أصل الجسم الإنساني هو الماء .. فقد خُلق الإنسان من الماء .. ثم بدأ نسله يتوالد ويتكاثر عن طريق روابط النسب والمصاهرة .. وهناك وقائع شتى كثيرة من هذا القبيل في هذا الأرض ، فلو وقفنا عندها وقفة تأملٍ ، لرأينا فيها من آيات قدرة الله - جل جلاله - ما يحير العقول ويبهر الأبصار!

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً : معينا للشيطان على ربه بالشرك .

لقد أسكن الله الإنسان في عالمٍ ، يشهد كل شيءٍ فيه وكل ما حوله على وحدانية الخالق .. غير أن الإنسان لا يهتدي بذلك إلى نور الحق .. بل هو يتوغل في ضلاله وغوايته إلى حد أنه يبني نظام حياته على أساس الشرك بدلاً من التوحيد .. وإذا قام عبد من عباد الله يدعو الناس إلى التوحيد ، تصدى لمعارضة دعوته والحيلولة دون انتشارها

بكل وسيلةٍ .

بيد أن داعي الحق - مع ذلك - غير مسموحٍ له باللجوء إلى وسائل العنف والعدوان لنشر دعوته، وإنما يجب عليه أن يواصل عمله في إطار التذكير والنصيحة وحده ، ولو أن الدعوة لم تعد تجدي شيئاً ، فليس من شأنه أن يضيف العنف والعدوان إلى الدعوة، وإنما المطلوب إضافته منه في هذه الحالة يتلخص في : الدعاء والابتهال إلى الله، وإنهاء كل النزاعات المادية من طرفٍ واحدٍ، والتأثير على قلب المدعو عن طريق النزاهة والإخلاص والأخلاق النبيلة السامية!

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾

وَسَبِّحْ : نزهه تعالى عن جميع النقائص .

بِحَمْدِهِ : مثنيا عليه بأوصاف الكمال .

اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ : استواء يليق بكماله تعالى .

وَزَادَهُمْ نُفُوراً : تباعداً عن الإيمان .

إن التأكيد في قوله : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ ينصب على المسؤول عنه ، وهو الرحمن ، وليس على الشخص الخبير به .. والمعنى : أنه لو كان هناك شخص يعرف عجائب قدرة الرحمن وروائع خلقه حق المعرفة ، لأخبركم بمدى عظمة ذاته وكمال صفاته .. وإن الكشوف الكونية التي قام بها علماء الطبيعة في العصر الحديث هي

مصداق ، بصورةٍ جزئيةٍ ، لهذه الآية الكريمة .. فأسرار الكون التي ظهرت نتيجة بحوث العلماء ، مدهشة لدرجة أن المرء يشعر برعدةٍ ، وهو يقرؤها ، تدبّ في أوصاله ، بحيث لا يلبث معها أن يخضع لعظمة الخالق وجبروته في عجزٍ وتواضعٍ وخشوعٍ!

والمراد بـ «ستة أيام» هو أيام الله .. وبالإمكان التعبير عنها ، بلغة البشر ، بستة أدوارٍ أو مراحل .. وإتمام عملية الخلق في ست مراحل ، يدل على أن إيجاد الكون تم على نحوٍ مخطَّطٍ .. والشيء الذي يتم إيجاده بعنايةٍ ووفق تخطيطٍ معينٍ ، لا ولن يكون عبثاً وبلا هدفٍ أبداً !!

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

تَبَارَكَ الَّذِي : تعالى وتمجد أو تكاثر خيره .

بُرُوجاً : منازل للكواكب السيارة .

خِلْفَةً : يخلف أحدهما الآخر ويتعاقبان .

لفظ البرج يعني الحصن أو القصر العالي .. وأما بروج السماء التي يذكرها القرآن الكريم ، فقد ذهب المفسرون ، قديماً وحديثاً ، في تفسيرها مذاهب شتى .. ولكن لم تتفق كلمتهم بعد ، على ما هو المراد بها بالضبط .. ويُحتمل أن يكون المراد بها ما يطلق عليه اليوم وصف «النظام الشمسي» .. حيث توجد في هذا الكون آلاف الملايين من الأنظمة الشمسية.. ومنها هذا النظام الذي يقع قريباً منا ، والذي يضم أرضنا ، وشمسنا ، وقمرنا وغيرها من الكواكب .

ومن آيات هذا النظام الشمسي التي لا تعد ولا تحصى ، حركة الأرض حول الشمس بانتظام .. وهي دورتها الانتقالية أو السنوية في مدارها ، التي تنشأ عنها

الفصول الأربعة .. ولها دورة أخرى حول محورها ، تتم في كل ٢٤ ساعة ، تتسبب في حدوث الليل والنهار وتعاقبهما .

إن دوران الأرض في الفضاء الرحيب المترامي الأطراف بدقةٍ متناهيةٍ ، وكونه ملائماً للاحتياجات والمصالح البشرية إلى حدٍ لا يوصف ، لواقع مدهش لدرجة أن الشخص الذي يتأمل فيه بإمعانٍ ، لا يلبث أن يغرق في فيضٍ غامرٍ من عواطف الشكر والامتنان لله رب العالمين!

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾

هَوْناً : بسكينة ووقار وتواضع .

قَالُوا سَلاماً : قولاً سديداً يسلمون به من الأذى .

كَانَ غَرَاماً : لازما أو ممتداً . كلزوم الغريم .

وَلَمْ يَقْتُرُوا :لم يضيقوا تضييق الأشحاء .

قَوَاماً : عدلا وسطا بين الطرفين .

إن «المشي» علامة على شخصية الإنسان بكاملها .. والذين تمتلئ قلوبهم إيماناً ويقيناً بالله ، يصيرون كأنهم كلهم تواضع وانكسار .. فخشية الله تسلب منهم الشعور بالكبرياء والاستعلاء .. وينطبع غدوّهم ورواحهم ، وقيامهم وقعودهم ، وحركاتهم

وسكناتهم كلها بطابع العبودية الصادقة .

ولو وقف أمر عباد الرحمن عند هذا الحد ، لما تعرض لهم أحد في الدنيا أبداً .. غير أن معرفة الله – سبحانه وتعالى – تجعلهم أيضاً دعاةً إلى الله .. ومن هنا يحتدم الصراع بينهم وبين الآخرين .. حيث يعود إعلانهم عن الحق أمراً لا يُحتمل لدى أنصار الباطل .. مما يدفعهم إلى التصدي لهم والاصطدام بهم .. بيْد أن خوف الله يمنع عباده ، حتى عند هذه النقطة ، عن الاصطدام المضاد ، وإنما هم يعرضون عنهم داعين لهم بالهداية للإيمان .

ومما يترتب على معرفة الله أيضاً أن نوعاً من الاضطراب والقلق الدائم يعود جزءاً لا يتجزأ من حياتهم ، بحيث إنهم لا يتضرعون إلى الله في لهفةٍ وخشوعٍ في أوقات النهار فحسب، بل تصبح خلوتهم في ساعات الليل هي الأخرى عامرةً بذكر الله وحمده .

كما يجعلهم الإحساس بجلال الله حذرين أبلغ الحذر في كافة شئون الحياة ، واستحضار ساعة المثول بين يدي الله للحساب يلزمهم جادة الاعتدال والاحتياط فيما يتعلق بالتكسب والإنفاق .. وقد جاء في حديثٍ نبويٍ أنه : ((من فقه الرجل قصدُه في معيشته)) . (أخرجه الإمام أحمد في مسنده) .

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾

يَلْقَ أَثَاماً : عقاباً وجزاءً في الآخرة .

ذُكرت هنا ذنوب ثلاثة: الشرك ، وقتل النفس بغير حق ، والزنا .. وهذه الذنوب الثلاثة هي أكبر الكبائر في حق الله وفي حق العباد .. وآية الإيمان الحقيقي بالله أن يتجنّب المرء هذه الكبائر الثلاث .. وأما الذين سبق أن ارتكبوها بالفعل ، فبإمكانهم أن يتخلصوا من وخيم عاقبتها بالتوبة النصوح .. وأما الذين يموتون بدون التوبة والإنابة ، فإن لهم عند الله عذاباً شديداً لن يجدوا إلى الخلاص منه سبيلاً أبداً !

الحسنة الأصلية عند الله هي أن يصير المرء دائم الحذر والخوف من الله .. إن الحسنة التي تجرد صاحبها من خوف الله في الحقيقة سيئة .. وبالعكس فإن السيئة التي تملأ فؤاد صاحبها بخوف الله ، هي حسنة من حيث عُقْباها .. ولو اقترف المرء سيئةً ، ثم ذكر الله، وتصور شدة بطش الله وحسابه ، فارتعدت فرائصه وجلاً وإشفاقاً ، فاندفع نحو ربه تائباً مستغفراً ، فإن الله سيبدل من فضله ورحمته سيئةً كهذه بالحسنة ، لكونها قد صارت باعثاً على رجوع المرء وإنابته إلى الله سبحانه وتعالى!!

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾

مَرُّوا بِاللَّغْوِ : بما ينبغي أن يلغى ويطرح .

مَرُّوا كِرَاماً : مكرمين أنفسهم بالإعراض عنه.

لَمْ يَخِرُّوا : لم يسقطوا ولم يقعوا .

قُرَّةَ أَعْيُنٍ : مسرة وفرحاً .

إِمَاماً : قدوة وحجة أو أئمة .

إن الرذائل والأعمال الخاطئة التي توجد في العالم الراهن ، قد جعلها الشيطان ، من الناحية الشكلية الظاهرية ، جميلةً ومزخرفةً .. فكل متبعٍ للباطل يعرض نظريته في ثوبٍ قشيبٍ من الألفاظ والعبارات الرائقة .

وبسبب هذا التمويه الشكلي والخلابة الظاهرية يميل الناس نحو هذه الأشياء ، ولو أُزيح عنها هذا الغلاف الخارجي الأنيق ، لبدا كل شيءٍ منها بشعاً كريه المنظر بدرجة أن شخصاً ما لن يرضى بالاقتراب منه!

وعلى هذا الاعتبار فكل رذيلةٍ نوع من الكذب والتمويه الذي يُبتلى به المرء ، وإن امتحان المرء في العالم الراهن هو أن يتعرف على الكذب ، ويمزق الستار الظاهري ليرى الأشياء كما هي في صورها الحقيقية .

وحينما يُوجه إلى أحد الناس نصيحة تصدم كبرياءه ، فلا يلبث أن يثور ويشتعل غضباً على الفور .. إن شخصاً كهذا أصم أعمى عند الله .. فإنه لم يستعمل بصره لرؤية الحقيقة .. ولا استخدم آذانه لسماع صوت الحق .. إنه لم يستقبل النصيحة كإنسان سميعٍ وبصيرٍ ، وإنما استقبلها كمن حُرم مواهب السمع والبصر .. وإن البصير والسميع عند الله حقاً هو الذي إذا رأى اللغو أعرض عنه ، وإذا قُدِّمت إليه نصيحة صادقة تلقاها من فوره بالقبول .. وكل رب عائلةٍ «إمام» لعائلته .. فإن كان أفراد عائلته «متقين» ، فهو إمام للمتقين ، والعكس بالعكس !!

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ
فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴿٧٧﴾ ﴾

يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ : أعلى نازل الجنة وأفضلها.

يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي : ما يكترث وما يبالي بكم .

دُعَاؤُكُمْ : عبادتكم له .

يَكُونُ لِزَاماً : يكون جزاء تكذيبهم عذابا دائما .

إن غرف الجنة العليا سيدخلها أولئك الذين كانوا قد أذلّوا أنفسهم لأجل الحق في هذه الدنيا .. وحيث إنهم كانوا قد تواضعوا لله في الأرض،يرفع الله درجاتهم في الآخرة،ويقابلهم بغاية التوقير والإكرام .. وقد عبر سيدنا المسيح عن هذا المعنى حين قال: ((طوبى للمساكين بالروح،لأن لهم ملكوت السماوات))! والأوصاف التي تؤدي بأحد الناس إلى الجنة،إنما يُوفقّ للتحلّي بها من يكون مستعداً للصبر .. والجنة هي مقام أعلى،حيث تتحقق كل رغبات الإنسان بصورةٍ كاملةٍ.. غير أن أبوابها لن تُفتح إلا لذلك الإنسان الصبور الذي منع نفسه عن الانسياق وراء رغباته في الدنيا منعاً باتاً .. إن الجنة سلعة غالية ثمنها الصبر .. وأما جهنم فهي مصير الشخص الذي لم يكن قد رضي بدفع ثمن الصبر المطلوب في الحياة الدنيا !

سورة الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ ﴾

بَاخِعٌ نَّفْسَكَ : مهلكها حسرة وحزناً .

أَعْنَاقُهُمْ : جماعاتهم أو رؤساؤهم ومقدموهم .

تظهر دعوة الحق ، حينما تظهر ، في ثوب «الكلام المبين» .. فمن علامات كون دعوةٍ ما دعوةً إلهيةً أن تكون واضحةً غاية الوضوح ، وأن تكون كل مبادئها قائمةً على أساسٍ من الدلائل الساطعة ، لدرجة أن شخصاً قد يمكنه أن يقابلها بالإنكار ، ولكنه لا يستطيع أن يقول - إذا التزم الصدق والإنصاف - بأنها رسالة غامضة يتعذر عليه فهمها !!

﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ تدل هذه الجملة على ذلك النصح التام الذي يُكنّه الداعي للمدعو .. إن العمل الدعوي ينبع من عاطفة النصح الخالص .. ومن ثم فحين يرى الداعي إصرار المدعو على رفض رسالته ؛ يأخذ يذوب حسرةً وأسىً ، تماماً كما تذوب الأم الساهرة على تربية ولدها همّا وغما إذا انحرف عن الطريق السوي .. ولقد وردت جملة القرآن هذه مورد التنويه بما يضمره الداعي من مشاعر النصح الفياض ، وليس في

معرض النقد له .

إن دعوة الحق تكون دعوةً إلى الله .. وإن الله هو الوجود القوي الجبار ، الذي لو شاء لأخضع الجميع لإرادته، ولم يترك لأحدٍ مجالاً للإنكار والعناد والطغيان ، غير أن هذا الوضع ناشئ عن الخطة الإلهية نفسها .. حيث يريد الله لإعمار جنّته أرواحاً ذكيةً نفيسةً تتعرف على الحق في دنيا حافلةٍ بأسباب الخداع والتدجيل .. وبالتالي تخضع له طوعاً بدون قهرٍ ولا أي ضغوطٍ خارجيةٍ .. وانتخاب أناسٍ كهؤلاء لم يكن ممكناً إلا في ظل أحوال تكون حرّية الفكر والعمل فيها متاحةً لكل أحدٍ !

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

زَوْجٍ كَرِيمٍ : صنف حسن كثير النفع .

إن خروج شجرةٍ خضراء مثمرةٍ من باطن الأرض واقعة عجيبة تماماً كما لو خرج من باطن الأرض - مثلاً - جمل يمشي!! ولو أن الناس فوجئوا ذات يومٍ بحدوث الواقعة الأخيرة، لأصيبوا بدهشةٍ وذهول يفوق الوصف .. بينما تحدث على الأرض كل لحظةٍ واقعة أعجب وأكبر من ذلك بكثيرٍ ، ولكنهم لا يندهشون بها ، ولا يرون فيها درساً أو عبرةً !

والشيء الذي يطلبه الله من الإنسان هو أن يلاحظ الجوانب غير العادية الكامنة وراء الوقائع العادية .. وأن يشاهد التصرف الإلهي المباشر في إحداث ما يبدو ناتجاً عن الأسباب والعلل الظاهرة .. والذين يقيمون الدليل على هذه البصيرة النافذة ، هم المؤمنون بالله حقاً .. وهم الذين سيُغدق الله عليهم فيوض رحماته الأبدية !

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾

بُعث سيدنا موسى بدعوة التوحيد إلى فرعون ، طاغية مصر ، الذي كان يحكم أكبر دولةٍ متحضرةٍ في العالم آنذاك .. بينما كان سيدنا موسى ، من ناحيةٍ أخرى ، رجلاً من بني إسرائيل ، الذين كانوا بمنزلة العبيد والعمال أو أحط منهم شأناً في مصر وقتذاك .. وكان قد قُتل على يده رجل من القبط - قوم فرعون - عن غير قصدٍ .. هذا بالإضافة إلى أن سيدنا موسى كان يشعر في نفسه بضعف المقدرة على البيان ، وعدم طلاقة اللسان .. بيْد أن الله - سبحانه وتعالى- اختاره لتبليغ رسالته .

والحقيقة هي أن الله ينظر إلى باطن المرء أكثر من ظاهره .. وإذا ما وجد أحداً يحمل الجوهر الباطني ، اختاره لخدمة دينه .. إذن ، فعلى المرء أن يعنى بجوهره الباطني ، ويعمل على تربيته وإنمائه بقدر المستطاع .. أما لو أنه كان يعاني من عوزٍ أو نقصٍ ما في الظاهر ، فإنما يتم تلافيه من عند الله عز وجل !!

﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

الكَافِرِينَ : الجاحدين لنعمتي .

إن الشخص الذي يقع اختيار الله عليه لتمثيله والتبليغ عنه ، يكون بكل المقاييس ، في عصمةٍ من الله وتحت حمايته .. كما يتم تأييده بآياتٍ خاصةٍ صريحة الدلالة على أن أمره أمر إلهي ، غير أن الإنسان ظالم لدرجة أنه لا يستعد ، مع ذلك ، للاعتراف به .

ماذا كان الغرض من مطالبة موسى فرعون بإرسال بني إسرائيل معه؟ إن القرآن لا

يورد أي تفاصيل بهذا الشأن.. وأما التوراة فقد جاء فيها بهذا الخصوص ما يلي :

- «وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون ، هكذا يقول الرب إله إسرائيل، أطلق شعبي ليعيّدوا لي في البريّة» (خروج ٥:١) .

- «فدعا فرعون موسى وهارون وقال : اذهبوا ، اذبحوا لإلهكم في هذه الأرض ، فقال موسى: لا يصلح أن نفعل هكذا ، لأننا إنما نذبح رجس المصريين للرب إلهنا ، إن ذبحنا رجس المصريين أمام عيونهم أفلا يرجموننا؟!.. نذهب سفر ثلاثة أيام في البرية ، ونذبح للرب إلهنا كما يقول لنا» (خروج ٨:٢٥ - ٢٧) .

ومن بيان التوراة يبدوا ظاهراً أن سفر موسى هذا لم يكن للهجرة ، بل كان لأجل التربية ، فقد كانت البقرة تعتبر معبودةً مقدّسة لدى المصريين .. وبفعل التعايش معهم منذ قرونٍ طويلةٍ ، كان بنو إسرائيل هم الآخرون قد تأثروا بمعتقداتهم وطقوسهم الوثنية .. فأراد موسى أن يذهب بهم لمدةٍ من الزمان ، بعيداً عن المجتمع المصري المشرك ، ويقوم بتربيتهم وتزكية نفوسهم في مناخ نقي!

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذاً وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ ﴾

الضَّالِّينَ : المخطئين لا المتعمدين .

عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ : اتخذتهم عبيداً لك مستذلين .

عرض موسى دعوة التوحيد على فرعون ، فما لبث فرعون أن ذكّره في هذه المناسبة لتقليل أهميته والحط من شأنه أمام الملأ ، بحادثين من سابق حياته : أحدهما : كونه - عليه السلام - قد نشأ وتربى وليداً في البلاط الفرعوني.. والآخر : ما كان من قتله للرجل القبطي .. وقد أجاب موسى عن ذلك قائلاً : إن كنت قد تربيت في بيتكم ،

فإنما يرجع السبب في ذلك إلى ظلمكم واضطهادكم ؛ إذْ كنتم تقتلون أطفال بني إسرائيل ، فخبأتني والدتي في صندوقٍ وألقته في البحر ، ثم التقطت بعد ذلك بأيديكم أنفسكم ، وأُدخلت داركم ، وأما قتل القبطي ، فإنني لم أفعل ذلك عن عمدٍ ، وإنما كان بمحض الصدفة حين ضربته دفاعاً عن أخي الإسرائيلي المضطهد.

وعلى إثر قتل القبطي فارق سيدنا موسى بلاد مصر وذهب إلى مَدين ، حيث أقام سنين عديدةً .. وربما كان خروجه - عليه الصلاة والسلام - من جو المدينة المصطنع ، ليقضي أعواماً في أحضان البيئة الفطرية البسيطة أمراً ضرورياً لتربيته وإعداده .. فبينما هو ينصرف من مدين عائداً إلى مصر ، شرفه الله بالنبوة و الرسالة في الطريق!

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

الضَّالِّينَ : المخطئين لا المتعمدين .

عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ : اتخذتهم عبيداً لك مستذلين .

﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؟ إن سؤال فرعون هذا كان في الحقيقة على وجه

الاستهزاء وليس على وجه الاستفسار .. غير أن موسى أجاب عنه بهدوءٍ بالغٍ وبدون أدنى تأففٍ أو تذمرٍ .. فحاول فرعون مرةً أخرى احتقار موسى ، حيث قال لحاشيته بأسلوبٍ ساخرٍ : ﴿ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؟! ولكن موسى مضى يتابع حديثه بتلطفٍ كالمعتاد وغير حافلٍ بسخريته اللاذعة.. حتى اشتعل فرعون غضباً جعله ينسب موسى إلى الجنون ، على أن موسى – مع ذلك– لم يفقد هدوءه ورزانته .. ولما هدّد فرعون بإلقائه في غياهب السجن ، أظهر له موسى أدلته ممثلاً في المعجزة الباهرة، بحيث لم يعد بعدئذٍ أمام فرعون مجال لمزيد من الأخذ والرد ، إلا أنه أرغى وأزبد ، ولم يعترف بهزيمته ، بل تمادى في عناده وتعنته ، فاستخف بشأن المعجزة التي أراها موسى إياه قائلاً : إنها ليست بواقعة إلهيةٍ ، وإنما هي واقعة سحرية .. وبإمكان أي ساحرٍ أن يعرض شعوذةً كهذه .

لقد كانت دعوة موسى دعوةً سلميةً بمعنى الكلمة .. ولم يكن لها أية صلةٍ مباشرةٍ بالسياسة والحكم كذلك .. وإنما كان فرعون يقصد إثارة قومه ضد موسى إذْ قال : إنه يريد أن يخرجنا من بلادنا .. ويكفي دليلاً على عدم جدية فرعون أنه رمى موسى بمحاولة إخراجه هو وقومه من أرض مصر، بينما كان – عليه السلام – قد طلب منه أن يسمح له بالانطلاق مع قومه – بني إسرائيل – من مصر!

﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ : أخر أمرهما ولا تعجل بعقوبتهما .

حَاشِرِينَ : الشرط يجمعون كل السحرة .

هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ؟: حث على الاجتماع واستعجال له .

نظر فرعون وحاشيته إلى قضية موسى على أنها لا تعدو أن تكون قضية السحر . ولذلك وضعوا خطةً لمواجهته عن طريق السحر ، لئن كان موسى يقدر على تحويل عصاه إلى حية ، فإن عندنا أيضاً من السحرة الماهرين مَنْ يستطيعون الإتيان بمثل ذلك، هذا هو الحد الذي وصل إليه تفكيرهم ولم يتجاوز إلى ما وراءه .. وحيث قد اعتبر القوم أمر موسى أمراً بشرياً ، أرادوا مقاومته بواسطة البشر .. وغاب عن بالهم أن أمر موسى أمر إلهي .. ومَنْ ذا يستطيع من البشر أن ينبري لمواجهة الله أو محاربته !؟

وتعيّن يوم الزينة ، وهو عيد سنوي كان يحتفل به المصريون القدامى ، للمقابلة بين موسى والساحرين .. وقد اختير لهذا الغرض ساحة كبيرة جداً ، ليجتمع هناك أكبر عددٍ ممكنٍ من الناس ، مما سيكون ، طبعاً أقوى حافزٍ مشجّع للسحرة على إتقان صناعتهم وإبراز مهارتهم!

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

لما ألقى السحرة بحبالهم وعصيّهم في الساحة ؛ خُيل إلى الناظرين وكأنها قد انقلبت حيات وثعابين تتحرك .. غير أن هذا لم يكن أي تغير حقيقي ، وإنما كان محض تصرفٍ في العيون ، وعلى العكس من ذلك كان تحوّل عصا موسى إلى الحية ، يعني صيرورة العصا إلى معجزةٍ إلهيةٍ ، ومن ثم فلم تكد تتحول عصا موسى إلى حيةٍ تسعى في الساحة، حتى أبطلت كل طلاسم السحرة بالمرة ، وبالتالي أصبحت حبالهم وعصيهم

حبالاً وعصياً فقط كما كانت من قبل .

لقد كان السحرة يعتبرون موسى قبلئذٍ ساحراً مثلهم ، إلا أن التجربة فتحت عيونهم الآن ؛ ولكونهم خبراء بفنون السحر أدركوا من فورهم أن هذا ليس بسحرٍ ، بل هو النبوة والرسالة .. بيد أنه كان بإمكانهم ألا يعترفوا برسالة موسى ، ويرفضوه مجاراةً لفرعون ، معتمدين على بعض الألفاظ الرنانة الكاذبة ، ولكن الإنسان الحي يستحيل عليه ألا يعترف بالحق بعد ظهوره بجلاءٍ ووضوحٍ تامٍ ، وقد كان السحرة من هذا الصنف الحي من البشر ، ومن ثم لم يلبثوا أن اعترفوا على التوّ بصدق سيدنا موسى - عليه السلام .

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

لاَ ضَيْرَ : لا ضرر علينا فيما يصيبنا .

كان إيمان السحرة بموسى مبعث إهانةٍ كبيرةٍ بالنسبة لفرعون .. ولكي يدفعها عن نفسه راح يصف كل ما جرى بأنه نتاج مؤامرة مدروسة سلفاً ضد الحكم القائم ، فقال موجهاً خطابه للسحرة: إنكم متواطئون مع موسى، وإنما تظاهرتم بالهزيمة أمامه عن قصدٍ مبيتٍ ، حتى تسري هيبة موسى في النفوس ، وبالتالي يسهل عليكم تحقيق نواياكم وأهدافكم المشتركة.

وباعتبارهم متمردين على الدولة ، أصدر فرعون حكمه النهائي على السحرة : ستقطع أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ، وستُصلبون على مشهدٍ من الناس .

وبالرغم من هذا الحكم الشديد البالغ القسوة ، لم يفقد السحرة همتهم ؛ ففيما كان هؤلاء السحرة من ذي قبل يقسمون بعزة فرعون وسلطانه ، تودّداً إليه ، راجين منه جزيل العطاء والتكريم ، إذا بهم الآن توجهوا إليه قائلين دونما خوفٍ أو وجلٍ : افعل بنا ما شئت .. فإننا لن نتخلى عن دين موسى على أية حال .

وقد كان سر هذه العزيمة وعلوّ الهمة يكمن في الاكتشاف الإيماني .. فإن المرء إنما يتحمل فقدان شيء ما ، إذا كان يرجو الحصول على شيءٍ أكبر مما يفقده .. وقبل الإيمان بالحق كان أكبر شيءٍ في نظر السحرة هو التقرب من فرعون وجوائزه الغالية ، بينما صار الله ورضوانه يبدو لهم هو الشيء الأكبر بعد الإيمان .. وهذا هو السبب في أنهم لم يلبثوا، عقب إيمانهم ، أن استعدوا للتضحية عن رضاً وسرورٍ ، بما كان يتعذر عليهم أن يضحوا به قبل الإيمان !

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾

إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ : يتبعكم فرعون وجنوده .

حَاشِرِينَ : جامعين الجيش ليتبعوهم .

لَشِرْذِمَةٌ : لطائفة قليلة بالنسبة إلينا .

حَاذِرُونَ : محترزون ، أو متأهبون بالسلاح .

على الرغم من جهودٍ دعويةٍ مضنيةٍ دامت سنواتٍ طوال ، لم يؤمن فرعون برسالة

موسى .. إلى أن أمر الله موسى ، بعد قيام الحجة ، بمغادرة مصر مع بني إسرائيل .. وحين بلغ نبأ انطلاق بني إسرائيل الجماعي من مصر إلى فرعون ، خرج بجنوده وأمراء مملكته يطاردونهم .

إن إقدام فرعون هذا كان ، على ما يبدو ، ضد بني إسرائيل ، ولكنه صار عملياً إقداماً ضد نفسه هو .. إذْ توصل فرعون وأصحابه هكذا ، تاركين بلادهم الخصبة ومساكنهم الأنيقة الفخمة ، إلى حيث قدر لهم الهلاك غرقاً عن بكرة أبيهم !

ولقد حرم الله فرعون وأصحابه ، لقاء ظلمهم من كل نعمه التي أغدقها عليهم في مصر ، هذا من جانبٍ .. ومن جانبٍ آخر فقد منَّ الله - سبحانه وتعالى - على صلحاء بني إسرائيل بأن أوصلهم ، بعد مدةٍ من الزمان ، إلى بلاد فلسطين ، حيث أعطاهم من فضله هذه النعم كلها وزيادة!

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

مُّشْرِقِينَ : داخلين في وقت الشروق .

تَرَاءَى الجَمْعَانِ : رأى كل منهما الآخر .

فَانفَلَقَ : انشق اثني عشر فرقا .

فِرْقٍ : قطعة من البحر مرتفعة .

كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ : كالجبل المنطاد في السماء .

أفضي المسير ببني إسرائيل في نهاية المطاف إلى حيث وجدوا أنفسهم أمام بحرٍ هائلٍ مترامي الأطراف ، ومن ورائهم فرعون وجنوده يتعقبونهم مسرعين .. وقد أفزع هذا الموقف الخطير بني إسرائيل لدرجة أنهم توجهوا إلى موسى - طبقاً لراوية التوراة - قائلين : «هل لأنه ليست قبور في مصر ، أخذتنا لنموت في البرية ، ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر»؟! (خروج ١٤ :١١) .

بيد أن سيدنا موسى كان على يقينٍ من أن الله سينصره حتماً .. فأمر الله موسى عندئذٍ أن يضرب البحر بعصاه ؛ فانشق الماء على أثر الضرب ، ووقف كالجدران الشامخة إلى جانبي اليمين واليسار ، وبينهما طريق يابس ، سار بنو إسرائيل عبره إلى الشاطئ الآخر .. ،

لم يكد يقتحم فرعون وجنوده الطريق اليابس خلف بني إسرائيل ، ويتوسطون البحر ، حتى انطبقت المياه المنحسرة عليهم بأمر الله من كلا الجانبين ، فغرق فرعون وجنوده عن آخرهم ، ولم يفلت منهم أحد .. إن خريطة واحدةً بعينها كانت تنطوي على النجاة لطائفةٍ والهلاك لطائفةٍ أخرى!!

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ : قربنا هنالك آل فرعون من البحر .

كان هناك - من جانبٍ - قوم إبراهيم ، الذين أخذوا بدورهم في ممارسة ما رأوا آباءهم السابقين يفعلون من عبادة الأصنام والتماثيل .. ومن جانبٍ آخر كان سيدنا

إبراهيم الذي فكر بعقله هو ، وارتفع بنفسه عما حوله بحثاً عن الصدق ، وهذه هي الصفة الخاصة التي توصل المرء إلى معـرفة الله .. والذي يتمتع بهذه الصفة إلى درجة الكمال ، يختاره الله - سبحانه وتعالى - لتمثيل دينه وإبلاغ رسالته .. وعبارة ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴾ تدل على أن القوم قد وجدوا أنفسهم عاجزين تماماً عن التقدم بأي دليل في أثناء جدالهم مع سيدنا إبراهيم - عليه السلام - إلا أنهم أبوا عن الإيمان ، ومازالوا متمسكين بدين آبائهم على أساس التعصب الأعمى .

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾

أَفَرَأَيْتُم : أتأملتم فعلمتم .

يأتي الإنسان إلى هـذا العـالم كوجـودٍ مـستقلٍ ، يتمتـع بعقـل يميـز الخير مـن الـشر ، ويستخرج الكليات من الجزئيات ، ويتوصل إلى المعقول عبر المحسوس .. وتوجـد هنـا أشياء تعمل وفق نظامٍ رائعٍ دقيقٍ ، على توفير الرزق اللازم للإنسان بـصورةٍ مـستمرةٍ ، كما يجد المرء أيضاً ، حين يمرض ، أن كل الأسباب الـضرورية متـوفرة هنـا ، لإبـراز فـن الطب والعلاج إلى الوجـود .. ثـم يكتـشف المرء كيـف أنـه ، مـع تمتعـه في ظـاهر الأمـر بكامل الاختيار وحرية التصرف في ذاته وفيما حولـه ، عـاجز تـمام العجـز أمـام المـوت ، فكل إنسان له عمر معين محدود ، حين يبلغه يموت دون تأخير أو تأجيلٍ !.

وهذه الوقـائع لا يمكـن أن تكـون لهـا علاقـة بأحـدٍ سـوى الله الواحـد ، إذن فكيـف يسوغ لأحدٍ أن يعبد شيئاً أو شخـصاً مـا مـن دون الله الواحـد الأحـد ، الفـرد الـصمد ،

وينبغي للمرء ، بالإضافة إلى ذلك ، أن يكون جاداً بهذا الشأن إلى أقصى حدود الجدية .. لأن نفس هذه الوقائع تشير أيضاً إلى أن الله الذي هو فاعل كل هذا ، سوف يستحضر جميع البشر أمامه يوماً للحساب عما صنعوه في الحياة الدنيا .. وإن الموت هو بداية عملية الاستحضار هذه !

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾

لِسَانَ صِدْقٍ :ثناء حسنا ورزقا جميلا .

وَلاَ تُخْزِنِي : لا تفضحني ولا تذلني بعقابك.

بِقَلْبٍ سَلِيمٍ : برئ من مرض النفاق والكفر .

المراد بـ ((الحكم)) هنا هو الفهم الصحيح الصائب ، وهو يعني رؤية الأشياء كما هي في الواقع .. وهو أعظم نعمةٍ يفوز بها عبد بعد النبوة .. وقد جاء في الحديث : ((مَن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)) .

وقد أجيب سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام في جميع دعواته ، ما عدا دعاءه بالمغفرة لأبيه (آزر) .

إن القيمة الحقيقة عند الله إنما هي لـ ((القلب السليم)) .. والقلب السليم هو القلب الصحيح أو القلب النقي الطاهر من رجس الشرك والنفاق ، ومن مشاعر الحسد والبغضاء .. وبعبارة أخرى أن يلقى المرء ربه وهو يحمل بين جوانحه نفس القلب

الذي كان الله قد أعطاه إياه يوم ولدته أمه ، دون أن يلقاه تعالى حاملاً أي قلب آخر سواه!!

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ :قربت بحيث يرى نعيمها .

وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ : أظهرت بحيث ترى أهوالها .

لِلْغَاوِينَ : الضالين عن طرق الحق .

فَكُبْكِبُوا : فألقي الأصنام على وجوههم مراراً .

إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ: نجعلكم وإياه سواء في استحقاق العبادة وأنتم أعجز الخلق .

حَمِيم : قريب أو شفيق يهتم بأمرنا .

كَرَّةً : رجعة إلى الدنيا .

لا يبعد المرء عن جنته أو جحيمه بمسافةٍ كبيرةٍ ، وإنما يحول بينه وبينها ستار مؤقت ، وحين تزيح القيامة هذا الستار، فسوف يرى كل امرئ أنه كان من جنته أو جحيمه على

قاب قوسين أو أدنى ، وإن كان الإنسان الغافل يراها بعيدةً ، بعيدةً جداً !

المقصود بـ ((المجرمين)) هنا القادة الكاذبون المضللون .. الذين كانوا يحتلون مراكز السيادة والكبرياء في مجتمعهم .. وهؤلاء لم يرفضوا دعوة الحق ، حين رفضوها ، إلا حفاظاً على كبريائهم وسيادتهم .. ولقد وقف كبرهم وشعورهم بالاستعلاء حجر عثرةٍ دون اعترافهم بالحق .. مما جعل أتباعهم هم الآخرين لم يعيروا دعوة الحق جانب اهتمامٍ، ولا اعتبروها شيئاً يقام له وزن!

و((تسوية القادة برب العالمين)) يعني : وضع كلمتهم في مستوى كلمة الله رب العالمين.. وقد شرح ذلك ابن كثير ، يقول : ((أي نجعل أمركم مطاعاً ، كما يُطاع أمر رب العالمين))[1].

والذين كانوا يمتثلون لأمر قادتهم في الدنيا كامتثالهم لأمر الله ، سينادون قادتهم في الآخرة بوصف ((المجرمين)) .. إلا أن ذلك لن يغني عنهم شيئاً ؛ فإن مكان التعرف على ((المجرم)) من ((متبع الحق)) كان هذا العالم دون العالم الآخر!!

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

ٱلْأَرْذَلُونَ : السفلة الأدنياء من الناس .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٦٥١.

قُوبل سيدنا نوح بالتكذيب من قبل قومه .. في حين أن دعوته - عليه الصلاة والسلام - كانت تحمل معها أقوى الأدلة وأوضحها .. كما كانت سيرته - عليه السلام - إلى جانب ذلك ، تؤكد على صدقه وحقيته .. حيث كان قومه يعرفون - في ضوء خبرتهم - أن نوحاً رجل صادق وأمين .. وأن الدعوة التي يعرضها عليهم لا ترتبط بها أية مصلحةٍ من مصالحه الذاتية .. وقد كانت هذه الخصوصيات كافيةً للبرهنة على جديته المتناهية .. والذي يكون جاداً بالنسبة إلى المخلوق ، لن يكون غير جادٍ بالنسبة إلى الخالق !

لقد وقف قوم نوحٍ من دعوة نبيهم موقف الرفض والإنكار ، مع أنهم لم يكونوا يملكون في حق إنكارهم هذا شيئاً سوى أقاويل غير ذات صلةٍ بالموضوع .. فإن رفض دعوة ما بحجة أن أنصارها أناس عاديون ، ليس تفنيداً للدعوة ، بل هو تفنيد للذات .. فمعنى ذلك أن المرء ، وإن كان لا يجد مجالاً للقول ضد الدعوة على أساس الدليل ، إلا أنه إنما يستنكف عن مناصرتها لأن أتباعها من ضعفاء الناس وفقرائهم ، ولكونه لا يرجو ما إذا كان انضمامه إليها سيُعلي قدره أو يمكّنه من الحصول على أي مركز مرموقٍ ذي بالٍ !

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾

فَٱفْتَحْ : فاحكم .

ٱلْمَشْحُونِ : المملوء بالناس والداوب والمتاع .

استمر نوح - عليه السلام - يدعو قومه إلى الحق قروناً طويلةً ، ولكنهم ظلوا يأبون الاستجابة لدعوته .. إلى أن قرروا أخيراً أن يرموه بالحجارة حتى يموت ، ويستريحوا بالتالي من سماع موعظته التي كان يغاديهم ويراوحهم بها .. ولما وصل عناد القوم وطغيانهم إلى هذا الحد ، صدر الحكم الإلهي بالقضاء عليهم .. وحكم الله هذا هو الذي برز في صورة دعاء سيدنا نوحٍ على قومه .. وصنع نوح بأمرٍ من الله تعالى سفينةً كبيرةً ضخمةً ، شحنها بجميع أصحابه ، وبزوجين اثنين من كل أنواع الحيوانات .. ثم أرسل الله طوفاناً عارماً شديداً، بحيث أخذ الماء يتدفق من باطن الأرض، ويهطل بغزارة من السماء ، حتى هلك كل مخلوق حي غرقاً ، ما عدا ركاب السفينة .

وهذا مثال تاريخي يوضح بما لا يدع مجالاً للشك أن النجاة والفلاح في هذا العالم من نصيب المؤمنين إيماناً صادقاً وحدهم ، أما بقية الناس فلا ينتظرهم هنا سوى الهلاك والدمار!

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ
لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾
وَٱتَّقُوا ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾
إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾

رِيعٍ : طريق . أو مكان مرتفع .

آيَةً : بناء شامخاً كالعلم في الارتفاع .

تَعْبَثُونَ : ببناءها أو من يمر به .

مَصَانِعَ : حصونا أو قصوراً أو حياضاً للماء .

أَمَدَّكُم : أنعم عليكم .

إن ﴿ عَادٌ ﴾ هو الشعب الذي كُتب له التألق والازدهار في الدنيا بعد هلاك قوم نوح .. كما قال تعالى في شأنهم : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) ﴾

فقد حباهم الله سبحانه بكل نعمه ، من صحة الأجساد ، وقوة الأبدان ، وخصوبة الأرض ، ورغد العيش ، والسلطة .. إلخ ، ولو أنهم شكروا الله على هذه الأشياء ، لاستيقظت في قلوبهم مشاعر التواضع والانكسار .. إلا أنهم جعلوا منها موضع التفاخر والمباهاة .. وكان نتيجة ذلك أن صاروا لا همّ لهم إلا أن يكرسوا كل ما عندهم من وسائل وأسباب في رفع مستوى معيشتهم ، وتخليد أسمائهم ، وفي تشييد آثارٍ حجريةٍ تنطق بمجدهم وعظمتهم ، باعتبار ذلك كله هو العمل الأكبر والأولى بالاهتمام في هذه الحياة !

وأمثال هؤلاء تستولي على نفوسهم مشاعر الكبر والغرور والتعالي بحيث إنهم إذا اختلفوا مع أحدٍ ، أو ثارت بينهم وبينه خصومة ما ، فلا يعرفون حداً يقفون عنده ، بل يستبيحون لأنفسهم كل ألوان الجور والعدوان ضده ، ويريدون أن يسحقوه بكل قوتهم .. فإن استقامة أمور دنياهم تجعلهم لا يخافون بطش الآخرة .. ومَنْ يعتبر نفسه في مأمنٍ من بطش الآخرة ، لن يبقى الآخرون في مأمنٍ من غوائل بطشه وفتكه بهم أبداً !

والذين يتاح لهم أسباب الرخاء والقوة والتفوق المادي ، تتولد فيهم ثقة كاذبة

بأنفسهم .. وهذه الثقة الكاذبة تقف حجر عثرةٍ دون اعترافهم بأي صدقٍ يأتي من الخارج.. فهم لا يكترثون بقول الناصح ولا يقيمون له وزناً ، مهْما كان قوله مهماً وجديراً بالاعتبار في ذاته ، حتى ولو كان صادراً من رسول الله .. ولا يكاد يعترف أناس كهؤلاء إلا إذا أجبرهم عذاب الله على الاعتراف بذلك !

﴿ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾

خُلُقُ الأَوَّلِينَ : عادتهم في اعتقاد أن لا بعث .

حالت ثقة قوم عاد الكاذبة بأنفسهم دون إذعانهم لكلام رسولهم .. حتى إنهم ظلوا يسخرون منه ويستهزئون برسالته .. ويعتبرون ما هم فيه من سعة ورغد عيشٍ علامةً على أنهم شعب الله (المدلّل) المنعم عليه .. وعجزوا عن أن يدركوا السر القائل بأن: متاع الدنيا إنما يتاح للمرء على سبيل الامتحان وليس على سبيل الاستحقاق .

ولما قام الدليل القاطع على أنهم لا يؤمنون ، سلّط الله عليهم عاصفة هوجاء مصحوبةً بالمطر والبرد الشديدين ، دامت تهب بكل أهوالها ليل نهار على مدى سبعة أيامٍ ، إلى أن دمرت عاد بمدنيتها الفخمة شر تدميرٍ .. ولم يعد لديار هذا الشعب من أثرٍ اليوم سوى رمال الصحراء المترامية الأطراف ، تلك التي تمتد ما بين عُمان واليمن الحاليّين .. ولقد كانت هذه المنطقة خصبةً وعامرةً للغاية في قديم الزمان ، ولكن لا يوجد هناك اليوم أي نوعٍ من الحياة أو العمران !

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا

عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾
وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا
يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

طَلْعُهَا : ثمرها الذي يؤول إليه الطلع .

هَضِيمٌ : رطب نضيج أو متدل لكثرته .

فَارِهِينَ : حاذقين بنحتها أو متجبرين .

كانت ثمود هي الشعب الذي ازدهر بعد قوم عاد،وقطع في ميدان التقدم والرقي أشواطاً شاسعةً .. (الأعراف ٧٤) .. وقد كانت مساكنهم بالمنطقة الواقعة ما بين خيبر وتبوك ، التي يقال لها «الحجر».. ولقد نال هذا الشعب من أسباب الرخاء ، والهناءة ومظاهر القوة والغلبة أوفر منال .. غير أن أفراده لم يلبثوا بدورهم أن اتجه اهتمامهم كله نحو الارتقاء المادي وترفيه العيش الدنيوي وحده ، شأنهم في ذلك شأن عاد الذين سبقوهم .. وربما يكون هذا الشعب - ثمود - هو الذي بدأ ، ولأول مرةٍ في التاريخ، بتحويل الجبال إلى البيوت الضخمة عن طريق النحت والحفر ؛ ذلك الفن العريق الذي يوجد له نماذج أكثر تطوراً في صورة كهوف أجانتا وأيلورا (Ajanta-Ellora) في الهند على مقربة من مدينة أورنغ آباد .

وإنه ما من شخصٍ أو شعبٍ يحصل على أسباب الدنيا وزخارفها ، إلا يقع في سوء فهم قائلٍ بأن هذا حقه ، وله أن يستعمله كما يشاء .. بيد أن هذه حماقة كبرى .. إذْ الحقيقة هي أن أسباب الحياة الدنيا إنما تتاح لأجل الامتحان بصفةٍ مؤقتةٍ، وإنها ستنتزع، بعد انقضاء فترة الامتحان المحدودة ، من يد صاحبها بحيث لن يبقى لديه منها

شيء!!.

والمسرف هو الشخص الذي إذا نال الثروة ، أصيب بنفسية الفخر بدلاً من الشكر .. وإذا حصل على السلطة، امتلأ بمشاعر الكبر والخيلاء .. وإذا ما عُهد إليه بوظيفةٍ أو منصبٍ، استغله لتدعيم جاهه بروزه الشخصي ، بدلاً من أداء الواجب وخدمة الصالح العام.. وإن إساءة استخدام الفرص والمواقع هي التي تورث الفساد في المجتمع .. وقد كان كبراء قوم ثمود مصابين بهذا النوع من الإسراف .. وكان عامتهم ينسجون على منوالهم .. ومن هنا حذّرهم النبي - صالح - قائلاً : إن هؤلاء الذين تعدّونهم «كبراء» ، هم بأنفسهم ضالون منحرفون ، إذن ، فكيف يستطيعون هداية غيرهم إلى طريق الرشاد !!

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾

مِنَ الْمُسَحَّرِينَ : المغلوب على عقولهم بكثرة السحر .

لَّهَا شِرْبٌ : نصيب مشروب من الماء .

لم يلبث قوم صالح أن رموا صالحاً بالجنون .. واستمر هذا الصراع قائماً إلى زمنٍ طويلٍ .. ثم اقترحوا عليه آخر الأمر بالإتيان بمعجزةٍ .. فأظهر الله - سبحانه وتعالى - آيةً كانت معجزةً باهرةً ومظهر العدالة الإلهية في حق الشعب في وقتٍ واحدٍ .

وقد تمثلت تلك المعجزة في ناقة خُلقت على وجهٍ خارقٍ للعادة .. فقال سيدنا صالح

لقومه : إن هذه ناقة الله؛ دعوها تطوف بحقولكم وبساتينكم ترتع فيها ، بحرية تامة وتختص بشرب الماء وحدها يوماً ؛ لا تقربون منه في اليوم الخاص بها .. فمكث القوم على ذلك مدةً غير طويلةٍ ، إلى أن قام رجل طاغٍ منهم بقتل الناقة .. فلم تكد تمضي عليهم بعد ذلك ليالٍ ثلاث حتى فوجئوا بزلزالٍ عنيف أهلكهم أجمعين!

ومع أن جريمة قتل الناقة ارتكبها رجل واحد ، ولكن عُبّر عنها بصيغة الجمع حيث قال : ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ ، والسبب في ذلك أن القوم لم يمنعوا الرجل عن قتل الناقة عندما همّ بها.. ولا رفعوا أصواتهم بالنكير والتنديد بفعله فيما بعد .. وإنما راح الجميع يدافعون عنه ، ساخرين من إنذار صالح إياهم بأن العذاب سيحل بهم بعد ثلاثٍ ، لما انتهكوا من حرمة الله، فلئن كان العاقر قد اقترف الجريمة بيده ، كان الباقون مشاركين معه في الجريمة بقلوبهم وألسنتهم ، ومن ثم أصبح الجميع عند الله في عداد المجرمين !

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

قَوْمٌ عَادُونَ : متجاوزون الحد في المعاصي .

بُعث لوط إلى قوم كانوا قد تجاوزوا الحد في العبودية للشهوات والاندفاع وراء اللذات.. حيث لم يكتفوا بما أحلّ الله لهم من الاستمتاع بأزواجهم ، بل أخذوا في ممارسة الفاحشة بالغلمان .. فدعاهم سيدنا لوط إلى عبادة الله وتقواه .. ونهاهم عن سوء ما كانوا يفعلون .

وقد نهض لوط بينهم كداعيةٍ تمتاز شخصيته بنزاهة السلوك والابتعاد الكلي عن

الكذب واللغو وسفاسف الأمور .. كما أنه لم يُثر مع قومه أي نزاعٍ على المطالب المادية .. وقد كانت هذه الوقائع كافية لإثبات أن ما يقوله لوط ، إنما يقوله عن جدّيةٍ وإخلاصٍ تامين.. غير أنهم لم يلبثوا أن ناصبوه العداء ؛ لأن دعوته كانت مناقضةً لاتجاههم وأهوائهم ، .. ولإعطاء كلام لوط أهميةً تُذكر ، كان لابد من توفر خوف الله في النفوس .. على حين أن هذا هو الشيء الذي كانت نفوس قومه قد خلت منه كل الخلو .. إذن ، فما الذي كان سيجعلهم يعيرون كلام نبيهم أبي اهتمامٍ!؟

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ ﴾

مِنَ القَالِينَ : من المبغضين أشد البغض .

فِي الغَابِرِينَ : في الباقين من العذاب كأمثالها .

دَمَّرْنَا الآخَرِينَ : أهلكناهم أشد إهلاك .

مَّطَراً : حجارة من سجيل مهلكة .

المناطق الواقعة بجنوبي وشرقي البحر الميت تبدو اليوم خربةً مقفرةً .. غير أنها كانت خلال الفترة ٢٣٠٠ – ١٩٠٠ ق.م منطقةً خصبةً للغاية .. وكانت مساكن قوم لوط بهذه المنطقة ، ورغم جهود سيدنا لوط الدائبة في التذكير والبلاغ ، إلا أنهم لم يقوموا بإصلاح أنفسهم .. وبلغ بهم التعنت والعناد إلى حد أنهم تصّدوا لقتل النبي .. فعندئذٍ تم إهلاكهم بزلزالٍ رهيبٍ .. ومنذ ذلك الحين وجزء من هذه المنطقة الخربة

مدفون تحت البحر الميت .. بينما تحول الجزء الآخر منها إلى خرائب وأطلال .. وقد حلت بها هذه الكارثة المدمرة في القرن ١٩ قبل الميلاد .

وإن امرأة لوط لم تستطع أن تسمو بنفسها عن مستوى التقاليد القومية ، حيث إنها قد ظلت - مع كونها زوجة النبي - وفيةً لديانتها القومية ، وكانت النتيجة أن هلكت هي الأخرى عندما نزل العذاب الإلهي بعامة المنكرين!

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾

الأَيْكَةِ المُرْسَلِينَ : أصحاب الغيضة الكثيفة الملتفة الشجر (قرب مدين) .

المُخْسِرِينَ : من الناقصين للحقوق بالتطفيف .

وَلاَ تَبْخَسُوا : لا تنقصوا .

وَلاَ تَعْثَوْا : لا تفسدوا أشد الإفساد .

وَالجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ : وخلق الخليقة والأمم الماضين .

«الأيكة» في اللغة هي : الشجر الملتف ، أو البقعة الكثيرة الأشجار الملتفة الأغصان .. وهي الاسم القديم لمدينة تبوك ؛ التي كانت عاصمة البلاد التي سكنها قوم شعيب .. ولذلك سماهم القرآن الكريم «أصحاب الأيكة» .. وقد كان هؤلاء من سلالة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام .

إن أصل كل الشرور الأخلاقية والمفاسد الاجتماعية واحد ، ألا وهو الإخلال بـ «الميزان» .. والميزان الصحيح (المستقيم) هو أن يعطي المرء غيره ما ينبغي له أن يعطيه بمقتضى الحق ، ويأخذ منه ما ينبغي له أن يأخذه بمقتضى الحق كذلك ، من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ .. وهذا هو الميزان الإلهي .. وحين يتم الإخلال بهذا الميزان ، تتعرض الحياة الاجتماعية للفساد والاضطراب .. وسر الثبات على هذا الميزان يكمن في خوف الله .. ولو أصبح فؤاد المرء فارغاً عن مشاعر خوف الله ، فلن يعود ثمة شيء يرغمه على التمسك بميزان الحق والعدل!

وكل رسولٍ بُعث من عند الله خاطب قومه قائلاً : ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ .. ومن هذا يُفهم أن الداعي لابد له من التحلي بصفة الأمانة والاعتبار .. ومن وجوانب هذا الاعتبار ألا يثير الداعي مع شعبه المدعو أي نزاعٍ اقتصاديٍ أو مادي ، حتى لا تشوب إخلاصه ونزاهته شوائب جرّ أية منفعةٍ .. وهذا الاعتبار بالغ الأهمية لدرجة أن الحصول عليه ضروري على كل حالٍ ، وبأي ثمنٍ .. حتى ولو اضطُر الداعي ، من أجل الحصول عليه ، إلى التخلي عن حقوقه المادية .

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

المُسَحَّرينَ : المغلوبة عقولهم بكثرة السحر .

كِسَفاً : صحابة أظلتهم ثم أمطرتهم ناراً .

كان قوم شعيب متأكدين من صدق منهج آبائهم لدرجة أن كلام الرسول بدا لهم لغواً فارغاً .. ومن ثم قالوا له : لعل بعض الخلق تناولك بسحرٍ شديدٍ أفقدك صوابك، وجعلك بالتالي تخلط وتتكلم بما لا ينبغي ولا يُعقل !!

وقولهم : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ لم يكن موجهاً إلى الله ، بل إلى شعيب ، وإنما تحدّوْه بذلك استخفافاً بشأنه ، إذا لم يكونوا يظنونه – ﷺ – بحيث ينزل عليهم العذاب السماوي لقوله فقط !!

وقد أسفر عن تمادي القوم في العناد والطغيان ، أن ساق الله إليهم في نهاية المطاف ، غمامةً كالعريش ، فاجتمعوا للاستظلال بها من وهج الشمس ، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا أجمعين!

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾

زُبُرِ الأَوَّلِينَ : كتب الرسل السابقين .

لئن كان القرآن الكريم قد نزل بأحد الألسنة البشرية ، فإن عظمته الأدبية غير عادية لدرجة أنه يشهد – من حيث لغته وأسلوبه – على كونه كلاماً إلهيّاً أعلى .. وهناك دليل آخر على صدق القرآن وحقيقته .. وهو أن الأنبياء الذين جاءوا قبل نزول القرآن بأزمانٍ طويلةٍ ، قد تنبئوا به ، ولا زالت نبوءاتهم تلك موجودةً في كتبهم حتى الآن ، ولا سيما في صحائف التوراة والزبور والإنجيل .. وبناءً على هذه النبوءات آمن به عدد من العلماء المسيحيين واليهود في فجر الإسلام ، ولم يزل هذا العمل جارياً مستمراً على امتداد التاريخ وإلى يومنا هذا دون انقطاعٍ!

وتنزيل كلام الله باهتمامٍ خاصٍ وعنايةٍ بالغة كهذه ، لابد وأن يكون لأجل هدفٍ خاصٍ بالغ الأهمية .. وذلك الهدف هو أن يتم إنذار الإنسان بخطورة اليوم القادم الذي ينتظره .. ولقد جاءت كل الكتب السماوية السابقة تهدف أساساً إلى إنذار الآخرة، وإن القرآن الكريم يتخذ بدوره من إنذار الآخرة هدفه الرئيسي كذلك.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

بَغْتَةً : فجأة .

هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ : ممهلون لنؤمن ؟ كلا .

نزل القرآن باللغة العربية ، وقد كانت العربية هي اللغة الأم للنبي الذي جاء به .. مما أتاح للمنكرين فرصة القول بأن هذا الكلام من وضعه هو .. فمن حيث إنه عربي ، قام بتأليف «قرآنٍ» بالعربية!

وأسلوب الاعتراض هذا ينم في ذاته عن أنه ليس باعتراضٍ جادٍ .. والذين لا يكونون جادين بشأن أمرٍ ما، يفتعلون دوماً بعض المآخذ وأسباب المعارضة .. ولنفترض – مثلاً – أن هذا القرآن العربي لو تم إنزاله على عجمي ، فقرأه على هؤلاء ، مع كونه غير عارفٍ بلسان العرب ، قراءةً صحيحةً فصيحةً ، لأنكروه من فورهم قائلين : «إنه لابد أن يكون أحد العرب قد قام بتعليمه وتلقينه هذا الكلام» !!

والذين يقيمون بنيان حياتهم على أسس الباطل ، يكون الاعتراف بالحق عندهم بمثابة نفي الذات .. وإذا تجلّى الحق أمام أناسٍ كهؤلاء ، فلم يعترفوا به مؤثرين

مصالحهم الذاتية عليه ، اندمج مزاج الإنكار في نفسياتهم بحيث لا يستطيعون الفكاك من أسره مرةً أخرى!

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾

أَفَرَأَيْتَ : أخبرني .

مَا أَغْنَى عَنْهُم : أي شئ أغنى عنهم – لم يغن .

إن الدعوة إلى الله ، حينها تظهر على مستوى النبي ، تظهر في أكمل صورها .. ولهذا السبب يتحتم نزول العذاب الإلهي على الشعب الذي يقابل النبي بالجحود والإنكار .. على أن الإنسان ربها يعتبر نفسه بمأمنٍ من العذاب ما لم يباغته بالفعل .. فهو لا يزال يتبجح ويتلاعب بالألفاظ الكاذبة سعياً وراء الإجهاض على دعوة الحق .. فيلجأ تارةً إلى الاستخفاف بشخصية الرسول وتلويث سمعته .. ويرمي كلامه تارةً أخرى بالكذب والافتراء، ويقول طوراً : إن الله إذا لم يكن معنا كما تزعم ، فلِمَ لا يعذِّبنا!؟

وإن مسئولية النبي ، أو بالتبع مسئولية الداعي ، إنما تنحصر في قيامه بإعلام الناس بأمر الحق خير قيامٍ .. وأما ما وراء ذلك من شئونٍ فمرجعها إلى الله ، وهو تعالى وحده يُحدثها متى يشاء !

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ

فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ : ألن جانبك وتواضع .

وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ : ويرى تقلبك في الصلاة مع المصلين .

إن اتخاذ أحدٍ غير الله إلهاً أعظم جريمةٍ عند الله عز وجل .. وبعد اقترافها لن ينجو أحد - كائناً مَنْ كان - من العقوبة الإلهية أبداً .. حتى ولا الشخص الذي كان يتظاهر برفع شعار التوحيد وإعلاء كلمته بواسطة اللسان والقلم !

وواجب الداعي الأساسي هو أن يجنب نفسه الشرك بكل ألوانه ومظاهره ، ويدعو الناس جميعاً إلى الحق ، بمن فيهم أهله وقرابته من باب أولى .

ولكي تناصر الحق لابد أولاً من أن تحطّم صنم كبريائك .. وذلك هو السر في أن الكبراء قلّما يستعدون للوقوف إلى جانب الحق وتأييده .. وإنما ينهض لمناصرة الحق ، في الأغلب الأعم ، المستضعفون ، وأصحاب الحيثيات الضئيلة في المجتمع .. وهذا الواقع يكون بالنسبة إلى الداعي امتحاناً عسيراً جداً، إذْ يتعين عليه أن يتحاشى النظر إليهم بعين الاحتقار كما يراهم الآخرون .. حتى لا يشعر هؤلاء بأنهم ، رغم انضمامهم إلى المحيط الإسلامي، مازالوا من الضعة والهوان حيث كانوا في المجتمع غير الإسلامي .

والداعي هو الإنسان الذي تتوثق صلته بالله لدرجة أنه لا يلبث أن يقوم من فراشه آناء الليل قلقاً مضطرب البال يذكر ربه ويدعوه في ضراعةٍ وابتهالٍ .. والذي تشتد عنايته بأصحابه الساجدين ويغالي بقيمتهم إلى حد أنه يجعل منهم مركز اهتماماته كلها !

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ

ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

أَفَّاكٍ أَثِيمٍ : كثير الكذب والإثم كالكهنة.

يَهِيمُونَ : يخوضون ويذهبون كل مذهب .

لقد كان الإعجاز في كلام النبي واضحاً لدرجة أنه لم يكن حتى بإمكان المنكرين أن يتجاهلوه أو يكذبوه .. ومن ثم لم يجدوا إلى طمأنة الجماهير الضالعة معهم سبيلاً إلا أن يقولوا : إن هذا الرجل كاهن وساحر .. وسر إعجاز كلامه إنما يكمن في كونه كاهناً وساحراً، وليس في كونه نبياً مرسلاً .. وكذلك كانوا يصفون القرآن الكريم أحياناً بأنه شعر.. فقال تعالى رداً عليهم : إنه يكفي لتفنيد هذا الزعم الفارغ أن تقارنوا بين النبي وبين الكُهّان والشعراء .. فإنكم ستجدون بين حياة الفريقين بوناً هائلاً لن يتمكن معه رجل جاد - وهو بكامل عقله ووعيه - أن يقيس أحدهما بالآخرة !!

فالشعر يعتمد على الخيال دون الحقائق والواقعات .. وهذا هو السبب في أن الشعراء تجدهم دوْماً يحلقون في عالم الخيالات والأحلام ؛ يتحدثون عن شيءٍ تارةً ، وعن نقيضه تارةً أخرى!

وأما النبي وأصحابه ، فإنهم - بالعكس - قائمون على أساس الله الذي هو الحقيقة الكبرى في هذا الوجود .. وحياتهم تقدم أروع الأمثلة العملية على الانسجام بين القول والفعل .. ومعرفة الله العميقة قد جعلتهم مشغولين بذكر الله على الدوام .. وهم يمارسون حياتهم بحذرٍ شديدٍ لدرجة أنهم لا يتخذون إجراءً ما ضد أحد الناس إلا إذا

هو كان قد تجنّى عليهم وظلمهم ظلماً سافراً .

إن خطورة المستقبل تجعل المرء جاداً بالنسبة لحاله .. والشخص الذي لا يكون يقظاً مرهف الحس إزاء مستقبله، لن يكون يقظاً مرهف الحس نحو حاضره كذلك !

سورة النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾

هُدًى : هاد من الضلالة .

فَهُمْ يَعْمَهُونَ : يعمون عن الرشد أو يتحيرون .

إذا تجلى الحق أمام المرء ، فتلقاه بالاعتراف والقبول بدون أدنى تحفظٍ ؛ نتج عن ذلك أنه يسير من فوره في الاتجاه الصحيح ، وتأخذ حياته تصلح وتستقيم من سائر النواحي .. وأما الشخص الذي لا يرضى بصياغة نفسه طبقاً للحق ، فإنه يُضطر بالعكس إلى أن يصوغ الحق طبقاً لهوى نفسه .. وإن «تزيين الأعمال» هو الاسم الآخر لهذه الحالة النفسية .

ويصير أمثال هؤلاء غافلين تماماً عن إصلاح شأنهم .. وفي مقابل اعتبار خطئهم صواباً يدفعون الثمن باهظاً ؛ إذْ يظلون يسيرون في طريقٍ لا يؤدي بهم في نهاية المطاف إلا إلى هاوية الجحيم!

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ

قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

آنَسْتُ نَاراً : أبصرتها إبصاراً بيناً .

بِشِهَابٍ قَبَسٍ : بشعلة نار ساطعة مقبوسة من أصلها .

تَصْطَلُونَ : تستدفئون بها من البرد .

بُورِكَ : قدس وطهر وزيد خيرا .

مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا : الذين في ذلك الوادي الذي:بدا فيه النور وهم موسى والملائكة .

بعد هلاك القبطي كان موسى قد فارق بلاده مصر وذهب إلى مدين .. وقد كانت مدين على الساحل الشرقي لخليج العقبة الذي يتفرع من البحر الأحمر .. ولقد قضى موسى – عليه السلام – بهذه المنطقة نحو ثمانية أعوام.. ثم انصرف برفقة زوجته عائداً إلى مصر .. وفي أثناء سفره هذا مر بناحية الجبل الواقع بين خليجي البحر الأحمر ، ذلك الذي كان يسمى قديماً بـ ((الطور)) ، وهو يُعرف الآن بـ ((جبل موسى)) .

ولعلها كانت ليلة شتاء شديدة البرودة .. وقد لاحت لموسى من بعيدٍ نار تتوهج فوق الجبل .. فيّمم نحوها .. ولكنه لما اقترب منها نعلم أنها تجلّي الرب ، وفوق هذا الجبل ، حيث كان موسى قد أبصر النار ، لا تزال تتواجد حتى اليوم شجرة قديمة يُعتقد أنها هي الشجرة التي سمع موسى من وسطها صوت الله يناديه .. ولقد بنى المسيحيون هنا فيما بعد ديراً وكنيسةً يزورها الناس اليوم من شتى أقطار العالم للسياحة والتبرك!!

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ

وَلَّىٰ مُدۡبِرًا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

تَهۡتَزُّ : تتحرك بشدة واضطراب .

كَأَنَّهَا جَآنّٞ : حية خفيفة في سرعة حركتها .

وَلَمۡ يُعَقِّبۡ : لم يرجع على عقبيه أو لم يلتفت .

فِي جَيۡبِكَ : فتحة القميص حيث يدخل الرأس .

بَيۡضَآءَ : نيرة يغلب نورها نور الشمس .

غَيۡرِ سُوٓءٖ : غير داء برص ونحوه .

مُبۡصِرَةٗ : واضحة بينة هادية .

وَعُلُوّٗا : ترفعا واستكبارا على الإيمان بها .

كان موسى قد توجه نحو الجبل ليأتي بجذوةٍ نارٍ ، ولكنه بعدما وصل هناك ، علم أنه قد جيء به للنبوة .. والله سبحانه وتعالى إذْ يمنح أحد عباده عطيةً خاصةً فإنما يمنحها بصورةٍ مفاجئةٍ وغير متوقعةٍ كهذه ؛ لكيما يعتبرها العبد منحةً من عند الله مباشرةً ، وبالتالي يمتلئ كيانه كله بمشاعر الشكر والامتنان لربه المنعم الوهاب!

وإن بني إسرائيل ، مع كونهم أمةً مسلمةً في ذلك الزمان ، إلا أنهم كانوا قد صاروا بالفعل كتلةً هامدةً لا حياة فيها .. هذا إلى جانب أن موسى ﷺ كان عليه أن يعرض

دعوة التوحيد على ملك جبارٍ كفرعون .. ولذلك فقد أعطاه الله منذ الوهلة الأولى معجزة العصا.. وقد كانت هذه العصا تأييداً إلهياً دائماً لسيدنا موسى .. وقد ظهرت بواسطتها تسع معجزاتٍ في مواجهة فرعون .. وأما المعجزات الأخرى التي ظهرت خاصةً لبني إسرائيل ، فكانت علاوةً على التسع الأولى .

ولقد كان صدق موسى قام عليه الدليل القاطع من خلال معجزاته .. ولكن فرعون وأصحابه أبوا الاعتراف بنبوته ﷺ وسر ذلك كان يكمن في ظلمهم وعلّوهم .. حيث لم يكن فرعون ولا أصحابه مستعدّين لوضع القيود على حرياتهم ، وكانوا يعرفون أن الإيمان بموسى يعني نفياً لكبريائهم أنفسهم .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾

مَنطِقَ الطَّيْرِ : فهم أغراضه كلها من أصواته .

كان داود - ﷺ - ملكاً من ملوك بني إسرائيل ونبياً من أنبيائهم ، وكان ولده سليمان هو الآخر ملكاً ونبياً .. وقد اتسع ملكه إلى درجةٍ كبيرةٍ ؛ حتى شمل فلسطين وشرق الأردن والشام .. وقد أعطاه الله شتى أنواع المعلومات الفنية والصناعية .. كما خصّه بخصوصيات خارقةٍ للعادة .. حيث علمه لغات الطيور ، وكيفية تدريبها على نقل الرسائل وما إلى ذلك .. وكان سيدنا سليمان قد توافرت له أسباب العظمة ومظاهر الأبهة والغلبة غير العادية على أهل زمانه .. غير أن هذا كله لم يزده إلا تواضعاً .. إذا كان ينظر إلى كل ما يملكه على أنه عطية من الله مباشرة ، لا دخل لمواهبه أو رجاحة عقله في الحصول عليها .. وعهد مملكة سليمان - ﷺ -

يتراوح بين سنة ٩٦٥ق.م وحتى سنة ٩٢٦ ق.م وعلى هذا فقد دام حكمه زهاء أربعين عاماً !

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

فَهُمْ يُوزَعُونَ : يوقف أوائلهم لتلحقهم أواخرهم .

لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ : لا يكسرنكم ويهلكم .

أَوْزِعْني : الهمني وحرضني واجعلني .

إن جيوش سليمان - عليهما السلام - لم تكن مشتملةً على البشر وحدهم ، بل كانت تضم الجن والطيور أيضاً .. وذات يومٍ مرَ سليمان ، وهو يقود جيشه ، بوادٍ فيه نمل كثير .. وقد اعترفت النملات هناك بمجد سليمان وضخامة جيشه على نحو غير عاديٍ .. ولم يفت سليمان أن فهم بدوره الحديث الذي دار بين النمل في تلك المناسبة.

إن واقعةً كهذه ربما تكفي لإصابة إنسانٍ عادي بالفخر والغرور والاستعلاء ، بيد أن سليمان عندما نظر إلى حاله ذاك ، صار كله شكراً وخضوعاً .. وكل ما كان ملكاً له في ظاهر الأمر ، لم يلبث أن عزاه برمته إلى فضل الله.. وهذا هو منهج الإنسان المؤمن الصالح في كل زمانٍ ومكانٍ !

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾

لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ
بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ
ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا
يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾

بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ: بحجة تبين عذره في غيبته.

يُخْرِجُ الخَبْءَ: يظهر المخبوء المستور أيا كان.

كانت سبأ أو السبئيون من أغنى شعوب العالم القديم .. ويمتد زمانهم من سنة ١١٠٠ ق.م إلى سنة ١١٥ ق.م. وكانت عاصمتهم مدينة مأرب باليمن .. حيث لا تزال توجد بهذه المنطقة حتى هذا اليوم بعض أطلالٍ رائعةً تذكر بغابر مجدهم .. وفي عهد سليمان - عليه السلام - كانت تحكم امرأة تُدعى "بلقيس" .. وقد كان هؤلاء يعبدون الشمس ؛ إذا ألقى الشيطان في قلوبهم بأنه لا يكون إلهاً جديراً بالعبادة إلا ما كان أبرز وأشد وضوحاً .. وبما أن الشمس هي أبرز وأوضح شيءٍ من بين كل الأشياء المرئية ، لذا فهي وحدها تصلح لكي تُتخذ إلهاً يُعبد!

وقد حصل سيدنا سليمان على معلوماتٍ مستفيضةٍ عن قوم سبأ وملكتهم بوساطة الهدهد .. وربما كان هذا الهدهد من ضمن طيوره المجنّدة ، وكان قد تلقى تدريباتٍ عمليةً راقيةً !

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ

إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

تَوَلَّ عَنْهُمْ: تنح عنهم قليلاً.

أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ: لا تتكبروا عليّ .

مُسْلِمِينَ: مؤمنين. أو منقادين مستسلمين.

لقد كانت قوة سليمان ودولته هبةً إلهيةً .. وكذلك الموقف الذي تبناه ﷺ إزاء مملكة سبأ كان هو الآخر أمراً إلهياً .. وقد كتب «الشاه عبد القادر الدهلوي» في شرح هذه الآيات الكريمة وما يليها فقال : «إن أي نبي من الأنبياء لم يخاطب أحدً - خاصةً في مبدأ الأمر - بمثل هذا الأسلوب (القطعي الصارم) ، وإنما خاطب سليمان بهذا الأسلوب لكونه متمتعاً - على وجه الاستثناء - بقوة ملكوت الله عز وجل» .

أما ملكة سبأ (بلقيس) فقد نظرت في الموضوع نظرة واقعية خالصة .. إذ رأت : إننا لو اصطدمنا بسليمان،فأغلب الظن أننا سوف نرجع خائبين مهزومين،وبالتالي سيعاملوننا معاملة الغالب للمغلوب .. وعلى العكس من هذا فلو أننا خضعنا لطاعته، لنجونا من الهوان والدمار .. بيْد أن الملكة لجأت إلى إرسال الهدايا والتحف بهدف تقديرٍ أولي لحقيقة الأمر .. ولكي تعلم جيداً ما إذا كان سليمان مجرد طامعٍ في ثروتها وخيرات بلادها ، أو ينطوي طلبه منها الحضور إليه خاضعةً بلا ترددٍ على أي جانبٍ

مبدئي ؟!

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَـٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَـٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا : لا طاقة لهم بمقاومتها .

وَهُمْ صَاغِرُونَ : ذليلون بالأسر والاستعباد .

إن الثروة الثمينة التي كان سليمان قد نالها بشكل المعرفة الإلهية والحكمة والنبوة ، جعلت كل ثروةٍ أخرى دونها تفقد قيمتها في نظره .. ومن ثم حين وصلت إليه هدايا الذهب والفضة من جانب ملكة سبأ ، لم يقبلها ، حتى ولم ينظر إليها .

وبموقفه العملي هذا ترك سليمان في نفوس السفراء المبعوثين من ملكة سبأ انطباعاً فحواه : إن أمري هو أمر المبدأ دون أمر المصلحة .. وقد كتب المفسر ابن كثير في شرح ذلك ما نصه : «أي أتصانعونني بمالٍ ؛ لأتركَكم على شرككم وملككم»؟![1]

﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ : آصف أو جبريل أو ملك آخر .

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٦٧١ .

لِيَبْلُوَنِي : ليختبرني ويمتحنني

إن سليمان – عليه السلام – وإن كان يمتلك قوةً غير عاديةٍ ، إلا أنه خطّط لإخضاع قوم سبأ عن طريق عرض القوة بدلاً من استعمال القوة .. ومن ثم أحضر عرش الملكة من قصرها الكائن بمأرب إلى أورشليم (فلسطين) بواسطة أحد رجاله المخصوصين .. وربما يكون قد فكر في إحضار العرض لما خرجت الملكة من بلاد اليمن في إثر عودة الرسل إليها ، قاصدةً زيارة سليمان في عاصمة ملكه لكي تتفاوض معه مباشرةً .. ومن المقطوع به أنها تكون قد اعتزمت على هذه الرحلة ، بخدمها وحشمها ، حينما علمت أحوال عظمة سليمان وحكمته غير العادية وخلقه العظيم بألسنة سفرائها العائدين من فلسطين .

وتقع مدينة مأرب على بعد ألف وخمسمائة ميل تقريباً من أورشليم .. وقد طُويت هذه المسافة بحيث لم يكد يفرغ سليمان من إصدار أمره ، حتى كان العرش الذهبي المرصع بالجواهر واللآلئ ماثلاً بين ناظريه .. وبالرغم من هذه القوة الخارقة لم تتولد في نفس سليمان عاطفة الفخر للحظةٍ ، وإنما ظل – عليه السلام – خاضعاً لله تواضعاً على مدى الحياة !

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) ﴾

نَكِّرُوا : غيروا .

ادْخُلِي الصَّرْحَ : القصر . أو ساحته أو بركته .

حَسِبَتْهُ لُجَّةً : ظنته ماءا عذبا .

صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ : مملس مسوى .

مِّن قَوَارِيرَ : زجاج شفاف .

ووصلت ملكة سبأ إلى بيت المقدس ، حيث دخلت قصر سليمان ؛ ففوجئت بسريرٍ وُضع في المكان المهيأ لاستقبالها على هيئةٍ غريبةٍ ، وقيل لها : ﴿ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾؟! فوقعت في حيرةٍ شديدةٍ من قدرة الله ، إذْ وجدت أن العرش الذي كانت قد تركته في قصر مأرب وراء الأبواب والأقفال ، ها هو ذا قد وصل إلى بيت المقدس قبل وصولها هي طاوياً مسافة الألف والخمسمائة ميل الهائلة بطريقةٍ عجيبةٍ غامضةٍ !!

وانتهت الملكة ، وهي تمشي داخل قصر سليمان ، إلى حيث كان البلاط مكوناً من صفائح سميكة من الزجاج البلوري الشفاف ، يجري تحته الماء الرقراق .. فخيل إليها وكأن أمامها حوض ماءٍ ، فراحت تفعل عندئذٍ ما يفعله الشخص الذي يريد اقتحام الماء ؛ أي شمرت أذيالها في حركةٍ غير إراديةٍ لا شعوريةٍ خشية أن تبتل .

ومن خلال هذا كأنها تم إعلامها بأن الإنسان كثيراً ما ينخدع بالظاهر ، بينما تكون الحقيقة الأصلية في أغلب الأحوال مختلفةً عما تراه العيون ظاهراً .. وهكذا ربما يأخذ الإنسان في عبادة الشمس والقمر بالنظر إلى بروزهما ولمعانهما الظاهريين ؛ في حين أن الإله الحقيقي موجود وراء وفوق هذه الظواهر كلها .

وقد كانت ملكة سبأ تعبد الشمس تأثراً بتقاليدها القومية .. ولكن الذي سمعت ورأت عند سليمان غسل دماغها من كل أحاسيس التعظيم والإجلال لغير الله .. فنبذت بالتالي دين الشرك ، واختارت دين التوحيد عن صدقٍ وإخلاصٍ وتفانٍ !

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

اطَّيَّرْنَا : تشاءمنا حيث أصبنا بالشدائد .

طَائِرُكُمْ عِندَ اللهِّ : شؤمكم عملكم المكتوب عليكم عنده تعالى .

قَوْمٌ تُفْتَنُونَ : يفتنكم الشيطان بوسوسته .

لما بدأ صالح – عليه السلام – بدعوة التوحيد الخالص ، انقسم قومه إلى قسمين :

القسم الأول : عارضوه ووقفوا ضده ، والقسم الثاني : لبوا نداءه ووقفوا إلى جانبه.. ونشبت بين هاتين الطائفتين مناقشات خلافية حادة .. وقد كان معارضوه يقولون في زهوٍ وتبجح : إننا نرفض دينك .. إذن ، فلتأتنا بما شئت من العذاب لقاء إنكارنا .. وكانوا إذا حلت بهم نكبةٌ أو مصيبةٌ ما، قالوا إنما أصبنا بهذا بسبب شؤم صالح وأصحابه لا غير .. ولقد كانوا يرددون هذا الأقاويل استخفافاً بدعوة صالح ، وليس إظهاراً لأي فكرةٍ جادةٍ .. وقد كانت أحوالهم الحسنة والسيئة كلتا هما من عند الله تعالى .. ولكنهم فيما استمدوا من حسن حالهم غذاء الفخر الزائف ، استمدوا من سوء حالهم غذاء الشكوى الكاذبة !!

﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ

كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

تِسْعَةُ رَهْطٍ : أشخاص من الرؤساء مع كل رهط .

تَقَاسَمُوا بِاللهِ : تحالفوا بالله ، أو احلفوا به .

لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ : لنقتلنهم ليلاً بغتة .

مَهْلِكَ أَهْلِهِ : هلاكهم .

دَمَّرْنَاهُمْ : أهلكناهم .

خَاوِيَةً : خالية خربة أو ساقطة متهدمة .

كان في القوم تسعة رؤساء كبراء .. ولأجل الحفاظ على كبريائهم كانوا لا يزالون في محاولةٍ دائبةٍ لتصغير الحق ، وإن محاولةً كهذه مبعث الفساد الأكبر في الأرض ولا ريب.

وفي نهاية المطاف دبّر هؤلاء مؤامرةً لإهلاك صالح - عليه السلام - .. ولكن الله قد بادرهم بالبطش قبل أن يُنفذوا على خطتهم الخفية الجائرة ضد النبي صالح .. حيث تم تدميرهم ، رغم كل مظاهر عظمتم ، بحيث لا يوجد على وجودهم من أثرٍ في مساكنهم اليوم سوى خرائب وأطلال محطمة .

وإن الوقائع التاريخية كهذه لتنطوي على أغلى الدروس والعظات .. على أنه لن يتعظ بها إلا شخص يربطها بالقانون الإلهي .. وأما الذين يردونها بالعكس إلى القوانين الطبيعية ، فإنهم لن يستفيدوا منها أي درسٍ أو عبرةٍ أبداً!

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ

لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ : لا تبالون إظهارها مجانة .

يَتَطَهَّرُونَ : يزعمون التنزه عما نفعل .

قَدَّرْنَاهَا : حكمنا عليها .

مِنَ الغَابِرِينَ : يجعلها من الباقين في العذاب .

مَّطَراً : حجارة من السماء مهلكة .

كان قوم لوط قد بلغ بهم المجون والاستهتار إلى حد اللواط .. فقال لوط ، وهو يؤنب قومه ويهز ضمائرهم النائمة : لقد مُنحتم - يا عباد الله - عيوناً لتصبروا وعقولاً لكي تميزوا الخير من الشر ، وما ينبغي مما لا ينبغي ، فكيف إذن ، تمارسون عملاً هو غاية في القبح والشناعة على رؤوس الأشهاد دون تحرجٍ أو استحياء» ؟!

ولم يكن القوم يملكون جواباً على هذا السؤال .. ولا كانوا يستطيعون أن يردوا كلام النبي بالدليل .. ولذلك ما لبثوا أن استعدوا للاعتداء عليه .. ولكنه عندما يصل الأمر إلى هذه النقطة ، يظهر القضاء الإلهي الحاسم من غير تأخير .. فأمطر الله عليهم مواد محرقةً أهلكتهم أجمعين .. ولم يخلص من هذا العذاب حتى امرأة لوطٍ التي كانت ضالعةً مع المشركين .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى إنما يعامل كل شخصٍ بناءً على عمله

الذاتي ، وليس بناءً على نسبه أو عشيرته أو انتمائه !!

وإن الشخص الذي يتأمل في وقائع التاريخ الآنفة الذكر ، سوف يخرج من تأملاته وهو يصرخ قائلاً : إن الحمد الكثير والشكر الوافر الدائم لله العظيم الذي تفضل بتهيئة أسباب هداية الإنسان في كل العصور .. كما سيمتلئ صدره بمشاعر الحب والاحترام والتقدير لأولئك العباد الأخيار الذين وهبوا أنفسهم وحياتهم كلها لله عن رضاً وسرورٍ، لأجل تكميل مشروع إبلاغ الهداية الإلهية إلى البشرية جمعاء!

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

الكون عظيم إلى حدٍ لا يمكن تصوره .. وفي مقابل سعته وعظمته تعود كل الألفاظ والتعابير غير كافية إطلاقاً ، تلك التي ظل المنحرفون الضالون من الناس يرددونها في كل عصرٍ لتفسير الكون على أساسٍ غير إلهي .. سواء تمثل ذلك في أصنام الإنسان المشرك القديم ، أو في نظريات الإنسان الملحد الحديث التي هو يعرضها في ثوب مصطلحات براقةٍ مثل قوانين العلة والمعلول والصدفة والإتقان .. إلخ .

إن خلق أجرامٍ لا تحصى وتحريكها في الفضاء اللانهائي في نظام دقيقٍ ، وجعْل الكرة الأرضية ملائمة للحياة إلى أقصى الحدود .. وتوفير أشياء لا تُثمن كالماء والنبات بمقادير هائلةٍ للغاية ، وإيجاد أحوال السكون التام فوق هذه الأرض المتحركة باستمرارٍ، وجعْل الأرض قابلةً للسكنى والاستقرار بواسطة إرساء الجبال والبحار .. ومنع المياه العذبة والمالحة عن الاختلاط أحدهما في الآخر عن طريق قانون التوتّر

السطحي .. إن هذه الوقائع وأمثالها هي أعظم من أن يتمكن من إحداثها صنم ، أو يبرزها أي قانون من قوانين الطبيعة العمياء إلى الوجود!

والحقيقة هي أن تفسير الكون على أسسٍ أخرى غير الله الواحد الأحد ، وضع لتفسير باطلٍ في موضع التفسير الحق .. وهو في الواقع انحراف وضلال ، وليس من التفسيرات في شيء!

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

رَحْمَتِهِ : المطر الذي به تحيا الأرض .

إن الوفاء بحاجة أحد المحتاجين لا يمكن إلا إذا واتته كل الأسباب الكونية وفي حالة كهذه ، تُرى ، هل ثمة من أحد غير الله الواحد ، القادر المطلق ، يتمكن من تنسيق جميع الأسباب المواتية ، وتطويعها على هذا المستوى الضخم؟! كلا .

وهكذا فإن زوال أمة واحتلال أمة أخرى مكان الصدارة دونها .. ومواصلة السفن البحرية ، والطائرات في العصر الحديث رحلاتها في الظلام والنور على السواء عبر الاستفادة من إمكانات الطبيعية .. وارتفاع مياه البحر بخاراً في الجو ، ثم تساقطها مطراً مدراراً على الأرض ، وإيجاد الأشياء من العدم ، وإعادة خلقها من جديدٍ ، وتهيئة أسباب الرزق بمختلف أنواعه للإنسان على نطاقٍ واسعٍ .. كل هذه أمور ذات مستوىً إلهي .. ولن يستطيع القيام بها أحد غير الله الواحد الكبير المتعال وحده! وهذا هو شأن

كل الوقائع تحدث على وجه الأرض .. حتى إن واقعة بسيطةً واحدةً يتطلب إحداثها توفر عناصر جمةٍ لا يمكن إحضارها إلا للوجود الذي في قبضته الكون كله .. إذن ، فما أسخفه من رجلٍ ، مَنْ يجعل من أحدٍ غير الله الواحد مركزاً لعواطف عبوديته .. ومَنْ يتوجه إلى أحد من دون الله الواحد بالعبادة والخضوع!

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ : تكامل واستحكم علمهم بأحوالها وهو تهكم بهم لفرط جهلهم بها .

عَمُونَ : عمي البصائر عن دلائلها البينة .

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ : أكاذيبهم المسطرة في كتبهم .

إن القوى اللازمة للقضاء بين الأمم وتحديد مصائرها ، لا يمتلكها إلا الله الواحد علام الغيوب .. وقد ينفذ تعالى قضاءه في عالمنا الراهن بصفةٍ جزئيةٍ ، وهو وحده سيقضي بين الخلائق أجمعين في عالم الآخرة بصورةٍ كليةٍ شاملةٍ وأبديةٍ !

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ

﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

ضَيْقٍ : حرج وضيق صدر .

وقوله ((ولا تحزن..)) ليس نهياً للداعي إلى الحق عن الحزن لذاته .. إذْ الحزن هو غذاء الداعي ، وحياته سلسلة أحزان متواصلةٍ .. وهذا في الحقيقة رفض للإحساس الذي قد يطرأ على النفس بهوان الحق وضعفه عند تأزّم الأحوال.. والمعنى إن الحق وأنصاره سيُكتب لهم النجاح آخر الأمر حتماً رغم كل العقبات والظروف غير الملائمة .

ليس ثمة حماقة يرتكبها المرء أكبر من أن يعتبر الفرصة المتاحة له على وجه الاختبار والابتلاء فرصةً للتمرد والطغيان !

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ : ما تخفي وتستر من الأسرار .

غَائِبَةٍ : شيء يغيب ويخفى عن الخلق .

الإنسان مخلوق يتمتع بقدرات السمع والبصر والتعقل .. وهذه القدرات لو تم استخدامها بتمام اليقظة والانفتاح ، لكانت وسائل فعالةً تعين صاحبها على رؤية

الحقائق كما هي والتعرف عليها بدون خطأ أو التباسٍ .. ولكن لو أن شخصاً فرض على نفسه أي تصورٍ مصطنعٍ ، فإن قواه المدركة لا تلبث أن تتعطل وتفتقد فاعليتها تلقائياً.. وبعدئذٍ تتجلى له الحقيقة في صورتها المكشوفة العارية ، ولكنه يظل غافلاً عنها كما لو أنه أصم وأعمى .. والحق أنه لا يمكن إراءة الطريق في هذه الدنيا إلا لشخصٍ يبحث عن الطريق بدأبٍ وإخلاصٍ.. وأما الذي يخلو فؤاده من شرارة البحث والشوق للاهتداء ، فلن يجدي عنه هداية ولا توجيه مرشدٍ شيئاً .

ولكي تكون متبع الحق لابد لك أن تتحلى بخاصية الاعتراف .. فإن الهداية لا ينالها في هذا العالم إلا الشخص الذي يملك استعداداً للمبادرة إلى قبول الأمر فوراً ، إذا قام لديه الدليل على صحته ويجعل حياته بالتالي تابعةً له من غير أدنى ترددٍ أو تفظٍ .

والذين يأبون عن الخضوع لدعوة الله ، يضطرون في نهاية المطاف إلى الخضوع لقضاء الله المبرم ، غير أن الخضوع وقتئذٍ لن يغن أحدٍ شيئاً !

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

وَقَعَ القَوْلُ : دنت الساعة وأهوالها الموعودة .

دَابَّةٌ : هي من أشراط الساعة الكبرى.

فَوْجاً : جماعة وزمرة .

فَهُمْ يُوزَعُونَ : يوفق أوائلهم لتلحقهم أواخرهم ثم يساقون جميعا .

إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يضع نهايةً لتسلسل تاريخ العالم الراهن ، ظهرت ، قبل الختام الأخير، علامات غير عاديةٍ .. منها خروج الدّابة .. فالأمر الذي رفض الناس الإيمان به ، وقد بلّغ إليه دعاة من البشر أمثالهم ، سيتم إعلانه على لسان مخلوقٍ غير إنسانيٍ.. بيد أن هذا سيكون بمثابة جرس الإنذار بانتهاء مهلة الامتحان ، وليس إعلاناً عن بداية موعد الامتحان !

وإذا جُمع الأولون والآخرون يوم القيامة ، وُزّعوا على مجموعاتٍ .. المؤمنون في جانبٍ .. والمنكرون في جانبٍ آخر .. وبعد ذلك سيُسأل المنكرون عما هو الدليل العلمي الذي كنتم تستندون عليه حين قابلتم الحق بالرفض والإنكار؟! ووقوف القوم في ساحة المحشر يومئذٍ مبهوتين ذاهلين لا يحيرون جواباً ، سيقيم الدليل القاطع على أن إنكارهم إنما كان مرتكزاً على أساسٍ من العناد والتعصب ليس غير ؛ وإن كانوا يقدمون في الدنيا أدلةً زائفةً للتظاهر بأنهم على الحق .. كما سينكشف عليهم حينئذٍ أن أمر الحق كان من الوضوح والجلاء في الحياة الدنيا بحيث كان نظام الليل والنهار هو الآخر ينبّهم إليه بلغةٍ غير منطوقةٍ إلى جانب كلام الداعي المنطوق .. حيث كان النوم ليلاً يمثل الموت ، والنهوض صباحاً يمثل البعث بعد الموت .. ولكنهم ، بالرغم من هذه العناية الفائقة والاهتمام غير العادي بإعلان الحق وتجليته ، ظلوا محرومين من اكتشاف الحق ، فيا له من حرمانٍ وشقاءٍ مرير!!

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ

مِنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

فَفَزِعَ : خاف خوفا يستتبع الموت .

دَاخِرِينَ : صاغرين أذلاء بعد الموت .

فَكُبَّتْ : ألقوا منكوسين .

حين ينفخ في الصور تنهار كل صروح المجد والعظمة والكبرياء كجدران الرمال .. وإنها ستكون لحظةً رهيبةً مروعةً لدرجة تستحيل معها حتى الجبال الراسيات هباءً منثوراً، ناهيك عن الإنسان ذلك المخلوق الضعيف .. وحينئذٍ سكون العجز كله إلى جانبٍ .. والقدرة كلها إلى جانبٍ آخر .

وسوف تفقد يومئذٍ كل الأشياء أهميتها ، تلك التي كان الناس يعتبرونها ذات الأهمية القصوى في الحياة الدنيا.. والعمل الصالح وحده سيكون هناك ذا وزنٍ واعتبارٍ .. وكم من «الخاسرين» سيفلحون يومئذٍ ، وكم من «المفلحين» هنا سيصبحون هناك في عداد الخائبين المحرومين إلى الأبد!!

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

وردت الإشارة إلى مكة في الآية (٩١) : ﴿ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ﴾ مراعاةً لمخاطبي القرآن الأولين .. وهذا أمر يعني به الباحثون في أسلوب القرآن وبلاغته .. وأما مقتضى

الآية الأصلي فهو تنبيه الإنسان إلى الحقيقة الأزلية القائلة بأنه له في هذه الحياة منهجاً صحيحاً واحداً ليس غير ، ألا وهو أن يعيش عبداً عابداً لله الواحد الأحد .

ومهمة الداعي تتلخص في «التلاوة» .. أي إعلان أمر الحق .. والإنسان مطالب بإدراك الحقيقة المعنوية الكامنة في نداء الداعي اللفظي .. وبمشاهدة تجلي القوة الإلهية في الدعوة المجردة - على ما يبدو - من كل أسباب القوة .. والذين يقيمون الدليل على هذه الصلاحية ، هم الذين سيُعتبرون أهلاً لإنعامات الله الأبدية .

«سيريكم آياته» هذه النبوءة يتصل أحد جوانبها بقريش مكة - المخاطبين الأوائل - للقرآن الكريم - حيث أراهم الله آياته في القرآن الأول في صورة غزوة بدر الكبرى وفتح مكة .. ولها جانب آخر يتعلق بخلود القرآن وأبديته.. ومن هذه الناحية الثانية تنطبق هذه النبوءة غير العادية أيضاً ، بمعناها الواسع الشامل ، على الآيات والكشوف العلمية التي ظهرت في عصرنا الحديث !

سورة القصص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ
وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا
شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً
وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ
وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

عَلا فِى الأَرْضِ : تجبر وطغى فى أرض مصر .

شِيَعاً : أصنافا فى الخدمة والتسخير والإذلال .

وَيَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ : يستبقى بناتهم للخدمة .

يَحْذَرُونَ :يخافون من ذهاب ملكهم .

أُدين فرعون هنا بجريمة الإفساد فى الأرض .. وقد كان إفساد فرعون تمييزه فى التعامل مع شعبين فى مصر .. فبينما أتاح للقبط - قومه هو - أفضل الفرص العملية من كل نوع حرم بنى إسرائيل من كل الفرص .. وليس ذلك فحسب ، بل أخذ يقتل مواليدهم الذكور ، حتى ينقطع نسلهم رويداً رويداً .. وقد كان عمل فرعون هذا تدخلاً صريحاً فى نظام الفطرة .. وبمقتضى القانون الإلهى فإن التوافق مع نظام الفطرة اسمه الإصلاح ، بينما التدخل فى نظام الفطرة اسمه الإفساد .

إن القضاء بالعزة أو بالهوان إنما يكون من عند الله تعالى .. وقد قرر الله على عكس ما قرره فرعون .. إذ قرر الله تعالى أن يعطى بنى إسرائيل العزة والسلطة ، ويهلك فرعون مع جنوده .. ولقد أثبت فرعون ، بإصراره على العناد والطغيان والظلم ، بعد قيام الحجة عن طريق موسى - عليه السلام - أثبت أنه مستحق للعقاب .. فما لبث أن أغرقه الله فى البحر وقضى على تجبره وطغيانه إلى الأبد .. وجعل من بنى إسرائيل حكام سوريا وفلسطين بعد إخراجهم من أرض مصر بسنين!!

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

كَانُوا خَاطِئِينَ : مذنبين آثمين .

قُرَّتُ عَيْنٍ : هو مسرة وفرح .

وُلد موسى وعملية ذبح المواليد الذكور من بنى إسرائيل جارية على قدمٍ وساقٍ ، مما أقضَّ مضجع أمه وملأ صدرها خوفاً وقلقاً على حياته .. فأعلمها الله ساعتئذٍ - ربما فى المنام - هذا التدبير ، بأن تضعه فى قارب صغير وترسله فى بحر النيل .. وقد فعلت هكذا بعد ثلاثة أشهرٍ .. وجرى هذا القارب مع الماء ، حتى انتهى به المسير إلى الساحل المواجه لقصر فرعون ، ولقد كانت امرأة فرعون (آسية بنت مزاحم) امرأة طيبةً ، فحين وقع بصرها على الطفل موسى البريء الوسيم الطلعة ، فاض قلبها رقةً وعطفاً عليه .. فلم يلبث موسى أن أُدخل قصر فرعون واستُبقى هناك نزولاً على طلبها

ورغبتها .

ويُروى أن زوجة فرعون حينما قالت لزوجها : "إن هذا الغلام قرة عينٍ لنا" ، أجابها قائلاً : "أما لك فنعم ، وأما لى فليس بقرة عينٍ" .. وهذه الكلمة ربما تكون قد صدرت من فرعون بسبب الفارق النفسى بين طبيعة الرجل وطبيعة المرأة .. إلا أنها تحققت بالفعل حرفياً فيما بعدُ !

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

فَارِغاً : خاليا من كل ما سوى موسى .

لَتُبْدِى بِهِ : لتصرح بأنه ابنها لشدة وجدها .

رَّبَطْنَا : بالعصمة والصبر والتثبيت .

قُصِّيهِ : اتبعى أثره وتعرفى خبره .

فَبَصُرَتْ بِهِ : أبصرته .

عَن جُنُبٍ : عن بعد أو عن مكان بعيد .

يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ :يقومون بتربيته لأجلكم .

تَقَرَّ عَيْنُهَا : تسر وتفرح بولدها .

بَلَغَ أَشُدَّهُ : قوة بدنه ونهاية نموه .

وَاسْتَوَى : اعتدل عقله وكمل .

لقد نسب الله أمر صيانة موسى بحذافيره إلى ذاته العليا .. بينما تفاصيل ذلك تشير على أن كل ما جرى إنما حصل بمقتضى الأسباب والعلل .. ومن هذا نعلم أن ظهور المشيئة الإلهية فى عالم الامتحان الراهن يتم على نمط الأسباب والمسببات ، وليس على نمط الخوارق والشعوذات المطلسمة .

وقد أُلقى بموسى ، وهو طفل عاجز ضعيف ، فى أمواج البحر .. إلا أنه بلغ الساحل بسلامٍ وعافيةٍ بالغين .. وخطط ملك زمانه لقتله .. ولكن الله هيأ أسباب تربيته بوساطة ذلك الملك نفسه .. وقد وُلد – عليه السلام – فى أسرةٍ عاديةٍ متواضعةٍ ، بيد أن الله – جل شأنه – بإيصاله إلى القصر الملكى أتاح له فرصة تعلم العلوم والآداب والفنون الرائجة فى ذلك العصر على مستوى أعلى وأرقى .. وهذا مثال يدل على أن قدرة الله لا تُحد .. وأنه ليس فى مقدور أحدٍ ، كائناً من كان ، أن يقف فى وجه تحقق تدبير الله ومراده!

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فَوَكَزَهُ مُوسَى : ضربه فى صدره بجمع كفه .

ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ : معينا لهم .

ومن أحداث ما قبل النبوة ؛ إذْ كان موسى فى عاصمة مصر ، أن رأى ذات يوم رجلين - أحدهما إسرائيلى والآخر قبطى - يتنازعان .. فناداه الإسرائيلى ، لكونه واحداً من بنى شعبه ، طالباً نجدته ليدفع عنه شر القبطى ، ولما أراد موسى أن يفصل بينهما ، خاض معه القبطى فى جدالٍ ومشاكسةٍ ، فوكزه موسى - على سبيل الدفاع والتأديب - وكزةً أصابت - صدفةً - بعض مقاتله ، فمات فى الحال !

ولقد كان الأقباط فى ذلك الوقت يضطهدون بنى إسرائيل شر اضطهاد ، ويذيقونهم ألوان العذاب .. وفى مثل هذا الوضع فلو أن موسى نظر فى هذا الحادث من المنظور القومى ، لملئ فخراً واعتزازاً باعتباره بطولةً جهاديةً .. ولكنه بالعكس ندم على هلاك القبطى أشد الندم ، فتوجه من فوره إلى الله يسأله العفو والمغفرة .

وقوله : ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ يعنى لن أنصر أحداً من الآن فصاعداً بدون تحقيقٍ أو تحرٍ .. فإن مجرد انتماء شخصٍ إلى شعبٍ مظلوم مضطهد ، أو استنصاره ضد غيره بوصفه ظالماً ، ليس بكافٍ لإثبات أن الشخص الأخير ظالم فى الواقع ، وأن المستغيث هو المظلوم .. ولذلك فالمنهج الصحيح هو أن نتناول الأمر فى مثل هذه المناسبات بالتحرى الدقيق ، ولا نندفع لنصر أحد الأطراف إلا إذا ثبت لدينا كونه مظلوماً معتدى عليه فى ضوء تحرياتٍ نزيهةٍ غير متحيزةٍ !

﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا

ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾

يَتَرَقَّبُ : يتوقع المكروه .

يَسْتَصْرِخُهُ : يستغيثه من بعد .

إِنَّكَ لَغَوِى : ضال عن الرشد .

يَبْطِشَ : يأخذ بقوة وعنف .

يَسْعَى : يسرع فى المشى .

إِنَّ الْمَلأَ : وجوه القوم وكبرائهم .

يَأْتَمِرُونَ بِكَ : يتشاورون فى شأنك .

وفى اليوم التالى كان ذلك الإسرائيلى نفسه يتنازع مع قبطى آخر .. وقد كان هذا قرينةً واضحةً الدلالة على أنه رجل ديدنه النزاع واللدد والخصومة ، فما يمر عليه يوم إلا وهو يتشاجر أو يتقاتل مع بعض الناس .. ومن هنا فبالرغم من كونه ينتمى إلى شعبه هو ، أنحى عليه موسى باللائمة ، واعتبره مجرماً .. وقد ثبت كون الإسرائيلى المذكور مجرماً بمزيد الوضوح من أنه حين رأى موسى لا يتقدم لنجدته اليوم ، بل أخذ يزجره ويندد بفعله على عكس رجائه منه ، فلم يلبث أن فضح ، بمنتهى الدناءة واللامسئولية ، أمر قتيل الأمس ، الذى لم يكن قد علم به أحد غيرهما بعدُ .

ولم يكد ينطق الإسرائيلى باسم القاتل حتى التقطته آذان القبطى وآخرين عداه من المارة ، فسرى هذا الخبر فى طول البلاد وعرضها سريان النار فى الهشيم .. حتى أخذ المسئولون يتشاورون فى إعدام موسى .. فاطلع على ذلك رجل شريف من آل فرعون،

فاتصل بموسى سراً ، وأعلمه علم القوم ، وأشار عليه: إن الأحرى بك الآن أن تغادر هذا المكان .. فقبل موسى منه هذه النصيحة الغالية ، وذهب على وجهه يريد أرض مدين ، التى كانت تقع على الساحل الشرقى لخليج العقبة ، وكانت خارجةً عن حدود المملكة الفرعونية.

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

تِلْقَاءَ مَدْيَنَ : جهتها ونحوها (قرية شعيب)

سَوَاءَ السَّبِيلِ : الطريق الذى فيه النجاة .

أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ : جماعة كثيرة منهم .

تَذُودَانِ : تمنعان أغنامهما عن الماء .

مَا خَطْبُكُمَا ؟: ما شأنكما ؟ ما مطلوبكما ؟

يُصْدِرَ الرِّعَاءُ : يصرف الرعاء مواشيهم عن الماء .

كانت رحلة موسى هذه بمثابة رحلةٍ إلى المجهول .. والكيفية التى تعترى قلب المؤمن فى ظروفٍ كهذه ، كانت طارئةً عليه تماماً .. حيث كان يتابع سيره بخطىً حثيثةً فى ظلال الأدعية المتدفقة حرارةً وخشوعاً .. حتى وصل، بعد مسير عشرة أيامٍ تقريباً ، إلى مدين ؛ وقد أرهقه التعب ، ونزل به أيضاً ، فى أغلب الظن ، جوع شديد.

وتقدّم موسى بإعانة المرأتين من أهل مدين بدافع العطف على الضعفاء ؛ مما مهّد له الطريق للوصول إلى أبيهما.. وقد كان هذا الشيخ من ذرية مديان بن إبراهيم ، وموسى من ذرية إسحاق بن إبراهيم ، وعلى هذا فقد كانت بين كليهما رابطة القرابة السلاليّة كذلك.

وفى ذلك الوقت خرج من فم موسى الدعاء التالى : ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ،وهذا الدعاء يدلنا كيف يكون حال المؤمن فى مثل هذه الأوقات .. إنه يفوض أمره كله إلى الله ؛ لكونه واثقاً من أن كل ما ينال العبد فإنما يناله من عند الله ، وأن الخير هو الذى يتلقاه من عند الله - سبحانه وتعالى !

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

تَأْجُرَنِى : تكون لى أجيرا فى رعى الغنم .

حِجَجٍ : سنين .

عادت البنتان إلى البيت فى يومها ذاك مبكرتين بعض الشيء على خلاف المعتاد ، وعندما سألهما الشيخ أبوهما عن سبب التبكير بالعودة ، أخبرتاه بما كان من تطوع

الرجل الغريب لسقى أغنامها .. فقال الشيخ : لِمَ لم تأتيا بالرجل حتى يتناول معنا الطعام؟! فانطلقت إحداهما إلى البئر وجاءت بموسى إلى منزلها .. ومن تجربة أيام عدة ظهر للعائلة المضيفة أن موسى رجل جدٍ واجتهادٍ وإنسان صدقٍ وأمانةٍ .. ومن ثم فقد اتفق الشيخ مع رأى إحدى ابنتيه على استبقاء موسى أجيراً عنده .. والواقع أن كلا هذين الوصفين : الأمانة والقوة ، جامع لكل الأوصاف الضرورية.. ولو أردنا تحديد مقياسٍ لاختيار الرجل الكفء ، فلن نجد هناك ما يعبر عنه تعبيراً أدق وأفضل من هاتين الكلمتين .

وقد زوج الشيخ موسى بإحدى ابنتيه فيما بعد .. وبما أنه كان إذْ ذاك فى حاجةٍ ماسةٍ إلى رجل يتعهد شئونه المنزلية والعقارية ، طلب من موسى أن يقيم عنده ثمانى أو عشر سنواتٍ ثم له بعد ذلك أن يذهب إلى حيث يشاء !

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

آنَسَ : أبصر بوضوح.

نَاراً : هى فى الواقع نور ربانى .

جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ : عود فيه نار بلا لهب .

تَصْطَلُونَ: تستدفئون بها من البرد .

تَهْتَزُّ :تتحرك بشدة واضطراب .

كَأَنَّهَا جَانٌّ: حية خفيفة فى سرعة حركتها .

وَلَمْ يُعَقِّبْ : لم يرجع على عقبة أو لم يلتفت .

جَيْبِكَ : فتحة القميص حيث يدخل الرأس .

بَيْضَاءَ : لها شعاع يغلب شعاع الشمس .

غَيْرِ سُوءٍ: غير داء برص ونحوه .

وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ : الخوف من الحية .

قضى موسى فى بلاد مدين نحواً من عشرة أعوام ..ثم انصرف موسى ومعه زوجته وولدان أيضاً – طبقاً لرواية التوراة – عائدين إلى أرض مصر .. وقد مرت عليه وهو فى بعض الطريق تجربة الطور .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

رِدْءاً : عوناً .

سَنَشُدُّ عَضُدَكَ : سنقويك ونعينك .

سُلْطَاناً : حجة أو تسلطاً وغلبة .

إن الله - سبحانه وتعالى - حين يعين أحد الناس بوصفه مأموراً للدعوة إليه والتبليغ عنه ، يوفر له أيضاً كل الأسباب الضرورية لأداء العمل الدعوى على نحوٍ مؤثرٍ فعالٍ .. ومن ثم فقد أعطى لسيدنا موسى من عند الله أشياء عديدة بحسب ظروفه وأحواله .. حيث مُنح خوارق ومعجزاتٍ كشهادةٍ على تعيينه أو مأموريته من قبل الله تعالى .. وقُيّض له مساعد يشد من أزره ، ويتعاون معه فى تحمل أعباء الدعوة والصدع بالحق .. وأُسبغ عليه نوع من الهيبة الشخصية تحول دون أن يجرؤ فرعون وأصحابه على التعرض له أو النيل منه .. هذا إلى جانب ما سبق تقديره من الله أن الغلبة نهائياً لا تكون إلا لموسى وأتباعه (بنى إسرائيل) وحدهم !

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

مُّفْتَرًى : تنسبه إلى الله كذبا .

صَرْحاً : قصراً أو بناءً عالياً مكشوفاً

إن شخصاً يعدّ نفسه كبيراً ، إذْ يتناوله رجل عادى فى مظهره بالنقد الصريح فإنه لا يلبث أن يشتعل غضباً ، ويأخذ فى الاستهزاء بناقده ، والنيل منه بكل حيلةٍ ووسيلةٍ .. وقد اتخذ فرعون هذا الموقف تجاه النبى موسى لما عرض عليه دعوة الحق، وهدم دعوى ربوبيته من الأساس .

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ ليس هذا بأى قولٍ جادٍ ، ولم يقصد فرعون من هذه العبارة بيان الحقيقة، بل أراد الاستخفاف بشأن موسى .. وهكذا لما توجه فرعون إلى وزيره هامان قائلاً : بأن اطبخ الآجر ، و ابن لى عمارةً شامخةً رفيعةً ، تأخذ فى السماء صعداً ، لأطلع إلى إله موسى . لم يكن ذلك أمراً جدّياً ؛ فلم يكن معناه أنه يصدر أمراً إنشائياً إلى وزيره ، وإنما كان ذلك سخرية من موسى .

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

فَنَبَذْنَاهُمْ فِى اليَمِّ : ألقيناهم وأغرقناهم فى البحر .

أَئِمَّةً : قادة فى الضلال .

لَعْنَةً : طردا وإبعاداً عن الرحمة .

مِّنَ المَقْبُوحِينَ : المبعدين أو المشوهين فى الخلقة .

القُرُونَ الأُولَى : الأمم الماضية المكذبة

بَصَائِرَ لِلنَّاسِ : أنوار لقلوبهم تبصر بها الحقائق .

لقد كانت دعوة موسى تهدف إلى تفجير الثورة الرّبانية فى ضمير الفرد الإنسانى.. كان مؤداها – باختصارٍ – أن يخاف الإنسان من الله وحده ، وأن يعيش فى هذه الدنيا

عبداً مطيعاً لله رب العالمين .. وقد عرض موسى هذه الرسالة نفسها على الأفراد والآخرين بعامة ن تماماً كما عرضها ، بوجهٍ خاصٍ ، على ذلك الفرد الذى كان جالساً على سدة الحكم!

إن الإنسان عادةً يصاب بنفسية الكبر والغرور حين يحصل على السلطة والاختيار .. وهكذا كان حال فرعون هو الآخر تماماً .. فحذَره موسى قائلاً : إنك لو عشت متكبراً فى أرض الله ، لتعرضت لبطش الله ، ولكن فرعون لم يتلق النصيحة بالقبول .. وكانت النتيجة أن أهلك هو وجنوده أجمعون .

كان فرعون إمام الحضارة الوثنية القديمة .. وكان يحتل مركزاً مرموقاً عالياً فى ظل الحضارة الوثنية .. غير أن حضارة الشرك والوثنية قد انتهت ودالت دولتها ، لا من أرض مصر وحدها ، بل من كل بقاع المعمورة .. وغالبية سكان العالم اليوم إما مسلمون أو يهود أو نصارى .. وكل هؤلاء يعتبرون فرعون ملعوناً بالإجماع .. وليس هناك من أحدٍ فى عالم اليوم يؤمن بعظمة فرعون أو يعتقد فى ربوبيته!

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قَضَيْنَا : عهدنا .

ثَاوِياً : مقيما .

كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يبين – عبر القرآن – وقائع موسى على نحوٍ مفصلٍ ، كما لو أنه واقف على مسرح الأحداث يسمع ويرى كل ما يجرى

هناك.. بينما الواقع أنه - ﷺ- وُلد فى مكة بعد موسى بألفى عام.. وقد كان هذا دليلاً واضحاً على أن القرآن كلام الله ، لأن أى إنسانٍ ليس بقادر على أن يدلى ببيانٍ كهذا .

ففى عهد الرسول - ﷺ- لم تكن توجد كتب ولا مؤلفات ، كما هو الحال فى أيامنا هذه .. أما وقائع موسى فقد كانت مذكورةً فى كتب اليهود غير العربية ، والتى لم يكن لها سوى عدة نسخٍ محفوظةً فى معابد اليهود .. وهى بكل تأكيدٍ كانت بعيدة عن متناول النبى - صلى الله عليه وسلم - .. وفوق ذلك فإننا نجد هناك فروقاً ذات مغزى دقيقٍ بين ما جاء فى القرآن الكريم وما جاء فى الكتب اليهودية .. والقرينة تدل على أن ما جاء فى القرآن هو الأصح والأجدر بالقبول .. وعلى سبيل المثال فإن هلاك القبطى على يد موسى ، طبقاً لما ورد فى القرآن بهذا الخصوص ، إنما حدث عن غير عمدٍ ، بينما تقول التوراة عن موسى فى موقفه ما نصه : "فالتفت إلى هنا وهناك.. ورأى أن ليس أحد ، فقتل المصرى ، وطمره فى الرمل" (سفر الخروج ٢ : ١٢) .

ومن الواضح أن بيان القرآن هو أنسب وأليق بمكانة شخصية جليلةٍ كموسى ؈، وليس بيان التوراة .. إذن ، فكيف استطاع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بدون أية وسيلةٍ ظاهرةٍ ، أن يعرض وقائع موسى بهذا القدر من الصواب والدقة؟!.. ونحن لن نجد جواباً مقنعاً عن هذا سوى أن الله عالم الغيب والشهادة هو الذى أخبره بكل ذلك عن طريق الوحى !

﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ

قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قَضَيْنَا : عهدنا .

ثَاوِياً : مقيما .

لما عرض موسى رسالته على المصريين الأقدمين ، أردف ذلك أيضاً بإظهار معجزات العصا واليد ، تأكيداً على صدقه وحقية رسالته .. غير أن القوم لم يؤمنوا به ، وأنكروه قائلين: إن هذا سحر ليس غير .. وأما حين عرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعوة الحق على سكان الجزيرة العربية المعاصرين له ، على أساسٍ من الدلائل والبراهين ، فقالوا : إن كان هذا نبياً ، فما باله لا يُظهر معجزات مثلما أظهر موسى؟!

كل هذه أقاويل خرجت عن الأذهان غير الجادة .. إن ألزم شرطٍ للإيمان بالحق فى العالم الراهن هو أن يكون المرء جاداً .. وأما الذى لا يكون جاداً بالنسبة إلى قضية الحق والباطل ، فلن يجبره أى شيءٍ على الاعتراف بالحق ، حيث إنه سيفتعل كل مرةٍ عذراً جديداً، وسيعثر لرفض كل حديثٍ على ألفاظٍ جديدةٍ !!

﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

وَصَّلْنَا لَهُمُ القَوْلَ : أنزلنا القرآن عليهم متواصلا .

إن المعيار الحقيقى للإيمان أو عدم الإيمان برسالة الحق واحد ، أو ينبغى أن يكون واحداً ليس غير ، وهو أن ننظر فى الرسالة من حيث جوهرها الذاتى وحده ، فلو

وجدناها تحمل فى ذاتها دليلاً على أنها الصدق الأعلى ، لكان ذلك كافياً لكى نؤمن بها، ولم نعد بعد ذلك بحاجةٍ إلى أى شيءٍ آخر للإيمان بها .

وإن الصدق إنما يقابل بالصدق مثله .. ولو أن المرء وقف من الصدق موقف الإنكار، ثم لم يتقدم فى مقابل ذلك بصدقٍ آخر أسمى ، فمعنى ذلك أنه إنما ينكر بسبب عبوديته لهوى النفس ، والذين لا يستطيعون ردّ الصدق بالعقل أو المنطق ، ثم إنهم - مع ذلك - لا يؤمنون به انسياقاً مع الأهواء ودواعى التعصب الأعمى ، هم أكثر الناس ضلالاً .. وسيُعتبر أمثال هؤلاء عند الله فى عداد الظالمين !

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

وَيَدْرَءُونَ : يدفعون .

اللَّغْوَ : السب والشتم من الكفار .

سَلامٌ عَلَيْكُمْ: سلمتم منا لا نعارضكم بالشتم .

الإيمان نوعان .. أحدهما : أن تؤمن بالحق لأنه حق .. وثانيهما : أن تؤمن به لأن عارضه ينتمى إلى طائفتك.. وأول هذين النوعين من الناس وحده يوفق للاهتداء إلى الصراط المستقيم .. ومن هذا الطراز كان أولئك الرجال الذين آمنوا فى القرن الأول

بالقرآن الكريم والنبى العربى - عليه الصلاة والسلام .

كان هناك عدد من النصارى واليهود لم يكد يستمع إلى آيات القرآن حتى انضم إلى صفوف المؤمنين به .. وقد كان هؤلاء ما زالوا متمسكين بتعاليم الأنبياء السابقين الحقيقية .. ولذا فلم يصعب عليهم أن يتعرفوا على نبى آخر الزمان .. ولقد تعرف هؤلاء بالفعل على النبى الجديد تماماً كما كانوا قد تعرفوا على الأنبياء الذى سبقوه .. غير أن تأهيل أنفسهم لذلك كان قد فرض عليهم المرور بمراحل "الصبر" العسيرة .

إنهم حافظوا على أذهانهم من التأثر بعوامل لا تدع المرء صالحاً لمعرفة الحق .. تلك العوامل التاريخية والاجتماعية التى تحوّل الدين الإلهى فى ذهن المرء إلى دين طائفى ، وبالتالى لا يكاد المرء يعرف من أمر الدين شيئاً إلا ما تلقاه من طائفته ، ويفشل فى التعرف على الدين الذى يأتيه من غير طائفته .. ولكى يبقى المرء محفوظاً من هذه المؤثرات يُضطر إلى تقديم تضحياتٍ نفسيةٍ عظيمةٍ ، ولهذا تم التعبير عن ذلك بالصبر .. وسيعطى أمثال هؤلاء ثوابهم مضاعفاً ، أولاً : على التضحية التى قاموا بها ؛ حيث لم يسمحوا لإيمانهم السابق بأن يتحول إلى إيمان طائفى .. وثانياً: على ثقوب نظرهم ؛ إذْ عرفوا النبى الجديد فور ظهوره .. وبادروا بالانضواء تحت رايته دون تحفظٍ أو ترددٍ !

وإن الأوصاف الخلقية السامية إنما تزدهر فى أناسٍ يملكون صلاحية التعرف على الحق.. فهم يحسنون إلى الناس مهما أساء الناس إليهم .. وهم ينصرون الآخرين لينصرهم ربهم .. ويسلكون فى حياتهم مسلك الإعراض والعفو دون التصدى والاشتباك !

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

نُتَخَطَّفْ : ننتزع بسرعة .

يُجْبَى إليه : يجلب ويحمل إليه من كل جهة .

يحسب المرء ، إذا ارتبطت مصالحه بنظامٍ ما ، أن الفضل فى كل ما يناله من خيرٍ ، إنما يرجع إلى هذا النظام القائم ذاته.. إنه يعلم فوائد الحاضر وحدها ، ولكنه لا يدرى عن فوائد المستقبل شيئاً !

وهكذا كان حال مشركى مكة القديمة تماماً .. حيث كانوا قد نصبوا فى الكعبة أصنام سائر القبائل العربية ، وحصلوا بذلك على الزعامة الدينية العامة للعرب ، كما كانت النذور والقرابين التى تُقدم إلى تلك الأصنام مورداً اقتصادياً خاصاً لهم . غير أن ابتعاد القوم عن الإسلام بحجة أنه يسبب لهم متاعب كثيرة ، ويحرمهم من المنافع التى يتمتعون بها الآن ، لم يكن إلا آية الضيق فى أفق تفكيرهم .. إذْ إن رسول الله كان يدعوهم إلى دينٍ كان سيجعل منهم أئمة العالم أجمع ، بينما هم كانوا يتخلون عنه من أجل دينٍ لم يكن لديه شيء سوى زمام الرئاسة العادية لقبائل الجزيرة !!

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

وَكَمْ أَهْلَكْنَا : كثيراً أهلكنا .

بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا : طغت وتمردت فى أيام حياتها .

إن أحد الناس إذْ يحصل على الاستحكام المادى فى الأرض ، فلا يلبث أن يصاب

بالغرور والاستعلاء .. بينما لا تفتأ تجارب التاريخ تعلم الدرس القائل بأن: الاستحكام المادى الذى يفوز به أى شخصٍ أو شعبٍ هنا غير دائم مطلقاً .. فكلما قابل قوم الحق بالإهمال واللامبالاة ، دُمِّروا ، مع كل مظاهر عظمتهم وأمجادهم!

فقد سبق أن برزت فى شبه الجزيرة العربية وما حولها أمم وشعوب شتى : مثل عاد، وثمود ، وسبأ ، وأصحاب مدين ، وقوم لوط .. إلخ ، وقد ابتلى الكل بالبطر والاستكبار ، غير أن استكبار كل أحدٍ منهم لم يلبث أن عفا عليه الزمن ، وأصبحوا آخر الأمر أحاديث تُروى أو قصص تحكى .. وأطلال هذه الأمم المنبثة هنا وهناك ، كانت تنفى العظمة الإنسانية .. وبالرغم من ذلك فإن الذين كانوا يتمتعون بالسيادة والكبرياء فى عهد رسول الإسلام كذبوه تكذيباً، كما لو أن وقائع الماضى لا تنطوى على عبرةٍ أو موعظةٍ لهم فى حاضرهم !

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ (٦١) ﴾

مِنَ المُحْضَرِينَ : ممن أحضروا للنار .

مهما كان لدى المرء من مالٍ طائلٍ أو متاعٍ وافرٍ فى هذه الحياة الدنيا ، فإنه لا يلبث أن يتخلى عنه عند الموت كره أم أحب .. وإنما الشيء الذى يصحب المرء بعد الموت هو الأعمال الصالحة دون الجاه الدنيوى أو الأسباب المادية ، فالعاقل ، والحالة هذه ، هو الذى يفضل السعادة الأبدية على السعادة الوقتية الفانية .. وبالتالى يوجه اهتمامه نحو بناء الآخرة بدلاً من بناء الدنيا!

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ ٱلَّذِينَ

حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

أَغْوَيْنَا : دعوناهم إلى الغى فاتبعونا .

المراد بـ "الشركاء" القادة المضلون .. أى أولئك السادة الكبار الذين امتثل الناس لأمرهم كما ينبغى أن يُمتثل لأمر الله .. وإنه سيكون مشهداً عجيباً لا يوصف عندما يرى أتباع أولئك الكبار مصيرهم المشئوم يوم القيامة.. حيث يجدون هناك أن الكبار الذين كانوا يتفاخرون بالانتماء إليهم ، لم يقودوهم إلا إلى نار جهنم المستعرة .. وعندها سيقولون لهم متذمرين : إن تبعة دمارنا وهلاكنا تقع على أكتافكم أنتم .. وسيرد الكبار (المتبوعون) عليهم قائلين : ليس ثمة أحد ، غير أنفسكم ، مسئولاً عن دماركم .. فإنكم وإنْ سرتم فى طريق الغواية ظاهراً تلبيةً لندائنا ، إلا أنكم لم تلبوا نداءنا إلا لكونه يتفق مع أهوائكم ، إذن ، فقد كنتم فى الحقيقة تابعين لأهوائكم وليس تابعين لنا .. فكما اتبعنا نحن أهواءنا ، اتبعتم أنتم أهواءكم .. وكل منا الآن يلاقى مصيراً واحداً .. فلا فائدة تُرجى من التلاوم أو تبادل اللعنات وتوزيع التبعات!

﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

إن المرء حين ينكر الحق فى الدنيا ، فإنما ينكره اعتماداً على شيء .. وسيُقال له فى الآخرة: أن ادع أولئك الذين كنت قد رفضت الإيمان بالحق اعتماداً عليهم لكى ينقذوك - إن استطاعوا - من سوء عاقبة الإنكار للحق!! غير أن هذا سيكون يوم ظهور الله

جل جلاله ، ومَنْ ذا يستطيع أن ينصر أحداً على الله ؟! لا يكاد المرء يرضى بالصمت فى الدنيا .. فهو لا يلبث أن يجد هنا لرفض كل دليلٍ ألفاظاً جميلةً .. ولكن كل هذه الألفاظ سينكشف زيفها وبطلانها فى يوم القيامة ، وسوف يتجرع المرء مرارة الندم والحسرة ، إذْ يدرك هناك عظم الشيء الذى خسره لأجل شيءٍ هو أتفه ما يكون!

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) ﴾

الخِيَرَةُ : الاختيار .

مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ : ما تضمر من الباطل والعداوة .

إن الله – سبحانه وتعالى – يخلق البشر .. ثم هو يختار من بين هؤلاء البشر بعض الأفراد للاضطلاع بمهمةٍ خاصةٍ .. وهذا الاختيار لا يكون بناءً على قدسيته الذاتية ، وإنما يكون بناء على قضاء الله وحده .. ومن ثم فإن إحاطة أفرادٍ كهؤلاء بهالةٍ من التقديس ، وبالتالى رفعهم إلى درجة الألوهية أمر لا يستند على أساسٍ ، ولا مجال فى كون الله لمثل هذه الخرافات والمزاعم الباطلة .. وطالما يلجأ المرء لإنكار الحق إلى ألفاظٍ يرددها بلسانه ، إلا أنه يضمر فى قلبه شيئاً آخر تماماً .. فهو لا يؤمن بالحق حرصاً على مصالحه الذاتية بينما هو يظهر بالألفاظ أنه إنما ينكره على أساسٍ من الدليل والمعقولية .. وسوف لا يبقى هذا الحجاب حائلاً بين القلوب والألسنة فى الآخرة .. وعندها سيتضح بجلاءٍ أن قلب المرء كان منطوياً على غير ما ظل يبديه بترديد الألفاظ والعبارات المنمقة من أجل الحفاظ على كبريائه!

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ

ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

أَرَأَيْتُمْ : أخبرونى .

سَرْمَدا : دائما مطردا .

يُستدعى الأنبياء والذين اتبعوهم بإحسان وترسموا خطاهم من دعاة الحق ، بوصفهم شهداء الله يوم القيامة .. وسيخبرون هناك عن الأمم التى أبلغوها رسالة الله، كيف كانت مواقفها أو ردود فعلها تجاه الرسالة؟! وسيقف يومئذٍ حيارى واجمين ، كل أولئك الذين كانوا قد أهملوا دعوة الحق معتمدين على غير الله.. وسيكون حالهم فى ذلك اليوم الرهيب أنهم إذا أرادوا الدفاع عن أنفسهم ندّت عنهم الألفاظ لفرط الدهشة والهلع ، ولم تطاوعهم ألسنتهم التى طالما استخدموها بلباقةٍ واقتدارٍ فى معارضة الحق والدفاع عن مفترياتهم فى الحياة الدنيا!!

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

يَفْتَرُونَ : يختلقونه من الباطل فى الدنيا .

إن كرة الأرض – التى يسكنها الإنسان – منطوية على جوانب عجيبة مدهشة لا تُحصى .. ومنها أنها دائرة فى محورها حول الشمس بانتظامٍ ، وهى تتم دورتها المحورية

هذه فى كل أربعٍ وعشرينٍ ساعةٍ .. ولهذا السبب لا يزال يتعاقب عليها الليل والنهار الواحد تلو الآخر .. ولو توقفت الأرض عن الدوران حول محورها ، لخيم على نصف الكرة ليل دائم ، وعلى نصفها الآخر نهار دائم .. وسيترتب على ذلك أن تتحول هذه الأرض التى هى موضع الراحة والسكون للإنسان ، إلى جحيم لا يطاق !

وإن دوران الأرض فى رحاب الفضاء بهذه الدقة والانضباط لواقع عظيم لدرجة أن كل قوى الإنس والجن لا تكفى لإحداثه .. وإنه ليس ثمة أحد غير الله القادر المطلق ، يستطيع أن يحدث واقعاً عظيماً كهذا .. وفى هذه الحالة فما أعظمه من ضلال وانحرافٍ أن يتوجه الإنسان بمشاعر خوفه ومحبته نحو أحدٍ غير الله الواحد؟!

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

فَبَغَى عَلَيْهِمْ : ظلمهم . أو تكبر عليهم .

لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ: لتثقل الجماعة الكثيرة وتمل بهم .

لا تَفْرَحْ : لا تبطر ولا تأشر بكثرة المال .

ذُكر قارون فى المصادر اليهودية باسم قورح (Korah) ، ومع أنه كان رجلاً من بنى إسرائيل ، (وقيل: واحداً من أقارب موسى - عليه السلام) ، إلا أنه اعتزل قومه وأضحى وفياً لفرعون .. ونال ثمن ذلك بأن جعله فرعون من رجاله المقربين عنده .. وقد تمكن الرجل ، باستغلال مواهبه العملية ، من كسب المال وإحراز المتاع الدنيوى

بمقدارٍ هائلٍ ، لدرجة أنه أصبح أغنى رجلٍ فى مصر آنذاك .. وكان المفروض أن تتولد فى نفسه عاطفة الشكر على ما حصل عليه من ثروةٍ كبيرةٍ ، غير أن الثروة إنما بعثت فيه عاطفة الزهور والفخر والغطرسة ، وبالتالى لم يوجه عنايته لكسب الحسنة التى كان ينبغى أن يكسبها بوسائله الاقتصادية الجبارة .

وما هو الإفساد فى الأرض؟ إن من صور الإفساد فى الأرض ، طبقاً لمضمون الآية (٧٧) ، أن يضن المرء بما حصل عليه من الثراء العريض ، فلا يصرفه إلا فيما يخص ذاته وحدها ، دون غيره من الناس .. إن مياه الأنهار إذْ تجتمع فى البحر من شتى جهات الأرض ، فإن البحر بدوره لا يلبث أن يرفع مياهه بخاراً لتتحول ثانيةً إلى ماءٍ عذبٍ يتوزع على كل بقاع الأرض .. وهذا أحد نماذج الإصلاح فى دنيا الله .. وهذا الشيء مطلوب من البشر ، بحيث لو اجتمع لدى أحدهم - لسببٍ من الأسباب - ثروة طائلة عريضة ، فينبغى عليه أن يردها - بمختلف الطرق - إلى أناسٍ لم ينالوا من التقسيم الاقتصادى سوى حظٍ يسيرٍ .. وجملة القول : إن تمكين الأموال المتكدسة من التداول هو الإصلاح ، بينما الاحتفاظ بالأموال المتكدسة ومنعها من التداول هو الإفساد !

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

مِنَ الْقُرُونِ : من الأمم .

وَلاَ يُسْأَلُ : سؤال استعلام بل سؤال توبيخ .

إن الدور الذى حُكِى عن قارون ، هو نفسه الدور الذى ما زال يمثله الأغنياء والأثرياء على اختلاف الأعصار والأمصار .. فالرجل الثرى يحسب دوماً أن ما عنده

إنما حصل عليه بفضل علمه .. ولكن علم أى غنى أو ثرى لا يخبره بأنه قد كان هناك كثيرون قبلك ، نالوا من الغنى والثراء أكثر مما نلت ، غير أن ثروتهم لم تتمكن من إنقاذهم من الموت أو الدمار .. إذن ، فكيف ستكون ثروتك منقذةً لك من بأس الله ؟ !

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

فِى زِينَتِهِ : فى مظاهر غناه وترفه .

وَيْلَكُمْ : زجر لهم عن هذا التمنى .

وَلاَ يُلَقَّاهَا : لا يوفق للعمل للمثوبة .

الرجل الذى يمتلك الثروة ، تتجمع حوله زخارف الدنيا وزينتها بطبيعة الحال .. مما يجعل كثيراً من السفهاء وضعاف العقول يرمقونه بعين الغبطة والإعجاب .. أما الذين رزقوا علم الحقيقة فسرعان ما يدركون أن هذا رونق أيامٍ معدوداتٍ .. وإنه لا قيمة لرونقٍ لا يدوم سوى أيامٍ معدودةٍ قصيرةٍ .. وعلمُ الحقيقة هو أثمن شيءٍ فى هذا الوجود.. غير أن تحصيل علم الحقيقة يتطلب الصبر ، يعنى أن تُكوّن ذهنك من غير خضوعٍ لضغط الأحوال الخارجية، وتفكر بعيداً عن تأثير المظاهر السطحية الخلابة ، وأن تبنى رأيك بصرف النظر عن الأشياء ذات البريق الوقتى الخادع.. وهذا من غير شكٍ أصعب أنواع الصبر إطلاقاً ، غير أن المرء بعد اجتيازه هذا الامتحان العسير الشاق بنجاحٍ – وليس قبله – ينال ذلك الشيء الذى يسمى العلم والحكمة !!

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ

وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

وَيْكَأَنَّ الله : ألم تر أن الله .

وَيَقْدِرُ : يضيق على من يشاء لحكمه .

وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ :ألم تر الشأن لا يفلح .

طبقاً لرواية التوراة دعا موسى بالهلاك على قارون بسبب سوء أعماله ، فلم يلبث أن خُسف به وبأصحابه وبكنوزه الأرض .. وقد أظهر الله بذلك ، على مستوى الشهود ما هو المصير الذى يلقاه من يعبد المال والثروة متخلياً عن عبادة الله وحده؟!

وإن رزق الدنيا إنما هو فى الأصل متاع الامتحان .. وكل امرئ يُعطى منه نصيباً قل أو كثر بحسب مشيئة الله وحكمته .. فينبغى للمرء إذا قل نصيبه من الرزق أن يصبر ، وإذا نال حظاً وافراً من الرزق أن يشكر .. فإن هذا هو الطريق الوحيد الذى يؤدى بسالكه إلى النجاة والفلاح فى الدنيا والآخرة !.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

المؤهلون لسكنى الجنة هم الذين خلت صدورهم من مشاعر الكبرياء والتعالى نحو أنفسهم .. والذين أدركوا عظمة الله وجلاله بحيث لم يعودوا يرون إلى جانب ذاتهم شيئاً سوى الصغار والهوان .

إن الفساد فى الأرض هو عدم توافق المرء مع مراد الله .. وأن يأخذ يسير فى دنيا الله

على عكس مرضاة الرب – سبحانه وتعالى .. والذين تخلو صدورهم من الكبر و الغرور ، فإن نفوسهم تخلو بالضرورة من جراثيم الفساد كذلك .. والذين يتحلون بهذه الأوصاف العالية هم أولئك الذين يسكنهم الله فى جنانه الأبدية !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ
بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا
رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ
أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

مَعَادٍ : مكة المكرمة ظاهراً عليها .

ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ : معينا لهم على ما هم عليه .

إن أمر النبى يكون ، بكل المقاييس والاعتبارات ، أمراً إلهياً .. حيث إنه يُعطَى النبوة من عند الله دون طلبٍ منه .. وهو يكون قائماً على الحق بوجوده كله ، ويكون مكلفاً بأن يصدع بالصدق الخالص النقى من كل شوبٍ ، مهما كان ذلك مزعجاً للناس ، أو شديد الوطأة على نفوسهم .. كما يُقدر له سلفاً أن يصل عاقبة الأمر إلى غايته المنشودة على كل حالٍ ، لا تستطيع أية عقبات أو عوائق الطريق ، مهما كثرت وصعبت، أن تحول دونه .

وهكذا يكون الأمر تماماً بالنسبة إلى الداعى الذى يسير على درب النبوة من بعد النبى ويقتدى بهداه .. فبقدر ما يتشبه الداعى بالنبى ، إيماناً وعملاً ومنهجاً وسلوكاً ، بقدر ما يصير أهلاً لكى تتحقق فيه وعود الله تلك ، التى وعدها لأنبيائه فى كتابه الكريم!

فهرس الموضوعات

التذكير القويم

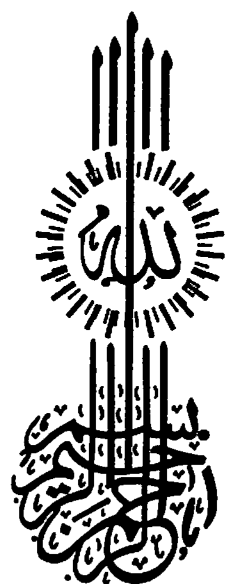
في

تفسير القرآن الحكيم

للعلامة / وحيد الدين خان

الجزء الثالث

دار الوفاء



سورة العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾

لاَ يُفْتَنُونَ: لا يمتحنون بالمشاق والشدائد ليتميز المخلص من المنافق.

إن كون المرء مؤمناً ومسلماً لا يتحقق ولا يُعتبر بالنظر إلى العمل الذي يمارسه في الأحوال المعتادة ، بل على أساس العمل الذي يمارسه المرء في الأحوال غير المعتادة .. وهذه الأحوال غير المعتادة تتمثل في مواقف غير عادية ؛ ينكشف عندها ما إذا كان المرء حقاً كما يدعي بعمله الظاهري ، أو هو ليس كذلك .. وإنما المؤمن المسلم المعتبر عند الله هو الذي يقيم الدليل على تمسكه بالإيمان والإسلام في غمار الأحوال غير المعتادة .

واجتياز المحنة أو الامتحان الإلهي بنجاحٍ يعني ، بعبارةٍ أخرى ، الوفاء بمقتضيات الإيمان والإسلام على مستوى التضحية .. أي أن تبادر إلى التصديق بالحق ، حتى لو تناوله عامة الناس بالتكذيب .. وأن توقن به حين يكون الناس من حولك مرتابين في أمره .. وأن تبقى مؤمناً ساعة يطالبك الإيمان بأن تدوس أنانيتك .. وأن تبذل بسخاء ساعة تدعو الظروف إلى الإمساك وعدم الإنفاق .. وأن تظل صامداً عندما تتزلزل الأقدام .. وأن تسلم نفسك دون تحفظٍ ، إذْ تميل النفوس إلى التهرب طلباً للنجاة ، وبحثاً عن السلامة .. وأن تذعن وتنقاد حين تكون فرص العناد والطغيان متاحة .. وأن تتقدم لمناصرة الحق حيث تعني مناصرته الحرمان من كل شيءٍ .

ففي مواقف غير عادية كهذه تبرز خبايا القلوب ، وتتجلى كوامن الصدور للعيان ..

وساعتئذٍ لا يبقى لأحدٍ مجال اللف والدوران لكي يتظاهر ، عن طريق ترديد الألفاظ المفترضة، وإطلاق الشعارات المدوية الجوفاء ، بما هو ليس في حقيقة الأمر!

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧ ﴾

أَن يَسْبِقُونَا: أن يعجزونا ويفوتونا.

أَجَلَ الله : الوقت المعين للبعث والجزاء

الدخول في الإيمان يكون في أغلب الحالات ، مرادفاً للسير في الاتجاه المضاد للعصر.. إنه عبادة الله في بيئة تسودها عبادة الأسلاف والأكابر .. وهو وضع المبدأ في المقام الأول والأسمى حيث يُوضع الهدى في المقام الأسمى .. وهو طموح نحو العيش لأجل منفعة الآخرة ، في مناخ تُكرس فيه الحياة لمنفعة الدنيا .

وإن حياة كهذه تتطلب مجاهدةً عنيفةً مستمرةً .. وإنه لا يوفق للاستمرار والصبر على تكاليف هذه المجاهدة إلا الذين أيقنوا بالله أتم الإيقان ، والذين جعلوا من إنعام الله الموعود وحده مركزاً لآمالهم وطموحاتهم!

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩ ﴾

وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ: أمرناه.

حُسْناً: براً بها وعطفا عليها.

إن أعظم المخلوقين حقاً على الإنسان والداه .. ولكن كما أن لكل شيء حداً يقف عنده ، كذلك فإن حقوق الوالدين هي الأخرى لها حد لا تتعداه .. وذلك ما عبر عنه الرسول - ﷺ - بقوله : "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" (رواه أحمد والحاكم) .

وعلى هذا لابد من القيام بحقوق الوالدين ، ما دامت لا تتعارض مع حقوق الله ، وأما إذا تعارضت طاعة الوالدين مع طاعة الله ، فإن عدم الطاعة لهما عندئذٍ تصير واجبةً تماماً كما تجب طاعتهما في الأحوال المعتادة .

ويُلاحظ أن المقصود بحقوق الوالدين في الإسلام هو خدمة الوالدين وليس عبادتهما !

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾

فِتْنَةَ النَّاسِ: ما يصيبه من أذاهم وعذابهم.

إن شخصاً يدعي الإيمان .. والشأن أنه إذا رأى في الانضمام إلى صف المؤمنين بعض الأرباح المادية ، بالغ في إظهار إيمانه وحماسته .. وأما إذا كان الانضمام إلى المؤمنين ينطوي على بعض المخاطر أو يسبب له بعض الخسائر الدنيوية ، فلا يلبث أن يرجع القهقرى.. إن شخصاً كهذا يطلق عليه القرآن مصطلح المنافق .. والمنافقون قوم كانوا مؤمنين في ظاهر أمرهم ، ولكنهم أبوْا عن دفع ثمن إيمانهم .. وبالتالي فشلوا حيث كان المفروض أن يبرهنوا على النجاح!

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

خَطَايَاكُمْ: أوزاركم.

أَثْقَالِهِمْ : خطاياهم الفادحة.

يَفْتَرُونَ: يختلقونه من الأباطيل والأكاذيب.

الافتراء هو أن يتقول المرء شيئاً من تلقاء نفسه ، وينسبه إلى الله سبحانه وتعالى .. ويندرج تحته كل ألوان البِدَع المستحدثة والتأويلات الفاسدة .. ومن صور هذا الافتراء أن يقول قادة الكفر والضلال لمن دونهم من الجماهير أن الزموا طريقنا ، وترسموا خطانا ، وسنأخذ تبعة ذلك على عواتقنا فيما لو سُئلتم عنه عند الله !.

ولما كان الله – عز وجل – لم يمنح أحداً حقاً من هذا النوع ، فإن القول بذلك ضرب من الافتراء واختلاق الكذب على الله!!

إن المرء كثيراً ما يقول أقوالاً لا يحسب لها أي حسابٍ ، وهي من الخطورة بحيث لو أنه رأى وخيم عاقبتها ، لما نطق منها بحرفٍ أبداً .. ومن ثم حين يشاهد هؤلاء المتقولون أهوال القيامة ، فسيكون حالهم هناك مختلفاً كل الاختلاف عن حالهم في دنيا اليوم !

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

عاش نوح - عليه السلام - يدعو قومه تسعمائة وخمسين عاماً .. وقد كان - عليه السلام - قبل نبوته أيضاً رجلاً صالحاً عاملاً بشريعة آدم - عليه السلام - .. ثم نهض بعدما نُبئ داعياً إلى الله يواصل الليل بالنهار في إنذار قومه.. ولكن بالرغم من جهوده المخلصة التي دامت مئات السنين ، لم يؤمنوا بدعوته .. فما لبثوا أن أُغرقوا جميعاً - ما عدا ثلةً مؤمنةً صالحةً قليلة العدد - بطوفانٍ عظيم .

وفي سلسلة الجبال الواقعة بشرقي الأناضول على حدود تركيا وروسيا ، قمة شاهقة تعرف بأرارات أو أراراط (Ararat) ، يقدر ارتفاعها بما يزيد عن خمسة آلاف متر .. وقد أخبر الطيارون من فوق هذه الجبال أنهم رأوا على قمة أراراط المغطاة بالثلوج شيئاً أشبه بسفينةٍ .. ومن هنا بُذلت ولا تزال محاولات شتى للوصول إلى تلك السفينة .. ويعتقد العلماء أنها الشيء الذي ورد ذكره في القصص الدينية باسم "سفينة نوح" .

ولو كان هذا الخبر صحيحاً ، فمعناه أن الله - سبحانه وتعالى - قد حفظ سفينة نوحٍ من الضياع حتى هذا اليوم ، لكي تكون للناس علامةً ناطقةً بأن النجاة من طوفان الله تتطلب سفينة النبي ، وأنه ليس ثمة من شيءٍ آخر البتة من شأنه أن ينقذ المرء من طوفان الله!

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾

وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً: تكذبون: أو تنحتون كذبا.

كل ما يتخذه المرء من دون الله الواحد الأحد مركزاً لأسمى عواطفه ، لا يعدو كونه ضرباً من الكذب والبهتان .. فإنه يفترض الأوصاف الإلهية في غير الله .. إذْ لا يمكن للمرء أن يتوجه إلى غير الله بالعبادة ، إلا بعد أن يفترض فيه تلك الخصوصيات العليا التي ينفرد بها الله وحده بلا نِدٍ ولا شريكٍ !

وقد كان الإنسان في عصر الشرك القديم يفترض وجود هذه الصفات الإلهية في الأصنام والتماثيل .. وأما إنسان اليوم فهو الآخر يمارس الشيء نفسه ، اللهم إلا أن أسماء الأصنام لدى الإنسان الحديث تختلف عن أسمائها لدى المشركين القدامى .. وكل ما يفرق بين القديم والحديث هو أن الإنسان القديم إذا كان يجني ثمرات الأرض على أنها نعمة أحد الآلهة المزعومة ، فإن إنسان اليوم يعبر عن ذلك بهذه الألفاظ : إن ثورتنا الخضراء (النباتية) إنما هي نتاج لتقدم علومنا الزراعية !!

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ: تردون وترجعون لا إلى غيره.

بِمُعْجِزِينَ: فائتين من عذابه بالهرب.

الإنسان لم يكن موجوداً أولاً ، ثم وُجد بعد .. إذن ، فالخلق الذي صار ممكناً مرةً واحدةً ، لِمَ لا يكون ممكناً مرةً أخرى ؟ وقد كتب الشاه عبد القادر الدهلوي في هذا

المقام تعليقاً موجزاً مفيداً يقول : "إنكم ترون البداية كيف تحصل ، ففي ضوئها يمكنكم أن تفهموا عملية الإعادة كيف تكون" !!

إن كل امرئٍ موجودٍ مثال في ذاته على الخلق الأول .. ولو أراد المرء مزيداً من الأمثلة، فله أن يجل بصره في أرجاء كون الله الفسيح ويتأمل في ظواهره .. وإنه إذ يفعل ذلك فسيجد أن الكون بأكمله نموذج حي لهذا الواقع ذاته.. وإنما وضع الله هذه النماذج الناطقة في كونه لكي يتفهم الإنسان منها حقيقة الخلق الثاني ، ويقبل بالتالي على العمل الذي ينفعه في مرحلة الحياة القادمة !

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ: للتواد والتواصل بينكم لاجتماعكم على عبادتها.

وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ: منزلكم الذي تأوون إليه النار.

الشيء الذي يتخذ شكل العرف أو العادة القومية في مجتمعٍ ما ، لا يلبث طويلاً حتى يصير حاجة كل فردٍ من أفراده .. فعلى أساسٍ منه تقوم علاقاتهم المتبادلة .. وبه ترتبط مصالحهم الحياتية على اختلاف ألوانها .. وعلى حسب قيام الفرد بمقتضاه أو

نبذه إياه تتحدد قيمته أو يسقط اعتباره بين الناس .. ولقد كان الشرك في قديم الزمان تحول إلى عادةٍ قوميةٍ كهذه .. وقد أفهم سيدنا إبراهيم أهل العراق بأن عبادة الأصنام التي أنتم جامدون عليها ، لا تعدو كونها عادة شعبية وليست بأي صدقٍ واقعي .. ومع انتهاء حياتكم الراهنة ستنتهي كل أهميتها تلقائياً .. غير أنه لم يقف إلى جانبه أحد سوى ابن أخيه لوطٍ - عليهما السلام - وذهب القوم في معاداته إلى حد أنهم ألقوه في النار .. ولكن الله تعالى أنقذه منها سالماً .. ولم يستحق إبراهيم بذلك إنعام الآخرة الأعلى وحده، بل مُنح من عند الله ذريةً صالحةً استمرت فيها سلسلة النبوة لمدة أربعة آلاف سنةٍ .. حيث كان ولده إسحاق نبياً .. ثم كان حفيده يعقوب هو الآخر نبياً .. ومنذئذ لم يُبعث نبي من أنبياء الله إلى سيدنا المسيح إلا وهو ينتمي إلى أسرة يعقوب - عليه السلام - ، ومن أولاد إبراهيم أيضاً كان مديان (مدين) الذي وُلد في نسله شعيب - عليه السلام - كما كان ولده إسماعيل بدوره نبياً.. ومن ذريته بُعث خاتم النبيين محمد - ﷺ - الذي تبقى نبوته مستمرةً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وتاريخ إبراهيم هذا كما ينطوي على عظاتٍ وعبرٍ لعَبدة الباطل ، يتضمن كذلك إشعاع النور الساطع للذين يقيمون أنفسهم على أساس الحق صامدين في وجه أعاصير الظلم والقهر والاضطهاد !

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ: بمقارفة المعاصي والقبائح.

نَادِيكُمُ: مجلسكم الذي تجتمعون فيه.

هاجر لوط من مدينة بابل إلى بلاد الأردن .. حيث أعطاه الله النبوة ، وكلفه بإصلاح قومه .. وقد كانت مساكن قومه بمنطقة سدوم قرب البحر الميت ، وكان هؤلاء مصابين بعادة اللواط غير الفطرية .. كما تفشت بينهم - إلى جانب ذلك - رذائل خلقية واجتماعية أخرى .. غير أنهم لم يقبلوا الإصلاح ، وظلوا غارقين في شهواتهم .. وقولهم﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ كان في الأصل موجهاً إلى لوط دون الله .. فقد ظنوا لوطاً من الحقارة بحيث كانوا يستبعدون أن يتعرضوا لبطش الله في حالة ما إذا لم يؤمنوا به .. ومن ثم قالوا على وجه التهكم والسخرية : أن ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين حقاً !

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

الْغَابِرِينَ: من الباقين في العذاب كأمثالها.

سِيءَ بِهِمْ: اعتراه الغم بمجيئهم خوفا عليهم.

وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً: ضعفت طاقته عن تدبير خلاصهم.

رِجْزاً: عذاباً شديداً.

دُمرت مناطق قوم لوط (سدوم وعامورة) عن طريق زلزالٍ رهيبٍ جعل عاليها سافلها.. وإن الوادي الخصيب الذي كانوا قاطنين فيه منذ أربعة آلاف سنةٍ ، تمتد فيه الآن مياه البحر الميت الكثيفة .

وطبقاً لما ورد في القرآن الكريم فإن حادث التدمير هذا، إنما وقع بواسطة ملائكة الله .. ولكن علماء الجيولوجيا والآثار القديمة يقولون : إن هذه المنطقة عندما برزت فيها جبال نتيجة العملية الجيولوجية (ظاهرة التعرج) ، حدث إلى جانب ذلك أن تولد في بعض أجزائها أخدود أو منحدر ، ثم لم يلبث الجزء الجنوبي من هذا المنحدر بعدئذٍ أن امتلأ بمياه البحر .. وهكذا أصبحت تلك البقعة اليابسة من الأرض تحت الماء التي تعرف اليوم بضفة البحر الميت الجنوبية الأقل انخفاضاً .

إن الشيء الذي يراه القرآن آيةً إلهيةً ، إذا به يتحول من خلال الرؤية غير القرآنية ، إلى حادثةٍ طبيعيةٍ محضةٍ !

ويعتقد الخبراء أن أطلال هذه المدينة الخربة لا تزال توجد مطمورة تحت مياه البحر حتى هذا اليوم .. ولا شك أن في هذا موطن عبرةٍ عظيمةٍ .. غير أنها عبرة لأولئك وحدهم الذين يستعملون عقولهم في محاولة اكتشاف الأشياء والوقوف على دقائق الأمور!

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وَلاَ تَعْثَوْا: لا تفسدوا أشد الإفساد.

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ: الزلزلة الشديدة بسبب الصيحة.

جَاثِمِينَ: هامدين ميتين لا حراك لهم.

أُرسل شعيب – عليه السلام – إلى قومٍ كانوا أهل تجارةٍ .. وقد اشتد حرصهم على اقتناء المال لدرجة أنهم أخذوا في كسبه بأساليب الغش والخداع .. وهذا كان إفسادهم في الأرض .. لئن كانت التجارة المشروعة أسلوباً لكسب المعاش ينطوي على الإصلاح، فإن الغش والابتزاز والسلب والنهب أسلوب لكسب المعاش يؤدي إلى الفساد!.

وقال شعيب لقومه : لا تغفلوا عن الآخرة سعياً وراء الدنيا .. ولتمارسوا أعمالكم الدنيوية بطريقةٍ يمكنكم أن ترجوا بها حسن العاقبة في الآخرة .. ولكن القوم ، رغم كل جهود نبيهم ، لم يقوموا بإصلاح شأنهم ، بل أنكروا عليه ما جاء به أشد الإنكار .. ومازالوا يفعلون الشرور ولا يرتدعون .. إلى أن يأذن الله بهلاكهم ، وفق سنته الجارية.. فتحولت بيوتهم ، التي ظنوها دار حياةٍ لهم ، تحولت إلى مقابر لهم ، إذْ أخذتهم الرجفة (وهي الزلزال الشديد) ، فصاروا كأن لم يغنوا فيها!

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ: عقلاء متمكنين من التدبر.

ما لبث قوم عاد وثمود بدورهم طويلاً حتى حاق بهم عذاب الله .لقد كان هؤلاء أذكياء فيما يتعلق بشئون الدنيا ، غير أنهم كانوا غايةً في الحمق والغباء فيما يتعلق بشأن الآخرة.. ففيما اكتشفوا سر بناء البيوت والقصور من الجبال والصخور ، لم يتعاموا سر بناء الحياة والسعادة من نبي الله .. وإنما كان السبب في ذاته ما أطلق عليه القرآن "تزيين الأعمال" ، إذْ غرّهم الشيطان قائلاً بأن بناء الدنيا هو البناء

كله .. وإذا تمكنتم من بناء الدنيا ، لم تعد هناك أية مشكلةٍ تكدر صفو حياتكم أو تتهدد مصيركم. غير أن هذا الغرور ما أغنى عنهم شيئاً ، ولا هو مُغنٍ عن أحدٍ فيما يأتي شيئاً !

كانت مساكن عاد في المناطق الواقعة بجنوبي الجزيرة العربية التي تعرف اليوم باليمن والأحقاف وحضرموت .. وأما الجزء الشمالي من الحجاز ، بدءًا من رابغ حتى العقبة ، ومروراً بالمدينة وخيبر ، وانتهاءً بتيماء وتبوك ، فهو المنطقة التي كان يسكنها ثمود في قديم الزمان!

﴿ وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

سَابِقِينَ: فائتين من عذابه تعالى.

حَاصِباً: ريحا عاصفا ترميهم بالحصباء.

أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ: صوت من السماء مهلك مرجف.

إن أمم الأنبياء لما كذبتهم وأنكرت دعوتهم ، دُمرت بالعذاب السماوي والأرضي.. فحلّ بقوم لوط عذاب الحاصب (وهو الريح العاصفة تمطر الحصباء أي الحجارة) ، ونزل بقوم عاد ، وثمود ، وأصحاب مدين عذاب الصيحة (الرعد والبرق) ، وأُهلك قارون بعذاب الخسف ، بينما أهلك فرعون وهامان وجنودهما بعذاب الغرق..إلخ.

وكان السبب المشترك الذي استوجب هذا العذاب بمختلف ألوانه ، يكمن في

استكبار الناس ؛ أي عدم قبول دعوة الحق لكونها ستقضي على كبريائهم وسيادتهم!

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

العَنكَبُوتِ: حشرة معروفة.

أرشدت الآيات هنا إلى أن الشخص الذي يدرك درس الحقيقة، وهو يشاهد بيت "العنكبوت" ، هو العالم حقاً..

ومن هذا يتضح لنا مَنْ هم العلماء الحقيقيون عند الله .. إنهم ليسوا خبراء المباحث الكتابية .. بل هم أولئك الذين يستلهمون الموعظة من الآيات الطبيعية المنبثة في كون الله .. والذين تتحول وقائع الدنيا الصغيرة في أذهانهم إلى دروسٍ وعبرٍ عظيمةٍ .. والإيمان ليس إلا اسماً آخر لهذا العلم ذاته حين يبلغ درجة المعرفة اليقينية القصوى!.

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

قوله : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ يعني أن كيفية الصلاة هي التي تنهي عن الفحشاء والمنكر.

ولو أن المرء أضحى في الواقع راكعاً ساجداً لله ، لتولّد في نفسه الشعور بالمسئولية والتواضع .. وإن السلوك الذي ينبثق عن الشعور بالمسئولية والتواضع ، إنما يتمثل في

إتيان المرء ما ينبغي لله وحده ، وابتعاده عما لا ينبغي له كل الابتعاد.

والمراد بالذكر هو استحضار الله .. فحين يحصل المرء على معرفة الله الكاملة ، وحين يتوجه بكامل وجوده إلى الله ، فتكون النتيجة أن يتصور الله يستولي عليه ، وتتفجر في داخله ينابيع الذكر الإلهي .. والكلمات اللطيفة السامية التي يناجي بها المرء ربه ، عند بلوغه هذا المستوى الروحاني ، هي الذكر .. وليس من الشك في أن هذا الذكر هو أسمى مراتب العبادة.. والمقصود بتلاوة الوحي هنا هو تبليغ الوحي .. أي قراءة آيات القرآن على الناس ، وإخبارهم من خلال ذلك بمرضاة الله .. وعملية الدعوة والتبليغ عملية شاقة تتطلب غاية الصبر والتحمل .. حيث إنها تفرض على الذي ينهض بأعبائها أن يكون ناصحاً لمعارضيه .. وأن يعرض عن أذاهم وإساءاتهم من طرفٍ واحدٍ ، كما يتعين عليه أن يعتبر مخاطبه "مدعوا"، حتى لو كان هذا المخاطب منافساً عنيداً سافر الخصومة له!!

وكما تنهى الصلاة المؤمن في حياته اليومية عن السوء ، تنهي كذلك الداعي عن سلوك مسلك أو تبنّي خطوة لا تليق به كداعيةٍ .. وإنه لن يكون داعي الله حقاً إلا الشخص الذي أصبح صدره معموراً بذكر الله ، والذي يكون قد صار بكل كيانه خاضعاً لله – سبحانه وتعالى!

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

المنهج الصحيح للداعي ، إذا حاول بعض الناس جره إلى نقاشٍ عقيمٍ لا طائل تحته، أن يفارقه بسلامٍ .. وأما الذين يستمعون إليه بجديةٍ ، فعليه أن يبذل جهده في إيضاح

أمر الحق لهم .. وينبغي أيضاً أن يكون الكلام الدعوي كلاماً حكيماً .. ومن مزايا الكلام الحكيم أن يراعى فيه نفسية المدعو مراعاةً تامةً .. إذْ أن الداعي يفرض حديثه بأسلوبٍ يجعل المدعو يأنس به لدرجة يعتبره معها حديثاً نابعاً من قلبه هو .. دون أن يعتبره - لفظاظة أسلوب العرض - حديث الغير ، فيزداد منه نفوراً وكراهيةً .

إن أسلوب الكلام الدعوي هو أسلوب النصح والموعظة ، وليس أسلوب الجدل والمناظرة !

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

الناس نوعان ، نوع يشمل أولئك الذين يتمتعون بعلم الحق سلفاً (أهل الكتاب) ، وآخر يضم أناساً لا يتمتعون بعلم الحق في ظاهر الأمر ، غير أنهم مع ذلك ، يكونون عارفين بالحق على مستوى الفطرة ، فلئن كان أولئك حاملي الكتاب ، فإن هؤلاء حاملو الفطرة .

وإن الناس سيعرفون الحق من فورهم لو كانوا جادين في الواقع .. فإن مجموعةً منهم إذا عرفته على مستوى الكتاب السماوي ، عرفه آخرون على مستوى كتاب الفطرة .. وعلى هذا سيبدو الحديث عن الحق للكل كأنما هو حديث قلبه .. بيد أن الناس لا يلبثون في الأعم الأغلب أن يصابوا بمختلف ألوان العُقَد النفسية ؛ مما يولّد في نفوسهم مزاج الإنكار والجحود ؛ فهم لا يفتؤون ينكرون الصدق ، مهما اجتمعت القرائن الواضحة على ظهوره ، وتضافرت الأدلة والبراهين القاطعة لتأييده!!

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

رداً على أولئك الذين كانوا يقولون : ما بال هذا النبي لم يأت من عند ربه بالآيات كما جاء بها - مثلاً - موسى من قبل ؟! قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ، أي أن أمر المعجزات يتعلق بالله وليس بالنبي .

إن دعوة النبي تعتمد أساساً على الدلائل .. والنبي دوماً يعرض دعوته ، وهو يستند إلى قوة الدلائل .. بيد أن الله سبحانه وتعالى قد يعطي ، نظراً لمصالح واعتبارات أخرى، لبعض الأنبياء آيةً (معجزةً) ، وقد لا يعطيها لبعضهم الآخر .

وإن الإيمان حدث شعوري .. وإنما الإيمان الحقيقي هو الذي يكون قد انبثق في قلب العبد اقتناعاً بدلائل الحق .. والمحق هو الذي يؤمن بالشيء بعدما فحصه واختبره جيداً في ضوء الدليل ، وأما الذي يثير مناقشاتٍ فارغة لا صلة بها بجوهر الموضوع ، فهو المبطل ذاته!.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

أَجَلٌ مُّسَمًّى: هو يوم القيامة.

بَغْتَةً: فجأة.

يَغْشَاهُمُ العَذَابُ: يجللهم ويحيط بهم.

إن أعمال الإنسان هي جنته ، وهي جحيمه .. ولو أُتيح لنا بصر نتمكن به من رؤية حياة الكافر العنيد الطاغي من حيث نهايتها المعنوية المحتومة ، لوجدنا كأن أعماله السيئة محيطة به من كل جانبٍ في صورة العذاب، ثم يأتي الموت ليقذف به في جهنم من صنع يده!

وطغيان الإنسان كثيراً ما يكون نتاجاً لغفلته وعدم وعيه بحقيقة ذاته، ولو زالت غفلته هذه ، واسترد وعيه وشعوره لعاد فجأة إنساناً آخر تماماً !!

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

لَنُبَوِّئَنَّهُم: لننزلنهم على وجه الإقامة.

غُرَفاً: منازل رفيعة عالية.

وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ: كثير من الدواب.

إن الهجرة هي ، من إحدى النواحي ، علم على تغيير منهج العمل .. وهذا التغيير يتمثل حيناً في تغيير مكان العمل ، كالانتقال من مكة إلى المدينة مثلاً ، ويتمثل حيناً آخر في تغيير ميدان العمل ، كالانتقال من ميدان الحرب إلى ميدان الدعوة، عن طريق صلح

الحديبية مثلاً .

وقد نزلت هذه الآيات تقول لضعفاء أهل الإيمان المقيمين بمكة: إنه لو كان أهل مكة يتناولونكم بصنوف الأذى والإساءة ، فلتغادروا إذن أرض مكة إلى أية بقعةٍ أخرى من بقاع أرض الله الواسعة .. ولتعبدوا ربكم هناك .. ومن هذا نعلم أن معنى الصبر والتوكل هنا هو الثبات على العبادة ، دون الإصرار على مجابهة العدو .. إذْ لو كان المقصود هو المجابهة لذاتها مهما كانت الظروف ، لأمر هؤلاء المستضعفين من أهل الإيمان أن يستميتوا في قتال المعارضين بلا هوادةٍ ، ولا يفكروا في الخروج من هناك على أية حالٍ !!

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ: فكيف يصرفون عن توحيده.

وَيَقْدِرُ لَهُ: يضيقه على من يشاء لحكمة.

إن خلق السماء والأرض واقعة عظيمة لدرجة أنه لن يتمكن من إنجازها إلا الله الواحد القهار القادر المطلق .. وهكذا فإن دوران الشمس والقمر ، وهطول الأمطار ، وخروج الشجر والنبات من الأرض ، كل ذلك وقائع أعظم من أن يقوم بإيجادها أحد غير الله – سبحانه وتعالى !!

وليس هناك حتى من بين الذين يمارسون بعض أنواع الشرك ، من يعتقد عن إلهه المزعوم أنه قام بإيجاد هذه الوقائع العظيمة .. وبالرغم من ذلك فإن كثيراً من الناس

يعبدون أشياء أو أولياء من الأحياء أو الأموات رجاء أنهم سيلقون البركة في أرزاقهم .. ولكن لما كانت كل القدرات والاختيارات العليا بيد الله وحده ، فمن هناك غيره تعالى يقدر على التدخل أو التصرف في تقسيم الرزق للعباد!

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

لَهْوٌ وَلَعِبٌ: لذائذ متصرمة ، وعبث باطل.

لَهِيَ الحَيَوَانُ: لهي دار الحياة الدائمة والخالدة.

الدِّينَ: العبادة والطاعة.

السبب الأصلي في ضلال الإنسان يرجع إلى أنه يستغرق في مباهج الدنيا ومسائلها إلى حدٍ لا يستطيع معه أن يفكر متحرراً من أسرارها ، مترفعاً عن مغرياتها ، فلكي تدرك الحقيقة لابد من أن تسمو بنفسك فوق الظاهر .. وبما أن أكثر الناس يعجزون عن السمو بأنفسهم فوق الظاهر، فإنهم لا يحالفهم التوفيق إلى إدراك الحقيقة كذلك .

ومن حينٍ إلى حينٍ يمر الإنسان في هذه الدنيا بتجارب شتى تذكره بمقدار عجزه وضعفه .. فعندها تتلاشى كل أفكاره المصطنعة عن نفسه .. ويستيقظ فيه "إنسان" الفطرة الحقة .. ولكن حين يعتدل الجو ويستقيم أمره ، يعود سيرته الأولى من الغفلة والطغيان .. ومن تلك التجارب الدقيقة تجربة السفر التي أشارت إليها الآية الكريمة .

ينبغي على المرء أن يضع في اعتباره دائماً أن فرصة الحرية والانطلاق هذه إنما هي

متاحة لمدة الحياة الدنيا القصيرة الأجل وحدها ، وأنه سيدخل بعد الموت إلى عالم جديدٍ تماماً، حيث تواجهه مشاكل وقضايا أخرى لم يكن له بها عهد !.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ: يستلبون قتلا وأسرًا.

مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ: مكان يثوون فيه ويقيمون.

إن الحرم المكي نعمة من الله عجيبة .. لقد فرض الله له هيبةً على النفوس، لدرجة أنه يَذْهَل هناك حتى الظالمون والطغاة عن ظلمهم وطغيانهم .. وقد كانت قدسية الحرم هذه آيةً من آيات قدرة الله .. وكان مقتضاها أن تخضع قلوب الناس ورقابهم لله رب العالمين وحده.. غير أن عبدة الباطل لم يلبثوا أن صرفوا اتجاه مشاعر العبودية لدى الناس إلى غير الله بإسباغ أوصاف الله عليه كذباً وبهتاناً .. ثم ازداد هؤلاء ظلماً على ظلمٍ إذْ نصح لهم رسول الله بأن ينبذوا تقديس هذه الآلهة المزعومة ، ويخضعوا أمام الله الواحد الأحد ، فناصبوه العداء وتناولوه بالأذى .

إن اتباع الحق في بيئةٍ تسودها عبادة الباطل ضرب من المجاهدة العنيفة .. والذي يتصدى لها يُنتزع منه كل ما عنده ، حيث تنقلب راحته وسكينته إلى قلقٍ واضطراب لا ينتهي .. ولكن يكمن في هذا الحرمان ذاته سر فوزٍ عظيم .. ألا وهو المعرفة والبصيرة .. فلئن كان أمثال هؤلاء قد سُدَّت في وجوههم أبواب الناس ، فإن أبواب الله تنفتح لهم على مصاريعها ، فيأخذون ينالون من الله خيراً مما فقدوه في الدنيا .. وإنهم

بقدر ما يبتعدون عن أسباب الراحة المادية ، يقتربون من الكيفيات الربانية .. وإذ تكون الأشياء الظاهرية قد غابت عن أنظارهم ، فإن الأشياء المعنوية تتجلى لعيونهم ، وتبدأ تنكشف عليهم أسرار دقيقة لا يدري عنها العظماء والأغنياء وأرباب الجاه والسلطان الدنيوي شيئاً !

سورة الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

غُلِبَتِ الرُّومُ : قهرت فارس الروم .

أَدْنَى الأَرْضِ : أقرب أرض الروم إلى فارس .

غَلَبِهِمْ : كونهم مغلوبين .

وَأَجَلٍ مُّسَمًّى : وقت مقدر أزلاً لبقائها .

عند ظهور الإسلام كانت هناك إمبراطوريتان عظيمتان في العالم ؛ تعرف إحداهما بالإمبراطورية الرومانية المسيحية ، والأخرى بالإمبراطورية الفارسية المجوسية ، وقد كان بينهما عداء مستحكم وتنافس شديد من أجل السيطرة والتوسع ، وقد أغار الفرس في عام ٦٠٣ الميلادي على الإمبراطورية الرومانية مستغلين بعض مواطن ضعفها ، فأنزلوا بجيوشها هزائم متتالية ؛ مكنتهم من الاستيلاء حتى عام ٦١٦م على جزءٍ كبيرٍ من المناطق الشرقية الخاضعة لدولة الرومان بما فيه القدس .

وقد نال رسول الله - ﷺ - النبوة عام ٦١٠ الميلادي ، وقام على إثر ذلك ، بدعوة

التوحيد في قلب الجزيرة العربية ، وعلى هذا فقد كانت تلك الأحداث متزامنةً مع الصراع بين التوحيد والشرك الذي كان يدور في مكة المكرمة حينذاك ، وتفاؤلاً بما جرى على حدود الجزيرة ، راح مشركو مكة يقولون للمسلمين : لقد هزم إخواننا الوثنيون (المجوس) إخوانكم من أهل الكتاب (المسيحيين) ، وكذلك سوف نقضي بدورنا عليكم وعلى دينكم الجديد!!

وفي ذلك الوقت ، وعلى النقيض تماماً من مؤشرات الأحوال القائمة ، تنبأ القرآن الكريم قائلاً بأن الروم سيغلبون الفرس مرةً أخرى في أقل من عشر سنواتٍ ، وفي أعقاب ذلك - كما يقول المؤرخون الروم - سرعان ما أخذ تغير مفاجئ يظهر في شخصية هرقل الملك الرومي المهزوم الفاقد العزيمة - على نحوٍ غامضٍ ، إلى أن شنَّ هجوماً معاكساً على الفرس في عام ٦٢٣م ، وأحرز عليهم انتصاراً حاسماً في عام ٦٢٤م ، ولم يكد ينتهي عام ٦٢٧ الميلادي، حتى كان قد استرد كل الأراضي الرومية المحتلة من قبضة الفرس ، وبذلك تحققت النبوءة القرآنية بكاملها حرفاً حرفاً .

ومن هذا يثبت أن مؤلف القرآن - إن صح التعبير - هو الله ؛ إذْ ليس ثمة من أحدٍ، غير الله - سبحانه وتعالى - يمكنه أن يخبر عن شئون المستقبل إخباراً يتسم بهذا القدر من الصحة والضبط !

كما يدل هذا الواقع على أن النصر والهزيمة بيد الله وحده ، فبقضائه تعالى يحصل أحد الناس على السلطة ، وينتزع زمامها من يد الآخر، وإن سقوط أمةٍ وصعود أخرى حدث دنيوي في ظاهر الأمر ، غير أن لهذا الظاهر باطناً،فوراء كل الأحداث تكون ملائكة الله يعملون بطريقةٍ مؤثرةٍ وحاسمةٍ،وإن كانت العيون البشرية لا تستطيع رؤيتهم،وهكذا فإن لهذا العالم الظاهري هو الآخر باطناً،ألا وهو عالم الآخرة !!

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ

وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾

وَأَثَارُوا الأَرْضَ : حرثوها وقلبوها للزراعة .

السُّوأَى : العقوبة المتناهية في السوء (النار) .

إن الله – سبحانه وتعالى – إنما يُدرك على مستوى الذكر والفكر ، أي أن المرء يصل إلى الله عن طريق التدبر والتفكر ، ولقد بثّ الله دلائله في أرجاء هذا الوجود ؛ حيث أودعها في الإنسان ذاته ، ثم في آفاق الكون الخارجي المحيط به ، وأخيراً في تعاليم الأنبياء والمرسلين ، وإنه لن يظفر بالله سبحانه إلا الذين يقفون عند هذه الآيات الإلهية، وينظرون إليها بعين التأمل والاعتبار ، فالدليل ممثل الله في عالمنا الراهن ، فلو أهمل شخص دليلاً عُرض عليه ، فكأنما أهمل الله نفسه ، وإنه ليس لأمثال هذا عند الله شيء سوى الحرمان الأبدي!!

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾

يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ: تنقطع حجتهم . أو ييأسون .

يُحْبَرُونَ: يسرون . أو يكرمون .

فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ: لا يغيبون عنه أبداً

وَحِينَ تُظْهِرُونَ: تدخلون في وقت الظهيرة .

إن وجود عالمٍ كاملٍ متكاملٍ - كعالمنا هذا الذي نعيش في رحابه - برهان قاطع على الخلق الأول ، فإذا أمكن الخلق الأول فعلاً ، تُرى ، ماذا سيجعل الخلق الثاني مستحيل الوقوع ؟! بل الحق أن مَنْ ينكر الآخرة وهو يقر بالعالم الراهن ، فإنما ينكر مقتضى حتمياً لما هو مقر به بالفعل ، وعليه فإنه يعاني من التناقض مع ذاته من حيث يشعر أو لا يشعر .

والمراد بـ "المجرمين" أولئك الكبار الذين تزعّموا مسيرة إنكار الحق ، وقاموا بحشد الأدلة المفتعلة لإنكار الحق ، وحين يتغير نظام الكون ، عند قيام الساعة ، فسيرى هؤلاء المجرمون فجأةً أن كل تلك الدعائم كانت باطلة تماماً ، التي كانوا مرتكزين عليها في ثقة واعتزازٍ ، وأن الألفاظ التي كانوا يعتبرونها دلائل لا تُدحض في صالح موقفهم ، إذا بها صارت كلها هباءً ، لا تزن شيئاً في ميزان الحق ، وعندما يصادف القوم هناك هذا الوضع المناقض كلياً لآمالهم وأمنياتهم الحالمة ، فسوف يتملكهم ذهول ودهشة لا يوصفان!!

والناس في ساحة المحشر يوزعون على صنفين : المسبّحين بحمد الله ، وآخرين مُلئت حياتهم بكل شيءٍ عدا الحمد والتسبيح لله رب العالمين ، والمسبّحون بحمد الله هم الذين أدركوا الله بحيث أمسى ذكره تعالى يجري من أنفسهم مجرى الدماء في

عروقهم ، ويستقر شعور حي متجدّد بعظمته وجلاله في أعماق أفئدتهم ، فلا تكلّ عقولهم عن إدمان التأمل والتفكير في آلائه ، ولا تمل ألسنتهم من دوام التحدث بفضله ونعمائه ، والصلوات الخمس ما هي إلا أحد الأشكال المعينة لممارسة هذا التحميد والتسبيح ، فالمقصود بالتسبيح وقت الصباح هو صلاة الفجر ، بينما يشمل تسبيح المساء صلاتي المغرب والعشاء الآخرة ، أما التسبيح عند الدخول في الظهيرة فالمراد به صلاة الظهر ، وأما التسبيح عشياً (أي في آخر النهار) فالمراد به صلاة العصر !

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

تَنتَشِرُونَ: تتصرفون في شؤون معيشتكم .

لِّتَسْكُنُوٓا إِلَيْهَا : لتميلوا إليها وتألفوها .

إن عالمنا الراهن يزخر بوقائع شتى كثيرة تدعو إلى الدهشة والاستغراب، ومنها تحول شيءٍ إلى شيءٍ آخر ، إذ تتحول هنا المادة غير القابلة للنمو إلى مادةٍ قابلةٍ للنمو ، كما يتحول التراب الجامد الهامد ، إلى شكل إنسانٍ يمشى ويتكلم ! كما أن كل هذا يحدث على نحوٍ هادفٍ حكيم، وعلى سبيل المثال حين يمر "التراب" بشتى الأطوار والمراحل، لكي يستحيل إنساناً ، فيصب نصفه تقريباً في قالب الرجل ، والنصف المتبقي في قالب المرأة ، وإلى هذا التقسيم يرجع الفضل في بقاء النوع البشري واستمرار الحضارة الإنسانية منذ آلاف السنين ، إن هذا التحول العجيب ، والذي يخضع لنظام ضبطٍ وتنسيقٍ دقيق ، لا يمكن أن يقع إلا إذا أقررنا بوجود إلهٍ قادرٍ مطلق القدرة يتصرف

وراءه !!

الحقيقة هي أن المرء لو تأمل في خلق الله ، لبدا له كأن الله يتجلى في كل شيء ، وكأنه تعالى يشرف بوجهه الكريم من خلال كل شيء !!

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

الكون ، بكل موجوداته آية الله ، فإنشاؤه من العدم يشهد بقدرة الله على الإبداع، والتنوع الهائل في المخلوقات يدل على اتساع قدرة الله إلى غير نهاية ، وكون الأشياء على أتم درجةٍ من الحكمة والمعنوية يعكس اتصاف الله باللطف والرحمة ، ووجود أشياء مدمرةٍ كصاعقة الرعد والبرق يعرفنا بالله بوصفه عزيزاً ذا انتقام ، واستحالة الأرض ، بعد تعرضها مدةً تطول أو تقصر لليبس والجفاف ، ناضرةً خضراء من جديد ، تشير إلى إمكان الخلق الثاني (البعث بعد الموت) .

كل هذه آيات الله ، غير أنها آيات لأولئك وحدهم الذين يصغون إلى نداء الكون الصامت ، والذين يستعملون عقلهم وعملهم في الاتجاه الصحيح !

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

لَهُ قَانِتُونَ: مطيعون منقادون لإرادته .

وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى : الوصف الأعلى في الكمال والجلال

إن نظام الأرض والشمس والكواكب والنجوم البديع في هذا الفضاء اللانهائي ، واقعة فذة ومدهشة، لدرجة أنه دليل صارخ في ذاته بأنه لم يقم إلا بقدرة "قيوم" ، وأنه لا يسير هكذا في غاية الانضباط والدقة إلا بقوة مسيّر ، ولو فارقه هذا الإشراف والدعم الخارجي المتواصل لمجرد لحظةٍ واحدةٍ ، لعم الكون كله فساد واختلال وفوضى ، إن طائرةً عاديةً في هذا العالم لا تلبث أن تتعرض للانفجار والعطب عندما تفلت من سيطرة الطيار عليها ، فكيف يُتصور إذن أن يسير هذا المصنع الكوني الهائل بدون أي مسيطرٍ أو ضابطٍ يشرف عليه ليل نهار!!

إن إعادة خلق الإنسان من جديدٍ بعد موته ، لأمر أيسر وأكثر سهولةً على خالق الكون ؛ بالنظر إلى آثار قدرته المتجلّية في أرجاء هذا الوجود ، وإن التسليم بالخلق الثاني، بعد مشاهدة الخلق الأول الذي يتم عرضه في هذا الكون كل حينٍ وآنٍ ، هو بمثابة التسليم بأمرٍ ثابتٍ لا يحتاج إلى مزيد برهانٍ ، حيث إن الكون زاخر بمظاهر قدرة الله وآيات حكمته الباهرة على مستوىً أعلى، ليس من المستبعد معه أن يُنسبَ إلى الله -جل وعلا - أي عملٍ إبداعيٍ يمكن تخيله أو هو يخرج عن نطاق الخيال البشري ؛ فإنما أمره تعالى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون!!

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن

يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

إن هناك من الأموال والعقارات ما يشترك فيه أكثر من رجلٍ ؛ وبالتالي يكون كل واحدٍ من الشركاء ملزماً بأن يراعي فيه حق الشريك الآخر ، أما أمر الله – سبحانه وتعالى – فإنه ليس من هذا القبيل ، إذْ أنه تعالى هو وحده مالك الكون كله بلا منازعٍ ولا شريك ، والمثال الصحيح لله هو مثال السيد والمملوك ، دون مثال الشركاء العديدين في مالٍ أو عقارٍ ، حيث توجد بين الله ومخلوقاته على نطاقٍ أوسع وأشمل النسبة نفسها التي نراها بين سيدٍ ومملوكٍ ، وكما لا يعطي السيد لمملوكه أو خادمه درجةً مساويةً مع نفسه هو ، كذلك ليس في الكون أحد يمكنه أن يرقى إلى مستوى الله أو ينافسه في ملكوته الأعلى، فإن إلى جانب الله السيادة المطلقة من غير ندٍ ولا شريكٍ ، بينما ليس إلى جانب الخلق كله سوى العبودية والمحكومية!!

وخضوع الموجودات كافةً للأنظمة التي فرضها عليها الخالق المبدع ، يدلنا على أن النسبة الصحيحة بين الله وخلقه هي نسبة السيد المختار على عبده الذليل ، وكل نسبةٍ أخرى سواها ستكون قائمةً على أساس فرضية إنسانية محضةٍ ، لا على أساس أي دليلٍ واقعيٍ!

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

فَأَقِمْ وَجْهَكَ : قومه وعدله .

لِلدِّينِ : دين التوحيد والإسلام .

حَنِيفًا : مائلا إليه مستقيما عليه .

فِطْرَةَ اللهِ : الزموها وهي دين الإسلام .

فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا: جبلهم وطبعهم عليها.

لِخَلْقِ اللهِ : لدينه الذي فطرهم عليه .

ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ : المستقيم الذي لا عوج فيه .

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ : راجعين إليه بالتوبة والإخلاص .

وَكَانُوا شِيَعًا : فرقا مختلفة الأهواء .

الدين الحقيقي واحد ، وإنه قد نزل بشكله الكامل على كل نبي من الأنبياء ، وهو يُلخص في : الرجوع إلى الله الواحد ، وعبادة الله الواحد ، والتوجه الكلي إلى الله الواحد دون سواه ، هذا هو دين الفطرة ، وهذا الدين كامن في نفسية كل إنسانٍ بصورةٍ أبديةٍ ، وقد جاء الأنبياء قاطبة لتعليم البشر هذا الدين الواحد نفسه ليس غير ، ولكن الأجيال اللاحقة بأتباعهم الأولين لم تلبث أن حوّلت الدين الواحد إلى أديانٍ متعددةٍ ، وتعدّد الأديان والمذاهب ينشأ دوما عن تلك المباحث الإضافية التي يخترعها الناس على مر الأيام في تعاليم الأنبياء الأساسية ، كاختلاق تفريعات مستحدثة في العقائد ، وابتداع المسائل والآداب المزعومة في العبادات ، وإلباس الدين ثوب تفسيراتٍ جديدةٍ مجاراة للاتجاهات العصرية السائدة .. إلخ.

تلك هي الأشياء التي تجعل من الدين الواحد أدياناً في القرون المتأخرة ، وحين تتولد هذه الإضافات ، تعود هي ذاتها محور اهتمام الناس بدلاً من الدين الحقيقي ، مما يؤدي إلى التفريق والتحزّب على أساس إضافةٍ معينةٍ أو مجموعةٍ معينةٍ من تلك الإضافات ، بحيث تأخذ طائفة منهم تؤكد على هذه ، وأخرى تركز على تلك ، وهكذا

يصل الأمر في نهاية المطاف أن الأمة الواحدة (أتباع الدين الواحد) تنقسم على نفسها ، فإذا بها تتحول عملياً إلى فرقٍ وأحزابٍ دينيةٍ شتى ، وكل حزبٍ بما لديهم فرحون!

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

سُلْطَانًا : كتابا أو حجة .

يجد المرء نفسه في ظل الأحوال العادية مختاراً حرّ التصرف ، مما يجعله يطغى ويتفرعن في تلك الأحوال بلا حدودٍ .. وأما حين تُشعره الظروف الحرجة الدقيقة بمدى عجزه وضعفه، فعندئذٍ يرتفع عن ذهنه كل حجابٍ ، وبالتالي يرجع الإنسان إلى حجمه الحقيقي كما هو ، وعندها يأخذ ينادي الله في ضراعةٍ وخشوع معترفاً بعجزه وقلة حيلته .

وإن هذا لدليل نفسي على وحدانية الله ، فهكذا يُكشف للإنسان عن وجه الحقيقة ، لكي يراه من خلال تجربته الذاتية ، غير أن المرء ظلوم جهول لدرجة أنه حين تتغير الظروف والأحوال ، يعود سيرته الأولى من التمرد والغفلة والطغيان !

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ

فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ (٣٩)﴾

فَرِحُوا بِهَا : بطروا وأسروا .

هُمْ يَقْنَطُونَ: ييأسون من رحمة الله .

وَيَقْدِرُ : يضيقه على من يشاء لحكمة .

رِّبًا : هو الربا المحرم المعروف .

لِّيَرْبُوَ : ليزيد ذلك الربا .

فَلاَ يَرْبُو : فلا يزكوا ولا يبارك فيه .

الْمُضْعِفُونَ : ذوو الأضعاف من الحسنات .

إن المؤمن يعد كل ما يصيبه في هذه الدنيا من الراحة أو البلاء من عند الله تعالى ، ولذا فهو يتوجه إلى الله في كلتا الحالتين ؛ شاكراً عند الراحة ، وصابراً عند البلاء والمحنة.

أما غير المؤمن فإنه يضع ثقته في نفسه ، مما يجعله يمرح ويتغطرس في أحوال الرخاء والعافية ، وعندما يشعر بأن قواه قد شُلّت ، ولم يعد لديه الآن حول ولا حيلة ، فلا يلبث أن يقع فريسة اليأس والقنوط ، لكونه يحس أنه قد بلغ حده الأقصى! وكأنما هذه شهادة الفطرة تدلنا على أن الاتجاه الأول هو الاتجاه الحقيقي ، وأن الاتجاه الأخير غير حقيقي .

ومن أمارات المؤمن أنه يبذل ماله ابتغاء مرضاة الله ، حيث إنه يخصص جزءاً من أمواله أيضاً لغيره من الفقراء والمحتاجين ؛ بغض النظر عما إذا كانت تربطه بهم صلة القرابة أم لا .. وإنما هو ينفق ماله لكسب أرباح الآخرة ، وليس لمجرد كسب الأرباح

الدنيوية وحدها كما هو شأن المرابين (آكلي الربا) !

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

إن خلق الإنسان أولاً ، وتوفير ما يحتاج إليه من القوت اليومي صباح مساء ثانياً ، ثم تعرضه للموت أخيراً ، كل هذه وقائع عظيمة لدرجة أن إحداثها يتطلب القوة الكونية ، وليس هناك أي موجودٍ مفترضٍ ، عدا خالق الكون ، يتمتع بمثل هذه القوة الكونية الجبارة ، والحقيقة هي أن التوحيد يحمل معه دليل صدقه ، والشرك يحمل معه دليل بطلانه .

إن مركز توجهات الجميع يكون واحداً ، فيما لو اتخذ كل إنسانٍ من الله الواحد الأحد إلهه ، الأمر الذي يتسبب في إيجاد مناخٍ من الوحدة والإخاء بين البشر ، وأما حين تُتخذ آلهة شتى من دون الله ، فإن أشياء كثيرة لا تُحصى تصبح مركز التوجه ومحور الاهتمام، مما يولد العناد والاختلاف والفرقة بين الأفراد والشعوب، وبالتالي يمتلئ البر والبحر والجو بالشر والفساد!

إن عاقبة انحراف الإنسان، وإن كانت ستواجهه في صورتها الكاملة الأبدية بعد الموت، إلا أنها قد يتم إظهارها، بصفةٍ جزئيةٍ مؤقتةٍ ، في هذه الدنيا ذاتها لكي تكون عبرةً وذكرى للناس!

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ

يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾
لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

لِلدِّينِ الْقَيِّمِ : المستقيم (دين الإسلام) .

لاَّ مَرَدَّ لَهُ : لا يقدر أحد على رده .

يَصَّدَّعُونَ: يتفرقون إلى الجنة وإلى النار .

يَمْهَدُونَ: يوطئون مواطن النعيم .

إن الأبرار والفجار مختلطون ببعضهم في العالم الراهن ، وستأتي الآخرة لكي تفرز كلا هذين الصنفين من الناس فرزاً ، ويومئذٍ سيكون الإنعام الإلهي خالصاً للذين عاشوا في العالم الراهن ربانيين متجردين مخلصين دينهم لله وحده ، وأما الذين كانت اهتماماتهم ورغباتهم مرتبطةً بغير الله ، فإنهم سوف يُحرمون هناك من رحمات الله للأبد!

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ
بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ
قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

إن هبوب الرياح الباردة الندية قُبيل نزول المطر ، إعلان بأن إله هذا الكون إله ذو رحمةٍ واسعةٍ ، إن الملاحة البحرية لها أهميتها البالغة في بناء التمدّن ، ولكن الملاحة في البحر لا تكون ممكنةً إلا إذا ظلت الرياح في إطارٍ معينٍ محدودٍ ، وهكذا ، فإن الرحلة الجوية في عصرنا الحاضر هي الأخرى تعتمد إلى حدٍ كبيرٍ جداً على ذلك الغلاف الهوائي السميك الذي يحوط الأرض من كل جانبٍ ، وليس هذا إلا بتدبير من الله

العزيز الرحيم .

وإنما الغرض من كل هذه العناية والتدبير هو أن يعيش الإنسان عبداً شاكراً لله رب العالمين ، وما بُعث الأنبياء والمرسلون إلا لكي يلفتوا انتباه الناس إلى هذه الحقائق البالغة الخطورة ، فمنهم مَنْ آمنوا بهم ، ومنهم من كفروا بهم ، وعندها نصر الله المؤمنين ، ودمر الكافرين ، وسيُعامل كلا الفريقين هذه المعاملة في الآخرة على نطاق أوسع وأشمل وأمم!

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

فَتُثِيرُ سَحَابًا : تحركه وتنشره .

وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا : قطعا متفرقة .

الوَدْقَ : المطر .

مِنْ خِلالِهِ : فُرَجِه ووسَطِه .

لَمُبْلِسِينَ: آيسين من نزوله.

فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا : فرأوا النبات مصفرا بعد الخضرة .

حين يختار المرء طريق الحق، كثيراً ما يتعرض لصعوبات شديدةٍ تقصم ظهره، كما حدث مع الرسول - ﷺ - وأصحابه الكرام في فجر التاريخ الإسلامي، ولكن لا داعي لليأس والقلق مهما أحيط المؤمن بظروف بالغة القسوة، فإن الله الذي هو رحيم لدرجة أنه إذا كانت الحقول والمزارع بحاجةٍ إلى الماء، سقاها بتحريك النظام الكوني، لينصرن السالكين في طريقه أيضاً بكل تأكيدٍ، بيْد أن هذا النصر إنما يأتي بحسب تقدير الله نفسه، ولهذا فليس ينبغي، إذا تأخر مجيئه، أن يمتلئ قلب المرء كآبةً أو يأساً.

إن حديث الله حديث أوضح وأقطع ما يكون برهاناً، على أنه لا يُوفق إلى الإيمان بحديث الله إلا الذي ينظر في الأشياء نظرة فاحصةً متعمقةً، ويُصغي إلى الأحاديث بانتباهٍ حادٍ، والذي يخلو مزاجه من عنصر العناد والتعنت، بحيث إذا فهم أمراً بادر إلى الإقرار به فوراً، وإذا اتضح له كون طريقٍ ما صحيحاً، سار عليه في الحال!!

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

وَشَيْبَةً: حال الشيخوخة والهرم.

يُؤْفَكُونَ: يصرفون عن الحق والصدق.

وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ: لا يطلب منهم إزالة عتبه وغضبه تعالى عليهم - بالتوبة والطاعة.

إن الإنسان حين يولد يكون طفلاً غاية في الضعف ، ثم تليه سنوات عدة حافلةً بالقوة والشباب والحيوية ، إلى أن يفاجئه مرةً أخرى ضعف الكهولة والشيخوخة ، ومعنى هذا أن قوة الإنسان ليست ذاتيةً ، بل إنما هي معارة له لفترة محدودةٍ ، والخيار كله هنا بيد "المعطي" وحده ، فيُبقي عطاءه إلى متى شاء ، ويسترده متى يشاء !

وإنه لا يكاد المرء يهتم أو يكترث بأمر الآخرة في الحياة الدنيا ، ذلك لأن القيامة تبدو له شيئاً بعيداً ، بعيداً جداً ، كأنها ليست بواقعةٍ ، غير أن هذا ليس إلا جهلاً محضاً .. فإن القيامة يوم تقوم ، سيخيل إليه كأنه لم يلبث في العالم السابق غير برهةٍ يسيرةٍ من الزمن حتى وجد نفسه في العالم الآخر!!

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ : لا يحملنك على الخفة والقلق .

كان الناس في مكة يطالبون الرسول بأن يظهر لهم بعض الخوارق إن كان هو نبي الله حقاً ، غير أن طلب القوم هذا لم يلق الإجابة ، والسبب في ذلك أن الخوارق كانت غير مجديةٍ تماماً في تحقيق الهدف الأصلي المنشود ، فقد كان الإسلام يهدف إلى تغيير عمل الناس، وإنما يتغير العمل بتغير الفكر ، وليس بإدهاش الناس بخوارق العادات !.

ومن هنا نرى القرآن الكريم يركز كل التركيز على جوانب الاستدلال والإقناع وحده، فإنه يتوخى تغيير ذهن الإنسان عن طريق الدليل والبرهان ، ويبغي تأهيل المرء ليرى الواقعات من الوجهة الصحيحة ، ويتبنّى أحكاماً وآراء صائبةً سديدةً تجاه

القضايا والأمور الحياتية المختلفة.

والحقيقة هي أن مشكلة الإنسان الجوهرية تكمن في صحة الفكر، ولو أن المرء لم يكن قد أيقظ في نفسه الفكر الصحيح السليم ، لما منعه شيء ، حتى بعد مشاهدة المعجزات والخوارق ، أن يرفضها بدورها بترديد بعض الألفاظ الفارغة الحمقاء،كرفضه من قبل الأدلة والبراهين باللجوء إلى ألفاظٍ مماثلةٍ.

والطبع على القلوب لكون أصحابها من : "الذين لا يعلمون" ، يعني أن يُحال بينهم وبين إدراك الأمور بسبب انعدام الصحة الفكرية لديهم، والمرء إذا كان يعوزه القدرة على الحكم أو تكوين الرأي فإنه لا يستطيع رؤية الأشياء من وجهتها الصحيحة ، ومن أجل ذلك فهو لا يتمكن بطبيعة الحال من استخلاص التوجيه الصحيح المفيد لنفسه من دراسة الأشياء.

وإن العبد الذي ينهض بدعوة الحق الخالص النقي ، يواجه دوْماً برد فعلٍ مثبطٍ من قِبل الناس ، إذ الداعي يتحدث عن الآخرة وحدها ، بينما تكون أذهان المستمعين مشغولةً بالهموم والقضايا الدنيوية البحتة ، مما يجعل الناس يحتقرون الداعي أيّما احتقارٍ، ويحاولون الاستخفاف بشأنه والتقليل من أهميته من جميع النواحي ، حتى ليبدو حديث الداعي كأنه حديث تافه لا يقام له وزن ولا يستحق أن يُصغى إليه !.

وهذا الوضع ، كما هو ابتلاء بالنسبة إلى المدعو ، محنة للداعي كذلك ، وفي وقتٍ كهذا يجب على الداعي ألا يفقد ثقته ويقينه بدعوته ، فلو أنه فقد يقينه تحت ضغطٍ من الظروف ، واشتداد وطأة الأحوال ، فسيأخذ يتحدث حديثاً ربما يبدو ذا أهميةٍ لعامة الناس ، ولكنه سيكون كلاماً عديم الأهمية فاقد القيمة على الإطلاق عند الله – سبحانه وتعالى!!

سورة لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾ .

الإحسان في أصل معناه اللغوي : الإتقان للعمل ، أي إنجازه على أفضل وجهٍ ، والمحسن: فاعل الإحسان أو المتقن لعمله ، ومقياس كوْن عملٍ ما حسناً في هذه الدنيا هو أن يكون مطابقاً للحقيقة الواقعة ، وعليه فالمحسن هو : الذي يعترف بالحقيقة الواقعة ، والذي يكون عمله كما ينبغي أن يكون وليس بالعكس .

والذين يمتلكون مزاج التكيف مع الحقيقة الواقعة ، إذا ما تبيّن لهم الصدق ، فلا يلبثون أن يتلقوه بالقبول ، لا تحول بينهم وإياه أية تعقيداتٍ أو عوائق نفسية ، ويأخذون في ممارسة كل مقتضيات العملية من غير تحفظٍ ولا ترددٍ ، وهم بالتالي يصبحون : مقيمي الصلاة ، التي هي علامة لتأدية حق الله ، ويؤدون الزكاة ، حيث إنها تعني أداء حق العباد في دائرة المال ، ويصيرون محبين للآخرة بدلاً من حب الدنيا ، لكونهم يعلمون أن الآخرة ، لا الدنيا، هي الدار التي يتقرر فيها مصير الإنسان النهائي إلى الفلاح أو إلى الخسران !

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ .

لَهْوَ الحَدِيثِ : الباطل المُلهي عن الخير والعبادة .

هُزُواً : سخرية – مهزوءا بها .

وَلَّى مُسْتَكْبِراً : أعرض متكبرا عن تدبرها .

وَقْراً : صمما مانعا من السماع .

الأحاديث نوعان: النصيحة والتسلية ، وبما أن النصيحة تبعث في النفس الشعور بالمسئولية ، وتدعو المرء إلى فعل شيءٍ وترك شيءٍ ، فإنها كانت – ولا تزال – موضع اهتمام قلةٍ من الناس قليلةٍ جداً في كل العصور ، وأما مزاج الإنسان العام فقد ظل دوماً مولعاً بأحاديث التسلية والمجون ، وفي مقابل «كتاب» النصيحة والموعظة ، فإنه يحرص غالباً ، على شراء الكتاب الذي يتضمن مواد التسلية والمتعة الذهنية ، دون أن يفرض عليه أية مسئوليات والتزامات ، أو يأمره بأداء واجبٍ ما . ومن أعظم الناس جرماً الشخص الذي لا يكتفي بذاته في الاشتغال باللهو والمجون ، بل يأخذ في إلهاء الآخرين بفنون التسلية الفارغة والمتعة الباطلة كذلك ؛ ذلك لأنه نصب من نفسه قائداً لهذا الانحراف الذهني ، وأنه شغل أذهان الناس بما لا خير فيه ولا فائدة ، حتى جعلهم غير صالحين لكي يوجهوا عنايتهم نحو الأحاديث الجدية والمفيدة .

إن نفسية الاستكبار هي أسوأ النفسيات إطلاقاً ، والذي يكون مصاباً بنفسية الاستكبار ، فإنه لا يكاد يعترف بالحق وإن ظهر أمامه في أجلى مظاهره ، بل إن شعوره بالكبرياء والاستعلاء يدفعه إلى مقابلة الحق بالاحتقار وعدم الاكتراث ، وعلى نقيضٍ من هذا تماماً يكون حال أهل الإيمان ، فإن مزاجهم المولع بالنصيحة يرغمهم على أن

يبادروا إلى الاعتراف بالحق وأن يسخروا حياتهم كلها لخدمته !!

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾ .

بِغَيْرِ عَمَدٍ : بغير دعائم وأساطين تقيمها .

رَوَاسِيَ : جبالاً ثوابت .

أَن تَمِيدَ بِكُمْ : لئلا تضطرب بكم .

وَبَثَّ فِيهَا : نشر وفرق وأظهر فيها .

زَوْجٍ كَرِيمٍ : صنف حسن كثير المنفعة .

الكون فضاء رحيب إلى غير نهايةٍ ، يدور فيه ما لا يُحصى من الأجرام السماوية الضخمة بانتظامٍ ، وإن بقاء هذه الأجرام متماسكة في أماكنها ، رغم دورانها المستمر في الفضاء اللامتناهي ، واقع عظيم لدرجة تثير الدهشة والإكبار ، ثم إن أرضنا هذه كوكب استثنائي فذ ، بكل معنى الكلمة ، في هذا الكون ، حيث توجد هنا أسباب وتدابير لا يحصيها عدّ ؛ جعلت الحياة الإنسانية فوقها ممكنةً وجديرةً بأن تُعاش ، ومن بين هذه الأسباب والتدابير : وجود التوازن المدهش في الأرض بسبب ارتفاع الجبال على سطحها ، وتوافر أشياء عجيبة وضرورية للحياة كالماء والهواء والنبات بمقادير هائلةٍ .. إلخ.

وإنه ليس هناك من أحدٍ ، غير الله الواحد الكبير المتعال ، يقدر على إقامة هذا النظام العظيم وإدارته.. إذن ، فكيف يجوز للإنسان أن يتخذ من أشياء أخرى دون الله مركز عبادته!!

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ .

لُقْمَانَ : كان صالحا حكيما وليس نبياً .

الحِكْمَةَ : العقل والفهم والفطنة وإصابة القول .

إن شخصية لقمان الحكيم يكتنفها الغموض من الناحية التاريخية ، وقد وردت عنه أخبار كلها غير مقطوعٍ بصحتها ، إلا أنه - على أية حالٍ - كان رجلاً صالحاً حكيماً عابداً لله - عز وجل !

حيث يقول القرآن الكريم: إن لقمان كان عبداً شكوراً لله ، وإنه أوصى ولده بتجنب الشرك ، وكلاهما أمر واحد ، إذ التوحيد ينبع من نظرنا إلى الله على أنه وحده ولي نعمتنا وصاحب المنة والإحسان إلينا ، وأما الشرك فهو أن يجعل المرء أحداً من دون الله ولي نعمته والمتفضل عليه ، وبالتالي يأخذ في توجيه عواطف الشكر والامتنان الجياشة في صدره نحوه!!. ولئن كان المعطي واحداً لا ثاني له ؛ فإن الشكر هو الآخر ينبغي أن يكون خالصاً له وحده كذلك!

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ : أمرناه وألزمناه .

وَهْناً : ضعفاً .

وَفِصَالُهُ : فطامه عن الرضاع .

أَنَابَ إِلَيَّ : رجع إليَّ بالإخلاص والطاعة .

أعظم حق على الإنسان - بعد حق الله - لوالديه ، بيد أنه إذا ما تعارض أمر الوالدين مع أمر الله - سبحانه وتعالى - كان أمر الله مقدماً على أمر الوالدين ، ولكن لابد - مع ذلك - من القيام بخدمتهما ومواصلة البر بهما على مدى الحياة .. وهذه الموازنة الدقيقة بين واجبين أو مطلبين متقابلين هي أسمى صور الحكمة الإسلامية، وفي هذه الحكمة السامية يكمن سر النجاح الأعلى في كل شعب الحياة !

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ .

مِثْقَالَ حَبَّةٍ : وزن أصغر شيء .

وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ : لا تمل وجهك عنهم كبراً وتعاظماً .

مَرَحاً : فرحا وبطراً وخيلاء .

مُخْتَالٍ فَخُورٍ : متكبر ، مباه متطاول بمناقبه .

وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ : توسط فيه بين الإسراع والإبطاء .

وَاغْضُضْ : اخفض وانقص .

لقد أثبت التقدم العلمي الحديث أن كلمات الحاجز والفاصل والبعد (الزماني والمكاني) كلها نسبية ؛ فالأشعة السينية (أشعة إكس) بإمكانها أن ترى حتى داخل الجسم الإنساني ، كما أن الأشياء البعيدة أو المتناهية في الصغر ، التي تخفى عن عيوننا المجردة ، تبدو واضحةً جليةً عن طريق التلسكوب والميكروسكوب ، وهذا الإمكان الذي نجرِّبه هنا على مستوى محدودٍ ، يوجد عند الله سبحانه على مستوى غير محدودٍ .

إن عملك بالدين أو قيامك بدعوة الآخرين إلى الدين ، كلاهما مهمّة شاقة وعسيرة تتطلب الصبر ، والنهوض بأعبائها يفرض عليك أن تأخذ الأناة والتريث قبل الإقدام ، وتخالف هوى نفسك بدلاً من الانقياد لرغباتها ، وأن تتنازل عن كبريائك ، بدلاً من الحفاظ عليها ، وأن تتحمل أذى الآخرين وإساءاتهم من طرفٍ واحدٍ .

وكل هذه من عزائم الأعمال ، وإن الخلق المفعم بروح الجد والعزيمة هو الخلق الإسلامي ذاته!!

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾ .

سَخَّرَ لَكُم : لمنافعكم ومصالحكم .

وَأَسْبَغَ : أتم وأوسع وأكمل .

لقد أنشئ عالمنا الراهن بحيث يجده الإنسان ملائماً لنفسه من كل الوجوه والنواحي، هذا إلى جانب أن هذا العالم يتوفر فيه كل شيء يحتاج إليه الإنسان بمقدار هائل ، ولكن الإنسان لا يشكر خالق الكون ، بل ربما يحاول – بإثارة مجادلاتٍ عقيمةٍ

فارغةٍ - أن يصرف توجه الناس عن الله رب العالمين!

وإن سبب انحراف الإنسان يرجع، في الأعم الأغلب ، إلى أنه لا يستعمل عقله ، ولا يُعمل فكره مترفعاً على العادات والتقاليد السائدة ، ولو أن المرء قد ارتفع بنفسه على التقاليد والعادات ، وتحرر من أسرها ، لصار العقل الذي زوّده الله به كافياً في ذاته لكي يوجهه نحو الاتجاه الصحيح!!

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

يُسْلِمْ وَجْهَهُ : يفوض أمره كله .

اسْتَمْسَكَ : تمسك وتعلق واعتصم .

بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى : بالعهد الأوثق الذي لا نقض فيه .

عَذَابٍ غَلِيظٍ : شديد ثقيل (عذاب النار) .

إن كل امرئ له اتجاه معين في هذه الحياة ، وهو يكون منصرفاً إليه بكليته فكراً وعملاً ، والمؤمن هو الذي يتجه بكيانه كله نحو الله ، إن الحياة الإيمانية هي حياة إلهية الاتجاه، وأما الحياة غير الإيمانية فهي حياة لا إلهية الاتجاه .. ومنَ اتجه نحو الله ، فقد سار في اتجاه الهدف الصحيح ، وإنه واصل حتماً إلى مصيرٍ طيب وعاقبةٍ محمودةٍ .. وعلى نقيضٍ من هذا فإن مَنْ يغفل عن الله ويتجه بالتالي نحو غيره ، فقد صار بلا اتجاه صحيحٍ ولا هدفٍ معينٍ ، وقد يمكن أن ينال هذا الشخص بعض الفوائد الآنية في مجال هذه الحياة الفانية ، ولكن ليس ينتظره في حياة الآخرة الأبدية شيء سوى عذاب غليظٍ !!

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

يَمُدُّهُ : يزيده وينصب إليه .

سَبْعَةُ أَبْحُرٍ :مملوءة ماء .

مَا نَفِدَتْ : ما فرغت وما فنيت .

كَلِمَاتُ الله : مقدوراته وعجائبه أو معلوماته .

إن الكون يبلغ من العظمة والاتساع حداً لا يستطيع معه أي شخصٍ ادعاء أن له صانعاً آخر غير الله – جل وعلا ، ولكن الإنسان ، مع اعترافه بهذه الحقيقة الجلية ، يرفع أشياء أخرى من دون الله إلى مقام العظمة والقداسة ، وما الشرك إلا اسم آخر لهذا المسلك اللامعقول .

وإن عظمة الكون لأعظم من أن يُستطاع وصفها بالألفاظ ، إن تاريخ العلوم الطبيعية يغطي من المساحة الزمانية آلاف السنين ، ولكن ، بالرغم من أبحاث ودراسات هائلة تفوق الحصر ، لم يتمكن علم الإنسان بعدُ ، حتى من الإحاطة بأسرار شيءٍ واحدٍ وخفاياه إحاطةً كليةً شاملةً .. فكم في رحاب الفضاء عدد النجوم والكواكب؟ ، وكم عدد أنواع النبات والحيوان الموجودة على ظهر البسيطة ؟ وما كُنْه ذرةٍ من ذرات الرمال ، وحقيقة ورقةٍ من أوراق الشجر؟ ، وكم من عجائب ونفائس مخبوءة في أعماق البحار؟

وجملة القول: فإن أي شيءٍ من أشياء الدنيا ، مهما كان صغيراً أو كبيراً ، لم يستطع الإنسان أن يستقصي عنه معلومات كاملةً وشاملةً .. إذن ، أفلا يكفي هذا الواقع وحده للبرهنة على أن الإنسان لن يستطيع أبداً ، حتى ولو صارت له كل أشجار الأرض أقلاماً ، واستحالت بحارها مداداً ، أن يدون آلاء الله ويصف عجائب صنعه التي لا تُعدّ ولا تحصى!!

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

يُولِجُ : يدخل .

الإنسان دليل في ذاته على أن ظهور الحياة الأولى ممكن ، وإذا أمكن ظهور الحياة مرةً واحدةً ، فإن ظهور الحياة مرةً ثانيةً وثالثةً بل مراتٍ ومراتٍ يصير ممكناً بطريق الأَوْلى والأَحْرى.

وهكذا ، كل واحدٍ منا يعلم ، من واقع تجربته الذاتية ، أنه يستطيع أن يسمع صوتاً ، وأن يرى منظراً ، وإذا كان سماع صوتٍ واحدٍ ورؤية منظرٍ واحدٍ ممكناً ، فماذا يجعل من سماع الأصوات الكثيرة ورؤية المناظر الكثيرة أمراً مستبعداً أو مستحيلاً ؟!

وإيلاج النهار في الليل وبالعكس إشارة ، في لغة الكناية ، إلى تلك الظاهرة التي تُعرف في عصرنا الحديث بدورة الأرض المحورية ، إن دوران الأرض في محورها بانتظامٍ ودقةٍ ، وما إلى ذلك من ظواهر أخرى مماثلةٍ ، يدل على أن خالق هذا الكون ومالكه إله عظيم إلى حدٍ لا يمكن تصوره ، فمن هناك سواه ، والحالة هذه ، الذي

يستحق أن نعبده ونرفعه إلى مقام العلو والكبرياء في حياتنا؟!

والحقيقة هي أن كل ما يُرفع إلى درجة الكبرياء والعظمة من دون الله الواحد الأحد، الفرد الصمد ، فإنما يكون ذلك كذبًا وباطلًا ، إذْ ليس ثمة من أحد غير الله الواحد يتمتع بأية عظمة أو مجدٍ ذاتي حقيقي !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

غَشِيَهُم مَّوْجٌ : علاهم وغطاهم

كَٱلظُّلَلِ :كالسحاب . أو الجبال المظلة .

فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ :موف بعهده شاكر لله .

خَتَّارٍ كَفُورٍ : غدار جحود للنعم .

لو أننا ألقينا بشيءٍ ما في البحر لغرق من فوره ، ولكن الله سبحانه قد أخضع الماء لقانون خاصٍ ، مما يجعل السفن والباخرات الضخمة لا تغرق في أعماق البحار ، بل تطفو على سطح المياه ، وتنتقل بالإنسان وأمتعته من مكانٍ إلى مكانٍ ، وهذا من غير شكٍ آية عظيمة ، بيد أن هذه الآية لن يعتبر بها إلا الإنسان الصابر والشاكر. أما الصابر فهو الذي يجنب نفسه الاندفاع وراء الأحاسيس الخاطئة والنزوات الطائشة . وأما الشاكر فهو الذي يستطيع أن يعترف بالحقيقة التي توجد خارج ذاته هو ، على أن البحر حين يهيج ، وتحيط بالمرء أمواجه العاتية كالجبال ، تتأرجح فيها سفينته كالقشة ، فيدرك كم هو عاجز وضعيف، عندئذٍ لا يلبث أن يذهل عن كل مظاهر الكبرياء والعظمة ، ويتوجه إلى الله وحده ؛ ليستغيثه في ضراعةٍ وابتهالٍ . وهذه التجربة التي يمر بها رُكاب

السفينة في البحر خليقة أن يستخلص الناس منها الدرس والعبرة ، ولكن قليل جداً هم الذين ينظرون إلى أمثال هذه الحوادث بعين التذكر والاعتبار ، ويسيرون بالتالي على جادة الحق والعدل بثباتٍ واستقامةٍ ، وأما أكثر الناس فتراهم إذا وقعوا في مصيبةٍ ما ، ذكروا الله وأنابوا إليه ، وإذا انقشعت غيوم المصيبة، عادوا ثانيةً سيرتهم الأولى من الجحود والطغيان ونكران الجميل !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

يَوْماً لاَّ يَجْزِي : لا يقضي فيه شيء .

فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ : فلا تخدعنكم وتلهينكم بلذاتها .

الغَرُورُ : ما يغر ويخدع من شيطان وغيره .

قد يبدو ظاهراً أن المرء مهما فعل من شيءٍ ، لن يؤاخذه أحد أبداً ، بينما تنتظره ساعة رهيبة لدرجة تنقطع معها الروابط حتى بين الوالد وولده ، فلا يعود يغني أحدهما عن الآخر فتيلاً !

"متى ستأتي هذه الساعة إن كانت آتيةً ؟!" .

إن طرح سؤال كهذا تجاوز عن حدودنا ، فالإنسان لا يدري شيئاً عن أحداث الغد القريب حتى في إطار عالمه المعلوم ، وعلى سبيل المثال ليس بإمكاننا التنبؤ ، بصيغةٍ

حتمية أكيدة ، عن نزول المطر ، وعن شئون الأجنة في الأرحام ، وعن مستقبلنا الاقتصادي ، وأين يفاجئ أحدنا الموت وفي أي مكان يُقبر ، إلخ . ولكن بالرغم من هذا القصور العلمي فإن الإنسان يسلم بهذه الحقائق كواقعةٍ لا مندوحة عنها ، وهكذا ينبغي عليه أن يوقن بيوم القيامة أيضاً على أساس الخبر الإجمالي غير المحدد!

سورة السجدة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ٱفْتَرَىٰهُ : اختلق القرآن من تلقاء نفسه .

"هذا كتاب الله " : جملة وجيزة تتألف - على ما يبدو - من ثلاث كلمات غير أنها جملة صعبة وثقيلة ، لدرجة أنه لم يجرؤ على التفوه بها أحد على مدار التاريخ سوى أولئك النخبة الممتازة من البشر الذين كانوا قد نزل عليهم كتاب من عند الله حقاً ، ولو تجرأ أحد يوماً على التفوه بهذه الجملة ، فإنه لن يكون إلا مهرجاً أو مصاباً بالجنون، وإن كونه مهرجاً أو مجنوناً لن يلبث أن يتضح بجلاءٍ بعد مدةٍ غير طويلةٍ من الزمن.

أما القرآن الكريم فهو يحمل في ذاته برهان صدقه وحقيّته ؛ فأسلوبه المعجز ، وعدم ثبوت أية أخطاء علميةٍ في محتوياته على (مرجع سابق) القرون ، وانتصاره الحاسم على أعدائه ومعارضيه.. إن هذه وما إليها من خصائص أخرى مماثلة تقيم الدليل القاطع على أن القرآن كتاب منزل من عند الله - سبحانه وتعالى ، وما دام هو كتاب الله ، كان لزاماً على كل شخصٍ أن يصغي إلى إنذاره ، ويتأمل فيه بمنتهى الجدّية والإخلاص !

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ

ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾

اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ : استواء يليق بكماله وجلاله تعالى .

يَعْرُجُ إِلَيْهِ : يصعد الأمر ويرتفع إليه .

أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ : أحكمه وأتقنه .

سُلالَةٍ : خلاصة .

مَاءٍ مَّهِينٍ : مني ضعيف حقير .

سَوَّاهُ : قومه بتصوير أعضائه وتكاملها .

المقصود بالخلق في ستة أيامٍ (بمعنى ست مراحلٍ أو فتراتٍ) هو التنبيه على ما صاحب عملية الخلق من عنايةٍ وتدرّجٍ .. وإن إبداع الكون المتدرج ونظامه البديع الحكيم يدلنا على أن للخالق – جل وعلا – هدفاً خاصاً من هذا الإبداع العظيم .

ثم إن هذا الكون تجري في أرجائه أعمال شتى ووظائف لا تحصى بإتقانٍ وانتظامٍ عجيبٍ .. مما يثبت بمزيد الوضوح أن خالق الكون يقوم على تدبير شئونه بأسلوبٍ مخطط تخطيطاً واعياً دقيقاً .

والإنسان كائن حي فذ ،كل جانب من جوانبه مثار دهشةٍ واستغرابٍ ، حيث يظهر، من تحليل جسده كيماوياً،أنه مركب أساساً من التراب – أي العناصر الأرضية – ثم إن

خلقه الأوّلي هذا لم يتعرض للفناء وحده،بل تسبب في إيجاد غيره،فظل نوعه هكذا يتكاثر عن طريق التوالد والتناسل دون انقطاع.

وكل شخصٍ يتأمل في هذه الوقائع بإمعانٍ ، ستنعدم وتتلاشى من صفحة ذهنه كل مظاهر العظمة الأخرى غير عظمة الله الواحد القهار ، وسيعود بالتالي عبداً شاكراً لله .. ولكن قليل جداً أولئك الذين يتأملون بعمق وجديةٍ ، وللسبب ذاته قليلون جداً مَنْ يقومون بواجب الحمد والشكر لله رب العالمين!!

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ ۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ : ضعنا فيها وصرنا تراباً.

نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ : مطرقوها خزيا وحياءً وندماً .

حَقَّ القَوْلُ : ثبت وتحقق ونفذ القضاء .

الجِنَّةِ : الجن .

إذا وقف المرء بين يدي الله – عز وجل – للحساب ، تلاشت كل معاذيره .. وسيقول الطغاة والمتجبرون يومئذٍ ، وهم منكسو الرؤوس : ها نحن قد أيقنا يا رب ، فردنا إلى الدنيا مرةً أخرى لكي نعمل صالحاً .. غير أن إيمانهم هذا لن يجدي شيئاً .. إذ

لو كان الله سبحانه يريد إيماناً قسرياً كهذا ، لأرغم الناس جميعاً على الإيمان في الحياة الدنيا!. إن القيمة عند الله إنما هي للاعتراف الذي يتم بدون مشاهدةٍ ، أما الاعتراف بعد المشاهدة ، فلا قيمة له مطلقاً !!

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾

تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ : ترتفع وتتنحى للعبادة .

مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ : من موجبات المسرة والفرح.

إن الهداية لا يوفق لها إلا الذين يملكون مزاج تلقي الصدق بالقبول الفوري إذا ما ظهر أمامهم ، حتى ولو تم إظهاره على يد رجلٍ "صغيرٍ" عادي المظهر، ولو كان الإقرار به بمثابة الإقرار على أنفسهم بالخطأ، ولو كان التسليم به مؤدياً إلى هدم خريطة حياتهم من القواعد وإقامتها على أسسٍ أخرى جديدةٍ . إن الذين يتمتعون بهذه الروح المعنوية العالية هم الذين يظفرون بالصدق . وأما الذين يريدون أن يقروا بالصدق إقراراً لا يهدد كبرياءهم، ويضمن بقاء سيادتهم كما هي ، فإنهم لن يوفقوا للظفر بالصدق أبداً .

وإن مَنْ يفقد كبرياءه لأجل الحق يظفر بأكبر شيءٍ في الوجود ؛ ألا وهو كبرياء الله وجلاله ، ويسري الشعور بالله في أعماقه ، ويمتزج في حياته العملية بحيث إنه ينام وهو يذكره، ويقوم من الفراش وهو يذكره ، وتعود مشاعر خوفه ورجائه كلها مرتبطةً بالله وحده .. ويهب نفسه وكل ما عنده لله ، بحيث لا يستبقى منه لذاته شيئاً . وأمثال هذا

هم الذين ستقرّ أعينهم في جنات النعيم الأبدية!!

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

نُزُلاً : ضيافة وعطاء وتكرمة .

المؤمن هو الذي يعترف بالصدق الإلهي ، وأما الفاسق فهو الذي حين يظهر الصدق أمامه ، يقابله بالإنكار والتكذيب حفاظاً على ذاته ومصالحه ، وظاهر أن هذين "دوران" يختلف كل واحدٍ منهما في جوهره عن الآخر تمام الاختلاف ، وأن مصير دورين ، بينهما هذا الاختلاف والتباين ، لن يكون متساوياً ومماثلاً أبداً .

وإن الشخص الذي يعترف بالصدق في العالم الراهن ، يقيم دليلاً على أنه يجعل الصدق أكبر الأشياء إطلاقاً ، ومثل هذا الشخص سيجعل في الآخرة "كبيراً" ، وعلى العكس من ذلك فإن الذي يعرض عن الصدق ، فإنما يعد نفسه هو الأكبر . وسوف يدخل شخص كهذا في عالم الآخرة الحقيقي ، قد جُعل منه أصغر الصاغرين!!

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾

فِي مِرْيَةٍ : في شك .

مِن لِّقَائِهِ : تلقيه إياه بالرضا والقبول .

أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ ؟: أغفلوا ولم يبين لهم مآلهم .

كَمْ أَهْلَكْنَا : كثرة إهلاكنا الأمم السابقة.

الْقُرُونِ : الأمم الخالية .

إن تحميل طائفةٍ ما أمانة الكتاب الإلهي يعني تسليمها مقاليد الإمامة للعالم ، غير أن مقام الإمامة العالمية لا ترتقي إليه طائفة إلا إذا أقامت الدليل على الصبر، وفي تفسير ﴿ لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ روي عن قتادة قوله : "أي لما صبروا عن الدنيا"(١).

والناس لا يدينون بالولاء لجماعةٍ أو شخصٍ ما ، باعتباره إماماً لهم إلا إذا وجدوه يفوقهم بمزايا فكرية وعملية، ويمتاز عليهم بخصائص معنويةٍ سامية ؛ تجعله يعيش للمبدأ في وقتٍ يعيش فيه الناس للمصلحة ، ويتحمس لمناصرة العدل ، عندما يتحمس الناس لمناصرة مطالبهم القومية .. إلخ ، وهذا هو الصبر ، والذين يقيمون الدليل على هذا الصبر ، يُقدر لهم وحدهم أن يكونوا أئمة الشعوب والأمم .

وإن الذين يثيرون الخلافات بين صفوف الأمة باختراع تفاسير جديدةٍ للدين ، إنما يعرّضون أنفسهم لخطر أن يرفضهم الله وما أحدثوه في دينه رفضاً باتاً ، ولا يقع بالتالي في نصيبهم شيء سوى الخزي والهوان الأبدي .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الثالث ، ص٧٧.

وإنه لا يكاد الإنسان ، في أغلب الأحوال ، يتذكر أو يعتبر ، إلا أن يمر عليه بدوره ما مرّ على غيره من قبل!!

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

الأَرْضِ الجُرُزِ : اليابسة التي قطع نباتها .

هَذَا الفَتْحُ : النصر علينا، أو الفصل للخصومة .

يُنظَرُونَ : يمهلون .

لقد كان المشركون في مكة القديمة يتمتعون بالغلبة والتفوق بكل المقاييس ، بينما كان الإسلام مغلوباً مقهوراً من جميع النواحي والاعتبارات ، مما جعل المشركين يسخرون من ضعف الإسلام وسوء حال المسلمين، وقد رد الله تعالى عليهم هنا بضرب مثالٍ بليغٍ فقال : ألستم تشاهدون من دلائل القدرة الإلهية أنه حين تكون بعض بقاع الأرض يابسة جرداء ، بحيث يخيل للناظر وكأنها لن تعود ناضرةً خضراء من جديدٍ أبداً ، يسوق الله نحوها السحب السوداء الثقال ؛ تهطل بالمطر الغزير ، فإذا بتلك البقعة التي كانت قبل أيامٍ يلفها الغبار القاتم والسموم اللافحة إذا بها تكتسي بصنوف النباتات والأزاهير الجميلة ، فالله الذي يقدر على هذا ، قادر أيضاً على أن يمكّن الإسلام من الازدهار والانتشار إلى حدٍ يصير معه هو الفكر الغالب السائد في هذا العصر وفيما يليه من العصور كذلك!!.

سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾

اتَّقِ الله : دُمْ على تقواه أو ازدد منها .

وَكِيلاً : حافظاً مفوضاً إليه كل أمر .

لقد كان رسول الإسلام - ﷺ - داعياً إلى الحق الخالص .. وإن مَنْ ينهض داعياً إلى الحق الخالص في هذه الدنيا ، تواجهه ظروف قاسية وأوضاع مثبطة للغاية .. حيث إنه يعود "غريباً" في مجتمعه بكل معنى الكلمة ، فالناس من حوله بين محبٍ للدنيا لا يروقه دين الداعي القائم أساساً على حب الآخرة ، وبين نفعيّ مساير لتيار العصر تتعارض مصالحه مع ما يدعو إليه الداعي من التجرد والإخلاص الكامل للحق وحده .. ومنهم مَنْ يكون قد أحال الدين "ملحقاً" بمذهبه القومي ، بينما يطالب الداعي بإقامة الدين على أساسٍ من العبودية الإلهية المحضة .

وفي هذه الحالة لو أن الداعي خضع واستسلم لضغوط البيئة ، لوجد في الناس كثيراً من الأعوان والأنصار يلتفون حوله ويقفون إلى جانبه . أما لو أنه ثبت على الحق الخالص ، لم يترك من دون الله ناصراً ولا معيناً ، وليس للداعي ، بأي حالٍ من الأحوال، أن يختار الطريق الأول: طريق الاستسلام والمداهنة. وإنما يتعين عليه أن يثبت على الحق الخالص معتمداً على الله ، واثقاً من أنه تعالى حكيم وعليم ، سينصر

عبده بكل تأكيدٍ ، ولن يخذله أبداً !!

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ۝ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ﴾

تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ : تحرمونهن كحرمة أمهاتكم .

أَدْعِيَاءَكُمْ : من تتبنونهم من أبناء غيركم .

أَقْسَطُ : أعدل .

وَمَوَالِيكُمْ : أولياؤكم في الدين .

إن عدم امتلاك المرء لقلبين اثنين في جوفه ، مما يدل على أن التناقض الفكري لا يتفق وشروع الله التكويني . ولئن كان الإنسان قد مُنح قلباً واحداً ؛ فإن فكره هو الآخر ينبغي أن يكون واحداً ليس غير ، فمن المستحيل أن يكون قلب واحد ملتقى نقيضين في آنٍ واحدٍ : بأن يجمع بين الإخلاص والنفاق ، وبين عبادة الله ، وعبادة الدنيا ، وبين العدل والظلم ، وبين الكبر والتواضع .. إلخ .

إذ المرء لا يسعه إلا أن يكون إلى أحد الجانبين ، وينبغي عليه بالأحرى أن يكون كذلك !!

هذا أمر مبدئي ، تندرج تحته بعض التقاليد التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي مثل : الظهار والتبني،فقد كان من عادة العرب في الجاهلية أن الرجل إذا قال لزوجته :

"أنت عليّ كظهر أمي" طُلقت منه،وصارت محرمة عليه إلى الأبد كما تكون الأم محرمةً على ابنها،وسُمي هذا ظهاراً. وهكذا كان اعتقادهم في الولد المتبنيّ أنه يصير كابن الرجل من صلبه ، وكانوا بالتالي يُجرون عليه أحكام الابن الحقيقي نفسها. وقد أبطل القرآن الكريم هذه العادة الخرافية من الأساس ، وأعلن صراحةً : أنه لما يتنافى تماماً مع النظام التكويني الفطري أن تصبح الزوجة - المظاهر منها - كالأم الحقيقية،أو يمسي المتبني كالابن الصُلبي سواء بسواء .

وإن الله سبحانه ليعفو عن الأخطاء ما دامت هي صادرةً عن جهالةٍ وعدم العلم . أما لو أصر المرء على مسلكه الخاطئ ، حتى بالرغم من بيان حقيقة الأمر له على نحوٍ واضحٍ جليٍ ، فإنه لا يعود بعدئذٍ جديراً بعفو الله وغفرانه !

﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾

أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ : أرأف بهم ، وأنفع لهم .

وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ : مثلهن في تحريم نكاحهن وتعظيم حرمتهن .

وَأُوْلُو الأَرْحَامِ : ذوو القرابات .

إن النبي في حياته شخصياً ، وبعد وفاته مبدئياً ، أحق بأهل الإيمان حتى من أنفسهم . فأمره ينبغي أن يكون مقدماً على كل أمرٍ ، وحبه يجب أن يفوق كل حبٍ؛ ذلك لأن النبي يكون مندوب الله في هذه الدنيا ، ولكي تترسخ عظمة تعاليمه في النفوس ، لابد من أن يكون وجوده مقدساً في أنظار الناس ، حتى تعتبر أزواجه بدورهن بمثابة أمهاتهم في التوقير والاحترام وحرمة النكاح.

وأما بقية أفراد الأمة ، بعد النبي وأزواجه الطاهرات ، فإن أساس علاقات التوارث وتقاضي الحقوق فيما بينهم أخذا وعطاءً ، يقوم على القرابة الرحمية (النسبية) انطلاقاً من الأدنى فالأدنى . وقد يمكن ، بسبب بعض الضرورات الدينية الطارئة ، إقامة شركة مؤقتةٍ في الحقوق مع غير ذوي الأرحام ، كما حدث في أول العهد المدني في أعقاب الهجرة النبوية من المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين ، على أن ذوي الأرحام والقرابات النسبية هم الأولى ، والأحق بعضهم ببعض من حيث التنظيم الاجتماعي العتيد ، وسيظلون كذلك على الدوام!

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾

مِيثَاقَهُمْ : العهد على الوفاء بما حملوا .

مِّيثَاقاً غَلِيظاً : عهدا قويا على الوفاء .

إن المشروع الذي خلق الله الإنسان بمقتضاه هو الامتحان ، أي إسكانه في بيئةٍ حرةٍ مع تزويده بكل أسباب الحياة في العالم الراهن ، ثم مجازاة كل إنسان بما صنع ، إن خيراً فنعيم أبدي ، وإن شراً فعذاب أبدي.

ونوعية الحياة الامتحانية هذه تقتضي بالضرورة أن يتم إعلام الإنسان بالوضع الحقيقي على أكمل وجهٍ ، ولهذا الغرض ذاته أجرى الله سبحانه وتعالى سلسلة النبوة والرسالة . وليست النبوة إعلاناً بواسطة مكبر الصوت ، بل إنها مهمة باهظة التكاليف تتطلب غاية الصبر . ومن ثم أخذ من كل الأنبياء والمرسلين هذا الميثاق المؤكد الغليظ بأنهم سيقومون بأداء مهمة تبليغ الرسالة الخطيرة هذه مع رعاية جميع شروطها وآدابها،

ولن يدخروا أي جهدٍ في سبيل الوفاء بمقتضياتها أبداً !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ : الأحزاب يوم الخندق سنة خمس .

زَاغَتِ الأَبْصَارُ : مالت عن سننها حيرة ودهشة .

وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ : نهايات الحلاقيم (تمثيل لشدة الخوف) .

ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ : اختبروا بالشدائد ومحصوا .

وَزُلْزِلُوا : اضطربوا كثيرا من شدة الفزع .

كانت غزوة الأحزاب (عام ٥ من الهجرة) غارةً مشتركةً من قبائل العرب واليهود على المدينة، وكان عدد المغيرين فيها زهاء اثني عشر ألفاً ، ولم يكن المسلمون قادرين على الالتحام مع هذه الجيوش الضخمة، بيد أن الله تعالى أدخل إلى قلوب الأعداء -بتدابيره الخاصة - رعباً جعلهم ينصرفون بأنفسهم عن أطراف المدينة بعد حصارهم إياها قريباً من شهرٍ ، وإن مثل هذه الأحوال الشديدة إنما تواجه الدعوة الإسلامية لكي تميز المخلص من جماعة المسلمين من غير المخلص ، وثانياً : لتعلم القُوَى المعادية أن الله يتولى بنفسه حماية دينه، وأنه لن يدعه يُقهر ويُغلب على أمره أبداً !

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ

ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَـٰهَدُوا ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

غُرُوراً : قولا باطلاً . أو خداعا .

يَثْرِبَ: اسم المدينة المنورة قديماً .

لاَ مُقَامَ لَكُمْ : لا إقامة لكم ههنا .

إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ : قاصية يُخشى عليها العدو .

فِرَاراً : هربا من القتال مع المؤمنين .

مِنْ أَقْطَارِهَا : نواحيها وجوانبها .

سُئِلُوا الفِتْنَةَ : طلب منهم مقاتلة المسلمين .

وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا : ما أخروا المقاتلة .

يَعْصِمُكُم مِّنَ الله : يمنعكم من قدرة الله تعالى .

طارت نفوس المنافقين شعاعاً لما عرفوا مبلغ الخطر المحدق في غزوة الأحزاب .. وراحوا يبحثون عن المهارب للفرار بأنفسهم ، وأما أهل الإيمان الصادقون فقد ظلوا صامدين اعتماداً على الله ؛ لكونهم يعلمون جيداً أنه ليس أمامهم سوى الله ، وليس وراءهم سوى الله كذلك ، إذاً ، فالفرار من خطر أعداء الإسلام تعريض للنفس لبطش الله الذي عذابه أشد وعاقبته

أوخم .. وقد كانت أفئدتهم مشحونة بيقين يؤكد لهم: إننا لو ثبتنا في مواجهة العدو، لجاءنا نصر من الله وفتح قريب ، أما لو فررنا هاربين من جبهة الدفاع عن حمى الإسلام ، فإننا لن نستطيع إنقاذ أنفسنا آخر الأمر من الخزي والدمار حتى في هذه الدنيا، فضلاً عما سنلقاه في الآخرة من عقاب الله الشديد!

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾

الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ : المثبطين منكم عن الرسول ﷺ .

هَلُمَّ إِلَيْنَا : أقبلوا أو قربوا أنفسكم إلينا .

الْبَأْسَ : الحرب والقتال .

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ : بخلاء عليكم بكل ما ينفعكم .

يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ : تصيبه الغشية من سكراته.

سَلَقُوكُم : آذوكم ورموكم .

بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ : ذربة سليطة قاطعة كالحديد .

أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ : بخلاء حريصين على المال والغنيمة .

فَأَحْبَطَ الله : فأبطل الله .

بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ : كانوا معهم في البادية .

هناك رجل لو تخلف أو تهاون يوماً في الاستجابة لداعي الفداء والتضحية، لاعتراه ندم يعقد لسانه ، وآخر لا يتقدم للفداء والتضحية حين يُدعى إليها فحسب، بل يسعى لصدّ الآخرين عنها كذلك ، إن هذا إضافة التمرد إلى جانب التهاون ، وقد يمكن أن يقابل التهاون بالعفو ، ولكن التمرد غير جدير بالعفو البتة .

والذين تنطوي نفوسهم على التمرد والعناد ، لا قيمة لأعمالهم ولا يقام لها وزن .. حتى لو كانت صالحةً طيبةً في ظاهر الأمر ، فإن روح العمل الأصيل هو الإخلاص ، وهو الذي تخلو منه قلوب القوم كل الخلو .

وعدم التضحية للدين يكون دوْماً نتيجة حب الدنيا ؛ فالمرء يفقد دينه من أجل الحفاظ على دنياه ؛ ومن ثم فحيثما يجد أمثال هذا أن الدين قد اقترنت به بعض الفوائد الدنيوية أيضاً ، فإنهم يلجؤون هناك إلى استخدام مهارتهم الكلامية ، لكي يتمكنوا من الحصول على أوفر قسطٍ من المغانم إيهاماً للمؤمنين بأن صلتهم بالدين لا تقل عن أحدهم متانةً بل تزيد ، وغيرتهم عليه مثل غيرتهم بل أشد ، وأما حيث يكون معنى الدين هو التضحية فلا يشعرون هناك بحاجةٍ أو رغبةٍ ما في إظهار التدين !

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ : قدوة صالحة في كل الأمور .

قَضَى نَحْبَهُ : وفي بنذره . أو مات شهيدا .

إن حياة الرسول وأصحابه تمثل نموذجاً دائماً للحياة العابدة لله يحتذي به أهل الإيمان إلى يوم القيامة .. إنها نموذج نتبين من خلاله ماذا يعني رجاء الله واليوم الآخر، وما معنى ذكر الله كثيراً ، وما الصمود في وجه المآزق الحرجة والظروف الصعبة، وكيف تكون الثقة في مواعيد الله، وما الإيمان الذي ينمو ويتجدد دائماً ، وكيف السبيل إلى الفوز به .. وما أسلوب الوفاء بالعهد الذي يعاهد المؤمن عليه ربه ؟!

ولقد قدّم الرسول وأصحابه أرفع نموذج عملي لهذه المعاني كلها ، فما وهنوا ولا ضعفوا ولا استكانوا في أحلك الظروف وأحرج الساعات . وقد أقاموا الدليل الباهر على الفكر الإسلامي والخلق الإسلامي في كل الشؤون والقضايا التي عالجوها أفراداً وجماعاتٍ .. وكانوا متمسكين بالحق قبل أن يمتحنوا ، كما ظلوا ثابتين على جادة الحق حتى في أثناء المحنة وبعدها ، لم يحيدوا عنها قيد شعرةٍ.

ثم إن حياة الرسول وأصحابه هي أيضاً النموذج الحي لحقيقة أن مصير فردٍ أو جماعةٍ ما لا يتقرر عند الله بدون امتحان ، فقد جرت سنة الله بخلق الظروف القاسية والأزمات لكي يتميز المؤمنون الصادقون من المدّعين الكاذبين ، ولم يكن في هذه السنة الإلهية أي استثناء من قبل ، ولن يكون هناك أي استثناء فيها .

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾

الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم : يهود قريظة الذين عاونوا الأحزاب .

صَيَاصِيهِمْ : حصونهم ومعاقلهم .

الرُّعْبَ : الخوف الشديد .

كانت الظروف في غزوة الخندق (الأحزاب) قد بلغت منتهى الشدة ، ولكن لم تندلع هناك نار الحرب الفعلية بين الفريقين ، حيث كفى الله المؤمنين القتال بأن أرسل ريحاً عاصفةً هوجاء وجنوداً من الملائكة ملأت قلوب الأعداء ذعراً ويأساً دفعهم إلى الانسحاب والعودة على أدراجهم . وقد كان ليهود المدينة (بني قريظة) مع المسلمين عهد الموادعة ، ولكنهم غدروا في تلك الساعة الحرجة ، فنقضوا العهد وانضموا إلى صفوف المشركين .

فلما انصرفت حشود المهاجمين عن المدينة ، زحف رسول الله - ﷺ - بأمرٍ من الله على مستوطنات بني قريظة ، حيث ضرب المسلمون حصاراً مشدوداً حول حصونهم وقلاعهم ، وظل هذا الحصار خمساً وعشرين ليلةً ، إلى أن تم تحكيم سعد بن معاذ بناء على طلب سادة بني قريظة أنفسهم ، وقد حكم سعد بن معاذ فيهم ما هو مقرر في شريعة التوراة نفسها للمجرمين أمثالهم ، أي أن يقتل شبانهم ، وتسبى نساؤهم وأطفالهم ، وتصادر أموالهم وعقاراتهم !! [1].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

(١) انظر : سفر التثنية ٢٠ : ١٠ -١٤.

أُمَتِّعْكُنَّ : أعطيكن متعة الطلاق .

وَأُسَرِّحْكُنَّ : أطلقكن.

سَرَاحاً جَمِيلاً : طلاقا حسنا لا ضرار فيه .

بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ :بمعصية كبيرة ظاهرة القبح .

تعطلت أنشطة المسلمين التجارية بسبب الهجرة ، هذا إلى جانب أنهم دخلوا في سلسلة حروبٍ متصلةٍ أضرمها أعداء الإسلام ، وترتب على ذلك أن بلغت حالة المسلمين الاقتصادية منتهى السوء والتردي ، وقد انعكست آثار ذلك على بيت الرسول - ﷺ - في أسوأ مظاهرها، حيث صار من المتعذر عليه حتى القيام بتوفير الحاجيّات الأساسية اللازمة لأهله .. إلى أن بدأت أزواجه - عليه الصلاة والسلام - في مطالبته بالزيادة في نفقاتهن .

إن الأزواج المطهرات لم يطالبن إلا بالنفقة الضرورية، ولكن الله سبحانه عبر عنها بزينة الحياة الدنيا ، وهذا في الحقيقة شدة في الإظهار ،كما أن كلمة "الفاحشة" هي الأخرى إنما جاءت هنا للغرض نفسه ، فقد كان رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم- مكلفاً بتكميل أعظم رسالةٍ في التاريخ البشري، ألا وهي القضاء على عصر الشرك ، وتأسيس عصر التوحيد ، وبالتالي كان مستحيلاً عليه - والحالة هذه - أن يعطي الأهمية لأي شيءٍ آخر في حياته؛ ومن ثم نزل الوحي يخيّر زوجات الرسول بين أمرين لا ثالث لهما: إما مرافقته - عليه الصلاة والسلام - بالصبر والقناعة ، أو مفارقته بالمعروف والإحسان ، أما إحراج الرسول وتشتيت فكره بإثارة النزاعات العائلية ، فذلك ما لا يُحتمل بأي حالٍ من الأحوال !

﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا

لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾

يَقْنُتْ مِنكُنَّ : تطع أو تخضع منكن .

فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ : لا تلن القول ولا ترققنه للرجال .

إن نساء النبي كن يتمتعن بمكانةٍ شبه قيادية في المجتمع . والقيادة مسئولية باهظة التكاليف ، حيث يضطر أصحابها في سبيل الخضوع للحق إلى تقديم تضحية أكبر من الرجل العادي ، ولهذا السبب وعد الله تعالى أمثال هؤلاء بالأجر المضاعف ، فلئن كان هؤلاء يستخدمون للعمل قوة إرادية أكثر بالقياس إلى غيرهم ، فإنهم يستحقون بالطبع أن ينالوا على أعمالهم جزاءً أكثر وأوفر من الآخرين .

وقد كانت نساء النبي ، لمكانتهن الخصوصية هذه ، يتكرر اتصال الآخرين بهن من حينٍ إلى حينٍ ، إذْ كان الناس كثيراً ما يختلفون إليهن للاستفسار في شتى الأمور الدينية .. ومن ثم أمرن بالتحدث إلى الآخرين بأسلوبٍ فيه شيء من الخشونة والجفاف، وليس بأسلوب يتسم بالرقة وعدم الكلفة كما يكون الحديث مع أحد الأقارب وذوي الأرحام!.

﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ : الزمن بيوتكن وكذا جميع النساء .

وَلاَ تَبَرَّجْنَ :لا تبدين الزينة الواجب سترها .

الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى : ما كان قبل الإسلام من الجهالات .

الرِّجْسَ : الذنب أو الإثم أو النقص .

وَالْحِكْمَةِ : هدي النبوة أو أحكام القرآن .

في خطابٍ موجهٍ إلى أزواج الرسول يرشد الله تعالى هنا نساء المسلمين إلى كيفية معاشرتهن في البيوت ، فينبغي لهن - مبدئياً - أن يقرن في بيوتهن ، وألا يتخذن من التبرج والترفل في الحلل والحلي مقصدهن في الحياة كشأن النسوة الغارقات في حب الدنيا المبهورات بزخارفها ، بل يجب أن يكون مركز اهتمامهن أن يصبحن عابداتٍ لله حقاً ، باذلاتٍ أموالهن في سبيل الله بسخاءٍ ، ويبادرن إلى امتثال أمر الله ورسوله في كل شئون الحياة ، صغيرها وكبيرها ؛ وافق هواهن أو خالفه ، ويقضين معظم أوقاتهن في الاستماع إلى أحاديث الله ورسوله وتدبر معانيها ، وهذا أسلوب للحياة والمعاشرة يجعل مَنْ يتبعه إنساناً طاهراً وإنما الإنسان الطاهر هو الذي يحبه الله ويقع عند الله موقع الرضا والقبول!

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

وَالْقَانِتِينَ : المطيعين الخاضعين لله .

هذه الآية الكريمة تبين لنا ما هي الصفات التي يريد الله أن يراها في الرجال أو

النساء، إنها الصفات العشر التالية : الإسلام ، والإيمان ، والقنوت ، والصدق ، والصبر ، والخشوع، والتصدق ، والصيام ، والعفة ، وذكر الله .

وإن هذه الكلمات العشر لم تدع جانباً من جوانب العقيدة الإسلامية والسلوك الإسلامي إلا احتوته ، وخلاصتها أن كل شخصٍ يرجو المغفرة والإنعام عند الله ؛ ينبغي له أن يجعل من نفسه خاضعاً لأمر الله ، وموقناً بالله ، وأن ينقطع بوجوده كله لله ، وأن تكون حياته خاليةً من التناقض بين القول والفعل ، ويكون صامداً ثابتاً على الحق في كل الظروف والأحوال ، وأن يكون الشعور بعظمة الله وجلاله قد جعله إنساناً متواضعاً ؛ فصار يعد حتى القيام بسد حاجات الآخرين جزءاً من مسئوليته ، ويهتم بالصيام الذي هو تربية لضبط النفس، وأن يكون عفيفاً طاهر الذيل في مواجهة الرغبات الشهوانية ، وأن تصير آناء ليله وأطراف نهاره عامرةً بذكر الله سبحانه وتعالى. وهذه الأوصاف كما هي مطلوبة من الرجال، مطلوبة من النساء كذلك ، ومع أن دائرة ممارسة هذه الأوصاف تختلف من جنسٍ إلى آخر من بعض النواحي ، إلا أن الأوصاف نفسها متماثلة لكلا الجنسين على حدٍ سواء ، فأيما امرأةٍ أو رجلٍ لن يعد عند الله جديراً بالقبول إلا إذا وصل إليه تعالى متحلياً بالصفات العشر المذكورة أعلاه !!

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾

الخِيَرَةُ : الاختيار .

إن الإنسان خُلق مختاراً ؛ وهو مُطالب بتفويض اختياره هذا إلى الله. وذلك هو امتحان الإنسان الحقيقي في العالم الراهن. وإنما المهتدي إلى الصراط المستقيم حقاً هو الذي يجتاز هذا الامتحان الخطير بنجاحٍ .

ومن الأمثلة على ذلك : واقعة زواج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش؛ فقد كان زيد عبداً مُعتقاً ، بينما كانت زينب - وهي ابنة أميمة بنت عبد المطلب - تنتمي إلى أسرةٍ عاليةٍ من قريشٍ. ولما خطبها رسول الله - ﷺ - على مولاه زيد ، لم يرض أفراد أسرتها بذلك ، حتى امتنعت زينب بنفسها قائلةً : "أنا خير منه نسباً" ، ولكن حين تُليت عليهم الآية القرآنية المذكورة ، أذعنوا من فورهم ؛ فتم زواجهما في العام الرابع من الهجرة، تلك هي طبيعة الإسلام ، وما أحراها أن تكون هي طبيعة كل مسلمٍ ومسلمة!

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾

وَطَراً : حاجته المهمة كناية عن الطلاق .

حَرَجٌ : ضيق أو إثم .

أَدْعِيَائِهِمْ : من تبنوهم قبل نسخ التبني .

تزوج زيد من السيدة زينب في السنة الرابعة من الهجرة ، ولكنهما كانا في حياتهما الزوجية كالتنوين والإضافة - إن جاز التعبير - فتعذر الوفاق بينهما ، مما أدى إلى الفصل بينهما في العام التالي ، ولما جاء زيد إلى رسول الله - ﷺ - يستأذنه في تطليق زوجته ، سأله عن السبب ، فأجاب قائلاً : "إنها تتعظم علي لشرفها"، بيد أن النبي لم يسمح له بذلك بادئ ذي بدءٍ وقال : أمسك عليك زوجك واتق الله ، ولكنه عندما تكررت شكواه ، وزاد إلحاحه ، أذن له آخر الأمر في أن يفارق زينب .

ومن خلال تزويج زينب من زيد كان قد تم القضاء أولاً على عادةٍ متأصلةٍ في

نفوس العرب ؛ قائمةٍ على دوافع العصبية وحدها ، وهي أن الفوارق الاجتماعية لا ينبغي أن تقف عقبةً في طريق النكاح والزواج ، وأما بعد أن وقع الفصل بينهما ، فقد شاءت إرادة الله أن تكون هذه الحادثة سبباً في تحطيم عادةٍ خاطئةٍ أخرى .

فمن عادات العرب في الجاهلية أنهم كانوا يعتدّون المتبني كالابن الصلبي تماماً ، وبالتالي كانوا يجرون عليه أحكامه حتى في الميراث وفي حرمة النسب والمصاهرة. ولهدم هذه العادة ربما لم تكن هناك من صورةٍ عمليةٍ أفضل من أن يتم تزويج زينب من رسول الله - ﷺ- بعد تطليق زيد إياها ، حيث كان زيد مولى رسول الله تبناه، حتى صار يُدعى زيد بن محمدٍ ، وفي هذه الحالة كان زواجه - عليه الصلاة والسلام - من زوجة متبنّاه ، بمثابة انفجارٍ ضد هذه العادة ؛ إذْ كانوا يعتقدون أن حليلة المتبني محرمة على الأب كحرمة حليلة ابنه الحقيقي .

وكان رسول الله - ﷺ- قد تم إعلامه مسبقاً بأن زينب ستدخل بعد أن يطلقها زيد في عداد أزواجه ، كوسيلةٍ لإبطال هذه العادة الجاهلية، وبما أن نكاحاً كهذا كان من شأنه أن يجعله عرضةً للطعن والتشويه في المجتمع القديم ، لذا فما زال رسول الله - ﷺ- ينصح زيداً بإمساك زوجه عليه ، عساه ، إن لم يطلقها ، أن يتخلص من هذه المحنة الشديدة ، بيد أن الأمر المقدر في العلم الإلهي لابد أن يتحقق ، لا يحول دونه شيء ؛ فلم يلبث زيد أن طلق زينب ، التي زُوِّجت بعد ذلك من النبي - ﷺ- في عام ٥ من الهجرة، كتدبيرٍ عمليٍ لنقض تلك العادة البالية من أساسها!!

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن

رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

فَرَضَ الله لَهُ : قسم له أو قدر أو أحل له .

خَلَوْا مِن قَبْلُ : مضوا من قبلك من الأنبياء .

قَدَراً مَّقْدُوراً : مرادا أزلا أو قضاء مقضيا .

حَسِيباً : محاسبا على الأعمال .

وعقب هذا الحادث ، وكما كان متوقعاً ، بدأت الدعايات المغرضة ضده - عليه الصلاة والسلام - على قدمٍ وساقٍ ، ودار على ألسنة الناس أن محمداً تزوج حليلة ابنه ، بينما تكون حليلة الابن حراماً على أبيه ، فقال تعالى رداً على تلك الأقاويل : إن محمداً لم يُرزق من الولد سوى البنات ، وإنه ليس أبا أحدٍ من الرجال ، أما زيد بن حارثة ، فإنما هو مولاه الذي تبناه ، ومتى كان المتبني ابناً حقيقياً ، حتى يكون الزواج من طليقته محرماً على من تبناه!؟.

ولمَ تعرض - عليه الصلاة والسلام - في حياته لهذه التقلبات وأحداث المدّ والجزر ، مع أنه كان رسول الله ؟!.

وجواب ذلك : أن الرسول مع كونه يتلقى الوحي من الله سبحانه وتعالى إلا أنه ملزماً أن يعيش عيشة البشر العاديين ، فيواجهه في عالم الامتحان الراهن من الأحوال والظروف ما يواجه الآخرين عداه ، ولولا ذلك ، لم تكن حياة النبي حجةً على عامة البشر ، وهذا هو السر في أن التوجيه النبوي إنما يُقدم في قالب الظروف الحقيقية ، وليس في قالب الظروف الخيالية المصطنعة ..

إن خاتم النبيين يعني حرفياً: هو الذي ختمت به النبوات والرسالات السماوية ، وكلمة "الخاتم" لا ترد بمعنى الطابع (Stamp) ، بل بمعنى المهر أو الختم (Seal) ، أي

العملية الختامية ، وختم الغلاف معناه إغلاقه بصورةٍ نهائيةٍ لا يدخل إليه أو يخرج منه بعدها شيء ، ومن هنا تقول العرب : "خاتم القوم آخرهم" .

وإعلان كونه - عليه الصلاة والسلام - "خاتم النبيين" في سياق هذا الحادث ذاته ، إن دل على شيءٍ فإنما يدل على أنه إذا كان لا نبي بعده ، صار من الضروري أن يتم إظهار كل الأحكام الإلهية والتوجيهات الربانية عن طريقه - ﷺ !

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾

بُكْرَةً وَأَصِيلًا : أول النهار وآخره .

إن اعتناق الدين الحق ، لا سيما في بيئةٍ يسودها الدين الزائف المغشوش ، يكون دوماً أصعب الأعمال على الإطلاق ، مما يجعل أهل الإيمان تغمرهم أحياناً مشاعر التذمر والخيبة واليأس ، وليس هناك لتفادي هذا الوضع غير طريق واحدٍ ، ألا وهو تركيز الأنظار على الجانب الحلو الجميل الذي يكمن وراء المنغصات والمثبطات الظاهرة ..

الناس في الغالب يعيشون على الماديات ، أما المؤمن فإنه يُضطر إلى أن يعيش على الأفكار (Ideas) ، والعيش على مستوى الأفكار يعني أن يعيش المرء غارقاً في ذكر الله الدائم ، وتأخذ آذانه تلتقط همسات الملائكة غير المسموعة، وينظر إلى الاكتشاف الفكري الذي يتوصل إليه في صورة الهدف الصحيح ، ينظر إليه على أنه هو الشيء الأكبر في الحياة ، ويمتلئ قلبه رضاً وطمأنينةٍ بما سيفوز به في الآخرة مقابل الدنيا يضحي بها في سبيل الحق!

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

إن "الشاهد"، و"المبشر"، و"النذير"، و"الداعي"، كلها كلمات تعبر عن جوانب مختلفةٍ لحقيقة واحدةٍ، ورسالة النبي تتلخص في إعلام الناس بحقيقة الحياة، وإخبارهم بأحوال الجنّة والنار، وهذه مهمة دعوية، وعلى أساس هذه المهمة الدعوية ذاتها سوف يدلي النبي بشهادته أمام محكمة الآخرة على أولئك الذين أبلغ إليهم أمر الحق في الدنيا؛ فمنهم مَنْ آمن به ومنهم مَنْ كفر وناصبه العداء.

ورسالة النبي هي نفسها رسالة الأمة المسلمة كذلك، وفي هذا الطريق لابد من مواجهة شتى ألوان الأذى وضروب الإساءة من قبل الناس؛ فقد لا يخرج من بينهم نصير واحد للحق، وقد يقف بعضهم إلى جانبه ويناصره لبعض الوقت، ثم لا يلبث أن يتخلى عنه وينسحب هو الآخر مردداً بعض الألفاظ الكاذبة. وفي مثل هذه الأحوال فإن التوكل على الله وحده، هو العامل الوحيد الذي من شأنه أن يُثبت أقدام النبي – أو الدعاة السائرين على هداه – على العمل الدعوي، فالصبر على أذى الناس والإعراض عن إساءاتهم، والتوجه الدائم إلى الله على كل حالٍ، هما رأس مال العاملين في مجال الدعوة الإسلامية.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

سَرَاحاً جَمِيلاً: عاريا عن أذى ومنع واجب.

يتزوج رجل من امرأةٍ ، ثم يطلقها قبل المساس أو الاتصال الزوجي ، فلا تجب العدة في هذه الحالة كما هو الشأن في حالات الطلاق العادية على أن من مقتضى الخلق الإسلامي أن تجري عملية التفريق بين الزوجين على نحوٍ مهذبٍ شريفٍ تماماً كما جرت به عملية الاقتران بينهما ، فلئن كانت المرأة قد فرض لها مهر ، فعلى الزوج أن يدفع إليها نصف المهر المفروض ، وألا يودعها بإحسانٍ بعد أن يمتّعها بشيءٍ حسب سعته ووفقاً للعرف السائد ، وللمرأة - إذا شاءت - حق في أن تتزوج بعد ذلك من أي رجلٍ آخر على الفور ؛ حيث إنها غير ملزمةٍ في هذه الحالة بقضاء العدة كما تقدم!

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾

آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ: أعطيتهن مهورهن .

أَفَاءَ الله عَلَيْكَ : رجعه إليك من الغنيمة .

لقد حُصر عدد الزوجات ، بالنسبة إلى عامة المسلمين ، في أربع لا يحل تجاوزه ، غير أن النبي - ﷺ - لم يكن ملزماً بهذا القيد ، حيث تزوج - عليه الصلاة والسلام - بإذنٍ خصوصي من الله - سبحانه وتعالى - بأكثر من أربع نسوةٍ . وقد كانت الحكمة من ذلك ألا يكون على الرسول أي نوعٍ من الحرج أو المشقة .

والمراد بالمشقة هو المشقة في أداء المهمة النبوية ، فبالنظر إلى شتى الأغراض الدعوية والمقتضيات الإصلاحية والتعليمية كان رسول الله - ﷺ - يشعر بالحاجة إلى التزوج

بعددٍ أكثر من النساء ، وبناءً على هذه المصلحة الدينية ، لم يوجب الله عليه الاكتفاء بالأربع كما أوجبه على المؤمنين ، وعلى سبيل المثال فقد كانت الحكمة من زواجه بالسيدة عائشة أن تكون بصحبته الدائمة امرأة صغيرة السن حادة الذكاء قوية الحافظة لكي تقوم بعده - عليه الصلاة والسلام - بتعليم الناس أمور دينهم لمدةٍ طويلةٍ من الزمان ، ولقد ظلت السيدة عائشة بالفعل ، بعد وفاته - ﷺ - نصف قرنٍ تقريباً ، تنقل للأمة أقواله وأخباره وأفعاله المنزلية كشريطٍ مسجل حيٍ ، كما نتج عن زواجه من السيدتين أم سلمة وأم حبيبة أن انتهت خصومة خالد بن الوليد وأبي سفيان بن حرب وخمدت عداوتهما لرسول الإسلام والمؤمنين به إلى الأبد ... وما إلى ذلك .

﴿ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾

تُرْجِي : تؤخر ولا تضاجع .

وَتُؤْوِي إِلَيْكَ : تضم إليك وتضاجع .

ابْتَغَيْتَ : طلبت .

عَزَلْتَ : اجتنبت بالإرجاء.

رَقِيباً : حفيظا ومطلعا .

يكثر إمكان التخاصم أو التظالم إلى حدٍ بعيدٍ حيث يتعلق الأمر بأكثر من امرأةٍ ،

ولقد كانت تحت رسول الله - ﷺ - عدة نساءٍ ، وكان من المحذور ، بناءً على ذلك ، أن تشكو زوجاته من عدم التسوية بينهن في حقوق الزوجية ، وبالتالي لا يتمكن - عليه السلام - من التفرغ لأداء مهمته الدينية والقيام بأعبائها على أحسن وجهٍ وأكمله ، ومن ثم أعلن الله - سبحانه وتعالى - مقرراً أن أمر النبي أمر خصوصي ، وهو غير ملزمٍ كآحاد المسلمين بالتسوية بين الأزواج ، فإذا ما تعارضت حقوق الزوجية مع حقوق الإسلام، جاز للنبي أن يفضل الأخيرة على الأولى ، وقد كان الغرض من استثناء الرسول - ﷺ - من القاعدة العامة: الحيلولة دون تولّد العقلية الاحتجاجية في زوجاته الطاهرات.. بيد أن الرسول - ﷺ - لم يستعمل هذا التخيير عملياً إلا في القليل النادر!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾

غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ : غير منتظرين نضجه واستواءه .

فَانتَشِرُوا : فتفرقوا ولا تمكثوا عنده.

سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً : حاجة ينتفع بها .

في معرض بيان الأحكام الخاصة برسول الله - ﷺ - تم إرشاد المسلمين هنا إلى

آدابٍ ساميـةٍ لابـد مـن مراعاتهـا في حيـاتهم الاجتماعيـة ، فيجـب ألا يـدخلوا بيـوت الآخـرين إلا بعـد الاسـتئذان ، وإذا دعـاهم أحـد لتنـاول الطعـام في منزلـه أو لأي غرضٍ آخر ، فلا يطيلوا المكث عنده إلا بقدر الحاجة ، وليعودوا أدراجهم فور تفرغهم من ذلك ، وليجتنبوا الخوض في الأحاديث غير الضرورية فيما إذا توجهوا لزيارة بعض إخوانهم ، وإن كان الأمر يتعلق بالنساء ، فليؤدوه من وراء حاجزٍ وحجابٍ .. إلخ.

وفي الحياة الاجتماعية ينبغي على كل فردٍ ألا يضع نصب عينه مجرد رغبته أو حاجته الذاتية وحدها ، بل عليه أن يأخذ في اعتباره دائماً ألا يتسبب سلوكه في إلحاق الأذى أو الضرر بغيره ، ولا تكون أحاديثه غير الضرورية مضيعة لأوقات أخيه الثمينة!!.

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾

كـان الرجـال ، بموجـب الآيـة الـسابقة (٥٣) قـد نُهـوا عـن مخاطبـة أزواج الرسـول مباشرةً – أي وجهاً لوجهٍ – وأمروا بالتحدث إليهن مـن وراء حـاجزٍ وحجـابٍ ، وقـد جاءت هذه الآية (٥٥) تستثني المحارم من الرجال والنساء من وجوب الاحتجاب من بعضهم ، وسيندرج تحت قائمة الأقارب المذكورين هنا تلـك القرابـات التـي تـدخل في حكمهم، وهذا التوجيه القرآني قد سبق ذكـره بمزيـدٍ مـن التفـصيل في الآيـة (٣١) مـن سورة النور .

وخلاصة كل الأحكام الشرعية هي: أن كل إنسانٍ – ذكـراً كـان أو أنثـى – يجـب أن يكـون قلبـه مفعـماً بخـوف الله وتقـواه ، ويـمارس حياتـه آخـذاً في حـسبانه أن الله – عـز وجل– يراقبه كل حينٍ وآنٍ !

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾ ﴾

يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ : يثنون عليه بإظهار شرفه وتعظيم شأنه ﷺ .

بُهْتَاناً : فعلا شنيعاً أو كذباً فظيعا .

لقد بُعث رسول الله – ﷺ – لإظهار دين الله في هذا العالم، وإن العبد الذي ينهض لعملٍ مقدسٍ كهذا – يحظى ولا ريب – بتأييد كاملٍ شاملٍ من الله وملائكته ، وبالتالي يكون مسايرته مسايرةً لله وملائكته، والإعراض عنه إعراضاً عن الله وملائكته .

وإن الذين تناولوا رسول الله بصنوف الأذى ، كان في حسبانهم أنهم إنما يؤذون أحد البشر، وغاب عنهم أنهم يؤذون في الواقع ممثل الله، والذين يتناولون ممثل الله بالأذى ، فإنما يجعلون من أنفسهم ملعونين عند مالك الكون إلى أبد الآبدين!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾ ﴾

يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ : يرخين ويسدلن عليهن .

جَلابِيبِهِنَّ : ما يسترن به كالملاءة .

وَالْمُرْجِفُونَ : المشيعون للأخبار الكاذبة .

لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ : لنسلطنك عليهم .

ثُقِفُوا : وجدوا وأُدركوا .

كيف تخرج المرأة المسلمة ، فيما إذا ألجأتها الضرورة إلى الخروج من بيتها ؟ ينبغي لها أن تخرج وهي مرتدية لباساً سابغاً يكون في ذاته إعلاناً صامتاً بأنها امرأة نبيلة ومتعفّفة، وأنها إنما خرجت لغرضٍ جادٍ وليس للتسلية ، وإن المشية الوقورة المحتشمة ، وكون البدن مغطى بالملحفة أو البرقع لمن علامات تلك الجدية والاحتشام والوقار ، والحقيقة هي أن المرأة إذا ما خرجت سافرةً متبرجة فكأنها تدعو الآخرين إلى التلفت نحوها وتعقبها بالنظرات الجارحة والتعليقات الماجنة . وأما إذا خرجت غير سافرة ولا متبرجةٍ فكأنما تقول للآخرين بلسان حالها : إنما أنا خرجت لأمرٍ يهمني ، وليس لي معكم من شأنٍ !!

ولعل المراد بـ"مرضى القلوب" هنا هم اليهود، إذْ أنهم هم الذين كانوا كثيراً ما يؤذون المسلمين والمسلمات كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، وهم الذين كانوا قد قُتلوا أو تم نفيهم عن المدينة وضواحيها وفق التحذير المذكور أعلاه!!

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾

يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ : يرخين ويسدلن عليهن .

جَلَابِيبِهِنَّ : ما يسترن به كالملاءة .

وَالْمُرْجِفُونَ : المشيعون للأخبار الكاذبة .

لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ : لنسلطنك عليهم .

ثُقِفُوا : وجدوا وأُدركوا .

إن السؤال عن وقت قيام الساعة على التحديد لا يعني أنهم لم يكونوا مؤمنين بقيام الساعة أصلاً، فالواقع أنه لم يكن استهزاءً بالقيامة ، بل بالذي جاء يخبر عن القيامة وينذر من أهوالها . إنهم لم يكونوا منكرين للقيامة في ظاهر الأمر ، وإنما منكرين لنوعية القيامة تلك،التي كان ينبئهم بها رسول الله وأصحابه .

وكان خطؤهم الحقيقي يكمن في أنهم قد اعتبروا رؤساء قومهم كبراء ، ولم يعتبروا الرسول كبيراً ؛ مما جعلهم يعدون حديث كبرائهم القوميين جديراً بالاعتبار ، ويعدون حديث الرسول غير ذي قيمةٍ ولا جدير بالاعتبار ، ومن ثم فحين تنكشف عليهم الحقيقة يوم القيامة ، يندمون أشد الندم قائلين : يا ليتنا أدركنا الفرق بين الكبرياء الزائف والكبرياء الصادق ، ولم نكن قد ضللنا وانحرفنا عن السبيل منخدعين ببريق الكبرياء الزائف !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

وَجِيهاً : ذا جاه وقدر مستجاب الدعوة .

قَوْلاً سَدِيداً : صواباً أو صدقاً أو قاصدا إلى الحق .

ما المراد بالنهي عن إيذاء "الرسول كاليهود الذين آذوا رسولهم موسى" ؟

يمكننا أن نفهم ذلك في ضوء واقعةٍ رواها الإمام أحمد ، نقلاً عن عبد الله بن مسعود قال : "قسم رسول الله - ﷺ - ذات يومٍ بين الناس مالاً ، فقال رجل من الأنصار : والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة" ، ولما ذُكر ذلك للنبي - ﷺ - قال : "رحمة الله على موسى ، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر" [١].

الكلام نوعان ، سديد وغير سديدٍ . أما الكلام السديد فهو الذي يطابق الحقيقة كل المطابقة ، والذي يكون مبنياً على التحليل الواقعي ، مصحوباً بالدلائل القوية الصلبة، وأما الكلام غير السديد فهو - بالعكس - الكلام الذي لا يراعي الحقيقة ، وإنما يقوم على أساسٍ من الظن والتخمين ، والذي لا يعدو كونه رأياً ارتآه صاحبه ، دون أن يكون تعبيراً عن الحقيقة الواقعة . إن النوع الأول هو كلام المؤمن ، والنوع الأخير هو كلام المنافق!!

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾

عَرَضْنَا الأَمَانَةَ : التكاليف من أوامر ونواهٍ .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الثالث ، ص١١٦.

فَأَبَيْنَ : امتنعن .

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا : خفن من الخيانة فيها .

المقصود بالأمانة: الاختيار. وإنما عبر عن الاختيار بلفظ الأمانة؛لأنه وديعة من الله خوّلها إلى الإنسان على سبيل الابتلاء لفترةٍ محدودةٍ من الزمان؛حتى يأخذ الإنسان نفسه بطاعة الله تعالى بمحض إرادته،والأمانة، بمعنى آخر،هي أن نقوم على أنفسنا ونتعهدها كنائبين عن الله،فنفعل بها ما يفعل الله بالنجوم والكواكب وسائر موجودات هذا الكون الفسيح، أي نخضع أنفسنا بإرادتنا واختيارنا لسيطرة الله المطلقة.

لا حاكم في هذا الكون إلا الله، وكل ما عداه محكوم ، ولكن شاءت إرادة الله – سبحانه وتعالى – أن يخلق كائناً حراً يمتثل لأمر خالقه باختياره الذاتي ، وبدون أي قهرٍ أو إجبارٍ خارجي . وقد كانت هذه الطاعة الاختيارية بلاءً جد عظيم؛عجز عن تحمل أعبائها حتى السماوات والأرض والجبال،ولكن الإنسان أخذها على عاتقه رغم خطرها الشديد. وقد صار الإنسان بذلك أميناً على أمانة إلهيةٍ في هذه الأرض. وهو الآن مطالب بأن يفعل بنفسه ما يفعله الله بالأشياء الأخرى . وهو مكلف بتنفيذ أحكام الله على نفسه بنفسه. إن الإنسان في حالة امتحانٍ،وهذا العالم الراهن هو بالنسبة إليه قاعة الامتحان الفسيحة.

وهذه الأمانة مسئولية جسيمة بالغة الخطورة ؛ لأنها مناط التكليف ، وعليها تترتب مسألة الثواب والعقاب ، وبما أن المخلوقات الأخرى مجبورة مقهورة ، لا تواجهها مسألة الثواب والعقاب . أما الإنسان فلكونه مختاراً حر التصرف يستحق الثواب أو العقاب بحسب عمله.

وقد رُوي عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أنه لما سأل الله آدم - وقد عرض عليه الأمانة بعد عرضها على السموات والأرض والجبال وإبائهن عن حملها - قائلاً : "هل أنت آخذ بما فيها"؟ ، قال آدم : "يا رب وما فيها"؟ ، قال : "إن أحسنت جُزيتَ ، وإن أسأت عُوقبتَ" !![1].

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ، ٣ / ١١٧.

سورة سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ : ما يدخل فيها من مطر وغيره .

وَمَا يَعْرُجُ : ما يصعد من الملائكة والأعمال .

إن الكون دليل خالقه المبدع ، فاتساعه الرهيب يدلنا على عظمة الخالق ، وكونه على أتم درجةٍ من التناسق والانسجام يعرفنا بأن مبدعه وجود كامل متكامل ، وكون أجزائه كلها تسير وتؤدي وظائفها بمنتهى التوافق ، بحيث لا يقع في سيرها أدنى خللٍ أو اضطرابٍ أبداً ، يبرهن على أن القائم بإدارته وتدبير شئونه ذو حكمةٍ وعلمٍ لا ينتهيان . وكونه ملائماً للإنسان إلى الحد الأقصى ، مما يوضح أن خالقه كريم ورحيم بمخلوقاته بلا حدودٍ ، والذي يتأمل في الكون بجديةٍ وإمعانٍ سوف لا يلبث أن يغمره شعور عارم بجلال الله وكماله ، وسوف يخرج من تأملاته مقتنعاً اقتناعاً لا يمازجه شك أن كل الأمجاد ومظاهر العظمة والكبرياء ، من الأزل حتى الأبد ، إنما هي لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، وليس هناك من أحدٍ غيره يستحق شيئاً منها على الإطلاق !!

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ

إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾

ولاَيَعْزُبُ عَنْهُ : لا يغيب عنه ولا يخفى عليه .

مِثْقَالُ ذَرَّةٍ : مقدار أصغر نملة أو هباءة .

مُعَاجِزِينَ : مسابقين ظانين أنهم يفوتوننا .

من رِّجْزٍ : أشد العذاب وأسوئه .

إن مخاطبي القرآن الكريم لم يكونوا منكرين للقيامة ، وإنما كانوا منكرين لأن القيامة ستكون بالنسبة إليهم خزياً أبدياً وعذاباً سرمدياً لا يزول ، إذْ كانوا يجدون أنفسهم آمنين من الناحية المادية ، في هذا العالم الراهن ، مما جعلهم يستبعدون كيف سينعكس حالهم ؛ فيعودون غير آمنين إذا دخلوا العالم الآتي ؟!

بيد أن هذا القياس باطل من أساسه ؛ فدراسة العالم الراهن تدلنا على أنه مؤسس على مبادئ أخلاقية خالدة ، ومنذ أن كان الكون قد تم إنشاؤه على الأساس الأخلاقي، فلابد إذن ، أن يتقرر مصيره النهائي هو الآخر على الأساس الأخلاقي ، وليس على أي أساسٍ مزعومٍ آخر.

وإن حقيقة الحياة والكون هذه الموجودة في كل الكتب السماوية ، ورسالة القرآن تلخص في إظهار هذه الحقيقة بشكلها الخالص النقي من كل شائبةٍ ، والآن فالذين يتصدون لمعارضتها ، هم يرتكبون خسارة جد عظيمةٍ ؛ يستحقون عليها عند الله أشد

العذاب .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٩﴾ ﴾

مُزِّقْتُمْ : قطعتم وصرتم رفاتا وترابا .

بِهِ جِنَّةٌ : به جنون يوهمه ما يقول .

نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ : نغيب بهم الأرض كقارون .

كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ : قطعا منها كأصحاب الأيكة .

مُّنِيبٍ : راجع إلى ربه بالتوبة والطاعة .

كان أهل مكة ينظرون إلى الرسول وأصحابه نظرة احتقار وازدراء ؛ دفعتهم إلى تناول كل ما يقولون بالسخرية والاستخفاف ، والسبب الحقيقي في ذلك كان يرجع إلى عدم تيقنهم من الآخرة. إن قلوبهم كانت خاويةً من رهبة المؤاخذة في الآخرة؛ مما جعلهم ، بطبيعة الحال ، لا يأخذون الأحاديث المتصلة بشأن الآخرة بالكثير أو القليل من الجدّية .

وإن أكبر عذاب يلقاه أحد في هذا العالم هو أن يُحرم من صحة الفكر، فإن شخصاً كهذا لا يتمكن من رؤية شيء ما في صورته الصحيحة ، ولا يوفق للاعتبار حتى بالحقائق الواضحة الصارخة ، وعلى سبيل المثال : لا تزال تتجه من جانب الفضاء

العلوي أحجار لا تُحصى نحو الأرض بسرعةٍ فائقةٍ ، ولو بدأت هذه الأحجار تنهال على المساكن الإنسانية ؛ لهلك الجيل البشري عن آخره في غضون أيامٍ معدوداتٍ. وهكذا يتكون الجزء الأكبر من باطن الأرض من مواد مصهورةٍ شديدة الحرارة (اللافا) ؛ لو أنها انفجرت يوماً على نطاقٍ غير محدودٍ ، لاحترق كل شيءٍ على وجه البسيطة واستحال رماداً ..

غير أن الله - سبحانه وتعالى - قد اتخذ في هذا الكون تدابير خصوصية تحول دون وقوع كارثةٍ شاملةٍ كهذه . وإن السماوات والأرض تزخر بأمثال هذه الآيات البينات التي تدل على مدى عجز الإنسان ، ولكن المرء إذا حُرم صحة التفكير ، لم تعد أية آية ، مهما كانت صارخة الدلالة عميقة المغزى ، تهديه إلى الصراط المستقيم .

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

أَوِّبِي مَعَهُ : سبحي أو راجعي معه التسبيح .

اعْمَلْ سَابِغَاتٍ : دروع واسعة كاملة .

وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ : أحكم صنعتك في نسج الدروع .

إن المؤمن حين يسبح لله ؛ وهو مستغرق في ذكره تعالى، فإنه يتناغم في ذلك الوقت مع الكون كله ؛ حيث يتجاوب كل شيءٍ في السماء والأرض معه في نغمات التسبيح الإلهي، بيد أن تجاوب الكون هذا يكون ، بالنسبة إلى عامة المؤمنين ، بلسان الصمت .

أما سيدنا داود - عليه الصلاة والسلام - فقد اختصه الله سبحانه بأنه إذا رفع عقيرته بالتسبيح ، أخذت الجبال والطيور في ترديد تسابيحه على نحوٍ محسوسٍ مسموعٍ .. كما علّم الله - سبحانه وتعالى - نبيه داود صناعة الحديد ، فقام - عليه

الصلاة والسلام - بتطوير فن إذابة الحديد وصوغه إلى حد أنه بدأ يعمل الدروع الخفيفة ذات الحلقات المتناسبة المتناهية في الدقة ؛ بحيث يتمكن المرء من أن يلبسها كما يلبس الثوب. ولم يكن هذا الفن قد ظهر في العالم إلى يومه ذاك، وإنما علمه الله إياه عن طريق الملائكة مباشرة .

والمؤمن يستطيع أن يبلغ أعلى درجات التطور والرقي في مجال الصناعة والعلوم ، ولكن يجب عليه أن يحصر استعمال التقدم الإنساني في دائرة الإصلاح وحده ، وأن يفعل ما يفعل آخذاً بعين الاعتبار دائماً أنه سيحضر في نهاية المطاف بين يدي ربه للحساب !!

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

غُدُوُّهَا شَهْرٌ : جريها بالغداة مسيرة شهر .

وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ : جريها بالعشي كذلك .

عَيْنَ القِطْرِ : عين النحاس فنبع ذائبا كالماء .

يَزِغْ مِنْهُمْ : يمل ويعدل منهم .

مِن مَّحَارِيبَ : قصور أو مساجد .

وَتَمَاثِيلَ : صور مجسمة من نحاس وغيره .

وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ : ثابتات على المواقد لعظمها .

لقد قام سليمان - عليه السلام - بتطوير السفر البحري والتجارة البحرية إلى حدٍ كبيرٍ جداً، بحيث أعد السفن الشراعية من الطراز الأعلى ، هذا إلى جانب ما أنعم الله به عليه من جعل الرياح تجري وفق ما تشتهي سفنه البحرية في أكثر الأحيان. كما تطور في عصره فن إذابة النحاس وتحويله إلى ضروب الأواني والأمتعة تطوراً عظيماً . وقد كان سليمان - عليه السلام - يستخدم هذه المواهب والقوى غير العادية في شتى الأعمال البنائية والإصلاحية ، بما فيها صناعة تلك الأشياء التي ورد ذكرها ضمن الآية الأخيرة. إن الإنسان غارق في نعم الله تعالى من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، ولذا ينبغي أن تشغل عاطفة الشكر لله والثناء عليه الحيز الأكبر من وجوده وحياته ، ولكن هذا هو الشيء الذي لا يوجد لدى الإنسان بمقدارٍ أقل ما يكون .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

دَابَّةُ الأَرْضِ :الأرضة التي تأكل الخشب .

تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ : تأرض عصاه .

كان سيدنا سليمان متوكئاً عصاه يراقب الجن يشتغلون ببعض الأعمال الإنشائية ؛ إذْ وافته منيّته ، فقبض ملك الموت روحه ، ولكن جسده الهامد الميت مازال قائماً على عصاه كعهده ، فظل الجن مشغولين في عملهم ، وهم يظنون أنه - عليه السلام - جالس بالقرب منهم يشرف عليهم كعادته ، وبعد ذلك وقعت الأرضة في عصاه ، فأكلتها حتى نخرت ، فسقط جثمانه على الأرض ، وعندها أدرك الجن أنه قد مات منذ مدةٍ من الزمان!!. ولعل هذه الواقعة أن تكون قد وقعت بهذا الشكل لتقوم دليلاً عملياً

على بطلان عقيدة الناس القائلة بأن الجن يعلمون الغيب !

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾

لِسَبَإٍ : حي بمأرب باليمن .

لآيَةٌ : على قدرتنا أو عبرة وعظة .

جَنَّتَانِ : بستانان أو جماعتان من البساتين .

بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ : زكية مستلذة .

فَأَعْرَضُوا: عن الشكر أو كذبوا أنبياءهم .

سَيْلَ العَرِمِ : سيل السد أو المطر الشديد .

أُكُلٍ خَمْطٍ : ثمر مر حامض بشع .

وَأَثْلٍ : ضرب من الطرفاء .

سِدْرٍ: الضال أو شجرة النبق .

كان السبئيون من أرقى الشعوب المتمدنة في قديم الزمان ، وكانت مساكنهم باليمن الحالية ، وقد اتخذوا من مدينة مأرب عاصمةً لدولتهم ، ولقد استطاع هؤلاء إحراز تقدمٍ حضاريٍ كبيرٍ جداً في عصر ما قبل المسيح ، وظلوا حوالي ألف سنةٍ في قمة المجد والازدهار ، حيث إنهم كانوا قد بسطوا نفوذهم التجاري براً وبحراً ، وقاموا بإنشاء السدود والخزانات وفق تصميماتٍ هندسيةٍ دقيقةٍ . وقد كان لهم قرب مأرب سد كبير

كان يبلغ ارتفاعه ١٤ متراً طوله نحو ٦٠٠ مترٍ ؛ حصروا داخله مياه الجداول والممرات الجبلية ، واستخرجوا من شتى جوانبه قنواتٍ منسّقة متعددة الاتجاهات لسقي المزارع وإرواء الأراضي المرتفعة . وهكذا أضحت بلادهم تتدفق حيوية ونضارةً وخصوبةً لدرجةٍ أن المرء أينما توجه ببصره ، تراءت له عن يمينه وشماله سلسلة حدائق غناء وبساتين رائقة المنظر لا تكاد تنتهي.

وإنما أمكنهم إحراز كل هذا التقدم بسبب التدابير الإلهية ؛ ولذا كان ينبغي على السبئيين أن يكونوا شاكرين لله المنعم الوهاب . ولكنهم لم يلبثوا أن وقعوا ضحايا الغفلة والطغيان كما يكون حال الأمم الغنية السعيدة في الأعم الأغلب. وقد أخذ سد مأرب بعد ذلك يحدث فيه من حين إلى حينٍ ثقوب وتصدعات ، وكان ذلك بمثابة تحذيرٍ أوّلي من الله ، إلا أنهم تمادوا في غفلتهم ولم يعودوا إلى رشدهم ، حتى انكسر السد - كما تقول دائرة المعارف البريطانية - على إثر زلزال في أواخر القرن السادس الميلادي ، إلى حدٍ لم يعد معه أمل في إصلاحه وترميمه ، مما أسفر عن سيلٍ عارم جبار لا يقف دونه شيء ، خرّب المنطقة من أقصاها إلى أقصاها ، يضاف إلى ذلك أن هذه المنطقة بعد ذلك - لانعدام التربة ذات الخصوبة من أراضيها - لم تعد تصلح لشيء سوى الأحراش والنباتات البرية!!

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾

القُرَى : قرى الشام .

قُرًى ظَاهِرَةً : متواصلة متقاربة .

وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ : جعلناها على مراحل متقاربة.

فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ : أخبارًا يتلهى به ويتعجب منه .

وَمَزَّقْنَاهُمْ : فرقناهم في البلاد .

المراد بالقرى المباركة منطقة الشام الناضرة الخصيبة ، فقد كانت هذه المنطقة تمتد في رحابها طوابير متلاحقة من مستوطنات جميلة رائعةٍ من قلب اليمن حتى الشام . وبذلك كان السفر من خلالها قد صار نوعاً من النزهة اللطيفة الممتعة. وقد كانت هذه البيئة ، باعتبار حقيقتها ، مثيرة للعواطف الربانية ، وكأنها نصب الله ، ثمة يافطة صامتة تقول: امشوا هنا آمنين من كل خطرٍ ، واشكروا لربكم!

غير أن السبئيين الغافلين لم يتمكنوا من قراءة هذه اليافطة الإلهية ، وبالتالي فقدوا بمسلكهم العملي الشائن ذاك استحقاقهم لتلك النعم الجليلة ، فبادوا واندثرت آثارهم بحيث أصبحوا قصةً تحكى وحديثاً يُروى؛ إذْ نزحت قبائلهم بعد خراب المنطقة من ديارها وتشتت في مختلف الجهات النائية ، حتى ضرب بهم المثل فقيل : «تفرقوا أيادي سبأ» .

إن هذه الأحداث من وقائع التاريخ المعلومة ، غير أن العالم بها حقاً هو الذي يستخلص منها درساً يجعله لا يصاب بالأشر والبطر حين يتاح له من أسباب الرخاء والسعادة نصيب ، وإنما يعده هبة الله ، فيعيش شاكراً له – سبحانه وتعالى !!

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾

صَدَّقَ عَلَيْهِمْ : حقق عليهم .

سُلْطَانٍ : تسلط واستيلاء بالوسوسة والإغواء .

إن إبليس وأعوانه يرسمون خططهم دوماً ضد مصلحة الإنسان . والمطلوب من الإنسان بهذا الصدد أن يعمل على إفشال خططهم بتجنيب نفسه أن تقع ضحيةً لها ، إلا أن السبئيين لم يتمكنوا من إقامة الدليل على هذا الحذر والتعقل والبصيرة ، وإنما ساروا في طريق الغواية والدمار مندفعين وراء الترغيبات الشيطانية ، ولم يكن هناك سوى عددٍ يسير من أتباع الحق الذين نجحوا في هذا الامتحان .

وإن الله - عز وجل - لم يعط الشيطان أو ممثله أي سيطرةٍ فعليةٍ على أحد الناس ، وإنما أعطاه القدرة على الإغواء والوسوسة في النفوس ليس غير ، وذلك لكي يمتحن عباده. والناجح في هذا الامتحان الإلهي هو الذي يستمسك بالحق ويظل ثابتاً عليه بعيداً عن التأثر أو الميل إلى الترغيبات الشيطانية !!

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ (٢٣) ﴾

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ : وزنها من نفع أو ضر .

ظَهِيرٍ: معين على الخلق والتدبير .

فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ : أزيل عنها الفزع والخوف .

الْحَقَّ : قال القول الحق (الإذن بالشفاعة) .

على الرغم من أن أكثر الناس كانوا - ولا يزالون - يؤمنون بالآخرة في كل

العصور، إلا أن الشيطان مازال ينشر بينهم دائماً عقائد مزعومة تجعلهم غير خائفين ولا حذرين من عقاب الآخرة ، ومن بينها هذه العقيدة الفرضية القائلة بأن لبعض الذّوات عند الله مقاماً سامياً يمكنها من أن تشفع لمن تشاء شفاعة تقبل بالضرورة ولا تُرد أبداً !

غير أن كل عقيدةٍ من هذا النوع تقدير بخس لألوهية الله وجلاله. فما أغرب هذا الواقع وأكثره إثارة للعجب والدهشة أن الذوات التي قد استولى عليها من الشعور بعظمة الله ما يملؤها خوفاً وهلعاً دائمين لا ينقطعان ، يعتقد عبادها أنها ستكون كافيةً لنجاتهم عند الله عز وجل!!

﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

أَجْرَمْنَا :اكتسبنا من الزَّلات .

يَفْتَحُ بَيْنَنَا : يقضي ويحكم بيننا .

وَهُوَ الْفَتَّاحُ : القاضي والحاكم .

كَلاَّ : ارتدعوا عن دعوى الشركةِ .

إن الكون عظيم إلى حدٍ لا يمكن تصوره. وهو إلى جانب ذلك منطوٍ على حكمةٍ بالغةٍ ومعنويةٍ تدعو إلى الدهشة والإكبار. وإن كوناً هذا شأنه لابد أن يكون من صنع الله العزيز الحكيم. وإنه ليس بإمكان شخصٍ يدعي جاداً أن خالقه ومالكه تلك الذوات الأخرى التي قد افترضها الإنسان قديماً أو حديثاً من دون الله ، إذن، فهل ثمة

أحد غير الله الواحد يستحق مقام الكبرياء والجلالة في هذا الكون ؟ كلا !!

الحقيقة هي أن دراسة الكون تبطل كل النظريات المشركة ، فكل عقيدةٍ تتضمن الاعتراف بأي نوعٍ من العظمة لأحدٍ غير الله الواحد لا تلبث أن تتعارض مع طبيعة هذا الكون. وفي هذه الحالة فإن النظرية الصحيحة إنما هي التي تُبنى على أساس وحدانية الله ، وأما النظرية التي تقوم على التسليم بتصرف أي وجودٍ آخر من دون الله الواحد ، فهي نظرية مناقضة لذاتها !

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

كَآفَّةً لِّلنَّاسِ : إلى الناس جميعا .

كل نبيٍ مارس نشاطه الدعوي على نحوٍ مباشرٍ بين بني قومه وحدهم ، وذلك **ما كان ممكناً من الناحية الفعلية وهكذا قام رسول الإسلام - ﷺ - منذراً ومبشراً** لقومه مباشرةً (الأنعام : ٩٢) ، ولكنه لما كان خاتم الأنبياء والمرسلين قد انتهت به الرسالات السماوية ، صار - حكماً - هو المنذر والمبشر لجميع الشعوب والأمم إلى يوم القيامة . وإنما تقع المسئولية الآن على عاتق أمته - عليه الصلاة والسلام - أن تؤدي بالنيابة عنه واجب الإنذار والتبشير تجاه الآخرين ، تماماً كما أداه الرسول تجاه مخاطبيه الأولين في عصره . وستُعد هذه العملية الدائبة امتداداً لنبوته - ﷺ - ، فالعمل الدعوي الذي تم إنجازه في حياته داخل في دائرة نبوته بصفةٍ مباشرةٍ ، وينضم إليها ما سيؤدي من الأعمال بعد وفاته بصفة غير مباشرة. إن عمل النبي يقتصر دوماً على الإبلاغ وحده ، أما تقرير مصائر الشعوب العملية فهو مما

اختص به الله تعالى نفسه في هذا العالم وفي العالم الآتي بعده على السواء!.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

مَوْقُوفُونَ : محبوسون في موقف الحساب .

يَرْجِعُ : يرد .

مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ : صدنا مكركم بنا فيهما .

أَندَادًا: أمثالا من مخلوقاته نعبدها .

وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ : أخفوا الندم أو أظهروه .

الأَغْلالَ: القيود تجمع الأيادي إلى الأعناق .

إن إنكار الحقيقة هو الجريمة الكبرى على الإطلاق . وبما أن عاقبة هذه الجريمة لا تظهر في هذه الدنيا ، لا يزال المرء ينكر الحقيقة دونما خوفٍ ولا وجل. ولكن سينقلب حال الناس فجأة إلى حالٍ يبعث على الدهشة والرثاء معاً ، حين ستدهمهم عاقبة إنكار الحق المشئومة في الآخرة .

وسوف تصب الجماهير هناك أغلظ اللعنات على أكابرها الذين كانوا موضوع

فخرها في الحياة الدنيا ، باعتبارهم مسئولين عن ضلالها وضياعها. وسيرد عليهم أولئك الكبراء قائلين : لا تلقوا بالتبعة كلها علينا تخليصاً لأنفسكم من مرارة الشعور بالندم والحسرة. إذْ لم نكن نحن الذين أضلوكم ، بل إنما كانت أهواؤكم هي التي انحرفت بكم عن سواء السبيل ، فما وقفتم إلى جانبنا إلا لكون ما ندعو إليه يتفق وأهواءكم ، حيث كنتم تبتغون ديناً يمكن صاحبه من الحصول على شرف التدين بدون تكليفٍ ولا عناءٍ ولا حاجةٍ إلى تغيير النفس وإصلاح العمل. وهو الذي هيأناه لكم فتلقيتموه بالقبول . إذن فأنتم بأيديكم أنفسكم جعلتم في أعناقكم هذه الأغلال التي صنعناها ، وإلا فلم نكن نملك قدرةً على أن نطوّقها إياكم!!

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

مُتْرَفُوهَا : متنعموها وقادة الشر فيها .

وَيَقْدِرُ : يضيق على من يشاء بحكمته .

زُلْفَى : تقريباً .

لَهُمْ جَزَاءُ الضِعْفِ : لهم الثواب المضاعف .

فِي الغُرُفَاتِ : المنازل الرفيعة العالية في الجنة .

مُعَاجِزِينَ : مسابقين ظانين إنهم يفوتوننا .

مُحْضَرُونَ: تحضرهم الزبانية إلى جهنم .

وَيَقْدِرُ لَهُ : يضيق على من يشاء بحكمته .

إن الذين تتوافر لديهم أسباب القوة والثروة ، يرتقون إلى مقام الكبرياء في العالم الراهن، وهذا الشيء يولد في أنفسهم ثقةً كاذبةً. وأمثال هؤلاء حين يتم تخويفهم من الآخرة لا يعطونها أهميةً تُذكر ؛ إذ يصعب عليهم التأكد من أن الله سيُذلهم في الآخرة ، مع ما أعطاهم في هذه الدنيا من العز والجاه والكرامة !

وهذه الثقة الكاذبة هي التي كانت - ولا تزال - العقبة الكئود دون إيمان الكبار بدعوة الحق في كل عصرٍ ومصرٍ ، حيث إن كبار العصر إذا احتقروا شيئاً ما ، عاد الصغار هم الآخرون ينظرون إلى ذلك الشيء بعين الاحتقار، وهكذا يحرم كل من العامة والخاصة من تلقي الحق بالقبول .

إن الثروة وأسباب الحياة الدنيا كلها امتحان وليس بإنعامٍ، فكثرة المال والأسباب الدنيوية لدى أحد الناس ليست علامة على كونه من المقربين ، ولا قلتها لدى الآخر علامة على أنه من غير المقربين. وإن مقام التقرب والزلفى عند الله إنما يحظى به شخص يقيم الدليل على أنه قد عاش فيما أوتي من مالٍ ومتاعٍ ذاكراً لله، مراقباً إياه في كل حركاته وسكناته ، وواقفاً بنفسه عند الحدود التي قررها الله سبحانه وتعالى ، فأمثال هؤلاء هم الذين سيعتبرون في الآخرة أهلاً لإنعامات الله الأبدية !

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾
قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم

مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

أَنتَ وَلِيُّنَا : أنت الذي نواليه .

إن الملائكة لا تُرى للناس ، وإنما هم الأنبياء والمرسلون الذين أخبروا الناس بوجود الملائكة. وقد كان المقصود من هذا الإخبار أن يستشعروا عظمة الله وجلاله حق الاستشعار، فيقبلون بكيانهم كله على عبادته وتمجيده سبحانه وتعالى، ولكن الشيطان ألقى في قلوب الناس بطريقةٍ عجيبةٍ أن الحصول على قرب الله مباشرةً يكاد يكون أمراً مستحيلاً، لذا ينبغي لهم أن يعبدوا الملائكة ؛ توسلاً بذلك للاقتراب من الله! ومن هنا بدأت تنصب تماثيل منحوتة للملائكة في شتى أنحاء المعمورة ، وراح الناس يقيمون أمامها طقوس العبادة والتقديس . وما عقيدة تعدد الآلهة والإلاهات لدى الشعوب الوثنية إلا صورة مشوهة لتأليه الملائكة ، فالملك الذي كان موكلاً بالمطر ، اعتبروه إله المطر، والذي كان موكّلاً بالهواء ، حسبوه إلهاً للهواء، وهكذا.. وستتبرأ الملائكة في الآخرة من أمثال هؤلاء العباد وعبادتهم، وبالتالي لن ينالهم هناك من جانب الله ولا من جانب الملائكة نصر ولا عون ، وإنما سيظلون مخذولين دون سندٍ ولا معينٍ إلى الأبد!

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

أَنْتَ وَلِيُّنَا : أنت الذي نواليه .

إِفْكٌ مُّفْتَرًى : كذب مختلق

مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ : عشر ما أعطيناهم من النعم .

كَانَ نَكِيرِ : إنكاري عليهم بالتدمير .

لقد جاء القرآن بأدلةٍ وبراهين في منتهى الوضوح والجلاء . ومع أن مخاطبيه الأول كانوا عاجزين عن مقاومته بقوة الدليل ، إلا أنهم نجحوا في صدّ الجماهير التابعة لهم عن دعوته ، وإنما كان السر الوحيد في نجاحهم ذاك ، يكمن في أنهم جعلوه "مشبوهاً" في أعين الناس قائلين : إنه لا يتفق مع ما كان عليه أسلافنا الكرام ! وأما ما كان يتميز به القرآن من أدبٍ رفيعٍ وأسلوب بديعٍ معجز لا سبيل إلى إنكاره أو تجاهله ، فقد صرفوا اهتمام الناس عنه زاعمين لهم بأن هذا لا يخرج عن كونه مظهراً من مظاهر البراعة الأدبية وسحر البيان. دون أن يكون له علاقة ما بالوحي الإلهي. إنه قوة قلمٍ وليس بقوة علم الحقيقة !

إنه لمن أغرب تجارب التاريخ البشري أن التعصب كان دوماً - ولا يزال - أعظم سلطاناً على عقول الناس وأشد تحكماً في نفوسهم من الدليل والبرهان !! كان على مخاطبي القرآن الكريم ، إذْ هم أبوْا إلا إنكاره ومعارضته ، أن يلجؤوا إما إلى أدلةٍ عقليةٍ تفنّده ، أو إلى كتابٍ سماوي يستمدون منه نصاً ينقض دعواه، غير أنهم كانوا يفتقدون كلا هذين الشيئين معاً ، مضافاً إلى ذلك أنهم كانوا متخلفين جداً عن الشعوب الأخرى حتى في مجال التقدم المادي والرفاهية الدنيوية. وإن أناساً هذا شأنهم لئن تناولوا دعوة الحق بالرفض والإنكار فإنما يرجع سبب ذلك إلى دواعي التعنت والعنجهية ، وليس إلى مقتضى العقل والمنطق !.

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

من جِنَّةٍ : من جنون .

وقف المعاصرون للنبي - ﷺ - تجاه دعوته موقف الرفض والإنكار. ولكن موقفهم ذاك لم يكن يعتمد على شيء سوى العناد والتعصب . والحقيقة هي أنهم لو فكروا يوماً خالي الأذهان من مشاعر العناد والتعصب - سواء على مستوى فردي أو جماعي - لوجدوا أن رسولهم ليس برجلٍ مجنون ، ولرأوا حياته السابقة التي قضاها بين أظهرهم تشهد بجديته وإخلاصه ولهجته الواهلة المؤثرة تدل على أن ما يجري على لسانه هو بعينه ما يختلج في فؤاده ، ولوجدوا في أسلوب كلامه الحكيم شهادةً داخليةً ناطقة بصدقه وصحته، وفي كونه لا يطلب من الناس أي أجر أو تعوضٍ عن دعوته وبرهاناً صارخاً على أنه إنما قام بهذا العمل خالصاً لوجه الله ، وليس لأجل أية منفعةٍ أو تجارةٍ ذاتيةٍ ، ففي ضوء التأمل النزيه والتفكير المحايد كان بإمكان القوم أن يدركوا أن لهفته - عليه الصلاة السلام - ليست بلهفة الجنون ، بل مصدرها أن الخطر الذي نهض لإنذار الآخرين منه ، هو يراه رأي العين يدنو ويقترب بسرعةٍ والناس عنه غافلون ! ولكن القوم إذا لم يكونوا جادين بشأن دعوة الحق ، فقد عجزوا - وبطبيعة الحال - عن أن يبصروا هذه الحقائق الواضحة الجليلة !!

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

يَقْذِفُ بِالْحَقِّ : يرمي به الباطل فيدمغه .

لقد أنشئ هذا العالم بالحق ، حيث القوة كلها فيه إلى جانب الحق ، كما أن كل الدلائل هنا تؤيد الحق وتدعمه . وأما الباطل فلا يملك من حيث الحقيقة الواقعة أي قوةٍ ولا دليلٍ أو برهانٍ . وقد كان ينبغي، والحالة هذه أن يكون الحق هنا هو الغالب السائد ومرفوع الراية دائماً ، وبالمقابل يصير الباطل عديم الوزن فاقد الأهمية مغلوباً على أمره في كل مكانٍ ، ولكن هذا لا يحدث فعلاً ، إذْ ليس الحق في هذا العالم من القوة بحيث يمكنه أن يمحو الباطل بحكم قوته الذاتية ، ولا الباطل من التفاهة بحيث لا يتمكن شخص ما من أن يفوز بالمجد والرفعة على أساسٍ منه!

وهذه الواقعة سوف تظهر في أكمل صورها يوم تقوم الساعة ، ولكن الله قد يظهرها، متى يشاء ، ولو بصورةٍ جزئيةٍ في هذه الدنيا أيضاً ، كي تكون عبرةً للناس ، ولقد كانت غلبة الإسلام في القرن الأول إظهاراً جزئياً من هذا القبيل ، ومن ثم فحين فُتحت مكة ، وانتصر التوحيد على الشرك انتصاراً حاسماً ، كان رسول الله - ﷺ - تتردد على لسانه إذْ ذاك هذه الآية الكريمة: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ !.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّۭ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾

فَزِعُوا : خافوا عند الموت أو البعث .

فَلاَ فَوْتَ : فلا مهرب ولا نجاة من العذاب .

مَكَانٍ قَرِيبٍ: موقف الحساب .

التَّنَاوُشُ : تناول الإيمان والتوبة .

مَّكَانٍ بَعِيدٍ: هو الآخرة .

وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ : يرجمون بالظنون .

بِأَشْيَاعِهِم : بأمثالهم من الكفار .

مُّرِيبٍ : موقع في الريبة والقلق .

إن المرء إذْ يتناول الحق بالإنكار في العالم الراهن ، لا يتعرض من فوره لمصيره المحتوم. وهذا الوضع يجعله عنيداً جسوراً على إنكار الحق، فهو لا يعتبر دعوة الحق جديرةً بالاهتمام الجدي ، ويذكرها بألفاظٍ مفعمةٍ بالسخرية اللاذعة والازدراء الشديد، ويرفضها كلما عرضت عليه بعدم الاكتراث واللامبالاة ، ويعلق عليها بأسلوب هزلي عابثٍ كما لو أنها لا تستحق أن يقام لها حساب ما !

على أن الأمر سيتبدل فجأةً غير الأمر، حين سينتهي نظام هذا العالم الراهن ، وسيرى المرء وقتئذٍ أن ما قد أهمله الإهمال كله، كان هو الشيء الأهم والأعظم قيمةً في هذا الوجود، وعندها سيتبخرّ كل عناده ويتلاشى بطره وكبرياؤه ، وهو يسارع إلى الاعتراف بالحق الذي كان لا يعده خليقاً بأدنى عنايةٍ ولا اهتمام في الحياة الدنيا، ولكن الوقت الآن سيكون قد فات، وسيقال له: إن الاعتراف كانت له قيمة في عالم الغيب ، أما في عالم الشهود هذا فلا قيمة للاعتراف البتة !

«الشك المريب» هو الشك الباعث على التردد والحيرة والارتياب ، وهذا الوصف يصوره حالة المنكرين النفسية، فالحق الذي كان يُعرض عليهم في الدنيا ، كان من حيث اللغة والبيان قوياً لدرجة أنهم لم يكونوا يجدون أنفسهم قادرين على رده بواسطة الدليل

والبرهان ، ولكنهم - مع ذلك - لم يتمكنوا من توطين أنفسهم على قبول هذا الحق ؛ لكونه لا يتفق مع شاكلتهم الفكرية. وقد أصابهم هذا الوضع الثنائي أو المزدوج بنوعٍ من التذبذب الداخلي المتصل ، إلى أن جاء ملك الموت ، فرفع عن أعينهم الغطاء الذي كان المفروض أن يرفعوه بأيديهم أنفسهم ، إلا أنهم لم يوفقوا إلى ذلك!

سورة فاطر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ
وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ
لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ۝٢ ﴾

فَاطِرِ : مبدع ومخترع.

مَا يَفْتَحِ اللهُ : ما يرسل الله .

لقد خلق الله الملائكة لحمل رسالته والقيام بتنفيذ أحكامه، ولكن الشيطان ألقى في قلوب الناس أن الملائكة يتمتعون بالاستقلال الذاتي التام ، بحيث يمكن أن يُتوسل بهم لتحصيل البركات في الدنيا ونيل النجاة في الآخرة، ومن هنا أخذت بعض الأمم تعبدهم باتخاذ تماثيل مزعومةٍ لهم بأسماء اللات والمناة ونحوهما، بينما جعلت بعض الأمم الأخرى من الملائكة آلهةً أنداداً لله ، وبدأت بعبادتها وتقديسها، وإن تعظيم قانون الطبيعة (Low of nature) في عصرنا الحاضر هو الآخر ليس إلا طبعةً جديدةً لهذا الضلال القديم .. ولكن الحقيقة هي أنه بأي اسم سمينا القوى المدبرة لشئون الكون - بقوانين الطبيعة ، أم بالملائكة - فإنها جميعاً محكومةً خاضعةً لمشيئة الله الواحد ، عاملةً طبقاً لأمر الله الواحد ، لا تطيق الخروج عليه ولا الانحراف عنه أبداً .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾

فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ : فكيف تصرفون عن توحيده .

إن الإنسان يحتاج لأجل حياته إلى أشياء لا تُحصى ، وهذه الأسباب الضرورية للحياة لا يتمكن من توفيرها أحد غير الله الواحد ، فإذا كان الله وحده هو خالق هذه الأشياء ومدبرها بلا منازع ولا شريك ، فكيف يجوز اتخاذ آلهة أخرى سواه !؟!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾

فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ : فلا تخدعنكم ولا تلهينكم بالزخارف والملذات .

الغَرُورُ : ما يغر ويخدع من شيطان وغيره .

إن نوعية الحياة الدنيا ، كما أخبرنا الله بها عن طريق رسله ، ربما تبدو صورةً أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة؛ لأن المرء لا يتعرض لها في الحال . أما أشياء الدنيا فهي - على نقيضٍ من ذلك - تبدو حقيقةً ؛ لأن المرء يعاني منها ويجربها في اللحظة الراهنة .. وإن الموت والزلازل والحوادث والنكبات لا تفتأ تنبه المرء من سبات الغفلة ، كأنها هي سابق إنذارٍ بالقيامة قبل أن تقوم بالفعل ، غير أن الشيطان لا يلبث أن يصرف أذهان الناس عن التفكير في ذلك مقرراً أن كل هذه وقائع تحدث بموجب الأسباب والعلل ،

دون تدخل الإرادة الإلهية.. بيد أن كل فكرةٍ من هذا النوع خدعة شيطانية ، إذْ لابد من يومٍ يتميز فيه الصدق من الكذب ، والحق من الباطل .. يوم يلقى المحسن جزاء إحسانه ، والمسيء عقابه إساءته!!

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾

فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ: فلا تهلك نفسك عليهم غموما وأحزانا لكفرهم .

لقد أعطى الله كل إنسان قدرة التأمل والتفكير ؛ لكيما يميز الحق من غير الحق، فمن يستعمل استعداده الفطري هذا يهتد ، ومَنْ يهمل هذا الاستعداد الفطري لا يوفق للاهتداء !.

وإن المرء حين يظهر أمامه الحق ، يشعر بهزّةٍ ذهنيةٍ ؛ يجد نفسه معها على مفترق طريقين : فإن هو أسرع إلى الاعتراف بالحق ، سار ذهنه من فوره في الاتجاه الصحيح المستقيم ، ودخل هو بالتالي في عداد المسافرين لأجل الحق . وعلى العكس من ذلك فإن عرضت له عندئذٍ أية مصلحةٍ أو عقدةٍ نفسيةٍ ، يمتنع عن الاعتراف بالحق خضوعاً لسلطانها ، فيأخذ ذهنه في تلفيق ألوانٍ شتى من المبررات لعدم اعترافه ، وهو يحاول أن يظهر عمله القبيح في ثوب العمل الحسن ، وهذا مرض ذهني . والمصابون بهذا المرض الذهني أبداً لا يوفقون إلى الاعتراف بالحق ، حتى يفاجئهم الموت ، وهم على حالهم ذاك ، فيقودهم إلى محكمة الله ، ليلقوا جزاء ما عملوا!!

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ

ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾

فَتُثِيرُ سَحَاباً : تعركه وتهيجه

النُّشُورُ : بعث الموتى من القبور للجزاء .

يُرِيدُ العِزَّةَ : الشرف والمنعة .

الكَلِمُ الطَّيِّبُ: كلمة التوحيد وجميع عبادات اللسان.

وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ: يرفع الله العمل الصالح ويقبله .

يَبُورُ : يفسد ويبطل .

إن العالم الراهن تمثيل للآخرة ، فمن ظواهره المطر ، الذي يمثل لنا بشكل واقعةٍ معلومةٍ واقعةً غير معلومةٍ ، وما المطر؟ إنه - باختصار - نتيجة عملٍ موحّد يشترك فيه الكون بأسره ، فمن خلال تفاعل الشمس والهواء والبحر والجاذبية ، وما إلى ذلك من العوامل والأسباب الكونية الهائلة ينشأ ذلك المطر الذي يبعث الحياة والحيوية في الأرض اليابسة المجدبة .

وظاهرة المطر هذه تبرهن على أن مدبر الكون يتمتع بالاختبار الكامل والقدرة المطلقة على الكون كله، حيث إنه يُحدث واقعةً بحسب خطته ، ثم هو يقوم إذا انمحت آثارها بإعادتها من جديدٍ ؛ ولو استدعى الأمر تحريك الكون وتشغيله بما فيه !!. وإن إعادة الأرض الهامدة ناضرةً خضراء من جديدٍ ، وإحياء الإنسان الميت من جديدٍ ، واقعتان مماثلتان تماماً .. فإذا قام الدليل على إمكان الواقعة الأولى، فيقوم الدليل تلقائياً على كون الواقعة الأخرى المماثلة لها ممكنة الحدوث !

إن العالم الراهن موضع امتحانٍ ، ومن ثم فقد يُتاح العزة هنا حتى لمن لا يستحقها من الناس على نحوٍ مؤقتٍ ، ولكن العزة ستكون في الآخرة خالصةً لأولئك وحدهم ، الذين يستحقونها في واقع الأمر ، ومعيار هذا الاستحقاق هو الكلم الطيب والعمل الصالح ، أي أن يجد المرء ربه بحيث يصير ذكره تعالى جزءاً لا يتجزأ من كيانه ، وابتغاء مرضاته هو عمله الذي يكرس لأجله كل طاقاته. والذين يبنون حياتهم على هذا الطراز ، يتكفل الله لهم بالنصر والتأييد ، ومَنْ صار الله نصيره ومؤيده ، فلن يجد إلى النيل منه أو التغلب عليه أحد سبيلاً !

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

أَزْوَاجاً : ذكورا وإناثا .

مُعَمَّرٍ : طويل العمر .

خلق الإنسان الأول - آدم عليه السلام - وقد تم تركيبه من الأجزاء الأرضية . ثم أودع الله سر الإنسان في قطرة ماء ، شأنها شأن البذرة تحوي - على صغرها - شجرةً كاملةً، ثم بدأ تعالى النسل الإنساني ومكّنه من البقاء والاستمرار بجعل البشر أزواجاً - ذكراً وأنثى - وهذه الواقعة تدلنا على قدرة الله اللاّمتناهية.

هذا ، وإن جنينا حين يبدأ بالنمو داخل الرحم ، فيجد هناك كل الأسباب الضرورية الملائمة مهيّأة له دون طلبٍ . وهذا الواقع يقيم الدليل - إلى جانب إثبات القدرة - على أن خالق الجنين كان على سابق علمٍ بحاجاته ، وإلا فكيف استطاع أن يقوم بهذا الترتيب الكامل الدقيق لما يلزم لنشأة الجنين ونموه بصورةٍ مسبقةٍ !؟ وهذا هو شأن

العمر كذلك .. إذْ ليس في مقدور أحدٍ منا أن يحدد عمره وفق مرضاته هو ، حيث يبدو أن قضية تحديد الأعمار إنما تتعلق بأي وجودٍ خارجي أعلى ، فهو يرفع (يتوفى) مَنْ يشاء ولّما يتجاوز عمره سنوات قصيرة معدودات ، ويهب لمن يشاء عمراً طويلاً ، وليس في هذه الوقائع كلها دخل لأحدٍ من دون الله ، إذن ، فكيف يجوز أن يخاف الإنسان من أحدٍ غير الله ، وأن يعقد آماله على أحدٍ سواه !؟!

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾

عَذْبٌ فُرَاتٌ : طيب حلو شديد العذوبة .

مِلْحٌ أُجَاجٌ : شديد الملوحة أو المرارة .

حِلْيَةً : اللؤلؤ والمرجان من الملح .

مَوَاخِرَ : جواري بريح واحدة .

يُولِجُ : يدخل .

لأَجَلٍ مُّسَمًّى : مقدارا لفنائهم (يوم القيامة)

قِطْمِيرٍ : هو القشرة الرفيعة للنواة .

يوجد على سطح الأرض مخزون مائي هائل ؛ وهو موزع على البحار والمحيطات الواسعة بشكل المياه المالحة من ناحيةٍ ، وعلى الأنهار والترع والينابيع بشكل المياه العذبة من ناحيةٍ أخرى ، وإن الماء مصدر فوائد كثيرة لا تحصى للإنسان ، حيث إنه يُستخدم للشرب والري ، وهو يمثل بما يعيش فيه من شتى ألوان الحيوانات المائية مورد غذاءٍ ثمين للإنسان، وإن هذه البحار الممتدة على ثلاثة أرباع الكرة الأرضية هي بمثابة شوارع مائية فسيحةٍ قد جعلت الأسفار ونقل البضائع من قارةٍ إلى أخرى أمراً بالغ السهولة، كما يُستخرج من أغوار البحار اللؤلؤ والمرجان وغيرها من النفائس الغالية الأخرى .. إلخ .

وبالإضافة إلى هذا فقد سخر الله الشمس والقمر في الفضاء الرحيب . وفي ذلك من المنافع العظيمة ما لا يقع تحت الحصر . وقد جعل الأرض تدور في محورها حول الشمس بحسابٍ دقيقٍ يترتب عليه اختلاف الليل والنهار بانتظامٍ . وهناك أنظمة كونية لا تحصى من هذا النوع أنشأها الله وحده ، وهو وحده يقوم بإدارتها .. إذن ، فمن يستحق أن يوجه إليه الإنسان عواطف شكره غير الله ؟ ومَنْ يقدر على قضاء حاجات الإنسان ؛ آلله الذي طاقاته لانهائية ؛ أم تلك الآلهة المفترضة التي لا تمتلك من السلطة والاختيار شيئاً ؟!

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ : لا تحمل نفس آثمة .

مُثْقَلَةٌ : نفس أثقلتها الذنوب

حِمْلِهَا: ذنوبها التي أثقلتها .

تَزَكَّى : تطهر من الكفر والمعاصي .

إن الإنسان في العالم الراهن موجود غير منيع بكل ما تتسع له هذه الكلمة من معنى. وإنما يتوقف أمر الإنسان بكليته على توازن الطبيعة الخاص . ولو اختل هذا التوازن يوماً ، لانتهت الحياة الإنسانية في أقل من لمح البصر .

فلو غادرت الشمس موقعها الحالي ، فاقتربت من الأرض ، لاحترق جميع البشر واستحالوا رماداً . وإن جزءاً كبيراً من باطن الأرض عبارة عن مادة ملتهبة شديدة الحرارة ؛ ولو اتجهت حركة هذه المادة الملتهبة إلى جانب السطح الأعلى ، لتعرضت الأرض لزلزال عنيف يحول مدنها العامرة إلى خرائب موحشةٍ . ومن جهة الفضاء العلوي لا تزال تتساقط الشهب أو النيازك كل حينٍ وآنٍ ، ولو فسد نظام الكون الحالي، لتحولت هذه النيازك إلى وابلٍ من الحجارة لن يقينا من ويلاته شيء . وثمة إمكانات مدمرة كهذه لا حصر لها هي محيطة بالإنسان من كل صوبٍ ، والحقيقة هي أن الإنسان مخلوق كله احتياج ، وإن الإنسان بحاجة إلى الله ، وليس الله بحاجة إلى الإنسان .

إن أثقال يوم القيامة ستكون أثقال الذنوب التي اقترفها المرء في حياته ، وليست أثقال الطوب والحجارة، وقد يمكن أن يشارك شخص ما أخاه أو صديقه في حمل أثقالٍ من الطوب والحجارة ، ولكن الخزي والألم اللذين يلحقان أحد الناس لقاء ما عمله من سوء ، فإنما يكون ذلك عذاباً ذاتياً محضاً ؛ لا مجال فيه للمشاركة من قبل أحد الناس .

الحقيقة واضحة غاية الوضوح، ولكن الحقيقة لا يفهمها إلا مَنْ يريد أن يفهمها أما الذي لا يكون جاداً بشأن معرفة الحقيقة فلا يمكن إفهامه أي شيءٍ مهما كان سهلاً قريب المنال!

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾

الْحَرُورُ : شدة الحر ليلا كالسموم .

وَبِالزُّبُرِ : الكتب المكتوبة كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام .

كَانَ نَكِيرِ : إنكاري عليهم بالتدمير .

من البديهي أن ما يُرجى من النور لا يُرجى من الظلام .. وهكذا ما يُتوقع من الظل غير متوقع حصوله من الحر ، وهذا هو شأن الإنسان ، فالناس بين بصيرٍ وأعمى . أما البصير فسرعان ما يتعرف على سبيله حين يراه ، وأما الأعمى فلا يسعه إلا أن يبقى تائهاً يتخبط ؛ دون أن يتمكن من التعرف على سبيله أبداً .

وكذلك ينقسم الناس – من حيث المعرفة الداخلية – إلى نوعين : حيّ وميتٍ ، أما الإنسان الحي فهو الذي ينظر في الأقوال نظرة متعمقة فاحصةً ، فيسبر أغوارها ، ويدرك المعاني مخترقاً الحواجز اللفظية البراقة ، ويحاول الوصول إلى الحقيقة الأصلية

متخطياً القشور والجوانب السطحية . والذي يختبر الأشياء ويحكم عليها باعتبار جوهرها وليس باعتبار مظهرها الشكلي وحده ، ويركز بصره دائماً على الحقيقة الأصلية وليس على التفريعات الهامشية ، والذي لا يطيق صبراً ، إذا ما عرف الصدق ، على ألا يربط نفسه ومصيره به ، إن أمثال هذا هم الأحياء ، وهم الذين يكتب لهم التوفيق لقبول الحق في العالم الراهن. وأما الذين يتصفون بصفاتٍ هي على نقيضٍ مما تقدم ذكره آنفاً ، فهم الموتى، لا يحالفهم التوفيق أبداً لقبول الحق في عالم الامتحان هذا، وإنما هم يظلون عمياناً أو كالعميان إزاء دعوة الحق ، إلى أن تنتهي آجالهم فيصلوا إلى الله لكي يذوقوا وبال عماهم !!

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

جُدَدٌ : ذات طرائق وخطوط مختلفة الألوان .

وَغَرَابِيبُ سُودٌ : متناهية في السواد كالأغربة .

ينزل من السحاب ماء واحد ؛ وتنبت به أشياء ذات أنواع وألوان شتى ، بما فيها أشجار مثمرة وأحراش شائكة .. وهكذا فإن مادةً واحدةً هي التي تتجمد فتأخذ شكل الجبال والصخور ، ولكنها هي الأخرى تأتي متعددة الألوان ، بين أحمر وأبيض وأسود فاحم.. وكذلك تأكل جميع الحيوانات غذاءً واحداً ، ولكن بعضها مفيد للإنسان وبعضها الآخر غير مفيد!

ونعلم من هذا أن العطاء وإن كان عاماً ، إلا أن الكل ينتفع به على قدر كفايته

واستعداده ، وهذا هو شأن الإنسان كذلك ، فإن فيوض الرحمة الإلهية التي تُغدق في صورة الدعوة إلى الحق ، وإن كانت واحدةً في حد ذاتها ، إلا أن تأثر الناس بها يختلف - كماً وكيفاً - باختلاف أمزجتهم وتنوع ميولهم وأذواقهم ، فمنهم من يجد في دعوة الحق غذاءً لروحه .. فسرعان ما يتلقاها بالقبول ويربط نفسه بها بأوثق رباطٍ .. ومنهم مَنْ تحول نفسيته المعقدة دون اعترافه بالحق ، فيبتعد عنه ، بل ربما لا يلبث حتى يتصدى لمعارضته ومحاربته .

وإنما العالم حقاً هو الذي تكون دعوة الحق صدى لنبضات قلبه ، حيث إنه كان لا يزال محتفظاً بنور الفطرة الإلهي ، مما جعله يتعرف على الحق فور ظهوره، وبالمقابل فإن الجاهل هو الذي أخفى نور فطرته وراء حجب كثيفةٍ ، ومن ثم لا ولن يحالفه التوفيق للتعرف على الحق إذا ما تجلّى أمامه!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾

لَّن تَبُورَ : لن تكسد وتفسد ، أو لن تهلك .

إن رجل العلم هو رجل المعرفة ، والذي يفوز بالمعرفة يتخذ من كتاب الله دليله ومرشده الفكري ، وهو يصبح عبداً عابداً لله ، ويعود سمحاً كريماً فيما يتعلق بحقوق الناس، لدرجة أنه يخصص لهم أيضاً جزءاً من ماله الذي كسبه بمجهوده الذاتي .. وترتفع معنوياته بحيث إنه يسخر وجوده كله في سبيل إعلاء كلمة الله قانعاً راضي النفس بأنه سينال أجره في الآخرة !

ومن الأدلة الناطقة بصدق القرآن الكريم وحقيّته: أنه مطابق كل المطابقة لتلك النبوءات التي كانت قد وردت في الكتب السماوية قبل نزوله بقرونٍ . وإنه لو كان أحد الناس جاداً حق الجدية لصار هذا الواقع كافياً لإيمانه بالقرآن الكريم !!

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم : رجحت سيئاته على حسناته .

مُّقْتَصِدٌ : استوت حسناته وسيئاته .

سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ : رجحت خيراته على سيئاته .

الحَزَنَ : كل ما يحزن ويغم .

دَارَ المُقَامَةِ : دار الإقامة الدائمة (الجنة) .

نَصَبٌ :تعب ومشقة .

كان سيدنا يعقوب حفيداً لسيدنا إبراهيم - عليهما السلام - وقد ظل الأنبياء ، بدءاً من يعقوب وانتهاءً بالمسيح عيسى ابن مريم - عليهم صلوات الله وسلامه - يبعثون في سلالة بني إسرائيل .. وهكذا فقد استمرت سلسلة النبوة في نسل اليهود نحو ألفي سنةٍ ، غير أن اليهود لم يعودوا فيها بعد أهلاً لكي يُؤتمنوا على الكتاب الإلهي ، ومن ثم وقع اختيار الله على أمة حية أخرى (بني إسماعيل) لتكون حاملة أمانة الكتاب

الإلهي . وقد كانت ولادة رسول الله - ﷺ - في بني إسماعيل تنفيذاً لهذا القرار الإلهي ذاته ، وبنو إسماعيل هؤلاء هم الذين عناهم الله في قوله ﴿ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا .. ﴾ .

ولما عرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القرآن على بني إسماعيل ، انقسموا إلى أصناف ثلاثةٍ: فمنهم مَنْ تصدوا لمعارضته ، وآخرون اختاروا طريقاً وسطاً .

وأما الطائفة الثالثة فهي طائفة السابقين المقدمين ، وهؤلاء هم الذين صنعوا تاريخ الإسلام العظيم بمناصرتهم لنبي آخر الزمان - صلى الله عليه وسلم - .

وقد اضطرُ هؤلاء لأجل حماية القرآن رفع لوائه عالياً خفاقاً إلى الحرمان من كل ألوان الراحة ، وتحولت حياتهم العملية، نتيجةً لذلك ، إلى حياة كلها صبر وكفاح ومشقة وتعب .. وسيعوضهم الله في الآخرة ، بدل تضحيتهم تلك ، بأن يدخلهم جناتٍ لن يعكر صفو عيشهم فيها أي حزنٍ أو ألمٍ إلى الأبد!

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

لُغُوبٌ : إعياء من التعب وفتور.

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ : يستغيثون ويصيحون بشدة .

إن المنكرين للحق في الدنيا سيعترفون به في الآخرة أتم الاعتراف .. ولكنه لن يغني عنهم يومئذٍ شيئاً ؛ ذلك لأن الاعتراف في الآخرة هو اعتراف الإنسان المقهور ، بينما

الاعتراف المطلوب عند الله هو الاعتراف الاختياري دون الإجباري !.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ﴾

جَعَلَكُمْ خَلائِفَ : خلفاء من كان قبلكم .

مَقْتاً : أشد البغض والغضب والاحتقار .

خَسَاراً : هلاكا وخسرانا.

المراد بالخلافة هنا هو خلافة الأمم والشعوب الغابرة ، وعليه فمعنى قوله : ﴿ جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي استعمركم في الأرض بعد ذهاب الأمم السابقة . وقد جرت سنة الله تعالى بأن يتيح لإحدى الأمم فرصة السكنى والاستقرار والعمل في جنبات الأرض ، ثم إذا أقامت تلك الأمة الدليل على عدم كفايتها وفقدانها للأهلية ، استبدل بها أمة أخرى مكانها . وهكذا ستبقى عملية استخلاف الأمم ، الواحدة تلو الأخرى، جاريةً فوق الأرض، إلى أن يرثها الله ومَنْ عليها !

إن قوانين الطبيعة ، تلك التي تم اكتشافها في العصر الحديث ، تدلنا على أنه يمكن هنا التقاط صورة شيءٍ يغمره ظلام حالك ، وتحويل صوتٍ غير مسموعٍ في ظاهر الأمر بواسطة الآلة إلى صوتٍ مسموعٍ بوضوحٍ ! إن هذه الإمكانات الكامنة في المخلوقات تعرفنا بقدرة الخالق العظيم ، إذْ نعلم منها أن خالق الكون هو إله يعلم الغيب ، وهو يقدر على أن يسمع حتى خبايا القلوب ، وعلى الجملة فإن أمر الإنسان مع إلهٍ عليمٍ وقديرٍ لا يمكنه أن يخفى عنه جرماً، صغيراً كان أو كبيراً ، كما إنه ليس في مقدوره أن يغير قضاءه أو يعدّله بأية حيلةٍ أو وسيلةٍ !!

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

جَعَلَكُمْ خَلائِفَ : خلفاء من كان قبلكم .

مَقْتاً : أشد البغض والغضب والاحتقار .

خَسَاراً : هلاكا وخسرانا .

هل الأصنام والأنداد التي تعبد من دون الله تستطيع خلق شيء ، أو لها نصيب في السماوات والأرض ؟ كلا، والذي يقول بذلك إنما يتبع أهواء نفسه وأمنياتها ، وما ذلك إلا محض كذب وخداع . فإن الله هو خالق كل شيء وهو المتصرف في جميع شئون هذا الكون.

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ : مجتهدين في الحلف بأغلظها وأوكدها .

نُفُوراً : تباعدا عن الحق وفرارا منه .

وَمَكْرَ السَّيِّئِ : والمكر السيئ (الكيد للرسول) .

وَلاَ يَحِيقُ : ولا يحيط أو لا ينزل .

فَهَلْ يَنظُرُونَ : فما ينتظرون .

سُنَّةَ الأَوَّلِينَ : سنة الله فيهم بتعذيبهم لتكذيبهم .

كان العرب ، كلما سمعوا أن اليهود وغيرهم من الأمم كذبوا أنبياءهم وعصوا أمر رسلهم ، قالوا بحماسٍ بالغٍ: لو ظهر بيننا نبي لصدقنا به ولأطعناه على أحسن وجهٍ وأكمله.. ولكنه لم يكد يُبعث فيهم نبي حتى ناصبوه العداء !

وهذه النفسية توجد - بشكلٍ أو آخر - في كل الناس .. فما من امرئٍ في هذه الدنيا إلا تجده يتظاهر بأنه محب للحق ، ويدعي أنه إذا ما أتاه أمر صحيح فسوف يذعن إليه ويتقبله دون توقفٍ أو ترددٍ ، ولكن حين يتجلى الحق مصحوباً بأدلةٍ واضحةٍ ساطعة لا سبيل إلى إنكارها ، فإذا به يقابله بالإعراض ، بل وينبري لمعارضته وزرع العراقيل في طريقه .

وسر ذلك أن إنكار الحق ليس من خصوصيات أمةٍ دون أمةٍ ، وإنما هو من خصائص النفس البشرية العامة ؛ فالإيمان بالحق يكون ، في الأعم الأغلب ، مرادفاً للقضاء على كبرياء الذات ، وبما أن المرء لا يريد أن يفقد كبرياءه الذاتي ، لذا فهو لا يكاد يستعد بطبيعة الحال للإيمان بالحق ، ويغيب عن باله أن إنكار الحق ، وإن كان في مقدوره ، إلا أن إنقاذ نفسه من عاقبة إنكار الحق الوخيمة ليس في مقدوره البتة !

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

كان الإنسان قد منح حرية العمل في هذا العالم ، ولكنه أساء استخدام هذه الحرية،

حيث تبلغ إساءات الإنسان وأخطاؤه من الكثرة إلى حد أنه لو صار يؤاخذ عليها فور اقترافها ، لانقرض النوع الإنساني من الأرض بيد أن حرية الإنسان أتيحت له من أجل الامتحان .. وهذا الامتحان له مهلة معينة ، وتمتد هذه المهلة - بالنسبة للفرد - إلى حين وفاته ، وبالنسبة إلى البشرية جمعاء إلى يوم القيامة ، وذلك هو سر بقاء نسل الإنسان واستمراره على وجه البسيطة .. ولكن كما أن هناك حقيقةً تقول بأن الله لا يؤاخذ أحداً قبل انقضاء المهلة المحددة ، فكذلك ثمة حقيقة أخرى تقول بأنه تعالى سيؤاخذ الإنسان حتماً على أثر انقضاء المهلة المحددة ، ولن يجد أحد ، كائناً من كان ، إلى الهرب من بطشه ومؤاخذته سبيلاً !

سورة يس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ ﴾

من دلائل كون محمد العربي - صلى الله عليه وسلم - رسول الله : هذا القرآن الحكيم الذي عرضه مقراً أنه أوحي إليه من عند الله ، وأما كوْن القرآن "حكيماً" فمعناه : إنه داعٍ إلى الصراط المستقيم ، أي يهدي إلى الطريق الذي هو أقوم الطرق وأصوبها ؛ إذْ ليس في محتوياته شيء يتعارض مع العقل والفطرة ، فبالرغم من مضي أكثر من أربعة عشر قرناً على نزول القرآن ، إلا أن أحداً من الناس لم يستطع حتى الآن إبطال شيءٍ مما جاء بحجة أنه منافٍ للعقل أو الفطرة ، وإن هذه الميزة الفريدة لهي أكبر دليلٍ على كونه كتاباً منزلاً من عند الله العزيز الحكيم.

والمقصود من القوم في قوله : ﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا ﴾ بنو إسماعيل ، وإن كل نبيٍ إنما يأتي لإنذار قومه في المقام الأول ، وكذلك كان المخاطبون الأولون لنبي الإسلام بدوره هم أفراد قومه هو ، ولكن بما أن النبوة قد انتهت بعده - عليه الصلاة والسلام - لذلك فما زالت نبوته باقيةً مستمرةً إلى يوم القيامة ، وإنما الفارق هو أنه - عليه الصلاة والسلام - أعذر في حياته إلى بني إسماعيل وأقام عليهم الحجة بصفةٍ مباشرةٍ ، بينما تضطلع أمته بعد وفاته ، نيابةً عنه، بواجب الدعوة والتبليغ والإعذار إلى مختلف شعوب العالم !

﴿ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا

فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ :والله لقد ثبت ووجب العقاب .

أَغْلالاً :قيوداً تشد أيديهم إلى أعناقهم .

فَهُم مُّقْمَحُونَ : رافعوا الرؤوس غاضوا الأبصار

سَداً : حاجزاً ومانعاً .

فَأَغْشَيْنَاهُمْ : فألبسنا أبصارهم غشاوة .

لئن امتلأ عنق المرء أغلالاً وقيوداً ؛ فإن رأسه سيبقى مرفوعاً متجهاً إلى فوق ، بحيث لا يمكنه أن يبصر موضع قدميه . وهذا تمثيل لأولئك المغرورين الذين قد استغرقوا في كبرياء أنفسهم ، لدرجة أنهم لا يكادون يرون أية حقيقةٍ خارج ذواتهم ، وأمثال هؤلاء لا يوفقون للاعتراف بالحق أبداً !

وإن أهم شيء فيما يتعلق بالاهتداء إلى الحق ، هو أن يتوافر في داخل المرء مادة الاعتراف، وأن يكون هو على حذرٍ دائم من لحظة المثول بين يدي رب العالمين، وألا ترضى نفسه الطموح بشيءٍ أقل من الصدق الكلي الشامل، فأمثال هذا هم الذين يندفعون سراعاً وراء الحق إذا تجلّى ، وبالتالي يستحقون عند الله الجزاء الأوفى ، والإنعام الأكبر !!

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

وَآثَارَهُمْ : ما سنوّه من حسنٍ أو سيئ .

أَحْصَيْنَاهُ : أثبتناه وحفظناه .

إِمَامٍ مُّبِينٍ : أصل بين ، (اللوح المحفوظ)

لقد أثبتت الكشوف العلمية الحديثة أن كل صوتٍ يخرجه الإنسان من فمه يبقى كما هو في "الأثير" في حالة نقوشٍ ، وهكذا كل ما يمارسه الإنسان من عملٍ تنعكس صورته أيضاً بشكل الموجات الحرارية على شاشة الكون وتحفظ إلى الأبد ، وهذا يعني أن حياة كل منا تُصور تصويراً دقيقاً كاملاً كشرائط التسجيل التلفزيونية . وهذه التجربة تدلنا على أنه من الممكن في هذا العالم أن تسجل جميع أعمال الإنسان وأقواله بدقةٍ تامةٍ ، من حيث لا يدري ولا يسعه الحيلولة دونها أو الهرب منها ، ثم يُعاد عرضها عليه في أية لحظة!

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ
ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ
مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ
لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ
تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن
ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

الْقَرْيَةِ : أنطاكية .

فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ : فقويناهما وشددناهما به .

تَطَيَّرْنَا بِكُمْ : تشاءمنا بكم .

طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ : شؤمكم كفركم المصاحب لكم .

أَئِن ذُكِّرْتُم : أين وعظتم تطيرتم .

لعل المراد بالقرية هنا بلاد مصر ، حيث بُعث لإنذار أهلها برسولين اثنين (موسى وهارون) في زمانٍ واحدٍ ، ولكنهم قابلوها بالجحود والإنكار، ثم نهض من بني جلدتهم رجل ثالث أيد الرسولين بحماسٍ ويقينٍ ، وربما يكون المراد بهذا الرجل الثالث هو الرجل المؤمن الذي ذكره القرآن في سورة المؤمن بالتفصيل .

وإن أشد الأشياء مرارةً بالنسبة إلى الإنسان ، مازال يتمثل ، على اختلاف العصور ، في النصيحة تسدى إليه وهي لا تتفق ومزاجه؛ إذْ لا يلبث المرء أن يثور ويمتعض فور سماعه إياها ، وتكون النتيجة أنه لا يكاد يتأمل فيها بذهنٍ هادئٍ معتدلٍ ، وبدل أن يختبرها من حيث الدليل والبرهان ، يلجأ إلى ترديد أقاويل غير ذات الصلة ضدها ، تحت دواعي العناد والكراهية، وإن اختبار أمرٍ ما والحكم عليه في ضوء الدليل هو لزوم الحد والوقوف عنده . وأما معارضته العمياء بدون دليلٍ ولا برهان فهو تعدٍ ومجاوزة لحدود العقل والشرع!

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

يَسْعَى : يسرع في مشيه لنصح قومه .

جاء الرجل الثالث – مع ذلك – ووقف إلى جانب الرسولين ، إذْ لابد للمرء ، وهو يشهد معركة الحق والباطل ، من مناصرة الحق لأنه حق ، حتى ولو كان ذلك مرادفاً لمناصرة الضعيف في مواجهة القوي!! وقد قال الرجل الثالث – فيما قال – لقومه : إن هؤلاء المرسلين لا يسألونكم أجراً على دعوتهم ، وهم – إلى جانب هذا – مهتدون.

ونعلم من هذا أن النزاهة أو الإخلاص وحده ليس بدليلٍ كافٍ على كون المرء على الهدى ، بل يجب أن يُختبر كلامه ، بغض النظر عن كونه مخلصاً وحسن النية ، على محك الدليل ، ثم إنه لن يعدّ صواباً إلا إذا ثبت صوابه على محك الدليل !

﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

فَطَرَنِي : خلقني وأبدعني .

لا تُغْنِ عَنِّي : لا تدفع عني .

كان رجل الحق قد أيد المرسلين معرضاً حياته للخطر . وقد كان عمله هذا قيماً لدرجة أنه أدخل بعده إلى الجنة ، وعلى إثر دخوله في الجنة لا يتناول الرجل قومه الظالمين بالذم أو التشنيع ، وإنما يود لو أنهم قد علموا مصيره ، لما تصدوا لمعارضته الحق !!

تلك هي صورة المؤمن الصادق ؛ إذْ لا يزال المؤمن ناصحاً للناس يتمنى لهم الخير على كل حالٍ ، حتى ولو عامله الناس معاملة الجور والعدوان !

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

صَيْحَةً وَاحِدَةً : صوتا مهلكاً من السماء .

خَامِدُونَ : ميتون كما يخمد النار .

يَا حَسْرَةً : يا ويلاً . أو يا تندماً .

كَمْ أَهْلَكْنَا : كثيراً أهلكنا .

الْقُرُونِ : الأمم .

لَّمَّا جَمِيعٌ : إلا مجموعون .

مُحْضَرُونَ : نحضرهم للحساب والجزاء .

إن الله – عز وجل – حين يحكم على أمةٍ ما بالهلاك ، فيكفي لذلك أن يحرك الأسباب الأرضية ضدها ؛ ولا يستدعي الأمر أن يستعمل جميع القوى السماوية الجبارة .

لِمَ استهزئ بالرسل على مدار التاريخ ؟ إن جواب ذلك يكمن في لفظ "الاستهزاء" نفسه ؛ فالمستهزئون إنما يستهزئون دوماً بإنسان يبدو لهم حقيراً . وهذا ما حدث مع الأنبياء والمرسلين ، حيث أبى معاصروهم أن يؤمنوا بهم لكونهم اعتبروا شخصياتهم أهون شأناً من أن يتم إعلان الصدق الإلهي على ألسنتهم !!

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

وَفَجَّرْنَا فِيهَا : شققنا في الأرض .

خَلَقَ الأَزْوَاجَ : الأصناف والأنواع .

إن وجود التربة الخصبة على سطح الأرض ، وتوفير الماء والحرارة والهواء بمقادير مناسبة لها ، وكون البذور الملقاة فيها تتمتع بصلاحية النمو الازدهار. وما إلى ذلك مما لا يحصى من عوامل وأسباب معلومةٍ وغير معلومةٍ كهذه؛ تتحول آخر الأمر إلى الحبوب وأنواع الثمار والخضراوات لتكون غذاء الإنسان ، وإن هذا النظام قد وُجد بأكمله من غير أن يوجده الإنسان ، وإنما يتم إيجاده وتصريفه بفضلٍ من الله ورحمته ليس غير ، ولو فكر الإنسان في ذلك ، لامتلأ كيانه كله شكراً وعرفاناً .

ثم إن هذا النظام يتضمن أيضاً آيةً على حقيقةٍ عظمى، حيث تدلنا الدراسات على أن كل شيءٍ من أشياء هذا العالم يسري فيه مبدأ الزوجية، فإذا كان نظام الكون قائماً على هذا المبدأ الذي يفرض على جميع الموجودات أن تكمل نفسها عبر الانضمام إلى أزواجها، فلابد أن يكون لعالمنا الراهن هو الآخر "زوج" يكمّله، وهكذا يثبت نظام الزوجية السائد في العالم الحالي إمكان وقوع الآخرة !

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ : ننزع من مكانه الضوء .

قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ : قدرنا سيره في منازل ومسافات .

كَالْعُرْجُونِ القَدِيمِ : كعود عذق النخلة العتيق .

وَلاَ اللَّيْلُ :ولا آية الليل (القمر) .

سَابِقُ النَّهَارِ : سابق آية النهار (الشمس) .

يَسْبَحُونَ : يسيرون بانبساط .

لكلٍ من الأرض والقمر والشمس مدار معين لا يتخطاه، والكل يتحرك في مداره بدقةٍ فائقةٍ ، ويترتب على هذا الدوران ظواهر شتى ، كتعاقب الليل والنهار على وجه الأرض بانتظامٍ ، وأداء القمر دور "تقويمٍ فلكيٍ" بما يعتريه من زيادةٍ ونقصانٍ .. إلخ . ومع أن هذا النظام لا زال قائماً منذ آلاف القرون ، إلا أنه لم يحدث في سيره أي خللٍ أو اضطرابٍ ولو للحظةٍ واحدةٍ !.

وهذه المشاهدة تعرفنا بقدرة الله اللانهائية ، ولو أن المرء نظر فيها بعين الاعتبار لغمره شعور بعظمة الله الواحد القهار بحيث تنعدم بعدها كل آثار العظمة غير الإلهية من ذهنه تلقائياً !

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

ذُرِّيَّتَهُمْ : أولادهم وضعفائهم

الْمَشْحُونِ :المملوء .

فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ : فلا مغيث لهم من الغرق .

إن أرضنا هذه يوجد بها مناطق البر جنباً إلى جنبٍ مع البحار المترامية الأطراف، كما يحيط بنا من فوقنا فضاء رحيب هائل . ولقد أودع الله في هذا الكون إمكاناتٍ لا يعجز

معها المرء عن السفر في أي جزء شاء من هذه الأجزاء الثلاثة ، فهو يستطيع أن يسافر برأ وبحراً وجواً على حدٍ سواء.

وإنما يمكن القيام بكل هذه الأسفار تحت التدبير الإلهي، وهي رحمة للإنسان عظيمة لدرجة أنه لو تأمل فيها لطرح نفسه خاشعاً متضرعاً ذليلاً بين يدي الله ، ولما سلك في طريق المعصية والطغيان أبداً !

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

إن المرء تتبعه من ورائه أعماله ، وبين يديه يوم الحساب العسير، وكأنما الحياة رحلة من دنيا العمل إلى دنيا الجزاء ، وهذا وضع خطير للغاية ، ولو شعر المرء بخطورته حق الشعور ، لارتعدت فرائصه وجلاً وإشفاقاً، ولكن ما بال الإنسان ، فلا هو يأخذ نفسه بالتأمل والتفكير الجاد ، ولا تكاد آية ما تجعله يفتح عيونه! وإنما هو يظل مشغولاً بتبرير أعماله وتصرفاته عن طريق التأويلات الكاذبة حتى يموت !

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

صَيْحَةً وَاحِدَةً : نفخة الموت .

وَهُمْ يَخِصِّمُونَ : يختصمون في أمورهم غافلين .

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ : نفخة البعث .

الأَجْدَاثِ : القبور .

يَنسِلُونَ : يسرعون في الخروج .

صَيْحَةً وَاحِدَةً : نفخة البعث .

مُحْضَرُونَ : نحضرهم للحساب والجزاء .

إن الذين لا يوقنون بالآخرة يقفون منها موقف اللامبالاة وعدم الاكتراث ، كما لو أنها شيء مستبعد جداً. أما الذين هم أشد افتقاراً إلى الجدية نسبياً بين هؤلاء ، قد تبلغ بهم الجراءة أحياناً إلى حد اتخاذ الآخرة موضوع السخرية والاستهزاء، وسيبقى أمثال هؤلاء الناس غارقين في غفلتهم هذه ، إلى أن تقوم القيامة . وإن القيامة ستأخذهم بغتةً لن يتمكنوا معها من اتخاذ أية إجراءات أو تدابير ضدها .. وقد جاء في الحديث ما معناه: أن إسرافيل مازال ينظر نحو العرش ، واضعاً الصور في فمه ، يرتقب متى يصدر إليه الأمر الإلهي حتى ينفخ فيه! وإن النفخ في الصور شأنه شأن الجرس يدق إيذاناً بانتهاء مهلة الامتحان ، وبعدئذٍ سيعتري نظام هذا العالم تغير مفاجئ شامل ، حيث ستبدأ بعد ذلك مرحلة الجزاء ، بينما نحن الآن نمر بمرحلة العمل !

﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾

شُغُلٍ : نعيم عظيم يلهيهم عما سواه .

فَاكِهُونَ : متلذذون . أو فرحون .

الأَرَائِكِ : السرر في الحجال .

وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ : ما يتمنونه أو ما يطلبونه .

إن المرء لا تواجهه في العالم الراهن النتائج المعنوية لعمله . أما الآخرة فهي المكان الذي يلقى فيه كل أحدٍ من الناس نتائج عمله المعنوية، فالشخص الذي كان قد اقتصر سعيه ونشاطه في الأرض على إحراز المنافع الوقتية وحدها ، سيُبعث في عالم الآخرة الأبدي صفر اليدين تماماً . وعلى نقيضٍ من ذلك فإن الذين كرسوا حياتهم الدنيوية في سبيل الهدف الأسمى، سيفرحون هناك بما ينتظرهم من راحةٍ ونعيمٍ لا يفني . ذلك إلى جانب تكريم الله إياهم بعناياته الخاصة!!

﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

وَامْتَازُوا : تميزوا وانفردوا عن المؤمنين .

أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ : أوصكم . أو أكلفكم .

جِبِلاً : خلقا . أو جماعة عظيمة .

اصْلَوْهَا : ادخلوها . أو قاسوا حرها.

الناس في الحياة الراهنة ، يتعايشون - بَرُهم مع فاجرهم - في دنيا واحدةٍ، أما في الحياة القادمة فسوف تفُصل دنيا كلا الفريقين عن دنيا الآخر، فصلاً تاماً ، بحيث يكون عُبّاد الشيطان مع الشيطان ، وعُبّاد الرحمن مع الرحمن. وإنه ليس ثمة أحد يعبد الشيطان باسم الشيطان. ولكن كل عابدٍ لغير الله هو في الحقيقة عابد للشيطان بصورةٍ غير مباشرةٍ ، لأنه إنما يفعل ذلك تحت تزيين الشيطان نفسه .

أثبتت الأبحاث والتجارب العلمية الجديدة أن جلد الإنسان شأنه كشأن إسطوانة تسجيل حساسة ، ترتسم عليه كل الأصوات الصادرة عن المرء ، وأنه يمكن إعادة هذه الأصوات كما هي في أي وقتٍ لاحقٍ . إنها آية تقرب إلى أفهامنا كيف أن جوارح الإنسان (يديه ورجليه) ستأخذ تحكي عليه في الآخرة أخباره وفصول حياته أولاً بأول؟!!

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

لَطَمَسْنَا :لصيرناها ممسوحة لا يرى لها شق .

فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ: ابتدروا الطريق لتجتازوه .

فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ؟: فكيف يبصرون الطريق؟

عَلَى مَكَانَتِهِمْ : في مكان معاصيهم .

وَمَن نُّعَمِّرْهُ : نطل عمره .

نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ :نرده إلى أرذل العمر .

طالما يغترّ الإنسان بما يتمتع به من نعمة العين واليدين والرجلين وغيرها من المواهب والقدرات الأخرى ، فيعدو طورَه ويتمرد على الله فيتجاوز حدوده ، وينتهك محارمه، على حين لو أنه فكرّ ملياً لكفاه هذا الواقع عظةً واعتباراً بأن مواهبه وقدراته تلك ليست من صنعه هو ، بل هي مما أعطاه الخالق إياه ، وإذا كان المعطي إلهاً آخر ، فبإمكانه أن يسترد عطاءه تماماً كما أعطاه .

وبالإضافة إلى ذلك فإن لمحةً سريعةً لهذا الإمكان لا تزال تعرض على الناس بالفعل في صورة الشيخوخة ؛ فالمرء حين يهرم ويبلغ نهاية الشيخوخة ، تنزع منه كل قدراته تلقائياً، حتى إنه ليعود ثانياً من شدة الضعف والاحتياج كما كان أيام طفولته الأولى، غير أن الإنسان غبي بليد الحس، لدرجة أنه رغم مشاهدته كل هذه الأحوال صباح مساء لا يستخلص منها درساً ولا عبرةً !

﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

لقد كان أسلوب القرآن المعجز يجذب إليه السامعين جذباً ، ومن ثم أخذ معارضوه يحاولون التقليل من تأثيره على الناس قائلين بأنه شعر وليس بكلامٍ إلهي.

غير أن هذه دعوى لا تستند على أساسٍ ، فما يسود القرآن من جوٍ مفعمٍ بالجدية اللامحدودة ، وما يحمل بين طياته من أسمى التعاليم عن معرفة الحق ، ومن كشفٍ لا مثيل له عن حقائق الغيب وأسرار الكون ، وما يوجد بين مضامينه - على اختلاف موضوعاتها - من نظم بديعٍ ووحدةٍ فكريةٍ فذةٍ ، وما يتخلل صحائفه من الإشراقات الربانية وانعكاساتٍ لألوهية الله وجلاله لا توصف ، كل ذلك يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك على أن القرآن كلام أعلى وأرفع من أن يصح وصفه بالشعر الإنساني .

بيد أن الحقيقة إنما يؤمن بها دوماً الأحياء وحدهم .. وهكذا فإن صدق القرآن هو الآخر لن يراه إلا من كان حياً ، وأما الإنسان الميت فلن يوفق لرؤيته أبداً !

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ : صيرناها لهم مسخرة منقادة لهم .

وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ: والأصنام جند معدون للكفار نحضرهم معهم في النار لعذابهم .

إن الحيوانات الداجنة بمثابة علامات حية تدلنا على أن صانع العالم المادي قد صنعه بحيث يستطيع الإنسان أن يقوم بتسخير موجوداته واستغلالها بشتى الوجوه ، وعلى أساس من صلاحية العالم المادي هذه يقوم بناء الحضارة الإنسانية بأكمله ، ولو كان الحصانُ والثور هما الآخران من وحشية الطبع والغريزة حيث تكون الدببة والذئاب ، أو كان الحديد والبترول وراء مقدرة الإنسان تماماً ، كما هو شأن المواد البركانية الدفينة تحت الأرض ؛ إذن لاستحال رقي الحضارة الإنسانية وتطورها كل الاستحالة .

وإن الخالق الذي أسدى هذه النعم الجليلة ، كان ينبغي على الإنسان أن يشكر له وحده ، ويفرده بالعبادة من غير شريكٍ ، ولكنه يتخذ من الآخرين دونه آلهةً ، وإذا ذُكر فلا يتذكر ، بل لا يكاد يلقى إلى التذكير والنصيحة بالاً ، وهذا بدون شكٍ هو الطغيان الأكبر ، وليس بإمكان أحدٍ يرتكبه أن ينقذ نفسه من مصيره المحتوم على أية حالٍ !

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا
مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ
أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ
أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ
مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ
﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

هُوَ خَصِيمٌ : مبالغ في الخصومة بالباطل .

وَهِيَ رَمِيمٌ : بالية أشد البلى .

بَلَىٰ : هو قادر على خلق مثلهم .

مَلَكُوتُ : هو الملك التام .

ليس الإنسان خالق نفسه ، وإنما هو مخلوق الخالق المبدع بلا جدالٍ ، وهذا الواقع كان يقتضي أن يتصف الإنسان بصفة التواضع والخضوع، ولكنه طالما ينحرف عن منهج الواقعية ، ويثير مناقشات تتنافى مع حيثيته المتواضعة العاجزة ..

إن خلق الإنسان والكون للمرة الأولى يكفي في حد ذاته للبرهنة على أن عملية الخلق هذه يمكن إعادتها مرة أخرى ، ولكن الإنسان يتعامى عن هذا البرهان الجلي الصارخ ويتساءل جدلاً كيف سيعود الميت حياً من جديد؟! ومع أن حادث تحول الإنسان الميت ثانيةً إلى إنسانٍ حي يقع - ولا ريب - يوم القيامة ، غير أن هذا الإمكان يبدو لنا اليوم جلياً في الأشياء الأخرى ، فلننظر إلى الشجر مثلاً : إن الشجر يكون في ظاهر الأمر أخضر ، ولكنه حين يقطع ويحرق أخشاباً ، فيتخذ شكلاً مختلفاً عن حالته

الأولى كل الاختلاف : يُسمى النار!

إن تحول شيء إلى شيءٍ آخر واقعة ثابتة لا تحتاج إلى مزيد برهانٍ ، وقد جعلها الله بالنسبة إلى بقية الأشياء ممكنة الحدوث والتكرار في عالمنا الراهن. وأما بالنسبة إلى الكائن البشري ، فإنه تعالى سيجعل ذلك ممكناً في يوم القيامة، إلا أنه لن يكون لأجل الإرغام على الإيمان ، بل لمجازاة الإنسان على عناده وطغيانه !!

سورة الصافات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ ﴿٥﴾ ﴾

وَالصَّافَّاتِ صَفاً : قسم بالجماعات تصطف للعبادة .

فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً : تزجر عن المعاصي بالأقوال والأفعال .

فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً : تتلو آيات الله للعلم والتعليم .

إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ : جواب القسم .

من جملة الحقائق الغيبية التي أخبر عنها الأنبياء الكرام وجود الملائكة . وقد ذُكرت هنا ثلاث وظائف خاصة بالملائكة . أما أولاها: فهي تتمثل في خضوعهم التام وانقيادهم الكلي لمشيئة الله ، حيث إنهم لا يزالون يقفون في جناب الله تعالى صفوفاً ، وهم على أتم الاستعداد لامتثال أمره ، دون أن يخطر ببال أحدٍ منهم خاطر العصيان أو التمرد عليه أبداً .

ومن الملائكة : طائفة أخرى تقوم بتنفيذ العقوبات الإلهية على الناس ، إما بشكل النوازل والآفات والنكبات أو بأي شكلٍ آخر سواها .

وأما ثالث الوظائف المنسوبة إلى الملائكة هنا: فهي أنهم يتنزلون بذكر الله وموعظته على قلوب عباد الله ؛ في صورة الإلهام أو الإلقاء بالنسبة إلى البشر العاديين ، وفي صورة الوحي بالنسبة إلى الأنبياء والمرسلين !.

إن الله هو مالك هؤلاء الملائكة الذين لا يراهم الإنسان ، كما أنه تعالى هو مالك هذه السماوات والأرض التي يراها الكل رأي العين . وفي حالة كهذه فإن كل ما يُتخذ من دون الله الواحد إلهاً سيكون هو إلهاً لا يستحق أن يؤلّه أو يُعبد إطلاقاً! .

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾

شَيْطَانٍ مَّارِدٍ : متمرد خارج عن الطاعة .

وَيُقْذَفُونَ : يرجمون .

دُحُوراً : إبعادا وطرداً .

عَذَابٌ وَاصِبٌ : دائم لا ينقطع .

خَطِفَ الخَطْفَةَ : اختلس الكلمة مسارقة بسرعة .

شِهَابٌ : مايرى كالكواكب منقضا من السماء .

ثَاقِبٌ : مضيء أو محرق .

ربما يكون المراد بـ "السماء الدنيا" هو هذا الجزء من الفضاء الذي يقع قريباً منا نحن البشر ، والذي يمكننا أن نشاهده بالعيون المجردة من غير استعانةٍ بأية وسائط أو آلاتٍ .

وكما أن الإنسان كائن مختار ، فكذلك يتمتع الجن بحرية الاختيار ، ومن ثم فهم يحلقون في أجواء الفضاء في محاولة التوصل إلى الملأ الأعلى (العالم العلوي) كي يستمعوا - خلسةً ومسارقةً - إلى أخبار المستقبل ، غير أن الله - جلّت قدرته - قد اتخذ

في السماء الدنيا تدابير محكمة لدرجة أنهم لا يكادون يقتربون منها حتى يُطردوا خائبين، ولا تسنح لهم فرصة للوصول أو الاستماع إلى الملأ الأعلى !

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

طِينٍ لَّازِبٍ : ملتزق بعضه ببعض .

وَيَسْخَرُونَ : يهزأون ويتعجبون .

يَسْتَسْخِرُونَ : يبالغون في سخريتهم .

دَاخِرُونَ : صاغرون أذلاء.

إن هذا الكون الذي يمتد أمام أبصارنا يبلغ من الدقة والتعقيد والعظمة والاتساع حداً يبدو بجانبه إعادة خلق البشر في عالم آخر عملاً هيناً صغيراً نسبياً، إذْ كيف يستحيل أو يُستبعد على خالقٍ نشاهد الأنموذج الأعظم من قدرته على الخلق والإبداع؛ أن يقوم بعملية إبداعية أصغر من ذلك بكثير؟!

ومن تحليل الجسم الإنساني ندرك أنه علم على مزيج من الأجزاء الأرضية ، حيث تم تكوين الإنسان من تركيب المواد أو العناصر المتوافرة في أرضنا كالماء ، والكالسيوم ، والحديد ، والصوديوم ، والتنجستين ، وما إلى ذلك، وكل هذه العناصر توجد في هذا العالم بمقادير هائلةٍ جداً ، إذن ، فالعناصر التي أنشأ الخالق بتركيبها هذا الإنسان مرةً واحدةً ، كيف لا يستطيع أن يفعل ذلك بإعادة تركيب هذه العناصر نفسها مرةً

أخرى؟!

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝ ﴾

زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ : صيحة واحدة (نفخة البعث)

يَا وَيْلَنَا : يا هلاكنا أحضر .

يَوْمُ الدِّينِ : يوم الجزاء والحساب .

وَأَزْوَاجَهُمْ : أشباههم . أو قرناءهم .

وَقِفُوهُمْ : احبسوهم في موقف الحساب .

يساق الحديث عن الحياة القادمة في العالم الراهن كما يُساق خبر من الأخبار . ولكن المرء لا يلقى إلى هذا الخبر بالاً ولا يعطيه أهميةً تُذكر ، وأما إذا فوجئ الناس بالحياة القادمة، وقد استحالت حقيقةً قاسيةً لا مندوحة عنها ، فسوف لا يلبث المرء يومئذٍ أن يلقى بنفسه بين يدي الله خاضعاً مستسلماً ناسياً كل عناده وطغيانه. وإنه سيكون مشهداً فظيعاً مروعاً لا يوصف. وقد سُلطت بعض الأضواء على ما سيؤول إليه حال الناس يومئذٍ في ساحة المحشر في الآيات التالية .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ۝ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ۝ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ ۝ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ۝

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (33) ﴾

عَنِ الْيَمِينِ : من جهة الدين فتصدوننا عنه.

قَوْماً طَاغِينَ : مجاوزين الحد في العصيان .

فَحَقَّ عَلَيْنَا : ثبت ووجب علينا .

فَأَغْوَيْنَاكُمْ : فدعوناكم إلى الغي فاستجبتم .

هذا حوار بين العوام (الأتباع) والقادة (المتبوعين) ، ففي يوم القيامة سوف يلقي العوام بتبعة هلاكهم وضياعهم على قادتهم قائلين : إنكم أنتم الذين أغويتمونا بشتى وسائل الإغواء والتضليل .. وسيرد عليهم القادة بقولهم: إن اتهامكم هذا خاطئ ، إذْ لا يغوي أحد أحداً ، وإنما كانت أنفسكم منطويةً على مزاج التمرد والطغيان ، وبالتالي فقد استجبتم لنا واتبعتمونا لكون كلامنا يتفق مع مزاجكم ، والواقع أن استجابتكم إنما كانت أساساً لأهوائكم وليست لنا .. إذن فكلنا في الجريمة سواء .

والحقيقة أن كلا الفريقين - القادة والأتباع - سيلاقون يوم القيامة مصيراً مشتركاً واحداً ، فلن تتمكن عظمة القائد من إنقاذه من العذاب ، ولن ينجي العوام اعتذارهم : إننا كنا جهلة ، وإنما أضلنا قادتنا عن سواء السبيل !.

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (34) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (36) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (37) إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (38) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (39) ﴾

ليس معنى قوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35) ﴾ أنهم

كانوا يقفون موقف الاستكبار إزاء الله .. إذْ لا أحد يفعل ذلك فإن عظمة الله أجل وأكبر من يجترئ أحد على التعالي والاستكبار تجاهه ، وإنما كان استكبارهم في الحقيقة بالنسبة إلى رسول الله وليس بالنسبة إلى الله تعالى !.

وحيث إن رسالة التوحيد التي جاء بها الرسول كانت تمثل ضربة موجهةً نحو أكابرهم أولئك الذين كانوا يمارسون أعمالهم المشركة بأسمائهم ؛ فإذا قارنوا بين شخصية الرسول -من ناحيةٍ - وبين أكابرهم المزعومين - من ناحيةٍ أخرى - بدا لهم الرسول في ظاهر الأمر أقل وأنزل رتبةً من أكابرهم ، وكانوا بالتالي لا يلبثون أن يعرضوا عن الرسول ازدراءً واستهانةً بشأنه . وكانوا يظنون باستمرارهم على التشبث بأهداب أكابرهم المزعومين ، أنهم مرتبطون بالكبار .

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

الْمُخْلَصِينَ : الذين أخلصهم الله لطاعته .

بِكَأْسٍ : بخمر . أو بقدح فيه خمر .

مِن مَّعِينٍ : من شراب نابع من العيون .

لاَ فِيهَا غَوْلٌ : ليس فيها ضرر ما كخمر الدنيا .

قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ : حور لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

عِينٌ : واسعات العيون حسانها .

بَيْضٌ مَّكْنُونٌ :مصون مستور لم يصبه غبار .

الذين سيقيمون بأقوالهم وأعمالهم الدليل على أنهم أهل للسكنى في عالم الجنة اللطيف النفيس ، سوف يختارهم ربهم للإسكان في جنته، وسوف يوفر لهم هناك كل أنواع النعم الرفيعة، ثم يقال لهم : عيشوا في حدائق اللذات والراحات خالدين أبد الدهر!.

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

لَمَدِينُونَ : لمجزيون محاسبون ؟

سَوَاءِ الْجَحِيمِ : وسطها .

إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ : إنك قاربت لتهلكني بالإغواء .

الْمُحْضَرِينَ : للعذاب مثلك .

إن الجنة ستكون عالماً حافلاً بأنشطةٍ لطيفةٍ وممتعةٍ للغاية ؛ حيث ستكون هناك اجتماعات يسودها الأنس والمودة والصفاء ، ومشاهدات رائعة تبعث البهجة والسرور في النفس ، وسيدور بين أصحابها أحاديث وأسمار لذيذة هادئة ؛ إذْ ستكون كل ألوان القيود والحدود قد ألغيت هناك ، وكل أنواع المنغصات قد انعدمت وتلاشت إلى غير

رجعةٍ.

وليس المراد من الإيمان بالآخرة إقرارها اللفظي بسهولةٍ ، وإنما اعتبار أمرها من الأهمية والخطورة بحيث يطغى ذلك على حياة المرء بأكملها ، وبالتالي يسخِّر المرء كل ما يملك في سبيل الآخرة ، والذين كانوا يعتبرون محبي الآخرة مجانين أو مغفلين ، سوف يتملكهم الذهول حين يرون فوزهم ونجاحهم الباهر في الآخرة، ومن جهةٍ أخرى سينظر المحبون للآخرة إلى مصيرهم الرائع نظرة ملؤها الدهشة والإكبار ، كما لو أنهم غير متأكدين من أن الله كافأهم على عملهم الصغير بهذا الجزاء الكبير .. ما أعجب ذلك الإنسان الذي لا يحترق شوقاً إلى جنةٍ هذا شأنها ، والذي لا يعمل جهده لأجل الحصول عليها !!

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا
شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأٓكِلُونَ
مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ
مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ
يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

خَيْرٌ نُّزُلاً : ضيافة وتكرمة ولذة .

شَجَرَةُ الزَّقُّومِ : شجرة من أخبث الشجر بتهامة .

فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ : محنة وعذاباً لهم في الآخرة .

أَصْلِ الجَحِيمِ : قعر جهنم .

طَلْعُهَا : ثمرها الشبيه بطلع النخل .

كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ : تمثيل لتناهيه في البشاعة والقبح .

لَشَوْباً : لخلطا ومزاجاً .

مِنْ حَمِيمٍ : ماء بالغ غاية الحرارة .

عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ : يزعجون ويحثون على الإسراع الشديد على آثارهم .

لقد جاء في القرآن غير مرةٍ أن في جهنم شجرة من زقومٍ ، سيأكل أهل جهنم من ثمارها إذا اشتد بهم الجوع . (الدخان : ٤٢ ، الواقعة: ٥٢) .

ولما أخبر القرآن بذلك اتخذه قدماء العرب موضوع التندر والسخرية ، فقال أحد الرؤساء : كيف ستنبت الشجرة وسط نيران جهنم الملتهبة ، بينما النار تحرق الشجر ؟ وقال آخر : إن محمداً يحذرنا من الزقوم ، وإنما هو في لغة البربر التمر والزبد . وذات يومٍ ذهب أبو جهلٍ ببعض الناس إلى داره ، فنادى جاريته بأن ائتيني بالتمر والزبد ، فلما أحضرت ، قال لأصحابه : "تزقموا ، هذا ما يخوفنا به محمد "[1].

وقد كانت مثل هذه التصريحات القرآنية أفضل وسيلةٍ يستغلها المعارضون للدعاية المغرضة ضد القرآن وتشكيك الجماهير في شأنه ، وقد كان بالإمكان ألا يستعمل الله – سبحانه وتعالى – في القرآن أية كلمةٍ يجد فيها المعارضون مأخذاً أو موضوع الطعن والانتقاص ، غير أن الله سبحانه لم يفعل ذلك . وسر ذلك أن هذا هو المكان الذي يتم فيه امتحان المرء ، فلكي يدخل المرء في عداد الناجين لابد له من أن يقيم الدليل على أنه قد ركز اهتمامه على الحقيقة الجوهرية بغض النظر عن المطاعن والمآخذ ، وأدرك المراد الحقيقي من الكلام مع اجتياز مزالق سوء الفهم بسلامةٍ ، وجنّب نفسه الانحراف

(١) انظر : تفسير الطبري ٢٣/ ٤١.

الذهني رغم توافر إمكاناته .

إن عباد الله "المخلصين" هم الذين يكتشفون الصدق متحررين من أسر الدين التقليدي الموروث ، ويدركون المعاني مترفعين عن الظواهر ، والذين يتعرفون على مندوب الله البشري ، وبالتالي يقفون إلى جانبه بكل ما عندهم من همةٍ ونشاطٍ !

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

لم يلبث قوم نوح أن صاروا له أعداء ، فنادى - عليه السلام - ربه طالباً نصرته على قومه ، فنصره الله على أفضل وجه وأكمله ، وتوضح هذه الكلمات أن عبداً من عباد الله حين ينادي ربه ، فيتلقى من لدنه تعالى أحسن الجواب . ولكن لكي نفهم هذا الأمر على وجهه لابد أن نضيف إليه أمراً آخر ، وهو أن نوحاً - عليه السلام - استمر يعمل ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً ، ظل فيها يدعو قومه إلى الله ، متحلياً بالصبر والحكمة ، ومراعياً كل آداب النصح والموعظة الحسنة ، وهكذا بعد مضي حقب طويلة من الزمان حافلة بالجهد الدءوب والعناء المتصل ، حان الوقت الذي لم يعد يسعه فيه إلا أن يدعو الله على قومه ، وبالتالي تتوجه عناية الله إلى نصره بكل قواه .

وقد هلك معارضو نوح في طوفانٍ هائلٍ بحيث لم يبق لهم ذكر ولا أثر . وأما نسل البشر الذي بدأ في أعقاب ذلك بالتكاثر ، فإنما جاء من ذرية أولئك الأفراد القلائل الذين ركبوا في السفينة مع نوحٍ فنجوا من الغرق !

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ

وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

مِن شِيعَتِهِ : ممن شايعه على منهاجه وملته .

أَئِفْكاً : أكذباً وباطلاً.

كان سيدنا إبراهيم هو الآخر على الدين نفسه الذي كان عليه سيدنا نوح من قبل؛ فقد ظلت دعوة جميع الأنبياء والمرسلين ، على اختلاف الزمان والمكان ، واحدةً ، ألا وهي أن يصل المرء إلى ربه وهو يحمل بين جنبيه قلباً سليماً . والقلب السليم معناه القلب الطاهر ، أي القلب المصون من الآفات . وهذا هو الشيء الأصيل الذي يطلبه الله من الإنسان.

لقد بعث الله بالإنسان إلى الدنيا بعد أن خلقه على الفطرة الصحيحة . واختباره الآن يكمن في أن يجنب نفسه فتن الدنيا ومغرياتها ، حتى يلقى ربه وهو منزّه نقي من كل دنسٍ أو لوثةٍ شيطانية ونفسانيةٍ . وإن هذا الإنسان الطاهر المصون هو الذي يسكنه الله وأمثاله في جنانه الأبدية!

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

فَنَظَرَ : تأمل تَأَمُّل الكاملين .

إِنِّي سَقِيمٌ : يريد أنه سقيم القلب لكفرهم .

فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ : فمال إليها خفية ليحطمها .

ضَرْباً بِالْيَمِينِ : يضربهم ضرباً ملتبسا بالقوة .

يَزِفُّونَ : يسرعون في مشيهم .

بِغُلامٍ حَلِيمٍ : رجح كثير أنه إسماعيل عليه السلام.

ربما كان قوم إبراهيم يتهيأون للذهاب إلى خارج البلدة لأجل الاحتفال ببعض أعيادهم ، وبالمناسبة طلب منه - عليه السلام- أهل أسرته أن يخرج معهم هو الآخر، إلا أنه اعتذر إليهم عن ذلك بأسلوب التورية . ولما ذهب جميع الناس ، توجه ليلاً صوب معبدهم ، وحطّم أصنامهم ، وإنه - عليه السلام- لم يقدم على هذا إلا بعد ما استنفد كل جهوده في دعوة القوم إلى الحق وأقام عليهم الحجة، ولما لم يقتنعوا بكون الأصنام باطلةً عن طريق الأدلة والبراهين ، أعلمهم بلسان العمل بأنها باطلة لا حقيقة لها ؛ إذْ لو كانت لها حقيقة ما لأنقذت نفسها من التحطم تحت ضربات المعول !.

وبعد قيامه - عليه السلام- باتخاذ هذه الخطوة النهائية الحاسمة ، لم يلبث القوم أن رموه بآخر سهامهم ، حيث ألقوه في النار المستعرة ، ولكن الله أنقذه منها سالماً، وقد اضطر بعد ذلك إلى الفرار من قومه ، فغادر وطنه (العراق) ورحل إلى الشام ، ويتردد على لسانه آنذاك الدعاء التالي : اللهم ارزقني أولاداً صالحين ، حتى أقوم بتربيتهم على معاني الإيمان والإسلام ، لكي يضطلعوا من بعدي بأعباء دعوة التوحيد ويستمروا في إبلاغها إلى الأجيال اللاحقة!

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ

قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ
لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾
إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا
عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾

بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ : درجة العمل معه في حوائجه .

أَسْلَمَا : استسلما وانقادا لأمره تعالى .

وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ : أضجعه على جبينه على الأرض .

البَلاءُ المُبِينُ : الاختبار البين . أو المحنة البينة .

بِذِبْحٍ : بكبش يذبح .

لقد غلب الشرك في زمن سيدنا إبراهيم وسرى نفوذه في كل شعبةٍ من شعب الحياة البشرية بحيث قام له تسلسل فكري عبر الأجيال المتعاقبة، فما من مولود يولد في ذلك الزمان إلا ترسخت جذور الشرك في أعماقه بتأثير البيئة المحيطة به ، لدرجة أن أية محاولات دعوية لم تعد تنجح في تنقية ذهنه من آثار الشرك ، ولما خرج سيدنا إبراهيم، بعد كفاحٍ دعوي طويلٍ من أرض العراق ، لم يكن معه حينذاك سوى مؤمنين اثنين : أحدهما زوجه سارة ، والآخر ابن أخيه لوط!!

ولما كان الناس يأبون قبول التوحيد على كثرة دعوات الأنبياء وطول مداها ، شاءت إرادة الله أن يضع خطةً لإعداد نسلٍ جديدٍ من البشر ينشأ بمعزلٍ عن مؤثرات بيئة

الشرك ، وقد اختير لهذا الغرض منطقة الحجاز النائية التي كانت غير مسكونةٍ تماماً ، وكانت تتلخص هذه الخطة الإلهية في أن يتم إسكان شخصٍ في تلك المنطقة غير المأهولة ، ويُعد من أعقابه وذريته نسل محفوظ نقي، غير أن الحجاز لم يكن يعدو أن يكون صحراء مجدبة حينذاك ، فكان إسكان أحد الناس في هذه الصحراء المجدبة مرادفاً لذبحه حياً .. وقد أمر الله خليله إبراهيم بأن يقدم ابنه البكر إسماعيل لهذا الذبح، فما لبث أن أحضر ولده للذبح امتثالاً لأمر الله.. فكأن إسماعيل تعرض للذبح مرتين وقد نجاه الله فيهما!!

وكان لسيدنا إبراهيم ولد آخر هو سيدنا إسحاق - عليه السلام - وقد ظلت النبوة مستمرةً في نسله إلى أن وُلد النبي الخاتم في بني إسماعيل ، وهو الذي فجر - باستخدام "النسل المحفوظ" الآنف الذكر ثورة توحيديةً عامةً قضت على غلبة الشرك الفكرية إلى الأبد!!

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

لقد نصر الله موسى وقومه ونجاهم من ظلم فرعون . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : كيف تم ذلك؟ إنما تم ذلك عن طريق الدعوة إلى الله ، حيث دعا موسى فرعون إلى الحق ، وبذل في هذا السبيل قصارى جهده حتى أعذر إليه وأقام عليه الحجة . وبعدئذٍ حان الوقت الذي لم يعدُ فيه بد من أن يُدان فرعون ويهلك ، ويكتب لموسى وقومه الغلبة والتمكين في الأرض، ومما يُستفاد من هداية الصراط المستقيم في

هذا السياق أنه قد وُفقوا إلى الحل الصحيح لقضية فرعون .. وبالرغم من أنها كانت قضية قومية بالنسبة إلى بني إسرائيل ، إلا أنهم أُرشدوا إلى حلها في إطار الدعوة ؛ ومن ثم فإن الغلبة التي حصلوا عليها إنما جاءت ثمرة كفاحهم الدعوي ، وليس نتيجة أي نضالٍ قومي ضد الطاغية فرعون !.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ : أتعبدون الصنم المسمى بعلاً تحضرهم الزبانية في النار .

إِلْ يَاسِينَ : إلياس أو إلياس وأتباعه .

كان إلياس – عليه السلام – من نسل هارون – عليه السلام – عاش في القرن التاسع قبل المسيح وفي عهده كانت فلسطين يحكمها الملك اليهودي أخْآب (Ahab) ، وكانت لبنان خاضعةً لحكومة الشعب الفينيقي ، الذي كان شعباً مشركاً يعبد صنماً يقال له: "بعل" . وقد تزوج أخآب من ابنة الملك المشرك ، وبتأثيرٍ من هذه الأميرة المشركة انتشرت عبادة الصنم بعل بين اليهود، وعندها قام إلياس يحذر اليهود مغبة انحرافهم ، ودعاهم إلى عبادة الله الواحد ؛ دين آبائهم وأسلافهم الحقيقي. وقد ذُكرت أحوال سيدنا إلياس (باسم إيليا) في أسفار التوراة .

ولم يقف إلى جانب إلياس – عليه السلام – في زمانه سوى عددٍ قليلٍ من اليهود ، بينما وقفت أغلبيتهم الساحقة منه موقف الجحود والمعارضة ، حتى تآمروا على سفك

دمه .. فأذاقهم الله جزاء ذلك شتى العقوبات ، على أن إلياس لم يلبث أن نال مقاماً رفيعاً جداً لدى اليهود فيما بعد ؛ حيث إنه يُعد الآن من كبار الأنبياء في تاريخ الشعب اليهودي!

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

فِي الغَابِرِينَ : في الباقين في العذاب .

دَمَّرْنَا الآخَرِينَ : أهلكناهم .

مُّصْبِحِينَ : داخلين في وقت الصبح .

كان سيدنا لوط ابن أخٍ لسيدنا إبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - وقد أُرسل إلى قريتي سدوم وعاموره قرب البحر الميت لهداية أهلها الذين كانوا مصابين بعبادة غير الله وسوء الأخلاق ، غير أنهم لم يتقبلوا الهداية ، فما لبثوا أن حل بهم آخر الأمر عذاب الله ، فأهلكوا عن آخرهم ما عدا لوطاً ونفراً قليلاً من الذين آمنوا به .

وقد كانت قريش كثيراً ما تمر قوافلها التجارية ، وهي في طريقها إلى بلاد الشام وفلسطين ، بأطلال مساكن قوم لوط الواقعة على شواطئ البحر الميت ، ولكن من

عجائب أمر الإنسان أنه لا يعرف إلا الحادث الذي يقع على نفسه هو، أما مصائر الآخرين فقلما يأخذ منها درساً أو ينظر فيها بعين التدبر والاعتبار !

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

أَبَقَ: هرب .

المَشْحُونِ : المملوء .

فَسَاهَمَ : فقارع مَنْ في الفلك.

المُدْحَضِينَ : المغلوبين بالقرعة .

فَالْتَقَمَهُ الحُوتُ : ابتلعه .

وَهُوَ مُلِيمٌ : آت بما يلام عليه .

المُسَبِّحِينَ : الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح .

فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ : طرحناه بالأرض الفضاء الواسعة .

يَقْطِينٍ : هو القرع المعروف وقيل غيره .

يرجع عهد يونس – عليه السلام – إلى القرن الثامن قبل المسيح ، وقد أرسله الله إلى نينوى – إحدى مدن العراق القديم – فمكث هناك يدعو أهلها إلى الحق مدةً من الزمان ،

حتى يئس من إيمانهم ، فغادر المدينة ولم ينتظر أمر الله بمفارقة قومه . ولعله حين أزمع الرحيل قصد نحو شاطئ دجلة ، حيث ركب في سفينة كانت مكتظةٍ بالمسافرين ، فلم تكد السفينة تتوسط النهر حتى اضطربت وكادت أن تغرق ، فاضطر ركابها أن يقترعوا على من يُلقى في البحر منهم ، فخرجت القرعة على يونس وألقوه في الماء ، فابتلعه - بإذن الله - حوت عظيم، ثم نبذه بالساحل بعدما لبث في بطنه ما شاء الله أن يلبث .. وبم أن يونس - عليه السلام - كان قد ترك قومه قبل الآوان ، أمره الله بأن يعود مرةً أخرى إلى قومه ، فجاء ، واستأنف دعوته ، ولم يلبث حتى آمن به جميع سكان المدينة البالغ عددهم أكثر من مائة ألف نسمةٍ .. وهذا يفيد أن الداعي لابد له من التزام الصبر على كل حالٍ ، حتى في الوقت الذي يكون سلوك الناس قد صار في ظاهر أمره باعثاً على اليأس !

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

إِفْكِهِمْ : كذبهم على الله .

أَصْطَفَى ؟: اختار ؟ (استفهام توبيخ) .

سُلْطَانٌ : حجة وبرهان .

إن ترغيب الشيطان أو تفسير البشر الخاطئ لحقائق الغيب كثيراً ما يؤدي إلى انحرافات فكرية وضلالات عقيدية عظيمة ، ومنها ما يعتقده بعض الناس أن الملائكة بنات الله ... ، إن هذا زعم سخيف باطل لا يستند على أساسٍ من العقل أو النقل،

وحسبك دليلاً على بطلانه بأمرٍ بديهي وهو أنه لو كان الله - فرضاً - بحاجةٍ إلى الولد لمساعدته ، لاتخذ لنفسه الذكور دون الإناث التي هي رمز للضعف حتى لدى المشركين أنفسهم !!

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

الجِنَّةِ : الملائكة ، أو الشياطين .

إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ : إن الكفار لمحضرون للنار .

عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ : مضلين أو مفسدين على الله أحداً.

صَالِ الجَحِيمِ : داخلها أو مقاسِ حرها .

الصَّافُّونَ : أنفسنا في مقام العبادة .

المُسَبِّحُونَ : المنزهون الله تعالى عما لا يليق بجلاله .

تعتقد الأمم الضالة عن الجن أنهم أنداد ومنافسون لله سبحانه وتعالى ؛ حيث تزعم أن الجن يملكون قوى الشر كما يملك الملائكة قوى الخير ، وأن كلاهما قادر على أن يجرّ من شاء إلى هوة الشقاء والتعاسة ، ويقود من شاء إلى طريق النجاح والسعادة، كشأن المجوس القائلين بالثنوية ؛ أي بوجود مبدأين أو إلهين اثنين: أحدهما "أرْمُزد" وهو - في زعمهم - إله النور والخير ، وثانيهما "أهريمان" وهو إله الظلمة والشر .

إن الإنسان يؤله الملائكة ويعبدهم في الدنيا بناءً على افتراضاته الكاذبة ، بينما الملائكة

لا يزالون يقفون بين يدي الله الواحد القهار صفوفاً كالخدم المطيعين ، وألسنتهم لا تفتأ تلهج بتكبير الله الواحد وتسبيحه كل حينٍ وآن !

﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

الناس يهملون أمر دعاة الحق بعد الاكتراث ، ويغيب عن بالهم أن دعاة الحق هم جنود الله في هذه الدنيا ، وأن كلمتهم تعلو على كل حالٍ ، مهما اشتدت معارضة المعارضين لها ، ومهما وضعوا في طريق انتشارها من صنوف العراقيل !

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

بِسَاحَتِهِمْ : بفنائهم . والمراد .بهم .

رَبِّ العِزَّةِ : الغلبة والقدرة والبطش .

كان الرسول ينذر الناس قائلاً بأنكم لئن لم تؤمنوا بما جئتكم به،حل عليكم عذاب من الله شديد .. بيد أن الناس ما برحوا يعتبرون هذا القول ضرباً من اللغو أو الهذيان ، فظلوا يسخرون منه ومن قائله .

ولكن بالرغم من سخرية الناس واستهزائهم لم ينزل عليهم العذاب فوراً ، لأن العذاب الإلهي لابد له من قيام الحجة وبلوغ الدعوة إلى حد انقطاع العذر ، ولهذا

السبب يؤمر الأنبياء بالصبر والإعراض حتى يأتي الأجل المقدور بحسب العلم الإلهي !

سورة ص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ ﴾

وَالْقُرْآنِ : (قسم) جوابه ما الأمر كما تزعمون .

ذِي الذِّكْرِ : ذي البيان لما يحتاج إليه في الدين .

عِزَّةٍ : حمية وتكبر عن الحق .

وَشِقَاقٍ : مشاقة ومخالفة لله ولرسوله .

كَمْ أَهْلَكْنَا : كثيرا أهلكنا .

قَرْنٍ : أمة . **فَنَادَوْا** : فاستغاثوا حين عاينوا العذاب .

وَ لاَ تَ حِينَ مَنَاصٍ : ليس الوقت وقت فرار وخلاص .

حيث إن التذكير إنما يتم بشيءٍ يكون موجوداً بالفعل بصورةٍ مسبقةٍ ، فيكون معنى كون القرآن "ذي الذكر" أي مذكراً أنه يدعو إلى التسليم بتلك الحقائق التي هي مودعة في فطرة الإنسان سلفاً ، وإنه لم يكن لأحد الناس أن يعثر في القرآن على شيءٍ يتعارض مع الواقع أو ينافي الفطرة ، وهذا بحد ذاته دليل كاف على أن القرآن حق لاريب فيه ، والذين يأبون الإيمان بالقرآن فمن المؤكد أن الباعث على إنكارهم نفسي وليس بعقلي، أي إنهم لا ينكرونه استناداً إلى دليل أو برهان ، بل لأن كبرياءهم يزول فيها لو آمنوا به .

وإن القرآن ليس إلا امتداداً لدعوة التوحيد تلك التي ظلت جاريةً على أيدي

الأنبياء فيما خلا من العصور ، وكلما قابل قوم هذه الدعوة بالتكذيب والإنكار في الأزمان الغابرة ، لم يلبثوا أن أهلكوا وجُعلوا أحاديث ، وينبغي لمنكري الحال أن يعتبروا بهذا المصير المحتوم الذي لقيه منكرو الماضي !

﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾

عُجَابٌ : بالغ الغاية في العجب .

المَلأُ مِنْهُمْ : الوجوه من كفار قريش .

امْشُوا : سيروا على طريقتكم ودينكم .

المِلَّةِ الآخِرَةِ : دين قريش الذي هم عليه .

اخْتِلاقٌ : كذب وافتراء منه .

كان القرآن – من جهةٍ – بأسلوبه الفذ وكلامه البليغ المؤثر على نحوٍ غير عادي ، يصيب المعارضين بذهولٍ واندهاشٍ بالغين ، وكان مظهر صاحب القرآن العادي يوقعهم – من جهةٍ أخرى – في شكٍ وارتيابٍ ، ومن ثم كانوا لا يزالون يرددون صنوفاً من الأقاويل لرفضه وتكذيبه ؛ فيقولون تارة: إنه ساحر ، ويرمونه طوراً بالكذب والافتراء ، ويزعمون حيناً أن له وراء ذلك بعض الأغراض المادية ، ويتساءلون حيناً آخر كيف يمكن أن يكون أسلافنا الكبار جميعاً على خطأ ، وهذا الرجل العادي وحده

على الصواب ؟!

وقولهم ﴿ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ مما يوضح أنهم كانوا يجدون أنفسهم عاجزين في ميدان الدليل ، ولذلك حاولوا إنقاذ الجماهير التابعة لهم من التيار القرآني برفع شعار التعصب !!

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾

الأَسْبَابِ : المعارج إلى السماء .

جُندٌ مَّا : هم مجتمع حقير و"ما" زائدة .

هُنَالِكَ : بمكة يوم الفتح أو يوم بدر .

ذُو الأَوْتَادِ : الجنود أو المباني القويتين .

وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ : سكان الغيضة الكثيفة الملتفة الشجر (قوم شعيب).

وَمَا يَنظُرُ : ما ينتظر .

صَيْحَةً وَاحِدَةً : نفخة البعث .

مَا لَهَا مِن فَوَاقٍ : ما لها توقف قدر فواق ناقة ، وهو ما بين حلبتيها .

قِطَّنَا : نصيبنا من العذاب الذي أوعدته .

إن رحمة الهداية الإلهية لا تُوزع بحيث إن مَنْ نال العظمة الدنيوية ، يُمنح بالضرورة هداية الله الأخرى ؛ إذْ لو كانت العظمة الدنيوية مما يجعل صاحبها عند الله عظيماً ، لكان بإمكانه هو وأمثاله من عظماء الناس أن يعطوا رحمة الله من شاءوا ، ويمسكوها عمن شاءوا.. ولكن الحقيقة أن الله يقسم رحمته حسب معياره هو ، وليس بحسب معيار عبدة الظواهر من البشر ، وقد كان المنكرون للرسول يسخرون منه قائلين: بأن ائتنا بالعذاب الإلهي الذي تخوفنا به !

وإنما تولدت هذه الجراءة في نفوسهم لكونهم يحسبون أن عذاب الله لن ينزل عليهم أبداً ، فتم تنبيههم إلى أنه قد مضت قبلكم أمم ظنت هي الأخرى نفسها بمأمنٍ من العذاب اعتماداً على أمثال هذه الأصنام التي تظنون أنفسكم آمنين في جوارها ، ولكنها لم تلبث طويلاً حتى أهلكت عن بكرة أبيها ، إذن ، فما الذي سيجعلكم لا تلقون هذا المصير المحتوم!!

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾

ذَا الأَيْدِ : ذا القوة في الدين والعبادة .

إِنَّهُ أَوَّابٌ : رَجَّاعٌ إلى الله تعالى وطاعته .

بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ : من الزوال للغروب ، ووقت الضحى .

وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ : قويناه بأسباب القوة كلها .

وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ : النبوة وكمال العلم وإتقان العمل .

وَفَصْلَ الخِطَابِ : علم فصل الخصومات .

الخَصْمِ : ملكين في صورة إنسانين .

للصبر أهمية بالغة في الدين ، ولكن لا يطيق الصبر على أذى الإنسان إلا الذي يستطيع تفويض أمر الإنسان إلى الله ، فإن الشخص الذي يكون غارقاً في تسبيح الله وحمده ، يمكنه أن يعرض عما يلقاه من أخيه الإنسان من منكر القول وسوء الأخلاق .

وقد كان سيدنا داود - عليه السلام - النموذج الأعلى لهذه الصفة ، فمع ما أعطاه الله من قوة خارقةٍ ومملكةٍ عظيمةٍ واسعةٍ ، إلا أنه كان رجاعاً إلى الله في كل الأمور والمعاملات، وكان لا يزال مستغرقاً في التسبيحات الإلهية المترددة أصداؤها في أرجاء الكون.. وقد كان - عليه السلام - يعزف ، وهو جالس في سفح الجبل ، نغمات الحمد الإلهي بصوته الجميل الممتزج بحرقةٍ وشوقٍ ووله يجعل كل ما حوله يتجاوب معه ، حتى إن الجبال والطيور والأشجار كانت بدورها تردد تسابيحه .

وإن المملكة التي أعطاها الله داود كانت مملكةً قويةً متماسكةً للغاية، وسر هذه القوة والتماسك كان يكمن في الحكمة وفصل الخطاب، والمقصود بالحكمة أنه كان يعالج دائماً كل ما يعرض له من قضايا وشئون بأسلوبٍ حكيم ومتعقلٍ . وأما فصل الخطاب فمعناه أنه كان يتمتع بصلاحية الحكم الصحيح واتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، وهذان الشيئان هما اللذان يجعلان من أحد الحكام حاكماً صالحاً ؛ إذْ وجود الحكمة فيه كفيل بأنه لن يقدم على ما قد يكون ضرره أكبر من نفعه، بينما يتكفل فصل الخطاب بأن قضاءه سيكون دوماً قضاءً عادلاً !

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ

فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ ﴾

تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ : علوا سور مصلاه ونزلوا إليه .

بَغَى بَعْضُنَا : تعدى وظلم وجار .

وَلاَ تُشْطِطْ : لا تجر في حكمك .

سَوَاءِ الصِّرَاطِ : وسط الطريق وهو عين الحق .

يقولون: إن داود - عليه السلام - كان قد نظم أوقاته بحيث خصص يوماً لتصريف شئون الملك وللقضاء بين الناس ، ويوماً لأهله وعياله ، ويوماً للخلوة والعزلة يتفرغ فيها لعبادة الله وتسبيحه ، وفي ذات يوم - وهو يوم عبادته - فوجئ بشخصين يتسوران المحراب الذي كان يتعبد فيه وحيداً منفرداً بنفسه ؛ ففزع من هذه المفاجأة بعض الشيء، ولكنهما بادرا يطمئنانه قائلين : إننا متخاصمان ، وإنما جئناك لتحكم بيننا بالحق في أمرٍ هو مثار الخصومة بيننا !

﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

أَكْفِلْنِيهَا : انزل لي عنها حتى أكفلها .

وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ : غلبني وقهرني في المحاجة .

الْخُلَطَاءِ : الشركاء.

فَتَنَّاهُ : ابتليناه وامتحناه .

وَخَرَّ رَاكِعاً : ساجداً لله تعالى .

وَأَنَابَ : رجع إلى الله بالتوبة .

لَزُلْفَى : لقربة ومكانة .

وَحُسْنَ مَآبٍ : حسن مرجع في الآخرة (الجنة) .

والقضية التي عرضها المتحاكمان لم تكن قضية حقيقية ، وإنما كانت بلسان التمثيل، تنبيهاً لداود عليه السلام نفسه إلى بعض شئونه الخاصة ، ومن ثم فما لبث أن تذكر ، وهو يقضي بين الخصمين ، شأنه الخاص الذي كان مماثلاً للقضية المعروضة ، مما جعله يرجع عنه في الحال ، ويخر بين يدي ربه ساجداً في خشوعٍ وإنابةٍ .

وقد كان داود – عليه السلام – يمتلك في ذلك الوقت زمام سلطةٍ جد عظيمةٍ ، ولكنه ما عاقب الرجلين الداخلين عليه من غير مدخلٍ ، ولا تناولهما بالزجر أو التأنيب . وهذا هو منهج عباد الله الصادقين ، حيث لا تنبعث في نفوسهم مشاعر العناد والتعنت تجاه أي أمرٍ من الأمور ، وإذا ما تم إشعارهم ببعض نقائصهم ، بادروا إلى الاعتراف بها وإصلاحها من فورهم ، حتى لو كانوا هم أصحاب قوة واقتدارٍ ، وكان المُشعرون لهم قد أشعروهم بأسلوبٍ فظٍ غير لائقٍ ولا مهذبٍ !!

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾

إن الحاكم - أي حاكمٍ - يكون دوماً أمام مفترق طريقين لا ثالث لهما : فإما أن يقضي في الخصومات على هواه ، أو بحسب مبدأ الحق ، وإن الحاكم الذي يحكم أهواءه ورغباته فيما يعرض عليه من القضايا ، والخصومات قد ضل عن الطريق السوي والجادة المستقيمة ، وإنه سيحاسب عند الله أشد الحساب ، وبالعكس فإن الحاكم الذي يقضي في الخصومات ملتزماً بمبدأ الحق والعدل ، هو وحده على الطريق القويم ، وإنه سينال عند الله الثواب والإنعام بغير حساب .. وهذا التوجيه ضروري لعامة البشر تماماً كما هو ضروري بالنسبة إلى مَنْ يتولى الحكم والقضاء ، فكل امرئٍ مطالب بأن يفعل في حدود اختياره نفس ما أمر به الحاكم صاحب السلطة في هذه الآية الكريمة !

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾

بَاطِلاً : لعبا وعبثا .

عندما نتأمل الكون وما فيه ، نجد أن نظامه قائم على أسسٍ حكيمةٍ للغاية ، بينما كان من المحتمل أيضاً أن يكون هذا النظام عشوائياً ؛ كل شيءٍ فيه يسير كيفما اتفق بلا ضابطٍ أو قانونٍ . وإن وجود أنسب الاحتمالين في هذا الكون قرينة دالة على أن خالقه قد خلقه تحت خطةٍ هادفةٍ .. إذن ، فالكون الذي يكون هادفاً في بدايته ، كيف سيعود غير ذي هدفٍ ، ولا معنىً في منتهاه؟!

ومرةً أخرى تدلنا الملاحظة على أن من الناس من يعترف بالحقيقة ، ويخضع نفسه لمقتضيات الحق والعدل بمحض إرادته واختياره ، ومنهم من لا يعترف بالحقيقة ، وإنما

يعيش حراً طليقاً من كل القيود والالتزامات ؛ فيقول ما شاء ، ويفعل كما يشاء ، وإن العقل ليرفض التسليم بأن ينتهي كلا هذين النوعين من البشر ، على ما بينهما من التفاوت البين والبون البعيد ، إلى مصيرٍ مماثلٍ واحدٍ !.

ولئن أخذنا وضع العالم هذا بعين الاعتبار ، فإن تصريح القرآن عن الحياة وحده سيبدو لنا أقرب إلى الواقع وأكثر تطابقاً معه ، وليس مزاعم أولئك الذين يحاولون تفسير الحياة على نحوٍ مضادٍ لذلك !.

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾

فَوَيْلٌ : هلاك . أو واد في جهنم .

إِنَّهُ أَوَّابٌ : رجاع إليه تعالى بالتوبة .

بِالْعَشِيِّ : ما بعد الزوال إلى الغروب .

الصَّافِنَاتُ : الخيول الواقفة على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة .

الجِيَادُ : السراع السوابق .

أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ : آثرت حب الخيل.

عَن ذِكْرِ رَبِّي : لأجله تعالى تقوية لدينه .

تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ : غربت الشمس أو غابت الخيل عن بصره لظلمة الليل .

رُدُّوهَا عَلَيَّ : ردُّوا الخيل عليَّ .

فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ : فشرع يقطع سوقها وأعناقها بالسيف .

كان سليمان بن داود - عليهما السلام - رئيس دولةٍ عظيمةٍ بلا منازعٍ ، وقد عُرض عليه عشية يومٍ من الأيام الخيول المطعمة المدربة من جيشه ، ثم كان بينها سباق ، حتى اختفت الخيول ، وهي تعدو مسرعةً كالبرق الخاطف ، عن بصره ، وغابت في الأفق البعيد ، ثم عادت إليه بعد برهةٍ من الزمان ، ومثل هذا المنظر يكون دوماً رائعاً إلى حدٍ بالغٍ ، وإنه ليملأ قلب الإنسان العادي بمشاعر الزهو والكبرياء ، ولكن سليمان - ﷺ - لم يكد يشاهد ذلك المنظر الرائع حتى أخذ يذكر الله عز وجل .. فقال: إنني لم أحب هذه الخيول إظهاراً لأبّهتي أنا ، وإنما أحببتها لله - سبحانه وتعالى - وحده ، حيث بدا له في شكل تلك الخيول بديع صنع الله وآثار قدرته الباهرة؛ مما جعله يمرّر يده على سوقها وأعناقها اعترافاً بعظمة الله وجلاله . إن المؤمن ينظر في كل شيءٍ كبرياء الله ، أما غير المؤمن فإنما يرى في كل شيءٍ كبرياء نفسه هو !!

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

وَالأَعْنَاقِ : قرباناً لله تعالى وكان ذلك مشروعا في ملته .

فَتَنَّا سُلَيْمَانَ : ابتليناه وامتحناه .

جَسَداً : شق إنسان ولد له .

أَنَابَ : رجع إلى الله تعالى بالتوبة .

رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ : لينة . أو منقادة حيث أراد .

وَغَوَّاصٍ : في البحر لاستخراج نفائسه .

الأَصْفَادِ : الأغلال تجمع الأيدي إلى الأعناق .

بِغَيْرِ حِسَابٍ : غير محاسب على شيء من الأمرين

لَزُلْفَى : لقربا وكرامة .

ما من إنسان إلا تصدر منه هفوات أو تقصيرات ، غير أن التقصير بالنسبة إلى عباد الله الصالحين يعود مبعث خيرٍ عظيمٍ ، إذْ أنهم لا يلبثون على أثره أن يرجعوا إلى ربهم بمزيدٍ من الخشوع ، وبالتالي يستحقون مزيداً من الإنعام والتكريم .

وذات مرةٍ صدر من سليمان – عليه السلام – بدوره تقصير اجتهادي في بعض الأمور ، ولما تبين له وجه الحقيقة أناب إلى الله مبتهلاً مستغفراً ، فعفا الله عنه ، وأنعم عليه بأن أعطاه ملكاً كبيراً ، واختصه بقدرات وصلاحيات غير عادية لم تُمنح لأحدٍ من البشر سواه!

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

وَحُسْنَ مَآبٍ : حسن مرجع في الآخرة .

بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ : بتعب ومشقة وألم وضر .

ارْكُضْ بِرِجْلِكَ : اضرب بها في الأرض .

هَذَا مُغْتَسَلٌ : ماء تغتسل به . فيه شفاؤك .

ضِغْثاً : قبضة من قضبان أوعثكال النخل بشماريخه .

كان أيوب - عليه السلام - من أنبياء بني إسرائيل ، ويرجع عهده - في أغلب الظن - إلى القرن التاسع قبل المسيح ، وكان قد أوتي من المال والثروة أوفر نصيبٍ ، ولكنه بدل أن يتلهى بماله وثروته كان يشتغل بعبادة الله ويدعو الناس إلى الله .

بيد أن بعض الخبثاء لم يلبثوا أن راحوا يقولون : إن أيوب عابد متدين بسبب ما هو فيه من نعمة ومال وعافية، لكنه لو ابتلى بالفقر والحاجة والمرض لخرج عن طاعة الله ولما صار متديناً .

ولكي يقيم الله على الناس الحجة ، فقد ابتلى عبده أيوب بأشد أنواع الفقر والبؤس .. إلا أنه مازال عابداً لله كعادته ، وقال : "الرب أعطى ، والرب أخذ ، فليكن اسم الرب مباركاً" . وأصيب - عليه السلام - بمرض جلدي شديد ، فامتلأ جسده كله قروحاً ودمامل.. ولكنه ظل كما هو مثالاً حياً للصبر والشكر .. ولما قامت على الناس الحجة القاطعة ، فجّر الله تعالى لأيوب عيناً ، لم يكد يغتسل بمائها ويشرب منه حتى برئ جسمه من سقامه ، وعاد سليماً معافى .. كما أعاد الله إليه مرةً أخرى ما ذهب عنه من مالٍ وولد، وزاد عليه من فضله ونعمته .. وفي حالة مرضه كان أيوب قد حلف أن يضرب زوجته مائة ضربةٍ بعصا ، بعد إبلاله من المرض ، لموجدةٍ وجدها في نفسه منها، ولكي يبر بقسمه ذاك أرشده الله تعالى إلى تدبير لطيف، وهو أن يأخذ مكنسةً عدد عيدانها مائة عود ، فيضرب بها زوجته ضربةً واحدةً خفيفةً ، ومن هذا نعلم أن اللجوء إلى الحيل مشروع في حالات خاصة ؛ بشرط ألا يؤدي ذلك إلى إلغاء أي حكم شرعي .

وإن الله سبحانه إذْ يستعمل شخصاً لدينه ، ويسلم ذلك الشخص نفسه إلى الله بدون أدنى تحفظٍ ، فإنه تعالى يعوضه عما يفقده خلال قيامه بالعمل المذكور بما يفوقه كماً ونوعاً إلى حدٍ كبيرٍ !!

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

أُوْلِي الأَيْدِي : أصحاب القوة في الطاعة .

وَالأَبْصَارِ : والبصائر في الدين والعلم .

أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ : خصصناهم بخصلة لا شوب فيها .

ذُكر هنا عدد من الأنبياء وأطلق عليهم وصف ﴿ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ ، أي إنهم كانوا على مستوى أعلى في كلٍ من القوة الجسدية والبصيرة الذهنية، حيث كانوا - من ناحيةٍ - يتمتعون بالقدرات العملية ، كما أقاموا الدليل - من ناحيةٍ أخرى - على أنهم يمتلكون النظرة الصائبة نحو الأشياء ، وصلاحية تكوين الحكم الصحيح على الأمور، ومن هنا فقد اصطفاهم الله لتبليغ رسالته .

ما هو العمل الخاص الذي يختار الله لأجل القيام به أنبياءه من البشر ؟ إنه يتمثل في التذكير بدار الآخرة ، فقد ظل المحور الرئيسي لرسالة الأنبياء على اختلاف الأعصار والأمصار ، هو أن يلفتوا انتباه البشر إلى الحقيقة القائلة بأن الآخرة هي منزل الإنسان الحقيقي، وينبغي له أن يستعد لها وحدها ، فإن هذه هي القضية الكبرى بالنسبة إلى الإنسان، وأكبر عملٍ يقوم به إنسان في هذا العالم هو أن ينبه أخاه الإنسان إلى هذه القضية البالغة الخطورة!

﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ

ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾

هَذَا ذِكْرٌ : المذكور من محاسنهم شرف لهم .

قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ : حور لا ينظرن إلى غير أزواجهن .

أَتْرَابٌ : مستويات في الشباب .

نَفَادٍ : انقطاع وفناء .

إنها تفتح أبواب الجنة لأناسٍ فتحوا أبواب قلوبهم للذكر والنصيحة والذين عاشوا خائفين وجلين من الله قبل ظهوره عياناً. وهؤلاء السعداء هم الذين سيحظون بنعيم الآخرة الأبدي .

ونعم الآخرة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم هي ما يستمتع الإنسان بأمثالها في الحياة الراهنة ، ولكن بينهما فارق كبير جداً لابد أن يُلاحظ ، وهو أن هذه النعم وُجدت في العالم الراهن بصورةٍ وقتيةٍ وبدائيةٍ ، بينما ستوفر تلك النعم في الآخرة بشكلها النهائي والأبدي ، يضاف إلى ذلك أن هذه النعم العليا سيُحذف منها هناك كل أنواع الخوف أو عوامل التكدير التي لا يمكن حذفها عن مثيلاتها في عالمنا الراهن على أية حالٍ !!

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٌ مُّقۡتَحِمٌ مَّعَكُمۡ ۖ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡ ۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡ ۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾

وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾

لَشَرَّ مَآبٍ : لأسوأ منقلب ومصير .

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا : يدخلونها أو يقاسون حرها .

فَبِئْسَ المِهَادُ : فبئس الفراش ، أي المستقر جهنم .

حَمِيمٌ : ماء بالغ نهاية الحرارة .

وَغَسَّاقٌ : صديد يسيل من أجسامهم .

وَآخَرُ : وعذاب آخر .

مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ : من مثله أصناف في الفظاعة .

هَٰذَا فَوْجٌ : جمع كثيف من أتباعكم الضالين .

مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ: دخل معكم النار قهراً عنه .

لاَ مَرْحَباً بِهِمْ : لا رحبت بهم النار ولا اتسعت .

صَالُواْ النَّارِ : داخلوها . أو مقاسو حرها .

فَبِئْسَ القَرَارُ : فبئس المقر للجميع جهنم .

أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِياً ؟: مهزوءا بهم في الدنيا فأخطأنا ؟

زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ :مالت عنهم فلم نعلم مكانهم .

إن جهنم هي الصورة النهائية والأبدية لأنواع الألم تلك التي يمكن تصورها في العالم الراهن، وحين يُساق الطغاة والمكذبون بالحق في الدنيا إلى جهنم فوجاً بعد فوجٍ ،

فسيحتدم تخاصم شديد بين الأتباع والمتبوعين، فالأتباع الذين كانوا يفتخرون بعظمة قادتهم ، يوجهون إليهم الشتائم واللعنات إذا رأوا سوء المصير الذي يلاقونه هناك، ولقد صورت هذه الآيات بعض جوانب ذلك المشهد الفظيع أدق تصوير .

وإذا رأى المنكرون للحق مصيرهم المشئوم في الآخرة ، فسوف ترجع بهم الذاكرة إلى رجالٍ كانوا قد انضووا تحت راية الحق ، وصاروا نتيجة ذلك يقابلون في مجتمعهم بغاية الاحتقار والازدراء ، وقد كان المنكرون يرمونهم بأنهم تناولوا الأكابر والأسلاف بالإهانة والتجريح ، وأنهم قد انحرفوا عن دين الآباء ، واتخذوا لأنفسهم طريقاً آخر غير طريق الأمة، ولقد كان هؤلاء المنكرون يظنون أنفسهم على حق والآخرين على غير الحق ، ولكن الأمر في الآخرة لن يلبث أن ينعكس تماماً ، حيث سينكشف أن الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا باعتبارهم حقراء تافهين ، هاهم أولاء قد نالوا أعلى درجات الفوز والسعادة في الآخرة!!

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ : الملائكة .

إِذْ يَخْتَصِمُونَ : في شأن آدم وخلقه وخلافته .

الاختصام المشار إليه هنا ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ هو الجدل الذي أثاره إبليس عند خلق آدم وأمر الله الملائكة بالسجود له،وقد جاء في القرآن الكريم أن إبليس أصبح عدواً لدوداً لآدم منذ بدء الخليقة ، وهو لا يزال يعمل جاهداً على أن يضل بني آدم عن

الصراط المستقيم بحيله ووساوسه المغرية .. ، لذلك ينبغي على الإنسان أن يأخذ حذره، ويتجنب الوقوع في أحابيله ، وإن قصة آدم بما تتضمن من اختلاف الملائكة قبل خلقه، وجدال إبليس واستكباره عن السجود له بعد خلقه ، كما سردها القرآن بإسهابٍ تارةً وبصورةٍ مقتضبة تارةً أخرى ، إنما كانت من ألفها إلى يائها وحياً منزلاً؛ لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يكن حينذاك حاضراً في الملأ الأعلى حتى يتمكن من حكاية ما جرى هناك على أساسٍ من العلم الذاتي .

إن أهم نبأ بالنسبة إلى الإنسان وأجدر أن يحظى باهتمامه هو إعلامه بطبيعة الحياة هذه المتمثلة في أن الشيطان لا يفتأ يلاحقه كل الوقت ، ويسعى إلى إغوائه من خلال الاندماج في تفكيره والتغلغل في عواطفه ومشاعره ، فيجب على الإنسان أن ينقذ نفسه من هذا الخطر ، وبالإمكان القول :إن الأنبياء إنما جاؤوا - باعتبار ما - لكي ينذروا البشر من هذا الخطر الخطير !!

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾

سَوَّيْتُهُ : أتممت خلقه بالصورة الإنسانية .

سَاجِدِينَ : تحية له وتكريما .

العَالِينَ : المستحقين للعلو والرفعة - كلا .

رَجِيمٌ : مطرود من كل خير وكرامة .

لقد خلق الله الإنسان كمخلوقٍ أعلى وأشرف ما يكون. وللتدليل على ذلك أمر الملائكة والجن بأن يقعوا أمامه ساجدين ، ولما كان إبليس قد أبى عن السجود لآدم امتثالاً لأمر الله ، لم يلبث أن صار محكوماً عليه باللعنة إلى الأبد، بيد أن أهمية هذا الحادث لم تكن بالنسبة إلى إبليس وحده ، وإنما كانت له أهميته البالغة حتى بالنسبة لآدم نفسه..

فقد صار إبليس بامتناعه عن الخضوع لآدم خصماً أو منافساً عنيداً لذرية آدم على نحوٍ أبدي .. وهكذا سار التاريخ البشري من أول يومه في اتجاه جديدٍ ، إذْ قرر ذلك الحادث أن رحلة الحياة لن تكون بالنسبة إلى الإنسان رحلةً سهلةٍ ميسورةً ، وإنما ستكون رحلةً كلها معاناة ومزاحمات عنيفة مضنية ، حيث يتعين على الإنسان أن يظل ثابتاً على جادة الحق والصواب في مواجهة إغراءات إبليس وتدابيره الخادعة ، حتى يستطيع الوصول إلى منزله ومستقره بسلامٍ .. وإن الإنسان تحول بينه وبين الجنة مكائد الشيطان وتمويهاته، ولن يدخل حدائق الجنة الأبدية إلا من يجنب نفسه مكائد الشيطان، وأما الذين يفشلون في استكناه مكائد الشيطان وتجنبها ، فأولئك هم المحكوم عليهم بالحرمان المؤبد من الجنة!.

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

فَأَنظِرْنِي : أمهلني ولا تمتني .

يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ : وقت النفخة الأولى .

فَبِعِزَّتِكَ : فبسلطانك وقهرك .

لأُغْوِيَنَّهُمْ : لأضلنهم بتزيين المعاصي لهم .

لقد أتيح للشيطان في عالم الامتحان الراهن فرصة تامة ليغوي الإنسان . بيد أن الشيطان إنما يتمكن من الإغواء ما دامت الحقيقة مستترة وراء الغيب . أما حين تمزق القيامة حجاب الغيب ، فسوف يتجلى كل شيء عياناً ، بحيث لن يبقى بعدئذٍ مغوٍ ولا غاوٍ .

ومعنى "المخلص" الخلو من الغش أو الزيف ، والعبد المخلص هو الذي يكون سليماً مبرئاً من الأمراض النفسية، وحال الشيطان أنه لا يملك أي سلطةٍ فعليةٍ ، وإنما هو يغوي الناس دوماً عن طريق التزيين ؛ أي إلباس الباطل ثوب الحق ، وعرض الأوهام والخرافات الواهية في قالب الألفاظ الجميلة والعبارات المزخرفة ، وتشكيك الناس في أمرٍ مستقيمٍ لا عوج فيه بإثارة زوبعةٍ من الاعتراضات أو المطاعن المفتعلة حوله .

على أن تزيين الشيطان لا ينخدع به إلا أناس تنطوي صدورهم على الزيف النفسي. وأما الذين لا يزالون يحتفظون بنفسياتهم على حالتها الفطرية الصافية النقية ، ويستعملون عقولهم بنزاهة وانفتاح ، فسرعان ما يتعرفون على المكيدة الشيطانية ، وبالتالي لا ينحرفون عن الجادة أبداً متأثرين بطلائها الظاهري الخلاّب !!

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾

المُتَكَلِّفِينَ : المتصنعين المتقولين على الله .

نَبَأَهُ : صدق أخباره .

من ألزم صفات الداعية أنه لا يطلب من المدعو أجراً ، ولا هو يثير فيما بينه وبين المدعو أي نزاعٍ ماديٍ ، إن دعوة القرآن الكريم هي دعوة الآخرة ، ومن ثم فالذي ينصب نفسه – من جهةٍ – حاملاً للواء دعوة الآخرة القرآنية ، ويشن – من جهةٍ أخرى– حملة المطالبات المادية ضد الشعب المدعو ، هو في نظر المدعو رجل هازل غير جادٍ ، والشخص الذي يبرهن بنفسه – بلسان المقال أو بلسان الحال – على عدم جديته، فمن ذا يلقي إلى كلامه بالاً ، أو يعيره اهتماماً يذكر؟! وهكذا فمن شأن الداعي أنه لا يقول شيئاً يختلقه من تلقاء نفسه ، وإنما هو يقول ما تلقاه من عند الله تعالى لا يزيد عليه أو ينقص منه شيئاً .

قال مسروق (التابعي) : أتينا عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – فقال : يا أيها الناس مَنْ علم شيئاً فليقل به ، ومَنْ لم يعلم فليقل : الله أعلم ، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم ، فإن الله – عز وجل – قال لنبيكم – صلى الله عليه وسلم– : "قل ما أسألكم عليه من أجرٍ ، وما أنا من المتكلفين" [1].

ومن صفات الداعية أيضاً أن يعرض الدعوة في قالب الموعظة الحسنة ، وينطبع كلامه بطابع النصح وحب الخير للآخرين ، وليس بطابع الجدل والمناظرة !!

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢١٠.

سورة الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾

مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ : ممحضا له الطاعة والعبادة .

زُلْفَى : تقريبا .

إن القرآن هو تبيين إلهي للحقيقة . وإن أسلوبه الحكيم ومضامينه القوية الناضجة على نحوٍ غير عادي ؛ برهان داخلي على أنه في الواقع من عند الله ؛ إذْ لا أحد من البشر يقدر على أن يأتي بكلامٍ غير عادى من هذا الطراز ! ومعنى إخلاص الدين لله: إخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى إلهاً.. "أي فاعبد الله وحده ، مخلصاً له في عبادتك"(١).

وعاطفة العبادة كامنة في فطرة كل إنسان بطريقة غامضةٍ عجيبةٍ . وهي تعني : أن تتصور إلهاً من الكبرياء والجلال بحيث يتولد في نفسك إحساس بالروعة أو الرهبة تجاهه ، والإله الذي يشعر المرء نحوه بهذا الإحساس ، يعتبره بالتالي أقدس ما يكون ، فيخضع له كل كيانه ، ويبالغ أمامه في التمسك بمراسم التوقير والاحترام . وهو يخافه أشد الخوف ، كما يحبه أشد الحب، وبذكره يلتذ روحه ، وتقر عيناه ، وإنه يعود هو

---

(١) صفوة التفاسير ، ٣/ ٦٩.

السند الأكبر له في هذه الحياة.

وذلك ما يسمى العبادة. وهذه العبادة هي حق الله الواحد وحده فقط، ولكن الإنسان طالما يشرك غير الله في العبادة والتقديس مع إيمانه بالله،ويمارس ألوان الطقوس والأفعال العبادية لغير الله،وهذا هو ضلال الإنسان الأصلي ، والحقيقة أن العبادة شأنها شأن الألوهية لا تقبل التقسيم أو التجزئة على الإطلاق !

﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٥﴾ ﴾

سُبْحَانَهُ : تنزيها له عن اتخاذ الولد .

يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ : يلفه على النهار لف اللباس على اللابس .

الإنسان مدفوع بفطرته إلى أن يهفو نحو الله ، ويتوجه إليه بالعبادة والتعظيم . والشيطان يحاول دوماً أن يصرف هذه العاطفة الفطرية عن الله نحو اتجاهٍ آخر ، وتحقيقاً لهذا الغرض فإنه يلقي في أذهان الناس أن جناب الله أرفع وأعلى من أن ترتقوا إليه مباشرةً ، ولذا فينبغي أن تحاولوا الوصول إليه عبر التوسل بالصالحين ، كما يغرس في أذهانهم العقيدة القائلة بأن لله أولاداً تماماً مثلما يكون للبشر ، وأن أيسر طريق لنيل رضا الله هو أن تعملوا على إرضاء أولاده، وإن عبادة المادة في العصر الحديث - التي صرفت عاطفة العبادة المودعة في الفطرة الإنسانية عن الخالق نحو المخلوق - لا تعود أن تكون صورة مشوهة لتلك العقيدة البالية ذاتها .

وكل المعتقدات والطقوس من هذا القبيل تصغير لله عز وجل ، فالله الذي يسيّر

النظام الشمسي الهائل ، والذي يدبر أمر هذا الكون الفسيح ، هو بالطبع أجل وأسمى من أن تروج عنده شفاعة شافعٍ أو يكون له ولد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !!

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾

وَأَنزَلَ لَكُم : أنشأ وأحدث لأجلكم .

ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ : ظلمة البطن والرحم والمشيمة .

فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ؟: فكيف تصرفون عن عبادته .

ظهر إلى الوجود أول الأمر إنسان واحد ، ثم استخرج منه زوجه على هيئة مطابقة له تماماً، وهكذا تسلسل الجنس البشري عن طريق رجل وامرأة بدائيين ، ثم أنشأ الله أشياء لا تحصى لشتى مصالح الإنسان ومختلف حاجاته، وقد ظلت الإبل والبقر والضأن والمعز (وهي بذكورها وإناثها ثمانية أنواع) ظلت في أولى مراحل الحضارة المورد الرئيسي لمعيشة الإنسان، فلما انتقلت الحضارة إلى طورٍ جديدٍ بدأ الإنسان باستعمال أشياء أخرى لا حصر لها ، صنعها الله منذ بدء الخليقة ليتمكن الإنسان من الانتفاع بها واستخدامها لصالحه ، فكما أن الحيوانات الداجنة مسخرة بطبعها لخدمة الإنسان . فكذلك سخرت له أنواع الغازات والمعادن هي الأخرى ، وإلا لما استطاع الإنسان أن يستعملها بأي وجهٍ من الوجوه ، والثمانية أصنافٍ من الأنعام المشار إليها آنفاً ، إنما ذُكرت على سبيل المثال دون الحصر ..

والظلمات الثلاثة التي ذكرتها الآية هنا فيما يتصل بخلق الإنسان هي : ظلمة جدار البطن ، ثم تليها ظلمة جدار الرحم ، ثم تليها ظلمة الأغشية الخارجية المحيطة بالجنين

من كل جانب .

وهذا النظام معقد وعظيم إلى حدٍ مذهل لا يقدر معه على إيجاده أحد سوى خالق الكون ، إذن ، فمن ذا الذي يستحق سواه أن يُرفع إلى درجة الإله المعبود!!

﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾

وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ :لا تحمل نفس آثمة .

إن الإيمان بالله والشكر له من مقتضيات العقل الإنساني نفسه ؛ لأن ذلك اعتراف بالحقيقة الواقعة ، وليس من شك في أن الاعتراف بالحقيقة الواقعة هو أكبر المطالب العقلية على الإطلاق.

والآخرة هي ظهور للعدل الكامل . ومستحيل أن يبقى هذا الوضع الناقص -الذي نراه يسود عالمنا الراهن - مستمراً في عالم العدل الكامل ذاك ، إذْ يقتضي العدل أن يظهر كل شخصٍ كما هو في واقع الأمر ، وأن ينال بالتالي جزاءً وفاقاً لما يستحقه في الحقيقة ، وهذا ما لا يحدث في العالم الراهن ، وستأتي الآخرة لتصلح هذا العيب ، وتجعل من هذه الدنيا الناقصة دنيا كاملة إلى أقصى حدود الكمال !!

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا

يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

مُنِيباً إِلَيْهِ : راجعًا إليه ، مستغيثا به.

خَوَّلَهُ نِعْمَةً : أعطاه نعمة عظيمة تفضلاً وإحساناً .

أَندَاداً : أمثالاً يعبدونها من دون الله .

هُوَ قَانِتٌ : مطيع خاضع عابد لله تعالى .

آنَاءَ اللَّيْلِ : ساعاته .

ما من امرئ إلا تمر عليه لمحات يجد فيها نفسه عاجزاً كل العجز ، والأشياء التي كانت موضع ثقته واعتماده تخذله هي الأخرى في تلك الساعة الحرجة ، وعندها ينسى المرء كل شيء ويأخذ يتضرع إلى الله في خشوعٍ واستسلامٍ، وهكذا فكل امرئ يدرك في لحظات الشدة أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، ولكن الشدة لا تكاد تزول حتى يعود هو سيرته الأولى ! ويزداد الإنسان كفراً وطغياناً ؛ إذْ هو يأخذ ينسب نجاته إلى أشياء أخرى غير الله ، فبعضهم يعدها نتيجة الأسباب ، وبعضهم الآخر يعتبرها معجزة الآلهة المفترضة ، ولو أن المرء لزم الصمت بعد اقترافه خطأً أو خطيئةً ما، لانحصر ضلاله في شخصه وحده ، ولكنه حين يأخذ في تبرير خطئه ويجعله عين الصواب بتأويله الكاذب ، يتعدى ضلاله إلى غيره ، فيعود ضالاً ومضلاً في الوقت نفسه!

من الناس مَنْ لا يقلقه سوى الهموم المادية وحدها ، وهناك إنسان آخر يهمه ويقلقه ذكر الله . وهذا الإنسان الأخير هو الإنسان الرباني حقاً. إن إقراره بالله لا يكون نتاج الظروف والأحوال ، وإنما يكون اكتشافه الشعوري الواعي ؛ حيث إنه يظفر بالله كموجود أعلى ترتبط كل آماله ومخاوفه بذاته وحدها . وهمومه الداخلية تجعله يبتعد

عن فراشه حتى في ساعات الليل ، وخلوته لا تكون خلوة لاهيةً غافلةً ، وإنما تصبح خلوةً عامرةً بذكر الله سبحانه وتعالى .

العالم هو الذي يمتلئ كيانه النفسي وجلاً واضطراباً بذكر الله ، أما غير العالم فهو الذي لا تهز نفسيته إلا الأحوال المادية ، والذي إنما يستيقظ لبرهةٍ من الزمان على أثر الصدمات المادية ، ثم يعود مرةً أخرى إلى سبات غفلته الطويل العميق!

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾

بِغَيْرِ حِسَابٍ : بلا نهاية لما يعطي أو بتوسعة .

حين يحصل المرء معرفة عميقةً بالله ، يترتب على ذلك بالضرورة أن يمتلئ كيانه كله خوفاً وخشيةً من الله ؛ فإن إدراك عظمة الله وجلاله يجعله خاشعاً ذليلاً بين يديه تعالى ، وتعود حياته العملية تسير وفق الأحكام الإلهية لا تحيد عنها قيد أنملةٍ ، و يصير جاداً مخلصاً في هذا الشأن لدرجة يرضى معها بالتخلي عن كل شيءٍ لأجل الله ولا يرضى بالعكس أبداً !

إن بناء الحياة على أساسٍ من الإيمان امتحان جد عسيرٍ بالنسبة إلى المرء ، وإنما ينجح في هذا الامتحان أولئك وحدهم الذين يعتبرون الإيمان كنزاً ثميناً غالياً بحيث يستعدون من أجله للصبر على الحرمان من أي شيءٍ آخر ، والحياة الإيمانية بمعناها العملي اسم آخر للحياة الصابرة ، و الذين يرضون بدفع ثمن الصبر حتى يكونوا مؤمنين ، هم الذين سيُعطون أوفر نصيب من الإنعامات الإلهية العليا !

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ

دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ : أطباق منها ، كثيرة متراكمة .

إن دعوة النبي يدور محورها الرئيسي حول أن يصير الناس كلهم عابدين لله الواحد وحده ، ويتركوا عبادة كل شيءٍ سواه ، وإنها لا تكون بالنسبة إلى النبي مسألة قيادية بالمعنى المعروف ، وإنما تكون مسألته الذاتية ، ومن ثم فهو يكون أول القائمين بذلك . وبما أن النبي يكون على يقينٍ من أن مصير الإنسان إلى الفلاح أو الخسران سيتقرر نهائياً في الآخرة ، لذا فهو يكرس حياته في سبيل الآخرة ، ويدعو الآخرين أيضاً إلى تكريس حياتهم في سبيلها، ونوعية عمل النبي هذه تدلنا على نوعية عمل الداعي ، فالداعي إلى الحق إنما هو الشخص الذي يصير الحق عنده بمثابة مسألته الذاتية ، والذي تكون دعوته تعبيراً تلقائياً عن قلقه الداخلي ، وليس ترديداً خارجياً محضاً لبعض الهتافات الفارغة كترديد مكبرات الصوت!

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمْ أُولُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾﴾

اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ : الأوثان والمعبودات الباطلة .

وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ : رجعوا إلى عبادته وحده .

المطلوب من المرء أن يثبت أنه يملك عقلاً يميز به الصحيح من الغلط ، ويتمكن

من رؤية الحقيقة بتمزيق حجاب الخداع والتمويه الشيطاني. والذين يقيمون الدليل على هذه البصيرة ، أولئك هم السعداء الذين سيوفقون إلى إدراك الصدق الإلهي. أما الذين يخفقون في إقامة الدليل على هذه البصيرة ، فليس لهم في هذا العالم من مصير سوى أن يظلوا متعلقين بغير أحسن الجوانب للقول ، ويُبعثوا بالتالي عند الله كعبدة الطاغوت!!

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾

حَقَّ عَلَيْهِ : وجب وثبت عليه .

لَهُمْ غُرَفٌ : منازل رفيعة عالية في الجنة .

كل إنسانٍ محاط بعواقب أعماله ، حيث تحيط بصاحب الجنة أجواء الجنة العطرة ، وتحيط بصاحب النار أجواء النار اللافحة المحرقة. ولو امتلك الناس بصراً نفاذاً إلى الحقائق غير المرئية لرأوا صاحب الجنة يتمتع بنعيمها في هذه الدنيا، ولوجدوا صاحب الجحيم يصلى نارها في هذه الدنيا ذاتها .

والجنة هي الصورة المثالية الكاملة لدنيا الأحلام والأماني التي ينشدها المرء في الحياة الراهنة ، ولكنه لا يستطيع الحصول عليها ، وثمن هذه الجنة تقوى الله ، فالذين يبرهنون على خوف الله في الدنيا ، هم وحدهم الذين سينعمون بحياة الجنة الخالية من كل خوفٍ !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ

لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ : أدخله في عيون ومجار .

يَهِيجُ : ييبس في أقصى غايته .

يَجْعَلُهُ حُطَاماً : يصيره فتاتا هشيما متكسرا .

فَوَيْلٌ : هلاك أو حسرة أو شدة عذاب .

إن الوقائع المادية التي نشهدها على الأرض كنظام المطر العجيب المدهش ، وخروج النبات الأخضر به ، وتهيئة أسباب أخرى لإنضاج الزرع بمختلف أنواعه وألوانه ، تنطوي هذه الوقائع على ما لا يُحصى من النصائح المعنوية القيمة ، ولكن هذه النصائح لا يدركها إلا ذوو نفوس طُلعةٍ تحب استكناه الأشياء وسبر أغوار الأمور .

لقد أنشأ الله العالم الخارجي بحيث صار كل شيء فيه علامةً على الحقيقة العليا ، وأودع في الإنسان مواهب وقدرات تمكنه من قراءة تلك العلامات وفهم أسرارها . والذين يحافظون على مواهبهم الفطرية ، ويستخدمونها في تأمل أشياء الكون والوقوف على دقائق صنع الخالق جل وعلا ، فسوف تنفتح في صدورهم أبواب المعرفة ، وأما الذين لا يتمكنون من الاحتفاظ بمواهبهم الفطرية ، فإنهم سيظلون محرومين من الاعتبار والاتعاظ حتى في خضم العبر والعظات ، وإنهم سينظرون ولا يرون ، ويستمعون ولا يسمعون .

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ

مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

أَحْسَنَ الحَدِيثِ : أبلغه وأصدقه وأوفاه (القرآن)

كِتَاباً مُّتَشَابِهاً : في إعجازه وهدايته وخصائصه .

مَّثَانِيَ : مكررا فيها الأحكام والمواعظ والقصص وغيرها .

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ : تضطرب وترتعد من قوارعه .

تَلِينُ جُلُودُهُمْ : تسكن وتطمئن لينة غير منقبضة .

لقد أعطى الله الإنسان أحسن كتاب في صورة القرآن الكريم ، وهو يمتاز بصفتين خاصتين : إحداهما : كونه متشابهاً أي إنه كتاب خالٍ من التناقض كل الخلو ، حيث لا يتعارض بعض أجزائه مع بعضها الآخر. وميزة القرآن هذه تدل على أنه كتاب مبني على بيان الحقيقة ، ولو لم تكن بياناته هي الحقيقة بعينها ، لأدى ذلك حتماً إلى حدوث التضارب وانعدام التشابه بين مختلف أجزائه !

وأما الميزة الثانية للقرآن : فهي كونه "مثاني " ، أي إنه كتاب تُنُوولت مضامينه بالإعادة والتكرار مرةً وأخرى بأساليب شتى . وميزة القرآن هذه تدل على كونه كتاب نصيحةٍ ؛ إذْ الناصح يبتغي دوْماً أن يستقر كلامه في ذهن السامع . وهو يلجأ لهذا الغرض إلى تقديم كلامه بطرائق منوعة ، وقد جاءت هذه الحكمة في القرآن الكريم في أرفع مستوياتها وأبهى صورها !

ومن خصوصيات الإنسان أنه إذا سمع نبأ مروعاً ، اقشعر جلده وسرت رعدة في أوصاله ، وتولد في كيانه نوع من اللينة الخاشعة ، وهكذا يكون حال الإنسان الجاد عند تلاوته لآي القرآن الكريم ، فقد بين القرآن حقائق الحياة الخطيرة بأسلوبٍ قويٍ مؤثرٍ للغاية ، ومن هنا فلو أن مخلوقاً كالإنسان قرأه قراءة فهمٍ وتدبرٍ، لطرأت على جسمه

الكيفية الانفعالية التي ينبغي أن تعتريه عند استماعه إلى أي نبأ خطيرٍ بطبيعة الحال!

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

الخِزْيَ : الذل والهوان.

إن المرء يحاول دوْماً أن يقي وجهه من المؤثرات أو الإصابات ، ولكن عذاب يوم القيامة سيكون محيطاً بالمرء من كل جانبٍ بحيث لن يسعه هناك أن يمنع أي جزءٍ من أجزاء جسده من التعرض له ؛ فإنه سيقف يومئذٍ أمام عذاب لا يُقاوم ، كما لو أنه قد جعل من وجهه جُنّة يتقي بها منه! وأكبر جريمة عند الله هي ألا يعترف المرء بالحق حين يتجلى أمامه، وأمثال هؤلاء لن يفلتوا من بطش الله وعقابه على أية حالٍ !!.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

عِوَجٍ : اختلاف واختلال واضطراب .

شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ : متنازعون شَرِسُو الطباع.

سَلَماً لِّرَجُلٍ : خالصا له من الشركة والمنازعة .

جاءت مضامين القرآن الكريم في لغةٍ معلومةٍ لدى البشر ، وفي حدود ما يسعه

العلم البشري وتتسع له مداركهم ؛ وذلك لكي لا يصعب فهمها على أحدٍ . وقد بين القرآن هنا، بلسان التمثيل ، أن مبدأ التوحيد أقرب إلى العقل والمنطق وأكثر تطابقاً مع الفطرة بالقياس إلى عقيدة الشرك ، حيث يدلنا الكون الخارجي على أن شئونه إنما يقوم بتصريفها إرادة واحدة فحسب.

ولو كانت هناك إرادات متعددة تتصرف في هذا الكون لاستحال أن يسير نظامه بهذا القدر من الدقة والانسجام ، ثم إن تكوين الإنسان النفسي جُعل بحيث يميل بطبعه إلى وحدة الولاء ، وإنه لما ينافي التكوين الإنساني تمام المنافاة أن يلقى على عاتق امرئٍ ما مسئولية عددٍ من الولاءات المختلفة في آنٍ واحدٍ ، ويستطيع بالتالي أن يقوم حتى بحق أي واحدٍ منها على النحو المطلوب .

إذن ، فكل الدلائل والقرائن تشير إلى أنه ليس ثمة إله سوى إله واحدٍ هو وحده خالق الإنسان ومعبوده بحقٍ ، وهذه الحقيقة يتم إعلانها في العالم الراهن على لسان بشرٍ مثلنا، أما في يوم القيامة فسيعلنها خالق الكون نفسه على رؤوس الخلائق ، وعندها لن يستطيع أحد أن يقابل هذا الأمر بغير الإذعان والاعتراف والتسليم !!

﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ : مأوى ومقام لهم .

كل نظرية لا تطابق الحقيقة فهي كذب وافتراء على الله . وقد كان الناس ولا يزالون

يعيشون في كل عصرٍ على أساسٍ من هذا الكذب والافتراء ، وإن داعي الله إنما ينهض لكي يقيم الدليل القاطع والحجة الدامغة على كونه كذباً وافتراءً والذين يظلون مع ذلك متشبثين بمفترياتهم ، فإنهم أناس معاندون ؛ سيُلقى بهم في نار جهنم . أما الذين رجعوا عما كانوا عليه من الكذب والافتراء واتبعوا الحق ، فأولئك هم المتقون الخائفون من الله ، وسيمحو الله سيئاتهم من صحائف أعمالهم ، ويتلقاهم بالحفاوة والتقدير بناء على صالح أعمالهم !

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

كان رسول الله - ﷺ - داعي التوحيد ، ولكن أسلوب دعوته لم يكن هو الاكتفاء بهذا الإعلان الإيجابي القائل : "الله واحد" ، بل كان يكشف - إلى جانب ذلك - عن بطلان تلك الذوات غير الإلهية التي كان الناس قد اتخذوها آلهةً تُعبد من تلقاء أنفسهم وهذا الجزء الثاني من دعوته - عليه الصلاة والسلام - هو الذي صار عند الناس أمراً لا يُستساغ ولا يُحتمل .

وهذه الذوات غير الإلهية كانت في الأصل أكابرهم القوميين ، وقد مضت قرون ، وهم لم ينفكوا يستمعون إلى قصص كراماتهم المبالغ فيها ، حتى استولت عظمتهم على نفوسهم لدرجة أن رسول الله - ﷺ - لما ردّ على قدسيتهم تعذر على أفهامهم كيف يمكن أن يكون أولئك غير متصفين بالقدسية ؟ ومن ثم هددوه قائلين : لتكفن عن شتم آلهتنا ، أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون!!

على أن داعي الحق مأمور بألا يكترث لمثل هذه المزاعم والأقاويل السخيفة ، وإنما عليه أن يواصل عمله معتمداً على الله وحده ؛ إذْ بدون ذلك لا يمكن أن يتجلى أمر الحق .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَٰقَوْمِ اعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠) إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) ﴾

أَفَرَأَيْتُم : أخبروني .

حَسْبِيَ الله : كافي في جميع أموري .

مَكَانَتِكُمْ : حالتكم المتمكنين منها .

يُخْزِيهِ : يذله ويهينه .

وَيَحِلُّ عَلَيْهِ : يجب عليه .

مازال الإنسان يعبد غير الله على اختلاف الزمان والمكان ، ولكن أحداً من الناس لا يجترئ - مع ذلك - على القول بأن آلهته المفضلة هي التي قامت بخلق السموات والأرض ، أو أنها تمتلك أزمة الأسباب الحقيقية لإيجاد أحوال الراحة والألم والسعادة والشقاء ،وعجيب اقتناع الناس هذا الذي يجعلهم لا يرضون بالتخلي عن معبوداتهم الباطلة .

وإن الداعي لا يسعه ، إذا لم تعد أدلته وبراهينه تؤثر في المدعو وتحرك منه ساكناً ، لا يسعه حينئذ إلا أن يقول: افعلوا ما شئتم فإذا جاء يوم القضاء الأخير ، فسيعلم الجميع مَنْ كان على حق ممن كان على غير الحق . وهذا إظهار لليقين بعد إقامة الدليل

والبرهان، وتلك هي الكلمة الأخيرة تنطلق من لسان الداعي دوماً ؛ إذْ يكون قد استنفد كل طاقاته ، وعاد لا يملك إلا نفسه !!

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

يَتَوَفَّى الأَنفُسَ : يقبضها عن الأبدان .

يطرأ على المرء في أثناء النوم حالة الذهول واللا وعي ، فالنوم بهذا الاعتبار أشبه ما يكون بالموت ، وعندما يستيقظ المرء من نومه يعود إلى حالة الوعي والشعور مرةً أخرى ، وكأنما هذا يمثل البعث بعد الموت .

وفي ضوء هذه الظاهرة الطبيعية يتم تبصير كل امرئٍ ، على مستوى بدائي محدودٍ ، كيف أنه سيموت يوماً ، وكيف سيُعاد حياً من جديدٍ . ولو تأمل المرء بجديةٍ لوجد في هذه الواقعة الدنيوية درساً لآخرته !!

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ

سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾

لله الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً : لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه .

اشْمَأَزَّتْ : نفرت وانقبضت عن التوحيد .

فَاطِرَ : يا مبدع ومخترع .

يَحْتَسِبُونَ : يظنونه ويوقعونه .

وَحَاقَ بِهِم : نزل أو أحاط بهم .

الذين كان مشركو الجزيرة العربية يعتقدون أنهم سيكونون لهم عند الله شفعاء ، لم يكونوا في الحقيقة أصناماً من الحجر ، وإنما كانوا أسلافهم الكبار الذين اتخذوا لهم أصناماً وتماثيل من الحجر بمثابة رموزٍ أو علاماتٍ، إن شفعاءهم كانوا أصلاً أكابرهم القوميين ، أحاطوهم بهالةٍ من القدسية جعلتهم يظنون أن التمسك بأهدابهم سيكون كافياً لهم عند الله عز وجل !!

والذين يعتقدون في غير الله اعتقاداً كهذا ، يصل بهم الأمر شيئاً فشيئاً إلى حدٍ ترتبط معه كل عواطفهم السامية من الحب والخضوع والاحترام والإجلال بتلك الشخصيات غير الإلهية ، وبالتالي فإنهم يفرحون أشد الفرح إذا ذُكرت محاسن تلك الشخصيات ، ولكن أرواحهم لا تجد لذةً ولا متعةً فيها إذا ذُكرت كبرياء الله الواحد الأحد !

وأمثال هؤلاء لن يؤمنوا بالتوحيد الخاص ، مهما أقيم عليه من الدلائل القوية والبراهين الساطعة ، ولن تنفتح عيونهم إلا إذا انكشفت القيامة عن جلال الله وجبروته ...، وحال المرء اليوم أنه لا يكاد يستعد حتى بكلمة اعترافٍ واحدةٍ ، أما يومئذٍ فإنه سيقدم كل ما عنده فداءً لنفسه من عقاب ذلك اليوم العصيب ، ولكن لن

يغني عن المرء هناك شيء سوى أعماله الصالحة!

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً : أعطيناه إياه تفضلا وإحسانا .

هِيَ فِتْنَةٌ :تلك النعمة امتحان وابتلاء .

بِمُعْجِزِينَ : بفائتين من العذاب .

وَيَقْدِرُ : يضيقه على من يشاء بحكمته .

عندما يحصل المرء على شيءٍ في هذه الدنيا يفرح باعتباره نتيجة مؤهلاته هو ، على حين أن أشياء الدنيا هي متاع اختبارٍ وليست جزاء مؤهلاتٍ ، وإدراك هذه الحقيقة هو العلم الأكبر .

إن سعة رزق الدنيا أو ضيقه كلاهما خارج عن حدود الاختيار الإنساني ، حيث يبدو أن هناك قوةً فوق الإنسان هي التي تقرر من يوسع عليه في الرزق ومَنْ لا يُرزق إلا بقدر يسير.

﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

أَسْرَفُوا : تجاوزوا الحد في المعاصي .

لاَ تَقْنَطُوا : لا تيأسوا .

الذُّنُوبَ جَمِيعاً : إلا الشرك .

وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ : ارجعوا إليه بالتوبة والطاعة .

وَأَسْلِمُوا لَهُ : أخلصوا له عبادتكم.

إن ذوي القلوب المرهفة الحس حين يوفقون إلى معرفة الله - سبحانه وتعالى - يظل يؤرقهم ويقض عليهم مضاجعهم سؤال مؤداه : ما بال تلك الذنوب التي سبق وأن اقترفناها في ماضي حياتنا؟ فحسبهم المرهف قد يجعلهم نهباً للقلق والاضطراب وعدم الاستقرار النفسي ، حتى إن هذا الإحساس يصل ببعضهم أحياناً إلى حد اليأس والقنوط!

ولأمثال هؤلاء أعلن الله في كتابه أنه يجب عليهم أن يتأكدوا من أن أمرهم مع إلهٍ هو الغفور الرحيم ، والذي لا ينظر إلى ماضي المرء وإنما ينظر إلى حاضره ، ولا ينظر إلى ظاهره بل إلى باطنه ، وأنه يعامل المرء معاملةً سمحةً ، وليس معاملةً شحيحةً نكدةً . وللسبب ذاته فإن المرء إذا ما رجع إليه تعالى وأناب ، أخذه في كنف رحمته من جديدٍ ، مهما عظمت وكثرت ذنوبه التي صدرت منه فيما سلف !

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً
وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن
كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ
﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

بَغْتَةً : فجأة .

يَا حَسْرَتَى : يا ندامتي ويا حزني .

فَرَّطتُ : قصرت .

فِي جَنبِ الله : في طاعته وأمره وحقه تعالى .

السَّاخِرِينَ : المستهزئين بدينه وكتابه وأهله .

كَرَّةً : رجعة إلى الدنيا .

مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ : مأوى ومقام لهم .

بِمَفَازَتِهِمْ: بفوزهم وظفرهم بالجنة .

إن كلام الله لا ينقسم إلى أحسن وغير الأحسن ، ولم يأت القرآن بدوره مشتملاً على آيات بعضها أحسن وبعضها غير الأحسن ، وليس هناك فرق بين القرآن وبين الكتب السماوية الأخرى من حيث إن بعضها أحسن جوهراً وحقيقةً وبعضها ليس كذلك .

والأصل أن المرء في عالم الامتحان الراهن قد مُنحت له حرية الاختيار والعمل، فبإمكانه هنا أن يأخذ أحد الأقوال مأخذاً مستقيماً أو مأخذا ملتوياً معكوساً ، وأن يوجه اهتمامه - إن شاء - نحو المراد الحقيقي من الكلام أو يفتعل فيه المطاعن ويحمّله من المعاني المغلوطة ما لا يحتمل ، وإن الاستهزاء بالكلام الإلهي هو من أمثلة هذا الباب ،

حيث يلوي المرء أعناق بعض الآيات ويستخرج منها مفهوماً عكسياً ، ثم يأخذ يسخر منها بناءً على فهمه المزعوم ذاك !

وإن المرء ليخفي حقيقته في هذه الدنيا ؛ إذ هو ينكر الحق بدافع التكبر وحده ، ولكنه يتشدق بألفاظٍ كما لو أنه ينكره على أساسٍ مبدئي ، وفي يوم القيامة سيعود وجه المرء ناطقاً بحالته الداخلية ، فسوف يشهد وجهه يومئذٍ بأن الجوانب " غير الأحسن " التي جعل منها مبرراً لإنكاره الحق ، إنما كانت ألفاظه الكاذبة الملفقة ، وإلا فقد كان الحق في ذاته صافياً نقياً من كل شائبةٍ ، واضحاً تمام الوضوح ، وعندها سيذوب المرء أسفاً وحسرةً على تفريطه في جنب الله، إلا أن أسفه حينئذٍ لن يغني عنه فتيلاً !

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

لَّهُۥ مَقَالِيدُ : مفاتيح وخزائن .

لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ : ليبطلن عملك ويفسد .

إن وجود الكون دليل على وجود خالقه ، وهكذا فإن سير الكون على هذا النحو الدقيق المنظم، وبهذا الأسلوب الهادف الحكيم مما يثبت أن هناك مراقباً لا يزال يراقبه ويرصد حركته كل حينٍ وآنٍ ، ولو تأمل المرء بجدية لوجد في الكون آية خالقه وآية منظّمه ومدبر شئونه كذلك .

وفي مثل هذه الحالة فإن الذين يتوجهون إلى ذوات أخرى دون الله بالعبادة والتعظيم، إنما يعملون عملاً لا قيمة له في كوننا الحالي ، لأنه إذا كان الخالق والوكيل

واحداً ليس غير ، فإن عبادته وحدها ستنفع المرء ، أما عبادة أحدٍ سواه فهي بمثابة توجيه النداء إلى آلهةٍ لا وجود لها إطلاقاً !!.

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

وَمَا قَدَرُوا الله : ما عرفوه ، أو ماعظموه .

قَبْضَتُهُ : ملكه وفي مقدوره وتصرفه .

مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ : بقدرته كطي السجل للكتب .

الصُّورِ : القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل .

فَصَعِقَ : مات ، وهي النفخة الأولى .

وَوُضِعَ الكِتَابُ : أعطيت صحف الأعمال لأربابها .

إن إساءة تقدير الله أو بخْس قدْره هو المصدر الرئيسي لمعظم الضلالات والانحرافات ؛ فالمرء إنما تستبد بعقله مظاهر العظمة الأخرى لكونه لا يدري عظمة الله اللانهائية ، وهو إذْ يظن الارتباط بأكابره وسيلةً للنجاة ، فإنما يبعثه على هذا الظن جهله بأن الله أكبر بكثير من أن يجترئ أحد عنده على تحريك لسانه بدون إذنٍ منه ، والقيامة حين تزيل عن أبصار الناس الغشاوة ، فسيدركون أن الله سبحانه كان عظيماً

وجليل الشأن ، وأن الأرض في قبضته كعملةٍ صغيرةٍ ، والسماء مطوية بيمينه كالورق العادي!

وكما يدق الجرس في قاعة الامتحان إيذاناً بانتهاء فترة الامتحان المحددة ، فكذلك سوف يُنفخ في الصور عند انقضاء أجل عالمنا الراهن ، وبعدئذٍ سيتغير النظام الكوني بأكمله، ويظهر إلى الوجود عالم جديد ، وإن عالمنا الراهن يستنير بضوء الشمس الذي لا يمكّننا إلا من رؤية الأشياء المادية وحدها . أما عالم الآخرة فإن سيستضيء بنور الله تعالى مباشرةً ، ومن ثم فسيمكن هناك أن نرى الحقائق المعنوية المجردة هي الأخرى رأي العين .. وسيُحضر الجميع يومئذٍ أمام محكمة الله . ولقد كان الأنبياء والدعاة السائرون على هداهم قوبلوا من جهة غالبية البشر في هذه الدنيا بالاحتقار وعدم الاكتراث ، ولكن الناس في الآخرة سوف لا يلبثون أن يتملكهم دهشة ووجوم إذْ يرون أن مصائر العباد إنما يتم تقريرها هناك على أساس مَنْ وقف إلى جانبهم مؤمناً بما جاءوا به ، ومَنْ تلقاهم بالإنكار والتكذيب!

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

زُمَراً : جماعات متفرقة متتابعة .

حَقَّتْ : وجبت وثبتت .

للإعراض عن الحق وإنكاره درجات ، وبحسبها تتفاوت درجات أصحاب جهنم كذلك ، وسوف يقسم هؤلاء في الآخرة إلى جماعاتٍ شتى على حسب درجاتهم ، ثم

يُقذف بكل جماعةٍ إلى الدرك الذي تستحقه من دركات الجحيم ، وكم سيكون المشهد فظيعاً ومخزياً يوم يُوجه إلى جهنم أصحابها ، ويمكننا أن نتخيل ذلك بوضوحٍ من خلال الحوار الذي يجري ساعتئذٍ بينهم وبين الملائكة الموكلين بحراسة جهنم .

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

طِبْتُمْ : طهرتم من دنس المعاصي .

صَدَقَنَا وَعْدَهُ : أنجزنا ما وعدنا من النعيم .

نَتَبَوَّأُ : ننزل .

حَافِّينَ : محدقين محيطين .

وأهل الجنة هم الذين تتوافر فيهم صفة التقوى ، وإذ يدرك المرء كبرياء الله على نحوٍ يقضي على شعوره بكبرياء ذاته ، يترتب على ذلك - بطبيعة الحال - أن يمتلئ فؤاده بالخشية الإلهية ، وإحساسه بمدى عجزه - من ناحيةٍ - وبعظيم قدرة الله - من ناحيةٍ أخرى - يجعله شديد الحذر والاحتياط في أمر الله ، وهو لا يزال كل الوقت في حالة قلق وتخوفٍ دائم مما عسى أن يعامله به ربه في الآخرة ، والذين خافوا من الله في الحياة الدنيا هذا الخوف ، هم الذين سيعتبرون من ورثة الحياة الخالية من كل المخاوف والهموم في الآخرة !

وسيُعامل أهل الجنة في الآخرة معاملة الضيوف الوافدة على الملوك ، حيث سيذهب بهم إلى دور إقامتهم بغاية التوقير والإكرام ، وسوف لا يلبثون أن تفيض على ألسنتهم كلمات الشكر والحمد والثناء تلقائياً إذا رأوا الجنة بعيونهم ، ولن تُعدّ لهم في الجنة مساكن عالية مريحة فحسب ، بل ولن يكون هناك حظر ما على التجول والاجتماع وتبادل الزيارات فيما بينهم ، كما ستوفر لهم كل وسائل السفر والمواصلات من أرفع طرازٍ وبكميةٍ هائلة لا تُقدر.

إن المستحق للحمد والثناء هو ذات الله الواحد الأحد ليس غير ، ولكن هذه الحقيقة لا تتجلى في عالم الامتحان الراهن ، وستكون الآخرة يوم ظهور الحمد الإلهي في أكمل صوره ، فيومئذٍ ستصدح جميع الألسنة ، متجاوبةً معها سائر الموجودات بنغمات الحمد الإلهي ، وستنهار كل الأمجاد الزائفة ومظاهر العظمة الكاذبة ، ولن تكون هناك سوى ذاتٍ واحدةٍ يتوجه إليها المرء بالدعاء والتمجيد ، وسوى كبرياء ذي الجلال الواحد يسبح بحمده ويثني عليه غارقاً في خضم كبريائه وجبروته اللامتناهي!!

سورة غافر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝ ﴾

غَافِرِ الذَّنبِ : ساتر الذنب للمؤمنين .

وَقَابِلِ التَّوْبِ : التوبة من الذنب من كل مذنب .

ذِي الطَّوْلِ: الغنى أو الإنعام والتفضل أو المن .

استُعملت كلمتا ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ ﴾ هنا استدلالاً على حقيقة القرآن الكريم ، ولئن كان ذلك إبان نزول القرآن ضرباً من التنبؤ ، فإنه قد أصبح الآن واقعةً ثابتةً لا جدال فيها .

فقد نزل القرآن قبل عصر العلم في ظروف غير مواتية للغاية ، ولكنه لم يلبث أن أحرز الانتصار والغلبة على جميع معارضيه حسب دعواه ، ففي فترةٍ وجيزةٍ من الزمان جداً استطاع أن يقهر كل مَنْ تصدى له وناصبه العداء من المشركين العرب ، إلى يهود الجزيرة ، إلى الإمبراطوريتين العظيمتين: الفارسية والرومانية ... إلخ ، وهذا واقع لا يوجد له مثيل في التاريخ البشري بأكمله ، وهو برهان ناطق بأن هذا القرآن منزل من عند الله العزيز الغالب الذي يَقْهَر ولا يُقهر .

والميزة الثانية للقرآن هي أنه كتاب صحيح من ألفه إلى يائه ، فحتى بعد مرور ما يقرب من خمسة عشر قرناً لم يكن العثور على شيءٍ من محتوياته ينافي أو يتعارض مع

الحقيقة الواقعة ؛ مما يبرهن بها لا يدع مجالاً للشك على أن منزّله إله عليم وخبير ، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وأنه يحيط علماً بالماضي والحاضر والمستقبل على حدٍ سواء ، وأن هذا الإله هو المعبود الحقيقي للإنسان ، ومن مقتضى قدرته وعلمه أن يجمع يوماً جميع البشر على صعيدٍ واحدٍ ، ويحاسبهم على أعمالهم ، ثم يحكم على الكل حكمه العادل ، بأن يعفو عن الذين رجعوا إليه تعالى وأنابوا ، ويعاقب الطغاة والمتجبرين على عصيانهم وسوء أعمالهم!!

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾

يَغْرُرْكَ : فلا يخدعنك .

تَقَلُّبُهُمْ : تنقلهم سالمين غانمين فإنه استدراج .

لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ : ليبطلوا ويزيلوا بالباطل الحق .

حَقَّتْ : وجبت وثبتت بالإهلاك .

المراد بـ ﴿ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ هنا تلك الأدلة التي تقدّم إثباتاً لدعوة الحق ، والذين ليسوا بجادين في أمر الله ، طالما يثيرون مناقشاتٍ فارغةً إيهاماً للجماهير وتمويهاً عليها بأن هذه الدعوة ليست بدعوة الحق ، إنما هي فكرة مبتكرة نبتت في مخيلة أحد الناس الداعي!!

إن مجادلة باطلة كهذه جريمة جد عظيمة ، بيد أن المهلة لا تزال متاحة لأصحابها إلى مدة معينةٍ في عالم الامتحان الراهن ، وينتظرهم ، عقب انقضائها ، المصير المشئوم نفسه

الذي لقيه من قبل قوم نوح ، وعاد وثمود، وغيرهم ، حيث إن الذين ظنوا أنفسهم كباراً لم يلبثوا أن صاروا صغاراً ، وأما الذين كانوا قد اعتبروا صغاراً ، فقد أدخلوا عند الله في عداد الكبار!

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

سَبِيلَكَ : طريق الهدى (دين الإسلام) .

وَقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيمِ : احفظهم منه .

وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ : المعاصي أو عقوبتها .

إن عباد الله الذين يقومون بدعوة الحق ، يتعرضون دوْماً لألوان الأذى والعنت والاضطهاد ، ويُتخذ منهم موضوع السخرية والتحقير والامتهان في مجتمعهم ، ولكن في الوقت الذي يسوء حالهم بين عبدة الظواهر من الناس إلى هذا الحد ، في الوقت نفسه تكون السموات والأرض ناطقة بكونهم على الحق ، ويكون الملائكة الموكلون بتدبير شئون الكون منتظرين لحسن مآلهم وجميل عاقبتهم التي يصيرون إليها في نهاية المطاف ، فالذين قُوبلوا بمنتهى الإهانة ولم يعتبروا أهلاً حتى للذكر في هذا العالم الفاني، ويتبوءون في ذلك العالم الأبدي مقام العز والكرامة بحيث لا تفتأ ألسنة أقرب المقربين من ملائكة الله تلهج بالدعاء والاستغفار في حقهم!!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾

لَمَقْتُ الله : لبغضه الشديد وغضبه عليكم .

تُؤْمِنُوا : تذعنوا وتقروا بالشرك .

لقد بعث الله - سبحانه وتعالى - ورحمته إلى عالمنا الراهن في ثوب الهداية ، ولكن الناس لم يتلقوها بالقبول ، وستكون عاقبة هذا الرفض في الآخرة أن يحرم أصحابه من الرحمة الإلهية حرماناً مؤبداً ؛ فإنهم لما كانوا قد أعرضوا عن رحمة الله المهداة في الدنيا ، فسوف تعرض عنهم رحمة الله في الآخرة جزاءً وفاقاً .

وعندها سيقول هؤلاء المنكرون الجاحدون : يا ربنا ! لقد خلقتنا من تراب ، فكأننا كنا أمواتاً ، فنفخت فينا الحياة ، ثم تعرضنا للموت مرةً أخرى عندما انقضت أعمارنا المحددة، وها نحن قد بُعثنا من جديدٍ في عالم الآخرة ، وهكذا فقد أمتّنا - يارب - مرتين وأحييتنا مرتين . ولئن أتحت لنا الآن فرصةً ثالثةً ، فتردنا إلى الدنيا ، كي نعيش فيها عمراً آخر ، ثم نحضر إليك بعد الموت ، فإننا سنعترف هناك بصدقك ، ونمارس حياةً صالحةً تقيةً !

غير أن طلبهم هذا لن يلقى الإجابة أو القبول ، ذلك لكونهم قد أثبتوا عن أنفسهم أنهم لا يستطيعون إدراك الصدق ؛ مادام الصدق مستتراً وراء الغيب ، وإنما هم يستطيعون أن يتعرفوا على الآلهة "الظاهرة المنظورة" ، ولا يقدرون على معرفة الإله الغيبي ، وإنه لا قيمة لعبدة الظواهر كهؤلاء عند الله سبحانه وتعالى .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾

يُنِيبُ : يرجع إلى التفكير في الآيات .

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ : رافع السماوات بعضها فوق بعض .

يُلْقِي الرُّوحَ : ينزل الوحي أو القرآن أو جبريل .

يَوْمَ التَّلَاقِ : يوم الاجتماع في المحشر .

هُم بَارِزُونَ: خارجون من القبور ظاهرون لا يسترهم شيء .

يزخر الكون بآياتٍ لا تُحصى ؛ تعلمنا درس الحقيقة بلغة التمثيل ، ومن هذه الآيات نظام المطر ، فهذا الحدث المادي يمثل أمر الوحي المعنوي ، فكما أن المطر نافع للأراضي الخصبة ، وغير نافع للأراضي البور ، فكذلك الوحي - وهو مطر الله المعنوي - إذْ يدخل في أعماق الذين جعلوا صدورهم مفتوحةً ، يملأ وجودهم خصوبةً ونضارةً ، وعلى نقيض من ذلك فإن الذين مُلئت صدورهم بالأمجاد غير الإلهية ، شأنهم شأن الأراضي البور ، لن يزالوا محرومين من فوائد الوحي الإلهي .

إن الله سبحانه خبير بعباده على أتم وجهٍ وأكمله ، وإنه تعالى يختار من بينهم مَنْ يجده

أهلاً لتبليغ رسالته ، وهذه الرسالة تهدف - أساساً - إلى إنذار الناس باليوم الذي يُحضرون فيه بين يدي مالك الكون ذي العزة والجلال الذي لا يخفى عليه شيء من أحوال الناس ، وليس ثمة أحد من شأنه أن يؤثر أو يتدخل في قضائه يومئذ!!

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾

يَوْمَ الآزِفَةِ : يوم القيامة لقربها .

الحَنَاجِرِ : التراقي والحلاقيم .

كَاظِمِينَ : ممسكين على الغم الممتلئين منه .

حَمِيم : قريب مشفق يهتم بهم .

خَائِنَةَ الأَعْيُنِ : النظرة الخائنة إلى ما لا يحل .

يتمتع الإنسان بكل أنواع الفرص والإمكانات في العالم الراهن ، فهو حر ليفعل ما يشاء ؛ مما يوقع المرء في سوء الفهم والتقدير ، حيث إنه ينظر إلى حالته المؤقتة الراهنة هذه على أنها حالته الدائمة ، في حين أن هذه الفرص والإمكانات التي أتيحت للإنسان إنما هي على وجه الامتحان وليس على وجه الاستحقاق ،فحين تنقضي مدة الامتحان تُنتزع منه كل الفرص والإمكانات المتاحة حالياً ، وعندها سيدرك الإنسان أنه لا يتوافر لديه غير العجز شيء يستند عليه !

ويميل المرء إلى أن يعيش حياة حرةً طليقةً من كل القيود ، وبسبب هذا المزاج ذاته يتخذ المرء لله أنداداً وشركاء في ألوهيته ، لكي يستغل أسماءهم لإضفاء صبغة الشرعية

على ضلاله وانحرافه ، ولكن عندما تتجلى الحقيقة سافرةً عاريةً في يوم القيامة ، فسيعلم المرء حينئذٍ أنه لم يكن هناك غير الله أحد يتمتع بأي نوعٍ من القدرة أو الاجتهاد في الأرض ولا في السماء !!

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) ﴾

وَاقٍ : دافع يدفع عنهم العذاب .

إن تاريخ العالم غني بأمثلة كثيرة تدلنا على أن أمةً ازدهرت ثم اندثرت ، وأخرى شيدت صرح مدنية رائعة على وجه الأرض ، وإذا بآثار مدنيتها لا توجد اليوم إلا في صورة أطلال مدفونة تحت الأرض ، وأمة ثالثة كانت في يومٍ من الأيام واقعةً حيةً ملموسةً في دنيا الناس ، ولكنها لم تعد تُذكر الآن إلا كواقعة تاريخية مضت!

ومثل هذه الوقائع ، وإن كانت وقائع معلومة عند الناس ، إلا أنهم أدرجوها تحت عنوان الحوادث الأرضية أو الانقلابات السياسية ، أما حقيقة الأمر فهي أنها كانت أحكاماً إلهية نفذت على تلك الأمم نتيجة إنكارها للحق ، ولو أتيح لنا بصر نتمكن به من رؤية الحقائق المعنوية لوجدنا أن كل واقعةٍ من تلك الوقائع كان يتم إحداثها بواسطة ملائكة الله ، وإن بدت للناظرين ، كأنها تحدث تحت العوامل والأسباب الدنيوية !

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾ ﴾

وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ : استبقوا بناتهم للخدمة .

ضَلالٍ : ضياع وبطلان ووبال .

يُؤيِّد الأنبياء - إلى جانب الحجج والبراهين العامة - بمعجزات وخوارق تدل بها لا يدع مجالاً للشك على كونهم مرسلين من عند الله ، ولكن الإيمان بالحق يتم دوْماً في مقابل نفي الذات وعلى حساب كبريائها ، وهو أصعب تضحيةٍ على نفس إنسانٍ بلا ريب. وهذا هو السبب في أن فرعون وملأه لم يقروا بنبوة موسى - عليه السلام- رغم إتيانه بدلائل واضحةٍ غاية الوضوح!

وبدلاً من ذلك راحوا يوهمون الناس بأن ادعاء موسى النبوة لا حقيقة له ، وأن معجزاته لا تخرج عن كونها سحراً ، وصمّموا على تنفيذ سياستهم القمعية السابقة لتقليل تعداد بني إسرائيل بمزيدٍ من الشدة والاهتمام ، حتى لا يتمكن موسى من إقامة أرضية صلبةٍ يقف عليها بين أبناء قومه ، ولكنهم لم يكونوا يدرون أن تدابيرهم تلك لا يتخذونها إزاء موسى ، وإنما بإزاء الله عز وجل ، وأن أي مكيدة تُحاك إزاء الله تبوء دوماً بالفشل الذريع!

﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾

عُذْتُ بِرَبِّي : اعتصمت وتحصنت به تعالى .

وقوله : ﴿ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ ﴾ يعني أن يقضي على ما أنتم عليه من طريقتكم

الدينية، والتي ما زلتم تتوارثونها خلفاً عن سلفٍ ، وبالتالي يروج بينكم دين جديد لم تألفوه، ولذلك نسمع من حينٍ إلى حينٍ أن المتطرفين الهنادك في الهند يطالبون بفرض الحظر على حرية الدعاية الدينية قانونياً ، بحجة أنه إذا لم يتم ذلك فسوف لا يلبث أن يغير أهل الأديان الأخرى بدعايتهم دين البلاد الرسمي!!

والمراد بالفساد هو البلبلة والاضطراب ، أي إن موسى سوف لا يلبث أن يجد من بني شعبه أنصاراً وأعواناً ، فيسعى معهم إلى إثارة الفوضى والقلاقل في طول البلاد وعرضها ، ولذا يجب أن نقتله قبل أن يستفحل أمره !

وإن أكبر عائق يحول دون إيمان المرء بالحق هو نفسيته المفعمة بالتكبر والصلف والغرور ، فإنه لكيلا يحتفظ برأسه عالياً مرفوعاً يحاول أن ينكس راية الحق ، ولكن الحق نصيره هو الله ب العالمين ، ولئن تمكن معارضوه - بادئ ذي بدءٍ - من كسب جولةٍ أو جولات في صراعهم مع الحق ، فإن نصر الله كفيل؛ لأن النجاح الأخير سيكتب للحق على أية حالٍ!!

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾

ظَاهِرِينَ : غالبين عالين .

بَأْسِ اللهِ : عذابه ونقمته .

مَا أُرِيكُمْ : ما أشير عليكم .

إن الرجل المؤمن الذي ورد ذكره هنا كان ينتمي إلى أسرة فرعون الملكية ، ولعله كان من ذوي المناصب العليا في البلاط الفرعوني،وقد تأثر بما جاء به موسى – عليه السلام – من دعوة التوحيد،فآمن بها سراً ، وما زال يكتم إيمانه،ولكنه لم يكد يرى فرعون وملأه يأتمرون بموسى لقتله،حتى انبرى لحماية موسى مما يُكاد له علناً وجهاراً ، وقد دافع عن موسى – عليه السلام – بأسلوب قوي مؤثر وحكيم للغاية .

ومن العبر التي ينطوي عليها هذا الحادث : أن التبليغ قوة تخلق لنفسها أنصاراً ومؤيدين ، حتى في صفوف الأعداء ، ولو كان العدو أسرة ظالمة متكبرة كآل فرعون!!

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ (٣٠) مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ (٣١) وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ (٣٢) يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ (٣٣) ﴾

ٱلۡأَحۡزَابِ : الأمم الماضية المتحزبة على الأنبياء .

دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ : عادتهم في الإقامة على التكذيب .

يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ : يوم القيامة (للنداء فيه للمحشر) .

عَاصِمٖ : مانع ودافع .

كان فرعون قد حذر موسى من عقاب الدنيا ، ورداً على ذلك فقد حذر الرجل المؤمن فرعون من عقاب الآخرة ، وذلك هو منهج الداعي إلى الحق دائماً ، ففيما يهتم الناس بشئون الدنيا ، يهتم الداعي بشئون الآخرة ، وفيما يتحدث الناس بمصطلحات الدنيا ، يصوغ الداعي كلامه في مصطلحات الآخرة ، وفيما يعتبر الناس قضايا الدنيا

أحق بالذكر ، تكون أولى القضايا بالذكر وأجدرها بالعناية في نظر الداعي هي التي تتصل بالآخرة !!

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

مُّرْتَابٌ : في دين الله شاك في وحدانيته .

بِغَيْرِ سُلْطَانٍ : بغير برهان وحجة .

كَبُرَ مَقْتاً : عظم جدالهم بغير حجة بغضا .

رفض أغلب المصريين التسليم بنبوة يوسف ما دام حياً بين أظهرهم ، ولكن لما بدأ الفساد يتسرب على أثر وفاته إلى أجهزة الحكم في البلاد ، أحس المصريون عندئذ بمدى عظمته – عليه السلام – فإذا بهم يقولون : إن وجود يوسف كان مصدر اليمن والبركة لمصر، وأنى سيأتي الآن رسول مثله ، وإن يوسف – رغم كونه نبياً مرسلاً من عند الله – كان بشراً ، وعليه فقد كان المجال مفتوحاً أمام أعين الناس ليتساءلوا قائلين : هل من الضروري أن يكون يوسف نبياً حتى يصدر عنه ما صدر من العجائب والكمالات ، إذْ من المحتمل أيضاً أن يكون هو إنساناً ذكياً ، أتى بهذه العجائب والكمالات بناءً على ذكائه الخارق ! ولقد كانت مثل هذه الأقاويل والمزاعم السخيفة هي التي جعلت المصريين يقعون ضحايا الشك والارتياب في نبوته – عليه السلام –

ومهما يكن الحق واضحاً ، فإنه لا يزال بإمكان المرء دوْماً في عالم الامتحان الراهن أن ينكره بإثارة أية شبهة مفتعلة حوله ، والذين تنطوي نفوسهم على مزاج التمرد

والاستكبار ، والذين يحسبون أنهم سيفقدون كبرياءهم فيها لو آمنوا بالحق ، يظلون ، بحكم طبيعتهم ومزاجهم متورطين في هذه الشبهات ، وهم يتناولون هذه الشبهات بالتفخيم لدرجة أنها تستولي على قلوبهم وعقولهم ، وتكون النتيجة أنهم لا يكادون يستطيعون التفكير في أمر الحق على نحوٍ مستقيم ، وبالتالي فإنهم لا يزالون مصرين على إنكاره حتى تنتهي آجالهم !

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

صَرْحاً : قصراً أو بناء عالياً ظاهراً .

أَبْلُغُ الأَسْبَابَ : الأبواب أو الطرق .

تَبَابٍ : خسران وهلاك .

إن القول الذي وجهه فرعون إلى وزيره هامان لم يكن قولاً صادراً عن جد ، وإنما كان كيداً ، أي تدبيراً وقتياً محضاً ، حيث إنه لما رأى الملأ من حوله يتأثرون بخطاب الرجل المؤمن البليغ المدعم بأدلةٍ منطقيةٍ لا تقاوم ، أراد أن يلقي " فتيشةً " – على حد تعبير أهل الشام – تصرف اهتمام الحاضرين ، وبالتالي تتحول دعوة موسى إلى موضوع التهكم والسخرية بدل أن تصير موضوع التأمل والدراسة الجادة .

و" صيرورة سوء العمل مزيناً " هي أن يرفض المرء أمر الحق بترديد بعض الألفاظ البراقة ، وذلك هو منشأ ضلال المرء الحقيقي ، أي إعطاء الأهمية للمطاعن والاعتراضات المفتعلة بدلاً من الأدلة الجوهرية ، ومحاولة الستر على انحراف سافرٍ صريحٍ بغلاف من التبريرات الكاذبة ... إلخ ، وأمثال هؤلاء يغيب عن بالهم أن الحق

يكون قائماً على أساس دليلٍ محكمٍ لا يمكن التغلب عليه بافتعال المطاعن الباطلة !

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾

بِغَيْرِ حِسَابٍ : بلا نهاية من الرازق لما يعطي .

لاَ جَرَمَ : حق وثبت أو لا محالة أو حقاً

لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ : مستجابة . أو استجابة دعوة .

مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ : رجوعنا بعد الموت إليه تعالى للجزاء.

إن خطاب الرجل المؤمن من آل فرعون هذا واضح غاية الوضوح ، وهو - إلى جانب ذلك - خطاب نموذجي يدلنا كيف ينبغي أن يكون خطاب الدعاة إلى الحق ، وما المحور الرئيسي لدعوة الحق ؟

﴿ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ

دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ ... الآيات . هذه الجملة تمثل خلاصة خطاب الرجل المؤمن ، فمن خلالها يتضح لنا بجلاء ما هو الشيء الذي كان محل الجدل والنقاش في البلاط الفرعوني آنذاك ، وقد كان ذلك يتمثل في السؤال الآتى : إلى من نتوجه بالدعاء ؟ إلى الله الواحد الأحد ، أم إلى هذه الأصنام التي صنعها الإنسان بيده؟

فقال الرجل المؤمن لمن حوله : إن الله حقيقة حية قاهرة غلابة . ودعاؤنا إياه دعاء لإله حقيقي ، وأما أصنامكم هذه فإنما هي من اختراع أوهامكم ، وإنها لن تنفعكم شيئا في الدنيا ولا في الآخرة ، فإذا لم يكن لها وجود في حقيقة الأمر ، فكيف يمكن أن يرجى منها أية فوائد حقيقية ؟! وقد نقل ابن كثير في تفسير هذه الآية عن قتادة قوله : "يعني الوثن لا ينفع ولا يضر "[1].

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

وَحَاقَ : أحاط وأنزل .

غُدُواً وَعَشِياً : صباحاً ومساءً أو دائماً في البرزخ .

إن الرجل المؤمن من رجال البلاط الفرعوني لم يكن نبياً ، ولكن بالرغم من كونه وحيداً ، أنقذه الله من مكر فرعون ونواياه العدوانية الجائرة ، ومن هذا نعلم أن غير الأنبياء ينالون حماية الحق – من النصر والتأييد الخصوصي – مثل ما وعُد به الأنبياء والمرسلون.

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٤٥.

وإن مصائر العباد الأخروية ، وإن كان سيتم تحديدها بصورة حتمية يوم القيامة ، إلا أن المرء لا يكاد يدخل بعد الموت أبواب العالم الآخر حتى يدرك من فوره ماذا جناه في حياته السابقة ، وأي مصير ينتظره هنا الآن، وهكذا فإنه يتعرض على مستوى الشعور ، عقب الموت مباشر لمصيره المحتوم الذي سيواجهه على المستوى الجسدي يوم القيامة، بعد أن تقام المحكمة الإلهية الأخيرة !

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

مُّغْنُونَ عَنَّا : دافعون، أو حاملون عنا .

تعرض هذه الآيات مشهداً من مشاهد جهنم ، وهو مشهد تتقابل فيه صورتان : صورة الرؤساء الذين عاشوا في الدنيا مستكبرين ومتعالين ، وها هم أولاء ينسون يومئذ علوهم واستكبارهم بالمرة ، تقابلها صورة العوام الذين كانوا يعتزون هنا بكبريائهم هؤلاء ، فإذا بهم يبدون هناك مشاعر التبرم والاستياء نحوهم .

إن الذي لم يكونوا يستعدون للخضوع أمام الحق في الدنيا سوف لا يلبثون أن يخضعوا للحق هناك في تواضع وخضوع ، غير أن خضوع الآخرة لن يغني عن أحد فتيلاً!

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾

يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾

يَقُومُ الأَشْهَادُ : الملائكة والرسل والمؤمنون .

مَعْذِرَتُهُمْ : عذرهم أو اعتذارهم حين يعتذرون .

بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ : طرفي النهار أو دائماً .

إن للأنبياء وأتباعهم وعداً حتمياً أكيداً بنصر من الله لا يتخلف ، ولكن الاستحقاق لهذا النصر يتأتى دوماً بعد الصبر ، وما كان الصبر من الأهمية بهذا المكان إلا لكي يتميز أهل الحق من الظالمين بتمام الوضوح والجلاء ، ولأجل الإتيان بهذه المرحلة المميزة (الفاصلة) يضطر أهل الحق إلى أن يصبروا من طرف واحد ، وصبر أهل الحق هذا يؤهلهم في الدنيا لنصر الله ، كما يثبت بهذا الصبر جدارتهم بأن يقاموا شهداء لله على الظالمين يوم القيامة.

وإن الكتاب الذي يبعث من عند الله إنما يبعث للهداية والتذكير ليس غير، بيد أن هذا التذكير لا ينفع إلا ذوي الألباب والعقول،أي الذين ليسوا مكبلين بقيود المصالح،ويستطيعون التأمل في مضامينه متحررين من كل العقد النفسية،والذين يختبرون ما يُقال لهم بقياس الدليل وحده،وليس بأي مقياس آخر عداه ، وهذا هو الموقف العاقل من الهداية الإلهية،والذين يتخذون إزاء الهداية موقفاً غير عاقل هم الظالمون حقاً ، أما الذين يقفون منها موقفاً يتسم بالتعقل والتصبر فأولئك هم الفائزون بالنجاح والسعادة!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾

سُلۡطَٰنٍ :حجة وبرهان .

مَا هُم بِبَٰلِغِيهِ : ببالغي مقتضى الكبر والتعاظم .

إن الحق واضح ومبرهن عليه ؛ لدرجة لا يصعب معها أن يفهمه الإنسان كائناً من كان ، ولكن الحق إذْ يظهر فإنما يظهر عن طريق " إنسان " ، ومن ثم يغدو الاعتراف بالحق عملياً مرادفاً بحامل الحق ، وهذا هو السر في أنه لا يكاد يستعد للاعتراف بالحق أناس تنطوي صدورهم على نفسية الاستكبار ، حيث إنهم يخافون أنهم سوف لا يلبثون أن يفقدوا كبرياءهم وتفوقهم على حامل الحق حين يعترفون بالحق ، وبسبب نفسيتهم تلك ينبري هؤلاء لمعارضته ، بيد أن الله – جل وعلا – قدّر لدنياه ألا ينجح في جنباتها أمثال هؤلاء أبداً !

﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

إن عظمة هذا الكون تنطق بعظمة خالقه ، وهذه العظمة هائلة لدرجة أن إعادة خلق الإنسان مرة أخرى أمر هين ويسير جداً بالقياس إليها،وهكذا فإن خلق الكون يبرهن على إمكان خلق الإنسان الثاني .

وإذا أَجَلْنا أبصارنا في المجتمع الإنساني،فإن قيام عالم الآخرة يبدو لنا ضرورة

أخلاقية لابد منها ، ففي المجتمع أناس يقيمون الدليل على تمتعهم ببصيرة نفاذة إلى الحقيقة ، وآخرون يقفون من الحقيقة موقف الصم العمي، ونجد في المجتمع أيضاً أفراداً لا يزالون متمسكين بالعدل على كل حالٍ من الأحوال ، كما نجد فيه آخرين يحيدون عن جادة العدل، ويعاملون الناس معاملةً جائرة ظالمةً ، وإن حس الإنسان الخلقي ليقرر بأنه لا ينبغي أن ينتهي هذان الصنفان من البشر إلى مصير واحد مماثل ! ولو أننا أمعنا النظر في هذه الأمور لاتضح لنا أن ظهور الآخرة ضروري من وجهة النظر الأخلاقية !

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

دَاخِرِينَ : صاغرين أذلاء .

فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ : فكيف تصرفون عن توحيده ؟

يُؤْفَكُ : يصرف عن التوحيد الحق .

إن تعاقب الليل والنهار على وجه الأرض بانتظام ، وما إلى ذلك من الظواهر الحيوية الأخرى من هذا القبيل ، لأكبر من أن يقدر على إيجادها إنسان أو كل الخلائق مجتمعة . وهذه قرينة واضحة تدلنا على أن الله الذي قام بالخلق والإيجاد ، هو وحده يستحق أن يُتخذ إلهاً يُعبد ، فينبغي للمرء ألا يخضع إلا له ، ولا يعلق آماله إلا عليه ، على أن المرء لا يتمكن من إقامة صلة الدعاء والعبادة الحقيقية بخالق الكون ، والسبب

في ذلك أنه قد لا يكون متعلقاً بشيء دون الخالق ، حيث يتعلق بعضهم بأصنام حية أو ميتة ، وهذا ما يقال له الشرك ، بينما يكون بعضهم الآخر متعلقاً بذاته هو ، وذلك ما يسمى " الكبر " ومن حين لآخر يبرز الله – سبحانه وتعالى – أدلة وبراهين تنقض هذا الخداع والتزييف من الأساس ، ولكن الإنسان لا يلبث أن يعرض عنها استناداً على بعض التبريرات الكاذبة .

وكل سلوك من هذا النوع استهانة بخالق الكون وعدم تقدير له ، والذين يستهينون بخالق الكون ، ولا يقدرونه حق تقديره ، لن يجدوا لأنفسهم مكاناً أو ملجأ إلا في نار جهنم !

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

الأَرْضَ قَرَاراً: مستقرا تعيشون فيه .

وَالسَّمَاءَ بِنَاءً : سقفاً مرفوعاً كالقبة فوقكم .

فَتَبَارَكَ الله : تعالى أو تمجد أو كثر خيره .

إنه لم يكن ممكناً بالنسبة إلى مخلوق كالإنسان أن يقوم ببناء التمدن والحضارة على وجه الأرض لولا ما أودع فيها من أسباب وإمكانيات تفوق الحصر ، وهكذا فإن هناك تدابير محكمة لا تحصى قد اتخذت في الفضاء العلوي فوق الأرض إن حدث فيها أدنى خللٍ لفسد نظام الحياة الإنسانية بالمرة ، ثم إن الإنسان قد تم تكوينه وتشكيله على طراز رفيعٍ جعله – من الناحيتين : العقلية والجسمانية – المخلوق الأسمى في هذا الكون ....، إذن فهل من أحدٍ – غير الخالق – يستحق أن يتوجه إليه الإنسان بالعبادة

والتعظيم ! كلا ... كلا !! ودعاء الله مع إخلاص الدين له وحده معناه أن تكون عواطفنا الدينية كلها موجهة نحو الله سبحانه وتعالى !

﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾

أَنْ أُسْلِمَ : أن أنقاد أو أخلص ديني .

لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ : كمال عقلكم وقوتكم .

قَضَى أَمْراً : أراد إيجاد أمر .

تناولت هذه الآيات بعض وقائع الطبيعة ، ثم عقب عليها بقوله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مما يعني أن هناك دروساً معنويةً تكمن في هذه الوقائع المادية من عالم الطبيعة، والمطلوب من الإنسان أن يصل إلى تلك الدروس الكامنة عن طريق التأمل والتفكير .

ووقائع الطبيعة التي ذُكرت هنا تتلخص في : تحوّل المادة الهامدة التي لا حياة فيها إلى وجود ذي حياة ، وتخلّق ونسوئه التدريجي ، وبلوغ الإنسان سن الشباب ثم الرشد ثم تعرضه للهرم والشيخوخة .. وأخيراً استحالة الإنسان الحي مرة أخرى إلى وجود ميت عن عمر يقصر حيناً، ويطول حيناً آخر ، وهذه الوقائع تعرفنا بمختلف صفات الخالق جلَّ وعلا، فمنها نعلم أن موجد هذه الكون هو إله قادر وحكيم وهو عزيز وغالب لا يقهر ... إلخ ، وإنه لو اعتبر المرء بهذه الوقائع حق الاعتبار لصرخ عقله

قائلاً بأن الله الواحد الأحد هو وحده حقيق بأن نعبده ونعدّه مطلبنا الأسمى والأخير .

وإن خريطة العالم هذه تبطل بلسان الحال ، جميع المعبودات التي تكون قد اتخذت من دون الله الواحد الأحد !

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

أَنَّى يُصْرَفُونَ : كيف يصرفون عن الآيات مع صدقها ووضوحها؟

الأَغْلالُ : القيود تجمع الأيدي إلى الأعناق .

الحَمِيمِ : الماء البالغ نهاية الحرارة.

يُسْجَرُونَ : توقد أو تملأ بهم .

تَفْرَحُونَ : تبطرون وتأشرون .

تَمْرَحُونَ : تتوسعون في الفرح والبطر.

مَثْوَى المُتَكَبِّرِينَ : مأواهم ومقامهم .

من هم الذين كانوا يفرحون ويمرحون في الأرض بغير الحق ؟ إنهم كانوا كبار عصرهم فبسبب النصيب أتيح لهم من متاع الدنيا ومظاهر كبريائها ، لم يلبثوا أن أصيبوا

بالغرور والاعتزاز والخيلاء ، وقد جعلهم ما أحرزوه من النجاح المادي يزعمون أنهم أناس محظوظون ، على حين أنهم لم يكونوا في حقيقة الأمر إلا أناساً محرومين تماماً .

وكبار العصر هؤلاء يكونون أول من ينكر الحق ، ثم لا تلبث الجماهير بدورها أن تقف من الحق ، اقتداءً بهم، موقف الجحود والإنكار ، وقد عرضت هذه الآيات مشهد العالم الآتي ، حيث سيكون هؤلاء قد ألقي بهم في نار جهنم جزاء علوهم واستكبارهم، فإن كبرياءهم الكاذبة لن تنتهي بهم آخر الأمر إلى شيء سوى الهوان الأبدي الذي لن يجدوا إلى الخلاص منه سبيلاً !

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

إن هذا وعد من الله بأنه سينصر الدعاة إلى الحق ويقهر القوى المعادية له ، غير أن هذا الوعد إنما يتحقق بعد الصبر ، فالداعي يتعين عليه أن يصبر على كل أذى وعنت يلقاه من جانب المدعو ، إلى أن يحين وقت ظهور وعد الله بمقتضى سنته الأزلية ، ومع أن معارضي الحق يلقون عقابهم الحقيقي في الآخرة ، إلا أنهم ربما يعرضون لبوادره في العالم الراهن كذلك، وإن لم يكن من الضروري اللازم أن يفعل بهم ذلك دائماً !

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

إن قصص الأنبياء وأحوال المرسلين لم تُذكر في القرآن الكريم على وجه التاريخ ، وإنما على وجه التذكير ، ولذلك فإن القرآن لا يتناول من أحوال الرسل إلا القدر الذي كان يلزم عند الله – سبحانه وتعالى – لأجل الذكر والنصيحة .

وإن مهمة الرسول الأساسية إنما تكمن في قيامه بإبلاغ رسالة الله إلى الناس مراعياً كل آدابها ومقتضياتها الضرورية ، وأما ما يتعلق بإظهار المعجزات والخوارق ، فإن ذلك بيد الله ، يظهرها تارة ، ولا يظهرها تارة أخرى بحسب حكمته ومشيئته التي لا يعلمها إلا هو .

وقد تم إظهار المعجزات (الحسية) في الأغلب لأمم كان الله قد قرر إهلاكها نظراً لتماديها في الطغيان ، ومن ثم أجريت على يد أنبيائها صنوف المعجزات وخوارق العادات إعذاراً لها ولإقامة الحجة عليها .

وأما أمة رسول آخر الزمان – صلى الله عليه وسلم – فقد كان المفروض أن كثرتها الكاثرة ستدخل في حظيرة الإيمان عاجلاً أو آجلاً ، حيث إنهم كانوا أناساً يمتلكون هذه الكفاية الكامنة التي أهّلتهم ليكونوا أول جماعة في تاريخ البشرية اعترفت بالحق على أساس الدليل وحده ، وبالتالي سلمت نفسها إليه وتفانت في سبيل خدمته عن طواعية وإرادة حرة .

ومن هنا لم تُعرض عليهم الخوارق والمعجزات (الحسية) رغم اقتراحهم إياها بين الحين والحين ، باعتباره اقتراحاً صادراً عن جهل وحماقة وتعصبٍ !

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ : أمراً ذا بالٍ تهتمون به .

إن الإنسان محتاج إلى أشياء كثيرة للإبقاء على حياته وتمدنه ، كالغذاء والمراكب ، ومختلف أنواع الحرف والصناعات ، وأدوات نقل الأمتعة من مكان إلى آخر ، وكل

هذه الأشياء تتوافر في عالمنا الراهن بكميات هائلة ، وقد جعل الله أشياء الدنيا على نحو تبقى معه دوماً مسخرة خاضعةً لإرادة الإنسان ، بحيث يستخدمها في تحقيق شتى أغراضه ومآربه كيف يشاء .

وكل هذه الأشياء بمثابة آيات الله ، تعلن عن الحقائق الغيبية بلسان مادي وهذا الإعلان، إن كان بأسلوب غير مباشر ، إلا أن الخير للإنسان أن يتفهم الكلام الموجه إليه بالأسلوب غير المباشر ، لأن الله – سبحانه وتعالى – إذا تكلم بالأسلوب المباشر فسيكون ذلك إعلاناً عن انتهاء مهلة العمل وليس بدء فرص العمل !

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم : فما دفع عنهم وما نفعهم .

مِّنَ الْعِلْمِ : بأمور الدنيا مستهزئين بالدين.

وَحَاقَ بِهِم : أحاط . أو نزل بهم .

رَأَوْاْ بَأْسَنَا : عاينوا شدة عذابنا في الدنيا .

خَلَتْ : مضت .

العلم نوعان : علم يمكن صاحبه من إحرازه الرقي والتقدم الدنيوي ، وعلم

يهدي صاحبه إلى طريق النجاح الأخروي ، والذين يتمتعون بعلم الدنيا ، تظهر نتائجه الباهرة على الفور في صورة التطورات والإنجازات المادية الملموسة ، وعلى النقيض من ذلك وبشكل محسوس أصحاب العلم الأخروى !!

وهذا الفارق ربما يولد في نفوس المتضلعين في علوم الدنيا مركب الاستعلاء ، ومن هنا لما بعث أنبياء الله في أمم كهذه قابلتهم بالاحتقار والازدراء ، ناظرةً إلى نفسها على أنها أعلى وأعظم منهم شأناً ، حتى إنها أخذت تسخر منهم وتستهزئ بما جاءوا به ، بيد أن الله – عز وجل – أهلك تلك الأمم ، الواحدة تلو الأخرى ، رغم كل قواها الجبارة ومظاهر تقدمها العلمي والحضاري المدهش ، وإنما توجد آثارها التاريخية ومعالم حضارتها البائدة اليوم إما بشكل أطلال وخرائب متهدمة ، أو مطمورة تحت الرغام ... وهكذا فقد أقام الله للناس كافة مثالاً تاريخياً معبراً يقرر أن سر النجاح الدائم الباقي يكمن في علم الآخرة وليس في علم الدنيا!

وقد كذبت هذه الأمم برسالة أنبيائها ...، ومع كون أولئك الأنبياء تتوافر لديهم قوة الدليل والبرهان ، إلا أنها لم تكد ترضى بالخضوع أمام قوة الدليل ، إلى أن نبّأهم الله تعالى بأمر الحق في نهاية المطاف بلغة العذاب ...، وعندها لم يلبث هؤلاء أن بادروا بالإقرار والتسليم في ضراعة وخضوع غير أن هذا الإقرار لم يغن عنهم شيئا لك، لأن الإقرار المطلوب هو الذي يتم على أساس الدليل ، ولا قيمة لإقرار يلجأ إليه بعد رؤية العذاب الإلهي رأي العين !

سورة فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾

فُصِّلَتْ آيَاتُهُ : ميزت ونوعت أو بينت .

أَكِنَّةٍ : أغطية خلقية تمنع الفهم .

وَقْرٌ : صمم وثقل يمنع السمع .

حِجَابٌ : ستر غليظ يمنع التواصل .

إن دعوة النبي تكون دعوة إلى الدين الخالص النقي ، وأما حال الناس فهو على نقيضٍ من ذلك ، إذْ يكون أكثرهم على دين أكابرهم ، ويسيطر على عقولهم ما توارثوه من تقاليد وعادات قومية عبر الأجيال ، وما يسود عصرهم من الأفكار والاتجاهات ، ومن ثم فإن ما يدعو إليه الرسول من الدين الخالص النقي لا يكاد يتوافق مع شاكلتهم الفكرية ، فسيبدو لهم شيئاً غريباً لم تألفه النفوس ، ويقف هذا الفرق بمثابة حاجز ذهني بين الرسول ومخاطبيه، وبما أنهم لا يستطيعون أن ينظروا إلى دعوة الرسول في صورتها الأصلية ، لا يرضون بالتالي أن يتلقوها بالإيمان والقبول .

وإن دعوة النبي تكون في حد ذاتها مدعمةً بأقوى الأدلة وأوضح البراهين لدرجة

أنها تكون في نفسها دليلاً على كونها أمراً جاء من عند الله ، غير أن الحاجز الذهني الآنف الذكر يكون من القوة والضخامة بحيث لا يتمكن الإنسان من أن يخترقه حتى يرى دعوة الرسول كما هي . إن الله - سبحانه وتعالى - يفتح للإنسان أبواب رحمته ، ولكن الإنسان يأبى أن يدخل فيها ! فيا له من شقاء وحرمان!!

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾

فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ : توجهوا له بطاعته وعبادته .

وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ : هلاك أو حسرة أو شدة عذاب لهم .

غَيْرُ مَمْنُونٍ : غير مقطوع عنهم .

إن دعوة الحق تقوم على مستوى "البشر" ، وقد يتعذر على أفهام الناس كيف يمكن أن يتكلم بشر بلسان الله؟ ومن ثم يقابلونه بالرفض والإنكار ، بيد أن الله تعالى قد جرت سنته منذ قديم الأزل بأن يعلن أمره على لسان بشرٍ ، فمن لم يتمكن من التعرف على الكلام الإلهي الجاري على لسان الداعي متجاوزاً عن بشريته ، سوف لا يزال محروماً من الهداية في عالم الامتحان الراهن .

ولا عبرة بالإيمان بالآخرة إلا إذا صاحبه الإقرار بالتوحيد الكامل وبالإنفاق في سبيل الله ، و الذي يدرك الله حق الإدراك ، لن يعود قلبه عالقاً بأية عظمة أخرى سواه .. وكذلك فإن من يظفر بالله حقاً ، لن يبخل بماله عن الله أبداً !

وقوله ﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ يعني أخلصوا له العبادة ، أي يجب أن تكون اهتماماتكم

كلها موجهةً نحو الله وحده ، وأن يكون الله الواحد الأحد هو المرجع الوحيد لعبادتكم ودعواتكم ، وأن ينطبع تفكيركم بالطابع الإلهي الخالص . والمتحلون بهذه الصفات هم الذين سيُعطون إنعامات الله الأبدية !!

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝١٢ ﴾

أَندَاداً : أمثالاً من مخلوقاته .

رَوَاسِيَ : جبالاً ثوابت تمنعها الميدان .

وَبَارَكَ فِيهَا : كثر خيرها ومنافعها .

أَقْوَاتَهَا : أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم .

فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ : في تتمة أربعة أيام .

سَوَاءً : استوت الأربعة استواء (تمت) .

اسْتَوَى : عمد وقصد قصداً سوياً .

وَهِيَ دُخَانٌ : مكونة مما يشبه الدخان .

ائْتِيَا : افعلا ما أمرتكما به وجيئا به .

فَقَضَاهُنَّ : أحكم وأبدع خلقهن .

وَأَوْحَى : كون ، أو دبر في اليومين .

وَحِفْظاً : حفظناها حفظا من الآفات .

إن دراسة الكون تدلنا على أن خلقه تم في عدة مراحل على نحوٍ تدريجي ، والخلق التدريجي هو خلق مخطط ، وإذا كان الكون قد خلق بأسلوبٍ مخططٍ ، فلابد أن يكون هناك مخطط قام بصنعه عن قصد وإرادة حسب خطته المرسومة !، وهكذا تتواجد على سطح الأرض جبال شامخات هنا وهناك تحفظ توازنها ، وفي جنبات هذا العالم توجد الآلاف من الأنواع الحية ؛ كل نوعٍ منها يحتاج إلى رزق معينٍ ، ولكن الجميع يجد رزقه المطلوب متوافراً فيما حوله بتمام اليسر والسهولة .

ومما تدلنا عليه دراسة الكون أيضاً أن كل الأشياء كانت بدايةً في حالة مادةٍ غازية منتشرةٍ ، ثم بدأت هذه المادة بالتكثف والانكماش ، وتشكلت بالتالي بأشكالٍ مختلفةٍ ، كما يتضح لنا من دراسة الكون أن هذا الكون على اتساعه الهائل مربوط بقانون طبيعي واحدٍ ربطاً محكماً للغاية ، إن هذه المشاهدات تثبت - بما لا مرية فيه - أن خالق الكون عليم خبير، وأنه صاحب القوة والقهر والغلبة، إذن ، فهل أحد سواه ؛ يليق بالإنسان أن يتخذه إلهه ويعبده ؟ كلا .. كلا !!

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً : خوفتكم عذاباً شديداً مهلكاً .

إن مقابلة دعوة الحق بالإنكار أشنع جريمة عند الله سبحانه وتعالى ، ولئن كان هذا

الإنكار إزاء دعوة النبي ، فإن عقاب صاحبه يبدأ في هذه الدنيا ، كما حدث مع عاد وثمود وغيرهما من الأمم الغابرة ، أما لو كان الأمر يتصل بالدعاة العاديين ، فإن المنكرين سيلقون عاقبة إنكارهم الوخيمة في الآخرة .

وقد ظل المحور الرئيسي لدعوة الحق يدور دوماً حول أن يصير الإنسان عابداً لله وحده ، وأن يربط عواطف حبه وخوفه كلها بالله الواحد الأحد متخلياً عما سواه ، إلا أن الأنبياء مازالت شخصياتهم تبدو لمعاصريهم ، على اختلاف الزمان والمكان ، أقل وأهون من أن يختارهم الله - عز وجل - لإبلاغ رسالته ، ومن ثم لم يلبثوا أن قابلوا أنبياءهم بالإنكار والتكذيب !

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

رِيحاً صَرْصَراً : شديدة السموم ، أو البرد ، أو الصوت .

أَيَّام نَّحِسَاتٍ : مشؤومات ، أو ذوات غبار وتراب .

أَخْزَى : أشد إذلالا وإهانة .

فَهَدَيْنَاهُمْ : بينا لهم طريقي الضلالة والهداية .

العَذَابِ الْهُونِ : المهين .

يجد المرء نفسه في عالم ، حيث تنفي عظمة السماء والأرض كبرياءه ، وحيث تقيم حادثة الموت كل يومٍ دليلاً على ضعف الإنسان وعجزه ، ولكن المرء لا يزال يتعاظم ويزعم أنه صاحب الحول والقوة والسلطان!

وإن الله سبحانه لا يفتأ يقيِّض من حينٍ لآخر مَنْ يقوم بإعلان الحقيقة ، وهو بذلك ينقض دعاوى الكبرياء والاستعلاء من الأساس كلما رفع الإنسان عقيرته بها ، ولكن لا أحد يعتبر ما لم يتم سحقه وإبادته ، وما أطلال قوم عاد وثمود وغيرهما من الأمم الهالكة إلا أمثلة ناطقة بذلك ؛ فالأيام التي كانوا قد اعتبروها سعيدةً ومباركةً لأنفسهم، إذا بها تعود بأمرٍ من الله أياماً كلها نحس وشؤم!

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

فَهُمْ يُوزَعُونَ : يحبس سوابقهم ليلحقهم تواليهم .

تَسْتَتِرُونَ :تستخفون عند ارتكابكم الفواحش .

أَن يَشْهَدَ : مخافة أن يشهد ...

ظَنَنتُمْ : اعتقدتم عند استتاركم من الناس .

كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ : وهو ما عملتم خِفْيَةً .

أَرْدَاكُمْ : أهلككم .

مَثْوًى لَّهُمْ : محل ثواء وإقامة أبدية لهم .

وَإِن يَسْتَعْتِبُوا : يطلبوا رضا ربهم يومئذ .

مِنَ الْمُعْتَبِينَ : من المجابين إلى ما طلبوا .

لقد أخبر القرآن الكريم بأن جلد الإنسان وجوارحه مما سيشهد عليه يوم القيامة بأعماله التي مارسها في الحياة الدنيا ، وقد جاءت نظرية النطق الجلدي (skin speech) في العصر الحديث تثبت إمكان ذلك بالفعل ، حيث اكتشف الآن أن كل كلمةٍ يلفظها الإنسان ترتسم على جلده ، وبالإمكان أن يعاد استماعها من جديدٍ تماماً كما تُعاد الأصوات المسجلة بطريقة آلية .

وإن الله سبحانه لكونه لا يُرى ، يظن الإنسان أن الله تعالى هو الآخر لا يراه ، وسوء الفهم هذا هو الذي يولد الطغيان في نفس المرء ، ولو أدرك المرء أن الله يراه كل حينٍ وآن ، لتغير سلوكه تغيراً جذرياً شاملاً ...، وسيُظهر المرء الطاعة الكاملة بعد أن يتجلى الرب ذو الجلال عياناً في عالم الآخرة ، غير أنها لن تجدي عنه فتيلاً .

﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ : سببنا وهيأنا لهم .

وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ : وجب وثبت عليهم وعيد العذاب .

يتردد الإنسان في العالم الراهن بين دعاة الله من ناحيةٍ ؛ ينصحون له بالحق ، وبين

القادة المستغلين من ناحيةٍ أخرى ؛ يريدون استمالته إلى أنفسهم بمعسول كلامهم ، وإن مَنْ يقابل نصيحة دعاة الله بعدم الاكتراث واللامبالاة ، لا يلبث أن يندفع في السبل غير الحقيقة متأثراً بطنطنة أولئك القادة وأقاويلهم المزخرفة ....، وهؤلاء القادة المستغلون يلهون الناس بأحلام ماضيهم الجميلة تارةً ، وبعرض صورة خيالية براقة لغدهم المرتقب تارةً أخرى ، والذين يندفعون وراء أمثال هؤلاء القادة ، مخدوعين بألفاظهم الكاذبة ، لا ولن ينتهي بهم الأمر في نهاية المطاف إلا إلى الضياع والخسران الأبدي !

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

وَالْغَوْا فِيهِ : ائتوا باللغو والباطل عند قراءته .

فسر عبد الله بن عباس قوله ﴿ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴾ بلفظ "عيبوه" (١). أي اطعنوا في القرآن وصاحبه ، وهكذا نفَّروا الناس منه!. إن للحكم على شيءٍ أو شخصٍ ما طريقتين اثنتين : إحداهما النقد ، وثانيتهما التعييب ، أما النقد فمعناه : أن تتناول الموضوع محل النظر بالتحليل على أساسٍ من الحقائق، وأما التعييب فهو ألا يناقش المرء القضية موضوع البحث استناداً على دليل أو برهان ، وإنما يلجأ إلى افتعال المطاعن وإثارة الاعتراضات الفارغة .

وإذا كانت طريقة النقد طريقة مشروعة لا غبار عليها ، فإن طريقة التعييب هي طريقة أهل الكفر . يضاف إلى ذلك أنها إنكار لآيات الله ؛ إذْ كل دليل صادق آية من آيات الله ، والذين لا يستسلمون للدليل بل يحاولون تشويهه ولي عنقه عن طريق

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٦١ .

التعييب والاتهام ، كأنما يجحدون بآية الله ، وسيعتبر أمثال هؤلاء أهلاً لأشد ألوان العذاب وأسوأها في الآخرة !

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

الأَسْفَلِينَ : في الدرك الأسفل من النار .

اسْتَقَامُوا : على الحق اعتقاداً وعملاً وإخلاصاً

مَا تَدَّعُونَ : ما تتمنونه وتطلبونه .

نُزُلاً : رزقا أو ضيافة وتكرمة ، أو مناً .

الناس صنفان : أحدهما : هو الذي يسلم قياد نفسه إلى القادة الكاذبين من الإنس والجن ، وهؤلاء - الأتباع والمتبوعون - مع كونهم يتحابون بعضهم مع بعض في الحياة الدنيا حباً جماً ، إلا أن الوضع سينقلب في الآخرة رأساً على عقبٍ ؛ حيث ستمتلئ نفوس الأتباع بالبغض والكراهية نحو قادتهم الكاذبين أولئك ، حين يرون أنهم لم يقودوهم إلا إلى الجحيم، ويودّون بالتالي أن يطأوهم تحت أقدامهم انتقاماً وتشفّياً لصدورهم المحترقة حنقاً وغيظاً !!

وأما الصنف الآخر من الناس: فهم الذين يجعلون من الملائكة قرناءهم،وأمثال هؤلاء يجدون الملائكة جلساء لهم، يوالونهم ويؤنسون وحشتهم على طول الطريق من

الدنيا إلى تلك الدار الآخرة، والملائكة يفيضون على قلوبهم مشاعر ربانية، ويزودونهم بالأمن والسكينة والطمأنينة الداخلية عند اشتداد وطأة الظروف والأزمات،ويسوقون إليهم بشريات الله من خلال التجارب الروحانية اللطيفة السامية، ثم إن هؤلاء الملائكة هم الذين سيرحبون بهم في الآخرة أجمل ترحيبٍ ويدخلونهم في نهاية المطاف إلى الجنان الأبدية !!

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾

وَلِيٌّ حَمِيمٌ : صديق قريب يهتم لأمرك .

وَمَا يُلَقَّاهَا : ما يؤتى هذه الخصلة الشريفة .

يَنزَغَنَّكَ : يصيبنَّك . أو يصرفنَّك .

نَزْغٌ : وسوسة . أو صارف .

إن دعوة القرآن الكريم هي دعوة إلى الله ، إن ربط صلة الإنسان بربه ، وتربية الإنسان على أن يعيش في ذكر الله ومراقبته الدائمة ، وإيقاظ هذا الوعي في نفس الإنسان بأن يتخذ من الله الواحد الأحد مركزاً لاهتمامه وتوجهاته ، ذلك هو الهدف الرئيسي الذي تنشده الدعوة القرآنية ، وليس هناك بالطبع دعوة أحسن من هذه.

غير أنه لن يوفق ليكون داعي الله حقاً إلا الذي تبلغ به الجدية في دعوته حداً يكون معه قد سبق إلى الإيمان بما يبغي من الآخرين أن يؤمنوا به، والذي يكون قد صار أول

عامل بها يدعو الآخرين إلى العمل به . وأكبر سلاحٍ يملكه الداعي هو أن يُحسن دائماً سلوكه ومعاملته مع الناس ، حتى ولو عامله الآخرون بالسوء ، وأن يقف تجاه حملات الإثارة والاستفزاز موقف الإعراض ، ويقابل أذى المعارضين بالصبر، ولقد أودع الله تعالى في السلوك الحسن قوةً تسخيرية جبارة ، والداعي إلى الله يكون خبيراً بفطرة الله هذه ، وهو بالتالي يستعملها إلى أقصى حدٍ مستطاعٍ ، مهما اضطره ذلك إلى أن يكظم غيظه ، ويدوس عواطفه المشتعلة ، وأن يئد الانفعالات وردود الفعل السلبية ساعة تولد في داخله !

وطالما خطر ببال الداعي أنه لابد من الرد على الأمر الفلاني ، أو أنه لابد من اتخاذ الخطوة الرادعة ضد الاعتداء الفلاني وإلا ازداد الطرف المعادي جراءةً على العدوان والاضطهاد ، فينبغي له أن يتفطن إلى أن هذا من وساوس الشيطان ونزغاته ، ويجب على المؤمن والداعي أن يستعيذ بالله من أمثال هذه الخواطر والنزغات الشيطانية دون أن يندفع وراءها بدون رويةٍ ولا تبصرٍ !!

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾

لا يَسْأَمُونَ : لا يملون التسبيح .

أكبر ضلال يقع فيه الإنسان يتمثل في عبوديته للظواهر ، فمنذ أن بدت الشمس والقمر والنجوم اللامعة أبرز شيءٍ في الوجود لإنسان العصر القديم ، لم يلبث أن اعتبرها آلهةً وأخذ في عبادتها و تقديسها ، أما في عصرنا الحديث فإن بريق الحضارة المادية هو الذي يبهر الأبصار ويبدو للناس أبرز من كل شيءٍ ، ومن هنا فقد أحلّوا

الحضارة المادية اليوم المكان نفسه الذي كانت تحتله الشمس والقمر قديم الزمان ، على حين أن كل المظاهر ، لا تخرج عن كونها مخلوقات الله ، إذن ، فينبغي على الإنسان أن يتوجه بالعبادة والتعظيم إلى الخالق وليس إلى مخلوقاته!! ، وإن استكبار المستكبرين لا يكون بإزاء الدعوة ، وإنما يكون دوْماً بالقياس إلى الداعي ، حيث يبدو الداعي لكبار عصره أصغر منهم في ظاهر الأمر ، مما يجعلهم يستصغرونه هو ورسالته معاً !!

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

الأَرْضَ خَاشِعَةً : يابسة متطامنة جدبة .

اهْتَزَّتْ : تحركت بالنبات .

وَرَبَتْ : انتفخت وعلت .

يُلْحِدُونَ : يميلون عن الحق والاستقامة.

إن نزول المطر على الأرض اليابسة الجرداء وما يتبعه من خروج النبات الأخضر والثمار والأزهار ، من الظواهر التي تتكرر أمام أبصار كل إنسان بين الحين والحين. إنها تمثيل مادي لحقيقة معنوية ، فمن خلالها يتم إشعار الإنسان بأن الله قد هيّأ هنا أسباباً واسعة النطاق لإخصاب وجوده اليابس وتجديد حيويته ، وإنه إذْ يسمح تراب الأرض للماء بالنفوذ إلى أعماقها ، يمكن حينئذٍ فقط أن يتسبب المطر في اكتساء جنباتها بالخضرة والنضارة والجمال.. وهكذا فلو أن الإنسان سمح لهداية الله بالنفوذ إلى أعماقه، لازدهر وجوده بفضل الهداية، والسبب الأكبر في عدم الانتفاع بهداية الله يرجع إلى

كون الإنسان يلحد في أحاديث الله ، فحين يُعرض عليه بعض التوجيهات الإلهية لا يأخذه بمعناه الواضح المستقيم ، وإنما يلوي عنقه ويبغيه عوجاً ، ومن هنا لا يكاد التوجيه الإلهي يكون جزءاً من صميم فكره ، ولا يعود يغذي قلبه وروحه أي غذاءٍ .. وإن للذين يتلقون التوجيه الإلهي بالقبول من غير لفٍ ولا دورانٍ ، نعيمَ الجنة الأبدي. أما الذين يبغون عوجاً ويحيدون عن مدلوله القريب المستقيم، فإن لهم عذاب جهنم الأبدي !!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ (٤١) لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) ﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ : خبر "إن" تقديره " لا يخفون علينا" أو "هالكون" .

إن القرآن كتاب عزيز منيع الجانب ، ودليل كونه عزيزاً أن الباطل لا يمكنه أن يتطرق إليه، وليس هناك من سبيل إلى التدخل فيه من أية جهةٍ ، ولا يُستطاع إدخال أي نوعٍ من الفساد عليه بطريقٍ مباشرٍ أو غير مباشرٍ !

إنها نبوءة غير عادية للغاية ، ولكي تتحقق هذه النبوءة لابد من استمرار وجود أمة قوية تحمل القرآن ما دامت السماوات والأرض ، وألا يظهر تناقض ما أو عدم تطابق بوجهٍ من الوجوه بين مضامينه وبين ما صح من تعاليم الأنبياء السابقين أبداً ، وألا يتمكن أحد من الرد على تحدي القرآن بإصدار كلامٍ من طرازه أبداً ، وألا يكشف تقدم العلوم عن أية أخطاء علمية فيه ، وألا يؤثر عليه ما يمر به التاريخ من أحداث المد والجزر أيما تأثيرٍ ، وأن تبقى لغة القرآن (العربية) دوماً لغة حية خالدة !

إن تاريخ ما بعد نزول القرآن الممتد على قرون طويلةٍ ، ليشهد بأن كل هذه الأسباب

لم تزل مجتمعةً في صالحه على نحوٍ مدهشٍ ، وإن تضافر هذه الوقائع مجتمعةً أمر نادر فذ لدرجة أنه لم يحدث قط أن ظلت متضافرة في صالح أي كتاب آخر غير القرآن لمدة خمسة عشر قرناً من الزمان ، ويكفي ذلك دليلاً على أن القرآن كتاب الله .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) ﴾

قُرْآناً أَعْجَمِياً : بلغة العجم كما اقترحوا .

لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ : هلا بينت آياته بلسان نعرفه .

أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ : أقرآن أعجمي ورسول عربي .

آذَانِهِمْ وَقْرٌ : صمم مانع من سماعه .

وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى : ظلمة وشبهة مستولية عليهم .

لما نزل القرآن باللغة العربية اندفع المعارضون قائلين : ليس من العسير على محمد أن يعرض كتاباً باللغة العربية، حيث إنها هي لغته الأم ، ولو كان نبياً حقاً ، لفوجئنا به وهو يتكلم بتأييدٍ من الله بإحدى اللغات الأجنبية !!

إن أقاويل كهذه إنما يرددها دائماً أناس غير جادين، والإنسان غير الجاد ليس إلى إقناعه أو إسكات لسانه من سبيل ، فمثلاً لو جاء النبي إلى العرب وأخذ يحدثهم باليونانية أو السريانية أو الفارسية ... إلخ ، لاعترضوا عندها قائلين : ما بال هذا النبي، جاء فيما يزعم لهداية الناس إلى الحق وها هو ذا يخاطبهم بلغةٍ لا يقدرون على فهمها!؟

الحقيقة هي أن الحق إنما يوفق لتلقيه بالقبول أولئك وحدهم الذين يأخذون أمر

الحق بمأخذ الجد ، أما الذين ليسوا بجادين في أمر الحق ، فإنهم لا يتمكنون حتى من استيعاب أبسط الأقوال وأوضحها لفظاً ومعنىً ، ومثلهم كمثل شخصٍ يُنادى من مكانٍ بعيدٍ جداً ، فإنه ربما يسمع شيئاً من الصوت ، غير أنه سيبقى محروماً من فهم المراد الحقيقي من النداء الموجه إليه!

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

مُرِيبٍ : مُوقِع في الريبة والقلق .

لما انكشف الصدق الإلهي على يد الأنبياء السابقين صار الناس بين مؤمن به ومنكرٍ له ، وقد حدث الشيء نفسه عندما بُعث نبي آخر الزمان - ﷺ.

لماذا يقف البشر تجاه الصدق الإلهي هذا الموقف الخلافي؟ إن السبب في ذلك يرجع إلى حالة الامتحان الراهنة .. فكلما يظهر الصدق في عالم الامتحان الراهن ، يصحبه نوعٍ من الحجاب بالضرورة ، وبالتالي لا يلبث الناس أن تتعلق أبصارهم بهذا الحجاب، وأن الحجاب الذي كان عليهم أن يمزقوه لكي يروا الصدق المستتر وراءه في أجلي صوره ، إذا بهم يتخذون منه مبعث الشك والارتياب !.

غير أن هذا الشك والارتياب لن يكون عذراً لأحد الناس يوم تقوم الساعة ، فإنه إنما يقوم دليلاً على أن الإنسان لم يكن جاداً بشأن الحق، وإن الإنسان إذْ يكون جاداً تمام الجدية بشأن مصالحه الدنيوية ، فسرعان ما يتوصل إلى حقيقتها باختراق كل الحجب والأقنعة .. وهكذا فلو أنه صار جاداً فيما يتصل بمصالح أخراه ، لرأى الحقيقة عاريةً سافرةً ، مخترقاً كل حجب الشك والريب المسدولة على وجهها!!

﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ﴾

أَكْمَامِهَا : أوعيتها .

آذَنَّاكَ : أخبرناك وأعلمناك .

مَّحِيصٍ : مهرب ومفر من العذاب .

إن انبثاق عالم الآخرة من خلال العالم الراهن واقع أشبه ما يكون في طبيعته بخروج ثمرةٍ من شجرها ، أو تولد كائن حي من بطن الأم .. فما هو الثمر ؟ إنه تحول اللاثمر إلى الثمر ! وما هو الإنسان ؟ إنه اتخاذ اللاإنسان شكل الإنسان!. وهكذا شأن الآخرة تماماً ، فالآخرة بدورها ليست سوى اسمٍ آخر لاستحالة اللاآخرة إلى الآخرة ، والنوع الأول من التحول يقع تحت سمعنا وبصرنا كل اليوم ، إذاً فأي شيءٍ يدعو إلى استبعاد حدوث واقعةٍ مماثلةٍ من النوع نفسه ، وهي تحول العالم الراهن إلى الآخرة !؟

إن يوم الآخرة سيكون يوم ظهور الحقائق في أجلى صورها ، وإذا جاء ذلك اليوم الرهيب فسوف تنهار كل الدعائم والأسس الكاذبة ، تلك التي كان الناس قد أقاموا بنيان حياتهم عليها في العالم الراهن!!

﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

لَا يَسْأَمُ الإِنسَانُ :لا يمل ولا يفتر .

دُعَاءِ الخَيْرِ : طلبه العافية والسعة في النعمة .

فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ : من فضل الله ورحمته .

هَذَا لِي : هذا حقي أستحقه بعملي .

عَذَابٍ غَلِيظٍ : شديد لا يفتر عنهم .

إن لحظة المصيبة تكون بالنسبة إلى الإنسان لحظة اكتشافه نفسه ، ومن ثم فإنه لا يكاد يتعرض للمصيبة حتى يذهل عن العناد والتعنت ، ويأخذ في ذكر الله والتضرع إليه ، وعندها يدرك أنه عبد وأن الله هو معبوده .

ولكنه سرعان ما ينسى حالته السابقة فيما إذا أذهب الله عنه المصيبة ، وأنعم عليه بالعافية والرخاء ، حيث إنه يرد النعمة المتاحة له إلى الأسباب الظاهرة ، وينظر إليها على أنها ثمرة تدبيره ومؤهلاته هو ، وتعود نفسيته كما لو أن الحياة إنما هي هذه الحياة الدنيا ، وليس وراءها بعث ولا نشور ولا مثول أمام المحكمة الإلهية . ويضاف إلى ذلك أن رخاءه يوقعه في سوء فهم وغرور قائل : إنني لما كنت هنا حسن الحال ، فلابد أن يكون حالي حسناً في العالم الآتي كذلك !!

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾

وَنَأَى بِجَانِبِهِ : تباعد عن الشكر بكليته وتكبر .

دُعَاءٍ عَرِيضٍ : كثير مستمر .

أَرَأَيْتُمْ : أخبروني .

إنما يُعطى الإنسان النعمة لكي يشكر الله باعتبارها هبةً منه تعالى وفضلاً ، ولكن الإنسان حين يظفر بالنعمة يتمرد ويطغى . أما إذا تعرض لألمٍ أو شدةٍ ، فلا يلبث حينئذٍ أن يدعو الله في ضراعةٍ وابتهالٍ ، غير أن الدعاء القسري كهذا لا قيمة له عند الله تعالى ، وإنما يجمل بالإنسان أن يخضع لربه ويدعوه عند الرخاء والنعمة تماماً كما يدعوه ويخضع له في أوان الشدة والألم !

وإن نفسية الإنسان هذه هي التي تبعثه على إنكار الحق ، فالحق لا يُرغم أحداً على القبول ، و إنما هو ينشد التسليم أو الإذعان الاختياري ، ومن ثم فإن الذين لا تنطوي قلوبهم على عنصر الإذعان الاختياري ، يُهملون الحق الذي لا يؤدي إهماله في ظاهر الأمر إلى تعرضهم لأية كارثةٍ أو خسارة فادحة عاجلة!!

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾

ٱلْءَافَاقِ : أقطار السموات والأرض .

مِرْيَةٍ : شك عظيم .

إن قصة كل من برز من عظماء الناس ومن العباقرة في أنحاء العالم قديماً وحديثاً ، إنما هي قصة الحال – أي منحصرة في حدود شخصه وزمانه لم تتعداها – وليست قصة أحدٍ منهم قصة المستقبل ، فإن مستقبل أي واحدٍ منهم لم يكد أن يكون مصدقاً بما كان عليه حاله ، بل جاء بالأحرى مكذباً في الأعم الأغلب . وفي عالمٍ كهذا ، فوجئ الناس منذ خمسة عشر قرناً مضت ، بنبوءةٍ تقرر أن أحداث المستقبل ، وكل الحقائق والأسرار

التي ستنكشف للإنسان عبر القرون التالية لنزول القرآن ، ستأتي كلها مصدقةً بالقرآن الكريم ....، وأن القرآن سوف لا يبقى محتفظاً بصدقة وحقيقته في كل عصر لاحق فحسب ، وإنما سيزيده وضوحاً وبرهنةً وتوثيقاً على مر الأيام ، وإنه بذلك سيظل دوْماً كتاب الساعة ، لا تنقضي عجائبه ولا تبلى جدته أبد الدهر !!

وقد تحققت هذه النبوءة حرفاً حرفاً وبصورةٍ تدعو إلى الدهشة والإكبار ، فما برحت الكشوف العلمية ، والأحداث التاريخية ، والانقلابات الزمانية تتضافر في صالحه، بحيث تجد اليوم حتى الباحثين من غير المسلمين يشهدون صراحةً بأن القرآن ، بما يمتاز به من خصوصيات فريدةٍ ، دليل في نفسه على أنه كتاب منزل من عند الله، إذْ لا يمكن أن تتوافر مثل هذه الخصوصيات الأبدية الفذة في أي تأليفٍ بشريٍ !

وإن الذين لا يسلمون بصدق القرآن على الرغم من هذه الحقيقة الصارخة ، فإنما هم يثبتون أن نفسيتهم الخالية من الخوف قد جعلتهم غير جادين ، فإن موقفاً غير معقولٍ كهذا لن يصدر إلا من الإنسان غير الجاد الذي يرى الشواهد الواضحة الجلية رأي العين ، ولا يتناولها بالإقرار والتسليم !!

سورة الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾ ﴾

يَتَفَطَّرْنَ : يتشققن من عظمته تعالى وجلاله .

أَوْلِيَاءَ : معبودات يزعمون نصرتها لهم .

الله حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ : رقيب على أعمالهم ومجازيهم .

بِوَكِيلٍ : بموكول إليك أمرهم .

لو أن المرء أتيح له بصر غير محدود ، فسوف يلاحظ أن هناك إلهاً هو مالك السماوات والأرض بما فيهن ، وقوته هائلة لدرجة أن الكون يكاد ينفطر ويتصدع من استشعار هيبته وجلاله ، والملائكة ، الذين هم على علمٍ مباشرٍ بألوهية الله – جل جلاله– لا تفتأ ألسنتهم تلهج بحمده وتسبيحه كل لحظة ، غارقين في الخشية الإلهية ، ثم إنه سيلاحظ أن الله – عز وجل – يختار بمشيئته وقدرته الخاصة بعض البشر ويوصل إليهم كلامه على نحوٍ غير مباشرٍ، لكي يقوموا بإخبار الناس أجمعين بالحقيقة الواقعة .

وإن الإنسان ، وإن كان لا يرى هذه الحقائق بصورة مباشرةٍ ، إلا أنه يستطيع أن يدركها عن طريق العقل بصورةٍ غير مباشرةٍ ، وهذا هو امتحان المرء الحقيقي ، فالمسئولية الملقاة على عاتق الإنسان أن يرى بعين بصيرته الأشياء التي لا يراها ببصره ، ويسمع صوت الله في كلام الأنبياء ، فيأخذ نفسه بالخضوع والإذعان إليه ، وأن يؤمن بالغيب إيماناً كما لو أنه يرى كل شيءٍ رأي العين !!

وإن أحداً لن يُعذر يوم القيامة بالنظر إلى أنه لم يكن قد رأى الحقيقة مباشرةً ، إذْ أن رؤية الحقيقة مباشرةً غير مطلوبة أصلاً في عالمنا الراهن ، فلئن وصلت الرسالة الجوهرية إلى شخصٍ ما على أتم الوجوه وأكملها ، فإن حجة الله تقوم عليه بعدئذٍ ، وإن انكشاف الحقيقية عليه بلغة الدليل وحده كافٍ لكي يُدان ذلك الشخص بجريمة إنكار الحق ، ويعاقب بالتالي بالعقوبة المقدرة لمنكري الحق أمثاله !

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾

أُمَّ القُرَى : مكة : أي أهلها .

يَوْمَ الجَمْعِ: يوم القيامة لاجتماع الخلائق فيه .

الهدف الرئيسي الذي تنشده دعوة الرسول هو أن يتم إعلام البشر كافةً بأنهم سيحضرون آخر الأمر بين يدي الله ، حيث يُجزى الكل ، حسب عمله في الحياة الدنيا ؛ إما بالجنة الأبدية أو الجحيم الأبدي !.

ولقد بعث رسول الله – ﷺ– لأجل إعلام البشرية جمعاء بهذه الحقيقة نفسها. وقد كانت بعثته – عليه الصلاة والسلام – ذات مرحلتين : مباشرة وغير مباشرة .

أما بعثته المباشرة فقد كانت إلى مكة وما حولها من القرى والبلاد ، وقد قام – عليه

الصلاة والسلام - بإكمال هذه المرحلة في حياته قبل رحيله إلى الرفيق الأعلى ..

وأما بعثته غير المباشرة فهي للعالم أجمع بواسطة أمته ، وبعثته الثانية هذه مازالت مستمرةً - ولا تزال - إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وقد عرض رسول الله ﷺ رسالته على العرب باللغة العربية ، وإن الأمة المحمدية بدورها مطالبة بأن تسير على هذا المبدأ ذاته ، وهي تؤدي وظيفتها الدعوية بالنيابة عنه - عليه الصلاة والسلام - بحيث تقوم بإبلاغ رسالة الحق إلى كل أمةٍ بلغتها ، فإنه لا يتسنى الوفاء بحق التبليغ بالنسبة إلى أمةٍ ما ، ما لم يتم إيصال رسالة الحق إليها بلغتها هي !!

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾

وَإِلَيْهِ أُنِيبُ : إليه أرجع في كل الأمور .

لقد فتح الله للإنسان باباً إلى رحمةٍ غير عادية لم يفتحه لأحدٍ سواه ، وهو أن يختار هداية الله بمحض إرادته هو ، فيعود بالتالي أهلاً لإنعام الله غير العادي ، وما اختيار الناس طرقاً مختلفة الاتجاهات في الحياة إلا نتيجة هذه الحرية نفسها ، وهذا الاختلاف وإن كان أمراً غير مستحسنٍ ، إلا أنه ليس ثمة إلى انتخاب ذلك الإنسان الغالي الثمين من سبيل آخر غير هذا .

وإن الله سبحانه مع كونه خلق الإنسان حراً مختاراً ، إلا أنه أودع لهداية الإنسان في نفسه وفيما حوله من الدوافع والأسباب الكثيرة ما يجعل المرء لا يتجه نحو الطريق الخاطئ أبداً، فيما لو كان جاداً حق الجدية ، والذين يتجهون نحو الطريق الخاطئ هم

ظالمون ، وإنهم لن يعتبروا عند الله أهلاً للعفو والمغفرة البتةَ !

﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

فَاطِرُ : مبدع ومخترع .

مِنْ أَنفُسِكُمْ : حلائل .

وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً : أصنافا ذكوراً وإناثاً .

يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ : يكثركم بسبب هذا التزويج .

لَهُ مَقَالِيدُ : مفاتيح وخزائن .

وَيَقْدِرُ : يضيقه على من يشاء بحكمته .

إنها لواقعة عظيمة ، هذه التي نشهدها أمامنا بشكل السماء والأرض ؛ لدرجة لا يتصور معها أن يكون قد أوجدها إله من تلك الآلهة التي يُعظّمها الناس ويقدسونها من دون الله ، وهكذا نظام التوالد والتناسل لدى البشر والحيوانات يبلغ من الدقة والتعقيد حداً لا يمكن معه أن يُنسب بحقٍ إلى أحد الناس ولا أحد الآلهة التي يعبدها الناس من دون الله سبحانه وتعالى .

وصفات الخالق تلك التي ندركها عن طريق مشاهدة مخلوقاته ، كافية في حد ذاتها لإثبات مدى عظمة هذا الخالق ، فهو سميع وبصير ، وهو مالك لكل أنواع القوة والقدرة والاختيار الأعلى ، وأن كل ما يناله شخص ما فإنما يناله بعطاءٍ منه تعالى ، وما ينتزع منه فإنما ينتزع بانتزاعه تعالى . وهو تعالى لا ندّ له ولا نظير في ذاته ولا في صفاته ،

وليس كمثله شيء !!

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾

شَرَعَ لَكُم : بين وسن لكم طريقاً واضحاً .

مَا وَصَّى : ما أمر به وألزم .

أَقِيمُوا الدِّينَ : دين التوحيد ، وهو دين الإسلام.

كَبُرَ : عظم وشق .

يَجْتَبِي : يختار ويصطفي لدينه .

يُنِيبُ : يرجع إليه ويقبل على طاعته .

لقد جاء كل الأنبياء – على اختلاف الزمان والمكان – بدين واحدٍ ليس غير ، ألا وهو دين التوحيد ، ولكن أتباع أولئكم الأنبياء والمرسلين لم يلبثوا أن انقسموا إلى فرقٍ دينيةٍ شتى فيما بعد . وكان السبب في ذلك يرجع إلى تغير مركز الاهتمام ، فقد كان الله هو مركز الاهتمام الرئيسي في الدين الذين جاء به الأنبياء الكرام ، إذْ كانت دعوة الجميع أن اعبدوا الله الواحد الأحد ، ولا تشركوا في عبادته شيئاً ، غير أن أممهم ما لبثت أن غيرت مركز اهتمامها فيما بعد حيث صارت عابدةً لغير الله بدلاً من عبادة الله وحده!.

إن الدين الذي يطلبه الله سبحانه من عباده إنما يتلخص في أن يتمسكوا بالتوحيد الخالص ، وأن يصير الله الواحد هو مركز اهتمام الجميع ، وهذا هو إقامة الدين . وأما الشرك فهو الاسم الآخر لتغيير مركز الاهتمام هذا ، وحين يتسرب الشرك إلى الناس

فسرعان ما ينشب بينهم الاختلاف والفرقة ؛ ذلك لأن مركز اهتمام الجميع يبقى واحداً ما دام التوحيد هو السائد ، بينما تتعدد مراكز الاهتمام عندما يحل الشرك محل التوحيد .

ودين النبي العربي - ﷺ- وإن كان ديناً محفوظاً من حيث متنه السماوي ، إلا أن أمته ليست أمة محفوظة (معصومة) ، فلا تزال الفرصة مفتوحة أمام أفرادها لكي يجعلوا من الأشياء الجديدة مركز اهتمامهم ، ويُدخلوا على الدين الأصيل ألوان التغييرات أو التعديلات عن طريق تفسيره وتأويله المزعوم ، ويحيلوا بالتالي الدين الواحد عملياً إلى أديان ومذاهب عديدةٍ !!

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ (١٤) ﴾

بَغْياً بَيْنَهُمْ : عداوة أو طلبًا للدنيا .

مُرِيبٍ : موقع في الريبة والقلق .

التفرق بعد مجيء العلم معناه أن ترتفع دعوة الدين الحق ، ويبقى المرء ، مع ذلك ، بمعزلٍ عنها ، أو يقف في وجهها معارضاً . لقد أبرز الله - سبحانه وتعالى - حقيقة الدين بواسطة رسوله الأخير في صورتها الخالصة النقية .. ومن هنا فقد كان ينبغي لجميع طلاب رضا الله أن ينضوا تحت رايته - عليه الصلاة والسلام - غير أنهم لم يستعدوا للانضواء تحت الراية المحمدية ؛ ذلك بأنهم كانوا بعزْو أنفسهم إلى الأنبياء السابقين يحتلون مركز التدين بين الناس ، فظنوا أن في هذا كفاية ، وأنهم في غنى عن أي رسولٍ أو رسالةٍ جديدةٍ بينما يتحتم على الناس كافة ، إذا ما ارتفعت دعوة الدين الصحيح الخالص ، أن يحطموا قوقعاتهم ، ويربطوا أنفسهم بالدين الصحيح

الخالص ....، وأما الذين لا يفعلون ذلك فإنهم مجرمون عند الله ، سواء كانوا غير متدينين أصلاً أو متدينين في ظاهر الأمر .

ومن الناس من ينكر دعوة الدين الحق إذا ارتفعت ، بدافع "البغي" بينما يبتعد بعضهم عنها بناءً على الشك والارتياب . والمراد بالبغي هو الحسد والتكبر ، وهو شأن أولئك الذين يتمتعون بمقام الكبرياء والسيادة في المجتمع ، والاعتراف بالحق يضطر هؤلاء إلى النزول عن مقام الكبرياء ، وحيث إنهم لا يرضون بتصغير أنفسهم ، ينصرف اهتمامهم نحو تصغير دعوة الحق تبريراً لموقفهم .

وأما الشك والتردد فحالة تعتري غالباً العوام من الناس ، فهؤلاء وإن كانوا يريدون كلام الداعي الخطير والمؤثر على مستوى الدليل ، إلا أنه يصعب عليهم أن يتخلوا عن أكابرهم أولئك الذين تكون عظمتهم قد استولت على أذهانهم بصورةٍ مسبقةٍ ، ويقف هذا المطلب المزدوج عائقاً دون توصلهم إلى قرارٍ حاسم ، فإذا كان الفريق الأول قد أهمل الحق تحت عوامل الحقد والتكبر ، فإن الفريق الأخير لا يتمكن من اختياره تحت عوامل الحيرة، وبالتالي يظل هذا وهذا محروماً من قبول الحق واعتناقه .

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾

بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ : عداوة : أو طلبًا للدنيا .

مُرِيبٍ : موقع في الريبة والقلق .

المراد بالكتاب هنا هو الدين الأصلي الذي جاء به الأنبياء والمرسلون ، وأما "الأهواء" فالمراد بها تلك الإضافات المزعومة التي أدخلها الناس من عند أنفسهم على الدين الحق ، وقد أمر الله رسوله بأن اثبت واستقم على الدين الأصلي وحده ، ولا يجوز بحالٍ من الأحوال أن تلين قناتك بالنسبة إلى دين الناس المزعوم أو تميل إلى التواؤم معه حتى ولو بالنظر إلى أية مصالح دعوية، فإن الواجب المنوط بك أساساً هو إقامة العدل، أي الفصل في الخلافات الدينية، والإبانة عن حقيقة الحق وحقيقة الباطل ، وتمييز الجزء الذي جاء من عند الله من الجزء الذي تم إقحامه في الدين نتيجة التحريفات البشرية .

وقوله : ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ يعني أننا لن نخوض معكم في خصامٍ حتى ولو تخاصمتم معنا ، وإننا سنظل متمسكين بمسلكنا الإيجابي من طرفٍ واحدٍ ، وإن اتخذتم إزاءنا موقفاً سلبياً ، إن مسئولية الداعي إنما تتمثل في إبلاغ رسالة الحق وحده ، أما ما عدا ذلك من أمورٍ ، فإنه يفوضها كلها إلى الله عز وجل . وإن اللجاج بالباطل وإثارة الجدل المغرض بغية إحراج أولئك الذين استجابت قلوبهم للحق ، عملية منكرة جائرة للغاية ، وإن أصحابها يعرضون أنفسهم لخطر أن يحل عليهم غضب الله ، والعذاب الشديد في الآخرة !!

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

وَالْمِيزَانَ : العدل والتسوية في الحقوق .

مُشْفِقُونَ مِنْهَا : خائفون منها مع اعتنائهم بها .

يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ : يجادلون أو يشكون فيه .

كما يكون هناك ميزان توزن به الأشياء المادية ، كذلك أنزل الله - سبحانه وتعالى- كتابه ميزاناً توزن به الحقائق المعنوية ، إن كتاب الله هو محك التمييز بين الحق والباطل ، فكل شيءٍ آخر ، كائناً ما كان ، يجب أن يتم فحصه واختباره بمعيار الكتاب الإلهي وليس بالعكس .

وإن الذين وقفوا من الرسول في عصره موقف المعارضة ، إنما كان خطؤهم يكمن في أنهم كانوا ينظرون إلى كتاب الله في ضوء الدين الذي تكوّن لديهم من تقاليدهم القومية الرائجة ، وما أثر عن أكابرهم من أقوالٍ وأفعالٍ ، بينما كان ينبغي لهم أن ينظروا إلى التقاليد القومية وأقوال الصالحين وأفعالهم المأثورة في ضوء كتاب الله ، وأن يأخذوا منها ما يتفق كتاب الله ، ويدعوا ما لا يتفق مع كتاب الله .

وإن المرء هو المسئول عن القيام بعملية النظر والفحص والاختبار هذه في العالم الراهن، وسيتم إنجاز هذه العملية في الآخرة من جانب الله - سبحانه وتعالى - على وجهٍ أكمل وأشمل، والعاقل هو الذي يزن نفسه قبل أن يوزن في يوم القيامة ؛ لأن الوزن يومئذٍ سيكون للقضاء الأخير ، وليس لإعطاء فرصة العمل !

﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

الله لَطِيفٌ : برٌّ رفيق بهم .

حَرْثَ الآخِرَةِ : ثوابها الموعود. أو العمل لها .

إن الحياة الدنيا لأجل الامتحان ، حيث يتاح لكل امرئ هنا من الأسباب والوسائل بقدر ما هو ضروري ولازم للامتحان، والآن فإن من يكون محباً للآخرة ، سيستعمل

أسباب الدنيا الراهنة لبناء الآخرة ، وسيلقى بالتالي جزاءه في الآخرة بشكل مضاعف.

وعلى نقيضٍ من ذلك فإن من يكون محباً للدنيا فسيعمل آخذاً في اعتباره مطالب الحياة الراهنة وحدها، ومثل هذا الشخص يمكنه بالطبع أن يجني ثمار جهده في العالم الحالي ، غير أنه سيظل محروماً في الآخرة كل الحرمان فإنه إذا لم يكن قد عمل شيئاً يذكر لأجل الآخرة ، فيكف يمكن أن يُعطى شيئاً من نعيم الآخرة ؟!

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

كَلِمَةُ الفَصْلِ : الحكم بتأخير العذاب للآخرة .

رَوْضَاتِ الجَنَّاتِ : محاسنها وملاذها أو أطيب بقاعها وأنزهها .

يَقْتَرِفْ حَسَنَةً : يكتسب طاعة .

إن شيئاً ما إذا لم يثبت من كتاب الله ، ولكن المرء يصر مع ذلك على كونه صواباً ، فمعنى ذلك أنه يتخذ من الآخرين أنداداً لله ، وأنه يعطي الآخرين دون الله الحق في أن يضعوا للناس دينهم!!

وهذا أمر بالغ الخطورة ، إذ الحقيقة أن تقرير أمر ما من أمور "الدين" ليس إلا من حق الله وحده ، وإن إعطاء هذا الحق لأحدٍ سواه هو الشرك الصريح . والشرك جريمة

لا تُغتفر عند الله على أية حال .

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ لقد تم تلقين الرسول - ﷺ- هذا القول عندما كانت قبيلته قريش تزرع شتى العقبات والعراقيل في طريق دعوته، وفي ظل ظروف قاسية إذا أبيتم قبول الدين الذي جئتكم به ، فلتكفوا أذاكم مراعاةً للقرابة ، ولو كان ثمة بيني وبينكم خلاف ديني،فلا يجرنكم هذا الخلاف إلى الانحطاط حتى عن مستوى الشرف والمروءة والأخلاق .. وهكذا فكأنما تم إشعار المعارضين لرسول الله بأسلوبٍ غير مباشرٍ ، بأنهم ليسوا معارضين فقط ، وإنما هم مجرمون أيضاً ، حيث إنهم يثبتون كون أنفسهم على خطأ وضلالٍ على المستوى الأخلاقي الذي له أهمية لا تنكر حتى في أنظارهم كذلك!

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

إن من سنة الله في هذا العالم أن يتجلى الحق هنا بصورة الحق ، ويظهر الباطل في مظهر الباطل ، فإن كانت هناك روح كاذبة ، فلن يصدر منها كلام صادق أبداً ، وهذا هو السر في أنه لا يمكن هنا لغير النبي أن يتكلم بلسان النبي ، فلو أن شخصاً جاء يزعم أنه نبي وما هو بنبيٍ ، لاصطبغ كلامه بالضرورة بطابع النبي الكاذب ، إذْ ليس في مقدور أحدٍ ، كائناً من كان ، أن يتكلم بأسلوبِ النبي الصادق على نحوِ مصطنع أبداً .

وقوله : ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ معناه : لو أنك افتريت على الله كذباً لختم على قلبك ، ولعاد لسانك عندئذٍ عاجزاً عن إصدار ذلك الكلام الرباني المقدس الذي

يمثل كلامك نموذجاً حياً له. والحقيقة هي أن كلام الرسول الأسمى دليل في نفسه على كونه رسول الله ، ولو أنه لم يكن رسول الله حقاً ، لما صدر مثل هذا الكلام الرفيع الأسمى من لسانه أبداً !

والذين يعارضون الحق ، لا يفعلون ذلك استجابةً لنداء قلوبهم ، وإنما يتصدون لمعارضته تلبيةً لدواعي العناد والتمرد ليس غير، ويصح القول أن أمثال هؤلاء يصيرون بذلك مجرمين أمام محكمة ضمائرهم نفسها ، ومن ثم فقد قامت عليهم حجة الله بالفعل ، ولم يعد لهم عذر ، اللهم إلا أن يبادروا بالتوبة والرجوع عما هم فيه من ضلالةٍ ، ويتضرعوا إلى الله تعالى سائلين إياه العفو والمغفرة لذنوبهم !!

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

لَبَغَوْا : لطغوا وتجبروا ، أو لتظالموا.

يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ : بتقدير حكيم محكم .

قَنَطُوا : يأسوا من نزوله

بَثَّ فِيهِمَا : فرق ونشر فيهما .

إن حياة البشر فوق الأرض تتوقف على الماء، ولكن الماء بكليته في قبضة الله – سبحانه وتعالى – فلو أن الله لم يتفضل بتوفير الماء ، لما استطاع الإنسان أن يحصل الماء أو يوجده من عند نفسه ، وهكذا فإن الرزق هو الآخر يتم تقسيمه من عند الله ، وفي هذا

التقسيم ينظر الله سبحانه إلى استعداد الإنسان وكفايته ، فيعطي كلاً بقدر كفايته واستعداده، ولو صار الناس يُعطون أكثر من أقدارهم واستعداداتهم ، لعادوا كلهم طغاةً بغاةً ، ولملئت الأرض بالتالي جوراً وفساداً وظلماً وعدواناً .

وإننا نشاهد أن فلاحاً حين يبذر الحبوب في مزرعته ، فهو يقدر أيضاً على جمع تلك الحبوب متى يشاء، وهذه المشاهدة الإنسانية قرينة تدلنا على أن الله سبحانه قادر كذلك على جمع مخلوقاته المبثوثة في أرجاء الوجود واستحضارها أمام محكمته ، ليتم تحديد مصائر العباد النهائية هناك على صعيدٍ واحدٍ ، فإن الخالق الذي كان بإمكانه أن يبث الخلائق بعد إيجادها ، كيف سيعود مستحيلاً عليه أن يجمعها ويستحضرها من جديدٍ بعد الموت ؟!

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ۝ ﴾

بِمُعْجِزِينَ : بفائتين من العذاب بالهرب .

لقد أنشئ العالم الراهن تبعاً لقانون السببية ، فحين يتعرض المرء هنا لمصيبةٍ ما ، فإنها تكون من غير شكٍ نتيجة لبعض تقصيراته هو ، وقد يحدث أحياناً أن أحد الناس يرتكب خطأً أو تقصيراً ، ولكنه ينجو من سوء عاقبته .

وإنما تحدث هذه الوقائع في الدنيا لكي يعتبر بها الإنسان ، فإذا ما رأى أن الناس إنما ينالون ما ينالون بقدر عملهم ، فليتعظ بذلك لأن كل شخصٍ سيلقى جزاءه في الآخرة كذلك بحسب عمله كماً ونوعاً ....، وهكذا إذا وقع بصره على امرئ صدر منه تقصير ، ولكنه خلص من سوء مغبته ، فليأخذ من ذلك درساً مفاده أن الله غاية فى الرأفة والرحمة بعباده، فلو أن المرء رجع إليه تعالى ، لأنقذه برحمته الخاصة من عاقبة

تقصيراته .. وهكذا يصبح حال المرء إذا رسخ الإيمان في قلبه ، حيث إنه يأخذ يرى في أحداث الدنيا صور الآخرة !

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

الجَوَارِ : السفن الجارية .

كَالأَعْلامِ : كالجبال ، أو القصور العالية .

فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ : فيصرن ثوابت سواكن .

يُوبِقْهُنَّ : يهلكهن بالغرق أي أهلهن .

مَّحِيصٍ : مهرب ومخلص من العذاب .

إن الإنسان يجري سفنه في البحر ، ويطيّر طائراته في الجو ، وإنما يمكنه أن يفعل ذلك لكون الله سبحانه قد جعل نواميس الطبيعة ملائمة لنا نحن البشر ، ولو أن نواميس الطبيعة لم تتواءم معنا ، لما جرت لنا سفينة في البحر ، ولا طارت لنا طائرة عبر الفضاء .

وكل واقعة من وقائع الحياة تنطوي على عبرةٍ ، ولكن الاعتبار بالوقائع يتطلب الصبر والشكر ، فالحياة لا تسير دوْماً على وتيرةٍ واحدةٍ ، بل لابد فيها من الشدة والألم حيناً ، ومن الراحة والعافية حيناً آخر . وفي آوان الشدة والألم يتعين على المرء أن يسمو فوق الأحداث والأحوال الظاهرية ، حتى يتمكن من رؤية الواقع من زاوية أخرى ، وهذا شيء لا يتأتى بدون الصبر .. وهكذا يقتضي الأمر عند الراحة والعافية أن ننظر

إلى الشيء الناتج - على ما يبدو ظاهراً - عن جهودنا ، على أنه شيء موهوب من عند الله تعالى ، وإنه لن يوفق لهذا إلا شخص تولد في داخله ذلك الشعور الأسمى الذي يقال له "الشكر" .

والجدال في الآيات هو أن المرء إذا نُبِّه إلى مكان العظة الإلهية في واقعةٍ ما ، فلا يلقي لذلك بالاً ، وإنما يحاول تفسير الواقعة بوجوهٍ أخرى مفتعلةٍ .

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

إن مَنْ يتوكل على الله من شأنه وحده أن يكون مريداً للآخرة ، فكلما يتقدم المرء نحو الآخرة ، تبدو له فوائد الدنيا مهددةً بالخطر ، وتتراءى له مصالحه العاجلة كأنما ينفلت زمامها من يديه ... إذن ، فليس هنالك من شيءٍ يثبت المرء على طريق الآخرة ، إلا أن يكون واثقاً بوعد الله ، ومتأكداً من أنه بقدر ما يفقد لأجل الله في هذه الدنيا ، يجد عوضه مضاعفاً عند ربه في تلك الدار الآخرة .

وكل نعمة من نعم الدنيا موقوتة سريعة الزوال ، أما نعم الآخرة فهي أبدية لا يعتريها زوال ولا فناء، وإنه لا حقيقة للنعمة الوقتية الفانية ، بالقياس إلى النعيم الأبدي الباقي !!

﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ

ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

وَالْفَوَاحِشَ : ما عظم قبحه من الذنوب .

وَأَمْرُهُمْ شُورَى : يتشاورون ويتراجعون فيه .

أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ : نالهم الظلم والعدوان .

يَنتَصِرُونَ : ينتقمون ممن ظلمهم ولا يعتدون .

وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ : يفسدون ، أو يتجبرون فيها .

إن الإيمان ، حين يفوز به أحد بمعناه الحقيقي ، لا يلبث أن يحدث في داخله ثورة ، ويجعل منه بالتالي رجلاً غير الرجل ، وإن الصفات المذكورة هنا ، المميزة لعباد الله المؤمنين ، كلها مما يتجلى في شخصية المؤمن على عقب الثورة الإيمانية .

فمثل هذا الشخص ينشأ في داخله مزاج الاعتراف بالحقيقة الواقعة ، حيث إنه يخضع لله معترفاً له تعالى بالألوهية ، ولنفسه هو بالعبودية ، ويعود مستحيلاً عليه إذا سمع منادياً يدعو إلى الله ألا يستجيب له ، وشعوره الإيماني يجعله مرهف الحس إزاء الصواب والغلط ، فهو يفعل ما ينبغي له أن يفعل ، ويجتنب ما لا ينبغي له أن يفعل .

واعترافه بوضعه الحقيقي - العبودية - يملأ نفسه تواضعاً ينتزع منه مزاج الغضب والظلم والبغي والعناد ، وهذا التواضع هو الذي يرغمه على أن يستفيد في الشئون الاجتماعية من مشورة الآخرين ، ويتحرز من الإقدام بناءً على رأيه الشخصي وحده . والصلة التي تربطه بغيره يكون قوامها النصح والمودة دون الاستبداد والاستغلال .

وإن شخصاً كهذا لا يعتدي على الآخرين على أية حالٍ ، أما إذا اتخذ ضد الآخرين خطوةً ما ، فإنما يتخذها كإجراءٍ دفاعي ، وبالقدر الذي يلزم لصد عدوانهم ، هذا إلى جانب كونه دائماً مستعداً ، حتى في أشد الظروف إثارةً واستفزازاً ، لكي يعفو عن الناس ، وينسى كل إساءاتهم السابقة .. وإن العبد المؤمن إذْ يفعل كل هذا ، فإنما يفعله مدفوعاً بعواطفه الإيمانية ، بيد أن الله تعالى يقدره ويعلي من شأنه بحيث يخلع عليه لقب صاحب العزم والهمة العالية ، ويدخله في جنانه الأبدية !

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

خَٰشِعِينَ : خاضعين متضائلين .

يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ : يسارقون النظر من شدة الخوف .

إن الهداية يتم إيضاحها في هذا العالم بواسطة الدليل ، وتلك هي سنة الله بالنسبة لهذا العالم . ومعنى ذلك أن الهداية لا يوفق لها في هذا العالم إلا من يثبت مقدرته على فهم الحديث بلغة الدليل ، وأن يكفيه كون أمر ما قد ثبت صدقه بواسطة الدليل ، لكي يخضع له ويذعن إليه . أما الذين لا يكفيهم الدليل مقنعاً وباعثاً على التسليم ، فإنهم لن يهتدوا في هذا العالم أبداً . والذي لا يخضع للدليل في العالم الراهن ، يعرض نفسه لخطر أن يُقهر يوم القيامة على الخضوع أمام القوة والجبروت الإلهي ، غير أن الخضوع يومئذ لن يغني عن أحدٍ فتيلاً ... ، حيث إنه سيكون لتسجيل الذل والهوان على المرء وليس

لتأهيله للإنعام والتكريم!

﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ (٤٨) ﴾

نَكِيرٍ : إنكار لذنوبكم أو منكر لعذابكم .

فَرِحَ بِهَا : بطر لأجلها .

إن امتحان المرء الحقيقي في العالم الراهن هو أن يواجه كل وضع من أوضاع الحياة برد فعل صحيح ، ولكن الإنسان لا يفعل هذا ، حيث إنه حين يحصل على نجاح يصاب بنفسية الفخر والزهو والاعتزاز ، أما حين يتعرض لمصيبةٍ ما ، يأخذ في إظهار المشاعر السلبية .

وهؤلاء هم الذين لا يوفقون إلى رد الفعل أو الاستجابة الصحيحة إزاء دعوة الحق، فإن مزاجهم غير الواقعي يجعلهم غير واقعيين بشأنها كذلك . والاستجابة الصحيحة لدعوة الحق تتمثل في أن يعترف المرء بصدقها من فوره ، غير أن المرء يتخذ منها قضية تتصل بكرامته ، وبالتالي تأخذه العزة بالإثم ، فيقول: إنني سأعود "صغيراً " أمام الداعي فيما لو آمنت بدعوته ، وهذا الإحساس يقف عائقاً دون قبوله الحق ، فيقابله بالإهمال واللامبالاة حرصاً على مصالحه الذاتية رغم تيقنه من صدقه!.

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾

إن أساس الدين يقوم على التصور القائل بأن كل أنواع القدرة والاختيار في هذا الكون إنما هي بيد الله الواحد وحده ، وأنه لا يملك أحد سواه أي قدرةٍ ولاخيارٍ ، سواء أكان الأمر يتعلق بتدبير نظام السماء والأرض ، أم بإعطاء الإنسان الذرية ، فكل ما يناله المرء إنما يناله بعطاء الله ، وهو الذي ينتزع عطاءه منه متى يشاء .

وهذا الاعتقاد عن الله هو الذي يولد في نفس المرء ذلك الشعور الصحيح الذي يسمى " العبودية " ، كما أن هذا الاعتقاد عن الله هو الذي يرغم المرء على أن يتبع في حياته العملية المنهج الذي تضمنته الشريعة الإلهية!!

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

رُوحاً : قرآنا أو نبوة ، أو جبريل .

الإيمَانُ : الشرائع التفصيلية التي لا تعلم إلا بالوحي .

إنه ليس من شأن إنسانٍ أن يكلم الله مواجهةً في العالم الراهن ؛ إذْ يحول عجز الإنسان وقصوره دون اتصالٍ مباشر كهذا ، ومن ثم فقد نزل على الأنبياء ما نزل من الكلام الإلهي بأسلوب غير مباشرٍ ، وللكلام غير المباشر هذا طرق متعددة ، نجد أمثلتها في حياة الأنبياء والرسل في صور شتى .

إن أحد العلماء أو المفكرين حين يؤلف كتاباً أو يعرض كلاماً ، فإننا نجد في ماضيه من صنوف الأسباب والعوامل ما يمكننا من تعليل بطولته العلمية والفكرية ، ولكن

أمر النبي مختلف عن هذا تماماً . فحياة النبي بعد النبوة تختلف عن حياته قبل النبوة كل الاختلاف ، وإذا كان كلام غير النبي في حاضره يبدو امتداداً لماضي حياته ، فإن الكلام الذي يجري على لسان النبي بعد النبوة يكون فريداً متميزاً بلفظه ومعناه عن كلامه قبل النبوة لدرجة أنه لا يمكن تفسير هذا التميز والاختلاف بماضي النبي ، وإن هذه لقرينة واضحة تدل على أن كلام النبي كلام إلهي ، وليس كلاماً بشرياً عادياً .

ومن مزايا النبي العربي - ﷺ- أن القرآن الذي نزل عليه ، والكلام الذي صدر من لسانه ، لا يزال كلاهما محفوظاً في صورته الأصلية حتى هذا اليوم ، وأي شخصٍ يعرف اللغة العربية ، لو تناولهما بدراسة مقارنة ، لوجد بينهما فرقاً واضحاً جلياً حيث تبدو لغة الحديث النبوي لغة محمد بن عبد الله ﷺ بالبداهة ، ولغة القرآن المجيد لغة كلام الله - عز وجل - بالبداهة كذلك!!

سورة الزخرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ ﴾

أُمّ الكِتَابِ : اللوح المحفوظ أو العلم الأزلي .

المراد بـ ﴿ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ هو اللوح المحفوظ عند الله . وقد أثبت الله في اللوح المحفوظ ذلك الدين الأصيل الذي يطلبه من البشر ، وهذا الدين الأصيل هو الذي نزل على الأنبياء والمرسلين بلغات شتى على اختلاف العصور ، وقد نزل على نبي آخر الزمان - ﷺ- باللغة العربية ، وهذا القرآن العربي هو وحده ممثل للدين الإلهي الحق في عالمنا الراهن ، وإنما المسئولية الآن ملقاة على عواتق حاملي القرآن الكريم أن يوصلوا رسالته إلى شعوب الأرض كافةً بنقله إلى سائر لغات العالم ، حتى يتمكن الآخرون بدورهم من أن يفهموه تماماً كما فهمه العرب . وكون القرآن متصفاً بالعلو ومليئاً بالحكمة دليل على كونه كتاباً إلهياً ، فلغة القرآن الكريم ومضامينه على مستوى العظمة الإلهية تماماً ، وهذا في حد ذاته برهان صارخ بأنه كتاب الله ، ولو أن القرآن كان كلاماً إنسانياً ، لم يكن ليبلغ ما هو عليه الآن من هذا المستوى غير العادي من العظمة والروعة والجلال!!

﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٧ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ ﴾

أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ: أفنترك تذكيركم وإلزامكم الحجة بإنزال القرآن .

صَفْحاً : إعراضاً أو معرضين عنكم .

أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ؟: لكونكم مفرطين في الجهالة والضلالة لا نتركه .

وَكَمْ أَرْسَلْنَا : كثيراً أرسلنا.

فِي الأَوَّلِينَ : في الأمم السابقة .

بَطْشاً : قوة .

هناك عدد لا يحصى من الناس في العالم اليوم يردد أسماء الأنبياء السابقين بمنتهى التوقير والاحترام ، وهذا الوضع يبدو مثيراً للدهشة والاستغراب ، إذْ قارنّاه بما قوبل به أولئك الأنبياء - بما فيهم رسول الإسلام - من التحقير والاستهزاء من قبل معاصريهم !.

وليس مرجع ذلك إلى كون الناس في سالف الدهور همجيّين ، وكونهم اليوم في أعلى مراتب التحضر والمدنية ، وإنما يرجع السبب في ذلك إلى فارق الزمن ، فاليوم ، بعد أن بَعُد العهد ، ومضت قرون متطاولة ، قد صار اسم كل نبي من الأنبياء مقروناً بالأمجاد التاريخية ، مما يجعل عبدة الظواهر اليوم سرعان ما يتعرفون عليه بدون عوائق ، أما بالنسبة إلى معاصريه، فقد كان النبي يبدو في صورة إنسانٍ عاديٍ ليس غير ، وللتعرف عليه حينذاك - بوصفه نبياً- كان لابد من توفر بصرٍ ثاقب نفاذ إلى الحقيقة ، وليس من شكٍ في أن هذا البصر النفاذ - كان ولا يزال - أقل شيءٍ وُجد في هذا العالم!

ومهما كان سلوك المخاطبين لدعوة الحق خاطئاً أو حتى سيئاً ، فإن الداعي لا يبرح يواصل عمله الدعوي بدأبٍ ونشاطٍ ، إلى أن يحين الوقت الذي يقضي الله فيه من عنده بما يحسم الصراع الدائر بين دعاة الحق ومعارضيه .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾
وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ
﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾
لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ
ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

مَثَلُ الأَوَّلِينَ : صفتهم أو قصتهم العجيبة .

الأَرْضَ مَهْداً : فراشاً ممهداً للاستقرار عليها .

سُبُلاً : طرقا تسلكونها ، أو معايش .

مَاءً بِقَدَرٍ : بتقدير محكم أو بمقدار الحاجة .

فَأَنشَرْنَا بِهِ : فأحيينا بالماء .

خَلَقَ الأَزْوَاجَ : أوجد أصناف المخلوقات وأنواعها .

وَالأَنْعَامِ : ومن الأنعام وهو الإبل .

لِتَسْتَوُوا : لتستقروا ، وتستعلوا .

سَخَّرَ : ذلل .

إن أكثر الناس كانوا – ولا يزالون – في كل زمانٍ يؤمنون بأن خالق هذا الكون

ومالكه هو الله ، وهو الذي منحنا كل ما نحتاج إليه في الحياة الدنيا .

إن إيجاد الكون وتوفير الأسباب الضرورية للحياة فوق الأرض ، لعمل عظيم هائل لدرجة أنه لا يمكن لشخصٍ ما إن يعزوه إلى أحدٍ غير الله الواحد الأحد .

وهذا الإقرار يقضي بأن يكون الله هو موضع اهتمام الإنسان الأكبر ، وأن تصطبغ حياته بالصبغة الإلهية ، ولكن الإنسان يتخذ من أشياء أخرى مقصوده ، ويجعل من غير الله مركز اهتمامه وتوجهاته .

لقد كشف الله الحقيقة بواسطة أنبيائه ، ثم إنه تعالى أنشأ هذا الكون بحيث صار بكل موجوداته وظواهره تمثيلاً عملياً حياً للحقائق المعنوية .

ومن هذه الحقائق مثلاً أن الإنسان سيبعث بعد موته من جديدٍ ، ويتم تمثيل هذه الحقيقة مرةً بعد أخرى على مستوى النبات ، حيث يشاهد الإنسان كل عامٍ أن الأرض قد يبست ، ثم ينزل عليها المطر ، فإذا بها تعود مرةً أخرى ناضرة خضراء .

وفي هذا إشارة بليغة إلى أن الإنسان بدوره سوف يُبعث بعد موته من جديدٍ كذلك .

والميزة الثانية للعالم الراهن تكمن في كونه ملائماً للإنسان على نحوٍ مدهشٍ ، فقد صُنع كل شيءٍ هنا بحيث يتمكن الإنسان من استخدامه لتحقيق شتى أغراضه كما يشاء، ممّا يقتضي أن تستيقظ في نفس الإنسان عواطف الشكر والعرفان .

فينبغي له إذا استعمل شيئاً من مصنوعات الله أن يخضع قلبه لله ، وتفيض من لسانه كلمات الاعتراف والحمد والابتهال.

﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

مُقْرِنِينَ : مطيقين وغالبين أو ضابطين .

وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ : أخلصكم وآثركم بهم .

مَثَلاً : شبها ومماثلاً .

وَهُوَ كَظِيمٌ : مملوء في قلبه غيظا وغماً .

يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ : يربى في الزينة والنعمة (البنات) .

فِي الخِصَامِ : المخاصمة والجدال.

من صور الإشراك بالله أن يتخذ المرء من أحدٍ شريكاً في الذات الإلهية ، كالاعتقاد أن الملائكة بنات الله ، أو القول بأن المسيح ابن الله ، أو كنظرية وحدة الوجود التي تفسر الكون باعتبار كل موجوداته أجزاء من ذات الله .

إن كل العقائد من هذا النوع باطلة محضة لا تستند إلى أي دليل حقيقي مطلقاً .

والآية رقم (١٨) قد تضمنت وصفين جامعين يتميز بهما صنف الإناث عن صنف الرجال : أما أحدهما : فهو أن المرأة ميالة بطبعها إلى الزينة والتحلي . وأما الآخر: فيكمن في كونها لا تقدر عند الجدال والخصومة على التعبير عن موقفها بأسلوبٍ قوي مؤثر . وهذا النقص الطبيعي في صنف الإناث حقيقة تفرض نفسها . ونظراً إلى هذه الحقيقة ذاتها أخذ الإسلام بمبدأ تقسيم الواجبات الاجتماعية بين الجنسين : إذْ ألقي على عاتق الرجل تبعة العمل خارج البيت ، بينما جعل المرأة مسئولةً عن تدبير شئون البيت الداخلية!.

﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

يَخْرُصُونَ : يكذبون فيما قالوه .

عَلَىٰٓ أُمَّةٍ : على دين وطريقة تؤم وتقصد .

قَالَ مُتْرَفُوهَا : متنعموها المنغمسون في شهواتهم .

إن المرء لا يعدم الفرص لأي عملٍ يريد ممارسته في العالم الراهن ؛ مما يوقع كثيراً من الناس في سوء فهمٍ ، مؤداه أن كل ما يفعلونه هو الصواب عينه ، وأنهم لو كانوا على

خطأ، لم يخالفهم النجاح في ترويج طريقتهم، ومثل هذه الأقاويل يرددها غالباً أولئك الذين ينتمون إلى طبقة "المترفين".

غير أن هذا سوء فهمٍ خطير جداً، فإن رواج طريقةٍ ما في رحاب هذا العالم إنما يرجع إلى حرية الامتحان المتاحة هنا للجميع، للصالحين والطالحين على سواء، وحيث إن فترة الامتحان ستكون قد انتهت في عالم الآخرة، فلن يجد أحد هناك هذه الفرصة بطبيعة الحال، وأشد مواجهةٍ أو مقاومةٍ ظل يتعرض لها دين الأنبياء والرسل على اختلاف العصور هي التي كانت بينه وبين دين الآباء الموروث، إذْ إن "الآباء" يكونون قد تحولوا عند الأمم إلى "أكابر"، ويبدو لهم نبي العصر - بالقياس إليهم - من أصاغر الناس؛ ولهذا السبب يعود مستحيلاً على القوم أن يختاروا دين أحد الصغار متخلين عن دين الكبار، غير أن تكذيب أولئك "الصغار" هو الذي جرّ على الشعوب الهالكة ذلك العذاب الذي كان في حسبانها أنها لن تتعرض له إلا بتكذيب "الكبار"!!

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

إِنَّنِي بَرَاءٌ: بريء.

فَطَرَنِي: خلقني وأبدعني.

كَلِمَةً بَاقِيَةً: كلمة التوحيد، أو البراءة.

فِي عَقِبِهِ: ذريته إلى يوم القيامة.

إن كلمة إبراهيم المذكورة هنا ، والتي تضمنت إعلان التوحيد الخالص والتبرؤ المطلق من عبادة غير الله ، كانت قد صدرت من لسانه عليه السلام في المرحلة الأخيرة من حياته الدعوية ، ولم تكن هذه الكلمة مجموعة من بعض الحروف والألفاظ ، وإنما كانت هي خلاصة تاريخ حافل عظيم ، فحين بلغ سيدنا إبراهيم سن التمييز اكتشف أن إله الإنسان إله واحد ليس غير ، وأن كل الآلهة سواه باطلة محضة لا أصل لها ولا حقيقة. ولقد بنى عليه السلام حياته على أساسٍ من هذه العقيدة ، كما نهض يدعو إليها أفراد أسرته وقومه، وما برح عليه السلام قائماً بذلك ، باذلاً جهد طاقته بدأبٍ ونشاطٍ في سبيل دعوته ، حتى غدا كونه موحّداً هو الطابع المميز له وهوّيته التي راح يعرف بها في بيئته، وبعد ممارسة حياةٍ طويلةٍ كهذه ، عندما قال عليه السلام الكلمة المذكورة ، وهو يغادر وطنه مهاجراً ، فكان من الطبيعي أن تعود كلمته تلك "كلمةً باقيةً " ، فإنها كانت مرتبطةً بحادثةٍ تتجدد ذكراها في النفوس كلما ذُكر إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – .

وقد كان المفروض أن تكون سنة إبراهيم العظيمة هذه معلماً أو نبراساً مضيئاً يهتدي به ذريته من بعده إلى طريق الحق ، غير أن العكوف على متاع الدنيا ، جعل من جاء في عقبه غافلين عن هذا ، لدرجة أنه لما أتاهم عبد من عباد الله في العهد الأخير يذكرهم بما نسوه من درس ماضيهم ، لم يلبثوا أن تلقوه بالإنكار والتكذيب !

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ

وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)﴾

مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ : من إحدى القريتين مكة والطائف .

سُخْرِياً : مسخراً في العمل ، مستخدماً فيه .

أُمَّةً وَاحِدَةً : مطبقة على الكفر حبا للدنيا .

وَمَعَارِجَ : مصاعد ومراقي ودرجا من فضة

يَظْهَرُونَ : يصعدون ويرتقون .

وَزُخْرُفاً : ذهبا ، أو زينة مزوقة .

لَّمَّا مَتَاعُ : إلا متاع .

لما ظهر رسول الإسلام في مكة ، كان يبدو لمن حوله أنه إنسان عادي ، فتساءل الناس قائلين : إذا كان الله يريد أن يبعث مندوباً له لأجل هدايتنا ، فهلاّ وقع اختياره لهذا الغرض على عظيمٍ من عظماء هاتين المدينتين المركزيتين (مكة والطائف) من جزيرة العرب ؟! غير أن هذا الاعتراض إنما كان نابعاً من قصور نظرهم ، فالإنسان لا يكاد يرى إلا الحاضر الماثل أمامه وحده ، بينما كان التعرف على عظمة رسول الإسلام يتطلب عيناً تبصر المستقبل ، وبما أن القوم لم يكونوا يمتلكون هذا البصر البعيد المدى ، عجزوا بالتالي عن تفهم عظمة رسول الإسلام ﷺ .

وكان السبب في استصغار الناس لرسول الإسلام يرجع إلى أن حياته - عليه الصلاة والسلام - كانت خاليةً من بريق الأشياء المادية وبهرجها ، ولكن الأشياء المادية لا أهمية لها عند الله عز وجل . والواقع أن هذه الأشياء لمن زهادة القيمة والهوان على الله بحيث لو شاء تعالى لأعطى الناس كلهم أكواماً هائلةً من الذهب والفضة ، إلا أنه تعالى لم يفعل ذلك ، لأن الناس كانوا سيعودون بعدئذٍ مشغولين بهذه الأشياء وحدها ،

ولا يستطيعون الانطلاق من أسرها حتى يدركوا الحقيقة في صورتها المجردة الخالصة !

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

وَمَن يَعْشُ : من يتعام ويعرض ويتغافل .

نُقَيِّضْ لَهُ : نسبب ، أو نتح له .

لَهُ قَرِينٌ : مصاحب له لا يفارقه .

الإعراض عن النصيحة (الذِّكر) هو أن تتجلى أمامه الحقيقة الإلهية مصحوبةً بأدلةٍ لا يستطيع دحضها أو إنكارها ، إلا أنه يقابلها بالإهمال واللامبالاة حفاظاً على مصالحه الذاتية! ومثل هذا الشخص ربما يلجأ إلى إثارة صنوف الأباطيل ضدها تبريراً لموقفه ، وهذا هو الوقت الذي يجد فيه الشيطان فرصته لكي يتسلّط عليه ، ويسوق عقله في اتجاهٍ خاطئٍ ، فلا يزال الشيطان يلهيه بالتأويلات المفترضة في محاولة إقناعه بأنه على الحق والصواب ، وإنما ينكشف هذا الخداع حين يُفجأ المرء بالموت ، فيُقام بين يدي ربه للحساب الأخير !

وفي الحياة الدنيا طالما يتخذ المرء قرينه وصديقه ممن يمالئه على كذبه وانحرافه ، ولكنه سوف يلعن كل القرناء والأصدقاء من هذا النوع في الآخرة ، ويود لو كانت بينه وبينهم مسافة شاسعة لدرجة أنه لم ير وجه أحدٍ منهم ولا سمع صوته أبداً !!

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا

نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

لو أن ذا بصرٍ أغمض عينيه ، لما أمكنه أن يرى شيئاً ، ولو أن ذا سَمْعٍ سدّ أذنيه ، لما استطاع أن يسمع شيئاً...، وهكذا مَنْ لا يستعمل عقله ، ويأخذ في السير على هواه معطلاً عقله ، فإن إفهام شخصٍ كهذا وتذكيره لن يجدي فتيلاً ، حيث إن عملية الفهم والتذكر إنما تتم بواسطة العقل ، وهذا قد عطّل عقله وغطّاه تحت ستارٍ – من شهواته ورغباته – كثيفٍ، على أن المدعو ، مهما يكن سلوكه وموقفه ، فإن الداعي مطالب على كل حالٍ ، بمواصلة نشاطه الدعوي بجدّ ، وإخلاص إلى أن يبلغ حد الإعذار ، وإلزام الحجة .

ومع أن الداعي إلى الحق يكون إنساناً ، إلا أن أمر الحق هو أمر الله ، وقد يحسب المرء، وهو ينكر داعية الحق ، أنه قد نجا من ضربة الحق ، بينما هو لا يلبث أن يقع في الوقت نفسه تحت ضربة الله وسخطه .. وسيرتجف فؤاد المرء بشدةٍ ويشعر بقشعريرةٍ تدب في أوصاله ، وهو يقابل داعي الحق بالإعراض والإهمال ، فيما إذا هو أدرك هذا السر حق الإدراك ، لأنه سيعلم عندئذٍ أن إهمال داعية الحق إهمال للحق نفسه ، وأن إهمال الحق هو إهمال لله – عز وجل!!

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ

ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

عرض موسى دعوة التوحيد على فرعون ، مبرهناً على صدقه بمعجزة العصا واليد، وحين رأى فرعون وملؤه ذلك راحوا يضحكون منه ساخرين ، وكان السبب في ذلك أنهم لم يروا موسى عليه السلام في دعوته ، وإنما رأوه في شخصه ، حيث بدا لهم ظاهراً أن شخصية موسى أضأل شأناً من شخصياتهم هم ، كما ظنوا بالنسبة إلى معجزته أنها سحرٌ ، وأن بإمكان سحرة الدولة أن يأتوا بسحرٍ مثله!! وهذا ما حدث – ولا يزال – مع دعوة الحق دائماً ، فالناس يرفضون الدعوة بالنظر إلى شخصية الداعي ، ويُعرضون عن الآيات بقياسها على الوقائع العادية المألوفة.

ولما أبى فرعون وأصحابه التسليم بما جاء به موسى ، أصابهم الله بشتى ألوان العقوبات تحذيراً لهم وتنبيهاً ، حتى يرجعوا إلى الله تعالى، وقد جاء ذكر هذه العقوبات التحذيرية بالتفصيل في سورة الأعراف (١٣٣-١٣٥) ، وكانت كل عقوبةٍ تنزل بدعاء موسى ثم تنتهي بدعائه كذلك ، وقد كان ذلك سبباً إضافياً من شأنه أن يبعثهم على الرجوع والإنابة، ولكنهم ما رجعوا ولا أنابوا ....، والحقيقة هي أن الذين لا يؤمنون بالدليل والبرهان ، فإنهم لا يؤمنون بالتحذير والبلاء كذلك ، اللهم إلا أن يحاصرهم نهائياً عذاب الآخرة الذي لا يُرد !!

﴿ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ

فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

هُوَ مَهِينٌ : ضعيف حقير .

يُبِينُ : يفصح الكلام للثغة في لسانه .

مُقْتَرِنِينَ : مقرونين به يصدقونه .

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ : وجدهم خفاف العقول .

آسَفُونَا : أغضبونا أشد الغضب بأعمالهم .

سَلَفاً : قدوة للكفار في استحقاق العقاب .

وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ : عظة وعبرة للكفار بعدهم .

إن منكري الحق إنما قابلوا الحق بالإنكار دوماً ناظرين إلى ضآلة شأن الداعي إليه ومكانته العادية ، ففي مصر كان فرعون حاكم البلاد الأوحد ، وكانت الأنهار المتفرعة من النيل تجري بحسب أمره ومشيئته ، هذا إلى جانب كون كل أسباب العزة والسلطان والأبّهة متوفرةً لديه ، بينما كان موسى يبدو إنساناً عادياً لا يملك جاهاً ولا أبهة سلطانٍ، وبالإشارة إلى هذا الفارق المظهري ذاته استغفل فرعون قومه وأغواهم ، فما لبثوا أن مالؤوه على إنكار موسى وتكذيبه .

ويظهر أن قوم فرعون إنما وقفوا إلى جانبه وأطاعوه بناءً على مثل هذه الأدلة (السطحية) ، ولكن الحقيقة هي أن السبب في ذلك كان يرجع إلى ضعف القوم أنفسهم، وليس إلى قوة أدلة فرعون ، فاتباع موسى في ذلك الوقت كان معناه تحطيم خريطة الحياة الجاهزة ، وقليل جداً هم الذين يتجرؤون على مناصرة الحق بتحطيم خريطة حياتهم الجاهزة...، ومن ثم فحين تعرض فرعون لعذاب الله جزاء إنكار الحق، لم يلبث قومه بدورهم أن صاروا معه ضحايا العذاب الإلهي.

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ ﴾

مِنْهُ يَصِدُّونَ : من أجله يضجون ويصيحون فرحًا وجذلاً .

قَوْمٌ خَصِمُونَ : لد شداد الخصومة بالباطل .

مَثَلاً : آية وعبرة عجيبة كالمثل السائر.

لَجَعَلْنَا مِنكُم : بدلكم . أو لولدنا منكم .

وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ :يعلم قربها بنزوله ﷺ .

فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا :فلا تشكن في قيامها .

بإمكان المرء في عالمنا الراهن أن يلوي مقصود أي كلامٍ عن استقامته ، ويستخرج منه عكس مراده الحقيقي . ومن أمثلة ذلك أن رسول الله - ﷺ- قال ذات يومٍ ما معناه: "ليس أحد يُعبد من دون الله فيه خير" ، فاعترض المعارضون عليه قائلين : إن هؤلاء النصارى يعبدون المسيح ، إذن ، أفليس في المسيح هو الآخر خير" ؟!

ومن الواضح أن هذا لم يكن إلا اعتراضاً فارغاً وشبهةً مفتعلةً ؛ فإن قول الرسول ﷺ كان موجهاً أساساً إلى العابد دون المعبود ، وحتى لو اعتبرناه موجهاً إلى المعبود ، فإنما كان المراد به صراحةً هو الذي يرضى بتأليه نفسه ، ولكن المرء إذا لم يأخذ حديثاً ما بمأخذه المستقيم ، فإنه يستطيع أن يعكس مفهومه ، مهما كان الحديث في حد ذاته

صحيحاً مستقيم المعنى .

لقد كانت شخصية عيسى عليه السلام من بعض النواحي مشابهةً للملائكة ، ومن هنا ألهه الكثيرون من أتباعه وعبدوه ، غير أن خلق عيسى الملكوتي كان مثالاً على قدرة الله وليس مثالاً على قدرة عيسى الذاتية. والحقيقة أن عملية خلقٍ كهذه ليست بصعبةٍ على الله إطلاقاً ، إذْ لو شاء تعالى لجعل من سكان الأرض كافة ملائكةً ، ولكن هؤلاء الملائكة سيظلون ؛ على أية حالٍ ملائكةً ، ولن يعودوا أبداً آلهةً يُعبدون!!

وقد أيد الله عيسى بمعجزات وخوارق عديدة ، منها أنه كان يُحيي الموتى ، وكان ينفخ في الطين هيئة طير ، فتدب فيه الروح والحياة والحركة ... إلخ ، وهذا كله كان في الأصل آيةً إلهيةً أظهرت لتدل على إمكان الحياة بعد الموت ، ولكن الناس بدل أن يستلهموا منها الدرس الحقيقي المطلوب ، راحوا يعبدون المسيح عليه السلام باعتباره فوق البشر.. وهكذا تتجلى الآيات الإلهية دوْماً في صور شتى ، وإنها لتفيدنا عبراً هامة جداً فيما لو اعتبرناها آية ، أما لو تم اعتبارها شيئاً آخر غير الآية ، فإنها تصبح سببا لوقوع البشر في الضلالة والانحراف . والشيطان يحاول دائماً أن يحول بين المرء وبين اعتباره واتعاظه بالآيات الإلهية .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾

فَوَيْلٌ : هلاك أو حسرة أو شدة عذاب .

المراد بـ "الحكمة" هنا روح الدين .. وأما "الصراط المستقيم" فالمقصود منه الشيء نفسه الذي أطلق عليه ضمن هذه الآيات "تقوى الله، وعبادته وطاعة رسوله" . وهذا هو لُبّ الدين وجوهره، وقد انتهى الأمر باليهود في القرون المتأخرة إلى أنهم فقدوا روح الدين، واستخرجوا عن طريق التفريع والتنقير في أصول الدين مسائل جديدة لا تحصى، ومازالت هذه المسائل المستحدثة موجودة في كتب اليهود حتى يوم الناس هذا . وبسبب هذه الإضافات المزعومة ذاتها، انقسم القوم إلى طوائف شتى، حيث أكد البعض على مسألة خلافيةٍ معينةٍ، بينما ركز بعضهم على مسألة خلافية أخرى، وهكذا تحول الدين الواحد عندهم إلى أديان متعددة. ولقد جاء سيدنا المسيح عليه السلام لكي يلفت انتباه اليهود إلى أن الأهمية في الدين إنما هي للروح وحده دون الشكليات والمظاهر، وأن الشيء الذي يتوقف عليه خلاص المرء يتمثل في اتباع الدين المنزل من عند الله، وليس في اتباع الدين الذي وضعتموه من تلقاء أنفسكم !!

وقد قرر سيدنا المسيح أن جوهر الدين هو أن تخافوا الله ، وألا تعبدوا إلا إياه، ولا تشركوا بعبادته أحداً ، وأن تتخذوا من الرسول قدوةً في شئون الحياة كلها. أما ما استحدثتم من مسائل لا تحصى بتنطّعكم وتفريعاتكم ، فإنما هي إضافاتكم أنتم ، لا تمت إلى صميم الدين الإلهي بصلةٍ ، وإنما عليكم أن تستمسكوا بروح الدين الأصيل وتتخلوا عن هذه الإضافات. وأحاديث سيدنا المسيح عليه السلام هذه مازالت موجودةً في الأناجيل حتى اليوم!.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا

تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

هَلْ يَنظُرُونَ : هل ينتظرون .

بَغْتَةً : فجأة .

الأَخِلاَّءُ : الأحباء في غير ذات الله .

تُحْبَرُونَ : تسرون سروراً ظاهر الأثر .

وَأَكْوَابٍ : أقداح لا عري لها ولا خراطيم .

حين يتبنى المرء في الدنيا موقفاً معادياً للحق ، فإنه يجد من حوله أصدقاء كثيرين يوالونه ويشدون من أزره،واعتماداً على أولئك الأصدقاء لا يفتأ المرء يزداد تعنتاً وعناداً وطغياناً،ولكن كل هؤلاء الأصدقاء لن يلبثوا أن يتخلوا عنه ويخذلوه يوم القيامة،وستبقى يومئذٍ صداقة واحدة فقط،وهي التي قامت على أساسٍ من خوف الله وتقواه .

إن حياة العبودية للحق في الدنيا محفوفة بألوان شتى من الأخطار والمحاذير ، بيد أن جزاءها في الآخرة رائع بحيث سيفوز المرء هناك بالنجاة والأمان المطلق الدائم من كل أنواع الحزن والخوف والألم . والذين يثقون بهذا الوعد الإلهي أتم الثقة ، هم وحدهم يستطيعون الثبات على جادة الحق في العالم الراهن، وسيعطيهم الله في الآخرة كل ما كانوا قد فقدوه في الحياة الدنيا لأجل الله – سبحانه وتعالى!

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ

قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ : لا يخفف عنهم .

مُبْلِسُونَ : ساكنون أو حزينون من شدة اليأس .

لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ : ليمتنا حتى نخلص من هذا العذاب .

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً : بل أحكموا كيداً له ﷺ .

وَنَجْوَاهُم : تناجيهم فيما بينهم .

الأمل يخفف الإحساس بالألم دائماً ، فإذا أصيب المرء بألم ما ، وهو يأمل أن هذا الألم سينتهي يوماً ، تولدت في داخله مقدرة التحمل لذلك ، غير أن آلام جهنم هي آلام لن يكون للإنسان بارقة أملٍ في الخروج منها ، أما استغاثة أهل جهنم بالملائكة ، فإنما يكون ذلك بمثابة صرخةٍ اضطراريةٍ تعبر عن غاية عجزهم وضعفهم ، وإلا فالمستغيثون بأنفسهم سيكونون على علمٍ بأن الله قد قضى بين العباد قضاء مبرماً ، وأنه لم يعد الآن إلى تغييره أو تحويله عنهم من سبيل !!

ودخول أحد الناس إلى جهنم إنما يكون جزاءً وفاقاً لتقصيره هو، لقد زوّد الله الإنسان بقوة فهمٍ وتمييزٍ على أرفع مستوىً ، وفتح أمامه سبل الحق والرشاد ، ولكن الإنسان أعرض عن الحق رغم علمه ومعرفته به ، ووصل به التمرد والعناد إلى حد أن تصدى لإنهاء حياة الداعي إلى الحق وتدميره ، فما عساه أن يكون مصيره ، سوى أن يُلقى به في عذابٍ دائمٍ لا يزول !؟!

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

يَخُوضُوا : يدخلوا مداخل الباطل .

﴿ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ هذه الجملة تدل على أن العقيدة التي يجهر بها الرسول ، يعتبرها هي عين الحقيقة ، وأنه ليس واقفاً على أرضية التقليد القومي، والعصبية الطائفية ، وإنما هو مرتكز على أرضية الدليل والبرهان ، ولقد جاء يدعو إلى هذه العقيدة لأن كل الحقائق تؤيدها وتشهد بصدقها . ومن هذا يتضح أن أمر الداعي يكون أمر الشعور بالحقيقة ، وليس أمر التقليد القومي . ومصنع الله الإبداعي ، هذا الذي يمتد أمامنا في صورة الأرض والسماء ، يدلنا على أن إلهه ليس إلا إلهاً واحداً ، إن الكون بنظامه المحكم وتناسقه البديع ينفي أن يكون إلهه أكثر من إلهٍ واحدٍ .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ : هو معبود في السماء.

وَتَبَارَكَ الَّذِي : تعالى أو تكاثر خيره وإحسانه .

إن الأرض والسماء تؤديان وظائفهما في غاية الانسجام والتوافق ، حيث يوجد في كلا العالمين - العلوي والسفلي - حكمة واحدة وعلم واحدة على أتم درجةٍ وأكملها . وهذا دليل ناطق بأن ليس هناك إلا إله واحد هو الذي يدبر وحده شئون كلٍ من

الأرض والسماء ، ويقوم وحده بإدارة نظامها العجيب المدهش . والكون يعرفنا بقدرة الله الهائلة ورحمته الواسعة في آنٍ معاً ، وهذا يقتضي أن يكون المرء خائفاً من الله أشد الخوف ، وراجياً فضله تعالى أقوى الرجاء ، والذين يقيمون الدليل على هذا الشعور وهذا السلوك هم وحدهم أولئك الذين إذا لقوا ربهم أغدق عليهم شآبيب رحمته إغداقاً !.

﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ : فكيف يصرفون عن عبادته تعالى .

وَقِيلِهِ : وعنده علم قول الرسول ﷺ .

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ : فأعرض عنهم .

سَلامٌ : أمري تسلم ومتاركه لكم .

إن الشفاعة التي يتقدم بها الأنبياء ودعاة الحق يوم القيامة ليست في الحقيقة شفاعةً ، وإنما هي شهادة ، وهي تعني أن يشهد المرء بشيء هو يعلمه شخصياً ، فحين تُعرض قضايا الناس في محكمة الآخرة ، فإن الله سبحانه رغم إحاطة علمه بكل شيء ، سيقيم من بين أهل المحشر - لمزيد التوكيد والتوثيق - عباده الذين عاصروا الأمم والشعوب، واضطلعوا بإبلاغ رسالة الحق إليها ، فآمن بعضهم وكفر بعضهم ، ووقف قوم إلى جانب الحق ، بينما تصدى آخرون لمحاربة الحق . هذه التجربة التي عاشها أولئك الصالحون الأبرار سيحكونها أمام الله ، وسيكون ذلك تماماً كما يدلي أحد الشهود ببيانٍ صادقٍ أمام المحكمة في ضوء مشاهدته الذاتية .

هذا ، ولن يكون في مقدورِ أحد يوم القيامة أن يقوم شفيعاً لأحدٍ من المجرمين ، بحيث يتوخى بشفاعته تغيير ذلك الحكم الإلهي الذي كان من المقرر صدوره في حقه بموجب العدل والواقع .. كلا .. فالله سبحانه أرفع بكثيرٍ من أن يحاول شخص في حضرته محاولة كهذه ، وعمل الدعوة إلى الحق عمل كله نصيحة ، حتى في المرحلة النهائية ، إذْ يكون الداعي قد انكشف عليه بوضوحٍ أن الناس لن يؤمنوا بدعوته على أية حالٍ ، فإنه لا يلبث – مع ذلك – أن يتوجه إلى ربه يدعو للناس ، ولا يزال يتمنى لهم الخير صابراً على أذاهم وإساءتهم!!

سورة الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾
فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم
مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾

لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ : ليلة القدر من شهر رمضان .

فِيهَا يُفْرَقُ : يفصل ويبين .

أَمْرٍ حَكِيمٍ : محكم لا مبرم أو متلبس بالحكمة .

إن كون القرآن " كتاباً مبيناً " دليل في نفسه على أنه كتاب الله ، ومنذ أن كان القرآن كتاب الله، فإن أخباره ونبوءاته كلها قطعية، لا ولن يتطرق إليها شك أوْ ريب، وقد بدأ نزول القرآن الكريم في ليلةٍ خاصةٍ، وهي ليلة لإصدار القضايا أوْ القرارات الإلهية الهامة . إن تنزيل القرآن الكريم لم يكن حادثاً يسيراً، وإنما كان ذلك قراراً بظهور تاريخٍ جديدٍ، وللسبب ذاته تم إنزاله في ليلة الفصل والقضاء، وقد كان القرآن في المقام الأول إعلاناً عن الحق، حيث إنه قد جاء لإبطال الشرك وإحقاق التوحيد، ثم إنه كان يرمي - على أساسٍ من ذلك - إلى التفريق بين الشعوب والأمم، ولقد تم هذا التفريق على صعيد الواقع العملي المعاش، حتى انتهى - ولأول مرةٍ في تاريخ البشرية - عصر الشرك وبدأ عصر التوحيد !

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝ ﴾

فَارْتَقِبْ :انتظر بهؤلاء الشاكين .

بِدُخَانٍ : كناية عن إصابتهم بالجدب والمجاعة .

يَغْشَى النَّاسَ : يشملهم ويحيط بهم .

أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى: كيف يتذكرون .

مُعَلَّمٌ :يعلمه بشر .

يَوْمَ نَبْطِشُ : يوم نأخذ بشدة وعنف (يوم بدر أو يوم القيامة) .

لم تكن قضية وجود الله- تلك التي كان هؤلاء المخاطبون للقرآن في شك منها يلعبون - إنما كانت قضية توحيد الله ، إذْ إنهم كانوا متمسكين عملياً بدين أكابرهم، مع التسليم - على وجه التقليد الأعمى - بوجود الله خالق الكون . ومع أن القرآن أقام الدليل ساطعاً على بطلان أكابرهم أولئك، إلا أنهم لم يرضوا بالإذعان إلى ذلك، فقد كانوا يجدون أنفسهم عاجزين عن مقاومة دليل القرآن، وكان محو عظمة الأكابر من أذهانهم يبدو لهم هو الآخر أمراً خارجاً عن مقدورهم، ولم يلبث هذا المطلب المزدوج أن أوقعهم في دوامة الشك والارتياب، وقد بدا لهم الداعي إلى الله أهون وأقل شأناً من أن يتركوا أكابرهم المزعومين لأجل قوله !

والذين لا يؤمنون بالحق عن طريق النصح والتذكير، يعرضون أنفسهم لخطر أن يتم

إجبارهم على التسليم به عن طريق العذاب ...، وعندئذ سيبادرون بالاعتراف والتسليم، غير أن الاعتراف وقتئذٍ لن يجدي عنهم شيئاً !!

﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ ﴾

فَتَنَّا :ابتلينا وامتحنا .

أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ : سلموا إلى عباد الله .

لاَّ تعلوا: لاتتكبروا ، أو لا تفتروا .

بِسُلْطَانٍ : حجة وبرهان على صدقي .

وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي : استجرت به والتجأت إليه .

تَرْجُمُونِ : تؤذوني ، أو تقتلوني بالحجارة .

إن قيام دعوة الحق معناه ظهور القوة الإلهية في ثوب الدليل والبرهان ، وهكذا يعلن الله سبحانه، وهو لا يزال في الغيب، عن أمره على مستوى البشر ، ومن هنا تعود دعوة الحق بالنسبة إلى المخاطبين فتنةً وابتلاءً . وإن العارفين بالحقيقة سرعان ما يتعرفون عليها ويأخذون أنفسهم بالخضوع والإذعان لها ، أما الذين أبصارهم متعلقة بالظواهر، فلا يلبثون أن يعرضوا عنها باعتبارها غير هامة .

غير أن المرء بعد رفضه لدعوة الحق لن ينجو من وخيم عاقبته . وفي عصر الرسول تبدأ هذه العاقبة الوخيمة في الحياة الراهنة ، كما حدث - مثلاً - مع فرعون مصر في زمن موسى ﷺ أما في عصر ما بعد النبوة فسيلقى الطغاة كهؤلاء مصيرهم المحتوم

في أعقاب الموت ، ويُلاحظ - إلى جانب ذلك - أن الرسول يكون مؤيداً بنصرةٍ من الله خاصةٍ؛ لا يمكن معها لأحدٍ أن ينجح في إهلاكه وتدميره .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً : سر ليلاً بعبادي .

إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ : يتبعكم فرعون وجنوده .

الْبَحْرَ رَهْواً : ساكناً ، أو منفرجا مفتوحا .

جُندٌ : جماعة .

وَنَعْمَةٍ : تنعم أو نضارة عيش ولذاذته .

فَاكِهِينَ : ناعمين متفكهين .

مُنظَرِينَ : ممهلين بالعذاب إلى وقت آخر .

لقد قامت الحجة على فرعون وقومه بعد جهود موسى التبليغية التي استمرت سنين طوال ، وقد ثبت الآن أنهم مجرمون ، وعندئذ أُمر سيدنا موسى بالخروج مع قومه (بني إسرائيل) من مصر ليلاً ، فسار موسى حتى وصل إلى شاطئ البحر، فانحسرت مياهه من الجانبين عن طريقٍ يابسٍ مكّنه من الاجتياز نحو الشاطئ الآخر .

وكان فرعون قد انطلق بجنوده يتعقب موسى وبني إسرائيل ، فلما رأى الطريق اليابس وسط البحر، خُيّل إليه أن بإمكانه أن يجتاز عبره تماماً كما اجتاز موسى، ولكن

طريق البحر لم يكن طريقاً للمرور بالمعنى الظاهر لغوياً، وإنما كان ذلك أمر الله، وقد كان أمر الله إذ ذاك يحتّم النجاة لموسى ومن معه واهلاك لفرعون ومن معه ، ومن ثم فلما يكد يدخل فرعون وجنوده إلى البحر، حتى التقى الماء من كلا الجانبين، وبالتالي هلكوا عن آخرهم غرقاً، إن من يُرزق نصيباً من نعم الدنيا طالما يعتبرها ملكه الذاتي، على حين أنها ليست ملكاً ذاتياً لأحد، وإنما هو الله الذي يعطيها لمن يشاء، ثم ينزعها من يده متى يشاء لكي يخولها إلى الآخرين! .

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

كَانَ عَالِياً : متكبرا جبارا .

العَالَمِينَ : عالمي زمانهم .

فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ : اختبار ظاهر أو نعمة ظاهرة .

إن سقوط أمةٍ وصعود أخرى في هذا العالم لا يحدث على وجه المصادفة ، وليس معنى ذلك أن أمةً ظالمةً ما غلبت أمةً أخرى بإجراءاتها العدوانية الغاشمة ، وإنما يتم هذا كله تبعاً لحكم الله وحده ، فالله تعالى هو الذي يقضي بالغلبة لبعض الخلق وبالهزيمة لبعضهم الآخر، وكل قضاء يصدره تعالى فإنما يصدره بناء على علمه الكلي الشامل، وليس على نحوٍ جزافيٍ .

وصدور القضاء حسب العلم الإلهي معناه: أن كل ما يحدث إنما يحدث بموجب الأهلية أوْ الاستحقاق ، حيث ينظر الله إلى الشعوب في ضوء علمه الكلي، فيقضي بالغلبة لمن يجده مستحقاً لها، ويكتب الذل والهوان على من يراه لم يعدْ أهلاً للغلبة

والقيادة.

وفي حياة الشعوب والأمم تتجلى آيات تدل على أن ما حدث معها هو حكم صادر من عند الله - جل وعلا - ولو كانت بصيرة المرء حيةً نابضةً لرأى في هذه الآيات انعكاساً لتلك الأسباب التي بموجبها أصدر الله أحكامه على الشعوب !

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

بِمُنشَرِينَ : بمبعوثين بعد موتتنا .

قَوْمُ تُبَّعٍ : أبو كرب الحميري ملك اليمن .

إن مصدر ضلال الإنسان وانحرافه في كل العصور يتمثل في أنه فقد ثقته ويقينه في الحياة بعد الموت ، وانعدام اليقين هذا ربما يُبديه بعضهم بلسانه صراحةً، بينما لايتبدى ذلك من أفواه بعضهم على نحوٍ صريحٍ، إلا أن قلوب هؤلاء بدورها تكون خاويةً من اليقين بأنهم مبعوثون مرةً أخرى بعد موتهم، ومحاسبون بالتالي على أعمالهم بين يدي الله رب العالمين !

والسبب في سوء الفهم هذا من الناحية النفسية، يرجع غالباً إلى أن المرء يغتر بمركزه العتيد الذي يحتله في هذه الدنيا، بحيث يخيل إليه كأنه لن يفقد مركزه أبداً .. على حين أن نظرةً واحدةً في مصائر الشعوب الغابرة تكفي لإبطال هذا الغرور والخداع النفسي .

كان " تبع " لقب الملوك الحميريّين في اليمن القديم ، وقد ازدهرت بلادهم واتسعت ثروتهم وامتد سلطانهم خلال الفترة بين سنة ١٠١٥ق.م. وحتى سنة ٣٠٠ب.م. وقد كان قدماء العرب كثيراً ما يتحدثون عن مجدهم وشوكتهم بمنتهى

الإعجاب والإكبار ، ومن هنا كان ازدهار قوم تبع وأفولهم أمراً معروفاً ومشهوراً بالنسبة إلى قريش - المخاطبين الأولين للقرآن الكريم - وقد كان لهم في ذلك دليلاً على أن قانون المكافأة والمجازاة هو الذي يسري في هذا العالم ، وهكذا لسائر الناس هناك "قوم تبع " يلقنونهم بالمصير الذي آل إليه وأمرهم درساً بليغاً ، ولكن الإنسان ينظر إلى مثل هذه الحوادث دوماً على أنها حوادث جرت وفق العادة، وتكون النتيجة أنه لا يكاد يتعلم منها الدرس الذي كان الله - عز وجل - قد أودعه فيها !!

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾

يَوْمَ الفَصْلِ : يوم القيامة والحساب .

لاَ يُغْنِي مَوْلًى : لا يدفع قريب ، ولا صديق .

إن المتأمل في نظام السماوات والأرض ليجد أنه قد تم إيجاده على نحوٍ هادفٍ للغاية، حيث يعمل الكون بكل ما فيه لأجل هدفٍ معينٍ ، ولولا ذلك لبات مستحيلاً على الإنسان أن يبني هذه المدينة الرائعة في رحاب العالم الراهن .

وعقيدة الآخرة هي امتداد وتوسيع لهذه الروح أوْ المعنوية الكونية ذاتها، فلا يمكن أن ينتهي هذا الكون، وقد صُنع على هذا النحو الهادف، بلا غايةٍ أوْ معنىً ما، إن وجود القصد والمعنى في كوننا الحالي قرينة تدل على أنه صائر إلى غايةٍ هادفةٍ ذات معنىً، وما الآخرة إلا اسم آخر لهذه الغاية الهادفة .

وإن مرحلة الحياة الراهنة هي مرحلة الامتحان والابتلاء ، ومن ثم يجد كل شخصٍ

هنا نصيبه مما يكمن في هذا العالم من هدفٍ ومعنىً، وأما حين تأتي الآخرة فلن يتمتع هناك من هدفها ومعنوياتها بنصيبٍ إلا أولئك الذين يُعتبرون عند الله أهلاً لذلك في واقع الأمر !!

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

شَجَرَتَ الزَّقُّومِ : من أخبث الشجر تنبت في النار .

كَالْمُهْلِ : دردى الزيت ، أو المعدن المذاب .

الحَمِيمِ : الماء البالغ غاية الحرارة .

فَاعْتِلُوهُ : فجروه بعنف وقهر .

سَوَاءِ الجَحِيمِ : وسط النار .

بِهِ تَمْتَرُونَ : فيه تجادلون وتمارون .

إن مشاهد جهنم التي عرضها القرآن الكريم في هذا المقام وفي مواضع أخرى، كافية لتملأ قلب كل إنسان ينبض بالحياة قلقاً واضطراباً ، فأي شخصٍ يكون جاداً بشأن مستقبله ومصيره حق الجدية، لابد أن تهزّه هذه الكلمات المروعة هزاً، وتجعله بالتالي يدع طريق الجحيم ويندفع نحو الطريق المؤدي إلى الجنة .

أما الذين ليسوا بجادين بشأن الحقائق، والذين لا يعلمون إلا شهواتهم وحدها، ولا يشعرون بحاجةٍ ما إلى التأمل فيما وراء شهواتهم من عالم الحقائق، فإنهم سيسمعون

هذا النبأ ولا يلقون إليه بالاً، كأنهم لم يسمعوا شيئاً ، فمثل هذه الألفاظ العنيفة المفزعة بالنسبة إلى أمثال هؤلاء كمثل الماء يُراق على حجرٍ صلدٍ، فيسيل من فرقه دون أن ينفذ إلى أعماقه ليرطّبه من الداخل !

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾

سُندُسٍ : رقيق الديباج .

وَإِسْتَبْرَقٍ : غليظه .

وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ: قرناهم بنساء بيض مخلوقات في الجنة واسعات الأعين حسانها .

يَدْعُونَ فِيهَا : يطلبون فيها .

تتضمن هذه الآيات صورةً لدنيا الإنسان المفضلة، تلك التي هي مستقرة في أحلامه، فما من امرئٍ إلا هو يحترق شوقاً إلى دنياه المفضلة هذه، إلا إنه لا يتمكن من الظفر بها في الحياة الراهنة، وإنما سيفوز بدنيا أحلامه هذه في الجنة وبشكل أرقى .

وتلك الدنيا الخالية من جملة أنواع الهم والخوف إنما سيظفر بها أولئك الذين كانوا قد خافوا من الله في الحياة الدنيا ، وسيتمتع بالحياة المليئة بصنوف النعم الأبدية هناك أولئك الذين كانوا قد ضحوا من أجلها بنعم الدنيا المؤقتة ، وسيسعد بذلك الفوز الأخروي العظيم أولئك الذين كانوا قد اجترؤوا على تعريض نجاحهم الدنيوى

للخطر فى سبيل الحصول عليه !!

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

فَٱرْتَقِبْ : فانتظر ما يحل بهم .

إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ : منتظرون ما يحل بك .

إن القرآن كتاب عظيم ولا ريب ، كما أنه كتاب سهل وميسر للغاية ، غير أن كونه سهلاً وميسراً إنما هو من ناحية التذكر والاعتبار ، يعني أن الشخص الذي يدرسه بحثاً عن الحق، سيجده بالطبع ما يكون، وأما الشخص الذي لا يكون جاداً بشأن البحث عن الحق، فليس له من يسرٍ أوْ سهولةٍ ما في القرآن الكريم، ومن شروط كون المرء جاداً في العالم الراهن ألا يكونَ مصاباً بنفسية الانتظار، أي: إن ظهور الحقيقة على مستوى الدليل وحده يكفيه ليؤمن بها !!

سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٥ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٦ ﴾

يَبُثُّ : ينشر ويفرق .

وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ : تقليبها في مهابها وأحوالها .

إن القرآن إذْ يقول بأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم ، فكأنما هو يضع بذلك أمام المخاطبين معياراً قطعياً يمكن على ضوئه أن يختبروا صدقه ، فمعنى كونه نزل من الله "العزيز " إنه كتاب لن يتمكن أحد من التغلب عليه أبداً، وأنه سيفوز بالغلبة والانتصار على معارضيه وأعدائه على أية حالٍ، لا يقف في وجهه أية عقبات أوْ صعوبات مهما كثرت، وقد تم هذا الإعلان في العهد المكي، عندما كانت الظروف غير مواتيةٍ للقرآن تماماً، ولكن الأحداث والتطورات التي وقعت فيما بعد لم تلبث أن صدقت بهذه الحقيقة على نحوٍ مدهشٍ، حيث نالت دعوة القرآن أكبر نجاحٍ في التاريخ البشري على الإطلاق .

وهكذا يقتضي نزوله من عند الله " الحكيم" أن تكون محتوياته كلها مبنية على العقل

والحكمة ، وهذا الأمر هو الآخر ما زالت تتأكد صحته منذ خمسة عشر قرناً من الزمان، لقد نزل القرآن الكريم قبل عصر العلم .. ولكن لم يمكن لأحد بعد - حتى في عصرنا العلمي هذا - أن يعثر على نصٍ من نصوص القرآن يتنافى مع العقل .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الكون هذا الذي يحيط بنا من كل جانب، ويمتد إلى ما لا نهاية، قد صار بكل ما فيه مصدقاً برسالة القرآن ، بيد أن هذا التصديق لن يكون تصديقاً إلا للذين يتمتعون بعقلية التيقّن والاقتناع، والذين يملكون الاستعداد لإدراك الأمر وهو يُعرض عبر الآيات والإشارات !!

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

وَيْلٌ : هلاك أو حسرة أو شدة عذاب .

أَفَّاكٍ أَثِيمٍ : كذاب كثير الإثم .

اتَّخَذَهَا هُزُواً : سخرية أو مهزوءا بها .

وَلاَ يُغْنِي : لا يدفع عنهم .

رِجْزٍ : أشد العذاب .

الاعتراف بالحق يكون، في معظم الأحوال، مرادفاً للتخلي عن كبرياء الذات، وبما أن المرء لا يرضى بالتخلي عن كبريائه، لذا فهو لا يوفق إلى الاعتراف بالحق ، ولكن

الإباء عن الخضوع للحق إباء عن الخضوع لله، ولأمثال هؤلاء عذاب شديد عند الله عز وجل ! والمرء وإن كان يعرض عن الحق بدافع الاستكبار، إلا أنه طالما يتقدم بالدليل النظري تبريراً لمواقفه، غير أن هذا الدليل لا يخرج عن كونه ترديد ألفاظ كاذبةٍ ، فإن شخصاً كهذا يعمد إلى شيءٍ ما ويتخذ منه موضع الطعن والعيب بتأويله على غير وجهه، ثم يأخذ في الاستهزاء والتهكم من الحق، ومن الداعي إليه بناء على ذلك المطعن أوْ العيب المفتعل ، وأمثال هؤلاء يستحقون أشد العذاب وأقساه، لأنهم يزيدون التمرد والطغيان إلى جانب المعصية وسوء العمل ، والأمر الذي يدفع هؤلاء إلى الطغيان هو مركزهم الدنيوي، غير أن المركز الدنيوي لن يغني عن صاحبه في الآخرة فتيلاً !

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

إن الماء - على ما يبدو - شيء مغرق ، ولكن الله تعالى قد جعله خاضعاً لنواميس تمكن السفن والباخرات العملاقة أن تسير على سطح البحار والمحيطات الهائلة من جهةٍ إلى أخرى وتصل إلى مقاصدها بسلامٍ ، وهذا هو شأن الكون بأسره ، فقد جُعل الكون بما فيه مسخراً لخدمة الإنسان، بحيث يستطيع الإنسان أن يستخدمه في تحقيق شتى مآربه كما يشاء، وميزة العالم الراهن هذه هي التي مكنت الإنسان من أن يشيّد هنا صرح المدنية والحضارة الرائع ، وإن هيكل الكون الحالي ليس هو هيكله الوحيد والنهائي، إذْ كان من الممكن أيضاً أن يتم تشكيله بطرق أخرى مختلفة لا تقع تحت الحصر ، ولكن من بين احتمالات كثيرة شتى، إنما تحقق على صعيد الواقع الفعلي احتمال واحد ، وهو الذي كان مفيداً وملائماً لنا نحن البشر !! إن هذه آية، لو وقف عندها

أرباب البصر و البصيرة متأملين لوجدوا فيها درساً عظيماً !

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله : لا يتوقعون وقائعه بأعدائه .

إن الذين لا يوقنون بأن يوم الدينونة أوْ القضاء الإلهي آتٍ عليهم لا محالة، تبلغ منهم الجراءة على ممارسة الظلم والعدوان مبلغاً عظيماً ، حيث إنهم لا يدعون أي طريق ممكن لإلحاق الأذى والضرر بداعي الحق إلا سلكوه ، وعندها تستيقظ في نفس الداعي بواعث الانتقام، ولكن ينبغي للداعي أن يقابل المدعو على أذاه بالعفو والصفح عنه حتى اللحظة الأخيرة ، وأن يركز اهتمامه كله على الدعوة وحدها ، مفوضاً أمر مؤاخذة الناس على سوء أعمالهم إلى الله جل جلاله ، وإن كفاح الداعي لا يتم تقييمه وتقديره باعتبار النسبة العددية لأولئك الأفراد الذين استطاع جذبهم إلى دائرة الحق، وإنما يتم تقييم كفاحه وتقديره عند الله سبحانه بالنظر إلى شدة تمسكه بالحق، وإلى مدى وفائه بمقتضيات كونه داعياً إلى الحق !

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

بَغْياً بَيْنَهُمْ : حسدا وعداوة بينهم .

شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ : طريقة ومنهاج من أمر الدين .

لَن يُغْنُوا عَنكَ : لن يدفعوا عنك .

بَصَائِرُ لِلنَّاسِ : بينات تبصرهم سبيل الفلاح .

إن قوله: ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ - أي بني إسرائيل - هو نفس ما جاء في شأن الأمة المحمدية ، حيث قال : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ... ﴾ [آل عمران ١١٠] إن تحميل شعب ما أمانة الكتاب الإلهي بمثابة تعيين له مسئولاً عن هداية الشعوب الأخرى ، وهذا هو معنى كونه أفضل الأمم أوْ خير الأمم ، وقد كان لبني إسرائيل - من الناحية المبدئية - اعتبار عالمي تماماً كما هو شأن الأمة المسلمة ، غير أن بني إسرائيل لم يلبثوا أن فقدوا استحقاقهم لذلك بإدخال التحريفات على كتابهم .

إن تعاليم الدين الجوهرية تتسم دائماً بالوحدة ، ولكن إضافات العلماء تحدث فيها الاختلاف والتعددية ، حيث يأتي كل عالمٍ بإضافةٍ جديدةٍ بحسب ذوقه وميوله ، ثم ينشغل هذا العالم وأتباعه بعد ذلك في إثبات صحة إضافاتهم وتخطئة إضافات الآخرين، ومن هنا تبدأ الفرق الدينية بالتشكل ، ويصل الأمر في نهاية المطاف إلى انقسام الدين الواحد إلى أديانٍ شتى .

ولما أحال بنو إسرائيل الدين المنزّل إلى دينٍ محرّفٍ، أنزل الله سبحانه على محمد ﷺ هذا القرآن ، وإذْ لم يكن سيُبعث بعده - عليه الصلاة والسلام - نبي ولا رسول، فقد عني الله - سبحانه وتعالى - عناية خاصةً بحفظ القرآن الكريم وصيانته من التحريف، حتى لا تتكرر تلك المأساة من جديدٍ بأن يضيع دين الله في خضم الإضافات البشرية !

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ : اكتسبوا المعاصي والكفر .

إن مَن يزعم أنه سواء عليه أكان يعيش هنا صالحاً أمْ طالحاً، إذْ ينتهي أمره في كلا الحالين إلى الموت والفناء، فإنما يبني في دماغه فكرةً خاطئةً للغاية ، إن زعماً كهذا يتعارض مع الشعور بالعدل، الذي يكمن في فطرة كل إنسانٍ بصورة جبليةٍ . وزد على ذلك أنه إنكار لروح الكون التي تسري في نظامه وتشمل موجوداته . والحقيقة هي أن فطرة الإنسان الداخلية والكون الفسيح المحيط به من الخارج، كلاهما، يدمغ الفكرة القائلة بأن الحياة عبث محض، ليس وراءها غاية معينة أوْ مصير هادف معلوم !!

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

أَفَرَأَيْتَ : أخبرني .

غِشَاوَةً : غطاء حتى لا يبصر الرشد .

اتخاذ الهوى إلهاً معناه : أن تعطي لهواك المقام الأول والأسمى في حياتك. إن من يفكر تبعاً لهواه، ويعمل بمقتضاه، فكأنما قد اتخذ من هواه إلهه . إن عقل الإنسان مزود بالقدرة التامة على تمييز الحق من الباطل ، بيْد أن الشخص الذي يجعل عقله تابعاً لهواه، يصل به الأمر إلى حيث إنه يرى دلائل الحق ساطعةً متجليةً أمامه، ولكنه لا يكاد يستشعر بثقلها ، فيرفض كل دليلٍ مستنداً على بعض التأويلات الكاذبة الواهية ، وسلوك الإنسان هذا لا يلبث أن يطمس قواه العقلية كلها، إذْ تعود أذناه تسمعان

الألفاظ ولكن من غير إدراكٍ لمعانيها ، وعيناه تبصران الحقيقة، إلا أنها تعجزان عن استلهام الدرس أوْ العبرة منها ، وقد يصل كلام بليغ مؤثر إلى قلبه، ولكنه لا يكاد يهز مشاعره أوْ يحرك منه ساكناً !!. لقد جعل الله من القوى العقلية مدخل الهداية ، ولكن الشخص الذي يغلق هذه الأبواب لانغماسه في عبادة هواه، فمن أي طريقٍ يستدخل الهداية الإلهية إلى قلبه ؟!

﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ ليس هذا بقول عامة الناس ، وإنما يردد أقاويل كهذه دوْماً أفراد من صفوة الناس ، وهم الذين غالباً ما يحتلون مركز القيادة الفكرية في المجتمع بسبب ذكائهم ، غير إنهم إنما يقولون ذلك بناءً على الظن والقياس ، وليس بناء على أي علمٍ حقيقي ، وفي مقابل ذلك فإن ما يأتي به الرسول يكون مبنياً على أساسٍ من الحقيقة الصلبة .

إننا نشاهد كل يومٍ أن شخصاً يولد فيدخل في حيز الوجود بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ، ثم يعتريه الموت بعد ذلك مرةً أخرى فيعود غير موجودٍ،وعليه فكأن كل امرئ هنا ينال الحياة بعد "موتٍ" ، ويموت مرة أخرى بعد الحياة ، وهذه قرينة تشير إلى أنه كما كانت الحياة بعد الموت أول مرةٍ ، كذلك ستكون حياة بعد الموت مرةً أخرى . ومن هذا يثبت إمكان الحياة بعد الموت بوضوحٍ تامٍ .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ

﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾
هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

جَاثِيَةً : باركة على الركب لشدة الهول .

كِتَابِهَا : صحائف أعمالها .

نَسْتَنسِخُ : نأمر الملائكة بنسخ .

القائمون على أساسِ الله في الدنيا إنما يقومون على أساسٍ من الحق . أما الذين قاموا هنا على أساسٍ آخر سواه، فإنهم قائمون على أساسٍ من الباطل ، وأمثال هؤلاء سيعودون في الآخرة بلا موطئ قدمٍ يستقرون عليه؛ ذلك لأن الشيء الذي ظنوه في الدنيا "أساساً"، لم يكن من الأساس في شيءٍ ، وإنما كان خداعاً محضاً ، فحين تجلى وجه الحقيقة اختفى وتلاشى. والمراد بـ "استنساخ الأعمال" ليس هو الاستكتاب بالقلم بمعناه المعروف، وإنما هو تسجيل للأعمال ، حيث يتم تسجيل نيات الإنسان وأقواله وأفعاله ، أولاً بأول ، وفق تدبير إلهي بمنتهى الدقة ، وعلى حسب هذا التسجيل ذاته ستكون معاملة الإنسان في الآخرة سلباً أو إيجاباً ، وسيكون هذا التسجيل دقيقاً وحقيقياً لدرجةٍ لن يستطيع معها أحد أن ينكره هناك!!

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾

ليس المراد بالاستكبار هنا هو الاستكبار بإزاء الله ، وإنما بإزاء الداعي إلى الله ،

حيث إن الإيمان بأمر الله في العالم الراهن يكون عملياً مرادفاً للإيمان بأمر الداعي ، وعليه فالمصابون بداء الاستكبار ربما يستشعرون بالدون أو يعتبرون عاراً عليهم أن يؤمنوا بقول إنسانٍ مثلهم ، ومن ثم يقابلوه بالإهمال والإعراض ، وعلى نقيضٍ من ذلك فإن الذين تخلو صدورهم من نفسية التكبر والاستعلاء ، سرعان ما يخضعون له ، إن الطائفة الأولى تستحق غضب الله ، بينما تستحق الطائفة الأخيرة رحمة الله .

وإن شخصاً عندما ينكر الحق ، فيلجأ إلى ترديد ألوانٍ شتى من الأقاويل تبريراً لإنكاره، إذْ يحاول تارةً إثبات أن الداعي ممن لا يوثق به ، ويثير طوراً بعض الشكوك أو الشبهات المفتعلة حول رسالته، إلا أنه سينكشف يوم القيامة بجلاءٍ أن كل هذه كانت أقاويل خرجت من العقلية الإجرامية العنيدة ، وليس من العقلية الجادة المحبة للحق!!

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

وَحَاقَ بِهِم : نزل أو أحاط بهم .

نَنسَاكُمْ : نترككم في العذاب .

وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ : منزلكم ومقركم النار .

وَغَرَّتْكُمُ : خدعتكم ببهرجها .

يُسْتَعْتَبُونَ : يطلب منهم الرجوع إلى ما يرضي الله .

إن المرء حين يمارس عملاً سيئاً ما في العالم الراهن ، فلا يواجه عاقبته الوخيمة من

فوره؛ مما يجعله يزداد جراءة على ارتكاب المعصية وفعل السوء ، وإذا تم تخويفه من نتائج سوء العمل ، فلا يكاد يصغي إلى هذا التخويف بجدية، غير أن نتائج سيئاته ستكون حاضرةً أمامه في الآخرة ، وسيجد نفسه وقد حُوصر بسوء أعماله من كل جانبٍ، وعندها سوف لا يلبث أن يبادر بإقرار الحق الذي كان قد اعتبره من الهوان والخسّة بحيث لم يزل يستهزئ به طول حياته .

وسيقر الإنسان في الآخرة بالحق الذي ظل ينكره ويكذبه في الحياة الدنيا، غير أن ذلك لن يحظى بالقبول هناك، ذلك بأن الإقرار بالحق لا قيمة له إلا إذا تم على مستوى الغيب وليس على مستوى الشهود .

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

وَلَهُ الكِبْرِيَاءُ : العظمة والملك والجلال .

لما كان خالق الكون ، ومالكه واحداً ليس غير ، وجب أن يكون الحمد كله له وحده ، وأن يوجه الإنسان اهتمامه بكليته إليه وحده ، وأن يتخذه هو كل شيءٍ في حياته .

سورة الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝ ﴾

وَأَجَلٍ مُّسَمًّى : بتقدير أجل مسمى وهو يوم القيامة.

إن دراسة الكون تدلنا على أن هناك حكمةً ومعنىً يسودان كل ناحيةٍ من نواحيه ، إذن فإن مصنعاً كهذا ، الذي ينطوي منذ بدايته على قصدٍ ومعنىً ، تُرى هل يمكن أن يعود في نهايته عبثاً محضاً بلا معنىً ؟! كلا .. كلا .. الحق في ذاته شيء محكم للغاية. إنه أعظم قوةٍ في هذا الوجود ، ومع ذلك فما السر في أن الحق إذا ما تم عرضه على الناس ، تلقاه أكثرهم بالرفض والإنكار؟

السر في ذلك أن الناس إنما يساق إليهم الحق في عالمنا الراهن في صيغة الخبر ، وأما في الآخرة فسوف يستحيل الحق واقعاً يفرض نفسه على الناس فرضاً ، وعندئذ سيخر أمام الحق هناك في خضوعٍ واستسلام حتى أولئك الذين كانوا قبلئذٍ يقابلون الحق بالإهمال والإعراض باعتباره غير ذي أهميةٍ أو قيمةٍ تذكر !!

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟

بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

أَرَأَيْتُم : أخبروني .

لَهُمْ شِرْكٌ : شركة ونصيب مع الله تعالى .

أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ : بقية من علم عندكم .

في تفسير قوله : ﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ ، قال ابن كثير: "أي لا دليل لكم لا نقلياً ولا عقلياً على ذلك" (١).

العلم في الحقيقة نوعان : أحدهما : العلم الموحى أو الملهَم (Revealed knowledge)، وهو الذي وصل إلى الناس بواسطة الأنبياء والمرسلين . وثانيهما : العلم الثابت أو المبرهن عليه (Established knowledge) ، وهو الذي يكون قد ثبت كونه علماً عن طريق الأبحاث والتجارب الإنسانية ، وأي واحدٍ من هذين العلمين لا يدل على أن هناك موجوداً آخر في هذا الكون ، غير الله الواحد الأحد .

وإذا لم يكن أي مصدرٍ من مصدري العلم النقلي والعقلي شاهداً على الشرك ، فكيف إذن ، يجوز للإنسان أن يشرك بالله شيئاً اعتقاداً أو عملاً ؟!، والحق أن كل شيء يتخذه المرء سنداً له وموضع ثقته من دون الله سيتبرأ منه يوم القيامة ، ولن يمده بنصرٍ أومعونةٍ ما ، وهو أحوج ما يكون إلى النصر والمعونة يومئذٍ!

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾

(١) انظر : مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٥ .

تُفِيضُونَ فِيهِ : تندفعون فيه طعنا وتكذيبا .

لقد كان المخاطبون الأولون للقرآن الكريم من العرب يرفضون دعوة القرآن زاعمين أنها لا تتفق مع دين أكابرهم ، ولم تكد الجماهير تسمع ذلك ، وقد رسخت في عقولها الساذجة عظمة الأكابر وقداستهم ، حتى تنفر من رسالة القرآن،غير أن القرآن كان ينطوي على جانبٍ آخر،وهو إعجازه الأدبي، حيث كان كل عارفٍ بلسان العرب يشعر في قرارة نفسه بأن هذا كلام غير عاديٍ،وللتهوين من شأن القرآن وتقليل أهميته من هذه الناحية الثانية،لم يلبث قادة الكفر والضلال أن قالوا: إن هذا سحرٌ مبين .

صحيح أن كلام بعض الناس يتميز بروعةٍ بيانية فائقة وبلاغة غير عادية لا تداني ، ولكن بلاغة الكلام الإنساني تقف عند حدٍ لا تتجاوزه، أما بلاغة القرآن وإعجازه الأدبي فهما أبعد من هذا الحد بكثيرٍ ، بل ليس هنالك من حدٍ يقفان عنده، إن عظمة القرآن الأدبية أجل من أن تُعد من نتاج العقل الإنساني القاصر المحدود .

وعندما يأبى الطرف المقابل إلا الإصرار على العناد والمكابرة ، فإن الإنسان الجاد لا يسعه عندئذٍ سوى أن يلوذ بالصمت قائلاً بأن أمري وأمرك إلى الله ، وكفى به شهيداً بيني وبينك ، بيد أن هذا ليس بالتراجع أو الانسحاب ، وإنما هو تدبير إقدامي أو هجوم خلقي إن صح هذا التعبير ، فحين يلزم المرء الصمت أمام رجلٍ عنيدٍ مكابرٍ ، فإنه يوقفه بين يدي ضميره هو بإبعاد نفسه عن مواجهته ، حتى يستيقظ شعوره إن لم يكن قد فتر وخمد خموداً نهائياً !

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا
يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى

ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

بِدْعاً : بديعا منفردا فيما جئت به .

أَرَأَيْتُمْ : أخبروني ماذا حالكم .

كان اليهود عند مشركي مكة حاملين لعلوم الدين ، وقد كان هؤلاء يعتبرونهم شعب الأنبياء والرسل ، كما كان المشركونَ واليهود يلتقي بعضهم ببعض أثناء الرحلات التجارية . وفي خلال العهد المكي سأل بعض المشركين بعض اليهود عن النبي ، فأجاب أحد الأحبار قائلاً : إن هناك نبياً كان سيُبعث في هذه المنطقة حسب النصوص الواردة في كتبنا. وغير بعيد أن يكون هذا هو ذلك النبي المرتقب. وقد أقر هذا الحبر اليهودي بنبوته – عليه الصلاة والسلام – على نحوٍ غير مباشرٍ .

وكان التاريخ يشهد – من ناحية – بأن أنبياء الله يأتون بكتابٍ من عند الله ، ومن ناحيةٍ أخرى كان مكتوباً في الصحفُ السماوية السابقة أن نبياً سوف يُبعث من بني إسماعيل، هذا إلى جانب كون كلام الرسول – ﷺ– وحياته منطويتين على كل العلامات بوضوحٍ ، تلك التي لا توجد إلا في أشخاص الأنبياء والمرسلين وحدهم ، وبالرغم من توافر هذه العلامات والقرائن الصارخة ، فإن الذين كانوا ينكرون رسالة النبي العربي– ﷺ – لم يكونوا يفعلون ذلك لأي سببٍ معقولٍ ، وإنما فعلوا ذلك حفاظاً على كبريائهم وسيادتهم التي بدا لهم أنها ستنهار فيما لو آمنوا بشخصٍ مازالوا يعدونه رجلاً عادياً ، على أنه نبيٍ مرسل من عند الله!. والشأن أن الذين يصل بهم الأمر إلى حيث يستبد بهم الغرور وتتملكهم نفسية الاستكبار إذا ما ظهر الحق أمامهم ، فإن عقولهم تقودهم دائماً نحو الاتجاه الخاطئ المعوج ، ولا تتجه بهم الوجهة الصحيحة القويمة أبداً .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

إِفْكٌ قَدِيمٌ : كذب متقادم .

إن الذين سبقوا إلى الإيمان برسول الله - ﷺ- وبادروا بالانضواء تحت رايته ، كان من بينهم أناس ينتمون إلى طبقة الضعفاء والعبيد ، مثل: بلال، وعمار، وصهيب ، وخباب وغيرهم ، كما كان فيهم - إلى جانب هؤلاء - أفراد ينتمون إلى الأسر الشريفة ، مثل : أبي بكر بن أبي قحافة ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب .. إلخ .. غير أن خصومه - عليه الصلاة والسلام - إنما كانوا يذكرون الصنف الأول من أتباعه وحده، ولم يكونوا يتناولون بالذكر الصنف الأخير . ومرجع ذلك إلى أن المرء إذا امتلأ بمشاعر الحقد والعناد والمكابرة نحو أحدٍ ، فإنه يصير بالنسبة إليه أحادي الجانب ، بحيث يصرف نظره عما فيه من جوانب الخير ، ولا يتناول بالذكر سوى الجوانب التي يمكن أن يتخذها ذريعةً إلى تحقيره والتهوين من شأنه .

هكذا فقد كان واقعاً لا مرية فيه أن رسول الله - ﷺ - إنما جاء بما جاء به سائر الأنبياء والرسل السابقين من ذي قبل ، فقد جاء - عليه الصلاة والسلام - بصدقٍ أزلي أبدي ، وقد كان في إمكان خصومه أن يصفوا هذا الواقع بأن : "هذا صدق قديم" ، ولكنهم وصفوه ، بدلاً من ذلك ، بقولهم : ﴿ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ ، وهذا النوع من الجور وعدم الإنصاف كان لدى البشر في قديم الزمان ، وهو لم يزل يوجد في الناس اليوم كذلك!!

﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ

فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

من دلائل صدق القرآن الكريم أن الكتب السماوية السابقة قد ظلت تتنبأ به قرناً بعد قرنٍ ، ولا زالت هذه النبوءات موجودةً في التوراة والإنجيل حتى هذا اليوم، وهكذا جاء القرآن مصداقاً ومصدقاً لكل ما سبق بشأنه من البشائر والنبوءات السماوية، وهذا قرينة واضحة تبرهن على أن القرآن كتاب إلهي في واقع الأمر ، ولولا ذلك لما أمكن التنبؤ به على هذا النحو الدقيق قبل نزوله بمئات بل آلاف السنين، وفي شرح قوله : ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ روي عن عبد الله بن عباس ما معناه : ثم استقاموا على أداء فرائضه.

إن الإيمان عهد مقدس ، وفي أثناء حياته يمر المرء من حينٍ لآخر بمواقف يجد نفسه فيها بين خيارين : أحدهما يتفق مع عهد إيمانه ، والآخر يتعارض معه ، فمن أخذ نفسه في مواقف كهذه بالعمل وفق عهد إيمانه ، فقد أثبت الاستقامة ، وأما من عجز عن أن يعمل في تلك اللحظات الحاسمة بمقتضى عهد إيمانه ، فقد فشل في إثبات الاستقامة، إن الذين لا يقيمون الدليل على الاستقامة ، هم الظالمون ، ولن يغني دعواهم الإيمانَ عنهم شيئاً ، وأما الذين أقاموا الدليل على الاستقامة فأولئك هم الذين سيتم إسكانهم في الجنان الأبدية !!

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي

أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ : أمرناه وألزمناه .

كُرْهاً : ذات كره ومشقة .

وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ :مدة حمله وفطامه من الرضاع .

بَلَغَ أَشُدَّهُ : بلغ كمال قوته وعقله .

رَبِّ أَوْزِعْنِي : ألهمني ووفقني ورغبني .

أسلوب التناسل البشري باختصارٍ هو أن الإنسان يستمد وجوده عن طريق أمٍ وأبٍ، ثم إنهما يقومان بعد ذلك بتنشئته ورعايته حتى يكبر ويقوم على رجليه،وكأن هذا نظام فطري لتربية الإنسان، والحكمة منه أن يتولد في نفس الإنسان هكذا شعوره بما له من حقوقٍ وما عليه من واجباتٍ، وأن تستيقظ في داخله العاطفة القائلة بأن عليه أن يشكر لوليّ نعمته ويؤدي حقه عليه ، وهذه العاطفة كما تُعلِّم الإنسان القيام بتأدية حقوق الآخرين من بني نوعه ، تعلمه كذلك الوفاء بحقوق الله خالقه ومالكه العظيم ، والذين يتلقون الدرس من معلم الفطرة ، ويوقظون بالتالي شعورهم ووعيهم لدرجة تجعلهم يتعرفون على حقوق الكل ، فيقومون بأدائها خير قيامٍ ، أولئك هم الذين يُعتبرون في الآخرة أهلاً لرحمات الله الأبدية !

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى
وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

أُفٍّ لَّكُمَا : كلمة تضجر وتبرم وكراهية .

أَنْ أُخْرَجَ : أبعث من القبر بعد الموت .

خَلَتِ الْقُرُونُ : مضت الأمم ولم تبعث .

وَيْلَكَ : هلكت والمراد حثه على الإيمان .

آمِنْ : صدق بالله وبالبعث .

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ : أباطيلهم المسطرة في كتبهم .

حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ : وجب عليهم وعيد العذاب .

قَدْ خَلَتْ : مضت وتقدمت .

الولد البار المطيع لوالديه يكون بالطبع مطيعاً لله سبحانه وتعالى كذلك ، وأما الولد العاق فلا يكاد يبلغ أشده حتى ينسى أو يتناسى أن والديه قد تحملا ما لا يُحصى من المتاعب والآلام والمشقات حتى أوصلاه إلى ما هو عليه اليوم.

وإنه ليس هنالك أحد أنصح للمرء من أبويه ، وإن مشورة الأبوين التي يقدمانها إلى أولادهما تكون نابعةً من النصح الخالص ، بكل ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى ، ولذا فينبغي للإنسان أن يُعنى بمشورة أبويه الصالحين أشد العناية وأوفاها، وأما الشخص الذي ينهر أبويه الصالحين استخفافاً بمشورتها ، فإنه يُبدي بسلوكه هذا أنه إنسان قاسي القلب إلى أقصى حدود القسوة ، وهؤلاء هم الذين سيلقون في نهاية المطاف خسراناً ما بعده خسران!

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ

ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

عَذَابَ الْهُونِ : الهوان والذل .

إن الحق إذْ يتجلى أمام شخصٍ ما ، وهو لا يختاره لأجل المصلحة الدنيوية والمنفعة المادية ، فيكون معنى ذلك أنه أعطى الأهمية للدنيا بالقياس إلى الآخرة ، وأنه فضل لنفسه طيبات الدنيا على طيبات الآخرة، وهكذا الشعور بكبرياء ذاته هو الآخر شيء ألذ ما يكون عند المرء ، وحين يقتضي الحق أن يتقبله المرء على حساب كبريائه ، وهو لا يتلقاه بالقبول حفاظاً على كبريائه ، فكأنما هو يؤثر طيبات الدنيا متخلياً عن طيبات الآخرة باعتبارها تافهةً لا تستحق أن يعيرها جانب اهتمامٍ .

وفي الآخرة سيتعرض لعذاب الذلة والهوان كل أولئك الذين أهملوا طيبات الآخرة لأجل طيبات الدنيا على هذا النحو ، وإنما سينال الكل جزاءه هناك يحسب عمله في هذه الدنيا قل أو كثر ، خيراً كان أو شراً !

﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أَخَا عَادٍ : هوداً ﷺ .

بِالأَحْقَافِ : واد بين عمان وأرض مهرة .

لِتَأْفِكَنَا : لتصرفنا ، أو لتزيلنا بالإفك .

كانت مساكن عاد بجنوب الجزيرة العربية في تلك المنطقة التي تعرف اليوم بالربع

الخالي ، لقد قطع هذا الشعب أشواطاً شاسعةً في ميدان الرقي والتقدم ، غير أن رقيه لم يلبث أن أصابه بالغفلة والبطر والطغيان ، فبعث الله من بين أبنائه هوداً لكي يبلغه رسالة ربه ، وقام هود يدعو قومه إلى الله ويحذُرهم بأسه ونقمته ، إلا أنهم لم يرضوا بقبول الإصلاح ، وقد استقبلوا نبيهم بجهالةٍ وسوء أدبٍ ، إلى أن تعرضوا لبطش الله ، حيث أخذهم عذاب شديد لدرجة أن مناطقهم الخصبة العامرة لم تلبث أن تحولت إلى صحراء قاحلة مجدبة!!

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ (٢٥) ﴾

عَارِضاً : سحابا يعرض فى الأفق .

تُدَمِّرُ : تهلك .

عندما رأى قوم عاد سحاب العذاب يزحف نحو أوديتهم ظنوه سحاب المطر العادي، ولم يتمكنوا من إدراك حقيقته إلا بعد أن فوجئوا بعاصفة العذاب وقد دخلت مسكانهم تدمر كل شيءٍ تدميراً .. آه ! ما أظلم هذا الإنسان وأعتاه !! حيث إنه لا يعترف بالحق حتى قبل تعرضه للهلاك بلحظةٍ واحدةٍ ، وإنه لا يكاد يتقدم للاعتراف إلا حين يكون أوان الاعتراف قد فات!.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ

وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا

ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

مَكَّنَّاهُمْ : أقدرناهم وبسطنا لهم .

فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ : في الذي ما مكناكم فيه .

فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ : فما دفع عنهم .

وَحَاقَ بِهِم : أحاط أو نزل بهم .

وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ : كررنا بأساليب مختلفة .

قُرْبَاناً آلِهَةً : متقربا بهم إلى الله .

إِفْكُهُمْ : أثر كذبهم في اتخاذها آلهة .

يَفْتَرُونَ : يختلقونه في قولهم إنها آلهة .

إن المكانة الدنيوية التي كان يتمتع بها سادة قريش جعلت منهم طغاةً متمردين ، فجاء القرآن يصرف أنظارهم إلى قوم عاد المجاورين لهم ، والذين كانوا من الناحية التمدنية، على درجةٍ أعلى وأكبر منهم بكثيرٍ ، ولكن عندما جاء القضاء الإلهي لم تلبث مظاهر عظمتهم وأمجادهم كلها أن صارت هباءً ، ولم يعد ينجدهم من بأس الله أي شيءٍ من تلك الأشياء التي كانوا قد وضعوا ثقتهم فيها معتبرين إياها سنداً لهم .

وإن الإنسان وإن كان سيصير آخر الأمر صغيراً بإزاء الله ، إلا أن نظام دنيانا قد أنشئ على نحو يضطر المرء بين الحين والحين إلى أن يصغر أمام الآخرين في عالمنا الراهن، وإن وقائع كهذه آيات الله ، ولو تأمل المرء هذه الآيات واعتبر بها لتناول نفسه بالتصغير هنا قبل أن يصغّر في اليوم الآخر ، وعاد واقعياً في هذه الدنيا ذاتها قبل

الآخرة . إن هناك أنواعاً شتى من الحوادث والواقعات تتجلى أمام الإنسان بوصفها آيات إلهية، غير أنه يقف تجاهها موقف الأصم والأعمى ، ولا يكاد يستعد لكي يستلهم منها درساً أو عبرة !!

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

صَرَفْنَا إِلَيْكَ : أملنا ووجهنا نحوك .

أَنصِتُوا : اسكتوا واصغوا لنسمعه .

قُضِيَ : أتم وفرغ من قراءة القرآن .

فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ : لله فائت منه بالهرب .

في العام العاشر من البعثة النبوية كانت الظروف المحيطة برسول الله - ﷺ- في مكة قد اشتدت وطأتها إلى أقصى الحدود فخرج - عليه الصلاة والسلام - إلى الطائف رجاء أن يجد بين أهلها من ينصرونه ويقفون إلى جانبه ، ولكنهم استقبلوه شر استقبالٍ ، وفي طريق عودته إلى مكة نزل بوادي النخلة، حيث قام من نومه في جوف الليل يصلي، فاستمع إليه - وهو يتلو في صلاته آيات القرآن الكريم - طائفة من الجن ، فلم يلبثوا أن آمنوا به في الحال .

إن هناك طائفة كانت ترفض القرآن أشنع الرفض ، بينما كانت طائفة أخرى في الوقت نفسه تتلقى القرآن بالقبول ، وكان قبولها للقرآن مصحوباً بحماسٍ بالغٍ واندفاعٍ شديدٍ لدرجة أنها عادت مبلغةً له منذرةً به لبني جنسها!!

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ : لم يتعب به أو لم يعجز عنه .

بَلَى : هو قادر على إحياء الموتى .

إن ظهور هذا الكون الهائل - الممتد أمامنا بشكل السموات والأرض - إلى حيز الوجود ، ثم سيره الدائب المتأصل بمنتهى الدقة والتوافق والانسجام منذ بلايين السنين ، مما يثبت أن خالقه يملك قوى عظيمة وطاقات جبارة . كما يدل أيضاً على أن إيجاد الكون لم يسبب له التعب أو الإعياء ، ولو كانت عملية الخلق والإيجاد قد أرهقته، لما رأينا الكون يسير بهذه الدقة المتناهية ، وإن قدرة الله وطاقاته الجبارة التي تتجلى آثارها الباهرة على مستوى الكون المنظور ، كافية في حد ذاتها للتأكد من أن إحياء النوع الإنساني بعد موته من جديدٍ ، ومحاسبته على أعماله أيسر وأهون ما يكون عليه ، فإنه على كل شيءٍ قدير.

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

أُوْلُو العَزْمِ : ذوو الجد والثبات والصبر .

بَلاغٌ : هذا تبليغ من رسولنا .

الداعي إلى الحق لابد له من الارتكاز الدائم على دعامة الصبر ، والصبر في جوهره هو إعراض الداعي عن أذى المدعو وإساءاته واستمراره في إيصال الدعوة إلى المدعو رغم عناده وتعنته وإنكاره ، وكون الداعي ناصحا للمدعو على كل حالٍ ، مهما كان يعاني من جانب المدعو من ألوان المتاعب ، وهذا الصبر ضروري لأنه بدون ذلك لا تقوم حجة الله على المدعو ، وقد سار أنبياء الله ورسله العظام قاطبةً على هذا الدرب ، درب الصبر والاستقامة ، في صدد القيام بواجب الدعوة إلى الحق على اختلاف الأزمان والأماكن ...، إذن فلا بد للذين يريدون النهوض بأعباء الدعوة إلى الحق بالنيابة عن حضرات الأنبياء والمرسلين أن يتأسوا بأسوتهم هذه ، إن مقام الدعاة محجوز عند الله لأولئك الذين يستطيعون إظهار الشجاعة للصبر والتحمل .

سورة محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾

أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ : أحبطها وأبطلها فلا نفع لها .

كَفَّرَ عَنْهُمْ : أزال ومحا عنهم .

وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ : حالهم وشأنهم في الدين والدنيا .

أضل - أي أبطل وأحبط- أعمال الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله؛ لأنهم إذْ لم يقيموا الدليل على تديّنهم على المستوى الشعوري؛ فقد اعتُبرت كل حسناتهم وصالح أعمالهم التي كانوا يمارسونها باطلةً لا قيمة لها .

لقد كان قدماء العرب يعدون أنفسهم من أمة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - حيث كانوا يتمتعون بشرف إدارة شئون الكعبة - بيت الله الحرام- كما كانت تُقام عندهم أيضاً عبادات الصلاة والصيام والحج بشكلٍ ما، هذا إلى جانب تمسكهم ببعض عادات النبل والكرم والمروءة كخدمة الحجاج، والإحسان إلى ذوي القربى، ونجدة المظلوم وقري الضيف وما إلى ذلك ، غير أن هذه الأعمال كلها لم تكن جزءاً أصيلاً من تدينهم الشعوري، وإنما كانت جزءاً من حياتهم على وجه التقليد المحض، فلم يكونوا

يمارسونها إلا لكونها مازالت رائجةً بينهم منذ مئات السنين .

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾

فَضَرْبَ الرِّقَابِ : فاضربوا الرقاب ضربا .

أَثْخَنتُمُوَهُمْ : أوسعتموهم قتلا وجراحا وأسرا .

فَشُدُّوا الوَثَاقَ : فأحكموا قيد الأسارى منهم .

مَناً : بإطلاق الأسرى بغير عوض .

فِدَاءً : بالمال أو بأسارى المسلمين .

حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا : آلاتها وأثقالها ، والمراد حتى تنقضي الحرب .

لِّيَبْلُوَ : ليختبر ، فيمحص المؤمنين ويمحق الكافرين .

فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ : فلن يبطلها بل يوفيهم ثوابها .

المراد بالكافرين هنا: الذين رفضوا الإيمان رغم قيام الحجة عليهم، وأشعلوا ضد رسول الله - ﷺ- نيران الحرب بغير الحق، وهكذا اضطروه - عليه الصلاة والسلام - إلى اتخاذ خطوة دفاعيةٍ ، وبالنسبة إلى مثل هؤلاء الكافرين المعتدين أمر الله سبحانه المؤمنين بأنكم إذا ما التقيتم به في ميدان الحرب، فاستميتوا في قتالهم حتى تحطموا قوتهم وتكسروا شوكتهم، لكي لا يعودوا قادرين مستقبلاً على الوقوف في وجه دعوة الحق!!

وقد جرت سنة الله تعالى بإهلاك الأمم والشعوب التي أنكرت أنبياءها بعد قيام الحجة، وأما بالنسبة إلى نبي آخر الزمان، فقد كان مطلوب الله هو أن يتم القضاء بواسطته هو وأصحابه على عصر الشرك، وبناءُ تاريخٍ جديدٍ على أساسٍ من التوحيد ، وانتخاب الأفراد صانعي التاريخ كهؤلاء لم يكن ممكناً إلا في ظل ظروفٍ صعبة وشديدة ، ومن ثم فقد تم الوصول إلى هذا الغرض نفسه بدفع الرسول وصحابته إلى الخوض في غمار الحرب التي أوقدها أعداء الإسلام .

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾ بمعنى : هداهم إليها، وقال محمد بن كعب : يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾

فَتَعْساً لَّهُمْ : فهلاكا ، أو عثارا أو شقاء لهم .

فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ : فأبطلها لكراهتهم القرآن .

دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ : أطبق الهلاك عليهم .

مَوْلَى : ولي وناصر .

إن الله هو مُظهر الأحداث والوقائع كلها ، إلا أنه يُظهر الوقائع في ستار الأسباب والعلل ، وهذا هو الشأن فيما يتعلق بالدين كذلك ، فالله - سبحانه وتعالى - وإن كان

يريد أن تتحطم قوة الباطل وتندحر، ويتمتع الحق بالغلبة والاستقرار في الأرض، غير أن إظهار هذه الواقعة يتطلب أفراداً يكونون بمثابة ستارٍ بشري لتصرف اليد الإلهية وراءها ، وذلك ما عُبّر عنه في هذا المقام بـ " نصرة الله " وحينما تهب طائفة لنصرة الله، فإنها تعمل على إثبات كون المنكرين منكرين، حيث إن القائمين بنصرة الله من شأنهم أن يدعوا الناس إلى الله بمنتهى الجدية والنصح والإخلاص، ويتجنبوا كل سلوكٍ ينافي الحق، وهم يشهدون لدين الله، ويجعلوا أمر الحق بالتالي واضحاً ثابتاً إلى أقصى الحدود، حتى تقوم على المنكرين تلك الحجة التي يريدها الله تعالى للقضاء بين العباد في محكمة الآخرة !

إن المبطلين مقضي عليهم أن يُغلبوا على أمرهم حتماً، وإن أتباع الحق مكتوب لهم أن ينتصروا ويتغلبوا عليهم حتماً كذلك، ولكن بشرط أن يقوم أتباع الحق بذلك العمل الذي لابد من القيام به لاستحقاق نصر الله وحمايته وفق السنة الإلهية !

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ۝١٢ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ۝١٣ ﴾

مَثْوًى : موضع ثواء وإقامة لهم .

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ : كثير من القرى .

هذا وعيد تنبأ به رسول الله – ﷺ- بأمرٍ من الله، مخاطباً كفار مكة الذين اضطروه إلى الخروج منها، بأن أكلكم وشربكم وتقلبكم في أعطاف العيش الناعم، لا يجعلكم تظنون أنفسكم أحراراً، وإنما أنتم في قبضة الله محاصرون بقدرته التي لا تحد، ودليل ذلك أنكم إن ظللتم مصرين على كفركم وعنادكم، فسوف يحل بكم الهلاك والدمار

المستأصل وفق الناموس الإلهي،وقد تحقق هذا الواقع على حسب النبوءة تماماً،حيث تمكن حَملة لواء التوحيد من إحراز الغلبة والانتصار في نهاية المطاف!

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

مَثَلُ الجَنَّةِ : وصفها – ما تسمعون .

غَيْرِ آسِنٍ : غير متغير ولا منتن .

عَسَلٍ مُّصَفًّى : منقى من جميع الشوائب .

القيام على بينةٍ – أي على دليلٍ – يعني بناء حياتنا على أساسٍ من الحقيقة الواقعة . أما الذي يقوم على أهوائه فهو ينحرف عن الحقيقة الواقعة. إنه يريد أن يبني لنفسه في دنيا الله هذه دنيا مستقلةً على غير مرضاة الله !

وفي عالم الامتحان الراهن ، وإن كانت الفرص والمواقع متاحةً لكلا الفريقين على حدٍ سواء، إلا أن الفريق الأول وحده هو الذي سينال نصيباً من نعيم الله الأبدي في عالم الآخرة الحقيقي ، أما الفريق الآخر فسيظل هناك يتجرع مرارة الذل والخيبة والخسران أبد الآبدين !!

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ

ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

مَآءً حَمِيمًا : بالغا الغاية في الحرارة.

مَاذَا قَالَ ءَانِفًا : ماذا قال الآن أو الساعة القريبة ؟

من علامات المنافق أنه إذا حضر مجلساً جاداً، تظاهر بسمت الأدب والجد والوقار، غير أنه يجلس هناك شارد الذهن مصروف الاهتمام إلى أشياء أخرى، بحيث لا يكاد يعي شيئاً مما يدور فيما حوله من حديث، ومن ثم فإذا خرج من المجلس، توجه إلى أهل العلم الآخرين سائلاً ! " ماذا كان يقول الشيخ الساعة في مجلسه"؟!

وهذا ثمن يُضطرون إلى دفعه بسبب عبوديتهم للشهوات، فهم يجعلون هواهم هو الغالب المسيطر على نفوسهم، ويأخذون في الانسياق وراءه بدلاً من الانسياق وراء الدليل والبرهان، وتكون النتيجة أن تنطمس حواسهم وتصاب شيئاً فشيئاً بالبلادة والخمول، ولا تعود عقولهم قادرة على إدراك الحقائق السامية اللطيفة .

وعلى نقيضٍ من ذلك فالذين يعطون الأهمية للحقائق ويأخذون أنفسهم بالخضوع والاستسلام للدليل الصادق، فإنهم ينعشون بذلك استعدادهم الفكري، ولا تزال معرفة أناسٍ كهؤلاء تتزايد يوماً بعد يومٍ، إذْ أنهم يظفرون بإيمان دائم التجدد والنماء وغير قابلٍ للجمود أوْ النقصان أبداً !

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

جَآءَ أَشْرَاطُهَا : علاماتها ومنها مبعثه ﷺ .

فَأَنَّى لَهُمْ ؟: فكيف . أو من أين لهم ؟

ذِكْرَاهُمْ : تذكرهم ما ضيعوا من طاعة الله .

يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ : متصرفكم حيث تستقرون .

الشخص الذي لا يتنبه على سابق إنذار بوقوع الزلزال، فكأنما هو ينتظر أن يقع الزلزال فعلاً، لأن كل ثانيةٍ تمضي تُقَرِّبه من الزلزال ، وكذلك لا يكاد يتنبه المرء ولا يأخذ حذره من نذير القيامة ، ولكنه إذا فوجئ بقيام الساعة، فسيأخذ في الاعتراف والتسليم !!

الاستغفار في جوهره تعبير عن الشعور بالعجز ، إن الاضطراب أوْ التهيّج النفسي الذي يتمخض عن استحضار أهوال القيامة، وعن الإحساس بقدرة الله وبرقابته وعلمه الشامل المحيط بكل شيء، لا يزال ينسبك في صورة كلماتٍ لطيفةٍ، وهذه الكلمات هي التي يقال لها الذكر والدعاء والاستغفار !

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾

وَمَثْوَاكُمْ : مقامكم حيث تستقرون .

المَغْشِيِّ عَلَيْهِ : من أصابته الغشية والسكرة .

فَأَوْلَى لَهُمْ : قاربهم ما يهلكهم واللام مزيدة ، أو العقاب أحق وأولى بهم .

طَاعَةٌ : خير لهم أو أمر طاعة .

عَزَمَ الأَمْرُ : جد ولزمهم الجهاد .

فَهَلْ عَسَيْتُمْ : فهل يتوقع منكم ؟ (أي يتوقع) .

تَوَلَّيْتُمْ : الحكم وكنتم ولاة أمر الأمة .

المنافق يكون أسبق الناس في مجال القول، وآخِرهم في ميدان العمل، حيث لا يفتأ يتحدث عن الجهاد قبل وقوع الجهاد بالفعل، وأما إذا جد الجد، وتحتم الجهاد، فلا يلبث أن يفر هاربا!!، وأما المؤمن الصادق فإنه يكون دوماً على أتم الاستعداد للسمع والطاعة والانقياد ، فإذا عزم الأمر، وقرّ رأي القيادة على تبني خطوةٍ جادة، أثبت بعمله أنه وفي كل الوفاء بعهده الذي عاهد عليه ربَّه !

وقد يتظاهر المنافقون بالحرص على الأمن والسلام تهرباً من متاعب الجهاد ، ولكن واقعهم العملي يشهد بالنقيض؛ فحيثما وجدوا الفرصة، راحوا ينشرون الفساد والفوضى، ولا يتحرجون حتى من التمالؤ والتعاون مع أعداء المسلمين غير مبالين بما بين هؤلاء وإياهم من وشائح القربى فضلاً عن أخوة الدين !! ومثل هؤلاء ملعونون عند الله، وكون المرء ملعوناً يؤدي إلى أن يسلب منه قوى التفكير والإدراك، فيعود لا يرى مع كونه يملك البصر، ولا يسمع وعنده أذنان !!

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾

أَقْفَالُهَا : مغاليقها التي لا تفتح .

سَوَّلَ لَهُمْ : زين وسهل لهم خطاياهم ومناهم .

وَأَمْلَى لَهُمْ : مد لهم في الأماني الباطلة .

يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ : إخفاءهم كل قبيح .

القرآن كتاب موعظةٍ ، ولكن لكي يتغط المرء بشيءٍ ما، لابد أن يكون جاداً بشأن الموعظة ، ولو أن عاطفةً خاطئةً استمكنت من نفس المرء وجعلته غير جادٍ بشأن الموعظة، فإنه لن يستطيع الانتفاع بها أبداً، مهما تم عرضها بأسلوبٍ رائعٍ جميلٍ .

وإن المرء إذْ يُعرض عليه حكم من أحكام الدين يتطلب التضحية بشهواته ومصالحه، فإذا بالشيطان يلقن المرء بعض الأعذار الكاذبة، وبسبب مهلة الامتحان المتاحة في عالمنا الراهن فقد لا يعدم المرء الفرصة لكي يختار ذلك العذر الشيطاني الكاذب عملياً ، غير أن ذلك لا يدوم سوى أيامٍ معدوداتٍ، فحين يوافيه الأجل المحتوم، تنقلب الأوضاع والموازين والقيم كلها رأساً على عقبٍ !

لقد وُصف النفاق هنا بعبارة الارتداد على الأدبار من بعد ما تبين لأصحابه الهدى، ولكن من المعلوم أن منافقي المدينة هؤلاء لم يعاقبوا بعقوبة الردة المقررة في التشريع الإسلامي، ومن هذا نعلم أن عقوبة الارتداد الشرعية إنما تنفذ على الذين يرتدون جهراً وعلانيةً ، إذن، فليس من الجائز لنا أن نحكم على شخصٍ ما، من تلقاء أنفسنا، بأنه مرتد في الباطن، ثم نأخذ في تنفيذ عقوبة الردة الشرعية عليه، لا، بل يجب التعامل معه بحسب ظاهره، وتوكل سرائره إلى الله علام الغيوب، كما هو منهج الإسلام في معاملة الناس !

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ

لأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

أَضْغَانَهُمْ : أحقادهم الشديدة الكامنة .

بِسِيمَاهُمْ : بعلامات نسمهم بها .

فِي لَحْنِ القَوْلِ : بفحوى وأسلوب كلامهم الملتوي .

إنما كان مرض المنافقين هو كون صدورهم منطويةً على الحقد والضغينة والكراهية للمؤمنين الصادقين ؟! وهؤلاء المنافقون وإن كانوا يحاولون إخفاء حالتهم الداخلية تلك بإظهار المودة والولاء في سلوكهم الظاهري، إلا إنها لم تكن خافية على ذوي العقول والبصائر ، حيث إن لهجتهم المصطنعة، ونبرات صوتهم الباردة الخالية من الهم والإخلاص للدعوة المحمدية كانت تشي بأن علاقتهم بالإسلام إنما هي علاقة شكلية بحتة وليست علاقة قلبيةً بالمعنى الحقيقي !

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ : لنختبرنكم بالتكاليف الشاقة .

وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ : نظهرها ونكشفها .

عندما ينهض المرء بالإيمان، فتمر عليه ظروف وأحوال شتى ، وهذه الأحوال تكون محكاً يكشف عن صدق إيمانه ، فهي تقتضي أن يقيم المرء الدليل على كونه مؤمناً في مقابل التضحية؛ بأن يهضم نفسه ويقمع شهواتها، ويصرف نظره عن مصالحه المادية العاجلة، ويتحمل أذى الناس، ويظل ثابتاً على جادة الإيمان ولو كلفه ذلك حياته وما

ملكت يمينه !!

ولإلقاء المؤمن في أحوالٍ كهذه لابد وأن تُتاح لغير المؤمنين الحرية التامة، حتى يتمكنوا من اتخاذ أي إجراءٍ شاؤوا ضد أهل الإيمان ، وبينما تسفر هذه الإجراءات المعادية - من ناحيةٍ - عن قيام البرهان على جريمة المخالفين، يثبت أهل الإيمان - من ناحيةٍ أخرى - بصمودهم واستقامتهم في تلك الأحوال القاسية، أنهم مؤمنون حقاً، وجديرون بأن يختارهم الله لإسكانهم في عالمه الأبدي الكامل !

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾

فَلَا تَهِنُواْ : فلا تضعفوا عن مقاتلة الكفار .

السَّلْمِ : الصلح والمواعدة .

يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ :ينقصكم أجورها .

جاء في رواية عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع - لا إله إلا الله - ذنب؛ فنزلت هذه الآية ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ وعلى ضوء هذه الرواية يكون معنى الآية أنه ينبغي للمرء أن يجمع بين الإيمان والطاعة، وألا يقوم بالتكاليف السهلة اليسيرة فحسب، بل عليه أن يقوم كذلك بالتكاليف العسيرة التي تستلزم هضم النفس، وكبت الشهوات، وتعريض المصالح الذاتية للخطر ، وإن هو لم يفعل ذلك فإن إتيانه بالنوع الأول من التكاليف وحده ، لن يعود عليه بأي فائدةٍ !

وشأن ضعاف المسلمين أنهم إنما يؤيدون الحق ما دام لا يجرّ عليهم ذلك غضب كبار العصر ، وإذا رأوا أن تأييد الحق يتسبب في إثارة غضب كبار العصر، مالوا إلى مهادنتهم، حتى ولو كان هؤلاء الكبار منكرين للحق صادين الناس عن سبيله .

والذين ينكرون الحق ويتصدون لمعارضته ووضع العقبات في طريقه، لن ينالوا نصيباً من رحمة الله أبداً، إذن فما بال أناسٍ يقفون إلى جانب المنكرين كهؤلاء، هل سيكون مصيرهم مختلفاً عنهم في شيء؟ كلا!

إن الإسلام يسمح بالحرب والقتال تماماً كما يدعو إلى الصلح والمسالمة ، إلا أنها ليست من الحرب الإسلامية في شيء، تلك التي يدخل فيها المقاتلون متأثرين بعوامل الإثارة والاستفزاز، كما أنه ليس من الصلح الإسلامي في شيء، وذلك الذي يكون الباعث عليه الجبن والخور وسقوط الهمة، ولإحراز النجاح والانتصار لابد من أن يتم كلا الأمرين تحت قرار مدبر مدروس بدل من أن يكون صادراً عن رد فعلٍ عاطفي !!

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾

فَيُحْفِكُمْ : يجهدكم بطلب المال .

أَضْغَانَكُمْ : أحقادكم الشديدة على الإسلام .

إن الشيء الذي يحول دون اختيار حياة الإيمان والتقوى هو فوائد الدنيا ومباهجها ، فالمرء يعلم جيداً ما الطريق الذي سيؤدي به إلى النجاح والفلاح في الآخرة ، ولكن همّ

المصالح الوقتية يملك عليه مشاعره كلها ويجعله بالتالي يتجه نحو طريق الضلال والانحراف ، على حين أن الله - جل شأنه - غاية اللطف والرحمة بعباده، حيث إنه لا يطالب المرء أبداً بما يخرج عن طوقه أوْ يفوق مقدرته على التحمل، مما قد يؤدي إلى انكشاف سرائره واطلاع الناس على مكامن ضعفه الفطري .

الإسلام دين الله ، غير أن واجب القيام بنشره وحفظه منوط، في عالم الأسباب هذا بطائفةٍ من البشر، وإن المسلمين هم هذه المجموعة البشرية ، وستكون لهم قيمة ويقام لهم عند الله وزن ماداموا يؤدون واجبهم ذاك على أفضل وجهٍ ممكنٍ، أما لو أنهم تقاعسوا عن القيام بهذا الواجب أوْ قصروا في أدائه، فسيوفق الله الشعوب الأخرى غيرهم إلى الإيمان، ويدعم بها دينه ليتمكن من البقاء والتوسع والاستمرار إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها !

سورة الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝ ﴾

فَتْحاً مُّبِيناً: هو صلح الحديبية عام ستة هجرية .

في سنة ٦ هجرية خرج رسول الله - ﷺ- من المدينة برفقة أصحابه إلى مكة لأداء العمرة . ولما اقترب - عليه الصلاة والسلام - من موضع الحديبية، تصدى له المشركون يمنعونه من دخول مكة، ثم بدأت بينه وبين قريش مفاوضات انتهت بتوقيع الفريقين هدنةً تعرف بـ " صلح الحديبية " .

وكانت هذه المعاهدة قد تمت، على ما يبدو، نزولاً على شروط المشركين من جانب واحدٍ، مما ملأ قلوب أصحاب الرسول كآبةً وتذمراً ، وكانوا يعتبرون ذلك صلح الذل والهوان ، ولكن الرسول - ﷺ- لم يكد ينصرف من الحديبية عائداً إلى المدينة حتى نزل عليه الوحي في بعض الطريق بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ ﴾ .

والسر في ذلك أن: معاهدة الصلح هذه قضت بوضع السلاح وعدم لجوء الفريقين إلى الحرب لمدة عشر سنوات ، وقد كان وقف الحرب يعني انفتاحاً لباب الدعوة على مصراعيه، ففي أعقاب الهجرة النبوية كانت عملية الدعوة والتبليغ قد توقفت تماماً أو كادت بسبب استمرار حالة الحرب بين أهل الإسلام وأهل الشرك ، أما الآن فقد أسفرت الهدنة عن مناخ هادئ معتدل يسمح بالحوار وتبادل وجهات النظر بين كلا الفريقين دون عوائق، مما غيّر ميدان المواجهة ، ففيما كان الصراع بين الجانبين قبلئذٍ يدور

في ساحة الحرب والقتال، حيث كان الفريق الثاني يتمتع بالغلبة والتفوق، فإذا بالصراع ينتقل مركز ثقله الآن إلى ميدان النظرية الأيديولوجية ، حيث كان التوحيد طبعاً في موقع الغالب المتفوق إزاء الشرك بصورة صريحة وحاسمةٍ ، وذلك هو " الصراط المستقيم " في هذا السياق، الذي قد امتن الله على الرسول بإرشاده إليه، أي الطريق الذي كان فيه الضمان الحتمي الأكيد لانتصار حاملي لواء التوحيد !

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾

ٱلسَّكِينَةَ: السكون والطمأنينة والثبات.

ظَنَّ ٱلسَّوْءِ: ظن الأمر الفاسد المذموم.

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ ٱلسَّوْءِ: دعاء عليهم بنصره.

المراد بـ " السكينة " هنا : التزام الهدوء وعدم الثورة رغم كل محاولات الإثارة والاستفزاز ، فقد لجأ معارضو الإسلام أثناء سفر الحديبية إلى استفزاز المسلمين بشتى الطرق، حتى يندفعوا إلى تبني خطوة يتخذ منها المعارضون ذريعة للاعتداء عليهم ، غير أن المسلمين تحملوا كل استفزازٍ برحابة صدر، وظلوا متمسكين بخطة الإعراض

من جانبٍ واحدٍ حتى آخر لحظةٍ، وإنه لو شاء الله - وهو القوى العزيز - لأخضع الباطل وأظهر عليه الحق بتدخلٍ منه مباشر ، إذن، فما السر في أنه تعالى يعرّض أهل الإيمان لأحوال كأحوال " صلح الحديبية " عبر مسيرتهم الإيمانية ؟

الحكمة من هذا الابتلاء هي زيادة إيمان المؤمنين ، فحين يكبت المرء دوافع الانتقام في داخله، ويصالح قوماً طاغين لأن هذا هو مقتضى دعوة الحق، فإنه يفعل حينذاك بموجب قراره الشعوري شيئاً لم يكن قلبه راضياً بفعله ، وهكذا فهو يعمل على تنمية شعوره الإيماني، ويجعل من وجوده مهبطاً لكيفيات ربانية لا يمكن التمتع بها بأي طريقة أوْ تدبير آخر . كما تنطوي سنة الابتلاء الإلهية هذه على فائدةٍ أخرى، وهي أنها تمحص الناس وتميز من يستحق منهم الجنة ممن هو من أصحاب النار .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

وَتُعَزِّرُوهُ: تنصروه تعالى بنصرة دينه.

وَتُوَقِّرُوهُ: تعظموه تعالى وتبجلوه.

وَتُسَبِّحُوهُ: تنزهوه عما لا يليق بجلاله.

بُكْرَةً وَأَصِيلاً: غدوة وعشيا أو جميع النهار.

نَكَثَ: نقض البيعة والعهد.

في ترجمته الفارسية لمعاني القرآن الكريم قد فسر شاه ولي الله الدهلوي وصفه

"شاهداً " بعبارة : (إظهار حق كننده) يعني مبيناً للحق ومظهراً له وهذا هو المدلول الأقرب إلى الصحة والصواب لهذا اللفظ، فالمسئولية الأساسية الملقاة على عاتق الرسول تتلخص في أن يتناول الحقيقة بالتبيين والإظهار، ويوضح للناس من الذين ينعمون في الحياة الأبدية بعد الموت بثواب الله ، ومن الذين يتعرضون لعذاب الله ، وقيام شاهد للحق كهذا يضع مخاطبيه على محك اختبار أقسى ما يكون، إذْ يُضطر هؤلاء إلى أن يستمعوا صوت الله من خلال صوت أحد البشر، وأن يروا في شخص " إنسانٍ " مندوبَ الله مع كونه لا يختلف عنهم من حيث مظهره في شيء ، وأن يحسبوا - وهم يضعون أيديهم في يده للمبايعة - أنهم يضعون أيديهم في يد الله ! والذين يقيمون الدليل على هذه الدرجة العالية من المعرفة لهم عند الله أجر عظيم، وأما الذين يفشلون في هذا الامتحان فلهم عذاب غليظ !!

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾

المُخَلَّفُونَ: عن صحبتك في عمرة الحديبية.

لَّن يَنقَلِبَ: لن يعود إلى المدينة.

قَوْماً بُوراً: هالكين أو فاسدين.

رأى رسول الله - ﷺ- في منامه - وهو بالمدينة - أنه يزور مكة معتمراً ، وبمقتضى هذه الرؤيا خرج - عليه الصلاة والسلام - مع أصحابه إلى مكة لأداء العمرة ، غير أن الظروف يومئذٍ كانت سيئةً للغاية، حيث كان من المحذور جداً أن يقع صدام عنيف مع قريش يُسفر - بطبيعة الحال - عن سفك دماء المسلمين بغزارةٍ ، وقد حدث بالفعل أن المسلمين لما اقتربوا من مكة حاولت قريش استفزازهم بشتى الأساليب ، حتى رمى بعض فتيانهم المعسكر الإسلامي بالحجارة والنبل، ليثور غضب المسلمين فيندفعوا إلى قتالهم ، ولكن تمسك الرسول وأصحابه بالصبر والإعراض خيب آمال قريش وأحبط محاولاتهم العدوانية الشريرة .

وتحسباً لهذه المخاوف ذاتها لم يَخرج معه - عليه الصلاة والسلام - أعراب المدينة وكثير من ضعاف المسلمين ، ولما رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة سالماً على خلاف توقعاتهم السيئة، جاءوا إليه يعتذرون ويُظهرون له صدق الولاء والوفاء ، ولكن اعتذارهم قوبل بالرفض ، لأنه كان اعتذاراً كاذباً ولم يكن صادقاً، وبينما يحظى الاعتذار الصادق عند الله دوماً بالقبول الحسن، لا يقابل الاعتذار الكاذب إلا بالرفض المطلق !!

ولم يكن تقاعس هؤلاء عن الخروج مع رسول الله بناء على عذرٍ حقيقي ، وإنما كان نتيجة ضعف الإيمان وانعدام اليقين ، وقد ظنوا أنهم بابتعادهم عن رحلة محفوفة بالأخطار كهذه يحفظون مصالحهم، وما درَوْا أن مالك النفع والضرر هو الله، وأن التدابير الوقائية، مهما بلغت من الدقة والإتقان، لن تنقذ صاحبها لو لم يرد الله إنقاذه ، بل ربما تكون هي السبب في هلاكه، وليس لأمثال هؤلاء إلا الضياع والدمار في الدنيا والآخرة !!

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ

يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ: اتركونا نخرج معكم لخيبر.

كَلَامَ الله : حكمه باختصاص أهل الحديبية بالمغنم.

لقد كان اليهود ، قبل صلح الحديبية جريئين جداً في معاداة المسلمين، ويرجع ذلك إلى أنهم كانوا يتمتعون بتعاون قريش الكامل معهم في هذا الصدد ، ولكن هدنة الحديبية لم تلبث أن قطعت أواصرهم مع قريش، كما جعلتهم في شبه عزلةٍ تامةٍ عن حلفائهم من القبائل العربية الأخرى كذلك ، فانهارت على إثر ذلك، معنويات اليهود القاطنين في خيبر وتيماء وفدك .. إلخ، ومن ثم حين زحف رسول الله - ﷺ - بجيوش المسلمين، بعد عقد الصلح بثلاثة أشهر فقط، نحو يهود خيبر، لم يتحمسوا للنضال طويلاً، وإنما اضطروا، بعد مقاومةٍ محدودةٍ ، إلى الاستسلام، والتنازل عن قدر هائلٍ من أموالهم للمسلمين مقابل الصلح ، وضعاف الإيمان الذين لم يخرجوا مع الرسول في سفر الحديبية باعتباره سفراً خطيراً غير مضمون النتائج، هاهم أولاء يرغبون هذه المرة في الانضمام إلى الجيش الإسلامي الزاحف نحو خيبر، ليكون لهم من مغانمها المرجوة نصيب ، ولكنهم منعوا من الخروج صراحةً ، فقد جرت سنة الله بأن من يتحدى الأخطار هو الذي يحصل على الربح والمنفعة، وأما إذا أراد المرء الحصول على المنفعة بدون مخاطرة ولا مجازفة؛ فكأنما يرغب في تبديل السنة الإلهية، ولكن ليس في مقدور أحدٍ أن يتناول سنة الله هنا بالتغيير أوْ التعديل !!

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ

يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ: أصحاب شدة وقوة في الحرب.

حَرَجٌ: إثم في التخلف عن الجهاد.

إن الذين تقاعسوا عن الخروج في عمرة الحديبية (سنة ٦هـ) لضعف إيمانهم، وإن كانوا قد حُرموا نتيجة ذلك، مما ساق الله إلى المسلمين من فتح قريب وغنائم عاجلة كثيرة، إلا أن الباب لم يُغلق في وجوههم بعدُ، إذْ كانت ثمة معارك أخرى كبيرة لا تزال تنتظر مسيرة التوحيد الطويلة، فكأنما قيل لهؤلاء : لئن أقمتم الدليل على التضحية والفداء في تلك المعارك المرتقبة مستقبلاً، إنكم ستعودون من جديدٍ أهلاً لفيض الرحمة الإلهية !!

ومثل هذا الامتحان يقرر ما إذا كان المرء مؤمناً أوْ منافقاً ، ولا يُستثنى من هذا سوى أولئك الذين يعانون من بعض الأعذار ، والله - سبحانه وتعالى - يعفو عن التقصير الاضطراري، ولكنه لا يعفو عن التقصير الصادر عمداً !!

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

يُبَايِعُونَكَ: بيعة الرضوان بالحديبية.

فَتْحاً قَرِيباً: فتح خيبر عام سبعة .

أَحَاطَ الله بِهَا: أعدها لكم أو حفظها لكم.

في أثناء سفر الحديبية تأزم الموقف إلى أبعد الحدود عندما انتشرت بين المسلمين شائعة مؤداها أن قريشاً قتلوا عثمان بن عفان الذي كان قد ذهب إليهم بوصفه سفيراً لرسول الله - ﷺ- وقد كان ذلك اعتداءً سافراً ، مما جعل رسول الله - ﷺ - يأخذ البيعة من أصحابه، وعددهم يومذاك ألفاً وأربعمائة رجلٍ، تحت شجرة "سمرة " بالحديبية، على أنهم سيظلون صامدين أمام العدو حتى الموت، ولن يولّوه الأدبار بأي حالٍ من الأحوال - وهذه البيعة تعرف بـ " بيعة الرضوان " في التاريخ الإسلامي . والمكان الذي تمت فيه هذه البيعة كان يبعد عن المدينة بمائتين وخمسين ميلاً، وعن مكة باثني عشر ميلاً فقط ، مما يعني أن المسلمين كانوا على مسافة شاسعةٍ من مركزهم، بينما كانت قريش في عقر دارها .

هذا إلى جانب كون المسلمين لا يتوافر لديهم سوى زاد المسافر وما يلزم في الطريق، لأنهم خرجوا بقصد العمرة، وأما قريش فقد كانوا متسلحين بكل أنواع المعدات الحربية . وفي موقف حرج بالغ الخطورة كهذا لم يحمل المؤمنين على مناصرة الرسول وتأييده شيء سوى عواطف الصدق والإخلاص والتفاني وحدها؛ إذْ لم يكن يوجد هناك أي ضغطٍ خارجي على الإطلاق ، والمراد بقوله : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ هو الحزن والاضطراب الذي كان قد ملأ قلوب الصحابة عقب صلح الحديبية، حيث كانت بنوده - في الظاهر - مجحفة بحقوقهم ، بيد أنهم أذعنوا لهذا الأمر الإلهي في صبر وسكونٍ، ونتيجة لذلك، لم يكد يمضي على عقد الصلح إلا بضعة أشهرٍ حتى بدأت فوائده الإيجابية بالظهور ، فقد

أدت هذه الهدنة إلى عزل قريش عن جبهة اليهود، وهكذا صار إخضاع اليهود أمراً ميسوراً، وبانتهاء حالة الحرب حظيت الدعوة الإسلامية بالتوسع والانتشار المتزايد يوماً بعد يوم، إلى أن تم عن طريق الدعوة تسخير قريش أنفسهم الذين لم يمكن تسخيرهم عن طريق الحرب على امتداد السنين !

﴿ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

لقد جرت سنة الله تعالى بالنسبة إلى المخاطبين الأوائل للنبي بأن يبيدهم عن آخرهم، إذا هم وقفوا من رسالته موقف الرفض والإنكار ، وعند الحديبية كان إنكار قريش قد تجلى بشكل نهائي واضح، ولو نشب يومئذ بين الفريقين قتال، والحالة هذه، لتنزلت جنود الملائكة لتقوية المسلمين وقطع دابر أعدائهم الكافرين . ولكن شاءت حكمة الله فيما يتعلق بأولئك المشركين ألا تتم إبادتهم شأن الشعوب الماضية، وإنما سيتم استخدام طاقاتهم وكفاياتهم البشرية غير العادية في خاتمة المطاف لصالح الدين الإلهي ، ولأجل ذلك أرشد الله تعالى رسوله إلى عقد الهدنة السلمية معهم .

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾

إن رؤساء قريش كانوا بمواقفهم المتعنتة وتصرفاتهم المعادية ضد رسول الله قد

جعلوا أنفسهم أهلاً للعذاب وأجدر بأن يُقاتلوا أعنف قتالٍ ، ولكن لأجل مصلحةٍ عليا عقد معهم الصلح بدلاً من الحرب ، وتلك المصلحة هي أن جماعة قريش كانت تشتمل إذ ذاك على أفراد آمنوا بدعوة التوحيد سراً تائبين عن الشرك، وآخرين لم يؤمنوا بعد، ولكن من المؤكد أن صلاحهم الداخلي سيجعلهم يبادرون باعتناق الإسلام إذا ما انتهى التوتر القائم واعتدل الجو ، ولذلك لم يسمح الله سبحانه بنشوب الحرب بين الفريقين، حتى تدخل تلك العناصر الصالحة في الإيمان، وتؤدي دورها الإسلامي المطلوب في هذه الدنيا؛ لتنعم بجزاء الله الأبدي في الآخرة . إن مصلحة الدعوة أكثر أهميةً عند الله من أية مصلحة أخرى سواها .

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

إن خشية الله إذا تمكنت من نفس امرئ ما، أخرجت من داخله أهمية كل شيء آخر سوى الله الواحد الأحد ، فهو يأخذ الآن يعطي الأهمية كلها لله وحده ، وقد كان موقف الحديبية امتحاناً قاسياً شديداً من هذا النوع بالنسبة إلى صحابة الرسول، وقد وُفقوا إلى اجتيازه بنجاحٍ ، ففي ذلك الموقف تجاوز الفريق الثاني كل الحدود في إظهار الحمية الجاهلية والعنجهية والعصبية القبلية ، ولكن الصحابة درجوا على تفويض كل شيءٍ إلى الله. إن تقوى الله المتغلغلة في أحشائهم قد حالت بينهم وبين أن يسلكوا طريق العناد الجاهلي المعاكس أوْ العصبية المضادة، فلزموا الهدوء وملكوا أعصابهم ولم يثوروا حتى اللحظة الأخيرة رغم كل محاولات الإثارة والاستفزاز من الجانب الآخر .

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ

ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾

كان سفر الحديبية بناءً على رؤيا رآها رسول الله - ﷺ- حيث رأى - عليه الصلاة والسلام - في منامه بالمدينة أنه زار مكة معتمرا ففرح المسلمون بهذه الرؤيا باعتبارها بشارةً من الله، فانطلقوا من المدينة نحو مكة ، ولكن قريشاً حاصروهم بالحديبية ولم يسمحوا لهم بدخول مكة، حتى انصرف المسلمون آخر الأمر عائدين من حيث جاؤوا بدون أداء العمرة ، مما جعل بعضهم يتساءل : أين هي رؤيا النبي، ألم تكن صادقةً ؟ غير أن هذا كان شبهة فارغة ، إذْ لم يكن في الرؤيا تصريح ما بأن العمرة ستتم سنة ست هجرية !! ولقد تحقق ذلك بالفعل، وفق شروط المعاهدة نفسها، في ذي القعدة سنة سبع من الهجرة في غاية الأمن والوئام، وتسمى هذه العمرة في التاريخ الإسلامي بـ"عمرة القضاء".

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

كان لرسول الله - ﷺ- حيثيتان : أما أولهما: فهي كونه نبي الله، وأما ثانيتهما : فهي كونه خاتم النبيين؛ إذْ لن يبعث بعده نبي إلى قيام الساعة ، وفيما يتعلق بالحيثية الأولى فقد كان واجبه - عليه الصلاة والسلام - يتمثل في القيام بما قام به كل من سبقه من الأنبياء والمرسلين، يعني إعلان التوحيد وإنذار الناس وتبشيرهم بما سيلقونه في الآخرة من نعيم أبدي أوْ عذاب مقيم .

غير أن الأمر كان مختلفاً بالنسبة إلى الحيثية الثانية ، فمن هذه الحيثية كان المطلوب أن يتم بواسطته - عليه الصلاة والسلام - إيجاد أحوالٍ وظروفٍ تاريخية ستكون كفيلةً

بالحفاظ على الكتاب الإلهي والسنة النبوية من الضياع أوْ التحريف؛ حتى لا ينشأ مرةً أخرى ذلك الفراغ الذي يتحتم معه بعث النبي الجديد، وقد كان من مقتضيات ذلك ألا تنتهي دعوته - عليه الصلاة والسلام - عقب " الإعلان " وكفى، بل تدخل مرحلة " الثورة " . والمراد بالثورة هو إحداث تغيرٍ في التاريخ العالمي بحيث تنتهي إلى الأبد تلك الأحوال والملابسات التي كانت وراء تعرض هداية الله بين الحين والآخر للتلاشي أوْ التشويه عبر القرون السالفة ، مما كان يقتضي أن يأتي نبي جديدٍ ليقوم بإحياء الهداية الإلهية في صورتها الأصلية النقية الخالصة ..!!

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ .

كان رسول الله - ﷺ- قد انتدبته العناية الإلهية لأداء دورٍ تاريخي عظيم ، أطلق عليه القرآن الكريم " إظهارا الدين " . ولكي يقوم - عليه الصلاة والسلام- بهذا الدور التاريخي خير قيام كان بحاجةٍ إلى جماعةٍ من البشر المتازين ، وقد تم إعداد هذه المجموعة البشرية بإسكان سيدنا إسماعيل في قلب الصحراء العربية، ولقد كانت مجموعة بني إسماعيل هذه تتميز بسمات حيويةٍ جعلتها بحقٍ مجموعةً فذةً لا نظير لها في التاريخ، ومن هنا فحين استنارت كفاياتها الكامنة بنور القرآن الكريم، تحولت، على حد تعبير البروفيسور "مرغوليوث " إلى شعب من الأبطال ، وقد كانت هذه الجماعة بالغة الأهمية عند الله لدرجة أنه عرّف أنبياءه بها سلفاً ، ففيما كانت التوراة تتضمن السمات الشخصية لأفراد هذه الجماعة، جاء الإنجيل يحتوي على خصائصهم الجماعية ،

وقد وُصف أفراد تلك الجماعة بأنهم غلاظ شداد بالنسبة إلى الكافرين ورحماء لينو العريكة بالنسبة إلى إخوانهم المؤمنين ، أي إن سلوكهم يتحدد بحكم المبدأ وليس بحكم الأهواء والرغبات ، وقد شرح ذلك الشاه عبد القادر الدهلوى بقوله : " إن الشدة واللين من شأنهما - ماداما في حالتهما الغريزية الأولى- أن يظهرا تلقائياً وبدون أي ضابطٍ أوْ تمييزٍ حيثما وُجد التهييج الخارجي لهما ، وأما إذا تم صقلهما وتهذيبهما بالإيمان، فإن كليهما لا يظهر إلا في مكانه المناسب ولا يتعداه بحالٍ من الأحوال !!

كما أن من السمات المزاجية المميزة لأفراد هذه الجماعة : إكثارهم من الخضوع والسجود أمام الله، وانشغالهم الدائم في عبادته وذكره عز وجل . وقد بلغ منهم التوجه نحو الله حداً يُرى معه أثر ذلك متجلياً في وجوههم ، إن صفة أصحاب الرسول هذه لا توجد بهذا التفصيل في التوراة المحرفة لدى اليهود ، غير أن لفظة " القديسين " مازالت موجودة في سفر " التثنية " حتى أيامنا هذه . (راجع : التثنية، الإصحاح الثالث والثلاثون).

أما نبوءة الإنجيل فلم تزل موجودةً حتى الآن في الإصحاح الرابع من إنجيل مرقس وفي الإصحاح الثالث عشر من إنجيل متىّ ، وهي تمثيل بليغ ، فحواه أن دعوة الإسلام ستبدأ في مكة شأنها شأن نبتةٍ صغيرةٍ ناعمةٍ ، ثم تأخذ في النمو والازدهار شيئاً فشيئاً حتى تستحيل شجرةً وارفةً عملاقةً ، وإنها لتبلغ في نهاية المطاف من القوة والرسوخ والتماسك درجةً يفرح بها أهل الحق ويسرون ، بينما يأكل الغيظ والحقد قلوب أهل الباطل لكونهم يرونها تمتد وتزدهر رغم أنوفهم ، وهم لا يقدرون على النيل منها أو اقتلاع جذورها بأية حيلة أو وسيلةٍ !!

سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾

لاَ تُقَدِّمُوا: لا تقطعوا أمرا وتجزموا به.

إن وضع رأينا الشخصي فوق رأي الرسول حرام بصريح هذا النص القرآني . وقد كانت صورة ذلك الرسول - ﷺ- على قيد الحياة ، أن يسبقه أحد بالجواب في مسألة تعرض في مجلسه ، وبالتالي يحاول تقديم قوله على قول الرسول . وأما بعد وفاته - عليه الصلاة والسلام - فيعني ذلك أن يأخذ المرء في تكوين آرائه ومواقفه تجاه شتى القضايا والشئون الحياتية متحرراً من هداية الله غير متقيدٍ بتوجيهات رسوله الكريم ، وإنما يقع المرء في غفلةٍ كهذه لأنه يغيب عن باله أن الله رقيب عليه يرصد كل حركاته وسكناته ، ولو أدرك المرء أن صوته يصل إلى الله قبل وصوله إلى مسامع الناس لاحتبس لسانه في فمه ، ولصار أكثر ميلاً إلى أن يلزم الصمت منه إلى أن يتكلم !!

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ: كراهة أن تبطل أعمالكم.

يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ: يخفضونها ويخافتون بها.

امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ: أخلصها وصفاها.

الْحُجُرَاتِ: حجرات زوجاته ﷺ.

إن أعراب البوادي لم يكونوا على جانبٍ كبيرٍ من النضج الفكري والشعوري، حتى إن بعض رؤسائهم كانوا إذا جاءوا إلى مجلس رسول الله - ﷺ - يخاطبونه باسمه قائلين "يا محمد" بدلاً من : "يا رسول الله"، أو "يا نبي الله". كما كان أسلوب حديثهم معه يتسم بالكبر والتعالي بدلاً من التواضع والانكسار، فنزل الوحي ينهاهم عن هذا الأسلوب وتلك الطريقة في المحادثة والخطاب. وحيث إن الرسول يكون مندوب الله في الأرض؛ فإن سوء الأدب في حضرته على هذا النحو سوء تأدبٍ مع الله - عز وجل، مما من شأنه أن يحبط علم المرء ويجرده من كل قيمةٍ !!

والهدي الذي جاء به الرسول الكريم - ﷺ- يقوم مقامه في هذه الدنيا بعد وفاته، فنحن الآن مطالبون بالتبعية لهذا الهدي النبوي المقدس تماماً كما كان المعاصرون للرسول مطالبين بالتبعية لذات الرسول في كل شئونهم.

إن مخافة الله تجعل الإنسان غايةً في الجدية، فلو استقرت مخافة الله في قلب أحد الناس حقاً، لاهتدى بمقتضى طبيعته إلى الأمور التي لا يكاد يدركها الآخرون حتى بالرغم من إرشادهم إليها مرةً وأخرى !

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ

فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

لَعَنِتُّمْ: لأثمتم وهلكتم.

إذا أخبر شخص ما عن غيره بما يسيء إلى سمعة الأخير ؛ فإن تصديق مثل هذا الخبر فور سماعه يتنافى مع مزاج التحفظ والاحتياط الإيماني تمام المنافاة ، إذْ يجب على السامع في هذه الحالة أن يتخذ كل ما يلزم للتأكد من صحة الخبر أو كذبه ، وألا يبني رأياً أو حكماً إلا بعد التحقق النزيه المحايد وليس قبله ، وكثيراً ما يحدث أن المرء إذا بلغه خبر من هذا النوع ، يأخذ أصحابه من فورهم في الحديث عن القيام ببعض الإجراءات ضد الشخص المخبر عنه ، وهذا موقف يتسم بمنتهى عدم المسؤولية فلا يجوز لامرئٍ ما أن يحكم على أخيه بناء على خبرٍ قبل التثبت منه ، كما لا ينبغي لأصحابه بدورهم أن يشيروا عليه بالإقدام قبل الوقوف على حقيقة الأمر .

والذين يوفقون إلى طريق الرشد والهداية ينشأ في داخلهم مزاج يختلف عما كانوا عليه قبلئذٍ ، حيث تعود نفوسهم الآن تتقزز من توجيه التهم نحو الآخرين ، وهم يفضلون الصمت على الكلام في أمر لا يعرفون كنهه ، ومزاجهم هذا علامة تدل على أنهم قد ظفروا من رحمات الله بنصيبٍ ، وأن حياتهم وأعمالهم يتحكم فيها في الواقع ذلك الإيمان الذي هم يقرونه بألسنتهم !!

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا

بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

بَغَتْ: اعتدت واستطالت وأبت الصلح .

تَفِيءَ: ترجع.

وَأَقْسِطُوا: اعدلوا في كل أموركم.

الْمُقْسِطِينَ: العادلين فيحسن جزاءهم.

لاَ يَسْخَرْ: لا يهزأ ولاينتقص.

كيف ينبغي أن يعايش المسلمون بعضهم بعضاً ؟ جواب ذلك باختصارٍ هو أن يتعايشوا كإخوةٍ متحابين، فرابطة الدين ليست بأقل من رابطة الدم والقرابة بأي وجه من الوجوه، وإذا وقع بين رجلين من المسلمين خصام أدى إلى قتال ، فلا يجوز للباقين أن يلوذوا بالصمت أو يوسعوا شقة الخلاف بين الاثنين بوسائل التحريش والوشاية ، وإنما يجب عليهم أن يهبوّا بدافع الأخوة والمحبة لتسوية النزاع بمقتضى الحق والعدل وإيجاد الصلح والتفاهم بينهما .

وقد يحتمل إذا تخاصم رجلان أو طائفتان من المسلمين أن يقف الباقون من المتقاتلين على الحياد ، أو ينحاز بعضهم إلى طائفة وبعضهم الآخر إلى طائفة أخرى ، استجابة لدواعي التعصب العائلي أو التحزب المذهبي ، فيتقاتلون جميعاً بينهم ، وكل هذه الطرق بعيدة عن روح الإسلام تماماً ، والمنهج الإسلامي الصحيح هو البحث عن وجه الحق في الأمر المتنازع عليه ، والوقوف إلى جانب المحق ، وإرغام مَنْ ليس على الحق على قبول الحكم العادل في القضية محل النزاع ، والذي يخاف الله ويخشاه ليس من شأنه أبداً أن يتلذذ برؤية أخويه في الدين يتقاتلان ، وإنما هو يحزن أشد الحزن ويتململ

تململ السليم إذا ما وقع بصره على منظرٍ كهذا ، ولن يشعر بالهدوء أو الراحة ما لم يبذل جهده في الإصلاح وتطبيع العلاقات بين الاثنين ، وهؤلاء الذين يصير الإيمان بالله وتقواه عندهم مدخلاً إلى عالم الرحمات الإلهية!!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ: ولا يعب ، ولا يطعن بعضكم بعضًا.

وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ: لا تداعوا بالألفاظ المستكرهة.

إن عاطفة التعاظم والاستكبار - بمعنى التطلع نحو العظمة والكبرياء وحب البروز - كامنة داخل بعض البشر ، وهذا هو السر في أن شخصاً لا يكاد يعثر في غيره على نقيصةٍ ما ، حتى يتناولها بالتضخيم ويبالغ في إبرازها للناس ؛ وذلك لكي يثبت لهم أنه " كبير " وغيره " صغير " ... وهكذا يهزأ الإنسان بأخيه الإنسان ، وهو يلمزه ويذكره بلقب السوء سعياً منه وراء إشباع عاطفة التعاظم والكبرياء الكامنة فيه .

غير أن أساس التفاضل ومعيار الصلاح ليس ما يقرره المرء من تلقاء نفسه ، وإنما الصالح هو الذي يعتبر صالحاً عند الله ، والعكس صحيح . ولو استقر الشعور بهذه الحقيقة في نفس الإنسان لقضي على عاطفة كبريائه ، ولصار الاشتغال بلمز الغير والنيل من عرضه، وتناول الآخرين بالتعييب وذكرهم بما يكرهونه من الأسماء والألقاب لصار يبدو له كل ذلك لغواً فارغاً ، وعبثاً محضاً ؛ لأنه سيدرك أن مراتب الناس ودرجاتهم سيتم تحديدها عند الله عز وجل .. إذن فكم سأكون سخيف الرأي لو أنني احتقرت اليوم أحد الناس وكان هو في عالم الآخرة من بين عباد الله المكرمين ؟!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ ﴾

كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ: هو ظن السوء بأهل الخير.

وَلاَ تَجَسَّسُوا: لا تتبعوا عورات المسلمين.

فَكَرِهْتُمُوهُ: فقد كرهتموه فلا تفعلوه.

إذا ساء ظن الواحد منا بشخصٍ ما ، صار كل أمره عنده موضع الريبة والاشتباه ، حيث يسير ذهنه بالنسبة إلى ذلك الشخص بعدئذٍ في الاتجاه السلبي ، مما يجعله يفتش عن عيوبه أكثر من محاسنه ، ويعود النيل من عرضه وتشويه سمعته بنشر مساوئه بين الناس هوايته المفضلة..! وسوء الظن هو مصدر معظم الشرور والمفاسد الاجتماعية ، ومن هنا لابد للمرء أن يكون على حذر دائم بهذا الخصوص ، فلا يسمح للظن السيئ باقتحام قلبه أو ذهنه أبداً .

ولئن بلغك عن أحد الناس شيء يبعث على سوء الظن به ، فبإمكانك أن تلتقي به مباشرة لكي تتحدث إليه في هذا الشأن ، وأما ذكرك إياه بالسوء في غيابه ، حيث لا يمكنه أن يتولى الدفاع عن نفسه ، فذلك عمل دنيء جداً وبعيد عن الأخلاق والمروءة كل البعد ، ومن المحتمل أن يقع المرء في أخطاء كهذه بصورة وقتيةٍ ، إلا أنه لن يصر على خطئه أبدا لو كان قلبه مليئاً بخوف الله ، فإن خوف الله سرعان ما ينبهه على خطئه ويجعله بالتالي يتخلى عن فعله ويرجع إلى الله راجياً عفوه وغفرانه !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾

توجد بين الناس فوارق شتى ؛ كفارق اللون والجنس والشعب والوطن .. إلخ ، والغاية من جميع هذه الفوارق إنما هي التعارف وليس التمايز أو التفاضل ، والسبب في معظم الشرور والآفات أن الناس يأخذون في تفضيل بعضهم على بعض بناء على مثل هذه الفوارق؛ مما يؤدي إلى الفرقة والخصومة والعصبية التي لا تعرف حداً تقف عنده !!

والبشر كلهم وحدة واحدة من حيث مبدؤهم ، وإن كان هناك أساس للتمييز أو التفاضل بينهم فإنما يتمثل ذلك في شيءٍ واحد هو تقوى الله . والتقوى شيء لا يعلمه علماً حقيقياً إلا الله ... ولذا فالله وحده دون أحدٍ سواه يستطيع أن يحدد قيم الناس وأقدارهم تحديد العليم الخبير !!

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

آمَنَّا: صدقنا بألسنتنا وقلوبنا.

أَسْلَمْنَا: استسلمنا خوفا وطمعا .

كانت هناك عدة قبائل صغيرة في ضواحي المدينة، وهؤلاء ، وإن كانوا قد اعتنقوا الإسلام في أعقاب الهجرة النبوية ، إلا أن إسلامهم لم يكن وليد ثورة فكرية عميقة ، والمؤمن عند الله حقاً هو الذي يدرك الإسلام كحقيقة تسري في أعماق قلبه وتشربها روحه، والذين يدخلون في دين الله على هذا النحو ، يظفرون بيقين راسخ لا يزول ولا يتزلزل ، وهم يكونون مستعدين للثبات عليه حتى ولو اقتضى الأمر التضحية بالمال

والنفس، والمرء إذا صدر منه عمل صالح فقلما يطيق الصبر على إخفائه ، وإنما هو يميل في الغالب الأعم إلى إظهاره ، في حين أن هذا الإظهار يحبط عمله ، والعمل الصالح في الواقع هو الذي يُمارس لأجل الله ، وإذا كان الله خبيراً بكل شيء ، لا تخفى عليه خافية، فما الذي يدعو المرء إلى إظهار عمله والإعلان عنه ؟!

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

لا يَلِتْكُم: لا ينقصكم.

أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ: أتخبرونه بقولكم آمنا.

لو اهتدى شخص ما إلى الإسلام أو تحقق على يديه عمل إسلامي ما ، فيجدر به أن يعتبر ذلك نتيجة النصر الإلهي ، إذ الإيمان والعمل الصالح كلاهما يتوقف على توفيق الله وفضله ؛ ولذا يجب على المرء إذا وفق إلى خيرٍ ما أن يتوجه إلى الله بالشكر والامتنان ..

وبدلاً من هذا إذا أخذ الرجل يمن بذلك على إخوانه في الدين ، فكأنما هو يقول بلسان حاله: إن لم أكن قد فعلت ما فعلت ابتغاء وجه الله ، وإنما فعلت ذلك رياءً ونيلاً للحظوة لدى الناس!!. إن الله سبحانه يحيط علماً بكل شيء على نحوٍ مباشرٍ فمن يعمل شيئاً لأجل الله ، فليكن واثقاً من أن ربه مطلع على عمله بدون اطلاعه إياه عليه !!

سورة ق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝ ﴾

وَالْقُرْآنِ: قسم جوابه لتبعثن.

رَجْعٌ بَعِيدٌ: رجوع إلى الحياة غير ممكن.

أَمْرٍ مَّرِيجٍ: مختلط مضطرب.

إن تاريخ الأنبياء والمرسلين يشهد بأن الأمم المعاصرة لهم قلما تستعد للإيمان بهم وتلقي دعوتهم بالقبول، ولكن الناس في العصور اللاحقة لا يلبثون أن يعترفوا لهم بالنبوة والرسالة دون إباءٍ أو عناد كثير . وسر ذلك أن النبي يبدو لمعاصريه "شخصاً مساوياً" لهم، ومن هنا قد يكون من دواعي العجب والدهشة لدى القوم أن يتحول هذا الشخص الذي كانوا يعدونه مساوياً لأنفسهم - فجأةً إلى كبير يعظهم وينصح لهم!!. وأما في الأزمان التالية، فإن النبي يكون قد اقترن باسمه تاريخ الأمجاد والبطولات، مما يجعله يتراءى لمن يأتون بعده "شخصاً متفوقاً" عليهم ؛ ولهذا السبب لا يصعب على الناس أن يعترفوا برسالة النبي في القرون المتأخرة ....، إن النبي يكون بالنسبة إلى أفراد الجيل المعاصر له شخصية خلافية (متنازعاً فيها) وبالنسبة إلى الأجيال التالية شخصية مسلماً بها ، وإذ يتعين على الجيل الأول أن يقطع رحلة شعورية لكي

يملأ الفراغ الحائل بينه وبين النبي، فإن هذا الفراغ يكون قد ملأه التاريخ نفسه في القرون المتأخرة .

والذين يشكّون في نبوّة النبي، يصير كل ما يدعو إليه في أعينهم موضع الشك والارتياب، حتى العقيدة التي تكون معروفة لديهم على وجه التقليد ، غير أن هذا الشيء لن يصلح عذراً للناس في تكذيبهم لدعوة النبي ، وسيجد المنكرون للنبي أنفسهم مضطرين إلى الإيمان به رسولاً من الله، لو أنهم تدبروا ما يتميز به كتابه من عظمة لا تدانى !.

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾

فُرُوجٍ: فتوق وشقوق.

وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا: بسطناها للاستقرار عليها.

رَوَاسِيَ: جبالاً ثوابت تمنعها الميدان.

زَوْجٍ بَهِيجٍ: صنف حسن نضر.

عَبْدٍ مُّنِيبٍ: راجع إلينا مذعن بقدرتنا.

وَحَبَّ الحَصِيدِ: حب الزرع الذي يحصد.

وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ: طوالا . أو حوامل.

لَّهَا طَلْعٌ: هو ثمرها ما دام في وعائه.

نَضِيدٌ: متراكم بعضه فوق بعض.

كَذَٰلِكَ الخروج: من القبور أحياء عند البعث.

إن هذا الكون، بما ينطوي عليه من روح وحكمة، وما يوجد فيه من روائع الخلق والإبداع، وكونه خالياً من كل نقصٍ أو خللٍ، وتلاؤمه مع الحاجات الإنسانية تمام التلاؤم.. إلخ، ليرغم كل ذي لبٍ على التأمل والتفكير، والذي يتأمل في النظام الكوني بجدية وإمعانٍ، سيدرك الخالق عبر مخلوقاته، وسيرى انعكاس الآخرة في مشاهد الدنيا، فإن عالم الآخرة ليس سوى صورة أخرى لازمة لعالمنا الراهن!!.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾

وَأَصْحَابُ الرَّسِّ: البئر ، رسوا نبيهم فيها فأهلكوا.

وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ: سكان الغيضة الكثيفة الملتفة الشجر (قوم شعيب) .

وَقَوْمُ تُبَّعٍ: أبو كرب الحميري (ملك اليمن) .

أَفَعَيِينَا بِالخَلْقِ: أفعجزنا عنه – كلا.

فِي لَبْسٍ: خلط وشبهة وشك.

لقد حدث مرةً بعد أخرى، حسب التصوير القرآني للتاريخ، أن تعرضت الأمم والشعوب للهلاك والدمار لقاء إنكارها للأنبياء والمرسلين، وقد أشير هنا إلى بعض تلك الشعوب المهلكة على سبيل المثال دون الحصر، وإن إهلاك الأمم إنما هو في الأصل

جزء من الآخرة، حيث يتم من خلاله إظهار حظ يسير من العذاب الذي سوف يلقاه منكرو الحق هناك في حياتهم الراهنة ذاتها ليكون عبرة لمن يعتبر! إن عملية الخلق الأولى لهذا العالم تبرهن على إمكان الخلق الثاني ، ولو كان المرء جاداً حق الجدية لم يعد بحاجة ما إلى دليلٍ آخر بعد ذلك حتى يؤمن بالآخرة !!

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

حَبْلِ الوَرِيدِ: عرق كبير في العنق.

يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ: يحفظ ويكتب الملكان.

قَعِيدٌ: ملك قاعد.

رَقِيبٌ عَتِيدٌ: ملك حافظ لأقواله معد حاضر.

لقد أثبتت الدراسات العلمية أن هناك نظام "تسجيل" متناهياً في الدقة والإحكام، يوجد في هذا الكون، فتفكير الإنسان يرتسم على شاشته الذهنية بصفةٍ دائمة، وكل ما ينطق به الإنسان من الكلمات يبقى بشكل موجات هوائية في "الأثير" إلى الأبد ، وجميع أعمال الإنسان، القلبية منها واللسانية والعضوية، كلها تسجل عبر الموجات الحرارية بحيث يمكن إعادتها في أي وقتٍ ، وكل ذلك من الحقائق المعروفة لدى إنسان اليوم ، وهذه الحقائق المعروفة تقرب إلى أفهامنا خبر القرآن هذا بأن نية الإنسان وكلامه وعمله يحيط بها الخالق علماً، لا يخفى عليه شيء من ذلك صغيراً كان أو كبيراً ، وأن كل ما يقترفه الإنسان يتم تسجيله على الفور في سجل الملائكة بدقة فائقةٍ !

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ
ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ
مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا
لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾
ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا
مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم
بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾

سَكْرَةُ المَوْتِ: شدته وغمرته الذاهبة بالعقل.

تَحِيدُ: تميل عنه وتفر منه وتهرب.

غِطَآءَكَ: حجاب غفلتك عن الآخرة.

حَدِيدٌ: نافذ قوي.

عَتِيدٌ: معد حاضر مهيأ للعرض.

عَنِيدٍ: شديد العناد والمجافاة للحق.

مُرِيبٍ: شاك في الله وفي دينه.

مَا أَطْغَيْتُهُ: ما قهرته على الطغيان والغواية.

في هذه الآيات تصوير لغمرة الموت، يتبعه عرض لبعض مشاهد القيامة وأهوالها ، ومن خلال ذلك يتضح لنا ماذا سيجري هناك على أولئك الذين كانوا قد طغوا وبغوا في عالم الامتحان الراهن لكونهم يتمتعون فيه بالاختيار وحرية التصرف ، وإن هذا التصوير فظيع رهيب لدرجة أنه يكفي ليقض مضجع الإنسان الحي ويملأ قلبه بالقلق

والتوجس والاضطراب !!

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ: قربت وأدنيت.

أَوَّابٍ: رجاع إلى الله بالتوبة.

حَفِيظٍ: لما استودعه الله من خلقه.

بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ: مخلص مقبل على طاعة الله.

مَنْ الذين يستحقون جنان الله الأبدية ؟، إنهم أناس ظلوا طيلة حياتهم الدنيا خائفين وجلين من عذاب الله ، والذين قد استشعروا الخوف قبل رؤية العذاب، أولئك وحدهم سيكونون آمنين من كل أنواع الخوف والحزن يوم يصبح الخوف ماثلاً أمام الناس يرونه رأي العين . إن خشية الله تولد في نفس المرء صفات أهل الجنة، بينما يولد انعدام الخشية الإلهية صفات أهل النار!!

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

وَكَمْ أَهْلَكْنَا: كثيراً أهلكنا.

قَرْنٍ: أمة.

بَطْشاً: قوة أو أخذاً شديداً في كل شيء .

فَنَقَّبُوا فِي البِلادِ: طوفوا في الأرض.

مَحِيصٍ: مهرب ومفر من الله.

إن الشعوب تنهض وتأخذ بأسباب الرقي والتقدم حتى تبلغ قمة المجد والازدهار، ولكنها حين تتعرض للبطش الإلهي، نتيجة سوء أعمالها، لا تكاد تجد في جنبات الأرض من مهرب أو ملجأ تأوي إليه !.

ووقائع التاريخ هذه تنطوي على عبر ودروس عظيمة ، غير أن الاعتبار لن يوفق إليه إلا شخص يتوافر لديه استعداد للتفكير ، يمكّنه من أن يتلقى بنفسه ما تحمله الأحداث والوقائع من إيحاءات ورسائل صامتة ، أو تكون عنده حاسة للسمع واعية بحيث إذا ذُكر له شيء من ذلك وصل إلى أعماق نفسه بدون عائق !

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾

إن خلق السماوات والأرض في ستة أيام، أو بلفظ آخر في ستة أدوار، يوحي بأن منهج الله هو منهج العمل التدريجي ، وإذا كان الله رغم تمتعه بكل القوى والطاقات، يُظهر الأحداث والوقائع على التدريج خلال حقبة الزمن، فينبغي لنا نحن البشر – كذلك – أن نتجنب التسرع والاستعجال، ونحاول تحصيل النتائج المطلوبة عن طرق الجهد الصبور الدائب.

وعملية الدعوة عملية صبرٍ من بدايتها حتى النهاية ، حيث إنها تفرض أن يتحمل الداعي كل ما يواجهه من قبل الآخرين من الأذى والتجارب المريرة برحابة صدر،

وأن يواصل نشاطه على طول الطريق، وهذا العمل بما فيه من جهدٍ ومشقةٍ، وما يتطلب من تصبير دائم للنفس، لن يقوى على القيام به والاستمرار فيه إلا الذي يقضي ليله ونهاره مشغولاً بالذكر والعبادة، والذي يتلقى من ربه ما لا يجده من البشر، والذي لا يتمكن منه الشعور بالخيبة والحرمان أبداً حتى لو فقد كل شيءٍ !!

وقوله : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ تعبير ضمني يتناول بالتصحيح ما ورد في التوراة الحالية المحرفة من أن الله قد أكمل خلق السماوات والأرض في ستة أيامٍ ، ثم استراح بعد ذلك في اليوم السابع! (انظر سفر التكوين : الإصحاحين الأول والثاني)، إنما يستريح مَنْ يشعر بالتعب، وبما أن الله – سبحانه وتعالى – لا يمسه شيء من التعب أو اللغوب أو الإرهاق، لا يحتاج إلى الاستراحة أو الاستجمام البتة !

﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ: نفخة البعث.

تَشَقَّقُ الأَرْضُ: تنفلق وتتصدع.

سِرَاعاً: مسرعين إلى الداعي.

ليس لقيام الساعة موعد معين ، وإنما يصدر الله – عز وجل – أمره في أي وقتٍ شاء إلى "إسرافيل" الذي ينفخ في الصور إيذاناً بقيامها فجأةً !

والغافلون عن الله يرون القيامة أمراً بعيداً وربما يستبعدون وقوعها ، وأما المؤمن الصادق الإيمان فلا يزال في كل لحظةٍ في توجس وحذر وارتقاب : متى يُنفخ في الصور

فيفاجأ بمجيء الساعة الرهيبة ؟! وبعد أن ينفخ في الصور سوف تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، ويُحشر الناس كلهم في عالمٍ جديدٍ، حيث ينال الكل جزاءه الأبدي بحسب عمله!.

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

بِجَبَّارٍ: بمسلط تجبرهم على الإيمان.

لقد ورد في القرآن الكريم عن رسول الله - ﷺ- مراراً وتكراراً ما معناه أن عملك الأساسي - أيها الرسول - إنما ينحصر في البلاغ وحده ، وليس المطلوب منك أن تقوم بتغيير الناس بالفعل ، ومن جانبٍ آخر أكد القرآن كذلك - في أكثر من موضعٍ - على أن الله - عز وجل - قد بعث رسوله بدين الحق لكي يظهره على كل الأديان سواه!!

سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝٦ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝٨ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ۝٩ ﴾

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً: (قسم) بالرياح تذرو الرياح وتفرق التراب وغيره ذرواً.

فَالْحَامِلاتِ وَقْراً: السحب تحمل الأمطار حملاً

فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً: السفن تجري على الماء جريا سهلاً.

فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً: الملائكة تقسم المقدرات الربانية.

إِنَّمَا تُوعَدُونَ: من البعث (جواب القسم) .

وَإِنَّ الدِّينَ: الجزاء بعد البعث.

ذَاتِ الْحُبُكِ: الطرق التي تسير فيها الكواكب.

قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ: متناقض فيها كلفتم الإيمان به.

يُؤْفَكُ عَنْهُ: يصرف عن الحق الآتي به الرسول.

تصور هذه الآيات عملية المطر أبدع تصوير ، فأولاً تهب الرياح عاصفةً فتحمل ، بعد مرورها بمراحل شتى ، السحب المثقلة بالماء ، ثم تسوقها سوقاً لتمطر رحمةً ونعمةً على قومٍ ، وتجلب نقمة وعذاباً على آخرين في شكل الكوارث والفيضانات .

وهذه الواقعة تدلنا على أن عالم الله هذا يسوده قانون "تقسيم الأمر" ، فالناس هنا يتفاوتون في حظوظهم من متاع الحياة والرزق ، حيث ينال بعضهم قليلاً وبعضهم الآخر كثيراً ، ومنهم مَنْ يُعطي بلا حساب ومنهم مَنْ يُسلب بعد العطاء وفي هذا إشارة لنا إلى مآل الإنسان الذي ينتظره في العالم الآتي بعد الموت ، فمبدأ "تقسيم الأمر" هذا سيُنفذ هناك في أتم الوجوه وأكملها ، فإنما ينال الكل هناك ما ينبغي أن يناله بمقتضى العدل دون زيادة أو نقصان ، ولن يناله ما لم يكن يستحق أن يناله بموجب العدل كذلك.

وفي السماء نجوم وكواكب لا يحصيها العد ؛ كلها تتحرك في مداراتها المقررة وفق نظام محكم للغاية ، ولئن استطعنا إلقاء نظرة شاملة عليها ، وبالتالي رسمنا لها صورةً في مجموعها ، إنها ستبدو لنا كالشبكة أو كزرد منسق متشابك ذي حلقات متداخلة بعضها في بعضٍ ، ومثل هذا النظام المدهش يوحي بانطوائه على قصد ومعنى عميقٍ ، والذين يستعملون عقولهم سيجدون فيه مادة الدرس والعبرة ، وأما الذين لا يستعملون عقولهم فهو عندهم رقصة عابثة فارغة عن أي درس أو عظة ذات بالٍ !!

﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

قُتِلَ الخَرَّاصُونَ: لعن وقبح الكذابون.

غَمْرَةٍ: جهالة غامرة بأمور الآخرة.

سَاهُونَ: غافلون عما أمروا به.

أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ؟: متى يوم الجزاء ؟ (إنكار له)

يُفْتَنُونَ: يحرقون ويعذبون.

يَهْجَعُونَ: ينامون.

وَبِالأَسْحَارِ: أواخر الليل.

وَالْمَحْرُومِ: الذي حرم الصدقة لتعففه عن السؤال مع حاجته.

إن ألزم ما يلزم المرء لتفهم أمرٍ من الأمور هو الجدية ، فالذين لا يأخذون أمراً ما بمأخذ الجد ، لا يعيرون القرائن والأدلة المصاحبة له أي اهتمامٍ ، ومن ثم لا يستطيعون أن يفهموه بطبيعة الحال ، وهم يلجؤون بالتالي إلى الاستهزاء به إيهاماً للآخرين بأن هذا أمر بالغ السخافة، لدرجة لا يستحق معها أن يعتبر موضوع التأمل والتفكير الجدي!.

وأما أصحاب الجدية فحالهم على نقيضٍ من هذا تماماً ، فإن جديتهم تجعلهم يعيشون على حذر واحتياط دائم، وتنتزع من نفوسهم مزاج التعنت والطغيان وحساسيتهم المرهفة تجبرهم على القيام حتى في آناء الليل ، وهم يقضون أوقاتهم في ذكر الله وعبادته والتوجه إليه صباح مساء بطلب الرحمة والغفران ، وهم لا يعدون أموالهم نتاج كدهم وجهدهم الذاتي ، وإنما عطية من عطايا الله ، ولهذا السبب فإنهم يرون فيها حقاً لغيرهم أيضاً مثلما يرون فيها حقاً لأنفسهم !

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝﴾

لقد جعل الله عالمنا الراهن بحيث أصبح هذا العالم المعلوم بما فيه آية على العالم الآتي

المجهول ، فالوقائع المادية المبثوثة في جنبات الأرض والأحاسيس والمشاعر الكامنة في نفس الإنسان كلها تنبئنا سلفاً بالحدث الذي سوف يواجهه الإنسان مباشرةً بعد الموت .. ومن هذه الآيات ظاهرة النطق المشار إليها هنا.

وقد جاء في حديث عن شئون الآخرة أن النبي - ﷺ - قال : "إنما هي أعمالكم ترد عليكم" مما يعني أن عالم الآخرة لا يعدو أن يكون صنواً (Double) للعالم الحالي، ويتجلى لنا هذا الإمكان ، بصفة جزئية ، من خلال ظاهرة النطق البشري ، وذلك حين نسجل صوت شخصٍ ما في الشريط ، ثم نشغله في آلة التسجيل ، فإذا بنا نسمع صوت الشخص ذاته كما هو مرةً أخرى ، بينما الحقيقة أن صوت الشريط إنما هو صنو للصوت الأصلي، وهكذا يمكننا النطق على المستوى الجزئي المحدود من تجربة الواقع الذي سيظهر في الآخرة على المستوى الكلي اللامحدود .

وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ معناه أنه إذا كان تكرار نطقكم ممكناً فلم لا يمكن إذن تكرار وجودكم؟! وإذا كنا نشاهد تكرار جزءٍ واحدٍ من الكيان البشري في حياتنا الراهنة ذاتها ، فمن اليسير ، قياساً على ذلك ، أن نفهم إمكان وقوع التكرار والإعادة للكيان البشري بأكمله!!

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾

ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ: أضيافه من الملائكة.

قَوْمٌ مُّنكَرُونَ: قاله في نفسه لغرابتهم.

فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ: ذهب إليهم في خفية من ضيفه.

فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ: فأحس في نفسه لغرابتهم.

بِغُلامٍ عَلِيمٍ: هو هنا إسحاق عند الجمهور.

صَرَّةٍ: صيحة وضجة.

فَصَكَّتْ وَجْهَهَا: لطمته بيدها تعجبا.

تتحدث الآيات هنا عن قصة إبراهيم عليه السلام إذْ جاءته الملائكة تبشره بالولد وهو يومئذٍ قد تجاوز المائة سنة من عمره . لقد وُلد سيدنا إبراهيم في العراق القديم ، حيث ظل يدعو قومه إلى التوحيد والآخرة زمناً طويلاً ، ولكن لم يكد يستجب لدعوته من قومه سوى زوجته وابن أخيه ، إلى أن بلغ عليه السلام سن الشيخوخة.

والآن ، لم يعد للإبقاء على تسلسل رسالته واستمراريتها غير شكل واحدٍ ، هو أن يولد له ولد ، فيقوم على تربيته وإعداده لهذا الغرض ، والعلاقة بين الأب وولده تقوم على أساس الدم ، مما يكسبها قوة إضافية من شأنها أن تربط الولد بأبيه برباط متين لا ينفصم على اختلاف الأحوال والظروف ، كما تجعله بالأحرى مناصراً متحمساً لأفكاره وآرائه ، يسره أن تنتشر بين الناس وتنتقل إلى الأجيال القادمة . ولقد وهب الله لإبراهيم في آخر حياته ولدين اثنين : أولهما: إسماعيل الذي تم استخدامه كالنواة لجيل فريد من البشر يتربى في أحضان الصحراء ، وثانيهما : إسحاق الذي بواسطته قام تسلسل دعوة التوحيد في بني إسرائيل .. ثم يقف في النهاية إلى جانب نبي آخر الزمان ويتعاون معه على تكميل رسالته التاريخية !!.

﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ

﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

فَمَا خَطْبُكُمْ ؟: فما شأنكم الخطير ؟

مُسَوَّمَةً: معلمة بأنها حجارة عذاب.

كان إبراهيم عليه السلام حينذاك في فلسطين ، وعلى مقربةٍ منها كانت قريتا سدوم وعامورة - مساكن قوم لوط - بجنوبي البحر الميت ، ورغم بقاء لوط عليه السلام بين أولئك القوم مدة طويلة من الزمان يدعوهم إلى الحق وينذرهم - إن لم يؤمنوا به - ببأس الله ، إلا أنهم لم يرضوا بنبذ حياتهم المنحرفة الغافلة عن الله ، فخرج لوط وأصحابه من بينهم إلى حيث أمرهم الله ، فلم يلبث الملائكة الذين سبق ذكرهم آنفاً أن أهلكوا القوم عن بكرة أبيهم بالرجفة والعواصف وبوابل من الحجارة المعلَّمة لا يعلم حقيقتها إلا الله سبحانه وتعالى . لقد اندثر قوم لوط منذ ألفي سنة مضت ، غير أن مساكنهم الخربة - بالمنطقة الواقعة جنوبي البحر الميت - ما زالت إلى يومنا هذا تلقن الدرس والعبرة لمن يتوافر لديهم مزاج التذكر والاعتبار بالأحداث والوقائع!!

﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن

قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وَفِي مُوسَى: وجعلنا في قصة موسى آية.

فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ: فأعرض فرعون بقوته وسلطانه عن الإيمان .

وَهُوَ مُلِيمٌ: آت بما يلام عليه.

الرِّيحَ الْعَقِيمَ: المهلكة لهم القاطعة لنسلهم.

كَالرَّمِيمِ: كالشيء البالي المفتت الهالك.

فَعَتَوْا: فاستكبروا.

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ: فأهلكتهم صيحة أو نار من السماء.

اعتبر فرعون ما جاء به نبي الله موسى من الخوارق والمعجزات سحراً ، كما عبر عن يقينه الذي كان يشهد بكونه على الحق بأنه جنون ! وهذا هو التلبيس عينه. والتلبيس هو الملجأ الدائم للذين لا يستعدون للإيمان بالحق رغم تضافر الأدلة والبراهين على إحقاقه .

ولا ينفلت الطغاة والمتعنتون إزاء الحق كهؤلاء من بطش الله أبداً ، فقد أغرق فرعون وجنوده بناء على هذا ، كما حل بقوم عاد وقوم ثمود وقوم نوح ما حل من العذاب والدمار للسبب نفسه، وليس لأمثال هؤلاء في دنيا الله هذه من متاع سوى هذا المتاع القليل المقدور لهم لحكمة الامتحان إلى أجل محدودٍ !

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾

بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ: بقوة وقدرة.

وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ: لقادرون.

وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا: مهدناها وبسطناها كالفراش للاستقرار عليها.

فَنِعْمَ المَاهِدُونَ: المسوون المصلحون.

خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ: صنفين ونوعين مختلفين.

فَفِرُّوا إِلَى اللهِ: فاهربوا من عقابه إلى ثوابه.

﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ هذه الفقرة الواردة هنا في سياق الحديث عن خلق السماء ربما تتضمن الإشارة إلى طبيعة الكون تلك التي لم يتم اكتشافها إلا في مطالع القرن العشرين ، وأعني بذلك تمدّد الكون واتساعه بالتسلسل الدائم في كل الاتجاهات، وتمدّد الكون على هذا النحو دليل على أنه لم يُخلق من تلقاء نفسه وإنما خلقه خالق ، إذْ أن هذا التمدّد يعني أنه كان في بدايته " منكمشاً " ، فبموجب القوانين المادية المعروفة كانت كل الأجزاء التركيبية لكتلة الكون البدائية هذه مركزةً ومجتمعةً بعضها مع بعضٍ بشدة ، وفي هذه الحالة فإن أخذها في الاتساع نحو الفضاء الخارجي وتباعد الأجرام بعضها عن بعض بسرعات هائلةٍ لا يتصور بدون تدخل من "الخارج" .. وإيماناً بهذا التدخل الخارجي يستلزم الإيمان بالله بالضرورة .

إن نظام كوننا هذا نظام ينطوي على حكمة بالغةٍ ومعنى عميق ، مما يثبت أن العالم الراهن أُنشئ لغاية سامية ، ولكننا نرى الإنسان قد ملأ الأرض شراً وفساداً ، وشأن هذا الواقع العبثي اللامعقول بالنسبة إلى هذا الكون الهادف المعقول كشأن النغمة النشاز في اللحن المتناسق ! وهذا الوضع يقضي بظهور عالم يخلو من كل ألوان الشر والفساد.

ومرة أخرى نلتقي هنا بظاهرة من ظواهر الكون الحالي تتولى الإجابة عن هذا السؤال، وهي كون الأشياء هنا زوجين زوجين ، فالذرة – وإليها يرجع بناء الكون كله – مؤلفة من زوج من الكهرباء : موجب وسالب ، وينقسم النبات بدوره إلى ذكر وأنثى تماماً كما هو حالنا نحن البشر ؛ مما يدلنا على قاعدة تسري في هذه الوجود ، وهذا أن كل شيء يتلاقى في نقصه ويستكمل ذاته عبر الانضمام إلى زوجه، وتلك قرينة تبرهن على إمكان وقوع الآخرة . فكأن عالم الآخرة هو زوج عالمنا الراهن بحيث لا يكتمل هذا الأخير إلا بالانضمام إلى الأول !!

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

طَاغُونَ: متجاوزون الحد في الكفر.

من شأن الرجل الجاد إذا طالب بإقامة الدليل على أمرٍ ما ، أن يؤمن به فور ظهور الدليل المطلوب، وأما الذين مزاجهم التعنت والعناد فلا يمكن إقناعهم أو إسكات ألسنتهم بأي دليلٍ ، حيث إنهم سيجدون لرفض كل دليل تأتي به بعض الألفاظ الجديدة ، حتى إنك لو أتيت بدليلٍ لا سبيل إلى دحضه منطقياً لأعرضوا عنه قائلين : إن هذا سحر!!. وينبغي للداعي ألا يقع فريسة اليأس إذا أنكر هؤلاء دعوة الحق، فإنه سوف يجد أنصاره بين آخرين عداهم ليسوا مصابين بعقدة الشعور بالكبرياء الكاذبة!.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى

يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

لِيَعْبُدُونِ: ليعرفوني أو ليخضعوا لي ويتذللوا.

ذَنُوباً: نصيبا من العذاب.

إن الهدف الوحيد وراء خلق الإنس والجن هو عبادة الله ، ومعنى العبادة أن نخضع أنفسنا بين يدي الله، ونعود عابدين له تعالى بأتم معاني الكلمة ، وجوهر العبادة هو المعرفة ، ومن ثم شرح ابن جريج قوله : ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ بعبارة : "إلا ليعرفون"، كما حكي عنه ابن كثير في تفسيره . يعني أن المطلوب من الإنسان أن يدرك الله على وجه الاكتشاف ، ويتعرف على الله من غير أن يراه رأي العين ، وهذا ما يسمى المعرفة ، والحياة التي تظهر باعتبارها نتيجة تلقائية لهذه المعرفة هي التي يقال لها العبادة والعبودية .

إن الدلو حين يمتلئ فلا يلبث أن ينغمر في الماء ، وهكذا لا يكاد المرء يستكمل فرصة العمل المتاحة له على هذه الأرض حتى يبتلعه الموت ، فمن أصلح نفسه قبل "امتلاء الدلو" نجا وأفلح ، وأما من ظل غافلاً حتى اللحظة الأخيرة الحاسمة فقد خاب وهلك . ولا يظن الظالمون إذا كانوا لا يتعرضون للمؤاخذة أنهم قد أهملوا ولن يؤاخذوا .. ! وإنما تُركوا أحراراً يتصرفون كما شاؤوا؛ لأن سنة الله قد جرت بعدم التعجيل بالمؤاخذة ، لا لأن الله غير مؤاخذهم .

سورة الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ﴿٤﴾
وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن
دَافِعٖ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴿١٠﴾ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ
لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا
﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾
ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

وَالطُّورِ: (قسم) بجبل طور سيناء الذي كلم الله عنده موسى.

وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ: مكتوب على وجه الانتظام.

فِي رَقٍّ: ما يكتب فيه جلدا أو غيره.

مَّنْشُورٍ: مبسوط غير مختوم عليه.

وَالْبَيْتِ المَعْمُورِ: هو الضراح في السماء أو الكعبة.

وَالسَّقْفِ المَرْفُوعِ: السماء.

وَالْبَحْرِ المَسْجُورِ: الموقد ناراً يوم القيامة.

إِنَّ عَذَابَ : (جواب القسم) بما سبق.

تَمُورُ السَّمَاءُ: تضطرب وتدور كالرحى.

فَوَيْلٌ: هلاك أو حسرة أو شدة عذاب.

خَوْضٍ: اندفاع في الأباطيل والأكاذيب.

يُدَعُّونَ: يدفعون بعنف وشدة.

اصْلَوْهَا: ادخلوها. أو قاسوا حرها.

الطور هو اسم الجبل الذي منح عنده موسى عليه السلام النبوة في برية سيناء، والمراد بالكتاب المسطور التوراة، أما البيت المعمور والسقف المرفوع فالمقصود منهما الأرض والسماء على التوالي، وأما البحر المسجور فهو البحر الهائج المتلاطم الأمواج، كل هذه الأشياء شاهدة على أن يوم المؤاخذة الإلهية قادم ولا ريب، وبهذا النبأ ذاته بعث الله رسله تترى عبر القرون الخالية ، وهو مسجل في كل الكتب السماوية منذ أقدم العصور، كما تعلن عنه السماء والأرض بلغة الصمت والسكون، ويحكي البحر بأمواجه المتلاطمة قصة ذلك لكل سامع !!

إن الإنسان مجزي بعمله لا محالةَ ، وهو ينبأ بذلك في الحياة الراهنة كإنذارٍ مسبقٍ، والذين لا يتنبّهون على هذا الإنذار المسبق، فإنما سيفاجئون غداً باستحالة غفلتهم وطغيانهم عذاباً أليماً يحيط بهم من كل جانبٍ بحيث لا يستطيعون دفعه عن أنفسهم ولا يجدون إلى الهرب منه سبيلاً!

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

فَاكِهِينَ: متلذذين ناعمين مسرورين.

سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ: موصول بعضها ببعض باستواء.

وَزَوَّجْنَاهُم: قرناهم.

بِحُورٍ عِينٍ: بنساء بيض نجل العيون حسانها.

إن أكبر جريمة يرتكبها الإنسان على هذه الأرض تتمثل في تكذيبه للحق، حيث إنها هي مصدر سائر جرائمه الأخرى، كما أن الاعتراف بالحق هو حسنة الإنسان الكبرى، إذْ تأتي كل الحسنات الأخرى كثمرة طبيعية لها، وبالاعتراف بالحق يتحطّم كبرياء الإنسان وتنهار عظمته، ومن ثم كان ذلك أصعب عملٍ وأشد وطأةً على نفس الإنسان، ولا ينجح في القيام بحقه إلا من جعلته مخافة الله وتقواه جاداً إلى أقصى حدود الجدية، والذين يقيمون الدليل على هذه الحسنة الكبرى يستحقون بالأحرى أن تفتح لهم أبواب جنان الخلد والنعيم المقيم !!

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾

وَمَا أَلَتْنَاهُم: ما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق.

رَهِينٌ: مرهون عند الله تعالى.

يَتَنَازَعُونَ: يتجاذبون ويتعاورون.

كَأْساً: خمراً. أو إناء فيه خمر.

لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ: لا كلام ساقط في أثناء شربها ولا فعل يوجب الإثم.

لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ: مستور مصون في أصدافه.

مُشْفِقِينَ: خائفين من العاقبة.

عَذَابَ السَّمُومِ: نار جهنم النافذة في المسام.

هُوَ البَرُّ الرَّحِيمُ: المحسن العطوف ، العظيم الرحمة.

إن كل إنسان سيكون في الآخرة مرهوناً بعمله وحده ، فلا يحدث أن يُحمّل شخص شيئاً من ذنوب شخصٍ آخر، ولا أحد يُسمح له بالدخول إلى الجنة بدون الإيمان والعمل الصالح ، بيد أن الله سبحانه يمتنّ على أهل الجنة بفضلٍ خاصٍ، هو أن الآباء المؤمنين لو كانوا في درجات عالية، وذريتهم في درجات أخرى دونها، فسوف يُلحق هؤلاء بأولئك، لتقر أعينهم برؤية بعضهم بعضاً، فيزدادوا سروراً إلى سرورٍ .

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

رَيْبَ المَنُونِ: صروف الدهر المهلكة.

قَوْمٌ طَاغُونَ: متجاوزون الحد في العناد.

تَقَوَّلَهُ: اختلق القرآن من تلقاء نفسه.

إذا كان المرء لا يرغب في قبول دعوةٍ ما، رغم كونه لا يملك في مواجهتها دليلاً أو

برهاناً يبرر إنكاره إياها؛ فطالما يلجأ إلى توجيه التهم والعيوب المفتعلة نحو شخص الداعي، ويتخذ بذلك هدفه من ذات المتكلم بدلاً من كلامه، تلك هي النفسية التي دفعت المخاطبين إلى وصف الرسول بأنه شاعر ومجنون وكاهن .. إلخ . لقد كانوا عاجزين عن مقاومة دعوته - عليه الصلاة والسلام - ودحضها بالدليل، ومن ثم راحوا يقولون عنه ما يجعله في ذاته مثار الشك والريبة ! ولكن النبي لا ينطق من عند نفسه ، وإنما يتلقى كلامه من عند الله، والذي يتكلم متلقياً كلامه عن الله، يأتي كلامه فذاً ممتازاً عن كلام الآخرين، لدرجة لا يقدر معها أحد على الإتيان بمثله ، وهذه الواقعة هي الدليل الأكبر على أن كلامه كلام الله، وليس كلاماً إنسانياً مجرداً بالمعنى العادي .

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

خَزَائِنُ رَبِّكَ: خزائن رزقه ورحمته أو مقدوراته.

هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ: الأرباب الغالبون أو المسلطون.

لَهُمْ سُلَّمٌ: مرقى إلى السماء يصعدون به.

إن الحقائق التي تم إعلانها من جانب الله تتسم كلها بغاية الوضوح والمعقولية ، حيث يستطيع المرء لو تأمل في أن يفهمها فيها يسر وسهولةٍ ، فما السبب إذن في مقابلة الناس إياها بالجحود والإنكار ؟ السبب يرجع إلى عدم تيقن الناس من الآخرة ، فبما أن الناس ليسوا على يقينٍ حيٍ من أنهم سيحاسبون في الآخرة، لا يأخذون هذه الأمور بمأخذ جديٍ، وبالتالي لا يتمكنون من تفهمها كذلك ، ولو استقر اليقين بحتمية الجزاء

والحساب عن الأعمال يوم القيامة في أعماق المرء، لأدرك من فوره تلك الأشياء التي تستعصي على فهمه وإدراكه الآن !!

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ: من التزام غرم متعبون.

هُمُ المَكِيدُونَ: المجزيون بكيدهم ومكرهم.

إن الشعب المدعو يكون دوْماً على مستوى المادية ، فلو أحسّ المدعو، والحالة هذه، أن الداعي يريد أن يأخذ شيئاً من أشيائه المادية، لابتعد عنه من فوره مرتاباً ومستوحشاً .. ولهذا السبب ذاته يلتزم النبي بالحذر الشديد من أن يثور بينه وبين المخاطبين صراع أوْ نقاش ما حول المطالب المادية أبداً ، وهو يحاول جهده الاحتفاظ بجو النزاهة والسمو على الأغراض بينه وبين من يبلغهم رسالته؛ وإن اضطره ذلك إلى تحمّل خسائر مادية فادحة !!

وإذا برهن الداعي على هذا المقدار من الجدية والإخلاص تجاه دعوته، صار أهلاً لنصرة الله المتمثلة في إحباط كيد المنكرين، ورد مكرهم في نحورهم، وعدم تمكنهم من النجاح في التغلب على الداعي بأي تدبير أوْ وسيلة .

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

كِسْفاً: قطعة عظيمة.

سَحَابٌ مَّرْكُومٌ: مجموع بعضه على بعض يمطرنا.

فِيهِ يُصْعَقُونَ: يهلكون (يوم بدر).

لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ: لا يدفع عنهم.

عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ: عذابا قبل ذلك هو القحط.

ما الذي جعل أهل مكة في قديم الزمان إذا رأوا العذاب في صورة قطعة من السماء تسقط عليهم قالوا: ﴿ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؟ ليس السبب في ذلك أنهم لم يكونوا مؤمنين أصلاً بوجود الله أوْ بالقوى الإلهية.. وإنما كان السبب الحقيقي وراء ذلك يرجع إلى كونهم شاكين في نبوة النبي محمد؛ الذي كان يتراءى لهم رجلاً مثلهم تماماً، وبالتالي لم يكونوا على يقين من أن إنكارهم إياه قد يكون جريمة تعرّضهم للهلاك والدمار المحقق!

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾

بِأَعْيُنِنَا: في حفظنا وحراستنا.

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ: نزهه تعالى حامداً له.

وَإِدْبَارَ النُّجُومِ: وقت غيبتها بضوء الصباح.

قوله ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ معناه: داوم على تذكير المخاطب واسْتمرّ في العمل على دعوته إلى الحق، رغم كل ما تلقاه من جانبه من ألوان الأذى وسوء المعاملة، وذلك حتى يبلغ عملك حده النهائي في علم الله، وعندما يأتي هذا الحد يتجلى القضاء الإلهي

تلقائياً لكي يظهر بصورةٍ عمليةٍ الفارق المميز بين الحق والباطل، ذلك الذي كانت المحاولات تجرى لإظهاره من الناحية النظرية وحدها .

ويكون الداعي طوال هذه المدة في حفظ الله وتحت رعايته التامة ، وإنما يجب على الداعي أن يظل متوجهاً دائماً نحو ربه ، واثقاً من أن عين الله تحرسه وترعاه كل حين وآنٍ!!

سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ
هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ
﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا
كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ
سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ
وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى: (قسم) بالنجم إذا غرب وسقط.

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ: ما عدل الرسول عن الحق والهدى (جواب القسم).

وَمَا غَوَى: ما اعتقد باطلا قط.

شَدِيدُ الْقُوَى: أمين الوحي جبريل عليه السلام.

ذُو مِرَّةٍ: قوة أو خلق حسن أو آثار بديعة.

فَاسْتَوَى: فاستقام على صورته الخلقية.

دَنَا: قرب جبريل من النبي ﷺ .

قَابَ قَوْسَيْنِ: قدر قوسين أو ذراعين من النبي ﷺ .

عَبْدِهِ: عبد الله وهو محمد ﷺ .

أَفَتُمَارُونَهُ: أتكذبونه فتجادلونه ﷺ .

نَزْلَةً أُخْرَى: مرة أخرى في صورته الخلقية.

سِدْرَةِ الْمُنتَهَى: التي تنتهي إليها علوم الخلائق.

جَنَّةُ الْمَأْوَى: مقام أرواح الشهداء.

يَغْشَى السِّدْرَةَ: يغطيها ويسترها.

مَا زَاغَ الْبَصَرُ: ما مال بصره عما أمر برؤيته.

وَمَا طَغَى: ما جاوزه إلى ما يؤمر برؤيته.

لَقَدْ رَأَى: ليلة المعراج.

القسم بالنجم إذا هوى - أي انحدر للغروب - فيه إشارة إلى النظام المحكم الدقيق لحركة النجوم والكواكب في الفضاء الهائل، ونظام الكواكب والنجوم هذا واحد من أنظمة الكون المادي التي تتسم بمنتهى الدقة والانضباط، بحيث لا يعتريها أدنى خلل أوْ اضطرابٍ أبداً، مما يتضمن قرينة توحي بأن النظام الروحاني الذي أنشأه الله - سبحانه وتعالى - في صورة الوحي النبوة لابد وأن يكون هو الآخر نظاماً محكماً دقيقاً كذلك.

وتجربة الرسول، من خلال الوحي والملك، تجربة حقيقية واقعة؛ يكفي لإثبات صحتها بيان القرآن وحده، فكلام القرآن المعجز يبرهن على كونه كتاب الله، وإذا أثبت كونه كتاباً إلهياً، فإن كل ما ورد في القرآن الكريم سيُعتبر، فور وروده فيه، بياناً صادقاً موثوقاً به لا يقبل الجدل والمراء !

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ

﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾

أَفَرَأَيْتُمُ: فأخبروني ألهذه الأصنام قدرة.

اللاَّتَ وَالْعُزَّى: أصناماً كانوا يعبدونها في الجاهلية.

وَمَنَاةَ: أصناماً كانوا يعبدونها في الجاهلية.

قِسْمَةٌ ضِيزَى: جائرة أو عوجاء.

أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى: بل إله كل ما يشتهيه – لا.

اللات والعزى ومناة من أصنام العرب في الجاهلية، وقد كانت اللات بالطائف، والعزّى بنخلة بين مكة والطائف، وأما مناة فكانت عند قديد على مقربةٍ من يثرب، وكانوا يعتقدون أن هذه الثلاثة بنات الله، ومن ثم كانوا يعبدونها، والحق أن عقيدة كهذه لا تعدو أن تكون محض فرضية باطلة لا تستند إلى أساسٍ، وهي مناقضة لذاتها، حيث كان أولئك المشركون يكرهون ولادة البنات لأنفسهم، فما أغربه من زعم وأكثره إثارةً للعجب والدهشة أن الله الذي هو خالق البنين والبنات كليهما، يتخذ لنفسه من الولد – لو أراد على سبيل الافتراض – إناثاً دون الذكور !!

﴿أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ شرح ذلك شاه عبد القادر الدهلوي بقوله : "يعني هل ينال الإنسان من عبادة الأصنام والأوثان شيئاً؟ كلا ! وإنما يناله فقط ما يعطيه الله، الذي هو وحده مالك الدنيا والآخرة بلا شريك !!"

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ

لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ
﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴿٢٨﴾
فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ
ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾

لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ: لا تدفع، أو لا تنفع.

إن اتخاذ الأصنام المنحوتة من الحجر آلهةً تعبد من دون الله، ووصف الملائكة بأنهم بنات الله، والأمل في دخول الجنة بناءً على الشفاعات المزعومة، كل هذه معتقدات غير جادة، والمعتقدات غير الجادة تنشأ دوْماً في العقل الفارغ من خوف المؤاخذة، والخوف قاتل للغو وفضول الكلام، فمن يخلو من الخوف لا يلبث أن يتحول مخه - بطبيعة الحال- إلى مصنع لفنون اللغو والعبث .

والذين أصيبوا بنفسية اللاخوف من العبث أن تخوض معهم في جدالٍ أوْ مناقشةٍ فكرية، فإنهم قلما يعيرون الدليل والمنطق أي اهتمامٍ، وبالتالي لا يكادون يستعدون للإذعان إلى أمر الحق فالأفضل الإعراض عنهم . بيْد أن الله - سبحانه وهو خالق البشر - خبير بحقيقتهم، مطلع على أحوالهم الظاهرة والخفية كلها، وإنه تعالى سيجازي كل أحد بحسب ذلك جزاء وافياً عادلاً !

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ
ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ
رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ
أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾

وَالْفَوَاحِشَ: ماعظم قبحه من الكبائر.

اللَّمَمَ: صغائر الذنوب.

فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ: فلا تمدحوها بحسن الأعمال.

إن هذا الكون الفسيح وما نشهد فيه من نظام متناهٍ في الإحكام والإتقان ليدل على أن خالقه ومالكه إله قوي جبار إلى حدٍ لا يحيط به الوصف، وهذه الواقعة في ذاتها تكفي لإدراك أنه سيؤاخذ الإنسان حتماً، وعندما يؤاخذ الإنسان فلن يمكنه أن يفلت من قبضته بأي حيلةٍ من الحيل .

وحيث إن الإنسان مخلوق يعاني من شتى ألوان الضعف والنقائص هي مقتضى بشريته، لم يكن مطالباً بأن يقيم الدليل على طهارة مطلقة عن المعاصي كما هو شأن الملائكة الأبرار ، والله - سبحانه وتعالى - إذْ تفضل على الإنسان بإيضاح ما يجب عليه أن يتركه ، فقد أعفاه من "اللّمم " ، وهو يعني : تورط الإنسان في بعض المعاصي والذنوب تحت عاطفة وقتية قاهرةٍ ، بشرط أن يشعر من فوره بالندم على ما اقترفه من سوء فيرجع إلى ربه تائباً، ومستغفراً !

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾

وَأَكْدَى: قطع عطيته بخلا.

الَّذِي وَفَّى: أتم وأكمل ما أمر به.

تَزِرُ وَازِرَةٌ: لا تحمل نفس آثمة.

الْمُنتَهَى: المصير في الآخرة للجزاء.

هناك أناس كثيرون يرغبون إلى الحق قليلاً، ثم لا يلبثون أن تغلب عليهم مصالحهم المادية، فإذا بهم ينقلبون على أعقابهم راجعين إلى ما كانوا عليه قبلئذٍ ، وربما يصطنع هؤلاء بعض العقائد الجميلة تبريراً لمواقفهم الخاطئ، ولكن هذا التبرير إنما يضاعف قبح جريمتهم، لأنه بمثابة زيادة الطغيان على الخطأ !!

والحقيقة التي كشفها الله سبحانه وتعالى بواسطة رسله تتلخص في أن كل إنسان مجزي بعمله لا محالةَ ، فلا أحد يستطيع أن ينقذ نفسه أوْ غيره من عاقبة ما قدمت يداه ، وعليه، فليس ثمة أشد غباء وحماقةً في هذا العالم من الذين لا يتنبّهون ولا يفيقون من غفلتهم رغم هذا التحذير الإلهي المتكرر على ألسنة الأنبياء على تعاقب العصور والأجيال، والذي تم إعلانه مجدداً وبصورة نهائية من خلال هذا القرآن الكريم !!

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾

تُمْنَى: تدفق في الرحم.

النَّشْأَةَ الأُخْرَى: الإحياء بعد الإماتة كما وعد.

وَأَقْنَى: أفقر، أو أرضى بما أعطى.

الشِّعْرَى: كوكب معروف كانوا يعبدونه في الجاهلية.

كل واقعة من وقائع الدنيا تتعلق بأسباب ما ورائية فوق الطبيعية، بحيث لا يقدر

على إظهارها أحد غير الله - عز وجل - فالحياة والموت، والسرور والحزن، والغنى والفقر، وما يلاحظ في هذا الكون من نظام بديع مدهش ، كل ذلك من مظاهر قوة أسمى وأعظم ، وقد كان الإنسان في قديم الزمان ينظر إلى النجوم على أنها علة الحياة ، ثم جاء العصر الحديث الذي برزت فيه فلسفات ومذاهب اعتبرت نواميس الطبيعة علة الوجود والحياة ، ولكن الحقيقة أن هناك علةً أيضاً وراء هذه العلل والأسباب الظاهرة، ألا وهي الله رب العالمين ، فكيف يسوغ للإنسان إذن، أن يجعل من أحدٍ سواه مركز اهتمامه وتوجهاته !!

﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝ ﴾

عَاداً الأُولَى: قرى قوم هود عليه السلام.

وَثَمُودَ: قرى قوم صالح عليه السلام.

وَالْمُؤْتَفِكَةَ: قرى قوم لوط عليه السلام.

أَهْوَى: أسقطها إلى الأرض بعد رفعها.

فَغَشَّاهَا: ألبسها وغطاها بأنواع من العذاب.

آلاءِ رَبِّكَ: نعمه تعالى ودلائل قدرته.

تَتَمَارَى: تتشكك.

إننا نرى في الأرض شعباً يحالفه التوفيق للأخذ بأسباب الرقي والتقدم، فلا يلبث أن يبرز ويتفوق على الشعوب الأخرى، لدرجة يكاد يبدو معها مستحيلاً أن يقهره أوْ

يتغلب عليه أحد ، ثم تظهر بعد ذلك عوامل شتى تتسبب في تعريض هذا الشعب الراقي، وهو في قمة مجده وازدهاره، للفناء أو التدهور والانحطاط بحيث يعود حديثاً يُروى وموضوعاً لا يهم إلا المؤرخين !! وهذه الواقعة تدل على أن هناك قوة فوق البشر هي التي تحسم مصائر الشعوب والأمم ، ولو أن وقائع التاريخ الصارخة هذه لم تنجح في فتح عيون الإنسان، فمن أي واقعةٍ بعدها سيستفيد الإنسان درساً أوْ عبرةً !؟

﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾

أَزِفَتِ الآزِفَةُ: اقتربت الساعة ودنت.

كَاشِفَةٌ: نفس تكشف أهوالها وشدائدها.

وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ: لاهون غافلون.

يتضح من تاريخ الأنبياء والمرسلين، كما حكاه القرآن الكريم، أن إنكار الحق وعاقبته الوخيمة ملتصقان أحدهما بالآخر كإصبعين من أصابع اليد ، فلو كان ضمير المرء حياً لرأى بطش الله قادماً نحوه حالما يضع أولى خطواته على طريق الإنكار والطغيان، فلا يلبث بالتالي أن يعود لتوّه إلى حظيرة الطاعة والانقياد منصرفاً عن اتجاه الطغيان، غير أن الإنسان غارق في اللهو والغفلة إلى حد أنه لا يكاد يرى حتى الشيء الماثل أمام ناظريْه !!

سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝ ﴾

وَانشَقَّ القَمَرُ: قد انفلق فلقتين معجزة له ﷺ .

سِحْرٌ: دائم. أو محكم أو ذاهب.

مُّسْتَقِرٌّ: منته إلى غاية يستقر عليها.

مُزْدَجَرٌ: ازدجار وانتهار وردع عما هم فيه من الكفر والضلال.

النُّذُرُ: الرسل أو الأمور المخوفة لهم.

شَيْءٍ نُّكُرٍ: منكر فظيع (هول القيامة) .

خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ: ذليلة خاضعة من شدة الهول.

الأَجْدَاثِ: القبور.

مُهْطِعِينَ: مسرعين مادي أعناقهم.

يَوْمٌ عَسِرٌ: صعب شديد لعظم أهواله.

يُظهر الله سبحانه من حين لآخر في عالمنا الراهن وقائع وأحداثاً من شأنها أن تقرب إلى الأفهام كيفية وقوع القيام مسبقاً ، وقد حدثت واقعة كهذه على عهد رسول الله ﷺ قبل الهجرة بسنوات عدة ، إذْ رأى الناس بأعينهم أن القمر قد انشق فلقتيْن ، فقال الرسول ﷺ للناس : " اشهدوا"؛ موجهاً أنظارهم إلى أنه كما رأيتم القمر ينشق، فكذلك سيتحطم هذا العالم بأسره، ثم يعاد بناؤه وترتيبه من جديدٍ !!

ومثل هذه الوقائع تنطوي حقاً على دروسٍ وعبر لا تُثمن ، ولكن الاعتبار بها لا يمكن إلا إذا وقف الإنسان عندها يتأمل ويتدبر ، وأما الذين تمكنت منهم أهواؤهم، فسيعرضون عنها قائلين : " إنها سحر" ، وقد يفسرون تلك الوقائع على هواهم بحيث لا تعود تؤثر في نفوسهم أوْ تحرك منهم ساكناً ، ومع أناسٍ كهؤلاء لا يجدي أي دليلٍ مهما بلغ من القوة والوضوح والجلاء .

﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾

وَازْدُجِرَ: زجر عن تبليغ رسالته بالسب وغيره.

مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ: مقهور فانتقم لي منهم.

أَبْوَابَ السَّمَاءِ: السحاب.

بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ: منصب بشدة وغزارة.

وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ: شققناها.

أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ: قدرناه أزلاً (هلاكهم بالطوفان).

وَدُسُرٍ: مسامير تشد بها الألواح.

تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا: بحفظنا أو بمرأى منا أو بأمرنا.

تَّرَكْنَاهَا آيَةً: أبقينا ذكرها عبرة وعظة.

مُّدَّكِرٍ: معتبر متعظ بها.

وَنُذُرِ: إنذاري.

لقد كانت أنظار السادة والأكابر من قوم نوحٍ معلقةً بأمجادهم الكاذبة ومظاهر كبريائهم الجوفاء، فلم يستعدوا للاعتراف بنوح ﷺ، وكان من نتيجة ذلك أن وقعوا تحت العذاب الإلهي، وقد حل بهم هذا العذاب في صورة فيضان هائل، غرقوا فيه بقضهم وقضيهم، ولم ينجُ من الهلاك سوى نوحٍ وأتباعه المؤمنين بدعوته، حيث ركبوا كلهم بإذن الله في سفينةٍ ظلت تجري بهم في موجٍ كالجبال إلى أن استقرت على جبل أراراط.

وأما أراراط فهو أعلى جبال تركيا، يقع بشرقي الأناضول قرب الحدود الإيرانية الروسية، يبلغ ارتفاع قمته ١٦٨٥٣ قدماً، ويحكي بعض الطيارين الذين اتفق لهم الطيران من فوق قمة أراراط الثلجية أنهم قد لمحوا هناك شيئاً منغرزاً وسط الثلوج، وهو أشبه ما يكون بالسفينة، وإنْ صحّ هذا فمعناه أن سفينة نوح هي الأخرى ربما يتم اكتشافها يوماً لتكون للناس آية من آيات الله، تماماً كما أمكن العثور على جثة فرعون التي ظلت مدفونةً بالأهرام حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي فصارت آية الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ

كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس] .

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾

رِيحاً صَرْصَراً: شديدة السموم أو البرد أو الصوت.

يَوْمِ نَحْسٍ: شؤم عليهم.

مُّسْتَمِرٌّ: دائم نحسه. أو محكم أو بشع.

تَنزِعُ النَّاسَ: تقلعهم من أماكنهم وترمي بهم.

أَعْجَازُ نَخْلٍ: أصوله بلا رؤوس.

مُّنقَعِرٍ: منقلع عن قعره ومغرسه.

عندما حقت كلمة العذاب على قوم عاد، سلط الله عليهم ريحاً عاصفة شديدة لدرجة لم يعودوا معها يقوَوْن على التماسك أوْ الاستقرار على الأرض، وقد كانت العاصفة ترفعهم في الهواء ثم تقذف بهم هنا وهناك بحيث يصطدم هذا بالحائط وهذا بالشجر .. بينما انهار السقف على بعضهم من فوقه فاندفن حياً تحت أنقاض داره !! ولقد كان ذلك إعلاناً بأن الإنسان عاجز مطلق؛ لا يملك إزاء الله - عز وجل - أي نوع من الخيار أوْ القدرة .

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ

ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

وَسُعُرٍ: شدة عذاب ونار أو جنون.

كَذَّابٌ أَشِرٌ: بطر متكبر.

فِتْنَةً لَّهُمْ: امتحانا وبلاء لهم.

وَاصْطَبِرْ: اصبر على آذاهم ولا تعجل.

قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ: مقسوم بينهم وبين الناقة.

كُلُّ شِرْبٍ: كل نصيب وحصة من الماء.

مُّحْتَضَرٌ: يحضره صاحبه في نوبته.

فَتَعَاطَى: فتناول الناقة بسيفه اجتراءً منه.

كَهَشِيمِ: كاليابس المفتت من شجر الحظيرة.

الْمُحْتَظِرِ: صانع الحظيرة (الزريبة) لمواشيه من هذا الشجر.

كانت ناقة الله المرسلة فتنةً واختباراً لقوم ثمود كناقة عادية في ظاهر الأمر، ولذلك لم يستطيعوا التعرف عليها ولا قدروها حق قدرها، بل أقدموا على قتلها ظلماً وعدواناً! فعاقبهم الله على ذلك، فأبادهم عن آخرهم، ولم تبق لهم باقية!

إن القرآن الكريم - وإنْ كان كتاباً يحوي معاني عميقة - إلا أن أسلوبه البيان يتسم بمنتهى الوضوح، وبسبب هذا الوضوح فقد صار تفهم القرآن سهلاً ميسراً على كل

من يقرؤه بجدية وإمعانٍ، سواء أكان من عامة الناس أم من المثقفين والمتعلمين .

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾

حَاصِباً: ريحا ترميهم بالحصباء.

نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ: عند انصداع الفجر.

فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ: فكذبوا بها متشاكين.

رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ: طلبوا منه تمكينهم منهم.

فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ: أعميناهم أو أزلنا أثرها بمسحها.

بُكْرَةً: أول النهار.

لما نهض لوط عليه السلام يدعو قومه إلى الحق، آمن به بعضهم؛ حيث رضوا بالعيش صغيرين أمام الحق باعتباره كبيراً ومقدماً على أهوائهم، وأما أكثرهم فلم يستعدوا لذلك، فبدلاً من الاعتراف بالأدلة والبراهين الساطعة حاولوا دحضها بإثارة مجادلات كلامية عقيمة ، وهذا الموقف تجاه دعوة الحق جريمة جد عظيمة، ومن ثم لم يلبثوا أن تعرضوا جميعاً للبطشة الإلهية الشديدة، ماعدا المعترفين القلائل، وهذا مثال واقعي على أن المنكرين للحق إنما ينتظرهم هنا الهلاك والدمار، بينما يفوز المعترفون بالحق بالنجاة والخلاص !

﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

فِي الزُّبُرِ: في الكتب السماوية.

لقد كان فرعون ملكاً في منتهى القوة والجبروت في عصره ، ولكنه صار عند الله تافهاً عديم القيمة بوقوفه من الحق موقف الرفض والإنكار ، فما لبث أن أُهلك كإنسان عاجز ذليل، وإن من يقف إلى جانب الحق في هذا العالم هو القوي، ومن يقف ضد الحق هو الضعيف العاجز !!

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾

نَحْنُ جَمِيعٌ: جماعة. مجتمع أمرنا.

مُّنتَصِرٌ: ممتنع ، لا نغلب.

وَالسَّاعَةُ أَدْهَى: أعظم داهية وأفظع.

وَأَمَرُّ: أشد مرارة من عذاب الدنيا.

وَسُعُرٍ: نيران مسعرة أو جنون.

لقد كان للمكذبين نبى آخر الزمان ﷺ عظة بالغة فيما جرى على المكذبين بالأنبياء السابقين من قبل ، ولكنهم لم يتعظوا بأحداث الماضي، وهذا هو شأن كل الأمم

والشعوب في هذه الأرض ، فكل أمة تعدّ نفسها " استثناءً " ، وفي أمانٍ كاملٍ على الرغم من توافر الآيات الواضحة، المبطلة لمثل هذه المزاعم ، مما يجعل كل أمةٍ تسلك بدورها مسلك الطغيان نفسه ، الذي سلكته الأمم السابقة، فاستحقت بذلك عذاب الله !!

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾

خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ: بتقدير سابق أو مقدَّرًا محكما .

إِلاَّ وَاحِدَةٌ: كلمة واحدة وهي " كن" .

أَشْيَاعَكُمْ: أمثالكم في الكفر.

الزُّبُرِ: كتب الحفظة.

مُسْتَطَرٌ: مسطور مكتوب في اللوح المحفوظ.

مَقْعَدِ صِدْقٍ: مكان مرضي.

لكل شيء في هذا العالم ضابط معين لا ينفك عنه ، وينسحب هذا المبدأ على الإنسان كذلك ، فقد أتيح للإنسان فرصة العمل في هذه الأرض وفق ضابط محددٍ، ثم يتم إخراجه، بموجب هذا الضابط نفسه، من مكان العمل هذا إلى مكان الجزاء ، وآثار قدرة الخالق التي نشهدها في أرجاء الكون الحالي كافية لإقناعنا بأن هذا الأمر سيتحقق في موعده المقرر له دون تأخير أوْ تأجيلٍ . وهكذا فإن وجود نظام التسجيل الدقيق في العالم الراهن هو إعلان مسبق بحقيقة أن كل أحدٍ إنما سيُعامل في الآخرة بحسب عمله

خيراً أوْ شراً .

النجاح والشرف سيفوز بهما في الآخرة الجالسون على مقعد الصدق وحده، أي الذين وقفوا بأنفسهم على أرضية الصدق في واقع الأمر ، وظهور القدرة الإلهية على أكمل الوجوه في الآخرة سيعود كفيلاً بتفادي وقوع أي اختلاطٍ في القيم والموازين؛ فلن يغني الجلوس على غير مقعد الصدق يومئذٍ عن صاحبه شيئاً !

سورة الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾

عَلَّمَ القُرْآنَ: علم الإنسان القرآن.

بِحُسْبَانٍ: يجريان بحساب مقدر في بروجهما.

وَالنَّجْمُ: النبات الذي ينجم ولا ساق له.

يَسْجُدَانِ: ينقادان لله فيما خلقا له،

وَوَضَعَ المِيزَانَ: شرع العدل وأمر به الخلق.

أَلاَّ تَطْغَوْا: لئلا تتجاوزوا العدل والحق.

بِالْقِسْطِ: بالعدل.

وَلاَ تُخْسِرُوا المِيزَانَ: لا تنقصوا موزون الميزان.

إن الله سبحانه خلق الإنسان، وزوّده بقدرة النطق الفذة التي لا يتمتع بها أحد سواه في الكون المعلوم ، ثم إنه تعالى قد وضع نموذجاً عملياً في هذا الكون للمسلك العادل المطلوب من الإنسان ، إن هذا الكون المحيط بالإنسان يقوم بأكمله

على مبدأ العدل ذاته الذي يطلبه الله من البشر ، ولقد جاء القرآن الكريم يبين هذا العدل نفسه بصورة لفظية واضحةٍ ، فالقرآن إذن تعبير لفظي مقروء عن العدل الإلهي، بينما الكون تعبير عملي منظور عن العدل الإلهي ، والآن، فمن واجب العباد أن يزنوا أقوالهم وأفعالهم دائماً بهذا الميزان ؟ فلا يجوروا في الأخذ ولا في العطاء !!

﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو
ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ
كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾
رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ
يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ
مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ
فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾

وَالأَرْضَ وَضَعَهَا: خلقها مخفوضة عن السماء.

ذَاتُ الأَكْمَامِ: أوعية الثمر وهي الطلع.

ذُو العَصْفِ: القشر أو التبن أو الورق اليابس.

وَالرَّيْحَانُ: النبات المشموم الطيب الرائحة.

آلاءِ رَبِّكُمَا: نعمه تعالى.

تُكَذِّبَانِ: تكفران أيها الثقلان.

صَلْصَالٍ: طين يابس يسمع له صلصلة.

كَالْفَخَّارِ: هو الطين يحترق حتى يتحجر.

مَارِجٍ: لهب صاف لا دخان فيه.

مَرَجَ البَحْرَيْنِ: أرسل العذب والملح في مجاريهما.

يَلْتَقِيَانِ: يتجاوزان أو يلتقي طرفاهما.

بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ: حاجز أرضي أو من قدرته تعالى.

لاَّ يَبْغِيَانِ: لا يطغى أحدهما على الآخر .

وَلَهُ الجَوَارِ: السفن الجارية.

المُنشَآتُ: المرفوعات الشرع (القلوع) .

كَالأَعْلامِ: كالجبال الشاهقة.

يتكون الجزء الأكبر من كوننا هذا من النّجوم التي هي كرات نارية هائلة ، وقد خُلق الجن من هذه المادة النارية ، وأما الإنسان، فقد صنعه الله من التراب الذي هو أندر شيء في هذا الكون الفسيح . إن الأرض استثناء فذ في هذا الكون ، حيث وُفرت هنا كل العناصر والأسباب بنسبها المتوازنة للغاية، تلك التي كان لابد منها لاستمرار حياة مخلوقٍ كالإنسان وتمكنه من بناء المدنية والحضارة على ظهرها ، ومن جملة هذه التدابير وجود " المشرقين " و" المغربين " في الأرض ، فموضع شروق الشمس وغروبها في فصل الشتاء يكون مختلفاً عنه في الصيف ، وهكذا تتعدد هنا المشارق والمغارب ، وهذا التغير الموسمي (المناخي) ينشأ عن ميْل الأرض المحوريّ وهو ظاهرة نادرة جداً في هذا الكون؛ ويترتب عليه ما لا يحصى من فوائد حياتية وتمدّنية للإنسان .

إن هذا الاستثناء المتمثل في الكائن البشري والكوكب الأرضي فى هذا الكون المترامي الأطراف إلى حدٍ لا يُتصور، هذا الاستثناء مظهر عظيم من مظاهر قدرة الله وفضله وإنعامه، لدرجة أن الإنسان لن يقدر على أداء واجب الشكر نحوه على أية

حالٍ !!

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾

فَانٍ: هالك.

ذُو الجَلالِ: العظمة والاستغناء المطلق.

وَالإِكْرَامِ: الفضل التام.

فِي شَأْنٍ: يأتي بأحوال ويذهب بأحوال بالحكمة.

يتضح من دراسة الكون أن كل شيءٍ فيه معرض للفناء .. ووجود الأشياء، رغم كونها عرضةً للفناء، يثبت أن خالقها ومدبِّرها إله غير فانٍ، إذْ لم تكن هذه الأشياء لتُوجد البتة، لو كان الخالق فانياً، أوْ لكانت - إن وُجدت -قد تلاشت ومُحيت من الوجود تماماً حتى الآن ! كما تدلنا دراسة الكون أيضاً على أن شيئاً من أشياء هذا العالم لا يتمتع بصلاحية الخلق والإيجاد ، ومعنى هذا أن الأشياء لم تخل بنفسها ما هي في حاجةٍ إليه لبقاء وجودها ، وهذا الواقع يشهد مرة أخرى بقدرة الخالق اللامتناهية ، وهذه الحقائق تبلغ من الوضوح والجلاء حداً لا يمكن معه لأي رجلٍ جادٍ أن يتناولها بالتكذيب والإنكار .

إن آيات الله متوافرة في أرجاء هذا الوجود بكثرة ، بحيث لا يستطيع إنسان جاد أن يتجاهلها أوْ يعرض عنها ، بيْد أن الإنسان ظالم لدرجة أنه لا يتحرج من إنكار الآيات وهي تغمره وتحيط به من كل جانبٍ !

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

سَنَفْرُغُ لَكُمْ: سنقصد لمحاسبتكم بعد الإمهال.

أَيُّهَا الثَّقَلَانِ: الإنس والجن.

تَنفُذُوا: تخرجوا هربا من قضائي.

فَانفُذُوا: فاخرجوا (أمر تعجب).

بِسُلْطَانٍ: بقوة وقهر. وهيهات .

شُوَاظٌ: لهب خالص لا دخان فيه.

وَنُحَاسٌ: صفر مذاب أو دخان بلا لهب.

بالرغم من الحرية التي أعطاها الله للإنس والجن إلا أنه ليس في مقدور أي منهم أن يخرج من حدود الكون ويذهب إلى ما وراءها ... ! وهذه الواقعة في ذاتها كافية للبرهنة على أن الإنسان في قبضة الله وتحت سيطرته الكاملة ، ومن ثم فحين يبطش الله بالناس، بعد انتهاء فترة الامتحان، لن يتمكن أحد من أن يفلت من يده عز وجل .

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

(٤٠) يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ
ءَانٍ (٤٤) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)﴾

فَكَانَتْ وَرْدَةً: كالوردة في الحمرة.

كَالدِّهَانِ: كدهن الزيت في الذوبان.

بِسِيمَاهُمْ: بسواد الوجوه ، وزرقة العيون.

فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي: بشعور مقدم الرؤوس.

حَمِيمٍ آنٍ: ماء حار تناهى حره.

إن الإنكار والطغيان ينشآن دوماً عن انعدام الخوف ، وسوف ينسى المجرمون تمردهم وطغيانهم بالمرة عندما يفاجئون بلحظة القيامة الرهيبة ، وسوف يبادرون يومئذٍ إلى الإقرار والتسليم بالحق الذي كانوا لا يستعدون للتسليم به في الحياة الدنيا، رغم توفر الأدلة والبراهين القوية على ظهره ، غير أن التسليم ساعتئذٍ لن يغني عن صاحبه شيئاً ، إذْ المطلوب هو الإيمان لقدرات الله وهي في الغيب ، لا بعد أن صارت ظاهرة ماثلةً للعيان !!

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ (٤٨)
فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١)
فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا
مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ
لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٥٦) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ

وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

جَنَّتَانِ: بستان داخل القصر وآخر خارجه.

ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ: أغصان، أو أنواع من الثمار.

عَيۡنَانِ: التسنيم والسلسبيل.

زَوۡجَانِ: صنفان معروف وغريب.

إِسۡتَبۡرَقٖ: غليظ الديباج.

وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ: ما يجنى من ثمارهما.

دَانٖ: قريب من يد المتناول.

قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ: قصرن أبصارهن على أزواجهن.

لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ: لم يفتضهن قبل أزواجهن.

للجنة حسب التقسيم الإجمالي العريض، درجتان كبيرتان ، وقد ذكرت الآيات هنا أولى هاتين الدرجتين، وهي تتألف من جنتيْن تحتويان على نعيمٍ من الطراز الملوكي ، وهذا النعيم الأسْنى إنها سيفوز به أناس كانوا لسيطرة شعور الله عليهم ودوام استحضاره قد أقاموا أنفسهم في الحياة الراهنة ذاتها بين يدي الله، وبالتالي أقاموا الدليل على الصلة بربهم وعبادته إلى حدّ الإحسان!!

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ: أعلى أو أدنى من السابقتين.

مُدْهَامَّتَانِ: خضراوان شديدتا الخضرة.

نَضَّاخَتَانِ: فوارتان بالماء لا تنقطعان.

خَيْرَاتٌ حِسَانٌ: خيرات الأخلاق حسان الوجوه.

حُورٌ: نساء بيض حسان.

مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ: مخدرات في بيوت من اللؤلؤ.

رَفْرَفٍ: وسائد ذات فرش مرتفعة.

وَعَبْقَرِيٍّ: بسط ذات خمل رقيق.

تَبَارَكَ: تعالى أو كثر خيره وإحسانه.

ذِي الْجَلَالِ: العظمة والاستغناء المطلق.

وَالْإِكْرَامِ: الفضل التام والإحسان .

تصف هذه الآيات الدرجة الثانية من الجنة، وهي بدورها تتألف - كالدرجة الأولى- من جنتيْن اثنتين، وهما لعامة المتقين ، وإن ما فيهما من نعيمٍ ومتاعٍ ، وإن كان

سيكون، بالقياس إلى النعم الدنيوية، كثيراً وفائقاً إلى حدٍ لا يوصف، إلا أنه سيكون دون نعيم ومتاع الدرجة الأولى السابقة الذكر ، وبالجملة ستكون الجنة، بكلتا درجتيْها، كما يليق بجلال خالق الكون ومالكه الذي تجلت آثار قدرته ودلائل عظمته في العالم الراهن بحيث يراها اليوم كل ذي بصرٍ وبصيرةٍ !!

سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝ ﴾

وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ: قامت القيامة بنفخة البعث.

كَاذِبَةٌ: نفس كاذبة تنكر وقوعها.

خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ: هي خافضة للأشقياء رافعة للسعداء .

رُجَّتِ الأَرْضُ: زلزلت وحركت تحريكا بشدة.

وَبُسَّتِ الجِبَالُ: فتتت كالسويق الملتوت.

هَبَاءً مُّنْبَثاً: غباراً متفرقاً منشرا.

وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً: أصنافاً.

إن الإنسان يرى في حياته الراهنة أنه حر ليفعل ما يشاء ، مما يجعله يستبعد الآخرة ولا يكاد يصغي إلى الحديث عما سيكون هناك من حسابٍ وجزاءٍ ، غير أن بناء العالم الآخر ممكن الوقوع تماماً كواقعة بناء العالم الحالي .

وحين يأتي يوم القيامة ستنقلب الأوضاع وتتغير الموازين والقيم كلها ، وحيث تتبدل أقدار الناس فيعود أعلاهم أسفل وأسفلهم أعلى ، وسينقسم الناس يومئذٍ، بحسب أعمالهم، إلى أصنافٍ ثلاثة : السابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال .

﴿ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ
﴿١٢﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا
مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ
﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا
يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
﴿٢٤﴾ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾ ﴾

فَأَصْحَابُ المَيْمَنَةِ: اليمن والبركة. أو ناحية اليمين.

ثُلَّةٌ: هو أمة من الناس كثيرة.

سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ: منسوجة من الذهب بإحكام.

وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ: مبقون على هيئة الولدان في البهاء.

بِأَكْوَابٍ: أقداح لها عرى وخراطيم.

وَأَبَارِيقَ: أوان لها عرى وخراطيم.

وَكَأْسٍ: خمر أو قدح فيه خمر.

مِن مَّعِينٍ: خمر جارية من العيون.

لاَ يُصَدَّعُونَ عَنهَا: لا يصيبهم صداع بشربها.

وَ لاَ يُنْزِفُونَ: لا تذهب عقولهم بسببها.

وَحُورٌ عِينٌ: نساء بيض واسعات الأعين حسانها.

اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ: المصون في أصدافه مما يغيره.

لَغْواً: كلاما لا خير فيها أو باطلاً.

وَلاَ تَأْثِيماً: ولا نسبة إلى الإثم أو لا ما يوجبه.

السابقون هم : الذين يتقبلون الحق فور ظهوره أمامهم، وبالتالي يُسَخِّرون أنفسهم وكل ما يملكون للحق دون تحفظٍ أوْ ترددٍ . وقد روت السيدة عائشة عن النبي - ﷺ- أنه قال : " أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : "الذين إذا أعُطوا الحق قبلوه، وإذا سُئلوه بذلوه ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم "[1].

والذين يبادرون إلى قبول الإسلام في أولى مراحل الدعوة، يكون الإسلام بالنسبة إليهم نوعاً من الاكتشاف، بينما هو يكون بالنسبة إلى أجيالهم اللاحقة شيئاً وراثياً ، وهذا الفارق الجوهري بين الاكتشاف والوراثة هو الذي يجعل الرعيل الأول أعلى مرتبةً ممن يأتي بعده ، ومع كون الطائفة الأولى أقل الطائفة الأخيرة أكثر عدداً بطبيعة الحال، إلا أن نعيم الأولى في الآخرة سيكون أعلى من الأخرى !!

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

فِي سِدْرٍ: في شجر النبق يتنعمون به .

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٨٣ .

مَّخْضُودٍ: مقطوع شوكه.

وَطَلْحٍ: شجر الموز أو مثله.

مَنضُودٍ: نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه.

وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ: دائم لا يتقلص أو ممتد منبسط.

وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ: مصبوب يجري في غير أخاديد.

مَّرْفُوعَةٍ: على الأسرة أو منضدة مرتفعة.

عُرُباً: متحببات إلى أزواجهن.

أَتْرَاباً: مستويات في السن.

أما أصحاب اليمين فالمراد بهم : عامة أهل الجنة ، وينخرط في سلكهم كل أولئك الذين كانوا صالحين من حيث اعتقادهم وسلوكهم وعملهم ، وإنهم ، وإنْ لم يبلغوا المستوى الشعوري الأعلى من الإيمان، إلا أنهم كانوا مخلصين صادقين في الولاء لله ولرسوله، وظلوا ثابتين على جادة العدل والتقوى طيلة حياتهم الدنيوية ، وسيحتوي هذا الصنف على عددٍ كبير من الأولين ، كما سيضم عدداً كبيراً من الآخرين كذلك .

﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ
﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى
ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ
﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ
مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن
زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ

ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾

سَمُومٍ: ريح شديدة الحرارة تدخل المسام.

وَحَمِيمٍ: ماء بالغ الحرارة.

يَحْمُومٍ: دخان شديد السواد أو نار.

وَلاَ كَرِيمٍ: لا نافع من أذى الحر.

مُتْرَفِينَ: منعمين متبعين أهواء أنفسهم.

الحِنثِ: الذنب العظيم — الشرك.

زَقُّومٍ: شجر كريه جداً في النار.

شُرْبَ الهِيمِ: الإبل العطاش التي لا تروى.

هَذَا نُزُلُهُمْ: ما أعد لهم من الجزاء.

يَوْمَ الدِّينِ: يوم الجزاء (يوم القيامة).

وأما أصحاب الشمال فهم: الذين يُحكم عليهم بالعذاب، لقد غرتهم الأشياء التي كانت قد أتيحت لهم في الدنيا على وجه الامتحان والابتلاء، وسيُعتبر أمثال هؤلاء أهلاً لأقسى ألوان العذاب والنكال في يوم الدينونة الكبرى!!

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ

لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾
أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾
لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ
أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾
فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

أَفَرَأَيْتُم: أخبروني.

مَا تُمْنُونَ: المني الذي تقذفونه في الأرحام.

تَخْلُقُونَهُ: تصورونه بشراً سويا.

بِمَسْبُوقِينَ: بمغلوبين عاجزين.

مَا تَحْرُثُونَ: البذر الذي تلقونه في الأرض.

تَزْرَعُونَهُ: تنبتونه حتى يشتد ويبلغ الغاية.

حُطَاماً: هشيما متكسرا لا ينتفع به.

تَفَكَّهُونَ: تتعجبون من سوء حاله ومصيره.

إِنَّا لَمُغْرَمُونَ: مهلكون بهلاك رزقنا.

مَحْرُومُونَ: ممنوعون الرزق بالكلية.

الْمُزْنِ: السحاب أو الأبيض منه.

جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً: ملحا زعاقا أو مراً لا يمكن شربه.

النَّارَ الَّتِي تُورُونَ: تقدحون الزناد لاستخراجها.

تَذْكِرَةً: تذكير لنار جهنم.

وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ: منفعة للمسافرين في القواء (الفقر) أو المحتاجين إليها.

إن تخلق الجنين البشري ونموه في رحم المرأة، وخروج النبات والزرع من باطن الأرض، ونزول المطر من السحاب ، وحصول النار من الوقود ، كل ذلك من عند الله مباشرةً ، فينبغي للإنسان، وهو ينتفع بهذه النعم الجليلة، أن يشكر الله، باعتبارها هبةً منه تعالى وفضلاً، وليس بنتاج عمله وجهده الذاتي !

وفي هذه الوقائع عظات لا تُحصى لمن يقف عندها وقفة تأملٍ ، فهي تتضمن دليل الحياة الثانية التي تلي حياتنا الراهنة ، كما أن فيها آيةً على أن الذي أعطاها قادر على أن يسلبها كذلك ، ويتضح لنا هذا الأمر في أجلى صوره عندما نتدبر، مثلاً، قضية الماء الذي نشربه ، إن ذخائر المياه توجد على هذا الكوكب الأرضي بشكل البحار والمحيطات، ومعظمها مالح ، فالبحار تحتوي على حوالي ٩٨ في المائة من الماء الموجود في الأرض، وتسعة أعشارها ملح، وإنه لمن معجزات الناموس الإلهي الذي يجعل ماء البحر إذا تبخّر تحت حرارة الشمس يرتفع في الجو خالصاً تاركاً الملح تحته ، والحقيقة أن عملية المطر هي عملية كونية هائلة لإزالة الملوحة . ولولا هذا التدبير الطبيعي لصار الماء بكافة أشكاله مالحاً كماء البحر؛ حتى لكانت الثلوج فوق الجبال والمياه الجارية في الأنهار هي الأخرى ملحاً أجاجاً، وبالتالي تعذر على البشر الحصول على الماء العذْب السائغ رغم تواجد كتلةٍ مائية ضخمةٍ من حولهم تغمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ، والتفكير في هذا الواقع حقيق بأن يملأ صدر الإنسان بمشاعر الحمد والشكر والتمجيد لله رب العالمين !

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ
﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا

ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

فَلاَ أُقْسِمُ: فأقسم و"لا" مزيدة للتأكيد.

بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ: بمغاربها أو منازلها.

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ: نفاع جم المنافع. أو رفيع القدر.

كِتَابٍ مَّكْنُونٍ: مستور مصون عند الله في اللوح المحفوظ من السوء.

لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ: صفة أخرى للقرآن.

أَنتُم مُّدْهِنُونَ: متهاونون أو مكذبون.

وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ: شكركم على الإنعام به.

المواقع صيغة جمع مفردها موقع، وهو اسم مكان معناه موضع الوقوع أوْ السقوط ، ومن ثم يقال للموضع الذي يسقط فيه المطر : مواقع القطر . وربما يكون المراد بمواقع النجوم هنا أفلاكها . حيث يوجد في الفضاء الكوني الهائل ما لا عداد له ولا حصر من الكواكب والنجوم الضخمة، وكلها تدور في أفلاكها بمنتهى الدقة .

وهذا الحدث عظيم إلى حدٍ مذهل ، وإن من ينظر في هذا النظام الفضائي بجديةٍ سوف لا يجد بداً من الاعتراف بأن خالق هذا الكون عظيم إلى حدٍ لا يحيط به الوصف . إذن، فالكتاب الذي جاء من لدن خالقٍ هذا شأنه، سيكون بدوره عظيماً بكل تأكيدٍ .. وليس من شكٍ في أن القرآن كتاب عظيم بأعمق معاني هذه الكلمة .

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ : بلغت الحلقوم عند الموت .

وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ : بعلمنا وقدرتنا.

غَيْرَ مَدِينِينَ : غير مربوبين مقهورين.

إذا بلغت الروح عند الحلق وذلك حين الاحتضار ، وأنتم حينئذ تنظرون إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت ، ونحن أقرب إليه منكم بملائكتنا ولكن لا ترونهم ، فلولا إن كنتم غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون فردوا هذه النفس إلى مكانها الأول ومقرها في الجسد.

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾

فَرَوْحٌ : فله استراحة أو رحمة .

رَيْحَانٌ : رزق حسن.

فَنُزُلٌ : فله قرى وضيافة.

حَمِيمٍ : ماء تناهت حرارته.

وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ : مقاساة لحر النار أو إدخال فيها.

أحوال الناس ثلاثة عند احتضارهم ، أما أن يكون من المقربين ، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين، وإما أن يكون من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى.

فإن كان المحتضر من الذين فعلوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات، فلهم الرحمة والرزق الحسن وتبشرهم الملائكة بذلك

عند الموت.

وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين ، فتقول له الملائكة سلام لك أي لا بأس عليك أنت إلى سلامة أنت من أصحاب اليمين.

وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى ، له ضيافة من حميم وهو سائل تبلغ درجة حرارته مبلغاً تصهر به ما في بطون هؤلاء وجلودهم .

وإن هذا الخبر لهو حق اليقين الذي لا مرية فيه ولا محيد لأحد عنه ، وإذا آمنت بذلك فسبح باسم ربك العظيم الذي هو تدبيره وهذه قدرته[1].

---

(١) ابن كثير ، ٤ / ٣٠٠ (ط. دار الحديث ، القاهرة).

سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦ ﴾

سَبَّحَ لله : نزه الله ومجده ودل عليه.

العَزِيزُ: القادر الغالب على كل شيء.

الأَوَّلُ: السابق على جميع الموجودات.

وَالآخِرُ: الباقي بعد فنائها.

وَالظَّاهِرُ: بوجوده ومصنوعاته وتدبيره.

وَالْبَاطِنُ: بكنه ذاته عن العقول.

اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ: استواء يليق بكماله تعالى.

مَا يَلِجُ: ما يدخل من مطر وغيره.

وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا: ما يصعد إليها من الملائكة والأعمال.

وَهُوَ مَعَكُمْ: بعلمه المحيط بكل شيء.

يُولِجُ اللَّيْلَ: يدخله.

إن صفات الخالق جل وعلا، تلك التي يشهد بها الكون بلسان حاله، لقد تُنوولت بصياغةٍ لفظيةٍ عبر القرآن الكريم ، فحين يظهر هنا شيء ما إلى الوجود، ينطلق بلسان الحال أن وراءه موجداً، وكذلك إذْ ينتهي ذلك الشيء فيعلن بأن هناك من يتولى إنهاءه، وهكذا الشأن في سائر الصفات الإلهية الأخرى !

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠ ﴾

قَبْلِ الفَتْحِ: فتح مكة أو صلح الحديبية.

الحُسْنَى: المثوبة الحسنى (الجنة) .

ترتكز الدعوة الإسلامية عند قيامها ابتداءً على أساس " آيات بينات " . ثم إنها تدخل مرحلتها الثانية إذْ يُكتب لها " الفتح " في بيئتها ، ولا يتحمس للتضحية والفداء في سبيل الدعوة الإسلامية، ما دامت في مرحلتها الأولي، سوى أولئك الذين يتمتعون

بالقدرة على إدراك عظمة شيء ما على مستوى الدلائل والبراهين ، وأما إذا تمكن الإسلام من إحراز النصر والغلبة، فكل أحدٍ يرى عظمته ومجده رأي العين، وبالتالي يحاول الكل أن يتقدم في فخر واعتزازٍ ببذل النفس والنفيس في سبيله !!

إن الذي ينفق إبان المرحلة الأولى من الدعوة إنما يُضطر إلى الإنفاق في سبيلها وليس هناك رجاء أوْ طمعا في عوضٍ أوْ منفعة قريبة المنال ، بينما تكون الظروف والأوضاع قد تغيرت لصالح الإسلام في المرحلة الثانية، بحيث ينال المرء ثمرة إنفاقه ألوانا وأشكالاً في هذه الدنيا ذاتها، وهذا هو السر في مدى ما بين الفريقين من تفاوت الدرجات عند الله - عز وجل !

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝ ﴾

قَرْضاً حَسَناً: محتسبا به ، طيبة به نفسه.

انظُرُونَا: انتظرونا.

نَقْتَبِسْ: نصب ونأخذ ونستضيء.

بِسُورٍ: حاجز بين الجنة والنار (الأعراف)

يُنَادُونَهُمْ: ينادي المنافقون المؤمنين.

فَتَنتُمْ أَنْفُسَكُمْ: محنتموها وأهلكتموها بالنفاق.

وَتَرَبَّصْتُمْ: انتظرتم بالمؤمنين النوائب.

وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ: خدعتكم الأباطيل.

الغَرُورُ: الشيطان وكل خادع.

هِيَ مَوْلاكُمْ: النار أولى بكم، أو ناصركم.

إن التقدم نحو الإسلام الصادق الخالص، وهو غريب في بيئته، يكون مرادفاً لإلقاء النفس في محنةٍ وبلاءٍ، فإن حقيقة الإسلام تكون إذْ ذاك محجوبةً بأغطيةٍ من الشبهات، والبذل في سبيله آنذاك شأنه شأن إعطاء الدين لأحدٍ على أملٍ موهومٍ، حيث يحيط بالناس جو من الشك والتذبذب، وتتراءى الفوائد الحاضرة بين أيديهم آكد وأكثر ضماناً من الوعود الأخروية، وتفويض النفس والمال إلى الإسلام، والحالة هذه، يتطلب قوة إرادة وتصميم عظيمة، وفي حالةٍ كهذه لا يكاد يجرؤ على المبادرة والتقدم نحو الأمام إلا الذي يملك كفاية التعرف على كنه الأشياء بقوة العقل والبصيرة. والذين يقيمون الدليل على هذه البصيرة في الحياة الدنيا، فإنها ستتحول يوم القيامة نوراً يمكّنهم من قطع أشواط رحلتهم الصعبة هناك في يسر وأمانٍ، إن البصيرة التي كانت مرشدهم في الدنيا إلى سبيل الرشاد ستقوم بدور المرشد لهم إلى دار السلام في الآخرة كذلك!!

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا

يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

أَلَمْ يَأْنِ: ألم يجئ.

أَن تَخْشَعَ: وقت أن تخضع وترق وتلين.

الأَمَدُ: الأجل أو الزمان.

إن الإسلام، وإن لم يكن عند نزول هذه الآيات، قد صار قويا من الناحية المادية، إلا أنه كان مؤيداً بقوة الدلائل والتحذيرات الإلهية على الوجه الأكمل، فالذي لا يستشعر في هذه الحالة نقل الدلائل؛ والذي لا تتمكن التحذيرات الإلهية من أن تهز كيانه وتحرك وجدانه، فإنما هو يثبت بعمله ذاك أنه مصاب بداء القسوة والبلادة . إن التربة تكتسب الخصوبة والنضارة والحيوية بعد ارتوائها من الماء، إذن، فكم سيكون الأمر مثار الدهشة والعجب لو لم ينتبه الإنسان ويستيقظ من رقدته رغم استماعه إلى الدلائل والبراهين الواضحة الصارخة !

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾

إن إعطاء المال ابتغاء رضوان الله للمحتاجين، وبذله في مقتضيات الدين عمل جد عظيم ، ومن ينفق من الرجال والنساء على هذا النحو، هم الذين قد أقاموا الدليل على

صدق إيمانهم ، حيث إنهم رأوا الحق ، بينما كان الحق تثار حوله الشبهات والمطاعن ، ولمّا يقم له في المجتمع قائمة ، ولذا فسوف يصير عملهم في الآخرة نوراً يسعى بين أيديهم ، وهم يعتبرون من الصديقين الذين صدقوا بآيات الله إذْ كذب بها الآخرون ، وهم يرفعون إلى درجة الشهداء عند ربهم ؛ يعني المتحدثين عن أحوال الناس وأعمالهم أمام محكمة الآخرة!!

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾

وَتَكَاثُرٌ: مباهاة وتطاول بالعدد والعدد.

أَعْجَبَ الْكُفَّارَ: راق الزراع.

يَهِيجُ: ييبس في أقصى غايته.

يَكُونُ حُطَامًا: فتاتاً هشيما متكسراً بعد يبسه.

سَابِقُوا: سارعوا مسارعة المتسابقين في المضمار.

لقد وضع الله في هذا العالم أمثلةً لشئون الآخرة ، منها مثال الزرع ، فحين يبلغ الزرع تمامه ويكتمل نضجه بعد نزول الغيث عليه ، يكون منظره لفترة من الزمان قصيرة رائقاً جذاباً يأخذ القلوب والأبصار ، ولكن سرعان ما تهب الرياح الحارة ، فإذا

بخضرته تأخذ في الاصفرار والجفاف ، ثم لا يلبث طويلاً حتى يُحصد ويستحيل هشيماً يابساً متكسراً يتطاير في الهواء هنا وهناك!!. وهكذا مباهج العالم الراهن هي الأخرى موقوتة زائلة . وإن المرء ليغتر بحصوله عليها إذا يعتبرها هي كل شيء ، ولكنه عندما يرد إلى ربه في نهاية المطاف، فسيدرك أن مباهج الدنيا لم تكن لها بإزاء قيم الآخرة حقيقة وليس لهم وزن !.

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾

نَبْرَأَهَا: نخلق هذه الكائنات.

لِكَيْلا تَأْسَوْا: لكيلا تحزنوا حزن قنوط .

وَلاَ تَفْرَحُوا: فرح بطر واختيال.

مُخْتَالٍ فَخُورٍ: متكبر مباه متطاول بما أُتي.

إن المقصود من العطاء والمنع في هذه الحياة هو الامتحان ، حيث قضى الله سبحانه سلفاً بالصور والمواقف التي سيُعطى فيها شخص ما ورقة امتحانه ، إذن ، فالمسألة التي ينبغي أن تشغل بال الإنسان وتكون محور اهتمامه أصلاً ليست : ما الذي حصل عليه أو ماذا يُنتزع منه؟ وإنما تتمثل في : ما هو نوع استجابته أو رد فعله إزاء موقفٍ من المواقف الحياتية؟؟. والاستجابة أو رد الفعل الصحيح المطلوب من الإنسان هو ألا يجزع إذا فقد ، ولا يصاب بالفخر والغرور إذا نال .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) ﴾

وَالْمِيزَانَ: العدل وأمرنا به أو الآلة المعروفة.

وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ: خلقناه. أو هيأناه للناس.

بَأْسٌ شَدِيدٌ: قوة شديدة.

على المرء واجبان رئيسيان تجاه الدين : أحدهما : اتباع الدين ، وثانيهما : نصرة الدين، وكأن الميزان تمثيل رمزي لاتباع الدين .. فكما نعلم مقدار شيء من الأشياء المادية، قل أو كثر ، من خلال وزنه بالميزان ، فإن كتاب الله هو الآخر ميزان للحق ، وينبغي للناس أن يتناولوا أعمالهم دائماً بالنقد والتقويم في ضوء الكتاب الإلهي ، حتى يعلموا مدى قربها أو بعدها من الحق والصواب !؟ وهكذا فإن الحديد مثال رمزي لنصرة الدين ، فيجب على المرء إذا ما رأى الدين مهدداً ببعض الأخطار ، أن يصمد أمامه كالطود الشامخ ، وأن يدافع عن الدين ويزود عن حماه بإرادة فولاذية لا تلين ولا تتضعضع !!.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (٢٧) ﴾

قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم: أتبعناهم وبعثنا بعدهم.

الإِنجِيلَ: وقد حرفوه بعد.

الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ: على دينه الذي أرسل به.

رَأْفَةً وَرَحْمَةً: مودة ولينا، وشفقة وتعطفاً.

وَرَهْبَانِيَّةً: مغالاة في التعبد والتقشف.

مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ: ما فرضناها عليهم بل ابتدعوها.

فَمَا رَعَوْهَا: بل ضيعها أخلاقهم وكفروا بدين عيسى عليه السلام.

إن جميع الأنبياء الذين بُعثوا من عند الله، إنما بُعثوا، على اختلاف الأزمان والأماكن، بدينٍ واحدٍ ليس غير، ولكن الناس لم يلبثوا، بعد مضي الزمان، أن اخترعوا ألواناً شتى من البدع والطقوس ونسبوها إلى الأنبياء، ومن أمثلة ذلك: اتباع سيدنا المسيح عليه السلام فقد كانت مهمة المسيح عليه السلام مقصورةً على إبلاغ الدعوة وحدها؛ إذْ لم يكن القتال جزءاً من مسئولياته النبوية، ومن ثم أكد عليه السلام على أخلاق الداعية أكثر من كل شيء، وأخلاق الداعية قوامها الرحمة والرأفة، ولهذا أمر عليه السلام أتباعه بأن يتعاملوا مع الناس بأسلوب الرأفة والرحمة، غير أن أتباع المسيح الذين جاؤوا بعده لم يستطيعوا إدراك هذا السر، فطغى عليهم هذا المزاج حتى انتهى بهم إلى الرهبنة .. وبالتالي راحوا يبالغون في الابتعاد عن الدنيا والزهد في طيبات الحياة باعتباره هو المقصود الأصلي من الدين، مع كونهم إنما أمروا بذلك ابتداءً كي يتمكنوا من التجرد للدعوة!!.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ

ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ: نصيبين (أجرين) .

لِئَلاَّ يَعْلَمَ: ليعلم و "لا " مزيدة.

المراد بـ" الذين آمنوا" هنا هم المؤمنون بسيدنا المسيح ﷺ إن الذين يؤمنون بمن سبق من الأنبياء والمرسلين ، ثم يكتشفون صدق نبي آخر الزمان - ﷺ- فيؤمنون به ، لهم أجر مضاعف ، وهكذا فإن الذين هم مسلمون بالإرث ، لو أنهم قاموا بدراسة الإسلام من جديد ، لكي يولّدوا في أنفسهم وعياً إسلامياً يجدد إيمانهم وإسلامهم ، فإنهم سيعتبرون عند الله بدورهم أهلاً للأجر المضاعف !!

سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾

تُجَادِلُكَ: تحاورك وتراجعك الكلام.

تَحَاوُرَكُمَا: مراجعتكما القول.

كان من عادة العرب في الجاهلية أن الرجل إذا قال لزوجته : "أنت علي كظهر أمي"، حُرمت عليه إلى الأبد ، وكان ذلك يُسمى ظهاراً ، وقد حدث ذات مرة أن قال أحد المسلمين في المدينة ، وهو أوْس بن الصامت ، لامرأته خولة بنت ثعلبة الأنصارية هذا الكلام ، فتوجهت إلى رسول الله ﷺ تحكي عليه ما جرى بينها وبين زوجها ، فأجابها – عليه الصلاة والسلام – قائلاً : "ما أراك إلا قد حُرمت عليه" مما جعل خولة تحزن وتقلق على مستقبلها هي وأولادها الصغار ، وما قد يتعرضون له من الضياع والتشرد ، فأخذت في البكاء والعويل ، فنزلت هذه الآية وما يليها تبياناً للحكم الإسلامي فيما يتعلق بقضية الظهار .

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ

مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

يُظَاهِرُونَ: يحرمون نساءهم تحريم أمهاتهم.

مُنكَراً مِّنَ القَوْلِ: فظيعا منه ينكره الشرع والعقل.

وَزُوراً: كذبا باطلاً منحرفاً عن الحق.

يَتَمَاسَّا: يستمتعا بالوقاع ، أو دواعيه.

الإسلام يفرق بين الجوهر والمظهر أو بين الصورة والحقيقة ، ومن ثم رفض الإسلام الإقرار بهذه العادة المتبعة من قديم الزمان التي تجعل المرأة كالأم الحقيقية تماماً فور مناداة زوجها إياها بلفظ الأم !! ، وإذا كان كلام كهذا لغواً من القول وزوراً ، فإنه ليس من شأنه البتة أن يغير قوانين الفطرة .

وقد بين القرآن الكريم أن المرأة لا يقع عليها الطلاق عقب ظهار زوجها منها حسب الطريقة المألوفة، إلا أنه ألزم الزوج المظاهر بأداء الكفارة قبل أن يستمتع بزوجته مرة أخرى، وحين يؤدي المرء الكفارة على هذا النحو ، إثر وقوعه في خطأ ما ، فإنما هو يبعث يقينه من جديد ، ويعمل على تقوية وترسيخ عقيدته في ذلك المبدأ الذي كان قد تخلى عنه بسبب الغفلة أو الحماقة !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾

يُحَادُّونَ: يعادون ويشاقون ويخالفون.

كُبِتُوا: أذلوا ، أو أُهلكوا ، أو لعنوا.

أَحْصَاهُ الله: أحاط به علماً.

إن مخالفة الحق مخالفة لله ، ومخالفة الله إنما يجني المرء بمخالفته إياه على نفسه هو ليس غير ، وإن المرء لا يستطيع أن يخفي شيئاً مما يعمله سراً أو جهراً عن الله ، وليس في مقدوره أن ينقذ نفسه من مؤاخذة الله - عز وجل!!

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾

نَّجْوَى ثَلاثَةٍ: تناجيهم ومسارتهم.

هُوَ رَابِعُهُمْ: بعلمه حيث يطلع على نجواهم.

هُوَ مَعَهُمْ: بعلمه المحيط بكل شيء.

لَوْلا يُعَذِّبُنَا: هلا يعذبنا.

حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ: كافيهم جهنم.

يَصْلَوْنَهَا: يدخلونها أو يقاسون حرها.

كان بعض اليهود والمنافقين إذا جاؤوا إلى رسول الله ﷺ حيّوه قائلين : السّام عليك ،

بدلاً من السلام عليك ، ولقد كان هذا - ولا يزال - دين السطحيين من البشر دائماً ، وقد يشعر ذوو الأذواق السطحية كهؤلاء بموجةٍ من الفرح تغمرهم إذا هم نجحوا في النيل من عرض إنسان صادقٍ أو الحطّ من قدره ، ويغيب عن بالهم أن مظاهر الألوهية المنبثة في أرجاء الوجود تكون شاهدةً بعلو مكانة الإنسان الصادق حتى في الوقت الذي يكونون هم قد استعملوا آخر ما في عقولهم الضيقة المحدودة من كلمات التحقير والإهانة !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٠ ﴾

إِنَّمَا النَّجْوَى: المنهي عنها.

لِيَحْزُنَ: ليوقع في الهم الشديد.

إن المناجاة أي إفضاء بذات نفسه سراً مما لا يُستحسن في الأحوال العادية ، ولكن ربما تدعو الحاجة في بعض الأحايين إلى المناجاة والمحادثات السرية لبعض الأغراض النبيلة كذلك ، ومدار الأمر في هذا الصدد على نية المتناجين ، فإن كان التناجي بنية حسنةٍ فلا بأس به ، وأما إنْ كان بنية سيئةٍ فلا يجوز .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝١١ ﴾

تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ: توسعوا فيها ولا تضاموا.

انشُزُوا: انهضوا للتوسعة أو لعبادة أو خير.

ربما يحدث ، بمقتضى أدب المجالس ، أن يُطالب شخص بالتأخر عن مكانه ليجلس فيه غيره ، كما يحدث في بعض الأحيان أن يقال للحاضرين ، على خلاف رغبتهم في مواصلة الحديث واستمرار الجلسة : "ارجعوا الآن" !! إن اتخاذ أمورٍ كهذه مسألة كرامةٍ دليل على تدني المستوى الشعوري ، وأما الذي لا يتخذ منها مسألة كرامة فقد برهن على كونه بالغاً أعلى مستويات الشعور!!

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

أَأَشْفَقْتُمْ: أخفتم الفقر والعيلة.

وَتَابَ الله عَلَيْكُمْ: خفف عنكم بنسخ حكمها.

شاءت إرادة الله سبحانه ألا يلقى الرسول إلا من يرغب في لقائه لأي غرضٍ جادٍ في واقع الأمر ، وأن يُفرز من بينهم الفضوليون الذين إنما يتسببون في إضاعة الوقت من غير جدوى بثرثراتهم وأحاديثهم الفارغة ، ومن ثم فُرض على كل راغبٍ في لقاء الرسول والتناجي معه أن يتصدق قبل نجواه ، وإن عجز عن تقديم الصدقة فليتطوع بفعل بعض الحسنات الأخرى ...، وهذا الحكم ، وإن كان في الأصل مطلوباً بالنسبة لرسول الله ﷺ ، إلا أنه سيبقى بعد الرسول مطلوباً كذلك ، حسب مقتضيات الأحوال، بالنسبة إلى قادة الأمة على قدر مراتبهم !!

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾

إِلَى الَّذِينَ: هم المنافقون.

تَوَلَّوْا قَوْماً: اتخذوا اليهود أولياء.

غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم: هم اليهود.

جُنَّةً: وقاية لأنفسهم وأموالهم.

لقد كان منافقو المدينة منضمين إلى جماعة أهل الإسلام ، كما كانوا إلى جانب ذلك متواطئين مع اليهود أيضاً . وهكذا يكون دائماً موقف أولئك الذين لا يعتنقون الحق بالإخلاص والتجرد الكاملين ، وأمثال هؤلاء يتظاهرون بالولاء للجميع ، إلا أنهم في الحقيقة يكونون أوفياء لمصالحهم وحدها ، وإن كانوا يحلفون على كونهم أتباع الحق بكل محرجةٍ من الأيمان !!

﴿ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾

لَن تُغْنِيَ: لن تدفع.

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ: استولى وغلب على عقولهم.

يُحَادُّونَ: يعادون ويشاقون ويخالفون.

الأَذَلِّينَ: الزائدين في الذلة والهوان.

عَزِيزٌ: غالب على أعدائه غير مغلوب.

إن الإنسان النفعي عندما يعارض ويعرقل دعوة الحق ؛ يخيل إليه كأنه يحافظ بذلك على مصالحه وأسباب سعادته ، إلا أنه سيقف مبهوتاً في الآخرة ، يوم يرى أن الأشياء التي كان قد جعل منها موضع ثقته في الدنيا ، لم تعد تجدي عنه في ساعة القضاء الرهيبة هذه فتيلاً !

والرجل المنافق يتحذلق ويتكلم بملء شدقيه لكي يبرر موقفه ، حتى إنه يحلف بالأيمان الغليظة تأكيداً على صدقه وإخلاصه ، وهو إذْ يفعل كل ذلك يعتقد أنه "على شيءٍ " وأنه قد هيّأ في صالحه أرضيّة واقعية صلبة يستند عليها ، ولكن انفجار القيامة حين يكتشف النقاب عن الحقائق ، فإنه سيدرك عندئذٍ أنها كانت كلمات زائفة من إلقاء الشيطان ، تلك التي ظل يرددها باعتبارها أدلة قاطعةً على براءته!!

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

بِرُوحٍ مِّنْهُ: بنور يقذفه في قلوبهم. أو بالقرآن.

إن الفوز والنجاح في هذا العالم لحزب الله وحده ، وما حزب الله ؟ أو ما أوصاف

رجاله ؟؟ إنهم أناس ثبت الإيمان في قلوبهم كأعظم حقيقةٍ ، وهم الذين بلغوا من ولائهم لله بحيث راحوا يتلقون من لدن ربهم فيضاً روحياً غامراً ، وهم الذين يكون ارتباطهم بالحقائق الإلهية عميقاً لدرجة أنه يصير عندهم هو الأساس للحب والبغض والصداقة والعداوة ، فهم أقرب ما يكونون مِمَّنْ هو قريب من الصدق الإلهي وأبعد ما يكون عمن هو بعيد عن الصدق الإلهي ، ولو كان من آبائهم أو ذوي قرباهم !!

سورة الحشر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝ ﴾

سَبَّحَ لله: نزهه ومجده تعالى ودل عليه.

الَّذِينَ كَفَرُوا: هم يهود بني النضير قرب المدينة.

لأَوَّلِ الحَشْرِ: في أول إخراج وإجلاء إلى الشام.

في شرقي المدينة،كانت هناك مساكن يهود بني النضير،وقد كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد أبرموه عقب قدومه إلى المدينة،مؤداه : أن يقفوا منه على الحياد،لا له ولا عليه، ولكنهم لم يفوا بهذا العهد ، وما زالوا يغدرون بأهل الإسلام كلما سنحت لهم الفرصة ، إلى أن هيّأ الله – جل شأنه–في أوائل السنة الرابعة من الهجرة النبوية ظروفاً مكنت المسلمين من إرغامهم على الجلاء عن المدينة .

فكان منهم من سار إلى خيبر وأقام بها ، بينما ارتحل الباقون إلى منطقة أذرعات ، بيد أنهم لم يزالوا على عهدهم بالدسّ والوقيعة بين الناس ، حتى تم طردهم نهائياً ، مع سائر القبائل اليهودية من جزيرة العرب في زمن الخليفة الثاني عمر الفاروق ﷺ ،

فتوجهوا بعدئذٍ إلى بلاد الشام واستوطنوها .

وقوله : ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ﴾ يشرحه الفقرة التالية :

﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ ... فقد قاموا باتخاذ كل ما يلزم من العدة والعتاد والمؤن والتحصينات الخارجية، إلا أن الجيش الإسلامي لم يكد يزحف نحو مساكنهم ويضرب الحصار من حولها ، حتى تسربت موجة من الانهزامية إلى نفوسهم ، وفقدوا روح المقاومة ، مما اضطرهم بالتالي إلى التسليم دون حربٍ أو قتالٍ !!

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾

فَأَتَاهُمُ الله: فأتاهم أمره وعقابه.

لَمْ يَحْتَسِبُوا: لم يظنوا ولم يخطر لهم ببال.

وَقَذَفَ: ألقى وأنزل إنزالا شديداً

الجَلاءَ: الخروج من الوطن بالأهل والولد.

شَاقُّوا: عادوا وعصوا وحادوا.

لِّينَةٍ: نخلة ، أو نخلة كريمة .

عَلَى أُصُولِهَا: على سوقها.

إن العقوبة التي أنزلت بيهود الجزيرة العربية ، كانت بموجب القانون الإلهي ،

وهذه العقوبة مقدرة على كل أولئك الذين يقفون من الرسول موقف المعارض ، كما أن ما جرى أثناء حصار بني النضير من قطع بعض الأشجار من نخيلهم وتحريقها لمصلحة حربية ، كان هو الآخر تبعاً لأمرٍ من الله مباشرٍ ، ولكن هذا ليس بالمبدأ العام، وإنما هو حكم استثنائي يتم تنفيذه في صورة أو أخرى بالنسبة إلى معاصري الرسول !.

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾

وَمَا أَفَاءَ اللهُ: وما رد وما أعاد.

فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ: فما أجريتم على تحصيله.

رِكَابٍ: ما يركب من الإبل خاصة.

دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ: ملكا متداولاً بينهم خاصة.

ما يحصل للمسلمين من أموال العدو بعد الحرب والقتال يسمى غنيمةً ، وما يحصل لهم من مال العدو بدون حرب أو قتال يسمى فيئاً ، والغنائم تُوزع أربعة أخماسها على رجال الجيش ، وأما الفيء فهو ملك خالص للحكومة الإسلامية تصرفها في وجوه الخير والمصالح العامة .

إن الإسلام يريد ألا يكون المال محصوراً في طبقة بعينها بحيث يحرم منه الآخرون كلياً، بل يجب أن يصل إلى طبقات المجتمع كافةً ، ولتحقيق هذا الغرض لم يلجأ الإسلام إلى سياسة القسر والإجبار ، وإنما شرع من القوانين الاقتصادية الحكيمة ما يتكفل بعدم تكدّس الأموال وصيرورتها حكراً على طبقةٍ دون أخرى ، ويضمن تداولها المستمر بين الجميع!!

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ: توطنوا المدينة وأخلصوا الإيمان.

حَاجَةً: حزازة وحسداً.

خَصَاصَةٌ: فقر واحتياج.

وَمَن يُوقَ: من يجنب ويكف.

شُحَّ نَفْسِهِ: بخلها مع الحرص على المنع.

غِلاًّ: حقداً وبغضاً وغشاً.

لقد كان المهاجرون الذين قدموا المدينة فراراً بدينهم من كفار قريش تاركين ديارهم وأموالهم بمكة، كانوا "كلاً " أو "عالةً" على الأنصار (سكان المدينة الأصليين) ، ولكنهم استقبلوا إخوانهم في الدين أولئك ، بمنتهى الحفاوة وبأحسن ما يكون من

الترحاب، ولما استولى النبي ﷺ على أموال بني النضير قسمها على المهاجرين وحدهم، (ما عدا رجلين من الأنصار كانا يعانيان من الفقر والحاجة وهما سهل بن حنيف وأبو دجانة بن سماك) ، وقد رضي الأنصار بهذا التقسيم عن طيب نفسٍ) ، ولم يظهر منهم أي تذمر أو استياء، ولقد ظلت قلوبهم تفيض بمشاعر الحب والتقدير للمهاجرين ، وألسنتهم تدعو لهم بأفضل الدعوات . إن هذه الروح العالية من المروءة والإيثار والكرم هي التي تؤهل جماعةً ما لتكون صانعة التاريخ!

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

عندما أعلن رسول الله ﷺ جلاء بني النضير عن المدينة توجه إليهم المنافقون قائلين: اثبتوا ، ولا تبرحوا مكانكم ، وإن كان ثمة قتال ، فسنقف إلى جانبكم وننصركم بكل ما نملك من العدد والسلاح، غير أن أقوال المنافقين هذه إنما كانت لتحريض بني النضير ضد المسلمين ، إذْ لم يكونوا صادقين مطلقاً فيما قالوا لهم ولا مخلصين فيما وعدوهم به من النصر والمساعدة ، ومن هنا فلما زحف المسلمون نحوهم وضيقوا عليهم الخناق بحصارهم الذي دام بضعاً وعشرين ليلةً ، لم يتقدم أحد من المنافقين ليقف إلى جانبهم أو يقاتل دونهم، وهذه هي الأخلاقيات المميزة لعبيد المصالح والمنافع في كل زمانٍ ومكانٍ.

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ

تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤)﴾

بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ: قتالهم فيما بينهم.

وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى: متفرقة لتعاديهم.

إن قوة الله لا تُرى ظاهراً ، بينما قوة البشر يراها الجميع رأي العين ، مما يجعل عبدة الظواهر والمظاهر يعيشون في غير خوف ولا رهبةٍ من الله ، ولكن سرعان ما يدب الخوف والذعر في قلوبهم إذا ما وجدوا أنفسهم في مواجهة أحد الأقوياء الأشداء من البشر ، وكونهم يفتقرون إلى الوعي والشعور فيما يتعلق بجلال الله وعظمته يفقدهم الوعي والشعور حتى فيما يتعلق بأمور دنياهم !!

والذين يجتمعون على هدف سلبي ؛ بحيث يكون هذا الهدف السلبي هو وحده أساس ما يُرى بين صفوفهم من اتحاد وائتلافٍ،فإنهم قلما يتمكنون من الإبقاء على الوحدة القائمة فيما بينهم إلى أمد طويلٍ ؛ ذلك لأن الاتحاد الحقيقي الدائم يتطلب أساساً إيجابياً ، وهو ما لا يوجد عندهم البتة .

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٧)﴾

وَبَالَ أَمْرِهِمْ: سوء عاقبة كفرهم.

كان المنافقون في المدينة يحرضون بني النضير ضد المسلمين ويغرونهم بالمقاومة ، وفاتهم أن يتعلموا درساً من الواقع أن قريشاً ويهود بني النضير قد قاموا بشن الهجوم المشترك عليهم في قريب الماضي ، ولكنهم باؤوا بالهزيمة النكراء، وهكذا يكون دائماً

حال أولئك الذين يتخذون من الشيطان مستشاراً لهم ويتبعون خطواته ، حيث إنهم لا يعتبرون بالأحداث أي اعتبارٍ ، فهم يعملون أول الأمر على إغراء الناس بالممارسات الإجرامية في حماس بالغ ، ثم إذا رأوا نهايتها البائسة الوبيلة ، بدؤوا في محاولة تبرئة أنفسهم من تبعتها ، ولكن محاولاتٍ كهذه لن تنجي أصحابها من بطش الله - عز وجل!!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

نَسُوا الله: لم يراعوا أوامره ونواهيه.

فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ: فلم يقدموا لها ما ينفعها عنده.

إن الحياة الإنسانية مقسومة بين "اليوم" و"الغد" . والعالم الراهن هو يوم الإنسان الحاضر ، وعالم الآخر هو غده المرتقب ، وكل ما يفعله الإنسان من خير أو شر خلال حياته الراهنة سيلاقي جزاءه الوفاق حتماً في حياته القادمة الأبقى والأوسع مدىً .

وتلك الحقيقة الكبرى في هذا الوجود ، والإسلام هو الاسم الآخر لهذه الحقيقة ذاتها، ونجاح الإنسان في أن يأخذ هذه الحقيقة في الحسبان في غدوه ورواحه ويضعها نصب عينيه دائماً ، فإن من يغفل عنها سارت حياته كلها في اتجاه خاطئ ، ولا فرق في هذا الخصوص بين المسلم وغير المسلم ، فلن يحصل المسلمون من فوائد هذه الحقيقة العظيمة على شيءٍ إلا إذا كانوا متمسكين بها في واقع حياتهم ، وأما لو نسيها المسلمون أو غفلوا عنها فإنهم سينتهون بدورهم إلى المصير البائس المشئوم نفسه ، الذي قد انتهى

إليه اليهود من قبل لما أصيبوا بالغفلة والنسيان !!

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾

خَاشِعاً: ذليلاً.

مُّتَصَدِّعاً: متشققاً.

المَلِكُ: المالك لكل شيء المتصرف فيه.

القُدُّوسُ: البليغ في النزاهة عن النقائص.

السَّلامُ: ذو السلامة من كل عيب ونقص.

المُؤْمِنُ: المصدق لرسله بالمعجزات.

المُهَيْمِنُ: الرقيب على كل شيء.

العَزِيزُ: القوي الغالب.

الجَبَّارُ: القهار أو العظيم.

المُتَكَبِّرُ: البليغ الكبرياء والعظمة.

البَارِئُ: المبدع المخترع.

الْمُصَوِّرُ: خالق الصور على ما يريد.

الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى: الدالة على محاسن المعاني.

القرآن إعلان بحقيقة عظيمة هي أن الإنسان ليس حراً طليقاً من أية قيود أو التزامات في هذه الحياة ، بل هو مسئول عن كل أعماله وأقواله بين يدي الله الذي لا إله إلا هو ، والذي هو ذو قوةٍ وجبروتٍ لا يحيط بهما الوصف ، وهو مطلع بذاته على كل ما يصدر من الإنسان في الظلام أو النور ، وهذا النبأ عظيم وشديد الوطأة لدرجة أنه يكفي لهز الجبال الراسيات ، ولكن الإنسان قد يبلغ من الغفلة وتحجّر القلب وموات الإحساس إلى أنه لا يتنبّه ولا يقلق باله رغم استماعه المكرر إلى هذا النبأ الرهيب المزلزِل!

وأسماء الله الحسنى التي ورد ذكرها هنا هي من جهةٍ تعرفنا بالله تعالى، ومن جهة أخرى تدلنا على مدى عظمة الله الذي هو خالق كل شيء، وهو خالق الناس أجمعين، والذي يراقبهم من فوقهم كل حين وآنٍ، ولو أدرك المرء هذا الواقع حقاً، لاستغرق كيانه كله في حمد الله وتسبيحه .

وإن الكون بما يكمن وراء ظواهره من حكمة ومعنى وروعة إبداعية هو مرآة لصفات الله – عز وجل –. وإنه من خلال انشغاله بكل موجوداته في الحمد والتسبيح ليدعو الإنسان أيضاً إلى الانسجام والتجاوب معه، حتى لا يكون كالنغمة النشاز في هذه الترنيمة الكونية للتحميد والتسبيح الإلهي !!

سورة الممتحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾

أَوْلِيَآءَ: أعوانا توادونهم وتناصحونهم.

أَن تُؤْمِنُوا: لإيمانكم أو كراهة إيمانكم.

يَثْقَفُوكُمْ: يظفروا بكم. أو يصادفوكم.

وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ: يمدوا إليكم.

عندما قرر رسول الله ﷺ غزو مكة في السنة الثامنة من الهجرة، وضع خطته بمنتهى السرية، حذراً من أن تتسرب الأخبار إلى قريش فيتأهبوا للمقاومة، وعندئذٍ وجه أحد الصحابة، وهو حاطب بن أبي بلتعة، وكان ممن شهد بدراً، رسالةً سرية إلى أهل مكة يخبرهم فيها بما عزم عليه الرسول، وقد أراد بذلك أن يصنع معهم جميلاً يرضيهم عنه فلا ينال بنيه وأقرباءه المقيمين بمكة منهم أذىً، ولكن الله - جلت قدرته- أعلم رسوله

بذلك عن طريق الوحي، فأرسل ﷺ من أدرك حامل الرسالة وانتزعها منه قبل أن يصل إلى مكة ..

إن كل عملٍ من هذا القبيل لا يتفق مع مقتضيات الإيمان بصورة مطلقة؛ فالصراع بين الإسلام وغير الإسلام إذا بلغ ذروته التي تتكون عندها جبهتان منفصلتان تحارب إحداهما الأخرى؛ فإن من واجب أهل الإيمان حينئذٍ أن يقطعوا كل ما يربطهم بالجبهة غير الإسلامية من صلات المودة أو التعاطف، حتى لو كانت الجبهة غير الإسلامية تضم أهلهم وذوي قرابتهم . إن الإيمان بالحق، وإقامة صلةٍ ما بالمناوئين للحق ضدان لا يجتمعان معاً في قلب واحدٍ !!

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ: قدوة حميدة في التبري من الضالين .

بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ: أبرياء منكم.

وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا: إليك رجعنا تائبين.

لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً: مفتونين بهم معذبين بأيديهم.

عرض سيدنا إبراهيم ﷺ رسالة التوحيد على أهل بيته أول الأمر بأسلوب النصح والموعظة ، ولكنهم لما أبوا عن الإيمان وأصروا على العناد والتعنت، رغم قيام الحجة عليهم، فارقهم معلناً براءته منهم بصيغةٍ حاسمة جازمةٍ ، بيْد أنها كانت مرحلة قاسية جداً ، فإن إعلان البراءة كان معناه دعوة أولئك الجاحدين المعاندين للحق ليتناولوه هو ومن آمن معه بكل ما يستطيعون من ألوان الأذى والاضطهاد ، ويلجأوا، بعدما انهزموا في مواجهة الدليل، إلى التنكيل بالمؤمنين وإذلالهم بوسائل القوة والقهر ، وهذا هو السر أن إبراهيم سأل الله بوجهٍ خاص وهو يدعوه بعد ذلك في ضراعةٍ قائلاً : ربنا لا تجعلنا فتنةً للذين كفروا، أي لا تسلط الكفار علينا ولا تمكنهم من رقابنا ليتخذوا منا عرضةً لممارساتهم العدوانية الظالمة .

وإظهار البراءة من ذوي بالأرحام والأقارب ليس إظهاراً للعداوة بالمعنى المعروف، إنما هو تعبير نهائي حازم عما يتمتع به الداعي من ثقةٍ ويقينٍ، وعليه فإن تبرؤ الداعي هو الآخر يحمل في طياته جانباً من الأهمية الدعوية، إذْ يحدث أحياناً أن الشخص الذي لم يكن قد تأثر مطلقاً بلغة " النصح والبلاغ "، قد تنجح لغة " الثقة واليقين " في إثارة اهتمامه واجتذابه بالتالي إلى حظيرة الإيمان !

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

أن تَبَرُّوَهُمْ: تحسنوا إليهم وتكرموهم.

وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ: تفضوا إليهم بالقسط والعدل.

وَظَاهَرُوا: عاونوا الذين قاتلوكم وأخرجوكم.

أَن تَوَلَّوْهُمْ: أن تتخذوهم أولياء.

يأمر الإسلام أتباعه أن يتعاملوا مع الناس كافة بالعدل والإنصاف حيثما كانوا، وبغض النظر عما إذا كان الفريق الآخر من معسكر العدو أوْ غير العدو. أما صلة المودة والولاء فإنه لا يسمح بإقامتها مع كل أحدٍ دون تحفظٍ، وإنما تجوز الموالاة في أحد وضعيْن لا ثالث لهما : أن يكون مَن تواليه موالياً لله، أوْ لا يكون، على الأقل، عدواً لله !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

فَامْتَحِنُوهُنَّ: فاختبروهن وكان ذلك بالتحليف.

أُجُورَهُنَّ: مهورهن.

بِعِصَمِ الكَوَافِرِ: بعقود نكاح المشركات.

فَاتَكُمْ شَيْءٌ: انفلت أحد بردة.

فَعَاقَبْتُمْ: فغزوتم فغنمتم منهم.

تتناول هاتان الآيتان بالشرح بعض قوانين الإسلام المتصلة بالقضايا العائلية التي قد تنشأ بين دار الإسلام ودار الحرب في ظروف وملابساتٍ خاصةٍ، كالتي نشأت في أعقاب صلح الحديبية .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

بِبُهْتَانٍ: بإلصاق اللقطاء بالأزواج.

يَفْتَرِينَهُ: يختلقنه.

تتضمن هذه الآية بيان الشروط التي لابد من إقرارها لأي امرأةٍ تريد الدخول في الإسلام ، ومن بين هذه الشروط هناك شرطان أساسيان هما : عدم الإشراك بالله، وعدم معصية الرسول ، وأما مطالب الدين الأخرى سواء المذكورة منها في هذا النص وغير المذكورة، فهي تندرج تلقائياً تحت هذين الشرطين الأساسيين!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

لاَ تَتَوَلَّوْا: لا تتخذوا أولياء.

قَوْماً: هم اليهود، أو الكفار عامة.

إن اليهود المؤمنين بالكتب السماوية، والكفار الذين لا يؤمنون بها إطلاقاً، كلاهما

سواء فيها يتعلق بالآخرة، فالكفار لا يعلقون رجاءً ما بالموتى لاعتقادهم أن أمرهم قد انتهى وأنهم لن يُبعثوا الآن من قبورهم مرة أخرى ، وهكذا يكون حال أولئك المؤمنين أيضاً الذين لا يلبثون أن يصابوا، على مر الزمن، بالغفلة والقساوة وبلادة الإحساس شأن اليهود، بحيث لا تعود حياتهم العملية - رغم إقرارهم بالآخرة بألسنتهم - تختلف عن حياة الكفار الصرحاء في شيء !!

سورة الصف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝ ﴾

سَبَّحَ للهَّ: نزهه ومجده تعالى ودل عليه.

كَبُرَ مَقْتاً: عظم بغضا بالغ الغاية.

صَفاً: صافين أنفسهم أو مصفوفين.

بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ: متلاصق محكم لا فرجة فيه.

الكون كله – ماعدا الإنسان – يخلو من التناقص في كل ناحية من نواحيه ، فالخشب في هذا العالم يبقى خشباً أينما وُجد، وما نراه في صورة الحديد أوْ الحجر مثلاً، نجده على محك التجربة العملية حديداً أو حجراً كذلك . والمطلوب من الإنسان أيضاً أن يكون كذلك ، فينبغي أن يكون ظاهره وفقاً لباطنه، وأن يكون فعله مطابقاً لقوله، حتى لو اضطر إلى دفع ثمن قوله بالصبر والصمود كالجبل الشامخ في وجه العقبات والشدائد على اختلاف أنواعها !!

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ ﴾

زَاغُوا: مالوا باختيارهم عن الحق.

أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ: حرمهم التوفيق لاتباع الحق.

بُعث موسى عليه السلام في بني إسرائيل ، وقد كان بنو إسرائيل يوم ذاك شعباً أصيب بالفساد والانحطاط، بحيث لم يعد في نفوسهم من الشجاعة الإيمانية ما يجعلهم يفعلون ما يقولون، ويقولون ما يفعلون ، ففيما كانوا يدّعون الإيمان بموسى عليه السلام من جهةٍ، لم يكونوا يتحرجون من نقض العهود والمواثيق ولا يتورعون عن إتيان المعاصي والمنكرات من جهةٍ أخرى ، حتى إنهم كانوا يواجهون ضروب الاتهامات الكاذبة إلى موسى تبريراً لسلوكهم الشائق معه عليه السلام (ولمزيد من التفصيل في هذا الشأن يراجع سفر الخروج وسفر العدد من العهد القديم). وكلما خالف الإنسان العهد أوْ نقضه بعد إبرامه، اتسعت الفجوة بينه وبين الحق أكثر من ذي قبل !

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾

نُورَ اللهِ: الحق الذي جاء به الرسول ﷺ .

وَأُخْرَى: ولكم من النعم نعم أخرى.

لقد كانت معجزات سيدنا المسيح عليه السلام تتضمن دليلاً قاطعاً على أنه نبي مرسل

من عند الله ، ولكن اليهود قابلوه بالإعراض والتكذيب باعتبار معجزاته سحراً وشعوذةً ، وهكذا كانت الكتب السماوية السابقة تحتوي على نبوءةٍ واضحةٍ بمجيء نبي آخر الزمان ﷺ ولكنه لما جاء قوبل بأشنع الرفض والإنكار من جانب اليهود والنصارى على حدٍ سواء .

إن الإنسان ظالم لدرجة أنه يأبى الاعتراف حتى بالحقائق الجلية الصارخة التي لا سبيل إلى إنكارها !! والمقصود من الغلبة في الآية ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ هي الغلبة الفكرية ، يعني تمكين عقيدة التوحيد من البقاء وحدها كفكرة غالبةٍ في أنحاء العالم كافة، وجعل ما سواها من المعتقدات غير التوحيدية عن قضايا الألوهية والدين والعبادة، مغلوباً على أمره من الناحية الفكرية إلى الأبد ، ولقد نزلت هذه النبوءة القرآنية سنة ٣ هجرية في ظروف غير مواتية للغاية، إلا أنها تحققت حرفاً حرفاً فيما تلاها من الأعوام والقرون !

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

في عالم التجارة يقوم الإنسان بالبذل والعطاء أولاً، ليظفر بما يعود عليه من الربح أخيراً ، وكفاح الدين هو الآخر نوع من التجارة، من حيث إن المرء يُضطر في سبيله كذلك إلى بذل الكثير من وقته ونفسه وماله، بيْد أن ربح التجارة الدنيوية محدود وهو يقتصر على الحياة الراهنة وحدها، وأما تجارة الدين فأرباحها لا تُحد وهي تشمل كلتا

الحياتين الدنيا والآخرة ، كما أن هذه " التجارة " تفتح باب الغلبة والتمكين، الذي هو الوسيلة الكبرى بالنسبة إلى طائفةٍ ذات مبدأ ورسالة للحصول على حياةٍ كريمةٍ تحت ظلالٍ وارفة من الأمن والاستقرار على هذه الأرض!!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

لِلْحَوَارِيِّينَ: أصفياء عيسى وخواصه.

فَأَيَّدْنَا: قوينا المحقين بالإيمان.

ظَاهِرِينَ: غالبين بالحجج والبينات.

إن سيدنا المسيح عليه السلام وإن كان قد قوبل بالرفض والإنكار من جانب الأغلبية العظمى من بني إسرائيل، إلا أن بعضاً منهم وقفوا إلى جانبه عليه السلام وناصروه ما دام بين أظهرهم بكامل الإخلاص والوفاء، ثم قاموا بعد رفعه، بنشر تعاليمه ودفع مسيرته إلى الأمام بهمةٍ ونشاطٍ ، وهم الذين عرفوا بالحواريّين ، وهذه الفئة القليلة العدد هي وحدها قد أُعتبرت عند الله في عداد المؤمنين، بينما أُعتبر سائر اليهود، رغم إيمانهم بالأنبياء السابقين على المسيح، كافرين !

والغلبة المشار إليها في هذه الآية هي غلبة المؤمنين برسالة المسيح عامةً، على المكذبين برسالته من بني إسرائيل عامةً، كما حدث في التاريخ بالفعل ، فعلى إثر المسيح اعتنق الإمبراطور الروماني قسطنطين الثاني (٢٧٢-٣٣٧م) الديانة النصرانية ، وقد كانت رقعة مملكته تمتد من بلاد الشام إلى فلسطين، مما جعل معظم رعاياه الرومانيين يدخلون في دين المسيح زرافات ووحداناً، حتى بات اليهود إزاءهم أقليةً مغلوبةً على أمرها ، كما

أن دولة إسرائيل اليهودية في العصر الحديث هي الأخرى ليست مستقلةً بذاتها أوْ قائمة على رجليها ، وإنما هي تابعة لكبرى الدول المسيحية من كل الوجوه والاعتبارات !!

سورة الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾

يُسَبِّحُ لله: ينزهه ويمجده ويدل عليه.

المَلِكِ: مالك الأشياء كلها.

القُدُّوسِ: البليغ في النزاهة عن النقائص.

العَزِيزِ: القادر الغالب القاهر.

الأُمِّيِّينَ: العرب المعاصرين له ﷺ .

وَيُزَكِّيهِمْ: يطهرهم من أدناس الجاهلية.

وَآخَرِينَ مِنْهُمْ: من العرب.

لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ: لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون.

إن بعث الله – سبحانه وتعالى – بالرسل لهداية بني الإنسان، يتمثل، على المستوى البشري، ظهور نفس تلك الصفات الإلهية التي تجلت في هذا الكون على المستوى المادي . ولقد بُعث رسول الإسلام ﷺ شأنه شأن من سبقه من الأنبياء والمرسلين،

للقيام بوظيفة ذات جانبين: أحدهما : تلقى الوحي عن الله وإبلاغه إلى الناس كافة، وثانيهما: العمل على إيقاظ وعي الناس وتنبيه شعورهم لكي يفهموا كلام الله، ويتمكنوا من الربط بينه وبين حياتهم الواقعية برباطٍ عملي وثيق ، وسيبقى هذان العملان - تعليم القرآن والتربية العقلية - هما المحور الرئيسي الذي يدور عليه جهد الدعوة والإصلاح فيما بعد عصر النبوة كذلك .

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ: كلفوا العمل بما فيها (اليهود) .

يَحْمِلُ أَسْفَاراً: كتبا عظاما ولا ينتفع بها.

هَادُوا: تدينوا باليهودية.

إن شعباً ما حين يُؤتمن على كتاب الله، فإنما يؤتمن عليه لكي يُقرّه في صميم كيانه، ويسير في حياته العملية على هداه ، ولكن الشعب الذي لا ينهض بحمل أمانة الكتاب السماوي بهذا المعنى، فإن مثله كمثل حمار ينوء بالكتب العلمية الضخمة وهو لا يدري ماذا يحمل على ظهره ؟! وإن اليهود، وإن كانوا قد نبذوا دين الله عملياً وراء ظهورهم، إلا أنهم كانوا قد اتخذوا منه موضع الفخر والاعتزاز القومي ، غير أن فخراً مجرداً كهذا لن يغني عن أحدٍ فتيلاً ، ومثل هذا الفخر يقوم دوْماً على الزيف والخداع ، وحسبك

دليلاً على ذلك أنك تراه يحاول التنصل، إذ جدّ الجد، من تقديم أية تضحياتٍ لهذا الدّين الذي يكون قد جعل منه أداة فخره واعتزازه ، على أن أمثال هذا سيدركون، إذا حضرهم الموت، أن الفخر الذي كانوا يعيشون عليه في الدنيا لم يكن ليعود عليهم في الآخرة بشيءٍ سوى الذل والهوان!!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

وَذَرُوا الْبَيْعَ: اتركوه وتفرغوا لذكر الله.

فَانتَشِرُوا: تفرقوا للتصرف في حوائجكم.

انفَضُّوا إِلَيْهَا: تفرقوا عنك قاصدين إليها.

الإنسان في هذه الحياة مطالب بمقتضييْن اثنين في آنٍ واحدٍ،أحدهما : مقتضى المعاش، والآخر مقتضى الدين،وكلاهما ضروري لابد من العناية بتحقيقه على السواء،إلا أنه ينبغي أن يتم تقسيم الوقت والجهد والطاقة بينهما بحيث تبقى الأنشطة المتصلة بكسب المعاش تابعةً دائماً للمقتضيات الدينية . فلا بأس في أن يكدح المؤمن سعياً وراء ابتغاء المعاش في إطار الحدود المشروعة ، ولكن يجب عليه أن يعدّ نجاح مسعاه ذاك منةً خالصةً من الله وفضله،وأن يظل موصول القلب بالله، دائم الذكر له تعالى في أثناء اشتغاله بالكسب والارتزاق،كما ينبغي له – إلى جانب ذلك – أن يكون دوْماً على أهبة الاستعداد للاستجابة وتلبية النداء إذا ما دُعي إلى

القيام ببعض مقتضيات الدين،نافضاً يده في ذلك الوقت من كل المشاغل الأخرى سواه .

ولقد حدث ذات مرةٍ أن نهض بعض الصحابة، والرسول قائم في المسجد يخطبهم للجمعة، وانصرفوا مسرعين إلى سوق المدينة لشراء ما جاء به أحد التجار من الطعام ، خشية أن ينفد لو انتظروا تمام الصلاة ، وفي تلك المناسبة نزلت هذه الآيات الكريمة بما فيها من تعقيب على الحادث وتوجيه وتأديب لمن تركوا الرسول في أثناء الخطبة خاصةً، وللمسلمين عامةً. وهذا الحكم ، وإن كان يتعلق أساساً بصلاة الجمعة، إلا إنه ينسحب، بصورة غير مباشرةٍ، على كل الأعمال الدينية ، فكلما جُمع المسلمون على صعيد واحدٍ لأي مهمة خاصةٍ من مهام الدين، فإن مغادرة المجلس عندئذٍ، بدون إذن الأمير أو القائد، حرمان عظيم لا يعدله حرمان !!

سورة المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾

جُنَّةً: وقاية لأنفسهم وأموالهم.

آمَنُوا: بألسنتهم لا غير.

من علامة نفاق المرء أن يرفع عقيرته بالأقوال والدعاوى الكبيرة، ويحلف بالله تأكيداً على كلامه ليصدقه الآخرون مخدوعين بأيْمانه الكذوب . إن الإنسان المخلص يتميز بسمة التواضع والخشوع لسيطرة الخشية الإلهية عليه دائماً .. فهو ينطق بقلبه أكثر مما ينطق بلسانه ، والمنافق إنما يحرص على إيصال صوته إلى مسامع البشر أمثاله وحدهم، بينما يود الإنسان المخلص أن يُسمع صوته الله رب البشر، ولا يتحقق ذلك إلا إذا كان صادراً من قلب نقيٍ وضمير خالصٍ ، وحين يؤمن شخص ما، فإنه يقطع على نفسه عهداً جاداً، ثم تواجهه من بعد ذلك شتى المواقف العملية في الحياة اليومية، حيث يقتضي الأمر أن يعمل وفقاً لعهده ذاك ، والآن، فمن ينصت في مواقف كهذه لنداء ضميره، ويوفي بمقتضيات العهد، يزداد إيمانه قوةً ورسوخاً باستمرارٍ ، وعلى العكس من هذا، فإن من لا يلتفت إلى نداء ضميره حين يناديه بالتزام العهد، ويعمل بخلاف مقتضاه، سيصل به الأمر شيئاً فشيئاً إلى أن يفقد حساسيته مطلقاً إزاء العهد

الذي كان قد قطعه على نفسه يوم نطق بكلمة الإيمان ، وهذا هو معنى الطبع على القلب الذي لا يعود صاحبه بعد ذلك يفقه أوْ يَعي من أمر الحق شيئاً !!

﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾

فَطُبِعَ: ختم بسبب الكفر.

لاَ يَفْقَهُونَ: لا يعرفون حقيقة الإيمان.

خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ: إلى الحائط ، أجسام بلا أحلام.

هُمُ العَدُوُّ: الراسخون في العداوة.

أَنَّى يُؤْفَكُونَ: كيف يصرفون عن الحق ؟.

لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ: عطفوها إعراضا واستهزاء.

المنافق يحافظ على مصالحه بالسير على سياسة الانتهازية والمداهنة في حياته،فهو لا يتعرض أبداً لموضوع الحق والباطل في خلال معاملاته وارتباطاته مع الناس،مما يجعله يلقى الحفاوة والترحيب أينما حل وسار ،وهو يعيش خالي البال من كل هم وغم؛ فيسمن بدنه نتيجة ذلك، بحيث يعود محل الإعجاب لدى الناظرين،وهو إذ يتحدث، يتخير في كل مناسبة من المواضيع والألفاظ والأساليب ما يتفق مع أمزجتهم وميولهم، ولذا يجد الكل في حديثه ما يثير اهتمامه ويستهويه،بيد أن هذه الأشجار الضخمة

المتفرعة الباسقة، على ما يبدو ظاهراً، لا تعدو في الحقيقة أن تكون خشباً جافاً ليس فيها حياة ولا حركة ، وهكذا المنافق يخدع العيون بمظهره الوقور الأنيق وملء إهابه الجبن والخور والبلادة، وتكون مصالح دنياه عنده أكثر أهمية وأجدر بالعناية من كل مصلحة دينيةٍ ، وأمثال هذا، رغم كونهم يدّعون الإيمان بأصواتٍ مدويةٍ مجلجلة، ليسوا من المؤمنين في شيء !!

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

حَتَّىٰ يَنفَضُّوا: كي يتفرقوا عنه ﷺ .

رَّجَعْنَا: من غزوة بني المصطلق.

لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ: الأشد والأقوى يعنون أنفسهم.

الأَذَلَّ: الأضعف والأهون ، يعنون الرسول ﷺ والمؤمنين.

وَلِلَّهِ العِزَّةُ: الغلبة والقهر.

كان المجتمع المدني في عهد الرسول يضم صنفين من المسلمين : مهاجرين وأنصار ، ولقد جاء المهاجرون إلى المدينة بوصفهم مشردين مطرودين تركوا ديارهم وأموالهم في مكة ، فكان سندهم الظاهري الوحيد في هذا المجتمع الجديد هو ما أبداه المسلمون المحليون - الذين عُرفوا بالأنصار - من روح التضامن والسماحة والإيثار ، وبناء على هذا كان عبيد المادة السطحيون ينظرون إلى المهاجرين باحتقارٍ شديدٍ باعتبارهم فئةً ذليلةً لا يقام لها وزن، وبالمقابل كان الأنصار عندهم أصحاب العزة والكرامة ، حتى

بلغت الجرأة والوقاحة بعبد الله بن أبي، زعيم المنافقين، إلى حد أنه استخف بشأن المهاجرين على مسمع من بعض الأنصار قائلاً : ما حقيقة هؤلاء ؟ فلئن أخرجناهم من بلادنا، إنهم لن يجدوا في الأرض مأوى يلجؤون إليه ! إن ألفاظاً كهذه لا يمكن أن يتفوه بها إلا من يجهل حقيقة أن ما في السماوات والأرض كله لله، وأنه تعالى هو وحده يعطي من يشاء وينتزع ممن يشاء ؛ لحكمة دقيقة لا يعلمها إلا هو !!.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾

لاَ تُلْهِكُمْ: لا تشغلكم وتصرفكم.

ذِكْرِ الله: عبادته وطاعته.

لَوْلا أَخَّرْتَنِي: هلا أمهلتني وأخرت أجلي.

إن قضية الآخرة هي القضية الكبرى بالنسبة لكل إنسان في هذا العالم، غير أن الانشغال في الأموال والأولاد يلهي الإنسان عن هذه القضية الكبرى، ويجدر بالإنسان أن يدرك -قبل فوات الأوان - أن المال والولد ليسا غاية وجوده، بل إنهما وسيلة فقط، وإنما يتاح لأحد الناس ما يُتاح من ذلك لكي يوظفه في تحقيق مشيئة الله وإنجاز منهجه، وفي سبيل الإعداد لآخرته وتحسين عاقبته الدائمة هناك، ولكن الجاهل ينظر إلى المال والولد على أنهما الغاية المقصودة ذاتها من هذه الحياة، وحين ينتهي الجهلة الغافلون المغرورون كهؤلاء إلى المصير النهائي البائس الذي ينتظرهم، فلن يملكوا إزاءه سوى أن يتجرعوا مرارة الندم والحسرة إلى الأبد !

سورة التغابن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٤) ﴾

يُسَبِّحُ لله: ينزهه ويمجده ويدل عليه.

لَهُ المُلْكُ: التصرف المطلق في كل شيء.

بِالحَقِّ: بالحكمة البالغة.

فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ: أتقنها وأحكمها.

قوله : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ معناه أن الكون كله آية مصداق للحقيقة، التي كشفها الله - سبحانه وتعالى - عبر القرآن الكريم ، وأنه يؤيدها بلسان حاله تأييداً يبلغ درجة الحمد والثناء ، فالذين لا يؤمنون، رغم هذا الإعلان الثاني، إنما ينبغي لهم أن يرتقبوا الإعلان الثالث الذي سيحضر البشر على إثره بين يدي الله، لكي يستمعوا إلى رب الكون نفسه وهو ينطق بقضائه الأخير في شأن مصيرهم الأبدي !!

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥)

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿٦﴾ ﴾

وَبَالَ أَمْرِهِمْ: سوء عاقبة كفرهم في الدنيا.

وَتَوَلَّوْا: أعرضوا عن الإيمان بالرسل.

يتضمن تاريخ الأنبياء والمرسلين الذين جاؤوا برسالة الحق في مختلف العصور الماضية، رصيداً دائماً لا ينفد من العبر والعظات الغالية لبني الإنسان ، فمثلاً : بُعث إلى قوم عاد وثمود وأهل مدين وقوم لوط وغيرهم رسل من الله، ولم يكن يملك هؤلاء للدلالة على صدقهم أي مهارة أو خصوصيةٍ فوق البشرية، سوى الدليل ، وإن إنكار الحق على مستوى الدليل هو ما جعل تلك الشعوب تستحق العذاب الإلهي ، ومن هذا نعلم أن امتحان المرء في هذه الدنيا هو أن يتعرف على الحق على مستوى الدليل، ومن يفشل في معرفة الحق على مستوى الدليل سيظل محروماً من الحق ما دامت السماوات والأرض .

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾

وَالنُّورِ: القرآن.

لِيَوْمِ: في يوم القيامة حيث تجتمع الخلائق للحساب والجزاء.

يَوْمُ التَّغَابُنِ: يظهر فيه غبن الكافر بتركه الإيمان وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان.

الناس يحسبون الدنيا موضع الربح والخسارة (التغابن)، فإذا حصل بعضهم هنا على النجاح طار فرحاً ومرحاً. وأما إذا تعرض شخص ما للفشل تحامته العيون ازدراءً واحتقاراً لشأنه، ولكن الحقيقة هي أن خسارة الدنيا وربحها كلاهما عديم القيمة والجدوى على حدٍ سواءٍ .

إن مكان الربح والخسران الحقيقي هو الآخرة ، فالخاسر هو الذي يخسر في الآخرة، وكذلك الرابح هو من يربح في الآخرة ، ومقياس الربح والخسران هناك يختلف عن مقياسها في حياتنا الراهنة ، حيث يقاس الربح والخسارة في الدنيا بالأسباب والمظاهر المادية المحسوسة، بينما هما يقاسان في الآخرة بمدى قرب الإنسان أو بعده من مستوى الأخلاق الإلهية ، وسيُصاب الناظرون يومئذٍ بالدهشة ، إذ يرون أن الأمر ها هنا قد تغير تماماً ، فما كان يعده الناس فوزاً كان في الحقيقة خسراناً، وما ظلوا ينظرون إليه على أنه خسران، كان هو الأحرى والأحق بأن يُسمى بالفوز. والواقع أن ربح يومئذٍ هو الربح وخسارة يومئذٍ هي الخسارة !!

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

بِإِذْنِ اللهِ: بإرادته وقضائه وقدره تعالى.

يَهْدِ قَلْبَهُ: يوفقه لليقين والصبر والتسليم.

إن المصيبة - أية مصيبةٍ - لا تجيء تلقائياً، بل تأتي المصائب كلها - صغيرة كانت أوْ

كبيرةً - من عند الله وبإذنه تعالى ، وهي تأتي لكي يُتاح للإنسان عَبْرَها فرصة لتلقي الهداية ، فالمصيبة تُلين قلب الإنسان وتُرقق فؤاده، وتهز نفسيته هزاً عنيفاً ، وعليه فالمصائب تلعب دور الموقظ أوْ المنشِّط للعقل الإنساني ، ولو حفظ المرء نفسه من الانفعالات السلبية، لصارت المصيبة بالنسبة إليه أفضل معلم رباني!! .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

فِتْنَةٌ: بلاء ومحنة واختبار.

يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ: يكف بخلها الشديد مع حرصها.

قَرْضاً حَسَناً: احتسابا بطيبة نفس وإخلاص.

إن نفس الإنسان أشد ما تكون تعلقاً بأولاده في هذه الحياة ، حيث تراه يتحدث كثيراً عن المبدأ ويؤكد عليه بشدةٍ ما دام الأمر يتصل بأشياء أخرى غير أولاده، ولكنه سرعان ما ينسلخ من كل المبادئ والالتزامات ويضرب بها عرض الحائط إذا كان في الأمر مساس بمصلحة من مصالح أولاده ، ومن هنا جاء في الحديث : " الولد مجبنة مبخلة ، كما ورد في حديث آخر : " يؤتى برجلٍ يوم القيامة فيقال : أكَل عياله حسناته" . يضن الإنسان بماله فيمسك يده عن البذل والإنفاق في سبيل الله من أجل أولاده ، في حين أنه لو أعطى في سبيل الله عن طيب نفسٍ، لعوّضه الله من ذلك في

صورٍ شتى ما يزيد على عطائه هو في سبيله تعالى أضعافاً كثيرةً ، وفوق هذا سيتلقاه الله يوم القيامة بما هو أحوج ما يكون إليه يومئذٍ، ألا وهو العفو عن الخطايا وغفران الذنوب !!

سورة الطلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ
مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ
يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن
كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ
شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾

فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ: مستقبلات لعدتهن (الطهر) .

وَأَحْصُوا العِدَّةَ: اضبطوها وأكملوها ثلاثة قروء.

بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ: بمعصية كبيرة ظاهرة.

بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ: قاربن انقضاء عدتهن.

مَخْرَجاً: من كل شدة وضيق وبلاء.

لاَ يَحْتَسِبُ: لا يخطر بباله ولا يكون في حسابه.

فَهُوَ حَسْبُهُ: كافيه ما أهمه في جميع أموره.

قَدْراً: أجلا ينتهي إليه أو تقديرا أزلا.

شرّع الإسلام الطلاق كعلاجٍ لا مفر منه لحالة استثنائية؛ يتعذر معها ارتباط الزوجين أحدهما بالآخر واشتراكهما في حياة واحدةٍ في جوٍ من المودة والتعاون الإيجابي البنّاء والثقة المتبادلة،ولكنه حدّد لإيقاعه أسلوباً خاصاً يستغرق فترةً معينةً من الزمان،وهكذا تم تقييد عملية الطلاق ببعض الحدود والحكمة من هذا التقييد أن تظل فرصة المعاودة بين الفريقين قائمة حتى اللحظة الأخيرة، وألا يتسبب حادث الطلاق ما أمكن في إثارة أي نوعٍ من الفساد الأسري أوْ الفوضى الاجتماعية. ويُلاحظ هنا أن الطلاق لا يكون على وفق الشريعة الإسلامية إلا إذا كان يصحبه روح الخشية الإلهية عبر كل مراحله !!

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾

يَئِسْنَ: انقطع رجاؤهن لكبرهن.

وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ: لصغرهن عدتهن ثلاثة أشهر.

يُسْراً: تيسيرا وفرجا.

فرضت الشريعة الإلهية على الإنسان فيما يتعلق بقضية الطلاق وغيرها من قضايا الحياة الاجتماعية مجموعةً من الضوابط والقيود، وقد تبدو هذه الضوابط والقيود للوهلة الأولى كأنها حاجز يحول بين الإنسان وبين استخدامه حريته كيفما يشاء، ولكنها نعمة وأي نعمةٍ ، فالمرء إذا التزم بهذه الضوابط في حياته اليومية، صار بمنجاةٍ من كثيرٍ

من المتاعب والخسائر غير الضرورية ، وبالإضافة إلى ذلك فقد جُعل نظام هذا العالم بحيث يتم هنا تلافي كل خسارةٍ بالضرورة على نحو ما .. غير أن هذا التلافي ليس إلا من نصيب مَن لا يخرج من دائرة الفطرة على أية حالٍ !

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾

وُجْدِكُمْ: وسعكم وطاقتكم.

وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم: تشاوروا في الأجرة والإرضاع.

تَعَاسَرْتُمْ: تضايقتم وتشاحنتم فيهما.

ذُو سَعَةٍ: غنى وطاقة.

قُدِرَ عَلَيْهِ: ضيق عليه.

المطلوب من المسلم - كما يريده الإسلام - أن يعامل الآخرين بروح السماحة وسعة القلب، فيقابل ما لا يروق له أوْ يزعجه من سلوك الغير بجميل الصبر والتحمل ، ويؤدي إلى الغير حقه مهما ساءت العلاقات بينهما، والمرء إذْ يفعل ذلك فإنه لا يحسن إلى غيره فقط، وإنما يحسن إلى نفسه كذلك ، حيث إنه يولّد بذلك في داخله مزاج الواقعية ، وليس من شكٍ في أن مزاج الواقعية هو الوسيلة الكبرى لإحراز النجاح في أي مجالٍ من مجالات الحياة .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ: كثير من أهل قرية.

عَتَتْ: تجبرت وتكبرت وأعرضت.

عَذَاباً نُّكْراً: منكرا شنيعا في الآخرة.

وَبَالَ أَمْرِهَا: سوء عاقبة عتوها.

خُسْراً: خسرانا وهلاكا.

ذِكْراً: قرآنا.

رَسُولاً: أرسل رسولاً، أو جبريل.

قوله ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ جاء هنا في سياق القوانين التي شرعها الإسلام عن تنظيم الأسرة . لقد كان العالم في قديم الزمان تسوده الأوهام والخرافات من أقصاه إلى أقصاه، كما كانت هناك شتى العقائد الخرافية التي أقامت العلاقات بين الرجل والمرأة على الأسس غير الفطرية ، ولما نزل القرآن الكريم قضى على هذه الخرافات البالية قضاءً مبرماً، وأقام العلاقة بين الجنسيْن على أساس الفطرة من جديد ، والذين لا يسلكون في طريق الصلاح، رغم هذا التدبير

الإلهي، فليس لهم في دنيا الله هذه شيء سوى الهلاك والخسران عاجلاً أوْ آجلاً ..

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ هذه الفقرة تدلنا على أن مصدر التقوى هو العقل، فعن طريق استخدام العقل والشعور وحده يرقى المرء إلى ذلك المقام الأسمى الذي يُسمى في الاصطلاح الديني بالتقوى !!

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾ ﴾

يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ: يجري قضاءه وقدره أو تدبيره.

لئن كان المراد بقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ ﴾ هو السبع أرضين كالسماوات السبع، فإن العلوم الفلكية لم تتمكن بعدُ من اكتشافها ،فالأرض هذه - طبقاً للمعلومات المتوافرة لدينا، إلى حين كتابة هذه السطور - استثناء فريد من نوعه في هذا الكون بأسره ، لذا فالله وحده أعلم بالمقصود من قوله هذا .

﴿ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ هذا يوضح لنا أن ما يطلبه الله من الإنسان أصلاً إنما هو " العلم". يعني الشعور بالذات الإلهية. إن هذا المصنع الكوني الضخم إنما تم إيجاده لكي يتعرف المرء من خلاله على الخالق، ولكي يصل عبره إلى معرفة قدرة الله المطلقة اللانهائية !!

سورة التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾

مَا أَحَلَّ الله لَكَ: شرب العسل.

تَبْتَغِي: تطلب.

تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ: تحليلها بالكفارة.

وَاللهُ مَوْلاكُمْ: ناصركم ومتولى أموركم.

حلف رسول الله ﷺ في مواجهة بعض المشكلات العائلية المثارة من قبل زوجاته، بأنه لن يشرب العسل أبداً، ولكن فعل الرسول تشريع؛ فكل ما يُلزم به نفسه يصير نموذجاً يحتذى به بالنسبة إلى أمته جمعاء، ولذلك أمره الله سبحانه بأن يتحلل من يمينه بأداء كفارتها الشرعية، ويعود بالتالي إلى الاستمتاع بها حرمه على نفسه مما هو حلال له، ذلك لكيلا يأخذ أفراد أمته فيما بعد في اجتناب العسل وعدم تناوله مطلقا باعتبار هذا العمل من لوازم الورع والتقوى!!

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ

إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾

نَبَّأَتْ بِهِ : أخبرت به غيرها.

وَأَظْهَرَهُ الله عَلَيْهِ: أطلعه الله تعالى على إفشائه.

صَغَتْ قُلُوبُكُمَا: مالت عن حقه ﷺ عليكما.

تَظَاهَرَا عَلَيْهِ: تتعاونا عليه بما يسوؤه.

هُوَ مَوْلاهُ: وليه وناصره.

ظَهِيرٌ: فوج مظاهر معين له.

قَانِتَاتٍ: مطيعات خاضعات لله.

سَائِحَاتٍ: مهاجرات ، أو صائمات.

تعقيباً على الحادث المذكور أعلاه، جاءت هذه الآيات تلفت انتباه زوجات الرسول إلى خطورة ما أحدثه بعضهن من الأزمة العائلية في بيته - عليه الصلاة والسلام - بأسلوب يشبه التهديد والإنذار، ومن هذا يتبين لنا أهمية النساء في شؤون الحياة .. والحقيقة أن النساء هن " النصف الأفضل " لأزواجهن إذا قمن بواجب مرافقتهم على خير ما يرام من الصدق والإخلاص والوفاء .. وأما إذا لم يرضين بأداء دورهن كرفيقات مخلصات على مدى العمر، فإنهن يستطعن إحباط مشروع إنسان هادف بأكمله بإثارة الضجة أوْ الشغب في بيته على توافه الأمور !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

قُوا أَنْفُسَكُمْ: جنبوها بالطاعات.

غِلاظٌ شِدادٌ: قساة أقوياء وهم الزبانية.

كثيراً ما يحدث في حياتنا الراهنة أن المرء ينظر إلى بعض الأشياء على أنه حق، ولكن حبه الزائد الشديد لزوجته وأولاده يحمله على ترك ما يعتقده في قرارة نفسه حقاً، وفعل ما يُرضي أولاده وزوجته ولو بالوسائل اللامشروعة أو الطرق غير المحمودة ، بيْد أن هذا خطأ وخيم العواقب ، فلْيأخذْ المرء في حسبانه دائماً أن أولاده هؤلاء الذين يبالغ في الاعتناء بتلبية رغباتهم لدرجة أن ينسى - أوْ يتناسى - معها الاعتناء بالحق، سيتم تسليمهم غداً، من جراء سلوكهم المنحرف هذا، إلى زبانية جهنم الموكّلين بتعذيب أهل النار، وهم من القسوة والغلظة بحيث لا يعرفون اللين والرحمة، كالإنسان الآلي (الروبوت)، وإنما همهم الوحيد أن ينفذوا ما وُكلوا به فوراً بلا هوادة ولا محاباة !!

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾

تَوْبَةً نَّصُوحاً: خالصة، أو صادقة أو مقبولة.

لاَ يُخْزِي الله النَّبِيَّ: لا يذله بل يعزه ويكرمه.

وضُع الإنسان في هذا العالم وسط ظروف وأحوال مهيأةٍ للامتحان والاختبار، ولذا فلا مندوحة للإنسان هنا من الوقوع بين حينٍ وآخر في خطأ ما ، ولكن بإمكانه أيضاً أن

يتلافى ذلك بالتوبة، أي بالرجوع إلى الله. وحقيقة التوبة هي الندم ولو أحس المرء بسوء ما فعل حقاً ، لأصيب بأشد حالات الندم والأسى، مما سيرغمه على تجنب ذلك الفعل فيما بعد قدر المستطاع .. ومن ثم جاء في الحديث : " الندم توبة " . كما روي عن بعض الصحابة، وهو يصف الإنسان التائب، قوله : "يتوب ثم لا يعود". والتوبة هي ما كانت توبةً نصوحاً أي صادقةً . وهي ليست علماً على التفوه ببعض الكلمات وترديدها دون وعْي أوْ ندمٍ، فعن عليّ ﷺ أنه سمع أعرابياً يقول :" اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك " وذلك على إثر اقترافه بعض الذنوب، فقال علي : " يا هذا إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين .. " إن التوبة الصادقة هي نور الآخرة، بينما التوبة الكاذبة ستنقلب ظلاماً في الآخرة !

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ: شدد. أو اقس عليهم.

فَخَانَتَاهُمَا: بالنفاق أو النميمة.

فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا: فلم يدفعا ولم يمنعا عنهما.

إن الأمر بجهاد المنافقين - إلى جانب جهاد الكفار - هنا يعني تناولهم بالمحاسبة الشديدة ، وهذا حكم دائم،حيث ينبغي للكبار والمسئولين في المجتمع الإسلامي أن يتعهدوا أفراد المجتمع بالإشراف والرعاية دائماً، ويرصدوا كل تحركاتهم بعيونٍ ساهرة، فمن واجبهم إذا ما رأوا أحداً منهم يباشر ما لا يليق به كفرد مسلم،أوْ يعود عليه وعلى المجتمع بالضرر،أن يحاولوا منعه من ذلك بكل الطرق والأساليب الممكنة ، وإن

الإنسان ليس ينفعه عند الله يوم القيامة شيء سوى عمله الذاتي،حتى قرابته من الصالحين أوْ انتسابه إليهم لن يغني عنه يومئذٍ فتيلاً. فلقد كان نوح ولوط نبيين عظيمين من أنبياء الله، غير أن زوجتيْهما لم تكونا وفيتيْن لهما بإضمارهما المودة القلبية والولاء لأعداء الحق ، مما أدى إلى انخراط كل واحدةٍ منهما، رغم كونها في عصمة النبي، في سلك أهل النار !!

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا: عفت وصانته من الرجال.

مِن رُّوحِنَا: روحا من خلقنا بلا توسط أب (عيسى) .

مِنَ القَانِتِينَ: من القوم المطيعين لربهم.

كان فرعون رجلاً كافراً وظالماً ، ولكن زوجته (آسية بنت مزاحم) كانت امرأة مؤمنةً صالحةً ، ولما أخذت الزوجة نفسها بالتزام طريق الصلاح والاستقامة، لم يضرها فساد الزوج شيئاً ، حيث أُلقي بالزوج في نار جهنم، بينما حظيت الزوجة بمقام أمين كريم في جنات النعيم !!

قوله: ﴿ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ كناية عن الحفاظ على عفتها ، فقد ظلت السيدة مريم -عليها السلام- عفيفةً طاهرة مصونة من كل ما يخدش الشرف أوْ العرض مذ كانت طفلة صغيرةً إلى أن بلغت سن الشباب ، ومن ثم اختارها الله سبحانه لتكون أماً للنبي "المعجزة "،وقد نفخ جبريل بأمرٍ من الله - كما ورد في بعض الروايات - نفخةً في جيب قميصها، فحملت بسيدنا عيسى عليه السلام بدون أب !

سورة الملك

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

تَبَارَكَ الَّذِي: تعالى وتمجد أو تكاثر خيره.

بِيَدِهِ الْمُلْكُ: له الأمر والنهي والسلطان.

خَلَقَ الْمَوْتَ: أوجده، أو قدره أزلا.

لِيَبْلُوَكُمْ: ليختبركم فيما بين الحياة والموت.

أَحْسَنُ عَمَلاً: أصوبه وأخلصه أو أسرع طاعة.

طِبَاقاً: كل سماء مَقْبِيَّةٌ على الأخرى.

تَفَاوُتٍ: اختلاف وعدم تناسب.

فُطُورٍ: شقوق وصدوع أو خلل.

كَرَّتَيْنِ: رجعتين رجعة بعد رجعة.

خَاسِئاً: صاغراً لعدم وجدان الفطور.

وَهُوَ حَسِيرٌ: كليل من كثرة المراجعة.

إن شخصاً ما حين يدرس عالمنا الراهن يفاجأ بوجود نوعٍ من التناقض ، حيث يرى الكون بأكمله، ما عدا الإنسان؛ يتسم بمنتهى الكمال ودقة التنظيم والانسجام؛ ولا يوجد فيه نقص أوْ خلل في أي ناحية من نواحيه، بينما تبدو الحياة الإنسانية، على نقيض من هذا، مملوءةً ظلماً وفساداً وفوضى . والسبب في هذا التناقض بين العالَمْين - عالم الطبيعة وعالم البشر - يرجع إلى وضعية الإنسان المتميزة ، فالإنسان يمر في هذه الدنيا بحالة امتحان، والامتحان يستلزم توفير حرية العمل والتصرف بالضرورة .. وحرية العمل هذه هي التي أتاحت للناس فرصتهم ليملؤوا البر والبحر بألوان الظلم والفساد .

إن مظالم العالم الإنساني هي ثمن الحرية المتاحة للإنسان امتحاناً ، ولولا هذا الوضع فكيف يمكن إذن انتقاء تلك النفوس الغالية التي تجنّبت الظلم رغم توافر إمكاناته ودواعيه، والتي ترفعت عن العناد والطغيان رغم القدرة على ممارسته .

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ ﴾

بِمَصَابِيحَ: بكواكب عظيمة مضيئة.

رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ: بانقضاض الشهب منها عليهم.

شَهِيقاً: صوتا منكرا كصوت الحمير.

تَكَادُ تَمَيَّزُ: تتقطع وتفرق وتنشق.

فَوْجٌ: جماعة من الكفار.

فَسُحْقاً: فبعدا من الرحمة والكرامة.

صور القرآن أحوال جهنم وأهوالها في مواضع منه شتى ، وهذه جهنّم ، وإن كانت خارجةً عن حدود مشاهدة الإنسان المباشرة اليوم ، إلا أنها متجلية، بصورة غير مباشرةٍ، فيما ينطوي عليه هذا الكون العجيب من حكمة ومعنى وغايةٍ شاملةٍ ، والحقيقة هي أنه لولا وعيد اليوم الآخر الذي يؤاخذ فيه المجرمون ويلاقون جزاء إجرامهم،لصار هذا الكون، بكل ما يسري في أرجائه من حكمة وغاية، غير قابلٍ للتفسير !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

كون عذاب الآخرة غير قابلٍ للمشاهدة والتجربة في عالمنا الراهن مطابق تماماً للتدبير الإلهي ، حيث يريد الله سبحانه أن ينتقى من بين البشر أفراداً يسلمون بعظمته وهم لم يروه، ويمتثلون أوامره ويجتنبون نواهيه وهم لم يروه، وليس للتعرف على أمثال هؤلاء من سبيل إلا إذا أخفي عن أعين الناس مصيرهم الأخروي المحتوم، حتى يعمل المرء ما يعمل بمحض اختياره، لا خضوعاً لأوامر قسرية مفروضة عليه من الخارج فرضاً !

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم

مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ ﴾

الأَرْضَ ذَلُولاً: مذللة لينة سهلة تستقرون عليها.

مَنَاكِبِهَا: جوانبها، أو طرقها وفجاجها.

وَإِلَيْهِ النُّشُورُ: إليه تبعثون من القبور.

مَّن فِي السَّمَاءِ: أمره وقضاؤه وسلطانه.

يَخْسِفَ بِكُمُ: يغور بكم.

هِيَ تَمُورُ: ترتج وتضطرب فتعلو عليكم.

حَاصِباً: ريحا من السماء فيها حصباء.

كَيْفَ نَذِيرِ: كيف إنذاري وقدرتي على العقاب.

كَانَ نَكِيرِ: إنكاري عليهم بالإهلاك.

كل شيء في هذا الكوكب الأرضي يتسم بالتوازن إلى أقصى حدٍ، وهذا التوازن هو الذي جعل الأرض صالحةً لسكنى الإنسان ، ولو حدث أدنى خللٍ في هذا التوازن لأصبحت حياة الإنسان جحيماً لا يطاق،ودوام التوجه إلى الله بالشكر والامتنان على هذا العالم المتوازن الذي هيّأه لنا، والتعوذ به تعالى من المتاعب التي يمكن أن نتعرض لها في حالة اختلال هذا التوازن الكوني فجأةً، هو ما يطلبه الله من البشر !!

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ

ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾

صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ: باسطات أجنحتهن في الجو عند الطيران ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن.

أَمَّنْ هَذَا: بل من هذا ؟

جُندٌ لَّكُمْ: أعوان لكم ومنعة.

غُرُورٍ: خديعة من الشيطان.

لَجُّوا فِي عُتُوٍّ: تمادوا في استكبار وعناد.

وَنُفُورٍ: شراد وتباعد عن الحق.

إن طيران الطيور في الجو، وخروج الرزق من باطن الأرض ونحوهما من الظواهر والوقائع مما يحير العقل، ويدعو إلى الدهشة والإكبار الشديدين ، ولو تأمل الإنسان في هذه الوقائع بجديةٍ لغمره فيض من الشعور الإلهي ، ولكن الإنسان غافل لدرجة أنه يعاند ويتمرد على الله في عالم يلقنه فيه كل ما حوله من الأشياء درساً واحداً ليس غير، ألا وهو درس الطاعة الإلهية !

﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

مُكِباً عَلَى وَجْهِهِ: ساقطا عليه لا يأمن العثور.

يَمْشِي سَوِياً: يمشي مستويا منتصبا سالماً من العثور (مثل للمشرك والموحد) .

ذَرَأَكُمْ: خلقكم وبثكم وفرقكم.

خُلق الإنسان مزوداً بقوى السمع والبصر والتعقل ، والناس، بالنسبة إلى استخدام هذه المواهب، صنفان: فمنهم مَن يندفع وراء ما يسمع بلا رويّةٍ، ويصدق بما وقع عليه بصره كما يبدو ظاهراً دون التحقق من حقيقة أمره ، ويتمسك بالفكرة تنبت في رأسه من غير تمحيصٍ أوْ مراجعةٍ ، وهذا الإنسان شأنه شأن الحيوان يأخذ في السير على أي طريقٍ وُجه إليه وبصره ملتصق بمواطئ أقدامه، لا يلتفت إلى اليمين ولا إلى اليسار، وهو لا يدري إلى أين المسير ولماذا !؟

أما الإنسان الآخر فهو الذي يتحقق مما سمع، ويحاول الاطلاع على ما رآه بمزيدٍ من الدقة والصواب، وهو الذي يكتشف الصدق متحرراً من أنانيته وتحطيم قوقعته الذاتية. هذا الإنسان الأخير هو الذي يسير منتصباً معتدلاً على طريق واضح المعالم مستقيم لا عوج فيه، وإنما زُوِّد الإنسان بملكات السمع والبصر والفؤاد، كي يتعرف على الحق، لا أن يظل جاهلاً به غافلاً عنه كالأعمى الأصم !!

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

رَأَوْهُ زُلْفَةً: رأوا العذاب قريبا منهم.

سِيئَتْ: كئبت واسودت غماً وذلاً.

بِهِ تَدَّعُونَ: تطلبون أن يعجل لكم استهزاء.

أَرَأَيْتُمْ: أخبروني أو أروني.

يُجِيرُ الكَافِرِينَ: ينجيهم أو يمنعهم أو يؤمنهم.

غَوْراً: غائرا ذاهبا في الأرض لا ينال.

بِمَاءٍ مَّعِينٍ: جار أو ظاهر سهل التناول.

إذا أبى المخاطب الإذعان للدليل، ولم تعدْ وسائل الإقناع المنطقي تجدي معه شيئاً، فإن الداعي يلجأ إلى تنبيه ضميره معبراً عن يقينه بقوةٍ ، والآيات محل تدبرنا هي بمثابة كلمات اليقين من هذا النوع ، ولئن كان المرء لا يزال يحتفظ بشعوره حياً لدرجةٍ ما، فإن هذه الكلمات الأخيرة ستقلق باله وتقض عليه مضجعه بكل تأكيدٍ، وأما الذي تبلد إحساسه وخمد شعوره كلياً، فإنه لا يستيقظ بأي تدبيرٍ أوْ وسيلةٍ، وهو لا يسلم بقيمة "الماء" ولا يقدره حق قدره إلا إذا حُرم منه وقذف به وحيداً في أحضان الصحراء !.

سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ ﴾

وَالْقَلَمِ: (قسم) بالقلم الذي يكتب به.

وَمَا يَسْطُرُونَ: والذي يكتبونه بالقلم.

مَا أَنْتَ: يامحمد ﷺ.

غَيْرَ مَمْنُونٍ: غير مقطوع عنك .

بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ: في أي الفريقين منكم المجنون.

الخلق العظيم هو أن يتعامل الإنسان مع الآخرين بطريقة أسمى من طريقة تعاملهم معه، فهو لا يتبنى أسلوب المعاملة بالمثل؛ بأن يسيء إلى من أساء إليه، ويحسن إلى من أحسن إليه سواء بسواء، بل هو يحسن إلى الكل، حتى ولو كان الآخرون يسيئون إليه ، ولقد كان خلق رسول الله ﷺ من هذا النوع ذاته ، مما يثبت أنه - عليه الصلاة والسلام - كان رجل المبدأ، وأن شخصيته لم تكن وليدة الظروف المحيطة به، وإنما كانت شخصيته نتاج مبادئه العليا ، وكونه متحلياً بهذا الخلق الأسمى يتفق تماماً مع دعواه : أني رسول الله !

وأما القسم بالقلم وما يسطرون فالمقصود منه هو التسجيل التاريخي ، إن القرآن

وشخصية صاحبه - عليه الصلاة والسلام - يحتلان مكانةً استثنائيةً فذةً في كل ما تم تسجيله من الأحداث والذكريات الإنسانية في صورة التاريخ منذ أقدم العصور إلى يوم الناس هذا، وهذا الاستثناء لا يمكن تفسيره إلا بأن ننظر إلى القرآن على أنه كتاب الله وإلى محمدٍ على أنه رسول الله ﷺ.

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ: أحبوا لو تلاينهم وتصانعهم.

فَيُدْهِنُونَ: فهم يلاينونك ويصانعونك.

حَلَّافٍ: كثير الحلف في الحق والباطل.

مَّهِينٍ: حقير في الرأي والتمييز أو كذاب.

هَمَّازٍ: عياب أو مغتاب للناس.

مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ: بالسعاية والإفساد بين الناس.

عُتُلٍّ: فاحش لئيم، أو غليظ جاف.

زَنِيمٍ: دعي ملصق بقومه شرير.

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ: أباطيلهم المسطرة في كتبهم.

سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم: سنلحق به عارا لا يفارقه كالوشم على الأنف.

قوله: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ معناة أن المكذبين ليسوا جديرين بأن يطاعوا البتة ، فهناك - من جهةٍ - حامل لواء الحق الذي يقف على أرضية الدليل، والذي لا يوجد تناقض بين قوله وفعله ، - ومن جهةٍ أخرى - يعارضه قوم لا بضاعة عندهم سوى الأكاذيب والأخلاقيات الهابطة ، ويضع الداعي ثقته كلها في الحق والصدق، بينما يضع معارضوه ثقتهم في أوضاعهم المادية، والداعي إلى الحق ملتزم بالمبدأ، وأما معارضوه فليس نصب أعينهم أية مبادئ يراعونها ، ومن ثم لا يثبت هؤلاء على قولٍ أوْ رأي محدد، فتارةً يقولون كلاماً، وتارةً أخرى يقولون ما يناقضه تماماً ، ومَن رُزق نصيباً من العقل والفطنة يكفيه هذا الفارق وحده لكي يعرف المحق من المبطل !!

﴿ إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

بَلَوْنَاهُمْ: امتحنا أهل مكة بالقحط.

الجَنَّةِ: بستان بالقرب من صنعاء.

لَيَصْرِمُنَّهَا: ليقطعن ثمارها بعد الاستواء.

مُصْبِحِينَ: داخلين في وقت الصباح.

وَلاَ يَسْتَثْنُونَ: حصة المساكين مخالفين لأبيهم.

فَطَافَ عَلَيْهَا: أحاط نازلا عليها.

طَائِفٌ: بلاء وعذاب (نار محرقة) .

كَالصَّرِيمِ: كالليل الأسود أو البستان المصروم.

فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ: نادى بعضهم بعضا حين أصبحوا.

اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ: باكروا مقبلين على ثمارکم.

صَارِمِينَ: قاصدين قطعها .

يَتَخَافَتُونَ: يتسارون بالحديث فيما بينهم.

وَغَدَوْا: ساروا غدوة إلى حرثهم.

عَلَى حَرْدٍ: على انفراد عن المساكين.

قَادِرِينَ: على الصرام.

إِنَّا لَضَالُّونَ: الطريق ، وما هذه جنتنا.

أَوْسَطُهُمْ: أحسنهم رأيا وأرجحهم عقلا.

لَوْلا تُسَبِّحُونَ: هلا تستغفرون الله من فعلكم وخبث نيتكم.

يَتَلاوَمُونَ: يلوم بعضهم بعضا على قصدهم.

إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ: طالبون منه الخير والعفو.

إن ما يكسبه المرء في هذه الدنيا يبدو ظاهراً كأنه يأتيه من الحقل أوْ من أي موردٍ آخر ، ولكنه في الحقيقة من هبات الله سبحانه، ومَن ينظر إليه على أنه هبة الله ، ويخرج منه بالتالي حق العباد الآخرين، يبارك الله في كسبه . أما الذي يعد كسبه نتيجة مؤهلاته الذاتية ، ويأبى أداء حقوق الآخرين منه،فلن يغني عنه ما كسب شيئاً،وتلك سنة الله في الأفراد والأمم لا تتخلف أبداً ،وهي قد تنطبق على البعض في الحياة الراهنة ذاتها، وإنها ستفرض نفسها حتماً في الآخرة على كل الناس بدون أي استثناء أو محاباة !!

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

لَمَا تَخَيَّرُونَ: للذي تختارونه لأنفسكم.

لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا: عهود مؤكدة بالأيمان.

لَمَا تَحْكُمُونَ: للذي تحكمون به أنفسكم.

زَعِيمٌ: كفيل بأن يكون لهم ذلك.

إن مَن لا يستشعر بقلبه مخافة الله يعطى الأهمية كلها للأشياء المحسوسة الماثلة بين يديه وحدها ، وفي مقابل ذلك فإن الخائف من الله هو الذي يصبح جاداً بالنسبة إلى حقائق الغيب، وهذان دوران متغايران تماماً ، وليس من شك في أن مصيرهما عند الله لن يكون سواءً!

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً

أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾

يُكْشَفُ عَن سَاقٍ: كناية عن شدة هول القيامة.

خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ: ذليلة منكسرة.

تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ: يغشاهم ذل وخسران وندامة.

فَذَرْنِي: دعني وخلّني (تهديد شديد).

سَنَسْتَدْرِجُهُم: سندنيهم من العذاب درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه.

وَأُمْلِي لَهُمْ: أمهلهم ليزدادوا إثماً.

في يوم القيامة؛ إذْ يتجلى الحق - سبحانه وتعالى - للعيان، فلن يلبث جميع أهل الإيمان أن يخرّوا أمامه ساجدين تماماً كما خروا له ساجدين في سابق حياتهم ، ولن يوفق إلى هذا السجود لله يومئذٍ إلا المؤمنون الصادقون وحدهم ، وأما الذين كانوا يتظاهرون بالسجود في الدنيا كذباً ورياءً للناس، فستتصلب ظهورهم ساعتئذٍ مثلما كانت في واقع أمرهم متصلبةً عناداً واستكباراً في الحياة الدنيا ، وعبثاً يحاول هؤلاء أن يسجدوا هناك مع الساجدين ولكنهم لا يستطيعون ، وإنه لتقدير لأهل الإيمان المخلصين أيما تقدير يوم يتجلى الله سبحانه بنفسه ليتلقى سجودهم له بالقبول، وبالمقابل فإنها ستكون ساعة خزيٍ وهوان لا يوصفان بالنسبة لأدعياء الإيمان الكاذبين، حيث يقفون بحضرة خالقهم ومالكهم ، ولا يملكون الإقرار بعبوديتهم له عملياً !!

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ

﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن
تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ
وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

مَّغْرَمٍ: غرامة ذلك الأجر.

مُّثْقَلُونَ: مكلفون حملا ثقيلا.

كَصَاحِبِ الْحُوتِ: يونس عليه السلام.

مَكْظُومٌ: مملوء غيظا في قلبه على قومه.

لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ: لطرح من بطن الحوت بالأرض الفضاء المهلكة.

فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ: فاصطفاه بعودة الوحي إليه.

لَيُزْلِقُونَكَ: ليزلون قدمك فيرمونك.

العلاقة بين الداعي والمدعو علاقة جد حساسة ، والداعي مطالب بالتزام حسن السلوك وسمو الخلق من جانبٍ واحدٍ، فمهما فعل المدعو من إثارة الأقاويل السخيفة والشبهات حول الدعوة، ومهما قابل الداعي بالاحتقار والازدراء، ورماه بألوان التهم الكاذبة، ينبغي للداعي، على كل حال، أن يجنّب نفسه مشاعر رد الفعل، وسر نجاح الداعي يكمن في شيئين اثنين هما : الصبر على إساءات المدعو، وعدم انتظار أية عوائد أوْ تعويضات مادية من المدعو على إرشاده إلى طريق الرشد والهداية.

سورة الحاقة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ
﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ
﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ
أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ
وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا
طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾

ٱلْحَآقَّةُ: الساعة يتحقق فيها ما أنكروه.

مَا الحَاقَّةُ: أي شيء هي في أهوالها.

بِالْقَارِعَةِ: بالقيامة تقرع القلوب بأفزاعها.

بِالطَّاغِيَةِ: بالصيحة المجاوزة للحدِّ في الشدة.

بِرِيحٍ صَرْصَرٍ: شديدة السموم أو البرد أو الصوت.

عَاتِيَةٍ: شديدة العصف.

سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ: سلَّطها عليهم بقدرته تعالى.

حُسُوماً: متتابعات. أو مشؤومات.

أَعْجَازُ نَخْلٍ: جذوع النخل بلا رؤوس.

خَاوِيَةٍ: ساقطة أو فارغة أو بالية.

وَالْمُؤْتَفِكَاتُ: قرى قوم لوط (أهلها).

بِالْخَاطِئَةِ: بالفعلات ذات الخطأ الجسيم.

أَخْذَةً رَّابِيَةً: زائدة في الشدة على الأخذات.

الْجَارِيَةِ: سفينة نوح عليه السلام.

تَذْكِرَةً: عبرة وعظة.

وَتَعِيَهَا: ولتحفظها.

من الناس مَن ينكر الآخرة صراحةً ، ومنهم مَن لا ينكر الآخرة بألسنتهم، ولكن الهمّ الذي يشغل بالهم ليل نهار إنما يتمثل في هذه الدنيا وحدها ، وبالتالي لا يكون ثمة فارق يُذكر بين حياتهم العملية وحياة المنكرين الصرحاء ، فكلا هذين الصنفين من الناس واحد من حيث الحقيقة، وكلاهما عند الله مكذب بالآخرة، وإن كان تكذيب أحدهما بلسان المقال وتكذيب الآخر بلسان العمل ، وأمثال هؤلاء معرضون للهلاك حتماً بموجب القانون الإلهي .. ولقد شهدت عصور الأنبياء وقوع هذا الهلاك بالمكذبين في الحياة الراهنة ذاتها، وسيقع ذلك بمن يستحقّه بعد عصر النبوة في الآخرة .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١٥) وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) ﴾

نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ: النفخة الأولى لخراب العالم.

وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ: رفعت من أماكنها بأمرنا.

فَدُكَّتَا: فدقتا وكسرتا، أو فسويتا.

وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ: قامت القيامة.

وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ: تفطرت وتصدعت من الهول.

وَاهِيَةٌ: ضعيفة متداعية بعد الإحكام.

عَلَى أَرْجَائِهَا: جوانبها وأطرافها.

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ: بعد النفخة الثانية للحساب والجزاء.

إن العالم الراهن بُني تبعاً لمصلحة الامتحان، وإذا انقضت مهلة هذا الامتحان، فسوف يتم بناء عالم جديدٍ على أنقاض هذا العالم وفق مقتضيات جديدةٍ، وبينما يظهر جلال الله اليوم بصورة غير مباشرةٍ، سيظهر الجلال الإلهي يومئذٍ بصورة مباشرةٍ !!

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى
مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾
كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ
فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ
﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ
صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا
طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

هَاؤُمُ: خذوا أو تعالوا.

كِتَابِيَهْ: كتابي والهاء للسكت.

رَّاضِيَةٍ: مرضية لا مكروهة .

قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ: ثمارها قريبة التناول إذ يجنى.

هَنِيئاً: أكلا غير منغص ولا مكدر.

كَانَتِ الْقَاضِيَةَ: الموتة القاطعة لأمري ولم أبعث.

مَا أَغْنَى عَنِّي: ما دفع العذاب عني .

مَالِيَهْ: الذي كان لي من مال ونحوه .

سُلْطَانِيَهْ: حجتي أو تسلطي وقوتي.

فَغُلُّوهُ: اجعلوا الغُلَّ في يديه وعنقه.

الْجَحِيمَ صَلُّوهُ: أدخلوه أو احرقوه فيها.

فَاسْلُكُوهُ: فأدخلوا فيها.

وَلاَ يَحُضُّ: لا يحث ولا يحرض.

حَمِيمٌ: قريب مشفق يحميه من العذاب.

غِسْلِينٍ: صديد أهل النار.

الْخَاطِئُونَ: الكافرون.

النجاح في عالم الآخرة سيكون حليف من يعيش حياته الراهنة وهو يخاف الله ويخشى عقابه، أما الذي يعيش هنا وقلبه خاوٍ من كل خوف أوْ حذرٍ، ويعامل عباد الله

بالتجبر والعناد والطغيان، فإنه سيتورط في الآخرة في أشد العذاب وأقساه فلن يخفف عنه ساعةً ولن ينقذه منه أحد !!

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾

فَلاَ أُقْسِمُ: أقسم و"لا" مزيدة.

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ: يبلغه عن الله أوحي إليه.

تَقَوَّلَ عَلَيْنَا: اختلق وافترى علينا.

بِالْيَمِينِ: بيمينه. أو بالقوة والقدرة.

الْوَتِينَ: نياط القلب. أو نخاع الظهر.

عَنْهُ حَاجِزِينَ: مانعين الهلاك عنه.

لَحَسْرَةٌ: ندامة عظيمة.

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ: نزهه عما لا يليق به تعالى.

إن ما تبصرون وما لا تبصرون كلاهما شاهد على صدق هذا الكلام يعني أن المعلومات التي كانت في متناول الإنسان عند نزول القرآن الكريم، والمعلومات التي

كانت ستدخل في متناول الإنسان عبر العصور التالية، كلتاهما تتضافر على إثبات حقيقة هذا الكلام، فهذا الكلام لا يُبطله علم الحاضر، ولن يتمكن علم المستقبل من دحضه وإبطاله كذلك ، وعلى الرغم من هذا، فإن الذين لا يؤمنون به، إنما يقيمون الدليل على خلوّ أنفسهم من الجديّة فيما يتعلق بقضية الحق والباطل !!

سورة المعارج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَأَلَ سَآبِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى
ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ
۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ
ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ
يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢
وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ ﴾

سَأَلَ سَائِلٌ: دعا داع على نفسه وقومه .

ذِي المَعَارِجِ: ذي السموات مصاعد الملائكة.

تَعْرُجُ المَلائِكَةُ: تصعد في تلك المعارج.

وَالرُّوحُ: جبريل عليه السلام .

فِي يَوْمٍ: هو يوم القيامة.

مِقْدَارُهُ: في حق الكفار.

صَبْراً جَمِيلاً: لا شكوى فيه لغيره.

السَّمَاءُ كَالمُهْلِ: كالمعدن المذاب أو دُرْديِّ الزيت.

الجِبَالُ كَالْعِهْنِ: كالصوف المصبوغ ألوانا.

حَمِيمٌ: قريب مشفق لشدة الهول.

يُبَصَّرُونَهُمْ: يعرف الأحماء أحماءهم.

وَفَصِيلَتِهِ: عشيرته الأقربين المنفصل عنهم.

تُؤْوِيهِ: تضمه في النسب. أو عند الشدة.

إن مشاهد القيامة لا يمكن وصفها على نحوٍ حقيقيٍ في عالمنا الراهن ، وإنما تناولها القرآن بالتقريب من خلال الإشارة أوْ التصوير أوْ التمثيل في مواضع منه شتى، لكيما يتمكن الإنسان من استشعارها على وجه الإجمال ، والقيامة إذا قامت فإنها ستكون رهيبة مروعة لدرجة أن المرء يذهل عندئذٍ عن أقاربه ومصالحه، تلك التي هو يعتبرها اليوم من الأهمية بحيث يهمل من أجلها أمر الحق ولا يكاد يلقى إليه بالاً !!

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ
﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا
﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ
حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ
هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ
لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ
﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

إِنَّهَا لَظَىٰ: جهنم، أو الدركة الثانية منها.

نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى: قاْعَة للأطراف أو جلد الرأس.

فَأَوْعَى: أمسك ماله في وعاء بخلا.

جَزُوعاً: كثير الجزع والأسى.

مَنُوعاً: كثير المنع والإمساك.

وَالْمَحْرُومِ: من العطاء لتعففه عن السؤال.

مُّشْفِقُونَ: خائفون استعظاما لله تعالى.

العَادُونَ: المجاوزون الحلال إلى الحرام.

بينت هذه الآيات باختصارٍ صفات كلا النوعين من البشر؛ حيث عرّفت الذين سيُعتبرون أهلا لدخول الجنة، إلى جانب وصف أولئك الذين سيصبح ما قدمت أيديهم من سوء الأعمال سبباً في دفعهم إلى نار جهنم يوم القيامة .

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

مُهْطِعِينَ: مسرعين مادي أعناقهم إليك.

عِزِينَ: جماعات متفرقين.

مِّمَّا يَعْلَمُونَ: من نطف مهينة مذرة.

إن الذين يقومون على غير الحق يرون في الدعوة الصريحة إلى الحق الخالق زوال سيادتهم واعتبارهم ، مما يجعلهم يسعون وراء إحباط دعوة كهذه واقتلاع جذورها

بكل ما يملكون من حول وطولٍ ، وتصرفاتهم اللاعقلانية هذه تحدو بهم شيئاً فشيئاً إلى الجحيم، ولكنهم يحسبون - بناءً على آمالهم الزائفة - أنهم يواصلون رحلتهم السريعة نحو جنات النعيم !!

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

فَلاَ أُقْسِمُ: أقسم و"لا" مزيدة.

بِمَسْبُوقِينَ: مغلوبين عاجزين.

فَذَرْهُمْ: فدعهم وخلهم غير مكترث بهم.

يَخُوضُوا: ينغمسوا في باطلهم.

الأَجْدَاثِ: من القبور.

سِرَاعاً: مسرعين إلى الداعي.

نُصُبٍ: أحجار عظموها في الجاهلية.

يُوفِضُونَ: يسرعون.

خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ: ذليلة منكسرة لا يرفعونها.

تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ: تغشاهم مهانة شديدة.

إن تعدد مشارق الأرض ومغاربها من حين لآخر يرجع إلى خصوصية فذة من

خصائص الأرض، وهي ما يُعرف بالميل المحوري، والذي يتسبب في حدوث الفصول المختلفة على مدار السنة، ولولا ميل الكرة الأرضية هذا بالنسبة إلى الشمس، لكانت الأرض أقل فائدةً بكثيرٍ مما هي عليه الآن ، فبفضل هذا الميل المحوري قد صارت الأرض لنا نحن البشر مصدر خيرات لا تحصى ومنافع لا توصف ، والعالم الذي يشهد مثالاً لتحويل الأقل نفعاً إلى الأكثر نفعاً كما ذكرنا آنفاً، ليس من المستبعد أيضاً أن تحدث فيه وقائع أخرى مماثلة ، وأما الذين لا يتَّعظون، رغم هذه الآيات الصارخة، فإنهم - ولا ريب - أناس يفتقرون إلى الجدية، وقلما يتعظ المفتقرون إلى الجدية أوْ يعتبرون، اللهم إلا إذا كانوا قد أرغموا على ذلك إرغاماً !

سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾

إِنَّ أَجَلَ الله : وقت مجيء عذابه إن لم تؤمنوا.

سيدنا نوح ﷺ هو أول الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم - ﷺ- وقد لخص القرآن هنا فحوى رسالته التي عرضها على الفاسدين من أهل زمانه في النقاط الثلاث التالية : العبادة، التقوى، وإطاعة الرسول . يعني التخلي عن عبادة غير الله وإفراد الله وحده بالعبادة دون شريك ، وتأسيس الحياة الدنيا على تقوى الله وخشيته ، وأخيراً اعتبار الرسول هو القدوة في كل شأن من شؤون الحياة ، وهذه النقاط تمثل دعوة جميع الأنبياء المرسلين على اختلاف الأزمنة والأمكنة، كما أنها هي جوهر دعوة القرآن الكريم كذلك .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم

مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾

فِرَاراً: تباعداً ونفاراً عن الإيمان.

وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ: بالغوا في التغطي بها كراهة لي.

وَأَصَرُّوا: تشددوا وانهمكوا في الكفر.

يُرْسِلِ السَّمَاءَ: المطر الذي في السحاب.

مِّدْرَاراً: غزيراً متتابعاً.

لاَ تَرْجُونَ لله وَقَاراً: لا تعتقدون أو لا تخافون عظمة الله.

خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً: مُدَرِّجا لكم في حالات مختلفة.

سَمَوَاتٍ طِبَاقاً: كل سماء مقببة على الأخرى.

نُوراً: منوراً لوجه الأرض في الظلام.

الشَّمْسَ سِرَاجاً: مصباحاً مضيئاً يمحو الظلام.

أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ: أنشأكم من طينها.

الأَرْضَ بِسَاطاً: فراشاً مبسوطاً للاستقرار عليها.

سُبُلاً فِجَاجاً: طرقا واسعات.

يتضح من خطبة نوح هذه أنه قد اختار لدعوته الأسلوب نفسه الذي تبناه القرآن لإقناع الناس بما يدعوهم إليه، حيث عرض ﷺ دعوته مستَدِلاً بشتى الظواهر الكونية، كما خاطب قومه بكل الطرق الممكنة سراً وعلانيةً، وعلى المستويَيْن الفردي والجماعي،وقد استنفد كل طاقته في سبيل إصلاحهم وإرشادهم إلى الحق ، ولكنهم أبوا الإيمان بدعوته وتمادوا في غيّهم وطغيانهم يعمهون ، وقال ابن عباس في تفسير قوله : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ أي ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته [1].

ومن هذا نعلم أن قوم نوح كانوا يسلّمون بوجود الله، إلا أن الشعور بعظمة الله وجلاله لم يكن مستولياً على نفوسهم كما ينبغي، والحقيقة أن هذا هو المعيار الحقيقي لعبادة الله وعبوديته .. فمن يعيش هنا وقلبه مملوء بعظمة الله، فهو عابد لله حقاً، وأما من كان قلبه خاوياً من الإحساس بعظمة الله فليس من عباد الله وعبوديته في شيء !

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾

خَسَاراً: ضلالاً في الدنيا وعقاباً في الآخرة.

مَكْراً كُبَّاراً: بالغ الغاية في الكفر.

وَداًّ: أصنام عبدوها ثم انتقلت إلى العرب ، فكان ود لكلب.

سُوَاعاً: وسواع لهذيل .

(١) تفسير الطبري ٢٩/ ٥٩ .

يَغُوثَ: ويغوث لغطفان.

وَيَعُوقَ: ويعوق لهمذان.

وَنَسْراً: ونسر لآل ذي الكلاع من حمير.

مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ: من أجل ذنوبهم و"ما" زائدة.

لماذا قوبلت دعوة نوح – عليه السلام – من جانب قومه بالرفض والإنكار ؟ لقد كان السبب في ذلك أن كلام نوح بدا للقوم أقل قيمةً ووزناً من كلام أولئك الذين كانوا يحتلون يومئذٍ مراكز السيادة والكبرياء والوجاهة الدنيوية ، فبينما جحد كبار العصر بدعوة الحق معتزّين بمكانتهم وكبريائهم، تناولها الصغار بالجحود نظراً إلى كون كبارهم جاحدين لها !

ولقد دبر معارضو نوح مكائد عظيمة ضده ، من بينها دعايتهم المغرضة ! إن نوحاً قد جاء بما يتنافى مع ما كان عليه أكابرنا وهم ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وهؤلاء الخمسة كانوا أفراداً صالحين في قديم الزمان ، ثم وصل بهم الأمر شيئاً فشيئاً إلى أن صاروا موضع الإجلال والتقديس لدى الأجيال التالية ، وبالتالي راحوا يعبدونهم باتخاذ أصنام وتماثيل ترمز إليهم ، ولقد كان من السهولة بمكانٍ أن يتم تحريك مشاعر العامة وتحريضهم ضد نوحٍ بأسماء هذه الرموز ، وقد استطاع الرؤساء بالفعل أن يجعلوه – عليه السلام – "مشبوهاً" في أعين الجماهير قائلين : إنه سائر في طريق آخر جديدٍ حائداً عن طريق أسلافنا الصالحين !

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

دَيَّاراً: أحداً يدور ويتحرك في الأرض.

تَبَاراً: هلاكا ودماراً.

يظهر من دعاء سيدنا نوحٍ هذا أن الفساد في عصره كان قد استفحل حتى بلغ منتهاه، حيث صار المجتمع بأسره خاضعاً لسيطرة العقائد الضالة والأفكار المنحرفة، وأصبح كل طفلٍ يولد في رحاب ذلك المجتمع يومئذٍ يرث جرثومة الانحراف الفكري والضلال العقائدي، ويتربى عليها ، وإذا بلغ مجتمع ما إلى هذا الحد من التدهور والانحراف، وطغيان الشر، فلا ينتظره بعد ذلك شيء سوى أن يُقضى عليه بطوفانٍ كطوفان نوحٍ !!

سورة الجن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾

قُرْآناً عَجَباً: عجباً بديعاً في بلاغته وفصاحته.

الرُّشْدِ: الحق والصواب. أو التوحيد والإيمان.

تَعَالَى: ارتفع وعظم.

جَدُّ رَبِّنَا: جلاله أو سلطانه أو غناه.

يَقُولُ سَفِيهُنَا: جاهلنا (إبليس اللعين).

شَطَطاً: قولا مفرطاً في الكذب والضلال.

يَعُوذُونَ: يستعيذون ويستجيرون.

فَزَادُوَهُمْ رَهَقاً: إثما. أو طغيانا وسفها.

هناك نوع من المخلوقات يسكن في هذا الكون، له خصائص وصفات مختلفة عن البشر، يقال له : الجن، وهم من جملة المخلوقات المستترة عن الحواس غير المرئية

للإنسان، وقد ورد ذكرهم في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، وهذه الآيات توضح لنا أن الجن بدورهم ينقسمون إلى فريقين : ضالين ومهتدين ، وكما يوجد بين الإنس قادة سفهاء يضللون الجماهير، يوجد أمثالهم في عالم الجن كذلك، وهم يعملون على تغرير أتباعهم من الجن وإضلالهم عن سبيل الرشد والهدى !

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

حَرَساً شَدِيداً: حراسا أقوياء من الملائكة.

وَشُهُباً: شعل نار تنقض كالكواكب.

شِهَاباً رَّصَداً: راصدا ، مترقبا يرجمه.

رَشَداً: خيرا وصلاحا ورحمة.

طَرَائِقَ قِدَداً: ذوي مذاهب متفرقة مختلفة.

ظَنَنَّا: علمنا وأيقنا الآن.

فَلاَ يَخَافُ بَخْساً: فلا يخشى نقصا من ثوابه.

وَلاَ رَهَقاً: غشيان ذلة له.

وَمِنَّا القَاسِطُونَ: الجائرون بكفرهم العادلون عن طريق الحق.

تَحَرَّوْا رَشَداً: قصدوا خيراً وصلاحاً.

لِجَهَنَّمَ حَطَباً: للنار وقوداً.

إن نفراً من الجن، أولئك الذين استمعوا إلى الرسول وهو يتلو القرآن الكريم، لم يتلقوه بالإيمان والقبول فور سماعهم إياه فقط، وإنما عادوا مبشرين بدعوته كذلك، مما يدل على أن الكلام الصادق حين يصل إلى مسامع أصحاب القلوب الحية والضمائر النابضة بالحياة، يحدث في نفوسهم أثراً مزدوجاً يتمثل أولاً في مبادرتهم إلى الاعتراف بصدقه، وثانياً في قيامهم بتبليغه إلى بني جنسهم !

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾

عَلَى الطَّرِيقَةِ: طريقة الهدى "ملة الإسلام".

مَّاءً غَدَقاً: كثيراً يتسع به العيش.

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ: لنختبرهم فيما أعطيناهم.

يَسْلُكْهُ: يدخله.

عَذَاباً صَعَداً: شاقا يعلوه ويغلبه فلا يطيقه.

عَبْدُ الله يَدْعُوهُ: هو النبي ﷺ يعبد ربه.

عَلَيْهِ لِبَداً: متراكمين من ازدحامهم عليه تعجباً.

رَشَداً: نفعاً أو هداية.

لَن يُجِيرَنِي مِنَ الله : لن يمنعني من عذابه إن عصيته.

مُلْتَحَداً: ملجأ أو حرزا أركن إليه.

إن نظام العالم الراهن وُضع تبعاً لمصلحة الامتحان .. ولذا يتم إظهار الحق هنا على مستوى البلاغ والتبيين وحده، ولو لم تكن ثمة مصلحة الامتحان، وأُزيح الستار المسدل بيننا وبين الغيب المكنون، لرأى الناس رأي العين أن الملائكة ومَن صلَح من أفراد الجن كلهم يعترفون بألوهية الله وجلاله في تواضع وخشوع .. كما يجدون الكون أيضاً مصداقاً لذلك بكل ظواهره وموجوداته .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

أَمَداً: زمانا بعيداً.

رَصَداً: حرسا من الملائكة يحرسونه.

وَأَحَاطَ: علم علما تاما.

وَأَحْصَى: ضبط ضبطاً كاملاً.

الداعي إلى الحق لا يعدو في ظاهره أن يكون إنساناً عادياً ، ومن هنا يتكالب على أذاه والنيل منه كل أولئك الذين تصدم دعوته مشاعرهم أوْ تمس مصالحهم من قريب أوْ بعيدٍ، ويعزب عن بالهم أن أي إجراء يتُخذ ضد الداعي إلى الحق هو في الواقع إجراء ضد الله نفسه، ومَن ذا يستطيع، أن ينجح في اتخاذ إجراءات ضد الله - عز وجل !؟

سورة المزمل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾

الْمُزَّمِّلُ: المتلفف بثيابه (النبي ﷺ).

وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ: اقرأه بتمهل، وتبيين حروف.

قَوْلاً ثَقِيلاً: شاقاً على المكلفين (القرآن).

قوله: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ ﴾ يعني: اقرأه في مهلٍ وتُؤَدةٍ، مع تركيز الانتباه على المعاني، وعندما يفعل المرء ذلك تبتدئ بينه وبين القرآن عملية مزدوجة؛ فمن جهة يكون القرآن بالنسبة إليه خطاباً إلهياً، ومن جهة أخرى لا يزال قلبه يستجيب لكل آية يمر بها من آيات هذا الخطاب، فإذا ذكر القرآن عظمة الله وجلاله، خشع كيان القارئ كله استشعاراً لكبرياء الله وهيبته، وإذا عدّد القرآن نعم الله وإحساناته، امتلأ فؤاد القارئ بمشاعر الشكر والامتنان، وإذا حذّر القرآن من وعيد الله وعقابه، ارتعدت فرائص القارئ وَجَلاً وخوفاً .. وإذا بين القرآن حكماً من أحكام الله، تجدّد عزم القارئ على امتثاله في حياته طاعةً لربه وابتغاءً لمرضاته.

والمراد بـ " القول الثقيل " هو الأمر بالإنذار الوارد في السورة التالية: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾ [المدثر] أي تنبيه الناس إلى خطورة قضية الآخرة، وهذا من غير شكٍ أشد الأعمال صعوبة ومشقةً في هذا العالم على الإطلاق، حيث يضطر الداعي في سبيل ذلك إلى

التمسك بالحق الخالص والثبات عليه حتى ولو صار " غريباً " بين ذويه ومن حوله جميعاً ، وهو يُضطر إلى تحمل أذى الناس وإساءتهم؛ إبقاءً على علاقة الداعي والمدعو، بينه وبين المخاطبين حتى اللحظة الأخيرة، كما يلزمه فوق هذا أن يأخذ نفسه بالصبر والإعراض من طرف واحدٍ، تفادياً من أن تنْخدش سمعته كداعٍ إلى الحق بأي حالٍ من الأحوال !!

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ﴿١٤﴾ ﴾

نَاشِئَةَ اللَّيْلِ: العبادة التي تنشأ به وتحدث.

أَشَدُّ وَطْئاً: ثباتاً للقدم ورسوخاً في العبادة.

وَأَقْوَمُ قِيلاً: أثبت قراءة لحضور القلب فيها.

سَبْحاً: تصرفاً وتقلباً في مهماتك.

وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ: انقطع إلى عبادته تعالى ، واستغرق في مراقبته.

هَجْراً جَمِيلاً: اعتزالاً حسناً لا جزع فيه.

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ: دعني وإياهم فسأكفيكهم.

أُوْلِي النَّعْمَةِ: أرباب التنعم ، ورغادة العيش.

وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً: أمهلهم زمانا قليلاً بعده النكال.

أَنكَالاً: قيوداً شديدة ثقالاً.

وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ: ذا نشوب في الحلق فلا ينساغ.

يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ: تضطرب وتتزلزل (يوم القيامة).

النهوض بدعوة الحق الخالص نهوض بأصعب مهمةٍ وأعسرها إطلاقاً ، حيث إن الناهض بها لا يلبث أن يعود في بيئته شخصاً غير مرغوب تماماً ، وبالتالي فإن الإله الذي يجده الداعي إلى الحق أنيساً له في وحشته، وكفيلا بأن يكل إليه جميع أموره قرير العين مرتاح البال، هو الله ربه ، ومن ثم فهو لا يذكر الله في النهار وحده، وإنما يقف بين يديه تعالى مصلياً ومناجياً في آناء الليل كذلك ، والليل هو وقت التفرغ والصفاء والسكون الشامل، إذْ تهدأ فيه الأصوات وتنقطع الحركات ، وهو بذلك أنسب الأوقات ليتمكن الإنسان فيه من الإقبال على ذكر الله ومناجاته بتجرد كاملٍ وتركيزٍ ذهني تامٍ ، وذلك هو الزاد الحقيقي لمن يسلك في طريق الدعوة الطويل المليء بشتى المصاعب والمتاعب المحفوف بضروب الأهوال والمخاطر ..

والداعي الصادق إذا ما أصابه مكروه من جانب المدعو فهو لا يتعرض له، وإنما يندفع نحو الله راجياً منه العون على احتمال الأذى والتثبيت على الجادة، وهو يجنب نفسه مشاعر الانتقام ورد الفعل جهد طاقته، وإن العمل المصحوب بالاستعلاء على نفسية رد الفعل هو الشرط الضروري الوحيد الذي يجعل من شخصٍ ما داعي الحق بمعناه الصحيح .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾
فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ
ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولاً ﴿١٨﴾ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ

فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴿١٩﴾ ﴾

كَثِيباً مَّهِيلاً: رملا متجمعاً – سائلا منهالاً.

أَخْذاً وَبِيلاً: شديداً ثقيلاً وخيم العقبى.

إن الغاية الرئيسية من بعث الرسل هي الفصل بين الحق والباطل ، ولقد تم هذا الفصل قبلئذٍ بين موسى وفرعون، وها هو ذا يتم الآن بين رسول الإسلام وبين كفار قريش، والذين لا يخضعون أمام الداعي إلى الله ، في هذه الدنيا ، عن رضا وطواعية ، فإنما يعرضون أنفسهم لخطر أن يخضعوا لعذاب الله في الآخرة رغم أنوفهم !

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ: شيء منشق في ذلك اليوم لهوله.

أَن لَّن تُحْصُوهُ: لن تطيقوا ضبط وقت قيامه.

فَتَابَ عَلَيْكُمْ: بالترخيص في ترك قيامه المقدر.

فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ: فصلوا ما سهل عليكم من صلاة الليل.

القُرْآنِ : وفي الصلاة قرآن.

يَضْرِبُونَ: يسافرون للتجارة.

وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ: المفروضة.

قَرْضاً حَسَناً: احتساباً بطيبة نفس.

إن كل ما هو مفروض من الأعمال والتكاليف الدينية قد تم تحديده بحسب استطاعة الإنسان العادي ، غير أن هذه الفرائض والواجبات إنما تدل فقط على النصاب اللازم أوْ القدر الضروري الذي لابد من أدائه لكل إنسان يقر بعبوديته لله ويرجو رحمته ويخشى عذابه، فإن الأعمال المطلوبة منا لا تنتهي عند هذا الحد، بل تتجاوزه إلى أبعد من ذلك بكثير، ولكنها نافلةً، يأتي بها العبد طوعاً من غير إيجاب عليه، كصلاة التهجّد فوق الصلوات الخمس المفروضة، أوْ صدقة التطوع فوق الزكاة الواجبة مثلاً ، وهنا مجال التنافس والمسابقة بين أرباب الطموح والعزائم من الرجال ، فبقدر ما يُكثر المرء من النوافل والطاعات، يزداد نصيبه من ثواب الآخرة وترتفع منزلته عند الله - سبحانه وتعالى !

سورة المدثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾

الْمُدَّثِّرُ: المتغشى بثيابه (النبي ﷺ).

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ: اخصص ربك بالتكبير والتعظيم.

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ: كناية عن تطهير النفس من المذام.

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ: اهجر المآثم الموجبة للعذاب.

وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ: لا تعط طالبا الكثير عوضا عنه.

إن العمل النبوي الأصيل في هذه الدنيا هو الإنذار ، أي إعلام الناس بخطورة القضية التي تواجههم في الآخرة، ولا يستطيع القيام بهذا العمل على الوجه المطلوب إلا الذي يملأ قلبَه دائماً الشعور بكبرياء الله وجلاله،والذي يتحلى بحسن الأخلاق ونبالة السلوك،والذي يكون بعيداً عن السوء بكل أنواعه وأشكاله ، والذي يعمل الخير ويسدي المعروف إلى غيره غير متطلع إلى عوضٍ أوْ مكافأةٍ ما ، والذي يتمكن من الصبر على إساءات الآخرين وتحمل أذاهم من طرفٍ واحدٍ !

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦

سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾

نُقِرَ فِي النَّاقُورِ: نفخ في الصور للبعث والنشور.

ذَرْنِي: دعني وخلني (تهديد ووعيد) .

مَالاً مَّمْدوداً: كثيرا دائماً غير منقطع عنه.

وَبَنِينَ شُهُوداً: حضوراً معه ، لا يفارقونه للتكسب لغناهم عنه.

وَمَهَّدتُّ لَهُ: بسطت له النعمة والرياسة والجاه.

كَلاَّ: كلمة ردع وزجر عن المطمع الفارغ.

لآيَاتِنَا عَنِيداً: معانداً جاحداً أو مجانبا للحق.

سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً: سأكلفه عذابا شاقا لا يطاق.

إن مَن يجد نفسه بحيث يتوافر لديه مال وثروة طائلة ، هذا إلى جند من الأعوان والأنصار يلتفون حوله، تتولد في داخله ثقة كاذبة ؛ مما يجعله يقول : سأكون في الآخرة أيضاً من حسن الحال واستقامة الأمور حيث أنا في حياتي الراهنة ، ولكن حين يأتي يوم القيامة ينقلب الوضع كله رأساً على عقبٍ ، فالذي كان يرى أسباب الرفاهية وصنوف التسهيلات تحيط به من كل جانبٍ، إذا به يجد نفسه يوم القيامة متورطاً في مآزق حرجة لا يمكن اجتيازها!!

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾

وَقَدَّرَ: هيأ في نفسه قولاً طاعناً في القرآن والرسول ﷺ.

فَقُتِلَ: لعن وعذب أو قُبِّحَ.

نَظَرَ: تأمل فيما قدر وهيأ من الطعن.

عَبَسَ: قطب وجهه لما ضاقت عليه الحيل.

وَبَسَرَ: اشتد في العبوس وكلوح الوجه.

سِحْرٌ: يروى ويتعلم من السحرة.

إن أكبر عائقٍ عن تلقى دعوة الحق بالقبول هو الاستكبار ، فالذين يحتلون مقام الزعامة والكبرياء في مجتمعهم، يرفضون الاعتراف بالحق، لما يخيل إليهم أن الاعتراف به سيقضى على زعامتهم وكبريائهم ، وهم يمعنون في الإجرام، إذْ يأخذون في تعييب كلام الداعي والطعن فيه، تبريراً لعدم اعترافهم بصدقه ، وإذْ يحاولون الحط من قدر الداعي وتلويث كرامته من خلال إشاعة التهم والدعايات الكاذبة ضده بين الجماهير .

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ
(٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا
فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا
يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ
مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ
جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) ﴾

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ: سأدخله جهنم.

لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ: مسودة للجلود محرقة لها.

فِتْنَةً: سبب فتنة وضلال.

وَمَا هِيَ: وما سقر.

إن أحوال جهنم وأهوالها التي وصفها القرآن الكريم تتعلق بالعالم غير المرئي لنا تماماً، وقيام التسعة عشر من الملائكة حراساً على جهنم، هو الآخر حقيقة من هذا القبيل .. فلو انشغل المرء في التنقير أوْ اتخذ من هذه الأشياء الغيبية موضوع الجدل والمماحكة، فإنها ستزيده حيرةً وارتياباً، أما لو سار المرء على نهج الإيمان المجمل بما كشفه الله من حقائق الغيب، لازداد خوفه وحذره من الآخرة.

﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ: ولى وذهب (قسم).

وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ: أضاء وانكشف (قسم).

إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ: لإحدى الدواهي العظيمة (جواب القسم).

أَن يَتَقَدَّمَ: إلى الخير والطاعة.

بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ: مرهونة عنده تعالى بعلمه.

مَا سَلَكَكُمْ: أي شيء أدخلكم.

وَكُنَّا نَخُوضُ: نشرع في الباطل ولا نبالي.

بِيَوْمِ الدِّينِ: بيوم البعث والحساب والجزاء

إن هذا الكون يسوده نظام الحركة والدوران ، وإليه يرجع تعاقب الليل والنهار على سطح الأرض، وما يعتري القمر من أحوال شتى على مدار الشهر ، وكأن نظام الحركة والتغيير هذا يتضمن إشارة إلى أن عالم الدنيا الحالي سيظل يتغير هكذا ما شاء الله أن يتغير وينتقل من حال إلى حالٍ، ليحل محله في النهاية عالم الآخرة، والذين يتأملون في هذا النظام الكوني سيودّون أن يستفيدوا من " نهارهم " قبل أن يغشاهم " الليل " بظلامه، وسيفرون من الأعمال الجهنمية إلى الاشتغال بالأعمال المؤدية إلى الجنة .

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾

حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ: حمر وحشية شديدة النفار.

قَسْوَرَةٍ: أسد. أو الرماة القنص.

أَهْلُ التَّقْوَى: أهل أن يتقيه عباده .

إن الموعظة، مهما كانت بليغة مؤيَّدةً بالأدلة والبراهين، لا تكاد تؤثر في نفس السامع إلا إذا هو وقف منها موقف الجد، ولو لم يكن السامع جاداً، فإن أبلغ المواعظ وأقواها تأثيراً لن تتمكن من تحريك ساكنه أوْ النفاذ إلى قلبه، وإن الدليل الذي يُلهب فؤاد إنسان جادٍ ويملك عليه مشاعره كلها، سوف لا يزيد غير الجاد إلا رغبةً في إثارة الجدل العقيم والخوض فيما لا طائل تحته !!

سورة القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝ ﴾

لا أُقْسِمُ: أقسم و"لا" مزيدة.

بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ: كثيرة اللوم والندم على ما فات .

بَلَى: نجمعها بعد التفرق والبلى.

نُسَوِّيَ بَنَانَهُ: أطراف أصابعه فنرد عظامها كما كانت على صغرها بقدرتنا فكيف بكبارها.

لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ: ليدوم على فجوره مدة عمره.

بَرِقَ الْبَصَرُ: دهش وتحير فزعا مما أري.

وَخَسَفَ الْقَمَرُ: ذهب ضوؤه.

جُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ: في الطلوع من المغرب مظلمين.

أَيْنَ الْمَفَرُّ: المهرب من العذاب أو الهول.

لَا وَزَرَ: لا ملجأ ولا منجى له من الله.

وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ: لو جاء بكل عذر لم ينفعه.

إن الإنسان مفطور على الشعور بالخير والشر والتمييز بين الحسن والقبيح ، وهو يريد، بحكم فطرته، أن يلقى المسيء عقوبة إساءته ويلقى المحسن جزاء إحسانه بالضرورة ، وهذا الشعور هو الذي أطلق عليه القرآن هنا تسمية " النفس اللوامة " . إن هذه النفس اللوامة تمثل شهادة نفسية على كون عالم الآخرة حقيقة واقعةً ، والذي يتقاعس، بعد هذه الشهادة الداخلية، عن الوفاء بمقتضياتها اللازمة، فكأنما هو ينكر حقيقة كامنة في فطرته ذاتها!!

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾

جَمْعَهُ: في صدرك وحفظك إياه.

وَقُرْآنَهُ: أن تقرأه بلسانك متى شئت.

قَرَأْنَاهُ: أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل.

بَيَانَهُ: تفسير ما أشكل من معانيه.

كان رسول الله ﷺ إذا ما نزل عليه الوحي أسرع في تلقيه، فنهاه الله سبحانه عن ذلك، كما أمره في هذا السياق أيضاً بأنه ينبغي لك أن تركز اهتمامك كله على الجزء الذي تم نزوله من القرآن والذي أصبحت أنت مخاطباً به بالفعل، بدلاً من التطلع إلى بقية أجزاء القرآن التي لم تنزل عليك بعد، ولم يتوجه خطابها إليك فعلاً ! ومن هذا نعلم أن

المطلوب من الفرد المؤمن أن يوجه كل عنايته نحو الجزء الذي هو مكلف به من القرآن في وقتٍ معينٍ، دون الاندفاع في ذلك الوقت وراء ما لم يكلف به بعد، إما لانعدام شروطه أوْ لكونه لم يأت أوانه بعد، فإن ذلك من " العجلة " التي تتنافى مع الحكمة القرآنية كلياً !!

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾

نَّاضِرَةٌ: حسنة مشرقة متهللة.

بَاسِرَةٌ: شديدة الكلوحة والعبوس .

فَاقِرَةٌ: داهية عظيمة تقصم فقار الظهر.

بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ: وصلت الروح لأعالي الصدر.

مَنْ رَاقٍ: من يداويه: وينجيه من الموت

وَالْتَفَّتِ: التوت. أو التصقت.

المَسَاقُ: سوق العباد للجزاء.

الغفلة عن الآخرة ترجع دوماً إلى سبب واحدٍ ليس غير ، ألا وهو حب العاجلة . أي رغبة المرء في الحصول على ثمرة عمله فوراً بدون تأخير ، وبما أن العمل لأجل الآخرة لا يُثمر إلا آجلاً، لا يعيرها المرء أي اهتمام ، وأما الدنيا فهو يلهث وراءها لأنه يجني ثمار عمله وسعيه لها في الحال .

والناس يشاهدون أن الإنسان - أي إنسانٍ - يعتريه الموت في نهاية المطاف حتماً، وبالتالي يهدم الموت صرح أمجاده ويحيل كل نجاحاته أثراً بعد عينٍ ، ولكن ليس ثمة أحدٍ يعتبر بهذا المشهد الواقع المتكرر تحت سمعه وبصره كل حين وآنٍ، وهو يظل كذلك - إلى أن يقترب هو نفسه من موته فينتزع منه الفرصة لتلقى الدرس والاعتبار !

﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

يَتَمَطَّى: يتبختر في مشيته اختيالاً.

أَوْلَى لَكَ: قاربك ما يهلكك.

يُتْرَكَ سُدًى: مهملا فلا يكلف ولا يجازى.

مَّنِيٍّ يُمْنَى: يصب في الرحم.

فَسَوَّى: فعدله وكمّله ونفخ فيه الروح.

إنَّ الإنسان يدخل إلى بطن أمه في البداية ، وهو نطفة صغيرة من ماء مهينٍ، ثم يأخذ شكل علقةٍ (وهي دودة مائية تمتص الدم)، ثم يمر بمراحل أخرى من النمو والتطور؛ تتكون خلالها أعضاؤه وأجهزته المختلفة وتتشكل صورته بتخطيطها وملامحها الدقيقة، حتى يصير آخر الأمر جنيناً معتدلاً، منسقةً أعضاؤه أروع تنسيقٍ، فيخرج إلى النور ذكراً أوْ أنثى ، وكل هذه التغيرات المدهشة تتم على مدى الرحلة الجنينية الطويلة دون تدخلٍ أوْ محاولةٍ من الإنسان، إذنْ، أفليست يد القدرة الإلهية الخلاقة المبدعة التي

تحدث هذه العجائب كل يومٍ، بقادرةٍ على تكوين عالمٍ آخر جديدٍ بعد فناء العالم الحالي؟! والحقيقة هي أن الشيء الذي يحول بين الناس وبين اعترافهم بالحق إنما هو أنانيتهم، وليس قلة أوْ عدم توافر الدلائل والقرائن المؤيدة للحق !

سورة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝ ﴾

أَمْشَاجٍ: أخلاط ممتزجة متباينة الصفات.

نَّبْتَلِيهِ: مبتلين له بالتكاليف فيما بعد.

هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ: بينا له طريق الهداية والضلال.

نزل القرآن الكريم في القرن السابع الميلادي، وعندئذٍ لم يكن هناك من أحدٍ في العالم أجمع يدري أن جنين الإنسان (أوْ الحيوان) يتولد في رحم المرأة ابتداءً من نطفةٍ أمشاجٍ أي مختلطةٍ، ولم تعرف البشرية، رغم تقدمها العلمي المدهش في ميادين المعرفة، إلا في أوائل القرن العشرين، أن الخلية الأولية للجنين الإنساني تنشأ عن التمازج بين عنصرين : أحدهما بويضة المرأة (ovum) وثانيهما حُوَيْمن الرجل أوْ الحيوان المنوي (sperm)، فحينما يلتقي هذان الجزيئان المجهريان (الميكروسكوبيان) أحدهما بالآخر ويتحدان، يبدأ داخل رحم المرأة تكّون ذلك الشيء الذي يتحول، بعد المرور بأطوارٍ مختلفة متباينةٍ، إلى إنسانٍ، وإن ورود لفظ " النطفة الأمشاج " - أي المختلطة - في القرآن الكريم للدلالة على بداية نشأة الإنسان الجنينية قبل أكثر من ألفٍ وأربعمائة عامٍ، برهان ناطق بأن القرآن كتاب الله .

والقرآن حافل بأمثلةٍ من هذا النوع كثيرةٍ، وهي تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن

القرآن منزل من عند الله العليم الخبير، وإذا ثبت كون القرآن كتاب الله بصورة قطعية، فإن كل ما ورد فيه يعد صحيحاً بالضرورة لوروده في هذا الكتاب الإلهي !!

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن
كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾
يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ
مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا
﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ
نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ
لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا
﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ
قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

سَلاسِلَ: بها يقادون وفي النار يسحبون.

وَأَغْلالاً: بها تجمع أيديهم إلى أعناقهم ويقيدون.

كَأْسٍ: خمر أو زجاجة فيها خمر.

مِزَاجُهَا: ما تمزج الكأس به وتخلط.

كَافُوراً: ماء كالكافور في أحسن أوصافه.

عَيْناً: ماء عين أو خمر عين.

يَشْرَبُ: يشرب منها. أو يرتوي بها.

يُفَجِّرُونَهَا: يجرونها حيث شاؤوا من منازلهم.

مُسْتَطِيراً: فاشيا منتشراً غاية الأنتشار.

يَوْماً عَبُوساً: تكلح فيه الوجوه لهوله.

قَمْطَرِيراً: شديد العبوس.

وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً: اعطاهم حسنا وبهجة في الوجوه.

الأَرَائِكِ: السرر في الحجال (١).

زَمْهَرِيراً: برداً شديداً. أو قمراً.

وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا: قريبة منهم ظلال أشجارها.

وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا: قربت ثمارها لمتناولها.

وَأَكْوَابٍ: أقداح بلا عرى ولا خراطيم.

قَوَارِيرَ: كالزجاجات في الصفاء.

قَدَّرُوهَا: جعلواها شرابها على قدر الري.

كَأْساً: خمراً أو زجاجة فيها خمر .

خلق الله الإنسان مزوداً بالحرية وبشتى وسائل المعرفة والإدراك . ثم كشف له عن طريق الشكر وطريق الكفران ، ثم تركه ليختار بنفسه أي الطريقين شاء في حياته المحدودة على وجه الأرض ، فإن اختار طريق الكفران صار في الآخرة إلى عذاب السعير، وإن اختار طريق الشكر فاز هناك بالجنة وما فيها من نعيم مقيم .

(١) جمع حجلة محركة – بيت يزين بالثياب والأسرة والستور.

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً (١٨) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢) ﴾

مِزَاجُهَا: ما تمزج به وتخلط.

زَنجَبِيلاً: ماء كالزنجبيل في أحسن أوصافه.

تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً: يوصف شرابها بالسلاسة في الانسياغ.

وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ: مبقون على هيئة الولدان في البهاء.

لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً: كاللؤلؤ المفرق في الحسن والصفاء.

ثِيَابُ سُندُسٍ: ثياب من ديباج رقيق.

وَإِسْتَبْرَقٌ: ديباج غليظ.

هذا وصف الجنة العليا، حيث يسكن أولئك الذين أقاموا الدليل على أرفع مستويات الإيمان، وصنوف النعيم والمتاع والكرامة المتاحة لأهل هذه الجنة ستكون من الطراز الملوكي الفخم !!

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلاً (٢٣) فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢٦) إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً (٢٧) نَّحْنُ خَلَقْنَـٰهُمْ

وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ
إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ
مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾

بُكْرَةً وَأَصِيلاً: أول النهار وآخره. أو دائماً.

يَوْماً ثَقِيلاً: شديد الأهوال (يوم القيامة).

وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ: أحكمنا خلقهم.

يأبى الإنسان قبول دعوة الحق لأحد سببين لا ثالث لهما : فإما أن تكون أمامه مصلحة من مصالح دنياه يقف حرصه عليها، أوْ خوف الحرمان منها بمثابة حجر عثرة دون تقدمه نحو الحق، أوْ يكون مصاباً بنفسية الكبر والغرور، مما يحول بينه وبين التسليم بأية عظمة أوْ كبرياء خارج ذاته ، وكلا هذين الصنفين من الناس يزرعون في طريق دعوة الحق شتى العقبات والعراقيل، ولكن الداعي إلى الحق مأمور بأن يواصل مسيرته صابراً على أذاهم غير مبالٍ بما يبيتون لإحراجه أوْ النيل منه، فإن الله يكفيه شرهم .

سورة المرسلات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ ﴾

وَالْـمُرْسَلاتِ عُرْفاً: (أقسم الله) برياح العذاب متتابعة كعرف الفرس.

فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً: الرياح الشديدة الهبوب المهلكة.

وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً: كاللؤلؤ المفرق في الحسن والصفاء.

اَلْفَارِقَاتِ فَرْقاً: الملائكة تنشر أجنحتها في الجو عند النزول بالوحي.

فَالْـمُلْقِيَاتِ ذِكْراً: الملائكة تأتي بالوحي فرقانا بين الحق والباطل.

عُذْراً: للإعذار من الله للخلق.

نُذْراً: للإنذار والتخويف بالعقاب.

تتصاعد البخارات من البحر وتتجه نحو أعالي الفضاء؛ لتتحول سحاباً تزجيه الرياح من جهة إلى أخرى ، وبينما تقف الرياح أثناء سيرها بالسحاب فوق بعض المناطق ليتساقط عليها مطر يعيد إليها خضرتها ونضارتها من جديدٍ، تمر به من فوق منطقة أخرى مراً سريعاً تاركة إياها وراءها مجدبة كما هي بدون إمطارٍ ، وهذا يوضح لنا أن نظام هذا الكون يسير على مبدأ التفريق بين بعضه وبعضٍ ، ولقد ظهر هذا المبدأ في عالمنا الراهن بصورة جزئيةٍ، وهو سيظهر في عالم الآخرة في أتم صوره وأكملها .

وطبيعة الرياح الفارقة هذه تحمل نذيراً للإنسان، ففي صيرورتها رحمةً ببعضهم

ونقمةً بالنسبة لبعضهم الآخر وفي ذلك تذكير بحقيقة أنه إذا كان هناك نوعان من البشر مختلفان في هذا العالم، فإن قضاء الله فيهما لن يكون متشابهاً أبداً، كما أن طبيعة الرياح هذه إعذار من الله أيضاً لعباده، حيث لا يبقى لأحدٍ منهم بعدها حجة أوْ معذرة عند الله - عز وجل !!

﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

النُّجُومُ طُمِسَتْ: محُِيَ نورها وأذهب ضوؤها.

السَّمَاءُ فُرِجَتْ: شقت، أو فتحت فكانت أبواباً.

الجِبَالُ نُسِفَتْ: قلعت من أماكنها بسرعة.

أُقِّتَتْ: بلغت ميقاتها (يوم القيامة) .

لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ: يقال لأي يوم أخرت.

لِيَوْمِ الفَصْلِ: بين الخلائق أو الحق والباطل.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ: هلاك في هذا اليوم الهائل.

إذا جاء يوم القيامة تحطم نظام العالم الحالي وانقلبت موازينه وقيمه رأساً على عقبٍ، والذين يعدون أنفسهم اليوم أقوياء شديدي البأس، وبالتالي يرفضون دعوة الحق اغتراراً بما عندهم من وسائل القوة، سيصير حالهم يومئذٍ أضعف الناس قوةً وأشدهم عجزاً!!

﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾
فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا
﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

مَّاءٍ مَّهِينٍ: مني ضعيف حقير.

قَرَارٍ مَّكِينٍ: متمكن ، وهو الرحم.

فَقَدَرْنَا : فقدرنا ذلك تقديراً.

الأَرْضَ كِفَاتاً: وعاءً تضم الأحياء على ظهرها.

أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً: والأموات في باطنها.

رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ: جبالاً ثوابت مرتفعات.

مَّاءً فُرَاتاً: حلوا عذباً.

لقد بُني العالم الراهن بحيث يستطيع المتأمل فيه أن يرى الآخرة في مرآته ، وعلى الرغم من ذلك فإن بعضهم لا يزال يكذب بها، ومن يكذب بالحق هو من غير شك أعظم الناس جرماً على الإطلاق !

﴿ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾
لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ
﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ
﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ

لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

ظِلٍّ: هو دخان جهنم.

ثَلاثِ شُعَبٍ: فرق ثلاث كالذوائب.

لاَ ظَلِيلٍ: لا مظلِّلٍ من الحر.

وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ: لا يدفع شيئا من حره.

تَرْمِي بِشَرَرٍ: هو ما تطاير من النار متفرقاً.

كَالْقَصْرِ: كل شررة كالبناء المشيد في العظم والارتفاع.

كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ: كأن الشرر إبل سود و"وتسميها العرب صفراء " في الكثرة والتتابع وسرعة الحركة واللون.

لَكُمْ كَيْدٌ: حيلة لاتقاء العذاب.

إن الإنسان حين يُواجَه بأهوال الآخرة، سيجد نفسه إزاءها عاجزاً كل العجز، وستَخرس يومئذٍ ألسنة أولئك الثرثارين الذين كانوا يتكلمون في الحياة الدنيا كما لو أن ثروة ألفاظهم لن تنفد أبداً !!

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

إن نعم الله في هذه الدنيا إنما وُضعت لفترةٍ محدودة لحكمة الامتحان والابتلاء ، أما نعم الله في الآخرة فإنها ستظهر في أكمل صورة وأدومها لتبقى أبد الدهر ، واليوم ينال كل أحدٍ من هذه النعم نصيباً قل أوْ كثر ، ولكن نعم الآخرة الأبدية لن تقع إلا في نصيب أولئك الذين أطاعوا الله حين عصاه غيرهم، والذين خضعوا له تعالى حين أبى الآخرون الخضوع له ، إن الذين " يركعون " استجابة للقول، أولئك لهم الجنة ، وأما الذين " يركعون " بعد أن رأوا " الويل " رأي العين فمصيرهم إلى جهنم !!

سورة النبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾
وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا
ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا
مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾

عَمَّ: عن أي شيء عظيم الشأن.

عَنِ النَّبَأِ العَظِيمِ: عن القرآن أو البعث.

كَلاَّ: ردع وزجر عن الاختلاف فيه.

الأَرْضَ مِهَاداً: فراشا موطأ للاستقرار عليها.

وَالجِبَالَ أَوْتَاداً: كالأوتاد للأرض لئلا تميد.

وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً: أصنافاً ذكوراً وإناثاً للتناسل.

نَوْمَكُمْ سُبَاتاً: قطعاً لأعمالكم وراحة لأبدانكم .

اللَّيْلَ لِبَاساً: ساتراً لكم بظلمته كاللباس.

النَّهَارَ مَعَاشاً: تحصلون فيه ما تعيشون به.

سَبْعاً شِدَاداً: سموات قويات محكمات.

سِرَاجاً وَهَّاجاً: مصباحاً منيراً وقاداً (الشمس) .

الْمُعْصِرَاتِ: السحائب التي حان لها أن تمطر.

مَاءً ثَجَّاجاً: منصبا بكثرة مع التتابع.

وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً: بساتين ملتفة الأشجار.

إن العرب لم يكونوا منكرين للآخرة أصلاً، وإنما كانوا ينكرون وقوعها على النحو الذي وصفه القرآن الكريم، أي أنهم كانوا في شكٍ من أن عدم إيمانهم بـ" محمدٍ "، وهو لا يعدو أن يكون بشراً مثلهم، سيؤدي بهم إلى الخزي والهوان الأبديَيْن في عالم الآخرة !!

إن الوقائع الطبيعية التي توجد في عالمنا الراهن تشير إلى حتمية اليوم الآخر ، إن حاضر العالم الراهن يقتضي أن يكون مستقبله مطابقاً له ، وإذا نحن تأملنا، من وجهة النظر هذه، وجدنا أنفسنا مضطرين إلى الاعتراف بأن هذه البداية العظيمة ستعقبها نهاية عظيمة حتماً. وأن هذا العالم لن ينتهي عبثاً !

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾
وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ
كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا
وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ
حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟
فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾

فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً: أمما أو جماعات مختلفة الأحوال.

فَكَانَتْ أَبْوَاباً: صارت ذات أبواب.

فَكَانَتْ سَرَاباً: كالسراب الذي لا حقيقة له.

كَانَتْ مِرْصَاداً: موضع ترصد وترقب للكافرين.

لِلطَّاغِينَ مَآباً: مرجعاً ومأوى لهم.

أَحْقَاباً: دهوراً متتابعة لا نهاية لها.

بَرْداً: نوما أو روحا من حر النار.

حَمِيماً: ماء بالغا نهاية الحرارة.

وَغَسَّاقاً: صديداً يسيل من جلودهم.

جَزَاءً: وِفَاقاً: جزيناهم جزاء موافقاً لأعمالهم.

كِذَّاباً: تكذيبا شديداً.

أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً: حفظناه وضبطناه مكتوبا.

يجد الإنسان في ممارسة الطغيان في هذه الحياة لذة كبيرة ، حيث إنه يغذي كبرياءه ويُرضي أنانيته ، بيْد أن الوضع سينقلب رأساً على عقبٍ حين يظهر طغيانه بشكله الحقيقي في عالم الآخرة، فالشيء الذي كان مثار اللذة والمتعة لدى الإنسان في الحياة الدنيا، سيفاجأ به هناك ، وقد تحول إلى عذابٍ فظيع يحيط به من كل جانبٍ !!

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا
﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

مَفَازاً: فوزاً وظفرًا بكل محبوب.

وَكَوَاعِبَ: فتيات ناهدات (نساء الجنة) .

أَتْرَاباً: مستويات في السن.

وَكَأْساً دِهَاقاً: مترعة مليئة من خمر الجنة.

لَغْواً: كلاما غير معتد به. أو قبيحا.

كِذَّاباً: تكذيباً.

عَطَاءً حِسَاباً: إحسانا كافيا أو كثيراً.

خِطَاباً: إلا بإذنه.

الرُّوحُ: جبريل عليه السلام .

مَآباً: مرجعا بالإيمان والطاعة.

كُنتُ تُرَاباً: في هذا اليوم فلا أعذب

إن بيئة الجنة ستكون خلواً من كل ألوان اللغو والأكاذيب،ومن ثم فلن يُختار لسكنى الجنة - وهي عالم النظافة والسمو والجمال في أكمل صورها المادية والمعنوية- إلا ذوو الأذواق الرفيعة وحدهم؛ أولئك الذين أقاموا الدليل في حياتهم الراهنة على أنهم مؤهلون للعيش بعيداً عن اللغو والفضول والأكاذيب .

سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾

وَالنَّازِعَاتِ: (أقسم) الله بالملائكة تنزع أرواح الكفار من أقاصي أجسامهم.

غَرْقاً: نزعاً شديداً مؤلما بالغ الغاية.

وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً: الملائكة تسل أرواح المؤمنين برفق.

وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً: الملائكة تنزل مسرعة لما أمرت به.

فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً: الملائكة تستبق بالأرواح إلى مستقرها ناراً أو جنة.

فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً: الملائكة تنزل بالتدبير المأمور به.

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ: لتبعثن (جواب القسم) يوم تضطرب الأجرام بالصيحة الهائلة (نفخة الموت) .

تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ: نفخة البعث التي تردف الأولى.

وَاجِفَةٌ: مضطربة أو خائفة وجلة.

أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ: ذليلة منكسرة من الفزع.

فِي الْحَافِرَةِ: إلى الحالة الأولى (الحياة).

كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً: بالية مفتتة.

كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ: رجعة غابنة.

زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ: صيحة واحدة (نفخة البعث) .

هُم بِالسَّاهِرَةِ: هم أحياء على وجه الأرض.

نرى الدنيا كل عامٍ من حولنا ساكنة هادئة ، ثم لا نلبث طويلاً حتى تهب الرياح الشديدة التي تزجى السحب الثقال فينزل منها مطر غزير ، وما هو إلا قليل حتى يفاجأ الناس بقيام عالم جديدٍ بهيجٍ حيث لم يكن بالأمس سوى أرضٍ يابسة جرداء ، إن واقعة الطبيعة هذه تدلنا على إمكان الآخرة ، إنها تشهد، بلغةٍ رمزيةٍ، أن انبثاق العالم الآخر من العالم الحالي ممكن تماماً كانبثاق الحقول الناضرة الخضراء من باطن الأراضي الخالية الجرداء !!

﴿ هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَنهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَنهُ ٱلْأَيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأَخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾

طُوًى: اسم الوادي المقدس.

طَغَى: عتا وتجبر وكفر بالله تعالى.

تَزَكَّى: تطهر من الكفر والطغيان.

الآيَةَ الكُبْرَى: معجزة العصا واليد البيضاء .

يَسْعَى: يجد في الإفساد والمعارضة.

فَحَشَرَ: جمع السحرة أو الجند.

نَكَالَ: عقوبة. أو بعقوبة.

إن حياة فرعون وأمثاله من المنكرين دليل على أن مَن ينكر الحق يلقى عقوبته حتماً، وفي هذه الأمثلة التاريخية ما يكفى درساً وعظةً للإنسان ، غير أن أي عظة ما لا يعتبر بها إلا الذي يحمل نفسية الحذر والخوف ، والذي ينظر نحو عملٍ ما من حيث نهايته وليس من حيث بدايته وحدها !!

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾

رَفَعَ سَمْكَهَا: جعل ثخنها مرتفعا جهة العلو.

فَسَوَّاهَا: فجعلها مستوية الخلق بلا عيب.

وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا: أظلمه.

وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا: أبرز نهارها المضيء بالشمس.

دَحَاهَا: بسطها وأوسعها لسكنى أهلها.

وَمَرْعَاهَا: أقوات الناس والدواب.

وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا: أثبتها في الأرض كالأوتاد.

إن وجود هذا الكون الممتد أمام أعيننا إلى غير نهاية، واقعة عظيمة لدرجة أن كل واقعة أخرى إزاءها تعود أصغر وأهون ، فالعالم الذي أمكن فيه ظهور الواقعة العظيمة، لِمَ لا يمكن فيه ظهور الواقعة الأصغر منها بكثير ؟!

فقول القرآن إذن، بأن الإنسان سيُبعث من جديد، خبر لا غرابة فيه، إذْ يتوفر من حولنا بصورة مسبقةٍ أسباب لا حصر لها تجعله في متناول كل الأفهام !

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾

الطَّامَّةُ الكُبْرَى: الداهية العظمى (القيامة) .

وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ: أظهرت إظهارا بيناً.

هِيَ المَأْوَى: هي المرجع والمقام له لا غيرها.

أَيَّانَ مُرْسَاهَا: متى يقيمها الله ويثبتها ؟

يجد المرء نفسه هنا بين شيئين : أحدهما : هذه الدنيا الماثلة أمام ناظريه ، وثانيهما : عالم الآخرة المستتر وراء الغيب ، وامتحان المرء الحقيقي هو أن يؤثر الآخرة على الدنيا الحاضرة ، غير أن هذا لا يقدر عليه سوى أولئك الذين يملكون الشجاعة الكافية لضبط النفس والحيلولة دون انسياقها وراء الأهواء والشهوات .

سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ
فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ
﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ
﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾
كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾ ﴾

عَبَسَ: قطب وجهه الشريف ﷺ.

وَتَوَلَّى: أعرض بوجهه الشريف ﷺ.

لَعَلَّهُ يَزَّكَّى: يتطهر بتعليمك من دنس الجهل.

يَذَّكَّرُ: يتعظ.

لَهُ تَصَدَّى: تتعرض له بالإقبال عليه.

جَاءَكَ يَسْعَى: وصل إليك مسرعا ليتعلم.

عَنْهُ تَلَهَّى: تتلهى – تتشاغل وتعرض.

كَلاَّ: حقا أو إرشاد، بليغ لترك المعاودة.

إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ: إن آيات القرآن موعظة وتذكير.

فِي صُحُفٍ: منتسخة منه اللوح المحفوظ.

مَرْفُوعَةٍ: رفيعة القدر والمنزلة عنده تعالى.

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ: ملائكة ينسخونها من اللوح المحفوظ.

بَرَرَةٍ: مطيعين له تعالى أو صادقين.

كان النبي ﷺ ذات يوم مشغولاً بالحديث إلى سادة قريش يعرض عليهم دعوة الإسلام، رجاء أن يستجيبوا له؛ إذْ جاءه الصحابي الأعمى عبد الله بن أم مكتوم، فقال : " يا رسول الله،علمني مما علمك الله " وكرر ذلك،فأعرض عنه رسول الله كارهاً مجيئه في تلك الساعة وقطْعه لكلامه ، فنزلت هذه الآيات بما فيها من عتاب الرسول على إعراضه عن الأعمى القادم راغباً في العلم والهداية .

وهذه الآيات ، وإن كان سبب نزولها حادثاً فردياً عابراً، وخطابها موجه أساساً إلى رسول الله - ﷺ- إلا أنها جاءت تهدف إلى تقرير حقيقة من الحقائق الدينية المطلقة، وهي أن الله - عز وجل - لا قيمة عنده لأولئك السادة والكبراء الذين هم بعيدون عن الدين، وإنما القيمة عند الله تعالى لمن يحمل بين جنبَيْه روحاً ملؤها الخشية والخشوع، حتى ولو كان رجلاً أعمى !!

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ
﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا
يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ
شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾
وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

قُتِلَ الإِنسَانُ: لعن الكافر. أو عُذب .

فَقَدَّرَهُۥ: أطوارًا أو هيأه لما يصلح له.

السَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ: سهل له طريقي الهدى والضلال.

فَأَقْبَرَهُۥ: أمر بدفنه في قبر تكرمة له.

أَنشَرَهُۥ: أحياه بعد موته.

لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُۥ: لم يفعل ما أمره الله به بل قصر.

شَقَقْنَا الأَرْضَ: بالنبات أو بالحرث.

وَقَضْباً: علفاً رطبا للدواب كالبرسيم.

وَحَدَائِقَ غُلْباً: بساتين عظاماً متكاثفة الأشجار.

وَأَبّاً: كلأ وعشباً. أو هو التبن خاصة.

الدافع الأصلي الكامن وراء العبادة المطلوبة من الإنسان هو الشكر والعرفان بالجميل، ولو فكر الإنسان في كيفية خلقه، وفيما حوله من الأسباب والتدابير الطبيعية اللازمة لحياته، لتولدت في داخله عاطفة الشكر والامتنان لربه، والسلوك الذي ينبثق من عاطفة الشكر والامتنان هذه هو ما يسمى العبادة والعبودية لله رب العالمين.

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾
وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ
﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾

جَاءَتِ الصَّاخَّةُ: الصيحة تصم الآذان لشدتها (النفخة الثانية).

مُسْفِرَةٌ: مشرقة مضيئة (وجوه المؤمنين) .

غَبَرَةٌ: غبار وكدورة (وجوه الكافرين) .

تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ: تغشاها ظلمة سوداء.

إن إنكار الحق واتخاذ موقف العناد والطغيان إزاءه، هو الجريمة الكبرى على الإطلاق، ومَن يرتكبها سيعود عديم القيمة فاقداً لكل اعتبار في الآخرة ، وأما الذين يعترفون بالحق ويخضعون أنفسهم له، فهم وحدهم سيُعتبرون ذوي قيمة واعتبار في الآخرة ، وأولئك وحدهم سيفوزون بها في الآخرة من ضروب النعيم والعزة والكرامة .

سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا
ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا
ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ
نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾
عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾

الشَّمْسُ كُوِّرَتْ: أزيل ضياؤها أو لفت وطويت.

النُّجُومُ انكَدَرَتْ: تساقطت وهوت.

الجِبَالُ سُيِّرَتْ: أزيلت عن مواقعها.

العِشَارُ عُطِّلَتْ: النوق الحوامل أهملت بلا راع.

الوُحُوشُ حُشِرَتْ: جمعت من كل صوب.

البِحَارُ سُجِّرَتْ: أوقدت فصارت ناراً تضطرم.

النُّفُوسُ زُوِّجَتْ: قرنت كل نفس بشكلها.

المَوْءُودَةُ: البنت التي تدفن حية.

الصُّحُفُ نُشِرَتْ: صحف الأعمال فرقت بين أصحابها.

السَّمَاءُ كُشِطَتْ: قلعت كما يقلع السقف.

الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ: أوقدت وأضرمت للكفار.

الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ: قربت وأدنت من المتقين.

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ: ما عملت من خير أو شر (جواب إذ).

في هذه السورة، كما في غيرها من سور القرآن العديدة، تصوير رائع لما يقع من أحداث عند قيام الساعة وبعد قيامها ، وحين تقوم الساعة، يختل هذا التوازن الدقيق الذي يعم الكون كله، وسيقف الإنسان حينئذٍ حائراً مكتوف الأيدي لا يستطيع أن يفعل شيئاً لشعوره بالعجز المطلق ، وسيفقد يومئذٍ كل شيءٍ قيمته ووزنه ما عدا أعمال البر والصالحات، وسيكون من حق المظلوم هناك أن ينتقم من الظالم كيفما شاء !

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٌ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

فَلاَ أُقْسِمُ: (أقسم) و"لا" مزيدة.

بِالْخُنَّسِ: بالكواكب السيارة تخنس نهارا وتختفي عن البصر وهي فوق.

الْجَوَارِ الْكُنَّسِ: الأفق ، وتظهر ليلاً ثم تكنس وتستتر في مغيبها تحت الأفق.

وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ: أقبل ظلامه ، أو أدبر.

وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ: أقبل وأضاء وتبلج.

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ: جبريل عليه السلام (جواب القسم) .

مَكِينٍ: ذي مكانة رفيعة وشرف.

رَآهُ: رأى الرسول جبريل بصورته الخلقية.

الغَيْبِ: الوحي وخبر السماء.

بِضَنِينٍ: ببخيل فيقصر في تبليغه.

إن تعاقب الليل والنهار وانتقال النجوم من مكان إلى آخر، كما يتراءى لعيوننا نحن البشر، كلاهما يترتب على حركة الأرض حول محورها،وعلى هذا فمعنى القسم بهاتين الظاهرتين الكونيتين أن نظام الدورة المحورية للأرض شاهد بأن محمداً رسول الله، وأن القرآن كلام الله الذي أنزل عليه بواسطة الملك .

ودوران الأرض حول محورها ظاهرة فذة وعظيمة للغاية ، وإنها بمثابة نموذج كوني يجعل قضية الوحي في متناول أفهامنا ، فلو تخيّلنا الأرض ، وهي تدور حول محورها أمام الشمس في الفضاء الهائل، لبدا لنا كأن هناك نظاماً مضبوطاً للتحكم عن بعدٍ هو الذي يتحكم في ذلك بمنتهى الدقة ، وقيام الاتصال بين الله وبين أحد عباده المختارين عن طريق الملك، هو الآخرة واقعة من هذا النوع ، فالواقعة الأولى تساعدنا، في صورة التمثيل، على فهم حقيقة الواقعة الثانية .

سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ (١) وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣)
وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ
بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ (٦) ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ
(٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَٰتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ
مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ
ٱلدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ (١٦) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا
يَوْمُ ٱلدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩) ﴾

السَّماءُ انفَطَرَتْ: انشقت عند قيام الساعة.

الكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ: تساقطت متفرقة.

البِحَارُ فُجِّرَتْ: شققت جوانبها فصارت بحراً واحداً.

القُبُورُ بُعْثِرَتْ: قلب ترابها وأخرج موتاها.

مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ: ما خدعك وجرأك على عصيانه؟

فَسَوَّاكَ: جعل أعضاءك سوية سليمة.

فَعَدَلَكَ: جعلك معتدلاً متناسب الخلق.

تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ: بالبعث والجزاء أو بالإسلام.

الأَبْرَارَ: الذين بروا وصدقوا في إيمانهم.

يَصْلَوْنَهَا: يدخلونها أو يقاسون حرها.

أخبر القرآن الكريم مراراً وتكراراً بأن يوماً للدينونة أوْ الجزاء النهائي العادل قادم، يُحشر فيه الناس بأجمعهم، ليُعاقَبوا أوْ يُكافَئوا بحسب أعمالهم في الحياة الراهنة ، وهذا الخبر يتفق مع وضع عالمنا الراهن تماما الاتفاق ، حيث يجد واقع خلق الإنسان الهادف تفسيراً له في هذا الخبر، كما يمكننا في ضوء هذا الخبر أيضاً أن ندرك السر فيما يوجد في هذا الكون من نظام تسجيل دقيق لأقوال الإنسان وأعماله [1] !

(١) ولمزيد من المعلومات في هذا الموضوع يراجع فصل " دليل الآخرة " من كتاب " الإسلام يتحدى " للمؤلف .

سورة المطففين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو
وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ
لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾
كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ
بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ
عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ
لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وَيْلٌ: عذاب أو هلاك أو واد في جهنم.

لِلْمُطَفِّفِينَ: المنقصين في الكيل أو الوزن.

اكْتَالُوا: اشتروا بالكيل ، ومثله الوزن.

كَالُوَهُمْ: أعطوا غيرهم بالوزن.

وَزَنُوَهُمْ: أعطوا غيرهم بالوزن.

يُخْسِرُونَ: ينقصون الكيل والوزن.

لِرَبِّ العَالَمِينَ: لأمره وحكمه.

كِتَابَ الفُجَّارِ: ما يكتب من أعمالهم.

لَفِي سِجِّينٍ: لمثبت في ديوان الشر

كِتَابٌ مَّرْقُومٌ: بين الكتابة ، أو معلم بعلامة؟

مُعْتَدٍ: فاجر متجاوز عن نهج الحق.

أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ: أباطيلهم المسطرة في كتبهم.

كَلاَّ: ردع وزجر عن قولهم الباطل.

رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم: غلب وغطى عليها أو طبع عليها.

لَصَالُوا الجَحِيمِ: لداخلوها أو لمقاسو حرها.

كل إنسانٍ يريد أن يأخذ حقه من الآخرين وافياً كاملاً، ولكن من سمو الخُلُق الإنساني أن يدفع المرء ما يجب عليه تجاه الآخرين كاملاً غير منقوصٍ كذلك ، وأن يحب للآخرين ما يحب لنفسه، وأما الذين يستوفون إذا أخذوا، ويبخسون إذا أعطوا، فإنهم سيدخلون عالم الآخرة وما ينتظرهم هناك سوى الدمار والخسران ، والآخذ لنفسه وافياً، كأنما يؤكد بعمله ذاك على وجوب استيفاء الإنسان حقه،وفي هذه الحالة، فهو إذْ يعطي غيره ناقصاً، فإنما يقلّل من حساسيته تجاه الحق الواجب عليه للآخرين،ومن يفعل ذلك عن عمدٍ مرةً بعد أخرى ويصر عليه، يصل به الأمر في نهاية المطاف إلى أن تنعدم حساسيته تماماً فيما يتعلق بحقوق غيره، ويغلب على قلبه صدأ أعماله بحيث تنطمس بصيرته فلا يعود يعرف الرشد من الغي .

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ
﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ
فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى

ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

كِتَابَ الأَبْرَارِ: ما يكتب من أعمالهم.

لَفِي عِلِّيِّينَ: لمثبت في ديوان الخير.

الأَرَائِكِ: الأسرة .

نَضْرَةَ النَّعِيمِ: بهجته ورونقه وبهاءه.

رَحِيقٍ: أجود الخمر وأصفاه.

مَّخْتُومٍ: إناؤه حتى يفكه الأبرار.

خِتَامُهُ مِسْكٌ: ختام إنائه المسك بدل الطين.

فَلْيَتَنَافَسِ: فليتسارع أو فليستبق.

وَمِزَاجُهُ: ما يمزج به ويخلط.

تَسْنِيمٍ: عين عالية شرابها أشرف شراب.

يَشْرَبُ بِهَا: يشرب منها.

يَتَغَامَزُونَ: يشيرون إليهم بالأعين استهزاء.

فَكِهِينَ: متلذذين باستخفافهم بالمؤمنين .

ثُوِّبَ الكُفَّارُ: جوزوا بسخريتهم من المؤمنين.

أغلب الناس في هذا العالم قلما يهمهّم أن يعطوا الآخرين حقوقهم كاملةً، وإنما يهمهّم أولاً وآخراً أن يستوفوا ما لهم عند الآخرين من حقوق كاملةً ، وأمثال هؤلاء سيعودون في الآخرة محرومين ، والعاقلون هم الذين يهتمون أشد الاهتمام بإعطاء الآخرين حقوقهم من غير بخسٍ ، لأنهم هم الذين سيُعتبرون في الآخرة أهلاً لما أعده الله هناك من نعيم وافرٍ وسعادة دائمةٍ . ومَن يُهمل مصالحه الدنيوية لأجل الآخرة ربما يعود حقيراً لدى عبد الدنيا، ولكن عندما تأتي الآخرة فسيتضح بجلاءٍ أن الذين تم اعتبارهم في الدنيا سفهاءَ كانوا في الحقيقة هم الأذكياء !

سورة الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ
مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ
كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا
﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ
يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن
يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾
وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ
عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ
أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

السَّمَاءُ انشَقَّتْ: انصدعت عند قيام الساعة.

وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا: استمعت وانقادت له تعالى.

وَحُقَّتْ: حق الله عليها الاستماع والانقياد.

الأَرْضُ مُدَّتْ: بسطت وسويت كمد الأديم.

وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا: لفظت ما في جوفها من الموتى.

وَتَخَلَّتْ: خلت عنه غاية الخلو.

كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ: جاهد في عملك إلى لقاء ربك.

فَمُلاقِيهِ: فملاق لا محالة جزاء عملك.

يَدْعُو ثُبُوراً: ينادي هلاكاً قائلاً يا ثبوراه.

وَيَصْلَى سَعِيراً: يدخلها أو يقاسي حرها.

لَن يَحُورَ: لن يرجع إلى ربه تكذيباً بالبعث.

فَلاَ أُقْسِمُ: أقسم و"لا" مزيدة.

بِالشَّفَقِ: بالحمرة في الأفق بعد الغروب.

وَمَا وَسَقَ: ما ضم وجمع ما انتشر بالنهار.

اتَّسَقَ: اجتمع وتكامل وتم نوره.

لَتَرْكَبُنَّ: لتلاقن أيها الناس (جواب القسم).

طَبَقاً: أحوالاً بعد أحوال متطابقة في الشدة.

يُوعُونَ: يضمرونه أو يجمعونه من السيئات.

غَيْرُ مَمْنُونٍ: غير مقطوع عنهم.

إن ما قيل عن القيامة هنا، يبدو ظاهراً كأنه إخبار مجرد عن العالم المجهول، على أن ثمة شواهد وقرائن عديدة تدل على صدقه، ومن ذلك، مثلاً، عالمنا الراهن، فوجود عالم قائم بالفعل دليل في ذاته على إمكان بروز عالم آخر إلى حيز الوجود مماثل لهذا العالم أوْ مختلفٍ عنه، ومن تلك الشواهد أيضاً تميّز القرآن الكريم بجوانب غير عادية تثبت

أنه كتاب الله ، وأن كل ما ورد فيه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه [1].

والذين لا يؤمنون بالآخرة، رغم توافر هذه القرائن الواضحة، ويقضون أعمارهم في غفلة وذهول عن الآخرة، فإنما يرتكبون جريمة تؤهلهم في الواقع لعذاب السعير !!

(١) وقد تناول المؤلف هذا الموضوع بالبسط والتفصيل في كتابه " عظمة القرآن " ونرجو أن نتمكن بإذن الله تعالى من نقله إلى اللغة العربية في قريب المستقبل.

سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ
ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ
بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى
لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ
ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾
فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ
قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾

وَالسَّمَاءِ: (أقسم) الله بها وبما بعدها.

ذَاتِ الْبُرُوجِ: ذات المنازل المعروفة للكواكب.

وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ: يوم القيامة.

وَشَاهِدٍ: من يشهد على غيره فيه.

وَمَشْهُودٍ: من يشهد عليه غيره فيه.

قُتِلَ: لقد لعن أشد اللعن (جواب القسم).

الأُخْدُودِ: الشق العظيم ، كالخندق.

وَمَا نَقَمُوا: ما كرهوا وما عابوا وما أنكروا.

فَتَنُوا: عذبوا أو أحرقوا.

بَطْشَ رَبِّكَ: أخذه الجبابرة والظلمة بالعذاب.

هُوَ يُبْدِئُ: يخلق ابتداء بقدرته.

وَيُعِيدُ: يبعث الموتى يوم القيامة بقدرته.

الوَدُودُ: المتودد إلى أوليائه بالكرامة.

المَجِيدُ: العظيم الجليل المتعالي.

إن نظام الكون يقضي بأن يأتي يوم للجزاء الأخير ، وقد ظل الأنبياء، والذين تحملوا الأمانة من بعدهم عن صدق وإخلاص، ينبّئون الناس بهذا اليوم المرتقب (الموعود) على اختلاف العصور والأمصار ، وبالرغم من ذلك فإن الذين لا يعترفون بالحق، ويناصرون العداء لدعاة الحق، فإنما يمارسون طغياناً لن يستطيعوا النجاة بأنفسهم من عاقبته الوخيمة على أية حال ، أما الذين يلّبون نداء الحق، رغم كل العقبات والصعوبات التي تقف أمامهم، فإنهم سينالون من لدن ربهم الودود مكافأةً .

إن القرآن هو الكتاب الوحيد المحفوظ من بين سائر الكتب السماوية ، مما يوحي بأن القرآن مؤيّد بنصرةٍ من الله خاصةٍ، وليس في مقدور أحد أن ينال منه أوْ يتغلب عليه إلى أن تقوم الساعة !

سورة الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ
نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ
مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا
لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ
لَقَوۡلٌ فَصۡلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ
ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾ ﴾

وَالطَّارِقِ: (قسم) بالنجم الثاقب يطلع ليلاً.

النَّجْمُ الثَّاقِبُ: المضيء المتوهج أو المرتفع العالي.

لَمَّا عَلَيْهَا: إلا عليها.

حَافِظٌ: : مهيمن ورقيب وهو الله تعالى.

مَاءٍ: ممتزج من مائي الرجل والمرأة.

دَافِقٍ: مصبوب بدفع وسرعة في الرحم.

مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ: ظهر كل من الرجل والمرأة.

وَالتَّرَائِبِ: عظام الصدر أو الأطراف من كل منهما ، أو يخرج من كل البدن منهما ، والصلب والترائب كناية عنه.

رَجْعِهِ: إعادة الإنسان بعد فنائه.

تُبْلَى السَّرَائِرُ: تكشف مكنونات القلوب.

ذَاتِ الرَّجْعِ: المطر لرجوعه إلى الأرض مراراً.

ذَاتِ الصَّدْعِ: النبات الذي تنشق عنه.

لَقَوْلٌ فَصْلٌ: فاصل بين الحق والباطل.

وَأَكِيدُ كَيْداً: أجازيهم على فعلهم بالاستدراج.

فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ: فلا تستعجل بالانتقام منهم.

أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً: إمهالاً قريباً أو قليلاً حتى يأتيهم العذاب.

إن تلألؤَ النجم فوق الإنسان فيه تذكير - بلغة التمثيل - بأن هناك " مراقبًا " يراقب الإنسان ، وأنه يسجل على الإنسان كل حركاته وسكناته ، وأنه سيعيد الإنسان حياً بعد موته ليحاسبه عما صدر منه من قولٍ وفعل في الحياة الدنيا، وإنما هي مهلة الامتحان، تلك التي تقف حاجزاً بين الإنسان وبين تلك الساعة الرهيبة، فحين تنتهي هذه المهلة، يواجهه مصيره المحتوم ذاك الذي يتراءى له اليوم بعيداً جداً !

سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾
وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا
شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ
ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ
﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾
بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ
ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ: نزهه ومجده تعالى عما لا يليق به.

خَلَقَ: أوجد كل شيء بقدرته.

فَسَوَّى: بين خلقه في الإحكام والإتقان.

قَدَّرَ: جعل الأشياء على مقادير مخصوصة.

فَهَدَى: فوجه كل واحد منهما إلى ما ينبغي له.

أَخْرَجَ الْمَرْعَى: أنبت العشب رطبا غضًا.

فَجَعَلَهُ غُثَاءً: يابسا هشيما من بعد كالغثاء [1].

(١) هو ما يحمله السيل من البالي . من أوراق الشجر مخالطا زبده .

أَحْوَى: أسود وأسمر بعد الخضرة.

سَنُقْرِئُكَ: ما نوحي إليك بواسطة جبريل ﷺ.

فَلاَ تَنسَى: أبدا من قوة الحفظ والإتقان.

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى: نوفقك للطريقة اليسرى في كل أمر.

يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى: يدخل جهنم أو يقاسي حرها.

أَفْلَحَ: فاز بالبغية.

تَزَكَّى: تطهر من الكفر والمعاصي.

إِنَّ هَذَا: المذكور (الآيات الأربع السابقة).

إن هناك تخطيطاً ملحوظاً وراء خلق الإنسان والكون، وهذا التخطيط يستلزم أن يكون لهذا الخلق غاية ، ولقد جاء الوحي لكي يكشف للإنسان عن هذه الغاية ذاتها ، بيد أن الوحي لا يتعظ به إلا مَن يتوافر لديه مزاج التأمّل والتأثّر ، وأمثال هذا سيدخلهم ربهم في الجنان الأبدية حيث كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وأما الذين حال طغيانهم بينهم وبين تلقيهم الموعظةَ بالقبول، فما ينتظرهم شيء سوى أن يظلوا يحترقون بنار جهنم إلى الأبد.

سورة الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾
تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا
يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ
عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ
مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ
كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾
وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم
بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ
﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾

الغَاشِيَةِ: القيامة تغشى الناس بأهوالها.

خَاشِعَةٌ: ذليلة خاضعة من الخزي.

عَامِلَةٌ: تجر السلاسل والأغلال في النار.

نَاصِبَةٌ: تعبة مما تلاقيه فيها من العذاب.

تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً: تدخل أو تقاسي ناراً تناهى حرها.

عَيْنٍ آنِيَةٍ: بلغت أناها (غايتها) في الحرارة.

ضَرِيعٍ: شي ء في النار ، كالشوك مر منتن.

وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ: لا يدفع عنهم جوعا.

نَّاعِمَةٌ: ذات بهجة وحسن ونضارة.

لَاغِيَةً: لغواً وباطلاً.

سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ: مرتفعة السمك أو رفيعة القدر.

وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ: أقداح بين أيديهم للشرب منها.

وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ: وسائد ومرافق يتكأ عليها موضوع بعضها إلى جنب بعض.

وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ: بسط فاخرة مفرقة في المجالس.

يَنظُرُونَ: يتأملون فيدركون.

بِمُسَيْطِرٍ: بمتسلط جبار.

إِيَابَهُمْ: رجوعهم بعد الموت بالبعث.

عندما يحيل المرء بصره فيما حوله فيرى، مثلاً، أن الجمل، وهو حيوان ضخم يتميز بتكوينه العضوي العجيب، خاضع لأمره يستخدمه كيف يشاء ، وأن السماء بأجرامها الهائلة مسخرة له ، وأن الأرض جُعلت بخصائصها الفريدة ملائمةً لنا نحن البشر إلى أقصى الحدود دون أدنى سعي منا . وهذه الوقائع تُذَكِّر مَن يتأملها ويديم النظر إليها بعظمة الله، وبالآخرة ، والذين يستمدّون من هذه المظاهر الكونية زاد التذكر والاعتبار فقد برهنوا على جدارتهم بنعم الله الأبدية ، وأما الذين ظلوا سادرين في الغفلة، فإنما يقيمون الدليل على أنهم لا يستحقون إلا أن يُحرموا من كل ألوان النعم إلى الأبد !

سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ
قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ
يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى
ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ
سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ
وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ
أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨
وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ كَلَّآ إِذَا
دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ
بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى
۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ
ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩
وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠ ﴾

وَالْفَجْرِ: (أقسم تعالى) بالوقت المعروف.

وَلَيَالٍ عَشْرٍ: العشر الأُوَل من ذي الحجة.

وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ: يوم النحر ، ويوم عرفة.

وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ: إذا يمضي ويذهب أو يسار فيه.

هَلْ فِي ذَلِكَ: المذكور الذي أقسمنا به.

قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ؟: مقسم به حقيق بالتعظيم لدى العقلاء - نعم - (وجواب قسمه) لنعذبن الكافرين.

بِعَادٍ: قوم هود ، سموا باسم أبيهم.

إِرَمَ: هو اسم جدهم وبه سميت القبيلة.

ذَاتِ الْعِمَادِ: الشدة أو الأبنية الرفيعة المحكمة بالعمد.

جَابُوا الصَّخْرَ: قطعوه ونحتوا فيه بيوتهم.

ذِي الْأَوْتَادِ: الجيوش الكثيرة التي تشد ملكه.

سَوْطَ عَذَابٍ: عذابا شديداً مؤلما دائماً.

إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ: يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها.

ابْتَلاهُ رَبُّهُ: امتحنه واختبره بالنعم أو النقم.

فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ: فضيقه عليه ولم يبسطه له.

كَلاَّ: ردع للإنسان عما قاله في الحالتين.

وَلاَ تَحَاضُّونَ: لا يحث بعضكم بعضاً.

وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ: ميراث النساء والصغار.

أَكْلاً لَّمًّا: جمعا بين الحلال والحرام.

حُبًّا جَمًّا: كثيراً مع حرص وشره.

دُكَّتِ الأَرْضُ: دقت وكسرت بالزلازل.

دَكًّا دَكًّا: دكا متتابعاً حتى صارت هباء.

وَالْمَلَكُ: ملائكة كل سماء.

وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى: من أين له منفعتها ؟ هيهات .

ولا يُوثِقُ: لا يشد بالسلاسل والأغلال.

يتأرجح الإنسان في هذه الحياة بين نوعين من الأحوال : الفوز بها يشتهي تارة، والحرمان منه تارة أخرى ، والمقصود من كلا هذين الحالَيْن هو الامتحان ، أي اختبار الإنسان ماذا سيكون رد فعله إزاء موقف معينٍ ، فأما الذي يُصاب بالبطر والتفاخر والغرور إذا حصل على شيء، وتتملكه المشاعر السلبية إذا حُرم منه، فقد فشل في هذا الامتحان . وأما الذي إذا أُعطى شيئاً خضع لربه شاكراً، وإذا انتُزع منه شيء خضع لربه ثانياً معترفاً بعجزه وقلة حيلته، فهذا الإنسان الأخير هو الذي أُطلق عليه هنا "النفس المطمئنة " أي " الروح المطمئنة".

وإن مقام النفس المطمئنة إنما يناله الشخص الذي يتدبر في آيات الله وآثار قدرته المنبثة في أرجاء الكون، وهو الذي يستمد زاد العبرة والعظة من أحداث التاريخ ، وهو الذي يقيم الدليل على أنه يُؤْثر الحق على ذاته كلما وقع صدام بين الحق وبين ذاته ، وهو الذي لا يخذل الحق بعد اعتناقه للمرة الأولى ولا يتخلى عنه أبداً، حتى لو اضطُر في سبيله إلى أن يضع نفسه وكبرياءه تحت قدميه، وحتى لو صارت حياته نتيجة استمساكه به خاليةً مُقفرةً!!

سورة البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ (١١) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ (١٧) أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (١٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ (٢٠) ﴾

لا أُقْسِمُ: (أقسم) و"لا" مزيدة.

بِهَذَا البَلَدِ: بمكة المكرمة.

حِلٌّ بِهَذَا البَلَدِ: حلال لك ما تصنع به يومئذ.

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ: آدم وجميع ذريته أو الصالحين منهم.

لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ: نصب ومشقة ومكابدة للشدائد.

أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً: كثيراً في المكرمات مباهاة وتعاظما.

وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ: بينا له طريقي الخير والشر.

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ: فهلا جاهد نفسه في أعمال البر.

فَكُّ رَقَبَةٍ: تخليصها من الرق والعبودية .

ذِي مَسْغَبَةٍ: مجاعة.

يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ: قرابة في النسب.

مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ: فاقة شديدة لصق منها بالتراب.

بِالْمَرْحَمَةِ: بالرحمة فيما بينهم.

أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ: اليمن. أو ناحية اليمين.

أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ: الشؤم أو ناحية الشمال.

نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ: مطبقة مغلقة أبوابها.

إن الإنسان لا يكاد يستطيع في هذه الحياة أن يحرر نفسه من التعب والعناء والمشقة، وهذا الواقع يدل على أن الإنسان خاضع لقوة عليا ، وهكذا يدل وجود العينين لدى الإنسان أن هناك " عيناً " فوقه لا تزال تراه وإن لم يكن يراها ، وما يتمتع به الإنسان من قوة النطق يشير إلى أن هناك صاحب نطقٍ أعلى هو الذي وهب له القدرة على النطق والإبانة ، وأرشده إلى طريق الرشد والهداية ، ولو أن الإنسان عرف نفسه حقاً لعرف ربه أيضاً بكل تأكيد ، لقد أمر الله سبحانه الإنسان بالصعود في مرتفعَيْن معاً : أحدهما : أن يعامل أخاه الإنسان بالعدل وأن يواسيه ويمد إليه يد العون عند الحاجة، وثانيهما : الإيمان واليقين بالله ، وهذا الإيمان واليقين حين يتمكن من نفس المرء ويتغلغل في أعماقه، فلا يبقى محصوراً في ذاته وحدها، بل يتعدى أثره إلى ما حوله ومَن حوله بالضرورة ، فإن إنساناً كهذا لا يهدأ له بال إلا أن يحاول جهده لدعوة الآخرين كذلك إلى سلوك طريق الحق ذاته الذي اختاره لنفسه !

سورة الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥ ﴾

وَالشَّمْسِ: (قسم بها وبما بعدها).

وَضُحَاهَا: ضوئها إذا أشرقت.

تَلاهَا: تبعها في الإضاءة بعد غروبها.

جَلاَّهَا: أظهر الشمس للرائين.

يَغْشَاهَا: يغطيها حين تغيب فتظلم الآفاق.

وَمَا بَنَاهَا: والذي خلقها وهو الله تعالى.

وَمَا طَحَاهَا: والذي بسطها ووطأها.

وَمَا سَوَّاهَا: والذي عدل أعضاءها ومنحها قواها.

فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا: معصيتها وطاعتها وخيرها وشرها.

قَدْ أَفْلَحَ: فاز بالبغية وظفر (جواب القسم).

مَن زَكَّاهَا: ظهرها وأنماها بالتقوى.

وَقَدْ خَابَ: خسر.

مَن دَسَّاهَا: نقصها وأخفاها وأخملها بالفجور.

بِطَغْوَاهَا: بسبب طغيانها وعدوانها.

انْبَعَثَ أَشْقَاهَا: قام مسرعا يعقر الناقة .

نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا: احذروا عقرها ونصيبها من الماء.

فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ: أهلكهم وأطبق عليهم العذاب.

فَسَوَّاهَا: فجعل الدمدمة عليه سواء.

عُقْبَاهَا: عاقبة هذه العقوبة، لهداية الإنسان قد اتخذ الله بلطفه تدابير ثلاثة .

أولاً : أنه صنع الكون بحيث أصبح مظهراً عملياً لمرضاته .

ثانياً : أنه أودع في فطرة الإنسان، قوة التمييز.

ثالثاً : أنه أرسل الرسل كي يبينوا للناس الحق والباطل بلغةٍ واضحةٍ مفهومةٍ لديهم .

إذن، فالذين يتنكبون عن الصراط المستقيم، رغم هذه التدابير الإلهية كلها، هم الظالمون المعتدون حقاً . لقد كانت ناقة النبي صالح - عليه السلام - بمثابة علامةٍ على أنه لابد من احترام صاحب الحق وأداء حقه إليه كاملاً؛ ولو كان ضعيفاً وعاجزاً عن الدفاع عن نفسه، وأن ما يبدو للناظرين في ظاهره مجرد " ناقة " عساه أن يكون آية أقامها الله بلاءً واختباراً للناس!!

سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ
لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧
وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِى
عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ۝١٣
فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦
وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤۡتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٍ تُجۡزَىٰٓ
۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ۝٢١ ﴾

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى: يغطي الأشياء بظلمته (قسم).

وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى: ظهر ضوؤه ووضح.

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى: إن عملكم لمختلف في الجزاء (جواب القسم).

وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى: بالملة الحسنى وهي الإسلام.

فَسَنُيَسِّرُهُ: فسنوفقه ونهيئه.

لِلْيُسْرَى: للخصلة المؤدية إلى اليسر والراحة.

لِلْعُسْرَى: للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة.

وَمَا يُغْنِي: ما يدفع العذاب عنه.

تَرَدَّى: هلك أو سقط في النار.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى: الدلالة على الحق أو بيان طريقه.

نَاراً تَلَظَّى: تتلهب وتتوقد.

لاَ يَصْلاهَا: لا يدخلها أو لا يقاسي حرها.

وَسَيُجَنَّبُهَا: سيبعد عنه.

يَتَزَكَّى: يطهر به من الذنوب.

تُجْزَى: تكافأ، نزلت في الصديق ﷺ.

إن مبدأ الزوجية يسري في أجزاء هذا الكون كافة، فمن الذكر والأنثى . إلى الليل والنهار ، إلى الجزيء السالب والجزيء الموجب ، إلى المادة والمادة المضادة (اللاّمادة) ، كل شيءٍ في هذا العالم يحقق الغاية من وجوده عبر الانضمام إلى زوجه ، وهذا دليل واضح على أن هذا الكون يتصف بالغائيّة، أي يكمن وراء إيجاده هدف ومعنىً ، وفي كونٍ هادفٍ كهذا لا يمكن أن ينتهي كل من العمل الصالح والطالح إلى مصير واحدٍ مماثلٍ ، فإن هذا لا يتفق مع عظمة الخالق الذي يعرفنا به هذا الكون ، وصلة الله بعباده ليست كصلة الحاكم بمحكوميه فحسب، بل هو ناصرهم ومعينهم كذلك ، فهو يأخذ بأيدي عباده الذين يرغبون في الوصول إليه، ويتكفل بتذليل العقبات التي تواجههم على طول الطريق ، وأما الذين يسيرون في الاتجاه المعاكس، في طريق التمرد والطغيان فهو يدعهم يتخبطون في الطريق الذي اختاروه!

سورة الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١ ﴾

وَالضُّحَى: (أقسم) بوقت ارتفاع الشمس.

سَجَى: سكن أو اشتد ظلامه.

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ: ما تركك منذ اختارك (جواب القسم).

وَمَا قَلَى: ما أبغضك منذ أحبك.

أَلَمْ يَجِدْكَ: ألم يعلمك ربك – قد علمك.

يَتِيماً: طفلاً مات أبوك وأنت جنين.

فَآوَى: فضمك إلى من يكفلك ويرعاك.

ضَالاًّ: غافلاً عن أحكام الشرائع.

فَهَدَى: فهداك إلى مناهجها بما أوحي إليك.

عَائِلاً: فقيراً عديماً.

فَأَغْنَى: فرضاك بما أعطاك ومنحك.

فَلاَ تَقْهَرْ: فلا تغلبه على ماله ولا تستذله.

فَلاَ تَنْهَرْ: فلا تزجره وارفق به.

لقد جُعل نظام هذا الكون بحيث يسطع فيه ضوء النهار تماماً كما يغشاه ظلام الليل، بتعاقب الاثنين، الواحد بعد الآخر، يكتمل هنا نظام الوجود ، وهكذا لابد لارتقاء الإنسان وتكامله الظاهري والمعنوي أيضاً أن يجرب قسوة العيش ونعومته معاً، فما تشتد وطأة الظروف والأحوال على عبد من عبيد الله في هذه الحياة إلا لكي تستيقظ مواهبه الكامنة ، وإنما توضع العقبات والعراقيل في طريقه لكي يكون مستقبله أفضل من حاضره.

وقد وُلد رسول الله ﷺ يتيماً، فقيّض الله له خير كفيلٍ شمله بعطفه وتعهده بالرعاية ، وكان - عليه الصلاة والسلام - يعاني من الحيرة والقلق بحثاً عن الحق، ففتح الله له باب الحق على مصراعيه ، وكان - عليه الصلاة والسلام - فقيراً من المال، فأغناه الله بزوجته خديجة ، وهذا مثال تاريخي خالد يدلنا على كيفية تولي الله عباده بالنصر والتأييد من حيث يحتسبون ولا يحتسبون .

وينبغي للإنسان أن يُعين الضعفاء حتى يستحق عون الله ، وأن يكون حديثه شكراً لله وإظهاراً لنعمته، حتى يُتم الله عليه نعمه في هذه الدنيا وفي الدار الآخرة !

سورة الشرح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾

أَلَمْ نَشْرَحْ: ألم نفسح بالحكمة والنبوة – قد أفسحنا.

وَوَضَعْنَا عَنكَ: خففنا عنك وسهلنا عليك. **وِزْرَكَ**: حملك "أعباء النبوة" والرسالة.

الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ: أثقله حتى سمع له نقيض " صوت ".

فَإِذَا فَرَغْتَ: (من عبادة) أديتها.

فَانصَبْ: فاجتهد وأتبعها بعبادة أخرى.

فَارْغَبْ: فاجعل رغبتك في جميع شؤونك.

كان رسول الله خلال حياته قبل النبوة قلقاً مضطرب البال وهو يبحث عن الحقيقة في لهفةٍ وشوقٍ ، فأعطاه الله علم الحقيقة وحول بحثه إلى المعرفة ، فانشرح صدره لمعرفة الحقائق وكتمانه الأسرار ، ثم إنه لما بدأ بدعوة التوحيد في مكة، تعرض لأقسى ألوان المعارضة ، ولكن بسبب هذه المعارضة ذاتها انتشر ذكره في طول الجزيرة العربية وعرضها، وتلك هي سنة الله في هذا العالم ، ففي البداية يتعرض الإنسان هنا لأحوال العسر، ولكنه لو تذرّع بالصبر وظل ثابتاً على الجادة، لصار هذا العسر مطية للوصول إلى يُسر جديدٍ ، ولذا ينبغي للإنسان أن يواصل جهده وكفاحه على قدر المستطاع متوجهاً دائماً نحو ربه !!

سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨ ﴾

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ: (قسم بمنبتهما من الأرض المباركة) .

وَطُورِ سِينِينَ: جبل المناجاة للكليم موسى عليه السلام .

البَلَدِ الأَمِينِ: مكة المكرمة.

لَقَدْ خَلَقْنَا: (جواب القسم) بالأربعة قبله.

أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ: أكمل تعديل وأحسن صورة.

رَدَدْنَاهُ: رددنا الكافر أو جنس الإنسان .

أَسْفَلَ سَافِلِينَ: إلى النار أو الهرم وأرذل العمر.

غَيْرُ مَمْنُونٍ: غير مقطوع عنهم.

بِالدِّينِ: بالجزاء بعد البعث والحساب.

التين والزيتون جبلان، يقع على القرب منهما بيت المقدس، يعني مولد السيد المسيح وموضع نشاطه الدعوى، وطور سينين هو الجبل بشبه جزيرة سيناء الذي كلم الله عليه

سيدنا موسى ، وأما البلد الأمين فالمراد به مكة، حيث بُعث رسول الإسلام ﷺ .

لقد خلق الله الإنسان مزوداً بأفضل المواهب ، وما زوده تعالى بتلك المواهب إلا ليتعرف بها على الحق المُعلَن عن طريق الأنبياء، ويضع حياته العملية على أساسٍ منه ، والذين يفعلون ذلك يتبوءون أعلى مراتب العزة والرفعة في دار الخلود، أما الذين لا يستخدمون مواهبهم تبعاً لمرضاة الله، فإنهم سيُجردون من كل النعم المتاحة لهم في الحياة الراهنة، هذا إلى جانب كونهم لن يجدوا في الآخرة مكاناً يلجؤون إليه سوى دار الحرمان الأبدي، وهذه حقيقة تشهد بصدقها رسالات الأنبياء والمرسلين وما نتج عن كفاحهم الطويل من الأحداث والتحولات التاريخية عبر مختلف العصور !

سورة العلق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣
ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ
ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيۡتَ
إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ
يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ۝١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ
۝١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩ ۝١٩ ﴾

عَلَقٍ: دم جامد استحال إليه المني.

عَلَّمَ: علم الإنسان الكتابة بالقلم .

كَلاَّ: حقا.

لَيَطْغَى: ليجاوز الحد في العصيان.

الرُّجْعَى: الرجوع في الآخرة للجزاء.

أَرَأَيْتَ: أخبرني.

لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ: لنسحبنه بناصيته إلى النار.

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ: أهل مجلسه من قومه وعشيرته.

سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ: ملائكة العذاب لجره إلى النار.

الآيات الخمسة الأولى من هذه السورة هي أول ما نزل به الوحي على رسول الله ﷺ.

لقد خلق الله الإنسان من الأجزاء المادية التافهة ، ثم منحه هذه القوة الفذّة التي تمكنه من القراءة وإدراك المعاني بواسطة الألفاظ ، كما علمه كيفية استعمال القلم، ليضبط به شتى العلوم والمعارف ويحفظها من الضياع والنسيان ، فإذا كانت قدرة القراءة تؤهل الإنسان للتعلم الذاتي، فإن القلم يؤهله لإبلاغ عمله إلى الآخرين على أوسع نطاقٍ .

إن الذين يعاندون الحق، ويضعون العراقيل في طريق أَتْبَاع الحق عاقبتهم وخيمة جداً، والسند الحقيقي بالنسبة إلى داعي الحق، وهو يمر بمثل هذه الظروف غير المواتية ، أن يعبد الله راجياً فضله؛ إذ انقطع رجاؤه من الناس، وأن يقترب من رب الناس إذ ابتعد هو عن الناس أو ابتعد عنه الناس !!

سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥ ﴾

أَنزَلْنَاهُ: ابدأنا إنزال القرآن العظيم.

لَيْلَةِ القَدْرِ: ليلة الشرف والعظمة.

وَالرُّوحُ: جبريل عليه السلام.

مِن كُلِّ أَمْرٍ: بكل أمر من الخير والبركة.

سَلامٌ هِيَ: على أولياء الله وأهل طاعته.

هناك ليلة من ليالي السنة (والمعروف أنها واحدة من الليالي العشر الأخيرة من شهر رمضان) اختصها الله سبحانه بالقضاء والحكم ، حيث يغدو الملائكة ويروحون طوال هذه الليلة بين الأرض والملأ الأعلى بإذن ربهم لاتخاذ ما يلزم لتنفيذ القرارات الإلهية المتصلة بتدبير مختلف شئون العباد على مدار العام ، وقد شهدت ليلة خاصة كهذه بدء نزول القرآن الكريم على قلب محمد - ﷺ .

ويبدو أن الأرض تشهد في هذه الليلة من كل عام تجمّع عددٍ كبيرٍ من الملائكة، مما يخلق على الأرض مناخاً روحياً خاصاً، والآن، فالذين يتمتعون باليقظة الروحية الدائمة يتأثرون بهذا الفيض القدسي الغامر، ويتولد في داخلهم، نتيجة ذلك، تأثير روحي غير عادي يزيد من قيمة أعمالهم الدينية إلى حد أكبر بكثير مما هي في الأحوال المعتادة !

سورة البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ (٤) وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ (٧) جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ (٨) ﴾

مُنفَكِّينَ: مزايلين ما هم عليه من الكفر.

تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ: الحجة الواضحة هي الرسول ﷺ.

صُحُفاً: مكتوبا فيها القرآن العظيم.

مُطَهَّرَةً: منزهة عن الباطل والشبهات.

فِيهَا كُتُبٌ: آيات وأحكام مكتوبة.

قَيِّمَةٌ: مستقيمة حقة عادلة محكمة.

وَمَا تَفَرَّقَ: في الرسول بين مؤمن وجاحد.

جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ: بالهدى وكان الحق ألا يتفرقوا.

الدِّينَ: العبادة.

حُنَفَاءَ: مائلين عن الباطل إلى الإسلام.

دِينُ الْقَيِّمَةِ: الملة المستقيمة أو الكتب القيمة.

الْبَرِيَّةِ: الخلائق أو البشر.

كان المشركون في شبه الجزيرة العربية وأهل الكتاب يطالبون رسول الله ﷺ بأن يريهم معجزةً ما، أوْ ينزل من السماء ملاك يكلمهم وجهاً لوجهٍ، فإذا تمّ ذلك، صدقوا برسالته ، ولكن مطالب كهذه إنما يقترحها دوماً أناس غير جادين ، فلقد طالبت الشعوب والأمم فيما مضى من القرون رسلها بمثل ذلك، ولكنها لم تؤمن رغم الاستجابة لطلبها على الوجه الأكمل .

إن دين الله القيم يتلخص في ألا يعبد الإنسان إلا الله الواحد الأحد، وأن يصير محباً له من صميم قلبه ، وأن يقيم الصلاة ويؤدي الزكاة ، ذلك هو الدين الأصيل الذي جاء من عند الله سبحانه على اختلاف العصور ، وخير الخلائق هم الذين يتمسكون بهذا الدين القيم، وشر الخليقة هم الذين يرفضون التمسك به، أوْ يختلقون من عند أنفسهم ديناً آخر سواه، ثم يطلقون عليه تسمية الدين القيم كذباً وافتراءً على الله !!

سورة الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾

زُلْزِلَتِ الأَرْضُ: حركت تحريكاً عنيفاً متكرراً عند النفخة الأولى .

أَثْقَالَهَا: كنوزها وموتاها في النفخة الثانية.

تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا: تدل بحالها على ما عمل عليها.

أَوْحَى لَهَا: جعل حالها دلالة على ذلك.

يَصْدُرُ النَّاسُ: يخرجون من قبورهم إلى المحشر.

أَشْتَاتاً: متفرقين على حسب أحوالهم.

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ: وزن أصغر نملة أو هباءة.

إن زلزلة القيامة ستكون إيذاناً بانتهاء مهلة الامتحان ، وإنها ستعني أن الحرية المتاحة للناس لحكمة الامتحان والاختبار في الحياة الدنيا قد انتزعت منهم الآن، وأنهم واقفون الآن بين يدي الساعة الحاسمة التي يُجزى فيها الكل بما عمل جزاءً وفاقاً !

إن عالم الله اليوم يسوده الصمت والسكون في ظاهر الأمر ، ولكن عندما تتغير

الأوضاع وتبدل الأرض غير الأرض والسموات على إثر زلزال القيامة، فإذا بكل شيء هنا يعود " ناطقاً " ، فلقد أثبتت المخترعات الحديثة أن الأشياء الجامدة هي الأخرى تتمتع بقدرة " النطق " ، فالأفلام السينمائية وشرائط الفيديو مثلاً تعيد كل ما يجرى بالأستوديو بمنتهى الدقة ، وهكذا فكأنما العالم الراهن هو أستوديو إلهي ضخم، وكل ما يصدر عن الإنسان في رحابه من قولٍ أوْ فعلٍ يتم تسجيله لحظة صدوره، وسيقوم هذا الكون بإعادة عرض قصة حياة كل إنسان يومَ الجزاء الأخير بحيث لن يغادر شأناً من شئون حياته مهما كان صغيراً أوْ كبيراً !!

سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١ ﴾

وَالْعَادِيَاتِ: (قسم) بالخيل تعدو في الغزو.

ضَبْحاً: هو صوت أنفاسها إذ عدت.

فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً: المخرجات النار بصك حوافرها الأحجار .

فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً: المباغتات للعدو وقت الصباح.

فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً: هيجن في الصباح غباراً.

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً: فتوسطن فيه من الأعداء.

إِنَّ الإِنسَانَ: بطبعه إلا من رحم الله (جواب قسم) .

لَكَنُودٌ: لكفور جحود.

وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ: لأجل حب المال.

لَشَدِيدٌ: لقوي مجد في تحصيله متهالك عليه.

بُعْثِرَ: أثير وأخرج ونثر.

وَحُصِّلَ: جمع وأخرج ونشر.

الفرس حيوان غاية في الوفاء ، فهو يضحي بنفسه لأجل سيده إلى أقصى حدٍ؛ حيث إنه يرمي بوجوده في الخطر، ولا يتخلى عن سيده حتى في ساحات الوغى ، وهذا مثال رمزي يوضح لنا كيف ينبغي للإنسان أن يكون ؟ فينبغي على الإنسان أن يكون بدوره وفياً لربه تماماً كما يكون الفرس وفياً لسيده ، ولكن الواقع القائم بالفعل غير هذا .

فالحيوان في هذا العالم شاكر لسيده، ولكن الإنسان كنود لربه ناكر لفضله . والحيوان هنا يعرف حق سيده عليه، ولكن الإنسان لا يعرف حق مولاه عليه ، والحيوان هنا يجدّ في خدمة سيده والانقياد له، ولكن الإنسان يتقاعس عن طاعة ربه وامتثال أوامره .

والإنسان لا يُقَدِّر من الحيوانات إلا الحيوان الذي يكون وفياً له، فكيف يمكن إذن، أن يجهل الإنسان السر القائل بأنه لن يُعتبر أهلاً للتقدير عند الله كذلك إلا الذي يكون وفياً له تعالى ، غير أن حب المال الزائد يُعمي الإنسان ويسلبه بصيرته ، مما يجعله محروماً من معرفة الحقيقة التي كان قد شهدها وجرّبها مراراً وتكراراً خلال حياته اليومية !!

سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾

الْقَارِعَةُ: القيامة تقرع القلوب بأهوالها.

كَالْفَرَاشِ: هو طير كالبعوض يتهافت في النار.

المَبْثُوثِ: المتفرق المنتشر.

كَالْعِهْنِ: كالصوف المصبوغ بألوان مختلفة.

المَنفُوشِ: المفرق بالأصابع ونحوها.

ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ: رجحت مقادير حسناته.

خَفَّتْ مَوَازِينُهُ: رجحت مقادير سيئاته.

فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ: فمأواه جهنم يهوى فيها.

مَاهِيَهْ: ما هي – والهاء للسكت.

إن زلزال القيامة سيحطّم كل شيء، وسيعود الناس عقبه، وكل ما كانوا مرتكزين عليه في الحياة الدنيا – وإن كان في قوته ورسوخه كالجبال – هباءً، تتقاذفه الرياح ،

وبعدئذٍ سيتكون عالم جديد؛ حيث يكون الثقل كله إلى جانب الحق وحده، وستفقد كل الأشياء الأخرى سواه ثقلها يومئذٍ ، والعالم الراهن يسوده هوى الناس؛ تستمد فيه الأشياء قيمتها ووزنها من اعتبارات الناس وتقويمهم، أما الآخرة فهي عالم الله، وسيثقل هناك شيء ما أوْ يصير عديم الثقل والقيمة بحسب مشيئة الله وتقويمه وحدهما .

وتوزن الأعمال في الدنيا باعتبار ظاهرها، بينما توزن في الآخرة باعتبار جوهرها الداخلي ، فبقدر ما يكون عمل الإنسان منطوياً على الإخلاص، يزداد ثقله في ميزان الآخرة، وبقدر ما يكون عمله خالياً من الإخلاص، يكون خفيف الوزن هناك، مهما بدا ثقيلاً وضخماً لعبَدة الظواهر في الدنيا !!

سورة التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾

أَلْهَاكُمُ: شغلكم عن طاعة الله ربكم.

التَّكَاثُرُ: التباهي بكثرة متاع الدنيا

زُرْتُمُ المَقَابِرَ: متم ودفنتم في القبور.

لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ: لو تعلمون ما لكم علما يقينا لما ألهاكم.

لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ: والله لترون الجحيم.

عَيْنَ اليَقِينِ: نفس اليقين وهو المشاهدة.

النَّعِيمِ: الذي ألهاكم عن طاعة ربكم.

الإنسان يرغب في أن يكسب أوفر قدرٍ من المال وأن يقتني من المتاع الدنيوي أنواعاً وألواناً، وهو لا يزال مشغولاً بتحقيق رغبته تلك، حتى يوافيه الموت، وساعتها يدرك - ولكن بعد وفات الأوان - أن الجدير بالكسب والاقتناء كان شيئاً آخر غير الذي ظل يكد ويسعى وراءه طيلة حياته ! إن الزيادة في أعراض الحياة الدنيا إنما تزيد من تبعة الإنسان ومسئوليته، بينما هو يحسب، لفرط حماقته وغروره، أنه يعمل على زيادة أسباب نجاحه وسعادته!!

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾

وَالْعَصْرِ: (قسم) بالدهر أو عصر النبوة.

إِنَّ الإِنسَانَ: جنس الإنسان (جواب القسم).

لَفِي خُسْرٍ: خسران ونقصان وهلكة.

وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ: الخير كله اعتقاداً وعملاً.

وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ: عن المعاصي وعلى الطاعات والبلاء

الإنسان يتقدم كل لحظةٍ نحو موته ، وهذا يعني أنه لو غفل عن استعمال عمره فيما يعود عليه بالنفع والخير، فلن يحصل في نهاية المطاف على شيءٍ سوى الضياع والهلاك ، والإنسان إذا أراد النجاح في هذه الحياة تحتّم عليه أن يعمل، وأما الفشل فلا يتطلب عملاً من أي نوعٍ، وإنما هو يسعى نحو كل عاطلٍ من تلقاء نفسه !

وقد روي عن بعض السلف أنه قال: فهمت معنى السورة (العصر) من بائع الثلج، كان يصيح ويقول : ارحموا من يذوب رأسماله، ارحموا من يذوب رأسماله !! فقلت : هذا معنى {إن الانسان لفي خسر} يمر به العصر (الوقت) فيمضي عمره؛ ولا يكتسب فإذا هو خاسر. (نقلاً عن التفسير الكبير، للرازي)

والمُستعمِل لوقته خير استعمالٍ هو الذي يقيم الدليل على ثلاثة أمور ، وهي :

أولاً : الإيمان ، أي الشعور بالحقيقة والاعتراف بها .

ثانياً : العمل الصالح ، أي أن يفعل ما ينبغي أن يفعل ويدع ما لا ينبغي أن يفعل .

ثالثاً : التواصي بالحق وبالصبر ، أي أن يدرك الحقيقة إدراكاً عميقاً يعود معه داعياً إليها ومبشراً بها بين الناس !!

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ
أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ
﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾ ﴾

وَيْلٌ: عذاب أو هلاك أو واد في جهنم.

هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ: طعان غيّاب عيّاب للناس .

وَعَدَّدَهُ: أحصاه أو أعده للنوائب.

أَخْلَدَهُ: يخلده في الدنيا.

لَيُنْبَذَنَّ: ليطرحن.

الْحُطَمَةِ: جهنم، لحطمها كل ما يلقى فيها.

تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ: تغشى حرارتها أوساط القلوب.

مُؤْصَدَةٌ: مطبقة مغلقة أبوابها.

فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ: بأعمدة ممدودة على أبوابها.

إذا ثار بينك وبين أحد الناس خلاف، فبإمكانك أن ترد عليه بالدليل، وهذا وحده سائغ ومقبول شرعاً وعقلاً، أما لو تناولت عرضه بالطعن، وسُمْعَته بالتشويه، وألصقت به ألوان التهم الكاذبة، فذلك ما لا يجوز ولا يُساغ إطلاقاً.

والذين يفعلون ذلك إنما يشجعهم عليه ما يرونه من أن مركزهم الدنيوي محفوظ وراسخ الجذور، وبالتالي يحسبون أنهم لن يخسروا شيئاً أوْ يتعرضوا لأي مكروهٍ بتوجيه الاتهامات الباطلة نحو الغير جزافاً ، ولكن هذا الحسبان صادر عن الحماقة المحضة ، إذ الحقيقة أن فعلاً كهذا يعني اقتحام هاويةٍ من نارٍ، وهي هاوية لن يسأل عمن يقع فيها أحد، ولا يجد إلى الخروج منها سبيلاً !

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾

بِأَصْحَابِ الفِيلِ: وقعت القصة أول عام مولده ﷺ.

يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ: سعيهم لتخريب الكعبة.

تَضْلِيلٍ: تضييع وإبطال وخسار.

طَيْراً أَبَابِيلَ: جماعات متفرقة متتابعة.

سِجِّيلٍ: طين متحجر محرق (آجر).

كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ: كتبن أكلته الدواب فراثته.

كان أبرهة ملكا حبشياً يحكم جنوبي الجزيرة العربية في القرن السادس الميلادي، وفي سنة ٥٧٠م قام - بدافعٍ من الجنون الديني - بالهجوم على مكة ناوياً هدم الكعبة ليصرف عنها حجاج العرب، وكان معه جيش كبير مزود بنحو اثني عشر فيلا، ولذلك سمي هؤلاء بأصحاب الفيل.

وعندما اقترب هؤلاء من أرض مكة، أبت الفيلة عن التقدم نحو الأمام، ومن جانبٍ آخر جاءت أسراب من الطيور تحمل في مخالبها ومناقيرها أحجاراً صغيرةً، وأخذت تلقيها على أبرهة وجنوده، فأصيب الجميع بمرضٍ من نوعٍ غريبٍ، مما جعلهم

يفرون هاربين وقد تملكهم الذعر والفزع الشديد، لكن أكثرهم، بمن فيهم أبرهة، لم يلبثوا أن هلكوا في منتصف الطريق !!، ولقد حدثت هذه الواقعة في العام نفسه الذي شهد مولد الرسول - ﷺ - وقد كان ذلك إرهاصاً من الله بأن رسول الإسلام قد كتب له الغلبة والظهور، فما من أحدٍ يصطدم معه أوْ يتعرض لدينه إلا سيبوء حتماً بالهزيمة والذل والهوان !!

سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ: اعجبوا لإيلافهم الرحلتين وتركهم عبادة رب البيت.

كانت قريش شعباً تجارياً، وقد كانت قوافلهم التجارية تتجه نحو بلاد الشام وفلسطين في أيام الصيف، ونحو اليمن في أيام الشتاء ، وعلى هاتين الرحلتين كانت تتوقف معيشتهم ، وفيما كان التجار في قديم الزمان يتعرضون عموماً لغارات السلب والنهب، كانت قوافل قريش تسير آمنة، وتعود رابحة، وحيثما حلت وجدت الكرامة والرعاية، وكان الفضل في ذلك يرجع إلى صلة قريش بالكعبة، حيث إنهم كانوا سدنة الكعبة وخدامها ، وبما أن الكعبة كانت لها حرمة عظيمة في نفوس العرب، كانوا يقابلون خدامها وسدنتها أيضاً بمنتهى التكريم والحفاوة والاحترام، ولا يمسونهم بسوء أبداً .

وقد تم تكريمهم هنا بهذا الواقع بغية استمالتهم إلى الإسلام بأسلوب حكيم، فكأنما قيل لقريش: إنه سيكون جحوداً للنعمة نكراناً للجميل أن تتمتعوا بالفوائد الدنيوية لجوار بيت الله، ولا تقوموا بأداء مقتضيات هذا الجوار ! إن الله الذي يفيض على الإنسان بالفوائد المادية هو وحده يستحق أن يعبده الإنسان بلا شريك !!

سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ
عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾
ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾

أَرَأَيْتَ الَّذِي: أخبرني الذي يكذب من هو؟

يُكَذِّبُ بِالدِّينِ: يجحد الجزاء لإنكار البعث.

يَدُعُّ الْيَتِيمَ: يدفعه دفعا عنيفاً عن حقه.

وَلاَ يَحُضُّ: لا يحث ولا يبعث أحداً.

فَوَيْلٌ: عذاب أو هلاك ، أو واد في جهنم.

لِّلْمُصَلِّينَ: نفاقاً أو رياءً

سَاهُونَ: غافلون غير مبالين بها.

يُرَاءُونَ: يقصدون الرياء بأعمالهم.

وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ: ما يتعاوره الناس بينهم بخلاً.

إن اليقين بمؤاخذة الآخرة إذا استقر في قلب الإنسان جعله صالح العمل مستقيم السلوك، أما الذي يخلو قلبه من هذا اليقين فإنه سيكون خالياً من كل أنواع الصلاح والاستقامة ، فيصبح غافلاً عن عبادة الله، ولا يخجل حتى من أن يدفع الضعيف

العاجز بطريقة عنيفةٍ وقحة، وهو لا يشعر بحاجة ما لمساعدة الفقراء والمساكين، ولا تسمح نفسه بأن يعطي للناس الشيء الذي لا يسبب إعطاءه إياهم أية خسارة له !!

سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾

أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ: نهر في الجنة أو الخير الكثير.

وَانْحَرْ: الأضاحي نسكاً شكراً لله تعالى.

هُوَ الأَبْتَرُ: المقطوع الأثر ،أو الخير.

كان رسول الله - ﷺ - قد نهض بدعوة الحق الخالص ، وذلك أصعب عملٍ على الإطلاق يقوم به إنسان في هذا العالم .. ومن ثم فقد اضطر - عليه الصلاة والسلام - في سبيل دعوته إلى التضحية بكل ما يملك، حيث انقطع عن قومه، وتدهورت حالته المعيشية، وأظلم مستقبل أولاده، ولم يقف إلى جانبه سوى قلة قليلة ليس عندها قوة ولا عتاد ، ولكن في تلك الظروف نفسها القاسية المثبطة أخبر الله - عز وجل - نبيه قائلاً بأننا قد أعطيناك - يا محمد - الكوثر، يعنى خيراً كثيراً، وهو يشمل النجاح بأشكاله وأنواعه كافة ، وقد تحققت هذه النبوءة القرآنية حرفاً حرفاً خلال الأعوام التالية .

وهذا الوعد الإلهي بالخير الكثير كما تحقق لرسول الإسلام على الوجه الأكمل، يمكن أن يتحقق أيضاً - مع تفاوت الدرجات - بالنسبة إلى أفراد أمته كذلك، بشرط أن ينهضوا بذلك الدين الخالص الذي نهض به الرسول وأصحابه من قبل ، وهذا الخير الكثير يمتد من الدنيا إلى الآخرة، لا يتوقف ولا ينتهي فيضه أبداً !!

سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾

لَكُمْ دِينُكُمْ: شرككم وكفركم أو جزاؤه.

وَلِيَ دِينِ: إخلاص وتوحيدي أو جزاؤه.

نزلت هذه السورة في ختام العهد المكي، وقد ظل الرسول - ﷺ - حقبةً من الزمان يدعو الناس منادياً إياهم بـ " يا قوم " ولكنهم حين أبوا الإيمان رغم قيام الحجة عليهم، خاطبهم بقوله : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ ﴾ والمقصود من هذا الخطاب في هذه المرحلة الحاسمة هو البراءة دون الدعوة .

وقوله : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ لا يتضمن تصديقاً بدين الآخرين، وإنما هو تأكيد على التمسك بالحق والثبات عليه بمنتهى القوة والتصميم، وإعلام بأنكم - أيها المخاطبون - قد بلغتم بدوركم من العناد والتعنت إلى نقطة اللاعودة، أي الحد الأقصى الذي لا يعود بعده أمل في الرجوع إلى الحق أبداً !

سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾

جَاءَ نَصْرُ الله : عونه لك على الأعداء.

وَالْفَتْحُ: فتح مكة في السنة الثامنة الهجرية.

أَفْوَاجاً: جماعات كثيرة.

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ: فنزهه تعالى ، حامداً له.

كَانَ تَوَّاباً: كثير القبول لتوبة عباده.

إن النصر الإلهي الذي يسمى " فتحاً " إنها يأتي دوماً عن طريق الدعوة،إن إدخال الناس في دين الله أفواجاً هو النصر الإلهي الأعظم،وعن طريقه يتوصل أهل الدين الحق إلى مرحلة الفتح والغلبة،وقد تولدت في السنوات الأخيرة من حياة الرسول (٩-١٠هـ) - ﷺ - أحوال مهدت الطريق إلى دخول الناس في دين الله بأعداد كبيرة، وبالتالي انفتح باب الانتصارات والفتوحات على مصراعيه .

إن فتح المؤمن إنها يزيد من شعوره بالعجز والتواضع، وهو يتوجه إلى الله سائلاً العفو حتى عن عمله الذي لا بأس به في ظاهر الأمر، وهو يحيل على الله كل شيء، حتى النجاح الذي أحرزه - على ما يبدو - بجهوده الذاتية !

سورة المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾

تَبَّتْ: هلكت أو خسرت أو خابت.

وَتَبَّ: وقد هلك أو خسر أو خاب.

مَا أَغْنَى عَنْهُ: ما دفع التباب عنه.

وَمَا كَسَبَ: الذي كسبه بنفسه.

سَيَصْلَى نَاراً: سيدخلها أو يقاسي حرها.

فِي جِيدِهَا: في عنقها.

مِن مَّسَدٍ: مما يفتل قويا من الحبال.

" أبو لهب " هو اسم لأحد الأشخاص من ناحيةٍ، وهو، من ناحية ثانية، علم على "دور معين "، إنه رمز تاريخي لمعارض الدعوة إلى الحق، الذي يذهب في سبيل العداء والكيد لها إلى حد الخسة والنذالة ، وهذا " الدور " كما واجهه الرسول الكريم - ﷺ- يمكن أن يواجهه الدعاة الآخرون من أمته كذلك ، على أن الداعية لو كان قد نهض لأجل الله حقاً، فإن نصر الله سيدركه لا محالةَ، وبالتالي ستذهب محاولات كل معاندٍ كأبي لهبٍ أدراج الرياح دون أن تنال من الداعي أو من دعوته شيئاً ، وسيتعرض هو - عاجلاً أوْ آجلاً - للدمار المحقق رغم كل ما يتوافر لديه من وسائل القوة والثروة ،

وسيحترق هو نفسه بنار عناده، وسيتم سوقه في النهاية - وبصورة أبدية - إلى تلك العاقبة المشئومة ذاتها التي كان يريد أن يسوق داعي الله إليها !!

سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝ ﴾

الله الصَّمَدُ: هو وحده المقصود في الحوائج.

كُفُواً: مكافئاً ومماثلاً ونظيراً.

هذه السورة هي سورة التوحيد ، تعرض مفهوم الإله خالصاً من كل الشوائب والانحرافات التي ظلت غالبة على أفكار البشر ومعتقداتهم في كل العصور ، فليس هناك آلهة متعددة ، إنما هو إله واحد أحد وهو الله، الجميع محتاجون إليه، وهو غني عن الكل لا يحتاج إلى أحد، وهو قادر على كل شيء قدرةً ذاتيةً، وهو أسمى وأرفع من أن يكون مولوداً لأحدٍ أوْ يكون له ولد كما هو شأن المخلوقين. إنه إله فذ ليس كمثله، ولا يشاركه أوْ يماثله أحد بأي وجه من الوجوه وفي أي ناحية من النواحي !!

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾

أَعُوذُ: أعتصم وأستجير.

بِرَبِّ الفَلَقِ: برب الصبح أو الخلق كلهم.

وَقَبَ: دخل ظلامه في كل شيء.

النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَدِ: النساء السواحر ينفثن في عقد الخيط.

إن الله هو الوجود الحي القادر الذي يشق ظلمة الليل ليستخرج منها ضياء الفجر .. وهو القادر كذلك على أن يكشف عن الإنسان ما يحيط به من غيوم المصائب السوداء، ويغمره بنور العافية والهدوء والطمأنينة .

ولقد أُنشئ هذا العالم الذي نعيش فيه لمصلحة الامتحان ، مما اقتضى هنا أن يقترن الخير بالشر ، ولا سبيل إلى النجاة من هذا الشر سوى أن يستعيذ الإنسان بالله منه ، وهذا الشر له أنواع شتى ، منها – على سبيل المثال – ما يعمله الخبثاء الفاسدو الطوية في ظلام الليل ، وما يصنعه السحرة وأمثالهم غالباً عن طريق النفث في العقد، وهكذا الذين يصابون بالحسد على الغير إذا ما رأوه في نعمة وحسن حال، وبالتالي يتخذون إجراءات حاقدة شريرة سعياً وراء إزالتها ، وينبغي للمؤمن أن يستعيذ بالله ويلوذ بحماه من كل هؤلاء ، والله وحده يقدر على أن يعيذ الإنسان من كل أنواع الشرور !

سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦ ﴾

أَعُوذُ: أعتصم، وأستجير.

بِرَبِّ النَّاسِ: مربيهم ومدبر أحوالهم.

مَلِكِ النَّاسِ: مالكهم ملكا تاماً .

إِلَهِ النَّاسِ: معبودهم الحق.

الوَسْوَاسِ: الموسوس جنيا أو إنسيا.

الخَنَّاسِ: المتواري المختفي.

الجِنَّةِ: الجن.

الإنسان مخلوق عاجز ضعيف ، وهو في أمس حاجة إلى " حِمِىً " يلجأ إليه ، وهذا الحمى لا يمكن أن يوفره له أحد غير الله الواحد الأحد، فهو وحده رب الناس جميعاً، وهو وحده مليكهم ومعبودهم بلا شريك، فمن هناك سواه إذن، يصلح ليكون سناد الناس وملاذهم ضد الشرور والفتن ؟!

الشيطان هو الفتنة الأشد خطورةً على الإطلاق، الذي ينبغي على الإنسان أن يتعوذ بالله منه ، وهو أشد خطورةً لأنه يخفى حقيقة ذاته دائماً، فهو يُغوي الإنسان بأساليب الخداع والتمويه، ومن ثم لا يستطيع أن ينجو من حبال الشيطان إلا الذي يكون غاية

في الحذر والتيقظ، والذي أعطاه الله فهماً يميز به الحق من غير الحق، ويدرك به ما له حقيقة وما لا حقيقة له من القضايا والأمور .

وليس الشياطين من الجن وحدهم هم الذين يقومون بهذه الوسوسة الماكرة والإغراء الخفي، وإنما هناك شياطين من الإنس أيضاً يتظاهرون بأزياء مصطنعة، ويحاولون صرف الناس بمعسول كلامهم عن طريق الهدى إلى طريق الضلال ..

عن أبي ذرٍ قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد، فجلست، فقال : يا أبا ذر ! هل صليت ؟ قلت : لا، قال : قم فصل، قال : فقمت فصليت ثم جلست، فقال : " يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن " قال : فقلت : يا رسول الله وللإنس شياطين ؟ قال : " نعم " (١).

والاستعاذة بالله من الفتن عملية مزدوجة ، فهي من ناحيةٍ طلب من الله أن يوجه إلينا عنايته ويبسط لنا كنفه ، ومن ناحية أخرى يُقصد بها إيقاظ وعينا تجاه الفتن لكي نتمكن من مواجهتها بحذرٍ أشد وتيقظٍ أكثر !

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤/ ٥٧٥ .

فهرس الموضوعات